شرح العقيدة الطحاوية
عبد الله بن عبدالرحمن الجبرين

شرح العقيدة الطحاوية [1]

اتفقت جميع الرسل على الـــدعوة إلى توحيد العبـــادة، وهو أول واجب على المكلـف، ومعرفة صـفات الله تـدعو إلى عبادتـه، وتوحيد الربوبية يلـزم منه توحيد العبـادة، وقد اعتـنى أهل العلم ببيـان التوحيد بأنواعـه، لا سـيما توحيد العبادة.

أهمية التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصـحبه ومن والاه، وبعـد: فهـذه العقيـدة هي على مـذهب أهل السـنة والأئمة كلهم، ولكن الطحاوي ذكر أن هذا مـذهب أبي حنيفة وصـاحبيه؛ وذلك لأنه كتبها لتلاميـذه المختصـين به الـذين في قلـوبهم وقع وقـدر لهـؤلاء الأئمة الثلاثـة، الـذين هم أبو حنيفة ومحمد بن الحسن و أبو يوسف ، وهما صـاحباه اللذان دونا مذهبه، وهما اللذان كتبا المسائل التي سئل عنها ونشراها، فلأجل ذلك أصبحا مختصين به، فيقول: إن هذه العقيدة هي معتقد هـؤلاء الثلاثـة. ولا ينـافي هـذا أن فيها معتقد الأئمة الآخـرين كـــالشافعي و مالك و أحمد وبقية الأئمة؛ لأن العقيدة سالمة من الخلافات إلا خلاف المبتدعة، والمبتدعة لا يعتد بخلافهم. قـال الطحـاوي رحمه اللـه: [نقـول في توحيد الله معتقـدين بتوفيق اللــه: إن الله واحد لا شــريك لــه. قــال الشــارح رحمه الله تعــالى: اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل، قال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ [الأعـراف:59] ، وقـال هـود عليه السـلام لقومـه: اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ [الأعـراف:65] ، وقـال صـالح عليه السـلام لقومه: اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ [الأعراف:73] ، وقـال شـعيب عليه السلام لقومه: اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ [الأعراف:85] ، وقال تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل:36] ، وقال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُـولٍ إِلاَّ نُـوحِي إِلَيْـهِ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء:25] ، وقال صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)، ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شـهادة أن لا إله إلا اللـه، لا النظـر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك، كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم]. ......

اتفاق دعوة الرسل على التوحيد

هـذا الكلام يـدل على أهمية التوحيـد، والتوحيد الـذي ذكـره هو توحيد العبـادة فإنه الذي دعت إليه الرسل واتفقت عليه دعوتهم، يقــول: إن التوحيد هو أول ما يكلف به العباد. فالتوحيد هو الذي تسـأل عنه في الحشر في يـوم المعـاد، والتوحيد هو الذي يسأل عنه في القبور يسـأل عنه المقبـور، والتوحيد هو أول دعوة الرسـل، التوحيد اتفقت عليه الرسـالات، فنأخذ من هـذه الأدلة أهميتـه، فشيء اتفقت عليه دعوة الرسل يدل على أهميتـه، شـيء بـدأ به كل رسـول دعوته يدل على أهميته، فالرسل من أولهم إلى آخـرهم بـدؤوا دعـوتهم بنـوع من أنواع التوحيد وهو توحيد العبادة كما في هذه الآيات، فـإن كل نـبي يقـول لقومـه: اعْبُـدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ [الأعـراف:59]، وهـذا هو توحيد العبادة، وجمعهم تعالى في قوله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُـولٍ إِلاَّ نُـوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء:25]، وهذا توحيد العبادة، يعني: نـوحي إلى كل رسول ونقول له: لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء:25] يعني: افعل ذلك وأمر أمتك وادعهم إلى ذلـك. وكـذلك قوله تعـالى: وَلَقَـدْ بَعَثْنَا فِي كُـلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل:36]، وهذا هو توحيد العبادة. ويقول تعالى: وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الـرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ [الزخـرف:45]، والجـواب: لو سـأل لقيـل: ما جعل الله ولا أذن الله لرسول أن يدعو إلى عبادة إله مع الله.

أول واجب على المكلفين

يذكر الشارح أن أول واجب على المكلف أن يأتي بالشهادتين، ولهذا الرسول عليه الصلاة والسلام مكث بمكة عشر سنين لا يدعو إلا إلى الشهادتين، يدعو إلى تحقيق لا إله إلا الله وإلى تصديقه أنه رسول من الله، عشر سنين وهو لا يدعو إلا إلى توحيد العبادة، أليس ذلك دليل أهميته؟ ما فرضت عليه العبادات حينئـذ؛ لأنها متفرعة عن أصل وهو التوحيـد، فالعبـادات كلها ما تقبل إلا بهـذا الأصل، فلو تعبد المشركون فصلوا وتصدقوا وحجوا وأنفقوا وجاهـدوا وقـرؤوا وهم لم يوحـــدوا الله بل يـــدعون غـــيره معه ما قُبلت منهم عبـــاداتهم ولن تنفعهم؛ لأنهم فقدوا شرطها. وأهل الكلام الذين نهى علماؤنا عن الخوض في كلامهم من المعتزلة ونحوهم يقولون: إن أول واجب النظـر. وبعضـهم يقـول: أول واجب قصد النظر. وبعضهم يقول: أول واجب الشك. وهذه أقوال باطلة، فصـحيح أن الله تعـالى أمرنا بـالنظر لأجل الاعتبـار، والآيـات في ذلك كثـيرة، كقوله تعالى: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ [ق:6] أَفَلا يَنْظُـرُونَ إِلَى الإِبِـلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ [الغاشـية:17-18]، أَوَلَمْ يَنظُـرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [الأعراف:185]، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا [يوسف:109] فالنظر هنا لأجل الاقتناع، فمثلاً: إذا دعـوت مسـلماً وقلت لـه: أدعوك إلى الشهادتين. فإذا توقف فادعه إلى النظـر، قل لـه: انظر إلى هـذه

المخلوقـــات، انظر إلى هـــذه الأفلاك الثابتة وهـــذه الأفلاك الجارية وهـــذه المخلوقـات المنبثـة، هل خلقت عبثـاً؟ انظر إلى نفسك وتقلب أحوالـك، هل خلقت من غــير خــالق؟ فــإذا نظر وتفكر فإنه عند ذلك يعتــبر ويرجع إلى ما تدعوه إليه، فالنظر والقصد إلى النظر وسيلة ودلالة وحجة للمعاند، لا أن أول واجب هو النظر، بل يدعى من شك وتوقف إلى أن ينظر حـتى يسـتيقن. وأما معـــنى قـــولهم: إن أول واجب الشك فهم يقولـــون: إن أول ما يجب على الإنسـان عنـدما يعقل أن يشك ثم يعمل بعد ذلك في إزالة ذلك الشـك. وهـذا قول باطل، بل الواجب أولاً قبل كل شـيء أن يـأتي بالشـهادتين، ثم بعد ذلك يعمل بمقتضاهما، والأعمال متفرعة عن الشهادتين.

اتفاق السلف على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان

قال رحمه الله: [بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، ومتفقـون على أن من فعل ذلك قبل البلـوغ لم يـؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه، بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميز عند من يرى ذلك، ولم يـوجب أحـدٌ منهم على وليه أن يخاطبه حينئـذٍ بتجديد الشـهادتين، وإن كـان الإقرار بالشهادتين واجباً باتفـاق المسـلمين، ووجوبه يسـبق وجـوب الصـلاة، لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك]. معنى هذا الكلام أن الأطفال ينشئون بين آبائهم، ويلقنهم الأب معالم التوحيد من حين يميز، يلقنه معرفة ربــه، ومعرفة نبيه، واستحقاق الله للعبادة، ووجوب العبادة، فينشأ على الإسلام وعلى قـول (لا إله إلا الله) ويسمع ذلك من أبويه وهو صغير ما وجبت عليه الأحكـام، فـإذا بلغ اســتمر في العمـــل، ولا يحتـــاج عند البلـــوغ أن تقـــول لـــه: الآن انطق الشـــهادتين. الآن أصــبحت مكلفــاً فإنه يكفيه نطقه فيما ســبق بتشــهده في صلاته، وفي إجابته للمؤذن وما أشبه ذلـك، فلا حاجة بعد ذلك عند البلـوغ إلى تلقينه، ولا إلى تجديد إسـلامه، بل هو مسـلم بين أبويه المسـلمين، ومن حين يعقل وهو يلقن. والصحيح أيضاً أنه لو بلغ بعدما صلّى لا يؤمر بإعـادة الصـلاة، خلافاً لبعض العلماء، فبعضهم يقول: لو صلى الظهر قبل أن يبلغ ثم بلغ بعدها باحتلام أو نحوه فنأمره بإعـادة الظهـر؛ لأنه صـلاها قبل أن يبلغ وهي في حقه غير واجبة، فبعدما بلغ تصير واجبة عليه، والصحيح أنه لا يؤمر؛ لأن الله ما أمر بالصلاة مرتين، وقد أداها ولو قبل البلوغ، فتصبح مجزئة، فكما لا يؤمر بإعـادة الصـلاة بعد البلـوغ ولو كـان الـوقت باقيـاً فكـذا لا يـؤمر بعد البلـوغ بتجديد الشـــهادتين، بل يكفيه أنه على الفطـــرة، وأنه قد تلقن وتعلم وفهم. قـــال الشـارح رحمه اللـه: [وهنا مسـائل تكلم فيها الفقهـاء، فمن صـلى ولم يتكلم بالشهادتين، أو أتى بغير ذلك من خصـائص الإسـلام ولم يتكلم بهما هل يصـير مسلماً أم لا؟ والصحيح أنه يصـير مسـلماً بكل ما هو من خصـائص الإسـلام، فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسـلام وآخر ما يخـرج به من الـدنيا، كما قـال النبي صلى الله عليه وسلم: (من كان آخر كلامه: (لا إله إلا الله) دخل الجنـة) وهو أول واجب وآخر واجب، فالتوحيد أول الأمر وآخره، أعني توحيد الإلهيـة]. هذه مسألة نظرية ليست بصحيحة، وهي قولهم: قد يوجد من ينشأ ولم يتكلم بالشهادتين من أول أمره إلى أن يبلغ، فهل تصح عبادته؟ فنقول: هـذا محـال. وذلك لأن النطق بالشـهادتين قد يكـون ركنـاً كما في التشـهد، فالصـلاة فيها تشهد، وفي آخره يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. ثم يأتي بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسـلم ثم يسـلم، ولا تصح الصـلاة إلا بهذا التشهد، فهو ركن من أركانها، فكيف يُتصور أن إنساناً يولد بين أبــوين مسلمين ويبلغ وهو ما تكلم بكلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)؟ هذا غـير واقـع، وذلك لأن المسـلم دائمـاً يسـمع كلمة (لا إله إلا اللـه) في الأذان وفي الخطب وفي التشـهد وعند الـذكر وفي القـرآن، فقد ذكـرت في القـرآن في عدة مواضع كقوله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُـوَ وَالْمَلائِكَـةُ وَأُوْلُـوا الْعِلْمِ

قَائِمـاً بِالْقِسْـطِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ [آل عمـران:18]، فلا بد أن الصـبي يقـرأ من القــرآن أو يســمع، وينطق بــذلك، فيكــون بــذلك مســلماً، فلا بد أنه قد أتى بالشهادتين.

أهمية توحيد العبادة

التوحيد الـذي ذكـرت أهميته هو توحيد العبـادة، وهو أول ما يـدخل به في الإسلام، فالكافر أول ما يدعى إليه، وأول ما ينطق به، يقال: قل: أشـهد أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسـول اللـه. وذلك لقوله صـلى الله عليه وسـلم: (أمـرت أن أقاتل النـاس حـتى يشـهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسـول اللـه، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة ...) إلى آخره، فإذا أسلم كافر يلقن الشهادتين، ويبين له معناهما، ويؤمر بالعمل بمقتضاهما، فأول ما يدخل العبد في الإسلام هو نطقه بالشهادتين واعتقاده مدلولهما. وآخر ما يخـرج العبد من هـذه الـدنيا يؤمر أن يختم حياته بـ(لا إله إلا الله)؛ لقول النـبي صـلى الله عليه وسـلم في هذا الحديث: (من كـان آخر كلامه (لا إله إلا اللـه) دخل الجنـة) يعـني: ختم له بالتوحيـد، أو بما يـدل على هـذا المعـنى، ففي هـذه الحالة يكـون مختومـاً له بخاتمة حسنة، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم وغيره: (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله) يعني: يكـون آخر ما ينطقـون به كلمة (لا إله إلا اللـه) حـتى يختم لهم بما ابتـدؤوا بـه، فيختم لهم بعقيـدة سـليمة وهي اعتقاد أن الله هو الإله الحـق، وأن إلهية ما سـواه باطلـة، فبـذلك يكـون أول الأمر وآخره هو هذا التوحيد الذي هو توحيد العبادة.

توحيد الصفات

قال رحمه الله: [إن التوحيد يتضمن ثلاثة أنـواع: أحـدها: الكلام في الصـفات. والثاني: توحيد الربوبية، وبيانه أن الله وحده خالق كل شيء. والثـالث: توحيد الإلهية، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحـده لا شـريك لـه. أما الأول فإن نفاة الصفات أدخلوا نفي الصفات في مسمى التوحيد كـجهم بن صفوان ومن وافقه، فإنهم قالوا: إثبات الصفات يستلزم تعـدد الـواجب. وهـذا القـول معلـوم الفسـاد بالضـرورة؛ فـإن إثبـات ذاته المجـردة عن جميع الصـفات لا يُتصور له وجود في الخارج، وإنما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله، وهذا غاية التعطيل]. نعرف -بل يعرف أطفال المسلمين والحمد لله- أن أقسام التوحيد ثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلوهيـة، وتوحيد الأسـماء والصـفات، ويجب أن يلقن الطفل هـذه الأنـواع، وأن يعـرف مـدلولها، والمتقـدمون من هـذه الأمة أكثروا من التـأليف في توحيد الأسـماء والصـفات، وغـالب كتبهم الـتي ألفوها في العقيدة تدور حول الأسـماء والصـفات، حـتى ولو سـموها بكتب التوحيـد، كـابن خزيمة وغيره، فإن الخلاف في الأسماء والصـفات مشـتهر في القـرون الأولى، فـالجهم بن صفوان أحدث بدعته في أول القرن الثاني، ثم تبعه أتبـاع له سـماهم السـلف بالجهميـة، وسـموا أيضـاً بالمعتزلـة، وكـثروا وانتشـروا وتمكنوا، ومن عقيدتهم إنكار الصفات، وسـبب إنكـارهم للصـفات وأدلتهم في

ذلك أنهم اعتمـــدوا في الغـــالب على الفكر وعلى الخيـــال وعلى العقـــول، فأدلتهم على نفي الصفات أدلة تخمينية عقلية، ولهذا يقول كثير منهم: إن هذا الباب لا يكشفه إلا الخيـال، وإنهم يعجـزون عن أن يعـبروا عنـه. والحاصل أن عقيـدتهم نفي الصـفات، فنفـوا عن الله تعـالى صـفاته كلهـا. ومنهم من أثبت سبع صفات كالأشـعرية، ومنهم من نفى أسـماء الله مع صـفاته، والعلة الـتي نفوا لأجلها هذه الصفات هي ما ذكره الشارح رحمه الله من كـونهم يقولـون: إن إثبات الصـفات يسـتلزم تعـدد الـواجب. فهم يقولـون: إن الـواجب هو الله وحـده، فالله تعـالى واجب الوجـود، وهـذه لفظ من ألفـاظ المتكلمين (واجب الوجود)، ومثل: (ممكن الوجوب) و(ممتنع الوجود)، وهذه من جملة ما تكلموا به وتوسـعوا فيـه، ومن أوصـاف الله سـبحانه عند المعتزلة القِـدَم، أي أنه هو القديم، فيقولون: إذا أثبتنا أن الله قديم، وأثبتنا أن سمع الله قديم وقدرة الله قديمة وعلمه قديم وكلامه قديم ما صار القديم واحداً، بل صار عدداً، فلا جرم ننفي الصفات، ونجعل القِدَم لله وحده للذات. فنفـوا الصـفات وأثبتـوا القـدم للذات، فكيف يُردُّ عليهم؟ الشارح يقول: [إن إثبات ذات مجردة عن الصـفات لا يمكن في الوجـود] ولو فـرض العقل إثبـات كـذلك فـإن العقل قد يفـرض المحـال، فهـذا من المحـال، أي: مسـتحيل أن توجد ذات مجـردة عن صـفات ومتصلة بالقدم. فكما أنكم -يا معتزلة ويا مبتدعة!- تثبتون أن لله تعـالى ذاتـاً. فلا بد أن تثبتـوا له الصـفات؛ فـإن الصـفات من جملة الـذات، والوحدانية لا تنافيها، فالله تعـالى واحد بصـفاته، وذاته وصـفاته شـيء واحـد، ولا يلـزم من إثبات الصفات تعدد. هذا هو الرد عليهم باختصار. ......

الحلول والاتحاد أقبح من كفر النصارى

قال رحمه الله: [وهذا القـول قد أفضى بقـوم إلى القـول بـالحلول والاتحـاد، وهو أقبح من كفر النصارى؛ فإن النصارى خصوه بالمسيح، وهؤلاء عموا جميع المخلوقات] هذا الكلام تقشعر منه الجلـود، وهـذه التفريعـات فـروع لمـذهب أهل الوحـــدة، وهم طائفة يقـــال لهم: أهل وحـــدة الوجـــود. أو يســـمون (أهل الحلول والاتحاد)، وهم الذين يقولـون: إن ذات المخلـوق حالة بـذات الخـالق، وإنه لا فـرق عنـدهم بين خـالق ومخلـوق، بل الكل شـيء واحـد، لا فـرق بين الخالق والمخلوق -تعالى الله عن قولهم-، وهـذه الطائفة كـانت منتشـرة في القرون الوسطى، وأكثر من أشاع هذا القول في القرن الثالث رجل يقال له: الحسـين الحلاج، وهو صـوفي أظهر التصـوف وأبطن هـذا القـول، ولكنه كـان يظهـره أحيانـاً، وحفظت عنه كلمـات شـنيعة تـدل على هـذه المعتقـدات، وحفظت أيضاً عن بعض أهل زمانه، فهذا القـول مع شـناعته يـؤدي إلى هـذه الأقوال الشنيعة، وقد بين الشـارح ذلك على وجه الاختصـار، فـذكر من فـروع قولهم أن فرعون صادق حينما قال: أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى [النازعات:24]؛ لأنه من جملة الـرب، لكن أخطأ فرعـون حيث خص نفسـه، ولو قـال: أنا وأنت وهـذا وهـذا كلنا الـرب لكـان مصـيباً، فهو صـادق في أنه من جملة الـرب! وكـذلك

المشركون لما عبدوا هذا الصنم وهذا الوثن وهذا القبر فهم على صواب؛ لأنهم ما عبدوا إلا الله، ولكنهم أخطئوا لما خصصوا، ولو قالوا: إن الله في كل شيء وكل شيء من جملة الله لكانوا مصيبين، ولكنهم لما خصصوا أخطئوا. وعلى قولهم لا يكون هناك حلال وحرام؛ لأن الجميع شيء واحد، فلا فرق عندهم بين نكاح الأم والأخت والأجنبية، كل ذلك من عين واحدة، بل هو العين الواحدة، تعالى الله عن قولهم. وقد حفظت عن أكابرهم كلمات شنيعة يقشعر الجلد منها، فحفظ عن الحسين الحلاج أنه كان يقول: ما في الجبة إلا الله. يعني نفسه، وعن بعضهم أنه قال: سبحاني سبحاني ما أعظم شأني وحفظ عنه أنهم كانوا يمشون خلفه فالتفت، فلما رآهم يمشون خلفه قال لهم: إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي [طه:14] تعالى الله عن قولهم! وكان بعض العلماء المتأخرين يذب عن الحلاج ، ويدعي أنه من أهل العقيدة الصحيحة، وأنه موحد، ولما نقل له قوله في أبيات: سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب حتى بدا في خلقه ظاهراً في صورة الآكل والشارب قال: لعن الله من قال هذا. فقيل: إنه الحلاج. فظهر له بذلك كفره، وهذا القول المذكور من الكفر الصريح؛ فإن الناسوت الناس، واللاهوت هو الإله، يعني: أظهر ناسوته -أي: أظهر الناس- في صورة نفسه. ويقول بعضهم -وقيل: إنه الحلاج-: الرب عبد والعبد رب يا ليت شعري من المكلف إن قلت عبد فذاك رب أو قلت رب أنّى يكلف تعالى الله عن قولهم، والذي أدى بهم إلى هذه الأقوال الشنيعة هو أنهم لما نفوا الصفات وجعلوا وجود الله وجوداً مطلقاً أدى بهم إلى أن يقولوا: إن ذات المخلوق حالة في ذات الخالق، وإنه عين وجود المخلوقات. تعالى الله عن ذلك! فعلى المسلم أن يعرف نفسه، وأن يعرف أنه مخلوق، وأن الرب سبحانه وتعالى فوق عرشه بائن من خلقه، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، ويستحضر أنه سبحانه هو العليم بكل شيء، لا تخفى عليه من عباده خافية، وإذا استحضر عظمته وعلمه بكل شيء وعلمه بما توسوس به النفوس وما تكنه الصدور أوجب ذلك أن يعظمه حق التعظيم، وأن يخافه حق الخوف، ومعرفة صفات الله تعالى توجب للعارف بها أن يخاف من الله حق الخوف، وأن يعبده حق العبادة.

توحيد الربوبية

قال رحمه الله: [وأما الثاني فهو توحيد الربوبية، كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره

من الموجـودات، كما قـالت الرسل فيما حكى الله عنهم: قَـالَتْ رُسُـلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَـكٌّ فَـاطِرِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ [إبـراهيم:10]]. وتوحيد الربوبية يقـرأه الأطفـال في المـدارس، وهو معرفةَ الله تعـالى بأفعالـه، فـإذا قيل لـك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته. هـذا هو توحيد الربوبيـة، ويكـون بـالنظر في هذه المخلوقـات وفي أفعـال الله تعـالى، وذكـروا أنه لما نـزل قـول الله تعالى: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِـدٌ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ الـرَّحْمَنُ الـرَّحِيمُ [البقـرة:163] سأل بعضهم فقال: ما هو الدليل على أن إلهنا إله واحد لا إله إلا هـو؟ فـنزلت الآية بعـدها: إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ وَالْفُلْـكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنـزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّـمَاءِ مِنْ مَـاءٍ فَأَحْيَا بِـهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَـاحِ وَالسَّـحَابِ الْمُسَـخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [البقرة:164] يعني: تفكروا في هذه الأشياء لتكون آية لكم على أي شيء. فهي آية على أن الرب هو الإله الواحد، وكم في القـرآن من آيـات بمثل هـذا، كقوله تعـالى: وَآيَـةٌ لَهُمْ الأَرْضُ الْمَيْتَـةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً [يس:33]، وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْـهُ النَّهَـارَ [يس: 37]، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ [الروم:20]، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِـكُمْ أَزْوَاجـاً [الـروم:21]، وَمِنْ آيَاتِـهِ خَلْـقُ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْض وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ [الروم:22]، وفي السور المكية الكثير من ذلك، كقوله في سورة المرسلات: أَلَمْ نَجْعَلْ الأَرْضَ كِفَاتاً [المرسـلات:25] ... إلى آخـره، ثم في السورة التي تليهـا: أَلَمْ نَجْعَـلْ الأَرْضَ مِهَـاداً [النبـأ:6] إلى آخـره، ثم في السورة التي تليها: أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا [النازعات:27] إلى آخره، ثم في السورة التي تليها: فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَـبَبْنَا الْمَـاءَ صَـبّاً [عبس:24-25] إلى آخـره، فـإن هـذه آيـات تـدل على توحيد الربوبية الـذي يقصد منه تثبيت توحيد الإلهية. ......

اعتراف جميع الأمم بتوحيد الربوبية

توحيد الربوبية يعـــترف به المشـــركون، ولكن هل يكفي؟ لا يكفي، لا بد من تحقيق ثمرته، وهذا التوحيد حجة عليهم في التوحيد الـذي هو حق اللـه، يقـال لهم: اعملوا لله ما دمتم أقررتم بـه. يقـول تعـالى: قُـلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ *سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُـلْ أَفَلا تَـذَكَّرُونَ [المؤمنـون:84-85] يعـني: أفلا تعبدونه؟! قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ *سَـيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ [المؤمنون:86-87] يعني: أفلا تتقون الشرك وتعبدون الله وحده؟! قُلْ مَنْ بِيَـدِهِ مَلَكُـوتُ كُـلِّ شَـيْءٍ وَهُـوَ يُجِـيرُ وَلا يُجَـارُ عَلَيْـهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ *سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ [المؤمنـون:88-89] كيف تصـرفون عن عبادته؟ فأصبح توحيد الربوبية حجة عليهم. قال رحمه اللـه: [وأشـهر من عـرف تجاهله وتظـاهره بإنكـار الصـانع فرعـون، وقد كـان مسـتيقناً به في الباطن، كما قال له موسى : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَـائِرَ [الإسـراء:102]، وقـال تعـالى عنه وعن قومـه: وَجَحَـدُوا بِهَا

وَاسْـتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُـهُمْ ظُلْمـاً وَعُلُـوّاً [النمـل:14]، ولهـذا لما قـال: وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ [الشعراء:23] على وجه الإنكـار له تجاهل العـارف قـال له موسـى: قَـالَ رَبُّ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُـوقِنِينَ *قَـالَ لِمَنْ حَوْلَـهُ أَلا تَسْـتَمِعُونَ *قَـالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَـائِكُمْ الأَوَّلِينَ *قَـالَ إِنَّ رَسُـولَكُمْ الَّذِي أُرْسِـلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُـونٌ *قَـالَ رَبُّ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُـونَ [الشـعراء:24-28]. وقد زعم طائفة أن فرعـون سـأل موسى مسـتفهماً عن الماهيـة، وأن المسـئول عنه لما لم تكن له ماهية عجز موسى عن الجـواب. وهذا غلط، وإنما هذا استفهام إنكار وجحد كما دلت سـائر آيـات القـرآن على أن فرعون كان جاحداً لله نافياً له لم يكن مثبتاً له طالباً للعلم بماهيته، فلهذا بين لهم موسى أنه معـــروف، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشـــهر من أن يسأل عنه بـ(ما هـو)، بل هو سـبحانه أعـرف وأظهر وأبين من أن يجهـل، بل معرفته مسـتقرة في الفطر أعظم من معرفة كل معـروف]. نلاحظ من هـذا الكلام أن جميع الأمم معـــترفون بتوحيد الربوبيـــة، أي: أن الله هو الخـــالق الـرازق المـدبر الـذي أوجد الكائنـات، لكن قد اشـتهر عن فرعـون أنه ادعى الربوبيـة، حيث قـال: أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى [النازعـات:24]، والصـحيح أنه كـان معترفاً في البـاطن بـأن المخلوقـات لها خـالق؛ لأنه يعـرف أنه كـان معـدوماً فوجد، ففرعون لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَـذْكُوراً ثم خُلـق، فيقـال لـه: من ربهم قبل أن توجد أنت؟ ومن ربهم بعد أن تمـوت؟ فلا بد من أن فرعـون معـترف بوجـود رب خالق، والـدليل على ذلك هـذه الآيـة، وهي قـول موسـى: لَقَـدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [الإسراء:102]، فالله أيد موسى بتسع آيات، هي العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وتضليل الغمام، وما أشـبهها، فلما أيـده بها قـال: لَقَـدْ عَلِمْتَ مَا أَنـزَلَ هَـؤُلاء يعـني: الآيـات إِلاَّ رَبُّ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ [الإسـراء:102]، فأفـاد بـأن فرعون عالم بذلك، وقال الله عن آل فرعون: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ [النمل:14]، فـدل هـذا على كـونهم مسـتيقنين. وكـذلك حكى الله عن ثمـود قوله في قصتهم: وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ [العنكبـوت:38] يعـني: على بصـيرة مما جاءتهم به الرسل، ولكن جحـدهم كـان عنـاداً. ففرعـون أظهر الإنكـار، ولكنه كان في الباطن على يقين بما يقول موسى، ولكنه خاف أن يذهب عنه ملكه، ولهذا قال: أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِـرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُـوَ مَهِينٌ [الزخـرف:51-52] يعـني: موسى وَلا يَكَـادُ يُبِينُ [الزخــرف:52]، فهو أراد أن يخــدع قومه بما هو فيه فَاسْـتَخَفَّ قَوْمَـهُ فَأَطَـاعُوهُ [الزخـرف:54]، وأما جوابه لما قـال موسـى: إِنِّي رَسُـولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الأعراف:104] قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ [الشـعراء:23] فهـذا على وجه العناد، وبعض المتكلمين يقول: إن فرعون سأل عن الماهية فقـال: وَمَا رَبُّ الْعَـالَمِينَ [الشــعراء:23] يعـني: من أي شــيء رب العــالمين؟ وما ماهيتـه؟ والصـحيح أن سـؤاله إنما هو تعنت، لا أنه كـان يسـأل عن الماهيـة، فموسى عليه الســلام ذكر له الأدلة على إثبــات الــرب وقدرته وســيطرته، والآيات تدل على ذلك، قال تعالى: رَبُّ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا [مـريم:65] ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ [الشعراء:26] ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ

وَمَا بَيْنَهُمَا [الشعراء:28]، فاستدل عليه بهذه الأدلة الكونية التي لا يجحدها، كما استدل إبراهيم على النمرود بقوله: رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ [البقرة:258]، ثم قال: فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ [البقرة:258]، فهذه أدلة تدل على أن الرب هو الموجد لهذه الكائنات، وهي أدلة يعترف بها أولو البصائر. وقد ذكر الله عن المشركين أنهم يعبدون الله ويعبدون غيره في الرخاء، وأما في الشدة فإنهم لا يعبدون إلا الله، وذلك في قوله تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ [الإسراء:67]، فدل على أنهم في الرخاء يعبدون الله ويعبدون غيره، ولهذا قال تعالى في سورة الأنعام: وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا [الأنعام:136]، فدل على أنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره، ولكن شركهم هذا أحبط أعمالهم فأصبحت باطلة، فلا يعتبر بما تقربوا به؛ لأن المطلوب منهم أن يكون الدين لله، وأن لا يصرف منه شيء لغير الله.

تقرير توحيد الربوبية

قال رحمه الله تعالى: [ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال، فإن الثنوية من المجوس والمنوية القائلين بالأصلين النور والظلمة وأن العالم صدر عنهما متفقون على أن النور خير من الظلمة، وهو الإله المحمود، وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون في الظلمة هل هي قديمة أو محدثة، فلم يثبتوا ربين متماثلين]. هذا تقرير لتوحيد الربوبية، يعني أن توحيد الربوبية هو الاعتراف بأن الله رب كل شيء، وهو الذي أقر به المشركون، كما ذكر الله ذلك عنهم: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ [الزخرف:87] ، وقال: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ [يونس:31] ، فإذا كانوا مشركين ومع ذلك يعترفون بهذا النوع -وهو أن الله هو الذي خلق ورزق، وهو الذي يدبر الأمر ويملك السمع والأبصار- فإن هذا لم ينفعهم ولم يدخلهم في الإسلام. يقول: ما عرفت أمة من الأمم يشركون في توحيد الربوبية إلا المجوس، ومع ذلك فليس شركهم شركاً ظاهراً، فهم يدعون أن العالم مخلوق من خالقين، يقولون: النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر. فالعالم عندهم صادر عن النور والظلمة، ولأجل ذلك هم يعبدون النار، فمعبودهم المقدس النار، يشعلونها ويطوفون بها ويصلون أمامها ويستقبلونها، ولأجل ذلك نهي المسلمون أن يستقبلوا النار في الصلاة حذراً من التشبه بالمجوس، ومع ذلك ما قالوا: إن النور والظلمة سواء. بل

يقولـون: إن الخيّر هو النـور، وإن الظلمة شـريرة لا يصـدر منها خـير. فهم لا يجعلونهما سواء، وهم مختلفون: هل النـور والظلمة كلاهما قـديم، أم القـديم هو النـور والظلمة حادثـة؟ وهـذا الكلام قد ذكـره شـيخ الإسـلام في الرسـالة التدمرية، أشار إلى هذا وبيّن أنهم مختلفون: هل النور والظلمة كلاهما قـديم، أم القدم خاص بالنور والظلمة حادثة؟ وعلى القـول -عنـدهم- بأنهما قـديمان فإنهم لا يجعلونهما سواء، وهذا دليل على أنه ليس في الوجود أحد يشرك في توحيد الربوبية شركاً ظاهراً.

الرد على النصارى

قال رحمه الله: [وأما النصارى القائلون بالتثليث فـإنهم لم يثبتـوا للعـالم ثلاثة أربـاب ينفصل بعضـهم عن بعض، بل متفقـون على أن صـانع العـالم واحـد، ويقولــون: باسم الابن والأب وروح القــدس إله واحــد. وقــولهم في التثليث متناقض في نفسه، وقولهم في الحلول أفسد منه، ولهذا كانوا مضطربين في فهمه وفي التعبير عنه لا يكـاد واحد منهم يعـبر عنه بمعـنى معقـول، ولا يكـاد اثنان يتفقان على معنى واحد، فإنهم يقولون: هو واحد بالـذات ثلاثة بـالأقنوم. والأقانيم يفسرونها تـارة بـالخواص، وتـارة بالصـفات، وتـارة بالأشـخاص، وقد فطر الله العباد على فسـاد هـذه الأقـوال بعد التصـور التـام، وبالجملة فهم لا يقولون بإثبات خالقين متماثلين] هذا فيه رد على النصارى، قـال تعـالى: لَقَـدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَـالِثُ ثَلاثَـةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ [المائـدة:73]، فالنصارى يجعلون الله ثـالث ثلاثـة، فيجعلـون عيسى ابن اللـه، كما قـال الله عنهم: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ [المائدة:17]، وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِـيحُ ابْنُ اللَّهِ [التوبـة:30] يعـني: منهم من يقـول: إن الله هو المسـيح -تعـالى الله عن قـولهم-. ومنهم من يقـول: إنه ابن اللـه، وهـذا أشـهر وأكـثر عندهم، ومنهم من يقول: إن الله ثالث ثلاثة. وهو قـولهم: بـالأب والابن وروح القدس، والله يخاطب عيسى يـوم القيامة فيقـول: يَا عِيسَـى ابْنَ مَـرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِـذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ [المائـدة:116]، وهـذا دليل على أن المثلثة يقولون: إن الله إلـه، والمسـيح إلـه، وأمه إله تعـالى الله عن قولهم! فأنكر ذلك عيسى وقال: سُبْحَانَكَ [المائدة:116]، وقال: مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ [المائدة:117]، ومشهور في كتب النصـارى أنهم يقولـون بالأقـانيم الثلاثـة، وهم مختلفـون في معـنى الأقـانيم، وكــذلك هم مختلفــون هل هي قديمة كلها أو بعضــها حــادث؟ ومشــهور عند النصــارى اســتعمال كلمة الأقنــوم، ومنهم من يفســرها بــالأرواح، ومنهم من يفســـرها بالآلهة أو بالأشـــياء القديمـــة، والحاصل أنهم مضـــطربون فيها كما سمعنا، وقد ردّ عليهم الأئمة، ومن أراد تفصيل الرد عليهم فليقرأ كتـاب شـيخ

الإسـلام (الجـواب الصـحيح) الـذي ضـمنه الـرد عليهم وفصّـل في أجـوبتهم، واسـتوفى ذلك رحمه اللــه، وكــذلك غــيره من العلمــاء حيث تتبعــوا أدلتهم واستوفوا ما يدور حول ذلك من الشبه، وبينوا تناقضهم، ومع ذلك ما أثر عنهم أنهم يقولون: إن العالم صادر من ثلاثـة، بل هم يعـترفون في نفس الأمر بـأن العالم مخلوق من واحد قادر.

توحيد الربوبية يوافق الفطرة

قــال رحمه اللــه: [والمقصــود هنا أنه ليس في الطوائف من يثبت للعــالم صـانعين متمـاثلين، مع أن كثـيراً من أهل الكلام والنظر والفلسـفة تعبـوا في إثبـات هـذا المطلـوب وتقريـره، ومنهم من اعـترف بـالعجز عن تقرير هـذا بالعقل، وزعم أنه يتلقى من السمع]. هـذا بيـان لما عليه الفلاسـفة ونحـوهم، فالاعتراف بالخالق سبحانه وتعالى اعتراف فطـري، ولكن الفلاسـفة يريـدون أن يعــبروا عما فطــروا عليه تعبــيراً مقنعــاً، فلأجل ذلك اختلفت التعبــيرات عندهم، وسيأتينا بعض تعبيراتهم التي يستدلون بها على أن العالم لم يصدر إلا من خالق واحد، وأكثرهم لما لم يقدر على التعبـير زعمـوا أن هـذا متلقىً من السمع -أي: من الشرع-، وأن الاعتراف بالخـالق مـأخوذ من الشـرع، ولا شك أنه أمر فطري، ولو ترك كل واحد والفطرة التي فطر عليها لعرف أن له ربــاً وأنه مخلوق. ولأجل ذلك يقول النـبي عليه الصـلاة والسـلام: (كل مولـود يولد على الفطرة)، وقال تعالى: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْـقِ اللَّهِ [الروم:30]، ولكن مع ذلك هنـاك أدلة عقلية صـريحة تـبين للإنسـان أنه مخلـوق، وقد احتج عليهم سـبحانه وتعـالى بالعقل في قوله تعـالى: أَمْ خُلِقُـوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ [الطـور:35] فـإذا عرفـوا أنهم لم يخلقـوا من غير شيء فلا بد لهم من خـالق خلقهم. وصـلى الله على سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

شرح العقيدة الطحاوية [2]

أول واجب على الإنسـان الإقـرار به وعلمه هو شـهادة التوحيـد، ويجب على المسـلم أن يعـرف معناها ومؤداها ولوازمهـا؛ إذ لا تصح منه إلا أن يـأتي بها سليمة مما يشوبها من صور الشرك، ولا فلاح له بدونها، وعليها يـترتب سـائر العمل.

الدليل العقلي على وجود الخالق سبحانه

قال الشارح رحمه الله: [والمشهور عند أهل النظر إثباته بـدليل التمـانع، وهو أنه لو كان للعالم صـانعان فعند اختلافهما -مثل أن يريد أحـدهما تحريك جسم وآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتتـه- فإما أن يحصل مرادهمـا، أو مراد أحـدهما، أو لا يحصل مـراد واحد منهمـا، والأول ممتنـع؛ لأنه يسـتلزم الجمع بين الضـــدين، والثـــالث ممتنـــع؛ لأنه يلـــزم خلو الجسم عن الحركة والسكون وهو ممتنع، ويستلزم أيضاً عجز كل منهمـا، والعـاجز لا يكـون إلهـاً، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كـان هـذا هو الإله القـادر والآخر عـاجزاً لا يصـلح للإلهيـة، وتمـام الكلام على هـذا الأصل معـروف في موضـعه]. أتى الشارح بهذا ليبين أن هـذا هو الـدليل عند أهل الكلام على أن الخـالق واحـد، ويسمى دليلاً عقلياً، وتسمى دلالة التمانع، فيقولـون: لو كـان للعـالم صـانعان متكافئان كلاهما خالق مستقل مكافئ للآخر فأراد أحدهما تسكين شيء وأراد الآخر تحريكه، أو أراد أحـدهما إحيـاء شـخص وأراد الآخر إماتته لاختلفـا، فـإذا كان العالم له خالقان فقد يختلفان، يقـول هـذا: سـنحيي هـذا. ويقـول الآخـر: سنميته. تعـالى اللـه! فـإذا أراد هـذا إحيـاءه وأراد هـذا إماتته واختلفـا، فمـاذا يحصل؟ هل يمكن أن يكون هـذا الشـخص حيـاً ميتـاً؟! لا يمكن. هل يمكن أن يكون متحركـاً سـاكناً في آن واحـد؟! لا يمكن، فما يمكن أن يحصل مرادهما معاً؛ لأنه جمع بين الضدين، إذاً لا بد أن يحصل مراد واحد منهمـا، أو لا يحصل مراد أحد منهما، وكونه لا يحصل مراد كل منهما ممتنع أيضاً، فالجسم لا بد أن يكون إما متحركاً وإما ساكناً، إما حياً وإما ميتاً، فلا يمكن أن يكـون خاليـاً من الحركة وخالياً من السكون، ولا يمكن أن يكون غير حي ولا ميت، إذاً لا بد أن يحصل مراد واحد منهما دون الآخر، فالـذي يحصل مـراده هو الإلـه، والـذي لا يحصل مـراده هو عـاجز لا يصـلح أن يكـون إلهـاً، وهـذا يسـمى عنـدهم دليل التمانع، وقد دل على ذلك القرآن في قول الله تعالى: لَـوْ كَـانَ فِيهِمَا آلِهَـةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتَا [الأنبيـاء:22] يعـني: لو كـان مع الله آلهة مسـاوية له لفسـدت المخلوقات، وذلك لما يلزم من اختلاف الأهواء واختلاف الإرادات، فهذا ونحوه مما يدل عقلاً على أن العالم خالقه واحد وهو الله تعالى، وهو المتصـرف في هذا الكون كما يشاء.......

توحيد الألوهية هو الذي دعت إليه الرسل

قـال رحمه اللـه: [وكثـير من أهل النظر يزعمـون أن دليل التمـانع هو معـنى قوله تعالى: لَـوْ كَـانَ فِيهِمَا آلِهَـةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتَا [الأنبيـاء:22] لاعتقـادهم أن توحيد الربوبية الـذي قـرروه هو توحيد الإلهية الـذي بينه القـرآن ودعت إليه الرسل عليهم السلام، وليس الأمر كذلك، بل التوحيد الـذي دعت إليه الرسل ونـزلت به الكتب هو توحيد الإلهية المتضـمن توحيد الربوبيـة، وهو عبـادة الله وحده لا شريك له؛ فإن المشركين من العرب كـانوا يقـرون بتوحيد الربوبيـة، وأن خالق السماوات والأرض واحد كما أخبر تعالى عنهم بقوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُـولُنَّ اللَّهُ [لقمـان:25]، قُـلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُـلْ أَفَلا تَـذَكَّرُونَ [المؤمنـون:84-85]]. كثير من المتكلمين يـدعّون أن التوحيد الـذي دلت عليه هـذه الآية والـذي دل عليه دلالة التمانع هو الذي دعت إليه الرسل، وهذا خطأ، بل الرسل إنما دعوا إلى توحيد العبـادة، وذلك لأن توحيد الربوبية فطـري لم ينكـره المشـركون الأولـون، بل جميع الأمم معـترفون بتوحيد الربوبيـة، كما ذكرنا في الآيـات السابقة، ومنها قول الله تعالى: قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُـونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ [المؤمنون:84-85]، وقوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَـقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ لَيَقُـولُنَّ اللَّهُ [العنكبـوت:61]، وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ نَـزَّلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَأَحْيَا بِـهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْـدِ مَوْتِهَا لَيَقُـولُنَّ اللَّهُ [العنكبوت:63] ، فإذا كانوا معترفين بهذا النوع الـذي هو توحيد الربوبية وأن الـرب هو الخـالق وحـده فهـذا يـدل على أن الرسل إنما دعت إلى التوحيد القصدي الإرادي الذي هو توحيد الإلهية أو توحيد العبودية.......

المشركون يقرون بتوحيد الربوبية وينكرون توحيد الألوهية

قال رحمه الله: [ومثل هذا كثير في القرآن، ولم يكونوا يعتقدون في الأصـنام أنها مشـاركة لله في خلق العـالم، بل كـان حـالهم فيها كحـال أمثـالهم من مشـركي الأمم من الهند والـترك والـبربر وغـيرهم، تـارة يعتقـدون أن هـذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين ويتخذونهم شفعاء ويتوسـلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب، قال تعالى حكاية عن قوم نوح: وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُـوقَ وَنَسْـرًا [نـوح:23] ، وقد ثبت في صحيح البخـاري وكتب التفسـير وقصص الأنبيـاء وغيرها عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف أن هذه أسـماء قـوم صـالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم، ثم طـال عليهم الأمد فعبدوهم، وأن هـذه الأصـنام بعينها صـارت إلى قبائل العـرب ذكرها ابن عبـاس رضي الله عنهما قبيلة قبيلـة]. معـروف أن الرسل دعـوا إلى توحيد العبـادة الـذي هو توحيد الطلب والقصـد، وهو التوحيد الإرادي العملي الـذي طلبه الله من عباده وأمرهم به، وضده الشرك الذي هو دعوة غير الله تعـالى

معه، والأمم السابقة متفقون -كما سمعنا- على أن الخـالق لهـذا العـالم واحد هو الله، ومع ذلك يدعون آلهة غيره ويسـمونها آلهـة، كما حكى الله عن قـوم إبراهيم أنهم قالوا: نَعْبُـدُ أَصْنَـامًا فَنَظَـلُّ لَهَا عَـاكِفِينَ [الشـعراء:71] ، وأنهم قـالوا لما كسـرها: مَنْ فَعَـلَ هَـذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ [الأنبيـاء:59]، وقـولهم: أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَـذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْـرَاهِيمُ [الأنبيـاء:62]، وقـولهم: حَرِّقُـوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ [الأنبياء:68] فسموها آلهة، ومعلوم أنهم يألهونها، أي: يحبونها ويعظمونها ويصـرفون لها أنـواع التألـه، وهكـذا فعل المشـركون في العهد النبوي، فإن قصدهم إنما هو التقرب إليهـا. وأما غرضـهم منها فقد ذكـره الله تعـالى في قوله عنهم: مَا نَعْبُـدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمـر:3] هـذه مقالة المشركين، وكذلك حكى الله عنهم أنهم قالوا: هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْـدَ اللَّهِ [يونس:18] ، ورد عليهم كما حكى عن الرجل المؤمن بقوله: أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ [يس:23]، فـأخبر بـأنهم إنما يريـدون شـفاعتهم، وأنهم لا يشـفعون ولا تغـني شـفاعتهم شيئاً، وهذا هو قصد المشركين الأولين والمعاصرين سـواء، وهو أنهم يريـدون شـفاعتهم، ويريـدون التوسل بهم، ويزعمـون أنهم لهم وجاهة ولهم صـلاح، فلكـونهم ذوي صـلاح يشـفعون لهم شـفاعة تفيـدهم إما في العاجل وإما في الآجل. وأول ما حدث هذا الشرك في قوم نوح، كما حكى الله عنهم بقوله: لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا [نوح:23] .. الخ، فروى البخاري عن ابن عباس قال: هذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح. كانوا رجالاً من أهل العلم ومن أهل العبادة ومن أهل الفضل، فلما ماتوا أسف تلامذتهم عليهم، فجاءهم الشيطان وقال: صوروهم وانسبوا صورهم حتى تتـذكروا عبـادتهم أو تتـذكروا علومهم فتعملوا بها، فصوروا تماثيل وسموها بأسمائهم، هذا ود، وهذا سـواع، وهذا يغوث، وهذا يعـوق، وهـذا نسـر، ولما ذهب أولئك الـذين صـوروهم ونشأ أولاد لهم جهال وصاروا يرون هذه الصور جـاءهم الشـيطان وقـال: آبـاؤكم ما صوروهم إلا ليعظموهم؛ فإنهم من أهل الصـلاح. فعند ذلك عظمـوهم، وزادوا من تعظيمهم شـيئاً فشـيئاً إلى أن صـاروا يصـرفون لهم حق اللـه، ثم جـاء الطوفان وأغرق من على الأرض، ولكن بقيت صور أولئك مدفونة حتى العصر الجاهلي، وأول من أثارها عمرو بن لحي بن خندف الخزاعي، وهو الذي يقول عنه صـلى الله عليه وسـلم: (رأيت عمـرو بن لحي يجر قصـبه في النـار؛ لأنه أول من سيب السوائب وغير دين إبراهيم)، فذكروا أن الشيطان تمثل له في صـورة كـاهن، وكلام الكهنة يكـون مسـجوعاً، فقـال لـه: ائت جـدة، تجد بها أصـناماً معـدة، ثم ادع العـرب إلى عبادتها تجب. ففعل فـأخبره بأسـمائها، فتفرقت هذه الأصنام الخمسة في العرب، وصارت معبودة إلى العهد النبـوي، وهي صـور قديمة من عهد نـوح احتفظ بها وبأمثالها وصـارت تعبد إلى العهد النبوي، فهذا أول شـرك وآخـره، وهو الشـرك بعبـادة الصـالحين، وبتسـميتهم أولياء أو سادة أو أفاضل أو أشـرافاً، وهـذه التسـمية أوجبت للنـاس أن يغلـوا فيهم حتى صرفوا لهم خالص العبادة.

أصل الشرك تعظيم القبور

قال رحمه اللـه: [وقد ثبت في صـحيح مسـلم عن أبي الهيـاج الأسـدي قـال: (قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنـه: ألا أبعثك على ما بعثـني رسـول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أمرني ألا أدع قبراً مشرفاً إلا سـويته، ولا تمثـالاً إلا طمسته)، وفي الصـحيحين عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال في مرض موته: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبـور أنبيـائهم مسـاجد) يحـذر مما فعلوا قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قـبره، ولكن كـره أن يتخذ مسجداً. وفي الصحيحين أنه ذكر لرسول الله عليه الصـلاة والسـلام في مرض موته كنيسة بأرض الحبشة، وذكر من حسنها وتصـاوير فيها فقـال: (إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قـبره مسـجداً وصـوروا فيه تلك التصاوير، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامـة)، وفي صـحيح مسـلم عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال قبل أن يمـوت بخمس: (إن من كـان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مسـاجد، ألا فلا تتخـذوا القبـور مسـاجد فإني أنهاكم عن ذلـك)]. هـذه أحـاديث تـدل على أن أصل الشـرك هو تعظيم القبور، سيما قبور الأولياء والسادة والصالحين، وبالطريق الأولى قبور الأنبيـاء والرسل، فالنبي عليه الصلاة والسلام عرف هذا، وعـرف أنه أكـبر سـبب في حدوث الشرك في العالم، وأن قوم نوح لما مـات أولئك الصـالحون فعلـوا ما يلي: أولاً: عكفوا على قبورهم. ثانياً: صوروا تماثيلهم. ثالثاً: طـال عليهم الأمد فعبدوهم. وكذلك وقع هذا في النصارى، وكذلك في اليهـود، وكـذلك في الأمم الأخرى، فسبب الشرك فيهم هو عبادة الأولياء والصالحين والأنبياء ونحوهم. و في هـذه الأحـاديث يقـول صـلى الله عليه وسـلم: (إن من كـان قبلكم كـانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فـإني أنهـاكم عن ذلك)، وكذلك يقول عليه الصلاة والسلام: (لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخـذوا قبـور أنبيـائهم مسـاجد) تقـول عائشـة: يحـذر مما صـنعوا. أي: يحـذر فعلهم. تقول: ولولا ذلك لأبرز قـبره، أي: لجعل بـارزاً، ولكن خشي أن يتخذ مسـجداً. وكذلك في مرض موته ذكـرت له أم سـلمة وأم حبيبة كنيسة رأتاها في أرض الحبشة يقال لها: (مارية)، وفيها صور، فقال عليه الصلاة والسلام: (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسـجداً وصـوروا فيه تلك التصـاوير، أولئك شرار الخلق عند الله) يخاطب أم سلمة أو أم حبيبة ، فإنهم جمعوا بين الفتنتين: فتنة التماثيل، وفتنة القبور، فـإذا مـات فيهم الرجل الصـالح صـوروا صورته وهو (التمثال)، ثم بعد ذلك بنوا على قبره، وقد يكون البناء على قـبره يتقدم الصورة، فهم يبنون على قبره ويصورون صورته، فجمعـوا بين فتنـتين: فتنة الصور وفتنة القبور، وكلاهما من الأسباب الداعية إلى الشـرك، وهـذا هو الذي حصل في هذه الأمة، والنبي عليه الصلاة والسلام في آخر حياته قبل أن يموت بخمس حذر من ذلك على المنبر فقال: (ألا فلا تتخذوا القبـور مسـاجد،

فإني أنهاكم عن ذلك) ثم لما كان في سياق الموت اهتم بهـذا الأمـر، وكـانت عليه قطيفة كلما تسجى بها واغتم كشفها، فأخذ يقـول وهو في تلك الحـال: (لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) كأنه يشـير إلى أنكم لا تتخذوا قـبري مسـجداً كما فعل أولئـك. وقد بين العلمـاء أن معـنى اتخاذها مساجد هو تحري تلك الأمـاكن للصـلاة عنـدها، فمجـرد قصـدها لأجل الصـلاة عنـدها اتخـاذ لها ولو لم يكن هنـاك بنـاء، ولو لم يبنـوا عليها بنيانـاً مثل هـذا المسجد، بل ما دام أنه يقصد هذه البقعة التي يزعم أن فيها قـبر ولي أو قـبر نبي أو قـبر سـيد أو قـبر رجل صـالح، ويفضل الصـلاة عنـدها ويجلس عنـدها، ويطيل الجلوس، ويتـبرك بتربتها فقد اتخـذها مسـجداً شـاء أم أبى ما دام أنه يتحراها للصلاة ويفضل الصلاة عندها على الصـلاة في بيـوت الله تعـالى، فهو ممن اتخذها مسجدا، سواء أقيم عليها بناء أو لم يقم عليها. ولما كانت القبـور مظنة الفتنة حرص عليه الصلاة والسلام على أن لا يكون هنـاك ما يـدعو إلى ذلك، فثبت أنه نهى أن ترفع القبور، وأن يبنى عليها، وأن تجصــص، وأن يكتب عليها، وأن تسرج -يعني: تنور-؛ لأن هـذه الأشـياء تـدفع الجهـال إلى الاعتقـاد فيها، فإذا رأوا هذا القبر على هذه الحال قالوا: هذا قـبر ولي. هـذا قـبر سـيد. هذا ممن يتبرك بـه. هـذا ممن يـرجى تـأثيره ونفعـه. فيقصـدونه ويغلـون فيه فيحصل الشـرك، فنبينا عليه الصـلاة والسـلام حسم مـادة الشـرك، ومنع من الوسائل التي توقع فيه، وقد بعث علياً رضي الله عنه بقولـه: (لا تـدع صـورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته) يعني: سويته بالقبور الأخـرى. وأمـره بطمس الصور؛ لأن الصور أصل في عبادة غـير اللـه، وأمـره بتسـوية القبـور، أي: بتخفيض القـبر المشـرف الـذي قد رفع على ما سـواه من القبـور حـتى يسوى بغيره من القبور مخافة أن يعتقد فيه، فهذا دليل على أنه عليه الصـلاة والســلام قد حــرص كل الحــرص على أن تكــون أمته متمســكة بتوحيد الله تعالى.......

من الشرك عبادة الكواكب

قال رحمه الله: [ومن أسباب الشرك عبادة الكواكب، واتخاذ الأصـنام بحسب ما يظن أنه مناسب للكواكب من طباعها، وشرك قـوم إبـراهيم عليه السـلام كـان -فيما يقـال- من هـذا البـاب، وكـذلك الشـرك بالملائكة والجن واتخـاذ الأصنام لهم]. عبـادة الكـواكب أو الأفلاك كالشـمس والقمر من جملة ما وقع فيه بعض الأمم، ولأجل ذلك نهى الله تعالى عن ذلك، وأخبر بضلال من يفعله، وحكى الله تعـالى عن ملكة سـبأ وقومها بقوله عن الهدهـد: وَجَـدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْـجُدُونَ لِلشَّـمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ فَصَـدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ [النمل:24]، أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ [النمل:25] يعني: صدهم الشـيطان عن سـجودهم لله الـذي خلقهم الَّذِي يُخْـرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ [النمل:25]، فهذا دليل على أن هناك أممـاً عبـدوا الشـمس، وأخـبر النبي عليه الصلاة والسلام بأن المشركين يسجدون لها، ونهى عن الصلاة عند

طلـوع الشـمس وعند غروبها فقـال: (إن الشـمس تطلع بين قـرني شـيطان وحينئذٍ يسجد لها المشركون) وهناك من شركهم بعبادة الكـواكب. وقيـل: إن قـوم إبـراهيم شـركهم بعبـادة الكـواكب، كـانوا يعبـدون الكـواكب ويبنـون لها الهياكـل، وقد حكى الله عنهم أنهم يعبـدون أصـناماً، كقـولهم: نَعْبُـدُ أَصْـنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ [الشعراء:71]، وكانت أصنامهم من حجارة أو من خشـب، ولأجل ذلك قـال لهم إبـراهيم: أَفَـرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُـدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَـاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ* فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي [الشـعراء:75-77] وقـال: وَتَاللَّهِ لَأَكِيـدَنَّ أَصْـنَامَكُمْ [الأنبياء:57] فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ [الأنبياء:58] وقال: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُـونَ [الصـافات:96] يعـني: خلقكم وخلق ما عملتم بأيـديكم. فهـذا دليل على أنهم كانوا يعبدون أصناماً منحوتة، ولكن مع ذلك كانوا يعبدون الكـواكب، وقد قيل: إن من أدلة ذلك قوله تعـالى: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْـهِ اللَّيْـلُ رَأَى كَوْكَبًا قَـالَ هَذَا رَبِّي [الأنعام:76] على وجه المناظرة، وكذلك قال للقمر: هذا ربي. وقال للشمس (هذا ربي هذا أكبر) قيل: إن من أدلة ذلك أيضـاً قوله تعـالى: فَنَظَـرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ [الصافات:88-89]، مما يـدل على أنهم كانوا ينظرون أيضاً في النجوم. فعبادة الكواكب لا شك أنها شـرك، وذلك لأن هذه الكواكب مخلوقة مسيرة، والله هو الذي يسيرها، وهو الذي سخرها، كما في قوله تعالى: وَالنُّجُومَ مُسَـخَّرَاتٍ بِـأَمْرِهِ [الأعـراف:54]. والحاصل أن من جملة المعبودات عبادة الكواكب وبناء الهياكل لها، وكل ذلك مما نفاه الإسلام وحث المسلمين على أن تكون عبادتهم لله وحده.......

شبهة المشركين في عبادتهم لغير الله

قال رحمه الله: [وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع وأنه ليس للعالم صـانعان، ولكن اتخذوا هـؤلاء شـفعاء كما أخـبر عنهم تعـالى بقولـه: وَالَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمر:3]، وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُـلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُـبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَمَّا يُشْـرِكُونَ [يـونس: 18]]. قد تقـدم أن المشـركين الأولين يعـترفون بـأن الخـالق واحد وهو الله تعالى، حكى الله ذلك عن مشركي العرب في عدة آيـات، ومنها قوله تعـالى: قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَـذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّـبْعِ وَرَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ * سَـيَقُولُونَ لِلَّهِ قُـلْ أَفَلا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَـدِهِ مَلَكُـوتُ كُـلِّ شَـيْءٍ وَهُـوَ يُجِـيرُ وَلا يُجَـارُ عَلَيْـهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ [المؤمنون:84-89] أي: هذا لله وحده، سَـيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ [المؤمنون:89]، وهذا يبين أنهم يعترفون بهـذا، وأنه صـار حجة عليهم، فاعترافهم بتوحيد الربوبية حجة عليهم في التوحيد الذي جحـدوه وهو توحيد الإلهية فَـأَنَّى تُسْـحَرُونَ [المؤمنـون:89] أي: كيف تصـرفون عن عبادته وأنتم تعرفون أنه الذي يجير ولا يجار عليه، وأنه الذي بيده ملكـوت كل شـيء؟ وهو رب السـماوات السـبع، وهو رب العـرش العظيم، وهو الـذي له

الأرض وله السماوات وله المخلوقات، ومع ذلك تعبدون غيره! أين عقــولكم؟ فسئلوا لماذا تعبدون هذه المعبودات؟ فأخبر الله تعالى عنهم بـأنهم يقولـون: مَا نَعْبُــدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمــر:3] أي: نريد أن يقربونا إليــه. وكــذلك في قوله تعــالى: وَيَعْبُــدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُــرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ [يونس:18] أي: ما نريد إلا شـفاعتهم. هـذه مقالتهم، وهي بعينها مقالة عباد القبور وعباد الأولياء ونحوهم الـذين يقولـون: إنهم أناس ذوو فضل ومنزلة، والله يقبل منهم ولا يقبل منا، فــإذا تقربنا إليهم أدخلونا على الله، وقبلت أعمالنا بسببهم. ويضربون لذلك مثلاً بملـوك الـدنيا، فيقولون: إن ملوك الدنيا لا يوصل إليهم إلا بالشفعاء، فإذا أردت حاجة عندهم فإنك تتوسل بأحد الـوزراء أو أحد الكتـاب أو أحد الخـدم حـتى يـدخلك عليهم ويشفع لك عندهم. وهـذا قيـاس فاسـد؛ فـإن الملـوك بشر لا يعرفـون ما في الضمير، ولا يعرفون الصادق من الكاذب، فيحتاجون إلى أن يقبلوا شفاعة من يعرفونه، والرب سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى من يعرفـه، فإنه يعلم ما في الضمائر، ويعلم ما توسـوس به النفـوس، وهو عليم بـذات الصـدور، فلا حاجة إلى أن يشفع عنده أحد، وإن كان في الآخرة يأذن في الشفاعة لبعض عبــاده ويقبل شفاعتهم تكريماً لهم، ولكن بإذنه، كما قال تعـالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ [البقرة:255].......

شرح العقيدة الطحاوية [3]

من رحمة الله عز وجل بخلقه أن أودع في فطرهم معرفته والإيمان بوجوده، فكل مخلوق يعرف أن له خالقاً بـالفطرة، وهـذه الحقيقة لم ينكرها إلا شـواذ الخلق مع يقينهم بها في البـــاطن، ولـــذا أقيمت الحجة على الخلق بها حين دعوا إلى توحيد العبادة.

توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية

من جملة ما حـذر منه نبينا صـلى الله عليه وسـلم الشـرك في العبـادة، ومن أسـبابه اتخـاذ القبـور مسـاجد، وهنـاك كثـير من الأدلة في نهيه عليه الصـلاة السلام عن الشرك، وذمه للذين يتخذون قبـور أنبيـائهم مسـاجد، وبيـان ما آل إليه أمرهم بعد ذلك، وسيمر بنا -أيضـاً- ما يحقق التوحيـد، وأن توحيد الربوبية ينتج منه توحيد الإلهيـة. قـال الشـارح رحمه اللـه: [وكـذلك كـان حـال الأمم السالفة المشركين الذين كذبوا الرسل، كما حكى الله تعـالى عنهم في قصة صـالح عليه السـلام عن التسـعة الرهط الـذين (تقاسـموا بالله) أي: تحـالفوا بالله (لنبيتنه وأهلـه)، فهـؤلاء المفسـدون المشـركون تحـالفوا بالله على قتل نبيهم وأهلـه، وهـذا بين أنهم كـانوا مؤمـنين بالله إيمـان المشـركين. فعُلِم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية الذي يتضمن توحيد الربوبيـة، قـال تعـالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [الروم:30] مُنِيبِينَ إِلَيْـهِ وَاتَّقُـوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الـروم:31] مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُـوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِـزْبٍ بِمَا لَـدَيْهِمْ فَرِحُـونَ * وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُـرٌّ دَعَـوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيـقٌ مِنْهُمْ بِـرَبِّهِمْ يُشْـرِكُونَ لِيَكْفُـرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُـونَ * أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُـلْطَانًا فَهُـوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْـرِكُونَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَـةً فَرِحُـوا بِهَا وَإِنْ تُصِـبْهُمْ سَـيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُـونَ [الـروم:32-36]. وقـال تعـالى: أَفِي اللَّهِ شَـكٌّ فَاطِرِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ [إبـراهيم:10]، وقـال صـلى الله عليه وسـلم: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) ولا يقال: إن معنـاه: يولد سـاذجاً لا يعـرف توحيـداً ولا شـركاً. كما قـال بعضـهم لما تلونـا، ولقوله صـلى الله عليه وسـلم فيما يـروي عن ربه عز وجـل: (خلقت عبـادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين .. .) الحديث، وفي الحديث المتقـدم ما يـدل على ذلك حيث قـال: (يهودانه أو ينصـرانه أو يمجسـانه) ولم يقـل: ويسـلمانه وفي رواية: (يولد على الملة)، وفي أخـرى: (على هـذه الملـة)]. قصة قـوم صـالح تدل على أنهم ولو كذبوا صالحاً فإنهم كانوا يعرفون الله ويعترفون بالربوبيـة، ولهذا تقاسموا بالله وهم كفار مكذبون للنبي، ومع ذلك يتقاسـمون باللـه، وما تقاسموا بغير الله، فيعرف من هذا أن الكفار المشركين الـذين كـذبوا الرسل كانوا يعرفون أن الله هو ربهم، وأن الله هو الخالق. وهكـذا الـذين كـذبوا نبينا

صلى الله عليه وسلم كانوا معترفين بأن الله هو ربهم، كما قـال تعـالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ [الزخرف:87]، ونحو ذلك من الآيـات، فمـاذا جحدوا إذا كانوا يقرون بأن الله هو الخالق الرازق؟ جحدوا توحيد العبـادة وهو حق الله، إنما عرفوا الله رباً ولكن ما عبدوه وحده، وما عظموه حق تعظيمه، بل أشركوا به وجعلوا معه آلهة أخرى، فكانوا بـذلك مشـركين، وكـذلك كـذبوا رسله الذين دعوهم إلى عبادته. وقوم نوح كانوا يعرفون ربهم، ولكن احتقـروا نوحاً وكذبوه، وهكذا قوم هود وقوم صالح وقوم إبـراهيم إلى آخر الأمم، وهم مشركو العرب، فقد كذبوا نبينا عليه الصلاة والسلام أول الأمر وقـالوا: أَجَعَـلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا [ص:5].......

معرفة الخالق سبحانه معرفة فطرية

معرفة الله عز وجل معرفة فطرية فطر الخلق عليهـا، ودين الإسـلام الـذي اختاره الله ديناً له وأرسل به الرسل دين فطري، بمعنى أن القلوب مفطورة على استحسانه، وعلى أنه الدين الصـحيح، ولو فكر كل عاقل في هـذا الـدين لعرف أنه أصح الأديان، وأن من دان بغيره فهو خاسر وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْـرَ الإِسْـلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ [آل عمـران:85]، وفي الآية الكريمة في سـورة الـروم: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَا [الـروم:30] يعـني: فطـرهم على معرفته وعلى اسـتحقاقه لأن يعبـد، ولكن أفسـدت عليهم الشـياطين تلك الفطـرة، وأفسـدتها عليهم البيئـات والمجتمعـات، وأفسـدها عليهم الآبـاء والأجـداد والأمهـات والجـدات، وأفسـدها عليهم المربـون والمعلمـون والمنشـئون، ولو تركوا وما تميل إليه فطرتهم لمـالوا إلى الإسـلام، ولعرفـوا أنه الـدين الحـق، وإن كـان لا بد من تنـبيههم على تفاصـيله، وهـذا ما دل عليه الحـديث: (كل مولود يولد على الفطـرة) يعـني: على معرفة أنه مخلـوق وأن له خالقـاً، وأن الخالق هو الذي يستحق أن يعبد. وفي الحديث القدسـي: (إني خلقت عبـادي حنفـاء فاجتـالتهم الشـياطين) (حنفـاء) يعـني: مسـتقيمين على الـدين. ولكن سـلطت عليهم الشـياطين فاجتـالتهم عن دينهم وأخـرجتهم عن الحنيفيـة، وحـرمت عليهم الحلال وأحلت لهم الحـرام، وأوقعتهم في الشـرك والضـلال. ومعلوم أن الإنسان بفطرته يفضل الـدين الصـحيح، وأن أصح الأديـان هو هـذا الدين، ولكن كثرة المنحرفين وكثرة النصارى وكثرة اليهود وكـثرة المشـركين وكثرة المبتدعين إنما هي بسبب الدعايات التي تصد عن الإسلام، ومعلـوم أن الله سـبحانه أوضح الحـق، وأرسل به الرسـل، وأنـزل به الكتب، ولكن هنـاك أعداء للحق، وهؤلاء الأعداء يحرصون على أن يميلوا بالناس إلى ما هم عليه، فالمشركون يحبون أن يكثر أمثالهم، وكذلك المبتدعون، كل أهل بدعة يحبون أن النـاس يكونـون معهم على بـدعتهم، والأصل الـذي يـدفعهم إلى ذلك هو الشيطان، فالشيطان لما كان عـدو الإنسـان زين له البـدع، وزين له الشـرك، وزين له الكفر، ثم أمره بأن يدعو الناس إلى ما ينتحله.......

قال رحمه الله: [وهذا الـذي أخـبر به صـلى الله عليه وسـلم هو الـذي تشـهد الأدلة العقلية بصـدقه، منهـا: أن يقـال: لا ريب أن الإنسـان قد يحصل له من الاعتقـادات والإرادات ما يكـون حقـاً، وتـارة ما يكـون بـاطلاً، وهو حسـاس متحرك بالإرادات، ولا بد له من أحدهما، ولا بد له من مـرجح لأحـدهما، ونعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يصدق وينتفع، وأن يكذب ويتضرر مـال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع، وحينئذ فالاعتراف بوجـود الصـانع والإيمـان به هو الحق أو نقيضه، والثاني فاسد قطعاً، فتعين الأول، فوجب أن يكـون في الفطـرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان به، وبعد ذلك إما أن يكون في فطرته محبته - وهو أنفع للعبد أولا-، والثاني فاسد قطعـا، فـوجب أن يكـون في فطرته محبة ما ينفعـه]. هـذه أدلة على أن معرفة الخـالق سـبحانه معرفة فطرية يـدركها الإنسان بفطرتـه، وهـذا تقرير من تقـارير المتكلمين ولكنه واضـح، يقـول: إن الإنسان لا بد أن يخطر بقلبه خواطر، وهذه الخواطر وهذه الإرادات قد تكـون صـحيحة وقد تكـون فاسـدة، ولا شك أنه مـتى فسر تلك الخـواطر عـرف ما يضـره وما ينفعــه، فمن ذلك أن يفكر في نفسه وفي الوجــود الــذي حولــه، فيعترف حينئذٍ أنه مخلوق، وأن الوجود الذي حوله مخلـوق، ويعـترف بعد ذلك أن هذا المخلوق لا بد له من خالق متصرف، وأن التصرف للخـالق وحـده، ثم إذا اعترف بذلك انتفع بهذا الاعتراف، فكل عاقل يقـول: إنه إذا خطر في قلبه هـذه الخـواطر فلا بد أن يفكر في نهايتهـا، فينظر هل هي حق أو باطـل، وإذا كـانت حقـاً فإنه يؤثرها ولا يـترك عليها ما يضـادها، فكل عاقل يـؤثر ما ينفعه ويترك ما يضره، فلو قيل لك مثلاً: اعترف بـالبعث والجـزاء في الآخـرة ونحن نثيبك ونرفع منزلتك ونعطيك ونمكنـــــك. أو: أظهر الإنكــــار ونحن نحبسك ونضربك ونؤدبك ونحرمك فالعقل يقول: لمـاذا لا أعـترف، وأنا أعـرف ما في الاعـتراف؟ ومما يـدعوه إلى الاعـتراف: أولاً: أن البعث عليه أدلـة. ثانيـاً: فيه منفعة. ثالثـاً: التكـذيب فيه مضـرة. فكل عاقل يـؤثر أن يعـترف بـالحق حـتى يحصل له الانتفـاع. قـال رحمه اللـه: [ومنهـا: أنه مفطـور على جلب المنـافع ودفع المضار بحسه، وحينئذ لم تكن فطرة كل واحد مسـتقلة بتحصـيل ذلـك، بل يحتاج إلى سبب معين للفطرة كالتعليم ونحوه، فـإذا وجد الشـرط وانتفى المانع استجابت لما فيها من المقتضي لذلك]. وهذا أيضاً دليل عقلي، فمعلوم أن الله تعـالى فطر العبـاد على معرفته فِطْـرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَا [الروم:30]، ولكن هذه الفطرة قد لا تكفي لتفاصيل الحقوق، فالإنسان مثلاً لو نشأ في بادية ولم يسـمع بالـدين ولم يعـرف شـيئاً عنه فإنه يعـرف أنه مخلـوق، وأن هـذا الكـون مـدبر مسـخر، لكن يخفى عليه أشـياء من تفاصـيل العبادة، فيقول -مثلاً-: أنا مخلوق ولي خالق، وخالقي له حقوق علي، ولكن ما هي؟ وكيف أؤدي هذه الحقوق؟ وما الذي يحبه حتى أفعلـه؟ وما الـذي يكرهه حتى أتركه؟ وهذا يرجع فيه إلى ما جاءت به الرسل، فالرسل هم الذين بينـوا للنـاس حقـوق الله على العبـاد فـأمروهم أن يفعلوها وما حرمه فـأمروهم أن

يتركوه، فهذا يُتلقى من الرسل، وإلا فالإنسـان لو تـرك وفطرته دون أن تغـير لمال إلى الحق ولآثره، ولكن تفاصيل الحق تؤخذ عن الرسل.

حسن التصور ومعرفة فائدة أمر ما دافع إلى الإقدام عليه

قـال الشـارح رحمه اللـه: [ومنهـا: أن يقـال: من المعلـوم أن كل نفس قابلة للعلم وإرادة الحق، ومجرد التعليم والتحضيض لا يوجب العلم والإرادة لولا أن في النفس قـوة تقبل ذلـك، وإلا فلو علم الجهـال والبهـائم وحضِّضا لم يقبلا، ومعلوم أن حصول إقرارها بالصانع ممكن من غـير سـبب منفصل من خـارج، وتكون الذات كافية في ذلك، فإذا كان المقتضي قائماً في النفس وقدر عـدم المعارض فالمقتضي السالم عن المعارض يوجب مقتضـاه، فعلم أن الفطـرة السليمة إذا لم يحصل لها ما يفسدها كانت مقرة بالصانع عابـدة لـه]. صـحيح أن مجرد التحريض لا يدفع الإنسان، فلو كان لك ولد وأنت تحرضه وتقــول: يا ولدي! تعلم يا ولدي! اطلب العلم. يا ولدي! احفظ القرآن. وهو مع ذلك ليس له رغبة، بل نفسه مائلة عن هذا التعلم، فلو ضربته ولو أدبته ولو نصــحته ولو علمته ما قبل إلا إذا أقبلت نفسه هوي ذلك وعرف فيه فائدة ومنفعـة، وهـذه المعرفة تتكـون من التصـور، وذلك لأن الإنسـان له عقـل، وعقله يهديه إلى تصور الأمر، فيتصور الشـاب -مثلاً- أن الجهل مقت، فيقـول: لمـاذا أبقى على الجهل وهو نقص ويتصور أن العلم شرف فيدفعه هذا التصــور إلى التعلم، أما مجــرد الضــرب والـترغيب والـترهيب والتخويف ونحو ذلك إذا لم يكن هنـاك تصور وإقبـال من النفس فإنه لا يفيد كما هو مشـاهد. فالـذي يريد الخـير لابد أن يعـرف فوائـده من قبـل؛ حـتى تدفعه تلك المعرفة إلى طلبـه، فالعبد إذا عرف -مثلاً- أنه مخلوق، وعرف أن المخلوق عليه حقوق، وعرف أن أداء تلك الحقوق سبب للسعادة، فإنه سيحرص على أداء تلك الحقـوق حـتى تحصل له السـعادة والحيـاة الطيبة في الـدنيا، والجنة في الآخـرة. ولكن من أين يأخذ معرفة تلك الحقوق التي عليه؟ يأخـذها من الشـريعة، فيقـول: الحقـوق الـتي علي هي عبادة الله، دعاؤه وخوفه ورجاؤه والرغبة إليه وخشيته والخشـوع له وترك التعلق بغـيره وتـرك عبـادة غـيره بـأي نـوع من العبـادة وطاعته وتـرك معصيته، وما أشبه ذلك. فالعاقل عليه أن يعلم أولاً الفائـدة، أي: إذا أردت أن ترغّب ولدك في أمر فإن عليك أن تعلمه بفائدته حتى يقبل إليه، فـأنت -مثلاً- إذا أخــذت تعلمه حرفة من الحــرف أو صــنعة يتكسب بها كبنــاء وغراسة أو تجارة أو أي صنعة من الصنائع، فلابد أنك سوف تخبره بفوائدها، وستقول له: تعلم هذه الحرفة فإنها صنعة مفيدة، يحتاج إليها النـاس، وتكتسب كـذا وكـذا، فــإذا اقتنع انــدفع وطلبهــا، فكــذلك إذا قلت: أنت محتــاج إلى العلم، والعلم فائدته كذا وكـذا، واقتنع فإنه ينـدفع إلى العلم، وهكـذا إذا قلت للإنسـان: أنت

محتاج إلى ربـك، حـتى يثيبك ويعطيـك، وربك غـني عنـك، وحق الله عليك أن تعبده، وعبادته كذا وكذا. فإذا صدق واقتنع فإنه يندفع للعبـادة. فـإذاً ننصح كل إنسان أراد إقناع آخر أن يخبره بفائدة ذلك الأمر الذي يدفعه إليه حتى يـرغب فيه.

ميل النفس إلى الصلاح بفطرتها عند انعـدام العوامل الخارجية من مصـلحات ومفسدات

قال الشارح رحمه اللـه: [ومنهـا: أن يقـال: إنه إذا لم يحصل المفسد الخـارج ولا المصلح الخارج كـانت الفطـرة مقتضـية للصـلاح؛ لأن المقتضي فيها للعلم والإرادة قائم والمانع منتف]. هذا قد يتصور في إنسان نشأ وحـده في برية أو في بلدة أو بين أناس لا يعرف كلامهم ولا يعرفون كلامـه، فينشأ وليس هنـاك أحد يعلمه الخير ولا أحد يعلمه الشر، لكن معه الفطـرة، وهي أن الله فطـره على الإســلام، فلابد من أن يكــون معه دافع يدفعه إلى أن يعــرف الكــون، ويعرف ماذا يراد بهذا الكون، فإذا قـدر أنه ليس هنـاك مفسد ولا مصـلح فـإن الفطرة ميالة إلى طلب المصلح، فيندفع إلى طلب الخير. أما إذا ولد المولـود ونشأ في بلدة أهلها يعرفون الخير ولقنوه إياه، وقالوا: عبادة الله هي الأصلح، وأنت مخلــوق لها -كما قــال تعــالى-: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُــدُونِ [الذاريات:56] فإنه يعرف ذلـك، ثم يتلقى العبـادة. وكـذلك لو ولد بين أنـاس مشركين، وقالوا له: التعلق بهؤلاء الصالحين ينفع، وهؤلاء مقربــون عند اللــه، ونحن نـدعوهم حـتى يكونـوا شـفعاءنا عند اللـه، ونحو ذلـك، فصـدقهم وفعل كفعلهم وذلك لأنه ســاذج لا يــدري إلا بما علمــوه. كــذلك إذا ولد ونشأ بين نصارى يقولون: المسيح هو الله أو ابن الله صـدقهم وانـدفع إلى ما يقولونـه، وهكذا، بخلاف ما إذا ولد ليس عنده من يعلمه لا بدعة ولا سنة، ولا إسـلام ولا كفــر، فإنه يبقى متحــيراً ولكن فطرته تدفعه إلى معرفة الإســلام أو محبته وتفضيله على غيره.

استخدام الأدلة العقلية للرد على من ينكرون وجود الخالق

قـال رحمه اللــه: [ويحكى عن أبي حنيفة رحمه الله أن قومـاً من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبيــة، فقــال لهم: أخــبروني قبل أن

نتكلم في هــذه المســألة عن ســفينة في دجلة تــذهب فتمتلئ من الطعــام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها فترسي بنفسها، وتفرغ وترجـع، كل ذلك من غير أن يدبرها أحد!! فقالوا: هذا محال، لا يمكن أبداً! فقـال لهم: إذا كـان هذا محالاً في سفينة فكيف في هذا العالم كله علـوه وسـفله؟! وتحكى هـذه الحكاية أيضاً عن غير أبي حنيفة]. هـؤلاء قـوم من الملاحـدة عنـدهم شك في توحيد الربوبية وفي وجــود الخــالق ســبحانه، فجــاؤوا إلى أبي حنيفة العــالم المشهور وأرادوا أن يمتحنوه، ولكنه امتحنهم قبل ذلك بهذا الســؤال، ولا شك أنه شيء محسـوس واقـع، يقـول: ما يصـدق العاقل أن هنـاك سـفينة تمشي بنفسها تحمّل نفسـها من الـذخائر وترسي في البلد المعين لا تخطئـه، وتـنزل حمولتها من نفسها، وترجع من حيث جاءت! فالسفينة خشبة وجمــاد ليس لها عقل ولا إدراك، فكيف يتصــور أنها تســلك الطريــق، وأنها ترسو في المكــان المعد لهــا، وأنها تمتد إلى الأثــاث والمتــاع والأطعمة وتحملهــا، وأنها ترسي وتنزل المتاع عن ظهرها؟! لا يمكن تصور هذا. ومثلها أيضاً المراكب الجديـدة كالسـيارة -مثلاً-؛ فإنها لا تتحـرك بنفسـها، ولو قيل لـك: إن هنـاك سـيارة أو طائرة أو باخرة تتحرك بنفسها، وإنها تـذهب إلى البلد الـذي تريـده ولا تخطئ طريقها، وإنها إذا وقفت في الأسواق حملت نفسها من الأرزاق ومن الأكسـية والأمتعة ونحوها وجاءت إلى البلد المحتـاج ونـزلت من نفسـها!! فهل يصـدق بهذا عاقل؟ هذا محال. يقول: إذا كان هذا محالاً فإننا نشاهد هذا الكون مدبراً أتم تدبير، فهل يصدق عاقل أنه وجد بالصدفة من غير موجـد؟ هـذه الكـواكب التي تطلع وتغرب في سير منتظم، لا يتقدم هذا عن وقته، ولا هذا عن وقتــه، وهذه الشمس وهذا القمر اللذان سيرهما في الشتاء له حد، وفي الصــيف له حد، وهذه الرياح التي تثور أحياناً وتسكن أحياناً، وهذه البحـار، وهـذه الأنهـار، وهـذه الأشـجار، وهـذه المخلوقـات المنبثة في الـبر وفي البحـر، والحيوانـات والجمـاد، هل يعقل أنها وجـدت بالصـدفة؟! لا يمكن، فـإذا كـان هـذا لا يمكن فلابد لها من موجــد، وكما أن الســيارة لابد لها من محــرك، فكــذلك هــذه الموجـودات لابد لها من مسـير وهو الخـالق وحـده الـذي يقـول: وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ [النحل:15-16]، هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ [يـونس:22]، هو الذي سخر ذلك، وهذه حجة عقلية تدمغ كل منكر وكل ملحد. ......

الإقرار بتوحيد الربوبية لا يكفي صاحبه إذا لم يحقق توحيد العبادة

قـال رحمه اللــه: [فلو أقر رجل بتوحيد الربوبية الـذي يقر به هـؤلاء النظـار، ويفنى فيه كثير من أهل التصوف، ويجعلونه غاية السالكين، كما ذكره صاحب (منازل السائرين) وغيره، وهو مع ذلك إن لم يعبد الله وحده ويتبرأ من عبادة ما سواه ، كـان مشـركاً من جنس أمثاله من المشـركين]. توحيد الربوبية هو الغاية عند أهل الكلام، وهو الـذي يفـنى فيه المتصـوفون، أي: يجعلـون أكـبر مقصد وأكبر مطلب عندهم هو الاعتراف بأن الله موجـود وبأنه خـالق ورازق،

وبأنه مـدبر، هـذا هو الغاية عنـدهم، ولكن ليس هو الغاية عند أهل الحـق، بل الغاية والمطلب هو توحيد العبـادة، الـذي هو عبـادة الله والقيـام بحقـه. فالمتصوفة يفنون في توحيد الربوبية، ومعنى كونهم يفنون فيه: أنهم يبـالغون في تعلمه إلى أن يأتي عليهم شيء يسـمونه الفنـاء، وهـذا هو الغاية عنـدهم. والمتكلمون أيضاً كذلك، يجعلونه هو الغاية، حـتى إنهم يقولـون: معـنى (لا إله إلا الله): لا خالق إلا الله. وهذا ليس بصـحيح؛ فـإن المشـركين يعرفـون أنه لا خالق إلا الله، ولكن لم ينفعهم حين عبدوا غيره معه، فلابد أن يكون الاعتراف بأنه لا إله يعني: (لا معبود بحق إلا اللـه)، وهـذا هو توحيد العبـادة الـذي يعتـبر الغاية عند أهل الحق. والمتكلمون يراد بهم أهل الكلام من المعتزلة ونحوهم، والمتصوفون يـراد بهم الصـوفية، والصـوفية هم أهل العبـادات السـرية، فهم يبـالغون في العبـادات القلبيـة، ولكنهم يقعـون في البـدع، ومن جملة بـدعهم أنهم ينعزلـون عن المسـلمين وعن العبـادات ونحو ذلـك، وأن أحـدهم يبقى معتزلاً مدة طويلة حتى يحصل له حضور قلبه ومشاهداته، فيترك لذلك شهود الصـلوات، ويقـول: إني إذا ذهبت أصـلي تفـرق علي قلـبي، فأنا الآن أفكر وأجمع همـومي، وإذا قمت تفـرقت هـذه الهمـوم الـتي جمعتهـا. والصـوفية موجودون بكثرة في كثـير من البلاد، ولهم تمكن، وقد انخـدع بهم خلق كثـير، ومع ذلك فـإن متقـدميهم في القـرن الثـالث كـانوا على علم وعلى عبـادة إلا أنهم زهاد، وأما المحدثون فإنهم وقعوا في عقائد سيئة وبدع عملية. ......

الآيات المقررة لتوحيد الربوبية يقصد منها تقرير توحيد الألوهية

قال رحمه الله: [والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه، وضرب الأمثال لـه، ومن ذلك أنه يقـرر توحيد الربوبيـة، ويـبين أنه لا خـالق إلا اللـه، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلاً على الثاني؛ إذ كـانوا يسـلمون في الأول وينازعون في الثاني، فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خـالق إلا الله وحـده، وأنه هو الـذي يـأتي العبـاد بما ينفعهم ويـدفع عنهم ما يضرهم لا شـريك له في ذلك فلم تعبـدون غـيره وتجعلـون معه آلهة أخـرى ؟ كقوله تعالى : قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْـطَفَى أَاللَّهُ خَيْـرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِـهِ حَـدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَـةٍ مَا كَـانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُـوا شَـجَرَهَا أَئِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ يَعْدِلُونَ [النمل:59-60] يقـول الله تعـالى في آخر كل آية : أَإِلَـهٌ مَـعَ اللَّهِ أي: أإله مع الله فعل هـذا ؟ وهـذا اسـتفهام إنكـار يتضـمن نفي ذلـك، وهم كـانوا مقـرين بأنه لم يفعل ذلك غـير اللـه، فـاحتج عليهم بـذلك، وليس المعـنى أنه استفهام: هل مع الله إله؟ كما ظنه بعضهم؛ لأن هذا المعـنى لا يناسب سـياق الكلام، والقـوم كـانوا يجعلـون مع الله آلهة أخـرى، كما قـال تعـالى: أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ [الأنعـام:19]، وكـانوا يقولـون : أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ [ص:5]، لكنهم ما كانوا يقولون: إن معه إلها جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَـلَ لَهَا رَوَاسِـيَ وَجَعَـلَ

بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً [النمل:61]، بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا، وهكذا سائر الآيات، وكذلك قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [البقرة:21]، وكذلك قوله في سورة الأنعام: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ [الأنعام:46]، وأمثال ذلك]. تقرير توحيد الربوبية في القرآن كثير، والقصد منه الإلزام لتوحيد الإلهية، فإن آية البقرة -وهي قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ [البقرة:21]- ذكر الله بها تقرير توحيد الربوبية بستة أدلة، وهي قوله: الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ [البقرة:21] الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ [البقرة:22] خَلْقهم، وخَلْق آبائهم، وخَلْق الأرض، وخَلْق السماء، وإنزال المطر، وإنبات النبات، يقول: اعبدوا الله الذي فعل هذه الأشياء، فأنتم تعترفون بأنه الذي خلقكم، وأنه الذي خلق من قبلكم؛ لأنه خالق السماوات والأرض وأنه مرسل السحاب ومنزل المطر ومنبت النبات، فلماذا تعبدون غيره؟ فيحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على التوحيد الثاني، فما دام أنهم يقرون بتوحيد الربوبية فيلزمهم توحيد العبادة، وكذلك الآيات الأخرى في سورة النمل، قال تعالى: أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ [النمل:60]، أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً [النمل:61]، أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ [النمل: 62]، أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ [النمل:63]، أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ [النمل:64] فيقول: بعد كل آية: أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ [النمل:64] يعني: هل هناك أحد شارك الله في هذه الأشياء؟ فإذا كنتم تقرون بأن الله هو الذي أنشأها وحده فلماذا تعبدون غيره؟ لماذا تصرفون العبادة لغيره؟ ومعنى قوله: أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ يعني: هل هناك أحد شريك لله في خلق هذه المخلوقات وهذه التصرفات؟ إذا كنتم تقرون بأنه ليس له شريك فلماذا جعلتم معه آلهة تعبدونها؟ فهم جعلوا معبودات وسموها آلهة وصرفوا لها العبادة، ولما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليقولوا: (لا إله إلا الله)؛ أنكروا ذلك، وقد جاء في حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: (أريد منكم كلمة تدين لكم بها العرب، وتؤدي لكم الجزية العجم، قولوا: لا إله إلا الله)، فقالوا: أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً [ص:5]، وقالوا: امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ [ص:6] والإله عندهم هو المألوه المعبود، أي: تألهه القلوب. فيحتج الله عليهم بالشيء الذي يعرفونه على الذي ينكرونه، إذ الذي ينكرونه هو العبادة، فيقولون: إن العبادة ليست لله وحده. بل يجعلونها لغيره أو له ولغيره، وأما الخلق والتدبير فإنه لله وحده، يقول تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ [يونس:31]، فإذا كانوا يعترفون بهذا فإنه حجة عليهم في أن التوحيد المطلوب لا يستحقه إلا الله. ......

وضوح الأدلة على توحيد الألوهية ناشئ عن شدة حاجة الناس إليه

قال رحمه الله: [وإذا كان توحيد الربوبية الذي يجعله هؤلاء النظار ومن وافقهم من الصوفية هو الغاية في التوحيد، داخلاً في التوحيد الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، فليعلم أن دلائله متعددة، كدلائل إثبات الصانع، ودلائل صدق الرسول؛ فإن العلم كلما كان الناس إليه أحوج؛ كانت أدلته أظهر رحمة من الله بخلقه]. يقول: توحيد الإلهية هو المطلوب، وتقدم أن كل رسول يبدأ دعوته بقوله: اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ [الأعراف:59]؛ لأنه توحيد عملي وأفعال مشاهدة، وأما توحيد الربوبية فالغالب أنه اعتقادي وقد يكون خفياً، فإذا كانت الدعوة إلى التوحيد العملي فلابد أن الأدلة عليه واضحة. يقول: إن كل شيء حاجة الناس إليه شديدة، فالأدلة عليه واضحة، والأدلة على توحيد الإلهية هي أوضح الأدلة، وهي الأدلة الكونية، فالذي كوّن هذا الكون هو الذي يكون أهلاً للعبادة، يقول ابن كثير لما فسر قوله تعالى: الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ [البقرة:21] الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ [البقرة: 22] يقول: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة، فالأدلة على توحيد العبادة واضحة وظاهرة، يعني أن توحيد الربوبية أقوى دليل وأقوى حجة على وجوب عبادة الله وحده، وظهورها من نواحٍ: أولاً: أنه الخالق المالك المتصرف، فيكون هو المستحق للعبادة. ثانياً: أنه المنعم، ونعم الله على عباده لا تنقطع، فيستحق أن يعبد وحده. ثالثاً: أنه يثيب على هذه العبادة أعظم ثواب، ويعاقب على تركها أعظم عقاب، فيستحق العبادة لهذه الأمور، فالعاقل لا يخفى عليه هذا الدليل. ......

طريقة القرآن في ضرب الأمثلة واضحة الدلالة على توحيد الألوهية

قال رحمه الله: [والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية، لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ [يونس:32]، وما كان من المقدمات معلومة ضرورية متفقاً عليها استدل بها ولم يحتج إلى الاستدلال عليها. والطريقة الصحيحة في البيان أن تحذف، وهي طريقة القرآن، بخلاف ما يدعيه الجهال الذين يظنون أن القرآن ليس فيه طريقة برهانية، بخلاف ما قد يشتبه ويقع فيه نزاع فإنه يبينه ويدل عليه]. طريقة القرآن ضرب الأمثلة، وكثيراً ما تأتي الأمثلة على معبودات المشركين، كقوله تعالى: ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ [الحج:73]... إلى آخرها، وقوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ [الزمر:29] هذا أيضاً مثل لمن يعبد إلهاً واحداً ومن يعبد آلهة متفرقين، ومثل ذلك قوله تعالى: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ

أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ مِنْ شُـرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَـاكُمْ [الـروم: 28] يقـول: هل ترضى أن يكـون مملوكك شـريكاً لك في مالك وشـريكاً لك في أهلك؟ إذا كنت لا ترضى فهذه الآلهة مملوكة لله، فكيف تكون شـريكة له في العبادة؟! فـالقرآن ضـرب الأمثلة لأجل إقنـاع من يسـتمع ذلـك، وطريقته هي إيضـاح الحجج بهـذه الأمثلـة، بحيث يحـذف المقـدمات الـتي لا حاجة إليها اختصاراً ويقتصر على الشــيء المهم، وبالجملة فكل من تأمل الأدلة اتضح له أن توحيد الإلهية أدلته واضحة الدلالة، فعليه أن يقتنع به ويقنع الخصم. ......

امتناع شرك الربوبية عند عموم الخلق إلا من شذ منهم

قال رحمه اللـه: [ولما كـان الشـرك في الربوبية معلـوم الامتنـاع عند النـاس كلهم باعتبار إثبات خالقين متماثلين في الصـفات والأفعـال، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثم خالقاً خلق بعض العالم، كما يقوله الثنوية في الظلمـة، وكما يقوله القدرية في أفعــال الحيــوان، وكما يقوله الفلاســفه الدهرية في حركة الأفلاك أو حركـات النفـوس أو الأجسـام الطبيعيـة، فـإن هـؤلاء يثبتـون أموراً محدثة بدون إحداث الله إياها، فهم مشركون في بعض الربوبية، وكثـير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئاً من نفع أو ضر بــدون أن يخلق الله ذلــك]. يقــول: إن الشــرك في توحيد الربوبية قليل وجــوده في الخلق، إلا أن هناك من يشرك شركاً جزئياً، مثل المجوس الذين أشـركوا في توحيد الربوبية وجعلوا الخلق من اثنين من النور والظلمة، واعتـبروا أن النـور خلق الخير والظلمة خلقت الشر، ولم يجعلوهما سواء، بل النور خير والظلمة شـريرة، وهم لا يعظمــون إلا واحــداً، ولهــذا فهم يعبــدون النــار، ومثل بعض المعتزلة الذين يجعلون بعض المخلوقات من إيجـاد الحيوانـات، ويقولـون في الأفعال: إن الإنسان يخلق أفعاله بدون قدرة الله؛ والمجوس يجعلون الوجــود عن خالقين، والمعتزلة يجعلونه عن عدد، ولذلك سمي المعتزلة: مجوس هذه الأمة، ولو زعموا أنهم يـنزهون الله تعـالى عن الظلم؛ لأن عملهم نـوع شـرك في الربوبية، وإن كانوا لا يعبدون إلا الله، ولكن كونهم يسندون بعض الأفعــال إلى غـير الله ويقولـون: إن الإنسـان يخلق فعلـه، صـدق أنهم مشـركون نـوع شـرك في الربوبيـة. وعلى كل حـال: فالأصل أن الأمم كلهم يعـترفون بتوحيد الربوبية، إلا من شذ، كفرعون الذي كان ينكر ذلك ولكنه كان في بـاطن الأمر يعــترف بأنه مخلــوق وأن له خــالق، ويوجد في هــذه الأزمنة من يســمون بالشـيوعيين، وقـديماً كـانوا يسـمون بالـدهريين، وهم في الحقيقة معانـدون مكابرون، وإلا فلو أعملوا تفكـيرهم، ولو حكمـوا أذهـانهم لما بقـوا على هـذه العقيـدة السـيئة، ولكن مع المكـابرة قلـدوا من يقـول بها ومن يـذهب إليهـا، فالأصل أن جميع طبقات العالم المكلفين يعـترفون بـأن للعـالم خالقـاً، حـتى الفلاسـفة وإن كـانوا ينقسـمون إلى دهـريين وإلهـيين؛ جلهم على الاعـتراف بالخالق. ......

رح العقيدة الطحاوية [4]

توحيد الله تعالى في ربوبيته وإلاهيته وأسمائه وصـفاته هو أقل ما يلـزم العبد وأول ما يجب عليه أن يحققـه، وبغـير ذلك لا يقبل الله تعـالى منه صـرفاً ولا عدلاً.

الشرك في توحيد الربوبية شرك جزئي

موضـــوعنا حـــول مقدمة الكتـــاب في تقرير التوحيـــد، ومعرفة وحدانية الله سـبحانه وتعـالى، وسـبب تسـمية هـذا العلم بالتوحيـد، وأهمية هـذا النـوع من العلم، والتوحيد الـذي دعت إليه الرسـل، والتوحيد الـذي أقر به المشـركون، والتوحيد الـذي يقـرره أهل الكلام والمتصـوفة ويـدورون حولـه. ولا شك أن معرفة هذه الأنواع تكسب الإنسان رسوخاً في الإيمان؛ فـإن من عـرف هـذه الأنواع امتلأ قلبه بالإيمان، ومتى امتلأ القلب بالإيمان وباليقين انبعثت الجوارح بالأعمـال الصـالحة وتـورع المـؤمن عن السـيئات، هـذه فائـدة معرفة هـذه العقيـدة، أنها إذا رسـخت في القلب صـارت سـبباً لاسـتكثار المـؤمن صـحيح العقيدة من الأعمال الصالحة وبعده عن السيئات، فاستحق بذلك ثـواب اللـه. قال الشارح رحمه الله تعالى: [فلما كان الشرك في الربوبية معلوم الامتنـــاع عند الناس كلهم باعتبار إثبات خالقين متمـاثلين في الصـفات والأفعـال، وإنما ذهب بعض المشـركين إلى أن ثم خالقـاً خلق بعض العـالم كما يقوله الثنوية في الظلمة وكما يقوله القدرية في أفعـــال الحيـــوان، وكما يقوله الفلاســـفه الدهرية في حركة الأفلاك أو حركات النفوس أو الأجسام الطبيعية، فإن هؤلاء يثبتون أموراً محدثة بدون إحداث الله إياها، فهم مشركون في بعض الربوبية، وكثـير من مشـركي العـرب وغـيرهم قد يظن في آلهته شـيئاً من نفع أو ضر بـــدون أن يخلق الله ذلـــك]. معـــنى هـــذا أن جميع الخلق يعـــترفون بتوحيد الربوبيـــة، إلا بعض الأفـــراد أو بعض الطوائـــف، والـــذين ينكرونه إنما ذلك في الظاهر عناداً، كفرعون حيث قال: (أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى [النازعـات:24]، فهو في الباطن معترف بصدق موسى، كما في قولـه: لَقَـدْ عَلِمْتَ مَا أَنـزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ [الإسـراء:102] أما بقية الأمم فـإنهم يعـترفون بـأن للوجود خالقاً، وهذا هو توحيد الربوبية، وأن هذا الكون مفتقر إلى من أوجـده، وهذا هو توحيد الربوبية، وأن الموجد واحد، لكن هنـاك أنـواع من الشـرك في الربوبية جزئيـات. شـرك المجـوس الـذين جعلـوا الوجـود صـادراً عن اثـنين، فجعلـوا الخـير من خلْق النـور، وجعلـوا الشـرور من خلق الظلمـة، أي: أنهم جعلوا خالقين: النور والظلمـة، فهـذا نـوع من شـركهم، ومع ذلك ما جعلوهما سواء، بل النور عندهم خير، والظلمة شريرة، وهذا شرك في الربوبية. وهناك شـرك آخر عند المعتزلة وإن لم يكن صـريحاً، وهو أنهم يزعمـون أن العبـاد يخلقون أفعالهم، وأن الله لا يقدر على خلق أفعال العباد، ولأجل هذا يسـمون (مجوس هذه الأمة)، وهـذا شـرك منهم وإن كـانوا يـدعون أنه من بـاب تنزيه

الله تعالى -في زعمهم- عن أن يخلق المعصية ويعاقب عليهــا، ولعله يأتينا إن شاء الله الرد عليهم في موضعه. وهنـاك بعض من المشـركين من الفلاسـفة ومن المتصوفة ونحوهم يشـركون في أنـواع من الربوبيـة، وأقـوالهم في ذلك غريبة لا ينبغي أن يلتفت إليها. والحاصل أن جميع خلق الله -إلا النادر الشــاذ- يعترفون بأن الخالق واحد وهو الله. ......

انتظام العالم وإحكام خلقه دليل على وحدانية خالقه

قال رحمه الله: [فلما كان هـذا الشـرك في الربوبية موجـودا في النـاس بيَّن القرآن بطلانه، كما في قوله تعالى : مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَـدٍ وَمَا كَـانَ مَعَـهُ مِنْ إِلَـهٍ إِذاً لَـذَهَبَ كُـلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَـقَ وَلَعَلا بَعْضُـهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُـبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ [المؤمنون:91]، فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الظاهر، فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقاً فـاعلاً يوصل إلى عابـده النفع ويـدفع عنه الضر، فلو كـان معه سـبحانه إله آخر يشـركه في ملكه لكـان له خلق وفعـل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشـركة، بل إن قـدر على قهر ذلك الشـريك وتفـرده بالملك والإلهية دونه فعـل، وإن لم يقـدر على ذلك انفـرد بخلقه وذهب بـذلك الخلق، كما ينفرد ملـوك الـدنيا بعضـهم عن بعض بملكه إذا لم يقـدر المنفـرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه، فلابد من أحد ثلاثة أمور : أما أن يذهب كل إله بخلقه وسـلطانه. وإما أن يعلو بعضــهم على بعض. وإما أن يكونــوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه. وانتظـام أمر العـالم كله وإحكام أمره من أدل دليل على أن مـدبره إله واحد وملك واحد ورب واحد لا إله للخلق غـيره، ولا رب لهم سـواه، كما قد دل دليل التمـانع على أن خـالق العالم واحد لا رب غيره ولا إله سواه، فذلك تمـانع في الفعل والإيجـاد، وهـذا تمـانع في العبـادة والإلهيـة، فكما يسـتحيل أن يكـون للعـالم ربـان خالقـان متكافئان كـذلك يسـتحيل أن يكـون لهم إلهـان معبـودان]. حين نتأمل الآيـات الـتي جـاءت في التـدليل على توحيد الربوبية فإننا نجـدها كثـيرة، يقـرر الله تعـالى توحيد الربوبيـة، وذلك بـذكر خلقه للمخلوقـات، كقوله تعـالى: لَخَلْـقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ [غافر:57]، وقولـه: وَمِنْ آيَاتِـهِ خَلْـقُ السَّــمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ [الشـورى:29]، وكقولـه: خَلَـقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَـدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِـيَ أَنْ تَمِيـدَ بِكُمْ [لقمـان: 10] إلى قوله: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَـقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِـهِ [لقمـان:11] تقرير هذه الآيات للتوحيد يتبين منه أن هذا يراد به نتيجته، وهي أن من عـرف أن الله تعـالى واحـداً في ربوبيته لم يعبد معه غـيره، وقد ذكرنا أن ابن كثـير قــال عند تفســير قوله تعــالى: الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ [البقــرة:21] قال: الخالق لهـذه الأشـياء هو المسـتحق للعبـادة. فمن ذلك قوله تعـالى في سورة المؤمنون: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَـهٍ بِمَا خَلَـقَ وَلَعَلا بَعْضُـهُمْ عَلَى بَعْضٍ [المؤمنـون:91] فالله تعـالى ما اتخذ من

ولد؛ إذ لو كان له ولد - تعـالى عن ذلـك- لكـان الولد يشـارك أو يشـابه أبـاه، والله مـنزه عن ذلـك، (وما كـان معه من إلـه) فلو كـان معه إله لزاحمه في الخلـق، وفي التـدبير، وفي التصـرف، وفي الملكيـة، وهـذا معـنى قولـه: (إذاً لذهب كل إله بما خلق). ومن المشاهد أن ملوك الدنيا يتنافســون، وكل منهم يحب أن يكون هو الأقوى وهو المسيطر، وقرأنا عن بعضهم أنه لما قتل قريباً له بسبب الملك قال: إن هذا من أحب النـاس إلي ولكن الملك عقيم. يعـني: لا أريد من يزاحمني في الملك. فإذا كـان هـذا في حق ملك من ملـوك الـدنيا فبطريق الأولى أن يقال: إن الله تعالى لا شريك لـه، فلو كـان له شـريك في الخلق والملك لزاحمه ولظهرت آثار هـذه المزاحمـة، وهو معـنى قولـه: (إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) يعني: لو كان معه آلهة لكان كل إله ينفصل عن الآخر بخلقه ويعتزل، ويحاول أن يكـون له السـيطرة، وأن يكون له العلو على الآخر، وأن يكون هو المتمكن. وإذا نظرنا فيما حولنا فـإذا الأمر منتظم، وإذا هـذا الخلق وهـذا العـالم يسـير على هيئة وحالة واحـدة لا يختل، ولا يقع فيه تغير، وهذا أكـبر دليل على أن الـذي خلقه ليس له شـريك، وأنه ليس له مــزاحم وليس معه إله آخــر، وإلا لــذهب كل خــالق أو كل إله بخلقه وانفصل كما يحصل من ملوك الدنيا، فإن ملوك الدنيا -كما هو مشاهد- كل منهم ينفصل في مملكته -مع أنها ملكية مؤقتة- وكل يدبر مملكته خاصــة، بل كل يحـاول التغلب على الآخـر، وهـذا ونحـوه دليل على أن الخـالق واحـد. وتسمى هذه الآية دليل تمانع، ودلالة التمانع يقول بها المتكلمـون، فيسـتدلون على أن الخالق واحد بدلالة التمانع، فقالوا: لو كان للعالم خالقـان متسـاويان فأراد أحدهما تحريك الجسم وأراد الآخر تسكينه، أو أراد أحدهما إحيـاءه وأراد الآخر إماتته فإما أن يحصل مــراد واحد دون واحــد، فيكــون أحــدهما قــادراً والآخر عـاجزاً، وإما أن يحصل مرادهما جميعـاً وهو محـال، وإما أن لا يحصل مراد واحد منهما أيضـاً وهو محـال، فـإذا حصل مـراد واحد منهما فهو القـاهر الغالب، والذي لم يحصل مراده عاجز لا يصلح أن يكون إلهاً ولا خالقاً، وكذلك ما جاء في الآية، فلو كان معه إله لاستقل كل إله بما خلق (ولعلا بعضهم على بعض)، فلما لم يحصل ذلك دل على أن الخالق واحد. ......

إثبات توحيد الربوبية يلزم منه إثبات توحيد الألوهية

قال رحمه الله: [فالعلم بأن وجـود العـالم عن صـانعين متمـاثلين ممتنع لذاته مستقر في الفطر معلوم بصريح العقل بطلانه، فكذا تبطل إلهية اثنين، فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واســتقر في الفطر من توحيد الربوبيــة، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الإلهية]. يقول: إذا عرفنا توحيد الربوبية فإنه يلزم منه توحيد الإلهية، وقد ذكرنا أن بعض المشايخ يقولون في تقريرهم: اعرفوا الله بأفعاله ووحــدوه بأفعــالكم. وأفعــال الله هي خلقه وتــدبيره، فإنها هي الدلالة على معرفته، فإذا قيل لـك: بم عـرفت ربك فقـل: بآياته ومخلوقاتـه. فتعـرف الله بأفعاله، (ووحدوه بأفعالكم) يعني: خصوه بعبـادات، فهـذه الآيـة: مَا اتَّخَـذَ اللَّهُ

مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَـهُ مِنْ إِلَـهٍ [المؤمنـون:91] والآيـات الأخـرى تقـرر توحيد الربوبيــة، وإذا اســتقر توحيد الربوبية أصــبح دليلاً على توحيد الإلهيــة، أي أن الإله الخالق الرازق المدبر المتصرف في هذا الكون الذي يجري هذه الأشـياء كما هي ويحيي ويميت، والذي ابتدع هذا الكون من غير سابق خلق لا شك أنه الذي يسـتحق أن يفـرد بالعبـادة، فيكـون هـذا دليلاً على توحيد العبـادة. قـال رحمه الله: [وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى : لَـوْ كَـانَ فِيهِمَا آلِهَـةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا [الأنبياء:22]، وقد ظن طوائف أن هذا دليل التمـانع الـذي تقـدم ذكره، وهو أنه لو كان للعالم صانعان ...إلخ، وغفلـوا عن مضـمون الآيـة، فإنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهة غيره، ولم يقـل: أربـاب. وأيضـاً فـإن هـذا إنما هو بعد وجودهما، وأنه لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسـدتا]. هذه الآية في سورة الأنبياء لَوْ كَـانَ فِيهِمَا آلِهَـةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَـدَتَا [الأنبيـاء:22] هي من أوضح الأدلة على توحيد العبــادة، وفيها أنه إذا قــدر أن فيهما آلهة إلا الله فإن كل إله أو كل خالق يدبر ما من شأنه أن يستطيعه، ويحرص على أن يتغلب على من إلى جانبـه، فلا تنتظم هـذه الأفلاك ولا هـذه المخلوقـات، بل يحصل فيها شيء من الخلـل، ويحصل فيها شـيء من الاضـطراب، ومثل ذلك مشاهد، فإنه لو قدر أن هناك شريكين في أمر فكل منهما يحب أن يكــون هو المسيطر وهو المتسلط، ولكان كل منهما يهمل الذي في جـانب الآخـر، فيقع الإهمال والاختلال، فلما رأينا الأمور منتظمة عرفنا أنه ليس فيهما آلهة إلا الله وحده. قال رحمه الله: [وأيضاً فإنه قال : (لفسدتا)، وهذا فسـاد بعد الوجـود، ولم يقل: لم يوجدا، ودلت الآية على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعـددة، بل لا يكون الإله إلا واحداً، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله سـبحانه وتعـالى، وأن فسـاد السـموات والأرض يلـزم من كـون الآلهة فيهما متعددة، ومن كون الإله الواحد غير الله، وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكــون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره، فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله، فإن قيامه إنما هو بالعدل، وبه قـامت السـموات والأرض، وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك وأعدل العدل التوحيد]. الله تعـالى يقـول في هـذه الآيـة: لَـوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَـةٌ [الأنبيـاء:22]، وقد اسـتنبط المؤلف أن هـذه الآية دليل على إثبات توحيد الإلهية وليس توحيد الربوبية، فهو لم يقـل: لو كـان فيهما أربـاب، ولا ملوك، ولا ملّاك، ولا خالقون. بل قـال: (آلهـة)، والإله هو المعبـود المـألوه كما سيأتي إن شاء الله. وأيضاً فـإن الله قـال: (لو كـان فيهمـا) ولم يقـل: لو كان في الوجود. وهذا دليل على أنه بعد إيجادهما، والله قـال: (لفسـدتا)، ولم يقل: لم توجـدا. فالآية تقـرر توحيد الإلهية ولكنه متوقف على توحيد الربوبيـة. فيخــبر تعـالى بـأن الإلهية لا تصـلح إلا لإله واحد وهو اللـه، وأن من جعل معه آلهة أخـرى فإنه قد ضـل، وقد أخـبر الله بـأن المشـركين يجعلـون معه آلهـة، كقوله تعالى: أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَـعَ اللَّهِ آلِهَـةً أُخْـرَى قُـلْ لا أَشْـهَدُ [الأنعـام: 19]، ولكن تلك الآلهة آلهة مخلوقة ضعيفة لا يصلح أن تتخذ آلهـة، وهـذا في شرك الأولين، وكذا في شرك الآخرين، وإن كانوا لا يعـترفون بتسـميتها آلهـة. والحاصل أن الإلهية الحقة إنما هي للخــالق وحـــده، وهـــذه الآية في توحيد الإلهية: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ [الأنبيـاء:22]، ولكن توحيد الإلهية مسـبوق

بتوحيد الربوبيــة، ولا يعــترف العبد بتوحيد الإلهية إلا بعــدما يعــترف بتوحيد الربوبية. ......

تضمن توحيد الألوهية لتوحيد الربوبية دون العكس

قال رحمه الله: [وتوحيد الإلهية متضـمن لتوحيد الربوبية دون العكس، فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزاً، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، قال تعـالى : أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ [الأعراف:191]، وقال تعالى : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ [النحل:17]، وقال تعالى : قُلْ لَوْ كَـانَ مَعَـهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً [الإسراء:42]]. معنى كونه متضـمناً لتوحيد الربوبية أنه لا يمكن أن يعـترف بـأن الإلهية الحقة لله تعـالى وهو ينكر أن يكــون هو رب العــالمين، فمن اعــترف بــأن الله هو الإله الحق اعـترف بأنه الخـالق الـرازق المـدبر المتصـرف، فتوحيد الربوبية في ضـمن توحيد الإلهية دون العكس؛ إذ ليس كل من اعــترف بتوحيد الربوبية يعــترف بالإلهيــة، فهنــاك من يعــترف بتوحيد الربوبية ويشــرك في توحيد الإلهيــة. والحاصل أن هذه الآيات ونحوها تقرر توحيد الإلهيـة، ولكن عرفنا أنه مسـبوق بتوحيد الربوبية ومتوقف عليه. وتوحيد الربوبية يعرف بالأدلة والآيات والفطرة كما تقـدم، ولكن توحيد الإلهية هو الـذي يحتـاج إلى أدلـة، ويحتـاج إلى بيـان، ويحتـاج إلى تعليم، ولهـذا جـاءت الرسل بـالتعليم لتوحيد الإلهيـة، بـأن يقولـوا للناس: وحدوا الله بالدعاء، ووحدوه بالرجاء، ووحدوه بالاستعانة بـه، ووحـدوه بالخوف منه، ووحدوه بالخشية، ولا تستعينوا بغيره، ولا تسـتغيثوا بسـواه. إلى آخر أنواع العبادة، هذا هو توحيد الإلهية الذي يحتاج إلى تفصيل. ......

افتقار سائر المخلوقات إلى الله يمنع من اتخاذها آلهة من دونه

قال رحمه الله: [وقال تعالى : قُلْ لَوْ كَـانَ مَعَـهُ آلِهَـةٌ كَمَا يَقُولُـونَ إِذاً لابْتَغَـوْا إِلَى ذِي الْعَـرْشِ سَـبِيلاً [الإسـراء:42]، وفيها للمتـأخرين قـولان : أحـدهما : لاتخـذوا سـبيلاً إلى مغالبتـه. والثـاني: -وهو الصـحيح المنقـول عن السـلف كـقتادة وغـيره، وهو الـذي ذكـره ابن جرير ولم يـذكر غـيره-: لاتخـذوا سـبيلاً بـالتقرب إليه كقوله تعـالى: إِنَّ هَـذِهِ تَـذْكِرَةٌ فَمَنْ شَـاءَ اتَّخَـذَ إِلَى رَبِّهِ سَـبِيلاً [المزمـل:19]، وذلك أنه قـال: (لو كـان معه آلهة) لَـوْ كَـانَ مَعَـهُ آلِهَـةٌ كَمَا يَقُولُونَ [الإسراء:42]، وهم لم يقولوا : إن العالم له صانعان. بل جعلـوا معه آلهة اتخذوهم شفعاء وقالوا : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمر:3] بخلاف الآية الأولى]. في تفسيره لهذه الآية لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَـةٌ كَمَا يَقُولُـونَ إِذاً لابْتَغَـوْا إِلَى ذِي الْعَـرْشِ سَـبِيلاً [الإسـراء:42] رجح أن السـبيل هنا القـربى، يعـني: لو قـدر أن هنـاك آلهة سـوى الله لكـانت تلك الآلهة تتقـرب إلى اللـه، وتتوسل إليه وتبتغي السبيل إلى رضـاه، وإذا كـان كـذلك فـإن هـذا هو الأولى

بمن يتخذ تلك الآلهة. وقد دل على ذلك أيضاً قول الله تعالى: قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ [الإسراء:56-57] يخبر بأن أولئك الذين تدعونهم -أيها المشركون!- خير منكم؛ فإنهم يدعون الله تعالى ويتوسلون إليه بالأعمال الصالحة. والحاصل أن الآية صريحة بأنه ليس هناك آلهة غير الله، فلو كان هناك آلهة إلا الله لكانت تلك الآلهة تتقرب إلى الله وتبتغي الوسيلة إليه وتعبده وتوحده. والصحيح أنها لا تصلح إذا كانت كذلك لأن تكون آلهة؛ إذ كيف يكون إلهاً من هو عبد لغيره؟ كيف يصلح أن يعبد من هو عابد لغيره؟ إذا كانت تعبد الله فما لك -أيها الإنسان- تعبدها؟ اعبد الذي هي تعبده وحده. ......

أنواع التوحيد الذي دعت إليه الرسل

قال رحمه الله: [ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان : توحيد في الإثبات والمعرفة، وتوحيد في الطلب والقصد. فالأول : هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك كله، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، كما في أول (الحديد) و (طه)، وآخر (الحشر)، وأول (الم تنزيل السجدة)، وأول (آل عمران)، وسورة (الإخلاص) بكمالها، وغير ذلك. والثاني : وهو توحيد الطلب والقصد، مثل ما تضمنته سورة قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ [الكافرون:1]و قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ [آل عمران:64] وأول سورة (تنزيل الكتاب) وآخرها، وأول سورة (يونس) وأوسطها وآخرها، وأول سورة (الأعراف) وآخرها، وجملة سورة (الأنعام)]. مشهور عند الطلاب حتى الأطفال منهم أن أنواع التوحيد ثلاثة: توحيد الإلهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات. والشارح هنا ذكر أن التوحيد نوعان: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد الطلب والقصد. وهذان النوعان يتضمنان الأقسام الثلاثة التي ذكرنا، فإن توحيد المعرفة هو توحيد الربوبية، وتوحيد الإثبات هو توحيد الصفات، وتوحيد الطلب والقصد هو توحيد العبادة أو الإلهية، هذه أقسام التوحيد. فتوحيد الربوبية هو توحيد المعرفة، أي: معرفة الله، فإذا قيل لك: بم عرفت ربك فقل: بآياته ومخلوقاته التي يستدل بها على عظمة ذاته. وهذا النوع هو توحيد الذات أو إثبات الذات، ويسمى توحيد الربوبية. أما توحيد الإثبات فهو توحيد الصفات، وهو اعتقاد أن كل صفة لله تعالى فإنه منفرد بها، لا يشبه غيره في شيء من صفاته، فيقال -مثلاً-: صفاته الذاتية كوجهه ويده وسمعه وبصره لا تشبه صفات المخلوقين، نوحده بها ونقول: إنها لائقة به. وكذلك الصفات الفعلية، فيقال: إن الله يحب، ويرحم، ويغضب، ويرضى، ويكره، ويمقت، وإن الله استوى، ويجيء، وينزل كما أخبر، وهو في كل ذلك لا يشبهه أحد من خلقه، فهو منفرد بذلك وحده، هذا توحيد الصفات. وتوحيد الذات هو الاعتقاد أن الله

واحد بذاته ليس معه شـريك في الخلـق. وتوحيد الإثبـات هو اعتقـاد أن الله واحد في صفاته لا يشبهه أحد من مخلوقاته في شـيء من خصـائص صـفاته. وقد اجتهد السـلف رحمهم الله في تقرير توحيد الصـفات، وما ذاك إلا لأنهم ابتلوا في زمانهم بمن أنكره أو بمن غلا في إثباته, فقد أنكره قوم -وسـموهم الجهمية والمعتزلة- حيث نفوا صفات الله تعالى ذاتية كانت أو فعلية، وغلا فيه قوم -وسموهم المشبهة- حيث زادوا في الإثبات حتى جعلـوا صـفاته كصـفات خلقه، فاجتهد السلف رحمهم الله في إثبات ذلك، وقرروه أتم تقريـر، وكتبهم بحمد الله موجودة ميسرة، وهي الكتب التي سـموها (كتب السـنة)، أو (كتب التوحيد)، أو (كتب الإيمان)، أو (الاعتقاد)، أو (الأسماء والصفات)، أو ما أشـبه ذلك من الأسماء، فإذا وجدت للسـلف كتابـاً باسم (كتـاب السـنة) فإنه يعـني الصفات، أو وجدت كتاباً باسم (التوحيد) فإنه يعني توحيد الصفات، أو وجـدت كتاباً باسم (الاعتقاد) فإنه يعـني هـذا البـاب، أو وجـدت كتابـاً باسم (الأسـماء والصفات) فإنه يعنى به هذا الأمر، أو وجدت كتاباً باسم (الإيمـان) فإنه يعـنى به هذا التوحيد. وأما توحيد الطلب والقصد فهو توحيد الإلهية، ومعـني الطلب: السؤال. والقصد: التوجه بـالقلب إلى اللـه، فالسـؤال يسـمى طلبـاً، وهو من حق الله، والسائل هو الذي يقول -مثلاً-: أسألك رضاك. أسألك ثوابك. أسـألك جنتك. أسألك عطـاءك. هـذا توحيد في الطلب، والتوحيد في القصد أن يكـون قلبه متوجهاً إلى ربـه. فهـذا النـوع يسـمى التوحيد الطلـبي، ويسـمى التوحيد القصدي والتوحيد الإرادي؛ لأنه مراد من العباد، ويسـمى التوحيد العملي؛ لأنه أعمـال يعملونهـا، ويسـمى توحيد الإلهية وتوحيد العبـادة. أما الأول فيسـمى التوحيد العلمي والتوحيد الخـبري؛ لأنه يعتمد على الأخبـار، ويسـمى التوحيد الاعتقـادي؛ لأنه عقيـدة يعتقـدها الإنسـان، ويسـمى توحيد الصـفات أو توحيد الـذات أو توحيد الربوبيـة، فهـذه كلها أسـماء لتوحيد واحـد. فـإذا قيـل: ما هو التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي؟ فقل: هو توحيد الأسماء والصـفات وتوحيد الربوبية. وإذا قيل: ما هو التوحيد الطلبي الإرادي القصدي العملي؟ فقـل: هو توحيد العبـادة. والأدلة على ذلك كثـيرة، فـإن القـرآن قد وضح ذلك كثـيراً، فسورة الإخلاص: قُلْ هُـوَ اللَّهُ أَحَـدٌ [الإخلاص:1] في التوحيد العلمي الخـبري الاعتقـادي، وهو توحيد الأسـماء والصـفات. وسـورة قُـلْ يَا أَيُّهَا الْكَـافِرُونَ [الكـافرون:1] في التوحيد الطلـبي القصـدي الإرادي، وهو توحيد العبـادة أو الإلهية، والسور الأخرى متضمنة لهذا ولهذا، فأول سـورة الحديد في الأسـماء والصفات، وكذلك آخر سورة الحشر، وكـذا آيـات كثـيرة متفرقة في القـرآن. وأول سورة الأعراف وآخرها وغيرها من السـور في التوحيد العملي الـذي هو توحيد الطلب والقصد. فإذا تأملنا هذه الآيات وجـدناها تـبين هـذا النـوع وتحث عليه وترغب فيه، فتدعو إلى معرفة توحيد الربوبية حتى يرسخ في القلب، ثم ينبعث معه أو منه توحيد العبادة حتى يكثر العبد من أنواع القربات والعبادات.
......

تضمن كل سور القرآن لنوعي التوحيد

قال رحمه الله: [وغالب سور القرآن متضمنة لنـوعي التوحيـد، بل كل سـورة في القــرآن، فــإن القــرآن إما خــبر عن الله وأســمائه وصــفاته وهو التوحيد العلمي الخـبري، وإما دعـوة إلى عبادته وحـده لا شـريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلــبي، وإما أمر ونهي وإلــزام بطاعته فــذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيـده وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشـرك وما فعل بهم في الدنيا من النكـال وما يحل بهم في العقـبى من العـذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيـد. فـالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائـه، وفي شأن الشرك وأهله وجـزائهم، فــ الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ [الفاتحـة:2] توحيد الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [الفاتحة:3] توحيد مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ [الفاتحـة:4] توحيد إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة:5] توحيد اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة: 6] توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ [الفاتحة:7] الـذين فـارقوا التوحيـد]. يقول: إن جميع القرآن يدور حول التوحيد، فالإخبار عن الله تعـالى في قولـه: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ [الحشـر:22] هُـوَ اللَّهُ الْخَـالِقُ الْبَـارِئُ الْمُصَـوِّرُ لَـهُ الأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى يُسَـبِّحُ لَـهُ مَا فِي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ [الحشـر:24] يعتـبر توحيداً، لكنه توحيد الذات أو الربوبية. كذلك نقول في الأوامـر، فقوله تعـالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُــــدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُــــونَ [البقـرة:21]، اتَّقُـوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ [النسـاء:1] هـذا توحيـد، وهو توحيد عبـادة؛ لأنه أمر بعبـادة اللـه. كـذلك ما في القـرآن من الأحكـام، كالعبـادات والصلوات والقربات هذه مكملات التوحيد وثمرات التوحيد، فإن العبد إذا علم أن الله هو الواحد عبده، فأمثلة العبـادة هي الصـلوات والصـدقات والقربـات، كذلك ما في القرآن من محظـورات، ومن النهي عن المحرمـات، والنهي عن الفـــواحش والمنكـــرات، فهـــذه اجتنابها يكمل التوحيد وفعلها ينقص ثـــواب التوحيد، فإن المعاصي تنقص ثواب التوحيد، فينهى عنها حـتى يكمل التوحيـد. كما أن في القرآن قصصاً -كقصة نوح وقومه، وهود وقومه، وشعيب وقومـه- يظهر فيها نجاة قوم لأجل التوحيد، وهلاك آخرين لأجل مخالفة التوحيــد. وفي القرآن ذكر الجنة وثوابها والدعوة إليهـا، والجنة هي ثـواب أهل التوحيـد، وفيه ذكر النــار والعــذاب والنكــال والغضب وما أشــبه ذلك عقوبة لأهل الشــرك المبتعـدين عن التوحيـد. والأمثلة الـتي ضـربت في القـرآن كلها لأجل تقرير التوحيد، مثل قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَـلٌ فَاسْـتَمِعُوا لَـهُ إِنَّ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً [الحج:73] يعني: لا تـدعوا إلا إلهـاً واحـداً، فـإن هذه المخلوقـات الـتي تعبـدونها لا تخلق ذبابـاً؛ لأنها هي في نفسـها مخلوقـة، وإلى جــانب ذلك فهي أيضــاً ضــعيفة. فهــذا في تقرير التوحيــد. ومثل قوله تعـالى: ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيـهِ شُـرَكَاءُ مُتَشَاكِسُـونَ وَرَجُلاً سَـلَماً لِرَجُـلٍ [الزمر:29] فيه تقرير التوحيد، فإن السلم هو الخالص، يقول: الـذي يعبد الله تعالى هو مثل من يملك عبداً واحـداً، والـذي يعبد هـذا وهـذا وهـذا لا شك أنه مثل العبد الذي بين شركاء، كل منهم ينتزعه لنفسه، وكل منهم يقـول: أريـده

في خـدمتي، وهم مع ذلك متشاكسـون بينهم شـيء من البغضـاء وشـيء من الاختلاف والجـدال والاضـطراب، ولا شك أن كل هـذه الأمثلة تقرير للتوحيـد. فإذاً إن كانت الآيات قصصاً فهي في تقرير التوحيد، وإن كانت وعـداً ووعيـداً فهي في العقاب الـذي يـترتب على تـرك التوحيد والثـواب الـذي يـترتب على فعل التوحيد، وإن كانت أحكاماً وأوامر ونواهي وواجبات ومحرمــات فهي من مكملات التوحيد أفعالاً أو صروفاً، وإن كانت أوامر بالعبادة ونحوها فهي أمثلة أنواع التوحيد، فأصـبح القـرآن دائـراً على التوحيـد، وذلك دليـلٌ على أهميتـه. ولأجل ذلك صــار التوحيد شــرطاً في قبــول العبــادات، فلا تقبل الصــلاة إلا بشرط الإسلام، ولا تقبل الطهارة إلا بشرط الإسلام وهو التوحيد أصـلاً، وكـذا لا تقبل الصدقات ولا القربات ولا الصيام ولا الحج وما أشبه ذلك إلا إذا تقدمها شرط واحد وهو التوحيد. والفاتحة -الـتي هي أكـثر سـورة نكررها في صـلاتنا كل يوم- تفسيرها يـدور حـول التوحيد في أولها ووسـطها وآخرهـا، وكـذا بقية السور. ......

شهد الله لنفسه بالوحدانية، وشهد له بذلك ملائكته وأولو العلم من خلقه، وهذه الشهادة تتضمن مراتب تؤدي إلى الأمر بعبادته وحده لا شريك، وأن ما سواه باطل.

شواهد التوحيد في الفاتحة وآية: (شهد الله أنه لا إله إلا هو)

مر بنا أن التوحيد نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد، وأن كلاً من النوعين قد بينه الله تعالى في كتابه، وبينته الرسل عليهم السلام حتى قامت الحجة وانقطعت المعذرة، وأن كلاً من النوعين ضروري وشرط في قبول العبادات، فمن لم يحقق هذين النوعين من التوحيد لم تقبل منه عباداته، وهذا هو السبب في أهمية هذا التوحيد الذي هو توحيد العقيدة وتوحيد العمل، ونقرأ الآن بقية الكلام على هذه الأنواع: قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الفاتحة:2] توحيد الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [الفاتحة:3] توحيد مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ [الفاتحة:4] توحيد إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة:5] توحيد اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة:6] توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ [الفاتحة:7] الذين فارقوا التوحيد. وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالى : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [آل عمران:18] إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ [آل عمران:19] فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجلّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجلّ شاهد بأجلّ مشهود به]. يقول: إن القرآن كله يدور حول تقرير التوحيد، كما تقدم أن الأوامر والنواهي في الأحكام تكميل للتوحيد أو أمر بالتوحيد، والقصص والوقائع فيها بيان حال أهل التوحيد ومن خالف التوحيد، فالله يذكر قصة المكذبين بالتوحيد وكيف أهلكهم، وقصة الرسل ومن نجا معهم؛ لأنهم من أهل التوحيد، وكذلك ذكر الثواب لأهل التوحيد، والعقاب لمن خالف التوحيد، فيقول: إن سورة الفاتحة تتضمن التوحيد، ففي كل آية منها توحيد. فالآية الأولى فيها الحمد، أي: أنه المستحق للحمد وحده، فهو توحيد، لأنه تخصيص للحمد بمن يستحقه. والآية الثانية فيها وصف الله تعالى بالرحمة وهذا توحيد الصفات، يعني أن من صفاته أنه المتوحد بصفة الرحمة. والآية الثالثة فيها الملك، أي هو وحده المالك فلا يملك أحد ملكه. والآية الرابعة فيها العبادة، أي: لا نعبد غيرك، فأنت المعبود وحدك وأنت المستعان به وحدك، وهذه هي حقيقة التوحيد، فـ(إِيَّاكَ نَعْبُدُ) توحيد العبادة (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) توحيد العمل، أو توحيد المعرفة. وكذلك سؤال الهداية، والهداية هي الدلالة على

الصــراط الــذي هو صــراط أهل التوحيــد، والــذين أنعم الله عليهم هم أهل التوحيد، والدعاء بأن يجنب الله السالك طريق الغاوين الذين خالفوا التوحيــد، وهم أهل الغضب وأهل الضلال. فتضمنت ســورة الفاتحة من أولها إلى آخرها تقرير التوحيد. وكذلك الآية التي في سورة آل عمران فـإن الله ذكر أنه شـهد بهذه الشهادة، يقول: تضـمنت هـذه الآية أجل شـهادة، من أجل شـاهد، بأجل مشهود بـه، فالشـاهد هو الله والملائكة والعلمـاء شَـهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ [آل عمران:18] فجعل أهل الشهادة هم هؤلاء الثلاثـة، شـهد لنفسـه، وشـهدت له ملائكتـه، وشـهد له أهل العلم به من خلقـه. وأولو العلم: هم الذين آتاهم الله معرفة بتوحيده، وهم الذين يخصـونه بالتوحيـد، أما المشركون فإنهم جهلـة، وكل من أعطـاه الله علمـاً بهـذا النـوع فهو من أهل العلم. فالشـــاهد هو الله وملائكته وأهل العلم من خلقـــه، والشـــهادة معناها الإقرار والاعتراف بالمشهود به، والمشهود به هو الإلهية، ولهـذا كـرر: (لا إِلَـهَ إِلاَّ هُــوَ) مــرتين، وأتبعها بــأن الإســلام هو دين الحــق، فهــذه الآية في تقرير التوحيــــد. وقد ذكرنا أن ابن القيم رحمه الله تكلم على هــــذه الآية في آخر مـدارج السـالكين، وأن الشـارح لخص كلامه ونقل منه ما يـدل على أن الآية تضمنت معاني جديدة مفيـدة إذا تأملها المسـلم عـرف كيفية التوحيـد، وكيف شهد الله به لنفسه، وشهدت له به ملائكته، وشهد له به العلماء......

مراتب الشهادة

قــال رحمه الله تعــالى: [وعبــارات الســلف في (شــهد) تــدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينهـا، فـإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضـمن إعلامه وإخبـاره وبيانـه]. كلمة (شـهد اللـه) قيـل: معناها علم، وقيـل: أخـبر أو بيّن أو علّم خلقـه، أو أمـرهم وألــزمهم بــه، والكلمة تحتمل ذلك كلــه، أي: علم بوحدانيته وهو أعلم بنفسه وبخلقه، وقيل: بين ذلك وأظهره، وقيـل: أخـبر به عبـاده وأعلمهم بـه، وقيـل: أمر عباده وألزمهم بأن يوحدوه، وأن يخلصوا له العبادة، هذا هو حقيقة: شَـهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ [آل عمـران:18] . قـال المؤلف رحمه اللـه: [فلها أربع مــراتب: فـأول مراتبهـا: علم ومعرفة واعتقـاد لصـحة المشـهود به وثبوتـه. وثانيهـا: تكلمه بـذلك، وإن لم يعلم به غـيره، بل يتكلم بها مع نفسه ويتـذكرها وينطق بها أو يكتبها. وثالثها: أن يعلم غيره بما يشهد به ويخـبره به ويبينه لـه. ورابعهــا: أن يلزمه بمضــمونها ويــأمره بــه. فشــهادة الله ســبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع: علمه بذلك ســبحانه، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم بـه]. يقـول: إن هـذه الشهادة تضمنت هذه المراتب الأربـع، تضـمنت أن الله علم بـذلك، وهو أعلم بنفسـه، ثم بعد ذلك تكلم بــه، ثم بعد ذلك علّم به خلقـه، ثم بعد ذلك أمــرهم به.......

مرتبة العلم

قال رحمه اللـه: [فأما مرتبة العلم فـإن الشـهادة تضـمنتها ضـرورة وإلا كـان الشاهد شاهداً بما لا علم له به، قال تعالى: إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِـالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُـونَ [الزخرف:86] ، وقال صلى الله عليه وسلم: (على مثلها فاشهد) وأشار إلى الشمس. وأما مرتبة التكلم والخـبر فقـال تعـالى: وَجَعَلُـوا الْمَلائِكَـةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَـهَادَتُهُمْ وَيُسْـأَلُونَ [الزخـرف:19] فجعل ذلك منهم شـــهادة وإن لم يتلفظـــوا بلفظ الشـــهادة ولم يؤدوها عند غيرهم]. يتكلم على معاني هـذه الأشـياء، يقـول: إن الإنسـان لا يشـهد إلا بما علم، قــال تعــالى: وَمَا شَـهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا [يوســف:81]، فــأنت لا تــؤمر بالشهادة إلا بعدما تعلمها، وتعتقد معناها وتتحققها، فلا بد من هذا الأمر. ولا بد أن يكون العلم علم يقين لا علم شك وتردد، ولا بد أن يكون ذلك العلم قائمــاً على أدلة، فإن العلم الذي ليس له دليل قـوي لا يـؤمن أن يـأتي دليل يبطلـه، ولا شك أن علم التوحيد قـــــائم على أدلة قوية لا يمكن أن يـــــأتي ما يبطل دلالتهـا. فهـذه المرتبة الأولى، وهي: أن الشـاهد يعلم ما يشـهد به علم يقين، ويكون علمه ناشئاً عن أدلة، وتكون تلك الأدلة صـريحة الدلالة ليس فيها شك ولا تردد.

مرتبة التكلم والإخبار

كـــذلك المرتبة الثانية وهي مرتبة التكلم والإخبـــار، أنت إذا شـــهدت بالتوحيد واعتقدته بقلبك فلا تسـكت على ما في نفسـك، بل عليك أن تخـبر بما تقوله وبما تعتقـده، فتخـبر النـاس بأنك على يقين بهـذا التوحيـد، وأنك على عقيـدة راسخة ومعرفة تامة لما تعتقده، من إلهية الله وحده ومن استحقاقه لصـفات الكمال وللأسماء الحسنى والصفات العلا، فالتكلم يسـمى شـهادة. فـإن هـذه الآية في المشركين: سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ [الزخـرف:19] هم ما قـالوا: نشـهد أن الملائكة بنـات اللـه، وإنما تكلمـوا فيما بينهم، فلـذلك قـال تعـالى: وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا [الزخرف:19] يعني: تكلموا فيما بينهم وقالوا: الملائكة إنـاث .. الملائكة بنـات اللـه، فجعل ذلك شـهادة فقـال: سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ [الزخرف:19] هـذا سـبب تسـميتها شـهادة؛ لأنهم تكلموا بها.

قال رحمه الله: [وأما مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان: إعلام بالقول وإعلام بالفعل، وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر؛ تارة يعلمه به بقوله، وتارة بفعله، ولهذا كان من جعل داره مسجداً وفتح بابها وأبرزها بطريقها وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها معلماً أنها وقف وإن لم يتلفظ به. وكذلك من وجد متقرباً إلى غيره بأنواع المسار يكون معلماً له ولغيره أنه يحبه وإن لم يتلفظ بقوله، وكذلك بالعكس. وكذلك شهادة الرب عز وجل وبيانه وإعلامه، يكون بقوله تارة وبفعله أخرى، فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه، وأما بيانه وإعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه: أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ [آل عمران:18] ، وقال آخر: وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل قوله تعالى: مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ [التوبة:17] فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه. والمقصود أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه، ودلالتها إنما هي بخلقه وجعله]. هذه المرتبة الثالثة التي هي إعلام الغير، يقول: إن الله شهد لنفسه بالإلهية، ومن آثار الشهادة ومن تمامها أن أعلم غيره بأنه: (لا إله إلا هو) وهذا الإعلام ذكر أنه يكون بأمرين: إعلام بالفعل، وإعلام بالقول. إعلام الله لخلقه بالقول هو ما تضمنه كلامه الذي أوحاه إلى رسله، فإنه أرسل الرسل وأوحى إلى كل منهم بهذا التوحيد، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء:25]. فهذا إعلام بالقول حيث أعلم كل نبي بواسطة الملائكة بهذا النوع الذي هو توحيد العبادة، وكذلك أنزل إلى كل نبي كتباً أو صحفاً، وضمن تلك الكتب كلامه الذي يتضمن توحيده وشرعه. وأما الإعلام بالفعل: فهو ما نصبه تعالى من الآيات والدلالات التي من تأملها عرف حقيقة التوحيد، وعرف الدين الحق، وعرف أن الله هو الواحد الأحد، فإنه سبحانه نصب الآيات، ولفت إليها الأنظار، فلأجل هذا يذكر عباده بالمخلوقات التي خلقها، فيخبرهم بخلقهم أنفسهم، وبخلق ما على الأرض من الدواب، ويخبرهم بخلق الأرض، واختلاف ما فيها من جبال ومن مهاد ومن بحار ومن أنهار ومن أشجار ومن ثمار وما أشبه ذلك، وهكذا يلفت أنظارهم إلى ما فوقهم من الرياح ومن السحب، ومن الأفلاك وما فيها من النجوم السيارة والثابتة وما أشبهها، كل ذلك من الآيات التي نصبها لعباده يعلمهم بها التوحيد، كأنه يقول: تعلموا من هذه الآيات دلالتها على أن الخالق لها هو الواحد الأحد، وهو المستحق بأن يعبد ويفرد. فشهد بالقول بقوله: لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء:25]. وشهد بالفعل، بأن أعلم عباده بالفعل؛ فنصب الآيات والدلالات حتى يعلموا منها قدرته تعالى على كل شيء واستحقاقه لأن يؤله وحده، وأن لا يؤله معه غيره. يذكر الشارح أن الإعلام يكون بالقول وبالفعل حتى منا، فالواحد منا عليه أن يعلم

الناس بما يعتقـده، نحن نعتقد أن لا إله إلا اللـه، فنخـبر بأنا نعتقد ذلـك، وهـذا الإخبار يقتضي الإعلام، فنقول: اعلموا بأنا نعتقد أن الله هو الإله الحـق، فهـذا إعلام بالقول. وأما الإعلام بالفعل فهو أفعال الإنسان، فأنت إذا رأيت المؤمن التقي الموحد يمد يديه إلى ربه يتضـرع إليـه، عـرفت أنه يعبد إلهـاً واحـداً، وكذلك إذا رأيته يركع له ويسجد، يقوم له ويقعـد، يخضع له ويتواضـع، عـرفت من ذلك أنه يعبد إلهـاً واحـداً، فأعلمك هـذا العابد بقوله وأعلمك بفعلـه، فالإعلام يكون بالأمرين، بـالقول وبالفعـل. فمثلاً: الـذي بـنى هـذا المسـجد ما قال للناس: أيها الناس هذا وقف، بل لما بنـاه على هيئة المسـجد وفتح أبوابه وشـرع للنـاس ليجتمعـوا فيه وليقيمـوا فيه الصـلوات، وليحضر فيه الخطب والحلقـات، كـان ذلك إعلامـاً بالفعل وإن لم يكن إعلامـاً بـالقول. فكـذلك إذا أعلمك طالب العلم أو المسـلم بفعله أنه يعبد الله وحـده فـإن ذلك كـاف في الإعلام.

مرتبة الأمر والإلزام

قال رحمه اللـه: [وأما مرتبة الأمر بـذلك والإلـزام بـه، وأن مجـرد الشـهادة لا يسـتلزمه، لكن الشـهادة في هـذا الموضع تـدل عليه وتتضـمنه؛ فإنه سـبحانه شـهد به شـهادة من حكم به وقضى وأمر وألـزم عبـاده بـه، كما قـال تعـالى: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء:23]، وقال الله تعالى: لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ [النحل:51] وقال تعالى: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُـدُوا اللَّهَ مُخْلِصِـينَ لَـهُ الـدِّينَ [البينة:5]، وقال تعالى: وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِـدًا [التوبـة:31]، وقـال تعالى: لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ [الإسراء:22]، وقال تعالى: وَلا تَدْعُ مَـعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ [القصص:88]، والقرآن كله شاهد بذلك]. ذكر المرتبة الرابعة، وهي مرتبة الأمر والإلـــــزام، بعد أن ذكر مرتبة العلم، ثم مرتبة التكلم، ثم مرتبة الإخبار، ثم مرتبة الإلزام. فهذه المرتبة الرابعة الـتي هي مرتبة الأمر والإلـزام بالمأمور به، وهو التوحيد، قال الله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الـدِّينَ عِنْـدَ اللَّهِ الإِسْلامُ [آل عمران:18-19] هذه الشهادة قد لا يكون فيها أمر صريح فهو لم يقل: اشهدوا بما شهدت بـه، ولا قـال: ألـزمتكم أيها النـاس بـأن تشـهدوا بما شـهدت بـه، ولكن العاقل يتفكر إذا قـرأ أو قيل لـه: إن الله قد شـهد لنفسه بالوحدانيـة، وملائكته شـهدوا له بـذلك، والعلمـاء من خلقه شـهدوا له بـذلك، فيفكر ويقــول: كيف لا أكــون مع العلمــاء؟! إذا لم أكن مع العلمــاء كنت مع الجهـال، ولا أرضى أن أكـون بين الجـاهلين، فعند ذلك يشـهد بما شـهدوا بـه، فكأن ذلك أمر، وكأنه يقـول: شـهدت بـذلك أنا وملائكـتي والعلمـاء من خلقي فـافعلوا ذلك واشـهدوا به يا جميع الخلـق. هـذا قد يؤخذ من هـذه الشـهادة،

ولكن هناك أدلة صرحت بأمر الناس كلهم بهذه الشهادة، وبهـذا التوحيـد، مثل الآيات التي تقدمت، فالله تعالى يقول: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [يوسف:40] هذا أمر وإلـزام، وكـذلك في آيـات كثـيرة كقولـه: وَاعْبُـدُوا اللَّهَ وَلا تُشْـرِكُوا بِـهِ شَـيْئًا [النساء:36] ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ [البقرة:21] ، وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْـرَائِيلَ لا تَعْبُـدُونَ إِلَّا اللَّهَ [البقـرة:83] ، وَقَضَـى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء:23] ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا [التوبة:31] ، وَمَا أُمِـرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [البينة:5] فالأمر يقتضي الإلـزام. إذا أمرنا الله بهذا فقد ألزمنا به، فيجب امتثاله، فإن أمر الله هو الحق، وضـده هو الباطـل، فمن لم يمتثل هذا المأمور فإنه خاسر.

بيان استلزام شهادة الله لنفسه بالإلهية للأمر بعبادته سبحانه من وجوه

......

الوجه الأول في استلزام الشهادة للأمر بالعبادة

قال رحمه الله: [ووجه استلزام شهادته سبحانه لـذلك: أنه إذا شـهد أنه لا إله إلا هو فقد أخـبر وبين وأعلم وحكم وقضى أن ما سـواه ليس بإلـه، وأن إلهية ما سواه باطلة، فلا يستحق العبـادة سـواه، كما لا تصـلح الإلهية لغـيره، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهاً، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً، وهذا يفهمه المخــاطب من هــذا النفي والإثبــات، كما إذا رأيت رجلاً يســتفتي رجلاً أو يستشهده أو يستطبه وهو ليس أهلا لذلك ويدع من هو أهل لـه، فتقـول: هـذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب، المفتي فلان والشـاهد فلان والطـبيب فلان، فإن هذا أمر منه ونهي]. كأن الشارح يقول: إن كلمة: (شـهد الله أنه لا إله إلا هو) قد يؤخذ منها الأمر، ولكن كيف يؤخذ الأمر؟ إذا أخبر الله بهذا الخـبر فقد أخبر بإلهيته الحقة، ونفى عن غيره الإلهية، فنفى أن يكـون غـيره صـالحاً لأن يكون إلهاً، وإذا لم يصلح غيره للإلهية فكأنه يأمر عبـاده بـأن يؤلهـوه، فيقـول: الإله الحق هو الله، فإذا كنتم تريدون نجاتكم فاتخـذوه إلهـاً، واتركـوا إلهية ما سواه، هـذا وجه أخذ الأمر من قولـه: (شَـهِدَ اللَّهُ). كل من سـمع ذلك يقـول: هذه شهادة الله، وإذا شهد الله وملائكته والعلماء من خلقه بهـذا الشـيء فقد بطل ما عداه، وكل ما سوى هـذا المشـهود به فهو باطـل، فلا يصح حينئـذٍ أن يجعل معه آلهة، ولا أن يؤلِّه غيره، فمن ألَّه غـيره فقد ضل سـعيه في الحيـاة الدنيا وخسر عمله. وضرب مثلاً بما إذا سمعت إنساناً أو رأيت إنسـاناً يسـأل إنساناً أن يعالجه، فقلت له: هـذا ليس بطـبيب، الطـبيب فلان، فكأنك تقـول:

اذهب إليه واتـرك هـذا فإنه ليس بطـبيب. أو يستشـهده يقـول: اشـهد معي، يعتقد أنه مقبول الشهادة، فإنك تقول: هـذا ليس بشـاهد ولكن الشـاهد فلان، فكأنك تقول: اذهب إليه واستشهده فإنه الذي تقبل شهادته. وكـذلك إذا رأيته يستفتي جاهلاً قلت: هذا ليس بمفت، المفتي فلان، كأنك تقـول: اذهب إليـه. فهـذا الـذي أنت تخاطبه يفهم بأنك تـأمره بـأن يـذهب إلى ذلك الطـبيب.. الشاهد.. المفتي، فكذلك إذا قال الله: الإلهية الحقة للـه، كأنه يقـول: فـألهوه واتخذوه إلهاً، واتركوا إلهية ما سواه، هذا وجه الدلالة من الشهادة.

الوجه الثاني في استلزام الشهادة للأمر بالعبادة

قال رحمه الله: [وأيضـاً: فالآية دلت على أنه وحـده المسـتحق للعبـادة، فـإذا أخبر أنه وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلـزامهم بـأداء ما يسـتحقه الـرب تعـالى عليهم، وأن القيـام بـذلك هو خـالص حقه عليهم. وأيضاً: فلفظ (الحكم) و (القضاء) يستعمل في الجملة الخبرية، ويقال للجملة الخبريـة: قضـية وحكم، وقد حكم فيها بكـذا قـال تعـالى: أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُـونَ * وَلَـدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـاذِبُونَ * أَصْـطَفَى الْبَنَـاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [الصافات:151-154]، فجعل هذا الإخبار المجـرد منهم حكمـاً وقال تعالى: أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَـالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْـفَ تَحْكُمُـونَ [القلم: 35-36] لكن هذا حكم لا إلزام معه]. وهذا أيضاً بيان أنه يؤخذ الحكم من هذا الأمر، فالأمر بالتوحيد هو الإلزام به، فـإن الإنسـان إذا سـمع حكم الله تعـالى فإنه يتبعه وَمَنْ أَحْسَـنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا [المائـدة:50]، إذا عـرف أن الله أخـبر بهـذا الشـيء، وأنه أعلم خلقه بأنه الإلـه، فإنه يعـرف أنه الإله الحق الـذي يسـتحق أن يؤلـه، فكأنه يقـول: إن الله يأمرنا بـأن نتخـذه إلهـاً، ونـترك التأله لغيره، هذا من جهة. ومن جهة ثانية يقول: إذا فسرنا (شـهد) بحكم، وأخـبر، فإن الخبر والحكم يقتضي الإلزام، ومعلـوم أن الحكم هـو: إثبـات أمر لأمر أو نفيه عنـه، كما يقـول ذلك الأصـوليون، فـإذا حكم الله لنفسه بالإلهيـة، وحكم لغيره بعدم الصـلاحية للإلهيـة، فهـذا حكم من اللـه، وحكم الله واجب الإتبـاع. والحكم قد يطلق كما سـمعنا على كل قضـية، فكل قضـية قد تسـمى حكمـا، تقول: هذه قضية فلان وحكم فيها فلان بكذا وكذا، كما في هذه الآيـات، الـتي أخبر الله بها بأن هذا الأمر حكم منه. فعلى كل حال الآية صـريحة في إبطـال إلهية ما سوى الله تعالى، وإثبات الإلهية لله تعالى، والإثبات يسـتلزم الإلـزام. قال رحمه الله: [والحكم والقضاء بأنه: لا إله إلا هو متضمن الإلزام، ولو كـان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها، ولم ينتفعوا بهـا، ولم تقم عليهم بها الحجة، بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها بل كتمها، لم ينتفع بها أحد،

ولم تقم بها حجــة. وإذا كــان لا ينتفع بها إلا ببيانها فهو ســبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع والبصر والعقل]. يقول: إن مجرد الشهادة لا تتم إلا إذا كان معها إلزام، فالله تعالى عندما شهد كأنه ألزم، شـهد لنفسه بأنه لا إله إلا هـو، وهـذه الشـهادة تسـتلزم الأمر الـذي ينتج منه الإيجـاب، ومعلـوم أن الشهادة لا ينتفع بها إلا إذا بينت؛ يقول: لو أن إنساناً عنده شهادة لك، وكتمها، ما حصل أنك تنتفع بها، فلا تنتفع بها إلا إذا بين وقال: لك عندي شــهادة، فالله تعالى شهد لنفسه وبين هذه الشهادة بهذه الطرق.

بيان هذه الشهادة بالسمع

قال رحمه الله تعالى: [أما السمع: فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرفنا إياه من صـفات كماله كلها الوحدانية وغيرهــا، غاية البيــان، لا كما يزعمه الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة ومعطلة بعض الصـفات من دعـوى احتمـالات توقع في الحيرة، تنافي البيان الذي وصف الله به كتابه العزيز ورسوله الكريم، كما قـال تعـالى: حم * وَالْكِتَـابِ الْمُبِينِ [الزخـرف:1-2]، الر تِلْـكَ آيَـاتُ الْكِتَـابِ الْمُبِينِ [يوسف:1] ، الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ [الحجر:1]، هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ [آل عمران:138]، فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ [المائـدة:92]، وَأَنزَلْنَا إِلَيْـكَ الـذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُـزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [النحل:44] وكذلك السنة تأتي مبينة أو مقــررة لما دل عليه القــرآن، لم يحوجنا ربنا ســبحانه وتعــالى إلى رأي فلان، ولا إلى ذوق فلان، ووجــده في أصــول ديننــا؛ ولهـذا نجد من خـالف الكتــاب والســنة مختلفين مضطربين، بل قد قال تعالى: الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْـلامَ دِينًا [المائـدة:3]، فلا يحتـاج في تكميله إلى أمر خـارج عن الكتاب والسنة. وإلى هذا المعـنى أشـار الشـيخ أبو جعفر الطحـاوي فيما يأتي من كلامه بقوله: (لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سـلِم في دينه إلا من ســلّم لله عز وجل ولرســوله صــلى الله عليه وسلم)]. يقول: إن الله تعالى لما شهد هذه الشـهادة بينهـا، وبيانه عن طريق السمع وعن طريق البصر وعن طريق العقل، وعن طريق النظــر، يعـني بكل أنواع البيان، فلم يبق طريق إلا وبينه من جهته أتم بيان. ......

وضوح السمع وبيانه

فمن طريق السمع: سماعنا آيـات الله الـتي هي القــرآن والكتب الـتي أنزلها على رســله، وهي في غاية الإيضــاح والبيــان، وهـذا هو الــذي دعــاه إلى أن

يستشهد بالآيات التي فيها ذكر البيان، فإن قوله تعـالى: هَـذَا بَيَـانٌ لِلنَّاسِ [آل عمران:138]، لا شك أنه يبين المهم الذي يحتاجون إليـه، وأهم ما يحتـاجون إليه معرفة الله بآياته وبمخلوقاتـه، ومعرفة حقـه: وهو عبادته وحـده وتـرك عبادة ما سواه، وطاعته كما بين على ألسنة رسله. وكذلك وصف القرآن في قوله: الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ [يوسف:1] يعني المبين الذي بين الله فيه، فهو مبين من أوجه: أولاً: أنه بين واضح. وثانياً: أنه مـبيِّن مشـتمل على بيـان، وأي بيان أوضح من بيـان كلام الله تعـالى! وثالثـاً: أن الله تعـالى أمر رسـوله بأن يوضحه، فالرسول صلى الله عليه وسلم بين معانيه بقوله وبفعله، امتثـالاً لهـذه الآيـات الـتي سـمعنا، وهي قـول الله تعـالى: وَأَنزَلْنَا إِلَيْـكَ الـذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ [النحل:44]، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتعلمون المعاني مع الألفاظ، يقول عبد بن حبيب السلمي : حدثنا الذين كـانوا يقرئوننا القرآن: أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيـات لم يتجاوزوها حـتى يتعلمـوا ما فيهـا، يقول: فتعلمنا القـرآن والعلم والعمل جميعـاً. ولا شك أن هـذا لإقامة الحجـة، فما دام أن هـذا القـرآن قد بين للنـاس ما يحتـاجون إليـه، وبـالأخص في أمر العقيدة والتوحيد، فإن الخلق واجب عليهم أن يقبلـوا ذلك البيـان وينتفعـوا به ويعملـوا بـه. وما ظهر لهم فـإنهم يقبلـوه، وما خفي عنهم من الأمـور الغيبية فإنهم يسلمون له، ويتوقفـون عن البحث في حقيقتـه، وهـذا معـنى قولـه: (لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متـوهمين بأهوائنـا)، بل نتسـلم ذلك على ما هو عليه. أولاً: أنه واضح من حيث إنه مفهوم؛ لأنه بلسان عـربي مـبين. ثانيـاً: أن ما فيه من الخفي قد بينه الرسـول عليه الصـلاة والسـلام وتلقى ذلك عنه صـحابته، وبينـوا ذلك وشـرحوه لتلامـذتهم، ونقلت شـروحهم وتفاسـيرهم في كتب التفسير موضحة ظاهرة يجدها من طلبها، فما بقي لأحد حجة. فالحاصل أن التوحيد قد بين أتم بيان. قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُـرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا [فاطر:40].

الكون مليء بالآيات الدالة على وحدانية الله، وبينات الرسل وأحوالهم شواهد صـــدق على أن الله أرســـلهم، وأســـماء الله وصـــفاته من ألطف الأدلة على وحدانيته وصدق رسله.

فضل العلم وشرفه

العلم في الأصل أفضل من الجهل، وكل يحب الانتمـاء والانتسـاب إلى العلم، ويهرب ويربأ بنفسه أن ينسب إلى الجهل، والعلوم تتفاوت في الأهمية، فـأهم العلوم هو العلم الـذي يفقه به العبد دينـه، فيعـرف كيف يعبد ربـه؛ بل يعـرف ربه ويعـرف دينـه، فهـذا هو أشـرف وأفضل العلـوم. وطريق تعلمه وتحصـيله سهل ويسير على من يسره الله عليه، وذلك لأن الله سبحانه لما أقـام الحجة على عبـــاده ببعثة الرسل وإنـــزال الكتب، تكفل بحفظ ذلك حـــتى لا يكـــون للمتـــأخر حجة كما لم تكن للمتقـــدم. فيسر الله حفظ ذلك العلم الـــذي هو ميراث الأنبياء، حتى وصل إلى المتأخرين كما هو عند المتقـدمين، ولكن حيث كان هناك أعداء لهذا الدين ولهـذا العلم، فـإن أولئك الأعـداء قد حرصـوا على أن يشوهوا سمعة هـذا العلم الصـحيح، وأن يلبسـوا على أهلـه، وأن يرمـوهم بـالعيوب، ولكن الله سـبحانه حفظ شـريعته وقيض لأولئك من يـدفع شـبههم، ويبين ضلالهم وخطأهم، فقيض الله أهل السنة الذين ساروا على نهج الرسل، وساروا على نهج الصحابة، وعرفوا -حتى عند الأعـداء- بـأنهم السـائرون على طريقة السلف، أو بأنهم المتمسكون بالسنة، والفضل ما شـهدت به الأعـداء. ولا شك أن من جملة العلوم التي حصل فيها شيء من الاشتباه والاختلاف هو علم العقيدة، الذي هو موضوعنا في هذه الـدروس، ونأمل -إن شـاء اللـه- أن قد فقهنا في أصل هذا العلم الذي هو علم الاعتقاد. وبلا شك أن أصله معرفة الله تعالى المعرفة الـتي ينتج منها عبادتـه، وأن يـترك ويعـرض عن عبـادة ما سـواه، فـإذا عـرف الإنسـان أهمية هـذا العلم اسـتطاع بعد ذلك أن يعـرف مفرداته، وتفاصيله، حيث إنها موجـودة ميسـرة في متنـاول الأيـدي، وقد يسر الله لها من اعتـنى بهـا، فما على المسـلم الـذي يريد العلم الصـحيح إلا أن يتناولها بالتعلم والتفقه ليعبد ربه على بصيرة. ......

دلالة النظر والتفكر على وحدانية الله

قـــال المؤلف رحمه الله تعـــالى: [وأما آياته العيانية الخلقيـــة: فـــالنظر فيها والاسـتدلال بها يـدل على ما تـدل عليه آياته القولية السـمعية، والعقل يجمع بين هـذه وهـذه فيجـزم بصـحة ما جـاءت به الرسـل، فتتفق شـهادة السـمع والبصر والعقل والفطـرة]. قد عرفنا أن أهم العلـوم معرفة اللـه، ثم عبادتـه،

ولكونها أهم من غيرها جاءت الشريعة ببيانها، فبينها الله عن طريق السمع وعن طريق البصر وعن طريق العقل. فأما البيان السمعي فهو ما بلغه الرسل من كلام الله، ومن كلام الأنبياء الذين بينوه، فإن بيان هذه العقيدة يأخذه الناس عن طريق السمع، وتسمى الآيات السمعية، فالقرآن والأحاديث أدلة سمعية منقولة عن عالم بعد عالم، إلى أن تنتهي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو إلى الأنبياء قبله. أما الأدلة النظرية فهي الآيات التي ترى بالعين ويقال لها المخلوقات؛ وذلك لأن النظر فيها يكسب الناظر عبرة وعظة، ويكسب الناظر معرفة وبصيرة، ولأجل ذلك كثيراً ما يرشد الله العباد إلى النظر في الآيات والبراهين، كقوله تعالى: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ [ق:6] وكقوله تعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [يوسف:109]، وأشباه ذلك من الآيات كثيرة. النظر في هذه المخلوقات هو الدليل النظري والبصري، وكلما كان العاقل فاهماً ذكياً كان نظره أتم، وأما إذا نقصت العقلية فإن النظر يكون أنقص؛ وذلك لأن مجرد النظر بالعين لا يفيد، حتى يكون نظراً في القلب، فالعين توصل إلى القلب، فإذا لم يكن هناك قلب واع حي لم ينفع النظر بالعين. وقد يكون هناك من هو ضرير لا يبصر ولكن يعتبر بما يحسه، فيكون نظره بقلبه أقوى من نظر المبصرين، ويكون من المبصرين من يشاهد هذه الآيات والعجائب، ولكن قلوبهم في غي، وفي غفلة، وفي أغشية وفي أكنة.. قلوبهم غلف مقفل عليها والعياذ بالله، ولذلك قال تعالى: فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج:46] والحاصل أن الله سبحانه بين هذه الآيات والبراهين بياناً واضحاً عن طريق السمع للآيات السمعية، وعن طريق النظر للآيات البصرية ومن رزقه الله حياة قلب انتفع بما يسمع وبما يرى، ومن فقد ذلك فالعمى خير له.
......

من رحمة الله وإحسانه إقامة الحجج والبينات على صدقه وصدق رسله

قال المؤلف رحمه الله: [فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبته للعذر وإقامة الحجة، لم يبعث نبياً إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به، قال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ [الحديد:25] وقال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ [النحل:43-44] وقال تعالى: قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ [آل عمران:183] وقال تعالى: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ [آل عمران:184] وقال تعالى: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ [الشورى:17] حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود، حتى قال له قومه: يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ [هود:53]، ومع هذا فبينته من أوضح البينات لمن وفقه الله لتدبرها، وقد أشار إليها بقوله: إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ

وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِـرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ [هـود:54-56]. فهـذا من أعظم الآيـات: أن رجلاً واحـداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غـير جـزع ولا فـزع ولا خـوار، بل هو واثق بما قاله، جازم به، فأشهد الله أولاً على براءته من دينهم ومما هم عليه إشـهاد واثق به معتمد عليه، معلنٍ لقومه أنه وليه وناصره وغيرُ مسلِّط لهم عليه، ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون عليها، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصـرتهم لهـا. ثم أكد ذلك عليهم بالاسـتهانة لهم واحتقـارهم وازدرائهم، ولو يجتمعـون كلهم على كيـده وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يمهلونـه، لم يقـدروا على ذلك إلا ما كتبه الله عليـه، ثم قـرر دعـوتهم أحسن تقريـر، وبين أن ربه تعـالى وربهم الـذي نواصـيهم بيـده هو وليه ووكيله القـائم بنصـره وتأييـده، وأنه على صـراط مستقيم، فلا يخـذل من توكل عليه وأقر بـه، ولا يشـمت به أعـداءه. فـأي آية وبرهـان أحسن من آيـات الأنبيـاء عليهم السـلام وبـراهينهم وأدلتهم؟! وهي شهادة من الله سبحانه لهم بينها لعباده غاية البيان]......

معجزات كل نبي تناسب أهل زمانه

قطع الله المعذرة ببينات الرسل، قال تعالى: وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْـكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ [النساء:164] إلى قوله: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ [النسـاء:165] أي: أرسـلنا أولئك الرسل لتنقطع الحجة وينقطع العذر، لئلا يقولوا: مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ [المائدة:19]، كما حكى الله ذلك عنهم وقال تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَـوْلا أُوتِيَ مِثْـلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُـرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَـى مِنْ قَبْـلُ [القصـص:48] فالله سبحانه أرسل الرسل، وجعل معهم بينات ترجح جانبهم، وجعل لهم معجـزات يظهر بها صـدقهم. كل نـبي فمعجزاته تناسـبه وتعجز أهل زمنـه، ومنهم من أخبرنا الله بمعجزاتـه، كما أخـبر عن صـالح أن من معجزاته تلك الناقة الـتي قـال لهم عنهـا: لَهَا شِـرْبٌ وَلَكُمْ شِـرْبُ يَـوْمٍ مَعْلُـومٍ [الشـعراء:155]. وعن معجزات موسى أنها تسع آيات، منها: اليد، والعصـا، وفلق البحـر، والطوفـان، والقمل، والضفادع، والدم، وما أشبهها من الآيات المعجـزة لأهل زمانـه. وعن معجزات عيسى: أنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويخبرهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم. وعن معجزات داود، منها قوله: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُـلٌّ لَـهُ أَوَّابٌ [ص: 18-19]. ومعجزات سليمان: في قوله: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِـأَمْرِهِ رُخَـاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّـيَاطِينَ كُـلَّ بَنَّاءٍ وَغَـوَّاصٍ * وَآخَـرِينَ مُقَـرَّنِينَ فِي الأَصْـفَادِ [ص:36-38]. وكذلك معجزات نبينا ودلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، ومنها هذا القرآن الذي تحـدى به فصـحاء العـرب في زمانه فعجـزوا عن معارضـته، ومنها ما أجـرى الله على يديه من الآيـات الـتي منها إخبـاره بـالأمور المغيبـة،

ومنها نصره وتأييده على أعدائـه، ونحو ذلك من المعجـزات. ولا شك أن هـذه المعجزات يراد منها ظهور صدق أولئك الرسل، وذلك أن الله تعـالى يحب أن يقطع العذر عن العاصي والمفـرط، ويحب العـذر إلى العبـاد، ولـذلك ورد في حديث: (لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسـل)، وقـال في الحكمة من إرسالهم: عُذْرًا أَوْ نُذْرًا [المرسلات:6] يعـني إعـذاراً وإنـذارا، فهذا دليل على أنه سبحانه قطع الحجة على النـاس بقولـه: لِئَلَّا يَكُـونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْـدَ الرُّسُـلِ [النسـاء:165]. ومن تأمل آيـات الرسل عـرف صدقهم، ولكن إنما صد عنهم من أعمى الله بصـيرته، ولأجل ذلك عـاقب الله من كذبهم بأنواع من العقوبات، فأهلك قوم نـوح بـالغرق، ثم عـاداً وهم قـوم هود، فأرسل الله عليهم الريح، وقوم صالح وهم ثمـود عـاقبهم الله بالصـيحة، وأشباه ذلك.

عظم معجزة هود مع أنها أخفى معجزات الأنبياء

ذكر الشارح أن قوم هود كأنهم أنكروا رسالته لما لم يأتهم بآية ومعجزة بينـة، ولكن قرر الشارح آية هود ومعجزته التي أخـذت من هـذه الآيـات في سـورة هـود، وهي قـول الله تعـالى حكاية عنهم: مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَـةٍ [هـود:53] يعـني بآية معجزة، ثم ظنـوا أنه إنما به جنـون! فقـالوا: إِنْ نَقُـولُ إِلَّا اعْتَـرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُـوءٍ [هـود:54] يعـني: أن آلهتنا تسـلطت عليك فأصـبتك بجنـون. ولكنه رد عليهم هذا الرد المتزن الذي يـدل على ثباتـه، فقـرر أنه لا يخـافهم ولو حصل اجتماعهم كلهم، حيث قال: فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَـوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ [هود:55-56] وتقدم تفصيل الشـارح وتفسـيره لهـذا، وأخـذه من كونه فـرداً يتحدى أمة من أقوى الأمم حتى إنهم قـالوا: مَنْ أَشَـدُّ مِنَّا قُـوَّةً [فصـلت:15] وقد وصفهم الله بالجبروت في قوله: وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ [الشـعراء: 130]. فهذا شخص واحد يتحداهم ويقول لهم: ائتوا بكل كيـد، ائتـوا بكل حيلة إن كنتم تسـتطيعون! ولكنكم لا تسـتطيعون؛ لأني معتمد على اللـه، متوكل على الله ربي وربكم، والـذي يأخذ بنواصي جميع الـدواب، فكل الـدواب مسـخرة مذللة بـأمره، فهـذا ونحـوه دليل على أن الله قـوى قلبه وثبته وذلك أعظم من بقية المعجزات. وبلا شك أن الله أيده بمعجزات أخرى لا نـدري ما هي، لكن بهذا تقوم الحجة على العباد. إذاً: ما بقي لأحد على الله تعـالى حجة بعد الرسل.

تصديق الله لعباده وأنبيائه حجة على من خالفهم

قال رحمه الله: [ومن أسمائه تعالى (المؤمن) وهو في أحد التفسيرين: المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فإنه لا بد أن يري العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغه رسله حق، قال تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [فصلت:53] أي: القرآن، فإنه هو المتقدم في قوله قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ [فصلت:52] ثم قال: أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [فصلت:53] فشهد سبحانه لرسوله بقوله إن ما جاء به حق، ووعد أنه يري العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضا، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك كله وأجل، وهو شهادته سبحانه بأنه على كل شيء شهيد، فإن من أسمائه الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته، والأول استدلال بقوله وكلماته، واستدلاله بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته]. كل هذا تفصيل لبيان أنه سبحانه أقام الحجة وقطع المعذرة.
وقوله: (ومن أسمائه المؤمن) قال تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ [الحشر:23]، فهو الذي يصدق عباده، أي: رسله وعباده المؤمنين، فيصدق الرسل بما يظهر على أيديهم من المعجزات والبراهين، ويصدق المؤمنين بما يذكرهم به ويؤيدهم عند خصوماتهم للأعداء، أو عند قتالهم للكفار، فالنصر الذي يجريه على أيديهم هذا من التوفيق لهم، وكذلك الحجة التي يجريها على ألسنتهم من التوفيق لهم، يصدقهم حتى يعرف صدقهم، ويعرف ذلك من قصده الحق والصواب. وأما من زاغ عقله فإنه لا تغني عنه النذر: وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ [يونس:101]. كذلك من أسمائه تعالى (الشهيد)، قال تعالى: وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [سبأ:47]، والشهيد: الشاهد، والشاهد مأخوذ من المشاهدة، وذلك لأنه تعالى شاهد على عباده ومن جملتهم رسله، وشهادته على رسله سبحانه أنه شهد بصدق ما جاءوا به، وذلك بما أجرى على أيديهم من الآيات والبراهين، وبذلك كله يعرف أنه ما بقي لأحد حجة بعد الرسل وبعد الكتب، فما بقي إلا المعاندون الذين يخالفون الحق عناداً.

بيان صحة الاستدلال بأسماء الله وصفاته على صحة رسالة أنبيائه

قـال المؤلف رحمه اللـه: [فـإن قلت: كيف يسـتدل بأسـمائه وصـفاته، فـإن الاستدلال بذلك لا يعهد في الاصطلاح ؟ فالجواب: أن الله تعـالى قد أودع في الفطرة التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل، ولا بالتشبيه والتمثيل، أنه سبحانه الكامل في أسـمائه وصـفاته، وأنه الموصـوف بما وصف به نفسه ووصـفه به رسـله، وما خفي عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفـوه منـه. ومن كماله المقدس شهادته على كل شيء واطلاعه عليـه، بحيث لا يغيب عنه ذرة في السماوات ولا في الأرض باطناً وظاهراً، ومن هذا شأنه كيف يليق بالعبـاد أن يشركوا به، وأن يعبدوا غيره ويجعلـوا معه إلهـاً آخـر؟! وكيف يليق بكماله أن يقر من يكـذب عليه أعظم الكـذب، ويخـبر عنه بخلاف ما الأمر عليـه، ثم ينصره على ذلك ويؤيـده، ويعلي شـأنه، ويجيب دعوتـه، ويهلك عـدوه، ويظهر على دينه من الآيـات والـبراهين ما يعجز عن مثله قـوى البشـر، وهو مع ذلك كـاذب عليه مفـتر؟! ومعلـوم أن شـهادته سـبحانه على كل شـيء، وقدرته وحكمته وعزتـه، وكماله المقـدس يـأبى ذلـك، ومن جـوز ذلك فهو من أبعد الناس عن معرفته].......

تمكين الله لرسوله ونشر دينه وقهر أعدائه دليل على صحة الرسالة

ذكر ابن القيم رحمه الله في بعض كتبه أنه لقي بعض النصارى الذين يكذبون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: أنتم أيها النصـارى! قد طعنتم في حكمة اللـه، وطعنتم في قدرتـه، وطعنتم في علمه واطلاعـه! فاسـتغرب ذلك النصراني من هـذا الكلام! فقـال: إن تكـذيبكم برسـالة محمد صـلى الله عليه وسلم طعن في الله، وذلك أننا وأنتم نشـاهد أنه ادعى أنه نـبي، وقـامت على يديه هذه المعجزات وهـذه الـدلالات الـتي هي دلائل نبـوة، فكيف يقيمها الله على يديه وهو كـذاب؟! ثم نصـره الله في مـواطن كثـيرة! فانتصر على الأعداء وهم كثيرون، والمسلمون قلة، فكيف ينصـره على أولئك الأعـداد وهو يكذب عليه ويقول عليه ما لم يقـل؟! ثم مكن الله لدينـه، وانتشر هـذا الـدين الذي هو في زعمكم دين باطل مكـذوب! فهل يليق بحكمة الله أن يعلي هـذا الـدين وهو دين باطـل، وأن يظهـره وأن يمكن لأهلـه، وأن يسـلطهم على الناس: يقتلـون.. ويأسـرون.. ويفتحـون البلاد، ويـدوخون العبـاد، وهم مع ذلك كذبة متبعـون لنـبي كـذاب؟! لا شك أن هـذا طعن في اللـه، فـأنتم يا معشر النصـارى قد طعنتم في ربكم من حيث لا تشـعرون؛ حيث كـذبتم هـذا النـبي الذي هو في زعمكم ليس بنبي. وطعنتم في حكمة الله، فـإن الله حكيم يضع الأشـياء في مواضـعها، فكيف يليق بالله أن ينصـره وأن يعلي سـلطانه وأن يؤيده، وأن يظهر على يديه هذه المعجزات وهو يسمع كلامه الـذي هو افـتراء عليه وكذب! كيف ينصره ويمكن له في الأرض؟! وكيف يهـدي قلـوب النـاس إلى اتباعـه؟! وكيف يقبل بقلـوبهم عليـه؟! وكيف يظهر من صـفاته ما يكـون سبباً في تصديقه؟! ولا شك أن هذا شيء واقعي حقيقي، فإن الذين يكـذبون برسالته عليه الصلاة والسلام، وهم يشـاهدون أن دينه الحق قد انتشر وتمكن

حـتى غطى ثلـثي المعمـورة، وحـتى دان به أكـثر العبـاد، وشـهدوا بحسـنه وبملائمتـه، حـتى الأعـداء بمجـرد ما يسـمعون دعوتـه، ويعرفـون شـريعته وطريقته، تنطلق ألسنتهم بحسن ما جاء بـه، وتشـهد بـذلك عقـولهم ويتبعونه دون تلكؤ ودون توقف، فإن هذا كله دليل على صـحة هـذا الـدين، ودليل على قبول النفوس له، وأن الذين أنكروه إنما انتكست فطـرهم ولم يعرفـوا الحق مع قيام الأدلة الواضحة عليه. فعلى هذا يعتـبر هـذا التمكين من أكـبر الآيـات، وأكبر المعجزات التي تـدل على صـدق رسـالته صـلى الله عليه وسـلم، حيث مكن الله له وحقق قـول الله تعـالى: وَعَـدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْـتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ [النور:55]، وصدق الله هـذا الوعـد، فمكن لهم دينهم الـذي ارتضى لهم، وفتح لهم القلـوب، وهيَّأ لهم الأسباب ويسر لهم العسير وظهر دين الله تعالى، وتحقق قول الله عز وجـل: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الـدِّينِ كُلِّهِ وَلَـوْ كَـرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة:33] وقوله تعالى: وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ [التوبة:32] ، وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ [الصف:8] فتمم الله نوره الذي هو هذه الشريعة، وأظهر هذا الدين على سـائر الأديـان، ولا شك أن ذلك من أكـبر المعجـزات. ولو لم يكن هناك من دلائل نبوته التي تدل على صـدقه عليه الصـلاة والسـلام، وصـحة ما جــاء به إلا النصر والتمكين وفتح القلــوب والبلاد لــه، وما أيــده به من هــذا التمكين حتى أقبلت قلوب الناس إليه، وكان أحدهم يصبح وهو عـدو لـه، فـإذا أسلم في أول النهار لم يأته الليل إلا والإسـلام أحب إليه من الـدنيا وما فيهـا؛ وذلك لما يشـاهدونه في هـذا الإسـلام من سـهولة ومحبة وصـلاحية وانشـراح صدر وفرح وانبساط، وقوة يقين، لا شك أن هذا من أكبر الآيات والمعجـزات، ولو لم يكن هناك آيات أخرى لكان هذا كافيـاً لإثبـات أن هـذا الـدين حق وأنه من عند الله سبحانه وتعالى، هذا ما قرره الشارح في هذا الموضع.

عـدم نـزول العقوبة بمحمد صـلى الله عليه وسـلم دليل على صـدقه وكـذب أعدائه

قـال رحمه اللـه: [والقـرآن مملـوء من هـذه الطريق وهي: طريق الخـواص، يسـتدلون بالله على أفعاله وما يليق به أن يفعل ولا يفعله قـال تعـالى: وَلَـوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْـوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ [الحاقة:44-47] وسيأتي لذلك زيادة بيان إن شاء الله تعــالى. ويُسـتدل أيضا بأسـمائه وصـفاته على وحدانيته وعلى بطلان الشـرك، كما في قوله تعـالى: هُـوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الْمَلِـكُ الْقُـدُّوسُ السَّـلامُ الْمُـؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيـزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُـبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْـرِكُونَ

[الحشر:23] وأضعاف ذلك في القرآن، وهذه الطريق قليل سـالكها لا يهتـدي إليها إلا الخواص، وطريقة الجمهور الاستدلال بالآيات المشـاهده؛ لأنها أسـهل تناولا وأوسع، والله سـبحانه يفضل بعض خلقه على بعض]. قوله تعـالى: وَلَـوْ تَقَـوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيـلِ * لَأَخَـذْنَا مِنْـهُ بِـالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْـهُ الْـوَتِينَ [الحاقة:44-46] حق وصحيح، فإن كل من كذب على الله فإن الله ينتقم منه ولو بعد حين، فإن فرعون لما كذب وادعى الربوبية عاقبه الله مع كـون مصر قد أطاعت له، حتى قال لهم: وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ولا يكاد يبين [الزخرف:51-52] يعني: موسى. فماذا كانت عاقبته؟ انتقم الله منه وأغرقه وهم ينظرون. كذلك الكـذابون في زمن النبي عليه الصلاة والسـلام لما ظنـوا أن محمـداً كـاذب فقـالوا: سـوف ندعي مثلما ادعى، فتنبأ شـخص يقـال لـه: مسـيلمة، فانخـدع به بعض الجهلة من عشيرته، ولكن الله انتقم منه وسلط عليه المسلمين فقتل وضل أتباعـه. وكذلك تنبأ آخر في اليمن، فما متّع إلا ثلاثة أشهر حتى انتقم الله منه وأهلكه، وهكذا كل من ظهر منه اعتـداء، يعـرف ذلك من قـرأ التـاريخ. فمن قـرأ كتب التاريخ يجد أن هناك أناساً حاولوا التكبر والتجبر وحصل لهم شـيء من الملك ومن القوة، فاستعملوا بطشهم وقوتهم، ثم أمهلوا مدة ولكن أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، قال النبي عليه الصلاة والسـلام في الحـديث الصـحيح: (إن الله ليمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته وقرأ قول الله تعالى: وَكَـذَلِكَ أَخْـذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَـذَ الْقُـرَى وَهِيَ ظَالِمَـةٌ إِنَّ أَخْـذَهُ أَلِيمٌ شَـدِيدٌ [هـود:102]) فكـون هـذا الإسلام باقيـاً، ومسـتمراً يزيد ويظهـر، كلما ضـعف في جهة مكن الله له في جهة أخرى، وأهله يحبونه ويقبلـون عليـه، ويتمسـكون بـه، ويؤثرونه ولو قتلـوا وعــذبوا، دليل على أنه من الله تعــالى، وأن ما يقولونه ويعتقدونه هو الــدين الحق. وكون الله جل وعلا يعجل العقوبة للكذابين والمفترين ويأخذهم وينتقم منهم، دليل على أن الله لا يؤيد الكـــــــذابين ولا يمكنهم، كيف يمكنهم وهم يفترون عليه؟! كيف يمكن لهم في الأرض وهم كذابون يقولون عليه ويضلون عبـاده؟! هـذا لا يليق بحكمة الله تعـالى، فـإن من أسـمائه الحكيم الـذي يضع الأشياء في مواضعها. فيستدل المرء على صحة هذا الدين وهذه العقيدة وهذا التوحيد بآيات الله، وبمخلوقاته، وبأسمائه وبصفاته، يعني: بآثـار تلك الأسـماء، وآثار تلك الصفات، فإن من أسماء الله تعالى الحكيم، وهو الذي يضع الأشـياء في مواضـعها، ومن أسـمائه تعـالى العزيـز، وهو الغـالب لكل من خـرج عن طاعتـه، ومن أسـمائه أنه عزيز ذو انتقـام، يعـني: ينتقم ممن خـالف أمـره، ويأخذه أخذ عزيز مقتدر، كذلك من أسمائه العليم، وهو أنه لا يخفى عليه علم شـيء في الأرض ولا في السـماء. وهكـذا يقـال أيضـاً في حكمته وفي خلقه وفي تدبيره وفيما قدره وقضاه في هذا الكون، لا شك أن هذا كله له آثار تدل على ما أعطاه الله تعالى لعبـاده من الفكر ومن العقـل، الـذي رزق ووفق به عباداً صالحين قبلوه وتقبلوه.

بطلان قول من قسم التوحيد إلى: توحيد عامة، وخاصة، وخاصة الخاصة

قال رحمه اللـه: [فـالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غـيره، فإنه الدليل والمدلول عليه، والشاهد والمشهود له، قال تعالى لمن طلب آية تـدل على صـدق رسـوله: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [العنكبوت:51] الآيات. وإذا عرف أن توحيد الإلهية هو التوحيد الذي أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب، كما تقـدمت إليه الإشـارة، فلا يلتفت إلى قـول من قسم التوحيد إلى ثلاثة أنـواع: وجعل هـذا النوع: توحيد العامة. والنوع الثاني: توحيد الخاصة، وهو الـذي يثبت بالحقـائق. والنـوع الثـالث: توحيد قـائم بالقـدم، وهو توحيد خاصة الخاصـة]. يقـول: إن القـرآن الـذي أنزله الله على قلب نبينا محمد صـلى الله عليه وسـلم فيه الكفاية لمن اعتبر، فإن المشركين لما طلبوا آيات وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ [العنكبـوت:50] قـال اللـه: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ [العنكبوت:51] أي: هـذا الكتـاب كـاف عن جميع الآيـات، لما فيه من الأخبـار عن المتقدمين وعن المتأخرين، فمن نظر فيه واعتـبر اكتفى بـذلك. والقـرآن قد بين حقيقة التوحيد الذي أرسلت به الرسل غاية البيان، وهو توحيد العبادة. والذين حكى عنهم المؤلف أنهم جعلوا هذا النوع توحيد العامة! هؤلاء هم غلاة الصـوفية، أو أهل الوحـدة، وجعلـوا وراءه توحيـدين: توحيد الخاصـة، وتوحيد خاصة الخاصة. وكل ذلك لا دليل عليـه، وإنما الأصل أن التوحيد الـذي هو حق الله على عباده هو التوحيد الأصلي الذي أمر النـاس بـأن يـدينوا به ويتعلمـوه ويعبدوا الله تعالى بموجبه، وسيأتي بيان الأدلة على أنواع التوحيد، وعلى بقية أنواع العقيدة إن شاء الله تعالى.......

شرح العقيدة الطحاوية [7]

لقد ضل كثير من الناس في التوحيد، فمن ذلك ضلال الصوفية في الفناء والاتحاد، ومن ذلك ضلال المشبهة بغلوهم في إثبات الصفات، والمعطلة الغالين في نفي الصفات، وأهل السنة وسط بين الغلاة والجفاة.

الأنبياء أكمل الناس توحيداً والصوفية مخالفون لهم

......

توضيح معنى توحيد الخاصة وخاصة الخاصة عند الصوفية

مر بنا بيان شيء مما أوضحه الله تعالى من العلم الذي هو أهم العلوم، وأن الله بينه عن طريق السمع، وعن طريق البصر، وعن طريق العقل، فبينه بالآيات السمعية، وذلك بالقرآن والسنة التي تسمع وتتلى، وكذلك بالآيات النظرية وهي المخلوقات التي جعلها الله علامات ودلالات يعتبر بها أولو الألباب. وهكذا بينه عن طريق العقل، حيث أعطى الإنسان فكراً وعقلاً وذكاء يعقل به ما أمامه وما بين يديه، وبكل ذلك ينتج نتيجة وهي معرفة المرء نفسه ومعرفة ربه، ومعرفة ما خلق له وما أمر به، جملة وتفصيلاً. ونتيجة هذه المعرفة وثمرتها هي العبادة الخالصة لله وحده، وترك عبادة ما سواه، فهذه هي نتيجة هذه المعرفة ومدار كلمة الإخلاص التي هي كلمة: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فإن أول ما دعت إليه الرسل كلمة التوحيد، وهو ما جاءت به وما بلغته، وهو ما عليه جماهير الأمة، وهو ما تعلمه المسلمون قديماً وحديثاً، ولا عبرة بمن خالف في ذلك من الصوفية الذين جعلوا هذه الكلمة توحيد العامة. وذلك أنهم قسموا الناس إلى: عامة، وخاصة، وخاصة خاصة. وقالوا: إن كلمة (لا إله إلا الله) توحيد العامة، وكلمة (الله الله) توحيد الخاصة، وكلمة (هو هو) توحيد خاصة الخاصة، يعني خلاصة الخلاصة. فعند هؤلاء -قبحهم الله- أن الأنبياء والرسل والصحابة وعلماء الأمة كلهم من العامة الذين لا يعرفون ولا يفقهون، وعندهم أن الصوفية هم الخاصة، يدخل في ذلك أفرادهم وعلماؤهم، والواصلون منهم إلى الذروة هم خاصة الخاصة، فلأجل ذلك تجدهم في ذكرهم لا يزيدون على كلمة (هو هو)، مع أنها لا تدل على معنى، وأما كلمة الإخلاص فإنها دالة على معنى فهمه المدعوون، فدلت على إخلاص العبادة لله والتبرؤ مما سواه، ولهذا تشتمل على ولاء وبراء، فإن قوله: (لا إله) براء، (إلا الله) ولاء، فتشتمل على اتصال وانفصال، فـ(لا إله) انفصال عن المألوهات، (إلا الله) اتصال بالإله وحده. فيقال: فيها نفي وإثبات، وفيها اتصال وانفصال، وفيها: ولاء وبراء، فلما كانت كذلك كانت جامعة لمعنى التوحيد الذي هو توحيد الرسل، ولكن كما هو معروف أنه لا بد

من معرفة معناها، وذلك لأنه وجد من المتأخرين من يتكلم بها وهو لا يفهم مدلولها؛ فيجب على المسلم أن يفهم ما دلت عليه حتى يعبد الله تعالى بمقتضاها.

كمال توحيد الرسل وبيان أكملهم في ذلك

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فإن أكمل الناس توحيداً الأنبياء صلوات الله عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكملهم توحيدا، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين. وأكملهم توحيدا الخليلان: محمد وإبراهيم صلوات الله عليهما وسلامه، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما علما ومعرفة وحالا ودعوة للخلق وجهادا، فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه. ولهذا أمر سبحانه نبيه أن يقتدي بهم فيه، كما قال تعالى بعد ذكر مناظرة إبراهيم قومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ [الأنعام:90]. فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم. وكان صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: (أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين)، فملة إبراهيم التوحيد، ودين محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً، وكلمة الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله، وفطرة الإسلام هي ما فطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له عبودية وذلاً وانقياداً وإنابة]. إن أكمل التوحيد هو توحيد الأنبياء، وأكملهم الرسل، فإن الرسل هم الذين قاموا بالدعوة والجهاد، وكلفوا بالدعوة، وأكمل الرسل هم أولو العزم، وهم خمسة ذكرهم الله تعالى في قوله: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ [الأحزاب:7]، وقوله: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ [الشورى:13]، هؤلاء هم أولو العزم الذين عناهم الله تعالى بقوله: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ [الأحقاف:35]؛ وذلك لأنهم هم الذين صبروا وصابروا ولهم مكانة ومقام، فهم أفضل الرسل. وأفضل الخمسة الخليلان: إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، فالخليلان لهما مقام سام رفيع، وهما اللذان جاهدا في الله، ودعوا إلى التوحيد أتم دعوة، ولقيا في سبيل ذلك ما لقيا. ومعلوم أن الرسل كلهم دعوا إلى التوحيد، وقد أمر الله نبيه بأن يقتدي بهم كلهم، كما في قوله تعالى:

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ [الأنعام:90]، أي: فاقتدِ بهديهم وبما جاءك عنهم وبما بلغك. ولا شك أن من هداهم التوحيد، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء: 25]، كل رسول يوحى إليه بهذا، فهذا من جملة هداهم الذي أُمِر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يهتدي به، وأمته تبع له، وكذلك هذا الدعاء الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمه أصحابه يقول: (قولوا: أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص..) إلى آخره، وذلك لأنه قول جامع؛ وذلك لأن فيه ذكر ملة إبراهيم، يعني: أن من جملة ما تمسكنا به ملة أبينا إبراهيم الذي أمرنا الله تعالى بأن نقتدي به، وملة الأنبياء الذين أُمِر نبينا بأن يقتدي بهم، فإذا تمسك المسلمون بذلك فإنهم إن شاء الله على طريق النجاة.

توحيد الصوفية يفضي إلى الفناء والاتحاد

قال المؤلف رحمه الله: [فهذا توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء، قال تعالى : وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [البقرة:130-131]. وكل من له حس سليم وعقل يميز به، لا يحتاج في الاستدلال إلى أوضاع أهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البتة، بل ربما يقع بسببها في شكوك وشبه يحصل له بها الحيرة والضلال والريبة، فإن التوحيد إنما ينفع إذا سلم قلب صاحبه من ذلك، وهذا هو القلب السليم الذي لا يفلح إلا من أتى الله به. ولا شك أن النوع الثاني والثالث من التوحيد الذي ادعوا أنه توحيد الخاصة وخاصة الخاصة، ينتهي إلى الفناء الذي يشمّر إليه غالب الصوفية، وهو درب خطر يفضي إلى الاتحاد، انظر إلى ما أنشد شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري رحمه الله تعالى حيث يقول شعراً: ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد توحيده إياه توحيده ونعت من ينعته لاحد وإن كان قائله رحمه الله لم يرد به الاتحاد، لكن ذكر لفظاً مجملاً محتملاً جذبه به الاتحادي إليه، وأقسم بالله جهد أيمانه أنه معه، ولو سلك الألفاظ الشرعية التي لا إجمال فيها كان أحق، مع أن المعنى الذي حام حوله لو كان مطلوباً منا لنبه الشارع عليه، ودعا الناس إليه وبينه، فإن على الرسول البلاغ المبين، فأين قال الرسول: هذا توحيد العامة، وهذا توحيد الخاصة، وهذا توحيد خاصة الخاصة؟! أو ما يقرب من هذا المعنى، أو أشار إليه؟].

توحيد الصوفية ليس هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل

نعرف أن التوحيد الذي دعت إليه الرسل -حقـاً- توحيد واحد ليس فيه فـروع، وليس هناك توحيد خاصة وخاصة خاصة وعامة، بل الرسـول دعا النـاس كلهم إلى شيء واحـد، وأمـرهم بـأن يتمسـكوا بـه، وهو الإخلاص لله تعـالى، بحيث يعبدونه ويتركون عبادة ما سواه بعد المعرفة، فأما هذا التقسـيم الـذي تدّعيه هذه الطوائف فإنه مبتدع، فالطائفة التي ادعت ذلك -وهم الصـوفية- قسـموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام: فجعلوا كلمة لا إله إلا اللـه، توحيد العامـة. والخاصة كلمة: الله. وخاصة الخاصة كلمة: هو. من الـذي سـبقهم من الرسل إلى هـذا التقسيم؟! لو كان حقاً لبينته الرسل لأممهم، فهذا يـدل على أنهم لم يسـبقوا إليه ولا دليل عليـــه. ومع كونه لا دليل عليه فإنه يئـــول بســـالكيه إلى الهلاك المعنوي، بحيث يضل صاحبه ويتيه، ويـؤدي به إلى الحـيرة والـريب. كثـير من الذين خاضـوا في هـذا العلم أدى بهم ذلك إلى الشك وإلى الحـيرة، ويأتينا إن شاء الله لذلك أمثلة في هذا الكتاب. كـذلك يـؤدي بهم إلى طريقة أخطر من ذلك وهي طريقة الاتحاد، وهو مذهب باطل، وقد أشار إليه الشارح فيما سبق وهو مذهب الذين يجعلون الخالق متحداً بالمخلوق! يقال لهم: ما الدليل على ذلك؟ ومن الذي سبقكم إلى ذلك؟ فلا يجدون دليلاً ولا سـابقاً من أهل العلم. ويؤدي بهم أيضاً إلى طريق يسمونها الفناء، والفناء عنـدهم هو غاية المنـازل، وأعلى المراتب، متى وصل إليها العارف -عندهم- وصل إلى حضيرة القـدس! وهو الذي -في نظـرهم- يهنأ بعبادته عن معبـوده.. يهنأ بوجـوده عن موجـوده، بحيث يتلاشى عن نفسه ويفـنى لخالقه كما يقولـون، ولهم عبـارات بشـعة لا حاجة بنا إلى أن نعرفهـــا، والجهل بها أولى؛ وذلك لأن تلك المعـــارف وتلك الشطحات التي وقعوا فيها سببها هذا الخوض، وهو الحصـول على رتبة خاصة الخاصة. فذكر المؤلف أن هذا طريق خطر، وأنه لا يجوز سلوكه.

أبيات الهروي موهمة وإن كان معتقده سليماً

ذكر المؤلف تلك الأبيـات الـتي أنشـدها أبو إسـماعيل الهـروي في آخر كتابه الذي سماه منازل السائلين، والذي شـرحه ابن القيم في كتابه الـذي سـماه: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإيـاك نسـتعين، وذكر هـذه الأبيـات في أول مدارج السالكين، وحرص على أن يحملها محملاً حسنا، ولكن فيها شـيء من الإجمال، وفيها شيء من الإيهام؛ لأن ظاهرها أن النـاس كلهم لم يوحـدوا

الله، ولا يقدر على توحيد الله إلا الله، فقولــه: ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد ظاهره أن كل الناس حـتى الأنبيـاء لم يكونـوا موحـدين وإنما الله الذي وحد نفسه، ولكن حملوه على أن الإنسان لا يستطيع أن يعرف ذلك إلا بمعرفة من الله وتعريف منه، وحمله الاتحاديون على مذهبهم، واجتذبوا أبا إسماعيل رحمه الله إليهم، وأقسموا بالله جهد أيمـانهم إنه لمنهم، وكلامه في الحقيقة مــوهم ولكن عقيدته ســليمة وله مؤلفــات تــدل على أنه من أهل السـنة، بينها العلمـاء في ترجمتـه. وعلى كل حـال فطريقة الرسل وأتبـاعهم والأئمة والعلماء هي معرفة الله تعالى بأسمائه وصـفاته، وذكـره بما ورد وبما أمر به وبما بلغته رسله، وبذلك يكون الإنسـان من العـارفين ومن الموحـدين، دون أن يحتاج إلى معرفة الاصطلاحات الصوفية والشـطحات، وتلك الكلمـات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

بيان أن مصطلح الفناء ونحوه غلو في الدين

قال المؤلف رحمه الله: [هذه النقول والعقول حاضرة، فهذا كلام الله المنزل على رسـوله صـلى الله عليه وسـلم، وهـذه سـنة الرسـول، وهـذا كلام خـير القرون بعد الرسول، وسادات العارفين من الأئمة، هل جـاء ذكر الفنـاء فيهـا، وهـذا التقسـيم عن أحد منهم؟ وإنما حصل هـذا من زيـادة الغلو في الــدين المشبه لغلو الخـوارج، بل لغلو النصـارى في دينهم، وقد ذم الله تعـالى الغلو في الدين ونهى عنه فقال : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُـوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُـوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ [النساء:171] ، قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّـبِيلِ [المائدة:77] وقـال صـلى الله عليه وسـلم : (لا تشـددوا فيشـدد الله عليكم، فـإن من كـان قبلكم شـددوا فشـدد الله عليهم، فتلك بقايـاهم في الصـوامع والــديارات، رهبانية ابتــدعوها ما كتبناها عليهم) رواه أبو داود] . أولاً: ذكر أن هذه الاصطلاحات لم يأت بها كتاب ولا سنة، يعني كلمـاتهم الاصـطلاحية الـتي يتغالون فيها، كتقسيم التوحيد إلى ثلاثة، وتقسـيم الفنـاء أيضـاً إلى ثلاثـة، وما أشبه ذلـك، فكلها ليس عليها دليـل، وإنما هي اصـطلاحات من عنـدهم. ثانيـاً: ذكر أن هــذا بســبب الغلو والغلو هو الزيــادة عن المطلــوب أو على الــوارد، والتشدد فيه، وقد حكى الله أن النصارى غلوا في عيسى حيث قـالوا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ [المائدة:17] أو ثالث ثلاثة: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ [المائدة:73] أو ابن الله: وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ [التوبة: 30] هــذا من الغلو الــذي ذمهم الله بـــه، وقد وقع الغلو في هــذه الأمة في العبادات وفي غيرها، كما فعلت الخوارج، فـإنهم غلـوا حـتى كفـروا بالـذنوب. ووقع الغلو في بعض الأشــخاص كالرافضة حيث غلــوا في أهل الــبيت، حــتى

اعتقدوا فيهم العصمة، وفضلوهم على كثير من الرسل، وأعطـوهم شـيئاً من حق اللـه. وقد ذم الله تعـالى الغلو ونهى عنه كما في سـورة النسـاء: يَا أَهْـلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُـوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُـوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَـقَّ [النسـاء:171] وفي سورة المائدة: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ... [المائدة:77] الآية. وكذلك في الأحـاديث؛ ففي هـذا الحديث الذي ذكره النهي عن التشدد، وذم المتشـددين فـإن من المتشـددين النصارى (فـإن قومـاً شـددوا فشـدد الله عليهم، فتلك بقايـاهم في الصـوامع والديارات رهبانية ابتدعوها)، وكذلك جاء الذم بلفظ الغلو في قوله صـلى الله عليه وسلم: (إياكم والغلـو، فإنما أهلك من كـان قبلكم الغلو في الـدين)، ذكر أنه أهلك من كان قبلنا، ودين الله تعالى وسط بين الغالي والجـافي، والغـالي هو الزائـد، والجـافي هو المقصـر، ولعله يأتينا في الغلو ما هو أوسع من هـذا البحث إن شاء الله.

الرد على المشبهة والمعطلة بقوله تعالى: (ليس كمثله شيء..)

قـال المؤلف رحمه اللـه: [قوله : (ولاشـيء مثلـه) اتفق أهل السـنة على أن الله ليس كمثله شــيء لا في ذاته ولا في صــفاته ولا في أفعالــه، ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظاً مجملاً يراد به المعنى الصـحيح، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صـفاته : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَـيْءٌ [الشـورى:11]رد على الممثلة المشـبهة، وَهُـوَ السَّـمِيعُ البَصِـيرُ [الشورى:11] رد على النفاة المعطلة، فمن جعل صفات الخالق مثل صـفات المخلـوق فهو المشـبه المبطل المـذموم، ومن جعل صـفات المخلـوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى في كفرهم. ويُـراد به أنه لا يثبت لله شـيء من الصفات، فلا يقال: له قدرة، ولا علم، ولا حيـاة؛ لأن العبد موصـوف بهـذه الصفات! ولازم هذا القول أنه لا يقال له : حي، عليم، قدير؛ لأن العبد يسـمى بهذه الأسماء، وكذا كلامه وسمعه وبصره وإرادته وغير ذلك]. في هذه العبارة وهذه الجملة رد على المشبهة الـذين غلـوا في الإثبـات حـتى شـبهوا الخـالق بالمخلوق، فهناك مشبهة للخـالق بـالمخلوق، وهنـاك مشـبهة لأفعـال الخـالق بأفعال المخلوق، وهناك مشبهة للمخلوق بالخالق، والكل ضالون.......

تشبيه الخالق بالمخلوق كفر

الذين شبهوا المخلوق بالخالق: كالنصارى الذين شـبهوا عيسى بالله فـ قَـالُوا إِنَّ اللَّهَ هُـوَ الْمَسِـيحُ [المائـدة:17] أو قـالوا: الْمَسِـيحُ ابْنُ اللَّهِ [التوبـة:30] ومثلهم جميع الذين يعظمون المخلوقين ويعطـونهم شـيئاً من حق اللـه، فـإن هـؤلاء شـبهوا المخلـوق بـالرب تعـالى حيث رفعـوا المخلـوق وأعطـوه ما لا يسـتحق، ومن هـؤلاء أيضـاً القبوريـون، فـإن القبـوريين الـذين غلـوا في المخلـوقين قد وصـفوهم بصـفات لا يسـتحقها إلا الخـالق، ولا شك أن هـؤلاء شبهوا المخلوق ورفعوا قدره حتى أعطوه شيئاً من خصائص الخالق سبحانه.

تشبيه أفعال الخالق بالمخلوق ضلال

أما التشبيه في الأفعال: فهو أن تجعل أفعال الله كأفعـال المخلـوق، أو تجعل أفعال المخلوق كأفعـال الخـالق، وتفصـيل ذلك والأمثلة عليه معروفة وتحتـاج إلى توسع ليس هـذا محلـه. ولكن يجب أن نعـرف أن الله تعـالى موصـوف ببعض الأفعال وقد يوصف بها العبد، مثل قوله تعـالى: الـرَّحْمَنُ عَلَى الْعَـرْشِ اسْـتَوَى [طـه:5] فالله تعـالى أخـبر بأنه اسـتوى على العـرش، والإنسـان موصوف أيضاً بالاستواء، قـال تعـالى: لِتَسْـتَوُوا عَلَى ظُهُـورِهِ [الزخـرف:13] وليس الاستواء كالاستواء. كذلك وصف الله تعالى نفسه بـالمجيء في قولـه: وَجَـاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَـكُ صَـفّاً صَـفّاً [الفجـر:22] وليس مجيء الله مثل مجيء الملائكة، بل مجيء الله يليق به، وكذلك وصف نفسه بالإتيان، قال تعالى: هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَـأْتِيَ بَعْضُ آيَـاتِ رَبِّكَ [الأنعـام: 158] وليس إتيان الله كإتيان الملائكة والملائكة مخلوقـون، فلهـذا نقـول إنها من الأفعال، ولا يجوز التشبيه فيها.

التشبيه في الصفات الذاتية ضلال

وكذلك لا يجوز أيضـاً التشـبيه بالصـفات الذاتية الـتي أثبتها الله لنفسـه، فـإذا أثبت الله لنفسه اليدين في قوله: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ [المائدة:64]، نقول: لا كيدي المخلوقين، وإذا أثبت لنفسه الوجه في قولـه: يُرِيـدُونَ وَجْهَـهُ [الأنعـام: 52]، وفي قوله: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ [القصـص:88]، وفي قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (حجابه النـور، لو كشـفه لأحـرقت سـبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) وفي قوله صلى الله عليه وسلم: (وما بين القـوم

وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عـدن) وأشـباه ذلـك، فنقـول: ليس كمثله شـيء في ذلـك، فأهل السـنة يقولـون: إنه وصف حقيقي، ولكن ليس مثل صــفات المخلــوقين وخصائصــهم. هــذا هو معــنى التشبيه، ولكن سمعنا أن هنـاك من اسـتعمل التشـبيه وأراد به نفي الصـفات، وهذه الطريقة سلكتها المعتزلة أتباع جهم بن صـفوان ونحـوه، وجعلـوا النفي مطلقـاً، ونفـوا عن الله كل صــفة وجـدت في المخلـوق، وزعمـوا أن إثباتها تشـبيه، فصـاروا يتعلقـون بهـذه الآيـة: لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ [الشـورى:11]ولا يتمونها، أو لا يعملون بآخرهـا، فـإن في آخرها رداً عليهم في نفيهم للصـفات، وقد روي أن كبيراً من كبرائهم يقال له: ابن أبي دؤاد قال لأحد الخلفــاء: أريد أن تكتب على الكعبة قوله: (ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم) هرباً من إثبات السمع والبصر! فلا شك أن هؤلاء غلواً في النفي، ولازم قــولهم أن كل صفة موجودة في أي مخلوق لا يجوز إثباتها للخالق، يعـني نقـول: يلـزمكم أن تنفوا صفة الحياة، وأن تنفوا صفة الوجود، وصفة الذات، وما أشـبه ذلـك، وإذا قلتم: إن لله ذاتاً، قلنا: شبهتم، فالمخلوق له ذات، فإذا قالوا: لا تشـبه ذواتنـا، قلنا: لماذا لا تقولون: وسمعه لا يشبه سمع المخلوقين، وبصـره لا يشـبه بصر المخلـوقين؟ وعلى كل حـال فالآية دليل لأهل السـنة، ولكن اتخـذها المعتزلة دليلاً لهم ولم يعملوا بآخرها؛ لأن في آخرها رداً عليهم، يقول العلمـاء: قولـه: لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ [الشـورى:11] رد على المشـبهة، وَهُـوَ السَّـمِيعُ البَصِـيرُ [الشورى:11] رد على المعطلة، فهذا بعض آية فيه رد على طــائفتين: طائفة غلت في النفي، وطائفة غلت في الإثبات. لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ [الشـورى:11] رد على الغلاة في الإثبات وَهُوَ السَّـمِيعُ البَصِـيرُ [الشـورى:11] رد على الغلاة في النفي.

الرد على المعطلة في غلوهم في نفي المشابهة بين الخالق والمخلوق

......

ذكر بعض النصوص التي تذكر أسماء وصفات مشتركة بين الخالق والمخلوق

قـال المؤلف رحمه اللـه: [وهم يوافقـون أهل السـنة على أنه موجـود، عليم، قـدير، حي، والمخلـوق يقـال لـه: موجـود، حي، عليم، قـدير، ولا يقـال : هـذا تشبيه يجب نفيه، وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل، ولا يخالف فيه عاقل؛ فـإن الله سـمى نفسه بأسـماء، وسـمى بعض عبـاده بهـا، وكـذلك سـمى صــفاته بأســماء، وســمى ببعضــها صــفات خلقــه، وليس المســمى

كالمسمي. فسمي نفسه: حياً عليماً قديراً رءوفاً رحيماً عزيزاً حكيماً سميعاً بصيراً ملكاً مؤمناً جباراً متكبراً، وقد سمى بعض عباده بهذه الأسماء فقـال : يُخْـرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ [الأنعـام:95] وَبَشَّـرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ [الـذاريات:28] فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ [الصـافات:101] بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [التوبـة:128] فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا [الإنسـان:2] قَـالَتِ امْـرَأَةُ الْعَزِيـزِ [يوسـف:51] وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ [الكهف:79] أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا [السـجدة:18] كَـذَلِكَ يَطْبَـعُ اللَّهُ عَلَى كُـلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ [غـافر:35] ومعلـوم أنه لا يماثل الحي الحي ولا العليم العليم، ولا العزيز العزيـز، وكـذلك سـائر الأسـماء. وقـال تعـالى : وَلا يُحِيطُونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِـهِ [البقـرة:255] أَنزَلَـهُ بِعِلْمِـهِ [النسـاء:166] (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَـعُ إِلَّا بِعِلْمِـهِ [فـاطر:11] إِنَّ اللَّهَ هُـوَ الـرَّزَّاقُ ذُو الْقُـوَّةِ الْمَتِينُ [الـذاريات:58] أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُـوَ أَشَـدُّ مِنْهُمْ قُـوَّةً [فصلت:15] وعن جابر رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صـلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فلـيركع ركعـتين من غـير الفريضـة، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقـدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيـوب، اللهم إن كنت تعلم أن هـذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال : عاجل أمري وآجله - فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيـه، وإن كنت تعلم أن هـذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال : عاجل أمري وآجله- فاصرفه عـني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به، قال: ويسمي حاجته) رواه البخاري. وفي حديث عمار بن ياسر الذي رواه النسائي وغيره عن النبي صـلى الله عليه وسـلم أنه كـان يـدعو بهـذا الـدعاء : (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفـاة خيرا لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسـألك كلمة الحق في الغضب والرضـى، وأسـألك القصد في الغـنى والفقـر، وأسـألك نعيمـاً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسـألك الرضى بعد القضـاء، وأسـألك بـرد العيش بعد الموت، وأسألك لـذة النظر إلى وجهك الكـريم، والشـوق إلى لقائك بغـير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هـداة مهتـدين). فقد سمى الله ورسوله صـفات اللـه: علمـاً وقـدرة وقـوة، وقـال تعـالى : ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً [الروم:54] وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَـاهُ [يوسـف:68] ومعلوم أنه ليس العلم كالعلم، ولا القوة كالقوة، ونظائر هذا كثيرة، وهذا لازم لجميع العقلاء].

أراد بهذا الرد على أولئك الذين كلما جاءتهم صفة لله موجـودة في المخلـوق نفوها عن الله تعالى وجعلوها مجـازاً، أو تأولوها بتـأويلات بعيـدة، وزعمـوا أن إثباتها فيه شيء من التشبيه، فيقال: يلزمكم على هذا أن تفرقـوا بين صـفات المخلـوقين، وأن تجمعـوا بين صـفاتهم وصـفات الخـالق، ويـرد عليهم بهـذه الآيـات. وفيما تقـدم من كلام المؤلـف: أن الله سـمى نفسه بعـدة أسـماء وسمى بها بعض خلقه، فمن أسمائه: العزيز، وسمى بعض خلقه بذلك بقولـه: قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ [يوسف:51] ومن أسمائه: الملـك، وسـمى به أيضـاً بعض خلقه في قولـه: وَقَـالَ الْمَلِـكُ ائْتُـونِي بِـهِ [يوسـف:50] وَكَـانَ وَرَاءَهُمْ مَلِـكٌ [الكهـف:79] ومن أسـمائه: المـؤمن، كما في سـورة الحشـر، وقد سـمى به أيضاً بعض خلقه، وكثيراً ما يذكر المؤمن والمؤمنين والمؤمنات، ومن أسمائه الجبار المتكبر، وقد سمى به أيضاً بعض خلقه كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُـلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ [غـــافر:35]. ومعلـــوم أنه ليس الاسم كالاســـم، فليس الملك كالملك، وليس العزيز كالعزيز، وليس الجبـار كالجبـار، فملك الله ليس كملك المخلـوق، وعـزة الله ليست كعـزة المخلـوق، إذ عـزة المخلـوقين محـدودة، وهكذا يقـال في بقية الأسـماء. فكـذلك إذا سـمى الله نفسه السـميع البصـير وَكَـانَ اللَّهُ سَـمِيعًا بَصِـيرًا [النسـاء:134]، وسـمى الإنسـان بقولـه: فَجَعَلْنَـاهُ سَـمِيعًا بَصِـيرًا [الإنسـان:2]، عـرف أنه ليس السـمع كالسـمع، وليس البصر كالبصر، وإن كان الاسم متحداً، فإن السمع هو: إدراك الأصوات، والبصر هـو: إدراك المبصـرات والمرئيـات، ولكن بينهما تفـاوت.هـذا في الأسـماء. وكـذلك يقال في الصفات: إذا وصف الله نفسه بالعلم، ووصف به بعض خلقه، عـرف أنه ليس العلم كـالعلم، بل بينهما فـرق، فعلم الله ليس كعلم المخلـوق الـذي هو حادث، والـذي يعتريه نسـيان وتغـير، فالله وصف نفسه بـالعلم وهو صـفة ذاتية، فلا يعتريه جهل ولا تتغير معلوماته وَهُـوَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ [البقـرة:29] وَمَا تَحْمِـلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَـعُ إِلَّا بِعِلْمِـهِ [فـاطر:11] ووصف أيضـاً بعض خلقه بالعلم: وَفَـوْقَ كُـلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ [يوسـف:76] وليس العلم كـالعلم. وكـذلك القدرة كما في هذه الأحاديث في قوله: (بعلمك الغيب وقـدرتك على الخلـق) وفي قوله: (إن كنت تعلم أن هذا الأمر خـير لي) وما أشـبه ذلـك، ولا شك أن هذا إثبات لهذه الصفة. فإذا أثبتها المسلم فـإن عليه أن يعتقد أنه ليس معناها كالمعنى الذي يثبت للمخلوق، بل صفة المخلوق تليق به، وصفة الخـالق تليق به، وبهذا إن شاء الله يصير المؤمن موحدا، فإذا أثبت الصفات ولم يعتقد فيها شيئاً من التشبيه، لامتناع التشابه بين صفات الخالق وصـفات المخلـوق، ولم ينفها عن الخــالق، واعتقد أنها حقيقة لائقة بالخــالق ســبحانه، وأن صــفات المخلوق يعتريها التغير والنقص، وليس كـذلك صـفات الخـالق فلا يكـون هـذا مشبهاً. بل المشبه كما عرفنا هو الذي يبـالغ فيقـول: يد الله كأيـدينا، وسـمعه كأسماعنا، وذاته كذوات المخلوق؛ تعالى الله عن ذلـك! وهـؤلاء هم الـذين رد الله عليهم بعدة آيات كما في قوله: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا [مريم:65] وفي قوله: فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ [النحل:74] وفي قوله: فَلا تَجْعَلُـوا لِلَّهِ أَنـدَادًا [البقـرة: 22]، وقوله: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَـدٌ [الإخلاص:4] وأشـباه ذلـك، فـإن هـذا رد

على الذين جعلـوا المخلـوق كالخـالق، أو الخـالق كـالمخلوق، تعـالى الله عن قولهم!

يخالف في إثبات الصفات لله تعالى كثير من الفرق، وهم درجات في الإنكار، وقد رد عليهم أهل السنة، وألزموا من أثبت صفة بإثبات جميع الصفات، ومن أثبت الأسماء فقط بإثبات الصفات، بل ألزموا من أنكر الأسماء والصفات بإثباتها بناء على إثباته للذات، وليس هذا فحسب، فقد ألزموا الدهرية بإثبات خالق واجب الوجود له أسماء وصفات.

وسطية أهل السنة بين المشبهة والنفاة

تقدم أن التوحيد قسمان: توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الذات. وتوحيد الأسماء والصفات. يسمى الأول: توحيد الربوبية. ويسمى الثاني: توحيد الصفات. وتوحيد الطلب والقصد، وتوحيد الطلب والقصد هو توحيد العبادة. وتوحيد الذات أو الربوبية قد أقر به المشركون، وإنما أنكره بعض الدهرية الذين يخالفون المعقول والمنقول، وهم الذين يقولون: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ [الجاثية:24]. وأما توحيد الصفات فقد تقدم أيضاً تعريفه، وأنه إفراد الله تعالى بصفات الكمال، واعتقاد أنه موصوف بكمال الصفات، وأنه منزه عن صفات النقص، وأن صفاته الثابتة له لا يشبهه فيها غيره، فينبني هذا النوع على النفي والإثبات، فالنفي هو نفي مماثلة المخلوقات، والإثبات هو إثبات صفات الكمال. وسماه السلف توحيداً لكثرة من خالف فيه في زمانهم فقد كان الخلاف في إثبات الصفات شديداً، حيث دخل في الإسلام من أنكر حقيقة الصفات، ونفى صفات الكمال عن الرب سبحانه وتعالى، فاحتاج السلف أن يعتنوا بالأدلة التي تبين ثبوت تلك الصفات لله سبحانه، والأدلة التي تبين توحده، وعدم مشابهة المخلوقات للرب تعالى في خصائصه أو شيء من صفاته. ثم ذكرنا عن السلف أنهم مع الإثبات ينفون التشبيه، ولكن المبالغة في النفي قد صارت سمة للمعطلة، ولذلك يقول بعض السلف: إذا رأيت الإنسان يبالغ في نفي التشبيه فاتهمه أنه من نفاة الصفات، وذلك لأن كثيراً من النفاة يرددون أن الله لا شبيه له لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى:11] لا يشبهه شيء.. لا يشبه الأنام، ويقصدون بذلك نفي الصفات كلها، ويدعون أن كل صفة وجدت في المخلوق لا يجوز إثباتها للخالق، وهذا في الحقيقة تعطيل، وإنما الواجب أن تثبت على ما يليق بالخالق تعالى، وينفى عنها مشابهة المخلوق، هذه هي طريقة أهل السنة. وقد قرأنا الآيات التي فيها أن الله وصف نفسه بصفات موجودة في المخلوق، وسمى نفسه بأسماء قد سمى بها بعض الخلق، وأنه لا يلزم التماثل، فنحن نقول: إن الله تعالى سميع بصير، والإنسان سميع بصير، ولكن ليس هذا كهذا، وهكذا يقال في بقية الأسماء والصفات كما تقدم، فنستحضر أن المبالغة في نفي الشبيه قد يتخذها النفاة ذريعة إلى نفي الصفات كما تقدم، وسيأتي الكلام على هذه الجملة وما بعدها. ......

إلزام المخالفين لأهل السنة بإثبات إله متصف بما وصف به نفسه

......

إلزام من أثبت بعض الصفات بإثبات الصفات الأخرى

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقال تعـالى : ثُمَّ جَعَـلَ مِنْ بَعْـدِ ضَـعْفٍ قُـوَّةً [الروم:54] وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَـاهُ [يوسـف:68]، ومعلـوم أنه ليس العلم كالعلم، ولا القوة كالقوة، ونظـائر هـذا كثـيرة. وهـذا لازم لجميع العقلاء، فـإن من نفي صـــفة من صـــفاته الـــتي وصف الله بها نفســـه، كالرضى والغضب والحب والبغض ونحو ذلك، وزعم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسـيم! قيل له : فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسـمع والبصـر، مع أن ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين، فقل فيما نفيته وأثبته الله ورسـوله مثل قولك فيما أثبتـه، إذ لا فـرق بينهمـا]. هنا يـرد على بعض النفـاة، وهم من يـدعون بالأشـاعرة، فـإنهم يثبتـون أن الله يسـمع ويبصر ويتكلم ويقـدر ويعلم ويريـد، ويثبتـون له الحيـاة، ومع ذلك ينفـون الصـفات الفعليـة، فنفـوا أن الله يحب أو يبغض أو يفرح، وكذلك ينفون أن لله سبحانه وجهاً أو يداً كما أثبت لنفسه، وهكـذا بقية الصفات. فإذا طلب منهم سبب النفي قالوا: إن هـذه موجـودة في المخلـوق، فـالمخلوق يغضب ويرضى ويحب ويبغض، فلا يكـون الـرب مثلـه. قيل لهم: عجبـــاً لكم! إذاً: أنتم تقولـــون إن الله يريد ويعلم ويســـمع ويتكلم ويقـــدر، والمخلوقون كذلك، لهم إرادة وسـمع وبصر وعلم وقـدرة، فما الفـرق بين ما أثبتم وما نفيتم؟! ولا يجـدون سـبيلاً إلى الفـرق، فتنقطع بـذلك حجتهم، حيث فرقوا بين ما جمع الله بينه، فأثبتوا الإرادة ونفوا المحبة، ولا فرق بينهما.

إلزام من أثبت الأسماء بإثبات الصفات

قـال رحمه اللـه: [فـإن قـال : أنا لا أثبت شـيئا من الصـفات! قيل له : فـأنت تثبت له الأسماء الحسنى مثل : عليم حي قادر، والعبد يسمى بهـذه الأسـماء، وليس ما يثبت للرب من هذه الأسماء مماثلا لما يثبت للعبد، فقل في صــفاته نظير قولك في مسمى أسمائه]. هذه طائفة أخـرى من النفـاة وهم المعتزلة الذين لا يثبتون شيئاً من الصفات، فلا يثبتون أن الله حي ولا سـميع ولا بصـير ... إلخ، تعالى الله عن قولهم، ولكنهم يثبتون الأسماء فيقولون: إن الله سميع

بصير عليم قدير حي مريد ملك قدوس.. يثبتون هذه كأسماء، ولكنهم لا يجعلونها دالة على صفات. فيقال لهم: المخلوق أيضاً يسمى حياً، ويسمى قديراً، ويسمى عليماً، فقد أثبتم أسماء موجودة في المخلوق، فإذا أثبتم الأسماء لزمكم إثبات الصفات فلا فرق. ويقال لهم فيما نفوا مثل قولهم فيما أثبتوا، إذا قالوا: إننا نثبتها على أنها أسماء ينادى بها الرب تعالى، قلنا: المخلوق ينادى بها، فإذا كان لا يلزم التشبيه مع كونها ثابتة للمخلوق، فلماذا لا تثبتون الصفات وتجعلونها مناسبة للموصوف.

إلزام من أثبت الذات بإثبات الأسماء والصفات

قال رحمه الله: [فإن قال : وأنا لا أثبت له الأسماء الحسنى، بل أقول هي مجاز، وهي أسماء لبعض مبتدعاته، كقول غلاة الباطنية والمتفلسفة! قيل له : فلا بد أن تعتقد أنه موجود وحق، قائم بنفسه، والجسم موجود قائم بنفسه، وليس هو مماثلا له]. هذا قول طائفة أخرى أشد من المعتزلة، وأضل منهم، وهم غلاة الباطنية والملاحدة وغلاة الفلاسفة، يقولون: إنا لا نثبت الأسماء ولا نثبت الصفات وهذه الأسماء التي يسمى بها الله ليست حقيقة، وإنما هي مجاز، وهي أسماء لبعض المخلوقات أو المخترعات. فيقال لهم: لا بد أنكم تثبتون أن الله موجود وقائم بنفسه، والمخلوق كذلك موجود وقائم بنفسه، فإذا أثبتم هذا الوصف الذي هو موصوف به المخلوق فقد وقعتم فيما فررتم منه، فإنكم فررتم من التشبيه ووقعتم فيه، فلا محيد لكم عن ذلك، فهذا يبين تناقض هؤلاء النفاة.

إلزام الدهرية بإثبات إله واجب الوجود

قال رحمه الله: [فإن قال : أنا لا أثبت شيئا بل أنكر وجود الواجب. قيل له : معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه، وإما غير واجب بنفسه، وإما قديم أزلي، وإما حادث كائن بعد أن لم يكن، وإما مخلوق مفتقر إلى خالق، وإما غير مخلوق ولا مفتقر إلى خالق، وإما فقير إلى ما سواه. وإما غني عما سواه، وغير الواجب بنفسه لا يكون إلا بالواجب بنفسه، والحادث لا يكون إلا بقديم، والمخلوق لا يكون إلا بخالق، والفقير لا يكون إلا بغني عنه، فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه، قديم أزلي خالق

غني عما سواه، وما سواه بخلاف ذلـك]. هـذه حجة على الدهرية والشـيوعية ونحوهم الذين ينكرون واجب الوجود، فيحتج عليهم بحجة عقليـة، فيقـال لهم: إن هــذه الموجــودات حادثــة، والحــادث لا بد له من محــدث، وإذا قلنــا: إن المحدث الذي أحدثه يفتقر إلى محدث آخر لزم التسلسـل، فيقـال: إذاً هنـاك محــدث لها وهو الله تعــالى. ويقــال أيضــاً: إن الموجــودات قســمان: واجب الوجــود، وممكن الوجــود، وواجب الوجــود هو الخــالق، وممكن الوجــود هو المخلــوق؛ لأنه يمكن أن يوجد ولأنه يــأتي عليه الفنــاء. وتنقسم أيضــاً إلى قسمين: غني بنفسه لا يحتاج إلى غيره وهو الخالق، وفقير بالذات مفتقر إلى غـيره وهو المخلـوق، فـالمخلوق مفتقر ووصف الفقر لازم لـه، ولـذلك يقـول شيخ الإسـلام ابن تيمية في قصـيدة لـه: والفقر لي وصف ذات لازم أبـداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي يقول: إن الفقر وصف ذاتي للمخلوقات، وأن الغنى الذاتي وصف للخالق تعالى، فالله غـني بذاتـه، والمخلـوق فقـير بذاتـه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيـدُ [فـاطر:15]. وإذا سـألنا العاقل عن هذه الأشياء، اضـطر إلى الاعـتراف بـأن هنـاك خالقـاً غنيـاً قائمـاً بنفسه، قديماً أزلياً غير مسبوق بعدم، ولا يأتي عليه الفنـاء، وذلك أخـذاً بعين الاعتبـار من هـذه الموجـودات الـتي وجـدت وتفـني، أن الموجـود لا بد له من موجد، قال تعالى: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ [الطور:35] فـإذا لم يكونوا خلقوا من غير شيء، تعين أنهم مخلوقون من شيء، وإذا لم يكونوا هم الخــالقين تعين أن لهم خالقــاً خلقهم، فليس الإنســان يخلق نفســه، وإلا لحرص على أن يكمل خلقه، وكذلك ليس هو يخلق ولده، وإلا لحرص على أن يكــون ولــده على أحسن ما يكــون، فنحن نشــاهد أن الإنســان يولد له ولد مشلول، ويولد له أولاد ناقصو الخلقة، ويولد له من هم ناقصو العقلية، وكذلك قد يولد له ذكور، أو إناث، أو إناث وذكـور، وذلك دليل على أنه ليس هو الـذي يختار، وليس هو الذي يقـدر لنفسـه، بل هنـاك من يخلق هـذا الخلق ويقـدره، وهو الخــالق وحــده، فعــرف بــذلك أن هــذا الوجــود مفتقر إلى موجد واجب الوجود. إذاً: ما دام أن هذا الوجـود مفتقر إلى مـوجب، فيلـزم أن يكـون ذلك الموجد موصوفاً بصفات تناسـبه لا تشـبه صـفات المخلـوق، وإلا لأتى عليه ما يأتي على المخلوق من الفناء. إذاً: فهناك فـرق كبـير بين الخـالق والمخلـوق، فالخالق حي لا يموت، والمخلوق يموت، والخـالق قـديم غـير مسـبوق بعـدم، والمخلـوق مسـبوق بعـدم، يخلق ثم يفـنى، كما هو مشـاهد، والخـالق غـني بنفسه، والمخلوق فقير بالـذات لا غـنى له عن ربه طرفة عين. فهـذا يحتج به على هؤلاء النفاة الذين ينكرون أن يكون للوجود موجد، ويسندون الأشياء إلى الطبـائع، تعـالى الله عن قــولهم، والطبـائع لا بد لها من طـابع، فليس هنـاك معتمد يعتمدونه ويسـتندون إليه إلا عقــول فاســدة، فلا يلتفت إلى ترهــاتهم وأباطيلهم.

وجود المخلوقات يدل بالضرورة على وجود خالقها

قال رحمه الله: [وقد علم بالحس والضرورة وجود موجود حادث كائن بعد أن لم يكن، والحادث لا يكون واجباً بنفسه، ولا قديماً أزلياً، ولا خالقاً لما سواه، ولا غنياً عما سواه، فثبت بالضرورة وجود موجودين: أحدهما واجب، والآخر ممكن، أحدهما قديم والآخر حادث، أحدهما غني والآخر فقير، أحدهما خالق والآخر مخلوق، وهما متفقان في كون كل منهما شيئاً موجوداً ثابتاً، ومن المعلوم أيضا أن أحدهما ليس مماثلا للآخر في حقيقته، إذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع، وأحدهما يجب قدمه وهو موجود بنفسه، والآخر لا يجب قدمه ولا هو موجود بنفسه، وأحدهما خالق والآخر ليس بخالق، وأحدهما غني عما سواه والآخر فقير. فلو تماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب القدم ليس بواجب القدم، موجوداً بنفسه غير موجود بنفسه، خالقاً ليس بخالق، غنياً غير غني، فيلزم اجتماع الضدين على تقدير تماثلهما، فعلم أن تماثلهما منتف بصريح العقل، كما هو منتف بنصوص الشرع]. هذا تكميل للحجة العقلية في الرد على الشيوعيين والدهريين، فهو يقول: إننا نشاهد أن على الأرض هذا المخلوق، الذي هو الإنسان والحيوان والدواب والأشجار والنباتات ونحوها، ونعرف أنها كائنة حية، ونعرف أنها موجودة وأنها أشياء، ونعرف أنها حادثة مسبوقة بعدم، ونعرف أنه يأتي عليها الفناء والعدم، فتيبس الأشجار وتنقطع الثمار مثلاً، وتموت الدواب والحشرات ونحوها وتتوالد، ويموت الإنسان ويخلفه غيره وهكذا، فهذا الدليل يبين أنها حادثة، والحادث فقير، فلا بد أن يكون الذي أحدثه غني، والحادث عاجز، ولا بد أن يكون الذي أحدثه قادر كامل القدرة، والحادث مستجد ولا بد أن يكون الذي أحدثه قديم، فإذا كان كذلك فالذين ينكرون هذا الدليل العقلي قد أنكروا المحسوس. ونعرف الفرق الكبير بين الحادث والمحدث.. بين المخلوق والخالق.. بين الغني والفقير.. بين واجب الوجود وممكن الوجود أو جائز الوجود.. بين الموجود بنفسه وبين الموجود بغيره، ففرق كبير بين هذا وهذا، فبهذا الدليل العقلي يرد على هذه الطوائف. وأما الأدلة السمعية فإنها أشهر وأظهر، وكثيراً ما يحتج الله تعالى بالآيات الظاهرة على وجوده وعلى عظمة شأنه ونحو ذلك، وقد تقدم لنا شيء من الأدلة على ذلك.

الاتفاق في التسمية بين ما للخالق والمخلوق لا يلزم منه المشابهة

قال رحمه الله: [فعلم بهذه الأدلة اتفاقهما من وجه واختلافهما من وجه، فمن نفى ما اتفقا فيه كان معطلا قائلا بالباطل، ومن جعلهما متماثلين كان

مشـبهاً قـائلاً بالباطل والله أعلم؛ وذلك لأنهما وإن اتفقا في مسـمى ما اتفقا فيــه، فالله تعــالى مختص بوجــوده وعلمه وقدرته وســائر صــفاته، والعبد لا يشركه في شيء من ذلك، والعبد أيضاً مختص بوجوده وعلمه وقدرتــه، والله تعــالى مــنزه عن مشـاركة العبد في خصائصــه]. أي: أن الخــالق والمخلــوق مشـتركان في الأسـماء، فالخـالق شـيء والمخلـوق شـيء، الخـالق موجـود والمخلوق موجود، الخالق ثابت والمخلوق ثـابت، وكـذلك في بعض الصـفات، يقال مثلاً: الله حي، والإنسان حي، وما أشبه ذلـك، لكن هـذا الاتفـاق لا يلـزم منه التشـابه، بل بينهما فـرق كبـير، إذا عرفنا دلالة العقل على وجـود خـالق قدير قديم أزلي قادر لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن قدرته شيء، عرف بـذلك أن المخلـوق ينـافي هـذه الصـفات، فهو محـدث وفقـير.. إلى آخر ما تقـدم. فيثبت بذلك وجود الخالق، واتصافه بالصفات التي يتصف بها المخلــوق، ولكن لا يلزم التشابه بين صـفة الخـالق وصـفة المخلـوق، كما لا يلـزم التشـابه بين الذاتين. قال رحمه الله: [وإذا اتفقا في مسمى الوجود والعلم والقدرة، فهــذا المشترك مطلق كلي يوجد في الأذهان لا في الأعيان، والموجود في الأعيــان مختص لا اشـتراك فيـه، وهـذا موضع اضـطرب فيه كثـير من النظـار، حيث توهموا أن الاتفـاق في مسـمى هـذه الأشـياء يـوجب أن يكـون الوجـود الـذي للرب كالوجود الذي للعبد]. أي: وهـذا خطـأ، فإنه إذا اتفق اثنـان في اسم لم يلـزم أن يكـون هـذا كهـذا، فإننا نسـمي الشـجر حيـاً، ونسـمي الحيـوان حيـاً، فالبعير حي والإنسان حي، والشجر حي، ولا يلزم أن يكون هذا كهـذا، ويقـال: موجود في هذه البلد جبال، فالجبال موجـودة والحيوانـات موجـودة، فـاتفقت في كلمة الوجود، ولا يلـزم أن تكـون الجبـال كالحيوانـات، بل بينها فـرق، فما دام كـذلك فلا يلـزم إذا قلنـا: الله حي والإنسـان حي، أن يكـون هنـاك تشـابه بينهما، فليست هذه الحياة كهذه الحياة، ولا العلم كالعلم، ولا القدرة كالقدرة، وعـرف بـذلك ضـلال هـذه الطوائف في هـذه التقـديرات. قـال رحمه اللـه: [وطائفة ظنت أن لفظ الوجـود يقـال بالاشـتراك اللفظي، وكـابروا عقـولهم؛ فإن هذه الأسماء عامة قابلة للتقسيم، كما يقال : الموجود ينقسم إلى واجب وممكن وقــديم وحــادث، ومــورد التقســيم مشــترك بين الأقســام، واللفظ المشـترك كلفظ المشـتري الواقع على المبتـاع والكـوكب، لا ينقسم معنـاه، ولكن يقال : لفظ المشتري يقال على كذا أو على كذا، وأمثال هذه المقـالات التي قد بسط الكلام عليها في موضعه]. وهذه طوائف من المتكلمين يبالغون في مثل هذه الأشـياء، ويـرد عليهم فيقـال مثلاً: إن هنـاك وجـوداً في الأعيـان ووجـوداً في الأذهـان، والمعـنى الموجـود في الأذهـان هو ما يتخيله الإنسـان بعقله، ولكن قد يتخيل وقد يصور بعقله أشياء غـير حقيقيـة، فعـرف بـذلك أن الوجود في الأذهان لا يلزم منه التماثل، فـإذا مثل الإنسـان في ذهنه شـيئاً أو تخيل أشياء لم يلزم أن تكون واقعية. وأما الذين قالوا إن الوجود لفظ مقــول بالاشتراك اللفظي، فلا شك أن هؤلاء أيضاً أخطئوا، ومعلوم أن هنـاك كلمـات تشترك فيها موجودات ولكن تختلف المسميات، فعندنا كلمة (المشــتري) تقع على الـذي يشـتري منك سـلعة، وتقع على الكـوكب المشـهور، فيقـال: هـذا الكوكب اسمه المشتري، ومعلوم أن هذا كوكب وهذا إنسـان. وأما قـولهم إن

كلمة (موجود) مشتركة لفظاً، فهذا خطأ، فإن اللسان الذي تكلمت به العـرب تدل على أن الموجود هو الذي له وجود في الأعيان ويـدرك بـالعين. ولا يقـال للموجـود في الـذهن إنه موجـود حيث إنه لا يـدرك بالأعيـان، فلا بد أن يكـون الوجود مدركاً بالأعين لا مقدراً في الـذهن، فظهر بـذلك خطأ الـذين يقولـون إنه من باب الاشتراك اللفظي. ......

بيـان خطأ النفـاة في تـوهمهم أن الأسـماء الكلية يكـون مسـماها ثابتـاً في الأعيان

قـال رحمه اللـه: [وأصل الخطأ والغلط : تـوهمهم أن هـذه الأسـماء العامة الكليـة، يكـون مسـماها المطلق الكلي، هو بعينه ثابتـاً في هـذا المعين وهـذا المعين، وليس كـذلك، فـإن ما يوجد في الخـارج لا يوجد مطلقـاً كليـاً، بل لا يوجد إلا معيناً مختصاً، وهذه الأسـماء إذا سـمي الله بها كـان مسـماها معينـاً مختصاً به، فإذا سمي بها العبد كان مسماها مختصاً به، فوجـود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره، بل وجود هذا الموجود المعين لا يشـركه فيه غـيره، فكيف بوجـود الخـالق ؟ ألا تـرى أنك تقـول: هـذا هو ذاك، فالمشـار إليه واحد لكن بوجهين مختلفين]. إن الكلام على ما يتعلق بالوجود في الـذهن وبـالوجود في العين كلام يتعلق بالاحتجاج على الملاحدة ونحـوهم، فهم يحتـاجون إلى بسط في الكلام، وإلى إقناع لهم، لأجل ذلك نقل الشارح هـذا الكلام من كتب شـيخ الإسـلام ابن تيمية وغـيره؛ ليـبين أنهم يفرضـون وجـوداً في الـذهن مخالفـاً للوجود في العين، ثم يعتقدون أنه لو أطلق أنه موجود في العين لحصل بذلك تشابه، فلذلك نفـوا الوجـود في العين، وقـدروا وجـوداً في الـذهن، وكل ذلك كلام لا طائل تحتـه، والمسـلم على فطرته يعتقد أن كل صـفة ثبتت للخـالق فإنه لا يشبه فيها خلقه، وأن المخلوق بصفاته ناقص وحادث، وصفاته تناسـبه، كما أن صـفات الخـالق تناسـبه. قـال رحمه اللـه: [وبهـذا ومثله يتـبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنى وزادوا فيه على الحق فضلوا، وأن المعطلة أخـذوا نفي المماثلة بوجه من الوجوه، وزادوا فيه على الحق حتى ضـلوا، وأن كتـاب الله دل على الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصـحيحة، وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه. فالنفـاة أحسـنوا في تنزيه الخـالق سـبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه؛ ولكن أساءوا في نفي المعاني الثابتة لله تعـالى في نفس الأمـر، والمشـبهة أحسـنوا في إثبـات الصـفات ولكن أسـاءوا بزيـادة التشبيه]. أي: وكلا الطائفتين مخطئة ضالة، الذين غلوا في الإثبات حتى جعلوا صفات المخلوق كصفات الخالق، قالوا: لله يد كأيدينا، ووجه كوجوهنـا، تعـالى الله عن قـولهم، نعم هم أحسـنوا في إثبـات الصـفة ولكنهم أخطئـوا في التشبيه. وأما النفاة فهم الذين غلوا في النفي، فقالوا: كل صفة موجـودة في المخلوق لا يمكن أن تثبت للخالق فإن إثباتها يئـول إلى التشـبيه، والله تعـالى ليس كمثله شـيء، فأحسـنوا في نفي التشـبيه ولكنهم أسـاءوا حيث نفـوا الصفات الثابتة الموجودة. والوسط أن يقال: صفات الخالق تليق به، وصـفات

المخلوق تليق بـه، وليست هـذه كهـذه، ويثبت ما أثبته الله لنفسـه، وينفى ما نفاه عن نفسه.

المخاطب لا يفهم معاني الألفاظ إلا بعد معرفة عينها أو ما يناسب عينها

قال رحمه الله: [واعلم أن المخاطب لا يفهم المعـاني المعـبر عنها باللفظ إلا أن يعرف عينها أو ما يناسب عينهـا، ويكـون بينها قـدر مشـترك ومشـابهة في أصل المعنى، وإلا فلا يمكن تفهيم المخاطبين بـدون هـذا قـط، حـتى في أول تعليم معاني الكلام بتعليم معـاني الألفـاظ المفـردة، مثل تربية الصـبي الـذي يعلم البيـان واللغـة، ينطق له باللفظ المفـرد ويشـار له إلى معنـاه إن كـان مشـهوداً بالإحسـاس الظـاهر أو البـاطن؛ فيقـال له : لبن.. خـبز.. أم.. أب.. سماء.. أرض.. شمس.. قمر.. ماء، ويشار له مع العبـارة إلى كل مسـمى من هذه المسميات، وإلا لم يفهم معنى اللفظ ومـراد النـاطق بـه، وليس أحد من بـني آدم يسـتغني عن التعليم السـمعي، كيف وآدم أبو البشر وأول ما علمه الله تعالى أصول الأدلة السـمعية وهي الأسـماء كلهـا، وكلمه وعلمه بخطـاب الوحي ما لم يعلمه بمجرد العقل]. معلوم أن هـذه المسـميات لا تفهم إلا بعد التفهيم، فلو قدم إنسان أعجمي إلى هذه البلاد، ولا يعرف ما نتكلم به، احتـاج إلى مدة وزمان حتى يعـرف المسميات، فيسـمع كلمة (رجـل)، ولا يـدري ما تدل عليه حتى يقال له: هذا هو الرجـل، ويسـمع كلمة (كرسـي) ولا يـدري ما هو حتى يقال: هذا هو الكرسي، يسـمع كلمة (مسـجد) ولا يـدري ما هو حـتى يقـال لـه: هـذا هو المسـجد، وهـذا هو السـقف، وهـذا هو الفـراش، وهـذا هو العمود، وهذه هي الألواح، فيأخذها بالتدريج، كالصبي عندما يلقن كلمـة كلمـة، فيقال له مثلاً: هذا هو الأب، وهذه هي الأم، وهذا هو الخـبز، فـإذا سـمع كلمة الخبز فقد لا يفهم حتى يشـار إليـه، وهـذا هو اللبن، وهـذا هو اللحم، فيأخـذها بالتدريج. فمعلـوم أن هـذه الأسـماء لا بد أن تفهم بالتـدريج، والله تعـالى علّم آدم الأسـماء كلها كما ورد في الحـديث، اسم الإنسـان، وأسـماء الحيوانـات والدواب والأدوات، والكواكب، والحشرات، والنباتات . هـذا التعليم لا شك أنه لقنه تلقيناً، قيل له: هذا اسمه كذا، هذا اسمه كذا، فكذلك هذه الكلمات الـتي نتكلم بها في هذه اللغة، وكذلك الأعاجم، لا نعرف اصطلاحاتهم حتى يسـموها لنا، فتؤخذ بالتعلم وبالتدريج، فإذا كان معلوماً أن هـذه المسـميات لها معـان، فكلمة (الحب) قد لا نسـتطيع أن نعـبر عن معناها ولكن فهمت باصـطلاحنا، والأعاجم لا يدرون ما معناها، حـتى يشـار لهم. الله تعـالى أثبت المحبة فنحن نفهمها ونقول: إن معناها كذا فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ [آل عمـران:76] إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِـنِينَ [البقـرة:195] ونحو ذلـك، وكلمة العجب أثبتها الله بقولـه: وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَـوْلُهُمْ [الرعـد:5] فنحن نفهمها بلغتنـا، ونترجمها باللغـات

الأخرى، ونعرف مـدلولها ومعناهـا، وكـذا كلمة الغضـب، وكلمة الرضـا، وكلمة البغض، وكلمة الرحمة، وما أشبه ذلك. هذه كلمـات تـدل على صـفات، فلا بد أن العـرب الـذين نـزلت عليهم يفهمـون مـدلولها، وإذا كـان مـدلولها واضـحاً عندهم، عرف بذلك أنها مفهومة المعاني، وأنها دالة على صـفات، وأن الـذين قرئت عليهم فهموا مـدلولها. فهـؤلاء الـذين أنكروها يقـال لهم: أنكـرتم شـيئاً مفهوماً معقولاً في عقـولكم وفي عقـول من قبلكم، فـأنكرتم الحس والعقل والشرع، فيعرف بذلك أن الألفاظ التي تأولوها أو أنكروها، أو قالوا إنها ذهنية، أو إنها مشتركة اشتراكاً لفظاً، أو إنها مجاز، أو ما أشبه ذلـك، لا حجة لهم في ذلك، وذلك كتأويلهم للرحمة وللغضب وللرضا، لليد وللعلو وللنزول وللاسـتواء وما أشبه ذلك، مع أنها كلمات مفهومة عند الذين نطقـوا بهـا، ومعلـوم معناها عندهم كما يعرفون مسـمى الخـبز ومسـمى اللبن ومسـمى اللحم وما أشـبه ذلـك، فيعرفـون هـذه ويعرفـون هـذه، فما الـذي جعلكم تتـأولون الصـفات وتتكلمـون فيهـا، ولا تؤولـون كلمة الخـبز وكلمة اللحم وكلمة التمر وما أشـبه ذلك، فالذين تكلموا بهذا يفهمونه كالذين تكلموا بهذا. فهذا يـبين أن تـأويلاتهم بعيدة عن العقل والفطرة.

شرح العقيدة الطحاوية [9]

أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين، فخـاطب النـاس بلسـانهم، وعلمهم بالتـدريج، وكـان مما خـاطبهم به التعريف بالله بأسـمائه وصـفاته، وذلك بألفـاظ يفهمـون معانيهـا، ويفهمـون أن المخلـوق وإن اتصف بمسمياتها لكن الحقائق تختلف، ولذلك لم يتوهموا تشـبيهاً، ولا فـروا منه إلى النفي والتعطيل، بل أثبتوا كلمة التوحيد، وثبتوا على ما جاء في التنزيل.

وضوح البلاغ وحرص المبلغ يقتضي وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته

يعتقد المسلمون أن الله تعالى موصوف بصفات الكمال، ويعتقدون أن توحيد الصفات متلقىً عن الشرع، مأخوذ عن كتاب الله تعالى وسـنة رسـوله صـلى الله عليه وسلم، وذلك لأنه عليه الصـلاة والسـلام اختـاره الله لحمل الرسـالة لما فيه من الأهلية، فهو عليه الصلاة والسلام من أفصـفح الخلـق، وأنصـحهم، يحب الخير لأمتـه، قـال تعـالى: لَقَـدْ جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أَنفُسِـكُمْ يعـني: من جنسكم عَزِيـزٌ عَلَيْـهِ مَا عَنِتُّمْ حَـرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِـالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [التوبـة: 128] فإذا كان حريصاً على هداية الأمة، وإذا كان يحب لهم النجاة، وإذا رزقه الله وأعطاه الفصـاحة، والقـدرة على البلاغ والبيـان، فلا بد أنه قد بلـغ، ولا بد أنه قد بين، ومن اعتقد أنه كتم ما أنــزل إليه كفــر، ومن اعتقد أنه لبس على الأمة وأوقعهم في الحيرة كفــر، بل نعتقد أنه بلغ ولم يكتم، وأوضح وبين. وإذا رجعنا إلى بيانه وإلى ما بلغه وجدناه واضحاً. ومعلوم أنه عليه الصلاة والسلام ظهر في أناس يتكلمون باللغة العربية ويفهمون كلامه، وإذا كان كــذلك فلا بد أنه خاطبهم بما يفهمون، فنرجع إلى لغتهم. ومعلوم أنه جاء بشيء لم يكونــوا يعرفونه، فسماه بأسماء يفهمونها، فما كانوا يعرفـون كلمة الإسـلام، ولا كلمة الإيمـان على مسـماها الشـرعي، ولا كـانوا يعرفـون الصـلاة ولا الوضـوء ولا الصوم على مسماها الشرعي، وكذلك لم يكونوا يعرفون مسـمى النفـاق، ولا مسـمى الكفـر، ولا الشـرك، ولا الفسـوق بمسـماها الشـرعي، لكن يعرفـون الكلمات على معان أخرى، فاستعمل هذه المعاني الـتي تقـارب ما يعرفونـه. وإذا كان هـذا في هـذه الأمـور المعتـادة فإنه أيضـاً تكلم معهم في الصـفات، فـإنهم يعرفـون السـمع وما يطلق عليـه، وكـذلك البصـر، والقـدرة، والقـوة، والعلم، والكلام، فلابد أنه خـاطبهم بالأشـياء الـتي يفهمونهـا، وأنهم فهمـوا ما بلغهم به. على هذا: فإن الذين يتكلفون في صـرف اللفظ عن ظـاهره لا شك أنهم وقعـوا في ضـلال، ووقعـوا في تخطئة النـبي عليه الصـلاة والسـلام من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون.......

بيان أن الشرع خاطب العرب بصفات الله وهم يفهمون معانيها

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [واعلم أن المخـاطب لا يفهم المعـاني المعـبر عنها باللفظ إلا أن يعرف عينها، أو ما يناسب عينها، ويكون بينها قدر مشـترك ومشابهة في أصل المعنى، وإلا فلا يمكن تفهيم المخـاطبين بـدون هـذا قـط، حتى في أول تعليم معـاني الكلام بتعليم معـاني الألفـاظ المفـردة، مثل تربية الصبي الذي يعلم البيان واللغة، ينطق له باللفظ المفرد ويشار له إلى معنــاه إن كان مشهوداً بالإحساس الظاهر أو الباطن، فيقال لـه: لبن، خـبز، أم، أب، سماء، أرض، شـمس، قمـر، مـاء، ويشـار له مع العبـارة إلى كل مسـمى من هذه المسميات، وإلا لم يفهم معنى اللفظ ومـراد النـاطق بـه، وليس أحد من بـني آدم يسـتغني عن التعليم السـمعي، كيف وآدم أبو البشـر، وأول ما علمه الله تعالى أصول الأدلة السـمعية وهي الأسـماء كلهـا، وكلمه وعلمه بخطـاب الـوحي ما لم يعلمه بمجـرد العقـل. فدلالة اللفظ على المعـنى هي بواسـطة دلالته على ما عنـــاه المتكلم وأراده، وإرادته وعنايته في قلبـــه، فلا يعـــرف باللفظ ابتـداء ولكن لا يعـرف المعـنى بغـير اللفـظ، حـتى يعلم أولاً أن هـذا المعنى المراد هو الذي يراد بذلك اللفظ ويعنى به، فـإذا عـرف ذلك ثم سـمع اللفظ مرة ثانية، عرف المعنى المراد بلا إشارة إليه. وإن كـانت الإشـارة إلى ما يحس بالباطن مثل الجوع، والشـبع، والـري، والعطش، والحـزن، والفـرح، فإنه لا يعرف اسم ذلك حتى يجده من نفسه، فإذا وجده أشير له إليه، وعرف أن اسمه كذا، والإشارة تارة تكون إلى جـوع نفسه أو عطش نفسـه، مثل أن يراه أنه قد جاع فيقول له: جعت، أو: أنت جائع، فيسـمع اللفظ ويعلم ما عينه بالإشارة أو ما يجري مجراها من القرائن التي تعين المراد، مثل نظر أمه إليه في حال جوعه، وإدراكه بنظرها أو نحوه أنها تعني جوعه، أو يسمعهم يعبرون بذلك عن جوع غيره]. أورد الشارح هذا الكلام ليبين أن الرسول عليه الصــلاة والسـلام خـاطبهم بكلمـات يفهمونهـا، وإلا لما سـكتوا حـتى يسـتفهموا، فـإن الإنسـان الـذي لا يفهم الكلمة لابد أن يسـأل عنهـا، فـأنت مثلاً لو لقيت رجلاً أعجمياً، ثم إنك خاطبته بمثل هذه الكلمات ولم يفهم، فإنه يضيق صدره حـتى تفهمه، فتقول له: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، هـذه -تشـير إليهـا- اسـمها شاة، وهذه اسمها بقرة، وهذا اسمها ناقة، وهـذا جمـل، وهـذا حصـان، فحينئذ يفهم. وهكـذا أيضـاً إذا عـبرت له عن الأشـياء العلويـة، قلت مثلاً: هـذه هي السماء، وهذه هي الأرض، وهذا اسمه جبل، وهـذا اسـمه واد، وهـذه شـجرة، وهذه نخلة، إلى أن يفهم. وهكذا أيضاً تعبر له عن المعـاني الـتي قد لا يكـون مشاراً إليها، ولا يكون لها أشخاص؛ مثل الجوع، والعطش، والخوف، والفـرح، والحـزن، والضـحك، والبكـاء، فإنه لا يفهمها إلا إذا أحس بهـا. فـإذا كـان الأمر كذلك فلاشك أنه عليه الصلاة والسـلام عنـدما تكلم بالكلمـات كـانوا يفهمـون معناها، فكانوا يفهمون أنه إذا أخبر بأن الله سميع بصـير؛ أن معنـاه أنه يـدرك الأصوات ويبصر المرئيات، وكذلك إذا أخـبر بأنه متكلم، يفهمـون أن الكلام هو ما يسمع وما يعبر به عن المعاني، ويفهمـون أن العلم ضد الجهـل، ويفهمـون أن المحبة ضد الكراهية أو ضد البغض .. وهكذا. فإذا كانوا يفهمـون ذلك وهي لغتهم فكيف يقـال: إنها غـير معلومـة، وإن هـذه الكلمـات بمنزلة الكلمـات الأعجمية التي يسمعها الإنسان ولا يدري ما معناها؟! فـأنت لو سـمعت كلامـاً

أعجمياً أو كلاماً لم تفهمه، قلت: كلمني فلان بكلام غير معروف، فلا تشهد له بالبيان، ونحن نشهد بأن الرسول عليه الصلاة والسلام بين، وأن القرآن بيـان، قال تعـالى: هَـذَا بَيَـانٌ لِلنَّاسِ [آل عمـران:138]، وقـال تعـالى: وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الـذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ [النحـل:44] فنشـهد بأنه بين للنـاس، وأن النـاس فهمـوا عنه، ولو كـان ما يقوله النفـاة والمبتدعة من التكلف في طـرح تلك الكلمـات لما كـان قد بين، هم لا يقولـون إنه بين، بل يعتقـدون أنه لبس، وحاشـاه عليه الصلاة والسلام من التلبيس.

بيان انقسام المخاطبين في فهم الخطاب للتوصل إلى أن الصفات خطاب له معنى مفهوم

قال رحمه الله: [إذا عرف ذلك، فالمخـاطب المتكلم إذا أراد بيـان معـان، فلا يخلـو: إما أن تكـون مما أدركها المخـاطب المسـتمع بإحساسه وشـهوده، أو بمعقوله، وإما أن لا تكون كذلك. فإن كانت من القسمين الأولين لم يحتج إلى معرفة اللغة، بأن يكون قد عرف معاني الألفـاظ المفـردة، ومعـنى الـتركيب، فإذا قيل له بعد ذلك: أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَـفَتَيْنِ [البلـد:8-9]، أو قيل له: وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَـلَ لَكُمْ السَّـمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [النحل:78] ونحو ذلك، فهم المخــاطب بما أدركه بحســه. وإن كــانت المعــاني الــتي يــراد تعريفه بها ليست مما أحسه وشهده بعينه، ولا بحيث صار له معقول كلي يتناولها حتى يفهم به المراد بتلك الألفاظ، بل هي مما لا يدركه بشيء من حواسه الباطنة والظـاهرة، فلابد في تعريفه من طريق القياس، والتمثيل، والاعتبار بما بينه وبين معقـولات الأمـور التي شـاهدها من التشـابه والتناسـب، وكلما كـان التمثيل أقـوى كـان البيـان أحسن، والفهم أكمل] . الرسل عليهم السلام بينوا للناس أشـياء يشـاهدونها، وبينـوا أشـياء لم يشـاهدوها ولكن شـاهدوا ما يشـهد لهـا، فمثلاً: العبـادات وضحوها، فقالوا: هذا اسمه وضوء، وهذه كيفيته، وهذه الصلاة، وهذه كيفيتهـا، هـذا من جملة البيـان. كـذلك بلغـوا أشـياء لم نشـاهدها، وعـبروا عنها بعبـارة نفهمها، فمثلاً: اليوم الآخر الذي هو يوم القيامة، ما شـاهدناه، حيث إنه لم يقع بعد، ولكن ذكرت لنا أوصافه بكلمات مفردة وجمل نفهم المعنى منها، فـأخبر بأن الناس يبعثون، وتعاد أرواحهم في أجسادهم، وهذا مفهوم معنـاه، وكـذلك جمع الناس في يوم القيامة مفهوم معنـاه: يَـوْمَ يَقُـومُ النَّاسُ لِـرَبِّ الْعَـالَمِينَ [المطففين:6] وكـذلك نصب المـوازين والـوزن للأعمـال: وَنَضَـعُ الْمَـوَازِينَ الْقِسْـطَ لِيَـوْمِ الْقِيَامَـةِ [الأنبيـاء:47] فـالوزن معـروف. وكـذلك الإخبـار بنشر الكتب: وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابـاً يَلْقَـاهُ مَنشُـوراً [الإسـراء:13]، فنحن ما رأينـاه ولكن نفهم معنـاه، وهـذه الأمـور الـتي أخبرنا بها ونحن لم نرها فهمنا

معناها، حيث إن جنس هـذه الكلمـات معـروف، فـالوزن في الـدنيا معـروف، ولكن ليس الـوزن في الـدنيا كـالوزن في الآخـرة، بل بينهما فـرق، إلا أن كلاً منهما فيه ميزان يرجح وينقص. وكذلك الصراط الذي أخبر بأن الناس يمشون عليـه، فالصـراط في الـدنيا معـروف؛ وهو الطريق الواسـع، ولكن أخـبر في الآخرة بأن هذا الصراط منصوب وأخبر بصفته، فنـؤمن بـذلك، ولكن نعتقد أنه ليس كالـذي نعرفه في الـدنيا. وهكـذا أيضـاً الكتب الـتي تنشر في الآخـرة: وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ [الإسراء:13-14] كل يقرأ كتابه؛ الأمي وغير الأمي، معلوم أن هذا ليس ككتاب الدنيا الذي لا يقرؤه إلا القارئ، فعرف بذلك أنهم أخبروا بأشياء من الغيب مفهوم معناهـا، وإن لم تفهم كيفيتها. لذلك يعرف أن الإيمان بـالأمور الغيبية لابد من فهم معنـاه، فلو أن الناس ما فهمـوا كلمة النـار، وجهنم، وسـقر، والسـعير، ونـار تلظى، ونـار موقدة، ونار حاميـة، لما خـافوا ولا بكـوا، ولا حـذروا ولا ابتعـدوا عن المعاصي التي تدخلهم في هذه النـار، ولكن فهمـوا أنها نـار عـذاب، وأنها عـذاب وبيـل، واعتقدوا صحة ما جـاء فيها من الحميم والزقـوم، والغسـاق، وما أشـبهه. ولو أن الناس ما فهموا معنى (جنات النعيم) و(دار السـلام) وما أشـبهها، وما فيها من الحبور، وما فيها من القصور والأنهار والأشجار والثمار، لما عملوا لأجلهـا، فلابد أنهم فهموها. فإذاً: الذين آمنوا بالآخرة وآمنوا بالغيب، فهموا معنى ذلك، فيقاس على ذلك فهمهم لمـدلول الصـفات وإن لم يكن هنـاك تماثل حقيقي، ولهذا يقول ابن عباس : (ليس في الـدنيا مما في الجنة إلا الأسـماء) يعـني: أنها تتشابه في الأسماء، وتتشابه في المعنى العام، الله تعـالى أخـبر بـأن في الجنة أنهاراً، ومع ذلك تجري في غير أخدود، هل يتصـور أنها تجـري في الـدنيا على الأرض بغير أخدود؟! يعـني: في غـير حفر وسـواق، هـذا من آيـات اللـه! وكـذلك المنـازل الـتي في الآخـرة، أخـبر في الحـديث (بأنه يـرى باطنها من ظاهرهـا، وظاهرها من باطنهـا) فهـذا دليل على أننا نعـرف أنها قصـور، وأنها مبنية، وأنها من لؤلؤ ومن زبرجـد، ولكن ليست مثلما ندركـه، فهـذا دليل على أن أمور الآخـرة نفهم معناهـا، ولكن كيفيتها لا نـدركها، فيقـال مثل ذلك أيضـاً في الصفات.

طريقة إطلاق الألفاظ الشرعية على مسمياتها الحادثة المشاهدة

قال رحمه اللـه: [فالرسـول صـلوات الله وسـلامه عليه لما بين لنا أمـوراً لم تكن معروفة قبل ذلـك، وليس في لغتهم لفظ يـدل عليها بعينهـا، أتى بألفـاظ تناسب معانيها تلك المعـاني، وجعلها أسـماءً لهـا، فيكـون بينها قـدر مشـترك، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والإيمان، والكفـر. وكـذلك لما أخبرنا بـأمور تتعلق بالإيمان بالله وباليوم الآخر، وهم لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك حتى يكون لهم

ألفاظ تـدل عليها بعينهـا، أخذ من اللغة الألفـاظ المناسـبة لتلك بما تـدل عليه من القدر المشترك بين تلك المعاني الغيبية والمعـاني الشـهودية الـتي كـانوا يعرفونها، وقـرن بـذلك من الإشـارة ونحوها ما يعلم به حقيقة المـراد، كتعليم الصـبي، كما قـال ربيعة بن أبي عبد الـرحمن : النـاس في حجـور علمـائهم كالصبيان في حجور آبائهم] . فهمنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام استعمل معـاني لم تكن معروفة عند العـرب، ولكن عـبر عنها بما يقاربها من كلمـات يفهمون معناها، فما كانوا يعرفون أن الشرك هو عبـادة غـير الله معـه، ولكن يعرفون أن الشرك اشتراك اثنين في شيء، فتسمية عبـادة غـير الله مع الله مثل اشتراك اثـنين في شـيء، فسـماه شـركاً لما فيه من الاشـتراك. وكـانوا يعرفون أن الكفر هو الستر والتغطية، فلما كان الكافر قد أنكر الإيمـان وأنكر التوحيد وجحده وستره صدق عليه أنه كفر، فسماه الرسـول بـأمر الله كفـراً. وما كـانوا يعرفـون أن الإيمـان هو الـدخول في هـذه الشـريعة وتقبلهـا، بل يعرفون أن الإيمان هو تصـديق الإنسـان بقلبه بشـيء، فلما جـاء بهـذه الكلمة جعلها اسـماً للتصـديق الكلي بما جـاء في هـذا الشـرع، فهـذا تصـديق وذاك تصديق، ولكن هذا بشيء وذاك بشيء. وكذلك ما كانوا يعرفون كلمة الإسـلام إلا أنها الإذعان للشيء والاستسلام له، فاستعمل الإسلام في الإذعان للشـرع والانقياد له، وما كانوا يعرفـون أن الصـلاة هي الركـوع والسـجود، فاسـتعملها في هذا؛ لأنهم كانوا يعرفون أن الصلاة هي الـدعاء، وهـذه فيها دعـاء. وهكـذا علمهم عليه السلام أسـماء هـذه الأشـياء، ثم علمهم كيفيتهـا، فلما سـئل عن الإسـلام فسـره بالأركـان الخمسـة، ولما سـئل عن الإيمـان وعن الإحسـان فسرها. فإذا كان هذا تعليمه لأمته هـذه الكلمـات فيما يقاربها من اللغة الـتي يفهمونها، فهو بمنزلة المعلم، الذي يعلم تلاميذه ويبدأ معهم بصغار العلم قبل كباره، ويربيهم بـذلك، والله تعـالى قد أرشد إلى هـذه الطريقة بقوله تعـالى: وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُـونَ [آل عمـران: 79] فهكـذا ينبغي أن يعـرف ويعتقد أن الرسل بلغـوا وبينـوا للنـاس الأمـور الغيبية والأمـور الاصـطلاحية الشـرعية على حسب ما يفهمـون، وأن أممهم فهموا منهم ذلك فهماً كاملاً.

إخبار الرسول بالأمور الغيبية وطريقة التعليم فيها ترد على نفاة الصفات

قال رحمه الله: [وأما ما يخبر به الرسول من الأمـور الغائبـة، فقد يكـون مما أدركوا نظيره بحسهم وعقلهم، كإخبارهم بـأن الـريح أهلكت عـاداً، فـإن عـاداً من جنسهم والريح من جنس ريحهم وإن كانت أشد، وكذلك غرق فرعون في البحر، وكذا بقية الأخبار عن الأمم الماضية. ولهذا كان الإخبار بذلك فيه عـبرة لنا، كما قال تعالى: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ [يوسف:111].

وقد يكون الذي يخبر به الرسول مما لم يـدركوا مثله الموافق له في الحقيقة من كل وجه، لكن في مفرداته ما يشـبه مفـرداتهم من بعض الوجـوه، كما إذا أخبرهم عن الأمور الغيبية المتعلقة بالله واليوم الآخـر، فلابد أن يعلمـوا معنًى مشتركاً وشبهاً بين مفردات تلك الألفاظ، وبين مفردات ما علمـوه في الـدنيا بحسهم وعقلهم. فإذا كان ذلك المعنى الذي في الدنيا لم يشهدوه بعـد، ويريد أن يجعلهم يشـهدونه مشـاهدة كاملة ليفهمـوا به القـدر المشـترك بينه وبين المعنى الغـائب، أشـهدهم إيـاه، وأشـار لهم إليـه، وفعل فعلاً يكـون حكاية له وشبهاً بـه، يعلم المسـتمعون أن معـرفتهم بالحقـائق المشـهودة هي الطريق التي يعرفون بها الأمور الغائبة] . سـمعنا أن هـذا من جملة ما بينه الله تعـالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وأخـبرهم عن أمـور لم يشـاهدوها، فمن ذلك أمور قد سبقت ولكن يفهم معناها، فأخبر الله بأنه أغرق قـوم نـوح وأنجى نوحاً في السفينة، فنعرف أن قوم نوح بشر مثلنا، وأن السفينة مركب من المراكب يسبح في البحر، فـأخبر بأنه نجى نوحـاً ومن معه في السـفينة، في قوله تعـالى: فَأَنجَيْنَـاهُ وَأَصْـحَابَ السَّـفِينَةِ [العنكبـوت:15] وفي قولـه: فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ [المؤمنـون:27] هـذا شـيء مفهـوم، سمعناه وفهمنا معناه. وكذلك إخباره بأنه أهلك عـاداً بـالريح، فعـاد بشر مثلنا إلا أنهم أشد خلقاً، كما في قولهم: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً [فصلت:15] والـريح من جنس الـريح الـتي نعرفها إلا أنها أشـد، وهكـذا يقـال في الأخبـار عن الأمم السـابقة، فمعناها مفهـوم. وأما الأمـور الغيبية الـتي هي من الأمـور الأخروية فقد أخبر الله تعالى على لسان رسوله عن أمور غيبية من الأمور المستقبلة، ولكن نصدق بها ونفهم مدلولها الإجمالي وإن لم نفهم الكيفية. قد ضربنا مثلاً بالصراط وبالميزان، وكـذلك الحـوض في الآخـرة، وهكـذا حسـاب الله تعـالى للخلق، وهكـذا خلقتهم وكيفيتهم، وكـذا ذكر الجنة والنـار وما فيهمـا، فمعانيها مفهومة وإن لم يكن الـذي نشـاهده في الـدنيا كالـذي يحصل في الآخـرة، بل بينهما تفاوت، فعرف بذلك أن الرسل بينوا للناس، وأن الناس فهمـوا المعـنى العمومي الذي يحصل به إدراكهم وانتفاعهم.

تقدير انتفاء المماثلة بين الخالق والمخلوق تغـني عن إثبـات الفـارق عند ذكر الصفات

قـال رحمه اللـه: [فينبغي أن تعـرف هـذه الـدرجات: أولهـا: إدراك الإنسـان المعـاني الحسـية المشـاهدة. وثانيهـا: عقله لمعانيها الكليـة. وثالثهـا: تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعاني الحسية والعقلية. فهـذه المـراتب الثلاث لابد منها في كل خطاب؛ فـإذا أخبرنا عن الأمـور الغائبة فلابد من تعريفنا المعـاني المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة والاشتباه الذي بينهمـا، وذلك بتعريفنا

الأمور المشهودة، ثم إن كانت مثلها لم يحتج إلى ذكر الفـارق، كما تقـدم في قصص الأمم، وإن لم يكن مثلها بين ذلك بذكر الفـارق، بـأن يقـال: ليس ذلك مثل هذا، ونحو ذلك. وإذا تقدر انتفاء المماثلة كانت الإضافة وحـدها كافية في بيان الفارق، وانتفاء التساوي لا يمنع وجود القدر المشـترك الـذي هو مـدلول اللفظ المشترك، وبه صرنا نفهم الأمـور الغائبـة، ولـولا المعـنى المشـترك ما أمكن ذلك قط] . يقول: لابد في معرفة المعـاني من معرفة الألفـاظ، فلو كنا لا نعرف كلمة (سمع) ما فهمنا قوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً [النساء:58]، ولو كنا لا نعـــرف المعـــنى الـــذي تفسر به الكلمـــة، وهو أن الســـمع إدراك الأصوات، ما فهمنا أيضاً المعنى الذي دلت عليه الجملـة، ولو كنا نسـمع كلمة (سـمع) ونفسـرها ولكن لا نـدري ما مـدلولها، ما فهمناها ولا انتفعنا بـالكلام. فيقـال: أولاً: علينا أن نعـرف أن المعـاني واضـحة تفهم بمجـرد فهم اللغـة، فيفهم المســلمون إذا قيل في أوصــاف الله عز وجل إنه المهيمن، أنه رقيب على عباده، ويفهمون أنه يراهم إذ قال: الَّذِي يَـرَاكَ حِينَ تَقُـومُ * وَتَقَلُّبَـكَ فِي السَّاجِدِينَ [الشعراء:218-219]، وإذا قـرءوا قوله تعـالى: وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْ حَبْـلِ الْوَرِيـدِ * وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْـوِسُ بِـهِ نَفْسُـهُ [ق:15-16] فهمـوا أن ذلك تخويـف، وأنه لا يخفى عليه من أمـورهم خافيـة، ولو كـانوا لم يتصـوروا هـذا القــرب وذلك لأنه من الأمــور الغيبيــة، إنما القصد منه التخويف حــتى يحــذر الإنســان إذا عــرف أنه عليه رقيب. فــإذا عرفنا مــدلول الكلمة وعرفنا كيف تفسـر، فإننا نـدرك ثبـوت الصـفة، ولكن لا نفهم التشـبيه، فلا نفهم أن صـفة المخلوق كصفة الخالق، فلا نقول: إن الله يسمع كسمعنا، ويبصر كبصرنا، وله يد كأيدينا، ما الذي سبب معرفتنا لهذا الفرق؟ والجواب: أن صـفات المخلـوق إذا أضيفت إليه تناسـبه، وصـفات الخـالق إذا أضـيفت إليه تناسـبه، فالإضـافة كافية في إثبات الفرق، فيكتفى بها ويقال: إذا كانت ذات الـرب تعـالى ليست كذوات المخلوقين، فكذلك صفاته ليست كصفاتهم، سواء الصـفات الفعلية أو الصفات الذاتية، فيعتقد المسلمون أن هذا كـاف في إثبـات الفـرق بين صـفة وصفة.

مخالفة طريقة أهل البدع في باب الصفات لطريقة القرآن والسنة

قال المصنف رحمه الله تعالى: [قوله: (ولاشيء يعجزه). لكمال قدرتـه، قـال تعالى: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة:20]، وَكَـانَ اللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ مُقْتَدِراً [الكهف:45]، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَـيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً [فاطر:44]، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقـرة:255]. (لا يـؤده) أي: لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجـزه. فهـذا النفي لثبـوت كمـال ضـده، وكـذلك كل نفي يـأتي في

صـفات الله تعـالى في الكتـاب والسـنة إنما هو لثبـوت كمـال ضـده، كقوله تعالى: وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً [الكهف:49]، لكمال عدلـه، لا يَعْـزُبُ عَنْـهُ مِثْقَـالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ [سـبأ:3] لكمـال علمـه. وقوله تعـالى: وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ [ق:38] لكمال قدرته، لا تَأْخُذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَـوْمٌ [البقـرة:255] لكمال حياته وقيوميته، لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ [الأنعـام:103] لكمـال جلاله وعظمته وكبريائه، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيـه، ألا يـرى أن قـول الشـاعر: قُبَيِّلة لا يغــدرون بذمـةٍ ولا يظلمون الناس حبة خردل لما اقـترن بنفي الغـدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده، وتصغيرهم بقوله: (قُبيلة) عُلم أن المراد عجزهم وضعفهم، لا كمال قدرتهم، وقول الآخـر: لكن قـومي وإن كـانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شـيء وإن هانا لما اقـترن بنفي الشر عنهم ما يـدل على ذمهم، عُلم أن المــراد عجــزهم وضــعفهم أيضــاً. ولهــذا يــأتي الإثبــات للصـــفات في كتـــاب الله مفصـــلاً، والنفي مجملاً، عكس طريقة أهل الكلام المذموم، فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل، يقولون: ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جـوهر ولا عـرض ولا بذي لون ولا طعم، ولا رائحة، ولا مَجَسَّة، ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتمـاع ولا افـتراق ولا يتحـرك ولا يسكن، ولا يتبعض، وليس بذي أبعاض وأجـزاء وجـوارح وأعضـاء، وليس بـذي جهات، ولا بذي يمين ولا شمال وأمام وخلف وفوق وتحت، ولا يحيط به مكان ولا يجـرى عليه زمـان، ولا يجـوز عليه المماسة ولا العزلـة، ولا الحلـول في الأماكن، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حـدوثهم، ولا يوصف بأنه متناه، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات، وليس بمحـدود، ولا والد ولا مولـــود، ولا تحيط به الأقـــدار ولا تحجبه الأســـتار... إلى آخر ما نقله أبو الحسن الأشـعري رحمه الله عن المعتزلـة. وفي هــذه الجملة حق وباطــل، ويظهر ذلك لمن يعرف الكتاب والسنة. وهـذا النفي المجـرد مع كونه لا مـدح فيه، فيه إساءة أدب، فإنك لو قلت للسلطان: أنت لست بزبال ولا كســاح ولا حجام ولا حائك، لأدبك على هذا الوصف وإن كنت صـادقاً، وإنما تكـون مادحـاً إذا أجملت النفي، فقلت: أنت لست مثل أحد من رعيتـــــك، أنت أعلم منهم وأشرف وأجل، فإذا أجملت في النفي، أجملت في الأدب] [والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية، هو سـبيل أهل السـنة والجماعـة، والمعطلة يعرضــون عما قاله الشــارع من الأســماء والصــفات، ولا يتــدبرون معانيهــا، ويجعلـون ما ابتـدعوه من المعـاني والألفـاظ هو المحكم الـذي يجب اعتقـاده واعتماده . وأما أهل الحق والسنة والإيمان فيجعلون ما قاله الله ورسـوله هو الحق الـذي يجب اعتقـاده واعتمـاده، والـذي قاله هـؤلاء إما أن يعرضـوا عنه إعراضاً جملياً، أو يبينوا حاله تفصيلاً، ويحكم عليه بالكتاب والسنة، لا يحكم به على الكتــاب والســنة]. قــال رحمه اللــه: [والمقصــود أن غــالب عقائــدهم السلوب: ليس بكذا، ليس بكذا، وأما الإثبات فهو قليل؛ وهي: أنه عالم، قـادر، حي. وأكثر النفي المـذكور ليس متلقى عن الكتـاب والسـنة، ولا عن الطـرق العقلية الـتي سـلكها غـيرهم من مثبتة الصـفات، فـإن الله تعـالى قـال: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ البَصِـيرُ [الشـورى:11] ففي هـذا الإثبـات ما يقـرر

معنى النفي. ففهم أن المراد انفراده سبحانه بصفات الكمال، فهو سبحانه وتعالى موصوف بما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، ليس كمثله شيء في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، مما أخبرنا به من صفاته، وله صفات لم يطلع عليها أحد من خلقه، كما قال رسوله الصادق صلى الله عليه وسلم في دعاء الكرب: (اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي) وسيأتي التنبيه على فساد طريقتهم في الصفات إن شاء الله تعالى] . أي أن هؤلاء النفاة ليس لهم دليل على هذا السلب: أن الله ليس بفوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا متحرك ولا ساكن .. إلى آخره، بماذا استدلوا؟ اعتمدوا على طرق الفلاسفة، والفلاسفة اعتمدوا في ذلك على طرق عقلية، ولكنها في الحقيقة خيالات تخيلوها، فهذه طريقتهم في النفي. وأما في الإثبات فلم يثبتوا إلا قليلاً، فالأشعرية أثبتوا سبع صفات وأثبتوا الأسماء، والمعتزلة أثبتوا الأسماء ولكن نفوا دلالتها على الصفات، فقالوا: إن الله سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وعليم بلا علم، وقدير بلا قدرة، وجعلوها أسماء مجردة عن الصفات تعالى الله عن قولهم. ويرد عليهم بطريقة القرآن، فإن القرآن إذا نفى أتبع النفي بالإثبات، فإن قوله تعالى: لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً [الطلاق:12] إثبات لكمال القدرة، وإثبات للإحاطة بكل شيء، مع أنه قد نفى أن يحيط الناس به، في قوله: وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً [طه:110] وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ [البقرة:255] فدل على أنه لكماله لا يستطيعون أن يطلعوا إلا على ما أطلعهم عليه، وكذلك جمع بين النفي والإثبات في الآية التي تقدمت، وهي قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [الشورى:11]، فجمع بين النفي والإثبات في بعض آية، ورد على الفئتين: الفئة التي غلت في الإثبات حتى شبهت صفاته بالمخلوقات، والفئة التي غلت في النفي حتى نفت عنه صفات الإثبات الكمالية. فهذه هي طريقة الرسل، وطريقة الكتاب والسنة، هذه هي التي تروي الغليل، وتشفي العليل، فمن سار على نهج أهل السنة في النفي والإثبات وعلى طريقة الرسل، فلا يخشى من الملام، ولا يرد عليه كلام.......

النفي المتضمن إثبات كمال الضد طريقة شرعية في باب الصفات

قال المؤلف رحمه الله: [وليس قول الشيخ رحمه الله تعالى: (ولا شيء يعجزه)، من النفي المذموم، فإن الله تعالى قال: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً [فاطر:44] فنبه سبحانه وتعالى في آخر الآية على دليل انتفاء العجز، وهو كمال العلم والقدرة، فإن العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريده الفاعل، وإما من عدم علمه به، والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة، وهو على كل

شــيء قــدير، وقد علم ببدائه العقــول والفطر كمــال قدرته وعلمــه، فــانتفى العجز؛ لما بينه وبين القدرة من التضاد، ولأن العـاجز لا يصـلح أن يكـون إلهـاً، تعـالى الله عن ذكر ذلك علـواً كبـيراً] . يعـني: أن قـول المـاتن: (ولا يعجـزه شيء) نفي، ولكن هذا النفي دليل على إثبات، وهو إثبات كمال القدرة، فنفى العجز ليـدل على أنه كامل القـدرة، وكامل القـوة، ولهـذا جمع الله بين النفي والإثبـات في هــذه الآية من ســورة فــاطر؛ وهي قوله تعــالى: وَمَا كَـانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ [فاطر:44] هذا نفي، ثم قال: إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً [فاطر:44] . فأثبت العلمَ والقـدرة ليـدل على أنه قـدير حيث لا يعجزه شيء، فعرف أن هذا نفي موافق للنفي الذي في القرآن، وهو النفي الذي يتضمن إثباتاً، وعلل بأن العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، وأنه يــدخل في القدرة كل شيء، وإذا وصفنا الله تعالى بكمال القدرة فهو قـادر على كل شيء، ولا يخرج عن قدرته شيء، لا من الأفعال ولا من الـذوات، فيقـدر على أن يجعل المـؤمن كـافراً والكـافر مؤمنـاً، يقلب القلـوب، ويحـول بين المـرء وقلبه. وكذلك ورد في الحـديث قـول النـبي عليه الصـلاة والسـلام: (يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك)، فدل على أن من جملة ما يملكه ويستطيعه ويقدر عليه الحيلولة بين الإنسان وبين قلبه، قال: وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ يَحُـولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ [الأنفال:24]. فهذه صفة من صفات الكمـال، وهي إثبـات كمـال القدرة، وصفات الله وأسماؤه لا يحيط بها إلا هــو، كما دل على ذلك الحــديث الذي مضى؛ وهو أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم علم أصـحابه هـذا الـدعاء، وفيه قوله: (أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسـك، أو أنزلته في كتابـك، أو علمته أحداً من خلقك، أو اسـتأثرت به في علم الغيب عنـدك)، فـدل على أنه استأثر بأسـماء وبصـفات لم يطلع عليها أحـداً. والحاصـل: أن صـفات الله تعالى كلها صفات كمال، إذا أثبتناها فإننا نعتقد أنها صفات كمـال، ومعلـوم أن الـذي يثبت هـذه الصـفات يعظم قـدر ربه في قلبـه، ومن عظم قـدر ربه في قلبه لم يقدم على معصيته، وهذه هي فائدة قراءتنا لبعض الصفات. إذا عرف العبد أن الله مطلع على كل شيء لم يقدم على معصيته، وإذا عرف أنه عليم بكل شـيء، لا تخفى عليه من أمـره خافيـة، يعلم ما توسـوس به النفس، وما يجول في القلب، وعـرف كمـال قدرته على أن يعـذب من يشـاء ويـرحم من يشـــاء، فـــإن ذلك يحمله على الاســـتكثار من الطاعـــات، والابتعـــاد عن المحرمات.......

تقدير الخبر في كلمة التوحيد

قال المؤلف رحمه الله: [قوله: (ولا إله غيره): هـذه كلمة التوحيد الـتي دعت إليها الرسل كلها، كما تقدم ذكره، وإثبات التوحيد بهـذه الكلمة باعتبـار النفي والإثبـات المقتضي للحصـر، فـإن الإثبـات المجـرد قد يتطـرق إليه الاحتمـال، ولهذا -والله أعلم- لما قال تعالى: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ [البقرة:163] قال بعــده: لا إِلَهَ إِلاَّ هُـوَ الـرَّحْمَنُ الـرَّحِيمُ [البقـرة:163] فإنه قد يخطر ببـال أحد خـاطر

شيطاني: هب أن إلهنا واحد، فلغيرنا إله غيره! فقال تعالى: لا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ [البقرة:163]. وقد اعترض صاحب المنتخب على النحويين في تقدير الخبر في: لا إله إلا هو، فقالوا: تقديره: لا إله في الوجود إلا الله، فقال: يكون ذلك نفياً لوجود الإله، ومعلوم أن نفي الماهية أقوى في التوحيد الصرف من نفي الوجود، فكان إجراء الكلام على ظاهره والإعراض عن هذا الإضمار أولى. وقد أجاب أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي في (ري الظمآن) فقال: هذا كلام من لا يعرف لسان العرب، فإن (إله) في موضع المبتدأ على قول سيبويه ، وعند غيره اسم لا، وعلى التقديرين فلابد من خبر المبتدأ، وإلا فما قاله من الاستغناء عن الإضمار فاسد، وأما قوله: إذا لم يضمر يكون نفياً للماهية فليس بشيء؛ لأن نفي الماهية هو نفي الوجود، لا تتصور الماهية إلا مع الوجود، فلا فرق بين (لا ماهية) و(لا وجود)، وهذا مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة، فإنهم يثبتون ماهية عارية عن الوجود، و(إلا الله) مرفوع بدل من (لا إله) لا يكون خبراً لـ(لا) ولا للمبتدأ، وذكر الدليل على ذلك. وليس المراد هنا ذكر الإعراب، بل المراد رفع الإشكال الوارد على النحاة في ذلك، وبيان أنه من جهة المعتزلة وهو فاسد، فإن قولهم (في الوجود) ليس تقييداً؛ لأن العدم ليس بشيء، قال الله تعالى: وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً [مريم:9]. ولا يقال: ليس قوله: (غيره) كقوله: (إلا الله) لأن غير تعرب بإعراب الاسم الواقع بعد إلا، فيكون التقدير للخبر فيهما واحداً، فلهذا ذكرت هذا الإشكال وجوابه هنا] . قوله: (ولا إله غيره) هذه كلمة الإخلاص، وهي كلمة (لا إله إلا الله)، ففي دعاء الاستفتاح يقول: (سبحانك الله وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك)، وهو معنى: لا إله إلا أنت، أي: ليس هنا إله يصلح للإلهية غيرك، وهو معنى الاستثناء في قوله: إلا الله. وقد تكررت هذه الكلمة بهذا اللفظ (لا إله إلا الله)، كقوله تعالى: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ [محمد:19] وبلفظ: لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ [البقرة:163] كقوله تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ [الحشر:23] وبلفظ: (لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنْتَ) في دعاء ذي النون في قوله: لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ [الأنبياء:87] ووردت من كلام الله، وفي قوله تعالى: وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي [طه:13-14] وكله معناه واحد، وهو: نفي الإلهية عن غير الله. وأما الإعراب الذي ذكر عن النحويين أنهم قالوا: لا إله في الوجود إلا الله، فقد تعقبه العلماء وقالوا: إن هناك في الوجود من يسمى إلهاً، ولكن لا يصلح أن يكون إلهاً، فالصواب أن يقال: لا إله حق إلا الله، أو: لا إله بحق إلا الله؛ أي: لا أحد يستحق الإلهية إلا الله، فالتقدير (بحق) أولى؛ وذلك لكثرة من يسمى إلهاً مما تألهه القلوب، ويتخذه المشركون إلهاً. ......

حب المشركين لآلهتهم وتعظيمها عبادة لها

إن كلمة الإله اسم لمن تألهه القلوب وتحبه، ومعلوم أن المشركين يألهون معبوداتهم، سواء المعبودات القديمة كالأصنام المنحوتة على صور المخلوقات كود وسواع .. إلى آخره، أو الخياليات: كالذين يألهون بعض السادة، أو بعض الأولياء، كالذين يألهون عبد القادر الجيلاني أو أحمد البدوي أو الحسين ، أو علياً ، أو العيدروس ، أو ابن علوان .. أو نحوهم، فإنهم يألهونهم، بمعنى أن قلوبهم تحبهم، وتقدسهم، وتعظمهم، وتوقرهم، ويكون في قلوبهم لهم قدر، ولهم مكانة، وهذا هو حقيقة التأله. أما المسلمون الموحدون فإنهم يألهون الله وحده، لا تأله قلوبهم غيره، فلا تحب سواه محبة العبادة، ولا تخاف من غيره، ولا تعظم إلا الله، ولا تخضع وتتواضع إلا له .. وهكذا. هذه صفة أولياء الله، فأولياء الله هم الموحدون، هم الذين اتخذوه إلهاً، وصدوا بقلوبهم عما سواه. ولما كانت كلمة التوحيد تتضمن الإخلاص؛ كانت أول دعوة الرسل، وتقدم في أول الكتاب أن أول ما بعث به الرسل هذه الكلمة، يقول نوح لقومه: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ [الأعراف:59] أي: لا يستحق غيره أن يكون إلهاً، وكذلك قاله هود وصالح وشعيب وبقية الأنبياء الذين ذكر الله أنه أوحى إليهم بذلك، وإذا عرف المسلم معنى هذه الكلمة، صار في حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل. والمصيبة أن الذين يعبدون الأموات يقولون: لا إله إلا الله، ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، لكن لا يعملون معناها، ولا يعرفون مضمونها، بل يقولونها ويخالفونها؛ لأنهم لم يفهموا معنى الإله، ولو عرفوا أن الإله هو الذي تألهه القلوب، فتحبه وتعظمه؛ لعلموا أنهم قد ألهوا هذه الأموات. إذا قلنا: معنى (لا إله إلا الله): لا معبود بحق إلا الله، قلنا لهم: أنتم الآن قد عبدتم غير الله من هؤلاء الأموات، فالعبادة هي التذلل والخضوع، وقد تذللتم وخضعتم لهؤلاء الأموات، فأصبحتم قد دعوتم غير الله، فلا ينفعكم التهليل. فالحاصل: أن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) أو (لا إله غيره) هي التي يجب أن ندعو إليها، وهي التي دعت إليها الرسل ومنهم نبينا صلى الله عليه وسلم، حيث أقام عشر سنين بمكة يقول للناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وكانوا يعرفون معناها، ولما قال لعمه أبي طالب : (قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله) يعني: أحتج بها عند الله أنك مت على التوحيد، فهم أبو طالب وفهم الحاضرون أنها تتضمن البراءة من كل المألوهات، فذكروه الحجة الشيطانية، وهي: ملة أبيه عبد المطلب ، فمات على قوله: هو على ملة عبد المطلب. ولما قال لهم في مجتمعهم: (قولوا لا إله إلا الله، كلمة تدين لكم بها العرب، وتدفع لكم الجزية بها العجم) قالوا: أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً [ص:5]، وقالوا: أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ [ص:6] فهذا دليل على أن كل من يألهونه -يعني: يحبونه- فإنه يسمى إلهاً، يعني: يحبونه محبة تعظيم وتوقير واحترام. وخفي هذا المعنى على القبوريين الذين عظموا القبور، فقيل لهم: تعظيمكم هذا هو التأله شئتم أم أبيتم، فقد اتخذتم الأموات آلهة، وكذلك أفعالكم؛ كحلفكم بالأموات، أو دعائهم أولئك الأموات، كقولكم: يا عيدروس ! يا تاج ! يا يوسف ! وتعلق قلوبكم بهم هو تأله، قد اتخذتموهم آلهة شئتم أم أبيتم، وعبدتموهم وإن لم تسموا ذلك عبادة، فالعبرة بالحقائق لا بالأسماء، سموا أفعالكم: توسلاً، أو

تــودداً، أو تبركــاً، أو تحببــاً، أو استشــفاعاً، أو تقربــاً، فــإن الحقــائق لا تتغــير بالتسـميات. نحن نحث كل مسـلم على أن يعـرف معـنى لا إله إلا اللـه، وأنها تـدعو إلى أن يكـون الله هو الإله المعبـود بحـق، وأن يعبـده حق عبادتـه، وأن يصد المسلم بقلبه عن عبادة وتعظيم كل ما سواه، فبذلك يكون محققاً لهــذا التوحيــد، الــذي هو توحيد الرســل، والــذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم.......

لما دخل علم الكلام على المسلمين أفسد على كثير منهم معتقداتهم في أسماء الله وصفاته وإرادته وقدره، فلم يفرقوا بين الإرادة الشرعية والقدرية، ولا أثبتوا له صفات الكمال. والناس في الأسماء والصفات أقسام، فمن مثبتها مع التشبيه وهم المشبهة، ومن معطلها أو بعضها وهم المعطلة، وأهل السنة هم وسط بين ذلك، فهم يثبتون الأسماء والصفات دون تشبيه ولا تعطيل.

معنى قوله: (قديم بلا ابتداء دائم بلا انتهاء)

قال المصنف رحمه الله تعالى: [قوله: (قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء). قال الله تعالى: هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرِ [الحديد:3]، وقال صلى الله عليه وسلم: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء)، فقول الشيخ: (قديم بلا ابتداء، دائم لا انتهاء) هو معنى اسمه: الأول والآخر. والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطر، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته؛ قطعاً للتسلسل، فإنا نشاهد حدوث الحيوان، والنبات، والمعادن، وحوادث الجو، كالسحاب والمطر وغير ذلك، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة، فإن الممتنع لا يوجد، ولا واجبة الوجود بنفسها، فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم، وهذه كانت معدومة ثم وجدت، فعدمها ينفي وجوبها، ووجودها ينفي امتناعها. وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه، كما قال تعالى: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ [الطور:35]، يقول سبحانه: أحدثوا من غير محدث، أم هم أحدثوا أنفسهم؟ ومعلوم أن الشيء المحدث لا يوجد نفسه، فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم، لا يكون موجوداً بنفسه، بل إن حصل ما يوجده وإلا كان معدوماً، وكل ما أمكن وجوده بدلاً عن عدمه، وعدمه بدلاً عن وجوده، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له. وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية، وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية بأفصح عبارة وأوجزها، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله، قال تعالى: وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا [الفرقان:33]. ولا نقول: لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية، والأدلة النظرية، فإن الخفاء والظهور من الأمور النسبية، فربما ظهر لبعض الناس ما خفي على غيره، ويظهر للإنسان الواحد في حال ما خفي عليه في حال أخرى. وأيضاً فالمقدمات وإن كانت خفية، فقد يسلمها بعض الناس وينازع فيما هو أجلى منها، وقد تفرح النفس بما علمته من البحث والنظر، ما لا تفرح بما علمته من الأمور الظاهرة، ولا شك أن العلم بإثبات الصانع ووجوب وجوده أمر ضروري فطري، وإن كان يحصل لبعض الناس من الشبه ما يخرجه إلى الطرق النظرية]. ......

نعرف أن هذا الوصف وهو قوله: (قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء) وصف ثـابت للإله، ولكن العبارة التي في القرآن والسنة أوضح، وهي قول الله تعالى: هُـوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ [الحديد:3]، وفسر ذلك النـبي صـلى الله عليه وسـلم الله عليه وسلم بقوله: (أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شـيء)، وفسره أيضاً في حديث عمران بقوله: (كان الله ولم يكن شيء قبلـه). وهـذا دليل على أن الله تعالى قديم ولم يسبق بعدم، وأنه دائم ولا يلحقه فناء، وأن المخلوقات حادثة معدومة ثم وجدت، ثم يأتي عليها العدم، ويستدل على هـذا بحدوث الحوادث، فيقال: هذه الحـوادث لا بد لها من محـدث. وهـذا قد يعتـبر دليلاً عقلياً، ولكن قيدته الآيات كهذه الآية التي في سـورة الطـور، وهي قوله تعالى: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْـرِ شَـيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَـالِقُونَ [الطـور:35]، يقـول: فـإذا تحققوا أنهم لم يكونوا هم الـذين خلقـوا أنفسـهم وتحقق أنهم لم يخلقـوا من غير شيء، تعين أنهم خلقوا من شـيء وأن لهم خالقـاً خلقهم، ويسـتدل بهـذا على الطبائعيين الدهريين، والذين يسمون في هذه الأزمنة بالشيوعيين الـذين ينكــرون الخــالق، وقــديماً كــانوا يســمون بالطبــائعيين، ومنهم الفلاســفة الطبـائعيون، فهنـاك فلاسـفة يقـرون بالخـالق ويسـمون الفلاسـفة الإلهـيين. فهؤلاء جميعاً يحتج عليهم بالعقل فيقال: هـذه الموجـودات نشـاهد أنها كـانت معدومة ثم وجـدت، فلا بد لها من موجـد، نشـاهد مثلاً: أن السـماء ليس فيها سحاب ثم يتراكم فيها السحاب، فلا بد له من موجد، ونشاهد أن الأرض تكون يابسة ثم نشـاهدها بعد ذلك تهـتز خضـراء وفيها أشـجار وثمـار، فلا بد لها من موجد، ونشاهد مثلاً أن الإنسان يكـون صـغيراً ثم نشـاهده بعد ذلك قد حصل له أولاد وصاروا بجانبه، لقد كانوا معـدومين ثم وجـدوا، فلا بد لهم من موجـد، وهكذا توالد الحيوانات والدواب ونحوها لا بد لها من موجد، فإن الإنسان ليس هو الذي يوجد نفسه، وليس هو الذي يخلق أولاده، ولو كان هو الذي يتصــرف بنفسه لحرص على أن يكون خلقه أحسن من خلق غـيره، ولو كـان هو الـذي يوجد ولده لحرص على أن يكـون أولاده ذكـوراً أو نحو ذلـك، فتعين أن هنـاك خالقاً يتصرف في هذا الكون، فهو الـذي يعطي ويمنـع، يصل ويقطـع، يخفض ويرفع، يسعد ويشقي، يفقر ويغني. فإذاً لا بد أن هـذه الموجـودات تنتهي إلى موجد، وذلك الموجد لا بد أن يكون غنياً بنفسه، وأن ما سواه فقير إليه، وهذا الوصف هو وصف الخالق تعالى، قال عز وجل: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُـذْهِبْكُمْ وَيَـأْتِ بِخَلْـقٍ جَدِيـدٍ * وَمَا ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [فاطر:15-17]، أي: ليس ذلك شاقاً ولا صعباً على اللـه، بل هو سهل يسير: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس:82].

اعتقاد أهل السنة في أولية الله وأزليته

يعتقد أهل السنة أن رب هذا الكون واحد، وأنه الذي يتصرف في الكون، وأنه قـديم ليس له بداية وأنه دائم ليس له نهايـة، وقد ذكر الله تعـالى أن كلامه لا ينفد بقوله: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْـرُ مِـدَادًا لِكَلِمَـاتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَنْ تَنفَـدَ كَلِمَاتُ رَبِّي [الكهف:109]، وما ذاك إلا أن كلام الله ليس له بداية ولا نهايـة، فـالبحر ولو كـان معه سـبعة أبحر تمـده، وكـانت الأشـجار من أول الـدنيا إلى آخرها أقلاماً، فكتب بتلك الأقلام بمداد هذه البحار، لنفـدت البحـار ولتكسـرت الأقلام ولم ينفد كلام الله؛ وذلك لأنه لا بداية له ولا نهاية، ولا شك أن هذه من الحجج العقلية الـتي تقطع مخاصـمة أولئـك. وإذا عـرف المسـلمون أن لهم خالقاً خلقهم وخلق هذا الكون، عرفوا أنهم ما خلقـوا عبثـاً، فلا بد أن للخـالق الـــذي خلقهم وأنعم عليهم حقـــاً عليهم، فيعـــرف العبيد حق الله عليهم وهو عبادته وحده لا شريك له، فيكون هذا دافعاً لهم إلى أن يقوموا بهذا الحق، ثم بعد ذلك يعلقــون آمــالهم راجين الثــواب الــذي رتب لهم على تلك العبــادة. والحاصل أن كل عاقل إذا فكر في هذا الكـون ورأى تواجـده ورأى أنه حـدث بعد أن كان معدوماً، عرف أنه قد كان معدوماً وأنه لا بد له من محدث، وذلك المحدث لو كان مفتقراً إلى محدث آخر لكـان فقـيراً، ثم قد يقـال أيضـاً: من الذي أحدث المحدث الأول، وإذا كان له محدث فمن الذي أحدث الذي قبلــه؟ فيلزم من ذلك التسلسـل. فـإذا قيـل: إن المحـدث واحـد، وإنه غـير مسـبوق بعـــدم، وإنه الأول بلا بدايـــة، انقطع التسلسل ولم يكن هنـــاك تسلسل في الماضي ولا في المسـتقبل. وهـذه حجة عقليـة، ولكن تكفي عنها هـذه الآية النقلية وما يشـابهها من الآيـات الـتي يحتج الله بها على عبـاده، ففي قدرته وكمال تصـرفه في هـذا الكـون، وما فيه من الآيـات عـبرة وعظـة، ولكن تلك العبرة والعظة إنما ينتفع بها أهل العقول.

إدخال المتكلمين لفظ (القديم) في أسماء الله تعالى

قـــال المؤلف رحمه اللـــه: [وقد أدخل المتكلمـــون في أســـماء الله تعـــالى (القديم)، وليس هو من الأسماء الحسنى، فـإن القـديم في لغة العـرب الـتي نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره، فيقال: هذا قديم للعتيق، وهـذا حـديث للجديد، ولم يستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدم، كما قـال تعـالى : حَتَّى عَـادَ كَـالْعُرْجُونِ الْقَـدِيمِ [يس:39]، والعرجـون القـديم: الـذي يبقى إلى حين وجـود العرجـون الثـاني، فـإذا وجد الجديد قيل

للأول قـديم. وقـال تعـالى: وَإِذْ لَمْ يَهْتَـدُوا بِـهِ فَسَـيَقُولُونَ هَـذَا إِفْـكٌ قَـدِيمٌ [الأحقاف:11] أي: متقدم في الزمان، وقال تعالى: أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ [الشعراء:75-76]، فالأقدم مبالغة في القديم، ومنـه: القول القديم والجديد للشافعي رحمه الله تعالى. وقـال تعـالى: يَقْـدُمُ قَوْمَـهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ [هود:98] أي: يتقدمهم، ويستعمل منه الفعل لازماً ومتعـدياً، كما يقـال: أخـذت ما قـدم وما حـدث، ويقـال : هـذا قَـدُمَ هـذا وهو يقدمه، ومنه سميت القدم قـدما؛ لأنها تقـدم بقية بـدن الإنسـان. وأما إدخـال القديم في أسماء الله تعالى، فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام، وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف، منهم ابن حزم . ولا ريب أنه إذا كـان مسـتعملا في نفس التقدم، فإن ما تقدم على الحـوادث كلهـا، فهو أحق بالتقـدم من غـيره. لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى التي تدل على خصوص ما يمـدح به. والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحـوادث كلهـا، فلا يكـون من الأسماء الحسنى، وجـاء الشـرع باسـمه (الأول)، وهو أحسن من القـديم؛ لأنه يشـعر بـأن ما بعـده آيل إليه وتـابع له بخلاف القـديم، والله تعـالى له الأسماء الحسنى لا الحسنة]. ......

وصف المتكلمين لله بالقديم ومعناه عندهم

مشهور في كلام المتكلمين وصف الله بأنه قديم، بل عندهم أن القـديم أخص أوصـاف اللـه، ويعنـون بـذلك أنه الـذي لم يتقدمه شـيء، ولـذلك فهم ينفـون الصفات، ويقولون: إن تعدد الصفات يلزم منه تعدد القدماء، يعني: أن القديم واحد وهو الله، فلا يكون هناك قـدماء غـيره، فلو قيـل: إن لله صـفات لكـانت أيضاً موصوفة بالقدم، أي فيقال: الله قديم وسمعه قديم وبصـره قـديم ونحو ذلك. وقد أجاب أهل السنة عليهم بأجوبة منهـا: أولاً: أن لفظة القـديم لا تـدل على الأوليـة. ثانيـاً: أن نفي الصـفات لاسـتلزامها تعـدد القـدماء لا يلـزم هـذا الاسـتلزام؛ وذلك لأن القـديم ليس بلفظ شـرعي ولا لغـوي، ولأن الله تعـالى واحد بذاته وبصفاته، وأن الصفات من جملة الذات، فلا يكون في إثباتها تعدد. وهـاهو الشـارح ينكر على هـؤلاء الـذين يقولـون إن القـديم من أسـماء اللـه، ويذكر أن الاسم الصحيح الذي سمى الله به نفسه هو: الأَوَّلُ وَالآخِرُ [الحديـد: 3]، فأما القديم أو الأزلي فهي أسماء اصطلاحية، لا يلزم من الاصطلاح عليها ثبوتها. قصدهم بالقديم عدم تقدم شـيء عليـه، وقصـدهم بـالأزلي أو بالـدائم عدم إتيان الفناء عليه، ولو أتوا على هذه الآية أو على هذين الاسمين في هذه الآية وهما قول الله تعالى: هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ [الحديـد:3]، وقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (أنت الأول فليس قبلك شـيء، وأنت الآخر فليس بعـدك شـيء)، لكـان ذلك كافيـاً، ولكـان التفسـير واضـحاً، ولكـانت الأسـماء واقعة موقعها.

معنى كلمة (القديم) في لغة العرب

يقول: إن كلمة القديم عند العرب لا تدل على تقدم الإنسان على غـيره كلـه، وإنما تــدل على تقدمه على جنســه، فــإذا وجد له جنس جديد ســمي الأول قــديماً، ومنه قوله تعــالى: حَتَّى عَــادَ كَــالْعُرْجُونِ الْقَــدِيمِ [يس:39]، فــإن العراجين هي قنوان النخل، يعني: العذوق التي يكون فيها التمر، ومتى يكــون قديماً؟ إذا حملت النخل مرة ثانية قيل للعراجين التي من العام الماضي: هذه عراجين قديمة. وكذلك قوله تعـالى: أَنْتُمْ وَآبَـاؤُكُمُ الأَقْـدَمُونَ [الشـعراء:76]، يعــني: أن آبــاءكم قد تقــدموا عليكم، ومعلــوم أن الآبــاء قبلهم أجــداد وقبل الأجداد أجداد وهلم جراً، فسمي الآباء القريبون أقدمين، فدل على أن القـديم لا يـدل على السـبق المطلـق، وإنما يـدل على سـبق بعض الجنس. فالوصف بــأن الله هو الأول أبلغ من الوصف بأنه القــديم، وهــذه الكلمة (الأول) تعطي معنى الأولية، و(الآخـر) تعطي معـنى الأزليـة، يعـني الأبدية والديمومـة؛ وذلك لأن الله موصوف بأنه دائم أبدي وأزلي، لا يأتي عليه الفناء ولا التغير، وأنه هو كما وصف نفسه بأنه الحي الــذي لا يمـوت: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُـوتُ [الفرقان:58]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتــون)، يعــني: بعد مــوت النــاس في هــذه الحيــاة وفنــاء المخلوقــات يبقى الله تعــالى، كما قــال تعــالى: وَيَبْقَى وَجْــهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ [الرحمن:27]، وقال: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [القصص:88]. فـإذا كان هو الباقي فإنه أيضاً هو الذي يبعث العباد. وهو سبحانه لا يأتي عليه فنــاء أبداً، وذلك هو الأصل في الـدوام، وهو الأصل في البقـاء الـذي هو وصف الله وحده. فيعتقد المسلمون أن ربهم سـبحانه الـذي خلق هـذا الكـون لم يسـبق بعدم بل هو قديم، وأنه لا يأتي عليه الفنـاء بل هو دائم، ولكن يعـبرون بـالأول والآخر، فهما أوضح من القديم والدائم أو الأزلي أو نحو ذلك.

معنى قوله: (لا يفنى ولا يبيد)

قال المؤلف رحمه الله: [قوله: (لا يفنى ولا يبيد). إقرار بــدوام بقائه سـبحانه وتعالى، قـال عز من قائل : كُـلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَـانٍ * وَيَبْقَى وَجْـهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْـرَامِ [الـرحمن:26-27]، والفنــاء والبيد متقاربــان في المعـنى، والجمع بينهما في الذكر للتأكيد، وهو أيضا مقرر ومؤكد لقولـه: (دائم بلا انتهـاء)]. أي: أن قوله: (لا يفنى ولا يبيد) مؤكد لقوله: (دائم بلا انتهاء)، ودليله من القــرآن

قوله تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [القصص:88]، وقوله: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ [الرحمن:26-27]، وقوله: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ [الفرقان:58]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون)، مثل بالجن والإنس لأنهم الثقلان المكلفان. إذاً: كل شيء يفنى إلا وجه الله تعالى، وذلك دليل على الكمال، والذي يكون له الكمال يستحق أن يقدس وأن يعبد وحده، وأن يقوم عباده الذين هم خلقه وملكه بواجبهم نحوه، وذلك بالعبادة المستمرة له سبحانه. ......

معنى قوله: (ولا يكون إلا ما يريد)

قال المؤلف رحمه الله: [قوله: (ولا يكون إلا ما يريد). هذا رد لقول القدرية والمعتزلة، فإنهم زعموا أن الله أراد الإيمان من الناس كلهم، والكافر أراد الكفر، وقولهم فاسد مردود؛ لمخالفته الكتاب والسنة، والمعقول الصحيح، وهي مسألة القدر المشهورة، وسيأتي لها زيادة بيان إن شاء الله تعالى. وسموا قدرية لإنكارهم القدر، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر: (قدرية) أيضاً، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب. أما أهل السنة فيقولون: إن الله وإن كان يريد المعاصي قدراً، فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها، وهذا قول السلف قاطبة، فيقولون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال : والله لأفعلن كذا إن شاء الله لم يحنث إذا لم يفعله، وإن كان واجباً أو مستحباً، ولو قال : إن أحب الله حنث، إذا كان واجباً أو مستحباً]. قوله: (ولا يكون إلا ما يريد) هذا مثل قول المسلمين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقوله تعالى: فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ [هود:107] يعني: أن ما أراده تعالى فإنه لا بد أن يحصل وما لم يرده فإنه لا يكون، والمراد هنا الإرادة الكونية؛ وذلك لأن الإرادة تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية. فالله تعالى قدر الكائنات فلا يحدث في الوجود شيء إلا بإرادته، وهذا أكثر ما تطلق الإرادة عليه. الإرادة الكونية: كما في قوله: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ [الأنعام:125]، (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ)، والآيات في هذه الإرادة كثيرة. فأهل السنة يعتقدون أنه لا يكون شيء في الوجود إلا بإرادته، ولو شاء لهدى الناس جميعاً، ولكن لا يتخذون ذلك حجة في المعصية كما تفعله طائفة الجبرية الذين يزعمون أنهم لا اختيار لهم، وأن العباد مجبورون على المعاصي وعلى الكفر، وليس لهم أي اختيار. ونقول: بل الإرادة الكاملة لله سبحانه فلا يُعصى قسراً ولا قهراً، ولا تكون إرادة الخلق أقوى من إرادة الله، ولكن قد منحهم سبحانه إرادة تناسبهم، وهي مغلوبة بقدرة الله، فللعباد قدرة على أفعالهم ولهم إرادة، ولكن إرادتهم وقدرتهم مسبوقة بإرادة الله تعالى وبقدرته. ......

أقسام القدرية وحكم كل قسم

القدرية ينقسمون إلى قسمين: قدرية نفـاة، وقدرية مجـبرة، وكلاهما ضـلال. النفاة: هم الذين نفوا قدرة اللـه، وقـالوا: إن الله لا يقـدر على أفعـال العبـاد. والمجــبرة: هم الــذين يقولــون: إن الله أجــبر العبــاد على المعاصي وعلى الطاعات وقسرهم عليها، تعالى الله عن ذلك. وهدى الله أهل السـنة فقـالوا: إن الله على كل شيء قـدير، ولكن منح العبد قـدرة يكلف بهـا، فـإذا اعتقـدنا ذلك سلمنا من الاعتراضات.

أنواع الإرادة

قـال المؤلف رحمه اللـه: [والمحققـون من أهل السـنة يقولـون: الإرادة في كتــاب الله نوعــان: إرادة قدرية كونية خلقيــة، وإرادة دينية أمرية شــرعية. فــالإرادة الشــرعية هي المتضــمنة للمحبة والرضــا. والكونية هي المشــيئة الشـاملة لجميع الموجـودات، وهـذا كقوله تعـالى : فَمَنْ يُـرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَـهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ [الأنعام:125]، وقوله تعـالى عن نـوح عليه السـلام : وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ [هود:34]، وقوله تعالى: وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيـدُ [البقـرة:253]. وأما الإرادة الدينية الشـرعية الأمرية: فكقوله تعـالى: يُرِيـدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْـرَ وَلا يُرِيـدُ بِكُمُ الْعُسْـرَ [البقـرة: 185]، وقوله تعـالى: يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْـدِيَكُمْ سُـنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُـوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [النسـاء:26]، وقولـه: وَاللَّهُ يُرِيـدُ أَنْ يَتُـوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيـدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُـونَ الشَّـهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُـوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيـدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا [النسـاء:27-28]، وقوله تعـالى: مَا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ [المائدة: 6]، وقوله تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُـذْهِبَ عَنْكُمُ الـرِّجْسَ أَهْـلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا [الأحزاب:33]. فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قـول النـاس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريده اللـه، أي: لا يحبه ولا يرضـاه ولا يـأمر بـه. وأما الإرادة الكونية فهي الإرادة المذكورة في قـول المسـلمين: ما شـاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. والفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل، وبين إرادته من غــيره أن يفعــل، فــإذا أراد الفاعل أن يفعل فعلاً، فهــذه الإرادة المعلقة بفعلـــه، وإذا أراد من غـــيره أن يفعل فعلاً، فهـــذه الإرادة لفعل الغـــير، وكلا النوعين معقول للناس، والأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى. فالله تعالى

إذا أمر العباد بـأمر، فقد يريد إعانة المـأمور على ما أمر بـه، وقد لا يريد ذلك وإن كـان مريـداً منه فعلـه، وتحقيق هـذا مما يـبين فصل الـنزاع في أمر الله تعــالى: هل هو مســتلزم لإرادته أم لا ؟ فهو ســبحانه أمر الخلق على ألسن رسله عليهم السلام بما ينفعهم، ونهاهم عما يضـرهم، ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله، فأراد سبحانه أن يخلق ذلك الفعل، ويجعله فـاعلاً لـه، ومنهم من لم يـــرد أن يخلق فعلـــه، فجهة خلقه ســـبحانه لأفعـــال العبـــاد وغيرها من المخلوقـات غـير جهة أمـره للعبد على وجه البيـان لما هو مصـلحة للعبد أو مفسدة، وهو سبحانه إذ أمر فرعون وأبا لهب وغيرهما بالإيمـان، كـان قد بين لهم ما ينفعهم ويصـلحهم إذا فعلـوه، ولا يلـزم إذا أمـرهم أن يعينهم، بل قد يكون في خلقه لهم ذلك الفعل وإعانتهم عليه وجه مفسدة من حيث هو فعل له، فإنه يخلق ما يخلق لحكمـة، ولا يلـزم إذا كـان الفعل المـأمور به مصـلحة للمأمور إذا فعله، أن يكون مصلحة للآمر إذا فعله هو، أو جعل المأمور فـاعلاً له، فأين جهة الخلق من جهة الأمـر؟! فالواحد من النـاس يـأمر غـيره وينهـاه مريداً النصيحة، ومبيناً لما ينفعه، وإن كـان مع ذلك لا يريد أن يعينه على ذلك الفعـل، إذ ليس كل ما كـان مصـلحتي في أن آمر به غـيري وأنصـحه يكـون مصلحتي في أن أعاونه أنا عليه، بل قد تكون مصلحتي إرادة ما يضاده، فجهة أمـــره لغـــيره نصـــحاً غـــير جهة فعله لنفســـه، وإذا أمكن الفـــرق في حق المخلوقين، فهو في حق الله أولى بالإمكان]. ......

الفرق بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية

هذا الكلام يوضح ما قلنا: من أن الإرادة قسـمان: إرادة دينية شـرعية أمريـة، وإرادية كونية قدرية خلقية. والفرق بينهمـا: أن الإرادة الكونية لا بد من وجـود المـراد فيهـا، فكل شـيء أراده الله كونـاً وقـدراً فلا بد من وجـوده، ولكن قد يحبه وقد لا يحبه. والذي يريده شرعاً ودينـاً قد لا يوجد، فالطاعـات والأعمـال الصــالحة أرادها الله دينــاً وشــرعاً من جميع الخلــق، وأحبها منهم، ولكن قد تحصل من بعضـهم وقد لا تحصل من البعض الآخـر. فيقـول: إن الله أراد من فرعون وأبي لهب أن يؤمنا؛ أراد ذلك دينـاً وشـرعاً وأمـراً، ولكن ما أراد ذلك كونـاً ولا قـدراً ولا خلقـاً، فلـذلك لم يوجد منهما الإيمـان والأعمـال الصـالحة. وأراد من الأنبيـاء وأتبـاعهم الإيمـان دينـاً وشـرعاً، وأراده منهم كونـاً وقـدراً فوجد. فكل الأعمال الصـالحة محبوبة عند اللـه، وإذا وقعت فإنها مـرادة دينـاً وشـــرعاً، ومـــرادة كونـــاً وقـــدراً، وكل الحـــوادث حـــتى المعاصي والكفر والمخالفـــات، فهي واقعة لإرادة الله الكونية القدرية الخلقيـــة، ولكنها ليست محبوبة ولا مَرْضية ولو كان الله قد أرادهـا، قـال تعـالى: إِنْ تَكْفُـرُوا فَـإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ [الزمر:7]، فـأخبر بأنه لا يرضى الكفر ولكن يرضى الشكر.

ذكر الآيات الدالة على الفرق بين الإرادة الشرعية والقدرية

ذكر الشارح الأدلة من الآيات على الفرق بين الإرادتين، فإن قوله تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ [الأنعام:125]، هذه إرادة كونية، يعني: من قدر الله له كوناً أنه يهديه، فإنه يشرح صدره للإسلام، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ [الأنعام:125]، أي: من قدر الله له أنه يضل ولا يهتدي، فإنه يجعل صدره ضيقاً حرجاً، فهذه إرادة كونية قدرية. ومثلها قوله تعالى: وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ [البقرة:253]، وقوله: فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ [البروج:16]، وقوله: إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ [هود:34] هذه إرادة كونية، يعني: إذا كان الله يريد كوناً وقدراً أن يغويكم فلا راد لما أراده، وهذا معنى قول المسلمين: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. لكن إذا احتج بعض العصاة وقال: إن الله ما أراد هدايتي، فكيف أهتدي والله لم يرد؟ نقول له: اسأل الله الهداية حتى يستجيب لك وافعل السبب، فإن الله أعطاك قدرة وأعطاك استطاعة على الأسباب، وأقدرك على الأسباب المحسوسة، فافعلها حتى تكون أسباباً في حصول الإرادة ووجودها. وإذا قال بعض العصاة مثلاً: هكذا أراد الله مني هذه المعصية، نقول: أرادها كوناً ولم يردها شرعاً، الله تعالى أراد منك الإيمان شرعاً وأمرك به، بل أمر الناس كلهم أن يتقوا الله، وأن يؤمنوا به، وأحب ذلك منهم: فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ [النحل:36]. وبلا شك أن الخير دائماً ينسب إلى الله تعالى، وأما الشرور فلا يجوز نسبتها إليه، كما حكى الله عن مؤمني الجن أنهم قالوا: وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا [الجن:10]، فالإرادة هنا في هذه الآية إرادة شرعية، يعني: أراد الله بهم الخير إرادة شرعية، والإرادة في الأولى: أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ [الجن:10] إرادة كونية، وبهذا يحصل للمؤمن معرفة الفرق بين الإرادتين.

اجتماع الإرادة الشرعية والقدرية في إيمان المؤمن وعمله الصالح

هو يقول: كل ما في الوجود من الحوادث فهو مراد كوناً وقدراً، ولكن قد لا يكون محبوباً، قد يكون محبوباً كالطاعات وقد يكون مكروهاً كالمعاصي، وكل الطاعات التي تحدث من أهلها فإنها مرادة ديناً وشرعاً، أرادها الله ديناً وشرعاً، فهي مرادة ومحبوبة. يعني: أن الله تعالى أراد الإيمان من الناس كلهم ديناً وشرعاً، ولكن تحقق ذلك في المؤمنين، فأصبح إيمان المؤمنين

وأعمالهم الصالحة مجتمعاً فيها الإرادتان: الشرعية، والكونية القدرية، فإيمان المؤمنين وصلاتهم وعباداتهم مرادة كوناً وقدراً لوجودها، ومرادة ديناً وشرعاً للأمر بها ولمحبتها. ومع ذلك فـإن على المسـلم أن يسـأل ربه الهدايـة، حـتى ييسر له هذه الأسباب ويجعله من أهلها، فإذا قام بالأسباب وفعلها رُجي بذلك أن يكون ممن أراد الله تعالى هدايته كوناً وقـدراً، ووفقه لـذلك ديناً وشـرعاً، ولا يبقى على حاله التي هو عليها ويقـول: ما أراد الله هـدايتي، ويسـتمر على الضلال والعياذ بالله، فإن الذين يحتجون بالقدر يحتجون به في أمر دون أمـر، حيث إنهم لا يسـلمون ذلك في الأمـور الدنيوية بل تـراهم مجـدين ومجتهـدين ومشمرين، بخلاف أمورهم الدينية فإنهم يحتجون بالقضاء وبالقـدر، ويحتجـون بأن الله ما أراد منهم كذا وكـذا، فيقـال لهم: البـاب واحـد، فـإذا اجتهـدتم في أمور الدنيا فاجتهدوا في أمور الدين، والله تعـالى هو الموفق لمن أراد الخـير والعمل الصالح.

وجه إنكار القدرية لقدرة الله والرد عليهم

قال المؤلف رحمه الله: [والقدرية تضـرب مثلا بمن أمر غـيره بـأمره، فإنه لا بد أن يفعل ما يكـون المـأمور أقـرب إلى فعلـه، كالبشـر، والطلاقـة، وتهيئة المساند، والمقاعد ونحو ذلك. فيقال لهم: هذا يكون على وجهين: أحدهما: أن تكون مصلحة الأمر تعـود إلى الآمـر، كـأمر الملك جنـده بما يؤيد ملكـه، وأمر السيد عبده بما يصلح ملكه، وأمر الإنسان شـريكه بما يصـلح الأمر المشـترك بينهما ونحو ذلـك. الثـاني: أن يكـون الآمر يـرى الإعانة للمـأمور مصـلحة لـه، كالأمر بالمعروف، وإذا أعان المأمور على البر والتقــوى، فإنه قد علم أن الله يثيبه على إعانته على الطاعــة، وأنه في عــون العبد ما كـان العبد في عــون أخيه. فأما إذا قدر أن الآمر إنما أمر المـأمور لمصـلحة المـأمور، لا لنفع يعـود على الآمر من فعل المأمور كالناصح المشير، وقـدر أنه إذا أعانه لم يكن ذلك مصلحة للآمر، وأن في حصول مصلحة المأمور مضرة على الآمـر، مثل الـذي جاء من أقصى المدينة يسعى وقال لموسى عليه السـلام : إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ [القصص:20]، فهـذا مصـلحته في أن يأمر موسى عليه السـلام بـالخروج، لا في أن يعينه على ذلـك، إذ لو أعانه لضره قومه، ومثل هـذا كثـير. وإذا قيـل: إن الله أمر العبـاد بما يصـلحهم، لم يلزم من ذلك أن يعينهم على ما أمرهم بـه، لاسـيما وعند القدرية لا يقـدر أن يعين أحـداً على ما به يصـير فـاعلاً، وإذا عللت أفعاله بالحكمة فهي ثابتة في نفس الأمر، وإن كنا نحن لا نعلمها، فلا يلزم إذا كـان نفس الآمر له حكمة في الأمر أن يكون في الإعانة على فعل المـأمور به حكمـة، بل قد تكـون الحكمة تقتضي أن لا يعينه على ذلـك، فإنه إذا أمكن في المخلـوق أن يكـون مقتضى

الحكمة والمصــلحة أن يــأمر بــأمر لمصــلحة المــأمور، وأن تكــون الحكمة والمصــلحة للآمر أن لا يعينه على ذلــك، فإمكــان ذلك في حق الــرب أولى وأحرى]. قد عرفنا أن المعتزلة ينكرون قدرة الله على أفعال العباد مع عموم قـدرة اللـه، فيقولـون: إن الله لا يقـدر على أفعـال العبـاد، فـإذاً معـنى خلقه لأفعـال العبـاد عنـدهم تهيئة الأسـباب، لا أنه يحـرك جـوارحهم أو يبعث فيهم البواعث الـتي تباشر الأفعـال. وعقيـدة المسـلمين أن الله تعـالى هو الخـالق للعبد ولما يعمل، قال تعالى: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [الصافات:96]، ولكن قدرة الله عامة لكل شيء وتدخل فيها أفعال العبـاد، ومع ذلك فلا نجعل العبد آلة ليس له أية اختيار بل له قدرة وإرادة، وقدرة الله وإرادته غالبة على قدرة العبد وإرادتـه، وبحسب تلك القـدرة الـتي مكنه الله بها وجعله فـاعلاً بسـببها يثـاب ويعـاقب، حيث بها يباشر العبـاد الأفعـال خـيراً وشـراً، فيعصي العاصي ويطيع المطيع. فالعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر، والمصـلي والصـائم، أي: أنه تنسب إليه أفعاله؛ لأنه الذي باشرها وإن كانت مخلوقة لله تعـالى في الأزل، فيقول الشـارح: إن الآمر قد يعين المـأمور وقد لا يعينـه. فمثلاً إذا أمر الملك أحد وزرائه فإنه يهيئ له الأسـباب؛ لأن له مصـلحة بهـذا الأمـر، وهكـذا أيضاً إذا أمر الملك أحد خدمه فإنه يعينه ويساعده، وإذا أمر الشـريك شـريكه بـأمر فيه مصـلحة لهما فإنه يسـاعده، وإذا أمر السـيد عبـده بـأمر فـإن ذلك الفعل فيه مصلحة له، فهي مثل هذا يساعد الآمر المأمور. وضرب أيضــاً مثلاً لمن لا يحتاج أن يساعد، وهو إذا لم يكن فيه مصلحة، ومثل بذلك الرجل الذي نصح موسى بقولــه: فَــاخْرُجْ إِنِّي لَــكَ مِنَ النَّاصِــحِينَ [القصــص:20] أمــره بـالخروج وليس من مصـلحته أن يسـاعده على الخـروج؛ لأن في ذلك مضـرة على الآمــر؛ لأنه من قــوم فرعــون، فــأراد أن يحــذر موسى فقــال: إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ [القصص:20]، هـذا مثـال. فيقـال: الله سـبحانه وتعــالى قد تقتضي حكمته أن يعين المــؤمن على الأوامر ويهــيئ له الأســباب ويمكنها لــه، فيعمل الأعمــال الصــالحة، ويكــون ذلك فضــلاً منه ومنَّة، وقد تقتضي حكمته أن يخذل بعض العباد ويخلي بينهم وبين أهـوائهم وأعـدائهم ولا يعينهم ولا يحميهم، فيعصون ويقعون في الكفر أو في مقـدمات الكفـر، وذلك فتنة منه وعدل ليس بظـالم لهـذا ولا بجـائر مع هـذا، بل هكـذا تقتضي حكمة الله. فلا اعتراض للمعتزلة والقدرية على أفعال اللـه، فإنه يفعل ما يشـاء كما يشاء: يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [فاطر:8]، حكمة وعدلاً ونعمة وفضلاً.
......

حكمة الله تعالى في إعانة العبد على ما أمره أو عدم إعانته

قـال المؤلف رحمه اللـه: [والمقصـود أنه يمكن في حق المخلـوق الحكيم أن يأمر غيره بأمر ولا يعينه عليه، فالخالق أولى بإمكان ذلك في حقه مع حكمته، فمن أمــره وأعانه على فعل المـأمور كـان ذلك المـأمور به قد تعلق به خلقه وأمره نشأةً وخلقاً ومحبة، فكان مراداً بجهة الخلق ومراداً بجهة الأمــر، ومن

لم يعنه على فعل المأمور كـان ذلك المـأمور قد تعلق به أمـره ولم يتعلق به خلقه؛ لعدم الحكمة المقتضـية لتعلق الخلق بـه، ولحصـول الحكمة المقتضـية لخلق ضـده. وخلق أحد الضـدين ينـافي خلق الضد الآخـر، فـإن خلق المـرض الذي يحصل به ذل العبد لربه، ودعاؤه، وتوبته، وتكفير خطاياه، ويرق به قلبه، ويـذهب عنه الكبريـاء والعظمة والعـدوان، يضـاد خلق الصـحة الـتي لا تحصل معها هذه المصالح، ولذلك كـان خلق ظلم الظـالم الـذي يحصل به للمظلـوم من جنس ما يحصل بـــالمرض، يضـــاد خلق عدله الـــذي لا يحصل به هـــذه المصالح وإن كـانت مصـلحته هو في أن يعـدل. وتفصـيل حكمة الله عز وجل في خلقه وأمره يعجز عن معرفتها عقول البشـر، والقدرية دخلـوا في التعليل على طريقة فاسدة، مثلوا الله فيها بخلقه ولم يثبتوا حكمة تعود إليه]. يمثلون بهــذا في أن حكمة الله تعــالى قد تقتضي إعانة المــأمور وقد تقتضي عــدم إعانته، فالله تعـالى أمر الجميع مـؤمنهم وكـافرهم بـالتقوى في قولـه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ [النسـاء:1]، ولكن من النـاس من اتقى ومنهم من لم يتق اللـه، فالـذين اتقـوا الله هـؤلاء قد أراد الله بهم الخـير وهـداهم وأعـانهم، فله عليهم نعمة الإعانة ونعمة الفضـل، والـذين لم يتقـوه هـؤلاء قد خـذلهم وخلى بينهم وبين أهوائهم ولم يعنهم، حكمة منه وعدلاً، فهذا خلق فيه الإيمـان وهـذا خلق فيه الكفر، بمعـنى: مكنه منه وأقـدره عليـه. وله الحكمة في هـذا وهـذا؛ وذلك لأنه خلق ضدين مؤمنـاً وكـافراً، وخلق دارين جنة ونـاراً، ولا بد لكل من الدارين من أهل يؤهلـون لهـا، ولهـذا يخـبر تعـالى بأنه لو شـاء لهـدى النـاس جميعاً، ويخبر بأنه لو شاء لضلوا كلهم، فيقـول تعـالى: وَلَـوْلا أَنْ يَكُـونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ [الزخـرف:33]، يعـني: لـولا أن يكونـوا كلهم على الكفر لجعلنا للكفـار هـذه الأشـياء؛ فينخـدع الناس بهم ويعتقدون أنهم خصـوا بـذلك لشـرفهم ولأهليتهم فيكفـرون مثلهم، وهو واقع كثـيراً. وخلق تعـالى المـرض والصـحة وله الحكمة في ذلـك، ففي خلقه للمـرض مصـلحة، هـذه المصـلحة تكمن في أن المـريض يشـعر بالـذل وبالضعف ويشعر بالحاجة، إذا مرض تذكر ضعفه وتذكر فاقته وحاجته، وتــذكر مسـكنته وتعلق قلبه بربه ودعـاه واسـتكان إليـه. وإذا كـان دائمـاً في صـحة ونعمة ورفاهية ونشاط وثروة وشهوات متتابعة؛ فإنه لا يأمن أن يأخــذه الأشر والبطر والكبرياء والإعجاب بالنفس، ويكون منطلقاً إلى الكفر وإلى المعاصي كما هو الواقع، ولهذا يخبر تعالى بأنه لو وسع على الناس لتجبروا، قال تعالى: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لعباده لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ [الشـورى:27]، يعـني: لتكـبروا ولتجـبروا، فبـذلك نعـرف أنه عنـدما خلق هـؤلاء واختـار أن يكونـوا مؤمـنين، وهؤلاء وجعلهم كافرين، فذلك كما أنه خلق المرض وخلق الصحة وله الحكمة في خلق الضدين. ......

عجز البشر عن معرفة كنه صفات الله وكنه ذاته سبحانه

قال المؤلف رحمه الله: [قوله: (لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام). قــال الله تعالى: وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا [طه:110]، قال في الصحاح: تـوهمت الشـيء: ظننته، وفهمت الشيء: علمته. فمراد الشـيخ رحمه الله أنه لا ينتهي إليه وهم ولا يحيط به علم، قيل: الوهم ما يـرجى كونـه، أي: يظن أنه على صـفة كـذا، والفهم: هو ما يحصــله العقل ويحيط بــه، والله تعــالى لا يَعْلَمْ كيف هو إلا هو سبحانه وتعـالى، وإنما نعرفه سـبحانه بصـفاته، وهو أنه أحد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُـذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ [البقرة:255]، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَـبِّحُ لَـهُ مَا فِي السَّــمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُــوَ الْعَزِيــزُ الْحَكِيمُ [الحشــر:23-24]]. يعتقد المسـلمون أن ربهم سـبحانه وتعـالى موصـوف بصـفات الكمـال مـنزه عن صـفات النقص، ويعتقـدون أنـه: لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ البَصِـيرُ [الشورى:11]، وأنهم لا يستطيعون معرفة كيفيته ولا كنه صفاته ولا كنه ذاته، ويقولـون: الله أعلم بكيفية صـفاته وبكيفية أفعالــه، فلا يجـوز أن يسـأل عنه بكيف. كما قال الإمام مالك لما سئل عن الاسـتواء: الاسـتواء معلـوم والكيف مجهـول، يعـني: كيفية اسـتوائه سـبحانه مجهولة لا يعلمها سـواه، وهـذا أيضـاً يقـال في سـائر الصـفات كصـفة الـنزول والمجيء والعلو والغضب والرحمة والمحبة وما أشبهها. فالمسلمون يعتقدون ثبوت هذه الصفات، ولكن يعجزون عن إدراك كيفيتها، فكيفية ذات الله وكيفية صفاته لا يسـتطيع فهم أن يـدركها ولا وهم أن يتخيلهـا، لو فكر الإنسـان بفكـره لما اسـتطاع أن يصل إلى كيفية الخالق. وقد عجز العباد عن إدراك أقرب شـيء إليهم وهي الأرواح الـتي تحيا بها الأجساد، قال تعـالى: وَيَسْـأَلُونَكَ عَنِ الـرُّوحِ قُـلِ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء:85]. وقد أخـبر الله أن ها هنا ملائكة ونحن نـؤمن بهم وإن لم نـرهم، ولا نـدري مم خلقـوا ولا كيفية خَلْقِهِم، خَلَقَهُم الله تعـالى لعبادته ولكن ما تـركيبهم؟ وما أعضـاؤهم؟ وما أجسـادهم؟ الله أعلم بذلك. وهكـذا فقد أخبرنا الله تعـالى بـأن هنـاك شـياطين، وأخـبر النـبي عليه الصلاة والسلام بأن الشيطان يجري من ابن آدم مجري الـدم، ولكن لا نـدري ما كيفية هذا الشيطان؟! ولا نعرف ما مثاله؟! ولا ما وزنه؟! ولا غـير ذلـك؟!. وأخبرنا تعالى بأن هناك جنـاً، وأن الجن ينفـذون في الإنسـان، وأنهم يـدخلون في الأرض، وحُكيت عنهم الأقــوال وســمعوا وشــوهدوا، ومع ذلك لم نــدر مـاهيتهم؟! ولا ما كيفية خلقهم؟! وإذا عجزنا عن هـؤلاء، فَعَجْـزُ الإنسـان عن كيفية وماهية الـرب تعـالى بطريق الأولى، فما عليه إلا أن يستسـلم، ويعـرف أن هـذا الكـون لا بد له من مكـون، وأن المكـون الـذي كـون هـذه الكائنـات أجرامها وأعلامها وعلويها وسفليها هو الواحد وحده، وهو الذي لا تبلغه الأفهام ولا تتوهمه الأوهـام ولا تدركه العقـول: وَلا يُحِيطُـونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِـهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ [البقرة:255]، ولا يوصف إلا بما وصف به نفسه على وجه الكمـال، كما في الآيات التي سمعنا، فإن الله وصف نفسه بهذه الصـفات، لِيُعْتَقَـدَ أنه الإله

الحـق، وأنه رب الأربـاب، وأنه الخـالق البـارئ المصـور، وأنه الملك القـدوس السلام، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.......

عقيدة أهل السنة في الصفات بين المعطلة والمشبهة

[قولـه: (ولا يشـبهه الأنـام). هـذا رد لقـول المشـبهة الـذين يشـبهون الخـالق بالمخلوق سـبحانه وتعـالى، قـال عز وجـل: لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:11]. وليس المراد نفي الصفات كما يقول أهل البـدع، فمن كلام أبي حنيفة رحمه الله في الفقه الأكبر: لا يشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقـه، ثم قـال بعد ذلـك: وصـفاته كلها خلاف صـفات المخلـوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا انتهى. وقال نعيم بن حمـاد : من شــبه الله بشــيء من خلقه فقد كفــر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه. وقال إسحاق بن راهويه : من وصف الله فشـبه صـفاته بصـفات أحد من خلق الله فهو كـافر بالله العظيم، وقال: علامة جهم وأصحابه دعـواهم على أهل السـنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب أنهم مشبهة، بل هم المعطلة. وكذلك قـال خلق كثـير من أئمة السـلف: علامة الجهمية تسـميتهم أهل السـنة مشـبهة، فإنه ما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات إلا يسـمي المثبت لها مشـبهاً، فمن أنكر أسـماء الله بالكلية من غالية الزنادقة القرامطة والفلاسـفة، وقـال: إن الله لا يقـال له عـالم ولا قـادر، يـزعم أن من سـماه بـذلك فهو مشـبه؛ لأن الاشـتراك في الاسم يـوجب الاشـتباه في معنـاه، ومن أثبت الاسم وقـال هو مجاز كغالية الجهمية، يزعم أن من قال إن الله عالم حقيقة قـادر حقيقة فهو مشبه، ومن أنكر الصـفات وقـال: إن الله ليس له علم ولا قـدرة ولا كلام، ولا محبة ولا إرادة، قال لمن أثبت الصـفات إنه مشـبه، وإنه مجسـم. ولهـذا كُتُبُ نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والرافضة ونحوهم كلها مشحونة بتسمية مثبتة الصفات مشبهة ومجسمة، ويقولون في كتبهم: إن من جملة المجسـمة قوماً يقـال لهم المالكيـة، ينسـبون إلى رجل يقـال له مالك بن أنس ، وقومـاً يقال لهم الشافعية، ينسبون إلى رجل يقال له محمد بن إدريس. حـتى الـذين يفسرون القرآن منهم كـعبد الجبـار والزمخشـري وغيرهمـا، يسـمون كل من أثبت شيئا من الصـفات وقـال بالرؤية مشـبهاً، وهـذا الاسـتعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف]. من عقيدة أهل السنة أنهم إذا أثبتوا الصفات نفوا التشبيه، فيقولون: نثبت لله صفات ولكن لا تشبه صـفات المخلـوق، كما أنهم يثبتون لله أفعالاً ويقولون: لا تشـبه أفعـال العبـاد. فالصـفات مثل صـفة اليد والوجه يقولــــون: لله يد لا كأيــــدي المخلــــوقين، ولله وجه لا كوجه المخلوقين. وصـفات الأفعـال: يثبتـون أن الله يحب ويكـره ويسـخط ويغضب ويرضى وما أشبه ذلك، ويقولون: إن هـذه أفعـال حقيقيـة، ولكن ليس غضـبه سبحانه كغضب المخلـوق ولا رضـاه كرضا المخلـوق، ويثبتـون أن الله يسـمع وأنه يبصر ويقولـون: ليس سـمعه سـبحانه كسـمع المخلـوق ولا بصـره كبصر

المخلوق؛ وذلك لأنه يوجد فرق كبير بين ما يثبت للخـالق وما يثبت للمخلـوق، فسـمع المخلـوق مثلاً لا يـدرك إلا الأصـوات القريبـة، وسـمع الخـالق يـدرك القريب والبعيد، سمع المخلوق تشـتبه عليه الأصـوات، لو تكلم عنـدك خمسة في حين واحد لما فهمت ما يقوله واحد منهم، الخـــالق لا يشـــغله شـــأن عن شأن بل يسـمع الكـل، ولا تغلطه كـثرة المسـائل مع اختلاف اللغـات. كـذلك البصر فـالمخلوق لا يخـرق بصـره الحيطـان ونحوها ولا يبصر في الظلمـات، والخالق تعالى يبصر كل شـيء ولا يخفى عليه شـيء، فيبصر النملة الصـغيرة في حيالك الظُلَمْ، فأين هذا من هذا؟ كذلك سمعنا أن كثيراً من نفاة الصفات يسمون من أثبتها مشبهاً، مع أننا نصرح بنفي التشبيه، فيقولون: إنكم إذا قلتم إن الله على العـرش فـأنتم مشـبهة، إذا قلتم إن الله يـنزل كما يشـاء فـأنتم مشـبهة، إذا أثبتم أن الله له سـمع وله بصر فـأنتم مشـبهة. وهـذا خطأ من القول، كيف يصير أهل السنة مشـبهة مع نفيهم للتشـبيه؟! لكن أولئك النفـاة يظنـون أن مجـرد الإثبـات تشـبيه، يقولـون: مجـرد إثبـات فعل يوجد للخـالق وللمخلوق تشبيه، إذا قلت: إن الخالق يسـمع والمخلـوق يسـمع فقد شـبهت، وليس كـذلك، بل هنـاك فـرق بين السـمعين. ويقولـون: إذا قلت: إن لله يـداً وللمخلوق يداً فقد شبهت، نقول: كلا ليس كذلك، بل هناك فـرق بين اليـدين، فكل له صفة تناسبه، وإلا فإنكم يا معتزلة إذا قلتم: إن للخالق ذاتـاً، تصـيرون مشـبهين حسب عقيـدتكم، وكـذلك إذا قلتم: إن الخـالق موجـود والمخلـوق موجـود فكيف ترموننا بالتشـبيه مع نفينا للتشـبيه؟ هنـاك فرقة يقـال لهم: الباطنية وغلاة القرامطة، هؤلاء ينفون الأسماء والصـفات كلهـا، لا يثبتـون لله أسـماءً ولا صـفات، فمن أثبتها عنـدهم يسـمى مشـبهاً. وهنـاك فرقة يثبتـون الأسـماء وينفـون الصـفات ولا يجعلـون لله صـفات تؤخذ من تلك الأفعـال، فيقولون: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، قدير بلا قـدرة، تعـالى الله عن قولهم. فيسمون من أثبت أن الله يسمع ويبصر مشبهاً، مع أن الذين يثبتونها يقولـون: لا تشـبه صـفات المخلـوق. وهنـاك من المعتزلة من ينفي الصـفات فينفـون القـدرة والعلم والكلام وما أشـبهها، وينفـون أن الله تعـالى يرى، ويزعمون أن من أثبت شيئاً من ذلك فإنه مشبه. ومنهم من المفسـرين الزمخشري صـاحب الكشـاف -التفسـير المطبـوع- فإنه معـتزلي ممن يقـول بخلق القرآن، وممن يقول بأن الله لا يُرى في الآخـرة، ولما كـان أهل السـنة يقولون: إن الله تعـالى يـرى بلا كيـف، أو أنه يـنزل بلا كيـف، أو اسـتوى على العرش بلا كيف، لم يوافقهم على ذلك وادعى أنهم مشبهة لهـذا الفعـل، وفي ذلك بيته المشهور الـذي يقـول فيـه: قد شـبهوه بخلقه فتخوفـوا شـنع الـورى فتستروا بالبلكفة يعني تستروا بقـولهم: بلا كيف وإلا فقد شـبهوه، تعـالى الله عن قولـــه. وأما عبد الجبـــار فهو من المعتزلة المتقـــدمين، وبلا شك أن مثل هـؤلاء لا يلتفت إليهم، ولو انتشـــرت مع الأسف كتبهم ولو حققت ولو قدست ولو وزعت وبيعت في المكتبات الكبيرة والصغيرة فلا يغتر بهـا، فمثلاً الكتـاب الكبير المسمى بالمغني، لهذا القاضي، الذي هو أكبر مؤلف للمعتزلة، مطبوع في نحو أربعة عشر مجلـداً ومحقق ومعتـنىً بـه، وهو مع ذلك يصب في هـذا المذهب الباطل، وله كتاب مطبوع في مجلدين أيضاً اسـمه: متشـابه القـرآن

تتبع فيه آيات الصـفات وحرفها وصـرفها عن ظاهرهـا، وزعم أنه بـذلك أجـاب عما هو متشابه، وهو في الحقيقة خلط في هـذا الكتـاب، فلا يغـتر بكتبـه، وله كتاب في أصول المعتزلة وهو شرح الأصول الخمسة، وأشـباه ذلك من كتبهم الموجودة المطبوعة، فلا يغتر بهم، وفي كتب أهل السنة غنية وكفاية. ......

نفي التشبيه غير مستلزم لنفي الصفات وإثبات الصفات غير مستلزم للتشبيه

قال المؤلف رحمه الله: [ولكن المشهور من استعمال هـذا اللفظ عند علمـاء السنة المشهورين، أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات، ولا يصـفون به كل من أثبت الصفات، بل مرادهم أنه لا يشبه المخلـوق في أسـمائه وصـفاته وأفعاله، كما تقـدم من كلام أبي حنيفة رحمه اللـه: أنه تعـالى يعلم لا كعلمنـا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، وهذا معنى قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:11]، فنفى المثل وأثبت الوصف. وسـيأتي في كلام الشيخ إثبات الصفات، تنبيهاً على أنه ليس نفي التشـبيه مسـتلزماً لنفي الصـفات. ومما يوضح هـذا: أن العلم الإلهي لا يجـوز أن يسـتدل فيه بقيـاس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقيـاس شـمولي يسـتوي أفـراده، فـإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، فلا يجـوز أن يمثل بغـيره، ولا يجـوز أن يـدخل هو وغـيره تحت قضـية كلية يسـتوي أفرادهـا، ولهـذا لما سـلكت طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هـذه الأقيسة في المطـالب الإلهيـة، لم يصـلوا بها إلى اليقين، بل تناقضت أدلتهم، وغلب عليهم بَعد التنـــــــاهي الحـــــــيرة والاضطراب؛ لما يرونه من فسـاد أدلتهم أو تكافئهـا. ولكن يسـتعمل في ذلك قياس الأولى، سواء كان تمثيلاً أو شمولاً، كما قال تعـالى: وَلِلَّهِ الْمَثَـلُ الأَعْلَى [النحل:60]، مثل أن يعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو للمحدث، لا نقص فيه بوجه من الوجـوه، -وهو ما كـان كمـالاً للوجـود غـير مسـتلزم للعـدم بوجـه- فالواجب القديم أولى به. وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجـوه ثبت نوعه للمخلوق المربوب المـدبر، فإنما اسـتفاده من خالقه وربه ومـدبره، وهو أحق به منه، وأن كل نقص وعيب في نفسه، وهو ما تضمن سلب هذا الكمـال، إذا وجب نفيه عن شيء من أنواع المخلوقات، والممكنات والمحـدثات فإنه يجب نفيه عن الـرب تعـالى بطريق الأولى. ومن أعجب العجب أن من غلاة نفـاة الصـفات الـذين يسـتدلون بهـذه الآية الكريمة على نفي الصـفات والأسـماء، ويقولـون: واجب الوجـود لا يكـون كـذا، ولا يكـون كـذا، ثم يقولـون: أصل الفلسفة هي التشبه بالإله على قدر الطاقة، ويجعلون هذا غاية الحكمة ونهاية الكمال الإنساني، ويـوافقهم على ذلك بعض من يطلق هـذه العبـارة، ويـروى عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (تخلقـوا بـأخلاق اللـه)، فـإذا كـانوا ينفون الصفات، فبأي شيء يتخلق العبد على زعمهم؟! وكما أنه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته تعـالى، لا يشـبهه شـيء من مخلوقاتـه، لكن المخـالف في هـذا النصـارى والحلولية والاتحادية لعنهم الله تعـالى. ونفي مشـابهة شـيء من مخلوقاته لـه، مسـتلزم لنفي مشـابهته لشـيء من مخلوقاتـه، فلـذلك اكتفى

الشـيخ رحمه الله بقولـه: (ولا يشـبهه الأنـام) والأنـام: النـاس، وقيـل: الخلق كلهم، وقيل: كل ذي روح، وقيل: الثقلان، وظاهر قوله تعالى: وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ [الـرحمن:10]، يشـهد للأول أكـثر من البـاقي. والله أعلم]. يعـني: أن مؤلف المتن ممن يقول بإثبـات الصـفات، ومن المعلـوم أن من أثبت الصـفة فإنه لا يقـول بنفيهـا، مع كونه يصـرح بنفي التشـبيه، فـالطحاوي الـذي هو صاحب المتن يثبت صفات الأفعال كـالكلام والعلم والقـدرة وما أشـبهها، وإذا كان يثبتها فقد صرح هنا بأنه ينفي مشابهة الخالق للمخلـوق، وبـذلك يعلم أنه لا تنـاقض بين إثبـات الصـفات ونفي التشـبيه، فنحن أهل السـنة نثبت أن الله تعالى موصوف بصفات الكمال، وأن مرجعها إلى خبره عن نفسه وخبر رسله عنه، ونعتقد مع ذلك أنها تختص به ولا تشبه غيرهـا، كما أن صـفات المخلـوق تختص به ولا تشـبه صـفات الخـالق. ويعتقد المسـلمون أيضـاً أن الله تعـالى موصـوف بكل كمـال، كما في قوله تعـالى: وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى [الـروم:27]، وهذا يسمونه قيـاس الأولى، وقيـاس الأولى: هو أن كل كمـال ثبت للمخلـوق فالخـالق أولى بـه؛ وذلك لأن المخلـوق لم يكتسـبه إلا من الخـالق سـبحانه، فصفات الكمال التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كيف توجد في المخلـوق ويخلو عنها الخالق؟! تعـالى اللـه، هـذا هو قيـاس الأولى. وأما قيـاس التمثيل وقياس الشمول الذي يستعمله القياسيون من أهل الكلام فلا يجوز استعماله، فلا يجوز مثلاً أن يقال: كل موصوف فإنه حادث، فصفات الخالق لا يقال: إنها حادثة، فهذا خطأ، بل الخالق بصفاته ليس بحادث، بل هو الأول بصفاته سـواء كـانت فعلية أو قولية أو ذاتيـه. وسـيأتي أن الطحـاوي يصف الـرب سـبحانه وتعالى حيث يقول: (ليس منذ خلق الخلق اسـتفاد اسم الخـالق)، أي: ولا بعد رزقهم استفاد اسم الرازق، والمعنى أنه موصـوف بأنه الخـالق قبل أن ينشئ الخلق، وموصوف بأنه الرازق قبل أن يوجد الخلق الذين يرزقهم، وهكذا أيضاً الصفات التي لها أثر في العباد نحو (التواب) هو موصوف بأنه التـواب وإن لم يكن هنـاك من يتـوب عليهم، وموصـوف بأنه الـرحمن قبل أن يوجد من يرحمهم.. وهكذا. صفات الله تعالى أولية أزلية ليست مسبوقة بعدم، وليست كصـفات أي مخلـوق، وكل كمـال في المخلـوق فإنما اكتسـبه واسـتفاده من الخـالق، فالله تعـالى هو الـذي أعطـاه وهو الـذي أيـده وهو الـذي سـدده، وبالجملة لا يفهم كما تقول المتكلمة: إن إثبات الصفات تشـبيه، بل يجتمع أن المسلم يصف الله بصفات الكمال ومع ذلك لا يكون مشـبهاً، ولأجل ذلك جمع الله الرد على الطائفتين في قولـه: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:11] فإن قوله: (ليس كمثله شيء) رد على المشبهة، وقولـه: (وهو السميع البصير) رد على المعطلة. فالمشبهة هم الذين غلـوا وأثبتـوا الصـفات حـتى جعلوها كصـفات المخلـوق، والمعطلة هم الـذين غلـوا في النفي حـتى عطلوا الخـالق عن صـفاته، وهاتـان الطائفتـان قد كفـرهم كثـير من العلمـاء، ولهذا يقـول ابن القيم رحمه اللـه: لسـنا نشـبه ربنا بصـفاتنا إن المشـبه عابد الأوثان كلا ولا نخليه من أوصافه إن المعطل عابد البهتان يقول بعض السلف: المشـبه يعبد صـنماً، والمعطل يعبد عـدماً، والموحد المثبت يعبد إلهـاً واحـداً فرداً صمداً، وهذا معنى قول بعض السلف: أن من شبه الله بخلقه فقد كفـر،

ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفـــر، وليس فيما وصف الله به نفسه تشبيه.......

شرح العقيدة الطحاوية [11]

يتميز الله تعالى بأسماء وصفات لا تطلق على المخلوق ولا يوصف بهـا؛ دلالة على عظمته وزيادة في إثبات استحقاقه للعبادة وحده دون غيره، فهو الخالق الرازق المحيي المميت الحي القيوم، الأول بلا ابتداء الآخر بلا انتهاء.

الكلام على صفة الحياة والقيومة وما يتعلق بهما

يقول المؤلف رحمه الله تعالى: [قولـه: (حي لا يمـوت، قيـوم لا ينـام). قـال تعالى: اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُـذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَـوْمٌ [البقـرة:255]، فنفي السنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته، وقال تعالى: الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِـالْحَقِّ [آل عمـران:1-3]، وقـال تعـالى: وَعَنَتِ الْوُجُـوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ [طـه:111]، وقـال تعـالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ [الفرقان:58]، وقال تعالى: هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ [غافر:65]، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينـام، ولا ينبغي له أن ينـام..) الحـديث. لما نفى الشـيخ رحمه الله التشـبيه أشـار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه بما يتصف به تعالى دون خلقـه، فمن ذلـك: أنه حي لا يموت؛ لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعـالى دون خلقـه، فـإنهم يموتـون. ومنه: أنه قيوم لا ينـام، إذ هو مختص بعـدم النـوم والسـنة دون خلقـه، فـإنهم ينامون، وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه ليس المراد منه نفي الصـفات، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمـال؛ لكمـال ذاتـه. فـالحي بحيـاة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعاً ولهواً ولعباً: وَإِنَّ الـدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ [العنكبوت:64]، فالحياة الدنيا كالمنـام، والحيـاة الآخـرة كاليقظـة، ولا يقـال: فهـذه الحيـاة الآخـرة كاملـة، وهي للمخلـوق؛ لأنا نقـول: الحي الذي الحياة من صـفات ذاته اللازمة لهـا، هو الـذي وهب المخلـوق تلك الحياة الدائمة، فهي دائمة بإدامة الله لها، لا أن الدوام وصف لازم لها لــذاتها، بخلاف حياة الرب تعالى، وكذلك سائر صفاته، فصـفات الخـالق كما يليق بـه، وصفات المخلوق كما يليق به]. ......

إثبات صفتي الحياة والقيومية لله ونفي ضدهما

هذه من الصفات الثبوتية، يعني: مما نثبت لله تعالى من الصفات صفة الحياة وصفة القيومية، كـذلك ضـدهما من الصـفات السـلبية، وهمـا: صـفة المـوت، وصفة النوم والسِـنة، والسـنة: هي النعـاس أو مقـدمات النـوم، هـذه صـفات نقص، والــرب ســبحانه أثبت لنفسه صــفات الكمــال بقولــه: الْحَيُّ الْقَيُّومُ [البقرة:255]، ونفى عن نفسه صفات النقص بقوله: لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ [البقـرة: 255] أي: نعاس، وَلا نَوْمٌ [البقرة:255] النوم المعروف، ونفى الموت بقوله:

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُـوتُ [الفرقـان:58] فنفى المـوت ونفى السـنة ونفى النوم؛ وذلك لأن النوم نقص يحتاجه الإنسان والدواب؛ لأن فيه شيئاً من إراحة البدن بعد التعب، والـرب سـبحانه وتعـالى مـنزه عن التعب ومـنزه عن اللغوب.

نفي اللغوب والتعب عن الله سبحانه وتعالى

وقيــل: إن اليهــود قــالوا للنــبي صــلى الله عليه وســلم: أخبرنا عن خلق المخلوقات، فـأخبرهم بـأن الله خلق التربة يـوم الأحد إلى أن انتهى من خلق المخلوقات يوم الجمعة، فقالوا: صـدقت لو أكملت، فغضب النـبي صـلى الله عليه وســلم، وعلم أنهم يريــدون بــذلك ما هم يعتقدونه من أن الله أكمل المخلوقات يوم الجمعة واستراح يوم السـبت. هكـذا عنـدهم أن الله اسـتراح يوم السبت، وكذبوا فإن الله تعالى لا يحتاج إلى إراحة، وأنـزل الله رداً عليهم في سـورة ق: وَلَقَـدْ خَلَقْنَا السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّــنَا مِنْ لُغُــوبٍ [ق:38] أي: من تعب، فهو سـبحانه نفى عن نفسه هــذا اللغوب الـذي هو نقص وعيب، وهـذا يـدل على أن الله موصـوف بكل كمـال. وورد أيضـاً: (أن نـبي الله موسى سـأل ربـه، فقـال: يا رب أتنـام؟ فقـال: يا موسى! خذ معك زجاجتين من ماء وقم بهما طوال الليل، فأخذهما فلما كـان في أثنـاء الليل وهو قـائم نعس فاضـطربت يـداه وضـربت إحـدى الزجـاجتين الأخرى فانكسـرتا، فقـال اللـه: لو نمت لاختلت السـموات والأرض كما فعلت هاتان الزجاجتان) أو كما في الأثر، ذكر ذلك ابن كثير في التاريخ وغيره.

الحكمة من تسمية الله نفسه بالقيوم

الله سـبحانه وتعـالى قـائم على هـذه المخلوقـات، ولأجل ذلك سـمى نفسه بـالقيوم، يعـني: القـائم على خلقـه، ومعلـوم أن القـائم على خلقه هو الـذي يراقبهم وهو الذي يرعاهم ويكلؤهم وهم نائمون، قال تعالى: قُلْ مَنْ يَكْلَـؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ [الأنبياء:42] أي: الرحمن هو الذي يكلـؤكم، يعـني: يحفظكم ويراقبكم، فإذا كان كذلك فإنه الذي يرعى عباده، ولا يعتريه نـوم ولا نقص ولا سنة ولا غير ذلك؛ لأنه الذي يمسك هذه المخلوقات، قال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ [الحج:65]، إلى قوله: وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ

تَقَــعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِــهِ [الحج:65] أي: هو الــذي يمســكها بقوته وبخلقه وبتمكينــه، وقــال تعــالى: يُمْسِــكُ السَّــمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَــزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَــكَهُمَا مِنْ أَحَــدٍ مِنْ بَعْــدِهِ [فــاطر:41] أي: هو الــذي يمســكهما حــتى لا يضطربا ولا يزولا، فإذا كــان كــذلك فإنه الحي الــذي لا يمــوت، والجن والإنس يموتون، وقد حكم الله بالفناء على كل من سواه، فقال تعالى: كُــلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَــانٍ * وَيَبْقَى وَجْــهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْــرَامِ [الــرحمن:26-27]، هــذا دليل الحياة التي لا يعتريها نقص ولا تغيير، وبلا شك أن النوم نقص، ولذلك يســمى: أخا الموت، النوم موتة صغرى، ولــذلك قــال تعــالى: اللَّهُ يَتَــوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا [الزمــر:42]، فــذكر أنه يتوفاها في منامهــا، فالنوم شبه المــوت، ولأجل ذلك نفــاه عن نفسه ونفى أيضــاً مقدماتــه؛ لقوله تعالى: لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ [البقــرة:255] والســنة: هي النعــاس أو النــوم الخفيــف. يعتقد المسلمون أن الله موصوف بصفات الكمــال كالحيــاة الكاملة والقيومية الكاملة، وقد وافقت الأشاعرة على وصف الله تعالى بالحيــاة، ولكنهم رجعــوا في إثباتها إلى العقــل، يقولــون: إنما أثبتناها لدلالة العقل عليهــا، وكــأنهم لم يعتبروا دلالة الشرع الواضحة، دلالة النصوص من الآيــات والأحــاديث ونحوهــا. الحديث الذي مر بنا حديث مشهور وهو قوله صلى الله عليه وســلم: (إن الله لا ينــام ولا ينبغي له أن ينــام، يخفض القسط ويرفعــه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور -أو النار- لو كشــفه لأحــرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)، فابتدأ الحديث بنفي هذا النقص وهو النوم عن الله سبحانه وأنه لا ينبغي له أن ينام، هــذه عقيــدة المســلمين، وبلا شك أن الذي يعتقد أن ربه حي لا يمــوت وأنه قيــوم لا ينــام وأنه لا يعتريه تغير، هو الذي يكون قد قدر ربه في قلبه وعظمه على كل شيء؛ فيعبده حق العبادة.

معنى الحي القيوم وما يتضمنانه

قــال المؤلف رحمه اللــه: [واعلم أن هــذين الاســمين -أعــني: الحي القيــوم- مذكوران في القــرآن معــاً في ثلاث ســور كما تقــدم، وهما من أعظم أســماء الله الحسنى حتى قيــل: إنهما الاسم الأعظم، فإنهما يتضــمنان إثبــات صــفات الكمال أكمل تضمن وأصــدقه، ويــدل القيــوم على معــنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه لفظ القديم، ويدل أيضــاً على كونه موجوداً بنفسه، وهو معــنى كونه واجب الوجود، والقيوم أبلغ من القيام؛ لأن الواو أقوى من الألف، ويفيد قيامه بنفسه باتفاق المفسرين وأهل اللغة، وهو معلوم بالضــرورة، وهل يفيد إقامته لغيره وقيامه عليه؟ فيه قولان: أصــحهما: أنه يفيد ذلــك، وهو يفيد دوام قيامه وكمال قيامه؛ لما فيه من المبالغة، فهو سبحانه لا يزول ولا يأفــل؛ فــإن الآفل

قد زال قطعاً، أي: لا يغيب ولا ينقص ولا يفنى ولا يعدم، بل هو الـدائم البـاقي الذي لم يـزل ولا يـزال، موصـوفاً بصـفات الكمـال. واقترانه بـالحي يسـتلزم سائر صفات الكمال، ويـدل على دوامها وبقائهـا، وانتفـاء النقص والعـدم عنها أزلاً وأبـداً، ولهـذا كـان قولـه: اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [البقـرة:255]، أعظم آية في القـرآن كما ثبت ذلك في الصـحيح عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم. فعلى هـذين الاسـمين مـدار الأسـماء الحسـنى كلهـا، وإليهما ترجع معانيها. فـإن الحيـاة مسـتلزمة لجميع صـفات الكمـال، فلا يتخلف عنها صـفة منها إلا لضعف الحيـاة، فـإذا كـانت حياته تعـالى أكمل حيـاة وأتمهـا، اسـتلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة. وأما القيوم فهو متضمن كمـال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجــوه، المقيم لغـيره، فلا قيـام لغـيره إلا بإقامتـه، فـانتظم هـذان الاسـمان صـفات الكمال أتم انتظام].

التوسل والدعاء بأسماء الله من مستلزمات الإيمان بها

الماتن يقـول: (حي لا يمـوت قيـوم لا ينـام) والشـارح ابتـدأ شـرحه بـأول آية الكرسي وهي قوله تعـالى: اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُـذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَوْمٌ [البقرة:255]، واستدل أيضاً بأول سورة آل عمران: الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُــوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [آل عمــران:1-2]، وبالآية الثالثة في ســورة طــه: وَعَنَتِ الْوُجُـوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ [طـه:111]، فالله عز وجل قـرن هـذين الاسـمين في ثلاثة مواضع: في سورة البقرة في آية الكرسي، وفي أول سورة آل عمـران، وفي سورة طه، ولما كان هذا شأنهما قال بعض العلماء: إنهما يتضـمنان اسم الله الأعظم، الـذي إذا دعي به أجـاب وإذا سـئل به أعطى. ولأجل ذلك ينـدب أن يكثر العبد من التوسل بأسماء الله إذا دعاه، وأن يكـثر من التوسل بهـذين الاسمين، وكـان من دعـاء النـبي صـلى الله عليه وسـلم أن يقـول: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث: أصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت)، فأفاد بـأن هـذين الاسمين يدعى الرب سبحانه وتعالى بهما كما يدعى ببقية الأسـماء الحسـنى، التي قال الله عنها: وَلِلَّهِ الأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى فَـادْعُوهُ بِهَا [الأعـراف:180] أي: توسلوا بها في دعائه، فأنت مـأمور أيها العبد عند الـدعاء أن تتوسل بأسـمائه سـبحانه ومن جملتهـا: الحي القيـوم، وبلا شك أن هـذين الاسـمين يتضـمنان صفات الكمال، فإن الحي يتضمن إثبات الحياة، والحياة الـتي تثبتها لله تعـالى هي أتم حياة وأكملها، وذلك بوصفها بأنها حياة مسـتقرة وأنها لا يعتريها نقص، فلا يعتريها النــوم الــذي هو أخو المــوت، ولا يعتريها المــوت كما في قولــه: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُـوتُ [الفرقـان:58]، ومن هـذا الوصف يسـتحق الرب تعالى أن يكون هو الإله، ولأجل ذلك بدأ الآية بإثبات الإلهيــة: اللَّهُ لا إِلَـهَ

إِلَّا هُـــوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [البقـــرة:255] في آية الكرسي وفي أول ســـورة آل عمران، بدأ الآية بالإلهيـة، فكأنه يقـول: الإلهية الحقة لا تصـلح إلا لمن هو حي قيـوم. الحيـاة والقيومية الكاملة هي الـتي اسـتحقها الـرب واسـتلزمت جميع صفات الكمال، ومعـنى كونها تسـتلزم صـفات الكمـال: أن من أثبتها لزمه أن يثبت بقية الصفات التي هي صفات الكمال. فإن الحياة كلما كانت كاملة لـزم أن يكون غيرها من الصفات تابعـاً لهـا، وأما من نفى شـيئاً من الصـفات فإنه إنما أثبت حيـــاة ناقصـــة، وقد وصف الله عز وجل نفسه بالســـمع، والحيـــاة تستلزم أن يكون سميعاً، وبالبصر، والحياة تستلزم أن يكون بصيراً، وبـالكلام، والكلام لا بد أن يكـون من حي، وكـذلك بالقـدرة وبـالعلم وبالمشـيئة والإرادة وما أشبه ذلك من الصفات التي يأتينا تفصيلها إن شاء الله تعـالى. فعلى هـذا فالمســلم عليه أن يلح في دعــاء الله تعــالى ويتوسل إليه بأســمائه، بعد أن يعتقد دلالة تلك الأسماء، فدلالة الحي على إثبـات الحيـاة، ودلالة القيـوم على إثبات القيومية التي هي القيام على خلقه بحيث يوصف بأنه القائم على خلقه المدبر لشئونهم.

الكلام على صفتي الخلق والرزق وما يتعلق بهما

قـال المؤلف رحمه اللـه: [قولـه: (خـالق بلا حاجـة، رازق بلا مئونة). قـال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيـدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ [الـذاريات:56-58]، وقـال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ [فاطر:15]، وقال تعالى: وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ [محمد:38]، وقـال تعـالى: قُـلْ أَغَيْـرَ اللَّهِ أَتَّخِـذُ وَلِيًّا فَـاطِرِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُـوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ [الأنعـام:14]. وقال صلى الله عليه وسـلم من حـديث أبي ذر رضي الله عنـه: (يا عبـادي لو أن أولكم وآخـركم وإنسـكم وجنكم كـانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كـانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شــيئاً، يا عبــادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسـألوني، فـأعطيت كل إنسـان مسـألته، ما نقص ذلك مما عنـدي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر) الحديث رواه مسلم ، وقوله: بلا مئونة: بلا ثقل ولا كلفة]. ......

انفراد الله سبحانه بالخلق والرزق

هـذا من جملة ما وصف الله به نفسه وأخـبر عن نفسه أنه الـذي خلق الخلق ورزقهم، أي هو المنفرد بذلك وحده، فأما الخلق فليس له منازع، وأما الـرزق فظاهر أنه الذي يسر أسباب الرزق، وأخبر بذلك ليعرفه العباد ويعبدوه وحده، فإذا علموا أنهم مخلوقون اعترفوا بأن لهم خالقاً، ذلك الخالق هو الله وحـده، ما خلقهم لحاجته إليهم، ما خلقهم ليسـتكثر بهم من قلـة، ولا ليتعـزز بهم من ذلة، ولا ليستغني بهم من عيلـة، ولا ليسـتأنس بهم من وحشـة، بل هو الغـني عنهم وهم الفقراء إليه، قـال تعـالى: وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَـرَاءُ [محمـد:38]، وقـال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَـرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيـدُ * إِنْ يَشَـأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [فاطر:15-17].

الحكمة من خلق الله للجن والإنس

وقد أخبر الله بالحكمة من خلقه لهذا الخلـق، وهو أنه خلقهم لعبادته وأمـرهم بطاعته، خلقهم ليعرفوه ويعبدوه وأمرهم بـأن يوحـدوه ويطيعـوه، وهو الغـني عنهم، ولهـذا قـال: مَا أُرِيـدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيـدُ أَنْ يُطْعِمُـونِ [الـذاريات: 57]، وقـال تعـالى في آية أخـرى: وَهُـوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ [الأنعـام:14]، فهو الغني وهم الفقراء. إذا عرف العبـاد بـأنهم مخلوقـون وأن لهم خالقـاً، عرفـوا بأن ذلك الخالق غني عنهم وأنهم فقراء إليه، عرفوا بأنهم مملوكـون وأن لهم مالكاً، عرفوا بأنهم مدبرون وأن هناك من يدبرهم ويسـخرهم ويتصـرف فيهم كما يشـاء، ذلك الخـالق والمالك والـرب والمتصـرف هو الـذي يسـتحق أن يعبدوه، ولأجل هذا خاطبهم بذلك وذكرهم، فقال تعـالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُـدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ [البقـرة:21]، ابتـدأ بنعمة الخلق بعـدما أمرنا بـأن نعبـده، ومن أسباب أمره سبحانه بعبادته: أولاً: أنه خلقكم. ثانيـاً: أنه خلق من قبلكم. ثالثاً: أنه أنزل من السماء ماءً. رابعاً: أنه جعل لكم الأرض فراشاً. خامساً: أنه جعل السماء بنـاءً. سادسـاً: أنه أنبت النبـات. كل ذلك من الأسـباب الـتي هي منَّة ونعمة منه سبحانه.

حقيقة انفراد الله تعالى بالرزق وتيسير أسبابه

أما قوله: (رازق) فمعلوم أنه الذي تفرد بـالرزق وحـده، وقد يقـول قائـل: بل العبد هو الذي يتكسب، والدواب هي التي تسعى في طلب الرزق، فـإذاً كيف

يكون ذلك رزقاً، ونحن نشاهد أن الإنسان هو الذي يكتسب الرزق؟! يقول هذا كثير من الناس، وأكثر من يقوله هم الملاحدة، حتى نقل لي بعض الإخوان عن بعض الملاحدة والعياذ بالله أنه لما قيل له: تذكر أن الله الذي يرزقك، فقال: كلا إنما ترزقني يميني والعياذ بالله، نسي أن الله حنن عليه أبويه في طفولته، نسي أن الله يسر له الرزق وهو في رحم أمه، حتى يأتيه الرزق من حيث لا يشعر. فالإنسان في بطن أمه يكون له باب واحد يأتيه الرزق منه، وهو حبل السرة الذي يتغذى من الدم، فمن الذي يسر ذلك له؟ هل للأبوين تصرف في هذا الجنين حتى يتم خلقه؟ ليس لهما تصرف، إذاً فالذي دبره على هذه الهيئة هو الذي يرزق. فلما خرج إلى هذه الدنيا من الذي فجر له هذين الثديين من صدر والدته، بهذا اللبن اللذيذ الذي يحصل به التغذي؟! من الذي ألهم هذا الطفل أن يمتص الثديين حتى يحصل على هذا اللبن الذي يتقوت به؟! عندما أخرجه الله إلى الدنيا فتح له بابين -وهما هذان الثديان- ليكون منهما رزقه وغذاؤه، لا يستطيع أن يحصل لنفسه هذا الرزق إلا أن ييسره الله له، من الذي حنن قلب أبويه عليه وجعل في قلوبهما الشفقة التامة إلى أن يحنوا عليه ويحدبا عليه ويحبا بقاءه ويسهرا ويتعبا في تحصيل راحته؟! لولا أن الله جعل ذلك في قلوبهما لما التفتا إليه ولما بقي على هذه الحياة مدة. بعدما فطم وترعرع من ذينيك الثديين، فتح الله له أربعة أبواب من الرزق: شرابان، وطعامان، فالشرابان: اللبن مأخوذ من الحيوان، والأشربة من الماء، والطعامان: اللحم طعام من الحيوانات التي سخرها الله للإنسان ليأكل من لحومها، وسائر الأطعمة مما تنبته الأرض، والله تعالى هو الذي يسر له ذلك. أولاً: باب واحد في بطن أمه. ثانياً: بابان بعدما خرج إلى الدنيا وكان رضيعاً. ثالثاً: أربعة أبواب بعدما فطم وأحس بالحاجة: طعامان، وشرابان. من الذي يسر أسباب الرزق؟ من الذي أنبت هذا النبات حتى أثمر وحتى أينع وأصبح صالحاً للقوت لو شاء الله تعالى لجعل الأرض حجراً لا تنبت، ولو شاء لجعل الأرض كلها ماءً لم يحصل بها هذا النبات ولا هذا الاستقرار، ولو شاء لجعل هذه الأرض سبخة لا ينبت فيها أي نبات أصلاً، بل لو أن الله جعل الأرض كلها ذهباً أو كلها فضة، هل يحصل الانتفاع بها وتنبت ويأكل الناس ودوابهم ويتقوتون بها؟ لا، ما تنفعهم. الله جعل الأرض رخوة صالحة للإنبات، فتبين بذلك أنه سبحانه هو الذي رزقنا، ولهذا يمتن علينا بأنه هو الذي رزقنا، ولسنا نحن الذي نرزق أنفسنا، ثم إذا كان الإنسان قد أعطي قوة حتى يتكسب ويجمع المال من هنا ومن هنا، فمن الذي أعطاه هذا العقل والفكر حتى يتسبب؟ ومن الذي أعطاه هذه الأدوات وهذه الآلات حتى يسير على قدميه وحتى يبطش بيديه وحتى يكتسب بهما؟ أليس هو الذي خلقه؟! إذاً فالله تعالى هو الخالق وهو الرازق، وإذا كان هو الخالق والرازق فهو الذي يستحق أن يعبد.

الكلام على الإماتة والبعث

......

حقيقة الموت ومآله يوم القيامة

قال المؤلف رحمه الله: [قوله: (مميت بلا مخافة باعث بلا مشقة) الموت صفة وجودية خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم، قال تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [الملك:2]، والعدم لا يوصف بكونه مخلوقاً، وفي الحديث: (إنه يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار)، وهو وإن كان عرضاً، فالله تعالى يقلبه عيناً، كما ورد في العمل الصالح: (أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة)، وورد في القرآن: (أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون) الحديث، أي: قراءة القارئ، وورد في الأعمال: أنها توضع في الميزان، والأعيان هي التي تقبل الوزن دون الأعراض، وورد في سورة البقرة وآل عمران: (أنهما يوم القيامة يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف)، وفي الصحيح: (أن أعمال العباد تصعد الى السماء)، وسيأتي الكلام على البعث والنشور إن شاء الله تعالى]. يتكلم الشارح هنا على أن الموت مخلوق، رداً على الفلاسفة الذين يقولون: الموت أمر عدمي ليس له جرم، ويقولون: ليس هناك شيء مخلوق اسمه الموت، وكذبوا قول الله تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ [الملك:2] قوله: (خلق الموت) فيه دليل على أن هناك شيئاً اسمه الموت، وأنه شيء محسوس، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بما يدل على أن هذا الموت شيء محسوس، وهو قوله عن يوم القيامة: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، جيء بالموت كأنه كبش فوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، ويقال لأهل النار: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، فيذبح بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت). فيزداد أهل الجنة فرحاً، ويزداد أهل النار حزناً؛ وذلك لأن أهل الجنة أيقنوا بأنهم سيلقون حياة مستقرة ليس بعدها موت، وأن أهل النار كانوا يؤملون الموت، كانوا يرجون الموت ويقولون: العدم خير من هذا الوجود، ويقولون كما حكى الله عنهم: يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ [الزخرف:77] أي: بالموت، والله تعالى يقول: لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا [فاطر:36].

حقيقة تحويل الأعراض إلى أجرام

والشاهد أنه أخبر في هذا الحديث بأن الموت شيء محسـوس يـرى ويعـرف، يعلمـون أنه هو المـوت ولو كـان عرضـاً، فالله تعـالى قـادر أن يجعل العـرض جسماً، ويجعل له جثة أو صورة كما في الأعمال التي هي أعـراض، فقد أخـبر في الأحاديث أن الله يجعلها أجساماً وأجرامـاً، وأنها تـوزن مع كونها أعراضـاً. فمثلاً الصلاة ورد في الحديث: (أنه إذا صلى العبد فأحسن صلاته صعدت ولها نـور فتفتح لها أبـواب السـماء وتقـول: حفظك الله كما حفظتـني، وإذا صـلى وأسـاء في صـلاته صـعدت ولها ظلمــة، فتغلق دونها أبــواب الســماء وتلعن صاحبها وتقول: ضيعك الله كما ضيعتني، وتلف كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها). في هذا بيان أن الأعراض يجعلها الله تعالى أجساماً، وكذلك الكلام قد يجعل الله تعالى له أجراماً، ولهـذا في الحـديث يقـول عليه الصـلاة والسـلام: (الطهـور شـطر الإيمـان، والحمد لله تملأ المـيزان، وسـبحان الله والحمد لله تملآن -أو تملأ- ما بين السماء والأرض)، ومعلــوم أن كلمة (الحمد للــه)، ليس لها جــرم، ولكن يجعل الله لها جرمــاً وجثة حــتى تملأ المــيزان، وكـذلك التسـبيح والتكبـير ونحو ذلـك، وإذا كـانت الأعمـال تـوزن ولو كـانت أعراضاً، فكذلك الموت ولو كـان عرضـاً يجعل الله له جرمـاً حـتى يـرى، فهو الذي خلق الموت وخلق الحياة.

عقيدة أهل السنة في الصفات الفعلية لله تعالى

قال المؤلف رحمه الله: [قوله: (ما زال بصـفاته قـديماً قبل خلقـه، لم يـزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، كـذلك لا يـزال عليها أبدياً). أي : أن الله سبحانه وتعـالى لم يـزل متصـفاً بصـفات الكمـال: صفات الذات، وصفات الفعل، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصـفة بعد أن لم يكن متصفاً بها؛ لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقـدها صـفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمـال بعد أن كـان متصـفاً بضـده، ولا يـرد على هذه صفات الفعل والصـفات الاختيارية ونحوهـا، كـالخلق والتصـوير، والإحيـاء والإماتــة، والقبض والبسط والطي، والاســتواء، والإتيــان والمجيء والــنزول، والغضب والرضا، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته الـتي هي تأويلـه، ولا نـدخل في ذلك متـأولين بآرائنـا، ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معنـاه معلـوم لنـا، كما قـال الإمـام مالك رضي الله عنه، لما سئل عن قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الرعـد:2]، كيف

استوى؟ فقـال: الاسـتواء معلـوم، والكيف مجهـول. وإن كـانت هـذه الأحـوال تحدث في وقت دون وقت كما في حديث الشفاعة: (إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثلـه، ولن يغضب بعـده مثلـه)؛ لأن هـذا الحـدوث بهـذا الاعتبار غير ممتنـع، ولا يطلق عليه أنه حـدث بعد أن لم يكن، ألا تـرى أن من تكلم اليوم وكان متكلماً بـالأمس لا يقـال: إنه حـدث له الكلام، ولو كـان غـير متكلم لآفة كالصغر والخرس ثم تكلم يقال: حـدث له الكلام، فالسـاكت لغـير آفة يسـمى: متكلمـاً بـالقوة، بمعـنى: أنه يتكلم إذا شـاء، وفي حـال تكلمه يسمى: متكلماً بالفعل، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كـاتب بالفعـل، ولا يخرج عن كونه كاتباً في حال عدم مباشرته الكتابة. وحلـول الحـوادث بـالرب تعـالى المنفي في علم الكلام المـذموم، لم يـرد نفيه ولا إثباته في كتـاب ولا سـنة، وفيه إجمـال، فـإن أريد بـالنفي أنه سـبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن، فهـذا نفي صحيح، وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية من أنه لا يفعل ما يريـد، ولا يتكلم بما شـاء إذا شـاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الـورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته، فهـذا نفي باطل]. في الكلام الأول ذكر الماتن رحمه الله: أن صـفات الـرب تعـالى أزلية، وأنه موصـوف بها في الأزل قبل أن تحـدث الأفعـال الـتي ظهـرت بهـا، فيعتقد المسلمون أن الله سبحانه وتعالى قديم بصـفاته، ويـردون بـذلك على النفاة الذين ينفون الصفات ويقولون: إنه إذا أثبتناها لزمنا تعدد القـديم، وهـذا اللازم باطـل، فالله تعـالى قـديم بصـفاته سـواء الصـفات الذاتية أو الصـفات الفعليـة، ليس منها شـيء متجـدد بعد أن لم يكن، فصـفاته الذاتية الـتي أخـبر عنها كوجهه ويده والعين وما أشبه ذلك، هذه قديمة لم يحدث منها شـيء. أما صفات الفعل كالعلم والكلام والقـدرة والإرادة والمحبة والبغض والكراهة وما أشبهها فهو موصوف بها أزلاً وإن لم تحدث أسبابها، يعني: وإن لم يحدث من يغضب عليه، فهو موصوف بأنه يغضب وبأنه يرضى قبل أن يوجد خلق يغضب عليه أو يرضى عنـه، وهو موصـوف بأنه يحب ويكـره قبل أن يحـدث الخلق الـذين يحب منهم الصـالحين ويكـره أو يبغض غـيرهم، وموصـوف بأنه يعجب وبأنه يفرح وبأنه يضحك وبأنه يجيء وينزل وبأنه يستوي على العرش إلى غير ذلك من الصفات، فهو موصوف بذلك أزلاً قبل أن تحدث أسـباب ذلـك، هـذه عقيدة أهل السنة. ......

عقيدة أهل السنة في تجدد الصفات الفعلية لله تعالى

معلوم أن هذه الأفعال تسمى صفات فعليـة، ومعلـوم أنها تتجـدد، ولأجل ذلك كانت عقيـدة أهل السـنة أن كلام الله قـديم النـوع متجـدد الآحـاد، يعـني: أنه متكلم وأنه يتكلم بخلاف من يقول من المعتزلة ونحوهم: إن كلام الله قـديم، ومعناه أنه لا يتكلم الآن، تعالى الله عن ذلك، وهكذا بقية الصفات فيقال: الله

موصوف في الأزل بأنه يغضب ويرضى ولا يزال على ذلك حتى يـوم القيامـة، وقد أخبر الأنبياء بأنه يغضب وبأنه قد غضـب، كما في حـديث الشـفاعة يقـول آدم: (إن ربي قد غضب اليـوم غضـباً لم يغضب قبله مثلـه، ولن يغضب بعـده مثله)، وكذلك يقـول نـوح وإبـراهيم وموسى وعيسى إذا طلب منه الشـفاعة، فيـدل على أن الله موصـوف بالغضب أزلاً وأنه يغضب إذا شـاء. ومعلـوم أن المعاصي الـتي رتبت عليها العقوبـات تحـدث فتحـدث آثارهـا. فـإذا كـان الله تعالى يرضى عن المـؤمن، فـإذا وجد المـؤمن وآمن وعمل صـالحاً رضي الله عنــه، وإذا كــان يغضب على العاصــي، فــإذا وجد ذلك العاصي ووجــدت منه معصية غضب الله عليه. فإذاً هذه الأفعـال تتجـدد، ولا يقـال إنها أتت مـرة ثم انقطعت، هكذا صفات الله الفعلية، كذلك صفة النزول لم تكن حدثت مرة ثم انقطعت، وكـذلك صـفة المجيء يـوم القيامة فقد أخـبر الله بأنه يجيء يـوم القيامة،كما في قوله: وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا [الفجر:22]، هَلْ يَنظُـرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ [الأنعام:158] يعني: يوم القيامة، فإذاً ذلك دليل على أن صفات الله الـتي هي أفعـال أزلية وأبديـة، وأنه لا يـزال متصـفاً بها.

الفوائد المستفادة من إثبات أسماء الله وصفاته ومعرفتها

نستفيد من عقيدة إثبـات أسـماء الله تعـالى وإثبـات صـفاته ومعرفة أسـمائه الـتي سـمى بها نفسه أو سـماه بها نبيه صـلى الله عليه وسـلم، يسـتفيد منها المسلم فوائد منها: أن يدعوه بها، قال تعالى: وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَـادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ [الأعراف:180]. ومنها أن يعتقد مـدلولها ويكون اعتقـاده لمـدلولها دافعـاً له على الخـوف والرجـاء، وعلى أعلى أنـواع العبادة، فـإن من اعتقد أن الله تعـالى لا إله غـيره خصه بالإلهيـة، ومن اعتقد أنه حي لا ينـام، قيـوم لا يفـني ولا يبيد ولا يكـون إلا ما يريـد، وأنه أول وآخر أزلي لم يسبق بعـدم وأنه لا يـأتي عليه العـدم، واعتقد أنه موصـوف بصـفات الكمال ومنزه عن صفات النقص؛ من اعتقد هذا الاعتقـاد؛ عظم قـدر ربه في قلبـه، ومـتى عظم الله بكونه الـذي يحـيي المـوتى ويميت الأحيـاء، والـذي لا تأخـذه سـنة ولا نـوم، والـذي هو الحي القيـوم، والـذي هو الأول والآخـر، وهو الظاهر والباطن، والذي هو غني عما سواه، وكل ما سواه فقـير إليـه؛ لا شك أن من عرف ربه بهذه الصفات فإنه يدعوه بها، وكذلك يعظمه بموجبها، هــذه فائدة معرفة هذه الأسماء والصـفات. وقد تقـدم شـرح (الحي القيـوم)، وكـذا (الأول والآخر)، وكذا (المحيي والمميت)، وما أشبهها من أسماء الله، وكــذلك من صفات النفي، كما في قولـه: لا تَأْخُـذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَـوْمٌ [البقـرة:255]، ولا

يشبه الأنام، ولا يعجزه شيء، وما أشبهها. فالمسلم يعتقد ثبوت صفات الكمال، ويستفيد منها تعظيمه، وينتج من تعظيمه عبادته حق العبادة.

حكم إطلاق نفي حلول الحوادث ومعناها عند أهل السنة وغيرهم

قال رحمه الله تعالى: [وأهل الكلام المذموم يطلقون نفي حلول الحوادث، فيسلم السني للمتكلم ذلك، على ظن أنه نفى عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله، فإذا سلم له هذا النفي ألزمه نفي الصفات الاختيارية وصفات الفعل، وهو غير لازم له، وإنما أتي السني من تسليم هذا النفي المجمل، وإلا فلو استفسر واستفصل لم ينقطع معه. وكذا مسألة الصفة: هل هي زائدة على الذات أم لا؟ لفظها مجمل، وكذلك لفظ الغير فيه إجمال فقد يراد به ما ليس هو إياه، وقد يراد به ما جاز مفارقته له. ولهذا كان أئمة السنة رحمهم الله تعالى لا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه غيره، ولا أنه ليس غيره؛ لأن إطلاق الإثبات قد يشعر أن ذلك مباين له، وإطلاق النفي قد يشعر بأنه هو هو، إذ كان لفظ الغير فيه إجمال، فلا يطلق إلا مع البيان والتفصيل، فإن أريد به أن هناك ذاتاً مجردة قائمة بنفسها، منفصلة عن الصفات الزائدة عليها، فهذا غير صحيح، وإن أريد به أن الصفات زائدة على الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة، فهذا حق، ولكن ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفات، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها، وإنما يفرض الذهن ذاتاً وصفة كلا وحده، ولكن ليس في الخارج ذات غير موصوفة فإن هذا محال، ولو لم يكن إلا صفة الوجود، فإنها لا تنفك عن الموجود، وإن كان الذهن يفرض ذاتاً ووجوداً، يتصور هذا وحده، وهذا وحده، لكن لا ينفك أحدهما عن الآخر في الخارج. وقد يقول بعضهم : الصفة لا عين الموصوف ولا غيره وهذا له معنى صحيح، وهو: أن الصفة ليست عين ذات الموصوف التي يفرضها الذهن مجردة بل هي غيرها، وليست غير الموصوف، بل الموصوف بصفاته شيء واحد غير متعدد. فإذا قلت: أعوذ بالله، فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه. وإذا قلت : أعوذ بعزة الله، فقد عذت بصفة من صفات الله تعالى ولم أعذ بغير الله. وهذا المعنى يفهم من لفظ الذات، فإن (ذات) في أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة، أي: ذات وجود، ذات قدرة، ذات عز، ذات علم، ذات كرم، إلى غير ذلك من الصفات، فذات كذا بمعنى: صاحبة كذا، تأنيث (ذو) هذا أصل معنى الكلمة. فعلم أن الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه، وإن كان الذهن قد يفرض ذاتا مجردة عن الصفات كما يفرض المحال، و قد قال صلى الله عليه وسلم : (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)، وقال صلى الله عليه وسلم

: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، ولا يعوذ صلى الله عليه وسلم بغـير اللـه، وكـذا قـال صـلى الله عليه وسـلم : (اللهم إني أعـوذ برضـاك من سـخطك، وبمعافاتك من عقوبتـك، وأعـوذ بك منـك)، وقـال صـلى الله عليه وسلم : (ونعوذ بعظمتك أن نغتـال من تحتنـا) وقـال صـلى الله عليه وسـلم : (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات)].

شبهة نفي حلول الحوادث والرد عليها

تكلم أولاً: على بعض الشـبهات الـتي يروجها نفـاة صـفات الله تعـالى، فمن شبهاتهم قـولهم: إن الله مـنزه عن حلـول الحـوادث، فـإذا سـمع ذلك الجاهل اعتقد أنهم صادقون واعتقد أن الله لا يجـوز أن تحل به الحـوادث، فـإذا سـلم ذلك ووافق عليه قالوا: لا يجوز أن يوصف بالكلام الحـادث، ولا أن يوصف بأنه يحدث له غضب، ولا رضا، ولا أن يحدث له كراهية أو سـخط وما أشـبه ذلـك، فينفـــون الأفعـــال الاختيارية بحجة أنها حادثة والحـــادث لا يوصف به الـــرب، وعنـدهم أن الـرب قـديم لم يحـدث منه شـيء، ولا يجـوز أن يوصف بصـفة تحدث، وموافقتهم على هذه القاعدة خطأ. فإذا قالوا: القاعـدة تنزيه الله عن حلول الحوادث، فيقال لهم: ماذا تريدون؟ إن أردتم أن الله لا يحدث له صـفة لم تكن موجودة في الأزل فهـذا صـحيح، فـإن الله تعـالى يسـمى خالقـاً قبل وجـود المخلـوقين ورازقـاً قبل أن يكـون هنـاك من يـرزقهم، وهو المحـيي والمميت قبل أن يوجد الخلق الـذين يحـيي منهم من يشـاء ويميت منهم من يشـاء، يعـني: أنه متصف بالفعل أزلاً وإن لم تكن المفعـولات موجـودة، فـإن الـذي يكـون قـادراً على الفعل يصح أن يوصف به ولو لم يزاولـه، فـإذا رأيت إنساناً ساكتاً صامتاً قلت: هذا الإنسان متكلم، أي أنه ليس أخـرس، ولو كـان في تلك الحـال صـامتاً، يعـني أنه متكلم بـالقوة، فكـذلك يقـال: الله يحـيي ويميت، أي: أنه متصف بصـفة القـدرة على الإحيـاء والإماتة والخلق والـرزق والتصرف والتدبير قبل أن توجد المخلوقات، ولكن بعد وجود هذه المخلوقات فإن الله تعالى يميت من يشاء ويحيي من يشاء، ويرزق هذا ويفقر هذا ويغني هذا، ويصح هذا ويسقم هذا، ويرفع هذا ويخفض هذا، وكل هذه صفات حادثـة، فأصل الصفة موجود ليس بحادث ومفرداتها حادثة. كـذلك نقـول: الله تعـالى متكلم في الأزل ويتكلم إذا شـاء، ليس معنـاه أنه تكلم أزلاً ثم انقطع كلامـه، بل كلام الله قديم النوع حادث الآحاد.

شبهة: أن صفات الله زائدة على ذاته والرد عليها

ومن شبهاتهم قولهم: إن صفات الله زائدة على ذاته، وهذه شبهة باطلة، فليست صفاته زائدة على ذاته بل صفات الله من ذاته، وهو واحد بصفاته، ولا يلزم من إحداث الصفات تعدد القدماء كما يقولون، فليس هناك تعدد. وذلك أنهم يقولون: إن قولكم: ذات الرب قديمة وسمعه قديم وبصره قديم وعلمه قديم وقدرته قديمة، فأنتم لم تثبتوا واحداً بل أثبتم عدداً! وهذه شبهة باطلة، فإن الله تعالى واحد بصفاته، فليست الصفات خارجة عن الذات، ولا يتصور أن تكون هناك ذات مجردة عن جميع الصفات، ولو لم يكن إلا صفة الوجود فصفة الوجود ملازمة لكل موجود، فلا يمكن أن يُفْرَض شيء ليس له صفات، وهو مع ذلك له ذات، بل كل ذات يلزم أن يكون لها صفات.

شبهة: أن صفات الله غيره والرد عليها

ومن شبهاتهم قولهم: إن صفات الله غيره، وهي أيضاً شبهة باطلة، فليست صفات الله تعالى غيره، بل صفاته من ذاته فنضرب مثلاً -ولله المثل الأعلى- المخلوق لا يقال: إن صفاته غيره، فإذا رأيت إنساناً فإنك لا تقول: جاء زيد ويداه ورجلاه ورأسه وبطنه وظهره وعيناه وأذناه، بل تقول: جاء زيد، وتدخل صفاته في ذاته وفي شخصه، فهو شيء واحد وشخص واحد بهذه الصفات، ولا يلزم من كونه ذا صفات أن يكون عدداً، فلا تقول: جاءني عشرة: عينان وأذنان ويدان ورجلان وشفتان، بل شخص واحد مسمى بهذا الاسم، فكذلك الله سبحانه وتعالى ليست صفاته زائدة على ذاته، بل صفاته من ذاته. فإذا اعتقد المسلم أن الله موصوف بهذه الصفات التي هي صفات الكمال اعتقد مدلولها، فإذا اعتقد أن الله يغضب حذر من أسباب الغضب، وإذا اعتقد أنه يرضى فعل أسباب الرضا، وإذا اعتقد أنه الذي يحيي ويميت عبده وعرف حقه، وإذا اعتقد أنه هو الذي يفقر ويغني وأنه الذي يمنع ويعطي عرف أن العبادة لا تصلح إلا له، وهكذا، فمعرفة هذه الصفات تزيد العبد بصيرة في دينه، وتحمله على التمسك بدينه، وعلى الإكثار من التقرب إلى الله تعالى بحقوقه.

الكلام على مسألة الاسم والمسمى

قـال المؤلف رحمه اللـه: [وكـذلك قـولهم: الاسم عين المسـمى أو غـيره، وطالما غلط كثير من الناس في ذلك، وجهلوا الصـواب فيـه، فالاسم يـراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فإذا قلت: قـال الله كـذا، أو (سمع الله لمن حمده) ونحو ذلك، فهذا المراد به المسمى نفسـه، وإذا قلت: الله: اسم عـربي، والـرحمن: اسم عـربي، والـرحمن: من أسـماء الله تعـالى ونحو ذلك، فالاسم ها هنا هو المراد لا المسـمى، ولا يقـال غـيره لما في لفظ الغير من الإجمال: فان أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعـنى فحـق، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا من أعظم الضـلال والإلحـاد في أسـماء الله تعـالى. والشيخ رحمه الله أشـار بقولـه: (ما زال بصـفاته قـديماً قبل خلقـه) إلى آخر كلامه إلى الرد على المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة، فإنهم قالوا: إنه تعـالى صـار قـادراً على الفعل والكلام بعد أن لم يكن قـادراً عليـه، لكونه صار الفعل والكلام ممكناً بعد أن كان ممتنعاً، وأنه انقلب من الامتنـاع الـذاتي إلى الإمكان الذاتي. وعلى ابن كلاب والأشعري ومن وافقهما فإنهم قـالوا: إن الفعل صار ممكناً له بعد أن كـان ممتنعـاً منـه. وأما الكلام عنـدهم فلا يـدخل تحت المشيئة والقدرة، بل هو شـيء واحد لازم لذاتـه. وأصل هـذا الكلام من الجهمية فإنهم قالوا: إن دوام الحوادث ممتنـع، وإنه يجب أن يكـون للحـوادث مبـدأ، لامتنـاع حـوادث لا أول لهـا، فيمتنع أن يكـون البـاري عز وجل لم يـزل فاعلاً متكلماً بمشيئته، بل يمتنع أن يكون قـادراً على ذلـك، لأن القـدرة على الممتنع ممتنعة. وهذا فاسد، فإنه يدل على امتناع حـدوث العـالم وهو حـادث، والحـادث إذا حـدث بعد أن لم يكن محـدثاً فلا بد أن يكـون ممكنـاً، والإمكـان ليس له وقت محــدود، وما من وقت يقــدر إلا والإمكــان ثــابت فيــه، فليس لإمكان الفعل وجوازه وصحته مبدأ ينتهي إليه، فيجب أنه لم يزل الفعل ممكناً جائزاً صحيحاً، فيلزم أنه لم يـزل الـرب قـادراً عليـه، فيلـزم جـواز حـوادث لا نهاية لأولها]. معنى ذلك: أن صاحب المتن لما ذكر قدم أسـماء الله الـتي هي في الأصل تتضمن صفات كالرازق الذي يسـتلزم أن يكـون هنـاك مرزوقـون، والخالق الذي يسـتلزم أن يكـون هنـاك مخلوقـون، وكـذلك المحـيي والمميت الـذي يلـزم منهما أن يكـون هنـاك خلق يحـييهم ويميتهم، وكـذلك اسم العليم يلــزم أن يكــون هنــاك ما يعلمــه، وهكــذا المعز والمــذل والخــافض والرافع والمعطي والمانع، لا شك أنها أسماء لها آثـار في الخلـق، فآثارها كونه يعطي هذا ويمنع هذا ويحـرم هـذا ويميت هـذا ويحـيي هـذا ويعز هـؤلاء ويـذل هـؤلاء ويخفض قومـاً ويرفع آخـرين. وهـذه الصـفات موصـوف بها الـرب تعـالى في الأزل قبل أن يوجد الخلق، خلافـاً لقـول المعتزلة والجهمية والكلابية ونحـوهم الذين يقولـون: إنما حـدثت بعد حـدوث المخلوقـات، وهـذا خطـأ، بل قـولهم: بامتناع حوادث لا أول لها، الأولى بنا عدم الخـوض في مثل ذلـك، وأن نقـول: الله أعلم بالمخلوقـات الـتي خلقها أولاً، ومـتى ابتـدأ خلقه لهـا، لا نقـول: إن المخلوقات ليس لها مبدأ، لكن نعلم أن ما سوى الرب تعـالى حـادث، والـرب

تعالى قديم أزلي أول، ونعلم أن حكمة الله تعالى في هذه الموجودات أنه أوجد هذا الكون بما فيه؛ ليعرف بذلك قدره ولتعرف بذلك أهليته للعبادة، وليعرف المسلمون بذلك أنهم مخلوقون لأداء حقوق ربهم سبحانه وتعالى الذي هذا خلقه وهذا تكوينه، قال تعالى: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ [لقمان:11]، هكذا يجب أن يعتقد المسلم. ......

مسألة تسلسل الحوادث

......

منع الجهمية من حوادث لا أول لها والرد عليهم

قال المؤلف رحمه الله: [قالت الجهمية ومن وافقهم: نحن لا نسلم أن إمكان الحوادث لا بداية له، لكن نقول: إمكان الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لا بداية له؛ وذلك لأن الحوادث عندنا تمتنع أن تكون قديمة النوع بل يجب حدوث نوعها ويمتنع قدم نوعها، لكن لا يجب الحدوث في وقت بعينه، فإمكان الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لا أول له بخلاف جنس الحوادث. فيقال لهم : هب أنكم تقولون ذلك، لكن يقال: إمكان جنس الحوادث عندكم له بداية، فإنه صار جنس الحدوث عندكم ممكناً بعد أن لم يكن ممكناً، وليس لهذا الإمكان وقت معين، بل ما من وقت يفرض إلا والإمكان ثابت قبله، فيلزم دوام الإمكان، وإلا لزم انقلاب الجنس من الامتناع إلى الإمكان من غير حدوث شيء]. شبهة أيضاً من شبهات المعتزلة أو الجهمية ونحوهم، ولا يحتاج المسلم إلى معرفة أصول الرد عليهم في قولهم بأن هذه حادثة في وقت كذا وكذا؛ وذلك لأنا لا نعلم وقت حدوث هذه المحدثات، ويمكن إذا قدرنا أنها حدثت مثلاً قبل مائة ألف سنة أن يقول قائل: يمكن أنها قبل مائتين، ويقول آخر: يمكن أنها قبل ألفين، ويقول آخر: قبل ذلك بألوف. فإذاً ليس هناك وقت يلزم العباد بأنه حدثت فيه هذه المحدثات، لكن نعرف أنها حادثة، فالله تعالى ذكر أنه خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً: هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا [الإنسان:1] يعني: كان معدوماً، وخلق الجن بعد أن كانوا معدومين، وخلق الملائكة بعد أن كانوا عدماً، وهكذا أيضاً خلق السموات والأرض في ستة أيام بعد أن لم تكن موجودة، وهكذا سائر المخلوقات الله الذي ابتدأ خلقها، ولا شك أنه أوجد هذه الموجودات وبث هذه الدواب مثلاً على هذه الأرض، وخلق هذه الأنهار وهذه البحار والأشجار والثمار والآبار ونحو ذلك، هو الذي ابتدأها بعد أن لم تكن موجودة، ويمكن أنه خلق قبلها مخلوقات لا ندركها ولا نعلمها، فالله تعالى هو المنفرد بالخلق والتصرف، وإنما علينا أن نعتبر بما نرى، نعرف أن هذه الموجودات التي خلقت خلقت لنا للاعتبار، نأخذ منها دلالة وعبرة على

أن خالقها هو خالق كل شيء، وأن الذي هو خالق كل شيء هو المستحق لأن يعبد وحــده؛ فنعبــده ونخلص العبــادة له ولا نتجــاوز ذلــك، هــذا هو الأولى بالمسلم. قال المؤلف رحمه الله: [ومعلوم أن انقلاب حقيقة جنس الحـدوث، أو جنس الحـوادث، أو جنس الفعـل، أو جنس الأحـداث، أو ما أشـبه هـذا من العبارات من الامتناع إلى الإمكان، وهو مصير ذلك ممكنـاً جـائزاً بعد أن كـان ممتنعاً، من غير سبب تجدد، وهذا ممتنع في صـريح العقـل، وهو أيضـاً انقلاب الجنس من الامتنـاع الـذاتي إلى الإمكـان الـذاتي، فـإن ذات جنس الحـوادث عنـدهم تصـير ممكنة بعد أن كـانت ممتنعـة، وهـذا الانقلاب لا يختص بـوقت معين، فإنه ما من وقت يقدر إلا والإمكان ثابت قبلـه، فيلـزم أنه لم يـزل هـذا الانقلاب ممكناً، فيلزم أنه لم يـزل الممتنع ممكنـاً، وهـذا أبلغ في الامتنـاع من قولنا: لم يزل الحادث ممكناً، فقد لزمهم فيما فروا إليه أبلغ مما لـزمهم فيما فروا منه، فإنه يعقل كون الحادث ممكناً، ويعقل أن هذا الإمكان لم يزل، وأما كون الممتنع ممكناً فهو ممتنع في نفسه، فكيف إذا قيل: لم يزل إمكـان هـذا الممتنـع؟! وهـذا مبسـوط في موضـعه]. الممكن: هو الـذي يتصـور وجـوده وحدوثـه، الممتنـع: هو ما لا يتصـور العقل وجـوده، أو ما لا يمكن أن يحـدث، الممتنعـات: هي المسـتحيلات. ومعلـوم أن هـذه المخلوقـات كـانت معدومة فوجدت لإمكـان حـدوثها، وأن هنـاك أشـياء مسـتحيلة ولم تكن، وممتنعة ولم تحـدث، مثـل: الجمع بين الضـدين، فلا يمكن مثلاً أن يكـون المكـان الضـيق مظلماً ومنيراً في وقت واحـد، فلا يجتمع فيه النـور والظلمة لكونهما ضـدين، ولا يجتمع في وجه إنســـان كونه أبيض وأســـود، ولا في ثوبه مثلاً أنه أحمر وأبيض؛ لأن اجتماع الضدين من الممتنعات، ومعلـوم أن الله تعـالى لا يعجـزه شيء وأنه قادر على أن يجمع بين الضدين، وقـادر على أن يخلق المسـتحيل، ولكن جرت العادة بامتناع هذا في التصور، وأخـبر بأنه قد يوجد بعض الأشـياء مثل الأمور الغيبية، كقوله تعالى: لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا [طه:74]، كأن العاقل يقول: مستحيل أن يكـون الشـيء لا ميتـاً ولا حيـاً، يقـال: ليس بمسـتحيل بل يمكن في قدرة الله أن يكون ميتـاً حيـاً في آن واحـد، وإن كـان المـراد أنه لا يحيا حياة يستلذ بها في النار، ولا يموت موتاً يستريح منه، بل هو متألم يتمنى الموت ولا يحصل له؛ لهذا السبب نفيت عنه الحيـاة والمـوت، وعلى كل حـال وصف الرب سبحانه بالأفعال عام في أنه على كل شيء قدير، وأنه لا يعجـزه شيء، وأنه قادر على أن يجمع بين المختلفـات، وأن يوجد المتضـادات، ولكن جرت العادة بأن هذا الممتنع لم يحدث ولم نره مع قدرته على أن يحدثه.

مذاهب الناس في تسلسل الحوادث

[فالحاصل أن نـوع الحـوادث هل يمكن دوامها في المسـتقبل والماضي أم لا، أو في المســتقبل فقــط، أو الماضي فقــط؟ فيه ثلاثة أقــوال معروفة لأهل النظر من المسلمين وغيرهم. أضعفها: قول من يقـول: لا يمكن دوامها لا في الماضي ولا في المســتقبل كقــول جهم بن صــفوان و أبي الهــذيل العلاف. وثانيها: قول من يقول: يمكن دوامها في المستقبل دون الماضي، كقول كثـير من أهل الكلام ومن وافقهم من الفقهاء وغـيرهم. والثـالث: قـول من يقـول: يمكن دوامها في الماضي والمســـتقبل كما يقوله أئمة الحــــديث، وهي من المسائل الكبار، ولم يقل أحد: يمكن دوامها في الماضي دون المسـتقبل. ولا شك أن جمهور العالم من جميع الطوائف يقولون: إن كل ما سوى الله تعالى مخلــوق كـائن بعد أن لم يكن وهــذا قــول الرسل وأتبــاعهم من المســلمين واليهود والنصارى وغيرهم. ومن المعلوم بـالفطرة أن كـون المفعـول مقارنـاً لفاعله لم يـزل ولا يـزال معه ممتنع محـال، ولما كـان تسلسل الحـوادث في المستقبل لا يمنع أن يكـون الـرب سـبحانه هو الآخر الـذي ليس بعـده شـيء فكذا تسلسل الحوادث في الماضي لا يمنع أن يكون سبحانه وتعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء؛ فإن الرب سبحانه وتعـالى لم يـزل ولا يـزال، يفعل ما يشاء ويتكلم إذا يشاء، قال تعالى: قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ [آل عمــران: 40]، وقال تعالى: وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ [البقرة:253]، وقـال تعـالى: ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ [البروج:15-16]، وقال تعـالى: وَلَـوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَـبْعَةُ أَبْحُـرٍ مَا نَفِـدَتْ كَلِمَـاتُ اللَّهِ [لقمان:27]، وقال تعالى: قُلْ لَـوْ كَـانَ الْبَحْـرُ مِـدَادًا لِكَلِمَـاتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِـهِ مَـدَدًا [الكهـف:109]. والمثبت إنما هو الكمــال الممكن الوجــود، وحينئــذٍ فــإذا كــان النــوع دائمــاً فــالممكن والأكمل هو التقدم على كل فرد من الأفراد بحيث لا يكـون في أجـزاء العـالم شيء يقارنه بوجه من الوجــوه، وأما دوام الفعل فهو أيضــاً من الكمـال؛ فـإن الفعل إذا كان صفة كمـال فدوامه دوام كمـال]. الأفعـال الـتي ذكرها ودوامها في الماضـي، أو دوامها في المسـتقبل، أو في الماضي والمسـتقبل هـذه من الأمور الغيبية، ومعـنى دوامها في الماضي أن الله تعـالى قـديم، وأنه لم يـزل يخلــق، لم يكن في زمن معطلاً عن الخلــق، ولم يكن في زمن غــير موجــود خلْق يدبرهم ويتصرف فيهم، وكذلك في المستقبل، أي: أنه لا يـزال موجـوداً، وأنه بعدما يفـنى هـذا الخلق يحـييهم مـرة ثانية ويبقى متصـرفاً فيهم، يعـني: يعلم أحوالهم وما يصيرون إليه، ويعـذب من يشـاء ويـرحم من يشـاء، ويعطي ويمنع وتظهر آثار أفعاله على المخلوقات، فلا شك أن هذا ونحوه من جملة ما يعتقده المسلمون.

التوقف عن القول بتسلسل الحوادث بالماضي

ولكن قد ذهب بعض الفلاسفة إلى أن هذا الوجـود لم يسـبق بعـدم، وأن هـذا النوع الإنساني قديم ليس له بداية وليس له أول، وأنكروا أن يكون هناك بشر اسمه آدم خلق من تراب، وأنكروا أن يكون لهذا الخلق نهاية، وأن تكون هناك الساعة التي تقوم، وأن يكون هناك النفخ في الصور وما أشبه ذلك، واعتقدوا أن هذا النوع لم يـزل، وأن جنس هـذا المخلـوق أزلي قـديم، وأنه مسـتمر بلا نهاية، ولا شك أن هذا فيه إنكار من وجوه: أولاً: إنكار للأمور الغيبية التي أخبر الله تعالى بها. ثانيـاً: إنكـار للجـزاء على الأعمـال الـتي أخـبر الله بأنه يجـازي عليها عباده في الآخرة. ثالثاً: إنكار لشرع الله عز وجل وأمـره ونهيه وأحكامه الـتي حكم بها على العبـاد. وإنكـار ذلك كله يخـرج من الملـة، والـواجب على المسلم أن يكون معتقداً لما أخبر الله به من كونه هو الحي القيـوم الـذي لم يـزل ولا يـزال، ومن كونه هو المتصف بـالخلق وبالتصـرف وبالتـدبير لشـئون العباد، ويعتقد أيضاً أنه هو المتفرد بإيجادهم وحده ولم يكن هناك من أوجدهم غـيره، وكونه يعتقد أن قبلهم خلقـاً غـيرهم، وقبل الخلق خلقـاً، وقبل الأولين أولين، فهـذا من الأمـور الغيبية الـتي لم يطلعنا الله عليهـا. ونقـول: الله أعلم بمن كان قبل ذلك وبأفعاله قبل ذلك، إلا أننا نعتقد أنه موصوف بهذه الصفات وإن لم تظهر آثارها، كما ذكر في المتن أنه ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بعد وجود من يرزقهم استفاد اسم الرازق، بل اسمه الخـالق قبل أن يبدأ الخلق، واسمه الرازق قبل أن يوجد الخلق الذين يـرزقهم؛ لأنه خـالق بـــالقوة قبل أن يخلق وإن لم يكن خالقـــاً بالفعـــل. ونتوقف عن تسلسل الحوادث في الماضـي، ونقـول الأمر غيب، ولم يخبرنا الله تعـالى بشـيء من ذلك، وليس لنا التدخل في هذه الأمور؛ لأنها من الأمور الـتي لا يضر جهلها ولا يفيد علمها، وقد توقع في شيء من الحيرة ومن الاضـطراب، والمسـلم عليه أن يقتصر على ما فيه فائـدة له في العقيـدة، وأن يعتقد ما ينفعه وما يكـون دافعـاً له إلى معرفة ربه بأسـمائه وبصـفاته، وإلى التقـرب إلى الله تعـالى بموجب تلك الأسماء.

الأسئلة

......

أصل ديانة المجوس وأخذ الجزية منهم

السـؤال: هل ثبت أنه كـان المجـوس أصـحاب كتـاب ثم رفع عنهم، وهل ورد ذلك في السنة أو في التـاريخ؟ وهل يؤخذ بهـذا القـول؟ ولمـاذا أخذ الرسـول صلى الله عليه وسـلم من مجـوس هجر الجزية الـتي لا تؤخذ إلا من أصـحاب كتـاب؟ الجـواب: ورد ذلك في حـديث عن علي أنه كـان لهم كتـاب، وأن أحد ملوكهم وجد يفجر بأمه أو ببعض محارمه، ثم إنهم لما أرادوا إقامة الحد عليه، احتج عليهم بـأن آدم زوج أولاده بعضـهم ببعض ذكـورهم بإنـاثهم، وقـال: نحن على شريعة آدم. فلما فعل ذلك رفع كتابهم، ولكن الحديث في ذلك عن علي لم يصح، أشار إليه الشـافعي في مسـنده و الطيالسي كـذلك، ولكن لم يثبت هـذا الحـديث. وأما كـون الجزية أخـذت منهم فتؤخذ منهم لكـونهم دولة وأمة على شــريعة أو على دين يــدعون أنهم عليه أصــلاً وإن لم يكن لهم كتــاب سابق، ومع ذلك فقد ذهب بعض العلمـاء كشـيخ الإسـلام ابن تيمية إلى جـواز أخذ الجزية من كل المشـركين، وأنه ليس خاصـاً بأهل الكتـاب، وما دام الأمر كذلك فإن المجوس من جملة المشركين الذين تؤخذ منهم كغيرهم.

طمس الصور ومعناه

السؤال: ما معنى الطمس الوارد في حديث علي رضي الله عنه الذي تبرأ به الذمة؟ الجواب: قوله: (لا تدع صـورة إلا طمسـتها) المـراد به طمس الوجـه؛ لأن الوجه مجمع المحاسـن، فـإذا جعل على وجه الصـورة ما تـزول به خلقتها إذا كــانت -مثلاً- منقوشة كفى ذلــك، فــإن كــانت منحوتة فإنه لا بد من قطع رأسـها أو ما لا يبقى معه حيـاة، فـإذا كـانت منحوتة -مثلاً- أو مصـورة لها ظل ولها جرم فلا بد من قطع رأسها حتى تكون كهيئة الشـجرة، وهكـذا ورد ذلـك، وإذا كانت في لباس فإنه يكتفى بقطعها، فإذا قطعت إلى ألا تبقى معها حيــاة اكتفي بذلك.

الرد بطريق العقل والسمع على وجود صانعين للعالم

السؤال: كيف نـرد على أهل النظر الـزاعمين أن للعـالم صـانعين، عن طريق العقل والنقــل؟ الجــواب: أما عن طريق العقل فبدلالة الســماع على العلــة، وهي أنه لو كان للعالم إلهان أو ربان خالقان فأراد أحدهما تحريك شـيء وأرد الآخر تســكينه فإما أن يحصل مرادهما وهو ممنــوع، وإما أن لا يحصل مــراد

واحد منهما فيستلزم عجزهما، وإما أن يحصل مـراد واحـد، فالـذي لم يحصل مراده عاجز لا يصلح أن يكون إلهاً ولا أن يكون خالقـاً، فـدل على أن الخـالق واحد ليس معه من يزاحمه في هـذا التصـرف، فهـذه الدلالة العقليـة. وأما الدلالة السمعية فالآية الكريمة: لَـوْ كَـانَ فِيهِمَا آلِهَـةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتَا [الأنبيـاء: 22]، ونحوها من الآيات.

حكم تخصيص القبر بالزيارة

السؤال: هل يجوز أن يـزار قـبر شـخص بعينه مع زيـارة القبـور الأخـرى، وما حكم تعيين قبر بعلامة أو بإشارة من أجل معرفة صاحب هذا القبر؟ الجـواب: زيارة القبور مشروعة لسببين: تذكر الآخرة، والدعاء للموتى. وتجـوز مثلاً كل أسبوع أو كل شهر أو نحو ذلك، أو إذا أحس بقسـوة قلبه فـزارهم حـتى يتعظ وحتى يلين قلبه أو نحو ذلك، ويجوز أن يخص قبر أبيه أو قـبر أخيه أو قريبه أو نسيبه، فيجوز أن يزور ذلك القبر ثم يسلم على القبور جميعاً، ويجوز أن يعلم القـبر بعلامـات يعـرف بهـا، فقد ثبت أنه عليه السـلام لما دفن عثمـان بن مظعون جعل عند قبره حجراً وقال: (أعرف به قبر أخي وأدفن إليه من مـات من أهلي)، فيجـوز أن يجعل علامة كحجر أو لبنة أو خشـبة أو نحو ذلك يتمـيز بها هذا القبر حـتى يـزوره ويعرفـه، أما أن يكتب عليه فقد نهي أن يكتب عليه حتى ولو كتب اسمه، وكـذلك نهي أن يرفع رفعـاً زائـداً عن غـيره، فيجـوز أن يجعل عليه علامة كحديدة أو قطعة بلاط أو ما أشبه ذلك لأجل التمييز فقط.

توضيح قوله: (بحسب ما يظن أنه مناسب للكواكب من طباعها)

السؤال: ذكر في كتاب العقيدة أن من أسباب الشرك عبادة الكواكب واتخـاذ الأصـنام بحسب ما يظن أنه مناسب للكـواكب من طباعهـا، فما المقصـود بقوله: (بحسب ما يظن أنه مناسب للكواكب من طباعها)؟ الجواب: يقولـون: إن هناك من يعبد الكواكب، والذين يعبدونها يبنون هياكل، والهيكل هو الصورة التي يظنونها على صورة نجم أو نـوء من الأنـواء، ثم ينظـرون إلى حركة ذلك النجم فيسندون إليه بعض التـأثير، فيقولـون: من طبيعة هـذا النجم الحـرارة، أو: من طبيعته الـبرودة، أو: من طبيعته الرطوبـة، أو: من طبيعته الجفـاف واليبس، أو ما أشبه ذلك، فإذا مطروا مطراً قالوا: هذا صدق نجم أو نـوء كـذا

وكـذا فيجعلـون المطر من طبيعتـه، وإذا أصـابتهم ريـاح قـالوا: أثارها النجم الفلاني أو النوء الفلاني، وإذا ثارت سـحب نسـبوها إلى الأنـواء. فالطبـائع هي إما شـدة الـبرد، أو شـدة الحر أو الجفـاف واليبس وقلة الأمطـار ونحوهـا، أو كثرة الأمطار، أو هبوب الرياح، أو إثارة السـحب أو ما أشـبه ذلـك، فـيزعمون أنها هي الـتي تثيرها هـذه الكـواكب ونحوهـا، ونسـوا أن الله تعـالى هو الـذي يتصرف في الكون: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ [الأعــراف:57]، وهو الـذي سـخرها كما في قوله تعـالى: وَسَـخَّرَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ وَالنُّجُـومُ مُسَـخَّرَاتٌ بِـأَمْرِهِ [النحـل:12]، فـإذا كـانت كلها مسخرات فكيف يكون لها تأثير؟! وكيف يكون لها طبائع تلائمها؟!

إطلاق لفظ (الصانع) على الله تعالى

السـؤال: نجد أن الشـارح ابن أبي العز رحمه الله يطلق كلمة الصـانع على الخالق، فهل هذه تجـوز في حق الله سـبحانه وتعـالى؟ الجـواب: هـذه تجـوز على وجه الصـفة، فنعتقد أن الله هو الصـانع بمعـنى أنه المبـدع الـذي صـنع الكون بذاته وأبدعـه، فلـذلك يكـثر إطلاقها في الكتب، كما ذكر ذلك ابن كثـير في تفسـير الآية الـتي ذكرنـا، وهي قوله تعـالى: اعْبُـدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ [البقـرة:21]، وذكر ذلك أو أطلق ذلك شـيخ الإسـلام في عدة مواضع من الجزء الثاني من مجموع الفتاوى ونحو ذلك، فـإطلاق الصـانع معناه أنه وصف لله بأنه مبدع الكون.

حكم الأموات قبل وصول الرسالة والأطفال يموتون قبل البلوغ

السؤال: أناس ماتوا بعد مجيء الإسـلام ولكن قبل أن تصـلهم الرسـالة، فهل يعاملون معاملة الكافرين يوم القيامة أم لا؟ وما هو القول الفصل فيمن مات قبل البلـوغ، هل يعامل معاملة أبويه أم يـدخل الجنة مباشـرة؟ الجـواب: السؤال الأول يدخل فيه أهل الفترات، فهؤلاء على الصحيح أنهم يمتحنون في الآخرة، أعني أهل الفترات الذين ما بلغتهم الرسـالة أو كـانوا في زمنها ولكنه ما وصل إليهم خبرها وتفاصـيلها، وكـذلك الـذين في أطـراف البلاد ولم تصل إليهم تفاصـيل الشـريعة، يقولـون: يا ربنـا! ما جاءتنا الشـريعة ولا علمنا بتفاصـيلها فبقينا على جهـل! فيمتحنـون في الآخـرة، ويـروى أن الله يخلق

أمامهم شبه نار ويقول: ادخلوها، فمن علم الله أنه سـعيد دخلها وكـانت عليه برداً، ومن علم الله شقاوته امتنع، فيقول الله: عصيت أمري فكيف لو جاءتك رسـلي؟ أدخلـوه النـار. وتجد الأدلة على ذلك في تفسـير ابن كثـير عند قوله تعالى في سورة الإسـراء: وَمَا كُنَّا مُعَـذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُـولاً [الإسـراء:15]، حيث أورد مثل هذه الأحاديث. وأما الذي مات قبل البلـوغ فـإن كـان من أولاد المشركين فحكمه حكم أهل الفترات، وإن كان من أولاد المسـلمين فإنه من أهل الجنـة؛ حيث إنه نشأ بين أبـوين مسـلمين وفطرته فطـرة الإسـلام، وهو على ما عليه آبـاؤه وأهلـه، فـأولاد المسـلمين يكونـون أفراطـاً لهم ويـدخلون معهم الجنة ويرفعـون إلى منـازل آبـائهم، والأدلة على أن أفـراط المؤمـنين يتقدمونهم كثيرة، وعلى رفع الأولاد حتى يكونـوا مسـاوين للآبـاء قوله تعـالى: وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَـانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [الطـور:21]، يعـني رفعنا الأولاد إلى مرتبة الآباء تكريماً لهم.

معنى دلالة التضمن

السـؤال: مر في كلام المصـنف قـول: فعلم أن التوحيد المطلـوب هو توحيد الألوهية الذي يتضـمن توحيد الربوبيـة. فهلا بينتم لنا دلالة التضـمن؟ الجـواب: كون الشيء في ضمن غيره يسمى تضـمناً، فنقـول: إنه لا يمكن أن يعبد الله بتوحيد الإلهية إلا أن يعـترف بـأن الـرب هو الخـالق المتصـرف، وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية في ضمن توحيد الإلهية، وتوحيد الربوبية كأنه الدافع إلى توحيد الإلهية، فالتضمن معناه الاشتمال عليه وكونه في ضـمنه، يعـني أن الأصل في التكليف أن الله أمرنا بتوحيد الإلهيـــــة، ولكن جعل توحيد الربوبية دليلاً عليه.

فطرة الطفل ومدى دلالتها له على الاستقامة

السؤال: الرأي فيمن قال: إنه من ترك طفلاً في مكـان ليس فيه أحد فإنه لا يســتدل على الطريق الســليم عن طريق فطرتــه؛ لأنه إذا تركته شــياطين الإنس لم تتركه شـياطين الجن؟ الجـواب: قد يكـون هـذا، ولكن إذا لم يكن عنده من يدفعه دفعاً إلى البـدع وإلى الشـركيات فيوقفه عليها من الإنس لم يفعلها، ولكن على كل حال فالإنسان مسلط عليه في هـذه الحيـاة أعـداء من

شـياطين الإنس وشـياطين الجن، وعليه أن يـدفع شـياطين الإنس بالمكافحة والدفع وشياطين الجن بالاستعاذة، ولكن الغـالب والأصل أن الـذي يكـون في بلـدة أو في ناحية ليس عنـده من يضـله أنه يبقى متحـيراً ولكن فطرته باقية على الاستقامة.

قسم التوحيد الذي تدخل فيه شهادة التوحيد

السـؤال: قـول (أشـهد أن لا إله إلا اللـه) من أي أنـواع التوحيـد؟ وأي توحيد يعصم الدم والمال؟ الجواب: شـهادة أن لا إله إلا الله هي توحيد الإلهية الـذي هو الاعتقاد، وشهادة أن محمداً رسول الله هي مكملة لها وفيها الاتبـاع، فهي من توحيد الإلهية أو من توحيد العبـادة، أي أن النطق بالشـهادة بلفظ الإلهية من تكميل توحيد العبادة.

علم الله تعالى والنسخ في القرآن

السـؤال: كيف نـرد على من يقـول: بما أن الله عز وجل يعلم الأمـور، فكيف يكـون هنـاك ناسخ ومنسـوخ في القـرآن والله يعلم ذلك كلـه؟ الجـواب: الله تعالى حكيم بـأمره ونهيـه، فيـنزل الحكم لمناسـبة، فـإذا زالت تلك المناسـبة أبدله بغـــيره مما يناسب في وقت آخر غـــير الـــوقت الأول، فمثلاً أمـــرهم باستقبال بيت المقدس تأليفاً لليهود؛ لأنه قبلة الأنبياء من بني إسـرائيل، ولما ظهر عنـادهم أمـرهم باسـتقبال الكعبـة؛ لأنه لم يبق في ذلك مصـلحة، فهـذا الاسـتقبال في حـال مناسـبة وهـذا الاسـتقبال في حالة مناسـبة، وهكـذا بقية الأحوال في الناسخ والمنسوخ.

حكم الصور في الستائر ونحوها

السـؤال: ما حكم وجـود الصـور من الحيوانـات والأطفـال وغيرها في سـتائر المنزل أو ملابس الأطفال أو السجاد، علماً بأن ذلك غـير مقصـود؟ الجـواب: ورد الأمر بهتكه لما دخل عليه الصـلاة والسـلام وقد سـترت عائشة فرجة أو نافذة بقرام فيه تماثيل، فغضب لـذلك وأمر بهتكه فشـققته وجعلته وسـادتين منبـوذتين، فهـذا دليل على أنها إذا كـانت كـالمنبوذ المسـتعمل الـذي يعطى ويمتهن ويجلس عليه فذلك أخـف، بخلاف ما إذا كـانت منصـوبة أمـام النـاظر كما في الستائر التي على الأبواب أو على النوافذ فإن هذا لا يجوز، وعلى كل حال فالأولى أنها لا تـترك في الثيـاب ولا في السـراويلات ولا في الفـرش ولا في اللحـف، ولكن إذا وجـدت ولم يسـتطع تغييرها في اللحف والفـرش ونحو ذلك من الأشياء المستعملة فهو أخـف، وأما كونها في المنصـوب الـذي أمـام الناظر فهذا لا يجوز بحال كما في هذه الأحاديث.

تفسير قوله تعالى: (شهد الله)

السؤال: ما معـنى قـول الشـارح: (وعبـارات السـلف في (شـهد) تـدور على الحكم)، فما معـنى (على الحكم)؟ الجـواب: يقـول: إن كثـيراً من الصـحابة فسروا قوله تعـالى: (شـهد اللـه) بــ(حَكم اللـه)، وبعضـهم فسر (شـهد اللـه) بـ(أخبر الله)، وبعضهم فسرها بـ(أعلم اللـه)، وبعضـهم فسـرها بــ(أمر اللـه)، فقال بعضهم: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ [آل عمران:18] أمر أن لا إله إلا هو، وقيل: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ [آل عمران:18] حكم أن لا إله إلا هو، وقيل: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ [آل عمـران:18] أخـبر أن لا إله إلا هـو، فهي تـدور حول هذه الأشياء. فبعضهم فسر بكذا، وبعضهم فسر بكـذا، والمعـنى أن الآية تشهد لذلك كله.

الفرق بين الخبر والإخبار

السـؤال: ما الفـرق بين مرتبة التكلم والخـبر وبين مرتبة الإعلام والإخبـار؟ الجواب: التكلم معناه أن يتكلم حتى يسـمعه غـيره، فبعد ما يعلم بقلبه يتكلم حتى يسمعه غيره، وأما الإخبار والإعلام فمعناه أن يعلم غـيره بقولـه: اعلمـوا أن الأمر كذا وكذا، فهنا أمر زائد على التكلم، وقد يتكلم ولا يقول: اعلموا. ثم

بعد ذلك يعلم غـيره، وهنا تكلم للتـذكر أو للحفـظ، وهنا إخبـار للنـاس وإعلام لهم.

توضيح قوله: (فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجملة الخبرية)

السؤال: قال المؤلف رحمه الله تعالى: (فلفظ الحكم و القضاء يسـتعمل في الجملة الخبريـة)، فما معـنى ذلـك؟ الجـواب: إذا فسر قولـه: شَـهِدَ اللَّهُ [آل عمران:18] بـ(حكم الله)، وشَـهِدَ اللَّهُ [آل عمـران:18] بــ(قضى اللـه)، فإنه في هذا جملة خبرية بمعنى أخبرَ الله بكذا، ويلزمكم أن تقبلوا خبره.

زيادة (ولا يرقون) في حديث التوكل وحكمها

السؤال: قرأنا في (كتاب التوحيـد) للشـيخ محمد بن عبد الوهـاب في حـديث السبعين أنهم: (لا يرقـون)، وقرأنا في (زاد المعـاد) لــ ابن القيم أن الرسـول صلى الله عليه وسلم رقى أحد أصحابه وقال بعض الأدعيــة، فهل فعله صــلى الله عليه وســلم نسخ لما ورد في الحــديث، أم أنه من الأفعـال الخاصة بــه؟ الجــواب: أنا قــرأت كتــاب التوحيد ولم أجد فيه هــذه الكلمــة، وهي كلمة (لا يرقون)، وهذا السائل إذا كان قد وجدها فيمكن أن هذه نسـخة غـير معتمـدة، والرواية الـتي قرأناها في كتـاب التوحيد فيها (لا يسـترقون)، في قوله صـلى الله عليه وسلم: (هم الذين لا يسترقون ولا يكتـوون ولا يتطـيرون)، وإذا كـان في بعض النسخ (لا يرقــون) فيمكن أنها أخــذت من رواية ضـعيفة؛ وذلك لأن الحديث موجود في الصـحيحين في بعض رواياتـه: (لا يرقـون ولا يسـترقون)، ولكن صحح العلماء أن كلمة: (لا يرقون) خطأ من بعض الرواة، وأن الصــواب (لا يسترقون). فكونك ترقي غيرك وتنفع غيرك لا مضــرة عليك في ذلك وقد نفعت غــــيرك، وأما كونك تطلب من غــــيرك أن يرقيك فــــإن ذلك دليل على ضعف التوحيد، ودليل على أنك ما وثقت بالتوكل على الله، والراقي يجـوز أن يرقي غيره، ولكن يكره له أن يطلب من يرقيه.

كيفية التقاء النبي صلى الله عليه وسلم بالأنبياء عليهم السلام في السماء

السؤال: جاء في حديث الإسراء والمعراج أن الرسول صلى الله عليه وسلم لقي بعض الأنبياء والرسل كموسى وهارون ويوسف وإبراهيم وعيسى، فهل لقيهم حقيقة، أو أنهم مثلوا له لكونهم أمواتاً؟ وماذا عن عيسى هل هو مثلهم في هذا؟ الجواب: لا شك أنهم مثلوا لـه، وأرواحهم -بلا شك- في السموات، ولكن قد ذكر في بعض الأحاديث أنهم قبروا في الأرض، وأخبر بقبر موسى، وأن موسى لما أتاه الموت سأل ربه أن يدنيه إلى الأرض المقدسة رمية بحجر، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فلو كنت ثم لأريتكم قبره)، وتواتر أيضاً أن قبر إبراهيم الخليل عليه السلام موجود في (سيناء) أو قريباً منها، فهم مقبورون في الأرض، ولكن أرواحهم -بغير شك- في السماء، ومثلت أجسادهم له وقيل: هذا فلان وهذا فلان. وأما عيسى فقد ذكر الله أنه رفعه ولم يذكر أنه دفن في الأرض، فلعل جسده في السماء، ولا يحسب ذلك من عمره، حيث ذكر في الأحاديث أنه سينزل حتى يتمم بقية عمره.

أطفال المسلمين وحكمهم في الآخرة

السؤال: ما الرأي في حديث عائشة رضي الله عنها عندما مات أحد أطفال جيرانها فقالت: هنيئاً لكم من طيور الجنة، فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم: (وما يدريك أنه من أهلها؟)، فهل فيه تناقض مع ما قلته من أن أطفال المسلمين يدخلون الجنة؟ الجواب: الحديث فيه أنه عليه الصلاة والسلام دعي للصلاة على طفل فقالت: (طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: وما يدريك! إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم) إلى آخره. فهو عليه الصلاة والسلام ينهى أن يجزم أحد لأحد بجنة أو نار، ويقول: إن العلم عند الله تعالى، فالله هو الذي يعلم مقادير الخلائق، وهو الذي يقدر آجالهم وهو الذي يعلم ما خلق له هذا، وماذا يكون عليه. واعتقادنا أن أولاد المسلمين مع آبائهم لأنهم تبع لهم، ولكن حكمنا على الآباء هو الذي نتوقف فيه، فالله أعلم ماذا عليه الآباء، وعلى كل حال فلا ينافي هذا الحكم بأن أولاد المؤمنين مع آبائهم وأنهم الذين يجتذبونهم، كما ورد في كثير من الأحاديث أن أباه ينتظره أو أنه ينتظر أباه وأن الأطفال يرجحون ميزان آبائهم ونحو ذلك.

الحلف والاستغاثة بغير الله تعالى

السـؤال: إنسـان يشـهد أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسـول اللـه، ويصـلي ويصوم، ولكنه يحلف بغير الله، وقد يستغيث بغير الله إما بالشيوخ أو الأوليـاء والأنبياء، أينقض ذلك التوحيد ويدخله في الشرك الأكبر؟ الجواب: الحلف بغير الله من أنواع الشرك ولكنه من الشرك الأصغر، ويرجع إلى نية الحالف، فـإذا كـان يعتقد أن ذلك المحلـوف يسـتحق التعظيم الـذي يبجل به حـتى يعظم ويحلف به كما يحلف بالله فهذا أكبر، وإذا كان له نوع تعظيم فهو من الأصغر. أما الاستغاثة بغير الله فمعلوم أنها من الأكـبر؛ وذلك لأن الاسـتغاثة دعـاء من مكروب، فالدعاء من الإنسان إذا وقع في كـرب وفي شـدة يسـمى اسـتغاثة، والإنسان عندما يصيبه الكرب يلجأ إلى الرب تعالى، والمشـركون إذا أصـابهم الكرب في البحر لجئوا إليه، قال تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَـلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء:67]، فإذا كان المشـركون في لجة البحر لا يـذكرون إلا ربهم، فالـذي يـذكر غـير الله ويسـتغيث بغـير الله في حالة الشـدائد أكـبر شـركاً من المشـركين الأولين الـذين نـزل فيهم القـرآن والـذين كفـرهم الله تعالى وقـاتلهم النـبي عليه الصـلاة والسـلام، فيسـأل هـذا المسـتغيث هل هو يقول: يا ولي الله! أغثني فأنا في ذمتك، ولا حول لي إلا أنت، ولا أحد ينجيـني إلا أنت، وأنا معتمد عليك، يا ولي الله! أنجني مما أنا فيه، فمن الذي ينجيـني؟ وإذا كان في البحر وتلاطمت به الأمواج أخذ يقول كقول الرافضة: يا علي أو: يا حسين نجنا! من الكرب. أو ما أشبه ذلك، أو يقـول: يا عبد القـادر يا جيلاني ، أو: يا بـدوي ، أو ما أشـبه ذلـك، فلا شك أن هـذا شـرك أكـبر، فهـذا معـنى الاستغاثة، فإذا كان هذا المسئول عنه يفعل مثل هذا فهو من الشرك الأكبر.

تفسير النظر والقصد بالنظر والشك

السؤال: أرجو شرح هذه العبارة شرحاً وافياً، وهي قول المؤلف: (ولهذا كـان الصـحيح أن أول واجب يجب على المكلف شـهادة أن لا إله إلا الله لا النظـر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك)، فما المقصـود بـالنظر، والقصد إلى النظـر، والشك؟ الجواب: هذه تقدمت في أول الكتاب، وذكرنا أن أول واجب العمـل، ولكن العمل مسبوق بالعلم، فالعلم هو الشهادة بيقين ومعرفـة، فـأول واجب على الإنسـان أن يعلم ثم يعمـل، وذهبت الصـوفية وبعض المتكلمين إلى أن أول واجب عليه النظر، والنظر أن يبـدأ بـالنظر فيما بين يديه وفيما خلفه من المخلوقـات، أن ينظر بنفسه وينظر في الـذي بين يديه من السـماء والأرض

ونحو ذلك، ثم بعد ذلك يظهر بنتيجة من هذا النظر، وهذا قول باطــل، بل أول واجب العلم مع العمـل. وذهب بعضـهم إلى أن أول واجب القصد إلى النظـر، والقصد بمعنى نية النظـر، أي: أن ينـوي أن ينظر وينـوي أنه سـوف ينظر في هـذه المخلوقـات وفي دلالتهـا، وهـذا أيضـاً باطـل، فالقصد يعـني نية النظـر، وليس بواجب، بل الواجب القبول والتقبل والعمل. وذهب آخرون إلى أن أول واجب الشك، فإذا عقل وكلف وتم عقله يشـك، ثم بعد ذلك يتحـير في أمـره، ثم بعد ذلك يطلب ما يزيل به ذلك الشك، فيقول: أنا أشك وأنا في حـيرة من أمـري، ولكن بـأي وسـيلة أدفع هـذا الشـك؟ فيسـأل وينظر ويسـتدل إلى أن يتبدل الشك باليقين، وهذه مقامات ومقـالات صـوفية لا يلتفت إليهـا، بل أول واجب هو ما ذكره من العلم والعمل.

معنى الآيات الأفقية والنفسية ومعنى اسم الله (المؤمن)

السؤال: نريد منكم توضيح هذه العبارة، (اسـتدلاله بالآيـات الأفقية والنفسـية اسـتدلال بأفعاله ومخلوقاتـه)، وكـذا في تفسـير اسم الله (المـؤمن) أنـه: (المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم)؟ الجـواب: معلوم أن الاسـتدلال بالآيـات مما يثبت الـدليل، والله تعـالى قد نصب الآيـات ليسـتدل بها العبـاد على معرفة ربهم، والآيـات هنا يـراد بها الآيـات الكونية والآيات النفسية. فالآيات الكونية هي المخلوقات التي في الكـون، يقـول الله تعالى: انظروا في هذه الآيات لتعتـبروا، انظـروا في خلق السـماء وارتفاعهـا، وانظروا في تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وانظـروا في هذه الأرض وما فيها من النبات وما فيها من الحيوانات، وانظروا في هـذه البحار وما احتوت عليه، وما أشبه ذلك. فالنظر يعني الاعتبار ليكـون دليلاً إلى اليقين فيقوي الإيمان. كذلك الآيات النفسية، الله تعالى يقـول: وَفِي أَنفُسِـكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ [الذاريات:21] يعـني: في أنفسـكم آيـات. فـإن الإنسـان لو فكر في نفسه لـزالت عنه الشـكوك والتوهمـات؛ فـإن نفس الإنسـان فيها أعظم عبرة وأعظم آية على أنه مخلوق مكـون، فـإذا فكر في أول أمـره كيف كـان نطفة ثم تقلبت به الأحوال إلى أن أصبح رجلاً سـوياً، ثم ينظر إلى أن حواسه كاملة وحاجاته كاملة؛ فإن ذلك -بلا شك- مما يلفت نظره ويوضح له أمره أنه مخلوق وأن له خالقاً، قال تعـالى: أَمْ خُلِقُـوا مِنْ غَيْـرِ شَـيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَـالِقُونَ [الطور:35]. وأما الاستدلال بأنه سبحانه من أسمائه (المـؤمن) الـذي يصـدق عبـاده، فهـذا التصـديق يكـون في يـوم القيامة أو في الـدنيا، فيصـدق عبـاده الرسل بما يقيم على أيديهم من الآيات والمعجزات، ويصدق عباده المؤمــنين في الآخرة بأن يثيبهم ويظهر بذلك صدقهم ونصحهم لأممهم.

معنى الخواص

السـؤال: يقـول الشـارح: [والقـرآن مملـوء من هـذه الطريـق، وهي طريق الخواص يستدلون بالله على أفعاله وما يليق به أن يفعله وما لا يفعلـه]، فمن هم الخـواص؟ الجـواب: هم العـارفون بالله وبآياتـه، وهم الـذين رزقهم الله معرفة ثاقبة يستدلون بآيات الله على قدرته، ويسـتدلون بأفعاله على كمالـه، فينظرون في هذه المخلوقات ويأخذون منها القـدرة على أنه سـبحانه متصف بأتم الصفات، وبأن له الصفات العلى وله الأسماء الحسنى.

حديث افتراق الأمة

السؤال: في حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، هل هذه الفرق تعد من المسلمين أو خارجة عن الإسلام؟ الجواب: ظاهر الحديث أنهم ليسوا من المسـلمين، وأنهم فـرق خارجة عن الإسـلام، ولو حسـبنا بعضـهم بـأنهم مسلمون؛ لأنه قال: (كلها في النار إلا واحدة)، فدل على أن تلك الفرق ضالة مخطئة، وأن الفرقة الناجية واحدة، ولكن مع ذلك فإن في تلك الفرق من هو معذور، وهذا إذا جعلنا الفرق متفرعة عن أمة الـدعوة. وأما إذا جعلناها فرقـاً لأمة الإجابة فـإن الجميع يصـيرون من المسـلمين وتحت مشـيئة الله تعـالى ويكون هذا من أحاديث الوعيد.

أيهما أضر بالإسلام الجهمية أم الرافضة؟

السـؤال: أيهما أشد على الإسـلام الجهمية أم الرافضـة؟ الجـواب: لكل من الجهمية والرافضة ميزة تتمـيز بها عن الأخـرى: فالجهمية ميزتها الـتي وقعت فيها أن الجهم بن صـفوان ابتـدع ثلاث بـدع: بدعة التعطيـل، وبدعة الجـبر، وبدعة الإرجـاء، فهو يقـول بـأن العبـاد مجـبرون على الأفعـال، وهو يقـول بالإرجاء، فيغلب جانب الرجاء، وهو مع ذلك ينفي الصفات، فكانت الجهمية قد

جمعت هذه البدع الثلاث، ولا شك أن هذا أشد كفراً من كفر الرافضــة، ولكن من قرأ كتب الرافضة وجد أغلبهم جهمية، فيكونون قد جمعـوا بين البـدعتين، فأخذوا بدعة الجهمية وزادوا عليها بسب الصحابة وبتكفير الخلفـاء الراشـدين وبتضـليل الصـحابة وتخطئتهم، وزادوا أيضـاً -أو زاد متـأخروهم- بعبـادة أهل البيت ودعائهم مع الله تعالى زيادة على الغلو، فالذين يجمعون هذا مع هـذا لا شك أنهم أشد كفراً، أخذوا بدعة الجهمية وزادوا عليها هذه البدعة.

الاتفاق بين الخالق والمخلوق في الاسم والصفة ودلالته

السؤال: إذا اتفق اسم أو صفة للخـالق مع المخلـوق فهل نقـول: إن الاتفـاق في المسمى، والاختلاف في المعنى والمدلول؟ الجـواب: متفقـان في الاسم ومتفقان في المعنى العـام، ومختلفـان في الكيفية والمـدلول، فـإذا قلنا مثلاً: إن الله يسـمع وإن المخلـوق يسـمع فالسـمع هو إدراك الأقـوال، وهـذا فيه اتفاق، وإذا قلنا: إن الله تعالى له سمع وللمخلوق سمع فمعلوم أن سمع الله ليس كسمع المخلوق بل بينهما تفاوت، فهما متفقان في الاسم، ومتفقان في المعنى العام، وأما الكيفية والصفة فإن بينهما تفاوتاً.

الإجمال في التشبيه

السؤال: ما معنى قول المؤلف رحمه الله: (ولكن لفظ التشـبيه قد صـار في كلام النـاس لفظـاً مجملاً يـراد به المعـنى الصـحيح)؟ الجـواب: يعـني كلمة (التشـبيه)، فأهل السـنة يريـدون بها المعـنى الصـحيح، والمعتزلة يريـدون بها نفي الصفات، فأهل السنة يريـدون بكلمة (ليس لله شـبيه) أن ننفي عن الله التشبيه، وصحيح قصـدهم، فيقولـون: إن الله لا يشـبه شـيئاً من مخلوقاته ولا تشبهه المخلوقات، وهذا معنىً صحيح، وتارة يراد به المعـنى الباطل وهو نفي الصفات؛ فإن المعتزلة يقولون: ليس لله سمع، فمن أثبته فهو مشــبه، وليس لله علم، فمن أثبته فهو مشبه، فإثبات السمع عندهم تشـبيه، وإثبـات القـدرة عندهم تشبيه، وإثبات الحياة تشبيه، وإثبات الكلام تشبيه، فصار لفظ التشــبيه لفظاً مجملاً، فتارة يراد به المعنى الصحيح، وتارة يراد به المعنى الباطل.

من المسـائل الـتي اشـتد الخلاف فيها مسـألة وجـود حـوادث لا أول لهـا، والإعـراض عن الكلام في مثل هـذه المسـألة خـير من الخـوض فيهـا، ولكن تعرض لها العلماء لبيان ضلال الفلاسفة والملحدين.

الكلام على مسألة حوادث لا أول لها

قال تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ [آل عمـران:18-20]. نقـرأ في هـذه العقيـدة الـتي كتبها هـذا الإمـام لبيـان ما يجب أن يعتقـده المسـلم، وبيـان الـرد على بعض المبتدعة الذين أنكروا شيئاً من صفات الله تعـالى أو أنكـروا صـفاته، وكـذلك الرد على من أنكر القدر أو عموم قدرته، وسائر المبتدعين الذين أحدثوا بدعاً تتعلق بالعقيدة، والتي شرحها أو وفق لشرحها هذا العالم الـذي تقيد بمـذهب السلف واختار ما عليه أئمة العلم وعلمـاء المسـلمين، وإن كـان قد اسـتطرد وذكر شيئاً من حجج أهل الكلام ومن شبهاتهم وما قصد إلا حكايتها ثم تعقيبها والـرد عليهـا. ويمر بنا في هـذا الشـرح عبـارات من عبـارات أهل الكلام قد يصـــعب فهمها لأول مـــرة، ولكن معلـــوم أن القصد من إيرادها مناقشة المستدلين بها حيث إنهم يعتقدونها أدلةً واضحة وبراهين قوية وحججـاً قاطعة على ما هم عليه من إنكـار الأمـور الـتي جـاءت بها السـنة ونطق بها الكتـاب وتتابع عليها أئمة العلم واعترفوا بها وأقروا بها، فجـاء أولئك المبتدعة وضـللوا من اعتقدها وصاروا يبـدعونهم، ويحتجـون على بـدعهم بـأنواع من الشـبهات. وذلك مثلما مر بنا من قولهم إنه لا تقوم به الحـوادث، ويسـتدلون بـذلك على أنه ليس له صفات، وأن صفات الفعل تحدث شـيئاً فشـيئاً. ومثله كلامهم في التسلسل في القدم، والتسلسل في الأزل وفي الأبد وما أشبه ذلـك، والقصد منها مناقشة أدلتهم، وسيمر بنا في أثناء الكتاب كلام فيه الفائدة إن شاء الله وفيه المعرفـة، وبـالأخص فيما يتعلق بعمـوم معتقد أهل السـنة، سـواء في الأسماء والصفات، أو في القرآن وكلام الله عز وجل، أو في البعث والنشـور، أو في الإيمان والأحكام، أو في الصحابة وما يقال فيهم، أو في الأمـور الغيبية وما أشبهها. ويمر بنا -إن شـاء اللـه- ما إذا اعتقـده المسـلم عـرف نعمه الله عليه حيث وفقه لهذا المعتقد السليم الذي تؤيـده السـنة ودرج عليه السـلف، والذي تقره العقول والفطر السليمة وإن أنكرته تلك الفطر الزائغة والقلـوب المنحرفة، فلا عذر لمن أنكـره واعتمد على العقـل. وكـان من جملة ما مر بنا أن الله سـبحانه وتعـالى قـديم بصـفاته، وأنه لم يحـدث له صـفة قد كـانت

معدومة ولا اسم قد كـان معـدوماً، وأنه سـبحانه لم يكن معطلاً عن الأفعـال، بل هو فاعل في كل وقت وحــال، وأن أســماءه قد تســمى بها قبل أن توجد الموجودات وبعـدما وجـدت الموجـودات، فهو له اسم (الخـالق) قبل أن يوجد الخلق الــذين خلقهم، ومن أســمائه (البــارئ) قبل أن يوجد من بــرأهم، ومن أسمائه (الرازق أو الرزاق) قبل أن يوجد خلق يرزقهم، ومن أسمائه (الرحيم) قبل أن يخلق من يــرحمهم، ولكن يعــرف بــذلك أنه سـبحانه لم يــزل يــرحم ويعطي ويمنع ويخلق ما يشاء ويحيي ويميت، فأسماؤه قديمة وأفعاله قديمه، وكــذلك ســائر صــفاته. والقصد من معرفة هــذا كله أن يــرغب الإنســان إليه ويـدعوه بتلك الأسـماء، فـدعاؤه بتلك الأسـماء كـأن يـدعوه باسم (الـرزاق أو الرازق) ليرزقه، وباسم (الـرحمن) ليرحمـه، وباسم (العزيـز) ليعـزه أو لينتقم ممن عـاداه؛ فإنه العزيز الـذي لا يغـالب، وهكـذا بقية أسـمائه، على أنه مـتى اعتقد مضــمون تلك الأســماء وآثارها عظم قــدر ربه في قلبه فعبــده وحــده وخافه ورجاه واعتمد عليـه، واتخـذه حسـيباً ووكيلاً وأعـرض بقلبه وقالبه عن غيره، فأصبح بذلك من الذين عرفوا ربهم حق المعرفة وعبـدوه حق العبـادة. فهذه من نتائج معرفة هذه المعتقدات التي تتعلق بالأسماء والصفات. ......

حديث عمران بن حصين ودلالته

[والقول بأن الحوادث لها أول، يلزم منه التعطيل قبل ذلك، وأن الله ســبحانه وتعالى لم يزل غير فاعل، ثم صار فـاعلاً. ولا يلـزم من ذلك قـدم العـالم، لأن كل ما سوى الله تعالى محدث ممكن الوجود، موجـود بإيجـاد الله تعـالى لـه، ليس له من نفسه إلا العدم والفقر، والاحتياج وصف ذاتي لازم لكل ما ســوى الله تعالى، والله تعالى واجب الوجود لذاتـه، غـني لذاتـه، والغـنى وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالى]. [وللناس قولان في هذا العـالم: هل هو مخلـوق من مادة أم لا؟ واختلفوا في أول هذا العالم ما هـو؟ وقد قـال تعـالى: وَهُـوَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ وَكَـانَ عَرْشُـهُ عَلَى الْمَـاءِ [هـود:7]. وروى البخاري وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنـه، قـال: (قـال أهل اليمن لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (جئناك لنتفقه في الدين، ولنسـألك عن أول هذا الأمر،فقـال: كـان الله ولم يكن شـيء قبلـه، -وفي روايـة: (ولم يكن شـيء معـه) وفي روايـة: (غـيره)- وكـان عرشه على المـاء، وكتب في الـذكر كل شـيء، وخلق السـموات والأرض) وفي لفـظ: (ثم خلق السـموات والأرض)، فقوله: (كتب في الذكر)، يعني: اللوح المحفـوظ، كما قـال تعـالى: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ [الأنبياء:105] سـمى ما يكتب في الـذكر ذكراً، كما يسـمى ما يكتب في الكتـاب كتابـاً. والنـاس في هـذا الحـديث على قولين، منهم من قال: إن المقصود إخباره بأن الله كـان موجـوداً وحـده، ولم يزل كذلك دائماً، ثم ابتدأ إحـداث جميع الحـوادث، فجنسـها وأعيانها مسـبوقة بالعدم، وأن جنس الزمان حادث لا في زمان، وأن الله صـار فـاعلاً بعد أن لم يكن يفعل شيئاً من الأزل إلى حين ابتداء الفعل ولا كان الفعل ممكناً. والقول

الثاني: المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العـالم المشـهود الـذي خلقه الله في ستة أيام، ثم اسـتوى على العـرش، كما أخـبر القـرآن في غـير موضـع. وفي صـحيح مسـلم عن عبد الله بن عمـرو رضي الله عنهما عن النـبي صـلى الله عليه وسلم أنه قال: (قدر الله تعـالى مقـادير الخلق قبل أن يخلق السـموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء). فـأخبر صـلى الله عليه وسلم أن تقدير هذا العالم المخلـوق في سـتة أيـام كـان قبل خلقه بخمسـين ألف سنة،وأن عرش الرب تعـالى كـان حينئذ على المـاء]. [ودليل صـحة هـذا القول الثاني من وجوه: أحدها: أن قول أهل اليمن:(جئنـاك لنسـألك عن أول هذا الأمر)، وهو إشارة إلى حاضر مشهود موجود، والأمر هنا بمعنى المـأمور، أي: الذي كونه الله بأمره، وقد أجابهم النـبي صـلى الله عليه وسـلم عن بـدء هـذا العـالم الموجـود، لا عن جنس المخلوقـات، لأنهم لم يسـألوه عنـه، وقد أخبرهم عن خلق السموات والأرض حال كون عرشه على الماء، ولم يخبرهم عن خلق العرش، وهو مخلوق قبل خلق السموات والأرض. وأيضاً فإنه قـال: (كان الله ولم يكن شيء قبله)، وقد روي (معـه)، وروي (غـيره)، والمجلس كـان واحـداً ، فعلم أنه قـال أحد الألفـاظ، والآخـران رويا بـالمعنى ، ولفظ (القَبْل) ثبت عنه في غـير هـذا الحـديث. ففي صـحيح مسـلم عن أبي هريـرة رضي الله عنه عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه كـان يقـول في دعائـه: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شـيء) الحـديث. واللفظـان الآخـران لم يثبت واحد منهما في موضع آخر، ولهذا كان كثير من أهل الحـديث إنما يرويه بلفظ (القَبْل)، كـالحميدي و البغوي و ابن الأثـير . وإذا كـان كـذلك لم يكن في هـذا اللفظ تعرض لابتداء الحوادث، ولا لأول مخلـوق. وأيضـاً فإنه قـال: (كـان الله ولم يكن شيء قبله -أو (معه) أو (غيره)- وكـان عرشه على المـاء وكتب في الذكر كل شيء). فـأخبر عن هـذه الثلاثة بـالواو، و (خلق السـموات والأرض) روي بالواو وبثم]. قـال رحمه الله تعـالى: [فظهر أن مقصـوده إخبـاره إيـاهم ببـدء خلق السـماوات والأرض وما بينهمـا، وهي المخلوقـات الـتي خلقت في ستة أيام، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلـك، وذكر السـماوات والأرض بما يدل على خلقهمـا، وذكر ما قبلهما بما يـدل على كونه ووجـوده، ولم يتعـرض لابتـداء خلقه لـه، وأيضا فإنه إذا كـان الحـديث قد ورد بهـذا وهـذا فلا يجـزم بأحدهما إلا بدليل، فإذا رجح أحدهما فمن جزم بأن الرسول أراد المعنى الآخر فهو مخطئ قطعا، ولم يـأت في الكتـاب ولا في السـنة ما يـدل على المعـنى الآخر، فلا يجوز إثباته بما يظن أنه معنى الحديث، ولم يرد (كان الله ولا شيء معـه)، مجـرداً، وإنما ورد على السـياق المـذكور، فلا يظن أن معنـاه الإخبـار بتعطيل الـرب تعـالى دائما عن الفعل حـتى خلق السـماوات والأرض، وأيضا فقوله صلى الله عليه وسلم: (كان الله ولاشـيء قبله أو معه أو غـيره، وكـان عرشه على الماء)، لا يصح أن يكون المعنى أنه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه أصلا؛ لأن قوله: (وكان عرشه على الماء)، يرد ذلـك؛ فـإن هـذه الجملة - وهي: (وكان عرشه على المـاء)- إما حالية أو معطوفـة، وعلى كلا التقـديرين فهو مخلوق موجود في ذلك الوقت، فعلم أن المراد: ولم يكن شيء من هــذا العالم المشهود]. يتكلم المصنف على أحاديث عمران بن حصين لما جاء أهل

اليمن يسألون عن أول هذا الأمر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء)، أخبر في هذا أن الله تعالى هو الأول ولم يكن شيء قبله، وذلك تحقيق للأولية المذكورة في الآية: هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ [الحديد: 3]، فلم يكن شيء قبله، وهذا لا يدل على أنه تعالى كان معطلاً عن الأفعال لم يكن يخلق، بل يدل على أنه خالق، فإنه ذكر أن عرشه على الماء دليل على أنه قد خلق العرش، وأنه قد خلق الماء، وأنه قد خلق مخلوقات قد تكون موجودة وقد تكون معدومة، فلا بد أن يكون خالقاً، فالله تعالى لم يكن معطلاً عن الخلق، ويعتقد المسلمون أن الله تعالى قديم، وأنه قديم بأفعاله، وأنه الذي ليس قبله شيء، وأن من أعظم مخلوقاته العرش، وقد ورد في عظم العرش ما يدل على أنه أقدم وأعظم أو من أعظم المخلوقات، فقد ذكر الله سعة كرسيه في قوله تعالى: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ [البقرة:255]، وقيل: إن الكرسي كالمرقاة بين يدي العرش، فالكرسي قد وسع السماوات والأرض مع عظم السماوات ومع عظم الأرض. وورد في بعض الآثار أن السماوات والأرض في الكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس، والترس: هو المجن الذي يلبس على الرأس وما عسى أن تغطي الدراهم السبعة، فالدرهم قطعة من الفضة صغيرة بقدر الظفر أو نحوه، فماذا تغطي من ذلك الترس؟ فالسماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي هذا مقدارها منه، والكرسي صغير أيضاً بالنسبة إلى العرش، كما ورد أن الكرسي نسبته إلى العرش كحلقه ملقاة بأرض فلاة، والحلقة: القطعة من الحديد ملتقية الطرفين. فإذا ألقيت حلقة في فلاة فماذا تشغل من تلك الفلاة؟ فالكرسي صغير بالنسبة إلى العرش، فهو كحلقة ملقاة بأرض فلاة، فهذا دليل على عظم هذا الكرسي ثم عظم هذا العرش، وإذا كان هذا عظمه فإنه مخلوق، فالعرش مخلوق ليس قديماً، بل هو مخلوق، وإذا كان هذا عظم هذا المخلوق فما ظنك بعظمة الخالق؟ والله تعالى قد ذكر أنه يقبض المخلوقات في قوله تعالى: وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [الزمر:67]، وذكر ابن عباس أن السماوات والأرض في كف الرحمن كحبة خردل في يد العبد. وماذا تشغل حبة الخردل في يد عبد؟ وكل ذلك دليل على عظمة الخالق، ولا شك أن من اعتقد عظمته وكبرياءه خافه وهابه وعبده حق العبادة، ولكن لا ينبغي الخوض في الأمور الغيبية التي ليس عليها دليل وبرهان، والتي يؤدي الخوض فيها إلى حيرة وإلى شك، وكثيراً ما يشتكي بعض النساء وبعض الرجال أنهم يلاقون حيرة ويلاقون شكاً وتأتيهم وساوس إذا بحثوا في مثل هذه الأمور، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر عند ذلك بالاستعاذة من الشيطان وبالإيمان بالله، فإذا وقعت في قلب الإنسان هذه الأوهام وهذه التشكيكات فإنما عليه أن يقول: آمنت بالله، وأن يستعيذ بالله من الشيطان، وأن يقبل كل ما جاءه عن الله، وأن يتقبل ذلك كله، ويبعد عنه كل ما يجلب حيرة أو وهماً أو وسوسة أو نحو ذلك، فيقطعها ويجعل حديث نفسه وخوضه وخوضها

في الشيء الذي ينفعه، ويؤمن بالإجمالات التي أخبر الله بها عنه حتى يكون بذلك مطمئن القلب.

اتصاف الله تعالى بالربوبية والخلق قبل وجود متعلقهما

قال المؤلف رحمه الله: [قوله: (له معنى الربوبية ولا مربوب ومعنى الخالق ولا مخلوق). يعني أن الله تعالى موصوف بأنه الرب قبل أن يوجد مربوب وموصوف بأنه خالق قبل أن يوجد مخلوق، قال بعض المشايخ الشارحين: وإنما قال: له معنى الربوبية ومعنى الخالق دون الخالقية؛ لأن الخالق هو المخرج للشيء من العدم إلى الوجود لا غير، والرب يقتضي معاني كثيرة، وهي: الملك والحفظ والتدبير والتربية وتبليغ الشيء كماله بالتدريج، فلا جرم أتى بلفظ يشمل هذه المعاني وهي الربوبية. انتهى، وفيه نظر؛ لأن الخلق يكون بمعنى التقدير أيضاً]. هذا مثل ما سبق قبله أن الله تعالى من أسمائه (الخالق) قبل أن يوجد المخلوقون، ومن أسمائه (الرازق) قبل أن يوجد المرزوقون، فمن صفاته (الربوبية) قبل أن يوجد المربوبون ومن صفة أسمائه (الخالق) قبل أن يأتي أو يوجد المخلوقون، وله معنى ذلك. ولا شك أن الربوبية تقتضي أنه الرب بمعنى (المالك)، وتقتضي أنه الرب بمعنى (المربي) الذي يربي خلقه بالنعم أو الذي يربيهم بالعلوم ويفتح عليهم المعارف، فالكل من حق الله تعالى أنه الرب، بمعنى المالك المنعم المتصرف المربي المتفضل على خلقه، وكذلك الخالق، فالخالق بمعنى المنشئ للخلق المبتدئ لهم على غير مثال سابق، وكل ذلك له وحده.

اتصاف الله تعالى بإحياء الموتى وخلق الخلق

قال المؤلف رحمه الله: [قوله: (وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم). يعني أنه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيي الموتى قبل إحيائهم، فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خلقهم، إلزاما للمعتزلة ومن قال بقولهم، كما حكينا عنهم فيما تقدم، وتقدم تقرير أنه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء]. ويعتقد المسلم أن الله تعالى يفعل ما يشاء، فإن من صفاته أنه يحيي ويميت، فمن شاء أحياه ومن شاء أماته، ومن شاء رزقه، ومن شاء أفقره ومن شاء أغناه، يعطي من يشاء

ويمنع، ويخفض من يشاء ويرفع، ويعز من يشاء ويذل، وهـذه الأوصـاف الـتي هي من صـفاته هي أيضـاً قديمـة، بمعـنى أنه موصـوف بها أزلاً، أي: أن من أسمائه المحيي قبل أن يخلق الذين يحييهم، وكذلك المميت، وكذلك المعطي والمانع والخافض والرافع وما أشبه ذلك. والقصد من معرفة هذه الأسـماء أن يعـرف العبد أنها لله تعـالى فـيرغب إليه أن يعـزه، ويعلم أن من أذله الله فلا معز له. ويرغب إليه أن يرفع قـدره، ويعـرف أن من خفضه الله فلا رافع لـه. ويـرغب إليه بالهدايـة، ويعلم أن من يضـلل الله فما له من هـاد، وهكـذا بقية الصفات. وذلك أن هنـاك فرقـاً من المبتدعة كالمعتزلة الـذين يعتقـدون أنه لا يفعل إلا ما يقــدر عليــه، وأن العبد يفعل بغــير قــدرة الله -تعــالى الله عن قــولهم-، وأن العبد هو الــذي يفعل باختيــاره وهو الــذي يهــدي نفسه ويضل نفسه، ولا شك أن هذا فيه اعتراض على الله وحجر لصفته، وأنه لا يفعل أو لا يقدر إلا على ما يقدر عليه بدون بعض الأشياء التي لا يقدر عليها، فالله تعالى قد وصف نفسه بعمـوم القـدرة في قوله تعـالى: وَهُـوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ [المائدة:120]، وسيأتينا هذا إن شاء الله.

عموم قدرته تعالى وضلال المعتزلة

قال المؤلف رحمه الله: [قولـه: (ذلك بأنه على كل شـيء قـدير، وكل شـيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسـير، لا يحتـاج إلى شـيء لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:11])]. قال الشارح: (ذلك) إشارة إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه والكلام على (كل) وشمولها، وشمول (كل) في كل مقام بحسب ما يحتف به من القرائن يـأتي في مسـألة الكلام إن شـاء الله تعـالى. وقد حرفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعـالى: وَاللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة:284]، فقـالوا: إنه قـادر على كل ما هو مقـدور لـه، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم، وتنازعوا: هل يقــدر على مثلها أم لا؟! ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هـذا بمنزلة أن يقـال: هو عـالم بكل ما يعلمه وخالق لكل ما يخلقه ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها، فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء. وأما أهل السنة فعنـدهم أن الله على كل شـيء قدير، وكل ممكن فهو مندرج في هـذا، وأما المحـال لذاته مثل كـون الشـيء الواحد موجودا معدوما في حال واحـدة فهـذا لا حقيقة له ولا يتصـور وجـوده، ولا يسمى شيئا باتفاق العقلاء، ومن هذا الباب خلق مثل نفسه وإعـدام نفسه وأمثال ذلك من المحال. وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة؛ فإنه لا يـؤمن بأنه رب كل شـيء إلا من آمن أنه قـادر على تلك الأشـياء، ولا يـؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شيء قـدير، وإنما تنـازعوا في المعدوم الممكن هل هو شيء أم لا؟ والتحقيق: أن المعدوم ليس بشـيء في

الخارج، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه، وقد يذكره ويخـبر بـه، كقوله تعالى: إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ [الحج:1]، فيكون شيئا في العلم والذكر والكتـاب لا في الخـارج، كما قـال تعـالى: إِنَّمَا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس:82]، قال تعالى: وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا [مريم:9] أي:لم تكن شيئا في الخارج وإن كان شـيئا في علمه تعـالى، وقـال تعالى: هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَـيْئًا مَـذْكُورًا [الإنسـان: 1]]. يعتقد المسـلمون ما أخـبر الله به عن نفسه من عمـوم قدرته أنه على كل شيء قدير، وكلمة (شـيء) يـدخل فيها ما هو موجـود وما هو معلـوم مما يقـدره الله تعـالى، وتـدخل فيها أعمـال العبـاد، فيـدخل فيها عمل العبد مثل عباداته وطاعاته وحسناته، وكذا سيئاته وخطاياه كلها داخلة في عمـوم (كـل) في قوله تعـالى: عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ [البقـرة:20]، فيـدخل في ذلك كل الممكنـات. أما غـير الممكن المسـتحيل فإنه لا يـدخل في هـذا العمـوم، مثل كـون الشـيء معـدوماً موجـوداً في آن واحـد، فهـذا من المسـتحيل أن يوجد ويعدم في آن واحد، أو يكون الشخص حياً ميتاً في آن واحـد، ومثل ما يـورده بعض المتعنـتين فيقولـون: هل يقـدر الله أن يخلق مثل نفسـه؟ نقـول: هـذا محال، ولا ينبغي الخـوض فيـه، فهو من المحـال؛ حيث إنه تعـالى هو المنفـرد الذي ليس له شريك وليس له شبيه ولا معين. والمعتزلة ينكرون هذا العمـوم (على كل شيء قـدير)، ويقولـون: على ما يقـدر عليه قـدير. ولا شك أن هـذا فيه تنقص؛ فإنه بمعنى: قدير على ما يقدر عليه، ولا شك أن هذا لا فائدة فيه. فقولهم: قدير على ما يقدر عليه، معناه أنه لا يقدر على كل شيء، وأن هنـاك أشياء لا يقدر عليها -تعـالى الله عن قـولهم- فيكـون في هـذا تنقص، فالآيـات فيها العموم، فهو على كل شيء قدير عموماً لا يستثنى منه شيء مما يـدخل في الإمكـــان. وأما كلامهم في المعـــدوم هل هو شـــيء أو ليس بشـــيء، فالمعدوم -على الصحيح- لا يقال له شيء حتى يوجد، ولكن الله تعـالى عـالم بما يوجد من المعدومات التي توجد، وقادر على إيجاده في الوقت الذي قـدر إيجاده، وإلا فقد نفى أن يكون المعدوم شـيئاً في قوله تعـالى: هَـلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا [الإنسان:1]، وكذلك قوله تعالى مخاطباً لزكريا: وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَـكُ شَـيْئًا [مـريم:9] يعـني: لم تكن موجـوداً، بل كنت معـدوماً وقد خلقتـك، فنفى أن يكـون المعـدوم شـيئاً على الوجود، ولكن هو في علم الله شيء إذا قدر أنه سيوجد، فهو داخل في قــول الله تعالى: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ [النحـل:40]. فالله تعالى أخبر بأنه إذا قال للشيء كن وهو معدوم كـان، فسـماه شـيئاً مع كونه معدوماً؛ لأنه يوجد إذا قال الله له: (كن)، وهذا معنى أن أمره تعالى بين الكاف والنون، فخلقه للمعـدومات الـتي قـدر أنها توجد بقـول: (كن)، وهكـذا حقق المحققون أن المعدوم شيء في علم الله، وليس شيئاً في الوجود فيما يرى ولا فيما يشاهد.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وقوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى:11] رد على المشبهة، وقوله تعالى: وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:11] رد على المعطلة، فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال، وليس له فيها شبيه، فالمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره، ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه؛ إذ صفات المخلوق كما يليق به وصفات الخالق كما يليق به، ولا تنف عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به أعرف الخلق بربه وما يجب له وما يمتنع عليه وأنصحهم لأمته وأفصحهم وأقدرهم على البيان؛ فإنك إن نفيت شيئا من ذلك كنت كافرا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وإذا وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبهه بخلقه فليس كمثله شيء، فإذا شبهته بخلقه كنت كافرا به، قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري : من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيها. وسيأتي في كلام الشيخ الطحاوي رحمه الله: (ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه)]. بعض الآية الذي هو قول الله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:11] رد على طائفتين متقابلتين: إحداهما غلت في الإثبات، وهم الممثلة المشبهة. والأخرى غلت في النفي وهم المعطلة النفاة. فرد الله على الأولى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى:11] أي: لا تجعلوا لله مثلاً. فليس له مثل في صفاته ولا في ذاته ولا في أفعاله، لا في صفاته الفعلية ولا في صفاته الذاتية، أي: لا يشبهه شيء. وذلك لأن الذين غلوا في الإثبات وجعلوا يد الله كأيدينا وسمعه كأسماعنا. أو قالوا: إنه يسمع بكذا وبكذا. أو: إنه ينظر بكذا وما أشبه ذلك مما غلوا فيه إلى أن أثبتوا له خصائص المخلوقين لا شك أنهم قد وقعوا فيما هو كفر، ولهذا يقول نعيم : من شبه الله بخلقه فقد كفر. ويقول آخر: المشبه يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، والموحد يعبد إلهاً واحداً فرداً صمداً, وهو الموحد الذي يثبت لله الصفات ويجعلها لله وحده لا يشبهه فيها شيء، وفي ذلك أيضاً يقول ابن القيم : لسنا نشبه ربنا بصفاتنا إن المشبه عابد الأوثان كلا ولا نخليه من أوصافه إن المعطل عابد البهتان والمعطل: هو الذي ينكر صفات الله، والذي ينفي أن الله متصف بصفات الكمال كالسمع والبصر والعلم المحبة والرحمة، وصفات الذات كاليد التي أثبتها لنفسه أو اليدين وكالعين والوجه وما أشبه ذلك من الصفات. ولا شك أن من نفى ذلك فقد عطل الله تعالى، وتعطيل الصفات يلزم منه تعطيل الذات، فكأنه لم يثبت إلهاً يعبد.

شرح العقيدة الطحاوية [13]

من عقائد أهل السنة والجماعة اعتقادهم أن الله تعالى قـدر الأقـدار وضـرب الآجال، فكل ما يجري في الكون من خلق وإحيـاء وإماتة وأعمـال العبـاد؛ كل ذلك بتقــديره وبعلمــه، ولم يخــالف في ذلك إلا من أعمى الله بصــيرته عن الهــدى، فلم يوفق للتســليم بما جــاء عن الله وعن رســوله صــلى الله عليه وسلم.

الكلام على الدعاء فيما سبق به القدر

......

الكلام على آية: (وما يعمر من معمر)

قال المؤلف رحمه الله تعـالى: [واعلم أن الـدعاء يكـون مشـروعا نافعـاً في بعض الأشياء دون بعض، وكذلك هو، ولهذا لا يجيب الله المعتدين في الــدعاء، وكان الإمام أحمد رحمه الله يكره أن يدعى له بطول العمر، ويقول: هـذا أمر قد فرغ منه. وأما قوله تعالى: وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ [فاطر:11] فقد قيل في الضمير المذكور في قوله تعالى: (مِنْ عُمُـرِهِ) إنه بمنزلة قولهم: عندي درهم ونصفه، أي: ونصف درهم آخر فيكون المعـنى: ولا ينقص من عمر معمر آخر، وقيل: الزيادة والنقصان في الصحف الــتي في أيـدي الملائكـة. وحمل قوله تعـالى: لِكُـلِّ أَجَـلٍ كِتَـابٌ * يَمْحُـوا اللَّهُ مَا يَشَـاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ [الرعد:38-39]، على أن المحو والإثبات من الصحف الــتي في أيـدي الملائكـة. وأن قولـه: وَعِنْـدَهُ أُمُّ الْكِتَـابِ [الرعـد:39] اللـوح المحفـوظ، ويـدل على هـذا الوجه سياق الآيـة، وهو قولـه: لِكُـلِّ أَجَـلٍ كِتَـابٌ [الرعـد:38]، ثم قـال: يَمْحُـوا اللَّهُ مَا يَشَـاءُ وَيُثْبِتُ [الرعـد:39] أي: من ذلك الكتاب وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ [الرعد:39] أي: أصله وهو اللـوح المحفـوظ. وقيـل: يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسـخه، والسـياق أدل على هـذا الوجه من الوجه الأول، وهو قوله تعـالى: وَمَا كَـانَ لِرَسُـولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ [الرعد:38]، فأخبر تعالى أن الرسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه بل من عند الله، ثم قال: لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَــاءُ وَيُثْبِتُ [الرعــد:38-39] أي: أن الشــرائع لها أجل وغاية تنتهي إليها ثم تنسخ بالشريعة الأخرى، فينسخ الله ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل ويثبت ما يشـاء، وفي الآية أقـوال أخـرى، والله أعلم بالصـواب]. هـذا يتعلق بعلم الله تعالى بالكائنـات قبل وقوعها وبتحديـدها وتقـديرها، ومن ذلك أن الله تعالى حدد أجل كل إنسان وقدر عمره كما في هـذه الآيـة، وهي قوله تعالى: وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ [فــاطر:11] أي:

الذي يعمر فيطول عمره هذا مكتوب، والذي ينقص من عمره فيموت وهو صغير أو وهو شاب أو وهو كهل لم يبلغ سن الشيخوخة أو الكبر، فذلك أيضاً مكتوب عمره ومحدد، وهو معنى الآيات التي فيها ذكر الآجال، كقوله تعالى: فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ [الأعراف:34] أي: ساعة، وكقوله تعالى: وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا [المنافقون:11] أي: أجلها المحتوم المكتوب، فلا بد أن يكون موتها في الوقت الذي كتب الله. ولما قال المنافقون في غزوة أحد: لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا [آل عمران:168] -يعنون إخوانهم- قال الله: قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ [آل عمران:168] يعني: أنتم سوف تموتون فادفعوا الموت عن أنفسكم، وفي آية أخرى قال لهم: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ [آل عمران: 154] يعني: الله تعالى قد كتب القتل على هؤلاء الذين قتلوا، فلو تحصنوا في بيوتهم لجعل الله لهم أسباباً يبرزون بها ويخرجون حتى يأتيهم الأجل الذي كتب عليهم ولا بد. وهذا من حيث العموم، فيعتقد المسلمون أن الله سبحانه قدر الآجال وحددها.

سبق القدر لا ينافي جواز الدعاء بطول العمر ونحو ذلك

واختلف في جواز الدعاء بطول العمر، كأن يقال: اللهم متعني بأولادي أو بأخي أو ما أشبه ذلك. وقد مر بنا الحديث الذي فيه إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على أم حبيبة في قولها: (اللهم متعني بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية . فأنكر عليها وقال: لقد سألت الله لآجال مضروبة، وأعمار محدودة، وأرزاق مقسومة) وأخبرها أنها لو سألت الله تعالى أن يعيذها من عذاب النار وعذاب القبر لكان خيراً. وذكر الشارح هنا أن الإمام أحمد كان يكره أن يدعى له بطول العمر، وقد اختلف في جواز ذلك، ولكن الصحيح أن ذلك جائز إن شاء الله، كما يدعى للإنسان بالجنة وبالمغفرة وبالرزق وبالحياة الطيبة وما أشبه ذلك، وكما يدعو الإنسان أيضاً لنفسه بهذه الأشياء، وقد سبق أن بينا أدلة ذلك، وأن هذا لا ينافي كونها مقدرة؛ فإن القدر عام لكل شيء حتى للجنة والنار، والله تعالى قد علم أهل الجنة ومع ذلك هم مأمورون بسؤالها. فلا يقال: لا تسأل الجنة لأنك إن كنت مكتوباً من أهلها فإنك ستصير من أهلها، بل يقال: سل الله الجنة، وقد أمر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (تسألونه الجنة وتستعيذون به من النار)، وأقر ذلك الأعرابي الذي قال: (إنما أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار. فقال: حولها ندندن) يعني: أننا ندندن ونسأل ونكثر من السؤال في طلب الجنة والنجاة من النار. فإذا كان قد كتب على الإنسان مقعده من الجنة أو مقعده من النار، ولا ينافي ذلك أن يسأل الله الجنة؛ فكذلك قد كتب له رزقه الذي

سـوف يأتيه ولا ينـافي ذلك أنه يطلبه ويعمل ويتكسـب، وقد كتب له أيضـاً ما سوف يكتسـبه أو يحويـه، ومع ذلك فهو مـأمور بـأن يسـأل الله رزقـاً واسـعاً حلالاً، أو ما أشبه ذلك، ومأمور أيضاً بأن يسأل ربه حيـاة سـعيدة وحيـاة طيبة ولو كـان ذلك مكتوبـاً. والحاصل أن كتابة الأعمـار، وكتابة الأرزاق والآجـال، وكتابة السعادة والشقاوة، وكتابة كل شيء يأتي الإنسان؛ لا تنـافي أن يسـأل ولا تنافي أن يعمل. وهكذا أيضاً هو مأمور بالسؤال ومأمور بالعمـل، ولكن مع كونه مكتوباً فقد يكون معلقاً على سـبب، كـأن يقـول الله أو يكتب اللـه: إننا سنرزقه بسبب سؤاله، أو: نجعله من أهل الجنة بسبب كثرة إلحاحه بالـدعاء، أو: نوسع عليه رزقه بسبب كثرة طلبه؛ فيكون هذا الدعاء سبباً أزلياً، فيقـال: قد كتب الله أنه يسأل ويكون سؤاله من الأسباب التي يـرزق بسـببها ويسـعد بسببها ويكتسب بسببها وما أشبه ذلك. وهـذا كما يفعل في الأشـياء الحسـية، فإن الإنسان مأمور بأن يأكل وبأن يشرب وبأن يتزوج وبأن يكتسي وبأن يبني سكناً و ما أشبه ذلـك، وإن كـان ذلك أيضـاً مكتوبـاً لـه. فعلى كل حـال كتابة الأشـياء في الأزل وكتابة الأعمـار في هـذه الآية وغيرها لا تنـافي أن يسـأل الإنسان ربه وأن يدعوه، فالله تعالى قد أمر بدعائه، قـال تعـالى: وَقَـالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ [غافر:60] وغير ذلك من الآيات، وكما أمر بالعمل فقال تعالى: وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ [التوبة:105].

عموم علم الله بكل شيء ولو لم يكن

قـــال المؤلف رحمه الله تعـــالى: [قولـــه: (ولم يخف عليه شـــيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عـــاملون قبل أن يخلقهم). يعلم ســـبحانه ما كـــان وما يكون و ما لم يكن أن لو كان كيف يكون، كما قال تعالى: وَلَوْ رُدُّوا لَعَـادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ [الأنعام:28]، وإن كان يعلم أنهم لا يردون، ولكن أخـبر أنهم لو ردوا لعادوا، وكما قال تعالى: وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُــونَ [الأنفــال:23]، وفي ذلك رد على الرافضة والقدرية الــذين قــالوا: إنه لا يعلم الشــيء قبل أن يخلقه ويوجــده، وهي من فــروع مســألة القدر، وسيأتي لها زيادة بيان إن شاء الله تعـالى]. هـذا من تمـام الكلام على أن الله تعـالى علم ما كـان وما سـوف يكـون وعلم ما لم يكن لو كـان كيف يكون، ولا شك أن علم الله تعالى واسع لما مضى ولما يـأتي، فالأشـياء الـتي لم تـــأت وهي ســـوف تـــأتي قد علمها ســـبحانه، بل قد كتبهـــا، فعلم عـــدد المخلوقات وعلم أعمالهم ونحو ذلك. ......

المحو والإثبات لما كتب

وقد ذكر في الحـديث الصـحيح أن الله تعـالى يكتب أو يـأمر الملك أن يكتب أعمـال الإنسـان وهو في الـرحم، يكتب رزقه وعمله وأجله وشـقي أو سـعيد، وإن كـانت هـذه كتابة ثانيـة، مع أن ذلك مكتـوب في أم الكتـاب وهو اللـوح المحفوظ، وهذا لا تتغير الكتابة الموجودة فيـه. وأما ما في أيـدي الملائكة من الصحف فـإن الله تعـالى يمحو منها ما يشـاء ويثبت، وهـذا معـنى الآيـة، وهي قوله تعــالى: يَمْحُــوا اللَّهُ مَا يَشَــاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْــدَهُ أُمُّ الْكِتَــابِ [الرعــد:39]، والمراد: بأم الكتاب اللـوح المحفـوظ، فـاللوح المحفـوظ لا يتغـير شـيء مما كتب فيه، وأما ما في الصحف التي مع الملائكة فإنهم يكتبون أعمال الإنســان وأقواله: مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [ق:18]. وبما أنه قد يكون من تلك الأقوال ما لا ثواب فيه ولا عقاب، فيمكن أن هـذا هو الـذي يمحى، ويبقى ما فيه ثواب أو فيه عقـاب، والجميع مكتـوب في اللـوح المحفـوظ، وعلى كل حـال فـإن علم الله تعـالى بالآجـال وبالكائنـات وبما سـوف يحـدث علم أزلي قديم.

ذكر أول من أنكر علم الله وطريقة إفحامهم

وقد أنكر ذلك بعض المبتدعة، وكان أول من أنكـره من القدرية معبد الجهمي وغيلان القدري وعمرو بن عبيد القدري وواصل بن عطاء القدري ، وكل هؤلاء أدركوا زمن الصحابة أو آخر زمن الصحابة، ولكنهم -والعياذ باللـه- تلقـوا هـذه البدع عن بعض النصارى أو نحوهم، فكان من عقيدتهم أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وجودهـا، وأن الأمر أنـف، أي: مسـتأنف. وسـئل عنهم ابن عمر فـأنكر عليهم إنكـاراً شـديداً، كما في الحـديث الـذي ذكـره مسـلم في أول صـحيحه فقال: (إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وهم برآء مني، والــذي نفس ابن عمر بيــده لو أنفق أحــدهم مثل أحد ذهبــاً ما قبله الله منه حــتى يــؤمن بالقدر خيره وشره)، يعـني: أن يعلم أن ما أصـابه لم يكن ليخطئه وما أخطئه لم يكن ليصيبه. وعلى هذه العقيدة أيضـاً الرافضة ونحـوهم، وغـالب الرافضة معتزلــة، فهم جمعــوا بين بدعة الــرفض الــتي هي تكفــير الصــحابة، وبدعة الاعتزال التي هي إنكار صفات الله، ومن أبـرز الصـفات صـفة العلم، وهـؤلاء الــذين ينكــرون أن الله يعلم الأشـياء قبل وجودها هم الــذين عنــاهم الإمــام الشـافعي رحمه الله بقولـه: (نـاظروهم بـالعلم، فـإن أقـروا به خصـموا، وإن جحــدوه كفــروا) يعــني: إذا ابتليتم بأحــدهم بمجادلته ومخاصــمته ومناظرته فسلوهم عن صفة العلم لله، فإذا أقروا به خصموا، أي: يقـال لهم: ما الفـرق بين العلم الماضي وعلم المســـتقبل؟ فإنه إذا كـــان يعلم الماضي فهو يعلم المستقبل، وقولوا لهم أيضاً: هل تحدث هذه الكائنات بغـير إرادتـه؟ فلا بد أن

يقولوا: هو الذي يحدثها وهو الـذي يوجـدها، فيقـال: كيف يوجـدها وهو لا يعلم وقت وجودها؟ وناظروهم أيضاً بالأدلة كقوله تعـالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ [الحج:70]، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ [المجادلة:7] إلى آخر الآية، وأشباه ذلك، فإنهم بهذا سوف ينقطعون ولا يجدون حجة.

غاية خلق الخلق وإيجادهم

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (وأمرهم بطاعته ونهـاهم عن معصـيته). ذكر الشيخ رحمه الله الأمر والنهي بعد ذكره الخلق والقدر، إشـارة إلى أن الله تعـالى خلق الخلق لعبادتـه، كما قـال تعـالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات:56]، وقال تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَـنُ عَمَلًا [الملـك:2]]. أي: كما أن الله علم الأشـياء قبل وجودها وقـدرها وحددها وأرادها وشاءها فـذلك لا ينـافي الأمر والنهي، فهو الـذي كلف العبـاد، ولا شك أنه ما كلفهم إلا وهم يقـدرون، فلا يكلف من لا يقـدر، دلت على ذلك الآيات: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا [البقرة:286]، لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًـا إِلَّا مَا آتَاهَا [الطلاق:7]، فالله تعـالى أمـرهم بأشـياء أن يفعلوها ونهـاهم عن فعل أشـياء، ووعـدهم على فعل المـأمور وتـرك المنهي والمزجـور بالسـواء، وأنه توعـدهم على المخالفة بالعقـاب، ولا شك أنه ما أمـرهم إلا وهم يسـتطيعون ويقدرون على مزاولة هذه الأشياء، وإلا فالعاجز لا يمكن أن يؤمر. وعلى قول الجبرية: يعتبر أمرهم أمر تعجـيز، مثل الأوامر الـتي يخـاطب بها أهل النـار أو الكفار، كقوله: قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ [آل عمران:119] هذا أمر تعجـيز، وكقولـه: فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُـونَ [الطـور:16]. والصحيح أن أوامر الله تعالى في قوله: وَافْعَلُوا الْخَيْـرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ [الحج: 77]، وبقوله: وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـونَ [النور:56] أمر لمن يقـدر على الامتثـال، أما من لا يقـدر فلا يمكن أن يـؤمر، خلافاً للجبرية فإنهم يعتقـدون أنه يجـوز الأمر بشـيء غـير مقـدور عليه وغـير ممكن، بمنزلة من أمر الأعمى أن ينقط المصـاحف أو يكتبهـا، ومعلـوم أنه لا يبصـر، فكـذلك الأمر عنـدهم، حيث سـلبوا الإنسـان قدرته واختيـاره وجعلـوا حركته غير اختيارية، ومثلوه بحركة الشجرة التي تحركها الرياح بدون اختيــار، فلو كـان الإنسـان غـير مسـتطيع لما كلفه اللـه؛ فـإن الله لا يكلف إلا من هو قادر على ذلك، ولعله يأتي لهذا تكملة في الرد على الجبرية ونحوهم. ......

الكلام على مشيئة الله ومشيئة العبد

......

نفوذ مشيئة الله تعالى وتبعية مشيئة العبد لها

قال رحمه الله تعالى: [قوله: (وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن). قال تعالى: وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا [الإنسان:30]، وقال تعالى: وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [التكوير:29]، وقال تعالى: وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [الأنعام:111]، وقال تعالى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ [الأنعام:112]. وقال تعالى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا [يونس:99]، وقال تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ [الأنعام:125]، وقال تعالى حكاية عن نوح عليه الصلاة والسلام إذ قال لقومه: وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ [هود:34]، وقال تعالى: مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الأنعام:39]، إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وكيف يكون في ملكه ما لا يشاؤه! ومن أضل سبيلا وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله؟! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا]. هذا الكلام على المشيئة والإرادة، والإرادة هنا هي الإرادة الكونية القدرية التي بمعنى (المشيئة)، يعتقد المسلمون أن مشيئة الله عامة لكل ما في الوجود، فلا يكون في الوجود إلا ما يريد، سواء من الطاعات والأعمال والمعاصي ونحوها، أو من المخلوقات والموجودات والحوادث ونحوها، فكلها حصلت بمشيئته وبإرادته الكونية، والجملة التي ذكرها الطحاوي وردت في حديث في جملة الأدعية: (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن)، فقوله: (ما شاء الله كان) أي: ما أراده كوناً وقدراً فإنه سيوجد وسوف يحدث لأن الله أراده، وكل شيء أراده الله لا بد أن يكونه، وكذلك الله تعالى هو الذي يخلقه، وخلقه لهذه الأشياء أن يقول: (كن) فتكون، قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس:82]، فمما يعتقده أهل السنة أن مشيئة الله تعالى عامة لكل ما في الوجود، سواء المخلوقات أو غيرها. وفي حديث للنبي صلى الله عليه وسلم سأله بعض أصحابه عن العزل -والعزل يكون في الجماع مخافة أن تحمل المرأة، فإذا وطئها أنزل خارج الفرج حتى لا تحبل- فقال: (ما عليكم ألا تفعلوا؛ فإنه ما من نسمة كائنة إلا الله خالقها)، وفي بعض الأحاديث أن رجلاً استأذنه في العزل فقال: (لا تقدر أن ترده، لو أراد الله أن يخلقه لم تقدر أن ترده)، يعني: أن ترد ما قدر الله أنه سيوجد، ثم جاءه ذلك الرجل بعد أيام وأخبره بأن الأمة التي يعزل عنها قد حملت مع كونه يعزل

عنهـا، فـذكر أن من أراد الله أن يخلق له مخلوقـاً أو ولـداً فلا بد أن يكـون. فالله تعالى قدر ما يكون، وإن كان العزل سـبباً من أسـباب عـدم الحمل فهو مكتوب عند الله أن هذا سيستعمل كذا وكذا من موانع الحمل ويحصل له كـذا وكذا من الأولاد، وهذا سيقل أولاده وهذا سيكثرون، فكل ذلك مكتـوب مقـدر. وهكذا أيضاً بالنسبة للدواب لا يستنكر مثلاً كثرتها أو توالدها أو ما أشبه ذلـك، فيقـال: الله الـذي قـدرها وقـدر عـددها وخلقهـا، وعلم بـوقت خلقها وبعـددها وبأعمارها وبأعمالها وما أشبه ذلك. وهكذا أيضـاً النبـات ونحو ذلـك، قـدر الله عز وجل ما يكون منه وما يحصـل، والأدلة على ذلك كثـيرة، ومن ذلك الآيـات التي سـاقها الشـارح، والآيـات كثـيرة فيما يتعلق بمشـيئة الله تعـالى وبقدرته وبإرادته، وببيان أن إرادة الإنسان مربوطة بـإرادة اللـه، كما في الآيـات الأول وهي قوله تعالى: لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ [التكـوير:28-29]، فقد يسـتدل بـأول الآية المعتزلة في أن الإنسـان حر في مشيئته، وأن له أن يشاء، ولكن تمام الآية رد لهـذا الفهم ودليل لربط مشـيئة الإنسان بمشيئة الله، ولهذا قال: وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ [التكـوير:29] أي: لا تسـتطيعون شـيئاً وتنفذونه ولو شـئتموه وأردتمـوه إلا إذا كـان الله قد شاءه وأراده وقدره وحدد وقته. فإذا لم يشأ الإنسان شـيئاً فلا يحصـل، وهـذا معنى قول شيخ الإسلام في أبيات مشهورة: فما شـئتَ كـان وإن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشـأ لم يكن وهو معنى هذا الحـديث، فما شـاء الله كـان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لا يكون وإن شاء النـاس، ومعـنى قوله في الحـديث: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعـوك إلا بشـيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضـروك بشـيء لم يضـروك إلا بشـيء قد كتبه الله عليك).

ذكر مذهب المعتزلة في المشيئة والرد عليه

وأما استدلال المعتزلة ببعض الآيات الـتي فيها إطلاق مشـيئة العبد فإنه مقيد بالآيـات الأخـرى، فهم يسـتدلون بمثل قولـه: فَمَنْ شَـاءَ فَلْيُـؤْمِنْ وَمَنْ شَـاءَ فَلْيَكْفُر [الكهف:29]، ويقولون: إن الأمر مسـند إليه إن شـاء اختـار كـذا وإن شاء اختار كذا، فالأمر راجع إليه. فهذا الإطلاق مقيد بالآيات الأخرى، ومنها آية الأنعام: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَـدْرَهُ ضَـيِّقًا حَرَجًا [الأنعـام:125]، فربط الله الهداية والإضـلال بمشـيئته وبإرادته، فدل على أنه هو الذي يملك ذلـك، ودلت على ذلك الآيـات الأخـرى، كقوله تعالى: وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَـهُ مِنْ مُضِـلٍّ [الزمـر:37]، وَمَنْ يُضْـلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [الرعد:33] يعني: من قدر الله أن سيهتدي لم يقدر الخلق أن يضلوه، ومن قدر ضلاله لم يستطيعوا أن يهدوه وإن كان لـذلك أسـباب جعلها

الله تعالى مؤثرة ومفيدة، ولكنها أيضاً أسباب أزليـة، فقد كتب الله أن الولاية الصالحة والتربية الصالحة، والنصيحة وما أشـبه ذلك من أسـباب الهداية تـؤثر بإذن اللـه، ولكن تأثيرها مكتـوب وأزلي، وإلا فالآية على عمومهـا. وهكـذا في الحديث في خطبة الحاجة: (من يهد الله فلا مضل لـه، ومن يضـلل فلا هـادي له)، حكم بأن الأمر لا يقـدر على التصـرف فيه إلا الله تعـالى وحـده، فيعـرف الإنسان أن المشـيئة والإرادة أمرهما إلى الله تعـالى، فهو الـذي يتصـرف في الكون وحده، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشـاء. قـال المؤلف رحمه الله تعالى: [فإن قيل: يشكل على هذا قوله تعالى: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَـوْ شَـاءَ اللَّهُ مَا أَشْـرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا [الأنعـام:148]، وقوله تعـالى: وَقَـالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ [النحـل:35]، وقوله تعـالى: وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِـذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُـونَ [الزخرف:20]، فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائنا منهم بمشـيئة الله، وكـذلك ذم إبليس حيث أضـاف الإغـواء إلى الله تعـالى إذ قـال: رَبِّ بِمَا أَغْـوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْـوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [الحجـر:39]، قيـل: قد أجيب على هــذا بأجوبــة، من أحســنها: أنه أنكر عليهم ذلــك؛ لأنهم احتجــوا بمشيئته على رضاه ومحبته، وقالوا: لو كره ذلك وسـخطه لما شـاءه فجعلـوا مشـيئته دليل رضـاه، فـرد الله عليهم ذلـك. أو أنه أنكر عليهم اعتقـادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به. أو أنه أنكر عليهم معارضة شرعه وأمره الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقـدره، فجعلـوا المشـيئة العامة دافعة للأمـر، فلم يـذكروا المشـيئة على جهة التوحيـد، وإنما ذكروها معارضـين بها لأمـره دافعين بها لشـرعه كفعل الزنادقة والجهـال إذا أمـروا أو نهـوا احتجـوا بالقـدر. وقد احتج سـارق على عمر رضي الله عنه بالقـدر فقـال: (وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره)، يشهد لذلك قوله تعالى في الآية: كَـذَلِكَ كَـذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [يـونس:39]، فعلم أن مـرادهم التكـذيب، فهو من قبل الفعل من أين له أن الله لم يقدره؟ أطلع الغيب؟]

الكلام على محاجة آدم وموسى عليهما السلام

قال المؤلف رحمه الله: [فإن قيل: فما يقولـون في احتجـاج آدم على موسى عليهما السلام بالقدر إذ قال لـه: أتلومـني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن أخلق بأربعين عاما؟ وشهد النـبي صـلى الله عليه وسـلم أن آدم حج موسى - أي: غلب عليه بالحجـة-: قيـل: نتلقـاه بـالقبول والسـمع والطاعة لصـحته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نتلقاه بالرد والتكذيب لراويه كما فعلت القدرية، ولا بالتأويلات البـاردة، بل الصـحيح أن آدم لم يحتج بالقضـاء والقـدر على الـذنب، وهو كـان أعلم بربه وذنبـه، بل آحـاد بنيه من المؤمـنين لا يحتج

بالقدر؛ فإنه باطل، وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه. وإنما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة؛ فإن القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب، وهذا المعنى أحسن ما قيل في الحديث، فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنه من تمام الرضا بالله ربا. وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب، فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب، قال تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ [غافر:55]، وقال تعالى: وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا [آل عمران:120]. وأما قول إبليس: قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي [الحجر:39]، إنما ذم على احتجاجه بالقدر لا على اعترافه بالمقدر وإثباته له، ألم تسمع قول نوح عليه السلام: وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [هود:34]، ولقد أحسن القائل : فما شئتَ كان و إن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن وعن وهب بن منبه قال: نظرت في القدر فتحيرت، ثم نظرت فيه فتحيرت، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم فيه]. هناك من يحتج بالقدر كالمشركين الأولين وأتباعهم من الجبرية ونحوهم، فالمشركون احتجوا بمثل قولهم: لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ [الزخرف:20]، كأنهم يقولون: الله هو الذي شاء عبادتنا لهم، وكذلك قولهم: أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ [يس:47]، كأنهم يقولون: إذا شاء الله أغناهم، فكيف نغنيهم أو نطعمهم؟ ولا شك أن هذه حجة باطلة، ويجب على المسلم أن يعلم أن الله -وإن كان له المشيئة التامة- قد أعطى الإنسان مشيئة تناسبه فيكون بذلك ممتثلاً لأمر الله، وإن كانت مشيئة الله هي الأصل وهي الغالبة على مشيئة المخلوق، فالثواب والعقاب على المشيئة التي في وسعه وفي مقدرته. ولكن لا يقال: إن مشيئة الإنسان تغلب مشيئة الله، كما تقول المعتزلة: إذا شاء الإنسان شيئاً وأراد الله غيره غلبت إرادةُ الإنسان إرادة الله، فهذا معناه: أن الله يعصى قسراً، وأنه يكون في ملكه ما لا يريد، وهذا كله باطل وضلال، والإنسان عليه أن يؤمن بمشيئة الله تعالى وإرادته. كذلك احتجاج آدم بالقدر في قوله: (أتلومني على أمر قد كتبه الله علي)، إنما لامه موسى على مصيبة حصلت، واحتج آدم عليه السلام بأن هذا مكتوب عليه، والاحتجاج على الأمر المكتوب على الإنسان قبل أن يوجد جائز؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قدر الأشياء قبل وجودها وحدد أزلها، فإذا علم الله تعالى آجال الأشياء وحددها، فلا بد من وجودها في الوقت الذي يحدده ويكونه.

الرد على المعتزلة في إيجابهم الأصلح على الله تعالى

قال المؤلف رحمه الله: [قوله: (يهدي من يشـاء ويعصم ويعـافي فضلا ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلا). هذا رد على المعتزلة في قولهم بوجــوب فعل الأصلح للعبد على الله، وهي مسألة الهدى والضلال. قـالت المعتزلـة: الهـدى من الله بيان طريق الصواب، والإضلال تسمية العبد ضالا، وحكمه تعالى على العبد بالضـلال عند خلق العبد الضـلال في نفســه. وهـذا مبـني على أصـلهم الفاسد: أن أفعال العباد مخلوقة لهم. والدليل على ما قلناه قوله تعـالى: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [القصص:56]، ولو كان الهـدى بيــان الطريق لما صح هـذا النفي عن نبيــه؛ لأنه صـلى الله عليه وسـلم بين الطريق لمن أحب وأبغض، وقوله تعـالى: وَلَـوْ شِـئْنَا لَآتَيْنَا كُـلَّ نَفْسٍ هُـدَاهَا [السجدة:13]، وقوله: يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [المدثر:31]، ولو كان الهدى من الله البيان -وهو عام في كل نفس- لما صح التقييد بالمشـيئة. وكذلك قوله تعـالى: وَلَـوْلا نِعْمَـةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَـرِينَ [الصـافات:57]، وقوله تعـالى: مَنْ يَشَـإِ اللَّهُ يُضْـلِلْهُ وَمَنْ يَشَـأْ يَجْعَلْـهُ عَلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ [الأنعام:39]]. المعني: نؤمن بأن الله تعالى يهدي من يشاء فضلاً منه ونعمة، ويضل من يشاء عدلاً منه وحكمة، فقد أنعم على من هداه وخـذل من أضـله، ولم يكن ظالمــاً لهـذا، بل ذلك عدله وحكمه وخلقه يتصــرف في الخلق كما يشـاء. وذكر الشـارح أن هـذا رد على المعتزلة الـذين يقولـون بوجـوب فعل الأصــلح على اللــه. والمعتزلة فرقة انتســبت إلى الإســلام ثم انتحلت نحلاً، فمنهم من يقول: إن الله لا يقدر على الهدى والإضلال، فالله لا يقدر أن يضل أحداً ولا أن يهدي أحداً، بل العباد هم الذين يختارون بأنفسهم، فالعبد هو الذي يضل نفسه أو يهـدي نفسه لا قـدرة لله عليـه. وفي هـذا تنقص لله سـبحانه وتعالى، حيث جعلوا قدرة العبد أقوى من قدرة الله واختياره أقوى من اختيار ربــه. وقد يقولــون: إننا نــنزه الله عن الظلم، ويقولــون: إذا قــدر على العبد فأضله فكيف يعاقبه؟ فلو عاقبة وهو الذي أضله لكان ظالمـاً لـه، فنحن نـنزه الله عن الظلم ونصفه بالعدل. ويسـمون هـذا الأصل عـدلاً، وهو أحد أصـولهم الخمسة. والجواب: نعترف أن الهـدى فضل والإضـلال عـدل، ونقـول: إن الله تعالى ما ظلم أحداً من خلقه، وإنما هذا فضله يؤتيه من يشاء، فمنَّ على أهل الهداية ويسر لهم الأسـباب وبينها لهم، وقـذف في قلـوبهم الرحمة وأعـانهم حتى اختاروا الهدى وساروا على الصراط المستقيم، فاستحقوا بـذلك الثـواب وإن كان هو الـذي تفضل عليهم أولاً وآخـراً. فـأولاً: تفضل عليهم بـأن هـداهم وسدد خطاهم وأقبل بقلوبهم على طاعته، وأمدهم بقوة منه وتأييـد، وأعـانهم على ذكره وشكره وحسن عبادته. وتفضل عليهم ثانياً بأن أهلهم للثواب الذي أعـده لعبـاده المطيعين، فجعلهم من أهله وأدخلهم دار كرامتـه، وأعطـاهم ما وعــدهم من النعيم المقيم، فــذلك فضــله يؤتيه من يشــاء. أما بالنســبة إلى الضُلال والكافرين فإنه ما ظلمهم، فقد بين لهم الحق وأوضحه لهم وأعطاهم قوة واستطاعة وقدرة يزاولون بها الأعمال، ولكنه حكم بعلمه في أنهم ليسوا أهلاً للقرب وليسوا أهلاً للهداية، فأضـلهم وأصـمهم وأعمى أبصـارهم، وحـال بينهم وبين أسـباب الهداية حيث إنهم ليسـوا أهلاً لـذلك، فأصـبحوا محـرومين

من الهداية، قال الله تعالى: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى [فصلت:17]. فالله تعالى بين لهم الأسباب ولكنهم استحبوا العمى على الهدى، والمراد بالعمى هنا عمى البصيرة، يعني أنهم أصروا على العمى الذي هو عمى البصيرة والبعد عن الاستنارة بالحق، فلم يقبلوا ما جاءهم عن ربهم، بل ابتعدوا عنه فصاروا بذلك محرومين، ولم يظلمهم ربهم سبحانه بل هذا فضله يؤتيه من يشاء وهذا عدله يحكم به على من يشاء، وهو في كلا الحالين حكيم عليم يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، فقد خلق هؤلاء وجعل في قلوبهم معرفة الحق وأهلهم لقبوله، وخلق هؤلاء وجعل فيهم إنكار الحق وأهلهم لرده، ولا خلاف أنه هو الذي أضلهم، أي: صرفهم عما لم يكونوا أهلاً له من الهداية. فأنت -أيها المهتدي- وأنت -أيها المؤمن- وأنت -أيها الموقن- قد أنعم الله عليك، فعليك أن تتمسك بهذه النعمة وبأسبابها، وعليك ثانياً أن تسأل ربك الثبات عليها وتحمده وتشكره على ما أعطاك وخولك، وعليك ثالثاً أن تجتهد في ثمرتها التي هي العمل بما أمرت به. وإذا رأيت القسم الثاني الذين صرفوا وحيل بينهم وبين الحق، فإن عليك شكر النعمة التي أنت فيها، ومعرفة أن هؤلاء محرومون ولو زعموا أنهم أهل معرفة وأن الصواب في جانبهم، فإنهم في الحقيقة مخذولون مصروفون عن صراط الله المستقيم.......

الخلق يتقلبون بين فضل الله تعالى وعدله

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله). فإنهم كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ [التغابن:2]، فمن هداه إلى الإيمان فبفضله وله الحمد، ومن أضله فبعدله وله الحمد، وسيأتي لهذا المعنى زيادة إيضاح إن شاء الله تعالى؛ فإن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في القدر في مكان واحد بل فرقه، فأتيت به على ترتيبه]. قوله: (يتقلبون في مشيئته) يعني أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله تعالى شاء من هؤلاء الإيمان وأحبه، وشاء من هؤلاء المعصية والكفر وقدره ولم يحبه، فأعمال أهل الطاعة قد شاءها كوناً وقدراً، وأمر بها ديناً وشرعاً، وأحبها ورضيها ووعد عليها بالثواب. وأما معاصي الكفار وذنوبهم فإنه قد قدرها وشاءها كوناً وقدراً، ولو شاء الله ما عصي، قال تعالى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا [يونس:99]، لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا [الرعد:31] ، وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا [السجدة:13]، فلو شاء الله تعالى لأقبل بقلوبهم ولهداهم إلى الحق، ولكنه تعالى قدر أن هؤلاء محرومون وشاء منهم ما شاءه، فكلهم يتقلبون في مشيئته وفي إرادته، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

علو الله تعالى عن الضد والند

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقوله: (وهو متعـال عن الأضـداد والأنـداد). الضد: المخالف. والند: المثل. فهو سبحانه لا معارض له، بل ما شاء كـان وما لم يشأ لم يكن، ولا مثل له، كما قال تعالى: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَـدٌ [الإخلاص: 4]، ويشـير الشـيخ رحمه الله بنفي الضد والند إلى الـرد على المعتزلة في زعمهم أن العبد يخلق فعلـه]. يعـني أن المعتزلة جعلـوا الإنسـان ضـداً لله أو نداً مع أنهم ما صرحوا بذلك، ولكنهم لما زعموا أن العبد يخلق فعله، وزعمـوا أن الله لا يخلق أفعال العبـاد، واعتقـدوا أن الله يعصى قهـراً -تعـالى الله عن قولهم- فعند ذلك أصبحوا قد جعلـوا أنفسـهم بل جعلـوا كل مخلـوق ضـداً لله ونداً له، ولأجل ذلك يسميهم الصحابة -كما في بعض الروايات- مجـوس هـذه الأمـة. وورد في بعض الأحـاديث مرفوعـاً وموقوفـاً: (إن مجـوس هـذه الأمة الذين يقولون: لا قدر. إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تتبعوهم) من باب الإنكار الشديد عليهم، وإذا قلت: كيف جعلوا لله ضداً أو نداً؟ نقول: ما دامـوا قد جعلوا المخلوق مستقلاً بتصرفه وبفعله فقد جعلوه متصـرفاً بهـذا الكـون، والتصـرف في الحقيقة إنما هو للخـالق سـبحانه، وليس للمخلـوق شـيء من التصرف، أعـني التصـرف المطلـق. وسـبب تسـميتهم مجوسـاً أن المجـوس ادعوا أن الكون صادر عن اثنين، وأن للعالم خـالقين: النـور والظلمـة. فـالنور خـالق الخـير والظلمة خالقة الشـر، فلما جعلـوا العـالم صـادراً عن خـالقين أشبههم المعتزلة حيث جعلوا العبد خالقاً لفعله، فجعلوا مع الله خَـاَلِقِينَ ليس خَـاَلِقَينِ فقـط، بل جعلـوا العـالم صـادراً عن عـدد. فالحاصل أن هـذه الجملة تصـــلح رداً على المشـــركين وتصـــلح رداً على القدريـــة، ففيها الـــرد على المشركين الذين يجعلون لله نداً وضداً، سواء نداً في الخلق والتكوين أو نـداً في استحقاق العبـادة، فالله تعـالى متعـالٍ عن الأمـرين، فهو الخـالق وحـده، فليس معه ندٌ يخلق كخلقه، وهو المسـتحق للعبـادة وليس معه من يسـتحقها مثله. ......

لا راد لقضاء الله ولا غالب لأمره

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [قولـه: (لا راد لقضـائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره). أي: لا يرد قضاء الله راد، ولا يعقب -أي: لا يؤخر- حكمه مؤخر، ولا يغلب أمره غالب، بل هو الله الواحد القهار]. يعني أنه هو المتصرف وحده بخلاف المخلـوق فـإن هنـاك من يتعقبـه، فكثـيراً ما يفعل الابن فعلاً ويتعقبه الوالد ويقول: هذا خطأ، لو قدمت كـذا أو أخـرت! وكثـيراً ما يحكم الحـاكم أو يقضي القاضي ثم يُـرد قضـاؤه ويتعقبه مَن فوقه وينكر عليه ويقـول: حكمك خطـأ. ولو كـان قد اجتهد وبـذل وسـعه، بخلاف الـرب سـبحانه فإنه إذا قضى

أمراً فإنه لا يـرد، وإذا حكم بحكم فإنه لا ينقض، وإذا أمر بـأمر فإنه لا يتعقب. ولأجل ذلك حكمـوا بكفر من يـرد أحكـام الله تعـالى ويـدعي أنها لا تلائم كل وقت وزمـان ومكـان، ويفضـلون عليها القـوانين الوضـعية الـتي هي من وضع أذهـان البشر الـذين هم محل النقص والعيب، ويتعقبـون أحكـام الله بأنها إنما تناسب الـوقت الـذي نـزلت فيـه. ولا شك أن هـذا كفـر؛ حيث إن الحكم -أي: الذي صدر من الله تعـالى- أنزله لعبـاده وأمر به أمـراً عامـاً، وكلف به الخلق قاصـيهم ودانيهم أولهم وآخـرهم، فهو المناسب لهم، فمن رده أو ادعى عـدم مناسبته فقد تعقب حكم الله وقد تنقص أمـره، فهو شـبيه بمن يـرد العبـادات التي كلف بها العباد ويدعي أنها إنما قصد منها أمر خاص أو نحو ذلـك، والكلام على هذا لعل له محلاً يأتينا إن شاء الله.

وجوب التسليم لأقدار الله وأحكامه

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (آمنا بذلك كله وأيقنا أن كلا من عنــده). أما الإيمان فسيأتي الكلام عليه إن شـاء الله تعـالى، والإيقـان: الاسـتقرار. من يقن الماء في الحوض: إذا اسـتقر. والتنـوين في (كلا) بـدل الإضـافة، أي: كل كائن محدث من عند الله. أي: بقضائه وقـدره وإرادته ومشـيئته وتكوينـه، وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى]. بعـدما ذكر القضـاء والقـدر، وذكر الحكم والأمر والشـرع، وذكر التـنزه عن الضد والند وما أشـبه ذلك مما تقـدم من الأحكـام ذكر أن هـذا مما يجب الإيمـان به واليقين، وكأنه يقول: لا يجوز الشك ولا التردد في شيء من ذلك؛ لأنه مبني على أصل قـوي ودليل راسخ معتمد، فلا بد أن تؤمن بذلك كله وأن توقن بأنه من عند اللـه، أو تجزم وتصدق بكل ما صدق وبكل ما يأتي، وتتحقق أنه عقيـدة وأنه يقين، وأن من شك فيه فقد ضل سواء السبيل، وتوقن وتجـزم بصـحته وأنه حق لا تـردد فيه. هكذا ينبغي لكل مـؤمن، ويعم ذلك كل ما جـاء به الشـرع، فمثلاً القـرآن من أوله إلى آخره نـؤمن به ونـوقن بـه، والكلمتـان إحـداهما تقـوي الأخـرى: (آمنت، أيقنت)، وهما متقاربتان. فـاليقين هو عـدم الشـك، أي: أن لا يتطـرق إليك تـردد ولا شك في اعتقـادك لـذلك الأمـر، والإيمـان هو جزمك وتصـديقك بذلك واعتقادك لصحته. فكل ما جاء عن الله تعـالى في القـرآن آمنا به وأيقنا به، وكل ما جاء وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام فإننا نؤمن به ونوقن بــه، وكـذلك نـوقن بكل ما جـاءت به الرسل وبكل ما أخـبروا بـه، وأنه حق ويقين على حقيقته، وأن من شك في شيء من ذلك أو تردد فيه فإنه ممن لم يؤمن بالله حق الإيمان، ولم يتقبل الشريعة كما أمر بأن يتقبلها.

شرح العقيدة الطحاوية [14]

لا يتم إسلام العبد إلا بشهادته أن محمداً رسـول الله مع شـهادته أنه لا إله إلا الله، فالإيمان بالرسل -ومنهم نبينا محمد صـلى الله عليه وسـلم- واجب على كل إنسان، وقد أيدهم الله تعالى ببينات ومعجزات تشهد بصـدقهم وصـدق ما جاءوا به.

الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً

قال رحمه الله تعالى: [قوله :(وإن محمـداً عبـده المصـطفى ونبيه المجتـبى ورسوله المرتضى). الاصطفاء والاجتباء والارتضاء متقارب المعنى، واعلم أن كمـــال المخلـــوق في تحقيق عبوديته لله تعـــالى، وكلما ازداد العبد تحقيقـــاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجــوه وأن الخــروج عنها أكمل فهو أجهل الخلق وأضـلهم، قـال تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ [الأنبيـاء:26]، إلى غـير ذلك من الآيـات. وذكر الله نبيه صـلى الله عليه وسـلم باسم العبد في أشــرف المقامــات، فقــال في ذكر الإســراء: سُــبْحَانَ الَّذِي أَسْــرَى بِعَبْــدِهِ [الإسراء:1]، وقال تعالى: وَأَنَّهُ لَمَّا قَـامَ عَبْـدُ اللَّهِ يَـدْعُوهُ [الجن:19]، وقـال تعالى: فَـأَوْحَى إِلَى عَبْـدِهِ مَا أَوْحَى [النجم:10]، وقـال تعـالى: وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا [البقرة:23]، وبـذلك اسـتحق التقـديم على النـاس في الدنيا والآخرة، ولذلك يقول المسيح عليه السلام يـوم القيامة إذا طلبـوا منه الشــفاعة بعد الأنبيــاء عليهم الســلام: (اذهبــوا إلى محمد عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)، فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى]. الكلام هنا على الشهادة الثانية، وهي شهادة أن محمداً رسـول اللـه، فبعد أن ذكر بعضـاً مما يتعلق بالإيمـان بالله تطـرق إلى الإيمـان بالرسـول صـلى الله عليه وسـلم، وذلك لأن الشـهادتين قرينتـان لا تتم إحـداهما إلا بـالأخرى، فمن شهد أن لا إله إلا الله لزمته الشهادة بأن محمـداً رسـول اللـه، وذلك لأن الله سبحانه شهد له بذلك وسماه رسولاً، فقال تعـالى: مُحَمَّدٌ رَسُـولُ اللَّهِ [الفتح: 29]، وقال تعالى: وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ [الأحزاب:40]، وأمره أن يخـبر بأنه أرسـله في قولـه: قُـلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُـولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا [الأعراف:158]. فإذا كان الله تعالى أخبر بأنه رسوله فمن كمال تصديق الله تصديق ما أخبر به من هذه الرسالة، وتصـديق ما أخـبر به من أنه مرسل من الله سـبحانه وتعـالى. كـذلك إذا شـهدنا لمحمد صـلى الله عليه وسـلم بأنه رسول وصادق واعتقدنا صـدقه، لـزم من تصـديقه الشـهادة بـأن الله هو الإله الحق؛ لأن جل دعوته إلى (لا إله الا اللـه)، فـأكثر ما دعا إليه تحقيق (لا إله إلا الله). فعرف بذلك أن الشـهادتين متلازمتـان وأن إحـداهما مرتبطة بـالأخرى، ولأجل ذلك اعتبرتا ركنـاً واحـداً من أركـان الإسـلام الخمسـة، وهو الـركن

الأساسي الـذي تنبـني عليه بقية الأركـان، وهو شـرط لها كلهـا، فلا يقبل ركن من الأربعة إلا بعد أن يتحقق الركن الأول وهو الشهادتان. ......

شرف وصف العبودية للنبي صلى الله عليه وسلم

وهنا ذكر النبي صلى الله عليه وسـلم بثلاث صـفات: الصـفة الأولى: الاجتبـاء. والثانية: الارتضاء. والثالثة: الاختيار. وقد وصفه أيضاً بالعبودية، وتكلم الشارح هنا على العبوديـة، ونحن نتكلم عليها توضـيحاً لما قالـه، وإن كـان فيما ذكـره كفايـة، فنقـول: وصف الله نبيه بالعبودية في هـذه الآيـات، كما في قوله في مقام التحدي: وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا [البقرة:23]، فما قال: على رسولنا. وفي مقام الإسـراء: سُـبْحَانَ الَّذِي أَسْـرَى بِعَبْـدِهِ [الإسـراء:1]، وفي مقام الدعوة: وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ [الجن:19]، وفي مقام إنزال الكتاب: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ [الكهف:1]، تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَـانَ عَلَى عَبْـدِهِ [الفرقـان:1]، فَـأَوْحَى إِلَى عَبْـدِهِ مَا أَوْحَى [النجم:10]، والآيات في ذلك كثيرة. وكذلك ذكر الشارح أيضاً أن عيسى وصفه بذلك، فإذا طلب من عيسى الشفاعة قـال: (اذهبـوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقـدم من ذنبه وما تأخر)، ولم يقل: (رسول)، وذلك لأن العبودية هي الصفة الأصلية للخلق. وكذلك وصف بها أيضاً الأنبياء قبله، قال الله تعالى: وَاذْكُرْ عَبْـدَنَا دَاوُدَ [ص:17]، وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ [ص:41]، وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ [ص:45]، كلهم وصفهم بأنهم عبيد وعبـاد وواحـدهم عبـد. وكـذلك حكى عن عيسى العبوديــة، وأنها أول ما تكلم به وهو في المهـد، فقـال: إِنِّي عَبْـدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا [مريم:30]، وقـال عنه في آخر سـورة النسـاء: لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ [النساء:172] أي: لا يـأنف من العبوديـة، بل يراها صفة شرف، وكذلك الملائكة: لَنْ يَسْـتَنكِفَ الْمَسِـيحُ أَنْ يَكُـونَ عَبْـدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ [النساء:172]، فالملائكة أيضاً لا يسـتنكف أحـدهم أن يكون عبداً لله، بل هم قد وصفوا بذلك في قوله تعالى: بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُـونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [الأنبياء:26-27]، فأول ما وصفهم به أنهم عبـاد، يعـني أنهم مملوكـون للـه. وقد وصف الله جميع الخلق بـذلك في قوله تعالى: إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الـرَّحْمَنِ عَبْـدًا [مـريم: 93].

أقسام العبودية

وقد ذكر العلمـــــاء أن العبودية لله تنقسم قســــمين: عبودية عامة وعبودية خاصـــة. فالعبودية العامة يـــدخل فيها جميع الخلق مـــؤمنهم وكـــافرهم وهي المذكورة في هـذه الآيـة: إِنْ كُـلُّ مَنْ فِي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الـرَّحْمَنِ عَبْدًا [مريم:93]، والعبودية هنا معناها أن كلهم خاضع لتصرف الرب سـبحانه وكلهم مملوكون له، فإذاً هم عبيد لله سبحانه، وهو الذي يحكم فيهم ويعــدل: وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [فصلت:46]، وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيـدِ [ق:29] يقوله الله يـوم القيامـة. فـالخلق عبيد لله بمعـنى أنهم مملوكـون، والله هو المالك لهم، فهم عبيــده يتصــرف فيهم، فهو الــذي يميت من يشــاء ويحــيي من يشــاء، ويمرض من يشاء ويشفي من يشاء، ويفقر هذا ويغـني هـذا، ويعز هـذا ويـذل هذا، ويمنع هذا ويعطي هذا، ويتصرف فيهم تصرف المالك في ملكه لا معقب له، فإذاً كلهم تحت تصرفه وتحت تقديره وفي قبضته، لا يخـرج أحد منهم عن قبضته ولا يستقل بنفسه ولا بملكيته، بل إذا شـاء الله انـتزع ملكه من يـده أو انـتزع ما أعطـاه لـه، فهـذه عبودية عامـة. وأما العبودية الخاصة فهي الـتي ذكـرت في حق النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وفي حق الملائكـة، وفي حق الأنبياء وغـيرهم، وكـذلك ذكـرت في مواضع أخـرى في حق أوليـاء الله كقوله تعالى: وَعِبَـادُ الـرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا [الفرقـان:63] هـؤلاء عبـوديتهم خاصـة. وذكـروا في قـول الله تعـالى: عَيْنًا يَشْـرَبُ بِهَا عِبَـادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا [الإنسان:6] أن هذه عبودية خاصة، وهـذه العبودية مقتضـاها ومدارها الذل لله تعالى والخضـوع، وذلك أن العبد العابد مـتى شـعر بأنه عبد لله مملـــوك لـــه، وأن ربه المالك له يتصـــرف فيه كما يشـــاء، وأنه لا يملك التصرف لنفسه، ومتى شعر بأنه مخلوق مربـوب ليس هو الـذي خلق نفسـه، ومتى شعر بأن خالقه على كل شيء قدير، ومتى شعر بـأن ربه صـادق الوعد فيما وعده به، ومـتى شـعر بـأن ربه سـبحانه قد وعـده على الطاعة بـالجزاء الأوفر وتوعده على المعصية بالعقاب الأكبر، إذا شعر بذلك ونحـوه خضع لربه وخشع له، إذ التعبد التذلل الخضـوع. فأصل العبودية الـذل، ومنه سـمي العبد المملوك عبداً؛ لأنه ذليل لمالكه وسـيده، فـالخلق كلهم يجب أن يظهـروا هـذا التذلل طوعاً واختياراً، أن يظهـروا الـذل لـربهم، والخضـوع لـه، والتواضع بين يديه، والاستكانة له، وأن يعترفوا بذلك لربهم، وأنه هو المستحق لذلك وحـده. وقد فسـرت العبـادة الـتي أمر بها العبد بأنها غاية الـذل مع غاية الحب، وذكر ذلك ابن القيم في النونية بقوله: وعبادة الـرحمن غاية حبه مع ذل عابـده هما قطبان وعليهما فلك العبادة دائر ما دار حتى قـامت القطبـان ومـداره بـالأمر أمر رسوله لا بالهوى والنفس والشـيطان فـإذاً: العبد الحقيقي هو الـذي يـذل لربه ويخضع، وهو الذي يحب ربه غاية المحبة، وهو الذي يتعبد له غاية التعبـد، والأنبياء كـذلك، لاشك أنهم قـاموا بهـذا الوصـف، ونبينا محمد صـلى الله عليه وسلم قام بهذا الوصف، واعتبر في حقه شرفاً، فإذاً ليس في كونه عبــداً لله شـــيء من التنقص، بل العبودية لله غاية الشـــرف، والعبودية لله غاية العلم، والعبودية لله غاية الرفعــة، والعبودية لله والـرق له والـذل له هي الأصل في الفضل وفي التمكين، فكذلك الأنبياء يعـتزون بـذلك؛ لأنهم يتعبـدون لمـالكهم، بل المالك الحقيقي التذلل له والرق له والانتماء إليه يعتبر شرفاً وفضــلاً، كما

قال ابن القيم على لسـان العابد الـذي يفتخر بالعبوديـة: إذا قيل هـذا عبـدهم ومحبهم تهلل بشراً ضـاحكاً يتبسم يعـني: يفتخر إذا نسب إلى أنه عبد للـرب سـبحانه وتعـالى، وقد يفتخر أيضـاً بعض المماليك بانتمائه إلى الـرق لبعض الملوك، فيقول: أنا لي الفخر أن أكون عبداً للملك الفلاني أو مملوكاً له، فإذا كانوا يفتخرون بالرق وبالملكية لبعض من الخلق، فكيف لا تفتخر أيها الإنسان بـالرق وبالملكية وبالعبودية لـرب الأربـاب ومسـبب الأسـباب، وخـالق الكـون سبحانه وتعالى.

طرق معرفة صدق النبي صلى الله عليه وسلم

......

أحوال الأنبياء الدالة على صدقهم

قـال المؤلف رحمه اللـه: [وقولـه: (وإن محمـداً) بكسر الهمـزة عطفـاً على قولـه: (إن الله واحد لا شـريك لـه)؛ لأن الكل معمـول القـول، أعـني قولـه: (نقــول في توحيد اللــه). والطريقة المشـهورة عند أهل الكلام والنظر تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات، لكن كثيراً منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بـالمعجزات، وقرروا ذلك بطرق مضـطربة، والـتزم كثـير منهم إنكـار خـرق العـادات لغـير الأنبيــاء، حــتى أنكــروا كرامــات الأوليــاء والســحر ونحو ذلــك. ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور في المعجـزات؛ فـإن النبـوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكـذب الكـاذبين، ولا يلتبس هـذا بهـذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعـرب عنهما وتعـرّف بهمـا، والتميـيز بين الصـادق والكـاذب له طـرق كثـيرة فيما دون دعـوى النبـوة، فكيف بـدعوى النبوة؟ وما أحسن ما قال حسـان رضي الله عنـه: لو لم يكن فيه آيـات مبيِّنة كانت بديهته تأتيك بالخبر وما من أحد ادعى النبـوة من الكـذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجـور واسـتحواذ الشـياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز؛ فإن الرسول لابد أن يخبر الناس بأمور ويـأمرهم بـأمور، ولابد أن يفعل أموراً، والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به وما يخـبر عنـه، وما يفعله ما يبين به كذبه من وجـوه كثـيرة، والصـادق ضـده، بل كل شخصـين ادعيا أمـراً أحدهما صادق والآخر كاذب، لابد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مـدة؛ إذ الصدق مستلزم للـبر، والكـذب مسـتلزم للفجـور، كما في الصـحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (عليكم بالصدق؛ فإن الصـدق يهـدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصـدق حـتى

يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكـذب؛ فـإن الكـذب يهـدي إلى الفجـور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يـزال الرجل يكـذب ويتحـرى الكـذب حـتى يكتب عند الله كذاباً))].

المعجزات والخوارق

عرف المسـلمون نبـوة نـبيهم صـلى الله عليه وسـلم، وشـهدوا له بالرسـالة، والطريق إلى معرفته والتصديق له ما أيده الله تعالى به من المعجزات الـتي دلت على صدقه. ومعروف أنه بشـر، وأنه واحد من النـاس، ولكن معلـوم أن الله سبحانه يصطفي رسـلاً من خلقه فيـنزل عليهم الآيـات البينـات بواسـطة الملك، ويـوحي إليهم من شـرعه ما يشـاء. فـإذاً الرسل الـذين يرسـلهم إلى خلقه ويؤيدهم بهذه المعجزات يعرف صدقهم لعدة أسـباب: منها ما يـأتون به من الآيات والمعجزات، كما حصل لكثير من الأنبياء، فـإن كلاً من الأنبيـاء أتى بمعجزات دلت على صدقه. فموسى أيـده الله بعصـاه الـتي تنقلب إلى حيـة، وبيده التي تخرج بيضاء، وبالطوفان، وبما أرسـله على آل فرعـون في قولـه: فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّـفَادِعَ وَالـدَّمَ [الأعـراف:133]، وبالغمام الذي ينزل ليظللهم، وبالحجر الذي يتفجر منه الأنهـار، وبـإنزال المنِّ والسلوى، وغير ذلك من المعجزات. وعيسى كذلك أخبر الله تعـالى أنه يـبرئ الأكمه والأبـرص، ويحـيي المـوتى بـإذن اللـه، ويخلق من الطين كهيئة الطـير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وأخـبر بأنه ينـبئهم بما يأكلونه وما يدخرونه في بيوتهم، فيخبرهم بأشياء يخفونها، وأيد هذا بكتابه الـذي هو الإنجيـل. ونبينا عليه الصلاة والسلام أيـده الله تعـالى بمعجـزات، وقد اسـتوفاها العلمـاء في كتب كثيرة تسمى (دلائل النبـوة) من إخبـاره بمغيبـات مما اعتمـده من وحي الله سبحانه وتعالى، وكـذلك ما يقع منه من بركة طعـام وبركة شـراب وبركة ماء، وما أشبه ذلك. وهكذا ما يخبر به من الأمور التي لم تقع فتقع كما أخـبر، وذلك كله اعتمادٌ على وحي الله عز وجل. وهكـذا ما وقع من المعجـزات لـه، كحـنين الجـذع لـه، وتسـبيح الحصى بين يديـه، وسـكون الجمل لما اضـطرب وسكنه، وما أشبه ذلك. ولو لم يكن إلا تأييده بهذا القرآن الـذي أنزلـه، وجعله معجزاً، وتحداهم أن يـأتوا بمثله لكفى، والكلام على هـذا يطـول. ومما أيـدهم الله تعالى به أيضاً أن جعل وجوههم دالة على صدقهم، كما في الـبيت: لو لم يكن فيه آيـــات مبينة كـــانت بديهته تأتيك بـــالخبر فلو لم يؤيـــده الله بهـــذه المعجـزات لكـان وجهه وبشـره وطلاقته دليلاً على صـدقه، فقد كـان مأمونـاً قبل الإسلام، وكانوا يسمونه بالصادق الأمين، وكان أيضـاً حسن الملاطفـة، لا يأتي شيئاً من الذي ينكر في الجاهلية وذلك لأن الله حماه واصطفاه واختاره، وكان أيضاً موثوقاً عندهم بكلامـه، لا يقـول إلا الصـدق ولا يتكلم إلا بالصـدق،

كما شهد له بـذلك أعـداؤه، فإنه لما سـأل هرقل أبا سـفيان بقولـه: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال: لا. قال: إنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله.

الشريعة المحكمة

ومما يـدل على صـدقه ما جـاء به من هـذه الشـريعة الـتي إذا تأملها العاقل عــرف أنها ليست من قبل نفســه، بل هي من حكيم حميد يضع الأشــياء في مواضعها. فإنه لما أمر بهـذه العبـادات ونهى عن المحرمـات، تأملها كل عاقل فعرف بـذلك أنها صـحيحة ملائمة للواقـع؛ ولـذلك روي أن بعض الأعـراب لما أسلم ولامه بعض صحبه قال: إني تأملت ما جاء به محمد، فرأيته ما أمر بأمر فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شـيء فقـال العقـل: ليته أمر بـه. بل العقل موافق لما جاء به، وكذلك الفطرة السليمة. فهـذا مما مـيز الله تعـالى به أنبياءه: أنه أيدهم بما يـدل على صـدقهم، حـتى يكـون ذلك دليلاً على أنهم جاءوا بالشرع الشريف من الله عز وجل، وأنهم صادقون ليسوا بكــاذبين، ولو كـان أحد منهم كاذبـاً على الله تعـالى، لفضـحه ولأظهر كذبـه، فلا يجـوز ذلك على الله سبحانه، فالله تعالى يتنزه أن ينصر من يكذب عليه، فلو كـان كاذبـاً فيما جاء به لما قواه الله، بل لخذله كما خـذل الكـذابين، فقد ظهر في زمانه كذابون، ولكن كانت عاقبتهم المحو والاندحار، ظهر في اليمن كذاب يقال له: الأسود العنسي الذي استولى على أكثر اليمن من نجـران إلى صـنعاء، ثم لما ظهر أنه كاذب قام عليه بعض حشـمه فقتلـوه. وكـذلك مسـيلمة الكـذاب لما ادعى النبـوة تبعه من اغـتر بـه، ففضـحه الله تعـالى وسـلط عليه من قتلـه. وشريعة الله الـتي أوحاها إلى نبيه صـلى الله عليه وسـلم باقية إلى أن يـأتي أمر الله تعالى.

وضوح كذب الكهان ونحوهم

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [ولهذا قـال تعـالى: هَـلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَـزَّلُ الشَّـيَاطِينُ * تَنَـزَّلُ عَلَى كُـلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُـونَ السَّـمْعَ وَأَكْثَـرُهُمْ كَـاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُـلِّ وَادٍ يَهِيمُـونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُـونَ مَا لا يَفْعَلُـونَ [الشـعراء:221-226]. فالكهـان ونحــوهم - وإن كــانوا أحيانـاً

يخبرون بشيء من الغيبيّات ويكـون صـدقاً - فمعهم من الكـذب والفجـور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس عن مَلَك، وليسوا بأنبياء، ولهـذا لما قـال النـبي صلى الله عليه وسلم لـابن صياد : (قد خبأت لك خبيئاً، وقال: هو الـدُّخ. قـال له النبي صلى الله عليه وسلم: اخسأ فلن تعدو قدرك) يعني: إنما أنت كاهن. وقد قال للنبي صلى الله عليه وسـلم: (يـأتيني صـادق وكـاذب). وقـال: (أرى عرشــاً على المــاء)، وذلك هو عــرش الشــيطان. وبين أن الشــعراء يتبعهم الغـاوون، والغـاوي: الـذي يتبع هـواه وشـهوته، وإن كـان ذلك مضـراً له في العاقبة. فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله، علم علمـاً يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن، والناس يميزون بين الصادق والكـاذب بـأنواع من الأدلــة، حــتى في المــدعي للصــناعات والمقــالات، كمن يــدعي الفلاحة والنساجة والكتابة، أو علم النحو والطب والفقه وغير ذلـك، والنبـوة مشـتملة على علوم وأعمال لابد أن يتصف الرسول بها، وهي أشرف العلـوم وأشـرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب؟! ولا ريب أن المحققين على أن خــبر الواحد والاثــنين والثلاثة قد يقــترن به من القــرائن ما يحصل معه العلم الضـروري، كما يعـرف الرجل رضا الرجل وحبه وبغضه وفرحه وحزنـه، وغـير ذلك مما في نفسه بأمور تظهر على وجهه، قد لا يمكن التعبير عنها، كما قـال تعــالى: وَلَـوْ نَشَـاءُ لَأَرَيْنَـاكَهُمْ فَلَعَـرَفْتَهُمْ بِسِـيمَاهُمْ [محمـد:30]، ثم قـال: وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ [محمـد:30]]. هـذا الكلام يتعلق برسـالة نبينا عليه الصلاة والسلام، وكيف عرف أنه صادق، وذلك لأن المشركين رموه بالكــذب، فمنهم من قال: ساحر كذاب، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: شـاعر. ورد الله عليهم، قال تعالى: أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَـرَبَّصُ بِـهِ رَيْبَ الْمَنُـونِ * قُـلْ تَرَبَّصُوا [الطور:29-30] يعني: انتظروا فَـإِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُتَرَبِّصِـينَ [الطـور: 30]، وأخبر بأنه ليس بشاعر فقال: وَمَا عَلَّمْنَـاهُ الشِّـعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَـهُ [يس: 69]. وذم الشعراء في هـذه الآية فقـال: وَالشُّـعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَـاوُونَ * أَلَمْ تَـرَ أَنَّهُمْ فِي كُـلِّ وَادٍ يَهِيمُــونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُــونَ مَا لا يَفْعَلُــونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُــوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ وَذَكَـرُوا اللَّهَ كَثِـيراً وَانتَصَـرُوا مِنْ بَعْـدِ مَا ظُلِمُـوا وَسَـيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ [الشعراء:224-227]، فـإن هـذا تنزيه لنبيه أن يكون شاعراً أو يعلمه الشعر، وتنزيه لهذا القـرآن أن يكـون شـعراً، ولهـذا قال في آية أخرى: وَمَا هُـوَ بِقَـوْلِ شَـاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُـونَ * وَلا بِقَـوْلِ كَـاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ [الحاقة:41-42]، وذلك لأنهم يقولـون عنـه: إنه من الكهنـة. لما رأوا الكهنة وسـجعهم وإخبـارهم بأشـياء من المغيبـات، ادعـوا بأنه كـاهن، والكاهن في الأصل هو الذي يدعي علم الغيب، أو يخبر عن المغيبات، أو يخبر عمَّا في الضمير، أو يدل على مكان المسروق ومكان الضالة واللقطــة، وذلك بتنزل الشياطين عليه؛ فإن الشياطين تختطف السـمع وتسـترقه من السـماء وتوحيه إلى أوليائها الذين هم السحرة والكهنة، كما أخبرالله تعـالى بـذلك في قولـه: لا يَسَّـمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْـذَفُونَ مِنْ كُـلِّ جَـانِبٍ * دُحُـوراً وَلَهُمْ عَــذَابٌ وَاصِــبٌ * إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ [الصــافات:8-10] يعــني: الكلمة يخطفها الشـيطان من الملائكة فيسـتمعها، ثم يلقيها في أذن وليه السـاحر أو الكاهن. أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الشياطين تنزل؛ على أولئك الجهلة:

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَـزَّلُ الشَّـيَاطِينُ * تَنَـزَّلُ عَلَى كُـلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ [الشـعراء: 221-222] يعني: الكاهن، فـ(أفـاك) أي: كـذاب. و(أثيم): أي: آثم. أي أنه من أهل الإثم الـذي هو الـزور والـذنب العظيم. قـال تعـالى: يُلْقُـونَ السَّـمْعَ ، والسمع: ما يختطفونه من الملائكة ويلقونه إليهم، وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ [الشعراء: 223] وقد وردفي الحديث قوله صلى الله عليه وسلم في صـفة أخذ الكـاهن الكلمة من السـماء: (فيلقيها إلى من تحته -يعـني: الـذي يخطفهـا- ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسـان السـاحر أو الكـاهن فيكـذب معها مائة كذبة)، فالكاهن يسـتمع الكلمة الـتي سـمعت من السـماء،ويضـيف إليها كذباً، وهذا معنى قوله تعالى: يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ [الشعراء:223]، فعرف بذلك أن الله تعالى نزه نبيه عن أن يكـون بمتهم كالـذين تتـنزل عليهم الشياطين، وإنما أنزل عليه الملك بهذا الوحي المتتـابع المشـتمل على الحكم والأحكام مما يدل على أنه من حكيم حميد، لا يَأْتِيـهِ الْبَاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ [فصلت:42]. وذكر أيضاً من الكهنة الذين في عهد النبي صـلى الله عليه وسلم شاب من اليهود اسمه ابن صـياد ، ورد في شـأنه أحـاديث كثـيرة في الصحيحين وغيرها، حتى ظن بعض الصحابة أنه المسيح الدجال، واستأذن عمر النبي صلى الله عليه وسـلم في أن يقتلـه، فقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (إن يكن هو فلن تسـلط عليـه، وإن لا يكن هو فلا خـير لك في قتلـه) فإن كان الدجال فلا تستطيع أن تقتله؛ لأنه قد قدر الله أنه يخرج، وأنه يحصل منه ما سـوف يحصـل، فلن تسـلط عليـه. أما إذا لم يكن هو فلا خـير لك في قتله، ولكن القرائن دلت على أنه ليس هو الدجال، وإنما هو كـاهن من الكهنة الـذين تـنزل عليهم الشـياطين، وأخـبر بأنه يـرى عرشـاً في المـاء، وذلك هو عـرش الشـيطان، وأخـبر بأنه يأتيه صـادق وكـاذب، يعـني: يأتيه وسوسة من الشـيطان أو وحي من الشـيطان، فتـارة يصـدق وتـارة يكـذب. وذلك وحي الشيطان، والشـياطين يوحـون كما في قوله تعـالى: وَإِنَّ الشَّـيَاطِينَ لَيُوحُـونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ [الأنعام:121]، فهناك وحي شياطين تنزل به إلى أوليائهـا. ومما يـدل على تكهنه أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم سـأله فقـال: قد خبـأت لك خبيئـاً. قـال: هو الـدخ. وكـان قد خبأ له سـورة الـدخان، وفيها قوله تعـالى: فَـارتَقِبْ يَـوْمَ تَـأْتِي السَّـمَاءُ بِـدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَـى النَّاسَ هَـذَا عَـذَابٌ أَلِيمٌ [الـدخان:10-11] إلى آخـره، فقـال: (اخسأ فلن تعـدو قـدرك). فالحاصل أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نزهه الله تعالى عن صفات هؤلاء وهؤلاء، وقد وصـفه الله بصـفات تـدل على صـدقه وصـحة كلامـه، وذلك لما يشـتمل عليه كلامه من الانتظـام ومن الإحكـام، وكـذلك موقع كلامه في القلـوب؛ حيث إنه متى سمعه السامع أصغى إليه والتذ به، سـواء كـان من القـرآن أو مما علمه الله تعالى.

القرائن الدالة على التمييز بين الصادق والكاذب

ولاشك أن الناس يفرقون بين صـادق الـدعوى وكاذبهـا، فالنـاس يعرفـون كل من يدعي وينتحل أمراً من الأمور وهو ليس من أهلـه، وذلك ليس يخفى على الفطن، فكل من أعطاه الله تعالى فطنة فإنه يميز بين الصادق والكاذب، فلو كـان كاذبـاً -وحاشـاه من ذلـك- لما خفي كذبه على جمهـرة الصـحابة، سـيما عقلاؤهم الـذين صـحبوه مـدة طويلة قبل الرسـالة وبعـدها، وعرفـوا صـدقه، والتذوا باتباعه، وحمدوا العاقبة لما آمنوا به، وتمنوا أنهم مع السـابقين الأولين الذين سبقوا إلى تصديقه واتباعه، وتفانوا في نصرته، وبذلوا في سبيل نصرته أموالهم وأنفسهم، وهجروا بلادهم وأولادهم وأزواجهم وعشـائرهم، فلما وصل الإيمان إلى قلوبهم وذاقوا حلاوة العلم والإيمان رخصت عندهم الدنيا بأسرها، وبذلوا في ذلك نفوسهم قتلاً في سبيل اللـه، ذلك كله دليل على أنهم عرفـوا صـدقه كما يعرفـون أولادهم وأحفـادهم. كـذلك الكـاذب في كل نحلة يعـرف كذبـه، فكل من انتحل شـيئاً ليس له فإنه يظهر أمـره ولا يخفى على فطنـاء الناس، وإذا عمل أي عمل وهو ليس من أهله وجرب ذلك وعـرف منـه، ابتعد عنه النـاس وحـذروا منـه. ومثَّل الشـارح بالأعمـال الـتي في زمنـه، كالخياطة والكتابة والخرازة وما أشبهها، فهذه حرف يدوية قد يتعلمها الإنسـان في زمن يسير، ولكن قد يتسمى الإنسـان بأنه من أهلهـا، ويظهر بالتجربة أنه ليس من أهلها، حتى قال بعضهم: فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت ثوبك بالمداد يعني: إنك لست من أهل هذه الصـنعة ولو فعلت ما فعلت. وعـرف بـذلك أن كل من تعاطى شيئاً وهو ليس من أهله، فإن الناس يعرفون أنه كاذب ويظهر كذبه. وهذه الدعوى التي جاء بها الأنبياء الـذين أرسـلهم الله تعـالى إلى خلقه لاشك أنها دعــوى كبــيرة، فلو كــانوا كــاذبين لما أيــدهم الله بما يــدل على صدقهم، ولظهر كذبهم وفضـحهم الله تعـالى على رءوس الأشـهاد ونكَّل بهم. وسـاق الشـارح هـذه الآيـة، وهي قوله تعـالى: (وَلَتَعْـرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَـوْلِ [محمد:30]، وقد أخبر الله تعالى بأن نبيه يعرف بعض المتسترين بأوصـافهم الظاهرة، كما في قوله: فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ [محمد:30] يعني: بأمارات تظهر على وجوههم يعرف بها من هو صادق ممن هو كاذب. فإذا كانت هذه الأعمال تعرف بالسيما أو بالأمارات الظاهرة، فلا شك أن أمـارات النبـوة تعـرف لمن تأملها.

تفصيل الأحوال الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم

قـال رحمه الله تعـالى: [وقد قيـل: ما أسـرَّ أحد سـريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه. فإذا كان صـدق المخـبر وكذبه يعلم بما يقـترن

من القرآئن، فكيف بدعوى المدعي أنه رسـول اللـه؟ كيف يخفى صـدق هـذا من كذبـه؟ وكيف لا يتمـيز الصـادق في ذلك من الكـاذب بوجـوه من الأدلـة؟. ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم من النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه الصـادق البـار، قـال لها لما جـاءه الـوحي: (إني قد خشـيت على نفسـي، فقـالت: كلا والله لا يخزيك الله أبـداً؛ إنك لتصل الـرحم، وتصـدق الحـديث، وتحمل الكلّ، وتقري الضـيف، وتكسب المعـدوم، وتعين على نـوائب الحـق). فهو لم يخف من تعمد الكذب، فهو يعلم من نفسه صلى الله عليه وسـلم أنه لم يكذب، وإنما خاف أن يكون قد عرض له عارض سوء، وهو المقام الثـاني، فـذكرت خديجة ما ينفي هـذا، وهو ما كـان مجبـولاً عليه من مكـارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وقد علم من سـنة الله أن من جبله على الأخلاق المحمـودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيـــه. وكـــذلك قـــال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به، واستقرأهم القرآن فقرءوا عليه: إن هذا والـذي جـاء به موسى -عليه الصلاة السلام- ليخرج من مشـكاة واحـدة. وكـذلك ورقة بن نوفل لما أخبره النـبي صـلى الله عليه وسـلم بما رآه، وكـان ورقة قد تنصـر، وكان يكتب الإنجيل بالعربية، قالت له خديجة : أي عم اسمع من ابن أخيك ما يقول. فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رأى، فقـال: هـذا هو النـاموس الذي كان يأتي موسى. وكذلك هرقل ملك الروم، فـإن النـبي صـلى الله عليه وسـلم لما كتب إليه كتابـاً يـدعوه فيه إلى الإسـلام طلب من كـان هنـاك من العرب، وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام، فسـألهم عن أحـوال النـبي صـلى الله عليه وسـلم، فسـأل أبا سـفيان وأمر البـاقين إن كـذب أن يكـذبوه، فصـاروا بسـكوتهم مـوافقين له في الإخبـار، سألهم: هل كان من آبائه من ملك؟ فقالوا: لا. قال: هل قال هـذا القـول أحد قبله؟ فقالوا: لا. وسألهم: أهو ذو نسب فيكم؟ فقالوا: نعم. وسألهم: هل كنتم تتهمونه بالكـــذب قبل أن يقـــول ما قـــال؟ فقـــالوا: لا، ما جربنا عليه كـــذباً. وسألهم: هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشـرافهم؟ فـذكروا أن الضـعفاء اتبعـوه، وسألهم: هل يزيـدون أم ينقصـون؟ فـذكروا أنهم يزيـدون، وسـألهم: هل يرتد أحد منهم عن دينه سـخطة له بعد أن يـدخل فيـه؟ فقـالوا: لا. وسـألهم: هل قاتلتموه؟ قالوا: نعم. وسألهم عن الحرب بينهم وبينه. فقالوا: يدال علينا مرة ويُدال عليه أخرى. وسـألهم: هل يغـدر؟ فـذكروا أنه لا يغـدر، وسـألهم: بمـاذا يأمركم؟ فقالوا: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شـيئاً، وينهانا عما كـان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصـدق والعفـاف والصـلة. وهـذه أكـثر من عشر مسائل، ثم بين لهم ما في هذه المسـائل من الأدلة فقـال: سـألتكم هل كـان من آبائه من ملـــك؟ فقلتم: لا. قلت: لو كـــان من آبائه من ملك لقلت: رجل يطلب ملك أبيـه. وسـألتكم: هل قـال هـذا القـول فيكم أحد قبلـه؟ فقلتم: لا. فقلت: لو قـــال هـــذا القـــول أحد قبله لقلت: رجل ائتم بقـــول قيل قبلـــه، وسألتكم: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقـول ما قـال؟ فقلتم: لا. فقلت: قد علمت أنه لم يكن ليـدع الكـذب على النـاس، ثم يـذهب فيكـذب على الله تعالى، وسألتكم: أضعفاء الناس يتبعونه أم أشرافهم؟ فقلتم: ضعفاؤهم. وهم أتبـاع الرسل -يعـني: في أول أمـرهم-، ثم قـال: وسـألتكم: هل يزيـدون أم

ينقصون؟ فقلتم: بل يزيـدون. وكـذلك الإيمـان حـتى يتم، وسـألتكم: هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه. فقلتم: لا، وكذلك الإيمـان إذا خالطت بشاشته القلـوب لا يسـخطه أحـد. وهـذا من أعظم علامـات الصـدق والحــق، فــإن الكــذب والباطل لابد أن ينكشف في آخر الأمــر، فــيرجع عنه أصحابه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه، والكـذب لا يـروج إلا قليلاً ثم ينكشـف. وسـألتكم: كيف الحـرب بينكم وبينـه؟ فقلتم: إنها دول. وكـذلك الرسل تبتلى وتكـون العاقبة لهـا، قـال: وسـألتكم: هل يغـدر؟ فقلتم: لا. وكـذلك الرسل لا تغـدر. وهو لما كـان عنـده من علمه بعـادة الرسل وسـنة الله فيهم أنه تـارة ينصرهم وتـارة يبتليهم، وأنهم لا يغـدرون علم أن هـذه علامـات الرسـل، وأن سـنة الله في الأنبيـاء والمؤمـنين أن يبتليهم بالسـراء والضـراء لينـالوا درجة الشكر والصـبر، كما في الصـحيح عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً لـه، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) . والله تعالى قد بين في القرآن ما في إدالة العدو عليهم يـوم أحد من الحكمة، فقـال: وَلا تَهِنُـوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَـوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ [آل عمران:139] ، وقال تعالى: الم * أَحَسِـبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُـوا أَنْ يَقُولُـوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ [العنكبوت:1-2]، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على سنته في خلقه وحكمته التي بهرت العقول. قال: وسـألتكم عما يـأمر به فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عما كــان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة والصـدق والعفـاف والصـلة، وينهـاكم عما كـان يعبد آباؤكم، وهـذه صـفة نـبي، وقد كنت أعلم أن نبيـاً يبعث، ولم أكن أظنه منكم، ولوددت أني أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لـذهبت إليـه، وإن يكن ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. وكان المخاطب بذلك أبو سـفيان بن حرب ، وهو حينئذٍ كافر من أشد الناس بغضـاً وعـداوة للنـبي صـلى الله عليه وسلم، قال أبو سفيان بن حرب : فقلت لأصحابي ونحن خروج: لقد أَمِـرَ أَمْـرُ ابن أبي كبشة؛ إنه ليُعَظِّمه ملك بني الأصفر. وما زلت موقنـاً بـأن أمر النـبي صلى الله عليه وسلم سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسـلام وأنا كـاره]. أرفق الشارح هذه القصص للاستدلال بها على صحة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسـلم، فـإن هـؤلاء العقلاء الـذين معهم معرفة وعلم اسـتدلوا بهـذه القـرائن على صدقه وعلى صحة رسالته. وذلك لأن الله تعالى أجرى العادة أن الكاذب يفضح ويظهر كذبه، فإذا أسر سريرة سيئة أظهرها الله تعـالى على صـفحات وجهه وفلتـات لسـانه، وعـرف النـاس ما يخفيه وما يضـمره من كـذب أو من حقد أو من نفاق أو نحو ذلك. ولهذا كان المنافقون الذين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لا يخفى أمرهم بما يظهرونه من الكلمـات السـيئة الـتي فيها همز ولمز وعيب، فيعـــرفهم المؤمنـــون، فـــإذا عرفـــوا أن هـــذا يميل إلى المنــافقين، ويجالســهم، ويتكلم معهم، ويلقــاهم بوجه منبسط -ونحو ذلــك- عرفوا أنه ليس بصـادق الإيمـان، ولو أنه يلاطف المؤمـنين، ولو أنه يظهر لهم التصديق، كما ذكر الله ذلك عن المنافقين عموماً في قوله تعـالى: وَإِذَا لَقُــوا الَّذِينَ آمَنُــوا قَــالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَــوْا إِلَى شَــيَاطِينِهِمْ قَــالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُسْتَهْزِئُونَ [البقرة:14]، ولكن فضحهم الله تعالى وأظهر سرائرهم، وعرفهم المسلمون وهجروهم، وحذر الله تعالى نبيه منهم فقال: فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ [المنافقون:4]، أما صادق الإيمان فإنه يظهر صدقه ويظهر تصديقه بأعماله التي يعملها، فمن صار صادقاً من الصحابة عرفوا تصديقه بأقواله وبأعماله وبمحافظته. وهكذا كل صادق فإن الله تعالى يؤيده ويظهر علامة صدقه. وإذا كان هذا في الأمور العادية وفي أغراض الناس واحداً واحداً، حيث يعرف الصادق منهم من الكاذب، فيفضح الله الكاذب على رءوس الأشهاد في الدنيا وفي الآخرة، وإذا كان الناس يعرفون الصادق بالتجربة والكاذب بالتجربة؛ فكيف لا يعرف الكاذب المتنبئ؟ فلو أظهر ما أظهره من التحريف ومن التبديل ومن الكذب ومن السحر ومن الشعوذة وما أشبه ذلك، كما يجري على أيدي الكهنة والمتنبئين ونحوهم، فإن ذلك لا يخفى على الفطن. وإذا جبل الله العبد على صفات حميدة عرف أنه لا يتقول على الله تعالى. ......

شهادة خديجة رضي الله تعالى عنها

والقصص التي أوردها فيها قصة خديجة ، وهي زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وأول زوجاته، وأم أولاده كلهم إلا إبراهيم الذي هو من مارية القبطية التي هي أم ولده، وخديجة هي أول من آمن به من النساء. ولما نزل عليه الوحي أول ما نزل وهو بغار حراء جاء إليها فزعاً وقال: (زملوني) فزملوه، أي: غطوه بغطاء حتى هدأ روعه. ثم أخبر خديجة الخبر، وقال لها: (لقد خشيت على نفسي) يعني: خشيت أن يكون نزل بي مس من الجن أو نحو ذلك. عند ذلك استدلت بصفات حميدة على أنه لا ينزل عليه هذا الأمر، ولا يسلط الله عليه شيئاً يفسد عليه عقله ويفسد عليه جسمه وعبادته، استدلت بالصفات التي جبله الله عليها، فقالت: (إنك لتصل الرحم)، وصلة الرحم من الأقارب، تعتبر من الأمور التي يحمدها الله تعالى ويأمر بها. (وتقري الضيف)، فالطارق إذا نزل به أضافه فأشبعه وأطعمه. (وتكسب المعدوم) والمعدوم الفقير ونحوه، تعني: تكتسب صداقته، أو تكسِّبه فتعطيه. (وتعين على نوائب الحق)، ولاشك أن هذه الصفات مما جبله الله تعالى عليها، فمن كان فيه هذا الوصف لا يخزيه الله تعالى، هكذا استدلت خديجة رضي الله عنها.

شهادة ورقة بن نوفل

والقصة الثانية مع ورقة بن نوفل ، ذكروا أن ثلاثة من قـريش أنكـروا ما عليه قريش من الضلال، وذهبـوا يطلبـون ديناً أحسن من ذلك الـدين، فكـان منهم ورقة الـذي اتصل بالنصـارى، وتعلم دينهم وتعلم لغتهم وكتـابتهم وتنصـر، ثم رجع إلى قومه ومعه الإنجيل يترجمه إلى اللغة العربيـة، وينسخ منه ما شـاء اللـه، وكـان معه معرفة بـالكتب الأولى وبما اشـتملت عليـه، وبصـفات النـبي صـلى الله عليه وسـلم الـتي اشـتمل عليها الإنجيل وغـيره، فلما جـاءت إليه أمرته أن يسـمع ما يقوله النـبي عليه الصـلاة والسـلام، فقص عليه ما رأى، فعرف من كلامه أنه ليس بكـاذب، وأن هـذا الـذي نـزل عليه هو الملك الـذي نزل على موسى. كيف عرف ذلك؟ عرفه بالأمارات التي قرأها في كتب أهل الكتاب، وعرف أيضـاً صـدقه فيما جـاء عنه أنه ليس من أهل الكـذب، وقـال: (هذا الناموس الـذي نـزل على موسـى، ليتـني أكـون حيـاً إذ يخرجك قومـك، فقال: أومخرجيَّ هم؟ قـال: نعم. لم يـأت أحد بمثل ما جئت به إلا أوذي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً). فآمن به وصدقه وشهد بأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى -يعني: وسائر الأنبياء-، وأخبر بأنه سـيناله ما نـال الأنبيـاء من الأذى في ذات الله تعالى. فهذا من أهل الكتاب شهد له بأنه جاء بما جـاء به الأنبياء؛ لما عرف من الأمارات والدلالات على الصدق.

شهادة النجاشي رحمه الله تعالى

والقصة الثالثة مع النجاشي ملك الحبشـة، وكـان نصـرانياً، وكـان أيضـاً معه معرفة بالكتب، ومعرفة بصفة الأنبياء وغيرهم، فلما جـاءه المهـاجرون ونزلـوا بالحبشة هرباً من أذى قريش وأقـاموا عنـده، أحضـرهم وسـمع ما قـالوه في صفة النبي صلى الله عليه وسلم، وقرءوا عليه بعضاً من القرآن فبكى وخشع وآمن، وأقسم بأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق، وأخـبر أن مقالته في عيسى هي المقالة الصـحيحة، وأنه لم يتجـاوز ما هو عليه مثقـال هذه - وأشار إلى عود كان بيـده ينكب بـه-، مما يـدل على أنه صـدقه وصـحح رسالته. فعرف ذلك مع أنه ما رأى النبي عليه الصلاة والسلام، وإنما سـمع ما جاء به، وسمع القرآن الذي أنزل عليه، وسمع بعض صفاته، فاسـتدل بها على صدقه وصحة رسالته، وآمن به، وكان يهدي إليه ويكاتبه، وأصدق عنه أم حبيبة لما تزوجها النبي صلى الله عليه وسـلم بعد مـوت زوجهـا، وأرسـلها إليه عليه الصـلاة والسـلام، كل ذلك دليل على أنه قـام معه وأنه صـدقه، وصـلى عليه النبي صـلى الله عليه وسـلم صـلاة الغـائب لما سـمع بموتـه، وذلك كله دليل على أنه كان من المصدقين بهذا الرسول صـلى الله عليه وسـلم. عـرف ذلك مع أنه ما رآه، ولو رآه لازداد يقيناً بصحة ما جاء به وبصـدقه. فهـذا دليل على أن الصادق يعرف الناس صدقه بأدنى ما يسمعون من خبره.

شهادة هرقل ملك الروم

وأما القصة الأخيرة فهي مع ملك الروم وهو هرقل، والروم في الشام، وموطنهم في ذلك الوقت دمشق الشام، وكانوا يدينون بالنصرانية، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً يدعوه إلى الإسلام، ويقول فيه: (أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين)، وكتب إليه آية من سورة آل عمران، هي قول الله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [آل عمران: 64]. فلما جاءه هذا الكتاب أرسل من يبحث عن أحد يعرف هذا الرجل الذي يدعي أنه نبي حتى يسأل عن أخلاقه وعن صفاته، فدل على أبي سفيان ، وكان أبو سفيان قريباً للنبي صلى الله عليه وسلم في نسبه؛ لأنه من بني عبد مناف، وهو الجد الثالث من أجداد النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ هو صلى الله عليه وسلم ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، فكلاهما يجتمع في عبد مناف ، وهو أعرف به، وإن كان صده عن الدخول في أول الإسلام أول مرة الرئاسة والمنصب. سأله هرقل عن هذه الأسئلة، واستدل بجوابها على صحة ما جاء به. فالسؤال الأول عن نسبه، فأخبره أبو سفيان أنه ذو نسب، يعني أنه من أشرف الناس وليس من أطرافهم، ولا من أراذلهم. فالأنبياء يبعثون في وسط القبائل وفي أشرفها، لا يبعثون من أطراف القبائل وأراذلها، فاعترف بأنه ذو نسب، يعني: أن آباءه وأجداده لهم شرف ولهم منصب. السؤال الثاني: هل ملك أحد من آبائه؟ فلما أخبره بأنه لم يملك استدل على أنه لو كان أحد من آبائه قد ملك لكان طالباً ملك أبيه، فلما لم يكن كذلك عرف أنه ليس له غرض في ذلك. والسؤال الثالث: هل كان كذاباً قبل أن يقول ما قال؟ فلما أخبره بأنه لم يجربوا عليه كذباً، قال: كيف يدع الكذب على الناس ويكذب على الله؟! هذا مستحيل، إذاً ليس هو كذاباً. والسؤال الرابع: هل سبقه أحد إلى هذه المقالة؟ فلما أخبر بأنه ما سبق استدل بذلك على أنه صادق؛ لأنه لو قالها أحد قبله لكان مقتدياً به. وسأله عن أتباعه فأخبر بأنهم ضعفاء الناس؛ وذلك لأن الضعفاء هم أرق قلوباً، وهم عادة الذين يتقبلون الحق، وهم أتباع الرسل، كما أخبر الله عن نوح في قوله: قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ [الشعراء:111] يعني: أراذل الناس، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا [هود:27]، ولكن في العاقبة وفي النهاية أسلم أشراف الناس واتبعوه. وسأله: هل يزيدون أم ينقصون؟ ولما أخبره أنهم يزيدون عرف أن زيادتهم دليل على صدق ما هم عليه، وأنهم يتبعونه لاقتناعهم بأن ما جاء به حق، فكل من تبين له الحق اتبعه. وسأله:

هل يرتد أحد منهم؟ فلما أخـبره بـأنهم لا يرتـدون، بل من دخل في الإسـلام تمسك به ولم يرجع عنه أبداً، قال: هكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلـوب لا يسخطه أحد، فالإيمان الذي دخلوا فيه اطمأنت به قلوبهم، فلما اطمأنت به قلوبهم عرفوا صدقه وصحته فلم يسخطوه، بل تـداعوا لنصـرته. وسـأله: هل قاتلتموه؟ فـأخبر بـأنهم قـاتلوه، وأنه ينصر عليهم وينصـرون عليـه، وذلك من الابتلاء الـذي يبتلي الله تعـالى به أنبيـاءه ثم تكـون العاقبة لهم. ويبتلي أيضـاً أتباع أنبيائه كما في الآيات التي سردها الشـارح، وقد علق الشـارح على هـذا تعليقـاً حسـناً، وذكر أن الله تعـالى يبتلي الأنبيـاء ويبتلي الأوليـاء، ثم بعد ذلك يفرج عنهم ليظهر من يصـدق ممن يكـذب، كما قـال تعـالى: وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِـهِ وَإِنْ أَصَـابَتْهُ فِتْنَـةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ [الحج:11]. فالابتلاء الذي يبتلي به عباده إنما يكون لإظهار صـدقهم من كـذبهم، ليتمـيز من يكـون مؤمنـاً صـادق الإيمـان ممن هو دعي ليس بصـادق الإيمـان. وسـأله: هل يغـدر إذا عاهـدوه؟ فـأخبر بأنه لا يغـدر. وقد كـان عليه الصلاة والسلام حريصاً على أن يفي بالمواعيد، ولا يؤثر عنه غـدر، وقد أمـره الله تعالى إذا أحس أو خاف من قوم خيانة أن ينبذ إليهم عهدهم على سـواء، قال تعالى: وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَـةً فَانْبِـذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَـوَاءٍ [الأنفـال:58] أي: عهـدهم على سـواء، وقل لهم: قد تبرأنا من العهـد، ولا عهد بيننا وبينكم، فاسـتعدوا للحـرب، ولا تـأتهم بغتة وهم آمنـون غـافلون بـاقون على عهـدهم وعلى مواثيقهم. وأما السؤال العاشر والأخير فإنه يتضـمن شـرعه الـذي جـاء به، فقد اعترف أبو سفيان بأنه يأمرهم بعبـادة الله وحـده، وهو التوحيـد، وأنه ينهاهم عما يعبد آباؤهم من الأصنام، وهو الشرك بالله، وأنه يـأمرهم بالأشـياء التي يشهد العقل بسـلامتها وبملاءمتهـا، ألا وهي الصـدق في الحـديث، وصـلة الرحم، والصبر على الضراء و السراء ونحوها،والعفاف ونحوه، فهذه الخصـال الـتي يـأمر بها يشـهد العقل بملاءمتها وحسـنها. فالحاصل أن أبا سـفيان لما أخبره بذلك عرف هرقل ملك الروم أنها صـفات نـبي، وصـدَّق أبا سـفيان في تلك الصفات، وصدقه أيضـاً رفقـاؤه ولم ينكـروا عليـه، وهي صـفات صـحيحة منقولة مشـهورة متـواترة عنـه، فكـان ذلك من الأدلة الـتي اتضح بها صـدقه. فالحاصل أن صدق الأنبياء يعرف بالأمارات التي يتمـيزون بهـا، بحيث لا يخفى أمرهم على ذي عقل سليم.

الشـهادة لمحمد صـلى الله عليه وسـلم بالرسـالة تمـام للشـهادة لله تعـالى بالوحدانية

فابتدأ الشارح رحمه الله بالكلام على الشهادة الثانية، وهي شهادة أن محمداً رسول الله، وذلك لأنها أحد جزأي الركن الأول من أركـان الإسـلام والـذي هو

كالأساس لبقية الأركان، وهو ركن الشهادتين. ولا شك أن الشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله متممة لشهادة أن لا إله إلا الله، وذلك لأنه الذي دل على ربه، والذي بلغ رسالة ربه، والذي عرف بحق الله على عباده، والذي جاء مرسلاً بهذه الشريعة، فالشهادة له بأنه رسول الله تعتبر مكملة لشهادة أن لا إله إلا الله. وقد فسرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في الثلاثة الأصول بقوله: معنى شهادة أن محمداً رسول الله طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع. وشرح هذه الكلمات وإيضاحها يحتاج إلى تطويل، ولكنها بحمد الله ظاهرة لكل متأمل، ولما تكلم أيضاً عن الشهادة في تفسيره للتشهد -أي: شهادة أن محمداً عبده ورسوله- فسرها بقوله: عبد لا يعبد، ورسول لا يكذب، بل يطاع ويتبع، هذا تفسير من الشيخ رحمه الله. ولا شك أن هذه الرسالة التي جاء بها هي هذه الشريعة، وإذا كان رسولاً فإن الرسول معه رسالة، ورسالته هي الشريعة المحمدية والشريعة الدينية، قال تعالى: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا [الجاثية:18]، وهي هذا الدين الذي بينه وبلغه. ......

من لوازم الشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة

......

محبته صلى الله عليه وسلم وطاعته

وقد ذكر العلماء للنبي صلى الله عليه وسلم حقوقاً على أمته، فمن تلك الحقوق محبته التي أمر الله بها في قوله تعالى: قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا [التوبة:24] يعني: لا تقدموا محبة شيء على محبة الله ورسوله ومحبة الجهاد في سبيله. وثبت في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من كن فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما..) إلى آخره، بدأ بمحبة الله ورسوله وقدمهما على غيرهما، وثبت أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ونفسه ووالده والناس أجمعين). ولاشك أن هذه المحبة لها علامات، ومن أظهر علاماتها الاتباع. وقد أخبر الله تعالى أن اليهود ادعوا المحبة بقولهم: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ [المائدة:18] فأنزل الله آية تسمى آية المحنة، هي قوله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ [آل عمران:31]، امتحن الله من ادعى محبته بهذه الآية، فجعل لمحبة الله علامة ظاهرة، وهي اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وجعل

لهذا الاتباع ثواباً، فقال: يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ [آل عمـران:31] أي: هـذا ثـوابكم، فـإذا اتبعتم النـبي صـلى الله عليه وسـلم أحبكم الله وغفر لكم ذنوبكم. وقد ذكر الله عز وجل لاتباعه ثواباً آخر في قوله تعـالى: فَـآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُـــولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُــؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِــهِ وَاتَّبِعُــوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَــدُونَ [الأعراف:158]، أمر بالإيمان به، ثم أمر باتباعه، ولذلك لا يكـون صـادقاً من لم يطعـه، ولم يتبع سـنته. وقد ذكر شـيخ الإسـلام أن الله تعـالى أمر بطاعته وطاعة رسـوله في أكـثر من أربعين موضـعاً، إما أن يصـرح بالفعل كقولـه: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُـولَ [المائـدة:92]، وإما أن يعطف بـالواو كقولـه: وَأَطِيعُـــوا اللَّهَ وَالرَّسُـــولَ [آل عمـــران:132]، وإما أن يقتصر على طاعة الرسول؛ لأنه لا يأمر إلا بأمر الله، كقولـه: وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـونَ [النور:56] في عدة مواضع، ولاشك أن طاعته تستلزم اتباعه، فالأمر بالاتبـاع والأمر بالطاعة من متممات المحبة.

الاقتداء والتأسي به صلى الله عليه وسلم

ويدخل في ذلك أيضاً الاقتداء والتأسِّي، دليله قوله: لَقَدْ كَـانَ لَكُمْ فِي رَسُـولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَـانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَـوْمَ الآخِـرَ [الأحـزاب:21]، وكلاهما علامة على صــدق الإيمــان بــه؛ فـإن الله تعـالى كما أمر بالإيمـان بالله أمر بالإيمان بالرسول، ورتب عليه أجراً، فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُـوا بِرَسُـولِهِ يُـؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِـهِ [الحديـد:28]، فـأمر بتقـوى الله والإيمان بالرسول، وجعل الثواب: يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِـهِ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ نُـوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ [الحديد:28]، وكفى بذلك ثواباً. وتقدم ذكر بعض الأدلة على ثبوت رسالة هذا النـبي الكـريم، فـذكر الشـارح قـول خديجة لما أخبرها الخبر: (إنك لتصل الرحم، وتحمل الكـلّ، وتقـري الضـيف، وتعين على نـوائب الحق). وذكر أيضاً قول ورقة بن نوفل لما قص عليه القصـة: (هـذا النـاموس الذي أنزل على موسى، ليتـني فيها حيـاً إذ يخرجك قومـك، ثم قـال: لم يـأت أحد بمثل ما أتيت به إلا أوذي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً) . وهذا لأنه كان قد قرأ الكتب وعـرف ما فيها من صـفة الأنبيـاء. وذكر أيضـاً شـهادة ملك الحبشة النجاشي لما سمع كلام النـبي صـلى الله عليه وسـلم وما أنـزل عليه فقال: هذا والذي جاء به موسى ليخرج من إليم -يعني: من الله- أو: من مشكاة واحدة، فشهد له بأنه جاء بما جاء به موسى وعيسى والأنبياء قبلهمــا. وذكر أيضاً قصة هرقل لما سأل أبا سفيان عن تلك الأسـئلة الـتي اسـتدل بها على أنه رسول من الله، وأنه صادق فيما جاء به، ولاشك أن هـذه الشـهادات تؤكد صحة ما جاء به، وأنه مرسل من الله تعالى. وتأتي بقية الأدلة على هـذه الشهادة عقلاً ونقلاً..

دلائل أخرى في إثبات نبوة الأنبياء

......

الأحوال والقرائن الدالة على صدقهم

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [ومما ينبغي أن يعرف أن ما يحصل في القلب بمجموع أمور قد لا يستقل بعضها به، بل ما يحصل للإنسان من شبع وري وشكر وفرح وغم بأمور مجتمعة لا يحصل ببعضها، ولكن ببعضها قد يحصل بعض الأمر، وكذلك العلم بخبر من الأخبار؛ فإن خبر الواحد يحصل للقلب نوع ظن، ثم الآخر يقويه، إلى أن ينتهي إلى العلم، حتى يتزايد ويقوى، وكذلك الأدلة على الصدق والكذب ونحو ذلك. وأيضاً فإن الله سبحانه أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة، كثبوت الطوفان، وإغراق فرعون وجنوده، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبياً بعد نبي في سورة الشعراء كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده يقول في آخر كل قصة: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَة وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [الشعراء:67-68]. وبالجملة فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول: إنه رسول الله، وأن أقواماً اتبعوهم، وأن أقواماً خالفوهم، وأن الله نصر الرسل والمؤمنين، وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم؛ هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها. ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم من ملوك الفرس وعلماء الطب كبقراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه]. يقول: بمجموع دلائل النبوة يقوى التصديق بنبوة ذلك النبي، فالله تعالى يؤيد الأنبياء بمعجزات بمجموعها يعرف به صدق كل واحد منهم، ولو لم يكن إلا معجزة واحدة لتوقف الناس أو بعضهم في الصدق، ولكن إذا تأيدت المعجزة بمعجزة أخرى ثم جاءت ثالثة ثم رابعة وهكذا، فمجموعها بلا شك يثير في النفس انتباهاً، ويكون سبباً في التصديق وقوة اليقين. ثم ضرب لذلك مثلاً؛ بأن الإنسان لا يتأثر بكلمة، ولكن يتأثر بكلمات، وكذلك لا يشبع من لقمة واحدة، ولكن مجموع اللقم يشبعه، لا يروى عادة من جرعة واحدة حتى تجتمع جرعات. وكذلك لا يصدق الإنسان في الأمور الكبيرة بخبر شخص واحد حتى يجتمع عنده أشخاص، فالخبر الأول يثير في النفس انتباهاً، والخبر الثاني يقوي ذلك الذي في النفس، ولا يزال يقوى إلى أن يصير كالشمس يقيناً،

فهكذا معجـزات الأنبيـاء بمجموعها يحصل اليقين والتصـديق بـأن ما جـاءوا به من الله تعالى.

بقاء الآيات الدالة على الأنبياء وأقوامهم

وقد ذكر الله أنه أرسل رسلاً من قبلنا، وأبقى آيات تدل على صـدقهم، فقـال تعالى: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ [الصــافات:137-138] يعني: أماكنهم وآثارهم. وقـال تعـالى: فَتِلْـكَ بُيُـوتُهُمْ خَاوِيَـةً بِمَا ظَلَمُـوا [النمـل:52]، وقـال في آية أخـرى: فَتِلْـكَ مَسَـاكِنُهُمْ لَمْ تُسْـكَنْ مِنْ بَعْـدِهِمْ [القصص:58] يعني أنهم أهلكوا وبقيت آثارهم، فتلك دلالة على أنه هلك قبلنا أمم كذبت، وأرسل إليها رسل، ونزلت عليها العقوبـة، ونجى الله الرسل ومن آمن بهم، وأهلك المكـذبين، وذكر الله أن من أولهم نوحـاً عليه السـلام، وأنه أنجـاه في السـفينة، فقـال تعـالى: فَأَنجَيْنَـاهُ وَأَصْحَابَ السَّـفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَـةً لِلْعَالَمِينَ [العنكبوت:15] يعني: أبقينا تلك السفينة تـذكيراً وعـبرة للنـاس إلى يوم الدين، يتذكرون بها تلك السـفينة الـتي نجى فيها من آمن، وغـرق من لم يــؤمن. ويــذكر أنا نعلم يقينــاً بأنه وجد في الأرض أنبيــاء جــاءوا برســالات، فصدقهم من صدقهم ممن أراد الله هدايته، وكذبهم من كذبهم ممن كتب الله عليهم الشقاوة. فنجى الله الأنبياء ومن آمن بهم، وأهلك الله المكذبين وانتقم منهم، نعلم ذلك يقينــاً، ولو لم يقصه الله علينــا. فقص الله علينا قصة نــوح وقصة هود وقصة إبراهيم وعاد وثمود وقـوم شـعيب وأصـحاب الأيكـة، وقصة فرعون، قص الله هذه القصص، وذكر الشارح أن الله تعالى أمر بالاعتبار بها، فبعد قصة موسى قـال: (إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيَـةً)، وهكـذا بعد قصة إبـراهيم وقصة نوح، إلى آخر القصص في سورة الشـعراء يقـول: (إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيَـةً) يعـني: لعـبرة وموعظـة. فالحاصل أنا نعلم يقينـاً بـأن الله تعـالى أرسل رسـلاً، وأن أولئك الرسل مرسلون من اللـه، وأنه تعـالى أيـدهم بـالمعجزات الـتي أجراها على أيديهم، وأعجزت البشر، وأعجـزت أهل زمـانهم، وحـاولوا أن يعارضـوها كما حكى الله عن فرعــون لما رأى تلك الآيــات مع موسى فاعتبرها سـحراً، فجاء بالسحرة الذين ألقـوا حبـالهم وعصـيهم، فخيل إلى موسى أنها تسـعى، ولكن لما ألقى عصاه التقمت ذلك كله، فعرف السحرة أن هـذا ليس سـحراً، وأنه من الله تعالى؛ فآمنوا واسـتجابوا لـذلك، فعند ذلك بطش بهم وقـال: إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ [طه:71]. فهؤلاء لما كانوا ذوي معرفة بالسـحر وعرفوا أن هذا لا يشـبهه آمنـوا. فالحاصل أنا نعلم يقينـاً أن أنبيـاء الله تعـالى صــادقون فيما بلغــوه، وأنهم جــاءوا بالشــرائع الإلهية الــتي منها الشــريعة المحمدية وأنها والشرائع التي قبلها كلها متفقة على أصل واحد، وهو العقيـدة والتوحيد، قال تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُـلِّ أُمَّةٍ رَسُـولاً أَنْ اُعْبُـدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُـوا

الطَّاغُوتَ [النحل:36] أي: كل منهم جاء بهذه الرسالة، وإنما تنوعت الشـرائع في الأوامر والنــواهي. فــإذاً المســلم يعتقد صــحة الرســالة، وأن الرسل صادقون، وذلك ركن من أركان الإيمان.

إخبارهم بما سيكون ووقوعه

قـال رحمه الله تعـالى: [ونحن اليـوم إذا علمنا بـالتواتر من أحـوال الأنبيـاء وأوليـائهم وأعـدائهم علمنا يقينـاً أنهم كـانوا صـادقين على الحق من وجـوه متعـددة: منهـا: أنهم أخـبروا الأمم بما سـيكون من انتصـارهم وخـذلان أولئك وبقـاء العاقبة لهم. ومنهـا: ما أحدثه الله لهم من نصـرهم وإهلاك عـدوهم، إذا عرف الوجه الذي حصل عليه كغرق فرعون وغرق قـوم نـوح وبقية أحـوالهم؛ عـرف صـدق الرسـل. ومنهـا: أن من عـرف ما جـاء به الرسل من الشـرائع وتفاصيل أحوالها، تبين له أنهم أعلم الخلق، وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل، وأن فيما جاءوا به من الرحمة والمصلحة والهدى والخـير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضـرهم، ما يـبين أنه لا يصـدر إلا عن راحم بـرٍ يقصد غاية الخير والمنفعة للخلـق]. زيـادة على المعجـزات الـتي أجراها الله تعـالى على أيديهم هذه الآيات الـتي ذكرهـا، إذا تأملها المتأمل صـدق بأنها من اللـه، وصــدق بــأنهم جــاءوا من عند اللــه، وأنهم مرســلون صــادقون فيما بلغــوه. فأخبروا بأن الله يهلك المكذبين وينجي المصدقين ووقع ما أخبروا بــه، فأهلك الله أعداءه وأنجى أولياءه، كما حكى الله تعالى ذلك. وأخـبروا بـأن الله ينصر أولياءه ويخذل أعداءه، كما في قوله: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَـوْمَ يَقُـومُ الأَشْـهَادُ [غـافر:51]، فوقع ما أخـبروا بـه، وأخـبروا بـأمور مسـتقبلة لم تقع فــوقعت ووافقت ما أخــبروا به ســواء بســواء، وذلك دليل صدقهم وصحة رسالتهم. وأخبروا بأن هذه الشـرائع من اللـه، وبالتأمل عـرف صدقهم، حيث تواتر عن الأنبياء ما يدل على اتفاق شريعتهم، فصـدق المتـأخر منهم من قبله ووافق ما جاء به، وأيد المتقدم من يأتي بعـده. فحكى الله عن عيسى أنه قال: وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ التَّوْرَاةِ [آل عمران:5]، وحكى عنه أنه قال: وَمُبَشِّـراً بِرَسُـولٍ يَـأْتِي مِنْ بَعْـدِي اسْـمُهُ أَحْمَـدُ [الصـف:6]. وهكـذا الرسل يصــدق الأول منهم من قبلــه، ويبشر بمن بعــده، أو يــأمر بــأن يتبــع. ولاشك أن ذلك كله مع اجتماعه دليل صدق وصحة ما جـاءوا به من الرسـالة، وأنها من الله تعـالى. ونحن نعلم يقينـاً أنه كـان في الأرض رسـل، وكـان لهم أمم، وجاءوا بشـرائع وبلغوها لأممهم، وصـدقهم مصـدقون وكـذبهم مكـذبون، وبقيت شــرائعهم بعــدهم، ونجى الله المؤمــنين وأهلك المكــذبين، نعلم ذلك بـالتواتر زيـادة على خـبر الله تعـالى. ونعلم صـدقهم بهـذه المعجـزات الـتي أجراها الله تعالى على أيديهم.

بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وجعله خاتم النبيين وإمام المتقين وسيد المرسلين وحجة الله على جميع العالمين، وفضله على جميع خلقه، وأوجب على كل من سمع به أن يتبعه.

الرسول صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [ولذكر دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من المعجزات وبسطها موضع آخر، وقد أفردها الناس بمصنفات كالبيهقي وغيره. بل إنكار رسالته صلى الله عليه وسلم طعن في الرب تبارك وتعالى، ونسبته إلى الظلم والسفه -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- بل جحد للرب بالكلية وإنكار، وبيان ذلك أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبي صادق، بل ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفتري على الله ويتقول عليه، ويستمر حتى يحلل ويحرم، ويفرض الفرائض، ويشرع الشرائع، وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل وهم أهل الحق، ويسبي نساءهم، ويغنم أموالهم وذراريهم وديارهم، ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله له به ومحبته له، والرب تعالى يشاهده وهو يفعل بأهل الحق، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، ومع ذلك كله يؤيده وينصره، ويعلي أمره، ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر. وأبلغ من ذلك أنه يجيب دعواته، ويهلك أعداءه، ويرفع له ذكره، هذا وهو عندهم في غاية الكذب والافتراء والظلم؛ فإنه لا أظلم ممن كذب على الله، وأبطل شرائع أنبيائه، وبدلها وقتل أولياءه، واستمرت نصرته عليهم دائماً، والله تعالى يقره على ذلك، ولا يأخذ منه باليمين، ولا يقطع من الوتين. فيلزمهم أن يقولوا: لا صانع للعالم ولا مدبر، ولو كان له مدبر قدير حكيم لأخذ على يديه، ولقابله أعظم مقابلة، وجعله نكالاً للصالحين؛ إذ لا يليق بالملوك غير ذلك، فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين؟ ولا ريب أن الله تعالى قد رفع له ذكره، وأظهر دعوته والشهادة له بالنبوة على رءوس الأشهاد في سائر البلاد، ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين قام في الوجود وظهرت له شوكة، ولكن لم يتم أمره ولم تطل مدته، بل سلط الله عليه رسله وأتباعهم فقطعوا دابره واستأصلوه، فهذه سنة الله التي قد خلت من قبل، حتى إن الكفار يعلمون ذلك، قال تعالى: أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ [الطور:30-31]، أفلا تراه يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقوَّل عليه بعض الأقاويل، فلابد أن يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه، وقال تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ [الشورى:24]، وهنا انتهى جواب الشرط، ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق أنه يمحو الباطل ويحق الحق، وقال تعالى: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ

مِنْ شَيْء [الأنعام:91]، فأخبر سبحانه أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره]. بدأ الشارح أولاً ببيان أن دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة، وقد أفردت بالتآليف، وذكر منها ابن كثير في تاريخه في آخر السيرة الشيء الكثير، وتتبعها الكثيرون، ومن أوسع من توسع فيها البيهقي في (دلائل النبوة) الذي هو مطبوع، وكذلك أبو نعيم له أيضاً كتاب (دلائل النبوة)، وهكذا غيرهم، وبمجموعها وبأكثرها يعلم ويتيقن أنه صلى الله عليه وسلم صادق فيما جاء به، فكيف بمجموعها مع كثرتها. ثم إن الشارح ضرب مثلاً في أن المكذبين لنبينا صلى الله عليه وسلم كاليهود والنصارى، وكذلك سائر المكذبين، لا شك أنهم قد سبوا الله وتنقصوه غاية التنقص من حيث لا يشعرون، وذلك بأن منهم من يقول بأنه كذاب -قاتلهم الله- فكثير من اليهود يدعون أنه كذاب وأنه مفترٍ، وكذلك أيضاً كثير من النصارى ومن الوثنيين وغيرهم، وآخرون يقولون: إنه رسول إلى العرب فقط وليس برسول إلى غيرهم، فرسالته خاصة. فيقال لهؤلاء -كما قال الشارح رحمه الله-: أنتم قد تنقصتم الله غاية التنقص، وذلك لأنكم ادعيتم أنه كذاب، والله تعالى ينصره وهو مع ذلك يتصرف هذه التصرفات وهو كذاب في زعمكم، ومع ذلك يدعي أنه مرسل من الله فيحلل أشياء ويحرم أشياء، ويبطش بالناس، ويقتل ويأسر ويوثق وينتقم، ويسبي الذراري، ويقتل الآباء، ويحبس، ويفتح البلاد، ويدوخ العباد، ويجول في الأرض كما هو الواقع، وهو مع ذلك كذاب مفترٍ بزعمكم، والله يؤيده ويقويه وينصره ويمده بالمعجزات ويمده بالملائكة التي تقويه، ويجيب دعواته، وينتصر له وهو يعلم أنه كذاب وأنه مفترٍ، فهذا بلا شك تنقص لله تعالى، وحكمة الله تأبى إلا أن ينتقم ممن كفر كما انتقم من الذين كذبوا الرسل فيما سبق وأحل بهم أنواع العقوبات، وأنزل بهم أنواع المثلات. وقد ذكر الله تعالى أنه ينتقم منه لو كذب، قال تعالى: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ [الحاقة:44-46] يعني: أنه لو كان متقولاً وكاذباً لانتقمنا منه وبطشنا به بطشاً شديداً، وأمتناه وقطعنا دابره كما فعلنا ذلك بمن كذب وافترى، فإنه ظهر في زمن النبي صلى الله عليه وسلم بعض المفترين والكذابين ولكن ما متعوا، ومنهم رجل تسمى بالأسود العنسي الذي تنبأ في اليمن، ولكن ما لبث إلا ثلاثة أشهر حتى قتل، ومنهم مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في آخر العهد النبوي وبعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وبايعه أكثر من مائة ألف، ولما غزاهم الصحابة في نحو عشرة آلاف أو أقل لم يقفوا دونهم، بل سلط عليه من قتله، فقتله عبد أسود، ثم بعد ذلك اضمحلت دعوته ولم يبق لها أثر، فهذه سنة الله فيمن كذب وافترى عليه. لكن رسالة هذا النبي الكريم باقية مستمرة، وهي الآن في القرن الخامس عشر، وهي مع ذلك -والحمد لله- تزداد قوة وعلواً وظهوراً، وأتباعه الذين ينتمون وينتسبون إلى رسالته لهم التمكن ولهم القوة، فكلما حققوا السير على طريقته والتمسك بسنته يتحقق فيهم قول الله تعالى: وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ [الحج:40]، وقوله تعالى: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا [غافر:51] وقوله تعالى: إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ [محمد:7] وقوله تعالى: وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ [آل عمران:139] وقوله تعالى: وَإِنَّ جُندَنَا لَهُم

الْغَالِبُونَ [الصافات:173] وقوله تعالى: أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [المجادلة:22]. وتحقق ذلك كله في أتباع هذا النبي الكريم، فدل ذلك يقيناً على أنه صادق مصدق شهدت برسالته العقول، وشهدت بصدقه القلوب، وعرف ذلك الخاص والعام، وأظهر الله دينه كما وعد بذلك في قوله: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة:33]، فصدق الله هذا الوعد وأظهره على الدين كله حتى دخل دين الإسلام في أكثر المعمورة وفي أكثر بقاع الأرض، وبقي ظاهراً جلياً كلما تمسك أهله به أظهرهم الله تعالى وقواهم، ولا شك أن هذا دليل على أن هذه الشريعة من الله، وأن الذي جاء بها هو الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. ......

الفرق بين النبوة والرسالة

قال المؤلف رحمه الله: [وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول، وأحسنها أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس رسولاً، فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذاً الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس، فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها. وإرسال الرسل من أعظم نعم الله على خلقه، وخصوصاً محمداً صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ [آل عمران:164]، وقال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ [الأنبياء:107]]. ذكر أن هناك فرقاً بين الرسول والنبي، وقد عطف الله بعضهم على بعض في قوله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ [الحج:52]، وأكثرهم على أن الرسول هو الذي يكلف بالتبليغ، فإذا لم يكلف بالتبليغ ولم يلزم بذلك فهو نبي وليس برسول. فإذاً الرسالة أخص، والأنبياء أكثر من الرسل، ولذلك ورد في عددهم أنهم أكثر من مائة ألف نبي، وأن الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً، وقد ذكر الله في القرآن عدداً منهم، قال تعالى: مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ [غافر:78]، ولا شك أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء ورسالته هي خاتمة الرسالات وشريعته هي آخر الشرائع. ولا شك أن إرسال الرسل إلى أهل الأرض نعمة من الله؛ وذلك ليبلغوهم شرع الله عندما يعظم الجهل ويتراكم على القلوب، وتطول الغفلة، ويطول زمن الفترة، ويقع الناس في المعاصي والكفر، ويحق عليهم العذاب، عند ذلك يرسل الله إليهم رسلاً، فيرسل إليهم ذلك الرسول يبين لهم ما وقعوا فيه من الجهالات، وما أخطئوا فيه من الأعمال، ويدعوهم إلى الرجوع إلى ربهم وإلى ترك البدع والضلالات والشركيات، وإلى اتباع الشريعة والطاعة لله ولرسله،

فإذا أصروا وعاندوا أهلكهم، وإذا آمنوا نصرهم وأيـدهم وقـواهم. وقد ذكر الله أن رسالة نبينا محمد عليه الصـلاة والسـلام من أعظم المنن على هـذه الأمة وأكـبر النعم في موضـعين في القـرآن: لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُـزَكِّيهِمْ [آل عمـران:164]، وفي الموضع الآخـر: هُـوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُـولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَـةَ [الجمعـة:2]، فـذكر أن ذلك منة من الله عليهم حيث أصبح سبباً في انتشالهم من الجهـالات وإخـراجهم من الظلمـات إلى النـور، كما في قوله تعـالى: هُـوَ الَّذِي يُنَـزِّلُ عَلَى عَبْـدِهِ آيَـاتٍ بَيِّنَـاتٍ لِيُخْـرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَـرَءُوفٌ رَحِيمٌ [الحديـد:9]. فإذاً هذه الرسالة نعمة من الله، وقبله كان الناس في جهالة لا يعرفون لمـاذا ولا بماذا أمروا، ولا بماذا كلفوا، فيعبدون الأوثان، ويشركون بالله، ويسـتحلون المحرمات، وليس عندهم إيمـان بـالبعث والجـزاء والنشـور، ولا معرفة لحلال ولا حـرام، فهم جهلة في غاية الجهـل، فلما جـاءت هـذه الشـريعة أصـبحوا عارفين حق المعرفة فيهم، وزالت عنهم تلك الأمور الجاهليـة، وأصـبحوا ذوي معرفة وذوي إيمـان، وتلك منة الله على عبـاده، فما عليهم إلا أن يشـكروا ربهم على ما أعطـاهم الله ووهبهم. قـال الله تعـالى: فَـاذْكُرُونِي أَذْكُـرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ [البقرة:152]، فبعدما أخبر بأنه أرسل هذا الرسول ليبين لهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة أمرهم بذكره وبشـكره، ولا شك أن مظهره أن يطيعوا هذا الرسول وأن يتبعوه وأن يعملـوا بشـريعته، وفائدته ونتيجته هي أن ينصرهم الله تعالى ويؤيـدهم ويقـويهم، ويعـزهم ويظهر دينهم على الدين كله ولو كره المشركون.

ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم

قال المؤلف رحمه الله: [وقوله: (وإنه خاتم الأنبياء). قال تعالى: وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ [الأحزاب:40]، وقال صـلى الله عليه وسـلم: (مثلي ومثل الأنبيـاء كمثل قصر أحسن بنيانـه، وتُـرك منه موضع لبنـة، فطـاف به النظـار يتعجبـون من حسن بنائه إلا موضع تلك اللبنـة، لا يعيبـون سـواها، فكنت أنا سـددت موضع تلك اللبنـة، ختم بي البنيـان وختم بي الرسـل) أخرجـاه في الصـحيحين. وقـال صـلى الله عليه وسـلم: (إن لي أسـماءً : أنا محمـد، وأنا أحمد، وأنا الماحي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الـذي يحشر النـاس على قدمي، وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نـبي). وفي صـحيح مسـلم عن ثوبان قال: قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: (وإنه سـيكون من أمـتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعـدي.) الحـديث. ولـمسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قـال: (فضـلت على الأنبيـاء

بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافـة، وختم بي النـبيون)]. فمن صـفاته عليه الصـلاة والسـلام أنه خـاتم الأنبيـاء، ولأجل ذلك صـارت شـريعته خاتمة الشرائع، وكذلك حكم ببقائها إلى أن تقوم السـاعة لا تنسـخها شـريعة، ولا يأتي بعده نبي. فهذه الأدلة تدل على أنه آخر الأنبيـاء، والأنبيـاء قبله كثـير، قال تعالى: إِنَّا أَرْسَـلْنَاكَ بِـالْحَقِّ بَشِـيراً وَنَـذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَـذِيرٌ [فـاطر:24]، وقـال تعـالى: قَـالُوا بَلَى قَـدْ جَاءَنَا نَـذِيرٌ [الملـك:9] والنـذر هم الأنبياء أو الرسل أو المنذرون لهم.

صلاحية التشريع وعمومه دليل على ختم الرسالة

ولما علم الله تعالى فضيلة هذه الشـريعة وميزتها وملاءمتها لكل زمـان ولكل مكـان، وصـلاحيتها لكل جيل ولكل قطر ولكل أهل مـوطن، وعـدم منافاتها للمصالح العامة والخاصة جعلها الله شريعة عامة، فكان من ضمن رسالة هذا النبي الكريم أن أرسل إلى الناس عامة قاصيهم ودانيهم، وأن جعلت رسـالته خاتمة للرسالات بحيث لا ينسخها بعده من يـأتي، وقد ذكر أنه يـأتي بعـده ابن مريم في قوله عليه الصـلاة والسـلام: (يوشك أن يـنزل فيكم ابن مـريم عليه السلام حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، ولكنه يحكم بهذه الشريعة) فأصبحت هـذه الشـريعة من شرفها ومن صـلاحيتها أنها هي آخر الشـرائع، وأصـبح هـذا النـبي لشـرفه وميزته آخر الأنبياء، فهكذا نعتقد.

كذب مدعي النبوة بعده صلى الله عليه وسلم

وكل من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم فإنه كـذاب مهما كـان، وفي الحديث الـذي سـبق أخـبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه يـأتي بعـده ثلاثون كذاباً كلهم يزعم أنه نبي، ولكن سماهم كذابين، وهو عليه السـلام آخر الأنبياء وخاتم الرسل. وقد ذكر بعض العلماء أنه خرج من هـؤلاء الثلاثين عـدد كثير، فقيل: إنه خرج منهم سبعة وعشرون أو ثمانية وعشرون. يعني: ما بقي إلا واحد أو اثنان، أي أن آخرهم المسيح الدجال الكذاب. ومراده أن من هؤلاء الثلاثين من يـأتي بشـبهات ويصـدقه بعض العـوام، ويقع بسـببه فتنـة، ويغـتر

وينخدع به أناس، ويكون له أتباع ومن يؤيده وينتصر له، ومن آخر من خرج أو تنبأ في هذه القرون غلام أحمد القادياني الذي ادعى أنه نبي، وادعى أنه يأتيه الــوحي في البلاد الشــرقية في الهنــد، وقد عظمت الفتنة به وانتشر أتباعه وسـموا بالقاديانيـة، ولا يزالـون متمكـنين إلى هـذا اليـوم، ولا يـزال العلمـاء يضللونهم ويردون عليهم ويبدعونهم ويبينون ضـلالاتهم وأكـاذيبهم، ومع ذلك لا يزالـون منتشـرين، مع أن دعـوى ذلك الـذي ادعى لنفسه أنه يأتيه الـوحي لا شك أنها دعــوى باطلة يكــذبها أدنى من يتأمل بعقل وبــأدنى معرفــة. وقبله وقبله ولكن قد يجد من يتتبع التـاريخ عـدداً كثـيراً قد يزيـدون على المئـات يدعون أنهم يأتيهم الوحي وأنهم أنبياء، حتى في زماننا هذا في الوقت القريب قد جـاء أكـثر من عشـرة كلهم يـدعون ذلـك، ولكن غـالب ذلك عن نقص في العقل، وعن وسواس يجعل في الرأس يخلف فكرة الإنسـان، وعن وسـاوس شيطانية يخيل بها إلى ذلك الإنسان المدعي هذه الدعوى ويزين له الشيطان، ولا ينخـدع النـاس به ولا يعملـون بقولـه. وقد وقع هـذا في القـرون المتقدمة كثيراً، فإخباره أنه يخرج في أمته ثلاثون كذاباً يدعون أنهم أنبياء المراد به من لهم شــبهات، ومن لهم قــوة يتمكنــون بها ويتبعهم فئـام من النــاس، وليس المراد كل من ادعى أنه نـبي، ولكن من انخـدع به ومن اغـتر بمقالتـه. وعلى كل حال فالأدلة واضـحة بـأن محمـداً عليه الصـلاة والسـلام هو خـاتم الأنبيـاء والرسل، ولا عبرة بمن جاء بعده وادعى ذلـك، كما ذكر أن رجلاً سـمى نفسه (لا)، وادعى أنه نبي، وقال: إن محمداً يقول: (لا نبي بعدي)، يعـني: الشـخص الذي اسمه (لا) نبي بعدي، ويرد عليه بالآية الكريمة، وهي قوله تعالى: وَخَـاتَمَ النَّبِيِّينَ [الأحزاب:40]. وهكذا ذكروا في زمن قريب أن امرأة ادعت أنها نبيـة، وقالت: إن محمداً يقول: (لا نـبي بعـدي) ولم يقـل: لا نبية بعـدي. ولا شك أن الرسـالة جـاءت في الرجـال، كما في قوله تعـالى: وَمَا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِـكَ إِلاَّ رِجَـالاً نُـوحِي إِلَيْهِمْ [يوسـف:109]، ولم يبعث الله النبـوة إلا في الرجـال، والصحيح أن مريم ابنة عمران إنما هي صديقة كما قـال تعـالى: وَأُمُّهُ صِـدِّيقَةٌ [المائدة:75] لم تصل إلى درجة النبوة ولم ينزل عليها الوحي، و الوحي الذي أنزل على أمها إنما هو وحي إلهام، وكذلك الوحي الذي أنزل على أم موسى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَـى [القصـص:7] هـذا وحي إلهـام. وعلى كل حـال فنبـوة محمد هي آخر النبوات، وشـريعته هي آخر الشـرائع، والمتمسك بها -إن شـاء الله- على سبيل النجاة.

إمامته صلى الله عليه وسلم للأتقياء

قال المؤلف رحمه الله: [وقوله: (وإمـام الأتقيـاء). الإمـام الـذي يـؤتم به أي: يقتدون به. والنبي صلى الله عليه وسلم إنما بعث للاقتـداء بـه؛ لقوله تعـالى:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ [آل عمران:31]، وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الأتقياء]. هذه من صفاته عليه الصلاة والسـلام، لا شك أن الإمامة معناها: القدوة، فالإمام هو الـذي يقتـدى بـه، وقد وصف الله إبـراهيم بالأمة في قوله: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً [النحل:120] يعني: قدوة يقتدى به. وقد امتدح الله عباده الذين يقولون: وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً [الفرقان:74]، وكذلك قد جعل الله إبراهيم كذلك في قوله: قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَـالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [البقرة:124]. وإذا كـان النـبي صـلى الله عليه وسلم إماماً فإنه يقتدى به، والاقتداء به يعم الاقتداء به وبكل ماجـاء بـه، سـواء في العـادات أو في العبـادات، فـإن كـان من العبـادات ومن القربـات فالعبد يفعلها على أنها طاعة يحتسب الأجر فيها، فالطاعات والعبادات هي ما جاء بها عن ربه بالحلال والحـرام، وجـاء بالطاعـات والحسـنات، فنفعلها على أنها من سـنته، فنحافظ على الصـلوات فرائضـها ونوافلهـا؛ لأنها جـاءت في شريعته، وكذلك على الطهارة سواء بالماء أو بالتراب أو نحو ذلـك، فهـذه من شريعته نتبعه ونقتدي به فيها، وكذلك سائر العبادات كالصيام والصدقة والحج والجهاد والدعوة إلى الله والذكر والقـراءة وما أشـبهها، فهـذه تفعل على أنها من العبادة يتبع فيها شرع هـذا النـبي الكـريم، وأما العـادات فنفعلها إذا نقلت عنه عليه الصـلاة والسـلام على أنها أولى من غيرها وإن كـان غيرها جـائزاً، والمراد بالعادات: الأمـور الـتي كـانت معمـولاً بها قبل الإسـلام. ومعلـوم عنه عليه الصلاة والسلام أنه قبل الإسلام كان يأكل ويشرب ويلبس وينام ويتزوج، وكذلك كان يدخل ويخرج، ويركب وينزل، ويسافر ويرحـل، ويقيـل، فالعـادات هي الأمور المعتادة، فهذه العـادات إذا فعلها العبد اقتـداء واتباعـاً ومحبة فقد يثاب عليها وإن كانت مما قد تستدعيه النفس، كما أخبر عليه الصلاة والسلام بأن العبد إذا فعلها اقتـداء واتباعـاً بنية صـادقة أثيب عليهـا، فيثـاب على طلبه الرزق من أجل أن يعف نفسـه، ولأجل أن يقـوت من تحت يـده، ويثـاب على إعفافه لزوجته وإن كـان ذلك من الأمـور الطبيعيـة، ويثـاب على نفقته على أهلـه؛ لقولـه: (إنك لن تنفق نفقة تبتغي وجه الله إلا أجـرت عليهـا)، وإذا فعل ذلك على أنه عـادة فلا ثـواب ولا عقـاب. وعلى كل حـال فكونه عليه الصـلاة والسـلام إمامـاً لأمته وبـالأخص المتقين منهم، فهـذا يعم كل ما جـاء به من الشرع، ويكون أتباعه في ذلك لهم النصيب الأكبر على هذا الاتباع.

سيادته صلى الله عليه وسلم المرسلين وفضله عليهم

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقولـه: (وسـيد المرسـلين). قـال صـلى الله عليه وسلم: (أنا سيد ولد آدم يـوم القيامـة، وأول من ينشق عنه القـبر، وأول شافع، وأول مشفع)رواه مسلم . وفي أول حديث الشفاعة: (أنا سـيد النـاس

يـوم القيامـة)، وروى مسـلم و الترمـذي عن واثلة بن الأسـقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: (إن الله اصـطفى كنانة من ولد إسـماعيل، واصـطفى قريشاً من كنانـة، واصـطفى من قـريش بـني هاشـم، واصطفاني من بني هاشم). فإن قيل: يشـكل على هـذا قوله صـلى الله عليه وسلم: (لا تفضلوني على موسى؛ فـإن النـاس يصـعقون يـوم القيامة فـأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بجانب العرش، فلا أدري هل أفــاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله) أخرجاه في الصـحيحين، فكيف يجمع بين هـذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)؟ فالجواب أن هذا كان له سـبب؛ فإنه كـان قد قـال يهـودي: لا والـذي اصـطفى موسى على البشر فلطمه مسـلم وقـال: أتقـول هـذا ورسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بين أظهرنا؟ فجاء اليهودي فاشتكى من المسلم الذي لطمـه، فقـال النـبي صـلى الله عليه وسلم هذا؛ لأن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصـبية وهـوى النفس كـان مـذموماً، بل نفس الجهـاد إذا قاتل الرجل حمية وعصـبية كـان مذموماً؛ فإن الله حرم الفخر. وقد قال تعالى: وَلَقَدْ فَضَّـلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ [الإسراء:55] وقال تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّـلْنَا بَعْضَـهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَـهُمْ دَرَجَـاتٍ [البقـرة:253] فعلم أن المـذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر، أو على وجه الانتقاص بالمفضول، وعلى هذا يحمل أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تفضلوا بين الأنبيـاء) إن كـان ثابتـاً، فـإن هـذا قد روي في نفس حـديث موسى وهو في البخـاري وغـيره. ولكن بعض النــاس يقــول: إن فيه علــة؛ بخلاف حــديث موسى فإنه صـحيح لا علة فيه باتفاقهم، وقد أجاب بعضهم بجواب آخر، وهو أن قوله صلى الله عليه وسـلم: (لا تفضلوني على موسى)، وقوله: (لا تفضلوا بين الأنبيـاء) نهي عن التفضـيل الخـاص، أي: لا تفضل بعض الرسل على بعض بعينـه، بخلاف قولـه: (أنا سـيد ولد آدم ولا فخـر) فإنه تفضـيل عـام فلا يمنع منـه، وهـذا كما لو قيـل: فلان أفضل أهل البلد لا يصــعب على أفــرادهم، بخلاف ما لو قيل لأحــدهم: فلان أفضل منـك. ثم إني رأيت الطحـاوي رحمه الله قد أجـاب بهـذا الجـواب في شرح معـاني الآثـار]. وصف النـبي صـلى الله عليه وسـلم بأنه سـيد ولد آدم، وسـيد النـاس يـوم القيامة وسـيد المرسـلين، ويطلق السـيد على الشـريف، وعلى المطاع، وعلى كبير القـوم، وعلى أفضـلهم أو من له حرمة فيهم الـذي إذا أشــار عليهم أطــاعوه، والــذي يحترمونه ويقدرونــه، ويعرفــون له ميزته وشرفه وفضله، وقد ورد ما يدل على النهي عن هذا الإطراء، ووردت أحاديث تدل على الإباحة.

التوفيق بين إخباره صلى الله عليه وسلم عن فضله والنهي عن تفضيله

وسبق قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة: (أنا سـيد النـاس يـوم القيامة)، وكذلك قوله: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) يعني: لا أقول ذلك افتخاراً، وإنما هو من بـاب التحـدث بنعم اللـه، عملاً بقولـه: وَأَمَّا بِنِعْمَـةِ رَبِّكَ فَحَـدِّثْ [الضحى:11]، وذكر السبب وهو أن النـاس يـوم القيامة يطلبـون من يشـفع لهم، فيأتون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم وموسى وعيسى يطلبون منهم الشـفاعة فكلهم يعتذر، حتى يأتون إليه عليه الصلاة والسـلام فيكـون بـذلك سـيداً حيث شـفع، ولا شك أن هـذا السـبب الـذي هو الشـرف والمنزلة تُـوجب له فضـلاً وشــرفاً. وأما دليل النهي فما ثبت أنه عليه الصــلاة والســلام قيل لــه: (أنت سيدنا، قال: السيد الله)، وفي حديث وفد بني عامر عن عبد الله بن الشـخير قـال: (أتينا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقلنـا: يا سـيدنا وابن سـيدنا، فقال: السيد الله، فقالوا: أفضلنا فضلاً، وأعظمنا قولاً. قال: قولـوا بقـولكم أو ببعض قـولكم) إلى آخـره. ولعل الجمع بينهما أن نهيه عن قـولهم: (سـيد) هو مخافة أن يغلوا فيه؛ لأنهم كانوا حديثي عهد بالجاهليـة، فخـاف أنه إذا أقـرهم على هذه اللفظة أعطـوه من خـالص حق الله فمنعهم وقـال: (السـيد اللـه)، وأمرهم بأن يقولوا: (عبد الله ورسوله)، ولا يتكلمـوا بألفـاظ فيها من الزيـادة والغلـو، هكـذا أخذ بعض العلمـاء، وهو جـواب مقـارب، وهو أنه فيمن يخـاف عليهم الغلو، ومع ذلك فـإن أفضل ما يوصف به اللفظ الـذي اختـاره لنفسـه، وهو العبودية مع الرسـالة والنبـوة، وصـفه الله بالعبودية وبالرسـالة وبـالنبوة، فهـذه الأوصـاف الـتي وردت له في القـرآن، فنقـول: نـبي اللـه، وعبد اللـه، ورسول الله، وهذا ولا يمنع أن نقول: سـيدنا وسـيد ولد آدم. وقد مر في كلام الشارح أنه قد يعتذر أحد ويقول: كيف يكون سيد المرسـلين وأفضل النبـيين، وهو عليه الصلاة والسلام قد اعـترف بـأن موسى أفضل منـه، حيث قـال: (لا تفضلوني على موسى)؟ وأجاب الشارح كما سمعنا أن هذا في الـرد على من يتعصب لشخص بعينـه؛ فـإن ذلك الأنصـاري رضي الله عنه غـار عنـدما سـمع اليهـودي يقـول: والـذي اصـطفى موسى على البشـر. فغـار ولطم اليهـودي، وقال: تقول هذا ومحمد بين أظهرنـا؟ يعـني أنه أشـرف، وأنه الـذي اصـطفاه الله على البشر، فـأمر بـألا يفاضل بين الأنبيـاء، وأمر بـألا يفضل على موسى من بـــاب الاعـــتراف بفضل موســـى، ومن بـــاب التواضع منه عليه الصـــلاة والسـلام، وإلا فقد عـرف بأنه أفضل من غـيره، ولو لم يكن من فضـله إلا أنه الذي يشفع، والذي يبعثه الله مقاماً محموداً، والذي تقبل شفاعته فيقـال لـه: (ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعطه، واشـفع تشـفع). وكـذلك ذكر السـبب، وهذا السبب قد يكون مـبرراً ولكن لا يقصد الفضـل، فكـون النـاس يصـعقون يوم القيامة الصعقة المـذكورة في قوله تعـالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَـعِقَ مَنْ فِي السَّـمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَـاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيـهِ أُخْـرَى فَـإِذَا هُمْ قِيَـامٌ يَنْظُـرُونَ [الزمـر:68] فـأخبر بـأن النـاس يصـعقون وبأنه أول من يفيق ويرفع رأسه عليه الصــلاة والســلام، لكن يجد موسى قد أفــاق قبله وقد أخذ بقائمة العرش، فيقول: (لا أدري هل أفاق قبلي أم كان ممن استثنى اللـه، أم جوزي بصعقة الطور)، وصـعقة الطـور في قوله تعـالى: وَخَـرَّ مُوسَـى صَـعِقاً [الأعراف:143] يعني: أن تلك الصعقة صارت حظه من الصـعق، فلم يصـعق

لما صعقوا، أو هو ممن استثنى الله في قوله: فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ [الزمر:68] يعني: أنه ممن لم يصعق، أو أنه أفاق قبله، وإذا كان ممن أفاق قبله كان له مزية، أما إذا جوزي أو كان ممن استثنى الله فلا يدل ذلك على ميزة أو على فضل على محمد عليه الصلاة والسلام. وبالجملة فمحمد عليه الصلاة والسلام أفضل الرسل، وأمته أفضل الأمم، بل وأكثرهم دخولاً الجنة، فالذين يدخلون من أمته الجنة أكثر من أمة موسى وغيره من الأنبياء.

الكلام على المفاضلة بين محمد ويونس عليهما السلام

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وأما ما يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تفضلوني على يونس) وأن بعض الشيوخ قال: لا يفسر لهم هذا الحديث حتى يعطى مالاً جزيلاً، فلما أعطوه فسره بأن قرب يونس من الله وهو في بطن الحوت، كقربي من الله ليلة المعراج، وعدوا هذا تفسيراً عظيماً. وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وبكلام رسوله لفظاً ومعنى، فإن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يعتمد عليها، وإنما اللفظ الذي في الصحيح: (لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى)، وفي رواية: (من قال: إني خير من يونس بن متى فقد كذب)، وهذا اللفظ يدل على العموم، أي: لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى، وليس فيه نهي المسلمين أن يفضلوا محمداً على يونس؛ وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه التقمه الحوت وهو مليم، أي: فاعل ما يلام عليه وقال تعالى: وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ [الأنبياء:87]. فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلى هذا المقام؛ إذ لا يفعل ما يلام عليه، ومن ظن هذا فقد كذب، بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس: لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ [الأنبياء:87]، كما قال أول الأنبياء وآخرهم، فأولهم آدم قد قال: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [الأعراف:23]. وآخرهم وأفضلهم وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الصحيح حديث الاستفتاح من رواية علي بن أبي طالب وغيره بعد قوله: (وجهت وجهي) إلى آخره قال: (اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت) إلى آخر الحديث. وكذا قال موسى عليه السلام: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [القصص:16]، وأيضاً فيونس صلى الله عليه وسلم لما قيل فيه: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ [القلم:48] فنُهي نبينا

صلى الله عليه وسلم عن التشبه به، وأمره بالتشبه بـأولي العـزم؛ حيث قيل له: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَـزْمِ مِنْ الرُّسُـلِ [الأحقـاف:35]، فقد يقـول من يقول: أنا خير منه، وليس للأفضل أن يفتخر على من دونـه، فكيف إذا لم يكن أفضل؛ فإن الله لا يحب كل مختال فخور. وفي صحيح مسلم عن النبي صـلى الله عليه وسلم أنه قال: (أوحي إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحـد، ولا يبغي أحد على أحـد)، فالله تعـالى نهى أن يفخر على عمـوم المؤمـنين، فكيف على نـبي كـريم؟! فلهـذا قـال: (لا ينبغي لعبد أن يقـول: أنا خـير من يـونس بن مـتى)، فهـذا نهي عـام لكل أحد أن يتفضل ويفتخر على يـونس. وقوله: (من قال: إني خير من يونس بن متى فقد كذب) فإنه لو قدر أنه كـان أفضل فهذا الكلام يصير نقصاً، فيكون كاذباً، وهـذا لا يقوله نـبي كـريم، بل هو تقدير مطلق، أي: من قال هـذا فهو كـاذب.. وإن كـان لا يقوله نـبي كما قـال تعالى: لَئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُـكَ [الزمـر:65]، وإن كـان صـلى الله عليه وسلم معصوماً من الشرك، لكن الوعد والوعيد لبيان مقـادير الأعمـال. وإنما أخـبر صـلى الله عليه وسـلم أنه سـيد ولد آدم لأنا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره؛ إذ لا نـبي بعـده يخبرنا بعظيم قـدره عند اللـه، كما أخبرنا هو بفضـائل الأنبياء قبله صلّى الله عليهم وسلم أجمعين، ولهذا أتبعه بقوله: (ولا فخر) كما جاء في رواية، وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر: إن مقام الذي أسـري به إلى ربه وهو مقرب معظم مكرم كمقام الـذي ألقي في بطن الحـوت وهو مليم؟! وأين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب؟ فهذا في غاية التقريب، وهذا في غاية التأديب، فانظر إلى هذا الاستدلال؛ لأنه بهـذا المعـنى المحـرف اللفظ لم يقله الرسول، وهل يقاوم هذا الـدليل على نفي علو الله تعـالى عن خلقه الأدلة الصحيحة الصريحة القطعية على علو الله تعـالى على خلقه الـتي تزيد على ألف دليـل، كما يـأتي الإشـارة إليها عند قـول الشـيخ رحمه اللـه: (محيط بكل شيء وفوقه) إن شـاء الله تعـالى]. في هـذا الشـرح الطويل رد على بعض علمـاء الأشـاعرة، وهو الجويـني ، ذكـروا أنه اسـتدل بقوله في الحديث: (لا تفضلوني على يونس) استدل به على مسألة نفي العلـو، أن الله ليس فوق عرشه وليس فوق عبـاده، وفسر ذلك بـأن يـونس في وسط البحر ومحمد فوق السموات السبع، وكلاهما بالنسبة إلى الله سـواء، يعـني: كلاهما في القرب منه سواء، فالذي في لجة البحر والذي فوق سبع سـماوات كلاهما في القرب من الله سواء، استدل الجويـني بهـذا على أنه ليس الـرب تعـالى فوق العرش ولا فوق السموات، كقـولهم: إن الله في كل مكـان -تعـالى الله عن قـولهم-، ورد عليهم الشـارح بما سـبق، وبين أن هـذه مقالة شـنيعة من وجـوه: أولاً: أن الحـديث لم يثبت بهـذا اللفـظ: (لا تفضـلوني على يـونس بن متى)، وإنما الذي ثبت قولـه: (لا ينبغي لعبد أن يقـول: أنا خـير من يـونس بن متى). وسبب الحديث أنه قد يقـول رجـل: أنا خـير من يـونس، فيـونس ذهب مغاضباً وظن ألن يُقدر عليه، ويونس نبذ بالعراء وهو مـذموم، ويـونس التقمه الحوت، فأنا خير منه إذا ما فعلت هذه الأفعال، فقد يقـول ذلك بعض النـاس، فنهاهم وقال: لا تقولوا؛ فإن يـونس نـبي من أنبيـاء الله أجـرى الله على يديه هـذه الآيـات وهـذه المعجـزات؛ حيث إنه التقمه الحـوت ولم يمت في بطن

الحوت، ولبث في بطنه مدة ولم يمت، وكذلك أمر الله الحوت أن ينبـذه على ســاحل البحــر، وأنبت الله عليه شـجرة من يقطين، وأرســله إلى قومه وهم مائة ألف أو يزيدون فـآمنوا، فله فضـائل، ولو أنه قد اعـترف بـالظلم، نقـول: هذا الظلم لا ينقصه، بل نبينا عليه السلام قد اعترف بالظلم، وكذلك أبوه آدم قد اعترف بقوله: قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِـرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا [الأعـراف:23] إلى آخره، فلا ينبغي أن يغتر بهذه اللفظة المنقولة عن هذا الرجل الـذي هو الجويــني ، ذكـروا أنه قـال: في هـذه الآية دليل على أن الله ليس فـوق العرش في هذا الحديث، ولا أفسره حتى تجمعوا لي مالاً، فجمعـوا له أمـوالاً وأعطوه إياها، فلما فسـرها لهم هـذا التفسـير أعجبـوا به غاية الإعجـاب، وهو تفسير بعيد عن الصواب.

الكلام على المحبة والخلة وثبوتهما لمحمد عليه السلام

قـال المؤلف رحمه اللـه: [قولـه: (وحـبيب رب العـالمين). ثبت له صـلى الله عليه وســلم أعلى مــراتب المحبة وهي الخلــة، كما صح عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (إن الله اتخـذني خليلاً كما اتخذ إبـراهيم خليلاً)، وقـال: (ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخـذت أبا بكر خليلاً ولكن صـاحبكم خليل الرحمن)، والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول من قـال: الخلة لإبـراهيم والمحبة لمحمد، فإبراهيم خليل الله ومحمد حبيبـه. وفي الصـحيح أيضـاً: (إني أبرأ إلى كل خليل من خلته)، والمحبة قد ثبتت لغيره، قال تعـالى: وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [آل عمران:134]، وقال تعالى: بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْـدِهِ وَاتَّقَى فَـإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ [آل عمران:76]، وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [البقــرة:222]، فبطل قــول من خص الخلة بــإبراهيم والمحبة بمحمد، بل الخلة خاصة بهمـا، والمحبة عامـة، وحـديث ابن عبـاس رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي الذي فيه: (إن إبراهيم خليل الله، ألا وأنا حبيب الله ولا فخـر) لم يثبت.] مشـتهر عند غلاة الصـوفية ونحـوهم أن المحبة أعلى من الخلة، وأنها أعلى الصفات؛ ولأجل ذلك يبالغ أهل السلوك وأهل التصـوف في وصف المحبة وفي آثار المحبة ونحو ذلك، ولهم فيها أقوال في تعريفاتها، وقد بحث معهم ابن القيم رحمه الله في بعض كتبه في تعريف المحبـــة، كما في كتابه الذي كتبه في المحبة واسمه (روضة المحـبين)، وكـذلك في كتابه الـذي سـماه (مـدارج السـالكين)، عند بـاب المحبــة، وكــذلك في كتــاب (طريق الهجرتين وباب السعادتين)، فإنه تكلم في هــذه الكتب على المحبة ونقل عن أهل السلوك وأهل التعبد وأهل التصوف تعريفات لها حتى أوصــلها إلى ثلاثين تعريفا، وانتهى إلى أن قال: إن المحبة كاسمها لا تحتاج إلى تعريف ولا تزيدها التعريفــات إلا غموضـــاً، فالمحبة كلمة محبوبة لذيـــذة، وكلمة معروفة عند

السامع لا تحتاج إلى تفكير. ولا شك أن صـفة المحبة تثبت بين المؤمـنين في حق الله على المؤمـنين، وفي حقهم من الله لهم، ومن بعضـهم لبعض، فثبت قـول رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: (لا تـدخلوا الجنة حـتى تؤمنـوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحـاببتم؟ أفشـوا السـلام بينكم). وفي حقوق المسـلم لأخيـه: أن يحب المسـلم لأخيه ما يحب لنفسـه، وكما في قوله عليه الصـلاة والسـلام: (لا يـؤمن أحـدكم حـتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، فهذه هي المحبة من المؤمن لأخيـه، ولكن لها آثـار، وذلك لأنك إذا أحببت أخاك كـان من آثـار ذلك أن تـوده وأن تقـترب منـه، وأن تدله على خـير ما تعلمه وتحـذره عن شر ما تعلمـه، هـذه آثـار تلك المحبـة، فمن كـان صــادقاً فإنها تظهر عليه آثارهــا. وأما محبة الله تعــالى لعبــاده فهي المحبة المطلوبة، يقول في الحديث القدسي: (ولا يـزال عبـدي يتقـرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ويده التي يمشي بها) وكذلك الآيات التي سـبقت فيها إثبـات أن الله يحب من هـذه صـفته، ومثلها كثـير، كقوله تعـالى: فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [المائـدة:54]، وقولـه: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَـاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ [الصف:4]، وقوله: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [المائدة:42]وأشباه ذلك كثير، فإذاً الله تعالى يحب عباده المؤمنين الـذين هـذه صـفاتهم، وآثـار محبته أنه يـوفقهم ويسـددهم، فكل المؤمـنين يحبـون الله تعـالى. والرسـول عليه الصـلاة والسـلام قد أخـبر بأنه يحب أشخاصـاً، ومن ذلك قوله في حق علي : (لأعطين الراية غـداً رجلاً يحب الله ورسـوله، ويحبه الله ورسـوله) فأعطاها علياً. ولا شك أن المؤمـنين كلهم يعرفـون أنهم يحبـون الله حبـاً شـديداً، وأن سـبب محبتهم له أنه أعطـاهم وخـولهم وأنعم عليهم وهـداهم، وأنه هو ربهم ومــالكهم وسـيدهم والمتصـرف فيهم، وأنه المســتحق لأن يعبد ويصــلى له ويسجد، وأنه الذي بيده الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وهو الذي يثيب ويعـاقب، فكـانت هـذه الأسـباب لمن يحب ربـه، وقد تكلمنا على محبته فيما سبق وأن لها آثاراً، وأن البعض من الناس يقولون: إنهم يحبون الرســول ويحبون الله، وأن هناك آية تفضحهم تسمى آية المحنة، وهي قوله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَـاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ [آل عمـران: 31]، وهكذا قول الشاعر: تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا عجيب في الفعال بـديع لو كــان حبك صــادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع فــإذاً: ليست المحبة خاصة بالأنبيـاء، بل الله يحب المؤمـنين والمتقين، ولا يحب محمـداً أو نبيـاً من الأنبيـاء فحسـب، بل يحب عبـاده كلهم إذا كـانوا صـالحين مصـلحين محسنين مؤمنين تائبين قانتين مطيعين له متطهرين مقاتلين في سبيله، وغير ذلك من الصفات التي رتب المحبة عليها.

الخلة وموقعها من المحبة

وأما الخلة فهي أعلى أنواع المحبة، يقـول الشـاعر: قد تخللت مسـلك الـروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً فالخلة أعلى أنواع المحبة، وقد أثبتها الله تعـالى لإبراهيم في قولـه: وَاتَّخَـذَ اللَّهُ إِبْـرَاهِيمَ خَلِيلاً [النسـاء:125]، وثبت الحـديث الذي سـبق، وهو قوله صـلى الله عليه وسـلم: (إن الله قد اتخـذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً)، فالخليلان هما محمد وإبراهيم حازا هذه المرتبة التي هي أعلى أنـواع المحبـة. وقد تطلق الخلة فيما بين الآدمـيين، فقد حكى الله عن قول بعض الكفار وهو في النار: لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً [الفرقان:28]يعني: أحبه محبة قوية. وكـذلك أخـبر عن أهل المحبة الدنيوية وسـماهم أخلاء، قـال تعالى: الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ [الزخـرف:67] ، وعلى هذا فالخلة أعلى أنواع المحبـة، وقد ثبتت من الله تعـالى لإبـراهيم ثم لمحمد صلى الله عليه وسلم، فهما الخليلان. فمن يقول: إن محمداً حبيب اللـه، وإن إبراهيم خليل الله، وإن المحبة أعلى من الخلة فقد أخطأ، بل الخلة أعلى من المحبة فهي أعلى صفاتها، وإبـراهيم ومحمد كلاهما خليل الله تبـارك وتعـالى، وبقية المؤمنين والمتقين أحباء الله تعالى الذين يحبهم ويحبونه.

مراتب المحبة وما يوصف الله تعالى به منها

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [والمحبة مـراتب: أولهـا: العلاقـة، وهي تعلق القلب بـالمحبوب. الثانيـة: الإرادة، وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه لـه. الثالثـة: الصـبابة، وهي انصـباب القلب إليه بحيث لا يملكه صـاحبه كانصـباب المـاء في الحـدور. الرابعـة: الغـرام، وهي الحب اللازم للقلب، ومنه الغـريم لملازمته، ومنه: إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً [الفرقان:65]. الخامسة: المودة والود، وهي صـفو المحبة وخالصـها ولبهـا، قـال تعـالى: سَـيَجْعَلُ لَهُمْ الـرَّحْمَنُ وُدّاً [مـريم:96]. السادسـة: الشـغف، وهي وصـول المحبة إلى شـغاف القلب. السابعة: العشق، وهو الحب المفرط الذي يخـاف على صـاحبه منـه، ولكن لا يوصف به الـرب تعـالى ولا العبد في محبة ربـه، وإن كـان قد أطلقه بعضـهم. واختلف في سبب المنع، فقيل: عدم التوقيـف. وقيل غـير ذلـك، ولعل امتنـاع إطلاقه أن العشق محبة مع شـهوة. الثامنـة: التـتيم. وهي بمعـنى (التعبـد). التاسعة: التعبد. العاشرة: الخلة، وهي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه. وقيل في ترتيبها غـير ذلـك، وهـذا الـترتيب تقـريب حسن لا يعـرف حسـنه إلا بالتأمل في معانيــه. واعلم أن وصف الله تعــالى بالمحبة والخلة هو كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته كسائر صـفاته تعـالى، وإنما يوصف الله تعـالى من هذه الأنواع بالإرادة والـود والمحبة والخلة حسـبما ورد النص. وقد اختلف في

تحديد المحبة على أقــوال نحو ثلاثين قــولاً، ولا تحد المحبة بحد أوضح منهــا، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء، وخفاء هـذه الأشـياء الواضـحة لا تحتـاج إلى تحديد كالماء والهواء والتراب والجـوع والشـبع ونحو ذلـك]. هـذا من جملة كلام أهل السلوك الـذين يتكلمـون في العبـادات القلبيـة، وقد أشـرنا إلى أن ابن القيم رحمه الله قد أشــار إلى ذلك في كتبــه، في (روضة المحــبين)، وفي (طريق الهجــرتين)، وفي (مــدارج الســالكين)، وذكر تعريفـات للمحبــة، وذكر أيضــاً ترتيبات المحبة أو أقسامها، وهي هذه الأقسام العشرة التي أولها العلاقـة، ثم الصبابة، إلى آخرها الـتي هي الخلـة، وجعل هو وغـيره هـذا الـترتيب تقريبيـاً، ومنهم من قدم بعضها على بعض، ولا شك أنها أسماء لأنواع من المحبــة، أي: أن منها ما يكثر استعماله ومنها ما لا يكثر، ومنها ما لا يجــوز إطلاقه على الله تعـالى كالعشـق، والصـحيح ما علله به من أنه محبة مع شـهوة. والله تعـالى يوصف بالمحبة وبالخلة وبالإرادة وبالمودة، يوصف بهـذه الأربعة من العشـرة، أما البقية فلم ترد، فلا يجـوز أن تسـتعمل في حق الله تعـالى، فالصـبابة مثلاً والعلاقة والعشق وما أشبهها، هذه مستعملة اصطلاحياً في أنواع من المحبـة. ولا شك أن المحبة أمر قلـــبي يجـــده الإنســـان من قلبـــه، حيث يميل إلى المحبوب بعض الميل، ويعرض محبوبه على نفسه أو يواسـيه بنفسـه، ويكـون له من الأثر ذلك الميل، وهناك بعض الأسباب التي استدعت ذلـك، وقد تكـون أسباباً ظاهرة كإحسان ونحو ذلك؛ فإن القلوب تألف وتحب من أحسن إليهــا، والله تعـالى هو الـذي أحسن إلى عبـاده، وهو الـذي خـولهم وأعطـاهم، فـإذا أحبـوه كـان سـبب المحبة هو الإحسـان، كما أنك تحب من أحسن إليـك. وقد تكون المحبة لأسباب قاصرة غير متعديـة، كـأن تحب أي إنسـان لصـلاحه وإن لم ينلك منه نفع دنيــوي، ولكن رأيته صــالحاً وتقيــاً وزاهــداً وورعــاً وعابــداً فأحببته لـذلك، وجعلت محبتك له عبـادة تؤمل الثـواب عليهـا، حيث إنه يحب الله وأنت تحبه فتحب من يحبه. وهكـذا محبتنا لربنا لا شك أن أعظم أسـبابها كونه الذي يملك العباد، وهو الذي يتصرف فيهم، فهذه من أسباب محبتهم له، وأنه هو الـــذي وعد من أحبه وعبـــده بـــالثواب، ومن لم يفعل ذلك توعـــده بالعقاب، فكان هو أهل المحبة وأهل المودة التي تحبه القلوب وتوده، ويكـون لها آثار كما سبقت الإشـارة إليـه، وأن الـذي يحب الله تعـالى يطيعه ويعبـده، وتظهر آثار ذلك على البدن في كثرة عبادتـه، وفي نضـرة خلقتـه، وفي تـأثره بذلك من كثرة العبادة ونحوها.

حكم دعوى النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقوله: (وكل دعوى النبوة بعده فغيّ وهوى). لما ثبت أنه خاتم النبيين علم أن من ادعى بعده النبـوة فهو كـاذب، ولا يقـال:

فلو جاء المـدعي للنبـوة بـالمعجزات الخارقة والـبراهين الصـادقة كيف يقـال بتكذيبه؟ لأنا نقول: هذا لا يتصـور أن يوجـد، وهو من بـاب فـرض المحـال؛لأن الله تعالى لما أخبر أنه خاتم النبيين فمن المحال أن يأتي مـدّع يـدّعي النبـوة ولا تظهر أمـارة كذبه في دعـواه. والغي: ضد الرشـاد، والهـوى: عبـارة عن شـهوة النفس، أي أن تلك الـدعوة بسـبب هـوى النفس لا عن دليـل، فتكـون باطلة]. قد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبـيين، أي: آخـرهم، وبـذلك نعرف أن كل من ادعى أنه نـبي فـدعواه غي، أي: خطأ ضد الرشـد، فـدعواه خطأ وباطل وضـلال وبعيـدة عن الصـواب والصـدق، فمن ادعى أنه نـبي فهو كاذب ولو موه على الناس ولو أتى بما يخرق العادة، ولو أتى بما يعجز الناس ظـاهراً، ولو فعل ما يفعله السـحرة والمشـعوذون ونحـوهم وادعى أنه يـنزل عليه الوحي، فنقول: هذه التي تراها من الشـياطين، وإن الشـياطين ليوحـون إلى أوليائهم، فالشياطين يوحي بعضهم إلى بعض، وقد تنزل إلى أوليائها، وقد تخدع العبد وتصور له أنها من الله وأن ما تجيء به حق وأنه نــبي، فيخيل إليه أنه ينزل عليه الوحي كما ينزل على الأولياء. وقد وقع ذلك لمن تـنزلت عليهم الشياطين، فروي أن رجلاً قال لـعبد الله بن عمر رضي الله عنه: إن المختـار يزعم أنه يوحى إليه! قال: (صـدق، قـال الله تعـالى: وَإِنَّ الشَّـيَاطِينَ لَيُوحُـونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ [الأنعام:121]) يعني أن الذي نزل عليه الشـيطان، وهـذا مع أنه صهره، إذ أخت المختار زوجة عبد الله، وهي صبية بنت أبي عبيد، فهـذا مثـال في أن الشياطين تنزل على بعض الناس، وتخـدعهم بأنها وحي من اللـه، وأن ما تأتي به حق ونحو ذلك. وقد ذكرنا الحديث في قوله عليه الصلاة والسـلام: (إنه سيكون بعدي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي)، وأن بعض العلمـاء ذكر أن الذي خرج منهم سبعة وعشرون، وأن من آخرهم الكذاب الـذي خـرج من بعض البلاد الهندية وسـمى نفسه (غلام أحمد القاديـاني)، وتبعه وصـدقه واقتدى به خلق كثير، وادعى أنه نبي، وخلق كثير قبله وصلوا إلى هـذا العـدد، والبقية لابد أن يـأتوا كما أخـبر بـذلك النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وآخـرهم الدجال الكذاب الذي يدعي أنه رب، ويأتي بشـعوذة خارقة يجريها الله تعـالى على يديه فتنة، إلا من ثبته الله تعالى وعرفه بالحق. وعلى هذا نقـول: لو أتى بما أتى به الـدجال من كونه -مثلاً- يمر على القرية الهامـدة الميتة فيصـيح بأهلها فيتبعونه كيعاسـيب النحل -والنحل لها يعسـوب وهو كبيرهـا. فهـذا من الفتنة، ومن الفتنة أيضاً كونه يقتل الرجل حتى يقطعه قطعتين ثم يقـول لـه: قم، فيقوم حياً، ومع ذلك لا يزيده إلا بصيرة ومعرفة بأنه الدجال الكذاب. بهذا نعـرف أنه قد يجـري على يد بعض الكـذابين شـيء من الشـعوذة وذلك من الشيطان، فالشيطان يمـوه على الأعين حـتى يـري بعض النـاس أشـياء شـبه خارقة للعادة تشبه معجـزات الأنبيـاء، كما يفعله بعض السـحرة من كونه مثلاً قد يجر سيارة بشعرة من الشـعر، أو يقف تحت السـيارة ويحملها بيـده أمـام النـاس والنـاس ينظـرون، أو تمر السـيارة على رأسه ولا تضـره، ولا شك أن ذلك شـعوذة على أعين النـاظرين، ولا عـبرة بمن أقر ذلك أو رآه، وقد حـدث ذلك في عهد الصحابة، كما ذكروا أن سـاحراً كـان عند بعض ملـوك بـني أمية وكـان يمـوه على الحاضـرين، فيقطع رأس الإنسـان ثم يعيـده، فعمد بعض

الصحابة إلى سيف احتضنه، فقرب من ذلك الساحر فلما وصل إليه ضربه بالسيف حتى قطع رأسه، وقال له: أحي نفسك إن كنت صادقاً. ثم قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (حد الساحر ضربه بالسيف)، فهذا جزاؤه حيث موه على الأعين، ولم يقدر على ذلك الصحابي -وهو جندب بن عبد الله البجلي - لما استعاذ من الشيطان ولما تحصن بالله تعالى، فلم يرد عليه فعل ذلك المشعوذ ولم يكتشفه. فهذا مثال على أن ما يظهر على يدي بعضهم من الشعوذة ومن التمويه على الناس فهو من الشياطين التي تظهر أمام الناظرين في صور مختلفة حتى توهمهم بأشياء خارجة عن قدرة البشر ولا حقيقة لها.

عموم رسالته صلى الله عليه وسلم

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقوله: (وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، وبالنور والضياء). أما كونه مبعوثاً إلى عامة الجن فقد قال تعالى حكاية عن قول الجن: يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ [الأحقاف:31] وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم أيضاً، قال مقاتل: لم يبعث الله رسولاً إلى الإنس والجن قبله. وهذا قولٌ بعيد، فقد قال تعالى: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ [الأنعام:130] الآية. والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسول، كذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر. وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن: إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى [الأحقاف:30] الآية تدل على أن موسى مرسل إليهم أيضاً. والله أعلم. وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلاً، واحتجّ بهذه الآية الكريمة، وفي الاستدلال بها على ذلك نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ [الرحمن:22]، والمراد من أحدهما. وأما كونه مبعوثاً إلى كافة الورى، فقد قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً [سبأ:28]، وقال تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً [الأعراف:158]، وقال تعالى: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام:19] أي: وأنذر من بلغه. وقال تعالى: وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً [النساء:79]، وقال تعالى: أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرْ النَّاسَ وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ [يونس:2]، وقال تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً [الفرقان:1]، وقال تعالى: وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ [آل عمران:20]. وقال صلى الله عليه وسلم: (أعطيت خمساً لم يعطهن

أحد من الأنبيــاء قبلي: نصــرت بــالرعب مســيرة شــهر، وجعلت لي الأرض مســجداً وطهــوراً، فأيما رجل من أمــتي أدركته الصــلاة فليصــل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكـان النــبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) أخرجاه في الصحيحين. وقال صــلى الله عليه وسلم: (لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار) رواه مسلم ، وكونه صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى النـاس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة.

بعثته إلى الجن

وفي هــذا أنه صــلى الله عليه وســلم أرسل إلى الجن والإنس، ورســالته إلى الجن واضحة من الأدلة، وقد ثبت في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الجن وقرأ عليهم سورة الرحمن، فكـان كل ما مر بهـذه الآيـة: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ [الرحمن:13] قالوا: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد. هكذا ورد في الحديث. وكذلك ثبت في حديث ابن مسعود أنه أخبر بأنه صــلى الله عليه وســلم ذهب ليلة إلى الجن، وســمع ابن مســعود كلامه معهم، وذكر أنهم ســألوه طعامــاً وســألوه علفــاً لــدوابهم، فقـال لهم: (لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه، وكل بعرة علف لــدوابكم) ، ونهى عن الاســتنجاء بهمــا، وروي أن الجن استمعوا إليه لما جاء من الطائف، فعجبوا من ســماع ما أنــزل إليــه، ونزلت فيهم الآيات الــتي في آخر الأحقـاف: وَإِذْ صَـرَفْنَا إِلَيْـكَ نَفَـراً مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ [الأحقاف:29]، ونزلت فيهم أول سورة الجن الــتي أنــزلت باسمهم. ولا شك أن كل ذلك دال على أنه صلى الله عليه وســلم بعث إليهم، والأنبياء الذين كانوا قبله كانوا يبعثون إليهم، وإنما في الجن نــذر كما في الآية الــتي في الأحقـاف، وهي قولـه: وَلَّوْا إِلَى قَـوْمِهِمْ مُنْـذِرِينَ [الأحقـاف:29] ، فليس في الجن رسل، وإنما فيهم نـذر يأخـذون العلم ويأخـذون الرسـالة عن الرسل من الإنس فينبئون قومهم، وقد ذكر في ســورة الجن أن فيهم أخيــاراً وأشــراراً في قــولهم: وَأَنَّا مِنَّا الصَّــالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِـكَ [الجن:11]، وفي قولهم: وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَـداً * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً [الجن:14-15]، فهذا دليل على أنه فيهم شـقياً وسـعيداً، ومقربـاً وبعيـداً، وأن فيهم مؤمنـاً وغـير مـؤمن. ولا شك أن الرسالة الـتي بلغها النـبي صـلى الله عليه وسـلم فيها أحكـام تناسـبهم، والله أعلم بما يناســبهم في صــيامهم وصــلاتهم، وغــير ذلك من أحكــامهم، وهكــذا تناكحهم وغير ذلك، فلهم أحكام تخصهم، وهي واضحة فيما بينهم.

رسالته إلى الإنس وعمومها

أما رسالته صلى الله عليه وسلم إلى الإنس، فلا شك أنه مرسل إلى الإنس وأنه رسول إليهم، وأنه عام الرسالة وليس خاصاً إلى قومه قريش، ولا إلى العرب، ولا إلى أهل جزيرة من الجزر، بل عام لكل من على وجه الأرض ممن بلغته الدعوة من الإنس، دل على ذلك النصوص التي فيها خطاب الناس جميعاً، فإن قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ [البقرة:21] فيه عام لكل إنسي، وكذلك: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ [النساء:1]، وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ [الحج:1]، وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا [الحجرات:13] ، فالخطابات بـ(يا أيها الناس) تدل على أنه مأمور بأن يبلغ الناس كلهم ما أنزل إليه. وهكذا قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً [الأعراف:158] ، يخاطب الناس كلهم ويقول: إني رسول الله إليكم جميعاً، وكذلك قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً [سبأ:28] أي: للناس كلهم، وكذلك الآيات التي سبقت في قوله تعالى: لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام:19]، وقوله تعالى: لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً [الفرقان:1]، والعالمين: كل من على وجه الأرض من الخلق الذين لهم معرفة ولهم إدراك، وهم جنس بني آدم. والدليل على ذلك أيضاً فعله، فهو عليه الصلاة والسلام لم يخص رسالته بقومه ولا بالعرب ولا بأهل الجزيرة، فإذاً ليست رسالته خاصة بالعرب كما يقول علماء النصارى، فالنصارى لما رأوا مميزاته، ولما رأوا أنه انتصر وظهر دينه وتأيد وتمكن وعلا على الأديان كلها وحقق الله قوله تعالى: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة:33] بهتوا، فلم يجدوا بداً من تصديقه، ولكنهم قالوا: هو رسول وهو صادق، ولكن ليس رسولاً إلينا، بل هو رسول إلى العرب. والجواب: كذبتم، فلو كان رسولاً إلى العرب لما دعا غيرهم، فكيف يقول: إني رسول إلى الناس جميعاً وهو رسول إلى العرب، والرسول لا يكذب، ولا يرسل الله كذاباً، فأنتم الآن كذبتموه وزعمتم أنه قال: إني رسول الله إلى الناس جميعاً، مع أنه ليس رسولاً إلا إلى العرب، فإذاً هو قد كذب، وإذا صدقتموه فصدقوه في كل شيء، فلا تؤمنون ببعض وتكفرون ببعض، ولا تصدقوه ببعض قوله دون بعض. ثم سبق أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم كان يبعث كتبه إلى ملوك زمانه، فبعث إلى النجاشي ملك الحبشة التي تعرف الآن بـ(أثيوبيا)، وبعث إلى المقوقس ملك مصر ويمتد ملكه إلى بعض الدول الأفريقية ومع ذلك كانوا نصارى أيضاً، وبعث إلى ملك الروم الذي هو هرقل ، وكان في دمشق الشام، ويملك الشام كله وما وراءه إلى بلاد تركيا وإلى ما وراءها، وبعث إلى ملك الفرس الذي هو كسرى، وكان الفرس آنذاك مجوساً، وكان يملك العراق وبلاد فارس كلها وما اتصل بها من وراء النهر، أي: البلاد الشرقية

كلها، فبعث إليهم جميعاً يدعوهم إلى الإسلام، فـدل على أنه مبعـوث إلى كل الناس. وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (بعثت إلى الأحمر والأسـود) يعني: بعثت إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم، والأحاديث كثيرة، فعلى هـذا تكون رسالته عامة؛ لأنه خاتم الأنبيـاء، وإذا كـان خـاتم الأنبيـاء لـزم أن يكـون مرسلاً إلى الناس كلهم؛ لأنه ليس بعده نبي، فلا يليق أن تهمل الأمم الأخـرى والدول الأخرى النائية التي في أطـراف البلاد الـتي لا يأتيها رسـول ولا يكـون مرسلاً إليها. قال المؤلف رحمه الله تعـالى: [وقولـه: (وكافة الـورى) في جر (كَافَّة) نظـر؛ فـإنهم قـالوا: لم تسـتعمل (كافـة) في كلام العـرب إلا حـالا، واختلفوا في إعرابها في قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّة لِلنَّاسِ [سـبأ:28] على ثلاثة أقـوال: أحـدها: أنها حـال من (الكـاف) في (أرسـلناك)، وهي اسم فاعل، والتاء فيها للمبالغة، أي: إلا كافاً للناس عن الباطل. وقيل: هي مصـدر (كف)، فهي بمعنى (كفاً) أي: إلا أن تكف النـاس كفـاً، ووقـوع المصـدر حـالاً كثير. الثاني: أنها حال من (الناس). واعترض بأن حال المجرور لا يتقـدم عليه عند الجمهور، وأجيب بأنه قد جاء عن العرب كثيراً فوجب قبولـه، وهو اختيـار ابن مالك رحمه اللـه، أي: وما أرسـلناك إلا للنـاس كافـة. الثـالث: أنها صـفة لمصدر محذوف، أي: رسالة كافة. واعترض بما تقدم أنها لم تستعمل إلا حالاً. وقوله: (بالحق والهدى وبالنور والضياء) هذه أوصاف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسـلم من الـدين والشـرع المؤيد بـالبراهين البـاهرة من القـرآن وسائر الأدلة، والضياء أكمل من النور، قـال تعـالى: هُـوَ الَّذِي جَعَـلَ الشَّـمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً [يونس:5]]. كلامه على قوله تعالى: وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ [سبأ:28] قد بينه الرسول صـلى الله عليه وسـلم بقولـه: (وبعثت إلى الناس كافة) والمراد عامـة، فلا حاجة إلى كل تلك التقـديرات، فـ(كافـة) أي: عامـة. أي: إلى كل النـاس. وأما كلامه على وصف ما أرسل به النـبي صـلى الله عليه وسـلم فإنه أرسل بـالنور والهـدى، فلا شك أن هـذا وصف مطـابق للشـريعة الـتي جـاء بهـا، وأنها مشـتملة على الهـدى، ومشـتملة على الضـياء وعلى النور وعلى البيان وعلى الحق، وذلك الوصف الـذي جعلها صـالحة لكل زمان ومكان، وصـالحة لكل مخـاطب ممن يعقل من المكلفين، فلا يصـلح أن تكـون الرسـالة مؤقتة كما يقـول بعض أهل هـذا الزمـان: إن الشـرائع إنما تناسب البـــدائيين. أو: إنها إنما تناسب أهل محمد الـــتي أنـــزلت عليهم، فلا تناسب أهل هذا الزمان الذين قد تطوروا وقد فهمـوا، وقد تعلمـوا كـذا وكـذا. وهذا كـذب، بل شـريعته عليه الصـلاة والسـلام لا يمكن أن يـدخلها تغيـير، ولا يمكن أن يكون فيها خلل، وهي تصـلح لتطبيقها في هـذا الزمـان وفي الأزمنة التي قبله وفي الأزمنة التي بعده.

شرح العقيدة الطحاوية [16]

تشعب الناس في الكلام على القرآن وكلام الله تعالى، وقد أخذتهم أهــواؤهم فــذهبت بهم كل مــذهب، ولم يســلم إلا من اعتصم بالكتــاب والســنة وفهم السلف الصالح، وقد بين العلماء تلك الاختلافات وما فيها من الباطل كما بينوا القول الحق بأدلته.

القرآن الكريم والاعتقادات فيه

قــال المؤلف رحمه الله تعــالى: [قولــه: (وإن القــرآن كلام اللــه، منه بــدا بلا كيفية قولاً، وأنزله الله على رسوله وحيــاً، وصــدقه المؤمنــون على ذلك حقــاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن ســمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قــال تعالى: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ [المدثر:26] فلما أوعد الله بسقر لمن قــال: إِنْ هَـذَا إِلَّا قَـوْلُ الْبَشَـرِ [المـدثر:25] علمنا وأيقنا أنه قـول خـالق البشر ولا يشـبه قـول البشر). هذه قاعـدة شـريفة، وأصل كبـير من أصـول الـدين ضل فيه طوائف كثيرة من الناس، وهذا الذي حكـاه الطحـاوي رحمه الله هو الحق الـذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسـنة لمن تـدبرهما، وشـهدت به الفطـرة السـليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة. ......

مذاهب الفرق في القرآن الكريم

وقد افترق الناس في مسـألة الكلام على تسـعة أقـوال: أحـدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفـوس من معـانٍ، إما من العقل الفعـال عند بعضـهم، أو من غــيره، وهــذا قــول الصــابئة والمتفلســفة. وثانيهــا: أنه مخلــوق خلقه الله منفصلاً عنه. وهذا قول المعتزلة. وثالثها: أنه معـنى واحد قـائم بـذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاسـتخبار، وإن عـبر عنه بالعربية كـان قرآنـاً، وإن عـبر عنه بالعبرانية كان توراة، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كـالأشعري وغــيره. ورابعها: أنه حـروف وأصـوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهـذا قـول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث. وخامسها: أنه حروف وأصــوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً، وهذا قول الكرامية وغــيرهم. وسادســها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر، ويميل إليه الـرازي في المطـالب العاليـة. وسـابعها: أن كلامه يتضـمن معـنى قائمــاً بذاته هو ما خلقه في غـيره، وهـذا قـول أبي منصـور الماتريـدي رحمه الله. وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات. وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه. وتاسعها: أنه تعـالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصـوت يسـمع، وأن

نوع الكلام قـديم وإن لم يكن الصـوت المعين قـديماً، وهـذا المـأثور عن أئمة الحديث والسنة. وقول الشيخ رحمه الله: (إن القـرآن كلام اللـه)، (إنّ) بكسر الهمزة عطف على قوله: (إنّ الله واحد لا شريك لـه)، ثم قـال: (وإن محمـداً عبده المصطفى)، وكسر همـزة (إنّ) في هـذه المواضع الثلاثـة؛ لأنه معمـول القـول، أعـني قوله في أول كلامـه: (نقـول في توحيد اللـه)]. الكلام هنا على القـرآن، وسـبب ذلك أن مسـألة القـرآن من أقـدم المسـائل الـتي أنكرتها المبتدعة، أنكرت المبتدعة صفة الكلام، وكـان أول من اشـتهر بإنكـار أن الله يتكلم هو الجعد شـيخ الجهم ، وقد قتله خالد القسـري في يـوم العيـد، وجعله كالأضحية حيث قال: ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بـــالجعد بن درهم ؛ إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمـــاً، ولم يتخذ إبـــراهيم خليلاً. فـــأنكر الجعد وكذا تلميذه الجهم أن يكون الله متكلماً، وأن يكـون القـرآن كلام اللـه، وادعى أن الكلام لا يحصل إلا من المخلـوقين، وأن الكلام يحتـاج إلى لهـوات وإلى نفس وإلى شفتين وأسنان ولثة ونحو ذلك، فـادعى أن هـذا لا يتصـور إلا من المخلـوق، وأن الخـالق لا يمكن أن يتكلم. فلما أنكر أن الله تعـالى متكلم جيء بالقرآن، وقيل: هذا القرآن ماذا تقول فيه؟ أليس هو كلام الله كما قـال تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ [الفتح:15] ، وكما سماه قـولاً في قولـه: وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ قِيلاً [النساء:122] ، وكما ينسب القول إليه بقوله: قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ [المائـدة:119] ، وقوله تعـالى: إِذْ قَـالَ اللَّهُ يَا عِيسَى [آل عمـران:55] وغـير ذلك من النصـوص الـتي فيها إثبـات أن الله قـال، وأنه يقـول الحق وهو يهـدي السـبيل، وأن الله كلم موسى تكليمـاً، وأن هذا القرآن كلام الله في قولـه: حَتَّى يَسْـمَعَ كَلامَ اللَّهِ [التوبـة:6] ، وأن كلمات الله قديمة النوع حادثة الآحاد، وأنها لا نهاية لهـا، كما في قوله تعـالى: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِـدَاداً لِكَلِمَـاتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَنْ تَنفَـدَ كَلِمَـاتُ رَبِّي [الكهف:109] وكما في قوله: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَـدْلاً [الأنعـام:115]. وغير ذلك من النصوص الكثيرة! فلما جيء بهذه النصـوص تحـير مـاذا يقـول، فلم يجد بـداً من أن يقـول: إن القـرآن مخلـوق خلقه الله كما خلق سـائر المخلوقات، يعني: كما خلق الإنسان، وكما خلق الأجرام، وكما خلق الكواكب، وكما خلق الحيوانـات والنباتـات، وأنكر أن يكـون كلام الله تعـالى، وسـيأتي مناقشة قوله وذكر ما استدل به، وبيان ضعف تلك الأدلة. ولما تكلم الجعد ثم الجهم ثم تلميذ لهما أيضـاً اسـمه (بشر المريسي)، ثم غـيرهم من المبتدعة كانوا في أول الأمر ضعفاء مقهورين لا يلتفت إلى قولهم، ولا أحد ينخـدع بهم، ولكن حدث في خلافة المأمون أنه قرب بعضهم، وأنه لما قرب بعضهم زينـوا له مذهبهم، وبينوا له أنهم أولى بالصواب، وأن القرآن مخلوق، ودعوه إلى أن يمتحن الناس بذلك، فأطاعهم ووافقهم الخليفة المأمون ، وحصلت بذلك فتن عظيمة وامتحن فيها أئمة الإسـلام، ومنهم الإمـام أحمد بن حنبل رحمه اللـه، وهو الذي صمد أمام الفتنة وصـبر وأوذي في ذات اللـه، ومـات المـأمون قبل أن يؤتى بالإمام أحمد ، وتولى بعده أخـوه المعتصم ، وهو الـذي تـولى ضـرب الإمام أحمد ، فأمر بضربه بين يديه، وأطال حبسه، ولم يزل على ذلك إلى أن تـوفي المعتصم ، وتـولى بعـده ابنه الواثق فخفت الفتنة في زمنـه، ولكن لم

يــزل على عقيــدة أبويه فيما يظهــر، ثم بعــده تــولى ولد الواثق ويقــال لــه: (المتوكل) ، وهو الذي نصر السنة، وقرب أهلها، وأبعد المبتدعة.

الصحيح من أقوال الفرق في القرآن الكريم

والحاصل أن مسألة القرآن والقول فيه قديمة، حدثت في أول القرن الثــاني، ثم استفحلت في أول القرن الثالث وتمكنت، وكثر الخوض في مسألة القرآن وما هــو، وكــذلك في مسألة كلام الله وكيف يتكلم، وتشـعبت المـذاهب -كما ذكر الشــارح- إلى تسـعة أقــوال كلها فيما يتعلق بــالقرآن، والصــواب منها هو القــول التاسع الأخــير الــذي هو قــول أهل الســنة، وهو إثبــات أن الله تعــالى متكلم، ويتكلم إذا شــاء، وأن كلامه قــديم النــوع حــادث الآحــاد، وأن كلامه يسمعه من يشــاء من خلقــه، كما أســمعه موسى لما نــاداه، قــال تعــالى: وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى [الشعراء:10] ، والنداء لابد أن يكون مسموعاً، وكما ناجاه في قوله: وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً [مـريم:52] ، ولابد أنه سـمع مناجـاة ربـه. وهكـذا كلم نبينا صـلى الله عليه وسـلم لما أسـري به وأوحى منه إليه. إذاً يعتقد المسلمون بأن كلام الله قديم النوع حادث الآحــاد، وأن هذا القرآن هو كلام الله حقــاً حروفه ومعانيـه، ليس كلامه الحـروف دون المعاني، وليس المعــاني دون الحــروف، بل كلها كلام الله تعــالى مـتى شـاء، ويعتقدون بأنه لم يـزل متكلمــاً، وما ذاك إلا أن الكلام صــفة كمــال، وتركها أو فقدها صفة نقص، ويلزم من فقدها أو نفيها نفي التشريع، فلو كان الله تعالى غــير متكلم فمن أين يعــرف أنه أمر أو نهي؟ ومن أين يعــرف أنه يحب هــذا ويبغض هــذا؟ ومن يعــرف أنه أنــزل هــذا أو لم ينزلــه؟ فــإذاً لابد أنه متكلم، ويضــطر كل عاقل إلى إثبــات صــفة الكلام لله تعــالى؛ لأنه موصــوف بصــفات الكمال، ومنزه عن النقائص والعيوب.

أقوال شاذة مخالفة وما يلزم منها

فأما قول غلاة الصابئة والفلاســفة ونحــوهم: إنه ما يفيض من العقل الفيــاض، فالعقل الفياض عندهم كأنه عبارة عن الخالق، وما يفيض عنه: بمعنى: ما يقع في النفــوس أو تتحــرك به العقــول. يســمى ذلك فيضــاً من العقل الفيــاض، فعندهم -على هذا- أن كل شيء في الوجود من قول الله ومن كلامــه، ولهــذا

طبق ذلك أهل الاتحاد؛ حيث يقول قائلهم: وكل كلام في الوجـود كلامه سـواء علينا نثره ونظامه وهـذا من أمحل المحـال وأبطل الباطـل؛ لأنه يلـزم منه أن يكون كلام الكفار كلام الله، وكلام الإلحاد وكلام الكفر والزندقة والنفاق ونحو ذلك عند هؤلاء كلام الله. وأما قول المعتزلـة: إنه مخلـوق، وإن الله خلقه كما خلق البشر وكما خلق حركات البشر، فهذا قول باطل سـتأتي مناقشـته. وأما قول ابن كلاب وكذلك الأشعرية ونحوهم: إنه معنى واحد قائم بنفسه، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عـبر عنه بالعبرية كـان تـوراة.. إلى آخـره، فهـذا أيضـاً قـول باطـل، وذلك لأنه يلـزم منه أن يكـون معـنى التـوراة هو معـنى القـرآن، ومعـنى القـرآن هو معـنى الإنجيل ليس بينهما فـرق، وهـذا معلـوم بطلانه، فإن في التوراة أحكاماً ومواعظ لم ترد في القـرآن بلفظهـا، وكـذلك في التوراة أشياء ليست في الإنجيل، وفي الإنجيل أشـياء ليست في التـوراة، وهـذا دليل على بطلان قـول الـذين يـدعون أنه معـنى واحد قـائم بـذات الله تعالى. وأما الأقوال الأخرى كالذين يـدعون أنه أزلي، فحروفه أصـوات أزلية -أي: قديمة- فمقتضى ذلك أن الله لا يتكلم الآن، وأنه تكلم في وقت ثم انقطع من الكلام، تعـالى الله عن ذلك وأشـباهه من الأقـوال. فالحاصل أنا نعتقد أن هذا القرآن الـذي أنزله الله تعـالى على نبيه صـلى الله عليه وسـلم وحي من الله، وتلاه المسلمون، وقرءوه وتعبـدوا بتلاوتـه، وصـدقوا بأنه قـول الله ليس قـول البشـر. ونعتقد أن هـذا كلام الله حقـاً ليس كلام غـيره، ويأتينا مناقشة أقوال المخالفين.

نقض أدلة المعتزلة على أن القرآن مخلوق

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقولـه: (كلام الله منه بـدا بلا كيفية قـولاً) رد على المعتزلة وغيرهم؛ فإن المعتزلة تزعم أن القرآن لم يبدُ منـه، كما تقـدم حكاية قولهم، قـالوا: وإضـافته إليه إضـافة تشـريف، كـبيت اللـه، وناقة اللـه، يحرفـون الكلم عن مواضـعه، وقـولهم باطـل؛ فـإن المضـاف إلى الله تعـالى معانٍ وأعيـان، فإضـافة الأعيـان إلى الله للتشـريف، وهي مخلوقة لـه، كـبيت الله، وناقة الله، بخلاف إضافة المعاني، كعلم اللـه، وقدرتـه، وعزتـه، وجلالـه، وكبريائه، وكلامه، وحياته، وعلوه، وقهره؛ فإن هذا كله من صفاته، لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقـاً. والوصف بـالتكلم من أوصـاف الكمـال، وضـده من أوصاف النقص، قال تعالى: وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْـدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُـوَارٌ أَلَمْ يَـرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْـدِيهِمْ سَـبِيلاً [الأعـراف:148] ، فكـان عُبَّاد العجل مع كفـرهم أعـرف بالله من المعتزلـة؛ فـإنهم لم يقولـوا لموسى: وربك لا يتكلم أيضاً. وقال تعالى عن العجل أيضاً: أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً [طه:89] ، فعلم أن نفي رجوع القول،

ونفي التكليم نقصٌ يستدل به على عدم ألوهية العجل. وغاية شبهتهم أنهم يقولون: يلزم منه التشبيه والتجسيم! فيقال لهم: إذا قلنا إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم، ألا ترى أنه تعالى قال: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ [يس:65] ، فنحن نؤمن أنها تكلم، ولا نعلم كيف تتكلم، وكذا قوله تعالى: وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ [فصلت:21] ، وكذلك تسبيح الحصى والطعام وسلام الحجر كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من الرئة المعتمد على مقاطع الحروف. وإلى هذا أشار الشيخ رحمه الله بقوله: (منه بدا بلا كيفية قولاً) أي: ظهر منه ولا ندري كيفية تكلمه به، وأكد هذا المعنى بقوله: (قولاً)، أتى بالمصدر المعرف للحقيقة، كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت للحقيقة النافي للمجاز في قوله: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً [النساء: 164] ، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟......

تحريف بعض المعتزلة للقرآن ليوافق معتقدهم

ولقد قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء - أحد القراء السبعة -: أريد أن تقرأ: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى [النساء:164] بنصب اسم الله، ليكون موسى هو المتكلم لا الله، فقال أبو عمرو : هب أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى: وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ [الأعراف:143] فبهت المعتزلي!]. عرفنا أن صفة الكلام صفة شرف وصفة كمال، ونفيها صفة نقص، واستدل الشارح بقوله تعالى في حكاية قصة العجل الذي عبده أصحاب موسى، قال تعالى: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ [الأعراف:148]، وقال في موضع آخر: أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً [طه:89]، وبخهم موسى وكذلك هارون، وقالوا: كيف تعبدون من لا يتكلم؟ وكيف تعبدون من لا يكلمكم؟ فلم يقولوا كما قالت المعتزلة، فلو كان الله تعالى لا يتكلم لقال قوم موسى لموسى: وربك أيضاً لا يتكلم. ولكنهم أعقل من المعتزلة، فعرف بذلك أن صفة الكلام صفة كمال وشرف، وأنها ثابتة لله تعالى عن طريق التواتر لكثرة الأدلة التي تبينها، والتي اتضحت دلالتها من تلك النصوص. وفي هذا أن المعتزلة الذين ادعوا أن الكلام مخلوق، وأنه كسائر المخلوقات خلقه كخلق الإنسان ونحوه، أنهم لم يعتبروا بالأدلة التي بين أيديهم، ولم ينظروا في هذه النصوص التي دلالتها واضحة. وقد سمعنا هذه القصة التي أوردها عن ذلك المعتزلي الذي جاء إلى أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة من أهل العراق وقال له: اقرأ هذه الآية: (وكلم اللهَ موسى تكليماً)، ليكون موسى هو المكلم ولا يكون الله متكلماً، ولكن أبا عمرو رحمه الله بين له أن ذلك لا يفيدك، فلو قرأت أنا أو أنت هذه الآية: (وكلم الله)، لجاءتنا آية لا يمكن أن نحرفها وهي قول الله تعالى: وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ [الأعراف:143]، فإنها صريحة بأن الرب تعالى هو المكلم، (وكلمه ربه)، ولهذا بهت ذلك المعتزلي ولم يرد شيئاً. وقد اشتهر أن

جمعـاً من المعتزلة أولـوا التكليم هنا بأنه التجـريح، فقـالوا: (كلم الله موسى تكليماً) يعني: جرحه، لأن الكلم: الجرح، كما في قولـه: (ما من مكلـوم يكلم- يعـني: ما من مجـروح يجـرح-إلا وجـاء يـوم القيامة وكلمه يـدمي) فـادعوا أن قوله تعالى: (كلم الله موسى) يعني: جرحه بأظافير الحكمة، ولكن هـذا قـول باطل؛ فـإن النصـوص دالة على أنه هو الكلام المسـموع؛ ولهـذا أثبت الله أنه ناداه في قوله: وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى [الشعراء:10]، وقوله تعـالى: إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى [النازعات:16]، وناجاه فقال تعالى:وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً [مريم:52]، والمناجاة والنداء لا يكون إلا بنـداء مسـموع، فكيف يئولـون ذلك ويحرفونه تحريفاً لفظياً أو معنوياً؟ كـذلك ثبت أن الله تعـالى خـاطب موسى منه إليه، وذكر خطابه في آيات، كقولـه: اذْهَبَا إِلَى فِرْعَـوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُـولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَـالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَـافُ أَنْ يَفْـرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَـالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْـمَعُ وَأَرَى [طـه:43-46]؛ فالله تعـالى خاطبه وأسمعه ذلك الخطـاب، فلابد أن يكـون ذلك الخطـاب بكلام مسـموع، فلا يستطيع المعتزلة أن يحرفوا ذلـك. فالحاصل أن تـأويلاتهم وحرصـهم على صرف الدلالات لا يفيدهم لكثرة الأدلة.

تكليم الله لأهل الجنة يبطل قول المعتزلة

قـال رحمه الله تعـالى: [وكم في الكتـاب والسـنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم قال تعالى: سَلامٌ قَـوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [يـس:58]، فعن جابر رضي الله عنه قال: قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سـطع لهم نـور، فرفعـوا أبصـارهم فـإذا الـرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السـلام عليكم يا أهل الجنـة. وذلك قول الله تعالى: (سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتـون إلى شـيء مما هم فيه من النعيم ما دامـوا ينظـرون إليه حـتى يحتجب عنهم، وتبقى بركته ونوره عليهم في ديـارهم) رواه ابن ماجة وغـيره. ففي هذا الحديث إثبات صفة الكلام، وإثبات الرؤية، وإثبات العلو، وكيف يصح مع هـذا أن يكـون كلام الـرب كله معـنى واحـداً، وقد قـال تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ يَشْـتَرُونَ بِعَهْـدِ اللَّهِ وَأَيْمَـانِهِمْ ثَمَنـاً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِـرَة وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ [آل عمران:77]، فأهانهم بترك تكليمهم، والمراد أنه لا يكلمهم تكليم تكريم وهو الصحيح؛ إذ قد أخبر في الآية الأخرى أنه يقول لهم في النـار: اخْسَـأُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُـونِ [المؤمنـون:108]، فلو كـان لا يكلم عبـاده المؤمـنين لكـانوا في ذلك هم وأعـداؤه سـواء، ولم يكن في تخصـيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة أصلاً، وقال البخاري في صحيحه: (باب كلام الرب تبـارك وتعـالى مع أهل الجنـة)، وسـاق فيه عـدة أحـاديث، فأفضل نعيم أهل

الجنة رؤية وجهه تبـارك وتعـالى وتكليمه لهم، فإنكـار ذلك إنكـار لـروح الجنة وأعلى نعيمها وأفضله الذي ما طابت لأهلها إلا به]. هذا أيضاً نـوع من الأدلـة، وهو ما حكـاه الله تعـالى من كلامه لأهل الجنة في عـدة آيـات، فيـذكر الله تعـالى أنه يخـاطب أهل الجنـة، فيقـول: ادْخُلُوهَا بِسَـلامٍ آمِنِينَ [الحجـر:46]، ويقول تعالى يخاطب عباده يوم القيامـة: مَا يُبَـدَّلُ الْقَـوْلُ لَـدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيـدِ [ق:29]. كـذلك يحكي الله بأنه إذا دخل أهل الجنة الجنة سـمعوا كلام الله، وذلك معنى قول الله: سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [يس:58]، والقول لابد أن يكون مسموعاً، فلابد أن أهل الجنة يسمعونه، ولا شك أن سماعهم لكلامه يعتبر نعمة ونعيماً، ولذة يلتـذون بهـا، فيلتـذون بسـماع كلام ربهم كما يلتـذون برؤية ربهم، ويتنعمون بذلك، ولكن أهل النار محرومون من الجميـع، فحرمـوا من رؤية ربهم، كما في قوله تعـــالى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُـــونَ [المطففين:15]، فصار حجابهم عذاباً لهم، وحرموا من سماع كلامه الذي هو كلام نعيم وكلام رحمة لهم، كما في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْـدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ [آل عمران: 77] يعني: لا يكلمهم كلام رحمة وكلام نعمة، ففـرق الله بين أهل الجنة وأهل النار بأن هؤلاء يكلمهم وهـؤلاء لا يكلمهم، فـدل على أن كلام الله تعـالى حق وثابت، وأن تركه لكلام هؤلاء يعتبر عـذاباً أليمـاً في حقهم. ولا شك أن الكلام اسم لكل ما يسمعه المكلم والمنادى، وأهل الجنة ينادون فـيرفعون أنظـارهم فيسـمعون كلام الله منه إليهم. وكـذلك موسى لما نـاداه ربه سـمع كلام الله تعـالى، وكـذلك ثبت أيضـاً أن الصـحابة قـالوا: يا رسـول اللـه! أربنا قـريب فنناجيـه، أم بعيد فنناديـه؟ فـنزل قوله تعـالى: وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّي فَـإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ [البقرة:186] يعني: أسمعهم وأجيبهم إذا دعـوني. ونـزل أيضـاً في موسى في خصائصه أن الله خصه بإسـماعه كلامه في قوله تعالى: قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَـالاتِي وَبِكَلامِي [الأعراف:144]، فأخبر بأن كلامه الحق الذي أسمعه موسى أنه من خصائص موسى دون غيره من أهل زمانه، وكل ذلك دلائل وشواهد ظاهرة في أن الله متكلم ويتكلم إذا شاء، وأن ذلك من صفات الكمال.

نقض استدلال المعتزلة بآية (الله خالق كل شيء)

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وأما اسـتدلالهم بقوله تعـالى: اللَّهُ خَـالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ [الرعـد:16] والقـرآن شـيء فيكـون داخلاً في عمـوم (كـل) فيكـون مخلوقاً، فمن أعجب العجب، وذلك أن أفعال العباد كلها عنـدهم غـير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعهـا، ولا يخلقها اللـه، فأخرجوها من عمـوم (كل) وأدخلوا كلام الله في عمومها مع أنه صفة من صفاته به تكـون الأشـياء

المخلوقة؛ إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى: وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْر [الأعراف:54]، ففرق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، والآخر بآخر إلى ما لا نهاية له، فيلزم التسلسل وهو باطل، وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة، كالعلم والقدرة وغيرهما، وذلك صريح الكفر؛ فإن علمه شيء، وقدرته شيء، وحياته شيء، فيدخل ذلك في عموم (كل)، فيكون مخلوقاً بعد أن لم يكن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وكيف يصح أن يكون متكلماً بكلام يقوم بغيره؟ ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من الكلام في الجمادات كلامه، وكذلك أيضاً ما خلقه في الحيوانات، ولا يفرق حينئذ بين (نَطَق وأَنْطَق) وإنما قالت الجلود: أَنطَقَنَا اللَّهُ [فصلت:21]، ولم تقل: نطق الله. بل يلزم أن يكون متكلماً بكل كلام خلقه في غيره زوراً كان أو كذباً أو كفراً أو هذياناً! تعالى الله عن ذلك. وقد طرد ذلك الاتحادية فقال ابن عربي : وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره لصح أن يقال للبصير أعمى وللأعمى بصير؛ لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره والأعمى قد قام وصف البصر بغيره، ولصح أن يوصف الله تعالى بالصفات التي خلقها في غيره من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك]. نعرف من هذا أن هذه الآيات التي استدلوا بها واردة عليهم، استدلوا بهذه الآية وهي قوله: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ [الرعد:16]، فقالوا: القرآن شيء، فيكون داخلاً في عموم (كل)، فيكون مخلوقاً. ورد عليهم الشارح بأن هذا من أعجب العجب! فأنتم تقولون: إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، فتخرجون أفعال العباد عن أن تكون مخلوقة لله، لماذا لم تدخلوها في عموم (كل) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ [الرعد: 16]، وتدخلون في ذلك صفة من صفاته وهو القرآن وهو كلام الله؟ فتدخلون صفته في كونها مخلوقة ولا تدخلون أفعالكم ولا حركاتكم في كونها مخلوقة لله! وهذا من العجب. ثم استدل بأنه يلزم من قولهم أن يوصف الله تعالى بالصفات التي قامت بالمخلوقات، وذلك لأنهم يقولون: خلقه في أفواه العباد. فهذا القرآن خلقه في أفواه العباد، أو خلقه ثم تكلم العباد به، فهو ليس كلامه ولكنه خلقه، ومع ذلك يضاف إليه. ولا شك أن هذا أيضاً قول باطل؛ لأنه يلزم منه أن يكون من تكلم بكلام يوصف به غير المتكلم، فالله تعالى -على زعمهم- ما تكلم، ولكن يقال: هو كلامه وإن لم يكن هو المتكلم به؛ حيث إن الكلام الذي قام بمخلوقاته يكون مضافاً إليه وإن لم يقم به، ويلزم على هذا أن يوصف الأعمى بأنه بصير؛ لأن البصر قد قام بغيره، والبصير يوصف بأنه أعمى؛ لأن العمى قد قام بغيره، وأن يوصف الله بصفات المخلوقات كلها، فيوصف المخلوق بأنه عاجز، وعلى هذا يقال: العجز لله؛ لأنه هو الذي خلقه، وكذلك يوصف المخلوق بأنه جاهل وبأنه مجنون مثلاً، وبالكفر، وبالفسوق، وبالزنا، وبالغصب، وبالإلحاد وما أشبه ذلك، فعلى منطوقهم تجوز إضافة هذه الأفعال كلها إلى الله تعالى، ويجوز -على قولهم- أن تكون الكلمات التي تجري في الخلق كلها من كلام الله حتى وإن كانت كفراً وزندقة وسباً وهجاء وكلاماً قذراً يتعلق بالأقذار والأوساخ ونحو ذلك. ولا

شك أن الجلود تقشعر من هذه الأقوال ومن حكايتها، فعرف بذلك بطلان قولهم، فأصبح القول الصحيح هو أنه كلام الله تعالى، وأن ما قالوه وما اعتمدوه لا دلالة لهم في ذلك. فاعتقد -أيها المسلم- بأن هذا القرآن كلام الله حقاً تكلم به، منه بدأ وإليه يعود كما شاء، وإن لم نعرف كيفية تكلمه، وكيفية إنزاله وما يتعلق بذلك، بل نعرف ونتحقق أن الله متكلم بكلام يسمع، وأن من كلامه القرآن وسائر الكتب التي أنزلها على عباده، فإذا اعتقدنا بذلك قلنا بأن هذه الكتب التي أنزلها ضمنها شريعته وضمنها أمره ونهيه ونحو ذلك. والله تعالى فرق بين الخلق والأمر في قوله تعالى: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ [الأعراف:54]، فدل على أن الأمر ليس الخلق، فالأمر هو الكلام، والخلق إيجاد المخلوقات، والأمر هو الذي يخلقها به، يقول تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس:82] فالمخلوق يخلق بالكلام، بقوله: (كن)، وهو أمره، فقوله: (كن) فعل أمر يخلق الله تعالى به المخلوقات، فـ(كن) ليست من مخلوقاته لكونها من كلام الله، وإنما المخلوق ما يحدثه بها، أي: ما يخلقه من المخلوقات بقوله: كن فيكون، هذا الصحيح. وكل تشعباتهم وتأويلاتهم بعيدة عن العقل وعن الفطرة التي فطر الله عليها العباد.

نقض عبد العزيز المكي لأدلة المعتزلة

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وبمثل ذلك ألزم الإمام عبد العزيز المكي بشراً المريسي بين يدي المأمون بعد أن تكلم معه ملتزماً أن لا يخرج عن نص التنزيل، وألزمه الحجة، فقال بشر : يا أمير المؤمنين! ليدع مطالبتي بنص التنزيل ويناظرني بغيره، فإن لم يدع قوله ويرجع عنه ويقر بخلق القرآن الساعة وإلا فدمي حلال. قال عبد العزيز : تسألني أم أسألك؟ فقال بشر: (اسأل أنت). وطمع فيَّ، فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لابد منها: إما أن تقول: إن الله خلق القرآن - وهو عندي أنا كلامه في نفسه-، أو: خلقه قائماً بذاته ونفسه، أو خلقه في غيره؟ قال: أقول: خلقه كما خلق الأشياء كلها. وحاد عن الجواب، فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة ودع بشراً فقد انقطع. فقال عبد العزيز : إن قال: خلق كلامه في نفسه فهذا محال؛ لأن الله لا يكون محلاً للحوادث المخلوقة، ولا يكون منه شيء مخلوقاً، وإن قال: خلقه في غيره؛ فيلزم في النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله في غيره، فهو كلامه فهو محال أيضاً؛ لأنه يلزم قائله أن يجعل كل كلام خلقه الله في غيره هو كلام الله، وإن قال: خلقه قائماً بنفسه وذاته فهذا محال؛ لا يكون الكلام إلا من متكلم، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقاً علم أنه صفة لله. هذا مختصر من كلام الإمام عبد العزيز في

الحيدة]. هي رسالة مطبوعة اسمها (الحيـدة) كتبها عبد العزيز الكنـاني ، ذكر فيها أنه لما اشـتهر عن بشر المريسي أنه يقـول: إن القـرآن كلام الله حـاول أن يجادله، فذكر أنه لما صلى مـرة الجمعة قـدم ولـده أمـام النـاس، فسـأله بصوت رفيع وقال: يا بني! ما تقول في القرآن؟ فقال بصـوت رفيـع: القـرآن كلام اللـه، فلما سـمع قبض عليـه؛ لأن ذلك في زمن فتنة قد افتتن بها خلق كثير، وقد انتشر القول بأن القرآن مخلوق، وقد هددوا وتوعدوا من يقول بـأن القـرآن كلام اللـه، عند ذلك أحضر بين يـدي المـأمون وهو أحد خلفـاء بـني العباس، وكان ممن دخله كلام المعتزلة وزينوا له حـتى اعتقد ما يقولونه بـأن القـرآن مخلـوق. فلما حضر بين يديه أمـره بـأن يحضر من ينـاظره، فأحضر بشـــــراً المريسي وهو رأس المعتزلة أو رأس الجهمية في ذلك الزمـــــان، فتنـاظرا بين يـدي المـأمون ، فكلما أتى بحجة قوية حـاد عنها ذلك المعـتزلي الجهمي، فسمى رسـالته بالحيـدة. وفي هـذه المقالة أنه ألزمه بإحـدى ثلاث، قال له: إذا قلت بأن القرآن مخلوق فلابد من واحـدة من ثلاث: إما أن تقـول: إن الله خلق القرآن في ذاته، وإما أن تقول: خلقه في غـيره. وإما أن تقـول: إنه خلقه مسـتقلاً بنفسـه. ولابد من واحـدة، فحـاد ولم يجب المريسي ، ولم يستطع أن يتخلف، فشرحها الكناني رحمه الله وقـال: إذا قلت: إن الله خلقه في ذاته، فهـذا محـال؛ لأنه يكـون محلاً للحـوادث، والله تعـالى مـنزه عن أن يكون محلاً للحوادث، أي: أنه لم يحدث له صفة كـانت مفقـودة، بل هو قـديم بصفاته كما تقدم في قـول المؤلـف: (رازق قبل خلق من يرزقـه، خـالق قبل وجود الخلق)، فبطل أن يكون خلقه في ذاتـه. وإذا قلت: إنه خلقه مسـتقلاً - أي أنه مخلوق مستقل اسمه القرآن- فيلزم بـذلك أن نشـاهد ذلك المخلـوق، فالمخلوقات لابد أنها تشاهد، وأيضـاً لا بد أنه يـأتي عليه التغـير. وقد سـمعت أيضاً حكاية أن أحد الذين امتحنوا في القرآن لما أحضروه مرة قالوا له: مـاذا عندك؟ قال: رأيت رؤيا. رأيت أني قمت في الليل لأصلي، فلما كـبرت قـرأت الفاتحة وقـرأت سـورة: يَا أَيُّهَا الْكَـافِرُونَ [الكـافرون:1]، وفي الركعة الثانية قرأت الفاتحة وأردت أن أقرأ سورة الإخلاص فلم أستطع ولم أقـدر، فـرفعت رأسي فإذا القـرآن مسـجى، فقلت: ما هـذا؟ قـالوا: القـرآن ميت، فأنزلته أنا ومن ومعي وغسلناه وكفناه وصلينا عليه، فقـالوا لـه: القـرآن يمـوت؟! قـال: نعم، أنتم تقولون: إن القرآن مخلوق، وكل مخلـوق يمـوت، فخاصـمهم بـذلك وبين لهم أن هـــذه وإن كـــانت رؤيا فإنها رد عليكم، فـــإذا قلتم: إن القـــرآن مخلوق منفصل مسـتقل يـرى فلابد أنه يـأتي عليه التغـير، فيمـرض ويشـفى، ويكبر ويصغر، ويزيد وينقص، وينطق بنفسه، فهو مخلوق مستقل، فمن الـذي لمسه؟ ومن الذي شاهده؟ القرآن إنما هو هذا الكلام الذي نقرؤه، فهو عرض من الأعــراض، وإذا نطقنا به فإنا لا نشـاهد الكلمـات الـتي نتكلم بها تخــرج ويراها من يراها، فهو عرض تكلم الله تعـالى به ليس بمخلـوق. وإذا قلتم: إنه كلام خلقه الله في غـــيره، لـــزمكم أن كل ما يتكلم به النـــاس فهو كلام الله خلقه في غـيره، يعــني: خلقه في ألســنة النـــاس وخلقه في قلـــوبهم، فما ينطقون به فهو من كلام الله. وقد طرد ذلك كثـير من الملاحـدة الـذين يقـال لهم: (أهل الاتحاد)، حتى قال بعضهم: وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا

نثره ونظامه فجعلوا كل ما ينطق به الناس كلام الله ولو كان كفراً، ولو كان هجاء، ولو كان شعراً، ولو كان سخرية أو ما أشبه ذلك، جعلوا كل ما تكلم به الناس من كلام الله تعالى، تعالى الله عن قولهم. فإذاً لما بطلت هذه الثلاثة ما بقي إلا أنه كلام الله ليس بمخلوق. قال المؤلف رحمه الله: [وعموم (كل) في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن، ألا ترى إلى قوله تعالى: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ [الأحقاف:25] ومساكنهم شيء، ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح، وذلك لأن المراد: تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير. وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس: وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ [النمل:23] المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام؛ إذ مراد الهدهد أنها ملكة كاملة في أمر الملك غير محتاجة إلى ما يكمّل به أمر ملكها، ولهذا نظائر كثيرة. والمراد من قوله تعالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ [الرعد:16] أي: كل مخلوق وكل موجود سوى الله فهو مخلوق فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى، وصفاته ليست غيره؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة لا يتصور انفصال صفاته عنه، كما تقدم الإشارة إلى هذا المعنى عند قوله: (ما زال قديماً بصفاته قبل خلقه)، بل نفس ما استدلوا به يدل عليهم، فإذاً: كان قوله تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) مخلوقاً لا يصح أن يكون دليلاً. وأما استدلالهم بقوله تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً [الزخرف:3] فما أفسده من استدلال! فإن (جعل) إذا كان بمعنى (خلق) يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ [الأنعام:1]، وقوله تعالى: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ [الأنبياء:30-31]. وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى (خلق)، قال تعالى: وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً [النحل:91] ، وقال تعالى: وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً [البقرة:224] ، وقال تعالى: الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ [الحجر:91] ، وقال تعالى: وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ [الإسراء:29] ، وقال تعالى: وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ [الإسراء:39] ، وقال تعالى: وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً [الزخرف:19] ونظائره كثيرة، فكذا قوله تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [الزخرف:30]]. هذا دليل مما استدلوا به، وذكر نقضه، فالدليل الأول -كما تقدم- استدلوا بعموم (كل) في قوله: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ [الرعد:16]، قال بشر المريسي لعبد العزيز الكناني : إن قلت: إن كلام الله شيء خاصمناك؛ لأنه داخل في هذه الآية، وإن قلت: إنه ليس بشيء ضللت وكفرت، وذلك لأن المحسوسات كلها داخلة في كل شيء. ولكن بشراً لما قال ذلك اعتقد أنه قد غلب الكناني ، وأنه ظهر عليه بالحجة، فقال له الكناني : ما أمرتك بأن تجيب على الآية، دعني أتولى الجواب، فقال: إن القرآن شيء لا كالأشياء، القرآن شيء ولكن ليس كالأشياء التي في هذه الآية، والجواب الثاني هو ما سمعنا من أن كلمة(كل) قد ترد عامة، ولكن تأتي عامة بحسب ما يراد منها لا أنها يدخل فيها كل الأشياء. واستدل الشارح

بدليلين: أحدهما: قوله تعالى: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ [الأحقاف:25] يحكي الله تعالى عن الريح التي أرسلها على عاد أنها تدمر كل شيء، ومع ذلك بقيت أشياء موجودة ما دمرتها، فدل على أن كلمة (كل شيء) يراد بها: كل شيء يقبل التدمير. والدليل الثاني: قوله تعالى في قصة بلقيس ملكة اليمن: وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ [النمل:23]، ومعلوم أن هناك أشياء لم تؤت منها كالذي أوتي سليمان، فإنه أوتي ذلك الصرح، وأوتي الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر، وسخرت له الشياطين كل بناء وغواص، ومع ذلك ما أوتيت مثل ذلك، وهي في زمنه، ومع ذلك ملكها لم يتجاوز الجهة التي هي بها، فإذاً قوله تعالى: (أوتيت من كل شيء) عام، ولكنه مخصوص بما يؤتاه مثلها.

نداء الله لموسى ودلالاته

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وما أفسد استدلالهم بقوله تعالى: نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَة الْمُبَارَكَة مِنَ الشَّجَرَة [القصص:30] على أن الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة فسمعه موسى منها، وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها؛ فإن الله تعالى قال: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَن [القصص:30]، والنداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي، ثم قال: فِي الْبُقْعَة الْمُبَارَكَة مِنَ الشَّجَرَة [القصص: 30] أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة. كما يقول: سمعت كلام زيد من البيت، فيكون (من البيت) لابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم، ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة: يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [القصص:30]، وهل قال: (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) غير رب العالمين؟ ولو كان هذا الكلام بدا من غير الله لكان قول فرعون أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى [النازعات:24] صدقاً؛ إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله، وقد فرقوا بين الكلامين على أصلهم أن ذلك كلام خلقه في الشجرة، وهذا كلام خلقه فرعون، فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله، وسيأتي الكلام على مسألة أفعال العباد إن شاء الله تعالى]. مما استدلوا به -وهي شبهة داحضة- أن استدلوا بقوله تعالى: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ [القصص:30] قالوا: إن موسى سمع الصوت من الشجرة، فالشجرة هي التي تكلمت، أو خلق الله الكلام في الشجرة. فلذلك قالوا: إن كلام الله مخلوق، وهذا قول بعيد، ويقول المؤلف: إنهم عموا عما بعد الآية وعما قبلها، فإن قوله تعالى: (نودي) النداء يكون بصوت مسموع، وهذا مما استدلوا به على أن الله تعالى متكلم؛ حيث أثبت لنفسه النداء في عدة آيات، قال تعالى: وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى

[الشعراء:10] وقال: إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى [النازعات:16]، وقال: وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً [مريم:52] وقال: فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ [الأعراف:22]، وقال: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ [القصص:62] ونحو ذلك، فالنداء من الله بكلام مسموع، فإذاً: قوله (نودي)، يعني ناده ربه بكلام سمعه. وأما قوله تعالى: (في البقعة المباركة) يعني أنه نودي وهو في البقة المباركة التي ذكرها بقوله: إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى [طه:12]، هذه البقعة ذكر الله بها البركة فقال تعالى: إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى [طه:12]؟ ثم قال: (من الشجرة) سمع الصوت من جهة الشجرة لا أن الشجرة هي التي نطقت، وإنما سمع الصوت من جهتها، ورأى تلك النار التي قال عنها: إِنِّي آنَسْتُ نَاراً [طه:10] أي: رأى ضوءاً يشتعل عند تلك الشجرة فظن أنه نار، فذهب ليأتي بوقود لأهله لعلهم يصطلون، وكان ذلك في شدة برد، فقال: أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ [النمل:7]، فلما جاء إلى الشجرة سمع هذا النداء، وفي ذلك النداء قوله: إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى * وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى [طه:14-17]، كل هذا تكلم الله به وسمعه، ولأجل ذلك يسمى موسى كليم الله، بمعنى أن الله كلمه وأسمعه كلامه، وليست هي الشجرة التي نطقت بذلك، وإنما سمع الصوت من جهة الشجرة، أي: جاء من تلك الجهة. كما يقول القائل: كلمني زيد من الدار، بمعنى أن الصوت خرج من الدار، لا أن الدار هي التي نطقت. فإذاً هذا دليل بعيد أن يتعلق به، وهذا من جملة أدلتهم الباطلة.

علاقة الأمينين بالقرآن الكريم

قال المؤلف رحمه الله: [فإن قيل: فقد قال تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [الحاقة:40] وهذا يدل على أن الرسول أحدثه، إما جبرائيل أو محمد صلى الله عليه وسلم! قيل: ذِكْرُ الرسول معرَّف أنه مبلِّغ عن مرسله؛ لأنه لم يقل إنه قول ملكٍ أو نبي، فعلم أنه بلغه عمن أرسله به، لا أنه أنشأ من جهة نفسه، وأيضاً: فالرسول في إحدى الآيتين جبرائيل، وفي الأخرى محمد، فإضافته إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ؛ إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر، وأيضاً فقوله: رَسُولٌ أَمِينٌ [الشعراء:107] دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسل بتبليغه ولا ينقص منه، بل هو أمين على ما أرسل به يبلغه عن مرسله، وأيضاً فإن الله قد كفَّر من جعله قول البشر، ومحمد صلى

الله عليه وسلم بشر، فمن جعله قول محمد بمعنى أنه أنشأه فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول: إنه قول بشر أو جني أو ملك، والكلام كلام من قاله مبتدئاً لا من قاله مبلغاً، ومن سمع قائلاً يقول: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل قال هذا شعر امرئ القيس ، ومن سمعه يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى) قال هذا كلام الرسول، وإن سمعه يقول: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة:2-5] قال: هذا كلام الله إن كان عنده خبر ذلك، وإلا قال: لا أدري مِن كلام مَن هذا؟ ولو أنكر عليه أحد ذلك لكذَّبه، ولهذا من سمع من غيره نظماً أو نثراً يقول له: هذا كلام مَن؟ أهذا كلامك أو كلام غيرك؟]. يقول: قد يعترض معترض بهذه الآية التي في سورة الحاقة وفي سورة التكوير، وهي قوله: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ [الحاقة:40-42] وفي الآية الأخرى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ [التكوير:19-21]، فالرسول هاهنا هو جبريل الذي بلغه عن الله، فمعنى قوله: (قول رسول) تبليغ رسول. ونأخذ من كلمة(رسول) أنه لم ينشئه، وأنه لم يقله من نفسه، وإنما بلغه حيث إنه مرسل. فالرسول هو الذي يحمل رسالة من غيره، فكل من حمل كلاماً أو حمل كتاباً فإنه يسمى رسولاً، تقول: أرسلت غلامي بكذا وكذا، أو: يأتيكم رسولي. أي: منتدبي. وأرسلت ابني إلى فلان. فالرسول بمعنى الذي يحمل رسالة، فهذا القرآن قول رسول، أي: قول جاء به رسول أرسل به، وذلك الرسول الذي ذكر في هذه الآيات هو جبريل عليه السلام، يبين ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ [الشعراء:193-194] فهكذا قوله: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [الحاقة:40] ، وقوله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ [التكوير:19-21]، فوصف بأنه أمين في الموضعين، فيؤخذ من ذلك أنه مأمون على ما أرسل به، لا يدخل فيه زيادة ولا أي نوع من التغيير، بل يبلغه كما هو دون أي تحريف أو تغيير. إذاً لا متعلق في هذه الآية، بل الآية واضحة بأنه بلغه عمن أرسله، والذي أرسله به هو الله تعالى. ثم يقول: الكلام إنما يضاف إلى من قاله لا إلى من بلغه، فهو كلام الله، والرسول الذي بلغه سواءٌ أكان جبريل أم محمداً إنما منه التبليغ، وقد ذكر الله ذلك في عدة آيات، كقوله تعالى: إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ [الشورى:48]، وقوله تعالى: مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ [المائدة:99] ، وقوله تعالى: بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ [المائدة:67] ، وقوله تعالى: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ [الأحزاب:39]، فالتبليغ معناه إيصال ما بعث به إلى المرسل إليهم كما هو دون نقص أو تغيير. فإذاً هو بلغه، ونشهد بأنه بلغ ما أرسل به إلى هذه الأمة، وأن الأمة قد حفظته. ثم يقول: الكلام يضاف إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من بلغه. فنحن نقولك: كلام الله وتبليغ جبريل. أي: نزل به جبريل، وقرأه وعلمه للأمة محمد عليه الصلاة والسلام، فهو كلام الله ولا يضاف إلى من بلغه، ويستدل على ذلك بأن الكلام يضاف إلى من ابتدعه بقولنا إذا سمعنا من ينشد: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل هذا بيت في أول قصيدة

من المعلقـات، وهو لـــامرئ القيس . فـإذا سـمعناه نقـول: هـذا كلامٍ امـرئ القيس ، ولا نقول: هـذا كلامك أيها المتكلم. وإذا سـمعناك تقـول -مثلاً-: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى) هل نقول: هذا كلامك أيها المتكلم؟ نقول: هذا كلام الرسول عليه الصلاة والسلام. ونعرف أنه أول من قـال هـذا، وإذا سمعنا من يقرأ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ [الفاتحـة:2-3] ونحن نعـرف أنه كلام الله قلنـا: هـذا كلام اللـه، ليس كلامك أيها المتكلم الذي أسمعتنا، إنما أنت مبلغ. فإذاً هو كلام الله وتبليغ رسل الله.

شرح العقيدة الطحاوية [17]

القرآن كلام الله لفظاً ومعنى، وهو قديم النوع حـادث الآحـاد، اتفق على هـذا السـلف والأئمـة، وتـوافرت عليه أدلة الكتـاب والسـنة، ولكن خـالف بعض المتأخرين من أتباع المذاهب متأثرين بغيرهم، فزعموه معـنى واحـداً وكلامـاً نفسياً وزعموا أن الموجود عبارة عن كلام، وفي كلام الإمام الطحاوي ما يـرد عليهم تصريحاً وتلويحاً.

إثبات كلام الله والرد على المتأخرين المخالفين للسلف

......

اتفاق أهل السنة على أن كلام الله غير مخلوق واختلاف المتأخرين

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وبالجملة فأهل السنة كلهم من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقـون على أن كلام الله غـير مخلـوق، ولكن بعد ذلك تنـازع المتـأخرون في أن كلام الله هل هو معـنى واحد قـائم بالذات، أو أنه حروف وأصوات تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلمـاً، أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وأن نـوع الكلام قـديم. وقد يطلق بعض المعتزلة على القرآن أنه غير مخلوق، ومرادهم أنه غـير مختلق مفـترىً مكذوب، بل هو حق وصدق. ولا ريب أن هذا المعنى منتفٍ باتفاق المسـلمين، والنزاع بين أهل القبلة إنما هو في كونه مخلوقاً خلقه الله، أو هو كلامه الـذي تكلم به وقـام بذاتـه، وأهل السـنة إنما سـألوا عن هـذا، وإلا فكونه مكـذوباً مفترى مما لا ينازع مسلم في بطلانـه، ولا شك أن مشـايخ المعتزلة وغـيرهم من أهل البدع معترفون بأن اعتقادهم في التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتـاب ولا سـنة، ولا عن أئمة الصـحابة والتـابعين لهم بإحسـان، وإنما يزعمون أن عقلهم دلهم عليه، وإنما يزعمون أنهم تلقـوا من الأئمة الشـرائع. ولو تـرك النـاس على فطـرهم السـليمة وعقـولهم المسـتقيمة لم يكن بينهم نـزاع، ولكن ألقى الشـيطان إلى بعض النـاس أغلوطة من أغاليطه فـرق بها بينهم وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ [البقرة:176]]. قد تقدم عند سـياق اختلاف الأمة في كلام الله أن هنـاك فرقة قـالوا: كلام الله معـنىً واحد قائم بذاته، وهذا قول الأشعرية والماتريدية، ولهذا قالوا: إنه معـنىً واحد يعـبر به بالعبرية فيصـير تـوراة، وبالسـريانية فيصـير إنجيلاً، وبالعربية فيصـير قرآناً، وهو معنىً واحد. وهذا قول باطل، ويقولـون أيضـاً: إن كلام الله تعـالى هو المعـنى لا اللفـظ، ولهم أدلة ربما يـأتي نقـاش حولهـا. وهنـاك قـول ثـانٍ للمبتدعة أيضاً أن كلام الله حروف وأصوات تكلم بها بعد أن لم يكن متكلمـاً. وهذا أيضاً خطأ؛ فإن الله تعالى لم يزل موصـوفاً بأنه متكلم ويتكلم إذا شـاء.

وقول أهل السنة: إن كلام الله قديم النوع حادث الآحاد، وإنه لم يزل متكلمـاً ويتكلم إذا شـاء، وإن القــرآن من كلامــه، وإن الكلام صــفة مــدح ليس هو مخلوق، فليس كلام الله مخلوقاً كما أن صفاته ليست مخلوقة، فليس شــيء من صــفاته مخلوقــاً، فعلمه وقدرته وإرادته وحلمه ورحمته وصــفاته الذاتية سـمعه وبصـره كل ذلك منسـوب إليه ومضـاف إليـه، وليس شـيء من ذلك مخلوقاً. وهنا ذكر الشارح عن بعض المعتزلة أنهم قد يوافقون ويقولون: نحن نقول: القرآن غير مخلـوق، ولا يقولـون: القـرآن كلام اللـه، بل يقولـون: غـير مخلوق، ولكن هذه العبارة يعبرون بها عن معنىً صحيح يوافق عليه كل أحـد، وهو أنهم يعنـون أنه غـير مفـترى ولا مختلق ولا مكـذوب، أي: أن محمـداً لم يكن اختلقه ولا افـتراه، وهـذا يتسـترون بـه، وإلا فهم يعتقـدون أنه كسـائر المخلوقــات خلقه الله كما خلق ســائر المخلوقــات. فــإذا عرفنا مثل هــذه الأقوال بقي أن يعتقد كل مسلم بأن القرآن الذي أنزله الله تعالى هو كلامــه، وأنه صفة كمـال، وأنه معجز بذاتـه، وأنه ليس بمخلـوق ولا شـيء من صـفات الله مخلوقة، ويعتقد أن أهل السنة مجمعون من عهد السلف والصـحابة على أن القــرآن كلام الله تكلم بـــه، وأنه من جملة كلامـــه، وأنزله وحيــاً، وجعله معجـزة لهـذا النـبي خالـدة باقية ما شـاء الله أن تبقى، ما دام يعمل بـه، وهو منزل غير مخلوق، منه بدأ قولاً وإليه يعـود، أي: يرفع في آخر الزمـان عنـدما يترك العمل به، هذا قول أهل السنة، ولا عبرة بالأقوال الشاذة المبتدعة التي خالفت هذا القول.

كلام أبي حنيفة على كلام الله

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [والذي يدل عليه كلام الطحاوي رحمه الله أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء كيف شاء، وأن نوع كلامه قديم، وكـذلك ظـاهر كلام الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى في الفقه الأكـبر؛ فإنه قـال: والقـرآن كلام الله في المصاحف مكتوب، وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم وآله منزل، ولفظنا بالقرآن مخلوق وكتابتنا له مخلوقـة، وقراءتنا له مخلوقة، والقـرآن غـير مخلـوق. وما ذكـره الله في القــرآن حكاية عن موسى وغــيره من الأنبيــاء عليهم الصــلاة والســلام، وعن فرعـون وإبليس فـإن ذلك كله كلام الله تعـالى إخبـاراً عنهم، وكلام الله غـير مخلـوق، وكلام موسى وغـيره من المخلـوقين مخلـوق، والقـرآن كلام الله لا كلامهم. وســمع موسى عليه الســلام كلام الله تعـالى، فلما كلم موسى كلمه بكلامه الـذي هو له صـفة في الأزل، وصـفاته كلها خلاف صـفات المخلـوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقـدرتنا، ويـرى لا كرؤيتنـا، ويتكلم لا ككلامنـا. انتهى. فقوله: ولما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو صفة له في الأزل يعلم منه أنه

حين جاء كلمه، لا أنه لم يزل ولا يزال أزلاً وأبداً يقول: يا موسى؛ ويفهم ذلك من قوله تعالى: وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ [الأعـراف:143]، ففهم منه الرد على من يقول من أصحابه: إنه معنىً واحد قائم بالنص لا يتصـور أن يسـمع، وإنما يخلق الله الصـوت في الهـواء، كما قـال أبو منصـور الماتريـدي وغيره. وقوله: (الذي هو له صفة في الأزل) رد على من يقـول: إنه حـدث له وصف الكلام بعد أن لم يكن متكلمـاً]. نقل هنا كلام أبي حنيفة ؛ لأن الشـارح حنفي المذهب، والمصنف الذي هو الطحاوي حنفي أيضاً، والعقيـدة مشـهورة عند الحنفية، ولكن أكثر المتـأخرين من الحنفية مـالوا في بـاب الاعتقـاد فيما يتعلق بالأســماء والصــفات، وفيما يتعلق بالإيمـــان، وفيما يتعلق بـــالقرآن، وانحرفوا بسبب من قرءوا عليه من الأشاعرة ونحـوهم، ولكن الشـارح رحمه الله كان على عقيدة سلفية تلقاها عن مشايخه الـذين اخلصـوا له في التعليم فحسن اعتقاده، فاحتج على أهل ذلك المذهب بـأقوال من يحـترمونهم. فهـذا الطحـاوي رحمه الله حنفي، وكلامه واضح في أن الـرب سـبحانه وتعـالى لم يزل متكلماً إذا شاء، وهـذا أبو حنيفة صـريح قوله في إثبـات صـفة الكلام لله سبحانه وتعالى، وفي الاسـتدلال على ذلك بـأن الله كلم موسـى، وأن موسى سمع كلام الله منه إليه، قال تعالى: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَـى تَكْلِيمًا [النسـاء:164]، وقـال: وَلَمَّا جَـاءَ مُوسَـى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَـهُ رَبُّهُ [الأعـراف:143]، وقـال: إِنِّي اصْـطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَـالاتِي وَبِكَلامِي [الأعــراف:144]. وكـذلك نـاداه وناجاه: وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا [مـريم:52]، والنـداء لا يكـون إلا بكلام، والمناجـاة الـتي هي كلام خفي بين اثـنين لا تكـون إلا بكلام، وكل ذلك استدل به أبو حنيفة على أن الله تعالى هو الذي تكلم بهذا القـرآن، وأنه لم يزل متكلماً ويكلم من يشـاء، واسـتدل أيضـاً بـأن ما في القـرآن من حكاية كلام الأمم أو كلام الرسل أو غـيرهم هو عين كلام اللـه. فنحن نقـول: قـال الله تعـالى عن فرعـون: يَا هَامَـانُ ابْنِ لِي صَـرْحًا لَعَلِّي أَبْلُـغُ الأَسْـبَابَ * أَسْبَابَ السَّـمَوَاتِ فَـأَطَّلِعَ إِلَى إِلَـهِ مُوسَـى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا [غـافر:36-37]، فهذا كلام الله حكـاه عن فرعـون. كـذلك نقـول: قـال الله تعـالى عن إبليس: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَـادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِـينَ [ص:82-83]، وقـال تعالى عنـه: لَأَقْعُـدَنَّ لَهُمْ صِـرَاطَكَ الْمُسْـتَقِيمَ [الأعـراف:16]، هـذا كلام الله حكــاه عن إبليس. وكلام إبليس، وكلام فرعــون، وكلام قــوم نــوح لنــوح في قولهم: قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [هــود: 32]، وكذلك بقية الأمم كلامهم مخلوق؛ لأن الإنسـان بجميع حركاته مخلـوق، فالإنسـان بجسـمه مخلـوق، وحركاته مخلوقة لله الـذي خلقه وخلق حركاتـه، وكلماته أيضاً مخلوقـة، فالله الـذي يحـرك شـفتيه ويحـرك لسـانه، فهو الـذي أنطقه بـــذلك كما أنطق في الآخــرة الجلــود والأيــدي والأرجل ونحو ذلـــك. فالإنسان بجميع ما ينسب إليه مخلـوق، وأما الـرب تعـالى بجميع صـفاته فإنه ليس بمخلوق، بل صفاته كلها مضافة إليه من ذاته، ولا يجوز القول بأن شــيئاً من صفاته مخلوق، ولا أنه حادث بعد أن لم يكن. وقد تقدم أن صفاته قديمة، لكن يقال: إن كلامه قديم النوع حادث الآحاد، أي: أنه لم يـزل متكلمـاً ويتكلم إذا شاء.

قبول ما جاء في كلام المعتزلة من حق

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [وبالجمة فكل ما تحتج به المعتزلة مما يـدل على أنه كلام متعلق بمشيئته وقدرته، وأنه يتكلم إذا شاء وأنه يتكلم شيئاً بعد شـيء، فهو حق يجب قبولـه، وما يقوله من يقـول: إن كلام الله قـائم بذاتـه، وإنه صفة له، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف، فهو حق يجب قبوله والقول به، فيجب الأخذ بما في قول كل من الطائفتين من الصـواب والعـدول عما يـرده الشرع والعقل من قول كل منها. فإذا قالوا لنا فهذا يلزم أن تكـون الحـوادث قـامت به قلنـا: هـذا القـول مجمـل، ومن أنكر قبلكم قيـام الحـوادث -بهـذا المعنى- به تعالى من الأئمة؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلـك، ونصـوص الأئمة أيضـاً مع صـريح العقـل]. يعـني: أننا نقبل ما جـاءوا به من الحق ونـرد الباقي، فإذا قالوا: إن كلام الله تعـالى صـفة قائمة بذاتـه. قلنـا: هـذا صـحيح، ولكن قولهم: إنه معنىً واحد، هـذا لا نـوافقهم عليـه، وذلك لأن فيه ذكر الجنة وفيه ذكر النـار، فعلى أنه معـنىً واحد لا يكـون بين آية الوعد والوعيد فـرق، وكذلك فيه ذكر العذاب وفيه ذكر الرحمة، وإذا كان معـنىً واحـداً لم يكن بين هذه الآية وهذه الآية فرق. فإذاً لا يوافقون على قولهم: إنه معنىً واحد، ولكن يوافقون على أنه قـائم بذاتـه، كما أن سـائر الصـفات قائمة بالموصـوف، فلا تعقل صفة إلا وهي قائمة بالموصـوف، فالبيـاض لابد أن يكـون قائمـاً بشـيء أبيض، ولا يوجد منفصلاً، ولا ينتزع البياض من الثوب ويقبض عليه ويقال: هـذا البياض انتزع، وكذلك الحمرة -مثلاً- والسواد لابد أن تقـوم بشـيء يوصف بأنه أبيض أو أسود أو أحمر، فكذلك الصفات، فالسـمع لابد أن يقـوم بمن يسـمع، والكلام لابد أن يقوم بمن يتكلم ولا يقوم بذاته. فـإذاً الصـفات نوافق في أنها قائمة بذاته، ولكن نرفض قولهم: إننا إذا قلنا إنه يتكلم وإنه يعلم ويقدر يكـون ذلك سبباً لكون الحوادث تقوم به. وهذه أكـبر شـبهة يتشـبثون بهـا، فـيرمون أهل السنة بأنهم يقولون إن الحوادث تقوم بذات الله. على معتقـدهم أن الله تعـالى قـائم بذاته وبأفعالـه، وأنه لا يحـدث منه شـيء بعد أن لم يكن، وهـذا خطأ، بل الله تعالى يحدث ما يشاء، فيسـمع ما يحـدث بعد أن لم يكن حادثـاً، يسمع الأصوات التي حدثت بعد أن لم تحـدث، ويـرى الأشـخاص الـذين تجـدد خلقهم بعد أن لم يكن متجدداً. والرؤية جنسها قديم وهي حادثة، فيقـال: بصر الله تعالى وصفته بأنه يرى قـديم، ولكن هـذا الإبصـار حـادث، ولا يلـزم قيـام الحوادث بذات الله.

اختلاف ما جاءت به الرسل عما عليه المبتدعة

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [ولا شك أن الرسل الـذين خـاطبوا النـاس وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول، لم يفهمـوهم أن هـذه مخلوقـات منفصـلة عنـه، بل الـذي أفهمـوهم إيـاه أن الله نفسه هو الـذي تكلم، والكلام قـائم به لا بغـيره، وأنه هو الـذي تكلم به وقالـه، كما قـالت عائشة رضي الله عنها في حـديث الإفـك: ولشـأني في نفسي كـان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بوحي يتلى. ولو كان المراد من ذلك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه؛ إذ تـأخير البيـان عن وقت الحاجة لا يجـوز، ولا يعـرف في لغة ولا عقل قائل متكلم لا يقوم به القول والكلام، وإن زعموا أنهم فـروا من ذلك حـذراً من التشـبيه فلا يثبتوا صـفةً غـيره؛ فـإنهم إذا قـالوا: يعلم لا كعلمنـا، قلنـا: ويتكلم لا كتكلمنـا. وكذلك سائر الصفات، وهل يعقل قادر لا تقـوم به القـدرة، أو حي لا تقـوم به الحياة، وقد قال صلى الله عليه وسـلم: (أعـوذ بكلمـات الله التامـات الـتي لا يجـاوزهن بر ولا فـاجر). فهل يقـول عاقـل: إنه صـلى الله عليه وسـلم عـاذ بمخلوق؟! بل هذا كقولـه: (أعـوذ برضـاك من سـخطك، وأعـوذ بمعافاتك من عقوبتك)، وكقوله: (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحـاذر)، وكقولـه: (وأعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا)، كل هـذه من صـفات الله تعـالى، وهـذه المعاني مبسوطة في مواضعها، وإنما أشـير إليها هنا إشـارة]. يتكلم هنا على قولهم: إنكم تقولون: إن الحـوادث تقـوم بـذات اللـه. وهـذا تنقص للـه؛ حيث جعلتم صفاته حادثـة، أو جعلتم الحـوادث تقـوم بـه، وذلك لأن أخص الصـفات عند المعتزلة هي صفة القدم، فهذه أخص ما يصفون الله بهـا، فيمتنعـون عن إثبات شيء متجدد، فيقولون: إذا أثبتنا أن الله يتكلم الآن صار الكلام متجـدداً، وصار قائماً بالذات، وإذا أثبتنا أنه يعلم صـار هـذا العلم جديـداً بعد أن لم يكن موجوداً. فيرد عليهم بأنه لا تعقل صفة قائمة بذاتها، بل لابد أن تكـون الصـفة قائمة بالموصوف، فلا تقوم صفة بغير موصوف أبـداً. ويوجد في هـذه الأزمنة شـيء قد يتعلقـون بـه، ولكن لا تعلق لهم بـذلك، وذلك في الأشـرطة الـتي تحفظ الكلام أو تسـجله، ومعلـوم أنها لا تنطق بنفسـها وإنما تحفظ كلامـاً قد تكلم به إنسان فتعيده بلهجته، فيقال: هذا صوت فلان وهذا كلام فلان تكلم به وحفظ! فيقال: هذا الكلام قام بهـذا الشـريط بعد أن قـام بـالمتكلم، فـالكلام صــدر من متكلم ولم يكن الكلام صــدر من غــير متكلم. وكــذلك الأشــرطة الضوئية أو الأفلام التي تسجل الأشخاص والحركات إذا رئي فيها شخص قيل: هذا فلان وهذه حركته، ولا يقال: إن هـذه الحركة قـامت بنفسـها. أو إنه ليس هناك متحرك؛ إذ لا تكون حركة إلا من متحرك، ولا يكون سمع إلا من ســميع، ولا يكـون قـول إلا من قائـل، فلهـذا يعـرف أن كلام الله ليس بمخلـوق. ومن الأدلة على ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام استعاذ بكلام الله في قوله: (أعـوذ بكلمـات الله التامـات الـتي لا يجـاوزهن بر ولا فـاجر من شر ما أجد وأحاذر)، وكذلك قوله: (أعوذ بعزة الله) (أعوذ بعظمة الله) كل ذلك اســتعاذة

بصفة من صفات الله، لا يلزم منه أنه استعاذ بمخلوق، فعرف بـذلك أن هـذه الصـفات قائمة بالموصـوف لا يمكن أن تنفصل بنفسـها، ولا يمكن أن يوجد كلام إلا من متكلم قام به ذلك الكلام. ولا يقال: إن قولهم: تقوم به الحـوادث فيه محـذور، بل يقـال: هو الـذي يفعل هـذه الأشـياء وتحـدث بعد أن لم تكن حادثـة، ولكن هو عـالم بـذلك كله قبل أن يوجـد، فهو عـالم بما سـيحدث، ولا يقـال: حـدث له علم تجـدد، وهو أيضـاً عـالم بما تكلم به وسـوف يتكلم، ولا يقال: حدث له كلام بمعنى أنه لم يكن يعلمه، بل هو عالم بكل شيء، فعـرف بذلك أن هذا لا متمسك لهم فيه.

مخالفة متأخري الحنفية في كلام الله لما عليه السلف

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [وكثـير من متـأخري الحنفية على أنه معـنى واحد، والتعدد والتكثر والتجـزؤ والتبعض حاصل في الـدلالات لا في المـدلول، وهذه العبارة مخلوقة، وسـميت كلام الله لـدلالتها عليه وتأديه بهـا، فـإن عـبر بالعربية فهو قرآن، وإن عبر بالعبرية فهو توراة، فاختلفت العبـارات لا الكلام. قالوا: وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازاً. وهـذا الكلام فاسـد؛ فـإن لازمه أن معنى قوله: وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى [الإسراء:32] هو معنى قوله: وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ [البقرة:43]، ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين، ومعنى سورة الإخلاص هو معنى: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [المسد:1]، وكلما تأمل الإنسان هذا القول تـبين له فسـاده، وعلم أنه مخـالف لكلام السـلف]. المؤلف حنفي، ولكن هو ممن وفقه الله لأخذ العلم عن مشـايخ اعتقـدوا عقيـدة سـلفية فتلقى تلك العقيدة عنهم، وتأثر بشيخه عماد الدين بن كثير صحاب التفسـير رحمه اللـه، وابن كثير تأثر بـابن تيمية حيث إنه قـرأ عليه فصلحت عقيدته وأصـلح غـيره، ولهذا ينقل الشارح كثيراً عن ابن تيمية وعن تلميـذه ابن القيم وإن لم يصـرح بالنقل عنهمـا؛ وذلك لأنه لو نقل عنهما بالصـراحة لنبذ كلامه لكـون كثـير من الحنفية لا يقبلونهما لأسـباب. أولاً: لأنهما من الحنابلـة. وثانيـاً: لأنهما في نظر أكثر المتأخرين قد ارتكبا خطأً كبيراً بإظهار هذه العقيدة التي ليس عليها أحد في زمانهمـا. فالشـارح يحكي أن الحنفية يقولـون بهـذه المقالة الـتي ذكـر، فاعتقادهم أن كلام الله معنىً واحد ليس متعـدداً. ورد عليهم بـأن هـذا القـول قـول فاسـد، حيث جعلـوه معـنىً واحـداً إن عـبر عنه بالعربية فهو القـرآن أو بالعبرية فهو التـوراة أو بالسـريانية فهو الإنجيل كما يقولـون، وإلا فهو معـنىً واحد، فيرد عليهم بأن هذا فيه إبطال لما تضمنه القرآن، وعلى قـولهم تكـون آية الكرسي مثل آية الدين، وهل يقول هذا عاقل؟ وهل يقول عاقل إن سورة تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ [المسد:1] كصورة الإخلاص قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَـدٌ [الإخلاص:1]، فهل المعنى الذي في هذه هو المعنى الـذي في هـذه؟ وكل عاقل يعـرف أن

هذه لها مدلول وهذه لها مدلول، وهكذا آية الرحمة غير آية العـذاب، وآية ذكر الجنة غير آية ذكر النار، فالـذي يتأمل هـذه المقالة يعلم بعـدها عن الصـواب، ومع ذلك فقد قال بها جمـوع كثـيرة، وجمع غفـير انخـدع بـذلك واعتقد أنه هو القـول الصـواب، وتلقـوه عن مشـايخهم. وشـبهتهم الـتي اعتمـدوا عليها هو خوفهم من أن يقولوا: إن الله متكلم، واعتقـادهم أن الكلام لا يصـدر إلى من ذات، وأنه يحدث، وأن الله منزه عن أن تقوم به الحوادث، وقد عرفت بطلان هذه المقالة.

رد قول من يقول: إن القرآن عبارة عن كلام الله

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [والحق أن التـوراة والإنجيل والزبـور والقـرآن من كلام الله حقيقة، وكلام الله تعالى لا يتنـاهى؛ فإنه لم يـزل يتكلم بما شـاء إذا شـاء كيف شـاء، ولا يـزال كـذلك، قـال تعـالى: قُـلْ لَـوْ كَـانَ الْبَحْـرُ مِـدَادًا لِكَلِمَـاتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَنْ تَنفَـدَ كَلِمَـاتُ رَبِّي وَلَـوْ جِئْنَا بِمِثْلِـهِ مَـدَدًا [الكهـف:109]، وقـال تعـالى: وَلَـوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَـجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْـرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ [لقمـان: 27]، ولو كـان ما في المصـحف عبـارة عن كلام الله وليس هو كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث مسـه، ولو كـان ما يقـرؤه القـارئ ليس كلام الله لما حـرم على الجنب قراءتـه. بل كلام الله محفـوظ في الصـدور، مقـروء بالألسـن، مكتـوب في المصـاحف، كما قـال أبو حنيفة في الفقه الأكـبر، وهو الذي في هذه المواضع كلها حقيقـة، وإذا قيـل: المكتـوب في المصـحف كلام الله فهو منه معـنى صـحيح حقيقي، وإذا قيـل: فيه خط فلان وكتابته فهم منه معنىً صحيح حقيقي، وإذا قيل: فيه مداد قد كتب بـه، فهم منه معـنىً صـحيح حقيقي، وإذا قيـل: المـداد في المصـحف، كـانت الظرفية فيه غـير الظرفية المفهومة من قول القائل: فيه السـماوات والأرض، وفيه محمد وعيسى ونحو ذلك، وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل: فيه كلام الله ومن لم يتنبه للفـروق بين هـذه المعـاني ضل ولم يهتد للصـواب]. ينبه على أن كتب الله تعالى متضمنة لكلامه، وكل كتـاب منها محتو على معـاني غـير المعـاني الـتي في الكتب الأخـرى، فـالتوراة فيها أحكـام، والإنجيل فيه أحكـام أخـرى، ولهـذا قـال عيسـى: وَلِأُحِـلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُـرِّمَ عَلَيْكُمْ [آل عمـران:50]، فجـاء بالتخفيف عن بني إسرائيل في أشياء قد حرمت في التـوراة، وكـذلك الزبـور فيه مواعظ وفيه أذكار وفيه تنبيهات وفيه تذكير، وكذلك القـرآن فيه أحكـام -كما هو معروف- وفيه أوامر ونواه، وفيه قصص وأمثال ونحو ذلـك. فـإذاً كيف يقول عاقل: إن المعنى الذي في التوراة هو المعـنى الـذي في الإنجيـل، وهو المعنى الذي في الزبور، وهو المعنى الذي في القرآن، وأن هـذا عين هـذا إلا

أنها اختلفت العبارة، فهذا عربي وهذا عبري وهذا سـرياني؟ ونقـول: هـذا من أبعد البعيد، ومن أمحل المحال. ثم ذكر أيضاً أن القرآن معـروف أنه لا يمسه إلا المطهرون، وعلى قول هؤلاء الأشاعرة ونحوهم أنه عبارة، بمعنى أنه تعبير غير كلام الله، كأن الذي عبر به إما جبريل وإما محمدٌ أو غيرهما، فجعلوا كلام الله المعـنى، وهما عـبرا عنه بمنزلة المـترجم الـذي ينقل الكلام من لغة إلى لغة. وأنت إذا سمعت إنساناً ينقل الكلام من العربية إلى الأوروبية تقول: هـذا تعبير فلان المترجم، فعلى قولهم: القـرآن تعبـير محمد أو تعبـير جبريل لا أنه نفس كلام اللـه، فإنه إذا كـان تعبـيراً لغـير الله لم يكن له حرمـة، وعلى هـذا يجوز أن يقرأه الجنب، ويجوز أن تقـرأه الحـائض، ويجـوز أن يمس المصـحف من هو محـدث ولو حـدثاً أكـبر؛ لأنه ليس فيه كلام اللـه، إنما فيه عبـارة أو حكاية أو ترجمة لكلام الله، وأما الحروف والألفاظ فليست هي كلام اللـه، إذاً لا يبقى له حرمة، وهذا خطأ. والمسلمون مجتمعـون على أنهم يقولـون: هـذا كلام اللـه، وهـذا المصـحف فيه كلام اللـه. فقـولهم: فيه كلام الله معنـاه أنه مكتوب فيه، وإذا قالوا: في هذا المصحف مداد فـالمعنى حـبر كتب بـه، مـداد أسود، ومداد أحمر، فالمراد أن المداد مخلـوق؛ لأنه كتب بـه، ولكن المكتـوب هو كلام الله، وأما المداد الذي كتب به فهو مخلـوق، ولهـذا يقـول القحطـاني في نونيته: ومدادنا والرق مخلوقان. يعني: إن حبرنا والصحيفة مخلوقان، وأما الكلام فإنه ليس بمخلـوق. ويقـول الشـارح: أنت تقـول: في هـذا القـرآن السـماوات والأرض والأمم. أي: أن ذلك مكتـوب فيـه، فموجـود فيه ذكر السـماوات، ولكن إذا قلت: فيه مـداد وفيه حـبر وفيه أوراق كـان لك مقصـد، وإذا قلت: في هذا المصحف السماوات والأرض والجنة والنار صدقت في أنها موجودة، أي: مكتوبة فيـه، وإذا قلت: فيه كلام الله صـدقت؛ لأنه مكتـوب فيه كلام الله الـذي كتب فيـه. فالحاصل أن اعتقـاد المسـلمين أنه كلام الله ينفي ويبطل ما يقول هؤلاء المبتدعة من أن القـرآن الـذي أنـزل على محمد صـلى الله عليه وسلم عبـارة أو حكاية عن كلام الله لا أنه عين كلام اللـه. وقد كتب شـيخنا الشـيخ محمد بن إبـراهيم رحمه الله في ذلك رسـالة عنـدما اسـتقدم بعض الأشاعرة للتدريس في هـذه البلاد، وكـأنهم أرادوا إظهـار معتقـدهم من أن القـرآن حكاية أو عبـارة عن كلام اللـه، فـألف في ذلك رسـالة طبعت ونشـرت، وهي أيضـاً موجـودة في مجمـوع رسـائله، قراءتها تـبين منهج أهل السـنة والـرد على من يقـول: إن القـرآن حكاية أو عبـارة عن كلام الله لا أنه نص أو غير كلام الله. بل نحن نقول: هو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلامه الحروف دون المعاني ولا المعاني دون الحروف.

الفرق بين القراءة والمقروء في اسـتعمال لفظ القـرآن يبطل من جعل كلام الله معنى واحداً

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [وكـذلك الفـرق بين القـراءة الـتي هي فعل القارئ والمقروء الذي هو قول البـاري، ومن لم يهتد له فهو ضـال أيضـاً، ولو أن إنسـاناً وجد في ورقة مكتوبـاً: (ألا كل شـيء ما خلا الله باطـل) من خط كاتب معروف لقال: هذا من كلام لبيد حقيقـة، وهـذا خط فلان حقيقـة، وهـذا (كل شـيء) حقيقـة، وهـذا خـبر حقيقـة، ولا تشـتبه هـذه الحقيقة بـالأخرى. والقرآن في الأصل مصدر، فتارة يذكر ويراد به القراءة، قـال تعـالى: وَقُـرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُـرْآنَ الْفَجْـرِ كَـانَ مَشْـهُودًا [الإسـراء:78]، وقـال صـلى الله عليه وسلم: (زينوا القرآن بأصواتكم). وتارة يذكر ويـراد به المقـروء، قـال تعـالى: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُـرْآنَ فَاسْـتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّـيْطَانِ الـرَّجِيمِ [النحـل:98]، وقـال تعالى: وَإِذَا قُـرِئَ الْقُـرْآنُ فَاسْـتَمِعُوا لَـهُ وَأَنصِـتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـونَ [الأعـراف: 204]، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف)، إلى غير ذلك من الآيات والأحـاديث الدالة على كل من المعنـيين المـذكورين. فالحقـائق لها وجـود عيـني وذهـني ولفظي، ولكن الأعيـان تعلم ثم تـذكر ثم تكتب، فكتابتها في المصـحف هي المرتبة الرابعـة، وأما الكلام فإنه ليس بينه وبين المصحف واسطة، بل هو الذي يكتب بلا واسطة ذهن ولا لسان]. معلوم أن هناك فرقاً بين القراءة والقارئ، أو بين القراءة والمقـروء، فيكـون عنـدنا قـارئ وقـراءة ومقـروء، فالقـارئ هو الإنسـان الـذي حـرك شـفتيه ولسـانه، والقـراءة هي الصـوت الـذي سـمعناه، والمقـروء هو الكلام الـذي نطق بـه، فحركات لسانه وشفتيه مخلوقـة، ولكن المقـروء الـذي قـرأه ليس بمخلـوق، ولهـذا يقـول العلمـاء إذا عرفـوا ذلـك: الصـوت صـوت القـارئ والقـول قـول الباري. فالصوت الذي تسمعه تضيفه إلى القارئ فتقول: هـذه قـراءة بصـوت القارئ فلان، ولكن اللفظ -الكلام- المقروء الذي قـرأه تقـول عنـه: هـذا كلام الله، وسمعت كلام الله بصوت القارئ فلان الذي قراءته وصوته حسـن، وفيه خشـوع وفيه تـذلل. وتـأتي القـراءة بمعـنى (المقـروء) وتـأتي كلمة (القـرآن) بمعنى (القراءة) واسـتدل الشـارح على ذلك بقوله تعـالى: وَقُـرْآنَ الْفَجْـرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا [الإسراء:78]، فهنا المراد القـراءة، وقـراءة صـلاة الفجر، أي: القراءة التي تقرأ في صلاة الفجر مشـهودة تشـهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فعبر عن القراءة بالقرآن. وكذلك قـول النـبي صـلى الله عليه وسلم: (زينوا القرآن بأصواتكم)، المـراد القـراءة، فهنا فسر أو عـبر بـالقرآن عن القراءة. وأحياناً تستعمل كلمة (القـرآن) ويـراد بها (المقـروء) أي: الكلام الـذي يقـرأ وهو كلام اللـه، كما في الآيـات الأخـرى، كقوله تعـالى: وَإِذَا قُـرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ [الأعـراف:204] وَلا تَعْجَـلْ بِـالْقُرْآنِ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يُقْضَـى إِلَيْكَ وَحْيُهُ [طه:114]. وقوله: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَـهُ وَقُرْآنَـهُ [القيامـة:16-17]. يعـني: قراءتـه. فـإذا عرفنا أنه حيثما قـرئ وحيثما كتب فهو كلام الله نقـــول: إن كلام الله تعـــالى هو المعـــنى المكتـــوب في المصـاحف المسـموع بـالآذان المقـروء بالألسـن. ونقـول أيضـاً: إن كل هـذه التصرفات لا تخرجه عن كونه كلام الله. ونقـول: إن المخلـوق من ذلك هو ما للآدميين، فـالأوراق مخلوقـة، والمـداد الـذي يكتب به مخلـوق، والأيـدي الـتي

كتبت أو الحروف التي يطبع بها مخلوقة، ولكن نفس الكلام غير مخلوق بل هو كلام الله تعالى، وكل ما يضاف إلى الله فليس بمخلوق. فالحاصل أنه كيفما كتب وكيفما قرئ لن يخرج عن كونه كلام الله تكلم به حقيقة، ويمثل لذلك بأن كل من سمع كلاماً نسبه إلى صاحبه ونسبه إلى من تكلم به، فإذا سمع شعراً من شعر لبيد -مثلاً- قال: هذا كلام لبيد . و لبيد أحد الشعراء المشهورين، وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم كلمته هذه فقال: (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل)، فإذا رأيت ورقة مكتوباً فيها شطر هذا البيت قلت: هذا كلام لبيد حقيقة، وهذا خط فلان حقيقة، وهذا كلمة (كل شيء) فـ(كل شيء) موجودة في هذه الورقة حقيقة، والثلاث الحقائق لا تنافي بينها، حقيقة وحقيقة وحقيقة. فإذاً إذا سمعت في الإذاعة صوت قارئ من القراء قلت: هذا كلام الله حقيقة، وهذه إذاعة القرآن حقيقة، وهذه سورة القصص حقيقة، ولا تنافي بين هذه الحقائق، فكلام الله وقراءة فلان وإذاعة القرآن وما أشبه ذلك الجميع تقول فيه: إنه حقيقة، ولا تخالف بين الحقائق. فإذاً كيف يدعون أنه لا يمكن أن يكون القرآن يعبر به عن شيئين ما دمنا نعرف أنه يعبر به عن القراءة في قوله: (زينوا القرآن بأصواتكم)، يعني: القراءة، ويعبر به عن المقروء لقوله: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ [الإسراء:9]! وكلا التعبيرين لا ينافي الآخر؛ فكذلك بقية الحقائق.

الفرق بين كون القرآن في زبر الأولين وفي كتاب مكنون

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [والفرق بين قوله: وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ [الشعراء:196]، أو فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ [الطور:3]، أو فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ [البروج: 22]، أو فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ [الواقعة:78] واضح. فقوله عن القرآن: وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ [الشعراء:196] أي: ذكره ووصفه والإخبار عنه. كما أن محمداً مكتوب عندهم في القرآن، وأنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم لم ينزله على غيره أصلاً، ولهذا قال: (في الزبر) ولم يقل: في الصحف. ولا في الرق؛ لأن الزبر جمع زبور، والزبر هو الكتابة والجمع، فقوله: وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ [الشعراء:196] أي: مزبور الأولين، ففي نفس اللفظ واشتقاقه ما يبين المعنى المراد، ويبين كمال بيان القرآن وخلوصه من اللبس، وهذا مثل قوله: الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ [الأعراف:157] أي: ذكره. بخلاف قوله: فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ [الطور:3] ولَوْحٍ مَحْفُوظٍ [البروج:22] وكِتَابٍ مَكْنُونٍ [الواقعة:78]؛ لأن العامل في الظروف إما أن يكون من الأفعال العامة مثل: الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك، أو يقدر (مكتوب في كتاب) أو (في رق). والكتاب تارة يذكر ويراد به محل الكتابة، وتارة يذكر ويراد به الكلام

المكتـــوب، ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتـــاب وكتابة الأعيـــان الموجودة في الخارج فيه؛ فإن تلك إنما يكتب ذكرها، وكلما تدبر الإنسان هـذا المعنى وضح له الفرق]. هذا وصفٌ القـرآن بمثل هـذه الأشـياء، قـال تعـالى: وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ [الشعراء:196] فما معنى كون القرآن في زبر الأولين؟ هل المعنى أنه أنزل على الأولين؟ ليس كـذلك، فما أنـزل إلا على نبينا صـلى الله عليه وسـلم، إذاً هو مـذكور في زبر الأولين، والزبر هي الصـحف واحـدها زبور، أي: ذكر هذا القرآن ومدحه موجود في تلك الصـحف الـتي أنـزلت على الأنبيـاء السـابقين، فهـذا معـنى كونه (في زبر الأولين)، مثل أن تقـول: محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة، أي: مذكور في التـوراة. وفي الإنجيـل، أي: مذكور اسمه أو وصفه أو نبوته، كما قال تعـالى: الَّذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبًا عِنْـدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيـلِ [الأعـراف:157]، يعـني: ذكـره وصـفته واسـمه ونبوته وآياته ومعجزاته، فالذين قرءوا التوراة يعرفون وصفه، كما قال تعـالى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ [البقـرة:146]. فـالقرآن في زبر الأولين معنـاه أنه مـذكور فيها ذكـره وليس نفس القـرآن، ومحمد في كتب الأولين ذكره. أما قول الله تعالى: فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ [الـبروج:22]، فِي كِتَـابٍ مَكْنُونٍ [الواقعة:78]، فهذا معناه: أن القـرآن مكتـوب في اللـوح المحفـوظ. وذلك لأن الرب سبحانه لما خلق الخلق أمر القلم فجرى بما هو كـائن، وكتب الكلام الـذي تكلم به في ذلك اللـوح المحفـوظ الـذي يسـمى (أم الكتـاب) ويسـمى (الإمـام) فِي إِمَـامٍ مُبِينٍ [يس:12]، ويسـمى (الكتـاب المكنـون) فـالقرآن في الكتـاب المكنـون الـذي هو اللـوح المحفـوظ، أي: مكتـوب فيه سـوره وآياته وحروفه وكلماتـه، وموجـود في اللـوح المحفـوظ، وموجـود في الكتاب المكنون الذي قال تعالى عنه: لا يَمَسُّـهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ [الواقعـة:79]، والـذي هو تنزيل من رب العـالمين، فلا فـرق بين هـذا وبين هـذا. وليس كما يدعون أنه لم يكن موجـوداً ثم خلـق، أي: خلقه الله كما خلق الإنسـان، وكما خلق سائر المخلوقـات، ولو كـان كـذلك لما سـماه تـنزيلاً، والله قد أخـبر بأنه منزل وبأنه تنزيل، ولم يذكر أنه مخلوق ولا أنه خلقه، ولو كان مخلوقاً لـذكره في موضع واحد حتى يحمل عليه بقية الأماكن الذي فيها ذكر التنزيل.

سماع كلام الله تعالى وتبليغه وما يفهم من ذلك

قـــال المؤلف رحمه الله تعـــالى: [وحقيقة كلام الله تعـــالى الخارجية هي ما يسمع منه أو من المبلغ عنه، فـإذا سـمعه السـامع علمه وحفظـه، فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ، فإذا قاله السـامع فهو مقـروء له متلـو، فـإن كتبه فهو مكتــوب له مرســوم، وهو حقيقة في هــذه الوجــوه كلها لا يصح نفيــه، والمجاز يصح نفيـه، فلا يجـوز أن يقـال: ليس في المصـحف كلام اللـه، ولا ما

قرأ القـارئ كلام اللـه. وقد قـال تعـالى: وَإِنْ أَحَـدٌ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ اسْـتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ [التوبة:6]، وهو لا يسمع كلام الله من الله وإنما يسمعه من مبلغ عن الله، والآية تدل على فساد قول من قـال: إن المسـموع عبـارة عن كلام الله وليس هو كلام اللـه، فإنه تعـالى قـال: حَتَّى يَسْـمَعَ كَلامَ اللَّهِ [التوبـة:6]، ولم يقـل: حـتى يسـمع ما هو عبـارة عن كلام اللـه. والأصل الحقيقة، ومن قال إن المكتوب في المصـاحف عبـارة عن كلام الله أو حكاية كلام الله وليس فيها كلام الله، فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفى بذلك ضلالاً]. في هـذا الكلام بيـان أن كلام الله تعـالى هو الحـروف والمعـاني وأن الله تكلم به حقيقة، ولكن بلغه رسوله، فكلم به الرسـول الملكي، ونـزل به الملك على الرسول البشـري، كما أخـبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم في كيفية نزول الوحي في قوله: (أحياناً يـأتيني الملك في صـورة رجل فيكلمـني فأعي ما يقول) يعـني أن من الـوحي ما يكـون نزوله عليه أن يتمثل له الملك في صورة رجل. ومعلوم أن كلام الله تعالى مسموع بالآذان، ولهذا قال تعالى في هذه الآية من سـورة التوبـة: وَإِنْ أَحَـدٌ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ اسْـتَجَارَكَ فَـأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ [التوبة:6]، وقال تعالى: سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُـونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَـانِمَ لِتَأْخُـذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيـدُونَ أَنْ يُبَـدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ [الفتح:15]، فصرح بأنه كلام اللـه. وفي آيـات أخـرى التصـريح بـذلك، قـال تعـالى: وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ [البقرة:78]، فـ(الكتاب) يعـني: الكتابة (إلا أمـاني) أي: تلاوة دون فهم، وعـبر بـذلك عن القـراءة، ثم قال: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْـتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ [البقـرة:79]. والحاصل أن سماع كلام الله ممكن، ولكن هل المراد أنه يسمع كلام الله من الله؟ لا. بل المراد ممن يقـرؤه عليه ويخـبره بأنه كلام اللـه، إنما الـذي سـمع كلام الله وصـــرح بأنه ســـمعه موسى عليه الســـلام، كما قـــال تعـــالى: إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي [الأعـراف:144]، وقـال: وَلَمَّا جَـاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ [الأعراف:143]، فأخبر الله بأن موسى سمع كلام الله منه إليه، وكذلك نبينا صـلى الله عليه وسـلم لما أسـري به كلمه الله منه إليه. فكل ذلك يفيد أن كلام الله تعالى مسموع، والمسـموع هو هـذا الصـوت الذي نسمعه من القـارئ، ومعلـوم أننا لا نقـول: إن الصـوت هو صـوت اللـه، تعالى الله، وإنما نقول: المتكلَم به هو كلام الله، والـذي أسـمعنا إيـاه هو هـذا القـارئ، فسـمعنا كلام الله من هـذا القـارئ، فهـذا الفـرق في السـماع بين القراءة والقارئ، بين المقروء والقارئ.

رد الطحاوي على من زعم أن القرآن معنى واحد

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وكلام الطحاوي رحمه الله يرد قول من قـال: إنه معـنى واحد لا يتصـور سـماعه منـه، وإن المسـموع المـنزل المقـروء والمكتـوب ليس كلام الله وإنما هو عبـارة عنـه، فـإن الطحـاوي رحمه الله يقول: (كلام الله منه بدأ)، وكذلك قال غـيره من السـلف، ويقولـون: منه بـدأ وإليه يعـود. وإنما قـالوا: (منه بـدأ) لأن الجهمية من المعتزلة وغـيرهم كـانوا يقولون: إنه خلق الكلام في محل فبدأ الكلام من ذلك المحل، فقال السـلف: (منه بـدأ) أي: هو المتكلم به فمنه بـدأ لا من بعض المخلوقـات، كما قـال تعالى: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [الزمر:1]، وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي [السجدة:13]، قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ [النحـل:102]. ومعـنى قولهم: (وإليه يعـود) أنه يرفع من الصـدور والمصـاحف فلا يبقى في الصـدور منه آية ولا في المصاحف، كما جاء ذلك في عدة آثار]. قولهم: (منه بـدأ وإليه يعود) صريح في رد قول المعتزلة الـذين ادعـوا أنه خلقـه، وأن الـذي تكلم به البشر فلا يكون كلام الله، إنما يكون كلام ذلك الذي ابتدأ الكلام منه، وإذا كان مخلوقاً فمعناه أن الله تعالى خلقه في غيره، وإذا خلقه غيره كان ذلك الغـير هو الذي ابتدأ منه، وهو أول من تكلم به. فإذاً السـلف أصـدق في قـولهم في نص القرآن: إنه كلام الله، منه بدأ وإليه يعود، أي: ابتـدأ الكلام من الله تعـالى فهو الذي تكلم به، ويقـول العلمـاء أيضـاً -بل والبلغـاء- إن الكلام إنما يضـاف إلى من قاله ابتـداء لا إلى من قاله مبلغـاً مؤديـاً، فالـذي ابتـدأ -مثلاً- رسـالة وكتبها من إنشائه ثم أعطاها قارئاً يقرؤها يقـال: هـذه من كتابة أو من إنشـاء زيد وسمعناها من عمرو، فالقارئ إنما بلغ، والمبتدئ بـالكلام هو الـذي أنشـأ. فهكـذا نقـول: سـمعنا كلام الله من قـراءة فلان. وقد ورد في الأحـاديث أن القرآن في آخر الزمان يرفع، وذلك عندما يقل العمل به، فعنـدما لا يبقى أحد يعمل به يرفع من الصـدور وينسخ من المصـاحف فتصـبح المصـاحف بيضـاء ليس فيها شيء، وذلك علامة على انقضاء الـدنيا وقـرب زوالهـا، وذلك عنـدما يهان كلام الله ولا يبقى من يعمل به، وهذا معنى قولهم: (وإليه يعود) أي: يرد إليه سـبحانه ويرفع من هـذه الحيـاة، ولا شك أن رفعه مصـيبة كبـيرة، ولكن الذين يرفع من بين أيديهم لا يشعرون بالمصيبة، بل لا يهمهم، بل ربما يهينونه كما في بعض الـــدول، ففي بعض الـــدول هنـــاك بعض الملاحـــدة والزنادقة والشيوعية والمنافقين يدوسون كلام الله بأحـذيتهم -تعـالى اللـه-، وعليهم ما يستحقونه من عقاب الله! فإذا انتشر هذا الكفر في الأرض وأطبق على البلاد كلها ولم يبق أحد يعرف حرمة كلام الله تعالى، عند ذلك يرفع هذا القـرآن ولا يبقى منه حرف، وهذه منذرات أو أمـارات على قـرب انقضـاء الحيـاة الـدنيا، لكن نحن في هذه الحياة مازلنا نرى من يعظمه ويحترمه ويقرؤه ويتلوه، وإننا نؤمل خيراً إن شاء الله.

معنى أن القرآن بدأ من الله بلا كيفية قولاً

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقوله: (بلا كيفيـة) أي: لا تعـرف كيفية تكلمه به (قولاً) ليس بالمجاز، (وأنزله على رسوله وحياً) أي: أنزله إليه على لسـان الملك فسـمعه الملك جبرائيل من اللـه، وسـمعه الرسـول صـلى الله عليه وسلم من الملك وقرأه على الناس، قـال تعـالى: وَقُرْآنًا فَرَقْنَـاهُ لِتَقْـرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا [الإسراء:106]، وقال تعالى: نَزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [الشعراء:193-195]، وفي ذلك إثبات صفة العلو لله تعـالى]. يقـول بعض العلمـاء: إنه تتبع ذكر القـرآن فوجد ذكـره في هـذا المصحف في أكـثر من خمسـين موضـعاً، وغالبـاً يـذكر بلفظ الإنـزال والتنزيـل، ولم يـذكر بلفظ (الخلـق) وذكر بلفظ (الجعـل) في قولـه: إِنَّا جَعَلْنَـاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا [الزخـرف:3]، ولكن فسر الجعل بأنه التصـيير، يعـني: صـيرناه عربيـاً، حيث إنه أنـزل على قـوم من العـرب ليفهمـوه وليعلمـوه لمن بعـدهم أو لغـيرهم. فهـذا القـرآن ذكر بلفظ الإنـزال كقوله تعـالى: تَنزِيـلُ الْكِتَـابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ [غـافر:2] ، تَنزِيـلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [فصلت:2] ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [الزمـر: 1]، مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ [الأنعام:114]، تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت:42]، وكل ذلك دليل على أنه منزل من الله، واستدلوا بذلك أيضاً على صـفة العلـو؛ لأن النزول لا يكون إلا من فوق. فالقرآن منزل من الله تعالى، والله تعـالى فـوق سماواته كما يشاء والقرآن نزل منه، والـذي نـزل به هو الملـك، والـذي نـزل عليه هو الرسـول، وكـذلك الرسل قبله أنـزلت عليهم هـذه الكتب الـتي هي مضمنة للشرائع الـتي شـرعت لهم، فالتنزيل يـدل على أنه نـزل بعد أن كـان تكلم الله تعـالى به وكتبه في اللـوح المحفـوظ وأمر به الملك فأنزله على رسوله فأصبح متلواً مقروءاً مكتوباً، ولم يخـرج بـذلك كله عن كونه كلام الله سبحانه وتعالى.

اختلاف إنزال القرآن عن إنزال المخلوقات المعبر به في القرآن

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [وقد أورد على ذلك أن إنـزال القـرآن نظـير إنزال المطـر، وإنزاله الحديـد، وإنـزال ثمانية أزوج من الأنعـام. والجـواب أن إنزال القرآن فيه مذكور أنه إنزال من الله، قال تعـالى: حم * تَنزِيـلُ الْكِتَـابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [غافر:1-2]، وقال تعالى: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [الزمر:1]، وقال تعالى: تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [فصلت:2]، وقال تعالى: تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت:42]، وقال تعالى: إِنَّا أَنزَلْنَـاهُ فِي لَيْلَـةٍ مُبَارَكَـةٍ إِنَّا كُنَّا مُنـذِرِينَ * فِيهَا يُفْـرَقُ كُـلُّ أَمْـرٍ حَكِيمٍ * أَمْـرًا مِنْ عِنْـدِنَا إِنَّا كُنَّا

مُرْسِلِينَ [الدخان:3-5]، وقال تعالى: فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [القصص:49]، وقال تعالى: وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ [الأنعام:114]، وقال تعالى: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ [النحل:102]. وإنزال المطر مقيد بأنه منزل من السماء، قال تعالى: وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا [الفرقان:48]، والسماء العلو. وقد جاء في مكان آخر أنه منزل من المزن، والمزن السحاب، وفي مكان آخر أنه منزل من المعصرات، وإنزال الحديد والأنعام مطلق، فكيف يشبه هذا الإنزال بهذا الإنزال؟ فالحديد إنما يكون من المعادن التي في الجبال وهي عالية على الأرض، وقد قيل: إنه كلما كان معدنه أعلى كان حديدة أجود، والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يقال: أنزل ولم ينزل. ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض، ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولها إناثها عند الوطء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتلقي ولدها عند الولادة من علو إلى سفل، وعلى هذا فيحتمل قوله: وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ [الزمر:6] وجهين: أحدهما: أن تكون (من) لبيان الجنس. الثاني: أن تكون (من) لابتداء الغاية. وهذان الوجهان يحتملان في قوله: جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا [الشورى:11]،]. ذكر الشارح هذا الاعتراض على آيات التنزيل التي وصف الله بها القرآن، فالله تعالى كلما ذكر القرآن ذكره بلفظ الإنزال ولم يذكره بلفظ الخلق، فلم يقل: (خلقنا القرآن)، وإنما يقول: (أنزلنا) ثم يزيد على ذلك أنه منزل من الله أو من عند الله، ولا شك أن هذا يدل على الاختصاص. وكلمة الإنزال تعرف العرب أن معناها لا يكون إلا من الأعلى، فإذا قيل: أنزله فالمعنى: جاء به من بعد أن كان رفيعاً. تقول: أنزلت الدلو في البئر أو نزلته إذا دليته من أعلى إلى أسفل، وتقول: نزل فلان من السطح ومن الجبل ومن ظهر المركوب الذي هو راكبه، أي: نزل منه بعد أن كان مرتفعاً. فلما كان الإنزال من العلو فالقرآن كذلك نازل من العلو، نازل من السماء، نازل من الله تعالى، منزل من ربك، فهذا حقيقة ما ذكر الله عن القرآن. وليس مثل إنزال المطر، فإنزال المطر مقيد بأنه من السماء، أو بأنه من المزن، أو بأنه من المعصرات ونحوها، وإن كان الله هو الذي أنشأه وخلقه فيها، وإنزال الحديد معناه خلقه وإيجاده ولكن أوجده في علو ثم نزل إلى سفل، فالمعادن والمناجم عادة تكون في جوف الأرض، فهي مخلوقة في الجبال ثم تذوب وتنزل إلى جوف الأرض أو نحو ذلك، وكذلك قد يعثر عليها وهي في رءوس الجبال فينزلونها من الجبال، ولا شك أن ذلك كله إنزال حقيقي، فهو إنزال، ولكن لم يقل: إنه من عند الله، فحصل بذلك الفرق الكبير بين إنزالها وإنزال القرآن.

إثبات الطحاوي أن القرآن كلام الله حقيقة

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقوله: (وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً) الإشارة إلى ما ذكره من التكلم على الوجه المذكور وإنزاله، أي: هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهم السلف الصالح، وأن هذا حق وصدق. وقوله: (وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية) رده على المعتزلة وغيرهم بهذا القول ظاهر، وفي قوله: (بالحقيقة) رد على من قال: إنه معنى واحد قام بذات الله لم يسمع منه، وإنما هو الكلام النفساني؛ لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به: إن هذا كلام حقيقة، وإلا للزم أن يكون الأخرس متكلماً، ولزم ألا يكون الذي في المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام الله، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله. كما لو أشار أخرس إلى شخص بإشارة فهم بها مقصوده، فكتب ذلك الشخص عبارته على المعنى الذي أوحاه إليه ذلك الأخرس، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عند ذلك المعنى. وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه، وإن كان الله تعالى لا يسميه أحد أخرس، لكن عندهم أن الملك فهم منه معنىً قائماً بنفسه لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً، بل فهم معنىً مجرداً ثم عبر عنه، فهو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه العربي، أو أن الله خلق في بعض الأجسام كالهواء الذي هو دون الملك هذه العبارة. ويقال لمن قال إنه معنى واحد: هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه؟ فإن قال: سمعه كله فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله، وفساد هذا ظاهر، وإن قال بعضه فقد قال: يتبعض، وكذلك كل من كلمه الله أو أنزل إليه شيئاً من كلامه. ولما قال تعالى للملائكة: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً [البقرة:30]، ولما قال لهم: اسْجُدُوا لِآدَمَ [البقرة:34] وأمثال ذلك، هل هذا جميع كلامه أو بعضه؟ فإن قال: إنه جميعه، فهذا مكابرة، وإن قال: بعضه، فقد اعترف بتعدده]. قوله في المتن: (وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة)، أكده بقوله: (حقيقة) ليبين أن عقيدة أهل السنة أن القرآن كلام الله حقيقة حروفه ومعانيه ليس أحدهما فقط، وفي ذلك رد على طائفتين: الطائفة الأولى: الذين قالوا إنه مخلوق، وهم المعتزلة الذين ورثوا الجهمية؛ فإنهم قالوا: إنه خلقه كما خلق السماوات والأرض والإنسان والحركات ونحوها. الطائفة الثانية: الذين زعموا أن كلام الله هو المعنى ليس هو اللفظ، وعلى زعمهم لا يكون الله متكلماً، وإنما هذا الذي نقرؤه عبارة أو حكاية أو ترجمة لكلام الله، والذي عبر به هو الملك كأنه ألهمه إلهاماً، فالملك في زعمهم ألهم إلهاماً فعبر عما ألهم، وأنزل إلى الرسل ذلك المعنى، فهو الذي صاغ هذه العبارة، وعلى هذا نقول: إنه كلام الملك لأنه الذي صاغه، فهو كلام جبريل أو كلام الرسل، لا أنه كلام الله. ولا شك أن هذا فيه إبطال النصوص، كقوله تعالى: وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ [البقرة:75]، وقوله: فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ [التوبة:6]، وقوله: يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ [الفتح:15]، وقوله: لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ [الأنعام:115]، وقوله: مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ [لقمان:27]، وأشباه ذلك كثير. ولو كان كذلك لكان الله تعالى موصوفاً بأنه لا يتكلم

-تعالى الله عن قـولهم- ويلـزم على ذلك أن يكـون ناقصـاً؛ لأن عـدم القـدرة على الكلام نقص في حق كل عاقــل، فكل عاقل يــرى أن الكلام مــيزة وأن نفيه نقيصة، وهؤلاء قد وصفوا الرب تعالى بالنقيصة. ثم أجاب عليهم الشارح، فقال: أنتم تقولون: إن موسى سـمع كلام اللـه، ولكنه لم يسـمع إلا المعـنى. فهل ســمع جميع ما ينسب إلى الله من الكلام أو ســمع بعضــه؟ وإذا قلتم: سمع بعضه. فلابد أن يكـون ذلك الـذي سـمعه سـماعاً حقيقـاً، لا أنه معنـوي، ونقول بعد ذلك: إن الله تعالى كلم بعض خلقـه، فقـال تعـالى: وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا [الأعراف:22]، وقال تعالى: وَقُلْنَا اهْبِطُـوا بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ [البقـرة:36] أخبر تعالى أنه كلم هؤلاء، ولا شك أن هـذا صـريح في أنه كلام مسـموع، وأنه ليس هو كلام الله كله؛ لأن كلام الله تعالى لا يحصى، ودليله قول الله تعـالى: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِـدَاداً لِكَلِمَـاتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَنْ تَنفَـدَ كَلِمَـاتُ رَبِّي [الكهـف:109]، وقوله تعـالى: وَلَـوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَـجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْـرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَـبْعَةُ أَبْحُـرٍ مَا نَفِـدَتْ كَلِمَـاتُ اللَّهِ [لقمـان:27]. فكلام الله لا نهاية له، فلو قــدر أن أشـجار الأرض كلها من أول ما خلقت الـدنيا إلى نهايتها كلها أقلام، والبحــار مع سـعتها ومعها سـبعة أمثالها من البحــار انقلبت حـبراً يكتب به، فكتب بـذلك الحـبر وبتلك الأقلام لتكسـرت الأقلام، ولنفـدت البحـار قبل أن يفنى كلام الله. هذا مفاد هذه الآيات، فإذاً كيف يقال: إن كلام الله له نهاية، وإنه هو المعنى فقـط؟! هـذا لا شك أنه تنقص للـرب سـبحانه وتعـالى، وهكذا أيضاً وصفه بأنه لا يتكلم وأن الكلام إنما هو عبارة أو حكاية عنه.

شرح العقيدة الطحاوية [18]

لا يخفى مذهب أهل السنة في كلام الله تعالى، لكن خالفهم فيه الأشاعرة والماتريدية وغيرهم، فزعموا أن القرآن عبارة عن كلام الله، واستدلوا بأدلة باطلة، مما جرهم إلى القول بما يبعدهم عن الصواب ويلحقهم بالمبتدعة.

الرد على الأشاعرة في قولهم: إن كلام الله حديث نفس وإن القرآن عبارة عنه

......

مسمى الكلام عند الفرق

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وللناس في مسمى الكلام والقول عند الإطلاق أربعة أقوال: أحدها: أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً، كما يتناول لفظ الإنسان الروح والبدن معاً. وهذا قول السلف. الثاني: اسم اللفظ فقط، والمعنى ليس جزء مسماه، بل هو مدلول مسماه. وهذا قول جماعة من المعتزلة وغيرهم. الثالث: أنه اسم للمعنى فقط، وإطلاقه على اللفظ مجاز؛ لأنه دالٌ عليه. وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه. الرابع: أنه مشترك بين اللفظ والمعنى. وهذا قول بعض المتأخرين من الكلابية. ولهم قول يروى عن أبي الحسن أنه مجاز في كلام الله حقيقة في كلام الآدميين؛ لأن حروف الآدميين تقوم بهم، فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم، بخلاف كلام الله فإنه لا يقوم عنده بالله، فيمتنع أن يكون كلامه، وهذا مبسوط في موضعه. وأما من قال إنه معنى واحد واستدل عليه بقول الأخطل : إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا فاستدلال فاسد، ولو استدل مستدل بحديث في الصحيحين لقالوا: هذا خبر واحد. ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به، فكيف وهذا البيت قد قيل إنه موضوع منسوب إلى الأخطل وليس هو في ديوانه؟! وقيل: إنما قال: (إن البيان لفي الفؤاد) وهذا أقرب إلى الصحة. وعلى تقدير صحته عنه فلا يجوز الاستدلال به، فإن النصارى قد ضلوا في معنى الكلام، وزعموا أن عيسى عليه الصلاة السلام نفس كلمة الله، واتحد اللاهوت بالناسوت، أي: شيء من الإله بشيء من الناس، أفيستدل بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب؟ وأيضاً فمعناه غير صحيح؛ إذ لازمه أن الأخرس يسمى متكلماً لقيام الكلام بقلبه وإن لم ينطق به ولم يسمع منه، والكلام على ذلك مبسوط في موضعه، وإنما أشير إليه إشارة] .
ذكر الشارح أن الفرق لها في مسمى الكلام عدة تعريفات: فمنهم من يقول: إن الكلام اسم للفظ وللمعنى جميعاً، اللفظ الذي هو الحروف، والمعنى الذي

اشتملت عليه تلك الحروف وتلك الكلمـات. والنحويـون عنـدهم تعريف الكلام يقولون: إنه ما أفاد وصيغ بالألفاظ العربية وتركب من كلمتين فـأكثر، فأما إذا كـان من كلمة واحـدة فلا يسـمى كلامـاً، وهكـذا إذا لم يفد فلا يسـمى كلامـاً، وهكذا إذا كان مركباً ولكن ليس بالألفاظ العربية فلا يسمى كلاماً. وهنـاك من يقول: إن الكلام هو الحـروف والكلمـات الـتي ينطق بهـا، وأما المعـاني الـتي اشتمل عليها فلا تدخل في مسمى الكلام. وهذا قـول المعتزلـة. وهنـاك قـول ثالث بعكسـه، وهو أن الكلام هو المعـنى، وأما الحـروف فإنما هي دالة عليـه. وهناك قول رابع أنه مشترك بينهما. وعلى كل حال فهذه الأقوال كلها خطأ إلا القول الأول، وهو أن الكلام اسم للفظ وللمعنى جميعاً، لا يسمى كلامـاً إلا إذا كان له معنى مفيـد، وكـان بـالحروف الـتي يسـمعها المتكلم، ولو كـان الكلام مصوغاً بغير العربية سميناه كلاماً بلغة أهله، فهناك الأعاجم لهم عـدة لغـات، ونسمي لغاتهم كلاماً، فنقول: تكلم بلغته، ولا نفهم كلامه، ونقول لـه: فسر لنا كلامك، فنسميه كلاماً إذا فسره بلغة نفهمها. فعلى هذا يكـون الكلام العـربي اسماً لموصوف بالحروف وبالكلمـات الـتي اسـتعملتها العـرب إذا كـانت ذات معان مفهومة عند الذين وضعوا اللغة وعند الذين تكلموا عليها. فـإذاً: القـرآن كلمـات وحـروف، وجمل وآيـات وسـور، وكل جملة لها معـنى مسـتقل، وقد تكـون الآية فيها عـدة جمـل، كآية الكرسـي، فقد اشـتملت على عشر جمـل: الجملة الأولى: قولـه: اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ [البقـرة:255] فيها إثبـات الإلهيـة. الجملة الثانية: قولـه: الْحَيُّ الْقَيُّومُ [البقـرة:255] مشـتملة على اسـمين من أسـماء الله مؤكـدين لوصـفه. الجملة الثالثـة: قولـه: لا تَأْخُـذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَـوْمٌ [البقرة:255] نفي لهذين النقصين، والسـنة النعـاس، والنـوم معـروف .. إلى آخر ما في الآيــة. ففيها عشر جمل كل جملة ذات معــنى، فتســمى الجملة كلاماً، فيقال: هـذه الجملة من كلام اللـه، ويقـال كـذلك في بقية القـرآن: إنه مشتمل على كلمات وجمل ذات معـان، كل جملة دالة على معـنى يفهمه من تعلمه وعرفه، ويترجم إلى لغة أخرى لمن لا يفهمه، وهذا القول هو الصـحيح؛ فالكلام اسم للفظ والمعنى، وكلام الله اسم للحروف والكلمـات مع المعـاني التي دلت عليها تلك الكلمات.

الرد على الأشاعرة في استدلالهم بشعر الأخطل

وذهبت الأشـــاعرة إلى أن الكلام هو المعــنى، وأنه معــنى قــائم بنفس الله تعـالى، وأنه فهمه الملك مما أشـير له إشـارة، وجعلـوا ما يقـوم بـالنفس هو الكلام، واستدلوا بهذا البيت الـذي نسـبوه إلى الأخطل ، وهو قولـه: إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا وقد جعلوه عمـدتهم، فـتراهم دائمـاً يسـتدلون به في كتبهم، وهو اسـتدلال فاسـد. ويحتج عليهم بالأحـاديث

التي في الصحيحين، فيردونها ويقولون: هذا خبر واحد، وخبر الواحد لا يفيد إلا الظن. فيردونــه، ويــردون أحــاديث الــنزول مع أنه رواها نحو عشــرة من الصحابة، ويقولـون: أخبـار آحـاد لا نقبلها ولو كـانت في الصـحيحين، ويـردون أحاديث الاستواء والكتابة، كقوله: (إن الله كتب كتاباً فهو موضـوع عنـده على العرش: أن رحمتي سبقت غضبي)، فيردون أحاديث الرحمة، ويردون أحاديث المحبة ونحو ذلك، ويقولون: إنها آحاد إنما تفيد الظن. فيقال لهم: عجبـاً لكم! تردون أحاديث الصحيحين وتحتجون بهذا البيت؟! وهذا البيت هل هو متواتر أو هو خبر واحد؟ لم يخرج عن كونه خبر واحد، بل ربما لا أصل له، وما نقل هـذا البيت بإسناد صحيح ولا بإسناد ضعيف، وإنما تتناقلونه وتنسبونه إلى الأخطل ، وقد قـال ابن القيم في نونيتـه: ودليله في ذاك بيت قاله فيما يقـال الأخطل النصراني هذا دليلهم فيما يقال، ويقول شيخ الإسلام في قصيدته اللامية: قبحٌ لمن نبذ الكتاب وراءه وإذا استدل يقـول قـال الأخطل إنما دليلهم هـذا الـبيت الــذي نسب إلى الأخطل ، ثم بحث عنه المحققــون في ديــوان الأخطل فلم يجـدوه، فـدل على أنه مصـنوع مكـذوب، قاله من نسـبه إلى الأخطل , ورواه بعضهم بلفظ: (إن البيان لفي الفؤاد) بمعنى أن القلب هو الذي يملك صـاحبه أن يقدر على البيان، وهذا هو الأليق على تقدير ثبـوت هـذا الـبيت. ولو قـدرنا أنه من كلام الأخطل فهل يكون كلام الأخطل حجـة؟ فــالأخطل نصـراني ولو كان عربياً، وهو من نصارى العرب أصر على نصرانيته، وقد دعوه إلى الإسلام فــامتنع أن يقبل الإســلام وبقي على نصــرانيته، وقد وفد على عمر بن عبد العزيز وطلب أن يـدخل عليه ليجـيزه جـائزة، فقـال: أليس هو الـذي يقـول: ولست بقائد عيسي بكوراً إلى بطحاء مكة للنجاح ولست بقائم كـالعير يـدعو قبيل الصـبح حي على الفلاح ولست بصـائم رمضـان طوعـاً ولست بآكل لحم الأضاحي ولكـني سأشـربها شـمولاً وأسـجد عند منبلج الصـباح هـذه عقيدتـه، يتمدح بأنه سيشرب الخمـر، ويسـجد إذا طلعت الشـمس أو غـربت الشـمس للشمس، ويتمدح بأنه لا يحج البيت، ويتمدح بأنه لا يأكل لحم الأضاحي، ويشبه المؤذن الذي يؤذن حي على الفلاح بأنه كـالعير فيقـول: ولست بقـائم كـالعير يــدعو قبيل الصــبح حي على الفلاح فهل يقبل مثل هــذا؟ وهل يكــون كلامه حجة؟

صلة شعر الأخطل بعقيدة النصارى

ثم يحتج عليهم الشـارح بأنه تكلم على عقيـدة النصـارى؛ وذلك لأن النصـارى ضلوا في مسمى الكلام الذي نحن في تعريفه، فعندهم أن عيسى نفس كلمة الله، فيقولون: إنه نفس الكلمة، وإنه هو الكلمة. والصــحيح أنه خلق بها لا أنه هي. يقولون: إن قوله:(كن) هو نفس الكلمـة، فعيسى هو الكلمـة، وهـو(كن)

في قوله تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران:59]، فهو خلقه وقال له: (كن)، كما خلق آدم وقال له: (كن)، وسمي كلمة الله في قوله تعالى: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه [النساء:171] والكلمة التي ألقاها هي قوله: (كن)، فـ(كن) كلام الله، خلق بها كما خلقت سائر المخلوقات بقول: (كن) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 82]. فالنصارى ضلوا في هذا الباب، واعتقدوا أن عيسى نفس الكلمة، وإذا كان هذا شاعراً نصرانياً، فإنه تكلم بالبيت على عقيدة النصارى، فكيف نقلد النصارى فيما اعتقدوا؟ وهذا كله على تقدير أن البيت ثابت. ثم لسنا بحاجة إلى الاستدلال بأقوال النصارى، وكتاب الله وسنة نبيه وكلام العرب واضح في أنه يسمى المتكلم متكلماً، والذي لا يتكلم يسمى أخرس، ومعلوم أنه قد يقوم بقلب الأخرس كلام، وقد يشير إليه، وإذا أشار إليه فهم منه، فمعناه أن الأخرس الذي لا ينطق- وهو الأبكم- يسمى متكلماً على قول هؤلاء الأشاعرة، فعرف بذلك أنه لا دلالة لهم في ذلك، وأن القول الثابت والصحيح أن الكلام هو اللفظ والمعنى جميعاً، ليس هو المعنى الذي يستشهد له بهذا البيت. قال رحمه الله تعالى: [وهنا معنى عجيب، وهو أن هذا القول له شبه قوي بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت؛ فإنهم يقولون: كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذي لا يمكن سماعه، وأما النظم المسموع فمخلوق. فإفهام المعنى (القديم) بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قالته النصارى في عيسى عليه الصلاة السلام، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه]. اللاهوت عندهم الإله، والناسوت: الناس، والنصارى يدعون أن اللاهوت اتصل بالناسوت، فتكون منهما هذا الإنسان، وتبعهم على هذا الاعتقاد أيضاً ملاحدة يقال لهم: أهل الاتحاد وأهل الوحدة. فعندهم أن اللاهوت متصل بالناسوت ومتحد معه، وفي ذلك يقول حلاجهم : سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب حتى بدا في خلقه ظاهراً في صورة الآكل والشارب هذا معناه لعنه الله، ولا شك أن هذا أكفر الكفر، ولا شك أن الله تعالى هو الخالق وما سواه المخلوق، وأنه ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، فكلام النصارى في قولهم: إن عيسى هو عين الكلمة، وإن الكلمة جزء من ذات الرب سبحانه وتعالى شبيه بقول الاتحادية الذين يزعمون كزعم النصارى أن اللاهوت اتحد بالناسوت، وأصبح شيئاً واحداً، وأن من جملة ذلك عيسى، فإنه وجد من أنثى، ولكن بعد اتصال اللاهوت بالناسوت. وجلود المؤمنين تقشعر من أن يتصور هذا التصور، ولكن قلوب أولئك صدت عن معرفة الحق وزين لهم هذا الباطل والعياذ بالله.

عدم بطلان الصلاة بحديث يرد قول الأشاعرة

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [ويـرد قـول من قـال بـأن الكلام هو المعـنى القائم بالنفس قوله صلى الله عليه وسلم: (إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس)، وقال: (إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحـدث ألا تكلمـوا في الصـلاة)، واتفق العلمـاء على أن المصـلي إذا تكلم في الصـلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته، واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بـالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصـلاة، وإنما يبطلها التكلم بـذلك، فعلم اتفـاق المسـلمين على أن هـذا ليس بكلام]. معلـوم أن الكلام هو ما يسـمع، فالساكت لا يقـال إنه تكلم. فـإذا جلست إلى إنسـان وهو يحـدث نفسـه، هل تقول: إنه تكلم بكذا وكذا؟ فما دام أنه صـامت ما نطق بكلمة فإنك لا تقـول: إنه تكلم، ولو أنه منذ جلست يحـــدث نفســـه. ثم مثل الشـــارح بقوله عليه السلام: (إن صلاتنا هـذه لا يصـلح فيها شـيء من كلام النـاس)، وهـذا حـديث معاوية بن الحكم رضي الله تعالى عنـه: (أنه صـلى مع النـبي صـلى الله عليه وسلم، فعطس رجل في الصـلاة، قـال: فقلت: يرحمك اللـه، فرمـاني القـوم بأبصارهم، فقلت وأنا في الصلاة: واثكل أمياه، ما لكم تنظرون إلي؟! فجعلوا يضـربون أفخـاذهم، ففهمت أنهم يسـكتونني، فسـكت، فلما خـرجت دعـاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقـال: إن صـلاتنا هـذه لا يصـلح فيها شـيء من كلام النـاس، إنما هو الـذكر والـدعاء وقـراءة القـرآن)، فجعل هـذا كلامـاً يبطل الصــلاة، ولكنه عــذره بكونه جــاهلاً لم يشــعر بــأن ما يقوله مبطــل. والحديث الثاني: (إن مما أحدث الله ألا تتكلموا في الصلاة) يعـني: مما تجـدد به الـوحي أن لا تتكلم في الصـلاة، وكـانوا أول ما فرضت يكلم أحـدهم أخـاه بحاجتــه، فلما نــزل قوله تعــالى: وَقُومُــوا لِلَّهِ قَــانِتِينَ [البقــرة:238] أمــروا بالسكوت ونهوا عن الكلام، فالكلام الذي يبطل الصلاة هو اللفظ الذي يسمع، والكلمات التي ينطق بها الإنسان وتخرج من بين شفتيه، ويسمعها من حولـه. فلو أن إنساناً قـال لآخر عمـداً: أنصـت، أو قم، أو تعـال، أو نحو ذلك متعمـداً وهو عــالم أنه في صــلاة بطلت صــلاته، وإنما رخصــوا في الكلام الــذي من مصلحة الصلاة أو نحوهـا، أو من مكملاتها كأركـان الصـلاة، وكالتسـبيح عنـدما ينوب الإمام شيء، أو ما أشبه ذلك. فالكلام الذي يسـمع وهو من غـير أركـان الصلاة يبطل الصلاة، وهل تبطل بحديث النفس؟ الجواب: لا تبطـل. فمعلـوم أنا لا نسلم غالباً -نستغفر الله- من حديث النفس، وأينا لا يحدث نفسـه؟! كما روي أن ابن سـعد قـال لأبيـه: يا أبت! أرأيت قـول الله تعـالى: الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ [الماعون:5] أينا لا يسهو؟ أينا لا يحـدث نفسـه؟ فقـال: ليس بذاك، إنما سهوا عن وقتها. يعني: يؤخرونها حتى يخرج وقتهـا؛ لأنه قـال:(عن صلاتهم)، ولم يقل: في صـلاتهم، فالسـهو في الصـلاة وإن كـان ينقص لكنه لا يبطلها، ولأجل ذلك يقع السـهو كثـيراً من المصـلي، ولأجل ذلك شـرع سـجود السـهو، علم الله أنه يحصل السـهو فيزيد المـرء في الصـلاة بسـبب اشـتغال قلبه وبسبب حديث نفسـه، وينقص منهـا، ويقـدم أو يـؤخر أو نحو ذلـك؛ وذلك لأن قلبه قد يشـتغل بشـيء من حديثه أو من أمـوره الدنيويـة، فيغفل عما هو

مقبل عليه فيسهو، فحديث النفس لا يسمى كلاماً، ولو كان يسمى كلاماً لبطلت به الصلاة؛ لأنه عليه السلام قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس)، فعلم أن حديث النفس لا يسمى كلاماً. ولأجل ذلك يرد على هؤلاء الذين يقولون: إن الكلام هو ما يقوم بالنفس. بل نقول: ليس كذلك، إنما الكلام هو ما يسمع وما ينطق به المتكلم، هذا هو حقيقة الكلام، وأما غير ذلك فإنه يسمى وسوسة، أو حديث نفس، أو سهواً، أو ما أشبه ذلك.

صحة اعتقاد أهل السنة في كلام الله

فمن عقيدة أهل السنة أن القرآن كلام الله، وأن الكتب المنزلة على الأنبياء كلها كلام الله، وأن الله تعالى أقام بها الحجة على العباد، وأنه ضمنها شرائعه، وأنه أنزلها معجزة لأنبيائه، وأنها كلامه حقاً حروفاً ومعاني، هذه العقيدة الراسخة التي يعتقدها أهل السنة. ولا عبرة بمن أنكر كلام الله، أو أنكر صفة من صفاته الثابتة، سواءٌ أكانت صفة فعلية أم صفة ذاتية، وذلك لما قام عندهم من الشبهات التي شككوا بها على من انتحل تلك النحل واعتقد تلك العقائد الزائغة؛ حيث إن عقيدة أهل السنة مبنية على الأصل الذي هو النقل الصحيح والفطرة السليمة، وقد أيدوا ذلك بأن هذا القرآن أنزله الله معجزة لأنبيائه، وأنه ضمنه شرائعه، وأنه بعث به رسله وأمرهم بأن يبلغوا ما نزل إليهم، وجعل وظيفتهم البلاغ، فقال: إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ [الشورى:48]، وقال تعالى: مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ [المائدة:99]، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ [المائدة: 67] ولأجل ذلك سموا رسلاً؛ لأنهم بعثوا من ربهم، أرسلهم وجعل شرائعهم رسائل، فالشرائع التي جاءوا بها سماها رسائل حيث إنهم حملوها من ربهم. فالرسل هم الأنبياء، والرسائل هي الشرائع، والمرسل هو الله تعالى، والمتضمن لذلك هو القرآن الذي ضمن هذه الشريعة، فمن صدق به عرف أنه كلام الله الذي أرسل به رسله وقبله وعمل بما فيه، ومن شك فيه أو توقف فيه ولم يقبله حق القبول ويعمل به حق العمل فهو زائغ. وقد أثبت أهل السنة أن صفة الكلام صفة كمال، وأن نفيها نقص، وردوا على المعتزلة الذين قالوا: إن الله لا يتكلم أصلاً، وإن هذا القرآن مخلوق. وردوا أيضاً على من يقول: إن كلام الله هو المعنى دون اللفظ، وإن كلام الله نفسي. أي: من يجعلون القرآن حروفاً مخلوقة أو عبارة عن كلام الله، وأن الكلام هو المعنى دون اللفظ، وهذا يقوله الأشاعرة، وتقدم أنهم يستدلون ببيت الأخطل الذي يقول فيه: إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا ورد عليهم الشارح بأن هذا بيت مختلق لا يصلح أن يكون دليلاً، لم يقله الأخطل وليس في ديوانه، وقيل إنه إنما قال: (إن البيان)، ويتعجب الشارح من

استدلالهم بهذا البيت الـذي ليس له سـند، ولا يـروى بإسـناد صـحيح، مع أنهم يردون أحاديث الصحيحين، ويقولون: إنها أخبـار آحـاد، وهـذا الـبيت أقل مرتبة من أخبــار الآحــاد. ويــرد عليهم أيضــاً أنه على تقــدير ثبوته فإنه بيت لرجل نصــراني، والنصــارى لا يقبل كلامهم في هــذا البــاب؛ وذلك لأنهم ضــلوا في مســمى الكلمــة، فـادعوا أن عيسى هو نفس الكلمة تعـالى الله عن قـولهم، فعلى تقــدير ثبوته عن الأخطل فقد قاله على معتقــده، فلا يصــير دليلاً لأهل السنة.

حديث التجاوز عن حديث النفس يرد قول الأشاعرة

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وأيضاً: ففي الصـحيحين عن النـبي صـلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله تجاوز لأمتي عما حـدثت به أنفسـها ما لم تتكلم به أو تعمل به)، فقد أخبر أن الله عفا عن حـديث النفس إلا أن تتكلم، ففـرق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم بـه، والمـراد: حتى ينطق به اللسان باتفاق العلمـاء، فعلم أن هـذا هو الكلام في اللغـة؛ لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب] . هـذا رد على الأشـاعرة الـذين يقولـون: إن الكلام هو المعنى، أو: إن كلام الله هو ما يقوم بنفسه، وأما اللفظ فهو عبارة، وهم الذين استدلوا بـالبيت السـابق، حيث جعلـوا الكلام هو ما يقـوم بـالقلب، وجعلوا اللسان دليلاً عليه. يقول: من الرد عليهم هذا الحــديث؛ إذ يقــول عليه الصلاة والسلام: (إن الله تجـاوز لأمـتي عما حـدثت به أنفسـها ما لم تتكلم أو تعمل) . وحديث النفس: هو الوساوس التي تخطر على القلب، فهذه مما عفا الله عنــه، بل قد يكتبها حســنات، ففي الحــديث: (إذا هم العبد بالحســنة ولم يعملهــا، كتبها الله عنــده حســنة كاملــة، وإذا هم بسـيئة ولم يعملها كتبها الله عنــده حســنة كاملة قــال الله تعــالى: إنما تركها من جــرائي) أي: من أجلي. فـالهم الـذي هو حـديث النفس معفو عنـه، فالعبد لا يؤاخذ على ما يهم به ولا على ما يحدث به نفسه، إنما يؤاخذ على ما يتكلم به، فـإذا تكلم وسـمع كلامه ترتب عليه الثواب والعقاب، وهذا يصـدق حـتى على الأمـور الحكميـة، فلو أن إنسـاناً حـدث نفسه أن يطلق امرأته وعـزم على ذلك بقلبـه، ولكنه لم يتكلم بكلمة فيما يتعلق بــذلك، وإنما كــان ذلك حــديث نفس، ثم بعد ذلك رجع لم تطلق زوجته بمجرد عزمه بقلبه، فلا تطلق إلا إذا تكلم بذلك أو كتب أو أشهد. فكذلك إذا حدث نفسه -مثلاً- بأنه سـوف يـزني، أو سـوف يسـرق، أو سـوف يقتل فلاناً، أو سوف يشرب خمراً، أو يترك صلاة أو زكاة أو نحو ذلك، فحديث نفس طـرأ عليه ولكنه ما فعلـه، فـإن ذلك مما يعفى عنـه، ولو كـان حـديث النفس يسمى كلاماً لما عفي عنـه؛ فـإن الله تعـالى يؤاخذ على الكلام، وذلك

لأنه عمل. فإذاً حديث القلب ووسواس النفس وما يجري فيها من الخطـرات ليس كلاماً، ولا يؤاخذ به العبد.

حديث دخول الناس النار بسبب حصائد ألسنتهم يرد قول الأشاعرة

قال المؤلف رحمه الله: [وأيضاً في السنن أن معـاذاً رضي الله عنه قـال: (يا رسول الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم بـه؟ فقـال: وهل يكب النـاس في النـار على مناخرهم إلا حصـائد ألسـنتهم)، فـبين أن الكلام إنما هو باللسـان، فلفظ القـول والكلام وما تصـرف منهما من فعل مـاض ومضـارع وأمر واسم فاعل إنما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظـاً ومعـنى. ولم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسـان، وإنما حصل الـنزاع بين المتـأخرين من علمـاء أهل البـدع ثم انتشـر، ولا ريب أن مسـمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه إلى قول شاعر؛ فإن هـذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة، وعرفـوا معنـاه كما عرفـوا مسـمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك]. يعـني أن لفظة الكلام معروفة لا تحتـاج إلى أن يستشهد عليها، ولا أن يقال: إنها تؤخذ من قول الشاعر الأخطل أو نحــوه، فإنها لفظة معروفـة، ومعلـوم أنه إذا قيـل: تكلم فلان أنه نطق وقـال وحـرك لسانه وشفتيه، وظهر له صوت يفهمه من يعرف لغته، وكتب عليه ذلك الكلام إما في سجل حسناته أو في سجل سيئاته، قال تعالى: مَا يَلْفِـظُ مِنْ قَـوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ [ق:18] أي: ما يتكلم من كلمة يتلفظ بها إلا وهنـاك ملكـان يكتبانها: عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ [ق:17] ، ولم يذكر أنه يكتب ما خطر بالقلب، إنما يكتب ما تكلم به اللسان خيراً أو شراً. وهكذا أيضاً هـذا الحـديث الذي ذكر، لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لـمعاذ : (ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال: بلى. فقال: كف عليك هذا، وأشار إلى لسانه، قال معاذ : يا رسول اللـه! وإنا لمؤاخـذون بما نتكلم بـه؟! قـال: ثكلتك أمك يا معـاذ ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم -أو قال: على منـاخرهم- إلا حصـائد ألسـنتهم)، فأخبر بأنهم إنما يعاقبون على ما تلفظـوا بـه، لا على ما وسوست به النفس، ولا على ما تكلم به القلب. فـإذاً الكلام والقـول إذا قيـل: قـال، يقـول، قـل، تكلم، يتكلم، تكلم، كلاماً، متكلم، فالعرب تعرف أن المراد أنه يختص بـالنطق الـذي هو صـياغة الكلام بـالحروف العربيـة، كما أنهم يعرفـون أن الـرأس هو مجمع الحواس الـذي هو أعلى الجسـد، وأن اليد اسم للكف والـذراع والعضد التي يحصل بها القبض والبطش، والرجل اسم للقدم والساق والركبة والفخذ التي يحصل عليها القيام والمسير ونحو ذلـك، فلا يحتـاج إلى أن يقـال: ما هي اليد؟ فإذا قيل: ما هي اليد -والذي يسأل عربي- نقـول: أما تعـرف يـدك؟ أما تعـرف رأسـك؟ أتحتـاج كلمة الـرأس إلى تفسـير؟ فكـذلك كلمة (الكلام) و

(القول) لا تحتاج إلى تفسير، ولا تحتاج إلى أن يستشـهد عليها بقـول الأخطل أو بغـيره، بل هو معـنى يعرفه كل عـربي نشأ في بلاد العـرب، ويـترجم إلى اللغات الأخرى بالكلام الذي يفهمه أهل تلك اللغة.

وقوع الأشاعرة في القول بخلق القرآن

قال المؤلف رحمه الله: [ولا شك أن من قال: إن كلام الله معـنى واحد قـائم بنفسه تعـالى، وإن المتلو المحفـوظ المكتـوب المسـموع من القـارئ حكاية كلام الله وهو مخلوق؛ فقد قال بخلق القـرآن وهو لا يشـعر؛ فـإن الله تعالى يقول: قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُـرْآنِ لا يَـأْتُونَ بِمِثْلِهِ [الإسراء:88]. أفتراه سـبحانه وتعـالى يشـير إلى ما في نفسـه، أو إلى المتلو المسموع؟ ولا شك أن الإشـارة إنما هي إلى هـذا المتلو المسـموع؛ إذ ما في ذات الله غير مشار إليه ولا منزل ولا متلو ولا مسموع، وقوله: لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ [الإسراء:88] أفـتراه سـبحانه يقـول: (لا يـأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسـمعوه ولم يعرفـوه)؟ وما في نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصـول إليه ولا إلى الوقوف عليه]. قـول الله تعـالى: قُـلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَـوْ كَـانَ بَعْضُـهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِـيراً [الإسراء:88]، وقوله تعالى: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَـانُوا صَـادِقِينَ [الطـور: 34]، وقوله تعالى: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِـهِ [البقـرة:23] وقوله تعـالى: فَـأْتُوا بِعَشْـرِ سُـوَرٍ مِثْلِـهِ مُفْتَرَيَـاتٍ [هـود:13] الإشـارة هل هي إلى المعـنى أو إلى اللفــظ؟ لا شك أن الإشـــارة إلى هــذه الكلمـــات والآيـــات الموجـــودة في المصاحف، فهو الـذي يسـمى سـوراً وآيـات وكلمـات وحروفـاً، ومجموعه هو القرآن، أشار الله إليه بقوله: بِمِثْـلِ هَـذَا الْقُـرْآنِ [الإسـراء:88]. هل الإعجـاز بالنسبة إلى المعنى الذي في نفس الرب تعالى الذي قام به؟ إنه يستحيل أن يعلم أحد ما يقوم في نفس الرب سـبحانه، وقد حكى الله عن نبيه عيسى أنه قال: تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ [المائدة:116] . فـإذاً: الـذين يقولون إن كلام الله هو ما يقوم بنفسه، وإن هذا القرآن عبارة أو حكاية عنه، وليس هو عين كلام الله؛ لا شك أنهم قد جعلوا هذا القرآن مفـترى ومخلوقـاً، وجعلوا الإنسان قادراً على أن يأتي بمثله، فجعلوه إما من صياغة الملك، وإما من صياغة محمد صلى الله عليه وسلم، وحاشـاه أن يكـون منه ذلـك، وحكى الله عنه أنه يقول: قُلْ لَوْ شَـاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُـهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِـهِ فَقَـدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ [يونس:16] لبث فيهم قبله أربعين سـنة، فكيف مع ذلك جـاء به بعد هـذه المـدة وافـتراه وقاله من قبل نفسـه، ولو أنه أوحي إليه المعنى وقيل له وعليك صياغة اللفظ، وعليك صياغة الكلمـات لكـان ذلك من إنشائه لا من إنشاء الله سـبحانه، فعلم بهـذا أنه لما نـزه نفسه عن أن يقـول

إنه كلامه، صدق عليه أن اللفظ والمعنى كله من كلام الله. وهذا هو الصحيح، والإشارة بقوله: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ [الطور:34] أي: على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، والإشارة إلى الحروف والمعاني، لا على ما يقوم بذات الرب أو بنفسه سبحانه وتعالى؛ فإن ذلك غير ممكن الاطلاع عليه ولا معرفته.

إلزام الأشاعرة بأشد مما لزم المعتزلة

قال المؤلف رحمه الله: [فإن قالوا: إنما أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارته، وهو المتلو المكتوب المسموع فأما أن يشير إلى ذاته فلا، فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق، بل هم في ذلك أكفر من المعتزلة، فإن حكاية الشيء مثله وشبهه، وهذا تصريح بأن صفات الله تعالى محكية، ولو كانت هذه التلاوة حكاية لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله، فأين عجزهم؟! ويكون التالي -في زعمهم- قد حكى بصوت وحرف ما ليس بصوت وحرف، وليس القرآن إلا سوراً مسورة، وآيات مسطرة، في صحف مطهرة، قال تعالى: فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ [هود:13]، وقال: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ [العنكبوت:49]، وقال: فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ [عبس:13-14]، ويكتب لمن قرأ بكل حرف عشر حسنات، قال صلى الله عليه وسلم: (أما إني لا أقول (الم) حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)، وهو المحفوظ في صدور الحافظين المسموع من ألسن التالين. قال الشيخ حافظ الدين النسفي رحمه الله -في المنار-: إن القرآن اسم للنظم والمعنى. وكذا قال غيره من أهل الأصول، وما ينسب إلى أبي حنيفة رحمه الله أن من قرأ في الصلاة بالفارسية أجزأه فقد رجع عنه وقال: لا تجوز القراءة مع القدرة بغير العربية. وقالوا: لو قرأ بغير العربية فإما أن يكون مجنوناً فيداوى، أو زنديقاً فيقتل؛ لأن الله تكلم به بهذه اللغة، والإعجاز حصل بنظمه ومعناه]. كل هذا رد على هؤلاء الذين يزعمون أن كلام الله هو المعنى دون الحروف، فيقول لهم: إذا كان كذلك؛ فإذاً ليس هو كلام الله، وإنما هو كلام من أنشأه ومن نظمه هذا النظم، وهذا الذي نظمه إما أنه في زعمكم الملك الذي أنزله، أي: أنه أخذ المعنى ونظمه بهذا النظم، وإما أنه الرسول، بمعنى أنه ألقي في قلبه وفي روعه المعاني فصاغ لها عبارات باللغة التي يحسنها، فعلى هذا لا يكون هذا القرآن كلام الله، وعلى هذا يجوز أن يقرأ بأي لغة، ويجوز أن يقرأ بالمعنى، ويترك اللفظ، ويكون الأجر على المعنى لا على الحروف، وهذا خلاف ما ورد، وذلك يتبين من وجوه. أولاً: الإعجاز الذي أعجز هذا البشر أن يأتوا بمثله ليس هو بالمعنى؛ فإن المعاني يقدرون على أن يصوغوها، فإذا فهمت -مثلاً- معاني

آية الكرسي استطعت أن تصوغ لها معاني مثلها وأن تعبر عنها، كما حصل في التفاسير، فإن أهل التفاسير صاغوا معانيها بعباراتهم، فلو كان الإعجاز هو الإتيان بالمعنى لم يكن هناك إعجاز، أي أن التلاوة التي فيها أجر إنما هي تلاوة هذه الحروف، لقوله عليه الصلاة والسلام: (من قرأ حرفاً من القرآن فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)، فقد جعل هذه الحروف عين المتلو وعين كلام الله، وهي التي يكون عليها الأجر والحسنات، فلو كان المعنى هو المطلوب لأباح لنا أن نقرأ بالمعنى ونحصل على الأجر وعلى الحسنات. ثانياً: القرآن نزل بلغة العرب، فلا يجوز أن يتعبد به بغير لغتهم، وقد روي عن أبي حنيفة أنه أجاز الصلاة باللغة الفارسية، يعني: أن تترجم الفاتحة إلى اللغة الفارسية، ثم يقرأ بها في الصلاة، ولكن أبا حنيفة قال ذلك أولاً ثم رجع عنه، ولم يوافقه على مقالته أحد من الأئمة، بل كلهم قالوا: لا تجزئ الصلاة إلا بالحروف العربية. حتى قالوا: وكذلك في الخطب وفي الأذان وما أشبههما، لا تجوز إلا باللغة العربية، فمن صرفها إلى لغة أخرى لم يأت بالواجب، فإذا خطب بلغة أعجمية لم تجزئه خطبته، أو قرأ الفاتحة بلغة أعجمية لم تجزئه قراءته ولم تصح صلاته، أو قرأ التشهد بلغته التي ليست عربية لم يصح تشهده، أو أذن بغير اللغة العربية لم يصح أذانه، وهكذا سائر شرائع الإسلام. فلما كان ذلك دل على أن هذه الألفاظ العربية الموجودة في المصاحف مطلوبة منا، وعلى هذا يكون لها مزية، ولماذا حصلت لها هذه المزية؟ لأنها عين كلام الله، ولو كانت عبارة أو حكاية عنه لما كان لها ميزة عن عبارة سائر الناس، فإذا كان عبارة محمد، أو عبارة جبرائيل، أو عبارة صحابي آخر لم يكن له ميزة عما نعبر به نحن، أو عما يعبر به فلان؛ لأن الجميع كله من إنشاء الإنسان لا من كلام الله، لا أنه عين كلام الله، تعالى الله عن ذلك. فإذاً عرف بذلك أن هذا الكلام نفسه هو عين كلام الله حروفه ومعانيه.

من قال: إن القرآن عبارة عن كلام الله فقد قال إنه قول البشر

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقوله: (ومن سمعه وقال: إنه كلام البشر فقد كفر)، لا شك في تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله، بل قال: إنه كلام محمد أو غيره من الخلق، ملكاً كان أو بشراً. وأما إذا أقر أنه كلام الله ثم أوَّل وحَرَّف فقد وافق قول من قال: إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ [المدثر:25] في بعض ما به كفر، وأولئك الذين استزلهم الشيطان، وسيأتي الكلام عليه عند قول الشيخ: ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله إن شاء الله تعالى]. صاحب المتن -وهو الطحاوي - عبارته هنا تقتضي تكفير من يقول إن هذا القرآن قول البشر. وما ذاك إلا أن الله كفر من قال ذلك، فقد حكى الله

عن بعض المشركين قوله تعالى: إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ [المدثر:18-25]، فالشاهد قوله: إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ [المدثر:25]، فجعله أولاً سحراً يؤثر، ثم صرح بأنه قول البشر. فهؤلاء الذين يقولون: إنه إنشاء محمد قد أشبهوا هذا الكافر الذي قال: إنه سحر يؤثر، إنه قول البشر، وتوعده الله فقال: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ [المدثر:26]، وهذا وعيد شديد، وهو عام لكل من زعم أن هذا القرآن قول البشر لا أنه قول رب البشر، والذين يعتقدون أنه كلام الله يعرفون أن الله تعالى هو الذي تكلم بما شاء، وأنزله وحياً على نبيه، وأمر نبيه أن يبلغه إلى أمته باللفظ والمعنى، فعلى هذا يكون البشر جميعاً كلهم يقرءونه على أنه كلام الله، لا على أنه كلام لأحدهم. فالحاصل أن من ادعى أنه ليس هو عين كلام الله، وأن كلام الله هو المعاني دون الألفاظ ودون الحروف، فقد أبطل هذه النصوص وادعى أن كلام الله إنما هو المعنى. وهذه الطائفة هي طائفة الأشاعرة، وهم من أكثر الطوائف انتشاراً في القرون الوسطى؛ إما لأنهم تمكنوا وكثروا وصار الخلفاء يقربونهم، فصاروا يؤلفون وينصرون بذلك معتقدهم، واشتهر هذا القول وكثرت الكتابة فيه، وتستر الذين يقولون بقول الحق؛ لكونهم قلة وأذلاء فاستخفوا، ولم يستطيعوا أن يصرحوا بما يعتقدونه طوال أكثر القرون؛ في القرن الرابع والخامس والسادس وأغلب السابع، وفي آخر القرن الثامن ظهر من يقول بالحق ويصدع به، فقيض الله للأمة من انتصر انتصاراً شديداً لقول الحق، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية ، ومن قرأ عليه، ومن انتفع به من تلاميذه وأهل زمانه إلى أن وصل الأمر إلى مؤلف هذا الشرح. فهؤلاء الذين في هذه القرون الكثيرة وكذلك من بعدهم لا شك أنهم ذوو منزلة، فلأجل ذلك توقف العلماء في الحكم عليهم، قالوا: هل نحكم على هؤلاء كلهم أنهم كفار؛ حيث إنهم يقولون: إن كلام الله هو المعنى، وليس كلام الله هو الحروف، ويقولون: إن كلام الله معنى قائم بنفسه. ففي زعمهم أن الكلام إنما يخطر ممن تقوم به الحوادث كما يدعون ذلك، فعند ذلك توقفوا وقالوا: نعذرهم باجتهادهم ونكل أمرهم إلى الله تعالى ولا نكفرهم، ولكن من قامت عليه الحجة وانقطع عذره، ومات مصراً على ذلك، نتبرأ منه وأمره إلى الله تعالى، ولا نصرح بكفره.

إعجاز القرآن في اللفظ والمعنى دليل على أنه كلام الله

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (ولا يشبه قول البشر)، يعني: أنه أشرف وأفصح وأصدق، قال تعالى: وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثاً [النساء:87]، وقال تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا

يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ [الإسراء:88] ، وقال تعالى: قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ [هود:13]، وقال تعالى: قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ [يونس:38]، فلما عجزوا -وهم فصحاء العرب مع شدة العداوة - عن الإتيان بسورة مثله، تبين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أنه من عند الله. وإعجازه من جهة نظمه ومعناه لا من جهة أحدهما فقط، هذا مع أنه قرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين، أي: باللغة العربية. فنفي المشابهة من حيث التكلم ومن حيث النظم والمعنى لا من حيث الكلمات والحروف، وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطعة في أوائل السور، أي أنه في أسلوب كلامهم وبلغتهم التي يتخاطبون بها، ألا ترى أنه يأتي بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن، كما في قوله تعالى: الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ [البقرة:1-2] ، الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ [آل عمران:1-3] الآية، المص * كِتَابٌ أنزِلَ إِلَيْكَ [الأعراف:1-2]، وقوله تعالى: الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ [يونس:1]. وكذلك الباقي، ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه بل خاطبكم بلسانكم. ولكن أهل المقالات الفاسدة يتذرعون بمثل هذا إلى نفي تكلم الله به وسماع جبرائيل منه، كما يتذرعون بقوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى:11] إلى نفي الصفات، وفي الآية ما يرد عليهم قولهم، وهو قوله تعالى: وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:11]، كما أن في قوله تعالى: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ [يونس:38] ما يرد على من ينفي الحرف؛ فإنه قال: ((فأتوا بسورة)) ولم يقل: (فأتوا بحرف أو بكلمة) وأقصر سورة في القرآن ثلاث آيات، ولهذا قال أبو يوسف ومحمد رحمهما الله: إن أدنى ما يجزئ في الصلاة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة؛ لأنه لا يقع الإعجاز بدون ذلك. والله أعلم]. هذا رد على هؤلاء الذين يدعون أن هذا القرآن ليس هو كلام الله إنما كلام الله هو المعنى دون اللفظ، وقد عرفنا أن الإعجاز الذي تحدى الله به البشر هو المعنى واللفظ، ففي قوله: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ [البقرة:23]، وقوله تعالى: فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ [هود:13] يراد بذلك: ائتوا بما يحصل به الإعجاز، وذلك بأقل سور القرآن كسورة الكوثر، وسورة الإخلاص، ولا شك أن هذه السور تتركب من كلمات وحروف، وأن هذه الحروف التي تركبت منها هي من جنس ما يتكلم به العرب، والعرب ينطقون بهذه الحروف، لا ينطقون إلا بثمانية وعشرين حرفاً، وهي التي في لغتهم، والحروف التي ينطق بها الأعاجم زائدة عليها لم يعتبروها، وقد سجلوا هذه الحروف، وكتبوا كل حرف وجعلوا له هيكلاً وصورة حتى ينطقوا بهذه الكلمات إذا جمعت الحروف بعضها إلى بعض، وإذا كان كذلك فإن أكثر الكلام هو ما جمع اللفظ والمعنى. وقد ذكر النحويون أن الكلام عبارة عما أفاد، وكان مشتملاً على بعض الحروف الهجائية، وكان ذا معنى مفيد، وكان مركباً من كلمتين فأكثر، وكانت الكلمات مما وضعته العرب، أي: مما تكلمت به، لا أنه بالكلمات الأعجمية، ولا بالحروف اللاتينية أو بالحروف الأردية أو غير ذلك من الكلمات التي لا تعرفها العرب، فلا شك أن هذه لا تسمى كلاماً. ففي كتاب العقيدة في آخر الكلام على القرآن وأنه كلام الله تعالى الرد على من زعم أنه مفترى، وأن من قال ذلك فإنه كافر، وهكذا من

زعم أنه من إنشـــاء أي بشـــر. دليل ذلك قـــول الله تعـــالى حكاية عن بعض الكفار: فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ *إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ [المـدثر:24-25]، فوعده الله فقال: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ [المـدثر:26] يعـني: من قـال بهـذه المقالة فإنه يستحق أن يصلى بسـقر، وهي من أسـماء النـار، ولا شك أن ذلك إنكـار لأن يكون القـرآن من كلام اللـه، وإنكـار أن يكـون معجـزة لنبيه عليه الصـلاة والسلام ، وادعـاء أنه من كلام محمد أو من كلام غـيره من البشـر. وقد حكى الله تعالى عن بعض الكفار أنهم قالوا: إِنَّمَا يُعَلِّمُـهُ بَشَـرٌ [النحـل:103] ادعـوا أن الـذي يتعلم منه إنسـان بمكة كـان أعجميـاً، قـال الله تعـالى: لِسَـانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْـهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَـانٌ عَـرَبِيٌّ مُبِينٌ [النحـل:103] يعـني: أن ذلك الذي يدعون أنه هو الذي علم محمداً هذا القرآن ليس فصيحاً بالعربية بل هو أعجمي، أما هذا القـرآن فإنه كلام عـربي فصـيح واضـح، ليس فيه شـيء من العجمة ولا من اللكنة ولا من الوصمة أو العيب، بل هو كلام الله. وكذلك أيضاً حكى الله عنهم أنهم قالوا: إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ [المائدة:110]، وقالوا: إنه لقول شاعر، وقال بعضهم: بل هو قول كاهن. وَقَـالُوا أَسَـاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِـيلاً [الفرقـان:5] و(الأسـاطير) أي: الأكـاذيب الـتي جمعها الأولـون، والـتي هي من كلام الأولين، ادعـوا أن محمـداً جمعهـا، وأن هناك من يأخـذها منه فهي تملى عليه بكـرة وعشـياً، أي: أول النهـار وآخـره، فأخبر تعالى بأنه كلام الله حيث قال: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ [الفرقان:5]، ثم قال: قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُـوراً رَحِيمـاً [الفرقان:6]. وعلى كل حال فمهما قال الذين لفقوا هذه الأقاويل من الأولين والآخـرين، فقد رد الله عليهم، وقد فضح أكـاذيبهم، وما بقي إلا القـول الحق وهو عقيدة كل مسلم أن يعتقد أن القـرآن كلام اللـه، وأنه أنزله على أنبيائـه، وأنه أرسل به رسله، فهو من جنس الكتب التي أنزل بها ملائكته على رسـله، وجعلها معجـزة لهم وآية لهم تـدل على صـدقهم، فـآخر هـذه الكتب هو هـذا القرآن الذي من الله ببقائه على هذه الأمة، وجعله معجزة لهذا النبي الكريم، فعلينا أن نعتقد فيه أنه آية ودلالة ومعجـزة لنبينا عليه الصـلاة والسـلام، وأن نتلوه حق تلاوته، وأن نتدبره ونعمل بما فيه حتى نكون من الـذين يؤمنـون به ويتبعونه ويتلونه حق تلاوته.

وسطية الإثبات بين طرفي التشبيه والنفي

قال المؤلف رحمه الله الله تعالى: [قوله: (ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر، ومن أبصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجـر، وعلم أن الله بصفاته ليس كالبشر). لما ذكر فيما تقدم أن القرآن كلام الله حقيقة منه بـدا نبه بعد ذلك على أنه تعـالى بصـفاته ليس كالبشـر، نفيـاً للتشـبيه عقيب

الإثبـات. يعـني: أنه تعـالى وإن وصف بأنه متكلم لكن لا يوصف بمعـنى من معاني البشر التي يكون الإنسان بها متكلماً؛ فـإن الله ليس كمثله شـيء وهو السميع البصير، وما أحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غـير تشـبيه ولا تعطيل باللبن الخالص السائغ للشاربين يخرج من بين فـرث التعطيل ودم التشبيه، والمعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً، وسـيأتي في كلام الشـيخ: (ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيـه). وكـذا قولـه: (وهو بين التشـبيه والتعطيـل). أي: دين الإسـلام. ولا شك أن التعطيل شر من التشـبيه لما سأذكره إن شاء الله تعالى، وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيهاً، بل صفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به، وقوله: (فمن أبصر هذا اعتبر) أي: من نظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبـات الوصف ونفي التشبيه ووعيد المشبه، اعتـبر وانزجر عن مثل قـول الكفـار] .
ذكر في هـذا الكلام أن من النـاس من غـالى وجعل كلام الله ككلام البشـر، ومنهم من جفا ونفى أن يكـون لله كلام أصـلاً، وادعى أن القـرآن مخلـوق. ومنهم من أثبت لله تعالى كلامـاً ونفى أن يكـون مثل كلام المخلـوقين، وهـذا القول الوسط، وهو قول أهل السنة، ويقال كذلك في سائر الصفات، وهو أن كل صفة نثبتها لله تعالى، فإنا نعتقد أنها على ما يليق به، ونـنزه الله عز وجل عن أن يكون شبيهاً بـالمخلوقين في أي صـفة، كما ننزهه عن أن تسـلب عنه صـفات الكمـال، فسـلب الصـفات يسـمى تعطيلاً، وإثباتها واعتقـاد أنها مثل صفات المخلوقين يسمى تشبيهاً، وكلاهما طرفا نقيض، وكلاهما باطل لا يجوز القول به. والقول الوسط الذي هو قـول أهل السـنة اعتقـاد أن صـفات الله -سواءٌ كلام الله أو صفاته أو أفعاله -ثابتة وحق ويقين، وليست مماثلة لصـفات المخلـوقين، هكـذا يجب أن نقـول، ولأجل ذلك مثله كما ذكر بـاللبن الصـافي الذي يخرج من فرث ودم، فجعل اللبن هو قـول أهل السـنة، والفـرث والـدم قول المعطلة والمشـبهة. وذكر أن بعض السـلف كـانوا يقولـون: الممثل يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، والموحد يعبد إلهاً واحداً فرداً صمداً. ويقول آخر: من شبه الله بخلقه فقد كفـر، ومن نفى عنه ما أثبته لنفسه فقد كفـر، وليس في صفات الله تعالى تشبيه، بل فيها إثبات صفات تليق بجلاله يـنزه فيها عن أن يكون مشابهاً لشيء من المخلوقات، هكذا ينبغي أن نعتقد في صفات ربنا سـبحانه وتعـالى. ولا شك أن كلا الطـرفين يعتقـده خلـق، فطـرف التشـبيه يعتقده أنـاس، وطـرف التعطيل عليه أمم، ولكن المعطلة أكـثر؛ لما يروجونه من عقلياتهم التي يموهون بها في نفي الصـفات، فلأجل ذلك يقـول الشـارح: (إن المعطلة أشد كفراً من المشبهة)، وما ذاك إلا لكثرة ما ابتلي بهم الخلق، فلـذلك يـرجح كثـير من الأئمة أن المعطل قد تنقص الله غاية التنقص، حـتى سـلب ربه سـبحانه صـفات الكمـال وألحقه بالناقصـات أو بالجمـادات أو بالمعدومات أو بالمستحيلات الممتنعات، فمن لازم أقوالهم مثل هـذا، فلـذلك يقول ابن القيم في نونيته: لسنا نشبه ربنا بصفاتنا إن المشبه عابد الأوثان كلا ولا نخليه من أوصـافه إن المعطل عابد البهتـان يعـني: كأنه لا يعبد شـيئاً ولا يؤمن بشيء -تعالى الله عن قولهم-، ويأتي لذلك أيضاً زيـادة بيـان في الـرد على الطائفتين.

شرح العقيدة الطحاوية [19]

إن ألذ نعيم ينعم به أهل الجنة في الجنة هو رؤيتهم ربهم تبارك وتعالى، وهذه الرؤية ثابتة بنصوص الكتاب والسنة، وهي مما يعتقده أهل السنة، وقد خـالف في ذلك بعض الفرق كالمعتزلة، ونأوا عن الصـواب ظـانين أنهم يـنزهون الله تعالى عن الجهة والحيز، وما علمـوا أن من حـرم هـذا النعيم فقد حـرم خـيراً كثيراً.

رؤية الله تعالى يوم القيامة

......

رؤية أهل الجنة لله تعالى حق

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [قولـه: (والرؤية حق لأهل الجنة بغـير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتـاب ربنـا: وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِـرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَـاظِرَةٌ [القيامة:22-23]، وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جـاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنـا، ولا متـوهمين بأهوائنـا؛ فإنه ما سـلم في دينه إلا من سـلم لله عز وجل ولرسـوله صـلى الله عليه وسلم، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمـه). المخـالف في الرؤية هم الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإماميـة، وقـولهم باطل مـردود بالكتـاب والسنة، وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون وأئمة الإسـلام المعروفـون بالإمامة في الدين، وأهل الحديث وسـائر طوائف أهل الكلام المنسـوبون إلى السنة والجماعة. وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، وهي الغاية التي شـمَّر إليها المشـمرون وتنـافس المتنافسـون، وحرمها الـذين هم عن ربهم محجوبـون وعن بابه مـردودون]. الكلام هنا على مسـألة رؤية المؤمـنين لـربهم سـبحانه وتعـالى، والرؤية في الآخـرة ثابتة عند أهل السـنة، ثابتة في الجنة وفي الموقف أحيانـاً. وهـذه الرؤية من تمـام نعيم أهل الجنـة، ومن تمام كرامتهم، ومن تمام إتحـافهم والإنعـام عليهم، وذلك أن يـروا ربهم، وأن يتجلى لهم ربهم كما يشاء، وأن يكشف الحجاب بينه وبينهم، وأن ينظـروا إليه كما يشـاءون، وإذا نظـروا إليه لم يلتفتـوا إلى غـيره حـتى يحتجب عنهم، فيزدادون بهجة وسـروراً، وتسـفر وجـوههم وتـزداد نضـرة وفرحـاً. وقد أخـبر العلماء والعباد والعارفون بأنه لـولا يقينهم بـأنهم سـيرون ربهم تعـالى لقتلـوا أنفسهم، فلو عرفوا أنهم في الآخرة لا يتنعمون برؤيته لما قر لهم قـرار، ولما سروا بذلك الموعد، لكن اطمأنوا إلى خبر ربهم والخبر عن نـبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام، وصـدقوا بـأنهم يـوم القيامة وفي الجنة يتنعمـون غاية التنعم

برؤية الله سبحانه وتعالى، وذلك أنه في بعض الأحاديث يقول لهم: (اسألوني. فيقولون: نسألك رضاك. فيقول: رضائي أحلكم دار كرامتي، فيقول: سـلوني. فيجتمعـون على أن يقولـوا: اكشف لنا الحجـاب- أو: أرنا وجهـك- فـإذا تجلى ورأوه لم يلتفتوا إلى غيره).

المعتزلة والجهمية والخوارج ينكرون الرؤية

ولا شك أن ذلك وارد في الأدلة الكثـيرة، وفي النصـوص الصـحيحة الصـريحة الـتي لا تحتـاج إلى تقويـة، والـتي بلغت في كثرتها التـواتر، ولكن أنكرها مع كثرتها من حرمـوا هـذا النعيم، ومن صـدوا بقلـوبهم عن هـذا الأمر العظيم، أولئك هم الجهمية والمعتزلة وأتباعهم من الخوارج والإمامية. والجهمية: أتبـاع الجهم بن صـفوان . وهو أول من أنكر الصـفات، ولما أنكر أن يكـون الـرب سبحانه وتعالى له صفات أنكر أن يرى، وقال: لا يمكن أن يرى إلا إذا كان في مقابلة أو كـان في جهـة. فـادعى أن رؤيته مسـتحيلة وغـير ممكنـة. وتبعت المعتزلة الجهمية، والمعتزلة فرق كثيرة لا يزالـون موجـودين، ولهم مؤلفـات ينكرون فيها الصفات، ومن جملة الصفات الرؤية، فينكـرون أكـبر نعيم وأكـبر لذة لأهل الجنة، بل أهل الدنيا إذا تذكروها حداهم ما تذكروه إلى طلبها، وإلى التشمير في العبادة التي تؤهلهم لها، ولا شك أن الرؤية هي أجلّ نعيم يحصل لأهل الجنـة. وتبعهم على ذلك الخـوارج، يعـني: من المتـأخرين، أما الخـوارج المتقدمون فلم يُنقل عنهم إنكار ذلـك، وأما الخـوارج المتـأخرون فـإنهم على هذا المعتقد، وهو إنكار الرؤية والقـول بـأن القـرآن مخلـوق. فهـذه من عقائد المعتزلة الــتي وافقهم عليها بعض الخــوارج، وقد اطلعت على كتــاب لبعض المتأخرين سماه: (الحق الدامغ) أنكر فيه الصفات وركَّز على مسألة الرؤيــة، وتكلف في صرف الأدلة التي تدل عليها، وركَّز فيه أيضاً على مسـألة القـرآن وأنه مخلوق، وكذلك مسألة القدر، فأنكر قـدرة الله على خلق أفعـال العبـاد. فينبغي أن نأخذ حذرنا، وهذا المؤلف موجود في دولة عمـان، وقد ضل بسـببه خلق كثير، ولكن الحق واضح، ويبشرنا كثـير من الـذين ذهبـوا إلى تلك الدولة أن كثيراً من الشباب الـذين تفتحت معـارفهم قد أنكـروا معتقـدات أسـلافهم وآبائهم في مثل هذا، وأنهم رجعوا إلى عقيدة أهل السنة وإن لم يتمكنــوا من الإصـلاح. والـذين هنـاك هم الإباضـية -فرقة من الخــوارج- لهم الدولة ولهم الصولة ولهم القوة، فهم من بقية الخوارج يعتقـدون هـذه العقيـدة، وأكـبر ما يعتقدونه وأشـهره إنكـارهم لهـذه اللـذة الـتي هي رؤية الله تعـالى في الـدار الآخرة. وعلى كل حال فإن مسألة الرؤية هي من أجل المسائل ومن أفضلها، اعتقدها أهل السنة وآمنوا بها، ولا عبرة بمن أنكرها من هؤلاء؛ فقد أخــبر الله تعالى بأن من خلقه من يُحجب عنه في قوله تعـالى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

لَمَحْجُوبُونَ [المطففين:15]، وهؤلاء منهم بغير شك، فإذا كانوا ينكرون أن يكون الله تعالى يُرى في الآخرة، فمعناه أنهم لا يريدون رؤية الله، وأنهم سيحجبون عن الله تعالى، ولا يحجب عنه إلَّا الكافرون، فقد حرموا أنفسهم هذه اللذة وأنكروها، فيكونون معاقبين بمثل ما اعتقدوه والعياذ بالله.

بيان دلالة آية سورة القيامة على ثبوت الرؤية

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [.. وقد ذكر الشيخ رحمه الله من الأدلة قوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة:22-23]، وهي من أظهر الأدلة، وأما من أبى إلا تحريفها بما يسميه تأويلاً فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب أسهل من تأويلها على أرباب التأويل، ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلَّا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدنيا والدين. وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم، وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية! فهل قتل عثمان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد! وكذا ما جرى في يوم الجمل، وصفِّين، ومقتل الحسين ، والحَرَّة! وهل خرجت الخوارج واعتزلت المعتزلة ورفضت الروافض وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إلا بالتأويل الفاسد. وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بأداة (إلى) الصريحة في نظر العين وإخلاء الكلام من قرينةٍ تدل على خلاف حقيقته وموضوعه، صريح في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الرب جلَّ جلاله]. أوضح ما استدل به أهل السنة هذه الآية التي في سورة لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ [القيامة:1] قال تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة:22-23]، فالكلمة الأولى رُسمت بـ(الضاد)، والمراد أنها وجوه مشرقة من النضارة التي هي البهاء والإشراق والسرور والابتهاج، يعني أنها منيرة. وقد ذكر الله تعالى أن وجوه أهل الخير هكذا، فقال تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ [آل عمران:106]، فتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل الفرقة والابتداع. وقال تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ [عبس:38-39]، وهذه وجوه أهل السعادة أيضاً. فهكذا ذكر الله في هذه الآية أن هذه الوجوه ناضرة، يعني: بهية مشرقة مستنيرة مضيئة تغشاها الفرحة والسرور لأنها شعرت بالسعادة، ولأنها أيقنت بحسن العاقبة، ولأنها عرفت الفوز والظفر بالمطلوب، وعرفت أنها ستلقى الجزاء الذي وُعدت به، وهو الجزاء الأوفى الذي هو جزاء الحسنات بأضعافها. والقول الثاني: إن المعنى: لما نظرت إلى الله سبحانه أشرقت من آثار ذلك النظر، وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ [القيامة:22] أي: مشرقة

مضيئة بسبب رؤيتها لله سبحانه وتعالى. وقوله: إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة: 23]: لا شك أن هذا يراد به الوجوه، فتلك الوجوه إلى ربها ناظرة، وهذه كتبت بـ(الظاء) أخت (الطاء)، يعني أنها تنظر إلى ربها نَظَرَ عيان ونَظَرَ معاينة، ولم يقل: إلى نعمة ربها، ولم يقل: إلى ثواب ربها ناظرة. ولم يقل: إلى النعيم راضية. ولا: إلى الجنة ناظرة. بل قال: إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة: 23] أي: تنظر إلى ربها. وفرق بين من يقرؤها ويُمِرُّها كما جاءت ومن يتكلف في تأويلها.

الرد على تأويل المعتزلة لآيات الرؤية وأحاديثها

والمعتزلة الذين أنكروا الصفات تأولوها تأويلات بعيدة، فبعضهم يقول: إن الـ(إلى) هي النعمة يعني: آلاء ربها أو نعم ربها ناظرة. و(إلى) معروف أنه حرف جر، ولكن جعلوه اسماً مضافاً فقالوا: إلى ربها. أي: نعمة ربها، أو واهب الآلاء. ولا شك أن هذا تكلف بعيد. وهكذا قال بعضهم: (إلى ربها ناظرة) أي: إلى ثواب ربها. أو: إلى نعمة ربها. أو: إلى جزاء ربها. فجعلوا في الكلام مضمراً، وما الذي دلكم على أن في الكلام مضمراً أو كلاماً محذوفاً؟! والجواب: لا دلالة عليه. فلماذا تتركون الظاهر وتأتون بمضمر من قبل أنفسكم؟! وبعضهم قال: (ناظرة) أي: منتظرة. إلى ربها. أي: منتظرة ما يعطيها أو ما يهبها، مع أن هناك فرقاً بين (ناظرة) و(منتظرة)! ومن أمثال هذه التأويلات تكلف يسمونه تأويلاً، وهو في الحقيقة تحريف وتغيير وتصحيف لكلام الله وصرف له عن ظاهره. نقول: إذا تكلفتم هذا النص بالتأويل أمكن غيركم وأمكنكم أن تتأولوا آيات المعاد، فأنتم الآن -يا معتزلة- تكلفتم في التأول في آيات الصفات وحرفتم ما وصلكم، ففتحتم الباب لغيركم، فالفلاسفة أنكروا المعاد الحقيقي الجسماني، وقالوا: ليس هناك رد للأرواح في الأجساد، وليس هناك إحياء للأموات. فقيل لهم: كيف تردون على هذه النصوص؟ فقالوا: نتأولها، وليس تأويلكم لآيات الصفات أصعب من تأويلنا لآيات المعاد! ثم جاءت فرقة أخرى من غلاة الفلاسفة وغلاة الصوفية فتأولوا نصوص الأحكام -الحلال والحرام والأوامر والنواهي- وصرفوها أيضاً عن ظاهرها وأبطلوها كل الإبطال، حتى قال بعضهم: المراد بالحج حج القلوب إلى علام الغيوب، أو قالوا مثلاً: الصلاة المراد بها اتصال القلب بالرب، واتصال القلب بالرب ليس معناه أن تجتمعوا في المساجد وتركعوا وتسجدوا، هذا ليس هو المراد منكم، فإذا صفت قلوبكم واتصلت بالملأ الأعلى فهذه هي الصلاة التي أمرتم بها. هكذا يقول الصوفية ونحوهم. نقول: إذاً بطَلَت بهذا التأويلِ الأحكامُ التي نُقلت بالفعل وبالقول الصريح بسببكم يا أشعرية ويا معتزلة لما تأولتم وفتحتم باب التأويل لآيات الصفات، فدخل من هذا الباب

الفلاسفة والصوفية وأهل الوحـدة وصـاروا يتـأولون. بل حصل بالتأويل أعظم الفتن؛ فـإن الفتن الـتي وقعت في عهد الصـحابة إنما هي بسـبب التـأويلات الباطلـة، فقتل عثمـان ، وكـذلك قتل الحسـين ، وكـذلك الفتن الـتي حصـلت ووقعت في صـفِّين ووقعت في الجمل ووقعت في الحَـرَّة بسـبب التـأويلات البعيــدة عن الصــواب. فلا تتــأولوا النصــوص، بل أجروها على ما يُفهم منها وفوضوا الكيفيـة، فـإذا قصـرت أنظـاركم ومعـرفتكم عن شـيء فلتتوقف عن الكيفية، كيفية تلك الرؤية أو كيفية الصـفة الـتي هي صـفة ذات، وقولـوا: الله أعلم بها، كما يقول مالك رحمه الله: الاستواء معلوم والكيف مجهول. فهكــذا نقــول: الكلام معلــوم والكيف مجهــول، الرؤية معلومة وكيفيتها مجهولة لنــا، والله أعلم بكيفيتها. وإذا كان كذلك سلِمنا من أن نقع في هذا التحريف الــذي سماه أهله تأويلاً، ترويجاً له حتى يُقبل عند السُّذَّج وقِصار الأفهام.

الرد على المعتزلة في تأويل آية سورة القيامة

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فإن النظر له عدة اسـتعمالات بحسب صـلاته وتعديه بنفسه، فـإن عُـدِّي بنفسه فمعنـاه التوقف والانتظـار، كقولـه: انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ [الحديد:13]، وإن عُـدِّي بــ(في) فمعنـاه التفكر والاعتبـار، كقولـه: أَوَلَمْ يَنظُـرُوا فِي مَلَكُـوتِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ [الأعـراف:185]، وإن عُدِّي بــ(إلى) فمعنـاه المعاينة بالأبصـار، كقوله تعـالى: انظُـرُوا إلى ثَمَـرِهِ إِذَا أَثْمَرَ [الأنعام:99]، فكيف إذا أضـيف إلى الوجه الـذي هو محل البصـر. وروي ابن مردويه بسنده إلى ابن عمر قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ [القيامة:22] قـال: من البهـاء والحسـن. إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة:23] قال: في وجه الله عزَّ وجلَّ). عن الحسن قـال: نظـرت إلى ربها فنُضِّـرت بنـوره. وقـال أبو صـالح عن ابن عبـاس رضي الله عنهما: إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة:23] قال: تنظر إلى وجه ربها عزَّ وجلَّ. وقال عكرمة: وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِـرَةٌ [القيامـة:22] قـال: من النعيم إلى رَبِّهَا نَـاظِرَةٌ [القيامة:23] قال: تنظر إلى ربها نظراً. ثم حكى عن ابن عبـاس مثلـه. وهـذا قول المفسرين من أهل السنة والحديث. وقـال تعـالى: لَهُمْ مَا يَشَـاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ [ق:35] قال الطبري : قال علي بن أبي طالب و أنس بن مالك : هو النظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ. وقال تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَـادَةٌ [يونس:26] فالحسنى: الجنة. والزيادة هي النظر إلى وجهه الكـريم. فسـرها بذلك رسول الله والصحابة من بعده، كما روى مسلم في صحيحه عن صهيب قال: (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا الْحُسْـنَى وَزِيَـادَةٌ [يونس:26] قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منـادٍ: يا أهل الجنـة! إن لكم عند الله موعـداً يريد أن ينجزكمـوه. فيقولـون: وما هـو؟! ألم

يثقل موازيننـــا، ويــبيض وجوهنا ويـــدخلنا الجنة ويُنجِنا من النـــار؟! فيكشف الحجاب فينظرون إليـه، فوالله ما أعطـاهم شـيئاً أحب إليهم من النظر إليـه، وهي الزيـادة). ورواه غـيره بأسـانيد متعـددة وألفـاظ أُخَر معناها أن الزيـادة النظر إلى وجه الله عز وجل. وكذلك فسـرها الصـحابة رضي الله عنهم، روى ابن جرير ذلك عن جماعة، منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، و حذيفة ، و أبو موسى الأشعري ، و ابن عباس رضي الله عنهم]. هنا ثلاث آيات من كتاب الله تعـــالى دالة على الرؤية أو مُفَسَّـــرة بهـــا. فالآية الأولى هي آية ســـورة القيامة قوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة:22-23]. وسـبق ذكر تفاسير الصحابة والتابعين أنهم قالوا: إلى رَبِّهَا نَـاظِرَةٌ [القيامــة:23] أي: إلى وجه ربهـا. أو: تنظر إلى ربها صـرح بـذلك عـدد من الصـحابة كما مـر، والمعتزلة حرفـوا النظر فجعلــوه الانتظــار، أو حرفــوا كلمة (إلى) فجعلوها النعمــة، أو أضـمروا مضـافاً، أي: إلى نعمة ربها أو إلى ثـواب ربهـا. إن كلمة النظر تارةً تُعدَّى بنفسها، وتارةً تُعدَّى بحرف (في) وتارةً تُعدَّي بحـرف (إلى). فتعديتها بنفسها في قول الله تعالى: يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَـافِقُونَ وَالْمُنَافِقَـاتُ لِلَّذِينَ آمَنُـوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُـورِكُمْ [الحديـد:13] فــ(انظرونـا) هنا ليس معنـاه النظر بالعين، وإنما معناه: انتظروا. أي: أمهلونا حـتى نقتبس من نـوركم، لأنه عُدِّي بنفسه. وذكر تعديته بــ(في) في قوله تعـالى: أَوَلَمْ يَنظُـرُوا فِي مَلَكُـوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [الأعـراف:185] فـالنظر هنا بمعـنى الاعتبـار، أي: ينظـروا في الملكوت نَظَرَ اعتبـار وتأمل ليسـتدلوا به على قـدرة الخـالق. فـإذا عـدي بـ(في) فلا تحتمل إلا النظر بالاعتبار، وأما هنا فإن النظر مُعـدَّىً بــ(إلى)، فهو مثل قوله تعالى: انظُـرُوا إِلَى ثَمَـرِهِ [الأنعـام:99] (انظـروا) يعـني: بـأعينكم. (إلى ثمره)، ولا تحتمل غير المعاينـة؟! كـذلك قوله تعـالى: أَفَلا يَنْظُـرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ [الغاشية:17] يعني أنهم ينظرون إليها معاينةً. فكذلك قوله: إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة:23] لا يحتمل إلا أن النظر هو المعاينة. فتـبيَّن بـذلك صراحة الآية في دلالتها على النظر إلى الله سبحانه وتعالى.

دلالة آيتي المزيد على رؤية الله تعالى

والآية الثانية في سورة (ق) قوله تعالى: لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ [ق:35]، فالله تعالى أخبر بأن لهم فيها ما يشاءون، فكل شيء يشاءونه وتتمنـاه نفوسهم أو يخطر على بالهم يُحضر إليهم. ثم يقول بعد ذلـك: (وَلَـدَيْنَا مَزِيـدٌ)، هذا المزيد زائـدٌ عن النعيم الـذين بين أيـديهم، ولا بد أن يكـون هـذا الزائد له خصوصـية، لـذلك فُسِّـر المزيد بأنه النظر إلى وجه ربهم، يعـني: نعمة زائـدة على ما يسـتحقونه هي النظر إلى ربهم أثـابهم الله وأعطـاهم ذلـك. هكـذا فُسرت من قِبل السلف أن المزيد هو النظر إلى ربهم. الآية الثالثة في سورة

يونس قوله تعالى: وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ [يونس:25-26]، ودار السلام هي: الجنة، يدعو إليها ويدعو إلى العمل الذي يدخلها، ثم إذا دخلوها فماذا يستحقون؟ قال تعالى: وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ [يونس:25-26] والحسنى هي الجنة التي فيها جميع أنواع الحُسن. وقوله: (وزيادة): لا شك أن هذه الزيادة شيء زائد على الحسنى التي هي الجنة، لذلك فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها نظرهم إلى وجه ربهم في الحديث الذي رواه مسلم عن صهيب، ورواه أيضاً غيره، وكذلك فسرها أبو بكر وغيره من الصحابة، واستدلوا بأنه قال بعدها: وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ [يونس:26]، يعني أنهم بنظرهم إلى الله لا يلحقهم ملل ولا يلحق وجوههم كدر ولا يلحقها ذلة ولا مهانة ولا غير ذلك. وعادة أنك لو نظرتَ -مثلاً- إلى الشمس في شدة وهجها فإن وجهك قد يعبس أو قد يتغير، وعينك قد تكل من قوة شعاعها وقوة نورها، وكذلك بعض الأنوار المشعة شديدة الإضاءة كالبرق ونحوه كما في قوله تعالى: يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ [النور:43]. والله تعالى قد أخبر بأنه نور فقال تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [النور:35]. وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام بأن حجابه النور. فهذا النظر إليه مع كثرة تلك الأنوار المشعة لا يرهق وجوه المؤمنين منه ذلة، بل تزداد وجوههم إشراقاً وتزداد بهجةً ونضارةً وسروراً، وما ذاك إلا أنهم يعدون ذلك غاية النعيم، ولذلك قال بعض العابدين: ولو أني استطعتُ غضضتُ طرفي فلا أنظر به حتى أراكا فمن شدة الشوق إلى الله تعالى يقول: لو استطعت لما نظرتُ إلى أي مخلوق حتى أنظر إليك -يا ربي- شوقاً إليك وارتياحاً إلى رؤيتي لربي. هكذا حالة العارفين المشتاقين إلى ربهم، أما الذين أنكروا هذه الرؤية فإنهم محرومون من هذا النعيم كله، محرومون من هذه الزيادة، أو قد اعتقدوا حرمان أنفسهم والعياد بالله. ومسألة الرؤية مسالةٌ كبيرة شريفة قد اهتم بها أهل السنة وقدموا الكلام فيها من وقت الإمام الشافعي وهم يجادلون فيها من أنكرها، ولا يزالون على ذلك. وقد كتب فيها ابن القيم رحمه الله في كتابه المسمى (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) الذي يتعلق بصفة الجنة، فإنه في باب من أبوابه سرد آيات الرؤية، فجعل باباً خاصاً للرؤية وسرد فيه الآيات، ثم سرد فيه الأحاديث التي رُويت في ذلك، والتي يمكن الاستدلال بها، وإذا كان فيها ضعف فإن بعضها يتقوى ببعض، والأكثر قوي من حيث السند، وأعرضَ عن الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة، فمن قرأه عرف بذلك كثرة ما ورد فيها من الأدلة، وهكذا أيضاً أتبعه بالنقولات، ثم رد على من أنكر ذلك من المعتزلة وبيَّن ما أجابوا به وناقشهم فيما استدلوا به. وتبعه على ذلك حافظ بن أحمد الحكمي في كتابه الذي سماه (معارج القبول في شرح سلم الوصول)، و(سلم الوصول) هذا منظومة نَظَمها من أول ما نظم وشرحها في هذا الكتاب الذي يقع في مجلدين، وأفاض في الشرح وتوسع، ولما أتى على الأدلة التي تدل على صفة الرؤية توسع أيضاً فيها. ونحيل إلى هذين الشرحين -لمن أراد أن يتوسع-

كتـــاب ابن القيم وكتـــاب الحكمي ، وغيرهما أيضــاً من الكتب الكثــيرة الــتي اعتنت بمسائل التوحيد والعقيدة ومن جملتها مســألة الرؤية ومناقشة ما فيها من الخلافات وبيان الحق لأهله.

آية نفي الإدراك تدل على ثبوت الرؤية

قـــال المؤلف رحمه الله تعـــالى: [وقـــال تعـــالى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ [المطففين:15] احتج الشافعي رحمه الله وغيره من الأئمة بهــذه الآية على الرؤية لأهل الجنـــة. ذكر ذلك الطـــبري وغـــيره عن المـــزني عن الشافعي ، قال الحاكم : حدثنا الأصم : حدثنا الربيع بن سليمان قال: حضـرت محمد بن إدريس الشـافعي وقد جاءته رقعة من الصـعيد فيهـا: ما تقـول في قـول الله عـزَّ وجـلَّ: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُـونَ [المطففين:15]؟ فقال الشافعي : لما أن حُجب هؤلاء في السخط كـان في هـذا دليل على أن أوليـــاءه يرونه في الرضـــا. وأما اســتدلال المعتزلة بقوله تعـالى: لَنْ تَـرَانِي [الأعراف:143] وبقوله تعالى: لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعـام:103] فالآيتـان دليل عليهم. أما الآية الأولى فالاستدلال منها على ثبـوت رؤيته من وجـوه: أحـدها: أنه لا يُظن بكليم الله ورسوله الكـريم وأعلم النـاس بربه في وقته أن يسـأل ما لا يجـوز عليـه، بل هو عنـدهم من أعظم المحـال. الثـاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجـاة ابنه أنكر سـؤاله وقـال: إِنِّي أَعِظُـكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ [هود:46]. الثالث: أنه تعالى قال: (لن تـراني)، ولم يقـل: إني لا أُرى. أو: لا تجوز رؤيتي. أو: لست بمرئي. والفرق بين الجوابين ظـاهر، ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه رجلٌ طعاماً فقال: أطعمنيه فالجواب الصحيح: إنه لا يؤكل. أما إذا كـان طعامـاً صح أن يقـال: إنك لن تأكلـه. وهـذا يدل على أنه سبحانه مرئي، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيتَه في هذه الـدار لضـعف قـوى البشر فيها عن رؤيته تعـالى، يوضـحه. الوجه الرابـع: وهو قوله تعالى: وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَـإِنِ اسْـتَقَرَّ مَكَانَـهُ فَسَـوْفَ تَـرَانِي [الأعـراف: 143] ، فأعمله أن الجبل مع قوته وصـلابته لا يثبت للتجلي في هـذه الـدار، فكيف بالبشر الذي خُلِق من ضعف. الخامس: أن الله ســبحانه قـادر على أن يجعل الجبل مستقراً، وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالاً لكان نظير أن يقال: إن اسـتقر الجبل فسـوف آكل وأشـرب وأنـام، والكل عنـدهم سـواء. السـادس: قوله تعـالى: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَـلِ جَعَلَـهُ دَكّـاً [الأعـراف: 143]، فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثـواب له ولا عقـاب فكيف يمتنع أن يتجلى لرسـله وأوليائه في دار كرامتــه؟! ولكن الله أَعْلَمَ موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضـعف. السـابع: أن الله كلم موسى ونـــاداه وناجـــاه، ومن جـــاز عليه التكلم والتكليم وأن يســـمع مخاطِبَه

كلامَه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه، وقد جمعوا بينهما. وأما دعواهم تأبيد النفي بـ(لن) وأن ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة ففاسد؛ فإنها لو قُيِّدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفي في الآخرة فكيف إذا أطلقت؟! قال تعالى: وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً [البقرة:95] مع قوله: وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ [الزخرف:77]، ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك، قال تعالى: فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي [يوسف:80]. فثبت أن (لن) لا تقتضى المنفي المؤبد. قال الشيخ جمال الدين ابن مالك رحمه الله: ومن رأى النفي بـ(لن) مؤبداً فقوله اردُدْ وسواه فاعضُدا].

دلالة آية المطففين على ثبوت الرؤية للمؤمنين

الآية الأولى وهي قوله تعالى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ [المطففين:15] أوضح دليل على أن أهل الجنة ليسوا محجوبين عن ربهم، وذلك لأن هذا وعيد لأعداء الله للكفار ووعيد للفجار الذين قال الله في حقهم: كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ [المطففين:7]، فهؤلاء من وعيدهم أنهم عن ربهم يومئذ -أي: يوم القيامة وما بعده- محجوبون، وقد ذكر بعدهم الأبرار في قوله: إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ [المطففين:18]، ولو كانوا لا يرون ربهم لكانوا أيضاً عن ربهم محجوبين، فلم يكن هناك فرق بين الأبرار والفجار. ولا شك أن حجب هؤلاء يعتبر عذاباً، فيعتبرون قد عذبوا بحجبهم عن ربهم والحيلولة بينهم وبين نعمة الرؤية ونعيمها، ولا شك أن رؤية المؤمنين وعدم حجبهم نعمة ومنة وكرامة يزدادون بها نعيماً وبهجة، أما لو كانوا لا يرون ربهم لم يكن هناك فرق بين الأبرار والفجار، بل كلهم عن ربهم محجوبون. فهذه آية استدل بها الشافعي ومن بعده من الأئمة على إثبات رؤية المؤمنين وحجب الكافرين.

بيان دلالة قوله: (لن تراني) على ثبوت الرؤية والرد على المعتزلة

وأما الآية الثانية التي استدل بها المعتزلة على إنكار الرؤية فهي في قصة موسى، ذكر الله أن موسى سأل الرؤية، قال تعالى: وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى

الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَـهُ دَكّـاً وَخَـرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ [الأعـراف: 143]، فاستدلوا بقوله: (لن تراني) على أنك لا تراني أبـداً في الـدنيا ولا في الآخرة، وهـذا تأويل خـاطئ، وذلك لأن الآية إنما نفت الرؤية في الـدنيا، وذلك لأن الإنسان في الدنيا خلقته ضـعيفة لا يسـتطيع أن يمثل أمـام عظمة الـرب سبحانه وتعالى؛ فإن خلقةً في هذه الدنيا على هذه الهيئة خلقة ضئيلة ضعيفة لا تثبت أمـام تجلي ربنا ولا أمـام أنـواره وجلاله وكبريائـه. وقد ثبت أنه صـلى الله عليه وسـلم أخـبر بشـيء من ذلك في قوله صـلى الله عليه وسـلم: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه) .. إلى قوله: (حجابه النـور -أو النـار- لو كشـفه لأحـرقت سـبحات وجهه ما انتهى إليه بصـره من خلقه) يعني أن الحجاب في الدنيا حجاب النور أو النار لو كشـفه لأحـرق ذلك الضياء وذلك النور ما انتهى إليه من الخلق، فإذا كان كـذلك فجميع الخلق في هذه الدنيا مخلوقون من هذا اللحم والدم على هذه الخِلْقـة، فخِلْقتهم ضـعيفة لا يستطيعون أن يمثلوا أمام هـذه العظمـة. فهـذا هو السـبب في أن الله منع موسى الرؤية في الـدنيا، ولكن هل يـدل ذلك على أنه ممنـوع من الرؤية في الآخرة؟ لا يدل على ذلك؛ لأن في الآخرة يعطي الله أوليـاءه من قـوة الخلقة ومن عظمها ما يثبتون به أمـام تلك الرؤية وأمـام رؤية ربهم، فقد ورد أن كل من يـدخل الجنة يـوم القيامة على طـول آدم، طوله سـتون ذراعـاً وعرضه سبعة أذرع، وإذا كانت هذه الزيادة في خِلقتهم في الطول والعرض فكذلك لا بد أنهم سيُزادون في قوة حواسـهم وفي قـوة أبصـارهم وفي قـوة أعضـائهم حتى يتمكنوا من الثبوت أمام رؤيتهم لربهم، ولا يغشى وجوههم قـتر ولا ذلـة، ولا ينالهم شيء من الضعف ولا مما ينالهم في الدنيا. هـذا هو السـبب في أن الله منع موسى من الرؤية في الدنيا، وكذلك كل أحد في الدنيا لا يستطيع أن يـرى ذلـك؛ لقوله في الحـديث: (واعلمـوا أن أحـداً منكم لن يـرى ربه حـتى يموت)، هكـذا ورد في حـديث عنه صـلى الله عليه وسـلم، أثبت بـأن أحـداً لا يستطيع أن يمثل أمام عظمة ربه ولا يرى ربه حـتى يمـوت، وذلك في حـديث الدجال لما أخـبر بـأن الـدجال يـأتي ويقـول: (أنا الـرب، أنا اللـه)، فـأخبر بأنه كـاذب، وأنه لا يمكن في الـدنيا أن أحـداً يـرى ربـه، إنما الرؤية في الآخـرة. واستدل الشارح -كما سبق- بأن هذه الآية دليل على إثبات الرؤية على أهلها. ونقـول: معلـوم أن موسى نـبي الله وكليمه الـذي كلمه تكليمـاً، ومعلـوم أنه اصطفاه، قال تعالى: وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي [طه:41]، فاصطفاه واختاره وأخبر بأنه كلمه تكلمياً، فهو من خيار أولياء الله، ومن خيـار أنبيـاء الله ورسـله، وقد أرسله إلى فرعون، وأرسله إلى بني إسـرائيل وقد كلمه تكليمـاً، وأنـزل عليه التوراة وقربه نجياً، فهو أعرف بربه، وهو أعلم بما يسـتحيل على ربـه، فكيف تكونـــون -يا معتزلـــة- أعلم من موســـى؟! هل يقـــال: إنك -يا فلان ويا فلان المعتزلي أو الجهمي- أعلم من موسى؟! حاشا وكلا، فهل الـذي هو أحد أولي العزم، والذي هو أحد رسل الله، والذي ذكره الله وأكـثر من ذكـره في كلامه يكون أجهل منك، وتكون أنت أعلم منه بما يستحيل على الله وبما يجـوز على الله؟! هذا مما تحيله العقول، وهذا مما لا يجوز في شرع اللـه. كـذلك ما أنكر

أيضـاً الله تعـالى عليه حين قـال: أَرِنِي أَنظُـرْ إِلَيْـكَ [الأعـراف:143] لم ينكر عليه ولم يوبخه، وقد أنكر على نوح لما سأل نجاة ولده لما قال: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي [هود:45] أنكر عليه وقال: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَـلٌ غَيْـرُ صَـالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَـاهِلِينَ [هـود:46]، أنكر على نوح هذا السؤال، ولكن موسى لما سأل فقال: رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ [الأعـراف:143] ما أنكر عليـه، بل قـال: لَنْ تَـرَانِي وَلَكِنِ انظُـرْ إِلَى الْجَبَـلِ [الأعـراف:143]، فهل هـذا دليل على أن هـذا السـؤال مسـتحيل؟ إنه ليس سؤال شيءٍ مستحيل. وقال تعالى: لَنْ تَرَانِي [الأعراف:143]، ولم يقل: إني لا أُرَى. أو: إني لا تجـوز رؤيـتي. أو: إني لسـتُ بمـرئي بل قـال: لَنْ تَـرَانِي [الأعراف:143]، والمعنى: لا تراني في الدنيا، ولا تستطيع رؤيتي في الـدنيا، والفرق بين العبارتين واضح، ومثَّل لذلك المؤلف -كما سـبق- بما إذا كـان مع إنسان حجر وظننتَه رغيفاً فقلتَ: أطعمـني من هـذا فقـال: لن تطعمـه، فإنك تقـول: إنه قد حَرَمـني من هـذا الطعـام أما إذا قـال: ليس بمطعـوم أو ليس بمـأكول أو لا يصح أكله أو ليس مما يؤكـل، فهمتَ بـذلك أنه اعتـذر وأنه ليس من المـأكولات. فقولـه: لَنْ تَـرَانِي [الأعـراف:143] يـبين أن الرؤية جـائزة؛ ولكنك لا تقدر عليها في الدنيا. فهذا وجه قوله: لَنْ تَرَانِي [الأعراف:143]. ثم قوله: وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي [الأعراف:143] علق رؤية موسى على اسـتقرار الجبـل، أليس اسـتقرار الجبل ممكنـاً؟ إنه ممكنٌ أن يستقر الجبل، والله تعالى قادر على أن يثبت الجبل حتى يستقر إذا تجلى له الـرب، والله تعـالى قد علَّق رؤية موسى على اسـتقرار الجبـل، والمعلَّق على الممكن ممكن، فهـذا دليل على إمكـان الرؤيـة، وأن رؤية الله ليست بمستحيلة، فـالتعليق على الممكن ممكن. أما قوله تعـالى: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً [الأعـراف:143]، فقد تجلى الله كما شـاء للجبـل، ولما تجلى للجبل -وهو جبل الطور وهو من أكبر الجبـال- انسـاخ الجبـل، وذلك مع كونه جمـاداً، ومع كونه ليس به حركـة، انسـاخ الجبل وانـدكَّ وخسف في الأرض، ولم يثبت، فعند ذلك صعق موسى، فالله تعالى تجلى للجبل، وإذا جاز أن يتجلى للجبل ألا يجوز أن يتجلى لعباده في الدار الآخرة، وأن يكرمهم بهـذا التجلي وينعِّمهم ويزيد في كـرامتهم؟! بلى فالقـادر والممكن تجليه للجبل لا يسـتحيل عليه أن يتجلى كما يشـاء لعبـاده في دار كرامتـه. فعرفنا بـذلك أن الآية دليل على إمكـان الرؤيـة، ودليل على وقوعهـا، وأن الاسـتدلال بها على النفي اسـتدلال عكسـي، بل هي على الرؤية أدل منها على ضد الرؤيـة. أما قولـه: لَنْ تَـرَانِي [الأعـراف:143] فيقـول: إن كلمة (لن) تـدل على النفي المؤبد في الدنيا والآخرة، يعني: (لَنْ تَرَانِي) أبـداً! والجـواب: أن كلمة (لن) لا تدل على النفي المؤبد حتى ولو أُكِّدت بـ(أبداً)، فالله تعالى يقول: وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَـداً [البقـرة:95] نفى أنهم يتمنـون المـوت، وقد ذكر أنهم يتمنونه في النـار فيقولون: يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ [الزخرف:77]، فهم يتمنون الموت، والله يقول: وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً [البقرة:95]، إذاً المراد في الدنيا، فدل على أن النفي في الـدنيا لا يعم النفي في الآخـرة، فـالنفي في قولـه: (لَنْ تَـرَانِي) نفي في الدنيا، فلا يعم النفي في الآخرة. ولذلك يقول ابن مالك صـاحب الألفيـة: ومن

يرى النفي بـ(لن) مؤبداً فقوله اردد وسواه فاعضدا يعني: من يرى من النحاة أن النفي بلن يقتضي التأبيد فاردد قوله واعضد غيره من الأقوال، يعني: انصر القول الذي يرى أنها لا تقتضي النفي المؤبد. ويقولـون: إن الرؤية مسـتحيلة. ويجـاب عليهم بأنه لو كـانت الرؤية محالة ما علقها على ممكن؛ فـإن التعليق على شـيء ممكن يـدل على الإمكـان، كما أن الله تعـالى مـنزه عن الحاجـة؛ لقوله تعالى: وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ [الأنعام:14]، وقرأها بعضـهم: وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يَطْعَمُ [الأنعـام:14]، وقـال تعـالى: مَا أُرِيـدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيـدُ أَنْ يُطْعِمُـونِ [الـذاريات:57]، فـبين أنه سـبحانه مـنزه عن الحاجة إلى الطعـام والشـراب ونحو ذلـك، وذكر من نقص عيسى وأمه الحاجة إلى ذلك في قوله تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِـدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ [المائـدة:75] يعـني أنهما يحتاجـان ويـأكلان الطعـام فـدل على أن الله تعالى منزه عن الحاجة إلى ذلك. فيقول الشارح: نحن والمعتزلة وغـيرهم متفقـون على أن الله ليس بحاجة إلى الأكل والشـرب ونحو ذلـك، وذلك من المستحيلات، فلا يمكن أن يُعَلَّق على شيء ممكن.

الرد على المعتزلة في الاستدلال بقوله: (لا تدركه الأبصار) على نفي الرؤية

قال المؤلف رحمه الله تعالى: (وأما الآية الثانية وهي قوله: لا تُدْرِكُـهُ الأَبْصَـارُ [الأنعـام:103]). فالاسـتدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيـف، وهو أن الله تعـالى إنما ذكرها في سـياق التمـدُّح، ومعلـوم أن المـدح إنما يكـون بالصفات الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يُمدح بـه. وإنما يُمـدح الـرب تعـالى بـالنفي إذا تضـمن أمـراً وجوديـاً، كمدحه بنفي السِّـنَة والنـوم المتضمن كمال القيُّومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغـوب والإعيـاء المتضـمن كمـال القـدرة، ونفي الشـريك والصـاحبة والولد والظهـير المتضـمن كمـال الربوبية والألوهية وقهـره، ونفي الأكل والشـرب المتضـمن كمال صمديته وغناه، ونفي الشـفاعة عنـده إلَّا بإذنه المتضـمن كمـال توحـده وغنـاه عن خلقـه، ونفي الظلم المتضـمن كمـال عدله وعلمه وغنـاه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المِثْلِ المتضمن لكمال ذاته وصفاته. ولهذا لم يمتدح بعـدم محض لم يتضـمن أمـراً ثبوتيـاً؛ فـإن المعـدوم يشـارك الموصـوف في ذلك العـدم، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فإذاً المعنى أنه يُرَى ولا يُـدرَك ولا يُحـاط بـه، فقوله: لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام:103] يدل على كمال عظمته، وأنه أكـبر من كل شـيء، وأنه لكمـال عظمته لا يُـدرَك بحيث يحـاط بـه؛ فـإن الإدراك هو الإحاطة بالشـيء وهو قـدر زائد على الرؤيـة، كما قـال تعـالى: فَلَمَّا تَـرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قال كلا [الشعراء:61-62]، فلم

ينف موسى الرؤيـــة، وإنما نفى الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يُرَى ولا يُدرَك، كما يُعلَم ولا يُحاط به علمـاً، وهـذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذُكرَت أقوالهم في تفسير الآية، بل هــذه الشــمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليــه].
أكبر ما يسـتدل به المعتزلة هـذه الآية من سـورة الأنعـام، وهي قوله تعـالى: ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَـالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ فَاعْبُـدُوهُ وَهُـوَ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ وَكِيلٌ * لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الأنعام:102-103]؛ فـإن هـذه الآية اعتبروها أوضح الأدلة في أن الله لا يُـرَى، قـالوا: لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام:103] يعني: لا تراه الأبصـار. وقد ذكر الشـارح أن أهل السـنة اسـتدلوا بها على إثبـات الرؤية لا على نفيهـا، وذلك لأن الإدراك هو الإحاطة، أي: لا تحيط به فإذا رأته الأبصار لا تحيط به، فـالفرق بينهما واضـح، فليست الرؤية هي الإدراك، فالإدراك شـيء زائد على الرؤيـة. ولهـذا روي أن ابن عباس سئل عن هذه الآية فقال للسائل: ألستَ تـرى القمـر؟ قـال: بلى. قال: أكله -يعني: أتراه كلـه-؟ قـال: لا. قـال: فـذلك الإدراك. يعـني أنك تـرى القمر ولكنك لا تراه كله، إنما تـرى منه ما قابلـك، فـأنت -مثلاً- إذا رأيت جبلاً بعيداً رأيت منه ما قابلك ولم تره كله، فرؤيته كله أعلاه وأسـفله والخفي منه والمقابل وغير المقابل يقال لها: الإدراك. فإدراك البصر معنـاه: رؤية المـرئي كله وعـدم خفـاء شـيء منـه، والله تعـالى لعظمته ولجلاله ولكبريائه إذا رأته الأبصار فلا تحيط به ولا ترى إلَّا ما يتجلى منه لها، وينظر إليهم وينظرون إليه، ولكن لا يحيطـون بذاتـه، إنما يـدركون منه ما تجلى، ففـرق واضح بين الرؤية والإدراك. وقد أخبر الله تعـالى عن قـوم موسى أنه لا يُـدرَكون فقـال تعـالى: فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ [الشـعراء:61] يعـني: قـوم فرعـون وقـوم موسى قَـالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ [الشعراء:61] أخبر بأنهم يتراءون، هـؤلاء يـرون هؤلاء وهؤلاء يرون هؤلاء، فما معـنى (مُـدرَكون)؟ أي: محـاطون. أي: سـوف يحيطـون بنا ويلحقوننا ويحـدقون بهـا، هـذا معـنى الإدراك، فنفى ذلك موسى وقال: (كَلَّا) أي: لا تخافوا فلن يدركوكم إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ [الشعراء:62]، وقد وعده الله بـأنهم لا يُـدرَكون في قـول تعـالى: لا تَخَـافُ دَرَكـاً وَلا تَخْشَـى [طه:77]، فلما وعده بأنهم لا يُـدرَكون وثق بوعد ربه وأنه لا يـدركهم شـيء. فالحاصل أن هذه الآية دليل واضح على إثبات أن الله تعالى يُرَى، وذكرها في مجال التمـدُّح، فالآية يتمـدح بها الـرب. وقد ذكرنا أن الله لا يتمـدَّح إلا بما هو ثبـوتي، ولا يتمــدح بــالنفي المحض، فكونه لا يُـرَى ليس فيه مــدح، فــالنفي المحض عدم والعدم ليس بشيء، والمعدوم لا يُمدَح به، وإنما مدح الله تعالى نفسه بالنفي الذي تضمن ثبوتـاً. وعلى كل حـال يعتقد المسـلم أن هـذه الآية دليل على إثبات الرؤية لا على نفيها، ففيها أن الأبصـار إذا نظـرت إلى ربها لا تدركه أي: لا تحيط به، كما قال تعالى: وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً [طه:110].

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [وأما الأحـاديث عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم وأصـحابه الدالة على الرؤية فمتـواترة، رواها أصـحاب الصـحاح والمسانيد والسنن. فمنها: حديث أبي هريرة أن ناساً قـالوا: (يا رسـول اللـه! هل نـرى ربنا يـوم القيامـة؟ فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: وهل تضارُّون في القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله. قـال: هل تضـارون في الشـمس ليس دونها سـحاب؟ قـالوا: لا. قـال: فـإنكم ترونه كـذلك) الحـديث أخرجـاه في الصـحيحين بطولـه. وحـديث أبي سـعيد الخـدري أيضـاً في الصحيحين نظـيره. وحـديث جرير بن عبد الله البجلي قـال: (كنا جلوسـاً عند النـبي صـلى الله عليه وسـلم فنظر إلى القمر ليلة أربع عشـرة فقـال: إنكم سـترون ربكم عيانـاً كما تـرون هـذا القمر لا تضـامون في رؤيتـه) الحـديث أخرجاه في الصحيحين. وحديث صهيب المتقدم رواه مسـلم وغـيره. وحـديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم تبـارك وتعـالى إلّا رداء الكبريـاء على وجهه في جنة عـدن) أخرجـاه في الصحيحين. ومن حديث عدي بن حاتم : (ولَيَلْقَينَّ اللهُ أحدَكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه حجـاب ولا ترجمـان يـترجم لـه، فيقـول: ألم أبعث إليك رسـولاً فيبلغك؟ فيقول: بلى يا رب. فيقول: ألم أعطِك مالاً وأُفْضِل عليـك؟ فيقـول: بلى يا رب) أخرجه البخاري في صحيحه. وقد روى أحـاديثَ الرؤية نحـوُ ثلاثين صحابياً، ومن أحاط بها معرفـةً يقطع بـأن الرسـول قالهـا، ولـولا أني الـتزمت الاختصار لسقتُ ما في الباب من الأحاديث]. هذا الـدليل أو النـوع الثـاني من الأدلة السمعية وهو الدلالة من السنة، أي: من الأحـاديث النبويـة. ومعلـوم أن السنة تفسر القرآن وتبيِّنه وتدل عليه وتعبر عنه، ومعلـوم أن الرسـول صـلى الله عليه وسلم لا يقول إلا حقاً، وذلك أنه أعلم بربـه، وأعلم بمن أرسـله، فلا يصفه إلا بما هو حق وبما هو وحي ومطابق للحـق. فـإذا جاءتنا الأحـاديث عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم مشـتملة على وصف أو شـيء من صـفات الله تقبلناها، وكيف لا نتقبلها وهي من معـدن الرسـالة من الرسـول عليه الصـلاة والسـلام؟! فإنه الـذي دل على ربـه، والـذي هـدى الأمة إلى الله وبين لهم حقوقه عليهم، وكـذلك بين لهم أنـواع التوحيـد، ومن جملة ما بينه لهم توحيد الأسماء والصفات، ومن جملة الصـفات صـفات الله سـبحانه، ولا شك أن من أجلِّها كونه يُرَى وكونه يتجلى لعبـاده. والأحـاديث كثـيرة -كما ذكـر- رواها نحو ثلاثين صـحابياً، فثلاثـون من الصـحابة رووا إثبـات الرؤية في جملة أحـاديث أغلبها صـحيح، ومنها ما هو حسـن، ومنها ما فيه ضـعف ينجـبر بغـيره ويتقـوى ببقية الأحـاديث، ومن أراد الاطلاع عليها يجـدها مكتوبة في كتـاب ابن القيم الـذي سـماه (حـادي الأرواح إلى بلاد الأفـراح) الكتـاب الـذي جعله في الجنة وصفتها ونعيمهـا، فإنه جعل من جملة أبوابه بـاب الرؤية وأن المؤمـنين يـرون ربهم، ونقلها أيضاً كذلك الشيخ حافظ الحكمي في كتابه (معـارج القبـول في

شرح سلم الوصول)، وسردها أيضاً كما سـردها ابن القيم ، وإن كـان اختصر منها بعض الأسانيد وبعض الألفاظ. وذكر أيضاً منها جملة كثـيرة ابن القيم في كتابه الصواعق المرسلة، وذكـرت أيضـاً متفرقة في كتب الحـديث وفي كتب التفسير واضـحةً دلالتُهـا، ولكثرتها يُحكم بأنها متـواترة، وإن لم تتـواتر أفرادها فهي متواترة أعدادها، والمتواتر: هو ما نقله العدد الكثـير الـذين تحيل العـادة تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه، ويكـون مسـتند انتهـائهم الحس. أي: ما يُدرك بالحواس الخمس أو بأحدها. ......

حديث جرير رضي الله عنه

وسرد الشارح بعضاً منها، وأوضحها حديث جرير، يقول صلى الله عليه وسلم: (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمـر) وفي روايـة: (كما تـرون القمر ليلة البـدر)، والقمر ليلة البـدر من أوضح ما يُـرى، وفي بعض الروايـات: (أنه نظر إلى القمر ليلة أربع عشرة وقال: إنكم سـترون ربكم كما تـرون هـذا القمر لا تضـامون في رؤيتــه) أي: لا يلحقكم ضــيم ولا ضــرر. أو لا تتضــامُّون ينضم بعضــكم إلى بعض، بل ترونه بأمــاكنكم ولو كنتم على وجه الأرض، ولو كنتم في أقطار البلاد ترونه كما يشاء أحدكم. وفي بعض الروايـات أنه قـال: (فـإن اسـتطعتم ألَّا تُغْلَبــوا على صــلاةٍ قبل طلــوع الشــمس وصــلاةٍ قبل غروبها فافعلوا)، والمراد بهاتين الصلاتين الفجر والعصر، وخصـهما بالمحافظة عليهما لأن الرؤية لخواص المؤمنين تكون بكرةً وعشياً، فقد ورد أن خواص المؤمنين في الجنة يرون ربهم في أول النهار وفي آخره، وأن عوامهم سـيرونه في كل أسبوع في مثل يوم الجمعة، ويسمى يومُ الجمعة يـومَ المزيـد، حيث يـزورون ربهم ويتجلى لهم، ويكون الـذين يتقـدمون إلى صـلاة الجمعة هم أقـرب وهم أولى بأن يقدَّموا، فيدل ذلك على فضل التقدم لصلاة الجمعة، وأن ذلك يكون أكثر ثواباً وأبقى وأقدم رؤية وأكثر نعيماً.

حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما

ومن الأدلة حديث أبي هريـرة و أبي سـعيد وهو حـديث طويل في الصـحيحين فيه قوله صــلى الله عليه وســلم: (هل تضــارُّون في رؤية القمر ليلة البــدر؟ قالوا: لا. هل تضارُّون في رؤية الشمس ليس دونها سـحاب؟ قـالوا: لا. قـال: فإنكم ترونه كذلك) أي: ترون ربكم ولا تضارُّون في رؤيته. يعني: لا تتوهمــون ولا يكون هناك ريب ولا شـك، بل ترونه عيانـاً رؤيـةً واضـحة، كما لا تتوهمـون في رؤية الشمس ولا في رؤية القمر ليلة البـدر. والحـديث في سـياقه طـولٌ

سيما حديث أبي سعيد ساقه مسـلم بطوله في كتـاب الإيمـان الـذي في أول الجـزء الثـالث، وبيَّن الرؤية في الموقف والرؤية في القيامـة، وكـذلك حـديث أبي هريرة .

حديث أبي موسى رضي الله عنه

كـذلك أيضـاً من الأحـاديث حـديث أبي موسى وهو حـديث صـحيح، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (جنتـان من ذهب آنيتهما وما فيهمـا، وجنتـان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القـوم وبين أن ينظـروا إلى ربهم إلَّا رداء الكبريـاء على وجهه في جنة عـدن)، وقد ذكر الله الجنـتين الأولـيين في قوله تعـالى: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَـانِ [الـرحمن:46]، وذكر الجنـتين الأخـريين بقولـه: وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ [الرحمن:62]، وزاد في هذا الحـديث أنه ليس بينهم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء، وذلك دليل على أنه تعـالى يكشف ذلك الرداء وذلك الحجاب ويتجلى لعبـاده مـتى شـاء، فليس بينهم وبين النظر إليه إلا ذلك الرداء، وهذا دليل على أنه إذا شاء تجلى كما يشاء. كذلك أيضـاً تقـدم حديث صـهيب الـذي في صـحيح مسـلم في قوله صـلى الله عليه وسـلم في تفسـير الزيـادة: لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا الْحُسْـنَى وَزِيَـادَةٌ [يـونس:26] أنها النظر إلى ربهم، وأنهم ما أعطـوا شـيئاً ألذ عنـدهم من النظر إلى ربهم عنـدما يقـول: سلوني. فيقولون: نسألك رضاك ثم يسألونه أن يتجلى فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أفضل عنـدهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيـادة، أي: المـذكورة في قولـه: لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا الْحُسْـنَى وَزِيَـادَةٌ [يـونس:26]. وإذا عرفنا أن هـذه الأحـاديث وأمثالها صـحيحة قد نطق بها النـبي صـلى الله عليه وسـلم وتلقاها أهل السـنة بـالقبول فليس لأولئك المعتزلة أن يردوهـا، ولكن اعتمـدوا في ردهم على أنها أخبـار آحاديـة، وكـذبوا، فليست أخبـار آحـاد ما دام أنه تلقاها جمع غفير عن مثلهم، رواها جمع غفير من الصـحابة ثم مثلهم من التـابعين أو أضعافهم، وهكذا إلى أن دُوِّنت، فكيف تكون أخبار آحاد؟! ثم لو قدر أنها أخبار آحـاد فإنها تفيد العلم ويُسـتدل بها على العقائـد، وذلك لأنهم يعملـون بها في الشرائع، فكذلك يلزمهم أن يعملوا بها في العقائد.

سماع الأحاديث يورث اليقين برؤية الله تعالى

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [ومن أراد الوقـوف عليها فليـواظب سـماع الأحاديث النبوية؛ فإن فيها مع إثبـات الرؤية وأنه يكلم من شـاء إذا شـاء، وأنه يأتي لفصل القضاء يوم القيامة، وأنه فوق العالم، وأنه يناديهم بصوت يسـمعه مَن بَعُد كما يسمعه مَن قَرُب، وأنه يتجلى لعباده، وأنه يضـحك، إلى غـير ذلك من الصفات التي سماعُها على الجهمية بمنزلة الصواعق، وكيف تُعلم أصـول دين الإسلام من غير كتاب الله وسنة رسـوله صـلى الله عليه وسـلم؟! وكيف يُفسر كتاب الله بغـير ما فسـره به رسـوله صـلى الله عليه وسـلم وأصـحابه رضـوان الله عليهم الـذين نـزل القـرآن بلغتهم؟! وقد قـال صـلى الله عليه وسلم: (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعـده من النـار) وفي روايـة: (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النـار)، وسـئل أبو بكر رضي الله عنه عن قوله تعـالى: وَفَاكِهَـةً وَأَبّـاً [عبس:31]: ما الأبُّ؟ فقـال: أي سـماء تظلــني، وأي أرض تقلــني إذا قلت في كتــاب الله ما لا أعلم!]. يعــني أن الأحاديث التي وردت في الرؤية موجـودة في كتب أهل السـنة في المؤلفـات التي ألفوها في بيان سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فمن أرادها فليــواظب على سماع تلك الأحـاديث وتلك الكتب، فهي في صـحيح البخـاري في (كتـاب التوحيد) وفي صحيح مسلم في (كتاب الإيمان) وفي سنن أبي داود في آخره (كتاب السنة) وهكذا في بقية كتب أهل السـنة. ولا شك أن الـذي يقرؤها يجد فيها وصف الله تعــالى بأنه يتجلى لعبــاده، وبأنه يكشف الحجــاب، وبــأنهم ينظرون إلى وجهه، وفيها: (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سـبحات وجهه من انتهى إليه بصـره من خلقـه). وفيها سـؤال النـبي صـلى الله عليه وسـلم في قولـه: (وأسـألك لـذة النظر إلى وجهك والشـوق إلى لقائـك، في غـير ضـراء مضرة ولا فتنة مضلة)، وأشباه ذلك. يقول الشارح: سماع هذه الأحاديث التي فيها أن الله يخاطب العباد، وأنه يتجلى لهم كما يشاء، وأنه يضحك إلى عباده، وأنه يكلمهم .. إلخ، سـماعها على الجهمية والمعتزلة بمنزلة الصـواعق، لـذا كانوا يتمنون أنهم يحكّون آيات الاستواء من القرآن، فكذلك أحاديث الصـفات يتمنــون أنها لم تــرد، ولأجل ذلك ينفِّرون من قــراءة الكتب الـتي فيها هــذه الأحاديث، وينهـون عن جمعها في مكـان واحد حـتى لا تكـون حجـةً عليهم، أو حـتى لا ينخـدع بها تلامـذتهم إذا رأوها مجتمعة وصـعُب عليهم تأويلها والتكلف في ردها. ومع ذلك كله فإنهم لم يتوقفوا عن الخـوض فيما ما لا علم لهم بـه، بل بالغوا في رد الأحـاديث وفي رد الآيـات، وتكلفـوا في الكلام حولها بكلام لا يليق أن يقوله مسلم فضلاً عن عاقـل. يقـول الشـارح: إن كلامهم هـذا يعتـبر من القول على الله بلا علم الذي هو أعظم من الشرك، ويعتـبر من التخـرص في القرآن، والتخرص في القرآن أيضاً ضلال لهذا الحديث الـذي سـبق: (من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار). ومن هذا تأويلهم للآيات، وقولهم على الله بلا علم، وتكلفهم في رد الآيات، وقولهم في القـرآن بـالرأي، فيقولـون في القـرآن بـرأيهم، كقـولهم: إن قولـه: إِلَى رَبِّهَا نَـاظِرَةٌ [القيامة:23] معناه: منتظرةً للثـواب أو معنـاه: منتظـرةً إلى نعم ربهـا. وهـذا قول على الله بلا علم، وهـذا قـول في القـرآن بـالرأي، فيكونـون داخلين في هـذا الحـديث: (من قـال في القـرآن برأيه ..). والصـحابة رضي الله عنهم مع

كـونهم أعلم بـالقرآن، وهم الـذين شـاهدوا نزولـه، كـانوا إذا لم يعلم أحـدهم نفس الآية وتفسيرها توقف دون أن يفصح ولو كان عندهم علم، فهـذا أبو بكر الذي هو الخليفة الأول للرسول صلى الله عليه وسلم لما سئل عن هذه الآية: وَفَاكِهَـةً وَأَبّـاً [عبس:31]: ما هو الأبُّ؟ يقـول: أي سـماء تظلـني، وأي أرض تقلـني إذا أنا قلت في كتـاب الله ما لا أعلم؟! أتريـدون أن أتجـرأ وأقـول في كلام الله بغـير علم؟! هـذا لا يليـق. فهـؤلاء الـذين يتخبطـون في القـرآن ويتكلفون في رد الآيات يقول أحدهم: إن كلام موسى ليس سؤالاً في قولـه: رَبِّ أَرِنِي أَنظُـرْ إِلَيْـكَ [الأعـراف:143]، فلا يريد أن يـرى ربـه، وإنما يريد أن يوبخ قومه الذين قالوا: أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً [النساء:153]، أو قالوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَـكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً [البقرة:55]، فهو يريد بذلك توبيخ قومه ومن قـال هـذا قبلكم يا معتزلة أو يا أتبـاع المعتزلـة؟! هـذا هو التخـرص في كلام الله بغـير علم.

إزالة شبهة التشبيه عن أحاديث الرؤية

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وليس تشبيه رؤية الله تعـالى برؤية الشـمس والقمر تشبيهاً لله، بل هو تشـبيه الرؤية بالرؤيـة، لا تشـبيه المـرئي بـالمرئي، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقـه، وإلَّا فهل تعقل رؤيـةٌ بلا مقابلـة؟! ومن قال: يُرى لا في جهة فلـيراجع عقلـه، فإما أن يكـون مكـابراً لعقله وفي عقله شيء، وإلَّا فإذا قال: يُرى لا أمـام الـرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة. ولهذا ألـزم المعتزلة مَن نفى العلو بالذات بنفي الرؤية وقالوا: كيف تعقل رؤية بلا مقابلة بغـير جهـة، وإنما لم نـره في الـدنيا لعجز أبصـارنا لا لامتنـاع الرؤيـة، فهـذه الشمس إذا حدَّق الرائي البصر في شعاعها ضعُف عن رؤيتهـا، لا لامتنـاعٍ في ذات المـرئي، بل لعجز الـرائي، فـإذا كـان في الـدار الآخـرة أكمل الله قـوى الآدمـيين حـتى أطـاقوا رؤيتـه، ولهـذا لما تجلى الله للجبل خر موسى صـعقاً، فلما أفـاق قـال: سـبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمـنين، بأنه لا يـراك حي إلا مـات، ولا يـابس إلا تدهـده، ولهـذا كـان البشر يعجـزون عن رؤية الملَك في صورته إلا من أيده الله، كما أيد نبينا صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ [الأنعام:8] قال غير واحد من السلف: لا يطيقون أن يروا الملَك في صورته، فلو أنزلنا عليهم ملكاً لجعلنـاه في صـورة بشـر، وحينئذ يشـتبه عليهم هل هو بشر أو ملَـك، ومن تمـام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسـولاً منـا. وما ألـزمهم المعتزلة هـذا الإلـزام إلا لَمَّا وافقوهم على أنه لا داخل العالم ولا خارجه، لكن قول من أثبت موجوداً يُـرى لا في جهة أقرب إلى العقل من قول من أثبت موجـوداً قائمـاً بنفسه لا يُـرى

ولا في جهــة]. لا شك أن أقــوال أولئك المعتزلة وكــذلك غــيرهم ممن نفى الرؤية أو أثبت رؤيـةً غـير حقيقية أنها أقـوال مضـطربة يردها كل عاقـل. وقد عرفنا أن المعتزلة ينكرون الرؤيـة، وهم لا يزالـون موجـودين، ينكـرون الرؤية أصـلاً، وأن طائفة الأشـاعرة يثبتـون الرؤيـة، ولكن لا يثبتـون العلو ولا يثبـوت الجهة، وينفون أن يكون الله تعالى فوق العـالم، وينفـون أن يكـون الله فـوق عرشه وفوق سماواته بائناً من خلقه، فيقولون: إنه يُرى لا في جهة، هذا قول الأشعرية، وحقيقة قـولهم أن الرؤية مكاشـفات قلبية ليست بصـرية، فالرؤية عنــدهم مكاشــفات قلبية وأنــوار تســطع للقلب، لا أنهم ينظــرون بــأعينهم وبأبصارهم إلى ربهم، ويقولون: إن هذا يستلزم الرؤية التي هي المقابلة. فرد عليهم الشارح ومن قبله بأن هـذا قـول باطـل، وأن من قـال: إن الله يُـرى لا في جهة فليراجع عقله؛ لأن المرئي لا بد أن يكون في جهــة، وإن لم تكن تلك الجهة تحصره فالله تعالى يتجلى لعباده من فـوقهم، فينظـرون إليـه، ولكن لا يدل على أنه محصور في جانب أو في جهة أو في حيز -تعالى الله-، بل يرونه كما يشاء. هـذا هو القـول الصـحيح. فقـول هـؤلاء المعتزلة ومثلهم الأشـعرية الذين قالوا بهـذه المقالة لا شك أن قـولهم يسـتعبده العقـل، وأنه قـول على الله تعــالى بلا علم. والــواجب أن المســلم إذا جاءته الأدلة يقبلها ويتقبلهــا، ويعرف أحقيتها وصحتها، ويـؤمن بأنها كلام الله وكلام رسـوله صـلى الله عليه وســلم، وأن الله أخــبر بنفســه، وأن رســله أعلم بما يجــوز على ربهم، وقد أخبروا بذلك، فليس لأحد أن يرد بعض خبرهم ويقبل بعضه، فيكون من الــذين قال الله فيهم: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ [البقــرة:85]، بل إذا قبل ما يتعلق بالأعمــال يقبل ما يتعلق بالعقائد من الأمــور الأخروية والأمــور الغيبية؛ حتى يكون بذلك سـليم الفطـرة وصـحيح المعتقد مؤمنـاً بما جـاء عن الله على مراد الله، كما نقل عن الإمـام الشـافعي رحمه الله أنه قـال: آمنتُ بالله وبما جـاء عن الله على مــراد اللــه، وآمنت برســول الله وبما جــاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

خاض كثير من أهل الإسلام في علم الكلام، فأخطئوا طريقة النبي صــلى الله عليه وسلم، ولم يستفيدوا من ذلك سوى ضياع الأوقات وكـثرة الأوهـام، وقد رجع كثير منهم عن ذلك في آخر حياته وكان يحذر من الوقـوع فيما وقع فيـه، فأحسن الله خاتمتهم بحسن نياتهم.

التداوي بالقرآن لا بالفلسفة وكلام اليونان

سـبق الكلام حـول النهي عن علم الكلام الـذي اشـتغل به المتكلمـون، ومنه قول الشافعي رحمه الله: حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعـال، وأن يُطاف بهم في العشائر والقبائـل، يقـال: هـذا جـزاء من تـرك كتـاب الله وأقبل على الكلام. وذلك أيضاً قبل أن يشـتهر علم الكلام، وقبل أن يتولد فيه ما تولَّد. وقد مرَّ بنا ما تكلم فيه بعض العلماء وبيَّنـوا أضـراره ومفاسـده، وأنه مبـني على الجـدل، وأن أكـثر ما فيه كلمـات مولَّدة مفروضة لا أهمية لها ولا حقيقة لها، كلٌّ مِن أهلها يدلي بشبهة ثم ينقضها الثاني بمثلها أو بـأقوى منهـا، وهكـذا فلا تثبت لأنها حجة كلاميـة. وقد وضـعوا في ذلك كتبـاً موسـعة، ومن أوسعها كتابٌ للقاضي عبد الجبار المعتزلي اسمه (المغني) طُبع طبعةً جديـدة في أربعة عشر مجلداً كله كلام وكله جـدل، وكله توليـدات لتلك الشـبه الـتي هي شبه المعتزلة التي اعتمدوها في نفي الصفات، ووسـعوا بها دائـرة الكلام وشغلوا بها أوقات الناس وأضـاعوا بها فـراغهم، ونهـايتهم عـدم المعرفـة، فلا يثبتون على حجة ثابتة مستمرة. فلذلك ينهى علماء الإسلام عن قراءة كتبهم، فـابن القيم عندما ذكر بعض كتبهم قال: فانظر ترى لكن نرى لك تركها حذراً عليك مصائد الشـيطانِ يقـول: نختـار لك تركهـا، فكتبهم متهافتـة، وكتب أهل الكلام ينقض بعضُها بعضاً، وإن أردت فانظر إليها، ولكنا ننصحك ألَّا تقرأها وألَّا تقرب منها حذراً عليك أن تتبع وأن يقع لقلبك شيء من الزيغ، أو تعلق بقلبك شـبهة من تلك الشـبهات، فيصـعب عليك بعد ذلك التخلص منهـا. هـذا خلاصة الكلام في النهي عن هذا الجدل عن تلك الخصومات التي يتنازع أهلها، فيثبت قومٌ شبهةً وينفيها آخرون ويبطلونها، بل الشخص الواحد يثبت شيئاً ثم ينتقض وينفيه، بل يعترضون عليه باعتراضـات وبتوليـدات يتضح منها أنه لا حقيقة لما يقولونه ولما يعتقدونه. ويأتينا بقية الكلام حول هذا.......

ما ورد عن أهل الكلام يعرض على النص

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [ومن المحال ألَّا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتـاب الله وكلام رسـوله ويحصل من كلام هـؤلاء المتحيِّرين، بل الـواجب أن يجعل ما قاله الله ورسـوله هو الأصـل، ويتـدبر معنـاه ويعقلـه،

ويعـرف برهانه ودليله إما العقلي وإما الخـبري السـمعي، ويعـرف دلالته على هذا وهذا، ويجعل أقوال الناس التي توافقه وتخالفه متشـابهةً مجملـة، فيقـال لأصحابها: هذه الألفاظ تحتمل كذا وكذا، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قُبِل، وإن أرادوا بها ما يخالفه رُدَّ، وهذا مثل لفظ المـركب والجسم والمتحـيز والجـوهر والجهة والحـيز والعَـرَض ونحو ذلـك. إن هـذه الألفـاظ لم تـأتِ في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريد أهل هذا الاصطلاح بل ولا في اللغة، بل هم يختصون بالتعبير بها عن معانٍ لم يعبر غيرهم عنها بهـا، فتُفَسَّـر تلك المعـاني بعبارات أخر، ويُنظر ما دل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسـار والتفصـيل تـبين الحق من الباطـل. مثـال ذلك في الـتركيب، فقد صار له معـانٍ: أحـدها: الـتركيب من متبـاينين فـأكثر، ويسـمى تـركيب مـزج، كتركيب الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء ونحو ذلـك، وهـذا المعـنى منفي عن الله سـبحانه وتعـالى، ولا يلـزم من وصف الله تعـالى بـالعلو ونحـوه من صفات الكمال أن يكون مركباً بهذا المعنى المذكور. الثـاني: تـركيب الجـوار، كمصراعي الباب ونحو ذلك، ولا يلزم أيضاً من ثبوت صفاته تعالى إثبـات هـذا التركيب. الثالث: التركيب من الأجزاء المتماثلـة، وتسـمى الجـواهر المفـردة. الرابع: التركيب من الهيـولى والصـورة، كالخـاتم مثلاً هيـولاه الفضة وصـورته معروفة، وأهل الكلام قـالوا: إن الجسم يكـون مركبـاً من الجـواهر المفـردة، ولهم كلام في ذلك يطــول ولا فائــدة فيــه، وهو أنه هل يمكن الــتركيب من جزئين، أو من أربعة، أو من سـتة، أو من ثمانيـة، أو سـتة عشـر؟ وليس هـذا التركيب لازماً لثبوت صفاته تعالى وعلوه على خلقــه، والحق أن الجسم غـير مركب من هذه الأشياء، وإنما قولهم مجرد دعوى، وهذا مبسوط في موضعه. الخامس: التركيب من الذات والصفات، هذا سـمَّوه تركيبـاً لينفـوا به صـفات الرب تعالى، وهذا اصطلاح منهم لا يُعرف في اللغة ولا في استعمال الشارع، فلسـنا نـوافقهم على هـذه التسـمية ولا كرامـة، ولئن سـموا إثبـات الصـفات تركيباً فنقول لهم: العـبرة للمعـاني لا للألفـاظ، سـمُّوه بما شـئتم، فلا يـترتب على التسـمية بـدون المعـنى حكم، فلو اصـطُلح على تسـمية اللبن خمـراً لم يحرم بهذه التسمية. السـادس: الـتركيب من الماهية ووجودهـا، وهـذا يفرضه الــذهن أنهما غــيران، وأما في الخــارج هل يمكن ذات مجــردة عن وجودها ووجودها مجرد عنها، هذا محـال! فـترى أهل الكلام يقولـون : هل ذات الـرب وجوده أم غير وجوده؟ ولهم في ذلك خبط كثير، وأمثلهم طريقــةً رأي الوقف والشك في ذلــك، وكم زال بالاستفســـار والتفصــيل كثــير من الأضــاليل والأباطيــل]. قد علمنا أن الشـــرع الشــريف كامل في جميع ما يحتــاج إليه البشــر، وأن الرســول صــلى الله عليه وســلم قد بيَّن للأمة ما تحتــاج إليــه، وبــالأخص ما يقولونه بألســنتهم وما يعتقدونه بقلــوبهم في صــفات ربهم، ولا يليق أنه علمهم الفـروع وتـرك الأصـول، بل الأصـول أولى بـالتعليم، فعلمهم الأصول التي هي العقائد ما يقولونه في ربهم بألسنتهم وما يعتقدونه بقلـوبهم قبل أن يعلمهم الأوامر والنواهي ونحو ذلك، وذلك لأن العقيدة سبب الأعمال، والذي لا تكون معه عقيدة لا ينبعث جسمه بالعمل، فإذا رسخت العقيدة الـتي هي معرفة الـرب سـبحانه ومعرفة عظمته وكبريائه وجلاله في القلب أورثت

أعمالاً، وأورثت الخوف منه ورجاءه ومحبته والخضوع والخشـوع له والإخبـات والإنابة والتوبة والرجوع إليـه، وأورثت تعظيمه وتأليهه ودعـاءه وعبادتـه. فـإذا انتفت هذه المعرفة من القلب انتفت العبادة، ونحن نعرف أن الصـحابة رضي الله عنهم وتابعيهم بإحسان أكثر الناس أعمالاً وأتمهم خشـوعاً وأتمهم تـذللاً، فما الذي حملهم على ذلك؟ أليس هو قوة المعرفة؟ أليس هو قـوة العقيـدة؟ أليست العقيـــدة رســـخت في قلـــوبهم وهي معرفة ربهم؟ إذاً فنحن نحث المسـلم على أن يقـوي عقيدتــه، فنقــول قــوِّ عقيــدتك، وتعلم ما ترسخ به عقيدتُك في قلبك، وقوِّ العقيدة التي هي معرفة الله ومعرفة عظمته ومعرفة جلاله وكبريائـه، واحـرص على ترسـيخ هـذه العقيـدة في قلـوب أولادك وفي قلوب إخوتك وفي قلوب المسـلمين؛ فإنها مـتى رسـخت أثمـرت، وآتت أكلها وأثمرت العبادات الكثيرة التي هي فعل الصالحات وترك المحرمات.

السلامة في اتباع طريقة الرسل عليهم السلام وأتباعهم

ولو كـــان علم الكلام وتفاصــيله من الشــريعة ما أهملته الرســل، بل لعلمته الرسل لأممهــا، ونحن لم يُنقل لنا عن نبينا شــيء من ذلــك، ما نُقل عنه أنه خــاض بأصـحابه في هـذا العلم الـذي هو الجـدل والخصـومات والمنازعـات ونحوهـا، ونعلم أنه ما تكلم فيهـا، بل كلامه في معرفة الله وفي عظمته وفي صفاته، وكلامه في أحكامه وأوامره ونواهيه وما إلى ذلـك؛ هـذا هو الـذي بلغه لأمته، وبلغته أمته بعضـها لبعض. يقـول بعض السـلف: أنا أحلف لو حُلِّفتُ أن أبا بكر و عمر و عثمــان وغـيرهم من الصـحابة مــاتوا ولم يتكلمــوا في لفظ الـتركيب ولا الحـيز ولا الجهة ولا الجـوهر ولا العَـرَض بـالمعنى الـذي أراده المتكلمون. وإذا لم يتكلم فيها هؤلاء الصحابة فلا خير فيهـا. وقد ثبت أن بعض المتكلمين وهو ابن أبي دؤاد الـذي زين للخلفـاء أن يمتحنـوا النـاس في علم الكلام، ومنه القول بخلق القرآن. جاءه أحد العلماء فقال لـه: أخبرنا عن هـذا الذي تدعو الناس إليه، هل علمه نـبي الله صـلى الله عليه وسـلم و أبو بكر و عمر و عثمان و علي أو ما علموه؟ فإذا قلتَ ما علموه قلنـا: كيف تعلم شـيئاً ولا يعلمونــه؟ أأنت أعلم من الرســول؟ أأنت أعلم من الخلفــاء الراشــدين؟ حاشا وكلا، لا تكون أعلم منهم. وإذا قلت: بل يعلمونه فهلَّا وسعك ما وسعهم، فهل دعوا إليه؟ وهل نشروه؟ وهل علَّموه النـاس؟ وهل ألزمـوهم باعتقـاده؟ وإذا لم يفعلوا فاتبعهم، ولا تنشره ولا تظهره، فإذا كان لك عقيدة فاكتمها في نفسك ولا تلزم غيرك بأن يعتقدها، فلمـاذا لا يسـعك ما وسـعهم؟ لا وسع الله على من لم يســعه ما وسع رســول الله صــلى الله عليه وســلم وخلفـــاءه الراشدين وصحابته والتابعين وأئمة الدين.

مثال التركيب وبعده

وســبق من أمثلة ما تكلم به المتكلمــون كلامهم في الــتركيب وفي العَــرَض وفي الجوهر وفي الحـيز وفي الجهة وفي الأبعـاض وفي الأعضـاء ونحو ذلـك، فيقولون: إن الله منزه عن التركيب، ومنزه عن الجسـم، وعن الجـوهر، وعن العَرَض، وعن البعض، وعن الجهة، وعن الحيز وما أشبه ذلك. فيقولـون: نـنزه الله تعالى عن ذلك، ثم يشرحون هـذه الكلمـات ويتوسـعون فيهـا، وسـبق ما نقله عنهم الشــارح في معــنى الــتركيب. ولا شك أن هــذه الكلمة بدعية لم يتكلم بها السلف، واصطلاحاتهم هذه حيث جعلوا لها سـتة معـانٍ كما سـمعنا، آخرها قــولهم: الــتركيب هو الــتركيب من الصــفات والــذات، وأرادوا أن الله تعالى ليس له صفات، قيل: إذا إن الله ليس بمركب. وقد بين العلماء رحمهم الله أن إثبات الصفات لله إثبات وجـود لا إثبـات تحديـد، كما أن إثبـات الـذات إثبات وجود لا إثبـات تحديـد، ولا إثبـات تكـييف، وذلك لعجز البشر وقصـورهم عن أن يصلوا بمعارفهم إلى تحديد الصفات وإلى تكييفها، وقد ذكــروا أن علم الصفات ملحق بعلم الذات يحذو حذوه ويسـير على مثالـه، فـإذا كنا نثبت لله تعـالى ذاتـاً ولا نكيفها فهكـذا نثبت له صـفاتاً ولا نكيفهـا. وكثـير من السـلف يقولـون في الصــفات: أمِرُّوها كما جـاءت بلا كيـف. وفي الأثر المشـهور عن مالك بن أنس رحمه الله قولـه: الاسـتواء معلـوم، والكيف مجهـول. وفي أثر عن شيخه ربيعة قال: الاستواء غـير مجهـول، والكيف غـير معقـول. يعـني: لا تصــله العقــول، له كيفية ولكنها محجوبة عنــا، فنــؤمن به ونتوقف عن تلك الكيفيـة. وإذا سـأل سـائل وقـال: ما كيفية الاسـتواء؟ قلنـا: الكيف مجهـول. فإثبات الصفات إثبات وجود لا إثبـات تكـييف ولا إثبـات تمثيـل. فهـؤلاء الـذين يقولون: إن الله تعالى غير مركب ثم يريدون بالتركيب الـتركيب من الصـفات والذات يريدون بذلك نفي الصفات. فيقـال لهم: أنتم تثبتـون الـذات، فهل لها كيفية؟ فإذا قالوا: لا يعلم كيفية الـذات إلا اللـه. قلنـا: كـذلك الصـفات لا يعلم كيفيتها إلا الله تعالى. فالحاصل: أن كلامهم في التركيب وأنه الأقسـام السـتة الــتي ســبقت لا يحتــاج إلى البحث فيــه، بل هو من علم الكلام، إنما أورده الشارح ليبين تهافتهم، وليبين أنهم خاضـوا في شـيء لا فائـدة فيه ولا حاصل لـه. وهـذه التركيبـات للأقسـام السـتة القصد منها هو القسم السـادس كما ســمعنا، وفي الأقســام الأولى من جملة ما ولَّدوه أن قــالوا: الــتركيب من الأعضاء، والتركيب من الصورة والهيولي، ونحو ذلك، قالوا ذلك بالتتبُّع أو بعلم الكلام الذي ولَّدوه. فنقول: لا يجوز الخوض في مثل هذا، بل يقال: الله مـنزه عن النقائص وموصوف بصفات الكمال.

قال رحمه الله تعالى: [وسبب الضلال: الإعراض عن تدبر كلام الله وكلام رسوله، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة، وإنما سمي هؤلاء أهل الكلام لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما عُلِم بالحس، وإن كان هذا القياس وأمثاله يُنتفع به في موضع آخر ومع من ينكر الحس، وكل من قال برأيه أو ذوقه أو سياسته مع وجود النص أو عارض النص بالمعقول فقد ضاهى إبليس حيث لم يسلم لأمر ربه، بل قل: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [الأعراف:12]. وقال تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً [النساء:80]. وقال تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [آل عمران:31]. وقال: فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً [النساء:65] أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليماً. قوله: (فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، مُوَسوساً تائهاً شاكّاً زائغاً، لا مؤمناً مصدقاً ولا جاحداً مكذباً). يتذبذب: يضطرب ويتردد، وهذه الحالة التي وصفها الشيخ رحمه الله حال كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة، وعند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة، أمره إلى الحيرة والضلال والشك، كما قال ابن رشد الحفيد -وهو من أعلم الناس بمذهب الفلاسفة ومقالاتهم- في كتابه تهافت التهافت: ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به؟! وكذلك الآمدي أفضل أهل زمانه واقفٌ في المسائل الكبار حائر، وكذلك الغزالي رحمه الله انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فمات و(البخاري) على صدره، وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي قال في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات: نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذىً ووبال ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا فكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا وكم من جبال قد علت شرفاتها رجالٌ فزالوا والجبال جبال لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. أقرأ في الإثبات: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه:5]، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ [فاطر:10]. وأقرأ في النفي: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى:11]، وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً [طه:110]. ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي]. أورد هذا الكلام ليبين أن هؤلاء

نهايتهم الحـيرة والتذبـذب، وذلك لأنهم ليسـوا على عقيـدة راسـخة، فكلامهم الذي يولدونه سبب الشك؛ لأنه لا يأتي ببرهـان، بل بعضه يـرد بعضـاً، ويكـذب بعضه بعضاً، فيأتي أحدهم بمسائل جدلية ويجمعها في مؤلفاتـه، ثم يـأتي آخر أشد جدلاً منه فينقضها واحدة واحـدة، فلا يبقى معه شـيء، فيقـول: كما أنك تولِّد كذا فأنا أولِّد مثله. وقد تعلمها كثير من العلماء لـيردُّوا عليهـا، ومن جملة من عرفها وأتقنها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فإنه درس علـومهم وإن لم يصـــرف فيها وقتـــاً، ولكن ما أعطيه من الـــذكاء ومن الفطنة ومن قـــوة الذاكرة كان سبباً في كونه يفهمها بمجرد ما يقرؤها، فناقش كتبهم ورد عليها رداً متقناً. وتجد في أول كتابه الرد على الشيعة الرافضة الذي سـمي (منهـاج السنة) ويكـاد يكـون ثلثه في مناقشة المتكلمين فيما يتعلق بالصـفات وبنفيها ونحو ذلك. وهكذا كتابه الذي يسـمى بالعقل والنقل أو يعـرف بــ(درء تعـارض العقل والنقل) مطبـوع أيضـاً في عشر مجلـدات، وهو أيضـاً مناقشة لهم في تلك الشـبهات وبيـان ما وقعـوا فيه من التناقضـات. وهكـذا أيضـاً كتابه الـذي يسمى بــ(نقض التأسـيس) و(التأسـيس) كتـاب لأحد المتكلمين، وهو للـرازي صاحب هذه الأبيات، اسمه (تأسيس التقديس) رد عليه وإن لم يرد عليه كلـه، أو لم يوجد رده كله كـــاملاً وطبع الموجـــود منـــه، فناقشه كأنه درس كلامهم وتوغل فيه. وكل ذلك ليعرف المسلمون أنهم لا يثبتون على حالة، بل نهـايتهم الحيرة ونهايتهم التذبذب، كما سبق عن أولئك منهم. فهذا ابن رشد -ويسـمى الحفيد - له كتاب في الانتصار للفلاسفة، وذلك لأن الغزالي صنف كتاباً سـماه (تهـافت الفلاسـفة) ولما صـنفه رد عليه ابن رشد انتصـاراً لهم، وسـمى رده (تهافت التهـافت) انتصـاراً للفلاسـفة ورداً على الغـزالي . وقد سـبق أن نقل الشارح بعض كلام الغزالي من كتابه إحياء علوم الدين. فالحاصل: أن الغزالي يبين أنهم ليسوا على عقيدة راسخة، بل إنهم متهافتون مضطربون متذبذبون، ولا عبرة بمن انتصر لهم من أضرابهم؛ فإن ابن رشد فيلسـوف. فالحاصل أن هذا المؤلف لم يكن على عقيدة راسخة، بل ينقل عنهم أنهم متذبذبون، وأنهم مهما وصلوا إليه من المعرفة لا يثبتون أيضاً على طريقة. وثـانيهم أبو الحسن الآمـدي صـاحب كتـاب (الإحكـام في أصـول الأحكـام) من علمـاء المتكلمين، ولكن من الـذين تكلمـوا في هـذا العلم وتكلمـوا أيضـاً في العلـوم الأخـرى كأصول الفقه، ومع ذلك فهو قد اعترف أنهم في الحيرة والشك والاضطراب. وثالثهم الغزالي صاحب الإحياء، يقولون: إن الإحيـاء من خـير كتبـه. وإن كـان فيه شيء من البدع، فـ(إحياء علوم الدين) من أحكم كتبـــه، ولكنه لم يكن من المحدِّثين، فحشد فيه أحاديث موضوعة لا أصل لها، وإن كان جـاء فيه بأفكـار وبفوائد مهمة، وهو كان في أول أمره مشـتغلاً بعلم الكلام ومشـتغلاً بالجـدل ومشـــتغلاً بعلم الفكر وما أشـــبه ذلـــك، ولأجل ذلك قـــدم في أول كتابه (المستصفى) مقدمة في المنطـق، وفي آخر حياته نـدم على أنه أضـاع حياته في شـيء لا فائـدة فيـه، فأقبل على الحـديث وجعل يقـرؤه فوافـاه الأجل و(البخاري) على صـدره، كأنه يقـول: نـدمتُ على إعراضي عن كتب الحـديث فأنا الآن أشتغل بها في آخر حيـاتي. ولعله خُتم له بخاتمة حسـنة. رابعهم: أبو عبد الله الرازي صاحب التفسير الكبير الذي هو أكبر التفاسير الموجودة لهـذا

العالم الكبير أبي عبد الله ، ويسمى (فخر الدين الرازي)، وصنف كتاباً له وسماه: (أقسام اللذات) وجاء فيه بهذه الأبيات، وكأنه ينتقد أكثر عمله، فحياته ذهبت في شيء لا فائدة فيه من علم الجدل. رُوي أنه مرةً كان يمشي في طريق وخلفه تلاميذ له أكثر من مائة أو مائتين، فمروا على عجوز فاستغربته وقالت: من هذا؟ قالوا: هذا أبو عبد الله الرازي العالم الجليل يحفظ ألف دليل على وجود الله تعالى. قالت العجوز: أفي الله شك. عجوز على فطرتها تقول: هذا الذي حرص على جمع هذه الأدلة في قلبه شك، وفي قلبه توقف، فلا يحرص على تتبعها إلا من هو في حيرة أو في شك، فهو يقول في الأبيات التي سبق ذكرها: نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال فـ(إقدامهم): تقدمهم. يعني: نهايته هذا الأمر. وسعيهم يعني: عملهم، أكثره ضلال. ثم يقول في أثنائها: ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا أي: ما استفدنا من جمعنا ومن تأليفاتنا إلا قال فلان، وقيل كذا، وقالوا كذا، فهذه فائدتنا. ثم يقول بعد هذه الأبيات: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية. يعني: طرق أهل الكلام ومناهج الفلاسفة. يقول عنها: فما تروي غليلاً -الغليل: الظمآن- ولا تشفي عليلاً يعني: مريضاً. ثم يقول: ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه:5]، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ [فاطر:10]. وأقرأ في النفي: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى:11]، وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً [طه:110]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. فهذا كلامه في هذا الكتاب (أقسام اللذات)، أليس ذلك دليلاً على أنه اعترف على نفسه وعلى بني جنسه أن سعيهم ضلال وأنهم في حيرة وأن عملهم تافه؟! إذاً نقول: هذه نهايتهم، أما أهل العقيدة الراسخة التي هي معرفة الله بصفاته وتفويض كيفيتها فهؤلاء -والحمد لله- لم يقعوا في شيء من هذا التزلزل.

قصص أخرى عن أهل الكلام

قال رحمه الله تعالى: [وكذلك قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : إنه لم يَرِد عن الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، حيث قال: لَعَمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم وكذلك قال أبو المعالي الجويني -رحمه الله-: يا أصحابنا! لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به. وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني ، وهاأنذا أموت على عقيدة أمي أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور. وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهي

-وكـان من أجل تلامـذة فخر الـدين الـرازي - لبعض الفضـلاء وقد دخل عليه يوماً فقال: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون. فقال: وأنت منشرح الصدر لـذلك مسـتيقن به -أو كما قـال-؟ فقـال: نعم. فقـال : اشـكر الله على هـذه النعمة، لكني والله ما أدري ما أعتقـد، والله ما أدري ما أعتقـد، والله ما أدري ما أعتقـد، وبكى حـتى أخضل لحيتـه. ولـابن أبي الحديد الفاضل المشـهور بـالعراق: فيك يا أغلوطة الفكر حـار أمـري وانقضى عمـري سـافرَت فيك العقـول فما ربحت إلا أذى السـفر فلَحَى الله الألى زعمـوا أنك المعـروف بالنظر كذبوا إن الذي ذكروا خارج عن قوة البشر وقـال الخـونجي عند موتـه: ما عـرفت مما حصلته شيئاً سـوى أن الممكن يفتقر إلى المـرجِّح ثم قـال : الافتقـار وصف سـلبي، أمـوت وما عـرفت شـيئاً. وقـال آخـر: أضـطجع على فراشي وأضع الملحفة على وجهي وأقابل بين حجج هؤلاء وهـؤلاء حـتى يطلع الفجر ولم يـترجح عنـدي منها شـيء. ومن يصل إلى مثل هـذه الحـال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزنـدق، كما قـال أبو يوسف -رحمه اللـه-: من طلب الـدين بـالكلام تزنـدق، ومن طلب المـال بالكيميـاء أفلس، ومن طلب غـريب الحـديث كـذب. وقـال الشـافعي رحمه الله تعـالى: حكمي في أهل الكلام أن يُضرَبوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقـال : هـذا جـزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام. وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلماً يقوله، ولَأَن يُبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه -ما خلا الشـرك باللـه- خـير له من أن يبتلى بـالكلام . انتهى وتجد أحد هـؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقر بما أقروا به، ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك التي كان يقطع بها ثم تبين له فسادها أو لم يتـبين له صـحتها، فيكونـون في نهايـاتهم -إذا سـلموا من العـذاب- بمنزلة أتبـاع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب. والدواء النـافع لمثل هـذا المـرض ما كـان طـبيب القلوب صلوات الله عليه وسلامه يقوله إذا قام من الليل يفتتح صلاته: (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسـرافيل فـاطر السـماوات والأرض عـالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبـادك فيما كـانوا فيه يختلفـون! اهـدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) خرَّجه مسلم . توسل صلى الله عليه وسـلم إلى ربه بربوبيته جبريل وميكائيل وإسـرافيل أن يهديه لما اختُلِف فيه من الحق بإذنـه؛ إذ حيـاة القلب بالهدايـة، وقد وكل الله سـبحانه هـؤلاء الثلاثة بالحيـاة، فجبريل موكل بـالوحي الـذي هو سـبب حيـاة القلـوب، وميكائيل بـالقطر الـذي هو سـبب حيـاة الأبـدان وسـائر الحيـوان، وإسرافيل بالنفخ في الصـور الـذي هو سـبب حيـاة العـالم وعـود الأرواح إلى أجسـادها، فالتوسل إلى الله سـبحانه بربوبيته هـذه الأرواح العظيمة المُوْكَلة بالحياة له تأثير عظيم في حصول المطلوب، والله المسـتعان]. ذكر أولاً بقية كلام هـؤلاء الـذين عُـرف عنهم الحـيرة، منهم الشهرسـتاني صـاحب الملل والنحـل. ومنهم: الجويـني صـاحب (الإرشـاد)، ويسـمى (إمـام الحـرمين) له أيضـاً مؤلفـات، وكلامه في (الإرشـاد) دليل على أنه متوغل في علم الكلام، وعرفنا ما تكلم به هنـا. ومنهم هـذا العـالم المشـهور الـذي يسـمى: (الخسروشاهي) الذي يحلف -كما ذكر الشارح- أنه لا يدري ما يعتقد، ويغبط

العامة بعقيدتهم. هذه الكلمات المنقولة عنهم وكـذلك عن غـيرهم لا شك أنها دليل واضح على أن هـذا النـوع من علم الكلام نهايته الحـيرة وأنهم لا يثبتـون على طريقة، بل حجج هؤلاء ترد حجج هؤلاء. ذكر أحدهم -كما سبق- أنه يبيت الليلة من أولها إلى آخرها وهو يقابل حجة هــؤلاء بحجة هــؤلاء، ويصــبح وما ترجح عنده منها واحدة، أي فائدة من العلم بهـا؟! وأي فائـدة من معرفتهـا؟! إذاً أسـلم الطـرق البُعد عن هـذه الطريقة الـتي هي علم الكلام، وهجر أهله والبُعد عنهم، بل عقوبتهم بما قال الشافعي رحمه الله.

علاج القلوب عند الاختلاف

والعلاج مثل ما في هذا الحديث، وهو قوله صلى الله عليه وسـلم في توسـله بالله رب المـــــوكلين من الملائكة بالحيـــــاة: (اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسـرافيل فـاطر السـماوات والأرض عـالم الغيب والشـهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كـانوا فيه يختلفـون! اهـدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنـك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مسـتقيم). كأنك تـرغب إلى الله وتقـول: اختلفـوا فهـؤلاء يقولـون، وهـؤلاء يقولـون، وأنا لا أدري مع من الحـق، فـإذا هـديتني ووفقتني ودللتني على الصواب فإنني أنا المهتدي، وأنت الذي تهدي من تشاء وتضل من تشـاء. إذا رغب العبد وتوسل بربوبيته تعـالى هـؤلاء الملائكة فـإن الله تعــالى يقبل دعــاءه ويجيبه لما طلب، ويصــرفه عن المحظــورات وعن أضرارها وشرورها.

لزوم الإيمان برؤية الله تعالى دون توهم أو تأويل

قــال المؤلف رحمه الله تعــالى [قولــه: (ولا يصح الإيمــان بالرؤية لأهل دار السـلام لمن اعتبرها منهم بـوهم أو تأوَّلها بفهم؛ إذ كـان تأويل الرؤية وتأويل كل معــنى يضــاف إلى الربوبية تــرك التأويل ولــزوم التســليم، وعليه دين المسلمين، ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه). يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على المعتزلة ومن يقول بقـولهم في نفي الرؤيـة، وعلى من يشبه الله بشيء من مخلوقاته، فـإن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: (إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر) الحديث، أدخل (كـاف التشـبيه) على (ما) المصدرية أو الموصولة بـ(ترون) التي تؤول مع صـلتها إلى المصـدر

الذي هو الرؤية، فيكون التشبيه في الرؤية لا في المرئي، وهذا بيِّن واضح في أن المراد إثبات الرؤية وتحقيقها ودفع الاحتمالات عنها، وماذا بعد هذا البيان وهذا الإيضاح؟! فإذا سلط التأويل على مثل هذا النص كيف يُستدل بنص من النصوص؟! وهل يحتمل هذا النص أن يكون معناه: إنكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة البدر؟! ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ [الفيل:1]، ونحو ذلك مما استعمل فيه (رأى) التي من أفعال القلوب، ولا شك أن (ترى) تارةً تكون بصرية وتارةً قلبية وتارة تكون من رؤيا الحلم وغير ذلك، ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلِّص أحد معانيه من الباقي وإلا لو أخلى المتكلمُ كلامَه من القرينة المخلِّصة لأحد المعاني لكان مجمَلاً مُلْغَزاً لا مبيَّناً موضَّحاً، وأي بيان وقرينة فوق قوله: (ترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب)؟! فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر أو برؤية القلب؟! وهل يخفى مثل هذا إلا على من أعمى الله قلبه؟! فإن قالوا: ألجأنا إلى هذا التأويل حكمُ العقل بأن رؤيته تعالى مُحال لا يُتصور إمكانها، فالجواب أن هذه دعوى منكم، خالفكم فيها أكثر العقلاء، وليس في العقل ما يحيلها، بل لو عُرض على العقل موجودٌ قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحُكم بأن هذا محال وقوله: (لمن اعتبرها منهم بوهم) أي: توهم أن الله تعالى يرى على صفة كذا فيتوهم تشبيهاً، ثم بعد هذا التوهم إن أثبت ما توهمه من الوصف فهو مشبِّه، وإن نفى الرؤية من أصلها لأجل ذلك التوهم فهو جاحد معطِّل، بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده، ولا يعم بنفيه الحق والباطل، فينفيهما رداً على من أثبت الباطل، بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق].

دلالة ألفاظ الكتاب توجب الإيمان بما دلت عليه

الواجب علينا أن نقبل الصفة التي جاءتنا على ظاهرها، سيما إذا كانت صريحة بعيدة عن التوهمات، وأن نحملها على المحمل الذي يمكن أن تتحمله، وأن ننزه كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم عن الاحتمالات البعيدة التي فيها شيء من التكلف، وفيها صرف للفظ عن متبادرٍ منه وعما يفهمه المخاطَب لأول وهلة. وذلك أن كلام الله تعالى أفصح الكلام وأوضحه وأجلاه معنىً، وأقرب إلى أن يُفهم، ولا يحتاج إلى إيضاح زائد، وليس ككلام أهل الألغاز وأهل الإشارات القوية، وهكذا أيضاً كلام نبيه صلى الله عليه وسلم، فإنه أفصح الخلق وأنصحهم، وإذا كان فصيحاً فلا بد أنه سيتكلم بما يعرفه ويفهمه المخاطَبون، وكذلك إذا كان أنصح الخلق وأحبهم لمعرفة الأمة وأحبهم لمنجاتها وأحبهم لإبعادها عن الأشياء الوهمية. فإذا كان كذلك فلا بد أنه يوضح لهم ولا يسوق لهم الكلام ملتبساً، ولا يتكلم بالكلام المُبهِم،

حاشـاه أن يتكلم بكلام يُفهم منه غـير الـذي أراد، والصـحابة رضي الله عنهم تقبلـوا كلامه وحملـوه على ما هو عليه دون أن يسـألوه ويناقشـوه، ودون أن يفسروا كلامه بما لا يحتمله، حتى جاء الخلف المتـأخرون الـذين هم كما قـال في قوله تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ [الأعراف:169]، يعني أنهم قاموا مقـامهم في وراثة الكتـاب، ولكنهم لم يعملـوا بـه، فهـؤلاء الخلف الـذين جـاءوا بعد السـلف هم الـذين عملـوا هـذه الأعمـال، وهي التـأويلات البعيدة، التي تكلفوا فيها وصرفوها عما هو مقصـود بهـا. فقد تقـدم قـول الله تعـالى: وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِـرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَـاظِرَةٌ [القيامـة:22-23]، والوجـوه معروف أنها محل العيون، فالعينان مركبتان في الوجه، فإذا كان الوجه مقابلاً فإن العين تنظر. فالله قال: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ [القيامة:22]، وقـال تعـالى: وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ [القيامة:24]، وفي سورة أخـرى: وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِـعَةٌ [الغاشـية:2]، وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَـةٌ [الغاشـية:8]. فجعل الوجـوه علامة على الشقاء أو السعادة، كما في آية أخـرى: يَـوْمَ تَبْيَضُّ وُجُـوهٌ وَتَسْـوَدُّ وُجُـوهٌ [آل عمران:106]، فالوجه هو الذي تكون فيه علامة الإشراق والسعادة، أو علامة الاسوداد والشـقاوة. فـإذاً قـال اللـه: وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِـرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَـاظِرَةٌ [القيامة:22-23]، وأيُّ كلام أفصح من هـذا الـذي يُفهم منه أن الوجـوه تنظر إلى ربهـا؟! ثم جـاء هـؤلاء الخلف وسـلطوا التأويل عليه وقـالوا: إن المـراد بالنظر هنا الانتظار، أو المراد نظر الثواب لا نظر الـرب تعـالى، فقـالوا: (إلى ربهـا) يعـني: إلى ثـواب ربهـا. وما الـدليل على هـذا المقـدر؟ وهل في الكلام محـذوف؟ إن الله تعـالى أعلى من أن يـوهِم في كلامه أو يجعله خفيـاً ليس بجلي، فكيف يقال: ناظرة إلى ثواب الله أو إلى آلائه أو إلى نعمه؟!

وضوح كلام النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات

وإذا عرفنا ذلك فإن كلام النبي صلى الله عليه وسـلم أيضـاً فصـيح، بعثه الله باللغة الفصحى، وهو أفصح من نطق بالضاد وأفصح العرب، وكلامه أيضـاً في غاية الوضوح وفي غاية الفصاحة وفي غاية البيان. فمثلاً: قوله صلى الله عليه وسلم في حـديث جرير : (إنكم سـترون ربكم كما تـرون القمر ليلة البـدر -أو كما ترون هـذا القمـر- لا تضـامون في رؤيتـه). ويقـول في حـديث آخـر: (هل تضارُّون في رؤية القمر ليلة البـدر؟! هل تضـارُّون في رؤية الشـمس صـحواً ليس دونها سحاب؟! فـإنكم ترونه كـذلك)، أليس هـذا واضـحاً في أن المـراد النظر والمعاينة بالعين؟ فجاء الخلف وسلطوا عليه التأويل وقالوا: المـراد ألم تعلم، فالمراد العلم، فقوله: (فإنكم سترون ربكم) يعني: ستعلمون ربكم. هم يعلمونه في الـدنيا، فكيف قـالوا سـتعلمون، وكـأنهم ما علمـوا؟! إذ (السـين) للاستقبال، ولو كـان هـذا مـراده لقـالوا: نحن نعلم ربنـا، ونحن نعلم أنه ربنـا.

ولكنه قال: (سترون ربكم) يعني: يوم القيامة في الآخرة وفي الجنة. ثم لماذا قال: (كما ترون القمـر)؟! هل هم كـانوا يـرون القمر في تلك السـاعة؟! وإذا كانوا يرونه هل يشكون في أن هذا هو القمر؟! وكيف يقـاس على قولـه: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَـلَ رَبُّكَ [الفيـل:1] يعـني: ألم تعلم؟! أو: أَلَمْ تَـرَ كَيْـفَ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلاً [إبـراهيم:24] يعـني: ألم تعلم؟! وكـذلك قوله تعـالى: أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا [المجادلة:8]؟ وقوله تعالى: أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ [المجادلـة:7]؟! وقوله تعـالى: أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَـافَقُوا [الحشـر:11]؟! فـالمراد هنا الرؤية العلميـة، يعني: ألم ترَ بقلبك؟! فلا مناسـبة بين هـذه وبين قولـه: (سـترون ربكم)، فهنا دخلت السين، يعني أنه في المستقبل، وهنا أكد بقوله: (كما تـرون القمر ليلة البدر) ، (كما ترون هـذا القمر لا تضـامون) أي: لا تشـكون في رؤيتـه. وبينهما فرق، فعرف بذلك أن هذه تأويلات بعيدة لا يحتاج إليها ولا يصدقها عاقل.

بعد تأويل أهل الكلام

وأما قولهم: حملنا على ذلك أن الرؤية لله فيها تشبيه، فإذا قلنا إنه يُـرى فإنه يكون مشابهاً لخلقه -تعالى الله عن قولهم- فالجواب: ما الذي أشعركم؟ فلو رأوه كلهم هل يلزم أن يكون مشابهاً لخلقه؟! حاشا وكلا؛ فالله سـبحانه ليس كمثله شيء، ولا يلزم إذا رأوه أن يكون ممـاثلاً لشـيء من مخلوقاتـه، بل هو كما يشـاء، وقد أكد النـبي عليه الصـلاة والسـلام هـذه الرؤية وأخـبر بأنها من أعلى نعيم أهل الجنة وأنها غاية مقصدهم ومرامهم، حـتى يقـول بعضـهم: ولو أني استطعتُ غضضتُ طرفي فلم أنظر به حتى أراكا فعلى كل حـال لا يُغـتر ولا يُلتفت إلى تلك التأويلات، والمؤمن يتقبل هذه النصوص ثم يعرف الفائدة، والفائدة رسوخ عقيدته في قلبه وأنه مؤمن بالله وبما جاء عن اللـه، ويقينه أو تصديقه بأن المؤمـنين يـرون ربهم في دار كرامتـه، وبـأن المؤمـنين يتنعمـون ويلتـذون بهـذه الرؤيـة، وأنها من جملة نعيمهم، وقبوله للأدلة الـتي دلت على ذلك وعدم تسليطه للتأويلات، وإعراضه عن تأويلات المتكلمين وعدم الإصغاء إلى أقـــوالهم، وإعراضه عن الأدلة العقلية الـــتي ولَّدوها والـــتي زعمـــوا أنها براهين وهي في الحقيقة شبهات وضلالات.

البعد عن التأويل سبب للسلامة

قال رحمه الله تعالى: [وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله تعالى بقوله: (ومن لم يتـوق النفي والتشـبيه زل ولم يصب التنزيـه)، فـإن هـؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم ينزهون الله بهذا النفي، وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال؟! فإن نفي الرؤية ليس بصفة كمال؛ إذ المعدوم لا يُرى، وإنما الكمال في إثبات الرؤية ونفي إدراك الـرائي له إدراكَ إحاطة كما في العلم؛ فـإن نفي العلم به ليس بكمــال، وإنما الكمــال في إثبــات العلم ونفي الإحاطة به علمــاً، فهو سبحانه لا يحـاط به رؤيـةً كما لا يحـاط به علمـاً وقوله : (أو تأولها بفهم) أي: ادعى أنه فهم لها تأويلاً يخالف ظاهرها وما يفهمه كل عربي من معناها. فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل أنه (صرف اللفظ عن ظـاهره)، وبهـذا تسـلط المحرفـون على النصـوص وقـالوا: نحن نـؤوِّل ما يخـالف قولنا فسموا التحريف تأويلاً تزييناً له وزخرفـةً ليُقبـل. وقد ذم الله الـذين زخرفـوا الباطل، قال تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَـوْلِ غُـرُوراً [الأنعـام:112]، والعـبرة للمعـاني لا للألفـاظ، فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخـرف عـورض به دليل الحـق، وكلامه هنا نظـــير قوله فيما تقـــدم: (لا نـــدخل في ذلك متـــأوِّلين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا). ثم أكد هذا المعنى بقوله: (إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين)، ومراده ترك التأويل الذي يسمونه تأويلاً وهو تحريف، ولكن الشيخ رحمه الله تعالى تـأدب وجـادل بـالتي هي أحسـن، كما أمر الله تعـالى بقولـه: وَجَـادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل:125]، وليس مـراده تـرك كل ما يسـمى تـأويلاً، ولا ترك شيء من الظواهر لبعض الناس بـدليل راجح من الكتـاب والسـنة، وإنما مراده ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة المخالفة لمذهب السـلف، الـتي يـدل الكتاب والسنة على فسادها، وتـرك القـول على الله بلا علم. فمن التـأويلات الفاسدة تأويل أدلة الرؤية وأدلة العلو، وأنه لم يكلم موسى تكليمــاً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً]. نعرف أن هؤلاء المعتزلة ونحوهم هم الـذين توسـعوا في هـذا المجــال وحملــوا غــيرهم على أن يتوســعوا، ولم يكن الســلف رحمهم الله يتوسعون في هذا الكلام، بل يقبلونه على ما هو عليه، ولا ينقبـون ولا يبحثـون عن شيء من الإيرادات التي يوردها عليهم أهل التشـبيه، فكـان كلام السـلف رحمهم الله قليلاً ولكن معناه كثير، وكانوا يقبلون النصـوص ويعرفـون معناها ويفهمونه ويعلمون ما قُصد منهـا، فيقـرءون -مثلاً- الآيـات الـتي في الصـفات ويعلمون أنها صـفات ثابتـة، ولكن يعلمـون أنها تخـالف صـفات المخلـوق؛ لأن الله ليس كمثله شــيء، ويعلمــون أن من تلك الصــفات صــفة العلم وصــفة الرؤيــة، وأنها حقيقيــة، ولكنها ليست كصـفات المخلـوقين في رؤيـةِ بعضـهم لبعض أو علمِ بعضــهم ببعض، ويعلمــون أن الله تعــالى ما نفى عن نفسه إلا النقائص، فكلَ شيء فيه نقص فإنه قد نفاه. فمثلاً: يقول تعـالى: لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَيْءٌ [الشورى:11] أي: لا يماثله شيء. لأن المخلوق يأتي عليه الفنــاء والله ليس كذلك. ويقول تعالى: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً [مــريم:65] أي: لا أحد يســتحق أن يسمى (الله) أو (الإله) أو نحو ذلك، وذلك لنقص المخلوقات الـتي تسـمى بذلك. وقال تعالى: لا تَأْخُذُهُ سِـنَةٌ وَلا نَـوْمٌ [البقـرة:255] نفى ذلك عن نفسه

لأنه نقص، فالنوم أخو الموت. وقد نفى الموت أيضاً عن نفسه فقـال: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُـوتُ [الفرقـان:58]، فـالموت نقص فنفـاه عن نفسـه. ونفى أيضاً عن نفسه عزوب شيء أو نسـيانه فقـال: وَمَا يَعْـزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ [يونس:61] فقوله تعالى: وَمَا يَعْزُبُ [يـونس:61] يعـني: ما يغيب عنه وما ينسى شـيئاً؛ وذلك لأن النسـيان نقص فنفـاه عن نفسـه. ونفى عن نفسه اللغوب فقال: وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ [ق:38] و(اللغوب): التعب والسآمة والنصب، وذلك أيضاً نقص. فكل النقائص نزه الله نفسه عنهـا، وذلك لما يـرد عليها من التغيير.

رؤية الله تعالى كمال له عز وجل

ولم ينـفِ عن نفسه الرؤية ولو كـان نقصـاً لنفى ذلك عن نفسـه، وذلك لأن الرؤية كمال، فكونه يُرى صفة كمال، وعدمها صفة نقص، وذلك لأن المعـدوم لا يُرى، فالذي لا يُرى معدوم، والمعدوم ليس بشيء، والـذي ليس بشـيء هو كاسمه ليس بشيء، فأثبت الله تعـالى أنه يُـرى، ولكن نفى عن نفسه إحاطة الأبصار به في قولـه: لا تُدْرِكُـهُ الأَبْصَـارُ [الأنعـام:103] يعـني: إذا رأته فإنها لا تحيط بـه، فـترى ما يبـدو وما يتجلى منه ولا تحيط بـه، وَهُـوَ يُـدْرِكُ الأَبْصَـارَ [الأنعـام:103]، وقد تقـدم أن الرؤية غـير الإدراك، فالله ما نفى إلا الإدراك، والإدراك هو الإحاطة. وقد تقـدم أن ابن عبـاس قيل لـه: أرأيت قـول اللـه: لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ [الأنعام:103]؟! فقال للسائل: ألستَ ترى القمـر؟ قـال: بلى. قال: أكُلَّه؟ قال: لا. قال: كذلك الإدراك. نحن نرى السماء، ولكن لا ندركها ولا ندري ما ماهيتها، ونحن نرى هذه الشمس وهذا القمـر، ولكن لا نـدرك ماهيته ولا من أي شيء هو، ونحن نـرى هـذا السـحاب وهـذه النجـوم، ولكن تضعُف أبصارنا أن تحيط بها، وعن أن تعلم ماهيتهـا. فـإذاً الرؤية شـيء غـير الإدراك، فالإدراك زائد على الرؤية. فمن تعظيم الله تعـالى أنه يُـرى ولا يُـدرك. كـذلك من تعظيم الله تعالى أن يُعلم ولا يُحاط به، قـال تعـالى: وَلا يُحِيطُـونَ بِشَـيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ [البقرة:255]. وقال تعالى: وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً [طـه:110] أي: لا يعلمـون إلا ما أعلمَهم، وذلك لنقص المخلـوقين وعظمة الخـالق سبحانه وتعالى، فهم مهما علموا لا يعلمون تفاصيل ذات الله تعالى ولا ما هو عليه إلا ما أطلعهم عليه، فهذا هو بيـان الفـرق بين ما يقوله هـؤلاء وما يقوله أهل السنة.

أما كونهم سلطوا على ذلك التأويل فقالوا -مثلاً- إن الرؤية تدل على إثبات تشبيه أو نحو ذلك فنحن نقول: لا حاجة لنا إلى تأويلكم، ولا حاجة بنا إلى هذا التأويل، بل انفوا عنها التشبيه وتَسلَمون. والتأويل اصطلحوا على أنه (صرف اللفظ عن ظاهره)، فقالوا -مثلاً-: ظاهر قوله تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [القصص:88] أن لله وجهاً، ولكن نصرفه فنقول: الوجه الذات، فنقول: كل شيء هالك إلا ذاته، فهذا أيضاً تأويل. ويقولون: ظاهر قوله تعالى: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ [المائدة:64] أن لله يدين، وفي إثباتهما تشبيه، فنحن نفر من التشبيه، فلأجل ذلك نسلط عليهما التأويل، فنقول: المراد باليدين النعمة. أو: المراد باليدين القدرة وهذا بعيد، فالله تعالى قال: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) يعني: مبسوطتان بالعطاء، وقد أكد ذلك النبي عليه الصلاة والسلام، بقوله: (يمين الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟! فإنه لم يغِض ما في يمينه، وبيده الأخرى القسط يخفظ ويرفع)، وقد أثبت الله تعالى لنفسه اليمين بقوله تعالى: وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [الزمر: 67]، فكيف تقولون: اليد القدرة؟! هذا من التأويل البعيد. وهكذا قولهم: إن كلام الله المعنى لا اللفظ. هذا أيضاً من التأويل. وهكذا قولهم: إن رحمة الله إرادة الإحسان. أو: غضبه إرادة الانتقام. كل ذلك يسمونه تأويلاً، فأهل السنة لا يدخلون في باب التأويل. والواجب عليهم أن يقتصروا على نفي التشبيه، وهذا معنى قول الطحاوي رحمه الله تعالى: (من لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه). وكان كثير من السلف إذا رأوا الإنسان يبالغ في النفي فيقول: ليس لله كذا وليس لله كذا اتهموه بأنه جهمي؛ لأن الذين يبالغون في النفي، فإنهم أقرب إلى أن يكونوا مشبِّهة من غيرهم، وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بعض كتبه أن هؤلاء مشبِّهة، ولو ادعوا أنهم يهربون من التشبيه. وذلك أنه ارتسم في قلوبهم أن تلك الصفات دالة على التشبيه، فما فهموا من النصوص إلا التشبيه، فهذا أولاً. ثانياً: أنهم لما نفوا الصفات نفياً كلياً وقعوا في تشبيه آخر وهو التشبيه بالجمادات أو التشبيه بالمعدومات أو التشبيه بالمستحيلات، فأصبحوا بذلك مشبِّهين، مع أنهم يقولون: نهرب من التشبيه، فقيل لهم: أنتم مشبهة. فعلى كل حال: تأويلاتهم التي يتأولون بها النصوص يردها كل ذي عقل سليم.

معاني التأويل

قــال رحمه الله تعــالى: [وقد صــار لفظ التأويل مســتعملاً في غــير معنــاه الأصــلي، فالتأويل في كتــاب الله وســنة رســوله صــلى الله عليه وســلم هو الحقيقة التي يئول إليها الكلام. فتأويل الخبر هو عين المخبَر بــه، وتأويل الأمر نفس الفعل المأمور به، كما قالت عائشة رضي الله عنهــا: (كــان رســول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه: ســبحانك اللهم ربنا وبحمــدك، اللهم! اغفر لي، يتأول القرآن). وقال تعالى: هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَـوْمَ يَـأْتِي تَأْوِيلُـهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُـلُ رَبِّنَا بِـالْحَقِّ [الأعـراف:53]. ومنه تأويل الرؤيا وتأويل العمل كقوله: هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَـايَ مِنْ قَبْـلُ [يوســف:100]، وقوله: وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ [يوســف:6]، وقولــه: ذَلِـكَ خَيْـرٌ وَأَحْسَـنُ تَأْوِيلاً [النساء:59]، وقوله: سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً [الكهف:78] إلى قوله: ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْـهِ صَـبْراً [الكهـف:82]. فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل والعلم بما تعلق بالأمر والنهي منه؟! وأما ما كان خــبراً كالإخبــار عن الله واليــوم الآخر فهــذا قد لا يُعلم تأويلُه الــذي هو حقيقتــه؛ إذ كانت لا تُعلم بمجرد الإخبار؛ فإن المخبَر إن لم يكن قد تصــور المخبَر به أو ما يعرفه قبل ذلك لم يعرف حقيقته -التي هي تأويلــه- بمجــرد الإخبــار. وهــذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا اللــه، لكن لا يلــزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قَصَد المخــاطِب إفهــام المخــاطَب إيــاه، فما في القــرآن آية إلا وقد أمر الله بتدبرها، وما أنزل آية إلا وهو يحب أن يُعلم ما عنى بها، وإن كان من تأويله ما لا يعلمه إلا الله. فهــذا معــنى التأويل في الكتــاب والســنة وكلام السلف، وسواء كان هذا التأويل موافقــاً للظــاهر أو مخالفــاً لــه. والتأويل في كلام كثير من المفسرين كــابن جرير ونحــوه يريــدون به تفســير الكلام وبيــان معنــاه ســواءً وافق ظــاهره أو خالفــه، وهــذا اصــطلاح معــروف، وهــذا التأويل كالتفســير يُحمد حقُّه ويُــرَد باطلُــه. وقوله تعــالى: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَــهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ [آل عمــران:7] فيها قراءتــان: قــراءة من يقف على قولــه: (إلا اللــه)، وقــراءة من لا يقف عنــدها، وكلتا القــراءتين حــق. ويــراد بــالأولى: المتشــابه في نفسه الــذي اســتأثر الله بعلم تأويلــه. ويــراد بالثانيــة: المتشابه الإضافي الذي يعرف الراســخون تفســيره، وهو تأويلــه. ولا يريد من وقف على قوله: (إلا الله) أن يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى؛ فإن لازم هــذا أن يكــون الله أنــزل على رســوله كلامــاً لا يعلم معنــاه جميــعُ الأمة ولا الرســول، ويكــون الراســخون في العلم لا حــظَّ لهم في معرفة معناها ســوى قولهم: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا [آل عمران:7]. وهذا القدر يقوله غير الراسخ في العلم من المؤمــنين، والراســخون في العلم يجب امتيــازهم على عــوام المؤمنين في ذلك، وقد قــال ابن عبــاس رضي الله عنهمــا: أنا من الراســخين في العلم الذين يعلمون تأويله. ولقد صدق رضي الله عنــه؛ فــإن النــبي صــلى الله عليه وســلم دعا له وقــال: (اللهم فقهه في الــدين وعلمه التأويــل) رواه البخاري وغيره. ودعاؤه صــلى الله عليه وســلم لا يــرد. قــال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخــره أَقِفُه عند كل آية وأســأله عنهــا. وقد تواترت النقول عنه أنه تكلم في جميع معاني القــرآن، ولم يقل عن آيــة: إنها من المتشـــابه الـــذي لا يعلم أحد تأويله إلا اللـــه] ذكر أن المبتدعة من

المعتزلة ونحوهم يستعملون كلمة التأويل بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره، كما ذكرنا قريباً. كقولهم في اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الأعراف:54]: استولى عليه، فهذا صرف اللفظ عن ظاهره. وقولهم في أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ [الملك:16] أي: في السماء علمه، أو: في السماء ملائكته، فهذا صرف للفظ عن ظاهره. وقولهم: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ [المعارج:4] أي: تصعد إلى ملائكته أو إلى علمه أو نحو ذلك. ولا شك أن هذا تأويل باطل ما أنزل الله عليه دلالة ولا أوضحه ولا أمر به، فهذا هو التأويل الذي هو مذموم، والذي يذمه السلف ويقولون: لا تتأولوا، أو لا تستمعوا إلى هذا التأويل ويراد به صرف اللفظ عن ظاهره، مع أن كلمة التأويل تأتي بمعنى التفسير، وكان ابن جرير رحمه الله في تفسيره يقول: (القول في تأويل قوله تعالى)، ومراده: في تفسير الآية ويقول: (اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك)، ويقول: (وبمثل الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل) والمراد: أهل التفسير. أما في لغة القرآن فقد وردت كلمة (التأويل)، وكذلك في لغة الصحابة، والمراد بها حقيقة الشيء وماهيته وما يئول إليه، وذلك مثل قوله تعالى: هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ [الأعراف:53] فالمراد: حقيقته، أي: هل ينتظرون إلا أن يقع الأمر الذي أُخْبِروا به؟! وتأويله يعني وقوع ما فيه، فمثلاً: تأويل قوله تعالى: وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ [الأعراف:44] وقوع المناداة، من كون هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار وهؤلاء ينادون هؤلاء، إذا وقع ذلك فهذا هو التأويل، أي: وقوعه. فيقال مثلاً: هذا تأويل الآية التي أخبرنا بها، أي: حقيقة ما وقع. وكذلك مرجع الشيء يسمى تأويلاً، ومنه قوله تعالى: ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً [النساء:59] يعني: أحسن حقيقةً وأحسن مظهراً ومرجعاً. ومنه أيضاً تأويل الرؤيا، كما حكى الله عن يوسف أنه قال: إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ [يوسف:4]، ثم بعد أن جاء إخوتُه وأبواه ودخلوا عليه قال تعالى عنه: وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ [يوسف:99-100] يعني: هذه حقيقتها، فقد وقع ما تُؤَوَّلُ به. ولما دخل اثنان معه السجن قالا كما حكى الله تعالى عنهما: قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ [يوسف:36] أي: بحقيقته وما يئول إليه وما يقع. وفي نفس السورة يقول الله تعالى: وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ [يوسف:6] يعني: حقائقها وما تئول إليه، يعني: ترجع إليه. فالتأويل الذي في قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ [آل عمران:7] المراد: ابتغاء معرفة وقوعه وكيفيته تصوُّره، وذلك غيب ولا يعلمه إلا الله، فإذا وقع علموه، ولا يقع إلا في يوم القيامة، فمثلاً: آيات الوزن كقوله تعالى: وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ [الأعراف:8]، وقوله: فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ [القارعة:6]، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ [القارعة:8] قد يقولون: نريد تأويل هذا الميزان، وما مقداره؟ وما سعة الكفة؟ وكيف تميل؟ وكيف تَخِفُّ بهذا وتَثْقُل بهذا؟ فهذا تأويله لا يعلمه إلا الله، فنحن لا نعلم حقيقة ذلك الوزن، ولا نعلم كيف تكون الأعمال أعراضاً حتى توزن،

فإنما يظهر إذا بـدت. فـإذا ظهـرت المـوازين ووزنت فيها الأعمـال فعند ذلك نقول: هذا تأويل قوله تعالى: وَالْـوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ [الأعـراف:8]، هـذا تأويل قوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ [الأنبيـاء:47]، هـذا تأويلـه، أي: هذا هو حقيقته. وإذا تطايرت الصحف في الأيمان والشـمائل نقـول: هـذا تأويل قوله تعـالى: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَـهُ بِيَمِينِـهِ [الحاقـة:19]، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَـهُ بِشِـمَالِهِ [الحاقـة:25]أي: وقع ذلك فقبل ذلك لا نـدري ما هو الكتـاب، وكيف يكون الكتاب الذي هو كتـاب كبـير يحصي الأعمـال كلهـا، كما في قوله تعالى: مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَـادِرُ صَـغِيرَةً وَلا كَبِـيرَةً إِلَّا أَحْصَـاهَا [الكهـف:49]، وكما في قوله: اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِـكَ الْيَـوْمَ عَلَيْـكَ حَسِـيبًا [الإسـراء:14]، وكيف يقبض ذلك الكتـاب باليـد. فهـذا ما لا يعلمه إلا اللـه، فـإذا وقع وأخـذت الكتب بالأيمان والشمائل فعند ذلك نقـول: هـذا تأويل تلك الآيـات الـتي أخـبر الله فيها بأنه سيقع كذا، وأن صورته وكيفيته كذا.

الإيمـان بالله تعـالى كما وصف به نفسه ووصـفه به رسـوله صـلى الله عليه وسلم نفياً وإثباتاً هو تمام الإيمان وكماله، ولا يتم ذلك إلا بالوقوف مع دلالات النصوص والبعد عن مقالات أهل الكلام.

المتشابه في القرآن والمراد به

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقول الأصـحاب رحمهم الله في الأصـول: إن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور ويروى هذا عن ابن عبـاس ، مع أن هذه الحـروف قد تكلم في معناها أكـثر النـاس، فـإن كـان معناها معروفـاً فقد عرف معنى المتشابه، وإن لم يكن معروفاً وهي المتشابه كان ما سواها معلوم المعنى وهذا المطلوب. وأيضا فإن الله قال: مِنْـهُ آيَـاتٌ مُحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ [آل عمران:7]، وهـذه الحـروف ليست آيـات عند جمهـور العــادين. والتأويل في كلام المتــأخرين من الفقهــاء والمتكلمين هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة تـوجب ذلـك، وهذا هو التأويل الذي يتنازع الناس فيه في كثير من الأمور الخبرية والطلبيـة، فالتأويل الصحيح منه الذي يوافق ما دلت عليه نصـوص الكتـاب والسـنة، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد، وهذا مبسوط في موضعه. وذكر في التبصـرة أن نصـير بن يحـيى البلخي روى عن عمـرو بن إسـماعيل بن حمـاد بن أبي حنيفة عن محمد بن الحسن رحمهم الله أنه سئل عن الآيـات والأخبـار الـتي فيها من صـفات الله تعـالى ما يـؤدي ظـاهره إلى التشـبيه فقـال: نمرها كما جاءت ونؤمن بهـا، ولا نقـول: كيف وكيـف. ويجب أن يعلم أن المعـنى الفاسد الكفري ليس هو ظاهر النص ولا مقتضـاه، وأن من فهم ذلك منه فهو لقصـور فهمه ونقص علمه، وإذا كان قد قيل في قـول بعض النـاس : وكم من عـائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السـقيم وقيل : عليَّ نحت القـوافي من أماكنها وما عليَّ إذا لم تفهم البقر فكيف يقال في قـول الله الـذي هو أصـدق الكلام وأحسن الحديث، وهو الكتـاب الـذي أُحْكِمَتْ آيَاتُـهُ ثُمَّ فُصِّـلَتْ مِنْ لَـدُنْ حَكِيمٍ خَبِـيرٍ [هــود:1]. إن حقيقة قــولهم أن ظــاهر القــرآن والحــديث هو الكفر والضـلال، وأنه ليس فيه بيـان لما يصـلح من الاعتقـاد، ولا فيه بيـان التوحيد والتنزيه، هذا حقيقة قول المتـأولين، والحق أن ما دل عليه القـرآن فهو حـق، وما كان بـاطلاً لم يـدل عليـه، والمنـازعون يـدعون دلالته على الباطل الـذي يتعين صرفه، فيقال لهم: هذا الباب الـذي فتحتمـوه، وإن كنتم تزعمـون أنكم تنتصــرون به على إخــوانكم المؤمــنين في مواضع قليلة حقيقــة، فقد فتحتم عليكم بابـاً لأنـواع المشـركين والمبتـدعين لا تقـدرون على سـده. فـإنكم إذا سوغتم صـرف القـرآن عن دلالته المفهومة بغـير دليل شـرعي، فما الضـابط فيما يسـوغ تأويله وما لا يسـوغ؟ فـإن قلتم: ما دل القــاطع العقلي على استحالته تأولناه وإلا أقررناه، قيل لكم: وبأي عقل نزن القـاطع العقلي؟ فـإن

القرمطي الباطني يـزعم قيـام القواطع على بطلان ظـواهر الشـرع، ويـزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجسـاد، ويـزعم المعـتزلي قيـام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى، وعلى امتناع قيـام علم أو كلام أو رحمة به تعالى، وباب التأويلات التي يـدعي أصـحابها وجوبها بـالمعقولات أعظم من أن تنحصر في هذا المقام. ويلزم حينئذ محذوران عظيمان: أحدهما: أن لا نقر بشيء من معاني الكتاب والسـنة حـتى نبحث قبل ذلك بحوثـاً طويلة عريضة في إمكـان ذلك بالعقـل، وكل طائفة من المختلفين في الكتـاب يـدعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه، فـيئول الأمر إلى الحـيرة. المحـذور الثـاني: أن القلوب تنحل عن الجزم بشيء تعتقده مما أخـبر به الرسـول؛ إذ لا يوثق بـأن الظـاهر هو المـراد، والتـأويلات مضـطربة، فيلـزم عـزل الكتـاب والسـنة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد، وخاصةُ النـبي هي الإنبـاء، والقـرآن هو النبأ العظيم، ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصـوص الكتـاب والسـنة للاعتضــاد لا للاعتمــاد إن وافقت ما ادعــوا أن العقل دل عليــه، وإن خالفته أولوه، وهذا فتح باب الزندقة والانحلال، نسأل الله العافية]. قد تقــدم أن الله ذكر في القرآن: آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَـرُ مُتَشَـابِهَاتٌ [آل عمـران: 7]، ومعلوم أن المفسرين قد تكلموا على الآيـات كلهـا، وعلى القـرآن كلـه، ولم يسـكتوا عن آية أو آيـات فقـالوا: هـذه من المتشـابه، إلا أن بعضــهم لا يتكلمون على الحروف المقطعة الـتي في أوائل السـور، وكثـير منهم تكلمـوا عليها، وقالوا: يراد بهذا كذا وكذا، وإن اختلفت الآراء فيها. وما دام أن القــرآن قد فسر كله فهـذه الآيـات المتشـابهات يظهر أنها الكيفيـات للأمـور الغيبيـة، أعني الأشياء التي أخبر فيها عن أمـور غيبية ولكنا لا نعلم كيفيتهـا، فـإذا أخـبر الله أن في الجنة أنهاراً تجري فإنا لا ندري ما كيفية تلك الأنهار كقوله تعـالى: فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِـنٍ وَأَنْهَـارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُـهُ [محمـد:15] إلى آخر الآية، وفي الحـديث أنهـا: (تجـري في غـير أخـدود) أي: تجـري على وجه الأرض ومع ذلك لا تسيح، وهذا من علم الغيب الذي نقول: الله أعلم بكيفيتـه. وهكذا أيضاً الأشجار التي في الجنة، وكذلك الأشجار الـتي في النـار، ذكر الله أن في النار شجرة الزقوم، فلا ندري ما كيفية تلك الشـجرة، وكيف لا تحـترق بالنار، وكل هـذا نقـول فيـه: الله أعلم، فهو من المتشـابه. فالكيفيـات الغيبية هي الـتي يتوقف عنهـا، ويقـال: الله أعلم بكيفيتها فهي من المتشـابه. ويقـال أيضاً كـذلك في كيفيـات صـفات اللـه، فنحن لا نـدري ما كيفيتها إلا أنَّ نتحقق معانيهـــا، فنتحقق أن الله متكلم بكلام يســـمع، ونتحقق أن الله يعلم الخفي والجلي ويسـمع القـريب والبعيد وهكـذا، ولكن كيفية تلك الصـفات نفوضـها ونقول: الله أعلم بها. وهـذا أقـرب الأقـوال في الآيـات المتشـابهات، أي: أنها كيفيات الأمور الغيبية. ......

نقد التأويل

أما التأويل الذي ذكروه، وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمـال المرجوح بدليل يقـترن بـه، أو لقرينة تؤيد المرجـوح وترجحـه، فهـذا اصـطلاح جديد للمتــأخرين، لم يكن عند الســلف ولا يعرفــون هــذا، وهو في الحقيقة تحريف وتكلف، وفي الحقيقة إذا جمعنا الأدلة عرفنا أنه يصعب صرفها، سـيما وقد اجتمعت الدلالة من كل من مفرداتها. بعد ذلك قد يقولون: إن ظاهر هذه النصوص يوهم التشبيه، فيوهم أن الله مثل خلقه، وإنا إذا أثبتنا الرؤية أو أثبتنا الكلام أو ما أشـبه ذلك أثبتنا أنه مثل الخلق والله تعـالى يقـول: لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ [الشـورى:11]، وقـال تعـالى: وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ كُفُـوًا أَحَـدٌ [الإخلاص:4]، فيقولـون: إن هـذه النصـوص أو هـذه الأدلة يفهم منها التشـبيه؛ هكـذا قـالوا. ونحن نقول: لا يفهم ذلك، وحاشا وكلا أن تكـون صـفات الله دالة على شـيء باطل، أو تكون نصوص القـرآن والحـديث دالة على ما هو كفـر، بل كلام الله أفصح الكلام، وكلام نبيه صـــلى الله عليه وســـلم أوضـــح، وهو عليه الصـــلاة والسـلام أنصح الخلق لأمتـه، وإذا اجتمعت فصـاحته ونصـحه، والبيـان الـذي أعطيـه، وأضـيف إلى ذلك أن كلام الله واضح الدلالـة، فلا يجـوز أن يقـال: إن ظاهره غير مراد، أو: إن ظـاهره يقتضي كفـراً أو نحو ذلـك. وكثـيراً ما يقـول المتكلمـون: ظـاهر النصـوص غـير مـراد. ونقـول: ما مـرادكم بظاهرهـا؟ هل تريـــدون: أن ظاهرها ما يليق بـــالمخلوق؟ وأنا إذا قلنا -مثلاً-: تَجْـــرِي بِأَعْيُنِنَا [القمر:14] فالمعنى أن الله له عينان كعيـني المخلـوق؟! أو له يـدان كأيـدي المخلوق؟! فهذا ليس بمراد، ولكن أخطأتم في قولكم: إنه ظاهرها. ولا يمكن أن يفهم من نصوص الصفات ما هو ضلال، بل معروف أن صـفات الله تعـالى تليق بـه، وإذا كنتم تقولـون: إن لله ذاتـاً لا تشـبه غـيره فكـذلك له صـفات لا تشبه غيره، فإن القول في الصفات كالقول في الذات، يحـذو حـذوه ومثالـه، وإذا كان الكلام واضحاً وفصيحاً فلا عـبرة بمن خفي عليه وبمن لم يظهر لـه، كما قـال القائـل: عليَّ نحت القـوافي من أماكنها وما عليَّ إذا لم تفهم البقر يقول هذا الشاعر: أنا عليَّ أن آتي بالكلام الفصيح، وأختار الكلام البليغ، ولكن إذا لم يفهموا فلست بملـوم، فيقـال: كـذلك كلام الله واضـح، وإذا لم تفهمـوا فــالنقص في أذهــانكم أنتم وليس النقص في كلام اللــه، فكلام الله سـبحانه واضح، وكلام رسـوله عليه الصـلاة والسـلام واضح وفصـيح، ولكن ما أتيتم إلا من سوء أفهامكم ومن سوء تفكيركم، وإلا فلو أعطيتم الكلام حقه لقلتم بأنه لا يــدل على محــذور. وعلى كل حــال معلــوم أنهم ما خــابوا في ذلك إلا لما ارتسم في أذهانهم وأفكارهم أن صفات الله كصفات المخلوق، وأن النصوص دالة على ما هو تشبيه، فعند ذلك أكثروا من البحث ومن التنقيب حـتى وقعـوا فيما وقعوا فيه مما هو تحريف.

أمراض القلوب الناشئة من التشبيه والتعطيل

قال رحمه الله تعالى: [قوله: (ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه) النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان: مرض شبهة، ومرض شهوة. وكلاهما مذكور في القرآن، قال تعالى: فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ [الأحزاب:32]، فهذا مرض الشهوة، وقال تعالى: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا [البقرة:10]، وقال تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ [التوبة:125]، فهذا مرض الشبهة وهو أردأ من مرض الشهوة؛ إذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته. والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيهها، وشبهة النفي أردأ من شبهة التشبيه، فإن شبة النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وشبهة التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وتشبيه الله بخلقه كفر؛ فإن الله تعالى يقول: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى:11]، ونفي الصفات كفر؛ فإن الله تعالى يقول: وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشورى:11]، وهذا أحد نوعي التشبيه، فإن التشبيه نوعان: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهذا الذي يتعب أهل الكلام في رده وإبطاله، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني الذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق، كعباد المسيح وعزير والشمس والقمر والأصنام والملائكة والنار والماء والعجل والقبور والجن وغير ذلك، وهؤلاء هم الذين أرسلت إليهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له]. قول الطحاوي: (ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه). يريد بالنفي نفي الصفات أو المبالغة في نفيها، ويريد بالتشبيه إثبات أن صفات الله كصفاتنا، فيكون بذلك مشبهاً، ومذهب الأئمة وأهل السنة وسط بين المذهبين، فإنهم يقولون: إن من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن نفى ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس في إثبات صفات الله تشبيه. ويقول بعضهم: المشبه يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، والموحد -يعني: المثبت- يعبد إلهاً واحداً فرداً صمداً، وأخذ ذلك ابن القيم في النونية بقوله: لسنا نشبه ربنا بصفاتنا إن المشبه عابد الأوثان كلا ولا نخليه من أوصافه إن المعطل عابد البهتان فالذين شبهوا يقال فيهم: قد غلوا في الإثبات، فقالوا: لله يد كأيدينا، ولله وجه كوجوهنا، وما أشبه ذلك، فوقعوا في تشبيه الخالق بخلقه -تعالى الله- وهذا فيه أنهم عبدوا الأوثان والأصنام. أما الذين نفوا فإنهم في الحقيقة لم يثبتوا خالقاً، أي: الذين نفوا هذه الصفات ونفوا كل الصفات، فقالوا: الله تعالى لا يعلم، ولا يتكلم، ولا يسمع، ولا يرى، وليس له يد، وليس له وجه، وليس له كذا وكذا، آل بهم الأمر إلى أن صاروا يعبدون عدماً، ولا يثبتون خالقاً. ثم قد عرفنا أنهم لما جاءتهم هذه النصوص صارت مخالفة لما في أفكارهم، فسلطوا عليها التأويلات، وفتحوا باب التأويل لغيرهم ممن أنكروا حقيقة المعاد كالفلاسفة، وفتحوا باب التأويل للذين أنكروا الأحكام والأوامر والنواهي كغلاة الصوفية وكالباطنية ونحوهم، فأصبحوا في الحقيقة هم الذين جلبوا الشر وفتحوا بابه على الإسلام والمسلمين. فالذي يريد السلامة هو الذي يتوقى مرض التشبيه

ومرض التعطيل، مرض النفي ومرض الإثبات الزائد الذي هو غلو في الإثبات، جعلهما الشارح كالأمراض، والمعروف أن المرض هو الذي ينهك الجسم حتى يلزم صاحبه الفراش، هذا هو المرض المعروف، ولكن هذا مرض الأبدان؛ لأن المرض نوعان: مرض قلب، ومرض بدن. فمرض البدن يعالج عند الأطباء وله أدويـة، ففي الحـديث: (ما أنـزل الله داءً إلا أنـزل له شـفاء)، ولكن المـرض الشديد هو مرض القلب، ومرض القلب أيضاً نوعان: مرض الشـبهة، ومـرض الشهوة. ومرض الشـهوة هو الشـهوة إلى الزنا أو إلى المعاصي ونحوهـا، كما قال تعالى: فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِـهِ مَـرَضٌ [الأحـزاب:32]، نهى الله المرأة أن ترقق كلامهـا، فإنه إذا سـمعها الفاسق طمع في الاتصـال بهـا، هـذا مـرض شـهوة الزنا ونحـوه. أما مـرض الشـبهة فهو أشـد، فمـرض الشهوة قد يزول بالعفة أو بالنكاح الحلال، أما مرض الشبهة فإنه الذي يتمكن في القلب، فهذان المرضان من أشد أمراض الشبهة، أعـني مـرض التشـبيه، ومــرض التعطيــل. وذكر أن مــرض التعطيل أشــد، وذلك لأن المشــبه غلا به الإثبات إلى أن وقع في أن الله كخلقه -تعالى الله عن ذلك- ولكن الذي يقول ذلك فئة قليلـة، فالـذين يـذهبون إلى التشـبيه قليلـون بالنسـبة إلى المعطلة فإنهم كثيرون. ......

السلامة في البراءة من مرضي التشبيه والتعطيل

وعلى كل حال فنحن نبرأ إلى الله ونحذر من كلا المرضـين، فمـرض التعطيل أشد لأن أهله أكثر، ولأن الدعايات إليه أكثر، وقد يتكرر كثير في كلام العلمـاء النهي عن التعطيل وعن التشــبيه، فيقولــون في آيــات الصــفات وأحاديثهــا: أمروها كما جــاءت بلا كيــف. ويقولــون: نقبلها ونتقبلها من غــير تحريف ولا تأويل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غـير تكـييف ولا تعطيـل. فينفـون عنها هذه الأشياء. وكذلك ينفون عنها الإلحاد الذي هو الميل بها عما قصد بها، فـإن الله تعـالى ذم فاعل ذلـك، قـال تعـالى: وَلِلَّهِ الأَسْـمَاءُ الْحُسْـنَى فَـادْعُوهُ بِهَا [الأعراف:180] يعني: بالأسـماء الحسـنى، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِـدُونَ فِي أَسْـمَائِهِ [الأعراف:180] يعـني: اتركـوهم وابتعـدوا عنهم. والإلحـاد في أسـمائه إنكـار حقائقها أو إنكار دلالاتها، وقـال تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِـدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَـوْنَ عَلَيْنَا [فصــلت:40]. فعلينا أن نتجنب هــذه الأشــياء، ومن أهمها الإلحــاد في أسماء اللـه، والإلحـاد في آياتـه، فـإذا قرأنا القـرآن وسـمعنا الأحـاديث وقلنـا: نمرها كما جاءت وننزه ربنا عما لا يليق به، سلمنا من هـذه الأمـراض كلها إن شاء الله.

تنزيه الله عن الشبيه والكفؤ

قال رحمه الله تعالى: [قوله: (فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية منعوت بنعوت الفردانية ليس في معناه أحد من البرية). يشير الشيخ رحمه الله إلى أن تنزيه الرب تعالى هو وصفه كما وصف نفسه نفياً وإثباتاً، وكلام الشيخ هنا مأخوذ من معنى سورة الإخلاص، وقوله: موصوف بصفات الوحدانية مأخوذ من قوله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ [الإخلاص:1]. وقوله: (منعوت بنعوت الفردانية) من قوله تعالى: اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ [الإخلاص:2-3]. وقوله: (ليس في معناه أحد من البرية) من قوله تعالى: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [الإخلاص:4]، وهو أيضاً مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفي التشبيه. والوصف والنعت مترادفان، وقيل: متقاربان، فالوصف للذات والنعت للفعل، وكذلك الوحدانية والفردانية، وقيل في الفرق بينهما: إن الوحدانية للذات، والفردانية للصفات، فهو تعالى موحد في ذاته متفرد بصفاته، وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد، ولكن في اللفظ نوع تكرير، وللشيخ رحمه الله نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، والتسجيع بالخطب أليق. ولَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى:11]، أكمل في التنزيه من قوله: (ليس في معناه أحد من البرية)]. قصد الطحاوي رحمه الله بذلك الزيادة في التوضيح والإثبات؛ فإن قوله: (فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية) يؤكد بذلك ما تقدم من إثبات الصفات ونفي التشبيه، فالله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد، موصوف بأنه هو الواحد، وقد ذكر ذلك في قوله: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ [البقرة:163]، وفي قوله: وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ [المائدة:73]. فالوحدانية لا شك أنها خاصة به، فهو الواحد في صفاته، وهو الواحد في ذاته، ومعناه أنه لا يصلح أن يكون معه خالق غيره ولا معبود سواه. كذلك هذا دل عليه قول الله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ [الإخلاص: 1]؛ فإن الأحد يراد به المتوحد بجميع الخصائص، وكذلك قوله: (منعوت بنعوت الفردانية) دل عليه كونه لم يلد ولم يولد؛ فإن الله تعالى نزه نفسه عن الولد في عدة آيات رداً على من جعل لله ولداً، كالنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله، واليهود في قولهم عزير ابن الله. وكفار العرب في جعلهم الملائكة بنات الله، رد الله عليهم ذلك وأنكر عليهم في قوله تعالى: أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ [الصافات:153]، وفي قوله تعالى: وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ [الزخرف: 19].

واجب المسلم مع ربه تعالى في صفاته

فواجب المسلم أن ينزه ربه تعالى عن الصفات المحدثات، وعن صفات الخلق التي تختص بهم، وأن يعتقد أن لله سبحانه صفات الكمال التي يعرف منها أنه هو الواحد الأحد المنزه عن النقص وعن العيب، وأن صفاته تختص بذاته، وأنه منزه عما لا يليق به، فإذا عرف ذلك عرف بذلك أنه تم بذلك توحيده -إن شاء الله- وصلحت عقيدته، فصلاحها بهذين الأمرين: فالواجب إثبات ما يليق بالله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، سواءٌ في الذات أو في الصفات أو في الأفعال، فبذلك يرد على الطوائف المنحرفة الذين غلوا في الإثبات والذين زادوا في النفي. فمن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه، وهو سبحانه موصوف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص، وقوله: (وليس في معناه أحد من البرية) أي: لا يشبهه أحد من مخلوقاته، هذه خلاصة العقيدة، ومن أقر بها عصمه الله تعالى من الأخطاء.

مصطلحات أهل الكلام وكيفية التعامل معها

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (وتعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات). أذكر بين يدي الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة، وهي أن للناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال، فطائفة تنفيها، وطائفة تثبتها، وطائفة تفصل وهم المتبعون للسلف، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا بين ما أثبت بها فهو ثابت، وما نفي بها فهو منفي؛ لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمال وإبهام كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية، فليس كلهم يستعملها في نفس معناها اللغوي، ولهذا كان النفاة ينفون بها حقاً وباطلاً، ويذكرون عن مثبتها ما لا يقولون به، وبعض المثبتين لها يدخل فيها معنى باطلاً مخالفاً لقول السلف ولما دل عليه الكتاب والميزان، ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثباتها. وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفياً ولا إثباتاً، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون، فالواجب أن ينظر في هذا الباب -أعني باب الصفات- فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه. والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني، وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها، فإن كان معنى صحيحاً قبل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص دون الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد والحاجة، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها ونحو ذلك. والشيخ رحمه الله تعالى أراد

الــرد بهــذا الكلام على المشــبهة كـــداود الجــواربي وأمثاله القــائلين إن الله جســم، وإنه جثة وأعضــاء، وغـير ذلك -تعـالى الله عما يقولـون علـواً كبـيراً- فالمعنى الذي أراده الشـيخ رحمه الله من النفي الـذي ذكـره هنا حـق، ولكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقاً وباطلاً، فيحتاج إلى بيـان ذلـك، وهو أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون لله حـداً، وأنهم لا يحـدون شـيئاً من صــفاته]. الطريقة في هــذا هي ما ذكر في بــاب الأســماء والصــفات أن الرجوع إلى النقـل، ولا دخل للعقـل. والنقـل: هو الكتـاب والسـنة، أي: النقل الصحيح؛ لأنه منقـول لنا بنقل ثـابت وليس فيه تشـكيك، فنقتصر على النقـل، وذلك لأن العقول لا تستطيع أن تتدخل في هذا الأمـر، ولا أن تعـرف حقائقـه، ولا أن تفكر تفكيراً تتدخل فيه، فإذا قال المتكلمون: إن هــذا الوصف لا يقـره العقل أو لا يثبته، فـالجواب أن نقـول: ما للعقـول ولأمر الغيب؟ هـذا من أمر الغيب، والعقول محجوزة عن هذا الأمر. نقـول بعد ذلـك: إن الطحـاوي الـذي هو صاحب المتن رحمه الله عاش في أواخر عهد السلف، وبعدما أحدث كثـيرٌ من المبتدعة، وبعدما انتشر أهل البدع وتمكنوا، فهناك مبتدعة المشبهة الذين بالغوا في الإثبات حتى شبهوا الخالق بالمخلوقين، ومنهم هذا الذي حكى عنه، وهو داود الجواربي . وطائفة أخرى هم المعطلة، ومنهم أكابر المعتزلة، كـأبي الهذيل العلاف ، و أبي علي الجبائي ، وكذلك الجاحظ ، وسائر المعتزلة بالغوا في النفي، فعطلوا الله تعـالى عن صـفات الكمـال، واشـتهرت أقـوال هـؤلاء وأقوال هؤلاء، إلا أن المعطلة أكثر من المشبهة؛ لأن النفـوس تنفر من إثبـات التشبيه، فلما كان كذلك ألف الطحاوي هـذه الرسـالة وقصد بـذلك الـرد على هـؤلاء وهـؤلاء، فـأثبت فيها الصـفات كما يليق باللــه، ورد فيها على المشـبهة الذين بالغوا في الإثبات، وتكلم بهذه الكلمات، وإن كان الأفضل تركها، أعـني: الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات والجهات الست، فالأولى تركهـا؛ لأن المتكلمين الذين هم النفاة صاروا ينفون بها حقاً وباطلاً، فلما أدخلـوا فيها حقاً كان الأولى أن ينفى الباطل بعبـارة كريمة ليس فيها شـيء من الشـبهة. كذلك ذكر أن للناس في استعمالها ثلاثة أقوال: قول أنه لا يجوز إثباتها، وقول أنه لا يجوز نفيهـا، وقـول بالتفصـيل. ويمكن أن يكـون هنـاك قـول رابـع، وهو التوقف عنها، فلا إثبـات ولا نفي، فيقـال: هـذه من الأمـور المبتدعـة، فنحن لا نثبتها إطلاقــاً ولا ننفيهــا، ولكن التفصــيل أولى، وهو أن يقــال: مــاذا تريــدون بالحدود؟ ومـاذا تريـدون بالأعضـاء والأدوات؟ ومـاذا تريـدون بالجهـات؟ ففي كلامكم هــذا حق وباطــل. فــالحق الــذي تنفونه عــبروا عنه بعبــارة كريمــة، والباطل الذي تنفونه أيضاً عبروا عنه بعبـارة كريمة حـتى نـوافقكم على نفي الباطل ونخالفكم في نفي الحق، ونتحقق أن الصــواب مع من أثبت لا مع من نفى، أو نحو ذلك. قال: (تعالى عن الحدود)، فنقول: الأولى عـدم إطلاق هـذه اللفظــة، ولكن الــذين أطلقوها لهم عــذر، أي: الــذين قــالوا إنه يتعــالى عن الحدود؛ لأن الحد له تفسيران كما سيأتي. وكذلك الغايات والأركان والأعضــاء والأدوات إلى آخرهــا، فــالأولى التوقف عن ذلـك، فنقتصر على ما أثبته اللــه، حيث إننا نقــول: إن الله تعــالى بذاته فــوق ســماواته على عرشه عليٌّ على خلقه، وأنه سبحانه قريب من عباده يطلع عليهم ولا يخفى عليه منهم خافيــة،

وأنه موصوف بصفات الكمال منزه عن النقائص، فإذا أثبتنا ذلك لم يدخل علينا أهل البدع بحجة، ولم يجدوا علينا قولاً أننا ممثلة أو نحو ذلك.

بيان أن أهل السنة لا يحدون الله تعالى

قال رحمه الله تعالى: [قال أبو داود الطيالسي : كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانة لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون: كيف؟ وإذا سئلوا قالوا بالأثر. وسيأتي في كلام الشيخ: (وقد أعجز عن الإحاطة خلقه) فعلم أن مراده أن الله يتعالى عن أن يحيط أحد بحده، لا أن المعنى أنه غير متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم، سئل عبد الله بن المبارك : بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه على العرش بائن من خلقه. قيل: بحد؟ قال: بحد. انتهى. ومن المعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره، والله تعالى غير حال في خلقه ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه المقيم لما سواه، فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلاً؛ فإنه ليس وراء نفيه إلا نفي وجود الرب، ونفي حقيقته. وأما الحد بمعنى: (العلم والقول)، وهو أن يحده العباد فهذا منتف بلا منازعة بين أهل السنة، قال أبو القاسم القشيري في رسالته: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي : سمعت منصور بن عبد الله : سمعت أبا الحسن العنبري : سمعت سهل بن عبد الله التستري ، يقول وقد سئل عن ذات الله فقال: ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا إحاطة ولا حلول، وتراه العيون في العقبى ظاهراً في ملكه وقدرته، قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه، والعيون لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.]. عرفنا أن الأولى ترك الخوض في ذكر الحد، ولكن السلف رحمهم الله قصدوا بالإثبات بيان أن الرب تعالى متميز عن خلقه، فإنه فوق سماواته، وعلى عرشه، وعلي على خلقه، وهذا معنى قولهم: بائن من خلقه. وقولهم: إنه ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، يردون بذلك على الحلولية الذين تقدم قولهم بأول الكتاب، فيقصدون بذلك الجواب الواضح بأن الرب سبحانه وتعالى بذاته فوق سماواته على عرشه، وأنه بائن من خلقه، ومعنى قولهم: (بحد) أي: بينه وبين الخلق حد وهو معنى البينونة، ويتوقفون عند هذا.

قـال رحمه الله تعـالى: [وأما لفظ الأركـان والأعضـاء والأدوات فيتسـلط بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية، كاليد والوجـه، قـال أبو حنيفة رضي الله عنه في الفقه الأكبر: له يد ووجه ونفس، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف، ولا يقـال: إن يـده قدرته ونعمته لأن فيه إبطال الصفة. انتهى. وهذا الذي قاله الإمـام رضي الله عنه ثابت بالأدلة القاطعـة، قـال تعـالى: مَا مَنَعَـكَ أَنْ تَسْـجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَـدَيَّ [ص:75]، وقـال تعـالى: وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَالسَّـمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [الزمر:67]، وقال تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [القصص: 88]، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ [الرحمن:27]، وقال تعـالى: تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ [المائدة:116]، وقال تعالى: كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ [الأنعام:54]، وقال تعالى: وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي [طه:41]، وقـال تعـالى: وَيُحَـذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَـهُ [آل عمـران:28]. وقـال صـلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة لما يأتي الناس آدم فيقولون له: (خلقك الله بيـده، وأسـجد لك ملائكتـه، وعلمك أسـماء كل شـيء) الحـديث. ولا يصح تأويل من قال: إن المراد باليد القدرة، فإن قوله: لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [ص:75]، لا يصح أن يكـون معنـاه: بقـدرتي مع تثنية اليـد، ولو صح ذلك لقـال إبليس: وأنا أيضـاً خلقتني بقدرتك فلا فضل له عليَّ بـذلك، فـإبليس مع كفـره كـان أعـرف بربه من الجهمية. ولا دليل لهم في قوله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَـالِكُونَ [يس:71]؛ لأنه تعـالى جمع الأيـدي لما أضـافها إلى ضـمير الجمع ليتناسب الجمعـان اللفظيـان للدلالة على الملك والعظمـة، ولم يقل: (أيدي) مضافاً إلى ضمير المفرد، ولا (يـدينا) بتثنية اليد مضـافة إلى ضـمير الجمـع، فلم يكن قولـه: مِمَّا عَمِلَتْ أَيْـدِينَا [يس:71] نظـير قولـه: لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [ص:75]، وقال النبي صـلى الله عليه وسـلم عن ربه عز وجـل: (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه). ولكن لا يقـال لهـذه الصـفات: إنها أعضـاء أو جـوارح أو أدوات أو أركـان، لأن الركن جزء الماهيـة، والله تعـالى هو الأحد الصـمد لا يتجـزأ سـبحانه وتعـالى، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية -تعالى الله عن ذلك- ومن هذا المعنى قوله تعالى: الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُـرْآنَ عِضِـينَ [الحجـر:91]. والجـوارح فيها معـنى الاكتسـاب والانتفـاع، وكـذلك الأدوات هي الآلات الـتي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة، وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى، فالألفاظ الشرعية صحيحة المعـاني سـالمة من الاحتمالات الفاسدة، فلذلك يجب أن لا يعـدل عن الألفـاظ الشـرعية نفيـاً ولا إثباتاً لئلا يثبت معنىً فاسد أو ينفى معنىً صحيح، وكل هـذه الألفـاظ المجملة عرضة للمحق والمبطـل]. قولـه: (تعـالى عن الحـدود والغايـات والأركـان والأعضاء والأدوات) يقول: هذا النفي تسلط به النفاة على الصـفات، فقـالوا:

نحن ننفي عن الله تعـالى الأعضـاء والأركـان والأدوات، وهـذا قـول السـلف ومنهم الإمـام الطحـاوي ، فتسـلطوا بـذلك على نفي الصـفات الثابتة بالأدلـة، فنفوا صفة الوجه لله، ونفوا صفة النفس، ونفوا صفة اليد التي أثبتهـا، وصـفة العين أو الأعين التي أثبتها، وغير ذلك من الصفات الواردة في القرآن والسنة نفوها بهذه الجملـة، وقـالوا: إنها أعضـاء، وإنها أركـان، وإنها أدوات. والشـارح رحمه الله بين أن الصفات ثابتة عن السـلف، أعـني الصـفات الـتي أثبتها الله تعـالى، فـأثبت الله لنفسه صـفة اليد أو اليـدين في قوله تعـالى: بَـلْ يَـدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ [المائدة:64]، تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ [الملك:1]، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [آل عمران:26]، وكذلك قوله مخاطباً إبليس: مَا مَنَعَـكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [ص:75]، فأضاف الله تعالى لنفسه صفة اليـدين، فدل على أنها صفة ثابتة وإن كانت لا تشبه صفة المخلوق، ولا يدي المخلوق، ويقال: الله أعلم بكيفيتها. ويستدل على إثبات صفة اليد بأن الله تعالى ذكرها في هذه الآيات، فذكرها مفـردة في قولـه: بِيَـدِهِ الْمُلْـكُ [الملـك:1]، وذكرها مثناة مضافة إلى ضمير المفرد كما في قوله: بَلْ يَـدَاهُ مَبْسُـوطَتَانِ [المائـدة: 64]، وفي قولــه: لِمَا خَلَقْتُ بِيَــدَيَّ [ص:75]. وذكرها بصــيغة الجمع ولكن مضافة إلى ضمير الجمع في قوله تعـالى: أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا [يس:71]، فهنا ذكرها مضافة إلى ضمير الجمع (نا) الذي يؤتى به للتعظيم، فالله تعالى يـذكر نفسه بضـمير الجمع للدلالة على التعظيم، كما يقول أحد الملوك: نحن أمرنا بكذا، ونحن فعلنا كذا، وهو واحد لكن يريد بذلك التعظيم. فالله تعـالى يعظم نفسه بضـمير الجمـع، كما في قوله تعـالى: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ [الكوثر:1]، إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ [الفتح:1]، إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ [الحجر:9]، نَحْنُ قَسَـمْنَا [الزخـرف:32]، فكـذلك قولـه: مِمَّا عَمِلَتْ أَيْـدِينَا [يس:71]، الضـمير للجمع للدلالة على العظمة وأنه المسـتحق لأن يعظم، فهـذا معـنى ضـمير الجمع هنــا؛ لأنه قــال: مِمَّا عَمِلَتْ أَيْــدِينَا [يس:71] جمع اليد وجمع الضمير كل ذلك لأجل العظمة. وأثبت النبي صلى الله عليه وسلم لربه صـفة اليـدين في قوله صــلى الله عليه وســلم: (يمين الله ملأى لا تغيضــها نفقــة، سـحاء الليل والنهـار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السـماوات والأرض؟! فإنه لم يغض ما في يمينـه، وبيـده الأخـرى القسط يخفض ويرفـع)، وفي قوله صـلى الله عليه وسلم: (المقسطون عند الله يـوم القيامة عن يمين الـرحمن، وكلتا يديه يمين مباركة)، وفي قوله صلى الله عليه وسـلم: (يقبض الله السـماوات بيمينه ويقبض الأرض بشماله -وفي رواية: بيده الأخرى- ثم يهزهن ويقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكـبرون؟ وقـرأ قوله تعـالى: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [غافر:16])، وقرأ أيضاً لما سئل عن ذلك قول الله تعالى: وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [الزمـر:67]. ولاشك أن هـذه أدلة دالة على إثبـات هـذه الصـفة، فيثبتها أهل السنة كما يليق بالله سبحانه وتعالى. وقد أورد ابن كثير رحمه الله أدلة كثيرة في إثبات صفة اليد عند تفسير قوله: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ [الزمر:67].

أدلة إثبات صفة الوجه والنفس

أما صفة الوجه فذكرت في الآيات كثيراً، كقوله تعالى: وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ [الأنعام:52]، وقوله تعالى: إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى [الليل:20]، وقوله: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [القصص:88]، ونحوها من الآيات. وكذلك الحديث النبوي في قوله صلى الله عليه وسلم: (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)، وفي قوله: (جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)، ونحو ذلك من الأدلة، فهذه أدلة واضحة من الكتاب والسنة على إثبات هذه الصفة. وكذلك صفة النفس، ذكر الله ذلك بقوله: كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ [الأنعام:54]، وقوله عن عيسى: تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ [المائدة:116]، وقوله في آيات كثيرة يذكر الله تعالى فيها إثبات هذه الصفة، فصفة النفس ذكرها الله تعالى وأثبتها وهو أعلم بنفسه، ورسوله أعلم بمرسله، فيقتصر على ما جاء في الكتاب والسنة.

السلامة في ترك مصطلحات أهل الكلام

ثم اعتذر الشارح عن الطحاوي في استعماله لهذه الكلمات، وذكر أنه قصد حقاً، وأن هذه الصفات لا تسمى أركاناً ولا تسمى أدواتاً، ولا تسمى أعضاءً، واستدل بأن الأعضاء واحدها عضو وهو ما يتجزأ وما يمكن أن يتجزأ، والله منزه عن ذلك، وقرأ قول الله تعالى: الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ [الحجر:91] يعني: أقساماً وأجزاءً. وعلى كل حال كان الأولى أن لا تذكر هذه الأشياء؛ لأن فيها حقاً وباطلاً، فينفى بها حق وباطل؛ فإن النفاة الذين هم الجهمية ونحوهم نفوا بها جميع الصفات، وتسلطوا على ما ورد في النصوص فنفوه، وقالوا: إنه أعضاء، وإنه أركان، وإنه أدوات، فلما تسلطوا بها احتاج أهل السنة إلى أن يبينوا أن الصفات لا تدخل في هذا المعنى، فقالوا: الصفات لو أثبتناها لا يصدق عليها أنها أركان ولا أنها أدوات ولا أنها أعضاء ونحو ذلك.

لفظ الجهة ودلالته

قال رحمه الله تعالى: [وأما لفظ الجهة فقد يراد به ما هو موجود وقد يراد به ما هو معـدوم، ومن المعلـوم أنه لا موجـود إلا الخـالق والمخلـوق، فـإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقاً، والله تعالى لا يحصـره شـيء، ولا يحيط به شيء من المخلوقـات تعـالى الله عن ذلـك، وإن أريد بالجهة أمر عدمي وهو ما فوق العالم فليس هناك إلا الله وحـده، فـإذا قيـل: إنه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح، فمعناه أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقـات، فهو فـوق الجميع عـال عليـه. ونفـاة لفظ الجهة الـذين يريـدون بـذلك نفي العلو يذكرون من أدلتهم أن الجهات كلها مخلوقة، وأنه كـان قبل الجهـات، وأن من قال: إنه في جهة يلزمه القول بقـدم شـيء من العـالم، أو أنه كـان مسـتغنياً عن الجهة ثم صـار فيهـا، وهـذا الألفـاظ ونحوها إنما تـدل على أنه ليس في شيء من المخلوقات، سواءٌ سمى جهة أو لم يسـم، وهـذا حـق، ولكن الجهة ليست أمراً وجوديـاً بل أمر اعتبـاري، ولا شك أن الجهـات لا نهاية لهـا، وما لا يوجد فيها لا نهاية لــه، فليس بموجــود]. هــذا تفســير أو إيضــاح لما ذكــره الطحــاوي من أنه (لا تحيط به الجهــات الست كســائر المبتــدعات) وقصد الطحاوي صحيح، وهو أن الرب سبحانه وتعـالى لا يحيط به شـيء من خلقـه؛ لأن الجهـات مخلوقـة، فلا تحيط به جهة بمعـنى (تحويه أو تحصـره) وقد قـال تعالى: وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا [طه:110]، وقال: وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِـهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ [البقرة:255]، فإذا كانوا لا يحيطون به علماً فكذلك المخلوقـات لا تحيط به، أي: لا تحصـره أو تحويـه، تعـالى اللـه؛ هـذا هو قصـده. والجهـات الست معروفة، وهي الفوق والتحت واليمين واليسار والأمام والخلف، فمعنى أنها لا تحيط به، أي: لا يحصره جهة منها، بل هو أعظم من ذلك كما يشـاء. ثم لا ينـافي ذلك أن يوصف الله تعـالى بأنه فـوق عبـاده في جهة العلـو، ولكن لا يلـزم من ذلك حصر ولا إحاطة ولا غـير ذلـك، وقد دلت الأدلة الشـرعية على وصف الرب سبحانه وتعالى بصفة العلـو، وسـيتكلم الشـارح على ذلك بتوسع في أثناء الكتاب، ويذكر الأدلة الدالة على أنه تعالى فوق مخلوقاته كما يشـاء، قال الله تعالى: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ [الأنعام:18]، وقال: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ [النحل:50]، وكذلك غيرها من الأدلة.

استدراك على المصنف رحمه الله تعالى

قـال رحمه الله تعـالى: [وقـول الشـيخ رحمه الله تعـالى: (لا تحويه الجهـات الست كسائر المبتدعات) هو حق باعتبار أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاتـه، بل هو محيط بكل شيء وفوقه، وهذا المعنى هو الذي أراده الشيخ رحمه الله لما يأتي في كلامه أنه تعالى محيط بكل شـيء وفوقـه. فـإذا جمع بين كلاميه وهو قولـه: (لا تحويه الجهـات الست كسـائر المبتـدعات) وبين قولـه: (محيط بكل شيء وفوقـه) علم أن مـراده أن الله تعـالى لا يحويه شـيء ولا يحيط به شـيء كما يكـون لغـيره من المخلوقـات، وأنه تعـالى هو المحيط بكل شـيء العـالي على كل شـيء. لكن بقي في كلامه شـيئان: أحـدهما: أن إطلاق مثل هذا اللفظ مع ما فيه من الإجمال والاحتمال كان تركه أولى، وإلا تسـلط عليه وألزم بالتناقض في إثبـات الإحاطة والفوقية ونفي جهة العلـو، وإن أجيب عنه بما تقدم من أنه إنما نفى أن يحويه شيء من مخلوقاته، فالاعتصـام بالألفـاظ الشـرعية أولى. الثـاني: أن قولـه: (كسـائر المبتـدعات) يفهم منه أنه ما من مبتدع إلا وهو محـوي، وفي هـذا نظـر؛ فإنه إن أراد أنه محـوي بـأمر وجـودي فممنوع؛ فإن العـالم ليس في عـالم آخر وإلا لـزم التسلسـل، وإن أراد أمـراً عدمياً فليس كل مبتدع في العدم، بل منها ما هو داخل في غيره كالسماوات والأرض في الكرسي ونحو ذلــك، ومنها ما هو منتهى المخلوقــات كــالعرش، فسطح العـالم ليس في غـيره من المخلوقـات قطعـاً للتسلسل كما تقـدم].
لاحظ الشارح على صاحب المتن هاتين الملاحظتين: الأولى: يقول: إن الأولى عدم استعمال هذه الألفـاظ لما فيها من الإبهـام، ولما فيها من العمـوم الـذي تسلط به الأعداء أو المبتدعة على نفي ما هو حق؛ فإنهم تسـلطوا بقولـه: (لا تحويه الجهات الست) على نفي جهة العلو، وبنفي الأعضاء والأركان والأدوات على نفي صــفات الكمــال، وجعلــوا هــذا دليلاً لهم، مع أن هــذا غــير مــراد للطحـاوي رحمه اللـه، بل مـراده حق كما بينه واعتـذر عنه الشـارح. الثانيـة: لاحظ أن قولـــه: (كســـائر المبتـــدعات) يفهم منه أن المبتـــدعات -يعـــني: المخلوقـات- تحويها جهة من الجهـات، وهـذا ليس بصـحيح، فيقـول: ليس كل الموجـودات محوية حوتها جهة من الجهـات، ومثل بالعـالم وما أشـبهه. وعلى كل حال فالاقتصار على السنة والاقتصار على ما ورد في الأدلة الشـــرعية هو الصحيح الواضـح، وهو الـذي ليس فيه توقع ولا شـك، وفيه كفايـة، فالاقتصـار على الأدلة الصحيحة والسنة الصريحة فيه الكفاية والمقنع، وكذلك الاسـتدلال بعبارات السلف، فالسلف رحمهم الله يعبرون بعبارات واضـحة، ففيها الكفاية عن التعبير بعبـارات موهمة اسـتعملها المتـأخرون وأدخلـوا فيها حقـاً وبـاطلاً.
قال رحمه الله تعالى: [ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال بأن (سائر) بمعنى: (البقيــة) لا بمعــنى: (الجميــع) هــذا أصل معناهــا، ومنه الســؤر، وهو ما يبقيه الشارب في الإناء. فيكون مراده غالب المخلوقات لا جميعها؛ إذ السـائر على (الغالب) أدل منه على (الجميع)، فيكون المعنى أن الله تعالى غير محوي كما يكون أكثر المخلوقات محوياً، بل هو غير محوي بشيء -تعـالى الله عن ذلـك- ولا يظن بالشيخ رحمه الله تعـالى أنه ممن يقـول: إن الله ليس داخل العـالم ولا خارجه بنفي النقيضين كما ظنه بعض الشارحين، بل مـراده أن الله تعـالى مـنزه عن أن يحيط به شـيء من مخلوقاتـه، أو أن يكـون مفتقـراً إلى شـيء

منها، العرش أو غيره، وفي ثبوت هذا الكلام عن الإمــام أبي حنيفة رضي الله عنه نظر؛ فإن أضداده قد شنعوا عليه بأشياء أهون منه، فلو سمعوا مثل هــذا الكلام لشــاع عنهم تشــنيعهم عليه بــه، وقد نقل أبو مطيع البلخي عنه إثبـات العلو كما سيأتي ذكره إن شـاء الله تعـالى. وظـاهر هـذا الكلام يقتضي نفيـه، ولم يرد بمثله كتاب ولا سنة، فلذلك قلت: إن في ثبوته عن الإمام نظـراً، وإن الأولى التوقف في إطلاقه؛ فإن الكلام بمثله خطـر، بخلاف الكلام بما ورد عن الشارح كالاستواء والنزول ونحو ذلـك، ومن ظن من الجهـال أنه إذا نـزل إلى سماء الدنيا كما أخـبر الصـادق صـلى الله عليه وسـلم يكـون العـرش فوقـه، ويكــون محصــوراً بين طبقــتين من العــالم، فقوله مخــالف لإجمــاع السـلف مخالف للكتـاب والسـنة]. لما كـان بعض المنتمـيين إلى أبي حنيفة قد دخلهم شيء من التفسـير في العقيـدة نسـبوا إليه أنه ممن يقـول: إن الله تعـالى لا داخل العالم ولا خارجه، وهــذا لا شك أنه لا يقوله أبو حنيفة ، بل أبو حنيفة قد أثبت الاستواء، وأثبت أن الله تعالى فـوق عرشـه، وأنه يـدعى من أعلى، وأن العباد إذا دعوه رفعوا إليه أيديهم متضرعين إليه، واسـتدل بـذلك كله على أن الله تعالى فوق عباده، ولم يقل هذه المقالة الشنيعة الـتي يسـتعملها النفـاة. فعلى هــذا لا يظن بأحد من أئمة الإســلام كــأبي حنيفة ولا غــيره من الأئمة المتبعين المقتدى بهم أنهم يدخلون في هذه الأمور المبتدعة التي فيها تعطيل الله تعالى ونفي في صفات كماله؛ وذلك لأن صفات الكمال ثابتة لله سـبحانه وتعالى عقلاً ونقلاً، والصفات التي أثبتها كلها صـفات كمـال، والـتي نفاها لأنها تشتمل على نقص فنفاها، ونفي النقص كمـال، هـذه هي طريقة أهل السـنة، أنهم ينفــون عن الله الصــفات الــتي نفاها عن نفســه؛ لأن في نفيها إثباتــاً لأضدادها، وذلك كله من صفات الكمال. ولا شك أن المسلم إذا اعتقد أن ربه تعــالى قــريب مجيب، واعتقد أنه عليم حكيم، واعتقد أنه ســميع بصــير، واستحضر ذلك في كل حالاته عظم قدر ربه في قلبه وأكثر من دعائه، وتعلق قلبه برجائه وخافه حق الخوف واستعد للقائه وعظمه غاية التعظيم، وهـذا هو السر في تقرير أهل السنة لهذه الصفات حتى يعرف المسلمون صفات ربهم فيعبدوه حق عبادته.

شرح العقيدة الطحاوية [22]

قد تـواترت الأدلة الشـرعية والعقلية على علو الله تعـالى على خلقـه، فيجب الإيمـان به دون النظر إلى اللـوازم الباطلـة. وأيضـاً يجب الإيمـان بالإسـراء والمعـراج، وهو من الغيب الـذي ثبت للصـديق منزلة الصـديقية الإيمـان بـه، فعلى المؤمن أن يثبت عقيدته ويصدق بكل ما صح به الدليل.

دين الله تعالى أصله وثمرته

نحمد الله على كل حـال، ونعـوذ به من حـال أهل النـار، ونحمد الله أن جعلنا مسـلمين وأعاذنا من شر البــدع والمبتــدعين، ونحمد الله أن اختــار لنا دين الإسلام ورضيه لنا ديناً، وأتم علينا نعمته وأكمل لنا الـدين، ونحمد الله أن ثبتنا على دينه، نسأله سبحانه أن يثبتنا عليه إلى الممات. دين الإسلام الذي اختاره الله لهذه الأمة هو دينه الباقي، وهو دين الأنبياء كلهم أولهم وآخـرهم، وأصـله معرفة العبد ربه ودينه ونبيه، أصله الاعـتراف بالله تعـالى ربـاً وإلهـاً ومـدبراً، أصله التوحيد الذي هو إفراد الله بالعبادة، فبعد أن يعـترف العبد بأنه سـبحانه رب الأرباب ومسبب الأسـباب لا إله غـيره ولا رب سـواه يعقد على ذلك قلبه عقداً محكمـاً، فيحمله هـذا الاعتقـاد على أن يبـادر إلى الطاعة وأن يبتعد عن المعصـية، ويحمله هـذا الاعتقـاد على أن يتفـانى في خدمة ربه وفي عبادتـه، ويحمله هـذا الاعتقـاد على أن يـرخص عنـده كل شـيء في سـبيل رضا ربه سبحانه وتعـالى. ويحمله هـذا الاعتقـاد على أن يهجر في ذات الله كل قـريب وكل بعيــد، وعلى أن يرضي الله بســخط النــاس كائنــاً من كــان، وعلى أن يلتمس رضا الله بجميع ما ينفق وبجميع ما يملك ولو طلب منه ربه أن يبـــذل نفسه وأن يبـذل ماله لكـان ذلك سـهلاً رخيصـاً عنـده؛ ذلك لأنه يعلم أن رضا ربه فيه الفوز وفيه السعادة، وفيه تحصـيل خـيري الـدنيا والآخـرة. ولكن ذلك كله يتوقف على عقيـدة القلب العقيـدة السـليمة الصـحيحة الـتي هي معرفة الله تعـالى بكامل صـفاته، معرفته بما يسـتحقه من صـفات الكمـال ونعـوت الجلال، وإثبات الأسماء الحسنى والصـفات العلى الـتي يسـتحق بها أن يعظم حق التعظيم، وأن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفـر، ويستحق أن يعبد حق عبادته ويطاع حق طاعته، وتلك العقيدة إذا رسخت في القلب وتمكنت منه فلن تزعزعها شبهة، ولن يزيلها مزيل مهما كانت العوائق ومهما كــانت الظــروف. ولاشك أن هــذه العقيــدة لما رســخت في قلــوب الصحابة رضي الله عنهم رأينا لها الآثار، ونزل فيهم قـول الله تعـالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُـونَ وَيُقْتَلُـونَ وَعْـدًا عَلَيْـهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيـلِ وَالْقُـرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْـدِهِ مِنَ اللَّهِ [التوبـة:111].. إلى آخر الآيـات. ونتـذكر أن كل من اعتقد هذه العقيدة وثبتت في قلبه ثبوتـاً ورسـخت رسـوخ الجبـال أنه يعـرف بـذلك بعملـه، ويعـرف بتفانيه بحيث لا تأخـذه في الله لومة لائمـة، ولو دعي إلى أن

يخـــرج من ماله ونفسه لما توقف في ذلـــك، فهـــذه علامة الصـــدق وعلامة الصادق في هـذه العقيـدة. روي عن ابن عبـاس رضي الله عنه في قـول الله تعالى: وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَـارِكُمْ مَا فَعَلُـوهُ إِلَّا قَلِيـلٌ مِنْهُمْ [النسـاء:66] يقـول: أنا من ذلك القليـل، لو كتب الله علينا أن نقتل أنفسنا لفعلنا، أو أن نخرج من أموالنا وديارنا لخرجنا. وهكذا كل مـؤمن، ولكن كل مؤمن صادق وكل مـؤمن مصـدق وكل مـؤمن سـليم الإيمـان كامل الإيمان يؤمن بأن ما عند الله خـير وأبقى، ويـؤمن بـأن ربه هو الـذي أعطـاه، وهو الذي يملكـه، وهو الـذي طلب منه سـبحانه وتعـالى هـذا الطلب، فيهـون عليه ذلك الطلب. إذاً فمعرفة العقيدة الإسلامية الـتي هي عقيـدة المسـلمين مهمة غاية الأهميـة، وأصل هـذه العقدية -كما قلنـا- هو معرفة الله سـبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته، وهـذا هو السـبب في أن الـرب سـبحانه تعـرف إلى عباده، فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته، قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ [فصلت:37]، وأكبر مخلوقاته السماوات والأرض، بل ومن مخلوقاته خلقك بنفسك، خلق جنس الإنسان، وخلق الأرض وما بث فيها من دابة، ولا شك أن هذه من أكـبر الآيـات الدالة على أنه خـالق وعلى كل شيء قدير، وإذا كان هو الخالق لهذا الخلق فإنه كما قال ابن كثـير المستحق للعبادة. فيعرفه العباد ويصفونه بصفات الكمـال، فيصـفونه بأنه هو السميع الذي لا يحجب سمعه شـيء، ولا تشـتبه عليه الأصـوات، وبأنه البصـير الذي لا يستر بصره حجاب، وبأنه يـرى عبـاده مهما كـان ويـرى كل شـيء ولا تخفى عليه من عباده خافية، وبأنه العليم الذي يعلم كل ما دق وجـل، وكل ما قدم وحدث، وكل كبيرة وصغيرة وبأنه الـرحيم بعبـاده، وبأنه عزيز ذو انتقـام، وبأنه صـادق الوعـد، وبأنه مالك الملـك، وبأنه كامل الصـفات له الصـفات الكاملة التي أثنى بها على نفسه سبحانه ووصفه بها رسوله، فيصفونه بـذلك. فيتعلمون هذه الصفات وأدلتهـا، وإذا عرفـوا أدلتها لا شك أنها يكـون لها تـأثير في قلـوبهم، وتأثيرها في قلـوبهم بعد رسـوخها بـأن تنطق ألسـنتهم بـذكره، وتخشع قلـوبهم لهيبتـه، وتشـتغل أبـدانهم كلها بطاعته سـبحانه، ويعرفـون ما يحبه فيتقربـون إليه بكل محبـوب، ويعرفـون ما يكرهه ويبغضه فيبتعـدون عنه غاية البعد، ويعرفون أسباب رضاه فيأتون بها، فـذلك هو السـبب في التركـيز على علم العقيدة. إذاً فاهتم -أيها الأخ المسـلم- بعلم العقيـدة حـتى ترسـخها في قلبك وفي قلب كل مسلم، وتعرف بذلك صادق العقيـدة من غـيره الـذي يعبد الله على شفا جرف. ......

المعصية دليل على نقص قدر الرب في القلب

واعلم أن كل من رأيته مقصـراً في الطاعـة، أو كل من رأيته مرتكبـاً لشـيء من المعاصي، فـإن ذلك لنقص قـدر ربه في قلبـه، فقـدر الله تعـالى وعظمة الرب في القلب لا شك أن لها تأثيرهـا، فـإذا نقص قـدرها في القلب ظهـرت المعاصي، وظهر التقصير في الطاعات، وظهر ارتكاب شيء من المكروهـات

أو من المحرمات، فهذه علامة واضحة على كمال الإيمان وثبوته ورسوخه في القلب وعلى نقصه، وهـذا هو السـبب في تركيزنا على علم العقيـدة في هـذا الدرس، وكذلك غيرنا من الذين يهتمون به في هـذه العقيـدة الطحاويـة، وفي غيرها من كتب العقائد، فليهتم المسلمون بأمر عقيـدتهم، وليعرفـوا فوائـدها، وليتعبدوا ربهم بموجبها.

إثبات صفة علو الله تعالى على خلقه

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقال شـيخ الإسـلام أبو عثمـان إسـماعيل بن عبد الـرحمن الصـابوني : سـمعت الأسـتاذ أبا منصـور بن حمشـاذ -بعد روايته حديث النزول- يقول: سئل أبو حنيفة فقال: ينزل بلا كيف. انتهى. وإنما توقف من توقف في نفي ذلك لضعف علمه بمعاني الكتاب والسنة وأقوال السـلف، ولذلك ينكر بعضهم أن يكون فوق العرش، بل يقول: لا مباين ولا محـايث، ولا داخل العـالم ولا خارجـه. فيصـفونه بصـفة العـدم والممتنـع، ولا يصـفونه بما وصف به نفسه من العلو والاستواء على العـرش. ويقـول بعضـهم بحلوله في كل موجود، أو يقول: هو وجود كل موجود، ونحو ذلـك، تعـالى الله عما يقـول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. وسيأتي لإثبات صفة العلو لله تعـالى زيـادة بيان عند الكلام على قول الشيخ رحمه اللـه: (محيط بكل شـيء وفوقـه) إن شاء الله تعالى]. من صفات الله سبحانه وتعالى أنه القاهر فوق عبـاده، قـال تعالى: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ [الأنعام:18]، وقال تعـالى: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ [النحل:50]، فيؤمن العباد بهذا القهر الذي مقتضـاه الغلبة والإحاطة، والقهر: هو قوة الغلبة، بمعنى أنه غالب متصـرف في العبـاد ليس لهم قدرة على التصرف في أنفسهم بدون اختيار الله وقضائه وتـدبيره. ومن صفاته سـبحانه أنه هو العلي بجميع أنـواع العلـو، علو القـدر وعلو القهر وعلو الـذات، وكـذلك فوقية القـدر وفوقية القهر وفوقية الـذات، ولا شك أن هـذه الصـفات قد دلت عليها الأدلة السـمعية من الآيـات القرآنية والأحـاديث النبوية الـتي هي مرجع الإسـلام في الاسـتدلال، فمرجع المسـلمين في اسـتدلالهم على صـفات ربهم هـذه النصـوص الثابتة المنقولة عن نـبيهم نقلاً ثابتاً متواتراً. ولاشك أن هذا الإثبات للفوقية بجميع أنواعها يسـتلزم أن يكـون الـرب سـبحانه وتعـالى بكل شـيء عليم؛ فإنه إذا كـان قـاهراً لعبـاده وقـادراً عليهم وعالماً بهم ومطلعاً عليهم، ويرى صـغيرهم وكبـيرهم وخفيهم وجليهم، كان ذلك دالاً على عظمته وعلى إحاطته. والمخلوقون حقـيرون بالنسـبة إلى عظمة ربهم، فـالمخلوق الـذي هو الإنسـان جـزء صـغير من مخلوقـات اللـه، والأرض التي نحن عليها والسماوات التي فوقنا ومحيطة بنا جزء صـغير أيضـاً من مخلوقـات الله سـبحانه وتعـالى، قـال تعـالى: وَمَا قَـدَرُوا اللَّهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ

وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ وَالسَّـموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِـهِ [الزمـر:67]، فإذا كانت الأرض قبضته، والسماوات مطويـات بيمينه فما مقـدار الإنسـان؟! وما قدره في هذا الكون؟! قـال ابن عبـاس رضي الله عنهمـا: ما السـماوات والأرض في كف الـرحمن إلا كحبة خـردل في يد أحـدكم، وحبة الخـردل هي أصـغر ما يُتَصَـوَّر من الحبـوب، فـالخردل شـجر معـروف وحبه صـغير جـداً، فيقـول: إذا قبض أحـدكم حبة خـردل في كفه هل يحس بأنها تشـغل مكانـاً؟! كذلك السماوات السبع والأرضون السبع يقبضها الله وكأنها حبة خردل في يد أحدكم. فإذاً هذا دليل على العظمة، وأن علوه سبحانه وتعالى فـوق عبـاده لا ينافي علمه، ولا ينافي اطلاعـه، ولا ينـافي علمه بعبـاده، ولا ينـافي رؤيته لهم وقربه منهم وهيمنته عليهم ونظره إليهم وعلمه بأحوالهم وبـأقوالهم وسـماعه لأصواتهم، وما أشبه ذلك، ألا يكون العبد مستحضراً لذلك في كل حالاته حـتى يعبد ربه غاية العبـادة، وحـتى يخافه غاية الخـوف، إذاً فمن أصل عقيـدة أهل السـنة الاعتقـاد بالفوقية للـه، وأن ذلك لا ينـافي علمه وقربه واطلاعه على عباده. كذلك عليه أن يعـرف العقائد الفاسـدة فيجتنبهـا، أو يركز على عقيـدة السلف والأئمة وأهل السنة ويعرض عما سـواها من عقائد المبتدعـة، كوحـدة الوجود والحلوليين ونحوهم من الفرق الضـالة الـذين أنكـروا علو الله وقـالوا: إنه لا فوق ولا تحت، ولا مباين ولا محايث. أو: إن وجوده هو وجود الكـون، أو: إنه حال في المخلوقات بذاته -تعـالى الله عما يقولـون-، فكل أولئك لم يثبت الإيمـان في قلـوبهم ولم ترسخ معرفة الله وعقيـدة الإسـلام في أفئـدتهم، فوسـوس إليهم الشـيطان أن ذات الله حالة فيكم أو في كل مكـان، أو أن وجوده هو وجود الكون أو ما أشبه ذلـك، يريـدون بـذلك أن يـبرروا مـذاهبهم، فعلى المسـلم أن يعـرف العقيـدة السـليمة وأن يعتقـدها ويتعبد لله تعـالى بموجبها. ......

الإسراء والمعراج وما ورد فيهما

قال رحمه الله تعالى: [قوله: (والمعـراج حـق، وقد أسـري بـالنبي صـلى الله عليه وسـلم وعـرج بشخصه في اليقظة إلى السـماء، ثم إلى حيث شـاء الله من العلا، وأكرمه الله بما شـاء، وأوحى إليه ما أوحى مَا كَـذَبَ الْفُـؤَادُ مَا رَأَى [النجم:11]، فصـلى الله عليه في الآخـرة والأولى. المعـراج: مفعـال من العروج. أي: الآلة التي يُعرج فيها أي: يصـعد، وهو بمنزلة السـلّم، لكن لا نعلم كيف هـو، وحكمه كحكم غـيره من المغيَّبـات نـؤمن به ولا نشـتغل بكيفيتـه. وقوله: (وقد أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم وعرج بشخصه في اليقظـة) اختلف الناس في الإسراء: فقيل: كان الإسـراء بروحه ولم يُفْقد جسـده، نقله ابن إسحاق عن عائشة و معاوية رضي الله عنهما، ونقل عن الحسن البصري نحوه. لكن ينبغي أن يعرف الفرق بين أن يقال: كان الإسـراء منامـاً، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسـده، وبينهما فـرق عظيم، فــعائشة و معاوية رضي الله عنهما لم يقولا: كـان منامـاً، وإنما قـالا: أسـري بروحه ولم يُفْقد جسـده.

وفرقٌ ما بين الأمرين؛ إذ ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة، فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء وذُهِب به إلى مكة وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، فما أرادا أن الإسراء كان مناماً، وإنما أرادا أن الروح ذاتها أسري بها ففارقت الجسد ثم عادت إليه، ويجعلان هذا من خصائصه؛ فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت وقيل: كان الإسراء مرتين: مرة يقظةً ومرة مناماً، وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله: (ثم استيقظت) وبين سائر الروايات. وكذلك منهم من قال: بل كان مرتين: مرة قبل الوحي ومرة بعده. ومنهم من قال: بل ثلاث مرات: مرة قبل الوحي ومرتين بعده. وكلما اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة للتوفيق، وهذا يفعله ضعفاء أهل الحديث، وإلا فالذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة قبل الهجرة بسنة، وقيل: بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البر]......

إثبات الإسراء والمعراج من عقائد أهل السنة

من عقائد أهل السنة الإيمان بأن النبي صلى الله عليه وسلم عرج به إلى السماء وفرضت عليه الصلوات الخمس في ليلة المعراج، وأن ذلك كان بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين أو نحوها، وكذلك من عقائدهم ثبوت الإسراء. وقد ذكر الله تعالى الإسراء، قال تعالى: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ [الإسراء:1] أخبر في الحديث أنه أسري به، يعني: ذُهب به من مكة إلى أن وصل إلى المسجد الأقصى الذي هو مسجد إيلياء، المسجد الأقصى الذي هو الآن معروف. هذا المسجد هو أحد المساجد الثلاثة، ويُعرف بالمسجد الأقصى، وهو قبلة النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة، وبعد الهجرة أيضاً ظل يستقبله ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، فلذلك يقال: إنه أولى القبلتين. ويقال: إنه مسرى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى) بمعنى أنه يجوز أن يسافر إليه لأجل فضل الصلاة فيه، فالصلاة فيه تعدل خمسمائة صلاة في غيره، والصلاة في المسجد النبوي تعدل ألف صلاة في غيره إلا المسجد الحرام، والصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف كما ورد ذلك في الأحاديث، فهذه الثلاثة هي التي يُشد إليها الرحال. فمسجد إيلياء يسمى مسجد بيت المقدس أو البيت المقدس الذي بناه سليمان عليه السلام، وقد قيل: إنه جدَّده. وقيل: إنه أول من بناه. والصحيح أنه بُني قديماً، ثبت في الحديث أنه عليه السلام سئل: (أي المساجد بُني أولاً؟ قال: المسجد الحرام. قيل: ثم ماذا؟ قال: المسجد الأقصى. قيل: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً)، فدل على أنه بُني قديماً؛ لأن المسجد الحرام بناه إبراهيم، وقيل: إن إبراهيم جدَّده، فعلى هذا يكون المسجد الأقصى قديماً. فالحاصل أنه عليه الصلاة والسلام أسري به ليلاً من

المسـجد الحـرام، أي: من مكة إلى المسـجد الأقصـى، وأنه جُمع له الأنبيـاء هناك، وأنه أمَّهم كما في بعض الروايـات. فـأنكرت كفـار قـريش لما أخـبرهم بأنه أسري به وكـذبوه وقـالوا: إن المسـافر إلى بيت المقـدس يـذهب شـهراً ويرجع شهراً، وأنت تذهب في ليلة وترجع في ليلتك؟! هذا كذب وهذا محـال! حتى إن بعض من كان قد أسلم رجع عن الإسـلام، ولكن لما قيل لـأبي بكر : إن صاحبك زعم أنه الليلة وصل إلى الشام ورجع! فقـال: صـدق، إني أصـدقه فيما هو أبعد من ذلـك، أصـدقه أن خـبر السـماء يـنزل عليه صـباحاً ومسـاءً، فكيف لا أصدقه إذا أسـري به إلى المسـجد الأقصى ثم رُجِع بـه؟! وفي بعض الأحاديث أنه أتاه جبريل ومعه دابة يقال لها الـبراق، هـذه الدابة هي كما خلق الله، وكان البراق يضع حافره عند منتهى طرْفه، فخطوته الواحدة مد البصـر، يضع حـافره عند منتهى طرْفـه، أي أن سـيره أسـرع من لمحة البصـر، فقطع هذه المسافة في هذه اللحظات، ووصل إلى هناك ثم رجع، وهذا هو الإسراء.

الإسراء والمعراج بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم

والصحيح أنه أسري ببدنه وبروحه، وأن الإسراء كان يقظةً لا منامـاً، وذلك لأن قريشاً أنكرت هذا الإسراء واستبعدته، ولم تكن تنكر المنامـات، فلو قـال: إن ذلك منام، أو إن ذلك أحلام أو رؤيا لصدقوه؛ لأن الإنسـان يـرى في منامه أنه قطع مسـافات وأنه وصل إلى كـذا وكـذا وهو نـائم على فراشه لم يفارقـه، فيعترفون بذلك، ولكن لما أخـبرهم بهـذا كـذبوه، فـدل على أن الإسـراء كـان بجسـده، وأنه ركب الـبراق حقيقـةً وذهب ورجـع، وأخـبرهم بآيـات وبـدلالات، واستوصـفوا منه بيت المقـدس، واستوصـفوا المسـجد الأقصـى، فعند ذلك وصفه لهم وصفاً دقيقاً، وفي بعض الروايات أن الله تعالى جلَّاه له لما التبس عليه بعض الأشـياء، فكشـفه له وصـوره أمامه فصـار يصـفه وهم يسـألونه فيقول: هذا مكان كذا وهـذا مكـان كـذا، مع أنه لم يأته إلا تلك اللحظة أو تلك اللحظات، فاعترفوا بأن الوصف مطـابق لما هو عليه في الحقيقـة. فالإسـراء كان يقظةً لا مناماً، بجسـده وبروحـه. وهنـاك من يقـول: إن الإسـراء بـالروح فقط، أي أن روحه خرجت وفـارقت جسـده، وأن الجسد بقي ليس فيه روح، وأن الـروح صـارت لخفتها فوصـلت إلى ذلك المكـان، ولكن هـذا قـول من الأقوال قد استدلوا عليه بقول الله تعالى في سورة الإسراء: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَـاكَ إِلَّا فِتْنَـةً لِلنَّاسِ وَالشَّـجَرَةَ الْمَلْعُونَـةَ فِي الْقُـرْآنِ [الإسـراء:60]، ولكن الرؤيا ليست مطلق الحلم، بل الرؤيا كل شـيء يُـرى ويـراه الإنسـان يسمى رؤيا، فرؤية الأشخاص، قد تسمى في اللغة رؤيا.

الأدلة على المعراج

أما المعراج فالمعراج هو الصعود إلى السماء، وقد دل عليه من القرآن آيـات كريمات في أول سورة النجم، في قوله سبحانه وتعالى: عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَـيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [النجم:5-11] إلخ الآيات. فإن هذا دليل على أنه رفع جسـده حـتى كـان قـاب قوسـين أو أدنى، والقـوس معـروف، وهو الآلة الـتي يُـرمى بهـا، يعـني أنه دنا من ربه فتـدلى، يعني: هبط. فهذه الآيـات ونحوها دلالتها على أنه رُفع وأنه أسـري به وأنه رأى الملك في قولـه: وَلَقَـدْ رَآهُ نَزْلَـةً أُخْـرَى * عِنْـدَ سِـدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْـدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى [النجم:13-15]. وقوله: مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَـدْ رَأَى مِنْ آيَـاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى [النجم:17-18]. وقوله: أَفَتُمَارُونَـهُ عَلَى مَا يَـرَى [النجم:12]. كل ذلك كان في المعراج حين عُرِج به، والآيات فيها إجمال ذلك، والأحــاديث فيها التفصيل لذلك كلـه، كما هو معـروف في كتب الحـديث. فالأحـاديث الـتي في الإســراء في الصــحيحين وفي غيرهمــا، وقد أورد ابن كثــير في أول تفســير سورة الإسراء جملة كثيرة من أحاديث الإسـراء والمعـراج، وأفردها كثـير من العلماء بالتأليف وتوسعوا فيها. فنقول: من العلماء من يقول إن الإسراء كــان بـــالروح كما روي ذلك عن عائشة وغيرها أن الجسد لم يُفقـــد. ومنهم -وهو الصـحيح- من يقـول: إنه كـان يقظة لا منامـاً، وإنه بالجسد والـروح معـاً، وإن جسده عُرج به بحيث اخترق السبع السماوات سماءً سماءً، ووجد الأنبيـاء في السـماء وسـلم على من وجد منهم، وفُرضت عليه الصـلوات، وكلمه الله منه إليه وخاطبه، وخفف عنه عشراً عشراً إلى أن استقرت خمس صلوات، فقال الله تعالى: (لا يُبَدَّل القول لدي، أمضيتُ فريضتي وخففت عن عبادي) يعـني: عندما خففت الصلوات إلى خمس فرائض. كل ذلك كان ليلة الإسراء، فالذين قـالوا: إن الإسـراء تكـرر هـؤلاء كـأنهم يريـدون الجمع بين الروايـات، ولكن الصـحيح أن الإسـراء والمعـراج لم يتكـرر، وإنما هو مـرة واحـدة، وفي ليلة واحـدة، عُـرج به من بيت المقـدس إلى السـماء ثم نـزل في ليلتـه، وما ذلك على الله بعزيز.

حديث الإسراء والمعراج

قال رحمه الله تعالى: [قال الشيخ شمس الدين ابن القيم : يا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً! وكيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تُفرض عليهم الصلوات خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً، فيقول: (أمضيتُ فريضتي وخففت عن عبادي)، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين، ثم يحطها إلى خمس؟! وقد غَلَّط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء، و مسلم أورد المسند منه ثم قال: (فقدَّم وأخَّر وزاد ونقص) ولم يسرد الحديث، فأجاد رحمه الله. انتهى كلام الشيخ شمس الدين رحمه الله. وكان من حديث الإسراء أنه صلى الله عليه وسلم أسري بجسده في اليقظة -على الصحيح- من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى راكباً على البراق صحبةَ جبريل عليه السلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد، وقد قيل: إنه نزل ببيت لحم وصلى فيه، ولا يصح عنه ذلك البتة. (ثم عُرج به من بيت المقدس تلك الليلة إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففُتِح له، فرأى هناك آدم أبا البشر فسلم عليه فرحب به ورد عليه السلام وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثانية فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم فلقيهما فسلم عليهما، فردا عليه السلام ورحبا به وأقرا بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف فسلم عليه، فرد عليه السلام ورحب به، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، ثم عرج إلى السماء السادسة، فلقي فيها موسى فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقي فيها إبراهيم فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، ثم رُفع إلى سدرة المنتهى، ثم رُفع له البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله وتقدست أسماؤه، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة. فرجع حتى مر على موسى فقال: بم أمرت؟ قال: بخمسين صلاة، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار أن نعم إن شئتَ، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى وهو في مكانه -هذا لفظ البخاري في صحيحه، وفي بعض الطرق- فوضع عنه عشراً، ثم نزل حتى مر بموسى فأخبره فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى حتى جعلها خمساً، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف فقال: قد استحييت من ربي، ولكن أرضَى وأسلم، فلما نفذ نادى منادٍ: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي)]: هكذا سرد الشارح مجمل حديث الإسراء والمعراج، وهذا على وجه الاختصار، ومن أراد التوسع فليراجعه في صحيح مسلم (باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم) وفي صحيح البخاري في آخره في كتاب التوحيد، وفي كتب أهل السنة. وقد ذكرنا أن ابن كثير في أول تفسير سورة الإسراء أورد أكثر الروايات وساقها بنصها كما هي،

وملخصها ما ذكر من أنه صلى الله عليه وسلم أتاه الملَك وهو في مكة في بيت أم هانئ ، وأتي به إلى المسجد، وفي بعض الروايات أنه غسل قلبه، وملأه حكمةً وإيماناً، غسله من ماء زمزم وملأه، ثم ركب معه على البراق الذي هو دابة الله أعلم بكيفيتها، يضع حافره عند منتهى طرفه، لسرعة سيره، فوصل إلى بيت المقدس في لحظات، ثم صلى بالأنبياء هناك، وبعد ذلك عُرج به إلى السماء. والعروج لا شك أنه الرُّقِي والصعود، ولا يُعلم كيفية ذلك، ولا شك أنه عُرج بجسده وروحه، إما على نفس الدابة التي هي البراق، وإما أن جبريل حمله فخرق هذا الجو الواسع في لحظات حتى أتى إلى باب السماء الدنيا، فاستفتح الباب فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً بك وبمن جاء معك، ففتح له، فوجد في السماوات أولئك الأنبياء في سماء بعد سماء، فوجد آدم في السماء الدنيا، فسلم عليه، وفي بعض الروايات أنه رآه وعنده أسْوِدَة عن يمينه وأسْوِدَة عن يساره، فإذا نظر إلى مَن عن يساره بكى، وإذا نظر إلى من عن يمينه ضحك، فالذي عن يمينه نَسَم أهل الجنة، والذي عن يساره نَسَم أهل النار، أي: أرواح تعرض عليه من أهل الجنة ومن أهل النار، وهي نَسَم بنيه. فقيل: إن هذا روحه أي: روح آدم تمثلت هناك، وكذلك أرواح الأنبياء الآخرين مُثِّلت هناك، ويمكن أن تكون جُعلت في أجساد تناسبها وتلائمها، والله أعلم بكيفية تلك الأجساد.

لزوم الإيمان بالإسراء والمعراج دون اعتراض

والحاصل أنه عليه الصلاة والسلام -كما أخبر الله- عُرج به حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وأوحى الله تعالى إليه، ورفعه إلى مستوىً سمع فيه صريف الأقلام، ومر على البيت المعمور الذي في السماء السابعة، وأخبر بأنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملَك من تلك السماء، ثم لا يعودون إليه، وكل يوم يدخل فيه غيرهم، وذلك هو البيت الذي ذكره الله في قوله: وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ [الطور:4]. ثم فرضت عليه هذه الصلوات أولاً خمسين صلاة، وخففها الله حتى صارت خمساً، فقال الله: (أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي)، ورجع في ليلته إلى الأرض وأصبح في مكة، وذلك يسير في قدرة الله سبحانه وتعالى. فيؤمن أهل السنة بذلك، ولو استنكر ذلك من استنكره من المبتدعة ونحوهم، وذلك أن من لا علم عنده، أو من لا يؤمن إلا بالمحسوسات ونحوها قد يستبعد ويقول: إن الإنسان على هذه الأرض، وإنه لا يمكن أن يعيش إذا فارقها، وإنه إنما يعيش بهذا الأكسجين الذي يعيش به. نقول: كيف لا يجوز أن يكون أهل السماء يعيشون كما يعيش أهل الأرض، وأن يكون عندهم مثلما يكون عند أهل الأرض، والله تعالى على كل شيء قدير؟ وعلى كل حال

فالذين يستبعدون ذلك ويقولون: إنه مستحيل أن يفارق الإنسـان هـذه الأرض أو يرتفع إلى غيرها أو ما أشـبه ذلـك؛ كل ذلك تخبطـات وتخرصـات. وكـذلك الذين استنكروه للبعد وقالوا: كيف يقطع هذه المسافات ونحوها؟! وقد سـبق أن أبا بكر رضي الله عنه صدقه وقال: كيف لا أصدقه وهو يأتيه خبر السماء؟ يـنزل عليه الملك في لحظـات ويصـعد في لحظـات كطـرف العين، فلمـاذا لا نصـدقه؟ وما دمنا عرفنا أنه قد صـدق في دعـواه أنه مرسل من ربه فكـذلك دعـواه أنه بُعث وأنه جـاء بهـذه الشـريعة، وهكـذا أيضـاً ما جـاء به من هـذا الإسراء والمعراج. لا شك أيضاً أن هذا يعتبر شرفاً، ويعتـبر مـيزةً لـه، ويعتـبر فضيلةً من فضائله عليه الصلاة والسلام أنه عُرج به في الحياة، وأنه صعد إلى السـماء السـابعة، وأنه كلمه ربه منه إليـه، وأنه وصل إلى مكـان سـمع فيه صريف الأقلام، وأن الله خاطبه منه إليه كما يشاء. فهـذا من فضـائله، ويـذكر مع فضائله أنه جاوز السبع الطباق، أي: السبع السماوات، ورفعه الله فوقهـا. فهذا أدخلوه في العقيدة، وذلك لأنه من حقـوق النـبي صـلى الله عليه وسـلم وميزته وخصائصــه، مما يقد يكـذِّب به مَن قَصُـر علمُه عن معرفة المغيَّبـات واقتصر على ما يظن أنه ظـــــاهر، أو اقتصر على ما تدركه حواسه دون أن يـؤمن بقـدرة الله على كل شـيء، ومن آمن بـأن الله تعـالى على كل شـيء قدير لم يستبعد مثل هذا الحادث العظيم.

رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه في المعراج

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [وقد تقـدم ذكر اختلاف الصـحابة في رؤيته صلى الله عليه وسـلم ربَّه عز وجل بعين رأسـه، وإن الصـحيح أنه رآه بقلبـه، ولم يرَه بعين رأسه، وقولـه: مَا كَـذَبَ الْفُـؤَادُ مَا رَأَى [النجم:11]، وَلَقَـدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى [النجم:13] صح عن النبي صلى الله عليه وسـلم أن هـذا المـرئي جبريل، رآه مرتين على صورته التي خُلِق عليهـا. وأما قوله تعـالى في سـورة النجم: ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى [النجم:8] فهو غـير الـدنو والتـدلِّي المـذكورَين في قصة الإسراء؛ فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة و ابن مسـعود رضي الله عنهمـا؛ فإنه قـال: عَلَّمَـهُ شَـدِيدُ الْقُـوَى * ذُو مِـرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُـوَ بِـالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَـدَلَّى [النجم:5-8]، فالضـمائر كلها راجعة إلى هذا المعلِّم الشـديدِ القُـوَى. وأما الـدنو والتـدلي الـذي في حـديث الإسراء فذلك صريحٌ في أنه دنوُّ الـرب تعـالى وتدليـه، وأما الـذي في سـورة النجم أنه رَآهُ نَزْلَـةً أُخْـرَى * عِنْـدَ سِـدْرَةِ الْمُنْتَهَى [النجم:13-14] فهـذا هو جبريل، رآه مرتين: مرةً في الأرض ومرةً عند سدرة المنتهى].

الدليل على أن الإسراء كان بجسده صلى الله عليه وسلم

وقال المؤلف: [ومما يدل على أن الإسـراء بجسـده في اليقظة قوله تعـالى: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْـرَى بِعَبْـدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ إِلَى الْمَسْـجِدِ الأَقْصَـى [الإسراء:1]، والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسـان اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق وهو الصـحيح، فيكـون الإسراء بهذا المجموع، ولا يمتنع ذلك عقلاً، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة وهو كفر. فـإن قيـل: فما الحكمة في الإسـراء إلى بيت المقـدس أولاً؟ فـالجواب -والله أعلم- أنه كـان ذلك إظهاراً لصدق دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم المعراج حين سـألته قريش عن نعت بيت المقدس، فنعته لهم وأخبرهم عن عِيرهم الـتي مر عليها في طريقه، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلـك؛ إذ لا يمكن إطْلاعهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطلعوا على بيت المقـدس فأخبرهم بنعته. وفي حـديث المعـراج دليل على ثبـوت صـفة العلو لله تعـالى من وجوه لمن تدبره. وبالله التوفيق].

تفسير آيات سورة النجم في المعراج

هـذه الآيـات من سـورة النجم، وهي قـول الله تعـالى: عَلَّمَـهُ شَـدِيدُ الْقُـوَى [النجم:5] المعلِّم هو النبي صلى الله عليه وسـلم، والمعلِّم شـديد القـوى هو الملك، أي: جبريل عليه السـلام، وقولـه: (ذُو مِـرَّةٍ) أي: ذو قـوة. (فَاسْـتَوَى): الاستواء هنا: الارتفاع. (وَهُوَ بِـالأُفُقِ): أي ارتفع بـالأفق الأعلى، والأفـق: واحد الآفـاق، وهي الجهـات المتقابلـة، فعلَّمه واسـتوى وارتفع وَهُـوَ بِـالأُفُقِ الأَعْلَى [النجم:7]. (ثُمَّ دَنَا) أي: قرُب منه، وذلك أيضاً بعدما عُرج به إلى السـماء. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى [النجم:8]: التدلي والدنو هنا للملَك الذي هو جبريل، أي: قـرب منه وتدلى. يعني: انحدر إليه ونـزل إليـه. ثُمَّ دَنَا فَتَـدَلَّى * فَكَـانَ قَـابَ قَوْسَـيْنِ أَوْ أَدْنَى [النجم:8-9] القوس: هو الآلة التي يُرمى بها، كـانوا يرمـون به بالسـهام قبل وجود الأسلحة. فيقول: إنه دنا منه وقـرُب منه وهو يـراه، حـتى كـان منه قدر قوسين أو أقرب من القوسين، هذا معنى دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى [النجم:8-9]. وأما قولـه: فَـأَوْحَى إِلَى عَبْـدِهِ مَا أَوْحَى [النجم:10] فلا شك أن الوحي من الله تعالى، فهو الذي أوحى إلى عبده، وسـواءٌ أكـان العبد هو الملَك أم البشر فالوحي من الله إلى الملَك الـذي هو جبريـل، ومن الملك

إلى البشر الذي هو محمد عليهما الصلاة والسلام، أوحى إليه الشيء الذي أوحى، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى [النجم:10]. أما قوله: مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [النجم:11] فالرؤية هنا قلبية، أي: ما كذَّب الفؤاد بالرؤية التي رآها، وهذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كُشف له وأعطي مكاشفات وأنواراً وفتوحات فُتحت على قلبه فاستنار قلبه، فأصبح كأنه يرى ربه رأي عين وإن كان مع ذلك إنما رآه رؤية بالقلب. وهذا معنى قول السلف: إنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقلبه. أي: بتلك الكشوفات والفتوحات والواردات التي ترد على قلبه مما يطمئن به ويقوى بذلك يقينه، فهذا دليل على أنه لم يَرَ ربه رؤيةً بصرية؛ لقوله في الحديث السابق لما قيل له: هل رأيت ربك؟ فقال: (نورٌ أنى أراه؟!) أي: دونه أنوار فكيف أراه؟! وفي رواية: (رأيت نوراً)، فإذاً الرؤية هنا رؤية قلبية. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ [النجم:11]، وفي قراءة: مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [النجم:11] أي: لم يكذِّب بما رآه من الكشوفات والإلهامات والواردات التي وردت عليه، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [النجم:11]. وأما قوله: وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى [النجم:13] فالرؤية هنا أيضاً للملك، أي: ولقد رأى جبريل عليه السلام نزله أخرى أي: مرةً أخرى. فهذه مرة رأى فيها جبريل عليه السلام وهو في السماء على الهيئة والصورة التي خلق عليها وقد سد الأفق، وله ستمائة جناح، والمرة الأولى ذُكرت في سورة إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ [التكوير:1] في قوله تعالى: وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ [التكوير:23]، فرآه بالأفق الأعلى، ورآه بالأفق المبين، قد سد ما بين الأفقين، له ستمائة جناح ينزل منها من الدر والياقوت ما الله به عليم، كما ورد ذلك في حديث. فإذاً ثبت أن عائشة لما سئلت عن قوله تعالى: وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ [التكوير:23]، وقوله: ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى [النجم:6-13]، فذكرت أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبر بأنه رأى جبريل عليه السلام مرتين في صورته التي خلق عليها، نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى [النجم:13-14]، رآه هذه المرة بالأفق الأعلى عند سدرة المنتهى، وهي سدرة عظيمة في الجنة، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بأن (أوراقها مثل آذان الفيلة، وأن نبقها -يعني: حملها- مثل قلال هجر)، والقِلال: جمع قلة، وهي أواني الفخار الكبيرة التي تُعمل للمياه ونحوها. هذه هي سدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى.

لزوم الإيمان بمثل هذه الغيوب

ففي هذه الآيات من هذه السورة الدليل على أنه صلى الله عليه وسلم عُـرج به فــرأى جبريل وهو بــالأفق الأعلى، ودنا منــه، وأن الله تعــالى (أوحى إلى عبده) يعني: محمـداً صـلى الله عليه وسـلم (ما أوحى) من فـرض الصـلوات الخمس. فهـذا مثـال للإيمـان بـالغيب أو الأشـياء الـتي لا تـدركها الحـواس أو يسـتغربها الإنسـان إذا سـمعها فيقـول: بشر خُلق من الأرض، فكيف مع ذلك رُفع إلى السماء، وادعى أنه خرق السماوات سماءً فوق سـماء، ثم نـزل وهو على هيئته أو بحياته التي هو عليها، والإنسان خُلق من الأرض ولا يسـتطيع أن يفارقها؟ نقول: إن ذلك خلق الله وتقديره، وهو الذي يدبر الأشياء كما يشــاء، فهو الـذي خلق الإنسـان وأعطـاه الحيـاة على هـذه الأرض، وأنـزل عليها آدم وذريته وقال: مِنْهَا خَلَقْنَـاكُمْ وَفِيهَا نُعِيـدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْـرِجُكُمْ تَـارَةً أُخْـرَى [طـه:55]، و قــال: فِيهَا تَحْيَـوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُـونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُـونَ [الأعــراف:25]. فمعلــوم أن الإنســان خلق من هــذه الأرض، ولكن لا مــانع من أن يُرفع إلى السماء إذا شاء الله تعالى ثم يهبط منهـا، ويكـون مـأواه ومماته على الأرض، ومنها يُبعث كما حصل له عليه الصلاة والسلام وللرسل من قبله.

الحــوض أمر غيــبي ذكر الله أنه في الآخــرة يــرده المؤمنــون، ويــذاد عنه الكافرون والمنافقون، وقد وردت صفاته وفضيلته في السنة مفصلة متواترة، فالإيمان به من عقائد أهل السنة، ومن أنكره فهو خليق بأن يذاد عنه.

الحوض وما ورد فيه ووجوب الإيمان به

قال المؤلف رحمه الله تعـالى: [قولـه: (والحـوض الـذي أكرمه الله تعـالى به غياثاً لأمته حق). الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصـحابة بضع وثلاثـون صـحابياً، ولقد استقصى طرقها شـيخنا الشـيخ عمـاد الدين بن كثير تغمـده الله برحمته في آخر تاريخه الكبـير المسـمى بــ(البداية والنهايــة)، فمنها ما رواه البخــاري رحمه الله تعـالى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: (إن قـدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأبـاريق كعـدد نجـوم السـماء). وعنه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال: (ليَـردن علي نـاس من أصـحابي الحوضَ حتى إذا عرفتهم اختُلجوا دوني فأقول: أصيحابي! فيقول: لا تــدري ما أحدثوا بعدك) رواه مسلم . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: (أغفى رسول الله صلى الله عليه وسـلم إغفـاة فرفع رأسه متبسـماً -إما قـال لهم، وإما قالوا له-: لم ضحكت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه نزلت علي آنفاً سورة. فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ [الكوثر: 1] حتى ختمها، ثم قال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة، عليه خير كثير، تـرد عليه أمـتي يـوم القيامة، آنيته عـدد الكـواكب، يُختلج العبد منهم فـأقول: يا رب إنه من أمـتي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعـدك)، ورواه مسـلم ولفظـه: (هو نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير، هو حوض تـرِد عليه أمـتي يـوم القيامـة)، والبـاقي مثلـه. ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابـان من ذلك الكـوثر إلى الحـوض، والحـوض في العرصات قبل الصـراط؛ لأنه يُختلج عنه ويُمنع منه أقـوام قد ارتـدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط. وروى البخاري و مسلم عن جنـدب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سـمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسلم يقول: (أنا فَـرَطكم على الحـوض)، والفَـرَط: الـذي يسـبق إلى المـاء. وروى البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري رضي الله عنه قـال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: (إني فرطكم على الحـوض، من مَـرَّ علي شـرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليرِدن عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم)، قال أبو حـازم : فسـمعني النعمـان بن أبي عيـاش وأنا أحـدثهم هـذا فقال: هكـذا سـمعتَ من سـهل ؟ فقلت: نعم، فقـال: أشـهد على أبي سـعيد الخدري لسمعتُه وهو يزيد فيها: (فأقول: إنهم من أمتي! فيقـال: إنك لا تـدري ما أحدثوا بعدك فأقول: سحقاً سحقاً لمن غيَّر بعدي) سـحقاً أي: بُعـداً]. هـذا

من الإيمان بالغيب أيضاً، وهو الإيمان بيـوم القيامة وما يكـون فيـه، وقد أخـبر الله تعالى بالبعث بعد الموت وبحشر الأجساد، وبإعادة الأرواح إلى أجسـامها، وبجمع النـاس كلهم ليـوم لا ريب فيـه. يقـول تعـالى: يَـوْمَ يَقُـومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [المطففين:6] يعـني: يقـوم أولهم وآخـرهم. ويقـول تعـالى: قُـلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُـونَ إِلَى مِيقَـاتِ يَـوْمٍ مَعْلُـومٍ [الواقعـة:49-50]. فالإيمان بالبعث بعد الموت ركن من أركان الإيمان بالله تعـالى، ويـؤمن العبد بما يكون في ذلك اليوم مما أخـبر الله بـه، وأخـبر به رسـوله صـلى الله عليه وسـلم، وتفاصـيل ذلك مـذكورة في أحـاديث النـبي صـلى الله عليه وسـلم، ومجملها وارد في كلام الله سبحانه وتعالى. فمن ذلك ذكر الحوض الذي ذكر، وقد ورد فيه أحـاديث كثـيرة بلغت حد التـواتر حيث زادت على رواية أربعين صحابياً، رووا ذكر الحوض عن النبي صلى الله عليه وسلم، ورواها أئمة السنة وعلماء الأمة في مؤلفاتهم بألفاظ متعددة، وطـرق كثـيرة وروايـات مجموعُها يُقطع بأنه صلى الله عليه وسلم أخـبر بـذلك، فيُقبل خـبره ولا يُلتفت إلى من أنكره. وقد ورد أيضاً دليل ذلك في القرآن في سورة الكوثر، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الكوثر في هـذا الحـديث بأنه نهر في الجنة أعطـاه الله نبيه صـلى الله عليه وسـلم، مـاؤه أشد بياضـاً من اللبن، وأحلى من العسـل، وكذلك أخبر بأنه أعطي هذا الحوض في الأرض في يوم القيامة، وهو جــزء أو فرع أو امتداد للكوثر الذي أعطيه في الجنـة. والحـوض عند العـرب هو الإنـاء الـذي يتخذ من الجلـود تسـقى به الإبل والغنم ونحوهـا، وعـادةً يحملونه على ظهور الإبل، فإذا وردوا أو أقبلوا على الميـاه أرسـلوا وارداً يصـلح لهم الـورد، ويسمى ذلك الـوارد الـذي يتقـدمهم (الفَـرَط)، فيقولـون: أنت فَرَطنا يا فلان. أي: أنت الـذي تتقـدم أمامنا إلى ذلك المـورد وتصـلح لنا الـورد، فـإذا وردوا بدوابهم إذا هو قد ملأ الحوض مـاءً وقد ركب البكـرة الـتي يُسـتقى عليها وقد انــتزع من المــاء بقــدره، فيبــدءون في ســقي دوابهم إلى أن تنهل وتــروى، فتشرب من ذلك الحوض. ......

سعة الحوض وبعض أوصافه

والحوض الذي أعطاه الله نبينا صلى الله عليه وسلم في الآخـرة هو نهر ليس مصـنوعاً من جلـود ولا من أوانٍ، والله أعلم بما صُـنع منـه، ولكنه ممتـد، وقد روي أنه (مسيرة شهر في شهرٍ) يعني: طوله مسـيرة شـهر وعرضه مسـيرة شـهر بالسـير المعـروف في ذلك الزمـان، وقُـدِّر في بعض الروايـات بأنه من صنعاء إلى أيلة، وصنعاء عاصـمة اليمن، وأيلة مدينة في الشـام، يعـني: طوله من ذلك المكـان إلى ذلك المكـان، وفي بعض الروايـات أنه (من صـنعاء إلى عـدن)، وكلتاهما معروفتـان في اليمن، ولعل ذلك بـاختلاف جهاتـه. وعلى كل حـال فإنه على هـذا حـوضٌ واسع ممتلئ مـاءً، وورد في هـذه الروايـات أنه يشــخب فيه ميزابــان من الجنة أو من الكــوثر، أي: يصب فيه ميزابــان من الجنة، وأن فيه آنية -الآنية الكئوس التي يُشرب بها- وآنيته عدد نجوم الســماء

في الكثرة، ولا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى. يرد عليه المؤمنـون، ويُـذاد عنه المنـافقون، وأخـبر بأنه يـرِد عليه أنـاس فيعـرفهم، فـإذا أقبلـوا إليه وعـرفهم اختلجوا دونه، وحيل بينه وبينهم، فيقول: أصـحابي -يعـني: ممن أسـلموا معي وعرفتهم- فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. يعـني أنهم إما من المرتـدين، وإما من المنــافقين، وإما من المتســمين بالإســلام وليســوا بمســلمين، أما المؤمن حقاً الذي ثبت على الإيمان سواءٌ من الصـحابة أو ممن بعد الصـحابة فإنه يرد على ذلك الحوض ويشرب منه شربة هنيئة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنـــة، وذلك لما جعل الله في ذلك المـــاء من الشـــفاء، ولما جعل فيه من اللذة، إذ كان ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل الذي هو غاية في الحلاوة وفي اللـذة، وأن الشـربة منه لا يعـدلها شـيء، فيـؤمن العبد المـؤمن بذلك. وورد في بعض الروايات أن لكل نبي حوضاً، ولكن نبينا صـلى الله عليه وسلم أكثرهم وارداً، أي: أوسعهم حوضاً وأكثرهم وروداً. يعني: أمته المتبعون له أكثر من غيرهم من الأمم، وذلك لأن الذين صدقوه واتبعوه وحققــوا اتباعه لا يحصيهم إلا الله سبحانه وتعالى.

مكان الحوض ووقت وروده

والصحيح أن الحوض في عرصـات القيامة قبل أن يعـبروا الصـراط، لكن ورد في بعض الروايات أنهم (إذا نزلـوا من الصـراط نزلـوا ظمـأى، فـيرِدون عليه كورود الناس الـتي على حوضـها)، ولعله يمتد أيضـاً إلى طـرف الصـراط، فلا مانع من أن يكون معظمه في عرصات القيامة وقبل أن يركبـوا الصـراط، ثم بعــدما يــنزلون من الصــراط يجــدون له طرفــاً، ثم بعد ذلك يشــربون منه ويــدخلون الجنة كما أخــبر الله تعــالى. فيــؤمن العبــاد بــذلك وإن لم تدركه عقولهم، ويؤمنون بما أخبر به نـبيهم صـلى الله عليه وسـلم، ولا شك أن هـذا من كرامة هـذا النـبي عليه الصـلاة والسـلام، ومعلـوم أنه يقف على الحـوض وينظر من يرد عليه، وكـذلك يكـون معه ملائكة يـأذنون في ورود بعض أمتـه، ويردُّون الذين ليسوا من الأمة حقاً. فالذي يُـردُّ يبقى على ظمئه وعلى جهـده وعلى ما يلاقيه من الشـقاوة. والـذين يـردون يطمئنـون بالشـرب ويسـعدون بذلك ويَعرفون أنهم من أهل السعادة ومن أهل الخير. ولا شك أيضــاً أن أهله الـذين يـردون عليه هم أهل السـنة والجماعـة، أهل الاتبـاع لا أهل الابتـداع، ولأجل ذلك يُرد المبتدعة والمرتـدون الـذين أحـدثوا، (إنك لا تـدري ما أحـدثوا بعدك)، فالـذي يرجو أن يكـون من أصـحاب الحـوض المـورود ويرجو أن ينهل منه عليه باتباع السنة، وعليه بالتصديق بما جاء عن نـبي الأمـة، وعليه بالعمل الصالح، وتحقيق التصـديق الـذي التزمـه، فبـذلك يكـون من أهل السـعادة إن شاء الله.

قال رحمه الله تعالى: [والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحـوض أنه حوض عظيم ومورد كريم، يُمد من شراب الجنة من نهر الكـوثر الـذي هو أشد بياضـاً من اللبن وأبـرد من الثلج وأحلى من العسل وأطيب ريحـاً من المسـك، وهو في غاية الاتسـاع عرضه وطوله سـواء، كل زاوية من زوايـاه مسيرة شهر، وفي بعض الأحاديث أنه كلما شُرِب منه وهو في زيادة واتساع، وأنه ينبت في حالٍ من المسك، والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب، ويثمر ألوان الجواهر، فسبحان الخالق الـذي لا يعجـزه شـيء! وقد ورد في أحـاديث أن لكل نـبي حوضـاً، وأن حـوض نبينا صـلى الله عليه وسـلم أعظمها وأجلها وأكثرها وارداً، جعلنا الله منهم بفضـله وكرمـه. قـال العلامة أبو عبد الله القرطبي رحمه الله تعالى في التذكرة: واختُلف في الميزان والحـوض: أيهما يكون قبل الآخر؟ فقيل: الميزان، وقيل: الحـوض. قـال أبو الحسن القابسي : والصحيح أن الحـوض قبـل. قـال القرطـبي : والمعـنى يقتضـيه؛ فـإن النـاس يخرجون عطاشاً من قبورهم كما تقدم فيقـدم قبل المـيزان والصـراط. قـال أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتاب كشف علم الآخرة: حكى بعض السلف من أهل التصـنيف أن الحـوض يـورد بعد الصـراط، وهو غلط من قائلـه. قـال القرطـبي : هو كما قـال. ثم قـال القرطـبي : ولا يخطر ببالك أنه في هـذه الأرض، بل في الأرض المبدلة، أرض بيضاء كالفضـة، لم يُسـفك فيها دم، ولم يُظلم على ظهرها أحد قـط، تظهر لـنزول الجبـار جل جلاله لفصل القضـاء. انتهى. فقاتل الله المنكرين لوجـود الحـوض، وأَخْلَق بهم أن يحـال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر!]. في هذا ملخص صفة الحوض المـورود، فله أربع زوايا، أي: أنه مربع، وكل زاوية منه مسيرة شهر، ماؤه أشد بياضـاً من اللبن- واللبن في غاية البيـاض- وأحلى من العسل الـذي هو أشد الأشـياء حلاوةً، وأطيب ريحـاً من المسـك، أي: أنه مع ذلك له رائحة عبقة طيبـة. وذكر أيضـاً أنه ينبت في جوانبه وفي رضراضه من النبات الذي يكون مبهجاً للنفـوس من اللؤلؤ والمرجان وأنواع الجواهر ما الله تعـالى به عليم، والله على كل شـيء قدير، وأنه يرِده المؤمنون ويذاد عنه الكـافرون والمكـذبون والمنـافقون، وأنه يكون قبل الميزان وقبل الصراط، وذلك لأن الناس عندما يُبعثون من قبورهم حفاةً عراة غرلاً بُهمـاً يكونـون في تلك الحـال شـديدٌ عطشـهم، فهم بلا شك بحاجة إلى ما يدفعون به ذلك العطش، فيرِدون لينهلوا من ذلك الحوض، حتى إذا رووا واطمأنوا عند ذلك يُفصل بينهم، فتنصب الموازين، وينصب الصـراط، وتـوزن الأعمـال، وتتطـاير الصـحف، ويُعـرف بـذلك أهل السـعادة من أهل الشقاوة حتى يفصل الله بينهم. والذين أنكروا هذه الأمـور الـواردة خليق بهم

وحري أن يحال بينهم وبين وروده كما أنهم كذبوه، وكما أن الذين كذبوا برؤية الله تعالى حري أن يكونـوا عن ربهم محجـوبين. فالـذين أنكـروا الأمـور الـتي أخبر الله بها أو أخبر بها رسـوله، لا شك أنهم مكـذبون، لم يصـدقوا التصـديق اللازم عليهم، ولم يـأتوا بما يجب عليهم، إنما صـدقوا بما يناسب أهـواءهم، والواجب على المسلم أن يصـدق بكل ما جـاءه من الله تعـالى، سـواءٌ أدركه عقله أم لا، فيكون بذلك حقاً من الذين يؤمنون بالغيب، ومن الذين يصـدقون الله تعالى ويصدقون رسله، ومن الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

من رحمة الله تعـالى بعبـاده أن جعل لهم أملاً في الشـفاعة، وأعظم الخلق شـفاعة هو سـيدنا محمد صـلى الله عليه وسـلم، وقد خصه الله بشـفاعات كثـيرة لأمتـه، وقد ثبتت الشـفاعة في القـرآن والسـنة، فالإيمـان بها واجب، والتسليم بها فرض على كل مؤمن.

الشفاعة يوم القيامة

......

ذكر الشفاعة العظمى

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (والشـفاعة الـتي ادخرها لهم حق كما روي في الأخبار). الشفاعة أنـواع، منها ما هو متفق عليه بين الأمـة، ومنها ما خـالف فيه المعتزلة ونحـوهم من أهل البـدع. النـوع الأول: الشـفاعة الأولى، وهي العظمى الخاصة بنبينا صـلى الله عليه وسـلم من بين سـائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين. وفي الصـحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين أحاديث الشفاعة. منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فدُفع إليه منها الذراع وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة ثم قال: أنا سيد النـاس يـوم القيامـة، وهل تـدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخـرين في صـعيد واحد يسـمعهم الـداعي وينفـذهم البصـر، وتـدنو الشـمس فيبلغ النـاس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملـون، فيقـول بعض النـاس لبعض: ألا تـرون ما أنتم فيـه؟! ألا تـرون ما قد بلغكم؟! ألا تنظـرون من يشـفع لكم إلى ربكم؟! فيقول بعض النـاس لبعض: أبـوكم آدم فيـأتون آدم فيقولـون: يا آدم! أنت أبو البشر خلقك الله بيـده، ونفخ فيك من روحــه، وأمر الملائكة فسـجدوا لـك، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بلغنـا؟! فيقـول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضـباً لم يغضب قبله مثلـه، ولن يغضب بعـده مثلـه، وإنه نهـاني عن الشـجرة فعصـيت، نفسي نفسي نفسـي! اذهبـوا إلى غـيري، اذهبـوا إلى نـوح. فيـأتون نوحـاً فيقولـون: يا نـوح! أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيـه؟! ألا ترى ما قد بلغنـا؟! فيقـول نـوح: إن ربي قد غضب اليـوم غضـباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة دعوتُ بها على قومي، نفسي نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبـراهيم. فيـأتون إبـراهيم فيقولـون: يا إبـراهيم! أنت نـبي الله وخليله من أهل الأرض، ألا تـرى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بلغنا؟! فيقول: إن ربي قد غضب اليـوم غضـباً لم يغضب

قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله -وذَكَرَ كذباته- نفسي نفسي نفسـي، اذهبـوا إلى غـيري، اذهبـوا إلى موسـى. فيـأتون موسى فيقولـون: يا موسـى! أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربـك، ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا تـرى ما قد بلغنـا؟! فيقـول لهم موسـى: إن ربي قد غضب اليوم غضـباً لم يغضب قبله مثلـه، ولن يغضب بعـده مثلـه، وإني قتلت نفسـاً لم أومر بقتلهـا، نفسي نفسـي، اذهبـوا إلى غـيري، اذهبـوا إلى عيسـى. فيـأتون عيسى فيقولـون: يا عيسـى! أنت رسـول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه -قال: هكذا هو- وكلمتَ الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بلغنا؟! فيقول لهم عيسـى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعـده مثله -ولم يـذكر ذنبـاً- اذهبـوا إلى غـيري، اذهبـوا إلى محمد صـلى الله عليه وسـلم. فيـأتوني فيقولون: يا محمد! أنت رسول الله وخاتم الأنبيـاء، غفر الله لك ما تقـدم من ذنبك وما تـأخر، فاشـفع لنا إلى ربـك، ألا تـرى ما نحن فيـه؟! ألا تـرى ما قد بلغنا؟! فأقوم فآتي تحت العـرش فـأقع سـاجداً لـربي عز وجـل، ثم يفتح الله علي ويلهمــني من محامــده وحسن الثنــاء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد! ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تُشَـفَّع، فـأقول: يا رب أمـتي أمتي! يا رب! أمتي أمـتي! يا رب أمـتي أمـتي! فيقـال: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سـواه من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده لما بين مصراعين من مصـاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى). أخرجاه في الصحيحين بمعنـاه، واللفظ للإمام أحمد]. هذا أيضاً من كرامات النبي صلى الله عليه وسـلم وهو الإيمان بالشفاعة التي هي شـفاعته لأهل الموقف في إراحتهم من الموقـف، فيؤمن بذلك أهل السنة. وقد أنكرت ذلك الخـوارج، وكـذلك أنكرته المعتزلـة، وقد غلا بعض المشـركين وأثبت الشـفاعة بـدون إذن الله سـبحانه وتعـالى، وقول أهل السنة هو الوسط، وهو أنه يشفع وكذلك غيره، ولكن لا يشـفع أحد عند الله إلا بإذنـه، فالشـفاعة عند الله تعـالى في الآخـرة بإذنـه. وقد ورد في هذا الحديث أنه يقول: (اشفع تشفع)، فلا يبدأ بالشـفاعة أولاً حـتى يـأذن الله تعالى له بأن يشفع، وكذلك غـيره من الأنبيـاء لا يشـفعون، وكـذلك الملائكة لا يشفعون إلا بعد إذن الله سبحانه وتعالى.

إيراد الشارح للرواية التي فيها الشفاعة العظمى

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [والعجب كل العجب من إيـراد الأئمة لهـذا الحـديث من أكـثر طرقه لا يـذكرون أمر الشـفاعة الأولى في أن يـأتي الـرب تعالى لفصل القضاء، كما ورد هذا في حديث الصـور؛ فإنه المقصـود في هـذا

المقام ومقتضى سياق أول الحديث، فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم، فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس، ويستريحوا من مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلى المحز إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة وإخراجهم من النار. وكأن مقصود السلف -في الاقتصار على هذا المقدار من الحديث هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالِفة للأحاديث، وقد جاء التصريح بذلك في حديث الصور، ولولا خوف الإطالة لسقته بطوله؛ لكن من مضمونه: (أنهم يأتون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم يأتون رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم، فيذهب فيسجد تحت العرش في مكان يقال له: الفحص، فيقول الله: ما شأنك -وهو أعلم-؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأقول: يا رب! وعدتني الشفاعة فشفعني في خلقك، فاقض بينهم، فيقول سبحانه وتعالى: شفَّعتك، أنا آتيكم فأقضي بينكم، قال: فأرجع فأقف مع الناس -ثم ذكر انشقاق السماوات وتنزُّل الملائكة بالغمام- ثم يجيء الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء، والكروبيون والملائكة المقربون يسبحونه بأنواع التسبيح. قال: فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه، ثم يقول: إني أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع أقوالكم وأرى أعمالكم، فأنصتوا لي، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تُقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.. إلى أن قال: فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة؟ فيقولون: مَن أحق بذلك من أبيكم؟ إنه خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلمه قُبُلاً، فيأتون آدم فيُطلب ذلك إليه، وذكر نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمداً صلى الله عليه وسلم، إلى أن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فآتي الجنة فآخذ بحلقة الباب، ثم أستفتح فيُفتح لي فأحَيَّا ويُرَحَّب بي، فإذا دخلتُ الجنة فنظرت إلى ربي عز وجل خررتُ له ساجداً، فيأذن لي من حمده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه، ثم يقول الله لي: ارفع يا محمد، واشفع تشفع، وسل تعطه، فإذا رفعتُ رأسي قال الله وهو أعلم: ما شأنك؟ فأقول: يا رب! وعدتني الشفاعة فشفعني في أهل الجنة يدخلون الجنة، فيقول الله عز وجل: قد شفَّعتك وأذنت لهم في دخول الجنة) الحديث رواه الأئمة ابن جرير في تفسيره، و الطبراني ، و أبو يعلى الموصلي ، و البيهقي وغيرهم].

ذكر العلماء أن أكبر أنـواع الشـفاعات الـتي اختُص بها النـبي صـلى الله عليه وسلم هي الشفاعة في يـوم القيامة لأجل إراحة النـاس من طـول الموقـف، ولأجل فصل القضـاء بينهم، وذلك لأن الموقف يـوم القيامة قد ذُكر من طوله ومن هوله وما يكون فيه من الغم والكرب ومن العـذاب والألم ما الله تعـالى به عليم. فأما طوله فقد ذكر الله أنه كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ [الحج:47]، وفي آية أخرى أنه مِقْـدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْـفَ سَـنَةٍ [المعـارج:4]، ولعل ذلك لاختلاف تقديره عند النـاس، أو في ظن الكثـير من النـاس، ولكنه لا يحس بطوله أهل التوحيد والعقيـــدة وأهل الأعمـــال الصـــالحة، وذلك لأنهم ينعمـــون في ذلك الموقف. كذلك من الهول الذي ينالهم في الموقف شـدة الحـر، كما روي أنها تدنو الشمس من رءوس الخلائق حتى يكون بينها وبينهم قدر ميل، ويُـزاد في حرها، وأنهم يلجمهم العرق من شدة الحر، ومنهم من يبلغ العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ إلى حقويه، ومنهم من يبلغ إلى ثدييه، ومنم من يلجمه العـرق إلجاماً. كذلك أيضاً شدة الهول الذي يشاهدونه، فمن طـول هـذا الموقف وما هم فيه من الكـرب يقـول بعضـهم لبعض: ألا تطلبـون من يشـفع لكم حـتى يريحكم الله من هذا الموقف، وحتى تتخلصـوا منه إما إلى جنة وإما إلى نـار؟ فعند ذلك يطلبون من يشفع لهم، فذُكر في الحديث أنهم يأتون أولاً إلى أبيهم آدم وهو أبو البشر، فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسـجد لك ملائكته، وأسـكنك جنته -أي: خصك بهـذه الخصـائص- ألا تـرى إلى ما نحن فيـــه؟! ألا تـــرى إلى ما قد أصـــابنا؟! اشـــفع لنا إلى ربك ليريحنا من طـــول الموقـــف. فيعتـــذر آدم فيقـــول: وهل أخـــرجكم من الجنة إلَّا ذنب أو خطيئة أبيكم؟! يعترف بأنه أخطأ وأنه هو الذي بسببه خرجتم من الجنة وقد كنتم من أهلهـــا، فإنه لما أســـكن فيها وأخطأ تلك الخطيئة الـــتي هي أكله من تلك الشجرة، أُخرج منها إلى دار الشقاء وهي الدنيا. وفي هذا تحذير من الأعمـال السيئة التي تحرم من دخول الجنة، قـال بعض السـلف: أُخـرج آدم من الجنة بذنب واحد، وأنتم تعملـون الـذنوب وتكـثرون منهـا، وترجـون أن تـدخلوا معه الجنة! ويقول بعضهم: يا ناظراً يرنو بعينَي راقد ومشـاهداً للأمر غـير مشـاهد تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي دَرَج الجنان بها وفوز العابد أنسـيت أن الله أخرج آدَماً منها إلى الدنيا بذنب واحد والحاصل أن أباهم آدم يعـترف بخطيئته ويعتذر عن الشفاعة، ويقول: كيف أشفع وأنا مذنب؟ ثم يحيلهم إلى نـبي الله نـوح عليه السـلام، فيـأتون إليه ويقولـون: يا نـوح! أنت أول الرسل بُعث إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك. ونوح عليه الســلام له ميزة وفضيلة، ولكن لم يقبل أن يشفع لهم تواضـعاً، وتعلل واعتـذر بأنه قد دعا على قومه بقوله: رَبِّ لا تَـذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَـافِرِينَ دَيَّارَاً [نـوح:26]، فاعتـذر بـذلك، وإن كـان ما دعا إلَّا على الكفـار الـذين يسـتحقون الغـرق، فاستجاب الله دعوته فأغرق أهل الأرض إلَّا أهل السفينة. وبعد نوح يأتون إلى إبراهيم فيعتذر، ويأتون بعد إبراهيم إلى موسى، فيعتـذر أيضـاً، ثم إلى عيسى فيعتذر. ثم يـأتون إلى النـبي محمد صـلى الله عليه وعليهم وسـلم، فعند ذلك يقول: (أنا لها)، فإذا الـتزم أن يشـفع سـجد لربـه، ثم إذا أذن له ربه تكلم بما يفتح الله عليه من المحامد ومن الثناء ما لا يحسـنه الآن، يعـني أن الله يلهمه

من تمجيد ربه وتحميده والثناء عليه ما الله به عليم، فبعد ذلك يرغب إلى ربه أن يفصل بين العباد، وأن يريحهم من ذلك الموقف.

ذكر ما يقع بعد فصل القضاء

بعد ذلك يستجيب الله دعوته فيفصل بينهم، ويقول -كما في هذا الحديث-: (إني أنصتُ لكم منذ خلقتُ السماوات والأرض إلى هذا اليوم، فأنصتوا لي لأحكم بينكم)، فعند ذلك تنصب الموازين، وتنشر الدواوين، ويأتي دور الحساب، ويحاسب الله كل أحد، وتتفرق الكتب وتتطاير الصحف بالأيمان وبالشمائل، فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله، فيُسعد الله أقواماً ويُشقي آخرين، يسعد أهل الدين وأهل التقوى وأهل الصلاح، ويشقى أهل الفساد وأهل الكفر والعناد. بعد ذلك يكون ما أخبر الله به من كونه يميز هؤلاء من هؤلاء، فتُفَرَّق عليهم أنوار، فيمشون في أنوارهم فينطفئ نور المنافق ونور الكافر، ثم يتأخر فيُضرب بينهم بسور له باب، وذلك تمهيد وفصل بين أهل التقوى وأهل الشقاوة -والعياذ بالله- حتى يميز الله بينهم. ثم بعدما يتميزون ويركبون الصراط ويسلكونه وهو جسر على متن جهنم يمرون عليه بقدر أعمالهم، كما ذُكر في بعض الأحاديث أنه أحر من الجمر وأحد من السيف وأدق من الشعرة، وأنهم يسيرون عليه بأعمالهم، فمنهم من يمر عليه كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأجاود الخيل والركاب، ومنهم من يعدو عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، وعلى جنبتي الصراط كلاليب مثل شوك السعدان تخطف من أُمرت بخطفه، فناجٍ مُسَلَّم، ومخدوش، ومكردس في النار تختطفه تلك الكلاليب التي ذكر أنها مثل شوك السعدان إلا أنه لا يُعلم قدرها إلَّا الله تعالى. فإذ نجوا من الصراط وسلكوه وكانوا قد وُعدوا بأنهم يردون النار في قوله تعالى: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا [مريم:71] قالوا: أين النار التي وعدنا الله بأنا سوف نردها؟ فيقال: إنكم مررتم عليها وهي خامدة. يعني: عندما مروا على الصراط وكان منصوباً على متن جهنم، وذلك لأنه إذا مر المؤمن لم يحس بلهبها، بل تقول: جُز يا مؤمن، فقد أطفأ نورُك لهبي. عند ذلك يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار، ويُقتص من بعضهم لبعض مظالم كانت بينهم، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم بدخول الجنة، ولا يدخلونها أيضاً إلا بعد أن يستأذن لهم أو يشفع لهم نبينا صلى الله عليه وسلم، وهذه من خصائصه ومن مميزاته.

ذكر الشارع أنواعاً أخرى من الشفاعة

قال رحمه الله: [النوع الثاني والثالث من الشفاعة شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أُمِر بهم إلى النار ألّا يدخلوها. النوع الرابع: شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم. وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات مع تواتر الأحاديث فيها. النوع الخامس: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسُن أن يُستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن حين دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، والحديث مُخَرَّج في الصحيحين. النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه. ثم قال القرطبي في (التذكرة) بعد ذكر هذا النوع: فإن قيل: فقد قال تعالى: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ [المدثر:48] قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يُخرَجون منها ويُدخَلون الجنة. النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة كما تقدم، وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أنا أول شفيع في الجنة)].

تفصيل ما خص به النبي صلى الله عليه وسلم من الشفاعات

......

الشفاعة العظمى

هذه من أنواع الشفاعات التي خُص بها النبي صلى الله عليه وسلم، وهي تبع النوع الأول، أعني شفاعته لأهل الموقف أن يريحهم الله من طول الموقف، وأن ينزل الله ليفصل القضاء بينهم حتى يدخل هؤلاء دارهم وهؤلاء دارهم، فأشهرها هو النوع الأول.

الشفاعة في قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم

النوع الثاني: شفاعته في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم في أن يدخلهم الله الجنة. أي: قوم لهم طاعات ولهم معاصٍ متساوية كأنه لم تترجح كفة هذه ولا كفة هـذه، ولكن كتب الله على نفسه أن (رحمـتي تغلب غضـبي)، فيتلافـاهم برحمته، ويقبل فيهم شفاعة نبيه، فيدخلهم الجنة، مع أن لهم سـيئات تسـاوي أو تقدر بقدر حسـناتهم. وقد ورد في بعض الأحـاديث أنه إذا حاسب الله العبد فإنه يُقتص من سيئاته لحسناته، فـإذا بقي له حسـنة واحـدة؛ ضـاعفها وأدخله بها الجنـة، كما في قوله تعـالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَـكُ حَسَـنَةً يُضَاعِفْهَا [النساء:40] يعني: يجعلها أضعافاً مضاعفةً حتى يستحق بها الثواب.

الشفاعة فيمن استحق العذاب

أما النوع الثالث من أنواع الشـفاعة فهو شـفاعته صـلى الله عليه وسـلم في قـوم اسـتحقوا النـار أو أُمِر بهم إلى النـار فيـدخلون الجنة بعـدما أُمِر بهم، وكأنهم من أهل التوحيد، ولكن معهم سـيئات ومعهم ذنـوب من الكبـائر الـتي تُوُعِّد عليها بالعذاب أو التي تُوُعِّد عليها بنفي الإيمـان، أو بعـدم دخـول الجنـة، ولكن فضل الله تعالى ورحمته تعم عباده الذين يشـملهم اسم الإيمـان واسم التوحيد واسم الاستجابة، فيشفع لهم لكونهم من أمته، فيدخلون الجنـة، فهـذا نوع ثالث من أنواع الشفاعة.

الشفاعة في دخول أهل الجنة الجنة

أما النوع الرابع فهو الشفاعة لأهل الجنة في أن يـدخلوها، عنـدما يقفـون عند أبواب الجنة لا يدخلونها حتى يستفتح لهم النبي صلى الله عليه وسـلم، فـأول من يسـتفتح بـاب الجنة محمد صـلى الله عليه وسـلم، وأول من يـدخل الجنة من الأمم أمتـه، فيقـول خـازن الجنـة: (بك أُمـرت ألّا أفتح لأحد قبلـك)، فهو يسـتأذن ويشـفع إلى ربه في أن يفتح أبـواب الجنة فيـدخلها أهلها مع سـعة أبواب الجنة، فقد ذُكر أن للجنة ثمانية أبواب، ولكن ما سـعة البـاب؟ ورد في

الحديث: (ما بين مصراعي الباب مسيرة أربعين سنة، وليـأتين عليه يـوم وهو كظيظ من الزحـام) من كـثرة من يـدخل من تلك الأبـواب الثمانيـة، فالبـاب الواحد سـعته مسـيرة أربعين سـنة، ليس أربعين يومـاً ولا أربعين شـهراً، بل أربعين سنة، ما مقدار ذلك؟ الله أعلم بمنتهاه، ومع ذلك يأتي عليه يوم -والله أعلم بمقدار ذلك اليوم- وهو كظيظ من الزحام من كثرة من يدخل منـه، من هذه الأمة ومن غيرها.

الشفاعة في دخول قوم الجنة بغير حساب

أما النوع الخامس من الشفاعة فهو شفاعته صلى الله عليه وسـلم لقـوم أن يدخلوا الجنة بغير حسـاب، ومنهم عكاشة بن محصن ، لَمَّا أخـبر النـبي صـلى الله عليه وسلم بأن من أهل الجنة من يدخلونها بغير حساب ولا عـذاب، وهم سبعون ألفاً، لما قال الله له: (هذه أمتك ومعهم سـبعون ألفـاً يـدخلون الجنة بغير حساب، قام عكاشة بن محصن فقال: ادعُ الله أن يجعلـني منهم، فقـال: أنت منهم) يعـني: كأنه شـفع له أن يكـون من الـذين يـدخلون الجنة بغـير حساب، ومنهم أيضاً غيره.

الشفاعة في الجنة وهي التي أقر بها المعتزلة

أما النوع السادس من أنواع الشـفاعة فهو الشـفاعة لقـوم من أهل الجنة أن يُزاد في ثوابهم وقد دخلوا الجنـة، ولكن مـراتبهم نازلـة، فيشـفع لهم أن تُرفع مراتبهم وأن يُعطَوا أجراً وأن يُزاد لهم في الثواب وفي مضاعفة الجزاء. وهذا النوع من الشـفاعة اعـترفت به المعتزلة الـذين أنكـروا بقية الشـفاعة، وذلك لأنهم إنما أنكـروا شـفاعة من يُخـرج من النـار أو من يسـتحق النـار، أما أهل الجنة فأقروا بأنه يكون فيها شفاعة في رفع المنازل ونحوها.

الشفاعة في تخفيف العذاب عن بعض من استحقه

أما النوع السابع من الشفاعة، وهو آخر الشفاعات الخاصة به صلى الله عليه وسلم؛ فهو الشفاعة في قوم استحقوا النار ودخلوها بأن يُخفف عنهم من عذابها. ومن ذلك شفاعته لعمه أبي طالب أن يخفف الله عنه من العذاب، ذكر في الحديث أنه يستحق أن يكون في الدرك الأسفل من النار؛ لأنه عرف التوحيد ولكنه لم يقبله، وعرف صدق النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يتبعه، ولكن بسبب نصرته للنبي صلى الله عليه وسلم وحياطته له، وبسبب أنه مكَّنه من أن يدعو إلى الله وقال له: اجهر بما تريد فأنا أنصرك، فنصره وآواه حتى بلغ الرسالة، ولم يتجرأ المشركون على النيل من النبي صلى الله عليه وسلم في حياة أبي طالب ، فبسبب نصرته خُفِّف عنه العذاب، فأصبح في ضحضاح من نار. ولكن ليس ذلك بهيِّن، بل قد ذكر أن ذلك الضحاح يغلي منه دماغه، ويرى أنه لا أحد أشد منه عذاباً وهو أخفهم، وقد ورد: (أخف أهل النار من يكون له شراك من نار يغلي منه دماغه)، والشراك: السير الذي تربط به النعل، فهو سير من النار في رجله، ومن شدة حرارته يحمى جسده كله، حتى إن دماغه يكون له غليان من شدة حره، وما يرى أن أحداً أشد عذاباً منه وإنه لأخفهم.

سرد ما اختص به محمد صلى الله عليه وسلم من الشفاعات

فنأخذ من هذه الأنواع ميزةً وفضيلةً لنبينا صلى الله عليه وسلم؛ حيث خُصَّ بأنه الذي يشفع هذه الأنواع من الشفاعات: الأولى: الشفاعة العظمى التي هي لإراحة الناس من الموقف. والشفاعة الثانية: التي هي في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنة. والشفاعة الثالثة: التي هي في قوم استحقوا النار أو أُمِر بهم إلى النار ألَّا يدخلوها. والشفاعة الرابعة: التي هي في أهل الجنة أن يُفتح لهم وأن يدخلوها. والشفاعة الخامسة: التي هي في بعض أهل الجنة أن تُرفع مراتبهم، وأن يُزاد في ثوابهم. والشفاعة السادسة: التي هي في قوم أن يدخلوا الجنة بغير حساب. والسابعة: في بعض أهل النار أن يُخفف عنهم من عذابها. هذه أنواع من الشفاعة خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم. وبقيت شفاعةٌ أو نوعٌ من الشفاعة ليس خاصاً به بل يشفع به الملائكة وغيرهم، وهو أعم أنواع الشفاعة.

انحــرف كثــير من النــاس في بــاب الــدعاء، فصــاروا يــدخلون فيه ما ليس بمشروع، ومن ذلك التوسل بالمخلوقين والاستشفاع بالصالحين والقسم على الله بهم، وقد بين العلماء السنة في الـدعاء وحرمـوا التوسل الممنـوع، وردوا على شبهات المخالفين.

الكلام على الاستشفاع والتوسل

......

النهي عن الاستشفاع بالمخلوق في الدنيا

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وأما الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسـلم وغيره في الدنيا إلى الله تعالى في الـدعاء ففيه تفصـيل؛ فـإن الـداعي تـارةً يقـول: بحق نبيـك، أو بحق فلان، يقسم على الله بأحد من مخلوقاتـه، فهـذا محذور من وجهين: أحـدهما: أنه أقسم بغـير اللـه. والثـاني: اعتقـاده أن لأحد على الله حقـاً، ولا يجـوز الحلف بغـير اللـه، وليس لأحد على الله حق إلَّا ما أحقه على نفسه، كقوله تعالى: وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْـرُ الْمُـؤْمِنِينَ [الـروم:47]، وكذلك ما ثبت في الصـحيحين من قوله صـلى الله عليه وسـلم لــمعاذ رضي الله عنه وهو رديفـه: (يا معـاذ ! أتـدري ما حق الله على عبـاده؟ قـال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتـدري ما حق العبـاد على الله إذا فعلـوا ذلـك؟ قلت: الله ورسـوله أعلم، قـال: حقهم عليه ألَّا يعـذبهم). فهـذا حق وجب بكلماته التامة ووعـده الصـادق، لا أن العبد نفسه يستحق على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلوق؛ فـإن الله هو المنعم على العبـاد بكل خـير، وحقهم الـواجب بوعـده هو ألَّا يعـذبهم، وتـرك تعـذيبهم معـنى لا يصـلح أن يُقسم به ولا أن يُسـأل بسـببه ويُتَوسل بـه؛ لأن السبب هو ما نصبه الله سبباً. وكـذلك الحـديث الـذي في المسـند من حـديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صـلى الله عليه وسـلم في قـول الماشي إلى الصـلاة: (أسـألك بحق ممشـاي هـذا وبحق السـائلين عليـك)، فهـذا حق السائلين هو أوجبه على نفسه، فهو الذي أحق للسائلين أن يجيبهم وللعابـدين أن يـثيبهم، ولقد أحسن القائـل: ما للعبـاد عليه حق واجب كلا ولا سـعي لديه ضائع إن عُذبوا فبعدله أو نعِّموا فبفضـله وهو الكـريم الواسع فـإن قيـل: فـأي فـرق بين قـول الـداعي: بحق السـائلين عليك وبين قولـه: بحق نبيك أو نحو ذلك؟ فالجواب أن معنى قوله: (بحق السـائلين عليـك) أنك وعـدت السـائلين بالإجابة وأنا من جملة السـائلين، فـأجب دعـائي، بخلاف قولـه: (بحق فلان)؛ فإن فلاناً وإن كان له حق على الله بوعده الصادق فلا مناسـبة بين ذلك وبين

إجابة دعاء هذا السائل، فكأنه يقـول: لكـون فلان من عبـادك الصـالحين أجب دعـائي وأي مناسـبة في هـذا؟! وأي ملازمـة؟! وإنما هـذا من الاعتـداء في الـدعاء! وقد قـال تعـالى: ادْعُـوا رَبَّكُمْ تَضَـرُّعَاً وَخُفْيَـةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَـدِينَ [الأعراف:55]. وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعـة، ولم ينقل عن النـبي صـلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ولا عن التـابعين ولا عن أحد من الأئمة رضي الله عنهم، وإنما يوجد مثل هــذا في الحــروز والهياكل الــتي يكتبها الجهــال والطرقية، والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السنة والاتبـاع، لا على الهوى والابتداع].

لا يحق لأحد أن يحلف على الله ولا بغير الله

هاهنا رد على الــذين يســألون الله تعــالى بحق المخلــوقين، ويقولــون: إن المخلوق إذا كان مقرباً عند الله فله منزلة، وله حق على الله، وله رفعة، فهو إذا سألناه بحق نبيه أو بحق الولي فلان يجيب دعاءنا، فيقول أحـدهم: أسـألك بحق نبيك أسألك بحق الولي فلان أسألك بحق عبدك فلان عليك. وهذا اعتداء في الدعاء، فالله تعالى يقول: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعَاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ [الأعراف:55]، والمعتدون في الدعاء هم الذين يدعون بإثم أو يدعون بـذنب أو يدعون بشيء لم يُشرع لهم، ولا شك أن هذا لم يُنقـل، فما نقل عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم ولا عن صـحابته أنهم سـألوا بحق مخلـوق، أو توسـلوا بحق مخلــوق، لا بحق فلان ولا بجـاه فلان ولا بغـير ذلــك، فالمحــذور فيه أنه حلف بحق مخلـوق، والحلف بغـير الله شـرك، ثبت أن النـبي صـلى الله عليه وسلم قال: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)، فـإذا قـال: بحق فلان أو بالنبي أو بالولي أو بجـاه فلان، أو بشـرفي أو بحيـاتي أو بحياتك يا فلان، أو ما أشبه ذلك على وجه التأكيد؛ اعتُبر قد حلف بمخلوق، فيكون هذا تعظيماً لذلك المحلوف به، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)، وقال: (لا تحلفـوا بآبـائكم ولا بالأصـنام، ولا تحلفـوا بالله إلا وأنتم صادقون). فأمرنا أن نتجنب الحلف بالآباء كما كان المشركون يحلفون بآبائهم أو بأمهـاتهم أو بأصـنامهم في قـولهم: واللات والعُـزَّى، ونحو ذلـك. وثبت أنه قال: (من حلف باللات والعزى فليقل: لا إله إلا اللـه)، كأنه أشـرك فـأمر بـأن يجدد التوحيد؛ ليبطل الاعتقاد بأن اللات والعزى معظمتـان أو أنهما تسـتحقان التعظيم. فكذلك إذا حلف بالولي فلان، أو بــعلي ، أو بــحسن ، أو بــحسين ، أو بـعيدروس ، أو بـابن علوان ، أو بكذا وكـذا؛ فـإن هـؤلاء مخلوقـون لا يجـوز الحلف بهم. كذلك أيضاً سؤال الله تعالى بحق المخلوقين أو بجاه المخلوقين، هـذا أيضـاً شـرك، وذلك لأنه ليس لأحد حق على الله تعـالى إلا ما أحقه على نفسه.

حديث السؤال بجاه النبي مكذوب

ويتكــرر في كتب هــؤلاء القبــوريين وعلى ألْسُــن دعــاتهم حــديث مكــذوب، يقولــون: إن النــبي صــلى الله عليه وســلم قــال: (إذا ســألتم الله فاســألوه بجاهي؛ فإن جاهي عند الله عظيم). وهذا مكـذوب لا أصل لـه، ما قاله النـبي صلى الله عليه وسلم، وحاشاه أن يـأمرهم بـأن يسـألوا الله بجاهه وهو الـذي يحب التواضع والـذي يعـرف أن ربه هو الـذي يسـتحق التعظيم، ولما قـال له رجل: ما شاء الله وشئتَ. قال: (أجعلتني لله نـداً؟! قل ما شـاء الله وحـده)، فكيف يقول: اسـألوا الله بجـاهي؛ فـإن جـاهي عند الله عظيم؟! فـإذاً: الـذين يقولون: أسألك بجاه نبيك، أو بحق نبيك، أو بحق الـولي فلان، أو بجـاه الـولي فلان؛ هؤلاء قد أشركوا، لماذا؟ لأنهم عظَّموا هذا المخلوق وحلفوا به، وجعلـوا له حقاً على الله، ومعلوم أن الله تعـالى هو الـذي يتفضل على العبـاد، وليس أحد يملك من الله شــيئاً، وليس على الله حق لأي مخلــوق، بل هو الــذي له الحق عليهم.

حق العباد على الله تفضل منه وتكرم لا واجب

أما حديث معاذ الذي ذكر فالحق فيه حق تفضل وحق تكـرم، وهو قوله صـلى الله عليه وسلم: (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شـيئاً)، فحـقٌّ علينا وعلى العباد كلهم لله تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شـيئاً. وحق العبـاد على الله ألَّا يعذب من لا يشرك به شـيئاً، فهـذا ليس حق وجـوب، بل هو حق تفضل وحق تكرم، وذلك لأنه الذي وفقهم وأنعم عليهم، ثم هو وعدهم -وهو لا يخلف الميعـاد- أن من وحــده فإنه يثيبه وينعِّمــه، وأنه لا يعذبه إذا مـات على التوحيد الصحيح الصادق، فهذا حق تكرم. وإذا كـان كـذلك فليس خاصـاً بنـبي ولا بولي ولا بغيره، ويقال: إذا كان للنبي صلى الله عليه وســلم حق على الله فأنت كذلك لك حق، فائت بسببه، أنت لك حق تكـرم على الله فـائت بسـببه، وهو أن توحد الله ولا تشــرك به شــيئاً، ولا تلتفت بقلبك إلى أي مخلــوق، ولا تتعلق بسـيد ولا ولي ولا شـفيع ولا غـيرهم، وتعلق بربك حـتى يرحمك وحـتى ينعِّمك ولا يعـذِّبك، فبــذلك تكــون من الــذين اسـتحقوا على الله حق تكــرم. والـبيت الـذي ذكر يؤيد أن هــذا حق تكـرم، وهو قــولهم: ما للعبـاد عليه حق

واجب كلا ولا سعي لديه ضائع إن عُذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله وهو الكــريم الواسع فيقول هذا الشاعر: إن العباد ليس لهم عليه حق -يعني: حق وجــوب- وإن سعيهم وأعمالهم الصالحة لا تضيع، بل هي محفوظة يحصيها ثم يـوفيهم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد اللـه، ومن وجد غـير ذلك فلا يلـومن إلا نفسـه، فهـذا حق تكـرم. ولا يعـذبهم ظلمـاً، إنما يعـذبهم عـدلاً لكـونهم يسـتحقون العذاب. يعني: هو الذي تفضل عليهم وهداهم، فهدايته لهم نعمـة، ولو أن الله تعالى عـذَّب أهل سـماواته وأهل أرضه لعـذبهم وهم يسـتحقون العـذاب، ولا يكون ظالماً لهم، ولو أنه أنعم عليهم لكانت نعمته عليهم أفضل من أعمالهم.

الرد على المستدلين بحديث: (أسألك بحق السائلين)

فإذاً: يبقى علينا هذا الحديث الذي يكثر أن يستدل به القبوريون، وهو الحديث الذي رُوي عن أبي سعد عن أبي سعد أن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال: (لو أن أحـدكم إذا خرج من بيته يقول: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشــاي هذا؛ فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعةً، خرجت اتقـاء سـخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي جميعاً؛ إنه لا يغفر الـذنوب إلا أنت ..) يقوله في طريقه إلى المسـجد. والجـواب أن هـذا الحديث فيه ضعف، حيث إن في طريقه أو في إسناده عطية بن سعد العوفي ، وهو ضعيف، ثم على تقدير صحته لا دلالة فيه، فليس معنى (حق السـائلين) جاههم، فجاه الناس كلهم سواء، ولو كان كـذلك لقـال: أسـألك بحق النبـيين، أو: بحق الأولياء، أو: بحق، فلان أو فلان من الأولياء، كـعبد القادر أو البدوي أو نحوهما، ولكن قال: بحق السائلين، وما هو حق السائلين؟ هو ما وعد الله من سأله بالثواب، فحق السائلين على الله أن يجيبهم، وحق العـاملين أن يـثيبهم، فهذا هو حقهم الذي يسـألون الله بـه، فكأنك تقـول: يا رب أسـألك بما جعلته حقاً على نفسك لمن سألك أن تجيب فأنا من جملة السائلين فـأجب سـؤالي وأثبـــني على أعمـــالي، فلما كـــان هـــذا حق الســـائلين كلهم كنت أنت من السـائلين. يقـول: يا رب أنا من جملة السـائلين، وقد جعلت للسـائلين عليك حقاً بقولك: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ [غـافر:60] ، وبقولـك: وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّي فَإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ [البقـرة:186]، فـإذاً: أنا من السـائلين، فأسـألك بما جعلته حقـاً على نفسك وبما وعـدت السـائلين أن تجيبهم. فهل في ذلك توسُّلٌ بالجاه؟! وهل في هذا توسل بحق مخلوق؟ ليس فيه توسلٌ في حق مخلـوق. إذاً: فكيف يتعلق بهـذا القبوريـون الـذين يـدعون فلاناً وفلاناً ويقولون: إن هؤلاء من جملة الذين أمرنا بـأن نتوسل بحقهم، وأن نسأل الله بحقهم. فلا يُغتر بمن يستدل بهذا الحـديث على أنه دليل في جـواز السؤال بحق الأموات أو بحق الأوليـاء أو غـير ذلـك، فليس فيه أي دليـل، وقد

أورد العلماء هـذا الحـديث في الـرد على من اسـتدل به من القبـوريين، وفي الرد على المشركين الذين جعلـوه طعنـاً على الشـيخ محمد بن عبد الوهـاب الذي يمنع من السؤال بحق المخلوق، وبجـاه مخلـوق أيـاً كـان. فكل من دعا معه أحدا أشرك بالله ولو محمدا فيقولون: هـذا دليل على أنه يجـوز السـؤال بحق المخلوق. فـأين السـؤال فيه بحق المخلـوق؟ إنما فيه السـؤال بما جعل اللـه، كأنه يقـول: أنت وعـدت السـائلين أن تجيبهم فأنا من جملة السـائلين فأجب سؤالي فلا دلالة فيه على شيء مما يتعلقون به.

لا يجوز الإقسام بالمخلوق ولا التوسل به

قال رحمه الله تعالى: [.. وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان فـذلك محـذور أيضـاً؛ لأن الإقسـام بـالمخلوق على المخلـوق لا يجـوز، فكيف على الخالق؟! وقد قال صلى الله عليه وسـلم: (من حلف بغـير الله فقد أشـرك). ولهذا قال أبو حنيفة وصاحباه رضي الله عنهم: يُكره أن يقول الداعي: أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام ونحو ذلـك. حـتى كـره أبو حنيفة و محمد رضي الله عنهما أن يقـول الرجـل: اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك، ولم يكرهه أبو يوسف رحمه الله لَمَّا بلغه الأثر فيـه. وتـارة يقـول: بجـاه فلان عنـدك، أو يقـول: أتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك، ومراده: لأن فلانـاً عنـدك ذو وجاهة وشـرف ومنزلة فـأجب دعاءنا، وهذا أيضاً محـذور؛ فإنه لو كـان هـذا هو التوسل الـذي كـان الصحابة يفعلونه في حياة النبي صـلى الله عليه وسـلم لفعلـوه بعد موتـه، وإنما كـانوا يتوسـلون في حياته بدعائـه، يطلبـون منه أن يـدعو لهم وهم يؤمِّنـون على دعائه، كما في الاستسقاء وغيره، فلما مات صلى الله عليه وسـلم قـال عمر رضي الله عنه لما خرجـوا يستسـقون: (اللهم إنا كنا إذا أجـدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسـقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينـا)، معنـاه: بدعائه هو ربه وشـفاعته وسؤاله، ليس المراد أنا نقسم عليك بـه، أو نسـألك بجاهه عنـدك؛ إذ لو كـان ذلك مـراداً لكـان جـاه النـبي صـلى الله عليه وسـلم أعظم وأعظم من جـاه العباس . وتارةً يقول: باتباعي لرسولك ومحبتي له وإيماني به وبسائر أنبيائك ورسـلك وتصـديقي لهم ونحو ذلـك. فهـذا من أحسن ما يكـون من الـدعاء والتوسل والاستشـفاع. فلفظ التوسل بالشـخص والتوجه به فيه إجمـال غلط بسببه من لم يفهم معناه، فإن أريد به التسبب به لكونه داعيـاً وشـافعاً وهـذا في حياته يكون، أو لكون الداعي محباً له مطيعاً لأمـره مقتـدياً به وذلك أهل للمحبة والطاعة والاقتداء، فيكون التوسل إما بدعاء الوسـيلة وشـفاعته، وإما بمحبة السائل واتباعه، أو يراد به الإقسام به والتوسل بذاتـه، فهـذا الثـاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه ..]. قد ذكر العلمـاء الـدليل على أنه لا يجـوز الإقسـام

بمخلوق على الله تعالى، كما في كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب : (باب ما جاء في الإقسام على الله). الإقسام على الله معناه: إلزام الله تعالى بشيء، كأن يقول: أقسمت عليك يا رب أن تفعل كذا. ولا شك أن هذا جرأة كبيرة على الله، فكيف تلزم ربك بشيء، وكيف تقسم عليه بأن يفعل شيئاً وهو الذي يتصرف في العباد؟! وما ورد في ذلك إنما هو على وجه المثل، فالحديث الذي يقول فيه صلى الله عليه وسلم: (رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره)، هذا بيان أن هناك من هو متواضع لله تعالى لو قدر أنه طلب ربه وألح في طلبه لأجاب دعوته، ولكن ليس فيه أنكم تقسمون على الله، فتقول: أقسمت عليك أن تنزل المطر، أقسمت عليك أن تشفي المريض، أقسمت عليك أن تنبت النبات، هذا لا يجوز لما فيه من التصرف في الله ومن إلزام الرب سبحانه بما لا يملكه العبد، فالعبد لا يملك إلا الدعاء، فيسأل ربه ما يحبه، فيقول: يا رب! نحن الفقراء وأنت الغني فأنزل علينا غيثك، يا رب! نحن المذنبون وأنت العفو فاعفُ عنا، وما أشبه ذلك. فهذا المراد بالنهي عن الإقسام على الله. ومن أراد التوسع في الأدلة فليقرأ في الباب الذي في آخر كتاب التوحيد، وكذلك في شرحه: (فتح المجيد) و(تيسير العزيز الحميد) باب ما جاء في الإقسام على الله تعالى.

أشياء يجوز التوسل بها

أما سؤال الله تعالى بحق مخلوق فإن هذا أيضاً قد ذكرنا أنه لا يجوز، وأن المخلوق ليس له أن يتحكم على الله، ولكن قد يكون السائل أراد بذلك محبة ذلك العبد، فيكون سأل الله تعالى وتوسل إليه بعمل صالح، والتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة من الأسباب لإجابة الدعاء ولقبوله. وقد ذكروا لذلك أمثلة، فمثلاً: إذا قلت: يا رب! أسألك بأني عبدك الذليل، أسألك بأني مصدق بوعدك ووعيدك، أسألك بما عملته لك من الصالحات، فهذه توسلات مباحة يُرجى بذلك قبول الدعاء بها، وكذلك إذا توسلت بمحبة أولياء الله، فإن ذلك فيه أيضاً وسيلة لإجابة الدعاء، كأن تقول: أسألك بأني أحبك وأحب نبيك وأحب عبادك الصالحين، أسألك بمحبتي لك ومحبتي لهم أن تجيب دعوتي، أو تقيل عثرتي، أو ما أشبه ذلك، أو تقول: أسألك بإيماني بك وتصديقي لنبيك واتباعي لشريعته، وإيماني بما جاء به وتصديقي بكتابك وعملي به، ونحو ذلك، تتوسل إلى الله تعالى بأعمال صالحة قد عملتها وأنت صادق فيها، فإن هذا فيه وسيلة إلى الله بأعمال خيرية، والله تعالى يجيب من هو أهل للإجابة إذا كان صادقاً فيما قاله بقلبه أو فيما قاله بلسانه. فالسؤال بحق فلان المخلوق لا يجوز كما تقدم. وأما السؤال بحبه، أو باتباعه، أو بالسير على نهجه، أو بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم، أو بعمل من الأعمال الصالحة، فذلك

أيضاً من الوسائل التي تكون مـؤثرة في إجابة دعـاء الـداعي، فـإذا توسل بها العبد رُجي إجابة دعوتـــه، ولكن عليه مع ذلك أن يجتهد في الأدعية النبويـــة، وفي الأعمال الصالحة. والأدعية النبوية فيها كثـير من ذكر الأعمـال الصـالحة، فمثلاً: إذا قلت: (اللهم أنت ربي لا إله إلَّا أنت خلقتـــني وأنا عبـــدك، وأنا على عهـدك ووعـدك ما اسـتطعت)، فتوسـلت بأنك ملـتزم بعهد الله وبوعـده ما استطعت؛ فـذلك من الأسـباب، كـذلك إذا قلت: أسـألك حبك وحب من يحبك والعمل الذي يقربنا إلى حبـك، كأنك تقـول: أسـألك أن ترزقـني عملاً صـالحاً أكون به محبوباً لك ومحباً لك. وما أشبه ذلـك. فهـذه أدعية نبوية وأدعية فيها توسل بأعمال صالحة ودعاء بالأعمال الصالحة أو بـالتوفيق لهـا. ولم يـرد عن السـلف رحمهم الله أنهم قـالوا: أسـألك بحق فلان. أو: بحق عبد القـادر . أو: بحق السيد البدوي . أو: بحق ابن عباس . أو ما أشبه ذلك.

الكلام على توسل عمر بالعباس

ويبقى ما ذكر من توسل عمر رضي الله عنه بـالعباس ، وكثيراً ما يســتدل به القبوريون فيقولون: كيف تعيبون علينا أن نتوسل بالصالحين وهذا عمر توسل بـــالعباس ؟! نقــول: تــأملوا قصة عمر حــتى تعرفــوا ما فعله وما تفعلونــه، والفـرق الكبـير بين فعلكم وفعلـه! فقد كـان العبـاس بن عبد المطلب كبـيرَ السن تقيـاً زاهـداً، قـريبَ الصـلة بـالنبي صـلى الله عليه وسـلم. فلأجل هـذه الأسباب قدموه ليدعو، فقال عمـر: (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فتسـقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاســقنا). يعـــني: نتوسل بدعائـــه، وهو حي بين أيديهم، فقدموه ليؤمنوا على دعائه ليسأل الله تعالى، فكـأنهم يقولـون: اللهم تقبل دعاءه فإنه من عبادك الصـالحين. ويجـوز في كل وقت إذا خرجنا نطلب المطر أن نختار أتقانا ونقدمه يدعو ونؤمِّن على دعائه، فإنه أولى وأقرب إلى إجابة دعائنا، ونقـول: يا ربنـا! هـذا عبـدك الصـالح قـدمناه، ونحن نـؤمِّن على دعائه، نسـألك أن تجيب دعوته لنـا، نسـألك أن ترحمنا بدعائه وبـدعائنا. فهـذا ليس فيه محـذور، وأي توسل بغـير الله فيـه؟! وهـؤلاء القبوريـون يتوسـلون بالأموات، ولو كان جـائزاً لما عـدل عمر رضي الله عنه عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم، ولا عن أبي بكر ، وكيف يعـدل عنهما وهما أفضل من العبـاس ؟ فلما عـــدل عنهما إلى العبـــاس دل على أنه اســـتقر في علمه أنه لا يجـــوز التوسل بالأموات، ولا بالغائبين حتى ولو كانوا أنبيـاء، وحـتى ولو كـانوا أوليـاء، وحتى ولو كانوا شهداء أو صالحين. ومعلوم أن حمــزة بن عبد المطلب أفضل من العباس وأقدم منه إسلاماً، وقتل شهيداً في سبيل الله وهو مقبور عندهم بالمدينة، فلماذا لم يذهبوا إلى قبره؟! ولماذا لم يتوسلوا به ويقولـون: نتوسل إليك بـحمزة بن عبد المطلب ؟! ولماذا لم يأتوا إلى قبر النبي صلى الله عليه

وسلم ويقولون: يا محمد استسقِ لنا؟! فإذاً لا دلالة في أنه يجـوز الاستسـقاء بـالولي الميت أو الـولي الغـائب، بخلاف الحي السـوي الفاضل الـذي يـدعو ويؤمِّنون على دعائه ويسـألون ربهم أن يجيب دعـاءهم معـه، فهـذا لا محـذور فيه، وهذا هو الذي فعله العباس.

الرد على شبهة القبوريين في حديث التوسل بالعباس

وقد رأينا وقرأنا لكثير من القبوريين الذين يؤيدون دعـاء المخلـوق أو التوسل بـالمخلوق الميت، كـالنبهاني -مثلاً- في كتابه الـذي يسـمى (شـواهد الحـق)، وكذلك ابن علوي المالكي الموجود الآن، وغـيره من الـذين يغـالون في دعـاء الأموات أو يزينونه. يقولون: إن عمر عـدل عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم مخافة أنهم إذا لم يُجابوا بدعائه وبتوسله يسوء ظنهم فيه، ويكذبونه ويـدَّعون أنه لا يُسـتجاب دعـاؤه، ويـدَّعون أنه لا ينفع التوسل بـه، وما أشـبه ذلك من التلفيقـات. هكـذا يعلل النبهـاني ونحـوه. نقـول: إذا كـان كـذلك في عهد عمر فلماذا لا يكون هذا في عهدكم؟! لماذا تعدلون عن الأحيـاء إلى الأمـوات؟! ألا تخـافون أنكم إذا عـدلتم عنـه، وإذا طلبتم النـبي ولم يجبكم ولم يُسـتَجب دعاؤكم أن الناس -وكذلك العامة- يسيئون الظن بالنبي صلى الله عليه وسلم ويقولـون: إنه لا يُسـتجاب دعـاؤه؟! إذا كـان هـذا محـذوراً في عهد عمر فهو محذور في عهدكم. وعلى كل حال فلا يُغتر بما يلفقونه مما يستدلون به على أنه يجـوز دعـاء الأمـوات أو التوسل بهم أو الاستشـفاع بهم، ويسـتدلون بمثل هذه، ولا دلالة فيها.

التوسل بالأعمال الصالحة توسل مشروع

قال رحمه الله تعالى: [وكذلك السؤال بالشيء قد يـراد به التسـبب به لكونه سبباً في حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام به. ومن الأول: حديث الثلاثة الـذين آوَوا إلى الغـار، وهو حـديث مشـهور في الصـحيحين وغيرهمـا، فـإن الصخرة انطبقت عليهم فتوسلوا إلى الله بـذكر أعمـالهم الصـالحة الخالصـة، وكل واحد منهم يقول: فـإن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغـاء وجهك فـأفرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون. فهـؤلاء دعـوا الله بصـالح الأعمـال؛ لأن الأعمـال الصـالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله ويتوجه به إليه

ويسأله به؛ لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيــدهم من فضـله. فالحاصل أن الشـفاعة عند الله ليست كالشـفاعة عند البشـر؛ فـإن الشفيع عند البشر كما أنه شافع للطالب شـفعه في الطلب، بمعـنى أنه صـار به شفعاً فيه بعد أن كان وتراً، فهو أيضـاً قد شـفع المشـفوع إليه وبشـفاعته صار فاعلاً للمطلوب، فقد شفع الطالب والمطلـوب منـه، والله تعـالى وتر لا يشفعه أحد، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالأمر كله إليه، فلا شريك له بوجه، فسيد الشـفعاء يـوم القيامة إذا سـجد وحمد الله تعـالى فقـال له اللـه: (ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسَل تعطَ، واشفع تشفَّع) فيُحَد له حداً، فيـدخلهم الجنـة، فالأمر كله لله، كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ [آل عمران:154]، وقال تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ [آل عمران:128]، وقال تعالى: أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ [الأعراف:54]. فإذا كان لا يشـفع عنـده أحد إلا بإذنه لمن يشـاء ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته كما قال صلى الله عليه وسلم: (اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء). وفي الصحيح أن النبي صـلى الله عليه وسلم قال: (يا بني عبد مناف ! لا أملك لكم من الله من شيء، يا صفية عمة رسول الله! لا أملك لكِ من الله من شيء، يا عباس عم رسول الله! لا أملك لك من الله من شيء). وفي الصحيح أيضاً: (لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو شاة لها يعار أو رقاع تخفق فيقول: أغثـني أغثـني! فـأقول: قد أبلغتـك، لا أملك لك من الله من شـيء). فـإذا كـان سـيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به: (لا أملك لكم من الله من شيء) فما الظن بغيره؟! وإذا دعـاه الـداعي وشـفع عنـده الشـفيع فسـمع الـدعاء وقبل الشفاعة، لم يكن هـذا هو المـؤثر فيه كما يـؤثر المخلـوق في المخلـوق؛ فإنه سبحانه وتعالى هو الذي جعل هذا يـدعو ويشـفع، وهو الخـالق لأفعـال العبـاد، فهو الــذي وفق العبد للتوبة ثم قبلهــا، وهو الــذي وفقه للعمل ثم أثابــه، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه، وهذا مستقيم على أصـول أهل السـنة المؤمـنين بالقدر، وأن الله خالق كل شيء]. الكلام الأول يتعلق بقـول الإنسـان: أسـألك بكذا، فإذا كان الذي سألت به عملاً صالحاً فهو وسيلة والله تعالى قد أمر بها، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَابْتَغُـوا إِلَيْـهِ الْوَسِـيلَةَ [المائـدة:35] أي: اجعلـوا بينكم وبينه وسـيلة، والوسـيلة ما يوصل إليــه، وقد فُسِّــرت بأنها الأعمـال الصـالحة يتوصل بها العبد إلى ثـواب ربه وإلى جزيل وعظيم أجـره. فإذا قلت مثلاً: أسـألك يا رب بحق أعمـالي أو بحق إيمـاني أو بحق تصـديقي، فستجعل ذلك وسيلة تقربك إلى رضا الله، فهذا جـائز. وإذا قلت مثلاً: أسـألك بإيماني بنبيك، أو: بمحبتي لك، أو: بمحبـتي لعبـادك الصـالحين، فـأنت تتوسل بأعمالك الصالحة، فهذا توسل بأعمال صـالحة عملتها تكـون سـبباً في فـوزك وسـعادتك. أما إذا توسـلت بمخلـوق بـأن قلت: أسـألك بحق عبـدك، أو: بحق رسولك، أو: بحق آبائي أو أجدادي أو أسلافي، فهذا توسل بمخلـوق. فالتوسل الذي أمر الله به في قولـه: وَابْتَغُـوا إِلَيْـهِ الْوَسِـيلَةَ [المائـدة:35] هو السـؤال بالأعمــال الصــالحة. ومن هــذا قصة الثلاثة الــذين آواهم المــبيت إلى غــار، فانحدرت صخرة فسـدت بـاب الغـار عليهم، فعرفـوا أنه لا ينجيهم إلا التوسل بأعمالهم الصالحة ودعاء الله فتوسلوا. توسل أحدهم بكونه براً بوالديه، وقال

بعد ذلك: (اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك -يعني: مخلصاً لك- فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج). وتوسل الثاني بعفافه، بكونه تمكن من فعل الحرام ولكنه تركه خوفاً من الله، وذهب ما دفعه من المال، وقال بعد ذلك: (إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك أو ابتغاء مرضاتك فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة قليلاً). وتوسل الثالث بأمانته، وبكونه مؤتَمناً على مال غيره بحيث لم يأخذ من أجرة ذلك الأجير شيئاً رغم أنه تصرف فيها، فدفعها إلى أهلها أو إلى صاحبها، وذلك دليل الأمانة، وقال: (إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون). ففي هذا أجاب الله دعاءهم لما توسلوا، فهل قالوا: نسألك بحق أوليائك؟! وهل قالوا: نسألك بحق عبدك فلان؟! وبينهم عباد صالحون ورسل وأنبياء كموسى وعيسى وأيوب وهارون، فما سألوا الله إلَّا بحق أعمالهم. فيجوز أن تسأل الله بإيمانك وبتصديقك وما أشبه ذلك، هذا هو التوسل المطلوب أو التوسل المشروع، وأما التوسل بحق مخلوق أو بجاه مخلوق -ولو كان نبياً أو ولياً- فهو ممنوع، وهو من وسائل الشرك.

الشفاعة كلها لله فلا تطلب من غيره

والحاصل أن الشفاعة ملك لله كما عرفنا، وإذا كانت ملكاً لله فلا تُطلب من مخلوق، فلا تُطلب من النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره، فنبينا صلى الله عليه وسلم هو سيد الشفعاء، ومع ذلك لا يشفع أولاً حتى يستأذن على ربه فيسجد ويطيل سجوده، فيقال له: (ارفع رأسك، وقل تُسمع، وسل تعطَه، واشفع تشفع). فيبدأ بحمد الله كما تقدم في حديث أنس ، فيحمده بمحامد يفتحها الله تعالى عليه، فذلك لا شك أنه لأجل أن يمجد ربه، فيبدأ بتمجيد الله تعالى حتى يأذن له. ومرت بنا الأدلة التي تدل على أن الملك ملك الله، وأنه عليه الصلاة والسلام -مع ما خصه الله به- ليس له ملك وليس له تصرف، ومن ذلك الاستدلال بقوله سبحانه وتعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ [آل عمران:128] نزلت لما أنه صلى الله عليه وسلم شُج وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه فقال: (كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم؟!) فأنزل الله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ [آل عمران:128] يعني: أن الأمر ليس لك، وإذا لم يكن له من الأمر شيء في الدنيا، فكذلك الأمر في الآخرة. وكذلك قوله تعالى في الآية الثانية رداً على المنافقين الذين يقولون: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا [آل عمران:154] قال الله: قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ [آل عمران:154]، فالأمر كله لله، ليس لمحمد ولا لحسن ولا لعيدروس ولا لغيرهم من المخلوقين، الأمر كله لله، وإذا كان لله

فليُطلب ممن هو له. كذلك أيضاً الاستدلال بهذه الأحاديث في أن النبي صـلى الله عليه وسـلم لا يغـني عن أقاربه شـيئاً، يقـول في هـذا الحـديث لــعباس ولـفاطمة ولـصفية ولبني هاشم ولبني عبد مناف: أنقذوا أنفسكم من النار، لا أغـني عنكم من الله شـيئاً، لا أملك لكم من الله من شـيء، يقـول لابنتـه: (يا فاطمة بنت محمد ! أنقـذي نفسك من النـار، سـليني من مـالي ما شـئت، لا أغـني عنك من الله شـيئاً). إذا كـان لا يغـني عنهم من الله شـيئاً، وإذا كـان لا يملك لعمه ولا لعمته ولا لأعمامه ولا لأعمام أبيه أو أبنـاء أعمامه ولا لابنته من الله شيئاً، وأن الملك كله لله، فكيف يُطلب وكيف يُدعى؟! وإذا بطل هـذا في حق النـبي صـلى الله عليه وسـلم فكيف بالــعباس ؟! وكيف بــعلي ؟! وكيف بـــابن عبـاس ؟! وكيف بفلان وفلان ممن هم دونهم ودونهم بمـراتب؟! فـإذاً: الملك للـه، وطلب الشـفاعة من اللـه، وطلب الوسـيلة وطلب الملك كله من الله، فإذا طلب العبد ربه عند ذلك أجاب الله تعالى دعوته.

لقد أخذ الله الميثـــــاق على بــــــني آدم وهم في ظهر أبيهم آدم، وركز فيهم الفطرة التي تبعث على الإقرار بالخالق، ثم أقـام عليهم الحجة بالرسـل، وقد تكلم العلماء كثيراً على النصوص الواردة في ذلك وفي تأويلها.

الكلام على الميثاق المأخوذ على بني آدم المذكور في سورة الأعراف

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (والميثـاق الـذي أخـذه الله تعـالى من آدم وذريته حق). قال تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [الأعراف:172]. يخـبر سـبحانه أنه اسـتخرج ذرية بـني آدم من أصلابهم شـاهدين على أنفسـهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلّا هو، وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السـلام وتميـيزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصـحاب الشـمال، وفي بعضـها الإشـهاد عليهم بـأن الله ربهم: فمنها ما رواه الإمـــام أحمد عن ابن عبـــاس رضي الله عنهما عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: (إن الله أخذ الميثـاق من ظهر آدم عليه السـلام بنعمـان -يعـني: عرفـة- فـأخرج من صـلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قُبُلاً قال: ((أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا))[الأعراف:172] إلى قولـه: الْمُبْطِلُـونَ [الأعـراف:173]). ورواه النسـائي أيضـاً و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحـاكم في المسـتدرك وقـال: صـحيح الإسـناد ولم يخرِّجـاه. وروى الإمام أحمد أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنـه: (أنه سـئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم سـئل عنها فقـال: إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قـال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهـره فاسـتخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجـل: يا رسـول الله! ففيم العمل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: إن الله عـزَّ وجـلَّ إذا خلق العبد للجنة اســتعمله بعمل أهل الجنة حــتى يمــوت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنـة، وإذا خلق العبد للنـار اسـتعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النـار فيـدخل به النـار). ورواه أبو داود و الترمــذي و النســائي و ابن أبي حــاتم و ابن جرير و ابن حبــان في صحيحه. وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: (لما خلق الله آدم مسح على ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يـوم القيامـة، وجعل بين عينَي كل إنسـان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضـهم على آدم فقـال: أي رب! مَن هـؤلاء؟ قـال: هؤلاء ذريتـك، فـرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيـه، فقـال: أي رب! مَن هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقـال لـه: داوُد. قـال: رب! كم عمره؟ قال: ستون سنة. قال: أي رب! زده من عمري أربعين سـنة. فلما

انقضى عمر آدم جاء ملك الموت قال: أوَلم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أوَلم تعطها ابنك داوُد؟! قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته)، ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح. ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه. وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم. قال: فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي) وأخرجاه في الصحيحين أيضاً. وفي ذلك أحاديث أخَر أيضاً كلها دالة على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه وميَّز بين أهل النار وأهل الجنة]. يؤمن أهل السنة بالميثاق الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية، وهي قوله تعالى في سورة الأعراف: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ [الأعراف:172-173]. فهذه الآية فيها أن الله أخذ من ظهور بني آدم ذريتهم. ......

ذكر قول من قال بأن الذرية مأخوذة من ظهور بني آدم

وقد اختُلف في المراد بالذرية المأخوذين هل هم مأخوذون من ظهر كل إنسان، أو كلهم من آدم؟ وظاهر الآية أنهم من ظهور بني آدم، فقد قال تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ [الأعراف:172] أي: من كل إنسان أخرج ذريته. ثم كلمهم وخاطبهم وقال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى [الأعراف:172]، ويكون هذا هو الفطرة التي فطر الله عليها الخلق، كما في قوله تعالى: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ [الروم:30]. وكما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه، كما تنتج البَهيْمَة بُهَيْمَةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟)، فأخبر بأن الآدمي يولد على الفطرة، وإنما تتغير فطرته بسبب ما يتلقاه من أبويه أو من أقاربه أو من بيئته ومن ينشأ بينهم، وإلا فلو ترك كل أحد على فطرته لعرف ما خلق له، ولعرف أنَّ له رباً، ولعرف أنه مكلف ولبحث بعد ذلك عن التكاليف التي أُمر بها. ويؤيد هذا أن الفطرة هي الخلقة والابتداء، كما في قوله تعالى: فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً [فاطر:1]: و(فاطرها): منشئها ومبدئها وموجدها، فالله تعالى هو الذي فطر الخلق، أي: ابتدأ خلقهم وأوجدهم على غير مثال سبق.

فلما فطر الله الناس على الإسلام كانوا بذلك مستعدين لمعرفته ولمعرفة ما خلق لـه، ولكن صـرفتهم الصـوارف وصـدتهم الصـدود، واجتـذبتهم الأهـواء والأديان الباطلة التي تلقوها، هذا قول في هذه الآيـة. وصـحيح أن الله تعـالى جعل للإنسان عقلاً وفكراً، وبدون هذا العقل والفكر يسقط عنه التكليف، فإذا سـقط عقله وإذا سـلب تفكـيره وإدراكه سـقطت عنه التكـاليف، وما دام أن معه فطرته ومعه عقليته فإنه مكلف، حتى ولو لم تأتِه الشريعة، حـتى ولو لم يسمع بها، ولكن إذا نشأ عاقلاً عرف أنه ليس بمُهمل، وأن هـذا الكـون كله لا بد له من موجِد، وأن الذي أوجده لا بد له من حقـوق على عبـاده، فيبحث بعد ذلـك. ولما كـانت الفطـرة والعقليـات لا يُمكن أن تفصل الحقـوق الـتي لله سبحانه بعث الله الرسل وأنزل الكتب ليبينوا تلك الحقـوق، فكأنه يقـول: أنتم بفطـركم وعقـولكم تعرفـون أنكم مخلوقـون وأن لكم خالقـاً وأن لخـالقكم عليكم حقوقاً، ولكن هذه الحقـوق نحن نبينها لكم ونفصـلها لكم، فنقـول: من حقوق الله كذا، ومن حقوقه كذا، ومما أمـركم به كـذا، ومما نهـاكم عنه كـذا، فامتثِلوا، وإذا امتثلتم فـإن لكم الثـواب على كـذا، وإذا لم تمتثلـوا بل خـالفتم فـإن عليكم العقـاب. وهـذه وظيفة الرسـل، جـاءوا مبيـنين لما في فطـرة الإنسان من العلوم مفصلين لها. فهـذا قـولٌ من الأقـوال في هـذه الآيـة. وقد دلت الأدلة على أن الله سبحانه جعل للإنسـان معرفة بها يـدرك ما أمامه وما خلفه، ولكن تلك الأدلة تتغـير بتغـير ما يفسـدها وما يمازجهـا، إما من العلـوم وإما من الأعمال وإما من الأشخاص. فكثير من العلوم تصرف الفطرة، حـتى يرى الحسن قبيحاً والقبيح حسناً، وكثير من المجتمعات والمخالَطات تصـرف الفطرة، فزملاؤه وأخلاؤه وإخوته ومعاشـروه يفسـدون عليه عقله ويفسـدون عليه فطرتـه، وينكسـون معرفته ويبقى لا يعـرف إلا ما يألفـه، فلا يعـرف أن الخير خير ولا أن الشر شر، فيستحسن القـبيح ويسـتقبح الحسـن. وكثـير من الشـبهات الـتي يروجها أهلها تفسد الفطـرة أيضـاً، فينقلب فيها الحق بـاطلاً والباطل حقاً، ولو سلم الناس من هذه الأشياء لبقوا على فطرتهم. وعلى هذا فيقـال: إن دين الإسـلام هو دين الفطـرة، هو الـدين الـذي تشـهد العقـول السليمة بحسـنه وملاءمتـه، ولقد روي أن أعرابيـاً أسـلم لأول ما دُعي وقـال: إني رأيت هـذا الـدين ما أمر بشـيء فقـال العقل ليته نهى عنـه! ولا نهى عن شـيء فقـال العقل ليته أمر بـه. وقد ذهب بعض المبتدعة إلى أن العقل له دخل في التحسين والتقبيح، وجعلوه مقدماً على الشرع، وهذا قول خطأ، ولو قيل بالتحسين والتقبيح العقليين، ولكن لا دخل للعقل فيما يخالف الشرع، إذا جاء الشرع وجاءت النصـوص قـدمت على ما تستحسـنه العقـول مهما كـانت تلك العقول، فليس للعقل مدخل ما دام أن الشـرع وُجِد ناصـاً على حكم من الأحكـام، فيقـدم حكم الشـرع على جميع العقـول. ومع ذلك فـإن العقـول الصريحة لا يمكن أن تخالف النقول والأدلة الواضحة الصحيحة، وقد ألف في ذلك ابن تيمية كتابـاً مشـهوراً سـماه: (موافقة صـحيح المنقـول لصـريح

المعقـول) فــ(صـحيح المنقـول) يعـني الأحـاديث والأدلة الصـحيحة، و(صـريح المعقول) هو العقول السـليمة؛ يعـني أن العقـول السـليمة لا تخـالف النقـول الصحيحة.

ذكر قول من قال بأن الذرية مأخوذة من ظهر آدم

أما القول الثاني -وهو ما ذكر في هـذه الأحـاديث- فهو قـول من الأقـوال في معــنى الآيــة، وإن كــانت الآية بينها وبينه نــوع مخالفــة، فهو ينص في هــذه الأحاديث على أن الله لما أخرج آدم مسح ظهره واستخرج منه كل نسـمة هو خالقها إلى يوم القيامة، والله تعالى قـادر على كل شـيء، ولا يُعجـزه شـيء، ولما استخرجهم عرضهم على آدم، فعرفهم وأخبره بأنهم ذريته، وأنهم سـوف يُخلقون من صلبه وأصلاب أبنائه إلى يوم القيامة. وفي بعض الروايات أن الله اسـتخرج أهل الخـير وقـال: (هـؤلاء للجنة خلقتهم وبعمل أهل الجنة يعملـون، وهؤلاء خلقتهم للنار وبعمل أهل النار يعملون)، فمـيزهم وهم في صـلب آدم، وبيَّن مَن هم السـعداء ومَن هم الأشـقياء، وعلم أهــلَ الجنة مِن أهل النــار، وعلم من يعمل لهذه ومن يعمل لهذه.

علم الله بالسعداء والأشقياء لا يعني ترك العمل

وأشـكل ذلك على بعض الصـحابة فقـالوا: ما دام أن الله قد كتب علينا ونحن في صـلب أبينا من هو من أهل الجنة أو من أهل النـار فلمـاذا نعمـل؟ لأنه لا نحصل إلا على ما كُتب لنــا، فــأجيبوا: بــأنكم مكلفــون ومــأمورون بالعمــل، مأمورون بأن تعملوا، والله تعالى هو الذي يوفق كل إنســان لما خلقه له ولما كتبه عليه قبل أن يخلقه، وقرأ -في روايـة- قـول الله تعـالى: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّـرُهُ لِلْيُسْـرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِـلَ وَاسْـتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْـرَى [الليـل:5-10]. فأهل الخـير يُيَسـرون لعمل يكونون به سعداء، وأهل الشر يخـذلهم ويصـرفهم فيعملـون بعمل أهل الشر وأهل الشــقاوة والعيــاذ باللــه، ولكن مع ذلك كله فــإنهم مــأمورون ومنهيون، ومكلفون بأن يمتثلوا هذا الفعل، وبأن يتركوا هذا الفعـل، ويعتـبرون إذا فعلــوا ذلك مطيعين، وإذا لم يفعلــوه يعتـبرون عصــاة. وعلى كل حــال لا

يُستبعد أن الله سبحانه عندما خلق آدم أخرج ذريته كالذر لا يُحصي عددهم إلا الله، وكل من على وجه الأرض اليـوم، وكل من على وجه الأرض فيما سـبق، وكل من ســـيولد فيما بعـــد، كلهم قد علم الله تعـــالى عـــددهم، وقد علم أعمارهم، وقد كتب آجالهم، كما في قوله تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ [الحج:70]، وكما في قوله تعـالى: أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَـقَ وَهُـوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك:14]، وكما في قوله: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا [الحديد:22]. وقد أخبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم أن الله أول ما خلق القلم قـال لـه: اكتب، وأن القلم كتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فقوله: (ما هو كائن) يعني: كل موجود وكل من سوف يوجد، فإنه خلقهم وخلق أعمالهم وعرف آجـالهم وعـرف أزمنتهم، فهو على ذلك قـدير، وعلى كل شـيء قـدير، لا يعجـزه شـيء ولا يعـزب عن علمه مثقـال ذرة. فيـؤمن الإنسـان بـالأمرين: يـؤمن بـأن الله خلق الخلق واستخرج ذرية آدم قبل أن يوجدهم، ويؤمن بأن كل إنسان رزق فطرةً وعقلاً بحيث يعـرف الخـير ويعـرف الشـر، وأن تلك الفطـرة إما غَيَّرتها الأهـواء والشهوات والمجتمعـات، إما بقيت على حالتها وفطرتهـا، ولا يحمله ذلك على أن يعتمد على القضـاء والقـدر ويستسـلم ويـدع العمـل، بل عليه أن يعمـل، (فكل ميسر لما خلق له).

الكلام على معنى الميثاق المأخوذ وعلى خلق الروح والجسد

قـــال رحمه الله تعـــالى: [ومن هنا قـــال من قـــال: إن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد، وهذه الآثار لا تدل على سبق الأرواح الأجسـاد سـبقاً مسـتقراً ثابتـاً، وغايتها أن تـدل على أن بارئها وفاطرها سـبحانه صـوَّر النسَـمة وقـدَّر خلقها وأجلها وعملها، واسـتخرج تلك الصـور من مادتها ثم أعادها إليها وقـدَّر خـروج كل فـــرد من أفرادها في وقته المقــدر لــه، ولا يــدل على أنها خلقت خلقــاً مستقراً واسـتمرت موجـودةً ناطقـةً كلها في موضع واحد ثم يرسل منها إلى الأبـدان جملـةً بعد جملة كما قاله ابن حـزم ، فهـذا لا تـدل الآثـار عليـه. نعم. الـرب سـبحانه يخلق منها جملة بعد جملة على الوجه الـذي سـبق به التقـدير أولاً، فيجيء الخلق الخارجي مطابقاً للتقدير السابق، كشأنه سبحانه في جمع مخلوقاته، فإنه قدر لها أقداراً وآجالاً وصفاتٍ وهيئـاتٍ، ثم أبرزها إلى الوجـود مطابقةً لذلك التقدير السـابق. فالآثـار المروية في ذلك إنما تـدل على القـدر السابق، وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثـالهم وصـورهم، ومـيز أهل السـعادة من أهل الشـقاوة، وأما الإشـهاد عليهم هنـاك فإنما هو في حـديثين موقوفين على ابن عباس و ابن عمرو رضي الله عنهما، ومن ثم قال قـــائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما

تقدم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ومعنى قوله: (شَـهِدْنَا) أي: قـالوا: بلى، شهدنا أنك ربنا، وهذا قول ابن عبـاس و أبي بن كعب. وقـال ابن عبـاس أيضاً: أشهد بعضَـهم على بعض. وقيـل: (شَـهِدْنَا) من قـول الملائكـة، والوقف على قوله: ((بَلَى)) وهـذا قـول مجاهد و الضـحاك والسـدي. وقـال السـدي أيضاً: هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقـرار بـني آدم. والأول أظهـر، وما عـداه احتمـال لا دليل عليـه، وإنما يشـهد ظـاهر الآية للأول. واعلم أن من المفسرين من لم يذكر سـوى القـول بـأن الله اسـتخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم ثم أعـادهم، كـالثعلبي و البغـوي وغيرهمـــا. ومنهم من لم يـــذكره، بل ذكر أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيتـــه، وشـــهدت بها عقـــولهم وبصـــائرهم الـــتي ركَّبها الله فيهم، كـــالزمخشري وغـــيره. ومنهم من ذكر القـــولين، كـــالواحدي و الـــرازي و القرطبي وغيرهم، لكن نسب الرازي القول الأول إلى أهل السنة والثاني إلى المعتزلة]. في هذه الأحـاديث أو في بعضـها ما يُفهم أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، وأن الذي خاطبها بقولـه: (أَلَسْـتُ بِـرَبِّكُمْ) هي الأرواح. ومن عقيـدة أهل السنة أن الأرواح مخلوقة، فليست قديمة كما يقـول الفلاسـفة ونحـوهم، بل هي مخلوقة خلقها الله بعد أن لم تكن، وذلك لأن الإنســـان مـــركب من جسد وروح، والـروح هي الـتي تحيا بها الأجسـاد، وإذا خـرجت الـروح مـات الجسد، فهل الروح مخلوقة قبل الجسد أم مخلوقة مع الجسد؟ والصحيح أنها مخلوقة عندما خلق الله الجسد، فكلما خلق جسداً خلق له روحاً، وكلما مـات ذلك الجسد بقيت روحه إما معذبة وإما منعمة إلى أن ترجع إليه في الآخـــرة. وربما يأتينا شـــيء يتعلق بخلق الأرواح. وعلى كل حـــال فالآية الكريمة وهي قوله تعـالى: وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ [الأعراف:172] هناك من يقول فيها: إن الله أخرجهم من آدم، وأخذ عليهم العهد، وأشهدهم على أنفسهم، وإنهم قالوا: بلى. ولعلك أن تقــول: إننا لا نتذكر هذا الميثاق، ولا ندري ولا نعرف مـتى أخرجنـا، ولا نـدري هل قيل لنا ذلك القول أم لا؟ فلذلك يقال: إن هذه هي الفطـرة، وإن هـذا الإشـهاد هو ما فطروا عليه من المعرفة، وإن قولهم: (بَلَى شَـهِدْنَا) يعـني: شـهدنا أن ربنا هو الذي خلقنا، فيكون ذلك خطابـاً للأرواح قبل خلق الأجسـاد. ومن العلمـاء من قال: إن هذا وإن لم يتـذكره كل إنسـان، لكنه حق وواقـع، وإن لم يكن هنـاك ذاكـرة عند كل إنسـان. ولعل القـول الأول أن ذلك هو الفطـرة الـتي فطـروا عليها هو الأقـرب. ومن المفسـرين من اقتصر على مـدلول الأحـاديث، فجعل الآية مفسَّرة بالأحاديث، فمعناها: أخرجهم من آدم، وأشـهدهم على أنفسـهم، وردهم في صـــلب آدم، وأخـــرج منه أولاده، وأخـــرج من أولاده أحفـــاده -أي: أولادهم- وهكذا تسلسلت الولادة إلى ما شاء الله تعالى، إلى أن يحصل وجود من قدر الله خلقه إلى يوم القيامة. ومن العلمـاء المفسـرين من اقتصر على ذكر الفطـرة، وأن المـراد بالإشـهاد هنا هو ما قـذف في قلـوبهم من المعرفة ومن الفطرة التي فطر الناس عليها. ومنهم من ذكر القـولين، والكل مجتهـد، وكلٌّ اختـار ما يناسـبه. فالـذين تخصصـوا في النقـول وفي الحكايـات ونحوها اقتصروا على الميثاق الذي ورد في الأحاديث. والذي فسروا بالرأي أو فسروا

بالاستنتاج ذكـروا أيضـاً الفطـرة. والرواية الـتي فيها أن الله تعـالى أشـهدهم وأنهم قالوا: شهدنا وتكلموا، يقول الشارح عنها: إنها موقوفة ليست مرفوعة، ويمكن أنها مما نُقل من كتب بني إسرائيل التي لا تُصدَّق ولا تكذَّب، إنما تقبل إذا وافقت النقل الصـحيح عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم، أو ما جـاء في كتـاب الله تعــالى. فعلى هــذا نحن نعتقد معــنى الآية إجمــالاً، وإذا ثبتت لنا الأحاديث اعتقدناها ووكلنا كيفيتها إلى الله سبحانه.

آية أخذ الميثاق لا تدل على أخذ الذرية من ظهر آدم

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [ولا ريب أن الآية لا تـدل على القـول الأول، أعـني أن الأخذ كـان من ظهر آدم، وإنما فيها أن الأخذ من ظهـور بـني آدم، وإنما ذكر الأخذ من ظهر آدم والإشهاد عليهم هنـاك في بعض الأحـاديث، وفي بعضها الأخذ والقضاء بأن بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار، كما في حديث عمر رضي الله عنـه، وفي بعضـها الأخذ وإراءة آدم إيـاهم من غـير قضـاء ولا إشهاد، كما في حديث أبي هريرة. والذي فيه الإشهاد -على الصفة الـتي قالها أهل القــول الأول- موقــوف على ابن عبــاس و ابن عمــرو ، وتكلم فيه أهل الحديث، ولم يخرِّجه أحد من أهل الصـحيح غـير الحـاكم في المسـتدرك على الصـحيحين، و الحـاكم معـروف تسـاهله رحمه اللـه. والـذي فيه القضـاء بـأن بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار دليل على مسـألة القـدر، وذلك شـواهده كثـيرة ولا نــزاع فيه بين أهل الســنة، وإنما يخــالف فيه القدرية المبطلــون المبتدعون. وأما الأول فالنزاع فيه بين أهل السنة من السلف والخلف، ولــولا ما التزمته من الاختصـار لبسـطت الأحـاديث الـواردة في ذلـك، وما قيل من الكلام عليها، وما ذكر فيها من المعاني المعقولة ودلالة ألفـاظ الآية الكريمـة. قال القرطبي: وهـذه الآية مشـكلة، وقد تكلم العلمـاء في تأويلهـا، فنـذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليـه. فقـال قـوم: معـنى الآية أن الله أخـرج من ظهر بني آدم بعضـهم من بعض، قـالوا: ومعـنى وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِـرَبِّكُمْ [الأعـراف:172] دلهم بخلقه على توحيـده؛ لأن كل بـالغ يعلم ضرورة أن له رباً واحداً، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ [الأعـراف:172] أي: قـال: فقـام ذلك مقام الإشهاد عليهم والإقـرار منهم، كما قـال تعـالى في السـماوات والأرض: قَالَتَا أَتَيْنَا طَـائِعِينَ [فصـلت:11]، ذهب إلى هـذا القفـال وأطنب. وقيـل: إنه ســبحانه أخــرج الأرواح قبل خلق الأجســاد، وإنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها. ثم ذكر القرطبي بعد ذلك الأحاديث الواردة في ذلك .. . إلى آخر كلامه]. هذه أيضاً أقـوال في معـنى الآيـة: قـولٌ: أن قولـه: وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [الأعراف:172] معناه: كلما ولد مولود أخذ الله عليه العهد واستشهده بما فُطِر عليه ليعرف أن له ربـاً وأنه مربــوب

وأن عليه تكاليف، فكلما وُلد مولـود أخذ عليه العهـد، وذلك لأن الله قـال: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ [الأعـراف:172]، وبنو آدم جمـع، يعـني: كل آدمي من البشر أخذ الله من ظهـــره، يعـــني: اســـتخرج ما في ظهـــره من ولد ثم استنطقهم واستشهدهم، ويكون ذلك ما علموه أو ما أقام أمامهم من البينات والبراهين على أنه ربهم، وعلى أنهم مربوبـون والمربـوب له رب، وعلى أنهم مخلوقون والمخلوق له خالق. وأما القول بأنهم استُنْطِقوا لما أُخرجوا من آدم وشهدوا على أنفسهم و(قَالُوا بَلَى) لما قال الله لهم: ((أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)) فهذا قول اعتُمد فيه على حديثين، ولكن الحديثين فيهما مقـال. ويقـول: إن حـديث ابن عباس الذي تقدم وحديث عبد الله بن عمرو لم يخرجا في الصحيح، وإنما أخرجهما الحاكم و الحاكم رحمه الله يتساهل في تخـريج الأحـاديث، فلا يعتمد تصحيحه إذا انفـرد بـه. لـذلك لعل الآية عامة في أنها أخـذت العهـود من بـني آدم، وأن تلك العهـود هي إما المعرفة الـتي ركبت في قلـوبهم حيث يعرفـون أنهم مخلوقون، وإما الفطرة التي فطر الناس عليها، يعني: جعل في فطرتهم ميلاً ومعرفةً، وهو ما تقدم من قوله صلى الله عليه وسـلم: (كل مولـود يولد على الفطرة).

تضعيف الشارح للقول باستخراج الذرية من ظهر آدم وإشهادها

قـال رحمه الله تعـالى: [وأقـوى ما يشـهد لصـحة القـول الأول حـديث أنس المخرَّج في الصحيحين الـذي فيـه: (قد أردت منك ما هو أهـون من ذلـك، قد أخـذت عليك في ظهر آدم أن لا تشـرك بي شـيئاً فـأبيت إلا أن تشـرك بي) ولكن قد روي من طريق أخرى: (قد سـألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعـل، فيُرَد إلى النار) وليس فيه (في ظهر آدم) وليس في الرواية الأولى إخـــراجهم من ظهر آدم على الصفة الـتي ذكرها أصـحاب القـول الأول. بل القـول الأول متضمن لأمرين عجيبين: أحدهما: كون النـاس تكلمـوا حينئذ وأقـروا بالإيمـان، وأنه بهذا تقـوم الحجة عليهم يـوم القيامـة. والثـاني: أن الآية دلت على ذلـك. والآية لا تدل عليه لوجوه: أحدها: أنه قـال: (مِنْ بَنِي آدَمَ)، ولم يقـل: من آدم. الثاني: أنه قال: (مِنْ ظُهُورِهِمْ)، ولم يقل: من ظهره، وهذا بدل بعض أو بـدل اشتمال وهو أحسن. الثالث: أنه قال: (ذُرِّيَّتَهُمْ)، ولم يقـل: ذريتـه. الرابـع: أنه قال: (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ)، أي: جعلهم شاهدين على أنفســهم، ولا بد أن يكون الشاهد ذاكراً لما شهد به، وهو إنما يذكر شـهادته بعد خروجه إلى هـذه الدار -كما تأتي الإشارة إلى ذلك- لا يذكر شهادة قبله. الخـامس: أنه سـبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة: (إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـذَا غَـافِلِينَ)، والحجة إنما قـامت عليهم بالرسل والفطـرة الـتي فطـروا عليها كما قال تعالى: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ

بَعْدَ الرُّسُلِ [النساء:165]. السادس: تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يـوم القيامـة: (إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)، ومعلوم أنهم غافلون عن الإخراج لهم من صلب آدم كلهم وإشهادهم جميعاً ذلك الـوقت، فهـذا لا يـذكره أحد منهم. السـابع: قوله تعالى: أَوْ تَقُولُـوا إِنَّمَا أَشْـرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْـلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْـدِهِمْ [الأعـراف: 173] ، فذكر حكمتين في هذا الإشهاد: ألا يـدعوا الغفلـة، أو يـدعوا التقليـد، فالغافل لا شـعور لـه، والمقلد متبع في تقليـده لغـيره، ولا تـترتب هاتـان الحكمتـان إلا على ما قـامت به الحجة من الرسل والفطـرة. الثـامن: قولـه: أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَـلَ الْمُبْطِلُـونَ [الأعـراف:173] أي: لو عـذبهم بجحـودهم وشركهم لقالوا ذلك، وهو سـبحانه إنما يهلكهم لمخالفة رسـله وتكـذيبهم، فلو أهلكهم بتقليد آبائهم في شركهم من غير إقامة الحجة عليهم للرسل لأهلكهم بما فعل المبطلـون، أو أهلكهم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كـانوا عليـه، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون، وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرسل. التاسع: أنه سبحانه أشـهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقـه، واحتج عليه بهـذا الإشـهاد في غـير موضع من كتابه كقوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَـقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُـولُنَّ اللَّهُ [لقمـان:25]، فهذه هي الحجة التي أشـهدهم على أنفسـهم بمضـمونها وذكـرتهم بها رسـله بقولهم: أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَـاطِرِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ [إبـراهيم:10]. العاشـر: أنه جعل هـذا آيـة، وهي الدلالة الواضـحة البينة المسـتلزمة لمـدلولها بحيث لا يتخلف عنها المـدلول، وهـذا شـأن آيـات الـرب تعـالى، فإنها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به، فقال تعالى: وَكَذَلِكَ نُفَصِّـلُ الآيَـاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الأعراف:174] ، وإنما ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، فما من مولود إلا يولد على الفطرة، لا يولد مولود على غـير هـذه الفطرة، هذا أمر مفروغ منه لا يتبدل ولا يتغير، وقد تقدمت الإشارة إلى هـذا. والله أعلم. وقد تفطن لهذا ابن عطية وغيره، ولكن هـابوا مخالفة ظـاهر تلك الأحـاديث الـتي فيها التصـريح بـأن الله أخـرجهم وأشـهدهم على أنفسـهم ثم أعـادهم، وكـذلك حكى القـولين الشـيخ أبو منصـور الماتريـدي في شـرح التأويلات، ورجح القول الثاني وتكلم عليه ومال إليـه]. ويمكن أن يجمع بينهما بأن الآية في ميثاق والأحاديث في ميثـاق، فالآية يظهر أن المـراد بها الميثـاق الذي يأخذه على كل مولود يولد على الفطرة، وذلك الميثاق هو المعرفة التي فطر عليها، والأحاديث في خلق الأرواح أن الأرواح خلقت أولاً ثم أعيـدت في صلب آدم وتكلمت، وأنها شـهدت وإن لم تكن الأجسـاد موجـودة. وبكل حـال فإن هذه الآية تؤيد أن الميثاق الذي فيها غير الميثاق الـذي في الأحـاديث من هذه الوجوه العشرة التي ذكرها، فإن الله تعالى قال: (وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ) لم يقل: من آدم، والأحـاديث فيها أنهم أخرجـوا من ظهر آدم، فـدل على الفـرق بين ما في الآية وما في الأحـاديث. والآية فيها قولـه: (مِنْ ظُهُـورِهِمْ) والأحـاديث فيها أنهم كلهم ذرية آدم. والآية فيها أنه (أَشْـهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِـهِمْ) وهذا الإشـهاد قد لا يتذكرونه لأنه هو الفطـرة، فلو كـان هو الإشـهاد عند خلق الأرواح لم يكن حجة عليهم، فدل على أن المـراد أنهم فطـروا على الإسـلام، وأنه لا مـانع من أن الله سـبحانه أخـرج أرواحهم وأنفاسـهم من صـلب آدم،

وعرضهم عليه، وجعل بين عيـني كل إنسـان وبيصـاً، وأن منهم نـبي الله داود وأنه وهبه من عمره أربعين إلى آخر ما تقـدم. لا مـانع من أن نـؤمن بـأن الله استخرج الأرواح قبل أن يخلق الأجساد، وأنه أخذ الميثـاق على الأجسـاد، وأن الميثاق الذي أخذه على الأجساد في الآية هو المعرفة والفطرة الـتي فطـروا عليهـا، فبـذلك لا يحصل اختلاف بين الآية والحـديث، فيعتقد المسـلم أن الله فطر النـاس على المعرفة وعلى الديانـة: فِطْـرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَا [الروم:30] ، وأن تلك الفطرة تتغير بتغير البيئة: (فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) ، ويعتقد مع ذلك بنـاء على الأحـاديث أن الله اسـتخرج ذرية آدم وعلم أهل الجنة وعلم أهل النار وقال: هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنـار ولا أبالي، وذلك يبين سابق القدر لله تعالى، وسابق علمه بالأشـياء قبل وجودهـا، والله تعالى بكل شيء عليم.

الإقرار بالربوبية أمر فطري

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [ولا شك أن الإقـرار بالربوبية أمر فطـري، والشرك حادث طارئ والأبناء تقلدوه عن الآباء، فإذا احتجوا يـوم القيامة بـأن الآباء أشركوا ونحن جرينا على عادتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن، يقال لهم: أنتم كنتم معترفين بالصانع مقـرين بـأن الله ربكم لا شـريك لـه، وقد شـهدتم بـذلك على أنفسـكم، فـإن شـهادة المرء على نفسه هي إقراره بالشيء ليس إلا ، قـال الله تعـالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُـهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَـوْ عَلَى أَنفُسِـكُمْ [النسـاء:135] ، وليس المراد أن يقول: أشهد على نفسي بكذا، بل من أقر بشـيء فقد شـهد على نفسه به ، فلم عدلتم عن هـذه المعرفة والإقـرار الـذي شـهدتم به على أنفسـكم إلى الشـرك؟ بل عـدلتم عن المعلـوم المـتيقن إلى ما لا يعلم له حقيقة، تقليداً لمن لا حجة معـه. بخلاف اتبـاعهم في العـادات الدنيويـة؛ فـإن تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادها وفيه مصلحة لكم، بخلاف الشرك فإنه كان عندكم من المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يبين فساده وعدولكم فيه عن الصواب. ......

قيام الحجة في توحيد الربوبية بالفطرة والعقل

فإن الدين الذي يأخـذه الصـبي عن أبويه هـو: دين التربيه والعـادة، وهو لأجل مصلحة الدنيا، فـإن الطفل لا بد له من كافل ، وأحق النـاس به أبـواه، ولهـذا جاءت الشريعة بأن الطفل مع أبويه على دينهما في أحكـام الـدنيا الظـاهرة ،

وهذا الدين لا يعاقبه الله عليه - على الصحيح - حتى يبلغ ويعقل وتقوم عليه الحجة، وحينئذ فعليه أن يتبع دين العلم والعقل ، وهو الذي يعلم بعقله هو أنه دين صحيح؛ فإن كان آباؤه مهتدين كيوسف الصديق مع آبائه قال: وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ [يوسف:38] وقال ليعقوب بنوه: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ [البقرة:133] ، وإن كان الآباء مخالفين للرسل كان عليه أن يتبع الرسل كما قال تعالى: وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا [العنكبوت:8] الآية. فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم، بل يعدل عن الحق المعلوم إليه؛ فهذا اتبع هواه كما قال تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ [البقرة:170]]. يقول الله تعالى: أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ [الأنعام:156]، ويقول: أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ [الأعراف:173]، فمقالة المشركين لابد أن تكون إحدى هاتين المقالتين. والطائفتان هم اليهود والنصارى الذين أنزلت عليهم التوراة والإنجيل، والمشركون يقولون: أشرك آباؤنا واتبعناهم، فكأنهم يقولون: العذاب عليهم لا علينا. والجواب أولاً: أن الله فطركم على التوحيد وعلى معرفته، ورتب فيكم العقول بحيث تعرفون أن لكم خالقاً، وأن خالقكم له عليكم حقوق. وثانياً: إذا عرفتم أن هذا الدين الذي عليه آباؤكم -وهو الشرك- باطل، فلا بد أن تبحثوا عن الدين الصحيح وهو الذي خلقتكم له، ولكنكم لم تفعلوا، بل اتبعتم آباءكم وأطعتم كبراءكم، وكنتم بذلك مستحقين للعذاب، قال الله تعالى عن أهل النار: قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ [الأعراف:38] أي: قال الأبناء للآباء: رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ [الأعراف:38] أي: لا ينفعكم كونهم الذين أضلوكم، فكان يجب عليكم ألا تقبلوا هذا الضلال. ويقول تعالى في آية أخرى: وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ [الصافات:27-28] يعني: تضلوننا وتسعون في إضلالنا، إلى قوله: فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ [الصافات:33] مع أن الآباء هم السبب في ضلال الأبناء؛ ولأجل ذلك كان الواجب على الآباء أن يفكروا وألا يضلوا بعد أن أعطاهم الله فكراً وعقلاً، وعلى الأبناء أيضاً أن يستعملوا فطرتهم وعقلهم وألّا يقبلوا كل ضلالة أو كل بدعة. وقد حكى الله تعالى أنهم يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض؛ فالمتبوع يتبرأ من التابع، إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا [البقرة:166-167]، الأتباع هم الذين تبرأ منهم المتبوعون ولكن لا ينفعهم ذلك بعد أن أضلوهم.

قيام الحجة على الإنسان بوجوب اتباع الرسل كما يرشد إليه العقل

وعلى كل حال فحجة الله قائمة، قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ [الأنعام:149]؛ وذلك لأنه أرسل الرسل وأنزل الكتب؛ ولأنه فطر الناس على العبادة ولكن أضـلتهم الأهواء وأضلتهم الشياطين، وأضلتهم المجتمعات ونحوها. ومعلوم أن العادة -كما قلنا- أن الابن ينشأ على دين أبويه، بل إنه يختم له باتباعه في دينــه؛ لكن في الشرع يكون تبعاً لخير أبويه، إذا كـان أحد الأبـوين مسـلماً والآخر كـافراً، حكمنا أنه يتبع خـير أبويه في الـدين، ولكن يحكم عليهم ما حكم على آبـائهم، (سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن القوم يبيتون فيصاب الأطفال)، فقـال: هم منهم يعني: إذا بيتنا المشـركين في بيـوتهم وقتلنا أطفـالاً دون أن نتعمـد؛ فما الحكم؟ فقال: (هم منهم). والمعنى: أننا نحكم بأنهم تبع لآبــائهم، فما دام أن آباءهم يحاربوننا ويقاتلوننا ونقتلهم، فكذلك الأبناء يكونـون تبعـاً لهم؛ وذلك لأنهم غالباً ينشئون على نشـأتهم كما حكى الله عن نـوح بقولـه: وَلا يَلِـدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا [نوح:27] أي: كلما ولد لهم أولاد نشئوا على ما نشأ عليه آبـاؤهم من الفجور ومن الكفر، ومع ذلك فإن الله تعالى قد يخرج من أصلاب الكفــار من يعبد الله ويعرفه، وإذا أراد به خيراً أدخله في الدين أو أدخل الدين عليــه. وعلى كل حال: فإن على الإنسان أن يحـرص على أولاده، فـيربيهم ويعلمهم، وعلى الولد أن ينظر فيما فيه والده وفيما عليه أهله؛ فـإذا كـان حقـاً وصـواباً قبله وعمل به، وإلّا سـأل عن الحق واتبعـه، ولم يعمل بالباطل ولو كـان عليه أهله، أو مجتمعه، أو قبيلته، وأسرته، أو نحو ذلك.

لا يعذر الإنسان في كفره باتباع آبائه وعليه أن ينظر بعقله

قال المؤلف: [وهذه حال كثير من الناس من الذين ولـدوا على الإسـلام، يتبع أحـدهم أبـاه فيما كـان عليه من اعتقـاد ومـذهب وإن كـان خطأ ليس هو فيه على بصيرة، بل هو من مسلمة الدار لا مسلمة الاختيار، وهــذا إذا قيل له في قبره: من ربـك؟ قـال: هـاه .. هـاه .. لا أدري، سـمعت النـاس يقولـون شـيئا فقلته. فليتأمل اللبيب هذا المحل، ولينصح نفســه، وليقم للــه، ولينظر من أي الفــريقين هــو؟ والله الموفــق. فــإن توحيد الربوبية لا يحتــاج إلى دليــل، فإنه مركوز في الفطر، وأقرب ما ينظر فيه المرء أمر نفسه لما كـان نطفــة، وقد خــرج من بين الصــلب والــترائب -والــترائب: عظــام الصــدر- ثم صــارت تلك النطفة في قرار مكين في ظلمـات ثلاث، وانقطع عنها تـدبير الأبـوين وسـائر الخلائق، ولو كانت موضوعة على لوح أو طبق واجتمع حكماء العــالم على أن

يصوروا منها شيئاً لم يقدروا ، ومحال توهم عمل الطبائع فيها لأنها موات عاجزة ولا توصف بحياة، ولن يتأتى من الموات فعل وتدبير. فإذا تفكر في ذلك، وانتقال هذه النطفة من حال إلى حال؛ علم بذلك توحيد الربوبية، فانتقل منه إلى توحيد الإلهية، فإنه إذا علم بالعقل أن له رباً أوجده؛ كيف يليق به أن يعبد غيره؟ وكلما تفكر وتدبر ازداد يقيناً وتوحيداً، والله الموفق؛ لا رب غيره ولا إله سواه!].

وجوب البحث عن الحق على كل عاقل

ذكر أن الإنسان عادة ما يتبع ما عليه آباؤه ومجتمعه، ولكن لا يكون ذلك حجة له، ولا يكون معذوراً بذلك، فالذين قالوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ [الأعراف:173] يقال: لا نهلككم بفعلهم، بل كلٌّ يعذب بذنبه؛ فآباؤكم عليهم ذنوب وأنتم عليكم ذنوب، وأبناؤكم عليهم ذنوبهم التي اقترفوها وعملوها، ولو كان السبب أو المضل هو الأول. وذلك لأن الله تعالى فطر العباد على معرفته، والواجب عليهم أن يتأملوا ما فطروا عليه، وأن يتعقلوا خلقه، وأن يتعقلوا هذا الكون الذي بين أيديهم، وأن يتفكروا في مخلوقات الله تعالى، ومنه يخرجون إلى نتيجة وهي توحيد الربوبية، وهو أن هذا الكون له رب خالق مدبر، وأنه لم يخلق عبثاً كما في قوله تعالى: أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى [القيامة:36] يعني: مهملاً أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى [القيامة:37-40]. يعني: يتدبر الإنسان مبدأ أمره ومبدأ تكوينه، وهو أنه قد كان في صلب أبيه، ثم خرج واستقر في رحم أمه، كما في قوله تعالى: أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ [المرسلات:20-22] جعله الله في قرار مستقر لا تصل إليه الأيدي، ولا تعمل فيه الطبائع، ولا تقدر عليه الحيل. انقطعت عنه التدابير، فأخرجه الله بعد أن كوّنه بشراً سوياً كما في قوله تعالى: أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا [الكهف:37] وقال تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا [غافر:67] يعني: أطفالاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا [غافر:67] ، فهذا التدبير وهذا التنقل ليس للطبيعة فيه مجال، بل الترتيب والتربية هي خلق الله وتدبيره وتكوينه. فإذا عرف الإنسان هذا الكون وأنه لا بد له من مدبر وخالق ومتصرف، استقر بذلك توحيد الربوبية في عقله، وعرف أن له رباً، ثم بعد ذلك يتنقل من تفكير إلى تفكير فيقول: ما دام أن لهذا الكون رباً وخالقاً ومدبراً فإن لهذا الرب الخالق المدبر حقوقاً علينا! فما هي تلك الحقوق؟ هي أن نعبده وحده، وأن نقر به إلهاً، وأن

نصرف له حقوقه التي فرضها علينا وبعد أن يسأل عن هذه الحقوق ويعرفهـا، فإذا عـرف الـتزم بـالتقرب بهـا، والـتزم بـأن يعبد الله بهـا، وأن يحـرص على الاستسلام لله، وبذلك يكون من أهل السعادة. فكونه يقنع بما كان عليه آباؤه من الكفر والضلال والبدع والشرك والخرافـات الـتي تمجها الأسـماع وتنكرها الطباع ويقول: هكذا وجدت أبي! يقال: هذا خطأ! لماذا لم تسـأل عن الحـق؟ أترضى أن تكون مقلداً لا تدري ما الناس فيـه؟! هـؤلاء الـذين يتبعـون النـاس ويتبعون ما هم عليه من خطـأ؛ هم الـذين إذا سـئلوا في القـبر: من ربـك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ يقول أحدهم: هـاه .. هـاه لا أدري، سـمعت النـاس يقولـون شيئاً فقلته، فيعذبون في قبورهم على هذه المقالـة، ولا ينفعهم أنهم سـمعوا الناس وأنهم قلدوا الناس، بل الـواجب على العاقل من حيث هو أن يسـتعمل عقله في معرفة خالقه ومـدبره، وألّا يرضى بما النــاس عليه دون أن يمحص تلك الأقوال والأعمال التي يعملها الناس، ودون أن يعرف الحق أو يبحث عنه؛ فإنه إذا بحث عن الحق عرفه، وإذا عرفه لزمه العمل به، وإذا لزمه العمل به وأداه كما ينبغي سعد وأصبح من أهل الخير.

لقد خلق الله الخلـق، وعلم ما هم عـاملون، وقـدر ما يكـون منهم، وقـدر من يدخل الجنة ومن يدخل النار، وهذا دليل على كمال علم الله، ولا حجة للعصاة في ذلك، فكل ميسر لما خلق له.

إثبات صفة العلم لله تعالى وتقديره لأعمال الخلائق

قال المصنف رحمه الله تعالى: [قوله: (وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النـار جملة واحـدة، فلا يـزاد في ذلك العـدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعـالهم فيما علم منهم أن يفعلـوه). قـال الله تعـالى: إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [الأنفال:75] وَكَانَ اللَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمًا [الأحـزاب: 40]؛ فالله تعالى موصـوف بأنه بكل شـيء عليم أزلاً وأبـداً، لم يتقـدم علمه بالأشياء جهالة وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا [مريم:64]. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قـال: كنا في جنـازة في بقيع الغرقـد، فأتانا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقعد وقعـدنا حولـه، ومعه مخصـرة، فنكس رأسه فجعل ينكت بمخصـــرته ثم قـــال: ما من نفس منفوسة إلا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار وإلا قد كتبت شقية أو سـعيدة. قـال: فقـال رجـل: يا رسـول اللـه! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السـعادة، ومن كـان من أهل الشـقاوة فسيصـير إلى عمل أهل الشقاوة. ثم قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له: أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَـدَّقَ بِالْحُسْـنَى * فَسَنُيَسِّـرُهُ لِلْيُسْـرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى [الليل:5-10]، خرجاه في الصحيحين. ......

عموم علم الله بكل شيء

هنا: صفة من صـفات الله تعـالى وهي العلم العـام، وفي هـذا رد على طائفة من غلاة المعتزلة الذين يقولون: إن الله لا يعلم بالأشياء حـتى تقـع، ولم يعلم بها قبل أن يوجدها، يردون بذلك النصوص ويتنقصون الـرب سـبحانه وتعـالى، وهؤلاء هم غلاة القدرية قديماً كـمعبد الجهني وغـيره، يقولـون: إن الأمر أنف يعني: أنه يستقبل ويستأنف ولا يعلم الشيء الذي قد مضـى. من عقيـدة أهل السنة أن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم، فلا يعزب عن علمه شيء: وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ [يـونس: 61] يعلم ما كـان وما يكـون، وما لم يكن لو كـان كيف يكـون، ويعلم الخفي والجلي: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ [غافر:19]، ويعلم السر وأخفى

من السـر، والسر هـو: ما يضـمره الإنسـان في نفسه ولا يبديه لأحـد، وأخفى منه ما لم يخطر بباله إذا علم الله أنه سـيخطر ببالـه، فيعلم الله أنه سـيخطر له كــذا وكــذا مما لم يكن يظن أنه يخطــر. والأدلة على صــفة العلم وقدمه كثيرة مشهورة، وقد جمعها العلماء الذين كتبوا في الصفات واسـتوفوا ما ورد فيها من الآيـات ومن الأحـاديث، وإذا عـرف المـؤمن أن الله تعـالى موصـوف بالعلم، اعتقد دخول أعمال العباد، وهو أنه علم من هو سعيد ومن هو شــقي، ومن هو فاجر ومن هو تقي، ومن هو مخلط ومن هو نقي، وعلم من هو فقير ومن هو غــني، ومن هو من أهل الخــير ومن هو من أهل الشــر؛ كل ذلك قد أحاط الله به علماً، كما قال تعالى: في هذه الآيـات إِنَّ اللَّهَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ [العنكبوت:62]، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا [الأحزاب:40]، فيدخل في (كل شيء) ما لم يكن مما سيكون كما علمه الله.

كتابة الله ما علمه في اللوح المحفوظ

كذلك بعد أن علمه الله تعالى فإنه قد أثبته وكتبه في الذكر -اللوح المحفوظ- فأول ما خلق الله تعالى القلم فقال لـه: اكتب، فجـرى بما هو كـائن إلى يـوم القيامة مما سيوجد، وممن سيولد، ومن أعمـال العبـاد ونحو ذلـك، يقـول الله تعـالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِـكَ فِي كِتَـابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [الحج:70] يعني: علم ذلك وصـفاته هو يسـير على اللـه. ويقول تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِـيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِـكُمْ إِلَّا فِي كِتَـابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا [الحديـد:22]، أي: من قبل أن نـبرأ تلك المصـيبة، بل من قبل أن نــبرأ الخليقة كلهم، كتب ذلك في اللــوح المحفــوظ كما يشــاء اللــه، وذلك يسير على الله، ليس فيه صعوبة؛ لأنه هو الذي يبدل الخلائق، وهو الذي يعلم أحوالهم ولا يخفى عليه شيء منهم. فـإذاً: ما دامـوا خلقه وأنه هو الـذي يتصــرف فيهم؛ فهم لا يخرجــون عما علمه فيهم، وقد علم من سيصــير إلى الخير، ومن سيصـير إلى الشـر، ولكن كلفهم وأمـرهم بالإيمـان بـذلك الغيب. وكذلك أعان هؤلاء وخذل هؤلاء، وله الحجة البالغة، وهدى من شاء وأضل من شاء وله الحجة البالغة على عباده، ولا يقول قائـل: إن هـذا يتخذ حجة للكـافر بأن يقول: إذا كـان الله كتب عليّ الشـقاء فليس لي حيلة في أن أرد ما كتب اللـه؟ نقـول: ومن أدراك بـذلك؟ أنت مـأمور بـأن تفعل الأسـباب، وقد يكـون فعلك سبباً من الأسباب الـتي قـدر الله بها أنك من أهل السـعادة أو من أهل الشقاوة.

أنواع التقدير

ذكر العلماء أن القدر على أربعة أنواع: القدر العام يعني: العلم بالكائنات قبل وجودها، وكتابتها في اللوح المحفوظ. والثاني: العلم السنوي: وهو أن الله يكتب في ليلة القدر ما يكون في تلك السنة من الحوادث، وهذه كتابة جزئية، حيث يقدر في ليلة القدر ويكتب فيها ما يكون على وجه الأرض من تلك الليلة إلى مثلها من السنة القابلة، فهذا تقدير أو كتابة أو علم خاص، وهو السنوي. والثالث: تقدير عمري وهو أن المولود إذا علقت به أمه في الرحم، أرسل الله تعالى إليه الملك فقال: يا رب مخلقة أو غير مخلقة؟ يعني: هل يتم خلقه ويولد سوياً أو تسقطه الرحم وتقذفه منياً؟ فإذا قال الله: مخلقة، قال: يا رب! ذكر أم أنثى؟ فيكتب ذلك، ويسأل عن رزقه فيخبره الله بأن رزقه يكون بكذا وكذا، ويكتب أجله بأنه طويل الأجر أو قصير الأجل، يقدر الله ذلك كله له. وفي حديث ابن مسعود المشهور: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات؛ يكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد) أي: يكتب ذلك كله وهو في رحم أمه، فالمؤمن الذي يؤمن بذلك يؤمن بسعة علم الله تعالى، ولكن لا يتخذ ذلك حجة في ترك العمل، بل يعمل فكل ميسر لما خلق له كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فمن كان سعيداً فإن الله يسهل له الأسباب التي يكون بها سعيداً وعليه أن يبذل السبب، وإن كان شقياً فإنه محروم ولو بذلت الأسباب. فهذا هو واسع علم الله، يعني: أن الله تعالى عليم بكل شيء وعلمه قد وسع الخلائق كلها. وفائدة الإيمان بالعلم المراقبة، وهو أنك إذا علمت أن الله عليم بما يجول في نفسك، وبما تهم به من طاعة أو معصية، وأنه يطلع على ضميرك، ويعلم ما في قلبك؛ حملك ذلك على ألا تعمل إلا خيراً، وعلى ألا تحدث نفسك إلا بخير، فبذلك تكون من أهل الخير. أما الإنسان الذي يتجاهل أو يظن أن الله لا يعلمه ولا يعلم أحواله؛ فإن هذا التجاهل أو الجهل هو الذي يوقعه في العصيان ويجرئه على المخالفات، فكأنه يعتقد أنه لا يراه ربه وأنه سيختفي. ذكر ابن أم عبد أن ثلاثة من قريش جلسوا في المسجد الحرام يقول: قليل فقه قلوبهم كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الثاني: إن كان يسمع إن جهرنا سمع إذا أخفينا، فأنزل الله تعالى قوله: وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ [فصلت:22-23] ، فهؤلاء الذين ظنوا أن الله لا يعلم أعمالهم حصل لهم أنهم أكثروا من السيئات وتجرءوا على المحرمات، ووقعوا في الذنوب؛ فكان ذلك سبباً في شقائهم وإن كان ذلك مكتوباً عليهم في الأزل؛ لكن وقع منهم سبب وافق ما قدره الله عليهم. فعلى العبد إذا علم أن الله

تعــالى عليم بأحواله وبوساوسه وبخطــرات قلبه وبأعمالــه؛ أن يحمله هــذا الاعتقاد على أن يراقب ربه، وعلى ألا يخالفه طرفة عين.

علم وكتابة مآل الإنسان من السعادة والشقاوة وهو في رحم أمه

قال المؤلف: [وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله]. تقدم حـديث علي رضي الله عنه وقوله صلى الله عليه وسلم فيه: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) وعن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قـال: (جـاء سـراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول اللـه! بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم: أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل؟ قـال: لا. بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، قـال: ففيم العمـل؟ قـال زهـير : ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه فسألت ما قال؟ فقال: اعملـوا فكل ميسـر) رواه مسـلم . وعن سـهل بن سـعد السـاعدي رضي الله عنه أن رسـول الله صــلى الله عليه وســلم قــال: (إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبــدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للنــاس وهو من أهل الجنــة) خرجــاه في الصـحيحين، وزاد البخـاري: (وإنما الأعمـال بــالخواتيم). وفي الصــحيحين أيضــاً عن عبد الله بن مســعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصــدوق -: (إن أحــدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومــاً، ثم يكـون علقة مثل ذلـك، ثم يكـون مضـغة مثل ذلـك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الـروح ويـؤمر بـأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله، وشـقي أم سـعيد؛ فوالـذي لا إله غـيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتـاب فيعمل بعمل أهل النـار فيـدخلها، وإن أحـدكم ليعمل بعمل أهل النـار حــتى ما يكــون بينه وبينها إلا ذراع، فيســبق عليه الكتــاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها). والأحاديث في هذا البـاب كثـيرة، وكـذلك الآثـار عن السـلف، قال أبو عمر بن عبد البر في التمهيد: قد أكثر الناس من تخريج الآثار في هذا الباب، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه، وأهل السـنة مجتمعـون على الإيمـان بهذه الآثار واعتقادها، وترك المجادلة فيها، وبالله العصمة والتوفيق].

الأعمال بالخواتيم

معناه أن الله تعالى علم السعيد والشقي، ولكن قد يعمل الإنسـان بعمل أهل الخير ثم يرتد في آخر عمره، ويكـون من أهل الشـر، حيث إن الله كتب عليه الشقاوة، وبـالعكس: قد يحيا الإنسـان مع أهل الكفر ويمضي عمـره كله على الكفر والضلال، ثم يأتيه الله قرب الموت فيموت وقد اهتـدى، وقد ذكـروا أن الأصـيرم من الأنصـار، كـان على دين قومه المشـركين، ولم يسـلم إلا قبيل معركة أحد، فأسلم ودخل المعركة واستشـهد مع من استشـهد، فجعله النـبي صلى الله عليه وسلم من الشهداء ودعا له. هذا توفي هو ولم يصل لله ركعة، ولكنه أسلم إسلاماً يقينياً وجاهد في سـبيل اللـه، وضـده رجل كـان يظهر أنه مسلم، ويجتهد في الأعمال، ولما حضر المعركة قاتل قتالاً شـديداً حـتى قتل ستة أو سبعة، فلما ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنه من أهل النار)، فختم له بخاتمة سيئة، وهو أنه لما أحس بالألم قتل نفسه، فقال النـبي صـلى الله عليه وسلم: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار)، وبالعكس أيضاً، فالأعمال بالخواتيم، والإنسان عليه أن يسـأل الله حسن الختـام؛ وذلك لأنه إذا ختم له بخاتمة حسـنة انتهت بها حياته كـان من أهل السـعادة، فـإذا اسـتمر على العمل السـيئ حـرم الخـير، وختم له بعمل الشقاوة والعياذ بالله.

ينبغي على الإنسان الحرص على حسن الختام

فنعرف بذلك معنى: أن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبـدو للنـاس وهو من أهل النار، أو يعمل بعمل أهل الجنة حتى يقـرب من المـوت فيعمل بعمل أهل النـار ويرتد ما بين عشـية وضـحاها، كما ذكر ذلك النـبي صـلى الله عليه وسـلم في حـديث الفتن، فقـال: (يصـبح فيها الرجل مؤمنـاً ويمسي كـافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً) يعني: أنه يكفر بين عشـية وضـحاها. فهـذا يحث الإنسان على أن يتمسك بدينه، وأن يحـرص على حسن الخاتمـة، ويعـرف أن الله تعالى يختم للإنسان بالعمل الذي قدره له والذي كتبه من أهلـه، ولكن له في ذلك سبب، وإذا أكثر من سـؤال الله تعـالى أجـاب الله دعوتـه، وإن كـان ذلك مكتوباً عليه قبل أن يخلقه.

أهمية تعلم العقيدة بتفاصيلها

والعقيـدة ما يعقد عليه القلب، وإذا انعقد القلب على أمر فإنه لا يتخلى عنـه، ولا شك أن من آثار الاعتقـاد قـوة العمـل، فـإذا اعتقد العبد أمـراً فإنه يلازمه ويتمسك به، ويتشبث به بكل قـواه، ويتفـانى في العمل بـه، على ما يناله من أذى أو من تعـذيب، ويبـذل في تحقيق ما يعتقـده كل غـالٍ ورخيص ولو بـذل نفسه، كما حصل للمؤمنين الذين بذلوا نفوسهم رخيصة في سبيل اللـه، وفي سبيل إعلاء كلمة الله، كل ذلك لأجل قوة العقيدة. ......

الإيمان بالله ورسوله وما جاء به جملة وتفصيلاً

من العقيدة التي نحن نقرأ فيها الشهادتان: شـهادة أن لا إله إلا اللـه، ويـدخل فيها الإيمـان بأسـماء الله تعـالى وبصـفاته، ويظهر على من اعتقـدها أثرهـا، ويدخل فيها أيضاً الإيمان بوحدانية الله تعالى وتفـرده، ويـدخل في ذلك أيضـاً الإيمـان بقوته وبقهـره وبجبروته وبخلقه وبتقـديره وبقدرته على كل شـيء، وآثار ذلك عبادته وحده وتـرك عبـادة ما سـواه. ويـدخل في الشـهادة الثانية -شهادة أن محمداً رسول اللـه- الإيمـان بصـدق النـبي صـلى الله عليه وسـلم وبأمانته، والإيمان بتبليغه للرسالة وبيانها، والإيمان بصحة ما جاء به وما بلغـه، وكونه كله من عند ربــه. ويــدخل في ذلك وجــوب طاعتــه، ووجــوب محبته واتباعه والتأسي به والســير على نهجــه، وتحكيمه والرضى بحكمــه، وعــدم الميل عن سنته، ومتى تحقق ذلك ظهر أنه من قوة العقيدة. ويـدخل في ذلك الإيمان بفضائله وبمزاياه، وكان منها أنه عليه الصلاة والسلام سيد الخلق يوم القيامة، وأنه الشفيع المشفع، وأنه صاحب المقام المحمود والحوض المـورود والشـــفاعة في الآخـــرة، وكل ذلك يســـتدعي ممن قاله واعتقـــده أن يتبعه بالعمـل. ويـدخل في ذلـك: الإيمـان بكل ما جـاء العبد من الله تعـالى وبلغته رسل الله تعــالى. وبلا شك أن الرسل عليهم الصــلاة والســـلام -وخـــاتمهم وأفضلهم محمد عليه الصلاة والسلام- مكلفون من الله تعالى بتبليغ الرسـالة، وأنهم بلغوا ما أرسلوا به، فأدوا الأمانة وبلغوا الرسـالة ونصـحوا لأممهم، فكل ما بلغـوه وكل ما جـاءوا بـه، فالعبد يلـتزم به ويصـدقه، سـواءٌ كـان مجملاً أو مفصلاً. التفصيل: جاءنا في كتابنا الذين أنزله الله على قلب محمد صـلى الله عليه وسلم، فيه تفصيل أحوال الآخـرة وما يكـون بعد المـوت، وما يكـون في الدار الآخرة، فيؤمن العبد بذلك ويصدق بتفاصيله. والإجمال بالكتب السـابقة، فنؤمن بها إيمانـاً مجملاً، فنصـدق بأنها كلام اللـه، وبأنها من اللـه، وبأنها حـق، وبأن الله كلف الأمم الذين نزلت عليهم بالعمل بتفاصيلها، ولكن نحن ما كلفنا بالعمل ولا بالعلم بتفاصيلها، وإنما نـؤمن بها مجملـة، وهي تـدخل في الإيمـان بكتب الله. وأدلة ذلك واضحة والحمد لله، فإذا آمن العبد بكل ذلك وبغيره من تفاصيل العقيدة، صدق عليه أنه من أهل العقيدة الراسخة الذين يعملــون عن عقيدة، ويعملون عن يقين، ويعملون عن إيمـان، ولا يـردهم عن العمل شـبهة ولا شك، ولا يعتريهم توقف ولا ريب.

ظهور آثار العقيدة على العمل

فإذا اعتقد العبد العقيدة التي هي متلقاة عن الله تعالى وعن رسله، ظهرت آثارها على أعماله. وإذا رأيت المبتدعة الذين يخالفون الأدلة، دل ذلك على ضعف عقيدتهم، وعلى تزعزها وكونها على شفا جرف هار، وأنها لم تكن راسخة في قلوبهم. وهكذا إذا رأيت الذين يتهاونون بالسيئات ويرتكبون المحرمات، ويتركون الطاعات الواجبة، فإن ذلك دليل على ضعف معتقدهم، بحيث إنها لم ترسخ العقيدة في قلوبهم، ولم يطمئنوا بالإيمان، ولو اطمئنوا به لما أقدموا على هذه المخالفات، ولو استحضروا عظمة ربهم وأنه يراهم ويعلم سرائرهم وضمائرهم، لما أقدموا على المعاصي وهم يعرفون أنها معاص. فإذاً: يتفقد الإنسان نفسه، ويتفقد بني جنسه، ويعرف بذلك سليم العقيدة وضعيف العقيدة، يعرف بذلك من هو قوي في الإيمان متمكن منه قد رسخ الإيمان في سويداء قلبه، فيقول: هذا من أهل العقيدة، عرفته بقوة إيمانه، وعرفته بآثار إيمانه، وعرفته بقوة تصديقه، وعرفته بالعمل، وعرفته بالبعد عن الحرام، وعرفته بالبعد عن المشتبهات. وهذا ضعيف العقيدة: عرفته بتساهله في الإيمان، عرفته بتساهله بالمعاصي، عرفته بتساهله في ترك الطاعات، وما أشبه ذلك. فهذه هي النتيجة والفائدة الصحيحة لعلم هذه العقيدة، وتفاصيلها التي فصلت في الطحاوية، وكذلك في غيرها من عقائد أهل السنة، فتفاصيلها لا شك أنها تزيد العبد قوة وإيماناً، سواء منها ما يتعلق بالعقود أو ما يتعلق بالمواثيق، أو ما يتعلق بدخول الأعمال في مسمى الإيمان، أو ما يتعلق بالقضاء والقدر، أو ما يتعلق بعلم الغيب، أعني: العلوم الغيبية السابقة واللاحقة، أو ما يتعلق بالإيمان بالبعث وبما بعد البعث، أو ما يتعلق بالقبر وفتنته ونعيمه وما أشبه ذلك، أو ما يتعلق بالإيمان بالجنة والنار والثواب والعقاب والوعد والوعيد، أو ما يتعلق بالإيمان بالله وبملائكته وبكتبه وبرسله وما أشبه ذلك، كل ذلك يعتبر تفاصيل لأصل هذه العقيدة، ولكن الأصل كما قلنا: الإيمان بالله سبحانه وتعالى وبما جاء عن الله على مراد الله. وقد مضى الكلام حول المواثيق والعهود التي أخذها الله تعالى على عباده، بقوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ [الأعراف:172] وعرفنا أن هذا إما أنه -كما ورد في الأحاديث- العهد الذي أخذه الله على بني آدم وهم في أصلاب آدم، أو أنه العهد الذي فطر الله عليه العباد وجبلهم عليه، وهذا هو الأقرب والأمثل، يبينه قول الله تعالى: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا [الروم:30]، وقوله في الحديث القدسي: (إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، فأخرجتهم عن دينهم)، فكونهم حنفاء، أي: على الفطرة والحنيفية التي هي معرفة الله

ومعرفة ما خلقوا له، فهذا هو الأقرب. ولكن نـؤمن أيضـاً بالحـديث الـذي فيه (أن الله تعـالى اسـتخرج ذرية آدم من ظهـره، وعـرف منهم من هو من أهل الجنة ومن هو من أهل النـار، وقـال: هـؤلاء إلى الجنة ولا أبـالي، وهـؤلاء إلى النـار ولا أبـالي!)، فنـؤمن بـذلك وإن كنا لا نتـذكر ذلك العهـد، ولكن خـبر الله أوثـق. والأصل أن أدلة معرفة الله تعـالى لو تـرك عليها الإنسـان لعـرف أنه مخلـوق، وأن له خالقـاً، وأن خالقه له عليه حقـوق، فيـؤمن العبـاد بـذلك من جملة الإيمان بالغيب، ومن جملة العقيدة التي يعتقدونها.

القــدر غيب لا يطلع عليه أحد من الخلــق، وقد كتب الله تعــالى ما ســيعمله العبد، ولكن جعل له قدرة واختياراً يزاول بها ما أراد من خير أو شر، وهذا هو الذي يحاسب عليه.

القدر سر الله تعالى في خلقه

قــال المؤلف رحمه الله تعــالى: [وقولــه: (وأصل القــدر سر الله تعــالى في خلقــه، لم يطلع على ذلك ملك مقــرب ولا نــبي مرســل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحــذر كل الحــذر من ذلك نظــراً وفكــراً ووسوســة، فــإن الله تعــالى طــوى علم القــدر عن أنامــه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ [الأنبياء:23] فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتــاب كــان من الكــافرين). أصل القــدر سر الله في خلقــه، وهو كونه أوجد وأفــنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهــدى، قــال علي رضي الله عنــه: (القــدر سر الله فلا تكشفه)، والنزاع بين الناس في مسألة القدر مشهور والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الله تعــالى خــالق أفعال العباد، قال تعالى: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ [القمر:49]، وقال تعالى: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْــدِيرًا [الفرقــان:2]، وأن الله تعــالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه، ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كوناً ولا يرضاه دينــاً. وخــالف في ذلك القدرية والمعتزلة: وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكنّ الكافر شاء الكفــر؛ فــروا إلى هــذا لئلا يقولــوا: شــاء الكفر من الكــافر وعذبه عليــه! ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار! فــإنهم هربــوا من شــيء فوقعــوا فيما هو شر منه! فإنه يلزمهم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى فــإن الله قد شاء الإيمان منه - على قولهم -والكافر شــاء الكفــر، فــوقعت مشــيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى! هذا من أقبح الاعتقاد، وهو قــول لا دليل عليــه، بل هو مخــالف للــدليل: روى اللالكــائي من حــديث بقية عن الأوزاعي حــدثنا العلاء بن الحجاج عن محمد بن عبيد المكي : عن ابن عبــاس: (أن رجلاً قــدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلوني عليه -وهو يومئذ أعمى- فقالوا لــه: ما تصــنع به؟ فقال: والــذي نفسي بيــده لئن اســتمكنت منه لأعضن أنفه حــتى أقطعــه، ولئن وقعت رقبته بيــدي لأدقنهــا، فــإني ســمعت رســول الله صــلى الله عليه وسلم يقول: كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج تصطك أليــاتهن مشــركات، هذا أول شرك في الإسلام، والذي نفسي بيــده لينتهين بهم ســوء رأيهم حــتى يخرجوا الله من أن يقدر الخير، كما أخرجوه من أن يقدر الشر). قوله: (وهذا أول شرك في الإســلام..) إلى آخــره من كلام ابن عبــاس وهــذا يوافق قولــه: (القـــــدر نظـــــام التوحيـــــد، فمن وحد الله وكـــــذب بالقـــــدر نقض تكذيبه توحيده)]. ......

لا يسأل عما يفعل

هذا يتعلق بالقضاء والقدر، ويـذكر المؤلف أن القـدر سر الله تعـالى في كونه وفي أمره، ووجه كونه سراً لا يعلمه البشر أن الـرب سـبحانه له الحكمة في كونه هدى هذا وأضل هذا، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ولا يجـوز للعبـاد أن يسـألوا عن الأسـباب في أفعـال الله تعـالى، فلا يقـال: لمـاذا حبس الله الخير؟ لمـاذا أنـزل الله العـذاب؟ لمـاذا خلق الله الأمـراض؟ لمـاذا خلق الله الحشرات والأضرار؟ لماذا خلق الله السباع؟ لماذا سـلط الله على المؤمـنين الأمراض والعاهات والفقر؟ لماذا سلط عليهم الكفار؟ لماذا أفقر هـذا وأغـنى هذا؟! قال تعالى: لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ [الأنبياء:23]، لكن مع ذلك نعرف أنه سبحانه حكيم يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها ، فلا يفعل شيئاً عبثـاً: أَفَحَسِـبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـاكُمْ عَبَثًا [المؤمنـون:115] وليس شـيء من خلقه موجوداً إلا لحكمة، ولم يسلط عقوبة ولم يخلق مرضاً إلا لمصـلحة ولحكمـة، سـواء علمنا تلك الحكمة أو حجبت عنـا؛ لأن هـذا مقتضى اسـمه الحكيم، أي: ذي الحكمة الـتي هي غاية المصـلحة، ولكن ليس لنا الاعـتراض على تصـرفه، فهو سبحانه يتصرف في خلقه كيف يشاء فيهدي هـذا فضـلاً منـه، ويضل هـذا عدلاً منه، ويغني ويفقر، ويميت ويحيي، ويسعد ويشقي، ويمنع ويعطي، لا راد لقضـائه ولا معقب لحكمـه. وليس لنا أن نعـترض على الله تعـالى، بل نـؤمن بذلك كله ونقول: لا نعلم الحكمة في ذلك ولا نعلم السر في ذلك، فالقدر سر الله في خلقه، هذا من ناحية خلقه الأشياء النافعة والضارة معاً.

خلق الخير والشر دليل على كمال القدرة ولكن لا ينسب الشر إلى الله

ولا شك أن خلق الخـــير والشـــر، وخلق النفع والضر المتضـــادين، دليل على كمال القدرة، فإننا إذا رأينا أنه فرق بين الأخوين: هـذا غـني وهـذا فقـير، هـذا سليم وهذا مريض، هذا سعيد وهذا شقي، هـذا مهتد وهـذا ضـال؛ فلا شك أن هذا يدل على كمال التصـرف، وأنه تصـرف في خلقه كيفما شـاء، وذلك دليل كمال القدرة. فالظلمة ضدها النور، والليل ضـده النهـار، وكـذلك المزدوجـات كما في قوله تعالى: وَمِنْ كُلِّ شَـيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ [الـذاريات: 49] يعـني: ذكـراً وأنـثى، فهكـذا أيضا المتضـادات: الصـحة والمـرض ضـدان، والخير والشر، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، الله تعالى هو الذي خلقها وقدرها، ولكن نعرف أن كل ما صدر عن الله تعالى فإنه بالنسـبة إلى إيجـاده هو خير، ولذلك ورد في حديث الاستفتاح: (لبيك وسعديك، والخير كله بيـديك،

والشر ليس إليــك). معلــوم أن الله يقــدر الأمــراض، وهو الــذي قــدر الفقر والمصائب، وهو الذي يقدر العاهات على العباد ونحوهــا، ولكن هل يقــال: إنها شر بالنســبة إلى اللــه؟ ليست شــراً، بل هي لحكمة ومحض مصــلحة، فهــذا معنى قوله: (والشر ليس إليك). وإذا تتبعت القرآن والأدلة تجد أن كل ما فيه شر ينسب إلى الإنسان وإن كان الله هو الذي أوجده وكونه وقدره، حكى الله عن إبراهيم أنه قال: وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُــوَ يَشْــفِينِ [الشعراء:79-80] لم يقــل: وإذا أمرضــني، مع أن الله تعــالى هو الــذي يــنزل المــرض ويقــدره، ولكن لا يضــاف إليه الشر المحض. وحكى الله عن مؤمــني الجن أنهم قــالوا: وَأَنَّا لا نَــدْرِي أَشَــرٌّ أُرِيــدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا [الجن:10] فالشر قــالوا: أريــد، والخــير قــالوا: (أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ) وذلــك: حتى ينزه الله تعالى عن أن يصدر منه الشر المحض، وإن كان هو الــذي قــدر الشــر، وخلقه وكونــه، فإنه لا يكــون في الوجــود إلا ما يريــد، فيعتقد العبد أن صدورها من الله تعالى خير ومحض مصلحة، وليس فيها أية ضرر بالنسبة إلى الله، ولو كان فيها كراهية للعباد وضرر عليهم حسياً، لكن ما خلقها وقدرها إلا لحكمة ومصلحة، فهي خير، فلا يضاف الشر إلى الله تعالى؛ هذا هو قول أهل السنة.

مذهب المعتزلة في أفعال العباد

ســمعنا أن طائفة المعتزلة أنكــروا أن يكــون الله تعــالى يخلق أفعــال العبــاد، وجعلوا العبد هو الذي يخلق فعلــه، وجعلــوا العبــاد هم الــذي يهــدون أنفســهم، ويضلون أنفسهم، وكذبوا بالنصوص الواردة في مثل إضــافة الأفعــال إلى الله تعالى، كقوله تعــالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْــدِي مَنْ يُضِــلُّ [النحــل:37] وكقوله تعــالى: وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [الزمر:23]، وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَــهُ مِنْ مُضِــلٍّ [الزمر:37]. وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الحاجة: (من يهد الله فلا مضل له، ومن يضــلل فلا هــادي لــه)، أي: أن الله هو الــذي هــدى هذا وأقبل بقلبه إلى الخير، وأضل هــذا وصــرفه إلى الشــر، وله المنة والنعمة على المهتــدين، وهو العــادل في صــرف هــؤلاء المعتــدين الظــالمين، ولكن ما عذبهم وهو ظالم لهم، ولو عذب أهل ســماواته وأهل أرضه لعــذبهم وهو غــير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته أفضل من أعمالهم.

الرد على المعتزلة في المشيئة

فعلى هـذا نقـول: إن الله تعـالى هو الـذي خلق أفعـال العبـاد، ولو شـاء لما فعلوها، فلو شاء لما ضل هذا ولما اهتدى هذا، فهو الذي من على هذا وهداه، وهو الذي أضل هذا وصرفه، قال الله تعـالى: فَمَنْ يُـرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَـهُ يَشْـرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِـلَّهُ يَجْعَـلْ صَـدْرَهُ ضَـيِّقًا حَرَجًا [الأنعـام:125]. وقد حكى الله عن المشركين أنهم يتعلقـون بعمـوم المشـيئة، ولا متعلق لهم في ذلك، فإذا قال المشركون مثلاً: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ [الأنعام:148]، أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ [يس:47]، نقـول: حقاً أن الله لو شاء ما أشركتم، ولكنه سبحانه خـذلكم عـدلاً منـه، ولم يقـدر لكم الهداية؛ لكن أعطـاكم قـوة وأعطـاكم اختيـاراً، وأعطـاكم ميلاً صـرتم به مائلين إلى أفعال الشر وإلى الكفر وإلى المعاصي، فميلكم هـذا واختيـاركم -وإن كان مسبوقاً بقضاء الله وقدره- هو الذي تستحقون عليه العقوبة. فلذلك يقول أهل السنة: إن الله تعالى تغلب قدرته قـدرة العبـاد، ولكن أعطانا قـوة وأعطانا قدرة وأعطانا اسـتطاعة نتمكن بها من مزاولة الأعمـال، وقـدرة الله ومشيئته غالبة على قدرة العبادة ومشـيئتهم وإرادتهم، ولأجل ذلك يقـول الله تعالى: وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [الإنسان:30]، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام في الدعاء المأثور: (ما شاء الله كـان وما لم يشأ لم يكن). المعتزلة ما اتسـعت نفوسـهم لهـذا، فقـالوا: إن قـدرة العبد غلبت قـدرة اللـه، وعلى قـولهم يكـون في الوجـود ما لا يريـد، فإنه أراد من النـاس كلهم أن يؤمنـوا، ولكن غلبت قدرة هؤلاء الكفار قدرة الله، فاختـاروا الكفـر، فكـان في الكـون من يخلق مع الله؛ لأنهم خلقوا أفعال العباد مسـتقلين بهـا، دون أن يكـون لله تصرف بها ولا قدرة عليها، فكانوا بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار، كـأنهم يقولون: لو أنه خلق فيهم ذلك وعذبهم لكان ظالماً لهم، إذ كيف يعـذبهم وهو الــذي خلق فيهم الكفر وخلق فيهم المعاصي وأقــدرهم عليهــا. نقــول: أنتم فـررتم من شـيء ووقعتم في شر منـه، حيث جعلتم الله مغلوبـاً على أمـره، حيث قلتم: إنه يعصى قسراً، وإن قدرتهم تغلب قدرته؛ تعالى الله عن ذلك.

المعتزلة مجوس هذه الأمة

ولأجل ذلك الاعتقاد الـذي هو قـولهم: إن الله معه من يخلـق، سـموا مجـوس هذه الأمة، لأن المجوس يجعلـون الأمر صـادراً عن خـالقين: النـور والظلمـة، فالنور هو الـذي يخلق الخـير والظلمة هي الـتي تخلق الشـر، والقدرية الـذين ينكرون قدرة الله يجعلون العباد يخلقون أفعـالهم مسـتقلين بهـا، ولا يجعلـون لله قدرة على الهداية ولا على الإضلال. وبكل حال فعقيدة أهل السـنة أن لله

تعالى قدرة تغلب قدرة العباد، ولكن يثيب العباد ويعـاقبهم على ما أوجد فيهم من القدرة والاستطاعة التي يتمكنون بها من مزاولة الأعمـال، فثـواب العبـاد وعقابه على طاعته، كما في قوله: جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [السجدة:17]، بِمَا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيكُمْ [آل عمـران:182]، بِمَا كَسَـبَتْ أَيْـدِيكُمْ وَيَعْفُـوا عَنْ كَثِـيرٍ [الشورى:30]. فما دام أنهم أضيفت إليهم الأعمـال، فلا بد أن لهم اسـتطاعة ولهم قدرة يتمكنون بها من إيجاد الإيمان والكفر، وإيجاد الطاعات والمعاصي، ولكن كل ذلك مسبوق بقدرة الخالق تعـالى وباختيـاره وبقهـره، ولو شـاء لما حصل ذلك الإثم. قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَـةُ فَلَـوْ شَـاءَ لَهَـدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [الأنعـام: 149]، فله الحجة على خلقه، فهو الذي يقدر على أن يعطي هـذا الهداية منا منه وكرماً، ويخذل هذا. وهـذا بحث واسع يتعلق بالقضـاء والقـدر، وقد أطـال فيه العلمـاء حـتى يبطلـوا شـبهة طـائفتين: طائفة غلت في الإثبـات، وطائفة غلت في النفي. فالـذين غلـوا في النفي نفـوا قـدرة اللـه، وهـؤلاء يسـمون قدرية، وهم نفاة القدر، وهم عموم المعتزلة. والذين غلوا في الإثبات يسمون المجبرة أو الجبرية، فإنهم غلوا في الإثبات حتى سـلبوا العبد قدرته واختيـاره وجعلـوه كشـجرة تحركها الريـاح ليس له أي اختيـار، وجعلـوا تعـذيبهم على المعاصي ظلمــاً من الله لهم، تعــالى الله عن قــولهم! وتوسط أهل الســنة والجماعة وجعلــوا للعبد قــدرة وإرادة، والله خالقه وخــالق قدرته وإرادتــه، وجعلوا العباد فاعلين حقيقة تضـاف إليهم أعمـالهم، فالعبد المـؤمن والكـافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم تسند إليه هـذه الأعمـال، وإن كـانت بقضـاء الله وقدره وبخلقه وبإرداته، حيث لا يخرج شيء عن إرادة الله تعالى.

قصتان لمجوسي وأعرابي مع المعتزلة

قـال المؤلـف: [وروى عمر بن الهيثم قـال: خرجنا في سـفينة وصـحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري للمجوسي: أسلم! قال المجوسي: حـتى يريد الله فقال القدري: إن الله يريد ولكن الشيطان لا يريد! قـال المجوسـي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشـيطان! هـذا شـيطان قـوي! وفي رواية أنه قـال: فأنا مع أقواهمـا!!. ووقف أعـرابي على حلقة فيها عمـرو بن عبيد فقال: يا هؤلاء! إن ناقتي سرقت فادعوا الله أن يردها عليّ، فقـال عمـرو بن عبيد : اللهم إنك لم تـرد أن تسـرق ناقته فسـرقت فارددها عليـه! فقـال الأعـرابي: لا حاجة لي في دعائـك! قـال: ولم؟ قـال: أخـاف -كما أراد أن لا تسرق فسرقت- أن يريد ردها فلا ترد! وقال رجل لـأبي عصـام القسـطلاني: أرأيت إن منعني الهدى وأوردني الضلال ثم عذبني؛ أيكـون منصـفاً؟ فقـال له أبو عصـام: إن يكن الهـدى شـيئا هو لـه، فله أن يعطيه من يشـاء ويمنعه من يشاء. وأما الأدلة من الكتـاب والسـنة: فقد قـال تعـالى: وَلَـوْ شِـئْنَا لَآتَيْنَا كُـلَّ

نَفْسٍ هُـدَاهَا وَلَكِنْ حَـقَّ الْقَـوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [السجدة:13]، وقال تعـالى: وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَـأَنْتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ [يـونس:99]، وقـالَ تعـالى: وَمَا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـالَمِينَ [التكـوير:29]، وقـال تعـالى: وَمَا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ عَلِيمًا حَكِيمًا [الإنسـان:30]، وقـال تعالى: مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَـأْ يَجْعَلْـهُ عَلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ [الأنعـام: 39]، وقال تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ [الأنعـام:125]. ومنشأ الضـلال: من التسـوية بين المشـيئة والإرادة، وبين المحبة والرضـا، فسـوى بينهما الجبرية والقدرية ثم اختلفوا: فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره فيكون محبوباً مرضياً، وقالت القدرية النفـاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مقدرة ولا مقضية؛ فهي خارجة عن مشـيئته وخلقـه]. في هـذه القصص الـتي سـمعنا ما يبطل قـول المعتزلـة، ففي القصة الأولى مجوسي وقدري، والمجوس معلوم أنهم يجعلون الكـون صـادراً عن خـالقين: خالق للخير وخالق للشر، وهذا المجوسي باق على مجوسـيته، فهـذا القـدري دعاه إلى الإسلام، فقال المجوسي: لا أسـلم حـتى يريد الله أن أسـلم، فقـال ذلك القـدري: الله يريد الإسـلام منـك، ولكن الشـيطان هو الـذي يريد منك الكفر، فتعجب ذلك المجوسـي، وقـال: هـذا شـيطان قـوي، وقـوة الشـيطان غلبت قـوة اللـه! فالله أراد أن أؤمن والشـيطان أراد أن أكفـر، فغلبت إرادة الشيطان إرادة الله. فخصم ذلك المعـتزلي، ولو أنه قـال: إن الله تعـالى أراد كل شـيء، فـأراد منك الإيمـان وأحبه منـك، ولكن جعل لك قـدرة وميلاً واستطاعة تزاول بها العمل، لكان ذلك أقرب أن يتقبل، فهذه لا شك أنها دالة على أن المعتزلة متذبذبين في شبهاتهم وفي حججهم. أما القصة الثانية فهي قصة صاحب البعير مع المعتزلي، وهذا من أول من أظهر الاعتزال، فأول من أظهر الاعـتزال في عهد السـلف هو واصل بن عطـاء، وتبعه عمـرو بن عبيـد، فلما دعا الله ذلك المعتزلي بقوله: اللهم إنك لم ترد أن يسرق البعير فاردده، فطن الأعـرابي وقـال: الله أراد ألا يسـرق فسـرق، إذاً: لو أراد أن يـرده لم يقدر، فلا حاجة لي بدعائك. الله تعالى هو الذي يريد كل شـيء ولا يكـون في الوجـود إلا ما يريـد، ولكنه يقـدر هـذه الأشـياء كما يشـاء. وبكل حـال فالأدلة واضـحة الدلالة في أن مشـيئة الله تعـالى وقدرته عامـة، وأنه لا يكـون في الوجود إلا ما يريد، فإن قوله تعالى: وَمَا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ [الإنسـان: 30]، أي: مشيئتكم التي تزاولون بها الأعمال مرتبطة بمشـيئة اللـه. وقولـه: مَنْ يَشَـإِ اللَّهُ يُضْـلِلْهُ وَمَنْ يَشَـأْ يَجْعَلْـهُ عَلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ [الأنعـام:39]؛ فإضـلاله لهـؤلاء عـدل منـه، ولكنه معلـوم أنه مكنهم من الأعمـال، فزاولـوا الأعمال السيئة من الكفر والذنوب، فعذبوا على تلك المزاولة التي صـاروا بها كفاراً مقـدمين للكفر ومقـدمين للمعاصـي، وهـدى المؤمـنين وأقبل بقلـوبهم ومكنهم وأعطاهم قدرة يزاولون بها الطاعات والإيمان، فصاروا بذلك مؤمنين مطيعين، فعذب هؤلاء على معاصيهم وكفرهم وإن كـان بقضـاء وقـدر، وأثيب هؤلاء على إيمانهم وطاعتهم وإن كان بقضاء وبقدر.

لقد ضل في باب القدر طائفتـان وهما الجبرية والقدريـة، ومنشأ ضـلالهم من التســوية بين المشــيئة الكونية والإرادة الشــرعية، وقد نشــأت لهم من ذلك تســاؤلات وأوهـام قد توصل بعضـهم إلى الانحلال من التكـاليف، وقد أجـاب السلف عن تلك الشبهات ودمغوها بالكتاب والسنة.

مراتب القدر

من أركان الإيمان بالله: الإيمان بقضائه وقـدره، فهو ركن من أركـان الإيمـان السـتة، ذكـره النـبي صـلى الله عليه وسـلم بقولـه: (الإيمـان أن تـؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خـيره وشـره)، وذكـره الله تعالى بقوله: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ [القمر:49]، وبقوله تعالى: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا [الفرقان:2].......

العلم والكتابة

والإيمـان بالقـدر على درجـتين، كل درجة تتضـمن شـيئين: أولاً: العلم، وثانيـاً: الكتابـة، وقد دل على ذلك قوله تعـالى: وَعِنْـدَهُ مَفَـاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُـوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَمَا تَسْـقُطُ مِنْ وَرَقَـةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، هـذا دليل على العلم، وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَـابِسٍ إِلَّا فِي كِتَـابٍ [الأنعـام: 59]، هذا دليل على الكتابة. كذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يــوم القيامة) أي: أنه تعالى علم ما سوف يحدث من أول الدنيا إلى آخرهــا، وأثبت ذلك، وليس في ذلك صعوبة على الله، قال تعـالى: مَا أَصَـابَ مِنْ مُصِـيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِــكُمْ إِلَّا فِي كِتَـابٍ مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [الحديد:22] يعـني: علمه وكتابته للأشـياء قبل وقوعها يسـير عليه ليس فيه صـعوبة؛ لأنه هو الـذي أوجد الكائنـات، فلا يكـون في الوجـود إلا ما يريـد، وحيث إنها تكــون بإرادته ســبحانه وتعــالى، فإنها كــذلك كائنة بعد خلقه وبعد إيجــاده لهــا، فهو علمها قبل أن توجد وأثبتها في اللــوح المحفــوظ كما أخــبر بذلك. وقد كـان غلاة القدرية قـديماً ينكـرون هـذا النـوع ويقولـون: إن الله لا يعلم بالأشياء حتى تقع، وبعضهم يقـول: إنه يعلم الكليـات ولا يعلم الجزئيـات، بمعـنى: أنه لا يعلم مفـردات الأشـياء وإن كـان يعلم عموماتهـا، وقد ورد في حديث: (أن ثلاثة من أهل مكة اجتمعوا في مكان فقال بعضهم: أترون أن الله يسـمع ما نقـول، فقـال الثـاني: يسـمع إذا جهرنا ولا يسـمع إذا أخفينـا، وقـال الثالث مستنكراً: إن كـان يسـمع جهرنا فإنه يسـمع سـرنا، فـأنزل الله تعـالى قوله تعـالى: وَمَا كُنْتُمْ تَسْـتَتِرُونَ أَنْ يَشْـهَدَ عَلَيْكُمْ سَـمْعُكُمْ وَلا أَبْصَـارُكُمْ وَلا

جُلُـودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِـيرًا مِمَّا تَعْمَلُـونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِـــرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ [فصـــلت:22-23] -يعـــني: أهلككم- فَأَصْـــبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِــرِينَ [فصـلت:23]) فهكـذا ظن هـؤلاء الـذين يظنـون أن الله لا يعلم أعمالهم، أو أنه يخفى عليه شيء من أحـوالهم، أو أنهم يكونـون في مكـان أو موضع لا يراهم ربهم أو نحو ذلك. وفائدة العبد إذا آمن بـأن الله عـالم بسـره وعالم بنجـواه، وعـالم بأحوالـه، وعـالم بما هو عامـل، وإذا علم وآمن بأنه قد كتب أعماله قبل أن يوجـــده، وقد كتب ما هو كـــائن، ويعلم ما توســـوس به نفسه، ويتحدث به قلبه؛ لا شك أن فائدة ذلك أنه يخاف الله حق الخوف، فإن من علم أن أعماله محصاة عليـه، وعلم أنها مكتوبة لا تضـيع؛ دقيقها وجليلهـا، كبيرها وصغيرها، وأنه سوف يحاسب عليها، وأنه سـيوقف عليها كما في قوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْـطَ لِيَـوْمِ الْقِيَامَـةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئًا وَإِنْ كَـانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ [الأنبيـاء:47]؛ فإنه سـيخاف اللـه. فهـذه درجة من درجـات القـدر، وهي الإيمـان بـأن الله عـالم بالأعمـال وبالمخلوقــات، وعـــالم بعــددها، وكتب ذلك وأثبته قبل أن توجد المخلوقــات بأسرها، وأنه لا يحدث إلا ما علم الله أنه سوف يحدث، في الوقت الذي قــدر أنه يحدث فيه دون تقدم أو تأخر.

الإرادة والخلق

وأما الدرجة الثانية فهي الإيمان بإرادة الله تعالى وبخلقه، هذه الدرجة تتضمن أن الله أراد ما في الكـون وخلقـه. والإرادة عامة لا يكـون شـيء في الوجـود خارجاً عنها، وهي الإرادة الكونية القدرية التي بمعـنى المشـيئة، فلهـذا يقـول المسلمون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ويقولـون: لا حـول ولا قـوة إلا بالله، فلا يكون في الوجود حركة إلا بإرادة الله ومشيئته، ولا يكون لإنسان حـول إلا بـإذن اللـه، ولا يكـون له قـوة ولا قـدرة ولا اسـتطاعة على أمر من الأمور إلا بالله تعالى، فما شاءه كـان وإن لم يشأ العبـاد، وما شـاءه العبـاد لا يكـون إذا لم يشأ الله كما قـال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله في أبيـات له: فما شئتَ كان وإن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن فيؤمن العبد بـأن ما شاء الله كان وإن لم يشأ الخلق، وما لم يشأ الله لم يكن وإن شاء الخلق، ومصداق ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم لـــابن عبـاس : (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشـيء لم يضـروك إلا بشـيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعوا على أن ينفعون بشيء لم ينفعـوك إلا بشـيء قد كتبه الله لـــك، رفعت الأقلام وجفت الصـــحف)، ومع ذلك فإنا إذا آمنّا بكتابة هـــذه المخلوقات وبإيجاد الله لها، لم يكن ذلك عذراً لنا في ترك الأعمال، بل يزيدنا ذلك نشاطاً في العمل وجداً واجتهـاداً، وما ذاك إلا أننا خلقنا للعمـل، وأعطينا

من القوة ما نستطيع به مزاولة الأعمال. فهذا هو الجمع بين كـون الله تعـالى خـــالق ما في الوجـــود، وأنه يريد ما في الكـــون، وبين كونه أراد من العبـــاد أفعـالهم الـتي هي الطاعة والإيمـان، أراد ذلك دينـاً وشـرعاً وأمـرهم بما هم قـادرون على امتثالـه، وأعطـاهم من القـوة ما يزاولـون به تلك الأعمـال وما يصح أن تنسب إليهم، ويثابون عليها ويعاقبون عليهـا، فعلى هـذا يجتمع إيمـان أهل السنة بما ذكرنا، ويكون هـذا من السر الـذي لا يعلم كيفيته إلا اللـه، كما تقدم لنا أن القدر سر الله تعالى في خلقه.

التسوية بين المشيئة والمحبة هي منشأ الضلال في القدر

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [ومنشأ الضـلال: من التسـوية بين المشـيئة والإرادة وبين: المحبة والرضـا، فسـوى بينهما الجبرية والقدرية ثم اختلفـوا: فقالت الجبرية: الكـون كله بقضـائه وقـدره، فيكـون محبوبـاً مرضـياً. وقـالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مقدرة ولا مقضـية، فهي خارجة عن مشـيئته وخلقـه. وقد دل على الفـرق بين المشـيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة، أما نصوص المشـيئة والإرادة من الكتاب فقد تقدم ذكر بعضها. وأما نصوص المحبة والرضا فقـال تعـالى: وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ [البقرة:205] وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ [الزمر:7]، وقال تعالى عقب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر: كُلُّ ذَلِكَ كَـانَ سَـيِّئُهُ عِنْـدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا [الإسـراء:38]. وفي الصـحيح عن النـبي صـلى الله عليه وسلم: (إن الله كره لكم ثلاثا: قيل وقـال، وكـثرة السـؤال، وإضـاعة المـال)، وفي المسـند: (إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكـره أن تـؤتى معصـيته)، وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ برضاك من سـخطك، وأعـوذ بمعافاتك من عقوبتـك، وأعـوذ بك منـك). فتأمل ذكر اسـتعاذته بصـفة الرضا من صفة السـخط، وبفعل المعافـاة من فعل العقوبـة، فـالأول للصـفة والثـاني لأثرها المـترتب عليهـا، ثم ربط ذلك كله بذاته سـبحانه وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره؛ فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتـك، وما أعـوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبـــدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فإعاذتي مما أكره ومنعه أن يحل بي هي بمشيئتك أيضاً، فالمحبوب والمكروه كله بقضـائك ومشـيئتك، فعيـاذي بك منــك، فعيــاذي بحولك وقوتك ورحمتك مما يكــون بحولك وقوتك وعــدلك وحكمتك، فلا أستعيذ بغـيرك من غـيرك، ولا أسـتعيذ بك من شـيء صـادر عن غـــير مشـــيئتك، بل هو منـــك. فلا يعلم ما في هـــذه الكلمـــات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته].
......

يقول: إن الذين ضلوا في هذا الباب سووا بين المشيئة والإرادة، والصحيح أن بينهما فرقاً: فإن الإرادة تنقسم إلى قسمين: إرادة شرعية وإرادة قدرية. فالإرادة القدرية هي بمعنى المشيئة، والإرادة الشرعية بمعنى المحبة، فالله تعالى أراد الطاعات شرعاً وأحبها، وأراد المعاصي كوناً وكرهها ولم يحبها، ولكنه قدرها وأرادها وشاءها، ولو لم يشأها لم تكن، ولكنه ما رضيها ولا أحبها، بل كرهها وتوعد عليها ولو كانت بمشيئته وبقدرته وبإرادته الكونية حتى لا يكون في الوجود ما لا يريد، وحتى لا يعصى ربنا قسراً عليه. فنعرف بذلك أن هناك فرقاً بين المشيئة والإرادة، أي: الإرادة الشرعية، فالإرادة الشرعية هي كونه تعالى يريد الطاعات، يعني: شرعها وأرادها وأحبها. وقد ذكر الله هذه الإرادة في مواضع كقوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [البقرة:185]، فهذه إرادة شرعية، وكذلك قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ [النساء:26] وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا [النساء:27] يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ [النساء:28]، فهذه الإرادات شرعية. نقول: إن الله تعالى أراد الطاعات شرعاً، فأراد من الخلق كلهم الإيمان شرعاً، وأراد منهم الطاعات، فأراد منهم أن يصلوا، وأراد منهم الصيام، والصدقات، والزكوات، والجهاد، والحج، والعمرة، والذكر، والقراءة، والبر والتقوى، أراد هذا منهم شرعاً، وأحب هذه الطاعات، وأراد منهم ترك المعاصي شرعاً، وكره منهم تلك المعاصي؛ فهذه إرادة شرعية وهي تستلزم المحبة للمراد. فإذا شرع الله شيئاً وأراده شرعاً فإنه يحبه ولو لم يكن، فيحب الإيمان من الخلق كلهم ولو لم يحصل إلا من بعضهم، ويحب الصلوات من الناس كلهم ولو أن بعضهم ما حصلت منه الصلاة، ويحب الصوم، ويحب الصدقات، ويحب الجهاد، ويحب التوبة، ويحب الاستغفار، ويحب الأذكار، ويحب التلاوة، يحب ذلك منهم وقد أراده شرعاً، ولكنه لم يحصل إلا من البعض وهم المسلمون المؤمنون. فهذه إرادة شرعية، وهي التي ذكرنا أن الله تعالى يحب ما يترتب عليها، ولكنها لا تستلزم وجود المراد، فقد يريد شرعاً أمراً ولكنه لا يحصل لكونه ما أراده قدراً، فمثلاً: أراد من الكفار الإيمان شرعاً ولم يرده قدراً، فلذلك لم يحصل، وأراد من العصاة أن يطيعوه ولكنه لم يرده قدراً ولم يشأه، فلذلك لم يحصل، هذا معنى الإرادة الشرعية. أما الإرادة الكونية: فهي التي لا بد أن يقع مرادها، وقد ذكرت في آيات كثيرة كقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ [المائدة:1] وقوله: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ [الأنعام:125] وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ [الأنعام:125]، فهذه إرادة كونية، أي: مكتوبة في الكون وفي الأزل، وهي القدرية، وهي التي يقع المراد بها، وإن لم يكن محبوباً، فليس كل ما يريده الله من هذه الكائنات يكون محبوباً، فلذلك نقول: إنه أراد المعاصي كوناً ولكنه لا يحبها، وأراد الكفر كوناً ولكنه لا يحبه ولم يرده شرعاً، ومع ذلك لو

لم يشـأه لما حصـل، فإنه لا يكـون في الوجـود إلا ما يريد ولمّا لم يحبه ولم يأمر به شرعاً بل كرهه، كان مترتباً عليه العقاب!

القدرية والجبرية لا يثبتون إلا الإرادة الكونية

هذا هو المـراد بكونه سـبحانه لا يكـون في الوجـود إلا ما يريـد؛ ولكن غلا في هـذه الإرادة قـوم ونفاها قـوم، وتقابل الطرفـان والطائفتـان، فطائفة جبرية جعلوا كل الموجودات مخلوقة لله ولم يجعلوا للإنسان أي تصرف، بل جعلـوه مجبوراً ليس له أي اختيـار، وقـالوا: إن عقوبته على المعاصي ظلم، حيث إنه مقسـور ومجبـور عليهـا؛ فهـذه الطائفة هم الجبريـة. والطائفة الثانية الـتي قابلتهم: هم نفاة القدر أو نفاة قدرة اللـه، وهم الـذي يقولـون: نـنزه الله عن الظلم فنقـول: إنه لو خلق هـذه المعاصي وعـاقب عليها لكـان ظالمـاً، فهـذه الطائفة غلت في النفي فقالت: إن أعمال العباد ومعاصيهم وطاعـاتهم ليست من خلق اللـه، بل من خلقهم ومن إيجـادهم، وإن العبـاد هم الـذي يوجـدون أفعـالهم، فهـذه الطائفة غلت في النفي، وجعلت الإنسـان يخلق فعلـه، ونفت أن يكـون لله أي قـدرة على أفعـال العبـد، وزعمـوا بـذلك أنهم أهل العـدل والتوحيد. وكلا الطائفتين ضال؛ فالطائفة الأولى جعلت القـدر عـذراً للعصـاة، حيث إنهم يقولـــون: كيف يخلقنا ويخلق فينا المعاصي ثم يعاقبنا عليهـــا؟ والطائفة الثانية: جعلت مع الله من يخلق، وجعلت كل إنسان خالقـاً مسـتقلاً بأفعالـه، وكـذبت الأدلة الـتي تثبت أن الأمر بيد الله تعـالى يضل من يشـاء ويهدي من يشاء.

مذهب أهل الحق في خلق أفعال العباد

وتوسط أهل الحق وقـالوا: إن الكائنـات حاصـلة بقـدرة الله كلها طاعـات ومعاصـي، ولكن تنسب إلى العبد من حيث إن الله أعطى العبد قـدرة يـزاول بها الأعمال ويصح نسبتها إليه؛ ولأجل ذلك يقولـون: إن العبـاد فـاعلون حقيقة والله خـالقهم وخـالق أفعـالهم، فالعبد هو المـؤمن والكـافر، والـبر والفـاجر، والمصلي والصائم؛ تنسب أعماله إليه وإن كـانت بقضـاء الله تعـالى وبقـدره، وبإرداته الكونية، وبمشيئته التي حصلت بإرادة اللـه، ولكنها تنسب إلى العبـد. ولو سـلبنا العبد هـذه القـدرة لبطلت الشـريعة، وفي بطلان الشـريعة بطلان

الحكمة من إرسـال الرسل ومن إنـزال الكتب، ومن الأوامر والنـواهي، ومن خلق الثواب والعقاب، والله تعـالى مـنزه عن ذلـك. فلو لم يكن للعبـاد قـدرة على مزاولة أعمـالهم لما أمـروا؛ ولأجل ذلك تتوجه إليهم الإرشـادات فيقـول الله تعالى: اعْمَلُـوا فَسَـيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُـونَ وَسَـتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ [التوبـة:105]، فـأخبر بـأنهم لهم أعمـال، ولو لم يكن لهم قـدرة لما أمـروا، ولكن الله تعـالى خـالقهم وخـالق قـدرتهم، وقـدرتهم مسبوقة بقدرة الله. أما أدلة الرضا فقد مر بنا الآيات والأحاديث في إثبات أن الله تعـالى يرضى ويسـخط، وللرضا والسـخط أسـباب ذكر في هـذه الآيـات بعضها، فتارة يثبته وتـارة ينفيـه، يقـول الله تعـالى: إِنْ تَكْفُـرُوا فَـإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ [الزمر:7]، فأخبر بأنه لا يرضى الكفر، ومعناه أنه يكرهه، وأخبر بأنه يرضى بالشكر وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ [الزمر:7]، وأضاف هنا الكفر إليهم؛ لأنه الذي صدر بأفعـالهم وإن كـانت مقـدرة، والشـكر إليه تشـكره، وهكـذا الحـديث: (إن الله يرضى لكم ثلاثـاً ويسـخط ثلاثـاً)، فـأثبت الرضا وأثبت السـخط، وأثبت الكراهيـة: (وكـره لكم ثلاثاً)، أثبت أن هذه المعاصي يكرهها الله. ومعلوم أنه نهى العبـاد، وما نهـاهم إلا ولهم قدرة على الانتهاء، وعلى أن ينزجروا ويـتركوا الأعمـال السـيئة الـتي منها الكفـر. والحاصـل: أن من عقيـدة أهل السـنة إثبـات أن الله يرضى ويسخط ويحب ويكره، وأن الأعمال التي يحبها قد أمر بها عبـاده، وما أمـرهم إلا وهم قادرون، وأن الأعمال التي نهى عنها يسخطها ويكرهها، ولا ينهـاهم إلا عن شـيء يقـدرون على فعلـه، فـإن العـاجز لا يُنهى عما يعجز عن فعلـه، فلا يقال مثلاً للإنسان: لا تحي الموتى؛ لأنه عـاجز عن إحيـائهم فلا ينهى عنـه، ولا يقال له: لا تصعد إلى السماء؛ لأنه عـاجز عن أن يصل إلى السـماء، ولا يقـال له مثلاً: لا تخـرق الأرض؛ لأنه عـاجز عن أن يخرقهـا، بخلاف ما إذا قيل لـه: لا تقتل النفس التي حـرم اللـه، فإنه في إمكانه أن يقتـل، وكـذلك: لا تـزن أو لا تأكل الحـرام .. فلا ينهى إلا عن شـيء هو قـادر على أن يفعلـه. وهكـذا أيضـاً الأفعال: لا يـؤمر بشـيء مسـتحيل، فلا يقـال له مثلاً: رد أمس، ولا يقـال لـه: اقلب الحجر ذهباً، فلا يؤمر بشيء لا يستطيعه، بخلاف ما يستطيعه، فيقال له مثلاً: احمل هذا الكرسي أو: انقل هذا المصحف من مكان إلى مكان، أو يقال له: قم واركع ركعتين، لأن هذه في استطاعته، فيؤمر بما يسـتطيع وينهى عما هو ممكن أن يفعل، ولا يؤمر بالمستحيل أن يفعله ولا ينهى عن الشيء الـذي يستحيل فعله.

حكمة الله في خلقه ومشيئته لما يكرهه ولا يرضاه

قـال المؤلـف: [فـإن قيـل: كيف يريد الله أمـراً ولا يرضـاه ولا يحبـه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف يجتمع إرادته له وبغضه وكراهته؟ قيل: هذا السـؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً وتبـاينت طـرقهم وأقـوالهم، فـاعلم أن المـراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره فالمراد لنفسه مطلوب محبـوب لذاتـه، وما فيه من الخير فهو مراد إرادة الغايات والمقاصـد. والمـراد لغـيره قد لا يكـون مقصـوداً للمريد ولا فيه مصـلحة له بـالنظر إلى ذاتـه، وإن كـان وسـيلة إلى مقصـوده ومـراده؛ فهو مكـروه له من حيث نفسه وذاتـه، مـراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادتـه، ولا يتنافيـان لاختلاف متعلقهما. وهـذا كالـدواء الكريه إذا علم المتنـاول له أن فيه شـفاءه، وقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقـاء جسـده، وكقطع المسـافة الشـاقة إذا علم أنها توصل إلى مـراده ومحبوبـه. بل العاقل يكتفي في إيثـار هـذا المكـروه وإرادته بـالظن الغـالب وإن خفيت عنه عاقبتـه، فكيف بمن لا يخفى عليه خافية، فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره وكونه سـبباً إلى أمر هو أحب إليه من فوتـه، من ذلـك: أنه خلق إبليس الـذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقـادات والإرادات، وهو سـبب لشـقاوة كثـير من العبـاد وعملهم بما يغضب الـرب تبـارك وتعـالى، وهو السـاعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى تترتب على خلقه، ووجودها أحب إليه من عدمها: منها: أنه تظهر للعبـاد قدرة الرب تعالى على خلق المتضـادات المتقـابلات، فخلق هـذا الـذات الـتي هي أخبث الذوات وشرها وهي سبب كل شـر، في مقابلة ذات جبرائيل الـتي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مـادة كل خـير، فتبـارك خـالق هذا وهذا! كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والـداء والـدواء، والحيـاة والمـوت، والحسن والقـبيح، والخـير والشـر. وذلك من أدل دليل على كمـال قدرته وعزته وملكه وسلطانه، فإنه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض، وجعلها محال تصرفه وتدبيره، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته. ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية مثل: القهـار، والمنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع الحساب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذل؛ فإن هذه الأسماء والأفعال كمـال لا بد من وجـود متعلقهـــا، ولو كـــان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هـــذه الأسماء].......

ابتلاء المؤمنين بمجاهدة الشرور وبغض أهلها

نعم.. هـذا الاعـتراض كثـيراً ما يـردده العصـاة ويقولـون إذا نصـحناهم عن المعصية: إن الله ما هدانا، إن الله قدر هذا علينـا، لو أنه هـدانا لما خرجنا عن الطاعـة، نتوقف حـتى يهـدينا اللـه، فيسـتمرون في المعاصي ويحتجـون بمثل هذه الحجج. ويقول بعضهم: كيف يقـدر علينا أن نكفر أو نفسق أو نعصـي، ثم مع ذلك يعاقبنا ويعذبنا، لو كان يعـذب على ذلك ما قـدره ولا أوجـده ولا أراده

كوناً وقدراً! فـدائماً يحتجـون بهـذه الأمـور المقـدرة، ونقـول: صـحيح أن الله أرادها كونــاً وأنه قــدرها، وأنه لو شــاء لما حصــلت، ولكن لا يلــزم من إرادته لبعضـها أنه يحبهـا، فهو أراد الكفر كونــاً وهو يكرهه ويكـره أهله شـرعاً، وأراد الطاعات وهو يحبها وإن لم تحصل من البعض، فالكائنات التي أرادها وقــدرها وخلقها حـتى ولو كـانت كفـراً ومعصـية وبدعة ونحو ذلـك، ولكن هـذه الإرادة لغرض خفي، قد لا نتفطن لـه. وفي كلام الشـارح أن المـرادات إما أن تكـون مــرادة لنفســها وإما أن تكــون مــرادة لغيرهــا، فالإيمــان، الطاعــة، الســنن، الصــالحات، الحســنات، وســائر الطاعــات مــرادة لنفســها، أرادها الله من المؤمــنين وحصــلت لأنه يحبهــا، وأما المعاصي فإنه أرادها ولكن لغيرها ولم يردها لذاتها، وإنما أرادها لمصـلحة قد تظهر وقد تخفى على البعض. وقد ذكر الشارح بعض الحكم في إيجاد هـذه المخلوقـات الشـريرة، وكـذلك في إيجـاد المعاصي وإرادة المعاصي، وتقدير الكفر والبدع وفشوها وانتشارها وما أشبه ذلك، فمن ذلك أنه شاء هذه الأشياء كونـاً وقـدرها حـتى يمتحن ويبتلي عبـاده المؤمنين بمجاهـدتها وببغضـها وببغض أهلهـا، وبمعرفة ما يجب عليهم نحوهـا، فلو كان الناس كلهم مؤمـنين ما حصل بغض في اللـه، ولو كـان النـاس كلهم مؤمنين ما حصل جهاد في سبيل الله، ولو كان الناس كلهم مؤمـنين ما حصل البراء، وهو أن نتبرأ من الكفار ونحوهم.

إظهار كمال قدرة الله تعالى

ثم أيضاً من حكمة الله في إيجاد هذا الكفر إظهار قدرة الله، فالله تعــالى قد أظهر قدرته العامة ووجدت آثارها، فمن آثارها عقوبات العصاة وما أنــزل بهم من المثلات، ولو كـان النـاس كلهم مؤمـنين ما أغـرق هـؤلاء، ولا أهلك هـؤلاء بصيحة، ولا أرسل على هؤلاء الريح العقيم، ولا أهلك هؤلاء بعذاب يوم الظلة، ولا كذا ولا كذا. فمن حكمة الله في إيجاد ذلك أن تعرف قدرة اللــه، حيث إنه ينتقم ممن عصاه ويعاقبه ويعجل له العذاب في الدنيا، ليكـون ذلك دليلاً على العذاب في الآخرة، ولو كان الناس كلهم مؤمـنين لما كـان في الآخـرة إلا دار واحـدة وهي الجنـة، ولكنه تعـالى قـدر في الـدنيا معاصي حـتى يكـون للـدار الآخرة نصيب، فإنه خلق الجنة والنار، وهما صنوان، كما خلق في الدنيا الخـير والشر، والإيمان والكفر، وكذلك سـائر المتضـادات، فجعل في الـدنيا أضـداداً وأزواجــاً، وكل واحد مضــاد للآخــر، فمثلا الليل يقابله النهــار، والنــور تقابله الظلمة، والخير يقابله الشر، والذكر يقابله الأنثى، والبياض يقابله السواد مثلاً. كذلك الطاعة مع المعصـية، والكفر مع الإيمـان، والعقوبة مع الثـواب، والوعد مع الوعيــد، فخلق الضــدين دليل على كمــال القــدرة، فــإذا رأى العبد خلق المتضادات آمن بكمال قدرة القادر حيث خلق هـذه الأشـياء. ثم مع ذلك نحن

نــؤمن بأنه ما خلق شـيئاً إلا وله فيه حكمــة، ولا يجـوز أن نعـترض على الله بخلقه لشــيء من مخلوقاتــه. سـمعت أو قـرأت حكاية أن إنســاناً رأى دابة الخنفساء فقال: لماذا خلق الله هذه الخنفسة الـتي لا فائـدة فيهـا، وليس لها خلق جميل أو نحو ذلك؟ فاعترض على الله في خلقها، فابتلي بقرحة خـرجت فيـه، ولم يوجد لها علاج إلا خنفسـاء أحـرقت وذر عليها رمادها فـبرأ، فعـرف بذلك أن الله ما خلق شـيئاً إلا وله حكمة في ذلـك، فلا يجـوز أن تقـول: ليس الله من خلق السباع، ليس الله من خلق هذه الحيـات، ولا هـذه الهـوام الـتي ليس فيها إلا مضرة على العباد. نقول: إنه خلقها لتعلم بذلك قدرته، ويعلم أنه قادر على خلق الأضداد، وليكون ذلك أيضاً آية من آياته: وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد فهذه المخلوقات كبيرها وصغيرها دالة على كمـال قدرتـه، إذا تأملها الإنسان عرف بذلك كمـال قـدرة القـادر، مع أن مخلوقاته لا تحصى دواب الـبر من طيـور ومن دواب تـدب على الأرض لا يحصـيها إلا الله تعـالى، وفي خلقها عجائب من عجائب الله. دواب البحر مع كثرتها وتفاوتها وما أشـبه ذلـك؛ فيها عجـائب من قـدرة الله تعـالى، فخلقها ليس عبثـاً، حـتى البعوضة والنملة والذرة ونحو ذلك من الدواب الصغيرة خلقها وله في ذلك حكمة , ولو كان على الناس مضرة من هذه السباع التي تأكل دوابهم، أو من هذه الحيات والهوام ونحوها، أو من هذا الـذباب الـذي يقع على طعـامهم أو عليهم، أو من هذا البعوض الذي يقرصهم أو نحو ذلك، فإن الله تعـالى حكيم. وأيضـاً فإنه له الحكمة حتى فيما يجلبه من الأمراض ونحوها، فهـذه الأمـراض الـتي يسـلطها على من يشاء لا يجوز أيضاً أن يعترض على الله بها، ولا يقــال: ليس الله من خلق الحمى ولا من خلق المــرض، بل الله له الحكمة في خلقه وفي أمــره. وبكل حال: فإن هذه الأشياء مرادة، ولكن لأجل الحكمة ولأجل إظهار القــدرة وكمالها. فيقـال أيضـاً: كـذلك في الحكمة في خلق إبليس، والحكمة في خلق أعـــوان إبليس الـــذي هو مـــادة الشر ونحـــوه، والحكمة من خلق الكفـــار وانتشـارهم، وكـذلك في تقـويتهم وإمـدادهم بـالقوات وبالـذخائر ونحو ذلـك، والحكمة مثلاً في تمكينهم من الأعمال الـتي عملوهـا، ومن تسـليطهم أحيانـاً على المؤمـنين؛ لا شك أن الله تعـالى له الحكمة في ذلـك، فلا يعـترض على الله، بل يؤمن العبد بأنه هو القادر على كل شـيء، وأن ذلك دليل على كمـال قدرته وتمام تصرفه.

ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة

قال المؤلف: [ومنها: ظهور آثار أسـماء الحكمة والخـبرة، فإنه الحكيم الخبـير الذي يضع الأشـياء مواضـعها، وينزلها منازلها اللائقة بهـا، فلا يضع الشـيء في غـير موضـعه، ولا ينزله في غـير منزلته الـتي يقتضـيها كمـال علمه وحكمته

وخبرتـه، فهو أعلم حيث يجعل رسـالاته، وأعلم بمن يصـلح لقبولها ويشـكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك. فلو قدر عدم الأسـباب المكروهة لتعطلت حكم كثيرة ولفاتت مصالح عديدة، ولو عطلت تلك الأسـباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح الـتي فيها من المصـالح ما هو أضـعاف أضـعاف ما يحصل بها من الشر. ومنها: حصـول العبودية المتنوعة الـتي لـولا خلق إبليس لما حصلت؛ فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كـان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هـذه العبودية وتوابعها من المـوالاة لله سـبحانه وتعالى والمعاداة فيه، وعبودية الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، وعبودية الصبر ومخالفة الهـوى وإيثـار محـاب الله تعـالى، وعبودية التوبة والاسـتغفار، وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه، إلى غير ذلك من الحكم الـتي تعجز العقـول عن إدراكهـا]. يعـني: من الحكمة في أنه أوجد المعاصي والطاعـات، وأوجد في الـدنيا عصـاةً ومطيعين، وأوجد أسـباباً يتمكن بها البعض من مزاولة المعاصي أو تكون سبباً لانتشارٍ بعضها، وبعضـها تكون سبباً في الطاعات ونحوها، ويطول البحث فيهـا. فمثلاً: العصـاة أسـباب معاصيهم كثـيرة، فمنها الشـهوات الـتي تـتزين لهم، ومنها الـدنيا الـتي تبسط على كثير منهم فيتمادون في المعصية، ومنها الهـوى الـذي يميل بكثـير منهم، ومنها دعــاة الضــلال الــذين يــدعون إلى الباطل ويزينونــه، ومنها وســاوس الشيطان التي هي سـبب للضـلال والكفـران ونحو ذلـك. كـذلك أيضا أسـباب الطاعة التي منها إرسال الرسل ودعاتهم، ومنها قـراءة كتب اللـه، وما يكـون بها من الاهتداء، ومنها دعوة المؤمنين إخـوانهم إلى الله وتـرغيبهم في الخـير وتعليمهم إياه، وذكر الطرق التي يتوصلون بها إلى الطاعات ونحو ذلك، فوجد في الحياة الـدنيا طاعـات ومعـاص، ووجد فيها كفر وإيمـان، ولو كـان النـاس كلهم مؤمنين لما ظهرت آثـار أسـماء اللـه. فمن أسـماء الله العزيـز، الجبـار، المنتقم، شديد العقاب، هذه الأسماء لو لم يكن هناك من يُعاقَب لم يظهر أثر اسم الله شديد العقاب، فلو كان الناس كلهم مطيعين ما حصل أنه ينتقم من العاصي ولا حصل أنه يعاقب البـاغي، فهـذه من أسـماء الله الحسـنى، والـتي تدل على كماله، فمن حكمة الله في إيجاد المعاصي ظهور آثار هذه الأسماء. من أسماء الله: الرءوف، الرحيم، المعطي، المتفضـل، ولو كـان النـاس كلهم على الإيمـان الكامل ما حصل أنه رحم هـؤلاء وعفا عن هـؤلاء، وغفر لهـؤلاء وتاب على هؤلاء؛ فإنه ليس هناك معـاص ليتـوب هـذا منهـا، ولا يسـتغفر هـذا منها فيغفر له، ونحو ذلك كما في الحـديث: (من يـدعوني فأسـتجيب لـه، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)، ولو كان النــاس كلهم مطيعين ما حصـلت آثـار ذلـك. كـذلك أيضـاً من أسـمائه الحكيم، والحكيم هو الـذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، فلو كان الناس كلهم مطيعين ما حصلت آثـار الحكمــة، فمن حكمته أنه يعــاقب هــذا عقوبة في موضــعها، ومن حكمته أنه يثيب هذا، من حكمته أن يعطي هذا ويمنع هذا، ويرفع هذا ويخفض هــذا، ويعز هذا ويذل هذا، ونحو ذلك، فلا بد أن تظهر آثار هذه الأسماء، فقـدر الله وجـود هذه المعاصي حتى تظهر آثار هـذه الأسـماء الـتي هي من أسـماء الله تعـالى

الحسنى. هذا الكلام ونحوه استنبطه العلماء من وجود الطاعـات والمعاصـي، وكون الناس كلهم ليسـوا على إيمـان ولا على كفـر، بل فيهم مـؤمن وكـافر، ومطيع وعاص، فقالوا: إن آثار هذه إنما ظهـرت بوجـود من يتـوب الله عليهم بعد أن كانوا عصاة فالله هو التواب، ويقبل توبة عبده ويفرح بها. كذلك هـؤلاء يسـتغفرون فيغفر لهم، والله تعـالى غفـور رحيم، وهـؤلاء يـرحمهم ويتجـاوز عنهم، والله غفور رحيم، وغير ذلك من الحكم في أسماء الله تعالى.

الشـرور المـرادة لله نظـراً لما تفضي إليه من الحكمة هل تكـون محبوبة له من هذا الوجه؟

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فـإن قيـل: فهل كـان يمكن وجـود تلك الحكم بدون هـذه الأسـباب؟ فهـذا سـؤال فاسـد! وهو فـرض وجـود الملـزوم بـدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بـدون التائب. فإن قيل: فإذا كانت هـذه الأسـباب مـرادة لما تفضي إليه من الحكم؛ فهل تكـــون مرضـــية محبوبة من هـــذا الوجه أم هي مســـخوطة من جميع الوجوه؟ قيل: هـذا السـؤال قـالوا يـرد على وجهين: أحـدهما: من جهة الـرب تعـالى، وهل يكـون محبـاً لها من جهة إفضـائها إلى محبوبه وإن كـان يبغضـها لذاتها؟ والثاني: من جهة العبد وهو أنه هل يســوغ له الرضا بها من تلك الجهة أيضاً؟ فهذا سؤال له شأن. ......

الشر يرجع إلى عدم الخير وهو من هذه الجهة شر لا من جهة وجوده المحض

فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم، أعني: عدم الخير وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه؛ مثالـه: أن النفـوس الشـريرة وجودها خـير من حيث هي موجـودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخـير عنهـا، فإنها خلقت في الأصل متحركـة، فـإن أعينت بـالعلم وإلهام الخير تحركت به، وإن تـركت تحـركت بطبعها إلى خلافـه، وحركتها من حيث هي حركة خير، وإنما تكون شراً بالإضافة لا من حيث هي حركة. والشر كله ظلم، وهو وضع الشــيء في غــير محلــه، فلو وضع في موضــعه لم يكن شراً، فعلم أن جهة الشر فيه نسبية إضافية، ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محالها خيراً في نفسها وإن كانت شراً بالنسبة إلى المحل الذي حلت به، لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضـده من اللـذة مسـتعدة له، فصار ذلك الألم شـراً بالنسـبة إليهـا، وهو خـير بالنسـبة إلى الفاعل حيث وضـعه في موضـعه. فإنه سـبحانه لم يخلق شـراً محضـاً من جميع الوجـوه

والاعتبارات، فإن حكمته تأبى ذلك، فلا يمكن في جنـاب الحق تعـالى أن يريد شيئاً يكـون فسـاداً من كل وجه لا مصـلحة في خلقه بوجه مـا؛ هـذا من أبين المحال، فإنه سبحانه الخير كله بيديه، والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخـير، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شــراً فتأمله! فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شراً. فـإن قيـل: لم تنقطع نسـبته إليه خلقـاً ومشـيئة؟ قيـل: هو من هـذه الجهة ليس بشـر، فـإن وجـوده هو المنسـوب إليـه، وهو من هـذه الجهة ليس بشـر، والشر الـذي فيه من عـدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير].

كل ما أوجده الله فهو خير بالنسبة إليه تعالى

هــذا الاعــتراض الــذي يعــترض به بعض غلاة القدرية على خلق الله تعــالى للشرور وللأشرار، قد يعترض بذلك فيقـال: لمـاذا خلق الله إبليس مع أنه كله شر؟! ولماذا خلق الله الكفرة والمشركين الذين ليس فيهم خـير، بل هم شر وجــودهم ضــرر على المســلمين؟! ولمــاذا خلق الله أو أوجد هــذه المعاصي والأسباب التي يسـتعان بها عليهـا؟ لمـاذا وجـدت المسـكرات مثلاً وما يتصل بها؟! ولمـاذا وجـدت العـاهرات والفاسـقات؟! ولمـاذا وجد المفسـدون الـذي يعيثون في الأرض فساداً؟! ولماذا وجدت المعاصي؟! قد يعترضون ويقولون: هـذا شـر، فكيف أوجـده الله وكيف أراده وكيف خلقـه، مع أنه لا يحصل به إلا شر وضـرر على الأمم الدينيـة، فيتضـررون بوجـود هـؤلاء الكفـار حيث إنهم يصدونهم عن الهدى، ويحاولون ردهم إلى الكفر وإخـراجهم من ملة الإسـلام، ويلقون عليهم الشبهات والشكوك، ويظهـرون الفسـاد والمعاصي ونحو ذلـك، فلماذا أوجدوا ولماذا خلقهم اللـه، ولمـاذا مكنهم اللـه؟! أليس في هـذا إعانة على المعاصي؟ أليس في هذا تمكين للعصاة وتقوية لشأنهم؟ هذا خلاصة هذا الاعتراض على حكم الله سـبحانه وتعـالى. وقد تقـدم أنه سـبحانه خلق الجنة والنـار، فمن حكمته أن جعل داراً للثـواب وداراً للعقـاب، فلا بد أن لهـذه من يسكنها ولهذه من يـدخلها، حكمة الله لا بد أن تتم لـذلك، فلما كـان كـذلك لم يكن بد من أن يكــون الخلق فــريقين: فَرِيــقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيــقٌ فِي السَّــعِيرِ [الشورى:7]. وتقدم أن من أسماء الله تعالى الـذي سـمى بها نفسه وامتـدح بهـا، أسـماء تـدل على مثل هـذه الأفعـال، كاسـمه المنتقم، واسـمه الجبـار، واسمه العزيز، وذي القوة المتين، وكـذلك أسـماؤه المزدوجة مثـل: الخـافض الرافع، المعز المذل، المعطي المانع، فلا بد أن تظهر مدلولات هذه الأســماء، ولا تظهر إلا إذا وجد من يـــذلهم الله ومن يمنعهم ومن يخفضـــهم. ولا بد أن يوجد من يقهـرهم باسـمه القهـار، ومن يقـدر على عقـوبتهم بمـوجب اسـمه القادر، ومن يرحمهم ويغفر لهم بموجب اسمه الغفور الرحيم، ولو كان الناس

كلهم أتقياء بررة لم تظهر آثار أسمائه: الغفور الرحيم، وهكذا بقية أسماء الله سبحانه وتعالى. بعد ذلك الجواب عن هذا الاعتراض، والجـواب أن نقـول: كل ما أوجده الله وأراده فإنه خير بالنسبة إلى الله تعالى وإن كان شـراً بالنسـبة إلى العبد الـذي صـدر منه ذلك الشـر، وذلك لأن الله تعـالى ما أوجـده إلا لمصلحة، وهي الاختبار والابتلاء للعباد، ولكي يظهر من يصبر ومن يجزع، ومن يطيع ومن يعصي، ويظهر من يمتثل ومن يأبى، ولكي يظهر من يكون صـالحاً أو يكون فاسداً. هذا من اختبار الله لعبـاده، فهو سـلط عليهم هـؤلاء الأعـداء، فسلط عليهم إبليس الرجيم حـتى يكـون منهم مقاومة وشـدة تمسك رغم ما يلقيه من الـدعوات إلى الفسـاد وإلى المعاصـي، فيثـابون ويـزداد ثـوابهم إذا تمسكوا، كذلك سلط عليهم الشهوات التي تدفعهم إلى المحرمـات، وأظهرها أمـامهم فتنـة، فيثبت الله أوليـاءه ويخـذل أعـداءه، فالـذي يستمسك بالـدين ويصـبر عليه هو الـذي يعظم ثوابـه، وهـذا أيضـاً يصـدق على المصـائب الـتي تحصل للعباد، وقد يكون حصولها للأتقياء أكثر من حصولها للفسـقة ونحـوهم، فالمصائب التي ذكرها الله تعالى بقوله: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُـوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ [البقـرة:155]، هـذه قد يكـون الابتلاء بها للمؤمنين أشد. الكفار قد يمتعون بالقوة ويمتعون بالأموال ونحو ذلك، كما حكى الله عنهم أنهم قالوا: نَحْنُ أَكْثَـرُ أَمْـوَالًا وَأَوْلادًا [سـبأ:35]، فهـذا الابتلاء الذي يبتلي الله تعالى به المؤمنين ليكون أعظم لأجرهم إذا صبروا واحتسبوا، فهكذا خلقه لهذه الشرور ليكون أعظم للأجر، فـإذا عـرف العبد أنه قد سـلط عليه الأعداء فصبر عد مجاهداً غاية الجهاد، فهو يجاهد الشيطان الرجيم الذي يسـول له ويوسـوس لـه، وهو يجاهد النفس الأمـارة بالسـوء الـتي تتخيل له دائماً وتدفعه، وهو يجاهد الهوى الذي يعمي ويصم، وهو يجاهد الشهوات التي تتجلى له وتندفع نفسه إليها وتتزين لـه، ولكنه يمسك نفسه ويقمعهـا، فيعتـبر بـذلك مجاهـداً غاية الجهـاد. وهو يجاهد قرنـاء السـوء وجلسـاء السـوء الـذين يدفعونه إلى الشرور ويدعونه إليه، هذا يدعوه إلى زنا، وهـذا يـدعوه إلى ربـا، وهذا يدعوه إلى شرك، وهـذا يـدعوه إلى غش، وهـذا يـدعوه إلى تكاسل عن عبادة، وهذا يدعوه إلى شرب مسكر، وهذا يـدعوه إلى كـذا وإلى كـذا، ولكنه يمسك زمام نفسه ويجاهد هؤلاء الدعاة، ويرد عليهم دعايتهم، فلو كان الناس كلهم مفطورين على الإسلام ما ظهر هذا الجهـاد، زيـادة على الجهـاد الحسي الذي هو جهاد الكفار الذي أمر الله به وأكده وكرر ذكـره بعـدد من الآيـات. لا شك أن الإنسـان مـتى قـاوم هـذه المقاومة وصـبر هـذه المصـابرة، فإنه يعد ناجحاً في هذا الابتلاء والاختبار، ويعد مثاباً غاية الثـواب، فيجـزل الله له الأجر على ذلك فهذا من حكمة الله! إذاً: فلا يعترض على الله ولا يقال: لماذا سلط الأشرار؟ ولماذا قـواهم؟ ولمـاذا أعطـاهم الـدنيا، وأعطـاهم النعم، وأعطـاهم العدد والعدة ونحو ذلـك؟ لا يعـترض على الله بشـيء من ذلـك، كما لا يقـال: لماذا خلق الله إبليس؟ ولماذا خلق الله هذه الشهوات المحرمة؟ ولماذا أوجد الله هذه المسكرات وهذه المخدرات وما أشبهها؟ لا يعترض على الله تعالى، لأنه أوجد ذلك ليظهر من يصـبر ممن يجـزع، وليظهر من يقـوى على نفسه ومن لا يقوى، فيثاب هذا على مقاومته، ويعرف بذلك عدم صـبر هـؤلاء الـذين

لم يصبروا على قمع نفوسهم الأمـارة بالسـوء، فلله تعـالى الحكمة في ذلـك. فهو خير بالنسبة إلى خلق الله تعالى وإيجـاده، وشر بالنسـبة إلى فعل العبـد، فالعبد مثلاً إذا زنا قيل: هذا الزنا شر، حيث إنه صدر منه، ولكن الله تعالى هو الذي قدر ذلك وأحدثه، فهو خير بالنسبة إلى إيجاد الله تعالى، حيث إنه اختـبر العبـاد بـذلك وجعل أسـبابه ظـاهرة. كـذلك العبد إذا سـكر مثلاً، والمـرأة إذا تبرجت وتجملت وفعلت ما لا يحل لها فعله عند الأجـانب، والرجل إذا تعـاطى غشـاً في معاملة أو غصـباً أو سـرقة أو اختلاسـاً أو ما أشـبه ذلـك. كـذلك إذا سـولت له نفسه تـرك الصـلوات أو تخلفـاً عن جماعـات أو ما أشـبه ذلك من ترك الطاعات؛ فالله تعالى هو الذي قدر أسباب ذلك، ولكنه جعل ذلك اختباراً للعباد وابتلاءً لهم، ليظهر بذلك أهل طاعته الـذين أراد الله بهم الخـير فقـويت نفوسـهم وأعطـاهم قـوة، والـذين خـذلهم وخلى بينهم وبين نفوسـهم، وقـوى عليهم أعـــداءهم فلم يتمكنـــوا من مقاومة أولئك الأعـــداء، فأصـــبحوا من الخاسرين.

إيضاح أن خلق الشرور ليس شراً بالنسبة إلى الله

قال المؤلف: [فإن أردت مزيد إيضاح لـذلك، فـاعلم أن أسـباب الخـير ثلاثة : الإيجـاد والإعـداد والإمـداد، فإيجـاد هـذا خـير وهو إلى اللـه، وكـذلك إعـداده وإمداده، فإذا لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العـدم الذي ليس إلى الفاعل وإنما إليه ضده. فإن قيل: هلا أمده إذ أوجده؟ قيل: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده وإنما اقتضت إيجـاده وتـرك إمـداده، فإيجـاده خير والشر وقع من عدم إمداده. فإن قيل: فهلا أمد الموجـودات كلهـا؟ فهـذا سؤال فاسد يظن مورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمـة! وهـذا عين الجهـل! بل الحكمة في هـذا التفـاوت العظيم الـذي بين الأشـياء، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس في خلقه تفاوت، والتفاوت إنما وقع لأمـور عدمية لم يتعلق بها الخلق وإلا فليس في الخلق من تفـاوت، فـإن اعتـاص عليك هـذا ولم تفهمه حق الفهم فراجع قـول القائل : إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى مـا تستطيع].

الحكمة من تقدير الشر بخذلان المنافقين عن الخروج للجهاد

قال رحمه الله تعالى: [فإن قيل: كيف يرضى لعبده شيئا ولا يعينه عليه؟ قيل: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ [التوبة:46]. فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله وهو طاعة، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت تترتب على خروجهم مع رسوله، فقال: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا [التوبة: 47] أي: فساداً وشراً، وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ [التوبة:47] أي: سعوا بينكم بالفساد والشر، يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ [التوبة:47] أي: قابلون منهم مستجيبون لهم، فيتولد من سعي هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه. فاجعل هذا المثال أصلاً وقس عليه]. يكثر إيرادات هؤلاء المجبرة، وهم الذين يعذرون العبد على فعل المعاصي ويزعمون أن له عذراً في ذلك، حيث لم يكن له اختيار ولا قدرة على أية مزاولة، فيكثرون من إيراد مثل هذه الشبهات، فيقولون مثلاً: كيف يريد الله هذه المعاصي وهو يكرهها؟ فيقال: الله تعالى أرادها كوناً وكرهها شرعاً، ويقولون: كيف لا يسوي بين عباده ما دام أنه قد خلقهم كلهم لعبادته، فكيف لا يسوي بينهم فيهديهم جميعاً ويرشدهم؟ والجواب: أنه سبحانه خلقهم ومكنهم، ولكنه علم أن فيهم نفوساً شريرة تختار الشر فخذلها، ونفوساً خيرة تختار الخير فوثقها، فله الحكمة في توفيق هذا وفي خذلان هذا، وإن كان الجميع كلهم عبيده وتحت تصرفه، وهم الذين كلفوا جميعاً بعبادته وبالإنابة إليه. وضرب المؤلف مثلاً لما حكى الله تعالى عن المنافقين في سورة التوبة في قوله تعالى: وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ [التوبة:46-47]، هؤلاء ممن كانوا أسلموا ولكن لم يدخل الإيمان في قلوبهم، لا شك أن الله تعالى خذلهم وخلى بينهم وبين أهوائهم وشهواتهم، ولم يوفقهم لما وفق إليه صفوته وخيرته من خلقه من المهاجرين والأنصار الذين اصطفاهم والذين مكن لهم في دينهم. فهؤلاء المنافقون لما كان في غزوة تبوك تخلفوا عن القتال وتخلفوا عن الخروج، وأتوا بأعذار لا فائدة فيها وليست صادقة، بل حلفوا وهم كاذبون، كما في قوله تعالى: يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [التوبة:96]، سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ [التوبة:95-96]. فأخبر تعالى بأنهم لم يريدوا الخروج أصلاً ولم يستعدوا له، ولو كانوا يريدون الخروج ويرغبون في الغزو لأعدوا العدة ولهيئوا أنفسهم، فهم قادرون على أن يخرجوا وعندهم استطاعه وتمكن ولكنهم لم يفعلوا، فلما لم يفعلوا دل على أنهم ما أرادوه ولا أعدوا له عدة، مع أن الله تعالى

هو الذي خذلهم؛ لأنه علم أن في خـروجهم مفسـدة كبـيرة حيث إنه لا يكـون منهم إلا ضـرر، فلـذلك كـره الله خـروجهم وانبعـاثهم فثبطهم، أي: سـكنهم وصـرف أنفسـهم عن الخـروج لمصـلحة عظيمـة؛ فـإنهم لو خرجـوا ما زادوا المسـلمين إلا خبـالاً، أي: ضـعفاً وتخـذيلاً وتثبيطـاً عن القتـال وعن العـدو، (وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُـونَكُمُ الْفِتْنَـةَ) يعـني: أوقعـوا فيما بين المسـلمين الفتن والتشكيكات ونحو ذلـك، فكـان هـذا من حكمة الله في أن خـذلهم ولم يبعث عزائمهم إلى القتال، وبذلك يعرف أنه تعالى حكيم يضع الأشـياء في موضـعها اللائقة بهـا. فعلى المسـلم أن يرضى ويسـلم بما جـاءه من شـرع الله تعـالى وأمــره ودينــه، وأن يعــترف بأنه ما خلق إلا ما فيه مصـلحة، ســواء كـانت مخلوقات جوهرية أو عرضية، وسواء كانت أشخاصـاً أو أعراضـاً وأعمـالاً، كل ذلك له فيه الحكمــة، فهو الحكيم العليم. وعلى الإنســان أن يلح في ســؤاله لربه، وأن يكثر من الدعاء، والله تعـالى قد قـدر له ما هو مقـدر وجعل سـبب ذلك هو كثرة الإلحـاح في الـدعاء، فيكـون سـبباً من أسـباب تيسـير اليسـرى وتجنيب العسرى، وليس مغيراً لما في قدر الله تعالى.

هل يحب العبد الشر ويرضى به من جهة أنه مراد لله واقع بمشيئته

قال المؤلف: [وأما الوجه الثـاني وهو الـذي من جهة العبـد: فهو أيضـاً ممكن بل واقـع، فـإن العبد يسـخط الفسـوق والمعاصي ويكرهها من حيث هي فعل العبــد، واقعة بكســبه وإرادته واختيــاره، ويرضى بعلم الله وكتابته ومشــيئته وإرادته وأمره الكوني، فيرضى بما من الله ويسخط ما هو منه؛ فهـذا مسـلك طائفة من أهل العرفان. وطائفة أخرى كرهتها مطلقاً، وقولهم يرجع إلى هـذا القــول؛ لأن إطلاقهم للكراهة لا يريــدون به شــموله لعلم الــرب وكتابته ومشيئته. وسر المسألة: أن الذي إلى الرب منها غير مكروه والذي إلى العبد مكروه. فإن قيل: ليس إلى العبد شيء منها، قيل: هذا هو الجبر الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقـام الضـيق، والقـدري المنكر أقـرب إلى التخلص منه من الجــبري، وأهل الســنة المتوســطون بين القدرية والجبرية أسعد بالتخلص من الفريقين. فـإن قيـل: كيف يتـأتى النـدم والتوبة مع شـهود الحكمة في التقـدير، ومع شـهود القيومية والمشـيئة النافـذة؟ قيـل: هـذا هو الذي أوقع من عميت بصيرته في شـهود الأمر على خلاف ما هو عليـه، فـرأى تلك الأفعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقـدر، وقـال: إن عصـيت أمـره فقد أطعت إرادته! وفي ذلك قيل: أصبحت منفعلاً لما تختاره مني ففعلي كله طاعات ! وهؤلاء أعمى الخلق بصائر، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية، فإن الطاعة هي موافقة الأمر الديني الشرعي لا موافقة القدر والمشيئة، ولو كان موافقة القـدر طاعة لكـان إبليس من أعظم المطيعين لـه، ولكـان قـوم

نـوح وهـود وصـالح ولـوط وشـعيب وقـوم فرعـون كلهم مطيعين! وهـذا غاية الجهل. لكن إذا شهد العبد عجز نفسه ونفوذ الأقـدار فيـه، وكمـال فقـره إلى ربـه، وعـدم اسـتغنائه عن عصـمته وحفظه طرفة عين؛ كـان بالله في هـذه الحال لا بنفسه، فوقوع الذنب منه لا يتـأتى في هـذه الحـال البتـة، فـإن عليه حصـناً حصـيناً من: (فـبي يسـمع، وبي يبصـر، وبي يبطش، وبي يمشـي)، فلا يتصور منه الذنب في هذه الحـال. فـإذا حجب عن هـذا المشـهد وبقي بنفسه استولى عليه حكم النفس، فهنالك نصبت عليه الشـباك والأشـراك، وأرسـلت عليه الصيادون، فإذا انقشع عنه ضباب ذلك الوجـود الطبعي، فهنالك يحضـره الندم والتوبة والإنابـة، فإنه كـان في المعصـية محجوبـاً بنفسه عن ربـه، فلما فارق ذلك الوجود صار في وجود آخر، فبقي بربه لا بنفسه]. ......

شبهة من يقول: إذا خالفت أمر الله فقد وافقت مراده

كثـيراً ما يحتجـون بـأن هـذه المعاصي مـرادة لله تعـالى، فيقـول أحـدهم: أنا خالفت أمر الله ولكن وافقت إرادة الله، الله تعالى أراد مني هذا الفعل وهذه المعصية. فالجواب: أن هذه الإرادة إرادة كونيـة، وقد أراد منك إرادة شـرعية أن تطيعه، فلا تحتج بالإرادة الكونية وتـترك الإرادة الشـرعية، الله تعـالى أراد كل ما في الكـــون إرادة كونية ولكنه أراد الطاعـــات إرادة شـــرعية، وهـــذه الطاعات التي أرادها قد تقع وقد لا تقـع، لأنه خلق كل الخلق للعبـادة، فمنهم من عبد ومنهم من لم يعبد، فهذه إرادة شرعية. فالـذي يقـول: ليس للعبد أي اختيار، نقول له: هذه مقالة الجبرية الذين يزعمون أن العبد مسلوب الاختيــار أصلاً، وأنه بمنزلة الشـجرة الـتي تحركها الريـاح، ففي ذلك إبطـال شـرع الله وإبطال أحكامه وقضائه وقدره، والواجب على المسلم أن يعترف بشــرع الله وأن يدين له بالطاعة، وأن يسلم لقضائه وقدره، ولا يرد عليه شيئاً من أمـره، فبذلك يصبح مستسلماً لأمره، فأما هؤلاء الذين يقولون: إن جميع حركاتنا ولو كانت معاصي، ولو كانت غـير محبوبة للـه؛ فهي طاعة حيث إنها وافقت مـراد الله القدري، حتى قال قائلهم في هـذا الـبيت الـذي ذكـره المؤلـف: أصـبحت منفعلاً لما تختاره مني ففعلي كله طاعات فهذا عين المحــادة لله لأنه لا شك أن الطاعـات إنما تكـون بالعبـادات الـتي فرضـها، فكونه يقـول: أفعـالي كلها طاعـات، حـتى ولو كـانت فجـوراً وزوراً، ولو كـانت كـذباً، ولو كـانت معاصي وكفراً وشركاً، فكيف تكون طاعات وقد حرمها الله تعالى وسماها معاصـي؟! فهذه معـاص بالنسـبة إلى صـدورها من العبـد، وهي مـرادة لله كونـاً وقـدراً، حيث إنها وقعت بخلقه وتكوينـه، فما شـاءه كـان وما لم يشـأه لم يكن، فـإذا علم العبد أولاً أن الله تعــالى أراد جميع ما في الكــون كونــاً وقــدراً، وما هو حادث، ولكنه أحب الطاعات وكره المحرمات، وأمر بالطاعـات أمـراً شـرعياً، ونهى عن المحرمات نهياً شرعياً، وعلم أيضاً بأن مزاولة العبد لها باختيار منه لهذا الذي اختاره إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأن الثـواب والعقـاب يـترتب على هذا الاختيار وعلى هذا الفعل، وعلى الجد والاجتهاد في الطاعــة، أو الجد

والاجتهاد في المعصية، وهو الذي يكون عليه الثواب والعقاب، فمتى علم العبد واستسلم لذلك فهو من أهل الخير.

على العبد أن يستحضر أنه مكلف مختار

ولا شك أن من استحضر دائماً أنه مكلف، واستحضر أن الله تعالى يوفق العبد الذي يستحضر عظمة ربه، واستحضر دائماً أنه ليس بمهمل، بل خلق للعبادة ولم يخلق هملاً ولا سدى؛ من كان كذلك وفقه الله. وإذا استحضر أيضاً أن ربه لما كلفه ولما أمره ونهاه، كان في مرأى ومسمع من ربه لا تخفى عليه منه خافية، واستحضر أيضاً أنه في كل حالاته عنده الدافع الذي يدفعه إلى الخير، وهو قوة الإيمان وقوة هذا الاستحضار؛ لا شك أن من تمت معه هذه الاستحضارات فإنه لا يقدم على معصية، وكيف يقدم عليها وهو يستحضر عظمة الله تعالى وكأنه واقف بين يدي ربه؟ كيف يقدم عليها وهو يعلم أنه يترتب عليها عقوبة وإثم شديد؟ كيف يقدم عليها وهو يعلم أن ربه يكرهها؟ ولا شك أن العبد الذي يكثر من العبادات سواء كانت قلبية أو قولية أو بدنية، ثم يثق بالثواب عليها؛ أن ذلك يحجزه عن أن يأتي بضدها، ولا يجتمع أنه في آن واحد يطيع الله ويطيع الشيطان، ولا يجتمع أنه في آن واحد يعبد الله ويعبد الأصنام مثلاً، ولا يجتمع أنه في آن واحد يكون مستحضراً لعظمة الله تعالى وغافلاً عنه مقبلاً على هواه، بل متى تمت له هذه الاستحضارات عبد ربه وأكثر من عبادته وأقبل عليه إقبالاً كلياً، ومتى كان كذلك فإن ربه تعالى يسدد خطاه ويوفقه، ويحبب إليه العبادة ويحميه عن المعصية، كما في قوله في الحديث القدسي الذي سمعنا بعضه: (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها)، وفي بعض الروايات: (فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي). والمعنى: أن الله تعالى يحفظه ويحوطه ويحرسه، فتكون حركاته في إرادة الله وفي طاعة الله، وما ذاك إلا أن قلبه امتلأ بعظمة الله وامتلأ بالإيمان به، وامتلأ بحب الخير، وامتلأ بالأعمال الخيرية الصالحة والميل إليها، ولما امتلأ القلب ظهر آثار ذلك على السمع وعلى البصر وعلى اليد وعلى الرجل، فصار نظره كله بالله، وسمعه كله لله، ومشيه وحركاته كلها لله، فصار بالله ومن الله وفي الله، فهذا هو الذي لا يمكن أنه يقدم على معصية مع ما يقوم به من هذه الحال. فالعبد الذي يكون بهذه المثابة لا شك -أنه إن شاء الله- لا يقدم على معصية، وإنما يؤتى من نقص في ذلك، يعني من نقص في استحضاره بقلبه لهذه الأشياء، فإن العوائق التي تعوقه عن هذه الاستحضارات كثيرة، فالشهوات من زينة الحياة الدنيا ومتاعها، والشغل بها كثيراً، والانهماك في المحرمات؛ كل ذلك يجلب

إلى قلبه شيئاً من الغفلة، فيـوجب له بـذلك صـدوداً عن الخـير، وإقبـالاً على الشرور والفساد، نعوذ بالله من الخذلان.

ما يرضى به من قضاء الله وما لا يرضى به

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فإن قيل: إذا كـان الكفر بقضـاء الله وقـدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله، فكيف ننكره ونكرهـه؟ ! فـالجواب: أن يقـال أولاً: نحن غـير مـأمورين بالرضا بكل ما يقضـيه الله ويقـدره، ولم يـرد بذلك كتـاب ولا سـنة، بل من المقضي ما يرضى بـه، ومنه ما يسـخط ويمقت كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سـبحانه، بل من القضـاء ما يسـخط كما أن من الأعيـان المقضـية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويـذم. ويقـال ثانيـاً: هنا أمران: قضاء الله، وهو فعل قائم بـذات الله تعـالى، ومقضـي: وهو المفعـول المنفصل عنـه، فالقضـاء كله خـير وعـدل وحكمة ويرضى به كلـه، والمقضي قســمان: منه ما يرضى بــه، ومنه ما لا يرضى بــه. ويقــال ثالثــاً: القضــاء له وجهان: أحدهما: تعلقه بالرب تعالى ونسبته إليـه، فمن هـذا الوجه يرضى بـه. والوجه الثــاني: تعلقه بالعبد ونســبته إليــه، فمن هــذا الوجه ينقسم إلى: ما يرضى به وإلى ما لا يرضى بــه. مثــال ذلــك: قتل النفس له اعتبــاران: فمن حيث قـدره الله وقضـاه وكتبه وشـاءه، وجعله أجلاً للمقتـول ونهاية لعمـره؛ نرضى به، ومن حيث صدر من القاتل وباشـره وكسـبه وأقـدم عليه باختيـاره، وعصى الله بفعله؛ نسخطه ولا نرضى بـه. وقولـه: (والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان.. إلى آخره). التعمق: هو المبالغة في طلب الشيء، والمعـنى: أن المبالغة في طلب القدر والغـوص في الكلام فيه ذريعة الخـذلان الذريعـة: الوســيلة، والذريعة والدرجة والســلم متقاربة المعــنى، وكــذلك الخــذلان والحرمان والطغيان متقارب المعـنى أيضـا، لكن الخـذلان في مقابلة النصـر، والحرمان في مقابلة الظفر، والطغيان في مقابلة الاستقامة]. ......

نرضى بقضاء الله ولا يلزم الرضا بكل مقضي

الكلام الأول يتعلق بالرضا بالقضــاء والرضا بالمقضــي، فنقــول: يلزمنا أن نرضى بالقضاء، وأما المقضي الذي يقع بذلك القضاء فلا يلزمنا الرضا بـه، بل قد ننكره ونستبشعه، فمثل الشارح بقتل النفس ظلماً، نقول: هـذا الـذي قُتِل قد بلغ أجله الـذي كتب لـه، ولم يقطع عليه أجلـه، فالله تعـالى قضى وقـدر وكتب أن عمره لا يزيد ولا ينقص، فالمقتول مـات بأجله المحـدد لـه، لأن الله تعالى يقول: فَإِذَا جَـاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْـتَأْخِرُونَ سَـاعَةً وَلا يَسْـتَقْدِمُونَ [الأعـراف:

34]، ويقول تعالى: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ [آل عمـران:154] أي: لو تحصـنتم في بيـوتكم والله قد كتب على بعضكم القتل، لخرجوا إلى أن يصلوا المكـان الـذي قـدر الله أنهم يموتـون أو يقتلون فيه ولا بد. وقد ذكر الله تعالى أن المـوت محتـوم على الإنسـان مهما تحصن، كما في قوله تعالى: أَيْنَمَا تَكُونُـوا يُـدْرِكْكُمُ الْمَـوْتُ وَلَـوْ كُنتُمْ فِي بُـرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ [النساء:78]، يعني: ولو تحصنتم في أحصن الأماكن، فإنه يصل إليكم الموت الذي قـدره الله لكم سـواء بسـبب ظـاهر أو بسـبب خفي. فمن حيث حصول الموت لهذه النفس نؤمن بأن هذا قضاء وقـدر، وأنه مهما تحصن هـذا المقتول فلن يحصل له التحصن أبداً مهما تحصن، ولا بد أن يحصل له ما قدر الله تعــالى عليــه، ولكن مع ذلك ننكر هــذا الــذنب على القاتل ونلومه عليه ونسـخطه، والله تعـالى أنكـره عليه وتوعـده على هـذا القتل بوعيد شـديد، وتوعده النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر بأنه يسـتحق العقوبـة، والله تعـالى كتب القصاص في قوله: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى [البقرة:178] وفي قوله: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ [المائدة:45]. فهـذا دليل على أنه من حيث إنه قضاء وقدر نرضى به، ومن حيث صدوره من ذلك الظالم القاتل نسخطه وننكره، ونلوم القاتل، وهكذا بقية الحـوادث الـتي تحـدث في الـدنيا، منها ما نرضــاه ومنها ما نســخطه من حيث الظــاهر، أما من حيث القضــاء والقدر فجميعه مرضي لله سبحانه وتعالى مقضي له، ومرضي للعباد.

الاحتجاج بالقدر لا يمنع من أخذ الحق

فعلى كل حـال يلزمنا الرضا بكل ما قضـاه الله وقـدره، ولا يلزمنا الرضا بكل مقضي ومخلـوق ومقـدر وجـوده في العـالم، بل نسـخط المعاصي ولو كـانت قضـاء وقـدراً، وننكر على من فعلها ونلومــه، وإذا احتج بالقـدر لم يمنعنا ذلك من أخذ الحق منـه، كما ذكر أن عمر رضي الله عنه لما رفع إليه سـارق وأمر بقطع يده فقال: هذا قدر اللـه، فقـال: (سـرقت بقـدر الله ونقطع يـدك بقـدر الله)، فهو بذلك يعرف أن هـذا مـأمور بـه، فنحن مـأمورون بكـذا وأنت فعلت كــذا وكــذا. ولما خــرج عمر رضي الله عنه إلى الشــام وأقبل على أذرعــات الشام، ذكروا له أن الطاعون قد وقع في الشام، فشـاور الصـحابة هل يقـدم الشام أو لا يقدم؟ فاختلفوا، فمنهم من قال: لا تذهب إلى الشام ومعك هؤلاء الذين هم صفوة الصحابة فتعرضـهم للمـوت، ومنهم من قـال: إن هـذا شـيء مكتوب فلا تفر بهم ولا ترجع، ولكنه عزم على الرجوع، فقال له أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر : لو غـيرك قالها يا أبا عبيـدة ! نعم. نفر من قدر الله إلى قدر الله. أي: نقول إن الله تعـالى قـدر لنا أن نرجع وما كتب لنا أن نــذهب، فنحن إذا رجعنا ففي قــدر الله أننا نفر من قــدر الله إلى

قدر الله، ثم ضرب مثلاً وقال: أرأيت لو كان لك إبل وذكر لك واديان: أحدهما مخصب والآخر مجدب، ثم إنك اخترت واحداً منهما، أليس بقدر اللــه؟ أي: لو دخلت الـوادي المجـدب المقحط الـذي ليس فيه رعي، ثم قيل لـك: إن هاهنا وادياً أخصب وشـعباً مخضـراً، وفيه أعشـاب وفيه رعي؛ فـذهبت إليـه، أليس ذهابك إليه بقضاء الله وبقدره؟ الله تعالى هو الذي قدر لك أن تسلك هذا، ثم اختار لك أن تسلك هذا، فهكذا إذا رجعت من مكان مخوف، فليس ذلك هربــاً من قضاء، بل الله هو الذي قـدر عليك هـذا القضـاء والقـدر، وقـدر عليك أنك ترجع أو لا ترجع، وإذا كان الله تعالى قد كتب على الإنسان أنه يموت بسـبب، فلا بد أن يصل إليه المـوت في أي مكـان. روي أن إنسـاناً وقع الطـاعون في بلاده، فلما ذكر له ذلك ركب حماراً وتوجه إلى بلاد أخرى، وفي أثنـاء الطريق سمع هاتفاً يقـول: لن يسـبق الله على حمـاري قد يصـبح الله أمـام السـاري فتوقف واستمع قليلاً ثم إنه نـزل في ذلك المكـان وأصـابه الطـاعون فمـات، ولم يغنه فراره ولا هربه.

الأخذ بالأسباب

الله تعالى قد ذكر قوماً هربوا من الموت ثم إن الله أماتهم، في قوله تعـالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَـارِهِمْ وَهُمْ أُلُـوفٌ حَـذَرَ الْمَـوْتِ [البقـرة:243] ألـوف: جمع ألـف، يعـني: آلافـاً مؤلفـة، (حـذر المـوت): ما أخـرجهم إلا حـذر الموت، ولكن هل سلموا؟ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ [البقرة:243]، أي: أن قـدرة الله تعـالى تـأتي على كل شـيء، فأمـاتهم الله لـيريهم أن الخـروج والهرب لا ينجيهم، ثم أحياهم بقدرته ليريهم كامل قدرته. وعلى كل حال نحن نقول: إن الإنسان مأمور بأن يتحصن وبـأن يفعل الأسـباب وبـأن يأخذ حـذره، ولكن ذلك لا يـرد عنه ما قد كتب الله عليه من الآجـال والأمـراض والعاهـات ونحو ذلك، وإنما هذه أسـباب ظـاهرة، ولا يجـوز مع ذلك تركهـا. الله سـبحانه أمر بأخذ الحــذر في حالة صــلاة الخــوف، فلما أمر بصــلاة الخــوف أمر بأخذ الحـذر، معلـوم أن المسـلمين قد يقـول قـائلهم: سـوف نصـلي جماعة والله تعـالى يحرسـنا ويحفظنـا، ولكن الله تعـالى أخـبر بـأن المشـركين يتحينـون الفرص ويحتالون في أن يجدوا غفلة من المؤمـنين فيقتلـونهم، فقـال تعـالى: وَدَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَـوْ تَغْفُلُـونَ عَنْ أَسْـلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُـونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَـةً وَاحِدَةً [النساء:102]، هكذا أخبر عنهم ثم أمرهم بأن يأخذوا الحـذر في قوله تعالى: وَخُذُوا حِذْرَكُمْ [النساء:102]، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ [النساء:102] يعـني في حالة صلاتهم للخوف، وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ [النساء:102] أي: ليكونوا حذرين. فكل ذلك دليل على أن فعل الســبب لا يمنع في التوكل وأنه لا يــرد ما قــدر

اللــه، مع أن فعل الأســباب مــأمور به وتركها إلقــاء باليد إلى التهلكــة، وأن التعرض أو فعل الأسباب التي يحصل بها الموت عمداً يصير ذنباً كبيراً، ولهـذا ورد الوعيد الشـديد على من قتل نفسه بفعل ظـاهر، كما في صـحيح مسـلم وغـيره أنه صـلى الله عليه وسـلم قـال: (من تحسى سـماً فسـمه في يـده يتحساه في نار جهنم) تحساه، أي: التهمه، فمن التهم سـماً فإنه يـدخل جهنم ويجعل السم في يديه يتحساه دائمـاً في نـار جهنم والعيـاذ بالله (ومن تـردى من شاهق) يعني: رأس جبل حتى يمـوت (فهو يـتردى في نـار جهنم) والعيـاذ بالله، فهـذا دليل على أنه إذا فعل سـبباً يعوقه أو يصل إلى أنه يقتل به نفسه فإنه معرض لهذا الوعيد. ولو قال مثلاً: إن هـذا مكتـوب علي وإن هـذا مقـدر، نقــول: الله تعــالى هو الــذي قــدر كل شــيء ولكنه نهــاك عن شــيء أنت تستطيعه، فنهاك أن تلقي بيدك إلى التهلكة ونهاك عن هذه المعاصي، ونهـاك عن هذه المخالفات وأمرك بأضدادها، وما أمرك إلا بأمر أنت مستطيع له، ولو كان كل ذلك واقع بقضاء وبقدر.

التحذير من الوسوسة والتشكك في القدر

قال المؤلف رحمه اللـه: [وقولـه: (فالحـذر كل الحـذر من ذلك نظـراً وفكـراً ووسوسة)]. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحـدنا أن يتكلم بـه، قـال: أوقد وجـدتموه؟ قـالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان!)رواه مسلم ، الإشارة بقولـه: (ذلك صـريح الإيمـان) إلى تعاظمهم أن يتكلمـوا بـه. و لــمسلم أيضا عن عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه قال: (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة؟ فقـال: تلك محض الإيمان)، فهو بمعنى حـديث أبي هريـرة ، فـإن وسوسة النفس أو مدافعة وسواســـها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثـــنين، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمـان. هـذه طريقة الصـحابة رضي الله عنهم والتـابعين لهم بإحســان، ثم خلف من بعــدهم خلف ســودوا الأوراق بتلك الوساوس التي هي شكوك وشـبه، بل سـودوا القلـوب وجـادلوا بالباطل ليدحضـوا به الحـق، ولـذلك أطنب الشـيخ رحمه الله في ذم الخـوض في الكلام في القـدر والفحص عنـه. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قـالت: قــال رســول الله صــلى الله عليه وســلم: (إن أبغض الرجــال إلى الله الألد الخصـم)، وقـال الإمـام أحمد : حـدثنا أبو معاوية حـدثنا داود بن أبي هند عن عمرو بن شـعيب عن أبيه عن جـده قـال: (خـرج رسـول الله صـلى الله عليه وسلم ذات يوم والناس يتكلمـون في القـدر قـال: فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب؛ قال: فقال لهم: ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟

بهذا هلك من كان قبلكم، قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله لم أشـــهده بما غبطت نفسي بـــذلك المجلس أني لم أشـــهده)ورواه ابن ماجة أيضاً]. يقول: إن عنـدنا شـيئين: الأمر الأول: ما يجـول في النفس وما يحـدث من الوسـاوس والأوهـام، ولكن لا يخرجها الإنسـان بل يزيلها أو يحـرص على إزالتها، فهذه مما يعفى عنه. والأمر الثاني: ما ابتلي به المتكلمون من إظهـار تلك الوسـاوس والتكلم بها وكتابتها وإشـاعتها، وهـذا مـذموم. فكـان في عهد الصحابة وكذلك في عهد التابعين وتلاميذهم، إذا خطرت في أنفسهم خطرات وشـكوك لم يبـدوها، بل اسـتمروا على ما هم عليه من العقيـدة، وآمنـوا بالله وبما جــاء عن الله ســبحانه وتعــالى، فلم تضــرهم تلك الوســاوس ولا تلك الهواجس ونحوها. كثـيراً ما يحصل على قلب الإنسـان وسوسة في أمـور من الغيب؛ إما مثلاً في طبقـات السـماء وطبقـات الأرض وكيفية العـرش وذات الرب تعالى وصفاته، وكذلك أمور البعث وأمور البرزخ، قد يتـوارد على نفسه شــيء من التشــكيكات في هــذه، وكيف تتصــور؟ وكيف يتحقق ما ذكر من وصفها في هذه النصوص؟ فإن في ذلك شيئاً من الاستبعاد ومن الاسـتغراب. فإذا تواردت هذه الشكوك على هذه النفوس، ولكن أحرقتها النفس المطمئنة ولم تلتفت إليها ولم يتكلم بها الإنسان، فإن ذلك مما يعفى عنه، وسماه النبي صـلى الله عليه وسـلم صـريح الإيمـان، يعـني: ما دمتم تقتصـرون على هـذه الوسوسة دون أن تتكلموا بها فإن ذلك معفو عنـه، ثبت بالحـديث قوله صـلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز لأمـتي عما حـدثت به أنفسـها ما لم تتكلم أو تعمـل)، فحـديث النفس معفو عنـه، أي عن الخـواطر الـتي تخطر في القلب والتي تكون خواطر ووساوس وأوهاماً وتشكيكات ولكن يغلبها الإنسـان بقـوة إيمانه، وبما قام عنده من الأدلة الصريحة في صدق الرسل وما جـاءوا به من الأمور الغيبية، فلم تؤثر فيه تلك الشكوك والأوهام ونحوها، بل اضـمحلت تلك الوساوس ولم تضره. فعليك أن تـؤمن بـالحق الـذي أنت عليه وتثق بـه، دون أن تلتفت إلى شيء من تلك الأوهام أو تتمادى معها، هكذا أخـبر عليه الصـلاة والسلام. ......

يصر القدرية على إنكار خلق الله لأفعال العباد، وهم بذلك يشابهون المجوس المشركين، وقد جـاءت الآثـار بـذمهم والحث على هجـرهم وزجـرهم، وقد رد العلماء على شبهاتهم وبينوا لهم الصواب.

الإيمان والإسلام والإحسان وضدها مسميات شرعية

قد عرفنا أن من عقيـدة المسـلمين الإيمـان، وأركانه سـتة: الإيمـان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، وأن الإيمان تـدخل فيه الأعمـال، فهي من مسـمى الإيمـان، ولأجل ذلك يقـوى الإيمـان ويضـعف، ويزيد وينقص، فيزيد بسـبب زيـادة الأعمـال وينقص بسـبب نقص الأعمال، أو بسبب ارتكاب الـذنوب، وذلك مما يحمل المسـلم على أن يتعاهد إيمانه بالزيـادة ويحـذر من النقصـان، لأنه إذا تغافل وصـار ينقص إيمانه شـيئاً فشـيئاً لم يـأمن أن يضـعف، وإذا ضـعف لم يكن زاجـراً له عن اقـتراف السيئات، ولم يكن دافعاً له إلى التكاثر من الحسنات. كذلك قد يصـير ضـعف الإيمان سبباً لأن يقوى ضده، وهو الكفر أو الذنب أو المعصية، فإنه كلما قوي الإيمان ضعفت دوافع الكفر والفسوق والمعاصي، وكلما ضعف الإيمان قـويت أضداده، فيحرص المسلم على أن يجدد هذا الإيمان، وأن يكون مجداً مجتهـداً في الحرص على تقوية إيمانه، وعلى البعد عن الأسباب التي تضعفه. وقد بين العلماء مسمى هذه الأشياء، وذلك لأنها مسميات شرعية، فالإيمـان وإن كـان أصله لغوياً ولكنه أصبح مسمى شـرعياً، اسـتعمله الشـرع في الانقيـاد لأوامر الله تعـالى واتبـاع ما جـاء عنـه، واسـتعمله في تكميل هـذا الاتبـاع بامتثـال الطاعات وترك المحرمات، فأصـبح مسـمى شـرعياً. كـذلك الإسـلام مسـمى شرعي وإن كان أصله في اللغة: أنه الإذعان والاستسلام، ولكنه أصـبح اسـماً شرعياً يراد به الدخول في هـذا الـدين والانتمـاء إليه والالـتزام بتعاليمـه، فهو مسمى شرعي بعد أن كان لغوياً. كـذلك الإحسـان مسـمى شـرعي، وقد بينه النبي عليه الصلاة والسلام ووصف أهله وقسمهم، فأصبح هـذا الاسم مسـمى شرعياً. فالإسلام والإيمـان والإحسـان، وكـذلك أضـدادها؛ مسـميات شـرعية؛ فـالكفر مسـمى شـرعي وإن كـان أصـله في اللغة السـتر التغطية والشـرك مسمىً شرعي وإن كان أصله في اللغـة: الاشـتراك في شـيئين أو التشـريك بين اثنين. والنفاق مسمىً شـرعي وإن كـان له أصل في اللغـة، ولكنه أصـبح مسـتعملاً في هـذا الاسـتعمال الشـرعي. فهـذه الأشـياء جـاءت الشـرعية باسـتعمالها، فمنها ما هو مـأمور بـه: كالإسـلام والإيمـان والإحسـان والـدين والاستقامة وما أشبهها، ومنها ما هو منهي عنه ومحذر منه: كـالكفر والشـرك والنفاق والسـيئات والخطايا والـذنوب وما أشـبهها، فهـذه مسـميات شـرعية، ودخولها في العقيـدة من حيث إن على المسـلم أن يعتقد تقبل ما جـاءت به الشـريعة قبـولاً كليـاً فيقـول: هـذا الإسـلام تضـمنته هـذه الشـريعة فأنا أدين

بالإسلام، سواء فيما يتعلق بالعقائد أو ما يتعلق بالأعمال، فيدين لله تعالى به، ويعتقد أنه سفينة النجاة، وأنه سبيل الوصول إلى السلامة، فيعتقد صحته وسلامة من سار عليه، ويعتقد خطأ من ضل عنه وابتعد عنه، أو أخذ منه بعضاً دون بعض، فهذا وجه دخوله في العقيدة. أما أركان الإسلام فهي مشهورة، ولم يدخلوها في العقيدة ما عدا الركن الأساسي الذي هو الشهادتان، فإنهما أساس العقيدة وأساس التوحيد، بخلاف الأركان العملية كالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما أشبهها، فهذه من الأعمال فجعلوها من الفروع، ولكن هي في الحقيقة من العقيدة لأنها أسس للعقيدة، ولأن إنكارها إنكار لشيء معلوم من الدين بالضرورة، فيخرج المنكر له من الملة ويدخل في الكفر والعياذ بالله، وذلك لأنها لما كانت أدلتها واضحة، والمسلمون تلقوها بالقبول؛ لم يكن هناك مجال لإنكارها. ولو وجد من ينكرها، فإن أولئك الذين أنكروها قد خالفوا المعقول والمنقول، وكذلك الذين تأولوها كالفلاسفة وبعض الصوفية الذين قالوا إن الصلاة ليست هي هذه الأفعال، إنما المراد بها اتصال القلب بالرب، وفسروا الحج بأنه حج القلوب إلى علام الغيوب وأسقطوا بذلك هذه الأركان الظاهرة التي تعلمها المسلمون من نبيهم صلى الله عليه وسلم، ولكن نفرة المسلمين من هذه الأقوال واستبشاعهم لها أوجب أنها لا تذكر في العقائد، فاقتصر أهل العقائد على أركان الإيمان الستة، وأصلها كما تقدم وتكرر أصلان: الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، فإذا اجتمع هذان تبعتهما بقية الأركان، ولكنهم فصلوا في كثير منها وأجملوا في بعض منها لقلة الخلاف، وإذا حققها المسلم أصبح من أهل العقيدة السليمة، وأصبح من أهل الاستقامة الذين هم على سبيل النجاة.......

الإيمان بعلم الله الأزلي

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض ولا معقب ولا مزيل، ولا مغير ولا محول، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه). هذا بناء على ما تقدم من أن الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات وأنه قدر مقاديرها قبل خلقها، كما قال صلى الله عليه وسلم : (قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء)، فيعلم أن الله قد علم أن الأشياء تصير موجودة لأوقاتها على ما اقتضته حكمته البالغة فكانت كما علم، فإن حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يتصور إلا من عالم قد سبق علمه على إيجادها، قال تعالى: أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك:14]. وأنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالماً في الأزل، وقالوا: إن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوا، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً، قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: (ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروا

كفروا). فالله تعـالى يعلم أن هـذا مسـتطيع يفعل ما اسـتطاعه فيثيبـه، وهـذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه، فإنما يعذبه لأنه لا يفعل مع القدرة وقد علم الله ذلك منــــــه، ومن لا يســــــتطيع لا يـــــأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه. ......

لا منافاة بين قدرة العبد وسبق علم الله بما هو عامل

وإذا قيل : فيلزم أن يكون العبد قـادراً على تغيـير علم اللـه، لأن الله علم أنه لا يفعل، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم اللـه؟ قيـل: هـذه مغلطـة، وذلك أن مجــرد مقدرته على الفعل لا تســتلزم تغيــير العلم، وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل، ولو وقع الفعل لكان المعلـوم وقوعه لا عـدم وقوعه، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعـدم وقوعـه، بل إن وقع كـان الله قد علم أنه يقـع، وإن لم يقع كـان الله قد علم أنه لا يقـع، ونحن لا نعلم علم الله إلا بما يظهـر، وعلم الله مطـابق للواقـع، فيمتنع أن يقع شـيء يستلزم تغيير العلم، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم، والعبد الـذي لم يفعل لم يأت بما يغير العلم، بل هو قـادر على فعل لم يقـع، ولو وقع لكـان الله قد علم أنه يقع لا أنه لا يقع. وإذا قيل: فما انعدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع، فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم. قيل: ليس الأمر كـذلك، بل العبد يقــدر على وقوعه وهو لم يوقعــه، ولو أوقعه لم يكن المعلــوم إلا وقوعــه، فمقدور العبد إذا وقع لم يكن المعلـوم إلا وقوعـه، وهـؤلاء فرضـوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه، وهو فرض محال، وذلك بمنزلة من يقـول: افـرض وقوعه مع عدم وقوعه وهو جمع بين النقيضين. فإن قيـل: فـإذا كـان وقوعه مع علم الرب بعدم وقوعه محالاً لم يكن مقـدوراً. قيـل: لفظ المحـال مجمـل، وهـذا ليس محالا لعدم اسـتطاعته له ولا لعجـزه عنه ولا لامتناعه في نفسـه، بل هو ممكن مقدور مستطاع، ولكن إذا وقع كان الله عالماً بأنه سـيقع، وإذا لم يقع كان عالماً بأنه لا يقع، فإذا فـرض وقوعه مع انتفـاء لازم الوقـوع صـار محـالاً من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه، وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال. مما يلزم هؤلاء: أن لا يبقى أحد قادراً على شيء لا الـرب ولا الخلـق، فـإن الـرب إذا علم من نفسه أنه سـيفعل كـذا لا يلـزم من علمه ذلك انتفـاء قدرته على تركـه، وكـذلك إذا علم من نفسه أنه لا يفعله لا يلـزم منه انتفـاء قدرته على فعلـه، فكـذلك ما قـدره من أفعـال عبـاده، والله تعـالى أعلم]. الكلام الأول يتعلق بعلم الله تعالى بالأشياء قبل وقوعها ويسمى هـذا: التقـدير العـام، وهو أن الله تعالى علم أن الخلق عاملون بعلمه القديم الذي سبق كل شيء، علم أعمالهم وعلم عددهم وعلم عـدد المخلوقـات، وأحصى ذلك قبل أن يوجـدوا، وخلق القلم وأمـره أن يكتب، وجـرى في تلك السـاعة بما هو كـائن إلى يـوم القيامة، هذا ما يـؤمن به المسـلمون. دليل ذلك من القـرآن ظـاهر مثل قـول الله تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَـابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا [الحديد:22]، ومثل قوله تعـالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [الحج:70]، ومثل قوله تعالى: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [الأنعام:59]، والآيات في هذا كثيرة تفيد سعة علم الله بالأشياء قبل وجودها.

غلاة المعتزلة ينكرون علم الله في الأزل

ذكر أن غلاة المعتزلة المتقدمين أنكروا هذا النوع وزعموا أن الله لا يعلم الأشياء حتى توجد، وقال بعضهم: إنه يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، أي: يعلم عموم الأشياء ولا يعلم تفاصيلها، ومقتضى هذا أنه يعلم عدد الخلق ولكن لا يعلم تفاصيل أعمالهم، فإذا علم أن هذه القبيلة يبلغ عددها كذا وكذا، فلا يعلم أعمال هذا الإنسان حتى يعملها وهذا يعتبر تنقصاً لعلم الله: وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [البقرة:282]، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ [التوبة:78]، فيلزم التنقص إذا وصف بأنه لا يعلم الأشياء إلا بعد حدوثها. هؤلاء الذين أنكروا العلم السابق الأزلي هم الذين عناهم الإمام الشافعي في هذه الكلمة: (ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن أنكروا كفروا)، يعني: هل تقرون بأن الله بكل شيء عليم؟ هل تقرون بأن الله عالم بكل شيء؛ لأن الله علام الغيوب، وأن الله يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون؟ هل تقرون بسعة علم الله تعالى؟ فإن أقروا خُصموا، فإن العلم بالتفاصيل داخل في ذلك، وإن جحدوا كفروا، وذلك لأنهم إذا جحدوا علم الله تعالى لزمهم أن يصفوه بالعجز وبالجهل، وبأنه يكون في الوجود ما لا يريد، فيلزم من ذلك التنقص، ولا شك أنه إنكار للأدلة، فيكونون بذلك كفاراً جاحدين لصفات الله تعالى. وقد أقر الأشعرية بوصف الله تعالى بأنه بكل شيء عليم، ولكنهم أنكروا بعض الصفات الفعلية، أما المعتزلة فأنكروا صفة العلم لله سبحانه وتعالى، ووصفوه بأنه لا يجهل؛ هكذا في معتقداتهم!

شبهات القدرية حول علم الله السابق

بعد ذلك أخذوا يوردون شبهات ويقولون: إذا علم الله أن هذا الإنسان يعمل كذا وأنه يعمل كذا، فلا بد أن يكون قادراً على أن يرده أو غير قادر على أن

يرده. فإذا كان قـادراً على أن يـرده فلم يـرده، أصـبح قد رضي بأفعاله الـتي هي المعاصي. وإذا لم يكن قادراً، أصبح موصـوفاً بـالعجز، وما أشـبه ذلك من هـذه التشـكيكات الـتي يوردونها على أهل السـنة الـذين يصـفون الله تعـالى بالعلم القديم. وقد ذكر المؤلف جواب أهل السنة عن ذلـك، فـإن أهل السـنة يقولــون: إن كل ما وقع فإنه مــراد، ولكن من ذلك ما هو مــراد ومحبــوب كالطاعات، ومنه ما هو مراد ومقدر كالمعاصي، فمن المـراد المقـدر ما علمه الله وقـدره وقضـاه على العبـد، ولكنه كرهه شـرعاً ولم يحبـه، وتوعد عليـه، والعبد عندما زاوله يوصف بأنه كافر أو عاص أو مجرم أو فاسق أو خــاطئ أو مذنب، حيث ارتكب هذا وفعله بقدرة واختيار مسـتطاع لـه، فهو الـذي يعـاتب ويعاقب عليه، هذا هو معتقد أهل السنة في هذا، ولا يلـزم من إرادته كونـاً أن يحبه وأن يقدره وأن يريده شرعاً. والله تعالى كما تقدم قد أعطى العبد قدرة يسـتطيع بها مزاولة أعمالــه، فالعبد هو المــؤمن والكــافر، والــبر والفــاجر، والمصلي والصائم، وللعباد قـدرة على أفعـالهم ولهم إرادة، ولكن الله تعـالى هو الــذي خلقهم وخلق قــدرتهم وإرادتهم ولو شــاء لهــداهم، ولكنه لحكمته البالغة أضل قوماً بعدله، وهدى قوماً بفضـله، فله النعمة على من هـداه، وله الحكمة على من أضله. وأعطى كلاً منهم من الاستطاعة ما يزاول به أعماله، وهذا قد تكرر معنا في الـرد على هـؤلاء الـذين يطيلـون الجـدل في مثل علم الله تعالى وإرادته، فنحن إذا قلنا: إن جميع ما في الوجود مراد قـدراً، وكل ما هو حادث فهو معلوم لله قبل أن توجد المخلوقات ومـراد كونـاً وقـدراً؛ بحيث إن الله قـدره وإنه لو شـاء ما حصـلت هـذه الأشـياء، فإنه سـبحانه لقدرته لا يمكن أن توجد معصية قسراً عليه بدون رضاه أو بدون تقديره، ولكنه لحكمته جعل هؤلاء من أهل الـذنوب وهـؤلاء من أهل الحسـنات لحكمة منـه، ولا شك أن الذين اختاروا هذا والذين اختاروا هذا لهم نوع من هـذا الاختيـار ليسـتحقوا ثواباً أو عقاباً، وحكمة الله تعالى خفية لا يطلع عليها العباد. فهذه الدرجة التي ذكرنا وهذه المنزلة التي هي العلم السابق هو الذي لا يتغـير، يعـني يقـال: ما كتبه الله في اللوح المحفوظ لا يمكن تغييره، يقول الله تعالى: قُلْ لَنْ يُصِـيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا [التوبة:51]، هذا في المصائب، ويقول: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ [الحديد:23]. ويقول علقمة في قوله تعـالى: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْـدِ قَلْبَـهُ [التغـابن:11] هو الرجل تصـيبه المصـيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، يعني: يستسلم لما أصابه بقضاء الله تعالى وبقدره، فيكــون بــذلك قد اتقى الله حق تقاتــه، وقد علم أن ما حــدث فهو بــأمر الله تعالى وبتقـديره، وفعل ما يقـدر عليه وما هو مـأمور بـه، واستسـلم لأمر الله تعـالى. وقد تقـدم لنا وتكـرر أن إيماننا بالقضـاء والقـدر لا يسـتلزم أن نـترك الأسباب والأفعال والأعمال التي نعملها، كما أننا لا نترك الأسباب الحسية في طلب المعاش؛ فكذلك في طلب الأجر الأخروي والحسـنات الأخرويـة، فالعبد مأمور بأن يفعلها مع إيمانه بأنها مقـدرة وأنها سـتأتيه، ويـؤمن بـأن المصـائب التي وقعت عليه لا بد منها، لقوله تعالى: قُلْ لَـوْ كُنْتُمْ فِي بُيُـوتِكُمْ لَبَـرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْـلُ إِلَى مَضَـاجِعِهِمْ [آل عمـران:154]، ولقولـه: أَيْنَمَا تَكُونُـوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ [النساء:78]، وهذا في الذين قالوا:

رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ [النساء:77]، فتبين أن التحصن لا يدفع قدر الله تعالى الذي قدره. فعلى كل حال فإن الإيمان بسعة علم الله تعالى وواسع علمه بتفاصيل المخلوقات، لا ينافي فعل الأسباب وحدوث المسببات بعد أسبابها.

الإيمان بالقدر وسبق علم الله من عقد الإيمان والاعتراف بربوبية الله

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا [الفرقان:2]، وقال تعالى: وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا [الأحزاب:38]). الإشارة إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها، قال صلى الله عليه وسلم في جواب السائل عن الإيمان: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)، وقال صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث: (يا عمر ؛ أتدري من السائل؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) رواه مسلم]. ......

أحاديث ذم القدرية

قال المؤلف رحمه الله: [وقوله: (والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته) أي: لا يتم التوحيد والاعتراف بالربوبية إلا بالإيمان بصفاته تعالى، فإن من زعم خالقاً غير الله فقد أشرك، فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله؟! ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة، وأحاديثهم في السنن. روى أبو داود عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (القدرية مجوس هذه الأمة؛ إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم). وروى أبو داود أيضا عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال). وروى أبو داود أيضا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم). وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صنفان من بني آدم ليس لهما في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية)، لكن كل أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة وإنما يصح الموقوف منها. فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (القدر نظام التوحيد، فمن

وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده)، وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضــمن الإيمان بعلم الله القـديم وما أظهر من علمه بخطابه وكتابة مقـادير الخلائـق، وقد ضل في هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم ممن ينكر علمه بالجزئيات أو بغير ذلك، فإن ذلك كله مما يدخل في التكـذيب بالقدر].

الإيمان بالصفات متوقف على الإيمان بالقدر

ذكر أن الإيمان بالقدر من تمام الإيمـان بصـفات الله تعـالى، وأنه واجب على الإنسان أن يؤمن بصفات الله، فيؤمن بأنه الخـالق وحـده، ويـؤمن بأنه العليم والحكيم، وبأنه المدبر والمتصرف في الخلـق، وذلك كله يتوقف على الإيمـان بالقدر؛ لأن القدر إذا قلنا إنه يدخل فيه قدرة الله ويدخل فيه علم الله، فإنكار قدرة الله تعالى إنكار لصفاته ووصف له بالعجز سبحانه وتعـالى، وبأنه يكـون معه من يتصرف في الكون بدون رضـاه، وذلك شـرك. كـذلك إنكـار علم الله وصف له تعالى بالجهل، وذلك أيضاً غاية التنقص، فمن آمن بأن الله على كل شيء قدير، وبـأن الله بكل شـيء عليم، آمن بأنه عزيز حكيم، وبأنه هو الـذي نظم الخلق وهو الـذي يتصـرف في الكـون وحـده، وهو الـذي يعلم السـعيد والشقي والفاجر والتقي، وهو الذي قـدر المقـادير وأوجـدها، فيلزمه والحـال هذه أن يعلم أن هذه المصائب التي تحدث تحدث بعلم الله، وأنها متى وقعت فليس منها مفر ولا محيد، ولأجل ذلك أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالإيمان بهذا الأمر بقوله: (وأن تؤمن بالقدر خيره وشره وحلـوه ومـره)، وقـال لــابن عبــاس في حديثه المشــهور: (واعلم أن الأمة لو اجتمعــوا على أن ينفعــوك بشيء لم ينفعوك إلا بشـيء قد كتبه الله لـك، ولو اجتمعـوا على أن يضـروك بشــــيء لم يضــــروك إلا بشــــيء قد كتبه الله عليــــك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)، يعني يبست الصحف مما كتب فيها، ورفعت الأقلام فلم يبق كتابــة، بل الأمر قد فرغ منه وقد عرف أهل الجنة من أهل النار. فالإيمان بالقـدر من تمام الإيمان بالله، والذين أنكروه صنفان: صنف أنكـروا العلم وصـنف أنكـروا القدرة، فالذين أنكروا العلم هم الغلاة الذين يقولـون: إن الله لا يعلم الأشـياء حتى توجد أو إنه يعلم الكليات دون الجزئيات، وهم غلاة المعتزلة قديماً؛ منهم عمرو بن عبيد ومنهم غيلان القدري ومنهم معبد الجهني ، فهـؤلاء موصـوفون بـأنهم من غلاة القدريــة. ثم جــاء بعـدهم المعتزلة الــذين أخـذوا منهم بعض الأشياء فـأنكروا قـدرة الله عمومـاً، ومنهم أبو الهـذيل العلاف المعـتزلي وأبو هاشم الجبائي ومنهم القاضي عبد الجبار الهمـداني ومنهم الجاحظ المشـهور وأشباههم، هؤلاء من المعتزلة الذين أنكروا قدرة الله، ولأجل ذلك قال الإمام أحمد رحمه الله: (القدر قدرة الله)، يعني أن الإيمان بقدرة الله إيمان بالقدر.

مشابهة القدرية للمجوس في إثبات خالق غير الله

وعلى قول هؤلاء المعتزلة يكـون هنـاك من يخلق مع اللـه، ولا يكـون الله هو الـذي يخلق وحـده، وعقيـدة المعتزلة أن كل إنسـان يخلق فعلـه، وأن الله لا يقدر على أفعال العباد، وأنه لا يستطيع أن يهدي هذا ولا يضل هذا، وأن قـدرة العبد تغلب قـدرة اللـه، فـإذا أراد العبد أن يعصي وأراد الله ألا يعصي غلبت قدرة العبد على قـدرة الخـالق تعـالى، فهـذا هو معتقـدهم في أن العبد يخلق أفعاله دون أن يكـون لله قـدرة على رده. ويزعمـون أن هـذا هو العـدل فيقولون: إنه لو خلق الأفعال في العبد ثم عذبه عليها لاعتبر ظالماً لـه، وهـذا هو سبب غلوهم في القـدر حـتى جعلـوا هنالك من يخلق مع الله تعـالى، ولم يجعلـوا الخلق والأمر للـه، فخـالفوا قـول الله تعـالى: أَلا لَـهُ الْخَلْـقُ وَالأَمْـرُ [الأعراف:54]، فالخلق لله وحده والأمر الـذي هو الشـرع لله وحـده. ولأجل ذلك وردت هـذه الأحـاديث في أن: (القدرية مجـوس هـذه الأمـة)، وهـذه الأحـاديث مروية في السـنن ولكن فيها مقـال فلا يثبت رفعهـا، وإنما الصـحيح أنها موقوفة، يعني: أنها من كلام الصـحابة. ولا شك أن كلام الصـحابة معتـبر؛ وذلك لأنهم هم الذين شاهدوا نزول الوحي، وهم الـذين نقلـوا لنا الشـرع عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم، فـإذا حـذرونا من هـؤلاء القدرية وقـالوا: إنهم يجعلـون مع الله من يخلق وإنهم مجـوس هـذه الأمـة؛ لم يقولـوا ذلك إلا عن توقيـف، ولا بد أنهم عرفـوا ذلك عن طريق الرسـول صـلى الله عليه وسـلم وعن طريق شـريعته، هـذا هو السـبب في كـون أقـوالهم أصـبحت معتـبرة. ومعنى كـونهم مجـوس هـذه الأمة أن المجـوس كما تقـدم في أول الكتـاب -ويسـمون الثانويـة- يـدعون أن الخلق صـدر عن اثـنين: النـور خلق الخـير، والظلمة خلقت الشر، فيدعون أن الخلق صادر عن خالقين. القدرية يقولـون: الله هو الذي خلق الإنسان ولكن الإنسان يخلق أعماله وأفعاله، فيجعلـون مع الله من يخلق ولا يجعلـون الأفعـال مخلوقة لله تعـالى، ويخـالفون قـول الله تعـالى: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُـونَ [الصـافات:96]، وقد تقـدم أنهم يخشـون بذلك أن يحتج محتج بالقدر على المعاصـي. يقـول العلمـاء: إنهم لما اعتقـدوا هذا الاعتقاد السـيئ، وهو أن العبد هو المسـتقل بفعلـه، وأن الله ليس بقـادر على أن يخلق أفعـال العبـاد لا خـيراً ولا شـراً، خلى الشـيطان بينهم وبين الأعمـال فأصـبحوا يتعبـدون ويكـثرون من التمسـك، ويـأتون بـأنواع التنفلات والقربات، ويبتعدون عن المحرمات صـغائرها وكبائرهـا، لأن من عقيـدتهم أن الإصرار على الصغيرة يصيرها كبـيرة، وأن الكبـيرة تـوجب الخلـود في النـار، ويسمون ذلك إنفاذ الوعيد، فالوعيد الذي ورد في الشـرع لا بد أن ينفـذ، ومن توعـده الله بأية عـذاب فإنه يحكم بخلـوده في النـار. فأهل المعاصي عنـدهم

مخلدون في النار لا يخرجون منها، ويستدلون بمثل قـول الله تعـالى: وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقـرة:167]، وبقولـه: يُرِيـدُونَ أَنْ يَخْرُجُـوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا [المائدة:37]، وبقوله: كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُـوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا [الحج:22]، وما علموا أن هذه الآيات في الكفار الذين حكم بأنهم مخلدون فيها، أما العصاة الذين أذنبوا ذنوباً فسـيأتينا أنهم يخرجـون من هـذه بشفاعة الشافعين، وبرحمة أرحم الراحمين، وبكل حال فهـؤلاء مجـوس هـذه الأمـــة، وهـــذا هو قـــولهم. وأما مخـــافتهم أن يحتج محتج بالقـــدر على فعل المعاصي، فقد ذكرنا أن من عقيدة أهل السـنة: أن المعاصي إذا صـدرت عن العبد نسبت إليه مباشـرة ونسـبت إلى الله تعـالى تقـديراً، ولما كـانت تنسب إلى العبد مباشـرة وإيجـاداً اسـتحق ذلك العبد أن يعـاتب عليها وأن يعـاقب، وكـذلك الطاعـات تنسب إلى العبد مباشـرة وتنسب إلى الله خلقـاً وتقـديراً، وإذا كـان كـذلك فلا حجة للمجـبرة على فعل الـذنوب، ونعـرف بـذلك أن كلتا الطائفتين خاطئة: أعني القدرية الـذين ينفـون قـدرة الله على أفعـال العبـاد، والمجـبرة الـذين يعـذرون العبد في الأفعـال ويقولـون إن تعذيبه على أفعاله ظلم، حيث إنه ليس له أية اختيار، فنقول: إن له اختياراً لكن اختياره مسـبوق باختيـار الله تعـالى، وله قـدرة ولكن قدرته مغلوبة بقـدرة اللـه. قـال المؤلف رحمه الله تعالى: [وأما قدرة الله على كل شيء فهو الذي يكــذب به القدرية جملة، حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد فأخرجوها عن قدرته وخلقه، والقدر الذي لا ريب في دلالة الكتاب والسنة والإجمـاع عليـه، وأن الـذي جحـدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع هو: ما قدره الله من مقـادير العبـاد، وعامة ما يوجد من كلام الصــحابة والأئمة في ذم القدرية يعــنى به هــؤلاء، كقــول ابن عمر رضي الله عنهما لما قيل له يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف: (أخــبرهم أني منهم بريء وأنهم مني برآء)].

الأصول التي يقتضيها الإيمان بالقدر المطابق للعلم

قال المؤلف: [والقدر الذي هو التقدير المطابق للعلم يتضمن أصولاً عظيمـة: أحدها: أنه عالم بـالأمور المقـدرة قبل كونهـا، فيثبت علمه القـديم، وفي ذلك الــرد على من ينكر علمه القـــديم. الثـــاني: أن التقـــدير يتضـــمن مقـــادير المخلوقـات، ومقاديرها هي صـفاتها المعينة المختصة بهـا، فـإن الله قد جعل لكل شيء قدراً قال تعـالى: وَخَلَـقَ كُـلَّ شَـيْءٍ فَقَـدَّرَهُ تَقْـدِيرًا [الفرقـان:2]، فـالخلق يتضـمن تقـدير الشـيء في نفسه بـأن يجعل له قـدراً، وتقـديره قبل وجوده، فإذا كان قد كتب لكل مخلوق قـدره الـذي يخصه في كميته وكيفيتـه، كان ذلك أبلغ في العلم بالأمور الجزئية المعينـة، خلافـاً لمن أنكر ذلك وقـال: إنه يعلم الكليـــات دون الجزئيـــات! فالقـــدر يتضـــمن العلم القـــديم والعلم

بالجزئيات. الثالث: أنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهـره قبل وجـود المخلوقـات إخبـاراً مفصـلاً، فيقتضي أنه يمكن أن يعلم العبـاد الأمـور قبل وجودها علمـاً مفصـلاً، فيـدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخـالق أولى بهـذا العلم، فإنه إذا كان يعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هـو؟! الرابـع: أنه يتضـمن أنه مختـار لما يفعله محدث له بمشيئته وإرادته، ليس لازمـاً لذاتـه. الخـامس: أنه يـدل على حـــدوث هـــذا المقـــدور وأنه كـــان بعد أن لم يكن، فإنه يقـــدره ثم يخلقـــه]. الاستدلال بهذه الآيات على القدر: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَـدَّرَهُ تَقْـدِيرًا [الفرقـان:2]، إِنَّا كُلَّ شَـيْءٍ خَلَقْنَـاهُ بِقَـدَرٍ [القمـر:49]، والقـدر معنـاه: تحديد الشـيء وتقدير مدته وتقدير زمانه، ومعناه: أن الله قدر الأعمال، أي: متى تحدث هذه الطاعـة، ومـتى تنتهي، وقـدر الأعمـار، فعمر الإنسـان لا يزيد عما قـدره الله وكتبه ولا ينقص، وقدر الوفيات وأسبابها وجعلها مكتوبة؛ بأن هذا الإنسان لا بد أن يموت بكـذا وكـذا، وليس له مفر مما كتبه الله عليه وما أشـبه ذلـك. وورد أيضاً: (أن رجلاً قال: يا رسـول اللـه! أرأيت أدوية نتـداوى بها ورقى نسـترقي بها، هل ترد من قـدر الله شـيئاً؟ فقـال: هي من قـدر اللـه) أي: هي مكتوبـة، يعني قدر الله أن هذا يصاب بمرض وأن المرض يعالج بكـذا وكـذا، فهو مقـدر ومكتوب أن يزول المرض بهذا السبب، ولأجل ذلك أمر النبي صـلى الله عليه وسلم بالتداوي في قوله: (تداووا عبـاد الله ولا تتـداووا بـالحرام، فـإن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء)، فتعاطي هذه الأسباب لا ينـافي أن العبد مكتـوب عليه ما هو فاعل، ولا يقول إنسان: أنا سـوف أتـرك هـذا الفعل ولا بد لي من حصول ما كتب لي! لأن ترك الأسباب كليـاً نقص في العقـل. لو رأيت إنسـاناً عزم على ترك الأكل والشـرب واللبـاس ونحو ذلـك، وقـال: إذا قـدر الله أني أتغذى فسأتغذى بدون ذلـك، وإذا كـان الله قد قـدر لي ذلك فلا حاجة إلى أن أطعم وإلى أن أشـرب وإلى أن ألبس وإلى غـير ذلـك! نقـول: هـذا نقص في العقل؛ لأن هذه الأشـياء جعلها الله أسـباباً حسـية وأمر بتعاطيها وأباحهـا، فلا يكون شبع إلا بواسطة الأكل، ولا ري إلا بواسطة الشرب، ولا ولد إلا بواسطة النكاح، وكذلك الأرزاق التي أمر بالاكتساب لها، فإنه أمر بفعل هـذه الأسـباب حتى يحصل من آثارها الرزق، ولو كان هو الذي قدرها وهو الذي يسـرها، كما في قوله تعـالى: أَفَـرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُـونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَـهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُـونَ [الواقعـة:63-64]، فـذكر أنهم يزرعـون، أي: يغرسـون الأشـجار ويسـقونها ويبذرون الحبـوب وينبتونهـا، فأضـاف إليهم الفعـل، ولكن أخـبر بأنه هو الـذي جعل هذه الأرض قابلة لذلك حتى تصـير منبتة ومثمـرة ونحو ذلـك، وهو الـذي أوجد هذا الماء الذي به هذا الشراب، ولو شاء لغيره كما في قوله تعـالى: لَـوْ نَشَـاءُ جَعَلْنَـاهُ أُجَاجًا [الواقعـة:70] يعـني ملحـاً أجاجـاً لا يصـلح للشـرب ولا للسقي ولا لغير ذلك. فأصبح الإيمان بهذا القدر يقتضي أن نعلم بـأن تفاصـيل الأشـياء معلومة وموجـودة لله تعـالى، ولكن لا تـترك الأسـباب الحسـية، بل يفعلها الإنســـــان ويعلم أنها مقـــــدرة من اللـــــه، وأنه هو الـــــذي أمر بها ويسرها. ......

شرح العقيدة الطحاوية [31]

التكـذيب بالقـدر والتشـكيك في علم الله مـرض من الأمـراض الخبيثة الـتي تسيطر على القلب، فعلى المؤمن أن يتخذ أسباب الوقاية من ذلك، وإذا طرأ عليه مرض فعليه أن يعالجه بكتاب الله وسنة رسوله كما ذكر العلماء.

أهل السنة في القدر وسط بين القدرية والجبرية

لا نزال في أحد أركان الإيمان، وهو ركن الإيمـان بالقضـاء والقـدر، وقد توسع فيه صــاحب المتن وصــاحب الشــرح؛ وذلك لأن الخلاف فيه مع طــائفتين مشهورتين: طائفة تغلو في الإثبات وطائفة تغلو في النفي، والذين يغلون في النفي طائفتان أيضاً، منهم من ينفي العلم ومنهم من ينفي القدرة، وكل هـذه الطوائف مبتدعة ضلال. وقد هدى الله أهل السـنة فتوسـطوا في بـاب القـدر بين الجبرية والقدرية، فالجبرية نفوا قـدرة العبد وجعلـوه مجبـوراً ليس له أي اختيـار، وجعلـوه يعـاقب على ما لم يفعل ويثـاب على ما ليس له فيه اختيـار، فجعلـوا حركته كحركة الشـجر الـذي تحركه الريـاح. وأما القدرية فـإنهم نفـوا قدرة الله عز وجل على أفعال العباد، ووصفوا ربهم تعالى بـالعجز عن الهداية وعن التصـرف في الخلق كما يريـد، فلأجل ذلك كـانوا -كما سـبق- شـبيهين بالمجوس، ووردت فيهم آثار وأحاديث -وإن لم يصح رفعها- تذكر أنهم مجوس هذه الأمة، وأنهم لخصلتهم هذه ينبغي مقاطعتهم، كما في تلك الأحـاديث: (إن مرضوا فلا تعودوهم وإن مـاتوا فلا تشـهدوهم). فهـذا يـدل على أن على أهل السنة مقاطعتهم، ومعلوم أن عيادة المـريض من حق المسـلم على المسـلم وكذلك أن يتبع جنازته إذا مات، ولكن قاطع الصـحابة وتلامـذتهم هـؤلاء؛ وذلك لأنهم أتوا بأمر شنيع، وهو تعجيز الله عز وجل واتهامه بعدم القـدرة، وتفضـيل قدرة العباد على قدرته، ولو كـانوا -في زعمهم- يريـدون أن يـنزهوا ربهم عن الظلم، أي: عن أن يخلق المعصية ثم يعاقب عليها! وقد ذكرنا أن أهل السـنة وسط في باب القدر بين الجبرية والقدرية، وذلك لأنهم آمنوا بقـدرة الله على كل شيء، ثم مع ذلك اعتقدوا أن العبد له قدرة مغلوبة بقـدرة اللـه، وأن الله تعالى أعطى العباد قدرة يزاولون بها أعمالهم، فبتلك القدرة يفعلون الأعمـال التي يثاب العبد عليها أو يعـاقب ولو كـانت مغلوبة بقـدرة اللـه! فيقـال: للعبد قدرة وله إرادة، وقدرة الله وإرادته غالبة على قدرة العبد وعلى إرادته، وتلك القدرة هي التي يستحق عليها أن يثاب على الطاعة ويعاقب على المعاصــي، ولولا تلك القدرة لبطلت حكمة الله ولبطل شـرع اللـه، وذلك لأن الله تعـالى قد شرع الشرائع، وقد أرسل الرسل وأنزل الكتب وضمنها أوامر ونواهي، فلا بد أن يكون هذا الأمر والنهي موجهاً إلى من يستطيع مزاولته، وإذا آمنا بـذلك آمنا بأن الله تعـالى أقـدر العبـاد على ما هم قـادرون عليه وأعطـاهم القـدرة التي تناسبهم، فبها يثابون وبها يعاقبون. ......

أمراض القلوب في باب القدر

يقول المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (فويل لمن ضاع له في القدر سقيماً -وفي نسخة: فويل لمن صار قلبه في القـدر قلبـاً سـقيماً- لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرّا كتيماً وعاد بما قـال فيه أفاكـاً أثيمـاً). القلب له حيـاة وموت ومـرض وشـفاء، وذلك أعظم مما للبـدن قـال تعـالى: أَوَمَنْ كَـانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُـورًا يَمْشِـي بِـهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُـهُ فِي الظُّلُمَـاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا [الأنعـام:122] أي: كـان ميتـاً بـالكفر فأحيينـاه بالإيمـان، فـالقلب الصحيح الحي إذا عـرض عليه الباطل والقبـائح نفر منها بطبعه وأبغضـها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت فإنه لا يفرق بين الحسن والقـبيح، كما قـال عبد الله بن مســعود رضي الله عنــه: (هلك من لم يكن له قلب يعــرف به المعروف والمنكر)، وكذلك القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه]. ......

مرض القلب ناتج إما عن شهوة أو شبهة

قـال المؤلف رحمه اللـه: [ومـرض القلب نوعـان كما تقـدم: مـرض شـهوة ومرض شبهة، وأردؤها مرض الشبهة، وأردأ الشبه ما كان من أمر القدر، وقد يمـرض القلب ويشـتد مرضه ولا يعـرف به صـاحبه لاشـتغاله وانصـرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموتـه. وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فـإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليـه، وتـألم بجهله بـالحق بحسب حياتـه: وما لجرح بميت إيلام. وقد يشعر بمرضه ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصـبر عليهـا، فيـؤثر بقـاء ألمه على مشـقة الـدواء، فـإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس وليس له أنفع منه. وتارة يوطن نفسه على الصبر ثم ينفسخ عزمه ولا يسـتمر معه لضـعف علمه وبصـيرته وصـبره، كمن دخل في طريق مخــوف مفض إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صــبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قـوة صـبر وقـوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضـعف صـبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشـقتها، ولا سـيما إن عـدم الرفيق واسـتوحش من الوحـدة وجعل يقـول: أين ذهب الناس فلي أسوة بهم؟! وهذه حال أكثر الخلق، وهي الـتي أهلكتهم. فالبصـير الصادق لا يسـتوحش من قلة الرفيق ولا من فقـده إذا استشـعر قلبه مرافقة الرعيل الأول: الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّــــدِّيقِينَ وَالشُّــــهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا [النساء:69]].

الأمر بلزوم الجماعة هو لزوم الحق لا الكثرة

قال المؤلف رحمه الله: [وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة -في كتاب الحوادث والبدع: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم. وعن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: (السنة - والذي لا إله إلا هو- بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فيما بقي؛ الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك فكونوا)].

تفصيل أمراض القلوب

الكلام يتعلق بمرض القلب وصحته، ومناسبته أن هؤلاء المبتدعة ما أتوا إلا من زيغ القلوب، وما صرفوا عن الحق إلى بسبب مرضها. ولا شك أن أسباب المرض كثيرة، ومنها تلقي الشبهات، فالله تعالى قد ذكر أن القلوب تمرض فقال تعالى: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا [البقرة:10]. فذكر المؤلف أن مرض القلوب نوعان: مرض شهوة ومرض شبهة، وقد ذكر الله مرض الشهوة في قوله تعالى: فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ [الأحزاب:32]، هذا مرض الشهوة، وهو الذي يميل إلى الفواحش ويطمع في الأجنبية إذا خضعت بالقول، فلذلك قال: فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ [الأحزاب:32]، ينهى نساء النبي عن هذا. وأما مرض الشبهة فهو أشد، وهو الذي يصد القلب عن الحق، ومتى صد القلب عنه ابتلي بالباطل، وقد ذكر الله للقلوب أنواعاً من الأمراض فمنها الطبع، قال تعالى حكاية عن اليهود: وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا [النساء:155]، فالطبع عليها معناه: أنه ختم عليها بحيث لا يصل إليها الخير ولا تعرفه ولا تطمئن إليه، وهذا الطبع هو أشد الأمراض. كذلك مرض ثان وهو الختم، وهو بمعنى الطبع، قال تعالى: خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ [البقرة:7]، وقال تعالى: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً [الجاثية:23]، ومعلوم أن الختم هو تغطية الشيء بحيث لا يصل إليه شيء، كما في الظروف المختومة التي لا

تصل إليها الأيــدي، فــالقلب الــذي قد ختم عليه لا يصل إليه الخــير ولا ينتبه للمواعظ ولا يتـذكر، وسـبب ذلك هو الشـبهات. وكـذلك ذكر الله من أمـراض القلوب: الزيغ، قـال تعـالى: فَلَمَّا زَاغُـوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُـوبَهُمْ [الصـف:5]. والزيغ معناه: الانحراف والميل، ولا شك أن سببه الشبهات والتشكيكات الــتي تجعل الحق عنده باطلاً والباطل حقاً، فيميل عن الحق إلى الباطل وذلك هو الزيــغ، وقد ذكر الله أيضاً أسبابه: فذكر من أسبابه أنهم زاغوا بأنفسهم فـزادهم الله من ذلك: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [الصف:5]. وذكر أيضـاً من أسـبابه تتبع المتشابهات، فقال تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُـونَ مَا تَشَـابَهَ مِنْـهُ [آل عمران:7] إلى قوله عن الراسخين: رَبَّنَا لا تُـزِغْ قُلُوبَنَا بَعْـدَ إِذْ هَـدَيْتَنَا [آل عمـران:8]، فـالزيغ: معنـاه الانحـراف والميل عن الاسـتقامة، وسـببه هـذه المعاصي والمخالفات. وذكر الله أيضاً من أمراض القلوب: القسوة، التي هي قسـوة معنويـة، بحيث إن القلب لا يصل إليه الخـير ولا يلين، قـال تعـالى: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً [البقرة:74]، وقال تعالى: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَـقِّ وَلا يَكُونُـوا كَالَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ مِنْ قَبْـلُ فَطَـالَ عَلَيْهِمُ الأَمَـدُ فَقَسَـتْ قُلُـوبُهُمْ [الحديد:16]. فعابهم بأنهم قست قلوبهم، وأبعد القلوب من الله تعالى القلب القاسي، وهو الذي لا يلين لموعظة ولا يتـأثر بتـذكير ولا يقبل ذكـراً، ولا يتـأثر بتخويف، وتأتيه الإرشادات والنصائح وهو يصد عن كل ذلك صـدوداً، ولا يزيـده ذلك الأمر إلا نفـــــوراً، وما ذاك إلا أنه ممتلئ من الانحـــــراف وممتلئ من الشــبهات، ولم يبق فيه محل للمواعظ ولا محل للاعتبــار ولا لقبــول الحــق، فكان بذلك قلباً قاسياً لا يلين، وشـبه بحجـارة أو أشد من الحجـارة. وقد ذكر الله أيضاً من أمـراض القلـوب: الـران، الـذي ذكـره بقولـه: كَلَّا بَـلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [المطففين:14]، والران أو الرين: هو الغطاء الـذي يحجب القلب عن الاعتبار ويحجبه عن التذكر ولا يصل إليه الخـير، ولا شك أن سـببه كـثرة الـذنوب؛ فكلما كـثرت الـذنوب صـارت أغلفة على القلب؛ غلافـاً فوق غلاف وغطاء فوق غطاء، إلى أن يشق اختراقها وتعسر تنقيتها وإزالتهـا! وأشد الأمراض كما ذكر بعض العلماء هو: الإقفال الـذي ذكـره الله بقولـه: أَمْ عَلَى قُلُــوبٍ أَقْفَالُهَا [محمــد:24]، ولا شك أن القفل هو ما يغلق به البــاب ويوصد ولا يمكن فتحه إلا بمفتاحه الـذي صـنع لـه، فـالقلب إذا كـان قد أقفل ولم يكن له ما يفتح به، فإنه يبقى محجوباً ومحجوزاً لا يصل إليه خير.

أسباب الوقاية من أمراض القلوب

نقول: لا شك أن هذه الأمـراض الـتي ذكرنا لها أسـباب، وقد ورد من أسـباب أمراض القلوب: الشبهات والشهوات والتشكيكات وما أشبهها، وكلما عظمت

تلك الشـــكوك تـــراكمت على القلب فحصل الزيغ والانحـــراف والميل عن الاستقامة، وكلما لان القلب وقبل الحق فإنه يلين ويتـأثر، كما ذكر الله تعـالى ذلك عن أوليائه المؤمنين بقوله تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَـابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْـهُ جُلُـودُ الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُـودُهُمْ وَقُلُـوبُهُمْ إِلَى ذِكْـرِ اللَّهِ [الزمـر:23]. والقلب اللين: هو الـذي إذا سـمع موعظة تـأثر، ومن علامة تأثره أنه يقبل على الله ويعـرض عما سـواه، ومن علامة تـأثره -أيضـاً- أنه يحدث فيه خشوع وخوف، ويحدث فيه زيادة في الطاعـات وانصـراف عن الآثـام والمحرمـات؛ فهـذه من علامة لين القلب. وكـذلك أيضـاً اطمئنانه إلى الخـــير، وقد ذكر الله ذلك في قوله تعـــالى: أَلا بِـــذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُـــوبُ [الرعد:28]، فقلـوب المؤمـنين هي الـتي تطمئن بـذكر الله وهي الـتي تلين لكلام الله، وأما قلوب الفسقة ونحوهم فإنها قاسية مقفلة لا يصل إليها الخير مهما تكلم الإنسـان ومهما وعـظ، كما وصـفوا بـأنهم: صُـمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ [البقرة:18]. وعلى كل حـال: فأسـباب ذلك في هـؤلاء المبتدعة هي الشـبهات، فعلى العبد أولاً أن يكـثر الاسـتعاذة بالله عز وجل من زيغ القلب، لقوله: رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَـدَيْتَنَا [آل عمـران:8] ونحو ذلك من الأدعيـة، كـذلك يتجنب تلك الشـبهات الـتي تصل إلى القلب فتقسـيه، كـذلك يتجنب المعاصي التي لها تـأثير أيضـاً في القلـوب ولها تـأثير في إعراضـها عن الحق وعدم تقبله. وبعد أن عرفنا أن الأسباب في قسوة القلب هو هـذه الشـبهات، نقول: إن هذه الشبهات كثيراً ما يثيرها أولئك المشبهون الذين زاغت قلوبهم؛ فهم يثيرونها حـتى يزيغـوا غـيرهم، فعلى الإنسـان أن يحـذر من شـبهاتهم. وشبهاتهم وتشـكيكاتهم يشـككون بها في قـدرة الله عز وجل وفي آثـار علمه ومعلوماتـه، ويشـككون بها أيضـاً في عذابه وفي ثوابه وما أشـبه ذلـك، فـإذا عرف العبد أن هذه من تشكيكات الذين قست قلوبهم تجنبها حـتى يبقى قلبه ليناً خاشعاً خاضعاً متواضـعاً. معلـوم أيضـاً أن هـذه المواعظ ونحوها لها أثـار على عباد اللـه، وأن العبد إذا قبلها اسـتقام على الخـير واسـتمر عليه وقبلـه، وإذا أكثر من حضور مجالس الذكر ومجـالس العلمـاء ومجـالس العبـاد، وقبل مناصحاتهم وإرشاداتهم تـأثر بـذلك أيضـاً ولان قلبـه؛ زيـادة على ما يحصل له من كثرة العبادات وكثرة المعلومات؛ فإن السبب في أن قسماً من النـاس لا يتأثرون بخير ولا يقبلون إرشاداً ولا نصحاً ولا غير ذلك، أنهم عاشوا على البعد عن الخـير وعـدم تقبلـه. وقسم آخر إذا تكلم معهم إنسـان بكلمة أو كلمـتين لانت قلـوبهم وخشـعوا ودمعت أعينهم، وأقبلـوا على الله وتـابوا إليه وأنـابوا؛ وسـبب ذلك محبتهم للخـير وإقبـالهم عليـه، فعلى العبد أن يكـون من الـذين يحبهم الله والذين يقبلونه ويقبلون كلامه.

أعراض مرض القلب وعلاجه

قــال المؤلف رحمه اللــه: [وعلامة مــرض القلب عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة إلى الأغذية الضــارة، وعدوله عن دوائه النــافع إلى دوائه الضــار، فهاهنا أربعة أشياء: غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، ودواء مهلك. فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المـؤذي والقلب المـريض بضد ذلـك. وأنفع الأغذية غذاء الإيمـان وأنفع الأدوية دواء القـرآن، وكل منهما فيه الغـذاء والدواء، فمن طلب الشفاء في غير الكتـاب والسـنة فهو من أجهل الجـاهلين وأضل الضالين؛ فإن الله تعالى يقول: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْـرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَـادَوْنَ مِنْ مَكَـانٍ بَعِيـدٍ [فصلت:44]، وقال تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَـةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا [الإسـراء:82]، و(من) في قولـه: (من القـرآن) لبيان الجنس لا للتبعيض. وقال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جَـاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ [يـونس:57]. فـالقرآن هو الشـفاء التـام من جميع الأدواء القلبية والبدنية وأدواء الـدنيا والآخـرة، وما كل أحد يؤهل للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به ووضـعه على دائه بصدق، وإيمان وقبول تام، واعتقاد جازم، واسـتيفاء شـروطه لم يقـاوم الـداء أبداً، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نـزل على الجبـال لصدعها أو على الأرض لقطعها؟! فما من مرض من أمراض القلوب والأبـدان إلا وفي القـرآن سـبيل الدلالة على دوائه وسـببه والحمية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه. وقوله: (لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرّاً كتيمـاً) أي: طلب بوهمه في البحث عن الغيب سرّاً مكتوماً، إذ القدر سر الله في خلقـه، فهو يروم ببحثه الاطلاع على الغيب، وقد قـال تعـالى: عَـالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِـرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا [الجن:26] إلى آخر السورة. وقوله: (وعاد بما قـال فيـه) أي: في القدر (أفاكاً): كذاباً (أثيماً) أي: مأثوماً].

علاج أمراض القلوب بكتاب الله وسنة رسوله

ذكر أن القلــوب تمــرض وأن لها شــفاء، وأنها بحاجة إلى علاج وبحاجة إلى غذاء، فالبدن إذا مرض احتاج إلى الدواء، وإذا جـاع احتـاج إلى الغـذاء، وغـذاء البدن الأكل والطعام، وعلاجه الأدوية والعقاقير وما أشـبهها وهـذا غـذاء ودواء حسـي، ولكن لا يفيد ذلك في مـرض القلـوب. فـالقلوب لها غـذاء هي بحاجة إليه أشد من حاجة الأبدان إلى غـذائها، وهو غـذاء معنـوي؛ هـذا الغـذاء هو ما يستنبط من العلوم الشرعية، هـذا الغـذاء هو كلام الله وكلام رسـوله والعمل به. فما دام القلب مسـتقيماً وما دام سـليماً، فإنه بحاجة إلى أن يسـتمر معه هذا الغذاء، يستمر العبد على قراءة كلام الله وعلى تعلمه، وعلى تعلم السنة

النبوية وعلى العمل بهـا، حـتى يبقى قلبه سـليماً ويبقى على العمل وعلى الفطرة والاستقامة. أما إذا أحس بمرض من الأمراض التي ذكرنـا، فـإن لديه العلاج النـافع، وليس علاجه عند الأطبـاء وفي الصـيدليات ونحوهـا، بل علاجه معنوي، وهو أن يتعاطى هذا الكتاب وأن يعالج به قلبه، فإذا كـان المـرض من الشبهات فإنه يزيلها بما يبطلها، فإذا ورد إلى القلب شبه التشكيك في المعاد وجد في القرآن علاجاً يزيل هذه الشبهة. وإذا مـرض القلب بشـبهة التشـكيك مثلاً في الإيمان بالغيب وجد في القرآن علاجاً ودواءً لهذا المرض، وإذا مرض القلب بشبهة الشك في المعاد أو في المبـدأ أو في أول الخلق أو في آخـره، أو بشـبهة الشك -مثلاً- في الأسـماء والصـفات، أو بشـبه الشك في العبـادات والمعـاملات، أو بشـبهة الشك في الأوامر والنـواهي، أو ما أشـبه ذلـك؛ وجد علاج ذلك علاجاً كاملاً في كلام الله وكلام رسوله، ولكن ذلك يحتاج إلى قلب حي واع فطن، يحتـاج إلى تأمـل؛ فيقـرأ كتـاب الله عز وجل ويتتبع السـنة النبويـة، وعند ذلك يحيا قلبه بعد أن كـان ميتـاً، ويصح بعد أن كـان مريضـاً، ويزول ما فيه من الوهن، وتزول الأمراض الكثيرة التي ذكرنا، فيزول الإقفال، وتزول الأكنة، ويزول الختم، ويزول الطبع، وتزول القسـوة، ويـزول الـرين إذا استعمل كتاب الله كعلاج ودواء لهذه الأمراض القلبية.

الآيات التي تصف القرآن بأنه شفاء

وقد توسع العلماء رحمهم الله في أمراض القلوب وفي بيان علاجها، وقد ذكر من ذلك جملة كثـيرة ابن القيم رحمه الله في أول كتابه الـذي سـماه (إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان)، وغيره من العلماء الذين تكلمـوا على أمـراض القلوب وعلاجها، وذكروا أن علاجها بكتـاب الله تعـالى وبسـنة نبيه صـلى الله عليه وسلم، وأنه أيضاً هو غذاؤها، واسـتدلوا بالآيـات الـتي تصف القـرآن بأنه شفاء، كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَـدْ جَـاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِـفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ [يونس:57]، والذي في الصدور هو الشكوك؛ فمن وقع في قلبه شك أو وقع في قلبه شيء من التردد أو ما أشـبه ذلـك، فليعـالج قلبه بكتـاب الله عز وجل، وبذلك يزول ذلك الشك ويـزول ذلك المـرض. كـذلك قـول الله تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ وَلا يَزِيـدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا [الإسراء:82]، فالمؤمنون هم الذين إذا قـرءوا القـرآن شـفوا؛ سـواء شفاء حسياً وهو إزالة الأمراض، أو شفاء معنوياً وهو تصفية القلوب وإزالة ما فيها من الصدأ، فإن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤه بكتـاب الله وبسـنة رسوله، وبالعمل بالشريعة، فبذلك يصفو القلب ويستنير ويصير نـوره محرقـاً لتلك الأمراض التي يأتي بها أولئك المشـبهون. فعلى العبد أن يقبل على هـذا العلاج النافع حتى يؤثر فيه، ولا يـؤثر فيه إلا إذا كـان صـادق الرغبة في إقباله

على الله، وصادقاً في محبته لكلام الله وكلام رسوله، ومصــدقاً بما وصف به هذا القرآن من قوله تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَـةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ [الإسراء:82]، وفي الآية الأخرى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّـدُورِ وَهُـدًى وَرَحْمَـةٌ للمؤمـنين [يـونس:57] فوصف بأربع صفات، وكل واحدة منها لها أهميتهـا. كـذلك قـول الله تعـالى: قُـلْ هُـوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْـرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [فصلت:44].

القرآن علاج للأمراض الحسية والمعنوية المستعصية بشرط الإيمان

وقد جرب كثير من العلماء هذه الآيات في أنها تشفي شـفاءً حسـياً الأمـراض الحسـية الـتي يبتلى بها بعض النـاس، فقـالوا: إن المسـلم إذا اسـتعمل هـذه الآيات وعمل بها وعالج بها قلبه شفي، وكذلك إذا عالج بها بدنه شفي، فتزول الأمراض العارضة التي تعرض للإنسـان ولا يسـتطيع علاجها الأطبـاء، كمـرض الشياطين الذي هو مرض السحرة ونحوهم، والصرف والعقل. وكـذلك مـرض الجان والإصابات بـالجنون وملامسـات وملابسـات الجـان، لا يسـتطيعها أيضـاً الأطباء ولا يعالجونها، ومرض الإصابات بالنظرة وبالعين ونحوها، لا يســتطيعها أيضاً الأطباء؛ ولكن علاجها الصـحيح هو القـرآن الـذي فيه هـذا الشـفاء الـذي مدحه الله بهذه الآيات في قوله: قُلْ هُـوَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا هُـدًى وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمًى [فصـلت:44]، أي: غـير المؤمـنين، وذلك: أولاً: أنهم لا يعترفون بأنه كلام الله. ثانياً: أن أمراضهم مستعصية، وهم التي قست قلـوبهم فهم لا يتـأثرون بـه. ثالثـاً: أن الله ما جعله إلا لأهل ذكـره ولأهل عبادته شفاءً، أما غـير المؤمـنين فحـرمهم من الانتفـاع بـه. فهـذا علاج حسي، فـإذا أراد الإنسـان أن ينتفع بـالقرآن وأن تـزول به أمراضـه، فعليه أن يحقق الإيمــان، وأن يحقق التصــديق بــه، وأن يحقق العمل بالشــريعة، وأن يصـدق بأنه كلام الله الـذي جعله شـفاء، وأن يعمل منه بكل ما يسـتطيع من العمـل، فبـذلك إذا عـالج به صـدقاً نفعه واسـتفاد منـه، هكـذا ذكـر كثـير من المحققين من العلماء. كذلك أيضاً نقول: وجد أيضاً بالتجربة أن هناك أمراضاً مستعصــية على الأطبــاء، كمــرض الســرطان ونحــوه من الأمــراض الــتي استعصت، ومع ذلك عولجت بكلام الله فشـفاها اللـه، ولكن ما حصل الشـفاء إلا لأناس، وذلك إذا اجتمع أمران: إيمان المريض وتصديقه بأن القـرآن شـفاء وكان أمله به، وكذلك إيمان الـراقي وتصـديقه بـذلك واسـتعماله لـه، فـاجتمع الأمـران فحصل بـذلك الشـفاء. وعـولج به الفسـقة والعصـاة وأهل الشـبهات والمبتدعة ونحــوهم، فلم يتــأثروا لا في الأمــراض الحســية ولا في الأمــراض

المعنوية، وذلك كله تحقيق لقول الله تعالى: وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [فصلت:44].

العرش أعظم المخلوقات، وهو غير الكرسـي، وقد جـاء وصـفه في كثـير من الآيات والأحاديث، وأهل السنة يؤمنون به كما جاءت به الأدلة، ولا يصغون إلى شبهات المبطلين.

الكلام على العرش

قال الشارح رحمه اللـه: [قولـه: (والعـرش والكرسي حق). كما بين تعـالى في كتابه، قال تعالى : ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيـدُ [الـبروج:15-16]، رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ [غافر:15]، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى [طه:5]، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الفرقان:59]، في غير ما آية من القـرآن: لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ رَبُّ الْعَـرْشِ الْكَـرِيمِ [المؤمنـون:116]، اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ رَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ [النمل:26]، الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَـبِّحُونَ بِحَمْـدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ [غافر:7]، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ [الحاقـة:17]، وَتَرَى الْمَلائِكَـةَ حَـافِّينَ مِنْ حَـوْلِ الْعَـرْشِ يُسَـبِّحُونَ بِحَمْـدِ رَبِّهِمْ [الزمـر:75]. وفي دعاء الكـرب المـروي في الصـحيح: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العــرش العظيم، لا إله إلا الله رب الســماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم). وروى الإمـام أحمد في حـديث الأوعـال عن العبـاس بن عبد المطلب رضي الله عنه قـال: قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: (هل تدرون كم بين السـماء والأرض؟ قـال: قلنـا: الله ورسـوله أعلم، قـال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سـماء إلى سـماء مسـيرة خمسـمائة سـنة، وكثف كل سـماء مسـيرة خمسـمائة سـنة، وفـوق السـماء السـابعة بحر بين أسـفله وأعلاه كما بين السـماء والأرض، ثم فـوق ذلك العـرش بين أسـفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله فوق ذلك، ليس يخفى عليه من أعمـال بـني آدم شـيء)ورواه أبو داود والترمـذي وابن ماجـة. وروى أبو داود وغـيره بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث الأطيط أنه صلى الله عليه وسلم قال: (إن عرشه على سماواته كهكذا، وقـال بأصـابعه مثل القبـة) الحديث، وفي صحيح البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قـال: (إذا سـألتم الله الجنة فاسـألوه الفـردوس، فإنه أوسط الجنـة، وفوقه عـرش الرحمن)، يـروى: (وفوقـه) بالنصب على الظرفية وبـالرفع على الابتـداء، أي: وسقفه. وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مسـتدير من جميع جوانبه محيط بالعـــالم من كل جهة وربما ســـموه: الفلك الأطلس والفلك التاســع! وهــذا ليس بصــحيح؛ لأنه قد ثبت في الشــرع أن له قــوائم تحمله الملائكة كما قال صلى الله عليه وسلم: (فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العـرش، فلا أدري أفـاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟)].......

ابتــدأ في الإيمــان بــالغيب، ومن جملة ما أخــبر الله به من الأمــور الغيبيــة: العرش والكرسي، فذكر الله العـرش في هـذه المواضع في القـرآن، وذكـره النــبي صــلى الله عليه وســلم في هــذه الأحــاديث، وذكر الكرسي في قوله تعالى: وَسِعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ [البقـرة:255]، وذكر الله تعـالى أنه اسـتوى على العـرش في سـبع آيـات من القـرآن: ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَـرْشِ [الفرقــان:59]. وقد أنكر حقيقة العــرش بعض المبتدعــة، فقــال بعضــهم: العرش: هو الملك، فقولـه: (اسـتوى على العـرش) أي: اسـتوى على الملـك. وهذا باطل، بل العرش هو السرير الذي يجلس عليه الملـوك، ولهـذا ذكر الله عن ملكة سبأ هـذا العـرش في قوله تعـالى: وَلَهَا عَـرْشٌ عَظِيمٌ [النمـل:23]؛ وقوله تعالى: أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا [النمل:38]؛ وقولـه: أَهَكَـذَا عَرْشُـكِ قَـالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ [النمل:42]، فدل أن العرش هو السرير الذي يجلس عليه الملك. أما العرش الذي خصه الله تعالى بالاستواء فهو من الأمور الغيبية لا يحيط بوصفه إلا الله عز وجل، ورد في بعض الآثـار في تفسـير قوله تعـالى: وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ [البقرة:255]، قال بعض الصحابة: (ما السـماوات السـبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس)، الترس: هو المجن الذي يقي المقاتل به ضربات السلاح، والدراهم: واحــدها درهم، قطعة من الفضة صغيرة كانوا يتعاملون بها، ماذا تشغل ســبعة دراهم إذا جعلت في الترس؟ وماذا تغطي منـه؟! لا شك أن هـذا دليل على عظمة هـذا الكرسـي، فالسماوات السبع؟ والأرضـون السـبع من يحيط بها إلا الله عز وجـل! كـذلك ورد أيضاً أن الكرسي صـغير بالنسـبة إلى العـرش، جـاء في بعض الأحـاديث: (الكرسي في العــرش كحلقة ألقيت بــأرض فلاة)، الحلقــة: هي الحديــدة المتلاقية الطرفين، إذا ألقيت بـأرض فلاة فمـاذا تشـغل من تلك الأرض؟ هـذا الكرسي الذي وسع السماوات والأرض هو بالنسبة إلى العرش كما ذكر، فـإذا كانت هـذه عظمة العـرش فكيف بعظمة الخـالق الـذي هو رب العـرش ورب كل شــــيء؟! وقد روي عن ابن عبــــاس رضي الله عنهما أنه قــــال: (ما السماوات السـبع والأرضـون السـبع في كف الـرحمن إلا كحبة خـردل في يد أحدكم)، والخـردل حبه صـغير في غاية الصـغر؟! فكل هـذا دليل على عظمة الله عز وجل، وأن هذه المخلوقات حقـيرة بالنسـبة لعظمته وجلاله وكبريائـه، والعبد إذا استحضر عظمة الله فإنه يمتنع أن يقــدم على معصــيته، ويمتنع أن يغفل عن ذكــره، ويحمله هــذا الاستحضــار على أن يعظم ربه غاية التعظيم، وأن يخافه غاية الخوف، وأن يجله ويبجله، وأن يصغر كل مخلـوق عنـده، فكل مخلوق -مهما كان قدره- يكـون حقـيراً وصـغيراً بالنسـبة إلى عظمة الخـالق وجلاله وكبريائه. هـذا هو السـبب في كـون الله تعـالى وصف نفسه بـالعظم، ووصف أيضاً العرش الذي خصه بالاستواء بالعظم في قوله تعالى: ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ [البـروج:15]، وفي قولـه: رَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ [التوبـة:129]، وفي قوله: رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [المؤمنون:116]. وذكر الله العرش في عدة آيـات

مما يــدل على أنه عــرش حقيقي تطــوف به الملائكــة، قــال تعــالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ [غافر:7]، وقال تعالى: وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ [الزمر:75]، وقال تعالى: رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ [غافر:15] أي: رب العرش، أي: مالكه وخالقه. فهذه الأدلة تدل على أنه ليس كما تقـول المعتزلـة: إن العـرش هو الملـك، بل العـرش مخلـوق قد خلقه الله كما خلق ســائر المخلوقـــات، ولكنه عظيم لا يحيط به إلا الله عز وجل، ولا يعلم قدره إلا الله، والمخلوقات كلها صغيرة وحقـيرة بالنسـبة إليـه، والله تعالى أعلم بحقيقته، وإنما على المؤمن أن يؤمن بما أخبر الله بــه، وأن يفوض علم الغيب إلى الله.

معنى العرش في اللغة

قال الشارح رحمه الله تعالى: [والعرش في اللغة: عبـارة عن السـرير الـذي للملك، كما قال تعالى عن بلقيس : وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ [النمل:23]، وليس هو فلكاً، ولا تفهم منه العرب كذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العـرب؛ فهـو: سـرير ذو قـوائم تحمله الملائكـة، وهو كالقبة على العـالم، وهو سـقف المخلوقـات، فمن شعر أمية بن أبي الصلت : مجدوا الله فهو للمجد أهـل ربنا في السـماء أمسى كبيـرا بالبنـاء العـالي الـذي بهر النا س وسـوى فـوق السـماء سريــرا شرجعاً لا يناله بصر العـين ترى حوله المـلائك صـورا الصور هنا: جمع أصــور، وهو: المائل العنق لنظره إلى العلو، والشرجع: هو العالي المـنيف، والسـرير: هو العــرش في اللغــة. ومن شــعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الــذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته : شهـدت بأن وعد الله حـق وأن النار مثـوى الكافرينا وأن العرش فوق المـاء طــافٍ وفـوق العـرش رب العـالمينا وتحمـــله ملائكـة الإله مسـومينـا ذكـره ابن عبد الـبر وغيره من الأئمـة. وروى أبو داود عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش: إن ما بين أذنيه إلى عاتقه مســيرة ســبعمائة عــام)ورواه ابن أبي حــاتم ولفظــه: (مخفق الطير سبعمائة عام). وأما من حـرف كلام الله وجعل العـرش عبـارة عن الملك، كيف يصنع بقوله تعالى: وَيَحْمِلُ عَـرْشَ رَبِّكَ فَـوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَـةٌ [الحاقة:17]، وقوله: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ [هود:7]، أيقـول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانيــة؟! وكـان ملكه على المــاء! ويكـون موسى عليه السـلام آخــذاً بقائمة من قوائم الملك؟! هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول؟ !]. الله تعــالى قد أخــبر بأنه خلق العــرش وأنه رب العــرش في قوله تعــالى: ذُو الْعَـرْشِ الْمَجِيدُ [البروج:15]، وفي قوله: رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [المؤمنون:116]، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [التوبة:129]. والعرش في اللغة: هو سرير الملك، وقال

الله عن بلقيس -وهي امـرأة كـانت ملكة في بلاد سـبأ-: وَلَهَا عَـرْشٌ عَظِيمٌ [النمل:23]. كذلك أخبر تعالى عن عرشه العظيم بأخبار واضحة تدل على أنه مخلوق، وأنه محمول، وأن حوله الملائكة، فقال تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ [غافر:7]، فالذين يحملونه بعض من الملائكة، وقال تعالى: وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ [الزمـر:75]، والحفـوف بمعنى: الاسـتدارة حـول العـرش، وذلك دليل على أنه مخلـوق وأنه محمـول. وأخبر أنه: رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ [غـافر:15] أي: صـاحب العـرش، وأخـبر بأنه في يوم القيامة يحمل، في قوله: وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَـةٌ [الحاقـة:17]. وأخـبر أيضـاً بأنه اسـتوى على العـرش في سـبعة مواضع من القرآن، في قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الأعراف:54]، في سورة الأعراف وفي سـورة يـونس، وفي سـورة طـه، وفي سـورة الفرقـان، وفي سـورة السـجدة، وفي سورة الحديد، وأخـبر في سـورة هـود بـأن العـرش على المـاء بقوله تعـالى: وَكَـانَ عَرْشُـهُ عَلَى الْمَـاءِ [هـود:7] أي: قبل أن يخلق السـماوات كـان عرشه على الماء. وسئل ابن عباس فقيل: (على أي شـيء المـاء؟ فقـال: على متن الريح)، فالله قـادر على أن يجعل المـاء على الـريح، أو يجعله في هـواء، فهو قادر على كل شيء: إِنَّمَا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئًا أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ [يس: 82]). ولما ذكر الله تعالى أنه اسـتوى على العـرش في آيـات كثـيرة، صـعب تصديق ذلك على النفاة الذين ينفون علو الله تعـالى واسـتواءه على عرشـه، فقالوا: العرش: الملك، وقـالوا في قولـه: عَلَى الْعَـرْشِ اسْـتَوَى [طـه:5] أي: على الملك استوى! وهذا خطأ بعيد، كيف يكـون للملك هـذه الأوصـاف؟ فـإن الله ذكر أن العـرش تحمله الملائكـة؛ فهل الملائكة تحمل الملـك؟! والله ذكر أن العرش على الماء: وَكَانَ عَرْشُـهُ عَلَى الْمَـاءِ [هـود:7] فكيف يكـون الملك على الماء؟ لا شك أن هذا قول تنكره الطباع. العرب تعرف مسمى العـرش، العـرش في اللغة هـو: السـرير الـذي يكـون للملـك، ذكر ذلك العـرب في شعرهم، كما ذكر المؤلف الأبيات التي نقلت عن أمية بن أبي الصلت ، وكـان من شعراء العـرب، فهو يقـول: مجـدوا الله فهو للمجد أهـل ربنا في السـماء أمسى كبيـرا بالبنـاء العـالي الـذي بهر النا س وسـوى فـوق السـماء سريــرا شـرجعاً لا يناله بصر العــين تـرى حوله المــلائك صــورا فوصـفه بأنه سـرير بالبناء الأعلى الذي بهر الناس، وسوى فوق السـماء سـريراً، فـأطلق عليه أنه سـرير كما هو في لغة العـرب، وجعله في البنـاء الأعلى الـذي هو السـموات العلى، وأخـبر بأنه فـوق السـموات. هـذا الشـعر قاله هـذا الإنسـان الـذي هو عارف وعالم ببعض الأحكام، وقد أنشد بعض العرب شـعره للنـبي صـلى الله عليه وسلم كما في حديث عمرو بن الشريد أنه قال: (ردفت مع النـبي صـلى الله عليه وسلم فقال: هل معك من شـعر أمية بن أبي الصـلت شـيء؟ قلت: نعم، فقال، هيه! فأنشدته بيتاً، فقال: هيه! ثم أنشدته بيتاً، فقـال: هيـه! حـتى أنشـدته مائة بيت، فقـال: آمن شـعره وكفر قلبـه) أي: كما في أوصـافه هـذه حيث وصف الله تعـالى بأنه الأعلى، وبأنه فـوق السـماء، وبأنه فـوق العـرش، وبأن العرش سرير كما في هذه الأبيات. كذلك أيضاً الأبيـات الـتي نظمها عبد

الله بن رواحة أحد شـــعراء الصـــحابة من الأنصـــار، لما وطئ أمة له بملك اليمين، فرأته زوجته فأنكرت عليـه، فـأنكر وقـال: ما فعلت؟ وهي تعـرف أن الذي عليه جنابة لا يقرأ القرآن، فقالت: إن كنت صادقاً فاقرأ القـرآن، فأنشد هذه الأبيات واعتقدت أنها من القرآن، يقول فيها: شهـدت بـأن وعد الله حـق وأن النار مثـوى الكافرينا وأن العرش فوق المـاء طـاف وفـوق العـرش رب العـالمينا وتحمـله ملائكـة شـداد ملائكـة الإله مسومينا فأخبر النبي صـلى الله عليه وسلم وأقره على ذلك، والشاهد منه ذكر العرش في قوله: وأن العرش فوق المـاء طـاف، والطـافي: هو السـابح الراكد فـوق المـاء. وقولـه: وفـوق العرش رب العالمينا، وقد أخذ ذلك من قوله تعالى: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ [هود:7]، والمراد أنه فوق الماء وفوق المخلوقـات. وبكل حـال فـالعرش هو هذا السـرير الـذي لا يعلم قـدره إلا اللـه. وقد ذكر العلمـاء: أن الكرسي غـير العرش، وهو الذي قال الله: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ [البقـرة:255]، فالكرسي قيل: إنه كالمرقاة بين يدي العرش، هـذا الكرسي وسع السـماوات والأرض، أي: اتسع للسماوات السبع وللأرضـين السـبع، وقد ذكرنا فيما مضى الحديث الـذي فيـه: (ما السـماوات السـبع والأرضـون السـبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس) الـترس: هو المجن، والـدراهم: هي قطع من الفضة صغيرة، ماذا تشغل السبعة الدراهم من هذا الترس؟! الترس قد يتسع لسبعمائة أو لألف أو أكثر من ألف، ثم هذا الكرسي صغير بين يـدي العـرش! ورد أيضاً في بعض الآثـار: (الكرسي في العـرش كحلقة ملقـاة بـأرض فلاة)، الحلقـة: هي القطعة من الحديد المتلاقية الطـرفين، إذا ألقيت في أرض فلاة ماذا تشغل منها؟! هل تشـغل ربعها أو عشـرها أو عشر عشـرها أو ربع عشر من أعشار عشرها؟! ما تشـغل منها إلا جـزءاً يسـيراً، فهكـذا نسـبه الكرسي إلى العرش، وإذا كانت هذه عظمة العرش فكيف بعظمة رب العـرش، الـذي خلقه والـذي خلق جميع الخلـق؟! إذا عـرف العبـاد عظمة هـذه المخلوقـات فإنهم يعظمون رب العرش. الملائكة الذين يحملون العـرش ذكر الله عـددهم في قوله: وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ [الحاقـة:17]. ولكن مـاذا نقول في أولئك الملائكة الذين لا يعلم قدر وصفهم إلا الله؟ في هـذا الحـديث أخبر أن منهم ملكـاً: (ما بين شـحمة أذنه إلى عاتقه مسـيرة سـبعمائة عـام)، وفي رواية: (مخفق الطـير سـبعمائة عـام) مـتى تقـدر هـذه المسـافة القليلة منه؟ فكيف ببقية جسده؟ هذا من حملة العرش، ومع ذلك لا يحملون العرش بقــوتهم إنما يحملونه بــذكر اللــه، جــاء في الأثر أنهم يقولــون: (كيف نحمل العرش وأنت رب العرش، وهذه عظمة العرش؟ فقال: (احملوه بالتسبيح) أو كما ورد، فلــولا أن الله أعــان الملائكة بالتســبيح لما حملــوه، مع أن هــذه عظمتهم وهــذه صــورهم وعظم خلقهم. وقد تقــدم أن العــرش ســقف المخلوقات، وأنه سقف الفردوس، يقـول صـلى الله عليه وسـلم: (إذا سـألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وسقفه عرش الرحمن)، فهذا دليل على أنه سـقف المخلوقـات وأنه محيط بالمخلوقـات ولا يعلم قدره إلا الله، ومع ذلك فإن الرب تعالى مستغن عن العـرش وما دونـه، وهو تعـالى محيط بخلقه وقـريب منهم وعـالم بأعمـالهم لا تخفى عليه منهم

خافية، ومع ذلك فإنه مطلع على الأعمال، وقـادر على أن يـثيب هـذا ويعـاقب هذا، وقـادر على أن يسع خلقه رحمة وعلمـاً وحكمة وعـزة وتصـرفاً. ومعـنى هذا أنه إذا كانت هذه عظمة المخلوقات فعظموا رب المخلوقات.

العرش غير الكرسي

قال الشارح رحمه الله: [وأما الكرسي فقال تعالى: وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ [البقرة:255]، وقد قيل: هو العـرش، والصـحيح أنه غـيره، نقل ذلك عن ابن عبـاس رضي الله عنهما وغـيره، روى ابن أبي شـيبة في كتابه صـفة العرش و الحاكم في مستدركه وقال: إنه على شرط الشـيخين ولم يخرجـاه، عن سعيد بن جبير عن ابن عبـاس في قوله تعـالى: وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ [البقرة:255] أنه قال: (الكرسي موضع القـدمين، والعـرش لا يقـدر قــدره إلا الله تعــالى)، وقد روي مرفوعــاً، والصــواب أنه موقــوف على ابن عباس. وقال السدي: السماوات والأرض في جـوف الكرسـي، والكرسي بين يدي العرش. وقال ابن جرير : قال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقـول: (ما الكرسي في العـرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهـري فلاة من الأرض). وقيـل: كرسـيه علمــه، وينسب إلى ابن عباس ، والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة كما تقدم، ومن قـال غـير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن، والظـاهر أنه من جـراب الكلام المـذموم، كما قيل في العرش وإنما هو كما قـال غـير واحد من السـلف: بين يـدي العـرش كالمرقاة إليه]. هـذا الكلام على الكرسي الـذي ذكر الله أنه وسع السـماوات والأرض، وهو كالمرقاة بين يدي العرش أو أن الكرسي موضع القدمين، وبكل حـال فهو مخلـوق، وقد ذكر الله أنه وسع السـماوات بأكملهـا: وَسِـعَ كُرْسِـيُّهُ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ [البقـرة:255]، فـإذا كـان الكرسي قد وسع السـماوات والأرض فكيف بـالعرش؟ هـذا هو القـول الصـحيح: وهو أن الكرسي مخلـوق، وأنه غير العرش، وهناك قول بـأن الكرسي هو العـرش، والصـحيح أنه غـيره؛ هذا هو المشهور، فالكرسي مقدمة العرش أو مرقـاة بين يديـه. وهنـاك قـول ثـالث ولكنه ضـعيف: وهو أن الكرسي هو العلم، (وسع كرسـيه) أي: علمــه، وهـذا القـول -وإن روي عن ابن عبـاس- فإنه لا يثبت عنـه، والصـحيح القـول الأول عنــه، ولعل هــذا من أقــوال بعض المبتدعة الــذين يريــدون أن يئولــوا الأشياء بغير ظواهرها، فلما أولوا العرش بأنه الملك أولوا الكرسي بأنه العلم؛ حــتى يبطلــوا الصــفات الــتي وردت في النصــوص، والــتي تتعلق بــالعرش والكرسي، والتي الإيمان بها من الإيمان بالغيب.

استغناء الله عن العرش وما دونه

قال الشارح رحمه الله: [قوله: (وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقة). أما قوله: (وهو مستغن عن العرش وما دونه) فقال تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ [آل عمران:97]، وقال تعالى: وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ [فاطر:15]، وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا؛ لأنه لما ذكر العرش والكرسي ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش؛ ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه ليس لحاجته إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوق السافل لا يلزم أن يكون السافل حاوياً للعالي محيطاً به حاملاً له، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه، فانظر إلى السماء كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها؟ فالرب تعالى أعظم شأناً وأجل من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهي حمله بقدرته للسافل، وفقر السافل، وغناه هو سبحانه عن السافل، وإحاطته عز وجل به، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش، وفقر العرش إليه، وإحاطته بالعرش، وعدم إحاطة العرش به، وحصره للعرش، وعدم حصر العرش له، وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق. ونفاة العلو أهل التعطيل لو فصلوا بهذا التفصيل لهدوا إلى سواء السبيل، وعلموا مطابقة العقل للتنزيل، ولسلكوا خلف الدليل، ولكن فارقوا الدليل فضلوا عن سواء السبيل، والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الأعراف:54]، كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ويروى هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم]. قوله: (إن الله مستغن عن العرش ومستغن عما دون العرش) يفيد أن العرش هو سقف المخلوقات، وأنه أعظمها فيما أخبرنا الله به، وأن هذه المخلوقات كلها حقيرة بالنسبة إلى هذا العرش، ومع ذلك فإن الرب الذي خلقه وخلق غيره مستغن عن العرش ومستغن عن غيره، ولا يحتاج إليه ليحمله، ولا إلى الملائكة لتحمله، بل هو بقدرته الذي يمسك المخلوقات، يقول الله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ [الحج:65]ـ .. وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ [الحج:65]، وأخبر بأنه: خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ [لقمان:10]، خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا [الملك:3]، سبعاً شداداً بناها فوق الأرض، ومع ذلك ثبتها فهي مستغنية عن عمد تعتمد عليه. المخلوق إذا رفع سقفاً فلا بد أن يثبته بعمد يعتمد عليها ذلك السقف، والله تعالى ذكر أن السماء سقف في قوله: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا [الأنبياء:32]، ومع ذلك ليس لها عمد، يقول تعالى: خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا [لقمان:10] أي: تشاهدونها، فهي مستغنية عن ذلك لكون الله تعالى هو الذي أمسكها بقوته، وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ

تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ [فـاطر:41]، فمع كونه فـوق العالم وفوق الخلق وعال على عباده، فإن جميع المخلوقات بحاجة إليـه، وهو مستغن عنها، وعن العباد وطاعاتهم، وعن الملائكة وعبادتهم، وكذلك مسـتغن عن السـماوات وعن العـرش وعن الكرسـي، هو غـني عن ذلـك، وكل شـيء فقير إليه، بل هو الذي يمسكها وهو الـذي يحملها وهو الـذي يثبتها كما يشـاء. فالنفاة توهموا في هـذه المخلوقـات أنه إذا كـان الله فوقها فيلـزم أن تكـون هناك حاجة وضرورة إليها! والجواب: أن هذا خطأ، بل الله أخبر بأنه عال على هذه المخلوقات، ومع ذلك فإنه الغني عما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، فلا يحتـاج إلى خلقه في شـيء من خصائصـهم، بل هو الغـني وهم الفقـراء إليه سبحانه وتعالى. فلا يغتر بما يقوله الذين يردون بعض النصوص، فيعتقدون أن في إثباتها لزوم حاجة أو نحو ذلك، أو يقولون -كما يـذكر عن النفـاة-: إن هـذا يلزم منه حلـول الحـوادث في ذات الله تعـالى، ونحو ذلك من الكلمـات الـتي هي من توليدات المتكلمين.

العرش فوق المخلوقات، والله مستو عليه محيط بكل شيء

قال الشـارح رحمه اللـه: [وأما قولـه: (محيط بكل شـيء وفوقـه) وفي بعض النسخ: (محيط بكل شيء فوقه) بغير واو من قوله: (فوقه)، والنسـخة الأولى هي الصحيحة، ومعناها: أنه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شـيء، ومعـنى الثانية: أنه محيط بكل شـيء فـوق العـرش، وهـذا -والله أعلم- إما أن يكـون أسقطها بعض النساخ سهواً ثم استنسخ بعض الناس من تلك النسـخة، أو أن بعض المحرفين الضالين أسقطها قصداً للفساد، وإنكاراً لصـفة الفوقيـة! وإلا فقد قـام الـدليل على أن العـرش فـوق المخلوقـات، وليس فوقه شـيء من المخلوقات، فلا يبقى لقولـه: محيط بكل شـيء فـوق العـرش -والحالة هـذه- معنى، إذ ليس فوق العرش من المخلوقات ما يحاط بـه، فتعين ثبـوت الـواو. ويكـون المعـنى: أنه سـبحانه محيط بكل شـيء، وفـوق كل شـيء. أما كونه محيطاً بكل شيء، فقال تعالى: وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ [البروج:20]، أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ [فصلت:54]، وَلِلَّهِ مَا فِي السَّـمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَـانَ اللَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ مُحِيطًا [النسـاء:126]، وليس المـراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً! وإنما المـراد: إحاطة عظمة وسـعة وعلم وقـدرة، وأنها بالنسـبة إلى عظمته كالخردلة، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قـال: (ما السـماوات السبع، والأرضون السـبع وما فيهن، وما بينهن في يد الـرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم)]. كل هذا يؤخذ منه عظمة الرب سـبحانه وتعـالى، وأنه محيط بكل شيء، والإحاطة هي العلم بها والاستيلاء عليها والتصرف فيها، فالله قد أحاط

علماً بها كما في قولـه: وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيـطٌ [الـبروج:20] وقولـه: وَكَـانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً [النساء:126] بمعنى: أنه أحصـاها وعلمهـا، واسـتولى عليهـــا، وعلى جميع المخلوقـــات، فالله محيط بكل شـــيء، ومن جملة ذلك العباد، فالله محيط بهم، فهو محيط بعلومهم التي يعلمونهـا، فهو الـذي فتحها عليهم، ومحيط بأعمالهم التي يعملونها لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، قال سبحانه: وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُـهُ وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْ حَبْـلِ الْوَرِيـدِ [ق: 16] ، وكـذلك الله محيط بالمخلوقـات كلها سـواء الجمـاد منها والمتحـرك، والحيوان والنبات وغير ذلك، كله قد أحاط به، واستولى عليـه، وتصـرف فيـه، فهو المسـتولي على خلقـه. والفائـدة من معرفة ذلك التعظيم، فـإن العبد إذا تصور أن الله تعـالى قد أحـاط بكل شـيء علمـاً عظّمه حق التعظيم، وعبـده حق العبـادة، وابتعد عما يسـخطه، وعما نهى عنـه، واسـتفاد من ذلك تعظيم شرعه والتصديق بخبره، وطلب الثواب الذي رتبه على العبادة، فكل ذلك من فوائد معرفة إحاطته بكل شـيء من المخلوقـات، وهـذه عقيـدة المسـلمين؛ فلذلك أصبح أهل العقيدة السليمة هم الذين يعظمون حرمات الله وشـرائعه، وأما الـذين أنكـروا علم الله أو أنكـروا عظمته أو نحو ذلك فهم الـذين وقعـوا فيما وقعوا فيه من المخالفات والمعاصي والعقائد المنحرفة.

شرح العقيدة الطحاوية [33]

من عقائد أهل السنة أن الله فوق مخلوقاته، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصر، وقد بينها أهل العلم، وردوا على من أنكر هذه الصفة من المبتدعة.

وجوب الإيمان بصفة العلو لله تعالى

يجب على المسلم أن يدين بعظمة ربه، وأن يستحضر جلاله وكبرياءه، وأن يكون ذلك حاملاً له على تعظيمه، وعلى خوفه وإجلاله، وعلى الرغبة في ثوابه، والرهبة من عقابه، ويكون ذلك بمعرفة الأدلة على ذلك، فالأدلة على عظمة الله سبحانه تعظيم الله لنفسه، فقد ورد في الحديث: (لا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك مدح نفسه) ، وورد أيضاً وصف الله بالكبرياء والعظمة، واختصاصه بذلك، كما في قوله في الحديث القدسي: (العظمة إزاري، والكبرياء ردائي) يعني: أن ذلك من خصائصه التي لا يجوز أن ينازعه فيها أحد، فإذا كان ذلك من خصائصه سبحانه فمنازعته ومشاقته في شيء مما هو خاص به يعتبر اعتراضاً على الله. ومعلوم أن الإنسان إذا وجب عليه أمر تعين أن يعرف الدليل عليه، فالله تعالى قد أقام الأدلة على عظمته وجلاله، وعلى استحقاقه للتبجيل والإعظام، ووصف نفسه بقوله: وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة:255] .. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً [النساء:34] فيجب أن نعتقد أن أنواع العظمة لله، فهو المستحق للتعظيم وأنواع الكبرياء، وأنواع العلو لله وحده. قد يقول قائل: ما الفائدة التي أحصل عليها إذا وصلت إلى هذه العقيدة؟ والجواب: أن نقول: لا شك أنك متى قمت بهذا واعتقدته عقيدة صحيحة عظم قدر ربك في قلبك، فصعب عليك أن تعصيه، وعظم عليك أن تدين لغيره بالعظمة، وكذلك كبر عليك أن تترك طاعته، وعرفت أن له عليك حقوقاً كثيرة لابد أن تدين بها، ولابد أن تحرص على أدائها، وهذه من فوائد هذه المعرفة. وقد مر بنا أن من صفات الله تعالى الغنى، فهو غني ومستغنٍ عن العرش وما دونه، فهو الذي خلق الخلق وليس بحاجة إلى عبادة الخلق، وليس بحاجة إلى شيء من المخلوقات، بل هو الغني عنهم: وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ [محمد:38].. (وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ [التغابن:6]فإذا دان العبد لله بالغنى، علم أن هذا الغنى عام، وأن الله مستغنٍ عن العرش، ومستغنٍ عن السماوات، ومستغن عن الأرض، ومستغنٍ عن المخلوقات كلها، ومستغنٍ عن جميع ما في الكون، فهو الخالق وحده، وقد وصف الله نفسه بأنه استوى على العرش، وبأنه علا على خلقه، ولا يدل ذلك على حاجته إلى أي مخلوق. ......

إحاطة الله بكل شيء لا تنافي فوقيته وعلوه

من صفات الله أنه محيط بكل شيء وفوقه، والإحاطة بها هو الاستيلاء عليها، بمعنى: أنه محيط بالأشياء، وكلها تحت سيطرته وتصرفه، فلا شيء يتحرك إلا بإرادته، ولا يتصرف إلا بعلمه، وهو المتصرف فيها وحده، وهذا يدل على كماله وعظمته، فالذي يعتقد ذلك لا شك أنه يعظم قدر ربه في قلبه، ويصعب عليه أن يتخلف عن طاعته، أو يرتكب معصيته، أو يفعل إثماً أو جرماً، أو يبارز ربه بالعصيان؛ لأنه يستحضر عظمته وكبرياءه وجلاله وغناه عن خلقه، ثم يستحضر ضعف الخلق كلهم، وفقرهم وفاقتهم، وحاجتهم الشديدة إلى ربهم، فبعد ذلك يقول: ما أنا وما قدري حتى أظهر الغنى عن الله، وحتى أبارزه بالذنوب، وأعصي أمره وأرتكب نهيه؟! وهل أتحمل شيئاً من سخطه أو أصبر على شيء من عذابه؟ فيكون استحضاره ذلك زاجراً له عن اقتراف المآثم. ودليل إحاطته بكل شيء قوله تعالى: وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً [الطلاق:12] ونفى ذلك عن المخلوقين بقوله: وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ [البقرة:255]، وقال: وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ [البروج:20]، وقال: وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً [النساء:126] فالإحاطة: هي السيطرة والاستيلاء التام، والولاية الكاملة التي لا ينقصها شيء، وهي لله وحده، فهو محيط بالأشياء كلها علويها وسفليها، وعالم بها ومتصرف فيها، ولا يخفى عليه شيء من أمرها، وذلك لأنها مخلوقة، وهو الخالق وحده. قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [ومن المعلوم -ولله المثل الأعلى- أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها وأحاطت قبضته بها، وإن شاء جعلها تحته، وهو في الحالين مباين لها، عال عليها، فوقها من جميع الوجوه، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف؟! فلو شاء لقبض السماوات والأرض اليوم، وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة، فإنه لا يتجدد له إذ ذاك قدرة ليس عليها الآن، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوق سماواته أو يدني إليه من يشاء من خلقه؟ فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره. وفي حديث أبي رزين المشهور الذي رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم في رؤية الرب تعالى، فقال له أبو رزين : (كيف يسعنا -يا رسول الله - وهو واحد ونحن جميع؟ فقال: سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله: هذا القمر آية من آيات الله، كلكم يراه مخلياً به، والله أكبر من ذلك)، وإذا قد تبين أنه أعظم وأكبر من كل شيء، فهذا يزيل كل إشكال، ويبطل كل خيال. وأما كونه فوق المخلوقات، فقال تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) [الأنعام:18]يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ [النحل:50] وقال صلى الله عليه وسلم في حديث الأوعال المتقدم: (والعرش فوق ذلك، والله فوق ذلك كله). وقد أنشد عبد الله بن رواحة شعره المذكور بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، وأقره على ما قال وضحك منه. وكذا أنشده حسان بن ثابت رضي الله عنه قوله: شهدت بإذن الله أن محمداً رسول الذي فوق السماوات من عَلُ وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما له عمل من ربه متقبل وأن الذي عادى اليهود ابن مريم رسول أتى من عند ذي العرش مرسل وأن أخا الأحقاف إذ قام فيهم يجاهد في ذات الإله ويعدل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (وأنا أشهد). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال: (لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العـرش: إن رحمتي سبقت غضـبي، وفي روايـة: تغلب غضـبي) رواه البخـاري وغـيره. وروى ابن ماجة عن جـابر يرفعه قـال: (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سـطع لهم نور، فرفعـوا إليه رءوسـهم، فـإذا الجبـار جل جلاله قد أشـرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة! سلام عليكم، ثم قرأ قوله تعالى: سَلامٌ قَـوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [يس:58] فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتـون إلى شـيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه). وروى مسلم عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم في تفسير قوله تعالى: (هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) [الحديد:3]بقوله: (أنت الأول فليس قبلك شـيء، وأنت البـاطن فليس دونك شـيء)]. الكلام الأول يتعلق بإحاطة الله بالمخلوقـات، وقد تقـدم الاسـتدلال على عظمة العرش والكرسي، وصغر المخلوقات بالنسـبة إليهمـا، وأن السـماوات السـبع والأرضـين السـبع للكرسي كـدراهم سـبعة ألقيت في تـرس، وما الكرسي بالنسبة إلى العرش إلا كحلقة ألقيت في أرض فلاة، فماذا تشـغل الحلقة من هذه الفلاة؟! وذكر ابن كثير أحاديث عند قوله تعـالى: وَالأَرْضُ جَمِيعـاً قَبْضَـتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ وَالسَّـموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِـهِ [الزمـر:67]، وأن هـذه السـماوات والأرضين صغيرة بالنسـبة إلى قبضة الـرب عز وجـل، فهي مطويـات بيمينـه، والأحاديث الـتي فسـرت ذلك فيها الدلالة على أن الله يقبض المخلوقـات كما يشـاء، وقد ورد في الأحـاديث أنه يقبض السـماوات والأرض، وأنه يهـزهن ويقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ذكر ذلك ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَـوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِـدِ الْقَهَّارِ [غـافر: 16]. وكـذلك نقل عن ابن عبـاس رضي الله عنهما -وهو من أجل علمـاء الصحابة- أنه قال: (ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كحبة خردل في يد أحدكم) كمثل حبة خـردل في يد العبـد، ومـاذا تشـغل حبة الخردل من اليد؟! معلـوم أن الحبة صـغيرة وحقـيرة في القبضـة، فقد يقبض ألفـاً أو أكـثر من ألف في كفه ولا يمتلئ الكف بـذلك، فكيف بحبة واحـدة؟ فهـذه المخلوقـات الـتي نشـاهد عظمتهـا، ولا يعلم سـعتها إلا الله تعـالى، قد أخبرنا الله ورسوله بأنها سبع شداد، وأنها سـبع طبـاق، وأن المسـافات الـتي بين كل سماء وسماء مسـيرة خمسـمائة سـنة، ومـتى تقطع هـذه المسـافة؟ وكل ذلك صـغير بالنسـبة إلى عظمة الـرب تعـالى!! فهـذا ونحـوه دليل على عظمته، ودليل على إحاطته بكل شيء.

ذكر الأدلة على إثبات صفة الفوقية لله تعالى

قول صاحب المتن: (محيط بكل شيء وفوقه) المراد: أننا نعتقد أن الله فـوق كل شـيء، قد ذكر الشـارح أن في بعض النسـخ: (محيط بكل شـيء فوقـه)،

بدون واو، والواو لا معنى لها هنا؛ لأن الله إحاطته ليست بما فوق العرش، بل بكل شـيء، بـالعرش وبما فوقه وبما تحتـه، ومعلـوم أن العـرش هو سـقف المخلوقات، وهو أعلاها، وفوقه الرب سبحانه، وهو قـريب من عبـاده. والأدلة على الفوقية كثيرة، فمنها ما هو صريح لا يحتمل التأويـل، فالآية الـتي سـمعنا في سـورة النحل لا تحتمل التأويـل: يَخَـافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَـوْقِهِمْ [النحـل:50] قيدت بـ(من) حتى لا يتأولها المتأول، وأما الآية الثانية في سورة الأنعـام وهي قوله تعالى: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ [الأنعام:18] في موضعين، فهـذه الآية قد يقال: إن المراد بالفوقية: فوقية الغلبة، وفوقية القهر، كما قـال فرعـون: وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ [الأعـراف:127] يعـني: فوقية القهـر، ولكن يؤخذ منها فوقية الذات، وفوقية الغلبة، فهي دالة على المعنيين؛ فتكون من الآيـات الدالة على وصف الله تعـالى بالفوقيـة، وهو العلو الـذي يقتضي العظمـة. أما الأحـاديث فمنها قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الأوعـال: (والعـرش فـوق ذلـك، والله فوق العرش) فالفوقية هنا صريحة، ومن ذلك قوله: (إن الله كتب كتابـاً فهو مكتوب عنده فـوق العـرش: إن رحمـتي تغلب غضـبي) وهـذا دليل واضح على أن الرب تعالى فـوق العبـاد، وفـوق العـرش. كـذلك الحـديث الـذي فيه تفسير الآية الكريمة من سـورة الحديـد: هُـوَ الأَوَّلُ وَالآخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَـاطِنُ [الحديـد:3] وهو الـدعاء المـأثور عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شـيء، وأنت الآخر فليس بعـدك شـيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر) فسر قوله تعالى: (هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَـاطِنُ) بأنه العـالي الـذي ليس فوقه شـيء، فهو فـوق المخلوقـات، ومع ذلك هو قـريب منها؛ ولـذلك فسر البـاطن بـالقريب الـذي ليس دونه شـيء، فعلـوه سـبحانه وتعـالى وفوقيته لا تنـافي قربه ومعيتـه، فيستحضر المـؤمن الوصـفين معـاً القـرب والعلـو. وذكر المؤلف شـعر أمية وشـعر عبد الله بن رواحة وشـعر حسان ، وكلها تذكر العلو والفوقية، فيقول ابن رواحة: شهـدت بـأن وعد الله حـق وأن النار مثـوى الكافرينا وأن العرش فوق الماء طـافٍ وفـوق العـرش رب العـالمينا فصرح بالفوقية وأقره النبي صلى الله عليه وسلم، وهكذا أيضـاً في البيت الذي لـحسان : شـهدت بـإذن الله أن محمـداً رسـول الـذي فـوق السماوات من عَلُ يعني: فوق السماوات وفـوق العـرش، ثم وصـفه بأنه من علُ، فهذا دليل على أن الصحابة كلهم يدينون بهـذه الفوقيـة، وأنهم قد تلقوها من نبيهم صلى الله عليه وسلم.

الرد على منكري العلو

أدلة الفوقية نوع من أنـواع الأدلة على صـفة العلـو، وقد أوصـلها بعضـهم إلى واحد وعشرين نوعاً، وقد ذكر ذلك ابن القيم في نونيته، وابتدأها بالآيات الـتي تـدل على الاسـتواء. وكل نـوع تحته مفـردات. ولما كـانت مسـألة العلو من المسائل الاعتقادية بالغ أئمة السلف في إثباتها، وكتبوا فيها الأدلة الـتي توضح قول السلف، وقول من سار على طريق السـلف، فنجد في كتب المتقـدمين من السلف أنهم أوفوها حقهـا، ككتـاب التوحيد لـابن خزيمة الـذي هو شـجىً في حلوق الأشاعرة والمعتزلة ونحوهم، حتى قرأت لبعضهم أنه يسميه: كتاب الشـرك، مع أنه اسـتدل بآيـات وأحـاديث صـحيحة رواها بالأسـانيد، ولكن لما خالف معتقدهم أساءوا به وصاروا يحذرون منه. كذلك كتب السنة الـتي كتبها أئمة السلف كـالإبانة، وكتاب التوحيد، وكتـاب الإيمـان، وكتـاب السـنة وغيرها من كتب السـلف، فمنهم من رد على الجهميـة، وسـمى كل من خـالف ذلك جهمياً، ومن السلف الذين كتبوا في ذلك ابن مندة وعثمان بن سعيد الدارمي وابن أبي عاصم ، وكـذلك القاضي أبو يعلى ، والإمـام الـذهبي له كتـاب العلو للعلي الغفـار، وصـفه بهـذا الوصـف، وكأنه لما رأى كـثرة الـذين دانـوا بعقائد باطلة ممن سـموا أنفسـهم أشـاعرة، أراد أن يفصح بما يعتقـده ولو خـالف مشايخه، ولو خالف زملاءه، ولو خالف المنتمين إلى مذهبه، لا يبالي بـذلك ما دام أنه يعتمد الـــدليل، ويقـــول الحـــق. مســـألة العلو لم ينكرها في المائة المتـأخرة إلا أفـراد قلة كالأشـاعرة والمعتزلة والشـيعة والخـوارج والجبرية ونحوهم، كلهم ينكرون هذه الصفة، ولا عبرة بإنكار من أنكرها مـادامت الأدلة واضحة صريحة في إثباتها، فلا يعتبر بمن أنكر الحق مع وضوحه. وأهل السـنة يثبتونها على ما يليق بالله تعـالى، ويـذكرون الأدلة ويعتمـدونها، ثم يجمعـون بينها وبين آيات القرب وأدلة المعية ونحو ذلـك، ولا يفهمـون منها تجسـيماً ولا تشـبيهاً، ولا جهة ولا حصـراً، ولا تحـيزاً ولا غـير ذلـك، أما أولئك المنكـرون فيقولون: إن هذه الكلمات تدل على حصر الخالق، وأنه متحيز، إلى غير ذلك، ولا عبرة بتلك الأقوال الـتي يموهـون بهـا، وعلى المسـلم أن يعتقد الحق ولو خالفه من خالفه.

ذكر بعض الأدلة على إثبات صفة العلو

قال الشارح رحمه الله: [والمراد بالظهور هنـا: العلـو، ومنه قوله تعـالى: فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ [الكهف:97]، أي: يعلوه. فهذه الأسماء الأربعة متقابلة: اسمان منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبديته، واسمان لعلوه وقربه. وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن جبـير بن مطعم عن أبيه عن جـده قـال: (أتى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أعـرابي، فقـال: يا رسـول اللـه! جهـدت الأنفس، ونهكت الأموال؛ فاستسق لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع

بالله عليك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويحك! أتـدري ما تقـول؟ وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما زال يسبح حـتى عـرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شـأن الله أعظم من ذلك، ويحك! أتدري ما الله؟ إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سـماواته، وقـال بأصـابعه مثل القبة عليـه، وإنه ليئط به أطيط الرحل الجديد بالراكب). وفي قصة سعد بن معاذ يـوم بـني قريظـة، لما حكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، فقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات) وهو حديث صحيح، أخرجه الأمـوي في مغازيه، وأصـله في الصـحيحين. وروى البخـاري عن زينب رضي الله عنها أنها كـانت تفخر على أزواج النـبي صـلى الله عليه وسـلم وتقـول: (زوجكن أهاليكن، وزوجـني الله من فـوق سـبع سـماوات). وعن عمر رضي الله عنـه: (أنه مر بعجوز فاستوقفته، فوقف معها يحدثها، فقال رجل: يا أمير المؤمنين! حبست الناس بسبب هذه العجوز؟ فقال: ويلك! أتدري من هذه؟ امرأة سـمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة التي أنزل الله فيها. قَدْ سَـمِعَ اللَّهُ قَـوْلَ الَّتِي تُجَادِلُـكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْـتَكِي إِلَى اللَّهِ [المجادلـة:1])أخرجه الدارمي . وروى عكرمة عن ابن عبـاس في قولـه: ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ [الأعراف:17] قال: (ولم يستطع أن يقـول من فـوقهم، لأنه قد علم أن الله سـبحانه من فـوقهم). ومن سـمع أحـاديث الرسـول صـلى الله عليه وسـلم وكلام السـلف، وجد منه في إثبـات الفوقية ما لا ينحصر. ولا ريب أن الله سـبحانه لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك، فإنه الأحد الصمد الـذي لم يلد ولم يولـد، فتعين أنه خلقهم خارجـاً عن ذاتـه، ولو لم يتصف سـبحانه بفوقية الـذات، مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم، لكان متصفاً بضد ذلك؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده، وضد الفوقيـة: السـفول، وهو مـذموم على الإطلاق؛ لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده]. سرد المصنف رحمه الله هذه الأدلة التي تدل على الفوقية، فذكر حديث الأعرابي لما قال: (نستشفع بالله عليـك)، ولا شك أن هذا تنقص لله، فكأنه يقول: نجعل الله شافعاً عندك، وهل الله يشفع عند الخلق؟! هذا فيه شيء من التنقص، أما قوله: (نستشـفع بك على اللـه)، فهذا لم يستنكره، لأنه يقول: اشفع لنا إلى ربك، فأنكر عليه الأمر الثـاني وهو الاستشـفاع باللـه؛ فشـأن الله أعظم، وذاته أجـل، ووصـفه وجلاله وكبريـاؤه أعظم من أن يكون شـفيعاً عند أحد من خلقـه، بل هو الـذي يشـفع إليـه، ولا يشفع إلى أحد، بل لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، كما ذكر ذلك في القـرآن: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْـفَعُ عِنْـدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِـهِ [البقـرة:255] وَلا يَشْـفَعُونَ إِلاَّ لِمَنْ ارْتَضَـى [الأنبياء:28] ولما أنكر عليه ذلك بين له عظمة الرب تعالى فقال: (أتـدري ما اللـه؟) يعـني: أنك ما عـرفت قـدر ربـك، وما استحضـرت عظمتـه، ولو استحضرت ذلك لما قلت هذه المقالة، شـأن الله أعظم، وذكر أن الله تعـالى فوق العرش، وأن العرش يئط به أطيط الرحل، وهذا من بـاب التمثيل يعـني: أن الله تعـالى فـوق العـرش، وأن العـرش مع كـبره وعظمته وإحاطته بهـذه المخلوقات، فإنه يسمع له هذا الأطيط، فيقال: إن هذا من ثقل الـرب تعـالى،

وقد ذكر الله أن العرش محمول، وأن حملة العـرش ما حملـوه بقـوتهم وإنما حملوه بقوة ربهم، ومع ذلك فـإن الـرب تعـالى غـني عن العـرش، وغـني عن حملة العـرش، ولكن ذلك كله من بـاب إظهـار العظمة والكبريـاء ونحو ذلـك. ومن الأدلة قوله صـلى الله عليه وسـلم لــسعد بن معـاذ : (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فـوق سـبع سـماوات) يعـني: وافقت حكم اللـه، والله فـوق سماواته. وكذلك قول زينب : (زوجني الله من فوق سبع سماوات) تريد قوله تعالى: فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا [الأحـزاب:37] أي: أن الله تعـالى هو الذي زوجها، فصرحت بالفوقية، وأن الله تعـالى فـوق سـماواته. وبالجملة فهذه أمثلة من الأدلة التي تثبت صفة الفوقية لله سبحانه. فإذا قيل: إن هــذه أدلة نقلية، والمخـالفون لا يقبلـون الأدلة النقلية الـتي في زعمهم أنها تخـالف العقل، ويزعمون أنهم ما عرفوا صـدق الرسل إلا بـالعقول، فـإذا جـاء الرسل بما ينافي العقول لم يقبلوه، هكذا عللوا. والجواب: إن العقول التي ردت هذه النقول عقول فاسدة مضطربة، لا تصلح أن تكـون ميزانـاً لقبـول شـيء دون شـيء، فعقـولكم الـتي رددتم بها هـذه النصـوص، ورددتم بها هـذه الصـفات، وزعمتم أن هـذا مسـتنكر ومستبشع على النفـوس ولا تقبله العقـول، نقـول: هذه العقول كثيراً ما يكون فيها الاضطراب، وكثـيراً ما تـأتي بشـبهات لا تثبت عند الحـق، وكثـيراً ما يبطل بعضـهم شـبهة الآخر الـتي يـدلي بهـا، وكثـيراً ما يبطل أحدهم دليله بنفسه، فيذكر دليلاً ثم يأتي بما يناقضه، وكذلك يأتي الآخر بدليل يناقض دليل شيخه ونحو ذلك، فكيف يعتمـدون ذلك ويقولـون: إنها أدلة عقليـة؟! وقد ذكر لهم الشـارح دليلاً عقليـاً فقـال: هب أنه ليس هنـاك دليل نقلي، أو هب أنكم تـــأولتم تلك النصـــوص، وقلتم مثلاً: الفوقية هنــــا: فوقية العظمة أو فوقية الغلبة، أو فوقية القهر، وأنها لا تدل على أن الله تعالى فوق المخلوقات، بل إنه ليس فـوق العـرش ولا فـوق السـماوات، وجميع الأمـاكن بالنسـبة إليه سـواء، وليس له مكـان، تعـالى الله عما يقولـون! نقـول لكم: العقول السليمة تشهد بإقرار الفوقية؛ لأن من لم يثبت الفوقية لزمه أن يثبت ضـدها، فمن لم يوصف بالفوقية لابد أن يوصف بالسـفل، وهـذه صـفة نقص، والله تعـالى أحق أن يوصف بالفوقيــة، وقد ذكر أن السـفل والتحتية أمــاكن الشياطين، وأن إبليس وجنـوده هم الـذين يوصـفون بـأنهم في السـفل لا في الفوقية، وقد دان أهل السنة والمسلمون عموماً بوصف الله تعالى بالفوقيـة، وأقـروا بـذلك في عقـولهم، ووافقـوا على ذلك الأدلة الصـريحة الصـحيحة، وعلموا أن من لم يكن موصـوفاً بـالعلو فهو موصـوف بالسـفل، ومن لم يكن موصوفاً بالفوق فهو موصـوف بـالتحت، واسـتدلوا على ذلك بهـذه النصـوص، وأقروا على ذلك بعقـولهم. ولا عـبرة بمن خـالفهم في ذلك ولو كـثر عـددهم، وقد قرأت لبعض هؤلاء المبتدعة لما نقل أثراً يخالف معتقده في تفسير قوله تعالى في سـورة الشـورى: تَكَـادُ السَّـمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَـوْقِهِنَّ [الشـورى: 5]فنقل عن ابن عباس أنه قـال: (تتفطر السـماوات من ثقل الـرب) فكـبرت هذه الكلمة عند هذا المبتدع، فقـال: المـراد: من هيبتـه. انظـروا كيف صـرف هذا الأثر عن ابن عباس وجعل المراد أنها تتفطر من هيبتـه؛ لأنه لا يـدين بـأن الله فوق السماوات، وأن السماوات تتفطر من ثقله، وكذلك العرش، ويكذب

ما ذكر في الحديث من أن العـرش يئط به ونحو ذلـك. فعلى كل حـال: يقـال لهم: العقول السليمة تدل على أن من لم يتصف بالعلو اتصف بالسـفل، ومن لم يتصف بالفوقية اتصف بالتحتيـة، فـأنتم يلـزمكم إذا نفيتم الفـوق أن تثبتـوا التحت، وذلك وصف نقص، وهذا لا يجوز. فأصبح العقل والنقل كلاهما متفقان على وصف الله تعالى بالفوقية وهي وصف كمال، وأصبحت عقلياتهم متهافتة كما وصفها شـيخ الإسـلام بـالبيت الـذي استشـهد بـه: ججج تهـافت كالزجـاج تخالها حقاً وكلٌ كاسر مكسور شبهها بالزجاجتان إذا ضربت إحداهما بـالأخرى تكسرت الزجاجتان، فهكذا شبه هؤلاء وشبه هؤلاء.

الرد بالأدلة العقلية على نفاة صفة الفوقية

قال الشارح رحمه الله: [فإن قيل: لا نسـلم أنه قابل للفوقية حـتى يلـزم من نفيها ثبــوت ضــدها. قيــل: لو لم يكن قــابلاً للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها، فمتى أقررتم بأنه ذات قائم بنفســه، غـير مخالط للعـالم، وأنه موجود في الخارج، ليس وجوده ذهنياً فقط، بل وجوده خارج الأذهـان قطعـاً، وقد علم العقلاء كلهم بالضــرورة أن ما كــان وجــوده كــذلك فهــو: إما داخل العــالم، وإما خــارج عنــه، وإنكــار ذلك إنكــار ما هو أجلى وأظهر من الأمــور البــديهيات الضــرورية بلا ريب، فلا يســتدل على ذلك بــدليل إلا كــان العلم بالمباينة أظهر منه، وأوضح وأبين. وإذا كان صفة العلو والفوقية صـفة كمـال، لا نقص فيه، ولا يستلزم نقصاً، ولا يوجب محذوراً، ولا يخالف كتابـاً، ولا سـنة، ولا إجماعاً، فنفي حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لا تـأتي به شـريعة أصلاً. فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصـديق رسـله، والإيمـان بكتابه وبما جــاء به رســوله إلا بــذلك؟ فكيف إذا انضم إلى ذلك شــهادة العقــول السليمة، والفطر المستقيمة، والنصوص الـواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه، وكونه فوق عبـاده، الـتي تقـرب من عشـرين نوعـاً؟!]. هـذه مجادلة مع أصحاب البدع بالعقليات، ويستحسن عـدم التوسع فيهـا؛ وذلك لأن التوسع فيها قد يؤدي إلى عدة مفاسد، منهـا: أولاً: فيه مضـيعة للـوقت. ثانيـاً: فيه إثارة لشبهات لا ينبغي الخـوض فيهـا. ثالثـاً: لا شك أنه يسـبب التشـويش على الإنسان والتفكر في أشياء لا يحتـاج إلى التفكر فيهـا، وقد ورد في بعض الآثـار: (تفكـروا في المخلـوق، ولا تفكـروا في الخـالق) يعـني: انظـروا في مخلوقـات الله عز وجل فـإنكم تأخـذون منها عـبرة على عظمة خالقهـا، وأما ذات الخالق وكيفية ذاته وصفاته فاصرفوا عنها الأفكار، واستحضروا بأذهـانكم عظمته وكبريــاءه، وجلاله وعلــوه على خلقــه، وتفــرده بالملــك، وتفــرده بالتصــرف، واسـتحقاقه للعبــادة على خلقــه، فــإذا اعتقــدتم ذلك كفيتم عن الخوض في الأشياء الباطلة. ومعلوم أن كلامهم في وصف الله تعالى يفيد أنه

ليس له حقيقة ولا وجود إلا في الأذهان، فهم يقسمون الوجـود إلى وجـودين: وجود في الأذهان، ووجود في الأعيان، وهو الذي يمكن للعيـان أن يصل إليـه، وإذا تأملنا ما يقوله المعتزلة وما يقوله ســـلفهم -وهم الفلاســـفة- من ذلك المحض الذي لا أتجرأ أن آتي به، إذا تأملناه وجـدناه يقـود إلى النفي المحض، وعدم الاعتراف بخالق مدبر متصرف في الخلق، فيقـال لهم: إما أن تعـترفوا بوجود رب خارج الأذهان -ليس مجرد وجـود في الأذهـان- أو لا تعـترفوا، فـإذا كنتم معترفين لزمكم لزوماً لا محيد لكم عنه أن تعترفوا بأنه ولابد فوق العباد أو تحت أو عن يمين أو عن يسـار، وجهة الفوقية أشـرف الجهـات فاعتمـدوها واعتقدوها، ولا يلـزم منها محـذور، ولا يقـال: إنها تـدل على حصر أو إنها تـدل على تحيز أو على تجسـيم، أو على غـير ذلك من المحـذورات الـتي يلـتزمون بها. فالواجب أن ندين بذلك، ونترك الخوض فيما يقولونه مما هو في الحقيقة نفي محض، ولا فرق بين ما يقولونه ويعتقدونه وبين العدم المحض، الــذي هو حقيقة المعدوم الذي لا مدح له ولا وجود له أصلاً فيمـدح. هـذا هو معتقد أهل السنة، وتلك هي أقوال الفلاسفة التي أخذها عنهم المعتزلة. ومن أقوالهم أن الله إنما يتصف بالسفل لو كان قابلاً للعلو، فـإذا لم يكن قـابلاً للعلو لم يلـزم اتصافه بالسفل، ويقولون: إنه لا يقبل السمع ولا البصـر، فلا يوصف بهـا، فهم يلــتزمون نفي صــفة الســمع والبصــر، وإذا قيل لهم: إذا نفيتم عنه الســمع والبصر فقد لـزمكم أن تشـبهوه بفاقد السـمع وهو الأصـم، وفاقد البصر وهو الأعمى، فيقولـون: هـذا لو كـان قـابلاً، أما إذا لم يكن قـابلاً فلا، ثم يقولـون: الجــدار مثلاً لا يقبل الاتصــاف بهمــا، فلا يقــال للجــدار: حي ولا ميت؛ لأنه لا يقبلهمـا، ولا يقـال للجـدار: إنه أصم ولا سـميع ولا أعمى ولا بصـير؛ لأنه ليس بقابل لواحد منهما، وهذا ليس بصـحيح بل هو قابل لهمـا، فيوصف بأنه جمـاد، ويوصف بأنه ميت لا حركة فيه، فهو يقبل ذلك، فهم يتمسـكون بهـذه الشـبهة التي تلقوها من الفلاسفة، وهي شبهة باطلة ضالة.

أنواع الأدلة الدالة على إثبات صفة العلو لله تعالى

قال الشارح رحمه الله تعالى: [أحدها: التصريح بالفوقية مقرونـاً بـأداة: (من) المعينة للفوقية بالذات: كقوله تعالى: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَـوْقِهِمْ [النحـل:50]. الثـاني: ذكرها مجـردة عن الأداة: كقوله تعـالى: وَهُـوَ الْقَـاهِرُ فَـوْقَ عِبَـادِهِ [الأنعام:18]. الثالث: التصريح بالعروج إليه: نحو تَعْـرُجُ الْمَلائِكَـةُ وَالـرُّوحُ إِلَيْـهِ [المعــارج:4]، وقوله صــلى الله عليه وســلم: (فيعــرج الــذين بــاتوا فيكم فيسألهم). الرابـع: التصـريح بالصـعود إليـه: كقوله تعـالى: (إِلَيْـهِ يَصْـعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) [فاطر:10]. الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقـات إليـه: كقوله تعالى: (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) [النساء:158]، وقوله: (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)

[آل عمران:55]. السادس: التصريح بالعلو المطلق، الدال على جميع مـراتب العلو، ذاتاً وقدراً وشـرفاً، كقوله تعـالى: (وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) [البقـرة:255] (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) [سبأ:23] إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ [الشورى:51]. السابع: التصريح بتنزيل الكتـاب منـه، كقوله تعـالى: (تَنزِيـلُ الْكِتَـابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ) [غـافر:2] (تَنْزِيـلُ الْكِتَـابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيـزِ الْحَكِيمِ) [الزمـر:1] (تَنزِيـلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) [فصلت:2] (تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [فصلت:42] (قُلْ نَزَّلَـهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) [النحل:102] حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَة مُبَارَكَة إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ [الدخان:5]. الثامن: التصـريح باختصـاص بعض المخلوقـات بأنها عنـــده، وأن بعضـــها أقـــرب إليه من بعض، كقولـــه: (إِنَّ الَّذِينَ عِنْـــدَ رَبِّكَ) [الأعـراف:206] (وَلَـهُ مَنْ فِي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْـدَهُ) [الأنبيـاء:19] ففرق بين (من لـه) عمومـاً وبين (من عنـده) من مماليكه وعبيـده خصوصـاً. وقول النبي صلى الله عليه وسـلم في الكتـاب الـذي كتبه الـرب تعـالى على نفسه: (أنه عنده فوق العرش). التاسع: التصريح بأنه تعالى في السماء، وهذا عند المفسـرين من أهل السـنة على أحد وجهين: إما أن تكـون (في) بمعـنى (على)، وإما أن يـراد بالسـماء العلـو، لا يختلفـون في ذلـك، ولا يجـوز الحمل على غيره. العاشر: التصريح بالاستواء مقروناً بأداة (على) مختصـاً بـالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات، مصاحباً في الأكثر لأداة: (ثم) الدالة على الـترتيب والمهلـة]. أنـواع الأدلة على علو الله تعـالى كثـيرة، ويمكن أن تصل فـروع بعضها وأفرادها إلى أكثر من مائة أو مائتين.......

ذكر الفوقية مقرونة بـ(من)

النـوع الأول من أنـواع الفوقيـة: الفوقية المقرونة بــ(من)، وقد ورد في قوله تعالى في سورة النحل: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ [النحـل:50]، وهـذا صـريح في أن ربهم من فوقهم، فهذا دليل على العلو.

ذكر العلو مجرداً عن (من)

النوع الثـاني: ذكر العلو مجـرداً عن (من)، وهو عـام لأنـواع الفوقيـة، كقولـه: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِـيرُ [الأنعـام:18] يعم ذلك أنه فـوقهم بقهره، وفوقهم بذاته فوقية تليق بجلاله.

التصريح بالعروج إليه

النوع الثالث: التصريح بالعروج إليه، والعروج هو: الرقي. وقد ذكر في قوله تعالى في سورة السجدة: يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ [السجدة:5]، وفي قوله تعالى في سورة المعارج: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ [المعارج:4]، ولا شك أن العروج يكون من أسفل إلى أعلى، وهذا دليل على أنه هو العلي الأعلى.

التصريح بالصعود إليه

النوع الرابع: التصريح بالصعود إليه، والصعود: هو الرقي -أيضاً- وقد ذكر في قوله تعالى في سورة فاطر: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ [فاطر:10] فدل على إثبات صفة العلو.

التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه

النوع الخامس: ذكر الرفع، ومعلوم أن الرفع يكون من مكان منخفض إلى مكان مرتفع، وقد ذكر في قوله تعالى: وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ [فاطر:10]، وذكر في قوله عن عيسى في سورة آل عمران: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ [آل عمران:55]، وفي سورة النساء: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ [النساء:158]، وقد كان عيسى في الأرض، فرفعه الله إليه إلى السماوات، فهذا دليل على صفة العلو.

التصريح بالعلو المطلق

النــوع الســادس: ذكر كلمة (العلــو) وقد وردت بثلاث صــيغ: وردت بصــيغة (العلي) كقوله تعـالى: وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقـرة:255] ، وقوله إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ [الشـورى:51]، وقوله إِنَّ اللَّهَ كَـانَ عَلِيًّا كَبِـيرًا [النسـاء:34]. ووردت بصيغة (الأعلى) كقوله تعالى: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى [الأعلى:1] ، وكقوله: إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى [الليل:20]. ووردت بصيغة (كان) كقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا [النساء:34] ، ولا شك أن العلو يلتزم ثلاثة أنواع: علو القـدر، وعلو القهر، وعلو الذات.

التصريح بأنه تعالى في السماء

النوع السابع: التصريح بذكر أنه في السماء في موضـعين من سـورة الملـك: أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ [الملـك:16]، وقولـه: أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا [الملك:17]. وأما في الأحاديث فكثير جداً، كقوله صـلى الله عليه وسـلم: (ألا تـأمنوني وأنا أمين من في السـماء؟) وكقوله: (ارحموا من في الأرض يـرحمكم من في السـماء) ، وقوله للجاريـة: (أين الله؟ قالت: في السماء. فقـال: اعتقها فإنها مؤمنـة) . وتفسر (في) هنا بتفسيرين: التفسير الأول: أن (في) بمعنى (على)، (في السماء) يعني: على السماء، ولا يلزم أن تكـون السـماء تحيط به أو تحصـره تعـالى اللـه، فيكـون معنى (في السماء): على السـماء، قـال تعـالى عن فرعـون: وَلَأُصَـلِّبَنَّكُمْ فِي جُـذُوعِ النَّخْـلِ [طـه:71] أي: على جـذوع النخـل، وقـال تعـالى: فَسِـيحُوا فِي الأَرْضِ [التوبة:2] أي: على الأرض، فكذلك (في السماء) يعني: على السـماء. التفسير الثاني: أن السماء اسم للعلو، وكل ما علا وارتفع فهو سماء، فيكــون قوله: أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ [الملك:16] أي: من في العلو.

التصريح بالنزول من عند الله

النوع الثـامن من الأدلـة: ذكر الـنزول من الله تعـالى في عـدة من المواضـع، كقوله: مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ [الأنعام:114] ، وقوله: تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ [الزمر: 1] والنزول معناه: الهبوط، فدل على أن الملائكة تنزل من عند اللـه، وكـذلك

الكتاب نزل من الله، فهـذا يسـتدعي أن يكـون الـنزول من أعلى، فـدل على إثبات صفة العلو.

التصريح باختصاص بعض المخلوقات أنها عنده

النوع التاسع: تخصيص بعض المخلوقات بأنها عند الله، قال تعـالى عن امـرأة فرعون: قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ [التحريم:11] ، وقال تعالى: فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ [فصلت:38] ، وقال تعالى: وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ [الأنبياء:19] ، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله كتب كتاباً، فهو عنده فـوق العـرش: إن رحمـتي سـبقت غضبي) فالتصريح بأنها عنده دليل على صفة العلو، ولا شك أن الله أخبر بـأن بعض المخلوقات أقـرب إليه من بعض، والقـرب قد يكـون حسـياً، وقد يكـون معنوياً، وإن كان الجميع بالنسبة إلى قدرة الله وعظمته سوياً.

ذكر الاستواء مقروناً بأداة (على)

النوع العاشر: ذكر الاستواء، وقد ورد في سبعة مواضع: في سورة الأعـراف: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الأعراف:54] ، وكذا في سورة يونس، وفي سورة الرعد، وفي سورة طه: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْـتَوَى [طـه:5]، وفي سـورة الفرقـان: ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَـرْشِ الـرَّحْمَنُ [الفرقـان:59] ، وفي سـورة السـجدة، وفي سـورة الحديـد، وكلها ذكر فيها لفظ (اسـتوى)، والعـرب إذا ذكـرت الاسـتواء متعـدياً بــ(على) فإنها تقصد بـذلك العلـو. ودليل ذلك قوله تعـالى في سـفينة نـوح: وَاسْـتَوَتْ عَلَى الْجُـودِيِّ [هـود:44] يعـني: اسـتقرت مرتفعة عليه، وقوله تعـالى في الإبـل: لِتَسْـتَوُوا عَلَى ظُهُـورِهِ [الزخـرف:13] يعني: تركبوها مرتفعين على ظهورها، فهذا الاستواء بمعـنى الارتفـاع، وهكـذا قوله: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، وقد فسرها السلف رحمهم اللـه، وإن كـانوا يفوضـون حقيقتها وكيفيتهـا، كما ذكر عن مالك أنه قـال: (الاسـتواء معلـوم، والكيف مجهـول)، وصف الاسـتواء بأنه معلـوم، أي: معـروف من جهة اللغـة، فالقرآن كلام عربي فصيح، نزل على قـوم يعرفونه ويفهمونـه، فهو معـروف، ولكن الكيفية هي المجهولة والخفيـة، وهـذا تفسـير السـلف رحمهم اللـه، والإمام مالك إمام دار الهجرة، وشيخه ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وأم سلمة

رضي الله عنها إحـدى أمهـات المؤمـنين، كلهم روي عنهم هـذا التفسـير. أما المعتزلة والنفاة فقد حرفوا هذه اللفظة، وجعلوها بمعنى: الاسـتيلاء. فقـالوا: (استوى) أي: استولى. ورد عليهم بعض علمـاء أهل السـنة فقـالوا: الاسـتيلاء عام، وليس خاصاً، فالله مستول على جميع المخلوقات لا على العرش وحده، وإنما خص الله الاستواء بالعرش، وأنتم تجعلون الاستواء بمعنى الاسـتيلاء، ولا خصوصية للعرش بذلك، وبذلك يبطل تـأويلهم، فعرفنا بـذلك أن هـذه الأنـواع صريحة بأن الله سـبحانه وتعـالى فـوق عبـاده كما أخـبر في هـذه الأنـواع من الأدلة، وغيرها كثير.

التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى

قال الشارح رحمه الله: [الحادي عشر: التصريح برفع الأيدي إلى الله تعـالى: كقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يستحيي من عبـده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صـــفراً) ، والقـــول بـــأن العلو قبلة الـــدعاء فقط باطل بالضـــرورة والفطرة، وهذا يجده من نفسه كل داع كما يأتي إن شـاء الله تعـالى. الثـاني عشر: التصريح بنزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا: والـنزول المعقـول عند جميع الأمم إنما يكـون من علو إلى سـفل. الثـالث عشـر: الإشـارة إليه حسـاً إلى العلـو: كما أشـار إليه من هو أعلم بربـه، وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر، لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليـوم الأعظم، في المكـان الأعظم، قـال لهم: (أنتم مسـئولون عـني، فمـاذا أنتم قـائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فرفع أصـبعه الكريمة إلى السـماء رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء، قائلاً: اللهم اشـهد) فكأنا نشـاهد تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله، وذلك اللسـان الكـريم وهو يقـول لما رفع أصبعه إليه: (اللهم اشهد) ، ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين، وأدى رسـالة ربه كما أمــر، ونصح أمته غاية النصـيحة، فلا يحتـاج مع بيانه وتبليغه وكشــفه وإيضـــــاحه إلى تنطع المتنطعين، وحذلقة المتحـــــذلقين! والحمد لله رب العــالمين. الرابع عشــر: التصــريح بلفــظ: (الأين): كقــول أعلم الخلق بــه، وأنصحهم لأمته، وأفصـحهم بيانـاً عن المعـنى الصـحيح، بلفظ لا يـوهم بـاطلاً بوجه: (أين الله؟) في غير موضـع. الخـامس عشـر: شـهادته صـلى الله عليه وسلم لمن قال: إن ربه في السماء. بالإيمان. السادس عشـر: إخبـاره تعـالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السـماء؛ ليطلع إلى إله موسـى، فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السماوات، فقـال: يَا هَامَـانُ ابْنِ لِي صَـرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْـبَابَ السَّـمَوَاتِ فَـأَطَّلِعَ إِلَى إِلَـهِ مُوسَـى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبـاً [غـافر:36-37] ، فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعـوني، ومن أثبته فهو موسوي محمدي. السابع عشـر: إخبـاره صـلى الله عليه وسـلم أنه تـردد بين

موسى عليه السـلام وبين ربه ليلة المعـراج؛ بسـبب تخفيف الصـلاة، فيصـعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة مـرار. الثـامن عشـر: النصـوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعـالى من الكتـاب والسـنة، وإخبـار النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنهم يرونه كرؤية الشـمس والقمر ليلة البـدر ليس دونه سـحاب، ولا يرونه إلا من فـوقهم، كما قـال صـلى الله عليه وسـلم: (بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رءوسهم، فإذا الجبار جل جلاله قد أشـرف عليهم من فـوقهم، وقـال: يا أهل الجنـة! سـلام عليكم، ثم قـرأ قوله تعـالى: سَـلامٌ قَـوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [يس:58] ثم يتـوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم) رواه الإمام أحمد في المسند وغيره من حديث جابر رضي الله عنه]. هـذه -أيضـاً- أنـواع من الأدلة على علو الله وفوقيتـه، وكل نـوع قد يكون تحته عدة أسرار، فمنها: النوع الحادي عشـر: رفع الأيـدي، وقد ورد في أكـثر من سـتين موضـعاً أنه صـلى الله عليه وسـلم كـان إذا دعا رفع يديـه، وكذلك صرح بذلك في قوله: (إن ربكم حيي كريم يستحيي من عبـده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صـفراً). ولا شك أن الـذي يرفع يديه إنما يرفعهما إلى الله؛ لأنه بذلك يستعطي ويستجدي ويسأل ويطلب، فلو لم يكن ربه فوقه لما رفع يديه، فهذا دليل على ذلك.

الإشارة بالأصبع إلى الله

النوع الثاني عشر: الإشارة بالإصبع إليه في التشـهد وفي الخطب ونحو ذلـك، فـالنبي صـلى الله عليه وسـلم لما خطب في حجة الـوداع، وبلغهم وعلمهم، رفع إصـبعه يشـهد ربـه، ويقـول: (اللهم اشـهد.. اللهم اشـهد) يحـرك إصـبعه فيرفعها إلى السماء، ثم ينكبها مراراً، ولا شك أن ذلك استشهاد بربه الذي هو فوق العباد، ولا شك أن هذا من الأدلة الواضحة على مسألة العلو والفوقية.

التصريح بلفظ (أين)

النـوع الثـالث عشـر: السـؤال بكلمة (أين): كما في قوله للجاريـة: (.. أين اللـه؟)، وقاله في غـير ما حـديث، وذلك دليل على أنه سـبحانه وتعـالى فـوق العباد، حيث اعترف من سأله بالفوقية. وكذلك أيضاً لما قـالت الجاريـة: (في

السماء) شهد لها بالإيمان، فأفاد أن أهل الإيمان هم الذين يعترفون بأن الرب تعالى فوقهم، وأنهم يعتقدون ذلك، وأن هذه فطرة الله.

النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة لربهم

من أنواع الأدلة على علو الله: رؤية المؤمـنين لـربهم في الجنـة، ولا شك أنها من المسـائل الـتي اعـترف بها أهل السـنة، ووافق عليها الأشـاعرة، ونفتها المعتزلـة، ولكن موافقة الأشـاعرة حجة عليهم، وهم مع ذلك لا يؤمنـون بها إيماناً حقيقياً؛ وذلك لأنهم ينكـرون مسـألة العلـو، ولما أنكـروا العلو وجـاءتهم الأدلة بـأن المؤمـنين يـرون ربهم لم يجـدوا بـداً من أن يقولـوا بالرؤية اتباعـاً للأئمة الذين ينتسبون إليهم، ومن جملتهم الأشعري الـذي يقولـون: إنهم على معتقده، ولكن فسروا الرؤية بالمكاشفات القلبية، أو بالرؤية القلبية، أو برؤية أنواره، أو ما أشبه ذلك، فلم يثبتوا رؤية حقيقية؛ وذلك لأنها ترد على مـذهبهم في نفي صـفة العلـو، وقد تكـاثرت الأدلة على إثبـات الرؤيـة، وأن المؤمـنين يـرون ربهم، وهي معروفة مشـهورة، وقد تقـدم بعضـها. وبكل حـال: فالأدلة التي سمعنا وغيرها كثـيرة، وهي دالة على أن الله تعـالى موصـوف بأنه فـوق عباده، وبأنه هو العلي الأعلى، ومـتى اعتقد المسـلم هـذا الاعتقـاد -الـذي هو علو الله تعـالى وفوقيتـه- فإنه يستحضر دائمـاً أنه فـوق عبـاده، وأنه مع ذلك يسمعهم ويراهم ويطلع عليهم، ويعلم مناجاتهم وأحوالهم؛ فبذلك يعـرف كيف يطيعه، ويعرف أنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

تـأول أهل البـدع اسـتواء الله على عرشه بالاسـتيلاء، وقد بين العلمـاء فسـاد تأويلهم هذا، وردوا عليهم بردود نقلية وعقلية تبين بطلان ما ذهبوا إليه.

الرد على من أنكر صفة العلو لله سبحانه

قال الشارح رحمه الله تعالى: [ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكـار الرؤيـة، ولهـذا طرد الجهمية النفيين، وصدق أهل السنة بالأمرين معاً، وأقروا بهما، وصار من أثبت الرؤية ونفى العلو مذبـذباً بين ذلـك، لا إلى هـؤلاء ولا إلى هـؤلاء! وهـذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليـل، فعلى المتـأول أن يجيب عن ذلك كله! وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلـك! وكلام السـلف في إثبات صـفة العلو كثـير جـداً، فمنـه: ما روى شـيخ الإسـلام أبو إسـماعيل الأنصـاري في كتابه الفـاروق بسـنده إلى مطيع البلخي : أنه سـأل أبا حنيفة عمن قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض؟ فقـال: قد كفـر؛ لأن الله يقول: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَـرْشِ اسْـتَوَى [طـه:5] وعرشه فـوق سـبع سـماوات. قلت: فإن قال: إنه على العرش، ولكن يقول: لا أدري العرش في السـماء أم في الأرض؟ قـــال: هو كـــافر؛ لأنه أنكر أنه في الســـماء، فمن أنكر أنه في السماء فقد كفر. وزاد غيره: لأن الله في أعلى علـيين، وهو يـدعى من أعلى لا من أســفل. انتهى. ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مـــذهب أبي حنيفة ، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغـيرهم مخـالفون له في كثـير من اعتقاداتــه، وقد ينتسب إلى مالك و الشــافعي و أحمد من يخــالفهم في بعض اعتقاداتهم، وقصة أبي يوسف في استتابته لـبشر المريسي لما أنكر أن يكون الله عز وجل فوق العـرش مشـهورة، رواها عبد الـرحمن بن أبي حـاتم وغـيره. ومن تـأول (فـوق) بأنه خـير من عبـاده وأفضل منهم، وأنه خـير من العرش وأفضل منه كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم، فذلك مما تنفر عنه العقـول السـليمة، وتشـمئز منه القلـوب الصـحيحة! فـإن قـول القائل ابتـداءً: الله خـير من عبـاده، وخـير من عرشـه. من جنس قولـه: الثلج بارد، والنـار حـارة، والشـمس أضـوأ من السـراج، والسـماء أعلى من سـقف الـــدار، والجبل أثقل من الحصـــى، ورســـول الله أفضل من فلان اليهـــودي، والسماء فـوق الأرض!! وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مـدح، بل هو من أرذل الكلام وأسـمجه وأهجنـه! فكيف يليق بكلام الله الـذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ولو كـان بعضـهم لبعض ظهـيراً!! بل في ذلك تنقص كما قيل في المثل السائر: ألم تر أن السـيف ينقص قـدره إذا قيل إن السـيف أمضى من العصا ولو قـال قائـل: الجـوهر فـوق قشر البصل وقشر السمك! لضحك منه العقلاء؛ للتفاوت الذي بينهما، فالتفاوت الـذي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم، بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلـك، بـأن كان احتجاجاً على مبطل، كما في قول يوسف الصديق عليه السـلام: أَأَرْبَـابٌ

مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [يوسف:39] ، وقوله تعالى: آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ [النمل:59] ، ووَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [طه:73]]. يبين الشارح بهذا الـرد على هؤلاء المتأولين لهذه الأدلة التي يقول المصنف: إنها لو بسـطت أفرادها لبلغت ألف دليل، وهم يعجزون عن أن يجيبـوا عنها دليلاً دليلاً، ولـذلك سـلكوا في التخلص منها مسالك رديئـة، فقـالوا: إن معـنى قولـه: وَهُـوَ الْقَـاهِرُ فَـوْقَ عِبَادِهِ [الأنعام:18] أي: خير من عباده،كما يقال مثلاً: هـذا الطعـام فـوق هـذا الطعام. يعني: خيراً منه، أو: هذه الشاة فوق هذا الشـاة. يعـني: أفضل منهـا، وما أشبه ذلك، فتأولوا قوله: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ بمعـنى: خـير من عبـاده. ولا شك أن هــذا من الكلام الــذي لا فائــدة فيــه، ومثلها الأمثلة الــتي ذكرها الشارح، فلا شك أنه لا مناسبة بين الخالق والمخلوق حتى يقال: إن الله خــير من عباده لأمور منها: أولاً: أنه سماهم (عباده) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَـادِهِ فكيف يقال: وهو القاهر الـذي هو خـير منهم؟! ثانيـاً: ولله المثل الأعلى لا يقـال في ملك يملك الكثير من البلاد: هـذا الملك خـير من هـذا المملـوك الـذي هو عبد ذليل؛ لأنه لا مناسبة بينهما، لو قال ذلك أحد لاستحق التأديب، كيف يقــال: إن هذا خير من هذا مع أنه لا مناسبة ولا مقاربة بينهما؟! فكـذلك لا يقـال: (فـوق عباده) أي: خير من عباده. وكـذلك بقية الكلام الـذي سـمعنا، لا شك أنه كلام بـارد سـامج، كقـولهم: السـماء فوقنـا، والأرض تحتنـا، والشـمس حـارة، أو الشمس أضوأ من السراج، لا مناسبة بينهما حتى يقال ذلك. وضرب المصنف المثل بهذا الـبيت: ألم تر أن السـيف ينقص قـدره إذا قيل إن السـيف أمضى من العصا صحيح أن السيف أمضى من العصـا، ولكن ينقص قـدر السـيف إذا قيل ذلـك، فلا مناسـبة بينهمـا، فالسـيف له قـدره، والعصا أنقص قـدرة منـه. وكذلك لو قـال قائـل: الجـوهر -الـذي هو من أنفس ما يـدخر- خـير من قشر البصل، أو من قشر السمك. هذا صحيح، ولكن من سمع هـذا اسـتهزأ بقائلـه، وقـال: لا مناسـبة بينهمـا؛ فبـذلك يعـرف أن هـذا الكلام كلام رديء، وأنه لا مناسبة له. ويجب أن تفسر هـذه الآيـات بالمعـاني الـتي تناسـبها، فيقـال في الفوقية: إنها فوقية القدر، وفوقية الذات، وفوقية القهر والغلبة. ويقـال أيضـاً في العلو: إن الله تعالى عالٍ بجميع أنواع العلو، ومن ذلك علو الـذات. ويقـال في بقية الأدلة مثل ذلك، وهذه الأدلة بأنواعها التي لو بسـطت لبلغت أفرادها ألف دليل، فلو اجتمع منها عشرة فقط لصـعب التخلص منها فكيف إذا اجتمع مائة دليــل؟! فكيف إذا اجتمع ما يقــرب من ألف دليــل؟! كيف يجيبــون عنها ويتخلصون منها؟!! إذاً: ليس لهم إلا أن يسلموا بهـذه الصـفة الـتي هي صـفة العلو لله سـبحانه وتعــالى، ويؤمنــون بــأن الله هو العلي الأعلى، ويعــترفون بصـفاته الـتي منهـا: أنه قـريب منهم، وأنه مطلع عليهم، وأن علـوه وارتفاعه على خلقه لا يلزم منه غيبة ولا بعد، ولا خفاء شـيء عليه كما أخـبر بـذلك في كتابه في قوله تعالى: وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ [يـونس:61] يعـني: وما يغيب عنه ويـذهب عليه مثقـال ذرة مما في السـماوات ومما في الأرض، وكذلك قوله تعالى: وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ [الأعراف:7] أي: أنه تعالى ليس غائبـاً عن عباده، بل هو مطلع عليهم، سأل بعض الصحابة النـبي صـلى الله عليه وسـلم فقالوا: (يا رسول الله! أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديـه؟ فـأنزل اللـه: وَإِذَا

سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ [البقرة:186])
فعند ذلك أمرهم أن يناجوا ربهم، وأن يسألوه سراً، ولما رفع الصحابة أصواتهم مرة بالتكبير، وكانوا في سفر، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس! إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) فأمرهم أن يدعوا ربهم سراً، وأن يناجوا ربهم، ويذكروه، ويستحضروا عظمته، فإنه يعلم سرهم ونجواهم، ومتى استشعر العبد هذه الصفة التي هي صفة الفوقية والقهر والغلبة، واستشعر صفة القرب والمناجاة ونحو ذلك؛ حمله ذلك على أن يعظم ربه، وأن يعبده حق عبادته. ......

الأدلة العقلية على علو الله سبحانه

قال الشارح رحمه الله تعالى: [وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه، فله سبحانه وتعالى فوقية القهر، وفوقية القدر، وفوقية الذات، ومن أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص. وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه، فإن قالوا: بل علو المكانة لا المكان، فالمكانة: تأنيث المكان، والمنزلة: تأنيث المنزل، فلفظ (المكانة والمنزلة) تستعمل في المكانات النفسانية والروحانية، كما يستعمل لفظ المكان والمنزل في الأمكنة الجسمانية، فإذا قيل: لك في قلوبنا منزلة، ومنزلة فلان في قلوبنا، وفي نفوسنا أعظم من منزلة فلان، كما جاء في الأثر: (إذا أحب أحدكم أن يعرف كيف منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله في قلبه، فإن الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه)، فقوله: (منزلة الله في قلبه): هو ما يكون في قلبه من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وغير ذلك، فإذا عرف أن (المكانة والمنزلة) تأنيث المكان والمنزل، والمؤنث فرع على المذكر في اللفظ والمعنى، وتابع له، فعلو المثل الذي يكون في الذهن يتبع علو الحقيقة، إذا كان مطابقاً كان حقاً، وإلا كان باطلاً. فإن قيل: المراد علوه في القلوب، وأنه أعلى في القلوب من كل شيء. قيل: وكذلك هو، وهذا العلو مطابق لعلوه في نفسه على كل شيء، فإن لم يكن عالياً بنفسه على كل شيء كان علوه في القلوب غير مطابق، كمن جعل ما ليس بأعلى أعلى. وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع، ثابت بالعقل والفطرة، أما ثبوته بالعقل فمن وجوه: أحدها: العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين، إما أن يكون أحدهما سارياً في الآخر، قائماً به كالصفات، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر. الثاني: أنه لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجاً عن ذاته، والأول باطل. أما أولاً: فبالاتفاق، وأما ثانياً: فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والثاني: يقتضي كون العلم واقعاً خارج ذاته، فيكون منفصلاً، فتعينت المباينة؛ لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول. الثالث: أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية؛ لأنه غير معقول، فيكون

موجوداً إما داخله وإما خارجه، والأول باطل، فتعين الثاني، فلزمت المباينـة]. العلو على ثلاثة أنواع: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهـر. وكـذلك الفوقيـة: فوقية القــدر، وفوقية القهــر، وفوقية الــذات. وفوقية القــدر مثل أن يقــال: الذهب فوق الفضة. يعني: فوقها قدراً، هذه فوقية القدر، وفوقية القهـر:كـأن يقال: الأمير فوق الرعية. يعـني: فوقية قهـر، أي: قـاهراً لهم. وفوقية الـذات كـأن يقـال: الأمـير فـوق الكرسـي. يعـني: أنه فوقه بذاتـه، فنثبت لله تعـالى الفوقية بأنواعها، والعلو بأنواعه، وإذا أثبتنا لله فوقية الذات فإننا نثبت مع ذلك قربه ومعيته ومراقبته لعباده، وكونه لا تخفى عليه خافيـة، بل هو قـريب منهم كما أخبر عن نفسه بقوله: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ [البقرة:186]. فالذين تأولوا أن قوله تعالى: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ [الأنعـام:18] ، وقـالوا: المراد: فوقية الغلبة، واستدلوا بكلمة (القهـر)، يـرد عليهم بـأن هـذا نـوع من أنواع الفوقية، وقد دل على النوع الثاني قوله تعالى: يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [النحل:50] فإن هذه الآية لا تحتمل أنها فوقية القهر، بل هي فوقية الــذات. يعــني: أنهم يخــافون ربهم، وربهم فــوقهم، ومع ذلك فهو مطلع عليهم وقـريب منهم. كـذلك (العلـو) قد يسـتعمل بمعـنى: الغلبـة، كما حكى الله عن فرعون أنه قال: أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى [النازعات:24] ، فأراد بالعلو هنا: الغالب. يعني: أنا الغالب، وأنا القاهر، وأنا المتصـرف، وأنا المالـك، فهـذا نوع من أنواع العلو، فالله تعالى وصف نفسه بقوله: إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى [الليل:20] ، فنقـول: (الأعلى) علو غلبـة، وعلو قهـر، وعلو قـدر وذات، فله أنواع العلو كلها، ولا يلزم من ذلك أن يكون محتاجاً إلى شيء من مخلوقاتــه، بل هو غــني عن العــرش وما دونه كما تقــدم. وصــفة العلو دل عليها العقل والفطرة، كما دل عليها النقل، فالنصوص التي وردت فيها أكثر من أن تحصر، وكلها دالة على صـفة العلـو، والفطـرة والعقل تـدل على صـفة العلو عند كل عاقل، أما صـفة الاسـتواء فـدل عليها النقـل، فـدلت عليها النصـوص والآيـات الصريحة التي لا تحتمل التأويل، وقد ذكر العلماء في تفسير آيات الاستواء ما يدل على أنهم متفقون على دلالتها على العلو، حيث إنها عـديت بــ(على) كما في قوله تعـالى: الـرَّحْمَنُ عَلَى الْعَـرْشِ اسْـتَوَى [طـه:5] فكلمة (على) تـدل على الفوقية، أي: فوق العرش.

معاني قوله تعالى: (ثم استوى على العرش)

فسروا كلمة (استوى) بعشـرة تفاسـير : قـال بعضـهم: اسْـتَوَى عَلَى الْعَـرْشِ [الأعراف:54] يعـني: اسـتقر عليـه. وقـال بعضـهم: (اسـتوى على العـرش): ارتفع عليه. وقال آخرون: (استوى) يعني: علا. وقال آخرون: (استوى) يعــني: صـعد. كما نظم ذلك ابن القيم في النونية بقوله لما ذكر أدلة الاسـتواء، وأنها

سبع آيات فيها ثبوت الاستواء على العـرش يقـول: وكـذلك اطـردت بـلا (لام) ولو كـانت بمعـنى (اللام) في الأذهـان لأدت بها في موضع كي يحمل البـاقي عليها وهو ذو إمكـان اطـردت في السـبع الآيـات بلفـظ: (اسـتوى)، وما منها موضع واحد جاء بــ(اللام) اسـتولى، فالسـلف فسـروها بأربعة تفاسـير، وذكر ذلك بقوله: ولهم عبارات عليها أربع قد حررت للفـارس الطعـان وهي اسـتقر وقد علا وكذلك ارتفع الذي ما فيه من نكـران وكـذاك قد صـعد الـذي هو رابع وأبو عبيدة صاحب الشيباني يختار هذا القـول في تفسيـــره أدرى من الجهمي بالقرآن وأبو عبيدة هو معمر بن المثنى من علماء اللغة فسر قولـه: (اسـتوى على العرش) أي: صعد، وكان من علماء اللغـة، وذكـروا أنه طـرق عليه بعض أصحابه الباب، وكـان في غرفة في أعلى بيتـه، فأطل عليهم من تحت وقـال: استووا. أي: اصعدوا إلي. فـدل على أن كلمة (اسـتوى) تـأتي بمعـنى: صـعد. وعلى كل حال: فالاستواء دل عليه النقل، ولا يخـالف العقـل، وكل الأدلة تؤيد العقل، وعرف بـذلك أن الاسـتواء قد دل عليه السـمع، وأن العلو قد دل عليه النقل والعقل وهو الفطرة. وأما تأويلات المتأولين بأن المراد: علو المكانة، أو علو المنزلة، وأن هـذا مثل قـولهم: فلان له مكانة في قلـبي، أو له منزلة في نفسـي، وفسـروا العلو بعلو المكانـة؛ فهـذا خلاف الظـاهر، وإذا قلنـا: إن الله فوق عباده فلا يلزم أن يكـون محتاجـاً إلى شـيء من مخلوقاتـه، بل هو لَيْسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ وَهُـوَ السَّـمِيعُ البَصِـيرُ [الشـورى:11] . يقـول الشـارح: كلمة (المكانة والمنزلة) تأنيث المكان والمنزل، وعلى هذا يكونون قد أثبتـوا مكانـاً ومنزلاً، وسواء كان ذلك المكان في قلوب العباد أو فـوق العبـاد فلابد أنهم قد أثبتوه. وذكر الشارح أن العقل دل على انفصال الخالق عن المخلوق وتمــيزه عنه، وأنه لا يمكن أن يكون الخالق مختلطاً بالمخلوق، فإن ذلك يلـزم منه أنه محل لحلول الحوادث. وأما قول الفلاسفة: أنه لا داخل العالم ولا خارجه، فهو قول بـالنفي المحض، فالشـيء الـذي لا داخل العـالم ولا خارجه هو المعـدوم حقاً، فكأنهم لا يثبتون إلهـاً تعـالى الله عن قـولهم، بخلاف أهل السـنة الـذين أثبتــوا أنه فــوق العــالم، وأنه ليس في ذاته شــيء من مخلوقاتــه، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته، وأنه خلق خلقه متمـيزين عنـه، والجميع خلقـه، وهو الذي ابتدأ خلقهم وأنشأهم وقـال لأحـدهم: كُنْ فَيَكُـونُ [البقـرة:117] ، كما أخبر بذلك، فالخلق خلقه، والأمر أمره، والعباد عليهم أن يعبـدوه وأن يصـفوه بصفاته التي هي صفات الكمال.

الرد العقلي على من أنكر صفة العلو

قال الشـارح رحمه اللـه: [وأما ثبوته بـالفطرة، فـإن الخلق جميعـاً بطبـاعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيـديهم عند الـدعاء، ويقصـدون جهة العلو بقلـوبهم

عند التضــرع إلى الله تعـالى. وذكر محمد بن طـاهر المقدسي أن الشـيخ أبا جعفر الهمذاني حضر مجلس الأستاذ أبي المعـالي الجويـني المعـروف بإمـام الحرمين، وهو يتكلم في نفي صـفة العلـو، ويقـول: كـان الله ولا عـرش، وهو الآن على ما كان! فقال الشيخ أبو جعفر : أخبرنا يا أستاذ عن هـذه الضـرورة الـتي نجـدها في قلوبنـا؛ فإنه ما قـال عـارف قـط: يا ألـلـه! إلا وجد في قلبه ضرورة طلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف نـدفع هـذه الضـرورة عن أنفسنا؟! قال: فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل! وأظنه قال: وبكى! وقال: حيرني الهمذاني .. حيرني الهمذاني ! أراد الشيخ: أن هـذا أمر فطر الله عليه عباده، ومن غير أن يتلقوه من المعلمين، يجـدون في قلـوبهم طلبـاً ضـرورياً يتوجه إلى الله ويطلبه في العلــو. وقد اعــترض على الــدليل العقلي بإنكــار بداهته؛ لأنه أنكـره جمهـور العقلاء، فلو كـان بـديهياً لما كـان مختلفـاً فيه بين العقلاء، بل هو قضية وهمية خيالية. والجواب عن هذا الاعـتراض مبسـوط في موضعه، ولكن أشير إليه هنا إشارة مختصرة، وهو أن يقال: إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أقبل، وإن رد العقل قولنا فهو لقولكم أعظم رداً، فإن كــان قولنا بـاطلاً في العقـل، فقـولكم أبطـل، وإن كـان قـولكم حقـاً مقبـولاً في العقــل، فقولنا أولى أن يكــون مقبــولاً في العقــل، فــإن دعــوى الضــرورة مشتركة. فإنا نقول: نعلم بالضرورة بطلان قولكم، وأنتم تقولون كـذلك، فـإذا قلتم: تلك الضرورة الـتي تحكم ببطلان قولنا هي من حكم الـوهم لا من حكم العقـل، قابلنـاكم بنظـير قـولكم، وعامة فطر النـاس -ليسـوا منكم ولا منـا- يوافقونا على هذا، فـإن كـان حكم فطر بـني آدم مقبـولاً ترجحنا عليكم، وإن كان مردوداً غير مقبول بطل قولكم بالكلية، فإنكم إنما بـنيتم قـولكم على ما تـدعون أنه مقـدمات معلومة بـالفطرة الآدميـة، وبطلت عقلياتنا أيضـاً، وكـان السمع الذي جاءت به الأنبيـاء معنا لا معكم، فنحن مختصـون بالسـمع دونكم، والعقل مشترك بيننا وبينكم. فإن قلتم: أكثر العقلاء يقولون بقولنا. قيل: ليس الأمر كذلك، فإن الذين يصرحون بأن صانع العالم ليس هو فوق العـالم وليس فوق العالم شيء موجود، وأنه لا مباين للعالم ولا حـال في العـالم طائفة من النظــار، وأول من عــرف عنه ذلك في الإســلام جهم بن صــفوان وأتباعــه]. سمعنا هذه الدلالة العقلية على إثبات صفة العلو، وذكـروا أن صـفة الاسـتواء دل عليها الكتــاب والســنة، وأما صــفة العلو فــدل عليها الكتــاب والســنة والفطرة: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا [الروم:30] ، فالناس مفطورون وقلوبهم موجهة إلى السماء، لا يقـدرون أن ينكـروا ذلـك، إذا دعا أحـدهم ربه رفع رأسه، حتى ذكروا أن الدواب إذا أجدبت ترفع رءوسها إلى السماء، وهـذا أيضاً دليل على أن هذه الفطرة فطرة عامـة، الخلق المكلف وغـيره قد فطر على الخوف والرغبة من الله تعالى وأنه فوقه، وهذا دليل فطري.

الفطرة السليمة تدل على علو الله

قصة أبي المعـالي الجويـني و أبي جعفر الهمـذاني مشـهورة، والجويـني من علماء الشافعية، ولكنه من الأشـاعرة الـذين ينكـرون صـفة العلـو، وإن كـانوا يقرون بكثير من الصفات، لكن صفة العلو التزموا إنكارها، وحجته في إنكارها أن الله كان قبل أن يخلق العـرش، وهو الآن على ما كـان قبل خلق العـرش، وهذه الحجة وهمية ليست بلازمة ولا مقنعـة، صـحيح أن الله تعـالى كـان قبل كل شـيء، وأنه هو الـذي خلق العـرش وما دون العـرش، وأنه مسـتغن عن العرش وما دونه، ولا يلزم من استوائه على العرش أنه محتاج إلى العرش أو غيره، فهو لما تكلم بهذا في هـذا الجمع الكبـير اعـترض عليه الهمـذاني بهـذا الاعــتراض، وقــال: دعنا من هــذا، نحن مضــطرون إلى أن نرفع رغباتنا إلى السماء عند الـدعاء، إذا دعا أحـدنا ربه وجد من قلبه ميلاً إلى العلـو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، ولا فوق ولا تحت، هذه الضـرورة الـتي نجـدها في قلوبنا كيف ندفعها؟! ولما تكلم بهذا حير الجويـني ، ولم يجد بـداً من أن يستسـلم وقـال: حيرني الهمذاني .. حـيرني الهمـذاني ..! فهـذه فطـرة الله الـتي فطر الخلق عليهــا، ولا يســتطيعون إنكارهــا، لكن هــؤلاء الــذين أنكروها بعد أن كــانوا مفطورين عليها إنما أنكروها عناداً، وإلا فلا شك أن قلــوبهم تميل إلى أن الله فوق، ولكنهم لما تلقوا هذه العقيدة عن أكابرهم ومشايخهم لم يجدوا بداً من الاستسلام لها وعدم الاعتراض عليها، فهذا هو السبب في كــونهم ينكــرون ما هو ظاهر وما هو مشهور. وقولهم: لو كانت فطرية لاسـتوى النـاس فيها وفي الإقرار بها، فإن الناس كلهم ذوو عقول. الجواب: أنه قد أقر بها من بقي على فطرتــه، وأما من تغـيرت فطرته فلا يلتفت إلى إنكــاره، فهــؤلاء المنكــرون تغيرت فطرتهم؛ بسـبب تـأثير البيئة أو المجتمع أو التربية السـيئة. فصـار لهم حالتــان: إما أنهم مقــرون بقلــوبهم، ومنكــرون بألســنتهم ما في قلــوبهم من الميل إلى الفوقية، وإما أنهم تغيرت فطرتهم فلم يبق في قلـوبهم ذلك الميل الـذي كـانوا عليه عنـدما ولـدوا، وقد أخـبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم بـأن الفطـرة تتغـير بالمجتمعـات في قوله صـلى الله عليه وسـلم: (ما من مولـود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) يعني: أنه مولود على الفطرة الـتي هي معرفة ربـه، ومعرفة خالقـه، والإقـرار بفوقيتـه، ولكن أبواه ومجتمعه ومعلموه ومدربوه ومدرسـوه هم الـذين يغـيرون تلك الفطـرة إلى ما يعتقدونه، حتى يصير يهودياً أو نصرانياً أو مجوسـياً أو وثنيـاً أو مبتـدعاً جهمياً أو غيره، فالله تعالى فطر الناس على هذه الفطرة، ولكن هؤلاء أنكروا بزعمهم، وادعوا أن عقولهم لا تدل على هذه الفطرة. والجواب: أن يقال: قد أقر بهذه الفطرة الخلق الكثير الـذين بقـوا على عقيـدتهم، وأنتم على ما أنتم عليه من إنكارها، فنقابل إقـرار هـؤلاء وإقـرار هـؤلاء فننظر أيهما أرجح، فنجد أن هــؤلاء المقــرين في جــانبهم النقل وهو الكتــاب والســنة، فيجتمع العقل والنقل فيكـون أرجح من الــذين ليس معهم إلا العقــل. جـواب آخر وهـو: أن عقول هؤلاء دائماً تتغير، وتختلف اختلافاً كثيراً، فتجد اثنين يتعلمان على معلم واحد ثم يختلفان، فهذا يقول: أنكر عقلي كـذا. وهـذا يقـول: لم ينكـره عقلي.

ويبقى الواحد منهم برهة من الزمـان قد تصل إلى أربعين سـنة أو خمسـين سنة وهو يقر ويعترف بهذا الأمر، ثم تغلب عليه بعض الأمور فتصـرفه وينقلب ويقول: أنكره قلبي! بقيت أربعين أو خمسين سنة وقلبك مقر به، ثم بعد ذلك أنكره! قد يكون بالعكس أيضاً: يـتربى عشـرين أو ثلاثين سـنة وهو منكر لـه؛ تقليـداً لمجتمعه ولمدرسـيه ومعلميـه، ثم بعد ذلك يمن الله عليه ويرجع إلى العقل السـليم فيوافق عليـه، فـإذاً: اختلاف عقـولهم دليل على عـدم اتزانهـا. وكذلك تفاوتهم وكون هذا يقر وهذا ينكر، أو هذا يقر زماناً ثم ينكر؛ دليل على أنها ليست معياراً، فالمعيار هو الشرع، وكذلك العقول السليمة.

من أدلة علو الله: رفع الأيدي عند الدعاء إلى جهة السماء

يقول الشارح رحمه الله: [واعـترض على الـدليل الفطـري: أن ذلك إنما كـان لكون السماء قبلة للـدعاء، كما أن الكعبة قبلة للصـلاة، ثم هو منقـوض بوضع الجبهة على الأرض، مع أنه ليس في جهة الأرض. وأجيب عن هـذا الاعـتراض من وجوه: أحدها: أن قولكم: إن السماء قبلة الـدعاء. لم يقله أحد من سـلف الأمـة، ولا أنـزل الله به من سـلطان، وهـذا من الأمـور الشـرعية الدينيـة، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائهـا. الثـاني: أن قبلة الـدعاء هي قبلة الصلاة، فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة، وكـان النـبي صـلى الله عليه وسلم يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة، فمن قال: إن للـدعاء قبلة غير قبلة الصلاة، أو إن له قبلـتين؛ إحـداهما: الكعبـة، والأخـرى السـماء. فقد ابتدع في الـدين، وخـالف جماعة المسـلمين. الثـالث: أن القبلـة: هي ما يسـتقبله العابد بوجهـه، كما تسـتقبل الكعبة في الصـلاة والـدعاء، والـذكر، والذبح، وكما يوجه المحتضر والمدفون؛ ولـذلك سـميت (وجهـة)، والاسـتقبال خلاف الاستدبار، فالاستقبال بالوجه، والاستدبار بالدبر، فأما ما حاذاه الإنسـان برأسه أو يديه أو جنبه فهـذا لا يسـمى قبلـة، لا حقيقة ولا مجـازاً، فلو كـانت السماء قبلة الـدعاء، لكـان المشـروع أن يوجه الـداعي وجهه إليهـا، وهـذا لم يشرع، والموضع الذي ترفع اليد إليه لا يسمى قبلة، لا حقيقة ولا مجـازاً، ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعي تتبع فيه الشـرائع، ولم تـأمر الرسل أن الـداعي يستقبل السماء بوجهه، بل نهوا عن ذلـك، ومعلـوم أن التوجه بـالقلب، واللجأ والطلب الذي يجـده الـداعي من نفسه أمر فطـري، يفعله المسـلم والكـافر، والعالم والجاهل، وأكثر ما يفعله المضـطر والمسـتغيث باللـه، كما فطر على أنه إذا مسه الضر يدعو الله، مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل، كما تحـولت القبلة من الصـخرة إلى الكعبـة. وأمر التوجه في الـدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هنـاك، بخلاف الـداعي، فإنه يتوجه إلى ربه وخالقـه، ويرجو الرحمة أن تـنزل من

عنده. وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض! فـإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له، لا بأن يميل إليه إذ هو تحته! هذا لا يخطر في قلب ســاجد. لكن يحكى عن بشر المريسي أنه ســمع وهو يقــول في سجوده: سبحان ربي الأسفل!! تعالى الله عما يقـول الظـالمون والجاحـدون علواً كبيراً! وإن من أفضى به النفي إلى هذه الحال لحري أن يتزنـدق، إن لم يتداركه الله برحمتــه، وبعيد من مثله الصــلاح، قــال تعــالى: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّة [الأنعام:110] ، وقال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُــوبَهُمْ [الصــف:5] فمن لم يطلب الاهتــداء من مظانه يعــاقب بالحرمان، نسأل الله العفو والعافية. وقولـه: (وقد أعجز عن الإحاطة خلقـه). أي: لا يحيطـون به علمـاً ولا رؤيـة، ولا غـير ذلك من وجـوه الإحاطـة، بل هو سبحانه محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء].

بطلان القول بأن السماء قبلة الدعاء

هذا اعتراض اعترض به النفاة، قالوا: تقولون: إن رفع الأيدي في الدعاء دليل على صـفة العلـو، وأن الإشـارة بالإصـبع في التشـهد دليل على صـفة العلـو، فيقولون: نحن نجيب ونقول: إنما رفعت الأيدي إلى السماء؛ لأن السماء قبلة الدعاء، لا أن الله فـوق السـماء، ولا أن الله فـوق العبـاد، كما أن الكعبة قبلة الصلاة كذلك السماء قبلة الدعاء، هذا اعتراضهم. واعترضـوا أيضـاً بالسـجود، قالوا: السـجود: وضع الجبهة على الأرض، وهـذا دليل على أن الله ليس فـوق العبــاد، وإلا لما وضــعوا جبــاههم على الأرض. ســمعنا الجــواب، وهو واضح والحمد لله، وخلاصته: قـولهم: إن قبلة الـدعاء هي السـماء. قـول باطـل، بل الصــحيح أن قبلة الــدعاء هي قبلة الصــلاة، من أراد أن يســتجاب دعــاؤه فليستقبل القبلة التي هي الكعبة، وليست السماء قبلة الدعاء، ولو كانت قبلة الدعاء لاستقبلها الداعي بوجهه، ولم يكتفِ برفع يديه، فرفع اليدين دليل على أنه يشـعر بـأن ربه فوقـه، وأنه هو الـذي يعطيـه، والقبلة إنما هي ما يسـتقبل بالوجـه، كما أن المصـلي يسـتقبل الكعبة أو جهة الكعبة بوجهـه. جـواب آخر وهـو: أن القبلة تقبل النسـخ، فقبلة الصـلاة بعد أن كـانت إلى بيت المقـدس نسخت إلى الكعبة، فإذا كانت القبلة تقبل النسخ دل على أن هذه أيضـاً تقبل النسخ، ورفع الأبصار إلى السماء، وكذلك رفع الأيدي إلى السماء، وكذلك رفع القلوب إلى السماء؛ أمر فطري لا يمكن أن ينسخ، وليس كمثل قبلة الصـلاة. ثم يـذكر الشـارح أنهم اعترضـوا بقـولهم: لو كـان في السـماء لما سـجدوا بوجــوههم على الأرض. والجــواب: الســجود على الأرض ليس لأن الله تحت العباد تعالى الله عن ذلـك، وإنما السـجود يشـعر العبد في صـلاته أنه متواضع لربه، فإن أعلى شيء في الإنسان وجهه، وهو أكرم أعضائه عليه، فإذا وضـعه

على الأرض تواضعاً وذلاً وخضوعاً دل ذلك على تعظيمه لربــه، وحينئذ يرحمه ربه، ويغفر له ذنبه، حيث إنه تواضع هذا التواضع، وشعر من نفسه بالاسـتكانة وبالضعف وبالفقر والفاقة إلى ربه، ومن الأسباب التي شرعت السجدة لأجله أن يشعر العبد في صلاته بالعبوديـة، فـإن مبـنى الصـلاة على العبودية والـذل لله، فالقيام فيه ذل وتواضع، والركوع فيه انحناء وخضـوع، والسـجود فيه تعبد وذل وانكسـار بين يـدي ربـه، وليس لأجل الاعتقـاد أن الـرب تعـالى في جهة التحت، وإنما هذا عقيدة من انتكست فطرته، كما نقل الشارح رحمه الله عن بشر بن غيـاث المريسي ، وهو من أكـابر المعتزلة والجهمية أتبـاع الجهم بن صفوان الذين ينكرون الصفات، وينكـرون أن القـرآن كلام اللـه. هـذه المقالة السيئة التي نقلت عنه تقشـعر منها الجلـود، وهـذا دليل على أن زيغ القلـوب والإصابة بالانتكاس من عقوبـات الابتـداع، لما طبع الله على قلـوبهم، ووقعـوا في هـذا الإبتـداع صـدق عليهم قـول الله في هـذه الآية الـتي سـمعنا: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ [الأنعام:110] قلب الله أفئدتهم عندما لم يؤمنوا به، فلم يستفيدوا مما سـمعوا، فتعـالى الله عن قـولهم وعن معتقداتهم السيئة.

بداية ظهور المبتدعة منكري العلو

الصحابة رضي الله عنهم كانوا على العقيدة السلفية، لم يرتد منهم أحد وينكر شيئاً منهـا، وحاشـاهم من ذلـك، ولكن حـدث في آخر عهـدهم بـدع، وبعضـها أهـون من بعض، أهونها البدعة الأولى الـتي هي بدعة الخـوارج، ثم تليها بدعة القدريـة، وقد يكـون لهم فيها عـذر، وكل هـذه حـدثت في آخر القـرن الأول، ولكن أشنعها وأبشعها هي البدعة التي حـدثت في أوائل القـرن الثـاني: بدعة الجهمية. نشأت في خراسان ببلاد إيران، أول ما وجـدت هـذه البدعة في تلك الأمـاكن، فانتشـرت انتشـاراً خفيـاً، وفي آخر القـرن الثـاني تمكنت من بعض النفـوس، وتمكنت جـداً في أول القـرن الثـالث، وحصل ما حصـل. وقد تكـرر معنا أن من دعاتها، الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد القسـري يـوم العيد ، ومن دعاتها أيضاً الجهم بن صفوان ، وهو الذي ينتسب إليه هذا المذهب، وقد قتله سلم بن أحـوز رحمه الله لبدعتـه، وورثه بشر بن غيـاث المريسـي، وهو مبتدع على طريقة الجهم ، وتمكن من بعض الولاة فقربـه، وقبل مقالته كثـير من المخدوعين الذين رأوا زخرف قوله فصدقوه، حتى أهلكه الله. وقد ذكروا أنه لما دفن في مقبرة من مقابر العراق رئي بعض الأموات في المنام وعلى وجهه سفعة من النـار أو لفحة منهـا، فقيـل: ما هـذا؟ فقـال: دفن عنـدنا بشر المريسي ، فنفحت جهنم أو التهبت على ذلك المكان، فنال: منها هذا اللهب.. والعياذ بالله! ثم ظهر في أواخر القرن الثاني وأول الثـالث أحمد بن أبي دؤاد

، وهو الذي زين للمأمون الفتنة والدعاء إلى القـول بخلق القـرآن، ونصر الله الحق وظهر، وخذل الله هذا العـدو، بحيث إنه عـوقب بإصـابته بمـرض الفـالج في آخر عمـره، وبقي ذليلاً مهينـاً مهجـوراً، لا يحترمه ولا يعظمه أحـد، ولما مـات لم يوجد من يحمله إلا ثلاثة رجـال والرابع امـرأة، وكل ذلك تحقـير من الله تعالى لأهل الشر ولأهل الأهواء والبدع. أما أهل السنة فإنهم أعزاء، ولهم النصرة والتمكين، لكن مع الأسف بعد انقراض القرون الثلاثة المفضـلة تمكن هذا المذهب، وصار أهل القرن الرابع لا يعرفون غـيره إلا ما شـاء اللـه، وبقي أهل السـنة مسـتخفين في القـرن الرابع وما بعـده، إلى أن أظهر الله الحق على يدي شيخ الإسلام ابن تيمية ومن على طريقته، ولا يـزال لله تعـالى بقايا من أهل العلم ومن أهل الدين في كل زمـان ينـافحون ويكـافحون عن الـدين الحق، ويردون البدع، ويردون على أهلها، وبهم تقوم حجة الله على عباده.

ما يترتب على اعتقاد العلو لله سبحانه وتعالى

من جملة ما مر بنا في هـذه العقيـدة الكلام على صـفة العلو والفوقيـة، وقد ذكر الشـــارح رحمه الله الأدلة على العلـــو، وأورد أنواعـــاً كثـــيرة من الأدلة العقلية ومن الأدلة النقلية الشـرعية من الآيـات والأحـاديث، وهو لم يسـتوفِ الأدلة، ومن الكتب التي استوفت كتـاب: العلو للعلي الغفـار للإمـام الـذهبي ، وكتب كثيرة استوفت هذه المقالة التي هي صـفة العلو بأدلتهـا. والمسـلم إذا اعتقد هـذه الصـفة، ودان لله تعـالى بأنه هو العلي الأعلى، فـإن الله تعـالى سيتقبل عبادته، ويضـاعف أجـره، ومن نتيجة هـذه العقيـدة، أنه يحصل للـذين يعتقدونها مخافة ربهم من فوقهم كما أخبر عن الملائكة بقوله: يَخَـافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ [النحل:50] ، فـإن المـؤمن إذا استشـعر أن ربه من فوقـه، وأنه مطلع عليـــه؛ فإنه يشـــعر من نفسه بالـــذل، ولربه بـــالعز والجلال، فيعظمه ويراقبه ويخافه، ويعبده حق عبادته، وهذا نتيجة اعتقاد هذه العقيدة.

أنكر الجهمية أن الله اتخذ إبـــراهيم خليلاً، وأنه كلم موسى تكليمـــاً، وقد رد عليهم أهل العلم، وبينوا حقيقة الخلة، وأنها أرفع درجة من المحبة.

حقيقة الخلة والمحبة والفرق بينهما

قال الشـارح رحمنا الله تعـالى وإيـاه: [قولـه: (ونقـول: إن الله اتخذ إبـراهيم خليلاً، وكلم الله موسى تكليمـاً، إيمانـاً وتصـديقاً وتسـليماً). قـال الله تعـالى: وَاتَّخَـذَ اللَّهُ إِبْـرَاهِيمَ خَلِيلًا [النسـاء:125] ، وقـال تعـالى: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَـى تَكْلِيماً [النساء:164]. الخلـة: كمـال المحبـة، وأنكـرت الجهمية حقيقة المحبة من الجـــانبين؛ زعمـــاً منهم أن المحبة لا تكـــون إلا لمناســـبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة! وكذلك أنكروا حقيقة التكليم كما تقدم، وكـان أول من ابتـدع هـذا في الإسـلام هو الجعد بن درهم في أوائل المائة الثانيــة، فضــحى به خالد بن عبد الله القســري أمــير العراق والمشرق بواسط، خطب الناس يوم الأضحى فقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضـحاياكم، فـإني مضح بـــالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً. ثم نزل فذبحه. وكان ذلك بفتــوى أهل زمانه من علماء التابعين رضي الله عنهم، فجزاه الله عن الـدين وأهله خـيراً. وأخذ هذا المذهب عن الجعد الجهم بن صفوان ، فـأظهره ونـاظر عليـه، وإليه أضيف قول (الجهمية)، فقتله سلم بن أحوز أمير خراسـان بهـا، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمـرو بن عبيد ، وظهر قـولهم في أثنـاء خلافة المـأمون ، حتى امتحن أئمة الإسـلام، ودعـوهم إلى الموافقة لهم على ذلـك. وأصل هـذا مأخوذ عن المشركين والصابئة، وهم ينكرون أن يكون إبـراهيم خليلاً وموسى كليمـاً؛ لأن الخلة هي كمـال المحبة المسـتغرقة للمحب، كما قيـل: قد تخللت مسلك الـروح مـني ولـذا سـمي الخليل خليلاً ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى كسائر صفاته، ويشـهد لما دلت عليه الآية الكريمة ما ثبت في الصـحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قـال: (لو كنت متخـذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله) ، يعني: نفسه. وفي رواية: (إني أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخـذت أبا بكر خليلاً) ، وفي روايــة: (إن الله اتخـذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً) ، فبين صلى الله عليه وســلم أنه لا يصــلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلاً، وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس به أبو بكر الصديق ، مع أنه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً، كقوله لـــمعاذ : (والله إني لأحبك) ، وكذلك قوله للأنصار، وكان زيد بن حارثة حب رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، وابنه أسـامة حبـه، وأمثـال ذلـك. وقـال له عمـرو بن العـاص : (أي النـاس أحب إليـك؟ قـال: عائشة ، قـال: فمن الرجـال؟ قـال: أبوها) ، فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة، والمحبوب بها لكمالها يكــون

محبوباً لذاته، لا لشيء آخر، إذ المحبوب لغـيره هو مـؤخر في الحب عن ذلك الغير، ومن كمالها لا تقبل الشركة ولا المزاحمة؛ لتخللها المحب، ففيها كمـال التوحيد، وكمال الحب، ولـذلك لما اتخذ الله إبـراهيم خليلاً، وكـان إبـراهيم قد سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، فوهب له إسـماعيل، فأخذ هـذا الولد شـعبة من قلبـه، فغـار الخليل على قلب خليله أن يكـون فيه مكـان لغـيره، فامتحنه بذبحــــه، ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولــــده، فلما استسلم لأمر ربه، وعـزم على فعلـه، فظهر سـلطان الخلة في الإقـدام على ذبح الولد إيثـاراً لمحبة خليله على محبتـه، نسخ الله ذلك عنـه، وفـداه بالـذبح العظيم؛ لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم، وتوطين النفس على أعلى ما أُمر، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مفسـدة، فنسخ في حقه، وصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سـنة في أتباعه إلى يـوم القيامة]. ......

معنى الخلة والخليل

تكلم الشارح رحمه الله -كما سمعنا- على مسألة الخلة الـتي قـال الله فيهـا: وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا [النساء:125] ، وذكر أن الخلة أعلى أنواع المحبـة، وأن الخليل في الأصــل: هو المحبــوب الــذي تخللت محبته شـغاف القلب، فالخليل: هو المحبوب الذي بلغت محبته النهايـة، والأخلاء: هم الأحبـاب، قـال تعـالى: الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُـهُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ [الزخـرف:67] يعـني: الــذين كـانوا متحـابين محبة شـديدة في الـدنيا، إذا لم تكن تلك المحبة على التقـوى صـار بعضـهم في الآخـرة لبعض عـدواً، ولو كـانت تلك المحبة والخلة وثيقة وقويــة. فالخلة تخلل المحبة شـغاف القلب، قـال الشـاعر: قد تخللت مسلك الـروح مـني ولـذا سـمي الخليل خليلاً قولـه: (مسـلك الـروح) يعـني: دخلت فيما يـدخل فيه الـروح، الـروح يسـري في الجسد وفي العـروق وفي الدماء وفي العظم وفي البشر وفي كل شيء ما عدا الشعر، فـالروح يسـري في كل الإنسان، يقول: إني أخاطب محبوبة كأنها تخللت ما تخلله الروح حتى وصلت إلى شغاف القلب، وبذا سمي الخليل خليلاً. ويقول الشاعر أيضاً: لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الممات قليل فالخليل: هو المحبوب. وقال الله تعالى حكاية عن بعض الكفار في النـار: يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِـذْ فُلانًا خَلِيلًا [الفرقـان:28] يعـني: محبوبـاً. الله تعـالى اتخذ إبــراهيم خليلاً، يعــني: محبوباً، والنبي صلى الله عليه وسلم له أخلاء محبوبــون، ولكن المحبة القوية الخالصة كـانت بينه وبين ربـه، فربه تعـالى قد اتخـذه خليلاً، وهو قد أحب ربه تلك المحبة التي هذه نهايتها، وهذه غايتها، فبقي قلبه ممتلئاً بتلك المحبة التي هي الخلة، ليس فيه موضع لغيره، وهكذا يجب على كل مؤمن أن يكــون قلبه ممتلئاً بمحبة ربه، المحبة التي لا ينازعها غير محبة المحبوب. الله تعـالى اتخذ إبراهيم خليلاً، وأحبه هذا النوع من المحبـة، وإبـراهيم كـذلك أحب ربه المحبة التامة التي هي أعلى أنـواع المحبـة، ولما وهبه الله ولـده إسـماعيل أحبه كما

هو معلـــوم أن الولد محبـــوب في النفس، وأن النفس تميل إليه وتحبه محبة طبعية، محبة شفقة وحنان، فلما تعلق قلب إبـراهيم بولـده وأحبه غـار الـرب تعالى على خليله أن يكون في قلبه موضع لغير ربه، وأن يكـون قلبه منشـغلاً بربــه، فهو يريد ألا يكـــون فيه أية محبة صــادقة لغــير الله تعــالى، فعند ذلك امتحنه بذبح ولده، فلما استسلم لذلك، والتزم بأن يطيع ربه في هذه المحنـة، وأن يذبح ولده؛ خـرج ذلك الجـزء الـذي في قلب إبـراهيم من المحبة لولـده، وذلك الاشـتراك الـذي كـان فيه من محبة الولـد، وصـفا قلب إبـراهيم لربـه، وعرف ربه من قلبه أنه ممتلئ بمحبة ربه، وأنه لا يقدم على محبته محبة مال ولا ولد ولا أخ ولا خليل ولا غـــير ذلـــك، فعند ذلك نسخ الله هـــذا الأمر كما سمعنا،وفداه الله بذبح عظيم.

شبهة إنكار المحبة بين العبد وربه والرد عليها

المحبة من أعلى صفات الله الفعلية، الله تعالى يحب عباده، ويتخذ من يشــاء منهم خليلاً، فـــإبراهيم ومحمد صـــلى الله عليه وســـلم هما الخليلان اللـــذان اتخــذهما الله لهـذه الخلة الـتي هي من خصائصـهما، وأما بقية الخلق فـإنهم يحبون الله تعالى والله تعـالى يحب المؤمـنين ويحب المتقين ويحب التـوابين ويحب المتطهـرين كما أخــبر بــذلك. فالمحبة عامة للمؤمــنين، والخلة خاصة بـالخليلين، وهي من الله تعـالى. صـفة الخلة وصـفة المحبة عمومـاً، أنكرتها الجهمية من الجــانبين، فقــالوا: الله لا يُحِب ولا يُحَب، أنكــروا أن المؤمــنين يحبـون ربهم، وأنكـروا أن الله يحبهم، لمـاذا؟ يقولـون: إن المحبة لا تكـون إلا بين اثــنين بينهما تجــانس، فالإنســان يحب إنســاناً لأنه إنســان؛ ولأن بينهما تجانساً، وليس بين الرب وبين الخلق تجانس، يقولون: الرب قديم، والإنســان حادث، فما دام أن بينهما هذا التفـاوت فلا يمكن أن يكـون بينهما هـذه المحبة الــتي هي خاصة بالمتجانســين. هــذه شــبهة، ولا شك أنها شــبهة باطلــة، فالمؤمنون يجدون في قلوبهم المحبـة، ويجـدون من ربهم آثـار هـذه المحبـة، فالله تعـالى يحب عبـاده، ومن آثـار هـذه المحبـة: أنه ينصـرهم، ويكـرمهم، ويؤيدهم، ويقويهم، ويعلي شأنهم، ويعلي كلمتهم، ويوفقهم، ويسـدد خطـاهم، أليس ذلك دليل من آثــار المحبــة؟ إذا رأيت إنســاناً يكــرم رجلاً، ويقدســه، ويقدمـه، ويدخله بيته دائمــاً، ويـزوره، ويسـتزيره، ويهـدي لـه، ويقبل هديتـه، ويمدحه في المجالس، ألست تستدل على أنه يحبه؟ نعم، وتقـول: هـذا يحب فلاناً، وبينهما محبة. نحن نشـهد آثـار رحمة الله تعـالى، نشـهد أنه يوفق بعض عبـاده، وأنه ينصـرهم ويؤيـدهم، ويقـويهم ويقـوي عـزائمهم، ويقـوي قلـوبهم، أليس ذلك من آثــار المحبــة؟ بلى؛ هــذا دليل على أنه أحبهم حيث أظهــرهم وقواهم ونصرهم وأيدهم، كما حصل لأولياء الله تعالى في كل مكـان وزمـان.

إذاً: نستدل بآثار المحبة على وجودها، هذا لو لم ترد في الأدلة، فكيف والأدلة الشرعية كثيرة كقول الله تعالى: فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [المائدة:54] ، اجتمعت المحبتان: ((يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ))، وهذا رد على المعتزلة في الجهتين، هم يقولون: لا يحُب ولا يحِب، والآية أثبتت أنه يحبهم وأنهم يحبونه، ومن آثار محبته لهم: أنه ينصرهم ويؤيدهم ويقوي كلمتهم، وآثار محبتهم لربهم: أنهم يعبدونه، ويخلصون العبادة له، ويوحدونه ويطيعونه، ويطيعون أمره، ويعظمون شرعه، ويستعدون للقائه، ويعملون بشرائعه كلها، ويحذرون من أسباب غضبه، ويفعلون أسباب ثوابه، وهذا دليل على أنهم يحبونه. كذلك أيضاً محبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم واجبة عليهم، وهي تابعة لمحبة الله تعالى، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) . نحن نحب هذا النبي صلى الله عليه وسلم، والكثير يقولون: نحن نحبه، ونشهد أنه رسول الله، لكن لهذه المحبة علامات، فلابد أن تظهر في الذي يحبه علامات المحبة، ومن أبرزها طاعته واتباعه، قال الله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ [آل عمران:31].

تكليم الله لموسى وغيره

ذكر الشارح أن الله تعالى كلم موسى تكليماً، وقد تقدم الكلام على القرآن، وأنه كلام الله، وأن الله تعالى متكلم، يتكلم إذا شاء، ومن كلامه القرآن، وكلامه لا يفنى، ولو كتب بكل أقلام الدنيا وكانت البحار مداداً لها؛ لفنيت الأقلام وتكسرت، ولفنيت مياه البحار قبل أن يفنى كلام الله. والله تعالى خص من عباده من كلمهم، ومنهم: موسى، قال الله تعالى يخاطب موسى: إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي [الأعراف:144] (اصطفيتك) يعني: اخترتك وفضلتك وميزتك بهذه الأشياء التي منها: أن الله كلمه، ومنها: أنه أرسله وجعله من المرسلين، وغير ذلك مما ميزه الله به. هذه الآية لا يستطيع المعتزلة أن يؤولوها: (اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي). أما الآية التي استشهد بها الشارح، وهي قوله الله تعالى: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء:164] ، ومثلها قوله تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ [البقرة:253]، فهذا صريح أيضاً في أن الله كلم موسى، ومعروف أن الكلام هو المسموع؛ لقوله تعالى: حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ [التوبة:6] فهو كلام سمعه، ولكن المعتزلة لما أنكروا هذه الصفة تأولوها تأويلاً بعيداً، فيقولون: إن التكليم هنا: التجريح، (كلمه) أي: جرحه بأظافير الحكمة. وما أبعد هذا التأويل!! ونسوا أن الله تعالى أخبر بأنه اصطفاه بكلامه، وتكرر الآيات يمنع من صرفها إلى هذا التأويل البعيد، ونسوا أن

التأويل لا يمكن إلا ببينة وبقرينة ترجح ما تـأولوه، وحيث إنه ليس هنـاك قرينة فلا نقبل منهم هـذا التأويل البعيـد، وهـذا تحريـف. وقد ذكر أن رجلاً جـاء إلى أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة من قراء البصرة، وقـال: أريد أن تقـرأ هـذه الآية هكـذا: (وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَـى تَكْلِيمًـا) يعـني: أن موسى هو الـذي كلم الله، وأن الله لم يكلم موسى، فجعل اسم (الله) مفعول به منصوب على أنه هو المكلم. مـاذا قـال أبو عمـرو رحمه اللـه؟ قـال: هب أني أو غـيري قرأها هكـذا، فكيف تفعل بقـول الله تعـالى: وَلَمَّا جَـاءَ مُوسَـى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَـهُ رَبُّهُ [الأعـــراف:143]؟! فبهت ذلك المعـــتزلي، حيث إن تلك الآية لا تســـتطيع المعتزلة تأويلها ولا تحريفهـا، ويسـمى هـذا: تحريفـاً لفظيـاً. والحاصل أن المعتزلة أنكـروا هـاتين الصـفتين: صـفة الخلة الـتي هي أعلى أنـواع المحبـة، وصفة الكلام من الله تعـالى الـذي هو صـفة كمـال، أنكـروا هـاتين الصـفتين. وهذه المقالة -التي هي إنكار هذه الصفات- اشتهرت عن الجعد بن درهم كما ذكر الشارح، وهو الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط -قرية من قـرى العـراق- فقتله في يـوم العيد وجعله أضـحيته يـوم العيـد، بعد أن أفـتى علماء زمانه بكفره، وأنه أصر على قوله وعناده ولم يرجع، ولم يقبل، فبعـدما خطب رحمه الله نزل وذبحـه. يقـول ابن القيم رحمه الله في النونيـة: ولأجل ذا ضحى بجعد خالد القسري يوم ذبائح القربان شكر الضحية كل صاحب سنة لله درك من أخي قربـان ما هي مقالتـه؟ إذ قـال إبـراهيمُ ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الــدان المقالة الــتي أنكروها عليه أنه أنكر أن الله كلم موسى تكليماً، وأنكر اتخاذ الله إبـراهيم خليلاً. هـذه المقالة حفظت عن الجعد ، وذكر ابن تيمية رحمه الله أن الجعد أخذها عن طـالوت ، وطـالوت أخـذها عن خاله لبيد بن الأعصم اليهـودي السـاحر المشـهور، فصـارت مـأخوذة عن سـحرة اليهود. والجهم أخذها عن الجعد ونشرها فنسـبت إليـه، أصـبح يقـال: جهميـة. الجهم كلمة مستبشعة، قالوا: إنها مشتقة من جهنم، مما يدل على أن اســمه قـــريب من هـــذه الكلمـــة. وذكر الإمــام أحمد رحمه الله أنه أخذ مقالته عن طائفة يقال لهم: السمنية. وعلى كل حال فأسانيد الجهمية تعود إلى السمنية وإلى سحرة اليهود وإلى أشبهاهم، فكيف يـترك لها كتـاب الله تعـالى، وسـنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وعقائد سلف المسلمين؟! ......

نبينا محمد عليه الصــلاة والســلام شــارك إبــراهيم وموسى في منزلة الخلة والتكليم

قـال الشـارح رحمه اللـه: [وكما أن منزلة الخلة الثابتة لإبـراهيم صـلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا صلى الله عليه وسلم كما تقدم، كذلك منزلة التكليم الثابتة لموسى صلوات الله عليه قد شـاركه فيها نبينا صـلى الله عليه وسـلم، كما ثبت ذلك في حديث الإسراء. وهنا سؤال مشـهور؛ وهـو: أن النـبي صـلى الله عليه وسلم أفضل من إبراهيم صلى الله عليه وسلم، فكيف طلب له من الصـلاة مثل ما لإبـراهيم، مع أن المشـبه به أصـله أن يكـون فـوق المشـبه؟

وكيف الجمع بين هـذين الأمـرين المتنـافيين؟ وقد أجـاب عنه العلمـاء بأجوبة عديدة، يضيق هذا المكان عن بسطها. وأحسنها: أن آل إبـراهيم فيهم الأنبيـاء الذين ليس في آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبي صلى الله عليه وسـلم ولآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبيـاء، حصل لآل محمد ما يليق بهم؛ لأنهم لا يبلغـون مـراتب الأنبيـاء، وتبقى الزيـادة الـتي للأنبيـاء، وفيهم إبـراهيم لمحمد صـلى الله عليهما وسـلم، فيحصل له من المزية ما لم يحصل لغـيره. وأحسن من هــذا: أن النــبي صــلى الله عليه وســلم من آل إبــراهيم، بل هو أفضل آل إبراهيم، فيكون قولنا: كما صليت على آل إبراهيم. متنـاولاً للصـلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم، بل هو متنـاول لإبـراهيم أيضـاً، كما في قوله تعـالى: إِنَّ اللَّهَ اصْـطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْـرَاهِيمَ وَآلَ عِمْـرَانَ عَلَى الْعَـالَمِينَ [آل عمـران:33] ، فـإبراهيم وعمـران دخلا في آل إبـراهيم وآل عمران، وكما في قوله تعالى: إِلَّا آلَ لُـوطٍ نَجَّيْنَـاهُمْ بِسَـحَرٍ [القمـر:34] فـإن لوطاً داخل في آل لـوط، وكما في قوله تعـالى: وَإِذْ نَجَّيْنَـاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَـوْنَ [البقرة:49] ، وقوله: أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [غافر:46] فإن فرعون داخل في آل فرعـون، ولهـذا -والله أعلم- أكـثر روايـات حـديث الصـلاة على النـبي صـلى الله عليه وسـلم إنما فيهـا: (كما صـليت على آل إبـراهيم). وفي كثـير منهـا: (كما صـليت على إبـراهيم)، ولم يـرد: (كما صـليت على إبـراهيم وعلى آل إبراهيم) إلا في قليل من الروايات، وما ذلك إلا لأن في قولــه: (كما صليت على إبراهيم) يدخل آله تبعاً. وفي قوله: (كما صليت على آل إبـراهيم) هو داخل في آل إبراهيم]. سمعنا أن محمداً صلى الله عليه وسـلم قد أعطي مثل ما أعطي الأنبياء قبله، فلما اتخذ الله إبراهيم خليلاً اتخذ النبي صـلى الله عليه وسلم خليلاً كما تقدم في قوله: (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً) ، وقد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم لم يتخذ من أمته خليلاً، مع أنه قد أحب كثـيراً منهم، كقوله لــمعاذ : (إني أحبـك) ، وكتسـمية زيد : حب النـبي صلى الله عليه وسلم، وأسامة حب النـبي صـلى الله عليه وسـلم وابن حبـه، ولكن لم يقل: إن هذا خليلي، بل قال: (لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر، ولكن صاحبكم خليل اللـه) . وقد كلم الله موسى تكليمـاً، وحصل ذلك -أيضـاً- لنبينا صلى الله عليه وسلم، كلمه الله لما أسري به، وأسمعه كلامه لما أمــره بخمسـين صـلاة فرجع وقـال: (يا رب! خفف عن أمـتي. فقـال: خففت عنك عشـراً، وهكـذا تـردد إليه حـتى صـارت خمس صـلوات، فقـال اللـه: أمضـيت فريضتي وخففت عن عبادي). ففي هذا أنه كلمه تكليماً، فعلى هـذا يكـون قد حصل للنبي صلى الله عليه وسلم الخلة التي لإبراهيم، وحصل له الكلام الذي لموسى، وكذلك بقية الفضائل التي لبقية الأنبياء.

معنى قول: (كما صليت على آل إبراهيم)

سمعنا الإشكال الذي يورده بعض العلماء لقوله في الصلاة على النـبي صـلى الله عليه وســـلم: (اللهم صل على محمد وآل محمد كما صـــليت على آل إبراهيم، أو كما صليت على إبراهيم، أو كما صليت على إبراهيم وآل إبـراهيم) فيقولون: كيف يسأل للنبي عليه الصلاة والسلام مثلما حصل لإبراهيم، يعـني: شبيهاً به، والمشبه دون المشبه به، فعلى هذا يكـون الـذي يحصل لمحمد من الصـلاة أقل من الـذي يحصل لإبـراهيم؛ لأن المشـبه دون المشـبه بـه؟ هـذا إشكال، كيف ذلك ومحمد صلى الله عليه وسلم أفضل؟ الجـواب الصـحيح أن يقـال: إن محمـداً صـلى الله عليه وسـلم من آل إبـراهيم، بل هو أفضل آل إبراهيم، ولأجل ذلك يذكره الله بقولـه: مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْـرَاهِيمَ [الحج:78] ، ولما كان في الإسراء ولقيه في السماء السابعة قال: (مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح) لأنه من ذريته، فهو من آل إبـراهيم، فـإذا قلنـا: (كما صـليت على آل إبـراهيم). دخل في ذلك محمد صـلى الله عليه وسـلم، وطلبنا لآل محمد كما حصل لآل إبراهيم، فلا يحصل هناك إشكال إن شاء الله. ......

منبع العقيدة الإيمان بالغيب

منبع العقيدة وأصلها هو الإيمان بـالغيب، وأن ذلك ينحصر في الأركـان السـتة الـتي ذكرها النـبي صـلى الله عليه وسـلم في تفسـير الإيمـان حيث قـال: (الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليـوم الآخـر، وتـؤمن بالقـدر خيره وشـره) ، وذكرنا أن أصل ذلك كله هو الإيمـان باللـه، وأن من آمن بالله سبحانه إلهاً ورباً وخالقاً ومعبوداً التزم الإيمـان بسـائر كتبـه، والـتزم الإيمـان بالعذاب والنعيم الـذي وعد بـه، والـتزم الإيمـان بـالأمر والنهي الـذي شـرعه، والتزم الإيمان بالقضاء والقـدر الـذي قـدره وقضـاه، والـتزم الإيمـان بـالبعث والنشور الذي أخبر بـه، وآمن بالرسـل، وآمن بـالكتب، وآمن بالملائكـة، وآمن بالغيب كله، آمن بما أخبر الله به، ونتج عن الإيمـان بـذلك العمـل، أي: صـدق بذلك تصديقاً جازماً، وعمل بما صدق به وبما هو قادم عليـه. ويتوقف الإيمـان بالله تعـالى على معرفة الأدلـة، قـال في الأصـول الثلاثة الـتي كـان الأولـون يقرئونها أبنـاءهم: إذا قيل لـك: من ربـك؟ فقـل: ربي الله الـذي ربـاني وربى جميع العـالمين بنعمتـه، وإذا قيل لـك: بم عـرفت ربـك؟ فقـل: عرفته بآياته ومخلوقاته. هذه أكبر العلامات وأكبر الأدلة: الآيات والمخلوقـات، فمن عـرف الله تعــالى بآياته وعرفه بمخلوقاته آمن بــه، ومن آمن به آمن بخــبره، وآمن بـأمره ونهيـه، وآمن بوعـده ووعيـده، وآمن بشـرعه وبحكمـه، وآمن بقضـائه وبقدره، وآمن بكل ما أخـبر بـه، ومـتى آمن بـذلك وصـدق به تصـديقاً جازمـاً ظهرت آثار ذلك على أعماله، فرأيته مسـارعاً للأعمـال، ورأيته مسـتكثراً من الصالحات، ورأيته مستعداً للقاء الله، ورأيته عاملاً بما أمر الله، ورأيته مبتعداً عما حـرم اللـه، وإذا رأيته ليس كـذلك فـاعلم أن تصـديقه ضـعيف، واعلم أن إيمانه ضـعيف، من رأيته يتجشم الكبـائر، من رأيته يتسـاهل بالصـغائر ويصر

عليهـا، من رأيته يـترك الأوامر ويتسـاهل بفعل الشـرائع، فـاعلم أن تصـديقه ضعيف، واعلم أن إيمانه مشكوك فيه، فإن الإيمان الضـعيف يظهر أثـره بقلة الأعمال الصالحة، وباقتراف السيئات وترك المأمورات، والإيمان القوي يظهر أثره على الأعمال، فتجد المؤمن القوي مسارعاً إلى الخيرات مستكثراً منها، يعلم آثارهـا، ويعلم صـلاحها، ويعلم النتيجة الـتي يجنيها من ورائهـا، ويعلم أن ثوابها عظيم، وأن أجرها لا يضـــيع عند اللـــه، ويعلم أن في تركها الحســـرة والندامة. فهـذه العلامـات الـتي تعـرف بها المصـدق من المكـذب، تعـرف بها الصـادق من الكـاذب، تعـرف بها الإيمـان من النفـاق. ومر بنا أن من أركـان الإيمان الإيمان بالملائكة، ويدخل في ذلك ما أخبر الله تعـالى عنهم، مع أنا لم نرهم، ولكن نؤمن بهم كما أخبر الله، وذلك من الإيمان بالغيب.

خصائص آل إبراهيم عليه السلام

قال الشارح رحمه الله: [وكذلك لما جاء أبو أوفى رضي الله عنه بصدقته إلى النبي صلى الله عليه وسلم، دعا له النبي صلى الله عليه وسلم وقـال: (اللهم صل على آل أبي أوفى). فعلى رواية من روى: (كما صـــليت على إبـــراهيم وعلى آل إبراهيم) لا يدخل فيهم لإفراده بالذكر، ولما كـان بيت إبـراهيم عليه السلام أشـرف بيـوت العـالم على الإطلاق، خصـهم الله بخصـائص: منهـا: أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبـراهيم نـبي إلا من أهل بيتـه. ومنهـا: أنه سبحانه جعلهم أئمة يهـدون بـأمره إلى يـوم القيامـة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم فإنما دخل من طريقهم وبـدعوتهم. ومنهـا: أنه سـبحانه اتخذ منهم الخليلين، كما تقدم ذكره. ومنها: أنه جعل صاحب هذا البيت إمامـاً للناس، قـال تعـالى: إِنِّي جَاعِلُـكَ لِلنَّاسِ إِمَامـاً قَـالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَـالَ لا يَنَـالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [البقـرة:124] . ومنهـا: أنه أجـرى على يديه بنـاء بيته الـذي جعله قياماً للناس ومثابة للنـاس وأمنـاً، وجعله قبلة لهم وحجـاً، فكـان ظهـور هذا البيت من أهل هذا البيت الأكرمين. ومنهـا: أنه أمر عبـاده أن يصـلوا على أهل الـبيت، إلى غـير ذلك من الخصـائص]. قد ذكرنا أن من أركـان الإيمـان: الإيمان بالأنبياء والرسل، وأن الأنبياء هم الذين أوحى الله إليهم، وأنزل عليهم شـيئاً من شـرعه، وأن منهم من كلفه الله بـالتبليغ، وأمـره بالـدعوة، وجعل رســالته مؤكــدة في أن يــدعو إليها ويبلغهــا، وحــذر من أرسل إليهم إذا لم يصدقوه أن يعذبهم، وأنزل عليه شريعة مستقلة، فهؤلاء هم رسل الله، نـؤمن بهم، ومنهم أنبيــاء يــوحي الله إليهم، ولكن لم يفــردهم بشــرائع خاصــة، بل يحكمــون بشــرائع من قبلهم، ولكن يــنزل عليهم الــوحي، ويــأمرهم الله فيه بأوامر تكون موافقة للأوامر التي أوحى بها إلى الأنبيـاء قبلهم، فهـؤلاء أنبيـاء، وليسوا مكلفين بالدعوة العامـة، ولم يعـذب من كـذبهم تعـذيباً عامـاً كالـذين

كـذبوا المرسـلين. ورد في الحـديث: (أن الأنبيـاء مائة ألف وأربعة وعشـرون ألفاً، وأن الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر)، الله تعالى ذكر في القرآن نحو خمسة وعشرين نبياً أو رسولاً، والبقية لم يقصصـهم علينـا، قـال تعـالى: وَرُسُـلاً قَـدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُـلاً لَمْ نَقْصُصْـهُمْ عَلَيْـكَ [النسـاء:164]، أفضل هـؤلاء الأنبيـاء المرسـلون منهم، وأفضل المرسـلين خمسة وهم أولو العـزم: نـوح، وإبـراهيم، وموسـى، وعيسـى، ومحمد صـلى الله عليه وعليهم وسـلم، وأفضل هؤلاء الخمسة الخليلان: إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما، وأفضـلهما محمد، وهو خاتم الرسل، وأفضل الأنبياء، وسيد ولد آدم. ......

فضائل إبراهيم عليه السلام

استشــكل بعض النــاس أننا أمرنا بــأن نصــلي على محمد كما نصــلي على إبــراهيم، أو نطلب من الله صــلاته على محمد كما صــلى على آل إبــراهيم، وكيف دعي له بمثل صـلاته على إبـراهيم، يقـول العلمـاء: إن المشـبَه دون المشبه به، فيكون إبراهيم على هذا أفضل من محمد والأمر بالعكس، وأجاب العلماء بأن محمداً صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيم، فهو واحد منهم، ولا شك أيضاً أن إبـراهيم عليه السـلام له مـيزة وله فضـائل أثـنى الله عليه بهـا، ومدحه بها، فذكر أنه دعا الناس وهو صـغير، وبكتهم ووبخهم وهو لا يـزال في الفتـوة، كما حكى الله عنهم: قَـالُوا سَـمِعْنَا فَتًى يَـذْكُرُهُمْ يُقَـالُ لَـهُ إِبْـرَاهِيمُ [الأنبياء:60] وذلك عندما كسر أصـنامهم وهو لم يـزل فـتى شـاباً، وذلك دليل على أنه قام بالدعوة وهو شاب. وكذلك أيضاً وقعت له المعجزة الكبيرة، وهو أن الله تعـالى جعل النـار عليه بـرداً وسـلاماً. كـذلك وهب الله له على الكـبر إسـماعيل وإسـحاق، ولما دعا بقولـه: رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّـالِحِينَ [الصـافات: 100] أجاب الله تعالى دعوته ووهب له الصالحين. كـذلك أيضـاً جعل الأنبيـاء بعـده كلهم من ذريتـه، فـأولاده أنبيـاء إسـماعيل وإسـحاق، وكـذلك ابن ابنه يعقوب، وكذلك يوسف بن يعقوب، وهكذا ذرية يعقوب الذي هو إسرائيل عليه السلام، وكـذا أيضـاً من كـان بعـدهم من ذريتهم إلى أن كـان نبينا صـلى الله عليه وسـلم، وهو من ذرية إسـماعيل بن إبـراهيم، فالكل من ذرية إبـراهيم، فهم من آل إبراهيم. ومن فضائله: أن الله تعـالى جعل على يديه بنـاء الـبيت، أمـره الله تعـالى أن يبنيه بعـدما انـدرس وانـدثر، قـال الله تعـالى: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ [الحج:26] مكانه يعني: موضعه، وقال تعـالى: وَإِذْ يَرْفَـعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِـدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْـمَاعِيلُ [البقـرة:127]فجعله الله تعـالى على يديه، وأمـره بـأن يطهـره بقولـه: وَطَهِّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ [الحج:26].. أَنْ طَهِّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ [البقـرة:125]فهـذه كلها من الخصـائص والمـيزات، ولما كـان بهذا الشرف لم يكن هناك استنكار في أن يصـلى على محمد كما صـلي على آل إبراهيم.

للفلاسفة والمعتزلة والرافضة أصـول في العقائد يعتمـدون عليهـا، ويعتقـدون صحتها، وهي مخالفة للكتاب والسنة، وما كان عليه سلف الأمة.

حقيقة إيمان الفلاسفة بأركان الإيمان

قال المصنف رحمه الله: [قولـه: (ونـؤمن بالملائكة والنبـيين، والكتب المنزلة على المرسلين، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين). هذه الأمور من أركــان الإيمان. قال تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْـهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُـونَ كُـلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ [البقرة:285] الآيات. وقال تعـالى: لَيْسَ الْبِـرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ [البقـرة:177] الآيـة. فجعل الله سـبحانه وتعـالى الإيمان هو الإيمان بهذه الجملـة، وسـمى من آمن بهـذه الجملة مؤمـنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة، بقوله: وَمَنْ يَكْفُـرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَـلالًا بَعِيـدًا [النسـاء:136]، وقـال صـلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته حديث جبريل وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسـلم عن الإيمـان، فقـال: (أن تـؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خـيره وشـره). فهـذه الأصـول الـتي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسـلامه، ولم يـؤمن بها حقيقة الإيمـان إلا أتباع الرسل. وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع، فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها، وأعظم الناس لها إنكاراً الفلاسـفة المسـمون عند من يعظمهم بالحكمـاء، فـإن من علم حقيقة قـولهم علم أنهم لم يؤمنـوا بالله ولا رسـله ولا كتبه ولا ملائكته ولا بـاليوم الآخـر، فـإن مـذهبهم أن الله سبحانه موجود لا ماهية له ولا حقيقة، فلا يعلم الجزئيات بأعيانها، وكل موجود في الخارج فهو جزئي، ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته، وإنما العالم عنـدهم لازم له أزلاً وأبداً، وإن سموه مفعولاً له، فمصانعة ومصـالحة للمسـلمين في اللفظ، وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه، وينفون عنه سـمعه وبصره وسائر صفاته! فهذا إيمانهم بالله. وأما كتبه عندهم، فـإنهم لا يصـفونه بالكلام، فلا يكلم ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، والقرآن عندهم فيض فـاض من العقل الفعال على قلب بشر زاكي النفس طاهر، متميز عن النـوع الإنسـاني بثلاث خصائص: قوة الإدراك وسـرعته، لينـال من العلم أعظم ما يناله غـيره، وقـوة النفس، ليـؤثر بها في هيـولى العـالم يقلب صـورة إلى صـورة، وقـوة التخييـل، ليخيل بها القـوى العقلية في أشـكال محسوسـة، وهي الملائكة عندهم، وليس في الخارج ذات منفصـلة تصـعد وتـنزل وتـذهب وتجيء وتـرى وتخاطب الرسول، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية لا وجود لها في الأعيان. وأما اليوم الآخر، فهم أشد الناس تكذيباً وإنكـاراً له في الأعيـان، وعنـدهم أن هـذا العالم لا يخرب، ولا تنشق السماوات ولا تنفطر، ولا تنكـدر النجـوم، ولا تكـور

الشمس والقمر، ولا يقوم الناس من قبورهم ويبعثون إلى جنة ونـار، كل هـذا عندهم أمثال مضروبة لتفهيم العـوام، لا حقيقة لها في الخـارج كما يفهم منها أتباع الرسل، فهذا إيمان هذه الطائفة - الذليلة الحقيرة - بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهذه هي أصول الـدين الخمسـة]. قد ذكرنا أن الإيمـان له أركان ستة، وأنها ذكرت في القرآن، قـال تعـالى: وَلَكِنَّ الْبِـرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ وَالْمَلائِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ [البقـرة:177] هـذه بعض أركـان الإيمان، وقال تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُـلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُـلِهِ [البقـرة:285] وهـذه أيضـاً من أركـان الإيمـان، ولقد مدح الله المؤمنين بها، وقال تعـالى في ذم الـذين يكـذبون بها في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَـرُوا ثُمَّ آمَنُـوا ثُمَّ كَفَـرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْـراً لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً [النساء:137]والمراد بإيمانهم هو تصـديقهم بشيء ثم تكذيبهم به، وإيمانهم بشـيء آخر أو نحو ذلـك، وقـال تعـالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَـابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِـرِ فَقَـدْ ضَـلَّ ضَلالاً بَعِيـداً [النسـاء:136]أمرنا أن نـؤمن باللـه، وأن نـؤمن برسـله، ونـؤمن بـالكتب المنزلة على الأنبيـاء قبلنـا، وبالكتـاب المـنزل على نبينا عليه الصـلاة والسلام، وأخبر بسـوء وعاقبة من كـذب بهـذه الأركـان الخمسـة. ولا شك أن الإيمان بها يستلزم اعتقادها واعتقاد صحتها، وإذا كنا نـؤمن بالله تعـالى، فمن أي شيء نأخذ صفات ربنـا؟ نأخـذها من كلامه ومن كلام رسـوله، فنـؤمن بما جاء في صـفاته سـبحانه من صـفات الكمـال، وننزهه عما نـزه نفسه عنه من صفات النقص، هذا كمال الإيمان بالله تعالى. ......

الإيمان بالله عند الفلاسفة

الفلاسفة ونحوهم لم يؤمنوا بالله حقيقة، إنما يؤمنـون بوجـود مجـرد ليس له وجـود في الخـارج، وإنما هو وجـود في الـذهن يرجع في الحقيقة إلى العـدم، حيث وصفوه بصـفات العـدم، مما يجل عن أن يوصف بـه، هـذا إيمـانهم بالله وهم مع ذلك يسـمون بالحكمـاء وبالعلمـاء، والفلسـفة عنـدهم هي نـوع من الحكمة، هي علم المعتقد الذي يدور على الأدلة، فهو عنـدهم علم له أهميتـه، هذا إيمانهم بالله تعالى، ويوجد هذا التفسـير في مؤلفـات أكـابرهم كمؤلفـات عالمهم الكبير المشهور بـابن سيناء ، وعالم آخر يقال لـه: الفـارابي ، وعـالم آخر منهم يقال له: الطوسي ، وأشباههم، وهؤلاء علمـاء إسـلاميون كما يقـال لهم، وهم معظمون عند الكثـير في هـذه الأزمنة ومقدسـون، وكتبهم لها ثمن رفيـع، ولها منزلة عالية عند الكثـير في هـذه الأزمنـة؛ وذلك لما فيها بـزعمهم من الأفكـــار، ولما فيها من الابتكـــارات والاختراعـــات والعلـــوم العقلية كما يسمونها، فلذلك صارت محل تقدير عندهم، وكتب ابن سيناء تتعلق بالطب أو تتعلق بالكلام أو تتعلق بالعلوم التي يسمونها علومـاً، أو تتعلق بالأحكـام وغـير ذلك، وكذلك كتب الفارابي . ولا شك أن هؤلاء وإن سـموا فلاسـفة إسـلاميين

فإنهم أبعد عن الصواب، وبالأخص في الإيمان بـالغيب، فهم أبعد النـاس عنـه، فلا يغـتر بمن يمـدحهم ومن يثـني عليهم ومن يـزعم أنهم علمـاء إسـلاميون أجلاء، وأن لهم منزلة رفيعة، ولهم مكانة عند المسلمين، لا يغتر أحد بذلك.

الإيمان بالرسل عند الفلاسفة

الرسل عند الفلاسـفة لم يـنزل عليهم الـوحي، ولكن الرسل عنـدهم أنـاس أذكيـاء لهم فطنة اسـتطاعوا بفطنتهم وبـذكائهم أن يلبسـوا على النـاس وأن يقولوا: إنما أنزل علينـا، وإننا مشـرعون، وجاءنا الشـرع، وإننا رسل من اللـه، ولم يكن هناك رسالة، ولم يكن هناك شرع، وإنما أرادوا أن يكـون لهم أتبـاع، فصار لهم أتباع بهذه الفكرة، هذه عقيدتهم في الرسل، ويسمون ذلك: تخييلاً، ولا شك أنهم ما آمنوا بالرسل حقيقة الإيمان.

الإيمان بالكتب عند الفلاسفة

الفلاسفة لا يعتقـدون أن لله تعـالى كلامـاً، ولا أن الله تعـالى يتكلم، ولا أن له صفات حقيقة ما دام أنهم يجعلون وجـوده وجـود في الأذهـان لا في الأعيـان؛ فإذاً ليس لله كلام عندهم، وهذا القرآن ليس هو كلامه، وإنما هو إما من نظم البشر وإما من تـــركيب الملك أو نحو ذلـــك، فليس لله عنـــدهم كتب منزلة متضمنة لشرع الله.

الإيمان بالملائكة عند الفلاسفة

الفلاسفة يؤمنون بأن هنـاك ملائكة ذات أرواح يصـعدون ويـنزلون ويسـمعون ويتكلمون ويحملـون الـوحي، لا يؤمنـون بـذلك. وعنـدهم أن الـروح الـتي في الإنسـان عبـارة عن حيـاة عامة في هـذا الكـون، إذا اتصـلت بـالمخلوق حس بالحيـاة، وإذا انفصـلت عنه انتقل إلى الوفـاة، هـذه حقيقة الـروح عنـدهم.

وعنــدهم أن الملائكة ليس لهم حقيقة وجــود، وليس لهم أجنحة يصــعدون بها وينزلون، فإذاً ليس للملائكة عندهم وجود.

الإيمان باليوم الآخر عند الفلاسفة

الفلاســفة لا يؤمنــون بــاليوم الآخــر، وعنــدهم أنه لا حقيقة للبعث، ولا حقيقة لانقضــاء الــدنيا، بل من معتقــدهم أنه ليس هنــاك بعث ولا نشــور، ولا حيــاة للأجساد، ولا جمع لها بعد أن تتفتت، ولا إعادة للأرواح إليهــا، وليس هنــاك جنة ولا نار يثاب بهذه ويعاقب بهذه، بل ليس عنــدهم مبــدأ، والعــالم هــذا لم يــزل موجــوداً منذ القــدم، ولم يســبق بعــدم، ويكــذبون بخلق آدم، ويقولــون: ليس هناك شخص اســمه آدم خلق من تــراب، بل هــذا الخلق وهــذا الوجــود وهــذه الأرض قديمة ما ســبقت بعــدم، هــذه عقائد الفلاســفة، فهم كــذبوا خــبر الله تعالى، وكذبوا أخبار الرسل وكذبوا ما جــاءت بــه، فخــالفهم بــذلك أهل الســنة وأقروا بها على ما جاءت به، وأخذوا تفاصــيلها عن الرسل الــذين جــاءوا بهــذه الشرائع وقبلوها كما جاءت، وصاروا بذلك أحق باتباع الرسل.

أصول الدين وأركانه عند المعتزلة

قال الشارح رحمه الله: [وقد أبدلتها المعتزلة بأصولهم الخمسة الــتي هــدموا بها كثيراً من الــدين، فــإنهم بنــوا أصل دينهم على الجسم والعــرض، الــذي هو الموصــوف والصــفة عنــدهم، واحتجــوا بالصــفات -الــتي هي الأعــراض- على حدوث الموصــوف الــذي هو الجســم، وتكلمــوا في التوحيد على هــذا الأصــل، فنفوا عن الله كل صفة، تشــبيهاً بالصــفات الموجــودة في الموصــوفات الــتي هي الأجســام، ثم تكلمــوا بعد ذلك في أفعاله الــتي هي القــدر، وســموا ذلــك: العدل. ثم تكلموا في النبوة والشــرائع، والأمر والنهي، والوعد والوعيــد، وهي مســائل الأســماء والأحكــام، الــتي هي المنزلة بين المنزلــتين، ومســألة إنفــاذ الوعيد. ثم تكلموا في إلزام الغير بذلك، الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنوه جواز الخروج على الأئمة بالقتــال. فهــذه أصــولهم الخمســة، التي وضعوها بإزاء أصــول الــدين الخمسة الــتي بعث بها الرســول. والرافضة المتأخرون، جعلوا الأصول أربعة: التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة. وأصــول أهل الســنة تابعة لما جــاء به الرســول. وأصل الــدين: الإيمــان بما جــاء به

الرسول، كما تقدم بيان ذلك، ولهذا كانت الآيتان من آخر سـورة البقـرة - لما تضمنتا هذا الأصل - لهما شأن عظيم ليس لغيرهما، ففي الصـحيحين عن أبي مسعود عقبة بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قرأ الآيـتين من آخر سـورة البقـرة في ليلة كفتـاه) وفي صـحيح مسـلم عن ابن عبـاس رضي الله عنهمـا، قـال: (بينا جبريل قاعد عند النـبي صـلى الله عليه وسـلم سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم يـنزل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلـك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقـرة، لن تقـرأ بحـرف منهما إلا أوتيتـه) ، وقـال أبو طالب المكي : أركان الإيمان سـبعة، يعـني هـذه الخمسـة، والإيمـان بالقـدر، والإيمــان بالجنة والنــار. وهــذا حــق، والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعيــة. وقد تقــدمت الإشــارة إلى دليل التوحيد والرســالة]. لما ذكر الشــارح تــأويلات الفلاسـفة لأركـان الإيمـان السـتة، ذكر بعد ذلك أركـان الـدين عند المعتزلـة. المعتزلة يتسمون بأنهم مسلمون، ويـدعون أن الحق بجـانبهم، ولهم مؤلفـات ولهم كتب على مذهبهم ومعتقـدهم، وجـدوا وكـثروا في القـرن الثـالث،ولكن تمكنـوا بقـوة وسـيطروا على أكـثر الأمة في القـرن الرابع وما بعـده، وأصـبح وجود أهل السنة قليلاً في تلك القرون. أركان الدين عندهم خمسة: يسمونها بأسـماء حسـنة: التوحيـد، والعـدل، والمنزلة بين المنزلـتين، وإنفـاذ الوعيـد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ما أحسـنها من أسـماء! ولكن محتوياتها وما تتضمنه وما تفسر به فيها الشر، فما المراد بهذه الأصول عندهم؟ ......

التوحيد عند المعتزلة

التوحيد عند المعتزلة هو نفي الصفات، يقولون: إذا أثبتنا سمعاً وبصراً وقدرة وعلمـاً ورحمة ومحبة ويـداً ووجهـاً وعلـواً ونـزولاً، وما أشـبه ذلـك؛ لم نثبت واحداً بل أثبتنا عـدداً فلا نكـون موحـدين، الموحد هو الـذي يثبت واحـداً، وهو اللـه، ولا يجعل له صـفات، فـإن الصـفات تكـون زائـدة عن الـذات عنـدهم. ويقولون: إن القدم لله وحده، ولو كانت الصفات قديمة لكان القـدماء عـدداً، وهـذا من شـبههم. والجـواب: أن الصـفة من الموصـوف، ولا يلـزم من إثباتها تعدد، فأنت تقول: جاءني رجل، وهو واحد، ولا تعدد فيه. ولا تقول: جاءني زيد ورجله ويده ورأسه وبطنه وظهـره وروحـه، ونفسـه، ما تقـول ذلـك، هو رجل واحد، فما دام أن الصفة تابعة للموصوف، فلا يلزم من إثبات الصـفات إثبـات العدد، فبطلت بـذلك شـبهتهم في إنكـارهم للصـفات، وزعمهم أن إنكارها هو التوحيد.

العدل عند المعتزلة

العـدل عند المعتزلة هو إنكـار القـدرة العامـة، يقولـون: إن الله لا يقـدر على خلق أفعال العباد، كيف يخلقها ثم يعذب العصاة، ويثيب المطيعين، وهو الـذي خلق حركات هـؤلاء وحركـات هـؤلاء. وقد تقـدم الكلام على القـدر وذكرنا أن الله هو الــذي خلق أفعــال العبــاد، ولكنه ســبحانه مع خلقه للعبد وعمله قد أعطى العبــاد قــدرة خاصــة، يتمكنــون بها من مزاولة أعمــالهم، وبها تنسب إليهم، فيقال: هذا هو المؤمن، وهذا هو الكافر، وهذا هو البر، وهذا هو الفاجر، وهذا هو المصلي، وهذا هو التارك للصلاة، وهذا هو المزكي، وهذا هو البخيـل، تنسب لهم أعمالهم، ويثابون على حسـنها، ويعـاقبون على سـيئها، وإن كـانت مخلوقـةً لله تعـالى. أما المعتزلة فيقولـون: إذا أثبتنا أن الله هو الـذي خلقها فكيف يعـذب عليهـا؟! بل ننفي خلقها ونقـول: لم يخلقها اللـه، ولا يقـدر الله على ذلـك، وليس لله قـدرة على أفعـال العبـاد، وليس الله عنـدهم على كل شـيء قـدير، وقـدرة العبد عنـدهم تغلب قـدرة اللـه، تعـالى الله عن قـولهم، وعنـدهم أنه لا يقـدر أن يهـدي من يشـاء، ولا يضل من يشـاء، ولا يعطي من يشاء، ولا يمنع من يشاء، كل هذا عندهم يسمونه عدلاً، هذا معتقد باطل.

المنزلة بين المنزلتين عند المعتزلة

الأصل الثالث عند المعتزلة هو: المنزلة بين المنزلتين، ومـاذا يريـدون بـذلك؟ يتعلق هذا بأسماء الأحكـام والـدين، عند أهل السـنة أن المـؤمن لا يخـرج من الإيمان بالذنوب، ولا يدخل في الكفر، بل يقال للمذنب: مؤمن عـاصٍ، ويقـال له: فاسق، ويقال له: مؤمن بإيمانـه، وفاسق بكبيرتـه، ولا نخرجه من الإيمـان كلياً، ولا ندخله في الكفر، ولا نحكم عليه بالنار، ولا نستحل قتله ولا قتالـه، ولا أخذ ماله، ولا سفك دمه؛ لأن معه الأصل الأصيل الذي هو الإيمان بالله وحده، ولو صـدر منه ما صـدر. أما المعتزلة فـإنهم يخرجونه من الإيمـان ولا يدخلونه في الكفـر، يجعلونه في منزلة بينهمـا، فيقولـون: ليس بمـؤمن وليس بكـافر، (ليس بمـؤمن) بمعـنى: أننا لا نعامله معاملة المـؤمن حـتى ولو كـان يصـلي ويـــزكي، ما دام أنه مثلاً يأكل الربا أو يـــزني أو يشـــرب الخمر أو يكــذب وما أشـبه ذلـك، يخرجونه من الإيمـان ولا يدخلونه في الكفـر، يجعلونه في منزلة بينهمــا، لو أدخلــوه في الكفر لاســتحلوا ســفك دمــه، ولاســتحلوا أخذ مالــه، ولاستحلوا سـبي نسـائه، لكنهم لا يفعلـون ذلك بل يجعلونه في منزلة بينهمـا، وهذه المنزلة مبتدعة، أهل السنة يقولون: إنه لا يخرج بذلك من الإيمان والله سبحانه وتعالى إذا شاء عفا عنه، وإذا شاء عذبه.

إنفاذ الوعيد عند المعتزلة

الأصل الرابع عند المعتزلة هــو: إنفــاذ الوعيــد، وما أدراك ما إنفــاذ الوعيــد؟ الوعيد عندهم هو ما توعد الله به على الكبائر، يقولـون: الله لا يخلف وعيـده، ولابد أن تقع تلك العقوبات الـتي رتبت على تلك الـذنوب والكبـائر، فيخلـدون أصحاب الكبائر في النار، ويكذبون بقول الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ [النساء:48]ويقولون: صـاحب الكبـيرة مخلد في النار، وهذه الطريقة أخذوها من الخوارج، الخوارج امتازوا بـأنهم يخرجونه من الإيمان وأنهم يستحلون دمه وماله وسـبيه، وأما المعتزلة فـإنهم يخرجونه من الإيمــان ولا يدخلونه في الكفــر، ولا يعاملونه في الــدنيا معاملة الكفــار، ولكن في الآخرة الخوارج والمعتزلة متفقون على أنه مخلد في النار لا يخــرج منها. وعقيدة أهل السنة أنهم يجعلون أصحاب الكبـائر تحت مشـيئة اللـه، إذا شاء الله غفر لهم وأدخلهم الجنـة، وإذا شـاء أدخلهم النـار بقـدر سـيئاتهم، ثم أخرجــوا من النــار بإيمــانهم وبعقيــدتهم وبتوحيــدهم، يخرجــون منها بعــدما امتحشوا صاروا فحماً أو حمماً، ويلقون في نهر الحياة، وينبتـون فيه كما تنبت الحبة في حميل السيل، وكل ذلك مذكور في الأحاديث النبوية الصحيحة.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند المعتزلة

من أصــول المعتزلــة: الأمر بــالمعروف والنهي عن المنكــر، ويضــمنون ذلك الخـروج على الأئمـة، فيقولـون: إذا عصى إمـام المسـلمين العـام وأصر على معصية حـتى ولو كـانت صـغيرة لم نقـره، بل نخـرج عليه ونقاتلـه، ويسـمون ذلك: أمراً بالمعروف ونهيـاً عن المنكـر. وأهل السـنة يقولـون: لا نكفر الأئمة بذنب، ولا نخرج عن طاعتهم ما لم نر كفراً بواحاً، كما أمرنا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، هذه أصول الإسلام وأركان الدين عند المعتزلة.

أصول الدين وأركانه عند الرافضة

الرافضة أصــولهم أربعــة: التوحيد والعــدل -وهما كما تقــدم عند المعتزلــة- والإمامة -وهي أصل من أصــولهم- والرســالة. أما الإمامة فهي عنـــدهم من أقـوى أركـان دينهم، والـذي لا يـؤمن بالإمامة لأهل الـبيت لا يكـون مؤمنـاً ولا مسلماً، ولا يقبل منه إسلام ولا دين ولا أعمال صـالحة. ويجعلـون الأئمة اثـني عشــر، وليس لهم أئمة إلى هــذا اليــوم؛ لأن الإمامة عنــدهم قد انقطعت منذ سنة مائتين وخمسين للهجرة، ليس لهم إمام، إمـامهم الثـاني عشر ينتظرونه إلى اليوم، ويسمونه: المهدي المنتظر الذي دخل ســرداب ســامراء، وفي كل ليلة يوقفون فرساً عند طرف ذلك السرداب في ذلك النهر، ويصيحون طوال ليلهم: اخرج يامولانا، اخرج يامولانا، ولا يجيبهم أحد طوال هــذه القــرون، هــذا معتقــدهم. الإمامة عنــدهم محصــورة في الأئمة الاثـني عشر من أهل الـبيت، يؤمنون بأنهم هم الأئمة، وأنه ليس للناس إمـام، وأنه لا تصح الصـلاة إلا خلف إمـام معصــوم، وأن صــلاتهم خلفنا لا تقبل أبــداً، وكـذلك صــلاتهم خلف غـير المعصوم. وعلى كل حـال فهي عقائد باطلة يعـرف بطلانها بمجـرد ســماعها. أما أهل الســنة فــإنهم يؤمنــون بــأن واجب المســلمين طاعة ولاة أمــورهم، والســمع لهم والطاعــة، والصــبر على ما يــرى منهم من المخالفــات أو من المعاصي، ما لم يروا كفراً بواحاً عندهم فيه من الله تعالى برهان، وعند ذلك يخرجون عن طواعيتهم ولا يدخلون في الديانة لهم. ......

فضل الآيتين من آخر سورة البقرة

الإيمــان بالملائكة والرسل ونحو ذلك مــذكور في أواخر ســورة البقــرة: آمَنَ الرَّسُـولُ بِمَا أُنـزِلَ إِلَيْـهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُـونَ كُـلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُـلِهِ لا نُفَـرِّقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مِنْ رُسُـلِهِ [البقــرة:285] هــذه أربعة من أركــان الإيمان ذكرها الله تعالى في هذه الآية. وهذه الآية في آخر سورة البقــرة ورد فيها فضل، مع الآية الـتي بعـدها، وفي الحـديث (من قرأهما في ليلة كفتـاه)، يعني: أصـبحت كافية له عن الأوراد، ومن سـأل الله بها أعطـاه؛ وذلك لأن الله تعالى أجاب الدعاء الذي ذكر فيها، إذا قـال العبـد: رَبَّنَا لا تُؤَاخِـذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا [البقرة:286] قـال اللـه: قد فعلت، وإذا قـال: رَبَّنَا وَلا تَحْمِـلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا [البقرة:286] قال الله: قد فعلت، وإذا قال: رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ [البقرة:286] قال اللــه: قد فعلت، إذا كمل الآية إلى قولـه: فَانصُـرْنَا عَلَى الْقَـوْمِ الْكَـافِرِينَ [البقـرة:286] قـال الله: قد فعلت، فيعتبر قـراءة هـاتين الآيـتين تجديـداً للإيمـان، وختمت سـورة البقرة بهذا الدعاء الذي ترجى إجابته إن شاء الله. ......

شرح العقيدة الطحاوية [37]

من المسائل التي تكلم عليها العلماء: مسألة التفضيل بين الملائكة والبشر، والمراد بالبشر الأنبياء وغيرهم من المؤمنين، وقد وردت أدلة كثيرة في هذه المسألة تدل على هذا وعلى هذا، وجمع بعض العلماء بأن الملائكة أفضل من البشر ابتداءً، وأن البشر أفضل منهم انتهاءً حينما يدخلون الجنة.

الإيمان بالملائكة وما يتضمنه

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأما الملائكة فهم الموكلون بالسماوات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً [النازعات:5].. فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً [الذاريات:4] وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم. وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها. ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته. ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغراسها وعمل آلاتها ملائكة. فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: المرسلات عرفاً، والناشرات نشراً، والفارقات فرقاً، والملقيات ذكراً. ومنهم: النازعات غرقاً، والناشطات نشطاً، والسابحات سبحاً، والسابقات سبقاً. ومنهم: الصافات صفاً، والزاجرات زجراً، والتاليات ذكراً. ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله: الفرق والطوائف والجماعات، التي مفردها: (فرقة) و(طائفة) و(جماعة). ومنهم: ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السماوات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله تعالى. ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره: لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ [الأنبياء:27-28]، يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [النحل:50] فهم عباد مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، لا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به، لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ [الأنبياء:19-20]]. ......

حقيقة خلق الملائكة وذكر أسماء بعضهم في القرآن والسنة

ذكرنا أن من أركان الإيمـان: الإيمـان بالملائكـة، الملائكة واحـدهم ملَـك، بفتح اللام، هــذا النــوع خلق من خلق اللــه، وهم أرواح لا نــراهم، لا نشك بــأنهم يتجسدون وأنهم يصعدون ويـنزلون، وأنهم يتصـلون بالإنسـان ويتكلمـون، وأن الملك يتمثل إنساناً ويكلم النبي، وينزل عليه بـالوحي. وقد سـمى الله تعـالى منهم في القــرآن اثــنين كما في قوله تعــالى: مَنْ كَـانَ عَـدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَرُسُـلِهِ وَجِبْرِيـلَ وَمِيكَـالَ فَـإِنَّ اللَّهَ عَـدُوٌّ لِلْكَـافِرِينَ [البقـرة:98] سـمى الله جبريل وميكال، وجِبريل قرئ جبرائيل وجبريل وجَبريل، يعني: بعـدة قـراءات، وهو مسمى واحد، وذكر الله ملك الموت في قوله تعـالى: قُـلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَـكُ الْمَـوْتِ [السـجدة:11] وسـمي في بعض الروايـات بعزرائيـل، وسـمي في الحديث أيضاً ملك رابع وهو: إسرافيل، وسمي ملك خامس وهـو: مالـك، كما في قوله تعالى: وَنَادَوْا يَا مَالِـكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ [الزخـرف:77] ، وذكر الله في القـــرآن خزنة النـــار وخزنة الجنة كما في قوله تعـــالى: حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَـالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَـأْتِكُمْ رُسُـلٌ مِنْكُمْ [الزمـر:71] ، وفي الجنة: وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ [الزمـر:73] ، وفي قوله تعـالى: تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْـظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَـوْجٌ سَـأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا [الملـك:8] الخزنـة: هم الموكلـون بهـا، فالملائكة خلق من خلق الله تعـالى، لا يحصي عـددهم إلا الله تعالى، لما نزل قول الله تعالى في النار: عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ [المــدثر:30] قال المشركون: ما داموا تسعة عشر فنحن أكثر منهم؛ سنغلبهم، فـأنزل الله قوله تعـالى: وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَـةً [المـدثر:31] إلى قولـه: وَمَا يَعْلَمُ جُنُـودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُـوَ [المـدثر:31] أي: جنـوده الـذين هم الملائكة لا يعلم عـددهم إلا هـو، وورد في الحـديث: (أطت السـماء وحق لها أن تئـط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك قائم أو ملك راكع أو ساجد).

الأعمال التي أوكلت إلى الملائكة من قبل الله

الملائكة خلق الله تعالى، وقد سمعنا في كلام الشارح بعضاً من صــفاتهم وما وكلوا بـه، الموكلـون بـالقطر يعـني: بـالمطر وتصـريفه والسـحب وتصـريفها، وكذلك الموكلون بحفظ بني آدم كما في قول الله تعالى: لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْـرِ اللَّهِ [الرعـد:11] وكـذلك الموكلـون بحفظ الأعمال كما في قوله تعالى: مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيــدٌ [ق:18]، وفي قوله تعـالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـافِظِينَ * كِرَامـاً كَـاتِبِينَ [الانفطـار:10-11] وكذلك الذين ينزلون بـالوحي ذكـروا في قوله تعـالى: بِأَيْـدِي سَـفَرَةٍ * كِـرَامٍ بَرَرَةٍ [عبس:15-16] وصفهم بأنهم سفرة يعني: بأنهم وســطاء بين الله وبين

رسـله، وأنهم كـرام، وأنهم بـررة، وكـذلك أقسم الله بهم في قوله تعـالى: وَالصَّـافَّاتِ صَـفّاً [الصـافات:1] يعـني: الملائكة الـذين يصـفون صـفوفاً فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً [الصافات:2] الـذين يزجـرون السـحب ونحوهـا، فَالتَّالِيَـاتِ ذِكْراً [الصافات:3] الـذين يتلـون كلام الله ويـذكرون الله تعـالى بـه. وقولـه: وَالْمُرْسَـلاتِ عُرْفـاً [المرسـلات:1]، هم الـذين يرسـلهم الله تعـالى ليعرفـوا عباده، والآيات التي بعدها، وقوله: وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً [النازعات:1]، النازعـات: هي الـتي تـنزع أرواح الكفـار نزعـاً شـديداً يعـني: عند المـوت، وهم ملائكة العـذاب، والناشـطات: هي الـتي تنشط أرواح المؤمـنين عند المـوت نشـطاً، وهكذا في الآيات التي بعدها، لا شك أن هذه ألقـاب تـبين أنواعـاً من الملائكة هذه أعمـالهم، فنصـدق بهم وإن لم نر الملائكـة، ولكن نصـدق أنهم خلق الله تعـالى، كما أننا نصـدق بـالجن وبـأنهم يـدخلون في الإنس ويـداخلونهم، وأنهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها، وإن لم نر الجن، وإن كذب بهم من كذب وقال: الجن لو كانوا موجودين لرأيناهم بالمجهر، نقول: إنهم لا يـرون، فـإنهم بمنزلة شعاع النور الذي يشع من هذه الأنـوار ونحوها وليس لهم جـرم، ولكن يخرقهم البصـر، فليس لهم جسد حقيقي حـتى ينعكس وحـتى يكـبره المكـبر وحتى يراه البصر، فالملائكة والجن والشياطين أرواح ليس لهم أجسـاد تقـوم بها، الإنسان مركب من روح وجسد، فإذا خرجت الـروح بـالموت فإننا لا نـرى الـروح تخـرج وتفـارق جسـدها، بل يبقى الجسد ليس فيه هـذه الـروح الـتي تحركه، فإذا أراد الله تعـالى إحيـاءه جمع الجسد مـرة ثانية وأعـاد إليه الـروح فعـاش وحـيي، فنقـول: إن الـروح الـتي يحيا بها الجسد لا يعلم كيفيتهـا، قـال تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [الإسـراء:85] فـالأرواح الـتي ليست لها أجسـاد تعيش وتتقلب وتـذهب وتجيء وهي خفيفة الحركة كالملائكة وكـالجن الـذين ذكر الله تعـالى أنهم يصـلون إلى السـماء كما في قوله تعـالى: وَأَنَّا لَمَسْـنَا السَّـمَاءَ [الجن:8] فلا يستغرب أن تكون الملائكة يصـعدون إلى السـماء في طرفة عين، ويقطعـون المسـافات الطويلة في لحظـة؛ وذلك لخفة أجسـادهم؛ ولأن الله تعـالى أعطاهم من القدرة على الصعود وعلى قطع المسافات ما لم يعطه الإنسـان في أية حال، فعلى المسلم أن يصدق بمثل هـذه الأمـور وإن كـان لم يـدركها ببصره؛ وذلك لإخبـار الله عنها وهو الصـادق المصـدوق: وَمَنْ أَصْـدَقُ مِنْ اللَّهِ قِيلاً [النساء:122].

صفات الملائكة في القرآن

مر بنا أن من أركان الإيمان: الإيمان بالملائكة، والإيمـان بما أخـبر الله تعـالى عنهم في كتابه حيث وصفهم بقوله: بَلْ عِبَـادٌ مُكْرَمُـونَ * لا يَسْـبِقُونَهُ بِـالْقَوْلِ

وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [الأنبياء:26-27]، وبقوله: لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ [الأنبياء:19-20]، وبقوله: لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ [الأعراف:206]، ونحو ذلك من الآيات التي مدحهم بها، وكذلك الإيمان بمن سمي منهم، والإيمان بأعمالهم التي أسندت إليهم، والإيمان بما نقل من أوصافهم وأخبارهم، وهذا يدخل في الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب يعم كل شيء غائب عنا، أخبرنا الله به خبراً يقينياً يلزمنا أن نصدق به كما وصف لنا، وليس لنا أن نتكلف أكثر من ذلك. معلوم أن الملائكة لا يمكننا رؤيتهم فهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها، والذي خلق الأجساد خلق الأرواح، ومعلوم أن لهم أجساماً خفيفة علوية نورانية حية متحركة تسمع وتعقل، وتمتثل، وتركع، وتسجد، وتأتمر بأمر الله، وتقطع المسافات الطويلة الشاسعة في زمن قصير، وكل ذلك بقدرة الله الذي أقدرهم على ذلك كله.

المفاضلة بين البشر والملائكة

قال المصنف رحمه الله: [ومنه: قوله تعالى: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [ص:75]. قال الآخرون: هذا دليل الفضل لا الأفضلية، وإلا لزم تفضيله على محمد صلى الله عليه وسلم، فإن قلتم: هو من ذريته؟ فمن ذريته البر والفاجر، بل يوم القيامة إذا قيل لآدم: (ابعث من ذريتك بعثاً إلى النار)، (يبعث من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحداً إلى الجنة). فما بال هذا التفضيل سرى إلى هذا الواحد من الألف فقط؟! ومنه: قول عبد الله بن سلام رضي الله عنه: (ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم). الحديث، فالشأن في ثبوته وإن صح عنه، فالشأن في ثبوته في نفسه، فإنه يحتمل أن يكون من الإسرائيليات. ومنه: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك، ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة؟ قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن فكان) أخرجه الطبراني، وأخرجه عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل عن عروة بن رويم أنه قال: أخبرني الأنصاري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن الملائكة قالوا...)، الحديث، وفيه: (وينامون ويستريحون، فقال الله تعالى: لا، فأعادوا القول ثلاث مرات، كل ذلك يقول: لا). والشأن في ثبوتهما، فإن في سندهما مقالاً، وفي متنهما شيئاً، فكيف يظن بالملائكة الاعتراض على الله مرات عديدة؟ وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم: لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [الأنبياء:27] وهل يظن بهم أنهم متبرمون بأحوالهم، متشوفون إلى

ما سـواها من شـهوات بـني آدم؟ والنـوم أخو المـوت، فكيف يغبطـونهم بـه؟ وكيف يظن بهم أنهم يغبطـونهم بـاللهو، وهو من الباطـل؟ قـالوا: بل الأمر بـالعكس، فـإن إبليس إنما وسـوس إلى آدم ودلاه بغـرور، إذ أطمعه في أن يكـون ملكـاً بقولـه: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّـجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ [الأعراف:20]، فدل أن أفضلية الملك أمر معلوم مستقر في الفطرة، يشهد لذلك قوله تعالى حكاية عن النسـوة اللاتي قطعن أيـديهن عند رؤية يوسف: وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ [يوسف: 31]،وقال تعالى: قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُـولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ [الأنعام:50]. قال الأولون: إن هذا إنما كـان لما هو مركـوز في النفس: أن الملائكة خلق جميل عظيم، مقتدر على الأفعال الهائلـة، خصوصـاً العرب، فإن الملائكة كانوا في نفوسهم من العظمة بحيث قـالوا: إن الملائكة بنـات اللـه، تعـالى الله عن قـولهم علـواً كبـيراً. ومنه قوله تعـالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَـالَمِينَ [آل عمـران:33]. قال الآخرون: قد يـذكر العـالمون، ولا يقصد به العمـوم المطلـق، بل في كل مكان بحسبه، كما في قوله تعالى: لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً [الفرقان:1]، قَـالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ الْعَالَمِينَ [الحجر:70]، أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنْ الْعَالَمِينَ [الشعراء: 165]. وَلَقَـدْ اخْتَرْنَـاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَـالَمِينَ [الـدخان:32]]. هـذه بعض الأدلة الـتي يفاضـلون بها بين الملائكة وبين صـالحي البشـر، فـإن الآية وهي قوله في سورة (ص) مخاطباً لإبليس: قَـالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَـكَ أَنْ تَسْـجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [ص:75] فيها تفضيل آدم، وقد تقدم في أول الكلام أنهم فضـلوا آدم حيث إنه سـجد له الملائكـة، قـالوا: والمسـجود له أفضل من السـاجد، وأجيب بـأن السـجود امتثـال لأمر الله تعـالى لا أنه لسـجودهم لآدم، وإنما هو تعظيم لله وطواعية لـه، فـإبليس لما امتنع من السـجود له اعتـبر عاصـياً لله ولم يعتـبر عاصـياً لآدم، ولكنه تكـبر حيث قـال: أَأَسْـجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينـاً [الإسراء:61] أو قال: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [الأعراف: 12] فالله تعالى قال له: قَـالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَـكَ أَنْ تَسْـجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَـدَيَّ [ص:75] أي: لآدم الـذي خلقت بيـدي، وهـذا تفضـيل لآدم، ولكن ما يلـزم أن يكـون أفضل من الملائكـة، ولو لـزم لكـان أفضل من محمد صـلى الله عليه وسلم، مع الإجمـاع أن محمـداً أفضل البشر وهو خـير البريـة، وإذا قـالوا: إن محمداً من ذرية آدم وإنما شرف بشرف أبيـه، فـالجواب: أنه قد أخـبر أن من ذريته الصالح وغـير الصـالح، وإذا كـان ذلك فلا يلـزم في الآية تفضـيل. وقوله تعالى للملائكة في الحديث: (لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيـدي كمن قلت: له كن فكان) فهذا الحديث فيه ضعف، وفيه اعتراض الملائكة على الله تعالى وتمنيهم أن تكون لهم الآخرة ولبني آدم الدنيا، يأكلون فيها ويتمتعون وينـامون وينكحـون ويتصـرفون، فهم يقولـون: ما دام أنك جعلت لهم الـدنيا فاجعل لنا الآخـرة، فلا يظن بالملائكة أنهم يتمنـون أعمـال الـدنيا، ولا يظن بهم أنهم يعترضون على الله مع طواعيتهم لـه، وامتثـالهم لأمـره، ومع أن الله وصـفهم بأنهم لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسـرون، وبـذلك يعلم بـأن هـذا لا يليق بمقـام الملائكـة. وأما ما اسـتدل به من فضل الملائكة من قصة يوسف في

قول النسوة: مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ [يوسف:31] فإنه يفهم منه أن الملك أفضل من البشر، ولكن لا يلزم ذلك، حيث إنه لما رأينه في تلك الحال وهو في غاية الجمال، كان مغروساً في فطرهم أن الملك له هيئة ليست كهيئة البشر. وكذلك ما حكى الله عن نوح أنه قال: وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمْ اللَّهُ خَيْراً [هود:31] وما أشبه ذلك لا يدل أيضاً على أن الملك أفضل؛ وذلك لأن العرب كانوا يعتقدون أن للملائكة منزلة أرفع من منزلتهم؛ فلذلك كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله،يعني: من قربهم منه، ولذلك أنكر الله تعالى عليهم بقوله: أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ [الصافات:153]، وبقوله: أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ [الطور:39] وما أشبه ذلك. وعلى كل حال: هذه الأدلة ونحوها ليست دليلاً واضحاً في تفضيل الملك ولا في تفضيل البشر، والصحيح أن التفاضل بينهم كالتفاضل بين البشر إنما هو بالأعمال والقربات. ......

من أدلة التفضيل بين البشر وبين الملائكة

قال الشارح رحمه الله: [ومنه قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ [البينة:7]، والبرية: مشتقة من البرء، بمعنى: الخلق، فثبت أن صالحي البشر خير الخلق. وقال الآخرون: إنما صاروا خير البرية؛ لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات، والملائكة في هذا الوصف أكمل، فإنهم لا يسأمون ولا يفترون، فلا يلزم أن يكونوا خيراً من الملائكة، هذا على قراءة من قرأ (البريئة)، بالهمز، وعلى قراءة من قرأ بالياء، إن قلنا: إنها مخففة من الهمزة، وإن قلنا: إنها نسبة إلى البري وهو التراب، كما قاله الفراء فيما نقله عنه الجوهري في الصحاح؛ يكون المعنى: أنهم خير من خلق من التراب، فلا عموم فيها -إذاً- لغير من خلق من التراب. قال الأولون: إنما تكلمنا في تفضيل صالحي البشر إذا كملوا، ووصلوا إلى غايتهم، وأقصى نهايتهم، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة، ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلى، وحباهم الرحمن بمزيد قربه، وتجلى لهم ليستمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم. قال الآخرون: الشأن في أنهم هل صاروا إلى حالة يفوقون فيها الملائكة أو يساوونهم فيها؟ فإن كان قد ثبت أنهم يصيرون إلى حال يفوقون فيها الملائكة، سلم المدعى، وإلا فلا. ومما استدل به على تفضيل الملائكة على البشر: قوله تعالى: لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ [النساء:172] وقد ثبت من طريق اللغة أن مثل هذا الكلام يدل على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه، لأنه لا يجوز أن يقال: لن يستنكف الوزير أن يكون خادماً للملك، ولا الشرطي أو الحارس! وإنما يقال: لن يستنكف الشرطي أن يكون خادماً للملك ولا الوزير، ففي مثل هذا التركيب يترقى من الأدنى إلى الأعلى، فإذا ثبت تفضيلهم على عيسى عليه السلام ثبت في حق غيره، إذ لم يقل أحد إنهم أفضل من بعض الأنبياء دون

بعض. أجاب الآخرون بأجوبة أحسنها أو من أحسنها: أنه لا نزاع في فضل قوة الملك وقدرته وشـــدته وعظم خلقـــه، وفي العبودية خضـــوع وذل وانقيـــاد، وعيسى عليه السـلام لا يسـتنكف عنها ولا من هو أقـدر منه وأقـوى وأعظم خلقاً، ولا يلـزم من مثل هـذا الـتركيب الأفضـلية المطلقة من كل وجـه. ومنه قوله تعالى: قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَـزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُـولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ [الأنعام:50]، ومثل هذا يقال بمعنى: إني لو قلت ذلك، لادعيت فوق منزلتي، ولست ممن يدعي ذلك. أجاب الآخـرون: إن الكفـار كـانوا قد قـالوا: مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِـي فِي الأَسْـوَاقِ [الفرقـان:7]. فـأمر أن يقــول لهم: إني بشر مثلكم أحتــاج إلى ما يحتــاج إليه البشر من الاكتســاب والأكل والشــــرب، لست من الملائكة الـــــذين لم يجعل الله لهم حاجة إلى الطعـام والشـراب، فلا يلـزم حينئذ الأفضـلية المطلقـة]. هـذه الأدلة سـاقها الشارح للاستدال في مسألة التفضـيل بين البشر والملـك، فقوله تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْـرُ الْبَرِيَّةِ [البينـة:7] هل المـراد الإنس الـــذين هم البشر خـــير البرية أو الخلق المؤمنـــون من الملائكة ومن الإنس ومن الجن خـير البريــة؟ الصـحيح أن الآية على عمومهـا، يـدخل فيها الملائكة ويدخل فيها الجن المؤمنون، ويدخل فيها الإنس المؤمنـون، فكل من آمن وعمل صـالحاً من الإنس والجن والملائكة فهو من خـير البرية أي: خـير الخليقة، ويدخل في الخليقة جميع المخلوقـات، يـدخل فيها حـتى الشـياطين، ويــدخل فيها الجمــاد، ويــدخل فيها الحيــوان، ويــدخل فيها الأفلاك الســائرة والأفلاك الثابتة ونحوها، كلها من البرية، الـبرء: الخلـق، وعلى هـذا الآية عامة في كل مؤمن عامل للصالحات من الملائكة والبشر فهو من خير البرية. روي أن رجلاً جاء إلى النبي صـلى الله عليه وسـلم فقـال: (يا خـير البريـة! فقـال النبي صلى الله عليه وسلم تواضعاً: ذاك إبراهيم) يعني: الخليل عليه السـلام، قاله من باب التواضع لله تعالى وإلا فهو خـير البريـة، وكأنه لا يحب أن يكـون هنـاك مفاضـلة بين الأنبيـاء؛ حـتى لا يكـون في ذلك شـيء من التنقص لبعض الأنبيــاء أو الازدراء والاحتقــار لهم، أو تعصب أتبــاعهم أو نحو ذلــك. وأما الآية الثانية الـتي اسـتدل بها من فضل الملائكة وهي قوله تعــالى: لَنْ يَسْـتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُـونَ [النسـاء:172] فالاسـتدلال بها حيث وصف الملائكة بالقرب، والملائكة كلهم مقربــون؛ لأنهم عند الله كما أخبر بذلك في قوله: إِنَّ الَّذِينَ عِنْـدَ رَبِّكَ لا يَسْـتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِـهِ وَيُسَـبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ [الأعراف:206] فَـإِنْ اسْـتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْـدَ رَبِّكَ يُسَـبِّحُونَ لَـهُ بِاللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ وَهُمْ لا يَسْـأَمُونَ [فصــلت:38] وعلى كل حـال فالله وصف الملائكة بأنهم عنده، فالتقريب في حقهم تقـريب ذاتي، هم مقربـون إلى الله حساً ومقربـون عند الله معـنى، ولكن الصـحيح أن كل من اتقى الله وآمن به فإنه من المقربين.

تكفــير المعين من أخطر المســائل الــتي يجب التــورع فيهــا، وقد زل فيها الخـوارج قـديماً وحـديثاً، ومن عقيـدة أهل السـنة عـدم التكفـير بالـذنب، ولا الحكم على المعين بنار ولا جنة.

التكفير بالذنب

قال المصنف رحمه الله: [قولـه: (ولا نكفر أحـداً من أهل القبلة بـذنب ما لم يستحله، ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله). أراد بأهل القبلة الذين تقدم ذكرهم في قولـه: (ونسـمي أهل قبلتنا مسـلمين مؤمـنين، ما دامـوا بما جــاء به النــبي صــلى الله عليه وســلم معــترفين، وله بكل ما قــال وأخــبر مصدقين) يشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام إلى الرد على الخوارج القــائلين بالتكفير بكل ذنب. واعلم رحمك الله وإيانا أن باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والمحنة فيه، وكـثر فيه الافـتراق، وتشـتت فيه الأهـواء والآراء، وتعارضت فيه دلائلهم، فالنـاس فيه -في جنس تكفـير أهل المقـالات والعقائد الفاســدة، المخالفة للحق الــذي بعث الله به رســوله في نفس الأمــر، أو المخالفة لذلك في اعتقـادهم- على طـرفين ووسـط، من جنس الاختلاف في تكفير أهل الكبائر العملية. فطائفة تقول: لا نكفر من أهل القبلة أحداً، فتنفي التكفير نفياً عاماً، مع العلم بأن في أهل القبلة المنافقين، الذين فيهم من هو أكفر من اليهـود والنصـارى بالكتـاب والسـنة والإجمـاع، وفيهم من قد يُظهر بعض ذلك حيث يمكنهم، وهم يتظــاهرون بالشــهادتين. وأيضــاً: فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة، والمحرمات الظاهرة المتواترة ونحو ذلك؛ فإنه يستتاب، فإن تـاب وإلا قُتل كـافراً مرتـداً. والنفاق والردة مظنتهما البـدع والفجـور، كما ذكـره الخلال في كتـاب السـنة بسنده إلى محمد بن سـيرين أنه قـال: (إن أسـرع النـاس ردة أهل الأهـواء)، وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَـأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ [الأنعام:68]. ولهذا امتنع كثـير من الأئمة عن إطلاق القول: بأنا لا نكفر أحداً بذنب، بل يقال: لا نكفـرهم بكل ذنب، كما تفعله الخوارج، وفرق بين النفي العـام ونفي العمـوم، والـواجب إنما هو نفي العموم مناقضة لقول الخـوارج الـذين يكفـرون بكل ذنب. ولهـذا -والله أعلم- قيده الشيخ رحمه الله بقولـه: (ما لم يسـتحله). وفي قولـه: (ما لم يسـتحله) إشــارة إلى أن مــراده من هــذا النفي العــام لكل ذنب، الــذنوب العملية لا العلمية، وفيه إشكال، فإن الشارع لم يكتفِ من المكلف في العمليات بمجرد العمل دون العلم، ولا في العلميـات بمجـرد العلم دون العمــل، وليس العمل مقصوراً على عمل الجوارح، بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح، وأعمــال الجوارح تبع، إلا أن يُضمّن قوله: (يستحله) بمعـنى: يعتقـده أو نحو ذلـك]. من عقيدة أهل السنة أنهم لا يكفرون مـرتكب الكبـيرة بالـذنب، ولا يصل عنـدهم

إلى حد الكفر، ولكن هناك بدع توصل إلى حد الكفر، بدع محـدثات في الـدين وكبيرات وعظائم من عظائم المحدثات توصل إلى الكفر، وأما مطلق الذنوب ولو كانت كبائر، ولو كـان مصـراً عليهـا، فإنه لا يكفر بهـا، فلا يكفر ما دام أنه يعـترف أنها ذنـوب وأنها محرمـة، إذا أكل الربا وهو يعتقد أنه محـرم، أو فعل الزنا وهو يعــترف أنه ذنب وحــرام، أو شــرب الخمر مع اعترافه بتحريمهــا، وكذلك غيرها من الـذنوب لا يصل إلى حد الكفـر، إلا إذا اعتقد حلها فإنه يكفر بذلك، فإنه يكفر مستحل الذنب المحرم ولو لم يفعله. المخـالف في هـذا هم الخوارج الذين يجعلـون الـذنب كفـراً، والعفو ذنبـاً، والمعتزلة الـذين يجعلـون أصحاب الكبائر غـير مسـلمين ولا مؤمـنين ولا كـافرين، يجعلـونهم بمنزلة بين الكفر والإيمان، وهم أصحاب المنزلة بين المنزلـتين، أما أهل السـنة فـإنهم لا يكفرون بالذنوب. ......

الآثار الدالة على خطورة التكفير

وردت أدلة في خطر التكفـير منهـا: قوله صـلى الله عليه وسـلم: (من قـال لأخيه: يا كافر أو قال: عدو الله، وليس كذلك، إلا حار عليـه) يعـني: رجع عليه التكفير، وهذا وعيد شديد. وكذلك: (ذكر النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني إسرائيل مر على صاحب له يعمل ذنباً فقال: والله لا يغفر الله لك، فقال الله تعالى: من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك)، يقول الراوي: (قال كلمة أحبطت دنياه وآخرته). هذه تدل الآثـار على خطر التكفير.

إطلاق الكفر على ذنوب لا تخرج من الملة

هنـاك ذنـوب أطلق عليها كفـر، ولكن يقـول العلمـاء: إنه كفر دون كفـر، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفـر) فـإن الكفر هنا هو كفر أصغر لا يصل إلى الإخراج من الملة، وكذلك قوله صـلى الله عليه وسلم: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) المراد هنا: كفران النعمة أو كفر دون كفر، وهكذا قوله صلى الله عليه وسلم: (اثنتان في الناس هما بهم كفـر: الطعن في الأنسـاب والنياحـة) يقولـون: إنه كفر للنعمة لا أنه الكفر المــبيح للــدم والمــال؛ لأن الطعن في النسب إنما هو عيب الإنســان والطعن في نســبه بأنه ليس ابن فلان أو ليس من آل فلان، وهو ذنب لا يصل إلى الكفر الذي يخرج من الملة، وكذلك النياحة على الميت لا توصل صــاحبها

إلى أن يخرج من الملة ويستباح دمه وماله. فعـرف بـذلك أنه كفر دون كفـر، هذا محمل هذه الأحاديث.

كفر تارك الصلاة

ما حكم تـارك الصـلاة؟ بعض العلمـاء يحمل الأحـاديث الـتي فيه على أنه كفر النعمـة، ويوجد فيه حـديثان: حـديث عن جـابر : (بين الرجل وبين الكفر تـرك الصلاة) وحديث بريدة : (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفـر) فهـذا فيه إطلاق الكفر على تـارك الصـلاة. بعض العلمـاء يقـول: إنه الكفر الأصغر، أي: كفر النعمة مثل الأحاديث الأخرى، والقول الثاني: أنه كفر يخـرج من الملة، ودليله: قول عبد الله بن شقيق: (كـان أصـحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسلم لا يـرون شـيئاً من الأعمـال تركه كفر إلا الصـلاة)، فنقل عن الصحابة أنهم يـرون أن تـرك الصـلاة كفـر، ولا يـرون ذلك في بقية الشـرائع. والصحيح أنه إذا تركها تهاوناً بها، وتمادى على هذا الترك واسـتمر عليـه؛ فإنه يعتبر كفراً؛ وذلك لأنه وردت أحاديث تدل على ذلك منها حديث في البخـاري : (من تـرك صـلاة العصر فقد حبط عملـه)، وأحـاديث كثـيرة تـدل على أن من ترك الصـلاة فقد بـرئت منه الذمـة، ومعـنى ذلـك: أنه لا يكـون مسـلماً. وفيه أحاديث كثيرة مذكورة في الكتب المطولة، وهو يدل على خطر ترك الصـلاة، وأنه حـتى ولو كـان الأعمـال الأخـرى لا توصل صـاحبها إلى الكفر إلا إذا استحلها، لكن ترك الصلاة له أهميته وله منزلته، حيث ذهب الجمـاهير إلى أنه يكفر، وتوسع ابن القيم رحمه الله في هـذه المسـألة في كتابه الـذي اسـمه: كتاب الصـلاة، فتكلم على أن تـارك الصـلاة يقتـل، ثم تكلم على الخلاف: هل يقتل حداً أم يقتل كفراً؟ وذكر حجج الفريقين، حجج من يقول هـذا وحجج من يقـول هـذا،ورجح أنه إذا أصر وعاند وتمـادى وامتنع أنه يصـير جاحـداً فيحكم بكفره وردته. هذا نوع من التكفير.

البدع المكفرة وغير المكفرة

أكثر البدع لا يكفر بها كبدعة المرجئة وبدعة الخـوارج وبدعة الجبرية والقدرية والأشعرية ونحـوهم، فهـذه البـدع لا توصل إلى الكفر والـبراءة من أصـحابها، والأحـاديث الـتي وردت في الخـوارج: (أنهم يمرقـون من الـدين كما يمـرق

السـهم من الرميـة) أحـاديث وعيـد، فقد تنطبق على بعضـهم وقد لا تنطبـق، والـدليل على عـدم التكفـير: أن علياً رضي الله عنه سئل عنهم لما قـاتلهم، فقالوا: أكفار هم؟فقال: من الكفر فروا،قالوا: أمنافقون؟ قـال: المنـافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً؛ فدل على أنه لم يكفـرهم مع أنه قاتلهم؛ وذلك لأنهم يكفـرون بالكبـائر، فـإذا كفرنـاهم صـرنا مثلهم. هنـاك بدعتان مكفرتـان: بدعة غلاة الجهميـة، وبدعة غلاة الـروافض. غلاة الجهميـة: هم الذين غلوا في إنكار الصفات حتى صار حقيقة قولهم التعطيــل. وأما غلاة الرافضة: فهم الذين طعنوا في القرآن وطعنوا في السـنة، وطعنـوا في حملة الشـريعة -وهم الصـحابة -وكفـروهم، فهـؤلاء لم يكن عنـدهم دين يعتقدونـه، فأصبحوا بذلك قد أبطلوا الشريعة وكفـروا أهلهـا؛ فيكونـون هم أولى بـالكفر، مــادام أنهم طعنــوا في القــرآن وادعــوا أنه محــرف قد زيد فيه ونقص منه النقص الكثـير، وكـذلك لم يقبلـوا السـنة ولو ثبتت، ولو رواها الخلفـاء الثلاثة وغيرهم لا يقبلونها، ويرمون الخلفاء بأنهم كفرة وخونة ونحو ذلك،فهؤلاء ليس عندهم شرع يتمسكون به، فيكونـون بـذلك على غـير شـريعة، هـذا يقـال في غلاتهم الذين وصلوا إلى هذا الحد، أما الذين لم يكفـروا الصـحابة ولم يكفـروا الخلفاء فلا يوصل في حقهم إلى التكفير.

عقيدة المرجئة في مرتكب الذنوب

قـال الشـارح رحمه اللـه: [وقولـه: (ولا نقـول: لا يضر مع الإيمـان ذنب لمن عمله ...) إلى آخر كلامه، رد على المرجئة، فإنهم يقولون: لا يضر مع الإيمـان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعـة. فهـؤلاء في طـرف، والخـوارج في طـرف، فإنهم يقولـون: نكفر المسـلم بكل ذنب، أو بكل ذنب كبـير، وكـذلك المعتزلة الـذين يقولـون: يحبط إيمانه كله بـالكبيرة، فلا يبقى معه شـيء من الإيمـان. لكن الخوارج يقولون: يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر، والمعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، وهذه المنزلة بين المنزلـتين، وبقـولهم بخروجه من الإيمــان أوجبــوا له الخلــود في النــار! وطوائف من أهل الكلام والفقه والحـديث لا يقولـون ذلك في الأعمـال، لكن في الاعتقـادات البدعيـة، وإن كان صاحبها متأولاً، فيقولون: يكفر كل من قـال هـذا القـول، لا يفرقـون بين المجتهد المخطىء وغـيره، أو يقولـون: يكفر كل مبتـدع! وهـؤلاء يـدخل عليهم في هذا الإثبات العام أمور عظيمـة، فـإن النصـوص المتـواترة قد دلت على أنه يخرج من النـار من في قلبه مثقـال ذرة من إيمـان، ونصـوص الوعد التي يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التي يحتج بها أولئك]. ذكر الشارح أن هنـاك طـائفتين متقـابلتين: المرجئـة، والوعيديـة، فالمرجئة يـبيحون إكثـار الإنسان من الذنوب، ويقولون: إن الذنوب لا تضر ولو أكثر صاحبها، ويتعلقـون

بنصوص الوعد التي فيها أن أهل التوحيد نـاجون، وأنهم من أهل الجنـة، وأنهم يخرجون من النار، وأنهم يشفع فيهم ولو لم يفعلوا خيراً ونحو ذلك، هؤلاء هم المرجئة، يقولون: لا تضر الذنوب، حتى قـال قـائلهم: فكـثر ما اسـتطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم يقولون: نتعلق بكرمـه، وقد روي عن بعض الزهــاد أنه قــرأ قــول الله تعــالى: يَا أَيُّهَا الإِنسَــانُ مَا غَــرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَـرِيمِ [الانفطـار:6] فقـال: إذا قـال لي ربي: ما غـرك بربك الكـريم؟ أقـول: غـرني كرمــك! وهــذا خطــأ، والصــواب أن يقــال: إن الكــريم لا ينبغي أن يقابل بالمعصية، إذا كان ربنا كريماً لا يجوز لنا أن نتجرأ على معصيته، ولا أن نتهاون بحقه، بل علينا أن نطيعه ونحذر من أسباب سـخطه. فعلى كل حـال المرجئة هم الذين يقولون: لا تضر الذنوب وأصحابها يـدخلون الجنة ولا يعـذب أحد من أهل الذنوب ولو كانت كبيرة. معلـوم أنه قد وردت أحـاديث فيها أنهم يعـذبون وأنهم يحترقون، وأنهم يشفع فيهم، وأن الشـافعين يعرفـونهم بآثـار السـجود، وهذا دليل على أنهم يصـلون ومع ذلك دخلـوا النـار، إلا أن النـار لم تأكل آثـار السجود، يعني: أعضاء السجود لا تأكلها النـار، أما بقيتها فـإنهم يحـترقون كما ورد. فـدخلوا النـار وهم مسـلمون؛ بسـبب ذنـوب اقترفوهـا. من عقيـدة أهل السنة أن المعاصي التي دون الشرك قد يغفرها الله، وقد يعاقب عليهــا، وأما الشرك فإنه لابد أن يعـاقب عليـه، من عمل ما دون الشـرك فقد يعفى عنـه، ويغفر له ذنبه مهما كبر بمشـيئة اللـه، وقد يدخله الله النـار بسـبب ما اقترفه من السـيئات، ويكـون ذلك تمحيصـاً له من تلك السـيئات، ودخوله في النـار لأجل تمحيصه وإزالة ما فيه من الدرن، كالحديد الذي يدخل النار حتى يُصفى، حتى لا يبقى عليه شيء من الخبث، فهكذا هؤلاء الذين يدخلون النـار من أهل الكبائر. هـذه عقيـدة المرجئة الـذين يقولـون: لا يضر مع الإيمـان ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل. وقياسهم ليس بصحيح، نحن نـوافقهم على أن الشـرك يحبط الأعمــال، فالمشـرك لو عمل أي عمل فأعماله حابطـة؛ لقوله تعـالى: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِـكَ لَئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُـكَ [الزمـر: 65] ، وقال تعالى: وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ [الأنعـام:88] ونحو ذلك من الآيات. فقولهم: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، قيـاس خـاطئ، نحن نقـول: صـحيح أنه لا تنفع الأعمـال والحسـنات مع الشرك؛ لقوله تعالى: وَقَـدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُـوا مِنْ عَمَـلٍ فَجَعَلْنَـاهُ هَبَـاءً مَنْثُـورًا [الفرقان:23] لأن الشرك أحبطها، وقد قال تعالى: مَثَـلُ الَّذِينَ كَفَـرُوا بِـرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الـرِّيحُ فِي يَـوْمٍ عَاصِـفٍ [إبـراهيم:18] ، وفي آية أخرى: كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا [النور: 39] ، وفي آية أخرى: كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ [البقرة:264] صـفاة صـلبة عليها تراب وجاءها مطر شديد، لا يبقى على الصفاة شيء من التراب فهكـذا أعمالهم ونفقاتهم لا تبقى، حيث إنه لا أساس لها ولا أصل.

عقيدة الخوارج والمعتزلة في مرتكب الذنوب

الطــرف الثــاني المقابل للمرجئــة: الوعيديــة، الوعيدية من المعتزلة ومن الخوارج، كلهم يقولون: إن من دخل النار فهو مخلد فيها، وإن أصحاب الكبائر يدخلونها ولا يخرجون منها، ويستدلون ببعض الآيات الـتي فيها عـدم الخـروج، مثل قوله تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا [المائـدة: 37] نقول: الآية في الـذين يـدخلونها من الكفـار الـذين حكم عليهم بـالخلود، وكذلك قولـه: وَمَا هُمْ بِخَـارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقـرة:167] إنما هي في الكفـار، أما المؤمنـون الـذين معهم أصل الإيمـان وأصل التوحيد فقد دلت الأدلة على أنهم يخرجون بشفاعة الشافعين أو برحمة الله تعالى.

عقيدة أهل السنة في مرتكب الذنوب

قول أهل السنة وسط بين طرفين: طرف شـددوا، وهم الخـوارج والمعتزلـة، وجعلوا المذنبين كفاراً ومخلدين في النار، سواء كفروه في الدنيا أو أخرجـوه من الإيمـان ولم يكفـروه. وطـرف غلا في فعل الـذنوب، فأبـاح للمسـلم أن يفعل الذنوب، وأن يفعل الفواحش، وقـال: إنها لا تضـر. وتوسط أهل السـنة، وقـالوا: لا نوصل العاصي إلى الكفـر، ولا نخلـده في النـار، ولكن نخشى عليه من العذاب، ومن يطيق العذاب ولو ساعة! ومن يطيق دخول النـار ولو قليلاً. وإذا كنا نخاف عليه أن يدخل النار حـتى ولو سـاعة، فعليه أن يهـرب من هـذا السجن ومن هذا العذاب، فإن ذلك يوجب عليه أن يخشى من أسـباب دخـول النار ويحذرها.

حكم من قال بأن القرآن مخلوق

قال الشارح رحمه اللـه: [والكلام في الوعيد مبسـوط في موضـعه، وسـيأتي بعضه عند الكلام على قول الشيخ: وأهل الكبائر في النار لا يخلدون إذا مـاتوا وهم موحـدون. والمقصـود هنـا: أن البـدع هي من هـذا الجنس، فـإن الرجل يكـون مؤمنـاً باطنـاً وظـاهراً، لكن تـأول تـأويلاً أخطأ فيـه، إما مجتهـداً، وإما مفرطـاً مـذنباً، فلا يقـال: إن إيمانه حبط لمجـرد ذلـك، إلا أن يـدل على ذلك

دليل شرعي، بل هذا من جنس قول الخوارج والمعتزلـة. ولا نقـول: لا يكفـر، بل العدل هو الوسط، وهو: أن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة، المتضـمنة نفي ما أثبته الرسـول صـلى الله عليه وسـلم، أو إثبـات ما نفـاه، أو الأمر بما نهى عنه، أو النهي عما أمر به، يقال فيها الحـق، ويثبت لها الوعيد الـذي دلت عليه النصوص، ويـبين أنها كفـر، ويقـال: من قالها فهو كـافر، ونحو ذلـك، كما يذكر من الوعيد في الظلم في النفس والأموال، وكما قد قـال كثـير من أهل السنة المشاهير بتكفير من قـال بخلق القـرآن، وأن الله لا يُـرى في الآخـرة، ولا يعلم الأشياء قبل وقوعها. وعن أبي يوسف رحمه الله أنه قال: ناظرت أبا حنيفة رحمه الله مدة، حتى اتفق رأيي ورأيـه: أن من قـال بخلق القـرآن فهو كافر]. هذه تعتبر أمثلة من البدع، يعني: أن هناك بدعاً توصل إلى الكفر، وقد ذكرنا أن أهل السنة يكفرون غلاة الجهمية؛ وذلك لأن من قول الجهمية القول بأن القرآن مخلوق، والذي حملهم على هذا اعتقادهم أن الله تعـالى لا يتكلم، فنفـوا صـفة الكلام عن اللـه، ومعلـوم أن هـذه الصـفة صـفة كمـال، ونفيها يسـتلزم ضـدها وهو النقص. ولا شك أن من نفى هـذه الصـفة فقد تنقص الخالق، وكذلك قد أبطل الشرائع، فلا جرم أن أهل السنة قـالوا: إن من قـال بخلق القرآن فإنه كـافر. وقد نقل عن الإمـام أحمد رحمه أنه لما كـان ينـاظر على القرآن ويقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، فقـالوا لـه: القـرآن من جملة الموجودات. فقال: القـرآن من علم اللـه، وعلم الله صـفة من صـفاته. فقال له بعض أولئك الجدليين: أنا أقول: إن علم الله مخلوق. -تعالى الله عن ذلك!- فقال: قد كفرت بهذه الكلمة. الله تعالى هو الخالق، وصفاته من ذاتـه، وكلامه من صفاته، وعلمه من صفاته، وكلامه من علمه، ومن ادعى أن صـفة من صـفاته مخلوقة فقد جعل الـرب تعـالى محلاً للحـوادث، فيكـون بـذلك متنقصـاً لله تعـالى أكـبر التنقص، تعـالى الله عما يقـول الظـالمون علـواً كبيراً. ......

الحامل للمبتدعة على القول بخلق القرآن

الـذي حمل الجهمية على القـول بخلق القـرآن هو إنكـارهم للصـفات، ولما أنكروا الصفات أصبحوا معطلة، ولما عطلـوا الله عن هـذه الصـفات وصـفهم السـلف بـالكفر، وقد ذكرنا أن ابن القيم رحمه الله صـرح بتكفـيرهم عن جماهير العلماء، يقـول في نونيتـه: ولقد تقلد كفـرهم خمسـون في عشر من العلماء في البلدان واللالكائي الإمـام حكـاه عنـ هم بل حكـاه قبله الطـبراني خمسون في عشر، خمسون من العلماء، تضرب في عشرة فيكون خمسمائة عالم، وذكرنا أن اللالكائي نقل ذلك عن جمع كبير من العلماء أنهم كفـروا من قال بخلق القرآن، ومن غلا في نفي الصفات، وكتابه مطبوع متداول -ويسمى (شرح أصول السنة)- في عدة مجلدات. اللالكائي إمـام من أئمة أهل السـنة، نقل بأسانيده هذه الأقوال عن سلف الأمة: أنهم كفروا من قال بخلق القرآن. وقد اشـتهر أن أول من أظهر ذلك هو الجعد بن درهم ، ولما نفى أن يكـون

الله تعالى متكلماً، وأن يكون القـرآن كلامـه، صـرح بـأن الله لم يكلم موسى تكليماً؛ فقتله أمير العراق في وقته خالد بن عبد الله القسري ؛ لأنه خـرج في العراق وأضل خلقـاً كثـيراً، فاشـتكى علمـاء أهل السـنة إلى الأمـير القسـري فقتله بعد صـلاة عيد النحـر، ومشـهور أنه قـال: (ضـحوا تقبل الله ضـحاياكم، فـإني مضـحٍ بـالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبـراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً. ثم نـزل فذبحـه). يقـول ابن القيم في نونيتـه: ولأجل ذا ضـحى بجعد خالد القسـري يـوم ذبـائح القربان إذ قال إبراهيم ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الدان شـكر الضـحية كل صـاحب سـنة لله درك من أخي قربـان القربـان: هي الأضـاحي، فجعله أضحية تقرب بذبحه إلى الله، فأقروه أهل السنة في زمانـه، وهـذا دليل على أن هذه المقالة كفرية؛ لأن مستلزماتها كثيرة.

ما يلزم من نفي الكلام عن الله سبحانه

الذين قالوا: إن الله غير متكلم، وكلامه مخلوق كسائر المخلوقات. نقول لهم: من أين عـرف الرسـول صـلى الله عليه وسـلم أن هـذا كلام اللـه؟ ومن أين يعرفون أن الله أمر بهذا أو نهى عن هذا؟ ومن أين يعرف أن هذا شـرعه وأن هـذا أمـره؟ إذا كـان لا يتكلم فكيف يعـرف ذلـك؟! وكيف يكـون الخلق إلا بالأمر؟! ما يكـون هنـاك خلق إلا بـأمر، الله تعـالى ذكر أن المخلوقـات تكـون بأمره: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ [يس:82] ، فـالخلق لابد أن يكــون بــالأمر، والأمر لابد أن يكــون بــالكلام، فمن عطل الكلام فقد عطل الخلق، وقد عطل الشرع، وقد افـترى على اللـه، فمعنـاه: أن الرسـول صلى الله عليه وسلم بلغ شيئاً ما أنزل إليـه، أو ما تحقق أنه شـرع اللـه؛ لأنه إذا كان لا يتكلم فمن أين عرفوا أن هذا كلامه، أو أن هـذا شـرعه، أو أن هـذا دينه؟! يستلزم قولهم بشـاعة شـنيعة، فلا جـرم أن أهل السـنة حكمـوا بـأنهم كفار إذا صرحوا بذلك وعاندوا عليـه، هـذا مثـال من قـال بـأن علم الله أو أن كلام الله مخلوق، وعاند على ذلـك، وقـامت عليه الحجـة، فإنه يكفـر. وإطلاق هذه الكلمة، وتكرارها من هؤلاء الأئمة يقتضي أنهم يجعلونه كفراً مخرجاً من الملة، كفراً ناقلاً عن الإسلام مبيحاً للدم والمال، وهذا هو القول الصحيح في هذه المسألة. أما البـدع الأخـرى الـتي تقـدمت فقد لا توصل إلى الكفـر، وإن كانت مفسقة.

قال الشارح رحمه الله: [وأما الشخص المعين، إذا قيل: هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة، فإنه من أعظم البغي أن يُشهد على معين أن الله لا يغفر له، ولا يرحمه، بل يخلده في النار، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت. ولهذا ذكر أبو داود في سننه في كتاب الأدب: باب النهي عن البغي، وذكر فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر، فوجده يوماً على ذنب، فقال له: أقصر. فقال: خلني وربي، أبعثت علي رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة. فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار، قال أبو هريرة : والذي نفسي بيده! لقد تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته)، وهو حديث حسن. ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهداً مخطئاً مغفوراً له، أويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله، كما غُفر للذي قال: (إذا مت فاسحقوني ثم ذروني، ثم غفر الله له لخشيته)، وكان يظن أن الله لا يقدر على جمعه وإعادته، أو شك في ذلك. لكن هذا التوقف في أمر الآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه في الدنيا؛ لمنع بدعته، وأن نستتيبه، فإن تاب وإلا قتلناه. ثم إذا كان القول في نفسه كفراً قيل: إنه كفر، والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا صار منافقاً زنديقاً، فلا يتصور أن يكفر أحد من أهل القبلة المظهرين الإسلام إلا من يكون منافقاً زنديقاً، وكتاب الله يبين ذلك، فإن الله صنف الخلق فيه ثلاثة أصناف: صنف: كفار من المشركين ومن أهل الكتاب، وهم الذين لا يقرون بالشهادتين. وصنف: المؤمنون باطناً وظاهراً. وصنف: أقروا به ظاهراً لا باطناً. وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة في أول سورة البقرة. وكل من ثبت أنه كافر في نفس الأمر، وكان مقراً بالشهادتين، فإنه لا يكون إلا زنديقاً، والزنديق هو المنافق. وهنا يظهر غلط الطرفين، فإنه من كفر كل من قال القول المبتدع في الباطن، يلزمه أن يكفر أقواماً ليسوا في الباطن منافقين، بل هم في الباطن يحبون الله ورسوله، ويؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين، كما ثبت في صحيح البخاري عن أسلم مولى عمر رضي الله عنه عن عمر : (أن رجلاً كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم اسمه: عبد الله، وكان يلقب: حماراً، وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب، فأتى به يوماً، فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه! ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله) وهذا أمر متيقن

به في طوائف كثيرة وأئمة في العلم والـدين، وفيهم بعض مقـالات الجهميـة، أو المرجئة، أو القدرية، أو الشيعة، أو الخوارج، ولكن الأئمة في العلم والـدين لا يكونون قـائمين بجملة تلك البدعـة، بل بفـرع منهـا؛ ولهـذا انتحل أهل هـذه الأهواء لطوائف من السلف المشاهير، فمن عيوب أهل البـدع تكفـير بعضـهم بعضاً، ومن ممادح أهل العلم أنهم يُخطِّئـون ولا يكفـرون]. هـذا يتعلق بتكفـير المعين، وهو غـير التكفـير العـام؛ وذلك لأن هنـاك فرقـاً بين أن يقـال: فلان كافر. وبين أن يقال: فلان يعمل عمل الكفار، أو يقال: هذا العمل كفر......

موانع تكفير المعين

الشـــهادة على معين بأنه كـــافر لا تجـــوز إذا كـــان من أهل القبلة ومن أهل الإسـلام، من دخل في الإسـلام وأعلن الـدخول فيه ظـاهراً لا يجـوز أن يحكم عليه بعينه أنه كافر. مثلاً: لو عمل إنسان عمل أهل الكفر، أو عمل معاص قد أطلق عليها أنها كفر، لا نكفره ما دام أنه من أهل القبلة، حتى ولو قـال بمثل تلك الأقـوال الـتي ذكرنا أن السـلف كفـروا بهـا، لكنهم لا يكفـرون المعين لأسـباب منهـا: أنه قد يكـون مقلـداً، وإثمه على من قلـده وأحسن الظن بـه، يحسن الظن ببعض المشاهير، فيظن أنه على صـواب فيتبعـه، فنحن لا نحكم بكفـره ما دام أنه لم يكن عنـده الـدليل الـذي قـام عليـه، وإذا لم نكفـره فلا نقاتله حتى نقيم عليه الحجة ويصر على كفره. في عهد الشـيخ محمد بن عبد الوهـاب رحمه الله في القـرن الثـاني عشر خـرج على أنـاس قد فشا فيهم الشرك، كتعظيم القبور، والذبح عندها، والتمسح بها، والتـبرك بتربتهـا، ودعـاء الأمـوات، ونحـوه مما هو شـرك، بل هو شـرك الأولين، ولما دعا إلى ذلك لم يكفر إلا من عانـد، فالجهلة وعـوام النـاس لم يكفـرهم، وإنما يخطئهم، فـإذا قامت الحجة عليهم وأصروا وعاندوا وتمادوا، وردوا الحق مع وضوحه، فهنالك يقـاتلهم، ويكفر من قتل منهم، ويسـتبيح أمـوالهم ودمـاءهم؛ لأنهم أصـبحوا كالمشركين الأولين الذين عبـدوا غـير اللـه، وأما قبل ذلك فلا يحكم بكفـرهم. وهذا مخالف لما ينقله عنه أعداؤه، فأعداؤه قد كذبوا عليه رحمه الله، وقـالوا عنه شناعات، وقد رُد عليهم بكتب مثل: الأسنة الحداد في الـرد على شـبهات علوي الحداد، وهو حضرمي غال في الكذب عليه، ادعى أنه إذا جـاءه إنسـان ليدخل في دينه يقول له: لا أقبل منك حتى تقر أنك كنت كـافراً، وتشـهد على أبويك اللذين ماتا أنهما ماتا كافرين، وتشهد على أن الناس كفـار منذ سـتمائة سنة، ومثل هذه الأكاذيب التي ذكرها علوي الحداد في كتاب له في الرد على محمد بن عبد الوهـاب. وكـذلك يوجد كتـاب في الـرد على آخر يقـال لـه: بابصيل، وهو حضرمي أيضاً، جمع ترهات وأكاذيب مثل هذه الأشياء. فالحاصل أنه رحمه الله ما كان يكفر إلا من قامت عليه الحجة، ولا يقاتل إلا بعدما يـبين لمن قاتلهم أن هـذا شـرك، فـإذا بينه وأوضـحه فعند ذلك ينـذرهم ويقـول: إن تبتم وإلا قاتلنـاكم؛ لأنكم أصـبحتم من المشـركين الـذين يعملـون عمل المشركين. فهذا دليل على أن أهل السـنة لا يكفـرون المعين حـتى ولو كـان

عمله كفراً، إلا بعـدما تقـوم عليه الحجـة. إذاً من الشـبهات: التقليد وإحسـان الظن بالعلماء الذين بين ظهراني أولئك النـاس المقلـدين لهم، بحيث لا يحكم بتكفيرهم حتى تقـام عليهم الحجة ويصـروا على الكفـر. كـذلك من الشـبهات أيضـــاً: أنهم قد يجـــدون بعض الكتب المؤلفة فيما هم عليــــه، فلأجل ذلك يسيرون عليها، ويعتقدون أن ما فيها هو الصواب، ولا يقفون على ردودهـا، ولا يقفون على أدلة غيرها؛ فيسـيرون عليهـا، فنعـذرهم في ذلك حـتى نـبين لهم الخطأ الذي فيها، فإذا بينا لهم فأصروا، وكانت تلك الأعمـال من الكفـر، حينئذ كفرناهم وقاتلناهم، وإلا فلا. وهناك أعمال دون الكفـر، وهي الـتي تعـرض لها الشارح رحمه الله، وذكر أنها من جملة البدع الـتي لا توصل إلى الكفـر، وإنما هي أمور اجتهادية، ولكنها خاطئة. فالأشاعرة عنـدهم بـدع، وهي: إنكـار بعض الصفات، والقول بأن كلام الله كلام نفسي، وأن هذا الموجود إنما هو المعـنى لا الحـــروف، ونحو ذلك من بـــدعهم، ولكن لا نوصل ذلك إلى الكفـــر. كـــذلك المرجئة الـذين غلبـوا جـانب الرجـاء لا نقـول: إنهم وصـلوا إلى الكفـر، ولكن نقــول: إنهم وقعــوا في بدعة مفســقة لا مكفــرة. وعلى كل حـال: فـالتكفير خطره كبير، قد سمعنا هذه القصة التي أوردها الشارح رحمه الله، وهي قصة ذلك الشخص العابد الذي قال لصاحبه: والله لا يغفر الله لك. قـال الله لـذلك المذنب: ادخل الجنة برحمتي، وعذب ذلك الذي تألى عليه، يقـول أبو هريـرة: (قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته)، وهذا يدل على أن التكفير ذنبه كبير وخطـؤه عظيم؛ فلأجل ذلك على الإنسان أن يحفظ لسانه فلا يكفر المعين.

حكم إطلاق الكفر على العمل

تقدم تكفـير المعين، أما العمل فيقـال: هـذا العمل كفـر. فيقـال مثلاً: القـول بخلق القرآن كفر. ولا نقـول مثلاً: فلان كـافر؛ لأنه يقـول بكـذا؛ لأنا لا نعلم ما الخاتمة، يمكن أن يكون قد رجع عن قوله وقد تاب، أو كان متـأولاً، أو ختم له بخاتمة حسنة، أو محيت عنه سـيئاته؛ أو ما أشـبه ذلـك، ففـرق بين أن يقـال: هذا العمل كفـر، أو هـذا الشـخص كـافر؛ لأنه يعمل هـذا العمـل. الأعمـال قد يطلق عليها الكفر، فيقال مثلاً: ترك الصلاة كفر ولكن ما نحكم على الإنســان أنه كافر بمجرد عمله، إلا إذا أصر على ذلك وعاند وقتل عليه، فإذا عاند وأصر وامتنع من أداء الصلاة حتى قتـل، فعند ذلك يقـول العلمـاء: إنه يعامل معاملة الكافر الخارج من الملة، بحيث لا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين. وعلى كل حال: فالناس ينقسـمون إلى ثلاثة أقسـام مـذكورة في أول سـورة البقرة، فالخمس الآيات الأولى من سور البقرة في المؤمـنين: الَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاة [البقرة:3] إلى آخر الآية الخامسة والآيتان بعـدها في الكافرين: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَـوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنـذَرْتَهُمْ [البقـرة:6] إلى قولـه: خَتَمَ

اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ [البقرة:7]. وثلاثة عشر آية بعدها في المنافقين، من قولـه: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُـولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِـالْيَوْمِ الآخِـرِ وَمَا هُمْ بِمُـؤْمِنِينَ * يُخَـادِعُونَ اللَّهَ.. [البقـرة:8-9] إلى قولـه: وَلَـوْ شَـاءَ اللَّهُ لَـذَهَبَ بِسَـمْعِهِمْ وَأَبْصَـارِهِمْ.. [البقرة:20] إلى آخر الآية، فهذه الآيات في المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، والعلماء يسـمونهم زنادقـة، فـأمرهم خفي؛ لأننا لا نطلع على ما في قلوبهم؛ ولأجل ذلك كان النبي صـلى الله عليه وسـلم يعـاملهم معاملة المسلمين؛ لأنهم يظهرون الإسلام ، ولأنهم يظهـرون محبة المسـلمين. وعلى كل حال فتكفير المعين شيء، والحكم على العمل بأنه كفر شيء آخر، فـرق بين هذا وهذا. هـذه مسـائل في التكفـير، والإنسـان عليه أن يتثبت في الحكم على المعين بالكفر، ولابد أن يعرف الدليل على أن العمل من أعمال الكفار.

المسميات الشرعية في الدين وتعلقها بالعقيدة

مما يتعلق بالعقيدة مسألة أحكام الإسلام والـدين، أو مسـألة أسـماء الإيمـان والأسماء الشرعية، فالشرع نقل بعض المسـميات من مسـمياتها اللغوية إلى مسـميات شـرعية، فبـدل ما كـان الإيمـان مجـرد التصـديق في اللغـة، أصـبح الإيمان يدخل فيه أعمال الجـوارح وأعمـال القلـوب، ولا يكـون مؤمنـاً إلا من ظهرت آثار الإيمان على جوارحه، هـذا قـول أهل السـنة. كـذلك بـدل ما كـان الإسلام في اللغة هو الإذعان والانقيـاد، أصـبح الإسـلام يصـدق على من أقـام الشـرائع والأركـان الظـاهرة ودان بهـا، هـذا هو المسـلم. وكـذلك مسـمى الإحسـان، الأصل فيـه: أنه إحسـان العمل أيـاً كـان ولو عملاً دنيويـاً، فنقله الشـارع إلى الإحسـان في الأعمـال الصـالحة، الـذي هو إتقانها بـأن يستحضر حالة أدائها مَن يؤديها لـه. وكـذلك يقـال في مسـمى التوحيد في اللغـة: هو مشـتق من الواحـد، الـذي هو العـدد الفـرد، فنقله الشـارع إلى إفـراد الله بالعبادة، أي: اعتقاد أن العبادة لله وحده، وأن الله وحده هو المتصف بصفات الكمـال لا يشـاركه فيها غـيره، وأنه المتفـرد بالملك والتصـرف، هـذا حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل. وهكذا يقال في التقوى، لها مسمى في اللغة ومسمى في الشرع، فالتقوى في اللغة: هي اتقاء الشرور والأضرار، وأما في الشرع: فهي اتقـاء عـذاب الله وغضـبه بفعل الأوامر وتـرك النـواهي. وكـذلك مسمى البر الذي حث الله عليه، بدل ما كـان بالإحسـان إلى الإنسـان، أصـبح هو إحسان العمل كله، وتدخل فيه جميع الأعمـال الـتي تـدل على بر صـاحبها وتصديقه. ويقال كـذلك في المسـائل الـتي هي ضـدها، فمثلاً: الشـرك، كـانوا يطلقونه على اشـتراك اثـنين في عمـل، أو اشـتراك اثـنين في مـال، هـذا هو الشرك قبل الإسلام، أما الشرع فجعله اسماً لإشراك العبد مع الله غـيره، أن يجعل العبادة مشتركة بين الله وبين غيره، فيدعوه ويدعو غيره، ويعبده ويعبد

غيره، ويتقيه ويتقي غيره، ويخافه ويخاف غيره، ويرجوه ويرجو غيره على حد سواء، يسمى هذا: شركاً؛ لأنه تشريك في العبادة بين الخالق والمخلوق، وهو الـذي ورد فيه الوعيـد. كـذلك الكفـر: العـرب تعـرف الكفر بأنه السـتر، سـتر الشـيء، ولكن جـاء الشـرع وأطلقه على جحد الربوبيـة، أو جحد الإسـلام، أو جحد الشريعة وإنكارها وسترها وتغطيتها تغطية معنوية، هذا مسمى الكفر.

مذهب أهل السنة في مسألة التكفير والتفسيق والتبديع

مسألة التكفير والتفسيق والتبديع قد تكلم فيها العلماء وأطالوا، وقرأنا بعضـاً مما يتعلق بهـا. مـذهب أهل السـنة فيها كما سـمعنا: أنا لا نكفر أهل القبلة بالذنوب ولو كانت كبائر؛ إلا إذا اسـتحل الـذنب فإنه يكفـر، فـإذا اسـتحله كفر ولو لم يفعله، من قال: إن الخمر حلال. ولو لم يشربها؛ كفر؛ لأنه خالف نصاً، ومن قال: إن الربا حلال. كفر وإن لم يرابي؛ لأنه يخالف النصوص، ومن قال: الصلاة ليست فريضة. كفـر، ولو لم يـترك الصـلاة، ومن قـال: لم يـوجب الله الحج، أو لا يجب الصـوم، وأنكر ذلـك، أو أنكر شـرعية الجهـاد، وقـال: الجهـاد تعرض للقتل، لا يمكن أن يشرعه الله، هذا ظلم، أو قتل للنفوس وإراقة لهـا، إذا أنكر ذلك ولو كان يجاهد نقـول: إن هـذا قد كفر بهـذا الإنكـار. أما إذا فعل ذنباً ولكنه لم يستحله فإنه لا يكفـر، كما لو فعل الزنا وهو يعتقد أنه حـرام، أو شرب الخمر، أو قتل نفساً وهو يعتقد أنه مذنب ومخطئ، فنقول: هذا مذنب، وهـذا فعل كبـيرة من الكبـائر، ولكن لا تصل إلى حد الكفر الـذي يـبيح الـدم والمال، بل لا يزال موصوفاً بأنه مـذنب، وأنه قد وقع في ذنب، وإن كـان ذلك الذنب يحتمل أن يعاقب عليه، ويحتمل أن يغفر.

حكم المصر على الذنب

ماذا نسمي المذنب المصر على الـذنب؟ لا نسـميه كـافراً ولا نسـميه مؤمنـاً كامل الإيمان، بل نسميه ناقص الإيمـان، أو يطلق عليه اسم فاسق أو عـاص، هــذه عقيــدة أهل السـنة: أنه لا يصل إلى الكفــر؛ لأن ذنبه دون الكفــر، ولا يوصف بكمــال الإيمــان؛ لأنه قد نقص إيمانه بهــذا الــذنب. والــذين كفــروه انقسموا إلى طائفتين: طائفة أخرجته من الإسلام ولم تدخله في الكفر، وهم المعتزلة الــذين قــالوا بالمنزلة بين المنزلـتين. وطائفة أخرجته من الإســلام

وأدخلته في الكفر، واستحلت دمه وماله، وهم الخوارج. واتفق الفريقان على أنه مخلد في النــار. وأهل الســنة لا يخرجونه من الملــة، ولكن يقولــون: هو معـــــرض للوعيـــد، وهو تحت مشـــيئة الله ما دام أن ذنبه دون الكفر ودون الشرك، ففي الآخرة هو تحت مشيئة الله: إن شاء غفر له وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه، هذه هي عقيدة أهل السنة.

وجه تسمية الشارع لبعض الذنوب كفراً

قـال الشـارح رحمنا الله تعـالى وإيـاه: [ولكن بقي هنا إشـكال يـرد على كلام الشيخ رحمه الله، وهو: أن الشارع قد سمى بعض الـذنوب كفـراً، قـال اللـه: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [المائدة:44] . وقـال صـلى الله عليه وسلم: (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر) . متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنـه. وقـال صـلى الله عليه وسـلم: (لا ترجعـوا بعـدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) . و (إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر! فقد باء بها أحدهما) متفق عليهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهمـا. وقـال صـلى الله عليه وسلم: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كـانت فيه خصـلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلـف، وإذا عاهد غـدر، وإذا خاصم فجـر) متفق عليه من حـديث عبد الله بن عمـرو رضي الله عنهما. وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مـؤمن، ولا يسـرق السـارق حين يسـرق وهو مـؤمن، ولا يشـرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد) . وقال صلى الله عليه وسـلم: (بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة) رواه مسلم عن جابر رضي الله عنـه. وقـال صلى الله عليه وسلم: (من أتى كاهناً فصـدقه، أو أتى امـرأة في دبرهـا، فقد كفر بما أنزل على محمد) وقال صـلى الله عليه وسـلم: (من حلف بغـير الله فقد كفر) رواه الحاكم بهذا اللفظ. وقال صـلى الله عليه وسـلم: (اثنتـان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت) . ونظائر ذلك كثـيرة. والجـواب: أن أهل السـنة متفقـون كلهم على أن مـرتكب الكبـيرة لا يكفر كفراً ينقل عن الملة بالكلية، كما قـالت الخـوارج، إذ لو كفر كفـراً ينقل عن الملة لكـان مرتـداً يقتل على كل حـال، ولا يقبل عفو ولي القصـاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشـرب الخمـر، وهـذا القـول معلـوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسـلام. ومتفقـون على أنه لا يخـرج من الإيمـان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود في النار مع الكـافرين، كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضـاً، إذ قد جعل الله مـرتكب الكبـيرة من المؤمـنين، قـال تعـالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَـاصُ فِي الْقَتْلَى [البقرة:178] إلى أن قال: فَمَنْ عُفِيَ لَـهُ مِنْ أَخِيـهِ شَـيْءٌ فَاتِّبَـاعٌ بِـالْمَعْرُوفِ

[البقرة:178]، فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخاً لولي القصـاص، والمراد: أخوة الدين؛ بلا ريب. وقال تعالى: وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا [الحجرات:9]، إلى أن قال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ [الحجرات:10] ، ونصـوص الكتـاب والسـنة والإجمـاع تـدل على أن الزاني والسـارق والقـاذف لا يقتـل، بل يقـام عليه الحـد، فـدل على أنه ليس بمرتد. وقد ثبت في الصحيح عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليـوم، قبل ألا يكـون درهم ولا دينار، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمتـه، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم ألقي في النار) أخرجـاه في الصحيحين. فثبت أن الظالم يكون له حسـنات يسـتوفي المظلـوم منها حقـه. وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أتـدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من ليس له درهم ولا متاع. فقـال: إن المفلس من أمتي من يأتي يـوم القيامة بصـلاة وصـيام وزكـاة، ويـأتي وقد شـتم هـذا، وقذف هذا، وأخذ مـال هـذا، وسـفك دم هـذا، وضـرب هـذا، فيعطى هـذا من حسناته، وهذا من حسـناته، فـإن فـنيت حسـناته قبل أن يقضي ما عليـه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار) رواه مسلم . وقد قال تعالى: إِنَّ الْحَسَـنَاتِ يُـذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ [هـود:114] ، فـدل ذلك على أنه في حـال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته، وهذا مبسـوط موضـعه]. الأحـاديث الـتي تقدمت هي الـتي اسـتدل بها الخـوارج على مسـألة التكفـير بالـذنوب، أخـذوا بظاهرهــا، وأهل الســنة قد أوردوها وأوردوا ما يبينهــا. فمثلاً: الإمــام مســلم صاحب الصحيح في أول كتابه كتاب الإيمان سرد أحاديث كثـيرة فيها التكفـير بالــذنوب، ثم ســرد أحــاديث بعــدها فيها الرجــاء، وفيها نفع الشــفاعة لأهل التوحيـد، وأن أهل التوحيد يخرجـون من النـار ولو عملـوا ذنوبـاً، وأن شـفاعة النبي صلى الله عليه وسـلم تنـال من لا يشـرك بالله شـيئاً، وأنهم ولو دخلـوا النار بذنوب أذنبوها فإنهم لا يخلدون فيها، فهـذا دليل على أن أحـاديث الوعيد ليست دالة على الإخراج من الملة. ثم إن كثيراً من العلماء قالوا في أحاديث الوعيد: إنها تجرى على ظاهرهـا؛ ليكـون ذلك أبلغ في الزجـر، مع اعتقادنا أن أهل التوحيد الذين لم يشوبوه بشرك، ولم يبتـدعوا بـدعاً مكفـرة؛ لا يخلـدون في النار ولو دخلوها، وعلى هذا فنسكت عن تأويل هـذه الأحـاديث، أو نحملها على محامل كما ذكر الشارح، ونحرص على الجمع بينها. ......

أمثلة لبعض الأدلة التي حملها العلماء على محامل غير الكفر

قول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (لا ترجعـوا بعـدي كفـاراً يضـرب بعضـكم رقاب بعض) ، هل كل من تقاتلوا لفتنة أو لخلافات سياسية يصيرون كفاراً؟ لا يكونــون كـذلك، فقد تقاتل الصـحابة في عهد علي ومعاوية ، ولم نحكم بكفر هـؤلاء ولا هـؤلاء، بل نقـول: تلك فتن قـدرها الله تعـالى، وكل منهم له مقصد وله تأويل، ولم يكونوا كفاراً، وكل من قتل في هذه الفتنة تحت مشـيئة اللـه.

كذلك الذين تقاتلوا في وقعة الجمل لم يقل أحد بأنهم كفار، ما عـدا المعتزلة ونحـوهم، بل قتل فيها من الصـحابة من قتل كـالزبير وطلحة وغيرهمـا، ولا شك أنها فتن، ولا نقـول: إنهم وصـلوا إلى مرتبة الكفر -والعيـاذ باللـه- بل ننزههم عن ذلك. إذاً: قولـه: (لا ترجعـوا بعـدي كفـاراً يضـرب بعضـكم رقـاب بعض) نجريه على ظـاهره، ونعتقد أن القتـال بنـوع من التأويل لا يصل إلى الكفر، ونقول: لعله قصد الزجر والتحذير من قتال المسـلمين بعضـهم لبعض. وكذلك قوله: (سباب المسـلم فسـوق، وقتاله كفـر) نقـول: هـذا من أحـاديث الوعيد، أطلق عليه كفراً وإن لم يكن مخرجاً من الملة من باب الزجـر، ومن باب التحذير عن قتل المسلم والاستهانة به. ومثل ذلك الآيات الـتي فيها وعيد شـديد على بعض الـذنوب، مثلاً: توعد الله على أكل الربا بقوله تعـالى: فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْـرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَـادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ [البقـرة:275] معلـوم أنهم وإن دخلوها بـذنوبهم فـإنهم تحت مشيئة الله، وكـذلك قـال في القتـل: وَمَنْ يَقْتُـلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَـزَاؤُهُ جَهَنَّمُ [النساء:93] عقيدة أهل السنة: أنه مسـلم لا يخـرج من الملـة، لكن هـذا من باب الوعيد، وكثير منهم يقولـون: ذلك جـزاؤه إن جـازاه. وكـذلك قوله تعـالى في الفـرار من الزحـف: وَمَنْ يُـوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُـرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَـالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ [الأنفال:16] ، فهذا أيضاً نص فيه وعيـد، فأهل السـنة يقولـون: هو وإن دخلها لا يخلد فيها أو قد يعفو الله عنه فلا يدخلها. وكذلك القذف، يقول الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَـنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِـرَةِ وَلَهُمْ عَـذَابٌ عَظِيمٌ * يَـوْمَ تَشْـهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُـونَ * يَوْمَئِذٍ يُـوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ [النور:23-25] هـذه الآيـات من نصـوص الوعيد أيضـاً، مع أنها كلمة قد يكون فيها خطر وقد لا يكـون، ومع ذلك توعد الله عليها بهـذا الوعيـد. وهكـذا الوعيد في الأحاديث الـتي سـمعنا في قوله صـلى الله عليه وسـلم: (لا يـزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشـرب الخمر حين يشـربها وهو مـؤمن، ولا يسـرق السـارق حين يسـرق وهو مـؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شـرف يرفع النـاس إليه فيها أبصـارهم حين ينتهبها وهو مـؤمن، والتوبة معروضة بعـد) لا شك أن هذا أيضاً فيه تهديد وتخويف شـديد على هـذه الأعمـال الـتي هي من كبائر الذنوب. وقوله: (وهو مـؤمن) أي: ليس يفعلها وهو كامل الإيمـان؛ فـإن إيمانه يزجـره عنهـا، ويحـذره عن اقترافهـا، لكن هو نـاقص الإيمـان، وقـال بعضهم: ينزع منه الإيمان، ويكون عليه كالظلـة، ثم إذا انتهى رجع إليـه، ولكن لا يرجع كاملاً. وهكذا حديث النفـاق في قولـه: (أربع من كن فيه كـان منافقـاً خالصاً : .. إذا حدث كـذب) إلى آخـره، لا نقـول: إنها تخـرج من الملة لمجـرد كذبة أو خيانة، ولكنها من نصوص الوعيد. وقد أثبت الله عز وجل الإيمـان بين المتقاتلين الذين يتقاتلون لضغائن وعداوات في الآيات التي سمعنا، يقول الله في القاتل: فَمَنْ عُفِيَ لَـهُ مِنْ أَخِيـهِ شَـيْءٌ فَاتِّبَـاعٌ بِـالْمَعْرُوفِ [البقـرة:178] سماه: أخاً مع كونه قاتلاً، وكذلك في قوله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ إِخْـوَةٌ [الحجـرات: 10] سماهم: إخوة مع كـونهم يتقـاتلون، ولكنه قتـال بغي، فـالمخطئون منهم بغاة. ومعلـوم أنهم لو كـانوا كفـاراً لحبطت أعمـالهم، ولم يبق لهم حسـنات،

فإن الكفر يحبط الأعمال، يقول الله تعالى: وَلَقَـدْ أُوحِيَ إِلَيْـكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِـكَ لَئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُـكَ [الزمـر:65] إذا حبط عملك فلا تكتب لك حســنة، الكفــار ما تكتب لهم حســنات، ولا يثبت لهم شــيء من الأعمــال الصالحة، بل أعمالهم تبطل، يقول الله تعالى: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَـلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا [الفرقان:23] فلو كانوا كفـاراً ما كـان لهم حسـنات، بل إما أن يجازوا بها في الدنيا كما في قوله تعـالى: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـاتِكُمْ فِي حَيَـاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا [الأحقاف:20] ، وإما أن يبطلها كفرهم وشركهم، يقول تعالى: وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام:88] ، ويقول تعالى: وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَـافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـالُهُمْ [البقـرة: 217] حبطت أي: بطلت، ومثل الله تعـالى أعمـالهم بأنها كرمـاد اشـتدت به الريح في يوم عاصف، لا يبقى منها شيء، فلو كانوا كفاراً ما بقي لهم أعمال صالحة، ولا حسنات يؤخذ منها للمظلومين. وقد سمعنا أنه يكون لهم حسنات في هذه الأحاديث، هذا الذي يأتي وقد قتل هذا، وسفك دم هذا، وضرب هــذا، وظلم هذا، وشتم هذا، فمع ذلك يؤخذ من حســناته، أليس ذلك دليل على أنها باقيــة؟ إذاً: فهو لم يصل إلى درجة الكفــر. فهــذا دليل على أن أعمــالهم لا توصلهم إلى الإخراج من الملة، وعلى هـذا مـاذا نسـميهم؟ نسـميهم: عصـاة، ونسميهم: فسقة، ونسميهم: أهل كبائر، ونسميهم: ناقصي الإيمان غير كاملي الإيمــان، هكـذا نســميهم. هــذا قولنا في أهل المعاصــي، أما الشــرك والكفر فمعلوم أنه يصير كفراً مخرجاً من الملة، وأن الشـرك لا يغفر حـتى ولو كـان صغيراً، ومن الشرك الأصغر: الحلف بغير الله، فقوله صـلى الله عليه وسـلم: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) المراد به: الشرك الأصـغر؛ وذلك لأن الحلف بغير الله فيه إشراك بنوع تعظيم لـذلك المخلـوق، وتخصيصه بـالحلف به حتى يكون شريكاً لله، والتعظيم حق اللـه، فالحـالف قد عظم الـذي حلف به، فمن حلف بالله فقد عظم الله، ومن حلف بالمخلوق فقد عظم المخلوق، فيكون تعظيمه شركاً، ولكنه من الأصغر، ولا يصل إلى الشرك الأكبر.

الحكم بغير ما أنزل الله أقسام ينبغي معرفتها، فقد ضل كثير من الناس بسبب عدم معرفة أقسام ذلك، وقد بين العلماء تلك الأقسام، وحذروا الناس من التسرع في الأحكام.

البدع المكفرة

البدع منها ما هو مكفر، ومنها ما لا يصل إلى حد الكفر. تواتر عن السلف رحمهم الله أنهم كفروا من قال بخلق القرآن، كفروهم من حيث العموم لا من حيث الأفراد، فهم ما يقولون: إن فلان بن فلان كافر؛ لأنه قال بخلق القرآن؛ فإن من أشهرهم خليفة من بني العباس المأمون ، وهو أول من فتن الناس ودعاهم إلى القول بخلق القرآن، وفتن العلماء، ومع ذلك لم يكفره الإمام أحمد ، بل كان يعذره بأنه متأول، وبأنه لبس عليه أولئك المبتدعة لما قربهم وأدناهم، فدخلت أفكارهم في قلبه، فشبه عليه. لكن المبتدعة الذين تمكنت هذه البدعة منهم لا نعذرهم، ولكن لا نحكم على فلان بأنه كافر لهذه البدعة، لكن من حيث العموم نقول: القول بخلق القرآن كفر. كذلك بدعة إنكار الصفات والغلو في إنكارها، وهي طريقة المعتزلة، هذه لا شك أنها كفر؛ وذلك لما فيها من التعطيل، حتى إن بعض العلماء جعلها أكبر من قول المشركين الذين يجعلون العبادة مشتركة بين الخالق والمخلوق، ولكن ما دام أنهم يتسمون بالإسلام فلا نطلق على أعيانهم بالكفر، كأن نقول مثلاً: أبو الهذيل العلاف كافر، أو أبو علي الجبائي كافر، لا، وإن كانا من غلاة المعتزلة، واشتهرا باعتناق هذا المذهب، وكتبا فيه، وأضلا خلقاً كثيراً، لكن نقول: أمرهما إلى الله، ولكن مقالتهما مقالة كفرية؛ لما فيها من مضادة للحق. كذلك نقول في المذاهب المعاصرة الجديدة: هذه لا شك أنها كفر، يعني من حيث معتقداتهم، فمثلاً: الدروز ليسوا بمسلمين حقاً، ولو ادعوا أنهم يدينون بالشهادتين ظاهراً أو نحو ذلك، لكن في الباطن ليسوا بمسلمين، مع وجودهم وكثرتهم في بعض البلاد؛ ولكن لا نقاتلهم، ولا نكفر أعيانهم حتى نقيم عليهم الحجج، نواجههم مواجهة شخصية، ونبين لهم، لكنهم في الحقيقة يخفون عقائدهم ويخفون مؤلفاتهم التي يعتنقونها. ويقال كذلك في الطائفة الجديدة الذين يسمون: بعثيين: لا شك أنا إذا بحثنا عن معتقداتهم ومبادئهم نجد أنها مبادئ كفر، وأنهم كافرون، وأن معتقدي هذه العقيدة ليسوا حقيقة بمسلمين؛ لأنهم علمانيون أو اشتراكيون أو ماركسيون أو دنيويون لا همة لهم بالآخرة ولا بمصالح الدين، ولا بالإقبال عليها، ولا بنصر الإسلام ولا غيره، كما يعرف ذلك من مؤلفاتهم، فمذهبهم مذهب كفر. كذلك يقال أيضاً في مذهب النصيريين والإسماعيليين وغلاة الشيعة الرافضة وأشباههم، من الذين يدعون أنهم من جملة المسلمين، ولكن لهم عقائد ودسائس خفية، لا شك أنها تخالف الإسلام وتخالف عقائد الإسلام، فيقاتلون إذا أقيمت عليهم الحجة، وحصلت معهم

مواقف يتـبين فيها أنهم عـارفون بـالحق ومعانـدون ومخـالفون لـه، وأبطلت شبهاتهم التي يتمسكون بها، فهذا ونحوه دليل على أنه يوجد هنـاك مكفـرات، ولكن الحكم إنما هو للفعل لا للفاعـل. ولأجل ذلك فـإن الشـيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عندما خرج على أهل هذه البلاد، وجد أهلها يشركون بالغلو في الصـالحين، ومع ذلك لم يكفـرهم مبـدئياً، ولكن بين أن فعلهم كفـر، ولم يقـاتلهم مبـدئياً بل شـرع في بيـان أعمـالهم وفي بيـان كفـرهم، ولما أصـروا وعاندوا وجابهوا، وكتبوا رسائل في الرد عليه، وشبهوا على النـاس مع اتضـاح الحق كالشمس؛ أفتى عند ذلك بجـواز قتـالهم، وبـأنهم -والحـال هـذه- كفـار، حيث إنهم أباحوا عبادة غير الله، وشـابهوا المشـركين الأولين أو زادوا عليهم، كما بين ذلك في مؤلفاته رحمه اللــه، فما شــرع في القتــال إلا بعــدما كتب الرسائل والكتب، وأرسلها إلى الطوائف الأخـرى يـبين لهم ويـدعوهم، ويـذكر لهم ما يدعوهم إليه، فهدى الله من هدى بواسطته، وأصر بعضهم على عناده، وشرع يلبس على الناس، فلما قـامت عليهم الحجة عند ذلك أمر بالقتـال. ولا شك أنهم كانوا يدعون أنهم مسلمون، ويقرءون القرآن، ويـأتون بالشـهادتين، ويصلون ويزكون ويصومون ويحجون؛ ولكن يشركون، وذلك بعمارة المشاهد، التي هي القبـور، وتسـمى الآن في العـراق مشـاهد، والواحد منهم مشـهدي؛ وهم يحجــون إلى تلك القبــور، وعنــدهم معابد أعظم من الحــرمين كـالنجف وكربلاء، فهم يأتون إليها بخشوع وبإقبـال ونحو ذلـك. وهنا في نجد كـان يوجد قبور كـانت منصـوبة ومرفوعة ويـذبح عنـدها ويجلس عنـدها ويتحـرى الصـلاة عندها، ويطوفون بها، ويدعون أصحابها، ويهتفون بأسمائهم: يا زيد، يا يوسف، يا شمسان، يا فلان! فقال لهم الشـيخ محمد بن عبد الوهـاب : أليس هـذا هو الدعاء لغير الله؟ أليس الله يقول: فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا [الجن:18] ؟ فلم يجدوا بداً من أن يقتنعـوا بكلامـه، ولكن بعضـهم فتنـوا وزاغـوا، وأصـروا على شركهم، فحكم بكفرهم بعدما قامت عليهم الحجة، بل الثابت عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه ما قاتل قومـاً إلا بعد أن دعـاهم، ولما أرسل عليـاً رضي الله عنه لدعوة اليهود، وهم يهود، ومعلوم عنادهم، قال له: (انفذ على رسـلك حـتى تـنزل بسـاحتهم، ثم ادعهم إلى الإسـلام، وأخـبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعـالى فيـه، فوالله لأن يهـدي الله بك رجلاً واحـداً خـير لك من حمر النعم) فالرسول عليه الصلاة والسـلام قصـده أن يـدخل النـاس في الإسـلام، ليس قصده أن يقاتل، وليس قصده أن تكون له سيادة ومنصب وملك وسـعة تصـرف، أو أمـوال يقتنيهـا، ما كـان هـذا قصـده، إنما قصـده هداية النـاس، وإقبالهم على الدين ودخولهم فيه. وهذا هو الـذي يجب علينا بالنسـبة إلى كل المبتدعة في زماننـــا، أن نحــرص على دعــوتهم، وبيــان الحق لهم، وإظهــار الأحكـام الشـرعية، وبيـان مطابقتها للحقيقـة، فـإذا أصـروا بعد ذلك وعانـدوا فهنالك يقـاتلون، إلا إذا كـانوا معاهـدين أو لهم ذمـة، الـذميون والمعاهـدون والمستأمنون هؤلاء يؤمنون بقدر مـدتهم؛ لقوله تعـالى: إِلَّا الَّذِينَ عَاهَـدتُّمْ مِنَ الْمُشْــرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُــوكُمْ شَــيْئًا وَلَمْ يُظَـاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَـدًا فَـأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ [التوبة:4]. وعلى كل حال هذه مسـألة ذات أهميـة، وهي:

مسألة التكفير والتفسيق ونحوها، وعلينا أن نعرف الفرق بين أن نقـول: هـذا العمل كفر، وهذا الشخص كافر. ......

من يحكم بكفره ودخوله النار

متى نحكم على الإنسـان بأنه كـافر، وبأنه في النـار؟ إذا عرفنا أنه مـات على الكفر، وهو ممن قامت عليه الحجة، كالـذين قتلـوا في عهد النـبي صـلى الله عليه وسلم وهم كفار، أو جاءت الأدلة بأنهم من الكفار، وهكذا من بعدهم، إذا عرفنا أن شخصاً ممن عاند الحق، وقاتل ضده، وعرفه المعرفة التامــة، ورده الرد الشنيع، وضلل أهله، وعاند في قبوله، واستمر على ذلك، ومات ولم يتب ولم يرجع عن بدعته المكفرة أو عن كفره، فحينئذ ندعو عليـه، ونسـتحل لعنه وشـتمه، ونقـول: إنه في النـار. إذا تمت هـذه الشـروط. فأما من لم يتم ذلك فيه فنكل أمره إلى الله. مثال ذلـك: أن أبا لهب توعـده الله بقولـه: سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ [المسد:3] ، وكذلك أبو جهل مات على الكفر وقتل عليه، قال النبي صـلى الله عليه وسـلم: (إنه فرعـون هـذه الأمـة) ، فمثل هـؤلاء نتحقق أنهم في النــار، ونحكم عليهم بــذلك، وأشــباههم ممن تحقق أنه مــات على الكفر، وكذلك مسألة الإيمان كما سيتطرق إليها الشارح إن شاء الله. ......

الأقوال المختلفة في أصحاب المعاصي

قال الشارح رحمه الله: [والمعتزلة موافقـون للخـوارج هنا في حكم الآخـرة، فإنهم وافقوهم على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، لكن قـالت الخـوارج: نسميه كافراً. وقالت المعتزلة: نسـميه فاسـقاً. فـالخلاف بينهم لفظي فقـط. وأهل السنة أيضاً متفقون على أنه يستحق الوعيد المـرتب على ذلك الـذنب، كما وردت به النصوص، لا كما يقوله المرجئة من أنه لا يضر مع الإيمـان ذنب، ولا ينفع مع الكفر طاعـــة! وإذا اجتمعت نصـــوص الوعد الـــتي اســـتدلت بها المرجئة، ونصوص الوعيد التي استدلت بها الخوارج والمعتزلة تبين لك فسـاد القولين، ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى أنك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى. ثم بعد هـذا الاتفـاق بين أهل السـنة اختلفـوا اختلافـاً لفظياً، لا يترتب عليه فساد، وهو أنه هل يكون الكفر على مراتب، كفـراً دون كفر؟ كما اختلفوا هل يكـون الإيمـان على مـراتب، إيمانـاً دون إيمـان؟ وهـذا الاختلاف نشأ من اختلافهم في مســمى الإيمـــان: هل هو قـــول وعمل يزيد وينقص أم لا؟ بعد اتفــاقهم على أن من ســماه الله تعــالى ورســوله كــافراً نسميه كافراً، إذ من الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنــزل الله كافراً، ويسمي رسوله من تقـدم ذكـره كـافراً، ولا نطلق عليهما اسم الكفـر. ولكن من قـال: إن الإيمـان قـول وعمل يزيد وينقص، قـال: هو كفر عملي لا اعتقادي، والكفر عنده على مراتب، كفر دون كفر، كالإيمان عنده. ومن قـال:

إن الإيمــان هو التصــديق، ولا يــدخل العمل في مســمى الإيمــان، والكفر هو الجحود، ولا يزيدان ولا ينقصـان، قـال: هو كفر مجـازي غـير حقيقي، إذ الكفر الحقيقي هو الـذي ينقل عن الملـة. وكـذلك يقـول في تسـمية بعض الأعمـال بالإيمان، كقوله تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ [البقرة:143] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، إنها سميت إيماناً مجـازاً؛ لتوقف صـحتها على الإيمــان؛ أو لدلالتها على الإيمان، إذ هي دالة على كون مؤديها مؤمناً؛ ولهذا يحكم بإسـلام الكافر إذا صلى كصلاتنا، فليس بين فقهاء الملة نزاع في أصحاب الذنوب، إذا كانوا مقرين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسول، وما تـواتر عنهم أنهم من أهل الوعيد. ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم في النـار، كـالخوارج والمعتزلـــة، ولكن أردأ ما في ذلك التعصب على من يضـــادهم، وإلزامه لمن يخالف قوله بما لا يلزمه، والتشنيع عليه! وإذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين، وأن يجادلوا بالتي هي أحسن، فكيف لا يعدل بعضـنا على بعض في مثل هذا الخلاف؟! قال تعـالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا كُونُـوا قَـوَّامِينَ لِلَّهِ شُـهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَـوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْـدِلُوا اعْـدِلُوا هُـوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْـوَى [المائدة:8]]. ......

عقيدة أهل البدع في أصحاب المعاصي

ذكرنا أن هناك طوائف في هذا الباب انحرفـوا، فطائفة المعتزلة يقولـون: إن أصـــحاب المعاصي خـــارجون من الإســـلام، ولم يـــدخلوا في الكفر بحيث لا تســتباح دمــاؤهم ولا قتــالهم، ولكنهم يخلــدون في النــار. وطائفة الخــوارج يقولون: أصحاب الكبائر كفـار، يقـاتلون، وتحل دمـاؤهم وأمـوالهم، وإذا مـاتوا ماتوا كفـاراً، يعـاملون معاملة الكفـار، لا يغسـلون ولا يصـلى عليهم، وهم في الآخـرة يحكمـون عليهم بـالخلود في النـار، هـذا قـول الخـوارج، ويسـتدلون بالأحاديث التي تقدمت في الكفر كقوله: (أربع في أمـتي من أمر الجاهليـة) ، أو: (اثنتان في الناس هما بهم كفر) وما أشبه ذلك. وطائفة المرجئة يقولـون: لا يضر مع الإيمــان ذنب، كما لا ينفع مع الشــرك عمــل، وهــذه طائفة تــبيح للإنسان أن يكثر من المعاصي، وأنها لا تضره، ولو زنى، ولو سرق، ولو قتــل، ولو شـرب الخمـر، ولو كـذا وكـذا، وذلك كله لا ينقص إيمانـه، فإيمانه كامـل، وحسناته كاملة، وهو من أهل الجنة، ولا تضره هذه الكبائر ولا هـذه السـيئات، فيبطلون الأحاديث التي فيها الوعيد، ونحو ذلك، وهؤلاء أيضاً مخطئون.

عقيدة أهل السنة في أصحاب المعاصي

القول الوسط هو قول أهل السنة حيث قالوا: إن أهل المعاصي يخاف عليهم الوعيد، يخـاف عليهم النـار ما دام أنهم قد سـموا في بعض الأحـاديث كفـاراً، وسموا في أحـاديث أخـرى فسـاقاً، فلابد أن هـذه المعاصي تضـرهم، فإما أن تؤخرهم عن دخول الجنة، ولا شك أن ذلك ضرر، وإما أن يدخلوا بها النـار، ولا شك أن ذلك ضـرر أعظم؛ لأنهم قد يـدخلون النـار ويطـول مكثهم فيهـا، وقد يدخلون النار ولا يطول مكثهم، وذلك على قدر أعمالهم، وأشـباه ذلـك، وهـذا دليل على أن المعاصي لها تـأثير على العاصـي، فلأجل ذلك يخـاف عليه إذا أصر عليها. ومعروف أن الشرع ما حذر من المعاصي وأكـثر الـذم لها إلا ولها تأثير في الإيمان، فعلى الإنسان أن يرجع إلى الأحاديث التي وردت في الحث على كثرة الطاعات، والتحذير من المعاصي، حتى ولو كـانت صـغيرة، ويحـذر من الإصرار عليها، ويتذكر آثارها ومضارها، فسيكون ذلك زاجـراً للمسـلم عن أن يصر على كبيرة، أو عن أن يأتي ذنباً ولو مرة واحدة؛ مخافة أن يسـبب له عذاباً عاجلاً أو آجلاً.

سبب الخلاف في حكم أهل المعاصي

ذكر الشارح أن هذه المسألة مبنية على قول من يقول: إن الإيمـان يتفـاوت، وإن هناك إيماناً كاملاً، وهنـاك إيمانـاً ناقصـاً، وإن هنـاك كفـراً دون كفر ونحو ذلـك. وهـذه الآيـات الـتي في سـورة المائـدة: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنـزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَـافِرُونَ [المائـدة:44]، وقولـه: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنـزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [المائدة:45]، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنـزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِـقُونَ [المائـدة:47] بعض السـلف أطلق عليهم هـذا الكفر والفسق والظلم؛ وذلك لأنهم عاندوا، وعرفوا أنه حكم مغـاير لحكم اللـه، وشـرعوا مع الله، وجعلوا شرعهم أحسن من شـرع اللـه، وتنقصـوا حكم اللـه، وادعـوا أنه ليس بمناسب وليس بصالح، فلأجل ذلك حكم عليهم بالكفر والظلم والفسق. وآخـرون قـالوا: إذا فعل ذلك لهـوى، ورأى أن الحكم الشـرعي لا يناسب في بعض الأحيان، وأن الحكم بغيره قد يكـون أنسـب، فحكم بـذلك متـأولاً، فإنا لا نخرجه من الإسـلام، بل نجعله دون هـذا، فقـالوا: كفر دون كفـر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، وهذا على طريقة من يجعل الكفر يتفـاوت، ويجعله كفراً أكبر، وكفراً أصغر، وكفراً أوسط، وكذلك يجعلون الإيمـان إيمانـاً كـاملاً، وإيماناً متوسطاً، وإيماناً ناقصاً. ونحن نقول: نعم؛ الإيمان يتفاوت؛ ولأجل ذلك تنقصه المعاصـي، وتزيـده الطاعـات. وأما الكفر فنقـول: إن الكفر يبطل الأعمـال كما ذكرنا أدلتـه، فلأجل ذلك الكـافر ولو أدى أعمـالاً في حياته لا تنفعه، إلا أننا إذا رأينـاه يعمل الأعمـال الـتي تختص بالإسـلام عاملنـاه معاملة المسلم، فمن رأينـاه مثلاً: يصـلي، ويحافظ على الصـلاة مع الجماعـة؛ حكمنا

بأنه مسلم؛ لأننا نحكم بالظاهر، ونكل أمر السـرائر إلى الله تعـالى، ولو كـان في الباطن كافر فباطنه أمـره إلى اللـه. لكن إذا رأينـاه مع الصـلاة يعبد غـير الله مثلاً أو يشرك، أو يحكم بغير الشرع، ويفضل حكم غير الشرع على حكم الشرع عاملناه بما يستحقه. وبذلك يعرف أن باب تفاوت المؤمـنين، وتفـاوت الكفـار يكـون بحسب ما في القلـوب من الإيمـان أو من ضد الإيمـان، وهـذه مسألة لها أهميتهـا، يعـرف الإنسـان أن أهل الإيمـان يتفـاوتون، فإيمـان قـوي يحمل على كثرة الطاعات والعبادات، وإيمان ضـعيف لا يزجر عن المحرمـات ولا عن الآثام.

واجب المسلم تجاه مسائل العقيدة

ينبغي للمسلم أن يهتم بأمر دينه؛ حتى يسلك طريق النجاة، ولا شك أن مبنى دينه على أمور العقيدة، الـتي إذا ثبتت ورسـخت انبنت عليها صـحة الأعمـال، وأثيب عليهـا، وإذا فسـدت العقيـدة انبـنى عليها وتـرتب عليها فسـاد الفـروع والأعمـال. ولا شك أن من جملة العقيـدة أسـماء الإيمـان والـدين، وقد عرفنا جانباً كبيراً منها فيما يتعلق بالتكفير والتفسيق، وطريقة أهل السنة في ذلـك، ومن خالفهم. وسبب الخلاف في ذلـك: أنه جـاءت أحـاديث كثـيرة فيها الحكم بـالكفر على بعض الأعمـال الـتي هي من المعاصـي، وتسـمى تلك النصـوص نصوص الوعيد، أو أحاديث الوعيد، وطريقة أهل السنة فيها أنهم يجرونها على ظاهرهـا؛ ليكـون أبلغ في الزجـر، مع اعتقـادهم أنها لا تخـرج من الملـة، وأن مـرتكب الكبـيرة ولو كـان متوعـداً بـالكفر أو نحو ذلـك، فإنه لا يصل إلى أن يسـتباح دمه ومالـه، وأن يحكم عليه بـالخلود في النـار، بل يقـال: هـذا من الذنوب التي جاء فيها هذا الوعيد، وأمرها إلى الله تعالى، وكل المعاصي التي دون الشرك فإنها تحت مشـيئة اللـه، إن شـاء غفر لصـاحبها، وإن شـاء عذبه بقـدر ذنوبـه. هـذه طريقة أهل السـنة. وقد مر بنا بعض أحـاديث الوعيد الـتي فيها شـيء من الغلظة والشـدة، مثل قوله صـلى الله عليه وسـلم: (لا يـزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسـرق وهو مـؤمن، ولا يشـرب الخمر حين يشـربها وهو مـؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شـرف يرفع النـاس إليه أبصـارهم حين ينتهبها وهو مـؤمن، والتوبة معروضة بعـد) فـإن هـذا فيه نفي الإيمـان، فنحن لا نقـول: إنه خـرج من الإيمـان كليـاً، ولا أنه دخل في الكفـر. المعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان، ولا يدخل في الكفر. والخـوارج يقولـون: يخرج من الإيمان، ويدخل في الكفـر. ونحن نقـول: إنه لا يخـرج من الإيمـان، ولكنه تحت مشـيئة اللـه، ونقـول: إنه فاسق بهـذا الـذنب، ولا يصل إلى أن يستباح دمه وماله وعرضـه، ولكن ذنبه غليـظ. ومثلـه: قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (اثنتـان في النـاس هما بهم كفـر: الطعن في النسـب، والنياحة

على الميت) ومعلــوم أن هــاتين المعصــيتين لا يكفر بهمــا. ومثل قوله عليه الصلاة والسلام: (سـباب المسـلم فسـوق، وقتاله كفـر)، ومعلـوم أن قتاله لا يصل إلى حد أنه يخرج من الملة. ومثلـه: قوله صـلى الله عليه وسـلم: (ليس منا من لطم الخــدود وشق الجيــوب، ودعا بــدعوى الجاهليــة) ، والأحــاديث الكثيرة التي فيها: (ليس منا) كقوله: (من غشنا فليس منا) . وأحاديث البراءة كقولـه: (من عقد لحيتـه، أو تقلد وتـراً، أو اسـتنجى برجيع دابة فـإن محمـداً بريء منه) وما أشبه ذلك مما فيه البراءة من هذا الفعل أو الفاعل. نقول: إن هذه جاءت للزجر عن هذه المعاصـي، ومعلـوم أنه جـاءت أحـاديث تـدل على إخراج المسلمين الذين هم من أهل التوحيد من النار، إما بشفاعة الشافعين، وإما برحمة الله تعالى، فتلك الأحـاديث تـدل دلالة واضـحة على أنه وإن عمل الكبائر ونحوها لا يصل إلى حد الكفر. وفي حديث أبي ذر لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه يخـرج من النـار من قـال: لا إله إلا اللـه، وفي قلبه ذرة من إيمان -يعني: أن عنده أصل الإيمان- فقـال أبو ذر : وإن زنى وإن سـرق؟ قـال: وإن زنى وإن سـرق) فيـدل على أنه لا يصل إلى حد الكفر بمثل هـذه الذنوب. ومع ذلك فإنه لا يجوز التساهل بهذه الذنوب؛ وذلك لأن التسـاهل بها والإدمان عليها يقسي القلب، ويصد عن الطاعة وفعل الحسنات، ويجرئ على كثرة السيئات، ويضعف الخوف من الله في القلب، وقد يسـبب هـذا الضـعف ترك الواجبات، وارتكاب المحرمات، مما قد يكون سبباً في الطعن بالشـريعة والعيب لها، والاعتراض على الله تعالى في تحريم هذا الشيء، أو إيجاب هـذا الشيء، وذلك كفر؛ لأنه من الاعتراض على الله تعالى، ورد لأحكامه، والطعن في شيء من الشريعة بأنه غير مناسب، أو أنه جـور أو نحو ذلـك؛ تقـوّل على اللـه، واعـتراض عليـه؛ فلأجل ذلك ينهى عن الإصـرار على الـذنوب حـتى ولو كانت صـغائر. ويكـثر في الأحـاديث الزجر عن صـغائر الـذنوب وعن كبائرهـا، وتكثر الأدلة على الوعيد الشديد على بعض الـذنوب، ويستشـهد العلمـاء بأدلة فيها الهلاك والـردى والعـذاب لمن فعل هـذه الـذنوب، ولمن أصر عليهـا، وإذا عرف المسلم ذلك لم يتهاون بها ولو كانت لا تصل إلى الكفـر؛ مخافة أنها مع التساهل ومع الاستمرار عليها تقسي قلبـه، وتصـده عن ذكر الله وعن معرفة الله. والمسلم إذا تخلى عن السيئة حتى ولو صغيرة، وكرهها بقلبــه، فبلا شك أنه سوف يحب الطاعـات ويألفهـا، وتسـهل عليـه، ويحب الاسـتكثار منهـا، ولا شك أن الإقلاع عن السـيئة والبعد عنهـا، وكـثرة الحسـنات، وكـثرة الأعمـال الصالحة مما يرفع الله تعالى به العبد درجات، ومما يقبل منه عبادته، ولا شك أن سبب ذلك معرفة عظم ثواب الله تعالى وأجره، حتى يكـون بـذلك مثـابراً مكباً على الإكثـار من الحسـنات، وحـتى يعـرف عقـاب الله وأليم عذابه على إصـراره على الكبـائر، ولو عـذاب يـوم أو عـذاب سـاعة أو نحو ذلـك، فكيف بعذاب دهور متطاولة؟! كل ذلك مما يبعد الإنسان عن المعاصي، أي: معرفته بجزيل الثواب، ومعرفته بأليم العقاب. ......

الحكم بغير ما أنزل الله، وأقسام أهله

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [وهنا أمر يجب أن يتفطن له، وهو: أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً ينقل عن الملة، وقد يكون معصية: كبيرة أو صغيرة، ويكون كفراً: إما مجازياً، وإما كفراً أصغر، على القولين المذكورين. وذلك بحسب حال الحاكم: فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مخير فيه، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله؛ فهذا كفر أكبر. وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله، وعلمه في هذه الواقعة، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة؛ فهذا عاص، ويسمى كافراً كفراً مجازياً، أو كفراً أصغر. وإن جهل حكم الله فيها، مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأ، فهذا مخطىء، له أجر على اجتهاده، وخطؤه مغفور. وأراد الشيخ رحمه الله بقوله: (ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله) مخالفة المرجئة، وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الأولين، فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك، فإن قدامة بن مظعون شرب الخمر بعد تحريمها هو وطائفة، وتأولوا قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [المائدة:93] الآية، فلما ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اتفق هو وعلي بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على استحلالها قتلوا. وقال عمر لقدامة : (أخطأت استك الحفرة، أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر). وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب أن الله سبحانه لما حرم الخمر، وكان تحريمها بعد وقعة أحد، قال بعض الصحابة: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فأنزل الله هذه الآية، وبين فيها أن من طعم الشيء الحرام في الحال التي لم يحرم فيها، فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين، كما كان من أمر استقبال بيت المقدس. ثم إن أولئك الذين فعلوا ذلك ندموا وعلموا أنهم أخطئوا وأيسوا من التوبة، فكتب عمر إلى قدامة يقول له: حم*تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ [غافر:1-3] ما أدري أي ذنبيك أعظم؟ استحلالك المحرم أولاً أم يأسك من رحمة الله ثانياً؟ وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الإسلام]. سمعنا أولاً تفصيل القول في الحكم بغير ما أنزل الله، وأنه ينقسم أهله إلى ثلاثة أقسام: ......

الحاكمون بغير ما أنزل الله مع اعتقادهم أنه أحسن من حكم الله

القسم الأول: أنهم كفار، وهم الذين يعرفون حكم الله وينتقدونه، ويقولون: إن الحكم الشرعي لا يناسبنا، أو إن الحكم الشرعي الذي في القرآن والسنة قديم، ولا يناسب هذا الزمان، فنحن نبتكر ونبتدع حكماً يناسب هذا الزمان؛ حتى يوافق الحال. فهؤلاء الذين يحكم أكثرهم بالقوانين الوضعية في هذا الزمان هم كفار والعياذ بالله، وذلك أنهم يعرفون الأحكام الشرعية المأخوذة

من الوحــيين، ولكن زهــدوا فيهــا، ورموها خلف ظهــورهم. من أين أخــذوا قوانينهم التي يحكمون بها؟ أخذوها من الغربيين، أخذوها من محاكـاة الأفكـار الغربيـة، ومن زبالة الأذهـان الغربيـة، ومما تلقـوه عن الغربـيين وعن اليونـان وعن الكفرة والملاحدة، فهم قد جمعوا لهم هذه القـوانين ووضـعوها، وجعلـوا التحاكم إليها. وكان من نتيجتها تعطيل الكثـير من الحـدود، وتغيـير الكثـير من الأحكــام، فمنهم الــذين لا يجعلــون المــال خاصــاً، وهم الــذين يســمون بالاشـتراكيين ونحـوهم، فهـؤلاء طوائف كثـيرة يتسـمون بـأنهم مسـلمون، وينزعون الملكيات من أهلها، ويستبدون بهـا، ويتصـرفون فيهـا، ويزعمـون أن هذه اشتراكية، وكذبوا وإنما هي استبدادية، فهذا من جملة أحكامهم الجـائرة. كذلك من نتيجة أحكامهم تغيـير كثـير من الفـرائض والمـواريث الـتي فرضـها الله، فهم غيروا فيها وحرمـوا كثـيراً، وأعطـوا من لا مـيراث لهم، ونحو ذلـك، ويطول بنا التفصيل لو ذكرنا ذلك. كـذلك من نتيجة أقـوالهم تعطيل كثـير من الحــدود، فالقصــاص عنــدهم لا يجــوز، مع أن الله تعــالى يقــول: وَلَكُمْ فِي الْقِصَـاصِ حَيَـاةٌ [البقـرة:179] سـواء في الطـرف أو في النفس، يسـتبدلون بدله أخذ المال من القاتل، أو نحو ذلك حتى يترك، أو يستبدلون بدله السـجن المؤبــد، أو نحو ذلــك. وكــذلك تعطيل حد الزنــا، حيث أبــاحوا الزنا إذا كــان الزانيـان متراضـيين؛ لأن هـذا شـيء يملكانـه، وقد بـذلاه باختيارهمـا. وكـذلك تعطيل حد الخمر، حيث إن الخمر عنـدهم أمر مبـاح ليس فيه أي بـأس، وأنها جائزة، وأن الحكم بتحريمها حكم ظلم وجـور، وانتقـدوا الشـرع في تحريمهـا، إلى غير ذلك من تفاصيل هذه الأحكام الوضعية. نقـول: لا شك أن هـذا كفـر، حيث اعترضــوا على الشــرع وخطئــوه، وادعــوا أنه قد تغــير، وأنه لا يناسب التطور -كما يقولون- فجعلوا حكمهم أحسن من حكم الله، والله يقــول: وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَـوْمٍ يُوقِنُـونَ [المائـدة:50]. هـذه مقالة هـؤلاء الـذين يجعلون الحكم بغير ما أنزل الله على حسب أهـوائهم، فيحكمـون بما يلائمهم ويتركون حكم الله وهم يعرفونه، ويطعنون في حكم الشرع، لا شك أن هؤلاء كفار: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [المائدة:44] .

الحاكمون بغير ما أنزل الله لهوى في نفوسهم

القسم الثاني: الذين يحكمون به وهم يعرفون أنه حرام، ولكن يقولون: لعذر، أو لضــرورة، أو نحو ذلـك، فهـؤلاء عصـاة، إلا إذا كـانوا مضـطرين. كثـير من المسلمين من الإخوان الصـالحين يضـطرون إلى السـفر إلى بلاد تحكم بحكم الطاغوت الذي هو القوانين الوضعية، مع أن الذين يحكمـون بها إما مسـلمون وإما غير مسلمين، ويكون لأحدهم حق، وإذا كان له حق فماذا يفعـل؟ يقـول: هل أتـرك حقي يضـيع أو أتحـاكم إلى محـاكمهم هـذه الـتي هي قانونيـة، وأنا

أعرف أني صاحب حق، وأنا أعرف أنهم يحكمون بحكم الطاغوت، ولكني مضطر إلى التحاكم إليهم؛ لعدم وجود حاكم شرعي، ولو تركت حقي لذهب علي، وهو قد لا يتساهل به؟ ففي هذه الحال هو معذور؛ حتى لا يضيع حقه، هو معذور إذا ترافع مع خصمه إلى أولئك الذين يحكمون بالقوانين، ومتى حكموا له أخذ حكمهم، وألزموه ضرورة؛ لأنه في بلادهم. والحاصل أن الذي يحكم بها وهو يعلم أنها محرمة، ولكن يدعي أنه مضطر إليه أو أنها ذنب، وأنه لا يناسب في هذا الوقت، أو لا يخلص له حقه في هذا المجال إلا بهذا، فهو معذور، ولكن هو مذنب، حيث إنه تعاطى الشيء الذي اضطره إلى ذلك، وأما إذا كانت ضرورة فلعله معذور.

المجتهد المخطئ في الحكم

القسم الثالث: الذي اجتهد في طلب إصابة الحق ولكنه لم يصبه، فحكم باجتهاده، فهذا معذور، وهو الذي له أجر على اجتهاده، ويغفر خطؤه. هذه أقسام من يحكم بغير ما أنزل الله. عرفنا أن منها ما هو معصية، ومنها ما هو كفر، ومنها ما هو عذر. سمعنا قصة قدامة بن مظعون في عهد عمر رضي الله عنه، كان قدامة وبعض المسلمين في الشام، والشام يكثر فيها صناعة الخمر، وكانوا في الشام وفي مصر يجلسون فيها يدعون إلى الله، ويعلمون من دخل في الإسلام، وكانوا يجالسون أولئك، فعند ذلك يرونهم يشربون الخمر، فقدامة واثنان معه شربوها، وتأولوا هذه الآية التي في سورة المائدة، لما ذكر الله تحريم الخمر: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ [المائدة:90-91] ، ثم قال بعد ذلك: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [المائدة: 93] فظنوا أن هذه باق حكمها فقالوا: نشربها ونتقي ونؤمن ونحسن ويغفر لنا، ولا يكون علينا حرج، فهذا تأويل منهم، فهم ظنوا أن شربها لا ينافي الإيمان فشربوها. ولما وصل الخبر إلى عمر -وكان رجلاً غيوراً- أمر أن يجلدوا حتى ولو كانوا من مشاهير المسلمين، فجلدوا حد الخمر، ولكن سأل الأمير هناك وهو أبو عبيدة فقال: إن وقعوا فيها عن معصية فعليهم الجلد، وإن أصروا واعتقدوا أنها حلال مباحة فعليهم القتل؛ وذلك لأنهم أباحوا ما حرم الله، مع التصريح بتحريمها في الآية، فمن أباح شيئاً حرمه الله حتى ولو لم يتناوله فقد خالف النصوص، فيحكم بردته، ولكنهم تعللوا بأنهم شبه عليهم، وظنوا أن في هذه الآية دليلاً. وقال عمر رضي الله عنه لقدامة :

(أخطأت استك الحفرة، أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات وأحسنت ما شربتها)، فالإيمان والعمل الصالح والتقوى والإحسان زواجر تزجر عن هذه المنكرات، ثم بين لهم أن هذه الآية نزلت في الذين ماتوا وهم يشـربونها قبل التحريم، الذين قتلوا في غزوة أحد أو بدر أو غيرها قبل أن تحـرم الخمر نـزل فيهم لما قال المسلمون: كيف بفلان مـات وهي في بطنـه؟ قتل شـهيداً وهو يشربها، كيف حالتهم؟ فأنزل الله: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا [المائدة:93] يعـني: فيما قد طعمـوا، لم يقـل: فيما سـوف يطعمون، أو فيما يأكلون أو يشربون، بل قال: ((فيما طعموا)) فدل على أن المـراد: في الشـيء الـذي قد طعمـوه قبل التحـريم. وحـتى أنتم الـذين نـزل تحريمها وأنتم أحياء وكنتم تشـربونها، ما قد طعمتمـوه قبل التحـريم قد عفي عنه، فاستقبلوا وقتاً جديداً، وتوبـوا إلى الله وأقلعـوا عنهـا. فالحاصل أن عمر رضي الله عنه بين أنهم إن اعتقـدوا أنها حلال فقد خـالفوا النصـوص، فهـذا يعتبر ردة، وإن قـالوا: بل هي حـرام، ولكنا شـربناها بتأويـل، فهـذه معصـية لا تخرج من الملة، ولكن فيها حد الخمر الذي شرعه اللـه. وبهـذا يعـرف أن من استحل الحرام المعروف من الدين بالضرورة فإنه يكفر، حـتى ولو لم يفعلـه، فمن قال: الزنا حلال إذا كان الزانيان متراضيين، ولا حرج فيه؛ لأنه شـيء من الإنسان، وقد بذلت المـرأة نفسـها، وقد بـذل الرجل نفسـه، فلا حـرج عليهما فيما فعلا ولا إثم! نقول: هذا قد كفر، ولو لم يزنِ هـو؛ وذلك لأنه أحل حرامـاً. ومن قال مثلاً: الربا الذي ذكـره الله في القـرن مبـاح، ولا إثم فيـه، كما حكى الله عن المشركين قـولهم: إِنَّمَا الْبَيْـعُ مِثْـلُ الرِّبَا [البقـرة:275] نقـول: يكفر ولـولم يأكل الربـا، ولو لم يتعامل بـه، إذا أباحه واسـتحله، وجعله مثل الـبيع، وجعله يجوز بالتراضي، ما دام أن المتعاقدين متراضيان؛ ويعتبر بـذلك مرتـداً، ففرق بين من فعل المعصية وهو يعرف أنها معصـية، ولم يسـتحلها، وبين من فعلها وهو مستحل لها، أو استحلها ولو لم يفعلها؛ فإنه يكفر.

الخوف والرجاء عبادتان قلبيتان عظيمتان، وقد ضل فيهما الخـوارج والمعتزلة من جانب، والمرجئة من جانب آخـر، وهـدى الله أهل السـنة لما اختلفـوا فيه من الحق بإذنه.

العقائد المختلفة في الخوف والرجاء

قـال الشـارح رحمه اللـه: [قولـه: (ونرجو للمحسـنين من المؤمـنين أن يعفو عنهم، ويــدخلهم الجنة برحمتــه، ولا نــأمن عليهم، ولا نشــهد لهم بالجنــة، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولا نقنطهم). وعلى المؤمن أن يعتقد هـذا الذي قاله الشيخ رحمه الله في حق نفسه وفي حق غيره، قال تعـالى: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَـهُ وَيَخَـافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً [الإسراء:57]، وقـال تعـالى: فَلا تَخَـافُوهُمْ وَخَـافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ [آل عمـران:175]، وقـال تعـالى: وَإِيَّايَ فَـاتَّقُونِ [البقرة:41]، وقال تعـالى: وَإِيَّايَ فَـارْهَبُونِ [البقـرة:40]، وقـال تعـالى: فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي [البقرة:150] ومدح أهل الخوف فقـال تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَة رَبِّهِمْ مُشْـفِقُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَـاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُـونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِـرَبِّهِمْ لا يُشْـرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُـونَ مَا آتَـوا وَقُلُـوبُهُمْ وَجِلَـةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُـونَ * أُوْلَئِكَ يُسَـارِعُونَ فِي الْخَيْـرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَـابِقُونَ [المؤمنـون:57-61]. وفي المســند والترمــذي عن عائشة رضي الله عنها قــالت (قلت: يا رسول اللـه! ((وَالَّذِينَ يُؤْتُـونَ مَا آتَـوا وَقُلُـوبُهُمْ وَجِلَـةٌ))[المؤمنـون:60] أهو الذي يـزني ويشـرب الخمر ويسـرق؟ قـال: لا يا ابنة الصـديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخـاف ألا يقبل منـه) ، قـال الحسن رضي الله عنـه: عملوا -والله- بالطاعات، واجتهـدوا فيهـا، وخـافوا أن تـرد عليهم، إن المـؤمن جمع إحساناً وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمناً. انتهى. وقد قـال تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَـدُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُـونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ [البقـرة:218] فتأمل كيف جعل رجـاءهم مع إتيـانهم بهـذه الطاعات! فالرجاء إنما يكـون مع الإتيـان بالأسـباب الـتي اقتضـتها حكمة الله تعالى]. ......

عقيدة أهل البدع في الخوف والرجاء

الرجـاء: هو تعلق القلب برحمة اللـه. والخـوف: وجل القلب من عـذاب اللـه. وهنا طائفتان منحرفتان: طائفة المرجئة غلبوا جـانب الرجـاء، وقـالوا: لا تضر الـذنوب، ومهما كـثرت المعاصي فإنها لا تضـر، ما دام أن الإنسـان مـؤمن، لا يضر عندهم ذنب. والطائفة الثانية غلبوا جانب الخـوف، ويسـمون: الوعيديـة:

وهم الخورج والمعتزلة الذين يخلدون أصحاب الكبائر في النار، ولا يجعلون لهم توبة، ويقولون: إنهم قد لا يوفقون للتوبة، وأنهم لا يخرجون من النار، فهؤلاء غلبوا جانب الخوف.

عقيدة أهل السنة في الخوف والرجاء

أهل السنة يأمرون بالجمع بين الخوف والرجاء، أي: أن على الإنسان أن يكون جامعاً بين الخوف والرجاء، فمن العلماء من يقول: عليك أن تسوي بينهما، وقرأت لبعضهم، أنه مثل المحبة والخوف والرجاء بطائر، فقال: المحبة رأس الطائر، والخوف والرجاء جناحاه، فإذا قطع رأسه مات، وإذا قطع أحد جناحيه تحسر، وإذا كمل الجناحان والرأس تم الطيران، فهكذا تكون المحبة حاملة للإنسان على العبادات، الجناح الأول الذي هو الرجاء يحمله على البعد عن اليأس وعن القنوط، ويعلق قلبه برحمة ربه. والجناح الثاني الذي هو الخوف يحمله على البعد عن الآثام، مبعداً له عن المعاصي وعن الذنوب وعن الإصرار عليها. فإذا تذكر سعة رحمة الله ومغفرته وفضله وجوده وإحسانه، ومحبته للتائبين من عباده، ومغفرته للذنوب جميعاً برد قلبه، ورجا رحمة ربه. وإذا قرأ الآيات التي فيها الخوف والعقاب والألم والغضب والنار وشديد البطش ونحو ذلك فزع من المعاصي وابتعد عنها، وتاب وأقلع، وحذر من عقوبتها، فهو دائماً يقرأ هذه وهذه، ولعل هذا هو السبب في أن الله يقرن بين الخوف والرجاء في كثير من الآيات، مثل قول الله تعالى: نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ [الحجر:49-50] فالآية الأولى فيها الرحمة، حتى لا يغلب على العاصي اليأس، والآية الثانية فيها الخوف؛ حتى لا يغلب على قاسي القلب ونحوه التساهل بالمعاصي ونحوها، فخوفه يحمله على البعد عن السيئات، ورجاؤه يحمله على الإكثار من التوبة رجاء أن تقبل حسناته وأن تغفر سيئاته. ومثله: قول الله تعالى: وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ [الرعد:6] قوله: ((لذو مغفرة للناس على ظلمهم)) هذه في الرحمة، فلا تيئس من الرحمة ولا تقنط منها، وقوله: ((لشديد العقاب)) في عدم التساهل بالمعصية؛ فإن الله شديد العقاب. ومثلها: الآية التي استشهد بها عمر رضي الله عنه لما بلغه أن قدامة بن مظعون قد يئس، وانقطع رجاؤه، وظن أنه ليس له توبة، فكتب إليه الآية التي في أول سورة غافر: غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ [غافر:3] جمع الله بين الأمرين: المغفرة، والعقاب. فقال له عمر : (لا أدري أي ذنبيك أعظم: شربك للخمر أولاً، أو يأسك من روح الله) الله تعالى يقول: إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ [يوسف:87] فأنت إذا يئست فقد بلغت هذه الرتبة، فالإنسان بين

هاتين المرتبتين: بين اليأس، وبين الأمن، فلا يكون آيساً ولا يكون آمناً، الآمن: هو أن يكثر من الـذنوب وكأنه آمن، والله تعـالى يقـول: أَفَـأَمِنُوا مَكْـرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [الأعراف:99]. إذاً: المسلم يكـون جامعـاً بين الأمرين: بين الخـوف، بحيث لا يعصـي، وبين الأمن بحيث لا يـيئس، الأمن الذي لا يوصله إلى التهاون بالمعاصـي، يكـون آمنـاً، ولكن ليس أمنـاً من مكر الله، ولكن آمنا بفضل الله، ويكون راجياً لرحمة الله. الذين يقعـون في كبـائر ومعـاص من زنا ومن سـرقة ومن قتل ومن فـواحش، كثـير منهم إذا نصـحته يقول: أنا قد عملت كذا وكذا، وقد شربت الخمور، وقد تركت الصـلوات مـدة طويلــة، وقد قسا قلــبي، وقد فعلت وفعلت... أنا لا تقبل توبــتي، ولا تعمــني الرحمة، أنا مقدم على العذاب، أنا من أهل النار كائن ما كان. فهذا من الذين قـال الله فيهم: وَمَنْ يَقْنَـطُ مِنْ رَحْمَـةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّـالُّونَ [الحجـر:56] هـذا هو القنـوط، وهو قطع الرجـاء، كأنه يقـول: ما دمت فعلت الـذنوب والكبـائر فلا تعمني الرحمة، ولا يصلني العفو، ولا تبلغني رحمة اللـه، أنا مقـدم على النـار، أنا آيس من الرحمة ونحو ذلـك، يقوله بلسـانه والله أعلم بما في قلبـه، ولعل السبب: أنه ألف المعاصي، وشب ونشأ عليها، وصعب عليه تركها، فلأجل ذلك اعتذر بهذا العذر الذي هو أفسد من الفعل. فهؤلاء لا شك أنهم قد وصلوا إلى هـذه الرتبة الخطـرة، وهي اليـأس والقنـوط، أو التسـاهل بالمعاصـي، حـتى إعتقدوا أنهم مقدمون على النار، جازمون بأنهم من أهل النـار. وهنـاك طائفة أخـرى تجـدهم يكـثرون من المعاصـي، ويكبـون عليهـا، وإذا نصـحتهم تعلقـوا بالرحمـة، وقـالوا: رحمة الله واسـعة، الله يغفر الـذنوب جميعـاً، الله وسـعت رحمته كل شيء، الله غفور رحيم، ويتعلقون بالرحمة، فهـؤلاء آمنـون، دخلـوا في قـول اللـه: أَفَـأَمِنُوا مَكْـرَ اللَّهِ فَلا يَـأْمَنُ مَكْـرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَـوْمُ الْخَاسِـرُونَ [الأعراف:99] فتجد أحدهم يترك العبـادات، ويقـترف المحرمـات، ويكـثر من السـيئات، ولا يهـاب الإقـدام عليهـا، ويتعلق بالرحمـة، فمثل هـذا على طريقة المرجئـة، الـذين يقولـون: لا يضر مع الإيمـان ذنب، ويقـول أحـدهم: فكـثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كـريم لا شك أن مثل هـذا قد أمن مكر الله، وتهاون بعقوبة الله، ونقـول لـه: لا تـأمن أن يأتيك الأجل وأنت على هذا التفريط، وأنت متساهل بحدود الله وبحقوقـه، لا تـأمن أن هـذه المعاصي تطمس قلبك وتقسـيه وتحـول بينه وبين المعرفـة، وتحـول بينه وبين التلـذذ بالطاعة؛ فتبقى طريداً شريداً والعيـاذ باللـه! إذا أتـاك الأجل وأنت على هـذه الـذنوب مصر عليها فمـاذا تكـون حيلتـك؟ هل لك اسـتطاعة في الصـبر على النار؟ هل تصبر على عذاب الله ولو لحظة؟ حتى نار الدنيا لو عـذبت بها مـاذا يكون صـبرك في نـار الـدنيا؟ فكيف بنـار الآخـرة؟! تـذكر أنه قد يعـذبك حيث استهنت بحقوقه وبحدوده، وأقدمت على هـذه المعاصـي، وتهـاونت بنظر الله عز وجل، وتهاونت بعقابه، فلا تأمن أن يعاقبك على هذا، ولو كنت موحـداً ولو كنت مؤمناً ونحو ذلك، لا تتهاون بحـدود الله ولا بعقابـه. وعلى كل حـال: فقد ظهر لنا ذم هـاتين الطريقــتين:- طريقة المرجئـة: الــذين يــبيحون المعاصي ويكثرون منها ويحلونها، ويغلبون جانب الرجـاء. وطريقة الخـوارج والمعتزلـة: الـذين يكفـرون بالـذنوب، ويحرمـون العاصي من المغفـرة في الآخـرة، ونحو

ذلك. الطريقة الوسط بينهما: هي أن يكون المسلم خائفاً راجياً، كما جمع الله بينهما في هذه الآية التي في سورة الإسراء، وهي قوله تعالى: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ [الإسراء:57] (يرجون) (يخافون) فجمعوا بين رجاء الرحمة حتى تبرد قلوبهم عن اليأس، وخوف العذاب حتى لا يأمنوا من مكر الله، حتى يحملهم الرجاء على إحسان الظن بالله، ويحملهم الخوف على الحذر من سخط الله، وعن البعد عن معاصيه من صغائر وكبائر، ويحملهم على الأعمال الصالحة التي تقربهم إلى الله، هذا وجه الجمع بين الخوف والرجاء.

عقيدة المسلم في الخوف والرجاء في حق نفسه وغيره

من عقيدة المسلمين الخوف والرجاء؛ الخوف من عذاب الله، والرجاء برحمة الله، ونتيجة هذا أن الإنسان لا يأمن من عذاب الله ومن مكره، ولا ييئس من روح الله ولا يقنط من رحمته، بل يجمع بينهما، ويكون ذلك في نفسه وكذلك في غيره، ففي نفسه يخاف، يقول: إنني مذنب، وإنني مقصر، وأخاف على نفسي من عذاب الله، وأخاف من مقته، ولكن لا يحمله هذا الخوف على القنوط، بل يضيف إلى الخوف الرجاء. وقد ذكر العلماء أنه في حالة الصحة يغلب جانب الخوف؛ حتى يدفعه إلى استقلال أعماله فيستكثر ويتوب، وأما عند الاحتضار وفي حالة المرض فالأولى أن يغلب جانب الرجاء، ورد في حديث: (لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه) رجاء أنه إذا مات وهو على تلك الحال أن يتغشاه الله برحمته، ويصدق عليه الحديث: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء) ، فإذا مات وهو على ذلك رجي له أن يعمه الله تعالى برحمته. هذا بالنسبة إلى الإنسان في نفسه، يكون خائفاً راجياً، يحمله الخوف على أن يحتقر أعماله، ويحمله الرجاء على أن يعلق قلبه بربه، وعلى ألا ينقطع رجاؤه، ولا يقنط من رحمته. كذلك في حق غيره، تخاف عليه وترجو له، فتقول: فلان توفي وهو على الإسلام، نخاف عليه من العذاب، ونرجو له الثواب، أو نرجو للمحسنين، ونخاف على المسيئين. فالمحسنون الذين يظهر من أعمالهم الصالحة أنهم من أهل الخير، ترجو لهم الثواب، وترجو لهم الجنة، وترجو لهم المغفرة، وتأمل أن يكونوا من أهل الخير، وأن يكونوا من أهل الطواعية، وأن يحظوا بالثواب. والمسيئون الذين ماتوا وهم على إساءة، أو باقون وهم على إساءتهم وعلى سيئاتهم، تقول: نخشى عليهم أن يقعوا في العذاب، أو أن يدركهم عذاب الله ونقمته. ذكر ذلك العلماء حتى في كتب الأحكام، في آخر الجنائز من كتب الفقهاء يقولون: نرجو للمحسنين الذين ماتوا وهم من أهل الإيمان والإحسان، نرجو لهم الخير، ولكن لا نجزم بأنهم من أهل الجنة، ولكن نرجو ونغلب جانب الرجاء،

ونخاف على المسيئين الذين مـاتوا وهو مصـرون على بعض السـيئات، أو من أهل الإساءة ومن أهل التقصير في الأعمال نخاف عليهم، ولكن لا نجــزم لهم بالنــار، ولا نجــزم لهم بــدخول العــذاب، وإنما نخشى عليهم. وأما الــذين قد ستروا أنفسهم، ولم يظهر لنا منهم هذا وهذا، ولكنهم في الظــاهر مســلمون، ومن أهل السنة ومن أهل الخير، فهؤلاء لا يجـوز أن نظن بهم ظنـاً سـيئاً، بل يستحب أن يظن بهم الظن الحسن، يستحب أن يحسن الظن بالمسلم الــذي ظاهره الإسلام، ولم يبدُ لنا منه ما يـوجب سـوء الظن، فنقـول: نحسن الظن به، ونرجو له الخير في حياته وبعد مماته.

الجمع بين الخوف والرجاء

المسلم يجمع بين الخوف والرجاء، والأدلة على ذلك كثيرة، ومنها الأدلة الــتي فيها أن الإنسان دائمـاً يكـون خائفـاً راجيـاً، منهـا: أن الله كلما ذكر الجنة ذكر النار، كلما ذكر عذابه ذكر ثوابه، مثل قوله: إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [الانفطار:13-14] آيتان متتابعتان، ذكر النعيم حتى يرجو المسلم، ويدفعه الرجاء على الطلب، ثم ذكر بعده الجحيم حـتى يخشى وحـتى يخـاف، ويدفعه الخوف على الابتعاد عن أسباب دخول الجحيم، وهكـذا في الكثـير من السـور، كلما ذكر الله أهل الجنة ذكر أهل النـار، أو بـالعكس، مثل قولـه: إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا [النبأ:21] ، قال بعد ذلك: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا [النبأ:31] ، ومثل قوله: فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا [النازعـات:37-38] قـال بعد ذلك: وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَـوَى [النازعـات:40] كثـيراً ما يذكر الله تعالى ثواب هؤلاء، وعقاب هـؤلاء؛ ليكـون المـؤمن خائفـاً راجيـاً، سواء في نفسه، أو في بني جنسه.

متعلقات الخوف

الخوف يتعلق بالخوف من بطش الله وعذابه، إذا قيـل: خـفِ اللـه، ألا تخـاف اللـه؟ قد تقـول: كيف أخافـه؟ فيقـال: تخـاف من أن يغضـب، تخـاف من أن يعاقب، تخاف من أن يبطش بك، فإنه شديد العقاب لمن عصـاه، ولمن خـرج عن طاعته. قد يتعلق الخوف بالعذاب، فيقال: أما تخـاف العـذاب؟ أما تخـاف النار؟ أما تخاف عقاب الله؟ قد يتعلق الخوف بالأهوال، فيقال مثلاً: أما تخاف

أهوال القيامـة؟ أما تخـاف هـول المطلـع؟ الكل بمعـنى واحـد، إذا قيـل: خف الله، وخف النار، وخف هول المطلع، النتيجة واحـدة، وهي: أن من خـاف فإنه يهتم لما خاف منه، ويبتعد عنه. وقد ضرب النـبي صـلى الله عليه وسـلم مثلاً للخوف بالخوف الحسي في الدنيا، في حديث عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (من خـاف أدلج، ومن أدلج بلغ المـنزل، ألا إن سـلعة الله غاليـة، ألا إن سلعة الله الجنة) وهذا قلنا: إنه مثل حسـي، يعـني: أن الخـوف في الـدنيا قد يكون خوفاً حسياً، مثلاً: إنسان سافر وحده على قدميه، وضرب طريقاً بعيداً، وهـذا الطريق فيه مخـاوف، فيه قطـاع طريـق، وفيه سـباع، وفيه هـوام، وهو وحده، وليس معه أسلحة يدفع بها هؤلاء القطاع، فماذا يفعـل؟ لا شك أنه في حالة سيره يكون حذراً غاية الحذر، ولا شك أنه يسـير في الـوقت الـذي يهـدأ الناس فيه، ويغفلون فيه، يتحين الوقت الذي يكون قطاع الطريق فيه غافلين أو نائمين أو مشتغلين بحاجتهم، أو نحو ذلـك، فلـذلك قـال: (من خـاف أدلج - الدلجة: هي السير بالليـل- ومن أدلج بلغ المـنزل). في القـديم كـان الإنسـان يقطع المسافات الطويلة على الأرجل وعلى الرواحل في أيام، لكن مع وجود الخوف في الطريق فإنه يسير في الليل خمس ساعات أو عشر سـاعات في غفلة النـاس، وإذا جـاء النهـار كمن واختفى حـتى يظلم الليل عليـه، حـتى لا يتعرض له أحد، يمضي عليه يومان أو ثلاثة أيام وإذا هو قد قطع هذه المسافة حتى يبلغ منزله الذي قصده (ومن أدلج بلغ المـنزل). كـذلك أيضـاً: من خـاف من الله تعالى فإنه يهرب من أسباب عذابه، من خـاف من النـار هـرب منهـا، من خاف من عذاب الله هرب من أسبابه، كما أن من رجا شيئاً طلبه.

علامة الخوف والرجاء

الرجاء الصـادق له علامـة، وهي: صـدق الطلب وصـدق المواصـلة، فـإذا قلت لإنسان: أما ترجو ربك؟ فيقول: أنا أرجوه، ألا ترجو رحمة الله؟ ألا ترجو ثوابه وجنته؟ فيقول: بلى، أنا راجٍ لـه. لابد أن تقـول لـه: أين علامة الرجـاء؟ علامة صدق الرجـاء: هو الطلب، من رجا شـيئاً طلبـه، إذا كنت ترجو الجنة فلابد أن تبذل لها ثمناً، وثمنها هو الحسنات والأعمال الصالحة، فأما من يقول: أنا أرجو ثواب الله وأرجو رحمته وأرجو جنته، ولكنه لا يقدم لها ثمنـاً، فإنه لا تحصل له هذه الجنة، فهي غاليـة، ليست رخيصـة، ولابد لها من ثمن. يا سـلعة الـرحمن لست رخيصة بل أنت غالية على الكسلان كذلك نقول لمن يقول: إني أخــاف النار، نقول له: أما تخاف النـار؟ فـإن قـال: بلى؛ أخـاف النـار، نقـول لـه: أين علامة الخـوف؟ لابد للخـوف من علامـة، فعلامة ذلـك: أن تهـرب من أسـباب دخولهـا، وهي السـيئات، وتبتعد عنهـا، فـإذا ابتعـدت عن السـيئات، وتـركت المخالفات، ولازمت الطاعـات حق الملازمـة، يصـدق عليك أنك من الخـائفين

حقاً، فإذا قلت: أنا خائف من العذاب، وأنت مع ذلك تكثر من الـذنوب، وتكـثر من السيئات، ولا تخاف من عاقبتها، فلست بصـادق حينئـذٍ. تـذكر -عبد اللـه!- أن الجنة قد أخرج منها أبونا آدم بذنب واحد، قـال بعض السـلف: (آدم أخـرج من الجنة بذنب واحد، وأنتم تعملون الذنوب وتكثرون منها، وترجون بها دخول الجنة!). وقال في ذلك بعضهم: يا ناظراً يرنو بعيني راقد ومشـاهد للأمر غـير مشاهد تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي درج الجنان بها وفوز العابد ونسيت أن الله أخـرج آدم منها إلى الـدنيا بـذنب واحد لا شك أن الخـوف قليل في قلوبنا، وكذلك الرجاء غير محقق في صدورنا، والله المستعان!

حقيقة الرجاء ومتعلقاته

قال المصنف رحمنا الله تعـالى وإيـاه: [وقد قـال الله تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَـدُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُـونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ [البقرة:218]. فتأمل كيف جعل رجـاءهم مع إيمـانهم بهـذه الطاعـات، فالرجـاء إنما يكـون مع الإتيـان بالأسـباب الـتي اقتضـتها حكمة الله تعـالى، وشرعه وقدرته وثوابه وكرامته. ولو أن رجلاً له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه، فأهملها ولم يحرثها ولم يبذرها، ورجا أنه يـأتي من مغلها مثل ما يأتي من حرث وزرع وتعاهد الأرض؛ لعده الناس من أسفه السـفهاء، وكـذا لو رجا وحسن ظنه أن يجيئه ولد من غير جمـاع أو يصـير أعلم أهل زمانه من غـير طلب العلم وحـرص تـام وأمثـال ذلـك. فكـذلك من حسن ظنـه، وقـوي رجـاؤه في الفـوز بالـدرجات العلى، والنعيم المقيم من غـير طاعة ولا تقـرب إلى الله تعالى بامتثال أوامـره، واجتنـاب نواهيـه. ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً، اسـتلزم رجـاؤه أمـوراً: أحـدها: محبة ما يرجـوه. الثـاني: خوفه من فواته. الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكـان. وأما رجـاء لا يقارنه شـيء من ذلك، فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأمـاني شـيء آخـر. فكل راج خائف، والسـائر على الطريق إذا خـاف أسـرع السـير مخافة الفـوات. وقـال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِـرُ مَا دُونَ ذَلِـكَ لِمَنْ يَشَـاءُ [النسـاء: 48]، فالمشرك لا ترجى له المغفرة؛ لأن الله نفى عنه المغفـرة، وما سـواه من الذنوب في مشيئة الله، إن شاء الله غفر له وإن شـاء عذبـه. وفي معجم الطبراني: (الدواوين عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان لا يغفر الله منه شيئاً، وهو الشرك بالله، ثم قرأ: ((إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ))، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وهو: مظالم العباد بعضهم بعضـاً، وديـوان لا يعبأ الله بـه، وهو: ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه). وقد اختلفت عبارات العلماء في الفرق بين الكبائر والصغائر، وستأتي الإشارة إلى ذلك عند قـول الشـيخ رحمه اللـه: (وأهل الكبـــائر من أمة محمد في النـــار لا يخلـــدون), ولكن ثم أمر ينبغي

التفطن له، وهو: أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخــوف والاســتهانة بها ما يلحقها بالكبــائر، وهــذا أمر مرجعه إلى ما يقــوم بــالقلب، وهو قــدر زائد على مجــرد الفعــل، والإنســان يعــرف ذلك من نفسه وغيره]. سمعنا أن الرجاء هو محبة الشيء وطلبه، وترك أضــداده، أو تــرك ما يعوق عنــه. أما متعلق الرجــاء، فإنه قد يتعلق بالله تعــالى، وقد يتعلق بثوابــه، وقد يتعلق ببعض خلقه، فيقال مثلاً: أنت ترجو ربــك. ويقــال: هــذا يرجو رحمة الله. ويقال: هذا يرجو الجنــة، رجــاء الشــيء محبته والأمل في أن يحصل لــه. سمعنا أنه لابد لمن رجا أن يعمل، وضرب الشارح لذلك أمثلــة، قــال: لو كــان إنســان له أرض وأهملهــا، وقــال: أنا أرجو أن يكــون لها ثمــرة، وأن يكــون لها بذرة، مثل الذي حرث أرضه أو غرسها أو بــنى فيهــا. فهل يكــون هــذا محقــاً؟ يقول الشارح: لعده النــاس سـفيهاً، كيف ترجو ثمرتها وقد أهملتهــا؟! إذا كنت ترجو منها ثمــراً، إذا كنت ترجو منها غلة فلابد أن تفعل الســبب الــذي تحصل منه الغلة، وهو الحرث والسقي والغرس والإصلاح أو البنــاء والحفر وما أشــبه ذلك. والأمثلة الأخرى أيضاً واضــحة، يقــول: كيف يرجو الإنســان الولد وهو لم يتزوج؟! أو نقول في الأشــياء المحسوســة: كيف يرجو الشــبع وهو لم يتنــاول طعاماً، أو الري وهو لم يشرب شراباً يدفع به الظمأ، أو الــرزق وهو لم يطلبه ويفعل أسبابه؟! فهكذا الذي يرجو السعادة لابد أن يفعل أسبابها، والذي يرجو الجنة يبــذل ثمنهــا، والــذي يرجو رحمة الله تعــالى ويرجو ثوابه يعمل ســبباً يحصل به على ما رجاه، هذا ما يتعلق بالرجاء.

أسباب الخوف

مؤلف المتن ذكر الخوف والرجاء، وأن الخوف على من فعل كبــيرة، فنخــاف على أهل الكبــائر، نخــاف عليهم إذا مــاتوا وهم على كبــائرهم، وكــذلك يخــاف الإنسان من عقاب الله، إذا كان قد فعل ذنباً، وهــذا الخــوف يحمله على تــرك ذلك الذنب، سواء كان كبيراً أو صغيراً، ومعلوم أن الخوف هو الوجل والفــزع الذي يحمله على أن يترك هذا الــذنب ويتــوب منه ويقلع عنــه، ولا يعــود إليــه، فــإذا كــان كــذلك فهو خــوف صــادق. والــذنوب الــتي تســبب العــذاب وتوجبه كالشرك، أو تســببه ولا توجبه وهي ما دون الشــرك، والــذي دون الشــرك من الــذنوب هي إما صــغائر وإما كبــائر، والإصــرار على الصــغيرة يصــيرها كبــيرة؛ وذلك لأن من تهاون بذنب ولو كان صــغيراً وأصر واســتمر عليــه، دل إصــراره وتهاونه به على احتقــاره للــذنوب، ومن احتقر الــذنوب أصــبحت في نفسه عظيمــة، وكونها تصــبح عظيمة لا يبقى لها في قلبه قــدر، فيتهــاون بالــذنوب، ويكــثر من فعلهــا، وتــتراكم عليه وتهلكــه، كما ورد ذلك في الأحــاديث. وأكــبر

الذنوب وأكبر الكبائر هو الشرك، وهو يـوجب دخـول النـار؛ لأن الله ذكر أنه لا يغفره: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ [النساء:48]، وفي الحديث أن الشرك لا يغفر، فجعل الدواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر وهو الشرك، صـاحبه لابد أن يـدخل النار بقدر شركه إن كان أصغر، أو يخلد فيها إن كان أكبر، وديــوان لا يعبأ الله بـه، وهو ظلم العبد نفسـه، تقصـيره في حقـوق نفسـه، هـذا يغفـره الله ولا يحاسب العبد عليـه، وديـوان لا يـترك الله منه شـيئاً، وهو مظـالم العبـاد فيما بينهم، فالقصاص فيها لا محالة، إذا كان الإنسان عنده مظـالم للخلق فلابد أن تستوفى هذه المظالم في الدار الآخرة. والشـاهد منه ذكـره أكـبر الظلم وهو الكفر والشرك، فإن الله سـمى الشـرك ظلمـاً حيث قـال: إِنَّ الشِّـرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان:13]، وسمى الكفر ظلماً في قوله: وَالْكَـافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة:254]؛ وذلك لأن الظلم هو وضع الشـيء في غـير موضـعه، فالكـافر وضع الإيمـان في غـير موضـعه، والمشـرك وضع العبـادة في غـير موضـعها، فأصـبح بـذلك ظالمـاً، بل هو أعلى أنـواع الظلم. نحن نخـاف على المـذنبين، ونرجو للمحسنين، ونخاف من عذاب اللـه، ونرجو ثوابـه، فالمسـلم يجمع بين الخــوف والرجــاء، فمن أســباب الخــوف تــذكر عظمة الله عز وجل وهيبته وكبريائه، وهو أهل أن يخاف حق الخوف، ومن أسباب الخوف: تـذكر العـذاب الــدنيوي، وما أحل الله بالعصــاة، وما وقع بهم من المثلات، وذلك يســبب أن يخـاف العبـاد من عـذاب الله العاجـل، الـذي أنزله بمن كفر به وعصـاه وبغى وتكـبر. ومن الأسـباب الدافعة له أو الداعية إليـه: تـذكر عـذاب الآخـرة، وأن عذاب النار شديد، وأن هول المطلع شـديد، وأن عـذاب الله في الآخـرة أشد وأبقى، وذلك يدفع الإنسان إلى أن يخـاف أشد الخـوف. وقد مـدح الله الـذين يخافونه ويخشونه فقال تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [فاطر:28] يعني: الذين يخشـونه حق خشـيته هم العـارفون بـه، العـالمون بـأمره ونهيـه، والعـالمون بعقوبته وشـدة بطشـه، وقد أمر الله بـأن نخشـاه دون غـيره في قوله تعالى: فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ [المائدة:44] والخشية: شدة الخوف. وكذلك أمرنا أن نخافه وألا نخاف غيره، وأخبرنا بأن الشيطان يخوفنا بأعدائنا، يقول الله تعالى: إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ [آل عمـران:175] الشـيطان يخـوف بأوليائـه، يعـني: يعظم أوليـاءه في نفـوس المؤمنين، ويوقع في نفوسهم أن الكفار أهل قوة وأهل نجدة وأهل عدد وأهل معرفة وأهل خـبرة، وعنـدهم.. وعنـدهم... فاخشـوهم وخـافوهم، فعند ذلك يضعف خوف الله في قلب العبد، ويعظم خوفه من الإنسان، ولا شك أن هـذا هو أعلى مقصد للشيطان؛ فلذلك قال: (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَـوِّفُ أَوْلِيَـاءَهُ) أي: يخـوفكم أوليـاءه، (فَلا تَخَـافُوهُمْ وَخَـافُونِ). والأسـباب الـتي تـدفع إلى الخوف كثيرة، نكتفي منها بهذه.

أسباب الرجاء

الأسباب التي تـدفع إلى الرجـاء: كـون الإنسـان يرجو رحمة اللـه، ويعلق قلبه بربــه، ويثق بأنه ســيعينه وينصــره، وأنه ســينجيه من كيد عــدوه، ويثق بأنه ســبحانه أهل أن يــرحم عبــده، وأن يتجـاوز عن سـيئاته. والأسـباب في ذلك كثـيرة، فمنهـا: تـذكر واسع الرحمـة؛ لأن من أسـماء الله تعـالى: الـرحمن، الــرحيم، وقد وصف نفسه بأنه أرحم الــرحمين، ومقتضى هــذه الرحمة أن يرحمهم وأن يعلق آمـالهم برحمتـه، ولا ييئسـوا من فضـله ومن عطائـه. ومن الأسباب التي تدفع العبد إلى أن يرجوه وحده: تذكر أنه سبحانه قد غفر للعباد المـذنبين، وكفر عنهم السـيئات، ومحا عنهم الـزلات، وهو أهل التقـوى وأهل المغفرة، وهو واسع الفضل وواسع الرحمة، وقد خلق الرحمة مائة جزء، أنزل منها جزءاً يتراحم بها الخلق فيما بينهم، ويوم القيامة يكمل المائة فــيرحم بها عبــاده، كل جــزء منها طبــاق ما بين الســماء والأرض. كـذلك من الأســباب الدافعة للرجاء: أن يتذكر أن الله تعـالى يغفر الـذنوب لمن اسـتغفره، ويفـرح بتوبة التائب، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويقبل على عبـاده إذا أقبلـوا إليه، وفي الحديث القدسي: (ومن تقرب إلى شبراً تقـربت منه ذراعـاً) وذلك كله دليل على أنه واسع الرحمة فيرجوه العباد. ومن الأسباب التي تدفع العبد إلى الرجاء: تـذكره مضـاعفة الله للحسـنات، فإنه يضـاعفها بأضـعاف كثـيرة، فالحسنة بعشرة أمثالها، إلى سـبعمائة ضـعف، إلى أضـعاف كثـيرة، والسـيئة بمثلها، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بأن الله كتب على نفسه الرحمة، وأنه كتب كتاباً عنـده على العـرش: (إن رحمـتي تغلب غضـبي) . فهـذه بعض الأسباب التي لأجلها يجمع العبد بين الخوف والرجاء، فرجاؤه يكـون حـاملاً له على تعلق قلبه بربه، وفعل الطاعات التي يستأهل بها لأن ينال واسع الرحمة والثواب، وخوفه يدفعه إلى الهرب عن المحرمات وعن المعاصـي؛ حـتى ينجو من أسباب العذاب، فإذا جمع بين الخوف والرجاء اعتدل أمره، وأصـبح بـذلك من المؤمنين، فلا أمن ولا يأس، الأمن: هو فعل المذنبين الـذين يصـرون على الذنوب ويأمنون، أَفَـأَمِنُوا مَكْـرَ اللَّهِ فَلا يَـأْمَنُ مَكْـرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَـوْمُ الْخَاسِـرُونَ [الأعراف:99]، واليأس: هو قطع الرجاء، يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيـهِ وَلا تَيْئَسُـوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَـوْمُ الْكَـافِرُونَ [يوسف:87] ، بل الأمر بينهما. قد ذكرنا أنه يستحب في حال الصحة تغليب الخـوف؛ حـتى يحتقر أعماله فيكـثر من الحسـنات، وفي حالة المـرض يغلب جانب الرجـاء؛ حـتى يفد ويقـدم على ربه وهو يحسن الظن بـه، وبـذلك يعمل الحسنات ويهرب من السيئات).

للذنوب مكفرات كثيرة في الدنيا والبرزخ والآخرة، وقد ذكرها أهل العلم بأدلتها من الكتاب والسنة.

مكفرات الذنوب

قال الشارح رحمه الله: [وأيضاً: فإنه قد يعفى لصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، فإن فاعل السيئات تسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة: السبب الأول: التوبة، قال تعالى: إِلاَّ مَنْ تَابَ [مريم:60] ، وقال تعالى: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا [البقرة:160] وغيرها، والتوبة النصوح، وهي: الخالصة، لا يختص بها ذنب دون ذنب، ولكن هل تتوقف صحتها على أن تكون عامة، حتى لو تاب من ذنب، وأصر على آخر لا تقبل؟ والصحيح أنها تقبل. وهل يجب الإسلام ما قبله من الشرك وغيره من الذنوب وإن لم يتب منها أم لابد مع الإسلام من التوبة من غير الشرك، حتى لو أسلم وهو مصر على الزنا وشرب الخمر مثلاً هل لا يؤاخذ بما كان منه في كفره من الزنا وشرب الخمر أم لابد أن يتوب من ذلك الذنب مع إسلامه، أو يتوب توبة عامة من كل ذنب؟ وهذا هو الأصح: أنه لابد من التوبة مع الإسلام، وكون التوبة سبباً لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها مما لا خلاف فيه بين الأمة، وليس شيء يكون سبباً لغفران جميع الذنوب إلا التوبة، قال تعالى: قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [الزمر:53]، وهذا لمن تاب، ولهذا قال: ((لا تقنطوا))، وقال بعدها: وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ [الزمر:54] الآية. السبب الثاني: الاستغفار، قال تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [الأنفال:33]، ولكن الاستغفار تارة يذكر وحده، وتارة يقرن بالتوبة، فإن ذُكر وحده دخلت معه التوبة، كما إذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار، فالتوبة تتضمن الاستغفار، والاستغفار يتضمن التوبة، وكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله. ونظير هذا: الفقير والمسكين، إذا ذكر أحد اللفظين شمل الآخر، وإذا ذكرا معاً، كان لكل منهما معنى، قال تعالى: فَإِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ [المائدة:89]، فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً [المجادلة:4] ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [البقرة:271] لا خلاف أن كل واحد من الاسمين في هذه الآيات لما أفرد شمل المقل والمعدم، ولما قرن أحدهما بالآخر في قوله تعالى: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ [التوبة:60] كان المراد بأحدهما المقل، والآخر المعدم، على خلاف فيه. وكذلك: الإثم والعدوان، والبر والتقوى، والفسوق والعصيان، ويقرب من هذا المعنى: الكفر والنفاق، فإن الكفر أعم، فإذا ذكر الكفر شمل

النفاق، وإن ذكرا معاً، كان لكل منهما معنى. وكـذلك الإيمـان والإسـلام، على ما يأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى]. ......

السبب الأول مما يمحو السيئات: التوبة

لما ذكر الشارح أن الكفر والشـرك أعظم الـذنوب، وأنه لا يغفـر، وذكر أيضـاً الذنوب التي دونه، ذكر أن ذلك يغفر بأسـباب، وهـذه الأسـباب أوصـلها شـيخ الإسلام إلى عشرة أسباب، وأغلبها خاصة بالمسلم، أما المشرك والكـافر فلا يغفر له ولا ينفعه إلا السبب الأول وهو التوبة، فمن تـاب من الكفر محي عنه الكفر، وإذا تـاب من الشـرك محي عنه ذنب الشـرك، فالتوبة تجب ما قبلهـا، (والتائب من الذنب كمن لا ذنب له)، وهذا السبب يعم جميع الذنوب صـغيرها وكبيرها، الكفر وما دون الكفر. إذا وفق الله العبد للتوبة وتاب فإسلامه يعتـبر توبة، وندمه على كفره وعلى سيئاته يعتبر توبة، وعزمه وتصـميمه على أنه لا يرجع إلى شيء من ذلك هو من شروط التوبة، وتركه للأعمال التي تـاب منها يعتـبر أيضـاً من التوبـة، وقد أطـال العلمـاء الكلام على التوبة كما تكلم على ذلك ابن القيم رحمه الله في أول كتابـه: المـدارج، فإنه جعله البـاب الثـاني، وأطال فيها إطالة تستدعيها هذه التوبة. وهل يشترط لمن تـاب أن يتـوب من الذنوب كلها أو يصح أن يتوب من ذنب وهو يعمل ذنباً؟ مثلاً: إذا أسلم الكافر، ودخل في الإسلام، ونطق بالشهادتين، وأتى بالأركان الخمسة، ولكن قـال: أنا لا أصبر عن الخمر، أو لا أصبر على الزنا، واستمر على هذا الـذنب، فهل يقبل منه إسلامه أم لا يقبل؟ الصـحيح: أنه يقبل منـه، ويكـون كسـائر المـذنبين، ما دام أنه يوجد في المسلمين ومن يزني، ولا يخرجه ذلك عن كونه مسلماً، وإن كان ينقص إسلامه أو ينقص إيمانه. كذلك لو أن إنساناً تاب من الزنا ولم يتب من السـرقة، قبلت توبته من هـذه وعـوقب على هـذه، وهكـذا بقية الـذنوب، يصح أن يتوب من ذنب وإن كان معه ذنب آخر، فيقبل عمله في هذا، ويعاقب على الذنب الثاني. أما أدلة التوبة والترغيب فيها فهي كثيرة في القـرآن، وقد ورد الأمر بها، وورد الـترغيب فيهـا، وورد الحث عليهـا، وورد قبولهـا، وأن الله يفرح بها، وما أشبه ذلك.

السبب الثاني مما يمحو السيئات: الاستغفار

الاستغفار مشتق من الغفر الذي هو الستر، غفر الشـيء يعـني: سـتره، ومنه سـمي المغفر الـذي يلبسه المجاهد على رأسه يقيه من السـلاح؛ لأنه يسـتر الرأس، فإذا قال العبـد: أسـتغفر اللـه. معنـاه: أطلبه أن يسـتر ذنـوبي ويمحو

عني أثرهـا، إذا قـال: اللهم اغفر لي. أي: امح عـني السـيئات، وكفرها عـني، وأزل عني ما تلوثت به منها، هذا معنى: أستغفر اللـه، أي: أطلب المغفـرة أو أطلب محو الـذنب؛ وذلك أن الـذنب يسـبب للإنسـان شـيئاً من الأثر السـيئ، كأنه يؤثر عليه أثراً معنوياً، ليس أثـراً حسـياً، فهو تلـويث ووسخ وقـذر وأذى، وإن كـان نظيف الجسد ونظيف البـدن ونظيف الثيـاب، لكنه قد تلبس بهـذه الذنوب فأكسبته شيئاً من هذا الأذى، ومن هذا الوسخ والقذر، فهذا الاستغفار يمحوها، ويزيل أثر السيئات، فإذا قال: اغفر لي. أي: امح عني، واسـترني من آثار هذه السيئات. ذكر الشارح أن الاستغفار مقارن للتوبة، لا يمكنه أن يكون تائباً إلا إذا كان مستغفراً، إذا قال: أستغفر الله. فمعناه: أطلبه أن يمحو عـني ذنوبي، وإذا قال: رب! تب علي. فمعناه: اقبل مني توبتي. وكأن السائل راجع إلى الله بعد أن كان معرضاً، والمستغفر كأنه طالب من الله أن يزيل عنه أثر السيئات، فيكونـان متلازمين، لا تكـون توبة إلا ومعها اسـتغفار، وذكر الشـارح أنهما متقاربان، كل منهما يدخل في معنى الآخر، لو اشتغل إنسان بقوله: إني تائب إلى الله، رب تب علي، أنا تائب إليك، أتوب إلى اللـه، تبت إليك وأنا من المؤمـنين، كفـاه عن طلب الاسـتغفار، ولو قـال إنسـان مثلاً: رب اغفر لي، أسألك مغفرتك، أستغفر الله، غفرانك ربنـا، وأكـثر من طلب المغفـرة، كفـاه عن أن يقول: إني تائب. فالتوبة تقوم مقام الاستغفار، والاستغفار يقوم مقام التوبـة، والجمع بينهما من بـاب التأكيد والتقويـة؛ ولأجل ذلك كـان صـلى الله عليه وسلم يجمع بينهما، ثبت عن ابن عمر قـال: (كنا نعد لرسـول الله صـلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مـرة: رب! اغفر لي وتب علي؛ إنك أنت التواب الرحيم) قوله: (رب اغفر لي) هـذا اسـتغفار، وقولـه: (وتب علي) هذا توبة، أتى بهما معاً، مع أن أحـدهما بمعـنى الآخـر؛ ولكن من بـاب التقوية ومن باب المعاهدة. وكـان عليه الصـلاة والسـلام يكـثر من الاسـتغفار، مع أن الله قد غفر له وقال: لِيَغْفِـرَ لَـكَ اللَّهُ مَا تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِـكَ وَمَا تَـأَخَّرَ [الفتح:2] وكان يعد الغفلة ذنباً فيتـوب ويبـادر، فقد ثبت عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه قال: (إنه ليغان على قلبي -يعني: يغفل قلبي عن الذكر أحياناً- فأسـتغفر الله وأتـوب إليه في اليـوم أكـثر من سـبعين مـرة) هـذه توبة واسـتغفار من تـرك الـذكر، أو من الغفلة أحيانـاً، كيف بنا ونحن دائمـاً إلا ما شـاء الله في غفلـة، وفي سهو، وفي حديث نفس؟! أليس علينا أن نكثر من التوبـة، وأن نكـثر من الاستغفار؟ هذا هو الواجب. فهذان سببان عظيمان في حصول محو السيئات، وإزالة أثرها سواء كانت كبيرة أو صغيرة.

السبب الثالث مما يمحو السيئات: الحسنات

قال المصنف رحمنا الله تعالى وإياه: [السبب الثالث: الحسنات؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، فالويل لمن غلبت آحاده عشراته، وقال تعـالى: إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [هود:114]، وقال صلى الله عليه وسلم. (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) . السـبب الرابـع: المصـائب الدنيويـة، قـال صـلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولا غم ولا هم ولا حـزن، حتى الشـوكة يشـاكها إلا كفر بها من خطايـاه) ، وفي المسـند: (أنه لما نـزل قوله تعالى: مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ [النسـاء:123] قـال أبو بكر : يا رسـول اللـه، نـزلت قاصـمة الظهـر، وأينا لم يعمل سـوءاً؟ فقـال: يا أبا بكر ! ألست تنصــب؟ ألست تحــزن؟ ألست يصــيبك اللأواء؟ فــذلك ما تجــزون بــه) . فالمصائب نفسها مكفرة، وبالصبر عليها يثاب العبد، وبالسخط يـأثم، والصـبر والسـخط أمر آخر غـير المصـيبة، فالمصـيبة من فعل الله لا من فعل العبـد، وهي جزاء من الله للعبد على ذنبه، ويكفر ذنبه بهـا، وإنما يثـاب المـرء ويـأثم على فعله، والصبر والسخط من فعله، وإن كان الثواب والأجر قد يحصل بغير عمل من العبـد، بل هدية من الغـير، أو فضل من الله من غـير سـبب، قـال تعـالى: وَيُـؤْتِ مِنْ لَدُنْـهُ أَجْـراً عَظِيمـاً [النسـاء:40]، فنفس المـرض جـزاء وكفـارة لما تقــدم. وكثــيراً ما يفهم من الأجر غفــران الــذنوب، وليس ذلك مدلوله، وإنما يكون من لازمه. السبب الخامس: عذاب القبر. وسـيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى. السبب السـادس: دعـاء المؤمـنين واسـتغفارهم في الحياة وبعد الممات. السبب السابع: ما يهدى إليه بعد الموت من ثواب صدقة أو قــراءة أو حج، ونحو ذلــك، ويــأتي الكلام على ذلك إن شــاء الله تعــالى. السـبب الثـامن: أهـوال يـوم القيامة وشـدائده. السـبب التاسـع: ما ثبت في الصحيحين: (أن المؤمـنين إذا عـبروا الصـراط وقفـوا على قنطـرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة). السبب العاشر: شـفاعة الشـافعين، كما تقـدم عند ذكر الشـفاعة وأقسـامها. السبب الحادي عشر: عفو أرحم الراحمين من غير شـفاعة، كما قـال تعـالى: وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَـاءُ [النسـاء:48]، فـإن كـان ممن لم يشأ الله أن يغفر له لعظم جرمــــه، فلابد من دخوله إلى الكــــير، ليخلص طيب إيمانه من خبث معاصيه، فلا يبقى في النار من في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقـال ذرة من إيمان، بل من قال: لا إله إلا الله، كما تقـدم من حـديث أنس رضي الله عنـه. وإذا كــان الأمر كــذلك امتنع القطع لأحد معين من الأمــة، غــير من شــهد له الرســول صــلى الله عليه وســلم بالجنــة، ولكن نرجو للمحســنين، ونخــاف عليهم]. هذه هي أسباب رحمة الله ومغفرته، ومحوه للسيئات، وإزالته لأثرها، تقدم السبب الأول وهو: التوبة النصوح، وأن التوبة تمحو الذنوب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. وتقدم السبب الثاني وهـو: الاسـتغفار، الـذي هو طلب محو الـذنوب وإزالة أثرهـا، وورد الأمر به في القـرآن وفي الأحـاديث. وابتـدأ بالسبب الثالث هنا، وهو: الحسنات والأعمـال الصـالحة الـتي تمحو السـيئات، يقول الله تعالى: إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [هـود:114] ، وسـمعنا قـول النبي صـلى الله عليه وسـلم: (وأتبع السـيئة الحسـنة تمحهـا) ، فالحسـنات لا شك أنها تزيل أثر السيئات، ولو كثرت السيئات؛ وذلك لأن الحسنات يضاعفها

الله أضعافاً كثيرة، وأما السيئات فلا تضاعف، وإن كانت قد تعظم بسـبب من الأسباب. ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أخـبر بـأن الحسـنة تضاعف إلى عشر حسنات، يقول في الحـديث: (إذا هم الإنسـان بحسـنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هم بها وعملها كتبها الله عنـده عشر حسنات، وإذا هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسـنة كاملـة، وإذا هم بها وعملها كتبت سـيئة واحـدة -زاد في روايـة:- أو محاهـا، ولا يهلك على الله إلا هالك) . أخبر بأنه إذا هم بحسنة ولكن عاقه عـائق فلم يعملها أثابه الله بنيتـه، وكتب همه حسـنة، وإذا هم بسـيئة فلم يعملهـا، بل تركها خوفـاً من الله كتبها الله حسنة كاملة، وإذا عمل الحسنة فله عشر حسنات، وإذا عمل السيئة فله سيئة واحدة، فويل لمن غلبت آحاده عشراته، الذي تكثر سـيئاته وهي واحـدة واحدة، ثم تغلب حسناته التي هي عشرات، هـذا هالـك، ولا يهلك على الله إلا هالك. فإذا كان الإنسان قد وقع في ذنوب، فإنه يؤمر بأن يكـثر من الحسـنات حتى تمحو أثر تلك السيئات، هذا سبب من أسباب تكفير السيئات.

السبب الرابع مما يمحو السيئات: المصائب الواقعة للإنسان

السبب الرابع: المصائب الـتي تصـيب الإنسـان في هـذه الحيـاة، والأدلة على ذلك كثيرة، الله تعالى يسـلط المصـائب على النـاس ليختـبرهم، قـال تعـالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُـوَ أَخْبَـارَكُمْ [محمـد:31] يعني: نبتليكم بالمصائب حتى نطهـركم، وحـتى نختـبر من يصـبر ومن يجـزع. وردت أدلة كثيرة تدل على أن الحسـنات تـزداد بالمصـائب، والسـيئات تمحى بالمصائب، فإذا صبر العبد على المصـيبة كتب له بها حسـنات، ومحي عنه بها سـيئات، المصـائب تعم المصـائب في النفس وفي المـال وفي الأولاد وفي الأقارب ونحو ذلك، فإذا أصاب الإنسان خوف أو مرض أو جوع أو فقد مال أو فقد ولد أو موت قريب، وحزن على ذلك، وأصـابته هـذه المصـيبة، ولكنه علم أنها من الله؛ أثابه الله. قال علقمة في قول الله تعالى: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْـدِ قَلْبَـهُ [التغـابن:11] : (هو الرجل تصـيبه المصـيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسـلم). وقـال صـلى الله عليه وسـلم: (إن عظم الجـزاء مع عظم البلاء) قولـه: (عظم الجـزاء) يعـني: كـثرة الجـزاء، وقولـه: (مع عظم البلاء) يعني: مع كثرة الابتلاء، ثم قـال: (وإن الله إذا أحب قومـاً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضـا، ومن سـخط فله السـخط) ، وفي الحـديث: (إذا أراد الله بعبـده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حـتى يوافي به يوم القيامة) . وسمعنا قوله صلى الله عليه وسلم: (ما أصـاب العبد من هم ولا غم ولا نصب ولا وصب، حتى الشوكة يشـاكها؛ إلا كفر الله بها من خطاياه) وهذا بشرط أن يعلم أنها من الله ويصبر. أما المصائب الـتي تصـيب

بعض الناس فيشتكي إلى الناس ويجزع ويصيح وينوح، فإن هـذا يبطل أجـره، ولهذا وردت الأدلة الكثيرة في بيان وجوب الصبر، والنهي عن الجزع.

السبب الخامس مما يمحو السيئات: ما يهدى للميت بعد موته

السـبب الخـامس: ما يهـدى إلي الميت بعد موتـه، بعد موته يهـدي إليه المسلمون يدعون له، يتصدق عنه أقاربه أو أحبابه وأصحابه، فيصل إليه ثواب ذلك، فإنهم أولاً يصلون عليه، ويدعون لـه، ويـترحمون عليـه، ويهـدي له أهله حسنات، ويسـتغفرون لـه، ويتصـدقون عنـه، ويوقفـون له أعمـالاً جاريـة، وما أشبه ذلك، فتكون أسباباً في مغفرة الذنب.

السبب السادس مما يمحو السيئات: عذاب القبر

السبب السادس: عذاب القبر، قد يسلط الله عليه العذاب إذا كان عنـده بقية ذنوب، فيكون ذلك سبباً في محوهـا، فتنة القـبر، وعـذاب القـبر، وما فيه من الأهوال.

السبب السابع مما يمحو السيئات: أهوال يوم القيامة

السبب السـابع: أهـوال يـوم القيامـة، ما يكـون في يـوم القيامة من الأهـوال والشـدائد والفـزع الأكـبر، وذلك أيضـاً مما يكفر الله به الخطايـا، ويمحو به الذنوب ونحوها.

السبب الثامن مما يمحو السيئات: المقاصصة

السبب الثامن: ورد في الحديث: (أن النـاس إذا عـبروا الصـراط وقفـوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص من بعضهم لبعض مظالم كانت بينهم)، فهـذا أيضاً مما تكفر به السيئات عن العبد ويزال عنه أثرها.

السبب التاسع مما يمحو السيئات: شفاعة الشافعين

السبب التاسع: أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعـالى يشـفع عبـاده الصـالحين وأنبيـاءه في أهل السـيئات، فيشـفعون لهم، ويخـرج الله من النـار بشفاعتهم من قدر الله أنه تزيل عنه هذه الشفاعة أثر السيئات.

السبب العاشر مما يمحو السيئات: رحمة الله وعفوه بعباده

السبب العاشر: رحمة الله عز وجل، وعفوه عن عبـده، فإنه ورد في الحـديث أن الله يقول: (شفعت الأنبياء، وشفعت الملائكة، وشفع الصـالحون، ولم يبق إلا رب العالمين، فيخرج الله قبضة من النار لم يعملـوا خـيراً قط -يعـني: من أهل التوحيد- فيـدخلهم الجنـة) . وعلى كل حـال هـذه الأسـباب وغيرها يغلب العبد فيها جانب الرجاء، بحيث يعلم أن هذه من الأسـباب الـتي يـدفع الله بها العذاب، ويكفر بها السيئات.

السبب الحادي عشر مما يمحو السيئات: دخول النار بقدر الذنوب

إذا لم تنفع هذه الأسـباب، وبقي على العبد سـيئات لم تكفر بهـذه المكفـرات كلها، فحينئذٍ لابد أن يـدخل الكـير حـتى ينقى، فـإن النـار بمنزلة كـير الحـداد، الحداد إذا كان عنده حديدة فيها صدى، أو فيها مزيج تـراب ونحـوه مـاذا يفعل بهـا؟ يـدخلها النـار حـتى تـذوب، فـإذا ذابت تلك الحديـدة طفا منها الحديد

الخالص، أما الـتراب والصـدى والخبث فإنه يرسـب، ويتـبين ما هو صـالح وما ليس بصالح، قال الله تعالى: وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ [الرعد:17] يوقدون النـار على الـذهب حـتى يـذوب، ويخلص ما هو ذهب وما هو نحـاس، يتمـيز هـذا من هـذا في كـير الحـداد، ويوقد على هـذا الحديد حتى يتمـيز ما هو حديد خـالص وما ليس بخـالص من الـتراب ونحـوه. فكذلك النار الـتي أعـدها الله للعـذاب، يـدخلها هـذا الـذي بقيت عليه سـيئات وبقيت عليه ذنوب لم تكفرها هذه المكفرات، فـإذا هـذب ونقي، ولم يبق فيه إلا ما هو خــالص، عند ذلك أذن الله بإخراجــه، بعــدما يمحص؛ لأن دار النعيم وهي الجنة دار طيبة، لا يدخلها إلا الطيب، لا يجـاور الله فيها إلا من هو طيب، فالــذي عنــده شــيء من الخبث لابد أن ينقى. وعلى كل حــال فعقيــدة أهل السنة أنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد وأهل الإيمان، وأما من ليسوا بمؤمــنين فــإنهم يلحقــون بالكفــار، ومعلــوم أن الإيمــان هو تحقيق الإيمــان بالأركـان السـتة: أن تـؤمن باللـه، وملائكتـه، وكتبـه، ورسـله، واليـوم الآخـر، وبالقدر خيره وشره. الإيمان بهذه الأركان الستة هو الذي يحمل على الأعمال الصالحة، ولكن هـذا الإيمـان قد يكـون ضـعيفاً فيقع معه شـيء من المعاصي والمخالفـات، ويقع صـاحبه في شــيء من التقصـير وتـرك بعض الطاعـات، فتتراكم عليه الذنوب، فيحتـاج إلى ما يمحوها وما يكفرهـا، وقد يكـون ضـعفه كثـيراً فيكـثر تناوله للسـيئات، وقد يكـون ضـعف الإيمـان قليلاً فلا تكـثر منه السيئات، فيمحوها ربه بالمكفرات، وقد يكون الإيمان قوياً راســخاً أرسخ من الجبال، فلا يقدم العبد على شيء من السـيئات ولا من المخالفـات، ولا يـترك شيئاً من الواجبات، فهذا هو السبب. أما من فقد الإيمان بهذه الأمور، وضعف إيمانه بالله، أو لم يؤمن بالله إلهاً ورباً، وإنما أنكر أن يكون الله إلهه وربه، أو عبد إلهاً غيره أو نحو ذلك، أو لم يؤمن باليوم الآخـر، ولم يصـدق بـالبعث، بل أنكر الدار الآخـرة، وأنكر الجـزاء والجنة والنـار، وجعل الـدنيا هي الـدار الـتي ليس بعدها دار، وما أشبه ذلك، وكذلك إذا أنكر الشرع الشريف، وأنكر كتــاب الله أو كتبه المنزلــة، أو أنكر رســالة الرسل وما جــاءوا بــه، أو لم يــؤمن برسـالتهم وبما جـاءوا بـه، أو رد شـيئاً من شـرعهم ولم يقبلـه؛ فمثل هـذا لا يكون مؤمناً؛ وذلك لأنه لم يثبت الإيمان في قلبه، فلا تنفع طاعـات فعلهـا، ولا قربـات تقـرب بهـا، حيث إنها لم تكن على أصـل، ولم تكن على أسـاس. إذاً: فهذه المكفـرات الـتي هي أحد عشر أو اثنا عشر في حق أهل الإيمـان وأهل العقيدة وأهل التوحيد، الذين قد يضـعف توحيـدهم بسـبب من الأسـباب، فأما من ليسـوا من أهل العقيـدة ولا من أهل الإيمـان، بل من أهل الكفر والنفـاق والشرك والمخالفات والإنكار للـدار الآخـرة، أو الإنكـار للجـزاء والحسـاب، أو الإنكار للشرائع أو ما أشبه ذلك، فهؤلاء كفار لا تنفعهم أعمـالهم، بل أعمـالهم يحبطها الله كما قـال تعـالى: وَقَـدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُـوا مِنْ عَمَـلٍ فَجَعَلْنَـاهُ هَبَـاءً مَنْثُورًا [الفرقان:23] ، ولو أكثروا من الصدقات، ولو أكثروا من الحسنات وما أشبه ذلك، ما دام أنها ليست على أساس وأصل أصيل، وهو العقيدة الراسخة التي هي أركان الإيمان كما ذكرنا.

من عقائد أهل السنة أن الإيمان قول واعتقاد وعمل، وقد خالف أهل السنة في هذا كثير من المبتدعة، وأيضاً خالفهم في هذا مرجئة الفقهاء، وقد رد أهل العلم عليهم بنصوص الكتاب والسنة، وبالنقول عن علماء سلف الأمة.

خطر الأمن من عذاب الله واليأس من رحمته

قال الشارح رحمه الله: [قوله: (والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة). يجب أن يكون العبد خائفاً راجياً، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. والرجاء المحمود: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنباً ثم تاب منه إلى الله، فهو راج لمغفرته، قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [البقرة:218] . أما إذا كان الرجل متمادياً في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب. قال: أبو علي الروذباري رحمه الله: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير، وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا، صار الطائر في حد الموت. وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ [الزمر:9]، وقال تعالى: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا [السجدة:16]، فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً، وكل أحد إذا خفته هربت منه، إلا الله تعالى، فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه. وقال صاحب منازل السائرين رحمه الله: الرجاء أضعف منازل المريد. وفي كلامه نظر، بل الرجاء والخوف على الوجه المذكور من أشرف منازل المريد. وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: يقول الله عز وجل: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء). وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه) ، ولهذا قيل: إن العبد ينبغي أن يكون رجاؤه في مرضه أرجح من خوفه، بخلاف زمن الصحة، فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه. وقال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد. ولقد أحسن محمود الوراق في قوله: لو قد رأيت الصغير مَنْ عمل الخي ـر ثواباً عجبت من كبره أو قد رأيت الحقير من عمل الش ـر جزاءً أشفقت من حذره]. في هذا الكلام أن المسلم يجمع بين الخوف والرجاء، وأن هذه النصوص تدل على ذلك، فإن قوله تعالى: وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ

عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا [الإسراء:57] جمع الله فيها بين الخوف والرجاء: يرجون، ويخافون. وكذلك قوله تعالى: يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا [السجدة:16] جمع الله فيها بين الخوف والطمع، والطمع هنا هو الرجاء. ويظهر ذلك في قوله: أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ [الزمر:9] والحذر: هو الخوف، يعني يخاف عذاب الآخرة، ويرجو رحمة ربه.. ونحو ذلك من الأدلة التي تدل على أن المسلم يجمع بين الخوف والرجاء. وقد ذكرنا بعض الأسباب التي لأجلها يخاف المسلم، وبعض الأسباب التي لأجلها يرجو. وقد ذكر الله عز وجل عن عباده هذه الصفات ليرغب فيها، وكثيراً ما يأمر الله عباده بالخوف منه، كقوله تعالى: فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ [النحل:51] (فارهبون) يعني: خافوا عذابي. وتارة يعلق الخوف ببعض مخلوقاته، كقوله تعالى: فَاتَّقُوا النَّارَ [البقرة:24] يعني: خافوا من النار وابتعدوا منها، والنار من الأسباب التي تحمل العبد على الخوف إذا تذكرها. ......

الجمع بين الخوف والرجاء

يجب على الإنسان أن يجمع بين الخوف والرجاء، فيجعل المحبة كرأس الطائر، والخوف والرجاء مثل الجناحين، فإذا كان الطائر قد استوى جناحاه، ورأسه موجود، ففيه حياة مستقرة، وطيرانه معتدل، وإذا قطع أحد جناحيه تعثر، وإذا قطع جناحاه فهو أقرب إلى الموت، وإذا قطع رأسه مات، فلابد أن هذه الخصال تجتمع في العبد وتستوي: المحبة، والخوف، والرجاء. المحبة: هي محبة الله لإنعامه على عبده، والخوف: خوفه من عذابه، والرجاء: تعلق قلبه بثوابه. فإذا عبد الله بالمحبة فقط دون أن يخافه فقد أخطأ كما يذكر ذلك عن بعض المتصوفة، وعن بعض غلاة الزهاد ونحوهم، أنهم يقولون: ما نعبد الله خوفاً من ناره، ولا رجاءً لجنته، ولكن نعبده محبة له، ويغالون في باب المحبة، وكأنهم أمنوا من العذاب، وكأنهم لم يكن لهم رغبة في الثواب، فهذه حال الصوفية، والحقيقة أن من يعبد الله بهذا فهو زنديق. من غلب جانب الخوف فإنه قد وقع في عقيدة الوعيدية الذين يغلبون جانب الوعيد، ومن هؤلاء الوعيدية الحرورية والمعتزلة، وسموا بذلك لأنهم يتمسكون بالأدلة التي فيها الوعيد فيحققونها؛ ولهذا يخلدون أصحاب الكبائر في النار كما تقدم مراراً. وأما من عبد الله مغلباً جانب الرجاء، فهذا يسمى مرجئاً، والمرجئة: هم الذين يتعلقون بالرحمة ولا يذكرون العذاب، فيرجون ولا يخافون عقابه، وهم على خطر.

الرد على من غلب جانب الرجاء

لابد من الجمع بين الخوف والرجاء؛ لأجل ألا يكون هناك خـوف شـديد فـيئول إلى القنـوط، ولا رجـاء منفـرد فـيئول إلى الأمن؛ لأن الله ذم الأمن في قوله تعالى: أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [الأعراف:99] إذا رأيت -مثلاً- الـذي يتمـادى في العصـيان، ويـترك الطاعـات، ويكـثر من الذنوب، وقلت له: ألا تخاف الله؟! ألا تتقيه؟! ألا تخشـاه؟! أين الخشـية وأين الخـوف وأين الرهبة من عـذاب اللـه؟! فيتعلق بالرحمة ويقـول: رحمة الله واسعة، الله أرحم الراحمين. ثم يتمادى في المعصية، تخوفه من عذاب الدنيا فيـأمن، تخوفه من عـذاب الآخـرة فلا يخـاف، فمن هـذه حاله يُخـاف عليه أن يكون من الذين أمنوا مكر الله.. أمنـوا انتقامـه.. أمنـوا عذابـه.. أمنـوا بطشه الشديد.. أمنوا من أخذه لهم على غرة وغفلـة، فيخـاف عليهم أن يـأتيهم أمر الله وهم على غـرتهم وغفلتهم وسـلوتهم؛ لأن سـنة الله أنه ما أخذ قومـاً إلا عند غرتهم، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بأن هذا إمهال وليس إهمالاً، يقـــول صـــلى الله عليه وســـلم: (إذا رأيت الله يعطي العبد وهو مقيم على معاصيه فاعلم أنه استدراج) وهذا مـذكور في قوله تعـالى: سَنَسْـتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ [الأعراف:182] فهم يغـترون بإمهـال اللـه، ويغـترون بنعمـه، ويغترون بعطائه لهم، فيـأتيهم أمر الله وهم غـافلون، وكـذلك قـال صـلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قـرأ قـول الله تعالى: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود: 102]) ، وهذا الإمهال والتأخير ليس هو لأجل أنهم ليسوا بمذنبين، ولكن الله يؤخرهم إلى أجل، يقول بعضـهم: أيحسب الظـالم في ظلمه أهمله القـادر أم أمهله فهم ما أهملوا، بل لهم موعد لن يجـدوا من دونه مـوئلاً، لهم موعد لابد أن يأتي، وهذا في حق الذين يأمنون مكر اللـه، فيعملـون السـيئات ويكـثرون منها، وهم آمنون مطمئنون، وكأنهم لم يعملوا سيئة.

الرد على من غلب جانب الخوف

هناك قسم آخر قد قطعوا رجاءهم، وقطعوا طمعهم في الرحمة، واستسلموا للعذاب في نظرهم، ولا نـدري هل هم صـادقون أم هم مسـتهزئون؟ فإنك إذا جئت إلى بعض من عاش على السيئات والكفريات وتـرك القربـات، ونصـحته قائلاً: تب إلى الله، وأقبل عليه، واتـرك ما أنت عليه من التمـادي في الغفلـة، واتـرك الـذنوب، وأكـثر من الحسـنات. فإنه يمتنع ويقـول: أنا قد أذنبت، وقد كفـرت، وقد أسـأت، وقد ارتكبت من الخطايا كـذا وكـذا.. شـربت الخمـور.. زنيت.. قتلت.. أكلت الحرام.. فعلت وفعلت، فلا تنـالني الرحمـة، ولا حيلة لي فيهـا، ولست من أهلهـا، بل أنا من أهل النـار. هكـذا ينقل عن بعضـهم. ولعل

هؤلاء من الذين يستهترون بمن ينصحهم، ويتهاونون بنظر الله عز وجل، أو ينكرون أن يكون هناك عذاب دنيوي وعذاب أخروي، فيقولون هذه المقالة لرد ذلك الذي ينصحهم، ولعدم قناعتهم بما يقوله. فنقول: لا شك أن هذا كفر أو يئول إلى الكفر، وذلك هو اليأس، قال تعالى: وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ [يوسف:87] ، هؤلاء قد يئسوا من الرحمة، وقطعوا رجاءهم، ووقعوا في القنوط، وقد قال تعالى: قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ [الحجر:56] والقنوط هو: قطع الرجاء، فهم قد قطعوا رجاءهم كلياً من الرحمة، وكأنهم يقولون: لا تنالنا الرحمة، ولو كانت رحمة الله واسعة فذنوبنا أكبر من أن تنالها، وذنوبنا أكبر من أن تغفرها، قد كفرنا، وقد أسأنا، وقد أذنبنا، وقد ارتكبنا، وقد فعلنا وفعلنا، فذنوبنا كبيرة لا تصل إليها رحمة الله!! فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال والفسوق والمعاصي، ويتمادون فيها، ويموتون وهم مصرون على ذلك، وكأنهم ممن يئسوا من الخير وقطعوا رجاءهم، فهؤلاء وقعوا في هذه المرتبة القبيحة التي هي اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله. وبكل حال: فإن المسلم ولو وقع فيما وقع فيه من المعاصي فإن الله تعالى يكفر عنه السيئات بالأسباب التي ذكرناها آنفاً، وإذا حقق العقيدة والتوحيد قبل الله عز وجل منه، وتاب عليه، ورحمه وهو أرحم الراحمين، أما إذا تمادى في عصيانه فقد أقدم على العذاب والعياذ بالله.

من عقيدة أهل السنة الحكم على الإنسان بحسب ظاهره

من عقيدة المسلمين أنهم يصفون الإنسان بما يظهر منه، فإذا أظهر خيراً أحبوه، وإذا أظهر سوءاً أبغضوه، ومع ذلك فإنهم إنما يحكمون بالظاهر، وقد جاء عن عمر أنه قال: إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم بالظاهر، فمن أظهر لنا خيراً أحببناه وقربناه، ومن أظهر لنا سوءاً أبعدناه وأبغضناه، وليس لنا من أمره -أي: من باطن أمره- شيء، والله تعالى هو الذي يتولى السرائر. وبناءً على هذه القاعدة فإننا نحب المؤمنين الذين أظهروا لنا الخير ودانوا به، وأظهروا العمل الصالح وأظهروا السنة، وظهر لنا منهم أنهم من أهل الدين ومن أهل الصلاح، وعملوا لله بما يحبه الله وبما فرضه عليهم، فنحبهم، ونشهد لهم بالخير، سواء كانوا ممن أدركنا أو ممن سبقنا، فندعو لهم بالمغفرة والرحمة، كما وصف الله المؤمنين بقوله: وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [الحشر:10] ، فوصفهم الله بأنهم يحبون من هاجر إليهم، ويحبون من سبقهم من المؤمنين، ويدعون لهم

بالمغفرة والرحمة، ويدعون الله بـأن يـنزع من قلـوبهم الغل والحقد والحسد والبغضاء والشنآن لإخوانهم الذين سـبقوهم بالإيمـان، فهـذه صـفة المؤمـنين. وإذا كـان كـذلك فـإنهم بضد ذلك في حق الفسـقة والمشـركين والمنـافقين والمعانــدين، فــإذا رأوا أهل الفســاد وأهل الســوء وأهل المنكر أبغضــوهم ومقتــوهم، وعــاملوهم بما يظهر منهم من الســوء والفحش والكلام القــبيح، وحذروا من فعلهم، ومقتوهم على هذا، ولو كـانت قلـوبهم نقيـة؛ فليس إليهم معرفة ما في القلـوب. فأهل الفسـاد وأهل الشـرور وأهل البـدع إذا أظهـروا بدعهم وأظهروا معاصيهم وأعلنوها؛ فإننا نبغضهم، ونمقتهم، ونحذرهم، ونحذر منهم، ويكـون بغضـنا لهم بغضاً في ذات اللـه، ولا نبغضـهم لأجل أهوائنـا، ولا لأجل مصـالحنا، ولا لأجل أنهم تنقصـونا أو عابونا أو ما أشـبه ذلـك، بل يكـون الحامل لنا على بغضـهم الغـيرة للـه، والغـيرة على شـريعته ودينـه، والحماية لتعاليمــه، ويكــون من أثر هــذا البغض وهــذا المقت البعد عنهم، والحــذر من شــرهم ومن ســوئهم، والتحــذير من أن ينخــدع أحد بــدعاياتهم وبتضــليلاتهم، وبمعاصيهم وفسوقهم الذي يدعون إليه والذي ينشرونه، والـذي يظهرونـه، ثم يزعمون أنهم على حـق، وأن الصـواب في جـانبهم. وتقـدم لنا أن من عقيـدة أهل السنة أنهم يرجون النجاة لأهل الخير، ولا يجزمون لهم بالجنـة، ويخـافون على أهل الشر من العذاب، وإن لم يجزموا لهم بالنـار، ولكن يكـون من آثـار معرفتهم أن هؤلاء من الصالحين، سواء أدركوهم أو سـبقوهم، أنهم يحبـونهم، ويحثون على مثل أعمالهم، وإن لم يشهدوا لهم بأنهم من أهل الجنـة؛ لأنهم لا يعلمــون ما في القلــوب. كــذلك من آثــار معــرفتهم لأهل المعاصي أنهم يحذرونهم ويحذرون منهم، وإن لم يشهدوا لهم بالنار، كما أنهم يخافون عليهم من عذاب الله، وإن لم يجزموا لهم بالعذاب، فهم إذا أنكروا عليهم ومقتــوهم حـذروا من شـرهم، وحـذروا من أفعـالهم، وبينـوا أخطـاءهم، وقـالوا: إنهم قد وقعوا في هذا الخطـأ، فإيـاكم أن تسـاعدوهم على خطئهم، أو توافقـوهم، أو تفعلــوا كفعلهم؛ فينسب إليكم من الخطأ ما نسب إليهم أو ما وقعــوا فيــه. وهكذا طريقة أهل الخير: أنهم يحذرون من الشر ويحذِّرون منه. ......

الحكم على أهل العصيان يتفاوت بتفاوت معاصيهم

الشــرور والمعاصي والفتن تتفــاوت، فمنها ما قد يوصل إلى الكفر والــردة والخروج من الإسلام، كالاستهزاء بشعائر الله، والاستهزاء بأوامره، والسخرية من أهل الـدين والتنقص لهم، فـإذا ظهر هـذا من أنـاس فإننا نـبرأ منهم، بل ونضللهم، ونخشى أن يكونـوا قد وقعـوا فيما يخـرج من الملـة؛ وذلك لأن الله قد ذكر السخرية من أعمال الكفار، قـال تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُـوا كَـانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُـوا يَضْـحَكُونَ [المطففين:29] أي: ضـحك اسـتهزاء، وَإِذَا مَـرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ [المطففين:30]. ويقول الله تعالى عنهم: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِـخْرِيًّا [المؤمنـون:109-110] أي: تسـتهزئون بهم وتتنقصـونهم، فجعل من أسـباب

عــذابهم ســخريتهم بأهل الــدين. ومثل ذلك قوله تعــالى: الَّذِينَ يَلْمِــزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ [التوبـة:79] ، يسـتهزئون بهم ويتنقصـونهم لضـعف حالهم، فهذا دليل على أن الاسـتهزاء بالـدين وبحملته يعتـبر من دلائل الكفـر. كذلك قوله تعالى: سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَـدِّلْ نِعْمَـةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الـدُّنْيَا وَيَسْـخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُـوا [البقـرة:211-212] أي: يسـتهزئون بـالمؤمنين، (يسـخرون منهم) أي: من أعمـالهم ومن ديـانتهم ومن عبـاداتهم أو ما أشـبه ذلـك، فتكـون هـذه السـخرية من أسـباب ردتهم وكفـرهم. وقد وقع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض المنافقين استهزئوا ببعض المؤمـنين من أجلاء الصحابة، أولئك المنافقون الذين قـالوا: ما رأينا مثل قرائنا هـؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنةً، ولا أجبن عند اللقاء! وهم يعنون بذلك الصحابة، حيث وصفوهم بأنهم شديدو الرغبة في الأكل فقط، ولكنهم عند القتال جبنـاء أذلاء، وأنهم لا يقولون إلا كذباً. وكذب من قـال عليهم بهـذا القـول، بل هو المتصف بذلك، ولما ذكر للنـبي صـلى الله عليه وسـلم ذلك وبخهم على ذلـك، فجـاءوا يعتذرون ويقولـون: يا رسـول اللـه! إنما كنا نتحـدث حـديث الـركب لنقطع به الطريق، وهذا معنى قـولهم: إنما كنا نخـوض ونلعب، ورسـول الله صـلى الله عليه وسلم يقول لهم: أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْـتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَـذِرُوا قَـدْ كَفَـرْتُمْ بَعْـدَ إِيمَــانِكُمْ [التوبــة:65-66] فجعل فعلهم هــذا كفــراً، حيث إنهم استهزئوا بالله وبآياته وبرسوله وبأصحاب رسوله، فكـان ذلك ردة منهم، فـإذا وصلت الحال بالمرء إلى هذا القدر فإنه يحكم بكفره والعياذ بالله.

أهل السنة يرجون للمحسنين ويخافون على المذنبين

نحن نرجو للمحسنين، ونخاف على المذنبين، وإذا وصـلت الحـال إلى أن ذلك الذنب وصل إلى درجة الكفر، فإننا نحكم بكفره صـاحبه وردتـه، وأما إذا كـان الذنب مما يحتمل أن يغفر، ويدخل تحت مشيئة الله فـإن ذلك مما لا يكفر به صاحبه. والذنوب التي دون الشرك معرضة للأسباب التي تكـون مكفـرة لهـا، ومن هــذه الأســباب: التوبــة، والاســتغفار، ودعــاء المؤمــنين له بــالمغفرة، والمصائب الدنيوية، وشدة النزع عند المـوت وما يصـيبه جـراء ذلـك، وعـذاب القبر، وشدة الفزع في الآخرة، والحزن الـذي يناله في الموقف وشـدة الألم، ومنهــا: تكفـير الله عز وجل له بما يحصل له من المصــائب، ومنهــا: شــفاعة الشافعين، ومنها: ما يحصل من القصاص بين العباد على القنطرة، ومنهـا: أنه يـدخل النـار ويكفر عنه بقـدر ما عمـل، ثم بعد ذلك يخـرج إذا كـان من أهل التوحيد ومن أهل الصــلاح. وقد ســبق أن ذكرنا أن على المــرء أن يجمع بين

الخوف والرجاء، فيكون خائفاً راجياً، ولكن لا يبلغ به الرجـاء إلى الأمن، بحيث يأمن مكر الله، فَلا يَأْمَنُ مَكْـرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَـوْمُ الْخَاسِـرُونَ [الأعـراف:99]، ولا يبلغ به خوفه إلى اليـــأس إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَـــوْمُ الكَـــافِرُونَ [يوسـف:87] بل يكـون بينهمـا، وذكرنا أن العلمـاء يقولـون: يفضل في حالة الصـحة الخـوف حـتى يسـتقل أعمالـه، ويسـتكثر من الحسـنات. وفي حالة الاحتضار يفضل الرجاء -أي: يغلب الرجـاء- ليقـدم على ربه وهو يحسن الظن بـه، وقد مر بنا في الحـديث: (لا يمـوتن أحـدكم إلا وهو يحسن الظن بربـه) فيكون ذلك إن شـاء الله من أسـباب رحمة الله لعبـده. فيتعين على الإنسـان في نفسه أن يجمع بين الخوف والرجاء، ويتعين عليه مع غيره أن يخـاف على المذنب، ويرجو للمحسـن، فيجمع في ذلك بين الخـوف والرجـاء، من غـير أن يصل به إلى الجزم واليقين.

خروج العبد من الإيمان إذا جحد شيئاً من أركان الإيمان

قال الشارح الإمـام ابن أبي العز رحمنا الله تعـالى وإيـاه: [قولـه: (ولا يخـرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه) يشير الشيخ إلى الرد على الخـوارج والمعتزلة في قـولهم بخروجه من الإيمـان بارتكـاب الكبـيرة. وفيه تقرير لما قـال أولاً: لا نكفر أحـداً من أهل القبلة بـذنب، ما لم يسـتحله. وتقـدم الكلام على هذا المعنى]. قد تقدم أن الخوارج يكفـرون بالـذنب، ويقولـون: إذا عمل الإنســان ذنبــاً وأصر عليه صــار داخلاً في الكفر خارجــاً من الإيمــان، وأما المعتزلة فإنهم يخرجونه بالذنب من الإيمـان، ولكن لا يدخلونه في الكفـر، بل يجعلونه في منزلة بين الكفر والإيمـان، والكل على خطـأ، والصـواب ما قاله الطحاوي من أنه لا يخرجه من الإيمان إلا الجحد بما أدخله فيـه، فالـذي أدخله في الإيمان هو الإيمان بالله، والإيمان بالبعث، والإيمان باليوم الآخر، والإيمـان بالرسل والكتب، فإذا جحد مثل هذه الأشياء خرج من الإيمان، وأما ما دام أنه يؤمن بالله، ويعمل بطاعته، ويؤمن بالرسل، ويدين باتبـاعهم، ويـؤمن بـالكتب ويعمل بها، ويؤمن بـاليوم الآخر ويسـتعد لـه، فإنه لم يخـرج من الإيمـان، ولو قصر في بعض الأوامـر، ولو ارتكب بعض النـواهي، ولو أذنب بعض الـذنوب، فذلك لا يوصله إلى الكفر. ......

تعريف الإيمان عند أهل القبلة

قال الشارح رحمه اللـه: [قولـه: (والإيمـان: هو الإقـرار باللسـان، والتصـديق بالجنـان. وجميع ما صح عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم من الشـرع

والبيــان كله حــق. والإيمــان واحــد، وأهله في أصــله ســواء، والتفاضل بينهم بالخشــية والتقى، ومخالفة الهــوى، وملازمة الأولى). اختلف النــاس فيما يقع عليه اسم الإيمــان اختلافــاً كثــيراً: فــذهب مالك والشــافعي وأحمد والأوزاعي وإســحاق بن راهويه وســائر أهل الحــديث وأهل المدينة رحمهم الله وأهل الظــاهر وجماعة من المتكلمين: إلى أنه تصــديق بالجنــان، وإقــرار باللســان، وعمل بالأركان. وذهب كثير من أصــحابنا إلى ما ذكــره الطحــاوي رحمه اللــه: أنه الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان. ومنهم من يقول: إن الإقرار باللســان ركن زائد ليس بأصــلي، وإلى هــذا ذهب أبو منصــور الماتريــدي رحمه اللــه، ويــروى عن أبي حنيفة رضي الله عنــه. وذهب الكرامية إلى أن الإيمــان هو الإقرار باللسان فقــط! فالمنــافقون عنــدهم مؤمنــون كــاملو الإيمــان، ولكنهم يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به! وقولهم ظــاهر الفســاد. وذهب الجهم بن صفوان وأبو الحسن الصالحي -أحد رؤساء القدرية - إلى أن الإيمان: هو المعرفة بالقلب! وهذا القول أظهر فســاداً مما قبلــه! فــإن لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين، فإنهم عرفــوا صــدق موسى وهــارون عليهما الصلاة والسلام، ولم يؤمنوا بهما، ولهذا قال موسى لفرعون: قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ [الإسراء:102]، وقال تعــالى: وَجَحَــدُوا بِهَا وَاسْــتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُــهُمْ ظُلْمَــاً وَعُلُــوّاً فَــانظُرْ كَيْــفَ كَــانَ عَاقِبَة الْمُفْسِدِينَ [النمــل:14]، وأهل الكتــاب كــانوا يعرفــون النــبي صــلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم، ولم يكونوا مؤمنين به، بل كافرين به، معادين له، وكذلك أبو طالب عنــده يكــون مؤمنــاً، فإنه قــال: ولقد علمت بــأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً لولا الملامة أو حــذار مســبة لوجــدتني ســمحاً بــذاك مبيناً بل إبليس يكون عند الجهم مؤمناً كامل الإيمــان! فإنه لم يجهل ربــه، بل هو عارف به، قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [الحجر:36] ، قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي [الحجر:39] ، قَالَ فَبِعِزَّتِــكَ لَأُغْــوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [ص:82] والكفر عند الجهم هو الجهل بــالرب تعــالى، ولا أحد أجهل منه بربــه! فإنه جعله الوجــود المطلــق، وســلب عنه جميع صــفاته، ولا جهل أكــبر من هــذا، فيكــون كــافراً بشــهادته على نفســه! وبين هــذه المــذاهب مــذاهب أخر بتفاصــيل وقيــود، أعرضت عن ذكرها اختصــاراً، ذكر هــذه المــذاهب أبو المعين النســفي في تبصرة الأدلة وغيره]. من هنا ابتدأ المصنف في الكلام على الإيمــان، ويعــرف هذا الفصل بأسماء الإيمان والدين، ومعلوم أن الشرع الشريف جاء إلى هــذه الأمة وهم على جهل، ولكنهم يتكلمون بلغة فصحى عربية، فخــاطبهم بلغتهم، وجاءهم بهذه الشريعة وشرع لها أسماء وعرفها، وأصــبحت معروفة بأســمائها الشرعية، ولو كان لها أســماء لغويــة، فعــرفت هــذه بأســماء الإيمــان والــدين، فيقــال: تعريف الصــلاة في اللغــة: الــدعاء، وتعريفها في الشــرع: العبــادة المشتملة على القيام والقعود والركوع والسجود، وتعريف الزكــاة في اللغــة: النماء أو الطهارة، وتعريفها في الشرع: القدر المخرج من المــال الــذي ينفق في وجوهــه، وتعريف الصــيام في اللغــة: مجــرد الإمســاك، وفي الشــرع: الإمساك بالنية عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وتعريف الحج في اللغة: القصد إلى شيء معين، وفي الشرع: زيارة البيت الحرام في

وقت مخصوص من إنسان مخصوص، وتعريف الجهاد في اللغة: بذل الجهد والوسع في الشيء الذي يكون فيه مشقة، وتعريفه في الشرع: قتال الكفار لأجل كفرهم، وكذلك يقال في تعريف المعروف، وفي تعريف المنكر، وفي تعريف الإسلام والإيمان والكفر والشرك والنفاق والفسوق وما أشبهها، فهذه كلها لها مسميات في اللغة ومسميات في الشرع معروفة، حيث نقل الشارع شيئاً من مسمياتها اللغوية فسمى بها هذه المسميات الشرعية، فأصبحت إذا أطلقت في الشرع لا تنصرف إلى المعنى اللغوي الذي نقلت إليه، فالكلام هنا على الإيمان، والإيمان له معنى واسم في اللغة، وله معنى واسم في الشرع، نقله الشرع إليه وأصبح إذا أطلق على أهله، قصد به المؤمنون الشرعيون، لا المؤمنون اللغويون. ......

تعريف الإيمان لغة واصطلاحاً

الإيمان في اللغة: هو التصديق، ومن ذلك قول الله تعالى حكاية عن إخوة يوسف لما أخبروا أباهم بأن الذئب أكل أخاهم، فقالوا بعد ذلك: وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ [يوسف:17] أي: بمصدق لنا، فالإيمان في اللغة: التصديق. لكن الشرع الشريف جعله أعم من التصديق، فأدخل فيه العقيدة، وأدخل فيه الأقوال، وأدخل فيه الأعمال، وعلى ذلك بنى الأئمة رحمهم الله هذه الأصول، فنجد أن المؤلفين من العلماء عملوا على ذلك، فالإمام البخاري في صحيحه جعل كتاب الإيمان في المقدمة بعد بدء الوحي، وأورد فيه الأدلة، فقال: باب: الصلاة من الإيمان، باب: أداء الخمس من الإيمان.. وهكذا عدد الأعمال الصالحة، وجعلها من الإيمان كأركان الدين كلها. وتجدون مسلماً رحمه الله بدأ كتابه بعد المقدمة بكتاب الإيمان، وأورد فيه الأحاديث الكثيرة التي تبين الإيمان، وتبين ما يدخل فيه. فالإيمان إذا أطلق فإنه هو المسمى الشرعي، فمن لم يكن على هذا فلا يقال له: مؤمن، ولا يثاب ثواب المؤمنين.

الأحكام المترتبة على تحقق اسم الإيمان

يترتب على التسمية بالمؤمن أحكام، منها: أن من آمن عصم نفسه من القتل، وأن من آمن أحرز الثواب واستحقه، وأن من آمن اعتقدناه من إخواننا من المؤمنين وعاملناه على أساس ذلك. ولابد من أجل تحقق هذه الأحكام أن يؤمن المرء الإيمان الشرعي، ليس الإيمان اللغوي؛ لأن الإيمان اللغوي خفي، وهو شيء في القلب، ونحن لا نشق عن القلوب، وإنما نعمل بما يظهر

لنا، فإذا رأينا الإنسان يصلي ويصوم معنـا، ويجاهـد، ويـأمر بـالمعروف، وينهى عن المنكر، ويترك المحرمات والمشتبهات، ويستكثر من الأعمال الصـالحات؛ قلنا: هذا من أهل الإيمان.. وهكذا.

تعريف جمهور أهل السنة للإيمان وما ينبني عليه

الأقوال التي ذكرها الشارح في تعريف الإيمان منها ما هو صواب ومنها ما هو خطأ، فالصـواب: هو القـول الأول، الـذي هو قـول أهل الحـديث، وقـول أكـثر الأئمــة، فقد ذهب إليه الإمــام مالك والشــافعي وأحمد وإســحاق بن راهويه وسفيان الثوري والأوزاعي وأئمة الحديث كــالبخاري ومسـلم ، وأهل السـنن، وسائر المحدثين، وأكثر المتكلمين، وسلف الأمة، وهذا القول الصحيح هـو: أن الإيمان يدخل فيه قول اللسان، وعقيدة الجنان، وعمل الأركان. فيقولـون: هو قـول باللسـان، واعتقـاد بالجنـان، وعمل بالأركـان. والأركـان هي: الجـوارح، فالعينان لهما عمل، والأذنـان لهما عمـل، واليـدان والـرجلان والبطن والفـرج كلها لها عمـل، هـذه هي عقيـدة أهل السـنة. ومن اعتقـادهم -أيضـاً- أنه يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، ويسـتدلون على ذلك بأدلة كثـيرة سـيأتينا بعضـها، وأوضح هذه الأدلة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضع وســبعون -أو بضع وستون- شعبة، أعلاها: قول: لا إله إلا اللـه، وأدناهـا: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)، فقوله: (بضع وسـتون أو بضع وسـبعون) يعم خصـال الخـير كلهـا، فيقـال: الصـلاة من الإيمـان، والصـوم من الإيمـان، والصدقة من الإيمان.. وفيما يتعلق بالكلام يقال: الذكر من الإيمان، والتسـبيح من الإيمان، والقراءة من الإيمان، والجهاد من الإيمان، والأمر بالخير والدعوة إلى الله -وما أشبه ذلك- من الإيمـان، ويقـال في أعمـال القلـوب: الزهد في الـدنيا خوفـاً من المشـتبهات من الإيمـان، والرغبة في الآخـرة من الإيمـان، والحب في الله والبغض في الله من خصـال الإيمـان.. وما أشـبهها. جـاء في الحديث: (أعلاها: قـول: لا إله إلا اللـه) فجعل هـذه الكلمة من العقيـدة، وهي كلمة التوحيد، وقال: (وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق)، وهذا عمل بالأركان، كون الإنسان يميط الأذى عن الطريق ويوسع للمسلمين هذا من عمل البدن، وقال: (والحياء شعبة من الإيمان) والحياء عمل قلبي، فـذكر القـول: لا إله إلا الله، وذكر العمل: إماطة الأذى، وذكر الحياء الذي هو خلق قلـبي، يحمل على ما يجمل ويزين، وينهى عن كل ما يدنس ويشين. إذاً: تدخل الأعمـال كلها في مسـمى الإيمـان؛ ولأجل ذلك اهتم العلمـاء بشـعب الإيمـان، فصـنف الإمـام البيهقي كتاباً كبـيراً سـماه: شـعب الإيمـان -يعـني: خصـال الإيمـان- وطولـه، وأورد فيه الأحاديث الكثيرة بأسانيدها، واختصـره بعض المـؤلفين في مختصر مطبـوع اسـمه مختصر شـعب الإيمـان، وأوصـله إلى تسع وسـبعين أو ثمـان

وسـبعين خصـلة، وجعل منها الأعمـال اليدوية والبدنية ونحوهـا، ومنهـا: إماطة الأذى عن الطريق وما أشبهها. فعرفنا بذلك أن هذا القـول هو الأقـوى، وعليه الأدلة.

تعريف الحنفية للإيمان

القـول الـذي ذكـره الشـارح عن أصـحابه رحمهم الله هو الـذي اشـتهر عن الحنفيـــة، وأبو حنيفة رحمه الله كـــان من المتقـــدمين، وكأنه لم يتوسع في الأدلـــة؛ ولأجل ذلك أخذ الإيمـــان على أنها كلمة لغويـــة، فجعل الإيمـــان هو التصديق بالقلب، وجعل القول علامة عليه، أو جعل القول منـه، فالإيمـان عند أبي حنيفة له ركنان: القول، والاعتقـاد، ولم تكن الأعمـال عنـده من الإيمـان، ولا شك أن هذا قول خاطئ، وفيه نقص كما سيأتي.

تعريف الكرامية للإيمان

هناك أقوال أخرى في الإيمان مرت الإشارة إليها، ولكنها أقـوال باطلـة، ومن هذه الأقوال: قول الماتريدية بأن الإيمان إنما هو العقيدة، وأن القـول إنما هو من آثاره. وأما الكرامية فالإيمان عندهم هو القول. والكرامية هم أتبـاع محمد بن كرام ، وكانوا في باب الإيمان بالصفات أقـرب إلى أهل السـنة، ولكن لهم قول في الإيمان غريب! وهو أن الإيمـان هو القـول، أي: هو الكلمة والتلفـظ، ولازمه أن المنافقين عندهم مؤمنون؛ لأنهم إذا لقوا الـذين آمنـوا قـالوا: آمنـا، ومعنى هذا أنهم مؤمنـون، حـتى ولو كـانوا إذا خلـوا إلى شـياطينهم قـالوا: إنا معكم! والله تعالى قد أثبت أن المنافقين كافرون في قوله: ذَلِكَ بِـأَنَّهُمْ آمَنُـوا ثُمَّ كَفَرُوا [المنـافقون:3] ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا ثُمَّ كَفَـرُوا ثُمَّ آمَنُـوا ثُمَّ كَفَـرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا [النساء:137] هؤلاء هم المنافقون، فالمنـافقون الـذين يقولـون بألسنتهم: آمنا؛ مؤمنون عند الكراميـة! ولكن الكرامية يقولـون: إنهم مع ذلك في النار؛ لأن الله توعـدهم في قولـه: إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ فِي الـدَّرْكِ الأَسْـفَلِ مِنَ النَّارِ [النساء:145]، وبالآيات التي فيها الوعيد الشديد لهم، فهم يقولون: إنهم في النار، وقولهم: آمنا غير عاصم لهم عن العـذاب، وبكل حـال فقد جعلـوهم مؤمنين، وهذا قول خاطئ.

قول الجهمية في الإيمان هو أبعد الأقوال، فهم يقولون: إن الإيمان هو المعرفة فقط، فمن عرف فهو مؤمن، وهذا القول يلزم منه أن كل من عرف ولو لم يتبع المعرفة بإيمان يصير مؤمناً كامل الإيمان عندهم، والله تعالى قد ذكر أن إبليس -وهو أكفر الكافرين- يعرف أن الله ربه، ويعرف أن هناك بعثاً، وأن هناك جزاءً، وأن هناك جنة وناراً، وقد خاطبه الله بقوله: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ [الأعراف:18] ، فهو عارف، إذاً: فهو عند الجهمية مؤمن يستحق الوعد الذي وعد الله به المؤمنين! وكذلك فرعون قد أخبر الله أنه عارف، قال الله تعالى: وَجَحَدُوا بِهَا [النمل:14] يعني: آيات موسى، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ [النمل:14] ففرعون وقومه كانوا مستيقنين بها، وكذلك قول موسى: لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [الإسراء:102] (علمت) أي: يا فرعون! ففرعون عندهم مؤمن كامل الإيمان، يستحق ما يستحقه أهل الإيمان الكامل. أيضاً: كثير من الكفار -على قولهم- كانوا مؤمنين، قال الله: وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ [الأنعام:26] ، قيل: إنها نزلت في أبي طالب ، فقد كان يعرف أن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق، وكان ينهى عن أذاه، لكن كان ينأى عن اتباعه، وقيل: نزلت في الكفار كلهم؛ لأنهم يعرفون صدقه، وكانوا يسمونه بالصادق الأمين، وبكل حال فإن أبا طالب -كما سمعنا- مصدق بأن محمداً رسول، وبأنه صادق، وقد ظهر تصديقه في هذه الأبيات: ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً يقول: لولا أن يلومني زملائي وأصدقائي، ويقولون: إنك تركت دين آبائك، وجلبت على أبيك عبد المطلب وآبائك وأسلافك المسبة، لولا ذلك لسمحت به ولاتبعته، فهذا ونحوه دليل على أنه كان عارفاً، وهل نفعته هذه المعرفة؟ ما نفعته. إذاً: الإيمان على قولهم يعم هؤلاء، فهم مؤمنون عند الجهمية! فما هو الكفر عند الجهمية؟ يقولون: الكفر هو الجهل بالله. فيقال لهم: أنتم أجهل الناس بالله، حيث جعلتموه الوجود المحض، دون أن تجعلوا لله صفات أو تجعلوا له أسماء، فهم جحدوا أسماء الله وجحدوا صفاته، ولم يصفوه إلا بأنه موجود، قيل لهم: موجود قديم أو موجود كذا؟ فيقولون: موجود فقط، فلا شك أن هذا هو غاية الجهل، فقد شهدوا على أنفسهم بأنهم كافرون حيث جعلوا الكفر هو الجهل، وأي جهل أكبر من جهل هؤلاء الجهمية؟!

تـرجيح الشـارح أن الخلاف بين أهل السـنة وأبي حنيفة في تعريف الإيمـان خلاف لفظي

قال الشارح رحمه الله: [وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان: إما أن يكـون ما يقـوم بـالقلب واللسـان وسـائر الجـوارح، كما ذهب إليه جمهـور السـلف من الأئمة الثلاثة وغـيرهم رحمهم الله كما تقـدم، أو بـالقلب واللسـان دون الجوارح، كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، أو باللسان وحده، كما تقدم ذكره عن الكراميـة. أو بـالقلب وحـده، وهو إما المعرفة كما قاله الجهم أو التصـديق كما قاله أبو منصـور الماتريـدي رحمه اللـه. وفسـاد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر. والخلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة اختلاف صوري، فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب، أو جزءاً من الإيمان، مع الاتفاق على أن مرتكب الكبـيرة لا يخـرج من الإيمـان، بل هو في مشـيئة اللـه، إن شـاء عذبـه، وإن شـاء عفا عنـه؛ نـزاع لفظي، لا يترتب عليه فساد اعتقاد. والقائلون بتكفير تارك الصـلاة ضـموا إلى هذا الأصل أدلة أخرى، وإلا فقد نفى النبي صلى الله عليه وسـلم الإيمـان عن الزاني والسارق وشارب الخمر والمنتهب، ولم يوجب ذلك زوال اسم الإيمان عنهم بالكلية اتفاقـاً. والاختلاف بين أهل السـنة أن الله تعـالى أراد من العبـاد القول والعمل، وأعني بـ(القـول): التصـديق بـالقلب والإقـرار باللسـان، وهـذا الذي يعنى به عند إطلاق قولهم: الإيمان قول وعمل. لكن هـذا المطلـوب من العباد هل يشمله اسم الإيمان أم الإيمان أحدهما، وهو القـول وحـده، والعمل مغـاير له لا يشـمله اسم الإيمـان عند إفـراده بالـذكر، وإن أطلق عليهما كـان مجازاً؟ هذا محل النزاع]. الشارح رحمه الله حنفي المذهب، ومعلـوم أنه أراد بتأليف هذا الكتاب تقريب الحنفية إلى مذهب أهل السنة، وذلك لأنه ولو كـان حنفياً في الفروع فإنه سـلفي في العقيـدة، وقد تـأثر بشـيخه ابن كثـير رحمه الله، ابن كثير كان شافعي المذهب، وقد تأثر ابن كثير بـابن تيمية وهو حنبلي في باب العقيدة، فكان شـافعياً في الفـروع، ولكنه في العقيـدة على مـذهب أهل السنة الذي تلقاه عن شيخه أبي العباس ابن تيمية رحمه الله. فأراد هـذا الشارح رحمه الله بشرحه أن يقرب الحنفية إلى مـذهب أهل السـنة، وشـرح هذه العقيـدة على مـذهب أهل السـنة، وبين أن الطحـاوي أراد بها قـول أهل السنة، وأراد بها ما عليه سلف الأمة، حتى يـرد على الـذين تمـذهبوا بمـذاهب باطلة بعد السلف، فأنكروا الصفات، وأنكروا العلو، وأنكروا الرؤية لله حقيقة، وأنكروا الكلام لله حقيقة، وما أشبه ذلك، فتقدم أنه شـرح هـذه الأشـياء وبين أن القرآن حروفاً ومعـاني كلام اللـه، رداً على الأشـاعرة الـذين يقولـون: إن كلام الله هو المعنى دون اللفظ، وكذلك في مسـألة الرؤيـة: أن الرؤية تكـون حقيقة بالبصـر، وأنها ليست كما يقـول الأشـاعرة: مكاشـفات ورؤية قلبيـة، وكـذلك بقية المسـائل، وكثـير من الحنفية يقولـون بـأقوال الأشـاعرة. وبقيت هـذه المسـألة، وهي: مسـألة الإيمـان، فقد عجز عن الجمع بين مـذهب أهل السنة ومذهب الحنفية في باب الإيمان؛ وذلك لصراحة كلام الطحـاوي في أن

الأعمـــال ليست من الإيمـــان، حيث إن الطحـــاوي جعل الإيمـــان فقط هو التصديق والقول، وذلك صـريح لا يحتمل أن يـؤول، فلم يجد الشـارح بـداً من أن يجمع بينهما بـأن الخلاف لفظي، حيث يقــول: إذا كنا متفقين على أن من عمل السيئات لا يخرج من الإيمـان، فإنا لا نجعل فعلها مـدخلاً في الإيمـان أو زيادة في الإيمان، ولا نجعل تركها مخرجاً من الإيمـان، ويسـتدل بقـول النـبي صلى الله عليه وسلم: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسـرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشـربها وهو مـؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شـرف يرفع النـاس إليه فيها أبصـارهم حين ينتهبها وهو مـؤمن، والتوبة معروضة بعد) . ومذهب أهل السنة في هذا الحديث أن نقول: ليس هو مؤمن كامل الإيمـان، بل هو نـاقص الإيمـان، ونقـول: هو عـاص معه أصل الإيمـان، ومعه بعض الأعمـال المنافية لـه، فنسـميه فاسـقاً، ونسـميه مؤمنـاً نـاقص الإيمان، ولا نسميه كامل الإيمان، والحديث جـاء على هـذا، فما دام أننا اتفقنا على أن الأعمال من الإيمان فلماذا نجعل تركها نقصـاً في الإيمـان لا مخرجـاً من الإيمان بالكلية؟ إذاً: لا دلالة في هذا الحديث على أن الأعمـال ليست من الإيمان، بل الأعمال من الإيمان، والخلاف ليس لفظياً كما يقوله الشـارح، بل الخلاف معنوي، لا شك أنه يترتب عليه معـان كثـيرة، يـترتب عليه أن الفاسق ولو عمل ما عمل يسمى مؤمناً كامل الإيمان؛ وذلك لقول الطحـاوي عفا الله عنه: إن أهله في أصله سواء. يعني: التفاوت بينهم إنما هو بالخشـية والتقـاة، وأما أصل الإيمان فإنهم يتساوون فيه، وعندهم أن إيمـان جبرائيل وإسـرافيل والملائكة مثل إيمان آحاد الناس، فالناس كلهم على حد سواء في الإيمـان، لا تفاوت بينهم، وهذا خطأ، بل الناس متفاوتون في الإيمان. والإيمـان عنـدهم لا يزيد ولا ينقص، والصحيح: أن الإيمان يزيد وينقص، وتأتينا أدلة واضـحة في أن الإيمـان يزيد وينقص. وبكل حـال: فالأصل أن الإيمـان الـذي ذكرنا تـدخل فيه الأعمـــال، فهي من الإيمـــان، والنـــبي صـــلى الله عليه وســـلم جعلها شـــعباً، فالشعب: هي القطع التي يتكون منها الشيء، فقوله: (الإيمان بضع وسـبعون شـعبة) أي: أن الإيمـان يتكـون من هـذه الشـعب، فيقـال: الصـلاة شـعبة من الإيمان، والزكاة والصدقات شـعبة من الإيمـان، والأذكـار شـعبة من الإيمـان، وحسن الجوار شعبة من الإيمان، والصـدق شـعبة من الإيمـان، وأشـباه ذلـك، ويقال -أيضاً-: إن للكفر شعباً كما أن للإيمان شـعباً، والإيمـان يتفـاوت، وأهله متفـاوتون، فالصـحابة إيمـانهم الـذي في قلـوبهم، وكـذلك نتيجته الـتي هي أعمالهم الـتي عملوهـا؛ لا شك أنها أقـوى وأكـبر من إيمـان من بعـدهم، ومن إيمان الآخرين، فالله تعالى قد أخبر بـأن هنـاك من يشـمله اسم المـؤمن ولو كـان معه نقص، وذلك في قوله تعـالى: فَتَحْرِيـرُ رَقَبَـةٍ مُؤْمِنَـةٍ [النسـاء:92] يصدق عليه أنه يحرر رقبة من أهل الإيمـان ولو كـان عاصـياً، ولو كـان مـذنباً، ولكن الإيمـان الـذي مـدح الله أهله ووصـفهم بالنجـاة في قولـه: قَـدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ [المؤمنون:1] من هم؟ لابد أن يكون لهم صـفات معينـة، فلو قـال: (قد أفلح المؤمنون) واقتصر على هذه الآية لكـان المؤمنـون هم المصـدقون، ولكن الله بين صفاتهم، فقـال: الَّذِينَ هُمْ فِي صَـلاتِهِمْ خَاشِـعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ [المؤمنون:2-3] إذاً هـذا من الإيمـان، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَـاةِ

فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـافِظُونَ [المؤمنـون:4-5] إلى قولـه: وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَـاتِهِمْ وَعَهْـدِهِمْ رَاعُـونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَوَاتِهِمْ يُحَـافِظُونَ [المؤمنون:8-9] هذه كلها من الإيمان، وجعلها الله تعالى فروعـاً، فـإذا كـانت هذه صفات المؤمنين فإذاً هذه من الإيمان. وكذلك -أيضـاً- يقـول الله تعـالى: إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الـرَّحْمَنِ خَـرُّوا سُـجَّدًا وَبُكِيًّا [مـريم:58] فالإيمـان الـذي يكـون معه أن أهله يسـجدون ويسـبحون، وتتجـافى جنـوبهم عن المضـاجع، ويدعون ربهم خوفاً وطمعاً؛ هو الإيمان الصادق، وهـذه كلها صـفات المـؤمن، فلا يكـون المـؤمن صـادقاً إلا إذا اجتمعت فيه هـذه الخصـال ونحوهـا، فعرفنا بـذلك أن الإيمـان لابد فيه من هـذه الأصـول، لابد فيه من الأصل الصـحيح الصادق الذي هو العمل، والدافع إلى العمل الـذي هو التصـديق القـوي الـذي يظهر بالعمـل، ويظهر بـالكلام، فـإذا اجتمع العمل بالأركـان والنطق والعقيـدة الصادقة كمل الإيمان، وإلا فالإيمان ناقص.

من عقيـدة أهل السـنة أن الإيمـان يزيد بالطاعـة، وينقص بالمعصـية، وزعم مرجئة الفقهــاء وبعض المبتدعة أنه لا يزيد ولا ينقص، وقد رد عليهم العلمــاء وبينوا فساد قولهم.

مجمل عقيدة أهل السنة في أسماء الإيمان والدين والأقوال المخالفة لهم

مما تكلم به العلمـاء في العقيـدة: أسـماء الإيمـان والـدين، فعند أهل السـنة والأئمة وجماهير السلف أن الإيمان والدين هو قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركـان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصـيان، وأن الأعمـال من مسـمى الإيمـان، هـذه عقيـدة أهل السـنة. وعند أكـثر الحنفيـة: أنه الاعتقـاد بالجنـان، والإقرار باللسـان، ولم يجعلـوا الأعمـال من مسـمى الإيمـان، وهـذا هو الـذي ذكـــره الطحـــاوي بنـــاءً على أنه معتقد الحنفيـــة. وذهبت الماتريدية إلى أنه الاعتقاد بالجنـان فقـط، ولا تـدخل فيه الأعمـال ولا الأقـوال. وذهبت الكرامية إلى أنه مجرد الإقرار باللسان فقط، وإن لم يكن هناك اعتقاد بالجنـــان، فعلى قـــولهم فـــإن المنـــافقين مؤمنـــون؛ لأنهم يقـــرون باللســـان، وهم يقولـــون: المنافقون مؤمنون، ولكنهم مستحقون للوعيد الذي توعدهم الله به ولو كـانوا مؤمنين. وذهب الجهم بن صفوان وأتباعه إلى أن الإيمان هو مجـرد المعرفـة، فعنــدهم - على هــذا الاصــطلاح- أن إبليس من المؤمــنين، وأن فرعــون من المؤمنين، وكذلك الكفار الذين عرفوا صدق النبي صـلى الله عليه وسـلم من المؤمنين، كما حكى الله عنهم بقوله: وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْـهُ وَيَنْـأَوْنَ عَنْـهُ [الأنعـام:26] ، وكما سمعنا في نظم أبي طالب أنه كان يعرف صدق النبي صلى الله عليه وسـلم، ولكنه لم يتبعـه، فعنـدهم يكـون مؤمنـاً، وكـذلك اليهـود يكونـون عندهم مؤمنين لقوله تعالى: يَعْرِفُونَـهُ كَمَا يَعْرِفُـونَ أَبْنَـاءَهُمْ [البقـرة:146] . هذه ملخص الأقوال في مسمى الإيمان، والأصل هو قول أهل السنة، وهو أنه يجمع بين الثلاثة: القلب، واللسان، والأركان. وهو الذي ذكره البخاري في أول كتاب الإيمان من صحيحه، يقول: وهو قـول وفعـل، وهو إنما نص على القـول والفعـل، وعلى الزيـادة والنقصـان، ولم يـذكر الاعتقـاد؛ لأن الاعتقـاد لا خلاف فيـه، فلأجل ذلك خصص ووضح أن القـول والفعل من الإيمـان، ثم أخذ يـذكر الأبـواب في ذلـك، ويقـول: بـاب: الصـلاة من الإيمـان. بـاب: رد السـلام من الإيمان. باب: أداء الخمس من الإيمـان. بـاب: الصـدقة من الإيمـان.. وهكـذا. وقد أقـره على ذلك الـذين شـرحوا صـحيحه من أهل السـنة، مثـل: ابن كثـير الذي شرح أول صـحيح البخـاري وأقـره، وكـذلك ابن رجب شـرح أول صـحيح البخاري وأقره، وأتى عليه بالأدلة، وهكذا الـذين شـرحوه من أهل السـنة، أما الذين شرحوه من غيرهم فإنهم قد وقعوا في بعض التـأويلات، مثـل: صـاحب عمـدة القـاري، وهو العيـني، فإنه حنفي؛ لأجل ذلك أخذ يتـأول هـذه الأبـواب، ويحاول أن تكون على مذهب الحنفية، وشارح الطحاوية الذي نقرأ له حنفي -

أيضاً-، وهو علي بن أبي العز ، ولكنه تتلمذ على ابن كثير ، فتأثر به في باب العقيدة، فلأجل ذلك فإنه في باب الأسماء والصفات التزم بمذهب أهل السنة، ولما أتى على هذا الموضع -وكان كلام الطحاوي فيه مخالفاً لمذهب أهل السنة بناء على مذهب الحنفية- لم يستطع أن يجمع بينه وبين قول أهل السنة جمعاً ظاهراً، فحاول أن يجعل الخلاف لفظياً، يعني: أننا إذا جعلنا الإيمان -أصلاً- هو الاعتقاد الجازم، كانت الأعمال من ثمرات هذا الاعتقاد؛ لأن الذي يعمل إنما يحمله على العمل الاعتقاد الجازم، وهذا صحيح؛ إذ إن الإنسان إذا رسخت العقيدة في قلبه انبعثت جوارحه بالأعمال، وأكثر من الصالحات والحسنات والقربات، وإذا ضعفت العقيدة التي في قلبه ضعفت الأعمال عنده، والدوافع التي تدفعه إلى الأعمال الخيرية. ولكن لابد أن نقول: إن هذه الأعمال التي يعملها تسمى إيماناً، وأن الإيمان يزيد ويقوى، وأن كل واحد من هذه الأعمال يوصف بأنه إيمان، فتوصف الصلاة بأنها إيمان، قال تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ [البقرة:143] نزلت هذه الآية لما صرفت القبلة إلى الكعبة، فقال بعض الصحابة: فما بال صلاتنا إلى بيت المقدس قبل أن تصرف؟ فأنزل الله: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ [البقرة:143] يعني: صلاتكم الأولى قبل التعديل لن تضيع، فسمى الصلاة إيماناً. وقد ذكرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل الأعمال كلها من الإيمان في قوله: (الإيمان بضع وستون -أو بضع وسبعون- شعبة؛ أعلاها: قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)، والشعب: هي القطع من الشيء التي إذا تفرقت ضعف، وإذا اجتمعت كمل واستقام، فمعناه: أن هذه الشعب متى اجتمعت في قلب المؤمن وفي عمله أصبح مؤمناً كامل الإيمان، وإذا نقص واحدة نقص إيمانه، وهكذا فإذا ذهبت كلها ذهب الإيمان كله من قلبه. وفي هذا الحديث جعل النبي صلى الله عليه وسلم كلمة التوحيد من الإيمان، وهي نطق باللسان، وجعل إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان، وهي عمل بالأركان، وجعل الحياء من الإيمان، وهو اعتقاد بالجنان، فدخل بذلك كل ما يشبه هذه الأشياء، هذا معتقد أهل السنة. أما معتقد الحنفية فالإيمان عندهم: هو الاعتقاد والقول، وبعضهم جعل الخلاف بينهم وبين أهل السنة لفظياً، والصحيح أنه معنوي؛ وذلك لأن الإنسان إذا لم يعتقد أن الأعمال من مسمى الإيمان ضعف حرصه على الأعمال، ولم يبالِ بالسيئات؛ لاعتقاده أنها لا تنقص الإيمان، وأن الحسنات لا تجلب الإيمان، وأنها ليست من الإيمان؛ فيضعف بذلك حرصه واجتهاده، فلأجل ذلك اهتم أهل السنة بمن يعتقد هذا الاعتقاد، وقربوهم، وقد ذكر عن البخاري أنه قال: رويت في هذا الكتاب عن مائتين وسبعين عالماً، كلهم يقول: الأعمال من مسمى الإيمان. يعني: أنه اختار مشايخه الذين روى عنهم في الصحيح -لا في خارج الصحيح- والذين بلغ عددهم إلى مائتين وسبعين أو نحو ذلك، وكانوا كلهم على هذه العقيدة، يعني: لم يروِ في صحيحه عن الذين يقولون: إن الأعمال ليست من الإيمان، مع كثرتهم في زمانه، وهذا دليل على اهتمام السلف بعقيدتهم، وتحريهم في أخذها، ومعرفتهم بمن هو أهل لأن يروى عنه ومن ليس أهلاً لذلك. ......

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [وقد أجمعوا على أنه لو صدق بقلبه، وأقر بلسانه، وامتنع عن العمل بجوارحه: أنه عاص لله ورسوله، مستحق للوعيد، لكن فيمن يقول: إن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان من قال: لما كان الإيمان شيئاً واحداً فإيماني كإيمان أبي بكر الصديق و عمر رضي الله عنهما! بل قال: كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبرائيل وميكائيل عليهم السلام!! وهذا غلو منه؛ فإن الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر، ولا شك أن البصراء يختلفون في قوة البصر وضعفه، فمنهم الأخفش والأعشى، ومن يرى الخط الثخين دون الدقيق إلا بزجاجة ونحوها، ومن يرى عن قرب زائد على العادة، وآخر بضده. ولهذا -والله أعلم- قال الشيخ رحمه الله: وأهله في أصله سواء. يشير إلى أن التساوي إنما هو في أصله، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه، بل تفاوت درجات نور لا إله إلا الله في قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى، فمن الناس من نور لا إله إلا الله في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف. ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علماً وعملاً، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته، بحيث إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنباً إلا أحرقه، وهذه حال الصادق في توحيده، فسماء إيمانه قد حرس بالرجوم من كل سارق. ومن عرف هذا عرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله) ، وقوله: (لا يدخل النار من قال: لا إله إلا الله) ، وما جاء من هذا النوع من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهي، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأول بعضهم الدخول بالخلود، ونحو ذلك]. القول بأن الأعمال ليست من الإيمان يحتج أهله بأنهم إذا حققوا الاعتقاد نتجت عنه الأعمال وأثمرت، وقد يستدلون بعطف الأعمال على الإيمان في مثل قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [الشعراء:227] . والجواب: أن المراد بالإيمان هنا: أصله، والمراد بالأعمال: نتيجته وثمرته، أو المراد أكثروا من الأعمال الصالحة، وبكل حال فالأعمال لابد أنها داخلة في الإيمان؛ وذلك لأن الإيمان -الذي هو قوة اليقين وقوة التصديق- له علامات وله آثار وله ثمار، ومن أرفعها وأعلاها: ظهورها على بدن صاحبها. فنقول على هذا: كلها إيمان، فإذا رأيناه يغض بصره عن الإثم وعن العورات، قلنا: هذا هو الإيمان، وإذا رأيناه يصون سمعه عما لا يحل؛ قلنا: هذا هو الإيمان، وإذا رأيناه يحفظ لسانه عن الكلام القبيح والسيئ، أو سمعناه يتلفظ بالذكر وبالدعاء وبالنصح وبالتعليم؛ قلنا: هذا هو الإيمان، يعني: ظهر الإيمان عليه، وإذا رأينا زهده

وورعه، وتقلله من المشتبهات، وبعده عن الآثام، قلنا: هذا هو الإيمان، أو هـذا هو المؤمن، وأشباه ذلك. وأما الأدلة الـتي وردت في نجـاة أهل التوحيد -أهل كلمة الإخلاص- كقوله صـلى الله عليه وسـلم: (إن الله حـرم على النـار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بـذلك وجه اللـه) ، وقولـه: (من قـال: لا إله إلا اللـه، وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرم ماله ودمه، وحسـابه على اللـه) وأخـبر عن شفاعته في يوم القيامة أنها تنال من قـال: (لا إله إلا اللـه) خالصـاً من قلبـه، وأشباه ذلك، هذه الأحاديث تمسك بها أهل الإرجاء -الذين غلبوا جانب الرجاء- فقـالوا: إنه يكفي أن يقـول: لا إله إلا اللـه، ويكفي أن ينـوي الإخلاص، ولا يشترط أن يعمـل، ولا يشـترط أن يكف عن السـيئات، حيث لم يشـترط ذلك في هذه الأحاديث. ولكن هذا القول خـاطئ، والصـواب: أن من قالها فإنه لابد أن يعمل بموجبها؛ فـإن لا إله إلا الله قد قيـدت بـالقيود الثقـال، ولها شـروط سبعة ذكرت في قول الشـاعر: علم يقين وإخلاص وصـدقك مع محبة وانقيـاد والقبول لها وبعضهم زاد شرطاً ثامناً، ونظمه بقوله: وزيد ثامنها الكفران منك بما سـوى الإله من الأنـداد قد أُلِهَ فما دام أن هـذه الشـهادة قد قيـدت بهـذه القيود فلابد أن يتبعها العمـل، وإلا فلا يكـون القـول صـادقاً، وعرفنا أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم عنـدما أخـبر بنجـاة أهل هـذه الكلمـة، فإنما أراد أهلها الذين تقع في قلوبهم موقعاً ينتج عنه أثر ونتيجة، وهـذا الأثر هو العمـل، فـإذا قالوا: لا إله إلا الله، أي: لا معبود إلا الله؛ عبدوه بكل أنواع العبادة، فــذلك هو التأله، وتركوا معصيته، وذلك -أيضاً- من التألـه، وأعرضـوا عما سـواه، وذلك -أيضـاً- من التأله له وتـرك التأله لغـيره، فأما إذا لم يعبـدوه فلا يصـدق عليهم أنهم اتخذوه إلهاً، وكذلك إذا لم يؤدوا حقوق عبادته كلها لم يصدق عليهم أنهم اتخـذوه إلهـاً. وأما الـذين قـالوا: إن هـذه الأحـاديث في كلمة (لا إله إلا اللـه) محمولة على أول الأمر، فيقول بعض العلماء: إن قوله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله) -ونحو ذلـك- محمـول على من دخل في الإســلام لأول مـــرة، فإنه يكف عنـــه، ولكن بعد ذلك ينظر في حاله: فإن استمر في العمل بمعنى لا إله إلا الله يكف عنه كفـاً تامـاً، وإن لم يستمر في العمل بها، ولم يؤدِ حقوقها؛ فحينئذ يعود إلى ما كان عليـه، فيقاتل عليهـا؛ لأنه قالها ولم يعمل بهـا. وهنـاك من حمل قولـه: (من قـال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرم ماله ودمه) ، أو (حـرم الله على النـار من قال: لا إله إلا الله) على أن المراد نار الكفار، يعني: الـتي يخلـدون فيهـا. يعني: أنه وإن دخل النار فإنه لا يخلد فيها، أو لا يدخل نار الكفار، وهــذا خلاف ما في الأحاديث المطلقة. فإذاً: نحمل أحاديث الرجاء -الـتي فيها النجـاة لأهل لا إله إلا اللـه- على أن المـراد: من قالها صـادقاً من قلبـه، وانطلقت جوارحه بالعمل بمقتضاها، فأنت إذا دعوت إنساناً إلى لا إله إلا الله، فنطق بها، وقال: أقول: لا إله إلا الله، وأقول: إن محمداً رسول الله. فطالبه بعد ذلك بمعناهــا، قـائلاً لـه: ما معـنى الإلـه؟ أليس الإله هو المـألوه أو المعبـود؟ نطالبك بـأن تعبده، وأنت أقررت بأنه المستحق للعبادة، فأين العبـادة؟ من العبـادة أركـان الإسـلام.. من العبـادة واجبـات الإسـلام.. من العبـادة مكملات الإسـلام.. من العبادة ترك المحرمات في الإسلام، طالبه بمعنى ذلك، وقـل: هـذا هو التألـه،

إن أتيت بذلك فأنت صادق، وإلا فأنت منافق؛ لأن الـذي يقولها ثم لا يعمل بها شبيه بالمنافقين؛ فإن المنافقين يقولونها ليحموا بذلك أمـوالهم وأبـدانهم، أما المؤمنون فإنهم يقولونها ويطبقونها.

تفاوت قوة الإيمان بتفاوت قوة الاعتقاد وكثرة الأعمال

قال الشارح رحمه اللـه: [والشـارع صـلوات الله وسـلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فـإن هـذا من المعلـوم بالاضـطرار من دين الإسلام، فإن المنـافقين يقولونها بألسـنتهم، وهم تحت الجاحـدين في الـدرك الأسـفل من النـار، فـإن الأعمـال لا تتفاضل بصـورها وعـددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلـوب. وتأمل حـديث البطاقة الـتي توضع في كفـة، ويقابلها تسـعة وتسـعون سـجلاً، كل سـجل منها مد البصـر، فتثقل البطاقـة، وتطيش السـجلات، فلا يعـذب صـاحبها، ومعلـوم أن كل موحد له مثل هـذه البطاقـة، وكثير منهم يدخل النار. وتأمل ما قـام بقلب قاتل المائة من حقـائق الإيمـان، الـتي لم تشـغله عند السـياق عن السـير إلى القريـة، وحملته -وهو في تلك الحال- أن جعل ينوء بصدره وهو يعالج سـكرات المـوت! وتأمل ما قـام بقلب البغي من الإيمان، حيث نـزعت موقها وسـقت الكلب من الركيـة؛ فغفر لهـا. وهكذا العقل أيضاً، فإنه يقبل التفاضل، وأهله في أصـله سـواء، مسـتوون في أنهم عقلاء غير مجانين، وبعضهم أعقل من بعض. وكذلك الإيجـاب والتحـريم، فيكون إيجاب دون إيجـاب، وتحـريم دون تحـريم، هـذا هو الصـحيح، وإن كـان بعضـهم قد طـرد ذلك في العقل والوجـوب]. عرفنا أن كلمة (لا إله إلا اللـه) لابد أن يعمل بها، وأن الذين يقولونها ولا يعملون بها هم المنـافقون، وهم في الدرك الأسفل من النار تحت الكفار؛ وذلك لأنهم أخلوا بشرطها؛ وهـو: العمل والتطـبيق، أو أنهم يقولـون بألسـنتهم ما ليس في قلـوبهم، فلم تنفعهم هـذه الكلمة إلا نفعاً دنيوياً، وذلك بأن حقنوا بها دماءهم، وأحرزوا بها أموالهم، فلما أظهروا أمام الناس أنهم مؤمنون -والله مطلع على ما في قلوبهم- لم تنفعهم هذه الكلمة التي ما صدرت عن اعتقـاد، ولم يعملـوا بها حق العمـل. إذاً: أهل الإيمـان حقـاً هم الـذين يقولونها ويعملـون بمقتضـاها، وتصـدر عن قلـوبهم، وتطمئن قلوبهم بمدلولها، ويعرفون معناها. وهم -بلا شك- متفاوتون في هـذه القـوة، وذلك بحسب كـثرة الأدلـة، وبحسب كـثرة الأعمـال، فكلما كـثرت الأعمال الصالحة قوي الإيمان في القلب؛ ولأجل هـذا نقـول: إن الأعمـال من مسمى الإيمان، وإنها تزيد الإيمان، وإن السيئات تنقص الإيمان، وكـذلك تـرك الصـالحات ينقص الإيمـان. وإذا كـان الإيمـان يتفـاوت، فـإن قـدره في القلب يتفاوت، والإيمان الذي على الأبدان يتفـاوت، وقد مثل الشـارح الإيمـان الـذي في القلب بالبصر الـذي في العين، وقـال: النـاس يتفـاوتون في الإبصـار،

فبــالرغم من أنهم كلهم مبصــرون؛ إلا أن بعضــهم أقــوى بصــراً من بعض، فبعضـهم يـرى الشـخص من بعيد -من مسـيرة ثلاثة أو أربعه أميـال- فيعـرف شخصه، وبعضهم لا يعرفه ولو كان بينه وبينه خمسة أمتار أو نحوها، وبعضـهم يقرأ الخط الدقيق بدون نظارة ونحوها، وبعضـهم لا يقـرؤه إلا إذا كـان كبـيراً، كما هو مشــاهد. واختلاف النــاس في البصر يماثله اختلافهم في العقــل، إذ يتفاوت الناس فيـه، فمنهم من يكـون فطنـاً ذكيـاً، ومنهم من يكـون في غاية البلادة والغبـاوة، ومنهم من يكـون بين ذلـك. وإذا كـان التفـاوت حاصـلاً في هذين الأمرين، وهما من خلق الله تعالى وتدبيره، فنقول: كذلك الإيمان الـذي في القلب يقــوى في حق أهل الإيمــان القــوي الــذين تكــاثرت الأدلة عليهم فرسخ بها الإيمان في قلوبهم، وآخرون ضعف الإيمـان في قلـوبهم بقلة الأدلة أو بعــدم تأملهـا، لأجل ذلك فـإن البعض من أهل الإيمــان إذا جاءته شـبهة أو دعـاه داع إلى الضـلال أو إلى الـردة تـرك الإسـلام، وتـرك الصـلوات، وتـرك الأعمال، وما ذاك إلا لضعف الإيمان الذي في قلبـه؛ وضـعف الأدلة الـتي بـنى عليها هــذا الإيمــان، وبعضـهم يكـون الإيمــان في قلبه أرسى من الجبــال، لا تزعزعه الشــبهات ولا التشــكيكات، ولا الإيــرادات الــتي يوردها عليه دعــاة الضلال، فلو أتوه بكل دليل عندهم، ولو ألقوا عليه كل شبهة؛ فإن إيمـان قلبه يحرق تلك الشبهات ويزيلها؛ وذلك لأن قلبه مستنير، وقد مثل الشارح الإيمان بالنور، فـإن القلب إذا كـان فيه إيمـان فـإن فيه نـوراً، وأنتم تعرفـون تفـاوت الأنوار، فمنهم من يكون النور الذي في قلبه كنور الشمس الذي يضــيء على الدنيا، ومنهم من يكون كنور القمر، ومنهم من يكون كالسـرج القويـة، ومنهم من يكون كالشـمعة الضـعيفة أو ما أشـبهها، وقـوة النـور تتوقف على المـواد التي تمد ذلك النور، فكذلك النور في القلب ما الـذي يمـده؟ لا شك أن الـذي يمده الأدلة من آيات الله تعالى، ومن مخلوقاته، ومن أحكامه وشـرائعه، ومن المعجزات التي جرت على أيدي رسله وعلى أيدي أوليائه، تــواردت على ذلك القلب، فتمكنت ورسخت فيه، فصار لا حيلة لأحد في تضعيفها ولا إزالتها. فإذا رأيت إنساناً إيمانه ضعيف فإنك تجده قليل الأعمال، كثيراً ما يترك الصــلوات أو يتكاسل عنها، ويرتكب بعض المنهيات ونحو ذلك، كيف السبيل إلى إنقاذه؟ السبيل إلى ذلك أن تحثه على ما يقوي إيمانه، بـأن تكـرر عليه الأدلة والآيـات والبراهين التي تصل إلى قلبـه، وتكـرر عليه ما يبطل الشـبهات الـتي امتلأ بها قلبــه، فــإن لم تقــدر على ذلك فأرشــده إلى ما يقــرؤه أو ما يســمعه من النشرات، أو من الكتب والمؤلفات التي تحتـوي على بـراهين وآيـات ودلالات واضحات، وبذلك يقوى الإيمان في قلبه، وتـزول تلك الأسـباب الـتي تضـعفه، فعند ذلك ينبعث بدنه وأعضــاؤه وجوارحه بالأعمــال الصــالحات، فلا ينظر إلا نظر إيمان، ولا يسمع إلا سماع إيمـان، ولا يتكلم إلا كلام إيمـان، ولا يهم بقلبه إلا بما هو إيمان، ولا يمشي إلا إلى إيمان، ولا يعمل بيديه إلا ما هو إيمــان، ولا ينفق ماله إلا فيما هو إيمان.. وهكذا. فهذا ونحوه من ثمرات الإيمان الذي هو أصل في القلب، ثم بعد ذلك ينبعث على الجوارح.

قال الشارح رحمه الله: [وأما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل: فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ما يجب على من بلغه خبره، كما في حق النجاشي وأمثاله. وأما الزيادة بالعمل والتصديق المستلزم لعمل القلب والجوارح: فهو أكمل من التصديق الذي لا يستلزمه، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس المخبر كالمعاين) ، وموسى عليه السلام لما أخبر أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها، وليس ذلك لشك موسى في خبر الله، لكن المخبَر -وإن جزم بصدق المخبِر- قد لا يتصور المخبَر به نفسه كما يتصوره إذا عاينه، كما قال إبراهيم الخليل -صلوات الله على نبينا محمد وعليه-: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي [البقرة:260]. وأيضاً: فمن وجب عليه الحج والزكاة -مثلاً- يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به، ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره الإيمان به إلا مجملاً، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل. وكذلك الرجل أول ما يسلم، إنما يجب عليه الإقرار المجمل، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان]. من عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الإيمان -الذي في القلب، والذي في اللسان، وعلى الجوارح- يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، وقد دل على ذلك أدلة كثيرة، قال تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران:173] ، كيف زادهم إيماناً؟ أي: تصديقاً بخبر الله، وعملاً بآثار ذلك التصديق، فالله أخبرهم بأنه ينصرهم، وبأنه لا يخذلهم، فلما جاءهم هذا الخبر ما زادهم إلا تصديقاً بالله تعالى وبخبر الله، فدل ذلك على أن الإيمان يزيد، وكل ما هو قابل للزيادة فهو قابل للنقص. وقال تعالى في سورة الأنفال: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا [الأنفال:2] فسمعاها أو قراءتها تزيدهم إيماناً يعني: أنهم يعملون بها، ويصدقون بها، ويعرفون مدلولها، فيكون ذلك زيادة في أعمالهم. وقال تعالى في سورة الفتح: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ [الفتح:4] ، السكينة التي أنزلها في قلوبهم: الطمأنينة إلى خبر الله وخبر رسوله، والثقة بأنه ينصر من نصره، كما في الآيات الأخرى، فهذه الثقة زادتهم إيماناً؛ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، فدل على أنهم كانوا مؤمنين، وأن هذه السكينة زادتهم إيماناً إلى إيمانهم، ولا شك أنها زيادة محسوسة بحيث زادت أعمالهم، وكثرت حسناتهم، وقلت سيئاتهم، فيكون ذلك من

أسباب زيادة الحق والإيمان. هـذه بعض الأدلة على زيـادة الإيمـان، والشـارح يقول: إن الزيادة هي زيادة الأعمـال، يعـني: أن الـذي عمل بالشـريعة أول ما نزلت عمل بأعمال قليلة، ولما زادت الشرائع زادت أعماله، ومعلوم أن الذين أسلموا بمكة في أول الإسلام ما فرضت عليهم الطهارة ولا الصلاة ولا الصوم ولا الصـدقة ولا الجهـاد، وما فـرض عليهم من أركـان الإسـلام إلا الشـهادتان، حيث بقوا عشر سـنين قبل أن تفـرض عليهم الصـلاة، أما الـذين أسـلموا في سـنة ثمـان من الهجـرة فقد أسـلموا بعد أن تمت شـرائع الإسـلام، فصـاروا يصلون ويزكون ويصومون ويجاهدون ويحجون ويعلمـون ويعملـون ويتعلمـون القـرآن ويقرءونـه، فأعمـالهم أكـثر من أعمـال الأولين الـذين اقتصـروا على التوحيد وعلى الإخلاص، فهذا دليل على تفاوت الإيمان بكثرة الأعمـال، وهـذه وجهة لبعض العلماء في زيادة الإيمان: أن المراد بها: زيادة الأعمـال وكثرتهـا. ومثل الشـارح بمن بلغته الشـريعة فـآمن بهـا، ولم تبلغه تفاصـيلها كالنجاشي ملك الحبشـة، فإنه لما أسـلم لم تبلغه تفاصـيل الشـريعة من أركـان الإسـلام والمحرمات في الـدين، وكـذلك ما سـمع من القـرآن إلا بعضـه، ولم يعمل به كله، فإيمانه بحسب ما وصل إليه من الأركـان ومن الأحكـام، فهو أقل نسـبياً من الذين حضروا التنزيل فآمنوا به مفصلاً، وعملوا به عملاً كاملاً، فهؤلاء أكثر عملاً، فهم أقوى إيماناً وأزيد، هكذا فسر بعض العلماء الزيادة بكثرة الأعمال.

التصديق الذي في القلب يتفاوت

التصديق الذي في القلب يتفاوت، فقد عرفنا خبر صاحب البطاقة الـذي أخـبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يدعى وله تسعة وتسـعون سـجلاً، كل سـجل منها مد البصر، مكتوب فيها سيئاته، لا يدرك أعلاه البصر؛ فيعترف بذلك كلـه، ثم يخرج له بطاقة صـغيرة مكتـوب فيها الشـهادتان، فتوضع البطاقة في كفة والسـجلات في كفـة، فتطيش السـجلات وتثقل البطاقـة؛ لمـاذا؟ لأن هــذه الشهادة صدرت من صميم قلبه، صدرت وهو موقن بها يقينـاً صـادقاً وإيمانـاً قويـاً، فلما قالها بهـذه النية وبهـذه العقيـدة محت جميع ما سـبقها، وكفـرت السـيئات كلهـا، وأحرقتها إحراقـاً مـزيلاً لأثرهـا، فلم يبق لها جـرم تـزن بـه، فكانت هذه الشـهادة هي الـتي ثقلت بتلك الأعمـال. واسـتدل الشـارح بقصة الرجل من بني إسرائيل الذي قتل تسعةً وتسعين نفساً، ثم سـأل: هل له من توبـة؟ فأفتـاه عابد بأنه لا توبة لـه، فقتله وتمم به المائـة، ثم سـأل بعد ذلك فدله العـالم على قرية بها أنـاس صـالحون، فجـاء إليها مهـاجراً فـاراً بدينـه، فأدركه المــوت وهو في الطريــق، فلما أدركه المــوت كـان من محبته لتلك القرية أن أخذ ينأى بصدره ويقرب إليها، فكان فعله هذا دليلاً على قوة إيمانه وقوة تصديقه؛ مما جعله يلحق بأهل تلك القرية وتقبل توبتـه، فهـذا دليل على

أن الإيمان إذا كان قوياً في القلب ظهرت آثاره وظهرت علاماتـه. واسـتدل -أيضاً- بقصة امرأة بغي -يعني: زانية- كانت تكثر من الزنـا، ثم إنها تـابت، ولما رأت كلبـاً يلهث على ركية يكـاد يمـوت عطشـاً، نـزعت موقها -يعن: خفهـا- وملأته ماءً وسقت ذلك الكلب، فشـكر الله لها فغفر لهـا، وذلك دليل على أن رحمتها بهـذه البهيمة ورجاءها من الله المغفـرة هو الـذي حملها على ذلـك، فتعلق قلبها بربها أنه الذي يثيبها على هذا العمـل، فكـان هـذا العمل الصـادق الخالص نابعاً من إيمان قوي وتصـديق ثـابت، فأصـبح مكفـراً لهـذه السـيئات التي سـبقت. وبكل حـال: فالأعمـال الـتي تكـون على البـدن، إذا كـان البـدن عـاملاً بها زاد الإيمـان الـذي في القلب، وزاد الإيمـان الـذي هو من مسـمى الإيمان، فـإن تكلم بكلمة من الخـير زاد إيمانـه، وإن تكلم بكلمة شر أو سـوء نقص إيمانه، وإذا أنفق لله تعالى درهمـاً أو دينـاراً أو شـيئاً يبتغي به وجه الله زاد إيمانـــه، وإن أنفقه فيما يســخط الله من لهو وباطل وكفر وضــلال نقص إيمانـه، وإن مشى خطـوات إلى ذكر وإلى مسـجد وإلى علم وإلى عبـادة من العبــادات زاد إيمانـــه، وإن مشى خطـــوة أو خطـــوات إلى لهو وباطل ولعب ومعصـية من المعاصي وما أشـبهها فمشـيه هـذا ينقص إيمانـه. ومعلـوم أن الصـلوات تزيد الإيمـان، وأن أكل الحـرام ينقص الإيمـان، وأن النكـاح الحلال بالنية يزيد الإيمـان، والنكـاح الحـرام ينقص الإيمـان، وكـذلك الكسب الحلال والنفقة منه يزيد الإيمان، والكسب الحرام والنفقة منه ينقص الإيمان، ويقــال كذلك في الكلام السيئ والكلام الحسن: فالذكر بأنواعه والدعاء والأمر بالخير وتعلم العلم وتعليمه يزيد به الإيمـان، وتعلم الباطل والسـوء والكلام السـيئ والسـباب والشـتائم ونحوها ينقص الإيمـان.. وهكـذا. فعلى المسـلم أن يتفقد نفسه ويتفقد أعماله، ويحرص على أن يكون في زيادة لا في نقصان.

الفرق بين لفظ (التصديق) و(الإيمان) فيما يتعلق بخبر الغيب والشهادة

لا يستعمل بدل كلمة الإيمان التصديق، والـدليل عليه قوله تعـالى في سـورة العنكبوت: فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ [العنكبوت:26] ، مع أن التصديق يتعدى بــ(البـاء)، فيقال: صدقت به، ولا يقال: صدقت لـه. وأنت حين تتكلم عن شـخص تقـول: صدقت فلاناً، وصدقت بخبره، ولا تقول: صـدقت لـه، فكـذلك قولـه: فَمَا آمَنَ لِمُوسَــى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ [يــونس:83] (آمن لموســى) ولم يقــل: فما آمن بــه؛ لأن المراد: اتبعوه وعملوا بما جاء بـه، فهـذا دليل على أن الإيمـان أصـبح مغـايراً للتصديق، وليس مرادفاً له، فعرف بذلك أن الاستدلال بأن الإيمان في اللغـة: هو التصديق، لا يصلح دليلاً على أن الأعمال ليست من مسمى الإيمـان. قـال الشارح رحمه الله: [فالحاصل أنه لا يقال: قد آمنته، ولا صدقت له. إنما يقال: آمنت له، كما يقال: أقررت له، فكان تفسيره بـ(أقررت)، أقرب من تفســيره

بـ(صدقت)، مع الفـرق بينهمـا؛ لأن الفـرق بينهما ثـابت في المعـنى، فـإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب، يقال له في اللغة: صدقت، كما يقال لـه: كـذبت. فمن قال: السماء فوقنا. قيل له: صـدقت. وأما لفظ الإيمـان فلا يسـتعمل إلا في الخبر عن الغائب، فيقال لمن قال: طلعت الشـمس: صـدقناه، ولا يقـال: آمنا له، فإن فيه أصل معنى الأمن والائتمان إنما يكون في الخبر عن الغـائب، فالأمر الغائب هو الذي يؤتمن عليه المخبِر، ولهذا لم يـأت في القـرآن وغـيره لفظ (آمن لـه) إلا في هـذا النـوع. ولأنه لم يقابل لفظ الإيمـان قط بالتكـذيب كما يقابل لفظ التصـديق، وإنما يقابل بـالكفر، والكفر لا يختص بالتكـذيب، بل لو قـال: أنا أعلم أنك صـادق، ولكن لا أتبعـك، بل أعاديك وأبغضك وأخالفـك؛ لكـــان كفـــراً أعظم، فعلم أن الإيمـــان ليس التصـــديق فقـــط، ولا الكفر هو التكـذيب فقـط، بل إذا كـان الكفر يكـون تكـذيباً، ويكـون مخالفة ومعـاداة بلا تكـذيب، فكـذلك الإيمـان، يكـون تصـديقاً وموافقة وانقيـاداً، ولا يكفي مجـرد التصديق، فيكون الإسلام جزء مسمى الإيمان. ولو سـلم الـترادف فالتصـديق يكون بالأفعال أيضاً، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قـال: (العينـان تزنيـان، وزناهما النظـر، والأذن تـزني، وزناها السـمع -إلى أن قال:- والفرج يصدق ذلك ويكذبه) . وقال الحسن البصـري رحمه اللـه: (ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكنه ما وقر في الصدور وصدقته الأعمـال). ولو كـان تصـديقاً فهو تصـديق مخصـوص كما في الصـلاة ونحوها كما قد تقـدم، وليس هـذا نقلاً للفظ ولا تغيـيراً لـه، فـإن الله لم يأمرنا بإيمـان مطلـق، بل بإيمان خاص، وصفه وبينه. فالتصديق -الذي هو الإيمان- أدنى أحواله أن يكون نوعاً من التصديق العـام، فلا يكـون مطابقـاً له في العمـوم والخصـوص، من غير تغير اللسان ولا قلبه، بل يكون الإيمان في كلام الشارع مؤلفاً من العـــام والخاص، كالإنسان الموصوف بأنه حيوان ناطق. ولأن التصـديق التـام القـائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجـوارح، فـإن هـذه من لـوازم الإيمان التام، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم. ونقول: إن هـذه لـوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة، وتخرج عنه أخرى، أو إن اللفظ باق على معناه في اللغـة، لكن الشـارع زاد فيه أحكامـاً، أو أن يكـون الشـارع اسـتعمله في معناه المجازي، فهو حقيقة شرعية، مجاز لغوي، أو أن يكون قد نقله الشارع، وهذه أقوال لمن سلك هذا الطريق]. كل هذا من البيان والإيضـاح للفـرق بين التصديق والإيمان، وأنهما ليسا مترادفين من كل جهة، ولو كانا مــترادفين في اللغة فإنهما غير مترادفين في الشرع، فمعلـوم أن التصـديق ضـده التكـذيب، يقال: صادق أو كاذب، ويقال: صدقته أو كذبته، فالتصديق ضـده التكـذيب. أما الإيمان فليس ضـده التكـذيب، بل ضـده الكفـر، فيقـال: آمن أو كفـر، مـؤمن وكافر، فأصبح له ضد غير التصديق، فـدل على أنه ليس هو التصـديق من كل جهة، والذين قالوا: الإيمان والتصديق معناهما واحد، يقـال لهم: قد دلت اللغة على التفريق بينهما كما في الأمثلة الـتي ذكرها الشـارح، فـإذا قـال: طلعت الشـمس. قيـل: صـدقت، أو كـذبت. ولا يقـال: آمنت بـه، ولا آمنا بخـبره، بل يقال: صدقناه، وأصبح الإيمان اسـماً للإيمـان بالشـيء الغـائب؛ لأن الله أخـبر بذلك في قوله: الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـالْغَيْبِ [البقـرة:3] أي: يجزمـون به ويعتقدونه

وإن كان غائباً لم يروه... إلى آخر ما ذكره الشارح. وبكل حـال: فالإيمـان في الأصل وفي اللغة: هو التصديق، ولكن نقله الشارع من اللغـة، وجعله مسـمى شرعياً، فأصـبحت الأعمـال من مسـمى الإيمـان، فمن آمن باللسـان، وصـرح بسب الدين، وبسب الله، وبسب الرسل، وبكلمات الكفر -ونحو ذلك- وهو مع ذلك يدعي أو يزعم أنه من أهل الإيمان، وأن قلبه مؤمن؛ لم نصدقه في ذلك، بل عاملناه بما يقول؛ وذلك لأنا نعمل بالظـاهر، كما روي (أنه صـلى الله عليه وسلم استأذنه رجل في قتل بعض المنافقين، فقال: أليس يشـهد أن لا إله إلا الله؟ قال: يشهد، ولا شهادة له. قـال: أليس يشـهد أن محمـداً رسـول اللـه؟ قال: يشهد، ولا شهادة له. قال: أليس يصلي؟ قال: يصلي، ولا صلاة له. قال: أولئك الذين نهيت عن قتلهم) يعني: أنه أمر بأن يعمل بالظاهر. ولما اسـتأذنه خالد بن الوليد أن يقتل ذا الخويصرة الذي قـال: (اعـدل يا محمـد! فقـال: ألا نقتلـه؟ قـال: لعله يصـلي. فقـال: وكم من مصـلٍ يقـول بلسـانه ما ليس في قلبه! فقال صلى الله عليه وسلم: إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطـونهم) يعـني: أننا إنما نعامله بما يظهر منـه، فلأجل ذلك إذا قـال بعضهم: إن قلبي ممتلئ إيماناً، إن قلبي مـؤمن. قلنا لـه: صـدق هـذا الإيمـان بعلامة عليه وهو العمل، فإنه من مكملاته، فإذا لم تعمل، بل خـالفت ما تقوله بما تعمله كذبناك، ولم نقبل قولـك، فلو كنت صـادقاً لعملت، كيف تـزعم أنك تحب الله وتحب الرسول وتحب الشـريعة والإسـلام، ومع ذلك لا تـأتي بعلامة على هذه المحبة؟! تعصي الإله وأنت تزعم حبه هـذا عجيب في الفعـال بـديع لو كان حبك صـادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع والأثر الـذي روي عن الحسن مشـهور، وهو أنه قـال: (ليس الإيمـان بـالتحلي ولا بـالتمني، ولكن ما وقر في القلـوب، وصـدقته الأعمـال)، فنفى أن يكـون بـالتحلي، يعـني: الحلة الظاهرة كاللباس أو الهيئة أو الشـعور أو المظهر أو المقـال أو السـكنى فيما بين المسلمين أو نحو ذلك، وكذلك التمني، يعني: الألفـاظ، يقـول: أنا مـؤمن، أنا من أهل الإيمان، ويمدح بذلك نفسه، ليس ذلك هو حقيقة الإيمان، الإيمـان في الحقيقة هو ما امتلأ به القلب، ثم ظهرت آثاره على الأعمال، أي: صـدقته الجوارح بأعمالها.

من استكمل خصال الإيمان استكمل إيمانه

الإيمان الذي يكون في القلب، ويكون في البدن، هما ملازمان، وكـذلك الـذي يكـون باللسـان، والـذي يكـون بالأركـان هما متلازمـان، وكلاهما من خصـال الإيمان، فمن استكملها استكمل الإيمـان، كما ذكر ذلك البخـاري عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال: (إن للإيمـان شـروطاً وخصـالاً وخصـائص، من اسـتكملها اسـتكمل الإيمـان، ومن أخل بها نقص منه الإيمـان، فـإن أعش

فسأبينها لكم، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص)، هذا كلام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنــه. ولا شك أنه أخذ ذلك عن الصــحابة، فهو عــرف أن الإيمـان لا يكفي فيه الانتمـاء والتسـمي، فله شـروط، وله مكملات، وله آثـار، وله أعمال، فلابد أن المـؤمن يـأتي بها ويسـتكملها؛ حـتى يكتب بـذلك مؤمنـاً حقاً. فهكذا يكون المؤمنون الذين لا يفرقون بين الله ورسله، ولا يردون شيئاً من شريعته، هـؤلاء هم المؤمنـون حقـاً. وقد عرفنا أن عقيـدة أهل السـنة أن الأعمال تدخل في مسـمى الإيمـان، وأنه لا يكـون مؤمنـاً إذا لم يعمـل؛ وذلك لأن الإيمان الذي في القلب تظهر آثاره على الأعمال، فالأعمال إيمان كما أن الاعتقاد إيمان، وكما أن الأذكار اللسـانية إيمـان، وكما أن النفقـات في وجـوه الخير إيمان، وكما أن الأعمال الخيرية كلها وخصال الخير وخصـال الـدين كلها من الإيمان، فالكفر له شعب، والإيمان له شعب، فيقال: إن السباب والشــتم واللعن من خصال الكفر، قال النبي صلى الله عليه وسـلم: (سـباب المسـلم فسوق، وقتاله كفر)، فجعل الأعمال المحرمة كفر، وقال: (اثنتـان في النـاس هما بهم كفـر: الطعن في النسـب، والنياحـة)، فجعلها كفـراً، أي: من خصـال الكفـر، فخصـال الكفر تسـمى كفـراً، وخصـال الإيمـان تسـمى إيمانـاً. والعبد يحـرص على أن يجمع خصـال الخـير كلها حـتى يكـون مؤمنـاً حقـاً: أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَـرِيمٌ [الأنفـال:4]ـ ، من الذين يزهد في هذا الثواب كله؟! فالمؤمن يحرص على أن يكون مؤمنـاً حقـاً حـتى يحصل له هـذا الثـواب. كـذلك الـذين زعمـوا أن الأعمـال ليست من الإيمان، وجعلوا الإيمـان مقتصـراً على العقيـدة وعلى الكلام -كما هو مـذهب الأحناف- لا شك أن قـولهم فيه خلـل، وقد ذكرنا فيما سـبق أنهم لما اعتقـدوا هذه العقيدة ضعف قـدر الإيمـان الـذي في قلـوبهم، فصـاروا يكتفـون بما في القلب وبما في اللسـان، ولا يعـدون الأعمـال من مسـمى الإيمـان، فيضـعف تنافسهم في الخيرات، ولا يبالي أحدهم بما ارتكب من السـيئات والخطيئـات، فيقعون في الذنوب ولا يشـعرون، أو يظنـون أنها لا تنـافي إيمـانهم، أو أنها لا تنقص ثوابهم، وكذلك يزهـدون في الأعمـال الخيرية من الحسـنات والقربـات وسائر الطاعات، ويظنون أنها لا يكـون لها تـأثير في إيمـانهم ولا في قربـاتهم ولا في أعمالهم، فكـان ذلك سـبباً في نقص تنافسـهم في الخـيرات. أما أهل السنة فإنهم لما عرفـوا أن الأعمـال من الإيمـان صـاروا يتنافسـون في كـثرة الخصـال الخيريـة، وصـاروا يعملـون الأعمـال الدينيـة، وصـاروا يكـثرون من الحسنات، ويتقون السيئات والمخالفـات، فصـاروا بـذلك في أعلى المـراتب، وقد مر بنا كثير من أقوالهم التي يتعللون بها، ولكنها لا تصلح مستنداً.

الأدلة على زيادة الإيمان أكثر من أن تحصى من القرآن والسـنة، وقد اسـتدل المخالفون لهذه العقيدة بأدلة متشابهة، وقد بين العلماء فساد استدلالهم بها.

خلاف أهل السنة والحنفية في زيادة الإيمان ونقصانه

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [والأدلة على زيادة الإيمـان ونقصـانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً؛ منها: قوله تعـالى: وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا [الأنفال:2] ، وقال تعـالى: وَيَزِيـدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَـدَوْا هُـدًى [مريم:76] ، وقال تعالى: وَيَـزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُـوا إِيمَانًا [المـدثر:31] ، وقـال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَـعَ إِيمَـانِهِمْ [الفتح:4] ، وقـال تعـالى: الَّذِينَ قَـالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَـدْ جَمَعُـوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمـران:173] . وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها: إن الزيادة باعتبـار زيـادة المـؤمن بـه؟ فهل في قول الناس: (قد جمعوا لكم فاخشـوهم) زيـادة مشـروع؟! وهل في إنزال السكينة على قلوب المؤمنين زيادة مشروع؟! وإنما أنزل الله السـكينة في قلـوب المؤمـنين مـرجعهم الحديبية لـيزدادوا طمأنينة ويقينـاً، ويؤيد ذلك قوله تعالى: هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْـرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَـانِ [آل عمـران:167] . وقـال تعالى: وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَـزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَـافِرُونَ [التوبـة:124-125]]. الإيمـان: قـول باللسان، واعتقـاد بالجنـان، وعمل بالأركـان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصـيان، وهذه الجملة (يزيد وينقص) محل خلاف بين أهل السـنة وبين الحنفية وكـذلك غيرهم من المبتدعة، فإنهم كالمرجئة والجهمية لا يرون الأعمـال من مسـمى الإيمان، ولا يرون زيادة الإيمان ولا نقصه، ويعتقدون أن أهله في أصله سـواء، وأن تفاضلهم إنما هو بالدرجات في الآخرة، أو بالأعمال، وإلا فالأعمال عندهم زائـدة عن الإيمـان، ويـرون أن الإيمـان شـيء واحد لا يزيد ولا ينقص، هكـذا قـالوا. وأهل السـنة يـرون أن الإيمـان يزيد وينقص، وقد ذكرنا فيما سـبق أن على الإنسـان أن يحـرص على زيـادة إيمانـه، وأن الكلمة الطيبة تزيد إيمانـه، والكلمة الخبيثة تنقص إيمانه، والدرهم الذي ينفقه في سبيل الله وفي وجــوه الخير يزيد به إيمانه، وإذا أنفقه في المعاصي نقص إيمانـه، والخطـوات الـتي يسيرها إلى الخير وإلى أماكن الخير كالمساجد ونحوها تزيد إيمانـه، وإذا خطا إلى اللهو وإلى اللعب وإلى الباطل نقص بـــذلك إيمانـــه.. وهكـــذا بقية الأعمال. ......

توضيح أدلة زيادة الإيمان ونقصه

الآيات التي ذكر المؤلف فيها دلالة واضحة على أن الإيمان يزيد وينقص، حيث أثبت الله فيها الزيـادة، وكل شـيء يقبل الزيـادة فهو يقبل النقصـان، ففي سورة آل عمران قال تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَـدْ جَمَعُـوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا [آل عمران:173] ، لما خرج النبي صـلى الله عليه وسلم مع بعض أصحابه بعد وقعة أحد يريد اللحـاق بالمشـركين، جـاءهم نعيم بن مسـعود أو رجل من خزاعة وقـال: إن النـاس قد جمعـوا لكم فاخشـوهم. يعني: أن المشـركين قد جمعـوا لكم، ويريـدون أن يرجعـوا إليكم ويقتلـوا من بقي منكم، فاخشوهم، وهـذه المقالة ليس فيها زيـادة أعمـال، ولا فيها زيـادة تشـريع، ولا فيها زيـادة حكم، فكيف زادتهم إيمانـاً؟ قَـالُوا حَسْـبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران:173] وقوي إيمانهم بها، وكثر عملهم، وصمدوا فيما جاءوا له، وتوجهوا في طلب المشركين، جادين في اللحـاق بهم، مع ما أصـابهم من القرح كما قـال الله تعـالى بعد أن ذكر الشـهداء: يَسْتَبْشِـرُونَ بِنِعْمَـةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ* الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْـدِ مَا أَصَـابَهُمُ الْقَـرْحُ [آل عمـران:171-172] أي: المصـيبة الـتي نـزلت بهم وأصيبوا بها في أحد لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَـوْا أَجْـرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَـالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَـوْهُمْ فَـزَادَهُمْ إِيمَانًا [آل عمـران:172-173]. كذلك الآيات التي في آخر سورة التوبـة: وَإِذَا مَا أُنـزِلَتْ سُـورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُـولُ أَيُّكُمْ زَادَتْـهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُـوا فَـزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِـرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ فَـزَادَتْهُمْ رِجْسًـا إِلَى رِجْسِـهِمْ [التوبة:124-125]، كيف زادتهم إيماناً؟ عملوا بما فيها، هذه السورة أو هـذه الآيات طبقوها وعملوا بما فيها، وكذلك اعتقدوا مدلولها؛ فـزاد إيمـانهم، فهـذا دليل واضح على أن الإيمان يزيد وينقص. كذلك قوله تعالى في سورة محمد: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْـوَاهُمْ [محمـد:17] ، والهـدى لا شك أنه زيادة إيمـان وطمأنينـة. كـذلك قوله تعـالى في سـورة الفتح: هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَـزْدَادُوا إِيمَانًا [الفتح:4]، لما رجعـوا من غـزوة الحديبية أنزل الله عليهم الطمأنينة، وأنزل في قلوبهم السكينة، فزاد إيمانهم، وكثرت أعمالهم، فهذه أدلة واضحة على أن الإيمان يزيد، ولا شك أنه إذا كـان يقبل الزيـادة فإنه يقبل النقصـان؛ فلـذلك قـال أهل السـنة: إنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وإذا عرف المسـلم ذلك حـرص على ما يزيد إيمانه ويقويه ويثبته ويرسخه، وهو إيمانه بما أخبر الله به، وكذلك تتبعه لآيات اللـه، ونظـره في مخلوقاته، مما يرسخ الإيمان في قلبه ويقويه، كـذلك يكـثر عمله وتطبيقه لما جاءه في هذه الشريعة، وذلك كله مما يزيد به إيمانه. وإذا عـرفت ما يزيد فـإن ضد ذلك ما ينقص، فـاعرف الأشـياء الـتي يزيد بها إيمانك فاعمل بهـا، واعرف ضدها من المعاصي التي تنقص إيمانك، فابتعد عنها.

ضعف الأحاديث التي تدل على أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص

قال الشارح رحمه الله: [وأما ما رواه الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية فقال: حدثنا محمد بن الفضل وأبو القاسم الساباذي قالا: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل بن العابد قال: حدثنا يحيى بن عيسى قال: حدثنا أبو مطيع عن حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة قال: (جاء وفد ثقيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله! الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: لا؛ الإيمان مكمل في القلب، زيادته كفر، ونقصانه شرك)؛ فقد سئل شيخنا عماد الدين ابن كثير رحمه الله عن هذا الحديث فأجاب: بأن الإسناد من أبي ليث إلى أبي مطيع مجهولون لا يعرفون في شيء من كتب التواريخ المشهورة. وأما أبو مطيع فهو: الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي ، ضعفه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعمرو بن علي الفلاس والبخاري وأبو داود والنسائي وأبو حاتم الرازي وأبو حاتم محمد بن حبان البستي والعقيلي وابن عدي والدار قطني وغيرهم. وأما أبو المهزم -الراوي عن أبي هريرة - فقد تصحف على الكتاب، واسمه: يزيد بن سفيان ، فقد ضعفه أيضاً غير واحد، وتركه شعبة بن الحجاج ، وقال النسائي : متروك، وقد اتهمه شعبة بالوضع، حيث قال: لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً!]. هذا الحديث باطل، وضعه بعض الوضاعين، ورجال إسناده كلهم إما مجهول، وإما كذاب، وإما ضعيف، فلا يلتفت إليه، وليس بدليل. ثم هو مصادم للنصوص، فإذا كان الآيات تدل على الزيادة فكيف يأتي الحديث بأنه لا زيادة؟! إذا كان الله يقول: فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [التوبة:124] ، لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا [الفتح:4] ، وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى [مريم:76] ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا [آل عمران:173] ، كيف مع ذلك يأتي هذا الحديث ويكون من قول النبي صلى الله عليه وسلم؟! الرسول صلى الله عليه وسلم لا يخالف كتاب ربه، ولا يأتي إلا بما أوحي إليه، وقد أوحي إليه أن الشريعة فيها أعمال، وأن أعمالها إذا عمل بها العباد زاد بذلك إيمانهم، فلا يقول قائل: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، معتمداً على هذا الحديث الضعيف أو المكذوب.

أدلة أخرى من الحديث وكلام الصحابة تدل على نقص الإيمان

قال الشارح رحمه الله: [وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم النساء بنقصان العقل والدين، وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) . والمراد: نفي الكمال،

ونظائره كثيرة، وحديث شعب الإيمان، وحديث الشفاعة، وأنه يخرج من النـار من في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمـان، فكيف يقـال بعد هـذا: إن إيمـان أهل السـماوات والأرض سـواء، وإنما التفاضل بينهم بمعـانٍ أخر غـير الإيمان؟! وكلام الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى كثير أيضاً: منه قول أبي الـدرداء رضي الله عنــه: (من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منــه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينتقص). وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه: (هلموا نزدد إيماناً، فيذكرون الله تعالى عز وجل). وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه: (اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهـاً). وكـان معـاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل: (اجلس بنا نؤمن سـاعة). ومثله عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنـــه. وصح عن عمـــار بن ياسر رضي الله عنه أنه قال: (ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: إنصاف من نفسه، والإنفاق من إقتار، وبذل السلام للعالم)، ذكره البخـاري رحمه الله في صـحيحه. وفي هـذا المقـدار كفايـة، وبالله التوفيـق]. هـذه أدلة واضـحة تـدل على تفـاوت أهل الإيمان في إيمانهم، لا كما يقول المبتدعة: إن الناس سواء في الإيمان، وإنهم لا يتفاوتون إلا بمعان أخرى. والنبي صلى الله عليه وسـلم ينفي الإيمـان عمن فعل بعض المعاصي، ويفسره العلماء بـأن المـراد: نفي كمالـه، إذا قـال مثلاً: (لا يؤمن من لا يـأمن جـاره بوائقـه) هل يقـال: إن من لم يـأمن جـاره بوائقه كَفَر؟ لا؛ بل نقـول: إيمانه نـاقص. إذا قـال مثلاً: (لا يـؤمن أحـدكم حـتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) هل نقول: إذا لم يحب لأخيه ما يحبه لنفسه فهو كافر؟ لا؛ ولكن نقول: إنه لم يؤمن الإيمان الكامـل؛ وذلك لأن الإيمـان يتفـاوت أهله فيه، فيكـون منهم من هو كامل الإيمـان، ومنهم من هو نـاقص الإيمـان، فهـذا كمال، وهو استيفاء هـذه الخصـال ونحوهـا. وكـذلك الأحـاديث الـتي فيها حث النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن أن يفعل خصالاً، كقوله: (من كـان يـؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كـان يـؤمن بالله واليـوم الآخر فليكـرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليـوم الآخر فليقل خـيراً أو ليصـمت) ، المعـنى: أن هذه من خصال المؤمن الذي يؤمن بالله واليوم الآخـر، فيـدل على أن من لم يفعلها فإنه ناقص إيمانه بالله وبـاليوم الآخـر. وهكـذا قوله صـلى الله عليه وسلم: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسـافر مسـيرة يـوم إلا مع ذي محرم) معلوم أنها تؤمن، ولكن سفرها يكون نقصاً في إيمانها، لا أنه نفي للإيمان كله. وقوله: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج) ، معلـوم أنه لا يخـاطب إلا من هي مؤمنـة، ولكن إذا أحدت على أبيها -مثلاً- أكثر من ثلاث، لم تخرج بذلك عن الإيمان بالله واليـوم الآخر، ولكن يكون هذا نقصاً في الإيمان. ويقال كذلك في الخصـال الـتي ذكر فيها الإيمان. ولا شك أن هذا دليل على أنه أهله يتفاوتون، فمن استكمل هذه الخصال وابتعد عن الآثام فهو كامل الإيمـان، وإلا فهو نـاقص بحسب الأعمـال التي أخل بها، أو المعاصي التي ارتكبها.

تفاوت الإيمان في القلب

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الإيمان الذي في القلب يتفـاوت في حق من يدخل النار في قوله: (إن الله يقـول لملائكته ولرسـله: أخرجـوا من النـار من قال: لا إله إلا الله، ومن كان في قلبه مثقال دينار من الإيمان، ثم يقــول: أخرجوا من كان في قلبه مثقـال درهم، ثم يقـول: أخرجـوا من كـان في قلبه مثقـال بـرة، ثم يقـول: أخرجـوا من كـان في قلبه مثقـال ذرة من إيمـان، ثم يقول: أخرجوا من كان في قلبه مثقال أدنى أدنى ذرة من إيمان). وأخــبر في حديث آخر أن الإيمان في قلـوب أصـحابه أثقل من الجبـال يعـني: أرسى من الجبال. أليس كل هذا يدل على أن الإيمان الذي في القلب يتفـاوت؟! لا شك أنه كلما كان الإيمان أقوى كـانت آثـاره أكـبر، وكـانت الأعمـال الـتي تنتج منه أكثر نتيجة وأكثر عملاً، فإن الإيمان إذا كـان مثل الجبل كـثرت الأعمـال، ودفع البدن إلى الأعمال، وإذا كان ضعيفاً قلت الأعمال الخيرية، وتكثر الســيئات أو تقل بحسب قــوة الإيمــان الــذي في القلب، وبحسب ضـعفه، وتكــون هــذه الأعمال علامة على ما في القلب، فتكون إيماناً. كذلك -أيضاً- ثبت أن السلف رحمهم الله كــانوا يســمون الأعمــال إيمانــاً، كما في هــذه الآثــار عن بعض الصحابة، ومنها: أن عمر ومعـاذاً وابن رواحة كـانوا يقولـون: اجلس بنا نـؤمن سـاعة أو يقولـون: نـزدد إيمانـاً أو: هلم فلـنزد إيماننا أو: هلم فلنعمل أعمـالاً يقوى بها إيماننا ويزيد إيماننا، كيف يزيد؟ يقولون مثلاً: إذا ذكرنا الله، وحمدناه وشــكرناه، وأطعنــاه وعبــدناه، زاد بــذلك إيماننــا، كلما عملنا عمل بر وعملاً صالحاً زاد بذلك نصيبنا من الإيمان، وكثر الإيمان الذي عملنـاه، فكثرته يحصل بها ثقل الموازين، ويحصل بها خفة الحساب في الآخرة، ويحصل بها السعادة، ويحصل بها إعطـاء الكتـاب بـاليمين، ويحصل بها -أيضـاً- التمكين من الـورود على الحوض، وسرعة المسير على الصـراط عنـدما ينصـب، ثم دخـول الجنة بسلام كما أخبر بذلك النبي عليه الصلاة والسلام. وذكر البخــاري عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنــه: أنه كتب إلى بعض عمالــه: (أن للإيمــان شــرائط ومكملات وأمــوراً من فعلها فقد اســتكمل الإيمــان، ومن تركها فقد أخل أو نقص إيمانه، يقـول عمر بن عبد العزيز : فـإن أعش فسـأبينها لكم، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص)، ولا شك أنه لا يخبر بـأن للإيمـان مكملات، وله شــرائط، وله نتــائج، وله ثمــرات؛ إلا وقد أخذ ذلك عن الصــحابة، فإنه تلميذ الصحابة، والصحابة أخـذوا ذلك عن نـبيهم صـلى الله عليه وسـلم وعن كتـاب ربهم، فعرفنا بذلك أن الإيمان لابد أن يستكمل حتى يزيد في أصـحابه، وحـتى تكون نتيجته السعادة الأبدية.

وجه اقتران الإيمان بالعمل الصالح

قال الشارح رحمه الله: [وأما كون عطف العمل على الإيمان يقتضي المغايرة، فلا يكون العمل داخلاً في مسمى الإيمان، فلا شك أن الإيمان تارة يذكر مطلقاً عن العمل وعن الإسلام، وتارة يقرن بالعمل الصالح، وتارة يقرن بالإسلام، فالمطلق مستلزم للأعمال، قال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ [الأنفال:2] ، وقال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا [الحجرات:15]، وقال تعالى: وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ [المائدة:81]. وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) الحديث، (لا تؤمنوا حتى تحابوا) ، (من غشنا فليس منا) ، (من حمل علينا السلاح فليس منا) ، وما أبعد قول من قال: إن معنى قوله: (فليس منا) أي: فليس مثلنا! فليت شعري فمن لم يغش يكون مثل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه!. أما إذا عطف عليه العمل الصالح، فاعلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما، والمغايرة على مراتب: أعلاها: أن يكونا متباينين، ليس أحدهما هو الآخر، ولا جزءاً منه، ولا بينهما تلازم، كقوله تعالى: خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ [الأنعام:1] ، وقوله تعالى: وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ [آل عمران:3] ، وهذا هو الغالب. ويليه: أن يكون بينهما تلازم، كقوله تعالى: وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة:42] ، وقوله تعالى: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ [المائدة:92]. الثالث: عطف بعض الشيء عليه، كقوله تعالى: حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى [البقرة:238] ، وكقوله تعالى: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ [البقرة:98] ، وكقوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ [الأحزاب:7]. وفي مثل هذا وجهان: أحدهما: أن يكون داخلاً في الأول، فيكون مذكوراً مرتين. والثاني: أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلاً فيه هنا، وإن كان داخلاً فيه منفرداً، كما قيل مثل ذلك في لفظ الفقراء والمساكين ونحوهما، تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران. الرابع: عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين، كقوله تعالى: غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ [غافر:3] وقد جاء في الشعر العطف لاختلاف اللفظ فقط، كقوله: فألفى قولها كذباً وميناً. ومن الناس من زعم أن في القرآن من ذلك قوله تعالى: لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا [المائدة:48]، والكلام على ذلك معروف في موضعه].

الجواب عن استدلال الحنفية بعطف العمل على الإيمان في قولهم بأن العمل ليس من الإيمان

هـذا جـواب عما استدل به الحنفية من عطف العمل على الإيمـان، فيقولـون في قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [الشـعراء:227]: لو كـانت الأعمــال من الإيمــان ما عطفت عليــه، فعطفها عليه يقتضي أنها ليست من الإيمان، بل هي غيره، فالإيمان عندهم هو ما في القلب، والأعمال شـيء زائد على الإيمان. هكذا قرروا هذا الدليل. ومر بنا جـواب الشـارح، وكـذلك أجـاب غـيره، حيث ذكر أن الإيمـان تـارة يكـون مسـتقلاً، يعـني غـير معطـوف عليه بشــيء، وتــارة يعطف عليــه، فمثلاً قوله تعــالى في ســورة الأنفــال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ [الأنفال:2]، هذا تفسير للمؤمنين بأنهم أهل هـذه الخصـال، ومثله قوله تعـالى في سـورة السـجدة: إِنَّمَا يُـؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ [السجدة:15]، فهذا دليل على أن هؤلاء هم المؤمنون، ويكون من إيمانهم هذا السـجود والتسـبيح ونحـوه. وكـذلك قـال في سـورة الحجـرات: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ آمَنُـوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا [الحجرات:15]، فهذا تفسير الإيمان، وأشباه ذلك كثير، يذكر الله فيها الإيمان، ويذكر أن الأعمال داخلة فيه، فمثل هـذا يـبين الإيمـان الحقيقي، (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) .. إلخ، أي: هـؤلاء هم المؤمنون، ويقول بعـدها: أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُـونَ حَقًّا [الأنفـال:4]. إذاً: هـذا معنى من المعاني يكون فيه الإيمان مستقلاً غير معطوف على شيء. أما إذا عطفت عليه بعض الأعمال فذكر الشـارح أن العطف له عـدة حـالات، فتـارة يقتضي العطف التغـاير، أي: أن الثـاني غـير الأول، وهـذا هو الكثـير فيما إذا عطف بعضها على بعض، مثل قولـه: وَأَقَـامُوا الصَّـلاةَ وَآتَـوُا الزَّكَـاةَ [البقـرة: 277]، فإن الزكاة غير الصلاة، فهي عطفت عليها للمغايرة. كذلك من أنـواع العطف: العطف لأجل التنويع، مثل قوله: الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ [الأنعام:1]، هل هناك فرق بين الخلق والجعل في هذه الآية؟ لا، فـالعطف هنا للتنويع لا للتغـاير. كـذلك من أنـواع العطـف: أن الشـيء قد يعطف على بعضه، فيـذكر مجملاً، ثم يـذكر بعض التفصـيل فيـه، ومن الآيـات التي في هذا -وهي كثيرة- قوله: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَرُسُـلِهِ وَجِبْرِيـلَ وَمِيكَالَ [البقرة:98] فـ(جبريل وميكال) داخلان في الملائكـة، فلمـاذا عطفـا؟ للتنويـع، أو لبيـان السـبب. ومثله قوله تعـالى: وَإِذْ أَخَـذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَـاقَهُمْ [الأحـزاب:7] من النبـيين كلهم، وَمِنْـكَ [الأحـزاب:7] أليس محمد صـلى الله عليه وسلم (من النبـيين؟!) وَمِنْ نُـوحٍ وَإِبْـرَاهِيمَ وَمُوسَـى وَعِيسَـى ابْنِ مَـرْيَمَ [الأحــزاب:7] لم خص هــؤلاء؟ هــذا عطف بيــان، وليس عطف تنويــع. ومن العطف -أيضاً-: الآية التي ذكرت في سـورة المائـدة، وهي قوله تعـالى: لِكُـلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا [المائدة:48] الشـرعة والمنهـاج واحـد، فـالعطف هنا للـترادف، وذكر -أيضـاً- قـول الشـاعر: فـألفى قولها كـذباً ومينـاً. الكـذب والمين واحـد، فـالعطف هنا عطف بيـان أو عطف إيضـاح. إذاً: فقوله تعـالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [الشعراء:227] العطف هنا عطف بيــان، لا أنه

عطف مغايرة، فبذلك يعرف أنه ليس في هذه الآيات ما يدل على أن الأعمال ليست من مسمى الإيمان.

العمل يـدخل في مسـمى الإيمـان، فهو شـطر منـه، وقد اختلف النـاس في مسـمى الإيمـان، وفي التفريق بينه وبين الإسـلام، وقد بين أهل السـنة الحق في ذلك كله معتمدين على الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة.

بيان أن الأعمال من الإيمان وأنه يزيد وينقص

مر بنا في العقيـدة زيـادة الإيمـان ونقصـانه، ودليل ذلك من الكتـاب والسـنة، وأنه قـول أهل السـنة والجماعـة، والأدلة على ذلـك، وفائـدة الإيمـان بزيـادة الإيمان ونقصانه، وفائدة اعتقاد ذلـك، والنقص والخلل الحاصل في إيمـان من أنكر ذلــك. من اعتقد أن الأعمــال من مســمى الإيمــان فإنه يحــرص على استكثار الأعمـال الصـالحة، ومن اعتقد أن الإيمـان يزيد بالطاعة حـرص على الاسـتكثار من أنـواع الطاعـات، ومن عـرف أن إيمانه ينقص بالمعاصي ابتعد عن كل المعاصي حــتى لا ينقص بها إيمانــه؛ وذلك لأنه يحس أو يستحضر أنه كلما نقص إيمانه بسـبب معصـية ضـعف يقينـه، ونقص حظه من الآخـرة ومن الأجر، فهو يبتعد عن هذه الآثام التي تكون سبباً في نقص الإيمـان. لا شك أن الإيمان إذا كان يقبل الزيادة فإنه يقبل النقصـان، وقد ذكرنا بعض الأدلة الـتي تـدل على زيـادة الإيمـان، والأمثلة الـتي تكـون سـبباً في زيـادة الإيمـان وفي نقصــه، وأن الإنســان إذا استحضر أنه بالكلمة الطيبة يزيد إيمانــه، وبالكلمة الخبيثة ينقص إيمانه، وبالنفقة في وجوه الخير يزيد إيمانه، وبالنفقة لغـير الله ينقص إيمانه، وبسماع كلام الله وبسـماع الخـير ونحـوه يزيد إيمانـه، وبسـماع اللغو واللهو والإثم ونحو ذلك ينقص إيمانــه، وبــالخطوات الــتي يخطوها إلى عبادة أو إلى مكان عبادة يزداد إيمانـه، وبـالخطوات الـتي يخطوها إلى إثم أو محــــرم ينقص إيمانــــه؛ من استحضر مثل هـــذا في جميع أعماله فإنه ولابد سيكون منتبهاً في كل لحظة، وفي كل عمل، إذا أراد أن يتكلم لم يقـدم على الكلام إلا بعد أن يتحقق أنه خـــير، وأنه زيـــادة في إيمانـــه، وأنه يكتب له به حسنات، فيقدم عليه، وإذا أراد أن يتوجه إلى طريق وإلى مسير تفكَّر: هل له فيه خـير؟ وهل هو إيمـان أو كفـر؟ وهل هو من شـعب الإيمـان أو من شـعب الكفــر؟ فلا يقــدم إلا بعــدما يتحقق أنه عمل بر وخــير.. وهكــذا في بقية الأحوال. ......

الرد على شبهة القائلين بأن العمل ليس من الإيمان

قد يقـول قائـل: كيف تكـون الأعمـال من الإيمـان وهي تعطف عليه كما في قوله: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ [الشـعراء:227] فإنه يفهم منـه: أن الأعمـال زائـدة على الإيمـان؟ الجـواب: أن هـذا العطف من عطف البيـان،

وعطف البيان مشهور عند العرب، فيعطف على أنه بيان لما قبله وإيضاح له وتقوية له، كأنه يؤكد أنهم متى آمنوا فإنه يزيد إيمانهم بهذه الأعمال الصالحة فيكثِّرونها، والله تعالى كثيراً ما يذكر الأعمال الصالحة ويفصل فيها، فمثلاً سورة (قد أفلح المؤمنون) ذكر الله فيها عشر صفات، أولها: الخشوع في الصلاة، وآخرها: المحافظة على الصلاة، وإذا تأملنا هذه الصفات التي أولها الإيمان وجدناها كلها متفرعة من الإيمان، وصفهم بأنهم مؤمنون، وكأنه قيل: وما هي أعمالهم؟ فقال: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ [المؤمنون:2] إلى آخرها، فهذا بيان بأنهم مؤمنون حقاً، وأنهم يدفعهم إيمانهم إلى فعل هذه الأشياء، فمن استكملها فهو منهم، ومن أخل بشيء منها فقد أخل بالإيمان أو قد نقص إيمانه. وبهذا يعرف أن الإيمان يتفاوت أهله فيه، فيزيد بعضهم على بعض، فالذين يصلون ولكنهم لا يخشعون في صلاتهم أنقص إيماناً من الخاشعين في صلاتهم، والذين يصلون ولكن لا يحافظون على الصلاة جماعة، بل يتكاسلون عن الجماعة أحياناً أنقص من الذين يحافظون عليها، وكذلك الذين يعرضون عن اللغو كلياً وعن مجالس اللغو، كما قال الله: وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ [المؤمنون:3] أي: مبتعدون؛ أكمل من الذين لا يعرضون عنه، بل يجلسون مع أهله أو يسمعون لغوهم أو نحو ذلك، فدل على أن أهل الإيمان يتفاوتون وإن كانوا كلهم مؤمنين، ولكن من استكمل هذه الصفات فقد استكمل الإيمان، ومن أخل بشيء منها فقد نقص إيمانه، والنقص قد يأتي على الآخر، وقد يبقى معه بعض الشيء.

اعتقاد ازدياد الإيمان ونقصه سبب للاستكثار من الطاعات

اعتقاد الإنسان زيادة إيمانه بالطاعات سبب لاستكثاره من الطاعات، واعتقاده نقص إيمانه بالمعاصي سبب لاجتنابه المعاصي، فلك أن تذكر العاصي وتقول له: يا أخي! بصفتك مؤمناً تذكر أن أعمالك هذه تنقص إيمانك! أعمالك هذه التي أنت تستمر فيها حتى ولو كانت من صغائر الذنوب. إذا كنت في كل يوم -مثلاً- تجدد حلق لحيتك، أو تطيل ثيابك تكبراً وإعجاباً بنفسك، أو تتعاطى هذا الدخان وتشمه دائماً وتشربه، وتتهاون به، أو تسمع غناء وتزعم أنك ترفه عن نفسك وتتسلى، وأنت مصر على ذلك، ففي كل يوم ينقص جزء من إيمانك، وفي كل يوم تقدح في إيمانك وتقطع منه قطعة، وتجمع شعباً من شعب الكفر، ويزيد حظك من المعاصي وحظك من الكفر، أفلا تكون منتبهاً خائفاً أن هذا النقص وتواليه يضعف إيمانك، حتى لا يبقى منه إلا القليل، فما دمت في زمن الإمهال، فإن عليك أن تحرص كل الحرص على الأعمال التي يقوى بها إيمانك، ويضعف بها حظك من الكفر ومن المعاصي! وكذلك -أيضاً- تشجع أهل الطاعة، وتحثهم على الاستكثار منها، وتبشرهم

بـأنهم بكل خطـوة يخطونها إلى المسـجد يزيد إيمـانهم، وبكل ركعة يركعونها من النوافل يزيد إيمـــــانهم، وبكل آية يقرءونها يزيد إيمــــانهم، وبكل تهليلة وتكبـيرة وتسـبيحة، وبكل اسـتغفار وبكل دعـوة يـدعون بها يزيد حظهم من الإيمان، ويقوى في قلوبهم، وكذلك تقوى أبدانهم بالإيمان، ويكثر نصـيبهم من الأجر الـذي رتب على الإيمـان. إذاً: اعتقادنا أن الإيمـان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فيه هذه الفوائد، والذين جعلوا الإيمان شيئاً واحـداً، وأن النـاس في أصله سواء، فاتتهم هذه الفوائـد، فصـاروا يعتمـدون على أن إيمـانهم كامل لا يـتزعزع ولا يتغـير ولا ينقص، فلا يبـالون بـالنقص من الحسـنات، ولا يبـالون بالاقتراف للسـيئات، فيقعـون في المعاصـي، ويتهـاونون بهـا، ويـدعون أنها لا تضـر، ولا تنقص إيمــانهم؛ لأنها ليست من الأعمــال، والإيمــان إنما هو عمل القلب، وهذه إنما هي أعمال اللسان أو أعمـال البـدن. ويسـبب هـذا الاعتقـاد السيء تهوينهم على أنفسهم أمر الذنوب، وتهوينهم على غـيرهم الوقـوع في المعاصي، فيقعون فيما حذر الله تعالى منه وهم لا يشعرون.

أدلة دخول العمل في مسمى الإيمان

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [ومن الناس من زعم أن في القرآن من ذلك قوله تعالى: لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِـرْعَةً وَمِنْهَاجًا [المائـدة:48] والكلام على ذلك معـروف في موضـعه. فـإذا كـان العطف في الكلام يكـون على هـذه الوجوه، نظرنا في كلام الشارع: كيف ورد فيه الإيمان فوجدناه إذا أطلق يراد به ما يراد بلفظ البر، والتقوى، والدين، ودين الإسلام. ذكر في أسباب النزول أنهم سألوا عن الإيمان؟ فـأنزل الله هـذه الآيـة: لَيْسَ الْبِـرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُـوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ [البقرة:177] قال محمد بن نصر : حدثنا إسـحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن يزيد المقـرئ والملائي قـالا: حـدثنا المسـعودي عن القاسم قال: جاء رجل إلى أبي ذر رضي الله عنه فسأله عن الإيمـان؟ فقـرأ: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ [البقرة:177] إلى آخر الآية، فقـال الرجـل: ليس عن هذا سألتك، فقال: (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذي سألتني عنه، فقرأ عليه الذي قرأت عليك، فقال له الـذي قلت لي، فلما أبى أن يرضى، قال: إن المـؤمن الـذي إذا عمل الحسـنه سـرته ورجا ثوابهـا، وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها) وكذلك أجاب جماعة من السلف بهـذا الجواب. وفي الصحيح قوله لوفد عبد القيس : (آمـركم بالإيمـان بالله وحـده، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شـهادة أن لا إله إلا الله وحـده لا شـريك لـه، وإقـام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم)، ومعلـوم أنه لم يـرد أن هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب، لما قد أخبر في مواضع أنه لابد من إيمان القلب، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان]. قد ذكرنا أن

هذا الموضوع يسمى (أسماء الإيمان والدين) أو (أسماء الأحكـام)، وعرفنا أن هذه المسميات كانت مستعملة في اللغـة، ولكن لها معـان معروفة عنـدهم؛ لكن ليست هي المعـاني الشـرعية، فلأجل ذلك نقلها الشـرع إلى هـذه المسميات الخاصة. وقد ذكرنا أنهم يقولون مثلاً: الإيمـان في اللغة كـذا، وفي الشرع كذا، الإسلام لغة كذا وكـذا، وفي الشـرع كـذا وكـذا، التوحيد في اللغة كذا، والتوحيد في الشرع كذا، البر في اللغة كذا وكذا، والـبر في لغة الشـارع وفي لسـان الشـارع يـراد به كـذا وكـذا، مثلاً: التقـوى في اللغة مشـتقة من التوقي، وهو الحذر من المخـوف، وأما في لسـان الشـرع فهي تـوقي عـذاب الله، وأن يجعل بينه وبين سخط الله وقاية وحاجزاً منيعاً، وذلك يكون بامتثال كل ما أمـر، وتجنب كل ما نهى وزجـر. وهكـذا بقية التعـاريف. أيضـاً نقل أضدادها إلى مسميات شـرعية، فالشـرك له مسـمى في اللغة ومسـمى في الشـرع، والفسـوق له مسـمى في اللغة ومسـمى في الشـرع، والـذنوب لها مسمى في اللغة ومسمى في الشرع، والكفر له مسـمى في اللغة ومسـمى في الشرع.. وما أشبه ذلك. وهكذا -أيضاً- أسماء الأحكـام: فالصـلاة لغة كـذا، وشـرعاً كـذا، والطهـارة لغة كـذا وكـذا، وشـرعاً كـذا وكـذا، والصـوم والحج والجهاد والعمرة والزكاة وما أشبهها لها مسميات. فنقـول: إن الإيمـان أصـله في اللغة التصديق، وشرعاً: التصديق الجـازم بأنه لا إله إلا اللـه، وأن محمـداً رسول الله، مع إقامة الصـلاة، وإيتـاء الزكـاة، وأداء الخمس من الغنيمـة، كما في الحديث، هذه أقوال وأعمال، أقوال لسانية وأعمـال بدنية أو ماليـة، وكلها جعلها من الإيمان؛ ولكن لابد معها من الإيمان الذي هو العقيدة، لابد أن يكون القلب قد عقد عليها، وإلا فلا تنفع، فإن الأعمـال بـدون إيمـان القلب لا تفيـد، فبذلك يعرف أن الشـرع أضـاف إليها إضـافات أصـبحت من مسـمياتها، حيث فسر الإيمان بهذه الأعمـال. وقد ثبت في الصـحيح أنه فسر بها الإسـلام، فإنه لما سئل عن الإسلام فسره بالأعمال الظـاهرة، وهي أركانه الخمسـة، وفسر الإيمان بأعمال القلب، وهو الإيمان بالغيبيات وأركانه الستة، ومـراده: أن هـذا أصله التصديق بـالأمور الغيبية وهي هـذه الأركـان، ومع ذلك لابد أن يكـون له مكملات ومتممات، وهي بقية الأعمال البدنية. فيقال: البر في اللغة: الصـدق، والبـار: الصـادق، وقد قـالوا: الـبر هو طاعة الوالـد، كما يقـال: أوصـيك بـبر الوالدين يعني: طاعتهما، فـالبر لغـة: طاعة الأبـوين، أو الصـدق في الحـديث، ولكن الشرع جعله اسماً لكل الأعمـال الخيريـة، حـتى أعمـال القلب، فأدخل فيه أركان الإيمان، في قوله: وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ [البقـرة:177]، فهـذه خمسة من أركـان الإيمـان، وذكر السادس وهو القدر في موضع آخر، وجعلها أساساً للبر، ثم ذكر أعمالاً مالية، وجعلها داخلة في الـبر في قوله تعـالى: وَآتَى الْمَـالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُـرْبَى وَالْيَتَـامَى وَالْمَسَـاكِينَ وَابْنَ السَّـبِيلِ وَالسَّـائِلِينَ وَفِي الرِّقَـابِ [البقـرة:177] يعني: هذا عمل مالي، وهـو: إعطـاء المـال لهـؤلاء، فجعله من الـبر. ثم قـال: وَأَقَـامَ الصَّـلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُـونَ بِعَهْـدِهِمْ إِذَا عَاهَـدُوا وَالصَّـابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ [البقرة:177] ، فهذه أربعة من الأعمال البدنية. ثم قال: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [البقـرة:177] فـأخبر بـأنهم

الذين صدقوا؛ لما قالوا: آمنا، فظهر إيمانهم على أبدانهم وعلى أموالهم، فهم قد صدقوا، وهم -أيضاً- أهل التقوى الذين توقوا أسباب الهلاك، وجعلوا بينهم وبين النار وقاية وحاجزاً منيعاً، فأصبحوا بذلك مستحقين لاسم التقوى. وهكذا يقال في سائر المسميات الشرعية، وهو: أن الله تعالى شرع لعباده هذه الأشياء، وسميت بهذه المسميات، وأريد بها هذه المعاني التي تدخل فيها، ورتب عليها الأجر والثواب، فرتب الله على البر الثواب: إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ [الانفطار:13]، ورتب على التقوى الجنة في قوله: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ [آل عمران:133] أي: هيئت للمتقين، كما رتب ذلك على الإيمان في قوله: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ [الانشقاق:25]، أجر غير ممنون على إيمانهم وعملهم الصالح، فمن صدق بذلك كله وعمله فهو المصدق، وهو المتبع لهذه الشريعة، ومن نقص حظه من ذلك نقص حظه من الأجر.

الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان

قال الشارح رحمه الله: [وأي دليل على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان فوق هذا الدليل؟ فإنه فسر الإيمان بالأعمال ولم يذكر التصديق؛ للعلم بأن هذه الأعمال لا تفيد مع الجحود. وفي المسند عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الإسلام علانية، والإيمان في القلب) ، وفي هذا الحديث دليل على المغايرة بين الإسلام والإيمان، ويؤيده قوله في حديث سؤالات جبريل في معنى الإسلام والإيمان، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (هذا جبرائيل أتاكم يعلمكم دينكم) ، فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان، فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة؛ لكن هو درجات ثلاث: فمسلم، ثم مؤمن، ثم محسن. والمراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام قطعاً، كما أنه أريد بالإحسان ما ذكر مع الإيمان والإسلام، لا أن الإحسان يكون مجرداً عن الإيمان، هذا محال، وهذا كما قال تعالى: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ [فاطر:32]، والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه فإنه معرض للوعيد، وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع التصديق بالقلب، لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن، فإنه معرض للوعيد. وأما الإحسان فهو أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله، والإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله من الإسلام، فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون أخص من المؤمنين، والمؤمنون أخص من المسلمين، وهذا كالرسالة والنبوة، فالنبوة داخلة في الرسالة، والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها، فكل

رسول نبي، ولا ينعكس]. هـذا كلام يتعلق بالإسـلام والإيمـان والإحسـان، فإنه صـلى الله عليه وسـلم لما سـئل في حـديث وفد عبد القيس فسر الإيمـان بالأعمـال والأقـوال؛ لأنه ما أمـرهم إلا بالإيمـان، ولكن في حـديث جبريل المشـهور سـئل عن الإسـلام والإيمـان والإحسـان، ففسر كل واحد بتفسـير، ولكن الثاني لابد أنه داخل في الأول، والثـالث لابد أنه مسـتلزم للأولين قبلـه، ففسر الإيمـان بالأعمـال الباطنـة، والإسـلام فسـره بالأركـان الخمسـة: بالشهادتين، والصلاة، والزكـاة، والصوم، والحج؛ لأن هـذه يظهر من صـاحبها إذعان. وأصل الإسلام: هو الإذعان والانقياد، ومنه قوله تعالى: وَلَـهُ أَسْـلَمَ مَنْ فِي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا [آل عمـران:83] يعـني: أذعنـوا وانقـادوا واستسـلموا، غـير مستعصـين ولا متشـردين، قـويهم وضـعيفهم، حيـوانهم وإنسانهم، مؤمنهم وكافرهم.. كلهم أذعنوا، فالإسلام في الأصل: هو الإذعـان، والأركان الخمسة دليل واضح على أنهم قد أعلنوا دخـولهم في الإسـلام، فمن رأيناه يتلفظ بالشهادتين ويحافظ على الصلوات، ويخـرج زكـاة مالـه، ويصـوم معنا، ويحج معنا؛ حكمنا بأنه مسلم، ويدخل مع المسـلمين، ويـدين لله تعـالى ظـاهراً، وإن لم نفتش ما في قلبـه، فنعامله معاملة المسـلمين، ولا نتكلف البحث عن باطنه ما دام أنه يفعل هذه الأعمال الظاهرة. هذه تسـمى المرتبة الأولى، وهي المرتبة الواسـعة. المرتبة الثانيـة: الإيمـان، وفسـره هاهنا بالعقيدة: أن تؤمن باللـه، وملائكتـه، وكتبـه، ورسـله، واليـوم الآخـر، وبالقـدر، الإيمان بهذه الستة يعني: الاعتقاد بصحتها، والاعتقاد بأحقيتها. الإيمان بأن الله هو رب الأرباب وإله العالمين، والمعبود وحده المستحق لذلك دون ما سـواه. والإيمـان بالملائكة لأنهم رسل من خلق الله مسـخرون لعبادتـه. والإيمـان بـالكتب بأنها كلام الله وفيها شـرعه. والإيمـان بالرسل بـأنهم رسل ووسـائط بين الله وبين عبـاده. والإيمـان بـاليوم الآخر بالتصـديق بـالبعث بعد المـوت وبالجزاء الذي فيه. والإيمان بقدرة الله وبما قـدره وقضـاه على عبـاده. هـذه أمور عقدية، ومعلوم أنها إذا صحت ورسـخت في القلب فلابد أن تظهر آثارها على البدن، فلابد أن ينطق بما يعتقد، ولابد أن يفعل ما يقـول، ولابد أن يظهر عليه الفعل والترك الذي هو من آثـار هـذه العقيـدة، فلأجل ذلك يقولـون: لابد مع الستة من الخمسة، أي: أن الستة التي هي العقيدة وهي أركان الإيمان، لا تنفع إلا إذا كـانت معها الخمسـة، فمن قـال: أنا آمنت باللـه، وآمنت بكتبـه، وبرسـله، وبملائكتـه، وبـالبعث بعد المـوت، وبالقـدر، ثم رأينـاه لا يصـلي، ولا يصوم، ولا يحج، ولا يعبد الله وحده، بل يجعل معه آلهة أخرى؛ قلنا: كذبت، لو كنت صادقاً في إيمانك ويقينك لما خالفت ذلك بأعمالك، فالأعمال التي نراها ظـاهرة هي في الحقيقة ترجمة لما تقوله ولما تعتقـده. فـإذاً: لابد مع أركـان الإيمـان من أركـان الإسـلام؛ حـتى يكـون الإيمـان صـحيحاً. كـذلك يقـال في الإحسـان، فسـره بقولـه: (أن تعبد الله كأنك تـراه، فـإن لم تكن تـراه فإنه يـراك). قسم العلمـاء هـذا التفسـير إلى قسـمين؛ الأول: عين المشـاهدة، والثاني: عين المراقبة. عين المشاهدة: أن تعبد الله كأنك تـراه أي: تشـاهده. وعين المراقبـة: أن تستحضر أنه يـراك، أي: يراقبـك. فمن استحضر أنه يـرى ربه اجتهد في الدعاء، واجتهد في العبادة وحسنها وكملها، ومن لم يصل يقينه

وقلبه إلى هــذا الاستحضـــار، فإنه يستحضر أن ربه مطلع عليه يعلم نـــبرات لسانه وفلتاته، ويعلم حديث قلبه وما توسوس به نفسه؛ فيكون من آثـار هـذا الإيمـان أن يحسن العمل إذا استحضر أنه بمـرأى وبمسـمع من ربـه، وأنه لا تخفى عليه منه خافية، وأن الله مطلع عليه، ويكون ذلك حاملاً له على إتقـان العمل وإحسانه، فإنه -ولله المثل الأعلى- لو كـان إنسـان موظفـاً تحت إدارة قوية المراقبـة، تجعل هنـاك من يـراقب هـؤلاء المـوظفين دائمـاً، ويشـددون عليهم في الحضـــور وفي العمـــل، وقد يراقبـــونهم وهم لا يشـــعرون، ولا يبصرونهم، فلا شك أن المـوظفين يجـدون في العمل ويجتهـدون فيـه؛ مخافة أن يبعدوا منه، أو يحرموا من استحقاقهم. أما إذا كانوا مهملين، لا ينظر إليهم رئيســهم، ولا يفتش عليهم، ولا يـــراقبهم، وليس هنـــاك في قلـــوبهم دوافع الإيمـان، ولا مخافة من اللـه، ولا أمانـة؛ فـإنهم يهملـون الأعمـال، ويقطعـون وقتهم في اللهو واللعب، وفي القيل والقـــال، ولا يخلصـــون في العمـــل، ولا يجدون فيه. فهذا مثل محسوس يشاهد عياناً، فنقول: كذلك الإنسـان إذا كـان يعمل وهو يستحضر أن الله يراه حرص على إتقان العمل، وإذا غاب عنه هـذا الاستحضار فإنه يتساهل تساهلاً كثيراً في عمله. ......

وجه العموم والخصوص بين الإسلام والإيمان والإحسان

مـراتب الـدين ثلاث؛ المرتبة العليـا: هي الإحسـان، والمرتبة الوسـطى: هي الإيمـان، والمرتبة الـدنيا: هي الإسـلام، فأهل الإسـلام أكـثر من أهل الإيمـان؛ لأنهم يوجد فيهم من هو مسلم ظاهراً وليس بمسلم باطناً، يصـلون وقلـوبهم لم تطمئن بالإيمـــان. وأهل الإيمـــان أقل من أهل الإســـلام؛ لأنهم خلاصـــتهم وصفوتهم. وأهل الإحسان هم خلاصة الخلاصة، وصفوة الصفوة، بمعـنى: أنهم أهل الإيمان القـوي الـذين بلغت بهم القـوة إلى أنهم يتقنـون كل عمـل، فـإذا صلوا أتقنوا الصلاة ولم يغفلوا فيها ولم يحدثوا أنفسـهم، وإذا دخل وقت نافلة لم يضـيعوها إلا بعمل ما يحبـون وما يريـدون، وهكـذا بقية أعمـالهم، وكـذلك يحملهم استحضارهم لربهم على ألا يعصوه طرفة عين، فيكون ذلك كله سبباً لإتقانهم العمل. فلذلك يقال: إن الإسلام أعم من جهة أهله -أي أن أهله أكـثر من أهل الإيمـــان- وأخص من جهة وصـــفه، حيث إنه إنما يـــدخل فيه أهل الأعمـال الظـاهرة، فالمسـلمون أعمـالهم أقل من أعمـال المؤمـنين، ولكنهم أكـثر عـدداً، فيـدخل فيهم المؤمنـون ويـدخل فيهم المسـلمون الـذين ليسـوا بمؤمنين، هذا معـنى كونه أعم من جهة أهلـه، وأخص من جهة وصـفه، يعـني: أعمال المسلمين أقل من أعمال أهل الإيمان. كذلك يقال: أهل الإيمـان أكـثر أعمـالاً؛ لأنهم آمنـوا بالله واليـوم الآخر والملائكة والكتـاب والنبـيين والقـدر، وصلوا وصاموا، وحجوا واجتهدوا، وتشهدوا وذكروا الله، وأما أهل الإسلام فهم أقل أعمـالاً، وصـفهم إنما هـو: الشـهادتان والصـلاة والزكـاة والصـوم والحج، يعـني: الأعمـال الظـاهرة، فهم أقل أعمـالاً، هـذا معـنى كونه أقل من جهة وصفه، وأكثر من جهة أهله. كذلك نقول: أهل الإحسان أقل من أهل الإيمـان،

فأهل الإيمان أكثر من أهل الإحسان، يعني: أكثر من جهة أهله، وأقل من جهة وصــفه -من الإحســان-؛ وذلك لأن أهل الإحســان جمعــوا الخصــال الثلاث فأصبحوا مؤمـنين مسـلمين محسـنين، فهم جمعـوا بين الإتقـان للعمـل، وبين العبادة لله كأنهم يرونه، وبين مراقبته، وبين الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر، والصـلاة، والصـوم، والحج، جمعوا الأعمال كلها، وتركوا السيئات وابتعـدوا عن الآثـام، فهم أكـثر من جهة الوصف، ولكنهم أقل من أهل الإيمـان. فأهل الإحسـان أقل من أهل الإيمـان، وأهل الإيمـان أقل من أهل الإسـلام، ولكن أهل الإسـلام أقل أعمـالاً من أهل الإيمان، وأهل الإيمان أقل أعمـالاً من أهل الإحسـان، هـذا معـنى كـونهم أقل من كذا وأكثر من كذا. ومثل الشارح ذلك بالنبوة والرسالة، بمعنى أن الأنبيــاء أكثر من الرسل، ولكن هم أقل مسئولية، وأقل عملاً من الرسل، فإن الرسل عليهم أعمــال ليست على الأنبيــاء، ولكن الرسل أقل عــدداً، فليس كل نــبي رسولاً، فالرسالة أقل من جهة أهلهـا، وأكـثر من جهة وصـفها، فـإن النـبي هو الذي أوحي إليه، وهو الذي أمر بالتبليغ، وهو الذي دعا، وهو الـذي كُـذِّب، وهو الذي عودي وأوذي، فهو أكـثر عملاً، والرسل أقل عـدداً من الأنبيـاء، فالأنبيـاء أكـثر من جهة الأهـل، وأقل من جهة الوصـف، يعـني من جهة الأعمـال، فهـذا تمثيل بالنبوة وبالرسالة، وكـذلك أهل الإيمـان وأهل الإحسـان وأهل الإسـلام. فإذا عرفنا أن هذه كلها من الأعمال الشرعية فالإنسان يحرص على أن يجمع بينها كلها، فيحرص على أن يـأتي بالأعمـال الظـاهرة -وهي أركـان الإسـلام-، ويحقق الأعمال الباطنة -وهي أركان الإيمان-، ويحـرص -أيضـاً- على الأعمـال الغيبية حتى يكون من أهل مرتبة الإحسان، فيجمع بين المراتب كلها. ومعلوم -أيضاً- أن المسـلم إذا تسـمى بأنه مسـلم، ودخل في الإسـلام؛ أصبح ملزمـاً بأمور يعتقدها، تسمى عقائد، وأصبح ملزماً بأعمـال يعملهـا، وبـأقوال يقولهـا، وكلها داخلة في الـدين، ولأجل ذلك جعل النـبي صـلى الله عليه وسـلم هـذه الأشياء كلها من الـدين في قولـه: (هـذا جبريل أتـاكم يعلمكم دينكم) ، فجعل الإسلام والإيمان والإحسان كله من الدين الذي بعث الله به هذا، وسـماه دين الإسـلام في قولـه: الْيَـوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِـيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا [المائدة:3] .

اختلاف الناس في مسمى الإسلام

قـال الشـارح رحمه الله تعـالى: [فمن حقق هـذا كله فقد حقق الـدين الـذي جاءت به الرسل، ومن نقص شيئاً نقص بحسبه. وقد صار الناس في مسـمى الإسلام على ثلاثة أقـوال: فطائفة جعلت الإسـلام هو الكلمـة. وطائفة أجـابوا بما أجاب به النـبي صـلى الله عليه وسـلم حين سـئل عن الإسـلام والإيمـان،

حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة. وطائفة جعلوا الإسلام مرادفاً للإيمان، وجعلوا معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة..) -الحديث- شعائر الإسلام. والأصل عدم التقدير، مع أنهم قالوا: إن الإيمان هو التصديق بالقلب. ثم قالوا: الإسلام والإيمان شيء واحد، فيكون الإسلام هو التصديق! وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة، وإنما هو الانقياد والطاعة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم لك أسلمت وبك آمنت) ، وفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة، فليس لنا إذا جمعنا بينهما أن نجيب بغير ما أجاب النبي صلى الله عليه وسلم. وأما إذا أفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام، وإذا أفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمناً بلا نزاع، وهذا هو الواجب، وهل يكون مسلماً ولا يقال له: مؤمن؟ تقدم الكلام عليه]. كلمة (الإسلام) كلمة شرعية، ولها معنى في اللغة، ومعنى الإسلام في الشرع قريب من معناه في اللغة، وعرفه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في بداية الأصول بقوله: الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، فهذا تفسير للإسلام بما يقرب من معناه اللغوي الذي هو: الإذعان والانقياد. وأما تفسيره في الشرع فلا أوضح من تفسير النبي صلى الله عليه وسلم له بالأركان الخمسة؛ وذلك لأنها أدل دليل على إذعانه وانقياده والتزامه، فإن من التزم هذه الأركان انقاد لربه ولم يستعصِ، وفعلها منقاداً ظاهراً كأنه يقاد من زمام إلى هذه الأعمال كما يقاد البعير المذلل، فلا يستعصي ولا ينفر، فإن البعير إذا كان ذلولاً -يعني: قد ذلل وقد عسف وقد انقاد- فإنه يأتي صاحبه بأدنى إشارة، فينساق إذا ساقه، وينقاد إذا قاده. فهذا مثال للمسلم، ينقاد إلى أمر الله، ويذعن لأمره، ويتذلل له، بخلاف الكافر الذي إذا أمره الله استعصى، وأظهر الشقاق، وعاند، وامتنع، وشدد في الامتناع، فهو مثل الجمل الشرود الذي كلما قرب منه صاحبه نفر منه وابتعد، ولا يستطيع أن يأتيه إلا بقوة، وقد يتمانع على صاحبه ولا يمكنه من ركوبه، ولا من قيادته، ولا من غير ذلك، فهذا سبب تسمية من دخل في هذا الدين مسلماً، يعني: مستسلماً في الظاهر. من الناس من يقول: إن الإسلام هو مجرد الكلمة، أي: (أسلمنا) يعني: انقدنا ظاهراً، ولأجل ذلك أنكر الله على من ادعى الإيمان وهو ليس بمؤمن، قال تعالى: قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ [الحجرات:14] ، وعلى هذا فيفسر الإيمان بالكلمة التي هي قوله: (أسلمنا)، ولكن التفسير الواضح هو أن يفسر بمن التزم بالأركان الخمسة، فيقال: هذا مسلم أي: ملتزم، والله أعلم بحقيقة باطنه. أما إذا ذكر الإسلام والإيمان معاً فإن الإسلام يفسر بالأركان الخمسة لأنها ظاهرة، والإيمان يفسر بأعمال القلب. لكن إذا اقتصر على الإيمان، فقيل: هذا مؤمن، أو: هؤلاء أهل الأيمان؛ فلابد أن يكونوا مسلمين، ولابد أن يكونوا قائمين بالأركان الخمسة، وأن يكونوا قائمين ومعتقدين للأركان الستة التي هي العقيدة، فعلى هذا: من كان مؤمناً فهو مسلم. أما إذا اقتصر على الإسلام فهل يدخل فيه الإيمان أم لا يدخل؟ من العلماء من يقول: إن اسم (المسلم)

عند الإطلاق يعم المؤمن، والملـتزم لابد أن يكـون ملتزمـاً بالرسـالة وبكل ما جاء فيها، دليله: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من شهد أن لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله؛ حـرم ماله ودمـه) ، فاشـترط الكفر بما يعبد من دون الله. وثبت -أيضاً- قوله صلى الله عليه وسلم في وصف الكفـار: (أنهم لا ينجون حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت بــه) ، فجعل ذلك -أيضاً- شرطاً لعصمتهم ولقبولهم، وبـذلك يعـرف أنهما متلازمـان، كل مسـلم يلزم أن يكون مؤمناً، وكل مؤمن يستلزم الإسلام.

إطلاق الإسلام على ما يشمل الإيمان

مسألة مسمى الإيمان والإسلام، وما يتفـرع عن هـذه الأسـماء، بحث العلمـاء وأفاضوا في هذا البحث، ومن خلال بحثهم يتبين حثهم على أن يكون المسـلم المؤمن عاملاً بمقتضى هذا الاسم، فإنه إذا تسمى بأنه مسلم لم يكفِ مجـرد التسمي حـتى يظهر عليه أثر هـذا الاسـم، فلم يكتف بمجـرد الانتسـاب حـتى يظهر عليه أثر هــذا الاســم، فلأجل ذلك جعلــوا الاسم يشــمل ما في القلب، ويشـمل ما على اللسـان، ويشـمل ما على الأركـان؛ ليصـدق بـذلك مسـمى الإيمان؛ وذلك لأنه لو كان الإيمان هو مجرد ما يكون في القلب لما كان هنـاك فرق بين النـاس، بل كل يقـول: أنا مـؤمن، ثم بعد ذلك يعمل ما يشـاء! فـإذا عرفنا أن الإيمــان له آثـار، وله مكملات؛ عرفنا بــذلك من هو صـادق ومن هو كاذب، فحقائق الأشياء تظهر بعلامات، فحقيقة الإيمان علامته العمــل، كما أن حقيقة الإسـلام علامته العمــل، فمن ادعى أنه مــؤمن فلابد أن يعمــل، فـإن العمل من تمام الإيمان، كما أن من ادعى أنه يحب الله فلابد أن يطيعــه، لابد أن تظهر عليه آثار هذه المحبة، أما أنه يحب الله ولكنه لا يطيعـه؛ بل يعصـيه، فليس بصادق، كما روي عن بعض السـلف أنه قـال: من ادعى محبة الله ولم يوافقه فدعواه باطلة. والموافقة: هي الطاعـة، أي: تمـام الطواعية بالأعمـال الصـــالحة، هـــذه هي حقيقة الموافقـــة، أي: موافقة ما أمر اللـــه، وذلك لأن المحب لابد أن يتأثر بمحبوبه، ولابد أن يظهر عليه آثار هـذا الحب. ولأجل ذلك ورد في الأحاديث الحث على محبة الله تعالى، ومحبة رسوله صــلى الله عليه وسلم، وبيان أثرهمـا، فقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمـان: أن يكـون الله ورسـوله أحب إليه مما سـواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقـذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)، وهذه الثلاث كلها متلازمة، وكلها من آثـار محبة الله، فإن من أحب الله وأحب رسوله، وقدم محبتهما على غيرهما؛ أطاع الله ورسوله. كـذلك من آثـار محبة الله ومحبة رسـوله: أن يحب أوليـاء اللـه، من كانوا وأينما كانوا، ولو كانوا أباعد أجانب. كذلك من آثـار محبة اللـه: أن يبغض

معاصي الله، وأن يبغض العصاة الذين يبغضهم الله. كذلك من آثار محبة الله: أن يكره الكفر الذي يبعده عن ربه، وأن يؤثر الإيمان والطاعة التي تقربه إلى ربه. فهذا مثال في أن العمل تابع للإيمان، وأثر من آثاره، ولازم من لوازمه، وكذلك لازم من لوازم الإسلام، ولأجل ذلك روي عن الحسن رحمه الله أنه قال: (ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني؛ ولكنه ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال)، فجعل الأعمال أثراً من آثار الإيمان الذي يكون في القلب. وبكل حال: من ظهرت عليه الأعمال الصالحة فهو المؤمن، ومن ادعى أنه مؤمن ولم تظهر عليه آثار الأعمال الصالحة فليس بمؤمن، ولو كان باطنه حسناً، فإننا لا نعمل إلا بالظاهر، أما الذي في الباطن والذي في القلب فلا يحاسب عليه إلا الرب، أما نحن فلنا أن نعتبر الإنسان بما يظهر لنا، فمن أظهر لنا خيراً وعمل بر شهدنا له بالإيمان، وشهدنا له بالصلاح. ومن أظهر لنا فسوقاً وعصياناً ومخالفات وسيئات أبغضناه، وشهدنا له بالفسوق وبالمعصية، ومقتناه ولو كان باطنه حسناً؛ لأن الله تعالى هو الذي يحاسب على ما في القلب، فهو علام الغيوب، هكذا يجب علينا. وبكل حال: قد عرفنا أن الأعمال من مسمى الإيمان، وأنه لا يتم الإيمان إلا بالأعمال، وأن الإنسان عليه أن يحقق إيمانه بأعماله التي يعملها، سواء كانت أقوالاً يتلفظ بها كالأذكار والأدعية والتلاوة ونحوها، أو أعمالاً يعملها بيديه أياً كانت؛ كجهاد في سبيل الله، ونفقة في وجوه الخير وما أشبه ذلك، أو أعمالاً قلبية، كحب من يحبه الله، وبغض أعداء الله وما أشبه ذلك، أو بجميع جوارحه، فإذا كان كذلك سمينا هذه الأعمال كلها من الإيمان، وسمينا أصحابها مؤمنين، سواء كانوا مؤمنين كاملي الإيمان أو لا، وبذلك يعرف أن الإيمان يتفاوت أهله فيه بحسب الأعمال.

التلازم بين الإسلام والإيمان

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [وكذلك هل يستلزم الإسلام الإيمان؟ فيه النزاع المذكور، وإنما وعد الله بالجنة في القرآن وبالنجاة من النار باسم الإيمان، كما قال تعالى: أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يونس:62-63]، وقال تعالى: سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ [الحديد:21]. وأما اسم الإسلام مجرداً فما علق به في القرآن دخول الجنة، لكنه فرضه، وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه، وبه بعث النبيين، وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ [آل عمران:85]. فالحاصل: أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر، فمثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى، فشهادة الرسالة

غير شهادة الوحدانية، فهما شيئان في الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد. كذلك الإسلام والإيمان، لا إيمـان لمن لا إسـلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانـه، ولا يخلو المسلم من إيمان به صح إسلامه، ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله وفي كلام النـاس كثـيرة -أعـني في الإفـراد والاقـتران- منهـا: لفظ الكفر والنفاق، فالكفر إذا ذكر مفـرداً في وعيد الآخـرة دخل فيه المنـافقون، كقوله تعالى: وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَـدْ حَبِـطَ عَمَلُـهُ وَهُـوَ فِي الآخِـرَةِ مِنَ الْخَاسِـرِينَ [المائدة:5]، ونظائره كثـيرة. وإذا قـرن بينهما كـان الكـافر من أظهر كفـره، والمنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه. وكـذلك لفظ البـر والتقـوى، ولفظ الإثم والعـدوان، ولفظ التوبة والاسـتغفار، ولفظ الفقـير والمسـكين.. وأمثـال ذلك].

استلزام الإسلام للإيمان والعكس

هذا الكلام في الفرق بين الإسلام والإيمان، ولا شك أنهما مسميان شـرعيان، وقد ذكرنا أن لهما مسـمى في اللغـة؛ وأن الإسـلام في اللغـة: الإذعـان والاستسلام، والإسـلام في الشـرع: هو هـذا الـدين الـذي هو الشـرائع؛ قبولها والعمل بهـا، وأركانه خمسة كما هو معـروف. والإيمـان في اللغـة: مجـرد التصـديق، والإيمـان في الشـرع تـدخل فيه الأعمـال. والكفر في اللغـة: هو الستر والجحد والإنكـار، والكفر في اسـتعمال الشـرع: هو الكفر باللـه، يعـني جحد دين الله وإنكـاره. والنفـاق في اللغـة: مشـتق من الإخفـاء؛ لأنه شـيء خفي، والنفـاق في الاصـطلاح الشـرعي: هو إظهـار الإيمـان وإبطـان الكفـر.. وهكذا بقية المسميات. فعلى هذا نقول: إن الإسلام والإيمان كلاهما مسـميان شرعيان، وكلاهما مطلوبان ومفروضان على العباد، ولابد على العبد أن يعرف مسماهما، وأن يدين لله تعـالى بهمـا، فيـدين لله بأنه هو الإله الحـق، وأنه هو الـذي فـرض عبادته على الخلـق، ويـدين للرسـول عليه الصلاة والسـلام بأنه مرسل من ربـه، وأنه يحمل هـذه الرسـالة الـتي هي الشـريعة، ويـدين لله بالعبادات، ومن جملتها بقية أركان الإسلام، فيؤدي الصلوات، ويخـرج الزكـاة، ويصوم، ويحج، ويجاهد، ويعمل بالأعمـال الشـرعية الـتي أوجبها اللـه، فبـذلك يكون مسلماً ظاهراً، وكـذلك يصـحح عقيدتـه، فيعتقد ويجـزم بـأن الله تعـالى موصوف بصفات الكمال ومـنزه عن صـفات النقص، وبأنه لا تصـلح الإلهية إلا له وحده، وبأنه خالق الكون ومدبر الأمـور، وكـذلك يـؤمن بـأمور الغيب الـتي تقدم تفصيلها، وإن لم يرها، فبذلك يصـير جامعـاً بين الإسـلام والإيمـان. هـذا مجمل القول في الإسلام والإيمان.

اجتماع الإسلام والإيمان وافتراقهما

يقول العلماء: إذا جمع بين الإسلام والإيمان، فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بأعمال القلب، ولا شك أنهما متلازمـان، وكل من اتصف بواحد منهما دون الآخر لم يكفِ، فالذي يقول: أنا مؤمن إيماناً خفيـاً لا يكفيـه، إلا أن يـأتي بالأعمال الظاهرة الـتي هي أركـان الإسـلام، والـذي يـأتي بالأركـان الظـاهرة علانية، ولكن قلبه فاسد، لا تنفعه هذه الأركان ولو صلى ولو صام وحج وزكى؛ ما دام أنه من غـير عقيـدة، ولأجل ذلك كثـيراً ما يجمع الله بينهمـا، مما يـدل على أن الوصف لابد أن يأتي عليهمـا، قـال الله تعـالى في سـورة الـذاريات: فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ [الـذاريات:35-36] ، فوصـفهم بـأنهم من المؤمـنين، ثم وصـفهم بـأنهم من المسلمين، فدل على أنهم جمعوا بين الأمرين: بين الإسلام والإيمان، ولكن لا يكفي الإيمان عن الإسلام، ولا يكفي الإسلام عن الإيمان، وإن كان أحدهما إذا أفرد دخل فيه الآخر. وقد كذب الله الأعـراب الـذين قـالوا: آمنـا، وهم ليسـوا بمؤمنين حقيقة في قوله تعالى في سورة الحجرات: قَالَتِ الأَعْـرَابُ آمَنَّا قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ [الحجـرات:14]، فأخبر بأنهم قالوا: آمنا، وهم ليسوا بمؤمنين حقيقة، حيث إن قلـوبهم لا يـزال فيها ريب وشك، ولا يزال عندهم توقف وتـردد في صـحة ما جـاء به الرسـول عليه الصلاة والسلام، وفي تصديقه بـالأمور الغيبيـة؛ فلأجل ذلك قـال: ((وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)) أي: لم يصل إلى قلوبكم، فأنتم أسلمتم ظـاهراً، والإيمان الـذي منبعه القلب لم يصل إلى قلـوبكم حقيقـة. وثبت في الصـحيح (أن سعد بن أبي وقاص كان عند النبي صلى الله عليه وسـلم، فقسم قسـماً وتـــرك واحـــداً من أهل المجلس، فقـــال: ما لك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أو مسلماً) يعني: الأولى أن تقول: مسلم، ولا تحكم له بالإيمان، فإن الإيمان يجمع بين الباطن والظـاهر، وأنت لا تعـرف منه إلا الظـاهر. هكـذا يفسر الإسـلام والإيمـان إذا اجتمعـا، فيفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، ويفسر الإيمان بأعمال القلب. وضرب له الشـارح أمثلة فقـال: الإسـلام والإيمـان متلازمـان، لا ينفك أحـدهما عن الآخـر، مثل الشهادتين، فالشهادتان متلازمتان من شـهد بإحـداهما لزمته الأخـرى، بل هي مكملة لها؛ لأنا نقول: من أين عرفت أنه لا إله إلا اللـه، وعـرفت بـأن الله هو الإله الحق، وأنه لا تصلح الألوهية إلا له؟! أليس ذلك بواسـطة الرسـالة؟! إذاً: فيلزمك تصـديق الرسـول، والشـهادة له بأنه مرسل من ربـه. وإذا صـدقت الرسول عليه السلام في أنه رسول، وأنه مبعـوث من ربـه، فما هي الرسـالة الـتي بلغهـا؟ أليس أول شـيء بـدأ به هو التوحيد بـأن يقـال: لا إله إلا اللـه؟ فالرسول عليه الصلاة والسلام بدأ يدعو الناس إلى عبادة الله وترك عبادة ما

سواه، وهذا هو أعظم الرسالة التي بلغها، فالشهادتان متلازمتـان، فمن شـهد أن لا إله إلا الله ألزم بأن يأتي بالشهادة الثانية وهي الشهادة بالرســالة، ومن شهد أن محمداً رسول الله لزمه قبول رسالته التي أهمها قول لا إله إلا الله، فعرفنا بذلك أنهما متلازمتان. فكذلك الإسلام والإيمان متلازمـان، فمن أسـلم في الظـاهر قلنا لـه: لابد أن يكـون إسـلامك نابعـاً عن قلب، ومن آمن في الباطن، وحقق الإيمان الذي في قلبه، قلنـا: لابد أن يكـون الـذي في قلبك له أثر وله علامات، تظهر على سمعك وعلى بصـرك، وعلى يـديك وعلى لسـانك وعلى رجليك، وعلى مالك وعلى حالك، فإذا أظهـرت ذلك فـأنت مـؤمن، وإذا لم تظهره فلست بمؤمن.

اجتماع الكفر والشرك والنفاق والعصيان وافتراقهما

ذكر الشارح أن كثـيراً من الأمـور تقـترن، ويفسر أحـدهما بكـذا والآخر بكـذا، مثل: الكفر والنفاق. والكفر من الأمور الشرعية التي بينها الشرع واستعملها، والنفاق من الأمور الشرعية التي بينها الشرع، وإن كان له مسمى في اللغـة. كذلك -أيضاً- الكفر والشرك متلازمـان، فـإن كل من كفر وصف بأنه مشـرك، وكل من أشــرك وصف بأنه كــافر؛ لأن الشــرك مشــتق من الشــركة -أي: الاشتراك- كأنه جعل عبادته مشتركة بين الخالق والمخلـوق، ولا شك أن هـذا يعم كل من حكم بكفره؛ وذلك لأنه أطاع غـير اللـه، ولو لم يطع إلا الشـيطان الذي نهـاه عن عبـادة اللـه، أو أمـره بـأن يعبد المخلـوق، أو أمـره بـأن يجحد الرسالة أو نحو ذلك، فيكون قد عبد الشيطان، ولأجل ذلك يقـول العلمـاء: إن كل من عبد غير الله فعبادته منصبة على الشياطين. ولذلك لما نزل قول الله تعـالى في آخر سـورة الأنبيـاء: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَـبُ جَهَنَّمَ [الأنبياء:98] قـال المشـركون: كيف تـزعم أن ما نعبـده حصب لجهنم، ونحن نعبد الملائكة، فهل الملائكة حصب لجهنم؟! والنصارى يعبـدون المسـيح، فهل المسيح حصب لجهنم؟! واليهـود يعبـدون عزيـراً، فهل عزير -وهو عبد صـالح- من حصب جهنم؟! لكن لم يعبـــدوها حقيقـــة، وإنما عبـــادتهم تنصب على الشـياطين)، فالشـياطين هي الـتي دعتهم إلى عبادتها فأطاعوهـا، فأصـبحوا عابـــدين للشـــياطين، وإلا فالملائكة بريئة منهم كما حكى الله عنهم في قوله تعالى: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَـةِ أَهَـؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَـانُوا يَعْبُـدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ [سبأ:40-41] يعني: جن الشياطين. فالحاصل: أن الشـرك والكفر متلازمـان، فكل من أشرك قيل: هذا كافر مشرك، وكل من كفر بالله أو بنعمة الله قيل: هـذا مشـرك كـافر، يعـني يصـدق عليه الوصـفان ويتلازمـان. وكـذلك -أيضـاً- المنـافق موصـوف بأنه منـافق، وبأنه كـافر، ودليل ذلك قـول الله تعـالى في

سورة المنافقون: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ [المنافقون:3] فسماهم المنافقين في قوله: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ [المنافقون:1] ، وفي الآية بعدها وصفهم بأنهم قد آمنوا ثم كفروا، فدل على أن كل من نافق فهو كافر، ولو كان يظهر للناس أنه معهم؛ لأنه كما وصف الله المنافقين بقوله: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ [البقرة:14] أي: رؤساؤهم الذين يدعونهم إلى النفاق، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ [البقرة:14] فهذا دليل على أنهم في الباطن مع الكفار. فهذا دليل على أن هذه الأعمال متلازمة، لا يتم الإيمان إلا بها، الإسلام والإيمان والتوحيد واليقين، ورد في بعض الأحاديث: (الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله) ، وغيرها من المسميات الشرعية، وكذلك أسماء الكفر متلازمة، مثل الفسوق والعصيان والشرك والكفر والنفاق.. وما أشبهها، إذا وصف واحد بوصف منها انطبقت عليه الأوصاف، فيقال: هذا فاسق وكافر وضال وعاص ومشرك ومنافق.. ونحو ذلك، تنطبق عليه، وإن كان النفاق يختص بمن أخفى كفره، ولا يعم من أظهر كفره، لكنه في الحقيقة كثيراً ما ينطبق عليه أنه منافق ولو كان مظهراً لكفره غالباً.

الكلام على آية الحجرات في الفرق بين الإسلام والإيمان

قال الشارح رحمه الله تعالى: [ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان قوله تعالى: قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا [الحجرات:14] إلى آخر السورة، وقد اعترض على هذا بأن معنى الآية: (وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا): انقدنا بظواهرنا، فهم منافقون في الحقيقة، وهذا أحد قولي المفسرين في هذه الآية الكريمة. وأجيب بالقول الآخر، ورجح، وهو: أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان، لا أنهم منافقون، كما نفى الإيمان عن القاتل والزاني والسارق ومن لا أمانة له، ويؤيد هذا سياق الآية، فإن السورة من أولها إلى هنا في النهي عن المعاصي، وأحكام بعض العصاة، ونحو ذلك، وليس فيها ذكر المنافقين. ثم قال بعد ذلك: وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا [الحجرات:14] ، ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطاعة. ثم قال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا [الحجرات:15] يعني -والله أعلم- أن المؤمنين الكاملي الإيمان هم هؤلاء، لا أنتم، بل أنتم منتف عنكم الإيمان الكامل. يؤيد هذا: أنه أمرهم -أو أذن لهم- أن يقولوا: أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى عنهم الإيمان، ونهاهم أن يمنوا بإسلامهم، فأثبت لهم إسلاماً، ونهاهم أن يمنوا به على رسوله، ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال: لم تسلموا، بل أنتم كاذبون كما كذبهم في قولهم: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ [المنافقون:1]. والله

أعلم بالصواب]. هـذه الآية في سـورة الحجـرات قَـالَتِ الأَعْـرَابُ آمَنَّا قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ [الحجرات:14] إلى قوله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّـادِقُونَ [الحجـرات:15] يعـني: أن المؤمنين حقاً هم الذين اتصـفوا بهـذه الصـفات: أولاً: التصـديق الجـازم بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وبالرسول صـلى الله عليه وسـلم وبما جـاء عنه على مراده. ثانياً: نفي الريب، والبعد عن الريب الـذي هو الشـك: (ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) أي: لم يداخل قلوبهم شك ولا توقف، بل هم على يقين جـازم بما هم عليـه، دون أن يشـكوا في شـيء من أمر البعث أو الحشر أو الجـزاء أو نحو ذلك. ثالثاً: العمل، وهو قوله: (وَجَاهَـدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ)، فهذا من أمثلة العمل، يعني: أنهم جمعوا بين الإيمان الذي هو العقيـدة وعـدم الريب والعمل، فيكون ذلك هو حقيقة الإيمان، هؤلاء هم المؤمنـون حقـاً، إنما المؤمنون من كان على هـذا الوصـف. والحاصـل: أن الله نفى عنهم الإيمـان، وأثبت لهم الإسلام بقوله: (وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا)، وأخـبر بـأن الإيمـان لم يصل إلى قلوبهم، ولكن آمنوا إيماناً ظاهراً، ولا شك أن هـؤلاء الأعـراب من بـوادي المسـلمين، دخلـوا في الإسـلام، ولم يتمكن الإيمـان من قلـوبهم، ولأجل ذلك ارتد الكثير منهم لما مات النبي صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لأنهم لم يتمكنوا ولم يتوغلوا في الإسـلام، فهـؤلاء مسـلمون، ولكن لم يكونـوا على يقين، ولم تصل إليهم الأدلة اليقينـة. هنـاك من يقـول: إنهم منـافقون. والصـواب: أنهم ليسوا من المنافقين الذين وصفهم الله بقوله: الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَـإِنْ كَـانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَـالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَـانَ لِلْكَـافِرِينَ نَصِـيبٌ قَـالُوا أَلَمْ نَسْـتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ [النسـاء:141] ، ووصـفهم بقولـه: مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ [النساء:143] ، بل هؤلاء أسلموا ظاهراً وانقادوا؛ ولكن لم تطمئن قلوبهم، ولعل إسلامهم كان بالغلبة لما أنهم غلبـوا، أو لعل إسـلامهم كـان بـالظهور، لما رأوا الإسـلام يعلو ويظهر آمنـوا كتجربة وكنظر، يقولون: ندخل في هـذا الإسـلام، ثم بعد ذلك نختـبره وننظـر، فإن كان له الرفعة والمنعة والنصرة والقوة والتمكين اطمأننا فيه، وكذلك إن وجدنا منه سعة ووجدنا منه ثروة وغنى وراحة ومحبة لمطلب أو توسعة علينا، قبلناه وتأثرنا به، وإن وجدنا غير ذلك رددناه ورجعنا على ما كنا عليه. فـدخلوا عن تجربة لا عن يقين، فليسوا مثل الصحابة الذين دخلـوا عن يقين. وما أكـثر الذين هذه حـالتهم! ولكن إذا منَّ الله على العبد فـدخل الإسـلام، ثم بعد ذلك يسر له من يشرح له تعاليم الإسـلام والإيمـان، ويـبين له الأدلة اليقينيـة؛ فإنه عند ذلك يقتنع، وينشرح بذلك صدره، ويعرف ويستيقن بأن الإسلام هو الـدين الحـق، وأنه هو الـدين الصـواب، فعند ذلك تظهر عليه آثـار الإسـلام، وهي الأعمال الصالحة.

قال الشارح رحمه الله: [وينتفي بعد هذا التقدير والتفصيل دعوى الترادف، وتشنيع من ألزم بأن الإسلام لو كان هو الأمور الظاهرة لكان ينبغي ألا يقابل بذلك، ولا يقبل إيمان المخلص وهذا ظاهر الفساد، فإنه قد تقدم تنظير الإيمان والإسلام بالشهادتين وغيرهما، وأن حالة الاقتران غير حالة الانفراد. فانظر إلى كلمة الشهادة فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ..) الحديث، فلو قالوا: لا إله إلا الله، وأنكروا الرسالة؛ ما كانوا يستحقون العصمة، بل لابد أن يقولوا: لا إله إلا الله. قائمين بحقها، ولا يكون قائماً بلا إله إلا الله حق القيام إلا من صدق بالرسالة، وكذا من شهد أن محمداً رسول الله، لا يكون قائماً بهذه الشهادة حق القيام إلا من صدق هذا الرسول في كل ما جاء به. فتضمنت التوحيد. وإذا ضممت شهادة أن لا إله إلا الله إلى شهادة أن محمداً رسول الله كان المراد من شهادة (أن لا إله إلا الله) إثبات التوحيد، ومن شهادة (أن محمداً رسول الله) إثبات الرسالة. كذلك الإسلام والإيمان: إذا قرن أحدهما بالآخر، كما في قول الله تعالى: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ [الأحزاب:35]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم لك أسلمت، وبك آمنت)؛ كان المراد من أحدهما غير المراد من الآخر، وكما قال عليه الصلاة والسلام: (الإسلام علانية، والإيمان في القلب) ، وإذا انفرد أحدهما شمل معنى الآخر وحكمه، وكما في الفقير والمسكين ونظائره، فإن لفظي الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، فهل يقال في قوله تعالى: إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ [المائدة:89] أنه يعطى المقل دون المعدم أو بالعكس؟ وكذا في قوله تعالى: وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [البقرة:271]. ويندفع أيضاً تشنيع من قال: ما حكم من آمن ولم يسلم أو أسلم ولم يؤمن في الدنيا والآخرة؟ فمن يثبت لأحدهما حكماً ليس بثابت للآخر ظهر بطلان قوله! ويقال له في مقابلة تشنيعه: أنت تقول: المسلم هو المؤمن، والله تعالى يقول: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فجعلهما غيرين، وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما لك عن فلان! والله إني لأراه مؤمناً؟ قال: أو مسلماً، قالها ثلاثاً) ، فأثبت له الإسلام وتوقف في اسم الإيمان، فمن قال: هما سواء. كان مخالفاً، والواجب رد موارد النزاع إلى الله ورسوله. وقد يتراءى في بعض النصوص معارضة، ولا معارضة بحمد الله تعالى، ولكن الشأن في التوفيق، وبالله التوفيق]. هذا الكلام يتعلق بالجمع بين الإسلام والإيمان في بعض المواضع، كالآيات التي سمعنا، قال الله تعالى: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ [الأحزاب:35]؛ هل هذه الصفات يكتفى بواحدة منها؟ لا يكتفى، بل هي متلازمة، فإن من أسلم لزمه

الإيمــان، ومن آمن لزمه القنــوت، ومن قنت لزمه الصــبر، ومن صــبر لزمه الصـيام.. إلى آخرهـا، فهي صـفات مترابطـة، وكلها من صـفات أهل الإيمـان، ولكن عطف بعضها على بعض من باب كثرة الأعمال، يعني أنهم متصفون بها كلهـا، وأنها كلها أعمـال صـالحة، فكل منها له معـنى، وله تفسـير. فـالقنوت يفسر بأنه: دوام الطاعة. وهـذا من لـوازم الإسـلام والإيمـان، والصـدق يفسر بأنه مطابقة القـول للعمـل، أو مطابقة العمل للقـول. يعـني: أن يصـدق قوله عمله، وهذا من لوازم الإسلام والإيمان، فالذي يسلم ويؤمن ولكنه لا يصدق لا يقبل منه، ولأجل ذلك جعل الصدق من شروط (لا إله إلا الله) في قول النـبي صلى الله عليه وسلم: (من قال: لا إله إلا الله. صادقاً من قلبه دخل الجنـة) ، فلابد من الصدق، فلذلك وصـفهم الله بقولـه: ((والصـادقين والصـادقات)) ، ولابد من الصبر؛ فإن الذي يسلم ويـؤمن يـؤمر بالأعمـال، فـإذا أمر بالأعمـال فلابد أن يصبر على الطاعات ولو كان فيها مشقة، ويصبر عن المحرمـات ولو نازعته نفسه إليها، فإذا لم يصبر انثلم إيمانه، وانخرمت أوصافه الدينيـة، فلابد أن يكـون متصـفاً بهـذه الأعمـال كلهـا. فالحاصـل: أن العطف في هـذه الآية لمجرد كثرة الصفات، لا للتغاير، وإلا فواحدة منها تستلزم البـواقي، فالإسـلام الحقيقي يستلزم الإيمان والقنـوت والصـدق والصـبر والصـيام... إلى آخرهـا، فتكون كلها من تمامه. وكذلك بقية الآيات التي سمعنا، فـإن قـول الله تعـالى في وصف المؤمنين: فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [الذاريات:35-36] دليل على أنهم جمعـوا بين الوصـفين. فنقول: لا شك أن الشـهادتين كل منهما مسـتلزمة للأخـرى، شـهادة أن لا إله الله وأن محمداً رسول اللـه، أول ما بعث النـبي صـلى الله عليه وسـلم كـان يـدعو النـاس إلى أن يقولـوا: لا إله إلا اللـه. يقـول في الأحـاديث: (أمـرت أن أقاتل النــاس حــتى يقولــوا: لا إله إلا اللــه)، وأكــثر الأحــاديث لم يــذكر فيها الشهادة الثانية، ولكنها مستلزمة لها، وفي بعض الروايـات: (ويؤمنـوا بي وبما جئت به) ، وهذا هو التصديق بالرسالة، فمن قال: لا إله إلا الله. ولكنه لم يأتِ بالشهادة الثانية لم تنفعه، فهما متلازمتـان، وكـذلك من قـال: أنا مسـلم. ولم يأتِ بصفة الإيمان؛ لم ينفعه، فلابد أن يأتي بصـفة الإيمـان حقـاً حـتى يصـدق عليه أنه جمع بين الوصفين -الإسلام والإيمان- الحقيقــيين. وكـذلك بقية الأدلة تــدل على أنه لابد لكل من أتى بصــفة أن يــأتي ببقية الصــفات، وإلا فليس بصـادق. فهـذه الأوصـاف الـتي وصف الله بها عبـاده لا شك أن كلها أسـماء لمسمى واحد، وهو حقيقة هذا الـدين الـذي يـدينون بـه، فـإن الله سـماه دين الإسلام: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ [آل عمران:19] ، والدين هو ما يدان به، يعني: ما يـدين به العبد ويتقـرب بـه، فمن أسـمائه أنه دين، ولكن من فروعه هذه العبادات الـتي تسـمى فروعـاً، وتسـمى شـعباً للإيمـان، وتسـمى أركانـاً للإيمان، وأركاناً للإسلام، وتسمى مراتب للدين، رتبة الإسلام ثم رتبة الإيمــان ثم رتبة الإحسان، وتسمى أركاناً ودعائم يتكـون منها ويتقـوم منهـا. والمسـلم عليه أن يــأتي بهــذه الأركــان كلهــا، ومبــدؤها -كما هو معــروف- الإتيــان بالشهادتين، ويتفرع عن الشهادتين قبـول الرسـالة، فـإن من أتى بــ(لا إله إلا اللـه) لزمته جميع أنـواع العبوديـة، لأنك إذا قلت: لا إله إلا اللـه. قلنـا: الله هو

الإله، فهو المعبود، وهو المحمود، وهو المـدعو، وهو الـذي يشـكر، وهو الـذي يذكر، وهو الذي يتقرب إليه، وهو الذي يطاع، وهو الـذي يوحـد. وإذا قلت: إن محمـداً رسـول اللـه، أو: عبد الله ورسـوله. قلنـا: إذا قلت ذلك فيلزمك أن تؤمن به، وأن تصدقه، وأن تتبعـه، وأن تحبـه، وأن تتأسى به وتقتـدي بـه، وأن تقدم سنته على غيرها، ونحو ذلك، ويلزمك أن تعتقد صحة رسـالته، وأن تقبل كل ما بلغه، فكل ذلك من تمام قولك: إنه رسول اللـه. فـإن وظيفة الرسـول أنه يطيعه المرسل إليهم. هذا معـنى تلازم الشـهادتين، وتلازم وصف الإيمـان والإسلام.

نفي الاحتجاج بآية الذاريات على ترادف الإيمان والإسلام

قال الشارح رحمه اللـه: [وأما الاحتجـاج بقوله تعـالى: فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَـانَ فِيهَا مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَـدْنَا فِيهَا غَيْـرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ [الـذاريات:35-36] على ترادف الإسلام والإيمان، فلا حجة فيه؛ لأن البيت المخرج كانوا متصـفين بالإسلام والإيمـان، ولا يلـزم من الاتصـاف بهما ترادفهمـا. والظـاهر: أن هـذه المعارضات لم تثبت عن أبي حنيفة رضي الله عنـه، وإنما هي من الأصـحاب، فإن غالبها ساقط لا يرتضيه أبو حنيفة ! وقد حكى الطحاوي حكاية أبي حنيفة مع حماد بن زيد ، وأن حماد بن زيد لما روى له حديث: (أي الإسلام أفضـل؟) إلى آخره، قال له: ألا تراه يقول: (أي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمـان) ثم جعل الهجرة والجهاد من الإيمان؟ فسكت أبو حنيفة ، فقال بعض أصحابه: ألا تجيبه يا أبا حنيفة ؟ قال: بم أجيبه، وهو يحدثني بهذا عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم؟!]. قد سـبق كلام طويل يتعلق بالإيمـان والإسـلام، وما يـدخل في الإسـلام، وما يـدخل في الإيمـان، والمسـألة قديمـة، حـدث فيها خلاف بين المرجئة وبين أهل السنة، فذهب المرجئة إلى أن الإيمـان هو تصـديق القلب، وجعلوا الأعمال ليست من مسمى الإيمان، وذهب أهل السنة إلى أن الأعمال داخلة في مسـمى الإيمـان، وأن الإيمـان له شـعب وله فـروع، كلها تسـمى إيماناً، فتسمى الصلاة إيماناً أو شعبة من الإيمان، والشهادتان إيمـان أو بعض من أصل الإيمان، والزكاة من الإيمان، والصدقة من الإيمان، والأذكار والأدعية إيمـان.. وهكـذا. وسـبق -أيضـاً- الخلاف: هل الإسـلام غـير الإيمـان؟ وهل هما متغايران أم مترادفان؟ فذهب بعضهم إلى أن الإسلام والإيمـان شـيء واحـد. والمحققون على أن الإسلام أوسع من الإيمان، وأن الإنسان قد يصير مسـلماً ولا يصل إلى درجة الإيمـان، فعلى هـذا يكـون الإيمـان أخص من الإسـلام. والذين سووا بينهما احتجوا على أن الإسلام والإيمان شيء واحد بهـذه الآيـات التي في سورة الذاريات، وهي قوله تعالى في قصة قـوم لـوط: فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْـرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ [الـذاريات:

35-36]، والكلام من الملائكة الـذين يخـاطبون إبـراهيم عليه السـلام بـأنهم سوف يخرجون أهل الإيمان، فوصفوا أهل ذلك الـبيت -وهم لـوط وأهل بيتـه- بـأنهم مسـلمون وبـأنهم مؤمنـون؛ فقيـل: لأن الإيمـان والإسـلام مترادفـان. والصحيح أن الآية لا تدل على أن الإسلام هو الإيمان، وذلك لأن أهل بيت لوط كانوا متصفين بالإسلام وبالإيمان، فالإسلام هو الأعمال الظاهرة، والإيمـان هو العقيـدة الراسـخة، كما تقـدم أنه صـلى الله عليه وسـلم فسر الإسـلام في حديث جبريل بأركانه الخمسة، وفسر الإيمـان بأركانه السـتة، فجعل الإسـلام أعمالاً: الشهادتين، والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم. وجعل الإيمـان عقيـدة، وهو: التصديق باللـه، وبالملائكـة، وبالرسـل، وبـالكتب، وبـالبعث بعد المـوت، وبالقضاء والقدر، جعل هـذا هو الإيمـان، فأفـاد أن الإيمـان أصـلاً هو ما يقـوم بالقلب من هذا التصديق، ولكن لا شك أن التصديق إذا كان راسخاً في العقل متمكناً في القلب نتجت عنه الأعمال، فأصـبحت الأعمـال هي الدلالة على أن هناك تصـديقاً صـادقاً، فلـذلك دخلت العبـادات في اسم الإيمـان، فهـذا أوضح الأدلة في أن الإسـلام أوسع من الإيمـان. قد ذكرنا أن من العلمـاء من جعل الإسـلام والإيمـان والإحسـان درجـات، فمثلاً: درجة الأرضـية الواسـعة هي الإسلام، والدرجة الثانية: هي الإيمان، كـأن المؤمـنين خلاصة من المسـلمين، انتقوا وخلصـوا حـتى صـعدوا إلى الدرجة الثانية أو المرتبة الثانيـة، ثم خلصت من المؤمـنين خلاصة الخلاصة وصـفوة الصـفوة، وجعلـوا في المرتبة الثالثـة، وسـموا بالمحسـنين أو بأهل الإحسـان، كما في حـديث جبريل أنه قسم المراتب ثلاثاً: الإسـلام، والإيمـان والإحسـان، فأوسـعهم أهل الإسـلام، ثم بعد ذلك خلاصتهم أهل الإيمان، ثم بعده خلاصة الخلاصة أهل الإحسان، وهم أقل. فيقال في أولئك الخلاصة: أنتم مسلمون ومؤمنون ومحسـنون، أسـلمتم أولاً، ثم آمنتم بعد ذلـك، ثم أحسـنتم ووصـلتم إلى الرتبة العاليـة. ويقـال لأهل الإيمان: آمنتم بعدما أسلمتم. ويقال لأهل الإسـلام: أسـلمتم فقـط، لم تصـلوا إلى الإيمان. فعلى هذا فالإنسان الكامل هو الـذي وصل إلى مرتبة الإحسـان، أسلم ثم آمن ثم أحسن، وقد تقدم تفسير الإحسان بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ، فكذلك يقـال: الإيمـان الحقيقي هو الـذي تنتج عنه الأعمال، أما تصديق لا تنتج عنه أعمال فليس بإيمان.

الشـبه الـواردة عن الحنفية لإخـراج الأعمـال عن الإيمـان ليست منقولة عن الإمام أبي حنيفة

هـذه الحجج الـتي أوردها الشـارح على أنها أدلة للحنفية في التفريق بين الإسلام والإيمان، ويجعلون الإيمان مجرد التصديق، ويجعلـون أعمـال الإسـلام ليست داخلة في الإيمان؛ يقول الشارح: إن هذه الأدلة ضـعيفة، وإنها لا يمكن

أن تصدر من أبي حنيفة مع جلالته ومع معرفته ومع قوة فهمه، لكونها منهارة ضعيفة. واستدل على أن أبا حنيفة متى احتج عليه بالحديث توقف عن رده، كما احتج عليه حماد بن زيد -وهو من علماء الحديث- في التفرقة بين المسلمين والتفاوت بينهم، بقوله صلى الله عليه وسلم لما قيل له: (ما أفضل الإسلام؟ فقال: الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله)، فجعل الإيمان زائداً عن مسمى الإسلام، فدل على أن المسلمين يتفاوتون، فإذا كان المسلم ممن تمكن الإسلام في قلبه وصل إلى مرتبة الإيمان، وهي: قوة العقيدة مع الانبعاث على العمل، فأبو حنيفة لما احتج عليه بهذا الحديث الذي فيه تفاضل أهل الإسلام، وأنه صلى الله عليه وسلم جعلهم متفاضلين، وجعل أفضل أعمال الإسلام هو الإيمان؛ أقر ذلك أبو حنيفة ولم يرد الحديث، مع أن أصحابه يتشوفون إلى رد ذلك الدليل، ولكنه سلم له، فيستدل على أن هذه الاحتجاجات الضعيفة ليست من أبي حنيفة ، وإنما هي من أصحابه الذين يتعصبون لمذهبه. وهذه الآية يحتجون بها على تغاير الإسلام والإيمان، قال تعالى: فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ [الذاريات:35-36]، كأنه أخبر بأنه أخرج من كان فيها من المؤمنين، فلم يجد فيها إلا بيتاً واحداً من المسلمين، وهم لوط وأهل بيته، فلوط عليه السلام وأهل بيته لا شك أنهم جمعوا بين الوصفين: بين الإيمان والإسلام، ولهذا استثنى الله امرأته وقال: إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [الأعراف:83] ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ [الشعراء:171]. إذاً: لا منافاة بين هذا الدليل وتلك الأدلة، بل هو دليل واضح على أن الإسلام يستلزم الإيمان، فلا يتم الإيمان إلا بأركان الإسلام، ولا يتم الإسلام إلا بأركان الإيمان، ومن أتى بواحد منهما دون الآخر لم يقبل منه، فمن أتى بالأعمال الظاهرة، ولم تكن عن يقين وعن عقيدة وعن تصديق بقلبه لم يكن مؤمناً، ولم ينفعه الإسلام، ومن اعتقد اعتقاداً جازماً، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وصدق بخبر الله، وصدق بالبعث بعد الموت، ثم لم يعمل ولم يصلِ ولم يصم ولم يحج، ولم يؤد زكاة ماله، ولم يأت بواجباته، ولم يحرم الحرام ولم يحل الحلال؛ فليس بمؤمن، ولو ادعى أنه مطمئن قلبه بالإيمان، هذا مقتضى هذه الآيات. هذه هي الشبه التي يدلي بها الحنفية، ويدعون أنهم ينصرون بذلك مذهب أبي حنيفة في أن الأعمال ليست من مسمى الإيمان، وأن الإسلام مغاير للإيمان، حيث يذهبون إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، ويخرجون الأعمال من مسمى الإيمان. والصحيح مذهب الجمهور: أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وأن هذه الشبهات التي يستدلون بها، ويدعون أنها أدلة لأبي حنيفة لم تكن منقولة عن أبي حنيفة نفسه، فهو رحمه الله من أجلاء السلف ومن أجلاء التابعين، ولم يكن ليدلي بهذه الشبهات، ولا يشكك بها في هذه العقيدة، فإن عقيدته سليمة صحيحة، وهي عقيدة أهل السنة والجماعة، ولكن لما اشتهر عن الحنفية أنهم يخرجون الأعمال من مسمى الإيمان أخذوا يجمعون ما يستطيعونه من الشبهات وما يسمونه بالأدلة، فأوردوها كنصرة لمذهبهم، والصحيح: أنه لا دلالة فيها كما ذكرنا، بل الأدلة واضحة في أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وثمرة من ثمراته.

شرح العقيدة الطحاوية [46]

الاستثناء في الإيمان بقول: أنا مؤمن إن شاء الله، من المسائل التي كثر فيها الخلاف، والراجح فيها هو التفصيل، فيجـوز باعتبـار ولا يجـوز باعتبـار، كما بين ذلك أهل السنة.

أهمية دراسة العقيدة

اجتمعنا في هذا المسجد المبارك لنسـتمع ونقـرأ ما يتعلق بأصل ديننـا، الأصل الأصيل الذي هو المعتقد، وما يتفرع عن ذلك المعتقد؛ وذلك أنه متى تأسست الأصـول انبنت عليها الفـروع، وإذا خـربت الأصـول سـقطت الفـروع، فالأصل لهذا الدين هو العقيدة، والفروع هي العبادات، فإذا كانت العقيدة راسـخة في القلب نبعت عنها الأعمــال، فــأنتجت أعمــالاً صــالحة، وحصل من آثــار تلك العقيدة الراسخة امتثال الأوامر، وترك الزواجـر، والتصـديق بالأخبـار، والعمل الصالح، والعلم النافع، وكل ذلك من نتائج هذا الأصل الأصيل، ومن فروع هذه العقيدة. وبنظرنا في سير سلفنا الصـالح نـرى أنه لما كـانت العقيـدة متمكنة في قلوبهم أكثروا من الأعمال الصالحة، وصدقوا بما أخبر اللـه، وانـدفعوا في تحقيق تلك الأوامر، وأفنوا في ذلك أموالهم وأنفسهم وبلادهم، وهــانت عليهم كلها في سـبيل تحقيق عقيـدتهم، وتـرك ما كـان عليه آبـاؤهم وأسـلافهم. لما عرفوا صحة الرسالة، وعرفوا صحة التوحيد، وعرفـوا حقيقة الإيمـان بـالبعث، وعرفوا ثواب الله تعالى في الآخرة، وعرفوا صدق ما وعد الله تعالى به لهم؛ هــانت عليهم بلادهم فتركوهــا، وهــانت عليهم أمــوالهم، وســهلت عليهم عشائرهم وأزواجهم وأقـاربهم، كل ذلك أصـبح هينـاً عليهم في سـبيل تمكنهم من علمهم، وتمكنهم من العمل الذي أمروا به. كذلك لما رسخت العقيدة في قلوبهم صدقوا بوعد الله الـذي وعـدهم أن ينصـرهم، وأن يقـويهم، وأن يمكن لهم في الأرض، وأن يسـتخلفهم كما اسـتخلف الـذين من قبلهم، وأن يبـدلهم من بعد خـوفهم أمنـاً، فلما صـدقوا هـذا ورسخ وتمكن في قلـوبهم، عند ذلك قاتلوا في سبيل الله وقتلوا، وكذلك هاجروا وهجروا كل قريب وبعيد، كل ذلك لأجل تصـديقهم بخـبر ربهم، وتصـديقهم بوعـده ووعيـده، وطلبهم ما وعد الله لهم من الثواب الجزيل في الآخرة. والذي حملهم على أن يقـاتلوا الأعـداء مع كثرتهم، ويصبروا حتى نصرهم الله، تصديقهم بوعد اللــه، حيث تمكن ذلك من قلوبهم، فقابلوا أعداد الكفـار وعـددهم، وقـابلوا جيوشـهم الهائلة المتراكمـة، واثقين بـــأن الله لا يخلف وعـــده. لا شك أن ذلك لأجل تمكن العقيـــدة في قلوبهم، وهكـذا أتبـاعهم من بعـدهم، فمن تأمل سـيرة العلمـاء الـذين بلغتهم السنة الصحيحة فتقبلوها، وجاءتهم الشريعة فصدقوها، وعلموا صـحة ما جـاء في هــذه الرســالة، فــآمنوا به إيمانــاً صــحيحاً، لا يعتريه شك ولا ريب، فلما خــالفهم من خــالفهم، ولما أنكر عليهم بعض المبتدعة الــذين زاغـوا وضـلوا، وحاولوا أن يردوهم عما هم عليه من المعتقد؛ امتنعـوا أشد الامتنـاع، وأصـروا

على ما هم عليه، وأبوا إلا أن يدينوا بما يعرفونه وبما يعتقدونـه، ولو خـالفتهم فئام الناس، ولو هددوهم؛ كما حصل للأئمة. ما الذي حملهم على الصـبر على السجون؟ ما الذي حملهم أن يصبروا على الأذى؟ ما الذي حملهم أن يصـبروا على الضرب وعلى الجلد كما حصل للإمام أحمد وابن تيمية وغيرهما؟ لا شك أنه ما رسخ في قلوبهم من تلك العقيدة التي نالوها من هذه الشريعة، فوثقوا بخبر الله سبحانه وتعالى، وصـدقوا ما جـاء عنـه، وعلمـوا أن النصر لهم، وأن العاقبة الحميدة لهم، وأن مـآل الانتصـار والظهـور لمن كـان على الحـق، ولو ناوأهم من ناوأهم، وخـالفهم من خـالفهم. لا شك أن هـذا كله من آثـار صـدق تلك العقيدة، ومن آثار قـوة إيمـانهم وتصـديقهم. نقـول: إن الـواجب علينا أن نكــون مثلهم، نحن تلقينا العقيــدة مثلما تلقوهــا، هم تلقوها عن مشــايخهم، وهكذا عن آبائهم وأسلافهم، ولما تلقوها عرفـوا أنها صـحيحة ثابتـة، فـتركزت تلك العقيدة على الإيمان بالله، والإيمان بخبر الله، والإيمـان بوعـده ووعيـده، والإيمان بكتبه ورسله، والإيمان بأمره ونهيه، والإيمـان بقـدره وشـرعه، آمنـوا بـذلك، يعـني: صـدقوا به غاية التصـديق، وقـوي في أنفسـهم، وقـامت عليه الــدلالات والــبراهين، ولم يخطر ببــالهم شك ولا ريب ولا توقف ولا شــبهة تعـتريهم، بل مـتى ألقيت عليهم شـبهة أو شك في البعث، أو في النشـور، أو في الجزاء، أو في الحسـاب، أو في الأمر والنهي؛ احـترقت تلك الشـبهة قبل أن تتمكن في قلوبهم؛ وذلك لقوة الـبراهين الـتي تضـعف عنـدها تلك الشـبه. فنحن بحاجة إلى أن نعــرف تلك الــبراهين والأدلة الــتي قــامت عليها هــذه العقيـدة، بحاجة إلى أن ندرسـها، ونعـرف كيفية دلالتهـا، ودلالتها وإن كـانت واضحة، ولكن تحتـاج إلى قلـوب فارغة من أضـدادها. إذاً: نحن بحاجة إلى أن نفرغ قلوبنا لها، تـأتي إلينا وقلوبنا فارغة من الشـبهات، فارغة من الشـواغل، فارغة من الأضداد، فارغة من الضلالات والبدع، فإذا كان كذلك فـإن العقيـدة الراسـية ترسخ فيهـا، ولا تـتزعزع مهما اعتراهـا. أما إذا تلقت تلك القلــوب الفارغة بدعاً وضلالات وشركيات وخرافات في حالة فراغها، ولم تصغ إلا لها، ثم عرضت عليها بعد ذلك الأدلة الصـحيحة، أو الـبراهين السـاطعة، فـإن تلك القلــوب لا تجد لها مكانــاً، فتبقى تلك القلــوب مقفلة لا يــدخلها الحــق؛ لأنها امتلأت بالضـلال فلم يجد الحق إليها سـبيلاً، امتلأت القلـوب الفاسـدة بالبـدع، فلم تجد السنة فيها مكانـاً، امتلأت بالخرافـات، وامتلأت بالمحـدثات، وامتلأت بالشبهات، فلم يجد الدليل إليها وصـولاً، فلا حيلة فيها إلا أن يشـاء اللـه. نحن نعجب من أهل البدع، وتمكن البدع في نفوسهم، وتمسـكهم بها مع أنها تمجها النفوس، تمجها العقول، تنكرها الطباع والفطـر، ومع ذلك يتمسـكون بها غاية التمسـك، ويعضـون عليها بالنواجـذ، ولو أتيتهم بكل آية ما أقلعـوا عنها إلا أن يشاء الله، تأملوا -مثلاً- في الشيعة والرافضة الذين نشئوا على عقيدة زائغـة، تــأملوا كيف أنهم يبقــون على هــذه العقيــدة، ويلقنــون عليها أولادهم منذ الطفولة، ثم يحاول المحاولون في أن يقلعوا عنها، ويبينوا لهم السنة، ويــبينوا لهم الدليل، ولكن يدخل الكلام من أذن ويخرج من الأخـرى دون أن يصل إلى القلوب، بل قلـوبهم ليس فيها مكـان للتقبـل. كـذلك الكثـير من المبتدعة من أشعرية، من معتزلة، من جبريـة، من مكارمـة.. وغـيرهم، لما امتلأت قلـوبهم

في الطفولة وفي الصــغر بهــذه الشــبهات لم يجد الحق إليها ســبيلاً. ونحث المسلم أن يلقن أولاده في طفولتهم معرفة الله، ومعرفة نبيــه، ومعرفة دين الإسلام، ومعرفة الحسـاب والجـزاء، ومعرفة الأسـماء والصـفات، ومعرفة ما أمر به، وما نهي عنه؛ حتى يرسخ ذلك في قلبه ويحبه ويألفه، فـإذا لقن غـيره من الخرافات ودعي إليها لم يتقبل ذلـك، بل نفر منها غاية النفـرة، بخلاف ما إذا بقي جاهلاً لا يعـرف شـيئاً، أو لقن في صـغره عقيـدة زائغـة، فإنه لا يقبل العقيدة الصحيحة، فهكذا فلنكن، وهكذا فلنتمكن من عقيـدتنا، وهكـذا فلتظهر آثارها. ......

الاستثناء في الإيمان

قال المصنف رحمه اللـه: [ومن ثمـرات هـذا الاختلاف: مسـألة الاسـتثناء في الإيمان، وهو أن يقول -أي: الرجل-: أنا مؤمن إن شاء الله. والنــاس فيه على ثلاثة أقوال؛ طرفان ووسـط: منهم من يوجبـه، ومنهم من يحرمـه، ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار، وهذا أصح الأقوال. أما من يوجبه فلهم مأخذان: أحدهما: أن الإيمان هو ما مات الإنسـان عليـه، والإنسـان إنما يكـون عند الله مؤمناً أو كافراً باعتبار الموافاة، وما سـبق في علم الله أنه يكـون عليـه، وما قبل ذلك لا عبرة به. قالوا: والإيمان الذي يعقبه الكفر فيمـوت صـاحبه كـافراً ليس بإيمان، كالصلاة التي أفسدها صاحبها قبل الكمال، والصيام الــذي يفطر صاحبه قبل الغروب، وهذا مأخذ كثير من الكلابية وغيرهم. وعند هؤلاء أن الله يحب في الأزل من كـان كـافراً إذا علم منه أنه يمـوت مؤمنـاً، فالصـحابة ما زالـوا محبـوبين قبل إسـلامهم، وإبليس ومن ارتد عن دينه ما زال الله يبغضه وإن كان لم يكفر بعد، وليس هذا قول السلف، ولا كان يقول بهذا من يستثني من السلف في إيمانه، وهو فاسد، فـإن الله تعـالى قـال: قُـلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَـاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ [آل عمـران:31]ـ ، فـأخبر أنه يحبهم إن اتبعـوا الرسول، فاتباع الرسول شرط المحبة، والمشروط يتأخر عن الشـرط، وغـير ذلك من الأدلة. ثم صـار إلى هـذا القـول طائفة غلـوا فيـه، حـتى صـار الرجل منهم يستثني في الأعمال الصالحة، يقول: صـليت إن شـاء اللـه! ونحو ذلـك، يعني: القبول. ثم صار كثير منهم يستثنون في كل شيء، فيقول أحدهم: هــذا ثوب إن شاء اللـه! هـذا حبل إن شـاء اللـه! فـإذا قيل لهم: هـذا لا شك فيـه؟ يقولون: نعم، لكن إذا شـاء الله أن يغـيره غـيره!ـ! المأخذ الثـاني: أن الإيمـان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كلـه، وتـرك ما نهـاه عنه كلـه، فـإذا قال الرجل: أنا مؤمن -بهذا الاعتبار- فقد شهد لنفسه أنه من الأبـرار المتقين، القائمين بجميع ما أمروا بـه، وتـرك كل ما نهـوا عنـه، فيكـون من أوليـاء الله المقربين، وهذا من تزكية الإنسان لنفسه، ولو كـانت هـذه الشـهادة صـحيحة، لكان ينبغي أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال، وهذا مأخذ عامة السلف الـذين كـانوا يسـتثنون، وإن جـوزوا تـرك الاسـتثناء بمعـنى آخـره كما سنذكره إن شاء الله تعالى. ويحتجون بجـواز الاسـتثناء فيما لا شك فيه بقوله

تعالى: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَـرَامَ إِنْ شَـاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [الفتح:27]. وقـال صـلى الله عليه وسـلم حين وقف على المقـابر: (وإنا إن شـاء الله بكم لاحقـون) وقال أيضاً: (إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله) .. ونظائر هذا]. ......

القول بوجوب الاستثناء في الإيمان

هـذه مسـألة يتكلمـون عليها في هـذا الموضـع، وهي مسـألة الاسـتثناء في الإيمان، بقوله: أنا مؤمن إن شاء الله، أنا مسـلم إن شـاء اللـه، فمن العلمـاء من يوجبه، ومنهم من يحرم الاستثناء، ومنهم من يجـوزه ولا يوجبـه، أو يوجبه في حـال دون حـال. سـمعنا أن أتبـاع ابن كـرام ومن يقـرب من الأشـاعرة يوجبـون الاسـتثناء، فيوجبـون أن يقـول أحـدهم: أنا مـؤمن إن شـاء اللـه. ثم تجاوزوا ذلك فصاروا يستثنون في الأشياء الظاهرة، فـإذا صـلى أحـدهم قـال: صليت إن شاء الله. وإذا دخل أو خـرج قـال: دخلت أو خـرجت إن شـاء اللـه. حتى يقول: هذا ثوب إن شاء اللـه، هـذا قلم أو كتـاب إن شـاء اللـه؛ مع أنه لا يشك فيه! هؤلاء لهم مأخـذ، يقولـون: السـبب أنا لا نـدري ما الخاتمة وما هي العاقبة، فإن الإنسان إنما يكون مؤمناً إذا مـات على الإيمـان، ونحن لا نـدري، ربما يحصل من أحدنا غير ما كـان عليـه، فلـذلك يسـتثنون. يقولـون: لأن الله أعلم بـالخواتيم، وهو أعلم بما نحن نمـوت عليـه. صـحيح أن الله تعـالى أعلم بالخاتمــة، وأعلم بالعاقبـة، وأعلم بما يمـوت عليه الإنســان، وقد أخــبر عليه الصلاة والسلام بأن الإنسان يكـون مكتوبـاً عند الله من أهل النـار، وهو أكـثر وقته يعمل بعمل أهل الجنــة، في قولــه: (إن أحــدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، ويعمل بعمل أهل النار فيدخلها)، فهو طوال حياته يعمل بأعمال أهل الجنة، ومع أهل الجنــة، ثم يرتد في آخر حياتــه، ويختم له بعمل أهل النــار، فيــدخل النــار. ومن الحكايــات المشهورة التي ذكرها كثير من المـؤرخين: أن رجلاً كـان مؤذنـاً من صـالحي عبـاد اللــه، محافظــاً على الصــلاة، ومحافظــاً على الأذان، ومحافظــاً على الأعمال الصالحة، فصعد مرة إلى المئذنة ليؤذن، فلفت نظره ابنة أحد جيران المسجد، وقد أسفرت، فتعلق قلبه بها، فترك الأذان ونـزل وطـرق بـاب أهلها وقال: أريدك. فقالت: لماذا؟ فقال: أتزوجك. قالت: أنا نصرانية، وأنت مسلم! فعند ذلك قـال: سـوف أتـرك ديـني وأدخل في دينـك، وأتنصـر. فتنصـر، ولما تنصر وعقد له عليها مات قبل أن يـدخل بهـا، فختم له بعمل أهل النـار!! هـذا مثـال، والأمثلة كثـيرة. فيقولـون: إن العاقبة خفية علينـا، فالاسـتثناء إنما هو بـالنظر إلى العاقبـة. والجـواب: أننا نقـول لكم: لا نسـألكم عن العاقبـة، إنما نسألكم عن الحال الذي أنتم فيه، وما قام الآن بقلوبكم، أما العــواقب فأمرها إلى الله تعالى. فعلى هذا إذا سألك إنسان: ما دينك؟ فلا تقل: ديـني الإسـلام إن شاء الله؛ إلا على وجه التبرك، بل تجـزم وتقـول: نعم، أنا مسـلم من أهل الإسلام، وفي بلاد الإسلام، وديني الإسلام، وأعتقد ما يعتقده المسلمون، دون أن أسـتثني ودون أن أتـردد ودون أن أتوقـف، والعاقبة للمتقين، وأمر الخاتمة

إلى الله تعالى. وصحيح -أيضاً- أن الإنسان إنما يجازى بما مات عليه، فإن كانت حياته حياة كفر، ثم ختم له بالإسلام والإيمان فهو محبوب عند الله، وإن كانت حياته حياة إيمان، ولكن ختم له بكفر، فهو مبغوض عند الله طوال حياته، فإذا علم الله أن هذا الإنسان يموت كافراً فإن الله يبغضه حتى ولو كان يجاهد، ولو كان يصلي، ولو كان يتهجد، ولو كان يقرأ طوال حياته، ولو كانت يتدبر آيات الله، ولو كان يعظ وينصح، فهو مبغوض ممقوت عند الله منذ خلق، وإذا علم الله أن إنساناً يموت على الخير، ويموت على الدين، ويموت على الإسلام، ولكن أكثر حياته يشرك بالله ويكفر به، ويعصي، ويزني، ويرابي، ويقتل المسلمين ويقاتلهم، ويشن عليهم الغارات، ويشجع من يقاتلهم، ويحث على رد الإسلام والرد عليه، ومع ذلك يؤمل أنه يهتدي، والله يعلم أنه يختم له بخاتمة حسنة، يقولون: هو ما زال محبوباً عند الله، وإن كانت أعماله كفرية أو بدعية أو نحو ذلك. وبكل حال: هذا قول الذين يوجبون الاستثناء.

القول بجواز الاستثناء في الإيمان وعدم وجوبه

الذين يجوزون الاستثناء ولا يوجبونه، أو يجوزونه في بعض الحالات، يعرفون بأنهم الذين يستثنون من غير شك ومن غير توقف، هؤلاء يقولون: إن الله تعالى قد ذكر الاستثناء للتبرك، وذكر الاستثناء في الأمور التي لا يشك فيها، فروى صلى الله عليه وسلم عن سليمان نبي الله أنه لم يستثنِ، فحرم ما طلبه أو ما أمله، وذلك لما قال: (لأطوفن الليلة على مائة امرأة، كل امرأة تلد غلاماً يقاتل في سبيل الله. فقيل له: قل: إن شاء الله. فلم يقل. فقال صلى الله عليه وسلم: لو قال: إن شاء الله لقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون)، وما ولدت منهن إلا واحدة نصف إنسان؛ لأنه لم يقل: إن شاء الله. وكذلك ذكروا أنه صلى الله عليه وسلم جاءته قريش وقالوا له: أخبرنا عن أمور نسألك عنها: أخبرنا عن فتية في سالف الزمان، وكان لهم حديث عجيب -يعنون أصحاب الكهف- وأخبرنا عن رجل طواف، طاف مشارق الأرض ومغاربها -يعنون ذا القرنين- وأخبرنا عن الروح. فقال: سأخبركم عنها غداً. ولم يقل: إن شاء الله. فعاتبه الله، وقال له: وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [الكهف:23-24] فتأخر عنه الوحي خمسة عشر يوماً لأنه لم يقل: إن شاء الله، فدل على أن الاستثناء يحصل به تحقيق المطلب. وكذلك عاتب الله أصحاب الجنة الذين ذكروا في سورة القلم، فقال تعالى: إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ* وَلا يَسْتَثْنُونَ [القلم:17-18] جزموا بقولهم: والله! لنصرمنها في الصباح، ولم يقولوا: إن شاء الله، لم يستثنوا؛ فكانت العاقبة أن حرموا منها: فَطَافَ عَلَيْهَا

طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَـائِمُونَ [القلم:19] حريق أو ريـاح، فَأَصْـبَحَتْ كَالصَّـرِيمِ [القلم:20] جزاء لهم لأنهم لم يقولوا: إن شاء الله، وجزاء لهم لما توعدوا ألا يدخلها عليهم مسكين. وبكل حال: فالاستثناء جائز إذا لم يكن عن شك، يقول إنسان: أنا مؤمن إن شـاء اللـه. ولا يقصد بـذلك الشك والتوقـف، ويقـول: أنا سوف أصلي إن شاء الله -ولو كان جازمـاً- وسـوف أصـوم إن شـاء الله -ولو كان جازماً- ولو لم يكن بذلك متردداً، ولا شاكاً فيما هو جازم عليه.

القول بتحريم الاستثناء في الإيمان

قـال المصـنف رحمه اللـه: [وأما من يحرمـه: فكل من جعل الإيمـان شـيئاً واحداً، فيقول: أنا أعلم أني مؤمن، كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين، فقولي: أنا مؤمن، كقولي: أنا مسلم، فمن استثنى في إيمانه فهو شـاك فيـه. وسـموا الذين يستثنون في إيمـانهم: الشـكاكة. وأجـابوا عن الاسـتثناء الـذي في قوله تعالى: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَـاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [الفتح:27] بأنه يعـود إلى الأمن والخوف، فأما الدخول فلا شك فيه، وقيل: لتدخلن جميعكم أو بعضـكم؛ لأنه علم أن بعضهم يموت. وفي كلا الجـوابين نظـر: فـإنهم وقعـوا فيما فـروا منه، فأما الأمن والخوف فقد أخـبر أنهم يـدخلون آمـنين، مع علمه بـذلك، فلا شك في الدخول ولا في الأمن، ولا في دخـول الجميع أو البعض، فـإن الله قد علم من يـدخل فلا شك فيه أيضـاً، فكـان قـول: إن شـاء اللـه. هنا تحقيقـاً للـدخول، كما يقـول الرجل فيما عـزم على شـيء أن يفعله لا محالـة: والله لأفعلن كذا إن شاء الله. لا يقولها لشك في إرادته وعزمه، ولكن إنما لا يحنث الحالف في مثل هذه اليمين؛ لأنه لا يجزم بحصول مراده. وأجيب بجـواب آخر لا بأس به، وهو: أنه قال ذلك تعليماً لنا كيف نستثني إذا أخبرنا عن مسـتقبل. وفي كون هذا المعنى مـراداً من النص نظـر، فإنه ما سـيق الكلام لـه، إلا أن يكون مراداً من إشارة النص. وأجـاب الزمخشـري بجـوابين آخـرين بـاطلين، وهما: أن يكـون الملك قد قاله فـأثبت قرآنـاً أو أن الرسـول قالـه! فعند هـذا المسكين يكون من القرآن ما هو غـير كلام اللـه! فيـدخل في وعيد من قـال: إِنْ هَذَا إِلَّا قَـوْلُ الْبَشَـرِ [المـدثر:25] نسـأل الله العافيـة!]. هـؤلاء هم الـذين يمنعون الاستثناء أصـلاً، ويسـمون من يقـول: أنا مـؤمن إن شـاء اللـه. شـاكاً، ويسـمون المسـتثنين شـكاكاً، يقولـون: أنت تشك في نفسـك، وتشك في إيمانـــك، كيف تشك وأنت جـــازم بأنك من أهل الإســـلام، وبأنك من أهل الإيمان؟! أنت تعرف أنك تتشهد الشـهادتين، قد نطقت بالشـهادتين، ومعلـوم أن من نطق بالشهادتين دخل في الإسلام، فإذا دخل في الإسلام فليس شاكاً فيه. فكذلك -أيضاً- إذا دخل في الإيمان لم يكن شاكاً فيه، فيمنعون الاستثناء، ويحرمـون أن يقـول الإنسـان: أنا مـؤمن إن شـاء اللـه. بل يقـول أحـدهم: أنا

مؤمن حقاً. كما يقول: أنا مسلم حقاً. لا شك أن الاستثناء في الإيمان يرجع إلى الخاتمة كما تقدم، ويرجع إلى الكمال، والقول الوسط هو المختار: وهو أن الإنسان إذا قال: أنا مؤمن إن شاء الله. كان قصده بذلك العاقبة، وكان قصده الكمال، يعني: أن الله يوفقني لأن أكمل أعمال الإيمان، وآتي بكل ما أمرت به، وبكل ما هو من الإيمان، وهذا علمه عند الله، فإذا شاء الله وفقني لذلك، هذا هو القول الوسط. أما الذين حرموا الاستثناء فإنهم يجزمون أو يقولون: إن الإنسان قد آمن يقيناً، فلم يكن في شك ولم يكن عنده تردد، هؤلاء يدعون أن الإيمان هو الكلمة، ويقولون: إن من قال: آمنت بالله. فقد كمل إيمانه، فلا حاجة إلى أن يستثني. وسمعنا جوابهم عن الآية، وهي قوله تعالى في سورة الفتح: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [الفتح: 27] ، فيقولون: الاستثناء إنما هو للأمن. يعني: أن الدخول محقق، ولكن الأمن فيه تردد. وهذا خطأ؛ لأن الله تعالى أخبر بالأمن كما أخبر بالدخول، وخبر الله محقق، فليس فيه تردد! إذاً: وقعوا فيما فروا فيه، فأجاب بعضهم بأن قوله: ((إن شاء الله)) راجع إلى دخولهم كلهم، حيث علم الله أن بعضهم يموت قبل الدخول. والجواب أيضاً: أن المراد أن الله تعالى أخبر بالدخول، وليس المراد دخول الذين خوطبوا بهذه الآية كلهم، بل المراد جنس الدخول، فإنه قد انضم إليهم غيرهم، وإن كان قد مات بعضهم. وأما جواب الزمخشري أن كلمة (إن شاء الله) ليست من كلام الله، وإنما هي من كلام جبريل أو من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا قول بعيد، يلزم منه أن في القرآن ما ليس من كلام الله تعالى، والزمخشري ولو كان لغوياً لكنه معتزلي، دخل في الاعتزال وتمكن منه، فبنى ذلك على مذهبه الباطل.

الإيمان يشتمل على أفعال وتروك، وهو بضع وسبعون شعبة، ومن الإيمان تقديم قول رسول الله عليه الصلاة والسلام على قول كل أحد كائناً من كان، وعدم التحايل في رد السنة بدعوى مخالفة العقل، أو بدعوى أن الحديث آحاد، أو غير ذلك من طرق المبتدعة.

اشتمال الإيمان على الأفعال والتروك

مما يتعلق بالأمور الاعتقادية مسألة الإيمان بالله تعالى وما يلحق به، ولا شك أن الإيمان هو السمة والصفة التي تميز بها أتباع الرسل، ولأجل ذلك يدعو الله تعالى من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم وصدقه بهذا الاسم، فيناديهم بقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا [البقرة:104] ، ولم يرد: يا أيها الذين أسلموا، ولا: يا أيها الذين صدقوا، ولا: يا أيها الذين اتبعوا. بل تتابعت الآيات التي فيها الأوامر بهذا السياق (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا). ولاشك أن هذا الوصف ميزة لمن اتبع النبي صلى الله عليه وسلم، وعمل بسنته، وصدقه حق تصديقه، ووطن نفسه على العمل بما جاء به. ولأجل ذلك يوجه الله الأوامر لهؤلاء تارة بالأعمال وتارة بالاعتقادات، فمن الأعمال قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ [البقرة:183] ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ [البقرة:178] ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً [البقرة:208] .. وما أشبه ذلك. ومن العقائد قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ [النساء:136]، فهذا أمر بالاعتقاد، والمعنى: صدقوا بذلك كله، ومعلوم أن من صدق بالكتب المنزلة وبالكتاب الذي بين أيدينا؛ ظهرت عليه آثار هذا التصديق بالاتباع والعمل، وأما من لم يتبعه ولم يعمل به؛ فإنه لا يصدق عليه أنه مؤمن، فلابد أن يكون للإيمان آثار وعلامات على من ادعى تصديقه. وقد تكلم العلماء على هذا المسمى، وجعلوا هذا النوع تحت عنوان (أسماء الإيمان والدين)، وجعلوا هذه المسميات لها حقائق، واعتقدوها مسميات شرعية، نقلها الشرع من المسميات اللغوية إلى مسميات شرعية، فيقال -مثلاً-: الإيمان في اللغة التصديق، والإيمان في الشرع قول وعمل واعتقاد، كما يقال: الإسلام في اللغة الإذعان، والإسلام في الشرع الاتباع والعمل. فالشرع نقل هذه المسميات إلى مسميات شرعية، فأصبحت بذلك ذات معانٍ مقصودة للشارع؛ ولأجل ذلك جعل النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان عاماً للأعمال، وعاماً للاعتقادات، وعاماً للأقوال. وفي الحديث أن شعب الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، ذكر منها النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث شعب في نفس الحديث: شعبة قولية، وشعبة اعتقادية، وشعبة عملية. فالشعبة القولية أن: تقول: لا إله إلا الله. والشعبة الاعتقادية: الحياء من الإيمان. والشعبة العملية: إماطة الأذى عن الطريق. ومعنى ذلك: أن

الإيمــان يســتوعب الأعمــال كلهــا، ويســتوعب الأقــوال كلهــا، ويســتوعب الاعتقادات كلها، فكلها داخلة في اسم الإيمان. ولأجل ذلك يتفاوت الناس في الإيمان، فيكون هذا ناقص الإيمان، وهذا متوسط الإيمان، وهذا كامل الإيمـان، وهذا قدحت السيئات في إيمانه، وهذا قد استوفى خصـال الإيمـان وما أشـبه ذلك، ونتج من ذلك أن الأعمال الصالحة من مسمى الإيمـان، فيقـال: الصـلاة من الإيمان، والصـدقة من الإيمـان، والصـوم من الإيمـان، يعـني: أنها أبعـاض وأجزاء من هذا الإيمان الـذين سـمي الله به عبـاده. فلا يكـون الإنسـان كامل الإيمان إلا إذا كمل هـذه الشـعب، وأتى بها كما ينبغي، سـواء كـانت أفعـالاً أو تروكـاً، يعـني: أن الأعمـال من الإيمـان، والـتروك من الإيمـان، وكيف تكـون التروك من الإيمان؟ نقـول: لا شك أنها إذا تـركت خوفـاً من الله تعـالى كـان الدافع على تركها هو قوة اليقين، ولأجل ذلك يعد تركها من الخصال العظيمة، وفي الحديث المشهور أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: (سـبعة يظلهم الله في ظله يــوم لا ظل إلا ظلــه، وعد منهم رجلاً دعته امــرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخـاف اللـه)؛ فما هو العمل الـذي عمله حـتى اسـتحق أن يكـون من أهل الظلال؟ هو أنه تـرك الشـهوة الجنسـية الـتي في النفس منها دوافع، ومع ذلك لا يخـاف محـذوراً، فتركه هـذا من أعظم الأفعـال، يعـني: أن هذا الترك مع قوة الدافع أعظم من كثير من الأعمـال. وللعلمـاء خلاف: أيهما أفضـل: تـرك المحرمـات أو فعل الطاعـات؟ فمثلاً: إذا كـان هنـاك إنسـان له شــــهوة قوية تدفعه إلى فعل فاحشة الزنا ونحــــوه، ولكنه أمسك نفســـه، وعصمها، وحفظها، وقادها بزمامها إلى الطاعات، وترك هـذا الحـرام مع قـوة الدوافع إليه، أليس هـذا قد جاهد نفسـه؟ لا شك أن نفسه تدفعه دفعـاً قويـاً، ولكنه يقوى على قمعهـا، ويقـوى على ردهـا، فهو دائمـاً في جهـاد مع نفسـه، فهـذا يعتـبر من أفضل القربـات. كـذلك إنسـان أمامه المشـروبات المحرمة كالخمور والمسكرات وما أشبهها، وهو يعـرف أنها لذيـذة الطعم، وأن النفس تشتهيها، ولكن عـرف أنها محرمـة، وأن فيها عقوبـة؛ فـرد نفسـه، واجتهد في قمعهـا، وأمسك بزمامهـا، وحمى نفسه عن هـذه المحرمـات؛ فهو في نفسه مجاهد، مجتهد في قمع هـذه الشـهوة، تدفعه نفسه ولكنه يردهـا، مـاذا تكـون حالتـه؟ لا شك أنه في جهـاد، قد يكــون جهـاد نفسه وقمعها مسـاوياً لجهـاد الكفار، الذي هو بذل المال وبـذل النفس في قتـال أعـداء الله تعـالى. عنـدنا فعل يكـون عبـادة: كقتـال الكفـار، وكـالأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، وكالصلاة والصـدقة والصـوم والحج والعمـرة.. وما أشـبه ذلـك. وعنـدنا تـرك يكون عبادة: كترك الشهوات مع الدوافع إليها، فيثاب على ترك الزنا مع وجود الدوافع، وعلى ترك الخمور مع وجود الشهوات، وعلى تـرك الأكل الحـرام مع تيسره وسهولة تناوله، وعلى تـرك المعـاملات الربويـة، وعلى تـرك الغش مع وجود الدوافع له، وعلى ترك الجدال بغير حق، وعلى ترك السـباب مع وجـود من يســبه، وما أشــبه ذلــك. فيثــاب الإنســان على الــتروك كما يثــاب على الطاعات والقربات، والكل داخل في مسمى الإيمان. وبهذا نعرف أن الإيمـان يستوعب خصال الطاعة، والخصال الخيرية كلها، ويستوعب ترك المحرمـات،

وكل ذلك داخل في مسمى الإيمان، فمن استكمله استكمل الإيمان، ومن نقص منه شيئاً نقص حظه من الإيمان. ......

جواز الاستثناء في الإيمان إذا لم يكن للشك

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وأما من يجوز الاستثناء وتركه فهو أسعد بالدليل من الفريقين، وخير الأمور أوسطها، فإن أراد المستثني الشك في أصل إيمانه منع من الاستثناء، وهذا مما لا خلاف فيه. وإن أراد أنه مؤمن من المؤمنين الذين وصفهم الله في قوله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [الأنفال:2-4] ، وفي قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ [الحجرات:15]؛ فالاستثناء حينئذ جائز، وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة، وكذلك من استثنى تعليقاً للأمر بمشيئة الله، لا شكاً في إيمانه، وهذا القول في القوة كما ترى]. من مسائل الإيمان: مسألة الاستثناء، أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله؛ هل يجوز أو لا يجوز؟ فمنعه قوم، وقالوا: لا يجوز أن تقول: أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأن في ذلك توقفاً. وسموا من يستثني شاكاً، يقولون: أتشك في أنك مصدق؟! أتشك في أنك من أهل الدين؟! أتشك في أنك من أهل هذا الإسلام؟! هؤلاء منعوا الاستثناء. وأوجبه آخرون وقالوا: لا يجوز الجزم، فلا يجوز لأحد أن يقول: أنا مؤمن، أو أنا مؤمن حقاً؛ وذلك لأنه ربما ينقصه شيء من الإيمان، وربما يكون من غير أهل الإيمان في العاقبة، فأوجبوا الاستثناء، فصاروا يقولون: أنا مؤمن إن شاء الله. وتقدم أن منهم من يستثني حتى في الأشياء الحقيقية، فيقول بعضهم: هذا رجل إن شاء الله، أو: هذا بيت إن شاء الله، أو: هذا مالي إن شاء الله. وهؤلاء فيهم تشدد. والصحيح القول الوسط: أنه يجوز الاستثناء ويجوز تركه، فإن كان الذي يستثني شاكاً ومتردداً فلا يجوز الاستثناء على وجه الشك ولا على وجه التردد، وإن كان الذي يستثني إنما يستثني لأنه لم يصل إلى درجة الكمال جاز الاستثناء، ومعلوم أننا لم نصل إلى درجة كمال الإيمان، كمال الإيمان استيفاء بضع وسبعين شعبة، من الذي يستكملها على التمام؟! إذاً: فلنا أن نستثني؛ لعدم وثوقنا باستيفاء هذه الشعب كلها، لأنه لابد أن يكون عندي خلل، وعندي نقص في خصلة من الخصال، إما لم أكملها، وإما لم أعملها، وإما لم آت بها على الكمال.. أو ما أشبه ذلك، فإذاً: أنا أستثني حيث إن إيماني لم يصل إلى درجة الكمال، فأقول: أنا مؤمن إذا شاء الله، أو: إلا ما شاء الله، أو: إن شاء الله. كذلك معلوم أن من خصال المؤمنين ما يكون جامعاً لأفضل الخصال، والإنسان لا يثق بأنه وصل إلى ذلك، قال الله تعالى في سورة الأنفال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ [الأنفال:2]؛ قليل منا من يوجل قلبه عند ذكر الله إلا ما شاء

الله، إ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا [الأنفال:2] يعني: يزدادوا أعمالاً، ونحن كل يوم نسمع آيات الله، ومع ذلك قليل منا من يزداد عملاً، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [الأنفال:2] قليل من يكون متوكلاً على الله حق التوكل، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ [الأنفال:3] يعني: يتمونها تماماً كاملاً، فمثل هؤلاء قليل وجودهم، فلأجل ذلك إذا قال: أنا مؤمن إن شاء الله. يعني: أرجو أن أكون من أهل هذه الصفات؛ فلا بأس. وكذلك الآيات التي سمعنا في سورة الحجرات: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ [الحجرات: 15]، هذه -أيضاً- خصال قد يتعذر في الكثير استيفاؤها، وبذلك نعرف أن الاستثناء يعود إلى الكمال، يعني: أنا مؤمن ولكن لا أجزم بكمال إيماني، بل أرجو أن أكون من أهل هذه الخصال، ولكني لم أتحقق وصولي إليها، فيكون الاستثناء نظراً إلى الكمال، أو يكون الاستثناء نظراً إلى عاقبة الإنسان التي يموت عليها، فالله أعلم بها، فهو يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. أي: أرجو أن أكون مؤمناً وأن أستمر على هذا الإيمان حتى يأتيني أجلي، فإذا استثنى بهذا الاعتبار جاز الاستثناء. هذا هو القول الوسط، لا أنه شك وتردد في تصديقه، ولا أنه جزم ببلوغه الرتبة العالية، وخير الأمور أوسطها. ......

قبول ما صح عن الرسول من الشرع والبيان

قال الشارح رحمه الله: [قوله: (وجميع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرع والبيان كله حق). يشير الشيخ رحمه الله بذلك إلى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والرافضة، القائلين بأن الأخبار قسمان: متواتر، وآحاد، والمتواتر وإن كان قطعي السند لكنه غير قطعي الدلالة، فإن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين، وبهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات. قالوا: والآحاد لا تفيد العلم، ولا يحتج بها من جهة طريقها، ولا من جهة متنها. فسدوا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة الرسول، وأحالوا الناس على قضايا وهمية ومقدمات خيالية سموها قواطع عقلية وبراهين يقينية، وهي في التحقيق كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ [النور:39-40]. ومن العجب أنهم قدموها على نصوص الوحي، وعزلوا لأجلها النصوص؛ فأقفرت قلوبهم من الاهتداء بالنصوص، ولم يظفروا بقضايا العقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة والنصوص النبوية، ولو حكموا نصوص الوحي لفازوا بالمعقول الصحيح، الموافق للفطرة السليمة. بل كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته، وما ظنه معقولاً، فما وافقه قال: إنه محكم، وقبله واحتج به! وما

خالفه قال: إنه متشابه، ثم رده، وسمى رده تفويضاً أو حرفه، وسمى تحريفه تأويلاً! فلذلك اشتد إنكار أهل السنة عليهم]. ......

موقف المؤمن من الأدلة السمعية

أكمل الشارح الكلام على أسماء الإيمان والدين، وابتدأ المتن في إجمال قول أهل السنة في الأدلـة، معلـوم أن الأدلة عقلية ونقليـة، الأدلة العقليـة: هي ما دلت عليه الفطرة، وما تشهد بسـلامته وملاءمته العقـول المسـتقيمة والفطر السليمة، ولا شك أن الإسلام هو دين الفطرة، يقـول الله تعـالى: فِطْـرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا [الروم:30] ، ولا شك أن دين الإسلام موافق لما دلت عليه العقول السليمة، وغير مخالف لها. أما النوع الثاني: فهو الأدلة السـمعية النقلية، ويراد بها: الكتاب والسـنة، فإنهما نقـول منقولة نقلها كـابر عن كـابر، وهي أدلة سمعية، سمعها هذا عن شيخه، والشيخ عن شيخه.. إلى أن اتصلت بالرسول صلى الله عليه وسلم، وتناقلوها، فأنت -مثلاً- علمك أستاذك القرآن والسنة، وشيخك علمه شـيخه، وهكـذا شـيخ شـيخك تعلم من شـيخه، إلى أن اتصلت السلسلة بالنبي صلى الله عليه وسـلم، والنـبي عليه الصـلاة والسـلام جـاء إليه الـوحي من الله تعـالى، ولا شك أن وحي الله إلى أنبيائه لا يتطـرق إليه شك، ولا يكون فيه توقف في صحته؛ فإذاً: هي أدلة سمعية يقينية متلقـاة عن الشرع الشريف. فماذا يجب علينا نحوهـا؟ يجب علينا أن نـؤمن بهـا، وأن نعمل بها، وأن نتقبلها، ولا نتوقف في قبول شيء منها، فنعمل بها في العقائد كما نعمل بها في الأحكام، ونعتبر بها، ونمتثل ما فيها، وإذا سمعنا آيات الوعيد خفنا، وإذا سـمعنا آيـات الوعد رجونـا، وإذا سـمعنا القصص تفكرنـا، وإذا رأينا الأمثـال اعتبرنـا، وإذا جاءتنا الأحكـام عملنـا، وإذا جاءتنا الأخبـار صـدقنا، هـذه وظيفة المسـلم، وهـذا عملـه، عمل المـؤمن أنه يتقبلهـا؛ لمـاذا؟ لأنه جـاءك الوحي من الله بواسطة الرسول، وعقولنا قاصرة لا تصل إلى معرفة ما يحبه الله وما يكرهه، ولا تحيط بما في الملأ الأعلى، ولا بما في الدار الآخـرة، وكل ذلك يتوقف على النقل، ويتوقف على السمع الذي طريقه الاتباع. فنقـول: إن من واجب المسلمين أن يقدموا قول الله وقـول رسـوله على قـول كل أحـد، وأن يعملوا بهذه الأدلة وبهذه النصوص، ويقدموها على العقـول، وعلى أقـوال المشايخ، وعلى أقوال فلان وفلان؛ حتى يكونـوا بـذلك متبعين حق الاتبـاع. قد أمر الله تعالى المؤمنين بالاتباع في قوله: وَاتَّبِعُـوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَـدُونَ [الأعـراف: 158]، وفي قوله: فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ [آل عمران:31]، متى يكون الإنسان متبعاً للرسول عليه الصلاة والسلام؟ إذا عمل بما جاء به، وهل العمل بما جاء به يختص بالأفعال أو يعم العقائد؟ لا شك أنه يعم العقائد، فيجب على المسلم أن يتلقى العقيدة من كتـاب اللـه، فترسخ في قلبـه، وإذا رسخت وتمكنت في قلبه كان من آثارها أن تنبعث جوارحه لتعمل، وإلا فليس بمصدق، وليس بمتبع، وليس بمؤمن حقاً.

ذكر الشارح رحمه الله أن المخالفين سدوا على أنفسهم باب السمع، فالأدلة من القرآن والأدلة من السنة لما كانت مخالفة لعقولهم لم يقبلوها، الأدلة من القرآن قطعية الدلالة قطعية الثبوت، فلا يترددون في أن هذا القـرآن هو كلام الله المــنزل، ولا يــترددون في أنه نقل نقلاً متــواتراً، نقلته الأمة في شــرق الأرض وفي غربها، يقرؤه هؤلاء لهؤلاء، لا يـترددون في صـحته ولا في ثبوتـه. ولكن فيه نصوص تخالف معتقداتهم، وفيه أدلة قطعية الثبوت تخالف ما ذهبوا إليـه؛ فالمعتزلة والأشـعرية والجهمية والجبرية والشـيعة.. وما أشـبههم؛ لهم عقائد منحرفــة، من أين أخــذوا عقائــدهم؟ من عقــولهم، فحكمــوا عقــولهم وجعلوها هي المرجع! قرأت لبعضهم يقول: ما علمنا صدق الرسل إلا بعقولنا، فإذا جاء عن الرسل شيء يخالف ما في عقولنا رددناه. نقول: عجبــاً لكم! ما دامت قد أيقنت عقولكم بصدقهم، فما عليكم إلا أن تتقبلوا كل ما جـاء عنهم، فأما أن تشــهد عقــولكم بصــدقهم، ثم تقولــون: نأخذ من أقــوالهم ما يوافق عقولنا، ونرد ما يخالف عقولنا، فما كنتم بمصـدقين ولا بصـادقين في الاتبـاع. كـذلك هم يقولـون: الآيـات القرآنية ثابتة يقينية قطعية الثبـوت؛ ولكن ليست بقطعية الدلالة، فدلالتها غير واضحة. فأخذوا يسلطون عليها التحريف، وسموا هذا التحريف تأويلاً، وبـالأخص فيما يتعلق بالصـفات وبالأسـماء، سـلطوا عليها التأويــل، وهو في الحقيقة تحريــف. مثلاً: الأشــعرية أولــوا كثــيراً من آيــات الصـفات: كآيـات المحبـة، وآيـات الرحمـة، وآيـات الغضب والرضـا. وكـذلك الصفات الذاتية: أولوا صفة الوجـه، وصـفة اليـدين. وأولـوا الصـفات الفعليـة: كصـفة العلـو، وصـفة الاسـتواء. ما كـذبوها لكن أولـوا أدلتهـا، ثم أثبتـوا بعض الصفات: كصفة الكلام، مع أن قولهم في الكلام غير واضح كما تقـدم، وأثبتـوا الرؤية في الآخــرة ولكن لم يثبتوها كما ينبغي، وأثبتــوا صــفة الإرادة وصــفة السـمع والبصـر... إلى آخرهـا. فجـاءت الجهمية والمعتزلة وقـالوا: نحن نفعل كما فعلتم، أنتم أولتم آيات المحبة والرحمة والغضب والرضا، لمـاذا خصصـتم هذه بالتأويل؟! نحن كذلك نتـأول آيـات القـدرة، وآيـات العلم، وآيـات السـمع والبصــر، وآيـات الكلام، وآيـات الحيـاة.. وما أشـبهها، فقــدرتكم على التأويل ليست أقل من قدرتنا ولا نحن أضعف منكم، فدخلوا من باب التأويل، فسـدوا على أنفسهم أخذ الأدلة من القرآن. قـالوا: إن الآيـات قطعية الثبـوت، ولكنها ليست قطعية الدلالة، بل هي محتملة للتأويـل، فأولوها وحرفوهـا، فصـاروا لا يسـتدلون بآيـات القـرآن على هـذا النـوع. جـاءتهم السـنة، والأحـاديث النبوية المنقولة بالأسانيد الصحيحة، فقـالوا: نقسـمها قسـمين: متـواتر، وآحـاد. فأما المتواتر: فنجعله كالقرآن قطعي الثبوت، ولكنه ظني الدلالـة، فدلالته ضـعيفة وغير واضحة، فنسلط عليه التأويلات التي سلطناها على الآيات فنستريح منه.

أما القسم الثاني: الذي هو الأحاديث الآحادية، ويسـمونها أخبـار الآحـاد، فهـذه يردونها كلهـا، ولا يقبلونها في العقائـد، ويقولـون: إنها ظنية الثبـوت، مع كونها ظنية الدلالة، وإذا كـانت قطعية الدلالة فإنها ظنية الثبـوت، فلا تفيد إلا الظن، والظن أكــذب الحــديث، فلا نقبلهــا، لأن الله قد نهانا عن الظن في قولــه: اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ [الحجـرات:12] ، وفي قولـه: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ [النجم:23] ، وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا [النجم:28] فالأحاديث ولو كانت في البخاري وفي مسلم ، وفي السنن، وفي المسانيد، ولو رواها من رواها؛ فهي ظنية، لا تفيد إلا الظن؛ فسدوا على أنفسهم هذا الباب. ناقشهم العلمـاء كــابن القيم رحمه اللـه، وبين أن قـولهم هذا خطأ، وأن الواجب قبولها، وأنها قطعية الثبوت، ولو كانت آحاداً، فهي تفيد اليقين، والناس يضطرون إلى العمل بها، فكما يعملون بها في الفروع فكذلك يعتقـدونها في الأصـول، وكما يعملـون بها في الواقع فكـذلك يصـدقونها في الواقع، والكلام عليها طويـل. قد نـاقش أدلتهم العلمـاء، وأول من أثـار الكلام فيها الإمام الشافعي في رسالته التي تعـرف بـ(الرسـالة في أصـول الفقـه)، وكذلك الإمام البخاري في آخر صحيحه قـال: كتـاب أخبـار الآحـاد. وبين أدلتها والعمل بها في الفــــروع وفي الأصــــول. وتكلم عليها ابن القيم في كتابه (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة)، وكسر ما يتعلق به الجهمية من رد هـذه الأخبـار، وبين أنها تفيد العلم القطعي، وأنها ليست ظنية الثبـوت كما يقولــون، وعلى هــذا تصــير دلالتها واضــحة، ولو ردها من ردها منهم. فمثلاً: أحاديث الشفاعة متكاثرة متواترة، وإن كانت أفرادها آحـاداً، ولكن مجيئها من طرق وعن عدد من الصـحابة يثبتها ويوضـحها، ولم تقبل ذلك المعتزلة الـذين ينكرون شفاعة الشافعين، وكذلك الخوارج الذين ينكـرون شـفاعة الشـافعين وإخـراج العصـاة من النـار، فيقـال لهم: أحـاديث الشـفاعة قطعيـة؛ لكثرتهـا، ولكنهم يردونها. مثلاً: أحاديث رؤية المؤمنين لربهم في الجنة، مروية عن عدد كبير من الصحابة بروايات قوية ثابتة، ليس فيها توقف، وليس فيها تردد، فهي متــواترة في المعــنى، وإن لم تكن متــواترة في اللفــظ، ومع ذلك يردونهــا، ويقولون: إنها لا تزال آحاداً ولم تخرج عن خبر الواحـد. والحاصـل: أن عقيـدة أهل الســنة أن الدلالة الســمعية هي الأصل وهي المرجــع، فكما أننا صــدقنا بالنبي صلى الله عليه وسـلم فلا نكـون متبعين له حق الاتبـاع إلا إذا تقبلنا كل ما بلَّغه من الشريعة، فهو الـذي بلغ القـرآن فنعمل به في الأصـول والفـروع، وهو الذي علمنا، وبين لنا القرآن بفعله وبقوله، فلابد أن نعتقد ذلك، وهو الذي أخبرنا عن الأولين، وهو الذي أخبرنا عن الآخرين، وهو الذي أخبرنا عن الــدنيا، وهو الــذي أخبرنا عما يكــون في الآخــرة، وكل ذلك من شــريعته وســنته، ولا نكون مصدقين له إلا إذا صدقناه بكل دقيق وجليل.

قـال المصـنف رحمه الله تعـالى: [وطريق أهل السـنة: ألا يعـدلوا عن النص الصحيح، ولا يعارضوا بمعقول ولا قول فلان، كما أشار إليه الشيخ رحمه اللـه، وكما قـال البخـاري رحمه اللـه: سـمعت الحميـدي يقـول: كنا عند الشـافعي رحمه الله، فأتاه رجل فسأله عن مسألة، فقال: قضى فيها رسول الله صـلى الله عليه وسـلم كـذا وكـذا، فقـال رجل للشـافعي : ما تقـول أنت؟! فقـال: سبحان الله! تراني في كنيسة! تـراني في بيعـة! تـرى على وسـطي زنـاراً؟! أقـول لـك: قضى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، وأنت تقـول: ما تقـول أنت؟! ونظائر ذلك في كلام السلف كثير، وقـال تعـالى: وَمَا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَة إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَة مِنْ أَمْرِهِمْ [الأحزاب: 36]. وخـبر الواحد إذا تلقته الأمة بـالقبول عملاً به وتصـديقاً لـه، يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة، وهو أحد قسمي المتواتر، ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع، كخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إنما الأعمال بالنيات) ، وخبر ابن عمر رضي الله عنهما: (نهى عن بيع الولاء وهبته) ، وخبر أبي هريرة : (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها) ، وكقوله: (يحرم من الرضـاع ما يحرم من النسب) .. وأمثال ذلك، وهو نظير خبر الذي أتى مسجد قباء، وأخبر أن القبلة تحولت إلى الكعبة، فاسـتداروا إليهـا. وكـان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يرسل رسـله آحـاداً، ويرسل كتبه مع الآحـاد، ولم يكن المرسل إليهم يقولون: لا نقبله؛ لأنه خبر واحد! وقد قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ [التوبـة:33]، فلابد أن يحفظ الله حججه وبيناته على خلقه؛ لئلا تبطل حججه وبيناته]. هذا بيان أدلة حجية أخبـار الآحاد، يقول: إن الله تعالى فرض على الأمة قبول ما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم، وقبول الشريعة التي جـاءت عنه صـلى الله عليه وسـلم، ووصف المؤمنين بأنهم يقدمون ذلك على قول كل أحد في مثل هذه الآيات، قال الله تعالى: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَـى اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَمْـرًا أَنْ يَكُـونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ [الأحزاب:36] يعني: إذا جاءنا قضاء الله وقضاء رسوله فلا نقدم عليه أهواءنـا، ولا نجعله محل تـردد، ولا نقـول: نعرضه على عقولنـا، ولا نقـول: نختـار عليه قـول مشـايخنا فلان أو فلان، بل نجعله هو الأصـل، وهو المقدم على قول كل أحد صـغيراً كـان أو كبـيراً، وذلك هو وصف كل مـؤمن، وهكذا -أيضاً- عمل أئمة الإسـلام؛ كـانوا يقـدمون قـول النـبي صـلى الله عليه وسلم على اجتهاداتهم وعلى آرائهم، فهذا أبو حنيفة يقول: إذا جاء الخـبر عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فاضـربوا بقـولي الحائـط، وإذا جـاء عن الصـحابة فاضـربوا بقـولي الحائـط، وإذا جـاء عن التـابعين فنحن رجـال وهم رجال؛ وذلك لأنه من علماء التابعين. وهذا الإمـام مالك رحمه الله يقـول: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر. يعـني: رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، فالإمام مالك جعل على نفسه أن قول الرسـول صـلى الله عليه وسلم لا يـرد منه شـيء، أما قـول غـيره فإنه محل للقبـول وللـرد؛ وذلك لأنه محل اجتهاد، وأما قول الرجال فإنها تدور على قدر الأدلة في النقـد. والثـابت

عن الإمام الشافعي في ذلك أكثر وأكثر كما في هذه القصـة، جـاء رجـال إلى الإمام الشافعي ، وسأله عن مسألة، والإمام الشافعي يحفظ فيها حديثاً ثابتاً، فيقول: قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا، وذلك السائل كأنه ما قنع، فقـال: ما تقـول أنت يا شـافعي ؟ فغضب الإمـام الشـافعي أشد الغضب ، وقال له هذه المقالـة: سـبحان اللـه! أتـراني في بيعـة! أتـراني في كنيسة! أترى على وسـطي زنـاراً؟! أقـول: قضى فيها رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بكـذا، وتقـول: مـاذا تقـول أنت؟! يعـني: أنـني إذا عـرفت قضـاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل يكـون لي اختيـار؟! هل يكـون لي رأي مع رأي الرسـول عليه الصـلاة والسـلام؟! حاشا الشـافعي وحاشا غـيره من الأئمة أن يكون لهم أي اختيـار. كـذلك الإمـام أحمد بن حنبل رحمه اللـه، ثبت عنه أنه قال: عجبت لقـوم عرفـوا الإسـناد وصـحته يـذهبون إلى رأي سـفيان الثوري - والله تعالى يقول: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَـةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [النور:63] ، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شـيء من الزيغ فيهلـك. سـفيان بن سـعيد الثوري إمام من الأئمة وعالم من علماء العراق، مشـهور بـالعلم، ومع ذلك له آراء قد تكون مخالفة للدليل، فيقول: إن هؤلاء الـذين يأخـذون رأي سـفيان ، ويتركون الأحاديث مع معـرفتهم بصـحتها، حـري أن تنطبق عليهم هـذه الآيـة، وهي قولـه: (فَلْيَحْـذَرِ الَّذِينَ يُخَـالِفُونَ عَنْ أَمْـرِهِ أَنْ تُصِـيبَهُمْ فِتْنَـةٌ أَوْ يُصِـيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

من الأدلة الدالة على قبول خبر الآحاد

أخبـار الآحـاد لا شك أنها مـتى ثبتت فإنها تفيد اليقين، وتفيد العلم، وضـرب الشارح لذلك أمثلة، وذكر على ذلك أدلة، منها: أن أهل قباء كانوا يصلون إلى القبلة التي كانوا عليها، إلى جهة بيت المقـدس، فجـاءهم رجل واحد وهم في نفس الصلاة، وقال لهم: (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنـزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يسـتقبل القبلـة، فاسـتقبلوها)، فصـدقوه وهو واحـد، وهم على قبلة متحققين لها، فاستداروا من الشمال إلى الجنوب نحو الكعبـة، وعملوا بقوله وهو واحـد، فلا شك أن هـذا دليل على أن خـبر الواحد الصـادق المتثبت يعمل به ويقدم ويصدق. رسول الله صلى الله عليه وسلم واحد، ومع ذلك صدقوه وقبلوا ما جاء به، والرسل الذين يرسـلهم الله تعـالى غالبـاً أنهم أفـراد، أرسل الله نوحـاً وحـده، وأرسل هـوداً وأرسل صـالحاً وأرسل شـعيباً وأرسل لوطـاً وأرسل موسى وهـارون، ولا شك أن هـذا دليل على أن خـبر الواحد يقبل ويفيد العلم. كذلك نبينا صلى الله عليه وسلم كان يرسل الـدعاة أفـراداً، فأرسل معـاذاً -مثلاً- إلى اليمن داعية إلى اللـه، وكـذلك أرسل أبا

موسى ، وأرسل علياً ، وأرسل عماراً ، وأرسل سلمان ، كل منهم إلى جهــة، أرسلهم للدعوة. كـذلك -أيضـاً- كـان يرسل جبـاة الزكـاة أفـراداً، يـأتي الفـرد الواحد إلى أهل الإبل أو الغنم، ويقول: أعطوني زكاتكم، أنا مرسل من النــبي صــلى الله عليه وســلم. فلا يقولــون لــه: أنت واحــد. بل يقولــون: خذ زكـاة أموالنا. فيقبلون خبره. الحاصل: أن الأدلة متنوعة، وإنما هـذه نمـاذج مما ذكر منها. وبذلك يعرف أن الحق قبول خبر الواحد إذا كان ثابتاً ويقيناً، وأن النـاس يعملون بذلك، فما دام كذلك فلا مجال لرد ثلث السنة أو ثلثيها بهذه الشــبهة، ومع ذلك فالذين ردوها ما ردوا إلا قسماً خاصاً وهو ما يتعلق بالعقائد، وأما ما يتعلق بالأعمال فإنهم رأوا الناس يعملون به، وقالوا: إن الناس يعملــون بخـبر الآحـاد فهو يفيد العمل ولا يفيد العلم. وهـذا في الحقيقة تنـاقض، ومعلـوم أن كتب السنة قد تلقتها الأمة بالقبول وعملـوا بهـا، فصـحيح البخـاري تلقته الأمة بالقبول، واعتقدوا ما فيه، وصاروا يعملون به ويطبقونه، ولم يقولوا: إنه أخبار آحـاد. وكـذلك صـحيح مسـلم، وكـذلك الكتب الـتي تعتمد الصـحة تلقتها الأمة بالقبول بدون توقـف، فكـانوا يعملـون بما فيهـا؛ لأنها ثابتـة، وأسـانيدها قويـة، ليس فيها كذاب، وليس فيها من يشك في صدقه، وبذلك يعرف أن الأحــاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم محل القبول، لا يجـوز ردهـا، حـتى ولو خالفت ما في العقول، حتى ولو خالفت ما في فطر النـاس أو في أفكـارهم، تقدم على قول كل قائل، وعلى عقل كل عاقـل، سـيما وعقـول أولئك الـذين ردوا السنة أو ردوا الآيات عقول مضـطربة، عقـول مختلفـة، وشـبهاتهم الـتي يشــبهون بها لا شك أنها مضــطربة أيما اضــطراب، ويحصل فيها التنــاقض. فيشـاهد أن الواحد منهم يبقى -مثلاً- ثلاثين سـنة وهو يقـول: إن هـذه الصـفة ينكرها العقـل، ثم بعد ثلاثين سـنة، وبعـدما يكـون نضج عقلـه، يرجع ويقرهـا! سـبحان اللـه! ثلاثين سـنة من زمانك ومن عمـرك وأنت تنكرهـا، ثم بعد ذلك أقررت بها، هل تغير عقلك؟! هل تبدل عقلـك؟! فهـذا دليل على أن عقـولهم ليست ميزانـاً. وكـذلك نجد مجموعة -مائة أو ألفـاً- من العلمـاء في هـذا البلد ينكرون هذه الصـفة، ويقولـون: العقل ينكرهـا، ونجد في البلد الثـاني ألفـاً أو ألوفاً يقـرون بهـا، ويقولـون: العقـول تثبتهـا، فـإذاً: كيف تكـون هـذه العقـول مختلفة؟ هؤلاء يقولون: نثبت، وهؤلاء يقولون: ننفي، هؤلاء يقولون: لا يقر بها العقل، وهؤلاء يقولون: بل يثبتها ويوجبها..! إذاً: فهذه العقـول تضـطرب؛ فهي عقـول غـير متزنـة. فـأدلتهم وشـبهاتهم هـذه لا عـبرة بهـا، وقد شـبهها بعض العلمـاء بالزجـاج الـذي يضـرب بعضه بعضاً فيتكسـر، إذا ضـربت الزجـاجتين إحـداهما بـالأخرى بقـوة هل يبقى منهما شـيء؟ كلاهما تتكســر، فهكـذا أدلة هؤلاء مع هـؤلاء تضـرب هـذا بهـذا فيتكسر الـدليلان، أما أدلة أهل السـنة من الكتاب والسنة فإنها ثابتة، لا يعتريها شيء من التغير.

الولاية مرتبة إيمانية عظيمة، فمن كان ولياً لله انتصر الله لـه، وهي درجـات، فأكمل النـــاس ولاية أكملهم إيمانـــاً وتقـــوى، وقد انحـــرف في الولاية بعض الصوفية، فجعلوا الولي خيراً من الرسول، بل زعموا الولاية لغير الأتقياء.

المؤمنون كلهم أولياء الرحمن

قال المؤلف: [قولـه: (والمؤمنـون كلهم أوليـاء الـرحمن). قـال تعـالى: أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يـونس: 62-63]. الولي: من الولاية بفتح الواو، التي هي ضد العداوة. وقد قرأ حمـزة : (ما لكم من ولايتهم من شـيء) بكسر الـواو، والبـاقون بفتحهـا. فقيـل: هما لغتان. وقيل: بالفتح النصرة، وبالكسر: الإمارة. قـال الزجـاج : وجـاز الكسـر؛ لأن في تـولي بعض القـوم بعضاً جنساً من الصـناعة والعمـل، وكل ما كـان كذلك مكسـور، مثـل: الخياطة ونحوهـا. فـالمؤمنون أوليـاء اللـه، والله تعـالى وليهم، قال الله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَـاتِ [البقـرة: 257]، وقال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَـوْلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَأَنَّ الْكَـافِرِينَ لا مَـوْلَى لَهُمْ [محمـد:11] وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَـاتُ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ [التوبـة:71]. وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَـدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَـرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ [الأنفـال:72] إلى آخر السـورة. وقـال تعـالى: إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُـوا الَّذِينَ يُقِيمُـونَ الصَّلاة وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاة وَهُمْ رَاكِعُـونَ * وَمَنْ يَتَـوَلَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُـوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَـالِبُونَ [المائـدة:55-56] فهـذه النصـوص كلها ثبت فيها موالاة المؤمنين بعضـهم لبعض، وأنهم أوليـاء اللـه، وأن الله وليهم ومـولاهم. فالله يتولى عباده المؤمـنين، فيحبهم ويحبونـه، ويرضى عنهم ويرضـون عنـه، ومن عادى له ولياً فقد بـارزه بالمحاربـة. وهـذه الولاية من رحمته وإحسـانه، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجة إليه، قال الله تعالى: وَقُـلْ الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْـكِ وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ وَلِيٌّ مِنْ الـذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِـيراً [الإسـراء:111]، فالله تعـالى ليس له ولي من الـذل، بل لله العـــزة جميعـــاً، خلاف الملـــوك وغـــيرهم ممن يتـــولاه لذله وحاجته إلى ولي ينصره]. ......

أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون

يتلكم هنا على الولي الذي يكثر ذكره في اصطلاحات الصوفية ونحـوهم، وفي اصطلاحات القبـوريين الـذين يغلـون في بعض الأشـخاص ويسـمونهم أوليـاء،

ويدعون أن محبتهم تستدعي تعظيمهم بما يصل إلى إعطـائهم شـيئاً من حق الله تعالى، فلأجل ذلك تكلم هنا على الولي وعلى الولاية. فـأولاً: كلمة الـولي مشتقة من الولاية التي هي النصـرة، فقوله تعـالى: (وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَـاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [التوبة:71] يعني: بعضهم أنصار بعض؛ أي: بعضــهم ينصر بعضـاً، وبعضـهم يؤيد ويقـوي بعضـاً، فكل منهم ولي للآخـر، فـالولي معنـاه: الناصر الذي ينصره ويتولاه ويؤيده ويقويه، هذا معنى كـون المؤمـنين بعضـهم أولياء بعض، فإذا قيل: المؤمنون أولياء الله، فـالمعنى أن الله تعـالى يؤيـدهم وينصــرهم ويقــويهم، وهم أيضــاً ينصــرون دين الله ويجاهــدون في ســبيله، ويبلغـون شـريعته، ويـذبون عن الشـريعة وعن الإسـلام، يـذبون عنها اعتـداء المعتدين وشبهات المشبهين فكانوا بذلك أولياء لله تعالى، والله تعالى وليهم. فإذاً: ولي الله هو كل تقي مؤمن، قـال الله تعـال: أَلا إِنَّ أَوْلِيَـاءَ اللَّهِ لا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ * الَّذِينَ آمَنُـوا وَكَـانُوا يَتَّقُـونَ [يـونس:62-63]، فهـذا وصف أولياء الله، فكل مؤمن تقي فهو من أولياء الله، فما بين الإنســان وبين أن يكون ولياً إلا أن يحقق الإيمان ويحقق التقوى، فيصبح من أولياء الله.

غلو الصوفية في الأولياء

أما الصوفية ونحوهم فادعوا أن هناك أولياء، وأن أولئك الأولياء قد ارتقوا رتبة ارتفعوا بها عن رتبة الأنبياء ورتبة الرسل، وأصبحوا مقربين عند الله، وأصبحوا يأخذون من المعـدن الـذي يأخذ منه الملك الـذي يـنزل على الأنبيـاء، ويقـول قائلهم: مقام النبوة في برزخ فويق الرسـول ودون الـولي فجعلـوا الـولي هو الأعلى، وجعلـوا دونه النـبي، وجعلـوا الرسـول أنـزل الـرتب، فهـذا غلو منهم، حيث جعلوا الولي أرفع من النـبي وأرفع من الرسـول، ولا شك أن الـولي هو الذي يتولى الله تعالى، يقول تعالى: وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ [المائدة:56]، فمن كان الله تعـالى وليـه، ومن تـولى الله تعــالى ونصر دين الله فهو من حـزب الله وهو من الغــالبين، ومن كــان مؤمناً فهو من أولياء اللـه: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُـوا يُخْـرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ [البقرة:257]. وقد كتب شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله رسـالة مطبوعة منتشــرة اســمها: الفرقــان بين أوليــاء الرحمن وأولياء الشيطان، فـرق فيها بين من يـدعي الولاية وليس من أهلهـا، وبين من يكون من أولياء الشيطان ويدعي أنه من أوليـاء الـرحمن؛ وذلك لأن كثيراً من أولئك الذين يزعم الصـوفية أنهم أوليـاء، هم في الحقيقة شـياطين، أو أوليـاء للشـياطين؛ وذلك لأنهم يتظـاهرون للعـوام بـأمور الله بـريء منهـا، فيفعلون المنكـرات، ويفعلـون الفـواحش ويـأكلون الحـرام، ويـدعون أنهم قد أبيح لهم ذلــك، ويــدعون أنهم قد ســقطت عنهم التكــاليف، وقد رفعت عنهم

الأوامر والنــواهي، وقد أبيح لهم أن يفعلــوا ما يشــاءون، فلا ينكر عليهم في زعم الذين يقدسونهم ويعظمونهم!

انحراف بعض الصوفية باستحلال الحرام

يحكي لنا بعض الإخــوان عن الموجــودين في بعض البلاد العربية أنهم يــأتيهم الإنسان الذي أصيبت امرأته مثلاً بخبال أو بجنـون أو نحو ذلـك، فيتركها تـبيت عند هذا الولي، ويقـول: إنه ولي ليس بمخـوف عليها منـه، ولكن ينقلـون عن كثير من النساء أن هذا الولي يخلو بها وأنه يفعل معها الفاحشة الكـبرى، وهو مع ذلك ولي كما يقولـــون، فلمـــاذا؟ لأنهم في نظر العـــوام قد رفعت عنهم التكاليف، وقد أبيح لهم أن يفعلوا ما يريدون، فلا ينكر عليهم إذا زنى أحــدهم، أو أخذ المال بغـير حقـه، أو انتهب أو قتل أو تـرك الصـلاة، أو فعل الفـواحش والمنكرات، أو ما أشـبه ذلـك. ويـدعون أنهم قد وصـلوا إلى حضـرة القـدس، وأنهم قد بلغـوا الرتبة العاليــة، وقد ســقطت عنهم التكـاليف والأوامـر؛ هـذه صفات الولي عندهم. ذكر لي بعض المشايخ أن هذا السيد البـدوي الـذي يعبد ويعظم في مصر وقبره من أشهر القبـور، عـرف عنه أنه دخل المسـجد مـرة والناس في صلاة الجمعة، فبال فيه قائماً والناس ينظرون، وخرج ولم يصــل، فتبعوه وقالوا: هذا مجذوب، هذا قلبه عند ربه، وبعد ذلك صــار يظهر لهم مثل هذه الأمور، وصار يعظم عندهم إلى أن مات فغلوا فيه، واعتقدوا فيه الشـيء العظيم الذي لو قرأ أحدنا سيرته التي كتبت عنه، لرأى فضائح وفجـائع تحـزن كل ذي قلب سليم، وكم وكم من أمثال هؤلاء الذين إذا وصل أحدهم إلى تلك الرتبة، زعموا أنه مباح له أن يفعل ما يشاء حتى ولو مشى عرياناً، ولو سلب، ولو قتل.. ونحو ذلك.

تلاعب الشيطان بالصوفية وانحلالهم من التكاليف

في القصـيدة البائية للأمـير محمد بن إسـماعيل الصـنعاني الـتي يقـول فيهـا: كقوم عراة في ذرى مصر ما ترى على عورة منهم هنـاك ثيـاب يعـدونهم في مصرهم من خيارهم دعاؤهم فيما يـرون مجـاب يـذكر أن في زمنه قومـاً في مصر يمشــون عــراة ويمشــون بــدون ثيــاب، وأهل ذلك الزمــان يقدســونهم ويتمسحون بهم، ويتبركون بهم، ويدعون أن دعـوتهم مجابـة؛ لأنهم قد وصـلوا

إلى الله، فهم في زعمهم يأخذون من اللوح المحفوظ، وليسوا بحاجة إلى أن يرجعوا إلى القرآن ولا إلى السنة. عجباً لهـؤلاء كيف اعتقـدوا هـذه العقيـدة! هل هنــاك رتبة أفضل من رتبة الرســل؟ رسل الله وأنبيــاؤه الــذين بلغــوا شـرائعه، والـذين نـزل عليهم الـوحي هم صـفوة الله تعـالى من خلقـه، فهل سـقطت عنهم التكــاليف؟ نبينا صــلى الله عليه وســلم وهو خــاتم الرسل وأفضـلهم، كـان يقـوم الليل حـتى تفطـرت قـدماه، فلمـاذا لم تسـقط عنه التكاليف التي سقطت عن هؤلاء الأولياء؟ ألم يتورع عن أكل تمرة وجدها في الطريق مخافة أن تكون من الصدقة، لماذا هؤلاء يـأكلون أمـوال النـاس؟ بل يسـتحلون دمـاءهم، ويزعمـون أنهم قد رفع عنهم الحـرج وأبيح لهم ما لم يبح لغـيرهم؟ لا شك أن هـذا من تلاعب الشـيطان بهم، ثم بأتبـاعهم. وبكل حـال نقول: إن الولاية التي يلهج بها هؤلاء ليست خاصة بهـذا دون هـذا، بل كل أحد يستطيع أن يكون من أولياء الله إذا حقق الإيمان وحقق التقوى.

ولاية الله تنال بالإيمان والتقوى

يقول بعض الإخوان: إنكم معشر الوهـابيين لا تقيمـون للأوليـاء وزنـاً، الأوليـاء عندكم لا تقدسونهم ولا تعرفون قدرهم. قال له ذلك الأخ: ومن هم الأوليـاء؟. قال: الله يقول: أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [يونس:62]. فقال: اقرأ ما بعدها؛ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يونس:63] ألا تكون منهم؟ ألا تحقق الإيمان وتحقق التقوى ثم تكون ولياً، ما بينك وبين أن تكون وليـاً إلا أن تؤمن الإيمـان الصـحيح وتتقي الله تعـالى، وبـذلك تكـون منهم، فلمـاذا تحـرم نفسك وتتعلق بهم وتقدســـهم وتعظمهم، وتعتقد فيهم، وتغلو في قبــــورهم وتفعل فيها ما لا يفعل إلا في بيـوت الله تعـالى وما لا يصـلح إلا لله سـبحانه وتعالى؟ ولماذا تعتقد فيهم أنهم يعلمـون الغيب، وأنهم يطلعـون على الكـون، وأنهم يبلغــون الأمــور، وأنهم يــديرون الأفلاك وأنهم أقطــاب الأرض، وأنهم عمـدها وأسسـها، وأن الأرض ثبتت بثبـاتهم، وأنه لـولا هـؤلاء الأوليـاء لمـاجت الأرض واضطربت وخسفت بنا؟ فنقول: لا شك أن هـذا من تلاعب الشـيطان بهم، وإلا فولاية الله عز وجل تصلح لكل مؤمن: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا [البقرة:257]، فعلى المؤمن أن يحرص على تحقيق الإيمان وتحقيق التقـوى ليكـون من أولياء الله تعالى، وعليه أيضاً أن يتولى الله ويتولى رسوله، ويتولى إخوته المؤمـنين، بمعـنى أن يحبهم وينصـرهم، ولـذلك ذكر الله تعـالى أن المؤمـنين يتولى بعضهم بعضاً: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ [التوبـة:71] وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ [الأنفال:73]. عقد الله الولاية بين المؤمنين كما عقد بين المهاجرين والأنصار في الآية التي سمعنا؛ وهي قوله تعالى في آخر سورة الأنفال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَهَـاجَرُوا وَجَاهَـدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَـرُوا [الأنفال:72]. (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا) هؤلاء المهـاجرون، (وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا) هـؤلاء هم الأنصـار. ثم قـال: وَالَّذِينَ كَفَـرُوا بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ [الأنفال:73]، فالكفار بعضهم يتولى بعضاً، بمعنى: ينصر بعضـهم بعضـاً ويؤيـده(والمؤمنـون بعضـهم أوليـاء بعض) يعني: أنهم يتناصرون فيما بينهم، وكذلك هم جميعاً أولياء اللـه، فكل من كـان مؤمناً فهو من أولياء الله تعالى.

اعتقاد الصوفية حاجة الله إلى الولي

ثم قد يفهم من إطلاقــات الصــوفية ونحــوهم أن الــولي ولي اللــه، وأن الله تعالى بحاجة إلى هؤلاء الأوليـاء، وهـذا اعتقـاد خـاطئ، فالله تعـالى غـني عن الأوليــاء جميعــاً، وغــني عن الخلق كلهم، وليس بحاجة إلى عبــادتهم، ولا إلى ولايتهم، وإنما كــان المؤمنــون أوليــاء الله بمعــنى أنهم لما أحبــوا اللــه، ولما أطاعوه وعبدوه؛ تولاهم الله، بمعنى: نصرهم وأيـدهم وقـواهم، فأصـبحوا هم أولياء الله، ووصف الله نفسه بأنه وليهم، فهكذا يكون المؤمن ولياً من أوليـاء الله، والله تعالى ولي الذين آمنوا.

تفاوت المؤمنين في الولاية

قال المؤلف: [والولاية أيضاً نظير الإيمـان، فيكـون مـراد الشـيخ أن أهلها في أصلها سـواء، وتكـون كاملة وناقصـة؛ فالكاملة تكـون للمؤمـنين المتقين، كما قـال تعـالى: أَلا إِنَّ أَوْلِيَـاءَ اللَّهِ لا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ * الَّذِينَ آمَنُـوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَة [يونس:62-64]. فـ (الذين آمنوا وكانوا يتقون) منصوب على أنه صفة أولياء الله، أو بـدل منـه، أو بإضمار: أمدح، أو مرفوع بإضمار (هم)، أو خبر ثـان لــ (إن)، وأجـيز فيه الجر بدلاً من ضمير (عليهم). وعلى هذه الوجوه كلها فالولاية لمن كـان من الـذين آمنوا وكانوا يتقـون، وهم أهل الوعد المـذكور في الآيـات الثلاث، وهي عبـارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة، ولا تملق ولا رياضـة. وقيـل: الـذين آمنـوا: مبتـدأ، والخـبر: لهم البشـرى، وهو بعيد؛ لقطع الجملة عما قبلها، وانتثار نظم الآية. ويجتمع في المؤمن ولاية من

وجه، وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقـوى وفجور، ونفاق وإيمان، وإن كان في هـذا الأصل نـزاع لفظي بين أهل السـنة، ونــزاع معنــوي بينهم وبين أهل البــدع، كما تقــدم في الإيمــان. ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى أولى من موافقته في المعنى وحده، قـال تعـالى: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ [يوسف:106] وقال تعالى: قُــلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا [الحجـرات:14] الآيـة، وقد تقـدم الكلام على هـذه الآية، وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين. وقـال صـلى الله عليه وسـلم: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كـذب، وإذا عاهد غـدر، وإذا وعد أخلـف، وإذا خاصم فجر) وفي رواية (وإذا اؤتمن خان) بدل: (وإذا وعد أخلف) أخرجاه في الصحيحين، وحديث: شعب الإيمان تقدم. وقوله: (يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان)، فعلم أن من كان معه من الإيمــان أقل القليل لم يخلد في النار، وإن كان معه كثير من النفاق، فهو يعـذب في النـار على قـدر ما معه من ذلك، ثم يخرج من النار. فالطاعات من شعب الإيمان، والمعاصي من شعب الكفر، وإن كان رأس شعب الكفر الجحـود، ورأس شـعب الإيمـان التصديق. وأما ما يروى مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما من جماعة اجتمعت إلا وفيهم ولي لله، لا هم يدرون به، ولا هو يدري بنفسه)، فلا أصل لـه، وهو كلام باطـل، فـإن الجماعة قد يكونـون كفـاراً، وقد يكونـون فساقاً يموتون على الفسق]. ......

أكمل الناس ولاية أكملهم إيماناً

يتكلم هنا على الولاية وأنها الإيمــان، وقد تقـدم أن أهل الإيمــان يتفـاوتون في إيمانهم، وأيضاً يتفـاوتون في صـفة الولايـة، فأوليـاء الله تعـالى يتفـاوتون في هذه الأوصاف، كما أن المؤمنين من عباد الله يتفـاوتون في آثـار الإيمــان. إذا عرفنا أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأن الحســنات والطاعات من شعب الإيمان، والمعاصي والمخالفـات من شـعب الكفـر؛ أي: أن للإيمان شعباً وللكفر شعباً، وأن الإنســان قد يجتمع فيه خصـال كثـيرة من خصـال الإيمــان ويفقد بعضـها فيكـون مؤمنـاً نـاقص الإيمـان، وقد يكـون فيه خصلة من خصال الكفر ولا يحكم بكفره؛ فيكـون بـذلك جامعـاً بين كونه وليـاً لله من جهـة، وعـدواً له من جهـة، يحبه الله تعـالى على ما فيه من الإيمــان ومن الأعمــال الصــالحة، ويبغضه على ما فيه من المعاصي ونحوهــا، والحكم للصفة الـتي تغلب، ويكـون أيضـاً مثابـاً ومعاقبـاً، ولأجل ذلك فـإن الله تعـالى يدخل كثـيراً من العصـاة النـار ثم يخـرجهم من النـار بعد أن يمحصـوا ويـزال عنهم آثــار تلك المعاصــي، فأولئك محبوبــون من جهـــة؛ وهي كـــونهم من المصدقين الذين أتوا بالشهادتين، ومبغضون من جهة؛ وهي كـونهم قد أصـروا على كثــير من المعاصي واقــترفوا كثــيراً من الــذنوب، وعملــوا أنواعــاً من السيئات، فأصبحوا بذلك قد جمعـوا بين الأمـرين؛ بين اقـتراف السـيئات وبين

عمل الحسـنات. لكن الحكم لما هو الأصـل، فيقـال: إذا كـان الأصل أنه ممن شهد الشهادتين وآمن بالله عز وجل، وآمن برسله، ولكن كان إيمانه الذي في قلبه ضـعيفاً لم يحمله على كل العبـادات والإتيـان بهـا، ولم يزجـره عن كل المعاصي والمخالفات، فإنه يقال: هو مؤمن، ولكن يعاقبه الله بهذه المعاصي التي اقترفهـا، أو يعفو الله عنـه. كـذلك الكـافر، قد يعمل حسـنات، وقد يفعل قربات، ولكن العبرة بما عليه قلبه، فإذا كـان كـافراً يعتقد أن لله شـركاء في العبادة، ويجعل أنواعاً من العبادات لغـير اللـه، ولكنه مع ذلك قد يصـلي، وقد يتصدق، ويقرأ، وقد يحب الخـير، وقد يجاهد المشـركين، ولكنه مع ذلك يـدعو غير الله، فنقول: هـذا مشـرك، ولا ينفعه عمله هـذا الـذي عملـه؛ لأنه حبطت أعماله وقرباته وحسناته وبطل أجرها وثوابهـا، فلا يسـتحق عليها شـيئاً. وبكل حـال نقـول: إن على المـؤمن أن يحـرص على تكميل إيمانه حـتى يكـون من أولياء الله عز وجل الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما جمع الله تعالى في وصفهم بين هذين: (الذين آمنوا وكانوا يتقون)، فـآمنوا إيمانـاً تظهر عليهم آثـاره وهي الصــالحات، وتصــديقاً قويــاً وتقــوى يــتركون بها الآثــام والجــرائم وأنــواع المحرمات، وكبائر الإثم وصغائره. فإذا كمل الإيمان ولو حصل معه شـيء من السـيئات ونحوهـا، واتقى الله عز وجـل، أصـبح من أوليـاء اللـه، وثوابه الـذي يحصل له ثواب عاجل وثواب آجل، فالثواب الذي في الدنيا هو أن الله تعــالى يحب أولياءه ويتـولاهم: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُـوا [البقـرة:257]، وإذا أحبهم الله وفقهم للطاعات وحمـاهم عن المعاصي والآثـام. أما الثـواب في الآخـرة فهو الثـواب الأعظم، وقد ذكر الله بعض الثـواب أو نوعـاً منه بقوله تعـالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَـدُونَ [الأنعـام:82] فجعلهم من أهل الأمن، والأمن هو أن يكونوا آمنين في الآخرة، لا يخـافون ولا يحزنون، ولذلك قال في هـذه الآيـة: أَلا إِنَّ أَوْلِيَـاءَ اللَّهِ لا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [يونس:62] أي: هم آمنـون، (وهم مهتـدون) أي: على طريق سـوي، فنعتقد بـــذلك أن لله أوليـــاء، وأنهم ليســوا -كما يـــزعم المتصـــوفة والغلاة ونحــوهم- خــواص من النــاس قد قطعــوا المسـافات، وأنهم سـقطت عنهم التكــاليف، وأنهم وأنهم...، بل كل من آمن إيمانــاً صـحيحاً واتقى الله تعــالى حصل على ولاية الله، وأما من قصر في ذلك فإن معه نوعاً من الولاية ولكنها ولاية ناقصة.

الولاية التامة والولاية الناقصة

الولاية قسمان: ولاية تامة، وولاية ناقصة. فالمسلم يحرص على أن يكون من أوليـاء اللـه، ولا يقـول: أوليـاء الله هم أهل الـدرجات الرفيعة وأهل المنـازل العالية، والذين عرفوا الله المعرفة التامة ونحو ذلك، وكذلك الذين يســمونهم

أقطابــاً وأوتــاداً، وعــاملين أو واصــلين أو نحو ذلــك، بل كل من آمن إيمانــاً صــحيحاً واتقى الله فهو من أوليــاء اللــه، وما عليك إلا أن تحقق هــذه الآية لتصـبح من أوليـاء اللـه. ولا شك أن الأسـباب الـتي تقـوى بها هـذه الأصـول موجــودة بحمد اللــه، فالإيمــان بالله هو أصل وأســاس هــذه الأصــول وهــذه الأركان، وهو مبني على السماع، وهو ما بلغته الرسل، فـإذا سـمع العقل تلك الأدلة ورأى دلالتها، أيقن بأنها حق وأنها دالة على قدرة قادر، وكــذلك إذا فكر فيما ترمي إليه، فإن تلك الأدلة فيها الالتفـات أو الاسـتدلال بالآثـار، وبالآيـات، وبـــــالبراهين، ولأجل ذلك يقيم الله الحجة بهــــذه الأدلة على المشــــركين والجاهلين ونحوهم، فيذكر لهم الآيـات الكونيـة، ويتلو عليهم الآيـات القرآنيـة، وكلها بلا شك تكون سبباً لترسـيخ تلك العقيـدة الـتي هي الإيمـان باللـه. فـإن العاقل إذا نظر فيما بين يديه من الأفلاك، وهـــــــذه المخلوقـــــــات العلوية والسفلية، علم أنها لم تخلق عبثاً، وأن الـذي خلقها لا يتركها هملاً، وكـذلك إذا نظر في نفســه، ونظر في مبدئه ومنتهـاه، علم أيضـاً أنه لم يخلق عبثـاً، وأنه لابد أن يــؤمر وينهى، ولابد أن يكــون له رب مالك متصــرف، وأن الــذي خلقه استعبده؛ وفرض عليه أن يعبـده، وأن يحمـده، وأن يـذكره وأن يشـكره، وأنه لابد وأن يثيبه على العبادة أو يعاقبه على المعصية، هكذا تدل المــؤمن العاقل فطرته على هذه الأمـور، فكيف وقد أرشـدته الأدلـة، وقـامت عليه الـبراهين، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب تـبين للنـاس هـذه الأشـياء الـتي هي أسـاس العقيدة، فلأجل ذلك لما آمن بذلك من آمن، وعرفوا الله حق المعرفــة، وثبت الإيمان في أفئدتهم، وأشربته قلوبهم، ونبتت عليه لحومهم، صار منــدمجاً في دمهم ولحمهم. أما الظــالمون لأنفســهم، فهم الــذين يفعلــون المكروهــات ويـتركون المسـتحبات ويفعلـون المباحـات، وقد يـتركون بعض الواجبـات وقد يفعلــون بعض المحرمــات، فلأجل ذلك وصــفوا بــالظلم. والكل منهم تحت مشـيئة اللـه، إلا أن الله تعـالى وعـدهم بالجنـة، وأخـبر بـدعائهم بقوله عنهم: وَقَـالُوا الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَـزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُـورٌ شَـكُورٌ [فـاطر:34] الحزن: يعني: الخوف، وذلك هو المـذكور في هـذه الآيـة، أَلا إِنَّ أَوْلِيَـاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [يونس:62]. فعلى كل حال: صفات أهل الإيمان موجــودة في مثل هــذه الآيــات، والــذي يحب أن يكــون منهم عليه أن يطبقها ويعمل بها ليُحشَر معهم.

الغني الشاكر والفقير الصابر وأيهما أفضل؟

قـال الشـارح رحمه الله تعـالى [قولـه: (وأكـرمهم عند الله أطـوعهم وأتبعهم للقــرآن) أراد: أكــرم المؤمــنين هو الأطــوع لله والأتبع للقــرآن، وهو الأتقى، والأتقى هو الأكرم، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ [الحجرات:13]، وفي السـنن

عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (لا فضل لعـربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض، إلا بـالتقوى، النـاس من آدم وآدم من تـراب). وبهـذا الـدليل يظهر ضـعف تنـازعهم في مسـألة: الفقـير الصـابر والغـني الشـاكر، وتـرجيح أحـدهما على الآخـر، وأن التحقيق أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنما يرجع إلى الأعمـال والأحـوال والحقـائق، فالمسـألة فاسـدة في نفسـها، فـإن التفضل عند الله بالتقوى وحقائق الإيمان، لا بفقر ولا غنى، ولهذا -والله أعلم- قـال عمر رضي الله عنه: الغنى والفقر مطيتان لا أبالي أيهما ركبت. والفقر والغـنى ابتلاء من الله تعالى لعبيده كما قال تعالى: فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَـهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ [الفجر:15]، فإن استوى الفقـير الصـابر والغـني الشـاكر في التقوى استويا في الدرجة، وإن فضل أحدهما فيها فهو الأفضل عند اللــه، فـإن الفقر والغـني لا يوزنـان، وإنما يـوزن الصـبر والشـكر. ومنهم من أحـال المسألة من وجه آخر: وهو أن الإيمان نصف صبر ونصف شكر، فكل منهما لا بد له من صبر وشكر، وإنما أخذ الناس فرعـاً من الصـبر وفرعـاً من الشـكر، وأخذوا في الترجيح فجردوا غنياً منفقاً متصدقاً باذلاً ماله في وجـوه القـرب، شـاكراً لله عليـه، وفقـيراً متفرغـاً لطاعة الله ولأداء العبـادات صـابراً على فقــره، وحينئذ يقـال: إن أكملهما أطوعهما وأتبعهمـا، فـإن تسـاويا تسـاوت درجتهمــا، والله أعلم. ولو صح التجريد لصح أن يقـــال: أيما أفضل معـــافىً شاكر، أو مريض صابر، أو مطاع شاكر أو مهان صابر، أو آمن شاكر أو خـائف صابر؟ ونحو ذلك]. ......

تفاضل الناس عند الله إنما هو بالتقوى

عرفنا أن تفاضل الناس بالتقوى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ [الحجرات:13]، لا بالحسب ولا بالنسب ولا بأصل الآبـاء والأجـداد، ولا بـالرتب ولا بـالأموال ولا بالمناصب، إنما تفاضلهم عند الله تعالى بالأعمال الصالحة، فالله تعالى يقـول في هذه الآية: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ [الحجـرات:13] بعـدما ذكر القبائل والشـعوب في قوله تعـالى: إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوباً وَقَبَائِلَ [الحجرات:13]، يعني: كل بني آدم تفرعوا من ذكر وأنثى؛ لكن جعلهم الله شـعوباً وقبائل لمصـلحة وهي: لا لتفـاخروا، بل ليُعـرَف أن هـذا فلان من القبيلة الفلانيــة، وبعــدما ذكر أن الحكمة في ذلك هي التعـارف، ذكر أن هــذا الفخر لا يجــوز، وإنما الفخر بــالتقوى فقــال: إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ [الحجـرات:13]. وقد وردت أدلة في النهي عن الافتخـار بالأسـلاف، ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لينتهينَّ أقوام يفتخرون بآبـائهم الـذين مـاتوا، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكـــونن أهـــون على الله من الجعلان الــتي تـدفع بأنفها النتن، إنما هو مـؤمن تقي أو فـاجر شـقي، النـاس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب). وفي حديث آخر: (إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء)، فجعل الفخر بـالتقوى، وجعل الإنسـان إنما يكـرم وإنما يرتفع منصـبه

ومنزلته عند الله تعالى إذا حقق التقوى، ولذلك يقول بعضهم: ألا إنما التقـوى هي العز والكرم وحبك للـدنيا هو الـذل والسـقم وليس على عبد تقي نقيصـة إذا حقق التقوى وإن حـاك أو حجم فـإذاً: الفخر إنما هو بطاعة الله وبـالتقرب إليه، وتمايُز الناس وتفاوتهم إنما يكون بحسب الإيمان، وبحسب آثار الإيمــان، فأفضلهم أكملهم إيمانـاً وأكملهم أعمـالاً وأكملهم وأحسـنهم أقـوالاً وأحـوالاً، وأبعـدهم عن الآثـام، وأبعـدهم عن أنـواع الإجـرام، هـذا هو أكملهم عند الله وأكرمهم، وأرقاهم منزلـة، فأما منصب وجـاه ومـال وحسب ونسب ومسـكن وولـد؛ فكل ذلك لا يُغـني عن صـاحبه، كما ذكر الله عن الكـافر في قولـه: مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَـهْ * هَلَـكَ عَنِّي سُـلْطَانِيَهْ [الحاقـة:28-29]، أي: هلكت عـني سلاطيني وحسبي ونسبي وقبيلتي وأسرتي وأنصاري وأعواني، وتخلـوا عـني.
فإذاً: ما على الإنسان إلا أن يحقق الإيمان ويحقق التقوى؛ ليصـبح بـذلك أفخر الناس وأشرفهم، والفخر والشرف إنما يكون بما عند الله، ولا يضـره لو كـان ضـعيفاً مهينـاً لا يُؤبَه لـه، ولا يُنظَر إليـه، ويُـدفَع عن الأبـواب، ولا يُقـدَّم في المجالس، ولا يُحترَم ولا يُكرَم؛ فإنه إذا كـان عند الله عزيـزاً، كريمـاً، شـريفاً، فلا يضره كونه عند الناس وضيعاً. تكلم الشارح كما تقـدم على ما اشـتهر في كتب الأدب، وهي مسألة التفضيل بين الصابر والشاكر، حين يكـون الصـبر مع الفقــر، والشــكر مع الغـنى، وقد تكلم فيهما العلمــاء، فتكلم فيهما ابن القيم رحمه الله وأطال في ذلك في كتابه (هبة الصابرين وذخـيرة الشـاكرين)، وهو كتــاب عظيم ومفيد نوصي باقتنائه وبقراءتــه، تكلم فيه على الصــبر، وعلى أنواع الصبر، وعلى الشكر، وعلى فوائده، وأطال في ذلك، وأطال أيضـاً على هـذه المسـألة، وهي: مسـألة التفاضل بين الغـني الشـاكر والفقـير الصـابر.
الفقير هو: الذي زُوِيَت عنه الـدنيا، ولا يـؤتى منها إلا قـدر ما يسد رمقـه، وأما الغني: فهو الـذي فُتحت عليه الـدنيا، وأوتي من أنـواع زهرتهـا. فـالفقير صـبر واحتسب وزهد وقنع بما آتاه ربه. والغـني شـكر، فـأعطى حقـوق هـذا المـال وصــرفه في وجــوه الــبر، وأنفقه في الخــيرات وفي المســرات، وأعطى المستضعفين، وصرفه في الجهاد في سبيل الله، ونفع به المحتاجين ونحوهم.
فأيهما أفضل: ذلك الفقـير الـذي اقتصر على نفسه وصـبر واحتسـب، أو هـذا الغني الذي أنفق في وجوه الخير؟ اختلف العلماء في ذلك.

التفضيل لا يعود إلى ذات الغنى والفقر وإنما إلى ما خصهما من تقوى

فـإذا نظرنا في الأدلة الـتي يُسـتدل بها من حيث النقـل: الآيـات والأحـاديث، وجـدناها كلها تفضل الفقـير، وتحث على التقلل من طلب الـدنيا، وتحث على الزهد فيها، وتضرب لها الأمثال، وقد أورد ابن القيم جملة كثيرة من ذلـك، مع أنه ذكر أنه اقتصر على البعض ولم يسـتوفها، ولو اسـتوفاها لـزادت على ما

ذكره أضـعافاً كثـيرة. وأما الأدلة العقلية فإنها تفضل الشـاكر الـذي رزقه الله مالاً. ومعلومٌ أن المال لا يحصل إلا بتسـبُّب وبتعب وبكـدح وبكد وبطلب، وأن هذا الطلب يحتاج إلى وقت وزمان، فلأجل ذلك كـان الفقـير متفرغـاً للعبـادة منقطعاً لها، وأما الغـني فلا بد أن تكـون له أوقـات يقضـيها في طلب المـال، ويقضيها في تنميته، وفي تصريفه، وفي حساباته ونحو ذلك، فيكــون جل وقته أو أكثره فيما يتعلق بأمور حياته الدنيا، ويكون وقته الذي يقضـيه للعبــادة أقل بأضعاف من الوقت الـذي يقضـيه الفقـراء في العبـادات ونحوهـا، فلأجل ذلك مال بعضهم إلى تفضيل الفقير. وسمعنا هذا القول الذي اختاره الشـارح، وهو أن أكثرهما تقوىً .. أكثرهما عبـادة .. أكثرهما أعمـالاً صـالحةً، فـإذا وفق الله الغني وأكثر من الصالحات وصـار لا تلهيه أمواله ولا أولاده عن ذكر اللـه، فإنه يفضل غيره، كما وصف الله الأغنياء بقوله: رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَـارَةٌ وَلا بَيْـعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَـارُ [النور:37]. فإذاً: لا بد أن تكون لهم تجارة ولهم بيع ولهم تنمية أمــوال؛ ولكن إذا جاء وقت العبادة تخلوا عن الـدنيا وعن متاعها كلـه، وأقبلـوا على العبـادة، وإذا جاءت أوقات المنافسات والخيرات سارعوا إليها. فإذاً: هـؤلاء قد جمعـوا بين الأمــرين: جمعــوا بين أنهم كــانوا أهل تقــوى وأهل إيمــان وأهل أعمــال صــالحة وحســنات وخــيرات كثــيرة، وبين أن لهم أعمــالاً متعدية بحيث إنهم وصـــلوا الأرحـــام، وأنفقـــوا في ســـبيل اللـــه، وجهَّزوا الغـــزاة مثلاً، وأقـــاموا المشروعات الخيرية، ونشروا العلم، وبنـوا بيـوت اللـه، وأقـاموا فيها الأمـاكن التي يُتَعَلَّم فيها ويُقْرأ، فكانوا بذلك نافعين لأنفسهم ونـافعين لغـيرهم، فكـانوا بذلك أفضـل. ومما يـدل على ذلك ما ورد في الصـحيح أن فقـراء المهـاجرين أتوا النـبي صـلى الله عليه وسـلم وقـالوا: (يا رسـول اللـه! ذهب أهل الـدثور بالأجور -أهل الدثور يعـني: أهل الأمـوال- يصـلون كما نصـلي، ويصـومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصـدق، ويعتقـون ولا نعتق فقـال: ألا أدلكم على عمل إذا فعلتمـوه سـبقتم من قبلكم ولم يـدرككم من بعـدكم إلا من عمل مثلكم؟ قولوا: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، بعد كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، فذهبوا وقالوها، ثم إن الأغنياء نُقِل إليهم ذلك ففعلوا، فقال الفقراء: يا رسـول اللـه! سـمع إخواننا أهل الأمـوال بما قلنا فقـالوا مثلنـا، فقـال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء). فغبط الأغنياء الذين ما شغلهم مالهم عن عبادتهم ولا عن أذكارهم ولا عن أعمالهم. وبكل حال فالشكر والصبر كلاهما من الأعمال القلبية، ويُرى آثارها على الأعمال البدنية، وأما الأعمال الصالحة فإنها زيادة على ذلك، أعني أن التقوى والإيمان والصلاح وكثرة الخـيرات وكـثرة الحسـنات ناتجة مما في القلب، وأما الشكر والصبر فهما من الصـفات الظـاهرة حـتى يمكن أن يُحكم بتساويهما. ويمكن أن يقال: ما قيل في الشـاكر والصـابر يقـال في أمثالهمـا، فيقال مثلاً: المبتلى والمعافى كذلك، إنسان ابتُلي ولكنه احتسب، وآخر عوفي ولكنه شـكر، فهما سـواء، وكـذلك مثلاً: إنسـان أعطي فشـكر ربـه، وآخر مُنع فحمد ربه. وفي الحديث: (أن النبي صلى الله عليه وسـلم خُيِّر بين أن تكــون له جبال مكة ذهباً وبين أن يجـوع يومـاً ويشـبع يومـاً، فاختـار أن يجـوع يومـاً ويشـبع يومـاً، وقـال: إذا جُعتُ تضـرعتُ إليك وذكرتـك، وإذا شـبعتُ حمـدتُك

وشكرتك)، فجعل الله ذلك مرتبة أفضل من أن تكون له الــدنيا. وقد ذكر الله تعــالى أنه أعطى من قبله من الأنبيــاء من الــدنيا ومع ذلك لم ينقصــهم من مرتبتهم عنده، كما أعطى سليمان، قال تعالى: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَـاءً حَيْثُ أَصَـابَ [ص:36] إلى قولـه: هَـذَا عَطَاؤُنَا فَـامْنُنْ أَوْ أَمْسِـكْ بِغَيْـرِ حِسَابٍ [ص:39]؛ لكن رتبة نبينا صلى الله عليه وسـلم وصـبره على ما أوتي وتقلله ودعــاؤه بقولــه: (اللهم اجعل رزق آل محمد كفافــاً)، أفضل من رتبة سليمان، مع أن سليمان شاكر لربه كما حكى الله عنه أنه قال لما أتي بعرش بلقيس: قَـالَ هَـذَا مِنْ فَضْـلِ رَبِّي لِيَبْلُـوَنِي أَأَشْـكُرُ أَمْ أَكْفُـرُ وَمَنْ شَـكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ [النمل:40].

للإيمـان ثمـار عظيمـة، من أعظمها أنه يـدعو إلى العمل الصـالح، والتقـوى، ويعصم صاحبه من الفتن، ويؤهله لاستحقاق رحمة الله.

أركان الإيمان

قال الشـارح رحمه اللـه: [قولـه: (والإيمـان هـو: الإيمـان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومـره من الله تعـالى). تقـدم أن هذه الخصال هي أصول الدين، وبها أجاب النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشـهور المتفق على صـحته حين (جـاء إلى النـبي صـلى الله عليه وسلم على صورة رجل أعرابي، وسأله عن الإسلام فقال: أن تشـهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول اللـه، وتقيم الصـلاة، وتـؤتي الزكـاة، وتصـوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. وسـأله عن الإيمـان؟ فقـال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليـوم الآخر وتـؤمن بالقـدر خـيره وشـره. وسأله عن الإحسان؟ فقـال: أن تعبد الله كأنك تـراه، فـإن لم تكن تـراه فإنه يـراك). وقد ثبت في الصـحيح عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه (كـان يقـرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ [الكافرون:1] وقُـلْ هُوَ اللَّهُ أَحَـدٌ [الإخلاص:1]، وتـارة بـآيتي الإيمـان والإسـلام: الـتي في سـورة البقرة: قُولُـوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنـزِلَ إِلَيْنَا .. [البقـرة:136] الآيـة، والـتي في آل عمران: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَـوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ .. [آل عمـران: 64] الآية. وفسر صـلى الله عليه وسـلم الإيمـان في حـديث وفد عبد القيس المتفق على صـحته حيث قـال لهم: آمـركم بالإيمـان بالله وحـده، أتـدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم) ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمـال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب، لما قد أخبر في غـير موضع أنه لا بد من إيمـان القلب، فعُلِم أن هـذه مع إيمـان القلب: هو الإيمـان، وقد تقـدم الكلام على هذا .] ذكر الطحاوي خصال الإيمان أو أركان الإيمان، وقد تقـدم بعضـها. وقد تقدم أيضاً اختياره أن الأعمـال ليست من مسـمى الإيمـان، وأن الإيمـان هو: القول باللسـان والاعتقـاد بالجنـان، أو هـو: التصـديق الجـازم دون تـردد. وتقدم أن القول الصحيح: كون الأعمال من مسمى الإيمان، فـإن الصـلاة من الإيمان، والصدقات من الإيمان، والصـوم والحج والجهـاد ونحوها من الإيمـان، وكـذلك الـبر والصـلة والصـدق والوفـاء والأمانة ونحوها من خصـال الإيمـان، وكذلك ترك المحرمات خوفاً من الله تعالى من الإيمـان أو من آثـار الإيمـان. أركان الإيمان السـتة تعتـبر هي العقيـدة، وتعتـبر هي الأسس والأصـول، فـإذا ثبتت ورسخت في القلب فإن ثمرتها الأعمال الصالحة. ......

ثمرة الإيمان

ثمرة الإيمان بالله سبحانه وتعالى: أن يعبده المؤمن، وأن يخافه ويرجوه، وأن يعتمد عليـه، ويقبل إليه بقلبه وقالبه ويتـوب إليـه، وأن يصـدق بخـبره، وأن يستعد للقائه. ولا شك أن الأدلة التي قامت على الإيمـان بالله تعـالى سـمعية وعقلية، ولا شك أيضاً أن من حقق الإيمـان بالله تعـالى، وصـدق بأنه هو الإله الحق، وهو الرب، فإنه يصدق بوجوب عبادته، ويصـدق بالإيمـان بما أخـبر بـه، ويصدق بالبعث بعد الموت، وبالجزاء في الآخرة، ويصدق بالرسل الذين بلغـوا رسالات ربهم، ويصدق بالكتب التي أنزلها وضمَّنها شرائعه، ويصـدق بالقضـاء والقدر، وأنه من تمام قدرة الله على العباد وعلى كل شيء، ويصـدق بـالأمور الغيبية التي أخبر الله تعالى بها، ولو لم يرها؛ لأنه أخبر بها الصادق المصدوق، أخـبر بها الله أو أخـبرت بها رسـله، فيصـدق بـذلك، ولا شك أن من صـدق تصديقاً جازماً فإنه ولا بد سيعمل وسـيظهر أثر هـذا التصـديق على جوارحـه، وعلى لسـانه، وعلى سـمعه، وعلى بصـره، وعلى يديـه، وعلى رجليـه، وعلى حاله وماله، وعلى مآله وعلى بدنه، يظهر أثر ذلك جلياً لا خفاء فيه. وقد فسر النـبي صـلى الله عليه وسـلم الإيمـان في حـديث جبريل بالأعمـال الباطنـة، والإسـلام بالأعمـال الظـاهرة، وقد تقـدم الكلام على الإسـلام والإيمـان والإحسان، وتبين لنا أنها مراتب، وأن أعلاها مرتبة الإحسـان، ثم بعـدها مرتبة الإيمـان، وأوسـعها مرتبة الإسـلام، وتقـدم أمثلة لـذلك. وكل من دخل في الإسلام وعمل بالأعمال الظاهرة، عومل بمعاملة المسـلمين، ولكن قد يكـون إيمانه ضـعيفاً لا يـرتقي به إلى المرتبة الثانيـة، وكل من وصل إلى الإيمـان وآمن بالأمور الغيبية وعمل بموجبها، فقد يكـون تصـديقه متوسـطاً لا يصل به إلى المرتبة الثالثة التي هي الإحسان. وقد فسر النبي صـلى الله عليه وسـلم الإسلام بالأعمال الظاهرة في حديث جبريـل، وجعل الأعمـال الظـاهرة أيضـاً هي الإيمان في حديث وفد عبد القيس فقال لهم: (أتدرون ما الإيمان باللـه؟! شـهادة أن لا إله إلا اللـه، وأن محمـداً رسـول اللـه، وتقيمـوا الصـلاة، وتؤتـوا الزكـاة، وأن تـؤدوا خمس ما غنمتم) فجعل إقـام الصـلاة وإيتـاء الزكـاة والشهادتين من الإيمـان، وكـذلك أداء الخُمُس ألحقه بالزكـاة، فجعل ذلك من الإيمان. وبوَّب البخـاري رحمه الله على هـذه الخَمْس بأنها من الإيمـان، حيث يقـول: أداء الزكـاة من الإيمـان، بـابٌ: أداء الخمس من الإيمـان، يعـني: من الأعمال التي فعلها يكون متمماً للإيمان. وقد ذكر الشـارح فيما سـبق حـديث شعب الإيمان، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضع وسـتون أو بضع وسـبعون شـعبة، أعلاهـا: قـول: لا إله إلا اللـه، وأدناهـا: إماطة الأذى عن الطريق) فجعل هذه البضع والستين كلها من خصال الإيمان، أي: من أجزائـه، أو من ثمراتـه، ولا شك أن المؤمـنين يتفـاوتون، وفي بعض الأحـاديث: (أكمل المؤمـنين إيمانـاً أحسـنهم خلقـاً) فجعل حسن الخلق -مع أنه جبلة وطبيعـة؛ ولكن يثاب العبد عليه- سبباً لكمال الإيمـان، وقوتـه، وتمكّنـه. وبكل حـال فما على المسلم إلا أن يحرص على تحقيق الإسـلام والإيمـان والعمل بـه، ثم بعد ذلك يتفقد أعماله هل عمل بالأعمال الـتي يتصف بها المسـلمون المؤمنـون؟

فــإذا وجد في نفسه نقصــاً، حــرص على تكميل ذلك النقص؛ ليحــوز الرتبة العالية.

سر قراءة سورتي الإخلاص وآيتي الإسلام والإيمان في سنة الفجر

كان النبي صلى الله عليه وسلم في سنة الفجر يقرأ ســورتي الإخلاص؛ وذلك لأن سورة قُـلْ هُـوَ اللَّهُ أَحَـدٌ [الإخلاص:1] فيها توحيد الـذات والصـفات، وأما سورة الكافرون ففيها توحيد العبادة، فتوحيد الله تعالى بأفعاله تضمنته سورة قُـلْ هُـوَ اللَّهُ أَحَـدٌ [الإخلاص:1]، وتوحيد الله تعـالى بأفعالنا تضـمنته ســورة الكـــافرون أي: أن تكـــون أفعالنا لله وحـــده، طاعتنا ودعاؤنا وتوكلنا وخوفنا ورجاؤنا. إذاً: فكونه يقرأ هـاتين السـورتين في سـنة الفجر الـتي يسـتقبل بها النهار، كأنه يعاهد ربه أنني في أول هذا النهار أعبدك يا رب وأخصك بالعبـادة، وأعتقد وحدانيتك وأنزهك عن صفات النقص. وأما قراءته للآيتين من ســورتي البقــرة وآل عمــران فتلك الآيتــان يشــتملان على خصــال الإيمــان وخصــال الإسلام. فالإيمان ذُكر في آية البقرة: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنــزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَــى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [البقــرة: 136] فجمعت الآية خصال الإيمان، يعـني: آمنا بالرسل وآمنا بما أنــزل إليهم؛ ولكن الإيمان يتبعه العمل، ولذلك ختمها بقوله: (وَنَحْنُ لَهُ مُسْـلِمُونَ). وأما آية آل عمران ففيها التوحيد، يخاطب الله بها أهل الكتاب في قولـه: قُـلْ يَا أَهْـلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ [آل عمران:64] وهي كلمة التوحيد أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِـذَ بَعْضُـنَا بَعْضـاً أَرْبَابـاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [آل عمران:64] فختمها بالإسلام وأكد فيها التوحيــد. فكــأن الإنســان إذا قرأهما في أول النهــار يعاهد ربه على أنه مؤمن وأنه موحـد. ولقد تكـرر معنا أن عقيـدة المسـلمين تنبـني على أصـول الإيمان التي بيَّنها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشـهور لما سئل عن الإيمان فقـال: (أن تـؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليـوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره).

ثمرة الإيمان بالرسل واليوم الآخر

ما يتفـرع عن أركـان الإيمـان السـتة من الإيمـان بـأمور الغيب ونحو ذلك هو معتقد المســلمين، ولا شك أن دليلهم فيها هو الرســالات الــتي بلَّغتها إليهم رسل الله، فلما عرفـوا الرسـل، وعرفـوا ما جـاءوا به وصـحته، وعرفـوا أدلة رسالاتهم والمعجزات التي أيدهم الله بها؛ آمنوا برسل الله، ولما آمنـوا برسل الله أولِهم وآخرِهم آمنوا برسالاتهم التي يحملونهـا، والـتي بلَّغوها إلى أممهم، وكـان من جملة تلك الرسـالات: الإيمـان بـالغيب؛ حيث إن الرسل صـادقون، ويلزم تصديقهم فيما بلَّغوه، وكان من جملة ما بلَّغوه أن أخبروا النـاس بـأنهم عبيد لله وأن الله هو ربهم، وأخبروا النـاس بـأنهم متعبَّدون، يعـني: مـأمورون ومنهيون، وأخبروا بأن الخلق مثابون أو معـاقبون، وأن هنـاك داراً أخـرى غـير هذه الدار، يلاقون فيها جزاء أعمالهم، يلاقون فيها الثواب أو العقـاب، على ما عملوه وما قدموه في هذه الحياة الـدنيا. فصـدق المؤمنـون بـذلك كلـه، ولما صدقوا به ظهرت عليهم آثاره، فعند ذلك استعدوا لذلك اليوم، واستعدوا للقاء الله عزَّ وجلَّ بالأعمال الصالحة التي يعرفـون أنها سـبيل النجـاة، وأنها زادهم في الآخرة، وحَـذِروا من الأعمـال الـتي تـوبقهم والـتي تكـون سـبباً للعـذاب. فهؤلاء المؤمنون هم أهل العقـول .. هم أهل الـذكاء .. هم أهل الفطنة .. هم الذين لم تقصُـر أنظـارهم عند الحيـاة الـدنيا، ولا عند شـهواتها وملـذاتها، ولم يقصُــروا أفكــارهم على شــهوات البطــون أو الفــروج، ولا على ما تميل إليه النفوس، بل سمت هممهم، وعلت عزائمهم، وتنافسوا في الأعمـال الخيريـة، واستعدوا للدار الآخرة، وجعلوا دار الدنيا دار ممر وليست بدار مقـر، وعبروها ولم يعمروها، وجعلوا عمارتهم ومنافساتهم للآخرة التي هي دار البقـاء، وهـذا من ثمرة إيمانهم باليوم الآخر.

ثمرة الإيمان بالقدر وما يترتب عليه

من جملة ما أخـبرت به الرسـل: الإيمـان بقضـاء الله وقـدره خـيره وشـره، وحلوه ومره، كله من الله. والإيمان بالقدر يدخل فيه الإيمان بعلم الله، بحيث يعتقد المسلم أن الله تعالى عالم بالأشـياء قبل أن تقـع، عـالم بما يكـون في الوجود، وما كان، وما لم يكن لو كان كيف يكون. ودليل هذا الإيمان أن الـرب سبحانه وتعالى هو الـذي يُحْـدِث ما يَحْـدُث في هـذا الكـون، فلا يُحْدِثه إلا وقد علمه، وعلم وقته وزمانه الذي يحصل فيه، وقد علم كيفية حصوله، فعلم عدد الخلق والـتراب، وأبصر فلم يسـتر بصـره حجـاب، وسـمع جهر القـول وخفي الخطاب، وعلم ما سوف يحـدث .. علم أعمـال الخلـق، وعلم عـددهم، وعلم من يولد ومن لا يولد له، وعلم عمل كل مولود وما يُختم له قبل أن يوجد، كل ذلك يعلمه الله سبحانه وتعـالى. فالله بكل شـيء عليم، يعلم السر والنجـوى، ويعلم ما يدور في الصدور عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّـدُورِ [آل عمـران:119]، ويعلم ما

تكنُّه الأنفس وما توسوس به الصـدور، فـإذا علم المسـلم بـذلك فإنه يحاسب عليه إذا شاء، يقول الله تعالى: وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِـبْكُمْ بِهِ اللَّهُ [البقرة:284]، وهو يحمل الإنسان على ألَّا يحدث نفسه إلَّا بالخير، وألَّا يهم إلَّا بالطاعة، وألَّا يتكلم إلَّا بما فيه مصـلحة، وأن يبتعد عن العقائد السـيئة، وعن الوساوس والأوهام والتوهُّمات، وكذلك عن الهمم السيئة، وبـذلك يكـون مؤمناً بالله تعالى. كذلك يـدخل في الإيمـان بالقـدر: قـدرة اللـه، فـإن الـرب سـبحانه قـادر لا يعجـزه شـيء، ولا يكـون في الوجـود إلا ما يريـد، ولا يخـرج مخلوق عن قدرته، ولا يعجزه أي مخلوق، فهو يعامل من يشاء بدون أن يـرده أحـد، وينتقم ممن يشـاء بـدون أن يحتجب عنه محتجب، وينتصر ممن عصـاه، وينتقم منه وهو عزيز ذو انتقـــام، ويُحِل بمن يشـــاء المثلات، ويُنْـــزِل بهم العقوبـات، ويرسل عليهم النكبـات إذا شـاء، ويوسع على من يشـاء، ويضـيق على من يشـاء. فـإذا اعتقد المسـلم ذلك اعتقد أن التصـرف في الكـون له وحده. كذلك أيضـاً يـؤمن بما أصـابه وما وقع لـه، فيعلم أن ما أصـابه لم يكن ليخطئه، إذا أصابك شيء فاعلم أنه ليس منه مفر ولا محيد، فلا تقل: يا ليتني تقدمت أو تأخرت حتى أسلم من هـذه المصـيبة، بل تعلم أنها مكتوبة عليك لا مفر منها، وإن كان الرب سبحانه قد أمرك بأخذ الحـذر. فـإذا علمت أن هـذه قدرة الله، فعليك أيضاً أن تعلم بأن قدرة الله التي لا يخرج عنها شيء تـدخل فيها الطاعات والمعاصي، فهو الذي قـدَّر الطاعـات وهو الـذي قـدَّر المعاصي كما يشاء، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [الأنعام:149]؛ ولكنه سـبحانه أمر ونهى. فالـذين علم الله فيهم الخـير امتثلـوا ما أمـرهم الله بـه، والـذين علم فيهم السوء تركوا ما أمروا به، فهؤلاء العاصون لهم العقاب، وإن كان الله هو الذي خذلهم بحكمته وعدله، وهؤلاء الذين أطـاعوا لهم الثـواب، وإن كـان هو الـذي وفقهم برحمته وفضله. كـذلك أيضـاً ينبغي أن نعـرف أن الخـير كله من اللـه، وأنه لا يُنسب إليه الشر بوجه من الوجوه، ومذكورٌ في تلبية الحـاج أنه يقـول: لبيك وسعديك، والخـير كله بيـديك، والشر ليس إليـك، نحن عبـادك الوافـدون إليك، الراغبون فيما لديك. فيقولون: الشر ليس إليك. ومعلـوم أن الله تعـالى هو الذي قدر الخـير والشـر؛ ولكن صـدوره من الله تعـالى ليس شـراً، بل هو خير لهم، وإنما يكون شراً بنسبته إلى العبد، فـإذا قـدر الله على هـذا الكفـر، وعلى هذا القتل، وعلى هـذا الزنـا، وعلى هـذا الإسـكار، وعلى هـذا السـرقة، ونحو ذلك؛ فهي شر بالنسبة إلى العبد، وخير بالنسـبة إلى تقـدير الله تعـالى، فإنه هو الذي قدرها، وقدرها حتى يُعلم أنه على كل شيء قـدير، وأن ما شـاء كان وما لم يشأ لم يكن.

في اللغة أسماء خصصها الشرع وجعل لها مدلولات اصطلاحية قد تختلف باختلاف موردها، ومن ذلك مسميات الإيمان والإسلام والكفر والفسوق والعصيان والنفاق، وغيرها.

تفسير الإسلام والإيمان

قال الشارح رحمه الله تعالى: [والكتاب والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق، وهذا أكثر من معنى الصلاة والزكاة، فإن تلك إنما فسرتها السنة، والإيمان بين معناه الكتاب والسنة، فمن الكتاب قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ.. [الأنفال:2] الآية، وقوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا.. [الحجرات:15] الآية، وقوله تعالى: فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً [النساء:65] فنفي الإيمان حتى توجد هذه الغاية، دل على أن هذه الغاية فرض على الناس، فمن تركها كان من أهل الوعيد، ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب. ولا يقال: إن بين تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان في حديث جبريل، وتفسيره إياه في حديث وفد عبد القيس معارضة؛ لأنه فسر الإيمان في حديث جبريل بعد تفسير الإسلام، فكان المعنى أنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، مع الأعمال التي ذكرها في تفسير الإسلام، كما أن الإحسان متضمن للإيمان الذي قدم تفسيره قبل ذكره، بخلاف حديث وفد عبد القيس؛ لأنه فسره ابتداءً، لم يتقدم قبله تفسير الإسلام، ولكن هذا الجواب لا يتأتى على ما ذكره الشيخ رحمه الله من تفسير الإيمان، فحديث وفد عبد القيس مشكل عليه. ومما يسأل عنه: أنه إذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من الخصال الخمس التي أجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المذكور، فلم قال: إن الإسلام هذه الخصال الخمس؟ وقد أجاب بعض الناس: بأن هذه أظهر شعائر الإسلام وأعظمها، وبقيامه بها يتم استسلامه، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده]. الإسلام فسر بالأعمال الظاهرة التي هي الأركان الخمسة، والإيمان فسر بالأركان الستة التي هي العقائد، وعلى هذا فإذا اجتمع الإسلام والإيمان فسر الإيمان بالأعمال العقدية الغيبية، وفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة. وسبب التسمية: أن الإسلام يستدعي الاستسلام الذي هو الإذعان، فالذي يقيم الصلاة مذعن ظاهراً، والذي يؤدي الحج مذعن ظاهراً، وكذا الذي يصوم ويزكي ويتشهد مذعن وخاضع ومتواضع. وأما الأمور العقدية القلبية فهذه خفية، تستدعي أدلة قوية، ثم بعد ذلك ترتكز في النفس، وتكون آثارها الأعمال الصالحة، وقد مر بنا أنه صلى الله عليه وسلم لما جاءه وفد عبد القيس قال لهم: (آمركم

بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، وتؤدوا من الغنيمة الخمس)، فأمرهم بأركان الإسلام وفسر بها الإيمان؛ وذلك لأنه لم يفسر لهم الإسلام، فجعل الإيمان هو الأعمال الظاهرة، فإذا اقتصر على الإيمان دخلت فيه الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا اقتصر على الإسلام دخلت فيه الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا اجتمعا فسر الإسلام بالظاهرة والإيمان بالباطنة. الله تعالى ذكر الإيمان وأدخل فيه الأعمال الظاهرة، فجعل الجهاد -وهو من الأعمال الظاهرة- من خصال الإيمان. كذلك قال في آية سورة النساء: فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ [النساء:65] فجعل تحكيم الشريعة وتحكيم النبي صلى الله عليه وسلم العلامة الواضحة للإيمان، فمن لم يجعل الرسول هو الحكم فليس بمؤمن، فهذا دليل على أن الأعمال تدخل في مسمى الإيمان، وإذا اقتصر على الإيمان دخلت فيه الأعمال الظاهرة والباطنة؛ وذلك لأنها نتيجته وثمرته. أما الإسلام فيفسر بالإعمال الظاهرة؛ لأنها علاماته، ومعلوم أن الأعمال الظاهرة ليست هي الخمس فقط، ولكن هذه الخمس هي دعائمها وأسسها وأصولها، وإذا حافظ عليها المسلم حافظ على غيرها، فالأركان الخمسة الظاهرة: الشهادتان والصلاة والزكاة والصوم والحج، هذه أسس الإسلام وعموده ودعائمه وأركانه التي يتكون منها، والتي يقوم عليها، ولكن هناك خصال أخرى تعتبر مكملات، فلأجل ذلك إذا أتى بهذه الأركان احتاج إلى مكملات. وقد ذكرنا أنهم ضربوا مثلاً للإسلام بالبناء، قال صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمس)، فمثله بالبناء، وأنتم تعرفون أن البناء لابد أن يكون له زوايا، فجعل الأركان هذه هي الزوايا التي يتكون منها، وهي الحيطان الأربعة المتقابلة، وهذه تعتبر أركانه لا يتم إلا بها، فهذا المكان لا يتم إلا إذا تكاملت زواياه المتقابلة، ولكن دون ذلك يحتاج إلى تكملة بقية الخصال التي هي إما أفعال وإما أقوال وهي بمنزلة المكملات. فلو بنيت حيطان المسجد فقط دون إتمام بقية المسجد لقلنا: إنه يحتاج إلى تكملة: يحتاج إلى أبواب، ويحتاج إلى نوافذ، ويحتاج إلى إنارة، ويحتاج إلى تهوية، ويحتاج إلى فرش، ويحتاج إلى سرج، ويحتاج إلى مرافق ومتكئات وما أشبه ذلك، فكذلك الإسلام بحاجة إلى الجهاد، وبحاجة إلى الأعمال الصالحة، وبحاجة إلى ترك المنكرات كلها: ترك القتل، وترك الزنا، وترك الشرك، وترك السرقة، وترك الفساد بأنواعه وما أشبه ذلك، وكذلك يحتاج إلى بر الوالدين، وإحسان الجوار، وصلة الأرحام، وبذل السلام، وتشميت العاطس، وعيادة المريض، واتباع الجنائز وما أشبه ذلك، ولا شك أن هذه من خصال الإيمان. فالذي يأتي بالأركان الخمسة، يطلب منه تكميل ذلك بأن تستدعي الخمسة غيرها، فيقال له: ائت بالبقية حتى تكون بذلك قد كملت الإسلام. ......

الإسلام ليس منحصراً في الأركان الخمسة وإنما هي دعائمه

قال الشارح رحمه الله: [والتحقيق أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الـدين الــذي هو استســلام العبد لربه مطلقــاً، الــذي يجب لله عبــادة محضة على الأعيان، ويجب على كل من كان قادراً عليه ليعبد الله مخلصاً له الدين، وهذه هي الخمس، وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب مصالح، فلا يعم وجوبها جميع الناس، بل إما أن يكون فرضاً على الكفاية كالجهاد والأمر بــالمعروف والنهي عن المنكر، وما يتبع ذلك: من إمارة وحكم وفتيا وإقراء وتحـديث وغـير ذلـك، وإما أن يجب بسبب حق الآدمي، فيختص به من وجب له وعليـه، وقد يسـقط بإسقاطه من قضاء الديون ورد الأمانات والغصوب، والإنصـاف من المظـالم: من الدماء والأموال والأعراض، وحقوق الزوجة والأولاد وصـلة الأرحـام، ونحو ذلك، فإن الـواجب من ذلك على زيد غـير الـواجب على عمـرو، بخلاف صـوم رمضان وحج البيت والصلوات الخمس والزكـاة، فـإن الزكـاة وإن كـانت حقـاً مالياً فإنها واجبة لله، والأصناف الثمانية مصارفها، ولهذا وجبت فيها النية، ولم يجز أن يفعلها الغـير عنه بلا إذنـه، ولم تطلب من الكفـار، وحقــوق العبــاد لا يشـترط لها النيـة، ولو أداها غـيره عنه بغـير إذنه بـرئت ذمتـه، ويطـالب بها الكفار. وما يجب حقاً لله تعالى كالكفارات هو بسبب من العبـد، وفيها معـنى العقوبــة، ولهــذا كــان التكليف شــرطاً في الزكــاة، فلا تجب على الصــغير والمجنــون عند أبي حنيفة وأصـحابه رحمهم الله تعــالى، على ما عــرف في موضعه]. يجيب الشارح هنا عن سؤال مقدر تقديره: لماذا اقتصر في الإسلام على الأركـان الخمسة ولم يـذكر بقية الخصـال؟ أي أنه لم يقـل: الإسـلام أن تجاهد في سبيل اللـه، وأن تـأمر بـالمعروف وأن تنهى عن المنكـر، وأن تصل رحمك، وأن تبر والـديك، وأن تحسن إلى جيرانـك، وأن تحب المسـلمين، وأن تسلم على من سلم عليك، وأن تعود المرضـى، وأن تتبع جنـائز المـوتى ونحو ذلك، لماذا لم يذكر هذه الخصال في الإسـلام؟ ولمـاذا لم يـذكر المتروكـات؟ لمـاذا لم يقـل: إن من الإسـلام أن تـترك الزنـا، وأن تـترك القتـل، وأن تـترك الشـرك، وأن تـترك السـرقة، وأن تـترك الغيبة والنميمـة، وأن تـترك الخيانة والإثم، وأن تترك السـباب والفحشـاء وما أشـبه ذلـك؟ فلمـاذا لم يـذكر هـذه الأشياء في الإسلام؟! نقول: لا شك أن هذه من خصال الإسـلام سـواء كـانت أفعالاً كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحب في الله والبغض في الله، والولاء له والبراء لـه، وما أشـبه ذلك أو كـانت من الـتروك، كـترك المنكـرات والمعاصي ونحوهــا، لا شك أنها من خصــال الإســلام، ولكن يجــاب عنها بما أجاب به الشارح، فالأركان الخمسة تستدعي غيرها، ولا شك أن الصـلاة تنهى عن الفحشـــاء والمنكـــر، فـــإذا حافظ العبد عليها فإنها تحبب إليه الأعمـــال الخيريـة، فـتراه يحب النفقة في سـبيل اللـه، وتـراه يحب الخـير، ويحب أهل الخير، وتراه يتعلم العلم ويعلمـه، وتـراه يـأمر بـالمعروف وينهى عن المنكـر، ويبر والديه، ويبذل السلام للعالم، ويـأمر بما يصـلح المسـلمين، ويفشـيه فيما بينهم، وتــراه يصل الــرحم ويحسن الجــوار، ويحسن إلى المماليك وما أشــبه ذلك، وتراه يبتعد عن المنكرات؛ لأن صلاته تنهاه، فتراه يحفظ لسانه، ويحفظ عينيه عن النظر للحــرام، ويحفظ أذنيه عن ســماع الملاهي وما أشــبه ذلــك، ويحفظ يديه عن البطش بالآثــام ونحو ذلــك، ويحفظ قدميه عن المشي بهما

إلى ما حرم اللـه، لمـاذا؟ لأن صـلاته أمرته بـالخير ونهته عن الشـر، فالصـلاة سبب من الأسباب جعلته يحب الخير ويكثر منه. وهناك أيضاً جواب ثاني وهو: أن هذه الخصال قد لا تجب على كل فرد، بخلاف الصلاة فإنها واجبة على كل فـرد، والزكـاة على كل فـرد تـوافرت فيه شـروطها، والصـوم على كل فـرد، والحج على كل فرد مستطيع، أما الجهـاد فإنه على القـادر، وهو فـرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن البـاقين، وكـذلك الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر إذا قـام به من يكفي سـقط عن البـاقين، وكـذلك الأمـور الـتي تتعلق بالغير، فمثلاً بذل السلام فرض كفايـة، فلو سـلم واحد من عشـرة كفى، وإذا رد واحد من العشرة كفى، وكذلك الخصال الخيرية لا تجب على كل أحد، فقد لا يجب على كل أحد أن يبر أو يصل، أو ما أشـبه ذلـك، فوجوبها إنما هو على الشخص الذي اتصف بتلك الصفات، فهذا جواب. ومن الأجوبة أيضاً: أن هنـاك أعمالاً لا تجب على الإنسان بإيجاب الشـرع، وإنما تجب عليه بإيجـاب نفسـه، كالكفـــارات والنـــذور الـــتي أوجبها على نفســـه، مثلاً: إذا أوجب على نفسه أضـحية، أو أوجب على نفسه صـدقة، اعتـبر هـذا مما أوجبه على نفسه ولم يوجبه عليه الشرع، إنما الشـرع سن له الصـدقة، وسن له الأضـحية، وسن له أنواع البر المتعدية، أما كفارات النذور، وكفارات الأيمان وما أشبهها، فهـذه لا تجب على كل فــرد، إنما تجب على من أوجبها على نفســه، أو أتى بالســبب الذي أوجبه على نفسه. إذاً: الناذر هو الذي أوجب على نفسه كفـارة يمين إذا لم يفِ بنذره، والحالف هو الذي أوجب على نفسه كفارة إن حنث، والمظـاهر هو الذي أوجب الكفارة على نفسه، وهكذا كفارة القتل، وهكذا كفارة الــوطء في نهـار رمضـان وما أشـبه ذلـك، لا شك أن هـذه إنما أوجبها الإنسـان على نفســه. وبكل حـال فـإن الأشـياء الـتي يكلف بها الإنسـان إما أن تكـون من الخصـــال الخيرية الـــتي ليست واجبة ولكنها مشـــروعة وفيها أجر كالأذكـــار، والأدعيـة، وقـراءة القـرآن، والاعتكـاف في المسـاجد، والإتيـان بالنوافل قبل الصـلوات وبعـدها، وأنـواع التطوعـات، وكـذلك أنـواع الصـدقات البعيـدة عن الواجب الذي هو الزكـاة، وما أشـبه ذلـك؛ فهـذه خصـال خيرية يحبها الشـرع، وحبه لها يظهر أنها طاعة، فإذا علم أنها طاعة وأن الله يحبها أكـثر منهـا. وأما التروك والمحرمات فإن الذي يتركها هو الذي يعـرف عاقبتهـا، ويعـرف الآثـام التي تترتب عليها، فـإذا علم العبد أن الله تعـالى يعاقبه على الشـرك ويعاقبه على القتل وعلى الزنا وعلى المسـكرات والمخـدرات ونحوهـا، ويعاقبه على القـذف وعلى السـباب والشـتم واللعن والغيبة والنميمة ونحو ذلـك، ويعاقبه على أكل الحرام كأكل الربا وأخذ الرشا والمعاملات المحرمة وما أشبه ذلـك، ويعاقبه على سماع الغناء واللهو وما أشبه ذلك؛ تركها، وهذه أيضـاً ليست من الضـــروريات، فليس كل أحد يتعامل بالمعـــاملات المحرمـــة، وليس كل واحد مضطراً إلى أن يغتاب وأن ينم ويسب ويكذب، وليس كل واحد مضـطراً إلى أن يرى الصور والملاهي، وينظر إلى العورات وما أشبه ذلك، وليس كل واحد مضطراً إلى أن يسمع الغناء واللهو والباطل والكلام السـيئ وما أشـبه ذلـك، فليست من الضــروريات. فــإذاً: لما كــان فيها مفاســد، وليس فيها مصــالح، والإسـلام مشـتمل على النهي عنهـا، وعلى الزجر والعقوبة عليهـا؛ وجب على

المسلم أن يتركها، فإذا أسلم العبد وعرف أن هذه الخصال التي هي أركان الإسلام هي السبب في أنه مسلم، عرف أن الإسلام لا يجتمع هو وضده، وأن الإسلام ينهى عن الآثام؛ فاجتنب الآثام كلياً، واستكثر من الطاعات كلياً، وبذلك يتم إسلامه وإيمانه.

الإيمان بالقدر خيره وشره

قال الشارح رحمه الله: [وقوله: (والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى). تقدم قوله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام (وتؤمن بالقدر خيره وشره)، وقال تعالى: قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا [التوبة:51]، وقال تعالى: وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً [النساء:78]، وقوله تعالى: مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ. [النساء:79] الآية. فإن قيل: كيف الجمع بين قوله تعالى: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ [النساء:78] وبين قوله: فَمِنْ نَفْسِكَ [النساء:79]؟ قيل: قوله: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ [النساء:78]: الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله، وقوله: فَمِنْ نَفْسِكَ [النساء:79] أي: ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك، كما قال: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ [الشورى:30] يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ: (وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا كتبتها عليك) والمراد بالحسنة هنا النعمة، وبالسيئة البلية، في أصح الأقوال، وقد قيل: الحسنة الطاعة، والسيئة المعصية، وقيل: الحسنة ما أصابه يوم بدر، والسيئة ما أصابه يوم أحد، والقول الأول شامل لمعنى القول الثالث، والمعنى الثاني ليس مراداً دون الأول قطعاً، ولكن لا منافاة بين أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسك، مع أن الجميع مقدر، فإن المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى، فتكون من سيئات الجزاء، مع أنها من سيئات العمل، والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى، كما دل على ذلك الكتاب والسنة]. ......

الحسنة والسيئة من الله

المصائب والحسنات والسيئات كلها مقدرة من الله، فالله تعالى يقول: قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ [النساء:78] الحسنة والسيئة كلها مكتوبة ومقدرة من الله، لو شاء الله ما حصلت هذه العقوبات ونحوها، ولا حصلت هذه الآفات وما

أشـبهها، فهي من الله خلقـاً وتكوينـاً وقضـاءً وقـدراً. الحسـنة هنا تـدخل فيها الأعمال الصالحة، فما عملت من أعمال صالحة فالله هو الذي أقـدرك عليهـا، وتدخل فيها الخـيرات الحسـية، فما أصـابك من نعمـة، وما أصـابك من صـحة ومن ثروة ومن خصب ومن أمن ورخـاء، وما أصـابك من نعمة مـال أو ولد أو فــرح أو بشر وســرور، ما أصــابك من هــذا كله فهو من اللــه، وقد جعل الله تعالى ذلك ثواباً على الأعمال والحسنات التي يعملها العبـد، قـال الله تعـالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الـدُّنْيَا حَسَـنَةً [النحـل: 41] أي: لنعطينهم في الــدنيا حســنة؛ وذلك لأنهم أتــوا بالأســباب الــتي هي الإيمان والأعمـال الصـالحة، إما الحسـنة الـتي هي خـيرات أخروية أو خـيرات دنيوية فهي من الله، وهي أيضاً جزاء له على عمله، فأنت أيها المـؤمن التقي والعبد الصــالح إذا أصـلحت عملك جــازاك الله تعــالى بحســنات في الــدنيا، وبحسنة في الآخرة، ولهذا كان من دعـاء النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة)، فالحسنة في الدنيا: الصـحة والنعمة والرفاهية والنصر والتمكين والخـيرات المحبوبة في النفــوس، والحســنة في الآخرة هي الجنة. فما أصابك من حسـنة فمن اللـه، هو الـذي أنعم بها عليـك، وهو الذي تفضل بها عليك، وما أصابك من سـيئة فمن نفسـك، ما أصـابك من هم أو من غم، ما أصابك من جـوع أو من عـري، ما أصـابك من مـرض أو من حــزن، ما أصــابك من خـوف أو قلق واضـطراب وفقر وفاقــة، أو من مــرض وموت وفراق حبيب وما أشبه ذلك، فاعلم أنه عقوبة على سـيئة اقترفتهـا، أو أنه محنة لك واختبار، فـإذا كـان عنـدك شـيء من النقص أو من الضـعف في إيمانك فسبب هذه السيئة التي أصبت بها صـادر عن نفسـك، ولهـذا قـال الله تعالى للصحابة في غزوة أحـد: أَوَلَمَّا أَصَـابَتْكُمْ مُصِـيبَةٌ قَـدْ أَصَـبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُـلْ هُـوَ مِنْ عِنْـدِ أَنْفُسِـكُمْ [آل عمـران:165] من عند أنفسـكم أي: بسبب فعلكم سلط عليكم هذا العدو، فهو من عند أنفسـكم، أي: عملتم عملاً حصل به هذا التسليط.

الواجب على المسلم إذا أصابته حسنة أو سيئة

لا شك أن الإنســان إذا ابتلي بالحســنة فعليه أن يشــكر، وإذا ابتلي بالســيئة فعليه أن يصـبر، فـإذا أصـابته النعمة والرخـاء والـثروة والغنـاء وكـثرة المـال والولد والصحة والرفاهية والخيرات التي تسره وتجلب له الحياة السـعيدة فلا يعتقد أن هــذا لكرامتــه، بل يعتقد أنه ابتلاء من الله لــه، إما أنه جــزاء على أعمـال عملهـا، وثـواب لحسـنات عملهـا، فيكـون قد عجلت له حسـناته، فـإن الصـحابة رضي الله عنهم كـانوا يخـافون إذا وسـعت عليهم الـدنيا ويقولـون: نخشى أن تكون طيباتنا عجلت لنا. والخيرات والرفاهية التي فيها النــاس الآن

قد تكون حسـناتهم وأعمـالهم الصـالحة عجلت لهم، ولا يبقى لهم في الآخـرة ثواب، ويمكن أن تكون هذه الحسنات والنعم والرخاء التي أعطيها النـاس في هذه الأزمنة جـزاء على أعمـالهم الصـالحة، مع ادخـار الأجر لهم، فالله تعـالى يثيب الصـالحين والمؤمـنين بثـواب في الـدنيا، ولا ينقص ثـوابهم في الآخـرة، فيجمع لهم بين الحسنتين: حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، ويمكن أن تكون هــذه الخيرات، وهذه النعم الـتي أصـابها النـاس في هـذه الأزمنـة، وهـذه التوسـعة والرفاهية والنعم ابتلاء، فإن الله تعالى يبتلي بـالخير كما يبتلي بالشـر، فيبتلي بالحسنات ويبتلي بالسيئات، فـالابتلاء بالحسـنات لأجل أن يظهر من العبد هل يشكر أم يكفر، كما حكى الله تعالى عن سليمان أنه قال: هَذَا مِنْ فَضْـلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ [النمـل:40]. فهـذه النعم الـتي فتحت علينا من فضل الله علينا ليبتلينا هل نشــكر أم نكفــر، فــإذا عرفنا أنها من الله شــكرنا، وإذا عرفنا أنها بحاجة إلى شـكر اسـتعملناها فيما يحبه الله تعـالى، وبـذلك تثبت، وبذلك نكون من الشاكرين لها، فهذا هو الابتلاء بالخيرات. أما الـذين انخـدعوا بها، واعتقدوا أن ذلك دليل على كرامتهم، فـإنهم هم المحرومـون، هم الـذين تعجلوا ثواب أعمالهم في الدنيا، واعتقدوا أن ما فتح عليهم وما أمدهم الله به دليل على كرامتهم، وعلى فضلهم، وعلى شرفهم، وعلى رفعة مـنزلتهم ونحو ذلك، وقد وقع هـذا للأولين، فحكى الله عن قـارون أنه قـال: إِنَّمَا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي [القصص:78] أي: أوتيته على شرف، أوتيته على منزلة رفيعة، أو أوتيته لأني محبوب ومحظوظ عند الله، ولهذا قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الـدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَـارُونُ إِنَّهُ لَـذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ [القصـص:79] هـؤلاء هم الذين نظرتهم دنيوية، ولم يعلموا أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الآخــرة إلا من يحب. فــإذا عــرف العبد أن الابتلاء بــالخيرات ليس دليلاً على الكرامة، بل إما أنه لحسنات عملها فيثاب عليها في الدنيا ولا يبقى له في الآخــرة شــيء، وإما أنه لأجل أن يختـبر هل يشــكر أم يكفــر، وإما أنه تعجيل أو توسعة عليه في الدنيا، ولا ينقص أجره في الآخـرة، فـإذا شـكر الله تعالى علم كيف يقابل الحسنات الدنيوية.

أسباب المصائب والابتلاءات

إذا أصـاب الإنسـان سـيئة دنيويـة، مصـيبة أو بلاء أو مـرض أو فقر أو فاقة أو موت قريب، أو حزن أو خوف، أو تشريد وتفريـق، أونهب وسـلب، أو تسـليط أعداء، أو ما أشبه ذلك، فما سبب ذلك؟ لا شك أنه يدخل في هذه الأمـور: إما أن يكون ذلك تكفيراً للسيئات، فالمؤمن يبتلى، فإذا كانت عنده سيئات سلط الله عليه المرض، وسلط الله عليه الخوف ونحو ذلـك، كما في الحـديث: (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء)، وفي الحديث أيضاً: (أشد الناس بلاء الأنبيــاء ثم

الأمثل فالأمثل)، هذا سبب. السبب الثاني: أن هـذه المصـائب والآفـات الـتي تصيب الإنسان قد تكون تمحيصاً وتكفـيراً للسـيئات الـتي اقترفهـا، وذلك لأنه قد لا يأتي بحسنات تمحوها، فيسلط الله عليه الأمـراض. السـبب الثـالث: أنه ابتلاء وامتحان ليظهر من يصبر وممن يجزع، قال الله تعـالى: وَلَنَبْلُـوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِـدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّـابِرِينَ وَنَبْلُـوَ أَخْبَـارَكُمْ [محمـد:31]، وَلَنَبْلُـوَنَّكُمْ بِشَـيْءٍ مِنْ الْخَـوْفِ وَالْجُـوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْـوَالِ وَالأَنفُس وَالثَّمَـرَاتِ وَبَشِّـرْ الصَّابِرِينَ [البقرة:155]، لَتُبْلَـوُنَّ فِي أَمْـوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ [آل عمـران:186]. إذاً: هذه المصائب هي بسبب الناس، سيئات اقترفوها، أو أعمال قصروا فيها، أو نحو ذلك، فالسبب منهم، والله تعالى قد يبتليهم بهـذه الأشـياء حـتى يختـبر قوة إيمانهم وصبرهم، وحتى يرفع درجات الصـابرين، وحـتى يكفر عنهم بعض سيئاتهم، أو يكون هذا الابتلاء اختبـاراً ليظهر من يشـكر ممن يجـزع. فهـذا ما ورد في معنى قوله: مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ [النساء:79].

تنقسم الذنوب إلى كبائر وصغائر، وقد بين العلماء ضابط الكبيرة، والفرق بينهما وبين الصغائر، وحذروا من التهاون بالصغائر، وبين أحكامها وما يترتب عليها.

الموحدون لا يخلدون في النار وإن دخلوها

من عقيدة أهل السنة: أنهم لا يخلدون العصاة في النار، وإن دخلوها فإنهم يخرجون منهم، والمراد الذين ماتوا وهم مصرون على بعض الذنوب الكبيرة التي ورد فيها وعيد، وأما الخوارج فتمسكوا بأحاديث وبنصوص فيها وعيد شديد لمن عمل ذنباً أو كبيرة، فأخرجوهم من دائرة الإسلام وأدخلوهم في الكفر، واستحلوا دماءهم وأموالهم بمجرد ارتكاب الذنب. أما المعتزلة فأخرجوهم من الإسلام ولم يدخلوهم في الكفر، وجعلوهم في منزلة بين الكفر والإيمان، وحكموا بخلودهم في النار بموجب النصوص التي فيها وعيد. وأهل السنة قالوا: إنهم تحت مشيئة الله إن شاء غفر لهم ذنوبهم وأدخلهم الجنة من أول وهلة، وإن شاء أدخلهم النار تطهيراً لهم لما اقترفوه من الذنوب، ما يمحصون ويهذبون وينقون يخرجون من النار ويدخلون الجنة، فمنهم من يكون بقاؤه في النار ألوفاً من السنين، ومنهم من لا يبقى فيها إلا قليلاً، على قدر ذنوبهم أو بدعهم، ومآلهم إلى الجنة، ولو بعد مدة؛ وذلك لأنهم من أهل الإيمان، ومن أهل التوحيد، ومن أهل التصديق، وإن كان معهم شيء من الذنوب التي اقترفوها. فكيف نحمل النصوص التي فيها الوعيد بعدم دخول الجنة لبعض العصاة؟ وردت أحاديث كثيرة وآيات ظاهرة الدلالة في أن العصاة في النار، سواء يخلدون فيها أو يدخلونها، أو يحرمون الجنة، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة نمام)، ومثل قوله: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)، وكقوله صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية)، ومثل قوله: (إن من عقد لحيته، أو تقلد وتراً، أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً بريء منه)، ومثل الآيات قول الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [النور:23]، وكقوله: وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [الأنفال:16]، ومثل قوله في آكل الربا: فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [البقرة:275] يعني: من عاد إلى التعامل بالربا، فتوعدهم بأنهم من أصحاب النار بمجرد أكلهم الربا، والربا إنما هو من الكبائر لا من الكفر والشرك، وكذلك الوعيد في قتل النفس، قال تعالى: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا [النساء:93]. تمسك بهذه النصوص الوعيدية من القدرية والخوارج، وجعلوها نصاً في أن

العاصي المصر على المعصــية لا يخــرج من النــار، بل يــدخل فيها ويخلــد، وتمسكوا بالآيات التي فيها عـدم الخـروج من النـار كقوله تعـالى: يُرِيـدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا [المائدة:37]، وكقوله: كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيـدُوا فِيهَا [الحج:22]، وكقولـه: وَمَا هُمْ بِخَـارِجِينَ مِنْ النَّارِ [البقـرة:167] هـذا ما تمسك به الوعيديـة. وأهل السـنة يقولـون: هـذه النصــوص فيها وعيد شــديد، فنجريها على ظاهرها ليكــون أبلغ في الزجــر، لتكون زاجرة عن المعاصي، وذلك لأن التهاون بالمعاصي يعتبر ذنبـاً أكـبر من فعلها، فلأجل ذلك لا نتأولها حتى تكـون زاجـرة، بل نؤيـدها ونؤكـدها ونسـتدل بالأخبار الأخرى، وبالأحاديث الكثـيرة الـتي فيها الوعيد الشـديد على الـذنوب، والتي فيها إهلاك الله تعالى لمن أذنب أي ذنب، أو لمن ارتكب أي منكـر، ولو تتبعنا ذلك لوجــدنا فيه أحــاديث كثـيرة تــدل عليــه، ومن أراد أن يتوسع فيها فليقرأ الأحاديث التي ذكرها ابن القيم في كتابه الذي سماه: الجـواب الكـافي لمن سأل عن الدواء الشافي، حيث أورد في أوله أحاديث كثـيرة وأدلة كثـيرة تـدل على أن الله تعـالى يعـاقب على الـذنوب، ولو لم تصل إلى الكفـر، وأنه بسبب الـذنوب أهلك أقوامـاً. فاسـتدل مثلاً بما روي في بعض الآثـار: أن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: (أني مهلك من قومك سـتين ألفـاً من شـرارهم وأربعين ألفـاً من خيـارهم، قـال: يا رب! هـؤلاء الأشـرار فما بـال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يجالسوهم ويؤانسوهم)، فعاقب الأخيار في الدنيا بالهلاك، ولم يكن لهم ذنب إلا مجالسة الأشـرار ومـؤاكلتهم، ولم يذكر ذنب الأشرار هل وصل إلى الكفر أو أنه من المعاصي، وإذا كان من المعاصي فهو دليل واضح على أن العصــاة متوعــدون بــالهلاك في الــدنيا، وبالعذاب أو الوعيد في الآخـرة. وروي أن ربنا سـبحانه أمر جبريل أن يخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يا رب! فيهم عبدك فلان، لم يعصك طرفة عين، فقال: به فابدأ وأسمعني صوته، فإنه لم يتمعر وجهه فيَّ قط، فـأمر بإهلاكـه، مع أنه لم يذكر له ذنباً إلا أنه لا يغـار للـه، ولا يتمعر وجهه في ذات اللـه، وذلك دليل على أن هـذا ذنب. فـإقرار العصـاة، وعـدم الغضب لـذات اللـه، ذنب، ولو لم يعمل الــذنب، ولكنه لما لم يغضب لغضب الله اســتحق أن يــنزل عليه من الوعيد والعذاب ما نزل على المعذبين، وهذا يدل على أن أهل المعاصي على خطر في الدنيا وعلى خطر في الآخرة. ولو لم يكن إلا أثر ذلك الغضب عليهم في الآخــــرة، لو لم يكن للعصــــاة عقوبة إلا أنهم إذا غضب الله عليهم انتقم منهم في الــدنيا بــأي انتقــام، ولو لم يصل ذنبهم إلى الكفــر؛ فحــري بهم أن يتوبوا. وكذلك من آثار غضب الرب عليهم أن يدخلهم دار العذاب، وهي النـار، ولو لم يدخلوها إلا ساعة لاحترقوا، فكيف بما روي أنهم يمكثون فيها عشرات السنين وربما مئـات السـنين أو ألـوف السـنين وهم يعـذبون فيهـا، على قـدر ذنوبهم كبـاراً وصـغاراً، ولا شك أن هـذا عـذاب شـديد لو اقتصر على عـذابهم ساعة لكان أولى بهم ألا يقترفوا ذنباً، وألا يصروا على معصـية أيـاً كـانت تلك المعصية. ولما جاءت هذه الأحاديث وهذه الآثار في وعيـدهم كـان من عقيـدة أهل السنة: أنا نخاف على العصاة، فنقول للعصاة: إنا نخـاف عليكم، لا نـأمن عليك أيها العاصي نقمة اللــه، لا نـأمن عليك عذابــه، لا تـأمن أيها العاصي أن

يأخذك الله على غرة وغفلة، لا تأمن أن يعذبك أي عذاب، حتى ولو كان عذاباً تظنه هيناً، روي عن بعض السلف أنه قال: (لو توعدني الله إذا عصيته أن يحبسني في الحمام لكان ذلك وعيداً شديداً) أي: يستحق أن أهرب من المعصية حتى لا أحبس في الحمام، فكيف بالحبس في النار التي تلتهب وتشتد على أهلها، إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً * لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً [الفرقان:12-14]، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ [الملك:8] فإذا كان هذا وعيد بهذا العذاب الذي هو عذاب النار؛ فلا شك أنه يحمل المؤمن المصدق على الهرب من أسباب العذاب، حتى ولو كان يرجو في النهاية أن يخرج من النار وأن يدخل الجنة. ......

مآل أهل التوحيد إلى الجنة لا يعني الأمن وعدم الخوف

من عقيدة أهل السنة أن كل من كان من أهل التوحيد ومن أهل الإيمان فإن مآله إلى دخول الجنة ولو عذب في النار ما عذب، ولكن نخاف عليه ونحوفه، فقد وردت الأدلة الكثيرة في نجاة أهل التوحيد، فآمن أهل السنة بذلك، وصدقوا بأحاديث الشفاعة، والتي منها قوله صلى الله عليه وسلم: (لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي لأمتي شفاعة يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً)، وقال في حديث عتبان : (إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)، وأشباه ذلك من الأحاديث، وكذلك أحاديث الإخراج من النار، وفيها أن الله يقول للشافعين وللملائكة: (أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه أدنى أدنى حبة خردل من إيمان، ثم يقول الله تعالى: لأخرجن من النار من قال: لا إله إلا الله). فيخرج من النار أهل لا إله إلا الله؛ وذلك لأنهم كانوا موحدين لم يشركوا بالله لا في الاعتقاد ولا في الأعمال، وكانوا ممن قال: لا إله إلا الله مخلصين من قلوبهم، وكانوا على إيمان راسخ في قلوبهم، ولكن لضعف ذلك الدافع نزعتهم النفس إلى فعل شيء من الذنوب، فأصروا ولم يستغفروا حتى أتتهم آجالهم، وهم مؤمنون مصدقون، ولكن قد يدخلون النار بسبب ما اقترفوه من الذنوب، ثم بعد ذلك يخرجهم الله إذا شاء بفضله ورحمته. إذاً: نحن نخاف على العصاة، ولا نأمن عليهم، نقول للعاصي: إنك على خطر، إذا رأيت العاصي المصر على المعصية المتمادي في معصيته فعليك أن تحذره، وتقول: إنك على خطرين: خطر عقوبة في الدنيا بأن يعاجلك الله وينتقم منك، وخطر عقوبة في الآخرة بأن يدخلك في النار وهي دار عذابه، ولو كان مآلك ونهايتك بتوحيدك واعتقادك أن تخرج منها، ولكن لا تأمن العذاب، ولا تستطيع أن تصبر عليه، فالنار التي توعد الله بها شديدة الوقود والالتهاب، وحرها شديد، وقعرها بعيد، وطعام أهلها الزقوم، وشراب أهلها المهل والصديد، ولباسهم القطران والحديد، وعذابهم أبداً في مزيد، فكيف تصبر

عليها؟! قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ناركم هذه جـزء من سـبعين جـزءاً من نار جهنم، قالوا: يا رسول الله! إن كانت لكافية، فقال: فضـلت عليها نـار جهنم بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها)، إذا كـانت النـار تضـاعف سـبعين ضعفاً فمن يطيق الصبر عليها؟! الله تعـالى قد ذكر أنـواع العـذاب فيها حـتى ذكر الحميم، وذكر الزقـوم، وذكر المهل والصـديد الـذي هو شـرابهم، وقـال: وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْيـاً وَبُكْمـاً وَصُـمّاً مَـأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً [الإسراء:97]، وقال: كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا [النساء:56]، وقال في شرابهم: يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً [الكهف:29]، وقال أيضاً: وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ [محمـد: 15]، فهذا يحصل لكل من دخل النـار، ولا شك أنه يخيف المـؤمن، فـالمؤمن المصدق يخاف أن يـدخل في هـذا العـذاب ولو وقتـاً يسـيراً. إذاً: نحن نخـاف على العصـاة، ولا نـأمن عليهم عقـاب اللـه، ونقـول لهم: لا تـأمنوا مكر الله أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [الأعراف:99]^، ولو تعلقتم وتشبثتم بالأدلة التي فيها الوعد، والتي فيها إخـراج العصـاة من النـار، والـتي فيها تحـريم أهل التوحيد على النـار، لكن لا تـأمنوا من النـار ولو وقتـاً يسيراً، فتوبوا إلى ربكم وأصلحوا أعمالكم، فهذا هو الجمع بين هذه الأحاديث. أهل السنة تمسكوا بأحاديث الشفاعة التي فيها إخراج أهل التوحيد من النـار، وقـالوا: ربما يمكثـون فيها عشـرات السـنين أو مئاتها أو ألوفهـا، وأهل الوعيد تمسـكوا بالأدلة الـتي فيها دخـول النـار والوعيد بالنـار على بعض المعاصـي، والجمع بينهما أنه لا مـــانع من أن يـــدخلوا النـــار، ثم بعد ذلك يخرجـــون منها برحمة أرحم الراحمين، وبشفاعة الشـافعين، ولا مـانع أن يطلق الخلـود على الدوام الطويل، أو على المكث الطويل، ولا مـانع أن يطلق حرمـان الجنـة، أو حرمان دخولها على حرمان الـدخول لأول مـرة أو نحو ذلـك، والله هو الحكيم في أمـــره، وكلام الله وكلام رســـوله لا يمكن أن ينقض بعضه بعضـــاً، بل كله حق، فمتى أمكن الجمع قلنا به واعتقدنا صحته، وإذا لم يمكن وكلنا أمـره إلى الله.

الكبائر والصغائر

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [قال المصنف رحمه الله تعالى: [قولـه: (وأهل الكبـائر من أمة محمد صـلى الله عليه وسـلم في النـار لا يخلـدون إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين، بعد أن لقوا الله عـارفين، وهم في مشـــيئته وحكمه إن شـــاء غفر لهم وعفا عنهم بفضـــله كما ذكر عز وجل في كتابه : وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ [النساء:48] وإن شـاء عـذبهم في النـار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعتـه، ثم يبعثهم

إلى جنته، وذلك بأن الله تعـالى تـولى أهل معرفتـه، ولم يجعلهم في الـدارين كأهل نكرته الــذين خــابوا من هدايتــه، ولم ينــالوا من ولايتــه، اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حـتى نلقـاك بـه). فقولـه: (وأهل الكبـائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون إذا مـاتوا وهم موحـدون) رد لقــول الخــوارج والمعتزلة القــائلين بتخليد أهل الكبــائر في النــار، لكن الخـوارج تقـول بتكفـيرهم والمعتزلة بخـروجهم عن الإيمـان لا بـدخولهم في الكفر بل لهم منزلة بين منزلتين كما تقدم عند الكلام على قول الشيخ رحمه اللــه: (ولا نكفر أحـداً من أهل القبلة بـذنب ما لم يسـتحله). وقولــه: (وأهل الكبـائر من أمة محمد صـلى الله عليه وسـلم) تخصيصه أمة محمد يفهم منه أن أهل الكبــائر من أمة غــير محمد صــلى الله عليه وســلم قبل نسخ تلك الشرائع به حكمهم مخـالف لأهل الكبـائر من أمة محمد وفي ذلك نظـر، فـإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه: (يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمـان) ولم يخص أمته بـذلك بل ذكر الإيمـان مطلقـاً، فتأمله وليس في بعض النسخ ذكر الأمة]. وقوله: (في النار) معمـول لقولـه: (لا يخلـدون)، وإنما قدمه لأجل السجعة، لا أن يكون (في النار) خبر لقولـه: (وأهل الكبـائر) كما ظنه بعض الشـارحين. واختلف العلمـاء في الكبـائر على أقـوال: فقيـل: سبعة، وقيل: سبعة عشر، وقيل: ما اتفقت الشـرائع على تحريمـه، وقيـل: ما يسد باب المعرفة بالله، وقيل: ذهاب الأموال والأبـدان، وقيـل: سـميت كبـائر بالنسبة والإضافة إلى ما دونها، وقيل: لا تعلم أصلاً أو أنها أخفيت كليلة القدر، وقيل: إنها إلى السبعين أقرب، وقيل: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وقيــل: إنها ما يترتب عليه حد، أو توعد عليها بالنـار، أو اللعنة أو الغضـب، وهـذا أمثل الأقــوال. واختلفت عبــارات السـلف في تعريف الصــغائر، فمنهم من قــال: الصغيرة ما دون الحدين: حد الدنيا وحد الآخـرة، ومنهم من قـال: كل ذنب لم يختم بلعنة أو غضب أو نــار، ومنهم من قــال: الصــغيرة ما ليس فيها حد في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة، والمراد بالوعيد: الوعيد الخاص بالنـار أو اللعنة أو الغضب، فـإن الوعيد الخـاص في الآخـرة كالعقوبة الخاصة في الـدنيا، أعـني: المقدرة، فالتعزير في الدنيا نظير الوعيد بغير النار أو اللعنة أو الغضب. وهـذا الضـابط يسـلم من القـوادح الـواردة على غـيره، فإنه يـدخل فيه كل ما ثبت بالنص أنه كبيرة كالشرك والقتل والزنا والسحر وقذف المحصـنات الغـافلات المؤمنات، ونحو ذلك كالفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا، وعقوق الوالدين واليمين الغموس، وشهادة الزور وأمثال ذلك. وترجيح هذا القول من وجوه: أحدها: أنه هو المأثور عن السلف كــابن عبـاس وابن عيينة وابن حنبل وغيرهم. الثاني: أن الله تعالى قال: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً [النساء:31]، فلا يستحق هـذا الوعد الكـريم من أوعد بغضب الله ولعنته وناره، وكذلك من اسـتحق أن يقـام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر. الثـالث: أن هـذا الضـابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله من الذنوب، فهو حد متلقى من خطاب الشارع. الرابـع: أن هذا الضـابط يمكن الفـرق به بين الكبـائر والصـغائر، بخلاف تلك الأقـوال، فإن من قال: سبعة، أو سبعة عشـر، أو إلى السـبعين أقـرب، مجـرد دعـوى،

ومن قـال: ما اتفقت الشـرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيـه، يقتضي أن شــرب الخمــر، والفــرار من الزحــف، والــتزوج ببعض المحــارم، والمحــرم بالرضاعة والصـهرية ونحو ذلك ليس من الكبـائر! وأن الحبة من مـال اليـتيم، والسرقة لهـا، والكذبة الواحـدة الخفيفة ونحو ذلك من الكبـائر، وهـذا فاسـد. ومن قال: ما سد باب المعرفة باللـه، أو ذهـاب الأمـوال والأبـدان، يقتضي أن شرب الخمـر، وأكل الخـنزير، والميتـة، والـدم، وقـذف المحصـنات، ليس من الكبائر! وهذا فاسد. ومن قال: إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونهـا، أو كل ما نهى الله عنه فهو كبـــيرة، يقتضي أن الـــذنوب في نفســـها لا تنقسم إلى صغائر وكبائر، وهـذا فاسـد؛ لأنه خلاف النصـوص الدالة على تقسـيم الـذنوب إلى صغائر وكبائر. ومن قال: إنها لا تعلم أصلاً، أو إنها مبهمـة، فإنما أخـبر عن نفسه أنه لا يعلمها، فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره، والله أعلم]. ......

انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر

هـذا الكلام يتعلق بالكبـائر؛ لأن الكلام حولها في قـول صـاحب المتن: (وأهل الكبـائر من أمة محمد صـلى الله عليه وسـلم في النـار لا يخلـدون)، يعـني: ونعتقد أن أهل الكبائر إذا دخلوا النار فإنهم لا يخلدون، بل يمكثـون فيها بقـدر ذنــوبهم، ثم يخرجــون، ولما ذكر أن هــذا قولنا في أهل الكبــائر، احــتيج إلى معرفة الكبيرة ما هي؛ وذلك لأن الله تعالى قسم الذنوب إلى قسمين: كبـائر وسيئات، فقال تعالى في سورة النساء: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَـوْنَ عَنْـهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَـيِّئَاتِكُمْ [النسـاء:31] فجعل هنـاك كبـائر وهنـاك سـيئات، ولا شك أن الكبائر سيئات ولكنها كبيرة، والسيئات التي دونها تسمى صغائر، وقال تعــالى في سورة النجم: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَـوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ [النجم:32] فقسمها إلى كبائر وإلى لمم، واللمم هو مقـدمات الـذنوب، وقد ثبت عن ابن عباس قال: ما رأيت أشـبه بـاللمم مما قـال أبو هريـرة عن النـبي صـلى الله عليه وسلم: (كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالـة، فالعينـان تزنيــان وزناهما النظــر، واليــدان تزنيــان وزناهما اللمس، والــرجلان تزنيــان وزناهما المشي، والأذنان تزنيان وزناهما السمع، واللسان يزني وزناه النطق، والقلب يهـوى ويتمـنى، والفـرج يصـدق ذلك أو يكذبــه)، فجعل التصـديق أو التكـذيب بالفعل الـذي هو الزنا بـالفرج، وجعل هـذه مقـدمات، وهي اللمم؛ وذلك لأن تحريمها من بـاب سد الـذرائع، لأنها من بـاب الوسـائل، فالأصل هو الزنا الذي حرمت هـذه الأشـياء لأجلـه. ولاشك أن الزنا من الكبـائر فقد توعد الله عليه بقوله: وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً [الإسـراء:32]، وقرنه بالشرك والقتل فقـال تعـالى: وَالَّذِينَ لا يَـدْعُونَ مَـعَ اللَّهِ إِلَهـاً آخَـرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِـكَ يَلْـقَ أَثَامـاً [الفرقان:68] فجعل هـذه الأشـياء مما يتوعد عليه بالآثـام وبالعـذاب. وبـذلك نعرف أن الـذنوب قسـمان: كبـائر وصـغائر، فـإذا قلت: ما حد الكبـيرة، حـتى نتجنبهـا؛ فتغفر لنا الصـغيرة؟ نقـول: إن الكبـائر هي الـذنوب الفاحشة الـتي

سميت فاحشة، والتي توعد عليها، إما بحد في الدنيا، وإما بعذاب في الآخرة، فمثلاً: الشرك والقتل والزنا والربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات؛ هذه قد توعد عليها بعذاب في الآخرة. ومثلاً: السرقة والقذف والسكر، هذه قد جعل فيها حد في الدنيا، وهو الجلد، أو نحو ذلك، فإذا سمعنا قوله صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب)، وقوله: (النائحة إذا لم تتب تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)، نعد النياحة من الكبائر، وكذلك إذا أطلق على الذنب أنه كفر كقوله: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية)، أو (اثنتان في الناس هما بهم كفر)، أو: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)، وأشباه ذلك، فهذه كلها من الكبائر.

خلاف العلماء في تعيين الكبائر وتعدادها

ثبتت بعض الأحاديث التي فيها عد الكبائر كقوله صلى الله عليه وسلم: (اجتنبوا السبع الموبقات)، وكقوله صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور، وشهادة الزور)، وهذه جعلها من أكبر الكبائر، وسميت اليمين الغموس بهذا لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، فاليمين الكاذبة ورد فيها وعيد شديد. ولعلكم قد قرأتم الكتب التي ألفت في ذلك، فقد ألف فيها الإمام الذهبي كتابه المشهور: كتاب الكبائر، وأوصلها إلى سبعين كبيرة، جمع فيها ما وقف عليه، وإن كان قد أدخل بعضها في بعض، وجاء بعده ابن حجر الهيتمي وألف كتاباً كبيراً سماه: الزواجر عن اقتراف الكبائر، وأوصلها إلى أربعمائة، بتفصيل في بعضها، وهذا دليل على أنهما كثيرة، ويمكن أن توجد في هذه الأزمنة ذنوب لم تكن مشهورة من قبل، فتضاف إلى هذا العدد، وبذلك يعرف أن الكبائر كثيرة، وأنها لا تحصر في سبع ولا في سبعين، كما روي عن ابن عباس أنه قال: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع، وفي رواية: إلى السبعمائة، أي: أنها قد تصل إلى سبعمائة. وقد يقال أيضاً: ضابط الكبيرة أنها ما أصر صاحبه على الذنب، ولو كان ذنباً صغيراً، ولذلك قالوا: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار. ولعل ذلك تفسير لما ورد في قصة الرجل الذي كلما أذنب ذنباً تاب إلى الله، واعترف به، وطلب من ربه أن يغفره، فغفره الله له وقال: (علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي)، فجعل الاستغفار بعدها سبباً لمحو الذنب، فنقول: إن الإصرار على الذنب ولو كان صغيراً يصيره كبيراً؛ وذلك لأنه يدل على التهاون بذلك الذنب، وبما ورد فيه من الوعيد، وتهاون بنظر الله إليه، وتهاون بما جاء في تحريمه، فأصر عليه واستمر عليه، فإذا أصر على شيء يسير ولو كان -مثلاً- أكلاً يسيراً من

الحرام، ولكنه استمر عليه فإنه يصبح كبيراً، وإذا أصر على كـذب ولو يسـيراً، كل يوم أو كل أسبوع يكذب كذبة أو كـذبتين اعتـبر هـذا ذنبـاً كبـيراً، وإذا أصر على النظر إلى النساء المتبرجات، واستمر على ذلك اعتبر اسـتمراره كبـيرة من الكبــائر، وإذا أصر على الســباب والشــتم واللعن، أو أصر على ســماع المحرم من الغناء ونحوه، أو أصر على النظر في الصور الفاتنة، واستمر على ذلك؛ اعتبر هذا الإصرار ذنباً يضاف إلى ما ورد فيه من الوعيد، واعتـبر كبـيرة من الكبائر. وأما التعريفات التي تقـدمت فكلها تقريبيـة، فكل يعـرف الكبـيرة بما يظهر لـه، ولا شك أن الـذنوب تسد بـاب المعرفـة، كما تقـدم في بعض التعاريف، وإن كان هذا التعريف ليس بواضح، وكذلك التعريفـات الأخـر، الـتي فيها: أن الكبـائر: ما توعد عليه بوعيد أو بعـذاب أو بنفي إيمـان، أو ما فيه حد في الدنيا أو عقوبة في الآخرة، والـذين قـالوا: إن الكبـائر لا تعلم ولا يعرفـون معناها، وأنها قد أخفيت كما أخفيت ليلة القدر في ليـالي رمضـان ونحو ذلـك، نقــول: لا شك أن الله ما أمر باجتنابها إلا وهي معروفــة، ولا شك أنه ورد في بعض الـذنوب ما يعين أنها من الكبـائر، كما ذكرنا في السـبع الموبقـات وفي أكبر الكبائر التي في حـديث أبي بكـرة ، وفي غـير ذلـك. وإذا عـرف العبد أن هـذه من الكبــائر، وأن الإصـرار عليها سـبب للوعيد الـذي رتب عليهـا، فإنه يجتنبها حـتى يسـلم له دينـه، وحـتى يسـتحق الوعد من الله تعـالى بتطهـير الخطايا؛ وذلك أن اجتناب الكبائر سبب لمحو الصغائر.

إياكم ومحقرات الذنوب

الصغائر قد تكثر على الإنسان، فإن كان مصراً عليها، ومكـثراً منهـا، لم يـأمن أن تهلكـه، تجتمع عليه من كل جهة فتهلكـه، وإن كـانت متفرقة ويسـيرة من غير إصرار فإن الله تعالى يغفرها بالأعمال الصالحة، والحـديث الـذي ورد في التحــذير من الكبــائر يفهم منه أنه في المصر عليهــا، قــال صــلى الله عليه وسلم: (إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه)، ثم ضرب لها مثلاً بقوم نزلوا في فلاة، فحضر جميع القوم، فجعل هذا يأتي بعود، وهذا يأتي بعود حتى جمعوا حطباً كثيراً، فأوقدوا فيه نـاراً، فأنضـجوا خـبزتهم، يعني: أن الـذنوب الصـغيرة: كلمـة، ونظـرة، وسـمعة، وبطشـة، وأكلـة، ونحو ذلك، فـإذا كـانت كثـيرة اجتمعت على الإنسـان وأحـدقت به وأهلكتـه، كما أن القوم إذا اجتمعوا وهم كثير وجاء هذا بعود وهـذا بعـرق مع أن الأرض صـحراء ليس فيها حطب، فلكـثرتهم يجمعـون ما يوقـدون به حـتى ينضـجوا طعـامهم، فهذا يبين أن الإنسان لا يأمن من الإصرار على الذنوب الصغيرة حتى لا تهلكه وتوقعه في العـذاب، أو تؤهله بـأن يكـون من أهل الوعيـد، ومن أهل العـذاب الشديد والعياذ بالله. وبلا شك فـإن التهـاون بها والإكثـار منها يـدل على عـدم

الاهتمام بتحريم الله وبنهيه، أما الذي يحذرها ويتركها خوفاً من اللــه؛ لأن الله نهى عنها وحرمها، فهو الذي يستحضر عظمة الله، ونهيه وتحذيره.

فضل التوبة وشروطها

قال الشارح رحمه الله: [وقولـه: (وإن لم يكونـوا تـائبين)؛ لأن التوبة لا خلاف أنها تمحو الـذنوب، وإنما الخلاف في غـير التـائب، وقولـه: (بعد أن لقـوا الله تعالى عارفين)، لو قال: (مؤمنين) بـدل قولـه: (عـارفين) كـان أولى؛ لأن من عــرف الله ولم يــؤمن به فهو كــافر، وإنما اكتفى بالمعرفة وحــدها الجهم ، وقوله مردود باطل كما تقدم، فإن إبليس عارف بربه قَالَ رَبِّ فَــأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُـونَ [الحجـر:36] قَـالَ فَبِعِزَّتِـكَ لأغْـوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَـادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ [ص:82-83]، وكذلك فرعون وأكـثر الكـافرين قـال تعـالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ [لقمان:25]، قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ [المؤمنون:84-85]، إلى غير ذلك من الآيــات الدالة على هــذا المعــنى، وكــأن الشــيخ رحمه الله أراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتـداء الـتي يشـير إليها أهل الطريقـة، وحاشا أولئك أن يكونـوا من أهل الكبـائر، بل هم سـادة النـاس وخاصـتهم] لا خلاف أن التوبة تمحو الـذنب ولو كـان من الكبـائر، ولو كـان من الشـرك، فـالكلام ليس في التــائب، أما أهل التوبة فلا وعيد عليهم، بل الله تعــالى يقبل تــوبتهم، ويغفر ذنـوبهم، ويـدخلهم دار كرامتـه، ويكفر عنهم بسـبب تـوبتهم ما وقعـوا فيه من كفر ومن كبائر ومن صـغائر ومن تـرك أوامـر، يمحو ذلك كله بسـبب التوبـة، وهذه التوبة لابد أن تكون نصوحاً، وهي التي أمر الله بها، تُوبُـوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَـةً نَصُوحاً [التحريم:8]؛ وذلك لأن هناك من يتوب توبة لا تزجـره عن المعاصـي، وتسـمى توبة الكـاذبين، فلا تكـون مفيـدة لـه، ولا ماحية لما وقع منـه، ولا لما فعله من الخطايـا، ولا لما تركه من الطاعـات، فلابد أن تكـون التوبة نصـوحاً. وتعرفــون أن للتوبة شــروطاً لابد منهــا، وذكر العلمــاء منها ثلاثــة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما مضى، والعزم على ألا يعود إلى الذنب. أما الذي يتوب بلسانه ويقول: أنا تائب، أو تبت إلى الله، ومع ذلك هو مصر على الذنب، حتى ولو كان صغيراً، ومتهاوناً به، فهذا لا توبة له؛ لأنه يتوب بلسانه، ويعمل الـذنب بلسانه أيضاً، يقول بلسـانه: تبت إلى اللـه، ثم يسـتعمل لسـانه في الشـتم أو في اللعن أو في القـذف، أو نحو ذلـك، أو يسـتعمل بصـره في المحـرم، بـأن ينظر إلى الحرام، أو يقول بلسانه ويأكل الحرام، وهو مسـتمر على ذلـك، فلا توبة له، وكذلك الذي يتمدح بمعاصـيه، مع أنه قد تركهـا، فيتمـدح بأنه قد زنى بكذا وكذا، ويتمدح بأنه قد قتل فلاناً وفلاناً، ويرى ذلك منحـة، ويتمـدح بأنه قد خدع فلاناً، وأخذ ماله، أو سـرق كـذا وكـذا، ويتمـدح بأنه قد شـرب كـذا وكـذا

خمراً وما أشبه ذلـك، فكل ذلك لا تقبل معه التوبـة. وهكـذا الـذي يتـوب توبة مؤقتة! بأن يعزم على أنه بعد حين سيعاود الذنب إذا قـدر عليـه، ومن أمثـال هـؤلاء: الـذين يسـافرون لأجل الزنا إلى كثـير من البلاد الإباحيـة، فـإذا جـاءوا قالوا: تبنا، ولكنهم عازمون على أن يرجعوا إلى تلك البلاد مرة أخرى؛ ليعودوا إلى ما فعلوه. وهكذا من ترك الذنب في وقت من الأوقـات، كالـذين يـتركون الخمر في رمضان أو الـدخان أو نحو ذلـك، ثم يعزمـون على العـودة إليه بعد إفطارهم، لا شك أن هؤلاء لا تقبل تـوبتهم. والحاصل أن التوبة النصـوح تمحو السيئات وتمحو الكبائر، وتمحو الشرك، وأكبر الشرك التثليث الذي ذكره الله عن النصارى، قال تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلا يَتُوبُـونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْـتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ [المائـدة:73-74]، فدعاهم إلى التوبة مع كونهم يقولون: إن الله ثـالث ثلاثـة. وكـذلك دعا الـذين يشـركون في قوله تعـالى: وَالَّذِينَ لا يَـدْعُونَ مَـعَ اللَّهِ إِلَهـاً آخَـرَ وَلا يَقْتُلُـونَ النَّفْسَ الَّتِي حَـرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِـالْحَقِّ وَلا يَزْنُـونَ وَمَنْ يَفْعَـلْ ذَلِـكَ يَلْـقَ أَثَامـاً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَنْ تَـابَ [الفرقـان:68-70] فاستثنى من هؤلاء التائب فإنه تقبل توبته، وقد ذكر الله أنه يبدل سـيئاته حسـنات. والمـراد أن التوبة الصـادقة تكـون سـبباً لمحو الـذنوب كلها كبائرها وصـغائرها، أما ما يتعلق بأهل الكبـائر الـذين لم يتوبـوا، فقد عرفنا أنهم تحت مشيئة الله، إذا شـاء الله عـاقبهم وعـذبهم بقـدر ذنـوبهم، وإذا شـاء غفر لهم ومحا عنهم ما وقعوا فيه من السيئات، ومعلوم أنا لا نـأمن أن ينتقم الله منهم في الـدنيا، وأن يغضب عليهم في الآخـرة، فيعـذبهم على هـذه الـذنوب الـتي اقترفوها، ومعلوم أيضاً أن عـذاب الله شـديد، وأن العـذاب في النـار لا يقـدر عليه أحد، قال الله في عذاب النـار: فَاصْـبِرُوا أَوْ لا تَصْـبِرُوا سَـوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْـزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُـونَ [الطـور:16] ومن يطيق الصـبر على ذلك العـذاب الشديد؟! فإذا عرف المـؤمن أنه بـاقتراف هـذه السـيئات متوعد بهـذا الوعيد الشــديد؛ زجـــره ذلك وحمله على أن يتـــوب إلى الله تعـــالى، ويقلع عن السيئات.......

من عقيـدة أهل السـنة الصـلاة خلف كل بر وفـاجر، وللصـلاة خلف المبتـدع أحكام بين أهل العلم رحمهم الله اختلافها باختلاف البدعة والمبتدع، كما تـدل على ذلك النصوص الشرعية.

مجمل اعتقاد أهل السنة في مسألة التكفير

عقيدة أهل السنة والجماعة تخالف عقائد المبتدعة، ومبنى هذه العقيـدة على سنة النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وعلى الجماعة الـتي هي اجتمـاع كلمتهم على الحـق، واجتمـاعهم على إمـامهم، وعلى متبـوعهم، وبـذلك سـموا أهل السنة، وسموا أهل الجماعة، فالجماعة في الأصل هم: الذين كـانوا مجتمعين على الحق في الزمن الماضي، ويراد بهم السلف الصالح، ولا شك أنهم كـانوا مجتمعين، وغيرهم كانوا متفرقين، ولأجل ذلك فسـرت الآية الـتي في سـورة آل عمـران، وهي قوله تعـالى: يَـوْمَ تَبْيَضُّ وُجُـوهٌ وَتَسْـوَدُّ وُجُـوهٌ [آل عمـران: 106] بأنه تـبيض وجـوه أهل السـنة والائتلاف، وتسـود وجـوه أهل الفرقة والاختلاف، فـدل على أن أهل السـنة مجتمعـون ومتـآلفون، وأن أهل البـدع مفترقون ومتخـالفون، ومخـالفون للحق وللصـواب. ومن عقيـدة أهل السـنة أنهم لا يكفرون بالذنوب، ولا يخرجون المذنب من الإسلام، وخـالفهم في ذلك كثير من المبتدعة، فكفروا بمجرد اقتراف الذنوب، وأخرجـوا أهل الكبـائر من الإسـلام، ولا شك أن ذلك فيه اعتـداء على حرمـات المسـلمين، بحيث إنهم كفروا المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم، والمراد بالـذنوب هنـا: الـذنوب الـتي دون الكفـر، وتسـمى كبـائر الـذنوب، فإنها لا يبلغ أصـحابها أن يحكم بكفرهم، فلا نكفر من قاتل المسلمين إذا كـان متـأولاً، ولا نكفر البغـاة الـذين يثورون على الأئمة، ولا نكفر قطاع الطريق، ولا نكفر من فعل جريمة الزنا أو جريمة السرقة أو القذف أو شرب الخمر أو شرب الدخان أو ما أشبه ذلك، لا نكفر هـؤلاء، وكـذلك من ارتكب بقية المحرمـات. ولكن الـذي يكفر هو الـذي يستحل الحرام، ويرد النصوص الصـريحة، ويعتمد على هـواه، فمثل هـذا -ولو لم يفعلها- يعتبر كافراً؛ لأن من استحل الحرام الصريح الـذي دليله كالشـمس يعتبر قد رد على الله تعالى شريعته، ورد على الرسول صلى الله عليه وسلم سنته. وهناك ذنوب يوجد خلاف في التكفـير بهـا، مثل تـرك الصلاة والإصـرار على تركهـا، والتهـاون بهـا؛ وذلك لـورود الأدلة الـتي تنص على كفر من تـرك الصلاة، ولا شك أن الكفر الذي ورد فيمن ترك الصلاة من الكفر الـذي سـمي به الكفار، وإن كان بعضهم قد تأول ذلك، وبكل حال فهذه طريقة أهل السـنة والجماعـة. كـذلك أيضـاً من طـريقتهم أنه إذا مـات أحد العصـاة ونحـوهم لا يتركون الصـلاة عليـه، وقد تـترك الصـلاة على بعضـهم للزجـر، يتركها الإمـام ونحوه، كمن قتل نفسه فلا يصلي عليه الإمام، وكـذلك من غل لا يصـلي عليه الإمام، ويصلي عليه بقية الجماعة، وقد ثبت أنه صـلى الله عليه وسـلم صـلى

على المـرأة الـتي رجمت بعد أن اعـترفت بالزنـا، وأخـبر بـأن اعترافها يعتـبر توبة. وأباح الصلاة على العصاة، وقـال: (صـلوا على من قـال: لا إله إلا اللـه، وصــلوا خلف من قــال: لا إله إلا اللــه)، فهــذه طريقة أهل الســنة في عــدم التكفير. وأما المعتزلة فإنهم يكفرون بمثل هذه الـذنوب، ويخرجـون المسـلم بها من الإسلام، وإن لم يدخلوه في الكفـر، بل يجعلـوه بين الإسـلام والكفـر، وطريقة الخـوارج: أنهم يخرجونه من الإسـلام ويدخلونه في الكفـر، والفـرق بينهما أن الخوارج يستحلون دمـه، ويسـبون امرأته وابنتـه، ويسـتحلون مالـه، ويستحلون قتله. أما أهل السنة فإنهم يقولون: إن المؤمنين من هــذه الأمة لا يخلـدون في النـار، وإن دخلوهـا، فـإنهم بعـدما تكفر عنهم سـيئاتهم يخرجـون منهـا، هـذه عقيـدة أهل السـنة، وإن خـالفهم في ذلك من خـالفهم فلا عـبرة بمخالفتهم.......

الحق يعرف بدليله لا بقائله

أهل السنة هم المتمسكون بكتـاب الله تعـالى وبأحـاديث نبيه صـلى الله عليه وسلم، ومنهم الأئمة الأربعة، ومنهم الهداة الـذين هـدى الله تعـالى بهم خلقـاً كثـيراً في صـدر هـذا الإسـلام، وإن كـانوا يقلـون في بعض الأزمنـة، ويكـثر المبتدعــة، ففي زماننا قد يكــون المتمســكون بالســنة حقــاً قلة في البلاد، ويصدق على هذا الزمان أنه زمان الغربة، الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطـوبى للغربـاء، قيـل: من الغرباء؟ قال: الذين يصلحون عند فساد الناس)، وفي رواية: (الذين يصـلحون ما أفسد الناس من سنتي)، وفي بعض الروايـات: (الـذين يفـرون بـدينهم من الفتن)، فـإذا وقعت الفتن والاختلافـات والبـدع في بلاد هربـوا ونجـوا بـدينهم، وفي رواية: (النزاع من القبائل)، يكون من الأسرة واحد أو اثنــان، من القبيلة عشـرة أو خمسـة، من البلـدة عشـرة أو عشـرون، والبقية مخـالفون لهم، أو ينتقدونهم، فهؤلاء هم الغرباء، فطوبى للغربـاء. ولكن لا يضر الحق قلة أهلـه، فالعبرة بالمتمسكين بالحق، والعـبرة بالأدلـة، وليس العـبرة بكـثرة الهـالكين، وذلك لكثرة الأسباب التي تحرف النـاس وتصـرفهم عن الحـق؛ لكـثرة الفتن، ولكـثرة المغريـات، ولكـثرة الـدعايات المضـللة. إذاً: لا عجب -مع كـثرة هـذه المغريات- من كثرة الهالكين، كما قال بعض السـلف: ليس العجب ممن هلك كيف هلك، إنما العجب ممن نجا كيف نجـا! يعـني: مع كـثرة الفتن، ومع كـثرة الــدعايات والمضــللات يســتغرب أن هــذا الإنســان يمن الله عليه بالهدايــة، ويوفقه للتمسك بالشريعة، ويعض عليها بالنواجـذ، مع كـثرة من يخذله ويؤنبه ويوبخه ويرميه بالرجعية، ويرميه بالتقهقر والتـأخر، ويرميه بـالتزمت والتشـدد والغلو، وما أشـبه ذلـك، ولكن إذا رزقه الله إخلاصـاً، وتمسك بـالحق، وصـمد عليه؛ فلا يضـره ذلـك، وسـيجعل الله له فرجـاً ومخرجـاً. أهل السـنة في كل زمان يرميهم أهل البـدع بالشـذوذ، ويرمـونهم بالتغفيـل، ويرمـونهم بالأسـماء التي ينكرون بها، فيقولون لهم: مشبهة، ومجسمة، وحشوية، ونـوابت، وغثـاء،

وغُثُر، ونحو ذلك من الأسماء التي ابتدعوها وما أنزل الله بها من سلطان، ولا تنطبق عليهم، وإنما تنطبق على أعدائهم، فلا تضرهم هذه الألقاب. إذاً: لا عبرة بمن خالفهم، إنما العبرة بمن وافق الحق وتمسك به، فالحق حق ولو قل المتمسكون به، والباطل باطل ولو كثر المعتنقون له، إنما العبرة بالدليل، ولا شك أن حجة الله تعالى قوية، وأن من احتج بالدليل الواضح فإنه غالب ولو صمد أمامه الناس، وقد مضت لنا أدلة عقلية وأدلة نقلية تبين صحة ما عليه أهل الحق. ......

حكم الصلاة خلف المبتدع والفاسق

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [قال المصنف رحمه الله تعالى: [قوله: (ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة، وعلى من مات منهم). قال صلى الله عليه وسلم: (صلوا خلف كل بر وفاجر) رواه مكحول عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الدارقطني قال : مكحول لم يلق أبا هريرة ، وفي إسناده معاوية بن صالح متكلم فيه، وقد احتج به مسلم في صحيحه، وخرج له الدارقطني أيضاً وأبو داود عن مكحول عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم بر وفاجر، وإن عمل بالكبائر، والجهاد واجب عليكم مع كل أمير بر وفاجر، وإن عمل الكبائر) وفي صحيح البخاري : أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي وكذا أنس بن مالك وكان الحجاج فاسقاً ظالماً، وفي صحيحه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يصلون لكم؛ فإن أصابوا فلكم ولهم وأن أخطأوا فلكم وعليهم، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (صلوا خلف من قال لا إله إلا الله، وصلوا على من مات من أهل لا إله إلا الله) أخرجه الدارقطني من طرق وضعفها. اعلم رحمك الله وإيانا: أنه يجوز للرجل أن يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا باتفاق الأئمة وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ولا أن يمتحنه فيقول : ماذا تعتقد ؟! بل يصلي خلف المستور الحال. ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته أو فاسق ظاهر الفسق، وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلا خلفه، كإمام الجمعة والعيدين، والإمام في صلاة الحج بعرفة، ونحو ذلك، فإن المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند أكثر العلماء، والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون، كما كان عبد الله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف ، وكذلك أنس رضي الله عنه كما تقدم، وكذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان يشرب الخمر، حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعاً، ثم قال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود : ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة. وفي الصحيح أن عثمان بن عفان

رضي الله عنه لما حصر صلى بالناس شخص، فسأل سائل عثمان : إنك إمام عامة، وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنة؟ فقـال: يا ابن أخي! إن الصـلاة من أحسن ما يعمل النـاس، فـإذا أحسـنوا فأحسن معهم، وإذا أسـاءوا فـاجتنب إساءتهم. والفاسق والمبتدع صلاته في نفسـها صـحيحة، فـإذا صـلى المـأموم خلفه لم تبطل صـلاته، لكن إنما كـره من كـره الصـلاة خلفـه؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب. ومن ذلك: أن من أظهر بدعة وفجوراً لا يرتب إماماً للمسـلمين، فإنه يسـتحق التعزيز حـتى يتـوب، فـإن أمكن هجـره حتى يتوب كـان حسـناً، وإذا كـان بعض النـاس إذا تـرك الصـلاة خلفه وصـلى خلف غيره أثَّر ذلك في إنكار المنكر حتى يتوب أو يعزل، أو ينتهي النـاس عن مثل ذنبه، فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كـان في ذلك مصـلحة شـرعية ولم تفت المأموم جمعة ولا جماعة، وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة، فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصـحابة رضي الله عنهم. وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاةُ الأمـور، ليس في تـرك الصـلاة خلفه مصلحة شرعية، فهنا لا يترك الصلاة خلفه، بل الصلاة خلفه أفضل، فإذا أمكن الإنسـان ألا يقـدم مظهـراً للمنكر في الإمامة وجب عليه ذلـك، لكن إذا ولاه غـيره، ولم يمكنه صـرفه عن الإمامـة، أو كـان لا يتمكن من صـرفه عن الإمامة إلا بشر أعظم ضـرراً من ضـرر ما أظهر من المنكـر، فلا يجـوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما، فـإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلهـا، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، فتفويت الجمع والجماعات أعظم فسـاداً من الاقتـداء فيهما بالإمـام الفاجر، لا سيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجـوراً، فيبقى تعطيل المصـلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة. وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر، فهـذا أولى من فعلها خلف الفـاجر، وحينئذ فـإذا صـلى خلف الفـاجر من غير عذر، فهو موضع اجتهاد العلماء: منهم من قال: يعيـد، ومنهم من قـال: لا يعيد، وموضع بسط ذلك في كتب الفروع. وأما الإمـام إذا نسي أو أخطـأ، ولم يعلم المأموم بحاله فلا إعادة على المأموم، للحديث المتقدم، وقد صلى عمر رضي الله عنه وغـيره وهو جنب ناسـياً للجنابـة، فأعـاد الصـلاة ولم يـأمر المأمومين بالإعادة. ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غـير طهـارة أعـاد عند أبي حنيفة ، خلافاً لـمالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه، وكـذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم، وفيه تفاصيل موضعها كتب الفـروع. ولو علم أن إمامه يصـلي على غـير وضـوء فليس له أن يصـلي خلفـه؛ لأنه لاعب وليس بمصل]. ......

الأولوية في الإمامة تكون للأقرأ

هـذا الكلام يتعلق بالصـلاة خلف الـولاة وخلف الأئمـة، وبلا شك أن إمـام المسلمين الذي يصلي بهم، والـذي يـؤمهم في الصـلوات الجامعـة، كالجماعة والأعياد ونحوها، يجب أن يكون أهلاً، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسـلم

قال: (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كـانوا في القـراءة سـواء فـأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقـدمهم هجـرة)، وفي روايـة: (فـأكبرهم سناً)، وقد جعل العلماء ترتيب الأئمة على هذا الحديث، وذكـروا أن الأقـرأ إذا كان عالماً بفقه الصلاة فإنه يقدم على غيره، بشرط معرفته بأحكـام الصـلاة، ثم بعده إذا اسـتوى اثنـان أو أكـثر في العلم والفقه قـدم من هو أوسع علمـاً بالسنة، يعني: بالأحاديث النبوية، وصـحيحها وما يتصل بهـا، ثم إذا اسـتووا في ذلك مع غـيرهم قـدم من هو أقـدم علمـاً وأقـدم هجـرة، ثم بعد ذلك يقـدم أكبرهم سناً، ثم بعد ذلك يقدم أتقاهم وأخشاهم لله سبحانه وتعالى وأورعهم.

وجوب الصلاة خلف الولاة وإن كانوا فساقاً

معلوم أن ولاة الأمور سابقاً كانوا هم الذين يخطبون بالناس، وكانوا هم الذين يصـلون بهم الجمع والأعيـاد، فكـان الخليفة أو أمـير البلاد هو الـذي يتـولى الإمامة، وقد يكون فيه بعض من النقص، وبعض من الخلـل، ولكنهم لما تولـوا بالقوة، ولما كانت لهم سيطرة وسلطة وولاية؛ كانت طاعتهم واجبـة؛ لما في مخـالفهم ومعصـيتهم من المفاسد الكثـيرة، فـإن معصـية ولاة الأمـور، ومخالفتهم، وترك الصلاة خلفهم، وتضليلهم، وترك طاعتهم؛ يسـبب الشـقاق، ويسـبب الفتن، ويسـبب الظلم والحبس والضـرب والقتـل، وتفريق الكلمـة، وإساءة الظن، وما أشبه ذلك، فجاءت الشريعة بالسمع والطاعة لولاة الأمور، حـتى قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم وغـيره: (اسـمع وأطـع، وإن ضـرب ظهـرك وأخذ مالـك)، وما ذاك إلا لأن في الطواعية وفي الانقيـاد لهم جمعـاً لكلمة المسلمين، وعدم تفريق لهم. فإذا كان الوالي هو الذي يتولى الإمامـة، ويتولى الخطبة، ويتولى الصلاة، ويتولى قيـادة الجهـاد، ويتـولى إمامة الحجـاج في عرفة وفي غيرها من المواقف، فإنهم يصلون خلفـه، ولا يـتركون الصـلاة خلفـه، وهـذا فيما فـإذا لم يوجد غـيره، إذا كـان المسـلمون لا يصـلون إلا في مسجد واحد، وإمام هذا المسجد هو هذا الأمير، وكان فيه شيء من النقص أو الخلل في دينه، من ارتكاب ذنب، أو إصرار على معصية، أو تـرك لشـيء من الطاعـات أو نحو ذلـك، فالصـلاة خلفه أفضل من أن تصـلي وحـدك أو تـترك الجمعة أو تترك الجماعة أو تترك العيد أو ما أشبه ذلك، هذا هو الـواجب على المسلم.

صلاة الصحابة خلف الولاة والظلمة والفسقة

الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون خلف الولاة الظلمة: كالحجاج، فقد كان ابن عمر وأنس وغيرهما يصلون خلفه، وهو مشهور بإراقة الدماء، ولم يشتهر عنه إلا أن في سيفه رهقاً، فكان كثير القتل في المسلمين، بمجرد التهمة وبمجرد الظن، ولذلك اعتبروه فاسقاً، وإن لم يكن فاسقاً في الاعتقاد، وإن لم يكن مخلاً بالعبادات، ولم يذكر عنه شيء من اقتراف المحرمات، بل كان شديداً على العصاة، فكان يقيم الحدود، ويجلد الزاني وشارب الخمر، وينهى عن سماع الغناء وما أشبه ذلك، وما نقم عنه إلا أن في سيفه رهقاً، فقد قتل عدداً كثيراً من المسلمين، وإن كان قتلهم متأولاً، وبكل حال فقد جعلوه من العصاة، وحكموا عليه بأنه عاص، ومع ذلك كان يؤم الناس في عرفة، ويصلي خلفه بعض الصحابة كعبد الله بن عمر بن الخطاب ، ويصلي بالناس بالكوفة في العراق، ويصلي خلفه أنس بن مالك .
وكذلك في عهد عبد الله بن مسعود كان الوالي على الكوفة من قبل عثمان الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وكان متهاوناً بشيء من المحرمات، ومن ذلك أنه كان يشرب الخمر، فصلى بهم مرة وهو سكران، حتى صلى بهم الصبح أربعاً، والتفت إليهم وقال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود : ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة، ومع ذلك ما تركوا الصلاة خلفهم؛ لأنهم إذا تركوها صلوا فرادى، ولا شك أن هذا من ترك السنة، ومن ترك الجماعة، فالصلاة مع الجماعة خير ولو كان ذلك الإمام الذي فرض نفسه فيه شيء من الخلل والنقص. ولا ينقص ذلك صلاة المصلي. وكما تقدم أن الصلاة من أحسن أعمالهم، فإذا صلوا وأحسنوا فصلاتهم صحيحة، إذا أقاموا ركوعها وسجودها وخشوعها وقراءتها، وجميع ما يشترط فيها، فهي عمل صالح مبرور، فليس لنا أن نترك الصلاة لأجل فسقهم، ما دام أنهم يقيمون الصلاة كما ينبغي، وبإظهارهم للصلاة يحكم بأنهم مسلمون، فإن من صلى حكم بأنه مسلم، وعومل معاملة المسلمين، ولهذا لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض الولاة وبعض الأمراء يستحلون الدماء، ويفعلون ويفعلون، قيل: (يا رسول الله! أفلا نقاتلهم؟ قال: لا، ما صلوا، أو ما أقاموا فيكم الصلاة) أي: ما داموا يصلون، ويقيمون الصلاة، فالصلاة من أحسن الأعمال، فلا تخرجوا عليهم، ولا تقاتلوهم ولا تقتلوهم.

الصلاة خلف المبتدع وتفاصيلها

إذا لم يكن هناك ولاة يصلون بالناس كما في هذه الأزمنة، فإنه يختار للإمامة الأكفأ والأورع، ويعزل عنها المبتدع والعاصي المتظاهر بمعصية، فإذا عرف

بأن هذا الشخص يتظاهر بمعصية، أو يفعل ذنباً من الذنوب، فلا يجوز أن يعين إماماً راتباً، بل إذا علم الناس منه هذا الذنب فإن عليهم أن يؤخروه، ويسـعوا في خلعه وإبعاده. أما لو لم يقدروا فالصلاة خلفه صحيحة إذا أتمهـا، ولكن إذا وجد من هو أحسن منه فليصـلى خلف الحسـن، فـإذا رأيت أن إمـام ذلك المسجد يستحل سماع الغناء، أو يحلق لحيتـه، أو يسـكر، أو يـدخن، أو يسـبل ثوبه، يصلي مسبلاً، أو يؤوي بعض الفسقة والأشرار، ويستضيفهم ويؤيدهم، أو يتأخر عن بعض الصلوات، أو يتركها تركـاً، أو ما أشـبه ذلـك، وتعلم ذلك منـه، وتجد إمامـاً في مسـجد آخر -ولو بعيـداً- تقيـاً ورعـاً، محافظـاً على العبـادة، متنزهاً عن الآثام، فلا شك أن الصلاة خلف ذلك التقي، وذلك الورع، أولى من صلاتك خلف هذا العاصـي. أما لو كـان تـرك الصـلاة خلف ذلك الإمـام يسـبب ارتداعه فـإن ذلك يلـزم. فلو أن الإمـام شـيعي، أو قبـوري، أو عـاص مظهر للمعصية، أو معتزلي مخالف للعقيدة، أو يعتقد مذهب المتصـوفة، أو ما أشـبه ذلك، ومع ذلك دعوناه وبينا لـه، فأصر على معتقـده، وصـار إمامـاً يصـلي في هذا المسجد، فكوننا نصـلي خلفه فيه إقـرار لهـذه البدعة أو تقوية لهـا، ولكن علينا أن نسعى في إزالته، ونسعى في إبعاده وفصله، وإن لم نقدر، وكان في ترك الصلاة خلفه تنفير للناس منه؛ تركنا الصـلاة خلفـه، وذهبنا إلى المسـاجد الأخرى، سيما إذا ترك الصلاة خلفه الـذين لهم كلمة مسـموعة، فهـذا يسـبب ارتداعه، ويسبب توبته، ورجوعه عما يعتقده، فيقـول: قد تـرك هـؤلاء الصـلاة خلفي، ولا شك أنهم عرفوا أن ما أفعله خطأ، فيرجع إلى نفسه ويتوب، سواء كان الذنب الذي فيه بدعة أو معصية، فيرجع عن بدعته التي هي -مثلاً- تعظيم القبور، أو سب الصحابة كما يفعله الرافضة، أو اعتقاد تفضـيل بعض الصـحابة على الخلفاء، أو ما أشبه ذلك، أو كان على مذهب المتصوفة الذين يدعون أن الـولي أفضل من الأنبيـاء، أو أن أوليـاءهم يسـتطيعون أن يأخـذوا من الملأ الأعلى، أو ما أشبه ذلك من عقائد الصـوفية الباطلـة، أو كـان عاصـياً معصـية ظاهرة: يحلق لحيته، أو يشرب الدخان، فإذا ترك النـاس الصـلاة خلفه ارتـدع وفكـر، وعلم أنه مخطئ، وأنهم ما تركـوا الصـلاة خلفه إلا وقد أنكـروه، وأن الصـواب معهم، وأنهم مجموعة كبـيرة، ولا يمكن أن يكـون هو المصـيب وهم المخطئون مع كثرتهم، ففي ذلك فائدة، فنقول: تـترك الصـلاة خلفـه، هـذا إذا وجد غيره، فأما إذا لم يوجد إلا هو فإن الصـلاة خلفه مجزئـة، وهي أفضل من الصلاة على الانفراد كما ذكرنـا. وبكل حـال فالصـلاة خلف الـولاة إذا لم يوجد غيرهم لازمـة، ولا يجـوز الانفـراد عنهم، والصـلاة خلف العصـاة كـذلك، إذا لم يوجد غيرهم.

الإمامة العارضة يتسامح فيها ما لا يتسامح مع الإمامة الراتبة

قد تدخل بعض المساجد وتجد الصـلاة الأولى قد صـليت، وتجد جماعة أخـرى قد قدموا واحداً أنت تعرف أنه يدخن، أو تراه مسبلاً، أو تـراه حليقـاً، وتعـرف منه مالا يعرف هؤلاء الذين يصلون خلفه، فمـاذا تفعـل؟ نقـول: صل خلفه ولا تصل وحدك؛ وذلك لأنه في هذه الحال صلاته عارضة، وليست مستمرة، وإنما إمامته إمامة عارضـة، بخلاف ما إذا كـان راتبـاً، أما إذا رتب في مسـجد من عـرف بالفسق وبـالفجور، وبسـماع الأغـاني، وبـالنظر إلى الصـور، وبمغازلة النساء، وبالتساهل مع نسائه بإباحة السفور لهن أو نحو ذلك، فـإذا عـرف منه ذلك فلا يجـوز إقـراره في إمامة المسـلمين؛ لأن في ذلك إظهـاراً لمنكـره، وتمكينـاً لـه، فـإن كونه يتـولى الإمامة فيه شـيء من تشـجيعه وتقديمه ورفع معنويتـــه، ورفع مســـتواه، وفي ذلك رفع للباطل على الحـــق، فعلى جماعة المسجد أن يسـعوا جميعـاً في عزلة عن الإمامة وعن الخطابـة، ويسـعوا في تولية من هو أهل، وعلى المسئولين بعد أن يتأكـدوا من صـحة ما رمي به وما وصف به، أن لا يقروه على هذه الإمامة، فـإقراره فيه تقوية للمنكـر، وإظهـار لأهل المنكـــر، وعزله فيه إذلال وإهانة للعصـــاة، ودفع لهم عن التظـــاهر بالمعاصـي. وبكل حـال معلـوم أن صـلاة الجماعة من واجبـات الإسـلام، وأن المسـلمين مـأمورون بـأن يجتمعـوا في مسـاجدهم، ويقـدموا واحـداً منهم، ويصـلوا خلفـه، يركعـوا بركوعـه، ويتبعـوه في السـجود، وفي الرفـع، وفي الخفض، وفي الحركات كما هو معلـوم في كتب الفـروع، ولكن لابد أن يكـون الإمام قدوة حسنة؛ وذلك لأنه سمي إماماً، والإمام هو القدوة الذي يـؤتم بـه، يقول عليه الصلاة والسلام: (إنما جعل الإمام ليـؤتم بـه)، حـتى من جهة تـرك المعاصي، ومن جهة صحة العقائد.

حكم الصلاة وراء الإمام المحدث

أشـار الشـارح إلى مسـائل فروعيـة، وذكر أن الكلام عليها واسـع، ومحله في كتب الفـروع، وهو صـحيح، فمثلاً: من صـلى بالنـاس محـدثاً -حـدثاً أكـبر أو أصغر-، وصلى النـاس خلفه وهم لا يعرفـون حدثـه، فما الحكم؟ هـذه مسـألة فروعية، ففرقوا بين ما إذا كان علم بالحـدث وهو في نفس الصـلاة فاسـتمر فيهـا، فـإنهم يعيـدون، وما إذا لم يتـذكر إلا بعد ما انصـرف فـإنهم لا يعيـدون، واستدل بقصة عمر، فإنه صـلى مـرة الصـبح بالجماعـة، ثم رأى على ثوبه أثر احتلام، فاغتسل وأعاد الصلاة، ولم يأمرهم بالإعادة، هذا هو القول المشـهور. وقد روي عن علي أنه أمرهم بالإعـادة، فإنه مـرة صـلى بالجماعة محـدثاً في الكوفة، ولما كان بعد ثلاثة أيام تذكر أنه صـلى بهم ذلك الـوقت وهو محـدث، فأمر منادياً ينادي في الأسواق: من صلى مع أمير المؤمنين في اليوم الفلاني

الصلاة الفلانية فليعد تلك الصلاة، ولعل ذلك من باب الاجتهــاد من علي رضي الله عنه، وهذه مسألة فروعية.

إذا ترك الإمام بعض واجبات الصلاة اجتهاداً

من المســائل الفروعية الــتي ذكرها الشــارح: إذا تــرك الإمــام شــيئاً يعتقد المأموم أنه واجب، والإمام يعتقد أنه ليس بــواجب، ففي هــذه الحــال الصــلاة صحيحة، صلاة الإمام صحيحة، وصلاة المأموم صــحيحة أيضــاً. وقد كــان هنــاك اختلاف بين الشــــافعي ومالك ، فــــالشافعي رضي الله عنه يــــرى الجهر بالبســـملة، بل يراها واجبــة، ومالك لا يــرى البســـملة من الفاتحــة، فقيل للشافعي : هل نصلي خلف من يتبع الإمام مالك ؟ فقال: ألست أصــلي خلف مالك ؟ مالك هو شــيخه، ومع ذلك كــان يصــلي خلفــه، وهو لا يقــرأ البســملة، والشافعي يرى وجوب الجهر بالبسملة. وكذلك رفع اليدين عند الركــوع، وعند الرفع من الركــوع لا يــراه الحنفيــة، والشــافعية ونحــوهم يرونه من الســنن المؤكــدة، فــإذا تركه الإمــام الحنفي، وصــلى خلفه شــافعي أو حنبلي فصــلاته صــحيحة، ولا خلاف في ذلــك؛ لأنه صــلى خلف إمــام مجتهــد، رأى أن ذلك من جملة صــلاته. وهكــذا التــأمين في الصــلاة، بعض الأئمة يرونه بدعة كالحنفيــة، حــتى إنهم يبطلــون الصــلاة خلفــه، وإذا صــلى حنفي خلف شــافعي وأمَّن في الصــلاة لم تبطل صــلاته؛ لأنه مجتهــد، ولكل مجتهد نصــيب، وهــذه المســائل تفريعها والخلاف فيها مذكور في كتب الأحكام.

المطاعون في مواضع الاجتهاد

قال الشارح رحمه الله: [وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر وإمام الصلاة والحاكم وأمير الحــرب وعامل الصــدقة يطــاع في مواضع الاجتهــاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في مــوارد الاجتهــاد، بل عليهم طاعته في ذلك، وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفســدة الفرقة والاختلاف أعظم من أمر المسائل الجزئيــة، ولهــذا لم يجز للحكــام أن ينقض بعضهم حكم بعض، والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض. يــروى عن أبي يوسف أنه لما حج مع هــارون الرشــيد فــاحتجم الخليفة وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ، وصلى بالناس، فقيل لــأبي يوسف : أصليت خلفه؟

قال: سبحان الله! أمير المؤمنين، يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع. وحـديث أبي هريـرة الـذي رواه البخـاري أن رسـول الله قال: (يصـلون لكم فـإن أصـابوا فلكم ولهم، وإن أخطـأوا فلكم وعليهم)، نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه لا على المــأموم، والمجتهد غايته أنه أخطأ بـترك واجب اعتقد أنه ليس واجبـاً، أو فعل محظـور اعتقد أنه ليس محظوراً، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هـذا الحـديث الصـــريح الصـــحيح بعد أن يبلغـــه، وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشـافعية والحنبلية أن الإمــام إذا تــرك ما يعتقد المــأموم وجوبه لم يصح اقتداؤه بـه، فـإن الاجتمـاع والائتلاف مما يجب رعايته وتـرك الخلاف المفضي إلى الفسـاد]. قد وردت أدلة في طاعة ولاة الأمـور مـذكورة في كتب العقائد وكتب الأحكام، وكل يطاع حسب ولايته، وكل له ولاية تخصـه، فهنـاك الخليفة الذي تحت ولايته جميع المسلمين، في شرق الأرض وغربها، كما كان الخلفـاء الراشدون، وكذلك خلفـاء بـني أمية وبـني عبـاس كـانت خلافتهم عامة لجميع البلاد الإسلامية، فطـاعتهم فيما أمـروا به إذا لم يكن معصـية تعتـبر من طاعة الله، فقد ثبت عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (من أطـاعني فقد أطـاع اللــه، ومن عصـاني فقد عصى اللــه، ومن أطــاع أمـيري فقد أطـاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني)، فهذه ولاية عامة. وهنـاك ولاية أخص منهـا، مثـل: ولاية أمير الحجاج، وولاية أمير المجاهدين، فإنهم مأمورون بأن يـؤمروا عليهم أحدهم، بل كل من سافر سفراً ولو قصيراً وكانوا جماعة، عليهم أن يــؤمروا، كما في بعض الأحـــاديث أنه صـــلى الله عليه وســـلم قـــال: (لا يحل لثلاثة يسافرون إلا أمروا واحداً منهم)، أو كما ورد في الأحاديث، فهـذا الأمـير الـذي يؤمرونه عليهم أن يطيعوه ما لم يأمر بمعصية، أما إذا أمر بمعصـية فلا سـمع ولا طاعـة، وقد اشـتهر حـديث عبد الله بن حذافة لما أمـره صـلى الله عليه وسلم على سرية، وأمر الصحابة الذين معه أن يطيعوه، فسار بهم أياماً، ولما كانوا مرة في مكان نازلين، كأنه غضب على بعضهم، فأمرهم أن يوقدوا ناراً، وقال لهم: ادخلوهـا، أليس قد أمـركم رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أن تطيعوني، فهم بعضهم أن يـدخلها! ثم قـالوا: ما فررنا إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم إلا خوفـاً من النـار، فما زالـوا يتحـاجون حـتى طفئت النـار وسكن غضبه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو دخلوها ما خرجـوا منهـا، إنما الطاعة في المعروف)، فأمرهم بطاعتـه، ولكن بين في هـذا الحـديث أن الطاعة إنما تكون فيما كان معروفاً، فأما مثل هذا فلا طاعة. وثبت أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، فإذا أمر الوالي بمعصية فلا سمع ولا طاعة، أما إذا أمر بطاعة أو أمر بما فيه مصـلحة، أو أمر بما هو اجتهاد فإن أتباعه والذين تحته يطيعونه ولا يخرجون عن طاعتـه، هـذه هي وظيفة أتباعه، وسـواء كـانت إمـارة في بلـد، أو على جيش، أو سـرية، أو على غزو، أو على حجاج، أو عامل زكاة يذهب لجمع الزكاة ونحوها، كل هؤلاء لهم ولاية بحســـبهم. وكـــذلك من جعل رئيســـاً أو مـــديراً لمؤسسة من المؤسســات، أو دائـرة من الــدوائر الحكومية أو نحو ذلــك، وجعل تحته من يخدمه أو من يعمل، وكانوا تحت ولايته، فإن عليهم أن يقدروا ما يـأمرهم بـه،

بشـرط ألا يـأمرهم بمعصـية تخـالف نصـاً صـريحاً، فهـذه وظيفة هـؤلاء أنهم ينفذون، ولكن بكل حـال طـاعتهم تكـون بقـدر المصـلحة الـتي يـؤمرون بهـا، ومعلوم أن ولايتهم إنما هي خاصة في محيطهم، وأما إذا كان الإنسان خارجـاً عن ولايتهم، كما إذا انتهى من شـغله معهم، أو كـان في بيته أو في سـوقه فليس لهم ولاية عليه. ومعلوم أن أمـير الجيش أو أمـير البلد أو أمـير الـدائرة ونحوها بشر، وليس بمعصوم، وليست أقواله كلها صريحة في أنها واقعية، بل كثـيراً ما يفعل الشـيء ويكـون عن اجتهـاد، فعلى أتباعه ووزرائه وزملائه أن يشيروا عليه بما يرون فيه المصـلحة، وقد كـان النـبي صـلى الله عليه وسـلم يستشير أصحابه، ويقبل إشـاراتهم ويقبل اقتراحـاتهم، ولـذلك أمثلـة: لما غـزا غزوة بدر ونزل منزلاً قرب بدر، قال له بعض أصحابة: هذا المـنزل يا رسـول الله أنزلك الله إيـاه أم هو الـرأي والمكيـدة؟ قـال: (بل هو الـرأي والمكيـدة، فقـال: إن هـذا غـير مناسـب، وإن المناسب أن نـنزل في المكـان الفلاني، فنكون قد حلنا فيه بين القوم وبين المياه، فقبل رأيه). وهذا دليل على أنه إذا أشار عليه بعض أبتاعه برأي أو بنظر فعليه قبول ذلك إذا كـانت فيه مصـلحة. وكذلك لما جاء الأحزاب وأحدقوا بالمدينـة، وكـانوا من قـريش وغطفـان، أراد النبي صـلى الله عليه وسـلم أن يصـالح غطفـان بثلث الثمـار، فاستشـار أهل المدينة، فقالوا: إن كان هذا وحياً من الله فسمعاً وطاعـة، وإن كـان باجتهـاد فلا نعطيهم إلا حد السـيف، فقبل إشـارتهم وقبل رأيهم، وهـذا دليل على أن أتبـاع الـوالي قد يشـيرون عليه وينظـرون له نظـرة مناسـبة. فعلى كل حـال نقـول: لا شك أن الـولاة ليسـوا بمعصـومين، وأن أتبـاعهم مـأمورون بـأن يرشدوهم ويدلوهم على المصالح، وعلى ما فيه الخـير لهم، وللمجتمـع، ولكن إذا اختـير للإدارة أو للولاية المتأهل والفاضل الـذي تجتمع فيه الصـفات الـتي تؤهله لهذا المنصب فليس لأحد الاعتراض عليـه، إلا على وجه النظـر، أو على وجه الإشارة.......

شرح العقيدة الطحاوية [54]

تجب طاعة ولاة الأمر بالمعروف، وتجب مناصحتهم، ولا يجوز تكفـيرهم إلا أن نرى كفراً بواحاً، والحكم على الناس إنما يكون بالظاهر.

وجوب طاعة الله ورسوله

مبـنى عقيـدة الإسـلام على كتـاب الله وسـنة نبيـه، وعلى طاعة الله وطاعة رسـوله، وقد وردت الأدلة في تأكيد الأمر بالطاعـة، والنهي عن المعصـية في آيات كثيرة، مثل قول الله تعالى: وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْـهُ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ [النساء:13] إلى قوله: وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْـهُ نَـاراً خَالِـداً فِيهَا [النسـاء:14]، ومثل قولـه: وَأَطِيعُـوا اللَّهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا [المائدة:92]، قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَـافِرِينَ [آل عمـران:32]، وَأَطِيعُـوا اللَّهَ وَرَسُـولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُـؤْمِنِينَ [الأنفال:1] في عدة آيات. وأخبر تعالى بـأن طاعة الرسـول طاعة للـه، قـال تعالى: مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ [النساء:80]، وأخبر النبي صـلى الله عليه وسلم بأن طاعة الله تعالى سبب لدخول الجنة، وكـذلك معصـيته سـبب لدخول النار، وأن طاعة الرسـول عليه الصلاة والسـلام تعتـبر العلامة لطاعة الرب تعالى، قال عليه الصـلاة السـلام: (كل النـاس يـدخل الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطـاعني دخل الجنـة، ومن عصـاني فقد أبى). ......

طاعة ولاة الأمر بالمعروف من طاعة الله ورسوله

من طاعة الله تعالى وطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام: طاعة أولي الأمر، الـذين ذكـرهم الله بقولـه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُـوا اللَّهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ وَأُوْلِي الأَمْـرِ مِنْكُمْ [النسـاء:59]، وقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (من أطاعني فقد أطاع اللـه، ومن أطـاع أمـيري فقد أطـاعني، ومن عصـاني فقد عصى الله، ومن عصى أميري فقد عصاني)، وكان عليه الصلاة والسلام يـأمر بطاعة ولاة الأمر، كما في قوله عليه الصـلاة والسـلام: (أوصـيكم بتقـوى الله والسمع والطاعة، وإن تـأمر عليكم عبد حبشـي، يقـودكم بكتـاب اللـه)، وفي حديث أبي ذر : (اسمع وأطع وإن أخذ مالك وضرب ظهرك). وقد ذكر العلماء أن من عقيـدة أهل السـنة والجماعـة: طاعة ولاة الأمـور، الـذين لهم الولاية والسيطرة على البلاد والعباد، وطاعتهم تعتبر جمعاً لكلمة المسلمين، وتعتــبر قمعاً للمفسدين، ودفعـاً للظـالمين؛ لأن بـولايتهم يثبت الحق ويظهـر، وإذا لم يكن هناك ولاة صار الضعيف نهباً للقـوي، ولم تثبت الكلمـة، ولم يثبت الأمن، وحصلت الزعازع والفتن، وحصلت المخاوف، وحصل القتال وكثرت الفوضى،

فلأجل ذلك شرعت طاعة ولاة الأمـور. ويشـترط في طـاعتهم: ألا تكـون في معصية الله، ولا تخالف شيئاً من شرع الله، فلذلك ورد في الحديث، أنه صـلى الله عليه وسـلم قـال: (لا طاعة لمخلـوق في معصـية الخـالق)، وقـال: (إنما الطاعة في المعـروف)، وإذا كـان اجتمـاع المسـلمين على أمـيرهم أو على واليهم فيه مصلحة فإن من تمـام مصـلحتهم، ومن تمـام طمـأنينتهم وحيـاتهم وسعادتهم ألا ينزعوا يداً من طاعة، وألا يفارقوا جماعة المسلمين، وألا ينبـذوا إليهم أمـرهم، وألا ينقضـوا بيعتهم؛ فبـذلك تثبت البلاد وتطمئن، ويـأمن العبـاد على أنفسهم وعلى أموالهم، وبذلك يؤخذ الحق للمظلوم من الظـالم، ويؤخذ على يد الظالم، ويُقهر على الحق، ويقصر عليه، ويضـرب على يد الظـالم بيد من حديد؛ فتأمن البلاد كلها، ويـذهب عنها الخـوف والفتن والزعـازع، هـذا هو السبب الذي لأجله أمرنا بطاعة ولاة أمورنا.

وجوب مناصحة ولاة الأمر

يجب علينا جميعاً أن نناصح من ولاه الله أمرنا، فـإن هـذا من تمـام العقيـدة، كان النبي صلى الله عليه وسـلم من جملة ما يأخـذه على أصـحابه في البيعة قولـه: (وأن تناصـحوا من ولاه الله أمـركم)، وهـذه المناصـحة تتمثل في أن نكـون ناصـحين لهم. والناصح هو الخـالص، والنصح مشـتق من قـولهم: نصح العســل، إذا خلصه وصــفاه، والمعــنى: ألا يكــون في قلبه غل ولا حقد على مسلم، وأن يبدي لكل مسلم كبير أو صغير النصـيحة، ويدله على الخـير الـذي يحبه لنفسـه، وبـالأخص ولاة الأمـور، فينصح لهم، وليست النصـيحة مقتصـرة على أن تحبهم وأن تخلص لهم المودة، وأن تصفي لهم قلبـك، بحيث لا يكـون في قلبك حقد ولا غـل، بل إن النصـيحة تتمثل أيضـاً بالتحـذير من الشـرور، والدلالة على الخيرات، والإرشاد عند الهفوات، والتحذير من الـزلات ونحوهـا. ولا شك أن ولاة الأمــــور ومن دونهم ممن لهم ولاية بشــــر، والبشر عرضة للخطـأ، وإذا كـانوا عرضة للخطـأ، والإنسـان ليس بمعصـوم، وإذا أخطأ ينتظر من إخوته، وممن تحته وممن فوقه وممن هو أكـبر منه وأصـغر؛ أن يرشـدوه وأن يـدلوه ويهـدوه إلى الحـق، فـإذا اجتمعـوا عليه وبينـوا لـه، وقـالوا لـه: إن الصواب كذا وكذا؛ رجع إليه، وفرح بأن يكون من رعيته، وممن تحت يــده من يدله ومن يعينـه، ويكـون ذلك رداً له إلى الحـق، وخـيراً للأمة وللـولاة. أما إذا ترك الـولاة وما هم عليه من الخطـأ، حـتى ظنـوا أن ما هم فيه هو الصـواب، ولم يرشدهم من حولهم من وزير أو أمير أو أخ أو صـديق أو عـالم أو جاهـل؛ ولم يبينوا لهم ما يعلمونه من حق، فإنها تعظم بذلك المصيبة. ولا شك أن كل عاقل من ولاة الأمــور، وكل ناصح وكل محب تقي مــؤمن يفــرح ويسر إذا أبديت له النصيحة، وإذا أظهـرت له الزلة الـتي زل فيهـا، والكلمة الـتي أخطأ

فيها؛ فيرجع إلى الصواب، ويعود إلى طلب الحق، وهـذه هي السـمة والصـفة التي يجب أن يكون عليها كل أحد من صغير أو كبير من مـأمور أو أمـير، فـإذا كـانت الأمة كـذلك، يحبـون لـولاتهم ما يحبـون لأنفسـهم، وينصـحون لهم، ويطيعونهم، ويرشـدونهم، ويهـدونهم إلى الصـواب، وينبهـونهم على الأخطـاء، فعند ذلك تجتمع كلمة الأمـة، وعند ذلك يظهر الحق ويقـوى أهلـه، هـذا هو الـواجب في حق ولاة الأمـور: السـمع والطاعة ممن تحت أيـديهم. أما عامة الأمة فـواجب علينا أيضـاً أن ننصح لهم، وذلك لأنهم من جملة إخواننـا، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم النصيحة لهم بعد النصيحة للـولاة في قولـه: (ولأئمة المسلمين وعامتهم)، فأمر بأن ننصح للعامة، والنصـيحة للعامة تتمثل في إرشادهم إلى الخير، وتحذيرهم من الشر، ودلالتهم عليه، وتعليم جـاهلهم، وإرشـاد ضـالهم، وتنبيه غـافلهم، وأمـرهم بـالخير، وحثهم عليـه، ونهيهم عن الشر، وتحذيرهم منه، وما أشبه ذلك. ولا شك أنهم إذا كانوا عقلاء، وإذا كـانوا أتقياء: فرحوا بهذه النصيحة وقبلوها، وسروا بمن نصحهم، وشجعوه، والتزموا بأن يؤدوا هذه النصيحة إلى أبنائهم، وإلى إخـوانهم، وإلى أحفـادهم، فعند ذلك تنتشر الشريعة والعمل بها، وتظهر كلمة الله التي وعد بإظهارهـا، ويظهر دين الله على الـدين كلـه. وقد مر بنا أن من عقيـدة المسـلمين: أنهم يـدينون بالطاعة لولاة أمورهم، وأنهم يصلون على أهل التوحيد الـذين يقولـون: لا إله إلا اللـه، وأنهم لا يـنزعون يـداً من طاعـة، فـإذا اتصـفوا بـذلك كله سـكنت أمورهم، واطمأنوا في حياتهم، وعملوا بشريعتهم، وإذا عرفـوا ذلك عرفـوا أن عقيدة الإسلام جاءت بكل ما فيه الخير، وبما فيه الأمن والاستقرار. ......

الصلاة على من مات من المسلمين براً أو فاجراً

قـال الشـارح رحمه الله تعـالى: [قولـه: (والصـلاة على من مـات منهم) أي: ونرى الصلاة على من مـات من الأبـرار والفجـار، وإن كـان يسـتثنى من هـذا العمـوم البغـاة وقطـاع الطريـق، وكـذا قاتل نفسه خلافـاً لـأبي يوسف ، لا الشهيد خلافاً لـمالك والشافعي رحمهما الله على ما عرف في موضـعه، لكن الشيخ إنما ساق هذا؛ لبيان أنا لا نـترك الصـلاة على من مـات من أهل البـدع والفجور لا للعموم الكلي، ولكن المظهرون للإسلام قسـمان: إما مـؤمن وإما منافق، فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له، ومن لم يعلم ذلك منه صلي عليه، فإذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليـه، وصـلى عليه من لم يعلم نفاقه، وكان عمر رضي الله عنه لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة ؛ لأنه كان في غزوة تبوك قد عـرف المنـافقين، وقد نهى الله سـبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنـافقين، وأخـبر أنه لا يغفر لهم باسـتغفاره، وعلل ذلك بكفـرهم بالله ورسـوله، فمن كـان مؤمنـاً بالله ورسـوله لم ينه عن الصـلاة عليـه، ولو كـان له من الـذنوب الاعتقادية البدعية أو العملية الفجورية ما لـه، بل قد أمـره الله تعـالى بالاسـتغفار للمؤمنين فقال تعالى: فَـاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْـتَغْفِرْ لِـذَنْبِكَ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ [محمد:19] فأمره سبحانه بالتوحيد والاستغفار لنفسه، وللمؤمنين والمؤمنات، فالتوحيد أصل الدين، والاستغفار له وللمؤمنين كماله، فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات، إما واجب وإما مستحب. وهو على نوعين: عام وخاص، أما العام فظاهر كما في هذه الآية، وأما الدعاء الخاص فالصلاة على الميت، فما من مؤمن يموت إلا وقد أمر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة، وهم مأمورون في صلاتهم عليه أن يدعوا له، كما روى أبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله يقول: (إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء)]. يقول: إننا مأمورون بأن نحسن الظن بالمسلمين، ولا نحكم على مسلم يتظاهر بالإسلام أنه مرتد وكافر، إذا كان ظاهره أنه من أهل الإسلام، ولو كان باطنه خفياً، فنصلي عليه بعد موته، وهذا معنى الحديث الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: (صلوا على من قال: لا إله إلا الله)، فإن المراد على أهل لا إله إلا الله، ولا شك أن أهل لا إله إلا الله هم أهل التوحيد، وهم أهل الإسلام، وهم أهل العلم وأهل العمل، وهم الذين يعملون بلا إله إلا الله، فيفعلون ما توجبه لا إله إلا الله، ويتركون ما تحرمه هذه الكلمة من المحرمات، فإذا كانوا متمسكين بذلك في الظاهر فإننا لا نكفرهم، ونصلي عليهم، ولو وقعت منهم هفوات، ولو صدرت منهم زلات، ولو كان مذنبين، ولو رأينا منهم بعض الذنوب الظاهرة لم نحكم بكفرهم ولم نحكم بخروجهم من الإسلام؛ لأن من عقيدة أهل السنة -كما تقدم مراراً- أنهم لا يكفرون بالذنوب، ولو كانت ما كانت، ما لم تصل إلى الشرك، إلا ما ورد التكفير به كترك الصلاة يعني: الاستمرار على تركها، فقد ورد أنه كفر. وأما بقية الأعمال فإذا أطلق على بعضها لفظ الكفر فإنه يراد به الكفر العملي، كقوله صلى الله عليه وسلم: (اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة)، فالطعن في النسب: كون الإنسان يعير نسبك ويقدح فيه، أو يقول: لست من قبيلة فلان، ولست ابن فلان، ونحو ذلك، هذا أطلق عليه أنه كفر، ولكنه عملي. والنياحة: هي الصياح على الميت، أطلق عليه أنه كفر، ولكنه يراد به الكفر العملي، وكذلك قتال المسلمين أطلق عليه أنه كفر، وهو كفر عملي، وكل هذه لا توجب أن نتبرأ من هذا الإنسان، ولا أن نترك الصلاة عليه، بل هو أولى أن يصلى عليه. فالمذنب الذي وقعت منه ذنوب وارتكب بعض السيئات يصلى عليه، ولا تترك الصلاة عليه، ولو كان قد زنى، ولو سرق، ولو أكل الربا أو أكل مال اليتيم، أو تولى عن الزحف، أو ما أشبه ذلك، ما عدا الذنوب التي توقعه في الكفر، وهي المكفرات المشهورة، التي إذا فعلها حكم بردته، كمسبة الله، فالذي يسب الله أو يسب الرسول عليه الصلاة والسلام أو ينتقص دين الإسلام أو نحو ذلك، فإن هذا يعتبر ردة وخروجاً من الإسلام. وبكل حال فالمعاصي التي دون الشرك ودون الكفر يصلى على أهلها. ......

من علم نفاقه لا يصلى عليه

المنافقون الذين يضمرون الكفر ويظهرون للنـاس أنهم مؤمنـون، لا نـدري ما في بواطنهم، فنصلي عليهم عملاً بالظاهر، فهم يصلون معنا، ويجاهدون معنا، ويصومون ويفطرون مع المسلمين، فإذا كانوا يضمرون الكفر في نفس الأمر فأمرهم بينهم وبين الله. لكن إن اطلع على نفاق حقيقي بأن نجم النفـاق من هذا الإنسان وظهر منه ما يدل على نفاقه وإضماره الكفـر، وأنه ما أسـلم ولا عمل هذه الأعمال إلا تستراً؛ فإنه والحال هذه يحكم بكفره، ولا يصـلى عليـه، قال الله تعالى: وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ [التوبـة: 84] نهاه الله أن يصلي على المنافقين الذين يعلم نفاقهم، والذين أطلعه الله عليهم؛ لأنه قد أطلعه على بعضــهم، وبعضــهم لم يعلمهم كما قــال تعــالى: وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْـلِ الْمَدِينَـةِ مَـرَدُوا عَلَى النِّفَـاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ [التوبــة:101] فــالنبي عليه الصــلاة والســلام لا يعلم أعيانهم، وإنما الله تعالى هو الذي يعلم أعيانهم فأطلعه على بعضـهم، فالـذين أطلعه على بعضهم نهاه أن يصلي عليهم، وأطلع عليه الصـلاة والسـلامحذيفة بن اليمان على بعض المنافقين الذين هموا بما لم ينـالوا، فسـماهم وأسـرهم إلى حذيفة ، فكـان حذيفة يسـمى صـاحب السـر، وكـان إذا قـدمت جنـازة مشـكوك فيها لم يصل عليها عمر حـتى يـرى حذيفة يصـلي عليهـا، فيعلم أنه ليس من المنافقين. فإذا عـرف أن هـذا منـافق، يـؤذي الله ورسـوله، ويـؤذي المؤمنين، ويسب الإسلام -وإن كان يتظاهر أنه مع المسلمين- فلا يصلى عليه والحــال هــذه، بل إذا اطلع على حاله وزندقته فإنه يقتــل؛ لأن ذلك ردة منه وتبديل للدين، فإنه (من بدل دينه فـاقتلوه). وكـذلك أيضـاً لا يصـلى على أهل البدع الذين يظهرون بدعهم، مثل الرافضة الذين يظهرون للناس أنهم يحبـون الإسلام، وأنهم يحبون القـرآن وما أشـبه ذلـك، ولكنهم في الحقيقة يضـمرون بغض الله وبغض رسوله، أو يضمرون بغض الصحابة الذين حملوا كتـاب اللـه، ويعتقدون أنهم حرفوا كتاب الله وكذبوا على رسـوله، ويبغضـون أهل السـنة، فمثل هؤلاء أعداء لله، ويعتبرون منـافقين؛ لأنهم في الحقيقة يضـمرون الكفر أو يضـمرون البغض، ويعملـون بما يسـمونه التقية الـتي هي نـوع من النفـاق، وأشباههم من الملاحدة الذين يشك في عقيدتهم، فتترك الصلاة عليهم زجــراً عن أفعالهم وعن معتقداتهم. ......

ترك الصلاة على بعض المسلمين من بعض الأعيان لبعض الأسباب

بعض الأشخاص تترك الصــلاة عليهم لبعض الأسـباب، فمثلاً: من قتل نفسه لا يصلي عليه الإمام الكبير أو العالم الكبير زجـراً عن هـذا الفعـل، ولا يمنع ذلك أن يصلي عليه عامة الناس. وكذلك تـترك الصـلاة على الشـهداء؛ وذلك لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، فلم يصل النبي صـلى الله عليه وسـلم على شـهداء المعركـة، إما لعـدم حـاجتهم إلى ذلـك، وإما لأنهم والحـال هـذه يعتـبرون من الأتقيـاء، ويعتـبرون من أهل الخـير، وإما تخفيفـاً لكـثرتهم؛ لأنهم قد يكونـون عدداً كبيراً. وبكل حال فالأصل أننا نصلي على أهل لا إله إلا الله، وأن الصـلاة

عليهم تنفعهم؛ وذلك لأن الميت قد انقطع عمله، فهو في حاجة إلى أن يــدعو له إخوته المســلمون؛ ولهــذا يــدعون له بــالمغفرة وبالرحمة ونحو ذلــك. في حديث عمــرو بن عــوف أن النــبي صــلى الله عليه وســلم صــلى على جنــازة، يقول عوف : فحفظت من دعائه قوله: (اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزلــه، ووسع مدخلــه، واغســله من الــذنوب بالمــاء والثلج والــبرد، ونقه من الــذنوب والخطايا كما ينقى الثــوب الأبيض من الــدنس، وأبدله داراً خيرا ًمن داره، وأهلاً خيراً من أهله)، يقول عوف : حتى تمنيت أن أكــون ذلك الميت لمكان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له. ولعل هذا الــدعاء لأجل أن يتم لأمته هــذه الأدعية ويعلمهم، ولم يخصص للصــحابة دعــاء، بل أمــرهم بــأن يدعو بما تيسر؛ ولهــذا قــال صــلى الله عليه وســلم في الحــديث: (إذا صــليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء) أي: ادعوا له بما تحفظون وبما تيسر من هذا ومن غيره، ادعوا له بخير الدنيا وخير الآخرة، وأقصد بخير الدنيا: نعيم الــبرزخ ونعيم القبر، وخير الآخرة، يعني: ما بعد الموت، من الجنة وما قبلها، ادعوا له بذلك، وادعوا له بالمغفرة. وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار للمؤمــنين في قولــه: وَاسْــتَغْفِرْ لِــذَنْبِكَ وَلِلْمُــؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَــاتِ [محمــد:19]، وحكى الله تعالى عن بعض أنبيائه هذا الاستغفار، فحكى عن إبراهيم أنه قال: رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُــؤْمِنِينَ يَــوْمَ يَقُــومُ الْحِسَــابُ [إبــراهيم:40-41] فلم يقتصر على والديه وعلى ذريتــه، بل دعا للمؤمــنين يــوم يقــوم الحســاب، وحكى عن نــوح عليه السلام أنه قــال: رَبِّ اغْفِــرْ لِي وَلِوَالِــدَيَّ وَلِمَنْ دَخَــلَ بَيْتِي مُؤْمِنــاً وَلِلْمُــؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَــاتِ [نــوح:28] فــدعا للمؤمــنين والمؤمنــات عمومــاً فيــدخل في ذلك الأولون والآخــرون. إذاً: نحن مــأمورون بــأن نــدعو للمؤمــنين، والصــلاة عليهم تنفعهم، والصلاة عليهم بعد موتهم فيها دعاء لهم، واســتغفار لهم، وزيــادة في أعمالهم، فيحرص المســلم على أن يصــلى على الميت، وينبغي الحــرص على كــثرة عــدد المصــلين؛ لأنه ربما يكــون فيهم مجــاب الــدعوة، وربما يكــون في الكثــير من هو أتقى وأنقى، وأفضل معتقــداً، فيجيب الله تعــالى دعوتــه، ومع كثرتهم أيضاً يقبل الله دعــوتهم، فقد ورد في الحــديث: (ما من مســلم يقــوم عليه مائة رجــل، لا يشــركون بالله شــيئاً، إلا شــفعوا فيــه)، أو كما قــال في الحديث، فهذا حث على أن يصلى على المسلم، حتى ولو لم يصدر منه شيء من الذنوب، ويستغفر له، ويطلب له من الله المغفرة والزلفى. ......

مسألة الشهادة بالجنة والنار للمعين

قال الشارح رحمه الله: [قوله: (ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً). يريــد: أنا لا نقــول عن أحد معين من أهل القبلــة: إنه من أهل الجنة أو من أهل النــار إلا من أخبر الصادق صــلى الله عليه وســلم أنه من أهل الجنــة، كالعشــرة رضي الله عنهم، وإن كنا نقول: إنه لا بد أن يــدخل النــار من أهل الكبــائر من يشــاء الله إدخاله النار، ثم يخرج منها بشــفاعة الشــافعين، ولكنا نقف في الشــخص

المعين، فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم؛ لأن حقيقة باطنه وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسن ونخاف على المسيئ. وللسلف في الشـهادة بالجنة ثلاثة أقوال: أحدها: ألا يشهد لأحد إلا للأنبياء، وهـذا ينقل عن محمد ابن الحنفية والأوزاعي. الثاني: أنه يشهد بالجنة لكل مـؤمن جـاء فيه النص، وهـذا قول كثير من العلماء وأهل الحـديث. الثـالث: أنه يشـهد بالجنة لهـؤلاء، ولمن شهد له المؤمنون كما في الصحيحين: (أنه مر بجنازة فأثنوا عليها بخير، فقال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: وجبت، ومر بـأخرى فـأثني عليها بشـر، فقـال: وجبت -وفي رواية كرر: (وجبت) ثلاث مرات- فقال عمـر: يا رسـول اللـه! ما وجبت؟ فقال رسول الله: هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهـذا أثـنيتم عليه شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض)، وقال صلى الله عليه وسـلم: (توشـكون أن تعلمـوا أهل الجنة من أهل النـار، قـالوا: بم يا رسـول الله؟ قال: بالثنـاء الحسـن، والثنـاء السـيئ)، فـأخبر أن ذلك مما يعلم به أهل الجنة وأهل النار]. أول الكلام يتعلق بمن يشهد له بالجنة ومن يشهد له بالنار، وهل يجوز ذلك أم لا؟ نقـول: قد ثبت أنه صـلى الله عليه وسـلم شـهد لبعض أصحابه بالجنة كالعشرة، في قوله صلى الله عليه وسـلم: (النـبي في الجنـة، وأبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة ..)، إلى آخر العشرة، فالعشـرة مشـهود لهم بالجنـة، وهم الخلفـاء الأربعـة، والسـتة البـاقون من العشـرة هم الـذين جمعهم النـاظم بقولـه: سـعيد وسـعد وابن عـوف وطلحة وعـامر فهر والزبـير الممـدح هـؤلاء شـهد لهم النـبي صـلى الله عليه وسـلم بالجنة، وختم لهم بأعمال صـالحة، ولم ينقل عنهم ما يكـون سـبباً لمخالفة ما شهد به النبي صـلى الله عليه وسـلم. وممن شـهد لهم بالجنة ثـابت بن قيس بن شماس، لما أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسـلم قـال: (أخـبره أنه من أهل الجنة)، يقول الراوي: فكان يمشي بيننا وهو من أهل الجنة. وكـذلك بلال : فقد قال له: (إني أسمع دف نعليك في الجنة)، وغـيره من الـذين شـهد لهم بذلك. وقد ثبت أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال: (إني لأرجو ألا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة)، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة، وفي هذا شـهادة من النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه لا يـدخل أحد منهم النـار، كما أنهم من أهل الجنة؛ لأن من لم يدخل النار دخل الجنة ولابد. وكذلك أهل بدر الذين عـددهم ثلاثمائة وبضعة عشر، فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قـال: (إن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفـرت لكم)، فمثل هـؤلاء إذا كان الله قد غفر لهم فإن ذلك دليل على أنهم من أهل الجنة. وبقية الصـحابة رضي الله عنهم يرجى لهم الخير، ولسبقهم ولأعمالهم الصالحة قد أنـزل الله فيهم آيات تدل على سبقهم وعلى فضلهم، قـال تعـالى: وَالسَّـابِقُونَ الأَوَّلُـونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَـارِ [التوبـة:100] هـؤلاء المهـاجرون الـذين هـاجروا من مكة إلى المدينة، والأنصـار الـذين أسـلموا بالمدينة وَالَّذِينَ اتَّبَعُـوهُمْ بِإِحْسَـانٍ [التوبة:100] يعني: الذين أسلموا متأخرين من الصحابة، يقول تعـالى: رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَـدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي تَحْتَهَا الأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَـداً [التوبة:100] فهذه تزكية من الله تعالى لهم، وشهادة لهم بأنه أعد لهم جنات

تجري من تحتها الأنهار، فهذا أيضاً دليل على أن المهـاجرين والأنصـار والـذين أسلموا بعدهم ونصروهم يرجى لهم الخير. ......

تحقيق التوحيد يحرم دخول النار

وردت أحــاديث في تغليب الرجــاء، وأن أهل التوحيد لا يــدخلون النــار، مثل حديث عتبان بن مالك (أنه صـلى الله عليه وسـلم ذكر عنـده رجل يقـال لـه: مالك بن الدخشم، فقال بعض الحاضـرين: ذاك منـافق، فقـال: وما يـدرك أنه منافق؟ أليس قد قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه اللـه؟! فقـالوا: إنا نـرى وده وميله إلى المنـافقين، فقـال: إن الله حـرم على النـار من قـال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)، وكذلك من حقق التوحيد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول اللــه، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منـه، وأن الجنة حـق، والنـار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمـل). فهـذه تزكية من اللـه، وهـذه شهادة من الرسول عليه الصلاة والسلام، بأن من أتى بهذه الشـهادة حقيقـة، وشهد بالجنة والنار، وشهد بالبعث بعد الموت، وشهد بما أخبر الله تعـالى بـه، وكــان بتلك الشــهادة عن يقين وعن عقيــدة راســخة صــادقة؛ أثمــرت تلك الشهادة العمل، وأثمرت شهادة أن لا إله إلا الله طاعة الله وعبادته، وأثمـرت شــهادة أن محمــداً رســول الله اتباعه وتعظيم ســنته، والســير على نهجــه، وأثمرت شهادة أن الجنة حق: طلبها، والعمل لهـا، وكـذلك أثمـرت شـهادة أن النار حـق: الهـرب منهـا، والبعد عن الأسـباب الـتي توقع فيهـا. وبلا شك فـإن العمل الصالح يسبب لصاحبه دخول الجنـة، والأحـاديث كثـيرة معروفة في أن الأعمال الصالحة قد رتب عليها دخول الجنـة. وهنـاك أحـاديث كثـيرة بينت أن هناك أعمالاً رتب على بعضها دخول النـار، ولكن يظهر أن ذلك الـدخول لأجل ذلك الــذنب، ثم بعد التمحيص من ذلك الــذنب الــذي لم يصل بصــاحبه إلى الشرك، وإلى الحكم بخلوده في النـار، فإنه يعـذب بقـدر ذنبـه، ثم يخـرج من النار، وعليه تحمل أحاديث الشفاعة التي بين النبي صلى الله عليه وسلم فيها أنه يشفع في أهل لا إله إلا الله، وأنه سوف يخرج من النار أهل الإيمان بالله، ولا يبقى في النــار إلا من وجب عليه الخلــود، وحبسه القــرآن، وهم الكفــرة والملاحدة والمشركون ونحوهم.

الحكم العام فيمن يستحق الجنة ومن يستحق النار

نحن نحكم حكماً عامـاً ونقـول: أهل التوحيـد، وأهل الإسـلام، وأهل الإخلاص، وأهل العمـل، هـؤلاء نرجو لهم الجنـة، والله تعـالى لا يخيب رجـاء المؤمـنين؛ وأهل الكفـــر، وأهل الشـــرك، وأهل الزندقة والنفـــاق، هـــؤلاء نعلم أن الله توعدهم بالنار، أما أهل الكبـائر فنخـاف عليهم من عـذاب اللـه، وكـذلك نرجو لهم رحمة الله، نرجو أن الله تعالى يرحمهم، فهو واسع الرحمة، ولكن نخـاف أن يعذبهم، وعذاب الله شديد؛ لأنه سبحانه قد توعد بالعـذاب على دون ذلـك، ووعد بـالثواب على أعمـال قليلـة. إذاً: نرجو لهـؤلاء دون أن نجـزم بـأنهم من أهل الجنة، وإذا كانت عندهم كبائر فنخاف عليهم دون أن نجزم لهم بالنار، فلا نجزم لهؤلاء بجنة ولا نـار، ولكن نخـاف على المـذنب، ونرجو للمحسـن، هـذه من عقائد أهل السنة.

الحكم على الناس إنما يكون بالظاهر لا بالظن

قال الشارح رحمه الله: [قوله: (ولا نشـهد عليهم بكفر ولا بشـرك ولا بنفـاق، ما لم يظهر منهم شـيء من ذلـك، ونـذر سـرائرهم إلى الله تعـالى). لأنا قد أمرنا بالحكم بالظاهر، ونهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم، قال تعـالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ [الحجـرات:11]^، وقـال تعـالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ [الحجـرات:12]^، وقال تعالى: وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [الإسراء:36]^]. وهـذا يقتضي أننا لا نتخبط بجهـل، ونقـول في المسـلم بغـير يقين؛ وذلك لأن المسـلمين لهم ظـواهر وبـواطن، والحكم للمسـلم على الظـاهر، والمعاملة له على الظـاهر، فمن أظهر لنا خـيراً فإننا نحسن الظن بــه، ومن أظهر شــراً فإننا نســيء الظن بــه. روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب بعد موت النبي صـلى الله عليه وسـلم وقـال: أيها الناس! إن أناس كانوا يؤخذون بـالوحي على عهد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، وإن الـوحي قد انقطـع، وإنما نأخـذكم بالظـاهر، فمن أظهر لنا خـيراً أحببنـاه وقربنـاه، وإن أضـمر لنا سـوءاً! ومن أظهر لنا شـراً أبغضـناه وعاديناه ولو كان قلبه سليماً! أو كما قـال رضي الله عنـه، فجعل الحكم على مجرد ما يظهره الإنسان. ومما يدل على ذلك أيضاً حديث عبيد الله بن عــدي بن الخيار أن أنصارياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فساره يسـتأذنه أن يقتل رجلاً من المنـافقين، فجهر رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فقـال: (أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟ فقال الأنصاري: يشـهد ولا شـهادة لـه، فقـال: أليس يشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: يشـهد ولا شـهادة لـه، فقـال: أليس يصلي؟ قال: يصلي ولا صلاة له، قـال: أولئك الـذين نهيت عن قتلهم)، يعـني: أنه أمر بمعاملتهم بالظاهر، ما دام يعلن الشهادة، وما دام يقيم الصــلاة إقامة

ظاهرة، فليس لنا أن ننقب عن قلبه، لمـاذا؟ لأنا لا نـدري ما يكنـه. وفي قصة ذي الخويصـرة الـذي أنكر على النـبي صـلى الله عليه وسـلم بعض الأمـر، ثم ولى فقـال خالد بن الوليد : (ألا أقتله يا رسـول اللـه؟ فقـال: لا، لعله يصـلي، فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه! فقال النبي صـلى الله عليه وسلم: إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطـونهم)، يعني: إنما نأخـذهم بما يظهر لنـا، أما ما في قلـوبهم فهـذا أمـره إلى الله عز وجـــل. ولما قتل أســامة بن زيد رضي الله عنه رجلاً من المشــركين بعد ما قال: لا إله إلا الله؛ أنكر عليه النبي صـلى الله عليه وسـلم وقـال: (أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟! فقـال: يا رسـول اللـه! إنما قالها خـوف السـلاح، إنما قالها مستعيذاً من القتل -يعني: أنه ما قالها إلا لما رأى السلاح قد وصله، ولم يكن ذلك عن يقين منه- فقـال عليه الصـلاة والسـلام: فهلا شـققت عن بطنه حتى تعلم هل قالها أم لا) يعني: أنك لا تدري ما في قلبه، فخذه بما ظهر لك، ففي هذه الأدلة ونحوها أن المعاملة تكون بالظاهر، سواء كـان الظـاهر خـيراً أو شراً. فالذين نراهم يظهرون الأعمال الخيرية نحبهم ونكل أمــرهم إلى الله تعالى، والذين يظهرون الأعمـال السـيئة نبغضـهم ونكل أمر قلـوبهم إلى الله تعالى. وكثيراً ما تنكر على بعض الذين يظهـرون المعصـية: الـذي تـراه يحلق لحيتـه، أو تـراه يشـرب الـدخان، أو تـراه يسـبل ثوبـه، أو تـراه يتكاسل عن الصلوات ونحوها، أو تسمعه يقذف ويسب، أو نحو ذلـك، فتنكر عليـه، فيعتـذر ويقول: العمل على ما في القلوب، قلبي طاهر، وإذا كان قلبي نقياً فلا عـبرة بما أفعله، ولا عبرة بهذه المظاهر، هكذا يعتذر، هل هذا صحيح؟ ليس بصحيح، وكما أن العـبرة بالبـاطن فـإن الحكم للظـاهر، ونقـول: نحن لا نـدري ما في باطنـــك، فباطنك خفي، إنما نعاملك بظـــاهرك، فهـــذا الـــذي أظهرته لنا -وهو عملك بهـذه المعاصي وإعلانهـا- دليل على التهـاون بـأمر اللـه، ودليل على تهاونك بعقوبة اللـه، وتهاونك بنظر اللـه، ودليل على أن في قلبك محبة لهـذه المعاصي، وأما كون قلبك نقياً، وكونك مؤمناً ونحو ذلـك، فهـذا ليس إلينـا، بل إلى الله عز وجـل. وأما إذا أظهر لنا الإنسـان التقى والـورع، ورأينـاه يحافظ على العبـادات، ولم نسـمع منه شـيئاً من الكلام الـذي يقـدح بعبادته أو ديانته فإننا نحبـه، وليس لنا أن نتتبع أسـراره، ولا أن نبحث عن خفايـاه، ولا أن نظن به الظنون السيئة التي حذرنا الله منها، قـال اللـه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اجْتَنِبُـوا كَثِــيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُــوا [الحجــرات:12]^ أي: لا تجسسوا على إخوانكم، لا تقولوا: فلان يمكن أنه منـافق، لا نـدري ما إيمانـه، إذاً: نتجسس عليه ونتحســس، ونســتمع إلى كلامه بخفيه وســريه! فليس لنا ذلـك، فما دام أنا لم نـره أظهر سـوءاً، فإنا نعامله بما أظهـر، ولا نقـول: إن باطنه خـبيث، وإنه يسر كـذا وكـذا، ليس لنا ذلـك، وكـذلك لا نتكلم فيه قـدحاً بغير علم، فندخل في مخالفة الآية الـتي في سـورة الإسـراء، وهي قـول الله تعالى: وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ [الإسراء:36]^ يعـني: لا تتبع ما ليس لك به علم فتتكلم بسوء، أو تستمع إلى شيء، أو تنظر إلى عورة ليس لك النظر إليها، أو تظن ظناً سيئاً إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [الإسراء:36]^ أي: كنت مسئولاً عن هذه الأشياء، فلا تسمع إلى حديث قوم

وهم لا يحبون أن تسمع لـه، وتقـول: لعلي أسـمع منهم ما يـدل على بغضـهم وعلى حقدهم على الإسلام! نقـول: ليس لك ذلـك، أما إذا أظهـروا ذلك علنـاً، فـإن لك أن تشـهد بـه، وهـذا هو منهج الصـحابة رضي الله عنهم، فـإن الـذين عرف نفاقهم ما عرف إلا لما أعلنوه، كما في حديث عوف بن مالك أنه سـمع بعض المنـافقين يقـول: ما رأينا مثل قرائنا هـؤلاء: أرغب بطونـاً، ولا أكـذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء، فعند ذلك قال له: كـذبت ولكنك منـافق، لأخـبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب عوف ليخـبر النـبي صـلى الله عليه وسلم فوجد القرآن قد سـبقه، وأن الله تعـالى أطلع نبيه على هـذه المقالـة، فـإذا ظهر من الإنسـان كلام يـدل على سـخرية، ويـدل على بغض وحقد على المسـلمين، ويـدل على سـوء طويـة، وعلى تهمته ببغض الإسـلام وببغض المسـلمين؛ فحينئـذٍ لا يـترك على هـذا، بل يقـام عليه الحـد، ويؤخذ حق الله تعالى منه، أما إذا كان أمره خفياً فليس لنا ذلك، وقد يقال: إن هذا قد يكـون سبباً في كثرة المنكرات، نقـول: ما دامت المنكـرات خفية فلسـنا مسـئولين عنها، لكن إذا رأينا علامات ظاهرة، كأن يعـرف أن هنـاك بيـوت دعـارة يتوافد إليها أناس مشكوك فيهم فإن لنا أن نتحفظ. ......

يجب الاجتماع على الحق، وتحرم الفرقة، والمسائل الاجتهادية لا يضلل فيها المخالف، ولا يعقد الولاء والبراء عليها، ما دام لها في النصوص محمل سائغ.

وجوب الاجتماع على الحق وحرمة التفرق

قال المصنف رحمه الله: [قوله: (ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة). السنة: طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم والجماعة: جماعة المسلمين وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين فاتباعهم هدى وخلافهم ضلال، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [آل عمران:31] وقال: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [النساء: 115]، وقال تعالى: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ [النور:54]، وقال تعالى: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [الأنعام:153] وقال تعالى: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران:105]، وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [الأنعام:159]. وثبت في السنن الحديث الذي صححه الترمذي عن العرباض بن سارية قال: (وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة)]. يحث دين الإسلام على التمسك بالسنة، ويحث على الاجتماع على العقيدة السلفية، وينهى عن التفرق والتعادي والتقاطع ، ويأمر بالتمسك بالصراط المستقيم، والأدلة على ذلك واضحة ظاهرة، ومنها قوله تعالى: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ [الأنعام:153] فأمر بالاتباع، وأمر بالتمسك بالصراط المستقيم، وهو الذي أمرنا الله تعالى بأن ندعو به في صلاتنا بقولنا: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة:6]، وهو الطريق الذي سارت عليه الأمة الإسلامية، ونهجه أهل السنة، يأمر الله تعالى بالسير عليه، وبالتمسك به غاية التمسك، ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتمسك به أشد ما يكون، وبالعض عليه بالنواجذ، التي هي أقاصي الأسنان، ولا شك أن ذلك كله دليل على أهمية السير على هذا الصراط السوي. وينهى الإسلام عن التفرق والاختلاف؛ وذلك لأن في

الاختلاف عـداوة، فمـتى اختلفت وجهة المسـلمين فكـانت طائفة تـذهب إلى هـذا، وطائفة تـذهب إلى ذاك، وهـذه تضـلل الأخـرى، وهـذه تبـدع هـذه، ولم يكونـوا مجتمعين على الحـق، ولم يحصل بينهم التعـاون على الـبر والتقـوى؛ خيف عليهم أن يتسـلط عليهم عـدوهم، ويتغلب عليهم، فلا يقاومونه لاختلاف وجهـاتهم، ولاختلاف أنظـارهم. والله تعـالى قد نهى عن التفـرق في مواضع كثيرة من كتابه، يقول الله تعالى: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُـوا مِنْ بَعْـدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ [آل عمران:105]، ويقول الله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْـلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا [آل عمران:103]، وينهى أيضـاً عن الاختلاف كما في قوله تعالى: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا [آل عمران:105]، وقوله: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ [الأنعام:159]، (شيعاً) يعني: أحزاباً، الشيع هو أن كلاً يذهب إلى رأي يتشـيع لـه، يعـني: يتعصب لـه. وبكل حال فإذا عرفنا أن الإسلام يأمر بالاجتماع، فهـذا الاجتمـاع لابد أن يكـون على السنة، وأن يكون على الصراط السوي وعلى الطريق المستقيم، أما إذا كـان المجتمعون قد اجتمعـوا على ضلالة، اجتمعـوا على بدعـة، فـإن اجتمـاعهم لا قيمة له؛ وذلك لأنهم تركوا الحق جانبـاً، وأعرضـوا عن صـراط الله الـذي أمر بالتمسك به وبسـؤاله، وهو الـذي سـارت عليه الأمة الإسـلامية، وهو صـراط المنعم عليهم الذين قال الله فيهم: وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّـدِّيقِينَ وَالشُّـهَدَاءِ وَالصَّـالِحِينَ وَحَسُـنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً [النساء:69]. وكثيراً ما تأتي الأدلة في الحث على الجماعة، وكثـيراً ما نسمع الخطباء يحثون على الجماعـة، ويقولـون: عليكم بالجماعة فـإن يد الله مع الجماعــة، أو فـإن يد الله على الجماعــة، والمـراد بالجماعة هنـا: جماعة الإسلام، الـذين يجتمعـون على قـول صـحيح سـليم، ليس فيه خطأ ولا خلـل، هــؤلاء هم الجماعــة، وجـاءت الأحـاديث تقــول: (عليكم بالجماعــة، (إيــاكم والفرقـــة)، (اجتمعــوا على الحق ولا تفرقــوا)، (إنما يأكل الــذئب من الغنم القاصية) ففيها حث المسلمين على أن يسـيروا جميعـاً، وأن الـذي يشذ منهم فإنه إلى الهلاك، وتخطفه الشــياطين، فيصــير من نصــيبها، كما أن الغنم إذا كانت مجتمعة فإن الراعي يراقبها ويرعاها، فإذا انفردت واحدة منهـا، وكـانت بعيدة، وغفل عنها، جاء السبع فأكلها، فكذلك جماعة المسلمين. ......

الحق يستمد قوته من دليله ولا تضره كثرة مخالفيه

أهل البــدع جماعــات كثــيرة، وقد تكــون لهم قــوة وكــثرة واجتماعــات، وقد يتفوقون في بعض الأحيان على أهل السنة، وقد يزيدون عليهم عـدداً أو عـدة أو قوة، ولكن هل يقـال: إنهم على الجماعـة؟ هل يقـال: إنهم أهل الجماعـة؟ هل يقال: إنهم أهل السنة؟! ليس كذلك، بل هم أهل فرقـة، وهم أهل بدعـة، وهم أهل ضلالة، ولو كثر عددهم، ولو كثرت جماعاتهم، ولو حصـلت لهم قـوة معنويـة، أو قـوة حسـية، فـإنهم ليسـوا من أهل الجماعـة، وليسـوا من أهل السنة، فأهل السنة والجماعة هم من كان على مثل ما عليه النبي صــلى الله

عليه وسلم وأصحابه، ويقلون ويكثرون، وأحياناً يمكن الله لهم، فيرجع ضالهم، ويرشد غاويهم، فيكثرون على الحق، ويتمسكون به، ويسيرون عليه، وأحياناً يكثر أعداؤهم فيضلون الخلق، ويشتتون الجماعات، ويقل المتمسكون بالسنة، ويصيرون أفراداً، فلا يعرفون، وربما يستخفون بمذهبهم، ويكنونه ولا يجهرون به، ومن جهر به أوذي وطرد واضطهد وسجن وشرد وهرب، وهو مع ذلك على السنة، وعلى العقيدة وعلى التوحيد، وعلى الدين الإسلامي، وعلى الصراط المستقيم، ولكن إذا قويت البدع وقويت المنكرات في بعض البلاد تسلط أهلها على أهل الحق واستضعفوهم، وساموهم سوء العذاب، ولكن النصر والتمكين لهم، والعاقبة للتقوى، إذا صبروا واحتسبوا، وما أصابهم في ذات الله وفي دينه كان رفعاً لدرجاتهم، وإعظاماً لأجرهم. يحصل في هذه الأزمنة اضطهاد كثير لأهل الحق، وإذلال لهم، واتهام لهم بالثورات وبالانقلابات على الدولة، وأنهم يريدون السلطة، وكذلك مطاردتهم في الأسواق وغيرها، وكل من رؤي متمسكاً بالسنة وعاملاً بها اتهم بالاتهامات البعيدة، وأدخل السجون وضرب، وفرضت عليه الضرائب التي تثقل كاهله وما أشبه ذلك، كما هو موجود في كثير من الدول التي تنتمي إلى الإسلام، وهذا لا يدل على أن هؤلاء ليسوا على الحق، بل هم على حق، وإذا صبروا كان ذلك أعظم أجراً، ولا يدل على أن تلك الأمم والشعوب والدول التي أظهرت خلاف الحق، وانتهجت الباطل؛ على حق وصواب، فالعبرة ليست بالكثرة، إنما العبرة بالإصابة، العبرة في الحق لمن كان مصيباً للحق ومتمسكاً به، هذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة.

أهل الحق هم من كان على مثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة -يعني: الأهواء- كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة)، وفي رواية: (قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي)، فبين صلى الله عليه وسلم أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين، إلا أهل السنة والجماعة. وما أحسن قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال: (من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.) وسيأتي

لهذا المعنى زيادة بيان إن شاء الله تعالى، عند قول الشـيخ: (ونـرى الجماعة حقــاً وصــواباً، والفرقة زيغــاً وعــذاباً).]. هــذه أدلة على أن أهل الحق هم المتمسكون بالسنة النبوية، وهم من كان على مثل ما كان عليه النـبي صـلى الله عليه وســلم وصــحابته، والصــحابة رضي الله عنهم ما خاضــوا في علم الكلام الذي خاض فيه المتكلفون المتكلمون، وكذلك كـانوا يكرهـون الاختلاف حـتى في الفـروع، بل إذا اختلفت عليهم الأدلة قـالوا: آمنا بها وفوضـنا ما لم نعلم، وعملنا بما كان عليه نبينا صـلى الله عليه وسـلم وكـان في عهـده. وقد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كـان ينهى أصـحابه عن الاختلاف، خـرج عليهم مرة وقد اختلفوا في القـدر، فكأنه فقئ في وجهه حب الرمـان، يعـني: احمر وجهه من الغضب، فقال: (يا عباد الله! أبهذا أمرتم أم بهـذا كلفتم؟ أتضـربون كتـاب الله بعضه ببعض؟! ما عـرفتم منه فـاعملوا بـه، وما لم تعرفـوا فكلـوا أمره إلى عالمـه.). هكـذا أمر النـبي صـلى الله عليه وسـلم إذا اختلفت علينا الأدلة أن نأخذ بما هو الأنسب والأظهر، وندع الاختلاف. وقد أخبر عليه الصـلاة والسلام بوقوع الاختلاف في هذه الأمة، ففي هـذا الحـديث الـذي تقـدم أخـبر بأن أمته ستتفرق بهم الأهواء إلى ثنتين وسبعين فرقـة، وكل طائفة تـزعم أن الحق في جانبهـا، وكل طائفة تضـلل غيرها وتـبرر موقفهـا. وهـذه الاختلافـات اختلافات اعتقادية، يضلل من خالف فيها، وليست اختلافـات في الفـروع وفي المسائل الاجتهادية التي طريقها الاجتهاد، فإن هذه لا يضلل فيها، ولهذا خالف بعض الأئمة مشايخهم دون أن يضللوهم، فالإمام مالك رحمه الله كـان إمامـاً متبعاً، وقد خالف أبا حنيفة في أشياء، والإمام الشـافعي قـرأ على مالك وأخذ عنه علمه، وقد خالفه في أشياء من الفروع، وكذلك أحمد خالف الأئمة الـذين قبله في أشـياء، ولكن ليس هـذا ضـلالاً، وليست هـذه المـذاهب من الفـرق الضالة التي حكم النبي صـلى الله عليه وسـلم بأنها في النـار إلا واحـدة، إنما تلك هي البدع المضلة الـتي تتعلق بالعقيـدة، ولا شك أن أمـور العقيـدة أدلتها يقينية، أدلتها قطعية، ولا يستدل عليها بالأدلة الظنية التي يتطرق إليها احتمال الثبــوت أو عدمــه، وإنما يســتدل عليها بــأمور قطعية الدلالة لا لبس فيها ولا خفــاء، ولكن عميت الأعين وصــمت الآذان، فــإن أولئك المبتدعة يـرون الحق أبلجاً، ويرون الصراط مستقيماً، فتأتيهم بالأدلة، وتوضـحها لهم، ولكن هم صم ولو سـمعوا، بكم ولو نطقـوا، عمي ولو نظـروا، بهت بما شـهدوا، عمـوا عن الحق، وعن سـماعه صـموا، وعن قوله خرسـوا، وهـذا حرمـان من اللـه، وإلا فالطريق واضح؛ ولـذلك حـذر النـبي صـلى الله عليه وسـلم من هـذه الأهـواء الثنتين والسبعين، وأمر بالتمسك بالجماعة، وقـال: (كلها في النـار إلا واحـدة، وهي الجماعة)، وفي رواية: (هم ما أنا عليه اليوم وأصحابي).

عمق علم الصحابة وعدم تكلفهم يوجب الاهتداء بهديهم

الصحابة رضي الله عنهم لم يتكلمـوا في الجـوهر والعـرض، ولم يتكلمـوا في الأعـراض والأبعـاض والأعضـاء وما أشـبه ذلك مما ابتلي به المتكلمـون، ولم يتكلموا في المحدثات التي امتلأت بها كتب هـؤلاء المتكلمين، وإنما تقبلـوا ما جاءتهم به السنة، وما ثبت في الأحـاديث، وما نص عليه القـرآن، وتقبلـوا ذلك كله، واستسلموا له، كما شهد لهم ابن مسـعود رضي الله عنه في هـذا الأثـر: (من كان مستناً فليستن بمن قد مات)، ابن مسـعود من الصـدر الأول، مـات سنة اثنين وثلاثين بعد النبي صلى الله عليه وسلم بنحو إحدى وعشرين سـنة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم مات سنة إحدى عشـرة، وابن مسـعود مـات سـنة ثنتين وثلاثين، ومع ذلك يحث على طريقة الصحابة، ويريد بالصحابة: السابقين الأولين، كالخلفاء أبي بكر و عمر و عثمان لأنهم في زمانـه، وكـذلك من مـات من السابقين ممن مات قبله، كـعبد الـرحمن بن عـوف و أبي ذر ، والعبـاس بن عبد المطلب ، ونحوهم، ولا شك أن هؤلاء هم الصحابة الذين قصـدهم في قوله هذا: (من كـان مسـتناً فليسـتن بمن قد مـات، فـإن الحي لا تـؤمن عليه الفتنـة) ومن كـان عالمـاً لا يـؤمن عليه أن يضـل، ولا يـؤمن عليه أن يفتتن بالدنيا، أو يفتتن بالشبهات وبالدعايات المضللة، يقول: (أولئك أصـحاب محمد صلى الله عليه وسـلم، أبر هـذه الأمة قلوبـاً، وأعمقها علمـاً، وأقلها تكلفـاً) ما أبلغه من وصـــف! الـــبر: هو الصـــدق والإخلاص، يعـــني: أن قلـــوبهم خالصة مخلصة، وعلمهم عميق؛ لأنه علم نبـوي، ولم يكونـوا يتكلفـون. وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه لما جاءه رجل وقال: إن فلاناً يزعم أنه يكــون قبل القيامة دخان يأخذ بمشام النـاس، فعجب لـذلك! حيث اسـتدل بقوله تعـالى: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ [الدخان:10] فقال: إن الله تعالى قـال لنبيكم: وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ [ص:86]، وإن هذا من التكلـف؛ لأن هـذا فسر الآية بما يراه أو بما يظنه من أن الدخان المـذكور فيها يكـون قـرب السـاعة، وبكل حال فهو ينكر على من يتكلف في تفسير الآيات بمثل هذه الاحتمـالات.
فإذا نظرنا فيما روي عن الصـحابة رضي الله عنهم، لم نجد في علمهم شـيئاً من التكلف، بل وجدناهم يأخذون الأدلة على ظاهرها، ويفوضونها أو يعتقـدون ما دلت عليه. وقد حـدث الضـلال في آخر عهـدهم من بعض المنكـرين لبعض الأمـــور الغيبيـــة، كما روي أن رجلاً انتفض عند ابن عبـــاس لما قـــرأ آية في الصفات استنكاراً لهـا، فقـال ابن عبـاس: ما فـرق هـؤلاء؟! يجـدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه! أما الأثر المـروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسـوله!)، فإنه دليل على أنه قد وجد في عهـده من يتحـدث بأشـياء قد تسـتغرب، وقد يسـتنكرها بعض الجهلة، فلأجل ذلك نهى أن يحدثوا بالأشياء التي فيها شيء من الغرابة، وأمـــرهم أن يتحـــدثوا بالأشـــياء المعلومة كالأحكـــام، أي: اشـــغلوا أوقـــاتكم بالأحكام، وبأمور الطاعة، وبنوافل العبادات، وإياكم أن تشتغلوا بالأشياء الـــتي فيها غرابــة، ويســتنكرها العامة وينكرونهــا، وإذا أنكروها وهي قطعية هلكــوا، حيث إنهم كذّبوا الله ورسوله، فهذه طريقة وسيرة السلف الذين هم الصحابة ومن سار على نهجهم.

أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله

قال الشارح رحمه الله تعالى: [قوله: (ونحب أهل العدل والأمانة، ونبغض أهل الجور والخيانة). وهذا من كمال الإيمان وتمام العبودية، فإن العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايتها، وكمال الذل ونهايته، فمحبة رسل الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله، وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره، فغير الله يحب في الله لا مع الله، فإن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضائه ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق لمحبوبه في كل حال، والله تعالى يحب المحسنين، ويحب المتقين، ويحب التوابين ويحب المتطهرين، ونحن نحب من أحبه الله، والله لا يحب الخائنين، ولا يحب المفسدين، ولا يحب المستكبرين، ونحن لا نحبهم أيضاً، ونبغضهم موافقه له سبحانه وتعالى. وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار). فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه، وولايته وعداوته، ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة، فلابد أن يبغض أعداءه، ولا بد أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ [الصف:4]. والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر، فإن العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة، والحب والبغض، فيكون محبوباً من وجه ومبغوضاً من وجه، والحكم للغالب، وكذلك حكم العبد عند الله، فإن الله قد يحب الشيء من وجه ويكرهه من وجه آخر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل: (وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه)، فبين أنه يتردد؛ لا أن التردد تعارض إرادتين، وهو سبحانه وتعالى يحب ما يحب عبده المؤمن، ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه، كما قال: (وأنا أكره مساءته)، وهو سبحانه قضى بالموت، فهو يريد كونه، فسمى ذلك تردداً، ثم بين أنه لا بد من وقوع ذلك، إذ هو يفضي إلى ما هو أحب منه]......

وجوب حب الله وحب ما يحبه الله

واجب على المســلم أن يحب الله تعـالى، وأن يحب ما يحبه اللــه، وأن يحب من يحبه الله، فيحب الله تعالى من كل قلبه؛ لأنه ربـه، والمنعم عليـه، ويحب ما يحبه الله من الأعمال التي تكون سبباً لرضاه، ويحب الذين يحبهم الله من أوليائه وأصـفيائه وعبـاده الصـالحين، وإذا كـان كـذلك فإنه يحضى بمحبة الله تعـالى لـه، أما كونه يحب الله ورسـوله فـإن لـذلك أسـباباً، كيف لا يحب ربه الـذي هو خالقه ومالكـه؟! كيف لا يحب ربه الـذي أنعم عليه وتفضل عليـه؟! كيف لا يحب ربه الــذي رزقه وخوله وأعطـــاه ما يتمنـــاه؟! كيف لا يحب ربه الذي يتصرف فيه كما يشاء؟! كيف لا يحبه وقد هداه للإسلام ونور بصيرته؟!

وجوب حب النبي صلى الله عليه وسلم

يجب على المسلم أن يحب النبي صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لأن الله تعالى أنقذه على يديه، أنقذ جميع الخلق، وأنقذ هذه الأمة على يدي هذا النبي صـلى الله عليه وســلم، فلأجل ذلك يجب أن يحبـــوه، وأن يقـــدموا محبته على كل شيء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والنـاس أجمعين)، وقـال له عمر : (والله إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: لا يا عمر ، حتى أكـون أحب إليك من نفسـك، فقال: والله إنك لأحب إلي من نفسي، فقـال: الآن يا عمـر) ولا شك أنه عليه الصلاة والسلام أهل لأن يحبه المؤمنون الـذين أنقـذهم الله بواسـطة دعوتـه، وأخـرجهم به من الظلمـات إلى النـور، وأنقـذهم به من الغوايـة، وبصـرهم بواسطته إلى طريقة الهداية والحق، فلـذلك يقـدمون محبته على كل شـيء. وفي هـذا الحـديث يقـول صـلى الله عليه وسـلم: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المـرء لا يحبه إلا لله، وأن يكـره أن يعـود في الكفر بعد إذ أنقـذه الله منه كما يكـره أن يقذف في النار)، أخبر بهذا؛ لأن هذه الثلاث لابد منها حتى يجد بها المسلم حلاوة الإيمان، بدأها: بـأن يكـون الله ورسـوله أحب إليه مما سـواهما، يعـني: من النفس ومن المـال ومن الأهل والوالـد، ومن القـريب والبعيـد، ومن كل شيء حتى من نفسه، ومعلوم أنه إذا حصلت له هذه المحبة تبعها غيرها، فإذا أحب الله تعــالى، وأحب رســوله صــلى الله عليه وســلم تبعتها الخصــلتان الباقيتــان، تبعها محبة ما يحبه اللـــه، وتبعها كراهة ما يكرهه اللـــه، فــالثلاث متلازمة مترابطة. والخصلة الثانية: أن يحب المـرء لا يحبه إلا للـه، معلـوم أن من أحب الله أحب ما يحبه اللـه، بل العـادة أن إنسـاناً إذا أحبك أحب كل من تحبه، فأنت مثلاً إذا أحببت زيـداً، أحببت من يحبه زيـداً؛ وذلك لأنك وثقت بـه، وصار له قدر في قلبك، وصارت له منزلة، فصـرت تـوقره وتحبـه، فـإذا رأيته يؤثر عملاً آثرت ذلك العمل معه، وإذا رأيته يجتنب شـيئاً اجتنبتـه؛ لأنك تثق به

وتعـــرف أنه لا يفعل إلا ما هو خـــير، ولا يتجنب إلا ما فيه ضـــرر، فكيف بما يكرهه الله تعالى؟! لا شك أنك تكرهه، كيف بما يُحرّمه ويبغضه؟! لا شك أنك تبغضـه، كيف بمن يحبهم الله تعـالى من الأشـخاص؟! لا شك أنك تحبهم. وقد تقول: لكن الله تعالى قد ذكر أن المؤمنين يحبون المنافقين ظاهراً، في قوله تعالى في سـورة آل عمـران: هَـاأَنْتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ [آل عمـران: 119] فهـؤلاء الصـحابة الـذين يحبـون الله ويحبـون الرسـول، ويؤثرونه على أنفسهم، ويفدونه بأرواحهم، كيف يحبون المنافقين؟! الجواب: لأنهم يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، ويخفون عقيدتهم، فيبطنون ما هم عليه من الضـلال والبغضــاء، الـــذي هو بغض اللـــه، وبغض رســـوله، وبغض الصـــحابة، وبغض المؤمنين، ولا يبدون ذلك، إنما يظهرون أنهم من أولياء الله، وأنهم من أحبابه، فلأجل ذلكٍ وثق بهم المؤمنون فصاروا يحبونهم، يعني: تحبونهم؛ لأنهم يحبـون الله ظاهراً، تحبونهم؛ لأنه يظهرون لكم محبة الرسول، وأنتم تحبون الرسول، ومحب المحبوب محبوب، ولكن هم لا يحبـونكم؛ لأنكم تحبـون الرسـول، وهم يبغضونه، ومحب المبغوض مبغوض، فلما صـرتم على يقين وعلى عقيـدة من محبة الرســول صــلى الله عليه وســلم وهم على الضد من ذلك يبغضـــونه، وأبغضوكم؛ لأنكم تحبون مبغوضهم. إذاً: عليك أن تحب من يحبه اللـه، وتبغض من يبغضه اللـه، وتظهر عليك آثـار هـذه المحبـة، ولا شك أن لها آثـاراً، ومن آثارهــا: الــولاء والــبراء .. العطــاء والمنع .. التقــريب والإبعــاد، فمن أحببته أعطيته، ومن أبغضته حرمته، ومن أحببته قربته، ومن أبغضته أبعدته، وابتعدت عنه، ومن أحببته واليته، ومن أبغضته عاديته.

لا يجوز موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب

الـــذين يحبهم الله يجب أن تحبهم بقلبـــك، وتـــواليهم، وتعطيهم، وتقـــربهم، وتمدحهم، وتقتدي بهم، وتثني عليهم؛ لأن الله تعـالى يحبهم، والـذين يبغضـهم الله تبغضهم، وتعاديهم، وتقاطعهم، وتبتعد عنهم، وتحذر منهم، وتذمهم، وتحذر من سيرتهم، وسنتهم، وعادتهم التي أصبحوا بها مبغضين للـه، مبغوضـين عند الله، ولو كانوا ما كانوا. من الخصال التي ذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهـاب رحمه الله مما يجب للمســلم على المســلم، في قولــه: إنه يجب على كل مسلم ومسـلمة تعلم هـذه الثلاث المسـائل: وذكر الثالثة منهـا: أن من أطـاع الرسول ووحد الله لا يجوز له مـوالاة من حـاد الله ورسـوله، ولو كـان أقـرب قـريب، واسـتدل بالآية الـتي في آخر المجادلـة: لا تَجِـدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُـوَادُّونَ مَنْ حَـادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ [المجادلـة:22] لا تجد المؤمـنين حقـاً يــوادون المحــادين لله ورســوله أبــداً، لا تجــدهم يــوادونهم، بل لابد أن يعادوهم ويقاطعوهم وينبذوا لهم قوس العداوة، ولو كانوا أقرب قريب، ولهـذا

قـال: وَلَـوْ كَـانُوا آبَـاءَهُمْ أَوْ أَبْنَـاءَهُمْ أَوْ إِخْـوَانَهُمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ [المجادلـة:22] يعــني: أقــاربهم الخاصــين بهم، وما ذلك إلا أنهم لما أحبــوا الله أبغضــوا من يبغضه الله، فالذين عادوا الله، ولو كانوا أقارب عاداهم أولياء الله، ومقتـوهم، وابتعدوا عنهم، وقطعوا الاتصال بهم. أما أولياء الله فإنهم يحبونهم، ولو كــانوا بعيدين في النسب، فصار بعضهم يؤثر أخاه المسلم على نفسه، ولو كـان من فــارس أو من الــروم أو من الــبربر أو من الحبش أو نحو ذلــك، فمثلاً: من الصــحابة: بلال حبشي من الحبشــة، وصــهيب رومي من الــروم، وســلمان فارسي من فـارس، ولكن جمعت بينهم أخـوة الإسـلام ومحبة اللـه، فصـاروا أخوة في ذات الله تعـالى، يحب بعضـهم بعضـاً، ويـؤثر بعضـهم بعضـاً، فهكـذا تكـون آثـار هـذه المحبـة. فلما أحب الله الصـالحين، وأنت تحب الله أحببتهم، ولما أبغض الكـافرين، وأنت تبغض ما يبغضه الله أبغضـتهم، وكـذلك الأعمـال، فـإن الله تعـالى يبغض كثـيراً من الأعمـال، يقـول الله تعـالى: وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ [البقرة:205]، وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ [الزمـر:7]، فَـإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ [آل عمران:32]، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ [النحل:23]، إذا كان الله لا يحب هؤلاء فلا تحبهم، بل أبغضهم، انظر من يحبه الله؟ الله يحب التـوابين، ويحب المتطهــرين، ويحب الــذين يقــاتلون في ســبيله صــفاً كــأنهم بنيــان مرصــوص، ويحب أهل هــذه الخصــال، ويحب الأعمــال الصــالحة، ويحب من عبــاده أن يأتوهــا، فالــذي يــدعي المحبة لابد أن تظهر عليه آثارها وعلاماتها الواضحة.

العلامة الدالة على صدق محبة الله

ذكروا أن اليهـود لما قـالوا: نحن أبنـاء الله وأحبـاؤه -وكـذبوا فليسـوا أحبـاءه- أنزل الله آية تسمى آية الامتحان أو آية المحنة في سورة آل عمران: قُـلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَـاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ [آل عمـران:31] فامتحنهم الله بهـذه الآيـة، فـإذا كنتم صـادقين في أنكم تحبـون الله فلابد من علامة، والعلامة الواضـحة هي أنكم تتبعـون هـذا الرسـول الكـريم، فـإن هـذه علامة صدق من يدعي محبة الله. روي عن بعض السلف رحمه الله أنه قــال: من ادعى محبة الله ولم يوافقه فدعواه كاذبة؛ لأن الذي يحب الله يوافقه في أوامره ونواهيـه، ويفعل ما يحبه الله من الطاعـات، ويكـره ما يكرهه الله من المحرمات والمعاصي، وكذلك أيضاً يحب أولياء الله ويبغض أعداء الله، وبذلك يكــون صــادقاً في هــذه المحبــة، وإذا لم يكن كــذلك فليس بصــادق، والــذي يتظــاهر بالمعصــية ومع ذلك يــدعي أنه يحب الله ليس بصــادق، يقــول بعض الشـعراء: تعصي الإله وأنت تـزعم حبه هـذا عجيب في الفعـال بـديع لو كـان حبك صـــــــــادقاً لأطعتـه إن المحب لمن يحب مطيع فعلامة المحبة طاعة

المحبـوب. محبة الله تعـالى واجبـة، وعلاماتها ظـاهرة، وهي: طاعتـه، وحب العبادات التي يحبها، وحب العباد الذين يحبهم،وكـذلك موافقتـه، وكـذلك بغض المعاصي الـتي حرمها ومقتها وأبغضـها، ومعـاداة العصـاة والكفـرة الـذين أبغضهم وكرههم ومقتهم، فمن كان كذلك فإنه من أحباب الله الـذين وعـدهم الله تعالى بالثواب العظيم، جاء في الحديث القدسي يقول الرب تعـالى: (ولا يـزال عبـدي يتقـرب إلي بالنوافل حـتى أحبـه، فـإذا أحببته كنت سـمعه الـذي يسمع به، وبصره الذي يبصر بـه، ويـده الـتي يبطش بهـا، ورجله الـتي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنـه، وما تـرددت في شـيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته)، هكذا ورد في هذا الحديث، ومعنى كون الله تعالى إذا أحبه يقـول: (كنت سـمعه... إلخ) أي: أنه لا يســمع إلا ما يحبه اللــه، ولا يبصر إلا ما يحبه اللــه، ولا يمد يــده ويبطش إلا في طاعة الله، ولا يحرك قدمه ماشياً إلا فيما أمر الله به وأحبه.

ذكر أهل العلم مسألة المسح على الخفين في كتب العقائد لأن إنكارها صار شعاراً لبعض أهل البدع، كما ذكروا فيها وجوب غسل القدمين في الوضوء لكون الرافضة لا يغسلون أقدامهم عند الوضوء.

وجوب تحقيق الأخوة والاجتماع بين المسلمين

تقدم لدينا ما يتعلق بحث الإسلام وتحريضه على الاجتماع ونهيه عن الافتراق، وحثه على الائتلاف وتحذيره من الاختلاف، وذلك أن المسلمين كلما كانوا مجتمعين، وكلما كانت كلمتهم واحدة؛ كان نفوذ كلمتهم أقوى من غيرهم ممن خالفهم، وكلما تفرقت كلمتهم وتشتت أهواؤهم، واختلفت آراؤهم، ضعفت معنويتهم، وقوي عليهم أعداؤهم، فلأجل ذلك جاء الإسلام يحث على الاجتماع، قال الله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا [آل عمران: 103] فأمر بالاجتماع، ونهى عن التفرق، والتفرق يعم تفرق الأبدان وتفرق الأهواء والآراء والمذاهب والشيع والفرق والأحزاب، يعم ذلك كله، ويقول تعالى: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ [آل عمران:105] (تَفَرَّقُوا) أي: تفرقت كلمتهم، (وَاخْتَلَفُوا) أي: اختلفت آراؤهم، واختلفت أهواؤهم، وقد امتن الله تعالى على المؤمنين بأن جمعهم على كلمة التوحيد، وألف بين قلوبهم، قال الله تعالى: هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ *وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ [الأنفال:62-63] أي: جمع بينهم، ورزقهم المحبة والألفة، بحيث إن بعضهم يؤثر أخاه المسلم على نفسه، وعلى ولده، وعلى أحبابه وأحفاده وأنسابه وأقربائه، وذلك لما في قلبه من الود والرحمة للمسلمين عموماً. ولا شك أن هذه الأوصاف كلما تأكدت وقويت وثبتت كان المسلم مؤثراً لإخوته، ومقدماً لهم، ومحباً لهم غاية الحب، ومقدماً لمصالحهم، وإذا كانوا مجتمعةً كلمتُهم، ومتآلفين على كلمة التقوى؛ نتج من ذلك تعاونهم على البر والتقوى، وتعاونهم على تنفيذ كلمة الله، وعلى إظهار شعائر دينه، وكلما كانوا كذلك ضعف أعداؤهم وتخاذلوا وتفرقوا، وحصل النصر والتمكين للمؤمنين، والتفرق والانهيار للكافرين، وهذه سنة الله.......

خطورة الاختلاف والتفرق

اختلاف الكلمات واختلاف الآراء والأهواء سبب للتعصب، فيتعصب كل لرأيه، ولمذهبه، ولهواه، وهذا يحدث في أهل البدع، فإن هذه الطائفة إذا كانت تنتحل بدعة وتهواها وتفضلها فإنها لا تقبل ممن خالفها، بل ترى أن من خالفها على باطل وعلى ضلال، ونشاهد -مثلاً- الذين يسمون أنفسهم شيعة وهم

الروافض، نشاهدهم يتآلفون فيما بينهم، ويحب بعضهم بعضاً، ويقـدم بعضـهم بعضاً ربما على نفسـه، كما حكى لي أحد أهل السـنة في هـذا المسـجد أنهم جماعة من أهل السنة نحو المائة أو المائتين، وحـولهم من الرافضة أكـثر من عشرين ألفاً، فهؤلاء الرافضة تأتيهم الإمدادات ويأتيهم العون من الشـيعة في العراق وإيران والمملكة، ويشجعونهم. والواجب أن أهل السنة يشجعون أهل السينة ويثبتونهم ويواسونهم، ويعطـونهم ويمكنـونهم؛ لأنه تجمع بينهم الأخـوة الدينية التي هي أخـوة الإسـلام، فـإذا كـان أهل الباطل يجتمعـون ويتناصـرون على مذهبهم، الـذي هو في الحقيقة باطـل، ولكنه عمي عليهم، وزين لهم أنه حق، فما بال الـذين هم على الحق وعلى الصـراط؟! قـرأت في بعض الكتب أن المسـلمين في أول القـرن الثـاني، لما كـانوا في خراسـان مجتمعين من جهـات متعـددة، فـإذا لم يغـزو ولم يـذهبوا إلى قتـال أعـدائهم وقع الاختلاف بينهم، وأخـذوا يتفـاخرون، وكل يتعصب لقبيلتـه، وكل يتعصب لمذهبـه، وكل يتعصب لأمـيره ولشـيخه، ويحصل بينهم تشـتت واختلاف أهـواء، وربما حصل بينهم تقاتل أو تنـاوش أو ما أشـبه ذلـك، فجـاءهم أمـير ناصح مخلص، وجمع كلمتهم، ووحد وجهتهم إلى قتـال أعـدائهم، وتوجهـوا كلهم نحو الأعـداء؛ عند ذلك زالت العداوة والبغضاء التي كانت بينهم، وصاروا إخوة متآخين متـوجهين إلى العدو الذي هو أكبر الأعـداء، العـدو في الـدين، فكـانت هـذه الفعلة الـتي يفعلها أولئك القـادة -من جمعهم على التوحيـد- أعظم نصـيحة حـتى يقـاتلوا أعداءهم. فنحن نحث المسلمين أن تجتمع قوتهم وتتوجه نحو أعدائهم، سـواء الأعـداء الكفـار أو الأعـداء المبتـدعون، أو نحـوهم. وننهـاهم عن التمـادي في اختلاف الآراء والأهـواء، وقد مر بنا حـديث عبد الله بن عمـرو بن العـاص أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج مرة على أصحابه وهم يتنـازعون في القـدر وقد اختلفـوا، فكأنما فقئ في وجهه حب الرمـان، يعـني: من شـدة الغضـب، فقال: (لا تختلفوا فتختلف قلوبكم، أبهذا أمرتم؟! أم بهـذا كلفتم؟! ما عـرفتم فقولوا به، وما لم تعرفوا فكلـوا أمـره إلى عالمـه)، فنهى عن اختلاف الكلمة في مسألة القدر.

مقومات الوحدة والتآلف بين المسلمين

الإسـلام جـاء بجمع الكلمة والحث على الجماعـة، فحثهم على الألفة فيما بينهم، والأسـباب الـتي بها يتـآلفون، ويتعـارفون، ويتـآخون كثـيرة منهـا: أولاً: يتعارفون لأنهم مسلمون، ويتحابون لأجل الإسلام. ثانيـاً: يتعـارفون ويتـآلفون؛ لأن قصدهم وهـدفهم واحـد، وهو أن كلاً منهم يطلب الأجر الأخـروي، ويطلب النصر من الله تعـالى على الأعـداء. ثالثـاً: أن كلاً منهم يـدين بـدين واحد فيجمعهم هذا الدين، فإذا دانوا بدين واحد فإن عليهم أن يتحـابوا في ذات الله

تعالى، ويزيلوا الأسـباب الـتي توقع بينهم العـداوة والبغضـاء، وبـذلك يتـآلفون ويتحابون فيما بينهم. وكما أنهم مـأمورون على اختلاف طبقـاتهم وجنسـياتهم أن يتحابوا وأن يجتمعوا ولو تفرقت بلادهم، ولو تنـاءت أمـاكنهم، فـإنهم أيضـاً مأمورون بمقاطعة أعـدائهم، وبمبـاينتهم، وبغضـهم، والابتعـاد عنهم، وإذلالهم، سواء كانوا مبتدعة أو كفرة أو مشركين، فإنهم إذا رأوا منهم الغلظة والشـدة والبغضاء والكراهية ذلوا وهانوا، وهانت عليهم أنفسهم، وعرفوا عـزة الإسـلام ورفعته وتمكنه وعزة أهله؛ فـأذعنوا له وانقـادوا إما طوعـاً وإما كرهـاً، وهـذه الأمور مجربة في الأزمنة المتقدمة والقـرون الماضـية، فـإن المسـلمين كلما اجتمعـوا وأظهـروا لأعـدائهم المقت والاحتقـار ذل الأعـداء وقـوي الأوليـاء، وارتفعت كلمة الله، وانخفضت كلمة المشركين.

خطورة القول على الله بغير علم

قـال الشـارح رحمنا الله وإيـاه: [قولـه: (ونقـول: الله أعلم فيما اشـتبه علينا علمـه.) تقـدم في كلام الشـيخ رحمه الله تعـالى أنه ما سـلم في دينه إلا من سـلم لله عز وجل ولرسـوله صـلى الله عليه وسـلم، ورد ما اشـتبه عليه إلى عالمه، ومن تكلم بغير علم فإنما يتبع هواه، وقد قال تعـالى: وَمَنْ أَضَـلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْـرِ هُـدًى مِنْ اللَّهِ [القصـص:50]، وقـال تعـالى: وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُـلَّ شَـيْطَانٍ مَرِيـدٍ * كُتِبَ عَلَيْـهِ أَنَّهُ مَنْ تَـوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [الحج:3-4]، وقال تعالى: الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْـدَ اللَّهِ وَعِنْـدَ الَّذِينَ آمَنُـوا كَـذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ [غافر:35]، وقال تعـالى: قُـلْ إِنَّمَا حَـرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ وَأَنْ تُشْـرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [الأعراف:33]. وقد أمر الله نبيه أن يرد علم ما لم يعلم إليه، فقال تعـالى: قُـلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [الكهف:26]، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ [الكهف:22]، وقد قال صلى الله عليه وسلم لما سئل عن أطفال المشـركين: (الله أعلم بما كانوا عاملين). وقال عمر رضي الله عنـه: (اتهمـوا الـرأي في الـدين، فلو رأيتني يوم أبي جندل ، فلقد رأيتني وإني لأرد أمر رسـول الله بـرأيي، فأجتهد ولا آلو، وذلك يوم أبي جندل والكتـاب يُكتب، وقـال اكتب: بسم الله الـرحمن الرحيم، قال: اكتب: باسمك اللهم، فرضي رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وكتب وأبيت، فقال: (يا عمر ! تراني قد رضـيت وتـأبى؟!) وقـال أيضـاً رضي الله عنه: (السنة ما سـنه الله ورسـوله، ولا تجعلـوا خطأ الـرأي سـنة للأمـة). وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إن قلت في آية من كتـــاب الله بـــرأيي، أو بما لا أعلم). وذكر الحسن بن علي

الحلواني حـدثنا عـارم حـدثنا حمـاد بن زيد عن سـعيد بن أبي صـدقة عن ابن سـيرين قـال: لم يكن أحد أهيب لما لا يعلم من أبي بكر ، ولم يكن بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر رضي الله عنه، وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً، ولا في السنة أثراً، فاجتهد برأيـه، ثم قـال: هـذا رأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطـأ فمـني وأسـتغفر اللـه]. هـذه مسألة جديدة، وهي: مسألة الفتيا بغير علم، والجرأة على الفتيا، والقـول في الشـرع بغـير علم ذنب كبـير، وقد روي عن بعض السـلف، وروي مرفوعـاً: (أجرأكم على الفتيا أجرأكم على النار) يعني: الفتيا بغير علم؛ وذلك لأن الـذي يتكلم ويقـول في الشـرع وفي الـدين برأيه وبهـواه وبما يستحسـنه، ينصب نفسه مشرعاً، وكأنه نائب عن الله، ومزاحم للرب تعـالى في شـرعه، يقـول: أحل الله كذا، وحرم كذا، وأمر بكذا، ونهى عن كذا، وليس عنده مستند، وإنما يعتمد على ما يستحسنه، وما يراه في هواه ملائمـاً لواقعـه، أو نحو ذلـك، فلا جرم أن كان هذا ذنباً كبيراً، حتى قال بعضـهم: القـول على الله بلا علم أكـبر من الشرك، واستدلوا بهذه الآية التي في سـورة الأعـراف، والـتي حـرم الله فيها خمسة أشـياء، فبـدأ بالأسـهل ثم الـذي فوقه إلى أن أتى إلى أعلاها وأشدها تحريماً، فقال تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَـرَّمَ رَبِّي الْفَـوَاحِشَ مَا ظَهَـرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ َ [الأعراف:33] فهذا التحريم الأول، ثم جاء بعده ما هو أشد منـه: وَالإِثْمَ [الأعـراف:33] فـالإثم أشد من الفـواحش، ثم جـاء بعد الإثم ما هو أشد منه تحريمـاً فقـال: وَالْبَغْيَ بِغَيْـرِ الْحَـقِّ [الأعـراف:33] والبغي: الاسـتطالة على الناس بغير حق، فهو أكبر من الإثم، ثم جاء بعد البغي أكبر منه: وَأَنْ تُشْـرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً [الأعراف:33]، ثم جاء بعد الشرك أكبر منه: وَأَنْ تَقُولُـوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُـونَ [الأعـراف:33] فجعل القـول على الله أكـبر الخمسة التي حرمت في هذه الآية؛ وذلك لأن الـذي يقـول على الله كأنه رفع نفسه فـوق الأنبيـاء، ورفع نفسه فـوق العلمـاء، وجعل نفسه مشـرعاً يحلل ويحرم ويقول على الله ما ليس له به علم. ......

منهج السلف في الإفتاء

كان العلماء الجهابذة الذين بلغوا الذروة في المعرفة، وكـانوا على جـانب من الورع، يسأل كثير منهم فيتوقفـون في المسـألة إذا لم يكن فيها دليل صـريح واضح، يردها هذا إلى هذا إلى أن يتولى الفتيا والقول فيها أحدهم، فيكتفي به عن نفسه. وكـان الإمـام أحمد رحمه الله كثـيراً ما يتلو الآية الـتي في سـورة النحل وهي قول الله تعالى: وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِـفُ أَلْسِـنَتُكُمْ الْكَـذِبَ هَـذَا حَلالٌ وَهَـذَا حَـرَامٌ لِتَفْتَـرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَـذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَـرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَـذِبَ لا يُفْلِحُـونَ [النحـل:116] الـذين يقولـون: هـذا حلال بـأهوائهم، وهـذا حـرام بأهوائهم، بدون دليـل، يقـول: إن هـذا من الافـتراء والكـذب على الله تعـالى، والقـول عليه بغـير علم، والآيـات الـتي تقـدمت كلها تـدل على النهي عن أن يقول الإنسـان على الله بغـير علم. ذكـروا أن الإمـام مالك بن أنس إمـام دار

الهجرة الذي كانت تضرب إليه آباط الإبل، وكان هو المرجع في زمانـه، سـأله مــرة قــوم عن أربعين مســألة، فأجــاب عن أربع مســائل، وتوقف عن ست وثلاثين مســألة! فقــالوا لــه: أتتوقف وتقــول: لا أدري وأنت مالك بن أنس؟! فقــال: نعم، لا أدري، لا أدري، قولــوا: مالك بن أنس لا يــدري، قولــوا: مالك يقـول: لا أدري. وكـان كثـير من العلمـاء يحثـون على التوقف عن المسـائل، فيقولــون: من أخطأ (لا أدري) أصــيبت مقاتلــه، أي: أنه إذا صــار يفــتي ولا يتوقف، ويستحيي أن يقول: لا أدري، فإنه قد تصاب مقاتله، بأن يزل مرة هنا، ومرة في هذه المسألة، ويحاسبه الله تعـالى على أقواله بغـير علم، فيقع في الهلاك والعياذ بالله، فالذي عنده علم بالمسـألة، وعنـده يقين بحكمهـا، ودليل عليهـا، وسـئل عنهـا، لا يجـوز له السـكوت، ولا يجـوز له التوقـف، بل يقـول بموجب علمه بالدليل، ولا يكتم العلم لقوله صلى الله عليه وسلم: (من سـئل عن علم يعلمه فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من النار)، أما إذا سـئل وهو لا يعلم، وليس عنده خبرة بهذه المسـألة، فلا يجـوز له الإقـدام عليهـا، بل يحيله إلى من هو أعلم منـه، وإلى من عنـده علم بتفصـيل هـذه المسـائل ونحوهـا. ولقد اعتنى علماء الإسلام بهذه المسائل الـتي يمكن أن تقـع، اعتنـوا بها غاية الاعتناء، واجتهدوا في بيانها، وفي إيضـاحها أتم الاجتهـاد، والحقـوا كل مسـألة بنظيرها، فلم يبق لأحد قول، فأنت إذا سئلت عن مسألة فارجع إليها في كتب أهل العلم، وقل: هذه المسألة أفتى فيها العالم الفلاني بكذا، والشـيخ الفلاني بكذا، ويوجد بيانها في الكتاب الفلاني، وتـورع أنت أن تستحسن فيها أو تقـول فيها، يقول بعضهم: وقل إذا أعياك ذاك الأمر ما لي بما تسأل عنه خبر فــذاك شطر العلم فاعلمنه واحذر هـديت أن تزيغ عنه يقولـون: إن كلمة (الله أعلم) شطر العلم، كأن الذي تعلم مسائل كثـيرة، وقـرأ العلـوم المتنوعـة، قـرأ في التفاسير، وقرأ في كتب الحـديث، وقـرأ في كتب الآداب والأحكـام، وقـرأ في كتب العقائـد، وحصّـل منها معلومـات، يقـال لـه: أنت لم تحصل إلا على علم قليل يسير، ولـذلك يقـول بعضـهم: وليس كل العلم قد حويته أجل ولا العشر ولو أحصيته ولو أحصـيته ما حصـلت إلا على العشر أو أقل من عشر العلـوم، فـالعلوم واسـعة، وما ظفـرت منها إلا بـنزر يسـير، فعليك أن تقتصر على ما تعلمه وتتحققه وتتيقنه.

إذا اجتهد العالم فأخطأ فله أجر

هنــاك مســائل فيها مجــال للاجتهــاد، ولأجل ذلك اختلفت فيها آراء العلمــاء، واختلفت فيها المـذاهب، فـذهب فيها الصـحابي الفلاني إلى كـذا، والصـحابي الآخر إلى كذا، وذهب فيها الإمـام أبو حنيفة إلى كـذا، والإمـام مالك إلى كـذا، والشافعي إلى كذا، هذه المسائل فيها مجال للاجتهاد والاختلاف، وقد حصـلت

بسبب اختلاف الأفهام، واختلاف الآراء، وسعة المعلومات أو قلتها، فهذا هو السبب، ونحن نعذر الذين خالفوا الدليل، وأفتوا بخلافه، نعذرهم ونقول: هذا ما وصل إليه اجتهادهم، فهم قالوا عن اجتهاد، وقد اضطروا إلى القول فيها، وإلى الحكم بما يلزم السائل، وكانت واقعة لابد من الفتيا فيها، فاجتهدوا، ولو خالفوا الدليل فهم معذورون بهذا الاجتهاد، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد عذر المجتهد في قوله: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد) يعني: على اجتهاده يعني: أنه معذور ومغفور له ذلك الخطأ، ومع ذلك يحصل له هذا الأجر. ولكن ليس ذلك لكل أحد، فالذي لم يتأهل للاجتهاد، ولم يصل إلى رتبة المعرفة، ولم يكن من أهل الإتقان، ولم يعرف مراجع المسائل، ولا تفاصيل الأدلة، ولا وجوه الاستدلال، ولا ثبوت الأدلة أو عدم ثبوتها، ولا يعرف الجمع بين مختلفها، ولا يعرف متقدمها ومتأخرها، ولا يفرق بين خاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها.. وما أشبه ذلك؛ فهذا لا يفتي إلا بالشيء الذي قد اتضح عنده حكمه كالشمس، أما الباقي فعليه أن يتوقف حتى لا تنطبق عليه هذه الآيات التي استدل بها الشارح رحمه الله، وكذلك الآيات التي أمر الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم برد العلم إلى الله، مثل قوله: قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا [الكهف:26]، فنحن نقول: الله أعلم، ونقول كما قالت الملائكة: لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا [البقرة:32]. والله تعالى يذم الذين يجادلون في آيات الله بغير علم، فدل على أنهم إذا كان عندهم علم وجادلوا فإنهم يجادلون مجادلة حسنة، وأما الذين يجادلون بغير علم فإنهم مذمومون: وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [الحج:3-4] يعني: أنه في هذه المجادلة قد اتبع الشيطان. وبكل حال فالعلوم والحمد لله مدونة وموجودة وميسرة، والعلماء هم الذين يعرفون مراجعها، ويعرفون الراجح منها والمرجوح، ومن كان معه أهلية، وأخذ العلم من مظانه؛ فله أن يقول به، ولا يتبع غيره ممن لم يتمكن؛ ومن لم يكن عنده أهلية رجع إلى أهل العلم، وقال بما قالوا به، أو بما وصلت إليه أفهامهم واجتهاداتهم.

مسألة المسح على الخفين

قال الشارح رحمه الله: [قوله: (ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر، كما جاء في الأثر). تواترت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسح على الخفين، وبغسل الرجلين، والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة، فيقال لهم: الذين نقلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم الوضوء قولاً وفعلاً، والذين تعلموا الوضوء منه وتوضئوا على عهده وهو يراهم

ويقرهم، ونقلوه إلى من بعدهم، أكثر عدداً من الـذين نقلـوا لفظ هـذه الآيـة، فإن جميع المسلمين كانوا يتوضئون على عهده، ولم يتعلموا الوضوء إلا منــه، فإن هذا العمل لم يكن معهوداً عندهم في الجاهلية، وهم قد رأوه يتوضأ ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، ونقلوا عنه ذكر غسل الرجلين فيما شــاء الله من الحديث، حتى نقلوا عنه من غير وجه في كتب الصحيح وغيرها أنه قـال: (ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار)، مع أن الفرض إذا كان مسح ظاهر القدم، كـان غسل الجميع كلفة لا تــدعو إليها الطبــاع، كما تــدعو الطبــاع إلى طلب الرياسة والمال، فلو جاز الطعن في تواتر صفة الوضـوء، لكـان في نقل لفظ آية الوضوء أقرب إلى الجواز].......

سبب ذكر مسألة المسح على الخفين في كتب العقائد

هذه مسألة فروعيـة، ومع ذلك ذكـرت في العقائـد، وهي مسـألة المسح على الخفين، يــذكرها الفقهــاء في أبــواب الطهــارة، يقولــون: بــاب المسح على الخفين، ويـذكرون أحكـام ذلـك، والنـاس يسـمعون ذلك ويفهمونه ويعرفونـه، فهي من المسائل الفروعية، مثل: باب التيمم، ومثل بــاب الغسل من الجنابة وموجباتــه، ومثـل: إزالة النجاسة وخصـال الفطـرة، وما أشـبه ذلـك. فلمـاذا ذكـرت في كتب العقائد كهـذا الكتـاب وهي مسـألة فرعية تتعلق بالطهـارة؟ الجــواب: لأن الخلاف فيها مع المخــالفين في العقيــدة، فالــذين خــالفوا فيها خالفوا في أكثر العقائد، وردوا السنة الصحيحة الصريحة في كثير من الأحكام الثابتة، وطعنوا في الـذين يفعلونهـا، وخـالفوا الأدلـة. الـذين خـالفوا في هـذه السنة هم الرافضة الذين يسمون أنفسهم شيعة، يقولـون: إنهم شـيعة علي ، يعـني: أعـوان عليـاً، مع أن علي رضي الله عنه بـريء منهم ومن مشـايعتهم، وهم في الحقيقة ما شـايعوه ولا نصـروه، بل خـذلوه وخـذلوا أولاده، ولم يكن منهم نصر له ولا معاونة له ولا لأهله في زمن من الأزمــــــان، ولكن زين لهم الشـيطان أعمــالهم فسـموا أنفسـهم شـيعة علي ، وأهل السـنة يسـمونهم رافضة؛ وذلك لأنهم رفضوا الحق، يعـني: تركـوا السـنة وهم يعرفونهـا، سـواء أوائلهم وأواخــرهم، ولكنهم عانــدوا في تركه ورفضــه، فصــدق عليهم اسم الرفض. وقولهم في هذه المسألة قول باطل؛ وذلك لأنهم خـالفوا المسـلمين في أمرين: في غسل الرجلين، وفي المسح على الخفين، فهم لا يرون غسل الرجلين، فإذا كـانت الرجل بـارزة لا يـرون غسـلها، بل يمسـحون الرجل كما يمسحون الرأس، هذا مذهبهم، فـإنهم قد خـالفوا السـنة الصـريحة في غسل القدمين إذا كانتا مكشوفتين، وخـالفوا السـنة الصـريحة في مسح الخفين إذا كانا على القدمين، فخالفوا مـرتين؛ فلأجل ذلك أنكر عليهم السـلف، وأسـاءوا بهم الظن، وحذروهم وحذروا منهم، روي عن ابن المبارك رحمه الله أنه كـان يقول: إذا رأيت الرجل يسـأل عن حكم المسح على الخفين أسـأت به الظن، يعـني: اتهمته في معتقـده، خوفـاً أن يكـون من هـؤلاء الشـيعة؛ وذلك لأنه لم يكن أحد من أهل السـنة المتمسـكين بها يشك في حكم المسح على الخفين

وفي جوازه؛ لأنه متلقى عن النبي صـلى الله عليه وسـلم، وقد نقله عنه جمع عن جمع، وأعداد عن أعـداد، وتلقـاه المسـلمون وتقبلـوه، فـروي في المسح أكثر من أربعين حديثاً.

تواتر أحاديث المسح على الخفين

يقـــول الإمـــام أحمد رحمه اللـــه: ليس في نفسي من المسح على الخفين شـيء، فيه أربعـون حـديثاً عن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، وهي من الأحاديث الصحيحة الـتي لا توقف فيها ولا ارتيـاب. وهنـاك أحـاديث كثـيرة قد يكـون فيها مقـال، ولكن يسـتدل بها أيضـاً، وقد أوصـلها بعضـهم إلى سـتة وخمسين حـديثاً كما في نصب الرايـة، قـال الحسن البصـري رحمه الله -وهو أحد كبار التابعين-: حدثني سبعون من أصـحاب النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه مسح على الخفين وأمر به، فما دام أنها سنة ثابتة متواترة مشـهورة ليس فيها اختلاف، وليس في ثبوتها تردد، فكيف -مع ذلك- ينكرها هؤلاء الرافضة؟! لا شك أن سبب إنكارهم هو أن الذين قـالوا بها من أهل السـنة، وهم يـردون على أهل السنة، ولا يقبلون شيئاً مما جاء به السنيون، وهذا موجود إلى الآن، حـــدثني أحد المدرســين في الأحســاء، في مدرسة متوســطة فيها من أولاد الشيعة وأولاد أهل السنة، يقول: ألقيت عليهم اختباراً شهرياً، وهو ما يسـمى: بأعمال السـنة، ولما ألقيته اخـترت مسـائل في المسح على الخفين، فكـانت أجـــوبتهم على ما في الكتب، ولكن في النهاية قـــال له أحـــدهم: اعلم أيها المدرس أني أجبتك على ما في الكتاب، وإلا فأنا لا أقول بهذا، ولا أعتقده، ولا أصــدقه، ولو قلتم ما قلتم يا أهل السـنة، فلن نـذهب إلى مـذهبكم ولا نقبل منكم! مع أنه طالب لا يزال في المتوسطة! ويتلقى العلوم عن مدرسـين من أهل السـنة! ولكن لما كـان الـذين يلقنـونهم عقيـدتهم على تلك العقيـدة، لم يتقبلوا حتى هذه المسألة الفرعيـة، الـتي هي من فـروع المسـائل؛ وذلك لأن الـذين نقلوها من الصـحابة الـذين يطعن فيهم الرافضـة، فالرافضة لا يقبلـون كلام أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا طلحة والزبير ، ولا عبد الرحمن بن عوف ، ولا أبي عبيــدة ، ولا غــيرهم من أكــابر الصــحابة، ولا رواية أبي هريــرة ولا عائشة ولا حفصة ، لا يقبلون رواية أولئـك؛ لأنهم يعتقـدون أنهم كفـار! فـردوا هذا كلياً، ولم يقبلوا أحاديث المسح على الخفين أصلاً. هذا قـولهم في المسح على الخفين، أما أهل السـنة فيقولـون: هـذه سـنة الرسـول صـلى الله عليه وســلم، وهو الــذي علمنا الشــريعة، وتلقينا عنه علومهــا، تلقينا عنه الصــلاة وكيفيتها وعددها، ولم يكن ذلك مبينــاً في القــرآن، من الــذي أخبرنا أن صـلاة الظهر أربعـاً إلا الرسـول صـلى الله عليه وسـلم؟ من الـذي أخبرنا أن صـلاة الفجر ركعتـان، وصـلاة المغـرب ثلاث ركعـات؟ من الـذي أخبرنا أن في كل

ركعة سجدتان، وأن في كل سجدة دعاء كذا وكذا؟ لا شك أنه النبي صلى الله عليه وسلم، فهو الذي علمنا صفة الصلاة، وعلمنا الطهارة وكيفيتها، وكيفية الغسل وموجباته وما أشبه ذلك. وما دام أنه الذي علمنا ذلك فهو الذي علمنا سنة المسح على الخفين، ونقلها عنه صحابته الذين نثق بهم، والذين نعرف أنهم صحبوه مدة طويلة، وأنهم أخذوا عنه العلوم الشرعية، فنقلوا عنه العلوم الشرعية الفرعية والأصولية نقلاً تاماً، وتثبتوا في نقلها، فلا يتهمون بكذب، ولا يتهمون بنقص ولا زيادة ولا خيانة، فما داموا كذلك فكيف تتوجه إليهم التهم؟ فنحن نقبل هذه السنة كما قبلنا بقية السنن، فما الفرق؟! إذا كنا قبلنا ما نقلوه في العقيدة فكذلك نقبل ما نقلوه في الأحكام، وما نقلوه في الفروع، فهي سنة ثابتة متواترة لا شك فيها عند أهل السنة.

مسألة غسل القدمين في الوضوء

الرافضة لا يغسلون القدمين في الوضوء ولو كانتا مكشوفتين، بل يكتفون بمسحهما، ويستدلون بقراءة الجر: (وامسحوا برءوسكم وأرجلِكم) وأهل السنة يحملون الجر على أنه للمجاورة، ويستدلون بقراءة النصب وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ [المائدة:6] يعني: واغسلوا أرجلكم. أهل السنة يرون غسل القدمين، وأنها تغسل كما تغسل اليدين إلى المرفقين، ويستدلون بالسنة؛ وذلك لأنه تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا توضأ غسل قدميه، ولم ينقل عنه أنه مسحهما وهما ظاهرتان، ولم ينقل عنه المسح إلا على الخفين، أما إذا لم تكن في الخفين فإنه يغسلهما، هذا هو الذي تواتر عنه، وقد رواه عنه الأعداد الكثيرة من الصحابة، ورواه عن الصحابة التابعون، وتلقته الأمة بالقبول قولاً وعملاً، واشتهر ذلك وانتشر فيما بين المسلمين، وجاءت الرافضة فأنكروا ذلك، وقالوا: نقتصر على المسح! وسبب ذلك أنهم لا يقبلون -كما قلنا- أحاديث الصحابة؛ لأنهم في زعمهم كفار ارتدوا بعد الرسول صلى الله عليه وسلم! هذه عقيدهم قاتلهم الله، فهم يكفرون الصحابة! إذاً: أهل السنة عملوا بالسنة المتواترة في المسح على الخفين، وفي غسل القدمين إذا لم يكن عليهما خفان، وخالفهم الرافضة في ذلك. وبكل حال هذه مسألة فرعية ليست من المسائل الاعتقادية؛ وذلك لأن العقائد إنما تكون في الأمور التي هي من الأمور الغيبية وما أشبه ذلك، كأمور الآخرة ونحوها، وأما مسائل الفروع كالصلاة والطهارة وما أشبهها فإنها تسمى فروعاً، ومع ذلك قد تدخل في الأصول، إذا كانت أدلتها قطعية يقينية، مثل أدلة المسح على الخفين فإنها قطعية، فقد ثبت فيها أربعون حديثاً، ووصلت إلى ستة وخمسين بما فيها من الروايات المنقطعة التي وصلت من طرق أخرى، والضعيفة التي جبرت بالتواتر، أو نحو ذلك، فأصبح الدليل يقينياً

وليس ظنياً، ثم إن الذين عملـوا به واتبعـوه من الصـحابة هم الـذين نقلـوا لنا كتاب الله، ونقلوا لنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ......

الأدلة على وجوب غسل القدمين

قـال الشـارح رحمه الله تعـالى: [واذا قـالوا: لفظ الآية ثبت بـالتواتر الـذي لا يمكن فيه الكذب ولا الخطأ، فثبوت التواتر في نقل الوضوء عنه أولى وأكمل، ولفظ الآية لا يخـالف ما تـواتر من السـنة، فـإن المسح كما يطلق ويـراد به الإصابة، كذلك يطلق ويراد به الإسـالة، كما تقـول العـرب: تمسـحت للصـلاة، وفي الآية ما يـدل على أنه لم يـرد بمسح الـرجلين المسح الـذي هو قسـيم الغسل، بل المسح الذي الغسل قسم منـه، فإنه قـال: إِلَى الْكَعْبَيْنِ [المائـدة: 6]ولم يقل: إلى الكعاب، كما قـال: إِلَى الْمَرَافِـقِ [المائـدة:6] فـدل على أنه ليس في كل رجل كعب واحـد، كما في كل يد مرفق واحـد، بل في كل رجل كعبان، فيكون تعالى قد أمر بالمسح إلى العظمين الناتئين، وهـذا هو الغسـل، فإن من يمسح المسح الخاص يجعل المسح لظهور القـدمين، وجعل الكعـبين في الآية غاية يرد قـولهم، فـدعواهم أن الفـرض مسح الـرجلين إلى الكعـبين اللذين هما مجتمع الساق والقدم عند معقد الشراك؛ مردود بالكتاب والسـنة، وفي الآية قراءتـان مشـهورتان: النصب والخفض، وتوجيه إعرابهما مبسـوط في موضعه، وقراءة النصب نص في وجوب الغسـل؛ لأن العطف على المحل إنما يكون إذا كان المعـنى واحـداً، كقولـه: فلسـنا بالجبـال ولا الحديـد. وليس معنى: مسحت برأسي ورجلي هو معنى مسحت رأسي ورجلي، بل ذكر البـاء يفيد معنى زائداً على مجـرد المسـح، وهو إلصـاق شـيء من المـاء بـالرأس، فتعين العطف على قوله: (وأيديكم) فالسـنة المتـواترة تقضي على ما يفهمه بعض الناس من ظاهر القرآن، فإن الرسول بين للناس لفظ القـرآن ومعنـاه، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كـانوا يقرئوننا القـرآن: عثمـان بن عفـان وعبد الله بن مسـعود وغيرهمـا: أنهم كـانوا إذا تعلمـوا من النـبي وصلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا معناها. وفي ذكر المسح في الـرجلين تنبيه على قلة الصب في الـرجلين، فـإن السـرف يعتـاد فيهما كثيراً، والمسـألة معروفـة، والكلام عليها في كتب الفـروع]. هـذا يتعلق بغسل القدمين، والإنكار على من يمسح القـدمين كالرافضـة، فهم يسـتدلون بقـراءة الخفض: وَامْسَـحُوا بِرُءُوسِـكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ [المائـدة:6]. والجـواب: أننا أيضـاً نسـتدل بقـراءة النصـب: (وَامْسَـحُوا بِرُءُوسِـكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ) فالقراءتـان تفسر إحداهما الأخرى، هذا من جهـة. ومن جهة ثانيـة: أن المسح يطلق على الغسل، فيسمى الغسل مسحاً، تقول العرب: تمسحت للصلاة، يعني: غسلت أعضـائي غسـلاً خفيفـاً، فـالأمر بقولـه: (وَامْسَـحُوا بِرُءُوسِـكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ) أي: اغسلوها غسـلاً خفيفـاً، قيـل: إن سـبب ذلـك: أن القـدمين مظنة الإسـراف؛ لأنهما قد يحتاجان إلى كثرة صب الماء فيهمـا، فلأجل ذلك نهي عن الإسـراف في صب الماء، فـأمر بالغسل الخفيف الـذي هو شـبيه المسـح. ودليل ثـالث:

وهو أن الله حــدد موضع الغسل ونهايته في اليــدين وفي الــرجلين، ففي اليد قال: وَأَيْـدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِـقِ [المائـدة:6]، ومعلـوم أن التحديد يـدل على أنه مغسول، فتغسل اليد إلى المرفـق، ثم قـال: وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ [المائـدة: 6] فـدل على أنها تغسل إلى الكعـبين، حيث ذكر النهايـة، ولم يـذكر ذلك في الرأس، بل قال: (وَامْسَحُوا بِرُءُوسِـكُمْ) ولم يقـل: إلى القفـا، ولا إلى العنـق، ولا إلى الأذن، بل أطلق بقولـه: (وَامْسَـحُوا بِرُءُوسِـكُمْ)، فالمسح لم يـذكر له تحديـــداً، والغسل ذكر له تحديـــداً بقولـــه: (إلى الكعـــبين)، والكعبـــان: هما العظمان الناتئان في ظاهر القدم، وفي كل رجل كعبـان، والرافضة يقولـون: إن الكعب هو العظم الذي في المفصل، وهو كعب واحـد، يعـني: يقولـون: إن في كل رجل كعب واحد وهو العظم الذي في المفصل، الذي بين القـدم وبين الساق، ولو كان كذلك لقال: إلى الكعاب، كما قال: إلى المرافق، وبكل حــال فتفصيل هـذه المسـألة -كما ذكر الشـارح- في كتب الفـروع، فلا نطيل فيهـا، والمسألة ظاهرة جلية والحمد لله.

من الفــرق الــتي تخــالف أهل الســنة فرقة الرافضــة، فهم ينكــرون الســنة ويطعنــون في نقلتهــا، حــتى ردوا ما هو متــواتر كمسح الخفين، وخــالفوا في الإمامة فاشترطوا عصمة الإمام وحصروا الإمامة في اثــني عشر رجلاً من آل البيت، لم يتولوا على المسلمين ولا حصل بهم الاستصلاح المزعوم.

مجمل القول في مسألة الولاء والبراء وآثارها

كــان من جملة ما مر بنا من أمــور العقيــدة: مســألة المحبة والبغض، والــولاء والبراء، وهو أن أهل السنة يحبون أهل الإيمــان وأهل التقــوى، ويبغضــون أهل الكفر والعناد، يحبون أهل الطاعات، ويبغضون أهل المعاصــي، وينتج من آثــار هــذا: الــولاء لمن يحبونــه، والبغضــاء والمعــاداة لمن يبغضــونه، ويكــون الــولاء والبراء هو آثار الطاعات وآثار المعاصي. ولا شك أن هــذه ســمة وصــفة مــدح الله بها أولياءه، ومدح بها صــحابة نبيه صــلى الله عليه وســلم، وذلك أنهم لما ألف الله بينهم، وجمعهم على الإيمــان وعلى تقــوى الله تعــالى؛ تــآلفوا فيما بينهم، وصار بعضهم يحب بعضاً ويألف بعضهم بعضــاً، ويــوالي بعضــهم بعضــاً، ويقرب بعضهم بعضاً، بل وصفهم الله تعالى بقوله: يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ [الحشر:9]، وهل هناك وصف أكبر من هذا الوصف؟! (يؤثرون على أنفســهم ولو كــان بهم خصاصــة) يقــدمون إخــوتهم في ذات الله تعــالى على مصالحهم الدنيوية، ويقــدمونهم على شــهواتهم الدنيويــة، فيــؤثر أحــدهم أخــاه بالطعــام ويــبيت جائعــاً! ويــؤثره بالشــراب ويــبيت ضــمآن، ويــؤثره بالكســوة الجميلــة، ويــؤثره بالمكــان المــريح، ويــؤثره بــالمركب اللين، وذلك من بــاب المحبة الــتي رســخت في قلــوبهم، فهم لما أحبــوا الله تعــالى أحبــوا أوليــاءه، وأحبوا من يحبه، ومحب المحبوب محبــوب، هكــذا وصــفهم الله تعــالى: وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ [الأنفــال:63] مع تباعــدهم في الأرحــام، وتباعــدهم في الأنســاب، وتباعدهم في البلاد، ولكن جمعهم وصف الإيمان، فتــآلفت قلــوبهم، ولو كــانوا قبل ذلك متعــادين ومتقــاتلين ومتنــاحرين، فقبل الإســلام كــان بعضــهم ينهب بعضاً، ويسبي بعضهم بعضــاً، ويقتل بعضــهم بعضــاً، وذلك لأنه لم يوجد إيمــان يؤلف بينهم، ولم يوجد إيمــان يجمع بينهم. فلما مَنَّ الله عليهم بهــذا الإيمــان تآلفوا وتقاربوا، وتآخوا، وهذا من الله تعالى لا من خلقه، ولهذا امتن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بجمعهم عليه فقال تعالى: هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ [الأنفال:62-63]، فتــأليف القلــوب هو اجتماعها وتحابها وتوادهــا، ولو كــانوا متباينة أنســابهم، فبعضــهم من الحبشة كـــبلال ، وبعضهم من الروم كـصهيب ، وبعضهم من الفــرس كــسلمان ، وبعضــهم من العــرب، وبعضــهم من العجم، ولكن جمعهم الوصف الوحيد الــذي هو الإيمــان

بالله تعالى، فلنا بهم قدوة، فعلى كل المسلمين في كل زمان وفي كل مكان أن يتآلفوا فيما بينهم، ويتوادوا ويتحابوا. ومن آثار التواد لأجل الإيمــان: البغض لأجل الكفر والنفاق، وذلك لأن الكفر والإيمــان ضـدان لا يجتمعـان، فلا يجتمع أن تحب الله وتحب أعداءه، فإذا أحببت الله أحببت أوليـاءه أهل طاعتـه، وإذا أحببت أوليــاءه فلابد أن تبغض أعــداءه، ولابد أن تبغض من يبغضــهم اللــه، وتقاطعهم وتعاديهم، وتبتعد عنهم كل الابتعاد، وذلك لأن ربك الـذي أنعم عليك يبغضهم، وأنت تبغضهم لأجل ذلك، ومبغض المبغوض عند المحبـوب مبغـوض، الذين يبغضهم محبوبك لابد وأن تبغضهم. وهذا ما جرى للصحابة ومن بعـدهم، فإن الله تعالى مدحهم فقال تعالى: لا تَجِدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ [المجادلة:22] لا تجدهم يوادون أهل المحادة، لا تجدهم إلا يباعدونهم ويبغضونهم، وتجدهم قد مقتوهم وحقروا شأنهم، وكرهوا مجالستهم، وقطعوا الصلة بهم، ونفروا ونفَّروا منهم، وأذلـوهم وحرصـوا على إهانتهم بكل ما يسـتطيعون، وإذا اسـتطاعوا أن يقـاتلوهم قـاتلوهم ولو كـانوا آباءهم أو إخوانهم أو أبناءهم أو عشـيرتهم، ضـرب الله مثلاً بهـؤلاء الـذين هم أقرب الأقارب، فإذا كان الله تعالى يبغضـهم لأجل كفـرهم، ولأجل معصـيتهم، ولأجل خروجهم عن الاستقامة، فإن المؤمن يبغضهم، ولو كانوا أقــارب، لأجل الخروج عن طاعة الله. ......

مجمل القول في مسألتي المسح على الخفين وغسل القدمين

وكــذلك مــرت بنا مســألة فرعيــة، وذكرنا أنها أدخلت في الأصــول لأجل أن الخلاف فيها مع المخــالفين في الأصــول، وهي مســألة المسح على الخفين، وذلك لأن الرافضة أنكـــروا المسح على الخفين، وصــــاروا يمســـحون على القدمين مكشـوفتين، فـتركوا سـنة وارتكبـوا بدعـة. ولما كـانوا مخـالفين في العقيـدة، مخـالفين في محبة الصـحابة رضي الله عنهم بل يبغضـونهم! وبينما يغلــون في بعض الصـــحابة ويعبـــدونهم، فقد تـــرتب على ذلك المخالفة في المسح على الخفين، فـذكرت في العقائـد. والرافضة كـانوا مخـالفين لنا في هــذه الســنة الــتي هي جــواز المسح على الخفين، فكــانوا لا يــرون ذلك ولا يعتقدونــه، وأضــافوا إلى ذلك بدعـــة، وهي أنهم يمســحون على القـــدمين المكشوفتين! فهم لا يقبلون السنة، ولا يعملون بالأحاديث الصحيحة الـتي في البخاري ومسلم ، بل لا يعترفون بـالبخاري ومسـلم، ولا بـأكثر الأسـانيد الـتي ذكرت في هذه الكتب. فلما كـان الأمر كـذلك لم يقبلـوا هـذه السـنة، مع أنها سنة مأثورة متواترة راوها عن النبي صلى الله عليه وسلم جمع غفير، ورواها عن الصحابة أكثر وأكثر، واشـتهرت في عهد التـابعين وأتبـاع التـابعين، وعمل بها أهل الســـنة في كل الأمصــــار وفي كل البلاد، وعلى اختلاف الطبقـــات، وانفردت الرافضة بأن أنكرت هذه السنة رغم شهرتها، فلأجل ذلك صار الذين ينكرونها محل سوء ظن، وكما أن ابن المبارك يقول: إن الرجل ليسـألني عن حكم المسح على الخفين فأســيء به الظن، يعــني: أتهمه بأنه على مــذهب

الرافضة، وهـذا هو المعمـول بـه: أنه لاينكرها إلا هـؤلاء الرافضـة، فلا التفـات إليهم. أما أحكام المسح على الخفين فمذكورة في كتب الأحكام.......

الجهاد والحج ماضيان وإن جار الأئمة

......

الرد على الرافضة في خرافة الإمام المنتظر

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (والحج والجهاد ماضـيان مع أولي الأمر من المسـلمين، بـرهم وفـاجرهم، إلى قيـام السـاعة، لا يبطلهما شـيء ولا ينقضهما). يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الرافضة، حيث قالوا: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الرضى من آل محمد صلى الله عليه وسلم، وينادي مناد من السماء: اتبعوه! وبطلان هذا القول أظهر من أن يستدل عليه بدليل، وهم شرطوا في الإمام أن يكون معصوماً، اشتراطاً بغير دليل، بل في صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي قال: سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقول: (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصـلون عليكم، وشـرار أئمتكم الـذين تبغضـونهم ويبغضـونكم، وتلعنـونهم ويلعنـونكم، قال: قلت: يا رسـول اللـه! أفلا ننابـذهم عند ذلـك؟ قـال: لا، ما أقـاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصـية اللـه، ولا يـنزعن يـداً من طاعتـه)، وقد تقـدم بعض نظـائر هـذا الحديث في الإمامة، ولم يقل: إن الإمـام يجب أن يكـون معصـوماً. والرافضة أخسر الناس صفقة في هذه المسألة؛ لأنهم جعلوا الإمام المعصوم هو الإمـام المعدوم! الذي لم ينفعهم في دين ولا دنيا! فإنهم يدعون أنه الإمام المنتظـر، محمد بن الحسن العسـكري الـذي دخل السـرداب في زعمهم سـنة سـتين ومـائتين أو قريبـاً من ذلك بسـامراء، وقد يقيمـون هنـاك دابـة، إما بغلة وإما فرسـاً ليركبها إذا خـرج! ويقيمـون هنـاك في أوقـات عينوها لمن ينـادي عليه بـالخروج: يا مولانا اخـرج! يا مولانا اخـرج! ويشـهرون السـلاح ولا أحد هنـاك يقاتلهم! إلى غير ذلك من الأمور التي يضحك عليهم فيها العقلاء! وقولـه: (مع أولي الأمر برهم وفاجرهم)؛ لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسـفر، فلابد من سـائس يسـوس النـاس فيهمـا، ويقـاوم العـدو، وهـذا المعـنى كما يحصل بالإمام البر يحصل بالإمام الفاجر].

وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر ما أقاموا الصلاة

هذا يتعلق بالإمامة، وهي الولاية العامـة، وذلك لأن أهل السـنة يـرون السـمع والطاعة للأئمـة، وقد تقـدم الاسـتدلال على ذلك في مثل قوله تعـالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا أَطِيعُـوا اللَّهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ وَأُوْلِي الأَمْـرِ مِنْكُمْ [النسـاء:59]، ومثل قوله صـلى الله عليه وسـلم لـأبي ذر : (اسـمع وأطع وإن جلد ظهـرك وأخذ مالك)، وقوله: (عليكم بتقـوى الله والسـمع والطاعـة، وإن تـأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، يقودكم بكتاب الله). وفي هذا الحديث أنه صـلى الله عليه وسلم قال: (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبـونكم، وتصـلون عليهم ويصلون عليكم)، يعـني: تـدعون لهم ويـدعون لكم، عـبر بالصـلاة عن الـدعاء (وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم)، يعني: تدعون عليهم (ويلعنونكم، قال: قلنـا: يا رسـول اللـه! أفلا ننابـذهم؟) يعـني: نخـالفهم وننبذ إليهم الطاعة، (قال: لا، ما أقاموا فيكم الصـلاة)، أي: ما دامـوا يقيمـون فيكم الصلاة، ويبنون المساجد، ويعينون الأئمة والمـؤذنين، ويرفع صـوت الأذان في كل وقت، ويجتمع المصـلون ويـؤدون الصـلاة جماعـة؛ وذلك لأن الصـلاة هي شعار الإسلام، وشعار المؤمنين. فهذه الأدلة ونحوها تدل على وجوب السـمع والطاعة للأئمـة، ولو كـان فيهم شـيء من النقص، أو حصل فيهم شـيء من الخلل والمعصية؛ وذلك لأن الاجتماع على الأئمة فيه مصلحة للأمـة؛ لأن تـرك الاجتمـاع والتفـرق والفوضى والاختلاف سـبب للنهب والسـلب، والضـرب والقتل، فيكون الضعيف نهبة للقوي، وليس هناك من يأخذ له حقـه، ولا تكـون هناك إقامة حدود، ولا انتصار لمظلوم إلا بهذه الولاية. فهذا هو السبب في أنه أمر بالسـمع والطاعة لـولاة الأمـور، بل حـرص على أن يكـون في كل طائفة أمير يرجعون إليه، حتى قال صلى الله عليه وسـلم: (إذا خـرج ثلاثة في سـفر أو برية فليؤمِّروا أحدهم)، أو كما قـال، وذلك حـتى يرجعـوا إليه ويستشـيروه، كل ذلك حث للأمة على أن يسمعوا ويطيعوا لولاة أمورهم.

الإمارة في الحج

وقد تقدم شـرح حقـوق الأئمة وما يجب لهم، ولكن ذكر هنا أن الجهـاد والحج ماضيان مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً، كما وردت بـذلك السـنة، وكما عمل بذلك السلف الصالح، فكانوا يحجون ويكون أمير الحج أحد الـولاة، وقد يكـون سـفيهاً، وقد يكـون معه شـيء من النقص والتقصـير، وقد يـؤخر الصـلاة عن وقتها، وقد يستمع شيئاً من اللهو وغناء القينات ونحو ذلك، وقد يتعاطى شـيئاً من الأشـربة المكروهة كالنبيذ ونحـوه، ولكن مصـحلة جمعه لهـؤلاء الحجـاج وحمايته لهم عن قطاع الطريق مصلحة كبيرة لا يستهان بها. كانوا في الأزمنة

المتقدمة من عهد الخلفاء إلى عهد قريب، أعني: قبل خمسين أو ستين سـنة لابد أن يكــون للحج أمــير، فكل أهل جهة يحج بهم أمــير يتــأمر عليهم، وإذا وصلوا إلى مكة تأمر على الجميع واحد يرجعون إليه، فأهل العراق يحجون مع أمير خاص بهم، يحميهم عن قطـاع الطريق إلى أن يصـلوا إلى مكـة، وكـذلك أهل الشام وأهل مصر وأهل اليمن وأهل خراسان وأهل البحرين، وأهل عمان وأهل المنـاطق النائيـة، فكـان يجتمع أهل كل جهة مئـات وألـوف ويسـيرون جميعاً، ولا يتفرقون مخافة قطاع الطريق، فـإذا وصل هـؤلاء وهـؤلاء إلى مكة كان الأمير واحداً، هو الذي يؤذن فيهم بوقت الوقوف في عرفة، ويـؤذن فيهم بوقت الانصراف من عرفة، ويـؤذن فيهم بـوقت رمي الجمـار، وكـذلك بـوقت الخروج من مزدلفة، وهكذا، ويسيرون إذا سار، وينزلون إذا نزل، ويقتدون به، ويقيم لهم الأحكـام ويعلمهم المناسـك. وفي حـديث عن ابن عمر أنه سـئل: متى نـرمي الجمـار؟ فقـال: إذا رمى إمامـك، يعـني: انتظر حـتى يـرمي ذلك الإمـام، فـإذا رمى فـإن ذلك وقت الـرمي، فـدل على أنهم لا يبـدءون بـرمي الجمــار إلا إذا رمى أئمتهم، هكــذا كــانوا. وفي هــذه الأزمنة لما أمنت البلاد، وتقاربت الطرق وسـفلتت، وقطع دابر قطـاع الطريق ونكبـوا، ولم يبق هنـاك من يعترضهم، إلا من لا يؤبه لهم، وصارت الطرق آمنة، أصبح النـاس يحجـون أفـراداً، وجـاءت هـذه النـاقلات الجديـدة: الحـافلات والسـيارات والطـائرت والبـواخر ونحوهـا، فسـهلت للنـاس الطـرق، فأصـبح لا حاجة إلى استصـحاب الأمير، ولا أن يجتمعوا كلهم، فهـذا هو السـبب في التسـاهل في أمر الولايـة، حتى في المناسك أصحبوا يعرفون المناسـك، ويعرفـون أماكنهـا، وقد حـددت وحـدد أوقاتهـا، وما أشـبه ذلـك، فلم يكن هنـاك ضـرورة إلى إقامة أمـير في الحج.

ضرورة الإمارة في الجهاد وضرورة طاعة الأمير وإن كان مقصراً

أما بالنسبة للجهاد فمعلوم أنه يستدعي أميراً ذا حنكة ومعرفة بطرق السـير، وكذلك بأوقات القتال وبمناسباته، فلأجل ذلك ما كانوا يغزون إلا ومعهم أمــير قد جَرب وقد جُرب، وقد عرف الطرق وعـرف القتـال، وقد صـارت له فطنة وتجربة قويـة، فكـانت كل سـرية وكل جيش يخـرج للغـزو -السـرية: ما دون الثلاثمائة، والجيش ما فوق ذلك- فلا يخرج إلا ومعه أمـير، فـيرفق بضـعيفهم، ويزجر متخلفهم، وينتظر منقطعهم، هذا لما كان السـير في ذلك الـوقت على الرواحل التي كان سيرها بطيئاً، وكـانوا يحتـاجون إلى أن يتـأنوا في سـيرهم، فكانوا لابد يؤمروا واحداً عليهم، ثم هو الذي يحـدد لهم وقت القتـال، وكـذلك يعين لهم الأمــاكن الــتي يقيمــون فيهــا، ويقســمهم أقســاماً، ويجعل ميمنة وميسرة، وقلبـاً، ويـؤجج فيهم بالحملة على القتـال عنـدما يـأذن لهم، وينصب

لهم الرايات والأعلام. لم يكن بد من أن يكون ذلك الأمير ذا تجربة، وقد يكون عند الأمــير شــيء من الخلــل، أو معه نقص أو عيب، أو يقــترف شــيئاً من المعاصي، أو يترك شيئاً من الطاعات، ولكن لا يكون ذلك العمل الـذي يعمله كفراً؛ لقوله عليه الصلاة والسـلام: (إلا أن تـروا كفـراً بواحـاً، عنـدكم فيه من الله برهان)، يعني: فلا تسمعوا ولا تطيعوا ولا تقاتلوا معهم والحال هذه، فأمر بأن يقاتل مع هـؤلاء ولو كـانوا ذوي معصـية أو خلل أو نقص، وبكل حـال فقد أمرنا بأن نجاهد معهم، ونصبر عليهم. وفي هذه الأزمنة قد يقـال: إنها تغـيرت الأحـوال، ولكن مع ذلك لابد لكل غـزو أو لكل مـرابطين من رئيس يرأسـهم، يمتثلون إرشاداته وأوامـره، ويقفـون إذا أوقفهم ويرابطـون، ولا ينصـرف أحد منهم إلا بعدما يـأذن لـه، فهـذه الأمـور لابد من اعتبارهـا. في هـذه الأزمنة قد يقال: خفت تلك الأمور التي كانت قديماً؛ وذلك لأن الأسلحة تغيرت عما كانت عليه، فقد كان القتال قديماً مواجهة بالسيف وبالرمح، وبالنبـال والسـهام وما أشبهها، وأما الآن فالأسلحة قد يكتفى بإرسالها من بعيد، كالصــواريخ والقنابل وما أشـبهها، ولكن بكل حـال لا نـزال بحاجة إلى أمـير يطـاع في مثل هـذه الأمور، هذا هو السر في الأمر بطاعة الـولاة، وفي الأمر بـالحج معهم والغـزو معهم، ولو كان معهم شيء من الخلل، أو شيء من النقص.

حصر الرافضة للإمامة في اثني عشر إماماً

يقــول الشــارح: إن المؤلف أتى بهــذا الكلام رداً على الرافضــة، وذكر أن الرافضة يعتقدون أنه لا يجاهد أحد إلا مع إمـام معصـوم، ولا يحج إلا مع إمـام معصــوم، وهم لا يزالــون على هــذه العقيــدة إلى يومنا هــذا، لدرجة أنهم لا يصلون خلفنـا؛ لأنهم يـرون أن الصـلاة لا تصح إلا خلف معصـوم، أو خلف من يتمسك بعقيدة ذلك المعصوم! معلـوم أن الرافضة اعتمـدوا أن أئمتهم الـذين يرجعـون إليهم من أهل الـبيت، وهم اثنا عشـر، وقد انقطعـوا، وأولهم الإمـام علي ، وفي نظرهم أنه هو الإمام الذي له الإمامة، وأن خلافة أبي بكر باطلـة! لأنه مغتصب للخلافة! وكذلك خلافة عمر وعثمـان ، ويـدعون أنهم أخـذوا ما لا يستحقونه، ويسبونهم ويدعون أنهم ظلمـة! وكـذلك يخونـون الصـحابة الـذين بـايعوهم وأقـروهم هـذه المـدة، مع أن من بينهم عليـاً وأبنـاء علي رضي الله عنه، فهذا معتقـدهم. ثم يجعلـون بعد علي الحسن ، ثم بعد الحسن الحسـين، ثم علي بن الحسين وهو زين العابدين، ثم محمد البـاقر ، ثم جعفر الصـادق ، ثم علي الرضا إلى آخرهم وهو محمد بن الحسن العسكري.

لما أن الحسن العسـكري لم يكن له أولاد وكـان عنـدهم أن الإمامة في ذرية علي، كل واحد منهم يخلفه ولده، فلم يكن للحسن العسكري ولد، فلما توفي ولم يكن له ولد أوحى إليهم الشيطان وقال: لا يمكن أن ينقطع الأمـر، وأن لا يكون لهم أولاد يخلفونهم، فإذاً: الثـاني عشر من أئمتهم هو محمد بن الحسن العسكري ، أين هو؟! دخل سرداب سامراء ولابد أن يخـرج! يـدعون أنه دخل وهو طفل عندما ولد، أو بعد ما ترعرع، وأنه لا يزال في ذلك السرداب، وأنهم ينتظرونه من سـنة مـائتين وسـتين أو نحوهـا، وهم ليس لهم إمـام، مع أنهم يقولون: لا تصـلح الـدنيا إلا بإمـام، ولابد أن يكـون ذلك الإمـام معصـوماً، وأن الإمامة لا تخرج عن ذرية علي ، ثم ذرية الحسين ، ثم ذرية زين العابـدين، ثم ذرية الصـادق والبـاقر والرضا ونحـوهم إلى الحسن ، فلابد أن يكـون للحسن ولد يخلفه. وأهل العلم والمؤرخـون يقولـون: إن الحسن العسـكري لم يخلِّف وإنه مـات وليس له ولـد، لكن هـؤلاء لما كـانت العقيـدة راسـخة عنـدهم وأن نسله لا ينقطع جاءهم الشيطان وقال: إن له ولداً، ولكنه دخل هذا السـرداب، ثم لابد أن يخـرج فـانتظروه، فصـاروا ينتظرونـه. والآن له نحو ألف ومائة وخمسـين سـنة، وهم لا يزالـون ينتظرونـه! وكـانوا في تلك المـدة القـديم يُجلسون واحداً ينتظره، ويصيح: اخرج يا مولانا! اخرج يا مولانـا! وليس عنـده أحد، وقد جعلوا عند طرف السرداب فرساً، وجعلوا عليها سـرجاً، وجعلـوا مع الحراس الذين يحرسونها سيوفاً حـتى يحمونه إذا خـرج! ويـدعون أنه سـوف يخرج ويـركب الفـرس، ويـذهب إلى مكـانهم، ويقتل أعـداءهم كما يزعمـون، وينتصر لهم ممن خالفهم، ولا يزالون منذ ألف ومائة وخمسين سنة وهم على هذه الطريقة إلى اليوم! قبل خمسة أشهر أو نحوها جاءنا بعض الإخوان ومعه أوراق أخـذها من الشـيعة الـذين أسـروا في حـرب الخليج، وأودعـوا في السجون، فوجدوا معهم أوراقاً كلها غلو ومبالغة في التشيع، وإذا بواحـدة من الأوراق فيها ذكر الأئمة الاثني عشر: الإمـام علي ، والإمـام الحسن ، والإمـام الحسـين ، إلى أن قـال: والإمـام محمد بن الحسن العسـكري عجل الله بخروجـه، فلا يزالـون يُؤمِّلـون أنه سـوف يخـرج، ولا يزالـون ينتظرونـه! وفي وقت الشارح -في القـرن الثـامن- يـذكر أنهم يجعلـون عند السـرداب فرسـاً، والآن لا أدري هل استبدلوا بالفرس سـيارة أو لا يزالـون ينتظرونه كما كـانوا! الله أعلم. ولا شك أن هـذا غاية الحمق وغاية الضـلال، ولما ذكر ابن القيم رحمه الله في آخر كتـاب: المنـار المـنيف حـالتهم، وأن محمد بن الحسن العسكري هو منتظرهم، وأنهم لا يزالون ينتظرونه أنشد قـول الشـاعر: ما آن للسرداب أن يلد الذي حملتموه بـزعمكم ما آنا فعلى عقـولكم العفـاء فـإنكم ثلثتم العنقـاء والغيلانا أي: هـذا السـرداب الـذي تحرسـونه ما آن له أن يلد ولدكم؟! ما آن أن يخرج هذا الولد الذي جعلتموه حاملاً به؟! ولابد للحامل أن تلد، فمتى يلد هذا السرداب؟! ومتى يخـرج هـذا الولد الـذي جعلتمـوه حـاملاً

بـه؟! ولا شك أن هـذا هو غاية السـفه، وغاية الضـلالة. يشـترطون أن يكـون للدنيا إمام معصوم، ويزعمـون أن الـدنيا لا تخلو من إمـام معصـوم، وأن ذلك الإمام هو الذي يـدبر أمـور النـاس، إمـامكم يا معشر الرافضة لم ينفعكم منذ ألف ومائة وخمسين سنة. ولما استولى عليهم -قريباً- الخميني الـذي سـموه: آية الله الخميني قالوا له: ننتظر أن يخرج المنتظر الـذي هو المهـدي المنتظر يعني: العسكري ، يقولون: إنه قال: نحن نخلفه حتى يخرج، نحن نعمل ونـدبر الأمـور، فخـدعهم بـذلك، وادعـوا أنه خليفة عن المهـدي المنتظـر، فصـاروا يعظمونه ويطيعونه ويقدسـونه تقديسـاً يخـرج عن المعتـاد، كما ذكر لنا كثـير ممن صحبهم، أنه عنـدهم كأنه رسـول، بل قد يشـرع لهم ويـأمرهم بـأوامر لا يأمر بها إلا الرسل، أو من يتلقى عن الرسل. وبكل حال فقد خـالفوا في هـذا الأمر، وهو أنهم لا يطيعون للأئمة، ولأجل هـذا فـإنهم في كل زمـان لا يثبتـون خلف أئمة الزمـان، بل كثـيراً ما يخرجـون عن الطاعـة، وينبـذونها ويقـاتلون الأئمة والخلفاء، ويفعلون ذلك كثيراً، إلى أن جاء هذا الوقت الذي تفرقت فيه الولايات، واستقلت كل دولة في جانبها وفي جهتها، فصار كل من تـولى بلـداً سموه رئيساً وسيداً وزعيمـاً، وصـار يتصـرف فيمن تـولى عليه من رافضة أو من غيرهم.

شرح العقيدة الطحاوية [58]

يجب الإيمان بالملائكة، وللإيمان بهم ثمرات كثيرة، لاسيما الإيمان بالملائكة الحفظة، وذلك أن المرء يراقب الله وينتهي عن الإثم إذا استشعر من معه من ملائكة الله.

الإيمان بالملائكة وما وكلوا به من أعمال

قال الشارح رحمه الله: [قوله: (ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين). قال تعالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ [الانفطار:10-12]، وقال تعالى: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [ق:17-18]. وقال تعالى: لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ [الرعد:11]، وقال تعالى: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ [الزخرف:80]. وقال تعالى: هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [الجاثية:29]، وقال تعالى: إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ [يونس:21]. وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، يجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين كانوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وفارقناهم وهم يصلون)، وفي الحديث الآخر: (إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم)، وجاء في التفسير: اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه وواحد أمامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً حافظان وكاتبان. وقال عكرمة عن ابن عباس : يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ [الرعد:11]: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه]. ......

الإيمان بالملائكة من الإيمان بالغيب

نؤمن بالكرام الكاتبين وبالملائكة الحافظين كما أخبرنا الله، وإن كنا لا نراهم، فالإيمان بهم من أمر الغيب؛ وذلك لأن الله تعالى أخبر عن أشياء غيبية فنحن نصدق بها ونقبلها، ويكون لتصديقنا آثار. فالملائكة مخلوقون كما أخبرنا الله، وإن كنا لا نراهم، يجلس أحدهم أو يقوم أحدهم أمامنا أو خلفنا أو عن جانبينا فلا نراه، كما أخبرنا أيضاً بأن الشياطين يكونون معنا ولا نراهم، بل أخبر بأن الشيطان يلابس الإنسان، ويجري منه مجرى الدم، ويوسوس في صدور الناس. فالإيمان بالملائكة من الإيمان بالغيب الذي مدح الله أهله بقوله

تعالى: هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ [البقرة:2-3]، وذلك لأنه إيمـان بشيء خفي، ولكن العمدة فيه خبر الله تعالى، وخبر الله صدق وحق، وكذلك خـبر الرسل فنـؤمن بما أخـبروا به ونتقبلـه، وإن كـان ذلك خلاف ما نألفه ونعرفـه، وإن أنكر ذلك من أنكـره، فلا نلتفت إلى إنكـار من أنكـر. فالـذين أنكروا وجود الشياطين أو أنكروا وجود الملائكة، أو أنكـروا الأرواح، أو أنكـروا وجـود الجن، أو نحو ذلـك؛ هـؤلاء بلا شك لم يتسع فهمهم للأمـور الغيبيـة، ولا للأخبـار السـماوية، ولا للقـدرة الإلهيـة، فلأجل ذلك لم يتجـاوزوا ما يدركونه بالحس، فلا يؤمنون إلا بما أدركوه بالإحساس، فهؤلاء إيمانهم ناقص.

وظيفة الملائكة الكرام الكاتبين

والحاصل أن الكلام على الملائكة الكرام الكاتبين، قال الله تعالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ [الانفطار:10-11] حـافظين: يحفظـونكم، وكـاتبين: يكتبون أعمالكم. وكذلك قوله تعالى: وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْ حَبْـلِ الْوَرِيـدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِـظُ مِنْ قَـوْلٍ إِلاَّ لَدَيْـهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ [ق:16-18]، الـرقيب والعتيـد: هما الملكـان اللـذان يكتبـان الحسنات والسيئات، أحدهما عن اليمين يكتب الحسنات، والثاني عن الشمال يكتب السيئات، وذكروا أن الـذي على اليمين أمـير على الـذي على الشـمال، فإذا عمل سيئة قال له: لا تكتبها رجاء أن يتوب ويسـتغفر، فـإذا اسـتمر عليها كتبت سـيئة، وإذا عمل الحسـنة كتبها صـاحب اليمين عشر حسـنات، كما ورد ذلك في الحديث وفي القرآن. فهؤلاء هم الحفظة للأعمال وللأقـوال، يكتبـون كل ما يتكلم بـــه، مَا يَلْفِـــظُ مِنْ قَـــوْلٍ [ق:18] فما من لفظة يُتلفظ بها إلا وتكتب في سجل هؤلاء الملائكة كتابة الله أعلم بها، قد تكـون بـالأحرف، وقد تكون بغيرها، فلهم قدرة على الكتابة ولو كانت ما كانت. وكـذلك يكتبـون كل الأعمال، ولذلك وصفهم بقوله تعالى: يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ [الانفطار:12]، أي: كل ما تفعلونه وكل ما يخطر ببـال أحـدكم، أو يـدور في خياله فإنه مكتـوب. وكيف يكتبون أعمال القلب؟ يطلعهم الله على أعمال القلوب، فالأعمال التي تكنها القلوب يثاب عليها العبد أو يعاقب، فيثـاب مثلاً على النصـيحة، ويعـاقب على الحسد والغل والغش، وهو من الأعمال القلبية، ويثاب على الإيمان الذي هو التصديق الجازم، ويعاقب على النفـاق الـذي هو الشك والـريب، وهي من أعمال القلوب، فلابد أن الملائكة تكتبها لقوله: يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُـونَ [الانفطـار: 12]، فهؤلاء هم الكتبة، ويسمون أيضاً: الحفظة للأعمال.

وظيفة الملائكة الحافظين

وهناك ملائكة يحفظون العبد عن الأخطار والأضـرار الـتي يتعـرض لهـا، حـتى يأتي الأمر الـذي قـدره الله فيخلـون بينه وبينـه، وهم المـذكورون في سـورة الرعد في قوله تعالى: لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْـرِ اللَّهِ [الرعد:11] أي: يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء الأمر الذي قدره الله فإنهم يخلـون بينه وبينـه، أما الأمـور الـتي لم يقـدرها الله عليه فـإنهم يـدفعون عنه الشرور، ويدفعون عنه الأضرار، ويـدفعون عنه الاعتـداءات الـتي ما كتبها الله تعالى، فهم أربعة: ملكان عن اليمين وعن الشمال يحفظون أعماله، وملكـان أمامه وخلفه يحفظـون جسـده مما لم يكتب عليـه، فيـبيت بين أربعـة، ويظل بين أربعة، فيوكل بكل إنسان ثمانيـة: أربعة بالليل وأربعة بالنهـار، وهـؤلاء هم الـذين يتعـاقبون. وفي الحـديث الـذي تقـدم: (يتعـاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، فيعرج الـذين بـاتوا فيكم فيسـألهم ربهم: كيف تـركتم عبـادي؟ فيقولـون: أتينـاهم وهم يصـلون، وتركناهم وهم يصلون)، فهذا من حفظ الله تعالى لأعمال عباده، فالله تعـالى قـادر على أن يحفظ كل أعمـال العبـاد بـدون وكيل وبـدون كتابـة، ولكنه أراد بذلك قيام الحجة على العبد حتى لا يقـول: إني ظلمت، أو إني ما عملت كـذا وكذا، بل يجد ما عمله كله مدوناً، فينشر له سجل بأعماله: حسـناته وسـيئاته، ويقال له: اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [الإسراء:14].

كل إنسان وكل به قرين من الجن وقرين من الملائكة

قال المؤلف رحمنا الله تعالى وإياه: [وروى مسلم والإمـام أحمد عن عبد الله قال: قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكـة، قـالوا: وإيـاك يا رسـول اللـه؟ قـال: وإيـاي، ولكن الله أعـانني عليه فأسـلم، فلا يـأمرني إلا بخـير)، الرواية بفتح الميم من (فأسلمَ)، ومن رواه (فأسلمُ) برفع الميم فقد حرف لفظه، ومعـنى فأسلم أي: فاستسلم وانقاد لي في أصح القولين؛ ولهذا قال: (فلا يـأمرني إلا بخير)، ومن قال: إن الشيطان صار مؤمناً فقد حرف معناه فـإن الشـيطان لا يكون مؤمناً. ومعنى: يَحْفَظُونَـهُ مِنْ أَمْـرِ اللَّهِ [الرعـد:11] قيـل: حفظهم لهم من أمر الله، أي: الله أمرهم بذلك، يشهد لهذا قراءة من قرأ: (يحفظونه بأمر الله). وقد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القول والفعـل، وكـذلك النية؛ لأنها فعل القلب، فدخلت في عموم يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ [الانفطـار:12]،

ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسـلم: (قـال الله عز وجـل: إذا هم عبـدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة، وإذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً)، وقـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: (قـالت الملائكـة: ذاك عبـدك يريد أن يعمل سـيئة وهو أبصر بـه، قـال: ارقبـوه، فـإن عملها فاكتبوها بمثلهـا، وإن تركها فاكتبوها له حسـنة، إنما تركها من جـرائي)، خرجاهما في الصـحيحين واللفظ لــمسلم]. الحـديث الـذي بـدأ به الشـارح فيه بيـان أن الإنسـان موكل به ملائكة يأمرونه بالخير، وهناك شياطين يأمرون الناس بالشر، يسمى هذا قـرين وهـذا قـرين، الجـني الـذي هو الشـيطان قـرين سـوء، والملك قـرين خـير، ورد في بعض الأحـاديث: (إن للشـيطان بقلب الإنسـان لمـة، وللملك لمـة، فلمة الشـيطان إيعاد بالشـر، ولمة الملك إيعـاد بـالخير)، أو كما في الحـديث. إبليس من أهل النار، ومن المعذبين بالنار، وهو مخلوق من النار، والشياطين خلقوا من النار، فأقدم على العذاب، وأقدم على اللعنة، وأقسم أن يغوي جنس الإنسـان، وأن يحرص على أن يخرجهم من الإيمان، أقسم بـذلك وقـال: لأَتَّخِـذَنَّ مِنْ عِبَـادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِـرَ خُسْـرَاناً مُبِيناً * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّـيْطَانُ إِلاَّ غُـرُوراً [النسـاء:119-120]. فهذا الشيطان عدو للإنسـان، ليس من جنس بـني آدم أحد إلا وقد وكل به أو سلط عليه شيطان، ووكل به ملك، فالملك يـأمره بـالخير، والشـيطان يـأمره بالشر. الصحابة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: أنت يا رسـول الله مثلنا يعني: هل وكل بك ملك وشيطان؟ قال: نعم، ولكن الشيطان الذي وكل بالنبي صلى الله عليه وسلم أعانه عليه، فقال: (أعانني الله عليه فأسـلم، فلا يـأمرني إلا بخـير)، وليس معنـاه: أنه أصـبح مسـلماً، بل المـراد أنه أذعن واستسلم، ولم يعد يأمر إلا بالخير؛ وذلك لأن الله تعـالى عصم نبيه صـلى الله عليه وسـلم عن أن يتسـلط عليه الشـيطان، فأعانه عليـه، كما أن الله تعـالى سخر الشياطين لسليمان أحد أنبياء الله تعـالى، وذللهم لـه، فصـاروا يعملـون عنـده، يقـول تعـالى: وَالشَّـيَاطِينَ كُـلَّ بَنَّاءٍ وَغَـوَّاصٍ * وَآخَـرِينَ مُقَـرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ [ص:37-38] سخرهم الله لسليمان، وأما نبينا عليه الصـلاة والسـلام فذلل الله له ذلك الشيطان فلم يعد يـأمره إلا بخـير، أما جنس بـني آدم فكل إنسـان لابد أن يتسـلط عليه هـذا الشـيطان ويوسـوس لـه، فـإذا رزقه الله الإيمان، ورزقه قوة اليقين، فإن تلك الوساوس التي يوسـوس بها لا تبقى في قلبه، ولا يصدق بها، بل ينكرها ويدفعها، وهذا حقيقة المؤمن الصحيح الإيمان، ثم يعوضه الله أن الملك الـذي هو قرينه يثبتـه، ويـذكره، وينشـطه، ويدفعه ويدعوه إلى الخير، ويحثه عليه، فيقـوى الجـانب الإيمـاني، وإذا قـوي الجـانب الإيماني عزم على الأعمال الصالحة، وترك الأعمال السيئة، فهذا هو المـؤمن القوي، أما الذي إيمانه ضعيف فإن الشيطان يتقـوى عليـه، وتتمكن وسوسـته من قلبه، وتصده عن الهدى، وتوقعه في الردى، ولا يطيع نصح الناصـحين، ولا يـنيب إلى لمة الملـك، ولا يلتفت إليهـا، فيبقى بعيـداً عن الخـير، مقبلاً على الشر، فهكذا كل إنسان إما أن يكون إيمانه ضعيفاً فيقوى عليه قـرين السـوء

وهو الشيطان، وإما أن يكون إيمانه قوياً فيقوى عليه قرين الخير وهو الملك. والقوة والضعف ليست بالقوة البدنية، ولكنها القوة الإيمانية، القوة قوة الإيمان، كون الإيمان راسخاً في القلب، إذا جاءته وساوس الشيطان اضمحلت، وإذا جاءته تثبيتات الملك تمكنت وقويت، فهذا هو السبب في انقسام الناس إلى من يكون عدواً لله ومن يكون ولياً لله، من يكون ولياً للشيطان ومن يكون ولياً للرحمن، فأولياء الرحمن هم الذين أطاعوا الله تعالى، وأطاعوا رسله، وصارت الملائكة الذين معهم يرشدونهم إلى الخير، فيتبعونهم، وأولياء الشياطين هم الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله.

الإيمان بالملائكة الحفظة

الإنسان معه ملك، ومعه شيطان، والمراد بالملك: جنس الملائكة، فيكون الإنسان معه ملائكة يدعونه إلى الخير ويحثونه عليه، وملائكة يحفظونه، وملائكة يكتبون أعماله. الملائكة الذين يحفظونه هم الذين يقول الله فيهم: لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ [الرعد:11] وفسرها بعض المفسرين بقوله: يحفظونه بأمر الله، أي: يحفظونه بأمر الله امتثالاً لأمر الله تعالى، فإذا جاء القدر الذي قدر الله عليه خلوا بينه وبينه. ثم هؤلاء الملائكة الذين هم الحفظة يكتبون السيئات والحسنات، وسمعنا الحديث المشهور في الصحيح، الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم فيه أن من كرم الله وفضله الواسع على عباده، أن الذي يهم بحسنة ولا يعملها يكتبها الله حسنة، والذي يهم بها ويعملها يكتبها عشراً، والذي يهم بسيئة ولا يعملها يكتبها الله حسنة، وإذا هم بالسيئة وعملها كتبها الله سيئة واحدة بدون مضاعفة، وإذا رزقه الله توبة منها محيت عنه لتوبته، وإذا أصر عليها وعمل سيئة إلى جانب سيئة وإلى جانب سيئات أخرى تكاثرت عليه، وتراكمت عليه، وأصبح مثقلاً بالسيئات، ولكن قد أخبر الله تعالى بأنه يمحوها بالتوبة ويمحوها بالحسنات، فقال تعالى: إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [هود:114]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) يعني: متى وقعت في سيئة فأتبعها بحسنة، إما حسنة التوبة وإما حسنة العمل الصالح وإما غير ذلك. وقد تكلم العلماء على هذا الحديث، وبينوا المراد منه، وأطالوا الكلام في ذلك، وملخص ما ذكروا أن الذي يهم بحسنة ثم يتركها عجزاً أو تعباً أو نحو ذلك يكتبها الله له حسنة وإن لم يعملها، هم مثلاً بأن يتصدق على مسكين، ولكن لم يجد في ذلك الوقت شيئاً، وفاتت حاجته، يكتب الله له كأنه تصدق، يكتبها له حسنة، هم مثلاً أن يقوم في آخر الليل للصلاة، ولكن غلبه النوم، أو الكسل، أو التعب، ولم يتيسر له القيام، يكتب الله له كأنه قام،

ويكتب له بذلك حسنة، فإذا يسر الله له فتصدق أو صلى أو صام، أو جاهد، أو ذكر الله، أو قرأ فإن الحسنة بعشر أمثالها، فضلاً منه سبحانه، فيكتب الدرهم بعشرة دارهم، وتكتب الركعة بعشر ركعات، والمراد بهذا في الأوقات العادية، وقد تضاعف أضعافاً أخرى في أوقات أخرى، هذا بالنسبة للحسنات، أما بالنسبة للسيئات فإذا هم بالسيئة ولكن تذكر أنها سيئة، وتذكر عقوبتها، وتذكر الإثم، وتذكر آثارها على قلبه، وآثارها على سيرته، وآثارها في دنياه وآخرته، فعند ذلك تركها من جراء الله، يقول في الحديث: (إنما تركها من جرائي)، فهذا يكتب له حسنة، ما عمل سيئة، ولا عمل حسنة، ولكنه هم بسيئة ثم تذكر فخاف الله تعالى فتركها، يكتب له بهذا الترك حسنة، يقول الله: (إنما تركها من جرائي). أما إذا غلبته نفسه وعمل تلك السيئة كتبها الله بمثلها، والسيئات تتراكم، سيئات النظر، وسيئات السمع، وسيئات الكلام، وسيئات الأكل والشرب، وسيئات المكاسب، لا شك أنها تتراكم، وبكل حال فإذا عملها كتبها الله بمثلها حتى يتوب منها. أما إذا تركها عجزاً، فبلا شك أنه يأثم على نيته، فلو مثلاً هم بزنا، وبذل الأسباب، وجاء إلى المكان الذي هو معد للزنا أو نحو ذلك، وحاول فتح الأبواب، وحاول الصعود مع السلالم أو مع الحيطان، ولكنه لم يجد منفذاً، أو عثر عليه الحرس، وقبضوا عليه وطردوه؛ فمثل هذا يجازى على فعله؛ وذلك لأنه ما تركها خوفاً من الله، وإنما تركها عجزاً، وكذلك لو هم بسرقة ولكنه ما قدر، حاول أن يكسر الأبواب، حاول أن يفتح الأقفال ولكنه ما قدر على ذلك، فهذا تكتب عليه سيئة، وكذلك لو هم بحسنة ولكن دعته نفسه إلى تركها تهاوناً ليس عجزاً، فمثل هذا أيضاً قد لا يثاب على تركه للحسنة، ولا يكتب له حسنة، وفي بعض الروايات: (لم يكتب عليه شيء). إذاً: الحديث هذا مخصوص بما إذا ترك السيئة خوفاً من الله، وترك الحسنة عجزاً عنها أو لعدم توافر أسبابها، وإلا فقد يجازى بما نوى. وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنما الدنيا لأربعة: رجل آتاه الله مالاً وعلماً -يعني: علماً دينياً- فهو يعمل في ماله بعلمه)، يصل الرحم، ويتصدق على ابن السبيل، وينفق في الجهاد، وينفق في وجوه الخير، ويبني المساجد والمدارس، وينشر العلم، قال: (يعمل بعلمه في ماله، فهذا بأفضل المنازل) يعني: بأرقاها، نفعه علمه في تصريف ماله. قال: (ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول: لو أن لي مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمله)، أعطاه الله العلم فيتمنى أن يكون له مال حتى يصل الأرحام، وحتى يعطي الأقارب، وحتى يتصدق على الفقراء والمساكين، وحتى يعطي أبناء السبيل، وحتى يجهز الغزاة، وحتى ينفق في وجوه البر، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (فهو بنيته وقصده، وهما في الأجر سواء). قال: (ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً)، حرمه الله من العلم، ورزقه الله أموالاً، فهو ينفقها في المعاصي، ينفقها في كل معصية، ينفقها في قطيعة الرحم، وينفقها في القتل، وينفقها في الملاهي، وينفقها في المعاصي بأنواعها: في الزنا وفي الغناء وفي كذا وكذا، ينفقها فيما يبعده من الله؛ لأنه ما عنده علم، ولا عنده معرفة بمآل هذا المال، ولا بما يكسب فيه الأجر، فهذا بأخبث المنازل. قال: (رجل لم يؤته الله مالاً، ولم يؤته علماً)، ولكن يتمنى أن يكون

له مال مثل ذلك الجاحد، (يقـول: لو كـان لي مثل مـال فلان لعملت فيه مثل عملـه)، يعـني: لقطعت الطريـق، ولسـافرت إلى المعاصـي، ولصـرفته في الأغاني وفي آلات اللهو، ولفعلت وفعلت، يتمنى؛ لأنه ما عنده علم، وما عنـده مال، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (فهما في الـوزر سـواء)، فأخـذنا من هـذا أن من نـوى الشر وإن لم يعمله وحـرص عليه فإنه يجـازى على نيتـه، فليس كل من نوى الشر وتركه يثاب، إنما يثاب إذا تركه لله وخوفاً من الله.

يجب الإيمان بملك الموت الموكل بقبض الأرواح، والأرواح من مخلوقات الله، ولا يعلم حقيقتها إلا الله، وقد تكلم العلمـاء على كثـير من المسـائل المتعلقة بالروح مستضيئين بالأدلة من الكتاب والسنة.

الإيمان بملك الموت

قال الشـارح رحمه الله تعـالى: [قولـه: (ونـؤمن بملك المـوت الموكل بقبض أرواح العالمين). قال تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَـكُ الْمَـوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ [السجدة:11]، ولا تعارض هذه الآية قوله: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ [الأنعام:61]، وقوله تعـالى: اللَّهُ يَتَـوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِـــكُ الَّتِي قَضَـــى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى [الزمر:42]؛ لأن ملك الموت يتـولى قبضها واستخراجها، ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العــذاب، يتولونها بعده، كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره وحكمه، فصحت إضـافة التـوفي إلى كل بحســبه]. هــذا أيضــاً من عقيــدة أهل الســنة، وهو داخل في الإيمــان بالملائكـة، الإيمــان بملك المـوت الـذي وكله الله تعـالى بقبض الأرواح، وقد ذكره الله تعالى في هذه الآية في سورة السجدة: قُـلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَـكُ الْمَـوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ [السجدة:11]، وقد ورد في الأحـاديث ما يـدل على أن الـذي يقبض الأرواح ملك واحــد، وقد تقــول: كيف يقبض أرواح العــالم في شــرق الأرض وفي غربها وهو واحـد؟ نقـول: لا ينـافي ذلك قـدرة الله تعـالى الـتي أقدره عليها، ويمكن أن ملك الموت معه أعوان يقبضون تلك الأرواح. ونقول: لا شك أن الإنســان مــركب من جسد وروح، جسد وهو هــذا اللحم والعظم ونحوه، وروح وهي التي تسري في هذا الجسد حتى يعيش وحتى يتحرك، فما دامت هذه الروح في هذا الجسد فإنه قابل للحركة، وإذا خـرجت هـذه الـروح من هــذا الجسد بقي ميتــاً جثة لا حركة بــه، فهــذه الــروح هي الــتي بها الحيـاة،وهي الـتي تقبض عند المـوت، وفي حـديث الـبراء في قبض الأرواح يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن المؤمن إذا كان في إقبـال من الآخـرة وإدبار من الـدنيا نـزلت عليه ملائكة بيض الوجـوه، فيجلسـون منه مد البصـر، ومعهم أكفان من الجنـة، وحنـوط من الجنـة، ويأتيه ملك المـوت فيجلس عند رأسه فيقول: اخـرجي أيتها الـروح الطيبة كـانت في الجسد الطيب، اخـرجي إلى روح وريحــان، ورب غــير غضــبان، فتسل روحه من جســده كما تسل الشعرة من العجين)، فأخبر بأن الـروح هي الـتي تخـرج، وأنه يخاطبهـا، وأنها تنزع من جسده أو تنشط منه، وفسر بذلك قول الله تعالى: وَالنَّازِعَاتِ غَرْقـاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْـطاً [النازعـات:1-2] فقـالوا: النازعـات الملائكة الـتي تـنزع أرواح الكفـار نزعـاً شـديداً، والناشـطات الملائكة الـتي تأخذ أرواح المؤمـنين برفق؛ ولذلك سماه نشـطاً، يعـني: أنها تنشـطه نشـطاً ولا يحس بـألم، وبكل

حال الملائكة يقبضـون الأرواح ويصـعدون بها إلى الله تعـالى إن كـانت أرواح المؤمنين، أما أرواح الكفار فلا تفتح لهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة، بل تـذهب أرواحهم إلى حيث شـاء اللـه. وقد تكلم العلمـاء على حقيقة الـروح وأطـالوا فيـه، وقد يـأتي بعض الكلام على حقيقة الـروح، والحاصل أننا نـؤمن بقوله تعـالى: حَتَّى إِذَا جَـاءَ أَحَـدَكُمْ الْمَـوْتُ تَوَفَّتْـهُ رُسُـلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُـونَ [الأنعام:61] فأثبت أن هناك رسلاً عدداً يتوفونه،وأخبر في آية أخرى أن ملك الموت واحـد: قُـلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَـكُ الْمَـوْتِ [السـجدة:11]، وإذا قيـل: إنه ملك واحد فيمكن أن يكون اسم الموت الذي هو خروج الروح من الجسد هو الذي ورد في الأحاديث أنه يذبح يوم القيامة، يقول في الحديث: (يجاء بـالموت في صورة كبش، فيقـال: يا أهل الجنـة! هل تعرفـون هـذا؟ فيشـرئبون وينظـرون ويقولون: نعم هذا الموت، ويقال: يا أهل النار! هل تعرفـون هـذا؟ فيشـرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، فيـذبح بين الجنة والنـار، ويقـال: يا أهل الجنة! خلود ولا موت، ويا أهل النار! خلود ولا موت)، فالذي يفنى أو يـذبح هو حقيقة المـوت، ليس هو الملـك، إنما هو المـوت الـذي هو خـروج الـروح من الجسد. نحن نشاهد الأموات عنـدما تخـرج أرواحهم، ولكن لا نشـاهد الملائكة الذين يقبضونها، ولكن نـؤمن بـذلك، نـؤمن بـأن الملائكة يحضـرون وإن كنا لا نراهم؛ ولذلك قال الله تعالى: أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ * فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ [الواقعة:81-83] يعني: خرجت الروح إلى الحلقوم الذي هو أسفل الحلق، وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِـرُونَ [الواقعـة:84-85] يعـني: الملائكة أقـرب إليه منكم، ولكنكم لا تبصرونهم فَلَوْلا إِنْ كُنتُمْ غَيْـرَ مَـدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَـادِقِينَ [الواقعة:86-87] يعني: إذاً كنتم تقولون: إنكم غير مبعوثين فردوا هذه الروح إلى هذا الجسد، فردوا روح هذا الذي مات وخرجت روحـه، اسـتردوها وردوها في جسده إن كنتم صادقين. وأخبر الله تعالى أيضاً أن الملائكة يحضرون عند الميت في قوله تعـالى: وَالْمَلائِكَـةُ بَاسِـطُوا أَيْـدِيهِمْ أَخْرِجُـوا أَنفُسَـكُمْ الْيَـوْمَ تُجْزَوْنَ عَـذَابَ الْهُـونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُـونَ عَلَى اللَّهِ غَيْـرَ الْحَـقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِـهِ تَسْـتَكْبِرُونَ [الأنعـام:93] يخـاطبون أرواح الكفـار عند إخراجها بهـذا. إذاً: من عقيـدة أهل السـنة أنهم يؤمنـون بملك المـوت وبـأعوان ملك المـوت الـذين يقبضون الأرواح، وبأن الروح التي تخرج هي التي يقبضـها الملك أو الملائكـة، وهي التي تبقى بعد الموت، وأما الجسد فإنه يفـنى، والـروح الـتي تخـرج هي التي تعذب في البرزخ أو تنعم، فـإذا آمن الإنسـان بـذلك لم يسـتغرب ما ورد أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بأن في القبر عذاباً ونعيمـاً، مع أننا نشـاهد أن الأموات يفنـون، وتـأكلهم الأرض، ولكن مع ذلك أرواحهم باقيـة، أرواحهم هي الـتي تتـألم أو تتعـذب كما أن أرواحهم هي الـتي تقبض، وهي الـتي ورد في الحـديث أنها تجعل في أكفـان من الجنـة، أو تجعل في أكفـان من النـار على حسب ما ورد في السنة. فبهذا يؤمن كل مسـلم اعتمـاداً على النصـوص، ولا منافـاة بين الآيـة: قُـلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَـكُ الْمَـوْتِ [السـجدة:11] أنه واحد وقولـه: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا [الأنعـام:61]، وقـول الملائكـة: أَخْرِجُـوا أَنفُسَـكُمْ [الأنعـام:93]، فالمعنى: أن الملك واحد ومعه أعوان، فهو يقبض وهم يقبضون، وهم يجعلون

الأرواح في تلك الأكفــان،ويصــعدون بها إلى آخر ما ذكر النــبي عليه الصــلاة والسلام في الأحاديث. ......

حقيقة الروح

قــال الشــارح رحمه اللــه: [وقد اختلف في حقيقة النفس ما هي؟ وهل هي جزء من أجزاء البدن أو عرض من أعراضه أو جسم سـاكن له مـودع فيـه، أو جـوهر مجـرد؟ وهل هي الـروح أو غيرهـا؟ وهل الأمـارة واللوامة والمطمئنة نفس واحدة أم هي ثلاثة أنفس؟ وهل تموت الروح أو المـوت للبـدن وحـده؟ وهذه المسائل تحتمل مجلداً، ولكن أشـير إلى الكلام عليها مختصـراً إن شـاء الله تعالى. فقيل: الروح قديمة، وقد أجمعت الرسل على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، وهذا معلوم بالضـرورة من دينهم أن العـالم محـدث، ومضى على هـذا الصـحابة والتـابعون، حـتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتـاب والسـنة، فـزعم أنها قديمـة، واحتج بأنها من أمر اللـه، وأمـره غـير مخلوق، وبأن الله أضافها إليه بقوله: قُلْ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي [الإسـراء:85]، وبقولــه: وَنَفَخْتُ فِيــهِ مِنْ رُوحِي [الحجــر:29] كما أضــاف إليه علمه وقدرته وســمعه وبصــره ويــده، وتوقف آخــرون، واتفق أهل الســنة والجماعة أنها مخلوقــة، وممن نقل الإجمــاع على ذلك محمد بن نصر المــروزي وابن قتيبة وغيرهما، ومن الأدلة على أن الروح مخلوقة قوله تعالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ [الرعد:16] فهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما، ولا يدخل في ذلك صـفات الله تعالى فإنها داخلة في مسمى اسمه، فالله تعالى هو الإله الموصوف بصــفات الكمال، فعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وجميع صفاته داخل في مسمى اسمه، فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق، ومعلوم قطعاً أن الـروح ليست هي الله ولا صـفة من صـفاته، وإنما هي من مصـنوعاته، ومنها قوله تعــالى: هَـلْ أَتَى عَلَى الإِنسَــانِ حِينٌ مِنَ الـدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَـيْئاً مَـذْكُوراً [الإنسان:1]، وقوله تعالى لزكريا: وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً [مـريم: 9]، والإنسان اسم لروحه وجسـده، والخطـاب لزكريا لروحه وبدنـه. والـروح توصف بالوفاة والقبض، والإمساك والإرسال، وهذا شـأن المخلـوق المحـدث. وأما احتجــاجهم بقولـه: (مِنْ أَمْـرِ رَبِّي) فليس المـراد هنا بـالأمر الطلب، بل المـراد به المـأمور، والمصـدر يـذكر ويـراد به اسم المفعـول، وهـذا معلـوم مشهور]. كلمتا الـروح والنفس الصـحيح أنهما مترادفتـان، الـروح هي النفس، وقد اختلف في حقيقة الـــروح ما هي، إذا مـــات الميت وخـــرجت روحه لا نبصرها، مع أننا متيقنون أنها خرجت، وكذلك الملائكة أرواح ينزلون ويقبضونها ونحن لا نراهم؛ لأنهم أرواح، كذلك الشياطين أرواح شريرة، يقول تعــالى: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَـرَوْنَهُمْ [الأعـراف:27] نحن لا نـرى الشـياطين، مع أن الشيطان يدخل في الإنسان ويجـري منه مجـرى الـدم، ويوسـوس في صـدره ولا نـراه، لكنه ينخنس إذا ذكر اللـه، ولهـذا سـماه اللـه: الْوَسْـوَاسِ الْخَنَّاسِ [النـاس:4]. وأقـرب مثـال الجن، فهم أرواح، وإذا سـلط الله الجـني

على الإنسي فإنه يلابسه حتى يغلب على جسده، ويصير كأنه هو روحــه، فهل نحن نرى هذا الجني إذا أتى أو إذا خرج؟ لا نراه، نسمعه إذا تكلم وهو ملابس لــذلك الإنســي، ينطق ويتكلم، ويخــرج عنــدما يعــذب مثلاً، ولا نــراه إذا جــاء ليدخل، ولا نــراه إذا خــرج. إذاً: هو روح بلا جســد، ولعله يأتينا كلام في حقيقة الروح وماهيتها. هل الروح مخلوقة أو غير مخلوقة؟ بعض الفلاسفة يقول: إنها غير مخلوقة وإنها قديمة، والفلاسفة هم الذين يقولون: إن هذا الإنســان ليس له مبدأ، ينكرون أن الله خلق آدم من تراب، ويقولون: إن هذا الإنسان قــديم، وإن الأرض قديمة ولم يسبقها عدم، وينكرون أيضاً الحشر والمعاد، فيقولون: ليس هناك حشر، وليس هناك نشر، وليس هنــاك قيامــة، ولا جنة ولا نــار، إنما جنس البشر يتوالد ويبقى على الأرض دائمــاً وأبــداً، كما أنه عليها منذ القــدم، فكذلك يبقى عليها أبــداً، هــؤلاء الفلاســفة ينكــرون خلق الــروح، ويقولــون: إن الــروح غــير مخلوقة وليست محدثــة، بل هي باقية وقديمة وليس لها مبــدأ، ويستدلون بهذه الآية في سورة الإسراء: وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الــرُّوحُ مِنْ أَمْــرِ رَبِّي [الإســراء:85] والســؤال إنما هو عن الماهيــة، ما هي الــروح؟ ولما كانت حقيقتها لا ترى ولا توصف أجابهم الله بأنها من أمــره، وأنكم لا تعلمونها ولا يمكن أن تتصوروها؛ ولذلك قــال: وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [الإســراء: 85]، فليس المــراد أنها صــفة من صــفاته، بل المــراد أنها من أمــره، أي: مخلوقة بأمره،وكذلك إضافتها إلى الله في قوله تعــالى: فَــإِذَا سَــوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي [الحجر:29] ليس المراد أن الــروح صــفة من صــفات اللــه، أو أنها من ذات اللــه، بل المــراد من الأرواح الــتي خلقتهــا، وكــذلك وصف الله عيسى بقوله: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَــى ابْنُ مَــرْيَمَ رَسُــولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُــهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ [النساء:171] أي: روح من الأرواح التي خلقها، وليس المراد أنه من ذات اللــه، تعــالى الله عما يقــول الظــالمون علــواً كبــيراً. فبكل حــال نعرف أن هــذه الــروح الــتي بين جنــبي الإنســان مخلوقة كســائر المخلوقــات، ولكن لا تدرك كيفيتها ولا ماهيتها. ......

قوله تعالى: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي)

قال الله تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُــلْ الــرُّوحُ مِنْ أَمْــرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [الإسراء:85] قيل: إن هذه الآية نزلت لما أرسلت قريش إلى يهود المدينة من يســألهم عن أمر محمد صــلى الله عليه وســلم، فجــاء أولئك الرسل إلى اليهود، فقال اليهود: سلوه عن ثلاثة أشياء، سلوه عن فتية خرجوا من بلادهم فــإن لهم أمــراً عجيبــاً، يعنــون أصــحاب الكهــف، وســلوه عن رجل طــوّاف طــاف بالمشــرق والمغــرب، يعنــون ذا القــرنين، وســلوه عن الــروح، فأنزل الله هذه الآية جواباً لسؤالهم. وقيل: إن اليهــود الــذين بالمدينة مر بهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب، ومعه ابن مسعود ، فقــال بعضــهم لبعض: ســلوه عن الــروح، فقــالوا: ما هي الــروح يا محمــد؟! فوقف قليلاً، يقول ابن مسعود : فاتكأ على عسيبه وعلمت أنه يوحى إليه، فقــال بعد

قليل: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [الإسـراء:85])، فأجـابهم الله تعـالى بـأن الـروح غـير معلومة لكم، ولا يمكنكم إدراكها ولا معرفة ماهيتهـــــــا، وذلك دليل على عظمة الله وعجيب قدرتـه، حيث نـوع المخلوقـات، فجعل منها ما يـرى، ومنها ما لا يـرى، وجعل منها أجرامـاً، وجعل منها أرواحـاً، وجعل منها جمـاداً، وجعل منها متحركـاً حيـاً متقلباً، فهذا بلا شك دليل على كمال قدرة الله عز وجل، وأنه على كل شـيء قــدير، ودليل على قصر علم الإنســان، فقد قصر باعه في العلــوم، فلا يطلع على المغيبـات، ولا يصل بفكـره ولا بـأمره ولا ببحثه إلى الأمـور الـتي أخفاها الله عليه، وعلى هذا ليس له أن يتدخل في أمور الغيب، وليس له أن يتخرص فيها.

الجهل بكيفية الروح المخلوقة دليل على الجهل بكيفية صفات الخالق سبحانه

استدل العلمـاء بـأمر الـروح على أن الإنسـان لا يسـتطيع أن يتـدخل في أمر صفات الرب سبحانه وتعالى؛ وذلك لأن الذين تدخلوا في صفات الله، وقـالوا: كيف يتصف بأنه ينزل ويصـعد؟ وكيف يتصف بأنه يجيء ويحكم ويـنزل لفصل القضاء؟ وكيف يتصف بأنه استوى على العـرش واسـتقر عليـه؟ وكيف يتصف بأنه حي وبأنه ســميع بصــير متكلم بكلام مســموع ونحو ذلــك؟ كيف يتصف بـذلك؟ هـذا مما يخـالف الخيـال! هـذا مما يخـالف الفكـر، هـذا مما يخـالف العقول، وأخذوا يخوضون في مثل هذا خوضاً زائداً، فيقول لهم شيخ الإســلام وغيره: أنتم قد عجزتم عن إدراك الـروح الـتي بين جنـوبكم، كل منكم مكـون من جسد وروح، هذه الروح التي تدخل وتخرج، هذه الروح التي يحيا بها البدن ويموت بخروجها، هل أدركتم ماهيتهـا؟ هل قـدرتم على معرفتهـا؟ هل علمتم من أي شيء هي؟ هل هي جسم أم هي عرض، أم هي جوهر، أم هي صافية، أم هي كدرة؟ ما هي ما هيتها؟ ومن أي شيء هي؟ وإذا خـرجت أين تـذهب؟ وأين تكون؟ كذلك أيضاً الأرواح الأخـرى الـتي تتحققونها وتوقنـون بها كيف لا ترونهـا؟ إذا عجــزتم عن إدراك ماهيتها فـأنتم عن إدراك كنه صــفات الــرب بطريق الأولى تعجزوا. أنتم تتحققون أن هنـاك نوعـاً من المكلفين وهم الجن الذي خلقهم الله من نار السموم كما أخبر الله، نتحقق أنهم موجـودون معنـا، وأنهم ينطقون ويتكلمون، وأنهم يقـدرون على أن يتشـكلوا بأشـكال متعـددة، يتشكلون بأشكال الحيوانات، وبأشكال الجمادات، ويتصورون بصـورة إنسـان، وبصورة سبع، وبصورة كلب، وبصورة حشـرة، وبصـورة هامة ونحو ذلـك، كما هو مشــاهد، وكــذلك أيضــاً يلابســون الإنس، يــدخلون في جسد الإنســي، ويلابسونه، ولا يشعر أحد بهم، ولا يراهم ولا نراهم، من أي شيء مادتهم؟ من أي شيء أجسامهم؟ لا ندري. إذاً: نقـول: قُـلْ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ

مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [الإسراء:85]، فنحن حجبنا وعجزنا عن إدراك ماهية هـذه الأرواح التي هي أقرب شيء إلينا، والـتي نشـاهد أن الميت تخـرج روحه ومع ذلك لا نراهـا، كما قـال الله تعـالى: فَلَـوْلا إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُـومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُـرُونَ * وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِـرُونَ * فَلَـوْلا إِنْ كُنتُمْ غَيْـرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا [الواقعة:83-87] هل تستطيعون أن ترجعوها إذا خرجت؟ فإذا عجز الإنسـان عن إدراك هـذه الـروح الـتي هي أقـرب شـيء إليه فكيف يخوض في خالقه؟ وكيف يخوض في صـفات البـاري عز وجـل؟ الأولى له أن يسـلم بـذلك، وأن يـرد علمها إلى عالمهـا. كـذلك أيضـاً: لا يخـوض في أمر المخلوقات التي لم يرها، لا يقـول مثلاً: ما هي كيفية خلق الملائكـة؟ ومن أي شيء أجسامهم؟ وكيف تركيب أعضائهم؟ وكيف يسجدون وعلى أي أعضــاء؟ وهل لهم يــــدان ورجلان كما لنا لأن الله قد ذكر أن لهم أجنحــــة؟ وهل لهم وجــوه كوجوهنــا؟ وكيف ينطقــون ويتكلمــون؟ الله أعلم، لا علم لنا إلا أنهم مخلوقون، وأنهم أرواح تستغني عن أجساد ظـاهرة، بحيث يـنزلون ولا نـراهم كما أخـبر الله بـأنهم يـنزلون في الأرض في ليلة القـدر كما في قولـه: تَنَـزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِـإِذْنِ رَبِّهِمْ [القـدر:4] إذا تـنزلوا نحن لا نـراهم، وكـذلك أخبر النبي صلى الله عليه وسـلم باجتمـاعهم في صـلاة العصر وصـلاة الفجر بقولـه: (يتعـاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهـار، فيجتمعـون في صـلاة العصر وصلاة الفجر)، هل نحن نراهم؟ لا نراهم، هم عـالم ونحن عـالم، حـتى الشياطين الذين سلطهم الله على نوع الإنسان، وقد أخـبر الله أن الشـيطان يصل من الإنسـان إلى قلبـه، يقـول اللـه: الَّذِي يُوَسْـوِسُ فِي صُـدُورِ النَّاسِ [الناس:5] وأخبر النبي عليه الصـلاة والسـلام بأنه يجـري من ابن آدم مجـرى الدم، يعـني: ينفذ فيه ويسـري في عروقه كما تسـري روحـه، يصل إلى جميع جسده ولا يـرده شـيء، إلا إذا اسـتعاذ العبد باللـه، ولجأ إليـه؛ فـإن الشـيطان ينخنس، ولذلك سمي (بالوسواس الخناس). ونحن مع ذلك لا نــراهم، إذاً: هم عـالم ونحن عـالم، فليس لنا أن ننكـرهم، ولا أن نجحـدهم؛ لأن الله قد أخـبر بهم، وخبر الله حق، وأخبر بأنهم يروننا في قوله تعالى: إِنَّهُ يَـرَاكُمْ هُـوَ وَقَبِيلُـهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ [الأعراف:27] يعني: إن الشـياطين يـرونكم هم وقـبيلهم، يعــني: وأمثــالهم كــالجن ونحــوهم، يــرونكم دون أن تــرونهم، فما دام أننا متحققون بوجود أرواح لا نراها، وبأن هناك أرواحاً مخلوقة كالجن والشياطين والملائكة؛ فنعرف بذلك قصر علمنا عن إدراك كنهها، وعن معرفة تركيبها.

اختلاف العلماء في تعريف الروح

سمعنا في كلام شارح الطحاوية أن العلماء تكلموا في الروح، وأطالوا القـول فيها، وعرفوها بتعريفات مضطربة مختلفة، وكان من جملة من عرفها تعريفـاً

مناسباً ابن القيم رحمه الله في كتابه الذي سماه: كتاب الروح، وهو كتاب مطبوع مشهور تكلم فيه على الأرواح، وعذاب القبر ونعيمه، وتكلم فيه على حقيقة الروح، وما ورد من صفاتها، وبين الرد على الذين أنكروها ووصفوها بصفات غريبة، وعرفها بأنها جسم خفيف شفاف علوي نوراني حي متحرك، يسري في جسد الإنسان كما يسري الدهن في الورد، وكما تسري النار في الفحم، فما دام هذا الجسد قابلاً لتلك الإفاضات منه فإنه يبقى فيها، وإذا تغيرت ماهية هذا الجسم وبقي لا يصلح لفيضاناتها عليه؛ أذن الله بفراق الروح لهذا الجسم، فبقي جسم الإنسان جماداً لا حركة فيه، وذلك هو الموت، فإذا خرجت الروح بقي الجسد جثة هامدة. ولا حاجة إلى كثرة الخوض وإطالة الكلام فيها، مع أن الله تعالى قد حجب أنظار العباد عنها، وفوض أمرها إلى الله. كتاب الجلالين مؤلفه رجلان أحدهما جلال الدين المحلي ، وهو الذي ألف آخره، من سورة الكهف إلى آخره، وجلال الدين السيوطي وهو الذي ألف أوله، من البقرة إلى سورة الإسراء، فالمحلي لما أتى على قوله تعالى في سورة ص: فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [ص:72] عرف الروح بأنها جسم حي متحرك، وبأن لها حياة وتقلباً، ولكن السيوطي لما أتى على قوله في سورة الحجر: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [الحجر:28-29] لم يذكر هذه الجملة التي هي تفسير الروح؛ لأنه أتى على هذه الآية وهي قوله تعالى: قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [الإسراء:85] فتوقف عن تفسيرها. فالأولى التوقف، والذين خاضوا فيها من العلماء وأطالوا القول فيها عذرهم أنهم يريدون بذلك إقناع أولئك الكافرين أو الكاذبين الذين صاروا يعرفونها بتعريفات بعيدة عن الواقع، فما حمل ابن القيم رحمه الله على الإطالة في تعريفاتها وفي صفاتها إلا أنه يناقش أقواماً ينكرون وجودها، أو ينكرون انفصالها، أو ينكرون تميزها، لهم أقوال عجيبة كما حكاها عنهم في ذلك الكتاب كالفلاسفة ونحوهم الذين يسمونها مثلاً: النفس الناطقة مثلاً، أو يزعمون أنها هذا الكون كله، أو هذا الهواء، أو النَفَس، أو ما أشبه ذلك مما لا أصل له، والأولى أننا نكل علمها وعلم الغيب كله إلى الله تعالى.

الفرق بين النفس والروح

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [وأما اختلاف الناس في مسمى النفس والروح هل هما متغايران أو مسماهما واحد، فالتحقيق أن النفس تطلق على أمور، وكذلك الروح، فيتحد مدلولهما تارة ويختلف تارة، فالنفس تطلق على الروح، ولكن غالب ما تسمى نفساً إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت

مجردة فتسـمية الـروح أغلب عليهـا، وتطلق على الـدم ففي الحـديث: (ما لا نفس له سـائلة لا ينجس المـاء إذا مـات فيـه)، والنفس العين يقـال: أصابت فلانـاً نفس أي: عين، والنفس الـذات كقوله تعـالى: فَسَـلِّمُوا عَلَى أَنفُسِـكُمْ [النور:61]، وقوله: وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ [النساء:29] ونحو ذلك. وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده، ولا مع النفس، وتطلق الروح على القرآن وعلى جبرائيل، وَكَـذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ رُوحـاً مِنْ أَمْرِنَا [الشـورى:52]، وقوله تعـالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ [الشعراء:193]، وتطلق الروح على الهواء المـتردد في بـدن الإنسـان أيضـاً. وأما ما يؤيد الله به أوليـاءه فهي روح أخـرى، كما قـال تعـالى: أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُـوبِهِمْ الإِيمَـانَ وَأَيَّدَهُمْ بِـرُوحٍ مِنْـهُ [المجادلـة:22]، وكذلك القوى التي في البـدن فإنها تسـمى أرواحـاً، فيقـال: الـروح الباصـرة، والروح السامعة، والروح الشامة، ويطلق الـروح على أخص من هـذا كله وهو قــوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبتــه، وانبعــاث الهمة إلى طلبه وإرادتــه، ونسبة هذا الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فللعلم روح، وللإحســان روح، وللمحبة روح، وللتوكل روح، وللصدق روح. والنـاس متفـاوتون في هـذه الأرواح، فمن النـاس من تغلب عليه هـذه الأرواح فيصـير روحانيـاً، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيميـاً، فقد وقع في كلام كثـير من النـاس أن لابن آدم ثلاثة أنفس: مطمئنة ولوامة وأمارة، قالوا: وإن منهم من تغلب عليه هــذه، ومنهم من تغلب عليه هــذه كما قــال تعــالى: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ [الفجر:27]، وكقوله تعالى: وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ [القيامــة:2]، وكقوله تعـالى: إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّـوءِ [يوسـف:53]]. تكلم الشـارح على تعريف النفس والـروح بهـذا الكلام الـذي سـمعنا؛ وذلك لأن هنـاك خلافـاً هل الـروح النفس أو الـــروح غـــير النفس؟ وذلك لأن كلمة النفس قد تطلق على بعض الأشياء، كما في هذه التعريفات التي سمعنا، فتطلق على الدم، فالدم يسمى نفسـاً كما في الحـديث: (ما لا نفس له سـائلة لا ينجس المـاء إذا مـات فيـه) يعـني: كالـذباب والبعـوض والجـراد والفـراش، فكل ما لا نفس له سـائلة إذا مات في الماء فإنه لا ينجســه؛ لأنه ليس له نفس، يعـني: ليس له دم إذا ذبح. كــذلك تطلق النفس على ذات الإنســان كما في قوله تعــالى: فَسَــلِّمُوا عَلَى أَنفُسِــكُمْ [النــور:61] يعــني: على ذواتكم، وقوله تعــالى: وَلا تَقْتُلُــوا أَنفُسَــكُمْ [النســاء:29] يعــني: لا تقتلــوا ذواتكم، فــذات الإنســان هي نفســه، وقد يكـثر اسـتعمال النفس في مثل هـذه المعـاني وغيرهـا. إذاً: النفس في الأصل هي ماهية الشـيء وذاتـه، وأما الإنسـان الـذي كلفه الله تعـالى فقد نـاداه بنـداء الإنســان: يَا أَيُّهَا الإِنسَــانُ إِنَّكَ كَـادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَـدْحاً فَمُلاقِيــهِ [الانشــقاق:6] والإنسـان هو هـذا الجنس من بـني آدم، ومعلـوم أنه مـركب من جسد وروح، وهذا النَفَس الذي يدخل ويخرج، ويجتذب هذا الهواء يسمى نفسـاً، وهو ملازم للإنسـان، ونفسه يعـني: ذاته توصف بصـفات كما سـمعنا، توصف بأنها نفس لوامة، وأنها نفس أمارة بالسوء، وأنها نفس مطمئنة، ومن العلماء من يقـول: إن للإنسان ثلاثة أنفس: نفس لوامة، ونفس أمارة، ونفس مطمئنة، والصحيح أنها نفس واحـدة، تـارة يغلب عليها الاطمئنـان فتوصف بأنها نفس مطمئنـة، فيقال: إن هذا الإنسان نفسه مطمئنة، وتـارة يغلب عليها وصف اللـوم، يفعل

الشيء ويلوم نفسه عليه، فيقال: هذا الإنسان نفسه لوامة، وتـارة يغلب عليه السوء والأمر بالسوء، ولهذا قـال تعـالى: إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّـوءِ [يوسـف: 53] فهي نفس واحدة تتصف بهذه الصفة تارة، وبهـذه تـارة، وهـذه تـارة، ولا تكون ثلاثة أنفس، وهذا هو الصحيح من أقـوال العلمـاء. فما دامت الـروح في الجسد فإنها تسمى نفساً وتسمى روحاً، فإذا خـرجت الـروح من الجسد فإنها لا تسمى نفساً غالباً، وإن كانت قد تسمى بذلك في مثل قول الله تعـالى في سورة الأنعام: وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ [الأنعام:93]، يعني: أخرجـوا أرواحكم، فـإذا خـرجت فإنها تقبضـها الملائكة وتكفنهـا، وكـذلك قوله تعـالى: اللَّهُ يَتَـوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا [الزمـر:42] فسـماها هاهنا نفسـاً، فما دامت في الجسد فإنها تسـمى نفسـاً، الله يتوفاها يعني: يقبضها، وبعد قبضـها يغلب عليها اسم الـروح، وكـذلك في النـوم نفس النائم تخـرج، ولكنها لا تخـرج خروجـاً كليـاً، بل يبقى أثرها على البـدن؛ ولهـذا ذكروا أنه إذا نام الإنسان فـإن روحه تخـرج، وتصـعد إلى السـماء، وتـرى كـذا وكذا من الرؤى ونحو ذلك، وفي حديث الدعاء عند النوم، قال صلى الله عليه وسلم: (باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسـكت نفسي فارحمهـا، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصـالحين)، فأفـاد بـأن النفس قد تمسك، يعني: إذا قبضت في النوم فقد لا ترجع إلى صاحبها إذا أراد الله، وقد ترجع، فهو يقول: إن أمسـكت نفسي ولم تردها علي فارحمهـا، وإن أرسـلتها ورددتها علي فاحفظهـا، يعـني: تطبيقـاً للآية اللَّهُ يَتَـوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِـكُ الَّتِي قَضَـى عَلَيْهَا الْمَـوْتَ [الزمـر:42]، يمسـكها ولا يردهـا، ويمسك الأخـرى الـتي لم يقض عليها المـوت إلى أجل مسمى، إلى الأجل الـذي حـدد الله خـروج هـذه الـروح من هـذه الجسـد. أما كلمة الروح فسمعنا أنها في الأصل مادة الحيـاة، كل شـيء تحصل به الحيـاة فإنه يسمى روحاً، فالله تعالى سمى القرآن روحـاً وَكَـذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ رُوحـاً مِنْ أَمْرِنَا [الشورى:52]، لماذا سمي القرآن روحاً؟ لأن به الحيـاة المعنويـة، حياة القلوب، الحياة المعنوية هي حياة صحيحة والناس لا يشـعرون بهـا، أو لا يهتمـون بهـا؛ وذلك لأن القـرآن إذا تـأثرت به القلـوب فإنه روح لها وحيـاة لها أعظم حياة، وأعظم منفعة لها؛ فلذلك سماه الله روحاً، فكما أن الأبــدان تحيا بالأرواح فكذلك القلوب تحتاج إلى أرواح معنوية، وهو هذا القرآن وما فسر به وما يتبعه من السنة، وكـذلك سـمى الله جبريل عليه السـلام روحـاً في قوله تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ [الشعراء:193-194] الـروح الأمين هو جبريل عليه السـلام، وهو الـذي نـزل بـه؛ وذلك لأن الملائكة كلهم أرواح، فجبريل من جملتهم، ولا ينـــافي ذلك أنهم يصـــعدون وينزلون، وأن لهم أجنحة وأن لهم أجساداً معنوية لا نراها، فهم أرواح وجبريل من جملتهم، ولكن لجبريل خصوصـية بهـذه التسـمية، حـتى قـال بعضـهم في قول الله تعالى في آخر سورة (عم): يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَـةُ صَـفّاً [النبأ: 38] إن الروح هو جبريـل، وقيـل: إن المـراد بـالروح هنا الأرواح، يعـني: يـوم تقوم الأرواح، سـواء كـانت أرواح الملائكة أو أرواح بـني آدم أو أرواح الجن أو أرواح الشياطين، تقوم الأرواح، وتقوم الملائكة صـفوفاً، وبهـذا أيضـاً فسـرت

الروح التي في سورة القدر: تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ [القدر:4] قيل: إن الــروح الـتي تتـنزل فيها هي أرواح بـني آدم أو أرواح الملائكة تتـنزل في تلك الليلـة. لكل شيء روح تحيا به تلك الماهية، فالقرآن يسمى روحـاً، والإسـلام له روح، والإيمــان له روح، وكـذلك التوكل له روح، والعبــادة لها روح، والاسـتعانة لها روح، وكذلك المحبة والخوف والرجاء وسـائر أنـواع العبـادات لها روح، يعـني: لها حقيقة معنوية تتأكد فيها أو تؤكد وتصير بها مؤكدة نافعة، فـإذا عـرف بـأن الروح هو الـذي تحصل به الحيـاة، فكلمة الـروح سـميت بـذلك لأن فيها حيـاة البـدن، ولأنها حيــة، وقد رجح العلمــاء المحققــون أن الأرواح بعد خروجها من الأجساد باقية كما يقول بعضهم: وأن أرواح الورى لم تعـدم مع كونها مخلوقة فاســتفهم فهــذه حقيقتهــا، فــأرواح بــني آدم ما عــدمت بعد خروجها من أجسادهم، مع اعتقادنا أنها مخلوقة مكونة بعد أن كانت معدومة، أوجـدها الله وكونهـا، وقد تقـدم الخلاف في وقت خلقهـا، مـتى خلقت؟ وأن الـراجح أنها تخلق مع خلق الإنسـان، وتبقى بعد موتـه. وعلى كل حـال فـأمر هـذه الأرواح وحقائقها يختلف باختلاف الإنسان، وقوة معنويته وضعف معنويته.

هل تموت الروح أم لا؟

قال الشارح رحمه اللـه: [والتحقيق أنها نفس واحـدة لها صـفات، فهي أمـارة بالسوء، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها وتلوم بين الفعل والترك، فإذا قوي الإيمان صارت مطمئنة؛ ولهذا قـال النـبي صـلى الله عليه وسلم: (من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مـؤمن)، مع قولـه: (لا يزني الـزاني حين يـزني وهو مـؤمن...) الحـديث. واختلف النـاس هل تمـوت الروح أم لا؟ فقالت طائفة: تموت؛ لأنها نفس، وكل نفس ذائقة المــوت، وقد قــال تعــالى: كُــلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَــانٍ* وَيَبْقَى وَجْــهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْــرَامِ [الرحمن:26-27]، وقال تعالى: كُـلُّ شَـيْءٍ هَالِـكٌ إِلاَّ وَجْهَـهُ [القصـص:88]، قــالوا: وإذا كـانت الملائكة تمـوت فـالنفوس البشـرية أولى بـالموت. وقـال آخرون: لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء، وإنما تمـوت الأبـدان، قـالوا: وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعـذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسـادها. والصــواب أن يقـال: مـوت النفـوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هـذا القـدر فهي ذائقة المـوت، وإن أريد أنها تعـدم وتفـنى بالكلية فهي لا تمـوت بهـذا الاعتبـار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة لا يـــذوقون فيها المـــوت إلا الموتة الأولى، وتلك الموتة هي مفارقة الــروح للجســد، وأما قــول أهل النــار رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ [غافر:11]، وقوله تعالى: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ

ثُمَّ يُحْيِيكُمْ [البقــرة:28] فــالمراد أنهم كــانوا أمواتــاً وهم نطف في أصــلاب آبائهم، وفي أرحام أمهاتهم، ثم أحيـاهم بعد ذلـك، ثم أمـاتهم ثم يحـييهم يـوم النشــور، وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يــوم القيامــة، وإلا كــانت ثلاث موتات. وصعق الأرواح عند النفخ في الصـور لا يلـزم منه موتهـا، فـإن النـاس يصـعقون يـوم القيامة إذا جـاء الله لفصل القضـاء، وأشـرقت الأرض بنـوره، وليس ذلك بموت، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى، وكذلك صعق موسى عليه السـلام لم يكن موتـاً، والـذي يـدل عليه أن نفخة الصـعق -والله أعلم- مـوت كل من لم يـذق المـوت قبلها من الخلائـق، وأما من ذاق المـوت أو لم يكتب عليه الموت من الحور والولدان وغـيرهم فلا تـدل الآية على أنه يمـوت موتة ثانيــة، والله أعلم.] الكلام الأول يتعلق بــالأنفس وتعــددها، وذكرنا أن الراجح أن النفس واحدة تغلب عليها صفات الإيمان فتسـمى نفسـاً مطمئنـة، وتغلب عليها المعاصي فتسمى نفساً لوامة، وتغلب عليها صـفة الكفر والبـدع فتسمى نفساً أمارة بالسوء، وهي نفس واحـدة، هـذا هو الصـواب. أما الكلام الثـاني فيتعلق بمـوت الأرواح، هل الأرواح تمـوت؟ قـال بعضـهم: إنها تمـوت، وهي إذا خرجت من الأجساد فإنها تحس إذا صعدت إلى السماء، ويخـرج منها ريح طيبة أو ريح خبيثة، وتتألم أو تتنعم، فهي لا تزال حية في هـذا العـالم في البرزخ بعد فراق هذا الجسـد، وأما الجسد فإنه يفـنى ويصـير ترابـاً، كما قـال تعالى: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ [طـه:55]. وبعضـهم يقـول: إن الأرواح بعد خروجها تبقى مدة ثم تمـوت، فإنه لابد أن يـأتي عليها المـوت الـذي كتبه الله على كل شــيء؛ لأنها أنفس، وكل نفس ذائقة المــوت، ولابد من فنائها لقوله تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ [الرحمن:26] هذا دليل من قال: إنها تفنى وتمـوت، وقاسـوها على الملائكـة، لأن الملائكة لابد أن يموتـوا، وكـذلك الجن معـروف أيضاً أنهم يموتون، مع كونهم أرواحاً، فلابد أن يكون موتهم شيئاً يحسون بــه، ويحصل بذلك عـدم الحيـاة لهم، فـإذا كـان الجن يموتـون، والملائكة يموتـون، فـالأرواح الـتي هي أرواح الإنسـان كيف لا تمـوت؟ هـذا قـول بعض العلمـاء. والقول الثاني: أنها بعد خروجها لا تموت، بل تبقى إما منعمة وإما معذبة، وهو ما تـدل عليه أحـاديث عـذاب القـبر، وموتها هو مفارقتها لهـذا الجسـد، فإنها كانت عامرة لهذا الجسد، وكانت منعمة فيه، فنزعت منه، وخـرجت منـه، كما في أحـاديث عـذاب القـبر أن الملك يجلس عند رأسه فيقـول: (اخـرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب -أي: الذي كنت تعمرينـه- اخـرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان)، ويقول عند روح الكافر: (اخرجي أيتها الروح الخبيثة كانت في الجسد الخبيث -أي: الذي كنت تعمرينه- اخـرجي إلى غضب من الله وســخط)، فهــذا دليل على أن خروجها هو الــذي يســمى المــوت، خروجها ومفارقتها لهــذا الجسد هو موتها حقــاً، وهو المــوت الــذي كتب الله عليها، فإذا خرجت فإنها ماتت، وإن كـانت بعد ذلك تبقى حيـة، وتبقى متحركة ومتنعمة أو متلذذة أو متألمة.

معنى قوله تعالى: (كل من عليها فان)

قول الله تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ [القصص:88]، وكُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ [الرحمن:26]، وكُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [آل عمران:185] المراد بها أنها يأتي عليها الموت الذي هذا صفته، فقد أتى على الروح الموت، وهو مفارقتها للجسد. عند بعض الفلاسفة أن الروح قديمة ليست مخلوقة، وعبر عن ذلك شاعرهم ابن سيناء في قصيدته التي يقول في أولها: هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تقلب وتفجع وصلت على كره فلما وصلت ألفت مرافقة الخراب البلقع وصفها بأنها هبطت من المحل الأرفع من السماء، وشبهها بالورقاء، والورقاء نوع من الطيور تسمى الورق، فذكر أنها وصلت إلى هذا الجسد مكرهة، ولكن بعدما وصلت تمكنت وألفت مرافقته، مع كونه خراباً بدونها، لكن لا يسلم لهم أنها قديمة، بل هي مخلوقة مكونة بعد أن كانت معدومة، فإن الله تعالى هو خالق كل شيء، فأما فناؤها فيحصل بمفارقتها لهذا الجسد، والله تعالى أخبر بأن كل شيء هالك إلا وجهه، فهلاكها معناه خروجها من أجسادها، فهذا موت، وبعضهم يقول: إن قوله تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ [الرحمن:26] المراد كل ما خلق للفناء، وأما ما خلق للبقاء فإنه لا يفنى، ويقول: ما خلق الله الجنة وما فيها من الحور ونحوها إلا للبقاء فلا تفنى، ولا يأتي عليها الموت؛ لأنها خلقت للبقاء، ومنهم من يقول: الحور التي في الجنة تفنى، ثم بعد ذلك تحيا. وأما الصعق الذي ذكره الله في قوله: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ [الزمر:68] وكذلك الفزع المذكور في قوله: وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ [النمل:87] فزع أولاً، ثم صعق ثانياً، فهذا الصعق إن كان على الأحياء فإنه موت، يعني: أن الناس يموتون في ذلك اليوم، إذا نفخ في الصور ماتوا كلهم، وعبر بالصعق عن الموت، والمراد الناس الذين تدركهم الساعة وهم أحياء، ينفخ في الصور فيموتون موتة واحدة، ثم بعد ذلك ينفخ فيه أخرى، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن بين النفختين أربعون، قيل: إنه أراد أربعون سنة. وهذا الصعق موت في حق الأحياء، وأما الأرواح فإنه ليس موت في حقها، وإذا صعقت لا يلزم أن تموت، وقيل: إن الأرواح هي من المستثنى في قوله: فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ [الزمر:68]، فالذين يشاء الله عدم صعقهم مثل الأرواح ومثل حور الجنة، وكل ما خلق للبقاء. وبكل حال نؤمن بأن هذا الكون الذي نحن فيه هو الذي يفنى، وأن هناك مخلوقات خلقت للبقاء كالأرواح، فالله هو الذي خلقها وقدر لها مقاديرها، فإذا حصل النفخ في الصور فإنها لا يأتي عليها هذا الفناء والفزع، والصعق يأتي على غيرها، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن صعق يوم القيامة بعد البعث، وأن الناس يصعقون يوم القيامة، وكأنه صعق لفزع يأتيهم، يقول: (فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم

العرش، فلا أدري هل أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟)، صعقة الطور هي المذكورة في قوله تعالى: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً [الأعراف:143] فدل على أن هناك صعقة يوم القيامة، وهذا الصعق ليس بموت وإنما هو غشية تحصل من هذا الفزع، ثم يحصل بعدها إفاقة، ويكون النبي صلى الله عليه وسلم أول من يفيق، فيجد موسى قد أفاق قبله أو لم يصعق جزاء له على صعقته يوم الطور.

معنى قوله تعالى: (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين)

تكلم الشارح على قوله تعالى: قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ [غافر: 11] والصحيح أن هاتين الموتتين والحياتين في الدنيا وفي الآخرة، الموتة الأولى هي الموت في الأرحام وفي الأصلاب، فإنه في حالة كونه في الرحم شبه ميت، ليس به حركة الحي حتى ينفخ فيه الروح بعد الشهر الرابع. الموتة الثانية خروجه من هذه الدنيا، فهاتان موتتان. والحياة الأولى خروجه إلى هذه الدنيا من الرحم فإنها حياة مشاهدة، والحياة الثانية حياته بعد النفخ في الصور يوم القيامة الحياة الباقية. فهاتان الموتتان موتة في الرحم وموتة في الدنيا، والحياتان حياة في الدنيا وحياة في الآخرة، وهي المفصلة في قوله تعالى: وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً [البقرة:28] يعني: في الأرحام، فَأَحْيَاكُمْ [البقرة:28] يعني: في الدنيا، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ [البقرة:28] يعني: في البرزخ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ [البقرة: 28] أي: للآخرة. وقد نصب الله الأدلة على الأمور الغيبية والأمور الأخروية، وأمر العباد بأن يتفكروا وينظروا فيما بين أيديهم وفيما خلفهم، ولا شك أن من نظر في ذلك اعتبر وتذكر واتعظ، إذا نظر -مثلاً- إلى خلق الإنسان، ومبدأ أمره، عرف أن الذي خلقه قادر على أن يعيده، وليس بدأ الخلق أهون من إعادته، نظر إلى الأفلاك العلوية والسفلية فأخذ منها آية دل الله عليها بقوله: لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ [غافر:57]، خلق السماوات مع علوها ومع عظمها وخلق الأرض مع اتساعها أكبر من خلق الناس. والآيات التي أمر الله عباده أن يتعظوا بها وينظروا فيها كثيرة، كقوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ [الروم:20]، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً [الروم:21]، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [الروم:22]، وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ [الروم:23]، هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً [الرعد:12]، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ [الروم: 25]، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [الروم:46] ولا شك أن هذه الآيات عبرة لمن اعتبر، وعظة لمن اتعظ؛ فلأجل ذلك أصبح اليوم الآخر يقيناً عند أهل الإيمان؛ لأنها قامت عليه البراهين بعدما كان المشركون ينكرونه

ويقولــون: أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابــاً وَعِظَامــاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُــونَ * أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُــونَ [الصافات:16-17] يستنكرون ذلك، فأقام الله عليهم الحجة، وبين لهم الأدلة.
ومعلوم أن الإنسان يتكون من جسد وروح، فبعد الموت تخرج هذه الروح من جسده، ويبقى الجسد ليس به حركة، فيفنى الجسد ويكون تراباً، ولكن قــدرة الله أعلى من كل شيء، فهو قادر سـبحانه على أن يوصل إليه الألم أو النعيم ولو كان تراباً أو رماداً، الله قادر على كل شيء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. أما روحه الـتي كـانت تعمر جسـده فقد مر بنا أن الـروح لا تعـدم، وأنها باقية، وأنها في هذا الـبرزخ بين الـدنيا والآخـرة إما في نعيم وإما في عـذاب، وإن كنا بعقولنا لا ندرك ماهيتها، ولا ندري أين مستقرها، بل نتحقق بأن الروح إذا خرجت من البدن لا تنعدم كما ينعدم البدن، بل تبقى، والــدليل على بقائها الأحـاديث الـتي فيها أنها تقبض، وأنه يعـرج بهـا، وأنها تـرى من يقبضـها، ونحو ذلك، فهي إذاً: باقية في هذه المدة بين الدنيا والآخرة، ويوم القيامة يأمر الله الأرض فتجمع ما فيها من رفـات الأمـوات، وتتجمع عظـامهم حـتى تتكامـل، ويكسوها الله لحماً، ثم بعد أن يعيدها يرسل إليها أرواحهـا، وقد وقع مثل ذلك في الــدنيا، فحكى الله قصة الــذي مر على قرية وهي خاوية على عروشــها، فاســتبعد إعادتها وقــال: أَنَّى يُحْيِي هَـذِهِ اللَّهُ بَعْـدَ مَوْتِهَا [البقــرة:259] كأنه استبعد أن تحيا وقد فنيت، فأراه الله الآية في نفسه، فأماته الله مائة عام ثم بعثـه، وكـان معه حمـار، وكـان معه سـلة طعـام وفاكهـة، فلما بعثه ونفخ فيه الروح بعد مائة سنة، أراه الله كيف يحيي المـوتى، فقيل لـه: كم لبثت؟ قـال: لبثت يوماً أو بعض يوم، فقـال اللـه: بَـلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَـامٍ فَـانظُرْ إِلَى طَعَامِـكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ [البقرة:259] أي: لم يتغـير، وَانظُـرْ إِلَى حِمَـارِكَ [البقـرة: 259]، وكان حماره قد فني وأصبح تراباً، وَانظُرْ إِلَى حِمَـارِكَ وَلِنَجْعَلَـكَ آيَـةً لِلنَّاسِ وَانظُـرْ إِلَى الْعِظَـامِ [البقـرة:259] يقولـون: إنه أخذ ينظر إلى عظـام الحمـار كيف تجتمع ثم يلـتئم بعضـها ببعض، أولاً التـأمت العظـام، ثم اكتست لحماً، ثم نبت عليها جلدها، ثم نفخ فيه الروح، فقام الحمار ونهق كما ينهق إذا كان حياً! فأراه الله الآية في نفسه، وفيما كان معه، وذلك بلا شك آية وعــبرة تـدل أن الله قــادر على أن يحــيي المــوتى أَلَيْسَ ذَلِـكَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَـوْتَى [القيامـة:40]، فـإذا أيقن الإنسـان بـذلك فـإن يقينه يحمله على أن يستعد لما بعد الموت.

شرح العقيدة الطحاوية [60]

من عقيدة أهل السنة الإيمان بعذاب القبر، وقد دلت عليه كثير من الأدلة من القــرآن والســنة، وقد رد أهل العلم على شــبه من ينكــره من أهل الأهــواء والبدع.

الإيمان بعذاب القبر وفتنته

قال الشارح رحمه الله تعالى: [قوله: (وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً، ســؤال منكر ونكــير في قــبره عن ربه ودينه ونبيــه، على ما جــاءت به الأخبــار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة رضوان الله عليهم. والقـبر روضة من ريـاض الجنة أو حفـرة من حفر النـيران). قـال تعـالى: وَحَـاقَ بِـآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَـوْمَ تَقُـومُ السَّـاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَـذَابِ [غـافر:45-46]، وقـال تعـالى: فَـذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُـوا يَـوْمَهُمْ الَّذِي فِيـهِ يُصْـعَقُونَ * يَـوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْـدُهُمْ شَـيْئاً وَلا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ [الطور: 45-47]، وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثيراً منهم مـات ولم يعـذب في الـدنيا، أو المراد أعم من ذلك. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كنا في جنـازة في بقيع الغرقد، فأتانا النـبي صـلى الله عليه وسـلم فقعد وقعـدنا حوله كـأن على رءوسنا الطير، ولما يلحد لـه، فقـال: (أعـوذ بالله من عـذاب القـبر ثلاث مرات، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في إقبـال من الآخـرة وانقطـاع من الدنيا نزلت إليه الملائكة كأن على وجـوههم الشـمس، معهم كفن من أكفـان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسـه، فيقـول: يا أيتها النفس الطيبـة! اخـرجي إلى مغفـرة من الله ورضوان، قـال: فتخـرج تسـيل كما تسـيل القطـرة من في السـقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، ويخرج منها كـأطيب نفحة مسك وجـدت على وجه الأرض. قـال: فيصـعدون بها فلا يمـرون بها -يعـني: على ملأ من الملائكـة- إلا قالوا: ما هذه الـروح الطيبـة؟ فيقولـون: فلان بن فلان بأحسن أسـمائه الـتي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها الى السماء، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيـدوه إلى الأرض، فـإني منها خلقتهم، وفيها أعيـدهم، ومنها أخـرجهم تـارة أخـرى. قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقـولان لـه: من ربـك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان لـه: ما علمـك؟ فيقول: قرأت كتـاب الله فـآمنت به وصـدقت، فينـادي منـاد من السـماء: أن

صدق عبدي؛ فافرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنـة. قـال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجــه، حسن الثياب، طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسـرك، هـذا يومك الـذي كنت توعـد، فيقـول لـه: من أنت فوجهك الوجه الـذي يجيء بـالخير؟ فيقـول: أنا عملك الصالح، فيقول: يا رب! أقم الساعة؛ حتى أرجع إلى أهلي ومالي. قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطـاع من الـدنيا وإقبـال من الآخـرة نـزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك المــوت حــتى يجلس عند رأســه، فيقــول: أيتها النفس الخبيثــة! اخرجي إلى سخط من الله وغضـب، قـال: فتتفـرق في جسـده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخـذها فـإذا أخـذها لم يـدعوها في يـده طرفة عين حــتى يجعلوها في تلك المســوح، ويخــرج منها كــأنتن ريح خبيثة وجدت على وجه الأرض، فيصـعدون بهـا، فلا يمـرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولـون: فلان بن فلان بـأقبح أسـمائه الـتي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّـمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ [الأعراف:40] فيقـول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً، ثم قـرأ: وَمَنْ يُشْـرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَـرَّ مِنْ السَّـمَاءِ فَتَخْطَفُـهُ الطَّيْـرُ أَوْ تَهْـوِي بِـهِ الـرِّيحُ فِي مَكَـانٍ سَـحِيقٍ [الحج:31]. قـال: فتعـاد روحه في جسـده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقـول: هـاه هـاه! لا أدري، فيقـولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي، فافرشوه من النار، وافتحوا له بابـاً إلى النـار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حـتى تختلف فيه أضـلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هـذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشـر؟ فيقـول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب! لا تقم السـاعة) رواه الإمـام أحمد وأبو داود ، وروى النسـائي وابن ماجة أولــه، ورواه الحــاكم وأبو عوانة الإسـفرائيني في صـحيحيهما وابن حبـان ، وذهب إلى مـوجب هـذا الحـديث جميع أهل السـنة والحديث، وله شواهد من الصـحيح. فـذكر البخـاري رحمه الله عن سـعيد عن قتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قـال: (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسـمع قـرع نعـالهم، فيأتيه ملكـان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صـلى الله عليه وسـلم؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقول له: انظر إلى مقعـدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنـة، فيراهما جميعـاً)، قـال قتـادة : وروي لنا أنه يفسح له في قبره .. وذكر الحديث. وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقـبرين فقـال: (إنهما ليعـذبان، وما يعـذبان في كبـير، أما أحـدهما فكـان لا يسـتبرىء من البـول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين، وقــال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا). وفي صـحيح أبي حـاتم عن أبي هريـرة قـال: قـال النـبي

صلى الله عليه وسلم: (إذا قبر أحدكم أو الإنسان أتاه ملكان أسودان أزرقـان يقال لأحدهما: المنكر وللآخر النكير ..)، وذكر الحديث إلخ]. ......

الأدلة على عذاب القبر

الإيمان بالبرزخ وما يكـون فيه ثبت تفصـيلاً بالسـنة، وثبتت أدلته من القـرآن، وقد روي أن امرأة من اليهـود دخلت على عائشة ، فكـان من جملة ما قـالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فأنكرت عائشة أن يكـون في القـبر عـذاب، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم سألته، فقال: (نعم، إن القبر فيه عـذاب وفيه نعيم) أو كما قال. وقد استدل الشارح على عذاب البرزخ بآيـات، وابتـدأ بقوله تعـالى في قصة آل فرعـون: النَّارُ يُعْرَضُـونَ عَلَيْهَا غُـدُوّاً وَعَشِـيّاً وَيَـوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [غافر:46]، في بعض الحكايات أن أناساً رأوا في المنام أو في اليقظة أن طيوراً تذهب أول النهار وهي بيض إلى وراء البحر، وترجع في آخر النهار وهي سود، فقيل له: إن هــذه أرواح آل فرعون في أول النهار تعرض على النار فتحـترق، ثم ترجع فتعـود كما كـانت، ثم ترجع في آخر النهـار فتحـترق، يعرضـون على النـار فيحـترقون فتسـود ألوانهم، هذا عذاب البرزخ، يعرضون على النار غدواً أول النهـار، وعشـياً آخر النهار. فـإذا كـان هـذا في حق آل فرعـون فكـذلك كل كـافر، وكل خـارج من الإسلام، وكل مبتدع؛ يثبت له هذا العذاب الـذي ثبت لآل فرعـون. الآية الثانية في آخر سورة الطور، وهي قوله تعالى بعدما ذكر يومهم الذي فيه يصـعقون، وهو يوم القيامة، قال: وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ [الطـور:47] (عـذاباً دون ذلك) يعـني: قبل ذلـك، فسر هـذا العـذاب بأنه عـذاب القـبر، وقيـل: إنه عذاب في الدنيا، ورجح الشارح أنه عذاب القـبر؛ وذلك لأن كثـيراً منهم مـات ولم يعــذب في الــدنيا، فــدل على أنه لابد أن يأتيه عــذاب قبل عــذاب يــوم القيامـة، ولا يكـون إلا عذابه في الـبرزخ. وقد اسـتدل أيضـاً بقوله تعـالى في سـورة السـجدة: كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُـوا مِنْهَا أُعِيـدُوا فِيهَا وَقِيـلَ لَهُمْ ذُوقُـوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَـذِّبُونَ * وَلَنُـذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَـذَابِ الأَدْنَى [السـجدة: 20-21] ففسر العـذاب الأدنى بأنه عـذاب الـبرزخ، فـإن عـذاب القـبر قبل العذاب الأخروي. واسـتدل أيضـاً عليه بقوله تعـالى في سـورة التوبة لما ذكر المنــافقين: سَـنُعَذِّبُهُمْ مَـرَّتَيْنِ ثُمَّ يُـرَدُّونَ إِلَى عَـذَابٍ عَظِيمٍ [التوبــة:101] المرتان قيل: مرة في الدنيا ومرة في الـبرزخ، أو مـرتين في الـبرزخ، يعـني: عذاب على الأرواح وعذاب على الأبـدان، فهـذه أدلة تـدل على إثبـات عـذاب القــبر من القــرآن. وقد تكلم العلمــاء على القبــور وما يكــون فيهــا، فكتب المتقدمون كتباً كثيرة كـابن أبي الـدنيا له كتـاب مطبـوع فيمن شـوهد يعـذب في قبره، وكذلك ابن القيم في كتابه المسـمى بكتـاب الـروح، تكلم فيه على عذاب القبر، وذكر الأدلة عليه، وذكر أنواعه، كذلك تلميذه ابن رجب في كتابه الـذي يسـمى: (أهـوال القبـور وأحـوال المـوتى إلى النشـور) تكلم فيه على عذاب القبر وأنواعه، وتوسع في ذلك، وذكروا أمثلة وأدلة على ذلك.

وردت أحاديث كثيرة تدل على إثبات عـذاب القـبر، وذكر الشـارح بعضـها كما سمعنا، وذكر ابن كثير في التفسير عند قوله تعالى في سـورة إبـراهيم: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا بِـالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَفِي الآخِـرَةِ وَيُضِـلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:27] أنها نزلت في عـذاب القـبر، وقد أورد عندها أحاديث كثيرة طويلة وقصيرة فيها ذكر ما يعـرض على الميت في قبره وما يناله من العذاب، ومنها هذا الحديث الطويل الـذي سـمعناه، فنتأمل في هـذا الحـديث، ونأخذ منه عـبرة. يشـترك المـؤمن والكـافر في أن ملك الموت يجلس عند رأس كل واحد منهما، إلا أنه يقـول للمـؤمن: اخـرجي أيتها الروح الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي إلى روح وريحـان، ورب غـير غضبان، ويقول للكافر: اخرجي أيتها الروح الخبيثة كـانت في الجسد الخـبيث، اخـرجي إلى سـخط من الله وغضـب. أما روح المـؤمن فإنه يسـلها كما تسل الشعرة من العجين، أو تسيل روحه كما تسيل القطـرة من فم السـقاء، وأما روح الكافر فتتفرق في جسده فينتزعها بقوة كما ينتزع السـفود من الصـوف المبلـول، والسـفود هو الـذي له أطـراف من حديد محـددة، إذا أدخل في الصوف المبلول لا يخرج إلا بعد ما يتقطع الصوف، وبعدما يتقطع ما علق بـه، وأنت إذا أردت أن تخرج شوكة من وسط صوف أو قطن ما تخـرج إلا بعد أن يتقطع الـذي حولهـا، فـروح الكـافر تتفـرق في جسـده، وينتزعها الملك بقـوة فتتقطع العروق، وتتقطع الشرايين، فلا تخرج إلا بقوة، وهذا دليل على أن هذا أول عـذاب. وبعـدما تخـرج الـروح تأخـذها الملائكـة، فملائكة المـؤمن كـأن وجوههم الشمس، وملائكة الكافر سـود الوجـوه، ومع ملائكة المـؤمن أكفـان من الجنة، وحنوط من الجنـة، والحنـوط هي الأطيـاب الـتي يطيب بها الميت، فالميت يطيب بدنه بـأنواع من الطيب، وروحه كـذلك تطيبها الملائكة بحنـوط من الجنـة، وياسـمين من الجنـة، وأكفـان من الجنـة، وأما الكـافر فـإن روحه تجعل في تلك المسـوح، وهو الخشن من ثيـاب الصـوف الـذي في غاية الخشونة، هذا الفرق بينهما. بعدما يُصـعد بها يخـرج من المـؤمن كـأطيب ريح مسك وجـدت على وجه الأرض، ويخـرج من الكـافر كـأنتن ريح جيفة وجـدت على وجه الأرض، مع أنها روح، ولكن هـذه لها رائحة طيبـة، وهـذه لها رائحة خبيثـة. وكـذلك المـؤمن يسـمونه بأحسن أسـمائه في الـدنيا، والكـافر بـأقبح أسمائه في الدنيا، والمؤمن يستفتح له فتفتح له أبـواب السـماء، ويشـيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء الثانيـة، وهكـذا حـتى تصل روحه إلى السـماء السابعة، فعند ذلك يقول اللـه: اكتبـوا كتـاب عبـدي في علـيين، وأعيـدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخـرى، فتصـعد

روحه وتصل إلى السـماء السـابعة، ويكتب كتابه في علـيين كما في قوله تعالى: كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ [المطففين:18] مشتق من العلو. وأما الكافر فيقول: اكتبوا كتابه في سجين، قـال تعـالى: كَلاَّ إِنَّ كِتَـابَ الفُجَّارِ لَفِي سِـجِّينٍ [المطففين:7] سـجين قيـل: إنه مشـتق من السـجن، يعـني: كـأن أرواحهم مسجونة في أسفل الأرض السـابعة، فيكـون هـذا مسـتقر أرواحهم، ومحل كتابهم، وروح الكافر لا تفتح لها السماء، لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّـمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ [الأعراف:40] الجمل هو زوج الناقة، وسم الخياط هو ثقب الإبرة، فالإبرة التي يخاط بها لها ثقب يدخل فيه السلك الذي يخاط بـه، فكيف يتصـور أن الجمل يـدخل من ثقب الإبـرة الـتي يخاط بها؟ والمعنى: أنهم لا يدخلون الجنة حتمـاً؛ لأنه لا يتصـور دخـول الجمل في سم الخيـاط. كـذلك روح الكـافر تطـرح من السـماء طرحـاً إلى الأرض، واستدل عليه بقوله تعالى: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ [الحج:31] في مكان بعيـد، فتطـرح روحه طرحاً. وكل منهما تعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان يقال لهما: منكر ونكير كما سمعنا، ويسألانه عن ثلاث مسائل: عن ربه ونبيه ودينـه، فيثبت الله المؤمن وينطقه بالصواب، ولو كان أمياً، ولو كـان لا يقـرأ، ولكن عقيدته الـتي مات عليها يبقى عليه أثرها، فينطقه الله بأن يقول: ربي الله، وديني الإسـلام، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم، أما الكافر فكما سمعنا ولو كان قارئاً، ولو كان عالماً، ولو كان فاهماً، يزيغه الله ويضله، فلا يدري بالجواب، فيقول: هـاه هـاه! لا أدري، سـمعت النـاس يقولـون شـيئاً فقلتـه، وفي بعض الروايـات: (يضرب بمرزبة من حديد)، والمرزبة هي حديدة كبيرة لها رأس كبير، يضـرب بها، يقول في بعض الروايات: (لو ضـرب بها جبل لكـان ترابـاً)، ومـاذا يتحمل هذا الإنسـان الـذي يضـرب بهـذه المرزبـة؟! ولكن لأن الله ما أراد إفنـاءه لم يفن، فيتـألم بـذلك وإن كنا لا نشـعر بـذلك، ولا تدركه أفهامنـا. ثم إذا سـئل المؤمن وأجـاب بـالجواب الصـحيح يقـول اللـه: صـدق عبـدي، فأفرشـوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من روحها وريحانها، وينظر إلى منزله من الجنة، وفي بعض الروايـات: (يفتح له بابـان: بـاب إلى النـار ويقـال: هـذا المنزل الذي أعاذك الله منه، وباب إلى الجنة ويقال: هذا منزلك الـذي أبـدلك الله به -فينظر إليهما ويراهما جميعاً، ويتمـنى أن تقـوم السـاعة- فيقـول: رب أقم السـاعة حـتى أرجع إلى أهلي ومـالي، فيفسح له في قـبره مد بصـره)، ويكون القبر عليه روضة من رياض الجنة، وإن كنا لا نـدرك ذلـك. وأما الكـافر والعياذ بالله فيقول الله: كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابـاً إلى النـار، فيأتيه من حرها وسـمومها، ويضـيق عليه قـبره حـتى تختلف أضـلاعه، فيكون عليه حفرة من حفر النار، وإن كنا لا نـدرك ذلـك؛ لأنه في عـالم ونحن في عالم.

وردت الأدلة الـتي تثبت عـذاب القـبر مثل قوله صـلى الله عليه وسـلم: (إذا وضع الرجل في قـبره، وتـولى عنه أصـحابه، وإنه ليسـمع قـرع نعـالهم، أتـاه ملكان فيجلسانه)، إلى آخر الأحاديث التي سمعنا. فإذا قال قائل: أين العذاب ونحن قد نحفر القبر بعد يومين أو بعد أيـام ونجـده كما هو لم يتغـير؟ ويقـول بعضهم: إنا نضع على صدره الزئبق الـذي هو خفيف الحركـة، ومع ذلك نجـده على حاله لم يتغير عن موضعه، فكيف يكون العذاب مع هذا؟ فالجواب: أنكم في عالم وهم في عالم، والعـالم الـذي هم فيه هو عـالم الأرواح، ولا شك أن الروح هي التي يكون عليها الحساب، وعليها العذاب، وهي التي تتـألم وتتنعم، ونحن لا نشعر بذلك، ولا تدركه أفهامنـا، والـذي في الـدنيا لا يشـعر بما يكـون بعد المـوت؛ فلأجل ذلك يقـول في الحـديث: (إنه يصـيح صـيحة يسـمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سـمعها الإنسـان لصـعق) لو أسـمعنا الله ما يكـون من أهل القبور لما استقر النـاس في الـدنيا، ولما تهنـوا بمأكل ولا بمشـرب، ولما عمرت هـذه الـدنيا بأهلهـا؛ لأنهم إذا كـانوا يسـمعون عـذاب هـؤلاء وصـياحهم وعــويلهم، ويعلمــون أنهم سيصـيرون إلى مثل ذلـك، تنكـدت عليهم الحيـاة، وتكــدر عليهم صــفوها، وتكــدرت عليهم معيشــتها؛ فلأجل ذلك لما أراد الله عمـارة هـذه الـدنيا حجب عنهم الأمـور الأخرويـة، الـتي أولها ما بعد المـوت، حجبها عنهم فلا يسمعون شيئاً مما فيهـا، ولا يعلمـون حقيقتـه، ولكن قد يطلع الله أفراداً على شيء من ذلك، ومن أراد أمثلة لذلك فـيرجع إلى الكتب الـتي ذكرنـا، مثل كتب ابن أبي الـدنيا فله رسـائل في ذلـك، وكتـاب أهـوال القبـور لــابن رجب ، وكتــاب الـروح، فقد ذكـروا عن أنـاس أنهم أطلعـوا على بعض الأمور الأخروية، ومنها ما هو أحلام ومرائي، ومنها ما هو رأي عين، وفي بعض الحكايات أن بعضهم رؤي في المنام وعلى وجهه سفعة من سـواد، فقيل لـه: ما هذا السـواد في وجهـك؟ فقـال: دفن عنـدنا بشر المريسي فزفـرت جهنم زفـرة، فنـال جميع أهل القبـور منها هـذه السـفعة من السـواد! ومعلـوم أن المقبـورين قد يكـون أحـدهما سـعيداً والآخر شـقياً، ويـدفنان في قـبر واحـد، ويكون هـذا قـبره روضة من ريـاض الجنـة، وهـذا حفـرة من حفر النـار، وهما ملتصقان، ولا يتألم هذا بعذاب هذا، ولا يتنعم هـذا بنعيم هـذا، والله قـادر على كل شيء؛ لأنه يقدر على إيصـال كـلٍ ما يسـتحقه، ولا يسـتبعد في قـدرة الله أمثال هذه الأمور. وأما الحكايات الدنيوية فذكروا منها أشياء كثيرة، ذكـروا أن فلاناً لما دفنوه، وسووا عليه لبنه، سقطت قلنسـوة واحد منهم، فخفض رأسه ليأخذها، فـرأى القـبر قد مد وقد وسع في نظر عينـه، ولم يـره غـيره! وهـذه بشـرى. وكـذلك يحكى عن كثـير من الـذين يشـهد لهم بـالخير أنه يخـرج من قبـــورهم رائحة المســـك، وأنه يشم منهم قبل أن يـــدفنوا روائح طيبة على الأبـدان، فكيف بـالأرواح؟! ولا شك أن الله سـبحانه أخـبر على لسـان رسـله بهذه الأمـور، وأظهر منها علامـات لتكـون شـاهداً ودليلاً للأمة على مثل هـذه الأمور التي لم يروها.

إطلاع الله نبيه على عذاب بعض أهل القبور

أطلع الله نبيه على ما لم يطلع عليه غيره، ففي بعض الأحاديث أنه كان صلى الله عليه وسلم راكباً على حمار فأقبل على خمسة قبور، فحادت الأتان التي كان راكبها، فنزل وسأل: (لمن هذه القبور؟) فأخبر بأنهم من المشركين، فأخبر بأن الأتان -التي هي أنثى الحمر- لما سمعت عذابهم أو أحست بما هم فيه من العذاب حادت، فأطلعه الله على ذلك، ولم يطلع عليه غيره، ولا يلزم أن يكون ذلك مطرداً، يعني: ليس كل من ركب حمار ومر على قبر أن ينتبه له ذلك الحمار أو نحوه، والدواب قد يكون لها سماع وانتباه لشيء لا نسمع به، ولكن قد لا يظهر عليها أثر ذلك السماع، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الدواب في صباح كل يوم جمعة تصيخ قرب الصباح إلى طلوع الشمس تخشى أن يكون ذلك هو يوم القيامة، يقول في الحديث في فضل يوم الجمعة: (وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة حتى تطلع الشمس مخافة أن تقوم الساعة)، ونحن لا نشعر بهذه الإصاخة التي فيها، ولا هذا الوجل، ولا هذا الخوف، وكذلك أيضاً لا نشعر بما يحصل لها من الخوف أو من السماع المفزع أو نحو ذلك، وأما الرسل فالله تعالى يطلعهم على بعض الأمور الغيبية، ومن ذلك أن الله أطلع نبيه على هذين القبرين اللذين يعذبان، وما يعذبان في كبير، وقد مر الحديث، وفيه: (أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، فدعا بجريدة فشقها نصفين، وغرز في كل قبر واحدة وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)، وهذا من خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام، فالله تعالى هو الذي يطلعه على ما يشاء، ولا يجوز لغيره أن يغرز جريدة أو عصاً رطبة على أي قبر، ولا يمكن أن يقاس على الجريدة التي غرسها النبي صلى الله عليه وسلم غيرها. وقد ذكر عن بعض العلماء أنهم استحبوا أن يغرس على كل قبر جريدة، وكلما يبست نزعوها وغرسوا أخرى، وهذا لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم مع كل أحد، ولم يفعله الصحابة، ولا نقل عن الأئمة، فلا يجوز، ولا يكون له وجه من الدلالة، ولكن علينا أن نعمل الأعمال الصالحة التي تنجي من عذاب القبر، وعلينا أن ننصح المسلمين ألا يعملوا عملاً يدخلهم في العذاب، أو يؤهلهم إلى العذاب، ونحثهم على الأعمال الصالحة التي يستحقون بها نعيم البرزخ، وينجيهم الله بها من عذاب النار، وعذاب القبر.

الدعاء للميت بالنجاة من عذاب القبر

يستحب في الصلاة على الجنـازة أن يـدعى للميت بالنجـاة من عـذاب القـبر، يقال في آخر الـدعاء لـه، بعـدما يـدعى له بـالمغفرة، وأن تكفر عنه خطايـاه: اللهم افسح له في قبره، ونور له فيه. وهذا مما يرجى إجابتـه، فيفسح له في قبره، ويقال أيضاً: اللهم أنجه من عذاب القبر وعذاب النار. هكذا يسـتحب أن يدعى للميت، ويدعى كذلك لكل المسلمين أن ينجيهم الله من عـذاب القـبر، ومن فتنة القـبر، ومن فتنة ما بعد المـوت. وإجمـاع المسـلمين على الـدعاء بذلك، حتى أوجبه بعضهم في آخر الصلاة، دليل على أنهم يوقنون بذلك، ويدل على وجوده قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا تشهد أحدكم فليسـتعذ بالله من أربـع: من عـذاب جهنم، ومن عـذاب القـبر، ومن فتنة المحيا والممـات، ومن فتنة المسيح الدجال)، فجعل من جملتها عـذاب القـبر، فـدل على أنه عقيـدة راسـخة عند المسـلمين، وهي أن القـبر فيه عـذاب، ولو لم يقـبر الميت، قد يقال: إن هناك أمماً لا يدفنون أمواتهم، بل يحرقونهم كما هو معروف، وهناك من يموت في صحراء ولا يدفن، بل تأكله الطيور، وتتقطعه السـباع، ولا يبقى له جثة تدفن أبداً! فنقول: يأتيه عذابه أو نعيمه ولو كان رماداً، ولو كان ترابـاً، فقدرة الله تأتي على كل شيء، يعـذب أو ينعم أيـاً كـانت حياته وحالتـه، لكن الأصل شرعية الدفن للأموات، فالإسلام شرع التـدافن، يقـول الله تعـالى: ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ [عبس:21] أي: فشـرع أن يقـبر، ويقـول النـبي صـلى الله عليه وسلم: (لولا ألا تدافنوا لسألت الله أن يسـمعكم من عـذاب القـبر ما أسـمع) كأنه يقول: إنهم لو سمعوا ما يسـمعه من المعـذبين في القـبر لخشي أنهم لا يتدافنون، فيقولون: لا حاجة إلى الدفن، لا ندفنه إذا كان يعذب في قبره، لكن شرع الله التدافن، وقدر أن يصل العذاب أو النعيم إلى كل أحد سـواء دفن أو لم يدفن.

شرح العقيدة الطحاوية [61]

اختلف العلمـاء في مسـتقر الأرواح بعد المـوت، والـراجح أنها تتفـاوت في مستقرها بعد الموت تفاوتاً كبيراً بحسب منازلهـا، وقد دل على هـذا نصـوص كثيرة من الكتاب والسنة.

الأرواح

من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر اللـه، وبما أخـبرت به رسل اللـه، فالإيمـان بالرسل داخل في الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر داخل في الإيمان باللـه؛ لأنه خبر الله، الله هو الذي أرسل الرسـل، فمن آمن بالله آمن برسـله، والله أخـبر بـاليوم الآخر فمن آمن بالله آمن بخـبره، واليـوم الآخر يـراد به ما بعد الموت، كلما يكون بعد الموت فهو من اليوم الآخر؛ ولذلك يقولون: من مـات فقد قـامت قيامتـه، فـأول الآخـرة وأول مراحلها خـروج الـروح، وبعـدها يبـدأ الإنسـان في الجـزاء، قبل خـروج الـروح هو في العمـل، وبعـدها يـدخل في الجزاء، ويلقى جزاءه من حين تخرج الروح حيث يلقى مقـدمات الجـزاء على الأعمال إن خيراً فخير، وإن شـراً فشـر. وقد عرفنا ما يحصل لـروح المـؤمن ولـروح الكـافر عند خروجهـا، وإن كنا لا نراهـا، وكـذلك ما يحصل من عـذاب القبر ونعيمـه، ومن سـؤال منكر ونكـير، فـذلك كله داخل في الإيمـان بـاليوم الآخر، وإذا آمن العبد بما بعد الموت فإن من آثـار الإيمـان الاسـتعداد، وهو أن يعمل لما بعد الموت كما في الحديث: (الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت) والكيس: هو الحـازم الفطن، الـذي دان نفسه يعـني: حاسـبها وعمل لما بعد الموت، فإن ما قبل الموت قد ضمنه الله لمن عمل عملاً صـالحاً، بل لكل الخلق، وإنما الـذي لم يضـمن هو ما بعد المـوت، فليجتهد العبد حـتى إذا قامت قيامته وجد جزاءه أحوج ما يكون إليه. ......

مستقر الأرواح بعد الموت

قال الشارح رحمنا الله تعـالى وإيـاه: [وقد اختلف في مسـتقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة، فقيل: أرواح المؤمنين في الجنـة، وأرواح الكـافرين في النار، وقيـل: إن أرواح المؤمـنين بفنـاء الجنة على بابها يـأتيهم من روحها ونعيمها ورزقهـا، وقيـل: على أفنية قبـورهم، وقـال مالك : بلغـني أن الـروح مرسلة تذهب حيث شـاءت، وقـالت طائفـة: بل أرواح المؤمـنين عند الله عز وجـل، ولم يزيـدوا على ذلـك، وقيـل: إن أرواح المؤمـنين بالجابية بدمشـق، وأرواح الكافرين بـبرهوت بـئر بحضـرموت، وقـال كعب: أرواح المؤمـنين في علـيين في السـماء السـابعة، وأرواح الكفـار في سـجين في الأرض السـابعة تحت خد إبليس، وقيـل: أرواح المؤمـنين ببـئر زمـزم، وأرواح الكـافرين ببـئر

برهـوت، وقيـل: أرواح المؤمـنين عن يمين آدم، وأرواح الكفـار عن شـماله، وقال ابن حـزم وغـيره: مسـتقرها حيث كـانت قبل خلق أجسـادها، وقـال أبو عمر بن عبد الـبر : أرواح الشـهداء في الجنــة، وأرواح عامة المؤمـنين على أفنية قبورهم، وعن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن أرواح الشهداء كطـير خضر معلقة بالعرش تغدو وتروح إلى رياض الجنة، تأتي ربها كل يـوم تسـلم عليـه، وقالت فرقة: مستقرها العدم المحض، وهذا قول من يقول: إن النفس عرض من أعراض البدن كحياته وإدراكه، وقـولهم مخـالف للكتـاب والسـنة. وقـالت فرقة: مستقرها بعد الموت أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتســبتها في حال حياتها، فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الروح، وهذا قول التناسخية منكري المعاد، وهو قول خارج عن أهل الإسلام كلهم، ويضـيق هـذا المختصر عن بسط أدلة هـذه الأقـوال والكلام عليهـا، ويتلخص من أدلتها أن الأرواح في الـبرزخ متفاوتة أعظم تفـاوت، فمنها أرواح في أعلى علـيين في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صـلوات الله وسـلامه عليهم، وهم متفـاوتون في منـــازلهم، ومنها أرواح في حواصل طـــير خضر تســـرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشـهداء لا كلهم، بل من الشـهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه، كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش أن رجلاً جاء إلى النبي فقال: (يا رسول الله! ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: الجنة، فلما ولى قال: إلا الـدين، سـارني به جبرائيل آنفـاً). ومن الأرواح من يكون محبوساً على باب الجنة، كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت صاحبكم محبوساً على بـاب الجنـة)، ومنهم من يكون محبوساً في قبره، ومنهم من يكون في الأرض، ومنها أرواح تكــون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجـارة، كل ذلك تشـهد له السـنة، والله أعلم]. الأرواح باقية بعد المـوت، والفنـاء يكـون على الأجساد، فإذا عرفنا أن الأرواح باقية فـأين تكـون هـذه الأرواح؟ سـمعنا هـذه الأقـوال الكثـيرة في مسـتقر الأرواح، وهـذه الأقـوال الغـالب أنها مبنية على الظن، وقد يكــون بعضــها له دليــل، ولكن يظهر أن الأرواح تتفــاوت بحسب الأعمــال، والله تعــالى قد ذكر بعض هــذه الأقــوال أو أشــار إليهــا، وكــذلك الأحـاديث، فقد ثبت في الحـديث الصـحيح: (أرواح الشـهداء في جـوف طـير خضر تعلق من شجر الجنة)، ومعناه: أن أرواحهم تكون في الجنــة، وثبت في القــرآن أن أرواح آل فرعــون تعـرض على النـار: النَّارُ يُعْرَضُـونَ عَلَيْهَا غُـدُوّاً وَعَشِيّاً [غافر:46] وعلى هذا فأرواح آل فرعون في النـار تعـرض عليها غـدواً وعشياً. وورد في القـرآن قـول الله تعـالى: كَلاَّ إِنَّ كِتَـابَ الفُجَّارِ لَفِي سِـجِّينٍ [المطففين:7] وإِنَّ كِتَـابَ الأَبْـرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ [المطففين:18] وسـجين فسر بأنه في الأرض السابعة، وعليون فوق السماء السابعة، ومعنى أن كتـابهم في عليين أي: كتاب أعمالهم وقيل: وأرواحهم كذلك، وقد مر بنا في حديث البراء الطويل أن الله يقـول: (اكتبـوا كتـاب عبـدي في علـيين، وردوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم)، ويقول في الكافر: (اكتبوا كتاب عبـدي في سجين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيـدهم)، وذكر فيه أن روح الكافر تطرح طرحاً، وقرأ قول الله تعالى: وَمَنْ يُشْـرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَـرَّ

مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْـوِي بِـهِ الـرِّيحُ فِي مَكَـانٍ سَـحِيقٍ [الحج:31] فدل على أنه يطرح من السماء، ويتألم بذلك الطرح.

الروح لا تدركها الأبصار في الدنيا

الــروح بعد خروجها من الجسد ليست مرئيــة، لا يراها البشــر، ولا تــدركها الأبصار كما لا يرون الشياطين ولا يرون الجن، فكذلك لا يـرون أرواح المـوتى عند خروجها، فأما مستقرها فلم يرد نص صريح في أنها تستقر في مكان كذا وكذا، فالذين قالوا: إنها تنعـدم العـدم المحض فهـؤلاء ينكـرون عـذاب القـبر، وينكرون نعيمه، وينكرون تـألم الـروح، وينكـرون إعادتها في الجسـد؛ لأنها إذا عدمت كما عدم البدن ما بقي لها حياة، ولا بقي لها تـألم ولا عـذاب، ولا صـار القـبر روضة من ريـاض الجنة أو حفـرة من حفر النـار كما تقـدم، فهـذا قـول باطل، وهو قول من يقول: إنها تنعدم. وكذلك القول الـذي هو أبشع منه -وهو قول الفلاسفة- أنها تكون في أجساد تلائمها، فروح الكافر إذا مات جعلت في كافر آخر، وروح المؤمن إذا مات جعلت في مـؤمن آخر جديـد، إذا مـات هـذا وولد هـذا أخـذت روح هـذا ونفخت في هـذا، ويسـمى هـؤلاء أهل التناسخ أو التناسخيين؛ وذلك لأنهم يقولون: نسخت روح هذا وجعلت في هـذا. وينكـرون أيضاً بعث الأجساد، وهذه عقيدة الفلاسفة، يقولون: الأجساد لا تعـود، وكـذلك ينكرون بدء الخلق، ويقولون: الخلق ليس له مبدأ. وينكرون أيضاً فنـاء الـدنيا، ويقولون: هذه الدنيا مستمرة وليس لها نهاية، بل تستمر هكذا إلى غير نهايـة، وينكرون الحشر والجزاء في الآخرة ويوم القيامة والنفخ في الصور وما أشبه ذلـك، هـؤلاء هم التناسـخيون والفلاسـفة. أما الـذين يقولـون: هـذه في الجنة وهـذه في النـار، أو يقولـون: إن أرواح المؤمـنين على أبـواب الجنـة، وأرواح الكـافرين على أبـواب النـار، أو يقولـون مثلاً: إن أرواح المؤمـنين على أفنية قبورهم، وكذلك أرواح الكافرين، أو يقولون: إنها في داخل القبور، أو يقولـون مثلاً: إن أرواح المؤمنين في بئر زمزم، وإن أرواح الكافرين في بـئر برهـوت، وهي بـئر منتنة كما يـذكر بعضـهم، وهي في بلاد حضـرموت؛ كل هـذه أقـوال ظنية ليس لها دليل قطعي، ونحن تحققنا أن الأرواح تخــرج من الأبــدان، وأن أرواح المؤمنين منعمة، وأرواح الكافرين معذبة، وأما مقرها فلا علم لنا به.

كيفية تعارف الأرواح

إذا خــرجت الأرواح وهي باقيــة، فكيف مع ذلك تتعــارف؟ ورد في الحــديث: (الأرواح جنود مجنـدة، فما تعـارف منها ائتلـف، وما تنـاكر منها اختلـف)، فهي أرواح ومع ذلك يلقى بعضها بعضاً، فكيف يعرف هؤلاء أن هذه روح فلان؟ لابد أنهم يعرفون الروح بمـيزة تتمـيز بهـا، حـتى ولو كـانت روحـاً، والأجسـاد فيها علامة ظاهرة يتميز بها النـاس، في صـورته في طوله في قصـره في شـعره في وجهه في بياضه في سـواده، والـروح لابد أن لها هنـاك مـيزة يعرفونه بها ويميزونـه، فالصـحيح أنها باقيـة، وأنها تتعـارف، وتتـآلف، وأنهم يلقى بعضـهم بعضاً، جاء في بعض الأحاديث: (إذا مات الميت وخرجت روحه تلقاه الأمــوات الذين سبقوه، وقالوا: ما فعل فلان؟ فإذا قال: إنه قد جاءكم، يعني: قد مـات، قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية، فبئست الأم وبئست المربيـة)، إذا كـان مـات ولم يأتهم عرفوا أنه بعد موته شـقي، وأنه ذهب به إلى دار غـير دارهم، فـدل على أن أرواح المؤمنين تجتمع، ويأتي بعضـهم بعضـاً، ويعـرف بعضـهم بعضـاً، ويتفقد بعضـهم بعضـاً، ويفرحـون بمن مـات وجـاءهم، وصـار معهم في أرواح المؤمنين، ويحزنـون إذا مـات أحد ولم يـأتهم، ويعرفـون أنه ذهب به إلى غـير موضــعهم ومحلهم، وهو الهاوية الــتي هي دار العــذاب، فكل ذلك دليل على أنهم يتلاقــون، وأما مقــرهم فالله أعلم هل هو في الســماء أم في الأرض أم على أفنية القبور أو في الجنة أو في النار أو في بئر برهوت أو في بئر زمــزم أو أي مكان؟ كل ذلك ليس عليه دليل يقيني، والذي تحقق بقاؤهم وتلاقيهم.

أرواح الشهداء

قال الشارح رحمه اللـه: [وأما الحيـاة الـتي اختص بها الشـهيد وامتـاز بها عن غيره في قوله تعالى: وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَـلْ أَحْيَـاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ [آل عمران:169]، وقوله تعالى: وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَـلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْـوَاتٌ بَـلْ أَحْيَـاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْـعُرُونَ [البقـرة:154]، فهي أن الله تعالى جعل أرواحهم في أجواف طير خضر كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما أصــيب إخوانكم -يعني: يوم أحد- جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر تـرد أنهـار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب مدللة في ظل العرش)، الحـديث رواه الإمـام أحمد و أبو داود ، وبمعنـاه في حـديث ابن مسـعود رواه مسلم . فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه، أعاضـهم منها في البرزخ أبداناً خيراً منها، تكـون فيها إلى يـوم القيامـة، ويكـون تنعمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من تنعم الأرواح المجردة عنها؛ ولهذا كانت نسـمة المؤمن في صورة طير أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طـير، وتأمل لفظ

الحديثين: ففي الموطأ أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله قال: (إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه)، فقوله: (نسمة المؤمن) تعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: (هي في جوف طير خضر)، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار، فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة من كثير منهم، فله نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه، والله أعلم. وحرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء كما روي في السنن، وأما الشهداء فقد شوهد منهم -بعد مدد من دفنه- كما هو لم يتغير، فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة والله أعلم، وكأنه -والله أعلم- كلما كانت الشهادة أكمل، والشهيد أفضل، كان بقاء جسده أطول]. البحث الذي تقدم هو على الأرواح عموماً، وهذا الكلام على أرواح الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، فقد أخبر الله بحياتهم فقال تعالى: وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران:169-171]، وكونهم أحياء هي حياة برزخية، ومعلوم أنهم أموات، أي: أن أرواحهم قد خرجت من أبدانهم، ومعلوم أن أبدانهم بقيت لا إحساس فيها ولا حياة فيها كحياة أهل الدنيا، ومعلوم أنهم ليسوا كحياتهم قبل أن يموتوا أو يقتلوا، فلا يحتاجون إلى أكل، ولا شرب، ولا تخل، ولا تنقل، فهي حياة برزخية، وقد فارقوا الدنيا، وقسمت أموالهم على الورثة، وحلت نساؤهم لغيرهم. فحياتهم -كما ذكر الله- عند ربهم، فهم أحياء عند ربهم، وهذه العندية تفيد مزية، وتفيد فضيلة، فهم عند ربهم يرزقون، ولو كانوا في الجنة فهم عند ربهم، ولو كانوا في قبورهم فأرواحهم عند ربهم، وأخبر بأنهم يرزقون، والرزق قد يكون حسياً، وقد يكون معنوياً، فإذا كان حسياً فمعناه أنهم يحتاجون إلى ما يحتاج إليه أهل الدنيا من الأكل والشرب، ولكن معلوم أن ذلك ليس للأجساد، وإنما هو للأرواح، ففي هذه الأحاديث أن أرواحهم نقلت إلى أجساد طير خضر تعلق في شجر الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة في الجنة، ومعلوم أن الطير تشاهد بالعين؛ ولهذا وصفها بأنها خضر، فكأن روح الشهيد أدخلت في هذا الطير، فأصبح حياً يطير ويتقلب ويدخل الجنة، ويعلق في شجرها يعني: يأكل، ويأوي إلى قناديل، والقناديل هي السرج التي فيها أنوار معلقة في الجنة، فهذه هي أرواحهم، وذكر الله أنهم يستبشرون بأصحابهم الذين يأتونهم، كلما جاءهم شهيد فرحوا به، يستبشرون بمن جاءهم من الأحياء، ويستبشرون أيضاً بنعمة الله التي أنعم عليهم. لا شك أن الشهداء لهم هذه المزية، وهي أن أرواحهم باقية، وأنها في أجساد، وأنها تتنعم، أما أرواح غيرهم فلم يذكر أنها في أجساد، بل تكون بدون جسد، أرواحهم كأرواح الشياطين وأرواح الجن ليس لها أجساد تقوم بها. كذلك أيضاً معلوم أن أبدانهم تدفن في الأرض، وقد يكون بعضها لا يستطاع دفنه، فإن

كثـيراً من الوقـائع الـتي وقعت بين المسـلمين والمشـركين يقتل فيها مثلاً خمسون ألفاً، أو مائة ألـف، ويصـعب أن يـدفنوا، فيبقـون على الأرض، إما أن تطـول مـدتهم وهم بـاقون على الأرض وإما ألا تطـول مـدتهم، وبلا شك أنهم يفنـون بالعيـان، تـأكلهم الأرض وتـأكلهم الطيـور، وما أشـبه ذلـك، أما الـذين يدفنون فقد ورد ما يدل على أنهم يبقون مدة، فـذكر جـابر رضي الله عنه أن أبـاه لما قتل في أحد دفن هو ورجل آخر في قـبر واحـد، يقـول: فلم تطب نفسي أن أتركه ومعه غيره، فحفرت قـبراً مسـتقلاً، وذلك بعد سـتة أشـهر أو نحوهـا، يقـول: فاسـتخرجته فـإذا هو كما هـو، لم يتغـير بعد سـتة أشـهر إلا شعرات في قفاه قد أكلتها الأرض، تغير الشـعر فقـط، أما بدنه فإنه متصـلب وباقٍ لم تأكله الأرض، هـذا والد جـابر بن عبد اللـه. وذكر لنا قبل سـنوات، أن بعض الإخـوان ذكـروا أنهم حفـروا في بعض الأمـاكن فعـثروا على جثة أحد الإخوان الذين قتلوا في سـنة سـبع وثلاثين في الوقعة الـتي تسـمى تربة وإذا هو لم تأكله الأرض. أي: بعد أكثر من خمسين أو ستين سـنة لم تأكله الأرض، ولا يزال بدنه باقياً. وذكر لنا أيضـاً عن القتلى الـذين قتلـوا في أفغانسـتان أن كثيراً منهم نبشوا بعد أيام، ووجدوا لم تـأكلهم الأرض، ويـذكرون أنهم يجـدون القتلى من الشـيوعيين ورائحتهم نتنـة، بعد اليـوم الثـاني لا يسـتطيع أحد أن يقـربهم، والقتلى من المسـلمين الشـهداء يـدفنون بعد خمسة أيـام ولا يحس بـرائحتهم، بل يكـون منهم رائحة المسـك، فهـذا دليل على هـذه الحيـاة، وأن الحيـاة يصل أثرها إلى البـدن: أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُـونَ [آل عمـران:169]؛ ولأجل ذلك قال الله: وَلا تَقُولُـوا لِمَنْ يُقْتَـلُ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أَمْـوَاتٌ بَـلْ أَحْيَـاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ [البقرة:154]، فحياتهم ولو كانت حياة برزخيـة، ولو كـانت حياة على الأرواح، لكن يصل أثرها إلى الأجساد، ولو أنها فـنيت بعد مـدة، ولو تمزقت وصارت أشـلاء، لكن لابد أن أثر هـذه الحيـاة ونعيمها ينـال البـدن كما ينال الروح، وهذه من كرامة الله لأوليائه الذين بذلوا أنفسهم في سبيل اللـه، لما رخصت عنـدهم هـذه الحيـاة، وآثـروا الحيـاة الآخـرة على الحيـاة الـدنيا، وقدموا رضا الله تعالى على شهوات نفوسهم؛ عجل لهم الثواب عاجلاً، فيرى أثـره في الـدنيا، يـراه أهل الـدنيا، ولعل في ذلك ما يحمل أهل الـدنيا على المنافسة، وعلى بذل المهج في سبيل الله، وعلى بـذل كل شـيء فيه إعـزاز دين الله ونصره، فهذا معنى الحيـاة الـتي وصف الله بها الشـهداء من عبـاده، وقد سماهم شهداء في قوله تعالى: وَيَتَّخِـذَ مِنْكُمْ شُـهَدَاءَ [آل عمـران:140]، والشهداء هم الذين يقتلون في سبيل الله، سموا بذلك، قيل: لأنهم يشـاهدون الآخـرة كـرأي العين، وقيـل: لأنهم شـهداء على الأمة كقوله تعـالى: وَتَكُونُـوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ [الحج:78] هذا بالنسبة لأرواح الشهداء.

أرواح الأنبياء

الأنبيـاء أعلى مقامـاً من الشـهداء؛ وذلك لأن الله مـيزهم بمـيزة، وخصـهم بكرامـة، وهي اختصاصـهم بـالنبوة، وبـالوحي، وبالرسـالة، وبالفضـيلة الـتي فضلهم بها على غيرهم، ومعلوم أنهم يموتون كما قال تعالى: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ [الزمر:30]، وإذا كـانوا يموتـون ولابد بمعـنى أنهم يخرجـون من هـذه الدنيا إلى الآخرة، فإن لهم حياة أكمل من حياة الشهداء، ولكنها حيـاة برزخية أكمل من حيـاة الشـهداء، فأجسـادهم لا تبلى، بل تبقى في القبـور ولا تأكلها الأرض، ففي الحديث الصـحيح أنه صـلى الله عليه وسـلم قـال: (إن من خـير أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا من الصلاة علي فيه، فإن صلاتكم معروضة علي، قـالوا: يا رسـول اللـه! كيف تعـرض عليك وقد أرمت -أي: بليت-؟ فقـال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)، فأجساد الأنبياء لا تأكلها الأرض ولا تبلى، ولو أنهم دفنوا في الأرض، ولو لم تعرف أمـاكنهم. ومن العلمـاء من يقـول: إنهم يرفعـون؛ ولـذلك رأى النـبي صـلى الله عليه وسـلم الأنبيـاء في السماء، فرأى آدم في السماء الدنيا، ورأى يحيى وعيسى في السماء الثانيـة، ورأى يوسف في الســماء الثالثــة، ورأى إدريس في الســماء الرابعــة، ورأى هارون في السماء الخامسة، وموسى في السادسـة، وإبـراهيم في السـابعة، ولكن الصــحيح أن الــذي رآه أرواحهم، وأنها مثلت في أجســاد حــتى رأوه وعرفـوه وسـلموا عليـه، وقـالوا: مرحبـاً بـالنبي الصـالح والأخ الصـالح، أما أجســـادهم فيمكن أنها رفعت، ويمكن أنها دفنت في الأرض، وهو المتبـــادر. وبكل حال فلا شك أنهم أكمل من الشهداء الـذين قتلـوا في سـبيل اللـه، وبلا شك أن بعض الشــهداء قد يكــون عليه شــيء من الــذنوب الــتي لا تكفرها الشهادة، كما في الحديث أن رجلاً قال: (يا رسول الله! هل تكفر الشهادة ما علي من الذنوب؟ قال: نعم، ثم قال: إلا الدين، أسـره إلي جبريـل)، أو قـال: (أرأيت إن قتلت في سبيل الله هل يغفر لي؟ قال: نعم، ثم قـال: كيف قلت؟ قـال: أرأيت إن قتلت في سـبيل الله أيغفر الله لي؟ فقـال: نعم إلا الـدين)، فهذا دليل على أن الذي عنده شـيء من حقـوق الآدمـيين لا تغفر لـه، بل لابد فيها من المحاقة والمقاصة في الآخـرة، فـإذا لم يـوف له أوليـاؤه في الـدنيا فإنها تؤخذ من أعماله في الآخرة، وأما خطاياه التي بينه وبين ربه فـإن القتل في سبيل الله يمحوها كلها، ولا يبقى عليه ذنب.

شرح العقيدة الطحاوية [62]

حقيقة الخلاف بين أبي حنيفة وأهل السنة في مسمى الإيمان

السؤال: نرجو من فضيلتكم زيادة الإيضاح: كيف يكون الخلاف بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة خلافاً معنوياً وليس خلافاً صورياً كما قال الشارح رحمه الله، مع أن الجميع متفقون على أن فاقد الإيمان كافر، وفاقد العمل فاسق؟ الجواب: هذه المسألة سيشرحها ويوضحها الشارح فيما بعد، ويذكر الأدلة التي يستدل بها الحنفية، والراجح أن النزاع معنوي لا لفظي، ويوضح أنه ليس بلفظي أن الذين يقولون: إن الأعمال ليست من الإيمان؛ يتوسعون في فعل الذنوب، ويسهلون المعاصي، ويكثر فيهم اقتراف السيئات، ويقولون: ما دامت ليست من الإيمان، وما دام أن الإيمان كامل بدون هذه الحسنات، وبدون هذه القربات، فما لنا ولها؟ فلا حاجة إلى أن نتنفل، ولا حاجة إلى أن نتصدق، ولا حاجة إلى أن نتوقى المآثم والمحرمات؛ لأنها لا تنقص الإيمان، فيكثر التساهل منهم في مثل هذا، وهذا ناتج عن هذا القول، وهو القول بأن الأعمال ليست من مسمى الإيمان. أما إذا جعلناها من مسمى الإيمان فإننا نقول: إنها كلها يكون لها تأثير في الإيمان، فإذا صلى ركعتين نافلة زاد إيمانه، وإذا تصدق بصدقة ولو قليلة زاد إيمانه وانضم إليه هذا العمل، وإذا تكلم بكلمة خير زاد إيمانه، وإذا أمر بمعروف أو نهى عن منكر زاد إيمانه، وإذا خطا خطوات لله تعالى في عمل صالح زاد بذلك إيمانه، وما أشبه ذلك. كما أنه ينقص إيمانه إذا فعل ضد ذلك، إذا نطق بكلام سيء نقص إيمانه، وإذا مشى إلى ملاهي أو مآثم نقص إيمانه، وإذا أنفق في سبيل الشيطان نفقة سيئة كان ذلك نقصاً في إيمانه، وهكذا. فهذا هو التفاوت بين من يقول: إن الأعمال ليست من الإيمان، ولا حرج عليه إذا عصى وإذا أذنب، وإيمانه كامل، وهذه المعاصي لا يكون لها تأثير في الإيمان، ولا يكون لها تأثير في نقصه، ولا غير ذلك، فالإيمان موجود، والإيمان كامل، والأعمال زائدة عليه، وإن كان الناس يتفاوتون في الثواب والعقاب؛ فيفتح للناس باب التساهل في ترك الطاعات، وفي فعل شيء من المآثم، هذا هو النتيجة، أما إذا قلنا: إن الأعمال من مسمى الإيمان، وإنها داخلة فيه؛ فإن الإنسان يحرص على ما يكمل إيمانه، ويبتعد عما ينقص إيمانه. ......

التعامل مع من يقول: الإيمان في القلب، ويترك العمل

السؤال: إنا نرى في زماننا هذا، وبين معارفنا مذهب جهم بن صفوان ، حيث إذا أمرنا أحداً بالمعروف، ونهيناه عن المنكر الذي هو واقع فيه قال لك: إن الإيمان بالقلب، أو قال: المهم أن تكون النية صالحة، فكيف نتعامل مع هؤلاء جزاكم الله خيراً؟ الجواب: عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: ليس

الإيمــان بــالتحلي ولا بــالتمني، ولكن ما وقر في القلــوب وصــدقته الأعمــال. فجعل الــذي في القلب يظهر على الأعمــال، فنحن نقــول لهــذا: أثبت لنا أنك مــؤمن، هل تريد أن نشق عن قلبك حــتى نــرى أنه أبيض أو أســود؟ نحن إنما نعاملك بالظاهر، فظاهرك أنك فاســق، وظــاهرك أنك عاصــي، وظــاهرك أنك طريد شــريد، ونحن نبغضك على ما يظهر منــك، ونحن نمقتك وإن كــان قلبك ما كــان، فنحن ما نعاملك إلا بما يظهر لنــا، ولا يصح أن نحسن الظن بكل أحد يقول: أنا مؤمن؛ فإن الناس لا يوثق بأقوالهم. وبكل حال هؤلاء الذين يتمادون في العصيان، ويتركون العبادات والطاعــات، ويــدعون أن إيمــانهم كامــل، وأن الإيمان يكفي فيه المعرفة في القلب الذي هو مــذهب جهم؛ فســقة ســيما إذا تظاهروا بالعصــيان، فلا نصــدقهم، بل نعــاقبهم بالعقوبة الــتي تــردعهم وتــردع أمثالهم. ......

متى يغلب الرجاء على الخوف أو العكس؟

السؤال: هل يكون رجاء الإنسان حال المصــائب أغلب من خوفه دائمــاً أم أن ذلك مخصــوص بــالمرض الــذي يــتيقن أنه ســيموت بعــده؟ الجــواب: في حالة المرض يغلب جانب الرجاء سواء رجي زوال ذلك المــرض أو لم يــرج، يعــني: يحسن الظن بربــه، ويقبل على ربه وهو واثق بــأن الله تعــالى واسع الرحمة وكثير العطاء، وأنه عفو يحب العفــو، ويحب المغفــرة، وأنه أهل التقــوى وأهل المغفرة، فكل من أصيب بمصيبة أو مرض أو نحو ذلك؛ عليه أن يحسن الظن بربه، ويرجو رحمة ربه، ومع ذلك يكون خائفاً وجلاً لا يزول الخوف عن قلبــه، يكــون خائفــاً ويكــون راجيــاً، ولكن يغلب الرجــاء؛ لأنه في هــذه الحــال قد لا يحسن بعض الأعمال، ويــأتي من الأعمــال ما يفســدها، فيلعج بالــدعاء، ويكــثر من الذكر، وينوي النية الصــادقة أنه إذا شــفي أكــثر من الحســنات والقربــات، وما أشبه ذلك، ويثاب على هذه النية. ......

حكم من يستهزئ بمن استقام على الدين

السؤال: ما حكم من يستهزئ بمن الــتزم بــدين اللــه، ويصــفه بالنفــاق؟ وهل يجب مقاطعته وهجره بعد دعوته إلى الدين؟ الجواب: الاستهزاء قد يصل إلى الكفر، فإذا استهزأ بإنسان لأجل دينه فإن هذا الاستهزاء يوقعه -والعياذ باللــه- في الخروج من الملة، فيقع في الكفر الصريح، وما ذاك إلا لأنه تنقص الــدين، وما تنقص هذا الشخص، وهذا إذا تنقصه لأجل الدين، مثل أن يقول له بعد أن أقام الصلاة: هل نفعتك صلاتك؟ أو إذا أمرته بإعفاء اللحية قال: ماذا أفــادتكم هذه اللحى؟ ماذا فعلت لكم؟ أنتم منافقون، ما وفرتم هذه اللحى إلا نفاقاً أو إرهابــاً أو لشــيء تبطنونه أو ما أشــبه ذلــك، فلاشك أنه تنقص هــذه الشــعائر الإســلامية، وهكــذا بقية الأعمــال، مثلاً اســتهزأ بالزهــاد أو اســتهزأ بالعبــاد، أو

بالمصـلين، أو بالصـائمين، أو ما أشـبه ذلـك؛ لأجل عبـاداتهم، فلا شك أن هـذا ردة؛ لأنه تنقص أهل الشــرع لأجل الشــرع، فكأنه تنقص الشــرع، ومن تنقص الشريعة فقد ارتد عن الدين والعياذ بالله. أما إذا كـان تنقصه لـذلك الشـخص بعينه؛ لأنه يتهمه بشيء، مثلاً يقول: فلان وإن تطـوع فـإني لا أثق بتطوعه ولا بمظهره، يتهم ذلك، ويظهر منه أو على فلتات لسانه أنه لا يتهم من كـان مثل ذلـك، ما اتهم المصـلين كلهم، ولا اسـتهزأ بأهل اللحى كلهم،ولا بأهل اللبـاس القصير كلهم، إنما استهزأ بإنسان معين، فهذا قد لا يصل إلى هـذا الحـد، لكن اتهامه ذنب عليه أن يتوب منه. ......

حكم الصدقة عن الميت

السؤال: بعض الناس إذا تصدق بصدقة قـال: بركة نازلـة، وهدية واصـلة، من روحي إلى روح النـبي محمـد، وإلى روح أمواتنا أجمعين، فما الجـائز في مثل هذا وفقكم الله؟ الجواب: لا حاجة إلى هذه المقالة، ويكفيه النية، والأولى أنه يجعلها لنفسه أو يتصدق بها عن أمواته، أو عن أموات المسلمين، وأما قولــه: إلى روح النبي صلى الله عليه وسلم فلا أرى ذلك؛ وذلك لأن النبي صـلى الله عليه وسـلم له مثل أعمـال أمتـه، وإن لم يهـدوا له مثلهـا، ولم يكن السـلف يهدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الأعمال شـيئاً؛ لأنه هو الـذي أرشد الأمة ودلهم، فله مثل أعمالهم (من دعا إلى هدى كان مثل أجـور من اتبعـه)، أما المسلمون فلا بأس أن تتصدق عنهم، أو تدعو لهم، سواء كـانوا أقـارب أو أباعد لا بأس بذلك، أما هــذه المقالة فلا، لكن لو قلت مثلاً: اللهم اجعل ثوابها لي ولأمواتي أو للمسلمين فلا بأس بذلك. ......

دعاء: اللهم استرني بسترك الجميل الذي سترت به نفسك

السؤال: ورد هذا الدعاء على ألسنة بعض الناس، وهو: اللهم استرني بسترك الجميل الـذي سـترت به نفسك فلا عين تـراك، هل هـذا صـحيح يـدعى بـه، أفيدونا أثابكم الله؟ الجواب: ما ورد هذا الدعاء، قوله: الذي سـترت به نفسك فلا يراك أحد. هذا خاص بالله، وهو أنه لا يرى في الدنيا، وأنه دون الأنـوار كما في قــول النــبي صـلى الله عليه وسـلم: (حجابه النـور، لو كشـفه لأحـرقت سـبحات وجهه ما انتهى إليه بصـره من خلقــه)، فلا ينبغي أن يشـرك الــرب سبحانه وتعالى في هذا النـور أحد أو في هـذا السـتر، فله أن يـدعو أن يسـتر الله عورته ، وأن يؤمن روعته، كما ورد ذلك في حديث: (اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي)، فأما سترك الجميل الذي سترت به نفسك فلا يراك أحد. فلم يرد مثل هذا. ......

كثرة عمل السابقين من المؤمنين

السؤال: ذكـرتم أن السـابقين من المؤمـنين كـانت أعمـالهم أقل من أعمـال الذين أسلموا بعد الهجرة، مع أن الله عز وجل قد مدح السابقين في الإيمان، وقدمهم على من أسلم بعد ذلك، فكيف نوفق بين هذا وبين معتقد أهل السنة أن أكثر المؤمـنين عملاً أكملهم وأقـواهم إيمانـاً جـزاكم الله خـيراً؟ الجـواب: الـذين أسـلموا في أول الأمر هم أكـثر أعمـالاً، حيث إنهم عملـوا مثلاً ثلاثـاً وعشرين سنة، يعـني: منذ أن أسـلموا إلى الوفـاة، والـذين أسـلموا أخـيراً ما عملوا قبل الوفاة إلا سنتين، فأيهما أكثر؟ لا شك أن الذين عملوا مـدة طويلة أكـثر، فهـذا وجه من أوجه تفضـيل السـابقين الأولين. ووجه ثـاني: أن الأولين السابقين الـذين أسـلموا قبل الشـرائع أسـلموا في حالة قلة وذلـة، وتحملـوا المشـاق والتعب، وهم الـذين أوذوا في اللـه، وضـربوا وحبسـوا، وألقـوا في الشمس، وألقيت عليهم الحجارة، وأوذوا بالجوع وبالجهد، وتحملوا ذلك، وهـذا لا شك أنه زيـادة في أعمـالهم. وهم الـذين هـاجروا في الله وتركـوا أمـوالهم وأولادهم وبلادهم، وعشائرهم وأقوامهم، وتحملـوا مشـاق الهجـرة، وسـافروا مثلاً إلى الحبشة، ولا شك أن ذلك أشق عملاً، وكل ما كان العمل شـاقاً كـان الأجر أكـبر، فهـذا وجه تفضـيلهم. وأيضـاً: هم الـذين أسـلموا من أول وهلـة، أسلموا لأول دعوة، وذلك دليل على قبول قلوبهم، وقبـول نفوسـهم للإيمـان، حيث لم يتلعثمـوا ولم يـترددوا في قبـول الإسـلام، فـدل على صـفاء قلـوبهم ونقائها مما يكدرها. وبكل حـال فلا شك أن السـابقين الـذين سـبقوا بالإيمـان أقوى إيماناً، ولكن المتأخرون الذين أسلموا في سنة ثمان لما أسـلموا كـانت الأعمال قد كملت، فكان الصيام موجوداً، وكان الحج موجوداً قد فرض، وكان الجهاد قد فـرض، وكـان الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر قد شـرع، وكـان القرآن قد نزل كله إلا القليل، فهم كلفوا بـأن يعملـوا به دفعة واحـدة، بخلاف الأولين فـإنهم إنما كلفـوا بـالموجود منـه، ما أنـزل قبل الهجـرة إلا القـرآن المكي، وما فرضت الصلاة مثلاً إلا قبل الهجـرة، وكـذلك التوحيد ونحـوه، وما حرمت الخمر في ذلك الوقت ونحو ذلك، فبكل حـال هـؤلاء عملـوا بما أمـروا به، فلهم أجر كامل، وهؤلاء عملـوا بما أمـروا به -أي: بعـدما أسـلموا في آخر الأمر- فلهم أجرهم. ......

مرتكب الكبيرة فاسق ناقص الإيمان

السؤال: هل صاحب الكبيرة ناقص الإيمـان؟ الجـواب: مـذهب أهل السـنة أن العاصي الذي يرتكب كبيرة يسـمى فاسـقاً، ويسـمونه مؤمنـاً بإيمانه وفاسـقاً بكبيرته، ويقولون: إن الإيمان في حقه موجود ولكنه شبه مفقود، حيث لا ترى عليه أثره، ويحملـون على ذلك قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (لا يـزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) يعـني: أنه نـاقص الإيمـان، أو أن الإيمـان يـنزع عنه في حالة الزنا مثلاً أو السرقة أو شرب الخمر، ثم لا يعـود إليه كـاملاً، بل

يعـود إليه وقد اختل ونقص، وبكل حـال فأهل السـنة يعتقـدون أن معه أصل الإيمان الذي هو يقينه وتصديقه بأنه مسـلم وبأنه من أهل الشـريعة ومن أهل القبلة، ولكن لضعف إيمانه وقع في هذه المعاصي. ......

شعب الإيمان

السؤال: هل يستطيع المسلم أن يسـتكمل الإيمـان مطلقـاً، حيث وشـعبه قد حصرت في قوله صلى الله عليه وسـلم: (الإيمـان بضع وسـبعون شـعبة ...)، الحـديث؟ الجـواب: قد اختلف العلمـاء في تلك الشـعب لما عـدوها، وكـأنهم بسـبب هـذا الاختلاف لم يتفقـوا على تحديـد؛ فلأجل ذلك قـال بعضـهم: إن الحصر في سـبعين أو ببضع وسـتين ليس مقصـوداً به العـدد، بل المـراد به الكـثرة، فإنه صـلى الله عليه وسـلم كثـيراً ما يـذكر السـبعة والسـبعين والسـبعمائة للكـثرة لا للحصـر؛ وذلك لأن كثـيراً من العلمـاء أخـذوا يبوبـون الأبواب الـتي تـدخل في الإيمـان ووجـدوها أكـثر من السـبعين، وقد تصل إلى المائة والمئات، فـدل على أن هـذه تعتـبر أصـول، ومن العلمـاء من قـال: إن البضع والسبعين يراد بها الجوامع، فمثلاً: إماطة الأذى عن الطريق شـعبة من الإيمـان، ولكن ليس خاصـاً بإماطة الحجر أو القـذاة أو القـذر، بل يـدخل في ذلك إزالة كل مـرض وإيصـال كل نفـع، وله أمثلة كثـيرة، فـدل ذلك على أن خصـال الخـير كثـيرة، وأن الإنسـان قل أن يحيط بهـا. وبكل حـال يوصف بأنه كامل الإيمـان إذا عمل بكل أنـواع الشـريعة، وعمل بـدقيقها وجليلهـا، ولم يقترف ما ينقصها، ولا ما يخل بها. ......

مذهب الكرامية

السـؤال: هل البخـاري يكفر الكرامية والكلابية والأشـاعرة؟ الجـواب: هـذا الخلاف ما حدث إلا بعده، ابن كـرام ما حـدث إلى بعد البخـاري ، وكـذلك ابن كلاب والأشاعرة ونحـوهم، ففي زمن البخـاري لم يكن هنـاك من يخـالف في مثل هـذا إلا الجهميـة، والجهمية لم يعتـبرهم من أهل السـنة، إنما عـرَّف أهل السنة بأنهم أهل القبلـة، وكأنه لم يعتـبر الجهمية من المسـلمين؛ وذلك لقـوة مخالفتهم للأصول، حيث اجتمع فيهم شر الخصال، وأبعـدها، وأفضـعها، فـإنهم أشـركوا بجحد الصـفات، وغلو بالإرجـاء، وغلـوا بـالجبر، وغلطـوا في مسـمى الإيمان بـزعمهم أنه المعرفـة، فـاجتمعت فيهم خصـال الشر كلـه، فلم يعتـبر خلافهم، وأما من سـواهم فلم يوجد إلا بعـده. والحنفية في زمانه يعـترفون بالإقرار، ويجعلون الإيمان هو الإقرار باللسـان والاعتقـاد بالجنـان، والماتريدية يوافقـونهم على الإقـرار، وإن كـانوا يخرجـون القـول من الإيمـان، والكرامية يجعلونه الإقرار باللسان فقط، ومحمد بن كرام كـان في آخر القـرن الثـالث،

وتوفي البخـاري في وسط القـرن الثـالث في سـنة ست وخمسـين ومـائتين، قبل أن يشتهر ابن كرام أو قبل أن يقول بهذا القول. ......

أسباب تقوية الإيمان

السؤال: إذا كان الإنسان ضعيف الإيمان، فنرجو من فضيلتكم أن ترشدنا إلى بعض الكتب المبسطة التي تقوي الإيمان في القلب؟ الجـواب: عليكم بكتـاب الله فـإن فيه الأدلة الواضـحة الـتي أقـام الله بها الحجج والـبراهين، وقد كنا نتعرض في الدرس لأمثلة من ذلك، ولا شك أن كتاب الله تعـالى أوضح كتـاب أقام الأدلة على الإيمان وما يقوي الإيمـان، فمثلاً في سـورة البقـرة أول أمر أمر الله به هو العبادة، وأقـام عليه سـتة أدلة في قولـه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُـدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ [البقـرة:21] هـذا دليـل، وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ [البقــرة:21] دليل ثاني الَّذِي جَعَـلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشـاً [البقـرة:22] دليل ثـالث، وَالسَّـمَاءَ بِنَاءً [البقرة:22] دليل رابع، وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً [البقرة:22] دليل خـامس، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقـاً لَكُمْ [البقـرة:22] دليل سـادس، ففي هـذه الآية ستة أدلة، وتأملوا أيضاً شرحها في تفسير ابن كثير ، فقد ذكر عليها كثيراً من الإيضـاحات. وذكرنا في درس مضى أن المشـركين لما نـزل قوله تعـالى في سورة البقرة: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ [البقرة:163] قالوا: ما الـدليل؟ فـنزلت الآية الـتي بعـدها وفيها بضـعة أدلة وهي قولـه: إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَـعُ النَّاسَ وَمَا أَنـزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّـمَاءِ مِنْ مَـاءٍ فَأَحْيَا بِـهِ الأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ [البقـرة:164] ففيها عدة دلالات، وهذه أدلة واضحة. وتجد كثيراً من السور متوالية وفيها عــدد من الأدلـة، فمثلاً في سـورة المرسـلات: أَلَمْ نَجْعَـلْ الأَرْضَ كِفَاتـاً [المرسـلات: 25] ... إلخ، وفي التي بعدها: أَلَمْ نَجْعَلْ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً [النبـأ: 6-7] ... إلخ، وفي التي بعدها: أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَـمْكَهَا فَسَوَّاهَا [النازعات:27-28] ... إلخ، وفي التي بعـدها قولـه: فَلْيَنْظُـرْ الإِنسَـانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً [عبس:24-26] ... إلخ، آيات وبراهين واضحة، وهي كثيرة مثل قوله في سورة الروم: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ [الروم:23]، وَمِنْ آيَاتِـهِ خَلْـقُ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ [الـروم:23]، وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ [الروم:23]، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ [الروم:46]، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ [الروم:25] ... إلخ، فهـذه آيـات فيهـا: بـراهين ودلالات، فتأملوا شـرحها فـإن فيها ما يقنع كل شـاك أو كل متحـير. والعلمـاء بينوا أدلة واضحة على ذلك، وتجد كلاماً جيداً لـابن القيم في كتابه: مفتاح دار السعادة، أحيل من في قلبه شيء من الضعف أن يقـرأ ما ذكـره، حيث توسع رحمه الله في ذكر الأدلــة، بقوله في فصــول: تأمل كــذا، ثم تأمل كــذا، فيما يتعلق بخلق الإنسان، وفيما يتعلق بخلق الحيوان، وفيما يتعلق بالأفلاك، وفيما يتعلق بالمخلوقات علويها وسفليها، آيات عجيبة تـدل على ما وهبه الله تعـالى

من الفطنـة، وتـدل على عجـائب خلق الله تعـالى. وله أيضـاً كلام على خلق الإنسان، الإنسان أقرب شيء إليه هو نفسه، عندما أتى على تفسير قول الله تعالى: وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُـوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِـكُمْ أَفَلا تُبْصِـرُونَ [الـذاريات: 20-21] في سـورة الـذاريات في كتابه الـذي سـماه: أقسـام القـرآن، وهو مطبوع مشتهر، فتكلم على الآيات التي في الأرض، وبين عجائب ما فيهـا، ثم تكلم على الآيـات الـتي في الإنسـان، من خلق الإنسـان وعجيب تركيبـه، ذكر في ذلك نحو ثلث الكتـــاب، مع أنه تكلم فيه على آيـــات كثـــيرة، وذكر فيه تفاصـــيل الإنســـان وكأنه وافق الـــذين يشـــرِّحون الآن، وأهل التشـــريح الآن يتعجبون من تـركيب هـذا العـرق، ومن تـركيب هـذه العين، وما فيهـا، وهو ما أدرك ذلك بعينه ولكن رزقه الله فهمـــاً، فتكلم على هـــذه التفاصـــيل بكلام عجيب، فهـذا مثـال. والمتـأخرون الآن قد ذكـروا أدلة في بعض الكتب الـتي تؤلف للمنـاهج في العقائـد، فيتكلمـون على هـذا ليقطعـوا بـذلك دابر الـذين يشكون في التوحيد أو في وجود الخالق أو نحو ذلك، ويقيمون على ذلك أدلة، وهي كتب منـاهج طبعت في بعض المـدارس، فلو قرءوها لوجـدوا فيها أدلة وبراهين، مع أنها تدرس في داخل المملكة وفي خارجهـا. وكـذلك أيضـاً كثـير من المـؤلفين في هـذا العهد أطلعهم الله تعـالى على ما أطلعهم عليه من الدراسات الفلكية ونحوها، وألفوا في ذلك كتباً وفيها مقنـع، أطبـاء تخصصـهم إما في طب الإنسان أو الحيوان، وكذلك الدكاترة الذين تخصصـوا في الأفلاك أو نحوها ألفوا كتباً كثيرة، فالمتأخرون والمتقدمون كتبوا في هذا ما فيه مقنع وفيه كفاية. ......

حكم الصلاة خلف الأشعري

السـؤال: ما حكم الصـلاة خلف رجل يقـول: أنا أشـعري المعتقـد، وقد بين له مذهب أهل السنة واعترف بخطأ ما هو عليـه، لكنه لم يرجع عن معتقـده، مع العلم أنه لا يوجد في البلد من هو أحسن منـه؟ الجـواب: لا بـأس أن يصـلى خلفه ولو كان على هذا المعتقد، وقد خف معتقـدهم في هـذه الأزمنة إلا فيما يتعلق ببعض الصـفات، وبكل حـال إذا لم يكن في البلد أحسن منه فيصـلى خلفه لعمـوم الأدلة في تقـديم من هو أقـرأ، ومن هو أفقـه، ومعلـوم أن المبتدعة الأولين كان فيهم أئمة وخطباء وقضاة، تولوا القضـاء وتولـوا الإمامة مدة، وصلى خلفهم كثير من العلماء من أهل السنة، مع أنهم ينتحلون مـذهب الأشعرية، في زمن شيخ الإسلام ابن تيمية كان أكثر أهل دمشق أشاعرة، ولا شك أنه كان يصلي خلفهم كثيراً، وكذلك مصر كان أكثرهم أشاعرة، بل جلهم إلا الأفراد، ومع ذلك كان يصلي خلفهم للعذر. ......

حكم الصلاة والصوم عن الميت الذي كان متهاوناً بهما

السؤال: امرأة توفي لها ابن يبلغ من العمر ثمان وعشرين عاماً، وكان يتهاون في الصلاة والصوم، فهل يصح لي وأنا أمه أن أصوم عنه وأصلي؟ وإن كان لا يصلي ولا يصوم بالكلية فهل أقضي عنه ذلك؟ الجواب: إذا كان يقر بالإسـلام، ويفعل شعائر الإسلام الظاهرة، فقد يكون تهاونه من باب التساهل، ومن باب التسويف والتأجيل، يعني: في نظـره أنه سـوف يتـوب فيما بعـد، فيجـوز عند بعض العلماء الاستغفار له، والحج عنه، والصـدقة عنـه، والـدعاء له وما أشـبه ذلــك. وذهب بعض العلمــاء إلى أنه لا ينفعه ذلــك، ما دام أنه كــان لا يــؤدي الصلاة طوال حياته ولا الصيام، ففي هذه الحـال لا ينفعه ذلـك. ولكن إذا كـان كما ذكرت أنه مجرد تهاون لا أنه ترك مسـتمر دائم فلعله ينفعه أن تـدعو لـه، وأن تتصدق عنه، وأن تحج أو تعتمر عنه، أما الصلاة والصوم فهما عمل بدني، فلا حاجة لأن تصــلي عنه وتصــوم عنــه، بل تكتفي بالــدعاء له والاســتغفار والترحم عليه، وما أشبه ذلك، والله تعالى يرحم من يشاء. ......

حكم قضاء الصلوات الفائتة قبل التوبة

السؤال: لقد هـداني الله سـبحانه وتعـالى بعد أن تمت لي ثلاثـون عامـاً، ولم أكن قبلها أصـلي ولا أصـوم، فهل يلزمـني القضـاء؟ الجـواب: لا يلـزم، ولكن عليك أن تكثر من النوافل في بقية حياتك، فالذي مضى لا يلزم قضاؤه؛ وذلك للمشـقة، يشق عليك أن تقضي صـلاة خمس عشـرة سـنة، وكـذلك صـيامها، ولكن عليك أن تكـثر من نوافل العبـادة، فتصــلي بالليل تهجــداً، وتصــلي في الضـحى ما تيسـر، وتحافظ على النوافل والـرواتب، وتصـلي مثلاً قبل الظهر أربعاً، وبعدها أربعاً، وقبل العصر أربعاً، وقبل المغرب ركعتين، وبعدها ركعــتين أو أربع، وقبل العشاء ركعـتين أو أربع وبعـدها ركعـتين أو أربـع، وكـذلك أيضـاً تصلي ذوات الأسباب، وتكثر من نوافل العبادات كالحج والذكر وقراءة القرآن والاستغفار والدعاء والابتهـال إلى الله تعـالى، وغيرها من الأعمـال الصـالحة، وتحمي نفسك عن المحرمات والآثام، وبـذلك إن شـاء الله يمحو الله عنك ما سلف من التفريط والإهمال. ......

الرد على من يطعن في تاريخ المسلمين

السؤال: هذا سائل إما أن يكـون جـاهلاً بأحكـام الإسـلام أو إنسـان طمع في الدنيا وزهد في الجنة، وتذرع بالإسلام ظاهراً، ويصدق عليه النفـاق، يقـول: لو استعرضـنا تـاريخ المسـلمين منذ عهد الخلفـاء الراشـدين نجد أنه يغلب عليه الظلم والفساد والطغيان، بل إن الخلفاء الراشدين ماتوا قتلاً، ومعنى ذلك أن الإسلام لم يصلح التابعين له، وكذلك انتشار الإسلام في العصــور الحديثة تجد أن حال المسلمين كحال سـابقيهم في العصـور السـابقة، أسـوأ دول العـالم، حـتى إن عمر بن عبد العزيز الـذي غلب عليه العـدل في خلافته قتـل، ما هو

الخلـل؟ هل هو في المنهج أم في الإنسـان؟ وقـال كـذلك في سـؤال آخـر: المتأمل لتـاريخ المسـلمين يجد أنه عصر فتن وقتل وحـروب من بعد الخلفـاء الراشدين إلى عصرنا الحاضر، والواقع يشهد بذلك. والسؤال: هل هنـاك خطأ في منهج الإسلام فيكون الخلل في الفقه الإسلامي أم الخطأ في فهم علمـاء الشريعة للإسلام! فنرجو من فضـيلتكم الـرد عليه بـارك الله فيكم؟ الجـواب: نقول: الخطأ في فهمك أيها السائل، فهمك بعيد عن الواقع؛ وذلك لأنك -والله أعلم- لم تقرأ التاريخ كما هو، ولم تتتبع أحوال الإسلام ولا أحـوال المسـلمين، ويظهر أنك انخدعت بدعايات المضللين، أوأنك قـرأت في كتب أعـداء الـدين، أو أنك نشأت في بلاد يظهر فيها عداء الإسلام، وإظهـار الضـغائن أو إضـمارها للإسـلام والمسـلمين، ولو نشـأت بين مسـلمين وعـرفت أخبـار المسـلمين، وكـذلك تتبعت أحكـام المسـلمين، وعـرفت أهـدافها، وكـذلك قـرأت تـاريخ السابقين الأولين؛ لما خطر ذلك بقلبك، ولما وجهت بهـذا السـؤال الـذي يـدل على حيرة في نفسك، أو يدل على ضغينة وحقد وبغض للإسـلام والمسـلمين والعياذ بالله. نعود فنقول: كلنا -غالباً- قرأنا أو سمعنا تاريخ الخلفاء الراشدين، وكذلك تاريخ الصحابة وسيرهم وأحوالهم، فهل هذا السـائل قـرأ سـيرهم كما ينبغي؟ أليس فيها الفتوحات؟ متى حصـلت هـذه الانتشـارات للإسـلام؟! امتد الإسلام في عهدهم، وحصلت الانتصارات التي ليس لها مثيل في عهد الخلفاء الراشدين، وامتدت الفتوحات والظفر للإسلام والمسـلمين، أين هـذا السـائل عن تتبع تلك الوقـائع وتلك الغـزوات الـتي أيد الله بها الإسـلام وقـوى بها المسلمين؟! هذا لا يظهر أنه قـرأه ولا خطر ببالـه. كـذلك أيضـاً لا شك أنه لو قرأ سيرة الخلفاء وزهدهم وورعهم وتقشـفهم واهتمـامهم بالـدين، واهتمـاهم بالعبادة، واهتمامهم بأمر الأمة، وحرصـهم على رعايتهـا، وعلى مصـالحها؛ لما خطرت بقلبه هذه الخطرات السيئة، وكذلك لم يقـرأ تـراجم علمـاء الأمة من صدر هذه الأمة من التابعين وتـابع تـابعيهم، الـذين فيهم علمـاء حملـوا العلم، وذبوا عنه كل ما هو دخيل عليه، هذا السائل لم يقرأ تراجمهم، ولم يعلم فيهم من النفع، وما لهم من المقامات النافعة، والأماكن التي نصـروا فيها الإسـلام، ونشروا فيها العلم، ونشـروا فيها الـدين، وكـذلك قيـامهم بالعبـادات،وزهـدهم وورعهم، وتقشفهم مما يدل على رغبتهم في الآخرة، وعدم ميلهم إلى الدنيا، ولا إلى حظوظها؛ كل هذا لم يلتفت إليه السـائل. أما كونه ادعى أنهم مـاتوا قتلاً فليس في ذلك نقص عليهم، ولا شك أنهم قتلوا وذلك كرامة لهم، أما أبو بكر فمات على فراشه، وقد قيل: إنه سقي سماً، ولا يسـتنكر أن يكـون بعض أهل الحقد وأهل النفاق دس إليه السـم، وتلك كرامة له حـتى يمـوت شـهيداً، وهكـذا عمر قتله أبو لؤلـؤة المجوسـي، ثم قتل عثمـان، بسـبب خلافـات بين الأمة، حصل أن بعضـاً من الأعـراب وجـدوا على عثمـان بعض الوجـد، فثـاروا عليه وقتلوه، ثم حصلت الفتنة بين أهل الشام وأهل العراق، تقاتلوا فيها لأجل الانتصار لـعثمان أو لأجل تثـبيت الملك وتثـبيت الولايـة، وتلك دمـاء صـان الله عنها أيدينا فنصون عنها ألسـنتنا. ثم بعد ذلك اسـتتب الأمن، وانتشر الإسـلام، وتمادت الفتوحات في ذلك الزمان، واستمر المسلمون يفتحـون البلاد شـرقاً وغربـاً، فكيف يقـال بعد ذلـك: إن المتأمل للتـاريخ يـرى فيه ما ذكـره هـذا

السائل؟! وعلى كل حال: نبرأ إلى الله من هذا الاعتقاد، ونسأله ألا يجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، وأن يغفر لنا خطايانا.......

أسباب الإحسان

السؤال: ما هي الأسباب التي تعين على بلوغ درجة الإحسان؟ الجواب: مرتبة الإحسان أعلى المراتب، والأسباب التي تعين عليها هي تقوية الإيمان بالأدلـة، وذلك بأن يؤمن بالأدلة التي تقوي إيمانه بالله، وبملائكته، وبالبعث بعد الموت، وبـالآخرة وبما فيهـا، وبـالثواب والعقـاب، وبعظمة ربه وجلاله وكبريائـه، وما أشبه ذلك، فإذا قوي الإيمان بذلك، فإنه والحال هذه يبقى قلبه مستنيراً، فـإذا دخل في عبــادة فكأنه ينظر إلى ربــه، وإذا خلا بنفسه استحضر أن ربه ينظر إليه، فيبقى في كل حالة لا يغفل عن ربه في وقت من الأوقات. ......

معنى: لا إسلام لمن لا إيمان له

السؤال: إذا كان الإسلام والإيمان كمثل الشهادتين من شـهد بإحـداهما لزمته الأخرى، ومن أسـلم لا يقبل منه إلا إذا أتى بالإيمـان، فلا إيمـان لمن لا إسـلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، ولكن قال تعـالى: قَـالَتْ الأَعْـرَابُ آمَنَّا قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُـوا أَسْـلَمْنَا [الحجـرات:14] فهنا أثبت الله سـبحانه للأعـراب الإسلام مع أنه سبحانه نفى عنهم الإيمـان، فكيف نقـول: إنه لا إسـلام لمن لا إيمـان لـه؟ الجـواب: صـحيح أن الله نفى عنهم الإيمـان بقولـه: وَلَمَّا يَـدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ [الحجرات:14]، ولكن معلـوم أنهم كـانوا مبتـدئين، ولابد أنهم سوف يتلقون تعاليم الإسـلام والإيمـان شـيئاً فشـيئاً، وسـوف يسـمعون الآيات والأدلة شيئاً فشيئاً إلى أن يقوى الإيمان في قلـوبهم، وإلى أن يعرفـوا ظواهر الأدلة، فعند ذلك يوصفون بالإيمان كما وصفوا بالإسلام، فهم في مبـدأ أمرهم قالوا: آمنا، وهم إنما أسلموا ظاهراً، ولم يقم عنـدهم من الأدلة ما تقر به قلوبهم وتطمئن به إلى صحة ما جاء به الرسـول، ولكن لا يزالـون يتلقـون الأدلة شـيئاً فشـيئاً إلى أن يصـلوا إلى مرتبة الإيمـان. ومعلـوم أن هنـاك من دخل في الإسلام عن اطمئنان، وكانوا مطمئـنين به وموقـنين بـه، فهـؤلاء من حين دخلوا وهم مصدقون ومسلمون ومؤمنون، وهنـاك من دخل فيه ظـاهراً، ولكنه أراد أن ينظر في عاقبتـه، فيكـون مفكـراً ونـاظراً، فهـؤلاء مسـلمون، ولعله يقوى الإيمان في قلوبهم، وهناك من دخل في الإسلام ظـاهراً ولم يكن في قلوبهم محل للإيمان وهم المنافقون. ......

متى يسمى الشخص مؤمناً؟

السـؤال: هل هنـاك درجة ومنزلة ممكن أن يعـرف بها الشـخص نفسه بأنه مؤمن؟ ومتى يتم إطلاق الإيمان على المسلم حتى يميز بينهما؟ الجواب: كان كثير من المرجئة يلزمون من دخل في الإسلام والإيمـان أن يجـزم بـذلك في نفسه، وينكرون على من استثنى في إسلامه بقوله: أنا مـؤمن إن شـاء اللـه، ويسمونهم: شُكاكاً، إذا قال أحد: أنا مؤمن إن شاء الله قالوا: أنت شـاك، أنت تشك في إيمانك، ولكن للإسلام والإيمـان علامـات، فـأنت مثلاً إذا رأيت قلبك مطمئناً بالإيمان، ورأيته منشرحاً إلى هـذه الأكـان، وصـدقت بما أخـبر الله به عن الـدار الآخـرة، وأيقنت بأنه لابد من بعث وحسـاب وجـزاء على الأعمـال، وآمنت بالغيب إيمانـاً يقينيـاً، آمنت بالملائكة ولم تـرهم، وبالرسل ولم تـرهم، وآمنت بأن هذه الكتب المنزلة من السماء هي كلام الله حقيقـة، وإن لم يكن لك إسناد متصل إلى الملك الذي نـزل بهـا، وإن لم تر الملك الـذي نـزل بهـا، وآمنت مثلاً بأن الله على كل شيء قدير، وأن قدرته تدخل فيها أعمال العبـاد ونحـوه؛ آمنت بهـذه الأركـان كلها وصـدقت بهـا، فلمـاذا لا تقـول: أنا مـؤمن؟ واستثناؤك حينئـذٍ لأجل العاقبـة؛ لأنك لا تـدري هل تبقى على هـذا الوصف أم يعتريك ما يعتريك؛ فلذلك تقول: أنا مؤمن إن شاء اللـه، وتجـزم بأنك مـؤمن، وتطمئن نفسك بالإيمـــان، وتبصر نفسك بأنك مســـتحق لما يســـتحقه أهل الإيمان الذين وصفوا بتلك الصفات التي ذكروا بها باسم الإيمـان، فعند ذلك لا مانع من أن تقول: أنا مؤمن إن شاء الله. ......

متى يعتبر الولاء للكفار مخرجاً عن الملة؟

السؤال: متى يعتبر الـولاء للكفـار مخرجـاً عن الملـة؟ وهل مسـاعدة الكفـار بالأموال إذا كانت هذه الأموال ضد المسلمين مخرجه عن الملة؟ الجــواب: لا شك أن موالاة الكفـار من دون المؤمـنين مخرجة من الملة ملحقة بهم؛ لأنها تدل على محبة الكفار، فمن والى أعداء الله فقد عادى أولياء الله ولابد، ومن أحب الكفار لزم أن يكون مبغضاً لأهل الإيمان، إذا أحببت الكفار فأنت مبغض لأهل الإيمان ولابد، ولا شك أن من أحب الكفار قربهم وأدناهم ورفع مقامهم، ولا شك أيضاً أن من أحبهم أعطاهم وفضلهم على غيرهم، وزاد في عطائهم، وحرم أولياء الله، وحقر وصـغر من شـأنهم وأبعـدهم، مما يـدل على أنه يحب أعداء الله ويبغض أولياء اللـه، فـإذا كـان كـذلك فهـذا لا شك أنه كفـر. أما إذا كنت مثلاً تعطيه لأجل كف شره، فلا مـانع من ذلـك، ولا يكـون هـذا ولاءً؛ لأن الله تعالى قد فرض للمؤلفة قلوبهم حقاً من الزكاة، وقد ذكر العلمـاء أن من المؤلفة قلـوبهم الكفـار الـذين يخـاف من شـرهم، فـإذا خيف من شر هـذا الطاغية المعتدي أن يضر الإسلام جاز أن يعطى من الزكـاة تأليفـاً، والصـحيح أن حق المؤلفة قلوبهم باق كما ذكر اللـه، لكن إذا قـوي الإسـلام وقـوي أهله ولم يخف من الأعداء، ولا من كيدهم؛ سـقط حق المؤلفة قلـوبهم. وعلى كل حال نقول: الولاء والبراء واجب على المسلم، وأما تأليف الكفـار عند الخـوف من شرهم، وعند قوة بطشـهم، والخـوف أن يفتكـوا بالمسـلمين، أو ينضـموا

إلى الأعداء ويصيرون في جانبهم ويقوونهم أو يخاف أن يؤذوا من عنـدهم من المؤمنين أو ما أشبه ذلـك؛ فلا مـانع من مـداراتهم ومهـاداتهم، ولا يكـون ذلك دليلاً على محبتهم، إنما يكون ذلك لكف شرهم. ......

حكم الاستثناء في الأعمال

السـؤال: ما هو مـذهب أهل السـنة والجماعة في الاسـتثناء بالمشـيئة؟ وهل يستثنى بالأعمال مثلاً يقول: سـوف أتـرك الـدخان إن شـاء اللـه، أو ما أشـبه ذلك؟ الجواب: مذهب أهل السنة أنه يجوز الاستثناء في الأعمال ويكـون على وجه التبرك، قد سمعنا أنه صلى الله عليه وسلم استثنى في الأمـور المحققة كقوله في زيـــارة المقـــابر: (الســـلام عليكم أهل الـــديار من المؤمـــنين والمسـلمين، وإنا إن شـاء الله بكم لاحقـون)، ومعلـوم أن الإنسـان لابد لاحق بالموتى، لابد أنه سوف يموت، ومع ذلك اسـتثنى، والمـوت محقـق، ومع ذلك يقول: (وإنا إن شاء الله بكم لاحقون). كذلك أيضـاً ورد الاسـتثناء في المـوت على الشـهادة، ففي وصـية بعض السـلف: (إني أشـهد أن لا إله إلا اللـه، وأن محمـداً رسـول اللـه، عليها أحيـا، وعليها أمـوت، وعليها أبعث إن شـاء اللـه) فالاستثناء هذا قيل: إنه عائد عليها كلهـا، مع أنها محققـة، وأن البعث محقـق، وقيل: إنه يعود على البعث عليها. وبكل حال يجوز الاستثناء للتبرك في الأمور التي يعزم الإنسان على فعلها مستقبلاً، فيقول: سـوف أصـلي إن شـاء اللـه، وسوف أصـوم غـداً إن شـاء اللـه، ويقـول مثلاً: أنا مـؤمن إن شـاء اللـه، وأنا مسلم إن شاء اللـه، ويقصد بـذلك التـبرك، ولا يقصد بـذلك التوقف ولا الشك ولا التردد، هذا في بعض الأعمال. وأما في بعض التروك فإنه يستثني ولو كان عازماً وجازماً؛ لأن هذا غيب وأمـره إلى اللـه، فـإذا عـزم مثلاً على أن يـترك المحرمات فله أن يستثني، إذا كان مبتلئ مثلاً بالـدخان يقـول: سـوف أتـرك الدخان إن شاء الله، ولو كان جازماً؛ لأن الترك أمره في المسـتقبل، وكـذلك المعاصي التي يفعلها يعزم على أنه سيتركها، فيقول مثلاً: سأعفي لحيـتي إن شاء الله، أو سـوف أقصر من ثـوبي المسـبل إن شـاء اللـه، وهو عـازم على ذلك، أو مثلاً سوف أتوب من الربا إن شاء الله، أو من الرياء إذا شاء الله، أو إن شاء الله، يقول ذلك على وجه التـبرك، وعلى وجه الرجـاء أن ربه يعينه إذ وكل الأمر إليـه، فهـذا لا بـأس بـه، أما إذا كـان على وجه الشك أو على وجه التردد فلا يفعله، بل يجزم بترك المحرمات ولا يتردد في تركها. ......

معنى: (كل ميسر لما خلق له)

السـؤال: نرجو توضـيح حـديث النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (كل ميسر لما خلق له)؟ الجواب: هذا حديث صحيح قاله صـلى الله عليه وسـلم لما قـال له الصحابة: (أفلا نتكل على كتابنا وندع العمـل؟ فقـال: اعملـوا، فكل ميسر لما

خلق لـه، ثم قـرأ قوله تعـالى: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَـدَّقَ بِالْحُسْـنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْـنَى * فَسَنُيَسِّـرُهُ لِلْعُسْرَى [الليل:5-10])، فجعل الله كلاً ميسـراً لما خلق لـه، فـإذا خلق الله العبد للسعادة يسره لعمل أهل السعادة حـتى يمـوت على ذلك العمل ويكتب سـعيداً، وإذا خلق الله العبد للشـقاوة خذله ويسر له أسـباب الشـقاوة حـتى يموت عليها، وذلك عدل من الله، وليس فيه ظلم لأحـد، ليس هو ظـالم لهـذا حيث خذله، وليس هو تارك لشيء من حق الإنسان، بل الله تعالى هو المالك للإنسان، وهو الذي يتصرف في الناس كيف يشاء، فمن شاء هـداه ومن شـاء أضله، وهدايته لهذا تكون بفضله، وإضلاله لهذا عدل منه. فعلى كل حـال (كل ميسر لما خلق له)، يعني: أنه تتيسر له أو تتـوافر له الأسـباب الـتي تـؤدي به إلى ذلك الشـيء، فـإن كـان من أهل الشـقاوة سـلط الله عليه -لحكمـة- من يضله، ومن يصده عن القرآن، ويصده عن الحق، ومن كـان من أهل السـعادة ومن أهل الإيمان، وعلم الله أنه من أهل الخـير، يسر الله له من يهديـه، ومن يدعوه إلى التوبة النصوح. ......

صفات المحسنين

السـؤال: ما هي صـفات المحسـنين الـذين ذكـروا في حـديث جبريل عليه السـلام؟ الجـواب: صـفاتهم ما جـاء في قولـه: (الإحسـان: أن تعبد الله كأنك تـراه، فـإن لم تكن تـراه فإنه يـراك)، فمن أراد التوسع فليقـرأ شـرح هـذا الحديث في كتاب ابن رجب (جامع العلوم والحكم)، وأورد له أمثلـه، وشـرحه حافظ الحكمي في المجلد الثاني من معارج القبول، وأورد له أمثله، ومعلـوم أنه في هـذا الحـديث قسم النـاس إلى قسـمين: من يعبد الله كأنه ينظر إلى ربـه، ومن يعبد الله وهو يستحضر أن ربه يـراه، وتسـمى الحالة الأولى: عين المشاهدة، وتسمى الحالة الثانية: عين المراقبة، فعين المشاهدة أن يمثل أنه أمام ربه، كأنه ينظر إلى ربه، واقف بين يديه، وفي هذه الحالة إذا كان يصـلي أو إذا كان يـذكر الله أو إذا كـان يـدعوه مـاذا تكـون حالتـه؟ لا شك أنه يحضر قلبه، ويحضر قالبه، وتسكن أعضاؤه، ويخشع ويخضع ويـنيب، ويخبت إلى الله تعـالى، ويكـثر من ذكـره، وهكـذا عين المراقبـة، وهو الـذي يستحضر أن ربه يراه، أما حال الكثير من الناس إذا صلى أحـدهم غفل في صـلاته ولم يـدر ما يقـول، ولم يستحضر ما هو فيـه، فإنه لم تتحقق له عين المشـاهدة ولا عين المراقبة. ......

سبب تحريف المبتدعة للآيات والأحاديث

السؤال: لماذا تسلط المبتدعة على تحريف آيات وأحاديث الصفات؟ الجواب: المبتدعة مثل المعتزلة تركـزت في نفوسـهم أو في فطـرهم أو في عقـولهم

عقيدة سيئة، وهي: عدم الإقرار بصفات الله، وادّعوا أنها تنافي العقـول، فلما ارتكزت تلك العقيدة في قلوبهم، وجاءتهم الأدلة التي تخـالف ما في فطـرهم وما في عقولهم الفاسدة؛ لم يجدوا بـداً من أن يؤولوها و يحرفوها ويسـلطوا عليها أنـواع التحريـف، والسـبب الوحيد في ذلك هو أنها خـالفت معتقـدهم، ومعتقدهم مبـني على شـبهات تلقوها من كتب المتكلمين، ومن كتب اليونـان والمشركين. ......

معنى الجواهر المفردة

السؤال: ما معنى الجواهر المفردة؟ وهل يجوز التسمية بمد الله وجـار اللـه، وغرم الله، وأشباهها؟ الجواب: الجواهر المفردة كلمة يسـتعملها المتكلمـون، ونحن لا حاجة بنا إلى هـذه الاصـطلاحات، لكنهم يقسـمون الموجـودات إلى قسمين: جواهر وأعراض، فـالجوهر ما له جـرم يمكن إدراكـه، ويمكن رؤيتـه، ويمكن لمسه، فيسمونه جـوهراً، والأعـراض ما ليس له جـرم، بل هو عـرض، فمثلاً: الكلام الـذي يتكلم به الإنسـان ليس له جـرم، ما يمكن أن تقبض على كلام متكلم إذا خـرج من فمـه، فيسـمونه عرضـاً، الصـلاة إذا صـلاها الإنسـان صعدت إلى السماء، فالصلاة عرض ليس لها جرم تشاهدونه، فيقولـون: هـذه أعـراض، وهـذه جـواهر، فكل شـيء له جـرم حـتى مثل حبة الرمل يسـمونه جـوهراً، ويقولـون: إن جميع الموجـودات الـتي لها جـرم مركبة من الجـواهر المفردة، يمكن أن ترجع إلى جواهر صغيرة لا يدركها البشـر، وكل شـيء من الموجـودات من الحديد والأخشـاب والفـرش والحيوانـات والجبـال والصـخور ونحوها جواهر مركبـة، فتكلمـوا في هـذا وأطـالوا الكلام، ولا حاجة بنا إلى أن نناقشـهم، وذلك من فضـول الكلام. أما الأسـماء الـتي ذكرها فهي أسـماء اصطلاحية، فاسم: (جار الله) يستعمل بمعنى المجاور الذي يجـاور في مكـان مقرب إلى الله، وقد سمي به قديماً الزمخشـري صـاحب التفسـير؛ لأنه جـاء إلى مكة، وأطال الإقامة في المسجد الحرام، فكان مجاوراً، فسمي جار الله، ويسمى به في الناس، بمعنى أنه مجاور لله، أي: متعبد له أو نحو ذلك تفـاؤلاً، فلا بـأس بـذلك. أما بقية الأسـماء فينظر إلى معانيهـا، فاسم (غـرم اللـه) يستثقل؛ وذلك لأن فيه أن الله تعالى غـرم لهـذا الإنسـان عن ولد مـات له أو نحو ذلك، فالأقرب أنه ينهى عنه؛ لأن الغرم أصـله التحمـل، مثل تحمل الـدين ونحوه؛ ولهذا استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من المأثم والمغـرم، وقـال: (إن الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف)، وبقية الأسـماء الـتي تضـاف إلى الله ينظر في معانيها، مثل: وصل الله، أو رجاء الله، أو فرج الله، أو رزق اللـه، فهـذه لا بـأس بمعانيهـا، والأولى التعبيد باسـماء الله كعبد اللـه، وعبد الرحمن، وعبد العزيز وما أشبهها. ......

هل (الشارع) من أسماء الله

السؤال: نعلم أنه لا يجوز أن يسـمى الله عز وجل إلا بما سـمى به نفسـه، أو سـماه به رسـوله صـلى الله عليه وسـلم، ومع هـذا نسـمع كثـيراً من النـاس يقولون: قال الشارع الحكيم، فهل لفظ الشارع من أسـماء الله عز وجـل، أم أنها عبـارة درجت على أنه هو الـذي شـرع الأحكـام، ومثلها الصـانع وغيرهـا؟ الجـواب: هـذه كلمة مشـتهرة، ولكن لا يقصد بها أنها من الأسـماء الحسـنى، وإنما يقصدون بها الصفة، يعـني: أنه هو الـذي شـرع الأحكـام وبينهـا، وكـذلك كلمة (الصانع) أيضاً مشتهرة في تعبيرات المتكلمين أولاً، مثل قـولهم: جحـود الصانع، وجود الصانع، وقد استعملها أيضاً بعض الأئمة كـابن كثـير في تفسـير قوله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشـاً وَالسَّـمَاءَ بِنَـاءً [البقـرة:22] قـال: الاستدلال على وجود الصانع وما أشبه ذلك، وبكل حـال فيقصد بها معـنى: أنه الذي أوجد الخلق، وقد ذكرها الله تعـالى في قولـه: صُـنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُـلَّ شَيْءٍ [النمل:88] يعني: إيجاده واختراعه وإبداعه. ......

سبب رد بعض الأحاديث الصحيحة

السـؤال: فضـيلة الشـيخ! قلتم: إن النقل الصـريح لا يعـارض العقل الصـريح والسـليم من الزيغ والانحـراف، لكننا نجد من علمـاء المسـلمين والمثقفين والدعاة من يردون بعض الأحاديث الصحيحة؛ لعـدم موافقتها لعقـولهم، فكيف نفسر ذلـك؟ الجـواب: قد ذكرنا أن تلك العقـول عقـول ناقصـة، عقـول مضطربة، وأن الواجب على الإنسان أن يتهم عقلـه، ولا يـرد الأحـاديث إذا لم توافق مزاجه، بل يتهم فهمه بالخطأ ونحـوه، وقد أنكر بعض المتـأخرين بعض الأحاديث التي خالفت الواقع في هذه الأزمنة أو قبلها، ولكن لا عـبرة بـردهم، وكذلك غيرهم من المتقدمين، فردوا مثلاً أحاديث في صحيح البخاري كحديث عائشة (أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم سـحر حـتى كـان يخيل أنه يفعل الشـيء وما يفعله ...) إلخ، فقـالوا: إن هـذا يخـالف العصـمة، وأنه .. وأنـه.. وأجاب العلماء عن ذلك وبينوا أنه لم يقع في أمر الشرع. والسحر له حقيقـة، وأنكرت المعتزلة ونحوهم حقيقة السحر، وردوا الأحـاديث الـتي في ذلـك، مع وجودها وصراحتها، ومع مشاهدة الناس أن الساحر قد يؤثر، وأخبر الله تعالى بذلك. كـذلك في هـذه الأزمنة أيضـاً قـرأت لبعضـهم إنكـاراً لبعض الأحـاديث، كقوله صلى الله عليه وسلم: (لولا بني إسرائيل لم يخـنز اللحم) أي: لم ينتن، يعني: أنهم لما أعطـاهم الله تعـالى السـلوى صـاروا يـدخرون لغد ولبعد غـد، فصار اللحم ينتن، نقول: وما المانع من ذلـك؟ وإن كـانت طبيعة اللحم أنه إذا تأخر يتغـير، لكن قد يجعل الله له ما يكافحه وما يزيل عنه ذلك النتن. وكـذلك أحاديث عذاب القـبر أنكرها بعضـهم، وقـالوا: إننا نكشف عن الميت بعد مـدة فنجده كما وضعناه، ولا نجد أثراً لعذاب القبر ولا لنعيمه ولا لغير ذلـك. فيقـال لهم: إن عالم الأرواح غير عالم الأجساد، وإن العذاب في القبر على الروح ولا على الجسـد، الجسد تأكله الأرض، ويكـون ترابـاً. والحاصل أننا لا نلتفت إلى

هؤلاء الذين يطعنون في الأحاديث لمجرد عرضـها على العقـل. فـالأولون من معتزلة ونحوهم ما كانوا يردون إلا الأحاديث التي تتعلق بالصفات، أما أحـادث البعث والنشـور فـإنهم يقرونهـا، ويوافقـون عليهـا، وأما هـؤلاء العصـريون فينكرون الأحاديث الحسية كالأحاديث التي تخالف فطـرهم مثلاً، أو تخـالف ما تجـدد لهم من المصـنوعات ونحوهـا، وما علمـوا أن قـدرة الله غالبة على كل شيء. ......

معنى الهرولة والتردد الواردين في حديث: (وما ترددت في شيء مثل ترددي في قبض روح عبدي

السؤال: ما معنى الهرولة والتردد الواردان في حديث: (وما ترددت في شيء مثل ترددي في قبض روح عبدي ...)؟ الجواب: الصحيح أن الهرولة هنا بمعنى قرب الرب تعالى إلى عبده بثوابـه، فـالقرب معنـوي، العبد لا يتجـاوز مكانـه، وإنما تقرباته بالأعمال، فقرب الـرب إليـه، وهرولته -يعـني: إسـراعه- إنما هو بالأعمال، بكثرة الثواب، فلا يقـال: إن الهرولة صـفة من صـفات الله في هـذا الحديث، إنما ذكرها على وجه المبالغة في كثرة الثواب، قال: (من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً)، العبد ما يتقرب شبراً، يعني: هو مكانه، ولكن تقـرب بالأعمـال، (من تقـرب إلي ذراعـاً)، العبد لا يـتزحزح عن مكانـه، ولكن تقـرب بالأعمـال (من أتـاني يمشـي)، العبد لا يتجـاوز مكانه بهـذا المشـي، المـراد بالمشي هنا مواصلة الأعمال الصالحة، يعني: كـثرة الأعمـال الصـالحة، وعـبر عن ذلك بالمشي. إذاً: هذا الحديث إنما فيه المماثلـة، فقـرب العبد بالأعمـال، وقـرب الـرب بـالثواب، وكـذلك المشي والهرولـة. أما الـتردد فليس معنـاه التوقف في الشـيء، وعـدم الجـزم به ونحو ذلـك، لكن لما كـان العبد يكـره الموت، فإن الله تعالى يكره ما يسوءه، فـالتردد هو الكراهيـة، يعـني: كراهية الله تعالى لما يسوء العبد، وليس هو بمعنى التوقف في الشيء وعدم الجـزم بفعله، ولأجل ذلك قال في تمام الحديث: (ولا بد له منه). ......

قول الشاعر: نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه

السؤال: يقول الشاعر في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم أبياتاً منها: نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العطاء وفيه الجود والكرم فما رأي فضـيلتكم في هذا البيت جزاكم الله خيراً؟ الجـواب: هـذا الـبيت نقل عن أعـرابي فيما نقله العتبي ، وذكره ابن كثير عند تفسير الآية التي في سـورة النسـاء، وهي قـول الله تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْـتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً [النسـاء:64] وبـالبحث عن هـذه الحكاية لم يوجد لها سـند صـحيح، ولو ذكرها ابن كثـير وأقرهـا، ولو ذكرها غـيره، فهي حكاية باطلة لا أصل لها، ولا يجوز اتخاذها حجة في دعـاء الرسـول صـلى الله

عليه وسلم بعد موته، والبيت معناه صحيح، يعـني: أنه صـلى الله عليه وسـلم خير من دفنت بالقاع أعظمـه، وأن قـبره فيه العفـاف وفيه الكـرم، فـالمعنى صحيح، ولكن القصة الـتي فيها أنه جـاء قاصـداً للنـبي صـلى الله عليه وسـلم وقرأ هذه الآية: وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْـتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْـتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً [النساء:64] وأنشد الأبيـات، وطلب من الرسول المغفرة، وبعد ذلك يقول العتبي : نمت، فـرأيت الرسـول صـلى الله عليه وسلم فقـال: أدرك الأعـرابي، وأخـبره أن الله قد غفر لـه. فهـذه حكاية باطلة، وأما البيت فمعناه صحيح. ......

هل الولاية رتبة فوق الإيمان

السـؤال: هل الولاية رتبة فـوق رتبة الإيمـان؟ الجـواب: الولاية هي من آثـار الإيمان، من كان مؤمناً فإنه ولي، والله تعالى هو مولى عباده المؤمـنين، اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ [محمد:11] فهو مولى المؤمنين ووليهم إِنَّ وَلِيِّي اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ [الأعراف:196]، فمن كان مؤمناً فإنه من أولياء الله، فهما متلازمان. ......

حال الوليد بن عقبة

السؤال: يقول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُـوا ... [الحجرات:6] هـذه الآية نـزلت في الوليد بن عقبة ، فهل يجـوز أن يقـال: إنه فاسق مطلقاً أم نقول: إنه فاسق بهذا الفعل أم لا نصفه بهذا الوصف في كلا الموضعين، وذلك لأنه صحابي رضي الله عنه؟ الجواب: لا ينكر هـذا حـتى ولو كان من الصحابة، وقد جلده علي رضي الله عنه في شرب الخمر بـأمر أمـير المؤمنين عثمان ، جلـده أربعين جلـدة، وكـذلك أيضـاً صـلى في ولاية عثمـان بالنــاس وهو سـكران، فالحاصل أنه لا يسـتنكر إذا وصف في هـذه الآية بأنه فاسق، ولكن فسقه لا يخرجه من الإيمان، ولا يدخله في الكفر، إنما هو فسق عملي. ......

معنى حديث: (من صلى الصبح فهو في ذمة الله..)

السؤال: ما معنى: في ذمة الله في الحديث الذي قـال عنه النـبي صـلى الله عليه وسلم: (من صلى الصبح فهو في ذمة الله حتى يمسي)؟ الجواب: الذمة العهد، ذمة الله تعـالى بمعـنى: عهـده، أي: أن الله تعـالى يتـولاه ويحفظه فلا يجوز لأحد أن يعتدي عليه، ولا أن يمد يده إليه لكونه في ذمة الله، يعـني: في جـوار الله تعـالى وفي حمايته وفي عصـمته، وبكل حـال نقـول: إن مثل هـذه

الصفات وهذه الأحاديث تؤخذ على ظاهرها، ولكن لا يكون الإنسـان متسـاهلاً في الطاعات ومعتمداً على بعضها، فيقول: ما دام صليت الصبح فأنا في ذمة اللـه، فسـوف أفعل وأفعل من المعاصي ونحـوه، لا يعتمد على ذلـك، فـإن الصلاة ما لم يكن لها تأثير عليه لم تكن صلاة صحيحة مفيدة. ......

معنى قول الشارح: والمراد بالحسنة هنا النعمة... إلى آخر كلامه

السـؤال: نرجو من فضـيلتكم التوضـيح لقـول الشـارح رحمه الله تعـالى: (والمراد بالحسنة هنا النعمـة، وبالسـيئة البلية في أصح الأقـوال. إلى أن قـال الشارح: ولكن لا منافاة بين أن تكون سيئة العمل وسـيئة الجـزاء من نفسـه، مع أن الجميع مقدر، فإن المعصية الثانية قد تكـون عقوبة الأولى، فتكـون من سيئات الجزاء، مع أنها من سيئات العمل، والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى)؟ الجـواب: قد ذكرنا أن الحسـنة هي النعم، والسـيئة هي البلايـا، وأن الجميع من الله خلقـاً وتكوينـاً، ولكن قد تكـون أيضـاً ابتلاء وامتحانـاً، فتكـون النعم ابتلاء، وتكون السـيئات ابتلاء، وقد تكـون الحسـنة بسـبب من العبد وهو الأعمال الصالحة، والسيئة بسبب من العبد وهي الأعمـال السـيئة، وقد تكـون الحسنة ثواباً لحسنة قبلها، والسيئة عقوبة لسـيئة قبلهـا، ورد في بعض الآثـار أن من ثواب الحسـنة الحسـنة بعـدها، وإن من عقوبة السـيئة السـيئة بعـدها. وبكل حـال فقد فصـلنا في الحسـنات والسـيئات، وذكرنا أن الله تعـالى يبتلي بالخير ويبتلي بالشر، وله الحكمة فيما يبتلي به، وكلام الشارح ظـاهر لا خفـاء فيه. ......

توجيه تمني أسامة للإسلام بعد قتله لمن نطق بالشهادة

السـؤال: ورد أن أسـامة رضي الله عنه لما قتل الـذي قـال: لا إله إلا اللـه، وأنكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم؛ تمنى أن يكون أسلم ذلك اليـوم، فما هو توجيه ذلك التمـني؟ هل أنه أراد إسـلاماً بلا ذنب أم أن سـببه هـذا التـوبيخ من النبي صلى الله عليه وسلم؟ الجواب: لا شك أنه خاف لما قـال له النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (كيف تفعل بلا إله إلا الله إذا جـاءت يـوم القيامـة؟ أقتلته بعد ما قـال: لا إله إلا اللـه؟!) وكـرر عليـه، فخـاف أن يكـون قد حبط عمله، وقـال: لو كنت أسـلمت الآن ولم أسـلم قبل ذلك لكـان ذلك أولى لي، حتى أستقبل عملاً جديـداً، فهو يخشى أن يكـون قد حبط عمله بقتله الرجـل، وتمنى أنه ما أسلم إلا بعـده. وعلى كل حـال فإنه رضي الله عنه قتله متـأولاً؛ وذلك لأنه ظن أنه لم يقلها عن يقين، فلـذلك أقـدم على قتلـه، وبين العلمـاء الحكم فقالوا: الكفار الذين يمتنعون من لا إله إلا الله، إذا قوتلـوا فنطق واحد منهم يكف عنه حتى يختـبر بعد ذلك هل قالها عن يقين؟ وهل يعمل بها أم لا؟ أما الذين يقولونها ويقاتلون لأجل أمر آخر كالذين يقاتلون لإنكـارهم الرسـالة،

أو لإنكـــارهم البعث، أو لطعنهم في القـــرآن مثلاً، أو لإنكـــارهم العبـــادات كالصلوات ونحوها؛ فهؤلاء لو قالوها ما ردت عنهم؛ لأنهم يقولونها قبل القتال، إنما قوتلوا لشيء آخر.......

إن من حكمة الله وعدله أنه لابد أن يبعث الأجســــاد بعد موتهـــــا، لينتصف للمظلومين، ويجـاري المحسـنين، وقد اهتم أهل السـنة بجمع أدلة البعث من القرآن والسنة وغيرها، وذلك تبعاً لاهتمام الشرع بذلك.

الإيمان بالبعث

قال المؤلف رحمه الله: [قوله: (ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمـال يـوم القيامـة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب والثـواب والعقـاب، والصـراط والمـيزان) الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة، فـأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيـز، وأقـام الـدليل عليـه، ورد على منكريه في غالب سور القرآن. وذلك أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان بالآخرة، فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم، وهو فطري، كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون، بخلاف الإيمان باليوم الآخر، فـإن منكريه كثـيرون، ومحمد صـلى الله عليه وسـلم لما كـان خـاتم الأنبيـاء، وكـان قد بعث هو والسـاعة كهاتين، وكان هو الحاشر المقفي؛ بيّن تفصيل الآخرة بيانـاً لا يوجد في شـيء من كتب الأنبياء؛ ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبـدان إلا محمد صـلى الله عليه وسـلم، وجعلـوا هـذه حجة لهم في أنه من بـاب التخييل والخطـاب الجمهـوري. والقـرآن بين معـاد النفس عند المـوت، ومعـاد البـدن عند القيامة الكـبرى في غـير موضـع، وهـؤلاء ينكـرون القيامة الكـبرى، وينكـرون معـاد الأبـدان، ويقـول من يقـول منهم: إنه لم يخـبر به إلا محمد صلى الله عليه وسـلم على طريق التخييـل، وهـذا كـذب، فـإن القيامة الكـــبرى هي معروفة عند الأنبيـــاء من آدم إلى نـــوح إلى إبـــراهيم وموسى وعيسى وغـــيرهم عليهم السـلام. وقد أخـــبر الله بها من حين أن أهبط آدم، فقال تعالى: قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْـتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ [الأعـراف:24-25]، ولما قال إبليس اللعين: قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَـوْمِ يُبْعَثُـونَ * قَـالَ فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ [الحجر:36-38]. وأما نوح عليه السلام فقال: وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنْ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً [نـوح: 17-18]. وقال إبراهيم عليه السلام: وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِـرَ لِي خَطِـيئَتِي يَـوْمَ الدِّينِ [الشعراء:82] إلى آخر القصة، وقال: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ [إبراهيم:41]، وقال رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى [البقرة: 260]. وأما موسى عليه السلام فقال الله تعالى لما ناجـاه: إِنَّ السَّـاعَةَ آتِيَـةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْـزَى كُـلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْـعَى * فَلا يَصُـدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُـؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى [طه:15-16] بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعـاد، وإنما آمن بموسى قال تعالى حكاية عنـه: وَيَا قَـوْمِ إِنِّي أَخَـافُ عَلَيْكُمْ يَـوْمَ التَّنَـادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

[غـافر:32-33] إلى قوله تعـالى: يَا قَـوْمِ إِنَّمَا هَـذِهِ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا مَتَـاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ [غافر:39] إلى قوله: أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَـوْنَ أَشَـدَّ الْعَـذَابِ [غافر:46]. وقـال موسـى: وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الـدُّنْيَا حَسَـنَةً وَفِي الآخِـرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْـكَ [الأعـراف:156]، وقد أخـبر الله في قصة البقـرة: فَقُلْنَا اضْـرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [البقرة:73]]. هذا الكلام وما بعده يتعلق بالبعث بعد المـوت، الـذي هو بعث الأجسـاد وحشـرها، ونشـرها، وإعـادة الأرواح إلى الأجسـاد، وجمع الأجسـاد بعد أن بليت وبعد أن صارت تراباً، وبعد أن تمزقت وتفرقت، فيبعثها الله، ويعيد إليها الحياة، وتتصل بها أرواحها اتصـالاً أبـدياً محكمـاً ليس بعـده انفصـال، ليس كاتصـالها بها في الدنيا الـذي يعتريه شـيء من الانفصـالات، هـذا هو البعث بعد المـوت، فمـتى يكون؟ يكون يوم القيامة عنـدما ينفخ في الصـور، وقيـل: إن الصـور هو قـرن واسع كبير، فيه ثقوب بعدد أرواح بني آدم، ينفخ فيه إسرافيل فتخرج كل روح من ثقب وتصل إلى جسـدها، وقبل النفخ في الصـور يـنزل الله مطـراً فتنبت منه أجسادهم، والله قادر على أن ينبتها بدون مطر وغيره، كما في هذه الآية: وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنْ الأَرْضِ [نـــوح:17] (أنبتكم) يعـــني: أخـــرجكم إلى هـــذا الوجود. ......

اهتمام القرآن والسنة بالإيمان بالبعث أكثر من غيره

الإيمان باليوم الآخر والبعث: هو ركن أساسي من أركـان الإيمـان، وقد يكـون هو الركن المؤكد عليه دائماً؛ ولأجل هذا كثيراً ما يقتصر عليه مع الإيمان بالله في كثـير من الأحـاديث كقوله صـلى الله عليه وسـلم: (من كـان يـؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره) ، (لا يحل لامرأة تـؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث). لم يذكر مع الإيمــان بالله إلا الإيمـــان بـــاليوم الآخـــر؛ وذلك لأن اليـــوم الآخر وقع فيه الخلاف بين الرسل وأممهم، وأنكـره المشـركون وبـالغوا في إنكـاره، واعتقـدوا أن الأجسـاد بعد موتها تضمحل ولا تعود، وأنه ليس هناك حياة، وأن هذه الـدنيا باقية وليس لها فناء؛ ولهذا حكى الله عنهم أنهم يقولون: وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُـوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ [الجاثيـة:24] أي: الزمـان، ومعـنى قـولهم: نمـوت ونحيا أي: يموت قوم ويحيا آخـرون، وهو معـنى قـولهم: أرحـام تـدفع، وأرض تبلع، هذه عقيدة أولئك المشركين، وهي أيضاً عقيدة الدهريين. فالإيمان بالله واليـوم الآخر آكد أركـان الإيمـان، فهو آكد من الإيمـان بـالكتب، ومن الإيمـان بالرسل، ومن الإيمان بالملائكة.. ونحو ذلك؛ لأن الخلاف في الإيمــان بها قليل بخلاف الإيمـان بـاليوم الآخر فـإن المنكـرين له كثـير، ولما كـان الأمر كـذلك، جـاءت الأدلة الكثـيرة عليـه، فلا تحصى الآيـات الـتي تؤكد البعث بعد المـوت، وســتأتينا آيـــات مشـــروحة موضـــحة لما حكى اللـــه، ولما رد الله به على المشـــركين الـــذين أنكـــروا البعث بعد المـــوت، وكيف أنه احتج عليهم بحجج

عظيمة، فإذا آمن العباد باليوم الآخر وبما بعده فـإنهم يسـتعدون لـذلك اليـوم بالأعمال الصالحة التي يكونون بها سعداء، وإذا لم يؤمنوا به فإنهم لا يهتمــون إلا بهـذه الحيـاة، حيث إنهم ليس في نظـرهم حيـاة أخـرى بعد هـذه الحيـاة. فعرفنا بـذلك أن الإيمـان بـاليوم الآخر من آكد أركـان الإيمـان، وهو يعم -كما تقدم- البرزخ والحشر، ولكن أكثر ما يركز على الحشر الذي هو حياة الأجساد وحشرها وحسابها وجمع الناس في الـدار الآخـرة.. وما أشـبه ذلك وما بعـده، وهكـذا إلى أن يحصل الجـزاء على الأعمـال، وإدخـال أهل الجنة في الجنـة، وأهل النار في النار. هـذا هو الـذي اتفقت عليه دعـوة الرسـل، وهـذه الآيـات الـتي سـمعنا لا شك أنها تـدل على أن الرسل مجمعـون على أن اليـوم الآخر لابد منه وأنه سيأتي، كما في قول نـوح عليه السـلام: وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنْ الأَرْضِ نَبَاتـاً * ثُمَّ يُعِيـدُكُمْ فِيهَا وَيُخْـرِجُكُمْ إِخْرَاجـاً [نـوح:17-18]، ينبههم على أنهم سيخرجون منها، مثل قوله تعالى: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيـدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْـرِجُكُمْ تَـارَةً أُخْـرَى [طـه:55]. وكـذلك بقية الرسل ذكـروا البعث لأتبـاعهم، وكـانوا يحثونهم على الإيمان بالله وعلى الإيمان بالبعث بعد المـوت وعلى الاسـتعداد له، وكذلك غير الأنبياء كما سمعنا من مؤمن آل فرعون الذي قال: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ [غافر:32]، وهو يـوم القيامـة، وقولـه: مَنْ عَمِـلَ سَـيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ [غـافر:40] ، فكل ذلك دليـلٌ على أن أتبـاع الأنبياء أيضـاً صـرحوا بـأنهم يؤمنـون بـاليوم الآخـر. من الإيمـان بالله الإيمـان باليوم الآخر؛ لأنه خبر الله، فالله هو الذي أخبر بـاليوم الآخـر، وبما يكـون في اليوم الآخر، فمن آمن بالله آمن بأخبـار اللـه. واليـوم الآخر يشـمل البعث وما بعده، بل يشمل الموت وما بعده، ولكن أكـثر ما يـذكرون البعث بعد المـوت، وما بعده من الجزاء والحساب والثـواب والحـوض والمـيزان وجـزاء الأعمـال ومحاسبة الله تعالى للعباد، وما يكون في عرصات القيامة من طول الوقـوف ومن طلب الشـفاعة، ومن الأهـوال وطـول ذلك اليـوم الـذي يجعل الولـدان شيباً، فيؤمن أهل السنة بذلك على التفصيل الذي ذكره الله تعالى، ومن آثــار إيمانهم الاستعداد ليوم المعاد، فإن الذي يؤمن بالشيء ويصدق به تظهر عليه آثـاره، فيسـتعد لـه، ويتهيأ لـذلك اليـوم، ويعـرف أنه لا نجـاة له إلا بالأعمـال الصالحة التي كلف بها.

إنكار الفلاسفة للبعث الجسماني

ذكر الشارح أن القرآن فيه الأدلة الكثيرة على الإيمان بالبعث، وضرب الأمثلة على ذلـك، ولعل السـبب في ذلك كـثرة المنكـرين له من المشـركين الـذي يستبعدون إعـادة المـوتى من القبـور بعد التفـرق وذهـاب الأشـلاء وصـيرورة

الأجسام تراباً، ويقولون: أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ [ق:3] ، يستبعدون ذلك، ويطلبون شططاً فيقولون: ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [الجاثية:25]. ولما كان هذا تكذيبهم؛ فإن الله -سبحانه- ضرب لهم الأمثلة، وذكر الأدلة، وبين لهم كمال القدرة؛ ولأجل ذلك يقول العلماء: إنه لم يشتمل كتاب من الكتب السابقة على تقرير البعث وذكر أدلته مثلما اشتمل كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ففيه التصريح به تصريحاً بليغاً لا يحتمل أو يتطرق إليه تأويل أو حمل على محمل بعيد، لكثرة الأدلة وقوتها وصراحتها، وكثرة ضرب الأمثلة عليها. ومع هذا فإن كثيراً من الذين تسموا مسلمين ينكرون هذا البعث -البعث الجثماني أو البعث الجسماني- ويقال لهؤلاء: الفلاسفة الإلهيون، وهم الذين ينكرون أولاً بدأ الخلق، ويقولون: إن هذا الإنسان لم يزل قديماً، وليس له أول، فينكرون أن يكون أبو البشر آدم، وينكرون أن يكون بدء خلقه من طين، وينكرون أن يكون هناك وقت للإنسان لم يكن فيه شيئاً مذكوراً. ثانياً: ينكرون نهاية الدنيا، ويقولون: الدنيا ليس لها آخر، وهذه الحياة تستمر أبداً إلى غير نهاية، ويعبرون عن هذا بقولهم: أرحام تدفع، وأرض تبلع، وينكرون عودة الأجساد وجمعها بعد تفرقها، ويجعلون الجزاء على الأرواح، ويدعون أن هذه الأرواح هي التي أهبطت من السماء واتصلت بالجسد، ثم بعد ذلك خرجت منه إلى حيث كانت، ويقول رئيسهم ابن سينا -وهو من أكابر الفلاسفة- في مطلع قصيدته العينية: هبطت إليك من المحل الأرفعِ ورقاءُ ذات تقلب وتفجع وصلت على كرهٍ فلما واصلت ألفت مرافقة الخراب البلقعِ يصف الروح بأنها هبطت إليك من المكان الأرفع، ثم اتصلت بجسدك، ثم ألفته، إلى أن صارت كجزء منه، ثم بعد ذلك تنفصل وتعود كما كانت، فهؤلاء ما آمنوا بالله حق الإيمان؛ لأن الإيمان بالله يستدعي الإيمان بخبره، ومن خبره حشر الأجساد وبعثها وجمعها بعدما تتفرق، وهذا لم يؤمن به هؤلاء.

إيراد الأدلة القرآنية المتنوعة على البعث

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقد أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين في آيات من القرآن، وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ [الزمر:71]، وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا، فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين في الدنيا والآخرة، فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد يذكر فيها الدنيا والآخرة. وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد، فقال: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ

قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ [سبأ:3] ، وقال تعالى: وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ [يونس:53] ، وقال تعالى: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [التغابن:7]. وأخبر عن اقترابها فقال: اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ [القمر:1] ، وقال: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ [الأنبياء:1] ، سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ [المعارج:1-2]، إلى أن قال: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً [المعارج:6-7]. وذم المكذبين بالمعاد فقال: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ [يونس:45] ، أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ [الشورى:18] ، بَلْ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ [النمل:66] ، وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً [النحل:38] ، إلى أن قال: وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ [النحل:39] ، وقال تعالى: إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ [غافر:59] ، وقال تعالى: وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً [الإسراء:97-99] ، وقال تعالى: وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً [الإسراء:49-52]. فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال سؤال على التفصيل، فإنهم قالوا: أولاً: أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً [الإسراء: 49]، فيقال لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب، فهلا كنتم خلقاً لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد، وما هو أكبر في صدوركم من ذلك، فإن قلتم: كنا خلقاً على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء، فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم، وبين إعادتكم خلقاً جديداً؟ وللحجة تقدير آخر: وهو لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما فإنه قادر على أن يفنيكم، ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال، ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة، فما الذي يعجزه فيما دونها؟ ثم أخبر أنهم يسألون سؤالاً بقولهم: من يعيدنا إذا استحالت جسومنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ [الإسراء:51] ، فلما أخذتهم الحجة، ولزمهم حكمها، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به تعلل المنقطع، وهو قولهم: متى هو؟ فأجيبوا بقوله: عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً [الإسراء:51]]. قد ذكرنا أن القرآن اشتمل على الأدلة الكثيرة في تقرير البعث والنشور، وفيه ذكر عظم قدرة القادر، وأنه لا يعجزه شيء، وأن الرسل أولهم وآخرهم كلهم بلغوا هذا البيان، الذي هو الخبر عن اليوم الآخر

والبعث والجزاء في الـدار الآخـرة، وذكـروا ما يكـون بعد المـوت، فقد اتفقت دعوة الرسل كلهم على ذلك.

حكمة الله وعدله يقتضيان البعث

الحكمة تقتضي البعث، فـإن هـذه دار عمـل، والآخـرة دار جـزاء، فالنـاس في هذه الدنيا يعملون، وفي الآخرة يلقون جزاء أعمالهم؛ ولأجل ذلك صار اهتمام العقلاء في هذه الدار بعمارة ما بعد الموت، وهو الدار الآخـرة الـتي سـيفدون إليها، وقد انتبهوا إلى أنهم مأمورون بالعمارة وبالبناء، ولكن البنـاء الـذي يبقى ليس البناء الذي يفـنى، فـإن بنـاء الـدنيا يفـنى ويفـنى سـاكنوه، وتفـنى الـدار ويموت صاحبها، وأما العمارة في الآخـرة فإنها هي الباقيـة، يقـول بعضـهم: لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كـان قبل المـوت يبنيها فـإن بناها بخـير طاب مسـكنه وإن بناها بشر خـاب بانيها النفس تـرغب في الـدنيا وقد علمت أن السعادة فيها ترك ما فيها فـاغرس أصـول الهـدى ما دمت مجتهـداً واعلم بأنك بعد الموت لاقيها فإذا آمن العبد بأنه مـأمور بـأن يعمل للآخـرة أكـثر من العمل للـدنيا أفلح، والآخـرة هي دار الجـزاء، والمؤمنـون يعملـون لآخـرتهم، بمعـنى أنهم يقـدمون ما تعمر به مسـاكنهم في الجنـة، روي في بعض الآثـار: (أن الملائكة يبنون قصوراً لبـني آدم، فـإذا توقف الإنسـان عن العمل توقفـوا عن البناء وقالوا: نتوقف حتى تأتينا النفقة). معلوم: أن الـذي يبـني في الـدنيا يتوقف العمال عن البناء حتى يعطيهم أجرتهم ونفقتهم، فكذلك في الآخــرة لا تبنى المباني الأخروية من الغرف التي فوقها غرف إلا بالأعمال الصالحة.

إقامة الله الحجة على الكفار المنكرين للبعث يوم القيامة

الرسل كلهم أخبروا باليوم الآخر، واعترفت الأمم التي تدخل النار بأن رسلهم قد بلغوهم، واعترفوا بأنهم لم يصـدقوا لنقص في عقـولهم، قـال الله تعـالى: كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَـذِيرٌ [الملـك:8] يعـني: ينـذركم بالعذاب وينذركم بالنار، قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَـذَّبْنَا [الملـك:9] واعـترفوا بأن تكذيبهم هو الذي أوقعهم في العذاب حتى قالوا: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِـلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ [الملـك:10] . وسـمعنا الآية الـتي في سـورة الزمـر، وهي قوله تعالى: وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُـلٌ مِنْكُمْ يَتْلُـونَ عَلَيْكُمْ آيَـاتِ

رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَـاءَ يَـوْمِكُمْ هَـذَا قَـالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَـةُ الْعَـذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ [الزمر:71]، وكـذلك في سـورة الأنعـام أن الرسل تقـول لهم: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَـاءَ يَـوْمِكُمْ هَـذَا [الأنعـام: 130]، يقول الله لهم هذه المقالة، فيقولون: بلى، يعترفون بأنهم قد جـاءهم الرسل الذين أنذروهم لقاء يومهم هذا، ومع ذلك لم يتقبلوا، بل كذبوا الرسل، واستبعدوا أن يكون هناك بعث بعد المـوت، واعتقـدوا أن ليس هنـاك إلا هـذه الدنيا، وأنهم إنما خلقوا ليأكلوا ويشربوا ويمتعـوا أجسـامهم، وبعد أن يخرجـوا من الدنيا لا يعودون مـرة أخـرى، هـذه عقيـدة أوبقتهم وأهلكتهم وأنسـتهم ما خلقــوا لــه. ومن الأدلة على البعث أن الله تعــالى أمر نبيه صــلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه على اليوم الآخر في قوله تعالى: وَيَسْـتَنْبِئُونَكَ أَحَـقٌّ هُـوَ قُـلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَـقٌّ [يـونس:53] الضـمير (هـو) يعـود إلى البعث وما بعد الموت من الجزاء على الأعمال، (أحق هو؟) أي: أحق صحيح وثابت ما أخبرتنا به من البعث والجزاء، (قل: إي وربي) أمره أن يحلف بالله ربه الــذي هو رب المخلوقات وخالقها ومدبرها. وكذلك قوله تعـالى: وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي [سبأ:3] ، (بلى وربي) هذا حلف أيضاً، (لتأتينكم): أي: لابد أن تأتيكم الساعة. وكذلك قوله: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُـوا قُـلْ بَلَى وَرَبِّي [التغابن:7] ، هذا أيضاً قسم ثـالث: (..بلى وربي لتبعثن) أي: لابد من البعث. وكـذلك قوله تعـالى: فَـوَرَبِّ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَـقٌّ مِثْـلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ [الذاريات:23] .. ونحو ذلك من الآيات الكثـيرة الـتي يقسم فيها بأنه لابد أن يبعثوا. أما المشركون: فإنهم ينكرون هذا، بل يحلفون عليه، يقول الله تعالى في سورة النحل: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْـدَ أَيْمَـانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُـوتُ [النحل:38]، والله تعالى يقيم عليهم الحجج بعد جزمهم هذا، فيخبرهم أنه هو الذي بدأ خلقهم فلابد أن يعيده، وهو الـذي خلق هـذه المخلوقـات الـتي هـذه عظمتهــا، فلابد أن يعيد الإنســـان الـــذي هو أحقر وأصـــغر وأذل من هـــذه المخلوقات العظيمة، يقول الله تعالى: لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ [غافر:57] ، السماوات والأرض بما فيها الله تعـالى هو الـذي خلقهـا، والإنسان بلا شك أنه من أفضل من خلقه اللـه، كما قـال تعـالى: وَلَقَـدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَـاهُمْ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَرَزَقْنَـاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَـاتِ وَفَضَّـلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِـيلاً [الإسـراء:70] فالله خلق الإنسـان، وأعطـاه السـمع والبصر والفؤاد، وخصه بالعقل والمعرفـة، وعند ذلك كلفـه، وأمـره بـأن يتعبد لربه ويطيع، وأمره بأن يستعد للقاء اللـه، وأخـبره أنه لابد من لقـاء ربـه، وأن اللقـاء حتم لابد منـه، فمن حقق ذلك الإيمـان وذلك الرجـاء اسـتعد لـه، قـال تعالى : فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَـلْ عَمَلاً صَـالِحاً [الكهـف:110] (لقـاء ربـه) يعـني: مقابلة ربـه، أي: من كـان موقنـاً بأنه لابد أن يلقى الله تعـالى فليستعد بالعمل الصالح الخالي من الشرك.

أخبر الله تعالى بأن هذه الدنيا وما عليها حقيرة هينة، لا تستحق أن يهتم لها الإنسان هذا الاهتمام فقال تعالى : اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ [الحديد:20] ، أي: هذه أكثر ما يشتغل به أهلها، ثم ضرب لها مثلاً في انقضائها، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، فالغيث إذا نزل فإن الكافرين بالله هم الذين تعجبهم زهرة الدنيا، وهم الذين تعجبهم زينتها وما عليها؛ لأن رغبتهم في الدنيا، وليس لهم رغبة في الآخرة، ومن العلماء من يقول: الكفار هم الزراع، ولكن الأولى أنهم الكفار بالله، فهم الذين يعجبهم نباته، وبعد مدة ماذا يكون هذا النبات؟ لا شك أنه ييبس ويصير حطاماً وتذروه الرياح، فهكذا هذه الدنيا تثمر لأهلها وتخضر وتقبل عليهم، ثم بعد ذلك تدبر عنهم ولا تقبل، ويذوقون الضر كما ذاقوا الخير، وتنزع عنهم أو ينزعون عنها، ولسان حالها يقول كما أنشد بعضهم: هي الدنيا تقول بملئ فيها حذار حذار من بطشي وفتكي فلا يغرركم طول ابتسامي فقولي مضحك والفعل مبكي فهذه حالة هذه الدنيا، إذا فكر العباد بما عليها علموا أنها متاع فقنعوا منها باليسير، وشمروا للدار الآخرة، ونصبوا الأقدام، وهجروا التواني والتكاسل الذي يعوقهم عن السير في الآخرة، وهجروا الفتور الذي يبطل هممهم، وأنصبوا أبدانهم وأجسامهم في طاعة الله تعالى، وعلموا أن الدنيا فانية وقنعوا منها باليسير، وجعلوا رغبتهم في الآخرة، ووثقوا بقول الله تعالى: لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ [فاطر:30]، هذه حالة المصدقين. وأما حال المكذبين فقد سمعنا ما ذكر الله تعالى عنهم في الآيات التي في سورة الإسراء، وهي قول الله تعالى: إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً [الإسراء:47-48]، ثم يقول تعالى: وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ [الإسراء:49-51] ، فهذه حجة عليهم: أن الذي يعيدكم هو الذي فطركم أول مرة، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ أي: متى هذا البعث؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً [الإسراء:51] ، يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً [الإسراء:52]. إذا دعاهم وأخرجهم تذكروا هيئتهم الأولى، وقالوا: كم لبثتم؟ يظنون أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا أياماً قليلة، يوماً أو بعض يوم، كما في آية أخرى، يقول تعالى عنهم: إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً [طه: 103] ، وأمثلهم وأعقلهم يقول: إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً [طه:104]، يتقالّون الزمن الذي لبثوه ومكثوه في الدنيا، وما ذاك إلا أنهم لما كانوا في سرور، مضت عليهم الأيام قصيرة، وبلا شك أنهم سيلقون بعد ذلك السرور جزاء ينسيهم ما كانوا فيه من قبل، فإنهم يعذبون في الآخرة أو يثابون في الآخرة، ورد في بعض الأحاديث: (يجاء بأشد الناس عذاباً في الدنيا من أهل الجنة فيغمس في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت سوءاً قط؟ هل مرت بك شدة قط؟

فيقول: لا يا رب! ما رأيت سوءاً قط، وما مرت بي شـدة قـط، ويجـاء بـأنعم الناس في الدنيا من أهل النار فيغمس في النار غمسة، فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت خيراً قط؟ هل مرت بك نعمة قط؟ فيقول: لا يا رب! ما رأيت خيراً وما مــرت بي نعمــة)، نسي النعمة الــتي كـانت في الــدنيا؛ وذلك لأن لحظة واحدة في النار تنسيه ما كان فيه من النعيم في الدنيا، ويضـرب بعضـهم مثل هذا فيقول: مسرة أحقاب تلقيت بعدها مسـاءة يـوم إنها شـبه أنصـاب فكيف بـأن تلقى مسـرة سـاعة وراء تقضـيها مسـاءة أحقـاب لو أن إنسـاناً نُعِّمَ في الـدنيا عشـرات السـنين، في ألذ وأنعم ما يكـون من الحيـاة والبهجـة، ثم بعد ذلك ناله عـذاب سـاعة واحـدة؛ نسي ذلك النعيم، ونسي تلك البهجـة، ونسي ذلك السرور، فكيف ونعيم الـدنيا بأسـرها قليـل! ونعيمك الـذي تناله أنت في عمرك أقل من القليل؟ كيف إذا تعقب هـذا النعيم العـذاب المسـتمر الـذي لا انقضاء له ولا انقطاع وهو عذاب الآخـرة، عـذاب النـار وبئس القـرار، فإنه هو الذي لا انقضاء له أبداً، فهذا يبين لك أن الدنيا قليل متاعها، وأن حظ الإنسـان منها أقل من القليل.

قرب قيام الساعة

وذكر أيضاً الآيات التي فيها ما يدل على قرب قيام الساعة، وقد يقول قائــل: قد مضى مئات السنين بعد نزول هذه الآيـات، مضى أربعة عشر قرنـاً وبعض قـرن، فكيف يقـال: إنها قـريب؟ الله تعـالى ذكر أنها قـريب في قوله تعـالى: يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنْ السَّاعَةِ قُـلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْـدَ اللَّهِ وَمَا يُـدْرِيكَ لَعَـلَّ السَّـاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً [الأحزاب:63] ، يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً [الأعراف:187] ، يعني: استعدوا لها فإنها تأتي على حين غفلة وبغتـة، فلابد أن تـأتي، فلما كنتم مؤمـنين بها وأنها تـأتي فكونـوا على أهبة في كل لحظـة، وفي كل وقت، ترقبوا أن تأتي الساعة في ذلك اليوم أو في تلك الليلة. يقول اللــه: يَسْــأَلُونَكَ عَنْ السَّــاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَــاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا [النازعات:42-44]، يعني: علمها، إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا [النازعات:45-46]، وفي آية أخرى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ [الأحقـاف:35] ، لم يلبثـوا في الـدنيا إلا سـاعة من نهـار، فالآيـات الـتي ذكر الله فيها أنها قريبـة: اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ [القمر:1] ، اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ [الأنبياء:1] ، أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ [النحل:1] ، تدل على أنها قريبـة، وقد أخـبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم بأنها قريبة وأن النـاس عليهم أن ينتظروهـا، بقولـه: (إذا ضـيعت الأمانة فـانتظر السـاعة) ، (إذا وسد الأمر لغـير أهله فـانتظر السـاعة) ، فـإذا

رأينا أماراتها وأشـراطها، فإننا ننتظر أن تـأتي السـاعة بغتة ليـأتي أمر اللـه. وأولها: أن ينفخ في الصور نفخة الفزع ونفخة الصـعق: وهي نفخة واحـدة، ثم بعدها تموت الأجساد وتفنى، ثم ينفخ فيه نفخة أخرى هي نفخة البعث والقيام من القبور، فيبعث الناس ويجتمعون في دار الجـزاء، وليس دون ذلك إلا أيـام قليلة. فالمسلم يكون متأهباً لذلك، حتى إذا جـاءه أمر الله يكـون على أهبـة، وقد أعد للساعة عدتها، وقد عمل عملاً صالحاً يكون سبباً في نجاته، كما كان كثير من السـلف -رحمهم اللـه- يهتمـون بـالآخرة، حـتى لو قيل لأحـدهم: إنك تموت هذا اليوم، لم يستطع أن يزيد في عمله، يعـني: قد بلغ أقصى ما يمكنه من العمل ومن الاجتهاد في الأعمال الصـالحة، بحيث إنه يـترقب المـوت في كل حالـة، ويمتثل قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (كن في الـدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) ، وقول ابن عمر رضي الله عنه: (إذا أمسـيت فلا تنتظر الصـباح، وإذا أصـبحت فلا تنتظر المسـاء) يعـني: تـرقب المـوت بينك وبين الصباح أو بينك وبين المساء، مخافة أن يأتيك أمر الله، ومن مات فقد قـامت قيامته.

قوله تعالى: (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم)

قال رحمه الله: [ومن هذا قوله: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِـيَ خَلْقَـهُ قَـالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَـــامَ وَهِيَ رَمِيمٌ [يس:78]ـ ، إلى آخر الســـورة، فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هــذه الحجة أو بمثلها في ألفاظ تشابهه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضع الأدلة وصحة البرهـان؛ لما قـدر، فإنه -سبحانه- افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد اقتضى جوابـاً، فكـان في قوله: (ونسي خلقه) ما وفّى بالجواب، وأقـام الحجة وأزال الشـبهة، لوما أراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرهـا، فقـال: قُـلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَـأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ [يس:79]ـ ، فاحتج بالإبداء على الإعـادة، وبالنشـأة الأولى على النشـأة الآخـرة، إذ كل عاقل يعلم -علمـاً ضـرورياً- أن من قـدر على هـذه قـدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكـان عن الأولى أعجز وأعجـز، ولما كـان الخلق يسـتلزم قـدرة الخـالق على مخلوقه وعلمه بتفاصـيل خلقـه، أتبع ذلك بقولـه: وَهُـوَ بِكُـلِّ خَلْـقٍ عَلِيمٌ [يس:79]ـ ، فهو عليم بتفاصـيل الخلق الأول وجزئياته ومواده وصورته، فكذلك الثاني، فـإذا كـان تـام العلم كامل القـدرة، كيف يتعــذر عليه أن يحـيي العظــام وهي رميم؟ ثم أكد الأمر بحجة قــاهرة وبرهان ظاهر يتضـمن جوابـاً عن سـؤال آخر يقـول: العظـام صـارت رميمـاً، وعـادت طبيعتها بـاردة يابسـة، والحيـاة لابد أن تكـون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة، بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب معـاً فقـال: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِـدُونَ [يس:80]ـ ، فـأخبر

سبحانه بإخراج هـذا العنصر الـذي هو في غاية الحـرارة واليبوسة من الشـجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، الذي يخـرج الشـيء من ضـده وتنقـاد له مـواد المخلوقـات وعناصـرها، ولا تستعصي عليـه، هو الـذي يفعل ما أنكـره الملحد ودفعه من إحيـــاء العظـــام وهي رميم. ثم أكد هـــذا بأخذ الدلالة من الشـيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصـغر، فـإن كل عاقل يعلم أن من قـدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قـدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً، فقال: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ [يس:81]ـ ، فـأخبر أن الــذي أبــدع السماوات والأرض على جلالتها وعظم شأنها وكبر أجسامها، وسـعتها وعظيم خلقها أقدر على أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال في موضع آخر: لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْـقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ [غـافر:57]ـ ، وقـال: أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَـقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَـوْتَى [الأحقـاف: 33]. ثم أكد سـبحانه ذلك وبينه ببيـان آخـر: وهو أنه ليس فعله بمنزلة غـيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقة ولا يمكنه الاسـتقلال بالفعـل، بل لابد معه من آلة ومعين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادتـه، وقوله للمكـون: كن؛ فـإذا هو كـائن، كما شـاء وأراده، ثم ختم هـذه الحجة بإخبـاره أن ملكـوت كل شـيء بيـده فيتصـرف فيه بفعل وقوله (وإليه ترجعون) ومن هذا قوله سبحانه: أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْـرَكَ سُـدًى * أَلَمْ يَـكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَـقَ فَسَـوَّى * فَجَعَـلَ مِنْـهُ الـزَّوْجَيْنِ الـذَّكَرَ وَالأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِـكَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَـوْتَى [القيامـة:36-40]، فـاحتج سـبحانه على أنه لا يتركه مهملاً عن الأمر والنهي والثـواب والعقـاب، وأن حكمته وقدرته تـأبى ذلك أشد الإبـاء، كما قـال تعـالى: أَفَحَسِـبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ [المؤمنون:115]، إلى آخر السورة. فإن من نقله من النطفة إلى العلقـة، ثم إلى المضـغة، ثم شق سـمعه وبصـره، وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع والأعصاب والرباطات التي هي أســره، وأحكمــه، وأحكم خلقه غاية الإحكــام، وأخرجه على هـــذا الشـــكل والصـــورة الـــتي هي أتم الصـــور وأحسن الأشـــكال، كيف يعجز عن إعادته وإنشـائه مـرة ثانيـة؟ أم كيف تقتضي حكمته وعنايته به أن يتركه سـدى؟ فلا يليق ذلك بحكمته، ولا تعجز عنه قدرته، فانظر إلى هـذا الاحتجـاج العجيب من قول وجيز، الذي لا يكون أوجز منـه.]. هـذه الآيـات في آخر سـورة يس احتج الله بها على بعض المشركين، روي أن الوليد بن المغـيرة أو العـاص بن وائل جاء ومعه عظم ميت قد بلي، وجعل يفتـه، وقـال: أتـزعم -يا محمـد- أن ربك قادر على أن يعيد هذا حياً بعد أن صار فتاتاً وتراباً؟ فقـال: (نعم، يميتك اللـه، ثم يحييك، ثم يحشـرك إلى جهنم، ونـزل فيه هـذه الآيـات، وهي قوله تعـالى: أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ [يس:77]) ، فهذه هي الحجة الأولى، يذكره الله بأنه خلق من نطفة، والنطفة: ماء قذر لو تــرك لحظة لفسد، فالله هو الذي أوجد الإنسان وخلقه من هذه النطفـة، ثم طـوره إلى أن أخرجه إنساناً سوياً، وجعله بشراً متكامل الخلق، فـإذا هو يخاصم ربه

ويجادله. ثم قال تعالى: وَضَـرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِـيَ خَلْقَـهُ قَـالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَـامَ وَهِيَ رَمِيمٌ [يس:78] ، وهذا المثل كونه أتى بالعظم يفته، ونسي مبدأ خلقه، نسي أن الله هو الذي أوجده من تلك النطفة إلى أن صـار رجلاً، ونسي قـول الله تعـالى له ولغـيره: أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَـاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَـاهُ فِي قَـرَارٍ مَكِينٍ [المرسلات:20-21]، نسي مبـدأ خلقه فقـال: مَنْ يُحْيِ الْعِظَـامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، والآيات التي بعدها في تقرير البعث وفي الرد عليه: الحجة الأولى: قُـلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ [يس:79] ، فإن الذي ابتدأ الخلق قادر على أن يعيده، وليس بدأ الخلق أهون من إعادته، هـذه حجة قاطعة لكل خصـومة؛ وذلك لأن الله هو الـذي ابتـدأ خلق الإنسـان وأحيـاه في هـذه الـدنيا، وكـذلك سـائر المخلوقـات، فقـدر الله أنها تتوالـد، وأنها تنشـأ، وأنها توجد على هـذه الحيـاة شيئاً فشيئاً، فالذي أوجـده وخلقه وكونه وقـدر ما يقـدر عليه لا شك أنه قـادر على أن يعيده كما كان، فيقول تعالى: قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ [يس: 79]. الحجة الثانية: قوله: وَهُوَ بِكُلِّ خَلْـقٍ عَلِيمٌ [يس:79] ، يعـني: أنه عـالم بكل شـيء فلا يخفى عليه شـيء، فهو عـالم بعـدد المخلوقـات، وعـدد الرمل والتراب، وأبصر كل شيء فلم يحجب بصره حجاب، وسمع جهر القول وخفي الخطاب، لا يخفى عليه شيء من أمـور عبـاده، علم عـددهم قبل أن يخلقهم، وعلم آجـالهم، وعلم أعمـارهم، وعلم أعمـالهم، وعلم أوقـاتهم الـتي يولـدون فيها، فهو بكل خلق عليم، فإذا كان عليمـاً فلا يليق به أن يهمل خلقـه. الحجة الثالثة: قول الله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَـاراً [يس:80] ، يقولون: هناك شجر اسمه المرخ، وشجر اسـمه العفـار، يعرفه أهل البـوادي، إذا أرادوا أن يقدحوا ناراً قطعوا عودين أخضرين، وحزوا في أحدهما حـزاً، ثم إنهم يحركونه تحريكاً جيداً فتنقدح منه النار، ثم يجعلـون تلك الشـررات الـتي تنقدح منه في خرقة، ثم بعد ذلك ينفخونها، ثم يوقدونها ناراً، وكـان يغـني عن الكبريت الذي نستعمله وغيره، وهو معروف عند العرب قـديماً وعند البـوادي إلى حد قريب، يقولون: في كل شجر نـار، والله تعـالى هو الـذي يخـرج النـار من هذا العود الأخضر، النار طبيعتها حارة، وطبيعة هـذا العـود أنه رطب، وأنه مائي أخضر، ومع ذلك تنقدح منه هذه النار التي فيها هذه الحرارة، أليس ذلك دليلاً على أن الذي أوجد هذه الحرارة في هذا قادر على أن يعيد إلى الإنسان حياته، ولو كان تراباً؟ يعيده ويجمع أشلاءه ولو كانت متفرقة، ولو كانت رماداً أو ترابـاً، لا يستعصي عليه أن يعيد إليه حرارته الغريزية وحياته وطبيعتـه، كما لم يستعص عليه أن يخرج النار من ذلك الشـجر الأخضر الـذي توقـدون منـه. الحجة الرابعة: قول الله تعـالى: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ [يس:81] ؛ وذلك لأن خلق هذه السـماوات مع ارتفاعها وما فيها من الأفلاك وما فيها من النجـوم السـائرة والثابتـة، وما فيها من الشـمس والقمر وهـذه الأجـرام العلويـة، وكـذلك هـذه الأرض وما فيها من الشعاب والجبال والمهـاد؛ أعظم من خلق الإنسـان، فـإن المخلوق العظيم يدل على عظمة خالقه. إذاً: القـادر على أن يخلق مثل هـذه الأشياء قادر على أن يعيد الإنسان -مع صـغره ومع حقارتـه- كما كـان. يقـول الشارح كما سمعنا: من قدر على أن يحمل قنطاراً، لم يصعب عليه أن يحمل

أوقية، القنطـار: هو ملء مسك الثـور من الـذهب أو نحـوه -ملء جلد الثـور-، والأوقية ملء اليد، فالذي يقدر على أن يخلق هذه المخلوقات العلوية الكبيرة لا يستعص عليه أن يوجد الإنسان. الحجة الخـامس: قولـه: إِنَّمَا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُـونُ [يس:82] فالله ليس كالـذي يحتـاج إلى حرفة وإلى صنعة وإلى عمل وإلى مواد يجمعها، الصانع إذا أراد أن يصـنع مثل هـذه الطاولة، لابد أن يأتي بأعواد ولابد أن يـأتي بمنشـار، ولابد أن يقيس، ولابد أن يسويها بآلة إلى أن تستوي، وكذلك من يصـنع مثل هـذا الزجـاج لابد أن يـأتي بالمواد التي يصنع منها، إلى أن يكـون منها ما يصـنع، أما الـرب تعـالى فإنه لا حاجة به إلى م

تفصيل الشريعة لما يكون بعد البعث

البعث وما بعده من الجزاء والحسـاب والثـواب والعقـاب والحـوض والمـيزان والعرض وما أشبه ذلك، كل ذلك داخل في الإيمـان بـاليوم الآخـر، والشـريعة الإسلامية قد فصـلت ذلـك، وفي القـرآن والسـنة من ذلك ما لم يكن مفصـلاً في الكتب قبله، والإيمان باليوم الآخر قد توافقت عليه شرائع الأنبياء، وكتبهم المنزلة عليهم متفقة على الإيمـان بـأن هنـاك بعثـاً بعد المـوت وجـزاءً على الأعمال خيرها وشرها. وكذلك هناك حساب عسير أو حساب يسـير كما أخـبر الله. وهناك وقوف في الموقف الذي هو موقف الناس: يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَـالَمِينَ [المطففين:6] ، وتضـمنت الشـريعة إثبـات البعث الـذي هو بعث الأجساد وإعادتها بعد أن كانت تراباً ورميماً، وذلك يسير على الله تعالى.

الحجج العقلية على البعث

وردت الأدلة الكثيرة في القرآن في تقرير هذا البعث، ومـرت بنا آيـات توضح ذلــك، وأن الله تعــالى يحتج على البعث بحجج عقلية معقولة مشــاهدة، وقد احتج على المنكرين بما يلي: 1- بإحيـاء الأرض بعد موتهـا، يقـول الله تعـالى: يُخْـــرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْـــرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَيُحْيِ الأَرْضَ بَعْـــدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ [الروم:19] ، لما ذكر أنه يحيي الأرض بعد موتها أخبر بأنهم كذلك يخرجون من الأرض، ويقول تعالى: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِـلُ الرِّيَـاحَ بُشْـراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَـحَاباً ثِقَـالاً سُـقْنَاهُ لِبَلَـدٍ مَيِّتٍ يعـني: أرضـاً ميتة

كَـذَلِكَ نُخْـرِجُ الْمَـوْتَى [الأعـراف:57] يعـني: كما تحيا هـذه الأرض الهامـدة اليابسة الـتي ليس فيها عـود أخضـر، وليس فيها ورقة خضـراء، يـنزل عليها المطر فيغمرهـا، فتصـبح بعد ذلك خضـراء تهـتز، فيها من أنـواع النباتـات المختلفة الطعوم والألوان والروائح والطبـائع والأضـراب، ولا شك أن ذلك آية ومعجـزة بينة على إخـراج المـوتى وإعـادتهم بعد أن يكونـوا ترابـاً. 2- ويحتج أيضاً: ببدء الخلق، فيقول تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْـدَأُ الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ وَهُـوَ أَهْـوَنُ عَلَيْهِ [الروم:27] ، أي: أنه كما بدأ خلق الإنسان وأحيـاه بعد أن كـان عـدماً، فكذلك يعيده بعد أن يكون تراباً، فالذي أخرج الإنسان بعد أن كان مـاءً مهينـاً، وبعد أن كـان نطفة قـذرة؛ أخرجه بشـراً سـوياً حيـاً متحركـاً عـاقلاً متكلمـاً فاهمـاً، له حركاته وله حواسـه؛ لا شك أنه قـادر على أن يعيـده بعد أن يكـون تراباً، ولو تفرقت أشلاؤه، ولو أكلته الدود أو أكله التراب أو رمي في البحر أو صار رماداً؛ لا يعجز الله أن يعيده كما كان، فهذا من حجة الله على خلقـه. 3- كـذلك يحتج تعـالى بمخلوقاته العلوية والسـفلية الـتي هي أعظم من خلقـه، فيقول تعالى: لَخَلْـقُ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَـرُ مِنْ خَلْـقِ النَّاسِ [غـافر:57] ، ويقـول تعـالى: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَـقَ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ [يس:81] ، ويقـول تعـالى: أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَـقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَـوْتَى [الأحقـاف:33] ، ونحو ذلك من الأدلـة. 4- ويخـبر سـبحانه بأنه لا يحتـاج في خلقه ولا في تصـــرفه إلى حركة ولا إلى عمل ولا إلى معين ومســـاعد، وإنما يأمر أمراً لا يرد: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُـونُ [يس:82] ، فالذي تذل له المخلوقات وتطيعه كلها ولا تستعصي عليه، وإذا أمرها انقـادت لأمره؛ لا يستعصي عليه أن يعيد خلق الإنسان كما كان. فهذه من الأدلة الـتي سمعنا إيضاحها ودلالتها على إعادة الخلـق، ولا شك أن الإنسـان العاقل الـذي يسمع هذه الأدلة يقنع غاية القناعة، ويصـدق بـذلك غاية التصـديق، ويستسـلم لـذلك، ولا يبقى في قلبه شك ولا ريب، ولكن لا يكتفي بـأن يقـول: أنا مـؤمن وأنا مصـدق وأنا مـوقن بـذلك كلـه، وأنا لا أشك ولا أتـردد، ولكن يطلب منه العمل الذي يلقاه ذلك اليوم، فإن ذلك اليـوم لابد أن يكـون له عمـل، لابد أن يعمل العمل الذي ينجو به في ذلك اليوم، فإذا علم الإنسان أن ذلك اليوم يوم عسير، ويـوم طويل كـألف سـنة مما تعـدون، أو كخمسـين ألف سـنة، وأنه لا يخف إلا على أهل الإيمان، وعلم أن فيه حساباً، وأن الحسـاب يكـون عسـيراً إلا على أهل الإيمـان وأهل الأعمـال الصـالحة إذ إن الله يحاسـبهم حسـاباً يسيراً، وعلم أن فيه وزناً للأعمال، وأنها تخف وتثقل، وأن الـذي تثقل موازينه هم أهل السعادة وهم أهل الأعمال الصالحة، وأن الله تعالى سريع الحسـاب، يحاسـبهم في طرفة عين، ولا يشـغله شـأن عن شـأن، وعلم أيضـاً: أن فيه تتطاير الصحف، فآخذ كتابه بيمينـه، وآخذ كتابه بشـماله أو من وراء ظهـره؛ لا شك أنه يستعد لمثل هذه الأشياء، فيعلم أنها لا تحصل إلا بعمـل، فيسـأل عن العمل، ويتقرب بذلك العمل.

من اعتقــاد أهل الســنة والجماعة الإيمــان بــاليوم الآخــر، وما ذكر فيه من المواقف كالعرض الأكبر والحشر والمـيزان والصـراط وغـير ذلـك، ومن أنكر ذلك من الفلاسفة وغيرهم فالأدلة العقلية والنقلية ترد عليهم.

ذكر مواقف القيامة

قد عرفنا أن من أركـان الإيمـان: الإيمـان بـاليوم الآخر -وهو يـوم القيامـة-، وسمي باليوم الآخر؛ لأنه ليس بعـده يـوم، وتلك الـدار تسـمى الـدار الآخـرة، فاليوم الأول هو الدنيا، وهي تعتبر كأنها يـوم، ثم اليـوم الآخر هو ما يكـون بعد البعث، فعندنا يومان: الدنيا يوم، والآخرة يوم، والدنيا سـميت بـذلك لأنها دنية أو دانية، والآخرة سميت بذلك لأنها متأخرة عن هذه الدنيا، أو لأنها آخر ما يمر به الإنسان، وليس بعدها يوم، بل هي مستمرة دائماً وأبداً، وأول ما يكون في اليوم الآخر هو البعث، الـذي هو إعـادة النـاس وإحيـاؤهم بعد تفـرق أشـلائهم وأجـــزائهم، وبعد صـــيرورتهم ترابـــاً ورفاتـــاً، هـــذا أول ما يكـــون في ذلك اليوم. ......

الحشر

بعد العبث يكون الحشر، يعـني: سـوقهم إلى الموقـف، وقد أخـبر الله تعـالى بأنهم يحشرون على هـذه الأرض، والمجرمـون يحشـرون: زُرْقـاً * يَتَخَـافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً [طه:102-103]، يقول بعضـهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا عشرة أيام، ويقول (أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَـةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمـاً)، فـأول شـيء بعد البعث أنهم يحشرون، يعني: يساقون إلى الموقف.

الموقف

الموقف هو موضع خصصه الله على وجه الأرض، وقد أخـبر الله بـأن الأرض تبدل، يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ [إبراهيم:48] ، وأخـبر بأنها تمد مـداً، وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ [الانشــقاق:3-5]، أي: تمد كما يمد الأديم العكـاظي، وكـذلك يـزال ما عليها من البنيـان، وتـزال الجبال التي عليها، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ [القارعة:5] ، تتفتت أولاً

وتصير كالرمل كما في قوله تعالى في قولـه: كَثِيباً مَهِيلاً [المزمـل:14]، ثم بعد ذلك تكون كالهبـاء الـذي يسـير، تَحْسَـبُهَا جَامِـدَةً وَهِيَ تَمُـرُّ مَـرَّ السَّحَابِ [النمل:88] أي: كأنها السحاب الذي هو هباء -غيم- وبعد ذلك يـزال ما عليهـا، يقول الله تعـالى: لا تَـرَى فِيهَا عِوَجـاً وَلا أَمْتـاً [طـه:107] أي: مسـتوية ليس فيها منخفض ولا مرتفع، تزال الأشجار، وتزال الجبـال، وتـزال الأبنيـة، وتـزال الكثب والمرتفعات.. ونحو ذلك، ويقوم الناس عليها: أولهم وآخرهم، يجمعـون كلهم، يقول الله تعـالى: قُـلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِـرِينَ * لَمَجْمُوعُـونَ إِلَى مِيقَـاتِ يَـوْمٍ مَعْلُـومٍ [الواقعـة:49-50]، فـأخبر أن أولهم وآخـرهم كلهم مجموعـون مجتمعون في ذلك اليوم الذي هو يـوم الجمع ويـوم العـرض. والعـرض يكـون على الله تعالى، ولكن بعد أن تطول المدة في ذلك الموقف، وبعـدما يلحقهم التعب والعناء، فيستشفعون إلى الله تعالى بالأنبياء، ويشـفع محمد صـلى الله عليه وسلم لينزل الله تعالى لفصل القضاء، ثم بعد ذلك العـرض، وهو عـرض الناس، يقول الله تعالى: وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَـفّاً [الكهـف:48] أي: صـفوفاً: صفاً بعد صف؛ ليحاسبهم، وقد أخبر تعالى أنه يحاسـبهم، وكـذلك أخـبر النـبي صلى الله عليه وسلم أن الناس يحاسبهم الله ويناقشهم، ويذكرهم بكذا وكذا، (ما منكم من أحد إلا سـيكلمه ربــه، ليس بينه وبينه ترجمــان) ، وأخـبر الله تعالى أنه سريع الحساب، لا يشغله شأن عن شأن.

أهوال يوم القيامة

من الأهوال التي تكون في يوم القيامة: نصب الميزان، وتطاير الصحف، فـإن الناس يأتيهم الهـول عنـدما تنصب المـوازين، حـتى يعلم: هل يخف ميزانه أم يثقل؟! وعندما تتطاير الصـحف، حـتى يعلم: هل يأخذ كتابه بيمينـه، أم يأخـذه بشماله؟! فإذا ثقلت موازينه نودي: سـعد فلان سـعادة لا يشـقى بعـدها أبـداً، وإذا أوتي كتابه بيمينه كذلك يفوز فوزاً عظيماً، ويقــرأ كتابه ويعرضه على من يعرفـه، ويقـول: هَـاؤُمْ اقْـرَءُوا كِتَابِيَـهْ [الحاقـة:19] ، وكل ذلك مفصل في القرآن بعبارات واضـحة لا يعتريها شـيء من الشك والـريب، ولكن الفلاسـفة الــذين ينكــرون هــذه الأشــياء حقيقة يتســلطون على تأويلها وصــرفها عن ظاهرهـا؛ حـتى تسـلم لهم عقيـدتهم، كما تسـلط إخـوانهم من المعتزلة على نصوص الصفات فتأولوهـا، ففتحـوا للنـاس بـاب التأويـل. وهـذه الأمـور الـتي وردت في القرآن لا يتم إيمان العبد إلا بتحققها، وتيقنها، ومعرفة أنها صـحيحة ثابتــة، ولا يعلم ذلك إلا بالاســتعداد لها والتــأهب؛ لأن من آمن بــاليوم الآخر استعد لذلك اليـوم، وتـأهب لـه، وعمل العمل الصـالح الـذي يكـون سـبباً في نجاته وسبباً في فوزه، أما من يصدق به بلسانه ولكنه لا يستعد له؛ فـإن هـذا يقــول ما لا يفعــل، ولا ينفعه قوله بلســانه مــادام أنه لا يطبق ما يقولــه، كما

يقول بعضهم واصفاً هؤلاء المفرطين: ألسنة تصف، وقلـوب تعـرف، وأعمـال تخالف.

أدلة القرآن على اليوم الآخر

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (والعـرض والحسـاب وقـراءة الكتـاب والثواب والعقاب). قال الله تعالى: فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ * وَانشَقَّتْ السَّـمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَـةٌ * وَالْمَلَـكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِـلُ عَـرْشَ رَبِّكَ فَـوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَـةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُـونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَـةٌ [الحاقـة:15-18] .. إلى آخر السورة. وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيـهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَـوْفَ يُحَاسَـبُ حِسَـاباً يَسِـيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِـهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْـرِهِ * فَسَـوْفَ يَـدْعُو ثُبُـوراً * وَيَصْـلَى سَعِيراً * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَـانَ بِـهِ بَصِـيراً [الانشـقاق:6-15]. وقـال تعـالى: وَعُرِضُـوا عَلَى رَبِّكَ صَـفّاً لَقَـدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ [الكهف:48]، وقال تعالى: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُـوا حَاضِـراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَـداً [الكهـف: 49] ، وقال تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [إبـراهيم:48] .. إلى آخر السـورة. وقـال تعـالى: رَفِيـعُ الـدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ [غافر:15] ، إلى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ [غـافر:17] ، وقال تعالى: وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُـوَفَّى كُـلُّ نَفْسٍ مَا كَسَـبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُـونَ [البقـرة:281]. وروى البخـاري رحمه الله في صـحيحه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قـال : (ليس أحد يحاسب يـوم القيامة إلا هلـك، فقلت : يا رسـول اللـه! أليس قد قـال الله تعـالى : فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً [الانشقاق:7-8] ؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما ذلكِ العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب) ، يعـني: أنه لو نـاقش في حسـابه لعبيـده لعـذبهم وهو غـير ظالم لهم، ولكنه تعالى يعفو ويصفح، وسيأتي لـذلك زيـادة بيـان إن شـاء الله تعالى]. أورد المؤلف هذه الآيات، والقرآن مشـتمل -بإيضـاح- على ذكر الـدار الآخرة، وما يكون فيها.

النفخ في الصور

أول ما يكـون يقـوم القيامة النفخ في الصـور، وقد ذكر في القـرآن في عـدة مواضع، فذكر الله نفختين أو ثلاث نفخات، نفخة ذكر بعدها الفـزع في سـورة النمل: وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ [النمل:87] ، وسـميت في سـورة الزمر بنفخة الصـعق: وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَصَـعِقَ مَنْ فِي السَّـمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَـاءَ اللَّهُ [الزمـر: 68] ، يقول بعض العلماء: إنها نفختـان: نفخة الفـزع، ونفخة الصـعق، وقـال بعضـهم: بل نفخة واحـدة، يفزعـون في أولها ثم يصـعقون في آخرهـا، وقـال بعضهم: إن الفـزع صـعق، أي: مـوت، أي: أن أوله فـزع ثم مـوت. أما النفخة الثانية فهي نفخة البعث، وهي مذكورة في قوله: ثُمَّ نُفِخَ فِيـهِ أُخْـرَى فَـإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ [الزمر:68] ، وهي النفخة التي يبعثون بعدها، ورد في الحديث: (ما بين النفختين أربعون) ، وتوقف الراوي لا يـدري هل هي أربعـون يومـاً، أو أربعون شهراً، أو أربعون سنة؟! وجزم بعضهم أنها أربعون سـنة، أي: بين نفخ الصعق وبين نفخة القيام لرب العالمين. وبعد النفخة الثانية تسـوقهم الملائكة إلى الموقف، وهذا يسمى الحشر كما في قوله تعالى: وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَـادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً [الكهف:47] ، وبعد ذلك العرض كما في قوله: وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً [الكهف:48] أي: صفوفاً، وبعده الوقوف: وهو القيام الطويل. وإذا تأملنا النصوص وجدنا ما يؤيد هذه الأشياء في آيـات متتابعة متكـررة، فقوله تعـالى: فَـإِذَا نُفِخَ فِي الصُّـورِ نَفْخَـةٌ وَاحِـدَةٌ [الحاقـة:13] ، هي نفخة البعث أو نفخة الصـعق، وَحُمِلَتْ الأَرْضُ وَالْجِبَـالُ فَـدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِـدَةً [الحاقـة:14] أي: جعلت الأرض والجبال شـيئاً واحـداً، حـتى تكـون مسـتوية صـالحة لأن يوقف عليهـا، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ [الحاقة:15] أي: حصلت الواقعة التي هي يوم القيامة.

أسماء يوم القيامة

الله تعالى سمى يوم القيامة بأسماء عـدة، كما في قولـه: إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَـةُ [الواقعة:1]، وفي قوله: الْحَاقَّةُ [الحاقة:1]، وفي قوله: الْقَارِعَةُ [القارعة:1]، وسـماه بيـوم القيامة لا أُقْسِـمُ بِيَـوْمِ الْقِيَامَـةِ [القيامـة:1]، وسـماه بالطامة والصاخة، في قوله تعالى: فَإِذَا جَـاءَتْ الطَّامَّةُ الْكُبْـرَى [النازعـات:34]، فَـإِذَا جَاءَتْ الصَّـاخَّةُ [عبس:33]، وكل اسم له معـنى، فمعـنى كونها (طامـة) أنها تطم ما قبلها، وتنسي ما قبلها، والطم -في الأصل- هو التغطية، ومنه قـولهم: طم البئر إذا غطاها، أي: أنها طامة مذهلة، أو عامة لكل الخلق. وأما تسميتها بالصاخة فإنه لأجل ثقلها على الناس، والصخ أصله الضـرب بقـوة، أو الثقـل.. أو نحو ذلك.

هـذه الآيـات تخـوف بما اشـتملت عليـه، وذلك أن يـوم القيامة الـذي ذكر في قوله: وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ [البقرة:281] ، وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً [البقرة:48] ؛ لا شك أن هذا اليوم هو يوم الجـزاء، هو يوم الحساب، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [المطففين:6]. والآيـات الـتي ذكـرت فيها ووضـحت متقاربة المعـنى، وإن اختلفت الألفـاظ؛ وذلك لأن الله تعالى يذكره في كل مـوطن بما يناسـبه، والقصد من تكـرار ذكر يـوم القيامة تحققه، حـتى لا يقـال: إنه خيـال، أو إنه تقريـبي.. أو ما أشـبه ذلـك. وحـتى لا تتسلط عليه التأويلات التي يسلكها النفاة من الفلاسفة ونحوهم، فـإذا جمعت الآيـات بصـراحتها يعجـزون عن أن يصـرفوها. فلـذلك آمن أهل السـنة وآمن المسلمون بالبعث بعد الموت، وقـالوا: ليس في العقـول ما ينكـره، والقـدرة الإلهية عامة له ولغـيره، والعقل يقتضـيه لأجل الجـزاء على الأعمـال، ولأجل الانتقـــام من الظـــالم، وأخذ الحق للمظلـــوم، ولأجل إثابة المطيـــع، وعقوبة العاصي، وذلك لأننا نشاهد في الدنيا ظلمة يموتون وهم مصرون على الظلم، منهم من قتل، ومنهم من قطع طرفاً ظلماً، ومنهم من انتهب مالاً: سرقة، أو اختلاساً، أو غصـباً.. أو غـير ذلـك، ومنهم من انتهك عرضـاً؛ ومع ذلك يموتـون والحق عنـدهم، ولاشك أن الله تعـالى أعـدل من أن يـذهب صـاحب المظلمة دون أن ينتقم منـه؛ فلابد أن يكـون هنـاك يـوم آخر ينصف الله فيه المظلـوم، وينتقم من الظالم، ويجازيه بما يستحقه، فيكون ذلك هو اليوم الآخر الـذي هو يـوم القيامـة. كـذلك أيضـاً: نشـاهد أن هنـاك من يجد في العمـل، ويجتهد في الأعمال الصالحة، ويتقرب بالحسنات، ولا يأتيه جزاء في الدنيا إلا ما يجده من لذة الطاعة ونحوها؛ فلابد أن الله لا يضيع عمله، كما في قول الله تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً [الكهف:30] ، فإذاً: لا يضـيع أجـره ما دام أنه لم يتمتع من أجـره بشـيءٍ في الـدنيا، فـأجره يوفى إليه في الدار الآخرة، إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [الزمـر: 10]. كما أننا نشـاهد الكفـرة والفجـرة الـذين تمتعـوا في الـدنيا بشـهوات وملـذات، وهم يظهـرون الكفر والفسـوق والسـخرية بالرسـل، ويكـذبونهم ويسخرون من الحق، ويفعلون المعاصي ويتركون الطاعـات، ومع ذلك يمـوت أحدهم وهو على إصـراره، لم تنله عقوبة في الـدنيا. إذاً: لابد أن تكـون هنـاك دار أخرى يعاملهم الله فيها بما يستحقونه، أو يعاملهم فيها بعدله إذا لم يعـفُ عن المحسن منهم، فهذه الأمور العقلية تضطر المؤمن إلى أن يؤمن بـالبعث بعد الموت، وأن يتحقق وقوعه.

حديث: (إن الناس يصعقون يوم القيامة)

قال المؤلف: [وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور) ، وهذا صعق في موقف القيامة، إذا جاء الله لفصل القضاء، وأشرقت الأرض بنوره، فحينئذٍ يصعق الخلائق كلهم. فإن قيل: كيف تصنعون بقوله في الحديث: (إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش)؟ قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث، فركب بين اللفظين فجاء هذان الحديثان هكذا: أحدهما: (إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق..) ، كما تقدم، والثاني: (أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة) ، فدخل على الراوي وهذا الحديث في الآخر، وممن نبه على هذا أبو الحجاج المزي ، وبعده الشيخ شمس الدين بن القيم ، وشيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير رحمهم الله تعالى. وكذلك اشتبه على بعض الرواة فقال: (فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل)، والمحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول، وعليه المعنى الصحيح، فإن الصعق يوم القيامة من تجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء، فموسى عليه السلام إن كان لم يصعق معهم فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكاً، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً عن صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة، فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله. وروى الإمام أحمد و الترمذي و أبو بكر عن ابن أبي الدنيا عن الحسن قال: سمعت أبا موسى الأشعري يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فعرضتان: جدال ومعاذير، وعرضة: تطاير الصحف، فمن أعطي كتابه بيمينه، وحوسب حساباً يسيراً دخل الجنة، ومن أوتي كتابه بشماله دخل النار) ، وقد روى ابن أبي الدنيا عن ابن المبارك أنه أنشد في ذلك شعراً: وطارت الصحف في الأيدي منشرة فيها السرائر والأخبار تطلع فكيف سهوك والأنباء واقعة عما قليل ولا تدري بما تقع أفي الجنان وفوز لا انقطاع له أم الجحيم فلا تبقي ولا تدعُ تهوي بساكنها طوراً وترفعهم إذا رجوا مخرجاً من غمها قمعوا طال البكاء فلم يرحم تضرعهم فيها ولا رقة تغني ولا جزعُ لينفع العلم قبل الموت عالمه قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا]. تحقيقاً لما ذكرنا من الحشر والبعث بعد الموت أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أول من تنشق عنه الأرض، فدل على أنهم يجمع خلقهم ويكمل وهم في جوف الأرض، إما في نفس القبور، وإما بطن الأرض، ثم بعد ذلك تنشق الأرض عنهم فتخرج الأرواح والأجساد على وجه الأرض، فيقومون

من قبورهم كما في قوله تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ [يس:51] الأجداث: هي القبور، قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا [يس:52] ، كأنهم شعروا بأنهم قبل بعثهم كانوا نياماً قد رقدوا فيقال: هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ [يس:52]. والأنبياء لهم مزية، ونبينا صلى الله عليه وسلم أفضلهم، فهو أول من تنشق عنه الأرض، ثم بعد ذلك بقية الأنبياء، وأرواحهم في الملأ الأعلى، وكذا أرواح الشهداء قد رفعت، وأما أجسادهم فإنها في الأرض، بعد ذلك يبعثهم الله؛ لأنه أخبر بأن الأرض هي مرد كل إنسان في قوله تعالى: ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ [عبس:21]، وفي قوله: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى [طه:55]، وهذا يعم الأنبياء وغيرهم، وبعدما يجتمعون في ذلك المجمع، وذلك الموضع الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ولا يحصي عددهم إلا الله تعالى، ويطول وقوفهم، وقد أخبر في هذا الحديث أنهم يصعقون، وهذه صعقة جديدة، إما أنهم يسمعون صوتاً مزعجاً عندما تتشقق السماء بالغمام لتنزل الملائكة، فيكون من آثار تشققها أصوات مزعجة يصعق الناس فيها -يعني: يغشون- وتطول هذه الغشية، ويكون نبينا صلى الله عليه وسلم أول من يفيق، ولكن يجد موسى قد أفاق قبله، وفي ذلك مزية لموسى عليه السلام، يقول عليه الصلاة والسلام: (لا أدري هل أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟)، صعقة الطور: هي المذكورة في سورة الأعراف في قوله تعالى: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ [الأعراف:143]، فهذا صعق في الدنيا، يعني: كأنه جوزي بهذا الصعق. وبكل حال فهذا الصعق يكون في الموقف، وفي الموقف أيضاً -بلا شك- أهوال عظيمة منها: العرض على الله تعالى، ومنها نصب الموازين ومنها تطاير الصحف، ومنها نشر كتب الأعمال التي هي دواوين الأعمال، كل ينشر له ديوان فيه أعماله، يقول الله تعالى: وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [الإسراء:13-14] ، ويقرؤه من يقرأ ومن لا يقرأ، كما أخبر الله عنهم أنهم يقولون: يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً [الكهف:49]، فهذه -بلا شك- حقائق يقينية دل عليها القرآن، ودل على أنه يحضر للإنسان كل شيء عمله من الخير والشر، فيسره أن يجد الحسنات مضاعفة موفرة، وأما إذا وجد السيئات فيستاء لذلك ويحزن، يقول الله تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً [آل عمران:30]، ما عملت من خير تجده محضراً، وما عملت من شر -يعني: من سيئات- تتمنى أنه يبعد عنها، وأنها لم تره؛ وذلك لأن السيئات -بلا شك- تسوء صاحبها، ويخاف من الجزاء عليها. وبكل حال: هذه حقائق يجب الإيمان بها، ويجب أيضاً الاستعداد لها، والتأهب لما بعدها.

قال رحمه اللـه: [قولـه: (والصـراط): أي: ونـؤمن بالصـراط، وهو جسر على جهنم إذا انتهى النـاس بعد مفـارقتهم مكـان الموقف في الظلمة الـتي دون الصـراط، كما قـالت عائشة رضي الله عنهـا: إن رسـول الله صـلى الله عليه وسلم سئل: (أين الناس يَوْمَ تُبَـدَّلُ الأَرْضُ غَيْـرَ الأَرْضِ وَالسَّـمَوَاتُ [إبـراهيم:48]؟ فقـــال: هم في الظلمة دون الجســـر). وفي هـــذا الموضع يفـــترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنـون، ويحـال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم، وروى البيهقي بسنده عن مســروق عن عبد الله قال: (يجمع الله الناس يوم القيامة.. إلى أن قال: فيعطـون نـورهم على قـدر أعمـالهم قـال: فمنهم من يعطى نـوره مثل الجبل بين يديـه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نـوره مثل النخلة بيمينـه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر ذلك من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مـرة، فـإذا أضـاء قـدم قدمـه، وإذا طفئ قـام، قـال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دحض مزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكـوكب، ومنهم من يمر كـالريح، ومنهم من يمر كـالطرف، ومنهم من يمر كشد الرحل ويرمل رملاً، فيمــرون على قدر أعمالهم حتى يمر الـذي نـوره على إبهـام قدمـه، تجر يد وتعلق يـد، وتجر رجل وتعلق رجل، وتصيب جـوانبهم نـار، قـال: فيخلصـون فـإذا خلصـوا قالوا: الحمد لله الـذي نجانا منـكِ بعد أن أرانـاكِ، لقد أعطانا الله ما لم يعـطِ أحداً) الحديث]. هذا من الأهوال التي ذكرت في يوم القيامـة، ذكر الله تعـالى أن الأرض تبـدل، فسـئل النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (أين النـار يـوم تبـدل الأرض غير الأرض؟ فقال: في الظلمة دون الجسر)، وفي حديث ابن عباس : (إنهم على الصــراط)، وقد تكــاثرت الأدلة في أنهم يعــبرون على الصــراط، والصراط في الأصل: هو الطريق الذي يسار عليه، قال تعالى: اهْدِنَا الصِّـرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة:6]، وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْـتَقِيماً فَـاتَّبِعُوهُ [الأنعـام:153]، وهو صراط معنوي، وفي الآخرة صـراط حسي يعـبر النـاس عليـه، ويسـيرون عليـه، وهـذا الصــراط منصــوب على متن جهنم يمر النــاس عليه على قــدر أعمالهم. ......

تميز المؤمنين عن المنافقين عند المرور على الصراط

قد أخبر الله تعالى أنه يتمـيز المؤمنـون من المنـافقين في قـول الله تعـالى: نُـورُهُمْ بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَبِأَيْمَـانِهِمْ بُشْـرَاكُمْ الْيَـوْمَ جَنَّاتٌ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَـارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَـافِقُونَ وَالْمُنَافِقَـاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ [الحديـد:12-13]، إذا أعطـوا نـوراً وفـرقت

عليهم الأنوار انطفأ نور المنافقين، وسار المؤمنون بنورهم، فإذا ساروا تأخر المنافقون في تلك الظلمة، وعند ذلك يمنعون ويحجزون، ويقولون: انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ يعني: نأخذ قبساً نستضيء به من نوركم، فيقال: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً [الحديد:13]، ارجعوا إلى المكان الذي قسمت فيه الأنوار فيرجعون، فإذا رجعوا ضرب بينهم بسور: حاجز منيع له باب لا يدخل إلا من ذلك الباب بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ [الحديد:13]، فهذا الوقت الذي يتميز فيه المنافقون من المؤمنين. وقد ورد أيضاً: (يقال: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتمثل لكل فئة طاغوتها الذي كانت تعبده، فيمثل للنصارى تمثال على هيئة ما يعبدونه، ويقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، يقال: كذبتم ما اتخذ الله من ولد ولا صاحبة، ما تريدون؟ فيقولون: عطشنا يا رب! فيقال: ألا تردون؟ فيساقون إلى جهنم فيتساقطون فيها، وكذلك يقال لليهود، فيتساقطون فيها، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فإذا بقيت هذه الأمة أتاهم ربهم، فيقول: ماذا تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربكم، فإذا تجلى لهم سجدوا، فإذا سجدوا تمكن المؤمنون من السجود، ولم يتمكن المنافقون، كلما أراد المنافق أن يسجد خر لقفاه، وذلك قوله تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ [القلم:42-43]) أي: قد كانوا يدعون في الدنيا إلى الصلاة وهم سالمون فلا يسجدون، فكذلك إذا دعوا إلى السجود يوم القيامة وأرادوا أن يسجدوا لم يحصل لهم ولم يستطيعوا السجود، وهنالك تقسم عليهم الأنوار ويتميز المؤمنون عن المنافقين، وينادون المؤمنين: ألم نكن معكم؟ فيقولون: بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ [الحديد:14]، وهذا واضح في كلام الله. وفي الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الجسر الذي ينصب يوم القيامة على متن جهنم ويعبرونه، يقول العلماء: إن هذا هو المرور أو الورود، فالله تعالى أخبر أن كلاً يرد على النار فقال تعالى: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً [مريم:71-72]، فمرورهم على هذا الصراط هو ورودهم المذكور: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ، فأما المؤمنون المتقون فإن الله تعالى ينجيهم، ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا [مريم:72]، ولا تضرهم، بل كلما مروا على لهب منها طفئ اللهب، ويروى: (أن النار تقول: جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي ، فإذا عبروا يتساءلون: ألم يعدنا ربنا أننا نرد النار؟ فيقال: إنكم قد وردتموها وهي هامدة خامد)، هذا هو مرورهم على هذا الصراط.

وصف الصراط وصفة المرور عليه

ورد في وصف هذا الصراط أنه دحض مزلة تزل عنه الأقدام إلا من ثبته اللــه، وأنه أدق من الشعرة، وأحد من السيف الأبـتر، وأن النـاس يمـرون عليه على قدر أعمالهم أو على قدر النـور الـذي أعطـاهم اللـه، فمنهم من يكـون نـوره الذي أعطيه مثل الجبل، ولكن لا يضيء إلا له، ومنهم من يكون نوره أقل من ذلك، وبعضهم يعطى نوراً على رأس إبهام قدمه يضيء مـرة ويطفأ مـرة، إذا أضاء قدّم رجله وإذا طفئ وقف، يقول النبي صلى الله عليه وسلم في وصف مرورهم على الصراط: (منهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل والركــاب، ومنهم من يعــدو عــدواً، ومنهم من يمشي مشــياً، ومنهم من يزحف زحفــاً، وعلى جنبــتي الصــراط كلاليب مثل شــوك السعدان تخطف من أمرت بخطفه، فنـاج مسـلم، ومخـدوش، ومكـردس في النار)، هذه الكلاليب التي مثل شوك السـعدان تخطف العصـاة إذا مـروا على هذا الصراط من أهل كبائر الذنوب ونحوهم، فـإذا اختطفته وسـقط وتكـردس في النار عذب فيها بقدر عمله، أما الذين يعـبرون على هـذا الصـراط إلى أن يتجــاوزوه فأولئك هم الــذين يحمــدون العاقبة حــتى ولو كــان أحــدهم يزحف زحفــاً، ولكن في نهايته يـرى أنه سـلم، وأنه نجا فيحمد العاقبــة، (ويقــول إذا التفت إلى النار: الحمد الذي أنجاني منكِ، لقد أعطاني الله ما لم يعطه أحــداً من العالمين)، فاغتبط حيث نجا من عـذاب النـار الـتي عـذابها شـديد، وحرها شديد. المؤمن يتذكر مثل هذه الأهوال فيستعد لها، ويذكر بها إخوانه الغافلين ليسـتعدوا لهـا، وليعلمـوا أنها حق ويقين، وأنه ليس بينك وبين هـذا إلا خــروج هذه الروح من هذا الجسد، ثم بعد ذلك تلاقي أول الحساب.

لاشك أن مما يجب على المؤمن اعتقاده مما يكون يوم القيامة الصراط والميزان، لورود الآيات والأحاديث الدالة على ذلك، وقد ذكر العلماء تفاصيلها وصفاتها، ومتى تكون، كما ورد ذلك في الأحاديث والآيات.

وجوب الإيمان بتفاصيل اليوم الآخر ومنها المرور على الصراط

من الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بما أخبر الله ورسوله مما يكون يوم القيامة من طول الموقف فنؤمن بذلك اليوم يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [المطففين:6]، أخبر الله بعرض الناس على ربهم، وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ [الكهف:48]، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم (يحشرون حفاة عراة غرلاً، ودل على ذلك قوله: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ [الأنبياء:104]، وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ [الأنعام:94]. وأخبر الله تعالى بالحشر في قوله تعالى: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً [مريم:85-86]، والحشر: هو الجمع يوم القيامة. وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بتطاير الصحف، وبأنهم: يأخذون صحفهم وكتبهم بأيمانهم أو بشمائلهم من وراء ظهورهم. وأخبر الله تعالى بالحساب: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [الإسراء:14]، ويقول صلى الله عليه وسلم: (من نوقش الحساب عذب). وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بالحوض المورود يوم القيامة، ومن يرده، ومن يذاد عنه. وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بالصراط الذي ينصب على متن جهنم، يجتازه الناس على قدر أعمالهم وعلى قدر إيمانهم، سيراً سريعاً أو سيراً بطيئاً. وأخبر الله تعالى بالميزان فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ [المؤمنون:102-103]. وأخبر الله تعالى وأخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه التفاصيل، ومن جملتها: كون الرب سبحانه وتعالى يبرز لعباده ويسجد له المؤمنون، ولا يستطيع المنافقون السجود كما في قوله تعالى: وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ [القلم:42]، أخبر الله بأن نور المؤمنين (يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ [التحريم:8]، وبأن نور المنافقين ينطفئ إذا بدءوا في السير، ويقولون للمؤمنين: انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ [الحديد:13]، وتفاصيل يوم القيامة كثيرة، وهذه من جملتها. والإيمان باليوم الآخر يلزم منه أن يؤمن بكل هذه التفاصيل، ما سمي منها وما لم يسمَّ، ما فصل منها وما أجمل، ومن آمن بذلك اليوم آمن بكل ما فيه، والنهاية قول الله تعالى: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ [الشورى:7]. وأخبر الله وأخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بالأعمال التي تدخل النار، والتي تدخل الجنة. وأخبر الله وأخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بمن يخرج من النار بشفاعة الشافعين أو برحمة الله تعالى، ومن لا يخرج منها بل يخلد فيها،

فكل هذه من التفاصيل التي وردت عن اليوم الآخر الذي هو يوم القيامة، فمن آمن باليوم الآخر آمن بكل ذلك. من أركان الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فاليوم الآخر هو: ما بعد الموت وما بعد البعث، وما بعد ذلك إلى ما لا نهاية له، هذا كله اليوم الآخر الذي يؤمن به المؤمنون، ويصدقون بتفاصيله، ولا شك أن من صدق به لا يكون تصديقه مجرد قوله: آمنت بذلك وصدقت به، بل يكون من آثار تصديقه العمل الصالح الذي يستعد به لذلك، فيستعد به حتى يكون نوره كالشمس، يستعد بالعمل الصالح الذي يرجح به ميزانه، يستعد بالعمل الصالح الذي يسير به على الصراط كالبرق، يستعد بالعمل الصالح الذي يؤتى به كتابه بيمينه، ويقول: هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ [الحاقة:19]. وهكذا بقية الأشياء التي تكون في ذلك اليوم، لابد من عمل صالح يسلم به من طريق أهل الجحيم، ويفوز بطريق أهل النعيم. ......

اختلاف العلماء في معنى قوله تعالى: (وإن منكم إلا واردها)

قال المؤلف رحمنا الله تعالى وإياه: [واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا [مريم:71]، ما هو؟ والأظهر والأقوى: أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً [مريم:72]، وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسي بيده! لا يلج أحد بايع تحت الشجرة، قالت حفصة فقلت: يا رسول الله! أليس الله يقول: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا [مريم:71]، فقال: ألم تسمعيه قال: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً [مريم:72])، أشار صلى الله عليه وسلم إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا يستلزم حصوله، بل يستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه؛ يقال: نجاه الله منهم، ولهذا قال تعالى: وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً [هود:58]، وقال تعالى: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً [هود: 66]، وقال تعالى: وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً [هود:94]، ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك، وكذلك حال الواردين النار يمرون فوقها على الصراط، ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً [مريم:72]، فقد بين صلى الله عليه وسلم في حديث جابر المذكور: (أن الورود هو المرور على الصراط)، وروى الحافظ أبو نصر الوائلي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: (علم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت ألا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدثن في دين الله حدثاً برأيك)، أورده القرطبي، وروى أبو بكر أحمد بن سليمان النجاد عن يعلى بن منية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جُزْ يا مؤمن! فقد أطفأ نورك لهبي)]. قول الله تعالى -لما ذكر النار في سورة مريم-: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً

[مريم:71]، ظاهره أن كل النـاس واردو النـار، كلهم لابد أن يـردوا النـار، ما هذا الـورود؟ ورد في بعض الأحـاديث قوله صـلى الله عليه وسـلم: (من فعل كذا لم يدخل النار إلا تحلة القسم)، والمراد: الورود المـذكور في هـذه الآيـة، وقوله: (تحلة القسم) كـأن الله أقسم بـأنكم لابد أن تردوهـا، لابد من الـورود لها، والأصل أن الورود: هو الإتيان إلى الشيء، ومنه تسـمية الإبل الـتي تـأتي إلى المـاء وروداً، يقـال: وردت الإبل الميـاه. يعـني: جـاءت إليهـا، وأخـبر الله تعالى عن آل فرعون أنهم يردوها في قوله تعالى: فَأَوْرَدَهُمْ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ [هود:98]، فظـاهر هـذا أنه أدخلهم فيهـا، فهم وردوا إليها وسـقطوا فيهـا، وفي بعض الأحـاديث أنه (في يـوم القيامة يقـال لليهـود: ما تعبـدون؟ فيقولون: نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم لم يتخذ الله من صـاحبة ولا ولـد، ماذا تريدون؟ فيقولـون: يا رب! عطشـنا، فيقـال: ألا تـردون؟ فيسـاقون إلى النار فيتساقطون فيها، وكذلك يقال للنصارى: ألا تردون؟ فيساقون إلى النـار ويتساقطون فيهـا)، فـالورود في هـذه الآيـات وفي هـذه الأحـاديث لا شك أنه الوصول إليهـا. إذاً: كيف يكـون ورود الأتقيـاء وورود الأنبيـاء وورود الصـالحين وورود الصحابة الذين لابد أن يردوها: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا [مـريم:71]؟ الله يخاطب الصحابة ويخاطب المؤمنين كلهم بأنه لابد أن كلاً منكم واردهـا، كَـانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً [مريم:71]، حتماً: يعني: أمراً محتومـاً لابد منـه، مقضـياً، ثم قال تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً [مريم:72]، فـأخبر أنه ينجي أهل التقـوى، ويبقى أهلها الظـالمون جـاثين فيهـا، والأشـهر أن هـذا الورود هو المرور على الصراط. وقد تقدم أن الصراط: جسر مزلة، منصـوب على متن جهنم، أحد من السـيف، وأدق من الشـعرة، يمر النـاس عليه بأعمـالهم، يمـرون على هـذا الجسر الـذي هو أحد من السـيف، وأدق من الشعرة، وكيف يمرون عليـه؟ يمـرون عليه بأعمـالهم، هو منصـوب على متن جهنم، فـإذا مر المـؤمن فإنه بنـوره وبإيمانه لا يحس بحـرارة ولا يحس بلهب، ولذلك تقول له النار: (جز يا مؤمن فقد أطفأ نـورك لهـبي)، والنـار أخـبر الله تعالى بأن لها لهباً، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ [المسد:3]، فلهيبها ينطفئ من نور المـؤمن، إذا مر المـؤمن انطفـأ، ولا يحس بـأن تحته نـاراً، ثم يمر على هـذا الصراط كالبرق، تشاهدون البرق عنـدما يخطف في السـماء من هنا ومن هنا أسرع من طرفة العين، ويمر بعضـهم كـالريح، الـريح المسـرعة الـتي تسـوق السـحاب، ومنهم من يمر كأجاويد الخيـل، الجـواد من الخيـل: هو السـابق، ومنهم من يمر كأجـايود الركـاب، ومنهم من يعـدو عـدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً؛ فسيرهم على قدر أعمالهم. فـإذاً: قولـه: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا [مـريم:71] المـراد: أنكم لابد أن تمـروا عليها مـروراً على الصراط وإن لم يحس بها المؤمنـون، وفي بعض الآثـار: (أنهم يقولـون بعـدما يدخلون الجنة: أليس قد أخبر الله أنا نرد النار، أين النار ما شعرنا بها؟ فيقـال لهم: مـررتم عليها وهي خامـدة)، يعـني: بمـرور المؤمـنين تخمد فلا يحسـون بلهب، ولا يحسون بحرارة أبداً. وأما المنافقون والعصـاة وأهل الكبـائر فـإنهم يخطفـون وهم على الصـراط، وقد أخـبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم في الحديث: (إن على جنبـتي الصـراط كلالي)، والكلاليب هي جمع الكلـوب، وهو

الحديدة المحنية الرأس المحددة، هذه الكلاليب مثل شوك السعدان، يعني: كلاليبها كثيرة، إلا أنه لا يقدر قدرها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، تخطف من أمرت بخطفه، فتخطف الرجل، وتخطف اليد، وتخطف بعد نصف الطريق، وتخطف بعد ثلثه، وتخطف عند آخره، فمن نجا منها نجا، ولو أصابه خدش، ولو أصابه خطف، ولو أصابه حرارة ؛إذا نجا منها وجاز الصراط -ولو بعد مائة سنة أو نحوها- (التفت إلى النار وقال: الحمد لله الذي نجاني منكِ، لقد أعطاني الله ما لم يعط أحداً من خلقه)؛ وذلك لأنه نجا من عذاب النار التي عذابها شديد ومستمر، فرأى أن ذلك سعادة وأي سعادة! ولو أن غيره قد ظفر بالنجاة قبله! في حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن المؤمنين يدخلون الجنة ولا تمسهم النار)، فاستشكلت عائشة الآية: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا [مريم:71]، وقالت: كيف وقد قال الله: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ؟ فظاهرها أن الجميع يريدونها ويدخلونها؟ لكن النبي صلى الله عليه وسلم بين لها أن الورود يكون للجميع، ولكن ينجي الله تعالى المؤمنين المتقين، يقول تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا [مريم:72]، كيف ينجيهم؟ هل يدخلونها ثم يرجعون منها؟ لا يلزم أنهم دخلوها، بل كل من تجاوزها يقال: نجا من النار، كل من مر على الصراط حتى انتهى يقال له: لقد أنجاك الله من النار، يعني: سلمك منها، أنقذك من دخولها، فكل من سلم من شر يقال: هذا قد نجا، ولا يلزم أنه قد دخل فيه ثم أخرج، فإن النجاة تستعمل فيمن سلم من العذاب الذي عذب به غيره، ولا يلزم أن يكون العذاب قد أصابه، فقول الله تعالى عن لوط وأهل بيته: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ [العنكبوت: 32] معناه: أنا نخرجه حتى يسلم من العذاب، فلا يدخل العذاب ولا يحس به، وهكذا النجاة من النار. وأنت دائماً تدعو فتقول: اللهم نجنا من النار! رب نجني من عذاب النار! وكذلك حكى الله عن الذين آمنوا بموسى، قولهم: رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [يونس: 85-86]، يعني: سلمنا وأنقذنا، فكل من سلم من العذاب فإنه ناجٍ، فهكذا قوله: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا [مريم:72] يعني: أنهم يسلمون من العذاب، ويمرون عليها وقد انطفأ لهبها، فلا يحسون بشيء من لهبها.

اختلاف العلماء في معنى قوله تعالى: (وإن منكم إلا واردها)

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا [مريم:71]، ما هو؟ والأظهر والأقوى: أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً [مريم:72]. وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسي بيده! لا يلج أحد بايع تحت الشجرة، قالت حفصة فقلت: يا

رسول اللـه! أليس الله يقـول: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا [مـريم:71]، فقـال: ألم تسـمعيه قـال: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَـوْا وَنَـذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّـاً [مـريم:72]). أشار صلى الله عليه وسلم إلى أن ورود النار لا يسـتلزم دخولهـا، وأن النجـاة من الشر لا تسـتلزم حصـوله، بل تسـتلزم انعقـاد سـببه، فمن طلبه أعـداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه؛ يقال: نجاه الله منهم، ولهـذا قـال تعـالى: وَلَمَّا جَـاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً [هود:58]، وقال تعالى: فَلَمَّا جَـاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـالِحاً [هـود: 66]، وقال تعالى: وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُـعَيْباً [هـود:94]، ولم يكن العـذاب أصـابهم، ولكن أصـاب غـيرهم، ولـولا ما خصـهم الله به من أسـباب النجـاة لأصـابهم ما أصـاب أولئـك. وكـذلك حـال الـواردين النـار يمـرون فوقها على الصراط، ثُمَّ ينجي الله الَّذِينَ اتَّقَـوْا ويـذر الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّـاً، فقد بين صـلى الله عليه وسـلم في حـديث جـابر المـذكور: (أن الـورود هو المـرور على الصراط. وروى الحافظ أبو نصر الوائلي عن أبي هريـرة رضي الله عنه قـال: قال صلى الله عليه وسلم: (علم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت ألا توقف على الصـراط طرفة عين حـتى تـدخل الجنة فلا تحـدثن في دين الله حدثاً برأيك)، أورده القرطبي، وروى أبو بكر أحمد بن سلمان النجاد عن يعلى بن منية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تقول النار للمـؤمن يـوم القيامة: جُزْ يا مؤمن! فقد أطفأ نورك لهبي)]. قول الله تعالى -لما ذكر النـار في سورة مريم-: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَـانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمـاً مَقْضِـيّاً [مـريم: 71]، ظـاهره أن كل النـاس واردو النـار، فما هـذا الـورود؟ ورد في بعض الأحاديث قوله صلى الله عليه وسـلم: (من فعل كـذا لم يـدخل النـار إلا تحلة القسم)، والمراد الورود المذكور في هـذه الآيـة، وقولـه: (تحلة القسـم) كـأن الله أقسم بـأنكم لابد أن تردوهـا، لابد من الـورود لهـا. والأصل أن الـورود هو الإتيـان إلى الشـيء، ومنه تسـمية إتيـان الإبل إلى المـاء وروداً، يقـال: وردت الإبل المياه. يعني: جاءت إليها، وأخبر الله تعالى عن آل فرعـون أنهم يردونها في قوله تعالى: فَأَوْرَدَهُمْ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ [هود:98]، فظـاهر هـذا أنه أدخلهم فيها، فهم وردوا إليها وسقطوا فيها، وفي بعض الأحـاديث أنه (في يوم القيامة يقال لليهود: ما تعبدون؟ فيقولون: نعبد عزيـراً ابن اللـه، فيقـال: كـذبتم لم يتخذ الله من صـاحبة ولا ولـد، مـاذا تريـدون؟ فيقولـون: يا رب! عطشنا، فيقـال: ألا تـردون؟ فيسـاقون إلى النـار فيتسـاقطون فيهـا، وكـذلك يقال للنصارى: ألا تردون؟ فيساقون إلى النار ويتساقطون فيها)، فالورود في هذه الآيات وفي هذه الأحاديث لا شك أنه الوصول إليها. إذاً: كيف يكـون ورود الأتقياء وورود الأنبياء وورود الصالحين وورود الصـحابة الـذين لابد أن يردوهـا: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا [مريم:71]؟ الله يخاطب الصـحابة ويخـاطب المؤمـنين كلهم بأنه لابد أن كلاً منكم واردها، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمـاً [مـريم:71]، يعـني: أمراً محتومـاً لابد منـه، ثم قـال تعـالى: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَـوْا وَنَـذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً [مـريم:72]، فـأخبر أنه ينجي أهل التقـوى، ويبقى أهلها الظـالمون جاثين فيها، والأشهر أن هذا الـورود هو المـرور على الصـراط. وقد تقـدم أن الصراط: جسر منصوب على متن جهنم، أحد من السيف، وأدق من الشـعرة، يمر النـاس على هـذا الجسر الـذي هو أحد من السـيف، وأدق من الشـعرة،

وكيف يمـرون عليـه؟ يمـرون عليه بأعمـالهم، فـإذا مر المـؤمن فإنه بنـوره وبإيمانه لا يحس بحرارة ولا يحس بلهب، ولذلك تقول له النـار: (جز يا مـؤمن فقد أطفأ نورك لهبي)، والنار أخبر الله تعالى بأن لها لهباً، سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ [المسد:3]، فلهيبها ينطفئ من نور المؤمن، ثم يمر على هـذا الصـراط كـالبرق، أي: أسـرع من طرفة العين، ويمر بعضـهم كـالريح المسـرعة الـتي تسـوق السـحاب، ومنهم من يمر كأجاويد الخيـل، الجـواد من الخيـل: هو السابق، ومنهم من يعـدو عـدواً، ومنهم من يمشي مشـياً، ومنهم من يزحف زحفاً؛ فسيرهم على قدر أعمالهم. فـإذاً: قولـه: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا [مـريم: 71] المراد: أنكم لابد أن تمروا عليها مـروراً على الصـراط وإن لم يحس بها المؤمنـون، وفي بعض الآثـار: (أنهم يقولـون بعـدما يـدخلون الجنـة: أليس قد أخـبر الله أنا نـرد النـار، أين النـار؟ فيقـال لهم: مـررتم عليها وهي خامـدة)، يعني: بمرور المؤمنين تخمد فلا يحسون بلهب، ولا يحسون بحرارة أبـداً. وأما المنـافقون والعصـاة وأهل الكبـائر فـإنهم يخطفـون وهم على الصـراط، وقد أخـبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم في الحـديث: (إن على جنبـتي الصـراط كلاليب)، والكلاليب هي جمع كلـوب، وهو الحديـدة المحنية الـرأس المحـددة، هذه الكلاليب مثل شوك السعدان، يعني: كلاليبها كثيرة، إلا أنه لا يقدر قـدرها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فتخطف الرجل، وتخطف اليـد، وتخطف بعد نصف الطريـق، وتخطف بعد ثلثـه، وتخطف عند آخـره، فمن نجا منها وجـاز الصراط ولو بعد مائة سـنة أو نحوها التفت إلى النـار وقـال: الحمد لله الـذي نجاني منـكِ، لقد أعطـاني الله ما لم يعط أحـداً من خلقـه؛ وذلك لأنه نجا من عذاب النار التي عذابها شـديد ومسـتمر، فـرأى أن ذلك سـعادة وأي سـعادة! ولو أن غيره قد ظفر بالنجاة قبله! في حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال: (إن المؤمـنين يـدخلون الجنة ولا تمسـهم النـار)، فاستشـكلت عائشة الآية: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا [مريم:71]، وقـالت: كيف وقد قـال اللـه: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ؟ فظاهرها أن الجميع يردونها ويـدخلونها؟ لكن النـبي صلى الله عليه وسلم بين لها أن الورود يكون للجميع، ولكن ينجي الله تعـالى المؤمـنين المتقين، يقـول تعـالى: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَـوْا [مـريم:72]، كيف ينجيهم؟ هل يـدخلونها ثم يرجعـون منهـا؟ لا يلـزم أنهم دخلوهـا، بل كل من تجاوزها يقال: نجا من النـار، كل من مر على الصـراط حـتى انتهى يقـال لـه: لقد أنجاك الله من النار، فكل من سلم من شر يقـال: هـذا قد نجـا، ولا يلـزم أنه قد دخل فيه ثم أخرج، فإن النجاة تستعمل فيمن سـلم من العـذاب الـذي عذب به غيره، ولا يلزم أن يكون العذاب قد أصابه، فقول الله تعالى عن لوط وأهل بيتـه: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَـهُ إِلاَّ امْرَأَتَـهُ [العنكبـوت:32] معنـاه: أنا نخرجه حـتى يسـلم من العـذاب، فلا يـدخل العـذاب ولا يحس بـه، وهكذا النجـاة من النـار. وأنت دائمـاً تـدعو فتقـول: اللهم نجنا من النـار! رب نجني من عذاب النار! وكذلك حكى الله عن الذين آمنوا بموسى، قولهم: رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ *وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ الْقَـوْمِ الْكَـافِرِينَ [يـونس: 85-86]، يعني: سلمنا وأنقذنا، فكل من سـلم من العـذاب فإنه نـاجٍ، فهكـذا

قولـه: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَـوْا [مـريم:72] يعـني: أنهم يسـلمون من العـذاب، ويمرون عليها وقد انطفأ لهبها، فلا يحسون بشيء من لهبها. ......

الإيمان بميزان الأعمال

قال المؤلف رحمه الله: [قوله: والميزان: أي: ونؤمن بـالميزان، قـال تعـالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَـوْمِ الْقِيَامَـةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئاً وَإِنْ كَـانَ مِثْقَـالَ حَبَّةٍ مِنْ خَـرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِـبِينَ [الأنبيـاء:47]، وقـال تعـالى: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُـــهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُـــونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُـــهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ [المؤمنـون:102-103]، قـال القرطـبي : قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمـال؛ لأن الـوزن للجـزاء فينبغي أن يكـون بعد المحاسـبة، فـإن المحاسـبة لتقرير الأعمـال، والـوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها. قال: وقوله: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْـطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ يحتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمـال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونـة، والله أعلم. والذي دلت عليه السنة أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان، روى الإمـام أحمد من حـديث أبي عبد الـرحمن الحبلي قـال: سـمعت عبد الله بن عمرو رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم: (إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسـعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب! فيقول: ألك عـذر أو حسـنة؟ فيبـادر الرجل فيقــول: لا يا رب! فيقــول: بلى، إن لك عنــدنا حســنة واحــدة، لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقـول: إنك لا تُظلم، قــال: فتوضع الســجلات في كفــة، والبطاقة في كفــة، قــال: فطاشت الســجلات، وثقلت البطاقـــة، ولا يثقل شـــيء باسم الله الـــرحمن الرحيم)، وهكذا رواه الترمذي و ابن ماجة و ابن أبي الدنيا من حـديث الليث ، زاد الترمـــذي : (ولا يثقل مع اسم الله شـــيء). وفي ســـياق آخـــر: (توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفـة...) الحـديث، وفي هـذا السـياق فائـدة جليلـة: وهي أن العامل يـوزن مع عملـه، ويشـهد له ما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قـال: (إنه ليـؤتى الرجل العظيم السـمين يـوم القيامة لا يـزن عند الله جنـاح بعوضـة، وقـال: اقـرءوا إن شـئتم: فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَزْنـاً [الكهـف: 105])، وروى الإمـام أحمد عن ابن مسـعود : (أنه كـان يجتـني سـواكاً من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تدفعه فضحك القـوم منـه، فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ممَ تضحكون؟ قالوا: يا نـبي اللـه! من دقة ساقيه، فقال: والذي نفسي بيده! لهما أثقل في الميزان من أحد)] نـؤمن بما أخبر الله من الميزان في سورة الأعراف بقوله تعـالى: وَالْـوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُـهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ [الأعراف:8-9]، وكذلك في سورة الأنبياء: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً [الأنبياء:47]، وكذلك يقول الله تعالى في سورة المؤمنون: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ [المؤمنون:102-103]. وفي سورة القارعة: فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ [القارعة:6-9]، وغير ذلك من الآيات والأحاديث فيها ذكر الميزان، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم) وفي صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان) أي: كلمة (الحمد لله) تملأ الميزان، وهذا يدل على أن الكلمات أيضاً توزن، وغير ذلك من الأدلة. ......

إنكار المعتزلة للميزان

أنكرت المعتزلة الميزان في الآخرة، وقالوا: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقالون، والله تعالى ليس بحاجة إلى أن يزن وينصب الميزان، وفسروا الميزان في هذه الآيات بأنه العدل، فقوله: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ يعني: العدل، ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ يعني: نجح عندما يعدل بين الناس. ولا شك أن هذا إنكار لخبر الله ولخبر رسوله، فالله تعالى ينصب الموازين ويظهرها حتى لا يكون هناك ظلم؛ ولأجل ذلك أخبر تعالى أن هذه الموازين يوزن فيها القليل والكثير، ففي هذه الآية في سورة الأنبياء: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا [الأنبياء:47] فأخبر أنهم لا يظلمون بمثقال خردلة، والخردل: شجر حبه أصغر من حب الدخن. كذلك يقول تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه [الزلزلة:7-8] المثقال: بمعنى: الوزن: أي: أنه سبحانه يحضر الأعمال صغيرها وكبيرها، حسنها وسيئها، وتوزن حتى مثاقيل الذر، فهذه الموازين حقيقة، وقد وردت في هذه الآية بالجمع: ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ [الأعراف:8]، ولم يقل: ميزانه، وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ [الأنبياء:47]، ولم يقل: الميزان، فدل على أن هناك عدداً، وأنها موازين كثيرة، يوزن لهذا ويوزن لهذا.

اختلاف العلماء في الموزون

اختلفوا في الموزون ما هو على ثلاثة أقوال: القول الأول: أن الذي يوزن هي الأعمال، ولو كانت أعراضاً فيقلبها الله تعالى أجساماً ثم توزن؛ لأن الأعراض ليس لها جــرم، مثلاً كلمة (الحمد للــه) ليس لها جــرم حــتى تــوزن؟! فهي عـرض، وكـذلك الصـلاة، فالصـلاة قد أخـبر النـبي صـلى الله عليه سـلم بأنها تتجسد (إذا صلى الرجل فأحسن صلاته صـعدت إلى السـماء ولها نـور، وتفتح لها أبواب السماء، وتقول: حفظك الله كما حفظتني، وإذا صلى وأساء صــلاته صعدت إلى السماء ولها ظلمة، وتغلق دونها أبـواب السـماء، فتقـول: ضـيعك الله كما ضيعتني، وتلف كما يلف الثوب الخَلِق، ويضرب بها وجه صاحبها). هل نحن نبصر الصلاة إذا صعدت؟ لا نبصرها فهي عـرض، ولكن الله تعـالى يقلب الأعمال أجساماً، فصيامك يكون جسماً وجرمـاً، وصـلواتك وقراءتك وأذكـارك وأدعيتك يقلبها الله أجساماً كما أن هذه الخشبة جسم، وهـذه السـارية جسم لها جــــرم ولها وزن، ولكن الكلام ليس له جــــرم، ولكن يقلبه الله فيجعله ذا جرم، فلذلك يقول في الحـديث: (الحمد لله تملأ المـيزان)، ويقـول: (كلمتـان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في المـيزان)، وقولـه: (ثقيلتـان) يـدل على أن كلمة (سبحان الله وبحمده) توزن، يعـني: يجعلها الله جرمـاً، ولا يستعصي ولا يخـرج عن قـدرة الله شـيء، فهو قـادر أن يقلب الأعـراض أجسـاماً. القـول الثاني: أن الذي يوزن هو الصحف، وتثقل الصحف وتخف بسبب ما كتب فيها، ودل على ذلك الحديث الذي مر بنا، فإن هذا رجل كتبت عليه الملائكة سيئات كثــيرة -تسـعة وتسـعين سـجلاً- والسـجل: هو الصـحيفة الــتي يكتب فيها كالسجلات التي عند القضاة تملأ بالقضايا، يقال: سجل في كذا.. السجل رقم كذا.. هذه السجلات تطوى طيًّا، ثم إذا نشرت كانت مد البصر، فكان له تسعة وتسعون سجلاً كلها سيئات، فلما وقف على هـذه السـجلات سـأله اللـه: هل تنكر شـيئاً من هـذا؟ فلا ينكـر، يقـول: هل ظلمك الكـرام الكـاتبون الحفظـة، وكتبوا عليك ما لم تقل؟ لا يستطيع أن ينكر، ولا يقـول: ظلمـوني، يقـول: هل لك عــذر؟ ما له عــذر، هل لك حســنة تقابل هــذه السـجلات وتمحوهــا، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [هـود:114] ؟ فينبهر وينبهت ويقـول: لا، ليس لي حسـنات. وكأنه أيس من النجـاة، وأيقن بالعـذاب؛ لكـثرة ما كتب عليـه، فإنه رأى هـذه السـيئات الـتي دونت عليه ولا يسـتطيع أن ينكرهـا، كما أخـبر الله عنهم أنهم يقولون: مَـالِ هَـذَا الْكِتَـابِ لا يُغَـادِرُ صَـغِيرَةً وَلا كَبِـيرَةً إِلاَّ أَحْصَـاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً [الكهف:49]، يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْـرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَـوَدُّ لَـوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَـهُ أَمَـداً بَعِيـداً [آل عمـران: 30]، فيقــول اللــه: بلى لك عنــدنا حسـنة واحــدة، تخـرج له هـذه البطاقة -والبطاقة: الورقة الصـغيرة مثل الكف أو نحـوه- مكتـوب فيهـا: (لا إله إلا الله محمد رسول اللـه)، ولكن قالها عن صـدق، قالها عن عقيـدة، قالها عن يقين، وختمت بها أيامه، وختمت بها أعماله، وخرج من الدنيا وهو على هذه الحســنة التي أثرت فيه وفي قلبه، فلما رأى هذه البطاقة استصغرها بالنسبة إلى هـذه السـيئات الكثـيرة، فقـال: ما هـذه البطاقة مع هـذه السـجلات؟ فالله تعـالى يقول: إنك لا تظلم، ونصب الميزان الذي له كفتان، وجعلت البطاقة في كفة، وجعلت تلك السـجلات في كفـة، فعند ذلك طاشت -يعـني: خفت- السـجلات

وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شـيء، فكـان ذلك سـبباً في سـعادته. ومعلـوم أن كثـيراً من الـذين يقولونها قد يعـذبون وقد تخف مـوازينهم؛ وذلك لأنهم لم يقولوها عن يقين، ولم تـــؤثر في عقائـــدهم، ولم تصـــدر عن قلب مصدق بها؛ فلأجل ذلك تخف موازينهم، أما هـذا فقد قالها عن علم وعن يقين وعن إخلاص وعن معرفة وعن تقبل؛ فأثرت في قلبـه، ووقعت موقعـاً فثقلت موازينه فسـعد، ويصـدق عليه أنه من الــذين ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية. القول الثالث: أن العامل نفسه يوزن، فالرجل نفسه يـوزن، ويثقل إذا كان قلبه ممتلئاً إيماناً، ويخف إذا كان قليل الإيمـان، واسـتدل على ذلك بهـذه الآية الكريمة في آخر سورة الكهف، وهي قول الله تعـالى: فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً [الكهف:105]، وإن كانت محتملة أن المراد: لا نقيم لهم قـدراً، ولكن ظاهرها أنهم يوزنون، ولكن لا يكون لهم وزن ظاهر، ويؤيد هذا الحـديث الذي فيه (يجـاء بالرجل العظيم السـمين -الأكـول الشـروب- لا يـزن عند الله جناح بعوضة) لو وزن كان أخف من جناح البعوضة. وهذا دليل على أن العامل يوزن، وأنه يثقل إذا كـان تقيـاً كما في قصة ابن مسـعود رضي الله عنه حين صعد مرة على شجرة الأراك ليقطع منها سواكاً، ولما صعد رآه بعض الصحابة وعجبوا من دقة ساقية، فجعلوا يضحكون من دقة ساقيه، فقـال النـبي صـلى الله عليه وسلم: (لهما في الميزان أثقل من جبل أحد)، فـدل على أن العامل نفسه يـــوزن؛ فيثقل إذا كـــان من أهل الســـعادة، ويخف إذا كـــان من أهل الشقاوة. وقد ذكر الشارح أن الوزن بعد الحساب، يبـدأ أولاً بالحسـاب؛ وذلك بأن يقال: حاسب نفسك، هذه صحائفك، هذه حسنة وهذه سـيئة قابل بينهمـا، وبعـدما يحاسب ويقر بما له وبما عليـه، بعد ذلك تـوزن هـذه الأعمـال حـتى يعـرف مقـدارها، وحـتى يحقق في أمرهـا، وإذا وزنت عـرف من يسـتحق أن يكون سعيداً لكون حسناته ثقيلة، ومن يكـون بخلاف ذلـك؛ لأن الحسـاب إنما هو لتميـيز الحسـنات من السـيئات، ولكن المـيزان يمـيز الحسـنات، فتكـون الحسنات كثيرة وخفيفـة، وتكـون قليلة وثقيلـة، كصـاحب البطاقـة، قد يكـون هنـاك إنسـان له أذكـار وأوراد وأدعية وقـراءات كثـيرة، ولكنها خفيفـة، وآخر أذكاره قليلة، ولكنها ثقيلة؛ بسـبب صـدورها عن الإيمـان الراسخ المتمكن في القلب.

تجسد الأعمال ووزنها يوم القيامة

قال رحمه الله: [وقد وردت الأحاديث أيضـاً: بـوزن الأعمـال أنفسـها، كما في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال رسول الله صلى الله عليه وســلم: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان..)، الحديث، وفي الصـحيحين -وهو خاتمة البخـاري - قوله صـلى الله عليه وسـلم: (كلمتـان خفيفتـان على

اللسـان، حبيبتـان إلى الـرحمن، ثقيلتـان في المـيزان: سـبحان الله وبحمـده، سبحان الله العظيم). وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال: (يـؤتى بـابن آدم يـوم القيامة فيوقف بين كفـتي المـيزان، ويوكل به ملـك، فـإن ثقل ميزانه نـادى الملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً). فلا يلتفت إلى ملحد معاند يقـول: الأعمـال أعـراض لا تقبل الـوزن، وإنما يقبل الوزن الأجسام، فإن الله يقلب الأعراض أجساماً كما تقدم، وكما روى الإمـام أحمد عن أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قـال: (يـؤتى بـالموت كبشـاً أغـبر، فيوقف بين الجنة والنـار، فيقـال: يا أهل الجنة! فيشرئبون وينظرون، ويقال: يا أهل النار! فيشرئبون وينظرون، ويرون أن قد جاء الفرج، فيذبح، ويقال: خلود لا موت)، ورواه البخاري بمعنـاه. فثبت وزن الأعمال والعامل وصـحائف الأعمـال، وثبت أن المـيزان له كفتـان، والله تعـالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيـات، فعلينا الإيمـان بـالغيب كما أخبرنا الصادق صلى الله عليه وسلم من غير زيـادة ولا نقصـان، ويا خيبـة! من ينفي وضع الموازين القسط ليـوم القيامة كما أخـبر الشـارع لخفـاء الحكمة عليـه، ويقـدح في النصـوص بقولـه: لا يحتـاج إلى المـيزان إلا البقـال والفـوال، وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنـاً. ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهـور عدله سـبحانه لجميع عبـاده، فلا أحد أحب إليه العـذر من اللـه؛ من أجل ذلك أرسل الرسل مبشـرين ومنـذرين، فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه؟ فتأمل قـول الملائكة لما قـال الله لهم: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَـةً قَـالُوا أَتَجْعَـلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَا وَيَسْـفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَـالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُـونَ [البقـرة:30]، وقـال تعـالى: وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [الإسـراء:85]. وقد تقـدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي رحمه الله: أن الحوض قبل الميزان والصراط بعد الميزان، ففي الصحيحين: (أن المؤمـنين إذا عـبروا الصـراط وقفـوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقـوا أذن لهم في دخول الجنة)، وجعل القرطـبي في التـذكرة هـذه القنطـرة صـراطاً ثانيـاً للمؤمنين خاصة، وليس يسقط منه أحد في النار، والله تعالى أعلم]. تقدم أن من الأقوال: أن الأعمال تجسـد، وأنها تـوزن ولو كـانت أعراضـاً، فالله تعـالى قـادر على أن يقلب الأعـراض أجسـاداً كما يشـاء، فيقلب التسـبيح والتكبـير والقراءة أجساداً وأجراماً يكـون لها ثقل ويكـون لها وزن، وقد دلت على ذلك السنة، فالأحاديث التي تقدمت دالة على أن الأعمال تجسد، وأنها تـوزن، وأن الله لا يستعصي عليه أن يقلب هذه الأعـراض ويجعل لها جرمـاً يخف ويثقـل. وتقـدم أن المعتزلة أنكـروا المـيزان الـذي ينصب يـوم القيامة مع وروده في الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة، ومع ذلك يقولون: لا يحتاج إلى المـيزان إلا البقال والفوال -تعالى الله عن قولهم-، وأنكروا أن يكون المـيزان حقيقيـاً، فلذلك رد عليهم الشارح، وأنكر قولهم وقال: إنهم حريون أن تخف موازينهم، ولا شك أن في جعل هذه الموازين حكماً عظيمة، ولو لم يكن فيها إلا العدل؛

ولذلك وصفها الله تعالى بالقسط: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ [الأنبياء:47]، (أي): العدل، يعني: الموازين العادلة إذا نصب الميزان وحضر الموزون، يقال: احضر وزن أعمالك، فإذا رجح ميزانه نادى ذلك الملك: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإذا خف ميزانه نادى ذلك الملك: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، وإذا تساوت الحسنات والسيئات عومل بعد ذلك بما يستحقه، بأن يعذب بقدر سيئاته، ثم يخرج إذا كان من أهل التوحيد أو نحو ذلك مما يشاؤه الله.

الميزان بعد الحساب

سمعنا أن أول شيء الحساب، ثم بعده الميزان، ثم بعده الصراط، ثم بعده القنطرة، ثم دخول الجنة، أما أهل النار من الكفار الذين لا حسنات لهم فلا يحاسبون؛ لأنهم لا حسنات لهم، وإذا كان لهم حسنات فإنهم قد استوفوها في الدنيا. فأول شيء تعرض الأعمال، ويقال: حاسبوا أنفسكم، ثم بعدما يعرفون الحسنات والسيئات تنصب الموازين، فيعرفون خفة الحسنات أو ثقلها، ونحو ذلك، ثم بعد ذلك ينصب الصراط فيسلكونه -هذا إذا كان لهم حسنات وسيئات- فيخدش من يخدش، ويسلم من يسلم. ثم بعدما يسلمون ويعبرون الصراط يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار، وهذه القنطرة يحاسبون فيها عن مظالم كانت بينهم، فإذا كان عندك مظلمة جوزيت بها، فيؤخذ من حسناتك، وإذا كان لك حق أخذته، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة؛ لأنه لا يدخل الجنة أحد وفي قلبه غل: وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ [الأعراف:43]، فلا يدخلون الجنة إلا بعد التنقية وبعد التصفية، وبعد أن يكونوا متحابين ليس بينهم إحن ولا بغضاء، ونهايتهم دخول الجنة إلى الأبد.

شرح العقيدة الطحاوية [66]

من عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بأن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما أبديتان لا تفنيان، وخالف في ذلك المعتزلة وغيرهم من الفرق الضالة، وقد بين العلماء أدلة أهل السنة وأجابوا عن شبهات المخالفين.

ثمرة الإيمان بالميزان وغيره مما يكون يوم القيامة

من أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر، وهو البعث بعد الموت، وما يكون في يوم القيامة من الأهوال والحساب والجزاء على الأعمال، والعرض والمناقشة، ونصب الموازين، وتفريق الدواوين، وأخذ الصحف والكتب بالأيمان أو بالشمائل، ونصب الصراط على متن جهنم، والورود على نار جهنم، والوقوف في ذلك اليوم الطويل، والشفاعة التي ثبتت للأنبياء وللرسل ولنبينا صلى الله عليه وسلم، وما بعد ذلك.. إلى أن يستقر أهل الجنة في دار النعيم، وأهل النار في الجحيم، ويبقى في النار من حكم عليه بالخلود، ويدخل الجنة من حكم له بالخلود، وتفاصيل ذلك مذكورة في كتاب الله سبحانه وتعالى، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وأهل السنة يؤمنون بذلك على ما جاء في النصوص، ويصدقون بتلك النصوص، ويعتقدون أنها حق وصدق؛ لأنها كلام الله، وكلام أعرف الخلق بالله، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ويحملون ذلك كله على أنه حقيقة لا لبس فيه ولا تأويل، ولا نفي لشيء مما دلت عليه تلك النصوص، ويردون على من أنكر البعث الجسماني كالفلاسفة، وعلى من أنكر النعيم والعذاب في الآخرة كالباطنية، فهم ينكرون عليهم ويعتقدون أن كفرهم أشد من كفر اليهود والنصارى، ولو تسموا بأنهم من أهل الإسلام. من آمن بتفاصيل يوم القيامة وما يكون في ذلك اليوم؛ فإنه بلا شك يستعد لذلك اللقاء، ويظهر عليه أثره في أعماله، وفي سيرته وفي نهجه، وكلما كان الإنسان أشد يقيناً وأشد إيماناً كان أشد استعداداً وتأهباً، وهكذا كانت حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، فإيمانهم يحملهم على أن يستعدوا للموت، ويستعدوا للجزاء، ويستعدوا للقاء ربهم، ويعملوا العمل الصالح الذي ينجون به، ويكونون به من أهل السعادة ومن أهل الفلاح، حتى لو قيل لأحدهم: إنك تموت في هذا اليوم، لم يكن هناك عمل يزداد به في ذلك اليوم؛ لأنه لم يضيع لحظة من لحظاته في غير طاعة. علم المؤمن بأن الموت لابد وأن ينزل، وأنه قد يأتي فجأة على غير موعد، وعلم أن بعد الموت حساباً، وعذاباً أو ثواباً، وعلم أن بعد الموت بعثاً ونشوراً وجنة أو ناراً، فصارت كل دقيقة تمر عليه يشغلها في طاعة الله، هكذا كان أولياء الله المتقون. أما المفرطون الذين يقولون: آمنا، ولكن يقولونه باللسان، وقلوبهم كأنها غير مصدقة؛ فإنهم لا يستعدون، فهؤلاء إيمانهم ضعيف، ألسنتهم تصف، وقلوبهم تعرف، وأعمالهم تخالف، ذلك بأن إيمانهم وتصديقهم لم يكن عن يقين أو

كان عن تردد، أو كان يقينهم قد أتـاه ما يضـعفه من الشـهوات، وزينة الـدنيا، والركون إليها، ومحبة التوسع في الملذات، وعـدم استحضـار المـوت، وعـدم استحضار ما بعد الموت، فكان ذلك حـاملاً على كـثرة الغفلـة، والانهمـاك في لذة الدنيا، وعدم التفكر في عاقبة هـذه الملـذات والشـهوات، وعـدم التفريق بين الحلال منها والحـرام، فحصل ما حصل منهم من التفريـط، فجـاءهم أمر الله بغتة وهم لا يشعرون، فندموا حين لا ينفع الندم، ويقول أحدهم: يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَـرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنْ السَّـاخِرِينَ [الزمـر:56]. فعلينا أن نتفقد أنفسـنا ونتفقد إخوانـنـا، فـإذا رأينا الـذي شـغل وقته كله بأعمـال الآخرة، قلنا: هذا صادق الإيمـان بـالآخرة، هـذا مـؤمن حقـاً، هـذا ممن اسـتعد للقاء ربه، وإذا رأيناه ضعيف الإيمـان، ضـعيف الأعمـال، قليل الاهتمـام، قلنـا: هذا قليل الاهتمام، هذا ضعيف الإيمان بالآخرة، ولو كان إيمانه قوياً لما فـرط في أيامه، ولما تناسى لقاء ربه، فنثبت الأول ونحثه على الاسـتعداد والزيـادة؛ ونحذر الثـاني ونخوفه من أن يفجـأه الأجل وهو على هـذا التفريط والإهمـال، وبذلك نكون جميعاً من المؤمنين بالدار الآخرة. ......

الإيمان بالجنة والنار

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبـداً ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنـار قبل الخلق وخلق لهما أهلاً، فمن شـاء منهم إلى الجنة فضـلاً منـه، ومن شـاء منهم إلى النـار عـدلاً منـه، وكل يعمل لما قد فـرغ لـه، وصـائر إلى ما خلق لـه، والخـير والشر مقـدران على العباد). أما قوله: (إن الجنة والنار مخلوقتان) اتفق أهل السـنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يـزل على ذلك أهل السـنة، حـتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت، وقـالت: بل ينشـئهما الله يـوم القيامـة، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله اللــه، وأنه ينبغي أن يفعل كـــذا.. ولا ينبغي له أن يفعل كـــذا، وقاســـوه على خلقه في أفعـــالهم، فهم مشـــبهة في الأفعـــال، ودخل التجهم فيهم، وصـــاروا مع ذلك معطلـــة، وقـــالوا: خلق الجنة قبل الجـــزاء عبث؛ لأنها تصـــير معطلة مـــدداً متطاولة، فردوا من النصوص ما خالف هـذه الشـريعة الباطلة الـتي وضـعوها للـرب تعـالى، وحرفـوا النصـوص عن مواضـعها، وضـللوا وبـدعوا من خـالف شـريعتهم. فمن نصـوص الكتـاب قوله تعـالى عن الجنـة: أُعِـدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ [آل عمران:133]، وقوله تعالى: أُعِـدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُـوا بِاللَّهِ وَرُسُـلِهِ [الحديـد:21]، وعن النار قوله تعالى: أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [البقرة:24]، وقوله تعـالى: إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلْطَّاغِينَ مَآباً [النبـأ:21-22]، وقـال تعـالى: وَلَقَـدْ رَآهُ نَزْلَـةً أُخْرَى * عِنْدَ سِـدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْـدَهَا جَنَّةُ الْمَـأْوَى [النجم:13-15]، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المــأوى كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الإسراء، وفي آخـره: (ثم انطلق بي جبريل حـتى أتى سـدرة المنتهى، فغشـيها ألـوان لا أدري ما هي،

قــال: ثم دخلت الجنة فــإذا فيها جنــادب اللؤلــؤ، وإذا ترابها المســك). وفي الصــحيحين من حــديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهمــا: (أن رســول الله صلى الله عليه وسلم قـال: إن أحـدكم إذا مـات عـرض عليه مقعـده بالغـداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هـذا مقعـدك حـتى يبعثك الله يـوم القيامـة)، وتقـدم حـديث البراء بن عـازب رضي الله عنـه، وفيـه: (ينـادي منـادٍ من السـماء: أن صـدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قــال: فيأتيه من روحها وطيبها)، وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء رضي الله عنه]. ......

معنى الجنة

يصدر الناس بعد الموقف يوم القيامة إلى دار الجزاء، وجزاء المحسنين جنات النعيم، وجـزاء الكـافرين نـار الجحيم، والجنة في الأصل هي: البسـتان الـذي يجمع الخضرة والزهور والأنهـار والثمـار والظلال والأشـجار والنضـرة والبهجة والسـرور؛ فهـذا يسـمى في الأصل جنـة؛ لأنه يجن من بداخله ويسـتره، ومنه قــول الله تعــالى: إِنَّا بَلَوْنَــاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْــحَابَ الْجَنَّةِ [القلم:17] يعــني: أصــحاب البســتان، ومنه قوله تعــالى: وَجَعَلْنَا لأَحَــدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَــابٍ [الكهف:32] أي: بسـتانين من أعنـاب، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا [الكهف:32-33]. فالجنة في الدنيا: هي البساتين الـتي تبهج وتفـرح من دخلهــا، وســميت دار النعيم بهــذا الاســم؛ لأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن ســمعت، ولا خطر على قلب بشــر، فقد ذكر الله ما في الجنــان مثل قوله تعـالى: فِيهِمَا مِنْ كُـلِّ فَاكِهَــةٍ زَوْجَــانِ [الــرحمن:50] فِيهِمَا عَيْنَــانِ تَجْرِيَــانِ [الــرحمن:50] فِيهِمَا فَاكِهَـةٌ وَنَخْـلٌ وَرُمَّانٌ [الــرحمن:68] وقوله تعـالى: فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِـنٍ وَأَنْهَـارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُـهُ وَأَنْهَـارٌ مِنْ خَمْـرٍ لَـذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَـفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُـلِّ الثَّمَـرَاتِ [محمـد:15]، وكما في قوله تعالى: كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَـرَةٍ رِزْقـاً قَـالُوا هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً [البقرة:25]، وكما في قوله تعالى: وَنُـدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً [النساء:57]، وقوله: وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَـذُّ الأَعْيُنُ [الزخـرف: 71]، وكــذلك قوله تعـــالى: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـــرَّةِ أَعْيُنٍ [السجدة:17]. وغير ذلك من الآيـات الدالة دلالة واضـحة على أن هـذه الجنة مشـتملة على ما يجلب السـرور والحبـور، وأن فيها الجـزاء الأوفى، وأن فيها النعيم الذي ما بعده نعيم، وأن أهلها يغتبطون بمقامهم فيها، ويقولون: الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ [فاطر:34]، وكذلك يقولـون: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْـدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَـوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَـاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [الزمر:74].

أسماء النار وصفتها

الجحيم هي نار تلظى، نار موقدة، نار حامية، ذكر الله لها عدة أسماء، وذكر أنها لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ [الحجر:44]. وأخذ العلماء لها سبعة أسماء من الآيات: لظى، والحطمة، وجهنم، والجحيم، وسقر، والسعير، والهاوية؛ وكلها موجودة في القرآن، وكلها دالة على شدة الحرارة. وقد أخبر الله تعالى بشدة العذاب فيها، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها، وقال: وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً [الإسراء:97]، كلما خبت النار وانطفأت زيد في جرها، وقال: وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ [البقرة:24]، وقال: الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ [الهمزة:7-8] يعني: مطبقة، وغير ذلك من أنواع العذاب الذي ذكره الله. ولا شك أنه عندما يذكر الله الجنة يشوق إليها، وكأنه يقول: أيها المؤمنون بالجنة المصدقون بها! اطلبوها بالأعمال الصالحة، فهذا نعيمها وهذه صفتها، وأيها المؤمنون بالنار والمصدقون بها! احذروها وابتعدوا عنها، فهذه حرارتها، وهذا عذابها، وأيها المفرطون! وأيها الكافرون! هذا عذابكم أفلا تتبون؟ أفلا تندمون وتبتعدون عن الأعمال السيئة التي تجعلكم من أهل ذلك العذاب؟ وهكذا ذكر الله هذا العذاب وهذا الثواب، وسمى دار الكفار بالنار. والنار في الأصل هي هذه النار التي نوقدها في الدنيا، والتي ننتفع بها، قال الله تعالى: أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ [الواقعة:71] يعني: تقدحونها حتى تشتعل وتتقد، أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً [الواقعة:72-73] تذكرة بالنار الأخرى، وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ [الواقعة:73]، وقد سمى ذلك العذاب ناراً؛ لأن فيه ناراً تشتعل وتتقد، وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ [التحريم:6]. ولا شك أن الله ذكر الجنة وذكر النار كثيراً في القرآن؛ لأجل أن يرغب الله في دار الثواب، ويحذر من دار العقاب.

اعتقاد أهل السنة أن الجنة والنار موجودتان الآن

من عقيدة أهل السنة أن الجنة والنار موجودتان الآن، وإن كنا لا نعلم جهتها ولا مكانها، فإن علمنا قاصر، ما نحيط إلا بالأرض وبما على الأرض، ولكن الجهات كثيرة لا يعلمها إلا الله، ففي يوم القيامة يجاء بجهنم، قال الله تعالى: وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ [الفجر:23]، وذكر في الحديث: (تجيء الملائكة بجهنم، ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)، أولئك

الملائكة قد يكون أحدهم قـادراً على قلع الجبـال وجرها بـإذن اللـه، ومع ذلك هذا عددهم، فما مقدارها؟! فإخبار الله تعالى بأنه يجـاء بها في يـوم القيامـة، دليل على أنها موجودة. وكذلك الجنة موجودة أيضاً، وتبرز يوم القيامة، يقـول الله تعـالى: وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُـرِّزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَـاوِينَ [الشـعراء:90-91]، فـأزلفت؛ معنـاه: قـربت وأظهـرت، ولا شك أن هـذا دليل على أنها موجـودة وأنها تـبرز، ويقـال: هـذه الجنة دار المتقين. وأظهـرت النـار لأهلهـا، وَبُـرِّزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَـاوِينَ [الشـعراء:91]، ولا شك أن إبرازها دليل على أنها موجودة الآن، وكذلك الآيات التي سمعنا، مثل قول الله تعالى: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ [آل عمران:133] أي: هيئت فهي معدة لهم، وقال في النار: أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [البقرة:24]، أي: هـيئت لهم، وهـذا دليل على أنها موجـودة، وأنها قد أعـدت لأهلها. وكذلك قوله في الجنة في سورة النجم: عِنْدَ سِـدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْـدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى [النجم:14-15] دليل على أن الجنة فـوق السـماء السـابعة حيث يشـاء اللـه، فهي موجـودة الآن، وذكر الله سـعتها في قولـه: وَسَـارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ [آل عمـران: 133]، فهذه صفتها، ومعنى (أعدت) أي: هيئت لهم. وتقدمت الأحاديث الـتي فيها أن الجنة موجودة، وأنه يقال للعبد في قبره: (افتحـوا له بابـاً إلى الجنـة، فيأته من روحها وريحانها؛ فيقول: رب! أقم الساعة، ويقال للكافر: افتحـوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها؛ فيقول: رب! لا تقم السـاعة)، وهـذا دليل أيضاً على أنها موجودة، وأنه يفتح له باب إليها، ويقال: هـذا مقعـدك من الجنة، هذا مقعدك من النار، وهذه الأدلة واضحة.

إنكار المعتزلة لوجود الجنة والنار قبل يوم القيامة

ذكر المؤلف أن قوماً من المعتزلة أنكروا وجـود الجنة والنـار الآن، وقـالوا: لا حاجة إلى وجودها الآن مـادام أنه ليس فيها أحـد، فتبقى مغلقة الأبـواب، وتحتاج إلى من يسقي شجرها هـذه المـدة الطويلة قبل أن يـأتي إليها أهلهـا، فجعلوا أفكارهم متحكمة في أمر الله، فقـالوا: الجنة والنـار غـير موجـودتين، وزعمـوا أنها إنما تنشأ يـوم القيامة عنـدما يبعث الله الخلـق. ولكن الصـحيح الـذي عليه أهل السـنة والجماعة أن الجنة موجـودة الآن، وقد دخلها النـبي صلى الله عليه وسلم، وكـذلك النـار موجـودة، وقد عرضت عليه الجنة والنـار في صلاة الكسوف، فلما عرضت الجنة تقـدم، ولما عرضت عليه النـار تقهقر وتـأخر، وكل ذلك دليل على أنه رآهـا، وأنها موجـودة الآن. ولا يلـزم ما يقوله أولئك المعتزلـة: من أنها معطلـة، وأنه لا حاجة إلى وجودها على أصـلهم الفاسد الذي أصلوه: وهو أنهم يتحكمون في أمر الله، ويفرضـون على الله ما يريدونه، فيقولون: يجب على الله أن يفعل كذا.. وألا يفعل كـذا.. فكـأنهم هم

الذين يوجبون بعقولهم ما يشاءون. فهـذه عقيـدة أهل السـنة، ولا يضر خلاف من خالفها.

أدلة وجود الجنة والنار

قــال رحمه اللــه: [وفي صــحيح مســلم عن عائشة رضي الله عنها قــالت: (خسفت الشمس في حياة رسول صلى الله عليه وسلم.. فـذكرت الحـديث، وفيـه: وقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: رأيت في مقـامي هـذا كل شيء وعدتم به حـتى لقد رأيتـني آخذ قطفـاً من الجنة حين رأيتمـوني أقـدم، ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت). وفي الصـحيحين واللفظ للبخــاري عن عبد الله بن عبــاس رضي الله عنهما قــال: (انخســفت الشمس على عهد رسول صلى الله عليه وسلم، فذكر الحديث، وفيه: فقالوا: يا رسول الله! رأيناك تنـاولت شـيئاً في مقامـك، ثم رأينـاك تكعكعت، فقـال: إني رأيت الجنة فتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الـدنيا، ورأيت النار فلم أرَ منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النسـاء، فقـالوا: بمَ يا رسول؟ قيـل: أيكفـرن باللـه؟ قـال: يكفـرن العشـير، ويكفـرن الإحسـان، لو أحسـنت إلى إحـداهن الـدهر كلـه، ثم رأت منك شـيئاً، قـالت: ما رأيت خـيراً قط). وفي صحيح مسلم من حديث أنس : (وايم الـذي نفسي بيـده! لو رأيتم ما رأيت لضـحكتم قليلاً وبكيتم كـثراً، قـالوا: وما رأيت يا رسـول اللـه؟ قـال: رأيت الجنة والنار)، وفي الموطأ والسنن من حديث كعب بن مالك قال: قــال رسول الله صلى الله عليه: (إنما نسـمة المـؤمن طـير يعلق في شـجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة)، وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة. وفي صحيح مسلم والسنن والمسند -من حديث أبي هريــرة رضي الله عنــه- أن رســول الله صــلى الله عليه وســلم قــال: (لما خلق الله الجنة والنـــار أرسل جبريل إلى الجنـــة، فقـــال: اذهب فـــانظر إليها وإلى ما أعــددت لأهلها فيهــا، فــذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيهــا، فرجع فقال: وعزتك! لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة فحفت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها ثم رجع فقــال: وعزتك! لقد خشيت ألا يـدخلها أحـد، قـال: ثم أرسـله إلى النـار، قـال: اذهب فـانظر إليها وإلى ما أعـددت لأهلها فيهـا، قـال: فنظر إليهـا، فـإذا هي يـركب بعضها بعضاً، ثم رجع فقال: وعزتك! لا يدخلها أحد سمع بهـا، فـأمر بها فحفت بالشـهوات، ثم قـال: اذهب فـانظر إلى ما أعـددت لأهلها فيها فـذهب فنظر إليها، فرجع فقال: وعزتـك! لقد خشـيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلهـا)، ونظـائر ذلك في السـنة كثـيرة]. هـذه الأحـاديث صـريحة في وجـود الجنة وفي وجـود النار، وأن النبي صلى الله عليه وسلم رآها كما في أحاديث كثيرة، ففي صلاة

الكسوف ذكر أنه عرضت عليه الجنة، وأنه تناول منها عنقوداً لو أخـذه لأكلـوا منه ما بقيت الدنيا؛ وذلك لأن نعيم الجنة لا ينفد، وعرضت عليه النار فتكعكـع: يعني: تقهقهر وتـأخر، وذكر أنه رأى فيها فلانـاً وفلانـاً، وسـمى من رأى فيهـا، فرأى فيها عمرو بن لحي ، وكان أول من غير دين إبـراهيم، ورأى فيها سـارق الحاج الذي كان يسرق المتـاع بمحجنـه، ورأى فيها المـرأة الـتي تعـذب بهـرة ربطتها حتى ماتت جوعاً. وفي هذا الحديث يقول: (رأيت أكثر أهلها النساء..)؛ بسـبب أنهن يكفـرن الإحسـان، فـإذا أحسن الـزوج إلى المـرأة -غالبـاً، وليس دائماً- ثم رأت منه شيئاً يخالف ما تشتهيه أنكرت إحسانه، فيكـون ذلك سـبباً في عذابها. وكذلك أخبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم أن أرواح الشـهداء في أجـــواف طـــير خضر تعلق في شـــجر الجنـــة، أي أن الله جعل أرواحهم في أجـواف طـير خضر تـدخل الجنـة، وتأكل من شـجرها حـتى يردها الله إلى أجسادها، وأخبر الله تعالى: أن أرواحـاً من الكفـار كـآل فرعـون تعـرض على النار، قال تعالى: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً [غافر:46]، فدل على أن النار موجودة، وأنهم يعرضون عليها في الصباح وفي المساء. فكل هذه الأدلة واضـــحة الدلالة على أن الجنة والنـــار موجودتـــان الآن، ولا يلـــزم ما تقوله المعتزلة من أنها تبقى معطلة سـنين طويلـة، بل إنها تعتـبر تـذكرة، وتعتـبر ظـاهرة لمن أطلعه الله عليهـا، وقد ذكر ابن عمر : (أنه رأى رؤيـا، وهي: أن رجلين أتيا به النـار، فـإذا هي مطوية كطي البـئر، يقـول: فـرأيت فيها رجـالاً أعرفهم، فقيل: لن تـراع..). وكـذلك: أخـبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم في حـديث سـمرة الطويل أنه دخل الجنة في المنـام مع رجلين هما ملكـان، وأنه رأى فيها كـــذا.. وكـــذا..، ولا شك أن هـــذا كله دليل على أنها موجـــودة، وأنها مهيأة معـدة لأهلهـا، وأن من مـات وصل إليه ألمه إن كـان من أهل العـذاب، ونعيمه إن كان من أهل الثواب.

الرد على شبهة من ينكر وجود الجنة الآن حتى لا يلزم موت أهلها يوم القيامة

قال المؤلف رحمه الله: [وأما على قول من قـال: إن الجنة الموعـود بها هي الجنة التي كان فيها آدم ثم أخرج منها، فالقول بوجودها الآن ظـاهر، والخلاف في ذلك معروف. وأما شـبهة من قـال: إنها لم تخلق بعـد: وهي أنها لو كـانت مخلوقة الآن لوجب اضـطراراً أن تفـنى يـوم القيامـة، وأن يهلك كل من فيها ويموت؛ لقوله تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ [القصص:88]، وقوله تعـالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [آل عمران:185]، وقد روى الترمـذي في جامعه من حـديث ابن مسـعود رضي الله عنه قـال: قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: (لقيت إبـراهيم ليلة أسـري بي، وقـال: يا محمـد! أقـرئ أمتك مـني السـلام، وأخـبرهم أن الجنة طيبة التربـة، عذبة المـاء، وأنها قيعـان، وأن

غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)، قال: هـذا حـديث حسن غريب. وفيه أيضاً من حديث أبي الزبير عن جابر عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (من قـال: سـبحان الله وبحمـده غرست له نخلة في الجنة) قال: هذا حديث حسن صحيح. قـالوا: فلو كـانت مخلوقة مفروغـاً منها لم تكن قيعانـاً، ولم يكن لهـذا الغـراس معـنى، قـالوا: وكـذا قوله تعـالى عن امرأة فرعون إنها قـالت: رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ [التحـريم:11] ؟ فـالجواب: إنكم إن أردتم بقـولكم إنها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصـور، وقيام الناس من القبور، فهذا باطل، يرده ما تقـدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنها لا يزال الله يحـدث فيها شـيئاً بعد شـيء، وإذا دخلها المؤمنـون أحـدث الله فيها عند دخولهم أموراً أخر، فهـذا حق لا يمكن رده، وأدلتكم هـذه إنما تـدل على هـذا القدر]. هذه الأحاديث وأشباهها دالة على أن الجنة موجودة، ولكن يحدث الله فيها ما يشـاء، ويجـدد الله فيها ما يشـاء، ففي حـديث الإسـراء أخـبر أنه لقي إبراهيم فقال: (أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة المـاء، وأنها قيعـان، وأن غراسـها سـبحان اللـه، والحمد للـه، ولا إله إلا اللـه، والله أكـبر) يعـني: أن الجنة موجـودة، ولكن كل أحد يغـرس له فيها غـراس أعماله التي يعملها في الدنيا، فمما يغـرس له في الجنة أنه إذا قـال: سـبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ غرست له شجرة في الجنة، وإذا كررها فكذلك. وهكـذا أيضـاً: يبـنى له غـرف بأعماله الصـالحة، ورد في بعض الأحـاديث (أن الملائكة تبـني لابن آدم بيوتـاً وغرفـاً ما دام يعمل الصـالحات، ويـذكر الله ويشـكره، ويـأتي بالحسـنات، وإذا توقف عن العمل توقفـوا عن البناء، فإذا قيل: لماذا توقفتم؟ قـالوا: حـتى تأتينا النفقـة)، فالبـاني في الـدنيا يحتـاج إلى نفقـة، والعمـال الـذين يعملـون لك في الـدنيا لا يعملـون إلا إذا أعطيتهم نفقـة، ونفقة الملائكة الـتي يبنـون بها هي ذكر اللـه، وعبادتـه، والحسـنات، فهم مشـتغلون يبنـون، والبنـاء الـذي تبنيه في الآخـرة هو الـذي يبقى؛ ولهذا يقول بعض الشعراء: لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل المـوت يبنيها فـإن بناها بخـير طـاب مسـكنه وإن بناها بشر خـاب بانيها النفس تـرغب في الـدنيا وقد علمت أن الزهـادة فيها تـرك ما فيها فـاغرس أصـول التقى ما دمت مجتهـداً واعلم بأنك بعد المـوت لاقيها فهكـذا تكـون أعمال الإنسان في الدنيا بمنزلة الغراس في الجنـة، كلما عمل حسـنة غـرس له أو بني له بها بيوت ومنازل في الجنة؛ وهـذا يـدلنا على أن الجنة موجـودة، وأنها تتكامل يوم القيامة بالأعمال الصالحة، كلما توفي مؤمن كان قد بـني له بقدر أعماله، وهكذا إلى أن يأذن الله بقيام الساعة. وفي حديث عبـادة الـذي في الصـحيح: (من شـهد أن لا إله إلا اللـه، وأن محمـداً عبـده ورسـوله، وأن عيسى عبد الله ورسـوله، وكلمته ألقاها إلى مـريم ، وروح منـه، وأن الجنة حق، وأن النار حـق؛ أدخله الله الجنة على ما كـان من العمـل) فالجنة أعـدها الله لأوليائـه، والنـار هي دار العـذاب، أعـدها الله لأعدائـه، ولمن كفر بـه. وصفات الجنة والنار تؤخذ من الكتاب والسنة، فقد وصفهما الله تعـالى، وذكر ما فيهما من العـذاب وما فيهما من الثـواب، ولا شك أن من آمن بـذلك حقـاً

فإنه يستعد لذلك؛ ولذلك يقول بعض السلف: عجبت للجنة كيف ينام طالبها؟! وعجبت للنار كيف ينام هاربها؟! يعني: أن من تحقق هذه الجنة وما فيها فإنه يطلبها، ولا يهنأ بالمنام ولا بالمقام، وكذلك من آمن بالنار وعذابها وما فيها من الأنكال والأغلال، فإنه يهرب منها، ولا يهنأ بالمنام ولا بالمقام. الكلام في الجنة والنار يتعلق بالكلام على حقيقتهما، وهذا يؤمن به كل من آمن بالله، ويتعلق بوجودهما الآن، وهذا يؤمن به أهل السنة، ويخالف فيه المبتدعة، ويتعلق ببقائهما واستمرارها، وهذا أيضاً يؤمن به أهل السنة، فيؤمنون بأن الجنة والنار موجودتان الآن مخلوقتان، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى الجنة وقد رأى النار رؤيةً حقيقة: إما في المنام، وإما في الإسراء، ويؤمنون بما ذكر الله عنهما، فقد ذكر الله عن الجنة والنار: أن هذه أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ [آل عمران:133] يعني: هيئت وأزلفت لهم، وأن هذه أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [البقرة:24] فهي معدة مهيأة لهم، وغير ذلك من الأدلة. ويدخل في ذلك الرد على من أنكر ذلك كالمعتزلة الذين أنكروا وجود الجنة والنار الآن، وقالوا: إنما يخلقان غداً يوم القيامة، وهذا منهم مصادمة لكتاب الله ولسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التي فيها الإخبار أن الله هيَّأ الجنة وأعدها لمن آمن به؛ فهي مخلوقة موجودة الآن بما فيها من النعيم، وهيَّأ النار وأعدها؛ فهي موجودة الآن مهيأة بما فيها من العذاب! وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن الميت في قبره يفتح له بابان: باب إلى الجنة، وباب إلى النار، فإذا كان مؤمناً يقال: هذا منزلك من الجنة، وهذا منزلك من النار لو كفرت، فيزداد فرحاً حيث يرى العذاب الذي سلم منه، والثواب الذي حظي به، ويفتح للكافر بابان: باب إلى الجنة، ويقال: هذا منزلك لو آمنت بالله، وباب إلى النار ويقال: هذا منزلك ومقيلك، فيزداد حسرة على ما فاته من الثواب، وعلى ما فاته من النعيم، وذلك بلا شك دليل على أنهما موجودتان الآن مهيأتان كما أخبر الله، فيؤمن أهل الإيمان بالله بما أخبر الله، ويؤمنون بهذه الأخبار الواضحة التي تدل على وجود الجنة والنار.

الرد على احتجاج منكري وجود الجنة بآية: (كل شيء هالك إلا وجهه)

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وأما احتجاجكم بقوله تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ [القصص:88]، فأتيتم من سوء فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائها وخرابها وموت أهلها، فلم توفقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية. وإنما وفق لذلك أئمة الإسلام، فمن كلامهم: أن المراد كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء، وكذلك العرش فإنه سقف الجنة، وقيل المراد: إلا ملكه، وقيل: إلا ما أريد به وجهه، وقيل:

إن الله تعالى أنزل: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ [الرحمن:26]، فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنهم يموتون، فقال: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ [القصص:88]؛ لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت، وإنما قالوا ذلك توفيقاً بينها وبين النصوص الدالة على بقاء الجنة وعلى بقاء النار أيضاً على ما يذكر عن قريب إن شاء الله تعالى] الذين يحتجون بهذه الآية هم المبتدعة من المعتزلة ونحوهم، يقولون: لو كانت الجنة موجودة لأتى عليها الفناء، ولأتى عليها الهلاك، وكذلك النار لو كانت موجودة لفنيت كما يفنى غيرها؛ لأن الله يقول: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ [القصص:88]. والجواب: أن الله أخبر بأن الذي خلق للبقاء فإنه باقٍ، وذلك أن الجنة والنار خلقتا للبقاء؛ لأنهما يثاب بهما ويعاقب بهما في الدار الآخرة -أي: بعد الموت وبعد البعث من الموت- فهما مخلوقتان للبقاء، فلا يأتي عليهما الفناء، فيكون قوله: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ [القصص:88] أي: كل شيء خلقه الله في الدنيا لابد أن يهلك ويفنى إلا وجه الله، أي: إلا الله وحده، أو: إلا ما أريد به وجهه. كذلك قول الله تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ [الرحمن:26]، الضمير في (عليها) يعود إلى الأرض، أي: كل من على الأرض فانٍ ويبقى وجه ربك، ولكن يقال أيضاً: إن المراد كل من على هذه الحياة فانٍ، ولا مانع من أن يموت أهل السماوات وأهل الأرض من الملائكة ومن المخلوقات التي خلقها الله للفناء، ثم بعد ذلك يبعثون ويعودون كما كانوا؛ وذلك لقوله الله تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ [الفرقان:58]، ويقول في الحديث: (أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون). فأخبر بأن الحياة لله وحده، وأن ما سواه فإنه يموت، ولا يلزم أن ذلك يعم المخلوقات كلها -كالجمادات ونحوها- قد ذكر الله أن الجبال تكون هباء، وأن الأرض تبدل بغيرها يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ [إبراهيم:48]، وأن السماوات تتفطر، يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ [المعارج:8]، إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ [الانفطار:1]، وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ [الفرقان:25]، فذكر أن كل هذه الأشياء تتغير في ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، ولكن لا يكون ذلك عاماً في كل الموجودات. وعلى كل حال فلا يلزم من ذلك فناء الجنة، إذ هي مما خلقه الله للبقاء.

أبدية الجنة وعدم فنائها والكلام على الاستثناء في آية هود

قال المؤلف:[وقوله: (لا تفنيان أبداً ولا تبيدان). هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف، وقال ببقاء الجنة وفناء النار جماعة منهم السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها. وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من الصحابة ولا من

التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين ولا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة، وكفـروه بـه، وصـاحوا به وبأتباعه من أقطـار الأرض، وهـذا قاله بأصله الفاسد الذي اعتقده: وهو امتنـاع وجـود ما لا ينتهي من الحـوادث، وهو عمـدة أهل الكلام المـذموم، الـتي اسـتدلوا بها على حـدوث الأجسـام، وحدوث ما لم يخـلُ من الحـوادث، وجعلـوا ذلك عمـدتهم في حـدوث العـالم. فــــرأى الجهم أن ما يمنع من حــــوادث لا أول لها في الماضي يمنعه في المستقبل، فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع، كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي، و أبو الهذيل العلاف -شيخ المعتزلة- وافقه على هـذا الأصل، لكن قال: إن هـذا يقتضي فنـاء الحركـات، فقـال: بفنـاء حركـات أهل الجنة والنار حتى يصيروا في سكون دائم لا يقـدر أحد منهم على حركـة. وقد تقدم الإشارة إلى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث بالماضي والمسـتقبل، وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى، وهو لم يزل رباً قادراً فعـالاً لما يريـد، فإنه لم يـزل حيـاً عليمـاً قـديراً، ومن المحـال أن يكـون الفعل ممتنعـاً عليه لذاتـه، ثم ينقلب فيصـير ممكنـاً لذاته من غـير تجـدد شـيء، وليس للأول حد محدود حتى يصير الفعل ممكناً له عند ذلك الحد، ويكـون قبله ممتنعـاً عليـه، فهذا القول تصوره كافٍ في الجزم بفساده. فأما أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر به، قال تعالى: وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّـمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ [هـود:108]، أي: غـير مقطـوع، ولا ينـافي ذلك قوله (إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ). واختلف السلف في هذا الاستثناء، فقيـل: معنـاه إلا مدة مكثهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها لا لكلهم. وقيل: إلا مدة مقامهم في الموقف. وقيل: إلا مدة مقامهم في القبـور والموقـف. وقيـل: هو اسـتثناء اسـتثناه الـرب ولا يفعلـه، كما تقـول: واللـه! لأضـربنك إلا أن أرى غـير ذلـك، وأنت لا تـراه بل تجـزم بضـربه. وقيـل: (إلا) بمعنى الواو، وهذا على قـول بعض النحـاة وهو ضـعيف، و سـيبويه يجعل (إلا) بمعـنى: (لكن) فيكـون الاسـتثناء منقطعـاً، ورجحه ابن جرير وقـال: إن الله تعالى لا خلف لوعده، وقد وصل الاستثناء بقولـه: عطـاء غـير مجـذوذ، قـالوا: ونظيره أن تقول: أسـكنتك داري حـولاً إلا ما شـئت، أي: سـوى ما شـئت، أو لكن ما شئت من الزيادة عليه. وقيـل: الاسـتثناء لإعلامهم بـأنهم مع خلـودهم في مشيئة الله، لا أنهم يخرجون عن مشـيئته، ولا ينـافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود، كما في قوله تعالى: وَلَئِنْ شِـئْنَا لَنَـذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً [الإسراء:86]، وقوله تعالى: فَـإِنْ يَشَـأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ [الشورى:24]، وقوله تعالى: قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ [يونس:16]، ونظائره كثيرة يخبر عباده سبحانه أن الأمـور كلها بمشـيئته، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وقيل: إن (ما) بمعنى (مَنْ) أي: إلا من شـاء الله دخوله النار بذنوبه من السـعداء. وقيل غـير ذلـك، وعلى كل تقـدير فهـذا الاستثناء من المتشابه، وقوله: عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ [هـود:108] محكم، وكـذلك قوله تعالى: إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ [ص:54]، وقوله: أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا [الرعد:35]، وقوله: وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ [الحجـر:48]. وقد أكد الله خلـود

أهل الجنة بالتأبيد في عـدة مواضع من القـرآن وأخـبر أنهم لا يَـذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الأُولَى [الدخان:56] وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى: إِلاَّ مَا شَـاءَ رَبُّكَ [هـود:107]، تـبين لك المـراد من الآيـتين، واسـتثناء الـوقت الـذي لم يكونـوا فيه في الجنة من مـدة الخلـود كاسـتثناء الموتة الأولى من جملة المـوت، فهـذه موتة تقـدمت على حيـاتهم الأبدية، وذاك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها. والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثـيرة، كقوله صـلى الله عليه وسـلم: (من يـدخل الجنة ينعم ولا ييأس، ويخلد ولا يموت)، وقوله: (ينـادي منـادٍ: يا أهل الجنـة! إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن تشبوا فلا تهرموا أبـداً، وأن تحيـوا فلا تموتـوا أبداً)، وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار: (ويقال: يا أهل الجنة! خلود فلا مـوت، ويا أهل النـار! خلـود فلا مـوت)]. هـذا دليل واضح على أبدية الجنـة، ودوامها. أهل السنة يقولون: بأبدية الجنة والنار ودوامهما، وعـدم انقطاعهمـا، وهنـاك بعض العلمـاء قـالوا: إن عـذاب النـار ينقطـع، وإن نعيم الجنة دائم سرمدي لا ينقطع. وهناك مبتدعة إمـامهم الجهم بن صـفوان قـالوا بـأن الجنة والنار تفنيان، وأول من قال هذا القول: الجهم بن صفوان إمام الجهميـة، وهو الـذي جمع ثلاث بـدع أو أكـثر من ثلاث: بدعة التعطيـل، بدعة الجـبر، بدعة الإرجاء. ومن عقيدته: أنه يقول بامتناع حوادث لا نهاية لها ولا بداية لهـا، وهـذا على قاعدة له، ولم يسبق إلى هـذا القـول، أي: ليس له سـلف، فليس هنـاك أحد قبله قال إن الجنة تنقطع وإنها تفنى وإنها تزول، فهو أول من قال بـذلك. وأبو الهذيل العلاف من رءوس المعتزلـة، ومن رءوس المتكلمين، وافقه بـأن النار تفنى، وكذلك الجنـة، ولكن يقـول: إن فناءها بمعـنى أنها تبقى موجـودة، وأهلها كأنهم ليسوا أحيـاء، أي: تـذهب حيـاتهم وتـذهب حركـاتهم، ولا شك أن هذا قول بالفنـاء، يعـني: أنهم يموتـون ما دام أنه لا حركة فيهم، فلا يبقى أهل الجنة ولا أهل النار. وهنـاك قـول بـأن أهل النـار يبقـون فيها بلا حركـة، أو أن طبـائعهم تنقلب طبيعة ناريـة، بمعـنى: أنهم يبقـون في النـار بـدون تـألم، فلا يحسون بألمها؛ لأنهم يصـبحون نـاريين كـالجن والشـياطين الـذين لا تحـرقهم النار في الدنيا، وكل هذه أقوال لا دليل عليها.

ذكر بعض الآيات المؤكدة على أبدية الجنة

ورد التأكيد على أبدية الجنة في القـرآن في عـدة آيـات، ففي سـورة النسـاء قول الله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ سَـنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَـداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُـدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً [النساء:57]، فأكد الخلود بالأبدية، وكذلك قال تعالى: وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَـاجِرِينَ وَالأَنصَـارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُـوهُمْ بِإِحْسَـانٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ

وَأَعَـدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي تَحْتَهَا الأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَـداً [التوبـة:100]، فأكد الخلـود بالأبديـة، بمعـنى: أنهم مخلـدون فيها خلـوداً دائمـاً لا يتحـول، فالأبدية بمعنى الدوام. وكذلك في عدة مواضع من آخرها قول الله تعـالى في سـورة البينة: جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَـداً رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ ذَلِـكَ لِمَنْ خَشِـيَ رَبَّهُ [البينـة:8]، أكد الخلـود بالأبدية، فلا شك أن هذا دليل على البقاء، وقد ورد أيضـاً: التأكيد بثلاثة أشـياء في سورة التوبة، قال تعالى: يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْـهُ وَرِضْـوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَـداً [التوبـة:21-22]، (مقيم): يعـني: دائم، (خالدين): يعني: دائمين، (أبداً): يعني: مؤبـداً، فأكـده بقولـه: (مقيم) وبقولـه: (خالــدين) وبقولــه: (أبــداً)، ولا شك أن ذلك دليل على الأبدية والاســتمرار. واســتدل الشــارح بقــول الله تعـالى في أهل الجنة في ســورة الــدخان: لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَـوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَـةَ الأُولَى [الـدخان:56] يعـني: الـتي في الـدنيا، فمعنـاه أنهم دائمـون لا يموتـون، بل مسـتمر بقـاؤهم ولا يتحولـون عنهـا، فلا يذوقون فيها الموت إلا موتتهم التي في الـدنيا، فهـذا دليل أيضـاً على بقائهـا. واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم في وصف أهل الجنة أنه يقـال لهم: (إن لكم فيها أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وأن تشبوا فلا تهرمـوا أبـداً، وأن تقيمـوا فلا تظعنوا أبداً)، واستدل بالحديث الذي تقـدم في ذبح المـوت بين الجنة والنـار، وأنه يقال لأهل الجنة: (يا أهل الجنة! خلود فلا موت، ويا أهل النـار! خلـود فلا موت)، فيزداد أهل الجنة فرحاً، ويزداد أهل النار سـوءًا وحزنـاً؛ وذلك لأن أهل النـار يتمنـون الخلاص، بل يتمنـون أن يقضى عليهم يقولـون: يَا مَالِـكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ [الزخرف:77]، فيتمنـون أن يموتـوا، فيخـبر الله بأن ذلك لا يكون، يقول الله تعـالى: لا يُقْضَـى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُـوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا [فاطر:36]، ويقول في آية أخرى: لا يَمُـوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا [الأعلى: 13]، يتمـنى المـوت فلا يمـوت، ولا يحيا حيـاة طيبة يسـعد فيها وينعم، هـذه حالتهم، ولا شك أن هذا دليل على البقـاء، ودليل على دوامهم وعـدم انقطـاع نعيم هؤلاء وعذاب هؤلاء.

اعتقاد أهل السنة أبدية الجنة

ثم تكلم المؤلف رحمه الله على ما يتعلق بآية هود، وهي قول الله تعـالى في أهل الجنــة: وَأَمَّا الَّذِينَ سُـعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِـدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّــمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَـاءَ رَبُّكَ عَطَـاءً غَيْـرَ مَجْـذُوذٍ [هـود:108]، أكد البقـاء بقوله تعــالى: خَالِــدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّــمَوَاتُ وَالأَرْضُ أي: ما دامت الســماوات والأرض باقية، ومعلوم أن السماوات يعيدها الله كما شـاء، وأن الأرض يبـدلها كما يقول الله تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّـمَوَاتُ [إبـراهيم:48]،

فتبقى السماوات وتبقى الأرض التي تبدل، وليس لها نهاية لبقائهـا، فما دامت السماوات والأرض باقية فالجنة والنار باقية. كذلك قولـه: عَطَـاءً غَيْـرَ مَجْـذُوذٍ [هود:108]، أي: غير مقطـوع ولا مصـروم ولا نهاية لـه، بل هو بـاقٍ مسـتمر متواصل، ليس له ما يكدره ولا ما يقطعه، فهذا من الآيات المحكمة التي فيها الإقامة والخلـود والأبدية والـدوام وعـدم الانقطـاع، ولا شك أن أهل الجنة لو قيل لهم: إن نعيمكم سينقطع ولو بعد مائة ألف سنة، ولو بعد ألف ألف سنة؛ لتكـدرت حيـاتهم، ولقـالوا: لا هنـاء لنا ما دام أنه سـينقطع، فإنه سـيأتي ذلك اليوم، ولو كان بعيداً، هذا معلوم. فمما يكـدر نعيم الـدنيا على أهلها معـرفتهم بأن نعيمها يـزول، وأنه يتبـدل، فأما نعيم الجنة فإنه لا يـزول؛ فلـذلك بشـرهم ربهم بأنهم باقون فيها وأنهم لا يحولون ولا يزولون. وأما الاستثناء في آية هود في قولـه: إِلاَّ مَا شَـاءَ رَبُّكَ [هـود:107] فقد سـمعنا أن العلمـاء قـالوا: هـذا الاستثناء من المتشـابه، ومنهم من حمله على ما قبل دخولهـا، يعـني: أنه يمر عليهم قبل دخولها زمان وهو وقت حساب، أو وقت الوقوف ليوم القيامة قبل نزول الله لفصل القضاء فيقولون: هذا هو زمان الاستثناء. وقيل: إنه اسـتثناء، ولكن لا يدل على أنه يقطع عليهم نعيمهم، ومثله الشارح كما إذا قلت: سوف أكرمك إلا أن أشاء، وأنت عازم على إكرامـه، وقد ورد ذلك أيضـاً في القـرآن في قول الله تعالى: فَصَـعِقَ مَنْ فِي السَّـمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَـاءَ اللَّهُ [الزمر:68]، ونحو ذلك. وعلى كل حال فهو من المتشابه، والآيات الدالة على بقـاء النعيم واسـتمراره محكمة ليس فيها خفـاء، فيـؤمن أهل العقيـدة السلفية بما تتضمنه تلك الآيات، ويستعدون للقاء، ويطلبون هذا الثـواب الـذي لا يحول ولا يزول.

اختلاف الناس في أبدية النار ودوامها

قـال رحمه اللـه: [وأما أبدية النـار ودوامها فللنـاس في ذلك ثمانية أقـوال: أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآبـاد، وهـذا قـول الخـوارج والمعتزلـة. والثـاني: أن أهلها يعـذبون فيهـا، ثم تنقلب طـبيعتهم، وتبقى طبيعة ناريـة، يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عـربي الطـائي . الثالث: أن أهلها يعـذبون فيها إلى وقت محـدود، ثم يخرجـون منهـا، ويخلفهم فيها قـوم آخـرون: وهـذا القـول حكـاه اليهـود للنـبي صـلى الله عليه وسـلم وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى، فقال عز من قال: وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْـدَهُ أَمْ تَقُولُـونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَـبَ سَـيِّئَةً وَأَحَـاطَتْ بِـهِ خَطِيئَتُـهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [البقرة:80-81]. الرابع: يخرجون منهـا، وتبقى على حالها ليس فيها أحد. الخامس: أنها تفـنى بنفسـها؛ لأنها حادثـة، وما ثبت

حدوثه استحال بقاؤه، وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فـرق عنـده في ذلك بين الجنة والنـار كما تقـدم. السـادس: تفـنى حركـات أهلها ويصـيرون جمـاداً لا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف كما تقدم. السـابع: أن الله يخـرج منها من يشاء كما ورد في السـنة، ثم يبقيها ما يشـاء، ثم يفنيها فإنه جعل لها أمـداً تنتهي إليـه. الثـامن: أن الله تعـالى يخـرج منها من يشـاء كما ورد في السنة، ويبقي فيها الكفار بقاء لا انقضاء له، كما قـال الشـيخ رحمه اللـه، وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان، وهذان القـولان لأهل السـنة ينظر في دليلهما]. الآن تكلم على فناء النار ومن يخـرج منهـا، ولا شك أن الأقـوال الستة التي سـمعنا من أقـوال المبتدعـة، فمن عقيـدة الخـوارج والمعتزلة أن من دخل النار لا يخرج منها، وأن العصـاة وأصـحاب الكبـائر لا يخرجـون منهـا، من دخلها فهو فيها مخلد، ويستدلون بمثل قول الله تعـالى: وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ [البقـرة:167]، وبقوله تعـالى: كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُـوا مِنْهَا أُعِيـدُوا فِيهَا [السـجدة:20]، ونحو ذلك من الآيـات، ولكن هـذه الآيـات محمولة على الكفـار، ولا يـراد بها أهل الكبـائر، ولا يـراد بها المؤمنـون الـذين هم من أهل التوحيد، فإنه ورد الدليل بأنهم يخرجـون بشـفاعة الشـافعين، أو برحمة أرحم الـراحمين، يعـذبون بقـدر ذنـوبهم ثم يخرجـون، فهـذا القـول الـذي هو قـول الخوارج وقول المعتزلة بتخليد أصحاب الكبائر في النـار تخليـداً مؤبـداً؛ قـول يخالف الأدلة الصريحة. وأما اليهود فقـالوا: إن أهل النـار الـذين يـدخلونها من اليهود، يخرجون منها، ثم تخلفهم فيها هذه الأمة، لما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (كيف تدخلون النار؟ فقالوا: نـدخلها أربعين يومـاً، ثم نخـرج منها وتخلفوننا أنتم، فقال: كذبتم)، وكذبهم الله تعالى بقوله: وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْـدَ اللَّهِ عَهْـداً فَلَنْ يُخْلِـفَ اللَّهُ عَهْـدَهُ [البقـرة:80]، ولا شك أن هذا أيضاً قول باطل؛ وذلك لأنه لا يدخلها إلا أهلهـا. ولا شك أيضاً أن قـول أبي الهـذيل العلاف : أنه تفـنى حركـاتهم، وأنهم يبقـون فيها بلا حركة؛ قول باطل. وكذلك القول: بأن أهلها يصـيرون فيها نـاريين، أي: تنقلب طبيعتهم نارية بحيث يتلذذون بها كما يتلذذ أهل الجنة بالجنة، فهذا أيضـاً قـول لا دليل عليه؛ وذلك لأن الأدلة دلت على أنهم يتألمون وأنهم ينادون ويقولـون: يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ [الزخرف:77]، ويقولون: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُـونِ [المؤمنـون:107-108]، وأخـبر بأن: لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِـدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّـمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَـاءَ رَبُّكَ [هـود:106-107]، ولا شك أن هـذا دليل على أنهم يتـألمون ولا ينقطع ألمهم. بل أخـبر تعـالى بتجديد العـذاب عليهم بقولـه: كُلَّمَا نَضِـجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا [النساء:56]، فالنار تحرقهم حتى يصيروا فحماً، ثم بعد ذلك يجدد لحمهم، وينبت لحمهم حتى يتألم مرة بعد مرة، وحتى يـزداد ألمهم، ولا شك أن هذا دليل على بطلان قول هؤلاء الذين يقولون: إنها تنقلب طبيعتهم فيكونـون نـاريين. وكـذلك قـول الـذين يقولـون: إنها تبطل حركـاتهم ويصبحون جمـاداً لا حركة لهم، وغـير ذلك من أقـوال المعتزلة ونحـوهم. بقي القولان الأخيران: قال بعضهم: إنهم يبقون فيها مدة، ثم بعد ذلك تفنى، وأنهم لو مكثوا فيها ما مكثـوا فلابد من نهايتهـا. والقـول الآخـر: إنهم يبقـون فيها ولا

يفنـون، وإنها لا تفـنى. اسـتدل القـائلون بفنائها بقـول الله تعـالى: لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً [النبأ:23] كـأنهم يقولـون: الأحقـاب معـدودة معروفـة، فيـدل على أن لبثهم فيها محدد، ثم بعد ذلك يفنى ذلك العذاب، وسمعنا الأثر المـذكور وهـو: أنهم لو لبثـوا فيها عـدد رمل عـالج لكـان لهم يومـاً يخرجـون منها أو يفنـون. والصـحيح أن هـذه الآية ليس فيها تحديد الأحقـاب؛ لأن الله ما حـددها، وفسر بعضهم الحقب بأنه مائة عام، قال الله تعـالى عن موسـى: لا أَبْـرَحُ حَتَّى أَبْلُـغَ مَجْمَـعَ الْبَحْـرَيْنِ أَوْ أَمْضِـيَ حُقُبـاً [الكهـف:60]، وإذا كـان الحقب مائة عـام، فالعام اثنا عشر شهراً، والشهر ثلاثـون يومـاً، واليـوم الواحد كـألف سـنة مما تعـــدون، ثم لو قـــال الله مائة حقب أو ألف حقب أو مائة ألف حقب، لكـــان للكافر رغبة وأمل ورجاء في أن عذابه سـيزول، ولكن ما حـددها اللـه؛ ولأجل ذلك يقول بعض العلمـاء: لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابـاً : أي كلما مضى حقب أتى حقب، كلما انقضى حقب ابتدأ حقب إلى غير نهاية، فليس لهذه الأحقاب نهاية، حيث لم تحدد. فلا دلالة في هـذه الآية ولا في الآيـات الـتي فيها الاسـتثناء في قوله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَـاءَ رَبُّكَ [هـود:107]، فإن الاستثناء هنا كالاستثناء في الآية التي في نعيم أهل الجنـة، ولا يـدل على أن هنـاك زمانـاً يخـرج هـؤلاء من نعيمهم أو هـؤلاء من جحيمهم، بل الأصح المعتمـد: أن الجنة والنـار باقيتـان دائمتـان، لا تفنيـان ولا تبيـدان أبد الآبـدين، وبذلك يرغب أهل الجنة في الـدار الـتي لا ينقطع نعيمهـا، ويهربـون ويخشـون من النار التي لا ينقطع عذابها.

وقع الخلاف في فناء النار وبقائها، وللناس فيها مذاهب متباينـة، والحق الـذي عليه جمهور أهل السنة بقاؤها، وقد ذكروا أدلة ذلك وردوا على المخالفين.

أدلة من قال بفناء النار

قال المؤلف: [فمن أدلة القـول الأول منهمـا: قوله تعـالى: قَـالَ النَّارُ مَثْـوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [الأنعام:128]، وقوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ شَـقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِـيرٌ وَشَـهِيقٌ * خَالِـدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيـدُ [هـود:106-107]، ولم يأتِ بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنـة، وهو قوله: عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ [هود:108]، وقوله تعـالى: لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابـاً [النبـأ: 23]. وهذا القول -أعني: القول بفناء النار دون الجنة- منقـول عن عمر و ابن مســعود و أبي هريـــرة و أبي ســعيد وغـــيرهم. وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور بسنده إلى عمر رضي الله عنه أنه قـال: لو لبث أهل النـار في النار كقدر رمل عـالج لكـان لهم على ذلك وقت يخرجـون فيـه، ذكر ذلك في تفسـير قوله تعـالى: لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابـاً [النبـأ:23]. قـالوا: والنـار مـوجب غضـبه، والجنة مـوجب رحمتـه، وقد قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (لما قضى الله الخلـق: كتب كتابـاً فهو عنـده فـوق العـرش: إن رحمـتي سـبقت غضبي)، وفي رواية: (تغلب غضـبي)، رواه البخـاري في صـحيحه، من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه]. قالوا: والله سبحانه يخـبر عن العـذاب أنه عَـذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [الأنعام:15] ، وأَلِيمٍ [هود:26] ، وعَقِيمٍ [الحج:55] ، ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يـوم. وقد قـال تعـالى: قَـالَ عَـذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ [الأعراف:156]، وقـال تعـالى حكاية عن الملائكة: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَـةً وَعِلْمـاً [غـافر:7]، فلابد أن تسع رحمته هـؤلاء المعـذبين، فلو بقـوا في العـذاب لا إلى غاية لم تسـعهم رحمتــه، وقد ثبت في الصــحيح تقــدير يــوم القيامة بخمســين ألف ســنة، والمعذبون فيها متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جـرائمهم. وليس في حكم أحكم الحاكمين، ورحمة أرحم الـراحمين أن يخلق خلقـاً يعـذبهم أبد الآباد، عذاباً سرمداً لا نهاية له، وأما أنه يخلق خلقاً ينعم عليهم ويحسن إليهم نعيماً سرمداً فمن مقتضى الحكمـة، والإحسـان مـراد لذاتـه، والانتقـام مـراد بالعرض. قـالوا: وما ورد من الخلـود فيها والتأبيد وعـدم الخـروج وأن عـذابها مقيم وأنه غـرام، كله حق مسـلم لا نـزاع فيـه، وذلك يقتضي الخلـود في دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها في حـال بقائها أهل التوحيـد، ففـرق بين من يخـــرج من الحبس وهو حبس على حالــــه، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه. ......

هذا يتعلق بقول من يقول بـأن عـذاب النـار لا يبقى، بل ينقطـع، وأن له حـداً ونهاية، وهذا قول قاله بعض العلماء عن اجتهاد، وعللـوا بهـذه التعليلات الـتي سـمعنا، ونحن لا نشك أن الله تعـالى رحيم بالعبـاد، وأن رحمته تغلب غضـبه، ولكن نعــرف أنه خلق للرحمة أهلاً. وخلق للعــذاب أهلاً، ولا نشك أيضــاً: بأنه سبحانه جعل هذا العمل اليسير في الـدنيا له ثـواب عظيم مضـاعف مسـتمر، وكـذلك الكفر اليسـير له عـذاب دائم مسـتمر كثـير؛ وذلك لمقتضى حكمتـه، فمثلاً: قول النبي صـلى الله عليه وسـلم: (إن أحـدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النـار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكـون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) يعـني: أن بعض النـاس قد يولد كـافراً ويحيا كـافراً أو مبتـدعاً، ويمضي عليه عمـره وهو على كفـره، وقبل موته بيوم أو بساعة أو سويعات يمن الله عليه فيهتدي ويسـلم ويمـوت على الإسلام؛ فتكون تلك السـاعة أو ذلك اليـوم مكفـراً لما مضى من عمـره ماحياً لسيئاته وكفره وشركه وذنبه وجميع ما عمله طوال حياتـه، وكـان رجل من الأنصار يقال له: أصيرم بن عبد الأشهل مشركاً مع قومه لم يسـلم، ولما حضرت غزوة أحد وحضر القتال؛ هداه الله وأسـلم، ولما أسـلم دخل المعركة في تلك الساعة، وقاتل مع المسـلمين وقتل شـهيداً؛ فقـال النـبي صـلى الله عليه وسلم: (عمل قليلاً وأجر كثيراً)، فعمله هذا القليل ثوابه لا ينقطع، ثـواب دائم. وبخلاف حاله رجل يقـال لـه: قُزْمَـان كـان مع المسـلمين، وقاتل قتـالاً شديداً، ولكن قبل موته أصابته جراحة فقتل نفسه، وقبل أن يموت ذكر للنبي صـلى الله عليه وسـلم فقـال: (إنه من أهل النـار)، حبط عمله الصـالح بهـذه الفعلة، فنقـول: العمل اليسـير سـاعة أو سـاعات يثـاب عليه العبد أبد الآبـاد، وكذلك الكفر اليسير الذي يختم لصاحبه به يعـذب عليه أبد الآبـاد. إذاً: لا مـانع أن نقـول: إن الله تعـالى قـدر هـذا العـذاب لمن كفر به وخـرج عن طاعتـه، وجعل ذلك مسـتمراً لمن يسـتحقه بلا نهايـة، كما خلق النعيم والأجر والثـواب المستمر البـاقي ولم يجعل له نهايـة، وجعل ذلك ثوابـاً لمن عمل هـذا العمل إلى غير نهاية، فهذا كله لا يخرج عن حكمة الله، فيعذب عـذاباً مسـتمراً على العمل الكفري، وينعم نعيماً مستمراً على العمل الصـالح. وأما الـذين خلطـوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؛ فهؤلاء إما أن يعفو الله عنهم ويمحو عنهم السـيئات، وإما أن يعذبهم بقدر سيئاتهم، فيدخلون في النار، ويبقون فيها مـدة طويلة أو قصيرة بقدر ذنوبهم، ثم يخرجـون منها بعـدما يمكثـون فيها المـدة الـتي قـدر اللـه، فقد يمكثـون ألف سـنة أو ألفين أو ألوفـاً، وقد لا يمكثـون إلا قليلاً ثم يخرجـون. فأما أن النـار تخمد وينقطع عـذابها فهـذا -على القـول الصـحيح- لا يكون، بل الله تعالى يقول: كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً [النساء:56]، وقال الله تعـالى: لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً [النبأ:23]، يقـول العلمـاء: كلما انقضى حقب ابتدأ حقب، إلى غير نهاية، فالقول الصحيح أنها دائمة ومستمرة.

أدلة القائلين ببقاء النار وعدم فنائها

قال المؤلف رحمه الله: [ومن أدلة القـائلين ببقائها وعـدم فنائها قولـه: وَلَهُمْ عَـذَابٌ مُقِيمٌ [المائـدة:37]، وقوله تعـالى: لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيـهِ مُبْلِسُـونَ [الزخرف:75]، وقوله تعالى: فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً [النبأ:30]، وقوله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً [النساء:57]، وقوله تعالى: وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ [الحجـر:48]، وقوله تعالى: وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ [البقرة:167]، وقوله تعالى: لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ [الأعراف:40]، وقوله تعالى: لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا [فاطر:36]، وقوله تعالى: إِنَّ عَـذَابَهَا كَـانَ غَرَامـاً [الفرقـان:65]، أي: مقيمـاً لازمـاً. وقد دلت السـنة المستفيضة أنه (يخرج من النار من قـال: لا إله إلا اللـه)، وأحـاديث الشـفاعة صـريحة في خـروج عصـاة الموحـدين من النـار، وهـذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفـار منها لكـانوا بمـنزلتهم ،ولم يختص الخـروج بأهل الإيمـان، وبقـاء الجنة والنار ليس بذاتهما، بل بإبقاء الله لهما. وقوله: (وخلق لهما أهلاً). قال تعـالى: وَلَقَـدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِـيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ [الأعـراف:179]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (دعي رسول صلى الله عليه وسـلم إلى جنـازة صبي من الأنصار؛ فقلت: يا رسـول اللـه! طـوبى لهـذا عصـفور من عصـافير الجنـة، لم يعمل السـوء، ولم يدركـه، فقـال: أوغـير ذلك يا عائشة ؟! إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)، رواه مسلم و أبو داود و النسـائي . وقـال تعـالى: إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَـةٍ أَمْشَـاجٍ نَبْتَلِيـهِ فَجَعَلْنَـاهُ سَـمِيعاً بَصِـيراً * إِنَّا هَـدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً [الإنسان:2-3]، والمراد: الهداية العامـة، وأعم منها الهداية المذكورة في قوله تعالى: الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَـهُ ثُمَّ هَـدَى [طه:50]].

ترجيح القول ببقاء النار وعدم فنائها

ذكر المؤلف ما يتعلق بأبدية النار، وهذه الآيات صـريحة أو ظـاهرة الدلالة في أن النار باقية لا فناء لهـا، فقولـه: لَهُمْ عَـذَابٌ مُقِيمٌ [المائـدة:37] المقيم: هو الذي لا يزول، ولا يتحول، ولا ينقطع، وكذلك التعبير بالخلود والأبديـة: خَالِـدِينَ

فِيهَا أَبَداً [النساء:57] يدل على أن الخلود مستمر، وكذلك الأبدية. وكذلك قوله: وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ [البقرة:167]، يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا [المائدة:37]، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا [الحج:22] هذه الآيات صريحة بأنه ليس لهم خروج، بل بقاؤهم مستمر، وكذلك لما قالوا: يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ [الزخرف:77] تمنوا أن يقضى عليهم فيموتوا، فقال: إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ، وكذلك قوله: لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا [فاطر:36]، أي: لا يقضي عليهم فيستريحون من هذا العذاب، ولكنهم دائماً ماكثون فيه. وهذه الأدلة وغيرها واضحة الدلالة في أن الجنة والنار باقيتان دائمتان، وأن نعيم الجنة وعذاب النار مستمر، وهذه عقيدة أهل السنة، ولا شك أن القول بدوامهما هو القول الذي تؤيده الأدلة، وبكل حال هذا من الأمور التي يؤمن بها المسلمون، ويدل إيمانهم بها على أنهم يؤمنون بالغيب وإن لم يروه. أما أن الله تعالى علم أهل الجنة وأهل النار، فلا شك أنه سبحانه قدر من يعمل للجنة، ومن يعمل للنار قبل أن يخلقهم، بل قبل أن يخلق الخلق، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ولا شك أن خلقهم ابتدأ منه، وهو بكل شيء عليم، فهو يعلم من هم أهل الجنة ومن هم أهل النار. وهذه الآية صريحة في أنه خلق هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا... [الأعراف:179]، إلى آخرها (ذرأنا): خلقنا لجهنم أهلاً. وكذلك قوله في الحديث: (إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)، بل وهم في صلب آدم، ففي بعض الأحاديث أنه لما أخذ الله الميثاق من بني آدم من ظهر آدم، وهو الميثاق المذكور في قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ [الأعراف:172]، أن الله مسح ظهر آدم فاستخرج ذريته كالذر، فقال: (خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وخلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون)، فلا يتجاوز أحد ما خلق له، ومع ذلك فإنهم مأمورون ما داموا في هذه الحياة بأن يستعدوا وأن يعملوا. لما قال الصحابة: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال صلى الله عليه وسلم: (اعلموا فكل ميسر لما خلق له)، الله تعالى أمرنا بالعمل مع أنه علم من يعمل ومن لا يعمل، وكذلك أمرنا بالدعوة إليه، وأمرنا بأن نعلم، وأمرنا بأن نبشر وننذر، بل أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، مع أنه قد علم من يطيع ومن يعصي، وعلم من هم أهل الجنة ومن هم أهل النار، ولكنه جعل لذلك أسباباً، فجعل رسالة الرسل سبباً من أسباب معرفته والدعوة إليه والإيمان به، وكذلك جعل ورثة الرسل الذي يدعون إليه أيضاً من الأسباب في العمل الصالح، حيث يهدي الله على يديهم وبواسطتهم من جعله الله من أهل الجنة.

أنواع الموجودات

قال المؤلف رحمه الله: [فالموجودات نوعان: أحدهما: مسخر بطبعه. والثاني: متحرك بإرادته، فهدى الأول بما سخره له طبيعة، وهدى الثاني هداية إرادية تابعة لشعوره، وعلمه بما ينفعه ويضره. ثم قسم هذا النوع إلى ثلاثة أنواع: - نوع لا يريد إلا الخير، ولا يتأتى منه إرادة سواه كالملائكة. - ونوع لا يريد إلا الشر، ولا يتأتى منه إرادة سواه كالشياطين. - ونوع يتأتى منه إرادة القسمين كالإنسان. ثم جعله ثلاثة أصناف: - صنف يغلب إيمانه ومعرفته وعقله هواه وشهوته فيلتحق بالملائكة. - وصنف عكسه فيلتحق بالشياطين. - وصنف تغلب شهوته البهيمية عقله فيلتحق بالبهائم. والمقصود: أنه سبحانه أعطى الوجودين العيني والعلمي، فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده، فلا هداية إلا بتعليمه، وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته وثبوت وحدانيته، وتحقيق ربوبيته سبحانه وتعالى. وقوله: (فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً.. إلخ): مما يجب أن يعلم أن الله تعالى لا يمنع الثواب إلا من منع سببه وهو العمل الصالح، فإنه َومَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً [طه:112]، وكذلك لا يعاقب أحداً إلا بعد حصول سبب العقاب، فإن الله تعالى يقول: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [الشورى:30]. وهو سبحانه المعطي المانع، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، لكن إذا من على الإنسان بالإيمان والعمل الصالح لا يمنعه موجب ذلك أصلاً، بل يعطيه من الثواب والقرب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وحيث منعه ذلك فلانتفاء سببه وهو العمل الصالح. ولا ريب أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، لكن ذلك كله حكمة منه وعدل، فمنعه للأسباب التي هي الأعمال الصالحة من حكمته وعدله، وأما المسببات بعد نزول أسبابها فلا يمنعها بحال، إذا لم تكن أسباباً صالحة، إما لفساد في العمل، وإما لسبب يعارض موجبه ومقتضاه، فيكون ذلك لعدم المقتضى أو لوجود المانع. وإذا كان منعه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح، وهو لم يعط ذلك ابتداءً حكمة منه وعدلاً، فله الحمد في الحالين، وهو المحمود على كل حال، كل عطاء منه فضل، وكل عقوبة منه عدل، فإنه تعالى حكيم يضع الأشياء في مواضعها التي تصلح لها كما قال تعالى: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعام:124]، وكما قال تعالى: وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ [الأنعام:53].. ونحو ذلك، وسيأتي لهذا زيادة بيان إن شاء الله تعالى]. ......

الملائكة كلهم خير

الكلام الأول يتعلق بخلق الله تعالى لأهل الجنة وأهل النـار وتقسـيمهم؛ وذلك لأنه سبحانه خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النـار وخلق لها أهلاً، وكل موفق وميسر لما خلق لـه، ولا يتجـاوزون ما قـدر لهم، ولكنه سـبحانه جعل بعض الخلق شراً محضاً، وبعضـهم خـيراً محضـاً، وبعضـهم فيه مادتـان: مـادة خـير ومادة شـر، فالملائكة كما سـمعنا كلهم خـير، ليس فيهم نفـوس شـريرة، بل كلهم يعبدون الله، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أطت السـماء وحق لها أن تئـط؛ ما فيها موضع أربعة أصـابع إلا وفيه ملك قـائم أو راكع أو سـاجد)، وأخبر أن هناك ملائكة سجود منذ خلقهم الله إلى أن تقـوم السـاعة، ثم يـوم القيامة يقولـون: (سـبحانك ما عبـدناك حق عبادتـك، غـير أنا لم نشـرك بك شيئاً). وقد ذكر من عبادتهم ومن اجتهادهم في الطاعات وأنواع القربـات، مع أنهم ليس لهم شهوة تحملهم على المعاصي؛ فلأجل ذلك فكلهم خـير، وأخـبر الله بأنهم يخدمون أهل الجنة، قال تعـالى: وَالْمَلائِكَـةُ يَـدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُـلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُمْ [الرعد:23-24]، وقال: وَتَرَى الْمَلائِكَـةَ حَـافِّينَ مِنْ حَـوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ [الزمر:75].

الشياطين كلهم شر

القسم الثاني: الشياطين، لا شك أنهم خلقوا للشر، وأنهم خلقـوا للنـار، وأنهم مستعدون لدخول النار ومقدمون عليها؛ وذلك لأنهم خلقوا من النـار، ولهـذا لا يتألمون بالنار في الدنيا. ومنهم شياطين الجن، فـإنهم أيضـاً خلقـوا من النـار كما قال تعالى: وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ [الحجـر:27]، وقـال تعالى: وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ [الرحمن:15]، ولكن الشـياطين الـذين هم إبليس وذريته كلهم شر محض، ليس فيهم خير أصلاً، هؤلاء هم أهل النـار، وهم الذين لا خير فيهم.

الإنس والجن فيهم خير وشر

القسم الثـالث: الإنسـان، وقيـل: الثقلان -الجن والإنس- فهـؤلاء فيهم خـير وفيهم شـر، فمنهم من يغلب خـيره، أو يكـون كله خـيراً، وهم الأنبيـاء وورثة الأنبياء والأتقياء والعباد والزهـاد، والمؤمنـون صـادقو الإيمـان؛ فهـؤلاء يحميهم الله عن السيئات وعن الكبـائر والآثـام فلا يقربونهـا، ويحفظـون أوقـاتهم كلها

بالطاعة، ويتقربون إلى ربهم بأنواع العبادة، فهؤلاء يلحقـون بالملائكـة. ومنهم من يكون بضد ذلك، فهم أشرار وكفرة وفجرة وفساق خارجون عن الطاعــة، لا يألفون العبادة ولا يحبونها، ويـألفون الكفر والفسـوق والعصـيان، ويتلـذذون بالمعصـية وينفـرون عن الطاعـة، فهـؤلاء لا شك أنهم يلحقـون بالشـياطين، ويكونـون منهم ومن أتبـاعهم، ويـدخلون في قـول الله تعـالى لإبليس: لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ [ص:85]، وفي قوله: فَكُبْكِبُـوا فِيهَا هُمْ وَالْغَـاوُونَ * وَجُنُـودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُـونَ [الشـعراء:94-95]، فهـذا القسم ملحق بالشياطين. وأيضاً: هناك قسم ثالث تغلب عليهم الحياة البهيميـة، وهم الـذين يجعلـون عقـولهم تبعـاً لما يشـتهونه، فيسـخرون عقـولهم للشـهوات البهيمية الدنيئة؛ فهؤلاء ملحقون بالبهائم، ولكنهم أقرب إلى من عبد هواه، والله تعالى قد أخبر بأن هناك من يعبد الهوى: أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَـوَاهُ [الجاثيـة:23]، وفي الأثـر: (ما تحت أديم السـماء إله يعبد شر من هـوى متبـع)، والـذي يعبد هواه هو الذي لا يشـتهي شـيئاً ولا يهـوى شـيئاً إلا ركبـه. فـانظر أي الأقسـام أحسن؛ فاختر أن تكون منهم.

نفوس البشر ثلاثة أقسام

يقـول بعض العلمـاء: إن نفـوس البشر ثلاثة أقسـام: - نفـوس علوية ملكيـة، وهذه نفوس الأتقياء الأصفياء، عباد الله المخلصين. - ونفوس بهيميـة، بمعـنى أنها ليس لها همٌّ إلا هواها وشهواتها، وما تميل إليه بطباعها، فهـؤلاء ملحقـون بالبهـائم، وهم أشـبه ما يكونــون بمن لا عقــول لهم، وهم داخلــون في قوله تعالى: لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُـونَ [الأعـراف:179].. إلخ الآيـة. - ونفـوس سـبعية: وهم الذين من طبعهم الاعتداء والظلم والتجبر والتكبر والتسـلط على الغـير، وحب السلطة والسيطرة والتعدي؛ فهؤلاء أشبه ما يكونـون بالسـباع الضـارية المعتدية. ولا شك أن خير الأقسـام الـذين نفوسـهم ملكية علوية همتهم عالية رفيعــة، ليست همتهم دنيئــة. وحكمة الله اقتضت تقســيم الخلق إلى هــذه الأقسام الثلاثة: الملائكـة، والشـياطين، وبـني آدم، وجعل الله لبـني آدم هـذه الأقسام الثلاثة، والله تعالى هو الذي يخلق ما يشاء ويختار.

تقدير الله لأهل الجنة وأهل النار بحكمته وعدله ورحمته

قـدر الله تعـالى أهل الجنة وأهل النـار، فمعلـوم أنه سـبحانه حكيم في أمـره وفي تدبيره، وأنه لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه؛ لم يكن ظالمـاً لهم، ولو رحمهم لكـانت رحمته خـيراً لهم من أعمـالهم، فـإنهم ما عملـوا ولا آمنـوا ولا اتقوا إلا بفضله: ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سـعي لديه ضـائع إن عـذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع فهو سبحانه خلق الجنة وخلق لها أهلاً وقـدر أعمـالهم، ويسر لهم السـبل والوسـائل الـتي تجعلهم من أهلهـا، وتلحقهم بالعباد الصالحين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وكذلك قدر للنـار أهلاً؛ وذلك لأن هاتين الدارين -دار الثواب ودار العقاب- قد وعدهما الله تعالى بأهل؛ فقـال تعـالى مخاطبـاً الجنة والنـار: (ولكل واحـدة منكما علي ملؤهـا)، فلابد أن يـدخلهما الله من يسـتحقهما، فبفضـله ينعم على أهل الجنـة، وبعدله يعذب أهل النار، ولا يظلم أحداً: وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيـدِ [ق:29]، وَمَا اللَّهُ يُرِيـدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ [غافر:31].

اختلف النـــاس في الاســـتطاعة على قـــدر اختلافهم في القـــدر، ومهما نظر الإنسان بإنصاف فإنه سيجد الحق الـذي يصـدقه الـدليل مع أهل السـنة، وأن الصواب قد جانب من خالفهم.

آثار الإيمان باليوم الآخر

من أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشـره، وهـذان الركنان يحتـاج كل منهما إلى تفاصـيل، وقد مر بنا بعض التفاصـيل، والمـؤمن الذي يـؤمن بالله يـؤمن بما أخـبر من التفاصـيل لهـذه الأشـياء؛ وذلك لأن من تمـام الإيمـان بالله الإيمـان بما أخـبر به مما كـان أو هو كـائن. ومن علامـات الإيمـان بـاليوم الآخر الاسـتعداد لـه، ولا شك أن يـوم القيامة عظيم الهـول، عظيم الكرب، سماه الله يوم الفـزع الأكـبر. وأما تفاصـيله فإنها مـأخوذة من الأدلة التفصيلية التي اشتملت عليها الآيـات والأحـاديث، وإذا قرأها أو سـمعها المؤمن فبلا شك أنه يظهر عليه أثر تلك الأمور، فيستعد للحساب إذا آمن بـه، ويسـتعد لتطـاير الصـحف إذا آمن بهـا، ويسـتعد لـورود الحـوض إذا آمن بـه، ويستعد للصراط إذا آمن به، وآخر شيء يـؤمن به الجنة أو النـار، فيعلم أنهما النهايـة، وأن الجنة دار الكرامة لأوليـاء اللـه، والنـار دار العـذاب لأعـداء اللـه، ولكل منهما بنـون، ولكل منهما أهـل، وقد وعد الله كلاً منهما بملئهـا، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (احتجت الجنة والنار، فقـالت الجنـة: فيّ ضـعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار: فيّ الجبـارون والمتكـبرون، فقـال الله للجنـة: أنت دار رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت دار عذابي أعذب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما علي ملؤها)، وإذا كان كـذلك فإنه يسـتعد لما ينجيه من النار، ولما يؤهله للجنة. وأما صـفة ما فيهما فقد فصـلت في ذلك الأدلـة، وألفت فيها المؤلفات، فللإمام ابن القيم رحمه الله كتاب مفيد اسمه (حـادي الأرواح إلى بلاد الأفـــراح) جمع فيه صـــفة الجنـــة، وما ورد فيهـــا، وذكر فيه درجاتها وآنيتها وقصـــــورها وأنهارها وأشـــــجارها وثمارها وحورها وفرشـــــها وسررها.. وجميع ما أخبر الله عنها، وهكذا لتلميذه ابن رجب رحمه الله كتـاب سماه (التخويف من النار والتعريف بحال دار البـوار) تكلم فيه عن النـار وعن عذابها وحميمها وزقومها وأغلالها وسـعيرها وزمهريرها ودركاتها وحرها وحـال أهلها، وما ورد فيهم، فإذا قرأ القارئ هذا الكتاب اشتد خوفـه، واشـتد فزعـه، وإن لم يكن فيه تفصيل للأعمال الـتي يسـتحق بها العبد النـار، ولكن ذكر فيه صفة عذاب النار، وأما الأعمال فهي مذكورة مبسوطة في الأدلة، تجـدون في الآيـات والأحـاديث الـتي ذكر فيها أهل النـار وأهل الجنـة، من فعل كـذا دخل الجنـة، ومن فعل كـذا دخل النـار، وهـذه مشـروحة وموسع الكلام فيهـا، وإذا عرفها المسلم فإنه بلا شك يهتم بهـا، فيعـرف الأعمـال الصـالحة الـتي تصـير

أهلها من أصـحاب الجنة فيعملهـا، والـتي توعد عليها بعـذاب النـار فيتركهـا، ويبتعد عنها، وعن أهلها حتى يكون من أهل الوعد، ويسلم من الوعيد. ......

حقيقة الاستطاعة وأقسامها واختلاف الناس فيها

قال المؤلف رحمه اللـه: [وقولـه: والاسـتطاعة الـتي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يوصف المخلوق به تكون مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل وبها يتعلق الخطـاب، وهو كما قال تعالى لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا [البقـرة:286]. الاسـتطاعة والطاقة والقدرة والوسع، ألفاظ متقاربة، وتقسيم الاسـتطاعة إلى قسـمين - كما ذكره الشيخ رحمه الله- هو قول عامة أهل السـنة، وهو الوسـط، وقـالت القدرية والمعتزلـة: لا تكـون القـدرة إلا قبل الفعـل، وقـابلهم طائفة من أهل السنة فقالوا: لا تكـون إلا مع الفعـل، والـذي قاله عامة أهل السـنة: إن للعبد قـدرة هي منـاط الأمر والنهي، وهـذه تكـون قبلـه، ولا يجب أن تكـون معـه، والقدرة التي يكون بها الفعل لابد أن تكون مع الفعل، لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة. وأما القدرة الـتي من جهة الصـحة والوسع والتمكين وسـلامة الآلات، فقد تتقدم الأفعال، وهذه القدرة المذكورة في قوله تعـالى: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً [آل عمران:97]، فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج، ولم يعـاقب أحـداً على تـرك الحج، وهـذا خلاف المعلـوم بالضـرورة من دين الإسلام، وكذا قوله تعالى: فَـاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْـتَطَعْتُمْ وَاسْـمَعُوا [التغـابن:16]، فـأوجب التقـوى بحسب الاسـتطاعة، فلو كـان من لم يتـق الله لم يسـتطع التقـوى لم يكن قد أوجب التقـوى إلا على من اتقى ولم يعـاقب من لم يتـق وهذا معلوم الفساد. وكذا قوله تعالى: فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً [المجادلة:4]، والمراد منه: استطاعة الأسباب والآلات، وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين: لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ [التوبة:42]، وكـذبهم في ذلك القـول، ولو كـانوا أرادوا الاسـتطاعة الـتي هي حقيقة قـدرة الفعـل، ما كـانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين، وحيث كـذبهم فـدل أنهم أرادوا بـذلك المـرض أو فقد المـال على ما بين تعـالى بقولـه: لَيْسَ عَلَى الضُّـعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَـى [التوبـة:91]، إلى أن قـال: إِنَّمَا السَّـبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْـتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَـاءُ [التوبــة:93]. وكــذا قوله تعــالى: وَمَنْ لَمْ يَسْــتَطِعْ مِنْكُمْ طَــوْلاً أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ [النساء:25]، والمراد: استطاعة الآلات والأسباب، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسـلم لـعمران بن حصـين : (صـل قائمـاً، فـإن لم تسـتطع فقاعـداً، فـإن لم تسـتطع فعلى جنب)، وإنما نفى اسـتطاعة الفعل معها]. هذا الكلام يتعلق بركن من أركان الإيمان وهو القدر -والقـدر: كما نقل عن الإمام أحمد - هو قدرة الله، والمعنى: أن الله قـادر على كل شـيء، وأنه يدخل في قدرته أفعال العباد وحركاتهم، وأنه هو الذي يهدي من يشـاء ويضل من يشاء. ومن الإيمان بالقدر: الإيمان بأن للإنسـان قـدرة على أفعاله وإرادة

بها أصبح مكلفاً، وأن من فقد تلك القدرة سقط عنه التكليـف؛ وذلك لأن هـذا شيء محسوس، ظاهر ليس فيه خفاء، فالإنسان الأعمى لا يكلف أن يقرأ في الكتاب، والإنسان الأعرج لا يكلف أن يسعى السـعي الشـديد في الطـواف أو في السعي لعجزه عن ذلك، وقد أسقط الله الجهاد عن المعـذورين في قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَـرَجٌ وَلا عَلَى الْمَـرِيضِ حَـرَجٌ [النور:61]، ونحو ذلك من الآيات. ......

استطاعة بمعنى التوفيق

ذكر الشارح: أن الاستطاعة تنقسم إلى قسمين: اسـتطاعة بمعـنى التوفيـق، وهـذه لا يملكها إلا اللـه، واسـتطاعة بمعـنى مزاولة الفعـل، وهـذه يوصف بها العبد. فأما التوفيق والإلهام والهداية فهي إلى الله لا يستطيعها العبـاد، بل قد نفاها الله تعالى حتى عن نبيه، فقال: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ [القصـص:56]، وقال تعالى: وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ [الزمر:37]، وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [الرعد:33]، وقال: فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ [النحـل:37]، أي: من أضله فلا أحد يقـدر على هدايتـه، فهـذه الاسـتطاعة تسـتدعي توفيق الله وإلهامه وإفهامه، وتسـتدعي الإقبـال بقلبه وقالبه إلى الأعمـال. ولكن بلا شك أن الإنسان أيضاً: له قدرة على بعض الأسباب، فيجعلها الله سبباً لهداية بعض الناس؛ ولأجل ذلك قال النـبي صـلى الله عليه وسـلم لـعلي رضي الله عنـه: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)، فجعله سبباً للهدايـة، والله هو الهادي، بمعنى: أنك أنت بينت لذلك الرجل وحذرته وأنذرته وخوفتـه، ودعوته إلى ما ينفعه، وبينت له النـافع، وبينت له الضـار، وبينت له عاقبة هـذا وعاقبة هذا، فالله قذف في قلبه المعرفة والقبول، وتقبل ما جئت به، فأصـبح بذلك قابلاً؛ فمثل هـذا بلا شك أنه سـبب في الهدايـة، فأصـلها من اللـه، وأنت منك الأسـباب. كـذلك يقـول في حـديث آخر (من دعا إلى هـدى كـان له مثل أجور من تبعه)، سماه هـدى، أي: ضد الضـلال، فالـداعي -بلا شـك- متسـبب، والله هو الذي جعل السبب مؤثراً ومفيداً.

استطاعة بمعنى القدرة على الفعل

القسم الثـاني من الاسـتطاعة: الاسـتطاعة الـتي هي مزاولة الفعل والقـدرة عليه، وهذه هي التي لا يكلف الله من لم يقدر عليها، فالعاجز -مثلاً- عن الحج بدنياً لا يستطيعه؛ ولذلك قـال تعـالى: مَنْ اسْـتَطَاعَ إِلَيْـهِ سَـبِيلاً [آل عمـران: 97]، والفقير الذي لا يجد ما يوصـله إلى مكة لا يسـتطيع، ولو كـان يسـتطيع

بدنياً، والـذي لا يسـتطيع بـدنياً كالـذي لا يثبت على السـيارة أو على الطـائرة لمرض أو لشلل أو لخوف أو ما أشبه ذلك، يقال عنه أيضاً: لا يستطيع الثبـوت على المركوب فهو معذور بذلك، لا يستطيع بماله أو لا يستطيع ببدنه. ومعلوم أن الله تعالى لا يكلف الإنسان مع عجزه، إنما يكلفه إذا كان قادراً، وكذلك إذا كان فاهماً، ولذلك أسقط الله التكاليف عن الأطفال لكـونهم غـير قـادرين ولا فاهمين، وأسقطها عن فاقدي العقول لنقصـهم معنويـاً، وكـذلك أسـقطها عن العاجزين في قوله تعـالى في الجهـاد: لَيْسَ عَلَى الضُّـعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَـى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ [التوبة:91]، يعني: ليس عليهم حرج في أن يتخلفـوا عن الجهـاد، مثل هـؤلاء لا يسـتطيعون أن يخوضـوا المعـارك، وكذلك المرضى لا يستطيعون، وكذلك الذين لا يجدون ما ينفقـون، لا يجـدون مركوباً أو لا يجدون عـدة، فهـؤلاء أسـقط الله عنهم الجهـاد، كما أسـقط عن العاجز مالياً الحج بقوله: مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً [آل عمـران:97]، وفسـرت (سبيلاً): بالزاد والراحلة في بعض الأحاديث والآثار، فدل على أن الاسـتطاعة: قدرة العبد من حيث المال ومن حيث البـدن، فـإذا كـان ذلك الفعل يسـتدعي مـالاً كـالحج والجهـاد سـقط عنه إذا فقد المـال، وإذا كـان لا يسـتدعي مـالاً كالقريب من مكة ولكنه يستدعي قوة البـدن، وكـان هـذا الإنسـان مريضـاً أو عاجزاً بدنياً سقط عنه، والجهاد كذلك يسقط عنه إذا كـان عـاجزاً بـدنياً، وأما إذا كـان عـاجزاً ماليـاً، ولكن هنـاك من تكفل به وجهـزه فإنه لا يسـقط عنـه. وكذلك العبادات البدنية المحضة إذا كـان فيها مشـقة فإنها تسـقط أو تؤجـل، مثـل: الصـيام في السـفر أو في المـرض، يقـال: لا يسـتطيع أن يصـوم وهو مـريض، لا يسـتطيع أن يصـوم وهو مسـافر لمشـقة السـفر، فيؤجل الصـيام، وكذلك بقية الأعـذار، أما الصـلاة فإنها عمل بـدني؛ فلأجل ذلك تتوقف أفعالها على القـوة والقـدرة، فـإذا لم يسـتطع أن يحصل على المـاء سـقطت عنه الطهارة بالماء، واكتفى بـالتيمم، يقـال: لا يسـتطيع الحصـول على المـاء أو لا يستطيع استعمال الماء لمرض أو حرق أو نحو ذلك، وكـذلك فعل الصـلاة: إذا لم يستطع أن يصلي وهو قائم صلى وهو جالس، فإن عجز عن الصلاة جالساً صلى على جنب أو مسـتلقياً كما في بعض الروايـات، فمن عجز عن نـوع من الاستطاعة البدنية انتقل إلى ما يستطيعه، ويعرف ذلك العـرب في كل شـيء حتى يقول بعضـهم: إذا لم تسـتطع شـيئاً فدعه وجـاوزه إلى ما تسـتطيعُ أراد بــذلك الأمــور العاديــة، أي: الأفعــال المحسوســة، فمثلاً: الحــرف تختلــف، فالإنسان الذي معه قوة بدنية يستطيع أن يحمل الأثقـال، فهـذا يحـترف هـذه الحرفة، وقد تكون أكثر أجرة، وآخر لا يستطيع ذلك، ولكن يســتطيع أن يعمل الأعمــال الــتي ليس فيها حمل ولا أثقــال، كحراسة أو ما أشــبهها، فالنــاس يتفاوتون في الاستطاعة.

الاستطاعة تكون قبل الفعل ومع الفعل

معلـوم أن الاسـتطاعة تكـون قبل الفعل ومع الفعـل، قبل الفعـل: يعـني قبل مباشرته، نرى إنساناً قوياً فنقول: أنت مكلف بأن تصلي قائماً، ونـرى إنسـاناً غنياً فنقول: أنت مكلف بالحج؛ لأنك تستطيعه مالياً، وهذه الاستطاعة تسـتمر إلى أن ينتهي من العمل، فتكون قبل الفعل، وفي أثناء الفعـل؛ ولأجل هـذا لو صـلى ركعـتين من الظهر وهو قـائم ثم عجز جلس، وأتم بقية صـلاته جالسـاً، وكذلك في الحج، لو أنه عمل بعض أعمـال الحج وعجز عن بعضـها كـالرمي -مثلاً- وكَّل فيه، وسقط عنه لعجزه، ويقال في سـائر الأفعـال: إن الاسـتطاعة تكون قبل الفعل، ولا يخـاطب بها إلا من كـان مسـتطيعاً قبل مزاولة الفعـل، وتكون في أثناء الفعل أيضاً.

بطلان القول بأن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل

قول من قال: الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل: قول باطل؛ وذلك لأنه لو كان كذلك لم يكن الإنسان مكلفاً حتى يفعل، فلا يكون على القادر توبيخ، إذا كـان الإنسان قادراً على الحج ولكنه تركه، وقال: أنا غير مكلف حتى أقدر، قلنا له: أنت مكلف من الآن؛ لأنك موصـوف بالقـدرة بـدنياً وماليـاً، فيلزمك أن تباشر الفعل، وهكذا الإنسان الصحيح البدن الذي يسمع النـداء للصـلاة ولا عـذر لـه، ويستطيع أن يأتي إلى المسـاجد فيـؤدي الصـلاة فيهـا، فهل يقـال لـه: أنت لا تستطيع حتى تباشر الفعل؟ أنت غـير مكلف إلى أن تبـدأ في الفعـل؟ لو قيل ذلك لسقطت كثير من العبـادات، لو قيل مثلاً: أنت لست بمكلف ما دمت في بيتك حتى تبدأ في مباشرة الفعل؛ لاعتذر الكثير، وقـالوا: لا نكـون قـادرين إلا إذا باشرنا، فهذا قول لا يقوله عاقل. ولو كان كـذلك لاعتـذر كثـير من النـاس عن العمـل، فلو قيل له في النكـاح: يقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (يا معشر الشباب! من اسـتطاع منكم البـاءة فليـتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفـرج، ومن لم يسـتطع فعليه بالصـوم)، فلا يقـول: أنا لا أسـتطيع، ما معـنى الاستطاعة هنـا؟ هل يقـال: أنت لا تسـتطيع حـتى تـدخل بالزوجـة؟ إذا رأينـاه يملك المال وعنـده الأهليـة، قلنـا: أنت مسـتطيع أن تـتزوج، فلو قـال مثلاً: ما دمت لم أتزوج، فأنا لي رخصة في أن أترك الزواج، قلنـا: هـذا خلاف العقـل. وقول الله تعالى: وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَـنَاتِ الْمُؤْمِنَـاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ [النسـاء:25] رخصة في أن يـتزوج الأمة المملوكة إذا لم يستطع طول الحرة، فهل هذه الرخصة لا تكـون إلا لمن عجز بعد الفعـل؟ نقـول: ليس كـذلك، بل إذا رأينـاه ذا مـال يقـدر على مهر الحـرة، منعنـاه أن يتزوج الأمة، وقلنا: لا تحل لك، قد يقول: ما دمت لم أتزوج فأنا غير مستطيع،

نقول: أنت الآن مستطيع، الطول هو المال، والمال موجود عندك، وهكذا يقال في أنواع الاستطاعة.

بطلان مذهب الجهمية في الاستطاعة

الجهمية قالوا: إن العبد ليس له حركة، وحركاته ليست اختيارية، بل اضطرارية، ويُسمون المجبرة، فهؤلاء سلبوا العبد قدرته، وسلبوه اختياره، وجعلوا حركات يديه أو ركوعه أو سجوده أو جنايته أو سكره.. أو نحو ذلك اضطراراً إجباراً ليس له أي اختيار، وقالوا: إنما هو بمنزلة أغصان الشجرة التي تحركها الرياح، وبمنزلة حركة المرتعش الذي ترتعش يداه ولا يقدر على إمساكها، هكذا جعلوا حركاته! فجعلوا طاعاته ومعاصيه خارجة عن استطاعته، وليس له أي اختيار، وأبطلوا بذلك الأوامر والنواهي، وأبطلوا بذلك الشريعة كلها، ومع ذلك فإنهم متناقضون، وقد مر بنا كثير من تناقضهم؛ وذلك لأنك لو ضربت أحدهم، واحتججت بالقدر؛ ما عذرك في ضربك، ولا تركك تضربه، فكذلك أيضاً نقول: لا تحتج بالقدر على فعل المعاصي وترك الطاعات، بل عليك أن تزاول الفعل بقدر استطاعتك التي منحك الله، فالله أعطى الإنسان استطاعة بها يزاول الأفعال، ولولا تلك الاستطاعة لما حصل تكليف بهذه العبادات وبهذه الأفعال، ولو نفيت لبطلت الشريعة.

بطلان مذهب المعتزلة في الاستطاعة

الجهمية يجعلون أفعال العباد الصادرة منهم ليس لهم فيها أي اختيار، بل هم مضطرون إليها، وأما المعتزلة فمذهبهم أن العبد هو الذي يخلق فعله، وليس لله قدرة على أفعال العبد، فجعلوا العبد مستقلاً بفعله، ونفوا قدرة الله عليه، ونفوا الأدلة التي تدل على ذلك، فقالوا: إن الله لا يقدر أن يهدي ولا أن يضل، بل العبد هو الذي يهدي نفسه أو يضل نفسه، وجعلوا للعباد الاختيار لا لله تعالى، وأبطلوا قوله تعالى: وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ [القصص:68]، وأبطلوا عموم قول الله تعالى: وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة:284]، وقالوا: لا يقدر إلا على ما يشاء، لا على كل شيء، وهكذا قالوا في كل ما هذا سبيله. فنقول: لا شك أن هذا قول باطل لا يمكن أن يصدر من عاقل؛ وذلك لأنا نؤمن بقدرة الله، ونؤمن بعمومها، ولا ينافي ذلك أنه أعطى العباد قدرة

يزاولون بها أعمالهم أصبحوا بها مكلفين، يثـابون على الخـير، ويعـاقبون على الشر، ولكن تلك القدرة مغلوبة بقدرة اللـه، فقـدرة الله غالبة على قـدرتهم، وإرادته غالبة على إرادتهم.

أدلة ثبوت الاستطاعة

قـال رحمه اللـه: [وأما دليل ثبـوت الاسـتطاعة الـتي هي حقيقة القـدرة، فقد ذكروا فيها قوله تعالى: مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَـانُوا يُبْصِـرُونَ [هـود: 20] والمـراد: نفي حقيقة القـدرة لا نفي الأسـباب والآلات؛ لأنها كـانت ثابتـة، وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قولـه: (ولا يطيقـون إلا ما كلفهم) -إن شـاء الله تعالى- وكذا قول صاحب موسى: إِنَّكَ لَنْ تَسْـتَطِيعَ مَعِي صَـبْراً [الكهـف:67]، وقولـه: أَلَمْ أَقُـلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْـتَطِيعَ مَعِي صَـبْراً [الكهـف:72]، والمـراد منـه: حقيقة قدرة الصبر لا أسباب الصبر وآلاته، فإن تلك كانت ثابتة له، ألا ترى أنه عاتبه على ذلك؟ ولا يلام من عدم آلات الفعل وأسبابه على عدم الفعل، وإنما يلام من امتنع منه الفعل لتضييعه قـدرة الفعـل؛ لاشـتغاله بغـير ما أمر بـه، أو شـغله إياها بضد ما أمر بـــه، ومن قـــال: إن القـــدرة لا تكـــون إلا حين الفعل يقولون: إن القدرة لا تصلح للضدين، فإن القـدرة المقارنة للفعل لا تصـلح إلا لذلك الفعل، وهي مستلزمة له لا توجد بدونه]. معلوم أن الإنسـان معه قـدرة عامــة، ولكن قد يغلب تلك القــدرة والاســتطاعة ما يفوتها عليــه، ففي قصة موسى والخضر أن الخضر: قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْـتَطِيعَ مَعِي صَـبْراً * وَكَيْـفَ تَصْـبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً [الكهف:67-68]، ولكن موسى: قَـالَ سَـتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً [الكهف:69]، ومع ذلك لم يستطع الصبر؛ لأنه رأى ما أنكره، ففي المرة الأولى لما خرق السفينة لم يستطع أن يصبر؛ لأنه رأى شيئاً عجباً فلم يســتطع أن يصــبر، ثم أخــبره الخضر بأنه أراد عيبها حــتى لا تؤخذ منهم، ولما رآه قتل غلاماً بغير ذنب لم يصبر أن ينكر عليه، ولكن لم يعلم عاقبة هذا الغلام، وأنه طبع كافراً، فلم يستطع الصـبر مع كونه قـادراً أن يمسك نفســه، ولما بنى الخضر الجدار في تلك القرية التي لم يضـيفهما أهلها اسـتنكر ذلـك، كيف أنهم لم يضـيفونا! ومع ذلك تقيم جـدارهم؟ فلم يسـتطع أن يصـبر، وهو قادر على ذلك. إذاً: قوله: ((لَنْ تَسْتَطِيعَ)) ليس المراد لا تسـتطيع بـدنياً، ولا تستطيع عقلاً، بل هو يقدر، لكنك إذا رأيت شيئاً تستنكره وتسـتقبحه؛ فالعـادة أنك تندفع، ولو كنت لا تدري ما عاقبته، هذا معنى الاستطاعة في هـذا البـاب، وبلا شك أن هذه الاستطاعة مقدورة، ولو لم تكن مقـدروة لما قـال موسـى: سَـتَجِدُنِي إِنْ شَـاءَ اللَّهُ صَـابِراً [الكهـف:69]، فأفـاد بأنه قـادر وأن عنـده استطاعة. والاستطاعة تكون مالية، مثل استطاعة الذي يريد الحج ونحـوه، أو تجب عليه نفقة أقاربه، وتكون بدنية كاستطاعة صوم الكفارات ونحوهـا، قـال

تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ [المجادلة:4]، في كفارة الظهار، وفي كفارة القتل، يعني من لم يستطع العتق، وهو استطاعة ماليـة، والصـيام استطاعة بدنية محضة، وقال تعالى: فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِـتِّينَ مِسْـكِيناً [المجادلة:4] يعني: من لم يستطع صوم الشهرين الـذي هي اسـتطاعة بدنية لعذر من الأعـذار. فيقـال في القـدرة: الله تعـالى قدرته عامـة، وجعل للعبـاد قدرة على مزاولة أعمالهم، وأما الآية التي بدأ بها الشارح هنا، وهي قولـه: مَا كَـانُوا يَسْـتَطِيعُونَ السَّـمْعَ وَمَا كَـانُوا يُبْصِـرُونَ [هـود:20]، فمعلـوم أنهم لهم أسماع ولهم أبصار، ولكن كـانوا ينفـرون من هـذا الشـيء فلا يسـتطيعون أن ينصتوا ويستمعوا له، وكذلك لا يستطيعون مقابلته، وفي إمكـانهم أن يجلسـوا ويستمعوا، ولكن الـدوافع تـدفعهم، قد ذكر الله مثل ذلك عن المشـركين في قوله تعالى: وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَـدْعُونَا إِلَيْـهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْـرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَـابٌ [فصـلت:5]، ومعلـوم أن هـذا ليس بظـاهر، فقلـوبهم كقلـوب غــيرهم، ولكن كــأنهم يقولــون: كلامك لا يــدخل في قلوبنا ولا يــدخل في أسـماعنا، ولو سـمعناه لم نتأمله ولم نتعقله ولا ننظر إليه نظر الاعتبـار، فهل يقال: إنهم عاجزون عن الاستماع؟ ليسـوا عـاجزين، فكـذلك قولـه: (مَا كَـانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ)، هم قادرون على السمع، ولكن ينفرون منه، وهذه النفرة من الحق بسـبب وسوسة الشـيطان. فـالآن -مثلاً- كثـير من أهل البـدع لا يستطيعون أن يستمعوا النصائح التي تخالف بدعهم، إما أنهم لا ينصـتون لهـا، وإما أنهم إذا حضروها أخذوا يتكلمون، كما في قـول المشـركين: وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لا تَسْـمَعُوا لِهَـذَا الْقُـرْآنِ وَالْغَـوْا فِيـهِ [فصـلت:26]، وإما أن يهربـوا ويخرجوا ويبتعدوا، كما حكى الله عن نوح أنه قـال: وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَـوْتُهُمْ لِتَغْفِـرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْـتِكْبَاراً [نوح:7]، كأنهم يقولون: إذا سمعناه نخشى أن يدخل في قلوبنا شيء فيعلق بهـا، وهكـذا يقوله كثـير من المبتدعة الآن، كما يحكي لنا بعض الإخـوة الـذين ذهبوا إلى نجـران وألقى محاضـرة تتعلق بالسـنة وعقيـدة أهل السـنة، وكـان الغـالب على أهل المسـجد أنهم من المكارمة الـذين هم الإسـماعيلية، فلما جلسوا يستمعون جاء مشـايخهم وأخـذوا يقيمـونهم واحـداً.. واحـداً.. واحـداً.. مخافة أن يقع في أسماعهم أو يصل إلى قلوبهم شيء يغـير معتقـداتهم، فهم -ولو كــان الكلام حقـاً- لا يقبلونــه، ليس معهم قــدرة ولا اسـتطاعة على أن يقولـوا: نسـتمع وننظـر: إن كـان حقـاً فإنا نقبلـه، وإلا لم يضـرنا سـماعه، بل يبتعدون عنه. وهكذا أخبرنا بعض الإخوة الذين جلسوا مـدة قصـيرة يدرسـون في المرحلة المتوسـطة في القطيــف، أنه اتفق مع طلابه وهم كلهم شـيعة على أن يتجادل معهم بالقرآن وبصحيح السـنة، ولما عزمـوا على المجالسـة، وهم يعتقدون أنهم سيغلبونه، جلسوا معه مرة أو مرتين، وكأن آباءهم أحسـوا بشيء من التغير في معتقدهم، فما كان منهم إلا أن رحلوه، وقالوا: ابتعد عن بلادنــا، ولا تعد تــدرس في بلادنا ولا تــدرس أولادنــا! لمــاذا؟ هل كــانوا لا يستطيعون أن يسمعوا منـه، مع أنه إنما كـان يـبين معـاني الآيـات والأحـاديث ونحوها؟ نقول: هم يسـتطيعون أن يسـمعوا، قـال اللـه: مَا كَـانُوا يَسْـتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَـانُوا يُبْصِـرُونَ معلـوم أنهم لهم قـدرة على ذلـك، ولكن هنـاك ما

يدفعهم، ويحول بينهم وبين هذا الاستماع، فالاستطاعة أصلاً موجودة، ولكن هناك ما يدفعها عن أن تكون مؤثرة أو تصل إلى أصلها.

الرد على القدرية

قال رحمه الله: [وما قالته القدرية بناء على أصلهم الفاسد، وهو إقدار الله للمؤمن والكافر والبر والفاجر سواء فلا يقولون: إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان، بل هذا بنفسه رجح الطاعة، وهذا بنفسه رجح المعصية، كالوالد الذي أعطى كل واحد من بنيه سيفاً، فهذا جاهد به في سبيل الله، وهذا قطع به الطريق. وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر، فإنهم متفقون على أن لله على عبده المطيع نعمة دينية خصه بها دون الكافر، وأنه أعانه على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر، كما قال تعالى: وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ [الحجرات:7]، فالقدرية يقولون: هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق، وهو بمعنى: البيان وإظهار دلائل الحق، والآية تقتضي أن هذا خاص بالمؤمن؛ ولهذا قال: (أولئك هم الراشدون) والكفار ليسوا راشدين، وقال تعالى: فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ [الأنعام:125]، وأمثال هذه الآية في القرآن كثير، يبين سبحانه أنه هدى هذا وأضل هذا، قال تعالى: مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً [الكهف:17]، وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان إن شاء الله تعالى]. رد الشارح على القول الذي حكاه عن المعتزلة؛ لأنه حكى في أول الكلام ثلاثة أقوال: القول الأول: قول الجبرية الذين يقولون إن العبد مجبور، وليس له اختيار، وأنه بمنزلة الشجرة التي تحركها الرياح، فهو مدفوع إلى الزنا، وهو مدفوع إلى الربا، وهو مدفوع إلى السكر، وهو مدفوع إلى الصلاة، وليس له أي اختيار!! والقول الثاني: قول المعتزلة: وهو أن العبد هو الذي يخلق فعله ويزاوله، وليس لله أية قدرة على فعله!! والقول الثالث: قول أهل السنة: وهو أن للعبد قدرة واختياراً، ولكنها مغلوبة بقدرة الله وباختياره، فهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهدايته للمؤمنين تعتبر فضلاً منه وكرماً، وإضلاله للكافرين يعتبر عدلاً منه بدون ظلم، قال الله: وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [فصلت:46]، وكذلك امتن على هؤلاء، وعلم أنهم أهل للفضل وأهل للنعمة وأهل للهداية؛ فهداهم وسددهم. أما الجبرية فعندهم أنه ليس له أي اختيار، بل هو بمنزلة المرتعش، والمعتزلة عندهم ليس لله أية قدرة، بل العبد هو الذي يضل نفسه، وهو الذي يهدي نفسه، ونفوا مدلول الآيات: وَمَنْ يُضْلِلْ

اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْـدِ اللَّهُ فَمَا لَـهُ مِنْ مُضِـلٍّ [الزمـر:36-37]. وقد عرفنا الـرد عليهم بمثل هـذه الآيـات: فَمَنْ يُـرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَـهُ يَشْـرَحْ صَـدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً [الأنعام:125]، هذا أنعم عليه، وهذا خذله، وإنعامه على هذا يعتبر فضـلاً، ويعتـبر خذلانه لهـذا عـدلاً: ما للعبــاد عليه حق واجب كلا ولا سـعي لديه ضـائع إن عـذبوا فبعدله أو نعمــوا فبفضله وهو الكريم الواسع

لا يزال المنحرفون في القدر يجادلون عن انحـرافهم، ولو وقفـوا مع أنفسـهم وأخضعوها لنصوص الكتاب والسنة لعلموا حكمه وسلموا لأمره.

مراتب الإيمان بالقدر

الإيمـان بالقـدر من أركـان الإيمـان، وقد روي عن الإمـام أحمد رحمه الله أنه قال: القدر قدرة الله، وهذه كلمة لها أهميتها، بمعنى: أن من آمن بقدرة الله، وأن الله على كل شيء قدير، صدق بالقـدر خـيره وشـره. ويـدخل في القـدر تقدير الأشياء قبل وقوعهـا، ويـدخل فيه كتابتها قبل أن تخلق وتوجـد، ويـدخل فيه إرادة كل ما يحدث ومشيئته العامة، ويدخل فيه خلقها وإيجادها وتكوينهـا، وأنها لا تكون إلا بإرادة الله وبخلقه وبتقـديره وتكوينـه، وهـذه تسـمى مـراتب القـدر، وهي أربـع: الأولى: العلم. الثانيـة: الكتابـة. الثالثـة: الإرادة. الرابعـة: الخلق. فيؤمن العباد بهذه المراتب الأربع، ومن كذب بشـيء منها نقص إيمانه بالقـدر، وقد أنكر العلم الأزلي السـابق طوائف من الغلاة، وهم الـذين يقـول فيهم الإمام الشافعي رحمه الله: ناظروهم بالعلم؛ فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا. أي: سلوهم: أتقـرون بـأن الله تعـالى موصـوف بـالعلم؟ وبأنه بكل شيء علم؟ فإذا اعترفوا بـذلك خصـموا، ويقـال لهم: ما الفـرق بين علم الماضي وعلم المســتقبل؛ فكله داخل في العلم، وفي أن الله بكل شــيء عليم، فـإذا علم ما قد مضى فلا يخفى عليه ما هو آتٍ. وأما الخلق والتكـوين فإنه يدخل في الإيمـان بقـدرة اللـه، فـإذا كنا نـؤمن بـأن الله على كل شـيء قدير، فلابد أن يدخل في هـذه القـدرة كل ما في الكـون، لا يخـرج عن قـدرة الله شيء من الوجود ومن الحركات التي تكون في هذا الكون، بل كلها كائنة بقدرة الله، وبمشيئته وبخلقه وتكوينه، فلا يكون في الوجود ما لا يريد، ونعتقد أن ربنا سبحانه أعطى الإنسان قدرة على مزاولة أعماله، فللعبـاد قـدرة على أفعـــالهم، ولهم إرادة، وقـــدرة الله غالبة على قـــدرتهم، وإرادته غالبة على إرادتهم، فإذا أراد الله شيئاً فلابد أن يكون، وهذا معنى قول شيخ الإسلام في شعر له: فما شئت كان وإن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن وهـذا أيضـاً معنى الحديث الذي فيه: (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن). ......

إثبات قدرة العباد على أفعالهم

للعباد قدرة تناسبهم، وبهذه القـدرة أصـبحوا مكلفين، وبها أصـبحوا مـأمورين ومنهيين، ولو سلبت عنهم هذه القدرة لسقطت عنهم التكاليف؛ ولهذا تسـقط التكـاليف عن العـاجز، وينفى عنه الحـرج، فلا يكلف إلا ما يطيـق، فمن فقد العقل لم يكن إلى إفهامه من ســبيل، فلا يكلـــف، ومن فقد البصر لم يكلف

بالغزو وبالقتال، وكذا العاجزون ونحوهم. يقول تعالى: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ [التوبة:91] يعني: إذا تخلفوا عن الجهاد؛ لأنهم لا يستطيعونه، فدل على أن غيرهم عليهم حرج؛ لأن معهم استطاعة، وإن كانت تلك الاستطاعة مخلوقة لله، وداخلة تحت قدرته. وبكل حال، فالاستطاعة التي منحها الله الإنسان هي التي في إمكانه أن يزاول بها الأعمال، مع أنها داخلة في خلق الله تعالى، والله سبحانه لا يكلفهم إلا ما في قدرتهم واستطاعتهم، لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا [البقرة:286]، فلهذا أسقط الحج عن غير المستطيع، بل جعل فرضه على من استطاع إليه سبيلاً، وكذلك أسقط ما يعجز عنه الإنسان أو يشق عليه، فرخص للمسافر في أن يفطر؛ لأن عليه مشقة، وكذلك المريض له أن يفطر ويقضي؛ لما في الصيام عليه من الصعوبة، وهكذا في سائر العبادات التي يعجز عنها العبد، فالقدرة والاستطاعة التي أعطاها الله الإنسان هي ما منحه الله وما أودعه فيه، وما قواه به، وإن كان ذلك كله داخلاً في عموم قدرة الله سبحانه. قد مر بنا أن الاستطاعة التي نفيت هي ما لا يدخل في مقدور الإنسان، كما نفي في قول الله تعالى: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا [الطلاق:7]، أي: لا يكلفها بغير ما أعطاها، لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا [البقرة:233]. ......

الرد على من نفى القدرة على الفعل أثناء فعله

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وأيضاً: فقول القائل: يرجح بلا مرجح، إن كان لقوله: يرجح معنى زائد عن الفعل، فذاك هو السبب المرجح، وإن لم يكن له معنى زائد، كان حال الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عند الفعل، ثم الفعل حصل في إحدى الحالتين دون الأخرى بلا مرجح، وهذا مكابرة للعقل. فلما كان أصل قول القدرية: إن فاعل الطاعات وتاركها كليهما في الإعانة والإقدار سواء، امتنع على أصلهم أن يكون مع الفعل قدرة تخصه؛ لأن القدرة التي تخص الفعل لا تكون للتارك، وإنما تكون للفاعل، ولا تكون القدرة إلا من الله تعالى، وهم لما رءوا أن القدرة لابد أن تكون قبل الفعل، قالوا: لا تكون مع الفعل؛ لأن القدرة هي التي يكون بها الفعل والترك، وحال وجود الفعل يمتنع الترك؛ فلهذا قالوا: القدرة لا تكون إلا قبل الفعل. وهذا باطل قطعاً، فإن وجود الأمر مع عدم بعض شروطه الوجودية ممتنع، بل لابد أن يكون جميع ما يتوقف عليه الفعل من الأمور الوجودية موجوداً عند الفعل، فنقيض قولهم حق: وهو أن الفعل لابد أن يكون معه قدرة، لكن صار أهل الإثبات هنا حزبين، حزب قالوا: لا تكون القدرة إلا معه، ظناً منهم أن القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين، وظناً من بعضهم: أن القدرة عرض فلا تبقى زمانين، فيمتنع وجودها قبل الفعل. والصواب: أن القدرة نوعان كما تقدم: نوع مصحح للفعل يمكن معه الفعل والترك، وهذه هي التي يتعلق بها الأمر والنهي، وهذه تحصل للمطيع والعاصي، وتكون قبل الفعل، وهذه تبقى إلى حين الفعل، إما بنفسها عند من يقول ببقاء الأعراض، وإما بتجدد أمثالها عند من يقول: إن

الأعراض لا تبقى زمانين، وهذه قد تصلح للضدين، وأمر الله مشروط بهذه الطاقة، فلا يكلف الله من ليس معهم هذه الطاقة، وضد هذه العجز كما تقدم]. الشارح يناقش بعض المبتدعة الذين يقولون: إن القدرة على الفعل تسبق فعله، وتسبق مزاولته، ولا تصحبه حالة وجوده، فيقولون -مثلاً-: إن الإنسان الذي عنده مال، وتمت قوته وقدرته على الإتيان بالحج، إذا تمت أصبح مكلفاً، ولا تكون القدرة حالة مزاولته للعمل، وحالة سفره، وحالة إحرامه وطوافه وسعيه ووقوفه ورميه.. ونحو ذلك، يقولون: لا تشترط القدرة ولا القوة في هذه الحالات، وما ذاك إلا أنها شرطت في أول الأمر، وزالت الحاجة إليها بعد ذلك، فلا حاجة إلى وجودها وبقائها حالة مزاولة الفعل. ويقولون كذلك أيضاً في سائر العبادات كصلاة الجماعة -مثلاً-: إذا أمن على نفسه، وكان معه قدرة وقوة، وكان صحيح البدن ليس فيه مرض، وليس بخائف، وجب عليه أن يصلي مع الجماعة، فإذا ابتدأ في الصلاة -مثلاً- أو دخل المسجد أو أقيمت الصلاة فلو زالت القدرة لم تضر، ولا تشترط القدرة ولا وجودها حالة مزاولة الصلاة، هذا تقرير قولهم. ولا شك أن القدرة والقوة على الفعل لابد من وجودها قبل الفعل وفي حالة وجود الفعل، فإن الإنسان مثلاً مأمور بأن يصلي قائماً، فلو صلى ركعتين من الظهر -مثلاً- قائماً، ثم عجز، رخص له أن يجلس ويتم جالساً، فدل على أن القدرة مشترطة حالة الفعل من أوله إلى آخره، ولو أن إنساناً تجهز للحج، ولما قطع نصف الطريق -مثلاً- عجز وقلت نفقته أو حصل له خوف أو مرض.. أو نحو ذلك؛ لجاز له أن يرجع ويؤجل الحج؛ لأن القدرة لم تبقَ معه، بل حدث ما يضادها، وهكذا بقية الأعمال. لكن قد يستثنى منها بعض الأعمال، فإذا تم الحول على المال ووجبت فيه الزكاة؛ تعلقت بذمة المالك، فلو تلف المال بقيت الزكاة في الذمة؛ وذلك لأنه فرط حيث أخر إخراجها، وهناك من يقول: إنها تسقط عنه، بمعنى أنه لو حصد زرعه وجمعه، وقبل أن يخرج زكاته احترق كله، أو حملته الرياح وفرقته، فالصحيح أنه لا يلزمه زكاة؛ وذلك لأنها وجبت مواساة، ومن أين يواسي ما دام أن المال الذي وجبت فيه قد تلف؟! وهكذا مثلاً: لو تم حول نصاب الماشية السائمة، ولما تم الحول ماتت كلها -مثلاً- أو لم يبقَ منها إلا أقل من النصاب، سقطت الزكاة عنها، لأنه أصبح من غير أهل الزكاة. وكذلك الإنسان إذا صام نصف النهار، حيث أصبح وهو قادر وعنده القوة وعنده الاستطاعة على إتمام صيام ذلك اليوم، ولكن في أثناء النهار أصابه مانع شديد منعه من الإتمام، جاز له أن يفطر، ويقضي ذلك اليوم؛ لأنه أصبح من غير أهل الاستطاعة. فتبين بهذا أن الاستطاعة التي أمرنا الله بها في قوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [التغابن:16] أن المراد بها الاستطاعة التي قبل الفعل والتي مع الفعل، فقبل الفعل يكون نشيطاً قوياً قادراً على أن يكمل الفعل، ومع الفعل يحصل منه أنه قادر على إتمامه من أوله إلى آخره، فإذا لم يكمله فهو معذور، فهذا توضيح قول أهل السنة، ولا يلتفت إلى قول هؤلاء الذين يقولون: إن القدرة تشترط قبل الفعل ولا حاجة إلى اشتراطها ولا إلى لزومها حالة مزاولة الفعل، وما ذاك إلا أنهم متناقضون.

لا يكلف الله العباد إلا ما في وسعهم

قال رحمه الله: [وأيضاً: فالاستطاعة المشروطة في الشرع أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصور الفعل مع عدمها، وإن لم يعجز عنه، فالشارع ييسر على عباده ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر: وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ [الحج: 78]، والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة المرض وتأخر برئه، فهذا في الشرع غير مستطيع؛ لأجل حصول الضرر عليه, وإن كان قد يسمى مستطيعاً، فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى لوازم ذلك، فإذا كان الفعل ممكناً مع المفسدة الراجحة، لم تكن هذه استطاعة شرعية، كالذي يقدر على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله، أو يصلي قائماً مع زيادة مرضه، أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته.. ونحو ذلك، فإذا كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة الراجحة، فكيف يكلف مع العجز؟ ولكن هذه الاستطاعة مع بقائها إلى حين الفعل لا تكفي في وجود الفعل، ولو كانت كافية لكان التارك كالفاعل، بل لابد من إحداث إعانة أخرى تقارن مثل جعل الفاعل مريداً فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وإرادة، والاستطاعة المقارنة يدخل فيها الإرادة الجازمة، بخلاف المشروطة في التكليف، فإنه لا يشترط فيها الإرادة. فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده، لكن لا يأمر به من لو أراده لعجز عنه، وهكذا أمر الناس بعضهم لبعض، فالإنسان يأمر عبده بما لا يريده العبد، لكن لا يأمره بما يعجز عنه العبد، وإذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقوة التامة، لزم وجود الفعل، وعلى هذا ينبني تكليف ما لا يطاق، فإن من قال: القدرة لا تكون إلا مع الفعل يقول: كل كافر وفاسق قد كلف ما لا يطيق. وما لا يطاق يفسر بشيئين: بما لا يطاق للعجز عنه، فهذا لم يكلفه الله أحداً، ويفسر بما لا يطاق للاشتغال بضده، وهذا هو الذي وقع فيه التكليف، كما في أمر العباد بعضهم بعضاً، فإنهم يفرقون بين هذا وهذا، فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف، ويأمره إذا كان قاعداً أن يقوم، ويعلم الفرق بين الأمرين بالضرورة]. هذه تعتبر أمثلة لما تقدم من أن الله تعالى لا يكلف العباد إلا ما في وسعهم وما في إرادتهم وما تصل إليه قدرتهم، وما لا مشقة عليهم فيه، وإن كانوا قد يستطيعون فعل بعض الأشياء التي أسقطت عنهم، لكن مع مشقة تلحقهم، فالمشقة تجلب التيسير، وقد نفى الله الحرج في هذه الشريعة، قال تعالى: وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ [الحج:78]، ولما ذكر أنه يجوز لهم استعمال التراب عند فقد الماء أو عند الخوف من استعماله لمرض ونحوه، قال تعالى: مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ [المائدة:6]، ولما أباح لهم الفطر في رمضان للسفر وللمرض، قال بعد ذلك: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا

يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [البقرة:185]، فإن المسافر الذي يشق عليه الصيام، ولكنه يستطيعه، وإذا صام انقطع عن العمل، وانقطع عن خدمة نفسـه، واحتـاج إلى أن يخدمه رفقته، واحتاج إلى أن يظلل عليه، ويرش بالماء لشدة جهده، فهـذا قد يقول: إني أطيق، فنقـول: ما فاتك أشد وأعظم، حيث إنك أعـوزت غـيرك إلى أن يخـدموك، وإلى أن يقومـوا عليـك، وأبطلت مصـالح نفسـك، واحتجت إلى من يخدمك، ولو كنت تستطيع أن تكمل يومك. وكذلك المريض، لو قـال: أنا أستطيع أن أصوم مع المرض، ولكن المرض يزداد مع هذا الصـيام ويشـتد، وتكلف صــاحبه الصــيام، نقــول: إنه قد كلف نفســه، وله رخصة وإن كــان يستطيع الصيام، ولو قال الفقير: أنا أسـتدين وأحج وأصـبر على الـديون الـتي أتحملها في ذمــتي، نقــول: إنك قد كلفت نفسك ما فيه مشــقة؛ لأنك لست على يقين بأنك تقدر على وفاء هـذه الـديون الـتي تتحملهـا، أو أنك -مثلاً- في سفرك قد تضيع أهلك، وقد تعـوزهم إلى أن يتكففـوا النـاس؛ لأنك أنت الـذي تتكسب لهم، وتنفق عليهم من كسبك، فإذا سـافرت عنهم أدى ذلك إلى أنهم يحتاجون، ويسألون الناس، (كفى بالمرء إثمـاً أن يضـيع من يعـول)، فيسـقط عنك الحج في هذه الحالة إذا لم تجد ما ينفقه أهلك على أنفسهم حتى ترجع. وهكذا أيضاً: المصلي الذي أبيح له أن يصلي جالساً، لو قـال: باسـتطاعتي أن أصلي قائماً، وكان القيـام يزيد في المـرض، ويـؤخر الـبرء والشـفاء، فنقـول: لست بمكلـف، وأنت غـير مسـتطيع، والـذي يعجـزه القيـام يجزئه الجلـوس، ويكون أجره كأجر القـائم سـواء؛ لقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (صـلِّ قائمــاً، فــإن لم تســتطع فقاعــداً، فــإن لم تســتطع فعلى جنب)، ولو كـانت الاستطاعة قد تحصل، ولكن مع نوع من المشقة، وبكل حـال فالمشـقة الـتي نفاها الله تعــالى هي الــتي فيها صــعوبة على العبــاد، وهي من جملة ما لم يكلفوا به: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا [البقرة:286]، فإذا كان على العبـاد شيء من الضيق ومن الحـرج ومن الشـدة، فـإن ذلك يجلب لهم الرخصة في أمورهم عامة، وفي هذا الأمر خاصة.

أفعال العباد مخلوقة لله تعالى

قال المؤلف رحمه الله: [قوله: (وأفعال العبـاد خلق الله وكسب من العبـاد): اختلف الناس في أفعال العبـاد الاختياريـة: فـزعمت الجبرية ورئيسـهم الجهم بن صفوان الترمـذي: أن التـدبير في أفعـال الخلق كلها لله تعـالى، وهي كلها اضطرارية كحركات المرتعش، والعروق النابضة، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجــاز، وهي على حسب ما يضــاف الشــيء إلى محله دون ما يضاف إلى محصـله. وقـابلتهم المعتزلـة، فقـالوا: إن جميع الأفعـال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها لا تعلق لها بخلق الله تعـالى، واختلفـوا فيما بينهم

أن الله تعالى يقدر على أفعال العباد أم لا. وقال أهل الحق: أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة، وهي مخلوقة لله تعالى، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه. فالجبرية غلوا في إثبات القدر فنفوا صنع العبد أصلاً، كما غلت المشبهة في إثبات الصفات، فشبهوا، والقدرية -نفاة القدر- جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى؛ ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة، بل أردأ من المجوس، من حيث إن المجوس أثبتت خالقَينِ وهم أثبتوا خالقِينَ، وهدى الله المؤمنين أهل السنة والجماعة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فكل دليل صحيح يقيمه الجبري فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة، ولا مريد ولا مختار، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش، وهبوب الرياح، وحركات الأشجار. وكل دليل صحيح يقيمه القدري، فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأنه مريد له مختار له حقيقة، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى، وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته. فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى؛ فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن، وسائر كتب الله المنزلة من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة، وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم، وهذا هو الواقع في نفس الأمر، فإن أدلة الحق لا تتعارض، والحق يصدق بعضه بعضاً ويضيق هذا المختصر عن ذكر أدلة الفريقين، ولكنها تتكافأ وتتساقط، ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الآخرين، ولكن أذكر شيئاً مما استدل به كل من الفريقين، ثم أبين أنه لا يدل على ما استدل عليه من الباطل]. تكلم الشارح هنا على أفعال العباد، ذكر الطحاوي أن أفعال العباد خلق الله وكسب العباد، لكن الجبرية لم يثبتوا للعباد فعلاً، وإنما أثبتوا لهم كسباً، يعني: أنهم هم الذين زاولوها، وهم الذين عملوها، وإليهم تنسب، فالعبد يوصف بأنه الذي صلى وأنه الذي صام، ولا يقال: خلق الله فيك الصوم ولا خلق الله فيك الصلاة، ولا خلق الله فيك القتل، أو الشرك أو الزنا أو أكل الحرام، بل يقال: أنت المصلي والصائم وأنت الصادق أو الكاذب، وأنت المؤمن أو الكافر، وأنت البر أو الفاجر، وأنت العامل للصالحات أو العامل للسيئات، أنت المحسن أو أنت المسيء، أنت الذي صبرت أو جزعت، أنت الذي تشجعت أو جبنت، يوصف العبد بهذه الأفعال، ولو كانت خلق الله، فالله تعالى خالق كل شيء، وهو الذي أرادها، وهو الذي أوجدها، ولو شاء لما آمن أحد، ولو شاء لما كفر أحد، ولكنه تعالى أعطى العبد قدرة يزاول بها هذه الأعمال فيصبح من أهل الأعمال وتنسب إليه، هذا هو الذي تكلم عليه الطحاوي ، والأشاعرة لا يثبتون للعبد فعلاً، وقولهم قريب من قول الجبرية إلا أنهم يثبتون للعبد كسباً، ثم يضعفون ذلك الكسب، ولا يجعلون له تأثيراً، فأصبح الكسب الذي أثبتوه ليس له حقيقة، وفي هذا يقول بعضهم: مما يقال ولا حقيقة تحته معلومة تدنو من الأفهام الكسب عند الأشعري والحال عند البهشمي وطفرة النظام يعني: أن هذه

الثلاثة لا حقيقة لها أصـــلاً، الكسب عند الأشـــعري لا حقيقة لـــه، وقد يثبت الكسب ومع ذلك ينفي قدرة العبد، والحـال عند البهشـمي معنـاه: أنه لا يثبت للحال حقيقة، وطفرة النظام الذي هو أحد المعتزلة، فإنه اعتقدها وذهب إليها ولا حقيقة لها. ......

مذاهب الناس في الأفعال

الشارح رحمه الله ذكر أن للناس في الأفعال ثلاثة مذاهب: مذهب باطل وهو مـذهب الجبريـة، ويقابله مـذهب باطل أيضـاً، وهو مـذهب نفـاة قـدرة اللـه. ومذهب حق، وهو إثبات قـدرة الله وإثبـات قـدرة العبد الـتي تناسـبه. فـالأول الذي قال أهله إن العبد ليس له قدرة أصـلاً، هو قـول الجبرية الـذين يقولـون إن العبد مجبـور على أفعالـه، وليس له أي اختيـار، بل أفعاله وحركاته بمنزلة حركات المرتعش الذي ترتعش يده ولا يقدر على إمساكه، أو بمنزلة العــروق النابضة الــتي تتحــرك ولا يقــدر على إمســاكها، أو حركاته بمنزلة حركــات الأشجار التي تحركها الرياح، وهؤلاء الجبرية رئيسهم الجهم بن صــفوان ؛ فهو أول من قال إن العبـاد ليس لهم قـدرة، وليس لهم اختيـار، بل هم مجبـورون على الفعـل. وهـؤلاء يقولـون: إن الله إذا عـذب الخلق فإنه ظـالم لهم؛ لأنه الـذي خلق فيهم المعصـية، وقـالوا: كيف يخلق فيهم الـذنب كالشـرك والقتل والزنا والحرام وما أشبه ذلك ثم يعاقبهم على ذلك؟! فيعتبرون هذا ظلماً من الله تعالى، مع أن الله قد نفى الظلم بقوله: وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيـدِ [فصـلت: 46]. حتى قال قائلهم -كما ذكـره ابن القيم في بعض كتبـه-: ألقـاه في البحر مكتوفاً وقال له إياك إيـاك أن تبتل بالمـاء يقولـون: مثل العاصي الـذي يجـبر على المعصية مثل إنسـان ألقي في البحر وقد أوثقت يـداه وقيل لـه: لا يبلك الماء! وهو لا يستطيع الحركة، ومع ذلك ألقي في البحر. ويقولا ابن القيم في ميميتـه: وعند مـراد الله تفـنى كميـت وعند مـراد النفس تسـدي وتلحم وعند خلاف الحق تحتج بالقدر ظهيراً على الـرحمن للجـبر تـزعم يقـول: إن هـؤلاء متناقضون، فإنه إذا كان المراد للنفس فإن أحدهم يسدي ويلحم ويأتي الأمور من طولها وعرضها، ولا يتوقف جهده على الشيء المراد، بل يبذل كل ما في وسـعه، وأما إذا قيل له إن الله أمـرك بكـذا ونهـاك عن كـذا، فإنه يتقـاعس ويتكاسـل، وإذا وقع منه الـذنب قـال هـذا مكتـوب عليّ، وهـذا ليس لي فيه اختيار، فيحتج بالقدر، ويحتج بالقضاء، ويـزعم أنه مجبـور على ذلـك، وهـذا هو فعل الجبرية الذين يزعمون أن العبد مجبور على فعله. وتقدم واحد منهم إلى شـيخ الإسـلام ابن تيمية وهو في مجلس وحوله تلامذتـه، فـألقى عليه أبياتـاً يقول في أولها: أيا علمـاء الـدين ذمي دينكم تحـير دلـوه بأوضح حجة ويقـول فيها: دعاني وسد الباب دوني فهل إلى دخولي سبيل بينـوا لي حجـتي يقـول: إنما مثلي كمثل إنسـان دعـاني، ثم سد البـاب وأقفله دوني، وضـربني وقـال: لماذا لا تدخل؟ وكيف أدخل وقد أوصد الباب؟ فرد عليه شيخ الإسـلام بأبيـات مشهورة مكتوبة مطبوعـة، وقد شـرحها الشـيخ عبد الـرحمن السـعدي رحمه

الله، في أولها قوله: سـؤالك يا هـذا سـؤال معاند مخاصم رب العـرش بـاري البرية وتدعى خصوم الله يـوم معـادهم إلى النـار طـراً معشر القدرية سـواء نفـوه أو سـعوا ليخاصـموا به الله أو مـاروا به للشـريعة واسـتمر في ذكر ما يتناقضون فيه وذكر أنهم يتناقضـون؛ وذلك أن أحـدهم إذا لامه لائم على فعل فإنه يحتج بالقدر، ولكن لا يحتج بالقدر إذا كـانت المصـلحة لـه، فهو إذا كـانت المصـلحة له في طلب معيشة وفي طلب رزق، فإنه يبـذل قصـارى جهـده، فيقال له: لماذا لا تجلس في بيتك وتـترك التكسـب؟ ولمـاذا لا تـترك الأكـل؟ ولماذا لا تقول: إن كان الله أراد لي حيـاة فـإني سـأحيا وإن لم آكـل؟ ولمـاذا تلبس الثياب في الصيف لتتقي الحر، وفي الشتاء لتتقي البرد؟ ولمـاذا تـتزوج تطلب الولد؟ ولماذا تطلب الثمـر؟ وهكـذا، فـأنت تفعل هـذه الأفعـال وطلب المعيشة فكذلك نقول: لماذا لا تعمل أعمـالاً صـالحة تؤهلك لـدخول الجنـة؟! ولماذا لا تترك الأعمال التي تؤهل لدخول النار؟ إذاً: فـأنت معك قـدرة ومعك استطاعة على مزاولة الأعمال. ذكـروا أن سـارقاً أُتي به إلى عمر رضي الله عنه، فقال: هذا شيء قدره اللـه، فقـال عمر رضي الله عنـه: (سـرقت بقـدر الله، ونقطع يدك بقدر الله). ولما توجه عمر إلى الشام ذكر له أن الشـام قد وقع فيها الطـاعون، فعـزم على أن يرجع بمن معه إلى المدينـة، فقـال له أبو عبيدة : (أفراراً من قدر الله؟ فقال: نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله) أي: الله تعـالى قـدر لنا أن نرجـع، فهو كتب علينا هـذا، ولم يكتب علينا أننا نقـدم على هذا الوباء. واسـتدل أيضـاً بقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (فر من المجذوم فرارك من الأسد). وبكل حال هذه أقوال هؤلاء الطائفة، ولهم حجج طويلة اختصـرها الشـارح. أما الطائفة الثانية الـذين هم المعتزلة فبلا شك أن قولهم أشد بطلاناً، ولعله يأتي ما يبينه عندما يتكلم المؤلف على أدلتهم، والله أعلم.

القــدر مرجعه إلى الله تعــالى، وقد خــالف الحق فيه طرفــان: طــرف عطل الرب عن خلق الأفعال، وطـرف جعل العبد مجـبراً ليس له قـدرة ولا اختيـار، وذلك كله لا يصلح للمسلم اعتقاده.

وجوب الإيمان بالقدر

مذهب أهل السنة هو الإيمان بالقـدر، وقد ذكرنا قـول الإمـام أحمد : (القـدر قدرة الله) وأراد بذلك الـرد على القدرية الـذين ينكـرون قـدرة الله على كل شــيء، ويخرجــون كل الأفعــال عن خلق الله تعــالى، وقد أشــبهوا بــذلك المجوس. فالمجوس يجعلـون للكـون خـالقين، والقدرية يجعلـون مع الله من يخلق، وقد تقدم أنهم يقولون: إن القرآن مخلوق، واستدلوا بقول الله تعـالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ [الرعد:16] فأدخلوا صـفة الله الـتي هي كلامه في هـذه الآية، وتناقضـوا فـأخرجوا أفعـالهم عن عمومهـا، فجعلـوا أفعـالهم من خلقهم وليست من خلق الله، فلم يعملوا بعموم الآية: اللَّهُ خَالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ [الرعـد: 16]. ولا شك أن أفعال العباد أولى ما يـدخل في عمـوم الآيـة، لأنها من خلق الله تعالى، وأن نسبتها إلى العباد نسـبة فعل ومباشـرة، ولهـذا يقـال: إن الله خالق كل شيء بما في ذلك حركات العباد وأفعالهم، ومع ذلك فالله تعالى هو الذي مكنهم، وأعطاهم قوة وقدرة، فهم يزاولون الأعمال بقـدرتهم وبقـوتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، فقدرة الله غالبة على قدرتهم، وإرادته غالبة على إرادتهم، وبذلك أصبحت أفعالهم من خلق الله تعالى؛ لقوله تعالى: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُـونَ [الصــافات:96] وأفعــالهم هم الــذين باشــروها، فتنسب إليهم مباشرة، وتنسب إلى الله خلقاً وإيجـاداً، وبما أعطـاهم الله من القوة والقدرة يثابون ويعاقبون. ولأجل ذلك نقول: إن العباد فـاعلون حقيقـة، والله خالقهم وخالق أفعالهم، وأن العبد هو المؤمن والكـافر، والـبر والفـاجر، والمصـلي والصـائم، وأن للعبـاد قـدرة على أفعـالهم، ولهم إرادة، ولكن هـذه القـدرة والإرادة مسـبوقة بقـدرة الخـالق تعـالى وبإرادتـه، هـذا هو قـول أهل السنة. ......

المذاهب المخالفة لعقيدة أهل السنة في باب القدر

وقد عرفنا القولين الذين هما طرفـان في هـذه المسـألة: الطـرف الأول: هو قول المجبرة الذين سلبوا العباد قدرتهم واختيارهم، وجعلوهم مجبورين، ليس لهم أي قدرة أو إرادة، و ليس لهم همة ولا عمل ولا أثر في الأعمال، وجعلــوا حركـاتهم بمنزلة حركـات الأشـجار الـتي تحركها الريـاح! وأبطلـوا حكمة الله تعالى؛ فإذا سئلوا: لماذا أرسل الله الرسل؟ ولماذا يُعذب الله الكفار؟ ولمـاذا

خص الله المؤمــنين بــأنهم أهل الثــواب؟ لم يكن لهم من جــواب إلا أن ذلك محض المشــيئة، ومحض الاختيــار، ومحض الإرادة، وليس لأحد فيه تصــرف، وأكثر ما يرددون قول الله تعالى: لا يُسْـأَلُ عَمَّا يَفْعَـلُ وَهُمْ يُسْـأَلُونَ [الأنبيـاء:23] ويقولــون: إنه قــدر ذلك عليهم وخلقه فيهم، ويعــذبهم على فعله فيهم، ولكن لا يُسـئل عن ذلـك!! وأما الطـرف الثـاني: فهم المعتزلة الـذين أرادوا تنزيه الـرب تعـالى عن أن يعـذبهم على أمر خلقه فيهم كما يقولـون، فجعلـوا أنفسـهم هي الـتي تباشر وتخلق الفعـل، ولم يجعلـوا لله أي قـدرة, بل كثـير منهم يقولون: إن الله لا يقدر على أن يهدي من يشاء، ولا أن يضل من يشاء، بل العباد يهدون أنفسهم أو يضلونها! فهـؤلاء طـرف هالك بعيد عن الصـواب. وهدى الله تعالى أهل السنة فآمنوا بعمـوم قـدرة اللـه، وآمنـوا بـأن له قـدرة عامة غالبة على أفعال العباد، وآمنوا بأنه خلق أفعـال العبـاد، وكتبـوا في ذلك المؤلفات، كما كتب البخاري في ذلك رسالته المشهورة: (خلق أفعال العباد). وبينوا أن قدرة العبد هي التي تناسبه، والتي بها يثـاب ويعـاقب، وأنها مع ذلك مغلوبة بقـدرة الله تعـالى، وبـذلك يسـتحق العبد الثـواب أو العقـاب على ما يزاوله من الأعمال التي تنسب إليه؛ لأنه هو الذي باشـرها. ومع ذلك لا يخـرج عن إرادة الله تعالى، والهداية بيد اللـه؛ فهو الـذي هـدى هـؤلاء وأضل هـؤلاء، فأضل هؤلاء حكمة وعـدلاً، وهـدى هـؤلاء رحمة وفضـلاً، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

الرد على المخالفين في باب القدر

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [فمما اسـتدلت به الجبرية قوله تعـالى: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفـــال:17] فنفى الله عن نبيه الــــرمي، وأثبته لنفسه سبحانه، فدل على أنه لا صنع للعبد. قالوا: والجـزاء غـير مـرتب على الأعمال، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: (لن يدخل أحد الجنة بعملـه، قـالوا: ولا أنت يا رسـول اللـه؟! قـال: ولا أنا إلا أن يتغمـدني الله برحمة منه وفضل) . ومما استدل به القدرية قوله تعـالى: فَتَبَـارَكَ اللَّهُ أَحْسَـنُ الْخَـالِقِينَ [المؤمنون:14]، قالوا: الجزاء مرتب على الأعمـال تـرتيب العـوض كما قـال تعالى: جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَتِلْـكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُـونَ [الزخـرف:71-72] ونحو ذلـك. فأما ما اسـتدلت به الجبرية من قوله تعـالى: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفال:17] فهو دليل عليهم؛ لأنه تعـالى أثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم رمياً، بقوله: (إِذْ رَمَيْتَ)، فعلم أن المثبت غـير المنفي، وذلك أن الـرمي له ابتـداء وانتهـاء، فابتـداؤه الحـذف، وانتهـاؤه الإصـابة، وكل منهما يسـمى رميـاً، فـالمعنى حينئـذٍ -والله تعـالى أعلم-: وما أصبت إذ حـذفت ولكن الله أصـاب، وإلا فطـرد قـولهم:وما صـليت إذ صـليت

ولكن الله صلى! وما صمت إذ صمت! وما زنيت إذ زنيت! وما سرقت إذ سرقت! وفساد هذا ظاهر. وأما ترتيب الجزاء على الأعمال فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية، وهدى الله أهل السنة، وله الحمد والمنة، فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات، فالمنفي في قوله صلى الله عليه وسلم: (لن يدخل أحد الجنة بعمله) باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله، بل ذلك برحمة الله وفضله. والباء التي في قوله تعالى: جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأحقاف:14] ونحوها باء السبب، أي: بسبب عملكم؛ والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته. وأما استدلال المعتزلة بقوله: فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [المؤمنون:14] فمعنى الآية: أحسن المصورين المقدرين، و(الخلق) يذكر ويراد به التقدير، وهو المراد هنا؛ بدليل قوله تعالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ [الرعد:16] أي: الله خالق كل شيء مخلوق، فدخلت أفعال العباد في عموم (كل). وأما أفسد قولهم في إدخال كلام الله تعالى في عموم (كل) الذي هو صفة من صفاته! يستحيل عليه أن يكون مخلوقاً، وأخرجوا أفعالهم التي هي مخلوقة من عموم (كل)!! وهل يدخل في عموم (كل) إلا ما هو مخلوق؟! فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة في هذا العموم، ودخلت سائر المخلوقات في عمومها. وكذا قوله تعالى وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [الصافات:96] ولا نقول: أن (ما) مصدرية، أي: خلقكم وعملكم، إذ سياق الآية يأباه، لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت، لا النحت، والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله تعالى، وهو ما صار منحوتاً إلا بفعلهم، فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقاً لله تعالى، ولو لم يكن النحت مخلوقاً لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقاً له، بل الخشب أو الحجر لا غير. وذكر أبو الحسين البصري إمام المتأخرين المعتزلة: أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضروري. وذكر الرازي : أن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوبه عنده ويمتنع عند عدمه ضروري. وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري، ثم ادعاء كل منهما أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة غير مسلم، بل كلاهما صادق فيما ادعاه من العلم الضروري، وإنما وقع غلطه في إنكاره ما مع الآخر من الحق، فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثاً لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله، كما قال تعالى: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [الشمس:7-8] فقوله: فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [الشمس:8] إثبات للقدر بقوله: (فَأَلْهَمَهَا)، وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه؛ ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية. وقوله بعد ذلك: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [الشمس:9-10] إثبات أيضاً لفعل العبد، ونظائر ذلك كثيرة]. ......

الرد على الجبرية

هذه مناقشة لأدلة الفـريقين المتطـرفين، وهمنا هنا أن نعـرف الجـواب. وأما شـرح أدلتهم والتوسع فيهـا، وكيفية اسـتدلالهم، وتوجيههـا، فلا حاجة لنا إلى التوسع فيـه. وقد عرفنا أن كلا القـولين -قـول الجبرية وقـول المعتزلـة- في طرفي نقيض، وكلاهما لا يزال لهما بقية يقولون بمثل هذه الأقـوال، ولا تـزال أيضاً مؤلفاتهم يعـنى بها وتنشر وتحقـق، وينفق عليها الأمـوال، مع أنها سـبب في ضلال كثير من الناس. ويدعون أنهم بذلك يقوون حجتهم ومعتقدهم الـذي اعتقدوه، ويستدلون بأن الله تعالى يقول: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفـال:17] وقـالوا: هـذا دليل على أن الفعل ليس للإنسـان، وإنما هو للـه؛ لأن الله هو الذي رمى. وقد أجـاب الشـارح بـأن التقـدير: وما أصـبت الهـدف ولكن الله هو الـذي وفق لإصـابته، فـأنت الـذي رميت والله هو الـذي وفق للإصابة. ونحن نعرف القصة التي حصلت في غزوة بدر، والقصة التي حصلت أيضاً في غزوة حنين؛ وذلك أنه لما تواجه المشركون مع المسلمين أخذ النبي صلى الله عليه وسلم قبضة من حصباء ورمى بها في وجوه القوم، معلوم أن رميته لو كـانت بمجـرد قوته لم تـذهب مثلاً إلا نحو عشـرين مـتراً أو ثلاثين، ولكن هـــذه الرمية وصـــلت إلى جميعهم أو أكـــثرهم؛ بحيث إنها دخلت في أعينهم، ودخلت في أفواههم وأنـوفهم، وأعمت عليهم الطـرق، مع أنها كـانت حصيات قليلة في يده رمى بها وقال: (شاهت الوجوه)، فالله تعالى هو الـذي أوصـلها، وهو الـذي وفق لإصـابتها، فمـادام أن الله أثبت الـرمي بقولـه: (إِذْ رَمَيْتَ) أي: حـركت يـدك بتلك الحجـارة وقـذفتها، فهـذا دليل على أن الفعل أصـله من الإنسـان، والله تعـالى هو الـذي يسدده ويوصـله، وهو الـذي يـدفع ويحرك همة العبد إلى أن يفعل ذلك الفعل. وكثيراً ما يكون المسـلمون قلـة، وإذا وجهوا سهامهم إلى المشركين أصابتهم ولو كانوا بعيدين؛ لأن الله يسـدد سهامهم فتصيب العـدو، وأما سـهام أعـدائهم فإنها تخطئهم وتـذهب يمينـاً أو يساراً ولا تصيبهم؛ لأن الله تعالى يصـرفها. إذاً: من الغـزاة الـرمي، ومن الله التسديد والإصابة. وهذا هو معـنى قوله تعـالى: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفال:17]، وهذه الآية من أدلة الجبرية التي استدلوا بها. ومن أدلتهم في أن العمل ليس سبباً في دخول الجنة، قول النبي صـلى الله عليه وسـلم: (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول اللـه؟! قـال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل) قالوا: هذا دليل على أن الأعمال ليس لها أثر، وأن الأعمال ليست هي التي تسبب دخول الجنة؛ وعلى هذا فالأعمال ليست من الإنسان، والإنسان ليس له أي عمـل، وليس له عنـدهم حركـة، بل هو مدفوع إلى هذه الحركة ومغلوب على أمره، ولا يقـدر أن يحـرك باختيـاره أي حركـة، فلا يحـرك إصـبعاً ولا رأسـاً ولا لسـاناً ولا يـداً ولا قـدماً، بل هو متصــرَف فيــه، وتحركه إرادة الله كما تتحــرك الشــجرة بــدون اختيارهــا. والجواب: أن هذا الحديث أراد به النبي صلى الله عليه وسـلم أن أعمالنا وإن كثرت لا تعادل نعم الله، فنعم الله علينا كثيرة، ولو عملنا ما عملنا فإنها قليلة بالنسبة إلى ما ينعم الله به علينا، فأعمالنا لو كثرت لم تكن سـبباً وحيـداً في دخول الجنة، كما ورد في الحـديث: (أنه يـؤتى برجل قد عمل أعمـالاً صـالحة أمثال الجبال، فيقول الله تعالى: أدخلـوه الجنة برحمـتي، فيقـول: يا ربي، بل

بعملي-أليس هـذه الأعمـال الـتي عملتها تحصل لي الجنة والثـواب؟- فيقـول الله: حاسبوا عبدي على نعمي، يقـول الله لنعمة البصـر: خـذي حقك -يعـني: من أعماله- ولنعمة السمع: خذي حقك، ولنعمة النطق، ولنعمة العقل، ولنعمة البطش، ولنعمة القوة، ولنعمة الرزق، ولنعمة العمـل، ولنعمة الصـحة، وتبقى نعم كثيرة كنعمة الهداية ونعمة التوفيق ونعمة الإعانة- فيقول: أدخلـوا عبـدي النار، فعند ذلك يقول: بل يا ربي! برحمتك). فعُرف بذلك أن العمل لا يستقل بشأن دخول الجنة إلا إذا رحم الله العباد. وإذا قيـل: قد وردت أدلة في تـرتب الجـزاء على الأعمـال وهي الـتي اسـتدلت بها المعتزلـة، وجعلـوا عمله سـبباً وحيـداً في دخـول الجنـة، واسـتدلوا بقولـه: ادْخُلُـوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُـونَ [النحل:32]، وقوله: بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَـةِ [الحاقـة:24] ونحو ذلـك. فنقـول: صـحيح أن العمل سـبب؛ ولكن رحمة الله مع ذلك السـبب؛ فيـدخل الجنة بسـبب عملـه، ولكن ذلك برحمة الله تعـالى فهو أرحم الـراحمين. وكما جاء في الحديث الذي فيه: (إن الله خلق الرحمة مائة جزء، كل جزء طباق ما بين السماء والأرض، أنزل منها جزءاً واحداً في الأرض، وبذلك الجزء تـتراحم الخليقة بينهم، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه، فـإذا كـان يوم القيامة ضمه الله إلى تلك الأجـزاء فـيرحم بها عبـاده يـوم القيامـة)، وقد أخـبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم عن واسع رحمة الله لما رأى امـرأة تضم ولدها إلى صدرها وترضعه بعد أن وجدته، فقال: (أترون هذه قاذفة ولدها في النار؟ قالوا: لا، واللـه! وهي تقـدر على تخليصـه، فقـال: لله أرحم بعبـاده من هـذه بولـدها) . فـإذاً: رحمة الله للعبـاد أوسع لهم، كما ورد في الحـديث: (لو عذب الله أهل سماواته وأهل أرضه لعـذبهم وهو غـير ظـالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم). فعرفنا بذلك ضعف ما استدل به هـؤلاء وهؤلاء.

الرد على المعتزلة

وأما اسـتدلال المعتزلة بقـول الله تعـالى: فَتَبَـارَكَ اللَّهُ أَحْسَـنُ الْخَـالِقِينَ [المؤمنـون:14]، ومثلها قوله تعـالى: وَهُـوَ خَيْـرُ الـرَّازِقِينَ [المؤمنـون:72] فيقولون: هذا دليل على أن الخالقين كثير، وليس الخالق هو الله وحـده، لكن الله أحسنهم! فجعلوا العباد خالقين ورازقين مع الله. والجواب: أن هـذا ليس بصحيح، بل الله هو الخالق وحـده، كما قـال عز وجـل: اللَّهُ خَـالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ [الزمر:62]، فـالخلق خلقـه، والأمر أمـره، والآية وردت في سـياق التكـوين، ووردت في سياق الإيجاد، فيقال: إن الإنسان ليس هو الذي يخلق نفسه، وإن كان له سبب في وجود الولد بالنكاح والـوطء والمباشـرة، فينسب إليه أنه هو الذي تسبب في خلق وتكوين هذا الولد، ولكن الله هو الذي أنشـأه، قـال الله

تعالى: أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ [الواقعة:58-59]، فهذا المني الذي ينصب في الـرحم ليس الإنسـان هو الـذي يكونـه، بل قـدرة الله، فالله هو الذي قدر أنه يكـون نطفة ثم يكـون علقة ثم مضـغة ثم ينشـئه الله خلقاً آخر إلى أن يخرج بشراً سوياً. فإذاً: الولد من الإنسان سببه النكــاح والـوطء ونحـوه، ومن الله تعـالى الخلق والتكـوين والتطـوير إلى أن يخـرج سوياً، فهذا معنى قوله: أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [المؤمنون:14]، وقد يُراد بالخالقين الذين يكونون بعض المخلوقات في الدنيا، أو يبدعون بعض الأشياء وإن كــانوا مخطـئين في ذلـك، كما ورد في الحـديث القدسـي: (يقـول الله تعـالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقــوا ذرة، أو يخلقــوا بــرة، أو ليخلقــوا شعيرة)، بمعنى: أنهم جعلوا أنفسهم خالقين، وهم المصورون الذين يضـاهون بخلق الله، فـأثبت لهم إرادة في أنهم يضـاهون خلق اللـه، ويخلقـون كخلقـه، ولكن لا يستطيعون أن يضاهوا وأن يشـابهوا خلق الله تعـالى، فـالخلق الأصل هو من الله، وهو الـذي خلق الأرواح، ولا يسـتطيعون أن يخلقوهـا، وهو الـذي يحـيي الأمـوات، ولا يسـتطيعون أن يحيوهـا، وهو الـذي ينفخ فيه الـروح، ولا يستطيعون ذلك، كما في الحديث: (من صور صورة كُلِّف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ). إذاً: عرفنا أن المعتزلة استدلوا بقوله تعـالى: أَحْسَـنُ الْخَـالِقِينَ [المؤمنون:14] على أن الخالقين كثير. والجـواب: أن الخلق هو التكـوين من الله تعـالى، وأما الإنسـان فمنه السـبب، أو أنه يـراد به المضـاهاة. واسـتدل المعتزلة بترتيب الجزاء على الأعمال، بقوله تعالى: (جـزاء بما كنتم تعملـون) وبقوله: بِمَا أَسْـلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَـةِ [الحاقـة:24]. والجـواب: أن الأعمـال سبب، وليست مستقلة، وإنها هي من جملة الأسباب الـتي يثـاب عليها العبـاد ويعاقبون. واستدلت الجبرية بـآيتين: الآية الأولى قوله تعـالى: اللَّهُ خَـالِقُ كُـلِّ شَيْءٍ [الرعد:16] وقوله: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُـونَ [الصـافات:96] ونحوهـا، في إثبــات أن الإنســان ليست له أية حســبة، وليس له أي عمــل، وكــذلك استدلوا بقوله تعـالى: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفـال:17]. وقد عرفنا كيف نرد عليهم. واستدلوا بأن الأعمال ليست سبباً في دخـول الجنة أو النجاة من النار أو دخول النار بالآية الـتي ذكرنـا، وبالحـديث، وهو قوله صـلى الله عليه وسلم: (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله)، وعرفنا بذلك أن أدلتهم لا تفيـدهم شـيئاً، وأن تـرتيب الجـزاء على الأعمـال من تـرتيب الأسـباب على المسببات.

كيف يخلق الله الذنب ويعاقب عليه

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [وهـذه شـبهة أخـرى من شـبه القـوم الـتي فرقتهم، بل مـزقتهم كل ممـزق، وهي أنهم قـالوا: كيف يسـتقيم الحكم على

قولكم بـأن الله يعـذب المكلفين على ذنـوبهم وهو خلقها فيهم؟ فـأين العـدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم؟ وهذا السـؤال لم يـزل مطروقـاً في العـــالم على ألســـنة النـــاس، وكل منهم يتكلم في جوابه بحسب علمه ومعرفته، وعنه تفرقت بهم الطرق: فطائفة أخـرجت أفعـالهم عن قـدرة الله تعالى، وطائفة أنكرت الحكم والتعليـل، وسـدت بـاب السـؤال. وطائفة أثبتت كسـباً لا يُعقـل! جعلت الثـواب والعقـاب عليـه. وطائفة الـتزمت لأجله وقـوع مقـدور بين قـادرين، ومفعـول بين فـاعلين! وطائفة الـتزمت الجـبر، وأن الله يعذبهم على ما لا يقدرون عليـه! وهـذا السـؤال هو الـذي أوجب هـذا التفـرق والاختلاف. والجـــواب الصـــحيح عنه أنه أن يقـــال: إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية، وإن كانت خلقاً لله تعالى، فهي عقوبة له على ذنوب قبلها، فالذنب يكسب الذنب، ومن عقاب السيئة السيئة بعدها؛ فالـذنوب كـالأمراض التي يورث بعضها بعضاً. ويبقى أن يقال: فالكلام في الذنب الأول الجـالب لما بعـده من الـذنوب؟ يقـال: هو عقوبة أيضـاً على عـدم فعل ما خلق له وفطر عليه؛ فإن الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لا شـريك لـه، وفطـره على محبته وتأليهه والإنابة إليه، كما قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَـــرَ النَّاسَ عَلَيْهَا [الـــروم:30]. فلما لم يفعل ما خلق له وفطر عليه من محبة الله وعبوديته والإنابة إليه عــوقب على ذلك بــأن زين له الشــيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي، فإنه صادف قلباً خالياً قابلاً للخـير والشـر، ولو كان فيه الخير الذي يمنع ضـده لم يتمكن منه الشـر، كما قـال تعـالى: كَـذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ [يوسف:24] ، وقال إبليس: فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِـينَ [ص:82-83]، وقال الله عز وجل: هَـذَا صِـرَاطٌ عَلَيَّ مُسْـتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَـادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُـلْطَانٌ [الحجـر:41-42]. والإخلاص: خلـوص القلب من تأليه ما سـوى الله تعالى وإرادته ومحبته، فخلص لله؛ فلم يتمكن منه الشـيطان. وأما إذا صـادفه فارغاً من ذلك تمكن منه بحسب فراغه، فيكون جعله مـذنباً مسـيئاً في هـذه الحال عقوبة له على عدم هذا الإخلاص، وهي محض العدل]. في هذا السؤال الـذي يـردده المعتزلة أو يـردده الجبرية وهو قـولهم: إذا كـان الله خلق فينا المعاصي فكيف يعذبنا؟ وإذا كان الله لم يهدنا بل أضـلنا فكيف يعـذبنا؟ وهـذا السؤال قد يكثر الذين يرددونه، وإذا نصحت أحدهم، يقول: الله ما هـدانا، وإذا لم يهدنا الله فأنت لا تهدينا! وكثيراً ما يقول: الله هو الذي أضلنا أو كتب علينا ذلك، فإذا عـذبنا فقد ظلمنـا! أو نحو ذلك من العبـارات الشـنيعة البشـعة. ولا شك أنا لســـنا بحاجة إلى مناقشة تلك الأقـــوال الســـيئة، قد عرفنا مما ذكر الشارح أن من أقـوالهم الباطلة قـول من لم يجعل للعبد أي فعل ولا اختيـار. وقول من جعل العبد مستقلاً. وقول من أثبت له كسـباً، ولكن لا حقيقة لـذلك الكسـب. وقـول من جعل الفعل صـادراً عن فـاعلين، والقـدرة صـادرة عن قـادرين، يعـني: جعلـوا الفعل مكونـاً من قـدرتين. ونحن نقـول: لا شك أن الإنسان أعطاه الله هذه القوة، وهذه الهمة، وهـذه المباشـرة، وهـذه القـدرة يزاول بها الأعمال، وتنسب إليه، ويثاب بسببها أو يعاقب، مع أنه قادر على أن يضـله، وقـادر على أن يعجـزه، فهو الـذي أمـده وقـواه، فلأجل ذلك تنسب

الأفعال إلى الإنسان مباشرة، وتنسب إلى الله تعالى خلقـاً وتكوينـاً وتقـديراً، فيقال: هي خلق الله؛ من حيث إنه قـدرها، وقـوى العبـاد عليهـا، وهي أعمـال العباد، من حيث إنهم باشروها، وفعلوها بأبدانهم، فنسـبت إليهم، ونسـبت إلى الله تعالى، ولا منافاة بين النسبتين. ثم ذكر أن الله تعـالى يعـاقب العبـاد في الـدنيا، ويعـاقبهم أيضـاً في الآخـرة على السـيئات، فيقـول الشـارح: إن هـذه العقوبة على الذنوب، وإن الأصل أنه عاقبهم على هذه الذنوب بذنوب أخـرى، فلما أذنبوا كان من عقوبتهم بأن أذنبوا ذنبـاً آخر ثم ذنبـاً ثالثـاً، ثم ذنبـاً رابعـاً وهكذا، واستمرت فيهم السيئات وتمادوا فيها، فيكون بسبب الوقـوع في هـذا الذنب أن الله خلى بين العبد وبين نفسه، وخلى بينه وبين هواه، وسـلط عليه أعداءه من شياطين الإنس والجن، فلما تمكنوا منه صـرفوه عن الهـدى، وإن كان ذلك بتقدير الله، ولما صرفوه واسـتحوذت عليه الشـياطين كـانت أعماله سـيئات؛ عقوبة له على سـيئة اقترفها سـابقاً. وقد نقل الشـارح هنا أن من عقوبة السيئة السيئة بعـدها، ومن ثـواب الحسـنة الحسـنة بعـدها، فـإذا عمل العبد حسنة قالت الحسنة بعدها: اعملني، وإذا أتى سيئة قالت السيئة بعـدها: اعملـني، فيتتـابع المسـيئون في السـيئات، والمحسـنون في الحسـنات. وإذا قالوا: إن السيئة الأولى عقوبة، فعلى أي شـيء؟ ومـادام أنه وقعت منه هـذه السـيئة فكيف سـلطت عليـه؟ وكيف خلقت فيـه؟ وكيف فعلها ولم يسـبقها سـيئة؟ أجـاب الشـارح: بأنها عقوبة على تـرك الإخلاص، وعقوبة على تـرك الأعمال الصالحة التي أمر، وكلف بها، وما ذاك إلا أننا خلقنا لعبادة اللـه، فـإذا انشغلنا عن هذه العبـادة فـذلك إما في لهو وبطالـة، وإما في غفلـة، وإما في إقبال على شهوات تفـوت عليك الخـير، فهـذه الغفلة وهـذه الشـهوات وهـذه الإضاعة للأوقات تعتبر ذنبـاً، فيسـتحق من فعله أن يقع منه ذنب آخـر، عقوبة على ذلك الـذنب الـذي هو الـترك. فالله تعـالى خلق العبـاد لأجل أن يعبـدوه وحـده، وأن يشـكروه، وأن يعرفـوا حقه عليهم، فلما خلقهم للعبـادة أمـرهم بـالإخلاص في قولـه: وَمَا أُمِـرُوا إِلاَّ لِيَعْبُـدُوا اللَّهَ مُخْلِصِـينَ لَـهُ الـدِّينَ حُنَفَـاءَ [البينة:5]، فإذا تركـوا هـذه العبـادة في وقت من الأوقـات عد ذلك ذنبـاً وقع منهم، وإن لم يكن سيئة، ولكنه ترك لعمل صـالح، فاسـتحقوا بهـذا الـترك أن يتسلط عليهم الأهواء والأعداء فيوقعونهم في الذنوب، وتتابع عليهم السيئات، وتتابع منهم. فهذا تعليل علل به العلماء في عقوبة السيئة. يعـني قـالوا: كيف يعـاقب الله على السـيئة وهو الـذي خلقهـا؟ فأجـاب: بأنه ولو كـان هو الـذي قدرها لكن لما كان العبد هو الذي باشرها عـوقب عليهـا. والعقـاب الـذي في الدنيا معروف أنه قد يكون عقابـاً حسـياً، وقد يكـون عقابـاً معنويـاً. فالعقـاب الحسي هو مثل ما ذكره الله بقولـه: ما أنـزل الله على المعـذبين: وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا [العنكبوت:40]. وأما العقوبـات المعنوية على الـذنوب فهي: تسـليط الأعـداء عليهم، وكـذلك تســليط الأهــواء عليهم، وحرمــانهم من الطاعــة، فــإذا رأيت المكب على المعاصي فـاعلم أنه معـاقب، وأن حرمانه من طاعة الله عقوبــة، وإذا رأيت المنهمك في الشهوات الذي فوت الأوقات فاعلم أنها عقوبة له، وإذا قـال: أنا ما أذنبت ولا كفرت ولا عصيت! فكيف يعاقبني بأن يوقعني في هذه المصائب

وهذه الذنوب؟ فنقول له:أولاً: إنك أذنبت بغفلتك؛ حيث أضعت وقتاً ثميناً في الغفلة. ثانياً: لتركك العمل، وكان الواجب عليك أن تشغل وقتك بأعمال صالحة وبحسنات، فلما لم تفعل كنت مذنباً، وكان عقوبة هذا الذنب أن توالت عليك الذنوب، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن الذنوب تؤثر في القلوب وتعميها وتصدها عن الهدى، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا أذنب العبد ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع صقل قلبه، فإن عاد عادت، حتى يعلوه السواد، وذلك الران: كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [المطففين:14].) فإذا غلبه هذا السواد الذي هو بسبب المعاصي عند ذلك تثقل عليه الطاعات، وتخف عليه المحرمات. هذا تلخيص ما ذكره الشارح من أن عقوبة السيئة السيئة بعدها، والله أعلم. ......

الله تعالى خالق كل شيء، ومن ذلك خلقه لأفعال العباد خيرها وشرها، ولكن الشر لا ينسب إلى الله تعـــالى، وقد خـــالف في ذلك القدريـــة، ورد عليهم العلماء بما يبطل شبهاتهم.

مجمل ذكر المذاهب الموافقة والمخالفة في باب القدر

من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر، ويدخل في القدر الإيمان بعموم قـدرة الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير. ويدخل في قـدرة الله تعـالى أنه قـادر على أن يعذب من يشاء، وقادر على أن يرحم من يشـاء، وقـادر على أن ينتقم من الظلمة ويهلكهم في أسرع وقت، وقادر على أن يرحم عباده، وأن يبسط لهم الــرزق، وقـادر على أن يعمم فضـله على القاصي والـداني، وقـادر على أن يحرم هذا ويهلكه، وقادر على أن يغير هذا الكون، وأن يبدل هذه المخلوقـات؛ إذ لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن قدرته شيء. كذلك أيضاً لا يكون في الوجود شيء إلا بإرادته وبعد قدرته وبعد أن يشاء ذلك ويقدره، فلا يكـون فسـوق ولا طاعة ولا معصية ولا هداية ولا ضـلال ولا كفر ولا إيمـان ولا طاعة ولا عصـيان إلا بعد أن يشاء الله ذلك، كما قال عز وجل: لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعـاً [الرعد:31]، وقال: إِنْ يَشَأْ يُسْكِنْ الرِّيحَ [الشورى:33]، وقال: إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّـمَاءِ آيَـةً فَظَلَّتْ أَعْنَـاقُهُمْ لَهَا خَاضِـعِينَ [الشـعراء:4] ولكن اقتضت حكمته أن يضل أناساً بعدله، فضلوا سواء السبيل، ومنَّ على آخـرين بفضـله، فاهتـدوا إلى سـواء الطريـق، وأولئك داخلـون تحت قدرتـه، وهـؤلاء كذلك؛ لأن الجميع عبيـده وتحت تصـرفه، يهـدي من يشـاء، ويضل من يشـاء، ويعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويخفض ويرفع، لا معز لمن أذل، ولا مــذل لمن أعز، ولا خافض لمن رفع، ولا رافع لمن خفض، بيده الأمر، وبيـده الخـير، وهو على كل شـــيء قـــدير. ولا شك أيضـــاً أنه يـــدخل في ذلك حركــات العبــاد وأفعـالهم؛ فهو الـذي أعطـاهم القـوة، وهو الـذي بعث هممهم، ولو شـاء لما عصوه ولما أطاعوه؛ إذ كل ذلك بمشيئته وقدرته، فإن أطـاعوه فبفضـله؛ فهو الذي منَّ عليهم حتى أطاعوه، وإن عصـوه فبعدله إذ فهو الـذي خـذلهم حـتى عصوه. وذكر المؤلف أن في هذا خلافاً بين ثلاث طوائف: الطائفة الأولى: هم الجبرية الذين غلوا في نفي قدرة العبد، وجعلـوا حركته كحركة الأشـجار، ولم يجعلـوا له أي اختيـار، واسـتدلوا بقـول الله تعـالى: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى [الأنفـال:17] وقـالوا: العبد ليس له أي فعـل. ورد عليهم: بـأن الله تعــالى أثبت الــرمي لنبيــه، فــدل على أن منه الــرمي وعلى الله الإصــابة. والطائفة الثانيــة: هم القدرية الــذين أنكــروا قــدرة الله على أفعــال العبــاد، وجعلوا العباد هم الذين يخلقون أفعالهم، وليس لله قدرة على هداية هـذا، ولا إضلال هذا، ولا خذلان هذا، ولا توفيق هذا، فجعلوا العبد أقدر من الله، وجعلوا قدرته تفـوق قـدرة الخـالق! تعـالى الله عن قـولهم، فجعلـوا مع الخـالق من

يخلق، وهؤلاء يقال لهم: مجوس هذه الأمة. الطائفة الثالثة: أهل السنة الـذين توسـطوا، فجعلـوا للعبد قـدرة وإرادة، ولكنها مسـبوقة بقـدرة الله وإرادتـه، ومغلوبة بهـا، فـإذا أراد الله هداية عبد وفقه وأطلق جوارحه واختـار الفعل الطيب، فأصبح مطيعاً مؤمناً. فتنسب إلى العبد الطاعـات والمعاصـي؛ لأن له اختيـاراً؛ ولأن له فعلاً؛ ولأن له قـدرة زاول بها الأعمـال، وتنسب إلى الله لأنه هو الذي أقدره عليهـا، وهو الـذي رزقه القـوة، ورزقه التوفيـق، وأقبل بقلبـه. وكذلك المعصية تنسب إلى اللـه؛ لأنه هو الـذي قـدرها ولو شـاء لما حصـلت، وتنسب إلى العبد لأنه هو الـذي باشـرها وفعلهـا. فجميع الحركـات من الله تعالى إيجاداً وتكويناً، ومن العبد فعلاً ومباشرة، فعلى هذا لا يكـون هنـاك من يشـترك في خلق الفعل وإيجـاده، بل الله هو الـذي مكن العبد حـتى فعلـه، وأظهـره، والعبد هو الـذي باشـره، فتنسب إليه المباشـرة، فلا يكـون هنـاك اختلاف، ولا يكـون هنـاك إجبـار ولا إنكـار لقـدرة الله تعـالى، هـذا هو القـول الوسط. ......

حكم إضافة الشر إلى الله عز وجل، وذكر المخالفين في ذلك

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فإن قلت: فذلك العـدم من خلقه فيـه؟ قيـل: هذا سؤال فاسد؛ فإن العدم كاسمه لا يفتقر إلى تعلق التكوين والإحداث بـه، فـإن عـدم الفعل ليس أمـراً وجوديـاً حـتى يضـاف إلى الفاعـل، بل هو شر محض، والشر ليس إلى الله سبحانه، كما قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم في حـديث الاسـتفتاح: (لبيك وسـعديك، والخـير كله في يـديك، والشر ليس إليك) وكذا في حـديث الشـفاعة يـوم القيامة حين يقـول له اللـه: (يا محمـد! فيقول: لبيك وسعديك والخير بيديك والشر ليس إليـك) وقد أخـبر الله تعـالى أن تسـليط الشـيطان إنما هـو: عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَـهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِـهِ مُشْـرِكُونَ [النحـل:100]. فلما تولـوه دون الله وأشـركوا به معه عوقبـوا على ذلك بتسليطه عليهم، وكانت هـذه الولاية والإشـراك عقوبة خلو القلب وفراغه من الإخلاص، فإلهـام البـر والتقـوى ثمـرة هـذا الإخلاص ونتيجتـه، وإلهـام الفجـور عقوبة على خلوه من الإخلاص. فإن قلت: إن كان هذا الترك أمراً وجودياً عاد السؤال جذعاً، وإن كان أمراً عدمياً فكيف يعاقب على العدم المحض؟ قيـل: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عمّا تريده وتحبه، فهذا قد يقـال: إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو من أسباب الخـير، وهـذا العـدم هو محض خلوها مما هو أنفع شـيء لهـا، والعقوبة على الأمر العـدمي هي بفعل السـيئات، لا بالعقوبـات الـتي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسـل، فلله فيه عقوبتـان: إحـداهما: جعله مـذنباً خاطئـاً، وهـذه عقوبة عـدم إخلاصه وإنابته وإقباله على اللـه، وهـذه العقوبة قد لا يحس بألمها ومضـرتها؛ لموافقتها شـهوته وإرادتـه، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبـات. الثانيـة: العقوبـات المؤلمة بعد فعله للسـيئات، وقد قـرن الله تعـالى بين هـاتين العقوبـتين في قوله تعـالى: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْـوَابَ كُـلِّ شَـيْءٍ [الأنعـام:44] فهـذه العقوبة

الأولى، ثم قـال: حَتَّى إِذَا فَرِحُـوا بِمَا أُوتُـوا أَخَـذْنَاهُمْ بَغْتَـةً فَـإِذَا هُمْ مُبْلِسُـونَ [الأنعـام:44] فهـذه العقوبة الثانيـة. فـإن قيـل: فهل كـان يمكنهم أن يـأتوا بـــالإخلاص والإنابة والمحبة له وحـــده من غـــير أن يخلق ذلك في قلـــوبهم ويجعلهم مخلصين له منيبين إليه محبين لـه؟ أم ذلك محض جعله في قلـوبهم وإلقائه فيها؟ قيل: لا، بل هو محض منته وفضله، وهو من أعظم الخـير الـذي هو بيده، والخير كله في يـده، ولا يقـدر أحد أن يأخذ من الخـير إلا ما أعطـاه، ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه. فإن قيـل: فـإذا لم يخلق ذلك في قلـوبهم ولم يوفقوا له ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم عـاد السـؤال، وكـان منعهم منه ظلمـاً، ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه بما يشاء، لا يُسْـأَلُ عَمَّا يَفْعَـلُ وَهُمْ يُسْـأَلُونَ [الأنبيـاء:23]. قيـل: لا يكـون سـبحانه بمنعهم من ذلك ظالماً، وإنما يكون المانع ظالماً إذا منع غيره حقاً لذلك الغير عليـه، وهـذا هو الذي حرمه الرب على نفسه، وأوجب على نفسه خلافه. وأما إذا منع غيره ما ليس بحق له -بل هو محض فضـله ومنَّته عليـه- لم يكن ظالمـاً بمنعـه، فمنع الحق ظلم، ومنع الفضل والإحسان عدل، وهو سـبحانه العـدل في منعـه، كما هو المحسن المنان بعطـاءه. فـإن قيـل: فـإذا كـان العطـاء والتوفيق إحسـاناً ورحمة فهلا كـــان العمل له والغلبـــة، كما أن رحمته تغلب غضـــبه؟ قيـــل: المقصود في هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع، والمنع المستلزم للعقوبة ليس بظلم، بل هو محض العدل]. هذه مناقشات لاعتراض المعتزلة الذين ينكرون قدرة الله على أفعال العباد، ويوردون هـذه الشـبهات ليلبسوا بها على غيرهم. والشر لا يضاف إلى الله تعالى على أنه شـر، بل كل أفعال الله تعالى خير، ولو كان عقوبات، ولو كان إهلاكاً أو انتقامـاً؛ فلا يقـال: إنه شـر، ولا يقـال: إنه ضـرر، بل هو خـير بالنسـبة إليه سـبحانه وتعـالى. وإذا تتبعنا الأدلة وجدنا أن الله تعالى لا يضيف الشر إلى نفسه، ولكنه يـذكره على صيغة المبني للمجهول، كما في قول الله تعالى حكاية عن مؤمـني الجن أنهم قالوا: وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيـدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَـداً [الجن: 10] فالشر قـــالوا: ((أريد بمن)) ولم يقولـــوا: أراده اللـــه؛ وذلك لأن الشر المحض لا ينسب إلى الله، وأما الخـير فأفصـحوا بأنه من الله فقـالوا: أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَـداً [الجن:10]. فـدل على أن كل ما يصـدر من الله فهو خـير، فالصواعق التي تـنزل والأمـراض الـتي تحـدث بتقـدير الله والجـدب والقحط الذي يصيب الكثير من البلاد لا يقـال إنه شـر، بل هو خـير بالنسـبة إلى اللـه؛ وذلك لأنه قدره لعاقبة حسنة، قدره لينبه عبـاده على عزته وقدرتـه، ولينبههم على خطئهم وذنبهم، وأنه غير ظالم لهم، فلو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لم يكن ظالمـــاً لهم، ولو رحمهم لكـــانت رحمته أعظم من طاعـــاتهم، ومما يستحقونه. إذاً: كل ما يحدث فهو بتقدير اللـه، ولكن لا ينسب الشر إلى اللـه. وكما ذكر في التلبية المنقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقــول: (لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك) فجعل الخير كله من الله وبيده، والشر ليس إلى الله، ولذا قـال: (الشر ليس إليـك)، أي: لا ينسب إلى الله، ولو كان هو الـذي قـدره وشـاءه ولكن لا نسـميه شـراً بالنسـبة إلى إحـداث الله لـه، بل هو خـير؛ حيث إنه سـبحانه وتعـالى ما أراد إلا الخـير، وما

أراد بعباده إلا أن ينبههم، فإن كانوا عصاة سلط عليهم قحطاً أو مرضاً فـذلك خير؛ لأنه ينبههم حـتى ينتبهـوا لمعصـيتهم، ويعلمـوا أن ما أصـابهم فهو عقوبة لهم؛ فينتبهوا ويتوبوا. وإن كانوا مطيعين علمـوا أن ذلك ابتلاء وامتحـان وتنبيه لهم؛ ليكون ذلك زيادة في حسناتهم، جميع ما يحـدث ويقـدره الله في الكـون فهو خير إذا صدر من الله تعـالى. ومعلـوم أيضـاً أنه سـبحانه هو الـذي يكـون الكائنات ويقدرها، وأنه يعـاقب العبـاد بما يسـتحقون، وقد يعفو عنهم، وتكـون عقوباته على نوعين: عقوبة ظاهرها أنها نعمـة، وهي محنة وامتحـان واختبـار. وعقوبة يظهر فيها أنها عذاب وألم، والكل قد يُسمى عقوبة، ولا يكون ذلك إلا إذا خالفوا ما كلفهم به، فـإذا وجه الله إليهم الأوامر وبين لهم، ولكنهم خـالفوا وارتكبوا المعاصي عاقبهم بعقوبتين، كما في قـول الله تعـالى: فَلَمَّا نَسُـوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ [الأنعـام:44] هـذه نعمة ولكنها محنـة؛ والمعنى: أنا فتحنا عليهم الأرزاق ويسرنا لهم الأسباب، وقويناهم، وأعطينـاهم الأموال والأولاد، والأمن والرخاء، وكثرة النعم، وكثرة الخيرات، فازدهرت لهم الدنيا، وضحكت لهم حياتهم، وأعجبوا بما أصابوا وانخدعوا واغتروا، وظنـوا أن ذلك كرامـة، وظنـوا أن ذلك منحـة، وقـالوا: هـذا بسـبب أعمالنـا، وهـذا ما نستحقه، وهـذا كرامة لنـا! فعند ذلك يطغـون ويبغـون، ويتكـبرون ويتجـبرون، ويكفرون بنعم الله، ويستعينون بها على ارتكاب المحرمـات والمعاصـي، وكل ذلك بتقـدير من الله تعـالى، ولو شـاء الله لهـداهم، ولكنه خلى بينهم وبين أنفسـهم وأهـوائهم، فاختـاروا الضـلال، فحقت عليهم هـذه الكلمـة، فعند ذلك تنزل عليهم العقوبة الثانية: حَتَّى إِذَا فَرِحُـوا بِمَا أُوتُـوا أَخَـذْنَاهُمْ بَغْتَـةً فَـإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ [الأنعام:44] فأخذهم الله على حين غرة وغفلة. ......

الحكمة في عدم إيمان جميع الخلق

ولذا أجاب الشارح على الذين قالوا: لماذا خلق الله فيهم عـدم الإيمـان؟ بأنه ليس العدم شيئاً. وكذلك قولهم: لماذا لم يساو بينهم فيهديهم كلهم، ويعطيهم العقول الـتي تهـديهم إلى الخـير؟ فأجـاب: بأنه سـبحانه له الحكمـة؛ حيث إنه خلق دارين: داراً للنعيم، وداراً للجحيم، دار ثـواب، ودار عقـاب. ولو سـوّى بينهم في الاختيـار والهداية لتعطلت إحـدى الـدارين، فمن حكمته أن جعل أهواءهم تختلف، فمنهم من اختار الهدى، ومنهم من اختار الضلالة، فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب، ومنهم من اختار أسـباب الثـواب. ولا يقـال إنه ظلم هـؤلاء حيث لم يـوفقهم، بل يقـال: إنه خلى بينهم وبين أنفسـهم، وإنه لم ير هـؤلاء أهلاً لنعمتـه، ولا أهلاً لرحمتـه، ولا أهلاً لحكمتـه، بل رأى أن فيهم من الطبع ومن الميل إلى الهـوى ما لا يكونـون معه أهلاً للفضـل. وأنت تشـاهد -مثلاً- أبنـاء رجل واحد أو أهل بيت واحـد، أي: أن تـربيتهم تربية واحـدة، ويتعلمون في مدرسة واحدة، ويربيهم أب واحد وأم واحـدة، وكـذلك يقـرءون مناهج واحدة، ومع ذلك إذا كبروا فإنهم يتفـاوتون، فمنهم من يميل إلى الخـير ويؤثره ويحبـه؛ بحيث إنه يعمل الصـالحات ويتقبلهـا، ومنهم من هو ضد ذلـك،

بحيث يميل إلى الشـر، ويميل إلى البطالة وإلى المعصـية والضـلالة. فتقـول: لماذا حصل هذا التفاوت؟ أليست تـربيتهم واحـدة وتعليمهم وتثقيفهم سـواء؟ يقال: بلى، ولكن هؤلاء كتب الله لهم السعادة، وهؤلاء كتب عليهم الشـقاوة.. هؤلاء خذلهم، وهـؤلاء هـداهم ووفقهم، والجميع لم يظلمهم، كما قـال تعـالى: وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً [الكهف:49] فكونه لم يوفق هـؤلاء إنما هو بسـبب أنه لم يـرهم أهلاً لـذلك، بل علم أن طبعهم وميلهم وعقـولهم منتكسة ليست أهلاً لأن تسـتحق الهـدى، فخلى بينهم وبين أنفسـهم، فانخـذلوا، وخرجـوا عن الطواعية والاستقامة، بخلاف أولئك. مع أننا نؤمن بأن هناك أسـباباً جعلها الله مؤثرة في هذه الدنيا، والسـبب الوحيد في هداية الإنسـان هو توفيق الله لـه، وإعطـاؤه قابلية للحـق، وميلاً إليـه، وأن يقـذف الله في قلبه محبة للـدين ولأهله، هذا هو السبب الأصل، ثم هناك أيضاً أسباب أخرى. ولا شك أن تنشئة الوالدين جعلها الله سبباً: إما سبباً للخير أو سبباً للشر، فإذا كان الوالد محبـاً للخـير فـربى أولاده على العلم، وعلى الـدين، وعلى الصـلاة، وعلى التقـوى، وعلمهم كل شيء ينفعهم، كـان ذلك سـبباً في الهداية والاسـتقامة، وإن كـان قد يتخلف في بعضهم. وكذلك إذا أراد الله بعبده الخير ووفقه بجليس صـالح، وأصدقاء صالحين يهدونه ويدلونه، ويأخذون بيده إلى سبيل النجاة، ويبينون له الخير، ويحثونه على فعلـه، كـان ذلك أيضـاً من الأسـباب للهداية والاسـتقامة. فبكل حال نحن لا ننكر أن يكون هنـاك أسـباب لها تـأثير، لكن ذلك كله تقـدير العزيز العليم؛ حيث جعل قلب العبد يميل إلى هـذا، أو يميل إلى هـذا. مع أن تلك الأسـباب قد تفعل مع الشـخص الآخـر، ولكن لا تزيـده إلا عتـواً ونفـوراً، فـأنت -مثلاً- قد تـدعو إنسـاناً وتبـذل له الأسـباب فتعطيه نصـائح، وترشـده، وتخوفه، وتهدي إليه كتباً ونشرات وأشرطة مفيدة، فيسـمعها ويهتـدي ويتقبل بعد أن كـان جـاهلاً، أو بعد أن كـان تائهـاً ضـالاً، أو بعد أن كـان عاصـياً عاتيـاً. وتـأتي إلى أخيه أو زميله وتعمل معه ذلك العمل فتـأتي وتنصـحه وتحـذره وتخوفـه، ولكن لا يتقبـل، بل لا يزيـده ذلك إلا عتـواً ونفـوراً ، بل يزيـده ذلك احتقاراً لمن يدعوه إلى الخير، وتنقصـاً لأهل الخـير، وازدراءً وتصـغيراً لشـأن الدعاة إلى الله، ويرى نفسه أفضل منهم. فأنت أديت ما عليك إلا أن هذا منّ الله عليه وأقبل بقلبه، وهذا خذله وخلى بينه وبين نفسه وسلط عليه أعـداءه، فاحتوشوه وتمكنـوا من قيادته حيث يشـاءون، فلم تنفع فيه الحيـل، ولو شـاء ربك لهدى الناس جميعاً. قـال المؤلف رحمه اللـه: [وهـذا سـؤال عن الحكمة الـتي أوجبت تقـديم العـدل على الفضل في بعض المحـالّ؟ وهلا سـوى بين العباد في الفضل؟ وهذا السؤال حاصله: لم َتفضّلَ على هذا ولم يتفضلْ على الآخر؟ وقد تولى الله سبحانه الجـواب عنه بقولـه: ذَلِكَ فَضْـلُ اللَّهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الحديد:21]، وقوله: لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَـابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَـدِ اللَّهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الحديـد:29]. ولما سـأله اليهـود والنصـارى عن تخصـيص هـذه الأمة بـأجرين وإعطـائهم هم أجـراً أجـراً، قـال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فـذلك فضـلي أوتيه من أشـاء. وليس في الحكمة إطلاع كل فرد من أفراد النـاس على كمـال حكمته في عطائه ومنعـه، بل إذا كشف

الله عن بصـيرة العبد حـتى أبصر طرفـاً يسـيراً من حكمته في خلقه وأمـره وثوابه وعقابه وتخصيصه وحرمانه، وتأمل أحوال محالّ ذلك، استدل بما علمه على ما لم يعلمه. ولما استشـكل أعـداؤه المشـركون هـذا التخصـيص قـالوا: أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا [الأنعام:53] قال تعالى مجيبـاً لهم: أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ [الأنعام:53]، فتأمل هذا الجواب! ترَ في ضمنه أنه سـبحانه أعلم بالمحل الذي يصـلح لغـرس شـجرة النعمـة، فتثمر بالشـكر، من المحل الذي لا يصلح لغرسها، فلو غرست فيه لم تثمر، فكان غرسها هنـاك ضـائعاً لا يليق بالحكمة، كما قال تعالى: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعـام:124]]. فهذا المعنى قد ذكرنا ما يدل عليـه، وقد عرفنا أن الـرب سـبحانه وتعـالى هو الحكيم، الـذي يضع الأشـياء في مواضـعها اللائقة بهـا، وأنه من حكمته قسم خلقه إلى سـعيد وشـقي، وعلم من هو أهل للتقـوى فوفقـه، ومن هو أهل للشـقاء فخذلـه: وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَـداً [الكهـف:49]. فله الحكمة في أمـره ونهيه، وله الحكمة في خلقه وتدبيره، وكـذلك له الحكمة في هدايته وإضـلاله، وفي توفيقه وخذلانه، يهدي من يشـاء فضـلاً، ويضل من يشـاء عـدلاً. وفضـله سبحانه على عبـاده كلهم، ففضـله على النـاس كلهم حيث خلقهم في أحسن تقـويم، وحيث رزقهم وحيث أنعم عليهم، وأعطـاهم ما يعيشـون بـه: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا [هـود:6] فهـذا هو الفضل العـام الـذي عممه على جميع الخلق.

الفضل الخاص حقيقته ومعناه

وأما الفضل الخـاص فهو الهداية والتوفيق والمنة على العبـد، يختص برحمته من يشـاء ولا يعـاتب على تخصيصـه، فلا يقـال: لمـاذا خصّ هـذا بالهداية دون هذا؟ كما لا يقال: لماذا أغنى هـؤلاء وأفقر هـؤلاء؟ ولا يقـال: لمـاذا أصح هـذا وأمرض هذا؟! ولا يجوز الاعتراض على تصـرف الله تعـالى، فلا يقـال: فلان لا يستحق أن يبتلى! ولا يسـتحق أن يمـرض! ولا يسـتحق أن يسـتقيم! بل الأمر بيد الخـالق سـبحانه، فله الحكمة أن هـدى هـؤلاء وأضل الآخـرين، وأنعم على هؤلاء وخذل غيرهم، وأصح هذا وأمـرض هـذا، وأعطى هـذا ومنع هـذا. الآيـات الـتي ذكر الشـارح ظـاهرة الدلالة في أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشـاء من خلقـه. الفضـل: هو العطـاء والنعمـة، وهو بيد الله سـبحانه يؤتيه من يشـاء ويمنعه من يشاء. وليس الفضل خاصاً بالمـال، ولا بالشـهوات، ولا بـالنعم، ولا بـالخيرات، ولا بالمـال والبـنين، بل الفضل في الأصل هو الهداية والإلهـام والتوفيق للعبادة، وللإيمـان الصـادق، قـال تعـالى: ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الحديد:21] فلا يعـترض على الله في أن خص بالفضل قوماً دون قوم. ولما قال المكـذبون لرسـلهم: إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَـرٌ مِثْلُنَا

تُرِيـدُونَ أَنْ تَصُـدُّونَا عَمَّا كَـانَ يَعْبُـدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُـلْطَانٍ مُبِينٍ * قَـالَتْ لَهُمْ رُسُـلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ [إبـــراهيم:10-11] لا شك أن هدايته لهم منة عليهم، والله عزوجل له المن وله الفضل، كما دعا بذلك النبي صلى الله عليه وسـلم بعد الصـلاة: (لا إله إلا الله له النعمة وله الفضل وله المن وله الثنــاء الحســن). فالفضل يعـــني: العطاء والهداية والتوفيق، والمن يعـني: امتنـان الله على خلقـه، يمتن عليهم بما يشـاء، بمعـنى: أن له المنة عليهم بالإعطـاء والتفضـل. فـإذاً الله سـبحانه يعطي هؤلاء دون هؤلاء ولا يقال: إنه ظلم هذا دون هـذا! فمثلاً: قد يعظم أجر هذا ويضـاعف له الحسـنات أكـثر من غـيره، لمـاذا؟ الله أعلم، لا شك أنه رآه أهلاً. نتذكر قول الله تعالى لنساء النبي صلى الله عليه وسـلم: يَا نِسَـاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِـيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُـولِهِ وَتَعْمَـلْ صَـالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَـرَّتَيْنِ [الأحزاب:30-31] فتخصيصهن أن لهن الأجر مرتين زيـادة على غـيرهن، ذلك فضل الله، لكن بالمقابل إذا أتت إحداهن بـذنب فإنها تعـاقب ويضـاعف عليها العـذاب ضـعفين؛ وذلك لأنها ذات منزلة وذات فضـيلة، فلا يليق بها أن تفعل الذنب الذي تلام عليه. فإذاً تخصيص بعض عبـاده في مضـاعفة الثـواب فضل منه ومنـــة، مع أنا نعـــرف أن جميع الخلق كلهم سواســـية بالنســـبة إلى الله سبحانه، ليس بينه وبين خلقه حسب ولا نسب، ولا يعطي هـؤلاء لكـونهم ذوي شرف وذوي فضيلة، ولا يمنع هؤلاء لكونهم ذوي منزلة ساقطة أو نسب دنيء أو نحو ذلك. فرب شخص يكـون من أشـراف النـاس، ومن مشـاهيرهم، ومن أفاضلهم، ومن ذوي النسب الرفيع، ومع ذلك يكون بعيداً عن الخير، بعيداً عن الهداية. وآخر يكون من ذوي النسب الساقط الذي لا يؤبه لـه، ولكن يكـون ذا فضل ومنزلة ورفعة وشـرف؛ وذلك بـالتقوى، ولـذلك يقـول بعضـهم: ألا إنما التقوى هي العز والكرم وحبك للـدنيا هو الـذل والسـقم وليس على عبد تقي نقيصة إذا حقق التقوى وإن حاك أو حجم ويقـول آخر أيضـاً: لقد رفع الإسـلام سـلمان فـارس وقد وضع الشـرك الشـقي أبا لهب فـأبو لهب من أشـراف قريش وضعه الشرك، وسـلمان من فـارس ليس من العـرب، ومع ذلك رفعه الإسـلام. وهـذا لا شك أنه محض عطـاء من الله وفضـل، وقد ذكرنا أن لـذلك أسباباً، وأن من أسباب الهداية: كون العبد يرغب إلى ربه، ويسأله، ويرفع إليه أكف الضـراعة، ويتملقـه، ويـدعوه بأوقـات الإجابـة، يسـأله هداية قلبه وهداية روحه وهداية فطرتـــه، يســـأله الإقبـــال بقلبه إلى ربـــه، فالـــدعاء من أفضل الأسباب، إذا رأيت في قلبك شيئاً من القسـوة، ورأيت في قلبك إعراضـاً عن الخير وكراهية، سألت ربك أن يلينه حـتى يتقبل الموعظة وأن يقبل على فعل الخـير. وإذا رأيت من نفسك تثـاقلاً عن الطاعـة، سـألت ربك ورغبت إليه أن يهديك وأن يعينك على الطاعة، فذلك سبب، والله تعـالى جعل لأحكامه وجعل لقضاياه وما قدره أسباباً مشاهدة فهذا منها. ومن الأسـباب: كـثرة العبـادات، وكثرة الطاعات، فالعبد إذا أكثر من الحسنات وأكثر من القربات كـانت سـبباً في محبته للخيرات، وفي بغضه للسيئات: إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ [هود:114] إن الحســنة تجر إلى أختهــا، والســيئة تجر إلى مثلهــا، فهــذه بلا شك

أسباب. كما أن للشقاوة أسباباً وللضلالة أسـباباً، بعد خـذلان الله وبعد تخليته بينه وبين نفســـه، فلا شك أن كـــثرة المعاصي تقسي القلـــوب، ولا شك أن الإعـراض عن العبـادات والإعـراض عن الأذكـار تقسـيها وتصـدها عن الخـير، وتثقل عليها الطاعـات. فلا شك أن للهداية أسـباباً وللضـلالة أسـباباً، والجميع كله داخل تحت إرادة الله تعالى، وتحت مشـيئته وتقـديره، فما شـاء كـان وما لم يشأ لم يكن.

فعل العبد هو خلق الله وكسب العبد، ولكن القدرية غلوا في النفي، والجبرية بالغوا في الإثبات حتى جعلوا فعل العبد من قبيل الإجبار، وكلتا الطائفتين في طرفي نقيض، وقد هدى الله أهل السنة إلى الحق.

مقدمة في فعل العبد وقدرته وأنها من الله سبحانه وتعالى

نحمد الله على ما أولى من النعم، ودفع من النقم، نحمد الله على أن من علينا بفضله ومنّ علينا بعطائه ومد في آجالنا، وبلغنا آمالنـا، ونحمـده على أن هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونحمده سبحانه أن من علينا بـالفطرة الحسـنة، وبالشـريعة الإسـلامية، وبالعقيـدة السـنية، وبالطريقة المحمدية، وبالهداية إلى الصراط المستقيم، الذي من سـلكه فـاز ونجـا، ومن حاد عنه تردى وهلـك، نحمد الله أن جعلنا من أهل السـنة، وأن حمانا وحفظنا من البدع والمنكرات والمحدثات التي تخالف السنة وتنافي الشـريعة الدينيـة. لا شك أنها نعمة عظيمة، لا شك أنها من أكبر النعم، حيث وفقنا الله تعالى أن كنا من أهل السنة، أن عرفنا طريق النجـاة، سـبل السـلام، الطريق السـوي، الصـراط المسـتقيم، وحـرم ذلك خلقـاً كثـيراً، هنـاك الكثـير من الـدول ومن القبائل ومن الأمم لا يعرفون الإسلام، ولا يدينون بـه، بل يرونه عائقـاً قاطعـاً لهم عن السـير في هـذه الحيـاة الـتي هي غاية مطلبهم، والـتي هي نهاية مقصدهم. وهناك فئام من الناس يدينون بعقائد ضالة يدعون أنها أهدى سبيلاً، وأقوم طريقاً، وأنهم على سبيل النجاة، وأنهم تفوقوا على المسـلمين، ودانـوا بطريقة وبسنة وشريعة أهدى من الشريعة الدينية. وهناك فئـام ودول وقبائل وخلق كثير ينتسبون إلى الإسلام، ولكن ما معهم من الإسلام إلا مجرد الاسم؛ لأن عقائدهم تخالف العقيدة الإسلامية، وكذلك أعمـالهم تخـالف ما يـدعو إليه الإسـلام، فهم على شـفا جـرف هـار، فهـؤلاء حـريٌ أن يموتـوا وهم على تلك البـدع وتلك المعاصي والمنكـرات، فيكونـون من أهل العـذاب والعيـاذ باللـه. وهنـاك فئـام وأمم كثـيرة يتسـمون بـأنهم مسـلمون، ولكن معهم محـدثات ومنكرات وبدع يصـور لهم الشـيطان ويملي لهم، ويـزين لهم أنهم على الحق والهدى، وأنهم أهدى سبيلاً من أهل السنة والجماعة، ويفتخرون بتلك الأسماء الـتي ينتحلونها وينتمـون إلى قـادتهم وأئمتهم، وهم يعتقـدون أنهم على حـق، ولكنهم على باطل، ولم يقبلوا هـدى اللـه، ولم يقبلـوا الـدليل، ولم يـنيبوا إلى الشريعة، بل زين لهم أن تلك النحل وتلك البـدع هي الـتي من تمسك بها فهو على السـنة، فجعل السـنة بدعة والبدعة سـنة، والحق بـاطلاً والباطل حقـاً. وهذا بلا شك من انتكـاس البصـائر، ومن عمى القلـوب والعيـاذ باللـه. وهنـاك الكثير ممن يـدينون بالسـنة وينتسـبون إلى أهل السـنة والجماعـة، ولكن زين لهم الشيطان بعض الـذنوب، فوقعـوا في المعاصـي، ووقعـوا في المخالفـات وإن لم تكن مكفرات ولا بدعيات، ولكنها في الحقيقة ذنـوب عظيمـة، أصـروا

واستمروا عليها، واستحلوها وأتوا بها جهاراً وإسراراً، فقضوا أعمارهم وهم على تلك المعاصي وعلى ارتكاب تلك الكبائر، ولا شك أنهم إذا لم يتوبوا ولم يتب الله عليهم، استحقوا من العذاب بقدر ذنوبهم وسيئاتهم، وأنهم على خطر عظيم. وهناك أيضاً آخرون لم يخالفونا في المعتقد، ولم يرتكبوا كبائر الذنوب، ولكنهم استمروا على الصغائر، فاحتقروها وتهاونوا بها، واستمروا عليها طوال حياتهم، والاستمرار على الصغيرة والإصرار عليها يصيرها كبيرة. لا شك أن هذه الأقسام كلها موجودة، ولكن أشدها الذين ليسوا على دين ولا شريعة، بل لا يعترفون بالله رباً، ولا بالشريعة الإسلامية أو غيرها ديناً. فإذاً ما دام أن الله قد نجانا من هذه الأخطار كلها، وهدانا إلى الحق، فليكن ذلك حافزاً على أن نتعلم الطريقة السنية، نتعلم السنة النبوية، حتى إذا عرفناها تمسكنا بها حق التمسك، وحتى نرد على كل من يخالفنا سواء كانت المخالفة في الأصول أو الفروع، وهذا هو -والحمد لله- ما نقوم به، وما نتلقاه في الخطب وفي الإذاعات وفي القراءات وفي الحلقات العلمية، وفي المحاضرات وفي الدروس اليومية والأسبوعية، كل ذلك إن شاء الله من الأسباب التي يفتح الله بها على عباده وينجيهم. وكذلك ما يمر علينا في هذا الكتاب الذي نقرؤه على عقيدة أهل السنة الذين ألفوها واجتهدوا في تأليفها، ونصحوا بها الأمة حتى يبينوا لهم ما هم عليه وما يفعلونه وما يحذرونه. وقد وصلنا إلى مباحث القضاء والقدر، ومباحث الأمر والنهي، والتكاليف، وقدرة العباد على أفعالهم، أو ما أشبه ذلك. وهي لا شك من المسائل الصعبة، من المسائل العسيرة التي تحتاج إلى تعقل، والتي خالف فيها الخلق الكثير، والتي ولدوا فيها شبهاً، وولدوا فيها تشكيكات تبرر لهم بزعمهم ما هم عليه من القول بالجبر، أو من القول بإنكار القدرة الإلهية، ولكن قيض الله لهم أهل السنة فبينوا لهم ما هم فيه من الحيرة، وأجابوا عما ولدوه من الشبه، وبينوا الجواب الصحيح لمن انحرف عن السنة والجماعة. وإذا تأمل القارئ هذه الشبهات التي يولدونها، وعرف جوابها الصحيح من أهل السنة قنع بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أمر العباد ونهاهم، وقنع بأنه ما أمرهم إلا وهم قادرون على تنفيذ ما أمر به. وقنع بأنهم لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، وأنه تعالى أعطاهم ومكنهم وقواهم وجعل لهم استطاعة يزاولون بها الأعمال من طاعات ومعاص، كما يتسببون بها في تحصيل أسباب الرزق، وكل ذلك لا يخرج عن قدرة الخالق. فله القدرة وله الاستطاعة الغالبة لكل قدرة، ولكنه سبحانه لما أعطاهم هذه القدرة نسبت إليهم، وأصبحوا هم المزاولين للأعمال، فهم الذين يصلون ويصومون ويزكون ويتصدقون، وهم الذين يؤمنون ويسلمون ويحسنون ويقبلون ويتعبدون، ويثابون عليها، كما أنهم الذين يسرقون ويزنون ويسكرون ويرابون ويرشون ويعصون ويفعلون المحرمات ويعاقبون عليها. وإن كان الله تعالى هو الذي قدر ذلك كله في هذا الكون، وهو الذي مكن لهؤلاء وأعطاهم هذه القدرة التي زاولوا بها الطاعات، أو زاولوا بها المعاصي: قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ [الأنعام:149]. ......

حقيقة فعل العبد لفعله مع كونه مخلوقاً لله سبحانه

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فإن قيل: إذا حكمتم باستحالة الإيجاد من العبد، فإذاً لا فعل للعبد أصلاً، قيل: العبد فاعل لفعله حقيقة، وله قدرة حقيقة، قال الله تعالى: وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ [البقرة:197] وقال تعالى: فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [هود:36] وأمثال ذلك. وإذا ثبت كون العبد فاعلاً، فأفعاله نوعان: نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته، فيكون صفة له ولا يكون فعلاً، كحركات المرتعش. ونوع يكون منه مقارناً لإيجاد قدرته واختياره، فيوصف بكونه صفة وفعلاً وكسباً للعبد، كالحركات الاختيارية. والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلاً مختاراً، وهو الذي يقدر على ذلك وحده لا شريك له، ولهذا أنكر السلف الجبر، فإن الجبر لا يكون إلا من عاجز، فلا يكون إلا مع الإكراه، يقال: للأب ولاية إجبار البكر الصغيرة على النكاح، وليس له إجبار الثيب البالغ، أي: ليس له أن يزوجها مكرهة. والله تعالى لا يوصف بالإجبار بهذا الاعتبار؛ لأنه سبحانه خالق الإرادة والمراد، قادر أن يجعله مختاراً، بخلاف غيره. ولهذا جاء في ألفاظ الشارع: (الجبل) دون (الجبر) كما قال صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس : (إن فيك خلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة. قال: أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما؟ قال: بل خلقين جبلت عليهما، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله). والله تعالى إنما يعذب عبده على فعله الاختياري، والفرق بين العقاب على الفعل الاختياري وغير الاختياري مستقر في الفطر والعقول. وإذا قيل: خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم، كان بمنزلة أن يقال: خلق أكل السم، ثم حصول الموت به ظلم، فكما أن هذا سبب للموت، فهذا سبب للعقوبة، ولا ظلم فيهما. فالحاصل أن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله تعالى، ومفعول لله تعالى، ليس هو نفس فعل الله، ففرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق. وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله تعالى بقوله: (وأفعال العباد خلق الله، وكسب من العباد)، أثبت للعباد فعلاً وكسباً، وأضاف الخلق إلى الله تعالى، والكسب: هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر، كما قال تعالى: لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ [البقرة:286]]. ......

نسبة الأفعال بأنواعها للعبد وقدرته عليها

وهذا الكلام قد تكرر وقد اتضح معناه والحمد لله، وهو معرفة أن الله سبحانه وتعالى أثبت للعباد أفعالاً، قال الله تعالى: فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ [الكهف:29] وأثبت أيضاً جزاءهم على تلك الأفعال، فيقول مثلاً: جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [السجدة:17]، نسب الفعل إليهم، فهم الذين يفعلون، وهم الذين يعملون، وهم المؤمنون والمسلمون والمحسنون، كما أنهم إذا خالفوا

وصـفوا بـأنهم الفاسـقون، والكـافرون، والخاسـرون، والظـالمون، فتنسب المعاصي إليهم، وتنسب الطاعـات إليهم، لمـاذا؟ لأنهم هم الـذين زاولوهـا؛ لأنهم الذين باشروا فعلها ظاهراً. فأنت تشاهد المصـلي فتقـول: هـذا يصـلي، هذا يركع ويسجد، ولا تقول: هذا مجبـور على الصـلاة، ولا تقـول: هـذا مجبـور على النفقة، بل تقول: هذا ينفق أو يتصدق باختياره، فالصدقة منه تنسب إليه ويطيع ويمتثل أمر الله له في الآيات كما في قوله: لِيُنفِقْ ذُو سَـعَةٍ مِنْ سَـعَتِهِ [الطلاق:7] وفي قولـه: أَنفِقُـوا مِمَّا رَزَقْنَـاكُمْ [البقـرة:254]. كما ينسب إليه فعل العبادات في قوله: اعْبُدُوا رَبَّكُمْ [البقـرة:21] أليس ذلك دليلاً على أنهم قـادرون؟! أيـأمر الله العجـزة؟! لا يمكن أن يـأمر من لا يقـدر؛ فإنه لا يكلف نفساً إلا وسعها. والناس بعقولهم يعرفون الفرق بين العاجز والقادر، فلا يقال مثلاً للمقعد احمل هـذا الكيس إلى الـبيت الفلاني؛ لأنه مقعد لا يسـتطيع أن يقـوم فضلاً عن أن يحمـل، ولا يقـال مثلاً للأعمى: اكتب هـذه الرسـالة؛ لأنه معـذور لا يسـتطيع، وليس في إمكانه أن يكتبها كغـيره، كما لا يقـال مثلاً لكل عاجز: افعل هذا الفعل وهو ليس من أهله. إذاً فالله تعالى عندما قـال: وَقُـلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ [التوبة:105] لا شك أنه أمرهم لكـونهم قـادرين على أن يعملـوا، ولأجل ذلك يثـابون على أعمـالهم وعلى تنافسـهم وعلى مسابقاتهم، وتنسب إليهم خلافاً للمجبرة؛ لأنهم باشروها، ويوصفون بهـا، الله تعـالى يقـول مثلاً: قَـدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُـونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَـلاتِهِمْ خَاشِـعُونَ [المؤمنـون:1-2]، ويقـول تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْـيَةِ رَبِّهِمْ مُشْـفِقُونَ [المؤمنون:57]، ويقول مثلاً: وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ [الشورى:37]. أليس ذلك نسـبة للأفعـال إليهم؟ هـذه صـفات أمر الله بهـا، ومـدح أهلهـا، وجعلها مقدورة للمخاطبين. وعلى هذا فالعباد أعطاهم الله تعـالى هـذه القـوة وهـذه القدرة.

دخول قدرة العبد تحت مشيئة الله وقدرته

نحن نعتقد أنه لو شاء الله لما فعلوا، لولا مشيئة الله وإعطـاؤهم هـذه القـوة وهـذا التمكن لما حصـلت منهم هـذه القـوة، ولـذلك يقـول الله تعـالى: وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[الرعد:33] وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ [الزمـر: 37]. فأخبر بأنه هو الذي هداهم ووفقهم وأعانهم، وهو الذي أمـرهم ونهـاهم، وهو الذي خلقهم وقواهم، وهو الذي مكن لهم وأعطاهم، وهو الذي سخر لهم وهداهم، كما أنه الذي يعاقب ويـثيب، ويعطي ويمنـع، ويهـدي ويضـل، ولكن لا يأمرهم إلا بما في إمكانهم فعلـه. ولـذلك يقـول اللـه: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا [البقرة:286]، لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا [الطلاق:7]، ويقول: وَمَا جَعَـلَ عَلَيْكُمْ فِي الـدِّينِ مِنْ حَـرَجٍ [الحج:78] يعـني: أنه ما أمـرهم إلا بما

يستطيعونه وبما يقدرون عليه، ولو كان الأمر كما يقوله المجبرة، لكان أمرهم بما لا يقدرون عليه، وذلك بلا شك من تكليف ما لا يطاق.

عقيدة الجبرية في أفعال العبد بأنواعها والرد عليهم

فالمجبرة يقولون: العبد مجبور على فعله، ليس له أية فعل، ولا ينسب إليه بل حركته كحركة المرتعش. بعض الناس مثلاً عند الكبر يكون غير قادر على إمساك يده، فترى يده تضطرب وتتحرك بدون اختياره، إلا أن يرفعها ويخفضها، لكن إذا وقف ومدها رأيتها ترتعد، هذا هو الارتعاش. فالمجبرة يزعمون أن العباد كلهم ليس لهم أدنى قدرة ولا أدنى حركة، وإنما حركاتهم وركوعهم وسجودهم وكسبهم وعطاؤهم ومنعهم، وصلاتهم وصومهم، وحجهم وعمرتهم، وطوافهم وسعيهم، وجهادهم ونفقاتهم، كلها ليست اختيارية بل قهرية! وكذلك المعاصي يعتبرونها قهرية، فهم يعذرون من زنى، ومن سرق، ومن قتل، ومن شرب الخمر، ومن نهب، ومن سلب؛ لأنهم في زعمهم ليس لهم فعل، بل هم مجبورون على هذا الفعل! لا شك أن قولهم هذا تبطل به الأحكام، وتعطل الشرائع، ولا حاجة إلى إرسال الرسل، مادام المطيع مجبوراً على الطاعة، والعاصي مجبوراً على المعصية، إذاً فلماذا أمر الله ونهى؟! لا شك أن هذا تجرؤ على الله جل وعلا، ثم هو أيضاً مخالفة للعقول والبداهة، الإنسان بفطرته يعرف أن عنده قدرة على المزاولة، إذا رأيت مثلاً إنساناً نشيطاً، ومع ذلك رأيته جالساً ليس له عمل، وليس له حرفة، مع أنه مفكر وعارف وقادر وقوي البنية وقوي التركيز وقوي الأعضاء ومع ذلك لا يعمل، ألست تلومه على هذه البطالة؟ وتقول له: إن الله يبغض الفارغ البطال، لماذا هذه البطالة؟ لماذا هذا الكسل؟ أتريد أن يأتيك رزقك ويدخل عليك بيتك؟ أتريد أن ينزل عليك الطعام والشراب من السماء؟ فأنت تلومه؛ لأنه مستحق لأن يلام؛ وذلك لأن الله سبحانه كما أمر بالطاعات، أمر بالكسب وأباحه في قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ [الملك:15] وفي قوله: وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ [الجاثية:13]. فمادام كذلك فإنه سبحانه أمرنا بأن نبتغي الرزق، وأن نتطلبه، وكل عاقل يتطلب ذلك بفطرته، فإذا تمكن وقويت بنيته، وكملت أعضاؤه وكمل نموه، ما بقي عليه إلا أن يتكسب كما يتكسب آباؤه وأعمامه وأجداده، ويطلب ما يطلبون، ويعف نفسه ويغني نفسه. فإذا كان ذلك جبلة وطبيعة، فكذلك في القوة الإيمانية والأوامر الشرعية يقال: إن الله أمرك بأن تطلب النجاة، وأن تعمل الأعمال التي تكون سبباً في سعادتك عاجلاً وآجلاً. نقول بعد ذلك: لا شك أن الإنسان قد جبل على بعض الصفات، ويسمى ذلك جبلة ولا يسمى إجباراً، كما سمعنا من الشارح أنه فرق الجبر

والجبل، فقال: لا يقال: هـذا مجبـور على فعلـه، بل يقـال: مجبـول على هـذه الأخلاق، الجبلــة: هي الطبيعة والخلقــة، يقــال: طبيعة فلان وجبلته الصــدق، طبيعته الحلم، طبيعته اللين، أو طبيعته الكـرم، السـخاء، الاهتـداء، النصـيحة، وكـذلك يقـال: هـذا جبل على البخـل، وعلى الشـح، وجبل على الجبن وعلى الخوف، وجبل على الكذب وعلى الخيانة وعلى الغش، وما أشبهها، يعني: أنها صـفات جبلية مغروسة في نفسـه، وأن نفسه الشـريرة تميل إليهـا، أو نفسه الخـيرة تميل إلى الصـفات الخيريـة. أما الجـبر الـذي تقـول به الجبرية فإنه الإكراه والإلزام على الفعل بـدون اختيـار، وبـدون قـدرة، فيقـال مثلاً: الأمـير أجبر فلاناً على القتل، أو فلانـاً على السـكر، يعـني: أكرهه وألزمه بـه، وفلانة أجبرت على الزنا، يعني: أجبرها هذا وفعل بهـا، وهكـذا، ففـرق بين هـذا وبين هذا. فالصفات الجبلية أخلاق وليس فيها إكراه، بل يفعلها باختياره سواء كانت طاعات أو معاصي، وأما الجبر فالله منزه عن أن يجبر أحداً أو يكره أحداً، بل قال: لا إِكْرَاهَ فِي الـدِّينِ [البقـرة:256] وإنما هي بالاختيـارات وبـالجبلات وما أشبهها.

التكليف بحسب الطاقة والاستطاعة

قال المؤلف: [وقوله: (ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقـون، ولا يطيقـون إلا ما كلفهم. وهو تفسير: لا حول ولا قوة إلا بالله، نقول: لا حيلة لأحد، ولا تحول لأحد، ولا حركة لأحد عن معصية الله، إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله تعالى، وكل شيء يجري بمشـيئة الله وعلمه وقضائه وقـدره. غلبت مشـيئته المشـيئات كلهـا، وغلب قضـاؤه الحيل كلهـا، يفعل ما يشـاء وهو غـير ظـالم أبـداً: لا يُسْـأَلُ عَمَّا يَفْعَـلُ وَهُمْ يُسْـأَلُونَ [الأنبياء:23]). فقوله: (لم يكلفهم الله تعـالى إلا ما يطيقـون) قـال تعـالى: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْـعَهَا [البقـرة:286]، وقـال تعـالى: لا نُكَلِّفُ نَفْسـاً إِلاَّ وُسْـعَهَا [الأنعـام:152]. وعن أبي الحسن الأشـعري : أن تكليف ما لا يطـاق جـائز عقلاً، ثم تـردد أصـحابه أنـه: هل ورد به الشـرع أم لا؟! واحتج من قـال بوروده بأمر أبي لهب بالإيمان، فإنه تعـالى أخـبر بأنه لا يـؤمن، وأنه سيصـلى ناراً ذات لهب، فكان مأموراً بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، وهـذا تكليف بـالجمع بين الضدين وهو محال. والجواب عن هذا بالمنع، ولا نسلم أنه مـأمور بـأن يـؤمن بأنه لا يؤمن، والاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان كـانت حاصـلة، فهو غـير عــاجز عن تحصــيل الإيمــان، فما كلف إلا ما يطيقه كما تقــدم في تفســير الاستطاعة. ولا يلزم قوله تعالى للملائكة: أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء [البقــرة:31] مع عدم علمه بـذلك، ولا للمصـورين يـوم القيامـة: (أحيـوا ما خلقتم) وأمثـال ذلك؛ لأنه ليس بتكليف طلب فعل يثاب فاعله، ويعاقب تاركـه، بل هو خطـاب

تعجيز، وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين في قوله تعالى: رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ [البقرة:286]؛ لأن تحميل ما لا يطاق ليس تكليفاً، بل يجوز أن يحمله جبلاً لا يطيقه فيموت، وقال ابن الأنباري أي: لا تحملنا ما يثقل أداؤه، وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه، قال: فخاطب العرب على حسب ما تعقل، فإن الرجل منهم يقول للرجل يبغضه: ما أطيق النظر إليك! وهو مطيق لذلك، لكنه يثقل عليه، ولا يجوز في الحكمة أن يكلفه بحمل جبل بحيث لو فعل يثاب، ولو امتنع يعاقب، كما أخبر سبحانه عن نفسه أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها]. ......

التكليف والأمر الشرعي عند أهل السنة

يدين أهل السنة بأن الله أمر القادرين ولم يأمر العاجزين، أمرهم بما هو في وسعهم ولم يأمرهم بما ليس في وسعهم، وإذا قيل: لماذا سميت العبادات تكاليف؟ نقول: سميت بذلك لكون الذي يفعلها يوصف بأنه مكلف، أي: مأمور ومنهي، ومع ذلك فليس في فعلها كلفة ولا مشقة، صحيح أن الكلفة هي الشيء الثقيل، كما في قول بعضهم: يكلفه القوم ما نابهم وإن كان أصغرهم مولدا يعني: يأمرونه بما يدفع عنهم المصائب فيقوم بذلك ولو كان أصغرهم، فدل على أنه يفعل شيئاً في إمكانه وشيئاً في قدرته، فنحن نعتقد أن الله تعالى ما أمر إلا بما هو في الإمكان، ولم يكلف الإنسان إلا بما يستطيعه، فمثلاً: الصيام قد يقال فيه كلفة، سيما في الأيام الطويلة وشدة الحر، ولكن هو في الإمكان وهو في الاستطاعة، غالباً أنهم يقدرون على الإمساك إلى أن يذهب النهار ويدخل الليل، والقدرة على ذلك معتبرة، فإذا كان هناك مشقة فإنهم يضجرون؛ فلأجل ذلك قال تعالى: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ [البقرة:184] يعني: فأفطر فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ [البقرة:184] وإذا قلت: إن هناك بلاداً يطول فيها النهار، بحيث يكون مثلاً ثمانية عشرة ساعة أو عشرين ساعة أو نحوها، فإمساكها فيه كلفة وفيه صعوبة، أجاب العلماء: بأنه يمكنهم إذا عجزوا أن يفطروا ويقضوه من أيام أخر إذا قصر النهار؛ لأنه أحياناً يقصر عندهم النهار حتى يكون أربع ساعات أو ست ساعات أو ثمان ساعات أو عشراً أو نحو ذلك. فإذاً ليس في الأمر مشقة. وإذا قلت مثلاً: إن الوضوء فيه صعوبة، فلماذا كلف به؟ نقول: ليس فيه صعوبة، وإن كان الإنسان قد يجد برودة في الماء مثلاً؛ فلأجل ذلك إذا كان مريضاً لا يستطيع أن يتطهر فإنه يعدل إلى التيمم، وإذا كان مسافراً لا يستطيع حمل الماء معه فإنه يعدل إلى التيمم؛ لرفع الحرج. إذاً فليس في الشريعة شيء من الكلفة الشاقة على العباد، بل المشقة تجلب التيسير، فالله سبحانه ما كلف العباد إلا بما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم به، لا يطيقون الشيء الزائد على ذلك، صحيح أنهم قد يطيقون أكثر، يعني: قد يقول القائلون: الله ما أمر إلا بصوم شهر واحد ونحن نطيق صوم شهرين، أو صوم ستة أشهر، أو نحو ذلك، فالجواب: أن القدرة العامة التي يشترك فيها الناس عموماً: هي صوم هذا

الشهر، فأما القدرة الخاصة فالإنسان يفعل الشيء بقدر قدرتـه، ومعلـوم أنه لو فرض شهرين أو ثلاثة أشهر لشق على كثير من الناس، وإن كان آخرون لا يشق عليهم. كذلك مثلاً لو فرض عليهم أن يحملوا الماء في الأسفار الطويلة لشق على كثـير، وإن كـان آخـرون لا يشق عليهم. ويقـال هكـذا في سـائر العبادة، فالعبادة إنما كلف الإنسان منها بما يسـتطيعه، ولأجل ذلك فالمصـلي مأمور بأن يصلي قائماً، ولكن قد يكون مريضـاً فيصـلي جالسـاً؛ لأن المشـقة تجلب التيسير، وكذلك قد يشق عليه أن يصلي جالساً فينتقل إلى صلاته على جنب، كما ورد ذلك في الأحاديث. فليس في الشريعة كلفة ولا مشـقة، بل لم يأمر الله إلا بما هو مقدور للعبـاد. والأدلة واضـحة كما سـمعنا فـإن قـول الله تعالى: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا [البقرة:286]، لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا [البقرة:233]، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا [الأنعام:152] (وسعها) بمعـنى: أنها لا تكلف إلا بقدر طاقتها وقدرتها وتمكنها، فلا تكلف فوق ذلك مما يشق عليها. لو فرض الله على العباد أن يخرجوا زكاة أموالهم النصف في كل عام، لكـان في ذلك شيء من الكلفة، قد يقـول قـائلهم: أنا جهـدت في جمع هـذا المـال وتعبت فيه، وما حصلته إلا بعرق الجبين، فكيف أعطي هـذا الـذي ما تعب فيه النصف مثلاً أو الثلث؟! لكن لما علم الله أن هنــاك من الضــعفاء والعجــزة والفقراء ونحوهم جعل لهم حقاً في أموال الأغنياء، وجعل ذلك الحق يسيراً لا يكلفهم، يعني: ليس فيه كلفـة، وهو ربع العشـر، هـذا دليل على أن الشـريعة إنما أمـرت بما يسـتطاع، لم يـأت أمر فيه مشـقة على النفـوس. معلـوم أن هنــاك نفوســاً ضــعيفة قد تتثاقل عن الأشــياء الخفيفــة، وقد لا تصــبر عن الشـهوات المحرمـة، وهـذه ليست عـبرة، فـإذا قلت مثلاً: إن هنـاك أناسـاً يستثقلون الصـلاة، يسـتثقلون الإمـام إذا قـرأ عليهم مثلاً في الركعة الواحـدة بورقة أو ورقتين فيقولـون: قد شق علينـا، وكلفنـا، وأتعبنـا، وكـادت أرجلنا أن تتحطم، وكـادت ظهورنا أن تنفصـل، وما أشـبه ذلـك! نقـول: هـؤلاء ليسـوا صادقين، لأنا نشاهدهم أقوياء، نشاهدهم أشداء في أبدانهم، نشاهد أحدهم إذا لعب مثلاً في المباريات، أو إذا سـار فيها لم يكسـل. إذاً فقـولهم هـذا كلفـة! هذا مشقة! هذه إطالة لا تطاق! نقول: ليسوا كذلك أيضاً. كذلك هناك نفـوس ضـعيفة يقولـون: إن منعنا عن شـهواتنا تكليف بما لا يطـاق! فمثلاً يقولـون: نفوسنا لا تصبر عن أن تفعل هذا الفعل، ومثلاً إذا اشتدت في أحدهم الشهوة قال: لا أصبر عن الزنا، وتكليفي بالعفاف تكليف بما لا يطاق، وكـذلك تكليفي مثلاً بالصــبر عما أشــتهيه وتنــدفع إليه نفسي تكليف بما لا يطــاق، وتكليفي بمنعي مثلاً عن الشراب الروحي -كما يعبرون عن الخمور ونحوها- تكليف بما لا تستطيع النفس أن تصبر عنه، بل تندفع إليه انـدفاعاً ولا يقـدر على كبحهـا. سبحان الله! هل هذا تكليف بما لا يطاق، إذا منعنا الله تعالى من الزنا، ومنعنا من المسكرات، هل هو تكليف بما لا يطاق؟! الله تعـالى ما حـرم علينا شـيئاً إلا وجعل له بدلاً يقوم مقامه، فأحل لنا النكاح الذي يقـوم مقـام الزنـا، يقـول تعــالى: فَــانكِحُوا مَا طَــابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَــاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَــاعَ [النســاء:3] ويقول: وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَـانَ فَاحِشَـةً وَسَـاءَ سَـبِيلاً [الإسـراء:32] فكيف يقول هذا: إن تكليفي بالتعفف وبالامتناع منه من تكليف ما لا يطـاق؟! نقـول:

هـذا كـذب، بل الإنسـان يقـدر أن يقنع نفسه ويمنعها عن المحرمـات، وليس عليه مشقة. على كل حال نقول: إن هذه قاعـدة مطـردة: وهي أن التكـاليف الشـرعية ليس فيها مشـقة، سـواء كـانت أفعـالاً أو سـلوكاً، فأشق ما فيها الجهاد، الذي فيه تعـرض للقتـل، ولكن لما علم المؤمنـون بعـاقبتهم الحميـدة من كونهم يناصرون الإسلام وفي سبيل الله هانت عليهم نفوسهم، لما علمـوا أيضاً بأن الرب سـبحانه يمـدهم ويقـويهم ويـنزل عليهم الملائكة لتقاتل معهم ويخذل أعداءهم، كان ذلك دافعـاً لهم إلى أن يسـتميتوا، لما علمـوا بـأنهم إذا قتلوا في سبيل الله فهم أحياء عند ربهم يرزقون، كـان ذلك أيضـاً دافعـاً لهم إلى التفـاني في سـبيل اللـه، لما علمـوا أيضـاً أن أعـداء الله من الكفـار يقـاتلونهم على كفـرهم وتهـون عليهم أنفسـهم وهم كفـار، كـانوا أولى منهم بذلك أن يفدوا دينهم الصحيح، إذا كان هؤلاء يفدون دينهم الباطل فنحن نفدي ديننا الصحيح، ولأجل ذلك قال الله تعالى: وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَـأْلَمُونَ فَـإِنَّهُمْ يَـأْلَمُونَ كَمَا تَـأْلَمُونَ وَتَرْجُـونَ مِنْ اللَّهِ مَا لا يَرْجُـونَ [النسـاء: 104].

القوة والقدرة مستمدة من الله تعـالى، وهو خالقها في الإنسـان، وقد اختلف الناس في ذلك حـتى جعل بعضـهم الفعل المـتروك غـير مقـدور عليـه، ولكن الأدلة تدل على خلاف قولهم.

القدرة والقوة مستمدة من الله سبحانه

أثبت المسلمون عموم قدرة الله تعالى؛ لقوله عز وجل: وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ [المائـدة:120] يـدخل في ذلك الموجـود والمعـدوم، يـدخل في ذلك الأعراض والجـواهر، الأفعـال والحركـات، والمخلوقـات كلها داخلة في عمـوم قدرة الله، وأن الله قادر عليها ولا يخرج عن قدرته شيء. ......

معنى قوله: لا حول ولا قوة إلا بالله

كذلك مما دل على ذلك الأدعية المأثورة، فمن المأثور قول النـبي صـلى الله عليه وسلم لـأبي موسى : (ألا أدلك على كنز من كنـوز العـرش، أو من كنـوز الجنة؟! لا حول ولا قوة إلا بالله) . تأمل معنى هـذه الجملـة: (لا حـول) أي: لا تحول لأحد من حال إلى حال إلا باللـه. (ولا قـوة) أي: لا قـدرة لأحد إلا باللـه، فإن أقدره الله فهو قادر فاعل، وإن منعه وحال بينه وبين الفعل فليس بقـادر وليس بفاعل. هذه الكلمة كثيراً ما يتلفظ بها العبـاد، وهي: (لا حـول ولا قـوة إلا باللـه)، فأهل السـنة يـدينون بمعناهـا، ويعتقـدون أن الحـول أي: التحـول والانتقـال من الفقر إلى الغـنى أو من الضـعف إلى القـوة أو من القـوة إلى الضعف أو كذلك من العطـاء إلى المنـع، ومن المنع إلى العطـاء، ومن الهـدى إلى الضلال، أو من الضلال إلى الهدى، الانتقال من حال إلى حـال هو بقضـاء الله وبقوته وبقدرته. والقوة معناها: الاستطاعة، فالإنسـان قوته الـتي يـزاول بها الأعمال هي من الله، إذا شاء سلبك هذه القـوة فأصـبحت عـاجزاً مقعـداً، وإذا شاء منحك هذه القوة وزادك قوة إلى قوتك، فهو الذي خلق الإنسان من ضـعف، ثم جعل من بعد ضـعف قـوة، ثم جعل من بعد قـوة ضـعفاً وشـيبة. الإنسان مبدؤه أن الله خلقه ضعيفاً ثم أمده بقـوة منـه، إذا شـاء سـلب هـذه القوة في أوانها وفي عنفوانها، وإذا شاء زادها ومكنها.

معنى قوله: (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن)

كذلك أيضاً من الأدعية المأثورة قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم في بعض الأذكار: (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن) ويقول بعضهم: فما شئتَ كـان وإن لم أشأ وما شـــئتُ إن لم تشأ لم يكن ما شـــاءه الله لا بد أن يحصل ولو كـره العبـاد كلهم، وما لم يشـأه فلا يحصل ولا يحـدث ولا يقع ولو شـاءوه ولو أرادوه ولو حاولوه، فالحول حوله، والقول قوله، والقوة والقدرة منه سبحانه.

ارتباط وتعلق فعل العبد وتركه بقدرة الله سبحانه

فالعبـاد مـأمورون، ولكن القـوة الـتي يزاولـون بها فعل الأوامر هي من اللـه، كذلك منهيون والقوة التي يمتنعون بها عن النهي هي أيضاً من الله، هو الـذي يمدهم بالقوة التي يمارسـون بها الأفعـال، ويمـدهم بـالقوة الـتي تحميهم من المنهيات، كذلك أيضاً إذا خذل من شاء من عباده، فعل ما فعل من المعاصي والمحرمات، فذلك أيضاً بقضاء الله وبقدره، ولو شاء لمنعهم من ذلك، ولحال بينهم وبينه، ولكن له الحكمة في ذلك، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد: لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَـلُ وَهُمْ يُسْـأَلُونَ [الأنبيـاء:23] له التصـرف في العبـاد، ولا يكـون في الكون إلا ما يريد، لو شاء لهدى الناس أجمعين، ولو شاء لأضلهم، فإذا هداهم فبنعمته وفضـــله، وإذا أضـــلهم فبحكمته وعدلـــه. لكن إذا هـــداك الله وألهمك رشدك وسددك، فعليك أن تشكره على هذه الهداية، وأن تستعين بما أعطاك من القوة على الطاعة، وإذا رأيت من أضلهم الله ورأيت ومن حرمهم الخـير، فإنك تحمد ربك على أنه لم يجعلك مثلهم، وتقول: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به وفضلنا على كثير ممن خلق تفضـيلاً، فله سـبحانه الأمر والنهي وله القدرة التامة، وله التصرف في العباد، هو الذي كلفهم وأمـرهم ونهـاهم، وهو الذي أعطاهم، ومنع من شاء منهم، وهو الذي يهدي ويضل، ويسـعد ويشـقي، ويمنع ويعطي، لا راد لقضـــــائه ولا معقب لحكمـــــه. وإذا من الله على بعض العباد، فإن ذلك فضل منه، فعليهم أن يشـكروه على هـذا الفضـل، وإذا خـذل بعضاً من العباد وخلّى بينهم وبين أهوائهم، وسلط عليهم أعـداءهم وسـاموهم سـوء العـذاب، فـذلك حكمة منه وعـدل، فما حصل لهـؤلاء محض فضل منه وحكمـة، ويجب أن يشـكروه عليهـا، وما حصل لهـؤلاء من خـذلان فهـذا من حكمته سبحانه، ويجب عليهم أن يعرفوا السـبب، فالسـبب من قبل أنفسـهم، كما يقـول الله تعـالى: قُـلْ هُـوَ مِنْ عِنْـدِ أَنْفُسِـكُمْ [آل عمـران:165] ويقـول تعالى: وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَـيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِـكَ [النسـاء:79] أي: أنه يسـتحق ذلك بسبب ما جبل عليه، وبسبب الخلق السيئ الذي علم الله أنه لا يناسـبه إلا أن يحرمه من الخـير وغـيره، ويحـول بينه وبين الهدايـة، فهو الحكيم الـذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها.

سهولة ويسر التكاليف الشرعية وسبب استثقالها عند البعض

قوله: (إن الله تعالى كلف العباد بما يطيقــون، فلا يطيقــون إلا ما كلفهم، ولم يكلفهم إلا ما في قــدرتهم وفي وســعهم)، فهو ســبحانه أمر العبــاد ولكن لم يأمرهم بما هو مستحيل، ولم يـأمرهم بما يعجـزون عن تطبيقه ولا عن فعلـه، لم يأمرهم إلا بالشيء الـذي هو في وسـعهم وفي قـدرتهم وفي طـاقتهم، ولا يخرج عن إرادتهم. كـذلك أيضـاً ما كلفهم إلا بما يطيقـون، ولا يطيقـون إلا ما كلفهم بــه، فلو كلفهم بما يعجــزون عنه لكــان لهم حجة أنهم لا يســتطيعون ذلك، فعند ذلك يقال: كيف يطيقون الشيء الذي فوق قدرتهم؟! فلـذلك قـال الله: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا [البقـرة:286]، لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسـاً إِلاَّ مَا آتَاهَا [الطلاق:7]. فإذا علم العباد بذلك ونظروا إلى التكـاليف الـتي أمـروا بها وجودها سهلة ويسـيرة ليس فيها مشـقة، ولو اسـتثقلتها بعض النفـوس، فـإن تلك النفوس التي تسـتثقلها إنما أتيت من ضـعف في النفس، لا أن ذلك لعجز في الفعل كما هو مشـاهد؛ فلأجل ذلك نجد أن الاثـنين متفاوتـان في العبـادة، أحدهما يفرح بطول الصلاة ويطمئن بذلك ويعجبه، ولو كان بدنه نحيفاً ضعيفاً، وآخر يستثقل الصلاة ولو كانت خفيفة مع كونه بديناً قوياً، فـإذاً هـذا التفـاوت من ضعف النفــوس، لا أنه تكليف بما يعجز البشــر، فالله ما كلفهم إلا بما فيه قدرتهم واستطاعتهم.

الرد على من يجعل الفعل المتروك غير مقدور عليه

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [ومنهم من يقول: يجـوز تكليف الممتنع عـادة، دون الممتنع لذاته؛ لأن ذلك لا يتصور وجوده، فلا يعقل الأمر بــه، بخلاف هـذا. ومنهم من يقـول: ما لا يطـاق للعجز عنه لا يجـوز تكليفـه، بخلاف ما لا يطـاق للاشـتغال بضـده، فإنه يجـوز تكليفـه. وهـؤلاء موافقــون للسـلف والأئمة في المعـنى، لكن كـونهم جعلـوا ما يتركه العبد لا يطـاق؛ لكونه تاركـاً له مشـتغلاً بضــده، بدعة في الشــرع واللغــة، فــإن مضــمونه أن فعل ما لا يفعله العبد لا يطيقــه! وهم الـتزموا هـذا، لقـولهم: إن الطاقة -الـتي هي الاسـتطاعة وهي القدرة- لا تكـون إلا مع الفعـل، فقـالوا: كل من لم يفعل فعلاً فإنه لا يطيقـه، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف، وخلاف ما عليه عامة العقلاء، كما

تقدمت الإشارة إليه عند ذكر الاستطاعة. وأما ما لا يكـون إلا مقارنـاً للفعـل، فذلك ليس شرطاً في التكليـف، مع أنه في الحقيقة إنما هنـاك إرادة الفعـل. وقد يحتجـون بقوله تعـالى: مَا كَـانُوا يَسْـتَطِيعُونَ السَّـمْعَ [هـود:20]، إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً [الكهـف:67] وليس في ذلك إرادة ما سـموه اسـتطاعة، وهو ما لا يكون إلا مع الفعـل، فـإن الله ذم هـؤلاء على كـونهم لا يسـتطيعون السمع، ولو أراد بذلك المقارن، لكان جميع الخلق لا يسـتطيعون السـمع قبل السمع، فلم يكن لتخصـيص هـؤلاء بـذلك معـنى، ولكن هـؤلاء؛ لبغضـهم الحق وثقله عليهم، إما حسـداً لصـاحبه، وإما اتباعـاً للهـوى، لا يسـتطيعون السـمع. وموسى عليه السـلام لا يسـتطيع الصـبر، لمخالفة ما يـراه لظـاهر الشـرع، وليس عنده منه علم. وهذه لغة العرب وسائر الأمم، فمن يبغض غيره يقـال: إنه لا يستطيع الإحسان إليه، ومن يحبه يقـال: إنه لا يسـتطيع عقوبتـه؛ لشـدة محبته له، لا لعجزه عن عقوبته، فيقال ذلك للمبالغة، كما تقول: لأضربنه حتى يموت، والمراد: الضرب الشديد، وليس هذا عـذراً، فلو لم يـأمر العبـاد إلا بما يهوونه؛ لفسـدت السـماوات والأرض، قـال تعـالى: وَلَـوْ اتَّبَـعَ الْحَـقُّ أَهْـوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ [المؤمنون:71]]. لا شك أن هذا الكلام معاتبة ومجادلة لبعض من خالف الحق في هذه المسـألة، وأنه لا فائـدة فيـه، ولا طائل في مجادلتهم؛ لأنها أقـوال تخـالف المحسـوس، وتخـالف المعقـول؛ وذلك لأن العبد قد أعطي قـــوة، ولا شك أن تلك القـــوة كامنة فيـــه، وأنه بواسطتها يستطيع أفعـالاً وإن لم يفعلهـا، فهـؤلاء المبتدعة من جبرية وقدرية ونحوهم عندهم أن الأفعـال الـتي لم تفعل ولو كـانت سـهلة توصف بأنها غـير مقدورة للعبد، فإذا رأوا إنساناً كافراً قالوا: هذا لا يقدر على أن يؤمن، مع أنه يقدر، وإذا رأوا إنساناً ما صلى قـالوا: هـذا لا يقـدر أن يصـلي، فكل شـيء لم يفعله الإنســـان مع قدرته عليه يقولـــون: إنه لا يقـــدر عليـــه، مع أنه في استطاعته، وهذا يخـالف الحس ويخـالف الظـاهر. فمثلاً: أنت لو رأيت إنسـاناً قوي البنية وقوي البدن تستطيع أن تقول: هـذا يسـتطيع أن يحمل مثلاً كيسـاً ولو لم يحمله، ولو لم تـره قد حمل هـذا الكيس من قبـل، ويكـون ذلك أيضـاً فيما سخر الله من الدواب التي تركب عليها، فيقال: إن هـذا الجمل يسـتطيع أن يحمل مائة صــاع ولو أنه ما حمل عليــه. فــإذاً الاســتطاعة والحمل ليسا بمحصلين لما فعل، بل بما توافر فيه واستقر فيه من الوصف، فهو يسـتطيعه ولو لم يباشره.

نفي القدرة والاستطاعة عن فعل الخير أو ترك الشر عند أهل البدع

بخلاف هؤلاء المبتدعة فإنهم إذا رأوا إنساناً ما قرأ، قالوا: هـذا لا يسـتطيع أن يقرأ، ليس له أن يقرأ، إذا رأوا إنساناً لم يحترف حرفة كذا وكذا قالوا: هـذا لا

يستطيع أن يحرث الأرض، ولا أن يغرس الغرس، ولا أن يرعى الإبل أو يحلبها مثلاً، مع أنه يستطيع وبإمكانه فعله، هذا بالنسبة للأفعال المحسوسة. ويقال كذلك أيضاً في التكاليف سواء كانت طاعات أو معاصي، في الطاعات يقولون لمن لم يصم: هذا لا يستطيع الصوم، لو كان يستطيع الصوم لصام، مع أنه قادر وقوي، كذلك يقولون: لا يستطيع أن يطعم الطعام، أو يخرج من الطعام ما يخرج مثله، مع أنه ذو مال وعنده ثروة، لكن لما رأوه لم يخرج قالوا: لو كان يستطيع أن يخرج لأخرج، لو كان يستطيع أن يتصدق لتصدق، كأنهم يقولون: إنه لا يستطيع لكون الله حال بينه وبين الصدقة. الله تعالى أمره بالصدقة الواجبة في الزكاة والكفارة والنفقة على الأهل والولد ونحو ذلك، ومع ذلك بخل بها، فهو قادر، لو لم يكن قادراً لما أمره الله بذلك، ولو لم يكن قادراً على الصوم لما أمره. فالله أمر الناس بالصوم، فمنهم من صام ومنهم من لم يصم، وأمر الناس كلهم بالصلاة، فمنهم من صلى ومنهم من لم يصل، ولا يقال لمن لم يصل: هذا لا يستطيع، نقول: بل هو مستطيع، ولكن حيل بينه وبينها، فهو محروم والعياذ بالله، ويوصف بأنه عاص، ويعاقب على هذا العصيان، كما يعاقب على تلك الأفعال. وفي الأفعال المنهي عنها والمحرمة، يقولون في من زنى مثلاً أو ارتشى أو سكر: لا يستطيع ترك هذا المنكر ولو كان يستطيع تركه لما فعله، نقول: بل يستطيع ولو لم يستطعه لما نهي عنه، فالله تعالى ما نهى إلا من عنده قدرة على الانزجار وعلى ترك الشيء المنهي عنه، فقوله تعالى: وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى [الإسراء:32] لو كانوا عاجزين عن الترك لما نهاهم، وقوله: وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ [الإسراء:33] لو كانوا عاجزين عن الترك لما نهاهم عنه، وقوله: وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ [الإسراء:31] لو كانوا لا يستطيعون ترك القتل لما نهوا عنه. فكذلك يقال في الطاعات: لو كانوا عاجزين عن الصلاة لما أمروا بها، لو كانوا عاجزين عن الطهارة لما أمروا بها، فإن الله لا يأمر إلا بما هو مقدور، ولا يأمر بالشيء المستحيل أو الثقيل على النفوس الذي يكون فوق طاقتها. وبذلك نعرف أن هذا القول مخالف للعقل، حتى في عرف الناس، فمثلاً: إذا كان لك ولد نشيط قوي، فقلت له: يا ولدي! اذهب فاشترِ لنا طعاماً. فإذا ذهب واشترى فقد أطاع، وإذ لم يذهب فهل يقال: إنه ليس بمستطيع؟! أو يقال: هو عاص لأبيه؟ لا شك أنه يوصف بالعصيان. ولو كان لك ولد مريض -مثلاً- أو مقعد لا يستطيع أن يذهب، فهل تأمره بأن يذهب إلى السوق ليشتري لك حاجة؟ كيف تأمره وهو مريض مقعد لا يستطيع؟! إذاً: فهذا بيان أن الله ما أمر إلا من هو مستطيع، ولأجل ذلك أسقط الحرج عن غير المستطيع، فلما أمر بالجهاد في سبيل الله أسقطه عن أهل الأعذار، فقال: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ [التوبة:91] يعني: لا حرج عليهم إذا لم يخرجوا في الجهاد، فدل على أنه ما أمر إلا من هو مستطيع وعنده قدرة، وبذلك نعرف أن التكاليف إنما هي على حسب قدرة العباد، فلم يأمرهم الله إلا بما هو في طاقتهم وفي وسعهم.

قال الشارح رحمه الله: [وقوله: (ولا يطيقون إلا ما كلفهم به).. إلى آخر كلامه، أي: ولا يطيقون إلا ما أقدرهم عليه، وهذه الطاقة هي التي من نحو التوفيق، لا التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات. (ولا حول ولا قوة إلا بالله) دليل على إثبات القدر، وقد فسرها الشيخ بعدها، ولكن في كلام الشيخ إشكال، فإن التكليف لا يستعمل بمعنى الإقدار، وإنما يستعمل بمعنى الأمر والنهي، وهو قد قال: لا يكلفهم إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم. وظاهره أنه يرجع إلى معنى واحد، ولا يصح ذلك؛ لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به، لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف، كما قال تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [البقرة:185]، وقال تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ [النساء:28]، وقال تعالى: وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ [الحج:78]، فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه، ولكنه تفضل علينا ورحمنا، وخفف عنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج. ويجاب عن هذا الإشكال بما تقدم: أن المراد الطاقة التي من نحو التوفيق، لا من جهة التمكن وسلامة الآلات، ففي العبارة قلق، فتأمله. وقوله: (وكل شيء يجري بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره): يريد بقضائه القضاء الكوني لا الشرعي، فإن القضاء يكون كونياً وشرعياً، وكذلك الإرادة والأمر والإذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات، ونحو ذلك. أما القضاء الكوني: ففي قوله تعالى: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ [فصلت:12]. والقضاء الديني الشرعي: في قوله تعالى: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء:23]. وأما الإرادة الكونية والدينية: فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ: (ولا يكون إلا ما يريد). وأما الأمر الكوني: ففي قوله تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس:82]، وكذا قوله: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا [الإسراء:16]، في أحد الأقوال، وهو أقواها. والأمر الشرعي: في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ [النحل:90]، وقوله: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا [النساء:58]. وأما الإذن الكوني: ففي قوله تعالى: وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [البقرة:102]. والإذن الشرعي: في قوله تعالى: مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ [الحشر:5]. وأما الكتاب الكوني: ففي قوله تعالى: وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [فاطر:11]، وقول الله تعالى: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ [الأنبياء:105]. والكتاب الشرعي الديني: في قوله تعالى: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ [المائدة:45]، وقول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ [البقرة:183]. وأما الحكم

الكوني: ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام: فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ [يوسف:80]، وقول الله تعالى: قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ [الأنبياء:112]. والحكم الشرعي: في قوله تعالى: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ [المائدة: 1]، وقال تعالى: ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ [الممتحنة:10]. وأما التحريم الكوني: ففي قوله تعالى: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ [المائدة:26]، وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ [الأنبياء:95]. والتحريم الشرعي: في قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ [المائدة:3] ، وقوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ [النساء:23] الآية. وأما الكلمات الكونية: ففي قوله تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا [الأعراف:137]، وفي قوله صلى الله عليه وسلم: (أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر) . والكلمات الشرعية الدينية: في قوله تعالى: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ [البقرة: 124]].

رحمة الله بالعباد في عدم تكليف ما لا يطاق

نحن نعرف أن الله تعالى رحيم بعباده، وأنه ما أمرهم إلا بما يطيقونه، ولو أمرهم بزيادة عليه لأطاقوه، ولكنه تعالى رحمهم، فلم يكلفهم ما فيه مشقة وصعوبة عليهم، فلو فرض في السنة صيام شهرين لقدروا على ذلك، ولكن قد يكون فيه مشقة، ولو فرض عليهم في الطهارة الاغتسال بدل الوضوء لقدروا عليه، ولكن فيه مشقة، ولو فرض عليهم كل يوم عشر صلوات لقدروا على ذلك، ولكن مع صعوبة ومشقة، وكذلك لو فرض عليهم الحج مرتين في العمر أو أكثر لاستطاع كثير منهم ذلك، ولكن مع مشقة، ولو فرض عليهم في الزكاة خمس المال أو نصف الخمس بدلاً من ربع العشر لاستطاعوا ذلك، ولكن يكون عليهم شيء من المشقة، فلأجل ذلك خفف الله عنهم. ولما فرض عليهم -أولاً- أن يثبت العشرة للمائة في الجهاد، وأن تثبت المائة للألف، ولا يفرون منهم، علم أن في ذلك شيئاً من المشقة؛ فخفف عنهم إلى أن لا يفر الواحد من الاثنين، فقد أنزل أولاً قوله تعالى: إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا [الأنفال:65] الواحد يغلب عشرة، ثم بعد ذلك خفف عنهم: الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ [الأنفال:66] فالواحد يغلب اثنين بشرط الصبر، (مائة صابرة)، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [الأنفال:66]، فأخبر بأنهم يقدرون، ولكن خفف

عنهم، يعني إذا كانوا صابرين محتسبين غلبوهم بإذن الله، وقد وقع هذا، فأهل بـدر غلبـوا المشـركين مع أن المشـركين أضـعافهم -أي: مثلهم ثلاث مـرات- ولكن هزموهم بإذن الله. وكذلك حكى الله عن طالوت ومن معه أنهم قـالوا: لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُـودِهِ [البقـرة:249]، فحكى عن الـذين يظنـون أنهم ملاقو الله قولهم: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِـيرَةً بِـإِذْنِ اللَّهِ [البقـرة: 249]. والحاصل: أنه سبحانه وتعـالى كلف العبـاد، ولكن كلفهم وهم يقـدرون على ما كلفهم به، بل على أكثر منه، وإنما أمـرهم بما فيه يسر وسـهولة دون حرج ومشقة، ولما أمرهم بالطهارة بالماء علم أن فيهم مرضى لا يستطيعون اسـتعمال المـاء، وعلم أن فيهم مسـافرين لا يسـتطيعون حمل المـاء في الصحراء، فأبـاح لهم أن يعـدلوا إلى الـتراب ليتطهـروا بـه، ثم قـال بعد ذلـك: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْـدِيكُمْ مِنْـهُ مَا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيَجْعَـلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَـرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ [المائدة:6] يعني: أنه لو كلفكم وأحرجكم لأمركم بحمل المـاء في الأسـفار، ولكن أراد ألا يحـرجكم، وكما في قوله تعـالى: وَمَا جَعَـلَ عَلَيْكُمْ فِي الـدِّينِ مِنْ حَـرَجٍ [الحج:78]، ولما أمر بالصـيام علم أن هنـاك من يشق عليهم كالمرضى والمسافرين، فأباح لهم الفطر والقضاء، فقـال تعـالى: وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ [البقرة:185]، ثم قال: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [البقرة:185]، أي: لا يشق عليكم ولا يأمركم بما فيه كلفة وتعب. فعلم بـذلك أن هـذه التكـاليف الـتي أمـرهم بها هي في وسعهم وفي قدرتهم وطاقتهم.. هذا بالنسبة إلى الأفعال المأمور بهـا. ويقـال كـذلك بالنسـبة إلى الأفعـال المنهي عنهـا: الـذنوب والمعاصي المنهي عنها يقدرون على تركها، ولو قال من قال: إنه لا يستطيع تركهـا، فإنه غـير صـادق في ذلك، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى.

إيمان أهل السنة بما هو قدري وامتثالهم لما هو شرعي

بعد ذلك تكلم الشارح رحمه الله على القضـاء الشـرعي والقـدري، يعـني: أن الله سبحانه له القضاء والقدر، وله الشرع والأمـر، فـالمراد بالشـرعي: الـذي يكلف به ويؤمر به، والمراد بالقدري والكوني: الذي كتبه أزلاً، وقضـاه وقـدره في عالم الغيب، ولم يخير فيه، بل جعله أمراً أزلياً مقـدراً مخلوقـاً. فعنـدنا -مثلاً- الإرادة تكون شرعية وقدرية، والأمر يكون شرعياً وقـدرياً، والإذن يكـون شرعياً وقدرياً، والحكم يكون شرعياً وقدرياً، والكتابة تكون شـرعية وقدريـة، والكلمات منها شرعية ومنها وقدرية، وأدلتها تقـدمت في كلام الشـارح رحمه الله. والفرق بينهما: أن الأمر الشرعي كُلِفَ العبـاد به وبامتثالـه، فـإذا أمـرهم أمراً شرعياً فإنهم يمتثلون ذلك الأمر. وأما الأمر القـدري: إذا أخـبر بـأن هـذا مقدر عليهم، وهو أزلي، فإنه لا يُطلب منهم فعله؛ لأنه يخبر بأن هذا هو حكمه

وهو قــدره. ويقــال كــذلك في التحــريم: فــإذا قيــل: ما الفــرق بين التحــريم القدري، والتحريم الشرعي؟ فالجواب: أن التحـريم القـدري: إخبـار بـأن هـذا الشـــيء لا يكـــون، وأن الله كتب تحريمه ومنعه بحيث لا يحصل ولا يتصـــور وجوده، وأما التحريم الشرعي فهو نهي، يعني: نهى الله العباد عن أن يفعلــوا هذه الأشياء، وأخبرهم بأنها محرمة عليهم. والتحريم معناه المنع، أي: منعناكم من هـذه الأشـياء، كقولـه: حُـرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـاتُكُمْ [النسـاء:23] إلى آخـره، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ [المائدة:3] ، فليس هذا مثل قوله: وَحَـرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا [الأنبياء:95]، فإن ذلك معنـاه أن الله قـدر أنها لا تعـود، وجعل ذلك ممتنعاً أصلاً. فعرفنا بـذلك أن هنـاك فرقـاً ظـاهراً بين الأوامر الشـرعية والقدريـة، وبين الإذن الشـرعي والقـدري، وبين الإرادة الشـرعية والقدريـة، والحكم الشـرعي والقـدري، والكتابة الشـرعية والقدريـة.. وما أشـبه ذلـك. فالذي يهمنا أن نؤمن بالقدري، ونعتقد أنه حق وصدق، نقول: هـذا قـدر اللـه، وهذه كتابته، وهذا تقديره علينا، لا مفر لنا منه، هـذا حكمه الـذي حكم به أزلاً على العباد. أما الشرعي فإننا نمتثله ونعمل به، فـإن قولـه: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا [المائدة:45]، وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ [الأعراف:145] أمر شـرعي، معنـاه: أنه أمر فيها بـأوامر شـرعية، من ذلـك: أن النفس بـالنفس... إلخ، بخلاف قولـه: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُـورِ [الأنبيـاء:105]، وقولـه: وَكَتَبْنَا لَـهُ فِي الأَلْـوَاحِ مِنْ كُـلِّ شَيْءٍ [الأعراف:145] وما أشـبه ذلك من الأمـور الماضـية السـابقة. والفـرق بينهمــا: أن الشــرعي يــدين به العبــاد ويعملــون بــه، والقــدري يؤمنــون به ويعتقدونــه. ولم يعــرف أكــثر المبتدعة الفــرق بينهمــا؛ فوقعــوا في الخطأ والضلال، فإنهم لما لم يفرقـوا بين الإرادة الشـرعية والإرادة القدريـة؛ جعلـوا الجميع مراداً لله، وجعلوا إرادة الله للمعاصي رضاً بفعلها، فقـالوا: إن الله لو لم يردها لما حصلت، ولو أراد الطاعات لحصلت. نقول: إن هذه إرادة قدرية، فلا تقيسوها بالإرادة الشرعية. تقدم الفرق بين الإرادتين ودليلهما، فــإن دليلة الشرعية: قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ [النساء:28] ، وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ [النساء:27] ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ [البقرة:185]، هذه شرعية، بخلاف قوله: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَـهُ يَشْـرَحْ صَـدْرَهُ لِلإِسْـلامِ [الأنعـام:125]، وقوله: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ [المائدة:1]، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيـدُ [البقـرة: 253] فإن هذه إرادة قدرية دالة على أن قـدرة الله تعـالى أزلية قديمـة، وأن العبد ليس له مفر مما قدره عليه.

شرح العقيدة الطحاوية [74]

من رحمة الله بعباده أن يسر لهم سبل النجاة، وجعل أعمالهم سبباً لدخول الجنة والنجاة من النار، ومع هذا فإنه لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، وهذه عقيدة أهل السنة، خلافاً للجبرية والقدرية.

رحمة الله وجنته فضل منه سبحانه، وعذابه وناره عدل منه سبحانه

يقول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الحاجة: (من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له). لا شك أن الهداية بيد الله تعالى، وكذا الإضلال، فمن هداه الله فذلك نعمة من الله عليه وفضل وكرم، ومن أضله فلم يظلمه، وليس للعبد حجة على الله، بل لله الحجة البالغة، فإذا شاء هدى وإذا شاء أضل، فمن هداه الله فقد أنعم عليه، فهدايته له فضل منه، ومن أضله الله فإنه عدل منه، فإنه تعالى لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وأيضاً هو المنعم المتفضل على خلقه. وقد ورد في بعض الأحاديث: أن الله تعالى لو عذب خلقه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، فلو رحمهم كلهم لكانت رحمته فضلاً منه، فهو سبحانه قد تنزه عن الظلم، فوي الحديث القدسي: (يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً؛ فلا تظالموا) فهو سبحانه لا يظلم وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف:49]، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [فصلت:46]، فإذا أهلك العباد أو سلط بعضهم على بعض، أو سلط عليهم عقوبة سماوية، أو عاقبهم بالعذاب بالنار، لم يكن ذلك ظلماً، بل هم يستحقون ذلك، فإنه لا يمكن أن يهلكهم أو يعذبهم إلا بظلم منهم، يقول الله تعالى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ [هود:117] ، فلا يهلكهم ظلماً منه لهم، ولا يهلكهم إلا بعدما يقيم عليهم الحجة. وكذلك إذا أنعم عليهم فإنه هو المتفضل، وفي حديث الأوراد يقول عليه الصلاة والسلام: (لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله المن، وله الثناء الحسن) ، فالنعمة منه وحده، والفضل على الخلق منه وحده، وكذلك الثناء الحسن، فإذا عرفنا أن ربنا سبحانه هو المتفضل على عباده؛ فنعلم أن نعمه لا تنفك عن العباد: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [إبراهيم:34]، وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ [النحل:53] ، فما أصابنا من نعمة فهو محض فضل الله، ومحض منه على عباده، وليس بأعمالنا، ولا باكتسابنا، ولا باستحقاقنا، بل أعمالنا تضعف عن أن نستحق هذا الفضل وهذه النعمة؛ ولكن هو الذي يتفضل على هؤلاء بالنعم وبالخيرات، وبالنصر وبالتمكين، وبالعطاء وبالصحة وبالإعزاز، وبغير ذلك من أنواع النعم، أو يسلط على من يشاء ما يشاء من المصائب والعقوبات، وكل ذلك محض عدله. وعلى هذا: فإن المسلم يعتمد على ربه سبحانه وتعالى، ويأتي بالأسباب التي تكون مؤهلة له أن يكون من أهل الفضل.. مؤهلة له أن يستحق لأجلها أن يكون أهلاً للامتنان.. أهلاً للنعمة.. أهلاً للخير، ويبتعد عن

النقم والعقوبات التي تكون سبباً للعذاب، والتي يعذب الله بسببها، فإنه سبحانه قد رتب للنعم أسباباً، وهي الأعمال الصالحة، فجعلها سبباً لتفضله، فلنأتِ بالأسباب التي يرحمنا الله بسببها، وجعل للعقوبات أسباباً وهي المعاصي، فلنبتعد عن العقوبات وعن أسباب العقوبات وهي المعاصي؛ حتى نسلم من العقاب، ونحظى بالثواب. ......

تنزيه الله لنفسه عن الظلم

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقوله: (يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبداً): الذي دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد، يقتضي قولاً وسطاً بين قولي القدرية والجبرية، فليس ما كان من بني آدم ظلماً وقبيحاً يكون منه ظلماً وقبيحاً، كما تقوله القدرية والمعتزلة ونحوهم؛ فإن ذلك تمثيل لله بخلقه وقياس له عليهم، وهو الرب الغني القادر، وهم العباد الفقراء المقهورون. وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، كما يقوله من يقوله من المتكلمين وغيرهم، يقولون: إنه يمتنع أن يكون في الممكن المقدور ظلم، بل كل ما كان ممكناً فهو منه لو فعله عدل، إذ الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منهي، والله ليس كذلك. فإن قوله تعالى: وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا [طه: 112] ، وقوله تعالى: مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [ق:29]، وقوله تعالى: وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ [الزخرف:76] ، وقوله تعالى: وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف:49]، وقوله تعالى: الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ [غافر:17] يدل على نقيض هذا القول. ومنه قوله الذي رواه عنه رسوله: (يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً؛ فلا تظالموا) فهذا دل على شيئين: أحدهما: أنه حرم على نفسه الظلم، والممتنع لا يوصف بذلك. الثاني: أنه أخبر أنه حرمه على نفسه، كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة. وهذا يبطل احتجاجهم بأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهي، والله ليس كذلك. فيقال لهم: هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه، لا ما هو ممتنع عليه. وأيضاً: فإن قوله: فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا [طه:112] قد فسره السلف بأن الظلم: أن توضع عليه سيئات غيره. والهضم: أن ينقص من حسناته، كما قال تعالى: وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [الأنعام:164]]. ......

ضلال أهل الكلام في طريقة تنزيههم لله عن الظلم

هذا توضيح لما حكاه عن المعتزلة الذين يقولون: إن الظلم الذي نزه الله نفسه عنه هو الشيء الذي لا يمكن ولا يقدر عليه؛ وذلك لأن من معتقد هؤلاء

المتكلمين من المعتزلة: أن العبد هو الذي يهـدي نفسـه، أو يضل نفسـه، وأن الله لا يقـدر على أن يهـدي هـذا أو يضل هـذا، فيجعلـون الله تعـالى عـاجزاً، وكذلك يوجبون على الله أن يثيبت المطيع، فيجعلونه حقـاً عليـه، وتعـالى الله عن قـولهم، فإنه تعـالى ليس عليه حق لعبـاده: ما للعبـاد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضـائع إن عـذبوا فبعدله أو نعمـوا فبفضـله وهو الكـريم الواسع فهم يجوبون على الله أن يثيب هذا، ويحرمون عليه أن يعاقب هذا، ويجعلــون هذا مستحقاً بعمله، وهذا مستحقاً بعمله، ولا يجعلون لله تصرفاً، ولا يجعلــون له منة، ولا يجعلون له فضلاً على عبـاده ورحمـة. لا شك أن هـذا تصـرف في أفعـال الخـالق سـبحانه، فلأجل ذلك رد عليهم الشـارح، وبين أن الظلم الـذي نفـاه الله تعـالى عن نفسه ليس بممتنع ولا بمسـتحيل، بل هو مقـدور، ولكن الله تعالى لا يفعلـه؛ لكونه غـير مستحسـن، بل هو أمر مسـتهجن ومسـتقبح، فلأجل ذلك نزه الله نفسه في هذه الآيات، فقـال تعـالى: وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَـدًا [الكهف:49]، هذا دليل على أنه قـادر على أن يظلم، ولكنه مـنزه عن ذلـك، وكذلك قوله: فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا [طه:112]، (لا يخاف ظلماً) أي: بأن يُحمّل سيئات لم يعملها، (ولا هضـماً) أي: نقصـاً لحسـنات قد عملهـا، بل الله تعـــالى حكم عـــدل، فلا يمكن أن يظلم هـــذا فينقصـــه، أو يظلمه فيزيد في سيئاته، بل له الفضل عليه، فيضاعف له الحسنات، ويمحو عنه السيئات، ومن أوبقته سيئاته فهو الموبق، ولا يهلك على الله إلا هالك.

الرد على أهل الكلام في طريقة تنزيه الله عن الظلم

قال رحمه الله: [وأيضـاً فـإن الإنسـان لا يخـاف الممتنع الـذي لا يـدخل تحت القــدرة حــتى يــؤمن من ذلــك، وإنما يــؤمن مما يمكن، فلما آمنه من الظلم بقوله: (فلا يخاف) علم أنه ممكن مقدور عليه. وكذا قولـه: لا تَخْتَصِـمُوا لَـدَيَّ [ق:28] إلى قوله: وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيـدِ [ق:29]، لم يعنِ بها نفي ما لا يقـدر عليه ولا يمكن منه، وإنما نفى ما هو مقدور عليه ممكن، وهو أن يجـزوا بغـير أعمالهم. فعلى قول هؤلاء ليس الله منزهـاً عن شـيء من الأفعـال أصـلاً، ولا مقدساً عن أن يفعلـه، بل كل ممكن فإنه لا يـنزه عن فعلـه، بل فعله حسـن، ولا حقيقة للفعل السوء، بل ذلك ممتنع، والممتنع لا حقيقة له! والقــرآن يــدل على نقيض هذا القـول، في مواضع نـزَّه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصــلح له ولا ينبغي لـــه، فعُلم أنه مـــنزه مقـــدس عن فعل الســـوء والفعل المعيب المذموم، كما أنه منزه مقدس عن وصف السـوء والوصف المعيب المـذموم، وذلك كقوله تعـــالى: أَفَحَسِـــبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـــاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُـــونَ [المؤمنون:115]، فإنه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثاً، وأنكر على من حسب ذلك، وهذا فعـل، وقوله تعـالى: أَفَنَجْعَـلُ الْمُسْـلِمِينَ كَـالْمُجْرِمِينَ [القلم:35]،

وقوله تعالى: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [ص:28] إنكار منه على من جوز أن يسوي الله بين هذا وهذا. وكذا قوله: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [الجاثية:21] إنكار على من حسب أنه يفعل هذا، وإخبار أن هذا حكم سيء قبيح، وهو مما ينزه الرب عنه]. كل هذا رد على كلام هؤلاء المبتدعة، فإن من عقيدتهم أن الظلم الذي نزه الله نفسه عنه مستحيل، فلا يمكن أن يحصل، وعلى موجب كلامهم يقال: إذاً هم آمنون، لأن المستحيل ممتنع الوقوع، فإذاً لا داعي لأن يؤمنهم من الظلم ويقال أيضاً: إذا كانوا آمنين من الظلم فكيف يؤمنهم منه بقوله: وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [ق:29] ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ [غافر:31]، ويقول: فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا [طه:112]؟! فهذا يدل على أنه ممكن، ولو كان شيئاً مستحيلاً لما خافوا منه، ولما أمنهم، فدل على أنه ما نزه نفسه إلا عن شيء مقدور له، ولكنه تعالى نزه عنه نفسه؛ لأنه لا يليق؛ ولأنه وصف للظلمة الذين يفعلون ما لا يستحسن، فيقصرون ويقتلون ظلماً، ويحبسون وينتهبون، فيقال: هؤلاء ملوك ظلمة، وهؤلاء أمراء ظلمة؛ لأنهم يبطشون في الناس بغير حق؛ فلذلك نزه الله نفسه عن مثل هذه الأفعال.

انقلاب الموازين عند الجبرية

أما عقيدة الجبرية: فهم الذين يجعلون لله الفعل لما يريد، فيقولون: يجوز لله أن يهلك المتقين، ويجوز له أن يعذب المؤمنين، ويجوز عندهم أن يثيب الكفار، وأن يرفع درجاتهم، يجعلهم في أعلى عليين وهم كفار فجار خارجون عن الطاعة، ويجوز أن يعذب الأتقياء المؤمنين الذين ما عصوه طرفة عين، وأن يجعلهم في أسفل سافلين! هذا قول المجبرة، ويقولون: إنهم ليس لهم اختيار، وليس لهم أفعال، بل الفعل فعله، والقول قوله، ويستدلون بمثل قوله تعالى: لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ [الأنبياء:23]، وعلى قولهم تكون الخليقة ليس فيها عدل. نقول: إن الله تعالى أعدل من أن يضيع خلقه، ومن الأدلة على نقيض قولهم: أولاً: الأدلة على أنه تعالى ما خلق الخلق عبثاً، كقول تعالى: أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى [القيامة:36] أي: مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، وهذا حسبان باطل! وقوله تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ [المؤمنون:115]، أي: قد حسبتم ذلك، ولكنكم أخطأتم في هذا الحسبان، فما كان ربكم ليهملكم ولا ليترككم مهملين عبثاً. وكقوله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ [ص:27] دل على أن من اعتقد أنه خلقهم بغير حكمة،

وإنما خلقهم هملاً وسدى، أنه من الكـافرين الضـالين. ومـرت بنا الأدلة الـتي تنفي التسوية بين أهل الخـير وأهل الشـر، مثل قوله تعـالى: أَمْ نَجْعَـلُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ كَالْمُفْسِـدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَـلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [ص:28] أي: لا نجعلهم سواء، بل تأبى حكمة الله أن يجعل المتقين كالفجار، وتـأبى أن يجعل المؤمـنين كالمفسـدين في الأرض، بل لابد أن يمـيز بينهم. وكـذلك قوله تعـالى: أَفَنَجْعَـلُ الْمُسْـلِمِينَ كَـالْمُجْرِمِينَ [القلم:35]؟ لا يجـوز، وهـذا خلاف حكمة اللـه، أن يسـوي بين المسـلم وبين المجـرم، فالمسـلم له الثواب، والمجرم يسـتحق العقـاب. ومثله قـول الله تعـالى: أَمْ حَسِـبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ سَـوَاءً مَحْيَـاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [الجاثية:21]، هل حسبوا ذلك؟ فهذا حسبان باطل! كيف يعتقدون ويحسـبون أن نجعلهم -وهم قد اجـترحوا السـيئات- أن نجعلهم مثل أهل الحسـنات؟! ومثل أهل الأعمـال الصـالحة؟! لقد أخطئـوا في هـذا الحسبان. هذا كله من مقتضى قول الأشاعرة أو المجـبرة الـذين يجعلـون لله التسوية، ويقولون: يجوز أن يسوي بين الفاجر وبين المؤمن، فلذلك رد عليهم بهذه الآيات، وأصرحها آية سورة (ص)، وهو قولـه: وَمَا خَلَقْنَا السَّـمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ كَالْمُفْسِـدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَـلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [ص:27-28] أي: لا نجعلهم، بل لابد أن نميز هؤلاء، فالله تعالى خلق هـؤلاء ومـيزهم، وهـؤلاء وحكم عليهم بالشـقاء.. وهـؤلاء يسـتحقون النصر والتمكين في الـدنيا.. وهـؤلاء يسـتحقون الخـذلان والعـذاب في الـدنيا، وفي الآخرة فريق في الجنة وفريق في السعير.

الكلام على حـديث: (لو عـذب الله أهل سـماواته... لعـذبهم وهو غـير ظـالم لهم...)

قال المؤلف رحمه الله: [وروى أبو داود ، والحاكم في المستدرك من حـديث ابن عباس ، وعبادة بن الصامت ، وزيد بن ثـابت ، عن النـبي صـلى الله عليه وسلم: (لو أن الله عذب أهل سـماواته وأهل أرضـه، لعـذبهم وهو غـير ظـالم لهم، ولو رحمهم كـانت رحمته خـيراً لهم من أعمـالهم) . وهـذا الحـديث مما يحتج به الجبرية، وأما القدرية فلا يتأتى على أصولهم الفاسـدة! ولهـذا قـابلوه إما بالتكـذيب أو بالتأويـل! وأسـعد النـاس به أهل السـنة، الـذين قـابلوه بالتصديق، وعلموا من عظمة الله وجلاله قدْر نعم الله على خلقه، وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم، إما عجـزاً، وإما جهلاً، وإما تفريطـاً وإضـاعة، وإما تقصيراً في المقـدور من الشـكر، ولو من بعض الوجـوه، فـإن حقه على أهل السماوات والأرض أن يطاع فلا يعصى، ويـذكر فلا ينسـى، ويشـكر فلا يكفـر،

وتكون قـوة الحب والإنابـة، والتوكل والخشـية، والمراقبة والخـوف والرجـاء: جميعها متوجهة إليه ومتعلقة بـــه، بحيث يكـــون القلب عاكفـــاً على محبته وتأليهه، بل على إفراده بذلك، واللسان محبوساً على ذكـره، والجـوارح وقفـاً على طاعته. ولا ريب أن هذا مقدور في الجملة، ولكن النفوس تشح به، وهي في الشح على مــراتب لا يحصــيها إلا الله تعــالى، وأكــثر المطيعين تشح به نفسه من وجه، وإن أتى به من وجه آخر. فأين الــذي لا تقع منه إرادة تــزاحم مراد الله وما يحبه منـه؟! ومن ذا الـذي لم يصـدر منه خلاف ما خلق لـه، ولو في وقت من الأوقــات؟! فلو وضع الــرب ســبحانه عدله على أهل ســماواته وأرضه لعذبهم بعدله، ولم يكن ظالمـاً لهم. وغاية ما يقـدر توبة العبد من ذلك واعترافـه، وقبـول التوبة محض فضـله وإحسـانه، وإلا فلو عـذب عبـده على جنايته لم يكن ظالمـــاً، ولو قـــدر أنه تـــاب منهـــا، لكن أوجب على نفسه - بمقتضى فضله ورحمته - أنه لا يعذب من تاب، وكتب على نفسه الرحمة، فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه، ولا يبلغ عمل أحد منهم أن ينجو به من النار أو يدخل الجنة، كما قال أطـوع النـاس لربـه، وأفضـلهم عملاً، وأشـدهم تعظيمـاً لربه وإجلالاً صلى الله عليه وسـلم : (لن ينجي أحـداً منكم عملـه، قـالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قـال: ولا أنـا؛ إلا أن يتغمـدني الله برحمة منه وفضـل) ، وسأله الصديق دعاء يدعو به في صلاته، فقـال: (قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عنـدك وارحمـني، إنك أنت الغفور الرحيم) ، فإذا كان هذا حال الصديق -الـذي هو أفضل النـاس بعد الأنبياء والمرسـلين- فما الظن بسـواه؟ بل إنما صـار صـديقاً بتوفيته هـذا المقـام حقـه، الـذي يتضـمن معرفة ربه وحقه وعظمتـه، وما ينبغي لـه، وما يستحقه على عبده، ومعرفة تقصيره. فسـحقاً وبعـداً لمن زعم أن المخلـوق يستغني عن مغفرة ربه، ولا يكون به حاجة إليها! وليس وراء هـذا الجهل بالله وحقه غاية! فإن لم يتسع فهمك لهـذا؛ فـانزل إلى وطـأة النِّعم، وما عليها من الحقـوق، ووازن بين شـكرها وكفرهـا، فحينئذ تعلم أنه سـبحانه لو عـذب أهل سـماواته وأرضه لعـذبهم وهو غـير ظـالم لهم]. هـذا الكلام دائر حـول هـذا الحديث. وهذا الحديث أنكرته المعتزلة، واحتجت به الجبرية، ولكنه حجة لأهل الحق وهم أهل السـنة، صـحيح أن الله تعـالى لو عـذب أهل سـماواته وأهل أرضه لعــذبهم وهو غــير ظــالم لهم؛ وذلك لأن ما عملــوه من الأعمــال فهو بفضله، فهو الذي هداهم، وهو الـذي أعطـاهم، وهو الـذي خـولهم، وهو الـذي سخر لهم، إذاً: فإذا عذبهم فإنه لابد أن يعذبهم على شيء من التقصير، حــتى ولو كـانوا مؤمـنين ومتقين؛ لأن هـذا الإيمـان وهـذا التقى محض عطـاء الله ومحض فضله. ......

لن يدخل أحد الجنة بعمله

قد ذكرنا أنه ورد في بعض الأحاديث: أنه يجـاء برجل قد عمل أعمـالاً صـالحة أمثال الجبال، فيقول الله: أدخلوه الجنة برحمـتي. فيقـول: يا رب! بل بعملي،

فعند ذلك يقول الله: حاسبوه. فيقول لنعمة البصر: خـذي حقـك. فلا تكـاد أن تـترك من حسـناته شـيئاً، وتبقى نعمة السـمع، ونعمة النطـق، ونعمة العقـل، ونعمة القوة، ونعمة الشهوة، ونعمة الهداية، ونعمة الإلهام، ونعمة الـرزق وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُـوهَا [إبـراهيم:34] فعند ذلك يقـول: أدخلـوه العـذاب، فيقول: بل -يا رب!- برحمتك. فلذلك يقول النبي صـلى الله عليه وسـلم: (لن يــدخل أحد الجنة بعملــه) ، أعمالنا لا تــدخلنا الجنة حــتى يرحمنا الله معهــا، فيدخل الجنة برحمته من يشاء، يقول الله تعالى: يُدْخِلُ مَنْ يَشَـاءُ فِي رَحْمَتِـهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَـدَّ لَهُمْ عَـذَابًا أَلِيمًا [الإنسـان:31]. وإذا كـان العبـاد مهما عملـوا فإنهم بحاجة إلى رحمة اللـه؛ عُلم أنهم دائمـاً يسـألون ربهم أن يعمهم بواسع رحمته، وهو سبحانه أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم.

كتب الله على نفسه الرحمة

قد أخبر النبي صلى الله عليه وسـلم أن رحمة الله تعـالى واسـعة، يـرحم بها عبـاده فقـال صـلى الله عليه وسـلم: (خلق الله الرحمة مائة جـزء، كل جـزء طباق ما بين السماء والأرض، فأنزل منها جـزءاً واحـداً في الأرض، فمن ذلك الجـزء تـتراحم المخلوقـات، وتـتراحم الـدواب، حـتى ترفع الدابة حافرها عن ولـدها خشـية أن تصـيبه، فـإذا كـان يـوم القيامة ضم هـذه الرحمة إلى تلك الأجزاء فرحم بها عباده)، فهذا معنى كونه كتب على نفسه الرحمة. وقال في الكتاب الذي كتبه: (فهو عنـده فـوق العـرش: إن رحمـتي سـبقت غضـبي، إن رحمتي تغلب غضبي)، ولأجل ذلك كان من أسمائه الحسنى: الرحمن الرحيم، وأخبر بأنه يـرحم من عبـاده الرحمـاء، وقـال: (الراحمـون يـرحمهم الـرحمن، ارحمــوا من في الأرض يــرحمكم من في الســماء)، وقــال: (من لا يَــرحم لا يُرحم..) وكل ذلك دليل على أنه تعالى يجود على من يشـاء ويـرحمهم، ولكن أعمــالهم مهما كـانت، ومهما كـثرت، فهي تقل عن أن يسـتحقوا بها وحــدها الجنة. ولأجل ذلك لما نزل قول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِهِ [آل عمران:102] استثقلوا هذه الآية وقالوا: إنا لا نستطيعها، حتى أنزل الله بياناً لها قوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [التغابن:16]، ومع ذلك فسر عبد الله بن مسعود قول الله تعالى: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ [آل عمران:102] فقال: تقوى الله حق تقاته: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشـكر فلا يكفر.

فالإنسان مخلوق لعبادة الله، مأمور بأن يشغل كل أعماله، وكل أفكاره، وكل جوارحه، بعبادة الله، فنظره يجعله كله عبادة، فلا ينظر إلا نظر اعتبار، ولا ينظر إلا نظر رحمة، ولا ينظر إلا فيما ينفعه، فإذا نظر فيما يضره، أو نظر إلى ما لا يحل له، فقد عصى الله بهذا النظر، وكذلك سمعه الذي جعله الله واسطة يسمع به الأصوات، هو نعمة من الله، مأمور بألا يستعمله إلا في الشيء الذي ينفعه.. مأمور بأن يستمع به الوعظ والعلم والخير والإرشادات والتوجيهات والكلمات النافعة، ولا يستمع به ما يضره، فلا يستمع للهو ولا للعب، ولا يستمع النياح ولا القهقهة، ولا الشيء الباطل، ولا يستمع إلى غيبة أو نميمة أو نحوها، إن استمع إلى ذلك فقد كفر هذه النعمة وما شكرها. وهكذا نعمة النطق، هذا اللسان الذي أنطقه الله، وجعله معبراً عن حاجته، لابد أنه يستعمله في الشيء الذي ينفعه، فإذا صانه وحفظه ولم يتكلم إلا بخير، وجعله مستعملاً في الذكر وفي الشكر وفي الاعتبار، وفي الأمر بالخير والدلالة عليه، وفي النهي عن الشر والتحذير عنه، وكذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الشيء الذي ينفع من ذكر الله وما والاه، والإصلاح بين الناس.. ونحو ذلك، على حد قول الله تعالى: لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ [النساء: 114]، فإذا فعل ذلك اعتبر شاكراً لهذه النعمة، وإذا تكلم فيما لا يعنيه، أو تكلم بما لا يجوز له اعتبر كافراً لهذه النعمة. وهكذا يقال في التفكير، العقل الذي مَنَّ الله به على الإنسان، واستعمله فيما ينفعه، ففكر في آيات الله، وفكر في مخلوقاته، وتدبر آياته، وتدبر ما بين يديه وما خلفه، وتدبر أول الأمر وآخره.. وما أشبه ذلك؛ اعتبر شاكراً لذلك، ولكن إذا صرف شيئاً من ذلك فيما يضره، فقد كفر هذه النعمة، وذلك كما إذا جاء تفكيره وتعقله في أموره الدنيئة، أو في الكيد للإسلام والمسلمين، أو بتدبير الشئون الدنيوية ونسي الأمور الدينية.. أو ما أشبه ذلك؛ اعتبر كافراً بنعمة العقل. وهكذا يقال في نعمة الجوارح، فاليدان يستعملهما ويبطش بهما في الشيء الذي يقربه إلى الله، والرجلان يسير بهما في الشيء الذي ينفعه، والمأكل والمشرب لا يدخله إلا الشيء الذي يفيده وينفعه. ومعلوم أن الناس في هذا لابد أن يقعوا في أخطاء. إذاً: فكيف مع ذلك يزكون أنفسهم؟! ويدعون أنهم من المقربين؟! وأن حقاً على الله أن يعطيهم؛ وأنه إذا لم يعطهم اعتبر ظالماً لهم؛ وأنه إذا عاقبهم وسلط عليهم الفقر والفاقة ونحو ذلك فهو ظلم منه لهم.. وما أشبه ذلك..؟! نقول: لا شك أن هذا سوء ظن بالله تعالى، وأنه حسن ظن بأنفسهم، والإنسان عليه أن يرجع إلى نفسه بأن يلومها غاية اللوم، وأن ينسب التقصير إليها، وأن يحاسبها أشد المحاسبة، فبذلك يكتبه الله تعالى من أهل الرحمة، ومن أهل الثواب. أما إذا لم يحاسب نفسه، بل اعتقد أنه من المحسنين، وأنه من المتقين، وأنه قد فعل وفعل، وأخذ يمدح نفسه، وأخذ يرفع من شأنه، ويفضل عمله على عمل غيره؛ فإن في هذا ما

يسبب بطلان عمله ورده عليه. وإذا كـان نبينا صـلى الله عليه وسـلم يعـترف بأنه لا يدخل الجنة إلا إذا رحمه الله بقوله: (ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضـل)، وكـذلك من الملائكة من هم سـجود من حين خلقـوا إلى يـوم القيامـة، وإذا كـان يـوم القيامة يقولـون: يا ربنـا! سـبحانك ما عبـدناك حق عبادتك. فكيف بنا نحن الذين قد أضـعنا الكثـير من حياتنـا؟! والـذين قد اتبعنا كثيراً من الأهـواء، وقد أطعنا النفـوس، ومع ذلك نـزكي أنفسـنا! والله تعـالى يقول: فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى [النجم:32]؟! فعلى المسـلم أن يعتقد أن الله سبحانه هو أرحم بعباده، فيأتي بأسباب الرحمـة، ويعتقد بأنه إذا لم تعمه رحمة الله فإنه خاسر، وأنه جعل للرحمة أهلاً، فقال تعـالى: وَرَحْمَتِي وَسِـعَتْ كُـلَّ شَـيْءٍ فَسَـأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُـونَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ [الأعراف:156] إلى آخر الآيات، ذكر أهلهـا، هـؤلاء هم أهل الرحمـة، فليس كل من تمناها تحصل لــه، إذاً فليس أحد ينجيه عمله إلا برحمة اللــه، ورحمة الله لها أهـل، وأسـباب الرحمة سـهلة ويسـيرة على من يسـرها الله عليه.

لم يزل المسلمون يدعون لموتاهم ويتصدقون عنهم، ويعملون أعمال البر المختلفة يقصدون بها وصول الثواب إليهم، وهم في ذلك مستندون إلى الأدلة الصحيحة الصريحة من الكتاب والسنة.

عظيم فضل الله علينا يوجب علينا شكره

أحمد الله سبحانه على ما أولانا من النعم ودفع من النقم، نسأله سبحانه أن يوزعنا شكر نعمه التي أنعمها علينا وعلى والدينا، وأن يعاملنا بفضله، ولا يعاملنا بعدله، فإنه سبحانه هو المنعم بكل أنواع الإنعام، فهو الذي أعاننا على ذكره وشكره، وهو الذي هدانا لطاعته وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ [الأعراف:43]. فالهداية فضل منه ونعمة، وكذلك الإعطاء والمنة والإلهام.. كل ذلك محض فضله على عباده؛ حتى عباداتهم هي إلهام منه وتوفيق، فهو الذي أعانهم ووفقهم وسددهم وقواهم، وجعلهم مطيعين له، ولو شاء لأضلهم جميعاً، ولو شاء لهداهم جميعاً، وله المشيئة النافذة، وله الحكمة البالغة، لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ [الأنبياء:23] ونعمه على عباده لا تحصى، وأياديه عليهم لا تستقصى، فإذا مسهم بالسرور فهو محض فضله، وإذا مسهم بضر فهو ابتلاء منه وامتحان، وفي الصبر على ذلك أجر عظيم، ولذلك يقول بعضهم في بيان الشكر: إذا كان شكري نعمة الله نعمة علي له في مثلها يجب الشكر فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتسع العمر إذا مس بالسراء عم سرورها وإن مس بالضراء يعقبها الأجر فالعبد إذا قال: الحمد لله، فهذه نعمة ألهمه الله وأعانه عليها، فهذه النعمة التي هي الإلهام تحتاج إلى نعمة أخرى يشكرها بها، فإذا قال: أشكر الله، أو: الشكر لله، فهذه نعمة أخرى تستدعي أن يشكر الله عليها، فإذا قال: رب! لك الحمد، فهذه نعمة أخرى تستدعي أن يشكرها، وكذلك إذا ذكر الله وكبره وسبحه واستغفره، كل ذلك نعم منه، وكل نعمة فلها حق أن تشكر ولا تكفر، ولأجل ذلك كانت له النعمة على عباده، وله الفضل عليهم، كما مر بنا أنه لو عذب أهل سماواته لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم؛ وذلك لأنه لا يظلم أحداً، فلا يعذبهم إلا على تقصير منهم في شكر ربهم، ولو حاسبهم على أعمالهم ولو كانت أمثال الجبال، لم تقاوم أصغر نعمة عليهم، سواء كانت نعمة حسية كأسماعهم وعقولهم وألسنتهم وقواتهم، أو نعماً معنوية: كهدايتهم وتعليمهم وفطرتهم الحسنة.. ونحو ذلك، فإنه لو حاسبهم على هذا العطاء لعذبهم، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى: فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [الانشقاق:8]: (إن ذلك حساب العرض)، أن تعرض عليهم أعمالهم دون أن يناقشوا فيها؛ ولذلك يقول: (إن من نوقش الحساب عُذِّب)، أي: من ناقشه الله الحساب على دقيق النعم وجليلها، وعلى دقيق الأعمال وجليلها، وصغيرها وكبيرها، فإنها

وإن كانت حسناته أمثال الجبال لا تقوم أمام أصغر نعم الله عز وجل عليه، فإذاً لابد إذا حاسبهم حساباً شديداً عسيراً أن يعذبهم. ومر بنا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)، هذا وهو سيد الخلق وسيد العاملين، الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، والذي كان يقوم الليل حتى تفطرت قدماه، ويقول: (أفلا أكون عبداً شكوراً) ، ومع ذلك أخبر أنه بحاجة إلى رحمة الله! إذاً: فنحن أولى بأن نحتقر أعمالنا، نحن أولى بأن نظهر فقرنا وفاقتنا، نحن أولى بأن نصغر أنفسنا، نحن أولى بأن نظهر الضعف.. نظهر الفقر.. نظهر الفاقة.. نظهر العجز.. نظهر الذل الذي نحتاج معه إلى التقوية، والذنوب التي نحتاج معها إلى المغفرة، والتقصير الذي نحتاج معه إلى العفو، فإذا لم يتلاف عباده بعفوه فإنهم هالكون، ولذلك لا ينبغي لنا أن نزكي أنفسنا، ونمدحها بكثرة أعمالنا، ونقول: نحن أكثر عملاً، نحن أكثر حسنات من هذا وهذا، نحن الذين عملوا وعملوا، فإن هذه التزكية قد تكون سبباً لحبوط العمل وبطلان ثوابه، ولأجل ذلك يقول الله تعالى: فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ [النجم:32] أي: لا تمدحوها وتفتخروا بأعمالكم، بل الله يزكي من يشاء، فهو الذي يمدح من يشاء أو من يستحق المدح، وعلى هذا فليحتقر المسلم عمله حتى يحصل له مضاعفة الله له، وليطلب من ربه المغفرة، وليدخل عليه من باب الذل والافتقار، وربنا سبحانه عند المنكسرة قلوبهم من أجله. ......

مسألة: انتفاع الأموات بسعي الأحياء

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات). اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين: أحدهما: ما تسبب إليه الميت في حياته. والثاني: دعاء المسلمين واستغفارهم له. والصدقة والحج على نزاع فيما يصل إليه من ثواب الحج، فعن محمد بن الحسن : أنه إنما يصل إلى الميت ثواب النفقة، والحج للحاج، وعند عامة العلماء: ثواب الحج للمحجوج عنه، وهو الصحيح. واختلف في العبادات البدنية: كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر: فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها. والمشهور من مذهب الشافعي و مالك عدم وصولها. وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء البتة، لا الدعاء ولا غيره. وقولهم مردود بالكتاب والسنة، لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى: وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [النجم:39]، وقوله: وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [يس:54]، وقوله: لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ [البقرة:286]. وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به) ، فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة، وما لم يكن تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه. واستدل المقتصرون على

وصول العبادات التي لا تدخلها النيابة بحال، كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القــرآن، وأنه يختص ثوابها بفاعله لا يتعــداه، كما أنه في الحيــاة لا يفعله أحد عن أحــد، ولا ينـوب فيه عن فاعله غـيره- بما روى النسـائي بسـنده، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (لا يصلي أحد عن أحـد، ولا يصوم أحد عن أحـد، ولكن يطعم عنه مكـان كل يـوم مـداً من حنطـة)]. هـذا موضوع آخر، بعـدما انتهى الكلام على ما يتعلق بالقضـاء والقـدر وما أشـبهه، أتى الطحاوي رحمه الله بهـذه العبـارة رداً على بعض المبتدعـة، في مسـألة: هل ينتفع الأمـوات بشـيء من أعمـال الأحيـاء أم لا؟ صـحيح أن الأمـوات قد طويت صحف أعمالهم، وقد ختم عليها، فلا يسـتطيعون زيـادة في الحسـنات، ولا نقصـاً من السـيئات؛ وذلك لأنهم أنهـوا حيـاتهم، ودخلـوا في عـالم الـبرزخ الذي هو أول منازل الآخرة، فكأنه ختم على أعمالهم، ولكن الأحياء قد يهدون إليهم بعض الأعمال. ......

انتفاع الأموات بدعاء الأحياء وبما تسببوا به من أعمال

هذه الأعمال التي يهديها إليهم الأحيـاء إما أن تكـون أعمـالاً بدنيـة، أو أعمـالاً قولية، أو أعمالاً مالية، فالأعمال البدنية: كالصـلاة، والصـوم، والطـواف.. وما أشبهها، والأعمـال الماليـة: كالصـدقات، والنفقـات، والأضـاحي.. وما أشـبهها، والأعمال القوليـة: كالـدعاء، والـذكر، والاسـتغفار.. وما أشـبهها. ولا شك أنهم ينتفعون بدعاء الأحياء لهم، قال الله تعالى: وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْـدِهِمْ يَقُولُـونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَـانِ [الحشـر:10]، نحن نـدعو بهـذا للذين سبقونا بالإيمان ولو لم نعرفهم، ولو كان بيننا وبينهم مائة سنة أو مئات أو ألـوف السـنين، فـدل ذلك على أنه مشـروع، وأنه ينفعهم، وسـيأتينا أنهم ينتفعون بالصلاة عليهم، فالصـلاة على الميت هي أول شـيء يـزود به الميت، ولو لم يكن له أجر ونفع فيها لم تشـرع، إذاً هـذا من الـذي ينتفعـون بـه، وهو الدعاء لهم. كذلك الأعمال التي كانوا سبباً فيها، يبقى لهم أجرها، فإذا تصـدق أحـدهم بصـدقة، واسـتمرت تلك الصـدقة، فـإن الأجر مسـتمر، وذلك مثـل: الأحباس والأوقاف الـتي ينتفع بهـا، فهـذه يصل أجـرهم إليهم، وهكـذا الـبيوت التي ينتفع بها كالمساجد، فإذا بنى مسجداً فإنه يأتيه أجره ولو بعد موته بمائة سنة أو أكثر، ما دام يصلى في هذا المسـجد، وهكـذا إذا بـنى مدرسة لتحفيظ القرآن، أو لطلب العلم النافع؛ فإن ذلك -أيضاً- يجري عليه أجـره، وهو معـنى قوله: (صدقة جارية). وكـذلك غلات الأوقـاف، فـإذا جعل غلة هـذا الوقف في صدقات أو في جهاد -يعـني: في أسـلحة للمجاهـدين ونحـوهم- كـان ذلك من النفقة النافعة التي يأتي إليه أجرها بعد موته، وكـذلك إذا كـان قد ورث علمـاً ينتفع به، إذا ألف كتباً كتبها، وجعل فيها علوماً نافعـة، فإنه ما دام يُقـرأ فيهـا، ويدعى لمن ألفها وكتبها، فلا شك أن ذلك مما يستمر أجره عليهـا. وهكـذا إذا نشر علمـاً: فكتب أو طبع مصـاحف ونشـرها، أو كتب علم طبعها وأنفق عليها ونشـرها، وصـارن ينتفع بها وتقـرأ، ويـدعى لمن نشـرها، لا شك أن ذلك من

النفقـات المالية الـتي يسـتمر أجرها له بعد موتـه. وكـذلك كل إنسـان كـان متسـبباً في عمل من الأعمـال النافعـة، ذكـروا من ذلك الأحبـاس الـتي في الطرق ينتفع بها، كالمياه التي يشرب منها أبناء السبيل ونحوهم، وحفر الآبـار التي ينتفع بها المارة ونحوهم، وإجـراء الأنهـار، وإصـلاح الطـرق الـتي يمر بها المسـلمون وينتفعـون بهـا، وإضـاءتها -مثلاً- إذا احتـاجت إلى إضـاءة وتنـوير، وجعل المرافق فيها كالمياه وما ينتفع به... كل ذلك من الأعمال الخيرية التي إذا فعلها احتساباً كان له أجر. وهكذا إذا جعل غلته في تجهيز الأمـوات، وحفر القبـور، وتحنيط الميت وتغسـيله، وقيمة الأكفـان وما أشـبهها، فـإن ذلك من الأعمال الصالحة، فيستمر له أجر ذلك ولو بعد موته بعشـرات السـنين؛ وذلك لأن هذا مما أنفق فيه.

معنى حديث: (لا يصومن أحد عن أحد)

أما الأعمال البدنية فقد اختلف فيهـا، وقد تقـدم الحـديث الـذي قـال فيـه: (لا يصــومن أحد عن أحــد، ولا يصــلي أحد عن أحــد) ، ولكن ذلك محمــول على الأحياء، فالأحياء القادرون لا يجوز لأحدهم أن ينوب عن أحـد، فلا تقل لولـدك: صل عـني الظهر أو العصـر، أو نحو ذلـك؛ لأن هـذه العبـادة تتعلق ببـدنك، فلا ينـوب فيها عنك أحـد، وكـذلك لو أحـرمت بنفسك فلا تقل لولـدك أو لعبـدك: طف عني طـواف الإفاضـة، أو قف عـني بعرفة أو نحو ذلـك، فـإن هـذا عمل بـدني لا يقـوم فيه أحد عن أحـد، وكـذلك إذا كنت قـادراً فلا تقل -مثلاً-: صم عني هذا اليوم من رمضان، أو صم عني هذا الشهر.. لأنه لا يجوز التوكيل في مثل هـــذه الأعمـــال؛ لأنها متعلقة بالبـــدن؛ ولأن الحكمة فيها أن يخضع ذلك العامل ببدنه، وأن يشعر بذله واستضـعافه بين يـدي ربـه، فـإذا كـان المتـذلل غـيره لم يتـأثر بـذلك. فـإذاً: الحكمة في شـرعية الصـلاة أن يخضع المصـلي ويخشع ويتواضـع، ولا يحصل له أجر إذا تواضع غـيره، بل ذلك التواضع يحصل للمتواضع، ولا يحصل له. ولو قال: أهديت صلاتي لك، لم يجــز؛ وذلك لأنه لابد أن يكـون عمله من نفســه، وكـذلك الحكمة من الصـيام حصـول ألم الجـوع والجهد والظمأ، والصبر على ذلك، أما إذا كـان يأكل ويشـرب ويتمتـع، والـذي صـام غـيره، لم تحصل المصـلحة الـتي هي تـأثره بهـذا الصـيام، فيكـون أجر الصيام لمن صامه لا له، وإن كان في ذلك استثناء كما سيأتي.

الدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه

قـال رحمه اللـه: [والـدليل على انتفـاع الميت بغـير ما تسـبب فيـه: الكتـاب، والسنة، والإجماع، والقياس الصحيح. أما الكتاب: فقـال تعـالى: وَالَّذِينَ جَـاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ [الحشر:10]، فـأثنى عليهم باسـتغفارهم للمؤمـنين قبلهم، فـدل على انتفـاعهم باسـتغفار الأحيـاء. وقد دل على انتفـاع الميت بالـدعاء إجمـاع الأمة على الـدعاء له في صلاة الجنازة، والأدعية الـتي وردت بها السـنة في صـلاة الجنـازة مستفيضـة، وكذا الدعاء له بعد الدفن، ففي سنن أبي داود ، من حـديث عثمـان بن عفـان رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: (استغفروا لأخيكم، واسـألوا له التثـبيت، فإنه الآن يسـأل) . وكـذلك الـدعاء لهم عند زيـارة قبـورهم، كما في صـحيح مسـلم ، من حـديث بريدة بن الحصيب ، قال: كان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يعلمهم إذا خرجــوا إلى المقــابر أن يقولــوا: (الســلام عليكم أهل الــديار من المؤمــنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسـأل الله لنا ولكم العافيـة) وفي صحيح مسلم -أيضاً- عن عائشة رضي الله عنها: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم: كيف أقول إذا استغفرت لأهل القبور؟ قـال: قـولي: السـلام على أهل الــديار من المؤمــنين والمســلمين، ويــرحم الله المســتقدمين منا ومنكم والمستأخرين، وإنا إن شـاء الله بكم لاحقـون) . وأما وصـول ثـواب الصـدقة: ففي الصـحيحين عن عائشة رضي الله عنهـا: (أن رجلاً أتى النـبي صـلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله! إن أمي افتلتت نفسـها، ولم تـوصِ، وأظنها لو تكلمت تصـدقت، أفلها أجر إن تصـدقت عنهـا؟ قـال: نعم) . وفي صـحيح البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (أن سعد بن عبـادة تـوفيت أمه وهو غائب عنها، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسـول اللـه! إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم. قال: فإني أشـهدك أن حـائطي المخـراف صـدقة عنهـا) .. وأمثـال ذلك كثـيرة في السنة. وأما وصول ثواب الصوم: ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: (من مـات وعليه صـيام صـام عنه وليـه) وله نظـائر في الصـحيح، ولكن أبو حنيفة رحمه الله قـال بالإطعـام عن الميت دون الصــيام عنــه، لحــديث ابن عبــاس المتقــدم، والكلام على ذلك معروف في كتب الفروع. وأما وصول ثـواب الحج: ففي صـحيح البخـاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن امرأة من جهينة جاءت الى النبي صـلى الله عليه وسلم، فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فماتت قبل أن تحج، أفأحج عنهـا؟ قـال: نعم، حجي عنهـا، أرأيت لو كـان على أمك دين، أكنت قاضـيته؟ قـالت: نعم. قال: فاقضوا الـذي للـه، فـإن الله أحق بالوفـاء) ونظـائره أيضـاً كثـيرة. وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمة الميت، ولو كــان من أجنـبي، ومن غـير تركتـه، فقد دل على ذلك حـديث أبي قتـادة ، حيث ضـمن الدينارين عن الميت، فلما قضـاهما قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (الآن بردت عليه جلدته) ، وكل ذلك جـار على قواعد الشـرع، وهو محض القيـاس،

فإن الثـواب حق العامـل، فـإذا وهبه لأخيه المسـلم لم يُمنع من ذلـك، كما لم يُمنع من هبة ماله في حياتـــه، وإبرائه له منه بعد وفاتـــه. وقد نبه الشــــارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبـادات البدنيـة، يوضحه: أن الصوم كف النفس عن المفطرات بالنيـة، وقد نص الشـارع على وصول ثوابه إلى الميت، فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية؟]. هذه أدلة لمن قال بأنه ينتفع الميت بأعمال الحي التي يهديها لـه، وانتفاعه بـالأقوال كالـذكر إذا أهدي له، وكذلك الاستغفار له والدعاء وما أشبه ذلك، دليله الأحاديث التي تحث على الاسـتغفار للأمـوات والـدعاء لهم؛ وذلك لأن دعـوة المسـلم لأخيه بظهر الغيب مسـتجابة، وقد ورد أنه إذا دعـوت لأخيك الغـائب يقـول الملـك: آمين، ولك بمثل، وسواء كان ذلك الذي دعـوت له حيـاً أو ميتـاً. وكـذلك أخـبر الله تعالى بأن الملائكة تسـتغفر للمؤمـنين، فـدل على أنهم ينتفعـون بأعمـال غيرهم؛ وذلك لأن هذا العمل الذي يهدى إليهم يعتبر تبرعاً من ذلك العامل.

مناقشة المانعين في معنى آية: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)

استدل المانعون من المبتدعة، بقـول الله تعـالى في سـورة النجم: وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَـــانِ إِلَّا مَا سَـــعَى [النجم:39]، وكثـــيراً ما يســـتدل بهـــذه الآية بعض المتأخرين، الذين يمنعون من الإهداء إلى الأمـوات، ويمنعـون الأضحية عنهم، ويمنعون القراءة لهم.. أو نحو ذلك. ولا شك أن الآية إنما فيها الملكيـة، أي: لا يملك الإنسان إلا سـعيه، أما سـعي غـيره فلا يقـدر عليـه، فلا يقـدر الميت أن يأخذ من أعمال أولاده، ولا يقدر أن يأخذ من أعمال زوجاته، ولو كانوا يحبونه. ولعل هذا في الـدار الآخـرة، فقد ورد في تفسـير قـول الله تعـالى: يَـوْمَ يَفِـرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَـأْنٌ يُغْنِيهِ [عبس:34-37] أنه يلقى الرجل ولده فيقول: يا بني! أنا خير أب لك، أنا الذي أعطيتك، أنا الـذي نفعتك وربيتـك. فيقـول: صـدقت ونعم الأب! فيقـول: إني بحاجة إلى حسنة أو حسـنات ليثقل بها مـيزاني، فيقـول الابن: وأنا بحاجة إلى ما أنت بحاجة إليه، نفسي.. نفسي! ويأتي إلى زوجتـه، فيـذكرها صـحبته، فيسألها حسـنة أو حسـنات، فتمتنع وتقـول: أريـدها لنفسـي، أخشى أن يخف ميزاني.. وهكذا، ففي الدار الآخـرة لا ينتفع أحد إلا بعملـه، وأما في الـدنيا فلا مانع من أن يهدي الحي للميت، ومن أن يعطيـه، ومن أن يتصـدق عنه ويـدعو له، لا مانع من ذلك؛ حيث إنه تبرع بذلك.

الصلاة على الجنازة دليل على انتفاع الميت بعمل الحي

وتقدمت الأدلة في الدعاء للميت، فمنها: الدعاء في الصلاة عليـه، ففي سـنن أبي داود بسند صحيح، أن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال: (إذا صـليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء) أي: ادعـوا له وأنتم صـادقون بالـدعوات الجامعـة. وفي صحيح مسلم وغيره حديث عوف بن مالك : (أنه صـلى الله عليه وسـلم صــلى على ميت، يقــول عــوف : فحفظت من دعائه قولــه: اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسـله بالمـاء والثلج والــبرد، ونقه من الخطايا كما ينقى الثــوب الأبيض من الــدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله. يقول عـوف : حـتى تمـنيت أن أكـون أنا ذلك الميت؛ لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم له) ، وهــذا تعليم منه لأمته أن يــدعوا بمثل هــذه الــدعوة وإن لم تكن معينة مخصصــة، بل يــدعون بها وبما يماثلهـا، ولو كـان ذلك لا ينفع الميت لم تشـرع هـذه الصـلاة الـتي هي صـلاة الجنازة. وكذلك بعد الموت وبعد الـدفن، فقد جـاء أنه صـلى الله عليه وسـلم كان يأمر أصحابه أن يسألوا له التثـبيت، ويقـول: (إنه الآن يسـأل)، فيقولـون: اللهم ثبته بـالقول الثـابت في الحيـاة الـدنيا وفي الآخـرة، أو اللهم ثبته عند اللقاء، وما أشبه ذلك، فدل على أنه ينتفع بذلك.

دعاء زيارة المقابر دليل على انتفاع الميت بعمل الحي

كـذلك ما ورد من الـدعاء للأمـوات عند زيـارة المقـابر، وأنه صـلى الله عليه وسلم كـان يعلم أصـحابه إذا زاروا القبـور أن يسـلموا عليهم والسـلام دعـاء، يقولون: (السـلام عليكم أهل الـديار من المؤمـنين والمسـلمين، وإنا إن شـاء الله بكم لاحقــون، نســأل الله لنا ولكم العافيــة، اللهم لا تحرمنا أجــرهم، ولا تفتنا بعدهم، واغفر لنا ولهم) ، فهذا دعاء لهم بالمغفرة، ودعــاء لهم بالعافيـة، فدل على أنهم ينتفعـون بـذلك، وأنهم محتـاجون إليـه. ولا شك أنه يـأتيهم من دعوات الأحياء حسنات كثيرة ينتفعون بها، وتزداد بها حسـناتهم، والقصص في ذلك كثيرة مشهورة، أشـار إليها كثـير من العلمـاء، ومن أراد الاطلاع والتوسع فليقــرأ كتــاب الــروح لـــابن القيم رحمه اللــه، فإنه اســتوفى ما يتعلق بهــذه المسائل، ولعل الشارح لخص هذا منه، وكذلك لتلميـذه ابن رجب كتابه الـذي سماه: أهوال القبور في أحوال أهلها إلى النشور.

الكلام على انتفاع الميت بأعمال الحي البدنية

وأيضـاً ما تقـدم فيما يتعلق بالأعمـال البدنية الـتي يعملها الحي عن الميت كالصيام، وفيه خلاف، فذهب الإمام أحمد -في المشهور عنه- إلى أنه لا يصوم عنه إلا النذر، فلا يصوم عنه أيـام رمضـان؛ وذلك لأن في الحـديث (أن امـرأة قالت: يا رسول الله! إن أمي ماتت وعليها صـوم نـذر، أفأصـوم عنهـا؟ قـال: نعم -ثم شـبه ذلك بالـدين- وقـال: لو كـان على أمك دين فقضـيته، أيجـزئ ذلك؟) فشبه الصـوم الـذي عليها بالـدين، ولما ذكر في الحـديث صـوم النـذر خصه أحمد بالنذر ، ومنع صيام الفـرض، واسـتدل بالحـديث الـذي تقـدم، وهو قولـه: (لا يصـلي أحد عن أحـد، ولا يصـوم أحد عن أحـد). وقد عرفنا أن هـذا الحديث محمول على الأحيـاء، بمعـنى: لا يصـوم حي عن حي، ولا يصـلي حي عن حي، فأما الأمـوات فقد صح لنا هـذا الحـديث، وصح لنا -أيضـاً- حـديث عائشة وفيه: (من مات وعليه صيام صام عنه وليه) ، ولم يخص ذلك بنـذر ولا بفـرض، فـدل على أنه من المشـروع أن يصـام عنه القضـاء ونحو ذلـك، وإذا أطعموا عنه أجزأ ذلك، سواء كان الصوم الذي عليه فرضاً أو نذراً. وأما النفل عنه: أن تصـوم يومـاً نفلاً، وتقـول: اللهم اجعل ثوابه لوالـدي أو لوالـدتي.. أو نحو ذلك، فهذا محل خلاف أيضاً، ولعل القياس يدل على جوازه، وذلك أنه إذا سقط عنه الفرض بتطوعك عنه، فمعنى ذلك وصـول الأجر إليـه، وأيضـاً: أنت مأجور على صيام التطوع، فـإذا أهـديت أجـرك لقريبك تطوعـاً واختيـاراً، فما المانع أن يكون أجره له؟! هذا بالنسبة إلى الصيام. وكذلك يقـال في الصـلاة: إذا أهدى صلاة له، وإن لم يكن ذلك مشهوراً.

وصول الصدقة والحج وانتفاع الميت بها

وأما الصدقات فلا شك في وصولها، فإن كانت من الميت فهي الأحباس الـتي يوصي بهـا، وإن كـانت تبرعـاً من الحي فلا شك في أنه يصـله أجرهـا، فـإذا تصدقت عنه صدقة خاصة كالصدقة في وقت الأضحية التي تسـمى الأضـحية، وكذلك الصدقة في رمضان بطعام أو بلحم أو بكسوة على مستحق، أو بنقـود ينتفع بها، وجعلت أجرها لأخيك أو لأبيـك، فإنه ينتفع بـذلك ويصل إليه الأجـره، وكذلك كل الأعمال المالية. أما العمل الذي يتكون من المـال والعمل كـالحج؛ فإنه يـتركب من أمـرين: عمل بـدني، وعمل مـالي، فالبـدني هو ركـوب هـذا الحاج، وتعبه في سفره، وإحرامه وطوافه ووقوفه ورميه.. وما أشبه ذلك، أما العمل المالي فهو نفقاته: ومنها أجرة الركوب، وكذلك نفقته في ذهابه وإيابه،

وكذلك ذبيحته التي يذبحها كفدية.. هذه أعمال مالية. فإن كان هذا المـال من الميت أو من تركته فإن أعمال هذا العامل تكـون لـذلك الميت، حيث إن هـذا المال هو الذي وصل بسببه إلى تلك المشاعر، فكأنه كان عاجزاً عن أن يصل إلى مكة لقلة المال، فلما أخذ هذا المـال قـوي، فـدفع منه الأجـرة، ودفع منه النفقة، ودفع منه الأضحية.. وما أشبه ذلك، فكان ذلك متسبباً عن هذا المـال، فكـان أجـره لصـاحب المـال، فلأجل ذلك يقولـون: تصح الاسـتنابة في الحج، والأجر للمحجوج عنه الذي دفع المال، والناس على هـذا. ونقـول تعليقـاً على هـذا: إن الـذي يحج بـدلاً عن غـيره بمـال يأخـذه لا يجـوز له ذلك إلا إذا كـان عاجزاً عن الحج بمالـه، كـالفقير الـذي لا يسـتطيع الوصـول إلى مكة لفقـره، فيأخذ هذا المـال لينفق منه حـتى يصل إلى المشـاعر ويـؤدي تلك المناسـك، فهذا هو الذي يؤجر على حجه، ويكون الأجر الأصلي لصاحب المال.

يختلف العلماء في جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن كما يختلفون في جواز إهداء ثواب قراءة القرآن للميت، لكنهم لا يختلفون في المنع من أخذ الأجـرة على القراءة للميت، وذلك ما سيعرفه القارئ في هذه المادة.

دعاء الأحياء وصدقاتهم تنفع الأموات

تتعرض كتب العقيدة لكل شيء فيه خلاف مع المبتدعة، ولو كان من الفروع، ولو كان المخالف فيه مخالفاً لنص ظاهر، أو كان المخالفون فيه قليلين، ومن ذلك مسألة وصول ثواب الأعمال الـتي يعملها الأحيـاء إلى الأمـوات. وقد ورد ما يـدل على وصـول بعض الأعمـال، وخصـها بعضـهم بما تسـبب فيه الميت، كقوله صــلى الله عليه وســلم: (إذا مــات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) . فالصـدقة الجارية هي: الأوقاف والأحباس التي وقفها في حياته لينتفع بها كبناء المساجد والمـدارس، وكـذا الصـدقات الـتي هي غلات كوقف ثمـار النخيل على الضـعفاء، وكوقف غلات الـبيوت ونحوها على الجهـاد، أو على الحج.. وما أشـبه ذلـك. وأما العلم الذي ينتفع به: فهو الكتب الـتي كتبها وألفهـا، وكـذلك العلـوم الـتي علمها من ينقلها عنــه، فإنه ما دام ينتفع بها يأتيه أجــر. وأما الولد الصــالح: فيعم الــذكر والأنثى من ذريته وذرية ذريته الذين يدعون لـه. وأصل الـدعاء هو سـؤال الله للميت مغفرة ورحمة وجنة وثواباً، وتخفيف حساب ومغفرة ذنب.. ونحو ذلك. والأحياء يدعون للأموات، وأول ما يدعون لهم في صلاتهم على الجنازة عندما يقـدم الميت بين يـدي المصـلين، فيـدعون له بـالمغفرة والرحمـة، وبإدخاله الجنة، وبتكفير الخطايا وما أشـبه ذلـك، ولا شك أنه ينتفع بـذلك؛ لأن هـذا من السنة. وأما بقية الأعمال: فـاتفقوا على أن من تـبرع بصـدقة عن ميته وصـله أجرها، سواء كانت الصدقة عيناً -يعني: نقوداً- أو طعامـاً أو لحمـاً أو نحو ذلك من الصدقات، وهي داخلة في قوله: (صدقة جارية)، فهذه الصدقة تعم ما إذا كان الميت هو الذي سبل تلك الصدقة، أو تصدق بها عنه ذريته، يعني: تـبرعوا بمـال يتصـدق بغلته فينتفع هو بتلك الصـدقة الـتي تصـدقوا بها وجعلـوا أجرها لميتهم، ويعم ذلك الأضــاحي إذا أوصى بهــا، أو ذبحت عنه وجعل أجرها لــه؛ فإنها من جملة الصدقات. وأما الصـدقات الأخـرى: فلا شك أنه يصـله أجرهـا، فإذا تصدق عنه ولده أو قريبه صدقة على فقير، أو على مسكين، أو على ابن ســبيل، أو على ذي حاجة من قــريب أو بعيــد؛ نفعه ذلــك، وكــذلك إذا أطعم طعاماً أو كسا كسوة أو نحو ذلك، ونوى أجرها لميته؛ نفعه ذلك؛ لأن هــذا كله من الصدقات التي إذا تبرع بها ونوى أجرها للميت وصل أجرها بمجـرد النيـة. ويـدخل في ذلك الصـدقات الـتي يتـبرع بها غـير أقاربـه، فلو تصـدق عنه أحد وليس من أقاربه، بل لإحسان إليه، أو لمحبة له لأنه نفع الإسـلام والمسـلمين مثلاً، فــأراد أن يتصــدق عنــه؛ نفعه ذلــك. ولا شك أن أجر الــدعاء يصل إلى

الأموات، وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته الصلاة على الميت، وأن يقولوا في الصلاة عليه: (اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله..) إلى آخر الدعاء، وكذلك فعل ذلك بنفسه، فدعا بمثل هذا الدعاء الخاص على الجنازة، كقوله: (اللهم اغفر له وارحمه)، والدعاء العام كقوله: (اللهم اغفر لحينا وميتنا..) إلى آخره. ولولا أنه ينتفع بذلك لما شرع هذا الدعاء له بعد موته. وكذلك علم النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة إذا زاروا القبور أن يدعوا بقولهم: (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية، اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، واغفر لنا ولهم) ، والسلام دعاء، فإذا قال: السلام عليكم، فقد دعا لهم بالسلامة من العذاب والسلامة من الآفات ونحوها. وكذلك قوله: (نسأل الله لنا ولكم العافية) هذا دعاء لهم بالعافية، وكذلك قوله: (واغفر لنا ولهم) دعاء لهم بالمغفرة، وكل ذلك دليل على أنه يصلهم الدعاء؛ وذلك لأنه سؤال من الله، يسأل العبد ربه أن يرحم هذا الميت وأن يتجاوز عنه، فالله تعالى إذا استجاب هذا الدعاء وصل أجره ووصل أثره إلى ذلك الميت، وانتفع بهذا الدعاء واستفاد منه، فكان للميت أجر، وللحي الداعي أجر، كما إذا دعا للغائب، يقول في الحديث: (إن المسلم إذا دعا لأخيه المسلم فإن ملكاً يقول: آمين؛ ولك بمثل). فكذلك الدعاء للميت. وكذلك بقية الأعمال ولو كانت بدنية فالراجح أنه يصله أجرها، وقد تستثنى من ذلك بعض الأشياء التي يكون العمل فيها غير خالص لله. ......

لا تعطى الأجرة لمن قصد بحجه المال

وننبه إلى مسألة الحج عن الغير، هل يصل المحجوج عنه الأجر أم لا؟ نقول: يكثر التساهل في إعطاء الإنسان أجرة على أن يحج، فهل يصل الثواب إلى ذلك المحجوج عنه أم لا يصل إليه؟ الجواب: يختلف ذلك باختلاف حالة الحاج الذي أخذ هذا المال ليحج به، فننظر في حالته: إن كان قصده المال فلا حج له، وإن كان قصده الحج فله حج. وكيف يكون قصده المال؟ إذا كان يريد أن يأخذ هذا المال ليتاجر به، أو ليتملكه وينفقه في أموره الخاصة، لا أنه يريده لينفقه في الحج حتى يتيسر له الحج، فالذي يقصد بأخذه المال الحج، ويقول: أنا عاجز عن الحج، عاجز عن تكلف السفر والنفقة وأجرة الركوب، وأحب أن أحج، وأتمنى أن أقف مع الحجاج، وأن تعمني معهم الرحمة، وأن تنزل علي المغفرة معهم، وأن أكون ممن يباهي الله بهم الملائكة، وأتذلل لله تعالى بإظهار الافتقار، وبإظهار الضعف بين يديه؛ ولكن يعوقني المال، فلا أجد كفاية ذهابي وإيابي، ولا أجد في مالي ما أتمتع به إلى أن أصل إلى تلك المشاعر؛ وذلك لفقري وفاقتي، فأنا آخذ هذا المال وأنفق منه، أو أعطي منه ولدي أو أهلي ما يكفيهم مدة غيبتي، حيث إني أنشغل عنهم بهذا السبب، وقد كنت أكفيهم بكسبي، وأما الآن فقد غبت عنهم، فأنا آخذ هذا المال لأنفق منه عليهم، ولأنفق منه على نفسي، ولأدفع منه أجرة الركوب، ولا أجعل الباقي

زيادة، ولا آخذ إلا قدر الكفاية. فمثل هذا يقبل حجه، ويكون له أجر على حجه، ويكون للمحجوج عنه أجر الحجة الـتي حجها عنـه. أما إذا كـان قـادراً على أن يحج بماله، وليس له رغبة في الحج، ولكن ما أراد إلا أن يأخذ هذا المال ليزيد به ماله إن كان له مال، ولم يكن من الذين يشـتاقون إلى الحج، ولم يكن من الذين يحبون أن يقفوا في المشاعر، ويتمنون أن يشاركوا في تلك المناسـك، لا همة له في ذلك، إنما همته هذا المال الذي بذل لـه، والـذي أخـذه، فـتراه -مثلاً- يكفيه مـدة ذهابه وإيابه ألفـان، ولكنه يطلب أكـثر، ويقـول: فلان يعطي خمسة آلاف، فلان يعطي أربعة آلاف، فلان يـــدفع ثمانية آلاف أو نحو ذلـــك؛ فكأنه والحال هذه ما حج إلا لأجل الدنيا ولأجل هذا المـال، فيـدخل فيمن يريد الدنيا بعمل الآخرة، ويدخل فيمن يعبد الدنيا، ويدخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (تعس عبد الـدنيار، تعس عبد الـدرهم) أي: أنه عبد لهـذا المـال؛ حيث إنه عمل عملاً صـــالحاً يبتغى به وجه اللـــه، ولم يعمله إلا لأجل هـــذا الكسب وهـذا المـال، فمثل هـذا لو أعطيته ولو عشـرة آلاف أو ثمانية آلاف فأجر حجته ناقص؛ لأنه يدخل في الذين ذمهم الله بقوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيـدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُـوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـالَهُمْ فِيهَا [هـود:15]، وقولـه: وَمَنْ كَـانَ يُرِيدُ حَرْثَ الـدُّنْيَا نُؤْتِـهِ مِنْهَا وَمَا لَـهُ فِي الآخِـرَةِ مِنْ نَصِـيبٍ [الشـورى:20] . فيتفطن لمن يدفع أجرة الحج، ويسأل ذلك الحاج: ماذا تريد من هذه الحجـة؟ أتريد المال أم تريد الحج؟ إن كنت تريد الحج مشتاقاً إليه ولكنك عـاجز؛ فلك أجــر، أما إذا كنت لا تريد الحج ولا رغبة لك إلا في المـال؛ فلا حج لك ولا أجر لك، ولو أعطيتك مالاً كثيراً فلن يكون هنـاك أجر لهـذه الحجـة، فخـير لي أن أتصدق على الضـعفاء والمسـاكين فإنه أولى من أن أعطي المـال هـذا الـذي يجعله زيادة في رأس ماله.. أو نحو ذلك. ولكن إذا كان هذا الذي يريد أن يحج من الفقـراء، ونـويت بإعطائه الصـدقة عليـه؛ لكونه مسـكيناً وفقـيراً، ونـويت بالزيـادة أنها بأجرهـا، وأنها صـدقة عليـه؛ لكونه من الـذين تحل لهم الصـدقة؛ فلك أجر على هذه النية، ولو كانت نيته غير الحج، يعـني: لو كـانت نيته المـال لكونه بحاجة إلى المال، فـأنت إذا نـويت أنها صـدقة، وأنه إذا حج فربما ينتفع الميت بحجته، فإذا كان قصده المال وهو من أهل الاستحقاق كان للميت أجر الصدقة، فينتفع الميت، سواء كان أجر صدقة أو أجر حجـة، ويقـال كـذلك في بقية الأعمال.

الجواب على أدلة المانعين من وصول ثواب الأعمال إلى الأموات

قـال المؤلف رحمه الله تعـالى: [والجـواب عما اسـتدلوا به من قوله تعـالى: وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [النجم:39] قد أجاب العلمـاء بأجوبـة: أصـحها جوابان: أحدهما: أن الإنسان بسعيه وحسن عشـرته اكتسب الأصـدقاء، وأولد

الأولاد، ونكح الأزواج، وأسدى الخير، وتودد إلى النـاس؛ فـترحموا عليه ودعـوا له، وأهدوا له ثـواب الطاعـات، فكـان ذلك أثر سـعيه، بل دخـول المسـلم مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصـول نفع كل من المسـلمين إلى صـاحبه في حياته وبعد مماتـه، ودعـوة المسـلمين تحيط من ورائهم. يوضحه: أن الله تعالى جعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فـإذا أتى به فقد سـعى في السـبب الـذي يوصل إليه ذلك. الثاني -وهو أقوى منه-: أن القرآن لم ينف انتفـاع الرجل بسـعي غـيره، وإنما نفى ملكه لغير سعيه، وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى، فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه، وأما سعي غـيره فهو ملك لسـاعيه، فـإن شـاء أن يبذله لغيره، وإن شاء أن يبقيه لنفسه. وقوله سـبحانه: أَلاَّ تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَـانِ إِلاَّ مَا سَعَى [النجم:38-39] آيتـان محكمتـان، مقتضـيتان عدل الرب تعالى، فالأولى: تقتضي أنه لا يعاقب أحداً بجرم غيره، ولا يؤاخـذه بجريرة غيره، كما يفعله ملـوك الـدنيا. والثانيـة: تقتضي أنه لا يفلح إلا بعملـه، لينقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسـلفه ومشـايخه، كما عليه أصـحاب الطمع الكـاذب، وهو سـبحانه لم يقـل: لا ينتفع إلا بما سـعى. وكـذلك قوله تعالى: لَهَا مَا كَسَبَتْ [البقـرة:134]، وقولـه: وَلا تُجْـزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُـونَ [يس:54]، على أن سياق هـذه الآية يـدل على أن المنفي عقوبة العبد بعمل غـيره، فإنه تعـالى قـال: فَـالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئًا وَلا تُجْـزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [يس:54]. وأما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله) فاستدلال ساقط؛ فإنه لم يقـل: انقطع انتفاعـه، وإنما أخـبر عن انقطاع عمله، وأما عمل غيره فهو لعامله، فـإن وهبه له وصل إليه ثـواب عمل العامل، لا ثواب عمله هو، وهذا كالدين يوفيه الإنسـان عن غـيره، فتـبرأ ذمتــه، ولكن ليس له ما وفى به الــدين. وأما تفريق من فــرق بين العبــادات المالية والبدنية فقد شرع النبي صلى الله عليه وسلم الصوم عن الميت -كما تقدم- مع أن الصوم لا تجزئ فيه النيابة، وكذلك حديث جـابر رضي الله عنـه، قال: (صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحـه، فقـال: باسم اللـه، والله أكـبر، اللهم هـذا عـني وعمن لم يضح من أمتي) ، رواه أحمد و أبو داود و الترمذي ، وحديث الكبشـين اللـذين قال في أحدهما: (اللهم هـذا عن أمـتي) ، وفي الآخـر: (اللهم هـذا عن محمد وآل محمد) رواه أحمد . والقربة في الأضحية: إراقة الـدم، وقد جعلها لغـيره. وكذلك عبادة الحج بدنية، وليس المال ركناً فيه، وإنما هو وسـيلة، ألا تـرى أن المكي يجب عليه الحج إذا قــدر على المشي إلى عرفــات من غــير شــرط المال. وهذا هو الأظهر، أعني: أن الحج غير مركب من مـال وبـدن، بل بـدني محض، كما قد نص عليه جماعة من أصــحاب أبي حنيفة المتــأخرين. وانظر إلى فـروض الكفايـات: كيف قـام فيها البعض عن البـاقين؟ ولأن هـذا إهـداء ثواب، وليس من باب النيابة، كما أن الأجير الخاص ليس له أن يستنيب عنــه، وله أن يعطي أجرته لمن شاء]. قد تقدم أن مذهب الجمهور: أن الميت ينتفع بأعمال الحي إذا أهداها إليه، وأن هناك بعض المبتدعة أنكر الانتفاع كليـاً، وأن هناك من فرق بين الأعمال البدنية والأعمال المالية والأعمال القولية، فأوصل

أجر الأعمـال القوليـة: كالـدعاء، والمالية كالصـدقات، ومنع وصـول الأعمـال البدنيـة: كـالحج، والجهـاد، والصـلاة، والصـوم. وأما الجمهـور: فـإنهم يجـيزون وصـول الجميـع، وانتفـاع الميت بـالجميع. والـذين منعـوا اسـتدلوا بقـول الله تعالى: أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَـعَى [النجم:36-39]، فقـالوا: معـنى قوله (لَيْسَ لِلإِنسَـانِ إِلَّا مَا سَعَى) أي: لا ينفعه إلا سـعيه وعملـه، فأما سـعي غـيره وعمله فلا ينتفع بـه. هكـذا قـالوا. والجـواب: تقـدم أن العلمـاء أجـابوا بجــوابين: الأول: أن الإنســان إذا اكتسب بأفعاله وبحسن معاملته الأصــدقاء فكـأنهم لـه، فينتفع بـدعائهم؛ لأنهم من سـعيه وكسـبه، وكـذلك إذا تـزوج، فالزوجة قد اكتسـبها، وكـذلك إذا ولد له الأولاد، فـالأولاد يعتـبرون من كسـبه ومن سعيه، فأصدقاؤه الذين اكتسبهم في حياته يـدعون لـه، فينتفع بـدعائهم، ويتصدقون عنه فينتفع بصدقاتهم، وكذلك يقال في أولاده الـذين ولـدهم، فهم يـدعون لـه، ويتصـدقون عنه مقابل تربيته وتنشـئته لهم، ومقابل عمله معهم، ونفقته وحنانه وعطفه عليهم، وكـذلك زوجاته وبناته ونحو ذلـك، فلما أسـدى إليهم معروفـاً، وفعل فيهم خـيراً، فـإن عملهم يكـون مقابل ما عملـه، فـذلك يدخل في سعيه وفي كسبه، ويدخل في قوله: وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . والجـواب الثـاني: أن الآية ليس فيها نفي الانتفــاع، وإنما فيها نفي الملــك، والمعنى: ليس الإنسان يملك إلا سعيه، أما سعي غيره فإنه ملك لذلك الغـير، فـالغير هو الـذي يملك عملـه، فنقـول: أنت الـذي تملك صـدقتك، وأنت الـذي تملك دعاءك، وأنت الذي تملك مالك، وتملك بدنك، فإذا أهـديت لـذلك الميت الذي بينك وبينه قرابة، وتبرعت له بعملك أو بـدعائك أو بـذكرك أو بصـدقتك؛ فقد أهديته لـه، فينتفع بـه، وليس في الآية إلا نفي الملكيـة، لا نفي الانتفـاع، فلم يقـل: ليس ينتفع الإنســان إلا بما سـعى، بل قـال: (لَيْسَ لِلإِنسَـانِ إِلَّا مَا سَعَى)، أي: لا يملك إلا سـعيه. هـذا هو مقتضى هـذه الآيـة، وبـذلك يعـرف أن الآية ليس فيها نفي انتفاعه بعمل غـيره. أما قولـه: (إذا مـات ابن آدم انقطع عمله) فالمراد: عمله البدني والقـولي، يعـني: انقطع ذكـره بلسـانه، انقطعت صلاته ببدنه، انقطع صومه ببدنه، ولكن لا ينفي أن غيره إذا أهدى له شيئاً من الأعمـال أنه ينتفع بـذلك. وقد ذكـروا أن الأعمـال إما أن تكـون بدنية محضة كالصـلاة والصـوم، وحج أهل مكة إلى عرفة على أقـدامهم، فهـذا يعتـبر عملاً بدنياً محضاً. وهناك عمل مـالي محض: كالكفـارات، والصـدقات، والزكـوات -وما أشبهها- فهذا عمل كله مالي. وهنـاك أعمـال قوليـة: كالأذكـار، والأدعيـة، والقراءة، والأوراد، والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، وما أشـبه ذلك من العمل الـذي هو قــول باللســان. وهنــاك أعمــال مركبة من القــول والبــدن كالصـلاة؛ فـإن فيها قـراءة وذكـر، وفيها ركـوع وسـجود، فهي قولية وبدنيـة. وهناك أعمال مركبة من المال والبدن كالحج؛ فإنه مـركب من العمل البـدني الذي هو الإحرام والطـواف والسـعي والوقـوف والـرمي، والمـالي: الـذي هو نفقته على نفسـه، وأجـرة ركوبـه، وذبح فديتـه.. وما أشـبه ذلك من النفقـات المالية. وكذا الجهاد؛ فإنه مركب من النفقة ومن العمل البدني، كما في قوله تعـالى: وَجَاهَـدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ [الأنفـال:72] فهـذا من

العمل البـدني المـالي. والأصل أن الجميع سـواء في إهـدائها للميت، وقد دل على إهداء المالي هذه الأحاديث التي فيها ذكر الأضاحي، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين، أحدهما: عن محمد وآل محمـد، والثـاني: عمن لم يضح من أمة محمد، وهذا دليل على أنهم ينتفعـون بـأجر هـذه الأضـحية الـتي ذبحها عنهم نبينا صلى الله عليه وسلم، سواء كانوا أحياء أو أمواتاً، وعلى هذا: فما المانع من أن تكـون الأضـحية للميت من جملة الصـدقات الـتي يصل إليه أجرها، كما يصل إليه أجر الصدقة التي أجراها هو أو أوصى بها؟! فإذا تبرع له قريبه بأضحية أو ببعض أضحية جـاز ذلـك. وقد أخـذوا من هـذا الحـديث جـواز الاشتراك في الأضـحية، حيث جعلها صـلى الله عليه وسـلم عمن لم يضح من أمته ولو كانوا مئات أو ألوفاً، فجعل ذلك مشتركاً بينهم، وكذلك التشـريك بين الأحياء، يعني: أنه إذا ذبحها عن أهل بيته وصل لهم أجرها، ولو كـانوا كثـيرين، فدل على أنهم ينتفعون بعمل غيرهم وبمال غيرهم، هذا بالنسبة إلى الأعمـال المالية. أما بالنسبة إلى البدنية: فقد تقدم قول النبي صـلى الله عليه وسـلم: (من مات وعليه صيام صام عنه وليـه) ومعلـوم أن الصـيام عمل بـدني، ليس فيه مال، فالصائم لا يخسر مالاً ولا ينفق مالاً، فهو ليس كالحـاج الـذي يخسر مالاً، فعمله كله بدني، وهو الإمسـاك. وقد يقـال: إن المصـلي يخسر مـالاً إذا استأجر ما يركبه إلى المسجد ويرده، أو إذا اشترى الوضوء كالماء ونحــوه، أو احتاج إلى سترة يستر بها عورته في الصلاة، فيكون محتاجـاً إلى مـال، وهـذا بخلاف الصــوم، فــإذا صح الصــوم عن الميت مع كونه بــدنياً محضـاً صح أن يصوم ويهدي صيامه للميت، أو يقضي الصيام عن الميت إذا كـان على الميت صـيام ككفـارة ونـذر وما أشـبه ذلـك، فبطريق الأولى أن تصح بقية الأعمـال البدنية إذا تبرع بها. ويقال هكذا في الأعمال القولية؛ قياساً على الدعاء، فـإذا ذكر اللـه، وأهـدى ثـواب هـذا الـذكر لميت، أو دعا الله للميت وصل إليه هـذا الأجـر. فـإذا تـبرع الحي للميت سـواء لقرابة بينهما أو صـداقة أو لأنه له عليه منة يريد أن يجازيه عليها فيهــدي له ثــواب عمله من ذكر أو دعــاء أو حج أو أضحية؛ أو ما أشبه ذلك، فلا شك أنه ينتفع بذلك ولو كان عمل غيره. ......

حكم دفع الأجرة مقابل قراءة القرآن أو تعليمه

......

المنع من الاستئجار على القراءة للميت

قال رحمه الله: [وأما استئجار قوم يقرءون القـرآن ويهدونه للميت! فهـذا لم يفعله أحد من الســـلف، ولا أمر به أحد من أئمة الـــدين، ولا رخص فيـــه. والاســتئجار على نفس التلاوة غــير جــائز بلا خلاف. وإنما اختلفـوا في جـواز الاستئجار على التعليم ونحوه مما فيه منفعة تصل إلى الغير، والثواب لا يصل

إلى الميت إلا إذا كان العمل لله، وهذا لم يقع عبادة خالصة، فلا يكـون له من ثوابه ما يهدي إلى الموتى، ولهذا لم يقل أحـد: إنه يكـتري من يصـوم ويصـلي ويهـــدي ثـــواب ذلك إلى الميت؛ لكن إذا أعطى لمن يقـــرأ القـــرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لأهل القـرآن على ذلـك، كـان هـذا من جنس الصـدقة عنـه، فيجوز. وفي الاختيار: لو أوصى بـأن يعطى شـيء من ماله لمن يقـرأ القـرآن على قبره، فالوصية باطلة؛ لأنه في معنى الأجرة.. انتهى. وذكر الزاهـدي في الغنيـة: أنه لو وقف على من يقـرأ عند قـبره، فـالتعيين باطـل. وأما قـراءة القرآن وإهداؤها له تطوعاً بغير أجرة، فهذا يصل إليه، كما يصل ثواب الصـوم والحج. فإن قيـل: هـذا لم يكن معروفـاً في السـلف، ولا أرشـدهم إليه النـبي صلى الله عليه وسلم! فالجواب: إن كان مورد هذا السـؤال معترفـاً بوصـول ثواب الحج والصيام والدعاء، قيل لـه: ما الفـرق بين ذلك وبين وصـول ثـواب قراءة القرآن؟ وليس كون السـلف لم يفعلـوه حجة في عـدم الوصـول، ومن أين لنا هـذا النفي العـام؟ فـإن قيـل: فرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أرشدهم إلى الصوم والحج والصدقة دون قراءة القرآن! قيـل: هو صـلى الله عليه وسـلم لم يبتـدئهم بـذلك، بل خـرج ذلك منه مخـرج الجـواب لهم، فهـذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له فيه، وهذا سـأله عن الصـوم عنـه، فـأذن له فيه، ولم يمنعهم مما سوى ذلك، وأي فرق بين وصول ثواب الصـوم الـذي هو مجرد نية وإمساك وبين وصول ثـواب القـراءة والـذكر؟]. يقع في بعض البلاد التي يغمرها الجهـل، أو تكـثر فيها البـدع، أنه إذا مـات الميت فـإنهم يجمعـون عشـرة من القـراء مثلاً في اليـوم الأول، واليـوم الثـاني، واليـوم الثـالث أو الأسبوع الأول، أو الشـهر الأول، ويقولـون لهم: اقـرءوا القـرآن، وأهـدوا ثوابه لأبينا أو لأخينا، ولكم بكل جزء تقرءونه كذا وكذا ريالاً، فأولئك القراء ما قرءوا لله، وإنما قرءوا للدراهم، وإذا كانوا قرءوا للدراهم، فهل لهم ثـواب؟ من قـرأ لأجل تحصيل الدنيا لا ثـواب لـه، فـإذا لم يكن له ثـواب فما الـذي يهدونه إلى الميت؟! لا يصل إلى الميت شــيء؛ لأن هــذه القــراءة قــراءة لأجل الــدنيا، وليست قراءة لأجل الله، ولا قراءة لأجل الثـواب، فلأجل ذلك يقـال: هـذا من البـدع. ثم هو من إقـرار الشـرك، حيث إن هـذا الـذي قـرأ للـدنيا عمل عملاً أخروياً لأجل أمر دنيوي، فيدخل فيمن أراد الدنيا بعمل الآخرة، فهـذا لا يجـوز، ولو كان القارئ واحداً، فلو جاءك وقال لـك: خذ هـذه المائة أو هـذه العشـرة واقرأ بها ختمة، واجعل ثوابها لوالـدي. فلا تفعـل؛ وذلك لأنك تكـون قد قـرأت القرآن لأجل هذا المال، لا لأجل الله، ولا لأجل الحسنات، فعلى هذا تكـون قد عملت عملاً أخروياً لأجل مصلحة دنيويـة. فمثل هـذا -أولاً- لم يفعله السـلف، ولم ينقل عن الصـحابة والتـابعين، ولا عن الأئمة الأربعة ونحـوهم، وثانيـاً: فيه هـذا المقصد السـيئ الـذي هو العمل لأجل الـدنيا، مع أن العمل من الأعمـال الصالحة، فلا يكون للميت أجر على هذا.

حكم التبرع بإهداء ثواب القراءة للميت

وهذا بخلاف ما إذا قرأت ختمة من القـرآن، أو جـزءاً، أو أجـزاءً، وقلت: اللهم اجعل ثوابها لوالـدي، أو لوالـدتي، أو لأخي، أو لجـدي، أو لعمي؛ فلا مـانع من وصول الأجر؛ لأنك ما قرأت لأجل الدنيا، إنما قـرأت لأجل الآخـرة، ثم تـبرعت بذلك العمل الأخروي لقريبك المتـوفى. ويـدل على ذلـك: أنه صـلى الله عليه وسـلم سـئل عن الحج عن الميت أو عن العـاجز فـأقر ذلـك، ففي حـديث الخثعمية أنها قالت: (إن أبي أدركته فريضة الإسلام شيخاً كبـيراً لا يثبت على الراحلـة، أفـأحج عنـه؟ قـال: حجي عنـه) ، فهـذا دليل على جـواز الحج للأب ونحوه. وكذلك المرأة التي قالت: (إن أمي ماتت وعليها صـيام نـذر، أفأصـوم عنها؟ قـال: أرأيت لو كـان على أمك دين أكنت قاضـيته؟ فاقضـوا اللـه، فالله أحق بالوفاء) ، فأمرها بأن تقضي الصوم عن والـدتها؛ لأنه حق لله ودين للـه، فيقضى كما يقضى الدين المالي للعباد، فدين الله أحق بالوفاء. كذلك: حديث الرجل الـذي جـاءه وقـال: (إن أمي افتلتت عليها نفسـها، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفأتصدق عنها؟ قال: نعم)، فـأقره على أن يجـري صـدقة عن أمـه. فهذه الأعمال أقرها، ولكنه لم ينف غيرها، بل ظاهره أن ما يشبهها يلحق بها، فيلحق بذلك بقية الأعمال بدنية أو مالية.

حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن

وتقدم أنهم اختلفوا في تعليم القرآن بأجرة، فـإذا اسـتأجر من يعلم ولـده فلا مانع من ذلك، وذلك لأن هـذا أجـرة على التلقين، وأجـرة على التعب، فالـذي يجلس يعلم الأطفال لا شك أنه يبذل جهـداً، ويقطع وقتـاً، ثم يتعب نفسه في تلقين هذا الولد هذه الآية، وفي تصويب الخطأ وما أشبه ذلك. فـالتعليم يعتـبر عملاً؛ ولهذا أقر النبي صلى الله عليه وسلم الذين أخذوا الأجـرة على الرقيـة، لما جاءه قوم من الصحابة قرءوا على الملدوغ الذي لدغته عقرب، فسعوا له بكل شيء فلم ينفعه، فرقاه أحد الصـحابة، وأخذ جعلاً على ذلـك، فقـال عليه الصلاة والسلام: (إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله) ، فأقرهم على ذلك وقـال: (اقسـموا، واضـربوا لي معكم بسـهم) تطييبـاً لنفوسـهم. فيعتـبر أخذ الأجرة على تعليم القـرآن كسـائر أنـواع التعليم، وقد ثبت أنه صـلى الله عليه وسلم جعل تعليم القرآن قائماً مقام المهر في قولــه: (زوجتكها بما معك من القرآن، فعلمها عشرين آية) أو نحو ذلك. وكذلك يقال في تعليم بقية العلـوم: يجــوز أخذ الأجــرة على التعليم؛ لأنه مقابل التلقين وما أشــبه ذلــك، بخلاف العمل الذي يعمله لله سبحانه وتعالى، والـذي يبتغى به وجه اللـه، ولأجل ذلك

تقــدم أنه صــلى الله عليه وســلم نهى عن أخذ الأجــرة على الأذان، فقــال: (واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً). ومنعوا أخذ الأجرة على الأعمــال الــتي يختص صــاحبها أن يكــون من أهل القربــة، وإنما رخصــوا فيما يبــذل من بيت المــال مقابل الالــتزام بتلك الأعمــال: كــالتعليم -مثلاً-، وعمل الحســبة، وعمل الإمامة والخطابة والــدعوة وما أشــبه ذلــك، فلا يــدخل ما يبــذل لهم من بيت المال في أنهم عملوا عملاً صالحاً يبتغى به وجه اللــه، ولم يعملــوه إلا للــدنيا. وبكل حال: فإهداء الأعمال التي يتبرع بها ينتفع بها المــوتى إن شــاء اللــه، إذا تبرع بها صاحبها ولم يكن أخذ عليها أجراً.

من دعا إلى هـدى فله مثل أجر من عمل بـه، وإمـام الـدعاة إلى الهـدى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا فإن له مثل أجر كل عامل من أمته يعمل خيراً، وليس بحاجة لأن يهدى له ثواب الأعمال بعد ذلك. ويتعلق بإهــداء الثــواب مســألة القــراءة عند القــبر، وقد اختلف فيها العلمــاء، والتوفيق بين الأدلة هو القول الوسط.

الجواب عن أدلة المانعين وصول ثواب الأعمال المهداة للميت

من جملة المسائل الفرعية التي تلحق بالعقيدة مسألة إهداء الثواب للأموات، أو انتفاع الأموات بأعمال الأحياء التي يعملونها ويهـدونها إلى الأمـوات، وهـذه مســألة فروعيــة، ولكن لها صــلة بالعقيــدة، وذلــك: أولاً: أن الخلاف فيها مع المبتدعة؛ فلأجل ذلك ألحقت بالأمور العقدية. وثانيـاً: أنها من الأمـور الغيبيـة، وذلك أن الأمــوات في عــالم غــير عالمنــا.. في بــرزخ بين الــدنيا والآخــرة، وانتفاعهم بهذه الأعمال غيب عنـا، فلا نـدري ولا يظهر لنا وجه الانتفـاع جليـاً، فلأجل ذلك اعتمدنا فيه على الـدليل، والأدلة الـتي اعتمـدنا عليها وإن لم تكن قطعية الثبوت، ولكنها ظنية، فلأجل ذلك جعل هذا الباب في باب العقائد. وقد تقـدم ذكر الخلاف، والجـواب عما اسـتدل به المخـالف؛ وذلك لأن المخـالفين من المبتدعة اعتمدوا على الآية التي في سورة النجم، وهي قول الله تعـالى: وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [النجم:39]، فقالوا: لا ينفع الميت إلا سـعيه -أي: عمله- كما لا ينفع الحي إلا سعيه -أي: عمله-. ......

الجواب عن استدلالهم بقوله تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)

وأجيب: بأن الإنسان اكتسب الأصدقاء واكتسب الأقـارب ونحـوهم، فاكتسـابه هذا يعتبر من سعيه، فإذا تصدقوا عنه، أو دعوا له، أو حجوا عنه، أو اسـتغفروا له -أو نحو ذلك- فـإن ذلك من آثـار سـعيه وكسـبه في كـثرة الأصـدقاء، حيث تودد إليهم بما جعلهم يخلصـون له المـودة. وأجيب أيضـاً: بـأن الآية في ملكية الإنسان، ومعلوم أنه لا يملك إلا عمله أو ماله، وأما عمل غيره فملك لصاحبه، لكن إذا تبرع به اعتبر ملكاً لمن تُبرع له به، ويقاس ذلك على المـال، فالمـال الذي تكتسبه هو ملكك ولا تملك غـيره، ولكن مـتى تـبرع لك صـديقك بمـال.. متى أهدى إليك هدية، أو أعطاك عطية، وسـمحت بها نفسـه، فإنك تملك تلك الهديـة، وتـدخل في ملكـك، وتنتقل من ملكـه، فكـذلك إذا عمل عملاً صـالحاً كحجة وجهاد وصـدقة ودعـاء ونحو ذلـك، وأهـداها لفلان الحي أو لفلانٍ الميت وجعل ثوابها له، فإن ذلك بمنزلة ملكه للمال الذي أهدي له.

الجواب عن استدلالهم بحديث: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله...)

وأما الحديث الذي استدلوا به، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) ، فهذا -أيضاً- لا شك أنه ظاهر الدلالة، ولكن ليس المراد أنه لا ينتفع إلا بهذه الثلاثة، بل المراد: أنه لا يجري عليه، ولا يملك إلا هي؛ لكن متى تبرع له غير ولده بدعوة انتفع بها، ومتى تبرع له صديقه بصدقة عنه، أو بحجة عنه، أو بجهاد جاهده وجعل أجره لصديقه أو لقريبه فلان أو ما أشبه ذلك، فما المانع من وصولها إليه؟! بل لا شك أن ذلك يصل إليه، وقد اتفق المسلمون على أنه ينتفع بصلاتهم عليه، فإذا مات وصلوا عليه انتفع بذلك، وينتفع -أيضاً- بدعائهم له، فإذا زاروه في قبره ودعوا له انتفع بذلك، وكذلك إذا مر الإنسان على أهل القبور، وسلم عليهم، ودعا لهم؛ انتفعوا بذلك، فينتفعون من دعوات الأحياء بأشياء كثيرة تنور عليهم قبورهم، وتزداد بها حسناتهم، وتكفر بها خطاياهم، ولولا ذلك لما تصدق أحد عن أبويه، ولا تقرب عنهما بشيء. وهذا ظاهر والحمد لله، وقد تقدم الخلاف في الانتفاع أو في إهداء الأعمال البدنية كالصلاة والصوم -الذي هو عمل بدني محض- فذكر بعضهم أنه لا ينتفع بذلك.

الجواب عن استدلالهم بحديث: (لا يصلي أحد عن أحد)

واستدل بحديث: (لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد) ؛ ولكن وردت الأدلة في انتفاعه بالصوم في قوله عليه الصلاة والسلام: (من مات وعليه صيام صام عنه وليه) ، ولما جاءته امرأة وقالت: (إن أمي ماتت، وعليها صيام نذر أو صيام شهر. قال: أرأيتِ لو كان على أمك دين، أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء -أو: فدين الله أحق بالقضاء-) فأمرها بأن تصوم عن أمها، وسواء كان هذا الصوم فرضاً أو نذراً فإنه أقرها على أن تصوم، بل أمرها بذلك، وشبهه بقضاء الدين. وعلى هذا فمعنى قوله: (لا يصلي أحد عن أحد)، أي: لا يصلي عنه وهو قادر، يعني: لا يوكل أحد أخاه يصلي عنه، يقول: صلِ عني صلاة الظهر، أو: صلِ عني صلاة العشاء، أو: وكلتك أن تصلي عني صلاة المغرب أو العصر أو نحو ذلك، أو: وكلتك أن تصوم عني هذا اليوم من رمضان أو ما أشبه ذلك وهو قادر، فإن هذا لا يجوز؛

وذلك لأن العبادة وجهت إلى الإنسان القـادر، فلا يجـوز له أن يـنيب غـيره ولا يجـوز له أن يوكل من يعمل عنه ذلك العمل وهو قـادر؛ وذلك لأن الحكمة في هذه العبادة ظهور العبودية على الفاعل، فالصلاة فرضت على المسلمين، ولا يجـوز لأحد أن يوكل من يصـلي عنـه، فـإن تـذلل المصـلي يفـوت بالتوكيـل، فالمصلي يتذلل ويخشع ويخضع ويتواضع، ويظهر منه الخشوع والذل بين يدي ربـه، وهـذا لا يحصل له إذا وكل من يصـلي عنـه، فلا ينتفع بهـذه الصـلاة، ولا يحصل له بها تذلل ولا خشوع ولا تضرع وتمسكن بين يدي ربه. وكذلك الصيام شرع لإظهار الامتثال بترك طعامه وشرابه وزوجه لأجل امتثال أمر الله، فـإذا وكل من يصوم عنه وأخذ يأكل ويشرب، اعتبر غـير متقبل لأمر اللـه، ولم يجز عنه توكيله، فلأجل ذلك قالوا: لا يوكل في العبـادات البدنية الـتي الحكمة منها إظهار الاسـتكانة والـذل بين يـدي الـرب. ويلحق بـذلك: حج الفريضة للقـادر، فمن كان قادراً على الحج بالبدن وبالمال فإنه يكلف بأن يفعله ولا يوكل فيه، وذلك لأن الحكمة تقتضي الأمـرين: تقتضي إنفاقه من ماله في هـذا السـبيل، وتقتضي عمله ببدنه هــذه الأعمــال، والأفضل هي الأعمــال الــتي أمر بهــا، والأصل في شرعية الحج أن يظهر أثره على العامل، فالحاج إذا أحـرم وخضع وخشع وتمسـكن بلباسه الـذي فيه تجـرده عن لباسه المعتـاد، أليس ذلك من أجل العبــادات؟ هل تحصل له تلك المســكنة إذا وكل غــيره؟! أليس إذا أخذ يطوف على البيت العتيق يحصل الثواب والتذلل، ويحصل له إخبات بين يــدي ربـه؟ هل يحصل هـذا الإخبـات إذا وكل عنه من يحج عنـه؟! وهكـذا إذا وقف بعرفـات وهو خـائف راج ذليل متواضـع، هل تحصل هـذه الحالة إذا وكل من يقف عنه؟!. إذاً: فالحج في الأصل هو العبادة البدنيـة. وقد عرفنا أنه غالبـاً ما يتكون من المال والبدن، ولكن قد يكون بدنياً محضـاً، كـالمكي الـذي لا يقـدر على أن يستأجر سـيارة أو دابة يركبهـا، ولكنه قـادر على أن يمشي ببدنه من مكة إلى مـنى، وإلى مزدلفـة، وإلى عرفـات، أليس ذلك مكلفـاً بـأن يحج ولا يسقط عنه الحج؟ أليس حجه بدنياً ليس فيه شيء من المال؟ وهذا يدل على أن الأصل في العبادة هو تحريك هذا البدن، فلأجل ذلك لم يصح أن يوكل فيه، ولكن إذا حج فرضه مع القدرة، ثم تـبرع له ولـده، أو تـبرع له أخـوه بـأن أدى عنه حجة أخرى، أو طاف تطوعاً وأهـدى طوافه لـه، فلا شك أنه ينتفع بـذلك، حتى ولو كـان قـادراً. أما إذا عجز عن الحج إما لعيب في بدنـه، وإما لقلة في ماله، وإما للصعوبة والمشـقة بينه وبين الحـرم، فإنه في هـذه الحالة معـذور، وإذا وكل غيره، أو قام غيره مقامه في هذا العمل وتبرع له متـبرع؛ فـإن ذلك ينفعه. فعرف بذلك الفـرق بين العبـادات البدنية المحضة كالصـوم، والصـلاة، والحج لمن هو في مكة، فإنها لا تدخلها النيابة إذا كانت فرضـاً، وأما إذا كـانت تطوعاً وأهدي له ثوابها فلا مانع من أن ينتفع به. أما بالنسبة للأعمال الأخــرى فإنها تدخلها النيابة، فالأذكار يصح أن يـذكر الله تعـالى وأن يهـدي ثوابها لأخيه أو قريبــه، وكـذلك المـرء مـأمور أن يـدعو لأقاربـه، أو للمسـلمين عمومـاً، والصدقات يصح أن يوقعها عن قريبه حياً أو ميتاً بجزء من مالـه، وهكـذا بقية الأعمال. وقد مر بنا بعض الأشياء التي فيها خلاف، وعرفنا كيف الجواب عنها.

حكم إهداء ثواب الأعمال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فإن قيل: ما تقولـون في الإهـداء إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم؟ قيل: من المتـأخرين من اسـتحبه، ومنهم من رآه بدعة؛ لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونـه، ولأن النـبي صـلى الله عليه وسـلم له مثل أجر كل من عمل خـــيراً من أمتـــه، من غـــير أن ينقص من أجر العامل شـيء، لأنه هو الـذي دل أمته على كل خـير، وأرشـدهم إليـه. ومن قـال: إن الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده، باعتبار سماعه كلام الله، فهـذا لم يصح عن أحد من الأئمة المشـهورين، ولا شك في سـماعه، ولكن انتفاعه بالسـماع لا يصح، فإن ثواب الاسـتماع مشـروط بالحيـاة، فإنه عمل اختيـاري، وقد انقطع بموته، بل ربما يتضرر ويتألم؛ لكونه لم يمتثل أوامر الله ونواهيه، أو لكونه لم يـزدد من الخـير. واختلف العلمـاء في قـراءة القـرآن عند القبـور على ثلاثة أقوال: هل تكره، أم لا بأس بها، أم لا بأس بها وقت الدفن وتكره بعده؟ فمن قال بكراهتها كـأبي حنيفة و مالك و أحمد -في روايـة- قـالوا: لأنه محـدَث، لم ترد به السنة، والقراءة تشبه الصلاة، والصلاة عند القبور منهي عنهـا، فكـذلك القراءة. ومن قال لا باس بها كـمحمد بن الحسن وأحمد -في رواية- اسـتدلوا بما نقل عن ابن عمر رضي الله عنــه: (أنه أوصى أن يقــرأ على قــبره وقت الـدفن، بفـواتح سـورة البقـرة، وخواتمهـا) ونقل أيضـاً عن بعض المهـاجرين قراءة سورة البقرة. ومن قـال لا بـأس بها وقت الـدفن فقط -وهو رواية عن أحمد - أخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهـاجرين. وأما بعد ذلــك، كالــذين يتناوبون القبر للقراءة عنده فهـذا مكـروه، فإنه لم تـأت به السـنة، ولم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلاً، وهذا القول لعله أقوى من غـيره؛ لما فيه من التوفيق بين الدليلين.] ......

أدلة عـدم مشـروعية إهـداء ثـواب الأعمـال إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسلم

أما ما يتعلق بالإهداء إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، فالشـارح رحمه الله قد بين الحكم فيـه، وذكر أنه لا يشـرع أن تعمل عملاً وتقـول: أجـره لرسـول الله صلى الله عليه وسلم، سواء كان قراءة أو صلاة أو ذكراً أو جهاداً أو غـير ذلك، واحتج بدليلين: الدليل الأول: أنه لم يفعل في العهد النبوي، ولا في عهد الصـحابة، ولم يكن أحد من الصـحابة يعمل عملاً ويقـول: أجـره لرسـول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كـان خـيراً لسـبقونا إليـه؛ وذلك لأنهم أعـرف بـه، وأعــرف بما يكــون من شــريعته، وأيضــاً فهم الــذين يحبونه ويؤثرونه على

أنفسهم، وهم الذين شاهدوه، وصحبوه، وقاتلوا معه، وصلوا خلفه، وتلقوا عنه سنته، ومع ذلك فلم يهدوا إليه ثواب صلاة ولا صوم ولا صدقة ولا غير ذلك، إلا ما نقل عن علي رضي الله عنه أنه كان يضحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويذكر أنه أوصاه بذلك، ولكن الحديث فيه ضعف. وعلى كل حال فهذا دليل واضح، وهو عدم فعل السلف، يعني عدم الإفتاء منهم. الدليل الثاني: أنه صلى الله عليه وسلم ليس بحاجة إلى إهداء هذه الأعمال؛ وذلك لأن الله يكتب له مثل عمل كل عامل من أمته، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال: (من دعا إلى هدى كان له مثل أجور من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه مثل أوزار من تبعه، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيء)، وقال: (من دل على خير فله مثل أجر فاعله)، أليس نبينا صلى الله عليه وسلم هو الذي دل على الإسلام؟! وهو الذي دل على الحسنات والصالحات؟ وهو الذي دل على الصلات والصدقات؟ وهو الذي دل على الخيرات كلها، وحذر عن الشرور؟! إذاً: أنت متى صليت صلاة كتب لك أجرها تاماً، وكتب له صلى الله عليه وسلم مثل أجر تلك الصلاة، وإذا جاهدت كتب لك أجر جهادك كاملاً وكتب مثله لنبيك صلى الله عليه وسلم؛ لأنك اهتديت بدعوته، وكذلك إذا تصدقت بصدقة، أو ذكرت الله، أو دعوته، أو قرأت كتابه، أو ما أشبه ذلك، كتب أجرك كاملاً وكتب له صلى الله عليه وسلم مثله من غير أن ينقص أجرك. إذاً: فهذا فضل الله عليه، فلا حاجة إلى أن يُهدى له، وأيضاً فأنت أحوج إلى عملك، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أما أنت فإنك بحاجة للأسباب التي بها تغفر خطاياك، وتمحى بها سيئاتك، ويرجح بها ميزانك، فكونك تهدي عملك له وهو غني، وتترك نفسك وحاجتك! هذا فيه شيء من الخطأ والغلط، هذا ما يتعلق بالمسألة الأولى.

حكم قراءة القرآن عند القبور

أما المسألة الثانية وهي: القراءة عند القبور: فهذه المسألة فيها ثلاث روايات عن الإمام أحمد : رواية: أنه يجوز وقت الدفن فقط، ورواية: أنه يجوز مطلقاً، ورواية: أنه لا يجوز مطلقاً. والأرجح: أنه لا يجوز قصد القبور للدعاء والقراءة عندها، كما لا يجوز أن تقصد للصلاة عندها؛ فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تتخذ القبور مساجد: (ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد). وثبت أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة في المقبرة في أحاديث كثيرة، ولا شك أن العلة في ذلك مخافة الغلو، أو اعتقاد أن الذي يدعو عند القبر، أو يصلي عند القبر، أو يقرأ عند القبر، يعظم أجره، وأن أهل القبور يتسببون في رفع عمله وفي

مضــاعفة عمله وفي قبولــه، ويكــون ذلك وســيلة وذريعة إلى الاعتقــاد في أصحاب القبور، ومعلوم أن الاعتقاد فيهم أنهم ينفعون، ويشفعون، ويــدفعون، ويرفعون الأعمال الصالحة، ونحو ذلـك، اعتقـاد في مخلـوق قد انقطع عملـه، فلا يملك شـيئاً لنفســه، فكيف يملك نفعـاً لغـيره، فيكــون ذلك من وســائل الشــرك. وهـذا هو الواقــع، فـإن الـذين يعظمــون القبــور، ويصــلون عنــدها، ويطوفون بها، ويعكفون حولها، ويقرءون عندها، كانت نهـايتهم أن عبــدوا تلك القبــور، حيث خيل إليهم أن أصـحابها من الأوليـاء، وكـان أول ما عملـوه أنهم تـرددوا إلى ذلك القـبر لمجـرد الزيـارة، ثم بعد ذلك ظنـوا أن الأعمـال عنـده أفضل منها في غـير ذلك المكـان، فصـاروا يفضـلون الصـلاة عند القـبر على الصلاة في المسجد، ويفضلون القراءة عند القبور على القراءة في المسجد، ويفضلون الدعاء عند القبـور على الـدعاء في المسـاجد، ثم اعتقـدوا بعد ذلك أن للأموات تأثيراً، وأنهم يرفعون الأعمال أو يضـاعفونها! ثم زاد الأمر إلى أن صاروا ينادون الميت ويهتفون باسمه، فيقولون مثلاً: يا عيدروس يا عبد القادر أو يا جيلاني أو يا نقشـبندي أو يا تيجـاني أو يا زيد أو يا يوسف أو يا تـاج أو ما أشبه ذلك من الأسـماء الـتي كـانوا في البداية ينتابونها ثم اعتقـدوا فيهـا. إذاً: فالصواب هو القول الأول، وهو المنع مطلقاً من قصد القبور للقـراءة عنـدها، ولعل الـدليل عليـه: أولاً: أنه قـول الجمهـور، فهو قـول أبي حنيفة و مالك و أحمد في الرواية المشهورة عنه، وكذا عند أصحابه، ورجحها المحققون كـابن تيمية وغيره، فلا تجوز القراءة عند القبور لأي سـبب، وبـأي نية وبـأي معتقـد؛ مخافة أن تكـون وسـيلة إلى دعـاء الأمـوات وإلى الاعتقـاد فيهم. وأما ما نقل عن ابن عمر أنه أمر بأن تقرأ عنده فواتح سورة البقرة وخواتيمها، فقد تكون الرواية عنه غير صحيحة ولا ثابتة، حيث إنها لم تشتهر، ولم يشتهر العمل بهـا. وأيضاً: فإنه أراد أن يكون ذلك في حال الدفن وأن يكون ذلك بمنزلة الــدعاء، فإن الدعاء للميت مشروع، والدعاء للميت عند قبره مشروع كما كـان النـبي صلى الله عليه وسلم إذا مات الميت ودفنه قام عند قبره وقال: (اسـألوا الله لأخيكم التثبيت فإنه الآن يسأل)، فيكون ذلك من بـاب الـدعاء لـه؛ وذلك لأن هذه الآيات فيها دعاء، مثل قوله: غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْـكَ الْمَصِـيرُ [البقـرة:285]، وقوله: رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَـهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَـــةَ لَنَا بِهِ [البقـــرة:286] إلى آخرهــا، فكأنه أراد: أنكم تــدعون بها وتقرءونها وتجعلونها دعــاءً لي. فــإذاً: لا يكــون فيها دلالة على قصد القــبر للــدعاء عنــده، ســواء وقت الــدفن أو بعد الدفن، وسواء اعتقد أنه ينتفع بتلك القــراءة أو أن القـارئ ينتفع بهـا. والقـول بأنه ينتفع بها فيه نظر؛ وذلك لأنه لو كان مباحـاً لفعله الصـحابة. وأيضـا: فـإن القراءة في المساجد وإهداء ثوابها له أكثر أجراً من القراءة عند القبور، فــإن المقابر منهي عن الصلاة فيها، والمسـاجد مـأمور بالصـلاة فيهـا، فالـدعاء في المســاجد أفضل من الــدعاء عند القبــور، والصــلاة في المســاجد أفضل من الصــلاة عند القبــور، وكــذلك القــراءة في المســاجد أفضل منها عند القبــور. فعـرف بـذلك أن القــول الصــواب هو قــول الجمهــور؛ وهو أنه لا يقصد القــبر للقراءة عنـده، بل إذا أرد أن يهـدي للميت قــراءة أو ذكــراً قرأها عند أهله أو

في بيته أو نحو ذلـك، فأما أن يقصد القـبر ويتحـراه فالأصل أن هـذا لم يكن مشروعاً فلا يكون جائزاً، والإنسان عليه أن يتبع الدليل، وعليه أن يأخذ بقـول جماهير الأمة ويترك الأقـوال الشاذة، ولو رويت عن بعض العلماء، والـذين رويت عنهم نحسن الظن بهم ونقـول: أولاً: هم مجتهـدون، وليس كل مجتهد بمصيب. وثانياً: أنهم ولو كانوا عندهم شيء من الاجتهاد ونحـوه فـإنهم عرضة للخطأ. وثالثاً: لم يكن عندهم من الاعتقاد ما عند من بعدهم، بل هم مأمونون أن يقع فيهم هذا الخطأ، والدليل على ذلك: أنهم لم يقع منهم الغلو الذي وقع من المتأخرين، كما حدث في القرن الثامن وما بعده إلى القرن الثـاني عشر في هـذه البلاد، بل وإلى هـذا القـرن في كثير من البلاد حيث زاد غلـوهم في القبـور حـتى دعوها من دون اللـه، فأصـبحوا يشـركون باللـه، ويجعلـون تلك القبـور آلهة مع اللـه، وسـبب ذلك تسـاهل علمـائهم بقصـدهم لتلك القبـور فاقتدى بهم السفهاء، واعتقدوا أن صاحب القبر له تأثير، فأصبحت وسيلة من وسائل الشرك، ثم أصبحت شركاً صريحاً. ......

أهمية الدعاء وإجابة الله للداعي

قال المؤلف: [قوله: (والله تعالى يستجيب الدعوات، ويقضي الحاجات). قـال اللهِ تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُم [غـافر:60]، وقـال تعـالى وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَـإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ [البقـرة:186]، والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وسـائر أهل الملل وغـيرهم أن الـدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار. وقد أخبر تعالى عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر في البحر دعوا اللهِ مخلصين له الدين، وأن الإنسـان إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعداً أو قائماً. وإجابة الله لدعاء العبد، مسلماً كان أو كافراً، وإعطـاؤه سـؤاله من جنس رزقه لهم، ونصـره لهم، وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقاً، ثم قد يكـون ذلك فتنة في حقه ومضـرة عليـه، إذ كـان كفره وفسوقه يقتضي ذلك. وفي سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قـال: قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: (من لم يسـأل الله يغضب عليه)، وقد نظم بعضـهم هـذا المعـنى فقـال: الـرب يغضب إن تـركت سؤاله وبُنيّ آدم حين يُسـأل يغضـبُ قـال ابن عقيل : قد نـدب الله تعـال إلى الـدعاء، وفي ذلك معـان: أحـدها: الوجـود، فـإن من ليس بموجـود لا يـدعى. الثاني: الغـنى، فـإن الفقـير لا يـدعى. الثـالث: السـمع، فـإن الأصم لا يـدعى. الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يدعى. الخامس: الرحمة، فإن القاسي لا يـدعى. السادس: القدرة، فإن العاجز لا يـدعى. ومن يقـول بالطبـائع يعلم أن النـار لا يقال لها: كفي! ولا النجم يقـال لـه: أصـلح مـزاجي؛ لأن هـذه عنـدهم مـؤثرة طبعاً لا اختياراً، فشرع الدعاء وصلاة الاستسـقاء ليـبين كـذب أهل الطبـائع.] هذا بحث جديد يتعلق بشرعية الدعاء من العبد لربه، وبحكم الـدعاء، وبفائـدة الدعاء، فذكر أن الله تعالى يجيب من دعاه، ويعطي من سـأله، وأنه سـبحانه يفرح بدعاء الداعين، وأنه يستجيب دعوتهم. ......

دعاء المشركين عند الاضطرار

أولاً: ذكر أن المشركين قبل الإسلام كانوا يدعون الله، يقول الله تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاه [الإسراء:67] ذهبت عنكم آلهتكم، وذهبت عنكم معبوداتكم كلها، ونسيتموها، ولم يبق في ذاكرتكم إلا الرب تعالى، فإنكم تعلمون أنه لا يجيب دعوتكم ولا يزيل عنكم الضر في المضائق إلا الله سبحانه، ويكون ذلك إذا ركبوا، يقول الله تعالى: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ [العنكبوت:65] دعوا الله في حالة كونهم على خطر ومقربة من الهلاك. ويقول تعالى: وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين [لقمان: 32]، وأمواج البحر معروفة، وهي التي تدفعها الرياح بحيث ترتفع فوق مستوى البحر متراً أو مترين أو نحو ذلك، وإذا جاءت تلك الأمواج إلى السفن اضطربت السفينة، وكادت أن تغرق، فإذا رأوا تلك الأمواج خافوا الهلاك ورفعوا أيديهم، وقالوا: يا ربنا أنجنا، يا ربنا نجنا من هذا الهلاك، فلا يذكرون إلا الله. إذاً: الله تعالى يستجيب لهم مع أنهم كفار؛ لأنهم أخلصوا له الدعاء، ولا شك أن المسلمين أولى بأن يدعوا الله في الضر وفي الشدة وفي الرخاء، ولا شك أنه يحب أن يدعوه ويغضب على من لم يدعه.

الله يغضب إن تركت سؤاله

وتقدم الحديث الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (من لم يسأل الله يغضب عليه)، ونحن نحب رضاه، ورضاه يتوقف على أن نسأله ونستعينه عند العجز، ونستنصر به عند الخوف، نطلب منه أن يؤمننا وأن يغنينا، وأن يعزنا، وأن يغفر لنا، ونطلب منه كل حاجاتنا، ونرغب عمن سواه من ذكر وأنثى، من صغير وكبير، ونجعل رغبتنا إليه سبحانه. وتقدم ذلك البيت الذي نظم به ذلك الحديث، وقبله يقول الشاعر: لا تسألن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب الرب يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب يقول بعضهم: لو أنك مشيت مع إنسان، وأخذت كل ساعة تقول له: أعطني حفنة تراب .. أعطني حفنة تراب، أليس يضجر منك ويمل ويقول: أتعبتني؟! لا شك أنه يكلفه، مع أن التراب موجود، ولكن قد يتكلف أن ينحني ويأخذ التراب، ثم يناولك وأنت -مثلاً- راكب أو نحو ذلك، لو سئلوا تراباً لملوا، فكيف إذا سئلوا شيئاً يملكونه، أو لهم فيه سبب من الأسباب، ولأجل ذلك على الإنسان أن يعلق رجاءه بربه، ويطلب منه حاجاته كلها، ولا يسأل غيره،

يقول بعضهم: لا تجلسن بباب من يأبى عليك دخول داره وتقـول حاجـاتي إليه يعوقها إن لم أداره واتركه واقصد ربها تقضى ورب الـدار كـاره فـإذا قصـدت الرب سبحانه وتعالى، وأنت صادق مخلص، قضى حاجتك، سواء كانت متعلقة بإنسـان، أو متعلقة فيما بينك وبين الـرب. ذكـروا أن إبـراهيم بن أدهم رحمه الله اشتكى إليه بعض أصحابه جوعاً نزل به؛ لأنهم لا يكتسبون، عند ذلك نظم أبياتاً يقول في أولها: أنا حامد أنا شـاكر أنا ذاكـر أنا جـائع أنا حاسر أنا عـاري هي ستة وأنا الضمين بنصفها فكن الضمين بنصفها يا باري لم يتعلق إلا بربـه، فكتب هذه الأبيـات، ولما اطلع عليها بعض الـذين من الله عليهم، أعطـاهم ما يسد حاجتهم، فالرب هو الذي يسر لهم هذا الرزق بواسطة هذا الإنسان، ولم يسألوا أي إنسان، وإنما علقـوا قلـوبهم بـربهم. إذاً فنقـول: على الإنسـان أن يجتهد في دعائه لله سـبحانه وتعـالى، وأن يسـأل ربه كل حاجاتـه، ولا يـترك حاجة يظن أنه سيحتاج إليها في يوم من الأيـام إلا ويسـألها ربـه، يقـول بعض العلمـاء : سل الله كل شـيء حـتى ملح طعامـك، وذلك لأنك بحاجة إلى أن يمدك ربك بكل شيء، فأنت مأمور أن تفعل السبب، ومع ذلك تعـرف أن الله تعالى هو الـذي ييسر لك هـذه الأشـياء ويجعلها مفيـدة ومـؤثرة. والأدلة على أهمية الدعاء كثيرة، منها قول الله تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غـافر:60]، ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الدعاء هو العبـادة)، وقـرأ هـذه الآيـة، فجعل الـدعاء عبـادة، ومثل ذلك أيضـاً قـول الله تعـالى: ادْعُـوا رَبَّكُمْ تَضَـرُّعًا وَخُفْيَـةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَـدِينَ * وَلا تُفْسِـدُوا فِي الأَرْضِ بَعْـدَ إِصْـلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [الأعراف:55-56].

أقسام الدعاء

والدعاء ينقسم إلى قسـمين: دعـاء عبـادة، ودعـاء مسـألة، وكل منهما ملازم للآخر، فالمصـلي في صـلاته يـدعو ربه في كثـير من أركـان الصـلاة وهيئاتهـا، ففي الفاتحة يقول: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحـة:6]، وهـذا دعـاء، وفي الركوع والسجود يقول: سبحانك اللهم وبحمـدك اللهم اغفر لي، وهـذا دعـاء، وبين السـجدتين يقـول: رب اغفر لي، ويكـرر ذلـك، وهـذا دعـاء. وكـذلك في السجود مأمور بأن يكثر من الدعاء، وكذلك في آخر التشهد مأمور بأن يـدعو، فالصلاة فيها دعاء، وكذلك الحج فيه الدعاء في الطـواف، وفي السـعي، وفي الوقوف بعد الرمي، وما أشبه ذلـك، وهـذا دليل على أن الله يحب من عبـاده أن يكـثروا من دعائـه، وأن لا يملـوا من هـذا الـدعاء، وأنه سـبحانه لا بد وأن يجيبهم إذا تمت الشـروط. وتقـدم كلام ابن عقيل على هـذه الأدلة الـتي فيها الأمر بالـدعاء، فإنه اسـتدل بها على أن الله تعـالى موجـود، فـإن المعـدوم لا

يدعى، وأنه سبحانه قادر، فإن العاجز لا يمكن أن يطلب منه شيء، وأنه غني، ولو كـان فقـيراً لم يطلب منه شـيء، فكيف يطلب من الفقـير شـيء وهو لا يجد! واستدل به على أنه كريم؛ وذلك لأن الكـريم هو الـذي يجـود، وهو الـذي يهب مما عنـده، فالله تعـالى هو الكـريم، بل هو الـذي لا ينقص ما عنـده كما يقول النبي صلى الله عليه وسـلم: (يمين الله ملأى، لا يغيضـها نفقـة، سـحاء الليل والنهـار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السـماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه)، ويقـول في الحـديث القدسـي: (يا عبـادي! لو أن أولكم وآخـركم، وإنسـكم وجنكم، قـاموا في صـعيد واحـد، فسـألوني، فـأعطيت كل إنسـان مسـألته، ما نقص ذلك مما عنـدي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحـر)، والآيات والأحاديث والأدلة على هذا كثيرة.

قد أمر الله عباده بدعائه وجعله عبادة ووعد بالإجابة، وقد خالف في جدوى الدعاء بعض الفلاسفة وغلاة المتصوفة، واحتجوا بالقدر السابق وأنه كثيراً ما يدعو الناس فلا يستجاب لهم، وقد أجاب العلماء عن شبهاتهم وبينوا خطأهم.

مجمل القول في انتفاع الميت بعمل الأحياء

معلوم أن من الأمور الاعتقادية ما يكفر بمخالفته، ومنها ما لا يكفر بمخالفته، وقد تقدم لنا في هذه العقيدة ذكر المسح على الخفين، وهو من الفروع العملية التي لا يكفر المخالف فيها، فقد خالف فيه بعض الصحابة وبعض الأئمة، ولكن استقر قول أهل السنة على القول به، وجاءت مسألة أخرى من الفروع، وهي إهداء الأعمال إلى الأموات أو الأحياء، فهي من المسائل الفرعية، ولا يكفر المخالف فيها وإن ذكرت في العقيدة، وذلك لأنهم: أولاً: قد تمسكوا بقول الله تعالى: وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [النجم:39]. وثانياً: لهم واجتهاد اجتهدوه، فلأجل ذلك لم يكفروا بمثل ذلك ولكنهم مخطئون. إنما كان إهداء الأعمال إلى الأحياء أو الأموات من مسائل العقيدة؛ لأن الخلاف فيه مع المخالفين في العقيدة، ومعلوم أن العقيدة هي الأسماء والصفات، والبعث بعد الموت، واليوم الآخر، والإيمان بالملائكة، والرسل، والكتب المتقدمة، ولا شك أن هذه من الأمور الاعتقادية، ولكن تلحق بها أيضاً أمور عملية، وتعطى حكم العقيدة، وإن لم تكن من العقيدة التي يعقد عليها القلب، بمعنى: أنه يؤمن بها وإن لم ير لها دلالات، وقد يكون إدخال إهداء الأعمال إلى الأموات أو الإحياء في العقيدة من باب أنه أمر غيبي، يعني: أننا لا ندري هل يصل إلى الأموات ثواب هذه الأعمال، أو لا يصل إليهم؟! ولكن لما جاءت شواهد ودلائل تدل على أنه ينتفع الميت بعمل الحي إذا أهداه إليه، قال بذلك أهل السنة، فنراهم يصلون على الأموات، لأن الأموات ينتفعون بصلاتهم عليهم، ونراهم يدعون لهم، فيدعو أحدهم لأبويه ولأمواته، كقول نوح عليه السلام: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ [نوح:28] فقد ذكروا أن والديه كانا مسلمين. والنهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى، يدل على أنهم لو كانوا مسلمين لانتفعوا بهذا الاستغفار، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم حضر موت عمه أبي طالب وطلب منه أن ينطق بالشهادة فلم يفعل، وكان آخر كلامه أن قال: هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك) فأنزل الله مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى [التوبة:113]، ومفهومه: أن لهم أن يستغفروا للمسلمين، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (استأذنت ربي أن أزور قبر أمي فأذن لي، واستأذنته أن أستغفر لها فمنعني) يعني بعموم هذه الآية: (ولو كانوا أولي قربى) فهذا يفيد: أنهم ينتفعون بالاستغفار إذا كانوا مؤمنين، ولا ينتفعون به

إذا كانوا مشـركين، ومعلـوم أن الاسـتغفار دعـاء، فإنه إذا قـال: رب اغفر لي ولوالـدي وللمؤمـنين، فقد دعا الله لنفسه ولوالديه وللمؤمـنين، وهـذا الـدعاء يفيد وينفع. وقد اشتهر الاستدلال بعموم الآيات مثل قـول الله تعـالى: وَالَّذِينَ جَـاءُوا مِنْ بَعْـدِهِمْ يَقُولُـونَ رَبَّنَا اغْفِـرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَـبَقُونَا بِالإِيمَـانِ [الحشر:10] فنحن نقول: ندعو لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان قديماً وحـديثاً، فندعو للصحابة وبيننا وبينهم عدة قـرون، وللتـابعين وللأئمة وللعلمـاء في كل قـرن وفي كل زمـان، فـإن هـذه دعـوة آبائنا وأجـدادنا ومن خلفنا وإخواننا وأقاربنا وأصحابنا وأصدقائنا من المؤمنين الذين سـبقونا بالإيمـان، فلا شك أن ذلك ينفعهم. ورد في بعض الكتب أن إنســاناً رأى بعض الأمــوات في منامه فأخبره ذلك الميت بأنه يأتيهم من دعاء الأحياء أمثال الجبال من الهدايا، الـتي هي دعــاء وصــدقات وأعمــال ونحو ذلــك، تنــور عليهم قبــورهم وتــزداد بها حسناتهم، وتحط بها سيئاتهم. والأعمال التي تهـدى إليهم كثـيرة منها الـدعاء، ولا شك في انتفاع المدعو به إذا كـان الـداعي والمـدعو له أهلاً لـذلك. ومنها الصــدقة: وقد دل عليها الحــديث الــذي فيــه: (إن أمي افتلتت نفســها ولم تتصدق، وأظنها لو تكلمت تصدقت، ألا أتصدق عنهـا؟ قـال: نعم). ومنها الحج: وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم أذن للخثعمية أن تحج عن أبيها مع أنه حي ولكنه لا يستطيع الثبوت على الراحلة، وسمع رجلاً يقـول: لبيك عن شـبرمة ، فقــال: (أحججت عن نفســك؟ قــال: لا، فقــال: حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة)فأفاد بأنه ينتفع إذا حج عنه، ولو كان بعيداً في النسب، ما دام أنه حج عنه وأهدى إليه عمل حجته. وكل ذلك يفيد أن الأموات ينتفعون بإهداء أعمال الحي، وقد تقــدم لنا التفصــيل في ذلــك، وعرفنا القــول الصــحيح والأدلة عليه. ......

الرد على من زعم أن الدعاء لا فائدة فيه

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وذهب قوم من المتفلسـفة وغالية المتصـوفة إلى أن الـدعاء لا فائـدة فيـه! قـالوا: لأن المشـيئة الإلهية إن اقتضت وجـود المطلـوب فلا حاجة إلى الـدعاء، وإن لم تقتضه فلا فائـدة في الـدعاء! وقد يخص بعضهم بذلك خواص العارفين! ويجعل الـدعاء علة في مقـام الخـواص! وهذا من غلطات بعض الشيوخ، فكما أنه معلـوم الفسـاد بالاضـطرار من دين الإسلام فهو معلوم الفساد بالضرورة العقليـة، فـإن منفعة الـدعاء أمر اتفقت عليه تجـارب الأمم، حـتى إن الفلاسـفة تقـول: ضـجيج الأصـوات في هياكل العبــادات، بفنــون اللغــات، يحلل ما عقدته الأفلاك المــؤثرات! وهــذا وهم مشركون. وجواب الشبهة بمنع المقدمتين، فإن قـولهم عن المشـيئة الإلهيـة: إما أن تقتضيه أو لا، فثمّ قسم ثالث، وهـو: أن تقتضـيه بشـرط لا تقتضـيه مع عدمه، وقد يكون الدعاء من شرطه، كما توجب الثواب مع العمل الصــالح ولا توجبه مع عدمه، وكما توجب الشبع والـري عند الأكل والشـرب، ولا توجبه مع عدمهما، وحصول الولد بالوطء، والزرع بالبذر، فإذا قدر وقوع المــدعو به في

الدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقـال: لا فائـدة في الأكل والشرب والبـذر وسـائر الأسـباب، فقـول هـؤلاء كما هو مخـالف للشـرع فهو مخالف للحس والفطرة. ومما ينبغي أن يعلم ما قاله طائفة من العلماء، وهو أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكـون أسـباباً نقص في العقـل، والإعـراض عن الأسـباب بالكلية قـدح في الشـرع، ومعـنى التوكل والرجـاء يتـألف من وجـوب التوحيد والعقل والشـرع. وبيـان ذلـك: أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه، ورجاؤه والاستناد إليه، وليس في المخلوق ما يستحق هذا؛ لأنه ليس بمستقل، ولا بد له من شركاء وأضداد، مع هذا كلـه، فـإن لم يسـخره مسـبب الأسـباب لم يسـخر. وقـولهم: إن اقتضت المشيئة المطلـوب فلا حاجة إلى الـدعاء! قلنـا: بل قد تكـون إليه حاجـة، من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة وآجله، ودفع مضرة أخرى عاجلة وآجلة، وكـذلك قـولهم: وإن لم تقتضه فلا فائـدة فيـه، قلنـا: بل فيه فوائد عظيمة من جلب منـافع ودفع مضـار، كما نبه عليه النـبي صـلى الله عليه وسـلم، بل ما يعجل للعبد من معرفته بربه وإقـراره بـه، وبأنه سـميع قـريب قـدير عليم رحيم، وإقراره بفقره إليه، واضطراره إليه، وما يتبع ذلك من العلوم العلية والأحـوال الزكية، الـتي هي من أعظم المطـالب. فـإن قيـل: إذا كـان عطـاء الله معللاً بفعل العبد، كما يعقل من إعطاء المسئول للسـائل، كـان السـائل قد أثر في المسئول حتى أعطاه؟! قلنا: الرب سبحانه هو الـذي حـرك العبد إلى دعائـه، فهذا الخير منه وتمامه عليـه، كما قـال عمر رضي الله عنـه: إني لا أحمل هم الإجابـة، وإنما أحمل هم الـدعاء، ولكن إذا ألهمت الـدعاء فـإن الإجابة معـه، وعلى هذا قوله تعالى: يُدَبِّرُ الأَمْـرَ مِنَ السَّـمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْـرُجُ إِلَيْـهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ [السجدة:5] فأخبر سـبحانه أنه يبتـدئ بتدبير الأمر، ثم يصعد إليه الأمر الذي دبره، فالله سبحانه هو الذي يقـذف في قلب العبد حركة الدعاء، ويجعلها سبباً للخير الذي يعطيه إيـاه، كما في العمل والثـواب، فهو الـذي وفق العبد للتوبـة، ثم قبلهـا، وهو الـذي وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه، فما أثر فيه شيء من المخلوقـات، بل هو جعل ما يفعله سبباً لما يفعلـه، قـال مطـرف بن عبد الله بن الشـخير أحد أئمة التـابعين: نظـرت في هـذا الأمـر، فوجـدت مبـدأه من اللـه، وتمامه على الله، ووجدت ملاك ذلك الدعاء]. وهذا يتعلق بالدعاء الـذي أمر الله به والـذي حث عليه النبي صلى الله عليه وسـلم، والـذي نهجه علمـاء الأمة وحثـوا عليه ورغبوا فيه، وهو سؤال الله تعالى الحاجات، فعلى العبد أن ينزل حاجاته بربه، وأن يسـأله قضـاءها، وأن يـرغب إليه بـأن ييسر كل يسـير، وأن يعطيه كل مطلب، وقد تقـدمت أدلة تفيد الأمر بالـدعاء والحث عليـه، مثل قوله تعـالى: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ [النمل:62] من هو الـذي يجيبـه؟ هو اللـه. ولما قال الصحابة: (يا رسـول الله أقـريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه أنـزل اللـه: وَإِذَا سَـأَلَكَ عِبَـادِي عَنِّي فَـإِنِّي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ [البقـرة: 186]) فهذا خبر من ربنا تعـالى أنه قـريب وأنه يجيب دعـوة من دعـاه، وكما أمر بذلك في قوله: وَقَـالَ رَبُّكُمُ ادْعُـونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ [غـافر:60]. وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على الدعاء وأخبر بأنه عبـادة في قولـه: (الـدعاء

هو العبــادة، وقــرأ هــذه الآيــة: وَقَــالَ رَبُّكُمُ ادْعُــونِي أَسْــتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي [غافر:60])، وكـذلك حث عليه الصلاة والسلام على الإكثـار من الـدعاء، وروي عنه أنه قـال: (إن الله يحب الملحين في الـدعاء) والإلحاح: هو تكرار الدعاء والإكثار منه. ......

قد يعطي الله الداعي خيراً مما دعا به فيظن أن دعوته لم تجب

وإذا قيل: إن الكثير قد يـدعون ولا يـرون أثـراً للإجابة فـأين معـنى: (ادعـوني أستجب لكم)؟ نقول: ورد في بعض الأحـاديث: (ما من مسـلم يـدعو بـدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أجاب الله دعوتـه، أو ادخرها له في الآخـرة، أو دفع عنه من الشر مثلهـا) فلا يخلو من ثلاث حـالات: إما أن تجـاب دعوته عـاجلاً ويـرى أثرهـا، وإما أن يـدفع عنه شر بسـبب هـذه الـدعوة، كما يـدفع بالأعمـال الصـالحة، وإما أن يـدخرها الله له في الآخـرة فيثيبه عليها كما يثيبه على الأعمــال الصــالحة، أي: كما يثيبه على الصــلاة والصــدقات والزكــوات والصيام والحج والجهاد.. ونحوها، فكذلك يثيبه على الدعاء. ومعلـوم أيضـاً أن الدعاء وإن أجيب الداعي وأعطي سـؤله في الـدنيا فـإن الله بكرمه يثيبه في الآخرة، بمعنى: أنه يدفع عنه السوء، أو يعظم له الأجـر، أو يجـزل له الثـواب، وسـبب ذلـك: أن الإنسـان الـذي يعلم أن ربه هو الـذي يقضي الحاجـات، وهو الـذي يفـرج الكربـات، وهو الـذي يجيب الـدعوات، وهو الـذي يقضي حاجـات عبـاده، ثم يـنزل حاجته بربـه، لا شك أنه -والحـال هـذه- قد عبد ربه فإنك إذا رفعت يديك تـدعو الله تعـالى ولم يتعلق قلبك بـأي مخلـوق، أليس ذلك دليلاً على أنك أردت أنه الــذي يقضي حاجتــك، وأنه الــذي يملكها وحــده، وأنه هو الذي يفرج الكـروب، وأنه علام الغيـوب؟ لا شك أن هـذه عبـادة قلبيـة، أليس يستحق الداعي ثواباً على ذلك؟ إذاً: فالدعاء يثـاب عليه في الـدنيا بـأن يجيب الله دعوته، وفي الآخرة بأن يعطيه جزاءً على عبادته ومعرفته. ......

الدعاء سبب من الأسباب التي يجب الأخذ بها

وقد تقدم اعتراض بعض الفلاسفة ونحوهم على الدعاء، وقولهم: إن الدعاء لا فائدة فيه، وقـولهم:إذا كـان هـذا القـدر قد قـدر الله أنه يـأتي، فسـوف يـأتي دعوت أو لم أدع، وإذا لم يقدره الله فلن يأتي ولو دعـوت ثم دعـوت، إذاً: فلا موجب للدعاء. هذه شبهتهم. وبعبارة أخرى إذا قلنا له مثلاً: ادع ربك أن يفرج عنك هذا الكرب، وأن يقضي عنك هذا الدين، وأن يزيل عنك هــذا الهم والغم، وأن يوسع عليك في الــرزق، وأن يصـحك في بــدنك، وأن يرزقك ولــداً؛ فإنه يقول: إن كان الله قد قدر أنه يرزقـني فسـوف يرزقـني سـواء دعـوت أم لم أدع، وإذا كان الله لم يكتب لي هذا الرزق فلا فائدة في هذا الدعاء، دعوت أو لم أدع، هكذا يقول أحـدهم. ونقـول: هـذا ليس بصـحيح، وذلك لأننا نقـول: إن

ربنا سبحانه قد قـدر لك هـذا الأمـر، ولكن جعل له سـبباً، وجعل له سـبباً وهو الدعاء، فكأنه كتب في الأزل أنك تدعو فترزق، ولو لم تدع لم تـرزق، فيكـون الـدعاء سـبباً من أسـباب هـذا الأمر الـذي حصل لـك. ومعلـوم أن الأسـباب مرتبطة بمسبباتها، وأن الله سبحانه جعل في هـذه الـدنيا أسـباباً وأمر العبـاد بمباشرتها، وجعل لتلك الأسباب تـأثيراً، وإن كـان قد قـدر ذلك أزلاً، وكتبه في اللـوح المحفـوظ، وقد ذكر الشـارح الأسـباب الحسـية، والأسـباب الحسـية لا ينكرها منكر، في ذلك أن الإنسـان لو تـرك الأكل وهو ينظر إليه ويجـده حـتى مات اعتبر قاتلاً لنفسه، لأن الله تعالى جعل هذا الأكل سبباً في بقاء الحيـاة، وقدر أن الإنسان يأكل من هذا الطعـام فيعيش، وأمر بـذلك في قولـه: وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا وَلا تُسْـرِفُوا [الأعـراف:31] وكـذلك جعل الشـراب سـبباً في بقـاء الحياة، ولو تركه الإنسان وهو قادر على أن يشرب حتى مات ظمـأً لعد قـاتلاً لنفسه. وكـذلك الأسـباب الأخـرى يشـاهد أنها مـؤثرة في مسـبباتها، فالنكـاح والوطء سبب في حصول الولد، فالله تعالى أمر بذلك بقوله فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ [النسـاء:3]، وَأَنكِحُـوا الأَيَـامَى مِنْكُمْ وَالصَّـالِحِينَ مِنْ عِبَـادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ [النور:32]، وذلك لأن النكاح سبب في الولد، فلو أن إنساناً قـال: لا أتزوج، وإذا كـان الله قد قـدر لي أولاداً حصـلوا وإن أتـزوج، وإن لم يقـدر لي أولاداً فلا فائدة في الزواج، نقول: ليس كذلك، فالله إذا قدر لك ولداً فإنه قد جعل سببه في النكاح، فعليك أن هذا السبب حتى يحصل ما قدره، وعليك أن تـدعو الله فهو الـذي يقـدر ذلـك. ولو قـال إنسـان لا حاجة في أن أبـذر هـذه الأرض، فإن كان الله قـدر أنها تنبت ويكـون فيها قمح وزرع فـذلك سيحصـل، سـواء زرعتها وسـقيتها وحرثتها أو لم أفعـل، وإذا قـدر أنها لا تنبت فإنه لا يحصل فيها شيء، فلا فائدة في زرعي لها، فهل هذه المقالة صحيحة؟ لا شك بأنها مقالة باطلة؛ وذلك لأن الله تعالى قد أمر بالسـبب الـذي هو بـذر الأرض وزرعها، وهو الذي إذا شاء جعله مثمراً، قال تعالى أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُـونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ [الواقعة:63-64]، فأثبت لهم حرثـاً (تحرثـون)، وأخبر بأنه هو الذي ينبته ولو شاء لم ينبت، ولهذا قال لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا [الواقعة:65] فهذا بيان أن الأسـباب لها فائـدة ولو كـان ذلك مكتوبـاً أزلاً. إذاً الدعاء سبب كما أن النكاح سبب، وكما أن البذر سبب والزرع سبب والغرس سبب، وهذا يبين أن هذه الأسباب تؤثر بإذن الله تعالى، فهناك من يعتمد على الأسـباب كلهـا، وقد تقـدم أن الاعتمـاد على الأسـباب يعتـبر شـركاً، يعـني أن الاعتقاد بأن السبب هو المؤثر يعتـبر شـركاً باللـه، أي: أنه جعل لغـيره تـأثيراً ولم يدعه لتقدير الله، فالله تعالى أخـبر بأنه هو الـذي يخلق الخلق وهو الـذي يرزقهم. ......

الاعتماد على الأسباب كفر وتركها قدح في الشرع والعقل

لو قال إنسان: الإنسان هو الذي يخلق ولده؛ لأنه يصـبه في الـرحم ثم يتكـون ولداً، ولم يجعل الله خالقاً؛ كـان هـذا كفـراً بالله الـذي هو مسـبب الأسـباب،

فهذا الحكم الأول، والحكم الثـاني: الـذين يعرضـون عن الأسـباب وينفونها ولا يلتفتون إلى الأسباب، لا شك أن هذا محو للأسباب وهو نقص في العقل، إذ لا يليق بالعاقل أن يترك العقل فيقول: إذا قـدر الله لي أن أعيش فـإني سـوف أعيش وإن لم آكل. كـذلك أيضاً طلب الـرزق، فمن يقـول: سـينزل علي من السـماء طعـامي وشـرابي وحـاجتي، وإن لم أتحـرك، فهـذا نقص في العقـل، وإعــراض عن الأســباب، وهو قــدح في الشــرع. فالحاصل أن الاعتمــاد على الأسـباب يعتـبر شـركاً وقـدحاً في التوحيـد، ومحوها نقص في العقـل، ومحو تأثيرها قدح في الشرع، وعلى كل حال فهذا الدعاء قد أمر الله به وحث عليه ورغب فيه، وأخبر بأنه يحب الذين يدعونـه، وقد تقـدم قـول النـبي صـلى الله عليه وســلم: (من لم يســأل الله يغضب عليــه)، ففيه حث على أن الإنســان يدعو الله حتى يحصل على رضـاه، وأن بعض السـلف كـان يقـول: سـلوا الله حاجـاتكم كلها حـتى ملح للطعـام، وإن كـان ذلك يسـتدعي أن الإنسـان يفعل السـبب مع عـدم اعتمـاده عليهـا، ومن جملتها أن يـدعو الله تعـالى، والـدعاء يحصل بخيري الدنيا والآخرة، فيدعو بأمور الدنيا ويـدعو بـأمور الآخـرة، ويعلم أنها بيد الله، وأنه سـبحانه هو الـذي يعطي عبـاده ولا تنفذ خزائنـه، مهما أنفق ومهما أعطى، كما قــال صــلى الله عليه وســلم: (يمين الله ملأى لا تغيضــها نفقة، سحاء الليل والنهـار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السـماوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمنيه)، وكما في الحديث القدسي يقول: (قـال الله تعـالى: يا عبــادي! لو أن أولكم وآخــركم، وإنســكم وجنكم، قــاموا في صــعيد واحــد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر)، وأشباه ذلك مما ورد في الأحـاديث الـتي فيها الحث على الدعاء والترغيب فيه، وبيان أهميته وفائدته، وبيان أن قـول الـذين قـالوا إنه لا فائدة فيه، قول باطل، بمقدمتين: المقدمة الأولى قــولهم: إذا كـان الله قدره فسـوف يـأتي، نقـول: نعم قـدره ولكن جعل له سـبباً، والمقدمة الثانية قولهم: إذا لم يقدر فلا فائدة في الدعاء، كيف يدعو بشيء قد قــدر الله أنه لا يحصل، نقـول: بل له فائـدة، ولو لم يكن فيه إلا تضـرع العبد لربـه، وإظهـاره الافتقـــار إليـــه، والرغبة فيما عنـــده، لكـــان ذلك كافيـــاً وإن لم تحصل له طلبته. ......

الواقع يشهد بفائدة الدعاء

والواقع يشهد بفائدة الدعاء، فالنبي صلى الله عليه وسلم لما سئل مــرة وهو على المنبر أن يدعو الله تعالى بالغيث، رفع يديه وقـال: (اللهم أغثنـا) مـرتين أو ثلاثـاً فاسـتجاب الله دعـاءه فـنزل المطر في ذلك اليـوم، واسـتمر نزوله أسـبوعاً، وفي الجمعة الثانية دعا بقولـه: (اللهم حوالينا ولا علينـا)، فـانفرجت السماء وصارت كالإكليل استجابة لدعوته، فدل على أنه يـؤثر بالـدعاء، سـيما إذا كان مستجاب الدعوة وهو الذي تتم فيه الصـفات الـتي يكـون بها أهلاً لأن تجاب دعوته، فيأتي بشروط إجابة الدعوة، فإن للـدعاء شـروطاً مـذكورة في

الكتب المطولة، وقد جمع العلمـاء ما وصـلهم أو ما صح عنـدهم من الأدعيـة، ففي صحيح البخاري كتاب اسمه: كتـاب الـدعوات أورد فيه كثـيراً من الأدعية المرفوعة، سواءً كانت تتعلق بأمور الدنيا أو بأمور الآخرة، مثـل: سـؤال الجنة والنجـاة من النـار، وسـؤال الخـير ومحو الشر وأشـباه ذلـك, والتحفظ مثـل: الاستعاذة من الشرور ونحوها. كذلك في صحيح مسلم كتـاب الـذكر والـدعاء جمع فيه أدعية كثيرة، وأفردت الأدعية أيضـاً بكتب من أوسـعها كتـاب الـدعاء للـبيهقي مطبـوع في ثلاثة مجلـدات، وإن كـانت فيه مقدمة طويلة وفهـارس ,لكن فيه أدعية كثيرة، واهتم بذلك العلماء متقدمهم ومتأخرهم، وكل أفـرد ما يسر الله أن يطلع عليه وما عَنّ له من الأدعيـــــة، ولا شك أن ذلك دليل على إجابة الدعاء. ......

بيان السبب في أن الداعي قد لا يعطى شيئاً أو يعطى غير ما سأل

قـال المؤلف رحمه اللـه: [وهنا سـؤال معـروف، وهـو: أن من النـاس من قد يسـأل الله فلا يعطى شـيئاً، أو يعطى غـير ما سـأل؟ وقد أجيب عنه بأجوبـة، فيها ثلاثة أجوبة محققـة: أحـدها: أن الآية لم تتضـمن عطية السـؤال مطلقـاً، وإنما تضـمنت إجابة الـداعي، والـداعي أعم من السـائل، وإجابة الـداعي أعم من إعطاء السائل، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقـول: من يـدعوني فأسـتجيب لـه، من يسـألني فأعطيـه، من يسـتغفرني فـأغفر لـه). ففـرق بين الـداعي والسائل، وبين الإجابة والإعطاء، وهو فـرق بين العمـوم والخصـوص، كما أتبع ذلك بالمستغفر وهو نوع من السائل، فذكر العـام ثم الخـاص ثم الأخص، وإذا علم العبــاد أنه قــريب يجيب دعــوة الــداعي علمــوا قربه منهم وتمكنهم من سؤاله، وعلموا علمه ورحمته وقدرته، فدعوه دعـاء العبـادة في حـال، ودعـاء المسـألة في حـال، وجمعـوا بينهما في حـال، إذ الـدعاء اسم يجمع العبـادة والاسـتعانة، وقد فسر قوله وَقَــالَ رَبُّكُمُ ادْعُــونِي أَسْــتَجِبْ لَكُم [غـافر:60] بالدعاء الذي هو العبادة، والدعاء الـذي هو الطلب، وقوله بعد ذلـك: إِنَّ الَّذِينَ يَسْـتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَـادَتِي [غـافر:60] يؤكد المعـنى الأول. الجـواب الثـاني: أن إجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء عين السؤال، كما فسره النـبي صـلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من رجل يــدعو الله بــدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطــاه بها إحدى ثلاث خصـال: إما أن يعجل له دعوتـه، أو يـدخر له من الخـير مثلهـا، أو يصرف عنه من الشر مثلها، قالوا: يا رسـول الله إذاً نكـثر، قـال: الله أكـثر)، وقد أخـبر الصـادق المصـدوق أنه لا بد في الـدعوة الخالية من العـدوان من عطـاء السـؤال معجلاً، أو مثله من الخـير مـؤجلاً، أو يصـرف عنه من السـوء مثله. الجـواب الثـالث: أن الـدعاء سـبب مقتض لنيل المطلـوب، والسـبب له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب، وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب، بل قد يحصل غيره، وهكذا سائر الكلمات الطيبات من

الأذكار المأثورة، المعلق عليها جلب منافع أو دفع مضار، فإن الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل، تختلف بـاختلاف قوته وما يعينهـا، وقد يعارضـها مـانع من الموانع، ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر من هذا الباب، وكثيراً ما تجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم، ويكـون قد اقـترن بالـدعاء ضـرورة صـاحبه وإقباله على اللـه، أو حسـنة تقـدمت منـه، جعل الله سـبحانه إجابة دعوته شكر الحسنة، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك فـأجيبت دعوتـه، فيظن أن السر في ذلك الدعاء، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور الـتي قارنته من ذلك الداعي. وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعاً في الوقت الذي ينبغي، فـانتفع به، فظن آخر أن استعمال هذا الـدواء بمجـرده كـافٍ في حصـول المطلـوب، وكان غالطاً، وكذا قد يدعو باضطرار عند القبر فيجاب فيظن أن السر للقـبر، ولم يدر أن السر للاضـطرار وصـدق اللجـوء إلى الله تعـالى، فـإذا حصل ذلك في بيت من بيـوت الله تعـالى كـان أفضل وأحب إلى الله تعـالى. فالأدعية والتعوذات والرقى بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحده فقط، فمـتى كـان السلاح سلاحاً تامـاً، والسـاعد سـاعداً قويـاً، والمحل قـابلاً، والمـانع مفقـوداً، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هـذه الثلاثة تخلف التـأثير، فإذا كان الـدعاء في نفسه غـير صـالح، أو الـداعي لم يجمع بين قلبه ولسـانه في الــدعاء، أو كــان ثم مــانع من الإجابة لم يحصل الأثــر.] هــذه الأجوبة قد تقدمت الإشارة إلى بعضها، والسؤال هو: أن بعض الناس يدعو ويكرر الدعاء، ومع ذلك لا يستجاب دعاؤه، والله تعالى يقـول ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُم [غـافر: 60].؟! وقد يقال: لماذا لا يسـتجيب وقد وعد بالإجابـة؟ وكـذلك قولـه: فَـإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَـانِ [البقـرة:186]، فكيف لم تحصل الإجابـة؟ ومن هذه الأجوبة الـتي ذكرها الشـارح: القـول بـأن الإجابة أعم من الإعطـاء، حيث إن اللـه: ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ [غـافر:60] وقـال: أُجِيبُ دَعْـوَةَ الـدَّاعِ [البقرة:186]، ولم يقل: أعطيه مطلبـه، ولا أعطيه ما سـأل، فالإجابة يـدخل فيها الثواب، ويدخل فيها التلبية لطلبه أو نحو ذلـك، أو السـماع، أي أنه سـمع دعوته سماع قبول وقبل دعوته، فيكـون هنـاك فـرق بين إعطائه سـؤله وبين إجابة الدعوة، فالله ذكر إجابة الدعوة ولم يـذكر إعطـاء المسئول، فلا يكـون هناك اعتراض على الآية. وسمعنا الاستشهاد بحديث الـنزول الـذي يقـول الله فيه: (من يسألني فأعطيه؟ من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفرني فـأغفر له؟)، ويظهر هنا الفرق بين السؤال والدعاء، ففي السؤال قـال: أعطيـه، أما في الـدعاء فقـال: أجيبـه، والآية ليس فيها إلا الـدعاء: ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُم [غافر:60]، فـإذا أجابه بـأن سـمع دعـاءه أو بـأن قبل دعـاءه صـدق عليه أنه أجابه، فيقـال: أنت ممن قبل الله دعـاءك وإن لم يعطك سـؤلك. أما الجـواب الثـاني ففيـه: أن الـداعي لا يسـلم من إحـدى ثلاث: الحالة الأولى: أن يعطى سؤله في الدنيا. الحالة الثانية: أن يدخر له في الآخرة. الثالثة: أن يصرف عنه من الشر مثلـه. فهو رابح بكل حـال. أما الجـواب الثـالث فهـو: أن الـدعاء قد يتخلف سـبب الإجابة فيـه؛ وذلك لأن الإجابة لها أسـباب وموانـع، فمثلاً: كـون الإنسان مؤمناً صحيح الاعتقـاد هـذا يعتـبر سـبباً من أسـباب الإجابـة، وكـذلك الإلحاح في الدعاء، واستحضار القلب، واجتماع القلب واللسـان على الـدعاء،

وكذلك الاضطرار، بأن يقع المرء في شدة وضرورة فيلجأ إلى ربه صـادقاً في دعائه أن يرزقه وأن يستره وأن ينصـره، ومن ذلك أن يسـتعمل المـرء أدعية مـأثورة، وكـذلك تحـري أوقـات الإجابة وأمـاكن الإجابـة، فـإذا اجتمعت فيه الأسباب أعطي سؤله. فلو حصل ذلك لرجل فسـمع به رجل آخر وقـال: فلان أعطي ســؤاله لما دعا بقوله مثلاً: اللهم إني ظلمت نفسي فــاغفر لي فغفر له، أو لما قال: اللهم ارزقني رزقاً حسناً ويسر لي اليسرى وجنبني العسرى، وأنا دعـوت ولكن لم يسـتجب لي، فأنا لا أزال في شـدة، ولا أزال في جهـد. نقــول: تخلف فيك ســبب من أســباب الإجابــة، فلو اجتمعت الأســباب فيك لاستجيب دعاؤك، ولكن العلة أنه تخلف سـبب أو وجد مـانع، فمثلاً: قد يكـون التقصير في شيء من الأعمال مانعاً من الإجابة، وارتكاب شيء من السيئات والمخالفات يكون مانعاً من الإجابة. ثم ما مثل به الشـارح رحمه الله بقولـه: قد يوجد مثلاً من إنســان دعــاء عند قــبر ولكنه دعا وهو مضــطر، ودعا وهو صادق الرغبة فظن أن إجابته بسبب ذلك القبر، فسمعه الآخرون فقالوا: هــذا القبر تستجاب عنـده الـدعوة، وهـذا القـبر يجيب من دعـاه، وليس كـذلك في الحقيقــة، بل الأمر إنما حصل إما مصــادفة، وإما بــأمر ســماوي، وإما بحاجة حصلت له، فالحاصل أن الإنسان عليه أن ينظر ويـأتي بالأسـباب الـتي تكـون مؤثرة ومفيدة في إجابة الــدعاء. نحمد الله على ما أولى من النعم، ودفع من النقم، نحمد الله على طول الأعمار والتردد في الآثـار، نحمد الله على ظهـور فضله ونسأله سبحانه الإعانة على ذكره وشكره وحسن عبادته. ......

قد أثنى الله على نفسه بأنه مالك كل شيء، ووصف نفسه سبحانه بصفات ذاتية وصفات فعلية، وقد أنكر الصفات الفعلية كالغضب والرضا كثير من الأشعرية، وأولوها بالإرادة زعماً منهم أن الله منزه عنها لاتصاف المخلوقين بها، ولعلماء السنة أجوبة عليهم واضحة مستندة إلى الكتاب والسنة.

أهمية الدعاء وإنكار بعض طوائف القدرية له

مما درسناه في مسائل الاعتقاد مسألة الدعاء، وأن ربنا سبحانه أمر أن ندعوه ووعدنا أن يستجيب لنا، قال تعالى: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم [غافر:60]، وقال تعالى: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ [البقرة:186]، وقال تعالى: وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا [الأعراف:56]، ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً [الأعراف:55] والآيات في أمر الله عباده بأن يدعوه كثيرة. وقد عرفنا أن الدعاء هو النداء، وأنا إذا قلنا: اللهم اغفر لنا! اللهم أعطنا سؤلنا! فذلك يستدعي نداءً منا لربنا، والمعنى: يا الله! يا ربنا! وهكذا الأدعية التي في القرآن مثل قوله: رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا [البقرة:286] التقدير: يا ربنا! لا تؤاخذنا. وقد ذكرنا أن الدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وأن كلاً منهما يلزم منه الآخر، فدعاء المسألة يستلزم دعاء العبادة، ودعاء العبادة يتضمن دعاء المسألة، ودعاء العبادة يدخل فيه كل العبادات، فمثلاً: الصلوات دعاء عبادة، والأذكار دعاء عبادة، والقراءة دعاء عبادة، والأوراد دعاء عبادة، والصدقات والصلات والبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما أشبه ذلك من الأعمال الخيرية، وهكذا ترك المنكرات دعاء عبادة كلها، ولكن هي في الحقيقة تتضمن دعاء المسألة، وذلك أن العابد ربه ما قصد إلا المسألة، فكأنه يقول: أقصد من صلاتي الثواب.. أقصد من صدقتي الثواب.. أقصد من دعائي ومن ذكري ومن قراءتي الحياة الطيبة، أو كأنه يقول: أصلي لك يا ربي! أو أحج لك يا ربي! لتغفر لي ولترزقني ولتصلح أحوالي، إذاً: فهو داع، إلا أنه في حقيقة أمره يقصد الأجر على هذه العبادات. وقد ذكرنا أن الاشتغال بالدعاء والذكر يقوم مقام السؤال؛ لأنه ورد في الحديث القدسي أن الله يقول: (من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)، ولأجل ذلك وردت أدعية في القرآن لفظها لفظ الدعاء ولكنها ذكر وثناء، مثل قول الله تعالى في سورة آل عمران قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [آل عمران:26-27] هذه الآيات ليس فيها سؤال، إنما فيها مجرد الثناء على الله، ولكن هذا الثناء يستلزم الدعاء. نقول: هذه هي حقيقة الدعاء، وقد

ذكرنا أن المسـائل الـتي تلحق بهـذا الكتـاب غالبـاً يكـون فيها خلاف مع بعض المبتدعة. ......

افتقار الخلق إلى الله وحاجتهم إليه

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [قوله: (ويملك كل شيء ولا يملكه شـيء، ولا غـنى عن الله تعـالى طرفة عين، ومن اسـتغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصـار من أهل الحين. كلام حق ظـاهر لا خفـاء فيـه، والحين بـالفتح الهلاك]. قوله: (ويملك كل شيء ولا يملكه شيء) كلام ظاهر، بمعنى: أن الله تعـالى هو المالك لكل شيء، كما أخبر تعالى بقوله: لَـهُ الْمُلْـكُ وَلَـهُ الْحَمْد [التغـابن:1]، وقوله: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ [الملك:1]، ولا شك أن الملك والمالك من أسماء الله، فهو الذي يملك التصرف الكامل، فهو مالك الدنيا ومالك الآخــرة، ومالك العباد، ومالك البلاد، ومالك الرقـاب، ومـذلل الصـعاب، هو المالك لكل شيء، ولا يملكه شيء، فهو الخالق وما سواه مخلوقـون، والمالك وما سـواه مملوكون، فمعنى هذه الجملة: الاعتراف بـأن الملك ملكـه، وبـأن العبيد كلهم وما في أيديهم مملوكـون لـه، وملكهم لما تحت أيـديهم وتحت تصـرفهم ملك خـاص لا يملكـون له اسـتقلالاً، وهو أيضـاً ملك مـؤقت، فـإذا قلت مثلاً: هـذه الدولة يملكها فلان أو رئيسها فلان، نقول: إن ملكه خـاص ومـؤقت، وإذا قلت مثلاً: هذه المزرعة ملك فلان أو هذه العمـارة ملك فلان، فـالمعنى أنه يملكها ملكـاً خاصـاً وملكـاً مؤقتـاً، ربما تنـتزع منه أو ينـتزع منها أو يمـوت ويتركهـا، فعرف بذلك أن الملك الحقيقي هو الله تبارك وتعالى: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ [الملـك:1]، فَسُـبْحَانَ الَّذِي بِيَـدِهِ مَلَكُـوتُ كُـلِّ شَـيْء [يس:83]. وأما كونه سـبحانه لا غـنى لأحد عنه طرفة عين فقد تقـدم معـنى ذلك في الجمل المتقدمة والـتي ذكر فيها أن العبـاد بحاجة إلى ربهم، وأنهم مضـطرون إلى سؤاله، وهو سبحانه يحب منهم أن يسألوه ويدعوه، ويـرغبهم في أن يسـألوه ويستعطوه من فضله مع كونهم بحاجة إلى عطائه وهو غني عنهم، يقـول الله تعالى يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ [فـاطر:15]، ويقـول تعـالى وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَـرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْـتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْـرَكُم [محمد:38]، فوصف نفسه بأنه الغني والعبـاد فقـراء إليـه، ورد في الحـديث القدسي الصـحيح (يا عبـادي! كلكم جـائع إلا من أطعمته فاسـتطعموني أطعمكم، يا عبادي! كلكم عار إلا من كسـوته فاستكسـوني أكسـكم). فـإذاً لا أحد يستغني عن الله طرفة عين، والذين يظهـرون أنهم يملكـون نعم الله هم في الحقيقة فقراء ولو ذللت لهم الـدنيا، ولو سـخرت لهم الـدنيا حـتى انخـدع كثير منهم، حتى ذكر لي عن بعض الكفرة الذين كانوا بين المسلمين لما قيل لأحدهم: اعبد الله فإن الله هو الذي رزقك، أنكر ذلك والعياذ بالله وقـال: إنما رزقتني يميني. أعوذ بالله من ذلـك، يعـني: اعتمد على أنه الـذي كسب أو لم يكسـب، ونسي أن الله حنن عليه أبويه في طفولتـه، وأنه وكل به من يطعمه ويسقيه ويغذيه في حالة عجزه، حتى اشتد عظمه وقوي هيكلـه، فنسي فضل

الله عليــه، واعتقد أنه هو الــذي أغــنى نفســه، ولو شــاء الله لانتقم منهم ولسلبهم ما أعطاهم، فعلى الإنسان أن يعترف أنه فقـير إلى الله وأن ربه هو الغني، وأن العباد لا غنى لهم عن ربهم طرفة عين. ......

صفات الله الفعلية كالغضب والرضا

قال المؤلف: [وقوله: (والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى) قـال تعـالى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم [المائـدة:119]، لَقَـدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَـكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ [الفتح:18]، وقال تعالى مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِـبَ عَلَيْهِ [المائـدة: 60]، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَه [النساء:93]، وَبَاءُوا بِغَضَـبٍ مِنَ اللَّه [البقـرة: 61] ونظـائر ذلك كثـيرة. ومـذهب السـلف وسـائر الأمة إثبـات صـفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات الـتي ورد بها الكتاب والسـنة، ومنع التأويل الـذي يصـرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعـالى، كما يقولون مثل ذلك في السـمع والبصر والكلام وسـائر الصـفات، كما أشـار إليها الشيخ فيما تقدم بقوله: (إذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معـنى يضـاف إلى الربوبية ترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين). وانظر إلى جـواب الإمـام مالك رضي الله عنه في صـفة الاسـتواء كيف قـال: الاسـتواء معلـوم والكيف مجهـول. وروي أيضـاً عن أم سـلمة رضي الله عنها موقوفـاً عليها ومرفوعاً إلى النبي صـلى الله عليه وسـلم، وكـذلك قـال الشـيخ رحمه الله فيما تقدم: (من لم يتـوق النفي والتشـبيه زل ولم يصب التنزيه) ويـأتي في كلامــه: (إن الإسـلام بين الغلو والتقصـير والتشـبيه والتعطيل) . وقــول الشـيخ رحمه اللــه: (لا كأحد من الــورى) نفى التشـبيه ولا يقــال: إن الرضا إرادة الإحسان، والغضب إرادة الانتقام، فإن هـذا نفي للصـفة، وقد اتفق أهل السـنة على أن الله يـأمر بما يحب ويرضـى، وإن كـان لا يريـده ولا يشـاؤه، وينهى عما يسـخطه ويكرهه ويبغضه ويغضب على فعلـه، وإن كـان قد شـاءه وأراده، فقد يحب عنـدهم ويرضى ما لا يريـده، ويكـره ويسـخط ويغضب لما أراده. ويقال لمن تأول الغضب والرضا بإرادة الإحسـان: لم تـأولت ذلـك؟ فلا بد أن يقـول: لأن الغضب غليـان دم القلب، والرضا الميل والشـهوة، وذلك لا يليق بالله تعالى! فيقال لـه: غليـان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صـفة الغضب، لا أنه هو الغضب، ويقال له أيضاً: وكذلك الإرادة والمشيئة فينـا، فهي ميل الحي إلى الشـيء أو إلى ما يلائمه ويناسـبه، فـإن الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة، أو يدفع عنه مضرة، وهو محتاج إلى ما يريـده، ومفتقر إليــه، ويزداد بوجوده، وينقص بعدمـه، فـالمعنى الـذي صـرفت إليه اللفظ كـالمعنى الذي صرفته عنه سواء، فإن جاز هذا جاز ذاك، وإن امتنع هذا امتنع ذاك. فـإن قال: الإرادة الـتي يوصف الله بها مخالفة للإرادة الـتي يوصف بها العبـد، وإن كان كل منهما حقيقة، قيل له: فقـل: إن الغضب والرضا الـذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد، وإن كان كل منهما حقيقة، فإن كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل، بل يجب تركه؛ لأنك

تسلم من التناقض، وتسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعـالى وصـفاته بلا موجب، فإن صـرف القـرآن عن ظـاهره وحقيقته بغـير مـوجب حـرام، ولا يكون الموجب للصرف ما دله عليه عقله، إذ العقول مختلفة، فكل يقــول: إن عقله دله على خلاف ما يقوله الآخر. وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى لامتناع مسـمى ذلك في المخلـوق، فإنه لابد أن يثبت شـيئاً لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صـفة الوجـود، فـإن وجـود العبد كما يليق بـه، ووجـود البـاري تعـالى كما يليق بـه، فوجـوده تعـالى يسـتحيل عليه العـدم، ووجـود المخلـوق لا يسـتحيل عليه العـدم، وما سـمى به الـرب نفسه وسـمى به مخلوقاتـه، مثل الحي والعليم والقـدير، أو سـمى به بعض صـفاته كالغضب والرضا، وسـمى به بعض صـفات عبـاده، فنحن نعقل بقلوبنا معـاني هذه الأسماء في حق الله تعالى، وأنه حق ثابت موجـود، ونعقل أيضـاً معـاني هذه الأسماء في حق المخلـوق، ونعقل أن بين المعنـيين قـدراً مشـتركاً، لكن هذا المعنى لا يوجد في الخارج مشـتركاً، إذ المعـنى المشـترك الكلي لا يوجد مشتركاً إلا في الأذهان، ولا يوجد في الخارج إلا معيناً مختصـاً، فيثبت في كل منهما كما يليق بـه، بل لو قيـل: غضب مالك خـازن النـار وغضب غـيره من الملائكـة، لم يـوجب أن يكـون ممـاثلاً لكيفية غضب الآدمـيين؛ لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة، حتى تغلي دماء قلوبهم كما يغلي دم قلب الإنسان عند غضبه، فغضب الله أولى]. أما الكلام الـذي بعـده فيتعلق ببعض الصـفات ومنها صفة الغضب والرضا والسـخط والحب والبغض ونحوهـا، وهـذه تسـمى صفات فعلية، لأنه قد تقـدم أن الصـفات تنقسم إلى قسـمين: صـفات ذاتيـة، وصــفات فعليــة، فالصــفات الذاتية هي الملازمة للموصــوف؛ كصــفة الكلام والحياة وصفة الوجه واليد والسمع والبصر ونحوها، وأما صـفة العلو والـنزول وصفة الحب والبغض والكراهية والسخط والغضب والرضا فهذه صفات فعل، أي أن الله يفعلها إذا شاء، وقد تكاثرت الأدلة على إثبات صـفات الأفعـال في القرآن وكذا في السنة، ومع كثرتها فقد أنكرها الكثـير من المبتدعـة، فأنكرها المعتزلة وإن كـانوا قد أنكـروا أيضـاً الصـفات الذاتيـة، وأنكر الأشـعرية هـذه الصفات الفعلية. ولكن أهل السنة لم ينكروها، بل أقروا بهـا؛ وذلك لأنهم رأوا الأدلة عليها من القرآن والسنة متـواترة وواضـحة فقـول الله تعـالى: وَغَضِـبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَـاءَتْ مَصِـيرًا [الفتح:6]، هل ننكر دلالة هذه الآية على صفة الغضب؟ وكـذلك قولـه: وَالْخَامِسَـةَ أَنَّ غَضَـبَ اللَّهِ عَلَيْهَا [النور:9]، وكـذلك قوله في القاتـل: وَمَنْ يَقْتُـلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَـزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِـدًا فِيهَا وَغَضِـبَ اللَّهُ عَلَيْهِ [النسـاء:93]، وكـذلك قوله في قـوم هـود لما أغضبوه: وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّه [البقرة:61]، ونحو ذلك. وكذلك آيات السخط مثل قوله تعالى: بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّه [آل عمران:162]، وكـذلك وردت آيـات الرضا كثيراً في القرآن: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْه وهكـذا أيضـاً الأحـاديث كحديث الشفاعة إذا جاء أهل الموقف إلى آدم يقولـون: (اشـفع لنا إلى ربنـا، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعــده مثله)، وهكذا يقول نوح وإبراهيم وباقي أولي العزم من الرسل، فيقرون بــأن الله تعالى قد غضب اليـوم غضـباً لم يغضب قبله ولن يغضب بعـده مثلـه، فلا

شك أن هذا دليل على أن الأنبياء والرسل يعـترفون لـربهم بأنه يتصف بصـفة الغضب كما يليق به، وعلى هذا فلابد من إثبات هـذه الصـفة، ولكن إذا أثبتناها فإنـا: أولاً: لا نكيفهـا، ولا نقـول كيفية الغضب كـذا وكـذا في حق اللـه. ثانيـاً: ننزهها عن مشـابهة غضب المخلـوق، ولهـذا يقـول الطحـاوي رحمه اللـه: (لا كأحد من الـــورى) أي: لا كغضب أحد من الخلـــق، إذاً غضب الله يليق بـــه، وغضب المخلوق يليق به. وقد أنكر الأشاعرة هذه الصـفة وقـالوا: إن الغضب الذي نعرفه هو غليـان دم القلب لطلب الانتقـام، وهـذا الوصف لا يليق باللـه، فقـال لهم أهل السـنة: فبمـاذا تفسـرون الآيـات والأحـاديث الـتي فيها إثبـات الغضب؟ فقالوا: نفسـره في حق الله بأنه إرادة الانتقـام، قلنـا: كيف صـرفتم غضب الله إلى إرادة الله أن ينتقم؟ والأشاعرة إنما صرفوه إلى هـذا المعـنى لأنهم يعترفون بـالإرادة، فيثبتـون صـفة الإرادة للـه، وإذا قلنا لهم: الإرادة هي ميل النفس إلى المراد، قالوا: لا، هذه إرادة المخلوق، قلنا: الغضب الــذي هو غليان دم القلب هذا غضب المخلوق أيضاً، فأنتم فررتم من شيء ووقعتم في مثله، فالأولى لكم أن تثبتوا صفة الغضب وتنفوا عنها التشبيه، وتكلون كيفيتها إلى الله تعالى، كما تفعلـون ذلك في سـائر الصـفات؛ وذلك لأن المخلـوق قد وصف بكثير من الصفات التي هي من صفات اللـه، ومع ذلك يوجد فـارق بين صفات الخالق وصـفات المخلـوق، فـإذا أثبتنا صـفة السـمع والبصر كما أثبتها الله تعـالى لنفسه وَكَانَ اللَّهُ سَـمِيعًا بَصِـيرًا [النسـاء:134]، وَأَنَّ اللَّهَ سَـمِيعٌ بَصِيرٌ [الحج:61]، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا [المجادلة:1]، وكذلك الإنسان، قـال تعالى: فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِـيرًا [الإنسـان:2]، أَسْـمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِـر [مـريم:38]. فالإنسـان سـميع والله سـميع، فهل يلـزم التشـابه بين سـمع الخـالق وسـمع المخلوق؟ لا يلزم. فاشترك سـمع الله وسـمع المخلـوق في معـنى عـام وهو التشبيه العام، أي أنه إذا قيـل: أليس السـمع هو إدراك الأصـوات؟ قلنـا: نعم، السمع هو إدراك الأصوات، ولكن سمع الله لا يحجبه شـيء، فهو يسـمع دبيب النملة على الصـخرة الصـماء، وسـمع الله أيضـاً لا تختلف عليه الأصـوات، ولا تغلطه كثرة المسائل مع اختلاف اللغات والمسئولات، وسـمع المخلـوق ليس كذلك، فأنت إذا تكلم عندك اثنان في آن واحد اشـتبه عليك ما يقـول هـذا بما يقـول هـذا، أما الـرب تعـالى فإنه لا يشـغله سـمع عن سـمع، فيكـون الفـرق ظـاهراً. وكـذلك يقـال في البصـر، فالله تعـالى موصـوف بالبصر والإنسـان موصوف بالبصر، والاشـتراك إنما هو في المعـنى العـام وهو أن يقـال: أليس معنى البصر إدراك الأشباح التي تتمثل أمام العيـنين؟ فنقـول: نعم، لكن بصر الله ليس كبصر المخلوق، فالله تعـالى موصـوف بالبصر ولا يحجبه شـيء عن أن يبصر مخلوقاته بعيدهم وقريبهم، أما المخلوق فلا يخرق بصره هذا الجـدار أو هذا الحجاب، وإذا كان هذا فارقـاً فكـذلك نقـول في الغضب والرضـا، وفي السخط والبغض والكراهية والمحبة نقول: إن بين محبة الله ومحبة المخلـوق فرقاً، ولا نقول: إن محبة الله هي ميل النفس إلى المحبوب أو الانعطاف نحو الشـخص المحبـوب أو نحو ذلـك. كـذلك مثلاً قد قـال النـبي صـلى الله عليه وسلم: (الراحمـون يـرحمهم الـرحمن، فـارحموا من في الأرض يـرحمكم من في السماء)، رحمة المخلوق معناها عطفه وحنـوّه على الضـعيف ورقته عليه

حتى ينقذه من شدة أو يفـرج عنه همـاً أو ينصـره من مظلمة أو يؤويه أو نحو ذل......

يثبت أهل السـنة الصـفات الفعلية للـه، وينكر ذلك الجهمية والأشـاعرة والكلابية، معتمدين على أصل فاسد، وهو أن الله ليس محلاً للحـوادث، ولكن الكتاب والسنة على خلاف ما هم عليه، ولا عبرة باللوازم الباطلة.

إنكار طوائف أهل البدع لأسماء الله وصفاته

معلوم أن أشد البدع وأكثرها فشواً وانتشـاراً بدعة التعطيل الـتي هي تعطيل الله عن صـفات الكمـال؛ وذلك لأن الـذين روجوها وأدخلوها كـأنهم اكتسـبوا الناس بـالعقول، وأقنعـوا من اتصـلوا به أو من دعـوه إلى أن أدلتهم العقليـة، وأن العقل هو الأصل في النقل، وأنهم ما عرفوا صدق الرسل إلا بالعقـل، فلا يمكن أن يصدقوا الرسل فيما يخالف العقل أو فيما لا يقـره العقـل. ومعلـوم أن المعطلة يقـال لهم الجهميـة؛ لأن الجهم بن صـفوان هو الـذي نشر بدعة التعطيل التي أخذها عن الجعد بن درهم ، والجعد هو الذي قتله خالد القسري في يوم عيد الأضحى وقال: أيها الناس! ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بـالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبـراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، ثم نزل فقتله، وفي ذلك يقول ابن القيم في النونيـة: ولأجل ذا ضـحى بـجعد خالد الـ قسري يـوم ذبـائح القربـان إذ قـال إبـراهيم ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الداني شكر الضحية كل صاحب سنة لله درك من أخي قربـان فكل صاحب سـنة شـكره على هـذه الضـحية، فهكـذا أسس البدعة الجعد بن درهم ثم تبعه الجهم بن صفوان الذي قتله سلم بن أحـوز ، ثم انتشـرت هـذه البدعة، وصارت عقيدة لطائفة تسموا بالمعتزلة أنكروا صفات الله تعـالى، بل أنكروا أسماءه وجعلوها أعلامـاً لا تـدل على صـفات، فقـالوا: إن الله عليم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصـر، رحيم بلا رحمـة، وهكـذا.. وأنكـروا أيضـاً صفات الأفعال وصفات الذات، فأنكروا علو الله تعالى على خلقه، وأنكـروا ما أثبته لنفسه من صـفات، حيث أثبت لنفسه الوجه في قولـه: وَيَبْقَى وَجْـهُ رَبِّكَ [الرحمن:27]، وأثبت لنفسه اليدين في قوله: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان [المائـدة: 64]، وأثبت لنفسه العين في قوله: تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا [القمر:14]، فجاء المعطلة ونفوا ذلك كله. كـذلك نفـوا الصـفات الفعليـة، فنفـوا أن الله تعـالى يـرحم أو يحب أو يغضب أو يرضـى، ووافقهم على هـذا النفي طائفة متـأخرة تسـموا بالأشـاعرة، انتسـبوا إلى أبي الحسن الأشـعري ، ولكن الأشـعري تـبرأ منهم ورجع عن طـريقتهم، واعتقد معتقد الإمـام أحمد ومن كـان على طريقته من أهل السنة، لكن هؤلاء الذين تسموا بالأشـاعرة اتخـذوا طريقة عن الأشـعري كان قد رجع عنها. ومن عقيدتهم أنهم لا يثبتون إلا سبع صفات، وأنهم ينكرون صفات الأفعال، فصـفة الغضب يثبتها أهل السـنة ويقولـون: إن الله يغضب لا كغضب المخلـوق، ويرضى لا كرضا المخلـوق، ويحب لا كمحبة المخلـوق، ويسخط ويكـره، كما أخـبر عن نفسه في عـدد من الآيـات، ويبغض من يشـاء

كما يحب من يشـاء، ويـرحم من يشـاء. ولا شك أن هـذه صـفات كمـال، ولو كانوا يتوهمون أنها مستحيلة فنحن نقول: نثبت أن الله تعالى يحب من يشـاء، كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ [الصـف:4]، ونثبت أن الله يرضـى، كما قـال تعـالى: رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْه [المائـدة:119]، ونثبت أنه يغضب، كما قال تعالى وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُم [الفتح:6]، ونثبت أن الله يكره، كما قال تعالى: وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُم [التوبـة:46]، وهكـذا.. فهـذه كلها تسـمى صـفات فعليـة، ولكن نـنزه الله أن تكـون هـذه الصـفات كصفات المخلوقين، بل صفات المخلوق تناسبه وصـفات الخـالق تناسـبه، ولا نفســرها تفســيراً أكـثر من إثباتها وأنها حقيقـة، فالـذين نفوها قـالوا: إنها لا يتصف بها إلا المخلــوق، وإنه يلـــزم من إثباتها تشـــبيه الله بـــالمخلوق، وإن الغضب هو غليـان دم القلب لطلب الانتقـام، وأن المحبة هي ميل النفس إلى المحبوب، وأن الرحمة رقة تكون في الـراحم، وأن هـذا لا يليق أن يكـون في الخالق، وما أشبه ذلك، ولكن عمدتهم أن العقل يستبعدها، أي أنه لا يمكن أن يتصف بها الخـالق عقلاً، فقـدموا العقل على النقـل، واعتمـدوه دليلاً. فيقـال لهم: ما دمتم قد اعترفتم بأن الرسل صادقون، وبأن عقولكم دلت على صدق الرسل، فعليكم أن تتقبلوا كل ما جاء عنهم، وألا تردوا شيئاً دون شيء؛ لأنكم إذا رددتم بعضاً دون بعض فقد صدقتم بشـيء وكـذبتم بشـيء فيصـدق فيكم قوله تعالى: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [البقرة:85]، ويتحقق فيكم الوعيد الذي توعد الله به اليهـود. وبـذلك نعـرف أننا إذا آمنا بجميع ما جـاء في كتـاب الله وفي شريعة رسوله فيما يتعلق بالأسماء والصفات، وفيما يتعلق بـالبعث والنشـور، وفيما يتعلق بالعبـادات والمعـاملات، وفيما يتعلق بـالأحوال الشخصـية، وفيما يتعلق بســائر الأحكــام، آمنا بالله وبما جــاء عن الله وعلى مــراد اللــه، وآمنا برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسـول اللـه، وآمنا بالكتـاب كلـه، ووكلنا ما لا نعـرف تأويله إلى عالمه وتوقفنا عن التـأويلات الـتي يتأولها أولئك المحرفون للكلم عن مواضعه، فصرنا بذلك مؤمنين بكتاب الله، متبعين لرسول الله، مصدقين لما جاء به، وهذا هو الإيمـان الـذي أمر الله به وأمر به رسـوله، وهـذا هو معتقد أهل السـنة. فـإن شـاء الله أن أهل السـنة الـذين يعتقدون هذا سيحشرون مع سلف الأمة وأئمتها.......

إنكار الجهمية لأسماء الله وصفاته

قال المؤلف رحمه الله تعـالى: [وقد نفى الجهم وكل من وافقه كل ما وصف الله به نفســه، من كلامه ورضــاه وغضــبه وحبه وبغضه وأســفه ونحو ذلــك، وقالوا: إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه، ليس هو في نفسه متصفاً بشـيء من ذلك. وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه، فقـالوا: لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصـلاً، بل جميع هـذه الأمـور صـفات لازمة لذاته قديمة أزليـــة، فلا يرضى في وقت دون وقت، ولا يغضب في وقت دون

وقت، كما قال في حديث الشفاعة: (إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله). وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك! فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) فيستدل به على أنه يحل رضوانه في وقت دون وقت، وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط، كما يحل السخط ثم يرضى، لكن هؤلاء أحل عليهم رضواناً لا يتعقبه سخط. وهم قالوا: لا يتكلم إذا شاء، ولا يضحك إذا شاء، ولا يغضب إذا شاء، ولا يرضى إذا شاء، بل إما أن يجعلوا الرضا والغضب والحب والبغض هو الإرادة، أو يجعلوها صفات أخرى، وعلى التقديرين فلا يتعلق شيء من ذلك لا بمشيئته ولا بقدرته، إذ لو تعلق بذلك لكان محلاً للحوادث، فنفى هؤلاء الصفات الفعلية والذاتية لهذا الأصل، كما نفى أولئك الصفات مطلقاً بقولهم: ليس محلاً للأعراض. وقد يقال: بل هي أفعال، ولا تسمى حوادث، كما سميت تلك صفات ولم تسمّ أعراضاً، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى، ولكن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلا م في الصفات في المختصر في مكان واحد، وكذلك الكلام في القدر ونحو ذلك، ولم يعتن فيه بترتيب. وأحسن ما يرتب عليه كتاب أصول الدين، ترتيب جواب النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام حين سأله عن الإيمان فقال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) الحديث، فيبدأ بالكلام على التوحيد والصفات، وما يتعلق بذلك، ثم بالكلام على الملائكة، ثم .. وثم إلى آخره]. يتعلق هذا الكلام بالرد على الذين يثبتون بعض الصفات دون بعض، أو ينفون الصفات كلها، وعرفنا أن الجهمية ينفون الصفات بل ينفون الأسماء، وعلة النفي عندهم أنه ليس محلاً للحوادث، ويقولون: إننا ننزه الله عن الأعراض وعن الأبعاض، وما أشبه ذلك. ولا شك أن هذا قول بعيد عن الصواب، وذلك لأنا لا نقول بالأعراض، بل نقول: إن الرب سبحانه وتعالى بصفاته واحد فلا أعراض هناك ولا أبعاض ولا حوادث ولا غير ذلك.

إنكار الأشاعرة لصفات الله الفعلية

أما الأشاعرة ومثلهم الكلابية فيسمون الصفاتية، والذي سماهم بهذا الاسم المعتزلة، فالمعتزلة والجهمية ينكرون الصفات كلها، فلما أن الأشاعرة والكلابية أثبتوا سبع صفات وهي: العلم والإرادة والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام، سمتهم المعتزلة الصفاتية. والصفاتية منهم الكلابية أتباع

محمد بن سـعيد بن كلاب ، وكـذلك الأشـاعرة أتبـاع أبي الحسن الأشـعري، وهـؤلاء أنكـروا الصـفات الفعليـة، فـأنكروا قـول الله تعـالى رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُم [المائدة:119]، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم [الفتح:6]، فَلَمَّا آسَـفُونَا [الزخـرف:55]، وقوله لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَـرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَـكُم [غـافر:10] فـأنكروا المقت والأسف والحب والبغض والغضب والرضا والكراهية والسـخط والرحمة وما أشبهها، وكان سبب إنكـارهم لها -على زعمهم- لأنها حـوادث، والله لا تحل به الحـوادث، ويعللـون بهـذا التعليل في كتبهم قـديماً وحـديثاً. وكـان من آخر علمائهم عالم مصري يقال له: زاهد الكوثري ، الذي مـات في أواسط القـرن الماضي، فهو في تعليقاته على كثـير من الكتب، وفي تحقيقاته لها ينكر هـذه الصـفات، ويـرد على من أثبتها بـأنهم جعلـوا الله محلاً للحـوادث، بمعـنى أنه حـدث عليه الرضا بعد أن لم يكن راضـياً، وحـدث عليه المحبة بعد أن لم يكن محباً، وحـدث عليه السخط بعد أن لم يكن سـاخطاً، وحـدث عليه المقت بعد أن لم يكن ماقتاً، والكراهية بعد أن لم يكن كارهاً، وهكذا، هذا معـنى قـولهم: إنه محل للحـوادث. ونحن نقـول: ليس كـذلك، بل الله تعـالى يحب إذا شـاء ويبغض إذا شاء وله المشيئة التامة، كما قال تعالى وَمَا تَشَـاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّه [الإنسان:30]، فجعل له المشيئة والإرادة متى شاء، وكـذلك أيضـاً أخـبر بأنه يكره متى شاء ويغضب متى شاء ويرضى إذا شاء، وأخبر النبي صلى الله عليه وسـلم بـأن الله يغضب في وقت دون وقت، وذلك في حـديث الشـفاعة الـذي يـأتي فيه أهل الموقف إلى الأنبيـاء طلبـاً للشـفاعة فيقولـون: (يا آدم! اشفع لنا إلى ربك، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضـباًلم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله) وهكذا يقول نـوح وإبـراهيم وموسى وعيسـى، فـأثبتوا أن الله تعالى غضب في ذلك اليوم غضباً شديداً، أي: على أولئك الذين وافوه بـالكفر والشـرك، ووافـوه بالمعاصي والمخالفـات، فلابد أن ينتقم منهم وأن يعذبهم وأن ينزلهم دار عذابه التي يسـتحقونها، فما ورد في هـذا الحـديث دل على مخالفة قـول ابن كلاب ومن معه من أن الغضب لا يكـون في وقت دون وقت. فهؤلاء الصـفاتية يقولـون: هـذه الصـفات لا تتغـير، فـإن كـان موصـوفاً بالغضب فالغضب صفة له دائمة، وإن كـان موصـوفاً بالرضا فالرضا صـفة له دائمة، وعلى هذا يكـون موصـوفاً بأنه غاضب وبأنه راض دائمـاً في آن واحـد، وبأنه محب ومبغض في آن واحد، وكـاره وراض في آن واحـد، فيجمعـون بين النقيضين، ويجعلونها صفات ملازمة له، فخالفوا بقولهم الأدلـة، والـتي فيها ما جاء في قول الله لأهل الجنة: (أحل عليكم رضـواني فلا أسـخط عليكم بعـده أبداً)، فدل على أنه رضي عنهم رضاً مستمراً، وأن هـذا الرضا هو الـذي أحله بهم في دار الكرامـة، وهو أكـبر نعيم لهم، قـال الله تعـالى في سـورة التوبة وَرِضْـوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَـرُ [التوبـة:72] أي: أكـبر نعيم لهم هو هـذا الرضا عنهم، فهـذا دليل على أن الله يرضى إذا شـاء ويغضب إذا شـاء، وكـذلك نقـول في بقية الصفات.

من عقائد أهل السنة محبة أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وقد مدحهم الله في كتابه، ومدحهم رسوله عليه الصلاة والسلام في سنته، فمحبتهم إيمان، وبغضهم نفاق.

عقيدة أهل السنة في الصحابة

قال الشارح رحمه الله: [وقوله: (ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرؤ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان). يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الروافض والنواصب، وقد أثنى الله تعالى على الصحابة هو ورسوله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم، ووعدهم الحسنى كما قال تعالى: وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة:100]. وقال تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا [الفتح:29] إلى آخر السورة، وقال تعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ [الفتح:18]، وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْض [الأنفال:72] إلى آخر السورة، وقال تعالى: لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [الحديد:10]، وقال تعالى: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [الحشر:8-10] وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاءوا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون الله ألا يجعل في قلوبهم غلاً لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء، فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا يستحق في الفيء نصيباً بنص القرآن. وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبه خالد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسبوا أحداً من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه) انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن دون البخاري ،

فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول لخالد ونحوه: (لا تسبوا أصحابي) يعني: عبد الرحمن وأمثاله؛ لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون، وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان، وهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية وبعد مصالحة النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة، ومنهم خالد بن الوليد ، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة، وسموا الطلقاء، منهم أبو سفيان وابناه يزيد و معاوية]. هذا ابتداء الكلام في فضل الصحابة رضي الله عنهم، وسبب الكلام في الصحابة أنه وجد طوائف يطعنون في الصحابة ويضللونهم ويبدعونهم ويرمونهم بالنفاق ويرمونهم بالردة، ويتبرءون منهم بل ويشتمونهم ويلعنونهم قديماً وحديثاً، وهؤلاء الطوائف فرقتان: الروافض والنواصب؛ فالروافض: هم الذين يغلون في علي وذريته من أهل البيت فقط، ويزيدون في حبهم، وأما بقية الصحابة أو أكثرهم فإنهم يكفرونهم، أما النواصب: فهم الذين يضللون علياً وذريته أو من كان قريباً منهم، ويميلون إلى بني أمية أو إلى من والاهم، وسموا نواصب؛ لأنهم نصبوا العداوة لأهل البيت، ولكن الرافضة هم الذين كثروا وظهر تمكنهم فيما هم فيه، فأصبحوا ينتشرون في الأرض وتقوى شوكتهم. ......

ثناء الله على الصحابة

حب الصحابة رضي الله عنهم جميعاً من الإيمان، ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار: (لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق) ومعلوم أن المهاجرين أقدم من الأنصار، وأفضل منهم، والله تعالى يقدم ذكرهم على الأنصار في القرآن، ومع ذلك فالأنصار لهم ميزتهم ولهم فضلهم، ولهم مكانتهم في السبق والفضل، كذلك أيضاً قد أثنى الله تعالى على جميع الصحابة كقوله تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَه [الفتح:29] فلم يخص الله بعضهم، بل قال: (والذين معه) أي: كل الذين يجاهدون معه، والذين يجالسونه، والذين يصلون معه، كلهم مدحهم الله بقوله: أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [الفتح:29] هذا وصف لهم، وينبغي أن يكون هذا الوصف في أتباعهم، وهو أن تكون أيها المسلم! شديداً على الكفار رحيماً بالمؤمنين (أشداء على الكفار) يعني: تبغضهم وتمقتهم وتحقر شأنهم وتغلظ لهم القول، وتتبرأ من طريقتهم، وتجاهدهم بما تستطيع من أنواع الجهاد، قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِم [التوبة:73] فوصف الله الصحابة بأنهم أشداء على الكفار، وكأنه يمدح الذين كانوا على هذه الطريقة في الشدة على الكفار، ومدحهم بأنهم رحماء بينهم، أي: يرحم بعضهم بعضاً، وما أجله من وصف أن يكون المؤمن رحيماً بإخوانه مشفقاً عليهم، محباً لهم؛ لأنهم مسلمون وهو مسلم. ووصف الله الصحابة بقوله: تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ [الفتح:29] سيماهم التي هي علامة على وجوههم من كثرة سجودهم،

(ركعاً سجداً) دائماً يشتغلون بالركوع والسجود، وهذا دليل على أن من أخل بهذا الوصف وترك الركوع والسجود والصلاة فإنه مخالف لطريقة الصحابة، ومخالف لطريقة الأمة. ووصفهم الله بأنهم (يبتغون فضلاً من الله ورضواناً) أي: يطلبون فضله ورضوانه. ووصفهم في آخر الآية بقوله: كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ [الفتح:29]، نقول لمن أبغضهم: إنهم قد أغاظوك، فأنت داخل في هذه الآية، فكل من أبغضهم قد صار في قلبه غيظ عليهم، وحقد وشنئان وبغضاء شنيعة لهم، لذلك نصفه بأنه داخل في هذه الآية، فمن أغاظه الصحابة فهو كافر، الله تعالى يقول: (ليغيظ بهم الكفار) فالمبغض لهم الذي أغاضه ما من الله به عليهم، من هؤلاء الكفار. وقد مدح الله تعالى الصحابة بالسبق في قوله تعالى: وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ [التوبة:100] والسابقون يعني: المتقدمون من المهاجرين الذين أسلموا بمكة قبل الهجرة بعشر سنين وبثلاث عشرة سنة، ومن الأنصار الذين أسلموا قبل الهجرة بسنة أو سنتين أو أسلموا بعد الهجرة، ومن الذين اتبعوهم بإحسان يعني: ساروا على نهجهم واتبعوهم إلى يوم القيامة، مدح الله الجميع بقوله: وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ [التوبة:100]، وهذا فضل كبير أن رضي الله عنهم ورضوا عنه، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَار [التوبة:100] وما أعظمها من كرامة. كذلك أيضاً مدحهم بالآيات التي في آخر سورة الأنفال فقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّه [الأنفال:72] آمنوا إيماناً ثابتاً راسخاً في قلوبهم، وهاجروا من بلادهم التي هي بلاد كفر إلى بلاد الإسلام، وجاهدوا بالأموال، وجاهدوا بالأنفس، بذلوا كل ما يملكونه من الأموال، وبذلوا أنفسهم في سبيل الله، هؤلاء هم المهاجرون، وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا [الأنفال:72] أي: الأنصار الذين آووا إخوانهم ونصروهم أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْض [الأنفال:72]، ثم قال بعد ذلك: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا [الأنفال:74] مدحهم بأنهم المؤمنون حقاً، ثم قال بعد ذلك: وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا [الأنفال:75] أي: المتأخرون الذين آمنوا في آخر الأمر وهاجروا وجاهدوا فَأُوْلَئِكَ مِنْكُم [الأنفال:75] وما أعظمها من مزايا لهؤلاء الصحابة، ولكن الرافضة قوم لا يعقلون.. قوم لا خلاق لهم. وقال الله تعالى في سورة الحديد: لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَل [الحديد:10] يعني: السابقون الذين أنفقوا وقاتلوا -سواءً من المهاجرين أو الأنصار- قبل الفتح، يعني: قبل صلح الحديبية الذي فتح الله به على المؤمنين أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْد وَقَاتَلُوا [الحديد:10] يعني: بعد الفتح، ولكن يقول الله تعالى وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى [الحديد:10] وعد الله المتقدم منهم والمتأخر بالحسنى، وهو الثواب الكبير والثواب العظيم. وكذلك لما ذكر الله تقسيم الفيء في سورة الحشر، ذكر أن أول من يستحقه هؤلاء الفقراء من المهاجرين الذين هاجروا بأنفسهم وتركوا ديارهم، وتركوا أموالهم وعشائرهم وأهليهم ونجوا بأنفسهم الَّذِينَ أُخْرِجُوا [الحشر:8] لما ضيق عليهم هربوا،

أُخْرِجُـوا مِنْ دِيـارِهِمْ وَأَمْـوَالِهِمْ [الحشـر:8] لمـاذا؟ يَبْتَغُـونَ فَضْـلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [الحشـر:8] ثم قـال في الأنصــار: وَالَّذِينَ تَبَـوَّءُوا الـدَّارَ وَالإِيمَــانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَـاجَرَ إِلَيْهِم [الحشر:9] أي: هؤلاء الأنصـار يحبـون المهـاجرين؛ لأنهم إخـوانهم وَلا يَجِـدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا [الحشر:9] لو أعطي المهاجرون ما أعطـوا من الفيء ومن الغنائم ما غضب أولئك الأنصار، بل يوافقون على ذلك وَلا يَجِـدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُـوا وَيُـؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِـهِمْ [الحشـر:9] أي: يقـدم الأنصار إخوانهم من المهاجرين على أنفسهم وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَـةٌ [الحشـر:9] أي: جوع وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الحشر:9]، ثم قال: وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِم [الحشر:10] سواءً كانوا آخر الصحابة الذين أسـلموا بعد الفتح، أو الـذين جـاءوا بعـدهم إلى يـوم القيامـة، هـؤلاء منهم بشـرط أن يـدعو لهم، وأن يقولـوا: (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الـذين سـبقونا بالإيمـان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للـــذين آمنـــوا)، ومن كـــان في قلبه غل وحقد وبغض وشــنئان وغضب عليهم، فإنه بــريء منهم، ولأجل ذلك اســتنبط العلمــاء أن الذين في قلوبهم غل على الصحابة وحقد عليهم ولا يدعون لهم بقولهم: (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الـــذين ســـبقونا بالإيمـــان)؛ فليســـوا من أهل الفيء ولا يستحقون أن يعطوا من بيت المال؛ وذلك لحقدهم على المسلمين وبـالأخص الصـحابة رضي الله عنهم. وقد اشـتهر أن هـؤلاء الرافضة يبغضـون الصـحابة ويدعون عليهم ويشتمونهم، ولكن ذلك لا يضر الصحابة بل فيه خير لهم؛ لأنهم قد ختم على أعمـالهم وانتهت أعمـارهم، وحصـلوا على ما حصـلوا عليه من الثـواب، وتسـتمر لهم الحسـنات من هـؤلاء الـذين يسـبونهم، روي عن بعض السلف أنه قال: ما أرى الناس ابتلوا بسب الصحابة إلا ليجـري عليهم عملهم، أي: ليكون عمل الصحابة مستمراً غير منقطـع، فيأخـذون من حسـنات هـؤلاء الذين يسبونهم، وكأنهم لما حقدوا عليهم ورأوا أنهم ضلال وكفار عـاد الضـلال والكفر على هؤلاء والعيـاذ باللـه، ودخلـوا في قوله تعـالى: لِيَغِيـظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ [الفتح:29].

تفاضل الصحابة رضوان الله عليهم

الفضل يعم المهاجرين والأنصـار والـذين اتبعـوهم بإحسـان، ولكن بلا شك أن الصحابة رضي الله عنهم يتفاوتون كما في قول الله تعالى في سورة الحديد: لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَـقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ [الحديـد:10] يعـني: صلح الحديبية وَقَاتَـلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَـةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُـوا مِنْ بَعْـدُ وَقَـاتَلُوا وَكُلًّا وَعَـدَ اللَّهُ الْحُسْنَى [الحديد:10] فنحن نفضل السابقين الذين أدركوا بيعة الرضوان التي رضي الله بها عنهم، وأنزل فيهم قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَـكَ إِنَّمَا يُبَـايِعُونَ

اللَّهَ يَـدُ اللَّهِ فَـوْقَ أَيْـدِيهِم [الفتح:10] وذلك في صـلح الحديبية تحت شـجرة، حيث قـال لهم النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (بـايعوني)، وكـانوا نحو ألف وأربعمائة وزيادة، وكلهم بايعوه على أن يقاتلوا ولا يفروا حتى ولو ماتوا، وجاء عن بعضهم قوله: إننا بايعناه على الموت، وقيل: بـايعوه على ألا يفـروا، وكلها متلازمة، يعني: أنا لا نفـر، بل نقاتل إلى أن ينصـرنا الله أو نقتل دونـك، هكـذا بايعوه، وصدقوا في ذلك، قال الله تعالى في وصفه لهم: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَـدَّلُوا تَبْدِيلًا [الأحزاب:23] صدقوا في النصـرة، ووفـوا بهـذه البيعـة، وحصل أن الله رضي عنهم، يقـول تعـالى: لَقَـدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَـكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا [الفتح: 18]، ولا شك أن من رضي الله عنهم فإنهم يثبتون على هذا الرضا، ولا يمكن أن يســخط الله عليهم وقد علم أنهم أهل للرضــا، إذ كيف يرضى عنهم وهو يعلم أنهم سـيرتدون أو سـيكفرون فيما بعـد؟ فالله لم يسـتثن أحـداً من أهل البيعة، ولهذا ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة) أي: كلهم من أهل الجنـة، وسـمعنا أنه صـلى الله عليه وسـلم قـال للمتأخرين من الصحابة كالذين أسـلموا بعد صـلح الحديبية أو في سـنة ثمـان وما بعدها: (لا تسـبوا أصـحابي فوالـذي نفسي بيـده لو أنفق أحـدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصـيفه) المـد: ربع الصـاع، والنصـيف: نصف المـد، أي: لو أن أحدكم أنفق نفقة من الذهب مثل هذا الجبل الذي يضرب به المثل في عظمه وضخامته ما بلغ مد أحدهم، سواءً من طعـام أو نحـوه، فكيف بمن أنفقوا أكثر أموالهم أو كلها في سبيل الله رضي الله عنهم وأرضاهم.

تزكية الله عز وجل لسائر الصحابة

زكى الله تعالى الصحابة بقوله: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ [الفتح:29] كل الذين معه، يعـني: على الإسـلام أَشِـدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَـاءُ بَيْنَهُم [الفتح:29] إلى آخر الآيـات. وزكـاهم بقوله تعـالى: وَالسَّـابِقُونَ الأَوَّلُـونَ مِنَ الْمُهَـاجِرِينَ وَالأنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْـهُ [التوبـة:100]. وزكاهم بقوله: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَـاعَةِ الْعُسْـرَةِ [التوبـة:117]. وزكـاهم بقوله تعـالى: لَقَـدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَـكَ تَحْتَ الشَّـجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُـوبِهِمْ [الفتح:18]. فعلم الله أن قلوبهم مؤمنة الإيمان الصادق. وزكـاهم بقوله تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [الأنفال:72] والآيات كثيرة كما تقدم، وإذا كان الله تعالى هو الذي زكـاهم فلابد أن هـذه التزكية لها أثرهـا، بمعـنى: أنهم عـدول، وأنه لا

يطعن فيهم طــاعن، فمن طعن فيهم فقد كــذب خــبر اللــه، ولا شك أن من كذب خبر الله تعالى وكذب ما جاء من عند الله يعتـبر كـافراً، حيث إنه خـالف كلام الله، وطعن فيما أخبر الله به، فالله تعالى يعلم ما كان وما يكون، ويعلم بإيمـانهم ويطلع على ما في قلـوبهم، ولهـذا قـال: ((فعلم ما في قلـوبهم)) علم الله أن قلوبهم مطمئنة بالإيمان، فـإذاً: الـذين طعنـوا فيهم يطعنـون في الله تعالى وأنه لم يعلم أنهم سـوف يرتـدون، وهـذا هو معتقد الرافضـة، فهم يقولون: إن هذه الفضائل التي ذكروا بها كانت قبل أن يرتدوا، وبطل مفعولها بعد أن ارتـدوا، فهم بـذلك يكفـرون أجلاء الصـحابة، وعليه فهم يطعنـون فيما أخبر الله به، ولازم قولهم أن الله لم يعلم ما في قلوبهم.

الصحابة خير الناس بعد الأنبياء

لم يزل المسلمون يعترفون بهـدي الصـحابة ويـروون فضـائلهم ويعرفـون أن الله تعالى هو الذي زكاهم، وهو الذي طهرهم، وهو الذي اختارهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، ويعلمون أنهم خـيرة الأمة وصـفوتها، وهـذه الأمة خـير الأمم وأزكاها عند الله تعـالى، قـال صـلى الله عليه وسـلم: (نحن الآخــرون السابقون يوم القيامة) الآخرون وجوداً، والسابقون يـوم القيامـة، فـأخبر بـأن هذه الأمة تسـبق غيرها من الأمم، أي: الأمم السـابقة، ولا شك أن خـير هـذه الأمة هم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، روي عنه صلى الله عليه وسـلم أنه قال: (أنتم خير من أبنـائكم, وأبنـاؤكم خـير من أبنـائهم) وقـال صـلى الله عليه وسلم: (خـير النـاس قـرني، ثم الـذين يلـونهم، ثم الـذين يلـونهم) (خـير الناس) أي: خـير جميع النـاس من الأولين والآخـرين؛ القـرن الـذي بعث فيهم النبي صـلى الله عليه وسـلم، يعـني: من المؤمـنين، وهـذه بلا شك تزكية من النـبي صـلى الله عليه وسـلم. وثبت عنه صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة)، ولما قال لأصحابه: (إني لأرجو أن تكونــوا ربع أهل الجنة، قالوا: الله أكبر! فقال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة.). وقد زكاهم الله بقوله: ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ* وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ [الواقعــة:13-14] يراد بالأولين -على الصحيح- الأولون من هـذه الأمـة، أي: الصـحابة، فـذكر أن الأكثر من السابقين الأولين هم من القرن الأول الـذين هم الصـحابة، وكـذلك من تبعهم وسار على نهجهم.

عقيدة الرافضة في الصحابة ولازم قولهم فيهم

لم تزل عقيدة المسلمين أن الله سبحانه وتعالى فضل هـؤلاء الصـحابة، وذكر ميزتهم وذكر فضلهم، فقبلوا خبر الله تعالى، وقبلوا ما جاء عن رسـوله صـلى الله عليه وسلم، واعتقدوا ميزة هؤلاء الصحابة، وفضلوهم؛ لأنهم الذين حملوا هذه الشريعة الإسلامية إلينا، فهم الذين بلغـوا القـرآن كلام اللـه، وهم الـذين حفظوا سنة النبي صلى الله عليه وسـلم وبلغوها لمن بعـدهم، وعملـوا بقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (ليبلغ الشـاهد منكم الغـائب)، وعملـوا بقولـه: (بلغوا عني ولو آية) فإذا كانوا -كما تقول الرافضة- كفاراً مرتدين فكيف يقبل خـبرهم؟ وكيف يقبل تبليغهم؟ ومعـنى كلام الرافضة أن دين الله مغـير، وأن كلام الله مبدل، وأن شريعة الله غـير محفوظـة، وأن الله ما صـدق في كلامه بقوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [الحجـر:9] ولم يحفظ دينه وكتابه، بل وكله إلى كفرة فجرة -في زعم أولئك الرافضة- غيروا فيه وكتمـوا وكذبوا، وزادوا ونقصوا وحرفوا، وقالوا ما يشتهونه، وولوا من يريدونه، وعزلوا من يبغضونه، هذا مقتضى قول هؤلاء الرافضة. إذاً: فينبني على قول الرافضة أن الله ما حفظ شريعته، وأن هـذه الشـريعة ليست هي الإسـلام؛ لأن طعنهم في الصحابة ليس طعنـاً في ذواتهم خاصة بل هو طعن في الشـريعة، وطعن في الإسلام، وطعن في الدين، وطعن في القـرآن، وطعن في السـنة، وطعن في الأحاديث النبوية، وطعن في الأحكام، وطعن في الأوامر والنواهي، وطعن في الوعد والوعيد، وطعن في الخبر والأمـر، وطعن في كل ما جـاء في هـذه الشريعة، هذا لازم طعن هؤلاء الرافضة، لكن الله تعالى قيض هؤلاء الصـحابة حتى حفظـوا الشـريعة وبلغوهـا، وقيض لهم تلامـذة يتقبلـون منهم، ويأخـذون عنهم السـنة، وقيض للتلامـذة آخـرين من تلامـذتهم إلى أن حفظت الشـريعة الإسـلامية في الأقـوال والأفعـال، وصـدق الله في حفظ شـريعته من الضـياع لتقوم الحجة على الآخرين كما قامت على الأولين، فـإن الله تعـالى له الحجة قُـلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَـةُ [الأنعـام:149] وليست الحجة لأحد من خلقـه، فـإذا كنت الحجة لله سـبحانه؛ فـإن كلامه لم يتغـير، فيكـون حجة علينا وحجة على آبائنا وعلى أبنائنـا، وعلى الخلق كلهم إلى أن تقـوم السـاعة، أَنْ تَقُولُـوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِـيرٌ وَنَـذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ [المائدة:19]، ولئلا يقول النـاس: رَبَّنَا لَـوْلا أَرْسَـلْتَ إِلَيْنَا رَسُـولاً فَنَتَّبِـعَ آيَاتِـكَ وَنَكُـونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ [القصـص:47]. فـإذاً: قد جـاءهم الرسـول، وقد بلغ الرسول الشريعة، وقد حفظت شريعته التي بلغهـا، وقد قيض الله له صـحابة أتقياء أنقيـاء ليس فيهم طعن، اعـترفت الأمة بفضـلهم، ورأوا فضـائلهم الـتي في القرآن والتي في السـنة، وأقروها في شـروحهم وفي كتبهم ومؤلفـاتهم، فتجدون مؤلفات أهل السنة مليئة بذكر فضائلهم، فقد ألف الإمام أحمد كتابـاً مطبوعاً في مجلـدين سـماه: فضـائل الصـحابة رضي الله عنهم، وكـذلك في صـحيح البخـاري كتـاب الفضـائل، ذكر فيه فضـائل الصـحابة بـدءاً بالخلفـاء الراشدين، وهكذا صنع مسـلم رحمه الله في كتابه الصـحيح، فجعل كتابـاً في فضـائل الصـحابة روى فيه فضـائلهم بـدءاً بالخلفـاء الأربعة على تـرتيبهم في

الخلافة، وهكذا أكـثر المـؤلفين ذكـروا فضـائلهم، ورووها بالأسـانيد الصـحيحة الثابتة التي لا مطعن فيها؛ اعترافاً منهم بأن هـؤلاء الصـحابة رضي الله عنهم هم أزكى هذه الأمة، وهم الذين حازوا هذه الفضائل، وهم الذين أجمعت الأمة على فضـلهم، وأجمعت على تقـديمهم، ومع تفـاوتهم في الفضـل، فأفضـلهم الخلفاء الأربعة، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة، وهكـذا بقية الصـحابة، ولم تـــزل الأمة تترضى عنهم كما رضي الله عنهم، والله تعـــالى ذكر الرضا عنهم في قولـه: لَقَـدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُـؤْمِنِين [الفتح:18]، وإذا رضي الله عنهم، فمتى علمتم -يا رافضة!- أنه سـخط عليهم بعد الرضـا؟ وكيف يسـخط عليهم وقد رضي عنهم؟! يقول الله: رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ وَأَعَـدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَار [التوبة:100] أعدها لهم، وكذلك لمن اتبعهم بإحسان لَقَـدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُـؤْمِنِين ، لَقَـدْ تَـابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَـاجِرِينَ وَالأَنصَـارِ [التوبـة:117]، فـإذا تـاب عليهم فكيف يعـذبهم؟ فعلى المسـلم أن يعـرف فضلهم, وأن يعترف بفضائلهم، وأن يصـدق ما جـاء في كتـاب الله وفي سـنة رســـوله عليه الصـــلاة والســـلام، وأن يترضى عنهم ويحبهم، وينشر بين المسلمين فضائلهم، وأن يحذر من الرافضة الذين يطعنون فيهم ويكفـرونهم، ويـنزلون عليهم الآيـات الـتي جـاءت في المنـافقين، ويجعلـونهم منـافقين أو مرتـدين بعد مـوت النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وبـذلك تعـرف طريقة أهل السنة وطريقة الرافضة الـذين سـموا أنفسـهم شـيعة، ولعله يأتينا كلام أوسع من هذا على هؤلاء الصحابة في الشرح إن شاء الله. ......

لا يعدل فضل الصحبة شيء

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [والمقصـود أنه نهى من له صـحبة آخـراً أن يسب من له صـــحبة أولاً؛ لامتيـــازهم عنهم من الصـــحبة بما لا يمكن أن يشـــركوهم فيــه، حــتى لو أنفق أحـدهم مثل أحد ذهبـاً ما بلغ مد أحـدهم ولا نصيفه، فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية، وإن كـان قبل فتح مكة فكيف حـــال من ليس من الصـــحابة بحـــال مع الصـــحابة رضي الله عنهم أجمعين؟ والسابقون الأولـون من المهـاجرين والأنصـار هم الـذين أنفقـوا من قبل الفتح وقـاتلوا، وأهل بيعة الرضـــوان كلهم منهم، وكـــانوا أكـــثر من ألف وأربعمائة، وقيل: إن السابقين الأولين من صلى إلى القبلـتين، وهـذا ضـعيف؛ فـإن الصـلاة إلى القبلة منسـوخة ليس بمجـرده فضـيلة؛ لأن النسخ ليس من فعلهم، ولم يدل على التفضيل به دليل شرعي كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهـاد والمبايعة الـتي كـانت تحت الشـجرة. وأما ما يـروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) فهو حديث ضعيف، قال البزار : هذا حديث لا يصح عن رسول الله صـــلى الله عليه وسـلم، وليس هو في كتب الحـديث المعتمـدة. وفي صـحيح مسـلم عن جابر رضي الله عنه قـال:(قيل لــعائشة رضي الله عنهـا: إن ناسـاً يتنـاولون أصحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم حـتى أبا بكر و عمـر! قـالت: وما

تعجبون من هذا، انقطع عنهم العمل فأحب الله ألا يقطع عنهم الأجر). وروى ابن بطة بإسـناد صـحيح عن ابن عبـاس رضي الله عنه أنه قـال: (لا تسـبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلمقام أحـدهم سـاعة -يعـني مع النـبي صلى الله عليه وسلم- خير من عمل أحـدكم أربعين سـنة) وفي رواية وكيع : (خـير من عبـادة أحـدكم عمـره). وفي الصـحيحين من حـديث عمـران بن الحصين وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خير النـاس قـرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ...)، الحديث. وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: (لا يـدخل النـار أحد بـايع تحت الشـجرة). وقال تعالى: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَـاجِرِينَ وَالأَنصَـارِ الَّذِينَ اتَّبَعُـوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ [التوبة:117]، ولقد صدق عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه في وصفه حيث قال: (إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صـلى الله عليه وسلم خير قلوب العبـاد فاصـطفاه لنفسه وابتعثه برسـالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسـلم فوجد قلـوب أصـحابه خير قلوب العباد؛ فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينـه، فما رآه المسـلمون حسـناً فهو عند الله حسـن، وما رأوه سـيئاً فهو عند الله سـيء) وفي روايـة: (وقد رأى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم جميعـاً أن يسـتخلفوا أبا بكر) وتقدم قول ابن مسعود : (من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مـات) إلى آخـره عند قـول الشـارح: ونتبع السـنة والجماعـة. فمن أضل ممن يكـون في قلبه غل على خيار المسلمين، وسادات أوليـاء الله تعـالى بعد النبـيين، بل قد فضـلهم اليهـود والنصـارى بخصـلة، قيل لليهـود: من خـير أهل ملتكم؟ قـالوا: أصـحاب موسـى، وقيل للنصـارى: من خـير أصـحاب ملتكم؟ قـالوا: أصـحاب عيسى، وقيل للرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد صـلى الله عليه وسـلم لم يسـتثنوا منهم إلا القليـل، وفيمن سـبوهم من هو خـير ممن استثنوهم بأضعاف مضـاعفة. وقولـه: (ولا نفـرط في حب أحد منهم) أي: لا نتجاوز الحد في حب أحد منهم كما تفعل الشيعة، فنكون من المعتـدين، قـال تعالى يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُم [النساء:171]]. ......

لا يكون أحد بعد الصحابة أفضل منهم

فضائل الصحابة رضي الله عنهم أكثر مما سمعنا، ولو لم يكن إلا هذا الحديث الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصـيفه)، وكـذلك هـذا الأثر عن بعض الصحابة: (لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم سـاعة خـير من عبادة أحدكم عمره -وفي رواية- خير من عبادة أحدكم أربعين سـنة) وما ذاك إلا لأنهم آمنوا في وقت أزمة وشـدة، وفي وقت كفر وضـلال، وفي وقت شرك وعبادة أوثان، فآمنوا واهتـدوا، واعتنقـوا الإسـلام، وفـارقوا الأهل والبلد والمال، وأخلصـوا دينهم للـه، ووقـرت محبة الله ومحبة رسـوله في قلـوبهم،

وثبت الإيمــان ورسخ في قلــوبهم حــتى كــان أرسى من الجبــال، ثم ظهــرت عليهم آثار ذلك ففـدوا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بآبـائهم وأمهـاتهم، وبأنفســهم وبــأموالهم، وأنفقــوا كل ما يملكونه طاعة لله وطاعة لرســوله، واجتهدوا في العمل الصـالح الـذي يحبه الله ويرضـاه، فتفوقـوا على من جـاء بعدهم بأضعاف مضاعفة، من الذين ولدوا في الإسلام، والذين نشـئوا فيه ولو كـانوا أكـثر منهم عملاً، ولو كـانوا أطـول منهم أعمـاراً، ولو كـانوا أكـثر منهم جهاداً، أو أكثر منهم نفقات، لكن النفقة من أولئك مضاعفة أضعافاً كثيرة كما في هذه الآثار، فهذا من جهة. ومن جهة ثانية: ما جاء في قوله تعـالى: رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْه [المائدة:119]، لا شك أنه مدح لهم وإخبار بأن الله قد رضي عنهم، وفي قولـه: وَأَعَـدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي تَحْتَهَا الأَنْهَـارُ [التوبـة:100] إخبار بأنهم من أهل الجنة، وخبر الله تعالى صادق: وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا [النساء:87]، وفي قوله تعالى: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَة [التوبة:117] يعني: غزوة تبوك، وكـانوا حينها أربعين ألفاً أو نحو ذلـك، فـذكر الله تعـالى أنه تـاب عليهم كلهم، فلم يسـتثن منهم أحداً، وكـذلك ما أخـبر الله عز وجل من أنه رضي عن طائفة منهم وهم أهل بيعة الرضوان في قوله: لَقَدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَـكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ [الفتح:18]، وأخبر بأن بيعتهم كأنها بيعة مع اللـه، فقـال تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم [الفتح:10]، وحاشاهم أن ينكثوا بيعة الله، وحاشاهم أن يكذبوا في مبايعتهم، سواءً كانت مبـايعتهم على المـوت أو مبـايعتهم على ألا يفـروا، روي أنه لما نـزل أول سـورة الفتح وفيها قول الله تعالى: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَـأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْـكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا [الفتح:2] قالوا: (هنيئاً لك يا رسـول اللـه! فما لنـا؟ فقـرأ عليهم: هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ السَّـكِينَةَ فِي قُلُـوبِ الْمُـؤْمِنِينَ [الفتح:4].. إلى قوله: لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَـارُ [الفتح:5].. إلى قوله: فَـأَنْزَلَ اللَّهُ سَـكِينَتَهُ عَلَى رَسُـولِهِ وَعَلَى الْمُـؤْمِنِينَ وَأَلْـزَمَهُمْ كَلِمَـةَ التَّقْـوَى وَكَـانُوا أَحَـقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا [الفتح:26]) كل هـذا اختص بأولئك الصـحابة، ولكن الرافضة طمس الله تعالى على قلوبهم، وأعمى بصـائرهم؛ فصـدوا عن هــذه الآيــات، ولم يتفكــروا فيهــا، وأخــذوا ينقبــون الآيــات الــتي وردت في المنافقين، ويطبقونها على الصحابة فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج:46]. ونقول لهم: متى سخط الله عليهم بعد الرضا؟! ومــتى لم يتب عليهم بعد أن تــاب عليهم؟! لا شك أن الله تعــالى لا يخلف وعـده، وأنه قد صـدقهم ما وعـدهم، لما صـدقوا اللـه: مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ رِجَـالٌ صَــدَقُوا مَا عَاهَــدُوا اللَّهَ عَلَيْــهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَــى نَحْبَــهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِــرُ [الأحـزاب:23] هـذه صـفات الصـحابة الـذين كـانوا مع النـبي صـلى الله عليه وسـلم. وجـاء في كلام ابن مسـعود رضي الله عنه أنه قـال: (إن الله تعـالى نظر في قلـوب العبـاد فاختـار قلب محمد صـلى الله عليه وسـلم، ونظر في قلــوب الأمم فوجد قلــوب أصــحابه أبر وأزكى وأطهر فاختــارهم لصــحبته) اختارهم الله لصحبة هذا النـبي، فـدل هـذا على أن الصـحابة رضي الله عنهم هم خلاصة الأمة وهم صفوتها. وتقدم قول ابن مسـعود رضي الله عنـه: (من

كـان مسـتناً فليسـتن بمن قد مـات، أولئك أصـحاب محمد صـلى الله عليه وسلم: أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختـارهم الله لصـحبة نبيه ولحمل دينه؛ فـاعرفوا لهم حقهم، فـإنهم كـانوا على الهـدى المسـتقيم) شهادة منه رضي الله عنه بأنهم كانوا على الهدى، وأن من خالفهم وخرج عن طريقتهم فليس على الهدى، بل هو على الضلال. فالأدلة الواضحة من الكتاب والسـنة الشـاهدة بـأن الله رضي عنهم أكـثر من أن تحصـر، ولكن كما قـالت عائشة رضي الله عنها في الأثر الــذي تقــدم: (لما انقطع عملهم بمــوتهم، أجرى الله لهم حسنات غيرهم)، فهؤلاء الذين يسبونهم ويحقدون عليهم، إنما يهـدون إليهم حسـناتهم وأجـور أعمـالهم، فهم يعملـون ويتصـدقون ويصـلون ويقرءون ويركعـون، ولكن يـذهب ثـواب أعمـالهم إلى أولئك الصـحابة الـذين سبهم هؤلاء. وروي ذلك أيضاً عن الإمام أحمد أنه قال: (ما أرى الناس ابتلـوا بسب الصحابة إلا ليجري الله لهم عملهم)؛ لأن الإنسان إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث، ولكن إذا كـان هنـاك من يسـبه فإنه يأخذ من حسـنات الـذين يسبونه، وتضـاف إلى حسـناته كما ورد ذلك في الأحـاديث، فيكـون ذلك رفعة له، وزيادة في درجاته، وزيـادة في أعمالـه. كـذلك تقـدم قـول ابن مسـعود : (فما رآه المسلمون حسـناً -يعـني: الصـحابة- فهو عند الله حسن) وقد رأى المسلمون -يعني: الصـحابة- أن أبا بكر رضي الله عنه أولى بالخلافة فـاتفقوا عليـه، وولـوه أمر المسـلمين، فـذلك بلا شك اتفـاق منهم على أهليتـه، وعلى أفضليته، وعلى أحقيته بالخلافـة، ولهـذا سـموه خليفة رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، وهو بلا شك أهل لهذه الخلافـة، ولهـذا قـام بها أتم قيـام، وصـمد فيها وصبر، وعمل بما كان يعمله رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم. وتقـدم أيضـاً ما ذكر عن اليهـود والنصـارى مما يـبين أن اليهـود خـير من الرافضـة، والنصارى خير من الرافضة؛ لأن اليهود يقولون: أفضل بني إسـرائيل أصـحاب موسى، والنصارى يقولون: أفضل أتباع عيسى أصـحابه الـذين هم معـه، وهم الحواريون، أما الرافضة فهم يقولون: شر هذه الأمة أصحاب محمد، فتفوقــوا على اليهود، يعني: صاروا بـذلك أشر من اليهـود؛ لأن اليهـود فضـلوا أصـحاب موسى، والنصارى فضلوا أصحاب عيسى، والرافضة تفوقــوا عليهم في الكفر وجعلوا أشر قـرون هـذه الأمة وأكفرها وأضـلها وأدناها وأبعـدها عن الحق هم أصـحاب محمـد، ولم يسـتثنوا من أصـحاب محمد صـلى الله عليه وسـلم إلا أفراداً قليلين كـعلي وأولاده، وعمار و سلمان و خباب ونحوهم، وكذلك الـذين هم أقـارب النـبي صـلى الله عليه وسـلم القـدامى كــحمزة ونحـوه، أما بقية الصحابة فإنهم عندهم ضلال وكفار! قاتلهم الله أنى يؤفكون، فلا يغتر بقولهم، وبذلك يعرف أفضلية هؤلاء الصحابة، وأما أهل السـنة والحمد لله فلا يشـكون في ذلــك، ولكن من بــاب التأكيد والتقرير حــتى يعــرف كفر وضــلال هــؤلاء الرافضة.

إيمان من أحب الصحابة وكفر ونفاق من أبغضهم

قال الشارح رحمه الله: [وقوله: (ولا نتبرأ من أحد منهم كما فعلت الرافضــة) فعنـدهم لا ولاء إلا بـبراء، أي: لا يتـولى أهل الـبيت حـتى يتـبرأ من أبي بكر و عمر رضي الله عنهما، وأهل السنة يوالـونهم كلهم، ويـنزلونهم منـازلهم الـتي يستحقونها بالعدل والإقسـاط، لا بـالهوى والتعصـب، فـإن ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد، كما قال الله تعالى: فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَـاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُم [الجاثية:17]، وهذا معنى قول من قال من السلف: الشهادة بدعــة، والــبراءة بدعــة، يــروى ذلك عن جماعة من الســلف من الصــحابة والتـابعين، منهم: أبو سـعيد الخـدري و الحسن البصـري و إبـراهيم النخعي و الضحاك وغـيرهم، ومعـنى الشـهادة: أن يشـهد على معين من المسـلمين أنه من أهل النـار أو أنه كـافر، بـدون العلم بما ختم الله له بـه. وقولـه: (وحبهم دين وإيمان وإحسـان) لأنه امتثـال لأمر الله فيما تقـدم من النصـوص، وروى الترمـذي عن عبد الله بن مغفل قـال: سـمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسلم يقـول: (الله الله في أصـحابي! لا تتخـذوهم غرضـاً بعـدي، فمن أحبهم فبحــبي أحبهم، ومن أبغضــهم فببغضي أبغضــهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله تعــالى، ومن آذى الله فيوشك أن يأخــذه). وتســمية حب الصحابة إيماناً مشكل على الشيخ رحمه اللــه؛ لأن الحب عمل القلب، وليس هو التصديق، فيكون العمل داخلاً في مسمى الإيمان، وقد تقدم في كلامه أن الإيمان هو الإقـرار باللسـان، والتصـديق بالجنـان، ولم يجعل العمل داخلاً في مسمى الإيمان، وهذا هو المعروف من مذهب أهل السـنة، إلا أن تكـون هـذه التسمية مجازاً. وقوله: (وبغضهم كفر ونفاق وطغيان) تقدم الكلام في تكفير أهل البــدع، وهــذا الكلام نظــير الكفر المــذكور في قولــه: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنــزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَـافِرُونَ [المائــدة:44] وقد تقــدم الكلام في ذلــك]. نقول: إن حبنا للصحابة رضي الله عنهم -كما سـمعنا- إيمـان، فحب الصـحابة من الإيمان، وبغضهم من النفاق، وقد ثبت في صحيح مسـلم أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: (لا يحب الأنصـار إلا مـؤمن، ولا يبغضـهم إلا منـافق)، وكـذلك الحـال في المهـاجرين: (لا يحبهم إلا مـؤمن، ولا يبغضـهم إلا منـافق، والمهاجرون أقدم من الأنصار وأفضل، فبغضهم كفر ونفاق، وحبهم زيـادة في الإيمـان وقـوة في الإيمـان, وبـاعث على الأعمـال الصـالحة الـتي تنبعث من القلب.......

بعض الأسباب الباعثة على حب الصحابة

من أسباب حب الصـحابة: لسـبقهم لمن بعـدهم حيث إنهم سـبقونا بالإيمـان، فنقول: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَـبَقُونَا بِالإِيمَـانِ وَلا تَجْعَـلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا [الحشر:10] أي: طهر قلوبنا من أن يكـون بها حقد وبغض لأولئك

الصـحابة الـذين تقـدمونا وكـانوا مؤمـنين. ونحبهم لأن لهم المنة علينـا؛ وذلك لأنهم حفظوا الشريعة، وبينوها وبلغوها. ونحبهم لأنهم دعـوا إلى الله وجاهـدوا في سـبيل اللـه، ونصـروا الله ورسـوله، وانتشر بواسـطتهم الإسـلام. ونحبهم لأنهم أهل الأعمال الصالحة، وأهل النفقات في سبيل اللـه. ونحبهم لأنهم أهل التصديق القوي وأهل الإيمان القوي. ولا شك أن هؤلاء هم أولى بالمحبة ممن سموا أنفسهم شيعة، وادعوا أنهم يوالون ويعادون ونحو ذلك.

اعتقاد الرافضة أن تولي آل البيت لا يتم إلا بالبراءة من سائر الصحابة

الرافضة يقولون: لا ولاء إلا ببراء، ومعنى ذلك: أن من تـولى أهل الـبيت لزمه أن يتبرأ من غيرهم من الخلفاء الثلاثة وبقية الصحابة، ونحن نقول: صـحيح أنه لا ولاء إلا ببراء، ولكن من الذي نتـولاه؟ نتـولى المؤمـنين كلهم وهم الصـحابة ومنهم أهل الـبيت، ومن الـذين نتـبرأ منهم؟ نتـبرأ من المنـافقين، ونتـبرأ من الكافرين عموماً، ونتـبرأ ممن أمرنا بـالبراءة منه ولو كـانوا أقـارب، كما قـال إبراهيم عليه السـلام: إِنَّنِي بَـرَاءٌ مِمَّا تَعْبُـدُونَ [الزخـرف:26]، إِنَّا بُـرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ [الممتحنة:4] هؤلاء هم الـذين نتـبرأ منهم، فلا ولاء إلا ببراء، فيكون ولاؤنا للمؤمنين ومن جملتهم الصحابة، وبراؤنا من الكـافرين ولو كـانوا أقـارب، ولاؤنا لأوليـاء الله الـذين قـال فيهم: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُو [البقـرة:257] وبراؤنا وتبرؤنا من أعـداء الله ومن جملتهم أوليـاء الشـيطان الـذين قـال الله فيهم: وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَوْلِيَـاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ [البقـرة:257]. أما الرافضة فعنـدهم أن الـولاء هو ولاء أهل الـبيت خاصة الـذين هم علي وذريته وزوجته وأم زوجته الـتي هي خديجة ومن كـان معهم من المقـربين عنـده أو نحـوهم، وأما الـبراء فإنه الـبراء من غـيرهم، كـالبراء من أبي بكر و عمر ، والـبراء من جـابر و أنس ، والـبراء من ابن عمر و ابن عبـاس وسـائر أجلاء الصحابة، والبراء من أبي هريـرة وغـيره من الصـحابة، ولمـاذا الـبراء منهم؟! يقولون: نتبرأ منهم؛ لأنهم مرتدون وخارجون عن الإسلام!

وسطية أهل السنة في حب الصحابة

أهل السـنة يقولـون: نحن نحب الصـحابة، ولكن لا نغلو في حب أحد منهم؛ لا الخلفـاء الثلاثـة، ولا أهل الـبيت، فحبنا لهم حب متوسط ليس فيه غلو وليس

فيه جفاء، الرافضة غلوا في أهل البيت حتى رفعوهم عن طـورهم وأعطـوهم شيئاً من حق الله، بل صاروا يعبدونهم من دون الله، ويدعونهم في الشـدائد، ويدعونهم في الكربـات، وينسـون الله تعـالى، وأما بقية الصـحابة فجفـوا في حقهم وضللوهم وبدعوهم وتـبرءوا منهم، فقد جمعـوا بين الغلو والجفـاء، ولم يتوسطوا في واحد منهما توسط أهل السـنة، فخـير الأمـور أوسـطها، فلا غلو ولا جفاء، ورد في بعض الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لـعلي : (تهلك فيك طائفتان) يعني: طائفة غلوا، وطائفة جفوا، فالطائفة الـذين جفـوا هم النواصب والخوارج؛ فإن الخـوارج خرجـوا على علي وكفـروه وقـالوا لـه: حكمت الرجال، وقالوا له: لا حكم إلا للـه، وقـاتلوه إلى أن قتله أحـدهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم ، حيث زعم أنه مرتد بقبوله قول الحكمين، واشـترطوا في توبته أن يعترف أنه كفر، ويعترف بأن عمله وجهاده كله باطل، وأن يعتـبر نفسه يستقبل عملاً جديداً، فهؤلاء مـاذا نسـميهم؟ نسـميهم جفـاة، جفـوا في حق أهل الـبيت، بل نسـميهم هـالكين؛ لأنهم هلكـوا حيث كفـروا من هو من أجلاء الصحابة، وضللوا علياً ومن كان في بيت علي ممن رضي الله عنه، وقد كثر مذهب أولئك الخوارج الذين يكفرون علياً ، بل ويمـدحون من قتله ، كما روي أن عمـران بن حطـان كـان من أهل السـنة، وروى أحـاديث عن عائشة وعن غيرها من الصـحابة، ثم تـزوج امـرأة من النواصب - أي: من الخـوارج- ورجا أن يـؤثر عليها حـتى ترجع وتكـون من أهل السـنة، ولكن أثـرت عليـه، ولقنته مذهب الخوارج، فأصبح من الخوارج إلا أنه ليس من المتعصـبين، لكنه من قعدتهم الذين يقعدون ولا يخرجون، وهو الـذي مـدح ابن ملجم في أبيـات مشـهورة يقـول فيهـا: يا ضـربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العـرش رضوانا إني لأذكره يوماً فأحسبـه أوفى البرية عند الله ميزانا يعني: ابن ملجم الذي قتل علياً، فهؤلاء بلا شك طرف هالك حيث أبغضوا هـذا الصـحابي رضي الله عنه الـذي هو من أجلاء الصـحابة، أما الطـرف الثـاني فهم الشـيعة، ومذهبهم معروف بالغلو في آل البيت.

الرافضة من أعظم وأخطر المبتدعة، وقد قويت شوكتهم في هذا الزمان، فعلى المسلم أن يعرف أول نشأتهم، وحقيقة مذهبهم، وبحمد الله قد بين أهل العلم فضائحهم وبطلان مذهبهم.

فضائح الرافضة

......

ادعاء بعض طوائف الرافضة ألوهية علي رضي الله عنه

مر بنا عقيدة أهل السنة في الصحابة رضي الله عنهم، وما خصهم الله تعالى به، وما ميزهم به من الفضائل التي مدحهم بها، وأثنى عليهم، وما تميزوا به من السبق إلى الإسلام وإلى الأعمال الصالحة، وما تميزوا به من فضل، وأنهم أفضل قرون هذه الأمة، وهذه الأمة أفضل الأمم، وذكرنا الأسباب التي تميزوا بها، ومع ذلك فقد انتصب لهم أعداء الله الرافضة، وناصبوهم العداوة، وألصقوا بهم التهم، وحملوا عليهم كل الجرائم، ورموهم بالرذائل، ورموهم بالكفر، ووسموهم بالنفاق، كذباً وبهتاناً، وبالغوا في ذلك أشد المبالغة، ولا شك أن هذا الفعل من الرافضة من زيغ القلوب، ومن الانتكاس والعياذ بالله إلى الحضيض. والرفض أصله: الترك، ومنه قولهم: رفضت هذا القول، أي: تركته، وهؤلاء الرافضة خرج مقدمهم وأولهم في عهد علي رضي الله عنه وفي حياته، وكان سبب ذلك أن يهودياً دخل في الإسلام نفاقاً يقال له: عبد الله بن سبأ ويعرف بابن السوداء ، أظهر الإسلام ولكن باطنه الكفر، وأراد بذلك أن يشكك في الإسلام، وأن يدعو إلى أسباب الانحلال، فهو من الذين دعوا الثوار إلى قتل عثمان ، حيث جمع الجموع، وحشد الحشود، وأثار من أثار حتى اجتمعت عصابات خرجوا من مصر ومن العراق ومن غيرها وحاصروا عثمان رضي الله عنه، وانتهى الأمر بأن قتل شهيداً رضي الله عنه، وكان من أسباب ذلك هذا المنافق، ولما قتل عثمان وتمت البيعة لعلي، ورأى أنه محجوز عند أهل العراق حيث استقر بينهم، أراد أيضاً أن يبطل إسلامهم وأن يوقعهم في الكفر، فدعاهم إلى أن يغلو في علي ، فبدل أن يكون خليفة وإماماً يجعلونه رباً وإلهاً، فقال لهم: علي هو الرب.. علي هو الإله، وانخدع به خلق كثير، واعتقدوا هذا الاعتقاد الفاسد، فخرج عليهم مرة وهم صفوف في أعداد هائلة، فما إن رأوه حتى خروا له سجداً، فقال: ما هذا؟! قالوا: أنت إلهنا! فعجب من ذلك، ودعا أكابرهم ليتوبوا، ولكن أقاموا على ما هم عليه ولم يتوبوا، ثم اشتهر أنه أحرقهم، حيث خد لهم أخاديد، وأظرم فيها النيران، ثم استتابهم وأمرهم بالرجوع فمن لم يتب ألقي في تلك

الأخاديد، وكـان علي رضي الله عنه ينشد قولـه: لما رأيت الأمر أمـراً منكــراً أججت ناري ودعوت قنبراً وقنبر هو غلامه، فما زادهم هذا الإحراق إلا تمسكاً بما هم عليه، وقالوا: الآن عرفنا أنك الرب؛ لأنك الذي تحرق بالنار، ولا يعــذب بالنار إلا رب النار، فتمسكوا بما هم عليه، وقتل من قتل منهم بـالإحراق، وقد أنكر عليه ابن عباس رضي الله عنه الإحراق، وقـال: إن النـار لا يعـذب بها إلا الله، وقال: لو كنت أنا لقتلتهم لقول النبي صـلى الله عليه وسـلم: (من بـدل دينه فـاقتلوه) وأما بقية الأمة فـإنهم متفقـون على أنهم يقتلـون وأنهم كفـار. فهؤلاء الغلاة من الرافضة الذين جعلوا علياً إلهاً، هم أتباع ابن سبأ ، ولا يــزال كثير منهم على هذه العقيدة، ويحفظ من شعرهم قـولهم: أشـهد أن لا إله إلا حيـدرة الأنـزع البطين ولا حـاجب عليه إلا سـلمان ذو القـوة المـتين لما كـان سـلمان من الفـرس جعلـوه هو الحـاجب على اللـه، وجعلـوا عليـاً هو اللـه، وحيــدرة هــو: لقب علي؛ جـاء من قوله لما كـان يقاتل في خيــبر: أنا الــذي سمتني أمـي حيدرة كليث غابات كريه المنظرة أوفيهم بالصـاع كيل السـندرة فصار هذا الاسم علماً عليهم، فهم يقولـون: لا إله إلا علي ، لا إله إلا حيـدرة ، وهذا الاعتقاد مشهور فيهم، وهؤلاء السـبئيون هم بقية ورثة ابن سـبأ ، ويقـال لهم: الغلاة، ولما قتل علي رضي الله عنه اعتقدوا أنه لم يقتل، بل قــالوا: إنه رفع إلى السحاب، واعتقدوا أنه سوف يرجع، فلذلك يقال لأحدهم: فلان يؤمن بالرجعة، ولا يزال كثير منهم يؤمنــون بالرجعة إلى اليــوم، ولهم في ذلك كتب جديدة، ويذكر بعضـهم أنه جـاءه أحد علمـاء الرافضة وقـال: إني ألفت كتابـاً، قـال: في أي شـيء؟ قـال: في الرجعـة، فقـال: كيف تكـون الرجعة وقد قتل علي ؟! وكيف يرجع وقد قال الله تعـالى وَلَنْ يُـؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًـا إِذَا جَـاءَ أَجَلُهَا [المنـافقون:11]، أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُـونَ [الأنبيـاء:95] فقـال: قد آمن بها أسـلافنا ومشايخنا، وقد كتبوا فيها، فقال: كل ذلك خطأ، أتقلد في الخطـأ؟! فقـال: بل أنت المخطئ، فلما رأى أنه متشدد في الإنكار ذهب ذلك المؤلف وهو يقــول: وإسلاماه! وإسلاماه! بمعنى: أنه لم يجد من يؤيده، أو لم يؤيـده هـذا الشـيخ على الإيمــان بالرجعــة. إذاً: فهي عقيــدة لا تــزال موجــودة يعتنقها كثــير في العراق وفي إيران، وفي كثير من البلاد التي يكثر فيها الرفض.

ادعاء طوائف من الرافضة أن علياً رسول من عند الله

توجد طائفة منهم غلوا في علي حتى جعلوه رسولاً من عند اللـه، وادعــوا أن الرسالة له، وأن جبريل أخطأ، كما قالوا: إنه كان مأموراً بأن يــنزل على علي ، ولكنه خان ونزل على محمد، فـعلي أحق بالرسالة من محمد، ولذلك يقــول قائلهم: خـان الأمين وصـدها عن حيـدر والأمين هو جبريـل، فهم يقولـون: إنه خان الرسـالة! والله تعـالى سـماه الأمين: نَـزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الأَمِينُ [الشـعراء:

193]، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ [التكوير:21]، وهؤلاء المخونة موجودون أيضاً، ويعتقد هذه العقيدة كثير من الرافضة في العراق وفي إيران، بل وفي المملكة، فقد ذكر لنا بعضهم أن رافضة المدينة قبل أن يسلموا من الصلاة يضربون بأيديهم على ركبهم ويكـررون: خـان الأمين، خـان الأمين، ثم يسـلم أحـدهم، فهـذه طائفة منهم، وهم أيضاً من الغلاة.

سبب انتشار الرافضة

الرافضة يسمون أنفسهم الإمامية، وهم في الحقيقة الرافضـة، وعقيـدتهم أن علياً هو الإمام، وأن الأئمة قبله مغتصبون، فـأبو بكر عندهم مغتصب للخلافـة، وكذا عمر ، وعثمان ، وكذا من تولى الخلافة غير علي وذريتـه، يعتقـدون أنهم مغتصبون لما ليس لهم به حق، وأصل تكاثرهم كان في العراق، ثم انتشارهم فيما بعد سببه -والله أعلم- ما حـدث من بعض ولاة بـني أمية منتصف القـرن الأول، لما تولى ابن زياد على العراق، وكان سبباً في قتل الحسـين، واسـتمر في العـراق إلى أن قتـل، ثم مـات بعـده يزيد ، فتـولى العـراق بعد ولاية آل الزبير الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكان هؤلاء الـولاة يميلـون إلى بـني أميـة، وفي أنفسهم حقد على علي، كـان يـزين لهم أنه ممن داهن في قتل عثمـان، ويقولون: إنه كان قادراً على أن ينصر عثمان لكنه لم ينصره! فكانوا يسـبونه في الخطب على المنـابر في العـراق، وكـذلك في الشـام، ولا شك أن في العراق كثيراً من المحبين لـعلي، من الـذين ألفـوه في حياتـه، وأحبـوه محبة صادقة، هؤلاء إما أن يكونـوا معتـدلين في حبه وإما أن يكونـوا غلاة من أتبـاع الغلاة، فإذا سمعوا هؤلاء الخطباء يلعنونه على المنبر في العراق وفي الشـام ساءهم ذلك، فإذا سـمعوا ذلك أخـذوا في مجالسـهم يـذكرون فضـائل علي ، فدخل بينهم الغلاة، وصـاروا في مجالسـهم الخاصة -الـتي هي مجـالس أتبـاع علي المحبين له- يكذبون، ويغلون في الكذب، ويروجون الكـذب بـدلاً من أن يذكروا فضائله الصحيحة ومزاياه التي مدحه بها النبي صلى الله عليه وسلم.

أدلة الرافضة في تفضيل آل البيت والطعن في الصحابة

ثبت لـعلي رضي الله عنه فضـائل كثـيرة على لسـان النـبي صـلى الله عليه وسـلم مثل قوله (أنت مـني بمنزلة هـارون من موسـى)، ولكن الرافضة بلا

شك لم يقنعوا بذلك بل صاروا يزيـدون، فصـارت مجتمعـاتهم الـتي يجتمعـون فيها لا يتـذاكرون فيها إلا فضـائل علي، فلا يـرون من يقتنع بقـولهم فيكـذبون أكاذيب، وحديث غدير خم الذي يجعلونه عيداً لهم جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال: (أذكـركم الله في أهل بيـتي، أذكـركم الله في أهل بيـتي) وقال: (إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي) هذا هو الثابت (أذكركم الله في أهل بيـتي)، وقولـه: (إني تـارك فيكم كتـاب الله وعـترتي) ولكن ما اقتصروا عند هذا، بل صاروا يضـيفون إليه حـتى ألفـوا كتبـاً في هـذا الحـديث، وجعلـوه بألفـاظ عديـدة، فقـالوا إنه قـال: (من كنت مـولاه فـعلي مـولاه، اللهم وال من والاه وعـاد من عـاداه)، وذكـروا في أكـاذيبهم أن عليـاً مكتوب اسمه على قائمة العـرش، وأنه ممن خلقه الله وقرنه باسم محمد أو فضله على خلقه، وأنه وزوجته مكتوبان في غرف الجنة كلها، وأنه وأنـه.. إلى غير ذلك من الأكاذيب التي يلفقونها، وهذه الأكاذيب التي يكـذبونها ويروجونها إذا سمعها تلامذتهم وإذا سمعها أحبابهم أخذوا يروونهـا، وإذا سـمعها الآخـرون فماذا يقولون؟ لا شك أنهم يقولون: كيف تكون هذه مزاياه؟ وكيف تكون هذه فضائله؟ ومع ذلك يتقـدم عليه غـيره، ويكـون غـيره أفضل منـه؟ وكيف قـدم عليه أبو بكر وعمر وعثمـان ؟ بل كيف فضل عليه فلان وفلان؟ لابد أن يكـون هو الأفضل، وهو الإمام، فلما أنهم سمعوا تلامذتهم ومن كان حولهم يتكلمـون بهذا أرادوا أن يشككوهم فقالوا: هلم فلنكذب أكاذيب نشكك بها تلامذتنا حتى لا ينكـروا علينا ما نحن فيـه، فكـذبوا أكـاذيب لفقوها ورمـوا بها أبا بكر وعمر وعثمان وبقية الصحابة، وادعـوا أنهم مغتصـبون وخونـة، وادعـوا أنهم ظلمـة، فامتلأت الرافضة بالسب والكذب على هؤلاء الصـحابة، أكـاذيب ما أنـزل الله بها من سلطان، سببها ومبدأ أمرها التشكيك بأتبـاعهم حـتى لا ينكـروا عليهم، ولما اشـتهرت هـذه الأكـاذيب فيما بينهم اعتقد تلامـذتهم كفر أئمة الصـحابة، واعتقدوا أن الصحابة ليسوا على هـدى، حيث إنهم بـايعوا غـير الإمـام الحـق، وخلعوا الإمام الحق من إمامته وهو علي، وبـايعوا أبا بكر وهو مغتصب ظـالم، ثم بايعوا أيضاً عمر وهو ظالم ليس له حق، فجعلوهم بذلك مرتدين، وأبطلـوا بذلك فضـائلهم الـتي رواها أئمة الصـحابة، وخـرجت في الصـحيحين وغيرهـا، وقالوا: إن فضائلهم التي وردت في القرآن بطلت بمجرد ردتهم، وأنهم ارتدوا بعد مـوت محمد صـلى الله عليه وسـلم، فما هي ردتهم على قـول هـؤلاء؟ ردتهم أنهم منعوا علياً من حقه، فمنعوه أن يكون هو الإمام، وبـايعوا مغتصـباً ظالماً هو أبو بكر، هكذا أقوالهم، وهكذا رسـخت هـذه العقيـدة في نفوسـهم، وتوارثوهـا، وأخـذوا يتنـاقلون هـذه الأكـاذيب، فصـاروا ينقلـون فضـائل علي ويبالغون فيها، وكذلك فضائل الحسن و الحسين و ابن الحنفية و زين العابدين وأولادهم وأولاد أولادهم، ويكـذبون لأجل فضـائلهم أكـاذيب لا تليق بعاقل ولا يصـدقها ذو عقل سـليم، ولو قـرأتم في كتبهم الـتي يروونها لعجبتم كيف يصدقون بهـذه الأكـاذيب! وكيف تـروج عليهم! ولكن سـلبت عقـولهم، فلأجل ذلك يذكر بعض العلماء أنهم ليس لهم عقول، وأن الرافضة قوم لا خلاق لهم، فلا يصدق بتلك الأكاذيب إلا من طمست بصيرته، والردود التي ردت عليهم لو قرأتموها لعجبتم كيف يصدقون بهذه الأكـاذيب! ولا يزالـون على هـذا المعتقد

إلى هذا اليـوم وللأسـف؛ على الـرغم من تفتح النـاس وتبصـرهم، ولا يزالـون يروون ويتناقلون في كتبهم تلك الأكاذيب، ويؤولون عليها الآيات القرآنية. ذكر بعض الإخـوان أنه اطلع على تفسـير كبـير عنـدهم موجـود في العـراق وفي إيـران -وهو تفسـير لأحد أئمتهم- فقـرأ في قـول الله تعـالى: مَـرَجَ الْبَحْـرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ [الرحمن:19] فذكر أن البحـرين في قولـه: (مـرج البحـرين يلتقيـان) هما علي و فاطمة و(يلتقيان) يعـني: في النكـاح، وقولـه: يَخْـرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُـؤُ وَالْمَرْجَانُ [الرحمن:22] اللؤلؤ والمرجان هما الحسن و الحسين اللذان خرجا من علي و فاطمة ، هكـذا راجت هـذه الأكـاذيب. وفسـروا قـول الله تعـالى: يُؤْمِنُـــونَ بِـــالْجِبْتِ وَالطَّاغُوت [النســـاء:51] فقـــالوا: (الجبت) هو أبو بكر ، و(الطاغوت) هو عمر ، قـاتلهم الله أنى يؤفكـون! وفسـروا قوله تعـالى: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [المسـد:1] فقـالوا: (يـدا أبي لهب) همـا: أبو بكر و عمـر. وقوله: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً [البقرة:67] قالوا: البقرة الـتي أمـروا أن يـــذبحوها هي عائشة بنت أبي بكر وهـــذه كلها أكـــاذيب، لكن كيف راجت عليهم؟ راجت عليهم لأنهم سلبوا المعرفة، فما زال غلاتهم على هذه العقيدة، وما زالوا مصرين عليها.

أول نشأة الرافضة

في آخر ولاية بـــني أمية خـــرج رجل من ذرية علي اســـمه زيد بن علي ، ولما خرج دعا الناس إلى بيعته؛ فجاءه الرافضة الـذين في العـراق فقـالوا: نبايعك على أن تتـــبرأ من أبي بكر وعمـــر؛ وذلك لأنهم قد ارتسم في أذهـــانهم أنهما أكفر من أبي جهل وفرعون ، فلابد أن يتبرأ منهما، ولكنه رضي الله عنه امتنع من ذلك وقال: هما صاحبا جدي فلا أتبرأ منهما، قالوا: إذاً نرفضك، فرفضـوه؛ فمن ثم عرفـــوا بالرافضة ، هـــذا هو اســـمهم الـــذي ينطبق عليهم منذ ذلك الوقت، وهم الآن لا يعترفون به، بل يشنعون على من سماهم بهذا الاسم، مع أن الـذي سـماهم هو زيـد، وهو ابن أحد أئمتهم، وهو زين العابـدين علي بن الحسين أحد الأئمة الاثني عشـر، أما الـذين بـايعوه فهم من سـموا بالزيدية ، والزيدية يوالون أبا بكر وعمر وأكثر الصحابة، ولكنهم يتبرءون من بـني أميـة، أما الذين خالفوه فهم المعروفون بالرافضة. أما تسميتهم بالشيعة فهم الذين يطلقون هذا على أنفسهم وذلك ليتمدحوا به فيقولون: نحن من شـيعة علي ، ومعنى شيعته أي: أنصاره، والشيعة في الأصل هم: الأنصـار والأعـوان، كقوله تعالى: وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ [الصافات:83]، وقوله تعالى هَـذَا مِنْ شِـيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّه [القصـص:15] يعني: أتباعه؛ لأن الشيع هم: الفرق الضالة الذين ذمهم الله تعالى بقولـه: مِنَ

الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم:32] فالأصل أنهم فرق كثيرة متشعبة، ومنهم الباطنية.

علاقة الباطنية بالرافضة

كان أول ظهور الباطنية في أوائل القرن الرابع، وقد استولوا على شطر هذه البلاد، فاستولوا على منطقة القصيم والأحساء والبحرين وما اتصل بها، وكان لهم قوة ونفوذ، وهم الذين قتلوا الحجاج في الحرم في سنة ثلاثمائة وسبعة عشر وهم يطوفون بالبيت، حيث قدموا في صورة حجاج ومعهم أسلحتهم ولما توسطوا في المسجد الحرام سلوا سيوفهم وأخذوا يقتلون الحجاج وهم في نفس الحرم، فجعل الحجاج يلوذون بالكعبة ويتعلقون بأستارها، ولكنهم جعلوا يقتلونهم، حتى كان يقول قائدهم: أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا وأخذ سترة الكعبة وشققها بين أصحابه، وقلع الحجر الأسود، وذهب به معه إلى بلاده التي هي القطيف، وبقي عندهم إلى سنة ثلاثمائة واثنين وثلاثين حيث ضعفت دولتهم، وقويت دولة الإسلام، وهددوا بأن يردوه وإلا غزاهم المسلمون وقتلوهم، فردوه وهم كارهون والحمد لله، وأعيد الحجر الأسود إلى مكانه، فهذه الطائفة من أكبر الطوائف ومن أكثرها ومن أخبثها؛ وذلك لأن بعض العلماء يقولون: إنهم يظهرون الرفض، ولكنهم كذبة، فظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، فهؤلاء طائفة منهم، ولا شك أن هؤلاء من ورثتهم الذين يظهرون أنهم مع المسلمين، وأنهم بين المسلمين، ويظهرون أنهم إخواننا كما يقولون، ويدعوننا إلى التقارب، ويدعون أنهم على الحق، وأن مذهبهم الذي يذهبون إليه هو مذهب كسائر المذاهب الفرعية وهي: مذهب الشافعي و مالك و أبي حنيفة و أحمد، وكذبوا بذلك؛ لأنهم مخالفون للمسلمين في العقيدة التي هي الأصل والأساس، فكيف يجمعون مع المسلمين؟! وكيف يأمنهم المسلمون؟! ولا شك أنهم يظهرون للمسلمين العداوة والبغضاء، ولعلكم تحفظون من الحكايات عنهم أكثر مما أحفظ، وبلغكم وبلغ أفرادكم أكثر مما بلغني. إذاً: فهم أعداء لله وأعداء للإسلام والمسلمين، فلا يغتر بدعوتهم إلى ما يسمونه بالتقريب، ولا شك أن هذا كله كفر وضلال، فعلى المسلم أن يعرف أعداء الله ولا ينخدع بدعاياتهم وبأقوالهم وبما هم عليه، بل نأخذ حذرنا منهم.

استغلال الرافضة لما في تاريخ ابن جرير للترويج لمذهبهم

كان العلماء الأولون منتبهين للرافضة في القرون الأولى، وقد كانوا يتسـترون في تلك الفترة -القـرن الأول والقـرن الثـاني والثـالث- ولا يظهـرون أمـرهم، ولكن مع الأسف تولوا ولايات، ووثق بهم أكـثر العامـة، وصـاروا يـروون عنهم تلك الأخبـار، وصـار منهم أخبـاريون، وإن لم يكونـوا من غلاتهم، فلـذلك دخل الكذب في كتب التاريخ؛ بسبب الرواية عنهم أو عن كثير منهم، فتجـدون مثلاً أن كتب التـاريخ -حـتى فيما يكتبه أهل السـنة- مملـوءة بما يـدل على أنه من الرافضـة، فمن المشـهورين في نقل الأخبـار وحفظها رجل شـيعي يقـال لـه: لوط بن يحيى ، ويشتهر بـأبي مخنف ، يـروون عنه في كتب التـاريخ، ويقـول ابن جرير : قال أبو مخنف .. وذكر أبو مخنف ، هذا الـراوي يُـذكر أنه من أهل السنة، ولكنه يميل إلى الشـيعة، دليل ذلك أنه يتتبع أخبـار أهل الـبيت، ويبـالغ في نقلهـا، ويطيل فيهـا، ويتابعها المتابعة الزائـدة، ويستقصي أخبارهـا، فمثلاً: في تـاريخ ابن جرير ذكر واقعة قتل الحسـين، وهي حادثة واحـدة، حيث قتل ومعه من أهل بيته نحو الأربعين، وهـذه الواقعة كـان يكفيها ثلاث صـفحات أو أربع صـفحات، ولكن اسـتغرقت نصف مجلد -أي: أكـثر من مـائتين وخمسـين صـفحة- في تـاريخ ابن جرير ، وذلك بسـبب اعتمـاده على نقل كلام هـؤلاء الأخبـاريين، و ابن جرير رحمه الله من أهل السـنة، ولكن بلاده طبرسـتان بإيران كانت مليئة في زمانه بهؤلاء الرافضة ، فكـانوا يـدخلون عليه شـيئاً من أخبارهم -وإن كان محدثاً ومفسراً وإماماً- فينخدع بهم، وقد ألف بعضهم كتاباً يقع في مجلدين في غدير خم، يقول ابن كثير : ذكر فيه ما لا يصلح أن يـذكر، وحشد فيه الطيب والخبيث، والغث والسمين، والصحيح والسـقيم، واسـتوفى فيه كعادة المؤلفين في ذلك الوقت، فكـثرت عنـده تلك الأخبـار، كـدليل على أن أخبار الرافضة في ذلك الزمان قد كثرت، وفي القرن الثالث استولى على العراق -بل وعلى مصر وعلى إيران ونحوها- بنو بويه، فأسسوا دولة رافضية، وقد تسلطوا في زمن خلافة بني العباس، وأعلنوا مذهب الرافضة، وزادوا في التوغل فيـه، ونشـروه النشر الزائـد، وانتشر في زمـانهم وتمكن، فتمكن في العـراق؛ لأنها وطنهم، وتمكن في إيـران وفيما بعـدها، وصـاروا يـدعون إليه بالقول وبالفعل، ويشجعون كل من يعتنقه، ويولونه الولايات، ولا شك أن هذه من الـدعايات في تمكين هـذا المـذهب، وإلا فهو مـذهب باطل خـبيث، ولما تمكن وكـثر معتنقـوه صـار لهـؤلاء مراجع ومؤلفـات، فصـاروا يؤلفـون الكتب لتقرير مـذهبهم، ويـدرجون فيها ما لا يصـدقه العقـل، فانتشر هـذا المـذهب، وانتشرت كتبهم، حتى صار عندهم الآن من الكتب في العـراق وفي إيـران ما لا يحصيه العباد، وكلها تركز على تأييد هذا المـذهب. كـذلك لما انتشـرت تلك المؤلفـات فيما بينهم، وكـثر المؤلفـون، تمكن هـذا المـذهب وظهر وقـوي، وانخدع به من انخدع، ولا يزالون يخدعون النـاس إلى هـذا اليـوم، ولا يزالـون يسعون لجر الناس إلى اعتناق واعتقاد هـذا المـذهب الباطل إلى هـذا اليـوم، وينخـــدع كثـــير من النـــاس بحسن معـــاملتهم وبملاطفتهم وبحسن كلامهم وبمدحهم لأنفسهم، فيظهرون شـيئاً من الأخلاق ومن الأدب ومن الصـدق في

الوعـد، ومن كـذا وكـذا، فيجتـذبون النـاس بمثل هـذه المعاملة الحسـنة، وإلا فالأصل أنهم كفرة، وعقائدهم سيئة، نقول هذا بموجب ما يحكى لنا عنهم، ولا أتجـرأ أن أذكر تلك الحكايـات الـتي يـذكرها لنا بعض الإخـوان الـذين اشـتغلوا معهم في المنطقة الشـرقية في شـركة (أرامكـو) وغيرها من احتيـالهم على أهل السنة، ومقتهم وبغضهم لهم، وحقدهم عليهم، وحرصهم على أن يوصـلوا إليهم كل ضلال وكل شر، ورغم ذلك ينخدع الكثير بإعلاناتهم وبـدعاياتهم أنهم مسلمون، وأنهم على مذهب متبع ومعـترف بـه, وأنهم وأنهم.. يـذكر لنا بعض المشايخ الـذين جـاءوا إلى الأحسـاء أنهم وجـدوا أهل الأحسـاء يعتقـدون أنهم مسـلمون، وليس بينهم من الفـرق إلا كما بين من يقـول: إني شـافعي وإني مالكي، ولم يدروا أنهم ضلال وكفار حـتى ظهر لهم الحـق. لا شك أن هـذا هو المعتقد السيئ عندهم، نقول: لما كان كـذلك اهتم العلمـاء رحمهم الله بـذكر فضائل السلف وفضائل الصحابة رضي الله عنهم، وذكروا ذلك في عقائـدهم، كما ذكر ذلك صاحب هذه العقيدة الذي هو الإمام الطحاوي رحمه الله تعـالى، وكما ذكر ذلك أهل العقائد نظمـاً ونـثراً، فيقـول مثلاً أبو الخطـاب الكلـوذاني في عقيدتـه: قـالوا فمن بعد النـبي خليفة قلت الموحد قبل كل موحد حاميه في يوم العريش ومن له في الغار مسعد يا له من مسـعد يعـني: أبا بكر ، ثم ذكر خلافة من بعده من الخلفاء إلى أن وصل إلى خلافة علي رضي الله عنه، وهو رابعهم: قالوا فـرابعهم فقلت مجاوبـاً من حـاز دونهم أخـوة أحمد يعـني: علي رضي الله عنــه، فعلى هــذا اهتم الســلف بــذكر فضــائل الصــحابة في العقيـدة؛ لأن الكتـاب ما جاءنا إلا بواسـطتهم، والأحـاديث النبوية ما وصـلنا إلا عن نقلهم، فإذا كانوا كفاراً -كما يقولون- فإن أخبارهم لا تقبل!

طريقة الرافضة في الاستدلال بآيات القرآن للطعن في الصحابة

شبه الرافضة في الطعن في الصحابة، أن الآيات الـتي ذكـرت في المنـافقين يحملونها على الصحابة رضي الله عنهم، فمثلاً: قول الله تعالى في قصة بدر: كَمَا أَخْرَجَــكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِــكَ بِــالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُــؤْمِنِينَ لَكَــارِهُونَ * يُجَادِلُونَـكَ فِي الْحَـقِّ بَعْـدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَـاقُونَ إِلَى الْمَـوْتِ وَهُمْ يَنظُـرُونَ [الأنفال:5-6] قالوا: هـؤلاء جـادلوا الرسـول كأنما يسـاقون إلى المـوت وهم ينظـرون، فهم كفـروا بـذلك، بينما الله تعـالى ما كفـرهم بـه، وإنما سـماهم مؤمنين (وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) فكيف يكفـرونهم والله سـماهم مؤمـنين؟! نعم كرهـوا مقاومة ومقابلة الكفـار مخافة أنهم يقضى عليهم وهم عدة من المسلمين، ومعهم الرسول، ومعهم خيار الصـحابة، ولكن الله تعـالى نصرهم وأيدهم، هذه هي الكراهية والمجادلة، يعـني: كـأنهم يقولـون: لو ذهبنا إلى العـير لكـان أفضـل، فهل يخـرجهم ذلك من الإيمـان؟ ما يخـرجهم، ولكن

الرافضة جعلوها كدليل على أنهم كفار، فكفـروهم بمثل ذلـك. أما الآية الثانية التي استدلوا بها، فهي الآية التي في آخر سـورة الجمعـة: وَإِذَا رَأَوْا تِجَـارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا [الجمعة:11] قالوا: هـؤلاء الـذين انفضـوا عن الرسـول وهو يخطب وتركـوه قائمـاً ارتـدوا بـذلك، والله تعـالى لم يكفـرهم بـذلك، بل عفا عنهم، ثم نقـول: من هم الـذين بقـوا ومن هم الـذين انفضـوا؟ معلوم أنهم خرجوا ينظرون إلى هذه الإبل فرجعوا وأتموا صلاتهم؛ لأنه لا يليق أن يتركوا الصـلاة مع النـبي صـلى الله عليه وسـلم، ثم قد يكـون معهم بعض أهل البيت، وقد يكون معهم سلمان ، وقد يكـون معهم أحد الـذين يمـدحونهم كـعمار وصهيب ونحوهم، فما دام كذلك فلا حجة لهم بمثل هـذه الآيـات الـتي يسـتدلون بهـا، ثم لو قـدر أنهم صـادقون وأن تلك الأشـياء الـتي وقعت منهم حقيقية فهل يليق أن نكفرهم بها؟ لا يليق ذلـك، خاصة وأن لهم من السـوابق ما يعفى عنهم إذا صـدر منهم أي ذنب من الـذنوب، ولابد أنه قد تـاب منـه، والتوبة تجب ما قبلهـا، أو محيت عنه بسـوابقه وبحسـناته الـتي عملهـا، فسـوابقهم وأعمـالهم مضـاعفة (لو أنفق أحـدكم مثل أحد ذهبـاً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) فالحسنات يذهبن السيئات، فكيف مع ذلك ننسى حسناتهم ونتـذكر أشـياء طفيفة وسـيئات خفيفـة، على حد قـول بعضـهم: ينسى من المعروف طوداً شامخاً وليس ينسى ذرة ممن أسا ينقبـون الـذرات والأشـياء الصغيرة عليهم، وينسون فضـائلهم وجهـادهم، ولكنهم قـوم لا يفقهـون. فعلى المسـلم أن تكـون عقيدته نحو الصـحابة سـليمة محبتهم، والترضي عنهم، والثناء عليهم، والاعـتراف بما لهم من المزيـة، وبما لهم من السـبق، ومعرفة أنهم خير قرون هذه الأمـة، لا كـان ولا يكـون مثلهم، وأن فضـائلهم لا يـدركها غيرهم، فإذا اعترفنا بذلك عرفنا عندها كفر من كفـرهم، وضـلال من ضـللهم، وبعد الـذين عـادوهم وناصـبوهم وناصـبوا كل من والاهم من أهل السـنة والجماعة العـداء، فما علينا إلا أن نشـهر ونعلن فضـائل الصـحابة كما أعلنها وكما أشهرها الأئمة قبلنا، وقد تقدم أن العلماء أظهـروا فضـائلهم؛ فـالبخاري جعل كتابـاً في صـحيحه ذكر فيه فضـائل الصـحابة، وبـدأه بفضـائل الخلفـاء الأربعـة، وهكـذا فعل مسـلم رحمه اللـه، وهكـذا فعل الترمـذي، وهكـذا ألف الإمام أحمد كتابه المعروف فضائل الصحابة، والكتب المؤلفة في ذلك كثيرة، وكل ذلك في الثناء على هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، وعلى أتباعهم. فـإذا قرأ المسلم تلك الأخبار وعرف صحتها؛ عرف بذلك أن من عاداهم فهو ضـال مضل خـارج عن الإسـلام، طـاعن في عقيـدة الإسـلام، بل في أصل الإسـلام الذي هو الكتاب والسنة. أما ما يتعلق بـأحوال هـؤلاء الرافضة وأعمـالهم فهم وأعمـالهم والعيـاذ بالله في ضـلال، نـبرأ إلى الله منهم ومن عقائـدهم ومن أعمالهم السـيئة، ونتمسك بما نحن عليه إن شـاء اللـه، ونسـأل الله أن يحيينا على محبة الخير وأهله، وأن يميتنا وإخواننا المسلمين على الإسـلام والتمسك بالسنة.

أبو بكر الصـديق أفضل هـذه الأمة بعد نبيها عليه الصـلاة والسـلام، وهو أول الخلفاء، وفضائله كثيرة مشهورة، ولهذا أجمع الصحابة على تقديمه.

مجمل معتقد أهل السنة في الصحابة

المسـلمون يـترحمون على الصـحابة ويترضـون عنهم كما ترضى الله تعـالى عنهم في قوله تعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ [الفتح:18]، وإذا رضي الله عنهم فقد علم أنهم أهل للرضا فلا يسـخط عليهم، كما وعد أهل الجنة بذلك في قوله: (أحل عليكم رضـواني فلا أسـخط عليكم أبداً)، وكذلك يقول تعالى وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَـاجِرِينَ وَالأَنصَـارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ [التوبـة:100] أخـبر بأنه رضي عنهم، وإذا رضي عنهم فلا يسـخط عليهم، وهم أهل للرضـا، وكـذلك يقول تعالى: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَـاجِرِينَ وَالأَنصَـارِ الَّذِينَ اتَّبَعُـوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ [التوبـة:117]، وإذا تـاب الله عليهم -ومنهم نـبيهم صـلى الله عليه وسلم- ومدحهم بأنهم اتبعوه في ساعة العسرة؛ فإنه تعـالى هو التـواب الرحيم، ولا شك أنه قبل توبتهم بعد أن كانوا مشـركين في الجاهلية فأسـلموا وتـابوا فقبل منهم وبقـوا على هـذا الإسـلام، ولا يمكن أن يتـوب الله عليهم ويخبر بأنهم أهل للرضوان وهو يعلم سبحانه أن فيهم من يرتد، وأن فيهم من يكفـر، وأنهم ليسـوا أهلاً لـذلك على حد زعم أعـدائهم. هـذا هو مقتضى علم الله تعـالى، فالله سـبحانه عليم بما كـان، عليم بما يكـون، علم أن هـؤلاء الصـحابة خـيرة خلق الله من هـذه الأمـة، اصـطفاهم صـحباً لنبيـه، وحملة لشريعته، وأهلاً لرضـاه، وأهلاً لدينـه، وأهلاً لتوبتـه، فهم أهل لـذلك في وقت نزول القرآن وفيما بعده، وفي حياة نبيهم صلى الله عليه وسلم وبعد موته، لا يمكن أن يغيروا ولا أن يبدلوا، هـذه سـنة الله وهـذا علم اللـه. كـذلك نترضى عنهم؛ لأنهم حملة شريعة الله التي وصـلت إلينـا، فهم الـذين بلغـوا أمر اللـه، وبلغوا أمر رسوله، بلغـوا القـرآن وبلغـوا السـنة، ونقلوها إلى من بعـدهم كما هي عملاً بقول نبيهم صلى الله عليه وسلم: (بلغوا عـني ولو آيـة) فمن حفظ منهم آية علمها وبلغها، ومن حفظ حـديثاً أداه كما سـمعه على ما قـال نـبيهم صلى الله عليه وسلم، حيث قال في حجة الـوداع لما خطبهم: (ألا هل بلغت؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وأديت، فقال: ليبلغ الشاهد منكم الغـائب، فلعل بعض من يبلغه أوعى ممن سـمعه) فـأمر الشـاهد الحاضر أن يبلغ الغـائب، ولا شك أنهم امتثلـوا هـذا الأمر فبلغـوا ما أمـروا بـأن يبلغـوه وما تحملوه، وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لهم على ذلك بقوله: (رحم الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منـه) فهـذا البيـان والبلاغ أول وأولى من قـام به صحابة نبينا صلى الله عليه وسلم، ولما كانوا حملة هـذا القـرآن، وحملة هـذه

الشريعة، وحملة السـنة النبويـة، والـذين أدوها إلى تلامـذتهم، وأدوها إلى من بعدهم؛ اعتقد أهل السنة أنهم أوفيـاء، وأنهم بـررة أتقيـاء، وأنهم كلهم عـدول ليس فيهم من يتهم بكــذب، وليس فيهم من يقــول كــذباً أو يختلق حــديثاً لا أصل له، وإنما حدث الكذب فيمن بعدهم، فعرفنا بذلك عدالة هـؤلاء الصـحابة وثقتهم، وأنهم حملة الشريعة، ولو طعن فيهم لبطلت الشريعة، ولبطل الدين، ولبطلت ثقتنا بالقرآن، لكن ثقتنا بكتاب ربنا ثقة قوية، وكذلك ثقتنا بالأحاديث، وثقتنا بالأعمال التي نحن نعملها ثقة راسخة وعقيدة ثابتة لا يمكن أن ننساها، ولا يمكن أن نتركها، ولا يمكن أن يتصدى لها طـاعن أو نقبل فيها قـول قائـل؛ لأننا ما وثقنا بها إلا لأنها بلاغ أولئك الأصحاب، فهي بلاغ وبيان منهم، وهم أهل الثقة وأهل العدالة وأهل التقوى. ......

أصل مصادر أهل البدع في طعنهم في الصحابة وموقف المسلم منهم

أعداء الله وأعداء صحابة رسوله صلى الله عليه وسلم لم يتلقوا عقيدتهم عن موثوقين، وإنما تلقوها عن كذبة وعن فجرة وعن مولـدين دخلـوا في الإسـلام نفاقاً كـابن سبأ الـذي يقـال لـه: ابن السـوداء فإنه يهـودي دخل في الإسـلام نفاقــاً، ولما دخل فيه أراد أن يفسد معتقد المسـلمين، وأراد أن يفــرق بينهم، فأدخل فيهم الكفر بخفيــة، وولد فيهم بغض الصــحابة أو بعضــهم والغلو في بعضهم إلى أن حصلت به فتنة عظيمــة، فكـذلك من تبعـه. ومن غلا في بعض الصحابة وتنقص بعضـاً من أتبـاع هـذا الرجل أو ممن هو على شـاكلته، ما هو معتمده؟ أدلتهم ونصوصهم وبراهينهم جاءتهم من طريق أولئك الكذبة الكفرة الفجرة فلا يوثق بهم، فإذا عرفنا معتمد أهل السنة ومعتقــدهم أنه عن طريق الصحابة الثقاة العدول، إيمانهم بالأحاديث، وإيمـانهم بالآيـات، وإيمـانهم أيضـاً بالأعمــال الــتي تلقوهــا، وعرفنا معتقد الرافضة ومعتقد الباطنية والنصــيرية والمكرمية كما يســـمون، والنخاولة وما أشـــبههم؛ عرفنا معتقـــدهم، فما هو معتقدهم؟ وما هو معتمدهم؟ وما هو سندهم الذي اعتمدوه؟ لا نجد لهم سنداً صحيحاً، أسانيدهم ترجع إلى منافقين ويهود وكفرة دخلوا في الإسلام تســتراً، وأرادوا بذلك إدخال الفساد على المسلمين، وقد تمكنوا من ذلك حيث انخــدع بهم خلق كثير وللأسف، ولا يزال يدافع عن أولئك الكفـرة ويسـير على نهجهم الخلق الكثير والجمع الغفير، ولكن الله سبحانه وتعـالى حفظ دينه كما ضـمن ذلك بقوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـافِظُونَ [الحجـر:9] فلا يضـره كـثرة من يطعن في هــؤلاء الصــحابة أو يطعن في هــذه المعتقـــدات، ولا يضر المؤمنين طعن الطاعنين ما دامت أصولهم وأسسهم التي يعتمدونها موجودة، حيث عنـدهم كتـاب الله الـذين ضـمن الله حفظـه، فهو موجـود محفـوظ في المصاحف، ومحفوظ في الصدور، كذلك سنة نبينا صلى الله عليه وسلم، وقد تحرى العلماء لها وتثبتوا، ونقلوها بالأسانيد، واختاروا الرجال الأثبات، والعلماء العدول، واطرحوا الأحاديث التي في أسانيدها ضعفاء أو أهل كذب أو بدعة أو ما أشبه ذلك، واقتصروا على أحاديث الأئمة العـدول الثقـات الأثبـات، وأثبتوها

في الصحيحين وفي السنن وفي المسانيد، وبينوا أحوال رجالها، وتثبتـوا منهـا، متى كان هذا التحري إلا عند أهل السنة؟! مـتى كـان هـذا التثبت إلا عند أهل السـنة؟! إذا نظرنا في كتب الرافضة هل نجد فيها هـذا التثبت؟ لا نجد فيها هـذه الأسـانيد القوية الـتي كـان حملتها أعلامـاً، وجبـالاً في الحفـظ، والعلم، وكانوا علماء ربانيين بـررة حفاظـاً يضـرب بحفظهم المثـل، حفظ الله تعـالى بهم شـريعته وتـولى حفظ هـذه الشـريعة بواسـطتهم، وذلك فضل الله ومنته على عباده، فعلى هذا فإن الطاعن في هؤلاء العلماء وهؤلاء الصـحابة إنما هو في الحقيقة يطعن في الله، وفي شرع اللـه، وفي دين اللـه، وفي كتـاب الله وسنة رسوله، فكأن هؤلاء الرافضة بطعنهم في الصـحابة يطعنـون في كتـاب الله ويطعنون في سنة رسول الله، فلا يبقى للمسلمين شيء يتشبثون به ولا يعتمدون عليه. كتب الرافضة الـتي يعتمـدون عليها ليس لها أسـانيد صـحيحة، ولا ما يعتمد عليها، فما لهم معتقد بخلاف أهل السنة. وبذلك نعـرف أدلة أهل السنة ومعتقدهم، وأدلة أعدائهم الرافضة ومعتقدهم، في الصحابة وفيمن بعد الصحابة من أهل السنة. ......

عقيدة أهل السنة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه

قال الشـارح رحمه اللـه: [وقولـه: (ونثبت الخلافة بعد رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم أولاً لـأبي بكر الصـديق رضي الله عنه تفضـيلاً له وتقـديماً على جميع الأمة). اختلف أهل السنة في خلافة الصديق رضي الله عنـه: هل كـانت بالنص أو بالاختيار؟ فذهب الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بـالنص الخفي والإشـارة، ومنهم من قـال: بـالنص الجلي، وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشـعرية إلى أنها ثبتت بالاختيـار. والـدليل على إثباتها بالنص أخبار: من ذلك ما أسنده البخاري عن جبير بن مطعم رضي الله عنـه، قـال: (أتت امـرأة النـبي صـلى الله عليه وسـلم فأمرها أن ترجع إليـه، قـالت: أرأيت إن جئت فلم أجـدك؟ كأنها تريد المـوت، قـال: إن لم تجـديني فـائتي أبا بكـر)، وذكر له سـياقاً آخر وأحـاديث أخـر، وذلك نص على إمامتـه. وحديث حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقتـدوا باللـذين من بعـدي أبي بكر و عمـر) رواه أهل السـنن. وفي الصـحيحين عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قـالت: (دخل علي رسـول الله صـلى الله عليه وسلم في اليوم الذي بدئ فيه، فقال: ادعي لي أباك وأخاك حـتى أكتب لـأبي بكر كتابـاً، ثم قـال: يـأبى الله والمسـلمون إلا أبا بكـر)، وفي رواية (ولا يطمع في هذا الأمر طامع)، وفي رواية قـال: (ادعي لي عبد الـرحمن بن أبي بكر لأكتب لـأبي بكر كتابـاً لا يختلف عليـه، ثم قـال: معـاذ الله أن يختلف المسلمون في أبي بكر) وأحاديث تقديمه في الصلاة مشـهورة معروفـة، وهو يقول: (مروا أبا بكر فليصل بالناس)، وقد روجع في ذلك مرة بعد مرة فصلى بهم مدة مرض النبي صلى الله عليه وسلم. وفي الصـحيحين عن أبي هريـرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقـول: (بينا أنا

نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منه ما شاء اللـه، ثم أخـذها ابن أبي قحافة فــنزع منها ذنوبــاً أو ذنـــوبين، وفي نزعه ضــعف والله يغفر لـــه، ثم استحالت غربـاً فأخـذها ابن الخطـاب فلم أر عبقريـاً من النـاس يفـري فريه حتى ضرب الناس بعطن). وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم. قـال على منـبره: (لو كنت متخـذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخـذت أبا بكر خليلاً، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكـر). وفي سـنن أبي داود وغـيره من حديث الأشعث عن حسن عن أبي بكرة أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قال ذات يوم: (من رأى منكم رؤيا؟ فقال رجل: أنا رأيت كأن ميزاناً أنزل من السـماء فـوزنت أنت وأبو بكر ، فـرجحت أنت بــأبي بكر ، ثم وزن عمر و أبو بكر فرجح أبو بكر ، ووزن عمر و عثمان فرجح عمر ، ثم رفع فـرأيت الكراهة في وجه النبي صلى الله عليه وسلم فقـال: خلافة نبـوة، ثم يـؤتي الله الملك من يشاء). فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ولاية هؤلاء خلافة نبوة، ثم بعد ذلك ملـك، وليس فيه ذكر علي رضي الله عنـه؛ لأنه لم يجتمع النـاس في زمانه، بل كانوا مختلفين لم ينتظم فيه خلافة النبوة ولا الملــك، وروى أبو داود أيضاً عن جابر رضي الله عنه أنه كـان يحـدث أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قـال: (أري الليلة رجل صـالح أن أبا بكر نيط برسـول الله صـلى الله عليه وسلم، ونيط عمر بـأبي بكر ، ونيط عثمان بـعمر ، قال جـابر : فلما قمنا من عند رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، قلنـا: أما الرجل الصــالح فرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما المنوط بعضهم ببعض فهم ولاة هــذا الأمر الذي بعث الله به نبيـه). وروى أبو داود أيضـاً عن سـمرة بن جنـدب أن رجلاً قال: (يا رسول الله! رأيت كأن دلواً دلي من السماء فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شرباً ضعيفاً، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضـلع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حـتى تضـلع، ثم جـاء علي فأخذ بعراقيها فانتشطت منه، فانتضح عليه منها شيء). وعن سـعيد بن جمهـان عن سـفينة قال: قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم: (خلافة النبـوة ثلاثـون سـنة، ثم يؤتي ملكه من يشاء -أو- الملك)]. ......

الأدلة العقلية والنقلية على أحقية أبي بكر بالخلافة

تكلم العلماء على الخلفاء الراشدين وهم: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، وقالوا: هؤلاء هم الخلفاء الراشدون، وتسميتهم تسمية نبوية لحديث العرباض بن سارية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (عليكم بسنتي وسـنة الخلفـاء الراشدين المهديين من بعدي) فجعلهم خلفاء، والخليفة هو الذي يخلف غيره، وسماهم رأس الدين، والراشد هو: ضد الغاوي، أي أنهم على رشد، ووصـفهم أنهم مهتدون غير ضالين، فهذه إشـارة إلى خلافة هـؤلاء الأربعـة، وكـذلك من ســار على نهجهم أو اقتــدى بهم كـــعمر بن عبد العزيز ، فقد قيـــل: إنه من الخلفاء الراشدين؛ لأنه أشبه سيرتهم، كذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى الخلافة ثم الملك بحديث سـفينة الـذي قـال فيـه: (الخلافة بعـدي ثلاثـون

سنة، ثم تكون ملكاً) وقد كان ذلك، فإن خلافة أبي بكر سنتان ونصفاً، وخلافة عمر عشر سنين، وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة، فهذه أربع وعشـرون سـنة ونصف سنة، وخلافة علي خمس سنين إلا بعض السنة، وتتمتها خلافة الحسن فأصبحت هذه ثلاثين سنة أو نحوها، وهـذه هي الخلافة الـتي أخـبر بأنها خلافة نبوة، ثم بعدها يكون ملكاً؛ وذلك لأن الملك لما انتقل إلى معاوية ثم إلى بـني مروان أصبحوا كأنهم يعملون عمل الملوك، ولو كان فيهم شـيء من السـيرة الحسـنة والجهـاد، لكن عملهم ليس كعمل الخلفـاء الراشـدين، حيث إنهم جعلوها وراثـة، وصـاروا يعهـدون بالخلافة إلى أبنـائهم أو من يطلب منهم، فأصـبحت الخلافة النبوية ثلاثين سـنة ابتـدأت بخلافة أبي بكر رضي الله عنـه، وقد أجمع الصحابة على تقديمه وفيهم أهل البيت كـعلي و الحسن و الحسـين و العباس و ابن العبـاس ، وجميع الصـحابة اتفقـوا على خلافة أبي بكر ، والله تعـالى لا يجمع الصـحابة على ضـلالة، فلا يجتمعـون إلا على حـق، وهـذه حجة قوية في صـحة خلافة أبي بكر ، فـأين الرافضة من هـذا الإجمـاع؟ الرافضة يقولـون: إن أبا بكر مغتصـب، وأنه تجـرأ على شـيء ليس لـه، وأن الصـحابة خانوا هذه الأمانة التي هي عهد لـعلي بالخلافة، ولكن خـانوا في ذلك وكتمـوا، وبايعوا أبا بكر خيانة وضلالاً، وظلموا حق علي ، هكـذا يقولـون! ومعنـاه: أنهم كلهم أجمعوا على هذا الظلم وحاشاهم من ذلـك، ولا شك أنهم عنـدما بـايعوا أبا بكر عملوا بهذه الإشارات التي سمعنا من الأحاديث الدالة عليها، فإن قوله صـلى الله عليه وسـلم لتلك المـرأة لما قـالت: (أرأيت إن لم أجـدك؟ فقـال: ائتي أبا بكر) كأنها أشارت إلى أنه قد يأتيك الموت أو نحوه فمن يكون بعدك؟ ومن آتيه بعدك لقضاء حاجتي؟ فقال: (ائتي أبا بكر) فدلت هـذه الإشـارة إلى أن أبا بكر هو الـذي يقـوم بالخلافة بعـده كما هو الواقـع. كـذلك هـذا الحـديث الــذي روته عائشة وهي من أمهـات المؤمـنين، ولا يمكن أن تكـذب في حق أهلها، ولا في حق غيرهم، تذكر أنه صلى الله عليه وسـلم أراد أن يكتب كتابـاً بالولاية لـأبي بكر : (ائتوني بكتاب أكتب فيه عهداً لـأبي بكـر) ولكن علم بـأن الله تعالى يجمع الصحابة على استخلافه وتوليتـه، فـترك الكتابة ثقة بما كـانوا عليه من معرفة حقه، وقال: (يأبى الله ورسوله والمؤمنون إلا أبا بكر) يعـني: أنهم يعرفون أحقيته وأقدميتـه، وقد ثبت أنه صـلى الله عليه وسـلم قدمه في الصلاة لما مرض وثقل وصعب عليه أن يتولى الصلاة بهم، وبقي أيامـاً -قيـل: خمسة أيام، وقيـل: سـبعة، وقيـل: أكـثر أو أقـل- وفي تلك الأيـام كـان الـذي يصــلي بالمســلمين هو أبو بكر ، وذلك بـأمر النـبي لما قــال: (مـروا أبا بكر فليصل بالنـاس، فقـالت عائشة : إن أبا بكر رجل رقيق لا يسـمع النـاس، فلو أمرت عمر ، فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقـالت له مثل ذلـك، فكـرر ذلك ثم قال: إنكن صواحب يوسف) فأكد أن أبا بكر هو الذي يصـلح أن يكـون إماماً، وقد تولى هذه الإمامة التي هي الصلاة في حياة النـبي صـلى الله عليه وسـلم، فلما أن تـوفي صـلى الله عليه وسـلم نظر الصـحابة في أمر خلافته فقالوا: رضـينا لـدنيانا من رضـيه نبينا لـديننا. بمعـنى أن: نبينا صـلى الله عليه وسـلم رضـيه إمامـاً لنا في ديننـا، حيث كـان يصـلي بنـا، فـذلك دليل على أفضليته؛ لأجل ذلك نرضاه أن يكون إماماً لنا عاماً في هـذه الولاية الـتي فيها

إصلاح دنيانا وضبط أحوالنا، وهكذا اتفقـوا على توليته الخلافـة. ثبت أنه صـلى الله عليه وسلم خطب في آخر حياته قبل مرضه بزمن قليل فقال: (إن عبـداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنـده، فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: نفـديك بأنفسـنا وأهلنـا، فعجب النـاس أن النبي صلى الله عليه وسلم يخـبر عن هـذا العبد الـذي خـيره الله وأن أبا بكر يبكي ويقول هذه المقالة، فلما قال ذلك، قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: إن من أمن النــــاس علي في نفسه وماله أبو بكر ، ولو كنت متخــــذاً خليلاً لاتخــذت أبا بكر خليلاً) ثم قــال: (لا يبقين خوخة في المســجد إلا ســدت إلا خوخة أبي بكر) وهنا دليل على أنه مقدم في هذا الأمـر، فالخلة هي: المحبـة، فيقول: إنه أحق الناس في أن يكون لي خليلاً، وأن تكـون له الخلـة، فلو كنت متخذاً خليلاً لكان هو أحق بأن أتخذه، ثم أمر أن تسد النوافذ الـتي تطل على المسـجد إلا نافـذة أبي بكر ، لأن الصـحابة كـانوا قد بنـوا بيـوتهم إلى جـانب المســجد، وفتحــوا عليه أبوابــاً، فهــذا البــاب يــدخل منه فلان من بيته إلى المسجد، وذلك الباب لفلان، فأمر بأن تسد تلك الأبواب التي تسمى خوخـات، وتبقى خوخة أبي بكر، لماذا؟ إشارة إلى أنه سـيتولى الخلافـة، وسـيحتاج إلى أن يدخل المسجد ويخرج ويتكرر دخوله، وذلك دليل على أنه سيتولى، والنبي عليه الصـلاة والسـلام علم بأنه سـيكون والي المسـلمين بعـده، فـأمر بإبقـاء خوخته حتى لا تتغير. هذه الأدلة فيها إشارات، ولكن مجموعها يكـون صـريحاً، أما الإشــارة الأولى فهي قصة القليب، حيث يقــول صــلى الله عليه وســلم: (رأيتني على قليب -القليب هو: البئر التي فيها ماء- أنزع منها -يعـني: أجتـذب الماء بـدلوي- فـنزعت منها ما شـاء الله أن أنـزع، ثم أخـذها أبو بكر -جعل أبا بكر هو الذي أخذها بعده- فنزع منها ذنوبـاً أو ذنـوبين وفي نزعه ضـعف والله يغفر له -أي: وذلك لقصر مدتــه- ثم أخــذها ابن الخطــاب -يعــني: عمــر- فاستحالت غرباً -والغرب هو: الدلو الكبير الذي يسـتقى به من الآبـار، والـذي تجتذبه السواني أو النواضح قديماً- فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه حـتى روي النـاس وضـربوا بعطن) وذلك لأن مدته طـالت حـتى بلغت عشر سـنين، وفي مدته اتسـعت رقعة الإسـلام، وفتحت الأمـوال على بيت المـال، وكـثرت جبايتها، أوليس في هذا إشارة إلى أن الـذي يأخذ الخلافة بعد النـبي أبو بكر ، ثم لا تطول مدته، ويأخذها بعده عمر فتطول مدته؟ الإشارة الثانية: قصة ذلك الدلو الذي تدلى من السماء في رؤيا الرجل، حيث يقول: رأيت أن دلواً تدلى من السماء فشرب منه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أخذه أبو بكر فشرب منه، ثم أخذه عمر فشرب منه حتى تضلع، ثم عثمـان ، ثم علي، إلا أنه انـتزع منه فأصابه منه نضح، أليس في هذا دليل على ترتيبهم في هذه الخلافـة، وأن الذي شرب بعد النبي صلى الله عليه وسلم يكون خليفة بعــده، وهو أبو بكر ، ثم بعد أبي بكر عمر ، ثم عثمـان ثم علي؟ فهـذه إشـارة إلى خلافتهم. كـذلك أيضاً: بعض الإشارات التي تكـون إما في صـورة رؤيا أو قصص واقعية لا شك أن فيها إشـارة واضـحة إلى أن هـؤلاء يكونـون خلفـاء بعـده صـلى الله عليه وسـلم. وبكل حـال نقـول: إن هـذه الإشـارات من مجموعها يجـزم بأنها نص صريح في أنه صلى الله عليه وسلم قدم أبا بكر وجعله خليفة بعـده، وسـيأتي

ذكر قصة بيعته وكيف اجتمع الصحابة على بيعته وفضلوه، ومعروف أنهم لم يختاروه إلا لميزة تميز بها.

إسلام أبي بكر ومرافقته للنبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة

أبو بكر الصديق هو أول من أسلم من الرجال؟ كما يقول الكلوذاني في عقيدته: قالوا فمن بعد النبي خليفة قلت الموحد قبل كل موحد حاميه في يوم العريش ومن له في الغار مسعد يا له من مسعد فالجمهور على أن أول من أسلم من الرجال أبو بكر رضي الله عنه، إذ كان رجلاً عاقلاً عارفاً موثوقاً، كامل العقل، ولما عرض النبي صلى الله عليه وسلم عليه الإسلام لم يتوقف ولم يتردد، بل بادر وقبل الدعوة ودخل في الإسلام، ولما دخل في الإسلام صار أيضاً داعية لأكثر الصحابة الذين أسلموا بمكة، فبإسلامه أسلم عثمان ، وأسلم طلحة وأسلم الزبير وأسلم عبد الرحمن بن عوف وأسلم سعد بن أبي وقاص، فكلهم أسلموا بدعوة أبي بكر. إذاً: فهو الذي دعا إلى الإسلام مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أليس من فضائله أنه رفيق النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الهجرة؟ هاجر معه من مكة إلى المدينة، واختار النبي صلى الله عليه وسلم صحبته، وقد كان أبو بكر قد عزم على أن يهاجر وحده، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (انتظر لعل الله يأذن لي) فلما أذن له قال: (إن الله أذن لي في الهجرة، فقال: الصحبة يا رسول الله؟! قال: الصحبة) أي: سوف تصحبني. ومعروف أيضاً أنه صاحب النبي صلى الله عليه وسلم في الغار الذي قال الله فيه: إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَن [التوبة:40] ولا شك أن هذه الصحبة لم ينلها غيره، فهو رضي الله عنه جمع نفسه مع النبي صلى الله عليه وسلم، وعرض نفسه للقتل، أما المهاجرون غيره فقد هاجروا خفية أو بعلن ولم يتعرض لهم المشركون، أما أبو بكر والنبي صلى الله عليه وسلم فإن المشركين قد عزموا على قتل محمد صلى الله عليه وسلم، وما كان الله ليسلطهم عليه، فلما اجتمع معه أبو بكر عزموا على أن يقتلوا أبا بكر معه، وجعلوا لمن أتاهم بكل منهما مائة من الإبل، فعند ذلك أمرهما الله بأن يخرجا بخفية، فخرجا ليلاً ودخلا في ذلك الغار المعروف بغار ثور، واختفيا فيه ثلاثة أيام، يأتيهما عامر بن فهيرة بغنم لأبي بكر فيحلب لهما منها ويسقيهما، وكذلك يأتيهما عبد الرحمن بن أبي بكر بالأخبار في الليل ثم يرجع، أوليس مبيت أبي بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم من التعرض للأذى؟ أليس ذلك من فدائه بنفسه؟ لا شك أن هذه ميزة لا يلحقه فيها غيره، كذلك أيضاً صحبته له من مكة إلى المدينة وليس معهما إلا رجل مشرك يدلهما على الطريق، كذلك أيضاً خروجه مع النبي صلى الله عليه وسلم في

غزوة بـدر، ولما كـان في الليلة الـتي وقعت الوقعة في صـبيحتها بـات النـبي صلى الله عليه وسـلم طـوال الليل يصـلي ويتهجـد، وبـات أبو بكر معه يحميه ويحفظه، وكلما سقط رداؤه عنه رده عليه أبو بكر ، وكان مما قال له: (كفاك مناشدتك لربك، سوف يوفي لك ربك ما وعدك)، ولا شك أن هذه ميزة مـيزه الله تعالى بها، فكان بذلك أهلاً أن يقلد هذه الخلافة التي هي الولاية.

قوة أبي بكر وحزمه في تعامله مع المرتدين

الصحابة الذين بايعوا أبا بكر واجتمعوا على بيعته علمـوا أهليته وكفاءتـه، ومن نظر في سيرته رضي الله عنه ويرى كيف ضبط الأمور، وكيف أنفذ الجيـوش، وكيف أرسل الرسل للدعوة، وكذلك ما وقع في السنة الأولى بعد وفاة النـبي صـلى الله عليه وسـلم من ارتـداد العـرب عن الإسـلام، حـتى لم يبق على الإسلام إلا أهل مكة وأهل المدينة وأهل الطائف، أما الأعـراب حـولهم فكلهم قد ارتدوا إلا من شاء الله، وكيف قـوي أبو بكر على ضـبط النـاس كلهم، وقد رمـــوا الإســـلام عن قـــوس العـــداوة، ولكن حزمه رضي الله عنه وفطنته وسياسته وسيرته، وهذا يدل على أنه ذكي عـارف، فصل في الأمـور، وتعامل مع الأمر بحـزم إلى أن رجع النـاس في أقل من نصف سـنة، واجتمع العـرب كلهم على الرجوع إلى الإسلام، ودانوا بالإسـلام بعـدما كـانوا تركـوه، ولا شك أن في هذا فراسة قوية تـدل على خبرته وحنكته وأهليتـه، وأن الله تعـالى ما اختاره في هذه الحالة الحرجة إلا لأهليته، ولأجل ذلك يقول بعض العلمـاء: إن الله تعالى حفظ الإسـلام بـرجلين: أبي بكر يـوم الـردة، وأحمد بن حنبل يـوم المحنة، ولأجل ذلك سمي بـالصديق ، أخـذاً من قـول الله تعـالى في سـورة الزمر: وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ [الزمر:33] الذي جاء بالصدق هو النـبي صلى الله عليه وسـلم، والـذي صـدق به هو أبو بكر ، فهـذه بلا شك أنها تـدل على أهليته، وقد أجمع الصحابة على تسميته بالصديق مبالغة في الصـدق، ولا شك أن الصديقية هي أعظم المراتب بعد النبوة، قـال الله تعـالى: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُـــولَ فَأُوْلَئِكَ مَـــعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّـــدِّيقِينَ [النسـاء:69] فبـدأ بالصـديقين بعد النبـيين، والصـديقون هم: المبـالغون في التصديق، وأبو بكر رضي الله عنه على رأسهم. فهذه الفضائل والمـيزات هي الـتي صـار بها أهلاً أن يتـولى أمر المسـلمين، ولكن طمس الله على قلـوب الرافضة وأعمى بصائرهم وحال بينهم وبين مائدة الحـق، فولـدوا أكـاذيب بأنه مغتصب، وأن الصحابة كلهم خونة، وأن علياً مظلوم، حـتى جعلـوا عليـاً أيضـاً من الظالمين؛ لأنه أقر بخلافة أبي بكر وبايعه وصبر على بيعته في زمانه، ولم يطالب بشيء من الخلافة، بل علي رضي الله عنه كـان يصـلي خلف أبي بكر مدة خلافته، إذلم يقل أحد من أهل السنة إن علياً كان يصـلي وحـده، أو كـان

له محـراب يصـلي فيه وحـده، ولا قـال أحـد: إنه تـرك الصـلاة مع الجماعة وحاشـاه. إذاً: فقد كـان يصـلي خلف أبي بكر ، أوليس ذلك دليل على أنه أقر بخلافته، وأنه رضي به والياً كما رضي به بقية المسلمين؟

طعن الرافضة في خلافة أبي بكر الصديق، ويعتقـدون أنه اغتصب الخلافة من علي رضي الله عنه، ويوردون بعض الشـبه لـترويج مـذهبهم، وقد كشف أهل العلم شبهاتهم، وزيفوا دعاواهم.

معتقد متأخري الرافضة في الصحابة كمعتقد متقدميهم

نحمد الله أن جعلنا مســلمين، ونحمد الله أن جعلنا ســنيين، ونحمد الله أن جعلنا متمسـكين بالهـدي النبـوي، متمسـكين بسـنة خـير المرسـلين، متبعين للصـحابة أجمعين، مترضـين عنهم وعن التـابعين وتـابع التـابعين ومن تبعهم بإحســان إلى يــوم الــدين، مترضــين عن أئمة المســلمين، عــارفين لحقهم وعــارفين لقــدرهم، مخــالفين لأهل البــدع والمحــدثات، وهــذه بلا شك نعمة عظيمة ومنة جســيمة حيث أنقــذنا الله من تلك البــدع، وأنقــذنا من تلك الخرافـات، وأنقـذنا من أولئك المبتدعة الـذين رأوا الحق فـتركوه، وزين لهم الباطل فــاتبعوه، وقــامت عليهم حجة اللــه، ولكنهم أصــروا وعانــدوا على المخالفة. في القـرون السـابقة قد يكـون الشـيعة والرافضة معـذورين؛ حيث إنهم لم يطلعـوا على سـير الصـحابة، ولم تنتشر كتب السـلف، ولم تشـتهر الأحاديث الـتي فيهـا؛ وذلك لكونها مخطوطة في المكتبـات الكبـيرة ولا يمكن انتشارها، وهم لا يألفونها، ولا يقصدون تلك المكتبـات، ولا ينتقـون تلك الكتب وإنما ينتقـون ما يناسـبهم من مؤلفـات مشـايخهم، ولكن في هـذه الأزمنة بلا شك أنها قد قــامت عليهم الحجــة، وظهر الحق واســتبان، ولكنهم عانــدوا وأصروا واستكبروا عن الحق، فلا عذر لهم، فقد انتشـرت كتب السـلف وكتب السنة وكتب السيرة بعدما كـان لا يوجد منها إلا كتـاب أو كتابـان أو نسـخة أو نسختان، صار يوجد منها الآن مئات وألوف وعشـرات الألـوف، وفي إمكـانهم أن يقرءوها، بل وقرءوها، ولكنهم أصـروا واسـتكبروا. كـذلك في هـذه الأزمنة أيضـاً وجـدت الأشـرطة الـتي فيها سـيرة السـلف وهم يسـمعونها ويقتنونهـا، ولكنهم أصروا واستكبروا على العناد وعلى البدعة الشنيعة. كذلك أيضـاً تنشر سـير السـلف وسـير الصـحابة ومـآثرهم وفضـائلهم في الكتب، وتنشر في الصـحف اليوميـة، وتنشر في المجلات الأسـبوعية أو المجلات الشـهرية الـتي هي دائماً منتشرة تذاع علنـاً، ولا شك أن أولئك الشـيعة يتمكنـون من قراءتها والاطلاع عليها ولابــد، ولكنهم مع ذلك كله بعد قيــام الحجة عليهم أصــروا واستكبروا استكباراً. وكذلك أيضاً بلا شك أنهم يسـمعون إذاعـات أهل السـنة في كل مكان وفي كل جهة، الذين يترضون عن الصحابة وينشـرون سـيرهم، وينشــرون أخبــارهم وجهــدهم وجهــادهم، فلا شك أنهم قد ســمعوا ذلك ويسمعونه، ولكنهم مع ذلك أصروا واستكبروا استكباراً. كذلك أيضـاً مع وجـود المناهج الدراسية التي تـدرس فيها سـير الصـحابة وسـير السـلف وأحـوالهم، وكتب الأدب، وكتب التـاريخ في المعاهد العلميـة، وفي المـدارس المتوسـطة

والثانوية، وفي الجامعات الإسلامية، لا شك أنها تدرس وأن الشيعة يدرسونها, ويقرءونها، وقد عرفوا صحة ما فيها وثبوته؛ حيث إنه يعتمد على الدليل وعلى النقل الصــحيح، ولكنهم مع ذلك كله أصــروا واســتكبروا اســتكباراً. إذاً: فقد قامت عليهم الحجة، فليسوا كعلمائهم الأولين الذين لم يتمكنوا مما تمكن منه هؤلاء، هذا بالنسبة للرافضـة. أما بالنسـبة لأهل السـنة فـإنهم كـانوا قـديماً لا يتمكنون من قراءة كتبهم، ولا يطلعـون عليهـا، بل الرافضة بأنفسـهم يخفـون كتبهم وعقائدهم ويسرونها، ولا يمكنون أحـداً من قراءتهـا؛ وذلك لما فيها من الفضائح، ولما فيها من الأخطاء الفاحشة، ولما فيها من الحمل على الصحابة، ومن التـأويلات البعيـدة، ولكن في هـذه الأزمنة لم يقـدروا على إخفائهـا، بل طبعت تفاســـيرهم، وطبعت كتبهم، واطلع عليها أهل الســـنة، فـــرأوا فيها الفضـائح، ونقلـوا ما نقلـوا منهـا، وجعلـوه حجة عليهم، وردوا عليهم الـردود الواضحة من كتبهم أنفسهم، وقالوا: قلتم في كتابكم الفلاني في صـفحة كـذا من جزء كذا، وقلتم في كتابكم كذا وكذا، وكلها أشـياء واقعيـة، لكنها تـأويلات بعيدة، وتحريفات للكلم عن مواضـعه، وأكـاذيب وترهـات يقولونها بغـير حـق، ويجعلونها شبه أدلة وهي في الحقيقة خرافات لا أصل لهـا، وقد اتضح كـذبها، واتضح بعدها، واتضح لكل عاقل أنها بعيدة عن الصـواب، فبـان بـذلك كـذبهم، وبان بذلك فشلهم، واطلع العلماء على أسرارهم، وردوا عليهم من مؤلفاتهم، ولكنهم مع ذلك كله أصروا واستكبروا. ......

جهود الرافضة في إفساد عقائد المسلمين

في هذه البلاد -المملكـة- معلـوم أن المنـاهج الدراسـية موحـدة بالنسـبة إلى طلاب السنة والشيعة ، ولكن علماؤهم الذين يخفون أنفسـهم -وربما أظهـروا أنفسهم في هـذه الأزمنـة- يحرصـون على ألا يقع في أيـدي أبنـائهم وأولادهم شيء من التعاليم الـتي يتلقونها من المدرسـين السـنيين، فـإذا درس الطلاب الشيعيون في هذه المـدارس أشـياء تتعلق بالعقيـدة وتتعلق بسـير الصـحابة، وخرجوا وقد عرفوا ذلك وقرءوه، وأخذوه من تلك المناهج والكتب الدراسـية؛ عرضـوه على شـيخ لهم أو على كبـير لهم، فأخذ ينتقد هـذه، ويصـوب هـذه، ويخطئ هـذه، ويقـول لهم: هـذا لا تعتقـدوه، وهـذا لا تقولـوا بـه، وهـذا ليس بصحيح، وهذا يخالف معتقدكم، وهذا يخالف سيرتكم، ولا يزال بأولئك الطلاب حتى لا يبقي أثـراً في قلـوبهم مما تلقـوه من علمـائهم السـنيين؛ حـتى يبقـوا على معتقد آبــائهم وأجــدادهم وأســلافهم الباطل الســيئ. وقد ذكر لنا بعض الإخوان أنه كان هناك مدرس من أهل السنة في إحدى البلاد التي يغلب على أهلها التشـيع، فلما عقل أولئك الطلاب وتفتحـوا، ورأى أن فيهم ذكـاء وإقبـالاً رأى أن يناقشهم بالدليل، ويناقشـهم بـالقرآن، ويناقشـهم بالسـنة الصـحيحة، وأخذ يجعل لهم مجالس أسبوعية يقـرر لهم الحق ويقـول لهم: نحن مع الحق أينما كان، إن كـان معكم فائتونا بـه، وإن كـان معنا أتينا بـه، ونحن نتبعه أينما كان، ولكن بعدما استمر شهراً أو شهرين، ورأى آباءهم أنهم قد اقتنعـوا بعض

الاقتنــاع بكلام هــذا الشــيخ، وأنه غــير شــيئاً من معتقــدهم؛ عمد الآبــاء إليه فطردوه وأبعدوه من بلادهم، وقالوا: إنك أوشكت أن تغـير معتقد أبنائنـا، رغم أنهم كلما أخذوا منه توجيهات عرضوها على آبائهم ومشــايخهم، فلما رأوا أنها حجج قوية تكاد أن تغلبهم قالوا: هذا سوف يفسد أخلاقهم ومعتقــدهم، وليس لنا حيلة إلا أن نبعــده ونطــرده. وكــذلك هم يحــاولون اضــطهاد أهل الخــير، ويحاولون ألا يكون لأهل السنة قوة ولا نفوذ ولا تسلط ولا قـدرة على شــيء، وقد ذكر لنا بعض الإخوان أنه في مدرسة من المـدارس قـرب المدينة النبوية اتفق المـدير والمدرسـون -وكلهم شـيعة- على ألا يـدرس الأولاد في المرحلة الابتدائية إلا دروساً قليلة، فلا يعلمونهم هجـاءً، ولا يعلمـونهم كتابـة، ولا إملاءً، ولا تجويداً، ولا قرآناً، ولا حساباً، ولا غـير ذلـك، وأن ينجحـوهم في آخر السـنة وإن كانوا لا يعرفون شـيئاً، ويـأتي المـدرس ويقف أمـام الطلاب ويبقى يتكلم معهم كلامـاً عاديـاً، ولا يفتح عليهم بكلمة حـتى تنتهي السـنة الدراسـية، فـإذا انتهت نجحوهم كلهم، وهم لا يعرفون شيئاً، ولما انتهــوا من المرحلة الابتدائية وواحدهم لا يحسن أن يكتب اسمه، ولا يعـرف حسـاباً، ولا غـير ذلـك، والتحق بالمتوســطة؛ إذا هو لا يحسن شــيئاً، ولا يعــرف شــيئاً، فيقــول: مــاذا أفعل وزملائي قد تفوقـوا علي، فهم يعرفـون وأنا لا أعـرف، عند ذلك يتعقد ويـترك الدراسة؛ لأنه لا يستطيع أن يعود للدراسة في السنة الأولى وعمـره قد جـاوز الثانية عشرة أو نحوها، عند ذلك يتركون الدراسة ويتعقد أحـدهم، فهـذه حيلة من حيل أولئك، لما تولـوا هـذا العمل وهو التـدريس. فهم في الحقيقة أعـداء للسنة، وأعداء لأهلها، يحاولون أن يفرضوا أنفســهم، ويحــاولون أن يظهر لهم النفوذ والقوة، ولكن كما قال الله تعالى: يُرِيـدُونَ لِيُطْفِئُوا نُـورَ اللَّهِ بِـأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ [الصف:8].

فضل أبي بكر الصديق والرد على الطاعنين فيه

من معتقد أهل السنة الاعـتراف بخلافة الخلفـاء الراشـدين، وأن تـرتيبهم في الفضل كـترتيبهم في الخلافـة، فـأول الخلفـاء هو أبو بكر رضي الله عنـه، ثم عمر ، ثم عثمـان ، ثم علي ؛ هـؤلاء هم الخلفـاء الراشـدون الـذين أمر النـبي صلى الله عليه وسـلم باتبـاعهم، وسـماهم الخلفـاء في قوله صـلى الله عليه وسلم: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشـدين المهـديين من بعـدي) شـهادة نبوية لهـؤلاء أنهم خلفــاء، وأنهم راشـدون، وأنهم مهـديون، أي: على الهـدى المستقيم، وعلى الصراط المستقيم الذي سـألوا الله أن يهـديهم إيـاه، ونحن نسأله أيضاً، ولا شك أن هذه الشـهادة النبوية تثبت أن الـذين تولـوا بعـده هم خلفـاء، ولا شك أن أولهم أبو بكر رضي الله عنـه. وسـيرة أبي بكر رضي الله عنه هي أحسن السير؛ حيث إنه اقتدى بـالنبي صـلى الله عليه وسـلم في كل

ما يفعل، فأنفذ جيش أسامة أول ما تـولى، وبعث الجيـوش لقتـال المرتـدين، فانتصر الإسلام بعـدما كـان العـرب قد رمـوا أهل المدينة عن قـوس العـداوة خلال ما يقرب من ثلاثة أشـهر، فأرسل جيشـاً لقتـال بعض المرتـدين، فهـدى الله طيئاً ومن معهم، فلما رأت منهم قبائل العرب الذين حولهم ذلك انضـموا إليهم، ولم يمض إلا شهران أو ثلاثة أشهر حتى بعث أبو بكر ستة عشر أمـيراً أو سبعة عشر لقتال المرتدين البعيدين، فتراجعوا كلهم وانضموا إلى الإسـلام أوليس ذلك دليلاً على حنكته وفراسـته وقوته في القيـام بـأمر الله تعـالى؟ أوليس دليلاً على أن الله تعالى وفقه وسـدد به وهـدى به ونصر به الإسـلام؟ ......

استشهاد الرافضة بحديث الغدير للطعن في خلافة أبي بكر والرد عليهم

الرافضة يطعنون في أبي بكر، ويدعون أن علياً هو الإمام، ويستشهدون على ذلك بأحاديث ضعيفة أو موضوعة يسمونه حـديث الغـدير مع أن أكـثره كـذب، ويقولون فيه: إن النبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: (من كنت مـولاه فـعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاده) ونقول: هذا صحيح، ونحن نقول: إن منزلة علي من النبي صلى الله عليه وسـلم كمنزلة هـارون من موسـى، وأنه مولى المسلمين، وكذلك نقول: إن أبا بكر وسائر الخلفاء، وسائر الصحابة هم موالي المسلمين، وليست الولاية إلا ما تقتضي المحبـة، فـإذا كـان علي ولياً للمؤمنين وولياً للنبي صـلى الله عليه وسـلم، والنـبي صـلى الله عيله وسـلم مولى للمؤمنين أيضاً، فكذلك بقية الصـحابة، فليس هنـاك دليل على أن علياً اختص بالولاية دون غـيره، ودعـاؤه صـلى الله عليه وسـلم بقولـه: (اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) دعـاء صـحيح إذا ثبت، ونحن نواليه ونحبـه، ولكن لا نفـــرط في حبـــه، ولا نجعله أحق بالولاية وبالخلافة من أبي بكر وغـــيره من الصـحابة، بل نجعلهم كلهم أهل ولاية وأهل محبة وأهل تـرضٍ، فنترضى عنهم جميعاً، ونجعل لهم حقاً علينا بأن نحبهم ونواليهم.

استشـهاد الرافضة بما حصل بين فاطمة وأبي بكر للطعن في خلافته والـرد عليهم

وطعن الرافضة في أبي بكر بأنه لم يعط فاطمة حقها من مـيراث أبيهـا، الله أكبر! هذا هو الذي طعنـوا عليه فيـه، وتحـاملوا عليه تحـاملاً شـديداً، وأنكـروا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا نورث، ما تركنا صـدقة) أنكـروا ذلك كله مع ثبوته بطرق كثيرة، وزعمـوا أن أبا بكر قد كـذب في ذلك مع أنه لم ينفـرد

به، وجعلوا النبي صلى الله عليه وسلم بذلك مهتمـاً لأمر الـدنيا، وكـأن الـدنيا أكبر همه مع أنه يقول: (ما لي وللدنيا! إنما أنا كـراكب قـال في ظل دوحـة)، ومع ما ثبت عن الحارث بن أبي ضرار وغيره أن النبي صـلى الله عليه وسـلم ما خلف ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً إلا سـلاحه وعتـاده وأرضـاً جعلها صدقة. إذاً: بـأي شـيء ينتقـدون أبا بكر ويقولـون: إنه منع فاطمة حقها من ميراث أبيها؟ ويجاب عليهم من عدة وجوه: أولاً: الرسل لا يورثـون. ثانيـاً: ليست الـدنيا ذات أهمية عنـدهم حـتى يخلفوها لأولادهم، ويقولـون: لهم أن يرثوا، ولهم أن يأخذوا. ثالثاً: أن الأرض التي جعلها صدقة قد صـار علي رضي الله عنه هو المتولي عليها بعد موت فاطمة. وبكل حال فهـذا أكـبر ما طعنـوا فيـه، ولما طعنـوا فيه بأنه حـرم فاطمة من ميراثهـا، أخـذوا يجمعـون عليه الأكاذيب ويلفقـون عليـه، ويعيبونه بكل عيب، فيقولـون: إنه قاتل المسـلمين، وكـذبوا! فهو ما قاتل إلا من ارتـد، فبـالرغم من أنهم يقولـون: لا إله إلا الله محمد رسـول اللـه، إلا أنهم فرقـوا بين الصـلاة والزكـاة؛ لـذلك فلم يكونـوا مقـرين بالشـهادة حق الإقـرار، فلأجل ذلك رأى قتـالهم وسـماهم مرتـدين. ويقولون: إنه أقر خالد بن الوليد على القتال، ويكفرون خالـداً بـذلك، فنقـول: إن أبا بكر ما أقـره إلا وقد رآه أهلاً للقتـال، لأن خالـداً لم يكن قريبـاً له ولا صهراً له، بل هو سـيف الله كما سـماه النـبي صـلى الله عليه وسـلم، فمـاذا نقموا عليه حتى يسبوه ويلعنوه ويشتموه؟! قاتلهم الله.

بعض أقوال النبي وأفعاله الدالة على أحقية أبي بكر بالخلافة

النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل أبا بكر رضي الله عنه خليفته في الصلاة حين قال: (مروا أبا بكر فليصل بالناس) أوليس تقديمه في الصـلاة دليلاً على أفضـليته؟ وأهليته للإمامة وللصـلاة؟ كـذلك أيضـاً هو دليل على ميزته وعلى كفاءتـه, وفيه إشـارة إلى أنه سـيخلفه ويقـوم مقامـه. والنـبي عليه الصـلاة والسـلام أمر أن تسد النوافذ الـتي فتحت على المسـجد إلا بـاب أبي بكر فلا يسـد، وذلك إشـارة إلى أنه سـيتولى الأمـر، وسـيكثر دخوله وخروجه إلى المسجد؛ وذلك إشارة إلى أن له أحقية في المسجد وفي الولايـة. وقـال عليه الصلاة والسلام: (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) فبدأ بـأبي بكر مما يدل على أنه الذي يتولى بعده، وهذا ما وقع، ثم تـولى بعـده عمر . إذاً: فهـذه إشارات واضحة إلى أن أبا بكر رضي الله عنه هو الخليفة بعـده. كـذلك أيضـاً من الإشارات ما جاء في قوله صـلى الله عليه وسـلم: (رأيت أني على قليب فنزعت منها ما شاء الله أن أنزع، فأخذها أبو بكر فـنزع منها ذنوبـاً أو ذنـوبين وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، فاستحالت غرباً فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه حـتى روي النـاس وضـربوا بعطن) وفيه إشـارة

إلى قصر فـترة أبي بكر حيث قـال: (ذنوبـاً أو ذنـوبين)، أما خلافة عمر فقد امتـدت طـويلاً، وفي عصـره فتحت بلاد كثـيرة، وذلك بلا شك دليل على أنهما خليفتان بعده. وهكذا الرؤيا التي رآها بعض الصحابة في الدلو الذي تـدلى من السماء فشرب منه النبي صلى الله عليه وسلم ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم انتضح منه على علي، وهو إشارة إلى أنهم الذين يتولون بعده. ومن أصرح الإشارات قوله صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر). فـأبو بكر رضي الله عنه هو الخليفة الراشـد، وهو الـذي تـولى أمـور المسـلمين، وهو الـذي سـار بهم سـيرة حسـنة، ولم يـول الخلافة لأولاده ولا لأقاربه، ولم يحاب فيها، وكذلك أيضاً في حالة ولايته لم يول الأمير الفلاني أو العلاني، ولم يـولهم لأجل قـرابتهم لـه، ولا لأجل محابـاة، وإنما اختـار الـولاة والقادة الـذين فيهم الأهلية وفيهم الكفـاءة، حـتى ولو لم يكونـوا من قـريش، فكانت توليته لـخالد بن الوليد ولغيره من الأمراء لما فيهم من الأهلية. فنشهد بأن أبا بكر أهل للخلافة، وأن الله تعالى عندما اختـاره وليـاً وخليفة فـإن ذلك عين المصـلحة، وأنه هو الـذي ثبت الله به الإسـلام ورد به المسـلمين بعد أن كـادوا يخرجـون من الإسـلام، فلأجل ذلك سـمي بـالصديق الـذي هو أول من صدق، والذي فتح الله تعالى به قلوب العباد، ورزقهم الإنابة إليه والثبات على دينه.

استخلاف أبي بكر إن لم يكن نصاً فهو بإشارة واضحة

قال الشارح رحمه الله تعالى: [واحتج من قال: لم يسـتخلف، بـالخبر المـأثور عن عبد الله بن عمر عن عمر رضي الله عنهما أنه قـال: (إن أسـتخلف فقد استخلف من هو خير مني -يعني: أبا بكر - وإلا أستخلف فلم يستخلف من هو خير مني -يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم-)، قـال عبد اللـه: فعـرفت أنه حين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم غـير مسـتخلف. وبما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها سـئلت: (من كـان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم مسـتخلفاً لو اسـتخلف؟). والظـاهر -والله أعلم- أن المـراد أنه لم يسـتخلف بعـده بعهد مكتـوب، ولو كتب عهـداً لكتبه لـأبي بكر ، بل قد أراد كتابته ثم تركه، وقال: (يأبى الله والمسـلمون إلا أبا بكـر) فكـان هـذا أبلغ من مجرد العهد، فإن النبي صلى الله عليه وسـلم دل المسـلمين على اسـتخلاف أبي بكر ، وأرشـدهم إليه بـأمور متعـددة من أقواله وأفعالـه، وأخـبر بخلافته إخبـار راض بـذلك حامد لـه، وعـزم على أن يكتب بـذلك عهـداً، ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه فـترك الكتابة اكتفـاء بـذلك، ثم عـزم على ذلك في مرضه يـوم الخميس، ثم لما حصل لبعضـهم شـك: هل ذلك القـول من جهة المرض أو هو قول يجب اتباعـه؟ تـرك الكتابة اكتفـاء بما علم أن الله يختـاره

والمؤمنون من خلافة أبي بكر ، فلو كان التعريض مما يشـتبه على الأمة لبينه بيانـاً قاطعـاً للعـذر، لكن لما دلهم دلالات متعـددة على أن أبا بكر المتعين، وفهموا ذلك حصل المقصود؛ ولهذا قـال عمر رضي الله عنه في خطبته الـتي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار: (أنت خيرنا وسيدنا وأحبنا إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم) ولم ينكر ذلك منهم أحـد، ولا قـال أحد من الصـحابة: إن غـير أبي بكر من المهاجرين أحق بالخلافة منـه، ولم ينـازع أحد في خلافته إلا بعض الأنصـار طمعـاً في أن يكـون من الأنصـار أمـير ومن المهاجرين أمير، وهذا مما ثبت بالنصوص المتواترة عن النبي صـلى الله عليه وسلم بطلانه، ثم الأنصار كلهم بايعوا أبا بكر إلا سعد بن عبادة لكونه هو الذي كان يطلب الولاية، ولم يقل أحد من الصحابة قـط: إن النـبي صـلى الله عليه وسلم نص على غير أبي بكر ، لا علي ولا العباس ولا غيرهما كما قد قال أهل البـدع، وروى ابن بطة بإسـناده أن عمر بن عبد العزيز بعث محمد بن الزبـير الحنظلي إلى الحسن فقال: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر ؟ فقال: أوفي شك صـاحبك؟ نعم والله الـذي لا إله إلا هو اسـتخلفه، لهو كان أتقى لله من أن يتوثب عليهـا]. قد تقـدم القـول الأول أن خلافة أبي بكر رضي الله عنه كانت بالنص، وهذا قول ثان أنها بالإشارة، فهما قولان للعلماء: فالذين قالوا: إنها بالنص، استدلوا بقولـه: (اقتـدوا باللـذين من بعـدي أبي بكر وعمر) فإن هذا نص على أن أبا بكر بعده، واستدلوا أيضاً بقوله للمـرأة الـتي قالت: (أرأيت إن أتيت فلم أجدك؟ فقال: ائتي أبا بكـر) فـإن هـذا نص أنه هو الذي يتولى الولاية بعـده، واسـتدلوا بأنه أمـره بـأن يـؤم الجماعة وأن يصـلي بهم، وهذا نص بأنه هو الذي يكون إمامـاً متبعـاً إذا اتبعـوه في الصـلاة، ولهـذا قالوا: رضينا لدنيانا من رضـيه رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لـديننا. أي: من قدمه لـديننا إمامـاً، إلى آخر الأدلة الـتي سـبقت. هـذا القـول الأول. أما القول الثاني: وهو أنه لم يسـتخلف، وإنما أشـار إشـارات، فيقولـون: إن عمر رضي الله عنه قال: (إن لم أستخلف فلم يستخلف من هو خـير مـني) يعـني: رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: فهذا عمر شهد أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم لم يسـتخلف، فنقـول: لم يسـتخلف بـالنص؛ لأنه لم يقـل: أيها الناس! بايعوا أبا بكر فهو خليفتي عليكم، لكن قد عزم على أن يكتب له كتاباً وقال لـعائشة : (ادعي لي أخاك وأباك أكتب كتابـاً حـتى لا يختلفـوا عليـه) ثم إنه ترك الكتاب وقال: (يأبى الله والمسـلمون إلا أبا بكـر) فلم يقـل: خليفـتي أبو بكر مقالاً صريحاً، ولم يقـل: بـايعوه بعـدي قـولاً صـريحاً، إنما هي أقـوال عامة فيها نوع من الإشارة، ومجموع تلك الإشارات يصبح دليلاً صريحاً واضحاً لا خلاف فيه. كذلك أيضاً سمعنا كلام الحسن لما قيل له: هل استخلف النـبي صلى الله عليه وسـلم أبا بكـر؟ فقـال: هو أورع من أن يتـوثب عليهـا، يعـني: ليس بمحب للولاية ولا راغبـاً فيهـا، ولكن لما اجتمعت عليه كلمة المسـلمين، ولما جاءت هذه الإشارات من النبي عليه الصلاة والسـلام باسـتخلافه؛ قبلهـا، وإلا فهو ورع وزاهد وخائف لا يمكن أن يقبلها بدون أن يكون أهلاً لها، وبـدون أن يرضاه لها أهل الولاية وأهل الحل والعقد من الصـحابة، هـذا معـنى قولـه: يتوثب عليها. فبلا شك أنه صـلى الله عليه وسـلم أشـار هـذه الإشـارات الـتي

تــدل على أن أبا بكر أحق بالخلافــة، ثم لما اجتمعت عليه الإشــارات وكــانت واضــحة رأى عمر رضي الله عنه أنه أحق بالخلافــة؛ فبايعه وبايعه الصــحابة كلهم. وخلاصة ما جرى في أول يوم من وفـاة النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وقبل بيعة أبي بكر: أن الأنصار اجتمعوا في سـقيفة بـني سـاعدة، وكـادوا أن يبايعوا واحـداً منهم وهو سـعد بن عبـادة، فلما سـمع بهم عمر رضي الله عنه وأبو بكر وأبو عبيدة ذهبوا إليهم، ثم خطبهم أبو بكر رضي الله عنه وقال لهم: (الخلافة في قريش) كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما قالوا: (منا أمير ومنكم أمــير) أي: نــؤمر أمــيراً على الأنصــار، وأمــيركم منكم يا معشر المهاجرين! فقـال أبو بكر وعمـر: (بل الإمـارة في قـريش) ثم قـال أبو بكـر: (نحن الأمراء وأنتم الوزراء) فلما أقنعوهم بكلام النبي صـلى الله عليه وسـلم وبإشارته تمت البيعة في نفس السقيفة، فبايعوه واجتمعوا عليــه، ولم يتخلف منهم أحـد، أما سـعد بن عبـادة رضي الله عنه فإنه لم يبـايع في تلك السـاعة رجاء أن يكون له حظ من الولاية، ولكنه بايع بعد ذلك بيعة مختار راض، كذلك أيضاً علي رضي الله عنه قيل: إنه تأخر عن البيعة ثم بعد ذلك بايع، والصـحيح أنه لم يتأخر، بل بـايع باختيـاره وبطوعه وبما علمه من أهلية أبي بكر وأحقيته بهــذه الخلافــة. ثم حصل من خلافته رضي الله عنه من الأهلية ومن ضــبط الأمور وإحكامها غاية الإحكام، فرأوا أن الله تعالى اختاره للمسـلمين في ذلك الوقت الحرج الذي كانوا فيه أشد احتياجاً إلى خليفة قوي يقيم فيهم أمر الله تعالى، ويرتب أمورهم ترتيباً محكماً، فهذا ما يسره الله لهم في ذلك الـوقت، وما أنعم به عليهم. إذاً: عرفنا بـذلك أن خلافة أبي بكر وإن لم تكن نصـاً فإنها بإشارات واضحة مجموعها يصبح نصاً قوياً.

تقديم الصحابة لأبي بكر دليل على أحقيته بالخلافة

قـال الشـارح رحمه اللـه: [وفي الجملـة: فجميع من نقل عنه أنه طلب تولية غير أبي بكر لم يذكر حجة دينية شرعية، ولا ذكر أن غير أبي بكر أفضل منــه، أو أحق بها، وإنما نشأ من حب قبيلته وقومه فقـط، وهم كـانوا يعلمـون فضل أبي بكر رضي الله عنـه، وحب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لـه، ففي الصحيحين عن عمـرو بن العـاص أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت: (أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة ، قلت: من الرجال؟ قال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال: عمر ، وعد رجالاً). وفيهما أيضاً عن أبي الدرداء قـال: كنت جالسـاً عند النـبي صـلى الله عليه وسـلم إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه، وقـال النـبي صـلى الله عليه وسلم: (أما صـاحبكم فقد غـامر، فسـلم وقـال: إنه كـان بيـني وبين ابن الخطـاب شـيء فأسـرعت إليـه، ثم نـدمت فسـألته أن يغفر لي، فـأبى علي،

فـأقبلت إليـك، فقـال: يغفر الله لك يا أبا بكر ! ثلاثـاً، ثم إن عمر نـدم فـأتى منزل أبي بكر فسأل: أثم هو؟ فقالوا: لا، فـأتى النـبي صـلى الله عليه وسـلم فسلم عليه، فجعل وجه النـبي صـلى الله عليه وسـلم يتمعر حـتى أشـفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله! والله أنا كنت أظلم مـرتين، فقـال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر : صدقت، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تـاركوا لي صـاحبي؟ (مـرتين)، فما أوذي بعـدها) ومعـنى غـامر: غاضب وخاصـم، ويضـيق هـذا المختصر عن ذكر فضــائله. وفي الصــحيحين أيضــاً عن عائشة رضي الله عنها أن رســول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسنح -فذكرت الحديث- إلى أن قـالت: واجتمع الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بـني سـاعدة فقـالوا: منا أمـير ومنكم أمير، فـذهب إليه أبو بكر وعمر بن الخطـاب وأبو عبيـدة بن الجـراح ، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر ، وكان عمر يقول: والله ما أردت بــذلك إلا أني هيئت في نفسي كلاماً قد أعجبني خشــيت ألا يبلغه أبو بكر ، ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ النـاس، وقـال في كلامـه: نحن الأمـراء وأنتم الـوزراء، فقـال حباب بن المنذر : لا والله لا نفعـل، منا أمـير ومنكم أمـير، فقـال أبو بكر : لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب وأعزهم أحساباً، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة بن الجراح ، فقال عمر: بل نبايعـك، فـأنت سـيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس، فقـال قائل: قتلتم سعداً! فقال عمـر: قتله اللـه! والسـنح: العاليـة، وهي حديقة من حدائق المدينة معروفة بها]. معلـوم أن التقـديم يـدل على الفضـل، والاختيـار يـدل على الأهليـة، فهم ما قـدموا أبا بكر إلا لفضـيلته، ولا اختـاروه خليفة إلا لأهليته وكفاءته، وكونه كفئاً لهذه الولايـة؛ لـذلك أجمعـوا عليـه، وقد نـزه الله الأمة أن تجتمع على ضــلالة، وقد ذكر العلمــاء في كتب الأصــول الفقهية أن إجماع الأمة حجة قاطعة، والرافضة يعترفون أن الإجمـاع حجـة، ولكنهم هاهنا خالفوا معتقدهم، فنقـول لهم: من الـذي خـالف في بيعة أبي بكر ؟ سـموا لنا شخصاً لم يرض بهذه البيعة فيما بعـد؟ علي رضي الله عنه -الـذي هو الإمـام عندكم- قد بايعه، وجاهد معـه، وصـار مستشـاراً لـه، وصـار قرينـاً له في كل حاله وتدبيراته، يرجع كل منهما إلى قول الآخر، ولم ينقل عنه أنه سخط بيعته ولا أنكرها، فهو من جملة من بايع، وأما سعد بن عبادة الأنصاري فقد كان تهيأ لأجل أن يكون أميراً على الأنصار، ولكن لما تمت البيعة لــأبي بكر رضي الله عنه قـام بعد ذلك وبـايع، وبقي كسـائر المقتـدين بــأبي بكر ، فبقي كآحـاد الرعية. مثل هذه الأحاديث دليل على فضـيلة أبي بكر ، وأن النـبي صـلى الله عليه وسلم كان يحبه ويقدمه، فهذا عمرو بن العـاص من أكـابر قـريش وأهل الفضل فيهم لما عينه النـبي صـلى الله عليه وسـلم أمـيراً على سـرية ذات السلاسل، قبل أن يخـرج جـاء إليه وقـال: أي النـاس أحب إليـك؟ من النـاس كلهم، فـأخبره بأنه يحب عائشة ؛ وذلك لفضـيلتها ولفضـيلة أبيهـا، فسـأله عن أحب الرجال إليه، فقال: (أبوها) وهـذا بلا شك دليل على تقديمه في المحبـة، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ويقدمه فإن ذلك دليل على فضيلته وأهليته، وبعده ذكر عمر وسمى بعده رجالاً، ولا شك أن محبته صلى الله عليه

وسـلم ما حصـلت إلا لكونه أهلاً لأن يكـون محبوبـاً كما ذكر في الأحـاديث الأخرى. وفي الحديث الثاني أنه صلى الله عليه وسلم قـال: (هل أنتم تـاركوا لي صاحبي؟ إني قلت: إني رسول الله إليكم، فقلتم: كـذبت، وقـال أبو بكـر: صدقت، وواساني بماله ونفسه) هكذا شـهد له النـبي صـلى الله عليه وسـلم؛ وذلك لأنه أول من أسـلم من الرجـال، هـذا هو القـول الصـحيح. يقـول أبو الخطـاب في عقيدته المشـهورة، وهو عـالم من علمـاء الحنابلـة، يقـال لـه: محفوظ بن أحمد الكلوذاني له عقيدة في نظم عقيدة أهل السنة يقول فيهـا:
قـالوا فمن بعد النـبي خليفة قلت الموحد قبل كل موحد حاميه في يـوم العريش ومن له في الغار مسعد يا له من مسعد فشـهد بأنه الموحد قبل كل موحد؛ وذلك لأنه صـلى الله عليه وسـلم لما دعـاه لم يتلعثم ولم يتوقـف، بل بمجرد ما عرض عليه الإسلام بايع ولم ينتظر، ولم يقـل: أمهلـني، ولا سـأنظر في أمري، وكـان رجلاً كـاملاً من بين الرجـال، فلـذلك هو أول من أسـلم من الرجال، فلما قال الناس: كذبت، قال أبو بكر : صدقت، أنت الصـادق؛ فلـذلك سـمي بالصـديق. وفي حـديث السـقيفة أنه لما سـمع باجتمـاع الأنصـار في سقيفة بني ساعدة جاء ومعه عمر وأبو عبيدة؛ فخطبهم وقـال: (نحن الأمـراء وأنتم الـوزراء) لما طلبـوا أن يكـون منهم أمـير، فقـال: لكم الـوزارة ولكم الإشارة، أما الإمارة ففي قريش؛ لأن النـبي صـلى الله عليه وسـلم نص على ذلك بقوله: (إن هذا الأمر في قريش) يعني: الولاية، فرضوا بذلك، ولما قـال: بـايعوا أبا عبيـدة أو عمر ، يقـول عمر : إنه لم يقل كلمة تؤلمـني إلا هـذه الكلمة، ما كنت أحب أن أكون واليـاً على قـوم فيهم أبو بكر ، لما هو فيه من الأهلية، فقد قدموه لصحبته، وقدموه لمحبة النبي صـلى الله عليه وسـلم لـه، وقدموه لقربه منه، ولكونه صهره، وقدموه لكونه صاحبه في السفر، وصاحبه في الغار، وغير ذلك من الفضائل، وقدموه أيضاً لفضائله الـتي نص عليها الله سبحانه في كتابه، كما في قول الله تعالى: إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَـانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْـزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا [التوبـة:40]، وكـذلك أنزل فيه قوله تعالى: وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَـهُ يَتَـزَكَّى * وَمَا لِأَحَـدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْـهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَـوْفَ يَرْضَـى [الليـل: 17-21]، وغير ذلك من فضائله الكثيرة، ومن أراد أن يتوسع في ذكر فضائله فلـيرجع إلى ترجمته وإلى ما كتب عنه العلمـاء، ومن أهمها وأشـهرها كتـاب (فضائل الصحابة) للإمام أحمد، وقد اشـتمل على فضـائل الخلفـاء الراشـدين وغيرهم.

عمر بن الخطـاب رضي الله عنه أفضل الأمة بعد نبيها عليه الصـلاة والسـلام وأبي بكر الصـديق، وهو ثـاني الخلفـاء الراشـدين، وفضـائله كثـيرة، ومناقبه عظيمة، وهذه عقيدة أهل السنة فيه، وقد صح عن علي بن أبي طـالب ما هو مطابق لها.

اعتراف المسلمين بفضل الصحابة وبخاصة الخلفاء الراشدين

يعترف المسلمون بفضل صحابة النـبي صـلى الله عليه وسـلم؛ لأنهم حفظـوا على الأمة دينها، ولأنهم ورثوا نبي الأمة وبلغوا شـريعته ودينـه، ودعـوا إلى ما دعا إليه، ونشروا الإسلام بعده، وجاهدوا في سبيل الله، وأطاعوا شريعة الله، ونفذوا حدوده، فالنبي بلغهم الرسالة التي أرسل بها، وهم قـاموا بتبليغها لمن بعدهم، ودعوا إليها قاصي البلاد ودانيهـا، فكـانوا بـذلك ورثة النـبي صـلى الله عليه وسـلم، ولا شك أن مـيراثهم هو أشـرف مـيراث، يقـول صـلى الله عليه وسلم: (إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهمـاً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر) هذا العلم الذي هو ميراث النبي صلى الله عليه وسلم من الذي تحمله عنه؟ أليس هم الصـحابة، وبـالأخص الخلفـاء الراشدون؟ من الـذين بلغه بعـده؟ إنهم صـحابته، إنهم الـذين بلغـوه وعلمـوه الأمة، أليسوا هم قادة الأمة وسادتها؟ نعترف لهم بالفضل، ثم نعترف للخلفاء الراشـدين بالأقدميـة؛ لأنهم أفضل الأمة بعد نبيهـا، ونعـترف لهم بـأنهم أهل الولاية والخلافة والإمامة التي قـاموا بها أتم قيـام، فـأجمعوا بعد مـوت نـبيهم صـلى الله عليه وسـلم على تقـديم الخليفة الأول الراشد أبي بكر رضي الله عنـه، ورأوه أهلاً للخلافة كما رآه نـبيهم صـلى الله عليه وسـلم أهلاً للإمامـة، كذلك أيضاً رأوه سباقاً إلى الخير، ورأوه عاملاً بالأعمال الصالحة، ورأوه أهلاً للخلافة لحنكته وحذقه وقوة تفكيره ومعرفته وذكائه وصحبته للنبي صلى الله عليه وسلم، وطول ملازمته، فلم يروا بداً من أن يبايعوه خليفة عليهم وإمامـاً وقائداً لهم، فكان ذلك عين المصلحة، فثبته الله في وقت اشتدت فيه الغربة، إذ إنه بعد موت النـبي صـلى الله عليه وسـلم ارتد العـرب عن الإسـلام إلا ما شاء الله، وما بقي إلا أهل المدينة ومن حولهم، وهم الأعراب أن يغـيروا على المدينة وأن يسلبوهم ما هم فيه، وأن يقتلـوهم ويستأصـلوهم، ولكن ثبت الله أبا بكر وربط على قلبه؛ فقابل أولئك الأعراب بقوة، وهـزمهم شر هزيمـة، ثم تـوالت الانتصـارات على أيـدي جيوشه الـذين دفعهم لقتـال المرتـدين، فرجع العرب -في ظرف نصف سنة أو عدة أشهر- إلى الإسلام بعدما كـانوا خرجـوا عنه. حتى قال قائلهم: أتانا رسول الله مذ كان بيننا فيا لعبـاد الله ما لأبي بكر يعني: ما لنا ولطاعته؟ إنما طاعتنا للرسول حين كان بيننا! ولكن لما استخلفه الله على المسلمين كان ذلك عين المصلحة التي أيد الله بها الإسلام في ذلك الوقت العصيب، والظروف الشديدة، وقد سار فيهم السـيرة الحسـنة، وخلف

النبي صلى الله عليه وسلم فيما كان يفعله، فلم يترك شيئاً كان يفعله النــبي إلا فعله؛ كتوزيعه للأموال وللغنــائم، وتقســيمه لخمس الخمس، وإعطائه لمن كــان يعطيهم النــبي صــلى الله عليه وســلم من ســهم ذوي القــربى، وتوزيعه للصدقات، لم يأل جهـداً أن يفعل كفعل النـبي صـلى الله عليه وسـلم، ولكن لما لم يعط فاطمة -كما زعمــــوا- ميراثها من أبيها نقمت عليه الــــروافض، وطعنوا في خلافته، وطعنوا في إمامته، وصاروا يسبونه ويشتمونه زعماً منهم أنه خان الأمانة، وأنه خـالف ما جـاء من سـيرة من قبلـه، وحاشـاه من ذلـك! معلوم أنه صلى الله عليه وسلم لم يخلف تركة، فقد ثبت عنه أنه قـال: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة) يعـني: لم نـترك شـيئاً إلا أن يكـون صدقة، وثبت أيضاً عن الحارث بن أبي ضرار أنه قـال: (ما تـرك النـبي صـلى الله عليه وسلم ديناراً ولا درهماً ولا عبـداً ولا أمة ولا شـيئاً إلا بغلته وسـلاحه وأرضاً جعلها صدقة) فهذه شـهادة من هـذا الرجل الـذي ليس من قـريش بل من بـــني المصـــطلق، وهو أخو إحـــدى أمهـــات المؤمـــنين، وهي جويرية أم المؤمنين، ومع ذلك أخبر بهذا الخبر فدل على أنه عليه السـلام لم يكن وراءه تركة حتى يقول الرافضة: إن أبا بكر لم يعط فاطمة حقها، ما أعظم فـريتهم! فهل هذا لشدة محبتهم لــفاطمة ؟! فـالنبي صـلى الله عليه وسـلم أشد حبـاً لـفاطمة منهم، فهي بضعة منه، ولو كـان يعطيها لأعطاها في حياته لما جاءته تشــتكي من العمــل، وذكــرت أن الــرحى أثر في يــديها، وتعبت من العمــل، فطلبت منه أمة من السـبي تخـدمها، لكنه لم يعطها شـيئاً من ذلـك، بل بـاع ذلك السبي ووزع ثمنه على المستضعفين من أهل الصفة وغيرهم، وأرشــدها وأرشد زوجها إلى التسبيح والتكبير والتحميد عند النـوم وقـال: (هو خـير لكما من خـادم) فكيف يـزعم هـؤلاء الرافضة أنهم يغـارون لــفاطمة والنـبي عليه الصلاة والسـلام يحرمها ولا يعطيهـا؟ كـذلك أيضـاً هو صـلى الله عليه وسـلم يقول لها: (سـليني من مـالي ما شئت لا أغـني عنك من الله شـيئاً) ولو كـان عنــده مــال لأخــذت منه في حياتــه، فكيف مع ذلك يقولــون: إنه منعها من ميراثها، ومعلوم أيضاً أن الأنبيـاء لا يورثـون، إلا أن الرافضة يتمسـكون بآيـات فيها شيء من ذكر الميراث، مثل قـول الله تعـالى في سـورة النمـل: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُد [النمل:16]، ويقولون: هذا دليل على أن الأنبياء يورثون، عجبـاً لهم! الآية إنما فيها ذكر إرث النبـوة، بمعـنى أنه ورثه في ملكـه، فكـان ملكـاً بعده، وكان نبياً بعده، ومعلوم أن داود كان له كثير من النساء، وكذلك كان له الكثير من الأولاد، فكيف خص داود سليمان بـالإرث؟ فـالإرث هنا إنما هو إرث الملك، كذلك يسـتدلون بقـول الله تعـالى في سـورة مـريم في قصة زكريـا: فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ [مريم:5-6]، فيقولون: هذا دليل على أن زكريا طلب ولداً حتى يرثه، الله أكبر! كـأن المـال أكـبر هم الأنبيـاء، لا واللـه! إنما أراد يرثـني في النبـوة والعلم، أي: يـرث ما عنـدي من العلم، ويرث العلم الذي خلفه آل يعقوب ، ويعقوب عليه السلام هو إسرائيل، أما أن يهتم بمن يرث ماله فحاشاه، ليست الدنيا أكبر همه حـتى يطلب ولـداً لأجل أن يأخذ المـال الـذي بعـده، من الـذي أعلمكم أن زكريا كـان ذا أمـوال حتى يطلب ولداً ليأخذها؟ فهكذا ينقبون عن مثل هذه الآيات ليطعنوا في أبي

بكر ، ويــدعون أنه حرمها من المــيراث؛ فلأجل ذلك يكفرونــه، ويضــللونه، ويزعمون أنه خان الأمانة، وأنه خالف سيرة النبي صلى الله عليه وسـلم، ولم يقم بما قـام بـه، وأنه بخس فاطمة حقهـا، وبخس علياً حقـه، وأن علياً هو الإمام؛ لأنه هو الوصي، وغـير ذلك من أكـاذيبهم. والصـحابة ما اختـاروا إلا من هو أفضـلهم، ومن هو أهل للولايـة، وقد مـرت بنا أحـاديث تـدل على فضـله، وأحاديث تدل على أولويته وأحقيته بالولاية وبالخلافة والإمارة بعد النبي صـلى الله عليه وسلم. ......

تقديم السلف لعمر على سائر الصحابة بعد أبي بكر

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [قوله: (ثم لـعمر بن الخطـاب رضي الله عنـه). أي: ونثبت الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه لــعمر رضي الله عنـه، وذلك بتفـويض أبي بكر الخلافة إليـه، واتفـاق الأمة من بعـده عليـه، وفضـائله رضي الله عنه أشـهر من أن تـذكر، وأكـثر من أن تنكـر، فقد روي عن محمد ابن الحنفية أنه قال: قلت لأبي: (يا أبت! من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: يا بني! أو ما تعـرف؟! قلت: لا، قـال: أبو بكر ، قلت: ثم من؟ قال: عمر ، وخشيت أن يقول: ثم عثمان ، فقلت: ثم أنت، فقـال: ما أنا إلا رجل من المسلمين) وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم: (اقتدوا باللذين من بعـدي أبي بكر و عمر)، وفي صـحيح مسـلم عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: (وضع عمر على سـريره فتكنفه النـاس يـدعون ويثنـون ويصـلون عليه قبل أن يرفع، وأنا فيهم، فلم يرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت إليه فإذا هو علي، فـترحم على عمر وقـال: ما خلفت أحـداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منـــــك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صـاحبيك؛ وذلك أني كنت أكـثر ما أسـمع رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقــول: جئت أنا وأبو بكر و عمر .. ودخلت أنا وأبو بكر و عمر .. وخــرجت أنا وأبو بكر و عمر ، فــإن كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهمــا) ، وتقــدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه في رؤيا رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، ونزعه من القليب، ثم نــزع أبو بكر ثم اســتحالت الــدلو غربــاً فأخــذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر حـتى ضـرب النـاس بعطن، وفي الصـحيحين من حــديث سـعد بن أبي وقـاص قـال: (اسـتأذن عمر بن الخطـاب على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وعنـده نسـاء من قـريش يكلمنه عالية أصـواتهن.) الحـديث وفيـه: فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم: (إيه يا ابن الخطـاب ! والـذي نفسي بيـده؛ ما لقيك الشـيطان سـالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك) وفي الصحيحين أيضاً عن النـبي صـلى الله عليه وسلم أنه قال: (قد كان في الأمم قبلكم محـدثون، فـإن يكن في أمـتي منهم أحد فــإن عمر بن الخطــاب منهم) قــال ابن وهب تفســير (محــدثون) أي: ملهمون]. ......

اتفق الصـحابة رضي الله عنهم على مبايعة عمر ، وهو عمر بن الخطـاب بن نفيل العدوي القرشي رضي الله عنه، الخليفة الثـاني، فلما أن مـرض أبو بكر وأحس بقرب الوفـاة دعا عمر وقـال: (أنت الخليفة بعـدي، أوليك بعـدي هـذه الولايــة) فأرشد النــاس إلى مبايعتــه، وعهد إليه بالخلافــة، فلم يختلف عليه اثنان، بل أجمعوا على مبايعته، وأجمعـوا على أهليتـه، ولم يخـالف منهم أحـد، فتمت له البيعة، وتم أمره. وفي ولايته رضي الله عنه اجتهد في توسعة رقعة الإسلام، حيث أنفذ الجيوش وأرسـلهم إلى أطـراف البلاد، ففتحت بلاد الشـام في عهده، وكذلك بلاد العراق ومصر وأفريقيا وخراسان، واتسـعت الفتوحـات وكثرت في زمانه، ووقعت في عهـده وقـائع كثـيرة، وفتوحـات كثـيرة، كوقعة اليرموك، ووقعة القادسية، ووقعة نهاوند وغيرها من الوقائع المشـهورة الـتي أعز الله فيها الإسلام والمسـلمين، وانتصر فيها أوليـاء الله على أعدائـه، وكل ذلك بتوفيق من الله تعالى ثم بتحريض من عمر وتوصية منه بولاته، ولم يقف الأمر عند وصـيته لهم بل سـار بنفسه حـتى وقف على كثـير من البلاد، ففتح بيت المقدس التي هي (إيلياء) وتسمى بلغتهم (أورشليم)، هذا البلد المعروف الــذي هو من أقــدس البلاد لم يفتح إلا بعــدما غــزاه بنفســه، ووقف عليه وحاصره، فعند ذلك فتحوا له الأبواب، ودخل المســجد الأقصى وأسس فيه ما أسس. وبكل حال فهو ثاني الخلفاء الراشـدين، وقد وفق الله أبا بكر لتوليتـه، فكـانت توليته عين المصـلحة، ووافق على ذلك المسـلمون، وترضى عنه أهل السـنة، واعــترفوا بأفضـليته وبقوته وبصــرامته وبشـهامته وحنكته وســيرته الحســنة الــتي ضــرب بها المثل في عدله وفي تواضــعه وفي منهجه وفي سلوكه. لا شك أن هذا من توفيق الله تعالى للأمة، حيث ظهر الإسلام وانتصر وتمكن وفشا في البلاد، ودخل النـــاس في دين الله أفواجـــاً، وذل للإســـلام أعـداؤه من اليهـود والنصـارى، وأعطـوا الجزية عن يد وهم صـاغرون، ومكن الله للمسلمين في بلادهم، وحقق الله لهم وعـده في قوله تعـالى: وَعَـدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْـتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَـــى لَهُمْ وَلَيُبَـــدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْـــدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا [النـور:55] ، فحقق ذلك كله في عهد الخلفـاء رضي الله عنهم، وبـــالأخص في عهد أبي بكر ثم عمر . ولا شك أن اختيـــار أبي بكر لـــعمر له مستند، فهو الذي قد صـحب النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وعـرف إشـاراته، وعـرف محبته لـه، وسـمع منه ما يـدل على أفضـلية عمر وعلى أهليتـه، وقد وردت إشـارات نبوية إلى خلافتهمـا، وقد تقـدم قوله صـلى الله عليه وسـلم: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين) ولا شك أن عمر منهم، وتقدم قولـه: (اقتــدوا باللــذين من بعــدي أبي بكر و عمر) فســماه مع من قبله باســمه الصريح، وأمر بالاقتداء به؛ وذلك أنه أهل للاقتـداء، كما أنه أهل لحمل السـنة، فقد حمل من الشريعة ما حمـل، وفي عهـده رضي الله عنه كـثرت المسـائل الواقعية فأفتى فيها بما قبله منه أهل السـنة؛ ولأجل ذلك يعـرف فقهه وفهمه

وفتاواه، لكثرة ما نقل وما وقع له. ومن الإشارات التي تـدل على أنه الخليفة بعد أبي بكر قوله صلى الله عليه وسلم: (رأيتني على قليب أنـزع منها -يعـني بالدلو- ما شاء الله، فأخذها أبو بكر فـنزع ذنوبـاً أو ذنـوبين وفي نزعه ضـعف والله يغفر لـه، ثم أخـذها ابن الخطـاب فاسـتحالت غربـاً، فلم أر عبقريـاً من الناس يفري فريه حتى روي الناس وضربوا بعطن) فأشار إلى خلافة أبي بكر وأنها قليلة، حيث لم يـنزع إلا ذنوبـاً أو ذنـوبين، يعـني: دلـوين، أما عمر فجعل ينزع بهذه الدلو مع كونها استحالت غرباً، والغرب هو الدلو الكبيرة التي ينضح عليها قديماً، ومع ذلك أخذ ينزع حتى روي النـاس وضـربوا بعطن، إشـارة إلى طول خلافته، وإشارة إلى امتداد الخلافة في عهده، وامتـداد الإسـلام والدولة في عهده، وانتشار الإسـلام في زمانـه، والانتصـارات الـتي حصـلت بواسـطة تدبيراته وسيرته.

موقف آل البيت من أبي بكر وعمر ومخالفة الرافضة لهم في ذلك

يعترف جميع أهل السنة بأفضلية عمـر، ومن أهل السـنة علي بن أبي طـالب الذي تعظمه الشيعة، وترفع من قـدره، وتعلي شـأنه، وتغلو فيه الغلو الزائـد، ومنهم من يـدعوه من دون اللـه، فـيزعمون أنه عـدو لهـؤلاء الخلفـاء، وأنهم أعـداء لـه، وأن من والى عليـاً فلابد أن يعـادي أبا بكر و عمر فإنهما ضـدان، ويقولون: لا ولاء إلا ببراء، بمعنى أنك إذا واليت علياً فتبرأ من أبي بكر و عمر ؛ لأنه لا يمكن أن تـوالي هـذا وهـذا في آن، فإنهما ضـدان مفترقـان، فنقـول: كذبتم، بل هما صاحبان، بل هما أخوان، أبو بكر و عمر و عثمـان و علي وبقية الصـحابة كلهم إخـوة، و علي واحد منهم، يحبهم ويحبونـه، ويصـلي خلفهم ويتولى ولايتهم, ويأخذ أعطياتهم، ويجالسهم، ويؤانسهم، ويكلمهم، ويصـحبهم، ولم يظهر لهم عداوة، ولم يقاطعهم، ولم يهجرهم، ولكنكم أنتم -أيها الشيعة- نكست فطركم، وتغيرت أفهامكم، ورأيتم الحق باطلاً والباطل حقاً، وصـوبتم ما كان خطـأ، وزعمتم عـداوة بين الصـحابة لم تكن، وإنما العـداوة والبغضـاء منكم، فأنتم أهل الحقد وأهل البغضاء، كيف تجعلون بين الصحابة بغضاء وهي لم تحصل ولم تكن؟ ما هي العلامات التي تدل على أنها حصلت بينهم؟ يـذكر العلمـاء أن الآثـار شـبه متـواترة عن علي رضي الله عنه أنه كـان يقـول على المنبر (أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر) فيعترف بـذلك ويصـرح به على المنـبر، سـبحان اللـه! أين صـرفت عقـول هـؤلاء الرافضة من هـذا الأثر الذي يعتبر مشهوراً غاية الشهرة؟! ومع ذلك يخالفونـه، فيكفـرون ويشـتمون ويسـبون هـذين الخليفـتين اللـذين يعـترف إمـامهم وقـدوتهم -في زعمهم- بفضلهما. وهذا ولـده محمد ابن الحنفية وهو أيضـاً ممن يغلـون فيـه؛ لأنه من أولاد علي ، ولكن ليس كغلوهم في الحسن و الحسـين ، فيسـأل ابن الحنفية

أبـاه ويقـول: يا أبت! من أفضل النـاس بعد النـبي صـلى الله عليه وسـلم؟ فيقول مستغرباً: يا بـني! أما تعـرف؟! فيقـول: لا، فيقـول: أبو بكر ، فيعـترف علي بأن أفضل الأمة هو أبو بكر ، ولفضله اتخذ والياً وخليفة عليهم، ولفضـله سموه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسـلم، ثم يسـأله: ثم من أفضل بعد أبي بكر ؟ فيقـــول: عمر ، وعلى هـــذا فـــعمر رضي الله عنه هو ثانيه في الخلافة، وهو ثانيه أيضاً في الفضل، يقول محمد بن الحنيفة : قلت: ثم أنت يا أبتي! خشي أن يقول: ثم عثمان ، وأحب أن يكون أبوه له الفضل، ولكن علياً رضي الله عنه تواضع غاية التواضع، وقال: ما أنا إلا واحد من أفراد المسلمين أو كما قال، مع أن له الفضل، وقد اختلف العلماء من أهل السنة في تفضـيل عثمان و علي ، والخلاف في ذلك ليس مخرجاً من الملة ولا يضلل به.

الأدلة العقلية والنقلية على أحقية عمر بالخلافة

فضائل عمر رضي الله عنه أكثر من أن تحصـر، وقد أفـردت بالتـأليف قـديماً وحديثاً، فـابن كثير رحمه الله صـاحب التـاريخ ذكر أنه كتب في فضل أبي بكر و عمر كتاباً أتى في ثلاثة مجلدات. وأفرد بعضـهم عمر بالتـأليف، وأشـهر من كتب فيه ابن الجـوزي (منـاقب عمر) وهي رسـالة مشـهورة مبوبة منتشـرة، ذكر فيها أبواباً تدل على حنكة عمر وفضله، وذكر فيها فضائله وأحوالـه، وذكر فيها ما بشره به النـبي صـلى الله عليه وسـلم ونحو ذلـك. وقد تقـدم أنه أحد العشـرة المبشـرين بالجنة رضي الله عنـه، وفي حـديث أبي موسى لما كـان بواب النبي صلى الله عليه وسلم في يوم من الأيام، يقول: فجـاء رجل فـأراد أن يدخل فقلت: من أنت قال: أبو بكر ، فقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (ائذن له وبشره بالجنة، ثم جاء عمر فقال: ائـذن له وبشـره بالجنـة، ثم جـاء عثمـان فقـال: ائـذن له وبشـره بالجنة على بلـوى تصـيبه). كـذلك أيضـاً من فضائله ما جاء في الحديث الذي أشار إليه الشـارح رحمه اللـه، وفيه أن عمر رضي الله عنه طرق باب النبي صلى الله عليه وسـلم وعنـده نسـاء قد رفعن أصواتهن، فلما سمعن صوت عمر ابتدرن الحجاب، وألقين الستر بينهن وبينه، ودخل والنـبي صـلى الله عليه وسـلم يضـحك، فـأخبره بـأنهن كن رافعـات أصـــواتهن، فلما دخل عمر احتجبن عنه وتســترن، فقـــال عمر : أي عـــدوات أنفسهن! أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فعند ذلك قـال صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده! ما لقيك الشيطان سـالكاً فجـاً إلا سلك فجاً غير فجك) والفج هـو: الطريـق، بمعـنى: أن الشـيطان إذا لقيه في طريق هـــرب منه وذهب إلى طريق آخـــر، وما ذاك إلا لصـــرامته بحيث إن الشيطان يهـرب منـه! كـذلك شـهد النـبي صـلى الله عليه وسـلم له بأنه من المحـدثين، يعـني: من الملهمين، يقـول: (إنه كـان في الأمم قبلكم محـدثون،

فــإن يكن في هــذه الأمة فإنه عمر -أو فــإن منهم عمر -) ولأجل ذلك يكــثر موافقته للســنة وموافقته للقــرآن، يقــول رضي الله عنــه: (وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله! لو حجبت نساءك فإنه يدخل عليهن البر والفـاجر؟ فــأنزل الله قوله تعــالى وَإِذَا سَــأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْــأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَــاب [الأحزاب:53]) بمعنى: أنه أشار على النـبي صـلى الله عليه وسـلم أن يبقين محجبات في البيوت، ولا يخرجن إلا لحاجة ضرورية، فنزل القرآن موافقاً لــه، يقول: والمرة الثانية قلت لـه: (لو اتخـذنا من مقـام إبـراهيم مصـلى، فـنزلت الآية: وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى [البقـرة:125]) والمـرة الثالثة يقـول: (إنه قال لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم لما اجتمعن في الغيرة عليـه: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجـاً خـيراً منكن، فـنزلت الآية موافقة لما قالـه). كـذلك أيضـاً في قصة أسـارى بـدر لما أشـار بقتلهم، والنـبي صـلى الله عليه وسلم وأبو بكر اختـارا أن يمكنـوا من الفديـة، فجـاء حكم الله موافقـاً لقـول عمر ، حيث قال تعالى: مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْض [الأنفـال:67] إلى آخر الآيـات، فـذلك دليل على أنه رضي الله عنه كـان من المحـدثين الملهمين. ومن أشـهر فضـائله أنه دفن مع النـبي صـلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، وذلك دليل على اعتراف الصحابة بفضـله، حـتى قـال بعض العلماء في أبي بكر و عمر : إن منزلتهما من النبي صلى الله عليه وسلم في حياته كمنزلتهما منه بعد مماته، فهما قريناه في حياته، وكذلك بعد مماته جعلا معه في طــرف الحجــرة النبويــة، أوليس ذلك دليلاً على أفضــليتهما، وأنهما صـاحباه وحبيبـاه والمقربـان إليـه؟ وقد شـهد بـذلك علي رضي الله عنه في الحديث الذي سبق حين مات عمر رضي الله عنه، حيث قال: (ما تركت أحداً كنت أتمنى أن ألقى الله بمثل عمله إلا أنت) يقول: إنني لا أغبط أحـداً وأرجو أن أكون مثله إلا أنت، أما البقية فأنا أقول: إني خير منهم، يعني: من كان بعد عمر رضي الله عنه، فـعلي رضي الله عنه يغبط عمر ، ويقــول: لا أحد أغبطه وأتمــنى أن ألقى الله بمثل عمله ســوى أنت يا عمر ! يقوله بعد موتــه. ثم يشهد بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحبه ويحب أبا بكر، ومن آثــار تلك المحبة أن جمعا معه في المكان الذي قبر فيه، يقول: كنت أسمع النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً يقول: (جئت أنا وأبو بكر و عمر ، ودخلت أنا وأبو بكر و عمر ، وخــرجت أنا وأبو بكر و عمر) يجعل ذلك من المـبررات في أن يكــون رضي الله عنه أهلاً لأن يجعل إلى جـانب أبي بكر ، وإلى جـانب النـبي صـلى الله عليه وسلم، وهذا ما حصـل، وعلى ذلك فنعـترف بأنه هو الخليفة الراشد الذي امتدت خلافته بعد أبي بكر عشر سـنين، وهو الـذي ظهر من آثـاره ومن فضائله الاقتداء التـام بـالنبي صـلى الله عليه وسـلم، وله أوليـات كثـيرة، فهو الذي أشار بجمع القرآن في عهد أبي بكر حين كثر القتل واسـتحر في القـراء في وقعة اليمامة، حيث قتل فيها خمسـمائة من حملة القــرآن، فخشي رضي الله عنه أن يذهب شيء من القرآن، فأشار بأن يكتب في صحف، ووافقه أبو بكر على ذلك، فكتب في صـحف حـتى يحفظ ولا يضـيع منه شـيء، ووافقهما الصحابة على ذلك, كذلك هو الذي وضع التأريخ، واختار أن يكون تقييد التأريخ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه بعد الهجرة بدأ الإسلام يظهر وينتشر،

فجعل التاريخ من أول الهجرة، وأجمعت الأمة بعده إلى يومنا هذا على التأريخ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم. كذلك هو الـذي سن هـذه الأوقـاف، وهي الأرض المفتوحة عنـــوة، إذ إنه لما فتحت أرض مصر وأرض الشـــام وأرض العـراق الزراعية جعلها وقفاً على بيت المـال، فكـانت تـزرع وتعـاد إلى بيت المال لتموله عند انقطاع الفتوحـات ونحوهـا، وأقـره على ذلك الصحابة ومن بعدهم، فلا شك أن ذلك دليل على معرفته بمهام الأمور ومستقبلها. وقد كـان في حيـاة النـبي صـلى الله عليه وسـلم جريئـاً على إنكـار ما رآه منكـراً، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولكن الرافضة يتتبعون ما يظنـون أن فيه شـيئاً من العيب والقــدح فيــه، فيجمعــون أكــاذيب، ويجمعــون وقــائع لا مطعن فيهــا، ويجعلونها طعنــاً في خلافتــه، وطعنــاً في أهليته للخلافة بل في إيمانــه، فيجعلونه مرتـداً عن الإسـلام أو نحو ذلـك، وأكـبر ما يطعنـون به فيه أنه لما مرض النبي صلى الله عليه وسلم وقال: (ائتـوني بـأوراق أكتب لكم كتابـاً لن تضلوا بعده) وكان ذلك في يوم الخميس، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد ثقل، عند ذلك قال عمر : (إنه صلى الله عليه وسلم قد شق عليه فلا تكلفوه، وعندكم كتاب الله) فعند ذلك قام الرافضة يقولون: إن علياً كان هو الخليفـة، وإن أبا بكر ليس بخليفــة، وإن عمر خــاف أن يكتب النــبي صــلى الله عليه وسلم بالخلافة لــعلي فعند ذلك قـال: لا تكتبـوا، فحـرم الكتابة ومنعها وتجـرأ بقوله: عندنا كتاب الله، هـذا مطعن يطعنـون به في عمر رضي الله عنـه، مع أنهم غـائبون لم يحضـروا ذلك الـوقت, ولم يعرفـوا الإشـارات، ولم يعرفـوا القرائن، وعمر رضي الله عنه عرف القرائن المختصة به، وكـذلك علي رضي الله عنه كان حاضـراً ولم يخطر بباله أنه يكتب له بالولايـة، ولا أن عمر حرمه من الولاية أو من الخلافـة، فـأين في هـذا إشـارة ولو من بعيد إلى أنه حسد علياً فقال: لا تكتبـوا، وعنـدنا كتـاب اللـه؟ والـدليل على ذلك أن ابن مسـعود رضي الله عنه لما ذكر له أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب كتابــاً قال: (من أراد أن يقرأ وصية النـبي صـلى الله عليه وسـلم الـتي عليها خاتمه فليقرأ قول الله تعالى: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا [الأنعام:151] إلى آخر الآيات الثلاث التي في كل واحـدة منها ذَلِكُمْ وَصَّـاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [الأنعام:151] ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِـهِ لَعَلَّكُمْ تَـذَكَّرُونَ [الأنعـام:152] ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [الأنعـام:153] . فالصـحابة فهمـوا أن وصية النبي صلى الله عليه وسلم ليست هي وصـية بولاية ولا بخلافـة، ولكنها وصــية بديانة وبأمانة ونحو ذلــك، وليس فيها إشــارة إلى خلافة علي ولا غــير ذلك، بل قد تقدم في حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قـال لهـا: (ادعي أباك وأخاك أكتب لهما كتاباً، ثم قال: يـأبى الله والمسـلمون إلا أبا بكر) فهـذا دليل على أنه لو كتب لـولى أبا بكر الخلافـة، فكيف يزعمـون أن عمر هو الذي حـال بين علي وبين الخلافـة، فيوجهـوا الطعن عليـه؟ ولهم مطـاعن عليه كثـيرة لا تحصــى، وينشــرونها في كتبهم، وكــذلك يجعلونها في خطبهم، وفيما يذيعونه فيما بينهم، ويرمونه بالفظـائع والعظـائم، والله حسـبهم، ولكن ذلك لا يضره، بل يكتب أجره عند الله وافيــاً. فنعتقد أنه رضي الله عنه خليفة الأمة بعد أبي بكر ، وأن له الفضل وله الميزة، فهو أفضل الأمة بعد أبي بكر ،

وهو خليفة الأمة بعد أبي بكر ، وهو أحد الخلفــاء الراشــدين رضي الله عنهم وأرضاهم.

عثمـان ذو النـورين هو ثـالث الخلفـاء الراشـدين، وقد ولي الخلافة بعد عمر رضي الله عنه الـذي جعل الأمر من بعـده شـورى في سـتة منهم عثمـان، وفضائل عثمان كثيرة، ومناقبه عظيمة.

ترتيب الخلفاء في الفضل كترتيبهم في الخلافة

للعلماء في الخلفاء الراشدين مسألتان: المسألة الأولى: مسـألة تـرتيبهم في الخلافـة، فإجمـاع الأمة الإسـلامية خلافـاً للرافضة على أن الخليفة بعد النـبي صـــلى الله عليه وســـلم هو أبو بكر ، ثم الخليفة بعد أبي بكر هو عمر ، ثم الخليفة بعد عمر هو عثمـــان، ثم الخليفة بعد عثمـــان هو علي، وهـــؤلاء هم الخلفاء الراشدون، ومن طعن في خلافة أحد منهم فهو أضل من حمار أهلـه. اتفق أهل السنة على أنهم الخلفاء على هـذا الـترتيب، إلا أن الرافضة زعمـوا أن أبا بكر مغتصب للخلافة وكـذلك عمر و عثمـان ، وأنهم ليسـوا خلفـاء، ولا يستحقون الولاية ولا الخلافة، بل زادوا أن كفروهم وشتموهم، وأخرجوهم من الإسلام، وجعلوهم منافقين، وطبقوا عليهم الآيات الـتي في المنـافقين، ولكن أهل السـنة -والحمد للـه- على عقيـدة موحـدة في الاعـتراف بخلافة الخلفـاء الراشدين. المسألة الثانية: مسـألة تـرتيبهم في الفضـل، وقد تـواتر عن علي رضي الله عنه -الـذي تغلو فيه الرافضـة- أنه قـال: أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر ، ثم بعد أبي بكر عمر ولم يختلف الصحابة في تفضيل أبي بكر ثم عمـر، ولم يختلف أهل السـنة في ذلـك، فيقولـون: أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ، ويـروون ذلك مسـنداً، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قـال: كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي: أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمـان ، فيبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلا ينكـره، أي: يعـترف بهـذا الـترتيب، وقد رجح أكثر أهل السنة أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافــة، ولكن وقع خلاف في الترجيح بين علي وعثمان ، فقوم قـدموا عثمـان ، وهو القـول الصحيح، وقوم قدموا علياً ، وهذه المسألة وهي: هل يقـدم علي على عثمـان أو يقدم علي على عثمان -يعني: في الفضل- مسـألة اجتهاديـة، لا يضـلل من قدم عليـاً ، ولا يضـلل من قـدم عثمـان ، وأما تقـديم الشـيخين فلا خلاف في تقديمهما، ويضلل من قدم عليهما أحداً من الصحابة أو من غير الصحابة. وقد عرفنا خلافة أبي بكر وخلافة عمر ، وأنها منصوصـــة؛ لقوله صـــلى الله عليه وسلم: (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) ، وهـذه إشـارة واضـحة إلى أنهما اللذان يليـان الخلافة بعـده، والواقع وقع كـذلك، ولعل عهد أبي بكر إلى عمر كان اعتمـاداً على هـذا الحـديث، أو اعتمـاداً على الأهلية والكفـاءة، وقد وافقه الصحابة على هذا التقـديم؛ وذلك لأهلية عمـر، ولكفاءتـه، ولما رأوا فيه من زهد في الـدنيا، وتقشـف، وعبـادة لله تعـالى واجتهـاد، ولما رأوا فيه من حنكة وحـذق، ومن حـزم وقـوة، ومن عقل ومتانة وإدراك وفهم قـوي، فكـان

أهلاً لهـذه الخلافـة، وقد ظهر أثر هـذه الصـفات بعد أن تـولى الخلافة الـتي امتدت عشر سنين، وكلها كانت جهـاداً، يجاهد بنفسـه، فقد خـرج إلى الشـام مـــرتين، ويجاهد بآرائه ونظـــره، ويجهز جيوشـــه، ويرسل إليهم التعليمـــات فيعملون بها، ويحثهم على الصبر فيصبروا، ويوجههم توجيهات سـديدة، وكـان من آثارها أن انتشر الإسلام، وانتصر المسلمون انتصاراً عديم النظـير، ومكّن الله للمسلمين، ونصرهم وأيدهم وقواهم، وظهر أمر الله، ولو كره الكافرون. وكـــان من آثارها أن انتشر العلم؛ وذلك لأنه رضي الله عنه كـــان من أوعية العلم وحملته، وأرسل الدعاة إلى البلاد التي أسست في زمانه، والتي فتحت، وأرسل المعلمين، وأخذ يراسلهم ويكـاتبهم، وعين القضـاة والمرشـدين؛ وكل ذلك لأجل أن يظهر دين اللـه، وأن ينتصر المسـلمون على أعـدائهم، وصـدق الله: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة:33]. ......

عثمان رضي الله عنه

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [ثم لـعثمان رضي الله عنـه: أي: ولنثبت الخلافة بعد عمر لـــعثمان رضي الله عنهمـا، وقد سـاق البخـاري رحمه الله قصة قتل عمر رضي الله عنه، وأمر الشورى والمبايعة لـعثمان في صـحيحه، فأحببت أن أسردها كما رواها بسنده: عن عمـرو بن ميمـون قـال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيـام بالمدينـة، ووقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال: كيف فعلتما؟ أتخافـان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيـق؟ قـالا: حملناها أمـراً هي له مطيقـة، ما فيها كبـير فضـل، قـال: انظـرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيـق؟ قـالا: لا، فقـال عمر : لئن سـلمني الله لأدعن أرامل العـراق لا يحتجن إلى رجل بعـدي أبـداً، قـال : فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب، قـال: إني لقـائم ما بيـني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصـيب، وكـان إذا مر بين الصـفين قـال: اسـتووا، حـتى إذا لم ير فيهم خللاً تقــدم فكــبر، وربما قــرأ ســورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلــني أو أكلـني الكلب حين طعنـه، فطـار العلج بسـكين ذات طـرفين لا يمر على أحد يميناً وشـمالاً إلا طعنـه، حـتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مـات منهم سـبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسـلمين طـرح عليه برنسـاً، فلما ظن العلج أنه مـأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عـوف فقدمـه، فأما ما يلي عمر ، فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يـدرون غـير أنهم قد فقـدوا صـوت عمر ، وهم يقولـون: سـبحان اللـه! فصـلى بهم عبد الـرحمن صـلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس انظر من قتلني؟ فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة ، قال: الصنع؟ قال: نعم، قال : قاتله اللـه! لقد أمـرت به معروفاً، الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثرا العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقـاً، قـال: إن شـئت فعلت؟ -أي: إن شـئت قتلنـا؟- قـال : كـذبت بعـدما تكلمـوا بلسـانكم،

وصلوا قبلتكم، وحجوا حجكم؟ فاحتمل إلى بيته، فانطلقنا معـه، وكـأن النـاس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس عليـه، وقائل يقـول: أخـاف عليه، فـأتي بنبيذ فشـربه فخـرج من جرحـه، ثم أتى بلبن فشـربه فخـرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس فجعلوا يثنـون عليـه، وجـاء رجل شاب فقال: أبشر -يا أمير المؤمنين- ببشرى الله لك بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقدم في الإسـلام ما قد علمت، ثم وليت فعـدلت، ثم شهادة، فقـال: وددت أن ذلك كفافـاً لا علي ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا عليّ الغلام، قال: يا ابن أخي! ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك. يا عبد الله بن عمر انظر ما عليّ من الدين؟ فحسـبوه فوجـدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه، قال: إن وفَّى له مـال آل عمر فـأده من أمـوالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم، فسل في قـريش، ولا تعـدهم إلى غـيرهم، فـأدِّ عـني هـذا المـال، وانطلق إلى عائشة أم المؤمـنين رضي الله عنها فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل: أمير المؤمـنين؛ فـإني لست اليـوم للمؤمـنين أمـيراً، وقـل: يسـتأذن عمر بن الخطـاب أن يـدفن مع صاحبيه. فسلم واسـتأذن ثم دخل عليهـا، فوجـدها قاعـدة تبكي، فقـال: يقـرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يدفن مع صـاحبيه، فقـالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي، فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال : ارفعوني، فأسنده رجل إليه، قـال: ما لـديك؟ قـال: الـذي تحب -يا أمير المؤمـنين- أذنت، قـال: الحمد للـه، ما كـان شـيء أهم إلي من ذلك، فإذا أنا قضيت فـاحملوني، ثم سـلم، فقـل: يسـتأذن عمر بن الخطـاب. فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين. وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنـا، فـولجت عليـه، فبكت عنـده سـاعة، واسـتأذن الرجـال فـولجت داخلاً، فسـمعنا بكاءها من الـداخل، فقـالوا: أوص يا أمـير المؤمـنين! اسـتخلف قـال: ما أجد أحق بهـذا الأمر من هـؤلاء النفر أو الرهط الـذين تـوفي رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وهو عنهم راض، فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن ، قال: يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء -كهيئة التعزية لـه- فـإن أصابت الإمارة سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم من أمِّر، فإني لم أعزله من عجز ولا خيانـة، وقـال: أوصي الخليفة من بعـدي بالمهـاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصـار خـيراً الـذين تبـوءوا الـدار والإيمـان من قبلهم، أن يقبل من محسـنهم، وأن يعفي عن مسـيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً، فإنهم ردء للإسلام، وجباة الأمـوال، وغيظ العـدو، وألا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم، وأوصـيه بـالأعراب خـيراً، فـإنهم أصل العـرب، ومـادة الإسـلام، أن يؤخذ من حواشي أمـوالهم ويـرد على فقـرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفي لهم بعهـدهم، وأن يقاتل مِن ورائهم، ولا يكلفـوا إلا طـاقتهم. فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسـلم عبد الله بن عمر قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قـالت: أدخلـوه، فأدخل فوضع هنالك مع صـاحبيه، فلما فـرغ من دفنه اجتمع هـؤلاء الرهـط، فقـال عبد الـرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، قال الزبير : قد جعلت أمـري إلى علي ، فقـال

طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان ، وقـال سـعد : قد جعلت أمـري إلى عبد الرحمن بن عوف ، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هـذا الأمر فنجعله إليـه، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم إلى نفسـه؟ فأسـكت الشـيخان، فقـال عبد الرحمن : أفتجعلونه إليّ، والله علي ألا آلو عن أفضلكم؟ قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما فقـال: لك قرابة من رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، والقـدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن، ولئن أمـرت عثمـان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر، فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثـاق، قـال: ارفع يـدك يا عثمـان فبايعـه، فبـايع له علي ، وولج أهل الـدار فبـايعوه. وعن حميد بن عبد الـرحمن أن المسـور بن مخرمة أخـبره أن الرهط الـذين ولاهم عمر اجتمعوا فتشـاوروا، قـال لهم عبد الـرحمن : لست بالـذي أنافسـكم عن هــذه الإمــرة، ولكنكم إن شــئتم اخــترت لكم منكم؟ فجعلــوا ذلك إلى عبد الرحمن ، فلما ولوا عبد الرحمن أمرهم، مال الناس على عبد الرحمن ، حـتى ما أرى أحداً من الناس يتبع أولئك الرهـط، ولا يطأ عقبـه، ومـال النـاس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي، حتى إذا كانت تلك الليلة التي أصبحنا فيها فبايعنا عثمان ، قال المسـور بن مخرمة : طرقـني عبد الـرحمن بعد هجع من الليل، فضرب البـاب حـتى اسـتيقظت، فقـال: أراك نائمـاً؟ فوالله ما اكتحلت هــذه الثلاث بكبــير نــوم، انطلق فــادع لي الزبــير وســعداً ، فــدعوتهما له فشاورهما، ثم دعاني فقال: ادع لي علياً ، فدعوته فناجـاه حـتى أبهـار الليـل، ثم قام علي من عنده وهو على طمع، وقد كان عبد الـرحمن يخشى من علي شـيئاً، ثم قـال: ادع لي عثمـان ، فدعوتـه، فناجـاه حـتى فـرّق بينهما المـؤذن بالصبح، فلما صـلى النـاس الصـبح، واجتمع أولئك الرهط عند المنـبر، فأرسل إلى من كـان حاضـراً من المهـاجرين والأنصـار، وأرسل إلى أمـراء الأجنـاد، وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر ، فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ، ثم قــال: أما بعد: يا علي ! إني قد نظرت في أمر الناس، فلم أرهم يعـدلون بــعثمان ، فلا تجعلن على نفسك سبيلاً، فقال لــعثمان : أبايعك على سـنة الله ورسـوله صــلى الله عليه وســلم والخليفــتين من بعــده، فبايعه عبد الــرحمن ، وبايعه النـاس، والمهـاجرون، والأنصـار، وأمـراء الأجنـاد والمسـلمون. ومن فضـائل عثمان رضي الله عنه الخاصـة: كونه ختن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم على ابنتيه، وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: (كان رسول الله صــلى الله عليه وسلم مضطجعاً في بيته كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر ، فأذن له وهو على تلك الحـال فتحـدث، ثم اسـتأذن عمر فـأذن له وهو كـذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وسـوى ثيابـه، فـدخل فتحـدث، فلما خـرج قـالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تبالـــه، ثم دخل عمر فلم تهتش ولم تبالـــه، ثم دخل عثمـــان فجلست وسـويت ثيابـك؟ فقـال: ألا أسـتحي من رجل تسـتحي منه الملائكـة) . وفي الصحيحين: (لما كان يوم بيعة الرضـوان، وأن عثمـان رضي الله عنه كـان قد بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة، وكانت بيعة الرضـوان بعـدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى: هـذه يد عثمان ، فضرب بها على يده، فقال: هذه......

عدل عمر رضي الله عنه وحرصه على ما ينفع المسلمين

في آخر حياة عمر رضي الله عنه كان يتفقد أحوال أهل البلاد التي أسست في زمانه في العراق وفي الشام وفي غيرها، ولما فتحت تلك البلاد، وكان فيها أرض زراعية؛ رأى من المصلحة أن الأرض الزراعية تبقى موقوفة ولا تقسم بين المقاتلين، ولو كانوا هم الذين غنموها، بل تبقى وقفاً مورداً لبيت المال؛ وذلك لأنه استشعر أن المد سيتوقف، فإن مد بيت المال كان من خمس الغنائم ومن الفيء، ولكن قد يتوقف هذا الفيء وهذه الغنائم في وقت من الأوقات، فقد يتوقف الجهاد فيبقى بيت المال ليس له ما يمد به، فرأى أن تلك الأرض التي فتحت عنوة تكون وقفاً، فجعل الأراضي الزراعية التي في العراق مع كثرتها، والتي في الشام، والتي في مصر؛ كلها وقفاً، ليس لها مالك معين، ثم أمر بأن تؤجر على من يزرعها، ويؤدي أجرتها إلى بيت المال، فأجروها بقدر ما تطيقه، وسأل عن هذا بعض أمرائه كحذيفة رضي الله عنه -وكان هو ممن قدم من تلك البلاد- فقال: (لعلكما حملتما الأرض ما لا تطيق؟) أي: أجرتماها بأجرة زائدة عن قدر المستطاع، وعما تطيقه، فذكرا أنهما حملاها أمراً هي له مطيقة، يعني: أنهما أجراها بأجرة مناسبة ليس فيها جور، وكان رضي الله عنه يحب ألا يكون في مملكته ولا في الأمة الإسلامية من يناله ظلم أو ضيم، حتى ولو كان من الكفار؛ لأن أغلب الذين استأجروا تلك الأراضي للزراعة والحراثة غير مسلمين، ولكنهم عمال عارفون باستغلالها، فخشي أنهم ظلموا وحملوا ما لا يطيقون، ثم التزم بأنه إذا مد الله في حياته أن يفرق مالاً على المسلمين والمستضعفين في أقطار الأرض، وألا يترك أحداً ولو أرملة أو فقيراً يحتاج إلى أحد بعده، أي: يجعل لهم مدداً ويجعل لهم مالاً، وقد كان قد جعل رزقاً للصحابة لما فتحت عليه البلاد، وكثر وارد المال، فدون ديواناً، وجعل فيه إعاشة سنويةً لكل المسلمين من المهاجرين والأنصار ونحوهم من أهل المدينة والمجاهدين الأولين، فأحب أيضاً أن يصل ذلك إلى أهل البلاد الإسلامية: في الشام، ومصر، والعراق، واليمن، وخراسان، وما أشبه ذلك، ولكن اخترمته المنية قبل ذلك، فبعد أن قال هذه الكلمة التي التزم فيها، ما أتى عليه إلا أربع ليالٍ حتى قتل. ......

قصة مقتل عمر رضي الله عنه

الذي قتل عمر معروف مشهور، وهو غلام المغيرة ، ويقال له: أبو لؤلؤة ، وهو مجوسي غير مسلم، وكان صانعاً، يعني: كان له صناعة، يعمل الأرحاء، ويأخذ عليها أجراً معلوماً، وقد اتفق مع المغيرة على أن يؤدي إلى المغيرة كل يوم دراهم معدودة عن عمله، حيث قال له المغيرة : اعمل للناس بالأجرة، وأعطني كل يومٍ كذا وكذا درهماً، فكأنه تثاقل تلك الضريبة التي

جعلها عليه المغيرة، فجاء إلى عمر ، وقال له: أريد أن تشفع لي عند المغيرة حتى يخفف عني، ولكنه قال: أنت رجل صنّاع، وبيدك صنعة تعمل فيها، وهـذه الأجـرة الـتي ضـربت عليك خفيفـة، وليست ثقيلـة، فغضب على عمر وقـال: وسع عدله الأرض كلها إلا أنا، وفي بعض الروايات أنه قـال لـه: أريد أن تصـنع لنا رحى، فقال: لأصنعن لك رحىً يتحدث بها أهل المشـرق والمغـرب، ففطن عمر أنه أراد أن يقتلـه، ولكنه لم يأخذ حـذره، وفي بعض الروايـات أنه قـال: يتوعدني العلج، أو يريد قتلي، فلما عـزم على قتله صـنع سـكيناً ذات رأسـين محددين، وسقاها سماً، ثم لما قـام عمر رضي الله عنه لصـلاة الصـبح، وكـان يسوّي الصفوف قبل أن يكبر، وكان إذا كبر أطال القـراءة في الركعة الأولى، بحيث إنه تـارة يقـرأ في الركعة الأولى سـورة يوسف أو سـورة النحـل، وهي أكـثر من نصف الجـزء، وقصـده بـذلك أن يجتمع النـاس، وأن يـدركوا الركعة الأولى، ولكنه سـاعة ما كـبر، ولم يبتـدئ بعد بـالقراءة، إذا هو يلتفت إلى من يليه ويقول: أكلني الكلب أو قتلني الكلب، ويعني بذلك هذا العلج الـذي قتلـه، وقد طعنه ثلاثة طعنــات في بطنه قطع بها أمعــاءه، وبعد ذلك قــام العلج في الناس يطعن فيهم، فطعن ثلاثة عشر من المصـلين، مـات منهم سـبعة، ورآه بعض المصلين وهو يجول فيهم، فألقى عليه برنسـاً وضـمه بـه، ووضـعه على الأرض، ووطئ على ذلك الـبرنس، فعلم العجل أنه مقتـول فقتل نفسـه، ولما طعن عمر رضي الله عنه اجتذب عبد الرحمن فصلى بهم صلاة خفيفة، وكـان النـاس الـذين حوله قد فطنـوا أنه طعن لما سـمعوا قولـه: قتلـني أو أكلـني الكلب، وأما أهل الصفوف البعيدة وأطـراف الصـفوف فـإنهم لم يشـعروا بما حصل، لكنهم لما فقـدوا صـوت عمر ، وسـمعوا صـوت عبد الـرحمن ، أخـذوا يسبحون استنكاراً لما حصل، وبعدما صلوا صلاة خفيفة، سأل عمر رضي الله عنه ابن عبـاس : انظر من الـذي قتلـني؟ فجـال سـاعة ثم جـاء وقـال: غلام المغيرة ، فقال: الصنع؟ -أي: الذي بيده صنعة-، قال: نعم. يعـني: أنه مشـهور بهذه الصـنعة، ثم قـال يخـاطب ابن عبـاس : قد كنت وأبـوك تحبـان أن تكـثر العلوج. والعلوج هم النصارى والمجـوس، يعـني: الكفـرة الـذين هم مماليـك، وكان العباس له مماليك كثيرون، وغـالبهم ليسـوا بمسـلمين، ولكنهم أسـلموا بعدما ملكوا، ولكن ابن عباس يقول: إن شئت فعلنـا؟ -يعـني: قتلنـاهم- ولكن عمر يقول: بعدما دخلوا بلادكم، وتكلموا بكلامكم، وصـلوا إلى قبلتكم، وحجـوا بيتكم. يعني: قد فعلوا كما تفعلون، وكان يكـره أن يـأتي هـؤلاء المماليك إلى هذه البلاد وهم على عاداتهم السيئة. ......

جعل عمر الأمر شورى من بعده

بعد أن انتهــوا من الصــلاة حمل عمر رضي الله عنه وجرحه يســيل، وكــأن النـاس لم يصـابوا بمصـيبة قبل هـذه المصـيبة؛ وذلك لأنها مصـيبة عظيمـة، وفاجعة كبـيرة، قتل أمـير المؤمـنين الـذي هو المثل الأعلى في العـدل ، فلما حملوه قال بعضهم: إنه لا بـأس عليـه، وإنه سـوف يعيش، وآخـرون يقولـون:

نخاف عليه من هذه الطعنات المسمومة، فلما سقوه نبيذاً -والنبيذ هو عصير التمر- خرج من الجرح، ولكنهم لم يتفطنوا له واعتقدوه دماً، فلما سقوه لبناً خرج اللبن من الجرح أبيض، فعلموا حينئذٍ أنه ميت، فقالوا له: استخلف، أي: اختر من يكون بعدك خليفة، فقد نزل بك أمر الله، وعرفوا بأنه ميت، فأشاروا عليه أن يختار للمسلمين خليفة بعده، ولكنه رضي الله عنه قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، يعني: أبا بكر ، وإن لم أستخلف فلم يستخلف من هو خير مني، يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يعين خليفة بعينه، ولكنه جعل الأمر شورى في ستة من الصحابة، توفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد شهد لعشرة من الصحابة بالجنة، ومنهم أبو عبيدة ، ولكنه مات في خلافة عمر ، ومنهم سعيد بن زيد ، ولكنه قريب لعمر ، فهو ابن ابن عمه، فلم يجعله من أهل الشورى لقرابته؛ مخافة المحاباة، وبقي ستة، وهم عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة وسعد ، فهؤلاء هم الستة الذين جعلهم مستشارين، وجعل الخلافة شورى فيهم، وهم الذين يسمون أهل الشورى في ذلك الوقت. ولما عرف عمر رضي الله عنه أنه ميت أخذ يوصي الخليفة من بعده بهذه الوصايا: يوصيه بالمهاجرين، ويوصيه بالأنصار، ويوصيه بأهل القرى والمدن، ويوصيه بالأعراب، ويذكر ما لكلٍ منهم من المآثر، وما لكل منهم من الجهاد، ويوصيه بالسير الحسن، وعادة الناصحين المخلصين الوصية لمن بعدهم بالخير، وصية دينية، يقصد منها السير على نهج قويم، حتى تأمن البلاد في عهده، وحتى لا يخاف من جوره، وحتى لا يكون عليه اختلاف ولا خروج، ولا من ينكر عليه، وقد عمل الخليفة بعده بهذه الوصايا. وسمعنا: أنه جاءه ذلك الغلام الذي كان مسبلاً إزاره فشهد له بالخير، ولكن عمر لما رأى إزاره يصل إلى الأرض نصحه، ولو كان في تلك الحال، ولو كان في مرض الموت، فنصحه بأن يرفع إزاره، وقال له: إنه أتقى للرب، وأنقى للثوب، فهكذا كانت عادته رضي الله عنه يحب للمسلمين الخير، ولا يدخر عنهم وسعاً. وسمعنا كذلك قصة استئذانه أن يدفن مع صاحبيه النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، فاستأذن من أمنا عائشة ؛ لأن البيت مسكنها، وقد كانت تحب أن تكون في ذلك المكان مع زوجها وأبيها، ولكنها آثرت عمر رضي الله عنه لما جاءها الخبر بأنه قد طعن، فبقيت تبكي في بيتها، ولما دخلوا عليها وهي باكية، وذكروا لها ذلك لبت طلبه، ووافقت على ذلك، فدفن رضي الله عنه مع صاحبيه. وقد مر بنا قول علي رضي الله عنه لما دفن عمر مع أبي بكر: كنت كثيراً ما أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (جئت أنا وأبو بكر وعمر ، وذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر) يعني: أنه كان يقرن بينهما دائماً، فكان ذلك دليلاً على أنهما سيقبران معه، وكذلك في حديث أبي موسى المشهور الذي فيه أنه قال: لأكونن بوّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم. لما كان النبي صلى الله عليه وسلم في بستان، فجاء أبو بكر والنبي صلى الله عليه وسلم قد جلس على قُفّ البئر، وكشف عن ساقيه، ودلى قدميه على شفير البئر، فدخل أبو بكر وهو كذلك، ثم جلس عن يمينه في ذلك الجانب،

ثم جـاء عمر رضي الله عنـه، فجلس عن يسـاره، وامتلأ طـرف البـئر، ثم لما جاء عثمان وجدهم الثلاثة قد صفوا في أحد جوانب البـئر، فقـابلهم في جـانب آخـر، ودلى قدميه مثلهم مقـابلاً لهم، يقـول الـراوي : فـأولت ذلك قبـورهم، النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر جعلت قبورهم متجـاورة، وعثمـان جعل قبره وحده، وقد حقق الله تعالى لــعمر رضي الله عنه ما تمنـاه؛ ولأجل ذلك يقـول بعض العلمـاء في أبي بكر وعمر : منزلتهما من النـبي صـلى الله عليه وسلم في الحياة كمنزلتهما منه بعد الممات، فإنهما كانا قرينيه وصاحبيه في حياتــه، لا يســافر إلا وهما وزيــراه دائمــاً كانا معــه، فقرنهما الله به بعد موتهما، فأصـبحا قريـنين له في حياته وبعد مماتـه. وسـمعنا أن هـؤلاء السـتة الــذين اختــارهم عمر رضي الله عنــه، وجعل الأمر فيهم، اجتمعــوا وجعل كل منهم أمره إلى واحـد، فجعل الزبـير أمـره إلى علي ، وجعل سـعد أمـره إلى عبد الـرحمن ، وجعل طلحة أمـره إلى عثمـان ، فأصـبح الأمر إلى ثلاثـة: عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، وكأن عبد الـرحمن هو الــذي اهتم بهـذا الأمـر، واشـتد عليه أن يمضي وقت ولم يتم للمسـلمين اختيار خليفة لهم يقوم بأمرهم، فبقي ثلاث ليالٍ لا يهنأ بالنوم، لا ينام إلا قليلاً؛ من شـدة اهتمامه بـأمر المسـلمين، وكلما جـاء أو جلس مع واحد منهم أخذ يناجيه، ويتكلم معه، ويأخذ عليه العهد والميثاق إذا تم له الأمر أن يسير سيرة حسـنة، وأن يتبع سـيرة الخليفـتين قبلـه، حـتى توثق منهما بـذلك، فـرأى أن النـاس يميلـون إلى عثمـان ، وأن عثمـان له تجربـة، وله مكانـة، وله أهليـة، فأمره أن يبسط يده للمبايعة، فبايعه عبد الرحمن وبايعه علي ، وتمت البيعة، ولم ينقل أن علياً توقف، ولا قال: أنا أحق بها منه، أو أنا ابن عم النـبي صـلى الله عليه وسـلم أو نحو ذلـك، بل وافق على ذلك بما أخذ عليه من العهـد، ولا شك أن ذلك دليل على أنه رضي الله عنه لم يكن مخالفـــاً لما حصـــل، بل موافقاً له.

فضائل عثمان رضي الله عنه

تمت الخلافة لـعثمان رضي الله عنـه، وسـار في النـاس سـيرة حسـنة، وبقي خليفة اثنتي عشرة سنة إلى أن قتل سـنة خمس وثلاثين رضي الله عنـه. وله فضائل كثيرة، ولو لم يكن من فضائله إلا أنه هاجر الهجـرتين: هـاجر أولاً إلى الحبشة، ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة. ومن فضائله أنه يقال له: ذو النورين؛ لأنه تـزوج أولاً رقية بنت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، ثم مـاتت سـنة اثنتين من الهجرة زمن وقعة بدر، ثم زوجه النبي صـلى الله عليه وسـلم ابنته الثانية أم كلثــوم ، ولكنها أيضــاً مــاتت في آخر حيــاة النــبي صــلى الله عليه وسـلم، وقـال: (لو كـان لنا بنت ثالثة لزوجناها عثمـان)؛ ولـذلك قيل لـه: ذو

النورين ، ويقال: لا أحد تزوج بنتي نبي إلا عثمان ؛ ولذلك يقول فيه الكلوذاني : قالوا فثالثهم فقلت مجاوباً من بايع المختار عنه باليد صهر النـبي على ابنتيه ومن حوى فضلين فضل تلاوة وتهجد أعـني ابن عفـان الشـهيد ومن دعي في النـاس ذو النـورين صـهر محمد ثبت أنه صـلى الله عليه وسـلم لما نـزل في الحديبية، وصده المشـركون عن دخـول الحـرم، وعن إكمـال عمرتـه؛ أراد أن يبعث عمر إلى قريش، ولكن عمر خاف منهم؛ لكرامته وقوته، فأشـار إليه أن يبعث عثمان ؛ لكونه ذا قرابة منهم، فـأبو سفيان قريبه، وهو سيد فيهم، فوقع الاختيار عليه، فبعثه، ولما بعثه قالوا له أهل مكـة: نمكنك أن تطـوف بـالبيت، فقال: لا أطوف والنبي صلى الله عليه وسلم لم يطف، ثم جاء خبر كاذب بأن عثمان قتل، فعند ذلك فزع النـبي صـلى الله عليه وسـلم وقـال: (بـايعوني) ، فبايعه الصحابة البيعة التي تسمى بيعة الرضوان، ولما تمت وجـاء الخـبر بـأن عثمان حي، أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيده اليمـنى على يـده اليسـرى، وقال: (هذه لـعثمان) أي: هـذه بيعة عثمـان ، فكأنه بـايع عن عثمـان بنفسـه؛ فلذلك يقال: إنه من أهل البيعة وإن لم يكن حضـرها، بل البيعة ما حصـلت إلا بسببه. ولا شك أن تزوجه ببنتي النبي صلى الله عليه وسـلم مزية وأي مزيـة، وفضيلة كبـيرة. وعثمـان رضي الله عنه كـان من أوائل الـذين أسـلموا؛ وذلك لأنه تـزوج رقية قبل نـزول الـوحي بمـدة، وكـانت رقية قد خطبها أحد أبنـاء أعمامها أبي لهب ، ولكن كرهته وكرهه النـــبي صـــلى الله عليه وســـلم قبل نزول الـوحي، ثم خطبها عثمـان وتـزوج بهـا؛ لما رؤي منه من الأهليـة، ورزق منها أولاداً، وهاجر بها، ولما نزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم كان عثمان صـهراً للنـبي عليه الصـلاة والسـلام، وكـان قد عـرف صـدقه، وعـرف أهليتـــه، فلم يتوقف أن أســـلم، فهو من أوائل من أســـلم، ولم يســـلم لكونه صهراً للنبي صلى الله عليه وسلم، فإن أبا العـاص بن الربيع زوج زينب صـهر للنبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك لم يسلم إلا في سنة ثمـان، بل تمسك بدينـه، مع أن زوجته -وهي بنت النـبي صـلى الله عليه وسـلم- أسـلمت، لكن عثمان أسلم؛ لكونه اقتنع بصحة النبوة، ولأهلية النـبي صـلى الله عليه وسـلم للنبوة، فأسلم وهاجر الهجرتين كما عرفنا، وله فضائل كثـيرة رضي الله عنـه، استحق بها أن يكون خليفة على المسلمين. ......

علي رضي الله عنه رابع الخلفـاء الراشـدين، وهو من أكـثر الصـحابة فضـائل ومناقب، ولـذلك كـان حبه من الإيمـان، وبغضه من النفـاق كما صـحت بـذلك الأحاديث، ودعوى الرافضة في علي خرافة كدعوى النصارى في عيسى.

عقيدة أهل السنة في الصحابة

نحمد الله أن جعلنا من أهل السنة والجماعة الذين يعتقدون ما جاء عن اللــه، ويتقبلون ما جاء في كتاب الله، الذين هداهم الله وسددهم وأرشدهم، والذين يتمسكون بالنصوص وبالأدلة، ويعملون بالكتاب والسنة، ويكـون مـرجعهم إلى الأدلة القوية، الـذين نزهـوا معتقـدهم عن البـدع والمحـدثات. ولا شك أن من أشد البدع الطعن في نقلة السنة وحملتها من الصحابة؛ وذلك لأنهم الواسطة بين الأمة وبين نبيها، وهم الذين تحملوا السـنة والشـريعة الإسـلامية، وبلغوها لمن بعـدهم، ولم يكتمـوا منها شـيئاً، ولم يغـيروا ولم يبـدلوا، ولم يزيـدوا ولم ينقصوا؛ فلهـذا ففضـلهم على الأمة كبـير، وإحسـانهم إليها عظيم، ولأجل ذلك اتفقت الأمة من أهل السـنة على تـزكيتهم وتعـديلهم، وعلى إنكـار قـول من طعن أو بدّع أو شنّع فيهم، واتفق أهل السـنة على أن الصـحابة كلهم عـدول، ويكفي في تعديل الراوي أن يكـون من الصـحابة، فـإذا روي حـديث وثبت أن راويه صـحابي ولو كـان مجهـولاً قبلت روايتــه، وذلك دليل على أنهم عرفـوا مكانة الصحابة وعدالتهم. والصحابة يتفاوتون في الفضل، وقد ذكر الله تعالى شيئاً من تفاوتهم بقوله تعالى: لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْـدُ وَقَـاتَلُوا وَكُلًّا وَعَـدَ اللَّهُ الْحُسْـنَى [الحديـد:10]، فـأخبر أن المتقـدمين منهم الـذين أنفقـوا وقـاتلوا قبل الفتح أفضل من الــذين لم يســلموا ولم ينفقــوا ولم يقــاتلوا إلا بعد الفتح، ولكن وعدهم جميعاً بالحسنى: (وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) أي: الثواب الحسن والجنة، والجزاء الأوفى عند الله، وهذا ثناء كبير (وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى)، ومن يـدرك هذه الفضيلة؟ ومع كل هذا الثنـاء عليهم تسـلط عليهم الأعـداء من الرافضـة، وسددوا سهام الطعن نحوهم، بل سلطوها على خيارهم وأفاضلهم وأشرفهم، وهم الخلفاء الراشدون، وقد تقدم شيء من سـيرة أبي بكر و عمر و عثمـان رضي الله عنهم، ولا شك أنهم هم الخلفـاء الراشـدون الـذين ذكـرهم النـبي صــلى الله عليه وســلم بقولــه: (عليكم بســنتي وســنة الخلفــاء الراشــدين المهديين من بعدي) ، فإن أول من يـدخل فيه خلفـاؤه الـذين تولـوا الأمر من بعده، فـأول من تـولى بعـده أبو بكر ثم عمر ثم عثمـان ثم علي ، وهـؤلاء هم الخلفاء الراشدون الذين أوصى النبي عليه الصلاة والسلام باتبـاعهم، والسـير على منهاجهم، وهم ممن شهد لهم بالجنة شهادة عظيمة فقــال: (أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنــة، وطلحة بن عبيد الله في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنــة، وسـعيد بن زيد بن عمـرو بن

نفيل في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وأبو عبيدة عامر بن الجـراح في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة) ، فهؤلاء هم العشـرة المشـهود لهم بالجنة. وفي حديث أبي موسى لما كان بوّاب النبي صلى الله عليه وسلم في القصة التي مرت بنا يقول: فاستأذن أبو بكر ، فقلت: على رسلك! فجـاء إلى النـبي صـلى الله عليه وسـلم فقـال: هـذا أبو بكر يسـتأذن، فقـال: (ائـذن له وبشره بالجنة، فجـاء وجلس إلى جنب النـبي صـلى الله عليه وسـلم، ثم جـاء عمر فقال: ائذن له وبشره بالجنة، ثم جـاء عثمـان ، فقـال: ائـذن له وبشـره بالجنة على بلوى تصيبه) فبشره بالجنة، ولكن أخبره ببلوى، وهذه البلـوى هي ما حصل عليه من الثوار الذين ثاروا عليه، وحاولوا خلعــه، إلى أن انتهى الأمر بقتله رضي الله عنه. ......

مناقب عثمان رضي الله عنه

عثمـان أحد الخلفـاء الراشـدين، وقد امتـدت خلافته اثـني عشر سـنة، واتفق على خلافته الصحابة، ولم يشذ منهم أحد، فصار هو ثالث الخلفـاء الراشـدين، وله فضائل ومزايا رضي الله عنـه، ولو لم يكن منها إلا أنه صـهر النـبي صـلى الله عليه وسـلم، زوجه ابنته الأولى رقية ومـاتت سـنة اثنـتين، ثم زوجه ابنته الثانية أم كلثوم وماتت أيضاً في سنة ثمان أو نحوهـا، وقـال: (لو كـان لنا ابنة ثالثة لزوجناها عثمان) ؛ ومن ثمّ عرف بـذي النـورين، أي: ابنـتي النـبي صـلى الله عليه وسلم، ولأجل ذلك مدحه الكلوذاني في عقيدته بقوله: قالوا فثالثهم فقلت مجاوبـاً من بـايع المختـار عنه باليد صـهر النـبي على ابنتيه ومن حـوى فضلين فضل تلاوة وتهجد أعـني ابن عفـان الشـهيد ومن دعي في النـاس ذو النورين صهر محمد ومن فضائله: أنه الذي جمع القرآن بعـدما افـترق النـاس فيـه، وكـادوا يقتتلـون، فكتب القـرآن ونسـخه في المصـاحف، وأرسـلها إلى الناس حتى يقتصروا عليها، فاتفقت الأمة على الاقتصار على هـذا المصـحف، ويسمى المصحف العثماني، أو الرسم العثماني. ومن فضائله رضي الله عنه: أنه كان طوال ليله يتهجد ويصلي، حـتى ذكـروا أنه كـان يختم القـرآن في كل ليلة في تهجده، وذلك دليل على اهتمامه بالعبادة، يقول بعض الـذين مـدحوه: ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطّع الليل تسبيحاً وقرآناً يقطّع الليل يعني: يَقْطع الليل كله في التسبيح وفي القراءة، وعبّر بالتسـبيح عن الصـلاة. وكـان رضي الله عنه تستحي منه الملائكة كما في الحـديث الـذي مر بنـا: أن النـبي صلى الله عليه وسلم كان مرة جالساً في حجرته، وقد أبدى ركبتيه وســاقيه، فدخل أبو بكر وهو على تلك الحـال، ثم دخل عمر وهو على تلك الحـال، فلما دخل عثمـان اسـتوى جالسـاً، وسـتر ركبتيه وسـاقيه، فقيل لـه: لمـاذا جلست بعـــدما كنت على تلك الهيئـــة؟ فقـــال: (ألا أســـتحي من رجل تســـتحي منه الملائكة؟)، قيل: إنه كان حيياً، ولو رأى النبي صلى الله عليه وسـلم على تلك الحال لرجع ولم يجلس معه على تلك الهيئـة؛ فلأجل ذلك اسـتوى النـبي عليه الصـلاة والسـلام جالسـاً، ولا شك أنه رضي الله عنه كـان من أجلاء الصـحابة

وسابقيهم، وفي الحديث المشهور أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مرة على جبل أحد، فاهتز الجبل فقال: (اسكن أحد، فما عليك إلا نبي، أو صديق، أو شهيد)، وكان معه أبو بكر و عمر و عثمان ، فجعل أبا بكر صديقاً، و عمر و عثمان شهيدين، وتحقق ذلك، فإن كلاً منهما قتل شهيداً، وهذه شهادة منه صلى الله عليه وسلم لعثمان بأنه من الشهداء، ولما قتل مظلوماً قيّض الله له من ينصره، وقد استنبط ابن عباس من قول الله تعالى: وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا [الإسراء:33] فقال: إن عثمان قتل مظلوماً، وإن أولياءه الذين يطالبون بدمه - وهم معاوية ومن معه- منصورون. وبكل حال فلا مجال للطعن فيه، ومن طعن في خلافته أو في عدالته فقد طعن في الإسلام، وفي حملة الإسلام. ......

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. أي: ونثبت الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنهما، لما قتل عثمان وبايع الناس علياً ؛ صار إماماً حقاً واجب الطاعة، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة، كما دل عليه حديث سفينة المتقدم ذكره أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء) ، وكانت خلافة أبي بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة، وخلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ستة أشهر. وأول ملوك المسلمين معاوية ، وهو خير ملوك المسلمين، لكنه إنما صار إماماً حقاً لما فوّض إليه الحسن بن علي رضي الله عنهما الخلافة، فإن الحسن رضي الله عنه بايعه أهل العراق بعد موت أبيه، ثم بعد ستة أشهر فوّض الأمر إلى معاوية ؛ فظهر صدق قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) ، والقصة معروفة في موضعها. فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه بمبايعة الصحابة سوى معاوية مع أهل الشام، والحق مع علي رضي الله عنه، فإن عثمان رضي الله عنه لما قتل كثر الكذب والافتراء على عثمان ، وعلى من كان بالمدينة من أكابر الصحابة كعلي و طلحة و الزبير ، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال، وقويت الشهوة في نفوس ذوي الأهواء والأغراض ممن بعدت داره من أهل الشام، ويحمي الله عثمان أن يظن به الأكابر ظنون سوء، ويبلغه عنهم أخبار منها ما هو كذب، ومنها ما هو محرف، ومنها ما لم يعرف وجهه، وانضم إلى ذلك أهواء أقوام يحبون العلو في الأرض، وكان في عسكر علي رضي الله عنه من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من

إظهاره كله، ورأى طلحة و الزبـير أنه إن لم ينتصر للشـهيد المظلـوم، ويقمع أهل الفساد والعدوان، وإلا استوجبوا غضب الله وعقابـه، فجـرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ولا من طلحة و الزبير ، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السـابقين. ثم جـرت فتنة صـفين لـرأي، وهو أن أهل الشـام لم يعـدل عليهم، أو لا يتمكن من العــدل عليهم، وهم كــافون حــتى يجتمع أمر الأمــة، وأنهم يخـافون طغيـان من في العسـكر كما طغـوا على الشـهيد المظلـوم، وعلي رضي الله عنه هو الخليفة الراشد المهدي الذي تجب طاعته، ويجب أن يكـون النـاس مجتمعين عليـه، فاعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبـتين عليهم تحصل بقتـالهم بطلب الــواجب عليهم بما اعتقد أنه يحصل به أداء الــواجب، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلفة قلـوبهم على عهد النـبي صـلى الله عليه وسلم والخليفتين من بعده مما يسوغ، فحمله ما رآه من أن الدين إقامة الحد عليهم، ومنعهم من الإثـارة دون تـأليفهم على القتـال، وقعد عن القتـال أكثر الأكابر؛ لما سمعوه من النصوص في الأمر بالقعود في الفتنـة، ولما رأوه من الفتنة التي تربو مفسدتها على مصـلحتها، ونقـول في الجميع بالحسـنى : رَبَّنَا اغْفِـرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَـبَقُونَا بِالإِيمَـانِ وَلا تَجْعَـلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُـوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [الحشـر:10] ، والفتن الـتي كـانت في أيامه قد صان الله عنها أيدينا، فنسـأل الله أن يصـون عنها ألسـنتنا بمنه وكرمـه. ومن فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ما في الصـحيحين عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لــعلي : (أنت مـني بمنزلة هـارون من موسـى، إلا أنه لا نـبي بعـدي). وقال صـلى الله عليه وسـلم يـوم خيـبر: (لأعطين الراية غـداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسـوله، قـال : فتطاولنا لهـا، فقـال : ادعـوا لي عليـاً ، فـأتي به أرمـد، فبصق في عينيـه، ودفع الراية إليـه) ، ففتح الله عليـه، ولما نزلت هذه الآية: فَقُلْ تَعَالَوْا نَـدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَـاءَكُمْ وَنِسَـاءَنَا وَنِسَـاءَكُمْ وَأَنْفُسَـنَا وَأَنْفُسَـكُمْ [آل عمـران:61] دعا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم عليـاً و فاطمة و حسناً و حسيناً فقال: (اللهم هؤلاء أهلي)]. ......

فضائل علي رضي الله عنه

الخليفة الرابع هو علي بن أبي طــالب رضي الله عنــه، وهو الــذي تتــولاه الرافضــة، وتــدعي أنه الخليفة الأول، وأن الخلفــاء قبله مغتصـبون، أما أهل السنة فيقولون: إنه آلت إليه الخلافة بعد قتل عثمان ، فإن عثمـان رضي الله عنه اتهم في آخر خلافته باتهامات لا أساس لها، وكان من نهايتها أن ثـار عليه ثوّار كثير من العراق ومن مصر، واجتمعـوا، وحاصـروه إلى أن آل الأمر بقتله رضي الله عنه مظلوماً، ولما قتل لم يكن هنـاك أولى بالخلافة من علي ، فهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسـلم، وهو قريبـه، وهو صـهره زوج ابنتـه، وهو أبو الحسنين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله فضائل كثيرة، حتى كان لا ينافس. وذكروا من فضـائله أنه لما خالفه معاوية ولم يبايعـه، واسـتقر

معاوية في الشـــام، وعلي في العـــراق، كتب إليه معاوية كتابـــاً يـــذكر فيه فضائله، أنه كاتب الوحي، وأنه خال المؤمنين، أي: أخو أم المؤمنين الـتي هي أم حبيبة ، وأنه الـذي جاهد وفتح الفتـوح، ونحو ذلك من فضـائله، فـذكر ابن كثير في تاريخه أن علياً رضي الله عنه قال: يفخر علي ابن فلانـة، ثم أمر أن تكتب أبيات يذكر فيها فضائله يقول فيها: محمد النـبي أخي وصـهري وحمـزة سيد الشهداء عمي وجعفر الـذي يمسي ويضـحي يطـير مع الملائكة ابن أمي وبنت محمد زوجي وعرسي مسوق لحمها بدمي ولحمي وسبطا أحمد ولـداي منها فأيكم له سهم كسهمي سبقتكم إلى الإسلام طـراً صـغيراً ما بلغت أوان حلمي ولا شك أن له فضـــائل صـــحيحة، ولكن الرافضة زادت، وجعلت له فضائل أكثر من هذا، حتى رفعوه عن طوره، وأعطوه ما لا يستحقه، ووصفوه بصفات أكـبر من صـفة النبـوة، وجعلـوا له مكانة تفضـله على مكانة الخلفـاء قبله، بل ورفعوه إلى مكانة النبوة! وأما أهل السـنة فاعتـدلوا فلم يصـفوه إلا بالصفات التي وردت له، وبالفضائل الثابتة الصحيحة التي تميّز بها.

خلافة علي رضي الله عنه

رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسـلم بالمدينة أن عليـاً أولى بالخلافة بعد مقتل عثمـان ، فتمت له البيعـة، وكـان ذلك في وقت الحج في سـنة خمس وثلاثين من الهجرة، وكان الحجاج الذين بمكة قد غابوا عن فتنة قتل عثمـان ، ولما انتهوا من الحج، وأرادوا أن يقبلوا إلى المدينة، جاءهم الخبر أن الثوّار قد قتلوا عثمان ، وكانوا يعرفون أفراداً من أولئك الثوّار من أهل العراق، فعزموا على أن يقاتلوهم، وقالوا: لا يقر لنا قرار حـتى نقاتل قتلة المظلـوم عثمـان ، وكـان من أولئك الحجـاج: طلحة بن عبيد الله و الزبـير بن العـوام و عائشة رضي الله عنهم، فتوجهـوا من مكة إلى العـراق، ولم يـأتوا إلى المدينـة، ولم يبايعوا علياً فيمن بايعه، وهذا معناه أنهم قد شقوا العصا، وأنهم قد جعلوا في المسلمين خللاً، وكان يحب أن يـأتوا إليـه، ويبـايعوه كما بايعه غـيرهم، ثم بعد ذلك يسير معهم في قتال أولئك الثوّار، ولكن قضي الأمـر، وتوجهـوا من مكة إلى العراق، فلما سمع بأنهم توجهوا إلى العراق سـاءه ذلـك، وسـار بمن معه في أثرهم ليردهم إلى الطاعـة، وشق عليه أن يخـالفوه، وأن يقع اختلاف في الأمة، وأحب أن تجتمع الأمة على إمـام واحـد، حـتى يكونـوا يـداً واحـدة على الثوّار، هكذا رأى رضي الله عنـه، فتوجه إلى العـراق ومعه جمـوع كثـيرة من أهل المدينة الذين طاوعوه والذين بايعوه، فوصـلوا إلى الكوفـة، وتقـابلوا هم وأهل الحج الـــذين جـــاءوا من مكة ومعهم عائشة ، وكـــانت على جمل لها مشهور، فتقابلوا وكادوا أن يصـطلحوا على أنهم في الصـباح يمسـكون بقـواد القتلة ويقتلوهم، ولما باتوا على ذلك، ولم يبق إلا فعل ما قـرروا في الصـباح،

كان قتلة عثمان أشرافاً وأكـابر وسـادة، ولهم شـرف في قـومهم، فقـالوا: لا يمكن أن يقتل فلان ويقتل فلان ويقتل فلان، فكـان من حيلتهم أن قـالوا: إذا كان آخر الليل فقوموا وقـاتلوا، فابـدءوا بالقتـال حـتى تنشب الحـرب، وحـتى يختلف هؤلاء وهؤلاء، ففعلوا ذلك في آخر الليل، ولم يـدروا من أثـار الحـرب، والذين أثاروها هم قتلة عثمان ، فوقعت الواقعة، وجرت وقعة شـنيعة كبـيرة، قتل فيها عـدة ألـوف من المسـلمين، منهم طلحة و الزبـير رضي الله عنهم، وأكثرهم أو كلهم إلا نادراً ليسوا من الصحابة، وما زالـوا يقـاتلون النهـار كلـه، والسيف يعمل فيهم، وعائشة رضي الله عنها على جملها في وسطهم، وكـان يأتي أصحابها الذين جـاءوا معها ويمسـكون الجمل بخطامـه، وكل ما أمسـكه أحد قطعت يده، ثم يجيء آخر فتقطع يده، حتى قطعت أكثر من عشرين يداً كانت تمسك بذلك الخطام، فرأى علي أن يعقر الجمل، فقال: اعقـروا الجمل فـإنهم يـدورون حولـه، فلما عقـروا الجمل سـقط الجمل وسـقطت عائشة بهودجهـا، فعند ذلك أمر علي أن تحـاز إلى رحل المسـلمين، وبـذلك انهزمـوا وانتهت الحرب وتوقفت بعد معركة شديدة، وسببها قتلة عثمان ، وتمت البيعة منهم لـعلي ، ولم يبق خلاف.

خروج أهل الشام على علي مطالبين بدم عثمان

بعد وقعة الجمل بقي أهل الشام بقيادة معاوية ؛ وذلك لأن معاوية هو ابن عم عثمان ، وقد أسف لقتله، وأسف أهل الشام، وصاروا يبكون بكاءً شديداً على ما سمعوا، وعلى ما نقل إليهم من الشناعة والبشاعة، وصـاروا يجتمعـون في المسـاجد، ويقسـمون أن يأخـذوا بثـأر عثمـان مهما حصل الأمـر، فعند ذلك جمعـوا جموعـاً أكـثر من مائة ألـف، وتوجهـوا قاصـدين العـراق؛ لأجل مقاتلة أولئك الثوّار، واجتمعوا في موضع يقال لـه: صـفين، وجـاء علي وأهل العـراق في أكثر من مائة ألف، وجاء هؤلاء كذلك وتقـابلوا، وأرادوا أن يصـطلحوا فيما بينهم، ولكن لم يحصل الاتفـــاق، وقد اختـــاروا حكمين، واختلف الحكمـــان، ونشبت الحـرب بينهم واسـتمرت أيامـاً، منها ليلة شـديدة القتـال تسـمى ليلة الهرير، وبعدما كاد أهل العراق أن ينتصروا رفع أهل الشام المصاحف وقـالوا: ندعوكم إلى كتاب الله، فعند ذلك تركوا القتـال، بعـدما قتل عشـرات الألـوف من هؤلاء ومن هؤلاء، فرجع أهل الشـام إلى الشـام وهو متقـوون، ورجع أهل العراق إلى العراق وفيهم شيء من الاختلاف والفشل، وانفصلت منهم طائفة سموا بالخوارج، وقالوا لـعلي : أنت حكمت الرجال يعني: لما اختار حكماً من الرجال، وثاروا عليه، وهم الخـوارج الـذين قـاتلهم علي في النهـروان وقتلهم. والحاصل: أن علياً رضي الله عنه تمت بيعته، وكانت خلافته في العـراق وفي الحجـاز وفي خراسـان وفي اليمن، وفي أكـثر البلاد، ما عـدا الشـام ومصر

والمغـرب، فهـذه كـانت تحت ولاية معاوية ؛ وذلك لأنه تمكّن من هـذه البلاد، وكانوا يحبونه؛ لكونه ذا سيرة حسنة وجهـاد، فبقي متمكسـاً بهـذا الأمـر، ولم يــزل أمر كل منهم على هــذه الحــال إلى أن قتل علي رضي الله عنه ســنة أربعين، قتله الخارجي المشهور المسمى بـعبد الرحمن بن ملجم .

خلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما بعد استشهاد أبيه

لما قتل علي بـايع أهل العـراق ابنه الحسن ، تمت له البيعـة، وبـايعوه بقـوة، وكان أهل العراق يحبون علياً محبة شديدة، وبقـوا ملـتزمين بطاعتـه، وكـانوا يحبون ذريته، فالتزموا أن ينصروا الحسن ، وأن يبذلوا في نصــرته ما يمكنهم، ولما تمت له البيعــة، وبقي نصف ســنة، أراد معاوية أن يغــزوا أهل العــراق، فجاء بجنود هائلة، واجتمع أيضاً مع الحسن جنود هائلة عظيمة، ولما أرادوا أن يتقاتلوا فكر الحسن رضي الله عنه وقال: علام نقتل هؤلاء المســلمين؟ يقتل عشرات ألوف أو مئـات ألـوف لأجل الخلافة ولأجل الولايـة، لا بـورك فيها ولا خــير فيهــا، لمــاذا لا أتنــازل وأحقن دمــاء المســلمين؟ وعند ذلك أرسل إلى معاوية : إنني سآتي إليك، فجـاء إليـه، وقـال: سأبايعك وأتنـازل لك عن هـذه الخلافــة، واشــترط عليه شــروطاً: ألا يقتل أحــداً، لا من قتلة عثمــان ولا من غــيرهم، يكفي ما قد حصل من الفتن ومن القتــال، وألا تســبّوا أحــداً منا ولا نسب أحداً منكم، لا نسب عثمان ولا تسبوا عليــاً ، وأن نكف عن هـذه الفتن، فقبل تلك الشروط، وتمت البيعة سنة إحدى وأربعين لــمعاوية ، وســمي ذلك العام: عام الجماعة، واجتمعت فيه الأمة على إمام واحد وهو معاوية ؛ ولـذلك يقولون: الخلافة ما قبل الحسن ، والملك ما بعده، وفي حـديث سـفينة يقـول صلى الله عليه وسلم: (الخلافة بعدي ثلاثــون سـنة، ثم تكــون ملكـاً) وفســره ســفينة فقــال: احسب ســنتين وأربعة أشــهر خلافة أبي بكر ، وعشر ســنين ونصــفاً خلافة عمر ، وثنتا عشــرة خلافة عثمــان ، وأربع ســنين ونصف خلافة علي ، ونصف سنة خلافة الحسن ، فمجموعها ثلاثــون، أو تنقص أو تزيد قليلاً، وما بعده فهو ملك، وأول ملـوك الإسـلام معاوية ، وهو أفضل وخـير ملـوكهم؛ وذلك لأنه صحابي وابن صحابي، ولأن سيرته سـيرة حسـنة، إلا أنه أخطأ حيث أمر أو أقر من يسب عليـاً ، وحصل بسب علي في خلافته سـواء في العـراق أو في الشام حدوث هذه الطائفة التي تعصبت لـعلي ، واخترعت أكـاذيب في سب الصحابة وفي الغلو في علي ؛ ولأجل ذلك صـارت الرافضة تحمل عليـه، وتحمل على جميع بـني أمية وتضـللهم، ما عـدا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنـه؛ وذلك لأن سب علي اسـتمر في العـراق، وإن لم يكن في كل الأمـاكن، بل في بعض المسـاجد، وكـذلك في الشـام مـدة خلافة بـني مـروان، إلى أن تــولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فعند ذلك أبطل ســبه، وهو الــذي مدحه

بعض أهل الـبيت على هـذا الفعـل، فنسب إلى المرتضى وهو من أهل الـبيت أنه قال: يا ابن عبد العزيز لو بكت الــ عين فـتىً من أمية لبكيتك أنت أنقـذتنا من السب والشتم فلو أمكن الجزاء جزيتك غـير أني أقـول لقد طبت وإن لم يطب ولم يزك بيتك دير شـمعان لا عـدتك العـوادي خـير ميت من آل مـروان ميتك وكــان قد دفن رضي الله عنه في دير شــمعان. وبعــده انقطع الســب، ولكن حدثت هذه الطائفة التي هي الرافضة، وكان سبب سـبهم لــعلي رضي الله عنه تسويل الشيطان لهم بأنه من جملة الذي داهنوا في قتل عثمـان ، أو شاركوا فيه، فصاروا يسبونه ويشـتمونه على المنـابر، وصـار أوليـاؤه وشـيعته يتحرقون عندما يسـمعون كلامهم، ويجمعـون أكـاذيب في سب بـني معاويـة، وفي سب بني مروان، بل وفي سب الخلفـاء الراشـدين، وفي الغلو في علي رضي الله عنه، ولا حاجة لـعلي في أكاذيبهم؛ فله فضـائل كثـيرة، وله منـاقب شهيرة، هو غني بها عما لفقوه وزادوا عليه، حتى جعلوا له ما لا يستحقه.

علي رضي الله عنه أول من أسلم من الصبيان

علي رضي الله عنه من السابقين، أسلم وهو صغير، وكـان سـبب إسـلامه أن أبا طالب كثر عياله، وكـان قليل ذات يـد، فقـال حمـزة رضي الله عنه للنـبي صـلى الله عليه وسـلم: هلم فلنخفف عن أبي طـالب، فنأخذ منه بعض أولاده نَعولُهم، فأخذ حمزة جعفراً مع عياله، وأخذ النبي صلى الله عليه وسـلم عليـاً مع عياله، وكان ينفق عليه، ولما نزل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم بادر وأسلم، وهو أول من أسـلم من الصـبيان، قيـل: إنه أسـلم وعمـره عشر سنين، فلذلك قالوا: إنه أسلم قبل أن يبلغ.

حديث: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى)

من فضائله: قول النبي صـلى الله عليه وسـلم لـه: (أنت مـني بمنزلة هـارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي).، ومعلوم أن هارون أخو موسى؛ ولكن هارون نبي أوحي إليه كما أوحي إلى موسى، قال تعالى: وَوَهَبْنَا لَـهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَـاهُ هَارُونَ نَبِيّـاً [مـريم:53]، وحُسب هـارون من الأنبيـاء الـذين أوحي إليهم، أما علي فإنما له قرابة من النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وتلك القرابة لم تصل

إلى حد النبوة، إنما له قرابة وله محبة وله صلة وله مصاهرة، حيث تزوج بنت النبي صلى الله عليه وسلم، فأصبح له هذه المكانة.

حديث: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله...)

من فضائله: قول النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب اللهَ ورسولَه، ويحبه اللهُ ورسولُه، يفتح الله على يديه، فبات الناس يدوكون ليلتهم، أيهم يُعطاها، فلما أصبحوا غدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأُتي به، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، وقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم). اشتمل هذا الحديث على ثلاث فضائل: الأولى: أنه يحب اللهَ ورسولَه. الثانية: أن الله يحبه ورسوله. الثالثة: أن الله يفتح على يديه. ولأجل ذلك تطاول إليها كثير من الصحابة حتى قال عمر رضي الله عنه: ما تمنيت الولاية إلا يومئذ، وقد أرسله النبي عليه الصلاة والسلام لما يلي: أولاً: لقرابته منه. ثانياً: لِما عُرف عنه من الشجاعة والقوة والإقدام. ثالثاً: ليظهر آثار ذلك بالفتح على يديه. فله هذه الفضائل، مع أنها حاصلة لغيره أيضاً، فإن الصحابة رضي الله عنهم بل وجميع المؤمنين بل ونحن إن شاء الله جميعاً نحب الله ورسوله، ونرجو أن نلقى ثواب هذه المحبة، ونحب أولياء الله ومنهم الصحابة رضي الله عنهم، وهذه فضائل لـ علي ، ولغيره من الصحابة.

الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما

الفتن التي حصلت بين علي رضي الله عنه وبين أهل الشام وقعت باجتهاد، فأهلُ الشام معذورون حيث إنهم يطالبون بدم عثمان ، وأهل العراق معذورون حيث إن علياً رضي الله عنه يطالب بجمع الكلمة، ويقول: بايعوني واجتمعوا معي، ونحن بعد ذلك إذا اجتمعنا ولم نختلف تمكنا من أخذ أولئك القتلة واحداً واحداً، وهي فكرة جيدة؛ ولكن قدر الله ما حصل، وحصل هذا الأمر الذي وقعت بسببه هذه الفتن، فنحن نقول: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا

كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [البقرة:134]، ونقـول كما قـال الشـارح: تلك فتنة صـان الله عنها أيـدينا، فنصـون عنها ألسـنتنا، فلا نقول: هذا هو المصيب، ولا هذا هو المخطئ، بل نَكِل أمرهم إلى الله تعـالى، والله يحكم بينهم، ونعـذرهم، ولا نُلحِق بأحد منهم لومـاً ما دامـوا مجتهـدين، ونعرف للجميع سبقهم، ونعرف لهم فضـلهم وفضـائلهم، ونشـهد لهم بـالخير، ولا نتـبرأ من أحد من الصـحابة لا من علي ولا من معاوية ؛ ولأجل ذلك يقـول الكلــوذاني في معاوية : ولـــابن هند في الفـــؤاد محبة ومـــودة هل يُــرْغَمَنَّ المعتدي ذاك الأمين المجتبى لكتابة الـ ـوحي المُنَزَّل بالتقى والسؤدد فهو من الخلفاء؛ ولكن ليس هو من الخلفاء الراشـدين، ولكنه ملك من الملـوك، سـار سيرة الملوك، ولكنه أحسـنهم، أما علي رضي الله عنه فلا شك أنه في زمانه خليفة ذلك الزمان، ولا شك أن فضـائله تـدل على أقدميته على معاوية وعلى ميزتــه؛ لأنه من الســابقين الأولين، وأما معاوية فهو من مســلمة الفتح، وهو داخل في قوله تعـالى: أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَـةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُـوا مِنْ بَعْـدُ وَقَـاتَلُوا [الحديد:10] أي: من بعد الفتح وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى [الحديد:10].

بشر النبي صلى الله عليه وسلم عشرة من الصحابة بالجنة في حديث واحـد، وهم الخلفـاء الأربعة وابن عـوف والزبـير وطلحة وأبي عبيـدة وسـعيد بن زيد وسـعد بن أبي وقـاص، وقد ضل الرافضة في بغضـهم لأكـثر هـؤلاء العشـرة، وسلكوا مسلك اليهود في الجفاء والنصارى في الغلو.

حب أهل السنة للصحابة ومعرفتهم لفضلهم

نحمد الله أن جعلنا مسلمين، وجعلنا متحابين في ذات اللـه، نحب أهل الخـير متقدِّمهم ومتأخرهم، ونعترف لهم بالفضل، ونعـترف لهم بالسـبق إلى الخـير، ونمتثل قـول الله تعـالى: وَالَّذِينَ جَـاءُوا مِنْ بَعْـدِهِمْ يَقُولُـونَ رَبَّنَا اغْفِـرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَـبَقُونَا بِالإِيمَـانِ وَلا تَجْعَـلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ [الحشـر:10] أي: حقداً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [الحشـر:10]. ولا شك أن هـذا وصف المؤمنين في كل زمان، فهم يعـترفون لمن سـبقهم من أهل الإيمـان بالفضل والخـير، ولا شك أن أفضل مَن سـبق وأول مَن سـبق هم أصـحاب نبينا صـلى الله عليه وسلم، فنحبهم من كل قلوبنا، وهذا وصف أهل السـنة، يقـول شـيخ الإسلام في عقيدته: حب الصحابة كلهم لي مذهب ومودة القـربى بها أتوسـلُ ولكلهم فضل وقدر ساطع لكنَّما الصديق منهم أفضـلُ نحبهم لأنهم السـابقون إلى الخـــيرات، ونحبهم لأنهم حفظـــوا على الأمة دينها وشـــريعتها، ونحبهم لفضلهم وشرفهم، ونحبهم لقرابة أكثرهم -سيما الخلفاء الراشدون- من النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ثبت في الحديث أن العباس عم النـبي صـلى الله عليه وسلم ذكر له أن بعض قـريش يجفو بـني هاشم فقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (والـذي نفسي بيـده! لا يؤمنـون حـتى يحبـوكم لله ولقرابـتي)، فجعل المحبة لله مقدمـةً ثم المحبة لقرابته أي: قـربهم منه كعمه وبـني عمه ونحوهم. ومعلوم أننا ما أحببناهم لمجرد القرابة، فقد كان هناك من هو أقرب منهم كـــ أبي لهب و أبي طـالب وغيرهما ممن مـاتوا على الكفـر، ومع ذلك نمقتهم ونبرأ من أعمـالهم، هـذه هي عقيـدتنا، أما من آمن به ولو كـان بعيـداً من نسبه، وصدَّقه واتبعـه؛ فإنه محبـوب إلى كل مسـلم تقي من أهل السـنة والجماعة. ومحبتنا للصـحابة لا تصل إلى الغلو كعـادة الـذين يغلـون في بعض الصـالحين، فالرافضة أوصـلهم الحب لآل الـبيت إلى الغلو بحيث اعتقـدوا في أئمتهم الاثـني عشر نوعـاً من الألوهيـة، وأعطـوهم شـيئاً من التصـرف في الكون، وصاروا يطلبون منهم ما لا يقدر عليه إلَّا اللـه، ويصـفونهم بأوصـاف لا يستحقها إلَّا الله. أما أهل السنة فـأحبوا الصـحابة، وأحبـوا قبلهم نـبيهم صـلى الله عليه وسلم، ولم يغلوا في أحد منهم، ولم يعطوه شـيئاً من حق اللـه، بل اعتقدوا أنهم بشر، وأنهم مخلوقون، وأن فضـلهم إنما هو بالأعمـال الصـالحة، وأن محبتهم إنما تحمل على اتبـــاعهم، وعلى العمل بمثل أعمـــالهم، وهكـــذا محبة كل مؤمن، فإذا أحببنا الأئمة ودعاة الخير ومشايخنا وعلمـاء الأمة فهـذه

المحبة تحمل المحب على أن يقتدي بالمحبوب، وعلى أن يحرص على أن يفعل كأفعاله، وبذلك يكون صادق المحبة، فأما أن تحمله محبته على أن يعطيه شيئاً من حق الله، فإن هذا غلو وإطراء داخل في فعل النصارى، وهو منهي عنه، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله) وصفة العبودية للنبي صلى الله عليه وسلم صفة شرف، وكذلك صفة العبودية للصحابة صفة فضل وشرف، وكذا صفة العبودية لنا صفة شرف، فأنت تفرح إذا نُسِبت إلى أنك عبدٌ لله، وكذا أنبياء الله، قال تعالى: لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ [النساء:172] لا يستنكفون أي: لا يأنفون ولا يتكبرون عن العبودية، فكذا الصحابة لا يتكبرون عن العبودية، وكذا أقارب النبي صلى الله عليه وسلم لا يتكبرون عن العبودية، بل يفتخرون بها، وهذا هو الواجب في اعتقادنا نحوهم. وقد مر بنا في هذه العقيدة قول أهل السنة في الصحابة وفي الخلفاء، وأن أفضلهم: الخلفاء الأربعة، وأفضل الصحابة: أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، وأنهم هم الخلفاء الراشدون، وتكلم العلماء في خلافتهم فقالوا: إن الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، ثم بعده عمر ، ثم عثمان ، ثم علي، ومن طعن في خلافة واحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله كما قال ذلك شيخ الإسلام في العقيدة الواسطية. وكذلك تكلموا في فضلهم، فاتفقوا على فضل الشيخين أبي بكر و عمر ، واختلفوا في عثمان و علي أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان وربعوا بـ علي ، أي: جعلوه هو الرابع في الفضل، وقدم قوم علياً ، وقوم توقفوا، هكذا ذكر شيخ الإسلام في الواسطية، وذكر أن مسألة التقديم بين عثمان و علي ليست من المسائل التي يُضَلَّل مَن خالف فيها، وإنما التي يُضَلَّل فيها مسألة الخلافة، فهناك فرق بين مسألة الخلافة ومسألة الفضل، فقد اتفق أهل السنة على أنهم مرتبون في الخلافة، واتفقوا على أن ترتيبهم في الفضل أن يقدم أبو بكر ثم عمر ، واختلفوا هل علي يلي عمر في الفضل ثم عثمان بعده أو بالعكس؟ وأكثر العلماء على أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، وهذا هو الذي نعتقده؛ وذلك لأنهم لا يتفقون على خطأ، وقد اتفقوا على تقديم عثمان في الخلافة، فدل ذلك على أهليته وأفضليته. ......

اتباع الخلفاء الراشدين

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [(وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون) تقدم الحديث الثابت في السنن وصححه الترمذي عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: (أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم

ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة) وترتيب الخلفـاء الراشـدين رضي الله عنهم أجمعين في الفضل كـترتيبهم في الخلافــة، و لــ أبي بكر و عمر رضي الله عنهما من المزية أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا باتباع سنة الخلفاء الراشـدين، ولم يأمرنا بالاقتـداء في الأفعـال إلا بــ أبي بكر و عمر رضي الله عنهما فقـال: (اقتـدوا باللـذَين من بعـدي: أبي بكر و عمر)، وفـرق بين اتبـاع سنتهم والاقتـداء بهم، فحـال أبي بكر و عمر فـوق حـال عثمـان و علي رضي الله عنهم أجمعين، وقد روي عن أبي حنيفة تقـديم علي على عثمــان ، ولكن ظاهر مذهبه تقـديم عثمـان على علي ، وعلى هـذا عامة أهل السـنة، وتقـدم قول عبد الرحمن بن عوف لـ علي رضي الله عنهمـا: إني قد نظـرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بــ عثمـان . وقـال أيـوب السـختياني : من لم يقـدم عثمـان على علي فقد أزرى بالمهـاجرين والأنصـار. وفي الصـحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسـلم حي: أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم بعـده: أبو بكر ثم عمر ثم عثمـان]. قد ذكرنا أن هؤلاء هم الخلفاء الراشـدون، سـماهم بـذلك النـبي صـلى الله عليه وسـلم؛ لأنهم خَلَفـوه، وواحـدهم خليفـة، والخليفة هو الـذي يخلف مَن بعـده بخير، وقد سمى الله آدم خليفة بقوله: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَـةً [البقـرة: 30]؛ لأنه -كما قيل- خلفٌ عمن قبله، فكل من تولى أمـراً هامـاً ونـاب عمن قبله فهو خلف عنه، فـ أبو بكر اتفقـوا على تسـميته خليفة رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، كانوا ينادونه بذلك، ولما تـولى عمر دعـوه بقـولهم: يا خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فـرأى أن هـذا شـيء يطـول فقـال: أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فاتفقوا على تسـميته أمـير المؤمـنين ؛ ولكنه في الحقيقة خليفة ، فهو أول من سمي بـأمير المؤمـنين . هـؤلاء الأربعة سـماهم النـبي صـلى الله عليه وسـلم بالراشـدين، وهـذا دليل على أنهم على رُشْـد، والرُّشْد ضد الغَي قال تعالى: قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ [البقرة:256] والرشد هو الصلاح والخير، والغي هو الغواية والضلال، فهم راشدون على رشد، نشهد لهم بـذلك كما شـهد لهم نـبيهم صـلى الله عليه وسـلم. ومن فضـلهم أنه أمر باتباعهم في قوله: (عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشـدين) أي: اتبعوهـا، إذا قيل: عليكم بكذا فالمعنى: خذوه، وسـنتهم يعـني: أعمـالهم وطـريقتهم الـتي ساروا عليهـا، هـذه هي سـنتهم، ونحن نعـرف أنهم لم يبتـدعوا سـنة من قبل أنفسهم، بل يحرصون كل الحرص على أن يسيروا على سنة النبي صـلى الله عليه وسـلم؛ ولكن نسـبت إليهم لأنهم أظهروهـا، فقيـل: هـذا سـنة أبي بكر ، يعني: الـذي رواه وأظهـره، ولو لم ينسـبه إلى النـبي صـلى الله عليه وسـلم؛ وذلك لأنهم لطول صحبتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم قد حفظـوا منه ما لم يحفظ غيرهم، وقد عرفوا من شريعته ما لم يعرف غيرهم، فلا جرم كـانت سنتهم هي سنته صـلى الله عليه وسـلم. وسـمعنا أنه صـلى الله عليه وسـلم أمر بالاقتداء بـ أبي بكر و عمر فقـال: (اقتـدوا باللـذَين مِن بعـدي: أبي بكر و عمر) ويؤخذ من هذا صحة خلافتهمـا، وأنهما اللـذان بعـده، وقـدم أبا بكر في الـذكر، فـدل على أنه الـذي يليـه، والاقتـداء هو التقيد بقوله وبفعلـه، (اقتـدوا بهما) يعني: تقبلوا ما جاءا به، وتقبلــوا أعمالهما وأقوالهما وطبقوها واعتبروها

من الشــريعة، وهــذا يُــرَد به على مَن رد أقــوال الصــحابة ســيما الخلفــاء الراشدين، وقد كـان كثـير من الأئمة كالإمـام أحمد بن حنبل رحمه الله يقـدم قول الصحابة على اجتهاد مَن بعدهم، وكذلك إذا وقع بينهم اختلاف قدم قــول الخلفاء الراشدين، وإذا وقع خلاف بين الخلفاء الراشدين قدم قول أبي بكر و عمر ، ولا شك أن هـذا دليل على معرفته بـأنهم أهل للاتبـاع والاقتـداء. ونأخذ من هـذا أنه صـلى الله عليه وسـلم نص على خلافة هـؤلاء وأنهم هم الخلفـاء الراشـــدون، أما تـــرتيبهم في الخلافة فالخليفة الأول هـــو: أبو بكر يقـــول الكلوذاني: قالوا فمَن بعدَ النبي خليفةً قلت الموحد قبل كل موحد قالوا فمَن ثاني أبي بكر رضاً قلت الخلافة في الإمام الزاهد قالوا فثالثهم فقلت مجاوباً: مَن بايع المختارُ عنه باليد قالوا فرابعهم فقلت مجاوبـاً: مَن حـاز دونهمُ أخـوة أحمد فهؤلاء هم الخلفاء، وهكذا ترتيبهم.

ترتيب الصحابة في الفضل

قال ابن عمر : كانوا يقولون في حيـاة النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (أفضل الأمة بعد نبيهـا: أبو بكر ثم عمر ثم عثمـان ، فيبلغ ذلك النـبي صـلى الله عليه وسـلم فلا ينكـره)، وفي بعض الروايـات: (كنا نقـول والنـبي صـلى الله عليه وسلم حي: أبو بكر ثم عمر ثم عثمـان) يعـني: أفضـلهم وأقـدمهم وأشـرفهم وأولاهم هؤلاء، هذا هو القـول الصـحيح؛ أن تـرتيبهم في الفضل كـترتيبهم في الخلافة، ورُوي عن أبي حنيفة أنه كان يقدم علياً على عثمان ؛ ولكن الصـحيح عند أصحابه أنه يقدم -مثل جمهور الأمة- عثمان ، وسـمعنا الأثر الـذي يقـول: (من قدم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهـاجرين والأنصـار) يعـني: تنقَّصـهم وعـابهم وثلبهم، وحـطّ من شـأنهم، حيث إنهم اجتمعـوا على تقـديم عثمـان خليفةً. وسمعنا أيضاً أن عبد الرحمن بن عوف لما أخذ البيعة لـ عثمان قال لـ علي : إني نظرتُ في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بـ عثمان أحداً. وهذا يـدل على أن الصحابة في ذلك الوقت يعرفـون قـدر عثمـان ويفضـلونه. وقد ذكرنا فيما سبق متى حدث التشيُّع، وأنه أكثر ما حدث في العراق، ولا شك أن أكـثر من يذكر فضائل علي أهل العراق، ولكثرة ما يروى عنه من أحاديث وآثار في العراق فمَن يسمعها يعتقد فضـله على عثمـان ، فلعل أبا حنيفة بسـبب كـثرة سـماعه من يطـري عليـاً ، ويزيد من قـدره، ويصـفه بما ليس فيـه، قـال: إنه أفضل من عثمان ، وإن كان القول الصـحيح عن أبي حنيفة أنه يفضل عثمـان كسائر أئمة السنة. وقد ذكر ابن كثير في التاريخ في ترجمة سفيان الثــوري -وهو من أهل العراق- أنه كان يميل إلى تفضيل علي على عثمـان ، ولعل ذلك لم يثبت عنه، وإذا رُوِي عنه شـيء من ذلك فلعله كـان يكـثر من ذكر فضـائل علي -لكونها منتشـرة- في العـراق، وكـان أهل العـراق في زمن الثـوري قد

ظهر فيهم شيء من الغلو ومحبة علي ، وصـاروا يبـالغون في ذكر ما ينقلـون عنه، ويتناقلون أحاديث قد يكون بعضها مكـذوباً، ويكـثرون في مجالسـهم من ذكرها، فلعلها التي أثرت في أبي حنيفة و سـفيان الثـوري ، وإلَّا فهما إمامـان من أئمة أهل السنة.

العشرة المبشرون بالجنة

قال الشارح رحمه الله: [(وأن العشرة الذين سـماهم رسـول الله صـلى الله عليه وسلم وبشـرهم بالجنة نشـهد لهم بالجنة على ما شـهد لهم رسـول الله صــلى الله عليه وســلم، وقوله الحق وهم: أبو بكر و عمر و عثمــان و علي و طلحة و الزبير و سعد و سعيد و عبد الرحمن بن عوف و أبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هـــذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين). تقـــدم ذكر بعض فضـــائل الخلفـاء الأربعـة، ومن فضـائل السـتة البـاقين من العشـرة رضي الله عنهم أجمعين: ما رواه مسـلم عن عائشة رضي الله عنهـا: أَرِق رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ذات ليلة فقـال: (ليت رجلاً صـالحاً من أصـحابي يحرسـني الليلة. قالت: وسمعنا صوت السلاح، فقال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: من هذا؟ فقـال سـعد بن أبي وقـاص : يا رسـول اللـه! جئت أحرسـك. وفي لفظ آخـر: وقع في نفسي خـوف على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام). وفي الصــحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع لــ سـعد بن أبي وقـاص أبويه يـوم أحد فقال: (ارمِ فداك أبي وأمي). وفي صحيح مسلم عن قيس بن أبي حازم قال: (رأيت يد طلحة التي وَقَى بها النبي صـلى الله عليه وسـلم يـوم أحد قد شلت)! وفيه أيضاً عن أبي عثمان النهدي قال: (لم يبقَ مع رسول الله صــلى الله عليه وسـلم في بعض تلك الأيـام الـتي قاتل فيها النـبي صـلى الله عليه وسلم غير طلحة و سعد). وفي الصحيحين واللفظ لـ مسلم عن جابر بن عبد الله قال: ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم الخنـدق، فانتـدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لكل نبي حواري، وحواريي الزبـير). وفيهما أيضـاً عن الزبـير رضي الله عنه أن النـبي صلى الله عليه وسلم قال: (من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟ فـانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه فقال: فـداك أبي وأمي). وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لكل أمة أميناً وإن أميننا -أيتها الأمة-: أبو عبيدة بن الجراح). وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال: جاء أهل نجـران إلى النـبي صـلى الله عليه وسـلم فقـالوا: يا رسـول الله ابعث إلينا رجلاً أمينـاً. فقـال: (لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين. قال: فاستشرف لها الناس. قال: فبعث أبا عبيـدة

بن الجراح). وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: أشـهد على رسـول الله صلى الله عليه وسلم أني سمعته يقول: (عشرة في الجنة: النـبي في الجنـة، و أبو بكر في الجنة، و طلحة في الجنة، و عمر في الجنة، و عثمان في الجنة، و سـعد بن مالك في الجنـة، و عبد الـرحمن بن عـوف في الجنـة، ولو شـئتُ لسميت العاشر. قـال: فقـالوا: مَن هـو؟ قـال: سـعيد بن زيد . وقـال لَمَشْـهد رجل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يغبر منه وجهه خير من عمل أحـدكم ولو عُمِّر عمر نـوح) رواه أبو داوُد و ابن ماجة و الترمـذي وصـححه، ورواه الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف . وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قـال: (أبو بكر في الجنـة، و عمر في الجنة، و علي في الجنة، و عثمان في الجنة، و طلحة في الجنـة، و الزبـير بن العـوام في الجنـة، و عبد الـرحمن بن عـوف في الجنـة، و سـعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة، و أبو عبيدة بن الجراح في الجنة) رواه الإمام أحمد في مسـنده، ورواه أبو بكر بن أبي خيثمة وقـدم فيه عثمـان على علي رضي الله عنهما. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كـان رسـول الله صـلى الله عليه وسلم على حراء هو و أبو بكر و عمر و عثمان و علي و طلحة و الزبير ، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: (اهـدأ! فما عليك إلا نبي أو صدِّيق أو شهيد) رواه مسلم و الترمذي وغيرهمـا، ورُوِي من طـرق ..] هؤلاء الستة الباقون من العشرة، وأفضل الصحابة بعد الخلفـاء الأربعة هم السـتة البـاقون من العشـرة، وقد جمعهم ابن أبي داوُد في عقيدته في بيت واحد فقال: سعيد وسعد وابن عوف وطلحة وعامر فهر والزبير المُمَدَّح

فضل سعيد بن زيد

العشرة المبشرون بالجنة كلهم من قريش، فـ سعيد بن زيد هو ابن عمرو بن نفيل ، وأبوه زيد كان ممن وحد الله تعالى في الجاهلية، وترك عبادة الأصنام، وترك الأكل مما أُهلَّ به لغير الله، وشهد له النبي صـلى الله عليه وسـلم بأنه يُبعث يـوم القيامة أمـةً وحـده، وهو ابن عم عمر بن الخطـاب بن نفيـل، وقد شهد النبي عليه الصلاة والسلام لـ سـعيد بأنه من أهل الجنـة، فهو من هـؤلاء العشرة.

فضل عبد الرحمن بن عوف

عبد الـرحمن بن عـوف من بـني زهـرة، وهم أخـوال النـبي صـلى الله عليه وسلم، فإن أمه صـلى الله عليه وسـلم من بـني زهـرة، وعبد الـرحمن أسـلم قديماً بدعوة أبي بكر ، فإن أبا بكر كان على صلة بكثير ممن أسـلم، فكلمهم وبين لهم الآيات والمعجزات التي أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم، فبادروا إلى الإسلام، وكان اسمه عبد عمرو ثم لما أسلم سمى نفسه: عبد الـرحمن ، فكان بعض قريش يدعونه: يا عبد عمرو فلا يجيبهم، فإذا دُعي بـ عبد الرحمن أجاب مَن دعاه. وقد تقدم أنه من الذين جعلهم عمر من أهل الشورى، وأخبر بأن النبي صلى الله عليه وسـلم مـات وهو عنهم راض، وهم عثمـان و علي و طلحة و الزبير و سعد و عبد الرحمن ، فهؤلاء الستة جعل عمر الأمـرَ شـورى فيهم، وهو من الـذين بشـرهم النـبي عليه الصـلاة والسـلام بالجنة في هـذه الأحاديث التي عدَّ فيها عشرة بأنهم من أهل الجنة. ومن فضله: أنه من ضمن الـذين كـانوا على جبل أحد لما ارتجف وتحـرك، وقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (اسـكن! فما عليك إلا نـبي أو صـدِّيق أو شـهيد) فهو من الشـهداء، والشهيد ليس خاصاً بمن قتل في سبيل الله، فقد قال الله تعالى: فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّـهَدَاءِ وَالصَّـالِحِينَ [النسـاء: 69]، وقد قيل: إن المـراد شـهداء هـذه الأمـة، وقد ذكر الله أن كل من آمن بالله ورسوله فإنه من الشـهداء في قوله تعـالى: وَالَّذِينَ آمَنُـوا بِاللَّهِ وَرُسُـلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْـدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْـرُهُمْ وَنُـورُهُمْ [الحديـد:19]. ولما هــاجر النــبي صــلى الله عليه وســلم آخى بينه وبين ســعد بن الربيع الأنصـاري، فقـال سـعد : هلمَّ أقاسـمك مـالي، وأنـزل لك عن إحـدى زوجتَيَّ، فقـال: بـارك الله لك في مالك وفي زوجتـك. ثم قـال: دلـوني على السـوق، فدُلَّ على السوق، فصار يتجر، حتى صـار ذا مـال، وكـان من أثريـاء الصـحابة وأغنيائهم، قدمت عـيرٌ له إلى المدينـة، والنـاس في حاجـة، فجـاء إليه التجـار فرغَّبوه بـأن يـبيعهم، وأعطـوه فائـدة في المائة -مثلاً- خمسـةً أو سـتةً؛ ولكن قال: قد أعطيت فيها في المائة ألفاً! فتصدَّق بها وقـال: إن الله قد أخـبر بأنه يضاعفها أضعافاً كثيرة في قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضـاً حَسَـناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَـرِيمٌ [الحديـد:11] فتصـدق بها كلهـا، وكـان رضي الله عنه إذا أتي بالطعام الشهي بكى حـتى يتركـه؛ إذا تـذكر حالة الصـحابة الـذين كانوا في جهد جهيد. وبكل حال فهو من أجلاء الصحابة رضي الله عنهم، مـات سنة اثنين وثلاثين، في السنة التي مات فيها العباس رضي الله عنه.

فضل طلحة بن عبيد الله

طلحة بن عبيد الله من العشرة، ومن المهاجرين، وهو من قــريش، يجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم في مُرَّة، فهو من بني تيم بن مرة الذين منهم أبو بكر ، وكان من الذين جاهدوا في الله حق جهـاده، ففي غـزوة أحد كـان ممن ثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يصيب في رميه، فكان إذا جاء أحد من المسلمين ومعه سهام قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألقِها وانثرها لــ طلحة) فيأخذها طلحة فيرمي بها المشركين، وكـان ملازمـاً للنـبي صـلى الله عليه وسلم، فكان إذا أراد النبي عليه السلام أن ينظر إليهم ويرفع قال لـه: لا ترفع رأسك فيصبك شيء، نحـري دون نحـرك وكـان يقيه بيـده السـهام الـتي يُرمَى بها النبي صلى الله عليه وسلم حتى شُـلَّت يـده، أصـابتها سـهام فصـار فيها عيب، وذلك بلا شك من حبه للنبي صلى الله عليه وسلم.

فضل الزبير بن العوام

الزبير بن العـوام قـال فيه النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (لكل نـبي حـواري، وحواريي الزبـير)، ولما نـدب أصـحابه في ليلة من ليـالي الخنـدق فقـال: من يـذهب فينظر إلى المشـركين ما فعلـوا، فلم ينتـدب إلا الزبـير فبعثه وفـدَّاه بقولـه: فـداك أبي وأمي. والزبـير من بـني أسد بن عبد العـزى بن قصي بن كلاب، وهو ابن عم خديجة أم المؤمـــنين رضي الله عنهـــا، وهو أيضـــاً من المهـاجرين الأولين، وله قرابة أخـرى بـالنبي صـلى الله عليه وسـلم، فهو ابن عمته صفية بنت عبد المطلب ، وقد كان من المجاهدين الذين بـذلوا أنفسـهم في الجهاد في سـبيل اللـه، وكـان من الـذين ثبتـوا مع النـبي صـلى الله عليه وسلم في غـزوة أحـد، حـتى فـدَّاه بقولـه: (ارمِ فـداك أبي وأمي). قتل هو و طلحة في ســنة ست وثلاثين في وقعة الجمــلِ، لما خرجــوا مع أهل الجمل وحصلت الوقعة التي حصلت بينهم وبين علي، فتـبرأ علي ممن قتلهمـا. وبكل حال فهم مجتهدون وإن حصل منهم هذا الاختلاف؛ لأنهم أرادوا بخـروجهم تتبع قتلة عثمـان -كما تقـدم-، ولا شك أن هـؤلاء السـتة من أجلاء الصـحابة رضي الله عنهم، وممن شهد لهم صلى الله عليه وسلم بالفضل وبالجنة.

فضل أبي عبيدة بن الجراح

أبو عبيــدة عــامر بن عبد الله بن الجــراح من المهــاجرين، وقد أسـلم قـديماً وهاجر، خرج أبوه مع المشركين في بدر، ولما رآه أبـوه مع المسـلمين حـاول أن يقتل ابنـه؛ لأنه مسـلم، ولما لم يجد بُـداً قتل أبـاه؛ لكونه مع المشـركين، ولكون أبيه يريد قتله، ونزل فيه قول الله تعـالى: لا تَجِـدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ .. [المجادلـة:22] إلى آخرها، فهو من الذين لم يوادوا المشركين ولو كانوا آباءً أو أبناءً أو إخوةً، وهو من الـذين كَتَبَ فِي قُلُـوبِهِمُ الإِيمَـانَ وَأَيَّدَهُمْ بِـرُوحٍ مِنْـهُ وَيُـدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ [المجادلة:22]. وذكر النبي صـلى الله عليه وسـلم أنه أمين فقـال: (لكل أمة أمين، و أمين هــذه الأمة أبو عبيــدة بن الجــراح). مــات رضي الله عنه سـنة ثمـاني عشـرة في خلافة عمر ، بطـاعون عمـواس، وقد كـان عمر أمَّره على الغـزاة بعد مـوت أبي بكر ، عــزل خالـداً وجعل أبا عبيـدة هو القائـد؛ لأن أبا عبيدة هو أسبق من خالد بن الوليد ، وهو أفضل منه، فقدَّمه وجعله هو الأمـير القائد لتلك الجيوش، وحصلت فتوحات عظيمة بقيادة أبي عبيدة . فهــؤلاء هم الخلفـاء، وكـذلك أتبـاعهم وأعـوانهم الـذين سـاعدوهم، والـذين كـانوا معهم، فنشهد للجميع بأنهم من أهل الخير، وبأنهم من أهل الجنة كما شهد لهم بذلك نبيهم صلى الله عليه وسلم.

الشهادة بالجنة لكل من شهد له النبي عليه الصلاة والسلام بذلك

هنـاك جماعة آخـرون من الصـحابة شـهد لهم النـبي صـلى الله عليه وسـلم بالجنة، ونحن نشهد لمن شـهد لهم بـذلك، ونترضى عن الجميع كما رضي الله عنهم في قوله تعـالى: وَالسَّـابِقُونَ الأَوَّلُـونَ مِنَ الْمُهَـاجِرِينَ وَالأَنصَـارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُـوهُمْ بِإِحْسَـانٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ [التوبـة:100]، فالله تعـالى أخبرنا أنهم أهل لرضوانه، ويقول النبي صـلى الله عليه وسـلم: (إن الله اطلع على أهل بدر، فقـال: اعملـوا ما شـئتم فقد غفـرتُ لكم) فهـذا دليل على أنه غفر لهم ولو عملوا ما عملـوا، وإذا صـدر منهم ذنب على تقـدير أنه ذنب فإنه مغفور لهم بهـذا الوعد الكـريم من الله تعـالى، فكيف -مع ذلـك- تتصـدى لهم الرافضة وتسبهم وتضللهم أو تـزعم أن فضـائلهم الـتي فضـلوا بها كـانت قبل ردتهم؟ فالرافضة يدَّعون أنهم ارتدوا بعد مـوت النـبي صـلى الله عليه وسـلم حيث منعوا علياً حقه من الولايـة، فلما منعـوه أصـبحوا بـذلك مرتـدين، هكـذا تدعي الرافضة! ومتى منعوه حقه من الولاية، والنـبي صـلى الله عليه وسـلم هو الذي أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، ولم يأمر علياً ، وأقر أبا بكر بأن يصلي بالنـــاس، و أبو بكر هو صـــاحبه في كل الحـــالات والأوقـــات؟! فكيف اتفق الصحابة -كما تزعم الرافضة- على أن حرموا علياً من الولاية فأصـبحوا بـذلك مرتدين؟! كيف يرتدون وقد زكاهم الله بقولـه: رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ

[التوبـة:100]، وسـماهم السـابقين الأولين، وسـماهم أهل البيعـة: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ [الفتح:10]؟! وهكذا غيرهم من بقية الصحابة الذين لهم سـابقة وفضـل، نعـترف بفضـلهم، ونـؤمن بسـابقتهم، ونـنزلهم مـنزلتهم، ونعـرف لكل منهم حقه وسـبقه، ونتـبرأ ممن ثلبهم وعـابهم وقـدح في دينهم وعبادتهم وتسلط عليهم؛ كما تفعله الرافضة الذين نصـبوا عـداوتهم لأصـحاب النبي صلى الله عليه وسلم دون غيره، والله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [البقرة: 113] وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [البقرة:258].

ضلال الرافضة في بغضهم لأكثر العشرة المبشرين بالجنة

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [وقد اتفق أهل السنة على تعظيم هـؤلاء العشرة وتقديمهم لما اشتُهر من فضائلهم ومنـاقبهم، ومَن أجهـلُ ممن يكـره التكلم بلفظ العشـرة أو فعل شـيء يكـون عشـرة؛ لكـونهم يبغضـون خيـار الصحابة وهم العشرة المشـهود لهم بالجنـة، وهم يسـتثنون منهم علياً رضي الله عنه، فمن العجب: أنهم يوالـون لفظ التسـعة، وهم يبغضـون التسـعة من العشـرة! ويبغضـون سـائر المهـاجرين والأنصـار من السـابقين الأولين الـذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة وكانوا ألفـاً وأربعمائـة، وقد رضي الله عنهم كما قال تعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ [الفتح:18]، وثبت في صحيح مسـلم عن جـابر رضي الله عنه عن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (لا يـدخل النـار أحد بـايع تحت الشجرة)، وفي صـحيح مسـلم أيضـاً عن جـابر أن غلام حـاطب بن أبي بلتعة قال: يا رسول الله! ليدخلن حاطب النـار، فقـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم (كذبت! لا يدخلها، فإنه شـهد بـدراً والحديبيـة)، والرافضة يتـبرءون من جمهـور هـؤلاء، بل يتـبرءون من سـائر أصـحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسلم إلا من نفر قليل نحو بضعة عشر نفراً! ومعلوم أنه لو فرض في العـالم عشرة من أكفر الناس لم يُهْجر هـذا الاسم لـذلك، كما أنه سـبحانه لما قـال: وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِـدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْـلِحُونَ [النمـل:48] لم يجب هجر اسم التسعة مطلقاً، بل اسم العشرة قد مدح الله مسـماه في مواضع من القرآن: تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ [البقرة:196]، وَوَاعَـدْنَا مُوسَـى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ [الأعراف:142]، وَالْفَجْـرِ * وَلَيَـالٍ عَشْـرٍ [الفجـر:1-2]، وكان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان، وقال في ليلة القدر: (التمسوها في العشر الأواخر من رمضان)، وقال: (ما من أيـام العمل الصـالح فيهن أحب إلى الله من أيـام العشـر) يعـني: عشر ذي الحجـة، والرافضة توالي بدل العشرة المبشرين بالجنة اثني عشر إمامـاً: أولهم: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويدعون أنه وصي النبي صلى الله عليه وسـلم

دعوى مجردة عن الـدليل، ثم الحسن رضي الله عنـه، ثم الحسـين رضي الله عنه، ثم علي بن الحسين زين العابـدين ، ثم محمد بن علي البـاقر ، ثم جعفر بن محمد الصادق ، ثم موسى بن جعفر الكـاظم ، ثم علي بن موسى الرضا ، ثم محمد بن علي الجـــواد ، ثم علي بن محمد الهـــادي ، ثم الحسن بن علي العسكري ، ثم محمد بن الحسن ، ويغالون في محبتهم ويتجاوزون الحد! ولم يأت ذكر الأئمة الاثني عشر إلا على صـفة تـرد قـولهم وتُبْطله وهو ما خرَّجـاه في الصحيحين عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النـبي صـلى الله عليه وسـلم فسـمعته يقـول: (لا يـزال أمر النـاس ماضـياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً. ثم تكلم النـبي صـلى الله عليه وسـلم بكلمة خفيت عليَّ فسـألت أبي: ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم؟ قـال: كلهم من قـريش. وفي لفـظ: لا يزال الإسلام عزيزاً باثني عشر خليفة. وفي لفـظ: لا يـزال هـذا الأمر عزيـزاً إلى اثـني عشر خليفـة)، وكـان الأمر كما قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم، والاثنا عشر: الخلفاء الراشـدون الأربعـة، و معاوية ، وابنه يزيد ، و عبد الملك بن مـــــــــروان وأولاده الأربعة وبينهم عمر بن عبد العزيز ، ثم أخذ الأمر في الانحلال. وعند الرافضة أن أمر الأمة لم يزل في أيـام هـؤلاء فاسـداً منغَّصـاً، يتولى عليهم الظالمون المعتـدون، بل المنـافقون الكـافرون، وأهل الحق أذل من اليهود! وقولهم ظاهر البطلان، بل لم يزل الإسـلام عزيـزاً في ازديـاد في أيام هؤلاء الاثـني عشـر]. قد ذكرنا من فضـائل الصـحابة سـيما العشـرة أنهم اجتمعت فيهم الثلاث البشائر: البشارة الأولى: أنه صلى الله عليه وسلم قال: (عشرة في الجنة)، وذَكَـرَهم كما تقـدم. البشـارة الثانيـة: أنهم من أهل بـدر، وقد قال الله تعالى لأهل بـدر: (اعملـوا ما شـئتم فقد غفـرتُ لكم). البشـارة الثالثة: أنهم من أهل البيعة، قال الله تعالى: لَقَدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ [الفتح:18]، وقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (لا يدخل النـار أحد بـايع تحت الشـجرة). فهـذه البشـارات الثلاث كلها داخل فيها هؤلاء العشرة، بل هم أولى بها وأقدم، وغيرهم من الصـحابة الـذين حضـروها لهم فضل ولهم سابقة، فأهل بدر الذين شهدوا وقعة بدر كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، هؤلاء قد قـال الله لهم: (اعملـوا ما شـئتم فقد غفـرتُ لكم) والرافضة تدعي أنهم ارتدوا وكفروا إلا علي ونفر قليل، والذين بايعوا تحت الشـجرة هم ألف وأربعمائة وزيـادة، بـايعوا النـبي صـلى الله عليه وسـلم بيعة الرضـوان، وأخبر الله بأنهم بايعوا ربهم في قوله: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَـدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ [الفتح:10]، وفي هذا شـرف لهم وشـرف للنـبي صـلى الله عليه وسلم، حتى قـال بعض المتـأخرين في مـدحهم ومـدح النـبي صـلى الله عليه وسلم: كيف السـبيل إلى تقضي مـدح مَن قـال الإله له حسـبك جاها إن الذين يبايعونك إنما حقاً يقال يبايعون الله فأي مدح أشرف من هذا المدح؟!

عبد الله بن سبأ اليهودي هو أصل الرافضة والباطنية، وهو أول من أظهر التشيع لعلي رضي الله عنه، ثم فشا الغلو في آل البيت من قبل الرافضة، وقد رد عليهم أهل السنة، وبينوا أن الغلو فيهم لا يرضاه أهل البيت أنفسهم.

نعمة اتباع السنة ومحبة الصحابة

نحمد الله أن جعلنا مسلمين، نحمد الله أن جعلنا سنيين، نحمد الله أن جعلنا من أهل الحق، علينا أن نحمد الله لِمَا نرى من كثرة المنحرفين، ولِمَا نرى من كثرة المعرضين الذين سول لهم الشيطان وأملى لهم، أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً [فاطر:8]، فنحمد الله الذي لم يجعلنا من المعتزلة، ولم يجعلنا من المنكرين للقدر، ولم يجعلنا من المجبرة، ولم يجعلنا من الرافضة، ولم يجعلنا مبتدعة، بل جعلنا من المتمسكين بالكتاب والسنة، بكتاب الله الذي جعله الله هدىً لمن سار عليه، ونوراً يُهتدى به، ويُحتذى حذوه، وكذا سنة النبي صلى الله عليه وسلم التي هي سبيل النجاة، وهي سفينة النجاة، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق، وما أكثر الغرقى في هذه الأزمنة! ما أكثر الغارقين! تراهم يقولون: نحن أهل نجاة وهم شيعة ورافضة!! أو يقولون: نحن أهل النجاة وهم خوراج وإباضية!! أو يقولون: نحن أهل النجاة وهم مبتدعة بغاة!! أو يقولون: نحن أهل النجاة ويسمون أنفسهم حداثيين أو علمانيين أو ما أشبه ذلك! ومع ذلك يدعون أنهم على الحق والصواب، وما أبعدهم عن الصواب! يرون الحق أبلج، يرون النور المستقيم، والهدى القويم، وهم عنه معرضون! وأكبر مثال: طعن الرافضة في الصحابة رضي الله عنهم، ما ذنب الصحابة حتى تقدح فيهم الرافضة؟! أيُقدح فيهم لأنهم حفظوا السنة؟! أيُقدح فيهم لأنهم بلَّغوها؟! أيُقدح فيهم لأنهم سبقوا إلى الإسلام؟! أيُقدح فيهم ويُعابون ويكفَّرون لأنهم حفظوا على الأمة دينها؟! أيُقدح فيهم ويُعابون ويكفَّرون لأنهم الذين فتحوا البلاد، ونصروا الله ونصروا رسوله؟! هذه مآثرهم، متى كان للرافضة مثل هذه المآثر حتى يلعنوهم ويسبوهم ويُكفروهم ويتهموهم بأنهم منافقون وبأنهم ضالون وبأنهم مبتدعون وبأنهم حَسَدة خائنون؟! هذه الأوصاف تنطبق على الرافضة أتم الانطباق، وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منها براء، نشهد بذلك وندين به. ومَرَّ بنا أن الرافضة يكرهون كلمة (عشرة)؛ لأنه ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (عشرة في الجنة)، فهؤلاء العشرة لما كانوا يكفِّرونهم صار لفظ (العشرة) عندهم ممقوتاً مكروهاً لا يقبلونه ولا يتقبلونه، مع أنهم يستثنون منهم واحداً فقط وهو علي ، وأما بقيتهم فإنهم يلعنونهم ويشتمونهم، فيكفرون تسعة من هؤلاء العشرة، والعاشر يوالونه ويتولونه، لماذا كرهتم لفظ العشرة ولم تكرهوا لفظ التسعة؟! أليس ذلك من الخطأ؟! ما ذنب لفظ كلمة (عشرة)؟! ما ذنبها؟! مع أنها وردت في كلام الله تعالى،

وفي كلام الرسول، وفي كلام أهل العلم؟ فقد ورد ذكرها وتكـرر، ولم يـرد ما يفيد ذمهـا؛ ولكن في قلـوبهم حقد على هـؤلاء العشـرة ما عـدا علياً ، وحقد أيضاً على جميع الصحابة إلّا أفراداً منهم قلة قليلة. ......

الكلام على حديث: (لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً)

في صحيح مسـلم أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: (لا يـزال هـذا الأمر ظـاهراً حـتى يليه اثنا عشـر. ثم قـال: كلهم من قـريش) هـذا الحـديث يقـول الرافضة: هو حجة لنا على أئمتنا الاثني عشر، وهـذا الحـديث في كتبكم، رواه مسلم في صحيحه، إذاً: أنتم تروون الأحاديث التي تؤيد مذهبنا، هكذا يقولون! فنقـول: هـذا الحـديث صـحيح رواه مسـلم وغـير مسـلم في كتبهم الصـحيحة بأسانيد صحيحة؛ ولكن لا ينطبق على أئمتكم الـذين تـدعون، فهو ينطبق على أئمة لهم ولاية، أئمة لهم إمـارة، أئمة وخلفـاء لهم أمر ونفـوذ وسـلطة وأتبـاع وولاية تامة، يكون من آثارهم الإصلاح العـام، ومن آثـارهم الاقتـداء بهم، ومن آثارهم نفوذ الأوامر، ومن آثارهم تجهيز الجيـوش، وغـزو البلاد وفتحهـا، وجمع الأموال لبيت المال، وتصريفها في وجوهها، هل كان أحد أئمتكم هكذا ما عـدا علياً وما عدا الحسن ستة أشهر؟! لا، إنما كانت هـذه الولاية لأئمة وولاة كلهم من قريش، وقد عد الشارح هؤلاء الأئمة الاثني عشـر، فعـدَّ الخلفـاء الأربعـة؛ وذلك لأنهم تمت لهم الولايـة، وعـدَّ معاوية وابنـه؛ لأن معاوية تـولى عشـرين عامـاً، وابنه تـولى أربع سـنين، وكـان لهما ولايـة، وكـان الغـزو في زمانهما مستمراً، وعد عبد الملك بن مروان وأولاده الخلفـاء الـذين هم أربعـة، وبينهم عمر بن عبد العزيـز، قبله ولـدان لــ عبد الملك ، وبعـده ولـدان، فهـؤلاء اثنا عشر، وقد كـان لغـيرهم ولاية ولكنها ناقصـة، كــ ابن الزبـير وكـذلك مـروان، فولايتها ناقصة، وكذلك مروان بن محمد الأخير كانت ولايته ناقصة أيضـاً؛ لأنها سـلبت منـه. إذاً: فما بقي إلا هـؤلاء، أما بعـدهم في خلافة بـني العبـاس فقد خرجت الفتن، وكثرت البدع، وانتشر الضلال، وقرَّبوا اليونـان، وقرَّبـوا الـترك، ومكَّنـوهم من الولايـة، وظهر القـول بخلق القـرآن، والقـول بإنكـار الصـفات، والقول بالقدر، والقول بالإرجاء، وتمكن الرفض في تلك الأيـام أي: في خلافة بــني العبــاس. إذاً: الأئمة الاثنا عشر هم: أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمــان ، ثم علي ، ثم معاوية ، ثم يزيد بن معاوية ، ثم عبد الملك بن مـــروان ، ثم الوليد بن عبد الملك ، ثم ســليمان بن عبد الملك ، ثم عمر بن عبد العزيز ، ثم يزيد بن عبد الملك ، ثم هشـام بن عبد الملك ، هـؤلاء اثنا عشر خليفـة. ونقـول: لا شك أن الرافضة يــدعون الأئمة الاثنا عشر أئمتهم فنقــول: صــحيح أن علياً كـانت له خلافـة، وهو من الخلفـاء الراشـدين، وأما الحسن فليس له خلافـة، وإنما استولى ستة أشهر ثم تنازل لــ معاوية ، أما الحسـين فلم يتم له ولايـة، وإنما وعده أهل العراق بـأن يبـايعوه ثم لما جـاءهم قُتِـل، أما ولـده الـذي هو علي بن الحسين زين العابدين فهو علم من العلماء ولم يكن له ولاية، وهكــذا أولاده الذين تسلسـلوا منه إلى أن كـان آخـرهم الحسن بن علي العسـكري ،

وهو آخر السلسلة من ذرية زين العابدين ، والحسن العسـكري ليس له ولـد، لم يخلِّف، ولما كان إماماً عند الرافضة رأوا أنه لا بد أن يكون له ولد، فجعلوا له ولداً؛ ولكن جعلـوه مختفيـاً، فـادعوا أن له ولـداً اسـمه محمد بن الحسن ، وأنه مختـفٍ، وأنه سـيخرج، وادعـوا أنه دخل سـرداب سـامراء، وأنه سـوف يخرج، وقد ذكرنا شيئاً من الكلام عن هـذا المنتظر عنـدهم، وعرفنا أن هـؤلاء الأئمة الذين تدعي الرافضة ليس لهم ولاية ولا نفوذ ولا سلطة، ما عدا علياً و الحسن بضعة أشهر، ومن بعدهم بقوا كأفراد قريش، وكسـائر العلمـاء الـذين لهم علم، ومعهم من العلم ما يعملون به أو يدعون إليه، وليسـوا وحـدهم، بل في زمـانهم علمـاء من قـريش ومن غـير قـريش، وقبلهم وبعـدهم، وكـانوا يماثلونهم أو يفوقون كثيراً منهم، فما الذي خصص هؤلاء حـتى تجعلـوهم -أيها الشـيعة- أئمتكم دون غـيرهم، مع أنه لا ممـيز لهم ولا شـيء يخصصـهم؟ فالحاصل أن استدلالهم بهذا الحديث: (لا يزال هذا الأمر ظاهراً حـتى يليه اثنا عشر خليفة كلهم من قـريش) ليس فيه حجة لهم، بل هو حجة عليهم، فليُنتبه لذلك. ......

محبة الصحابة وأهل البيت براءة من النفاق

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [قوله: (ومن أحسن القـول في أصـحاب رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وأزواجه الطـاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسـين من كل رجس؛ فقد بـرئ من النفـاق ..). تقـدم بعض ما ورد في الكتاب والسنة من فضائل الصحابة رضي الله عنهم، وفي صـحيح مسـلم عن زيد بن أرقم قـال: قـام فينا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم خطيبـاً بمـاء يُدعى: (خمـاً) بين مكة والمدينة فقـال: (أما بعـد: ألا أيها النـاس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين: أولهما: كتاب اللـه، فيه الهدى والنور، فخـذوا بكتـاب الله واستمسـكوا بـه. فحث على كتـاب الله ورغَّب فيـه، ثم قـال: وأهل بيـتي، أذكـركم الله في أهل بيـتي. ثلاثـاً)، وخـرج البخـاري عن أبي بكر الصـديق رضي الله عنه قـال: ارقبـوا محمـداً في أهل بيته. وإنما قـال الشـيخ رحمه اللـه: (فقد بـرئ من النفـاق) لأن أصل الـرفض إنما أحدثه منافق زنديق قصْدُه إبطال دين الإسلام والقدح في الرسول صـلى الله عليه وسـلم، كما ذكر ذلك العلمـاء، فـإن عبد الله بن سـبأ لما أظهر الإسـلامَ أراد أن يفسد دين الإسـلام بمكـره وخبثـه، كما فعل بـولِس بـدين النصـرانية، فـأظهر التنسُّـك، ثم أظهر الأمر بـالمعروف، والنهي عن المنكـر، حـتى سـعى في فتنة عثمـان وقتلِه رضي الله عنـه، ثم لما قـدم علي الكوفة أظهر الغلو في علي والنصر لـه؛ ليتمكن بـذلك من أغراضـه، وبلغ ذلك عليـاً فطلب قتله، فهرب منه إلى قرقيس، وخبره معـروف في التـاريخ، وتقـدم أن من فضَّـله على أبي بكر و عمر جلـده جلد المفـتري، وبقيت في نفـوس المبطلين خمائر بدعة الخوارج من الحرورية والشيعة. ولهذا كان الرفض باب الزندقة، كما حكاه القاضي أبو بكر بن الطيب عن الباطنية، وكيفية إفسـادهم

لدين الإسلام قال: فقالوا للداعي: يجب عليك إذا وجـدت من تـدعوه مسـلماً أن تجعل التشيُّع عنده دينك وشعارك، واجعل المـدخل من جهة ظلم السـلف لـ علي وقتلهم الحسين ، والتبري من تيم وعدي وبني أمية وبني العباس، وأن علياً يعلم الغيب، يفوَّض إليه خلق العالم! وما أشبه ذلك من أعاجيب الشـيعة وجهلهم! فإذا أنِسْت من بعض الشيعة عند الدعوة إجابـةً ورشـداً أوقفتَه على مثـــالب علي وولـــده رضي الله عنهم. انتهى. ولا شك أنه يتطـــرق مَن سب الصحابة إلى سب أهل البيت، ثم إلى سب الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إذ أهل بيته وأصحابه مثل هؤلاء الفاعلين الضالين]. بعد أن ذكر المصنف الخلفاء العشـرة ذكر بقية الصـحابة وذكر زوجـات النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وقد تقدم شيء من فضائل الصحابة جميعـاً أو بعضـهم كقوله تعـالى: لَقَـدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ [الفتح:18] وكانوا ألفاً وأربعمائة وزيادة رضي الله عنهم. وكذلك أيضاً قد أخـبر تعـالى بأنه رضي عنهم في آية أخـرى كقوله تعـالى: وَالسَّـابِقُونَ الأَوَّلُـونَ مِنَ الْمُهَـاجِرِينَ وَالأَنصَـارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ [التوبة:100] والآيات كثيرة كما تقدم، ومن الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تسبوا أصحابي، فوالـذي نفسي بيده! لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُد أحـدهم ولا نصـيفه) هـذا في الصحابة رضي الله عنهم، وما ذاك إلا لأنهم فاقوا غـيرهم بالصـحبة، مـتى يدركهم غـيرهم؟! مـتى يصل إلى ما وصـلوا إليـه؟! لقد سـبقونا وسـبقوا مَن قبلنا بصحبتهم لنبينا صلى الله عليه وسلم، وبقتالهم معه وجهادهم، وبإيثـارهم له، وبإنفاقهم أمـوالهم في سـبيل نصـرته، وبالأخذ عنه والتعلُّم منـه، وبالقيـام بعده بالسنة وتبليغها، وبالجهاد في سبيل الله معه وبعده، متى يدركهم غيرهم رضي الله عنهم؟!

الكلام على حديث غدير خم

حديث غدير خُم الصحيح منه ما رواه مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنـه: (لما رجع النـبي صـلى الله عليه وسـلم من مكة بعد حجة الـوداع وأقبل على المدينة نزلـوا في أثنـاء الطريق في موضع يقـال لـه: خُم، وكـان هنـاك غـدير فأقاموا عليه يومـاً أو بعض يـوم، فخطب خطبة وأوصـاهم في هـذه الخطبـة، وذكر لهم قرب أجله، وكأن الله تعالى قد أطلعه على قرب وفاته، فقال: إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي -أي: الملَك الذي يقبض روحي- فـأجيب) وذكر أنه تــاركٌ فينا ثقلين ، وفي رواية صــحيحة أنه قــال: (إني تــارك فيكم الثقلين: كتاب الله وسنتي)، وهما المرجع الذي يُرجع إليه عند التنازع كما قال تعالى: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ [النساء:59] أي: إلى الكتـاب والسـنة، هكـذا قـال: (إني تـاركٌ فيكم ما إن تمسـكتم به لن تضـلوا:

كتاب الله وسنتي)، وفي هذا الحديث قـال: (إني تـاركٌ فيكم الثقلين: أولهمـا: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخـذوا بكتـاب الله واستمسـكوا بـه. فحث على كتـاب الله ورغَّب فيـه، ثم قـال: وأهل بيـتي، أذكـركم الله في أهل بيـتي .. أذكركم الله في أهل بيتي) يقول الرواي: فقلنا لــزيد : ومَن أهل بيتـه؟ أليس نساؤه من أهل بيتـه؟ فقـال: نسـاؤه من أهل بيتـه؛ ولكن أهل بيته هم الـذين حُرِموا الزكاة بعده -يعني: بني هاشم الـذين لم تحل لهم الزكـاة-، فعـدَّ منهم آل علي وآل العباس وآل جعفر وآل أبي طالب وآل عقيل، يعني: بني هاشـم، فكأن زيداً يقصد بذلك أن أقاربه يستوصى بهم خيراً، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للعباس : (والذي نفسي بيده لا يؤمنوا حـتى يحبـوكم لله ولقرابتي)؛ لما ذكر له العباس أن بعض قريش يجفوا بـني هاشـم، فـدل على أن لأقاربه -الـذين هم بنو هاشـم- مـيزة وفضـيلة؛ وذلك لشـرف القـرب من النبي صـلى الله عليه وسـلم، ولأنهم صـفوة صـفوة في قوله صـلى الله عليه وســلم: (إن الله اصــطفى من العــرب كنانــة، واصــطفى من كنانة قريشــاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بـني هاشـم) فهو صـلى الله عليه وسلم خيار من خيار. ......

أهل البيت هم بنو هاشم ويدخل فيهم أمهات المؤمنين

هذا الحـديث فيه أن أهل الـبيت هم بنو هاشـم، وفيه شـهادة زيد بن أرقم أن نساء النـبي صـلى الله عليه وسـلم من أهل بيتـه، وتسـمعون الرافضة دائمـاً يقولون: نحن نوالي أهل بيت النبي صلى الله عليه وســلم، أتعيبوننا لأننا نحب أهل بيته؟ إنما ذنبنا عنـدكم أننا أحببنا أهل بيت النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وما ذنب من أحب أهل بيت النـبي صـلى الله عليه وسلم؟! ويدنـدنون دائمـاً بأنهم يحبون أهل بيت النبي صـلى الله عليه وسـلم، فنقـول: كـذبوا، أهل بيته صـلى الله عليه وسـلم يـدخل فيهم نسـاؤه، وهم يعـادون أغلب نسـائه أشد العـــداوة، وأهل بيته يـــدخل فيهم عمه وبنو عمه آل العبـــاس، وهم يعـــادون العباسيين وذريتهم، وأهل بيته يدخل فيهم كل أقاربه من بني هاشم حتى ذرية أبي لهب، وإن كـان أبو لهب و أبو طـالب ماتا كـافرين، لكن ذريتهما من بـني هاشم من أقارب النبي صلى الله عليه وسـلم، ولكن الرافضة تتـبرأ منهم، ولا تخص إلا علياً وبعض ذريته، بعضهم وليس كلهم، فمثلاً: ابن الحنفية لا يجعلون له ولايـــة، وإن كـــان من ذرية علي، فعنـــدهم أن أهل بيته هم علي وولـــداه وذريتهما فقــط، أين نســاؤه؟! ألسن هن في بيوته صـلى الله عليه وسـلم؟! يقول الله تعالى: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ [الأحزاب:33]، فهـذه الـبيوت هي بيـوت النبي صـلى الله عليه وسـلم، وهو الـذي أنـزلهن فيهـا، والله تعـالى يقـول: لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ [الأحـزاب:53] فهل كـان له بيـوت خاصة ليس فيها أزواجه؟! لم يكن له إلا بيـوت أزواجـه، إذاً: فـبيت النـبي صـلى الله عليه وسلم وبيوته هي التي أنزل فيها نساءه، فنسـاؤه من أهل بيتـه، ولا ننكر أن فاطمة من أهل بيتــه، ولا ننكر أن ابنته زينب امــرأة أبي العــاص من أهل

بيته، فهي ابنته ولها ذرية، ولا ننكر أن رقية و أم كلثوم اللتين تزوجهما عثمـان من أهل بيته، فهما بنتاه، ولكن لا تعترف الرافضة إلا بـفاطمة فقط وأولادهـا، أليس هذا هو الغلط؟! أليس هـذا هو الخطـأ؟! نقـول بعد ذلـك: حق الصـحابة وأمهات المؤمـنين على جميع المؤمـنين الترضي عنهم، ومحبتهم، والاعـتراف بحقهم، والاعتراف بفضلهم، ونقول: إن من أحب الصـحابة ومن أحب أمهـات المؤمنين فهو -كما يقول الشارح:- بريء من النفاق، ومن أبغضــهم ففي قلبه نفاق.

قصة عبد الله بن سبأ اليهودي

ساق الشارح رحمه الله قصة ابن السـوداء الـذي هو عبد الله بن سـبأ، فـذكر أنه أظهر محبة علي في أول الأمــر، وأظهر نصــرته، وهو منــافق، دخل في الإســلام متســتراً لأجل أن يفسد على المســلمين دينهم، بل وليفسد على المسلمين عقولهم، وكان يهوديــاً، ولما رأى الإسـلام انتشر وتمكن غاظه ذلك أشد الغيــظ، فعند ذلك فكر في حيلة يفسد بها على المســلمين عبــادتهم وديانتهم، فـأظهر التنسـك، وأظهر التعبـد، وأظهر التـدين، وأظهر الصـلاح، ثم أظهر محبة علي أول الأمـر، وأظهر الثـأر لـه، وسـعى في الفتنة الـتي حصل بسببها قتل عثمان رضي الله عنه، فهو الذي أثار أولئك الثـوار أو كثـيراً منهم، وهو الذي نشر مسـاوئ لــعثمان وأنه فعل وفعـل، فجمع جموعـاً من العـراق وغيره، وسار مع الذين ساروا إلى أن حاصروا عثمان، وكانت النهاية أن قتـل، ولما بويع علي رضي الله عنه أظهر أولاً موالاتـــــه، ثم بعد ذلك فكر في أن يفسد على أوليائه دينهم، فقال: إن علياً هو ربكم، إن علياً هو اللـه، فلمـاذا لا تعبدونه؟ اعبدوه كما تعبدون الله، وما قصده بـذلك إلا أن يفسد عليهم دينهم، فصدقه خلق كثير من السبئية، ولما خرج علي مرةً سـجدوا لـه، وقـالوا: أنت إلهنا، أنت ربنا. تعالى الله! فأنكر عليهم علي وقال: توبوا، أنا ابن امــرأة تأكل القديد، أنا مولود وسوف أموت، كيف تجعلوني رباً؟! فقالوا: أنت إلهنا، فمـاذا فعل بهم؟ أحرقهم، خد لهم أخاديد، وجعل يستتيبهم فلا يقبلون ولا يتوبون، بل تمسكوا بمقالتهم، وقالوا: الآن عرفنا أنك الرب؛ لأنك تعذب بالنـار، ولا يعـذب بالنار إلا رب النار، فالآن عرفنا أنك إله، فصبروا على أن يحـرقهم، وهو حـرق مستمر إن شاء الله من نار الدنيا إلى نار الآخرة، وكـان يحـرقهم ويقـول: لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبراً و قنبر هو غلام له، فصـاروا يدعونه وهو يحرقهم ويقذفهم في النـار واحـداً واحـداً، فهـؤلاء أول الغلاة، ولا يزال لهم ورثة يدعون أن علياً هو الله، حتى يقول قـائلهم: أشـهد أن لا إله إلا حيدرة الأنزع البطين حيدرة أي: علي، فيعني: لا إله إلا علي، تعالى الله! فمن إله الناس قبل علي ؟! من إله الناس بعد علي ؟! ولكنهم لا يعقلون. ......

الباطنية هم ورثة ابن سبأ

توجد فرقة يقال لهم: الباطنية، ويسمون أيضاً: القرامطة، ولهم ثمانية أسـماء مذكورة في بعض الكتب، وقد تكلم عليها ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس وغيره، وأشهرها الباطنية؛ لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، يقول العلمـاء في وصـفهم: ظـاهرهم الـرفض، وبـاطنهم الكفر المحض، والحقيقة أنهم لا دين لهم، دخلـوا في الإسـلام تسـتراً، وحيلتهم أن يفسـدوا عقائد النـاس، وقد ذكر الشارح مبدأهم، وأنهم قاموا على هذه العقيدة الفاسدة، وعقيدتهم لا نتطـرق لها، فهي طويلة يكثر الكلام فيها، وقد ذكر الشـارح فعلهم الـذي يقتنصـون به الناس، ويصطادون به الجهلة، وقد ظهروا في آخر القرن الثالث، ولما تمكنـوا رأوا أن أهل العراق وأهل خراسان -إيران وما اتصل بهـا- قد تمكن فيهم حب أهل البيت، فقالوا: نقتنصهم بهذه الحيلة، فندعوهم إلى حب أهل البيت، وكان ذلك بعد مـوت الحسن العسـكري الـذي هو آخر أئمتهم الأحيـاء، وهو الـذي يدعون أن ولده محمد بن الحسن دخل السرداب، فصاروا يقولـون: نحن نـذر بين يدي المهدي، و المهدي سيخرج قريبـاً، فبايعونا على ما نحن عليـه، وكـان من أشهر رؤسائهم وقادتهم رجل يقال له: ابن بيطان وكان من دعاتهم، وكان منزله في المنطقة الشرقية في القطيف، فـالقطيف معـدن كفر منذ القـدم، فـاجتمع عليه خلق كثـير، وذكـروا أنه خـرج مـرة من العـراق متوجهـاً إلى القطيف، وفي أثناء الطريق رأى رجلاً يسوق له حمـراً، فقـال لـه: إنـني أدعو إلى نصرة المهدي، وأدعو إلى أمر، يكون فيه النصر، وكان ذلك الرجل جـاهلاً وهو حمدان قرمط ، فانخدع بـابن بيطـان ، وقـال: أنا أتقبل منـك، وأنا الـذي أنصـرك، وأنا الـذي أواليـك، فـأفش إلي كل ما تريـد، فصـار حمـدان هـذا من أنصاره، وكثر أتباعه، وصارت النسبة إليه أكثر، حتى سموا قرامطة نسبة إلى حمدان هذا، فكثروا وتمكنوا، واستولوا على هذه المنطقة الشـرقية، حـتى أن الخليفة العباسي أرسل إلى أميرهم يخوفه ويقول لـه: لا تخـرج عن الطاعـة، فقال: إن عندي أكثر من مائة ألف يفدوني بأنفسـهم، لو أمـرت أحـدهم بقتل نفسه لم يعصني، ثم قال لأحـدهم: قم فـألق نفسك من هـذا الجـدار الرفيـع، فقام ذلك المسكين وألقى نفسه على أم رأسه، فسـقط على البلاط فمـات، فقـال: عنـدي مائة ألف كلهم يفـدوني كما فـداني هـذا، وكلهم في طـاعتي، أتظن أني أخافك يا خليفة العباسـيين؟! وقـويت شـوكته، وعظم أمـره. ومن أخبار هؤلاء القرامطة الباطنية حادثتهم الشنيعة، التي هي أشـنع الأمـور، وهي قتلهم الحجـاج في الحـرم المكي سـنة ثلاثمائة وسـبعة عشـر، كـان الحجـاج محرمين في يوم التروية يطوفـون فلم يشـعروا إلا وقد سـلّ ذلك القـرمطي وأصحابه سيوفهم عليهم، وأخـذوا يقتلـون الحجـاج قتلاً ذريعـاً، فجعل الحجـاج يلوذون بالكعبة، ويتعلقـون بأسـتارها، وجعل يقتلهم، ولا يبـالي بهم، حـتى قتل من شـاء منهم، وقـذفهم في بـئر زمـزم حـتى امتلأت من القتلى، وامتلأت الساحة من القتلى، وكان من أمره أن خلع كسوة البيت، وفرقها بين أصحابه،

وأصعد رجلاً ليقلع ميزاب الكعبة، ولكن ذلك الرجل الذي صعد ليقلعها سـقط على أم رأسه فمات إلى النار، فخاف الملعون أن تكون هنـاك عقوبـة، ولكنه قلع الحجر الأسـود، وخـرج هاربـاً بمن معه ومعه الحجر الأسـود، بعد أن فشا القتل في الحجاج، وبقي الحجر عندهم اثـنين وعشـرين سـنة، إلى أن رد في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة بعد أن ضعفت شوكتهم وهددوا.

تأثر الرافضة بابن سبأ اليهودي

ورث الرافضة القرامطة الباطنيـة، الـذين ظـاهرهم الـرفض، وبـاطنهم الكفر المحض، فكيف يوثق بمثل هـؤلاء، ويـدعى أنهم إخـوان لنـا، وأنهم من أهل الإسلام، ومن أهل الولاية، وهذه سوابقهم وهذه أحوالهم؟!! وتعرفـون أن من مبادئهم التقية، وهي أنهم يلعنون الرافضة ويلعنون الشيعة أمـام أهل السـنة، ويترضون عن الصحابة في ظاهر أمرهم، ولكنهم كالـذين قـال الله فيهم: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَـوْا إِلَى شَـيَاطِينِهِمْ قَـالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْـتَهْزِئُونَ [البقـرة:14] تعـالى الله عن قـولهم، كـأنهم يسـتهزئون بالله ويستهزئون بالمسلمين، فهـذه مقالة هـؤلاء، فكيف يوثق بهم؟! وقد عرفنا أن من أحب الصـحابة رضي الله عنهم وأحب أمهـات المؤمـنين ووالاهم وسـار على نهجهم فهو إن شاء الله بريء من النفـاق؛ وذلك لأن محبتهم تحمل على اتباعهم، وتحمل على العمل بسـنتهم وبنقلهم وبما جـاء عنهم، أما بغضـهم، أو بغض أحد منهم، أو تهمتهم بأنهم خانوا، أو أنهم كـذبوا؛ فهـذا سـوء ظن باللـه، وادعاء أنه ما حفظ كتابه، وما حفظ دينه، وتكـذيب لقـول الله تعـالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـافِظُونَ [الحجـر:9]، فلينتبه لمثل هـذا، وليعلم أن محبة الصحابة رضي الله عنهم براءة من النفاق، فقد ثبت أن النبي صـلى الله عليه وسلم قال في حق الأنصار: (لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منـافق)، وإذا كان هذا في حق الأنصار، فالمهـاجرون بطريق الأولى، لا يحبهم إلا مـؤمن ولا يبغضهم إلا منافق. ونحن نحب أهل البيت، ونحب علياً رضي الله عنه وزوجته وأولاده، ونـبرأ إلى الله ممن كفـرهم أو ضـللهم، نحبهم ونشـهد الله على محبتهم، فبمـاذا تطعنـون علينا يا معشر الرافضـة؟! نحن نحبهم أشد من محبتكم لهم، فلو قلتم: إن من أحب علياً لزمه أن يبغض أبا بكر، قلنا: كذبتم، أبو بكر هو صديق علي وحبيبه، وقد سمعنا ما نقل الشارح رحمه الله أن علياً رضي الله عنه كـان يـؤدب من فضـله على أبي بكر وعمـر، ووالله! لو خـرج علي لأدب هـؤلاء الرافضة الـذين يشـتمون أبا بكر وعمر ، ويشـتمون أجلاء الصحابة، ولنكل بهم، ولكنهم قوم لا يعقلون.

من عقائد أهل السنة سلامة صدورهم للصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمة، ويعذرون من أخطأ في المسائل الاجتهادية ويعتقدون أن له أجراً على اجتهاده، بخلاف الرافضة المخالفين للعقل والنقل في كل مسالكهم.

لا يبغض الصحابة إلا منافق

نسأل الله أن يرزقنا تحقيق الإيمان به، والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم وما جاء عنه، ونعوذ بالله من الشقاق، ونعوذ بالله من النفاق، ونعوذ بالله من سيئ الأخلاق، ورد عن بعض السلف أنه قال في النفاق: ما أمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن. من علامات الإيمان محبة الصحابة، ومن علامات النفاق بغض الصحابة، ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الأنصار: (لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق)، وورد أن علياً رضي الله عنه قال: (عهد إلي النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق)، ويقال كذلك في بقية الصحابة جميعاً، فحبهم إيمان، وبغضهم نفاق، كما ذكر ذلك الطحاوي رحمه الله. ذكر الشارح أن أول من دعا إلى مذهب الرافضة رجل من المنافقين يقال له ابن السوداء عبد الله بن سبأ ، وهو يهودي دخل في الإسلام متستراً، وأراد أن يفسد على المسلمين عقيدتهم ودينهم، وقلده -مع الأسف- هؤلاء الرافضة، الذين سموا أنفسهم شيعة، فهم أتباع ذلك المنافق، وسيرته مشهورة، وقد ذكر بعضها الشارح رحمه الله، وتوسع المؤرخون في ذكر نفاقه وما دعا إليه. ......

نفاق الباطنية الذين يظهرون الرفض ويبطنون الكفر

ورث الرافضة والسبئية من هم أشد كفراً ونفاقاً، وهم الباطنية أو القرامطة، فرقة ظهرت في آخر القرن الثالث، وتمكنت في أول القرن الرابع، وظهر لهم فساد كبير، ومقالات شنيعة، يقول فيهم بعض السلف: ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض. ويذكرون أن الذي حملهم على الدخول في الإسلام إخراج الأمة من عقيدتها وإفساد عقيدتها من الإيمان بالله والإيمان بالبعث وما أشبه ذلك، وعقائدهم كفرية، وقد تمكنوا مع الأسف في آخر القرن الثالث، في حدود سنة مائتين وسبعين إلى حدود سنة ثلاثمائة وثلاثين، فتمكنوا من البحرين والأحساء والقطيف والخليج كله، ووصلوا إلى حدود العراق، وأغاروا على العراق مراراً، وقتلوا وسبوا، وفي سنة ثلاثمائة وسبعة عشر قتلوا الحجاج، وقلعوا الحجر الأسود، وبقي عندهم إلى أن ضعف أمرهم في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، ولا شك أنهم كفرة فجرة، فكيف تمكنوا؟ رأوا أن أهل العراق وأهل إيران وأهل تلك البلاد قد تمكن من قلوبهم حب علي

وأهل بيته، فقد كانوا على مذهب الرافضة، فدخلوا عليهم من هذا الجانب، وبدءوا بادعاء أنهم رسل للمهدي المنتظر، الذي هو عند الرافضة محمد بن الحسن العسكري ، الذي دخل سرداب سامراء، ولا يزالون ينتظرونه، فهؤلاء القرامطة ادعوا أنهم رسله، وأنهم كمقدمة بين يديه، وأنه سيخرج قريباً، فقالوا: نحن نؤلف من يكون عوناً له، حتى إذا خرج يكون له أعواناً، حتى يقضي على الدولة العباسية، وعلى دولة كذا وكذا، حتى لا يبقى أحد ضده، هذا تفكيرهم، فانخدع بهم خلق كثير، وفعلوا الأفاعيل، وظهر للناس فسقهم وكفرهم، فذكر المؤرخون أنهم حجوا مرة، ولما كانوا في أثناء الطريق على حدود الضريبة التي هي محرم ميقات أهل العراق أو قبل ذلك بقليل؛ اتفقوا بحجاج العراق، فقتلوا الحجاج، وكان أميرهم من بني العباس، ولم يبقوا منهم إلا من شذ، قتلوهم وأخذوا ما معهم من النساء والرواحل، وهرب من سلم منهم، والذين هربوا راجلين مات أغلبهم ظمأً وجهداً، فهذه من أفعال هؤلاء المنافقين الباطنية الذين ورثتهم في القطيف وما حوله، وقد سماهم أهل السنة بالباطنية؛ لأنهم يبطنون الكفر، ويظهرون أنهم يحبون أهل البيت، وأنهم يوالونهم، وأنهم أتباع علي ، يقولون لدعاتهم: ادعوا الناس إلى محبة الآل، ادعوهم إلى محبة أهل البيت، ادعوهم إلى محبة آل المصطفى، فإذا أجابوكم فقولوا لهم: لا نقبل منكم حتى تتبرءوا من بني العباس، وحتى تتبرءوا من الخلفاء، وحتى تتبرءوا من الصحابة، وحتى تتبرءوا من بني أمية، ومن كذا ومن كذا، فإذا تبرءوا منهم، واعتقدوا كفرهم وخروجهم من الملة، عند ذلك يقدحون أيضاً في إمامهم الذي يتبعونه وهو علي ، ويذكرون لهم عيوبه ومثالبه، وما نقم عليه، فعند ذلك يبقون مذبذبين، لا إلى المؤمنين ولا إلى الشيعة، لا سنيين ولا شيعة، فيكونون منهم، يبطنون ما يبطنون، فغروا الخلق الكثير بهذه الحيلة.

من مبادئ الرافضة النفاق ويسمونه: التقية

نحلة الشيعة مبناها على النفاق، وقد اشتهر أن الرافضة من مبادئهم النفاق الذي يسمونه التقية، ويقولون: من لا تقية له لا دين له، فتجدهم يتبرءون من الرفض، ويشتمون الرافضة إذا كانوا مع أهل السنة، فيقولون: كيف تزعمون أننا نبغض الصحابة؟! بل نحن نحبهم، نحب أبا بكر ، ونحب عمر ، والرسول تزوج بنت أبي بكر ، وتزوج بنت عمر ، ولكن يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ [البقرة:14]، أليس هذا هو النفاق؟! وقد اشتهر هذا عنهم. كلمتُ أنا كثيراً من شيعة البحرين فقلت لهم: إنكم تسبون الصحابة، ولكن تبرءوا، وقالوا: لا نقول بذلك، وأخذوا يترضون عن الشيخين،

ويقولون: أليس كذا وكذا؟ ولكن عندما جاءهم بعض من أخفى نفسه، وشتم في ظاهر الأمر الشيخين، وافقوه على ذلك، وأخذوا يذكرون مثالب وعيوب الصحابة رضي الله عنهم، إذاً: هذا هو النفاق، فالذين يحبون الصحابة من قلوبهم بريئون من النفاق، والذين يبغضونهم أو يبغضون أحداً منهم لم يسلموا من النفاق.

محبة أهل السنة لعلماء السلف

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين، أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل. قال الله تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [النساء:115]، فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن، خصوصاً الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم؛ إذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول من أمته، والمحيون لما مات من سنته، فبهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وكلهم متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد له في تركه من عذر، وجماع الأعذار ثلاثة أصناف: أحدها: عدم اعتقاده أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله. الثاني: عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول. والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ. فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق، وتبليغ ما أرسل به الرسول صلى الله عليه وسلم إلينا، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا، فرضي الله عنهم وأرضاهم: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [الحشر:10]]. هذا الكلام يتعلق بأئمة المسلمين، وعلماء الدين، وعباد الأمة، وهداتها، الذين هداهم الله، وسددهم، وأرشدهم، وبصرهم بالحق، الذين ورثوا النبوة، وحملوا العلم، ونقلوه عمن قبلهم، ولقنوه وعلموه لمن بعدهم، قولاً وعملاً. ......

فضل أهل القرون الأولى

قد شهد النبي صلى الله عليه وسلم لسلف الأمة بالخير وبالفضل فقال: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)، وروي عنه أنه قال لأصحابه: (أنتم خير من أبنائكم، وأبناؤكم خير من أبنائهم)، فهذه شهادة من النبي صلى الله عليه وسلم لصدر هذه الأمة بالخير، ولا شك أنهم يتفاوتون؛ وذلك لأن فيهم العلماء، وفيهم العباد، ولا شك أن العلماء أفضل من العباد، ففي حديث أبي الدرداء المشهور أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب)، ويقول بعضهم: لعالم أشد على الشيطان من ألف عابد، فالعلماء هم ورثة الأنبياء، وعلماء هذه الأمة الذين تحملوا العلم، نشهد أنهم لم يكتموه، وأنهم عملوا به، وأنهم طبقوه، فمن الصحابة علماء أجلاء، عاملون بما قالوا، ومن تلامذتهم علماء مشهود لهم بالخير كالفقهاء السبعة الذين نظمهم بعض العلماء بقوله: إذا قيل من في الدين سبعة أبحر رواياتهم ليست عن العلم خارجة فقل: هم عبيد الله عروة قاسم سعيد أبو بكر سليمان خارجة الأول : عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ابن أخي عبد الله بن مسعود الصحابي. الثاني: عروة بن الزبير بن العوام خالته عائشة رضي الله عنها. الثالث: القاسم بن محمد بن أبي بكر عمته عائشة رضي الله عنها. الرابع: سعيد بن المسيب بن حزن العالم المشهور التابعي العابد، وهو من أفاضل قريش. الخامس: أبو بكر بن الحارث بن هشام من بني مخزوم من قريش. السادس: سليمان بن يسار مولى مملوك، ولكن منّ الله عليه بالعلم. السابع: خارجة بن زيد بن ثابت . هؤلاء من أجلاء علماء التابعين، ولهم من يروي عنهم، اشتهروا بالعلم، ثم اشتهر بعدهم من صغار التابعين من لهم مكانة في العلم ومكانة في الدين، فمن علماء المدينة: محمد بن مسلم الزهري المعروف بابن شهاب . وربيعة بن عبد الرحمن ويعرف بربيعة الرأي . ومن علماء مكة: عطاء بن أبي رباح مولى عتيق، ولكن منّ الله تعالى عليه بالعلم. وكذلك أيضاً في سائر البلاد، ورثهم أيضاً تلامذتهم، مثل: عبد الملك بن جريج و شعبة بن الحجاج و سفيان الثوري والأئمة الأربعة المشهورون، المشهود لهم بالإمامة: في العراق أبو حنيفة ، وفي المدينة مالك ، وفي بغداد الإمام أحمد ، وفي مكة ثم في مصر الإمام الشافعي ، وفي مصر أيضاً الإمام الليث بن سعد ، وفي الشام الإمام الأوزاعي، وأتباعهم وأشباههم. فنقول: إن هؤلاء الأئمة في الدين، لا يقدح فيهم إلا من هو ضال مضل، وقد شهد لهم أتباعهم، وكذلك شهدت لهم الأمة، بأنهم علماء هذه الأمة، حملهم الله العلم، ولما تحملوه لم يبدلوا ولم يبتدعوا ولم يغيروا، بل كانوا على السنة، محاربين للبدعة، كلما ظهرت بدعة أنكروها، وأنكروا على أهلها، وشنعوا بهم وحاربوهم وطردوهم، والبدعة في زمانهم مندحرة.

مذهب السلف في العقيدة واحد

ابن المبارك عـالم من علمـاء خراسـان، وكـان في الـري المعـروف الآن في إيران، قيل له: بماذا نعرف ربنا؟ فقال: بأنه على عرشه، فوق سماواته، بـائن من خلقه. ولا شك أن هـذا تصـريح بعقيـدة أهل السـنة في زمانـه، ورداً على المبتدعــة، لأنه ظهر في زمانه كثــير من المبتــدعين، مثــل: بشر بن غيــاث المريسي و محمد بن شـجاع الثلجي و أحمد بن أبي دؤاد المبتـدع المشـهور، وأشــباههم، فخــافوا على الأمة أن يقلــدوهم، أو يكونــوا مثلهم في الضــلال؛ فأظهروا السنة، وأظهروا الأحـاديث، وأظهـروا الاسـتدلال بهـا، وبينـوا المعتقد السليم الصحيح، حتى لا يبقى لمسلم شبهة يتبع بها هـؤلاء المبتدعـة، وأكـثروا من الرواية للأحـاديث الـتي تتعلق بالعقيـدة السـلفية السـليمة الصـحيحة؛ لئلا ينخدع بعض من يموّه له أولئك المبتدعة بأنهم على حق وعلى صواب، فهـدى الله بهم من أراد هدايتـه، وسـلمت عقيـدتهم وعقيـدة أتبـاعهم، فـأقوالهم في العقائد واحـدة، فهم متفقـون في العقيـدة، لم يتنـوع مـذهبهم فيهـا، لا يقـال: مذهب أحمد في العقيدة كذا، ومذهب أبي حنيفة كذا، ولما كتب شيخ الإسلام ابن تيمية عقيدته الواســطية، وحصل جــــدال فيها مع أهل زمانــــه، وكــــان الســلطان حاضــراً المنــاظرة بينهم، فــأراد أن يفصل بينهم فقــال: إنه على مذهب أحمد، ومذهب أحمد معتبر ومعـترف بـه، فـاتركوه على مذهبـه، وأنتم على مذهب أئمتكم شافعية أو حنفية أو نحو ذلك، فقـال شـيخ الإسـلام رحمه الله: معاذ الله أن يكون للإمام أحمد مذهب خاص في باب العقيـدة، بل هــذه العقيدة مذهب الأئمة كلهم، ثم صنف رسالة أخرى تسـمى الفتـوى الحمويـة، وتوسع فيهـــــا، وذكر أنها قــــول الأئمة كلهم، فنقل عن أبي حنيفة من كتابه (الفقه الأكبر) الموجود الآن، ونقل عن الشافعي ، ونقل عن مالك ، ونقل عن الليث ، ونقل عن الثــــوري ، ونقل عن ابن عيينة ، ونقل عن ابن أبي ذئب ، ونقل عن الأوزاعي ، ونقل عن فلان وفلان من أئمة الســــلف، ثم نقل عن أتباعهم؛ فـبين أنهم متفقـون في بـاب العقيـدة، لا يوجد بينهم أي اختلاف، أما المـذاهب الـتي تفـاوتت، فإنما هي في الفـروع الاجتهاديـة، الفـروع الـتي هي الأعمال.

ذم التعصب للأئمة في المسائل الاجتهادية

هناك أتبـاع للأئمة في الفـروع اجتهـدوا كما اجتهد الشـافعي واتبعـوه، وهنـاك أتبـاع لــأبي حنيفة اتبعـوه، وأتبـاع لــمالك اتبعـوه، وأتبـاع للأوزاعي ، وأتبـاع للثوري ، وأتباع لليث ، وأشباههم، ولكن هذا فيما يتعلق بالفروع الـتي طريقها الاجتهاد، وإذا قلت: لماذا حصل التفـاوت؟ ولمـاذا حصل التمـذهب، حـتى أدى

ذلك إلى التعصب، فنحن نـرى أن الحنفية يتعصـبون لمـذهبهم، وأن الشـافعية كذلك، وكذا الحنابلة والمالكية ونحوهم؟ فلماذا هذا التعصب وهـذا التمـذهب؟ أليس الدليل واحداً؟ أليس القصد والهدف واحداً؟ نقـول: نعم، الهـدف واحـد، ولكن هذه الأشـياء حـدثت بسـبب الاجتهـاد، فهـؤلاء اختـاروا قـولاً، وصـار لهم مشـايخ، ولهم كتب يرجعـون إليهـا، فصـار بعضـهم يتمحل في رد الأدلة الـتي يستدل بها خصومهم، ويتعصب لمذهبه ومذهب إمامـه، ونحن ننكر عليهم هـذا التعصب، ورد الأحاديث التي هي صريحة في مخالفة مـذهبهم، وهـذا التعصب حدث للمتأخرين، ولعل بعضكم قرأ في كتـاب الـبيهقي السـنن الكـبرى الـتي طبع في ذيلها رد عليها اســـمه: الجـــوهر النقي في الـــرد على الـــبيهقي ، فـالبيهقي رحمه الله عالم جليل محدث حافظ، ولكنه شـافعي المـذهب، فـإذا جاء إلى المسألة التي فيها المذهب الشافعي اسـتوفى الأحـاديث الـتي فيهـا، ولا يزيد على الاستيفاء، وإذا خالفه مـذهب أبي حنيفة ، فـإن صـاحب الجـوهر النقي يتعصب تعصباً شديداً، ويرد تلك الأحاديث، ونحن نعـذر الإمـام أبا حنيفة في مخالفته لتلك الأحاديث أو تلك الأدلـة، ونقـول: إما أنها لم تبلغـه، وإما أنها لم تثبت عنده لما بلغته، ولم يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم قالها، وإما أنها بلغته ولكن ثبت عنـــده ما ينســخها أو ما يخالفهــا، وإن لم يثبت ذلك عند غيره، فهو معذور، ولكن لا يعذر أتباعه الذين تعصبوا له، وتشـددوا في نصـرة مذهبــه، بل ردوا الأحـاديث كما فعله صـاحب الجـوهر النقي هـذا، وهـو: ابن التركماني ، وهو متأخر في حدود القرن الثـامن. أما المقتصـدون منهم فـإنهم لا يتعصبون، فمثلاً صاحب نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية حنفي يقـال لـه: الـزيلعي ، وهو عـالم بالحـديث منصـف، يـذكر أحـاديثهم الـتي تـدل على مـذهب الحنفيـة، ثم يـذكر أحـاديث من خـالفهم، ولا يتشـدد في ردها ولا في تعقبها، وهذا بلا شك من الإنصـاف. وبكل حـال نقـول: إن الأئمة والعلمـاء من هذه الأمة هم خير هذه الأمة، وفضلهم ظـاهر؛ وذلك لأنهم حفظـوا على الأمة دينهــا، ومن نصــحهم للأمة أنهم دونــوا ما حفظــوه وكتبــوه، فكتبــوا فقههم وأحكامهم، وكتبـوا الأحـاديث الـتي بلغتهم، وبينـوا وجهتهم واجتهـاداتهم، وذلك كله نصح وشفقة للأمة، فرضي الله عنهم وجـزاهم عن هـذه الأمة خـيراً، فهم أفضل هذه الأمة، فأفضل هذه الأمة علماؤها، وقد ذكر الله عن الأمم السابقة أن علماءهم فيهم المخالفة الشديدة، فقال تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَـارَهُمْ وَرُهْبَـانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ [التوبـة:31] الرهبـان: هم العبـاد، والأحبـار: هم العلمـاء، ويقول الله تعالى في أهل الكتاب: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِـنَتَهُمْ بِالْكِتَـابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُـوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُـونَ عَلَى اللَّهِ الْكَـذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُـونَ [آل عمـران:78] فـذمهم بـأنهم يكـذبون ويتقولـون، وذمهم بـأنهم يحرفـون الكلم عن مواضـعه، وأنهم كتمـوا ما أنـزل اللـه، وذمهم بقوله تعـالى: وَإِذْ أَخَـذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْـتَرَوْا بِـهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْـتَرُونَ [آل عمـران:187]، أما هـذه الأمة فـإن علماءها نصـحوا لأتباعهم، ونصحوا للأمـة، وبينـوا لهم طـرق الصـواب، فجـزاهم الله عن الأمة خيراً، ونحن نقول كما أمرنا الله: وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْـدِهِمْ يَقُولُـونَ رَبَّنَا اغْفِـرْ

لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا [الحشر:10].

الرد على من فضل الأولياء على الأنبياء

قال الشارح رحمه الله: [قوله: (ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء). يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الاتحادية وجهلة المتصوفة، وإلا فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشرع، فقد أوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ.. [النساء:64] إلى أن قال: (..وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [النساء:65]، وقال تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [آل عمران:31]. قال أبو عثمان النيسابوري : من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. وقال بعضهم: ما ترك بعضهم شيئاً من السنة إلا لكبر في نفسه، والأمر كما قال؛ فإنه إذا لم يكن متبعاً للأمر الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعمل بإرادة نفسه فيكون متبعاً لهواه بغير هدى من الله، وهذا غش النفس، وهو من الكبر، فإنه شبيه بقول الذين قالوا: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعام:124]، وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياسته واجتهاده في العبادة وتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع لطريقتهم، ومنهم من يظن أنه قد صار أفضل من الأنبياء، ومنهم من يقول: إن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء، ويدعي لنفسه أنه خاتم الأولياء، ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون: وهو أن هذا الوجود المشهود واجب بنفسه ليس له صانع مباين له، لكن هذا يقول: هو الله، وفرعون أظهر الإنكار بالكلية، لكن كان فرعون في الباطن أعرف بالله منهم، فإنه كان مثبتاً للصانع، وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو الوجود الخالق كابن عربي وأمثاله، وهو لما رأى أن الشرع الظاهر لا سبيل إلى تغييره قال: النبوة ختمت لكن الولاية لم تختم! وادعى من الولاية ما هو أعظم من النبوة، وما يكون للأنبياء والمرسلين، وأن الأنبياء مستفيدون منها، كما قال: مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي وهذا قلب للشريعة، فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين، كما قال تعالى: أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يونس:62-63]، والنبوة أخص من الولاية، والرسالة أخص من النبوة، كما تقدم التنبيه على ذلك]. ......

هذا الكلام في الـرد على غلاة الصـوفية من الحلولية والاتحاديـة، وهم مبتدعة نشأ أولهم في آخر القرون المفضلة، ثم توسعوا وانتشروا وكثروا في أواسط القرون، وصار لهم مذاهب ونحل، ولا يزال لهم أتباع يـدعون إلى طـرقهم مع الأسـف، ويـدعون إلى مـذاهبهم، فمن مـذاهبهم طريقة النقشـبندية، وطريقة الشاذلية، وهي طرق مشتهرة، لها دعاة يدعون إليها، وهناك طـرق أخـرى لها أتباع، وأشهرها طريقة التيجانية، فهؤلاء مـاذا نسـميهم؟ هم يسـمون أنفسـهم صوفية، ولهم أتباع، فالذين رئيسـهم النقشـبندي ينتسـبون إليـه، وهكـذا أتبـاع الشاذلي ، وأتباع عبد القادر الجيلاني ، وأتباع الاتحادي ابن عربي ، وأشباههم، والكلام عليهم قد اســتوفاه الأئمة المتقــدمون والمتــأخرون، ومن أوسع من رأيته تكلم على طريقة الصوفية من المتقـدمين ابن الجـوزي في كتابه الـذي ســماه: تلــبيس إبليس، فإنه لما تكلم على الصــوفية جعل فيهم نحو نصف الكتـاب أو قريبـاً منـه، مع أن الكتـاب في ذم كل من عنـده بدعة أو نحلة في زمانه، ولكن حمل على الصوفية؛ ولعله حمل عليهم لكثرتهم في زمانه، وذكر أشياء كثيرة منتقدة من طرقهم، وفي زماننا كتب فيهم عالم مصري يقال له: عبد الرحمن الوكيل كتابين: الكتاب الأول بعنـوان: صـوفيات، والكتـاب الثـاني بعنوان: هذه هي الصوفية، وقد فضح مناهجهم وطرقهم، ولعله شاهد عبادتهم في بلاده، فـإنهم منتشــرون في مصر والسـودان، وفي أكـثر البلاد الإفريقية متمكنة طــرقهم، ولهم مبــادئ، ويمــدحون أنفســهم، ويمــدحون طــريقتهم، ويدعون أنهم الذين حفظوا الإسـلام، والـذين كـافحوا ونـافحوا عنـه، ويـدعون أنهم الذين قاموا به أتم قيام، ودعوا إليه وبلغـوه، وأنه هـدى الله بهم من أراد هدايته، وأنقذ بهم من أراد به خيراً، هكذا يعبرون، ومع الأسف قد انتشروا في هذه البلاد، فيوجدون بكثرة في الحجاز، ويوجدون في الشرقية، أما في وسط نجد فإنهم قلة والحمد لله، لكن لأولئك من يؤيـدهم ويتبعهم وإن لم يكن على نحلتهم. حـدثت الصـوفية في أول الأمر في نصف القـرن الثـاني، وكـثروا في القرن الثالث، ولكن الصوفية الذين في القرن الثاني والثالث لم يكن عنــدهم بدع، وسماهم السـلف رحمهم الله صـوفية؛ لأنهم رضـوا بالتخشن وبالتقشف وبالزهد، وصاروا يرتدون لباس الصـوف الخشـنة، أي: اللبـاس الـذي ينتج من صوف الضأن، فكانوا يلبسونه مع خشونته، كل ذلك من باب التقشف والزهد، واشتهر منهم علماء وعبّاد في صدر هذه الأمة، فمنهم: إبـراهيم الخـواص وهو عابد مشــهور متمســك، وإبــراهيم بن أدهم ، الــذي له حكايــات وله وقــائع مشـهورة، والجنيد بن محمد و بشر الحـافي و معـروف الكـرخي وأشـباههم، فهؤلاء كانوا يسـمون صـوفية في زمـانهم، ولكن ليسـوا على معتقد الصـوفية المتأخرين، بل هم زهاد، واسمهم في الأصل زهـاد وعبـاد، وهم مبتعـدون عن شهوات الدنيا وزينتهـا، مقبلـون على العبـادة، لا يريـدون الـدنيا، يقنعـون منها باليسير، ذكروا أن بعضهم سمي إبراهيم الخـواص ؛ لأنه كـان يأكل من كسب

يده، يتتبع ما يلقيه الناس من الخـوص، ثم ينسـجه ويـبيع منه بقـدر ما يقتاتـه، وبقية وقته للعبادة، فجلّ أوقاتهم عبادة، فهؤلاء ليسوا مذمومين، خلافاً لبعض المتـأخرين الـذين أدخلـوا كل من أطلق عليه صـوفي في الـذم، منهم علمـاء معتــبرون دخل عليهم شــيء من البــدع المتــأخرة، ولعلكم قــرأتم للحــارث المحاســبي شـيئاً من رسـائله الـتي تتعلق بالتصـوف ومحاسـبة النفس وما أشبهها، و الحارث هذا معه علم ومعه زهد، ولكن دخل عليه بسـبب قلة علمه شيء من بدع المتصوفة ونحوهم، فصـار معه بـدع، ولكن لم تصل بدعته إلى بدعة المتصوفة المتأخرين، فلأجل ذلك أنكر عليه بعض الأشياء، ولكنها قليلـة، وهو على طريقة الصوفية المتقدمين الذين هم أهل الزهد وأهل التقلـل. وفي آخر أو في وسط القــرن الثـالث ظهر منهم بعض المشـتهرين بالعبـادة مثل الشـبلي وهو عابد من العبـاد، وله أشـعار منقولة في الزهـديات، ولكن حفظ عليه بعض الأشـياء انتقـدت عليـه، ومنهم أبو يزيد البسـطامي وقد نقل عنه بعض الأشياء التي فيها شيء مما يفهم منه أنه على طريقة أهل الاتحـاد، فقد نقل عنه ابن الجوزي في تلبيس إبليس أشياء مستنكرة، منها أنه سُمع يقول: سبحاني سـبحاني ما أعظم شـاني ومنها أنه كـان مـرة يمشـي، فـالتفت إلى أناس وراءه فقال لهم: إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون! ومقالات نحو هـذه، وبعضهم حملها على أنه زاد به الوجدان فصار إلى هذه الحال، وتأولها بعضـهم بأنه يحكي عن الله، أو ما أشبه ذلـك، ولكن أكـثر من أنكر عليه رجل في آخر القرن الثالث يسمى الحسين الحلاج فيحكون عنه عجائب، ويحكون عنه وقائع عظيمة بشعة شنيعة وقد قتل في سنة ثلاثمائة وتسعة، ومن قـرأ ترجمته في تاريخ ابن كثير يرى عجائب مما نقل عنه، حيل كـان يحتـال بها ويـوهم النـاس أنه ولي، وأنه.. وأنه..، وأجمع أهل زمانه على أنه محكوم بكفره، فقتل لذلك، ولو أنكر قتله من أنكره. فهذا أساس مبدأ الصوفية.

أولياء الله هم كل مؤمن تقي، وقد تغير هذا المفهوم عند كثير من الناس، فجلعوا أولياء الله أناساً مخصوصين، وبنوا على قبورهم القباب، وغلوا فيهم، ومنهم من كان صالحاً، ومنهم من كان على غير سواء السبيل، كابن عربي الصوفي الحلولي الذي كفره كثير من العلماء.

منزلة أولياء الله

ذهب بعض المبتدعة إلى أن الأولياء أفضل من الأنبياء، سبحانك هذا بهتان عظيم، فالأولياء بم صاروا أولياء؟ ومتى نزل عليهم الوحي؟ الأولياء تولاهم الله وصاروا أولياءه عندما اتبعوا رسله، وأطاعوهم واتبعوا شريعته؛ فبذلك أصبحوا من أوليائه، فتولاهم الله، وتولى توفيقهم وحفظهم، قال تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ [البقرة:257] وليهم أي: حافظهم، وهو الرقيب عليهم، وهو الموفق لهم، وقال تعالى: أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [المجادلة:22] حزب الله هم جنده، وهم عباده الصالحون، وهم الذين يحبهم ويحبونه، الذين شهد لهم بولايته، واتباعهم لأمره، وتقبل شرعه، وعلى هذا فالناس قسمان: ولي لله، وعدو لله، لا يخرج الإنسان من هذين القسمين، ومن تولاه الله حفظه، ومن عادى ربه خلى بينه وبين أعدائه، فصار ولياً للشياطين تستهويه وتستحوذ عليه، وتغريه وتؤزه إلى الشر أزاً أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا [مريم:83] فمن لم يكن ولياً لله فهو ولي للشيطان، وعلى هذا المنوال وضع شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه المشهور الذي طبع عدة مرار واسمه: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وجعل هذا الكتاب في بيان أولياء الله وعلامتهم، وأولياء الشيطان وعلامتهم، وبيّن أن كل من آمن بالله واتقاه حق تقواه، وحقق الإيمان به، فهو ولي لله تعالى وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ [المائدة:56]، والله تعالى ذكر أن أولياءه هم المؤمنون المتقون، وذكر ثوابهم. فقال الله تعالى: أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [يونس:62-63]، لا تفسر ولاية الله إلا بما فسرها به الله سبحانه، فأولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، فكل من حقق الإيمان بالغيب من الإيمان بالله والإيمان بالبعث والإيمان بالحساب والجزاء والإيمان بالقدر خيره وشره والإيمان بالملائكة والكتب والرسل، والإيمان بكل ما أخبر الله تعالى به، وكذلك ظهرت عليه آثار هذا الإيمان من العمل والاستعداد، وكذلك حقق تقوى الله ومخافته ورجاءه، وعمل بطاعته؛ فإنه من أولياء الله، وأما من خالف ذلك ولم يطع أمر الله بل خالفه، وعاند وعصى، وطغى وبغى؛ فإنه من أولياء الشيطان. إذاً: أولياء الله هم كل المؤمنين، وكل المتقين، فكلهم أولياء لله، وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في

الحديث القدسي ولاية الله: (يقـول الله تعـالى: من عـادى لي وليـاً فقد آذنته بـالحرب)، فجعل ولي الله تعـالى هو الـذي يواليه ويتـولاه، ومن عـاداه فإنه حرب لله، وأي شخص يقوى على محاربة اللـه؟! وصـريح الحـديث: أن أوليـاء الله يتـولاهم ربهم وينصـرهم ويعـزهم ويحميهم على من خـالفهم، وعلى من خرج عليهم، وكذلك في القـرآن: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُـوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ [المائدة:55]، وإذا كـان الله ولينا فإننا أوليـاء اللـه، وإذا كـان الرسـول ولينا فنحن نتـولاه، وإذا كـان المؤمنـون أولياء بعضهم من بعض فإنهم أولياء الله، وقد ذكر الله تعـالى ولاية المؤمـنين بعضهم لبعض فقال تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [التوبة: 71] يعني: ينصر بعضـهم بعضـاً، ويؤيد بعضـهم بعضـاً، ويحمي بعضـهم بعضـاً، ويتناصرون فيما بينهم؛ وذلك لأنهم جميعاً أولياء اللـه، فكل منهم يتـولى الآخر وينصره، ويحرصون على اكتسـاب ولاية الله بهـذه الأمـور الـتي هي ولاية من تولاه الله، ومحبته ونصرته، والقـرب منـه، يقـول ابن عبـاس رضي الله عنهما في الأثر المشـــهور: من أحب في اللـــه، وأبغض في اللـــه، ووالى في اللـــه، وعادى في اللـه، فإنما تنـال ولاية الله بـذلك. من أراد أن ينـال ولاية الله وأن يكون من أولياء الله؛ فليحب أولياء الله وليوالهم وليقرب منهم، وليعـاد أعـداء الله وليقـاطعهم وليبتعد عنهم، وبـذلك ينـال العبد ولاية الله لـه، ويكـون من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ......

المؤمنون بعضهم أولياء بعض

المؤمنون بعضهم يتولى بعضاً، يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَـدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِـهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَـرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ [الأنفال:72]، هكذا أخـبر (بعضـهم أوليـاء بعض) كما أن الكفـار يتـولى بعضـهم بعضـاً، كما أخـبر الله في قوله تعـالى: وَالَّذِينَ كَفَـرُوا بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ [الأنفال:73] يعني: لا تتولوا أعداء الله، بل يكفيكم أن تكونوا جميعاً أولياء لله وأولياء لبعضكم، يكفيكم أن يتولاكم الله وأن تكونوا من أولياء الله. هـذه عقيـدتنا، ونرجو إن شـاء الله أن نتوفى على هذه العقيدة، وهي أن المسلمين والمؤمنين بعضهم أوليــاء بعض، وأن من تولى الله فإنه من أوليائنـا، وأن جميع من آمن واتقى فهو من أوليـاء الله. وقد ذهبت الصوفية إلى أن هناك أولياء خصيصون، فهم يسمون الأولياء، وأما بقية المؤمنين فلا يصـلون إلى درجة الولايـة، وجعلـوا الـذي سـموه وليـاً أرفع رتبة من النبي، وجعلوا النبي أرفع رتبةً من الرسول، وهذا مخالفة لشرع الله، ومر بنا في الشرح البيت الذي يستشهدون به، وهو قولهم: مقـام النبـوة في برزخ فويق الرسول ودون الـولي فجعلـوا النبـوة منزلة وسـطى، وجعلـوا الرسول المنزلة الدنيا، والولي المنزلة الرفيعة، فقالوا: إن الــولي هو الأعلى، ويليه النبي، وأنزل منه الرسول، فمقـام النبـوة جعلـوه في الوسـط: .. فويق الرسول ودون الولي هكـذا مثلـوا، وفضـلوا كثـيراً ممن سـموهم أوليـاء على

جميع الرسـل، وفضـلوهم على الأنبيـاء، وقـالوا: إن الـولي غـني عن الشـرع، وغني عن القـرآن، وغـني عن هـذا الـدين، لمـاذا؟ لأن له ولاية رقته إلى رتبة عالية، فأصبح يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يـنزل على الأنبيـاء والرسـل، وروح هـذا الـولي عنـدهم تتصل بـالملأ الأعلى، وتطلع على اللـوح المحفوظ، وتأخذ منه المعلومات، وتنال منه مرادها، ويستغني الولي عن هـذا الشرع، وعن هـذا القـرآن، وعن هـذه العبـادات كلهـا؛ ولأجل ذلك جعلـوه في رتبة عالية، وقالوا: إنه يأخذ بسره أو بسريرته، وأنه يحدثه قلبه عن ربه، يقول بعض الأوليـاء: حـدثني قلـبي عن ربي، ويسـمون ذلك مكاشـفة أو باطنـاً من البواطن التي لا يطلعون عليها غـيرهم. قـال ابن القيم في إغاثة اللهفـان: إن قلت قـال الله قـال رسـوله همـزوك همز المنكر المتغـالي أو قلت قد قـال الصحابة والأولى تبعـوهم في القـول والأفعـال أو قلت قـال الشـافعي ومالك وأبو حنيفة والإمـام العـالي أو قلت قـال صـحابهم من بعـدهم فالكل عنـدهم كشبه خيال لا يعتبرون بـذلك كلـه، ويقـول: قلـبي قـال لي عن سـره عن سر سري عن صفا أحوالي عن حضرتي عن فطرتي عن خلوتي عن شـاهدي عن وافـدي عن حـالي عن صـفو وقـتي عن حقيقة مشـهدي عن سر ذاتي عن صفات فعالي دعوى إذا حققتها ألفيتها ألقـاب زور لفقت بمحـال نبـذوا كتـاب الله خلف ظهورهم نبذ المسافر فضلة الآكال هذه الاصـطلاحات الـتي اتفقـوا عليها يدعون أنهم تفوقوا بها على المسلمين وعلى الإسـلام وعلى أوليـاء الله المؤمـنين من الصـحابة والتـابعين ونحـوهم، ويسـتغنون بها في زعمهم عن الشرع الشريف وعن أهله، وقد حدث من آثار ذلك أنهم عظموا هـؤلاء الـذين ادعوا أنهم أوليـاء أو ادعـوا لهم الولايـة، وعبـدوهم من دون اللـه، فما عبـدت القبور إلا بالغلو في الصالحين، فإن الشيطان صار يزين لهم أن هذا ولي، وقد سقطت عنه التكاليف، وأنه لا حـرج عليه فيما يفعـل، وأنه قد ارتقى قلبه إلى ربه، وأنه مسـتغن عن الشـرع وعن أهل الشـرع، فـالسيد البـدوي المشـهور بطنطا في مصر إلى الآن يعتقدون أنه لا يدخل مصر أحد إلا من بعد أن يـأذن له السـيد البـدوي ، فهو الـذي يتصـرف في الكـون كلـه، وعنـدهم أنه مالك الملـك، تعـالى الله عن قـولهم، فلأجل ذلك لا ينكـرون عليه تـرك العبـادة، سمعت من بعض المشايخ يقول: إنه عـرف أنه دخل مـرة المسـجد، والنـاس في الصلاة، فبال في المسجد وخـرج ولم يصـل، فسـمعوه وقـالوا: مجـذوب مجذوب، قلبه عند ربه، وجعلوا يتمسحون بـه! وأمثاله كثـير، ولا يكـون عليهم أي حـرج، ويسـمونهم الأوليـاء، وأنهم لا حـرج عليهم في أي شـيء، كما قـال الصـنعاني رحمه اللـه: كقـوم عـراة في ذرى مصر ما تـرى على عـورة منهم هنـاك ثيـاب يعـدونهم في مصـرهم من خيـارهم دعـاؤهم فيما يـرون مجـاب يمشون عراة، ويقولـون: لا حـرج عليهم، قلـوبهم في الملأ الأعلى، يشـتغلون عن الشـرع! هكـذا وصـلت الحـال بهم إلى أن أسـقطوا عنهم -بـزعمهم- التكـاليف، وإذا رأوا مجنونـاً من هـؤلاء المجـانين الـذين رفع القلم عنهم لفقد عقله، أخذوا يتمسحون به، وقالوا: هذا ولي من أولياء الله، وإذا مـات أحـدهم فشيّع، يزعمـون أن الملائكة تحملـه، وإذا جعلـوه فـوق السـرير على النعش، يخيل إليهم أنه قد ارتفع عن المناكب، وأنه يطير في الهواء على نعشـه، وكل

هـذا تخييل من الشـيطان، وهكـذا كل الـذين عبـدوا من دون اللـه، فـإنهم ما عبدوا إلا بسبب أن الجهلة غلوا فيهم، واعتقدوا فيهم أنهم أوليـاء لله من دون الناس.

انتشار قبور الأولياء قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

في هـذه الجزيـرة قبل دعـوة الشـيخ محمد بن عبد الوهـاب رحمه الله كـان هناك قبور يدّعون أنها قبور أولياء من أولياء اللـه، وقد ذكر منها الشـيخ محمد في رسالته كشف الشبهات قبر رجل اسمه شمسان ، ولم يـذكر تفصـيلاً عن حالتـه، وقـبر آخر يسـمى يوسف ، وآخر يسـمى تاجـاً ، ذكر هـؤلاء الثلاثة في كشف الشبهات، وكـذلك ذكـرهم مـولى علي بن مـولى عمـران في قصـيدته المشهورة التي يقول في مطلعها: جـاءت قصـيدتهم تـروح وتغتـدي في سب دين الهاشـــمي محمد إلى أن قـــال: الشـــيخ جاهد بعض أهل جهالة يـــدعون أصحاب القبور الهمد تاجاً وشمسـاناً وما ضـاهاهما من قبة أو تربة أو مشـهد جاءهم الشيطان وقال: هذا ولي من أولياء اللـه، فتـبركوا به ما دام حيـاً، وإذا مـات فاعبـدوه، فعبـدوه من دون اللـه، وكـثرت في ذلك المعبـودات من دون اللـه، وانتشـرت في كثـير من البلاد، ففي العـراق يـدعون ولاية عبد القـادر الجيلاني ، وهو عبد صالح وعالم من العلماء، إلا أنه لم يكن له صـنعة في علم الشريعة وفي علم الحديث، ولأجل ذلك لا يميز بين صحيح الحـديث وسـقيمه، ولعلكم قرأتم شيئاً من كتابه الذي يسمى: (الغنيــة) ففيه ما يـدل على أنه لم يكن متضـلعاً من علم السـنة، ولكن كـان من أهل السـلوك، وكـان من أهل التصوف، ومن أهل العبـادة، فلأجل ذلك غلـوا فيـه، وادعـوا أنه ولي، وصـاروا ينقلون عنه أشياء من خوارق العادات ليست صحيحة، بل هي مكذوبة مختلقة لا أصل لها من الصحة، فمن ذلك: ذكروا أن امرأة جاءت إليه وقالت: إن ابني مات وإنه وحيدي، وليس لي ابن غيره، فسلْ الله أن يحييـه، فقـال: سـأفعل، ثم إنه طـار في الهـواء، حـتى أدرك ملك المـوت وهو في السـماء، وقد قبض أرواحـــاً وجعلهم في زنبيـــل، فقـــال: رد روح هـــذا الميت، فلما لم يفعل أخذ الزنبيل، وأسـقط ما فيه من الأرواح، فحـيي كل من قبض في ذلك اليـوم من تلك الأرواح التي قبضها ملك الموت! وهذه خرافة من خرافـاتهم. ومن ذلـك: ذكـروا أنه أتي بكبش مشـوي أو مطبـوخ، فقـال: كلـوا ما عليه من اللحم، ولا تأخذوا عظامه، ولا تزيلوها، فلما أكلوا اللحم كله، قال: قم يا كبش بإذن اللـه، فقـام الكبش ينفض شـعره وجلـده كأنه لم يمت! وهـذه أيضـاً خرافة لا أصل لها. وكثر الكذب عليه من مثل هذه الأكاذيب، فادعوا أنه ولي من أولياء اللـــه، وأنه أفضل من الأنبيـــاء، وأن له العصـــمة، وأنه مســـتغن عن الشـــرع، وأنـــه.. وأنه.. . والذين ترجموا له من أولئك المخـرفين جعلـوه من غلاة الاتحاديـة، أو

من أهل وحدة الوجود، ولا شك أنه -إن شاء الله- بـريء من هـذا كلـه، بل هو عابد من العباد، ولكن لما ظهر على يديه شيء من الكرمات، ادعوا أنه وصل إلى هـذه الـدرجات، وولـدوا عليه هـذه الأكـاذيب، وكـان من نتيجتها أنه صـار معظماً يعبد مع اللـه، يعبد في أفريقيـا، ويعبد في بلاد الهند والسـند والعـراق والشام، وغالباً يـذكر عبد القـادر على الألسن كثـيراً، حـتى سـمعت رجلاً في يوم عرفة في حجة من الحجات يهتف: يا عبد القادر يا عبد القادر ، خذ بيدي، أنجني، اغفر لي، خذ بيدي من الهلاك، فنصـحته وقلت: ومن هو عبد القـادر ؟ فقال: السيد عبد القـادر الجيلاني ، هـذا ولي اللـه، هـذا الـذي يـدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ويملك أزمة الأمور، ويغفر لمن يشاء، ويعـذب من يشـاء، ويعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويخفض ويرفع، يمجده هذه التمجيـدات! فقلت لـه: ومن رب النـاس قبل عبد القـادر ؟ ولمـاذا عبد القـادر لم يـرد عن نفسه الموت؟ وأين الآن عبد القـادر حـتى نعـرف حالتـه؟ هو مخلـوق خلق من مـاء مهين، ثم تمتع وعــاش في الــدنيا كما تمتع غــيره، ولكن ذلك الشــخص أخذ يوبخـني ويقـول: أنت تسـقط قـدر أوليـاء اللـه، أنت لا تحب أوليـاء الله حقـاً، أوليــاء الله فيهم.. وفيهم.. ، وهم أحيــاء عند ربهم يرزقــون، وأشــباه ذلــك، وعرفت أنه لا حيلة فيه، فأخذت أقول له: أنا كفرت بـعبد القـادر ، كفـرت بك يا عبد القادر ، فابعث لي ما تشاء، فقبض على رأسه واعتقد أني سأموت في لحظتي! هكذا زين لهم الشـيطان، ولا شك أن الجهل هو الـذي أردى بهم إلى أن اعتقدوا هذا في هذه المعبودات في نظرهم. وفي اليمن ولي يقـال له ابن علون ، وهو مشهور أيضاً، وله قصص، وكـان من العلمـاء، لكن بعد موته جـاء الشـيطان وقـال: هـذا قـبر ابن علـون ، وهو ولي اللـه، فـالآن يـدعى في كل الأماكن، وإن كان في الزمن الأخير بعدما تفقهوا، وجاءتهم كتب أئمة الدعوة، تنبهوا وتركوا ذلك. وبكل حال فهذه الولاية الـتي أوقعها الشـيطان في قلـوب هــؤلاء، زين لهم أنها مرتبة راقية رفيعــة، انخــدع بها هــؤلاء حــتى عبــدوا المخلـوقين من دون اللـه. ويـذكر لنا كثـير من الإخـوان أنه هنـاك قبـور: في باكستان، وفي أفغانستان، وفي الهند والسند، بل وفي البلاد العربية: كمصــر، والعراق، وسوريا، ولبنـان، والسـودان، واليمن في جنوبه وشـماله، ولا حقيقة لتلك الأمور، حتى ذكروا أن بعضـهم مـات له حمـار، فدفنـه، ثم جـاء إلى أهل البلد وقال: هذا قبر ولي من أولياء الله، فقـالوا: من هـو؟ فسـمى لهم اسـماً مستعاراً، فعبد ذلك الحمار، وبني عليه، وجعلـوا يـأتون إليـه، ويتـبركون بتربته ويدعونــه! ولا شك أن هـذا من وسوسة الشـيطان حـتى أوصـلهم إلى هـذه الحال، ومع ذلك فإن هنـاك أشخاصـاً ادعيت فيهم الولايـة، وأنهم أوليـاء للـه، وهم ليسوا أولياء لله، بل أعداء اللـه، ومنهم ملاحـدة من أهل وحـدة الوجـود، وكم يـذكر في تـراجمهم من المبالغة والمـديح العظيم والثنـاء عليهم، كــابن عــربي الاتحـادي الـذي هو من أهل الوحـدة، وهو على طريقة الحلاج وغـيره ممن يقولـون: إن وجـود الخـالق هو وجـود المخلـوق، وعين الخـالق هو عين المخلوق! تعالى الله عن قـولهم، ومع ذلك يـذكرون في ترجمته الثنـاء عليـه، والمديح له، والمبالغة في أمره وإطرائه، حتى من بعض أهل السـنة الحنابلـة، مثل ابن العمـاد الحنبلي صـاحب شـذرات الـذهب، كـان في القـرن الحـادي

عشر، لما ذكر ترجمة ابن عربي ، أخذ يحكي له من الحكايات التي تـدل على أنه مستجاب الدعوة، وأنه مقرب عند الله، وأنه.. وأنه.. ، ويـورد له ذكريـات، ويـورد له أقاويل وحكم، بينما الـذين ترجمـوه من أهل المعرفة كـابن كثـير رحمه الله في البداية والنهاية بينوا حقيقته، وذكـروا أنه اتحـادي ملحـد، يقـول بوحدة الوجود، فلا يغتر بمن مدحه أو أثنى عليه، وهكـذا أمثاله كثـيرون، فعلى هذا نحذر من هؤلاء الذين يفضلون أولياء الله -كما يقولـون- على أنبيـاء اللـه، بل نعرف أن نبياً واحد أفضل من جميع من يسمونهم أولياء.

حقيقة ابن عربي الصوفي

قال الشـارح رحمنا الله تعـالى وإيـاه: [وقـال ابن عـربي أيضـاً في فصوصـه: (ولما مثل النـبي صـلى الله عليه وسـلم النبـوة بالحائط من اللبن فرآها قد كملت إلا موضع لبنة، فكان هو صلى الله عليه وسلم موضع اللبنة، وأما خـاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤية، فيرى ما مثله النبي صـلى الله عليه وسـلم، ويرى نفسه في الحائط في موضع لبنـتين، ويـرى نفسه تنطبع في موضع كلتا اللبنتين فيكمل الحائط؛ والسبب الموجب لكونه يراها لبنـتين: أن الحائط لبنة من فضة ولبنة من ذهب، واللبنة الفضة هي ظـاهره وما يتبعه فيه من الأحكـام، كما هو آخذ عن الله في الشـرع ما هو في الصـورة الظـاهرة متبع فيه؛ لأنه يرى الأمر على ما هو عليـه؛ فلا بد أن يـراه هكـذا، وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن، فإنه يأخذ من المعدن الـذي يأخذ منه الملك الـذي يـوحى إليه إلى الرسول. قال: فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد حصل لك العلم النـافع) فمن أكفر ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب، وللرسـول المثل بلبنة فضـة، فيجعل نفسه أعلى وأفضل من الرسول؟! تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ [البقرة:111]، إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ [غافر:56]، وكيف يخفى كفر من هذا كلامه؟! وله من الكلام أمثـال هـذا، وفيه ما يخفى من الكفـر، ومنه ما يظهـر، فلهـذا يحتاج إلى ناقد جيد ليظهر زيفه، فـإن من الزغل ما يظهر لكل ناقـد، ومنه ما لا يظهر إلا للناقد الحاذق البصير. وكفر ابن عربي وأمثاله فوق كفر القـائلين: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ [الأنعام:124]، ولكن ابن عـربي وأمثاله منـافقون زنادقـة، اتحادية في الـدرك الأسـفل من النـار، والمنـافقون يعاملون معاملة المسلمين؛ لإظهارهم الإسلام كما كان يظهره المنافقون في حيـاة النـبي صـلى الله عليه وسـلم، ويبطنـون الكفـر، وهو يعـاملهم معاملة المســلمين؛ لما يظهر منهم، فلو أنه ظهر من أحد منهم ما يبطنه من الكفر لأجرى عليه حكم المرتد، ولكن في قبول توبته خلاف، والصحيح عدم قبولهـا، وهي رواية معلى عن أبي حنيفة رضي الله عنه، والله المستعان]. ابن عـربي هذا اتحـادي، وقد نقل عن الاتحـاديين أقـوال بشـعة، وأشـهرهم ومن أوائلهم:

الحسين الحلاج ، وقد أشرنا فيما سبق إلى شيء من الكلام حوله، وهو الـذي أفتى أهل زمانه بقتله، فقتل بإجمـاع علمـاء زمانه من أهل السـنة، حيث نقل عنه أقـوال تـدل على كفـره، ثم ورثه أو قـال بمقالته ابن عـربي ، ولكن ابن عـربي كـان يتسـتر في نفسه مخافة أن يقتل كما قتل الحلاج ، فهو يظهر أنه من أهل السـنة، ولكن عنـدما يتأمل كلامه يتضح أنه من أهل الاتحـاد، فلـذلك يعامل معاملة المنافقين، وله كتاب مطبوع اسمه: فصوص الحكم، ظاهره أنه حكم وكلام جيـد، ولكن عنـدما يتأملها ذو العقل وذو الفكر يعـرف في أثنـاء كلامه ميله إلى الاتحاد، وإلى القول بوحدة الوجود، وإن لم يكن كلاماً صريحاً، وله قصـيدة تائية مشـهورة، يظهر منها القـول بالوحـدة، فمن ذلك قوله فيها يخاطب محبوبته: له صلواتي بالمقام أقيمها وأشهد عنها أنها هي صلتِ وهـذه عقيـدة أهل الوحـدة، يقولـون: إن كل شـخص هو عابد ومعبـود، يقـول: فأنا أصـلي لها وهي تصـلي لي، وذلك أن في نظـره أن الخـالق متحد بـالمخلوق، تعالى الله عن قولهم! وإذا كان هذا من المنافقين فإن أقوالهم أقوال باطلـة، انظـروا إلى مقالته الـتي يقـول فيهـا: إن النـبي صـلى الله عليه وسـلم مثّل الأنبياء بـالبيت الـذي أحكم بنـاؤه إلا موضع لبنـة، يقـول عليه السـلام: (فكـان الناس يدخلون ويقولون: ما أحسـنه، لـولا موضع هـذه اللبنـة، يقـول: فأنا تلك اللبنة) يعني: أنه خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وابن العـربي يقـول: إن هذا البيت بقي فيه موضع لبنتين: لبنة من فضة وهي ظاهر الشرع، ويـراد بها محمد، ولبنة من ذهب وهي بـاطن الأمر وهي خـاتم الأوليـاء، ويـرى نفسه أنه هو اللبنة من الذهب، فجعل نفسه لبنة ذهب، وجعل الرسول لبنة فضـة، هـذا معتقـده، ويقـول: إن الولاية لها خـاتم كما أن النبـوة لها خـاتم. فكأنه يقـول بلسان الحال أو المقال: أنا خاتم الأوليـاء ومحمد خـاتم الأنبيـاء، ويجعل نفسه أفضل؛ لأنه يجعل نفسه باطن الأمر وسرّه، والرسول ظاهره وعلنـه، هـذا هو معتقدهم، وعلى هـذا مـاذا نقـول في ابن عـربي وأمثاله كـابن سـبعين و ابن الفـارض و الحلاج الاتحـاديين وأشـباههم؟ نقـول فيهم: إنهم يتسـترون بـأنهم مسـلمون، ويقولـون كلمـات فيها شـيء من الحِكم، وفيها شـيء من العلم المحكم، ويعجب الناس من كلماتهم، وتعجبهم صياغتها، ويعتقدون أنهم أوليـاء للـه، ويعتقـدون علمهم وفضـلهم وأقـدميتهم؛ فلأجل ذلك يصـبحون مقدسـين محبـوبين عند العامة والخاصـة، ولم يتفطنـوا بأسـرارهم، ولم ينظـروا في دواخل أمـرهم، ولم يتـأملوا فيما يسـتنبط من كلامهم السـيئ، ولو تـأملوه وتعقلوه لعرفوا أنهم منافقون، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، يخفـون في أنفسـهم ما لا يبـدون لـك، وهـذا هو شـأن المنـافقين، فـإن المنـافقين يظهرون أنهم مسـلمون كما قـال اللـه: وَإِذَا لَقُـوا الَّذِينَ آمَنُـوا قَـالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ [البقرة:14]، وهؤلاء إذا خلا بعضـهم إلى بعض فـإنهم يبـدون لأوليـائهم ما كـان لـديهم من العلـوم، ولكن إذا لقوا عامة الناس أخذوا يمدحون الإسلام، وأخـذوا يمـدحون أنفسـهم بالاتباع ونحو ذلك، إذاً: فهم منافقون. المنافقون في العهد النبوي لما أظهـروا الإسلام وأخفوا الكفـر، ولم يطلع الرسـول ولم يطلع المسـلمون على شـيء من أسرارهم، عـاملوهم معاملة المسـلمين، فكـانوا يأخـذون منهم الصـدقات

والزكـوات ونحوها مع أنهم كفـار، وكـانوا يصـلون على من مـات منهم إذا لم يظهر لهم نفاقـه، ولم يقـاتلوهم، حـتى قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (أخشى أن يقـال: إن محمـداً يقتل أصـحابه!)، وكـانوا أيضـاً يغـزون مع المسلمين، وإن لم يكونـوا يريـدون بـذلك الأجـر، بل كما أخـبر الله عنهم في قوله: لَـوْ خَرَجُـوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَـالًا وَلَأَوْضَـعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُـونَكُمُ الْفِتْنَـةَ [التوبة:47]، وفي قوله: مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُـوا أُخِـذُوا وَقُتِّلُـوا تَقْتِيلًا [الأحـزاب: 61]، وسماهم الله المرجفين فقال: وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ [الأحـزاب:60]، ومع هذه كله لم يقتلهم، بل أجرى أمرهم على الظـاهر، ووكل سـرائرهم إلى الله تعـالى، وقبل كلامهم لما حلفـوا، وأخـبر الله أن حلفهم كـذب في قولـه: يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ [التوبة:96] .. يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ [التوبة: 62] .. سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ [التوبة:95]، ومع ذلك لم يقاتلوهم بناءً على ما ظهر، فهكذا يقال في هؤلاء المنـافقين من أهل الاتحاد، الذين يدعون أن الخالق عين المخلوق، تعالى الله عن قـولهم. لا شك أن لهم أقوالاً بشعة، لا يجرؤ أحدنا أن يحكي أقوالهم، يقول بعض العلمـاء: إنا لنستطيع أن نحكي أقوال اليهود والنصارى ولا نتجـرأ أن نحكي أقـوال هـؤلاء؛ لبشاعتها، وقد رد عليهم العلماء. ......

ظهور مذهب أهل وحدة الوجود

أهل وحدة الوجود في زمن شيخ الإسـلام ابن تيمية تمكنـوا وظهـروا وكـثروا، وكثر أتباعهم وأعـوانهم، فلا جـرم رد عليهم بعـدد من رسـائله، فكتب رسـائل في الرد على أهل وحدة الوجـود، لما سـئل عن أحـوالهم، ولما رفع إليه كثـير من أشعارهم في ذكر مقالاتهم التي تبين ما هم عليه من العقائد: سـواء كـان نظماً صريحاً، أو نظماً خفياً، وكان من آثـار رده عليهم أن حـذر النـاس منهم، ووقعت بينه وبينهم مناظرات في ملطـة، وفي دمشـق، وظهر عليهم وغلبهم، حتى أنهم مرةً جاءوا ليناظروه، وقـالوا: نحن أوليـاء اللـه، ومن علامة ولايتنـا: أننا لو دخلنا في هذه النار التي تشتعل لم تحرقنـا، فجـاء إليهم شـيخ الإسـلام وأخذ يناظرهم، ويحتج عليهم بالأدلة، ويقول: أنا أدخل وإيـاكم في هـذه النـار، وننظر أينا يحترق، ولكن اغسلوا جلـودكم بالصـابون وبالسـدر وبالمزيل الـذي يزيل ما فيها، وكـان قد عـرف أنهم يطلـون جلـودهم بـأنواع من أدهـان بعض الدواب التي لا تحرقها النار، فإذا دخلوا في النـار لم تحـترق أجسـادهم لـذلك الدهن الذي عليهـا، فلما قـال لهم ذلك امتنعـوا، وظهر بـذلك دجلهم وكـذبهم. وعلى كل حال كتب فيهم عدة رسائل، وحذر منهم العلماء بعده وقبله، وبهـذا يعرف أن هذا المذهب هو كرب الأولياء، وأن قـول الاتحـاديين: الأوليـاء أفضل من الأنبياء قول باطل. هناك من أولياء الله من خصهم الله تعـالى بـأنواع من الكرامات، ولا ننكر أن من خيار عباد الله، ومن الأتقياء الأنقياء من أجـرى الله على أيديهم كرامات وخوارق عادات، تدل على قربهم وعلى أفضليتهم، وعلى أنهم مستجابة دعوتهم، وقد ألفت كتب في كرامات الأولياء، سواء في تـراجم

بعضهم أو في نفس الوقائع التي تقع، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله جانباً كبيراً منها في كتابه الـذي ذكرنـا: الفرقـان بين أوليـاء الـرحمن وأوليـاء الشـيطان، فـذكر كرامـات كثـيرة لبعض الصـالحين، من أراد معرفتها قرأهـا، وســيجد فيها أن الله تعــالى تفضل عليهم واســتجاب دعــوتهم، وأعطــاهم طلبتهم، والشــــيخ ابن رجب رحمه الله له كتب كثــــيرة تتعلق بالرقـــــائق وبالرغـائب، مثـل: استنشـاق نسـيم الأنس، وكلامه على الشـهادة في شـرح العروة الوثقى، وكذلك كتابه الكبير الذي هو جامع العلوم والحكم، وقد تعرض لذكر الأولياء والصالحين، وذكر أشياء من كـرامتهم الـتي تجـري على أيـديهم، والـتي تـدل على أنهم من المتقبلين، ولما تكلم على حـديث: (وما تقـرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه) إلى قوله: (وما تـرددت عن شـيء ترددي عن قبض نفس عبـدي المـؤمن) ذكر وقـائع تـدل على أن بعض أوليـاء الله وبعض عباد الله الصالحين يكون مـوتهم بسـهولة، بحيث لا يشـعرون أو لا يحسون بالموت؛ وذلك تسهيلاً عليهم، وأشباه ذلك. وكذلك أيضاً أبو نعيم ألف كتابه: حلية الأولياء، وهو مطبوع في أربعة مجلدات كبيرة، وهو ثمانية أجــزاء، ذكر فيه الأولياء، ولكنه توسع في تراجم العلماء ونحوهم، ويذكر بســنده بعض الوقائع وإن كانت ضعيفة لم تثبت، وبهذا ونحـوه يعـرف أن أوليـاء الله تعـالى هم الصالحون من عباده، كما أن أولياء الشيطان هم الأشـقياء الـذين خرجـوا عن طاعة الله، وابتلوا بطاعة الشيطان.

كرامات الأولياء حـق، وهي من دلائل نبـوة النـبي عليه الصـلاة والسـلام، لكن يجب التفريق بين الكرامـــات والحيل الشـــيطانية الـــتي يقـــوم بها بعض المشعوذين.

التصديق بكرامات أولياء الرحمن

من عقيـدة أهل السـنة: التفاضل الـذي ذكـره الله تعـالى بين العبـاد، فأفضل الخلق هم رسل الله، وكـذا ملائكته المقربـون، وكـذا عبـاده الصـالحون. ومن عقيـــدة أهل الســـنة: أنه لا يكـــون أحد أفضل من الرسل والملائكة من بقية البشـر، وخـالفت في ذلك الصـوفية، فقـدموا الأوليـاء على الأنبيـاء، ففضـلوا الولي على النبي، ومعلـوم أن الـولي بشر من جنس بـني آدم، وأنه لم يخـرج عن البشـرية، ولم يخـرج عن كونه آدميـاً، وكـذلك أيضـاً لم يصل إلى رتبة الأنبياء، فلم يـنزل عليه الـوحي، لا وحي إلهـام، ولا وحي بواسـطة ملـك، وإن كان قد يجـري الله على يديه شـيئاً من الكرامـات: إما لفضـله، وإما لحاجتـه، وإما لإقنـاع خصـم.. أو نحو ذلـك. وأوليـاء الله تعـالى هم عبـاده الصـالحون المؤمنون المتقون، فهؤلاء كلهم أولياء الله؛ لقوله تعـالى: أَلا إِنَّ أَوْلِيَـاءَ اللَّهِ لا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ * الَّذِينَ آمَنُـوا وَكَـانُوا يَتَّقُـونَ [يـونس:62-63]، فكل المؤمنين المتقين أوليـاء للـه، ولكنهم يتفـاوتون في الإيمـان، ويتفـاوتون في التقوى، وبعضهم أقوى إيماناً من بعض، وأقوى تقى من بعض، فيكـون له مـيزة وفضـيلة على غـيره، فيحصل على الرفعة والقـرب، وتحصل له أيضـاً كرامات يجريها الله على يديـه. شـيخ الإسـلام ابن تيمية ألف كتابه المشـهور: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ وذلك لأنه كـثر في زمانه الـذين يفضلون الأولياء، ويجعلون لهم صفات يتحلـون بهـا، وكل من جـرت على يديه كرامة اعتقدوه ولياً، وقد ذكر رحمه الله في هذا الكتاب أنواعاً من الكرامـات التي جرت على أيدي بعض الصالحين، ومن تلك الكرامات وخـوارق العـادات: أن فلاناً -وسماه- كان قد أصـيب بالفـالج، الـذي هو مـوت وعيب أحد جانبيـه، سـأل ربه أن يطلق أعضـاءه وقت الطهـارة والصـلاة فاسـتجاب الله دعـاءه، فكـان كلما دخل وقت الصـلاة قـام كأنه أنشط النـاس، وتوضأ وصـلى، فـإذا انتهى من الصــلاة رجعت أعضــاؤه إلى خــدرها وإلى موتها بحيث لا تتحــرك! وهكذا قصة الذي كان غازياً، وكان راكباً على حمار، فمات حماره، فسـأل ربه أن يحييه له حتى لا يقبل منة أحد، فأحيـاه الله لـه، فركبه وحمل عليه متاعـه، ولما وصل إلى أهله وأنزل متاعه عنه، قـال: يا بـني! خذ ما على الحمـار فإنه عارية، فبمجرد ما أخذ ما عليه مات الحمار! وكـان إحيـاؤه له كرامة لـه. وأما الذين استجيبت أدعيتهم، فأكثر وأكثر: منها: أن سعيد بن جبير كان عنـده ديك يوقظه للصلاة، فذات ليلة ما صـاح الـديك، فلما أصـبح دعا عليه وقـال: ما له قطع الله صوته، فلم يصح الديك بعدها بقية حياته، فقالت أمه: يا بني! لا تـدع

على أحد فتصيبه دعوتك! فهذه دعـوة رجل صـالح. ووقعت قصص كثـيرة من بعدهم، ومن قرأ الكتب التي كتبت في تراجم عبـاد الله الصـالحين وقصصـهم يجد منها عجـــائب، مثل كتب ابن رجب رحمه اللــــه، كشـــرح الأربعين الـــذي يسمى: جامع العلوم والحكم، فإنه يذكر فيه عجائب من جنس هذا، منها قصة ذلك الرجل الذي ذهب ليشتري لأهله من بلاد بعيدة قمحاً، فلما لم يكن عنـده ثمن، ولم يجد من يقرضــه، ولا من يبيعه بـــدين رجع وليس معه شـــيء، فلما أقبل على أهلــه، مر بكـثيب رمـل، فقـال: لمـاذا لا آخذ من هـذا الرمل في أكياسي حـتى لا يقـال: رجع خائبـاً، فلما أنـزل تلك الأكيـاس الـتي فيها ذلك الرمـل، جـاءت امرأته وفتحت أحـدها، ووجدته قمحـاً طيبـاً أحسن ما يكـون، فطحنت منه وخبزت، فسألها: ما هـذا الخـبز الـذي أجد رائحتـه؟ فقـالت: من الـبر الـذي أتيت بـه، فحمد ربه أنه لم يخيب سـعيه، وكـان ذلك الـبر غاية في الجـودة، بحيث إنهم إذا بـذروا منه تخـرج الزرعة من أصـلها إلى فرعها كلها سـنابل من أحسن ما يكـون، اسـتجابة لـدعوة ذلك الرجل الصـالح! وذكر لنا بعض الإخـوان: أن بلاداً فيها بعض الرافضة وبعض السـنة، فكـان الرافضة إذا جاع الطفل يقولون له: ادع علياً حتى يعطيك طعاماً، فإذا دعا عليـاً قربـوا له تمراً وخبزاً، وقالوا: هذا جاءك به علي ، فأهل السـنة قـالوا: نعـود أبناءنا على أن يدعو ربهم، فإذا جاع الصبي قالوا: ادع ربك يا ولـدي حـتى يعطيك طعامـاً، فإذا دعا ربه، قالوا لـه: ائت ذلك المكـان أو خذ الطعـام من تحت ذلك الطبق تجد فيه طعاماً من ربك، فيـذهب إليه ويجـده، فـذات يـوم غفلـوا عنـه، فجـاء الطفل ولم يعدوا له طعاماً، وكان قد اعتاد الـدعاء، فاسـتقبل القبلة وقـال: يا رب! هيئ لي طعاماً آكله في هذا الوقت، فذهب فكشف الطبق وإذا فيه خبز من أحسن الخبز، فأكله حتى شبع، فجاء أهله وقد أسفوا على أنهم لم يجعلوا له طعاماً، فقالوا: من أتاك بالطعام؟! قـال: دعـوت ربي فجـاءني بطعـام كما كنت أدعـوه، فهـذه كرامة وآية من آيـات اللـه. ولا شك أن أمثـال ذلك كثـير، يجريه الله تعالى على أيدي الصالحين من عباده. ......

الفرق بين الكرامات والحيل الشيطانية

ذكر شـيخ الإسـلام رحمه الله في هـذا الكتـاب: أن أوليـاء الشـيطان يجـري الشيطان على أيديهم مخارق يموهون بها على الناس، ويوهمونهم أنها كرامة، وهي حيل شيطانية، وسـماها رحمه الله بـالأحوال الشـيطانية، وذكر أمثلة من ذلك، وربما تحفظون من قصص السـحرة وأوليـاء الشـيطان الشـيء الكثـير، فبعضهم تحمله الشياطين وتقطع به مسافات طويلـة، ومنها أن الشـياطين أو مردة الجن يتمثلون لأوليائهم بصور وبأشـكال مختلفـة، وأنهم قد يقربـون لهم الأشـــياء البعيـــدة، ولا شك أن تلك الأحـــوال الشـــيطانية إنما هي من وحي الشيطان. ومن ذلك الأعمال التي تسمعونها عن السحرة، وأنهم يفرقـون بين المجتمعين، ويجمعون بين المتعاديين، وأنهم يوقعون الوحشة والبغضاء، وأنهم ربما قلبوا هذا حيواناً، وهذا إنساناً، وما أشبه ذلك؛ فهذه أحـوال شـيطانية، ولا

نقول: إنها كرامات، ولا أنها خوارق عـادات، ولكنها من وحي الشـيطان أو من عملــه، فــإن الشــيطان يتلبس بتلك الأرواح، فيقلب الــروح ويغيّر هيئتها إلى حيوان أو إلى جماد، أو إلى ما أشبه ذلك، فتكـون هـذه المخـارق تجـري على أيدي أعداء الله الذين هم عبدة الشياطين. إذاً: فرق بين الأحـوال الشـيطانية التي تجري على أيدي أولياء الشيطان، وبين الكرامات وخوارق العادات الـتي تجري على أيدي أولياء الـرحمن، والفـرق بينهمـا: أن هـذه خـوارق وكرامـات يجريها الله على يـدي هـذا العبد الـذي هو من عبـاد الله الصـالحين، والـذي ظاهره من أحسن الظواهر: عمله عمل حسن، ودعاؤه مستجاب، وأكله حلال طيب، ورزقه وكسبه من أحسن الكسب وأبعـده عن الخـبيث، مقيم لعباداتـه، محافظ على صـــلواته وزكواتـــه، مبتعد عن المشـــتبهات وعن المحرمـــات، متمسك بالشـريعة، مـؤمن بالله إيمانـاً قويـاً ظـاهراً وباطنـاً، مطبق لشـريعة اللـه، تـال لكتابـه، متبع للسـنة، بخلاف أوليـاء الشـيطان، فـإنهم وإن تظـاهر بعضهم بالإيمان والإسلام، ولكن باطنهم يعرفه المتبصرون: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ [الحجر:75]، فالمتبصر يعلم خبث طواياهم، ويعلم خبث أفعالهم. وإلى الآن نجد في هذه البلاد كثرة السحرة الذين يعملون هذه الشعوذة وهـذا السحر، بحيث إنهم يزوِّرون، ويقلبون أمام الأعين الحقائق حتى يخيل إلى من ينظر إليهم أن هـذا شـيء وهو ليس بشـيء، أو ما أشـبه ذلـك، وهـذا فعلهم قـديماً، ولكنهم كـثروا في هـذه البلاد في هـذه الأزمنة بسـبب توافد الأعـداء الكفرة أو نحوهم، فشاع هذا السـحر وكـثر، وهو في الحقيقة عمل شـيطاني، ويشتكي الكثير من الناس مما يجدون في صدورهم من الوحشة من أنفسهم وأهليهم، وكذلك يشتكون من تسـلط الجن عليهم، فيضـربون الأبـواب عليهم، ويحرقون شيئاً من الأمتعة وهم لا يرون من يحرقها، ورفع الأصـوات، وضـرب الأبـــواب والنوافذ ونحوهـــا، ولا يـــدرون من يفعل ذلـــك، وما هو إلا الجن أو الشياطين الـذين سـلطهم أولئك السـحرة عليهم، وكـذلك تلبس الجن بأنـاس من الصالحين بواسطة ذلك الكاهن أو ذلك الساحر الذي سخر بسطوته عدداً من الجن، بحيث إنه ينفذ هـذا لفلان وهـذا لفلان، فهـؤلاء أوليـاء الشـيطان، وتشاهدون أو تسمعون أن هناك عباداً لله صالحون مصلحون، نيـاتهم حسـنة، وأعمالهم صالحة، حفظة لكتاب الله، عاملون بشـريعة اللـه، رزقهم الله قـوة الإيمــان وصــفاء القلــوب، وكــان من عملهم أن كشف الله لهم عن هــؤلاء السحرة وأعمالهم، فصاروا يعرفون أن هذا الشخص ساحر، وهذا كاهن، وهذا قد عمل كــذا وكــذا، ويعــالجون المســحورين والمصــابين بهــذه الأمــراض الشيطانية ونحوها بالقراءة وما أشبهها. ذكر شـيخ تـوفي قريبـاً رحمه الله أن أخاً له أو عماً له كـان من حفظة القـرآن، ومن العـاملين بـه، ومن المطبقين للشـريعة، ومن الـذين نبت لحمهم على طعـام طيب، ولم يتعـاطوا شـيئاً من المشتبهات؛ كان إذا قرأ على المريض مرة أو مرتين شفي بـإذن اللـه، وكـان إذا أتي بكأس ليقرأ فيه نفث فيه نفثتين أو ثلاث نفثات؛ امتلأ ذلك الكـأس ولو لم يكن فيه إلا قليل من الماء! ثم إذا شـربه ذلك المـريض شـفي بـإذن اللـه، وهـذا من آثـار الإخلاص وقـوة الإيمـان، وذُكر لنا أمثـال هـذا كثـيرون، وهـؤلاء نقول: إنهم من أولياء الله الصالحين، الذين نحسـبهم -والله حسـيبهم- عملـوا

بالشريعة، فأجرى الله على أيديهم هذا الشفاء، وهذا الأثر الطيب، وبضدهم الكهنة والسحرة الذين تجري علي أيديهم تلك الشعوذة وتلك الأحوال الشيطانية، فهولاء أولياء الشيطان، وأولئك أولياء الرحمن.

الفرق بين الكرامة والمعجزة

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات من رواياتهم. فالمعجزة في اللغة: تعم كل خارق للعادة، وكذلك الكرامة في عرف أئمة أهل العلم المتقنين، ولكن كثيراً من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما، فيجعلون المعجزة للنبي، والكرامة للولي، وجماعهما: الأمر الخارق للعادة. فصفات الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم، والقدرة، والغنى، وهذه الثلاثة لا تصلح على الكمال إلا لله وحده، فإنه الذي أحاط بكل شيء علماً، وهو على كل شيء قدير، وهو غني عن العالمين، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله: قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ [الأنعام:50]، وكذلك قال نوح عليه الصلاة والسلام، فهذا أول أولي العزم، وأول رسول بعثه الله إلى الأرض، وهذا خاتم الرسل وخاتم أولي العزم، وكلاهما تبرءا من ذلك؛ وهذا لأنهم يطالبونهم تارة بعلم الغيب كقوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا [الأعراف:188]، وتارة بالتأثير كقوله تعالى: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا [الإسراء:90] ، وتارة يعيبون عليهم الحاجة البشرية كقوله تعالى: وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ [الفرقان:7]، فأمر الرسول أن يخبرهم بأنه لا يملك ذلك، وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله، فيعلم ما علمه الله إياه، ويستغني عما أغناه عنه، ويقدر على ما أقدره عليه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو لعادة أغلب الناس، فجميع المعجزات والكرامات ما تخرج عن هذه الأنواع. ثم الخارق إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً، إما واجب أو مستحب، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه كان سبباً للعذاب أو البغض، كالذي أوتي الآيات فانسلخ منها بلعام بن باعورا لاجتهاد أو تقليد، أو نقص عقل أو علم، أو غلبة حال، أو عجز أو ضرورة، فالخارق ثلاثة أنواع: محمود في الدين، ومذموم، ومباح؛ فإن كان المباح الذي فيه منفعة كان نعمة، وإلا فهو كسائر المباحات التي لا منفعة فيها. قال أبو علي الجوزجاني : كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة. قال الشيخ

السهروردي في عوارفه: وهذا أصل كبير في الباب، فإن كثيراً من المجتهدين المتعبدين سمعوا بالسلف الصالحين المتقدمين، وما منحـوا به من الكرامـات وخوارق العادات، فنفوسـهم لا تـزال تتطلع إلى شـيء من ذلـك، ويحبـون أن يرزقوا شيئاً منـه، ولعل أحـدهم يبقى منكسر القلب متهمـاً لنفسه في صـحة عملـه، حيث لم يحصل له خـارق، ولو علمـوا بسر ذلك لهـان عليهم الأمـر، فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهـدين الصـادقين من ذلك بابـاً، والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العـادات وآثـار القـدرة يقينـاً؛ فيقـوى عزمه على الزهد في الـدنيا، والخـروج عن دواعي الهـوى، فسـبيل الصـادق مطالبة النفس بالاستقامة، فهي كل الكرامـة، ولا ريب أن للقلـوب من التـأثير أعظم مما للأبدان، لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحاً، وإن كانت فاسـدة كـان تأثيرها فاسداً، فالأحوال يكـون تأثيرها محبوبـاً لله تعـالى تـارة، ومكروهـاً لله أخرى، وقد تكلم الفقهاء في وجـوب القـود على من يقتل غـيره في البـاطن، وهؤلاء يشهدون بواطنهم وقلوبهم الأمر الكوني، ويعدون مجـرد خـرق العـادة لأحدهم أنه كرامة من الله له، ولا يعلمون أنه في الحقيقة إنما الكرامة لــزوم الاســتقامة، وأن الله تعــالى لم يكـرم عبـداً بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضـاه، وهو طاعته وطاعة رسـوله، ومـوالاة أوليائه ومعـاداة أعدائـه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قـال الله فيهم: أَلا إِنَّ أَوْلِيَـاءَ اللَّهِ لا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [يـونس:62]، وأما ما يبتلي الله به عبـده من السـراء بخـرق العـادة أو بغيرها أو بالضـراء، فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه، بل قد سعد بها قوم إذا أطاعوه، وشـقي بها قـوم إذا عصـوه، كما قـال تعالى: فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْـرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا [الفجر:15-17]]. سمعنا أن الكرامة هي أمر خـارق للعـادة، مسـتغرب عجيب صـدوره، وأنه إذا جـرى على أيدي الأنبياء سمي معجزة، وقد ذكر العلمـاء معجـزات للنـبي صـلى الله عليه وسلم: منها: أن الجذع حنّ له لما ترك الخطبة عليه، وهو جمـاد. ومنهـا: أنه الحصيات سبحن بيده وهن جماد. ومنها: أن حجراً كـان يسـلم عليه إذا مر بـه، وهو حجر يعرفـه. ومنهـا: أن المـاء القليل يزيد إذا غمس فيه يـده حـتى يشرب منه الخلق الكثـير، ويملئـوا منه قـربهم، ويتوضـئوا منـه. ومنهـا: تكثـير الطعام خبزاً أو لحماً، كما ورد ذلك في أدلة كثـيرة. فهـذه معجـزات، لا يقـدر البشر على مثلهـا، ويعلمـون أن الله أجراها على يديـه، ليعلم أنه رسـول من الله صادق.

من كرامات الصحابة

الكرامات التي تجـري على أيـدي الصـالحين من عبـاده وقع كثـير منها لبعض الصحابة، كالنصر والتأييد لهم في الوقائع التي يقـلّ فيها عـددهم، ويكـثر عـدد عدوهم، فإذا دعوا ربهم وسألوه استجاب لهم، ونصـرهم وخـذل عـدوهم، وقد ذكروا من ذلك وقائع: منها: أن عمر كان يخطب، فبينما هو يخطب جرى على لسانه: يا سارية الجبل! يا سارية الجبل! وكان سارية أمـيراً لجيش يقاتل في بلاد الشام، وكان في ذلك الوقت قد حمي القتال، وسمع الصوت من بعيد ولا يدري أحد ما مصدره، فقال لأصحابه: لوذوا بالجبـل، واجعلـوه خلف ظهـوركم حتى تغلبوا عدوكم، فانتصروا بإذن الله. وذكروا: أن رجلاً جاء إليـه، فقـال: ما اسمك؟ قال: جمرة ، قال: ابن من؟ قال: ابن شهاب ، فقـال: من أي قبيلـة؟ فقال: من بني ضرام من الحرقة، فقـال: ما أظن أهلك إلا قد احـترقوا، فوجد الأمر كـذلك، فهو سـمع أن اسـمه يـدور حـول هـذه الأمـور: حـرارة وشـهب وجمـر.. ونحو ذلـك. ولما قتل عثمـان رضي الله عنه كـان أول قطـرة منها وقعت على المصـحف على قوله تعـالى: فَسَـيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ [البقـرة:137]، فقال الصـحابة: لا بد أن ينتقم الله من هـؤلاء، وأن ينتصر الـذين يحمـون لـه، واسـتنبط ابن عبـاس من قوله تعـالى: وَمَنْ قُتِـلَ مَظْلُومًا فَقَـدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُـورًا [الإسـراء:33] أن معاوية ومن معه سينتصـرون؛ لأنهم يقـاتلون لأجل قتل مظلـوم وهو عثمـان ، فصـار ذلك سبباً لانتصارهم، وأمروا ألا يسرفوا في القتل. ومن الكرامـات ما جـرى على يدي بعض الصحابة في عهد النبي صـلى الله عليه وسـلم، فـأسيد بن حضـير وعبـاد بن بشر صـحابيان من الأنصـار، خرجا مـرة إلى النـبي صـلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة شديدة الظلمة، فأضاء لهما طرف سوط أحدهما نـوراً يشع أمامهما في ذلك الظلام وفي تلك الطرق الضيقة، حتى إذا افترقا وذهب كل منهما إلى داره، افترق النور بينهما مع هذا شعبة، ومع هذا شـعبة، إلى أن دخل كل منهما على أهل بيته، وذلك كرامة لهما. وكان أسـيد بن حضـير مـرة يقرأ في سورة الكهف، فلم يشعر إلا وسرج أمثال المصابيح قد نـزلت عليـه، وكان فرسه مربوطاً، فلما أحس بتلك الأنـوار الـتي نـزلت من السـماء حـاس الفرس وتحرك، فأسرع بالصلاة، وكـان ابنه قريبـاً من الفـرس فخشي عليـه، فلما انصرف من الصلاة ورفع رأسه وإذا تلك المصـابيح قد ارتفعت، فقـال له النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ يا ابن حضير فتلك الملائكة نزلت لقراءتك) .

الكرامات لا تدل على الأفضلية

ذكر العلماء أن الكرامات للتابعين أكثر منها في الصحابة، وذكروا أمثلة كثـيرة وجدت في عهد كثير من التابعين ومن بعدهم، ولا شك أنها دالة على صلاحهم

أو حاجتهم، ومع ذلك فالكرامة لا تدل على أفضيلة ذلك الشخص الـذي جـرت على يديه، فإذا قلنا -مثلاً- : لماذا لم تجر على يدي أبي بكر مثل ما جرى على يد عمر وعثمان وعلي ونحوهم؟ نقول: ليست الكرامات دليلاً على الأفضـلية، وإنما هي إما لحاجة الـذي جـرت على يديـه، وإما لمناسـبة، وإما لقطع حجة خصم أو نحو ذلـك؛ ولأجل ذلك لا نقـول: إن الصـحابة مفضـولون حيث إن الكرامات فيهم قليلـة، وهي في التـابعين كثـيرة. وعلى كل حـال فالكرامـات هي: الأمـور الـتي تجـري على أيـدي بعض الأوليـاء من عبـاد الله الصـالحين المؤمنين خارقة للعادة كالأمثلة التي ذكرنا قبل قليل، وهذه الكرامـات لا شك أنها دليل على صلاحهم وحسن استقامتهم وديانتهم، ومع ذلك يستدل بها كثير من العلماء -كـابن كثير رحمه الله في التاريخ- على أنها معجزات للنبي صـلى الله عليه وسلم؛ وذلك لأن هؤلاء ما حصـلت لهم هـذه الكرامـات إلا باتبـاعهم لهذا النبي الكريم، فلما كانوا متبعين له سـائرين على نهجه وطريقته حصـلت لهم هذه الكرامـات. ذكـروا عن أبي مسـلم الخـولاني أنه غضب عليه الأسـود العنسي ، فأوقدوا له ناراً وألقوه فيها، وصارت عليه برداً وسلاماً، وخــرج ولم يحترق، فلما وفد إلى عمر رضي الله عنه قـال: الحمد لله الـذي أرانا في أمة محمد من فعل به كما فعل بـإبراهيم خليل اللـه، وأمر الصـحابة أن يسـلموا عليه كلهم، وأن يهنئوه. يعني: الصحابة الذين كانوا عند عمر . وكـان العلاء بن الحضـرمي قائـداً لجيش في سـاحل هـذا الخليج الفارسي أو العـربي، فحـال بينهم وبين عدوهم البحر، فأرادوا أن يتبعوهم فلم يجـدوا بُـدَّاً من أن يخوضـوا بخيـولهم، فـنزلوا في البحر وهم على خيـولهم، ولم يفقـدوا متاعـاً أبـداً، ولم يفقدوا شـيئاً، وجعلت الخيل تسـبح على البحر كما تسـبح السـفن، فلما رآهم الفرس قـالوا: ما هـؤلاء إلى شـياطين! فهربـوا، وأتى المسـلمون إلى مكـان العدو وانتصروا عليهم، ولم يفقد أحد منهم شـيئاً من متاعـه، وعـدوا ذلك من كرامــات ابن الحضــرمي رحمه الله ورضي عنــه. وهــذه الكرامــات من الله تعالى، وهو الموصوف بالعلم، يعلم حال عبده هذا، ويعلم حاجته، ويعلم إيمانه وطمأنينة قلبه، وهي من قـدرة اللـه، فالله تعـالى على كل شـيء قـدير، فهو الذي قـدر هـذا الأمر لهـذا العبـد، وأقـدره على ذلـك، وأجـرى على يديه هـذه الكرامة، وكـذلك الله تعـالى موصـوف بـالغنى، فهو الغـني عما سـواه، وهـذه الكرامات دليل على أن الرب سبحانه هو الغني المغني الذي يعطي من يشاء ما يشـاء بـدون حاجة إلى أحـد، فهـذه الصـفات الـتي هي العلم، والقـدرة، والغنى، المتصف بها هو الله وحده، والكرامات لا تحصل إلا من الله الـذي هو عليم بهذا العبد، وقادر على أن يعطيه، وغني لا تنقص خزائنــه، ولا تحصل لأي بشر كما سمعنا في الآية التي استشهد بها الشارح، وهي قول الله تعالى: قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنـدِي خَـزَائِنُ اللَّهِ [الأنعـام:50] يعـني: الخـزائن عند الله تعـالى وهو الغـني المغـني، وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ [الأنعـام:50] علم الغيب لا يعلمه إلا الله تعــالى وَلا أَقُــولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَـكٌ [الأنعــام:50] يعــني: لا أقــول لكم إني من الملائكـة، بل إنما أنا بشر ضـعيف لا قـدرة لي إلا على ما أقـدرني الله تعـالى عليه. وهـذه الأمـور حكاها الله تعـالى عن نـوح، وأمر بها نبيه صـلى الله عليه وسلم. فكلما كان العبد أتقى لله كلما كان أقوم سبيلاً وأعرف بالله سـبحانه،

فإن ربه تعالى يجري على يديه عند حاجته ما يكون مقوياً لإيمانه. وعرفنا أنه ليس كل من جرت على يديه هذه الخوارق أو هذه الكرامات يتفوق على من لم تجر عليه، فلا نقول مثلاً: إن ذلك العابد الذي يقال له: سحنون ، ويحكون عنه كرامات، أشرف من الإمام الشافعي الذي لم تجر على يديه هذه الكرامات ولا بعضها، وكذلك بهلول و رابعة العدوية ، فيحكون في تراجمهم أشياء كثيرة من الكرامات ونحوها، ولا توجد تلك الكرامات في تراجم الأئمة: مالك و أبي حنيفة و محمد بن الحسن و شعبة بن الحجاج و الليث بن سعد والإمام أحمد والإمام الشافعي و إسحاق بن راهوية و يحيى بن معين و علي بن المديني و يحيى بن سعيد القطان وأشباههم من العلماء، لماذا لم تجر على أيديهم هذه الكرامات وقد جرت على أيدي أولئك العباد؟ نقول: لأن هؤلاء اكتفوا بما فتح الله عليهم من العلوم التي فيها العلم بالله وبشرع الله وبأحكامه وبأمره وبنهيه، فكانت مقوية لإيمانهم، فلا يحتاجون إلى أن يجري على يديهم كرامة، بخلاف سحنون وبهلول ورابعة وبشر بن الحارث والجنيد ومعروف وأشباههم فإن هؤلاء قد يكون في إيمانهم شيء من الرقة والضعف، فيجري الله على أيديهم أشياء من الكرامات؛ حتى يقوى إيمانهم، وحتى يثبتوا ويرسخوا، هكذا قال بعض العلماء، وإلا فلا مساواة بين العلماء الذين لهم مكانتهم في العلم ونحوه وبين العباد.

طلب الكرامات

سمعنا ما حكاه الشارح أن بعضاً من الزهاد أو العباد إذا تنسك وتعبد فإنه يطلب من ربه أن يجري على يديه كرامة، ويحزنه إذا رأى فلاناً وفلاناً وسمع فلاناً وفلاناً جرت على أيديهم كرامات وخوارق عادات، فيبقى منكسراً، ويكثر من فعل الأسباب أو السؤال عن الأسباب التي تحصل له مثل هذه الكرامة، ويبقى حسيراً إلى أن يحصل على يديه شيء مما حصل على أيدي أمثاله. فنقول: إن الأولياء والصالحين من عباد الله وعلماء الشريعة وعلماء الأئمة لم يكونوا يهتمون بأمور الكرامات، بل قد تجري على أيديهم بدون أن يطلبوها، وهم لا يطلبونها، ولا يحزنون لعدمها، فلا يحزن لعدم جريان كرامة على يديه إلا ضعفاء الإيمان ونحوهم. وأما استجابة الدعاء فلا شك أن المسلم إذا دعا الله تعالى وأخلص في دعائه، ثم لم ير لدعائه أثراً فإنه يحزنه، ومع ذلك نقول له: لا تنقطع عن الدعاء، بل أكثر من دعاء الله تعالى، فإن دعوتك ولو لم تجب، ولو لم تر أثرها، فهذا لا يدل على أنك مردود، ولا تدل على أنك لست من أولياء الله، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن المسلم إذا دعا الله تعالى فإن ربه يعطيه بدعوته أحد ثلاثة أشياء: إما أن يعجل له دعوته وما طلب، وإما أن يدفع عنه من الشر مثلها، وإما أن يدخرها له في الآخرة،

فلا يخيب أحد إذا دعا الله تعالى، فليس شرطاً أن تجـاب دعوتك كلما دعـوت الله سـبحانه وتعـالى، وليس كل من أجيبت دعوته يحكم عليه بأنه مسـتجاب الدعوة أو بأنه ولي من أولياء الله. وعلى كل حال نقـول: إن هـذه الكرامـات وخوارق العادات التي يجريها الله تعالى على أيـدي بعض عبـاده هي إما ابتلاء وامتحان، وإما لحاجة ألمت بهم، وإما لفضيلة وميزة حصـلوا عليهـا، ولا تكـون دائماً، بل قد يحتاج أحدهم إلى كرامة أو إلى إجابة دعوة فلا تحصل له؛ لبعض الموانع ولبعض الأسباب كغيرهم من بني الإنسان.

أقسام الكرامات

قال الشارح رحمه الله: [ولهذا كان الناس في هذه الأمور ثلاثة أقسـام: قسم ترتفع درجتهم بخرق العـادة، وقسم يتعرضـون بها لعـذاب اللـه، وقسم يكـون في حقهم بمنزلة المباحات، كما تقـدم. وتنـوع الكشف والتـأثير باعتبـار تنـوع كلمـات اللـه. وكلمـات الله نوعـان: كونية ودينيـة: فكلماته الكونية هي الـتي استعاذ بها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (أعوذ بكلمـات الله التامـات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر)، وقال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئًا أَنْ يَقُـولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس:82]، وقال تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لا مُبَـدِّلَ لِكَلِمَاتِـهِ [الأنعـام:115]، والكـون كله داخل تحت هـذه الكلمـات، وسـائر الخوارق. والنوع الثاني: الكلمات الدينية، وهي القرآن وشـرع الله الـذي بعث به رسوله وهي أمره ونهيه وخـبره, وحظ العبد منها العلم بها والعمـل، والأمر بما أمر الله به، كما أن حظ العباد عموماً وخصوصـاً العلم بالكونيـات والتـأثر فيهـا، أي بموجبهـا. فـالأولى تدبيرية كونيـة، والثانية شـرعية دينيـة، فكشف الأولى العلم بـالحوادث الكونيـة، وكشف الثانية العلم بالمـأمورات الشـرعية. وقدرة الأولى التأثير في الكونيات، إما في نفسه كمشيه على المـاء، وطيرانه في الهواء، وجلوسه في النار، وإما في غيره، بإصحاح وإهلاك، وإغناء وإفقـار. وقـــدرة الثانية التـــأثير في الشـــرعيات، إما في نفسه بطاعة الله ورســـوله والتمسك بكتاب الله وسنة رسـوله باطنـاً وظـاهراً، وإما في غـيره بـأن يـأمر بطاعة الله ورسوله فيطاع في ذلك طاعة شرعية. فإذا تقرر ذلك، فـاعلم أن عـدم الخـوارق علمـاً وقـدرة لا تضر المسـلم في دينـه، فمن لم ينكشف له شـيء من المغيبـات، ولم يسـخر له شـيئاً من الكونيـات: لا ينقص ذلك في مرتبته عند الله، بل قد يكون عدم ذلك أنفع لـه، فإنه إن اقـترن به الـدين وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة، فإن الخارق قد يكون مع الدين، وقد يكون مع عدمه، أو فساده، أو نقصه. فالخوارق النافعة تابعة للـدين، خادمة لـه، كما أن الرياسة النافعة هي التابعة للدين، وكـذلك المـال النـافع، كما كـان السـلطان والمال النافع بيد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، فمن جعلها هي

المقصودة، وجعل الدين تابعاً لها ووسيلة إليها، لا لأجل الدين في الأصل: فهو شبيه بمن يأكل الدنيا بالدين، وليست حاله كحال من تدين خـوف العـذاب، أو رجاء الجنـة، فـإن ذلك مـأمور بـه، وهو على سـبيل نجـاة، وشـريعة صـحيحة. والعجب أن كثيراً ممن يزعم أن همه قد ارتفع عن أن يكـون خوفـاً من النـار أو طلباً للجنة يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا!! ثم إن الدين إذا صح علماً وعملاً فلابد أن يوجب خرق العادة، إذا احتاج إلى ذلك صاحبه. قـال تعالى: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ [الطلاق:2-3]. وقال تعالى: إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا [الأنفال:29]. وقال تعالى: وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيـلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَـدَيْنَاهُمْ صِـرَاطًا مُسْـتَقِيمًا [النساء:66-68]. وقـال تعالى: أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـونَ * الَّذِينَ آمَنُـوا وَكَـانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَفِي الآخِـرَةِ [يـونس:62-64]. وقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ قوله: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ [الحجـر:75]) رواه الترمـذي من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وقـال تعـالى فيما يرويه عنه رسـول الله صلى الله عليه وسـلم: (من عـادى لي وليـاً فقد بـارزني بالمحاربـة، وما تقـرب إلي عبـدي بمثل أداء ما افترضت عليـه، ولا يـزال عبـدي يتقـرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الـذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ولئن سـألني لأعطينـه، ولئن اسـتعاذني لأعيذنـه، وما تـرددت في شـيء أنا فاعله تـرددي في قبض نفس عبـدي المـؤمن، يكـره المـوت، وأكـره مسـاءته، ولابد له منـه). فظهر أن الاسـتقامة حظ الـرب، وطلب الكرامة حظ النفس، وبالله التوفيـق. وقـول المعتزلة في إنكار الكرامة: ظـاهر البطلان، فإنه بمنزلة إنكـار المحسوسـات. وقولهم: لو صحت لاشتبهت بالمعجزة، فيؤدي إلى التباس النبي بالولي، وذلك لا يجوز، وهذه الدعوى إنما تصح إذا كان الولي يأتي بالخـارق ويـدعي النبـوة، وهذا لا يقـع، ولو ادعى النبـوة لم يكن وليـاً، بل كـان متنبئـاً كاذبـاً، وقد تقـدم الكلام في الفرق بين النبي والمتنـبئ، وعند قـول الشـيخ: وأن محمـداً عبـده المجتـبى ونبيه المصـطفى. ومما ينبغي التنبيه عليه ههنـا: أن الفراسة ثلاثة أنـواع: إيمانيـة: وسـببها نـور يقذفه الله في قلب عبـده، وحقيقتها أنها خـاطر يهجم على القلب، يثب عليه كوثـوب الأسد على الفريسـة، ومنها اشـتقاقها، وهـذه الفراسة على حسب قـوة الإيمـان، فمن كـان أقـوى إيمانـاً فهو أحد فراسـة. قـال أبو سـليمان الـداراني رحمه اللـه: الفراسة مكاشـفة النفس ومعاينة الغيب، وهي من مقامات الإيمان. انتهى. وفراسة رياضية، وهي الـتي تحصل بالجوع والسهر والتخلي فـإن النفس إذا تجـردت عن العوائق صـار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردهـا، وهـذه فراسة مشـتركة بين المـؤمن والكافر، ولا تدل على إيمان، ولا على ولاية، ولا تكشف عن حق نـافع، ولا عن طريق مسـتقيم، بل كشـفها من جنس فراسة الـولاة وأصـحاب عبـارة الرؤيا والأطباء، ونحـوهم. وفراسة خَلقيـة، وهي الـتي صـنف فيها الأطبـاء وغـيرهم،

واستدلوا بالخَلق على الخُلق لما بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمة اللـه، كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العـادة على صـغر العقـل، وبكـبره على كبره، وسعة الصدر على سعة الخلق، وبضـيقه على ضـيقه، وبجمـود العيـنين وكلال نظرهما على بلادة صـاحبهما وضـعف حـرارة قلبه ونحو ذلـك]. وأهل السنة والجماعة يصدقون بكرامات الأولياء، وهي تعتبر كرامة لمن جرت على يديـه، ولا تعتـبر نقصـاً فيمن لم تحصل له تلك الكرامـة، وهنـاك من أنكر تلك الكرامــات كالمعتزلــة، فــادعوا أنها لو حصــلت لحصل الاشــتباه بينها وبين معجزات الأنبيـاء، وبين العلمـاء أن الخـوارق تنقسم إلى ثلاثة أقسـام: القسم الأول: معجزات، وهي تختص بالأنبياء، وليس في قدرة البشر أن يأتوا بمثلهــا، كمعجـزات نبينا صـلى الله عليه وسـلم، ومعجـزات موسى وعيسى وغـيرهم، وهي التي ذكرت في السنة، وحكيت عن الأنبيـاء في القـرآن. القسم الثـاني: كرامــات أكــرم الله بها بعض أوليائه الصــالحين، ويعتبرها العلمــاء دالة على صدق نبوة الأنبياء؛ وذلك لأنها ما حصلت لهم إلا باتباعهم لأنبيائهم، فأتبـاع نبينا صلى الله عليه وسلم حصلت لهم كرامات؛ بسبب إيمانهم وتصـديقهم بنـبيهم صلى الله عليه وسلم، وتمسكهم بشريعته، فكانت تلك الكرامات منة من الله عليهم، وتقوية لإيمـــان بعضـــهم، وقطعـــاً لحجة من خـــالفهم أو طعن في معتقدهم، وكذلك أجراها الله على أيديهم لإظهار الحق الذي هم عليـه، وبيـان صحة ما يدعون إليـه، وكـذلك أجراها الله للدلالة على أنهم على دين صـحيح، وأن نبوته صلى الله عليه وسلم نبوة حق ليس فيها فرية ولا توقـف، وقد ذكر العلمـاء جملة كثـيرة من تلك الكرامـات، وأفـردت بالتـآليف، وذكـروا أن الله تعـالى أجراها على أيـديهم كما أجـرى المعجـزات على أيـدي الأنبيـاء؛ للدلالة على أن كل النبوات من عند الله تعالى، فكما أن الله جعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً فكذلك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم مسـلم عـالم هو أبو إدريس الخولاني ألقي في النار ولم تضره، بل كانت عليه برداً وسلاماً، فكـان في هـذه الأمة من جـرى له مثل ما جـرى للخليل عليه السـلام. وكـذلك جعل الله البحر لموسى طريقاً يبساً -كما أخبر بـذلك- فسـلكه هو وقومه ولم تبتل ثيابهم ولا أقدامهم، وجرى مثل ذلك للعلاء بن الحضـرمي ، حيث خـاض البحر هو وجنده المقاتلون، ولم يفقدوا من متاعهم شيئاً، وكـأن البحر يبس، فكـانوا يسبحون فوقه دون أن يغرقوا فيه مع عمقه، وهـذه كرامة للعلاء رحمه اللـه، وأمثال ذلك كثير. القسم الثالث: الأحوال الشـيطانية الـتي تجـري على أيـدي السحرة والمشعوذين، وهذه الأحـوال الشـيطانية هي ما يتمكن منه السـحرة من الصرف والعطف وتغيـير الحقـائق وقلب الأشـياء، وكـذلك ما يفعلونه من قطع المسافات، ومن حمل الأثقال، والطيران في الهواء، ونحو ذلك في زمن قصير، وهذه الأحوال تسـمى أحـوالاً شـيطانية، وهي تجـري بسـبب خـدمتهم للشياطين، فهم يتقربون إلى الشياطين وإلى مردة الجن بما يحبون، فتجــري على أيديهم المخارق، والشعوذة، والتغيرات النفسـية، ولكنها تبطل بـإذن الله إذا عولجت بالآيات القرآنية والأدعية النبويـة. فما يحصل من أعمـال السـحرة والمشعوذين ونحوهم، من صرف وعطف، وإلقاء بغضاء بين متحـابين، وإلقـاء تقابل قوي بين المتباغضين، وكذلك من تغيير لمزاج بعض الناس إذا عملوا له

سـحراً شـيطانياً ونحو ذلـك؛ فهـذا لا يسـمى كرامة ولا فضل فيـه، بل هو من عمل الشـياطين؛ وذلك لأن هـؤلاء السـحرة والكهنة ونحـوهم يتقربـون إلى الشيطان، ويذبحون له، ويطيعونه حتى يخدمهم ويطيعهم فيما يشـيرون إليـه، فتصـير الشـياطين والجن خـدماً لهـذا الكـاهن الـذي عبـدهم وذبح لهم، وركع للشياطين وسجد، وأشرك بالله، فصار من خدمهم، فأصبح بذلك من أعوانهم، فهم يتلبسون به، وينطقـون على لسـانه، ويخـبرون بالأشـياء الغيبية والبعيـدة ونحوها، وكذلك يخبرون بالغائب والمسروق وما أشبه

شرح العقيدة الطحاوية [93]

للساعة أشراط كبرى وصغرى، ومن أعظم علامات الساعة الكبرى نزول عيسى عليه السلام، وخروج الدجال، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج يأجوج ومأجوج.

الإيمان بأشراط الساعة

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [وقوله: (ونؤمن بأشراط الساعة: من خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض من موضعها). عن عوف بن مالك الأشجعي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وهو في قبة من أدم فقال: (اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر؛ فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً) وروي: (رايغ) بالراء والغين، وهما بمعنى. رواه البخاري، وأبو داود، وابن ماجة، والطبراني. وعن حذيفة بن أسيد قال: (اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، فقال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم) رواه مسلم . وفي الصحيحين -واللفظ للبخاري - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر الدجال عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينه، وإن المسيح الدجال أعور عينه اليمنى، كأن عينة عنبة طافية). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من نبي إلا وأنذر قومه الأعور الدجال، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، ومكتوب بين عينيه: ك ف ر) فسره في رواية : (أي: كافر). وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده! ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها)، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرءوا إن شئتم: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا [النساء:159]، وأحاديث الدجال وعيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم ينزل من السماء ويقتله، ويخرج

يــأجوج ومــأجوج في أيامه بعد قتله الــدجال، فيهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة؛ ببركة دعائه عليهم، ويضيق هذا المختصر عن بسطها]. ......

نزول عيسى عليه الصلاة والسلام

ابتـدأ الطحـاوي رحمه الله وكـذا الشـارح في ذكر أشـراط السـاعة، وأن أهل السنة والجماعة يصـدقون بما ذكر منها في القـرآن، وما ذكر منها في السـنة في الأحاديث الصحيحة الثابتة التي لا تردد فيهـا، فأما ذكر المسـيح ابن مـريم وأنه يخرج في هذه الأمة، فورد في تفسير قول الله تعالى في سورة النساء: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَـهِيدًا [النساء:159] أن معنى هذه الآية: أن من أهل الكتـاب من يدركونه فيؤمنـون به قبل موته، أي: إن منهم إلا سوف يؤمنون به، ومتى يؤمنـون بـه؟ إذا خـرج في آخر الدنيا؛ وذلك أنه ورد في الحديث خروجه فقال صلى الله عليه وسلم: (ليوشـكن أن يخـرج فيكم ابن مـريم حكمـاً مقسـطاً يقتل الخـنزير، ويكسر الصـليب، ويضع الجزيـة، ويفيض المـال حـتى لا يقبله أحـد) فـذكر له هـذه الصـفات: أنه يقتل الخـنزير؛ وذلك لأن لحمه حـرام، والنصـارى يبـالغون في أكله. ويكسر الصليب؛ لأن النصارى يعبدونه، ويـدعون أن عيسى قتل وصـلب عليـه، فيعظمونه لأنه صـلب عليه ربهم أو ابن ربهم! تعـالى الله عن قـولهم. وأنه يضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، وفي هـذه الشـريعة معلـوم أن الكتـــابيين تقبل منهم الجزية ويبقـــون على دينهم، لكن عيسى في آخر الزمـان لا يقبل الجزيـة، بل يقـاتلهم إلى أن يسـلموا أو يقتلـوا، وينصـره الله ويظهره، ويفيض المال في زمانه حـتى لا يقبله أحـد، أي: يكـثر المـال بأيـدي النـاس، وذلك ببركة ينزلها الله تعـالى، ففي بعض الأحـاديث: (أن الله تعـالى يبـارك في الرسل -يعـني: في اللبن- حـتى تكفي اللقحة الفئـام من النـاس، ويبــارك في الثمــار، حــتى يأكل الجماعة من الرمانة ويســتظلون بقحفهــا) يجعلون قحفها -يعني: غلافها- كخيمة يستظلون به، وذلك من آثار البركة.

خروج الدجال

خروج الدجال من الأمور الغيبية الـتي أخـبر بها النـبي صـلى الله عليه وسـلم ووردت الإشارة إليه في القرآن؛ فكان من الإيمان بالغيب التصديق بخروجــه؛ لأن الله مدح الذين يؤمنون بالغيب، أي: بما أخبروا به ولم يشـاهدوه. ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى تـروا عشر آيـات -وذكر منها- خروج الدجال) وهو الأعور الكـذاب الـذي يخـرج في آخر الزمـان،

ويـدعي أنه الـرب، ويفتن به خلـق، فيـأتي إلى القرية فـإذا عصـته أصـبحوا ممحلين، وإذا أطاعته أصـبحوا منعمين، عقوبة وفتنـة، ويـدعو القرية الخربة فيتبعه ذهبها كيعاسـيب النحـل، واليعسـوب هـو: ذكر النحل الـذي يتبعه بقية النحل. وأخبر عليه الصلاة والسلام أن هـذا الـدجال يبقى أربعين يومـاً، ولكنها مختلفة، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وباقي الأيام كأيامكم، فسألوا النـبي صـلى الله عليه وسـلم عن ذلك اليـوم الطويل هل يكفيهم فيه خمس صلوات، فقال: (لا، اقدروا له) أي: اقدروا لكل صلاة ما بينها وبين الأخـرى ثم صلوا. وكذلك أخبر أن الدجال يقتله المسـيح ابن مـريم ببـاب لـد، وهو موضع في الشـام، فـإذا رأى المسـيحُ ابن مـريم الـدجالَ ذاب كما يـذوب الملح في الماء، فيقتله ويزول بذلك أثره، بعـدما يفسد في الأرض. وقد كـان صـلى الله عليه وسلم يكثر من الاسـتعاذة من الشـيطان، ويكـثر أن يسـتعيد من أعـوان الشياطين ومنهم هذا الدجال الذي هو المسيح الدجال المنتظـر، فيقـول: (إذا تشهد أحدكم فليعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القـبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال) أي: تقول: أعـوذ باللـه، أو: اللهم إني أعوذ بك وتذكر هذه الأربع في آخر التشهد، ومن جملتها المسيح الـدجال، من شر فتنته ومن شر أذاه. وفي الحـــديث أنه صـــلى الله عليه وســـلم ذكر له علامـة، وهي: أنه أعـور العين اليمـنى، كـأن عينه عنبة طافيـة، ومعـروف أن العنبة إذا أخذ ماؤها بقيت ملتصـــقة قشـــرتها بعضـــها ببعض، فعينه حـــدقتها منطفئة، فهي ملتصق جلـدها بعضه ببعض، مثل العنبة إذا أخذ ماؤهـا. وكـذلك أخبر أنه مكتوب بين عينه: كافر، حـروف مقطعة منفصـلة: (ك) و (ف) و(ر)، يقرأها كل من نظر إليه من أهل الإيمان، وإن لم يكن قارئاً؛ حتى لا ينخدع به. ولكـثرة الأحـاديث الـتي وردت في الاسـتعاذة منـه، وفي بيـان شـره؛ جعله العلماء من أشراط الساعة، وصاروا يحـذرون من شـره، ولكن مع الأسف أن بعض المعاصرين أنكروه لما رأوا أن الواقع لا يساعد عليـه، فصـاروا يتـأولون الأحاديث الـتي وردت فيـه، ويصـرفونها عن ظاهرهـا، حـتى قـال بعضـهم: إن المراد بالدجال الشرور التي تحصل في آخر الزمان، والمنكرات، وغفلــوا عن قوله عليه السلام: (إنه أعـور العين اليمـنى، كـأن عينه عنبة طافيـة)، وغفلـوا عن أنه يـــدعو النـــاس ويفتنهم، وأنه يســـلط على البلاد كلهـــا، ما عـــدا مكة والمدينـة، فـإن الله يجعل عليهما ملائكة يحمونهما منـه، ولكن المدينة ترجف ثلاث رجفات، فيخـرج إليه من كـان منافقـاً، وغفلـوا أيضـاً عن أوصـافه الـتي وصف بهـا، من أن بين عينيه كـافر، ومن أنه إنسـان يجـول ويتقلب في البلاد، وأنه يسير بسرعة السحاب، فيقطع الأرض بسرعة. هذا وكثير مما يكـون معه من الخـوارق هي من الأحـوال الشـيطانية، فـإن هـذه الـتي تجـري على يديه أحوال شيطانية، حتى إنه يقطع الرجل قطعتين ثم يقول له: قم، فيقـوم، وأنه إذا عصـــته أهل قرية أصـــبحوا ممحلين، قد جفت بلادهم، وإذا أطاعته بلـــدة أصبحوا في رفاهية ونعمة، وذلك دليل على أنه فتنة يخرجها الله للنـاس حـتى يفتن بها العباد، فمن ثبته الله ورزقه علماً وبصيرة لم يزدد بـأمره إلا بصـيرة، ومن أراد الله فتنته فإنه ينخدع بـه. وقد أكـثر العلمـاء من الكلام عن المسـيح الـدجال، وعن المسـيح ابن مـريم، وذكـروا عليهما أدلة كثـيرة، وقد تكلم ابن

كثير رحمه الله عن ذلك في آخر تفسير سورة النساء عند قوله تعالى: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ [النساء:159]، فأطال الكلام في ذكر المسيح ابن مريم ونزوله، والآيات التي تدل على خروجه، وذكر الأحاديث، واستقصى غالباً ما ورد في ذلك. وأما ذكر المسيح الدجال فذكره رحمه الله في النهاية التي في آخر تاريخه، أي: في ذكر أشراط الساعة، وأطال في ذلك، وكذلك ألفت كتب في ذلك كثيرة من العلماء المتقدمين والمتأخرين، ومن أوفى من كتب في ذلك الشيخ حمود التويجري في كتابه المشهور الذي يسمى: إتحاف الجماعة في أشراط الساعة، فإن الجزء الثاني كله يتعلق بالأشراط المذكورة في هذه الكلمات، وقد توسع فيها، وأورد كل ما وقف عليه أو يصله من إيراد، وهكذا غيره، فنؤمن بهذه الأشياء وإن لم نرها.

خروج دابة الأرض

دابة الأرض ذكرت في قول الله تعالى في سورة النمل: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ [النمل:82]، وقد تكلم ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية عليها، وذكر الأدلة التي يمكن الاستدلال بها، والأحاديث التي وردت فيها، ولكن معلوم أن أكثر ما ذكر فيها لم يصح، مثل أنها دابة عظيمة، وأن طولها كذا وكذا، وأن معها عصا موسى، وأن معها خاتم سليمان، وأنها تجعل على المؤمن علامة الإيمان، وعلى الكافر علامة الكفر، حتى أن الناس يتبايعون بعد ذلك، فيقول هذا: يا مؤمن، وهذا: يا كافر، وما أشبه ذلك؛ فأكثر تلك الأحاديث لم تثبت، ولكن فيها أحاديث ثابتة، وفيها النص القرآني في هذه الآية: ((دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ)).

طلوع الشمس من مغربها

طلوع الشمس من مغربها استدل عليه بقول الله تعالى في آخر سورة الأنعام: هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا [الأنعام:158] قيل: إن هذه الآية التي إذا أتت لم ينفع أحداً إيمانه إذا لم يكن مؤمناً: طلوع الشمس من المغرب، وإذا طلعت

يقول الناس: آمنا، فلا ينفعهم حينئـذٍ إيمـانهم، وفي ذلك الـوقت يقـرب انتهـاء الحياة الدنيا، وتقرب قيام السـاعة، وهـذه علامة من العلامـات، وقد اسـتوفى أدلتها ابن كثــير في آخر تاريخه في النهايــة، وكــذلك غــيره ممن كتبــوا في أشراط الساعة، وأنكرها في هذه الأزمنة من أنكر كثيراً من الغيبيات، وادعوا أنه لا يمكن أن تطلع الشمس من المغرب، فـإن العـادة جارية بـأن الشـمس تطلع من جهة مشرقها، ولا يتغير هذا الكون إلا تغيراً كلياً، وهذا على قول من يقول: إن الشمس ثابتة وإن الأرض هي المتحركة، ولكن هذا أيضاً يرد عليهم، والدليل الواضح يدل على أن الشـمس تطلع من مغربهـا، وأن النـاس إذا رأوا ذلك آمنـوا، وحينئذ لا ينفع نفسـاً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسـبت في إيمانها خيراً.

الدخان

الدخان المذكور في هـذا الحـديث قيـل: إنه المـذكور في سـورة الـدخان في قول الله تعالى: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّـمَاءُ بِـدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَـى النَّاسَ هَـذَا عَـذَابٌ أَلِيمٌ [الـدخان:10-11]، وقد ذهب بعض الصـحابة: إلى أنه شـيء قد مضى، ومنهم ابن مسعود ، قال: إن الدخان قد مضـى، وأن المـراد به الجـوع الذي حصل لقريش لما دعا عليهم النبي صـلى الله عليه وسـلم بسـبع سـنين تصيبهم كسبع يوسف لما لم يطيعـوه، فأصـابتهم سـنة، يعـني: قحـط، فتـأخر عليهم المطر، حتى أكلوا الجلود، وصار أحـدهم من شـدة الجـوع ينظر إلى ما بينه وبين السماء فينظر كهيئة الدخان من الغشاوة التي على أبصارهم، فكان ذلك هو الدخان الذي ذكر في هذه الآية: ((يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِـدُخَانٍ مُبِينٍ))، وهذا تفسير ابن مسعود ، والجمهور: على أنه لم يـأت، وأنه شـيء يكـون بين يدي الساعة، وأنه دخان حقيقي يغشى الكثير من الناس كما تغشاهم الريـاح، وكما يغشاهم الغبار، بحيث يحول بينهم وبين نظرهم إلى السماء أو نحو ذلك، وأنه يعم البلاد، وهذا هو الذي ورد في بعض الأحاديث، وهو من جملة أشـراط الساعة. وبكل حال يحتمل أنه الذي ذكره ابن مسعود ، وأنه ما حصل لقريش من الجهد حـتى رءوا بينهم وبين السـماء مثل الـدخان، أو أنه شـيء منتظـر، والآية محتملة لــذلك. كــذلك أيضــاً من أشــراط الســاعة ما ذكر في بعض الأحـاديث من البطشــة، ولكن قيـل: إنها مضـت، وقوله تعـالى: يَـوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى [الدخان:16] الصحيح أنها قد وقعت، وأنها غزوة بـدر. وقيـل: إن من أشـراط السـاعة اللـزام المـذكور في آخر سـورة الفرقـان: (فَسَـوْفَ يَكُونُ لِزَامًا [الفرقان:77]، وقيـل: إن هـذا اللـزام هو القحط والعـذاب الـذي وقع بقـريش لما لم يطيعـوا النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وقيـل: إنه عـذاب مستمر مسـتقبل، وسـوف يحصـل، ولعل الأقـرب ما ذكر أنه ما نـزل بهم من

القحط الذي نـزل بهم مـدة طويلـة، حـتى هرعـوا إلى النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وطلبـوا منه أن يـدعو لهم، فـدعا لهم، فـرحمهم اللـه، وأزال عنهم القحط الذي نزل بهم.

بعثة النبي عليه الصلاة والسلام وموته

من أشراط الساعة الـتي ذكـرت في الأحـاديث: مـوت النـبي صـلى الله عليه وسلم، بل إن بعثته تعتبر من أشراط الساعة، يقول الله تعـالى: أَتَى أَمْـرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ [النحل:1] أي: قرب، ويقـول تعـالى: اقْتَـرَبَتِ السَّـاعَةُ وَانْشَـقَّ الْقَمَرُ [القمر:1]، ويقـول: اقْتَـرَبَ لِلنَّاسِ حِسَـابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَـةٍ مُعْرِضُـونَ [الأنبياء:1] أي: قرب وقت الحساب، وكل هذا دليل على قرب الساعة، وقال تعالى: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَـأْتِيَهُمْ بَغْتَـةً فَقَـدْ جَـاءَ أَشْـرَاطُهَا [محمـد: 18]، ويقولون: إن من أكبر أشراطها بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فموته بعد بعثته شرط من أشـراط السـاعة. أخـبر النـبي عليه الصـلاة والسـلام في الأحاديث عن أشياء قد حصلت أو سوف تحصل ولا بد، فإخباره بالفتنة والهرج والخلاف الذي حصل بين المسلمين أمر قد وقع، وكـذلك إخبـاره بالموتـان قد حصـل، وهو ما حصل في صـدر الإسـلام من المـوت الـذريع إما بسـبب الفتن وإما بسبب الأمراض التي حصلت، فمات فيها خلق كثـير، وهـذا معـنى قولـه: (موتان)، يعني: موت ذريع كبير كثير.

فتح بيت المقدس

من أشراط الساعة فتح بيت المقـدس، وقد فتحت في خلافة عمر رضي الله عنـــه، وقد غـــزا بنفسه إلى أن وقف عليها ففتحت بيت المقـــدس، ثم تغلب عليها بعد ذلك الإفرنج أثناء الحروب الصليبية، وبقي بأيديهم نحو مائة وثمـانين سنة، ثم استعادها المسلمون وفتحت فتحاً مبيناً، واسـتولى عليها المسـلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، ثم في هذه الأزمنة استولوا عليها مرة ثانية، ولعل الله أن يعيد للمسلمين الكرة حتى يفتحوها ويعيدوها بلـدة إسـلامية كما أخـبر بهذا الحديث في قوله: (فتح بيت المقدس).

الخسوفات الكبيرة

الخسوف كثيرة، ولعل التي تكون من أشراط الساعة هي الخسوف الكبـيرة، خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العـرب، وقد يكـون منها أيضاً الـزلال الـتي تحصل في كثـير من البلاد، وقد تكـون من العقوبـات الـتي يعاقب الله بها بعض عبـاده في بعض الأزمنة إذا حصل منهم ذنـوب أو تهـاون بحقوق الله تعالى وبحدوده.

نار تخرج من المدينة

أخبر صلى الله عليه وسلم: (أنه يخرج من المدينة نار شديدة الضـوء، تضـيء لها أعنـاق الإبل ببصـرى) وهي من قـرى الشـام، وقد حصـلت هـذه النـار في القرن السابع، فخرجت في الحرة التي في شرق المدينة نـار شـديدة الضـوء ترتفع أكثر من عشرين مـتراً، لها لهب ولكنها لا تحـرق السـعف، وإنما تحـرق الحجارة، تشتعل النار بالحجـارة وتتقد بهـا، ويلقى فيها السـعف والخـوص فلا يشتعل، واستمرت أكـثر من شـهر في شـرق المدينـة، وانـزعج النـاس منهـا، وعرفوا أنها ما أخبر به النبي عليه الصـلاة والسـلام في هـذه الأحـاديث، وذكر أن أهل بصرى رأوا ضوءها، وأنهم رأوا أعنـاق الإبل في ظلمة الليل بواسـطة ضوئها، فوصل ضوءها إلى تلك الأماكن البعيدة.

نار تخرج من قعر عدن

من أشراط الساعة نار تخرج من قعر عدن، أي: أنها تخـرج من أقصى اليمن، فتحشر الناس وتسوقهم إلى محشرهم، تقيل معهم حيث قالوا، وتـبيت معهم حيث باتوا، وهذه من آخر أشراط الساعة. وبكل حال فإن المسلم يصـدق بما ورد في هذه الأحاديث من أشراط السـاعة ويـؤمن بهـا، وإن أنكرها بعض من استبعد وقوع ذلك، وادعى أن هـذه أمثلة ضـربت للتقـريب أو تأولها بتـأويلات بعيدة، فلا عبرة بقول المتأولين.

أول الآيات خروجاً

قال رحمه الله تعالى: [وأما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب، فقال تعالى: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ [النمل:82]، وقال تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ [الأنعام:158]. وروى البخاري عند تفسير الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل). وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً) أي: أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال، ونزول عيسى عليه الصلاة السلام من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، كل ذلك أمور مألوفة؛ لأنهم بشر مشاهدة مثلهم مألوفة، وأما خروج الدابة بشكل غريب غير مألوف، ثم مخاطبتها الناس، ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر؛ فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية، وقد أفرد الناس في أحاديث أشراط الساعة مصنفات مشهورة، يضيق على بسطها هذا المختصر]. الدابة من الآيات التي ذكرت في الأحاديث التي مرت، وورد ذكرها في القرآن في هذه الآية في آخر سورة النمل: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ [النمل: 82]، ووصف الدابة، وطولها، وما معها وارد في أحاديث. وأما طلوع الشمس من مغربها فذكر في الآية التي في آخر سورة الأنعام وهي قوله تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا [الأنعام:158]، فذكرت أن هذه الآية إذا خرجت وحصلت لم ينفع أحداً إيمانه، وفي الحديث أن هاتين الآيتين: الدابة وطلوع الشمس متقاربتان، إذا حصلت إحداهما تبعتها الأخرى.

ذكر الشارح أن خروج عيسى ابن مريم، وكذلك الـدجال قبل طلـوع الشـمس من مغربها وخـــروج الدابـــة، ومعلـــوم أنهم من جنس البشـــر، فلا يســـتنكر خـروجهم، وإنما أخـبر بخـروجهم كـأمر غيـبي، ولكن ليعلم أنهم ولو كـانوا من البشر لكن لهم شـأن، وكـذلك خـروج يـأجوج ومـأجوج، وقد ورد ذكـرهم في القرآن، قال تعالى في آخر سورة الأنبياء: حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ [الأنبياء:96]، وقد أخبر الله تعالى أن ذا القـرنين بـنى دونهم حاجزاً منيعـاً وسـداً شـديداً، وهو المـذكور في آخر سـورة الكهف في قوله: إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَـلْ نَجْعَـلُ لَـكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا [الكهف:94] يعني: بناءً منيعاً يسد ما بيننا وبينهم حـتى لا يتسـلقوه ولا يصـلوا إلينـا، فعمل ذلك ذو القـرنين وأمـرهم أن يـأتوه بزبر الحديد، أي: أكوام الحديد، ثم أوقد عليه، وقال: انفخوا، فلما أوقد عليها وذاب الحديد، جعله بين جبلين، فأصبح سـداً منيعـاً، وهو المـذكور في قولـه: آتُـونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَـاوَى بَيْنَ الصَّـدَفَيْنِ قَـالَ انفُخُـوا [الكهـف:96] إلى آخر الآيات، ثم قال: قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْـدُ رَبِّي جَعَلَـهُ دَكَّاءَ وَكَـانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا [الكهف:98]. وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنهم سوف يحفرون هذا السد ويخرجـون، وفي بعض الأحـاديث عن زينب رضي الله عنها قالت: دخل علي النبي صلى الله عليه وسـلم فزعـاً فقـال: (ويل للعـرب من شر قد اقـترب! فتح اليـوم من ردم يـأجوج ومـأجوج مثل هـذه، وحلق بين أصبعيه السبابة والإبهام، قالت زينب : يا رسول الله! أنهلك وفينا الصـالحون؟ قال: نعم، إذا كـثر الخبث) وأخـبر أنهم إذا خرجـوا يعيثـون في الأرض فسـاداً؛ وذلك لأنهم خلق كثـير لا يعلم عـددهم إلا اللـه، فـإذا خرجـوا امتصـوا ما على الأرض من البحيرات والأنهار، حتى يمروا على بحر طبرية، فيشربون ما فيـه، ويقـول آخـرهم: لقد كـان في هـذا المكـان مـرة مـاءٌ، ويكـون ذلك في زمن عيسى، فيـدعو عيسى الله تعـالى عليهم، فيسـلط الله عليهم عقابـاً وهو دود يخرج في رقابهم، فيصبحون موتى كمـوت رجل واحـد، فعند ذلك تنتن الأرض من زهمهم، فيرسل الله طـيراً تحملهم وتلقيهم في البحـار، ويـنزل مطـراً، وتصـبح الأرض كالصـدفة قد طهـرت، ثم ينبت الله النبـات بعد ذلك المطر وينزل البركة.. إلى آخر ما ذكر في الحديث الـذي في صـحيح مسـلم وغـيره. هذه الأحاديث ثابتة في الصحاح، ورواها الأئمة بأسـانيد ثابتـة؛ ولـذا اعتقد أهل السنة صحتها، وآمنوا بها، وإن قصرت العقـول عن إدراك معانيهـا، فيفوضـون كيفياتها كما يفوضون كيفيات الإيمان بجميع المغيبات.

إتيان السحرة من كبائر الذنوب، والسحرة كفرة، وقد حذر العلماء منهم، وبينوا حقيقتهم وما يجب على الولاة من منع شرهم، وكف الرعاع عن التردد إليهم.

بيان حقيقة الكهنة والتحذير من سؤالهم وتصديقهم

قال المصنف رحمه الله: [قوله: (ولا نصدق كاهناً ولا عرافاً، ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة). روى مسلم والإمام أحمد عن صفية بنت أبي عبيد ، عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أتى عرافاً فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة). وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد). والمنجم يدخل في اسم العراف عند بعض العلماء، وعند بعضهم هو في معناه. فإذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسئول؟ وفي الصحيحين ومسند الإمام أحمد عن عائشة قالت: (سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس عن الكهان؟ فقال: ليسوا بشيء فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة). وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وحلوان الكاهن خبيث). وحلوانه: الذي تسميه العامة حلاوته. ويدخل في هذا المعنى ما يعاطاه المنجم وصاحب الأزلام التي يستقسم بها، مثل الخشبة المكتوب عليها (أ ب ج د) والضارب بالحصى، والذي يخط في الرمل، وما يعاطاه هؤلاء حرام. وقد حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء، كالبغوي و القاضي عياض وغيرهما. وفي الصحيحين عن زيد بن خالد قال: (خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فقال: أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فمن قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب). وفي صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة). والنصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسائر الأئمة، بالنهي عن ذلك أكثر من أن يتسع هذا الموضع لذكرها]. قال الله تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ [الشعراء:221-223]، وفي

الحديث: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال: (ليسـوا بشـيء) يعني: كذبة، ليسوا على يقين، ولا على دين، فقال الناس: إنهم يحدثوننا بالأمر فيكون حقاً، فيقولون: في اليوم الفلاني يحصل مطر، أو رعد، أو صــواعق، أو ريح، مع أنه قد يحصل في اليـوم الفلاني أن يمـرض فلان، أو يمـوت فلان، أو ما أشــبه ذلــك، فقــال النــبي صــلى الله عليه وســلم: (تلك الكذبة تخطفها الشياطين فتلقيها على ألسنة الكهنة، فيزيدون فيها أكثر من مائة كذبة). وفي حديث أبي هريرة المشهور أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال: (إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقولـه، كأنه سلسـلة على صفوان، فإذا سمع ذلك أهل السـماء صـعقوا وخـروا لله سـجداً، فيكـون أول من يرفع رأسه جبريــل، فيكلمه الله من وحيه بما يشــاء، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر على سماءٍ سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا؟ فيقول: قـال الحق وهو العلي الكبـير، فيسـمعها مسـترق السـمع، ومسـترق السـمع هكـذا بعضه فـوق بعض، وصــفه سـفيان بكفه فحرفها وبـدد بين أصـابعه، فيسـمع الكلمة فيلقيها إلى من تحتـه، ثم يلقيها الآخر إلى من تحتـه، حـتى يلقيها على لسان السـاحر أو الكـاهن، فربما أدركه الشـهاب قبل أن يلقيهـا، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقول الناس: أليس قد قال لنا: يــوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكذبة التي سـمعت من السـماء) يعـني: أن الناس لا يعتبرون بمائة كذبة، ولكن يصدقون الكذب الكثـير لتلك الكلمة الـتي اختطفها الجـــني من الســـماء، فيصــــدقونه بما يخـــبرهم به مما تلقيه عليه شياطين الجن. وهؤلاء الكهنة الذين هذا حالهم ما حكمهم؟ في صحيح مسـلم عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال: (من أتى كاهناً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً)، وذكر العلمـاء أنه إذا تاب ونـدم فإنها تجزيه ولا يعيـدها، ولكن عقوبته على فعله أنها لا تقبل منه، سيما إذا أتاه وهو يقدسـه، ويرفع مكانتـه، ويعـترف بميزته أو بفضـله، أو نحو ذلك. وعن عمران بن حصين وعن غيره أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قال: (من أتى كاهناً فسـأله عن شـيء فصـدقه بما يقـول فقد كفر بما أنـزل على محمد صلى الله عليه وسلم) وهـذا أشد من الحـديث الـذي قبلـه، ولعل السبب أن هذا صدقه بكل ما يقول، صدقه في هذه المسـألة وغيرهـا، واعتقد أنه صــادق، وأن له مـيزة وخصوصـية، أو اعتقد أنه ملهم، أو اعتقد أنه يــنزل عليه وحي، أو اعتقد أنه يعلم الغيب الذي لا يعلمه إلا اللـه، فعقوبة هـذا الـذي صـــدقه في كل ما يقـــول أنه يحكم بكفـــره، فيحكم بكفر الســـائل للكـــاهن المصدق بكل ما قال. يقول الشارح رحمه الله: إذا كـانت هـذه حالة السـائل، فكيف بحالة المسـئول؟! الــذي هو الكـاهن، فـإن كفـره أشــد، وخروجه من الإسلام أبعد وأبعد، فالسائل المصدق بما يقول حكم بكفـره، قيـل: معنـاه أنه كفر بما أنـزل في أمـور الغيب، وأن الغيب لا يعلمه إلا اللـه، فـالأمور المغيبة علمها عند اللـه، قـال تعـالى لنبيه صـلى الله عليه وسـلم: (وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) يعني: لا أعلم المغيبات، وقال في آية أخرى: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْـرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّـوءُ [الأعراف:188]، وقال تعالى: قُـلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ

إِلَّا اللَّهُ [النمل:65]، فإذا كان حال نبينا صلى الله عليه وسلم أنه يقول: (وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) أي: لا أعلم ما في القلوب، ولا أعلم الأمور المغيبة، إنما الذي يعلمها الله وحده (لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)؛ فكيف بحال غيره من هؤلاء المتكهنة ونحوهم؟! فهذا حكم السائل، وهذا حكم المسئول. ......

كسب الكاهن والمنجم والساحر خبيث

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بخبث كسب الكهنة في قوله: (مهر البغي خبيث، وثمن الكلب خبيث، وحلوان الكاهن خبيث) وحلوان الكاهن هو: ما يبذل له إذا أخبر، فإذا جاءه إنسان وقال: أخبرني بمكان دابتي التي فقدت، أخبرني بمكان مالي الذي سرق أو نحو ذلك، فيستوحي من شيطانه ويقول: دابتك في الشعب الفلاني، وعلامتها أن فيها كذا وكذا ونحو ذلك، فيعطى مالاً على إخباره، فهذا المال الذي أعطيه يعتبر خبيثاً، ونسميه سحتاً وأي سحت. وذلك لأنه أخذه على شيء محرم، وهو ادعاء علم الغيب. ويدخل في ذلك من يسمى بالمنجم، ومن يسمى بالعراف، وكذلك الساحر، فهؤلاء: الكاهن، والساحر، والعراف، والمنجم، والرمال، والضراب، ونحوهم؛ كلهم يتدخلون فيما لا يعنيهم، فأما الكاهن فهو الذي يدعي معرفة المغيبات، ويخبر عما في الضمير، يقول: هذا يحدث نفسه بكذا، أو يخبر بمكان مسروق، يقول: مالك المسروق في المكان الفلاني، في البيت الفلاني، فتخبره شياطينه. أما المنجم، فهو الذي يدعي علم الغيب بسير النجوم، يقول: علامة المطر أن يكون هذا النجم في المكان الفلاني في الليلة الفلانية فينزل مطر، أو ينزل برق، أو ما أشبه ذلك، وهذا بلا شك تدخل في علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وكذلك ادعاء أن هذه النجوم هي التي تنزل المطر. وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه مرة في الحديبية، فلما انصرف من الصلاة -وكان قد أصابهم مطر في تلك الليلة- قال: (أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا -النوء: النجم الذي ينوء أي: يطلع- فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب) أي: جعل الكوكب هو الذي يؤثر في الكون، وهو الذي يثير السحب، وهو الذي ينزل المطر، وذلك كله حق الله تعالى، فهو الذي ينفرد بذلك، يقول الله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ [الأعراف:57]، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ [الروم:46] يعني: تبشر بالرحمة وبالمطر، فيرسل الله الرياح فتثير السحاب، ويحمل الله السحاب ماء فيصرفه الله تعالى حيث يشاء، وينزله حيث يشاء: وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا [الفرقان:50] صرفناه يعني: جعلنا المطر على هذه الأرض أكثر، وعلى هذه أقل، كيف يشاء الله تعالى. إذاً: فليس للكواكب تأثير، فمن ادعى أن النجوم لها تأثير فإنه ممن يتدخل فيما لا يعنيه، ويقول

على الله تعالى بغير علم. قال النبي صـلى الله عليه وسـلم: (أربع من أمـتي من أمر الجاهلية لا يـــتركونهن: الفخر بالأحســـاب، والطعن في الأنســـاب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة) فالفخر بالأحساب: كـون الإنسـان يفتخر بآبائه وبأجداده الذين ماتوا، وقد ورد في الحديث: (لينتهين أقـوام يفتخـرون بآبـائهم الذين ماتوا أو ليكونن أهون على الله من الجعل)، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (لا فضل لعـربي على عجمي، ولا لأسـود على أبيض إلا بـالتقوى). والطعن في الأنسـاب: هو العيب فيـه، بـأن يقـول هـذا ليس ابنـاً لفلان، أو ليس من آل فلان، أو نحو ذلك. والاستسـقاء بـالنجوم: هو أن يقـال: مطرنا بنوء كذا وكذا، هذا النجم فيه كذا، وكان الجاهلية يقولون: هذا نوء كــذا وكذا، والنـوء: هو النجم الـذي ينـوء يعـني: يطلـع، فكـذبهم الله فقـال تعـالى: وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ [الواقعة:82] أي: الرزق الذي ينزله الله تعـالى على عبـاده تجعلونه من غــير اللــه، تجعلــون رزقكم الــذي سـخره الله لكم ورزقكم إياه، تجعلونه منسوباً لغـيره، فتنسـبونه إلى النـوء، وإلى النجـوم، ولا شك أن النجوم مذللة ومسخرة.

من الكهانة الخط في الرمل وضرب الحصى والاستقسام بالأنواء

الرمّال هو الذي يخط في الرمل، ويدعي معرفة الغيب به، فإذا جـاءه إنسـان ليستشيره، وقال: هل أفعل هذا أم لا أفعل؟ هل أسافر في هـذا اليـوم أم لا؟ هل أتزوج هذه المـرأة أم لا؟ هل أبيع هـذه السـلعة بهـذا الثمن أم لا؟ يقـول: دعني أخط لك، فيأتي بعصا، ويخط خطوطاً كثيرة في الرمل بسرعة حــتى لا يعرف حسابها، ثم يرجع فيمحو اثنين اثنين اثنين اثنين حتى ينظر الباقي، فـإن بقي خط قال: افعل، وإن بقي اثنان قـال: لا تفعـل، وهـذا بلا شك تـدخل في علم الغيب، ما هذه الخطوط؟ وما فائدتها؟ هي لا تـدل على صـواب، ولا على خطأ، وليست علامة على معرفة الأمـور المسـتقبلة، ولا على صـدق هـذا، ولا على كذبه. ومثله أيضاً الضرّاب بالحصى، يجمع عنده حصىً كثيرة، فإذا جــاءه إنســان يستشــيره، يأخذ منها ويــرمي ويــرمي إلى أن يجعل حصــىً كثــيراً متراكمــاً، ثم يأخذ منه حجــرين حجــرين حــتى ينظر هل يبقى واحد أم يبقى اثنـان، فـإن بقي واحد تفـاءل، وإن بقي اثنـان تشـاءم، وهو قــريب من فعل الرمّال الـذي يخط في الرمـل، وهـؤلاء كلهم من الـذين يتـدخلون في الأمـور الغيبيــة، ولا شك أنهم يقولــون على الله ما لا يعلمــون، وأنهم يــدعون معرفة الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله. وكذلك المستقسم بـالأزلام، وهي عبـارة عن حجارة كان أهل الجاهلية يستقسمون بها، فأبطلها الإسـلام، قـال الله تعـالى: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَـابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَـلِ الشَّـيْطَانِ [المائـدة:90]، فجعلها رجساً، والرجس: هو النجس، وقال تعـالى لما ذكر المحرمـات:

حُــرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَــةُ وَالــدَّمُ وَلَحْمُ الْخِــنزِيرِ [المائــدة:3] إلى قولــه: وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ [المائدة:3]، كان أهل الجاهلية يجعلـون هـذه الأزلام في كيس، فـإذا أرادوا أمـراً من الأمـور استقسـموا، فجـاءوا إلى ذلك الكيس فنقضـوه، ثم أخرجـوا منه واحـداً، فـإن خـرج الـذي يقـول لـه: افعـل؛ فعلوا، وإن خرج الذي يقول: لا تفعل؛ تركوا، وإن خرج المهمل الذي ليس فيه شيء؛ أعادوا تقليبها مرة ثانيةً، وهكذا؛ فأبطل الله تعالى ذلك، وفي الحـديث: (أنه صلى الله عليه وسـلم دخل الكعبـة، ورأى المشـركين قد صـوروا صـورة إبراهيم وإسماعيل وهما يستقسمان بالأزلام، فدعا بماء فمحا الصورة، وقال: قاتل الله المشركين. والله ما استقسما بها قط) يعـني: أن الله نـزه إبـراهيم وإسماعيل عن أن يعملا هذه الفعلة الجاهلية، فكل هذه من الأمور الـتي كـان يفعلها المشـركون، حـتى الجهلة في هـذه الأزمنـة؛ ليتوصـلوا بها إلى العلـوم المستقبلة.

حكم الكهنة

بعد أن عرفنا حال هؤلاء فنقول: على المسـلم أن يعـرف حكمهم، فهم كفـرة فجرة ضلال، وقد حكم الشرع بكفرهم، فثبت في الحـديث قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (ليس منا من تطـير أو تطـير لـه، أو تكهن أو تكهن لـه، أو سحر أو سحر له) ومعنى (ليس منا): يعـني ليس من المسـلمين، (من تكهن) يعـني: تعـاطى الكهانة أو (تكهن لـه): يعـني: ذهب إلى الكهـان يطلب منهم الإخبار بأمر من الأمور. وفي هذه الأزمنة كثر هؤلاء في هذه البلاد، وقد كـانوا قلة وأذلاء، والآن انتشروا، وانتشر السحر، وانتشر الكهان، وكثر شرهم، وكثر ضررهم، وإذا قيل: ما سبب فشوهم وكثرتهم وانتشـارهم؟ فنقـول: السـبب - والله أعلم- قلة العلم الصـحيح، وقلة الإيمـان، وقلة الأعمـال الصـحيحة الـتي يبطل بها كيدهم، ويبطل بها عملهم؛ وذلك لأن الكهنة والسحرة والمشـعوذين ونحوهم عملهم يتوقف على الشـياطين، فالشـياطين هي الـتي تمـدهم، وهي التي تخبرهم، وهي التي تعمل لهم، وهي التي تحركهم، وترفع وتخفض فيهم، وتتكلم على ألســنتهم، وتلابســهم، وتخــدمهم بما يريــدون، ومــتى تكــثر الشياطين؟ إذا كثر الخبث، إذا كـثرت المعاصـي، إذا ضـعف الإيمـان، إذا كـثر الزنا، وكثر الربا، وكثر الخنا، وكثر الغناء، وكثر الفسـاد، وكـثر اللهو والباطـل، وانشغل الناس بالشهوات، وقل الإيمـان وضـعف أهلـه، وضـعف المتمسـكون عن أن يقـاموا هـذه الأشـياء؛ عند ذلك تسـتولي الشـياطين وتسـتحوذ على أولئـك، ويقل نـزول الملائكة الـذين يسـددون المؤمـنين، والـذين يوفقـونهم، والـذين تنفر منهم الشـياطين، فـإن الملائكة كلما عمـرت مكانـاً هـربت منه الشـياطين، فـإذا كـثرت الشـياطين لم يكن هنـاك ملائكـة. إذاً: فشـوا هـؤلاء

بسبب كـثرة المعاصي الـتي تمكنت في كثـير من البلاد، فكـان من نتيجتها أن استحوذ الشياطين وأوليـاء الشـياطين من هـؤلاء السـحرة والكهنة على هـذه البلاد. ومعـروف أن السـحرة والكهنة يعبـدون الشـياطين، وقد حكم العلمـاء بكفرهم وبردتهم وبشركهم، وبينوا أنهم لا تقبل منهم التوبة، بل يبادر بأحـدهم فيقتـل، ولا يبقى لحظة واحـدة، ثبت أنه صـلى الله عليه وسـلم قـال: (حد السـاحر ضـربه بالسـيف)، وثبت أن عمر رضي الله عنه كتب إلى بجالة بن عبدة أن يقتلوا كل ساحر وساحرة، قال بجالة : فقتلنا ثلاث سواحر، وقد ثبت أيضـاً أن حفصة بنت عمر رضي الله عنها -وهي إحـدى أمهـات المؤمـنين- أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت؛ وذلك لأنها كانت دبرتها، يعـني: علقت عتقها بموتها، فحرصت تلك الجارية على أن تموت سيدتها حتى تعتق، فعملت لها سحراً واعترفت، فأمرت بها فقتلت. وكـذلك ثبت عن جنـدب الخـير رضي الله عنه أنه دخل على أحد خلفاء بني أمية، وكان عنده كاهن أو ساحر، وكـان ذلك الساحر يقطع رأس الإنسان ثم يرده والناس ينظرون؛ وذلك لأنه يشـعوذ ويزور على أعين الحاضرين، فيوهمهم أنه قطع الرأس، ولم يبق إلا الحنجـرة، ثم بعد ذلك يرده فيقوم سوياً. فيعجب الناس ويضـحكون، فجـاء جنـدب رضي الله عنه ومعه سـيف أخفـاه، واسـتعاذ باللـه، وقـرأ آية الكرسـي، فلما حـاذي الساحر ضربه بالسيف حتى قطع رأسه، وقال: فليحي نفسه إن كـان صـادقاً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (حد الساحر ضربه بالسـيف) أو قال هو: حد الساحر ضربه بالسيف، فهذا حده؛ لأنه تعاطى الكفر.

كفر السحرة وعبادتهم للشياطين

الساحر قد تعـاطى الكفـر، وقد سـمعتم أعمـال الكهنة والسـحرة، وهي تـدل على أنهم مشركون كفرة، فهم يتقربون إلى الشـياطين بما تحب حـتى تبطل عملها؛ فلأجل ذلك تخـدمهم هـذه الشـياطين، فمنهم من لا تخدمه الشـياطين حتى يترك الصلاة مدة؛ لأنه إذا تركها أصبح كافراً، فعند ذلك تحبه الشـياطين، وتقـترب منـه، وتتـولاه وتخدمه وتفعل له ما يريـده، وتتكلم على لسـانه، وتسترسل له حيث ما استرسل، ويستخدم منها ما يريـد، فيسـتخدم منها مائة أو ألفاً أو نحو ذلك، ويكونـون تحت طـوع إشـارته بسـبب كونه تسـلط عليهم بهـذه الأمـور الـتي اسـتولى بها عليهم، وما فعل ذلك إلا بعـدما كفر باللـه، وآخرون من الكهنة أو السحرة لا تخدمهم الشياطين حتى يـذبحوا لها قـرابين، والشيطان يقنع ولو باليسير، ولو يذبحون له ذباباً تعظيماً لـه، أو عصـفوراً، أو ديكاً، أو كبشاً، أو تيساً، أو نحو ذلك، فكل ذلك يقنع به الشيطان، ويكـون ذلك سبباً لأن يخدمه؛ وذلك لأنه عرف أن هذا السـاحر أو الكـاهن أصـبح مشـركاً؛ لأنه أشـرك باللـه، فلما أشـرك بالله خدمه الشـيطان. وكثـير من السـحرة

والكهنة يستدعون الشياطين، ويسألونهم عن أسمائهم، فيحفظ أسماءهم، فلان الجان، وفلان الشيطان، وبعد ذلك يهتف بأسمائهم، ويناديهم في أوقات فراغه، حتى إذا ألفوه، وعرفوا أنهم من أوليائه؛ صاروا طوع إشارته، فيخبرونه بما يريد، ويسترقون له السمع، وينزلون عليه، ويلابسونه، ويتكلمون على لسانه، ويخبرونه بالأمور الغيبية التي لا يعرفها الناس، وما أشبه ذلك. وآخرون من الكهنة أو السحرة لا تخدمهم الشياطين حتى يلابسوا النجاسات؛ وذلك لأن الشياطين تألف الأقذار، وتألف النجاسات، وتألف المستقذرات ونحوها؛ فلأجل ذلك أمرنا إذا دخلنا بيوت الخلاء أن نتعوذ بالله من شر الخبث والخبائث أي: ذكران الشياطين وإناثهم، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (استتروا من البول فإن الشياطين تلعب بمقاعد بني آدم) فالأماكن التي لا يذكر فيها الله مثل بيوت الخلاء تألفها الشياطين، فأولئك السحرة قد يلطخون أجسامهم وثيابهم بالنجاسات، وبالقاذورات، وبالعذرة، حتى تأتيهم الشياطين التي تحب هذه النجاسات، وتكون في خدمتهم، ثم توحي إليهم بأن يفعلوا كذا، ويفعلوا كذا، فمتى فعلوا هذه الأشياء أطاعتهم وخدمتهم وصارت في ولايتهم. فمثل هؤلاء لا شك أنهم كفار؛ لأنهم عبدوا غير الله تعالى، وقد أخبر الله بكفرهم في قوله تعالى: وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ [البقرة:102]، فجعل تعليم السحر كفراً، وجعله من عمل الشياطين، وأخبر عن الذين يعلمونه كهاروت وماروت وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ [البقرة:102]، فأفاد أن كل من تعلم السحر فإنه يحكم بكفره؛ ولأجل ذلك يقول العلماء: إذا عثر على ساحر، فإن الصحيح أنه يقتل ولا يستتاب؛ وذلك لأنا لا نعلم حقيقة توبته، فقد يقول الساحر والكاهن: إني تبت، ولكن قلبه مضمر على ما هو عليه من العمل، وشياطينه الذين يخدمونه ملازمين له، لا ينفكون عنه، فإذن هو في الحقيقة كافر. ومن بعض أفعال هؤلاء الكهنة وخدمة الشياطين أنهم يحملون الإنسان من مكان بعيد، ويقطعون به المسافات الطويلة، أو يأتونه مثلاً بعسيب نخل فيقولون له: اركب على هذا العسيب، والعسيب لا يحمل شيئاً، فيطيرون به على العسيب إلى أن يبلغ المكان الذي يريد، وقد يكون مسيرة شهر أو أشهر! هل معقول أن الإنسان يركب العسيب وأن الكاهن يركبه؟ لا شك أن الذي يفعل ذلك هم الشياطين التي أجسامها أو أرواحها خفيفة، فتحمل هذا بسرعة، وتقطع به هذه المسافات، وهي لا تفعل ذلك إلا لأوليائها الذين صاروا من خدمها، فهؤلاء بلا شك خدم للشياطين، فعلينا أن نعرفهم ونبتعد عنهم، وأن نعرف أن كل من قرب منهم فإنه يعطى حكمهم.

اختلف الناس في حقيقة السـحر، كما اختلفـوا في حد السـاحر، وقد نوقشت الأدلة في ذلك وهي على كل حـال دالة على خبث السـحرة وانسـلاخهم عن ركب المتقين.

براءة أهل السنة من السحرة والكهنة

أهل السـنة بريئـون من السـحرة والكهنة والمنجمين، وبريئـون من أفعـالهم؛ وذلك لأنهم يحكمـون عليهم بـالحكم الشـرعي، وهـو: الشـرك والكفـر، وقد كفرهم الله تعالى بقوله تعالى: وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ [البقرة:102]، وبقوله تعالى: وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَـهُ فِي الآخِـرَةِ مِنْ خَلاقٍ [البقرة:102]، (من اشتراه) يعني: من تعلم السحر، وبـذل فيه دينه أو بذل فيه عقيدتـه، فليس له عند الله من خلاق أي: من حظ ولا نصيب. ولأجل ذلك وردت السنة بقتل السحرة والكهنة ونحوهم، ورد في الأثر: (حد السـاحر ضربه بالسيف)، ومجموعة من الصحابة قتلوا الساحر، فــعمر كتب إلى بجالة أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، وجندب الخـير قتل السـاحر، و حفصة بنت عمر أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت؛ وذلك لأن هؤلاء اعتبروا السـحر كفـراً، واعتبروه ردةً، واعتبروه شـركاً. وقد اسـتدل بهـذا على أن عمل السـحر كفر وردة، وأنه يقتل ولا تقبل له توبة في الـدنيا، بمعـنى أنه يحكم بقتله ولو قـال: إني تبت، وإني ندمت، وإني سأترك العمل؛ لأن ذلك ليس بيقين حـتى يصـدق في قوله، فيقتل حداً؛ لعمـوم الأثـر: (حد السـاحر ضـربه بالسـيف)، والحد هو العقوبة الشرعية التي لا تغير ولا تسـقط بالتوبـة، فـإن الـزاني لا تسـقط عنه عقوبة الرجم أو الجلد ولو قال: إني تبت، وكذلك السارق تقطع يده ولو قـال: إني تبت الآن، وكذلك بقية الحدود، وهكذا حد السـاحر، وكـذلك الكـاهن الـذي يخـبر بالمغيبـات، أو يخـبر بما في الضـمير، أو يـدعي معرفة العلـوم المغيبة بمقدمات يستدل بها على مكان الضالة وعلى المسروق، فيأتيه من فقد ضالة له فيقول: تجده في الشـعب الفلاني، في المكـان الفلاني، فيخـبره شـيطانه، وكذلك يأتيه من سرق منه مال، فيصف له السارق، ويقول: مالك في المكان الفلاني، وقد سرقه شخص صفته كـذا وكـذا، تخـبره شـياطينه بـذلك. فهـؤلاء كفرة، وقد كفر النبي صلى الله عليه وسلم من يصدقهم، فهم أولى بالتكفير، قال صلى الله عليه وسلم: (من أتى كاهناً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً)، وقال صلى الله عليه وسلم: (من أتى كاهنـاً فصـدقه بما يقـول فقد كفر بما أنــزل على محمــد)، وقد عرفنا أن هــؤلاء كفــرة؛ وذلك لأنهم مشركون؛ لأنا نعرف أنهم بشر مثلنا، ولا يمكن أن يعلموا الغيب، ولا يمكن أن يطلعـوا على الأسـرار كما لا نعرفها نحن، فلا بد أنهم يسـتخدمون الشـياطين حتى تخبرهم بما غاب عنهم، فالشياطين تطلع على ما لا يطلع عليه الإنسـان، وكذلك مـردة الجن يطلعـون لخفة أجسـامهم على أشـياء لا يعرفها الإنسـان،

فيقطعون المسافات الطويلة في زمن قصير لخفة أجسادهم، وكذلك يرون أشياء لا نراها، ونحن لا نراهم وهم يروننا، قال تعالى في الشيطان وجنده: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ [الأعراف:27]، وهم لخفتهم يجري أحدهم في بدن الإنسان، يقول صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم) أي: يجري في جسده، ويجري خلال لحمه ودمه، يجري مع عروقه، ويمشي في عروقه، ويسير فيه، وهذا هو سبب أنه يوسوس في صدور الناس، ويلقي في القلوب الوساوس للإنسان فيقول له: اذكر كذا، ويشككه في أمور الغيب، وفي أمور الساعة، وما أشبه ذلك. فهؤلاء لما أطاعوا الشياطين وخدموها وعبدوها خدمتهم، فمن خدمها خدمته، ومعلوم أن الشياطين تحرص على إضلال الإنسان، وتحرص على أن توقعه في الكفر؛ لأن الشيطان عدو للإنسان، وقد أخبر الله عن إبليس أنه التزم أن يضل الناس، وأن يصدهم عن الهدى، قال الله تعالى عن إبليس: لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء:62]، ويقول: ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [الأعراف:17]. فهذا التزام عدو الله، فأخبر الله عنه بأنه التزم وتهدد بأن يضل جنس الإنسان، حتى لا يبقى أكثرهم شاكراً بل كافراً، وهؤلاء الكهنة والسحرة ونحوهم لما عبدوا هذا الشيطان، وتقربوا إليه، وذبحوا له، ودعوه مع الله أو من دون الله، عند ذلك أطاعهم عدو الله، وأظهر لهم ما لم يظهره لغيرهم، فانخدع الجهلة بهم، واعتقدوا أنهم مكرمون، واعتقدوا أنهم على صواب، وأن هذه ميزة لهم، وخارق عادة، وأنهم أفضل من غيرهم، حيث يخبرون بأمور لم تحصل فتقع، ويخبرون عن أشياء بعيدة فتعرف حالتها وأين هي، وأشباه ذلك، وما علموا أن هذا من الشياطين، وأن الشياطين لا تطيعهم إلا إذا صرفوا لها حق الله تعالى، ومن صرف لها شيئاً من حق الله فقد عبدها مع الله تعالى. ......

حكم التنجيم وتعلمه

قال المصنف رحمنا الله وإياه: [وصناعة التنجيم التي مضمونها الأحكام والتأثير -وهو: الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمزيج بين القوى الفلكية الأرضية- صناعة محرمة بالكتاب والسنة، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين قال تعالى: وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى [طه:69]، وقال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوت [النساء:51]. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره: الجبت السحر. وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان لأبي بكر غلام يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام: تدري مم هذا؟ قال: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته، فلقيني، فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه). والواجب على ولي الأمر وكل قادر أن يسعى في إزالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين، وأصحاب

الضـــرب بالرمل والحصـــى، والقـــرع والفـــالات، ومنعهم من الجلـــوس في الحوانيت والطرقـات، أو يـدخلوا على النـاس في منـازلهم لـذلك، ويكفي من يعلم تحريم ذلك ولا يسعى في إزالته -مع قدرته على ذلك- قوله تعالى: كَانُوا لا يَتَنَـاهَوْنَ عَنْ مُنكَـرٍ فَعَلُـوهُ لَبِئْسَ مَا كَـانُوا يَفْعَلُـونَ [المائـدة:79]، وهـؤلاء الملاعين يقولون الإثم، ويأكلون السحت بإجماع المسلمين. وثبت في الســنن عن النبي صلى الله عليه وسـلم برواية الصـديق رضي الله عنه أنه قـال: (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منـه)]. التنجيم من الأعمـــال الشـــيطانية، وهو الاســتدلال بـــالأحوال الفلكية على الحـــوادث الأرضية، بمعنى أنه يقول: طلـوع النجم الفلاني سـبب لحـدوث ريـاح، وسـبب لحـدوث غـرق، أو لجـدب أو لخصـب، أو لوبـاء أو مـرض، أو إذا غـاب النجم الفلاني حدث في البلدة الفلانية فيضـان أو غـرق أو زلـزال أو ما أشـبه ذلـك، وهـذا فعل كثـير من المنجمين، ويغلب عليهم أنهم شـبه السـحرة؛ وذلك لأن النجوم مسخرة مسيرة بأمر الله، ليست دليلاً على شـيء مما يقولـون، روى البخـاري رحمه الله عن قتـادة قـال: (خلق الله النجـوم لثلاث: زينة للسـماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن ادعى فيها غير ذلك فقد أخطـأ، وأضاع نصيبه من الـدنيا، وتكلف ما لا علم له بـه)، يـرد قتـادة على المنجمين الـذين يسـتدلون بطلـوع النجـوم على الحـوادث الـتي تحـدث في الأرض من العاهات والمصائب، ومن الأمطار والخيرات، ومن العقوبات ونحوها، وما ذاك ألا أن النجوم لا تحدث شيئاً بنفسـها، بل الله تعـالى جعلها مسـخرة كما قـال الله تعالى: وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ وَالنُّجُـومُ مُسَـخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ [النحل:12]، وقال تعالى: وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ [النحل:16] أي: يقتدون في طرقهم، وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَـاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ [الأنعام:97] (لتهتدوا) يعـني: أنكم تسـتدلون بها على الجهة الـتي تريدونها، وتعرفون أي جهة تقصـدونها، فجعلها الله علامـات ليهتـدى بهـا، كما جعلها زينة في قوله تعالى: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الـدُّنْيَا بِمَصَـابِيحَ [الملـك:5] أي: بهذه النجوم، وقال تعالى: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَـوَاكِبِ [الصـافات:6] والكـواكب الـتي في هـذه السـماء هي زينة لهـا، فـإذا كنت في ليلة مظلمة ونظرت إلى السماء ترى نجومها تزهر في كل جـانب، كالسـرج تضـيء، فهي زينة للسماء. كذلك أيضاً أخبر الله تعالى بأنها رجوم ترجم بها الشــياطين عن استراق السمع، كما قال تعـالى: إِلَّا مَنِ اسْـتَرَقَ السَّـمْعَ فَأَتْبَعَـهُ شِـهَابٌ مُبِينٌ [الحجر:18] والشهاب: هو هذا الذي يرمى به في الليلة الظلماء، فإذا أبصرته منقضاً فقد رمي به شيطان أو مسترق للسمع، وقـال تعـالى عن الجن: فَمَنْ يَسْـتَمِعِ الآنَ يَجِـدْ لَـهُ شِـهَابًا رَصَـدًا [الجن:9]، وقـال تعـالى: وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّـيَاطِينِ [الملـك:5] أي: يرجمـون بهـا، فهـذه هي الحكمة في وجـود هـذه النجوم، فأما الذين يدعون فيها أنها تدل على وجود خير أو زواله، أو تدل على حدث أو أمر مستقبل.. أو نحو ذلك، فإن هذا من التكلف. والنجـوم يعـرف بها مواقيت الشتاء والصيف، والغراس والزروع.. ونحو ذلك؛ وذلك لأن الله تعالى قدر لها مواقيت، فهناك نجـوم تطلع في الشـتاء، فـإذا رآها النـاس عرفـوا أن هذا وقت زراعة البر ونحوه، ونجـوم تطلع في الصـيف، فـإذا رأوها عرفـوا أن

هذا وقت يبذر فيه كـذا وكـذا، ويغـرس فيه كـذا وكـذا، أو يعرفـون بها دخـول الشتاء أو انسلاخه، أو دخول البرد وإقباله أو انتهاءه، أو دخول الحر أو إقباله.. أو نحو ذلــك، فتعلم هــذا لا بــأس بــه؛ لأنها مــواقيت، كما أن الليل والنهــار مواقيت، وكما أن الأشهر والأهلة مواقيت، فكذلك طلوع النجوم والبروج التي جعلها الله في السماء، قال تعالى: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ [الـبروج:1]، وقـال: وَلَقَـدْ جَعَلْنَا فِي السَّـمَاءِ بُرُوجًا [الحجـر:16]، وقـال: تَبَـارَكَ الَّذِي جَعَـلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا [الفرقان:61]، فهذه البروج التي هي منـازل الشـمس، وهـذه الأنـواء أو النجـوم الـتي هي منـازل القمر كما في قـول الله تعـالى: وَالْقَمَـرَ قَـدَّرْنَاهُ مَنَـازِلَ [يس:39] أي: يـنزل في كل ليلة منزلـة؛ لا شك أنها خلق الله تعالى، فتعلم منازل القمر وتعلم منازل الشـمس ومعرفة أحـوال كل منهما لا يدخل في التنجيم المحرم، إنما التنجيم المحـرم هو أن يسـتدل بطلـوع النجم الفلاني على أنه سوف يحدث كذا وكذا من الآفات، أو ما أشبه ذلك، فهذا من التدخل في علم الغيب، والله تعالى يقول لنبيه صـلى الله عليه وسـلم: عَـالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَـدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَـى مِنْ رَسُـولٍ [الجن:26-27] فلا يدخل في ذلك الكهنة ونحوهم.

وجود السحرة والكهنة منذ عهد الصحابة

السـحرة والكهنة منتشـرون ومتمكنـون منذ زمن قـديم؛ فالشـارح رحمه الله في القـرن الثـامن يشـتكي من كـثرتهم، وأنهم قد أضـروا بالنـاس بأعمـالهم الشيطانية، ويحرض من يعرف إنساناً يتعـاطى السـحر أو يتعـاطى الكهانة أن يدل عليه، وأن يخبر به، وأن ينكر فعلـه، أو ينبه من ينكر فعلـه؛ فـإن هـذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل ومن تغيير المنكر الواجب تغييره على كل من علمه، ويستدل بقوله صلى الله عليه وسـلم: (إن المعصـية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا ظهرت ولم تغير ضرت العامـة)، ويـذكر أن الصـحابة رضي الله عنهم كـــانوا ينكـــرون على الكهنة ويستبشـــعون صـــناعتهم، ويستشـنعون أفعـالهم، فهـذا أبو بكر رضي الله عنه كـان له غلام مملـوك لم يكن بحاجة إلى خدمته، فجعله يشتغل، فكان يقول له: اذهب واحـترف واجمع لنا مالاً وخراجاً، فكـان يأكل من خراجـه، يعـني: من كسـبه وكد يمينـه، فجـاء ذلك الغلام مرة بمال أخـذه من تكهن، وأخـبره بأنه خـدع إنسـاناً بالكهانة في الجاهلية وقـال: إني أعلم كـذا، وإنك مصـاب بكـذا وكـذا، فلقيه ذلك الرجل فأعطاه حلواناً، يعني: مالاً عن كهانته، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد عـرف تحريم الكهانة، وعـرف أن حلـوان الكـاهن خـبيث، فلما سـمع من غلامه هـذه القصة، وأن هذا المال الذي أكل منه سـحت وحـرام، وأنه حلـوان كـاهن وهو خــبيث، لم يقر قــراره وذلك الطعــام في بطنــه، بل أدخل إصــبعه في حلقه

فاستخرج كل ما أكله ذلك اليوم، حتى لا يكون في غذائه ولو لقمة من حرام، أو من مشـتبه، ولو كـان معـذوراً؛ لأنه قد يقـول: إثمه على من كسـبه، وهو معـذور لأنه قد يقـول: ما شـعرت حين أكلته ولا علمت أنه محـرم؛ أو معـذور لأنه قد يقـــول: إنه دفعه عن طيب نفس، ولكن لم تقبل نفسه مثل هـــذه التأويلات حتى استخرج ذلك الطعـام، بل أخـرج كل ما أكله ذلك اليـوم، وهـذا دليل على بعد الصـحابة رضي الله عنهم عن المشـتبهات وعن المحرمـات، ودليل على أنهم يعرفون أن الكهنة كاذبون، وأن كسبهم حـرام، وأن إقـرارهم حرام؛ وذلك لأن الله تعالى كذبهم، وأخبر بأنهم يأخذون من الشياطين، فقـال تعـالى: هَـلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَـزَّلُ الشَّـيَاطِينُ * تَنَـزَّلُ عَلَى كُـلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ [الشعراء:221-223] أي: يتلقـون السـمع من الشياطين التي تُلقي عليهم، وأكثر الشياطين تكذب عليهم، وهم يكذبون على الناس. فإذاً: الكهنة عبدة للشياطين، وإذا كـانوا يعبـدون الشـياطين فلا يجـوز أن نقرهم؛ لأن إقـرارهم تمكين لهم من عبـادة غـير اللـه، وكـذلك إقـرار لهم على الشـرك وعلى المنكـر، فمـتى قـدرنا فإننا نحـاربهم، ونحـرص على أن نقضي على قـوتهم، وعلى معنويـاتهم. وإذا كـانوا كثـيراً في زمن المؤلف ابن أبي العز رحمه اللـه، فكيف بزماننا الـذي هو القـرن الخـامس عشـر، والـذي اسـتحكمت فيه غربة الإسـلام إلا ما شـاء اللـه، والـذي كـثرت فيه الكهنة والسـحرة والشـعوذة، وتمكن فيه الأشـرار، وصـاروا قـادة وسـادة يفعلـون بالأبرياء ما يريدونه؟!

الواجب تجاه السحرة والكهنة

واجبنا تجاه السحرة والكهنة أن نحاربهم بقدر ما نستطيع، وكثـيراً ما يشـتكي لنا بعض الإخوان بأنهم أصيب منهم شخص بسحر، أو أصـيب بعمل شـيطاني، أو تسلط عليه جني، وأخبر بأن الذي سخره ساحر متشيطن متسلط، وأشـباه ذلك. ويذكرون أن الساحر مـتى تمكن من السـحر فإنه يسـخِّر له جنـوداً من الشـياطين ومن الجن، فالشـياطين يدلونه ويخـبرون بـالأمور الغائبة ونحوهـا، والجن يتصرف فيهم، فيسـلطهم على من يريـد، فيقـول: -أنت يا هـذا- اذهب إلى فلان فلابسه، أو إلى فلانة فتلبس بها، ولا تخـرج منها أبـداً، وحـاول أنك لا تخـرج إلا بعد مـوت هـذا الإنسـان، فـإذا نطق ذلك الجـني الـذي تلبس بـذلك الإنسان، ذكر أنه لا يستطيع أن يخـرج ولو قـرأ عليه القـارئ، ولو عالجـه، ولو نفث عليه، ولو تضرر من القراءة؛ لأنه مسخر، من الذي سـخرك؟ ومن الـذي سلطك؟ فيدل عليه، ويقـول: سـلطني السـاحر الفلاني الـذي تحت سـيطرته ألف جني أو خمسة آلاف أو خمسمائة من الجن، وهؤلاء كلهم تحت تسـخيره، وتحت سـلطته، فكيف تمكن منهم؟! وكيف اسـتعبدهم؟! تقربـوا إليه وتقـرب

إليهم، حتى أخذ بطاعتهم، وتعهدوا أنهم لا يخرجون عن طواعيته، ولا يستطيع أحدهم أن يعصيه، فمتى أشار إليه أن تسلط على فلان أو فلانة لم يستطع التأخر. ومتى يبرأ هذا الذي أصيب بهذا المس؟ ومتى يبرأ هذا الذي أصيب بهذا الجنون؟ الغالب أنهم لا يبرءون حتى يموت ذلك الجني الذي لابسه، وكثير من القراء الذين يقرءون على أولئك المصابين يقرءون بشدة، وينفثون بشدة، ويستعملون أدعية وآيات من القرآن فيها شيء من القوة، فذلك الجني الذي لابس ذلك الإنسي يكاد أن يحترق ولا يستطيع الخروج، فأحياناً يموت وهو ملابس لذلك الإنسي، وبعد موته يفيق الإنسي بإذن الله سليماً، ويقول: أين أنا؟! لأنه لا يدري أين هو قبل ذلك، وإذا قيل لذلك الجني: لماذا لا تخرج؟ يتعذر ويقول: إني لا أستطيع حتى تقتلوا ذلك الساحر الذي سلطني عليه، ولو متُّ ولو خرجت فإنه سيسلط عليه مثلي آخر وآخر؛ لأن تحت طواعيته هذا العدد الكثير، فاذهبوا فاقتلوا ذلك الساحر، حتى تريحوا أنفسكم، وحتى أخرج أنا براحة بدون أن تكرهوني، وأتخلص منكم وتتخلصون مني، هكذا يتكلم كثير من الجن على ألسنة من لابسوه. ونقول: لا شك أن هذا الساحر الخبيث الذي سخر هؤلاء الجن ما سخرهم إلا بعد ما استعبدهم، وبعد ما تقرب إليهم، وبعد ما أخذ عليهم العهد، وبعد ما عبدهم مع الله، أو عبد الشياطين حتى ذللتهم لطواعيته. إذاً: ما واجبنا نحو هؤلاء السحرة الذين يعيثون في الأرض فساداً، والذين يسلطون الجن على الأبرياء من الرجال والنساء؟ وقد يتظاهرون بأنهم لا يعملون ذلك، وربما يأتي أحد ضعفاء الإيمان إلى الساحر فيقول: أريد أن تسلط على فلان أو فلانة كذا وكذا! لا شك أن مثل هؤلاء يجب أن يحاربوا؛ حتى يخف شرهم، وحتى يُقطع دابرهم، وأما إذا بقوا فإنهم يزيدون ويزيد شرهم ويتمكنون، ويصعب بعد ذلك التخلص من شرهم. ونحن نعرف أن هناك من وفقهم الله تعالى من أهل الخير ومن أهل الدين وأهل المعرفة يعالجون مثل هذه الإصابة الشيطانية، فيعالجون من إصابة المس، ويعالجون من إصابة السحر والصرف والعطف ونحو ذلك، ويشفي الله على أيديهم خلقاً كثيراً، ولكن هناك أحوال شيطانية تستعصي، ويصعب تخليصها إلا بقتل الجان، أو بقتل الساحر، فلو تعاون الأهالي على كل من عرفوا أنه ساحر، أو أن أنها ساحرة، وقضوا عليهم وقتلوهم؛ لاستراح منهم العباد والبلاد.

أنواع السحرة

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة أنواع: نوع منهم: أهل تلبيس وكذب وخداع، الذين يظهر أحدهم طاعة الجن له، أو يدعي الحال من أهل المحال، من المشايخ

النصابين، والفقراء الكاذبين، والطرقية المكـارين، فهـؤلاء يسـتحقون العقوبة البليغة التي تردعهم وأمثالهم عن الكذب والتلبيس. وقد يكـون في هـؤلاء من يستحق القتل، كمن يدعي النبوة بمثل هذه الخزعبلات، أو يطلب تغيير شـيء من الشـريعة، ونحو ذلـك. ونـوع: يتكلم في هـذه الأمـور على سـبيل الجد والحقيقة بأنواع السحر. وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر، كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في المنصوص عنـه، وهـذا هو المـأثور عن الصـحابة كـعمر وابنه وعثمان وغيرهم. ثم اختلف هؤلاء: هل يسـتتاب أم لا؟ وهل يكفر بالسحر أو يقتل لسعيه في الأرض بالفسـاد؟ وقـال طائفـة: إن قتل بالسـحر يُقتـل، وإلا عُـوقب بـدون القتل إذا لم يكن في قوله وعمله كفـر، وهـذا هو المنقول عن الشافعي ، وهو قـول في مـذهب أحمد . وقد تنـازع العلمـاء في حقيقة السحر وأنواعه: والأكثرون يقولـون: إنه قد يـؤثر في مـوت المسـحور ومرضه من غير وصـول شـيء ظـاهر إليـه. وزعم بعضـهم أنه مجـرد تخييـل. واتفقوا كلهم على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب السـبعة، أو غيرهـا، أو خطابهـا، أو السـجود لهـا، والتقـرب إليها بما يناسـبها من اللبـاس والخـواتم والبخور ونحو ذلك فإنه كفر، وهو من أعظم أبواب الشـرك؛ فيجب غلقـه، بل سده، وهو من جنس فعل قوم إبراهيم عليه الصـلاة والسـلام؛ ولهـذا قـال ما حكى الله عنه بقوله: فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَـقِيمٌ [الصـافات: 88-89]، وقال تعالى: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا.. [الأنعام:76] الآيـات إلى قوله تعـالى: ..الَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يَلْبِسُـوا إِيمَـانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَـدُونَ [الأنعـام:82]. واتفقـوا كلهم أيضـاً على أن كل رقية وتعـزيم أو قسم فيه شرك بالله فإنه لا يجوز التكلم بـه، وإن أطاعته به الجن أو غـيرهم، وكـذلك كل كلام فيه كفر لا يجـوز التكلم بـه، وكـذلك الكلام الـذي لا يعـرف معناه لا يتكلم به؛ لإمكان أن يكون فيه شرك لا يعرف، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسـلم: (لا بـأس بـالرقى ما لم تكن شـركاً). ولا يجـوز الاسـتعاذة بـالجن، فقد ذم الله الكـافرين على ذلك فقـال تعـالى: وَأَنَّهُ كَـانَ رِجَـالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَـزَادُوهُمْ رَهَقًا [الجن:6] قـالوا: كـان الإنسي إذا نزل بالوادي يقول: أعوذ بعظيم هذا الـوادي من سـفهائه، فيـبيت في أمن وجـوار حـتى يصـبح: (فَـزَادُوهُمْ رَهَقًـا) يعـني: الإنس للجن باسـتعاذتهم بهم، (رهقـاً) أي: إثمـاً وطغيانـاً وجـراءة وشـراً؛ وذلك أنهم قـالوا: قد سـدنا الجن والإنس! فـالجن تعـاظم في أنفسـها وتـزداد كفـراً إذا عاملتها الإنس بهـذه المعاملة، وقد قـال تعـالى: وَيَـوْمَ يَحْشُـرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُـولُ لِلْمَلائِكَـةِ أَهَـؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَـانُوا يَعْبُـدُونَ * قَـالُوا سُـبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَـلْ كَـانُوا يَعْبُـدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ [سبأ:40-41]، فهؤلاء الذين يزعمون أنهم يـدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم وأنها تنزل عليهم ضالون، وإنما تنزّل عليهم الشـياطين، وقد قـال تعـالى: وَيَـوْمَ يَحْشُـرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَـرَ الْجِنِّ قَـدِ اسْـتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنسِ وَقَـالَ أَوْلِيَـاؤُهُمْ مِنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْـتَمْتَعَ بَعْضُـنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَـالَ النَّارُ مَثْـوَاكُمْ خَالِـدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَـاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [الأنعام:128]، فاستمتاع الإنسي بالجني: في قضاء حوائجه، وامتثـال أوامـره، وإخبـاره بشـيء من المغيبـات ونحو ذلـك، واسـتمتاع الجن

بالإنس: تعظيمه إياه، واستعانته به، واستغاثته، وخضوعه له. ونوع منهم: يتكلم بالأحوال الشيطانية والكشوف، ومخاطبة رجال الغيب، وأن لهم خوارق تقتضي أنهم أولياء الله، وكان من هؤلاء من يعين المشركين على المسلمين! ويقول: إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين؛ لكون المسلمين قد عصوا!! وهؤلاء في الحقيقة إخوان المشركين].

قتل الساحر

ذكر المؤلف الخلاف في عدة مسائل منها: هل يقتل الساحر مطلقاً أو لا يقتل إلا بعد أن يستتاب؟ الأكثرون على أنه يقتل ولا يستتاب، وهذا هو قول الجمهور. والشافعية رحمهم الله رأوا أنه يستفصل عن سحره ويستتاب، أو أنه لا يقتل إلا إذا قتل بسحره، لكنه لما ثبت عن الصحابة أنهم قتلوا الساحر ولم يستتيبوه دل ذلك على أن هذا هو حكمه، وأنه لا تقبل توبته، وأن توبته إنما تكون بينه وبين ربه.

الخلاف في حقيقة السحر

هل للسحر حقيقة أم أنه خيالات؟ أنكرت المعتزلة أن يكون للسحر حقيقة، وأنكر ذلك أيضاً كثير من المتأخرين الذين ينكرون من العلوم غير ما تصل إليه إحساساتهم. والصحيح أن له حقيقة؛ ولولا ذلك لم يحتج إلى الاستعاذة من السحرة، قال الله تعالى: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ [الفلق:1-4] النفاثات: السواحر، وورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك)، ويذكر العلماء أن الساحر أو الساحرة إذا أراد أحدهما عمل سحر فإنه يأخذ خيطاً أو حبلاً، ثم يعقد فيه عقدة، ثم تكون نفسه قد امتزجت بها الصفات الشريرة، وتلبست بها الشياطين، وأصبحت ذات شر وذات أذى، فإذا تمثلت فيها تلك الصفة نفثت نفثاً من ذلك الريق المسموم، فأوقعتها في ذلك الحبل أو الخيط، وعقدت عليها، وتكلمت بكلام سيئ، بأن تقول: يُعقد فلان، أو يُضر فلان.. أو نحو ذلك، فهذا من عمل السحرة؛ فمن عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ولو كان السحر ليس له حقيقة لما استعيذ من شره؛ لأنه لا يضر، وكذلك قد أخبر الله

تعالى بشيء من ضررهم فقال تعالى: فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ [البقرة:102]، فهم يفرقون بين المرء وزوجه، وهذا يُسمى بالصرف، وهناك أيضاً ما يُسمى بالعطف، فالسحرة من أعمالهم الصرف وهو: وقوع البغضاء بين المتحابين، والعطف وهو: جلب المودة بين المتقاطعين والمتباغضين، وهذا الذي يُسمى الصرف أو العطف كله عمل شيطاني، وتوصلهم إلى ذلك بأدوية أو بعلاجات لا شك أنها من وحي الشياطين، فهي التي تدلهم على أن النفث في الدواء الفلاني يسبب فرقة، ويسبب بغضاء بين فلان وفلانة، فإذا رأى زوجين بينهما عشرة طيبة حاول أن يفرق بينهما، فعمل ذلك السحر الذي يوقع عداوة من كل منهما للآخر، وهذا مشاهد كثيراً، وقد اشتكى إلينا كثير من الرجال بأنه إذا دخل بيته أو رأى امرأته وجد نفرة، ووجد ضيقاً، ووجد حشرجة، ووجد تكتماً؛ بحيث يكون في غم، وفي ضيق، وكأنه في سجن أشد ما يكون، ولا تستريح نفسه حتى يفارق بيته، أو يصد عن امرأته. وكذلك أيضاً يقع كثيراً حبس الرجل عن امرأته؛ بحيث إنه لا يستطيع إتيانها، ويفعل ذلك أيضاً السحرة، فيكون الرجل على هيئته وقوته، فإذا قرب من امرأته لوطئها بردت همته، وهو على خلاف ذلك، ولا يدري ما السبب، إلا أنه من عمل هؤلاء السحرة! إذاً: فهذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يؤثر ويضر، وأما ما روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنه قالت: (سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، ثم إنه سأل ربه وسأله، فقال: يا عائشة ! أشعرت أن الله شفاني؟ إني قد أتاني ملكان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال: ما بالرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم ، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر في بئر ذروان، فذهب إلى تلك البئر فاستخرج السحر منها، وإذا ماؤها مثل نقاعة الحناء، وإذا نخلها كرءوس الشياطين) فشفاه الله تعالى. يقول العلماء: هذا العمل الذي عمله لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر عمل خفي فيما بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين امرأته، بمعنى: أنه حبس عنها، ولأجل ذلك في بعض الروايات تقول: (حتى أنه يخيل إليه أنه يأتي النساء وما يأتيهن)، وأما في مجال الرسالة وفي مجال تبليغ الرسالة فلم يتغير شيء من عقله؛ وذلك لأن الله تعالى حفظه عن أن يناله السحرة بشيء يضر فيما يتعلق برسالته، فهذا أيضاً دليل على أن السحرة قد يؤثرون في بعض الأمور، فأثر هذا الساحر، ولكن أبطل الله كيده، كما أن اليهود أرادوا أن يقتلوه بسم جعلوه في شاة لهم، ولكن الله حماه عن أن يضره ذلك السم. وبكل حال فهذه أدلة على أن للسحر حقيقة، وأنه يضر، وأن الساحر قد يتمكن من سحره، ويقلب الإنسان حيواناً، أو الحيوان إنساناً، ولكن كيف يقلب الإنسان دابة، أو وحشاً، أو وعلاً، أو سبعاً.. أو نحو ذلك؟ نقول: يسلط عليه جنياً، ومعلوم أن الجني يتشكل بأشكال، فتارة يظهر بصورة سبع، وتارة يظهر بصورة إنسان، وتارة يظهر بصورة كلب، وتارة يظهر بصورة هامة، وتارة يظهر بصورة بقرة؛ لأن الله أعطاه من القدرة على التشكل في هذه الأجسام ما أعطاه، فإذا سلط الساحر شيطاناً على ذلك

الإنسان، وقال له: اخرج بصورة حمار، أو بصورة كلب، أو بصورة كــذا، لابسه ذلك الشـيطان، وانقلبت هيئته إلى ما يريـده ذلك السـاحر، ولا يبطل عمله إلا بعدما يشفى -بإذن الله- بالقراءات والتعوذات التي تبطل عمل السحرة. وبعد ذلك نقـول: هـذا يبطل قـول من قـال: إن السـحر شـعوذة، كالمعتزلة الـذين يقولـون: إن السـحر ليس له حقيقـة، وإنما هو تخيلات، ويسـتدلون بما حكى الله عن السحرة الذين جادلوا موسى، قال الله تعالى: فَإِذَا حِبَـالُهُمْ وَعِصِـيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْـهِ مِنْ سِـحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْـعَى [طـه:66] فقولـه: (يخيل إليـه) أي: أنهم جاءوا بعصي فألقوها فإذا هي تتحرك كأنها حيات، وكذلك ألقوا حبالاً فـإذا هي تتحـرك، ولما أن ألقى موسى عصـاه فـانقلبت حية قـالوا: نحن نلقي عصـينا وتنقلب حيـات، ونلقي حبالنا وتنقلب حيـات، فيقولـون: ذلك خيـال، ولكن قد يتمكنون من أن يسخروا بعض الشياطين التي تتحـرك أمـام النـاظرين، ولكن بطل كيدهم لما جاء الحق، قـال تعـالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَـى أَنْ أَلْـقِ عَصَـاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَـفُ مَا يَـأْفِكُونَ * فَوَقَـعَ الْحَـقُّ وَبَطَـلَ مَا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ * فَغُلِبُـوا هُنَالِـكَ وَانقَلَبُـوا صَـاغِرِينَ [الأعـراف:117-119] أي: أن موسى ألقى عصـاه فالتقمت عصيهم وحبالهم كلها، وعادت عصاً كما كـانت، فعـرف السـحرة أن هذا ليس عملاً شيطانياً، وأنه أمر رحماني، فعند ذلك أُلقي السحرة ساجدين، فبطل سحرهم، وعرفوا أحقية ما جاء به موسى.

يشرع للمسلم أن يتحصن من السحرة والشياطين بالأذكار والأوراد الشرعية، وقد بين العلماء علاج السحر والمس بالطرق الشرعية.

سبب انتشار السحرة والكهان والمشعوذين

إن السحرة والكهنة والمشعوذين والمنجمين والعرافين هم خدمة الشياطين، أو هم رسل الشياطين، أو هم من شياطين الإنس الذين يخدمون شياطين الجن، وهؤلاء -مع الأسف- قد كثروا وتمكنوا، وبالأخص في الأزمنة المتأخرة؛ وكثرتهم سببها: ضعف الدين في القلوب، وضعف الإسلام والعاملين به في المجتمعات؛ وذلك أنهم كلما قوي المسلمون وكلما قويت العقيدة ضعفوا وضعف وجودهم، أو انقطعوا، أو كادوا أن ينقطعوا. ولقد كانوا قبل الإسلام موجودين بكثرة، ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم حُرست السماء، وحيل بين الشياطين وبين الاستراق؛ حتى ينقطع وحي الشياطين، وحتى ينقطع ما تسمعه الكهنة من أوليائها، وحتى لا يلتبس الحق بالباطل، ويلتبس وحي الرحمن بوحي الشيطان، وفي بعض الأحاديث: أن بعض الصحابة كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة، فرمي بكوكب -وهو الشهاب الذي يُرمى به- فسألهم صلى الله عليه وسلم: (ما تقولون في هذا النجم الذي رمي به؟)، فلم يقولوا شيئاً، فأخبرهم: بأن الشياطين كانت تسترق السمع، وتنزل إلى الكهنة بما تأخذه من الملائكة، فتخبرهم بأن الملائكة تحدثت بكذا، وأنه سيحدث كذا وكذا، ولما أنزل الله وحيه على النبي صلى الله عليه وسلم كثرت حراسة السماء، ورجمت الشياطين، واشتكوا إلى رئيسهم الذي هو إبليس، وقالوا: منعنا من السماء، ومنعنا من استراق السمع، فأرسل من يسأل ويستفصل: ما السبب؟ إذ لابد أن يكون هناك سبب، ثم إنهم وجدوا النبي صلى الله عليه وسلم يصلي بأصحابه، فاستمعوا إليه، ورجعوا إلى قومهم، وقالوا: وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا * وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا [الجن:8-10]، ورجع الذين استمعوا القرآن إلى أوليائهم وقالوا: عرفنا السبب الذي لأجله حرست منا السماء، وهو بعث هذا النبي، فآمنوا به كما حكى الله عنهم قولهم: وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ [الجن:13]. وبكل حال في ذلك الوقت حرست السماء حراسة شديدة؛ لقوة الإسلام، ولحماية الوحي من السماء، ولما ضعف العمل بالشريعة، وضعف التمسك بها؛ قوي وجود الكهنة، وقوي استراق الشياطين والجن للسمع، ونزولهم إلى أوليائهم من الكهنة والسحرة، فكثروا حينئذٍ، وصار الناس يشجعونهم، حيث يأتون إليهم، ويقولون: أخبرنا بكذا وكذا، فإذا أخبرهم بما توحيه إليه الشياطين قدسوه وعظموه، وقالوا: هذا هو الذي يعرف، وهذا هو العارف، وهذا هو

العرّاف، ولا يزال الناس يترددون إليه، وما ذاك إلا لضعف الإسلام، وقد مر بنا الحديث الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم)، ولو كان ذلك الكاهن يخبر بأشياء مثل أن يخبر بمكان الضالة، ويخبر بمكان المسروق، أو بعين السارق، أو ما أشبه ذلك، فنقول: هذا مما يستوحيه من شياطينه، والواجب على الإنسان أن يلجأ إلى الله، وألا يصدق هؤلاء الكهنة. والسحرة أيضاً قد تمكنوا، وقد كثروا مع الأسف، وأضروا بكثير من الناس، وكثر الذين يشتكون، وكثر الذين يقول أحدهم: إنه أصيب بكذا، أو أصيبت ابنته بكذا، بصرف أو بعطف، أو ببغض لبيتها أو ببغض لزوجها أو لأهلها، أو أصيب الرجل بضيق كلما دخل إلى بيته؛ بحيث إنه يصير محشرجاً، ويصير كأنه في سجن حتى يفارق بيته، أو حيل بينه وبين امرأته؛ بحيث إنه لا يقدر على إتيانها أو ما أشبه ذلك من الأشياء التي يكثر الشكاة لها، ما أكثر الذين يشتكون أنه أصيب أحدهم بكذا وكذا، وأنه أصيب بهذا الصرف، وأصيب بهذه المصائب التي لا شك أنها من عمل الشياطين، ونقول: ما السبب في كثرة هذه المصائب؟ وما السبب في إصابة هؤلاء بهذه الأمور؟ لا شك أن السبب هو: ضعف الإيمان، فمتى كنت مؤمناً، ومتى كنت مسلماً متمسكاً بإسلامك فثق بأن الله يحرسك، وأنه يحميك من كيد هؤلاء السحرة ومن ضربهم. وما يصاب غالباً بهذه الأمور الشيطانية إلا ضعاف الإيمان، نشاهد أن أكثر الذين يشتكون إما من جن أصابه أو أصاب ابنته، وإما من صرف، وإما من سحر أو نحو ذلك هم من العصاة والفسقة، وإما من الجهلة، وإما من العامة الذين لا يتحصنون، أما أهل التحصن فإن الله يحميهم بما يتحصنون به.......

كيفية التحصن من كيد السحرة والشياطين

إذا أردت أن تكون في حصن حصين من عمل وكيد الشياطين وعمل السحرة فعليك أن تتحصن بالأشياء التي تحفظك: أولها: تحقيق العقيدة السليمة، وهي: كونك تصدق بأن الله هو النافع الضار، وتصدق بأنه هو الذي يحمي العباد إذا تحصنوا به. ثانيها: كثرة ذكر الله في كل الأحوال؛ فلا تغفل عن ذكر الله فإنه يطرد الشياطين. ثالثها: الدعاء، فعليك أن تدعو بما يحضرك من الأدعية النافعة التي يكون فيها حفظ لك وحفظ لأهلك وحفظ لبيتك.. ونحو ذلك. رابعها: قراءة كتاب الله وكثرة تدبره وتكراره، فإنه حصن لمن قرأه وتحصن به. خامسها: حماية منزلك من آلات اللهو والملاهي كلها، وعن المعاصي ونحوها؛ فإن الشياطين تألف تلك الأماكن وتلك البيوت الممتلئة بالملاهي، والممتلئة بآلات الفساد ونحوها، فإذا كان المنزل خالياً من هذه الأشياء فإن الملائكة هي التي تعمره، ولا تجتمع الملائكة والشياطين.

شياطين الجن والسحرة ونحوهم قد يسلطون أولياءهم على بعض المتعففين أو على بعض المتمسكين، يريدون بذلك إضـراره ورده عما هو عليـه، فالحيلة في إبطـال هـذا الكيد علاجـه، ولا شك أنه لا علاج له إلا العلاج الرحمـاني وهو كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز علاجه بإتيان السحرة، ولا بطلبهم أن يفكوا عنه، ولا العلاج بمثله من السحر، وإذا عرف الساحر فإنه يقام عليه الحد: (حد الساحر ضربه بالسيف)، فلا يجـوز إقـراره، فكيف يُـؤتى إليه ويقال: فلان مصـاب فعليك أن تعالجـه! فلا يجـوز ذلـك، إنما نعالجه بكلام الله وبكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، وبالأدعية النافعة، وبالأدوية المباحة. ولقد تكلم العلمــاء على بعض العلاجــات النافعــة، فتكلم على ذلك ابن القيم رحمه الله عندما فسر سورتي المعوذتين في كتابه (بدائع الفوائد)، فإنه فسر سـورتي المعـوذتين، وأتى على قوله تعـالى: وَمِنْ شَـرِّ النَّفَّاثَـاتِ فِي الْعُقَـدِ [الفلق:4]، وأطال الكلام على السحر، وعلى ذكر حقيقته، وعلى ما قيل فيه، ثم تكلم عن فك السـحر وحلّه عن المسـحور وهو المسـمى بالنشـرة، وذكر الآثار في ذلـك، فـذكر الحـديث الـذي روي بلفـظ: (أن النـبي صـلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة؟ فقال: هي من عمل الشيطان)، وقال: النشرة: حل السحر عن المسـحور، وهو قسـمان: حـلّ بسـحر مثلـه، وهو الـذي من عمل الشـيطان، وعليه يحمل كلام الحسن البصـري أنه قـال: لا يحل السـحر إلا ساحر، وصـفته: أن السـاحر والمسـحور كل منهما يتقـرب إلى الشـيطان بما يحب، فأما أن يدعو الشيطان، وإما أن يطيع الشيطان، حـتى يبطل عمله عن المسـحور، فهـذا حـرام، وهـذه هي النشـرة المحرمـة؛ لأن الناشر والمنتشر يتقربـان إلى الشـيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسـحور. الثـاني: العلاج بالقراءة وبالأدعية وبالأوراد وبالآيات.. ونحوها؛ فهذا لا بأس به، وهو داخل في كون القرآن شفاءً كما وصفه الله؛ فـإن الله تعـالى وصف القـرآن بأنه شـفاء في قوله تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُـرْآنِ مَا هُـوَ شِـفَاءٌ وَرَحْمَـةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ وَلا يَزِيـدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَـارًا [الإسـراء:82]، ولهـذا إذا قـرئ على المصـاب بجن أو بسحر، وكان ذلك المصاب عاصياً أو فاسقاً أو متصفاً بخـروج عن الطاعة لم تؤثر فيه القراءة حتى يقلع عن معصيته، أو حـتى يعلن التوبة وعـدم الرجـوع، فهنالك يشفى بـإذن الله تعـالى عملاً بهـذه الآيـة: قُـلْ هُـوَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا هُـدًى وَشِـفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْـرٌ وَهُـوَ عَلَيْهِمْ عَمًى [فصـلت:44]، وقوله: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيـدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا [الإسراء:82] فهذا هو العلاج. وقد ذكر ابن القيم وابن كثير أنواعاً من العلاجـات، وابن كثـير تكلم على السـحر وأطـال عليه في تفسـير قـول الله تعالى في سورة البقرة: وَاتَّبَعُـوا مَا تَتْلُـوا الشَّـيَاطِينُ عَلَى مُلْـكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُـلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّـيَاطِينَ كَفَـرُوا يُعَلِّمُـونَ النَّاسَ السِّـحْرَ وَمَا أُنـزِلَ عَلَى

الْمَلَكَيْنِ.. [البقرة:102] إلى آخر الآية، وتكلم على قولـه: فَيَتَعَلَّمُـونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ [البقـرة:102] يعـني: أن من السـحر ما يسـبب البغضاء بين الزوجين، والزوجان -غالباً- يكونان متآلفين، فالساحر يقـدر بعمله الشيطاني على أن يوقع بينهما الوحشـة، وأن يسـبب الفرقة بينهمـا، أو يعمل عملاً يحجز به الـزوج عن امرأته ويحبسـها فلا يقـدر على جماعهـا، فـذكروا علاجاً وصفه ابن كثير ونقله عمن نقله من السلف، وهذا بلا شك من الأشـياء المجربة، ذكر أنه يؤخذ سبع ورقات من السدر الأخضر، فتضرب بين حجـرين، ثم يصب عليها مـاء، ويقـرأ فيها سـورتي الكـافرون والإخلاص: قُـلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ [الكـافرون:1] وقُـلْ هُـوَ اللَّهُ أَحَـدٌ [الإخلاص:1]، والمعـوذتين، وآية الكرسي، وآيات السحر الثلاث: في سورة الأعراف قوله تعالى: فَوَقَـعَ الْحَـقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُـوا هُنَالِـكَ وَانقَلَبُـوا صَـاغِرِينَ.. [الأعـراف:118-119]، وقوله تعالى في سورة يونس: قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَـرِهَ الْمُجْرِمُونَ [يونس:80-81]، وقوله تعـالى في سـورة طـه: قُلْنَا لا تَخَـفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَـنَعُوا إِنَّمَا صَـنَعُوا كَيْـدُ سَـاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّـاحِرُ حَيْثُ أَتَى [طـه:68-69]، فيكـرر المصـاب أو المحبـوس عن امرأته قراءتها، وسيفك ذلك عنه بإذن الله إذا توافرت الشروط. وهناك آيـات أخرى غـير هـذه، ونقل عن ابن عبـاس رضي الله عنهما أن سـبعاً وثلاثين آية في القرآن فيها قول: لا إله إلا اللـه، من قرأها فإنه يُحمى من كيد الشـياطين ونحوه، وأنه لا يضره سحر في ذلك اليـوم إذا قرأها كـورد في الصـباح أو في المساء، يعني الآيات التي فيها التهليلات، وتسمى: تهليلات القـرآن. وعلى كل حـال فـالقرآن كله شـفاء كما وصـفه الله تعـالى، وإن كـان فيه آيـات تخص قراءتها، وتكون حرزاً للمؤمنين ودعـاءً، وكـذلك أيضـاً الأحـاديث النبويـة، وقد جمع العلماء متقدميهم ومتأخريهم أدعية من الكتاب والسنة، وجعلوها كأوراد، وقراءتها قبل المرض تكون حفظاً بإذن الله، وبعد المـرض تكـون علاجـاً. وقد أصيب بعض الإخوان واشتكى أنه تصيبه حشرجة وضيق في صـدره؛ بحيث إنه لا يستقر ولا ينشرح باله إذا دخل منزله، فعمد إلى الـورد المطبـوع المشـتهر الذي اسـمه: (الـورد المصـفى المختـار) الـذي جمعه الملك عبد العزيز رحمه الله، يقـول: أخـذت هـذا الـورد، وجعلت أقـرأه قبل أن أنـام، إذا جلست على فراشي قرأته من أوله إلى آخره، وإذا أصـبحت قرأته من أوله إلى آخـره في المصـلى، وأنا رافع يـدي ومخبت قلـبي، قـال: فما لبثت إلا شـهراً أو أقل من شهر حتى زالت عني تلك الوحشة، واتسع قلـبي، وزال عـني ما أجد من ذلك الضيق! وهذا دليل على أن كتـاب الله وسـنة نبيه والأدعية والأوراد سـبب في الشــفاء إذا وقع المــرض، وســبب في الحمية والعصــمة والحماية منه قبل وقوعه.

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [والناس من أهل العلم فيهم على ثلاثة أحزاب: حزب يكذبون بوجود رجال الغيب، ولكن قد عاينهم الناس، وثبت عمن عاينهم أو حدثه الثقات بما رأوه، وهؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم. وحزب عرفوهم، ورجعوا إلى القدر، واعتقدوا أن ثَّم في الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء! وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا ولياً خارجاً عن دائرة الرسول، فقالوا: يكون الرسول هو ممداً للطائفتين. فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه. والحق أن هؤلاء من أتباع الشياطين، وأن رجال الغيب هم الجن، ويسمون رجالاً، كما قال تعالى: وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا [الجن:6]، وإلا فالإنس يؤنسون، أي: يشهدون ويرون، وإنما يحتجب الإنسي أحياناً، لا يكون دائماً محتجباً عن أبصار الإنس، ومن ظنهم أنهم من الإنس فمن غلطه وجهله. وسبب الضلال فيهم، وافتراق هذه الأحزاب الثلاثة: عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن، ويقول بعض الناس: الفقراء يُسلّم إليهم حالهم! وهذا كلام باطل، بل الواجب عرض أفعالهم وأحوالهم على الشريعة المحمدية، فما وافقها قُبِل، وما خالفها رُد، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، وفي رواية: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) ، فلا طريقة إلا طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا حقيقة إلا حقيقته، ولا شريعة إلا شريعته، ولا عقيدة إلا عقيدته، ولا يصل أحد من الخلق بعده إلى الله وإلى رضوانه وجنته وكرامته إلا بمتابعته باطناً وظاهراً، ومن لم يكن له مصدقاً فيما أخبر ملتزماً لطاعته فيما أمر في الأمور الباطنة التي في القلوب والأعمال الظاهرة التي على الأبدان لم يكن مؤمناً، فضلاً عن أن يكون ولياً لله تعالى، ولو طار في الهواء، ومشى على الماء، وأنفق من الغيب، وأخرج الذهب من الخشب، ولو حصل له من الخوارق ماذا عسى أن يحصل، فإنه لا يكون مع تركه الفعل المأمور وعزل المحظور إلا من أهل الأحوال الشيطانية المبعدة لصاحبها عن الله تعالى، المقربة إلى سخطه وعذابه، لكن من ليس يكلف من الأطفال والمجانين قد رفع عنهم القلم، فلا يعاقبون، وليس لهم من الإيمان بالله والإقرار باطناً وظاهراً ما يكونون به من أولياء الله المقربين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين، لكن يدخلون في الإسلام تبعاً لآبائهم، كما قال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ [الطور:21]، فمن اعتقد في بعض البله أو المولعين -مع تركه لمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله- أنه من أولياء الله، ويفضله على متبعي طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو ضال مبتدع، مخطئ في اعتقاده، فإن ذاك الأبله إما أن يكون شيطاناً زنديقاً، أو زوكارياً متحيلاً، أو مجنوناً معذوراً، فكيف يفضل على من هو من أولياء الله المتبعين لرسوله أو يساوى به؟! ولا

يقـال: يمكن أن يكـون هـذا متبعـاً في البـاطن، وإن كـان تاركـاً للاتبـاع في الظاهر، فإن هذا خطأ أيضاً، بل الواجب متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ظـاهراً وباطنـاً. قـال يـونس بن عبد الأعلى الصـدفي : قلت للشـافعي : (إن صاحبنا الليث كان يقول: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسـنة، فقـال الشـافعي رحمه اللـه: قصّـر الليث رحمه اللــه، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على المــاء، ويطــير في الهــواء، فلا تغـتروا به حـتى تعرضـوا أمـره على الكتـاب. وأما ما يقوله بعض النـاس عن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم أنه قـال: (اطلعت على أهل الجنة فـرأيت أكثر أهلها البله) فهذا لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا ينبغي نسـبته إليـه؛ فـإن الجنة إنما خلقت لأولي الألبـاب الـذين أرشـدتهم عقـولهم وألبابهم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليـوم الآخـر، وقد ذكر الله أهل الجنة بأوصافهم في كتابه، فلم يذكر في أوصافهم البَلَه الـذي هو ضـعف العقل، وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء)، ولم يقل: البله]. هذا الكلام حول هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أهل الغوث، وهم ممن ينصبون أنفسهم لهذا الأمر، ولا شك أن الغوث إنما هو من الله تعالى، فمعلوم أن الغوث الذي هو إزالة الشدة وتفـريج الكربـات من اللـه، وأما الإنسـان فلا يقـدر أن يزيل شـدة، ولا أن يفـرج كربـاً، ولا أن يسد حاجة إنسان بدون أمر وإعانة من الله تعـالى، فـذكر أن هنـاك من يقـول: إن هـؤلاء الـذين وصـلوا إلى هـذه الحالة تفوقـوا على الأنبيـاء، وأن الله يمـدهم بعطــاء من عنــده، ويفتح عليهم، ويــنزل عليهم ملائكته أو يــنزل عليهم وحيه بواسطة أو بغير واسطة، وأنهم قد اسـتغنوا عن الـوحي وعن شـرائع الأنبيـاء، وهـذه مقالة بعض العـوام أو من يقلـدهم. والجـواب عليهـا: أن هـذا كفـر، ولا يجوز لأحد أن يستغني عن الشريعة الإسلامية مهما كانت حالتـه، بل الشـريعة المحمدية هي خاتمة الشـــرائع، والنــبي محمد صــلى الله عليه وســلم آخر الأنبياء، ولا يسع أحد الخروج عن شريعته، ومن نواقض الإسـلام أن يعتقد أحد أن إنساناً يسعه الخروج عن شـريعة النـبي صـلى الله عليه وسـلم، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى! ثم هناك طائفة اعتقـدت أن هـؤلاء الـذين يسمون أهل الغوث أو نحوهم كذبـة، وأنه ليس هنـاك ما يسـمى بغـوث أو ما يسمى بفتح أو إلهام أو نحو ذلك، وقد تقـدم في كرامـات الأوليـاء: أن الله قد يفتح على بعض أوليائه وينطقهم بكلمات هي حكمة، أو يكـون فيها شـيء مما يسمى بخرق العادة، ويكون ذلك كرامة لهم، فلا يجوز إنكار ذلك. ......

أنواع الخوارق

خـوارق العـادة ثلاثة أنـواع: النـوع الأول: هو الـذي يجـري على أيـدي الرسل والأنبيـاء، وهـذه تسـمى معجـزات، ولا يسـتطيع أحد من البشر أن يـأتي بمثل معجزات الأنبياء. النوع الثاني: يجري على أيدي الصالحين من عباد الله، وهذه تسـمى كرامـات، بـأن يفتح الله عليهم ويلهمهم، أو يعطيهم كرامـات ظاهرها

أنها تعجز البشر، ولكنها فتح من الله ومنّة منه؛ لتقوية الإيمـان، أو لإمـدادهم، أو لغير ذلك. النوع الثالث: ما يجري على أيدي السحرة والمشـعوذين والكهنة ونحـوهم، وقد ذكرنا أن هـذا يسـمى بـالأحوال الشـيطانية، وأن الشـيطان قد يلابس بعض النـاس، ويظهر منه أفعـال قد يتعجب منهـا، كما يحـدث أنـاس بأفعالهم وبعجائب أمورهم، حـتى ذُكر أن أحـدهم لما لابسه شـيطانه أتى إلى نار موقدة وفيها جمر أمثال الحجارة، وجعل يأخذ الجمر بيده ويأكلها، ويُسـمع لها حس إذا دخلت في ريقه وانطفأت بـه، ثم يبتلعهـا، حـتى ابتلع الجمر كلـه، ويقولون: كانت النار تتقّد لكثرة جمرها، فانطفأت من كـثرة ما أكـل، ولا شك أن هـذا من الشـيطان الـذي لابسـه، والشـيطان مخلـوق من النـار، ولا يتـأثر بالنار، قال تعالى: وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ [الحجـر:27]، فلا ينكر أن تجري مثل هذه الأشياء على أيدي هـؤلاء المشـعوذين ومن أشـبههم. كذلك أيضاً لا شك أن هؤلاء الذين يسمون أنفسـهم أو يسـميهم بعض النـاس أهل الغوث، ليس لهم طريق يسلكونه إلا سلوك الطريق النبويـة، وليس لأحد أن يخـالف الشـريعة، بل الأمة مكلفة باتبـاع هـذه الشـريعة مهما كـانت، ولو خالفت الأهـواء، ولو صـعبت في بعض الأحـوال؛ إذ لا يجـوز لأحد الخـروج عن العقيـدة قيد أنملـة، بل يتقيد بهـا، والله تعـالى سـدّ الطـرق إلا طريق النـبي محمد صـــلى الله عليه وســـلم، وكلف الأمة باتباعه وبتقليـــده مهما كـــانت الأحوال، وجعل طاعته سبباً للسعادة، ومعصيته سـبباً للشـقاوة؛ قـال تعـالى: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا [الأحزاب:71]، وقال: وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْـهُ نَـارًا خَالِـدًا فِيهَا وَلَـهُ عَـذَابٌ مُهِينٌ [النسـاء: 14].

لا يُصدق أصحاب خوارق العادات حتى يُعرضوا على الكتاب والسنة

ذكر العلماء رحمهم الله أن ما يقوله هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أهل الغوث من تسويل الشيطان غالباً، وأنه يلابسـهم حـتى ينخـدع بهم من ينخـدع، فلا بد أن نعـرض أمـرهم على الكتـاب والسـنة. وذكر المؤلف كلام الليث بن سـعد، وهو عالم مصر رحمه اللـه، فنقل إلى الشـافعي أنه يقـول: إذا رأيت صـاحب هوى يمشي على الماء فلا تغتر به حـتى تعـرض أمـره على الكتـاب والسـنة، والشـافعي رحمه الله يقـول: قصر الليث ، بل إذا رأيته يطـير في الهـواء فلا تغتر به حتى تعرض أمره على الكتاب والسنة؛ وذلك لأنه يُشـاهد. ونقل أيضـاً متقدمون ومتأخرون أن السحرة ونحوهم قد يرفعون بعض الناس حـتى يخيل للناس أنه بين السماء والأرض، فيتحرك ويضطرب ويتكلم، فيقولون: سـبحان الله! يطير في الهواء بدون أن يمسكه شيء، وليس هنـاك شـيء يرفعـه، ولا يدرون أن الشياطين هي التي حملته!! وذكر شيخ الإسلام في كتاب (الفرقان

بين أوليــاء الــرحمن وأوليــاء الشــيطان) أن الشــياطين أو الجن تحمل بعض أوليائها من مكـان بعيد مسـيرة شـهر أو أشـهر على الرواحـل، وأنه يصل إلى النـاس في عرفـة، ويقف معهم، ويجلس معهم سـاعة أو سـاعات، ثم يردونه إلى مكانه في يومه أو في ليلتــه، وأنه يحــدث النــاس، ويقــول: رأيت فلانــاً وفلاناً، وسلمت على فلان، وقابلت فلاناً وهو راكب في كذا وكذا، وحـدث كـذا وكذا، إذا قدم الحجاج سألوهم، فقالوا: صحيح، هذا شيء وقـع، وقد رأينا فلان حج معنا في عرفة، ولكن ما رأينـاه في غـير عرفـة، ويتكلمـون بما يطـابق ما قال، فكيف حصل هذا؟! يقـول: إن الجن حملتـه، والشـياطين لها قـدرة على الطيران لخفتها، فإذا كانت تصل إلى السماء كما قال الله عنهم: (وَأَنَّا لَمَسْـنَا السَّمَاءَ) فكيف لا تحمل هذا الشيء الثقيل وتوصله إلى مكان تقــدر عليه إلى حيث تشـاء ثم تـرده؟!! ولكن لا تخدمه إلا إذا كـان من أوليائها المـوالين لهـا، والمتقربين إليها. فكيف نقول في هـؤلاء؟ نعـرض أمـرهم كما قـال الشـافعي والليث على الكتاب والسنة.

حقيقة من يُسمون بالبله

اشتهر أناس في الزمان الأول كانوا يسـمون بالبلـه، وقد يسـمون بالمجـانين، وكان يقال لأحدهم: المجنـون فلان، والمجنـون فلان، ثم ينقلـون عنهم أفعـالاً ويقولون: إنهم ممن رفع عنهم القلم، وسقطت عنهم التكاليف.. وأشباه ذلك. فنقول: ليس الأمر كذلك، والحديث الذي يتناقلونه وفيـه: (أن أكـثر أهل الجنة البلــه) لا يصــح، بل الله تعــالى ذكر أن أكــثر أهل الجنة على لســان نبيه هم العاملون، وهم أولو الألباب، والله تعالى يذكر دائماً أولي الألباب -يعــني: أهل العقول- ولا يذكر البلـه، ولا ناقصي العقـول ولا المجـانين ونحـوهم؛ بل هـؤلاء أقل أحوالهم أن تسقط عنهم التكاليف، ولا يكلف أحـدهم إذا فقد العقـل، كما قال النبي صلى الله عليه وسـلم: (رفع القلم عن ثلاثة -وذكر منهم- المجنـون حتى يفيق)، فالأبله ضعيف العقل، قـريب من المجنـون، فكيف يكونـون أكـثر أهل الجنة؟! بل هم إذا دخلوا الجنة فإنهم يعاملون على أنهم ممن أثيبوا لأجل أنهم لم يستطيعوا أن يعملـوا لقلة فهمهم وعقلهم. وبكل حـال فهـؤلاء الـذين يسمون بالبله، قد انخدع بهم خلق كثير من المتقـدمين والمتـأخرين؛ بل وإلى زماننا، كما ذكر لنا أن هنـاك من المتـأخرين في مصر وفي سـوريا وفي كثـير من البلاد الإفريقية من يعظمون هـؤلاء الضـعفاء، ويـدعون أنهم أوليـاء، وأنهم ممن سـقطت عنهم التكـاليف، وأنهم ممن يأخــذون الـوحي بـدون واسـطة الأنبياء .. وأنهم .. وأنهم! ويقولون: إن من كراماتهم أن أحدهم إذا مـات فـإن الملائكة تحمله على النعش، والذين يحملونه فـوق متـونهم لا يحسـون بثقلـه، فيخيل إليهم هــذا، حــتى قيــل: إنه لما مــات واحد من أولئك المجــانين أراد

أولياؤه أن يوهموا العامة أن هـذا ممن حملته الملائكـة، فصـاروا يسـرعون به سـرعة زائـدة، مع أنهم يحسـون بثقلـه، ولكن كـأنهم يقولـون: انظـروا -أيها العامة- أننا نحمله، وكأننا لا نحمل شيئاً؛ فالملائكة تحمله فوقنا، ونحن لا نحس به، فنحن الآن نسعى سعياً شديداً حـتى كأننا لم نحمل شـيئاً! وكل هـذا لأجل إيهام هؤلاء العامة أنه من الأولياء، حتى يغلوا فيه، مع أنه مجنون لم يُعرف إلا بكلام ساقط. والمتقدمون ترجموا لهـؤلاء فيقولـون: قـال المجنـون سـحنون، قال المجنون بهلول! وهذه أسماء موجودة في كتب الـتراجم الـتي تتكلم عن كرامـات الأوليـاء ونحـوهم، ومع ذلك يعتـدون بكلامه وهم يسـمونه مجنونـاً! وكـذلك أيضـاً يـذكرون أنهم في بعض البلاد من جهلهم أو بلههم أن أحـدهم يمشي عرياناً، فيقولون: هذا ممن سـقط عنه التكليـف! وهـذا كـان حـتى في الزمن المتوسط في عهد الإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني صـاحب (سـبل السلام)، ففي قصيدته البائية يقول فيهـا: كقـوم عـراة في ذرى مصر ما على عورة منهم هناك ثياب يعدونهم في مصرهم من خيـارهم دعـاؤهم فيما يـرون مجـاب مع أنهم يمشـون عـراة ليس على عـوراتهم ثيـاب، ومع ذلك يقولـون: هؤلاء هم المجانين الذين سـقطت عنهم التكـاليف، وهـؤلاء هم البله الـذين لا حرج عليهم، ونقول: لا شك أن هذا من تلاعب الشيطان بهم. فعلى كل حـال: لا يُغتر بمثل هـؤلاء؛ بل يُـرد أمر الجميع إلى كتـاب الله وإلى سـنة نبيه صـلى الله عليه وسلم، فما وافق ذلك فهو الصواب. ......

من ضـــلال بعض الصـــوفية تفضـــيلهم وتعظيمهم للمجـــانين على العقلاء الصالحين، وقد رد عليهم أهل العلم هذا الاعتقاد الفاسد الخاطئ.

مجمل الكلام في تعظيم الصوفية لمن يسمونهم البله

نحمد الله أن جعلنا مسلمين، نحمد الله على النعمة بهذا الدين، نحمد الله أن جعلنا من أتبـاع خـير المرسـلين، لا شك -أيها الإخـوة- أنها منة كبـيرة ونعمة عظيمة، أن هداكم الله، وأقبل بقلوبكم، ومنّ عليكم بمعرفته، وبمعرفة دينـه، وبمعرفة نبيه، ووفقكم للقبول وللاتباع، فقد رأيتم وقد سمعتم الفئام والأعداد الكبيرة الكثيرة الذين أُتوا علوماً، ولم يُؤتـوا فهومـاً، أوتـوا أذهانـاً وقلوبـاً ولم يؤتـوا زكـاءً؛ أذكيـاء ولكنهم ليسـوا أزكيـاء، منّ الله عليهم بالسـمع والبصر والفـؤاد، ولكن لم تغن عنهم أسـماعهم ولا أبصـارهم ولا أفئـدتهم من شـيء. وما أكثر المنحرفين الذين رأوا الحق فحـادوا عنه إما عن عمد وإما عن خطـأ، وما أكـثر الضـالين المنكـرين وهم يعلمـون! فـإذا وفق الله العبد ومنّ عليه وأقبل بقلبه فتلك نعمة عظيمة عليه أن يعـرف قـدرها، وعليه أن يشـكر ربه عليها، ونحن إذا قرأنا وسمعنا ما يمر علينا في هـذه الكتب وفي هـذه الأخبـار نـرى العجب العجـاب! هـؤلاء من أهل العقـول، ومن أهل الأفهـام، ومن أهل الـذكاء ومع ذلك يـتركون الحق جانبـاً! ويـتركون الحق وهم يرونـه، ويرتكبـون سبل الضلال! ونحن نسمع وتسمعون أخباراً في القريب والبعيد عن فئام من الناس قد كان آباؤهم على جهل؛ ولكن هم قد زال عنهم الجهل، كـان آبـاؤهم على ضلال، ولكن هم أبصروا الهدى وعرفـوه، ومع ذلك تشـبثوا بسـنن الآبـاء والأجداد وبعاداتهم! وصدق الله القائل: إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَـاءَهُمْ ضَـالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَـارِهِمْ يُهْرَعُـونَ [الصـافات:69-70]. مر بنا في الـدرس الماضي أن في الزمان القديم بل وفي هذه الأزمنة من يعظمون البله، ورووا فيهم حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (دخلت الجنة فرأيت أكـثر أهلها البلـه!)، وهـذا الحـديث لم يثبت؛ فهو حـديث ضـعيف، ولو نشـروه، ولو اشـتهر في مؤلفاتهم، فإنه لا حقيقة له، والأبله هو: ضعيف العقل، وأقل أحواله أن يكـون مجنونـاً سـاقطة عنه التكـاليف، فأما كـونهم يُرفعـون فـوق الأبـرار وفـوق المقربين ويكونون أكثر أهل الجنة فإن هذا من الكذب. ونحن نعرف أيضـاً أن النبي صـلى الله عليه وسـلم قد أخـبر أن أكـثر من يـدخل الجنة هم الضـعفاء والفقراء والمساكين الذين ليس لهم أمـوال تشـغلهم، ولا تجـارات يحاسـبون عليها فيتأخرون، ولكن أهل الأمـوال يتـأخرون في الحسـاب؛ ولـذلك جـاء في الحـديث: (وأهل الجد محبوسـون) يعـني: أهل الحقـوق محبوسـون- يعـني: للحساب- فأما أن يكون البله الذين هم ضعفاء العقول أكـثر أهل الجنة فليس بصـحيح. ثم لما فشا هـذا الأمر عند كثـير من الجهلة تشـبثوا وتعلقـوا بهـؤلاء ضعفاء العقول، وصاروا يرفعون من شـأنهم، ويعتقـدون أن قـولهم تنزيل من

الله، وأن أفعالهم وحي من السـماء، وأنهم معصـومون، وأن أقـوالهم متبعـة، وأنهم صفوة الله من خلقه، فصاروا يتبعونهم، ويطيعون إشاراتهم وحكايـاتهم، ولو كانت مخالفة للشرع، ولو كانت مخالفة للعقـول السـليمة! وهـذا بلا شك من الانحراف العقـدي، ومن المخالفة للكتـاب وللسـنة؛ وذلك لأن الله تعـالى أمرنا بأن نتبع النبي صلى الله عليه وسـلم، ونقتـدي بسـنته وسـيرته، ونقتفي كتاب ربنا وسيرة نبينا، ونتمسك بذلك، ونلقي ما عدا ذلك خلف الظهـور مهما كان القائل، ومهما كان المخالف، فكل ما خـالف شـرع الله تعـالى فلا يلتفت إليه، وقد مر بنا قول النبي صلى الله عليه وسـلم: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، وفي روايـة: (من أحـدث في أمرنا هـذا ما ليس منه فهو رد). فطرق المتصوفة، وكـذلك الملاحـدة، والاتحـاديون، وكـذلك الطرقية ونحـوهم من الصوفية الذين من جملة بـدعهم تصـفيقهم ورقصـهم ونشـيدهم ولهـوهم ولعبهم وغير ذلك من البدع التي اتخذوها ديناً وما أنـزل الله بها من سـلطان. كذلك أيضاً من المعلوم أنهم قد يلابسهم الشـيطان، وقد يجـري على أيـديهم شـعوذةً وأشـياء تكـون غريبة يموهـون بها على العـوام، ويوهمـون من رآهم بأنهم على حق، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا أشياء تخالف عـادات النـاس، فلا جرم أنه لا يجوز أن يغـتر بهم، وقد مر بنا الأثر المنقـول عن الليث رحمه الله أنه كـان يقـول: لو رأيت صـاحب هـوىً يمشي على المـاء فلا تغـتر به حـتى تعرض أمره على الكتاب والسنة. فـالشافعي رحمه الله يقـول: قصر الليث ! بل لو رأيت صاحب هوىً يطير في الهواء فلا تغتر به حـتى تعـرض أمـره على الكتاب والسنة. فهؤلاء المشعوذون ونحوهم لو طـاروا في الهـواء، ولو مشـوا على الماء، ولو أخرجوا الذهب من الخشب، ولو قلبوا الحجر ذهبـاً فنقـول: لا نغتر بهم -بل نعتقد أن ذلك شعوذة وعمل شيطاني- حتى نعرض أمـرهم على كتاب ربنا وسنة نبينـا، فهما الميزان الـذي يرجع إليـه، كما قـال تعـالى: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ [النسـاء:59]، فـالرد إلى اللـه: الرد إلى كتابه، وإلى الرسول: إلى سنته بعد موته، فما وافقهما فهو الصواب، وإلا فهو مـردود على من جـاء بـه، وأما هـؤلاء الـذين يسـير خلفهم هـؤلاء الضـعفاء، ويعتقـدون أنهم قد ارتقت قلـوبهم، وقد تقـربت إلى ربهـا، وقد سـقطت عنهم التكـاليف، وقد وصـلوا إلى حظـيرة القـرب، وقد أطلعهم الله على اللوح المحفوظ، وقد صار لهم تمكن كما يزعمون أن يأخذوا من المعدن الـذي تأخذ منه الملائكة ما توحيه إلى الرسل ونحو ذلك من الخرافـات، فمثل هذه لا يلتفت إليها؛ بل مرجعنا هو شرع الله ودينه، وقد ذكرنا أن هـذه الأمـور فاشية منذُ أزمنـة، وأن لهم حكايـات ينقلونهـا، ومع ذلك يستشـهدون بهـا. ولا شك أن هناك من يسـمون بالمجـانين وليسـوا مجـانين، ولكن لما رآهم عـوام النـاس قد زهـدوا في الـدنيا واشـتغلوا بالأعمـال الصـالحة سـموهم مجـانين! ولكنهم في الحقيقة حكمـاء، وأما بعض المتـأخرين الـذين نقلت عنهم أقـوال شـنيعة فـإنهم ولو كـانوا عقلاء فهم أقل حالة من المجـانين، وهم من البله والسفهاء وضعفاء العقول، فـالمرجع في ذلك إلى ما يقوله علمـاء الشـريعة، وعلماء الملة الذين هم أعرف بالله وبما جاء عن الله تعالى. ......

قال الشارح رحمه الله تعالى: [والطائفة الملامية، وهم الذين يفعلون ما يلامون عليه، ويقولون: نحن متبعون في الباطن، ويقصدون إخفاء المرائين! ردوا باطلهم بباطل آخر! والصراط المستقيم بين ذلك. وكذلك الذين يصعقون عند سماع الأنغام الحسنة، مبتدعون ضالون! وليس للإنسان أن يستدعي ما يكون سبب زوال عقله! ولم يكن في الصحابة والتابعين من يفعل ذلك، ولو عند سماع القرآن، بل كانوا كما وصفهم الله تعالى: إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [الأنفال:2]، وكما قال الله تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [الزمر:23]، وأما الذين ذكرهم العلماء بخير من عقلاء المجانين فأولئك كان فيهم خير، ثم زالت عقولهم. ومن علامة هؤلاء: أنه إذا حصل في جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان، ويهذون بذلك في حال زوال عقلهم، بخلاف غيرهم ممن تكلم إذا حصل لهم نوع إفاقة بالكفر والشرك، ويهذون بذلك في حال زوال عقلهم، ومن كان قبل جنونه كافراً أو فاسقاً لم يكن حدوث جنونه مزيلاً لما ثبت من كفره أو فسقه، وكذلك من جن من المؤمنين المتقين، يكون محشوراً مع المؤمنين المتقين. وزوال العقل بجنون أو غيره، سواء سمي صاحبه مولهاً أو متولهاً، لا يوجب مزيد حال، بل حال صاحبه من الإيمان والتقوى يبقى على ما كان عليه من خير وشر، لا أنه يزيده أو ينقصه، ولكن جنونه يحرمه الزيادة من الخير، كما أنه يمنع عقوبته على الشر، ولا يمحو عنه ما كان عليه قبله. وما يحصل لبعضهم عند سماع الأنغام المطربة من الهذيان والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسان المعروف منه فذلك شيطان يتكلم على لسانه، كما يتكلم على لسان المصروع، وذلك كله من الأحوال الشيطانية! وكيف يكون زوال العقل سبباً أو شرطاً أو تقرباً إلى ولاية الله -كما يظنه كثير من أهل الضلال-؟! حتى قال قائلهم: هم معشر حلوا النظام وخرقوا الـ سياج فلا فرض لديهم ولا نفل مجانين إلا أن سر جنونهم عزيز على أبوابه يسجد العقل وهذا كلام ضال، بل كافر، يظن أن للجنون سراً يسجد العقل على بابه؛ لما رآه من بعض المجانين من نوع مكاشفة، أو تصرف عجيب خارق للعادة، ويكون ذلك بسبب ما اقترن به من الشياطين، كما يكون للسحرة والكهان، فيظن هذا الضال أن كل من كاشفه أو خرق عادة كان ولياً لله!! ومن اعتقد هذا فهو كافر، فقد قال تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ [الشعراء:221-222]، فكل من تنزل عليه الشياطين لا بد أن يكون عنده كذب وفجور]. ......

نعمة العقل

لا شك أن العقــول نعمة من الله على الإنســان، وأنه ســبحانه منّ على هــذا النوع الإنساني بأن مـيزه بهـذا الفهم، وهـذا الإدراك، وهـذا العقل الـذي كلّفه لأجلـه، فالله تعـالى ما كلف البهـائم والـدواب والوحـوش والحشـرات وبهيمة الأنعام؛ لأنها ليس لها عقول. فالنوع الإنساني ميزه الله بهذا العقل؛ بحيث إنه يفهم الخطاب ويرد الجواب، ويعـرف ما يقـال لـه، ويتفكر فيمن خلقـه، وفيما بين يديه وما خلفه، وجعل الله هذا العقل ينمو شيئاً فشيئاً، وجعله أكـبر مِنّـة، وجعل الـذين يتفكـرون ويتـدبرون هم أهل العقـول، وكثـيراً ما يقـول: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الرعـد:4] يعـني: لا ينتفع بها إلا العقلاء، ويقـول: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [الرعـد:3] أي: يتفكـرون بعقـولهم، وكثـيراً ما يـأمر الله بـالتفكر في المخلوقـات كقولـه: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [يوسف:109]، وقولـه: أَفَلَمْ يَـدَّبَّرُوا الْقَـوْلَ [المؤمنون:68]، وقوله: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَـوْقَهُمْ [ق:6] يعـني: نظر عبرة، وقوله: أَوَلَمْ يَنظُـرُوا فِي مَلَكُـوتِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ [الأعـراف:185]، والتفكر لا يكون إلا بالعقول، فـإذا عـرف ذلك فـإن العقل هو مـيزة الإنسـان، وإذا فقد العقل فقد خصيصته، وفقد ميزته وفضـيلته، والتحق بالبهـائم؛ بل قد يكون أشر حالة من البهائم؛ فإن البهائم معها عقول معيشية، بمعنى: أنها تتبع مصـالحها، وتطلب أسـباب نجاتهـا، وتعـرف ما يلائمها وما يناسـبها من المآكل ومن المشارب ونحوها. وأما من سلب عقله، فإنه لا يمـيز بين التمر والجمـر، ولا يميز بين الـتراب والمـاء، ولا يمـيز بين الطعـام الـذي فيه سم والـذي فيه دسم! وذلك لأنه فقد ميزته التي تميز بها، فأصبح بذلك أقل حالة من البهـائم، وإذا كان كذلك فإنا نقول: إن الذين فقدوا عقـولهم في الـدنيا يعـني: عـاقبهم الله بأن أذهب عقولهم، أو ولدوا وهم مجانين، أو حصل لهم مـرض ذهبت فيه عقولهم، ما هي حـالتهم؟ هل يكونـون أفضل من العقلاء عند اللـه؟ الجـواب: ليســوا أفضـل، وإنما أقل حـالاتهم: أنهم معـذورون يرفع عنهم التكليـف، فلا يعاقبون، ولا يُقتل أحدهم إذا قتل؛ لأنه لا عمد لـه؛ وكـذلك لا يُجلد لو زنى، ولا يُقطع لو سرق؛ وذلك لفقد العقل؛ لأن العقل يعقل صاحبه، يعـني: يقيـده عن أن يتقدم إلى ما فيه مضرة، وهؤلاء ليس عندهم ما يعقلهم ولا ما يقيدهم.

كتابة الحسنات للمجانين

هل تكتب للمجانين حسنات؟ الجواب: لا تكتب لهم حســنات، ولا تكتب عليهم سيئات، ولكن تسقط عنهم التكاليف، وثوابهم في الآخرة على ما يشــاء ربنــا، فيمكن أن يلحقوا بأهل الفترات الذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد، أو

الــذين لم يــدركوا رســلاً قبلهم، ولم يــأتهم رسل في زمــان الفــترة، فــإنهم يقولــون: يا رب! ما جاءنا بشــير ولا نــذير، وما بلغتنا دعــوة الرســل، فكيف تعذبنا؟! فيقول الله تعالى: أرأيتم إذا أمرتكم أتطيعـوني؟ فيقولـون: وما لنا لا نطيعك؟ فتمثل لهم نار تشتعل، فيقول: ادخلـوا هـذه النـار، فمن دخلها كـانت عليه برداً وسلاماً، وصار من أهل الجنـة، ومن امتنع أن يـدخلها قـال الله لـه: هذا وأنا الذي أمرتك، فعصيت أمري، فكيف لو جاءتك رسلي؟! فعلم الله في هؤلاء أنهم ممن حقت عليهم كلمة العذاب، فالمجانين الذين ولدوا مجانين، أو أصابهم الجنون بعد الولادة وقبل التكليف، وبقـوا على ذلـك، فهـؤلاء يلحقـون بأهل الفترات، ويمتحنون في الآخـرة. أما أن يقـال: إنهم مقربـون، أو إن لهم مكانة عند اللـه، أو إنهم من أهل الـزلفى، أو إنهم ممن وصـلوا إلى حظـيرة القـدس! فـإن هـذا كـذب؛ بل هم أقل حالة بكثـير من العقلاء، ولا شك أنهم عادةً إذا أصاب أحدهم الجنون في أثناء حياتـه، فـإن كـان قبل إصـابة الجنـون من أهل الفسوق، ومن أهل المعاصي، ومن أهل الـذنوب، ومن أهل الجـرائم الـذين يسـكرون، ويقتلـون، ويسـرقون، ويهجـرون، فإنه إذا جُنّ يصـير هذيانه فيما كـان يفعله من قبـل، فـتراه يتكلم بأفعاله الشـنيعة من فعل الفـواحش والمنكرات ونحوها، وإذا ارتاح في وقت من الأوقات ورجع إليه عقله في حين من الأحيان فإنه يعود إلى غيه، كما قال الشاعر: والشيخ لا يترك أخلاقه حـتى يوارى في ثرى رمسه إذا ارعـوى عـاد إلى قوله كـدبٍّ عـاد إلى نكسه أما إذا كـان قبل الجنـون من أهل الإيمـان والأعمـال الصـالحة، وأهل التقـوى؛ فإنه -والحال هذه- إذا أصـيب بـالجنون ثم بقي على جنونه أصـبح معـذوراً، ولا تزيد حسناته في حالة جنونه؛ بل يرفع عنه التكليف، وعادة أنه يهذو بما كان يعمله، فيتكلم في الحسنات، ويتكلم في القربات، وما أشبه ذلك، وهذا في المجنـون الــذي فقد العقل فقــداً كليــاً، وإذا عرفنا أن هــذا الجنــون نقص حقيقيٌّ فإننا نقول: لا يجوز للإنسان أن يتعاطى الأسباب التي تذهب عقلـه، فنقـول: لمـاذا حُرم شـرب المسـكرات؟ الجـواب: لأن المسـكر يزيل هـذا العقـل، ولو إزالة مؤقتــة. فالشــيء الــذي يزيل عقل الإنســان ويلحقه بالبهــائم ينبغي مباعدته ومحاربته، فهؤلاء الذين يتعاطون أشياء تزيل عقـولهم عمـداً سـواءً كـان ذلك الشــيء من المحرمـات كالإسـكار وما أشـبهه، أو من غيرها نقـول: إنهم هم السفهاء، ولا يرضى عاقل فعل السفهاء، ولا يرضى أن يتعـاطى شـيئاً يـذهب عليه عقله.

الرد على أصحاب الفناء

بعض المتصوفة كـانوا يجتمعـون في أمـاكنهم ثم يغلب عليهم شـيء يسـمونه الفناء؛ وذلك إما بسماع يسمعونه من وعاظهم ونحوه، وإما بـرقص يرقصـونه

إلى أن يصلوا إلى الفناء، وإما بتفكير يفكرونه في أشـياء إلى أن يغلب عليهم هذا الوصف الذي يسمونه الفناء؛ بحيث لا يشعرون بمن حولهم!! فهذا الفنـاء هل حصل للصحابة؟! الجواب: لم يحصل، ولم يحصل للتـابعين لهم بإحسـان، ولم يحصل لأئمة الدين، وإنما وجد في هؤلاء المتصوفة الغلاة الذين يزعمـون أن سببه هو هذا التواجد، ويقولون: إن أحدهم يتصل قلبه بربه، وأنه يفنى عن نفسـه، ولا يشـعر بحالتـه، ويقولـون: يفـنى من لم يكن، ويبقى من لم يـزل، يفنى بموجوده عن وجـوده، موجـوده يعـني: نفسـه، أي: أنه يفـنى بنفسه في ربه، ويفنى من لم يكن هو الإنسـان، ويبقى من لم يـزل، ويتصل روحه بـالملأ الأعلى، هـذا معـنى الفنـاء، وهو بدعة من بـدع المتصـوفة، ومع ذلك فـإنهم يعدونه رقياً، ويتمدحون بـه، ويزعمـون أنه درجة رفيعـة، وأنه درجة متمكنة لا يصل إليها إلا الخواص! كذلك أيضاً من أحوال المتصـوفة، أن أحـدهم إذا تليت عليه آيات أو مواعظ أو كلمات أو نحوها يصـعق، ويـزعم أن ذلك مما لا يطيق الصبر عليه، وهذا الصعق لم يُؤثر عن الصحابة، ولا عن أئمة الـدين، بل كـانوا كما ذكر الله تعـالى عنهم أنهم يزيـدهم القـرآن خشـوعاً، ويخضـعون له ويسجدون، قـال عز وجـل: إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَـاتُ الـرَّحْمَنِ خَـرُّوا سُـجَّدًا وَبُكِيًّا [مريم:58]، وقـال: إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِـرُّونَ لِلأَذْقَـانِ سُـجَّدًا [الإسـراء:107]، وقال: تَلِينُ جُلُـودُهُمْ وَقُلُـوبُهُمْ إِلَى ذِكْـرِ اللَّهِ [الزمـر:23] أي: تخشع قلـوبهم، وتزيدهم الآيات إيماناً، هذه هي أوصـاف أوليـاء اللـه، وهـذا هو النص الحقيقي للمؤمـنين، فأما أن يصل إلى أنه يصـعق أحـدهم أو يغمى عليـه، فهـذا أقل أحواله أن يكون معذوراً، وأن يكـون الـذي غلبه هو شـدة الخـوف، أو على ما يقول الصـوفية: شـدة التواجـد، فلا شك أن هـذا ليس أشـرف حـالاً من حـال الصحابة والأئمة المهتدى والمقتدى بهم. وأما ما ذكر عن أحوال هـؤلاء الـذين ذكرهم هذا الشاعر، وأن العقول تسجد على أبـوابهم .. إلى آخـره، فـإن ذلك بلا شك كفرٌ وضلال، فنقول: لا تسجدوا إلا لله، وهذا التواجد الذي يحصل لهم كله خطأ لا أصل له. فالمسلم يتقيد بأوامر الشرع، ويبتعد عن الأشياء الـتي لا أصل لهـا، وأما من يسـمون بالملامية الـذين ذكـرهم، وأنهم الـذين يفعلـون الأشياء التي يلامون عليها، ويتعمدون ذلك؛ فهؤلاء من المنحرفين؛ واللـوم في الأصل هـو: أن يفعل الإنسـان شـيئاً لا يحسن بحيث يلام عليـه، وقد ذم الله تعالى ذلك، ففي قوله تعالى في قصة فرعون: وَفِي مُوسَـى إِذْ أَرْسَـلْنَاهُ إِلَى فِرْعَـوْنَ بِسُـلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَـوَلَّى بِرُكْنِـهِ وَقَـالَ سَـاحِرٌ أَوْ مَجْنُـونٌ * فَأَخَـذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ [الذاريات:38-40] أي: آثم بما يلام عليه، يعني: مستحق للوم الذي سبب أنه عذب به. ثم هؤلاء يقولـون: إنهم يفعلـون هذه الأشـياء، حـتى إنهم يتعمـدون أن يلامـوا عليهـا، وليس في ذلك أصل من دين الله، فلا يغتر بمثل هذه الطرق التي لا أصل لها في شريعة الله.

كل تعبد خالف الشرع مردود على صاحبه

قال الشـارح رحمه الله تعـالى: [وأما الـذين يتعبـدون بالرياضـات والخلـوات، ويتركون الجمع والجماعـات، فهم الـذين ضل سـعيهم في الحيـاة الـدنيا، وهم يحســبون أنهم يحســنون صــنعاً، قد طبع الله على قلــوبهم، كما قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من تـرك ثلاث جمع تهاونـاً من غير عذر طبع الله على قلبه). وكل من عدل عن اتباع سـنة الرسـول، إن كان عالماً بها فهو مغضوب عليه، وإلا فهو ضال؛ ولهذا شرع الله لنا أن نسأله في كل صـلاة أن يهـدينا الصـراط المسـتقيم، صـراط الـذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، غير المغضــوب عليهم ولا الضـــالين. وأما من يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليهما الســـلام في تجويز الاسـتغناء عن الـوحي بـالعلم اللـدني، الـذي يدعيه بعض من عـدم التوفيــق: فهو ملحد زنــديق، فــإن موسى عليه الســلام لم يكن مبعوثــاً إلى الخضر ، ولم يكن الخضر مـأموراً بمتابعتـه؛ ولهـذا قـال لـه: أنت موسى بـني إسرائيل؟ قال: نعم. ومحمد صلى الله عليه وسلم مبعـوث إلى جميع الثقلين، ولو كان موسى وعيسى حيين لكانا من أتباعه، وإذا نـزل عيسى عليه السـلام إلى الأرض إنما يحكم بشــريعة محمــد، فمن ادعى أنه مع محمد صـــلى الله عليه وسلم كـالخضر مع موسى، أو جوّز ذلك لأحد من الأمة فليجـدد إسـلامه، وليشهد شهادة الحق؛ فإنه مفارق لدين الإسلام بالكليـة، فضـلاً عن أن يكـون من أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان، وهذا الموضع مفـرق بين زنادقة القوم وأهل الاستقامة، فحرك ترَ، وكذا من يقـول بـأن الكعبة تطـوف برجـال منهم حيث كانوا!! فهلا خرجت الكعبة إلى الحديبية فطافت برسول الله صلى الله عليه وسـلم حين أحصر عنهـا، وهو يـود منها نظـرة؟! وهـؤلاء لهم شـبه بالذين وصفهم الله تعالى حيث يقول: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً [المدثر:52] إلى آخر السورة]. هذه صفة لا شك أنها بشعة وشــنيعة، وهؤلاء هم من المتصـوفة، وكـان مجموعة منهم يعـتزلون إما في زاويـة، وإما في مكان نـازح، ثم يعكف في نظـره بقلبه على ربـه، ويجمع جمعيتـه، ويجيل فكـره في الملأ الأعلى في نظـره، ويبقى لا يخـرج إلى المسـاجد، ولا يصـلي جمعة ولا جماعة، ويزعم أنه إذا خرج تفـرق عليه قلبـه! ورأى ما يشـتت عليه فكره! وأنه إذا بقي اجتمع عليه ذكره، وأعمل هذا العقل إلى أن يتجاوز السبع الطباق! إلى أن ينظر في الملأ الأعلى، وفي ملكوت السـماوات والأرض، كما يقــول! حــتى يحصل له ما يُعــبر عنه بالتواجــد، ويحصل ما يحصل عليه مما يسمى بالاستلامات والحركات التي تخالف الحركـات الطبيعيـة، وهـؤلاء فـرق كثيرة قديمة الوجـود، وموجـودة الآن في البلاد الـتي يكـثر فيها التصـوف. ولا شك أنهم إذا تركوا الجمع والجماعات أنهم تركوا الشريعة والسنة المحمديــة، وأنهم ابتدعوا ديناً من عند أنفسهم فضّلوه على شــرع اللــه، وعلى دين اللــه، وليس لهم ســنة وطريقة يســتدلون بهــا، ولا دليل يحــذون حــذوه إلا مجــرد التجربة في زعمهم أن هذا جُرب، وأنه لما جمع جمعيته رأى ما لم يره غـيره. فالحاصــل: أنه تــارة يكـــون الواحد منهم منفــرداً في زاوية في بيته أو في

صـومعة أو في مكـان خـاص، وقد يخـرج خـارج البلد ثم يجيع ويظمئ نفسه ويتعبهـا، ويعمل فكـره، ويبقى مفكـراً يومه وليلته ويومه الثـاني وليلته الثانية إلى أن يحصل له مطلبه، وهو الفناء الذي يعبر عنه بالتواجد .. وما أشبه ذلك. ثم إنه يفضل نفسه على رسل الله؛ إذ لم يكن الرسل وخـاتمهم محمد صـلى الله عليه وسـلم يفعلـون هـذه الأشـياء، فعـرف بـذلك ضـلال هـؤلاء، وبطلان طريقتهم، وأنهم لا يمكن أن يصلوا إلى ما وصل إليه رسل الله الذين فضلهم، والذين مـيزهم بما مـيزهم به من العلم، وهكـذا ما شـرعه في شـريعة النـبي محمد صــلى الله عليه وســلم الــتي هي خاتمة الشــرائع. فهــذه من البــدع المنكـــرة عليهم، وبلا شك أن البـــدع لا تتمكن إلا إذا رأى أهلها فيها شـــيئاً يجتـذبون به النـاس، وقد انخـدع بهم خلق كثـير عنـدما رأوا أنهم يحصل منهم هذه الكلمات، وهذه التوهمات، وهذه الأمور التي قد يظنون أن فيها شيئاً من الأمـور الغيبيـة، وأنهم يطلعـون على أمـور سـماوية، وأنهم .. وأنهم، فـرآهم جمهرة وجمع كثـير من النـاس فـتزينوا بـزيهم، وسـاروا على نهجهم -والعيـاذ باللـه- ووقعـوا في هـذا الأمر الـذي هو تـرك الشـريعة واتبـاع هـذه الطـرق المبتدعة، وتعطيل ما هو عبادة سـماوية مـأمور بهـا، كما في قوله صـلى الله عليه وسـلم: (من تـرك ثلاث جمع تهاونـاً طبع الله على قلبـه) والعيـاذ باللـه! فيجب أن نحـذر من كل هـذه الطـرق وغيرها الـتي تخـالف الشـرع، ونتجنب أهلها، ونعـرف أنهم يسـيرون عليها لأجل أن يضـلوا ويضـللوا غـيرهم، والعيـاذ بالله!......

الرد على الصوفية المعظمين للمجانين

تقدم ما ذكره الشارح رحمه الله فيما يتعلق بالذين يعظمون البله والمجاذيب والمجانين ونحوهم، ويعتقدون أنهم من المقربين، ويعتقدون أنهم يصـلون إلى الله تعالى من طرق غير طرق الأنبياء والرسـل، وأنهم يمكن أن يسـتغنوا عن الشرائع السماوية، وأنهم لذلك يستحقون أن يُقتدى بهم في أفعـالهم، ويُسـار على منـاهجهم، وهـذه الأقـوال -وللأسـف- انتشـرت في المتصـوفة، ويكـثر تواجدهم في الدول الإفريقية وفي غيرها، ويقـول وجـودهم إذا قـويت العقائد السلفية، وإذا تمكنت معرفة التوحيد عند أهله، ولكن لا يزال الكثير على هـذه المناهج الفلسفية والطرق الصوفية، ولا يزالون ينقلون تلك النقول ويموهـون على العوام أن هؤلاء ولو كانوا ناقصي العقـول فـإن قلـوبهم عند ربهم، وأنهم سقطت عنهم التكـاليف ولو كـانوا من البشـر، وأن جميع كلامهم حكم وآيـات وعبارة! ولكن ذلك كله لا يروج إلا على الجهلة الذين هم أتبـاع كل نـاعق، أما أهل السنة والجماعة وأئمة الدين وفقهاء الإسـلام فـإنهم يعرفـون أن الطـرق كلها مسـدودة إلا الطريق الشـرعية، وهي طريق الرسل الـذين أرسـلهم الله ليوضحوا للناس الشرائع، وليدلوهم على ما يقربهم إلى ربهم، فمن سلك تلك الطـرق الـتي هي طـرق أولئك المشـعوذين وأولئك الممـوهين ونحـوهم فإنها تؤدي به إلى الهلاك، ومن سلك الطريق الأقوم الذي هو سنة النبي صلى الله

عليه وسلم فإنه يـؤدي به إلى النجـاة والفلاح. ولقد ثبت أن النـبي صـلى الله عليه وسلم: (خط خطاً مستقيماً، وخط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، وقال للخط المستقيم المستمر: هذا صراط الله، وقال للطرق المنحرفة عن يمينه وشماله: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يـدعو إليـه)، فمن سـار على ذلك الخط المستقيم وصل إلى النجاة، ومن انحرف وأخذ بنيـات الطريق ضل وهلك وتردى. وضرب بعضهم لذلك مثلاً بجريد النخل: فإنه يُشـاهد أنه يتـدلى بعضه حـتى تصل أطرافه إلى الأرض، فلو أن حشـرة من الحشـرات ارتقت على الجريدة وسارت على وسطها ولم تنحـرف فإنها تصل إلى أعلى النخلـة، وتأكل من ثمرها، أما إذا انحرفت وركبت إحدى الأغصـان المتدلية فإنها تسـير عليها قليلاً، ثم تسـقط بنهايتهـا، فهكـذا من سـار على هـذا الخط المسـتقيم أوصله إلى كرامة اللـه، وأوصـله إلى الـدرجات، وأوصـله إلى النجـاة، أما من انحرف وركب هذه الطرق فلا يـأمن أن يهلك ويـتردى، وقد تمـادى هـؤلاء في مدح أولئك المجانين والمجاذيب الذين يسمون أحدهم مجذوباً، ويقولون: قلبه عند ربه! وتمادوا في تعظيمهم حتى ادعوا أنهم: إذا ماتوا رفعوا إلى السـماء! هكذا يعتقدون فيهم، ويموهون أن هـذا الـذي هو سـقيم العقل عند النـاس ما ذُهب بعقله إلا أنه تعلق بربه، وأن ربه قد أسـقط عنه التكـاليف، وأبـاح له كل شيء، أباح له أن يفجر! وأن يـزني! وأن يقتـل! وأن يفعل الجـرائم والبشـائع دون أن يكون عليه إثم أو يكتب عليه سوء! ونحن نقـول: إذا ثبت أنه مجنـون بمعـنى: أنه مسـلوب العقل والفطـرة فهـذا أقل أحواله ألا تُكتب عليه لا حسنات ولا سيئات، فأما أن يتفوق على أهل الحسـنات، وعلى الصـالحين من عبـاد الله فحاشا وكلا، إذ لا يمكن أن يكـون المجنـون أرقى درجة من العاقل الذي عمَّر وقته بالصلوات، وعمَّر وقته بالعبادات، وأكثر من الحسـنات! ثم إن المجنون قد يكون ملحقاً بأهل الفترات الذين لم تأتهم الدعوة، أو في أمـاكن نازحة لم تبلغهم الرسـالة، ولم يسـمعوا عن الإسـلام، ولا عن دين الإسـلام، فهؤلاء لا نحكم بضلالهم ولا بكفرهم، ولا نخلدهم في النـار؛ لأنهم قد يعتـذرون ويقولون: يا ربنا! بأي شيء نتعبد؟! لو أعطيتنا عقولاً لتعبـدنا كما تعبد هـؤلاء، أو لو بلغتنا الشـرائع لتعبـدنا كما تعبد أهلهـا؛ ولكن الله تعـالى يمتحنهم، ففي الحديث أنه يقول لهم: (أرأيتم إذا أمرتكم بأمر أتطيعوني؟ فيقولون: وما لنا لا نطيعك وأنت ربنا؟! فتُمثل لهم نارٌ تشتعل، فيُقال: ادخلوها، فمن علم الله أنه من أهل السعادة والخير دخلها، وكـانت عليه بـرداً وسـلاماً، ومن علم الله أنه شـقي ليس من أهل الجنة فإنه يتقـاعس ولا يـدخلها، فيقـول اللـه: قد أمرتك فعصيتني، فكيف لو أمرتك رسلي! أنت من أهل النار) فيتميز بذلك أهل الجنة من أهل النار. فالبُله والمجذوبون والمجانين وناقصو العقـول ونحـوهم الـذين بلغوا واستمروا على ذلك إلى الممات ملحقون بأهل الفترات، وملحقون بأهل الأماكن النائية الذين لم تبلغهم الدعوة، هذه حالتهم. وبـذلك يُعـرف أن الـذين فضـلوهم على العقلاء، وفضـلوهم على الأنبيـاء، وجعلـوهم مسـتغنين عن الشرائع؛ قد أتوا قولاً إدًّا. ......

أهل السنة يرون الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة كثيرة جداً.

منهج أهل السنة في لزوم الجماعة وترك الفرقة

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [قوله: (.. ونرى الجماعة حقاً وصواباً والفرقة زيغاً وعذاباً ..): قال الله تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا [آل عمران:103]. وقال تعالى: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران:105]. وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [الأنعام:159] وقال تعالى: وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ [هود:118-119]، فجعل أهل الرحمة مستثنَين من الاختلاف. وقال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ [البقرة:176]. وقد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم: (إن أهل الكتابَين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة -يعني: الأهواء- كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة. وفي رواية: قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي)، فبين أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة، وأن الاختلاف واقع لا محالة. وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ الشاة الشاردة القاصية، فإياكم والشعاب! وعليكم بالجماعة، والعامة، والمسجد). وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه لما نزل قوله تعالى: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ [الأنعام:65] قال: (أعوذ بوجهك! أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ [الأنعام:65] قال: أعوذ بوجهك! أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ [الأنعام:65] قال: هذه أهون)، فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعاً، ويذيق بعضهم بأس بعض، مع براءة الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الحال، وهم فيها في جاهلية. ولهذا قال الزهري : وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر، أنزلوهم منزلة الجاهلية. وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: (ترك الناس العمل بهذه الآية) يعني: قوله تعالى: وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا [الحجرات:9]، فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى، فلما لم يُعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية. وهكذا مسائل النزاع التي تتنازع فيها الأمة في الأصول والفروع -إذا لم ترد إلى الله والرسول- لم يتبين فيها الحق، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم، فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضاً، ولم

يبغ بعضهم على بعض، كما كـان الصـحابة في خلافة عمر و عثمـان يتنـازعون في بعض مسائل الاجتهاد، فيقر بعضهم بعضاً، ولا يعتدي ولا يُعتدى عليـه، وإن لم يُرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم، فبغى بعضهم على بعض، إما بـالقول مثل تكفيره وتفسيقه، وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله، والـذين امتَحنـوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء، ابتدعوا بدعة، وكفَّروا مَن خـالفهم فيهـا، واسـتحلوا منـعَ حقه وعقوبتَـه..]. هـذا الكلام يتعلق بوقـوع الاختلاف في هـذه الأمة كما وقع في الأمم السـابقة، ويجب على الأمة -أمة الإجابة والـدعوة الاجتماع والائتلاف، يقـول: إن الـواجب على المسـلمين جميعـاً أن يـأتلفوا ولا يختلفوا، وأن يكونوا إخوة كما سماهم الله تعالى. ......

الجماعة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين

كان أهل المدينة قبل الإسلام مختلفين، ويقع بينهم قتال كثير، ويستمر القتال حتى يُقتل فيه أعداد من هؤلاء وهـؤلاء. ولما جـاء الإسـلام زال ذلك الاختلاف، وزالت تلك الفرقـة، واجتمعـوا على الإسـلام، فـذكَّرهم الله تعـالى بـذلك في قوله: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعَـاً [آل عمـران:103] أي: تمسـكوا بحبل الله الذي هو دين الإسلام. وَلا تَفَرَّقُوا أي: لا تكونوا فرقـاً وأحزابـاً. وَاذْكُـرُوا نِعْمَـةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْـدَاءً فَـأَلَّفَ بَيْنَ قُلُـوبِكُمْ فَأَصْـبَحْتُمْ بِنِعْمَتِـهِ إِخْوَانَـاً [آل عمـران:103]: فجعلهم إخـوة وهو حـق، فـإنهم بعد أن دخلـوا في الإسـلام أصبحوا مثل الإخوة متحـابين، وهكـذا أصـبحوا يحبـون كل مـؤمن، لما جـاءهم المهاجرون صاروا يحبونهم كما يحبون إخوانهم أولاد آبائهم وأمهاتهم، كما ذكر الله ذلك بقوله تعـالى: وَالَّذِينَ تَبَـوَّءُوا الـدَّارَ وَالإِيمَـانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَـاجَرَ إِلَيْهِمْ [الحشـر:9] يحبـون المهـاجرين، بل يقـدمون محبتهم على محبة أنفسهم، كما في قوله: وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ [الحشر:9]. وما ذاك إلا أنهم عرفـوا أن الله يحبهم فـأحبوهم، ما دام أن الله يحب المؤمـنين فإننا نحبهم، وما دام أنهم يحبـون اللـه، ويحبـون رسـول الله فإننا نحب من يحب الله، نحب من يحب الرسول عليه الصـلاة والسـلام، وإذا ثبتت هـذه المحبة فلا بد أن لها آثارهـا، وهي: الاجتمـاع، أن نكـون مجتمعين غـير متفرقين، أهدافنا موحدة .. مقاصدنا محددة .. كل منا على الإسلام .. كل منا يعبد الله ويعرف الله، ويعرف دين الله ويدين به، وكل منا على عقيدة واحدة، وعلى شريعة واحدة وهي: شريعة الإسلام. هكذا كان الصحابة في عهد النـبي صـلى الله عليه وسـلم على هـذه الشـريعة، وكـذلك في عهد أبي بكر ، وفي عهد عمر ، وفي عهد عثمـان ، كـانوا على هـذه الشـريعة، لم يكن بينهم أي اختلاف يسبب التقاطع والتباغض والعداوات.

من مقاصد الشريعة المحبة والاجتماع

من تأمل شـرائع الأنبيـاء وشـريعتنا خاصـة، وجد أن كل المعـاملات والأحكـام تهدف إلى هـدف واحد وهو تحصـيل الأخـوة بين المسـلمين، الـذي يكـون من آثـاره جمع الكلمـة، إخـوة في ذات الله تعـالى، فعلى المسـلمين أن يـتركوا التقاطع والتباغض جانباً؛ ليكونوا متحـابين في ذات اللـه. ومن تأمل المنهيـات الـــتي تتعلق بالمعـــاملات وجد أن الحكمة من تحريمها ومن النهي عنها أنها تسبب البغضاء، وتوقع العـداوة والوحشة بين المسـلمين. لأجل ذلك نهى الله عن أشـياء تسـبب هـذا، فمثلاً قـال الله تعـالى: لا يَسْـخَرْ قَـومٌ مِنْ قَـوْمٍ [الحجرات:11]، لماذا نُهينا عن السخرية؟ لأنها تسبب الفُرقـة. وَلا نِسَـاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرَاً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ [الحجـرات:11]. اللمز هو العيب، قال الله: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ [الهمزة:1]، وقال: هَمَّازٍ مَشَّـاءٍ بِنَمِيمٍ [القلم:11] وهو الذي يتتبع العثرات، ويلصق بالإنسان ما ليس فيه، لماذا نهينا عن الهمز واللمز والعيب والثلب وتتبع العـــثرات وإظهـــار السـوءات؟! لأنه يسبب الفُرقة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تَقاطَعوا، ولا تَدابَروا، ولا تَهاجَروا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَنافَسوا) لماذا نهانا عن التقـاطع والتهـاجر؟ لا شك أن هذه الأشياء التي نهانا عنها تسبب الفُرقة، فـإذا تركناها أصـبحنا مجتمعين، ولا شك أن الإسلام يهدف إلى الاجتماع، ويحث عليه، وينهى عن الاختلاف.

الآيات الدالة على لزوم الجماعة

الآيـات الـتي أوردها الشـارح رحمه الله دالـةٌ دلالـةً واضـحة على النهي عن الفُرقة: قال الله تعالى: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَـاءَهُمُ الْبَيِّنَـاتُ [آل عمـران:105]، وقـال: وَلا يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ [هـود:118-119]. فـدل على أن من رحمهم الله فـإنهم غـير مختلفين، وأن أولئك الذين اختلفوا قد فاتتهم الرحمـة، ولا شك أن فـوات الرحمة أمر عظيم وكبير، حيث حصل لهؤلاء رحمة، ولهؤلاء ضد الرحمة، أو نُزعت منهم الرحمة. إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعَاً [الأنعـام:159] يعـني: أحزابـاً لَسْـتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ [الأنعام:159]. وقـال سـبحانه: وَلا تَكُونُـوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعَاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُـونَ [الـــروم:31-32]. إلى آخر الآيـــات الـــتي ســـمعتم، ولا شك أنها نهي عن التحزبـات، ونهي عن الاختلافـات. وَلا تَتَّبِعُـوا السُّـبُلَ فَتَفَـرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَـبِيلِهِ [الأنعام:153]أي: لا تتبعوا السبل المنحرفة فتتفـرق بكم عن سـبيله، فسـبيل الله هو سـبيل النجـاة. ومعلـوم أن هـذه الشـريعة قد من الله تعـالى ببقائهـا،

وحفظها على الأمـــة، وأن حفظها عليهم نعمة عظيمة وكبـــيرة، حيث وفقهم لحفظهـا، ووفقهم لبقائهـا، وبين لهم تعاليمهـا، فكل شــيء مما يتعلق بهـذا محفوظ مبين.

خطر التفرق والتنازع والتحزب

لا مبرر للاختلاف .. لا موجب للتفرق .. لماذا نتحزب أحزاباً؟! ولمـاذا نتسـمى بأسـماء ما أنــزل الله بها من سـلطان؟! القصد واحــد، والجماعة واحــدة، والتفــرق -بلا شــك- ســبيل إلى التحزبـات وإلى تفــرق الكلمــة، ولا شك أن المسلمين كلما تفرقوا وتباعدوا وتناءت كلماتهم ضعفت قـوتهم، وإذا ضـعفت قـوتهم قـوي أعـداؤهم عليهم، فتسـلطوا عليهم. ولو تتبعنا التـواريخ والوقـائع التي وقعت على الأمم السابقة، بل وعلى هذه الأمة؛ لوجدنا أنهم إنما يسـلط عليهم الأعداء عنـدما تتفـرق كلمتهم، أما إذا اجتمعـوا فـإنهم يصـيرون إخـوة، وهدفهم واحد، ووجهتهم نحو العدو واحدة، وهكذا. ذكروا في تاريخ آخر القرن الأول، أن المسلمين كانوا يقاتلون في حـدود أفغانسـتان، فـتركوا القتـال في وقت من الأوقات، فظهرت بينهم أحزاب وخلافـات بسـبب المفـاخرات، هـذه القبيلة تفتخر، وهـذه القبيلة تـذكر نسـبها، وهـذه تـذكر حسـبها، فحصل بينهم شـقاق وخلافـات ومنازعـات، مع أن كلهم مسـلمون. فتـولى عليهم قتيبة بن مسلم الباهلي، وهو أحد القواد المصلحين، فخطبهم وقال: لمـاذا تتفرقــون؟! ولمــاذا تتحزبــون؟! كلكم من آدم! وكلكم مسـلمون! وكلكم على شـــريعة واحدة! تعبدون رباً واحداً، وتدينون ديناً واحداً، فـاجتمعوا ووجهـوا قـوتكم إلى عـدوكم، فـإن عـدوكم بحاجة إلى أن تـذلوه، وعـدوكم يفـرح بهـذه التفرقـات فيكم. فلما لَمَّهم وجمعهم قـــويت كلمتهم، فتوجهـــوا وصـــاروا يفتحـــون بلاد أفغانستان، وبلاد السند، وبلاد ما وراء النهر، وفتحوها بلداً بلداً إلى أن وصـلوا إلى ما وصـلوا إليـه، وحصل هـذا بعد أن جمع الله كلمتهم. فعُـرف بـذلك أن الشياطين وأعوان الشياطين لهم أغراض في تفريق الكلمة، والنبي صلى الله عليه وسـلم قد كـان يحث على الجماعـة، وقد مثّل صـلى الله عليه وسـلم المنفردين بالشاة القاصية والبعيدة التي تبتعد وتنعزل عن الغنم، فيأتي الذئب على حين غفلة من الرعـاة، فيأخـذها ويختطفهـا، فهكـذا الشـيطان للإنسـان، متى وجد هذا شاذاً في قول، وهذا منفرداً بعقيدة، وهؤلاء الفرقة القليلة على نحلة وعلى مـــــذهب؛ تمكن منهم، وأدخل عليهم البـــــدع، وأدخل عليهم الوسـاوس، فـإذا انتبهـوا لأنفسـهم، ورجعـوا إلى الطريق السـوي، وتمسـكوا بالصــراط المســتقيم، واجتمعت كلمتهم مع علمــائهم ودعــاتهم، ومع ســائر إخوانهم؛ فإنهم يكونون يداً واحدةً، ولا يقـوى عليهم الشـيطان، كلما وسـوس إليهم بوسوسة وألقى في قلوبهم أو في قلب أحـدهم شـكاً أو ريبـاً أو شـبهةً

احـترقت بنـور النبـوة، احـترقت بـأنوار الشـريعة، ولم يبق له سـلطان: إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ [النحل:100].

حديث افتراق الأمة

حديث افـتراق الأمـة، فيه أن هـذه الأمة سـتفترق على ثلاث وسـبعين فرقـة، كلها في النـار إلا واحـدة، وهو دليل على أن الله تعـالى أطلع نبيه صـلى الله عليه وسلم على أن الأمة الذين استجابوا لدعوته سـوف يقع بينهم شـيء من الخلافات، وهذه الخلافات لا بد أن يكون لها آثـار، فآثارها وقـوع قتـال ووقـوع تفسـيق وتكفـير وتضـليل فيما بينهم، وقد وقع هـذا الاختلاف حـتى في عهد الصـحابة رضي الله عنهم، فـوقعت الفتنة الأولى الـتي هي خلاف بين علي ومعه أهل العراق، لما جاء بعض الصـحابة يطـالبون باستئصـال قتلة عثمـان ، فـوقعت وقعة بشـعة تسـمى وقعة الجمـل، قتل فيها خلق كثـير من هـؤلاء وهؤلاء، مع أن الجميع مسلمون؛ ولكن تدخل الشـيطان فـأوقع هـذا الاختلاف. وأكثر الصحابة أجلاء لم يدخلوها بل اعتزلوها، وإنما دخلها من لا بد منه كـعلي ومن معه و عائشة ومن معها، وقتل فيها من الصـحابة الزبـير و طلحة ، وقتل فيها من قتل من أتباع هؤلاء وهؤلاء. ثم وقعت فتنة أخرى في صفين بين أهل الشام وأهل العراق، أهل الشام يطالبون بـدم عثمـان ، ويطلبـون باستئصـال قتلتـه، وأما أهل العـراق فيطـالبون بجمع الكلمة ويقولـون: إننا سـوف نستأصلهم بعدما تجتمع الكلمة، فوقعت هذه الفتنة التي حصل فيها قتل كثـير يقدر بعشرات الألوف من هؤلاء وهؤلاء، وكانت فتنة عظيمـة، وممن قتل فيها من الصحابة عمار بن ياسر رضي الله عنه، وأكثر القتلى من غير الصحابة. ثم انعزلت فرقة من أصحاب علي ، وكفـروا عليـاً و معاوية ، وسُـموا بـالخوارج؛ لأنهم خرجوا عن طاعة أمير المؤمـنين، وعن موافقة المسـلمين، وليس فيهم أحد من الصـحابة، بل كلهم من غـير الصـحابة، فحصل أن الصـحابة غـزوهم وقـاتلوهم، وحصل منهم ثـورات وقتـال اسـتمر أكـثر من سـبعين سـنة مع المسـلمين، ولا شك أن ذلك من أسـباب الفرقـة، وأن الشـيطان أوقع هـذا الخلاف بينهم في هذه العقائد، حتى يضـللهم ويـوقعهم فيما أوقعهم فيـه، مما له فيه هدف وقصد، ثم حدثت بعد ذلك فرق كثـيرة، ومنها ما وصـلت بـدعتهم إلى الكفر، ومنها ما وصلت إلى الابتداع الذي هو دون الكفر.

الحث على التمسك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وهدي الصحابة

أهل السنة يعتقدون أن جميع أهل الأهواء مبتـدعون، ويقولـون: عليكم جميعـاً أن ترجعــــوا إلى الأصــــل، فلو رجعتم إلى الأصل والشـــريعة، وإلى طريقة الرسـول صـلى الله عليه وسـلم لوجـدتم أنها طريق واحـدة بلا تثنيـة، وذلك مــذكور في حـديث التفـرق، فإنه صـلى الله عليه وسـلم سـئل عن الفرقة الناجيـة: (من هي؟ فقـال: من كـان على مثل ما أنا عليه اليـوم وأصـحابي). ومعلـوم أن سـنة الصـحابة وطـريقتهم مجتمعـة، وأنهم -والحمد للـه- لم يكن بينهم اختلاف تضاد في الـدين، ومعلـوم أن ما كـانوا عليه محفـوظ مـدوَّن قد يسر الله من العلمــاء من نقل عنهم أقــوالهم وأفعــالهم الــتي يتعبــدون بها ويدينون بها، فعلينا أن نحرص على الاقتداء بسنتهم، وأن نترك كل المحــدثات التي جاءت من بعدهم، ونعلم أنها بدع وضلالات. النبي صـلى الله عليه وسـلم كان يحث على التمسك بسنته، في آخر حياته وعظ الصـحابة رضي الله عنهم موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقال الصحابة: (كأنها موعظة مودع فأوصنا، فقال: أوصيكم بالسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفـاء الراشـدين المهـديين من بعـدي؛ تمسـكوا بهـا، وعَضـوا عليها بالنواجـذ، وإيـاكم ومحـدثات الأمـور! فـإن كل محدثة بدعـة). فأمرهم أن يتمسكوا بالسنة بالأيدي، وكأنها شيء يُمسك بالأيـدي، وإذا خـافوا أن تتفلت من أيـديهم عضـوا عليها بالنواجذ الـتي هي أقصى الأسـنان، وهـذا أقصى شيء يمكن التمسك به، ألّا يجد إلَّا أقصى أسـنانه يُمسـكه ويعض عليه به حتى لا يتفلت منه، وذلك لوجود من يحاول انتزاعه، فإن هـذه السـنة الـتي أنت متمسك بها هناك من يحاول أن ينتزعها منك، ويريد أن يبطلهـا، وذلك بما يلقي في قلبك من الشبهة والتشكيك والتوهمات، حتى يُضعف تمسكك، فـإذا كنت متمسـكاً تمسـكاً قويـاً فلن يسـتطيع أن يتغلب عليـك، وأخـبر بـأن كل محدثة بدعة، وأن السنة طريقة واحدة. وكان مما حُفظ عن النـبي صـلى الله عليه وسلم أنه يكرر قوله: (إن أصدق الحديث كتاب الله، وخـير الهـدي هـدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمـور محـدثاتها، وكل محدثة بدعـة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار) هكذا كان يخطب على المنــبر على رءوس الأشـهاد، يحث على هديـه، وعلى التمسك بكتـاب ربـه، وينهى عن المحـدثات في دين الله. وكذلك يخبر بأن دينه لا يجوز تغييره، ولا الزيادة فيه، ولا النقص فيه، كما في قوله عليه الصـلاة والسـلام: (من أحـدث في أمرنا هـذا ما ليس منه فهو رد)، والكلام في هذه المسألة معروف وطويل.

أنواع الخلاف

قـــال الشـــارح رحمه اللـــه: [فالنـــاس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول: - إما عادلون. - وإما ظالمون. فالعـادل فيهم: الـذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره. والظالم: الذي يعتدي على غيره وأكثرهم إنما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون كما قال تعالى: وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـابَ إِلَّا مِنْ بَعْـدِ مَا جَـاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَـاً بَيْنَهُمْ [آل عمـران:19]، وإلَّا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضـهم بعضـاً كالمقلـدين لأئمة العلم، الـذين يعرفـون من أنفسـهم أنهم عـاجزون عن معرفة حكم الله ورسـوله في تلك المسائل، فجعلوا أئمتهم نواباً عن الرسول، وقالوا: هـذا غاية ما قـدرنا عليـه. فالعادل منهم لا يظلم الآخر، ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل، مثل أن يدعي أن قول مقلده هو الصحيح بلا حجة يبديها، ويـذم من خالفه مع أنه معـذور. ثم إن أنواع الافتراق والاختلاف في الأصل قسمان: - اختلاف تنوع. - واختلاف تضاد. واختلاف التنوع على وجـوه: - منه ما يكـون كل واحد من القـولين أو الفعلين حقاً مشـروعاً، كما في القـراءات الـتي اختلف فيها الصـحابة رضي الله عنهم حـتى زجـرهم النـبي صـلى الله عليه وسـلم وقـال: (كلاكما محسـن). ومنه اختلاف الأنواع في صفة الأذان، والإقامة، والاسـتفتاح، ومحل سـجود السـهو، والتشهد، وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، ونحو ذلك مما قد شرع جميعه، وإن كـــان بعض أنواعه أرجح أو أفضـــل. ثم تجد لكثـــير من الأمة في ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك! وهذا عين المحرم، وكذا تجد كثيراً منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع، والإعـراض عن الآخر والنهي عنـه؛ ما دخل به فيما نهى عنه النـبي صـلى الله عليه وسـلم. - ومنه ما يكـون كل من القـولين هو في المعـنى القـول الآخـر؛ لكن العبارتان مختلفتان، كما قد يختلف كثـير من النـاس في ألفـاظ الحـدود، وصيغ الأدلـة، والتعبـير عن المسـميات، ونحو ذلـك، ثم الجهل أو الظلم يُحمل على حمد إحـدى المقـالتين، وذم الأخـرى، والاعتـداء على قائلهـا، ونحو ذلـك. وأما اختلاف التضاد: فهو القولان المتنافيان إما في الأصـول وإما في الفـروع عند الجمهـور الـذين يقولـون: المصـيب واحـد، والخطب في هـذا أشـد؛ لأن القولين يتنافيان؛ لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكـون القـول الباطل الـذي مع منازعه فيه حق ما، أو معه دليل يقتضي حقاً ما، فيرد الحق مع الباطل، حـتى يبقى هـذا مبطلاً في البعض، كما كـان الأول مبطلاً في الأصـل، وهـذا يجـري كثيراً لأهل السنة]. لا شك أن التفـرق والاختلاف من حيث هو فيه ضـرر على الأمـــة، وفيه ســبب لتفرقة الكلمـــة، ومما يســببه أيضــاً كــثرة المنازعـــات والمجادلات بين الأمة وبين الأفراد والجماعات ونحو ذلـك، ومما يسـببه أيضـاً كثرة التحزبات والانتصـار من هـؤلاء لقـولهم، ومن هـؤلاء لقـولهم، ويوقع في التعصب والتشـدد، ورد الأقـوال المخالفة بنـوع من التعسف والتكلف في رد الأدلة وما أشبه ذلك. وهذا بلا شك مذموم، ويعرفه المتخصصون الذين قـرءوا في كتب الخلاف، وأما الـذين لم يقـرءوا فنحن ننصـحهم بـألَّا يقـرءوا في مثل هـــذه الخلافـــات الـــتي تحصل بين المختلفين، وفيها كثـــير من المماحكـــات والمنازعات والمُجادلات. ......

ذكر الشـارح أن الاختلاف نوعـان: - اختلاف تنـوع. - واختلاف تضـاد. اختلاف التنوع هو من طبيعة البشـر، ومن طبيعة المجتهـدين، فلا عجب أن يقع خلاف في المسائل الفرعية بين التلميذ وشـيخه، فيكـون هـذا له رأي وهـذا له رأي، هذا يختار قولاً وهذا يختار قولاً؛ ولكن لا يصل إلى التضليل والمقاطعـة. فمثلاً نقول: إن الإمام مالك بن أنس رحمه الله، إمـام دار الهجـرة، تلقى العلم عن أهل المدينة الـذين هم أولاد الصـحابة، وسـمع ما سـمعه بالمدينـة، وأثبته في مؤلفه الموطــأ، وتتلمذ عليه الشــافعي فقــرأ عليــه، وأخذ من علمــه، وروى أحاديثه، ومع ذلك خالفه في كثير من الأمور الاجتهاديـة؛ ولكنه لم يخطئـه، بل قـال: أنا مجتهد وهو مجتهـد، ولكل مجتهد نصـيب، فلما قيل لـه: هل نصـلي خلف من يقلد مالكـاً ؟ غضب وقـال: ألسـتُ أصـلي خلف مالك ؟! أي: مالك شــيخي، وأنا أصــلي خلفــه، ولو خالفته في بعض الأشــياء الــتي هي أمــور اجتهاديـــة، مثلاً: كـــان الإمـــام مالك لا يجهر بالبســـملة لا في الفاتحة ولا في السورة، و الشافعي يجهر بالبسملة في السورة وفي الفاتحــة؛ ولكن لا يعيب على من أخفى البســملة، كما لا يعيب مالك و أحمد على من جهر بها وأعلن، فهذا الخلاف لم يؤدِّ إلى تهـاجُر ولا تقـاطُع. كـذلك الإمـام الشـافعي يـرى أنه يتورك في كل تشهد عقبه تسـليم، وأحمد لا يتـورك إلا في الصـلاة الـتي فيها تشهدان في الأخير منهما، ومع ذلك لم يقع بينهما بسبب هذا الاختلاف تقاطُع. وقد وقع هـذا الاختلاف زمن الصـحابة، فمـرة سـمع عمر رضي الله عنه في عهد النــبي صــلى الله عليه وســلم هشــام بن حكيم بن حــزام يقــرأ ســورة الفرقان، واستنكر عليه حروفـاً وكلمـات زادها أو نقصـها أو غيَّرهـا، فعند ذلك رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: (إنه يقرأ على خلاف ما أقرأتني! فأقر النـبي صـلى الله عليه وسـلم عمر على قراءتـه، و هشـاماً على قراءته وقال: لا تختلفوا فإن القرآن أنـزل على سـبعة أحـرف) فـأخبر بـأن كلاً منهما مصـيب، ونهـاهم عن الاختلاف. كـذلك أيضـاً ورد الاختلاف في الاسـتفتاحات، فتـارةً كـان النـبي صـلى الله عليه وسـلم يسـتفتح بقولـه: (سـبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك)، وتارةً يستفتح بقوله: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب... إلخ)، وكـان يسـتفتح تـارةً بقوله: (وجهت وجهي للـذي فطر السـماوات والأرض... إلخ)، وتـارةً يسـتفتح بقوله: (اللهم رب جبرائيل وميكائيل... إلخ). واختار هذا قوم، واختار هذا قوم، ولم يخطئ أحد الآخر. كذلك أيضاً ورد الاختلاف في الأذان والإقامـة، فـالأذان بعضهم يجعل التشـهدات فيه ثمانيـة، وبعضـهم يجعلها أربعـاً، وكلمـات الإقامة بعضـهم يجعلها سـبع عشـرة، وبعضـهم يجعلها إحـدى عشـرة، وذلك من بـاب الاجتهاد أيضاً، وذلك لأن هذا رُوي، وهذا رُوي؛ مما يـدل على التوسـعة. كـذلك مثلاً تكبيرات الجنازة، رُوي أنه كبر أربعاً، وأنه كبر خمساً، وأنه كـبر سـتاً، ولم يقل أحـد: إن من كـبر خسـماً فقد أخطـأ. كـذلك أيضـاً التسـليم في صـلاة الجنازة، روي أنه كان يسلم تسليمتين، وتارةً يسلم تسليمة واحــدة، ولا يُخطِّأ

من فعل هذا، ولا يُخطِّأ من فعل هذا؛ لأن هذا مروي، وهذا مروي أيضاً. كـذلك عدد التكبيرات في صلاة العيد، منهم من قـال: يكـبر في الأولى سـبعاً، ومنهم من قال: تسعاً، وليس أحدهما بمخطئ، بل هـذا مـروي وهـذا مـروي. وأنـواع الاختلافات في مثل هذا يسمى اختلاف تنوع. وقد سئل الإمام أحمد عن صلاة الخوف، وقد رويت بست روايات مختلفة، فقـال: من صـلاها على صـفة ثابتة من الصفات المروية فلا أعيب عليـه؛ ولكن أختـار رواية سـهل بن أبي حثمـة، وهي صـلاة النـبي صـلى الله عليه وسـلم في غـزوة ذات الرقـاع، وقـال: إنها أقرب إلى نص القرآن، أي: الآية الـتي في سـورة النسـاء، فلم يخطئ غـيره؛ وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم صـلاها هكـذا وهكـذا. كـذلك صـلاة الكسـوف رُوي أنه ركع في الركعة ركوعـاً واحـداً، ورُوي أنه ركع في الركعة ركـوعين، ورُوي أنه ركع في الركعة ثلاثة ركوعات، ورُوي أربعة ركوعـات، ورُوي خمسة ركوعـات، وهو أقصـاها، وحملـوه على أن ذلك وقع تكـراراً؛ تـارةً اقتصر على ركعة، وتـارةً ركع ركـوعين، وتـارةً ثلاثـة... إلى خمسـة، أي: أن ذلك وقع منه متكـرراً، وذلك دليل على الجـواز، وكأنه لاحظ طـول الـوقت، كأنه يقـول: إذا كان الوقت يحتمل أن يتمـادى الكسـوف أطـال وأكـثر الركوعـات إلى خمسة ركوعات في كل ركعة، أي: عشرة ركوعات في الركعتين، وإن كان الكسوف سهلاً فإنه يقتصر على ركوع أو ركوعين، وذلك أيضاً من بـاب الاجتهـاد أو من باب التوسـعة. وقد اختلف الصـحابة رضي الله عنهم في أشـياء كثـيرة؛ ولكن لم يصل بهم هذا الاختلاف إلى أن يضلل بعضُهم بعضـاً، بل كل منهم يـرى أنه على صواب، وأن صاحبه مجتهد ومعذور، ولم يكن أحد يخطِّئ صاحبه.

اختلاف التضاد

تفـرق أهل الخـير بقـوتهم وبسـيطرتهم من مفاسد التحـزب، الـواجب عليهم كلهم أن يرجعـوا إلى كتـاب الله وسـنة رسـوله، هـذا هو الحكم فليس لنا إلا مرجع واحـد، ونحن أمة واحـدة كما أمرنا اللـه: إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِـدَةً [الأنبيـاء:92] فـإذا كـانت الأمة واحـدة فليكن منهجها واحـداً، وليـتركوا هـذه التحزبات والاختلافات، قد حصل هذا التفـرق الـذي أخـبر به النـبي صـلى الله عليه وسلم؛ ولكن لنعـرف ما هو الحق وما هو الصـواب من تلك الفـرق، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن (هذه الأمة سـتفترق على ثلاث وسـبعين فرقة، كلها في النار إلَّا واحدة، قيـل: من هي يا رسـول اللـه؟ قـال: من كـان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي) وأخبر بـأن الـذين تمسـكوا بسـنته وبما كان عليه أصـحابه هم أهل النجـاة، وما سـواهم فـإنهم أهل الهلاك، ولقد وقع هذا التفرق في الأمة فتفرقت وصاروا أحزاباً وشيعاً، وسُـموا بأسـماء مبتدَعة ما أنزل الله بها من سـلطان، فهنـاك فرقة الرافضـة، وهنـاك فرقة الجهميـة،

وهناك فرقة الجبرية، وفرقة المرجئة، وفرقة كذا ..وفرقة كذا.. من الفرق القديمة. وهكذا أيضاً الفرق الجديدة: فرقة الشيعة، وفرقة الإباضية مثلاً، وفرقة البعثية، وفرقة الحداثية، وفرقة العلمانية، وأشباهها. هؤلاء كلهم أو جلهم يقولون: نحن أهل الحق والصواب في جانبنا، ونحن على حق، وأنتم الذين خالفتمونا ضالون مضلون، وأشباه ذلك. ولا شك أن هذا مصداق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن نقول: المرجع كتاب الله، هذا كتاب الله ينطق بيننا بالحق، فنجعله حكماً ونترك ما سواه، ولا نتعصب لأقوالنا، فنرد ما خالف قولنا بأنواع من التكلفات كما تفعله الجهمية والجبرية ونحوهم. ذلك لأن هؤلاء الذين خالفوا الحق قد أخبر الله تعالى بأنهم زائغون، يقول الله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ [آل عمران:7] فهؤلاء يتمسكون بظواهر لا دلالة فيها، ويتتبعون آيات ويقولون: إنها في جانبنا، وهي عليهم لو تأملوا؛ ولكنهم يأخذون منها جانباً ويتركون البقية، ويتركون الآيات الصريحة الواضحة الدلالة، التي تخالف منهجهم ومعتقدهم، ويسلطون عليها التأويلات، وكذلك يتركون صريح السنة وصحيحها، ويردونها بأنها لا تفيد إلّا الظن، وبأنها آحاد، وبأنها ..وبأنها.. فيقعون في رد السنة، وفي رد الدليل الواضح من حيث لا يشعرون. نقول: لا شك أن هذا الفعل فعل شنيع مستبشع، وهو أخذهم ببعض من الآيات وترك بعض الآيات، فهذا هو الذي سلكه أهل الزيغ الذين يتتبعون المتشابه منه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم) يعني: فأولئك هم الزائغون، لا شك أن زيغ القلوب من أشد الأمراض، يقول الله تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [الصف:5]، والزيغ: هو الميل والانحراف يعني: أن في قلوبهم مرض، وفيها انحراف عن الحق وعن قبوله، فدل على أن مثل هؤلاء زائغون. فمثلاً الرافضة اليوم يقولون: نحن على الحق، ويتمسكون مثلاً بحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ليردن علي أقوام، فإذا عرفتهم حيل بيني وبينهم، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك! إنهم لم يزالوا مرتدين منذ فارقتَهم) يستدلون بهذا الحديث على أن الصحابة كلهم ارتدوا، وأنهم لم يبق منهم أحد على الحق إلا علي وذريته، ويستدلون على فضيلته وأفضليته بحديث: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي)، وبحديث: (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه) ويتركون الأحاديث الصريحة الصحيحة التي وردت في فضل الصحابة وفي فضائلهم وهي مشهورة، ويتركون أيضاً الآيات الواضحة التي تنص على فضائلهم، وعلى مدائحهم، فيتركون الصحيح الواضح ويتمسكون بأشياء لا دلالة فيها. ونقول لهم: هذا الحديث يختص بأهل الردة الذين ارتدوا وماتوا وهم مرتدون بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وقاتلهم أبو بكر ، وقاتلهم علي ، وقاتلهم الخلفاء، أما هؤلاء الخلفاء فلم يغيروا بعد موته، بل تمسكوا بسنته غاية التمسك. وأما قوله: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى) فالمراد القرابة والأخوة، لا أنه يُفضل بهذا على غيره. ومثلاً الخوارج الذين يكفِّرون بالذنوب وبالسيئات، ويُخرجون العاصي أو المذنب من الإسلام ويُدخلونه في

الكفر، ويستحلون دمه، ويخلدونه في النار إذا مات على ذلك، قد يتشبثون ببعض الأدلة وببعض الآيات في تخليد العصاة في النار كقوله: وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة:167]، يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا [المائدة:37]، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا [السجدة:20]، وينكرون الشفاعة، وينكرون خروج العصاة من النار. ويغفلون عن الآيات التي فيها مغفرة الله، وسعة رحمته وفضله، ويتركون الآيات الصريحة مثل قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ [النساء:48]، ومثل قوله تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ [الأعراف:156]، ومثل قوله: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [الزمر:53]، ومثل أحاديث الشفاعة التي تعم كل من قال: لا إله إلّا الله خالصاً من قلبه، وأشباه ذلك. ونقول لهم: الآيات التي ذكرتم خاصة بالكفار الذين كُتب عليهم الخلود؛ وذلك لأن في أولها ذكر الكفر، وذكر الشرك، فهؤلاء هم الذين لا يخرجون من النار، وإذا أرادوا الخروج منها أعيدوا فيها، وأما الذين من أهل التوحيد ودخلوها عقوبة على ذنوب مؤقتة فإنهم يخرجون منها، إذاً: فلا دلالة لكم فيما تمسكتم به من العمومات، بل الأدلة واضحة في أنكم خاطئون ومائلون وزائغون عن الحق والصواب. كذلك مثلاً المرجئة الذين يعتقدون أن المعاصي لا تضر، ويستدلون بآيات الوعد، ويتركون آيات الوعيد، فيستدلون بقوله: وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرَاً عَظِيمَاً [النساء:40] ويقولون: إن الشرك يحبط الأعمال، فإذا كان الشرك يحبط الأعمال، فكذلك الإيمان يمحو السيئات، فلا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل. ونقول لهم: هذا قياس فاسد، وذلك لأن الله توعد العصاة بأنواع من الوعيد، وجعل هذا الوعيد خاصاً بأنهم يعذبون في النار على قدر ذنوبهم، فنحمل على ذلك الآيات التي تمسك بها الوعيدية. وعلى كل حال: فإذا أردنا أن نجمع هؤلاء الخوارج وهؤلاء المرجئة والمعتزلة والأشعرية والكَرَّامية والكُلَّابية والخَطَّابية وأشباههم من المبتدعة، وكذا الرافضة والزيدية والإمامية والشيعة وما أشبه ذلك، لا بد أنهم إذا تليت عليهم الأدلة الواضحة لم يستطيعوا أن ينفصلوا عنها. وكذلك نقول للمخالفين في هذا العصر وفي هذه الأيام؛ الذين تمذهبوا وتحزبوا نقول: لا شك أن خلافاتكم هذه صريحة في مخالفة الحق والصواب، إذا رجعتم إلى كتاب الله وسنة رسوله وجدتم أنها تقدح في معتقدكم، وأن الأدلة ترد أقوالكم، وتنص على خلاف ما تقولونه، وأنكم متى فضلتم رأياً أو نظراً أو ميلاً فقد أبطلتم الأدلة، وعدلتم عن السنة، وفضلتم اتباع الأهواء والشهوات، وملتم إلى ما تمليه عليكم نفوسكم، فأصبحتم بذلك مخالفين لدينكم الذي تنتمون إليه، وهو دين الإسلام، وأصبحتم بذلك خارقين لإجماع الأمة في أن المرجع إلى كتاب الله. ولكن هؤلاء الذين خالفوا في هذه الأزمنة، وهؤلاء الذين تمذهبوا بهذه المذاهب الجديدة، في الغالب أن انتماءهم إلى الإسلام مجرد انتماء لا حقيقة له، وإلا فلو نظرنا في مناهجهم التي يسلكونها لوجدناها تخالف الإسلام، تخالفه مخالفة كلية. فهذا ما يتعلق بأحد النوعين من الاختلاف، وهو اختلاف

التضاد الـذي كل واحد من الصـنفين يضـلل الآخر ويُبَدِّعـه، وهو مثل الاختلاف الذي وقع بين اليهود والنصارى، حـتى اختلفـوا اختلاف تضـاد، حكى الله عنهم هـذا الاختلاف بقولـه: وَقَـالَتِ الْيَهُـودُ لَيْسَـتِ النَّصَـارَى عَلَى شَـيْءٍ وَقَـالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ [البقـرة:113]. فكـذلك هـؤلاء المختلفـون فإن اختلافهم أيضاً اختلاف تضاد، كل منهم يدعي الحق في جانبـه. فـالخوارج يقولـون مثلاً: ليست الجبرية على شـيء، وكـذا يقـول المجـبرة. والأشـاعرة يقولـون: ليست المعتزلة على شـيء، وكـذا تقـول المعتزلـة. وأهل السـنة يقولون في الجميع: لستم على شـيء، وكـذلك أهل السـنة مع الرافضـة، كل منهم يقول: إنكم لستم على شـيء، هـؤلاء يقولـون: الحق معنا وأنتم ضـالون خاطئون، وهؤلاء يقولـون كـذلك أيضـاً. وكـذلك الفـرق الـتي حـدثت في هـذه الأزمان، وتسـمت بأسـماء جديـدة، كل فرقة تجعل الحق في جانبهـا، وتفضل نفسـها على الأخـرى، وتقـدح فيما يتمسك به الآخـرون. ولكن المرجع واحـد، فإذا رجعنا إلى الأصل الذي هو الشريعة الإسـلامية، وتركنا ما سـواهما، عرفنا أن الحق واحد لا يتعـدد، وحينئذ نقـول: ليس لمن خالفه عـذر، بل هو ملـوم، وليس بمصيب، خلافاً للمعتزلة الذين جعلوا الاجتهاد يتعـدد، والحق في جـانب كل من المجتهـدين وقـالوا: إن كل مجتهد مصـيب، ونحن نقـول: الاجتهـاد له حدود، ثم أيضاً النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن المجتهد واحد، والمصيب واحـد، والمجتهد المخطئ معـذور إذا أخطـأ، وله أجر على اجتهـاده، وخطـؤه معفوٌّ عنه. وهذا إذا كان الاجتهاد له مجال، وأما الذين قامت عليهم الحجة

حقيقة الاختلافات الواقعة في صدر الإسلام

قـال الشـارح رحمنا الله تعـالى وإيـاه: [وأما أهل البدعة فـالأمر فيهم ظـاهر، ومن جعل الله له هدايــةً ونـوراً رأى من هــذا ما تــبين له منفعة ما جــاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا وأشباهه، وإن كانت القلوب الصـحيحة تنكر هذا؛ لكن نـور على نـور. والاختلاف الأول الـذي هو اختلاف التنـوع: الـذم فيه واقــعٌ على مَن بغى على الآخر فيــه، وقد دل القــرآن على حمد كل واحد من الطـائفتين في مثل ذلـك، إذا لم يحصل بغي، كما في قوله تعـالى: مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَـةً عَلَى أُصُـولِهَا فَبِـإِذْنِ اللَّهِ [الحشـر:5]، وقد كـانوا اختلفوا في قطع الأشجار، فقطع قوم، وتـرك آخـرون. وكما في قوله تعـالى: وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْمَاً وَعِلْمَاً وَسَخَّرْنَا مَـعَ دَاوُدَ الْجِبَـالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ [الأنبيـاء:78-79] فخص سـليمان بـالفهم، وأثـنى عليهما بالحكم والعلم. وكما في إقرار النبي صـلى الله عليه وسـلم يـوم بـني قريظة لمن صـــلى العصر في وقتها ولمن أخرها إلى أن وصل إلى بــــني

قريظة. وكما في قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر). والاختلاف الثاني هو: ما حُمد فيه إحدى الطائفتين، وذُمت الأخرى، كما في قوله تعالى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ [البقرة:253]. وقوله تعالى: هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ... [الحج:19] الآيات. وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول، وكذلك إلى سفك الدماء، واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء؛ لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق، ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل، والأخرى كذلك، ولذلك جعل الله مصدره البغي في قوله: وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ [البقرة:213]؛ لأن البغي مجاوزة الحد، وذكر هذا في غير موضع من القرآن ليكون عبرةً لهذه الأمة، وقريبٌ من هذا الباب ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك مَن كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به، معللاً بأن سبب هلاك الأولين إنما كان كثرة السؤال، ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية. ثم الاختلاف في الكتاب من الذين يقرون به على نوعين: أحدهما: اختلاف في تنزيله. والثاني: اختلاف في تأويله. وكلاهما فيه إيمانٌ ببعض دون بعض. فالأول: كاختلافهم في تكلم الله بالقرآن وتنزيله، فطائفة قالت: هذا الكلام حصل بقدرته ومشيئته، لكنه مخلوق في غيره لم يقم به، وطائفة قالت: بل هو صفة له قائم بذاته ليس بمخلوق؛ لكنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وكل من الطائفتين جمعت في كلامها بين حق وباطل، فآمنت ببعض الحق، وكذبت بما تقوله الأخرى من الحق، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك. وأما الاختلاف في تأويله الذي يتضمن الإيمان ببعضه دون بعض فكثير، كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القدر، هذا ينزع بآية، وهذا ينزع بآية، فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان فقال: (أبهذا أمرتم؟! أم بهذا وكلتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟! انظروا ما أمرتم به فاتبعوه، وما نهيتم عنه فانتهوا) وفي رواية: (يا قوم! بهذا ضلت الأمم قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض؛ ولكن نزل القرآن يصدِّق بعضُه بعضاً، ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به)، وفي رواية: (فإن الأمم قبلكم لم يُلعنوا حتى اختلفوا، وإن المراء في القرآن كفر) وهو حديث مشهور مخرج في المسانيد والسنن، وقد روى أصل الحديث مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن رباح الأنصاري أن عبد الله بن عمرو قال: هجَّرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرف في وجهه الغضب

فقـال: (إنما هلك من كـان قبلكم بـاختلافهم في الكتـاب). وجميع أهل البـدع مختلفون في تأويله، مؤمنـون ببعضه دون بعض، يقـرون بما يوافق رأيهم من الآيات؛ وما يخالفه إما أن يتأولوه تأويلاً يحرفون فيه الكلم عن مواضـعه، وإما أن يقولوا: هذا متشابه لا يعلم أحد معناه، فيجحدون ما أنزله الله من معانيـه! وهو في معنى الكفر بذلك؛ لأن الإيمان باللفظ بلا معـنى هو من جنس إيمـان أهل الكتاب، كما قال تعالى: مَثَـلُ الَّذِينَ حُمِّلُـوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَـلِ الْحِمَـارِ يَحْمِـلُ أَسْفَارَاً [الجمعـة:5]، وقـال تعـالى: وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُـونَ الْكِتَـابَ إِلَّا أَمَـانِيَّ [البقـرة:78] أي: إلا تلاوةً من غـير فهم معنـاه، وليس هـذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم من القرآن فعمل بـه، واشـتبه عليه بعضـه، فوكَل علمه إلى الله، كما أمره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (فما عـرفتم منه فـاعملوا بـه، وما جهلتم منه فـردوه إلى عالِمـه) فامتثل ما أمر به نبيه صـلى الله عليه وسلم]. في هذا الكلام يبين الشارح أن الاختلاف جنسه مذموم، وما ذاك إلا لأنه يسبب الوحشة والعداوة والبغضاء بين المسلمين، ويفرق الكلمة، ويوقع الفرقة المعنويـــة، بحيث تكـــون كل فرقة وكل حـــزب ينتصر لمحنته ولمعتقده ولمذهبه، ويضلل الآخر، فلا يكـون المسـلمون جميعـاً مجتمعين، بل فرقـــاً وأحزابـــاً. وأما الاختلاف الـــذي هو واقعي ولا يصل إلى حد الـــذم ولا التضليل فهذا اختلاف في فروع، أو يسمى اختلاف تنـوُّع، ليس اختلاف تضـاد، وذلك لأنه من طبيعة المجتهدين أن اجتهادهم يصـيب تـارةً ويخطئ تـارة، وأن الـذي يخطئ قد يخيل إليه أن الصـواب معـه، وأن الخطأ مع الآخـر، فيسـتمر على خطئه الذي يظنه صواباً وهو معذور والحال هذه. ......

الاختلاف الواقع بين الصحابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

سـمعنا ما نقله الشـارح من الاختلاف الـذي وقع بين الصـحابة في عهد النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وأقـرهم الله تعـالى، وأقـرهم رسـوله عليه الصـلاة والسلام. ففي غزوة بني النضير -وهم يهود بجوار المدينة- حاصرهم الصحابة، وكـــانت نخيلهم محيطة بهم، فجعل بعض الصـــحابة يقطع من النخل ليكـــون غيظـــاً للكفـــار، وبعضـــهم يقـــول: لا تقطعوها فإنها في مآلها ســـترجع غنيمة للمسلمين، وكل منهم مجتهد، فـأقر الله هـؤلاء وهـؤلاء فقـال: مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ [الحشـر:5]. وكـذلك الاختلاف الذي حصل في غزوة بـني قريظـة، وهم أيضـاً طائفة من اليهـود، لما نقضـوا العهد قال النبي صـلى الله عليه وسـلم: (اخرجـوا إليهم، لا يصـلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة)، وهم بمكان بعيـد، لا يمكن أن يصـلوه في الـوقت القـريب، فبعض الصـحابة صـلوا في الطريـق، وبعضـهم أخـروا الصـلاة حـتى وصلوا بني قريظة بعد غروب الشمس، فأقرَّ هؤلاء وهؤلاء، الأولون قالوا: إنما أراد منا الإسراع، والآخرون قالوا: نمتثل أمـره ولو فـات وقت الصـلاة، فكلهم مجتهد، ويسمى هذا اختلاف تنوع، ولم يُخَطِّأ أحد منهم لاجتهـادهم. وهـذا مثل الاختلاف الـــذي وقع بين الصـــحابة لما تـــوفي النـــبي صـــلى الله عليه وســـلم،

فبعضــهم أنكر موته وقــالوا: إنما هو إغمــاء، وبعضــهم قــال: إنه قد مــات، فاختلفوا، ثم بعد ذلك اجتمعوا لما سمعوا أبا بكر يتلو قوله تعالى: أَفَإِنْ مَـاتَ أَوْ قُتِـلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَـابِكُمْ [آل عمـران:144]. وكـذلك لما ارتد المرتـدون من الأعراب قال بعضهم: نقاتلهم، وقال بعضهم: إنهم يقرون بالشـهادة، وإنما منعوا الزكاة فاختلفوا، ثم اجتمعوا بعد ذلك على قتالهم، قال عمر : (ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتـال فعلمت أنه الحـق). فهـذا يـبين أنهم متى علموا أن الحق مع أحـدهم رجعـوا إليـه، ولم يتعصب أحد منهم لرأيه ولا لمذهبه، ولا شك أن هذا هو الصواب والفعل الصحيح، كون الإنسان يرجع إلى الحق متى عرفه، فإن الحق قديم كما قاله عمر رضي الله عنه، والرجوع إلى الحق خـير من التمـادي في الباطـل. ومن هـذا أيضـاً الاختلاف الـذي وقع بين الأئمــة، وقع بين الصـحابة خلاف في بعض الفــروع، فخــالف ابن عبــاس في أشياء ولكن لم يضلله غيره، فرُوي عنه أنه خـالف حـتى في مسـائل فرضـية، خـــالف في حجب الأم بـــأخوين، ورأى أنها لا تُحجب إلا بثلاثة أي: تحجب من الثلث إلى السدس، وقال: إن الأخوين ليسا بإخوة، والله يقول: فَـإِنْ كَـانَ لَـهُ إِخْوَةٌ [النساء:11]. وخـالف في العـول وقـال: إن الفـرائض ليس فيها عـول، يعني: زيادة في السهام، ونقص في الأنصباء، فقـال: إن الـذي علم عـدد رمل عالج لم يجعل في المال نصفاً ونصفاً وثلثـاً. والصـحابة الـذين عملـوا بـالعول اتفقوا على العمل به؛ ولكن لم يضللوه، وقالوا: هذا اجتهاده، ولبقية الصــحابة اجتهادهم. وخالف في تحريم الحمر الأهلية، وقـال: إن النـبي صـلى الله عليه وسلم ما نهى عنها إلا أنها حمولة الناس، فرد عليه الصـحابة الـذين قـالوا: إنه نهى عن الحمر وقــال: (إنها رجس أو ركس) أو نحو ذلــك، ولكن مع ذلك لم يعــادوه، ولم يقــاطعوه، ولم يكن بينهم وبينه عــداوة وقــالوا: هــذا اجتهــاده وللآخرين اجتهادهم.

الاختلاف الواقع بين الأئمة الأربعة

الأئمة الأربعة الذين هم أبو حنيفة و مالك و الشافعي و أحمد اختلفـوا اختلافـاً كثـيراً، وتعرفــون الكتب المؤلفة بحيث إن هنــاك أربعة أقــوال في المســألة الواحـدة؛ ولكن بعضـهم يصـلي وراء بعض، ولم يضـلل بعضُـهم بعضـاً. فمثلاً الإمـام مالك يقـول: لا تُقـرأ البسـملة في الصـلاة لا سـراً ولا جهـراً. والإمـام الشافعي يقـول: يُجهر بهـا، ومع ذلك هو يـروي عن مالك ويقـول: هو شـيخي أروي عنه، ولو كنت قد خالفته في هـذا. والإمـام أحمد يقـول: تقـرأ سـراً ولا يُجهر بهــا، والبســملة في الفاتحة وفي الســورة. وهــذا الاختلاف لم يســبب تقاطعاً بينهم، بل كل منهم يروي عن الآخر، فالإمام أحمد يروي عن الشافعي ، فيأخذ من آرائه ومن اجتهاداتــه، و الشــافعي يــروي عن مالك ، فيعـترف به

ويروي عنه في مسـنده، وكـذلك بقية العلمـاء. وهكـذا الخلاف الـذي وقع بين أبي حنيفة و مالك ، فمثلاً اختلفوا في تقدير الصاع، فقـال أبو حنيفة : الصـاع ثمانية أرطال، وقـال مالك : الصـاع خمسة أرطـال وثلث، ومع ذلك كل منهما يرى أن له اجتهـاده. واختلافهم في الزكـاة، واختلافهم في مسـائل كثـيرة من الحج، واختلافهم في علة الربا وما أشـــبه ذلـــك. ولا نضـــللهم في هـــذه الاختلافات، بل نقول: إن هذا مما أدى إليه اجتهادهم، وهم في ذلك كله بـذلوا وسعهم فيدخلون في قوله صلى الله عليه وسلم: (إذا اجتهد الحـاكم فأصـاب فله أجـران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجـر). الـذي أصـاب لا شك أنه بـذل جهـداً وتوسع في البحث والتنقيب، أو كـان أمكن وأقـوى وأفهم وأقـدر؛ فوفقه الله فأصاب الحـق، فله أجـران: أجر الاجتهـاد، وأجر الإصـابة. أما الـذي أخطأ وقد بذل وسعه في البحث فله أجر الاجتهاد، يفوته أجر الإصـابة، ويُعـذر إذا أخطـأ؛ ولكن ليس كل أحد يكـون أهلاً للاجتهـاد، بل إنما يجتهد في المسـائل ويبحث فيها من يكـون عنـده القـدرة والاسـتطاعة على البحث، وعلى الوصـول إلى الصواب، وعلى عين المسـألة المطلوبـة، فأما إذا كـان قاصـراً في مثل هـذه الأشـياء فلا يليق أن يُمكن من الاجتهـاد، ولا يقـال: إنه من أهل الاجتهـاد وإنه أصاب. وبكل حال: الخلاف في فروع المسائل مشـهور ومـدون -والحمد للـه- في الكتب الفقهية، وكل يأخذ مما تيسر منه، فإن وجدت المسـألة فيها خلاف بين الشافعي و أحمد مثلاً أو بين مالك و أبي حنيفة فإنك تنظر أيها أقرب إلى الصواب، وأيها أمكن في نفسك، وأقرب إلى الإصابة والـدليل، فتأخذ بهـا، ولا تأخذ بمجـــــرد الميـــــل، ولا بما تهـــــواه النفس، بل ترجع إلى ما هو الأولى والصواب، وبذلك تكون موفقاً إن شاء الله.

للإسـلام ممـيزات وفضـائل كثـيرة، وهو دعـوة جميع الأنبيـاء مع اختلاف شرائعهم، وهو الذي أمر الله الناس باتباعـه، ولكن أكـثر النـاس أعرضـوا عنه اتباعاً للهوى أو تقليداً للآباء أو جهلاً بحقيقته.

أسباب اختلاف التضاد في الأمة

تطـرق الطحـاوي رحمه الله إلى أن دين الإسـلام جـاء بالاجتمـاع، وحث على لزوم جماعة المسـلمين، ونهى عن التفـرق والاختلاف. وتوسع الشـارح رحمه الله في بيـان أسـباب الاختلاف، وبين أنواعـه، وذكر أن الاختلاف: - اختلاف تنـوع. - واختلاف تضـاد. وأن اختلاف التنـوع لا يُضـلل بـه؛ وذلك لأنه يثبت عن اجتهاد، كاختلاف الصحابة في تفسـير بعض الآيـات، وكـذا المفسـرون بعـدهم اختلفـوا في بعض معـاني الآيـات، وإن كـان المعـنى واحـداً. ففسـروا مثلاً (الصـراط المسـتقيم) أنه الإسـلام، وفسـره بعضـهم بأنه الرسـول، ولا فـرق فالمعنى واحد. وكذلك اختلافهم في معاني كثير من الأحاديث التي يدخل فيها الاجتهاد. أما اختلاف التضاد فلا شك أنه يُضلل به، وهو الذي يحدث عن هـوى، ويكون سبب الاختلاف اتباع الأهواء، وذلك لأن المبتدع مـتى هـوي نحلة ومـال إليها فإنه يصر على تلك النحلة ويخالف الأدلـة. وهـذا ما يسـببه اتبـاع الهـوى، وقد ورد في الأثر: (أن الهوى يُعمي ويُصم). كـذلك أيضـاً من أسـباب اختلاف التضـاد: تقليد الآبـاء، وذلك لأن كثـيراً من النـاس قد يتضح له الحـق، ويعـرف القول الصحيح، ثم يخالفه، لماذا؟ لأن آباءه وأسلافه ليسوا على هذا المسلك، وإذا خالفه أحد منهم هجروه وقالوا: تترك معتقد آبائك وأسلافك؟! وهذه سـنة المشـركين، ذكر الله أنهم يعرفـون الحق ثم يخالفونـه، ويعرفـون أن الباطل باطل ويرتكبونه، لماذا؟ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُـونَ [الصـافات:69-70]. يقولـون: إِنَّا وَجَـدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَـارِهِمْ مُقْتَـدُونَ [الزخـرف:23]. وكـذلك بقية المبتدعـة: يتمسـكون بمـذاهب آبـائهم وأسلافهم ولو تـبين لهم الحـق. فمثلاً: الرافضة كـانوا قـديماً لا يقـرءون كتب السـنة، وذلك لأنها لم تنتشر ولم تشـتهر، وإنما يقـرءون الكتب الـتي يكتبها أئمتهم، فكثير من عوامهم ممن يريد الحق لم يعرفـه، ولم يصل إليه ما يـبين الطريق الحـق، فبقـوا على ضـلالهم؛ ولكن في هـذه الأزمنة طُبعت الكتب، وانتشرت كتب الصـحيح، وكتب السـنن، وكتب المسـانيد، وكتب السـنة، ومن أرادها من الشيعة أو غيرهم قـدر عليهـا، وتحصل عليها وعـرف الحـق. فبعض الشـباب من الرافضة تـبين لهم طريق الحق فاهتـدى منهم أفـراد؛ ولكن لما اهتدوا وخالفوا طرق الرافضة ماذا فعل أهلـوهم؟ هجـروهم وقـالوا: أتـتركون سنة آبائكم؟! أتتركون عقيدة أسلافكم؟! فضايقوهم وأضروهم، أحدهم يحكي لنا أنه لما اهتدى تمسكت زوجته بمذهبها وقالت: لا يمكن أن تكون أهـدى من أبي ومن أبيك ومن أسلافنا! وبقيت على طريقة آبائها، هو قرأ وعرف فسـلك

طريق الحق، وأما زوجته وأهله فإنهم مقتوه وطردوه. وهكذا شـابة أيضـاً في الدمام أو في القطيف لما درست وسمعت الأخبار، وقرأت الكتب والنشرات، وأصـغت إلى الإذاعة وما يُنشر فيهـا، واقتنت شـيئاً من الكتب، واحتكت بأهل السـنة؛ عـرفت أن طريقة الشـيعة باطلة وبعيـدة من الصـواب، فتلقت الحق واهتـدت وتمسـكت بـه، فمـاذا لقيت من الأذى؟! ومـاذا لقيت من الضـرر؟! حبس وضرب! وطرد وإبعاد! ولكنها صـبرت على ذلك كلـه. نقـول: لا شك أن الذين يقلدون الآباء والأجداد وهم على ضـلال ضـالون، والعاقل يختـار الحـق، يختار الصـواب، ولو خالفه من خالفـه، وذلك لأنه لا يهمه إلا نفسـه، في الـدار الآخرة يتبرأ منه أهله: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَـرْءُ مِنْ أَخِيـهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيـهِ [عبس:34-35] يفرون منه، ولا يتقبلون منه ولا يقبل منهم، ولا ينفع بعضهم بعضاً. فـإذاً: كيف يقدم أحدهم الباطل تقليداً للآبـاء والأجـداد؟! والحاصـل: أن من أسـباب هـذا الاختلاف: اتبـاع الهـوى، ومن أسـبابه: تقليد الآبـاء والأجـداد والأسـلاف، وهـذا يؤدي إلى أنه قد يعـرف الإنسـان الحق ويتمسك بالباطـل، الله تعـالى يقـول: وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَـقُّ أَهْـوَاءَهُمْ لَفَسَـدَتِ السَّـمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ [المؤمنـون: 71]، فإذا كان الحق واضحاً فالحق أحق أن يُتبع. ......

مفاسد اختلاف التضاد

اختلاف التضاد سبب التفرق بين المسـلمين، وسـبب ضـياع الحقـوق، وسـبب التعصب، فكل طائفة تعرف الحق ولكنها تتعصب للباطل. فلو قرأنا مثلاً كتب المعتزلة، لوجدنا فيها من التعصب والتشدد والتكلف في صرف الأدلة الشيء العجـاب! ولو قرأنا كتب الخـوارج أو الإباضـية الموجـودين في عمـان؛ لعرفنا أنهم يعرفون الحق ثم ينكرونـه، وكـذلك إذا قرأنا الكتابـات الـتي يكتبها هـؤلاء المخـالفون. فـالفرق الـذين تفرقـوا في هـذه الأزمنة -وما أكـثرهم!- كطائفة البعث، وطائفة العلمانيين ونحوهم، لا شك أنهم قد اتضح لهم الحـق، وعرفـوا الأدلـة؛ ولكن لما لم تكن أهـواؤهم منقـادة نحو تلك الأدلـة، ونحو العمل بهـا، تمسكوا بالباطل وتشبثوا به، وقدموا الباطل على الحق، فكان هذا هو السبب في كثرة الفرق، وتفرقت فرق الأمـة، وصـار بعضـهم يضـلل بعضـاً، ويخـالف بعضهم بعضاً، ويتـبرأ بعضـهم من بعض. فمن الفـرق ما يصل إلى حد الكفـر، كفرقة غلاة الجهمية فقد أخـرجهم كثـير من الأمة ومن العلمـاء من الثنـتين والسبعين فرقة، وقالوا: ليسوا من فرق الأمـة، وكفرقة الفلاسـفة والباطنيـة. وفي هـذه الأزمنة فرقة الـدروز، وهم موجـودون في سـورية ولبنـان، ذكر لنا بعض المشايخ أنهم عثروا على واحد منهم في الرياض وهو سـكران، فجـاءوا به ليعاقبوه؛ ولكن شهد عليه أناس أنه لا يصلي، فسـألوه فقـال: أنا لا أصـلي. قالوا: مكتوب في جـوازك وفي إقامتك أنك مسـلم، لمـاذا لا تصـلي؟! فقـال: ليس في ديننا صلاة، فبحثوا عنه فـإذا هو درزي. الـدروز يكتبـون في هويـاتهم أنهم مسلمون! أين الإسلام؟! إسلام بلا صلاة؟! وكثير من الذين اهتـدوا منهم قـاطعوهم، قـاطعوا أولادهم الـذين اهتـدوا أو بنـاتهم وتـبرءوا منهم، بل لو

وجدوهم لقتلوهم، من اهتدى منهم ورجع إلى الإسلام اغتالوه وقتلـوه، وكـانوا يخفــون كتبهم الــتي فيها معتقــداتهم؛ ولكن تســربت في هــذه الأزمنة ولم يســتطيعوا أن يخفوهـا، لوجـود المطـابع وآلات التصـوير، ولوجـود الناسـوخ ونحوه، والذي يصور من بعيد، فافتضحوا وظهـرت بـذلك عقائـدهم المشـينة، فاتضح أنهم ليسوا من فرق الأمة. وكذلك فرقة النصيرية موجودة في سورية وفي غيرها، وقديماً قد كتب عنهم العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية له رســالة فيهم مطبوعة مفردة، ومطبوعة مع المجموع، بين فيها فضـائحهم وعقائـدهم السيئة، إذا نظرنا في عقيدتهم قلنا: هـؤلاء أكفر من اليهـود والنصـارى، وذلك لبعدهم عن الإسلام، ومع الأسف أنه يُكتب في بطائق هوياتهم: مسلم، وليس معهم إلَّا مجـرد الاسـم. وهكـذا غلاة الرافضة الـذين يكفـرون أجلاء الصـحابة، ويطعنـون في القـرآن، لا شك أنهم يصـلون إلى مرتبة الكفـر، وذلك لأنهم إذا كانوا لا يؤمنون بالكتاب والسنة فماذا بقي عندهم؟! وبكل حـال: فهـذه فـرق خــرجت من ملة الإســلام، أما بقية الفــرق فيمكن أن تكــون من المســلمين، ويعمهم اسم المسلمين؛ لأنهم يصلون ويدينون بالإسلام، ولكن بدعتهم مضللة لا توصلهم إلى حد الكفر، كبدعة الإباضية الموجودين في عمان، وكـذلك كثـير من المبتدعة. ......

حكم الأحزاب والفرق الموجودة في عصرنا

ما حكم الأحزاب والفرق الموجودة الآن في كثـير من الـدول الإسـلامية، وقد تصل الأحزاب إلى عشرين أو إلى خمسين حزبـاً، وكل حـزب يسـجل أعـداداً هائلة، ويحب أن يكون أكـثر من الآخـر؟! إذا نظرنا في تلك الأحـزاب نجد كل حزب يتسمى باسم، ولا شك أنها لم ينزل الله بها سلطاناً، فهي فـرق ضـالة، يُنظر في معتقــداتهم وما يميلــون إليــه. فمنهم من يكـــون كـــافراً بحتـــاً كالشـيوعيين، وفي بعض البلاد يكـون لهم أحـزاب إما واحد وإما عـدد. ومنهم من يكون معه شيء من الإسلام؛ ولكن ليسـوا متمسـكين بـه. ومنهم من هم مســلمون؛ ولكن معهم شــيء من المخالفــة. والجميع يعمهم أنهم أحــزاب ومختلفـون. وهنـاك أحـزاب في البلاد الإسـلامية يتسـمون بأسـماء ظاهرها حسـن، وأعمـالهم فيها ما هو خطأ وفيها ما هو صـواب، فمثلاً: جماعة التبليـغ، هؤلاء فرقة نشئوا في الهند وفي الباكستان، وكان هـدفهم أن يبلغـوا الشـرع، كما سـموا بـذلك أنفسـهم، ولهم طريقة في الـدعوة بمعـنى: أنهم يقتصـرون على بيان الفعل دون أن يوضحوا أو يدعوا بالقول غالبـاً، ويـدعون الأفـراد ولا يتكلمـون في المجتمعـات، لا في الخطب، ولا في المسـاجد العامـة، ولا في محاضرات ولا غير ذلك، ورأوا أن هذه دعوة ناجحة. أما طريقتهم في الـدعوة فنقول: هكذا ظهر لهم، ولا نعيبهم في ذلك؛ لكن دخلت معهم فرق ضـالة من الصـوفية والقبـوريين فأفسـدوا عليهم دعـوتهم، فالـذين يتمسـكون بالسـنة ويعملون بها لا نعيبهم، والذين يصلون إلى بغض التوحيد بحيث لا يقــرءون في كتب العقيدة ولا يقرون من يقرأ فيهـا، ولا يقـرءون في كتب التوحيـد، وبحيث

أنهم يبايعون بعض رؤسائهم على الطاعة، وإن كان في خلاف الحق، وأنهم إذا كانوا في غير بلاد التوحيد يزورون المشاهد، ويعكفون عند القبور، ويتمسحون بها، ويقرونها، فمثل هذا لا يقره الإسلام. وأما إذا لم يدخل معهم شيء من هؤلاء فلا بأس بهم. وكذلك هناك طوائف في كثير من الدول الإسلامية، كسورية ومصر والسودان، ولهم أيضاً فروع في المملكة، ويتسمون بأسماء حسنة، ويهدفون إلى هدف واحد، ويدعون إلى دعوة واحدة، فمنهم من يسمون بالسلفيين، ومنهم من يسمون بجماعة أنصار السنة، ومنهم من يسمون أنفسهم بأهل التوحيد، والأسماء حسنة، والمقاصد متقاربة، والطرق تختلف، ولا يضر هذا الاختلاف، يعني: كون هؤلاء يفضلون طريقة، وهؤلاء يفضلون طريقة، هؤلاء مثلاً يفضلون الاقتصار على التأليف والنشر، وهؤلاء يفضلون الرحلات ودعوة الناس، وهؤلاء يفضلون الدعوة عن طريق المنابر والمساجد والحلقات والندوات والمحاضرات ونحوها، وهؤلاء.. وهؤلاء.. نقول: كل ذلك يصب في الدعوة ما دام أن المنهج سليم، ومناهجهم كما أخبرنا كثير منهم يدعون إلى العقيدة سواءً دعوا أفراداً أو أشتاتاً، يدعون إلى تحقيق التوحيد، ويحاربون البدع والشرك، فكلهم إن شاء الله على الخير، ولهم نشاط في كثير من البلاد الإسلامية، يوجدون حتى في غير البلاد العربية كالباكستان وغيرها، وفي البلاد البعيدة يُضطهدون ويُذلون، وذلك لأنهم يُتهمون في الهند والباكستان وغيرها، بل وفي بعض البلاد العربية؛ بكونهم وهابيين، وأنهم كفار وضُلّال وما أشبه ذلك. وعلى كل حال الإسلام أرشد أن يجتمع المسلمون، وأن يصيروا يداً واحدة، وألّا يتفرقوا؛ لأنهم متى اجتمعوا واجتمعت كلمتهم فإنهم يقوون على مقاومة أعدائهم، ويصير لهم مكانة معنوية قوية، ويهابهم الأعداء والأضداد، ومتى تفرقوا ذلوا وهانوا، وهذا ما يريده العدو. فنتواصى جميعاً بأن تجتمع كلمتنا متى رأينا من يخالف في منهج أو مسلك، ونحرص على أن نجمع بين المتخالفين، نقرب هذا ونقرب هذا، إلى أن يتآلفا ويصيرا يداً واحدة. وهكذا أيضاً إذا رأينا من يعيب على بعض الطرق قلنا له: رويدك! ماذا تعيب عليهم؟ فإذا وجدنا أن ذلك العيب الذي يعيبه لا يبلغ أن يُهجروا لأجله، قلنا له: لا ينبغي لك أن تهجر إخوتك المسلمين أو مشايخك وعلماءك، ولا أن تسيء الظن بهم بمجرد هذا الفعل الذي لا يبلغ أن يكون ذنباً، بل هو إما اجتهاد، وإما قول مسلوك قد قاله من العلماء المتقدمين من قاله، فكيف تضلل بقول هو محل اجتهاد. وما يقع بين المسلمين في هذه البلاد وغيرها من هذا الاختلاف الذي سببه سوء الظن بكثير من المشايخ، حتى اتُّهموا بأنهم يحاولون الخروج، وبأنهم ضُلال، وبأنهم شر على الأمة من كذا وكذا.. لا شك أن هذا من وساوس الشيطان، وكيد الأعداء الذين يريدون أن يفرقوا بين المسلمين. والواجب على شباب المسلمين وشباب الصحوة الذين انتبهوا وأقبلوا على ربهم أن يجتمعوا، وألّا يخطئ بعضهم بعضاً إلا في الشيء الذي يكون خطؤه واضحاً، وأن يعذروا من رأوا منه شيئاً من النقص أو التقصير، ولا يشددوا ولا يتهموا إخوتهم أو علماءهم بمداهنة أو بنقص أو بتعمد خطأٍ أو نحو ذلك، بل يعذروهم ويقبلوا منهم عذرهم، وبذلك تجتمع كلمة المسلمين إن شاء الله. ......

مميزات دين الإسلام

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [قوله: (ودين الله في الأرض والسماء واحد وهو دين الإسلام، قال الله تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ [آل عمران:19]. وقال تعالى: وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينَاً [المائدة:3]، وهو بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل، وبين الجبر والقدر، وبين الأمن والإياس ..). ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد)، وقوله تعالى: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينَاً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ [آل عمران:85] عامٌّ في كل زمان؛ لكن الشرائع تتنوع كما قال تعالى: لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجَاً [المائدة:48]. فدين الإسلام هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على ألسنة رسله، وأصول هذا الدين وفروعه موروثة عن الرسل، وهو ظاهر غاية الظهور، يمكن كل مميز من صغير وكبير، وفصيح وأعجم، وذكي وبليد، أن يدخل فيه بأقصر زمان، وإنه يقع الخروج منه بأسرع من ذلك، من إنكار كلمة، أو تكذيب، أو معارضة، أو كذب على الله، أو ارتياب في قول الله تعالى، أو رد لما أنزل، أو شك فيما نفى الله عنه الشك أو غير ذلك مما في معناه. فقد دل الكتاب والسنة على ظهور دين الإسلام، وسهولة تعلمه، وأنه يتعلمه الوافد، ثم يولي في وقته، واختلاف تعليم النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الألفاظ بحسب من يتعلم، فإن كان بعيد الوطن كضمام بن ثعلبة والنجدي ووفد عبد القيس، علمهم ما لم يسعهم جهله، مع علمه أن دينه سيُنشر في الآفاق، ويرسل إليهم من يفقههم في سائر ما يحتاجون إليه، ومن كان قريب الوطن يمكنه الإتيان كل وقت بحيث يتعلم على التدريج، أو كان قد علم فيه أنه قد عرف ما لا بد منه، أجابه بحسب حاله وحاجته، على ما تدل قرينة حال السائل كقوله: (قل: آمنت بالله، ثم استقم). وأما من شرع ديناً لم يأذن به الله فمعلوم أن أصوله المستلزمة له لا يجوز أن تكون منقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن غيره من المسلمين؛ إذ هو باطل، وملزوم الباطل باطل، كما أن لازم الحق حق].......

الإسلام هو دين جميع الأنبياء مع اختلاف الشرائع

سمعنا أن الماتن والشارح رحمهما الله تطرقا إلى وحدة الإسلام، الذي هو دين الله الذي رضيه لنفسه، فقال تعالى: وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينَاً [المائدة: 3]، ورد ما سواه من الأديان فقال: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينَاً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ [آل عمران:85]، وأن أصل هذا الدين واحد عليه جميع الأنبياء، الوحدة والوحدانية اتفق عليها رسل الله، اتفقوا كلهم على الدعوة إلى التوحيد، فكل منهم يبدأ دعوته فيقول: اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ [الأعراف:59].

فالتوحيد هو دين جميع الرسل، كما قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء:25] أي: كل الرسل أوحيت إليهم هذه الكلمة، وأمروا بها، وبلّغوها إلى قومهم، وإن كانت الشرائع متنوعة، كما حكى الله عن عيسى أنه قال: وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ [آل عمران:50] فأحل لهم أشياء كانت محرمة عليهم في شريعة الأنبياء قبله، وكذلك حكى الله عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه يحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، أي: أنه قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كان عليهم آصار يعني: أثقال من التكاليف، وأغلال من الأوامر والنواهي، وتشديدات، وأن تلك الآصار والأغلال وضعت وخُفف عنهم في هذه الشريعة التي هي خاتمة الشرائع.

يسر الإسلام وسهولة تعلمه

دين الإسلام دين يسير سهل، تعاليمه يسيرة قريبة التناول، كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمه أصحابه في لحظات وفي أوقات يسيرة، فيتعلمونه، فيخرج أحدهم معلماً ومبلغاً. وفد عبد القيس علمهم أركان الإسلام، وعلمهم بعض المحرمات؛ ولكنهم فهموا بلغتهم وبسليقتهم وفطرتهم بقية الشريعة، فعلمهم الشهادتين، وعرفوا معناها وما تستدعيه كل واحدة منهما، بمجرد ما قالوا: لا إله إلّا الله، محمد رسول الله؛ عرفوا معنى (لا إله إلّا الله) فلم يعبدوا غيره، وعرفوا معنى (محمد رسول الله) فأطاعوه ولم يعصوه. وأما الصلاة فإنهم صلوا معه يوماً أو يومين أو أياماً قليلة، وعرفوها. وكذلك الزكاة بعث إليهم من يعلمهم في بلادهم، ومن يأخذ منهم الزكاة المفروضة. وكذلك الصوم، والحج بمجرد ما أخبرهم. وكذلك المحرمات، مجرد ما يقول: حرم عليكم كذا وكذا.. يعرفون، فالجلسة والجلستان في تلك الحلقات العلمية يصبح بها أحدهم عالماً، بينما أحدنا في هذه الأزمنة يبقى عشرين سنة ومع ذلك لا يأتي على جميع العلوم لقصر الأفهام، ولتغير الألسن والاستعمالات، وتغير اللغات واللهجات المحدثة البعيدة عن الأصل، فصار الواحد لا بد أن يبذل وقتاً في تعلم الكلمات، ثم يتعلم معانيها بعد حفظ الكلمات، ثم بعد ذلك يتعلم مدلولات واصطلاحات العلوم الشرعية. ذكر الشارح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم كلاً بما هو أهم شيء عنده، ولأجل هذا اختلفت أجوبته، يُسأل سؤالاً واحداً ويجيب بعدة أجوبة، فإذا قيل له: ما أفضل الأعمال؟ فتارة يقول: (قل: آمنت بالله ثم استقم)، وتارةً يقول: (من سلم المسلمون من لسانه ويده)، وتارةً يفسره بأنه: (أن تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)، وتارةً.. وتارةً.. وذلك لأنه يخاطب كلاً بما يرى أنه مناسب له، وأنه أهم له وأولى بأن يهتم به ويتأثر به أفضل من غيره. فالجميع

واحـد، والمـؤدَّى واحـد، وذلك لأنها تعتـبر من خصـال الإسـلام والإيمـان، وهي العقائد والعبادات ونحوها. وعلى كل حـال: فالمسـلمون يـدينون بهـذا الـدين، ويعتقــدون هــذه الشــريعة، ويتبعونهــا، ويعرفــون أنه ليس فيها تعقيــد، ولا صعوبات، لا في علومها ولا في أعمالها. فالعلوم: سهلة ويسيرة؛ ولكنها تحتاج إلى تعقُّل، قد يقول القائل: إنني بذلت وتعلمت ولم أصِر عالمـاً! نقـول: لأنك أولاً: لم تقبل على العلم بكليتك؛ بخلاف الصحابة، فإن أحدهم كـان يقبل على العلوم بكليته وبقلبه وقالبه، فيتعلمها في يوم أو في أيام أو في عشرين يومـاً كما في حديث مالك بن الحويرث . ولأنك ثانيـاً: لم تطبق ولم تعمل مباشـرة، وذلك لأن الإنسان الذي يسـمع الكلمـات ويعرفهـا؛ ولكنه لا يطبقها في حينـه، تذهب من ذاكرته، ينساها بعد مضي سنة أو شهر أو نحو ذلـك؛ بخلاف من إذا أراد التعلم، وتفرَّغَ له وأقبل بقلبـه، ثم كلما تعلم شـيئاً كـرره وعمل بـه، فإنه يمكن أن ينال العلم ويكون عالماً في وقت قصـير. ومعلـوم أيضـاً أن العلـوم كثـيرة؛ ولكن يُبـدأ منها بما هو الأهم، فالإسـلام يعم الأعمـال الـتي فعلها من الدين، والأعمال التي تركها من الدين، والمباحـات ونحوهـا، وهـذه كلها داخلة في مسمى الإسلام، ومعرفتها يسيرة، والحمد لله أن المسلمين الذين خرجوا من بين أهلينا من بنين وآباء وعلماء ومشايخ كلهم يدينون بالإسلام وبالعقيــدة السلفية، ولا يخفى عليهم شيء من تعاليم هذا الدين.

دين الإسلام وسط بين الغلو والتقصير

قال الشارح رحمه الله: [وقولـه: (بين الغلو والتقصـير): قـال تعـالى: يَا أَهْـلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ [النساء:171] ، قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَـقِّ [المائـدة:77]. وقـال تعـالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تُحَرِّمُـوا طَيِّبَـاتِ مَا أَحَـلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبَاً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ [المائدة:87-88]. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن: (ناسـاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج رسول الله صــلى الله عليه وسلم عن عمله في السر؟ فقال بعضـهم: لا آكل اللحم، وقـال بعضـهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي صــلى الله عليه وسلم فقال: ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟! لكني أصوم وأفطــر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مـني). وفي غير الصحيحين: (سألوا عن عبادته في السر، فكأنهم تقالوها). وذُكر في سبب نزول الآية الكريمة عن ابن جريج عن عكرمة أن: (عثمان بن مظعون و علي بن أبي طالب و ابن مسعود و المقـداد بن الأسـود و سـالماً مـولى أبي حذيفة رضي الله عنهم تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النســاء، ولبســوا

المسوح، وحرمـوا طيبـات الطعـام واللبـاس إلا ما يأكل ويلبس أهل السـياحة من بـني إسـرائيل، وهمـوا بالاختصـاء، وأجمعـوا لقيـام الليـل، وصـيام النهـار، فنزلت: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ [المائدة:87] يقـول: لا تسـيروا بغـير سـنة المسـلمين، يريد ما حرموا من النسـاء والطعـام واللبـاس، وما أجمعـوا له من قيـام الليل وصيام النهار، وما همـوا به من الاختصـاء، فلما نـزلت فيهم بعث النـبي صـلى الله عليه وسـلم إليهم فقـال: إن لأنفسـكم عليكم حقـاً، وإن لأعينكم حقـاً، صوموا وأفطـروا، وصـلوا ونـاموا، فليس منا من تـرك سـنتنا، فقـالوا: اللهم سلّمنا واتبعنا ما أنزلت). وقوله: (.. وبين التشبيه والتعطيل ..): تقـدم أن الله سـبحانه وتعـالى يحب أن يوصف بما وصف به نفسـه، وبما وصـفه به رسـوله صـلى الله عليه وسـلم، من غـير تشـبيه، فلا يقـال: سـمع كسـمعنا، ولا بصر كبصرنا ونحوه، ومن غير تعطيـل، فلا يُنفى عنه ما وصف به نفسـه، أو وصـفه به أعرف النـاس بـه: رسـوله صـلى الله عليه وسـلم، فـإن ذلك تعطيـل، وقد تقدم الكلام في هـذا المعـنى، ونظـير هـذا القـول قوله فيما تقـدم: (ومن لم يتوق النفي والتشبيه زَلَّ ولم يصب التنزيه). وهـذا المعـنى مسـتفاد من قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشـورى:11]. فقولـه: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى:11]: ردٌّ على المشـبهة. وقولـه: وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [الشـورى:11]: ردٌّ على المعطلـة]. في هـذا بيـان أن الحق وسط بين الطرفين، وأن أهل السنة وسط بين فـرق الأمـة، وأن الأمة وسط بين الأمم، والكلام على وسـطية أهل السـنة ووسـطية الأمة طويل ومعـروف، ومما ذكر الشارح أنهم لا يغلون ولا يقصرون، بل هم وسط بين ذلك. فالغلو هو التشديد على النفس، كما حصل من هؤلاء الذين هموا أن يختصـوا وحرمـوا الطيبـات، وشـددوا على أنفسـهم، ولزمـوا الـبيوت، واقتصـروا على العلقة من الطعـام، وعزموا على أن يقوموا جميع الليل، ويصوموا جميع النهار، ويعـتزلوا الملـذات والشهوات، ويتشبهوا بالرهبانية، فهـؤلاء غلـوا. والـذين يقصـرون هم الـذين لا يأتون من الأعمـال إلا بعض العمـل، فلا يصـلون إلا الفريضة مثلاً، وإذا صـلوها صلوها خفيفة، ولا يصومون إلا الفرض، وربما يقصرون في الصـيام، أو يـأتون بما يفطِّر أو يفسد صيامهم، وكذلك في الطهارة يخففونها. الأولون: يتشددون ويتقعرون في العبادة، والآخرون يخففون الطهارة وربما لم يبـالغوا في غسل الأعضاء ولم يسبغوا. فهؤلاء في طرف وهؤلاء في طرف، والوسط هو الخـير بين الغلو والتقصير. فالغلو مـذموم لهـذه الآيـة: لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ [المائـدة: 77]. والتقصير أيضاً مذموم؛ لأن فيه نقصـاً في العمـل، ونقصـاً في لـزوم ما أمر الله به. كذلك أيضاً الغلو والتقصير يعم جميع الأحوال والعبادات ونحوهـا. فجميع العبادات يمكن أن يُتصور فيها غلو وتقصير، فالمعـاملات مثلاً فيها غلو وتقصـير، فالـذي يحـرم الـبيوع أو يحـرم أكـثر الأطعمة ولا يتعامل إلا مع فلان وفلان، أو لا يتعاطى، أو لا يمتلك من الأموال إلا شيئاً دون شـيء، يقـال: هـذا غـالٍ قد حـرم الطيبـات، وكـذلك لو حـرم الصـناعات الجديـدة، إذا حـرم مثلاً الركوب في السـيارات، أو في الطـائرات، أو حـرم الانتفـاع بـالأجهزة الحديثة كمكبر الصوت والاستنارة بالكهرباء، والانتفـاع بالكهربـاء في مكيفـات، أو في

أنـوار كهربائية أو نحو ذلـك، نقـول: هـذا قد غلا. والـذي يتوسع في مثل هـذه الأشـياء يجـره إلى الحـرام، فيسـتعمل مثلاً السـماع للموسـيقى والأجهـزة المفسـدة كـأجهزة الغنـاء، وأجهـزة التصـاوير والتمـثيلات الخليعـة، والصـور والأفلام الماجنة ونحوها، ويتوسع في ذلـك، نقـول: هـذا قصـر. فـالأول قد غلا وتشدد، والثـاني قد توسع وأتى بما يفسد دينه أو يقلل عليه ديانتـه، وما بينهما وسط لا تشديد وغلو، ولا تقصير وإخلال بالواجبات ونحوها.

دين الإسلام وسط بين التشبيه والتعطيل

ذكر الشـارح أن أهل السـنة متوسـطون بين المشـبهة وبين المعطلـة، وهـذا بحث قد تقدم مراراً، فالمشبهة هم الذين غلوا في إثبات صفات الله، وقـالوا: إنها كصـفاتنا، يد كيد المخلـوق، ووجه كوجه المخلـوق، وهكـذا. والمعطلة هم الذين نفوا صفات الله وتأولوها، وتشـددوا في صـرفها عن ظاهرهـا، وعطلـوا الله تعالى عن صفات الكمال. وقد تقدم أن هؤلاء مقصـرون وغـالون، والحق بينهما وســط، وهو أنَّا لا نصل إلى درجة هـــؤلاء المعطلة ولا نســلك طريقة هؤلاء الذين هم ممثِّلة، بل نثبت الصفات كما أثبتها الله تعالى لنفسه، ونصـفه بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، دون تشبيه أو تمثيل.

دين الإسلام وسط بين الجبر والقدر وبين الأمن واليأس

قال الشارح رحمه الله: [.. وقوله: (وبين الجـبر والقـدر): تقـدم الكلام أيضـاً على هـذا المعـنى، وأن العبد غـير مجبـور على أفعاله وأقوالـه، وأنها ليست بمنزلة حركات المرتعش وحركات الأشـجار بالريـاح وغيرهـا، وليست مخلوقة للعبـــد، بل هي فعل العبد وكســبه وخلق الله تعـــالى. وقولـــه: (وبين الأمن والإياس): تقدم الكلام أيضاً على هذا المعنى، وأنه يجب أن يكون العبد خائفاً من عذاب ربه، راجياً رحمته، وأن الخوف والرجاء بمنزلة الجنـاحين للعبد في سيره إلى الله تعـالى والـدار الآخـرة]. لابد أن نعلم أن أهل السـنة وسط في هذه الأمـور، وذلك لأن القدرية الـذين نفـوا قـدرة الله قـالوا: إن الله لا يقـدر على كل شـيء، بل العبد يعصي قهـراً على اللـه، والله لا يقـدر أن يـرد هـذا العاصي، ولا يقدر أن يهدي من يشاء، ولا يضل من يشاء، بل العباد هم الــذين يخلقون أفعالهم، وهؤلاء غلوا في نفي قدرة الرب، وجعلوا القدرة للعبـد. وأما

الجبرية فضدهم، حيث نفوا قدرة العبد أصلاً، وجعلوا العبد مجبوراً ليس له أية قدرة، ولا أية مشيئة، ولا أية عمـل، بل حركته كحركة أغصـان الشـجرة الـتي تحركها الـريح، فلم يجعلـوا له اختيـاراً. فلا هـؤلاء ولا هـؤلاء، بل الحق وسط بينهما وهو أن نقول: إن للعبد قدرة، ولكنها تحت قدرة الله خاضـعة لمشـيئته وقدرتـه. كـذلك أيضـاً أهل السـنة وسط بين الأمن واليـأس، الأمن: هو عـدم الخوف من الله، كون الإنسان يقدم على المعاصـي، ويتجـرأ عليهـا، ويتجـرثم في الذنوب، وكأنه عنده صك أمـان من الله أنه في الجنـة، فـتراه يُقـدم على الـذنوب، ويكـثر من السـيئات، ولا يخـاف من اللـه، هـذا هو الآمن، قـال الله تعالى: أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَـأْمَنُ مَكْـرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَـوْمُ الْخَاسِـرُونَ [الأعـراف: 99]. وأما اليأس: فهو القنوط الذي هو قطع الرجاء، قـال تعـالى: إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَـافِرُونَ [يوسـف:87]، وهو الـذي يقطع رجـاءه من الرحمـة، وكأنه يجـزم بأنه في النـار ويقـول: لا قـدرة لي على التوبـة، أنا قد عملت عملاً لا تنالني فيه الرحمة، ثم إذا نصحتَه يقول: عملي وذنـوبي كثـيرة، وأنا لا أستطيع أن أمحوها، وقد تكـاثرت علي، فـالآن أنا مقـدم أو جـازم على أني من أهل النــار، ولو عملت ما عملتُ، ذنــوبي لا تمحوها التوبــة، ولا تصل إليها الرحمة، فيقطع رجاءه من رحمة الله. نقول: هذا قنوط قَـالَ وَمَنْ يَقْنَـطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ [الحجـر:56] بل الوسط هو الخيـار، وهو أن تكـون خائفــاً راجيــاً، فيكــون الخــوف والرجــاء للإنســان بمنزلة الجنــاحين للطــائر مستويان، لا يكون في أحدهما زيـادة على الآخـر، إذا كـان في أحـدهما زيـادة اختل طيران الطائر، وإذا تساويا استوى طيرانه، الخوف يحملك على أن تكثر من الأعمال، والرجاء يبرِّد قلبك على ألَّا تيئس من رَوح الله.

لقد خـرج عن منهج الله الصـحيح طوائف من المسـلمين، واتبعـوا أهـواءهم، فخـالفوا منهج السـلف، وجـانبوا الصـواب، وعلى رأس هـؤلاء عمـرو بن عبيد وواصل بن عطـــاء مؤسسا فرقة المعتزلـــة، والجهم بن صـــفوان والجعد بن درهم مؤسسا فرقة الجهمية، وكل يزعم أنه على الصواب والجادة، وهم أبعد عن الحق مما بين الشرق والغرب.

قبض العلم بموت العلماء

نحمد الله على ما قضى وقـدَّر، وعلى ما دبَّر ويسَّـر، فهو أهل الحمد والثنـاء، يستحق الحمد على السـراء والضـراء، إذا ابتلى بـالخير فهو أعلم بـذلك وبمن يصـلح لـه، وإذا ابتلى بالشر فهو أعلم بمن يبتليـه، وبالأسـباب الـتي يبتلي بها ولأجلهـا. إذا مس بـالخيرات عم سـرورها وإذا مس بالضـراء يعقبه الأجر في هـذا المسـجد قبل ثلاثة أيـام شـهدنا حشـداً عظيمـاً، وجمعـاً كبـيراً، يجهِّزون ويودعون عالماً من علمـاء المسـلمين، يحضـرون من كل فج، ومن كل جهـة؛ لأجل أن يشيعوه، وأن يحضروا الصلاة عليه، ألا وهو شـيخنا الشـيخ حمـود بن عبد الله التـويجري رحمه اللـه، الـذي وافـاه أجله قبل ثلاثة أيـام، والـذي فقد المسلمون به عالماً جليلاً، وشيخاً كبيراً، بذل جهده، وأفـرغ وسـعه، وقـام لله تعالى بما يسـتطيع، وجاهد في الله حق جهـاده، جاهد بقلمـه، وجاهد بلسـانه، ورد على أعداء الله الذين يحاولون النيل من كتاب الله، أو من سـنة رسـوله، أو من دينه، فأبطل كيدهم، ورد أبـاطيلهم، وبين الحق أوضح بيـان، قد أعطـاه الله ووهبه علماً وحفظـاً وفهمـاً، وذاكـرةً قويـةً، ومعرفـةً بالأدلة وبمواضـعها، ومعرفةً بسبك الكلمات وبرصفها، وبكيفية جمعها، حتى تكـون كافية ومقنعـة. لا شك أن فقد العلماء مصيبة عظمى، مصيبة كبيرة؛ لـذلك قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعـاً ينتزعه من صـدور الرجـال؛ ولكن يقبض العلم بقبض العلمــاء، فــإذا لم يُبق عالمــاً اتخذ النــاس رءوســاً جهالاً، فسـئلوا فـأفتوا بغـير علم، فضـلوا وأضـلوا) نخشى أن يقبض العلم من بيننا، ولا يبقى فينا من يكون أهلاً لتحمل العلم؛ لأجل ذلك يجب أن نبذل جهداً ووسعاً في أن نتحمل من العلم ما نكـون أهلاً به أن نـذبَّ عن دين اللـه، وأن نجاهد في سبيله، وأن نبلغ شـريعته، وأن نقـوم لله مثـنى وفـرادى كما يقـوم العلماء المجاهـدون العـارفون بالله أمثـال هـذا الشـيخ رحمه اللـه؛ مخافة أن يطغى الجهل على العلم، ويطغى الشـرك على الإيمـان، وتعظم المصـيبة في هذا الدين، وتعظم البلوى بأعداء الـدين. وقد كـان العلمـاء رحمهم الله دائمـاً يبكون على علمائهم إذا فقدوهم، ويخشـون أن يكـون هـذا سـبباً لنقص العلم ولتلاشــيه، يقــول ابن مشــرف رحمه الله في نظمه لرثــاء العلم: على العلم نبكي إذ قد اندرس العلم ولم يبق فينا منه روح ولا جسم ولكن بقي رسم من العلم داثر وعما قليل ســـوف ينطمس الرسم وليس يفيد العلم كـــثرة كتبه

فماذا تفيد الكتب إن فقد الفهم وعار على المرء الذي تم عقله وقد أُملت فيه المروءة والحـزم إذا قيل مـاذا أوجب الله يا فـتى أجـاب بــ(لا أدري) وأنى لي العلم وأقبح من ذا لو أجاب سؤاله بجهل فـإن الجهل مـورده وخم نقـول: إننا في زمان ينقص فيه العلم، والمراد: العلم الشرعي، العلم الحقيقي الــذي هو العلم بالله وبآيـات اللـه، والعلم بشـريعته، والعلم بكتابه وبسـنة نبيـه، والعلم بتوحيده وبحقوقه، ولو كثر العلم الآلي الذي كثر ادعاؤه، وكثر تعلّمـه، العلـوم الآلية، وعلوم الحـرف، وعلـوم الصـناعات، والعلـوم الدنيويـة، لقد كـثر الـذين ينتحلونها ويتعلمونها واحداً بعد واحـد، لا شك أن هـذا من الإعـراض عن العلم الأصلي.......

معنى الإسلام ووسطيته

قد قرأنا ما ذكره الطحاوي رحمه الله من أن ديننا دين الإسلام، الــذي لا يقبل الله من أحد دينـاً غـيره، هو أن يُسْـلِم العبد قلبه وقالبه لربـه، وأن يـذعن له وينقاد، ويخضع له ويتواضع، وأن يعرفه بأسمائه وبصفاته، ويعرفه بما يجب أن يُعرف به، وأن يعبده حق عبادته، ويجاهد فيه حق جهاده. ......

وسطية الإسلام بين دين اليهود ودين النصارى

دين الإســـلام وسط بين الأديـــان كلهـــا، فهو الوسط بين دين اليهـــود ودين النصارى، فدين اليهود فيه تشدد، ودين النصارى فيه توسع وتفريط، والإسـلام جاء بالتوسط بينهما، اليهود يشددون في بعض الأشياء، والنصـارى يتسـاهلون في كثير منها، والأمثلة على ذلك واضحة. كذلك أيضـاً الـدين الإسـلامي وسط بين الغلو والتقصــــير، فليس فيه غلو بحيث يكلف أهله ويشق عليهم، وليس فيه تقصير بحيث يكون فيه نقص أو خلل في أية عبـادة. فالطهـارة الـتي هي من العبـادات لا يجب فيها التشـدد والـدلك الشـديد، وتكـرار الغسـل، وتكـرار صب الماء، فهذا غلو، ولا يجزئ فيها مسح الأعضـاء مسـحاً، أو غسـلها غسـلاً خفيفاً لا يبلغ أن تبتل البشرة، فهذا تقصير، بل الوسط بين ذلك.

وسطية الإسلام بين المشبهة والمعطلة في صفات الله

دين الإسـلام وسط في بـاب صـفات الله تعـالى بين المشـبهة الممثلة الـذين شبهوا صفات الله تعالى بصفات خلقه، وبين المعطلة الذين نفوا صفات الله،

وعطلوه من صفات الكمال. فأهل السنة توسطوا، وهم الذين أثبتوا لله تعالى صـفات الكمـال، ونفـوا عنه التشـبيه والتمثيل بالمخلوقـات، فهم وسط بين هـــؤلاء وهـــؤلاء. وهم كـــذلك وسط في بـــاب الوعد والوعيد بين الوعيدية والمرجئة. فهناك الوعيدية الذين شددوا وحكموا بـأن من عصى أدنى معصـية فقد كفر، وحل ماله ودمه. وآخـرون قـالوا: المعاصي لا تـؤثر ولا تضـر. هـؤلاء غلوا وهـؤلاء نقصـوا، والإسـلام وسط جـاء يحـذر من الإصـرار على المعاصي وكبائر الذنوب، والاستمرار على صغائرها، وجاء يأمر بـترك التكفـير والخـروج على أئمة المسلمين، والخروج على عامتهم، بل جعلهم وسطاً أي: صـار أهل السنة وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء.

وسطية الإسلام في الأمن والقنوط

الإســلام وسط بين الأمن والقنــوط، فهنــاك طائفة يكــثرون من المعاصي والكفريات والبدع وهم آمنون، ويصدق عليهم قـول الله تعـالى: أَفَـأَمِنُوا مَكْـرَ اللَّهِ فَلا يَـأْمَنُ مَكْـرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَـوْمُ الْخَاسِـرُونَ [الأعـراف:99]. وآخـرون غلب عليهم اليـأس والقنـوط، ووقعـوا في معـاصٍ وكبـائر؛ ولكنهم قطعـوا الرجـاء، وانقطعـوا انقطاعـاً كليـاً عن التوبـة، وأيسـوا من قبولهـا، واعتقـدوا أنهم لا تنفعهم التوبة ولا تُقبل منهم، واعتقدوا أنهم لا ينفعهم أي عمل عملوه، فهؤلاء هم الــذين قــال الله فيهم: إِنَّهُ لا يَيْــأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَــوْمُ الْكَــافِرُونَ [يوســف:87]. كــذلك وسط في أفعــال العبــاد بين القدرية وبين المجــبرة، فالمجبرة هم الـذين يقولـون: ليس للعبد اختيـار، بل هو مجبـور على أفعالـه، ليس له أية حركــة، بل حركاته كحركـات الأشــجار الــتي تحركها الريــاح، فلا طاعة تنسب إليه، ولا معصية تنسب إليه. وطائفة أخـرى عزلـوا الـرب تعـالى عن الأفعـال الـتي تتعلق بالعبـاد، فنفـوا عنه القـدرة التامـة، ونفـوا أنه يهـدي ويضل؛ نفوا أنه يهدي هذا ويضل هذا، أو يعين هذا ويخـذل هـذا، وجعلـوا العبد هو الـذي يهـدي نفسـه، أو يضل نفسه أو يفعل باختيـاره بـدون أن يكـون لله قدرة عليه، فهؤلاء في طـرف، وهـؤلاء في طـرف، وتوسط أهل السـنة بينهم وجعلوا للعبد قدرة، وله إرادة واختيار، وجعلوا تلك القدرة خاضعةً لقدرة الله، مغلوبة بقدرته. فهذا معنى كون الـدين الإسـلامي بين الغـالي والجـافي، وبين القدري والجبري، وبين المشبِّه والمعطِّل، ونحو ذلك، أي وسط بين الطرفين.

بيان معتقد المعتزلة

قال الشارح رحمنا الله تعالى وإياه: [.. (.. فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً، ونحن بُرَآءُ إلى الله تعالى من كل مَن خالف الذي ذكرناه و بيناه، ونسـأل الله تعـالى أن يثبتنا على الإيمـان، ويختم لنا بـه، ويعصـمنا من الأهـواء المختلفـة، والآراء المتفرقـة، والمـذاهب الرديئة مثـل: المشـبهة، والمعتزلـة، والجهميـة، والجبرية، والقدريـة، وغـيرهم من الـذين خـالفوا الجماعـة، وحـالفوا الضـلالة، ونحن منهم بُرَآء، وهم عندنا ضُلّال وأردياء، وبالله العصمة والتوفيق). الإشارة بقوله: (فهذا): إلى كل ما تقدم من أول الكتاب إلى هنا. والمشبهة: هم الذين شبهوا الله سبحانه وتعالى بالخلق في صفاته، وقولهم عكس قـول النصـارى، فـإن النصـارى شـبهوا المخلـوق -وهو عيسى عليه السـلام- بالخـالق تعـالى، وجعلوه إلهاً، وهـؤلاء شـبهوا الخـالق بـالمخلوق، كــداوُد الجـواربي وأشـباهه. والمعتزلة: هم عمـرو بن عبيد و واصل بن عطـاء الغـزال وأصـحابهما، سُـمُّوا بـذلك لما اعـتزلوا الجماعة بعد مـوت الحسن البصـري رحمه الله تعـالى في أوائل المائة الثانيـة، وكـانوا يجلسـون معـتزلين، فيقـول قتـادة وغـيره: أولئك المعتزلة، وقيل: إن واصل بن عطاء هو الـذي وضع أصـول مـذهب المعتزلـة، وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري ، فلما كـان زمن هـارون الرشـيد صـنف لهم أبو الهـذيل كتـابين، وبيَّن مـذهبهم، وبـنى مـذهبهم على الأصـول الخمسة الــتي سَــمَّوها: العــدل. والتوحيــد. وإنفــاذ الوعيــد. والمنزلة بين المنزلتين. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر. ولبَّسـوا فيها الحق بالباطـل؛ إذ شأن البـدع هـذا، اشـتمالها على حق وباطـل، وهم مشـبِّهة الأفعـال؛ لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال عباده، وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه، وما يقبح من العباد يقبح منه! قالوا: يجب عليه أن يفعل كذا، ولا يجوز له أن يفعل كذا، بمقتضى ذلك القياس الفاسد! فإن السـيد من بـني آدم لو رأى عبيده يزنون بإمائه ولا يمنعهم من ذلك، لعُدَّ إما مستحسناً للقبيح وإما عاجزاً، فكيف يصح قيـاس أفعاله سـبحانه وتعـالى على أفعـال عبـاده؟! والكلام على هـذا المعـنى مبسـوط في موضـعه. فأما العـدل: فسَـتَرُوا تحته نفي القـدر، وقالوا: إن الله لا يخلق الشر، ولا يقضي به؛ إذ لو خلقه ثم يعذبهم عليه يكون ذلك جوراً! والله تعـالى عـادل لا يجـور، ويلـزمهم على هـذا الأصل الفاسد أن الله تعالى يكون في ملكه ما لا يريده، فيريد الشيء ولا يكون، ولازمه وصــفه بالعجز! تعالى الله عن ذلك. وأما التوحيد: فسَتَرُوا تحته القول بخلق القــرآن؛ إذ لو كان غير مخلوق لزم تعدد القدماء! ويلزمهم على هذا القــول الفاسد أن علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة أو التناقض! وأما الوعيد: فقالوا: إذا أوعد بعض عبيده وعيداً فلا يجـوز ألَّا يعـذبهم ويُخلف وعيـده؛ لأنه لا يخلف الميعـاد، فلا يعفو عمن يشـاء، ولا يغفر لمن يريد عنـدهم! وأما المنزلة بين المنزلـتين: فعنـدهم أن من ارتكب كبـيرة يخـرج من الإيمـان، ولا يـدخل في الكفـر! وأما الأمر بالمعروف، وهو أنهم قالوا: علينا أن نأمر غيرنا بما أُمِرنا بــه، وأن نلزمه بما يَلْزَمنا، وذلك هو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكـر، وضـمَّنوه أنه يجـوز الخروج على الأئمة بالقتال إذا جاروا! وقد تقـدم جـواب هـذه الشُّـبَه الخمس

في مواضعها. وعندهم أن التوحيد والعدل من الأصول العقلية التي لا يُعلم صحة السمع إلا بعدها، وإذا استدلوا على ذلك بأدلة سمعية إنما يذكرونها للاعتضاد بها، لا للاعتماد عليها، فهم يقولون: لا تثبت هذه بالسمع، بل العلم بها متقدم على العلم بصحة النقل! فمنهم من لا يذكرها في الأصول؛ إذ لا فائدة فيها عندهم، ومنهم من يذكرها ليبيِّن موافقة السمع للعقل، ولإيناس الناس بها، لا للاعتماد عليها. والقرآن والحديث فيه عندهم بمنزلة الشهود الزائدَين على النصاب، والمدد اللاحق بعسكر مستغنٍ عنهم، وبمنزلة من يتبع هواه، واتفق أن الشرع ما يهواه! كما قال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذاً أنت لا تُثاب على ما وافقتَه من الحق، وتعاقَب على ما تركتَه منه؛ لأنك إنما اتبعتَ هواك في الموضعين، وكما أن الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، والعمل يتبع قصد صاحبه وإرادته، فالاعتقاد القوي يتبع أيضاً علم ذلك وتصديقه، فإن كان تابعاً للإيمان كان من الإيمان، كما أن العمل الصالح إذا كان عن نية صالحة كان صالحاً، وإلَّا فلا، فقول أهل الإيمان التابع لغير الإيمان كعمل أهل الصلاح التابع لغير قصد أهل الصلاح، وفي المعتزلة زنادقة كثيرة، وفيهم من: ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا [الكهف:104] ..]. في هذه الخاتمة تكلم الماتن والشارح على هذه الفرق التي خالفت أهل السنة في الاعتقاد، ولا شك أن مخالفتهم عن عناد، وذلك لأنهم حكَّموا العقول في الشرع، ونظروا فيما يهوَونه، وفيما تميل إليه أهواؤهم، فاتبعوه، فصدق عليهم أنهم ممن اتبع هواه، أو ممن اتخذ إلهه هواه، ولا شك أن الهوى يُعمي ويُصم، وأنه ما تحت أديم السماء إله يُعبد أو يطاع من هوىً يُتبع، وهؤلاء ذكر لنا منهم طائفتين: الطائفة الأولى: المشبهة. الطائفة الثانية: المعتزلة. وهما في طرفي نقيض. فالمعتزلة نسميهم: معطِّلة. والمشبهة نسميهم: ممثِّلة. وقد قال بعض السلف: (الممثل يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً). ويقول ابن القيم رحمه الله: لسنا نشبِّه ربنا بصفاتنا إن المشبِّه عابد الأوثان كلا ولا نخليه من أوصافه إن المعطل عابد البهتان ويقول بعضهم: من شبَّه الله تعالى بخلقه فقد كفر، ومن نفى وأبطل ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما أثبته الله لنفسه تشبيه. وهم يقولون: إثبات هذه الصفات التي وردت في الكتاب والسنة تشبيه، وذلك لأنها صفات موجودة في المخلوق، وإذا كانت موجودة في المخلوق وأثبتت للخالق فقد حصل التشبيه، ويعتمدون على مثل قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى:11] فهم دائماً يعتمدونها، وهذا دليلهم السمعي، وأما دليلهم العقلي فهو المحكم عندهم دائماً، يجعلون عقولهم حاكمة على الكتاب والسنة، ولا يعترفون من الوحيين إلا بما يوافق أهواءهم، بل العمدة عندهم هو العقل. والمشبهة هم الذين غلوا في الإثبات، فجعلوا صفات الخالق كصفات المخلوق، فيقول أحدهم: لله أيدٍ كأيدينا، وله أعين وأرجل كصفاتنا، وله كذا وكذا، ويقولون: هذا ما يوجد وعندنا ما نشاهده، وإذا أخبرنا الله بشيء غائب وسماه قسناه على ما نعرفه ونشاهده. ويقال لهم: كل شيء له صفات تناسب ذاته، فكما أن لله تعالى ذاتاً لا تشبه الذوات فله صفات لا

تشبه الصفات، فكما أن ذات الله تعالى لا تشبه ذواتنا فكـذا نقـول في سـائر صفاته. أما المعتزلة الذين هم المعطلة النفاة فإنهم نفوا صفات الله التي هي صفات كمال، وجعلوها مجازاً، ولم يثبتـوا لله لا صـفات فعل ولا صـفات ذات، فهؤلاء غلوا في النفي. ......

أول من أسس مذهب المعتزلة وسبب تسميتهم

المعتزلة كما ذكر الشارح أنهم حدثوا قديماً في أول القرن الثاني، أو في أول المائة الثانية، أو في آخر حيـاة الحسن البصـري ، خـرج من حلقته رجل يقـال له: واصل بن عطاء ، هـذا الرجل كـان فصـيحاً جريئـاً في الكلام، ذكيـاً قـوي العبارة؛ ولكن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا [فـاطر:8]. أول ما ظهر مـذهب المعتزلة أنه جـاء رجل يسـأل الحسن البصـري عن مسـألة الكفر والإيمـان والفرق بينهما، فتكلم واصل وقال: أنا لا أقول: إن العاصي مـؤمن، ولا أقـول: إنه كـافر، بل هو في منزلة بينهمـا، فلا أحكم بأنه مـؤمن فأعامله معاملة أهل الإيمـان، ولا أحكم بأنه كـافر فأقاتله كمقـاتلتي للكفـار، بل أجعله في منزلة بينهمـا. فعند ذلك أراد أن يقنعه الحسن فـامتنع من الاقتنـاع، ثم اعـتزل في ناحية من المجلس، فمجلس الحسن كان في جهة وهو في جهة، وجعل يقـرر منهجه لِمَا أُعْطِيَه من بلاغة وقوة، وجعل الذين أعجبوا به يجلسون في حلقته، واعـتزلوا حلقة الحسن البصـري رحمه اللـه، فكلما جـاء رجل من المبتدعـة، وسأل عن مسألة وظهر أن في مسألته شيء من التعنُّت وشـيء من الشـدة قال له الحسن : اذهب إلى أولئك المعتزلة، أو يقول في جوابه له: عند أولئك المعتزلة، يعني: الذين اعـتزلوا مجلس الحسن ، فلُقبـوا بالمعتزلـة، واعـترفوا بهذا الاسـم. الآن يوجد منهم بقايا على مـذهبهم كلـه، أو على بعض مـذهبهم، وكثـير ممن يُسـمَّون أشـعرية مـذهبهم قـريب في بـاب الصـفات من مـذهب المعتزلة؛ لأن الفرق يسير، كذلك الشيعة والرافضـة، فعلمـاء الرافضة قـديماً وحديثاً على مذهب المعتزلة، يوجد على مذهبهم طوائف كثـيرة في كثـير من البلاد، في الشـام، وفي مصـر، وفي العـراق، وفي اليمن، وفي أفريقيـا، وفي الباكسـتان، وفي كثـير من البلاد العربية وغـير العربيـة، يعـني: لا نقـول: إنهم انقطعـوا؛ بل هم موجـودون، وقد طبعت قريبـاً كتبٌ لواحد من أكـابرهم، وهو القاضي عبد الجبار، وهو من أكابر المعتزلة، فله كتـاب كبـير اسـمه: المغـني، طُبع في نحو أربعة عشر مجلـداً، ضـمَّنه عقليـات مـذهبهم، والـذين طبعـوه أُعجبوا بأسـلوبه، وبقـوة تعبـيره، وسـبكه للكلام، وحققـوه ونشـروه، وطُبع له كتاب آخر اسمه: الأصول الخمسة، وهي التي ذكرها الشارح كما سمعنا، وهي أصولهم التي بنوا عليها مذهبهم، وقد ضمَّنها في ذلك الكتاب.

أصـــول المعتزلة خمسة وهي: الأصل الأول: التوحيـــد: ويريـــدون به نفي الصفات، يقولون: إن الله إذا أثبتنا له سمعاً وبصراً وعلماً وحياةً وقــدرةً، فما أثبتنا واحداً بل أثبتنا عدداً، فلا نثبت إلَّا واحداً، حتى نكون بـذلك موحِّدين. يـرد عليهم بأن يقال: إن الصفات من جملة الذات، فلا يكون هناك تعدد. فالحاصل أن أصلهم الأول: التوحيد الذي ضـمَّنوه نفي الصـفات. الأصل الثـاني: العـدل: وهو الأصل في هـذا الكتـاب الـذي صـنفه القاضي عبد الجبـار منهم. والعـدل عنـدهم معنـاه: نفي قـدرة الله على أفعـال العبـاد، يقولـون: إن الله لا يخلق الـذنب ثم يعـاقب عليـه، بل العبد هو الـذي يخلق فعل نفسـه، فنفـوا أن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء. الأصل الثـالث: المنزلة بين المنزلـتين: وهو أن أهل الكبائر ليسوا بمسلمين ولا بكفـار، بل في منزلة بينهمـا، ولا أدري من أين جاءوا بهذه المنزلة، وأهل السنة يقولون: إنهم مؤمنون ناقص إيمـانهم، أو فسقة، أو مؤمنون بأصل الإيمان الذي في قلوبهم، وأما معاصيهم فسـموا بها فسقة. الأصل الرابع: إنفاذ الوعيد: يقولون: الآيـات الـتي فيها وعيد على ذنب لا بد من إنفاذه حتى لا يخلف الله وعده، فإذا وعد أهل الكبائر بأنهم في النـار فلا بد أن يدخلوها، ولا يخرجون منها أبداً، فكل ذنب مات صـاحبه مصـراً عليه فإنه يعتـبر كـافراً، ويعتـبر مخلـداً في النـار، هـذا حكمه في الآخـرة، ولـذلك ينكرون شفاعة الشـافعين ويقولـون: ليس هنـاك شـفاعة، من دخل النـار من أهل الكبـائر لا يخـرج منها أبـداً، بل هو مخلد فيهـا. الأصل الخـامس: الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، ويضـمِّنون ذلك أن كل منكر رأوه فـإنهم يقاتلون عليه، حتى ولو كان الذي أظهر المنكر وعمل به خليفةً أو إماماً عامـاً أو ملكاً من الملـوك، فهم يخرجـون عليـه، وأخـذوه من معتقد الخـوراج، فهم يستبيحون الخروج على الأئمة بمجرد الذنوب، وقد خالفهم أهل السـنة لقـول النبي صلى الله عليه وسلم في الأمراء العصاة ونحـوهم: (اسـمع وأطـع، وإن ضـرب ظهـرك، وأخذ مالـك)، ويقـول في الـولاة ونحـوهم: (عليكم بالسـمع والطاعة -أي: لولاة الأمور مهما كانت حالتهم- في المنشط والمكره، والعسر واليسر، والأثرة -أي: إذا استأثر عليكم بشيء فاسـمعوا وأطيعـوا- ما لم تـروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان). فهذه الأصول الخمسة هي الـتي بنـوا عليها مـذهبهم: 1- التوحيـد. 2- العـدل. 3- المنزلة بين المنزلـتين. 4- إنفـاذ الوعيـد. 5- الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر. هكـذا جعلوها معتقـدهم، ودليلهم في ذلك هو العقل، ولا يعترفون بالسمع، والأدلة السـمعية إذا جـاءت موافقـةً لمعتقـدهم جعلوها زائـدة على قـدر الحاجـة، كما ذكر الشـارح أنهم يمثلونها بالمدد الذي جاء إلى الجيش بعد الاستغناء عنه، لو كان هناك جيشـان متقاتلان ومتكافئـان، هـذا يكـافئ هـذا، وجـاء لهـذا الجيش مـدد يقويـه، فهـذا الجيش الـذي يقاتل يقـول: لا حاجة لنا في هـذا المـدد، نحن نقـدر أن نقـاوم عدونا، وأن ننتصر عليه. فيقول: إن هذه الأدلة التي اعتمدوها هي أدلة عقلية، وجاءت الأدلة السمعية التي هي الآيات والأحـاديث فلم يـأبهوا بهـا، ويقولـون:

نحن في غـنىً عنهـا، أدلتنا العقلية كافية ومقنعـة، حيث إنا رجعنا إليها واقتنعنا بهـا، وجعلناها هي الأصل الأصـيل، والأسـاس لمعتقـدنا، ولا شك أن عقائـدهم الـتي بُـنيت على هـذا العقل متهافتـة؛ ولـذا كثُر في بـاب العقائد اضـطرابهم، وغلظ عن معرفة الله تعالى حجـابهم، وكـثر تناقضـهم، ورجـوع أكـابرهم عما كانوا عليه. تأتي المسألة ويختلفون فيها، هذا يقول: العقل أقرها، وهذا يقول: العقل نفاها، كيف تكون مسألة واحدة ينفيها هذا بالعقل ويثبتها هذا بالعقـل؟! فهذا دليلٌ على أن العقول ليست معتمَـدة، بل العمـدة على السـمع، العمـدة على الأدلة النقلية الــتي هي مســموعة مثبتــة، جــاءت من قبل الله العزيز الحكيم، لا يَأْتِيـهِ الْبَاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَلا مِنْ خَلْفِـهِ تَنزِيـلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيـدٍ [فصلت:42]، فهذا هو المعتمَد الصحيح.

بيان مذهب الجهمية

قال الشـارح رحمه اللـه: [.. والجهميـة: هم المنتسـبون إلى جهم بن صـفوان الترمذي ، وهو الـذي أظهر نفي الصـفات والتعطيـل، وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهم الــذي ضــحى به خالد بن عبد الله القســري بواســط، فإنه خطب الناس في يوم عيد الأضـحى وقـال: أيها النـاس! ضـحوا تقبَّل الله ضـحاياكم، فــإني مُضــحٍّ بــالجعد بن درهم فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبـراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبـيراً! ثم نـزل فذبحـه، وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه وهم السـلف الصـالح رحمهم الله تعـالى. وكان جهم بعده بخراسان، فأظهر مقالته هناك، وتبعه عليها ناس بعد أن تـرك الصلاة أربعين يوماً شكاً في ربه! وكـان ذلك لمناظرته قومـاً من المشـركين يقــال لهم السُّـمَنية من فلاسـفة الهنـد، الـذين ينكـرون من العلم ما سـوى الحسيات قالوا له: هذا ربك الذي تعبده هل يُـرَى أو يُشَـم أو يُـذاق أو يُلْمَس؟ فقال: لا. فقالوا: هو معدوم! فبقي أربعين يومـاً لا يعبد شـيئاً، ثم لما خلا قلبه من معبــود يألهه نقش الشـيطان اعتقــاداً نَحَته فكـرُه فقــال: إنه الوجــود المطلق! ونفى جميع الصفات، واتصل بــالجعد . وقد قيـل: إن الجعد كـان قد اتصل بالصابئة الفلاسفة من أهل حران، وأنه أيضاً أخذ شيئاً عن بعض اليهـود المحرفين لدينهم المتصلين بـلبيد بن الأعصم الساحر الذي سحر النبي صــلى الله عليه وسـلم، فقُتل جهم بخراسـان،قتله سـلم بن أحـوز ؛ ولكن كـانت قد فشت مقالته في الناس، وتقلدها بعده المعتزلـة؛ ولكن كـان الجهم أدخل في التعطيل منهم؛ لأنه ينكر الأسماء حقيقة، وهم لا ينكرون الأسماء بل الصفات. وقد تنازع العلماء في الجهمية هل هم من الثنتين وسـبعين فرقـةً أم لا؟ ولهم في ذلك قولان، وممن قال: إنهم ليسوا من الثنـتين وسـبعين فرقـةً: عبد الله بن المبــارك و يوسف بن أســباط . وإنما اشــتهرت مقالة الجهمية من حين

محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة، فإنه من إمـارة المـأمون قووا وكثروا، فإنه كان قد أقـام بخراسـان مـدة، واجتمع بهم، ثم كتب بالمحنة من طرسوس سنة ثمان عشرة ومائتين، وفيها مـات، ووردوا الإمـام أحمد إلى الحبس ببغداد إلى سنة عشـرين، وفيها كـانت محنته مع المعتصم ، ومناظرته لهم بالكلام، فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه، وبيَّن أنه لا حجة لهم في شيء من ذلك، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم، وامتحـانهم إيـاهم جهل وظلم، وأراد المعتصم إطلاقه، أشار عليه مَن أشار بأن المصـلحة ضـربُه؛ لئلا تنكسر حرمة الخلافة مـرةً من بعد مـرة! فلما ضـربوه قـامت الشـناعة في العامـة، وخافوا فأطلقوه، وقصته مـذكوره في كتب التـاريخ. ومما انفـرد به جهم : أن الجنة والنار تفنيـان، وأن الإيمـان هو المعرفة فقـط، والكفر هو الجهل فقـط، وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحـــده، وأن النـــاس إنما تنسب إليهم أفعالهم على سبيل المجاز، كما يقال: تحـركت الشـجرة، ودار الفلـك، وزالت الشـمس، ولقد أحسن القائـل: عجبت لشـيطان دعا النـاس جهـرةً إلى النـار واشتُق اسمه من جهنم وقد نقل أن أبا حنيفة رحمه الله سـئل عن الكلام في الأعراض والأجسام فقال: لعن الله عمرو بن عبيد هو فتح على النـاس الكلام في هذا!]. الجهمية طائفة من المبتدعة، ومن أقـدمهم وأعـرقهم في البدعـة، وهم أتباع هذا الشيطان الذي وصفه هذا الشاعر بقولـه: عجبت لشـيطان دعا الناس جهرةً إلى النار واشتُق اسمه من جهنم فسماه: شيطاناً، وجعل اســمه مشـتقاً من جهنم، وليس بين اسـمه وبين اسم جهنم إلَّا زيـادة النـون، هـذا الرجل ذكر أنه كـان بخراسـان الـتي تعـرف الآن بـإيران، ومن أين أخذ هـذه المقالة؟ أخذها من شيخ قبله يقـال لـه: الجعد بن درهم ، و الجعد أخـذها من يهودي يقال له: طالوت و طالوت أخذها من خاله اليهودي الذي يقال لـه: لبيد بن الأعصم ، وهو الذي عمل السحر للنبي صلى الله عليه وسـلم، فكفـاه الله شره وأبطل كيده، فرجع إسـناد الجهم إلى اليهـود أو إلى سـحرة اليهـود. وله إسنادٌ ثانٍ ذكره الشارح وهو أنه اتفق مرةً بفرقة يقال لهم: السُّـمَنِية، وكـانوا ينكرون من العلوم ما سوى الحسيات، لا يقـرون إلَّا بشـيء رأوه بـأعينهم، أو سمعوه بآذانهم، أو لمسوه بأيديهم، أو شموه بأنوفهم، أو ذاقوه بألسنتهم، أما الذي يُخبَرون عنه وهم لَم يروه فإنَّهم لا يقبلونه، هؤلاء ينكرون من العلـوم ما سوى الحسيات. لما لقوا هذا الرجل الـذي هو الجهم شـككوه في ربه فقـالوا له: ربك الذي أنت تعبد، هل رأيته؟ قال: لا. هل سمعت كلامه إليك؟ قـال: لا. هل لمسـته؟ هل شـممته؟ قـال: لا قـالوا: إذاً: ليس لك رب، إذاً: هو معـدوم. فعند ذلك بقي متحيراً أربعين يوماً لا يصلي؛ شـاكاً في وجـود ربـه؛ ولكنه بعد ذلك تذكر فقال لكبير أولئك السُّمَنِية: أليس لك روح؟ فقال: نعم. قال: روحك هذه التي تدخل في جسدك ثم تخرج منه وتدخل في الجسد وهكـذا ثم تخـرج منه، هل رأيتها بعينك؟ قال: لا. هل شممتها؟ .. هل لمستها؟ .. هل ســمعتها؟ قـال: لا. قـال: فـإذاً: هي موجـودة وجـوداً مطلقـاً، فكـذلك وجـود الله وجـود مطلق. فاعتقد الجهم أن وجود الخالق مجرد وجود دون أن تكون له ذات، بل الوجود المطلق بشرط الإطلاق. فبقي على هـذه العقيـدة وهي نفي الأسـماء والصـفات، فلا يثبت لله أسـماءً إلَّا على الطريق المجـاز، ولا يثبت لله صـفاتٍ

أبــداً، بل كل صــفاته ينكرهــا، حــتى ولو كــانت في كتــاب الله تعــالى، أو في الصحيحين، هذه عقيدته في باب الصفات. ......

عقيدة الجهم في الإيمان والأفعال

عقيــدة الجهم في بــاب الإرجــاء أنه يقــول: لا يضر مع الإيمــان ذنب، ويــبيح للعاصي أن يكثر من كبـائر الـذنوب، فلا يضـره لو سـرق، ولو زنى، ولو قتـل، ولو نهب، ولو سـكر، ولو أكل مـال يـتيم، ولو فعل ما فعـل، ما تضر الـذنوب عنده. وعنده أن الإيمان هو مجرد المعرفة، يقول: إذا كنت عارفـاً بالله فـأنت مؤمن كامل الإيمان، والكفر عنده هو الجهل فقط، من كـان جـاهلاً بالله فإنه يعتـبر عنـده كـافراً، وأما إذا كـان يعـرف الله معرفة الوجـود المطلـق، فإنه يسمى مؤمناً كامل الإيمان. ومن عقيدته أنه يقول بالجبر، فلا يثبت لله تعـالى أفعالاً، وورثه الجبرية في ذلك، حيث ادعى أن العبد مجبور على أفعالــه، ليس له أي اختيار، بل هو مجبور عليها ومقهور، ليس له اختيار أصلاً، هذه عقيدتــه! انفـرد بثلاثة أشـياء: بالتعطيـل. وبـالجبر. وبالإرجـاء. وزعم أن الإيمـان مجـرد إثبات المعرفة فقـط. وشـيخه الـذي أخذ العلم عنه وهو الجعد من عقيدته أنه ينكر الصفات، فمن جملة ما ينكره: صفة الخلة التي هي المحبـة: فيقـول: إن الله ما اتخذ إبراهيم خليلاً. وصفة الكلام: فيقول: إن الله تعالى ما كلم موسى تكليمـاً. فلأجل الكلمـتين هـاتين -إنكـار الكلام وإنكـار المحبـة- قتله السـلف، وأفتى العلماء بحل قتلـه، فقتله أمـير في العـراق يقـال لـه: خالد بن عبد الله القسـري وجعله كأضحية، ضـحى به في يـوم عيد وقـال: أيها النـاس! ضـحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مُضَحٍّ بـالجعد بن درهم . شكر الضـحية كل صـاحب سنة لله درك من أخي قربان

بشر المريسي ونشره لمذهب الجهمية

الجعد قتله خالد القســري ، و الجهم قتله ســلم بن أحــوز، فكل منهما قُتــل، فدل على عظم ذنب كل منهما؛ ولكن مع الأسف بقيت عقيـدتهما بعـدهما، ما قتل الجهم إلَّا بعد أن أضل خلقاً كثـيراً، وبعد أن تبعه أقـوام وأفـواج، وتمكنت عقيدته في إيران وفي تلك البلاد، ثم وصـلت إلى العـراق، فكـان في العـراق جهمي يقـال لــه: بشر المريسي تقلد هــذه العقيــدة وكتب فيها كتبــاً، وقد رد عليه العلمــاء، ومن جملة من رد عليــه: الإمــام الــدارمي في الــرد المطبــوع المســمى: رد الإمــام الــدارمي عثمــان بن ســعيد على بشر المريسي العنيــد، وبيَّن في رده مذهب أهل السنة، وأبطل مذهبه الذي بناه على العقليات. وفي

زمن المريسي لم يكن له قـوة وصـولة؛ ولكن بعد مـوت الرشـيد ومـوت ابنه الأمين بن الرشـيد تـولى الخلافة المـأمون ، ولما تولاها اسـتولى عليه هـؤلاء الجهمية وقربوا منه، وزيَّنوا له هـذا المـذهب الباطـل، فانتحله واعتقـده، فعند ذلك دعا الناس إلى اعتناقه، وفتن الناس، وحصل أذىً كثيراً، حـتى فُتن الأئمة وأُدخل السجون كثيرٌ منهم، وأكرهوا على أن يعتنقوا هذا القول، فـادعى كثـير منهم ذلك من باب التخلص لا أنه من بـاب عقيـدة، كـيحيى بن معين وغـيره، وأما الإمام أحمد رحمه الله فإنه أصر على عقيدته، وطلب منهم دليلاً يؤيدون به حجتهم، فلم يأتوه بدليل مقنع، فأصر على أن القـرآن كلام اللـه، وأنه ليس بمخلـوق، وعـذبوه أشد العـذاب؛ ولكن لم يـزدد إلا تصـلباً وتشـدداً، فقـال له بعضـهم: لو قلت: إن القـرآن مخلـوق لخلصـناك من هـذا العـذاب، فقـال: لو قلتم: إن القرآن كلام الله لخلصتم من عـذاب النـار. والحاصـل: أنه أصر على ذلك إلى أن جعل الله له فرجـاً ومخرجـاً، فتـوفي المـأمون قبل أن يصل إليه الإمام أحمد ؛ ولكن تـولى تعذيبه أخـوه الـذي اسـتولى بعـده، وهو المعتصم ، إلى أن مات المعتصم والإمـام أحمد لا يـزال يُعـذَّب أو لا يـزال يُهـان، وتـولى بعـده الواثق بن المعتصم ولكنه خفف المحنـة، ولما مـات الواثق تـولى بعـده ابنه المتوكل فنصر السنة وقرَّبها، وكبت أهل البدعة، وزالت دولتهم، ولا يزال لله تعالى قائم بالحق في كل زمان يجاهد في الله ويناضل.

الأسئلة

......

شرح معنى قوله: (وأما التوحيد فستروا تحته القول بخلق القرآن ...)

السؤال: نرجو من فضيلتكم توضيح معنى قول الشارح: [وأما التوحيد فسَتَرُوا تحته القول بخلق القرآن، إذ لو كان غير مخلوق لزم تعـدد القـدماء، ويلـزمهم على هذا القول الفاسد أن علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة أو التنـاقض]؟
الجــواب: يتكلم الشـــارح عما يعتقـــده المعتزلـــة، وذكرنا أن أول أصـــولهم: التوحيد، فيقولون: نحن نقـول بالتوحيـد، وهو أنه ليس لله إلّا ذات، فلا نقـول: إن الله متكلم، ولا نقـول: إن القـرآن كلام اللـه، بل القـرآن مخلـوق، كما أن الإنسان مخلوق، والسماء مخلوقة، والأرض مخلوقة، والجبل مخلوق، فالقرآن مخلوق! لماذا تقولون: إن القرآن مخلوق؟! يقولون: لئلا يلزم تعـدد القـدماء، إذا قلنا: كلام الله قديم، وذات الله قديمة، صـار عنـدنا قـديمان، فنقـول: ذات الله قديمة فقط، والقرآن حادث ومخلوق. هكذا قالوا! فالتوحيد عندهم: إنكار

كلام اللـه، وإنكـار صـفات اللـه. أما الـرد عليهم فسـمعنا كلام الشـارح حيث يقول: يلزمكم أن تقولـوا: إن الله مخلـوق، وحياته مخلوقـة، وسـمعه وبصـره مخلوقان، فتجعلون لله تعالى في ذاته ما هو مخلـوق، وهـذا لازم لهم لا محيد لهم عنه.

الفرق بين المعتزلة والجهمية

السـؤال: هل ينكر المعتزلة جميع الصـفات؟ وما الفـرق بين المعتزلة والجهمية؟ الجواب: المعتزلة ينكرون جميع الصفات؛ ولكنهم يقرون بالأسماء، أما الجهمية فينكرون الأسـماء أيضـاً، ولا يعـترفون لله تعـالى بالأسـماء، حـتى كلمة (شـيء) لا يقولـون: إن الله شـيء، إنما يعـترفون بكلمة (موجـود)، أو يثبتون الوجود، هذا الفرق بينهما.

الأشاعرة وما يثبتونه من الصفات

السؤال: ما هو مـذهب الأشـاعرة؟ ومـاذا يثبتـون من الصـفات؟ وما حجتهم؟ الجواب: الأشـاعرة حـدثوا في آخر القـرن الثـالث، وانتسـبوا إلى أبي الحسن الأشعري، وهو من ذرية أبي موسى ، ويثبتون سبع صـفات، وينكـرون بقيتهـا، فيثبتـون العلم والإرادة والقـدرة والسـمع والبصر والكلام والحيـاة، يثبتونها حقيقةً، ويجعلون الباقي مجازاً، هذا مذهبهم.

المقصود بقول أهل السنة: إن الله خالق أفعال العباد

السـؤال: من مـذهب أهل السـنة والجماعة أن الله خـالق أفعـال العبـاد، فما المقصود بذلك؟ وهل الخلق هنا هو المشيئة؟ الجواب: من مذهب أهل السنة أن الله خلق أفعال العبـاد بمعـنى: أنه هو الـذي خلقهم وخلق أفعـالهم؛ ولكن

معلوم أن الله هو الذي هداهم، وهو الذي أقدرهم، وهو الذي قواهم، ولو شاء لما اهتدوا لفعل أفعالهم. وهو الذي يهدي هؤلاء بفضله، ويضل هؤلاء بعدله.

جمع الجهم بين الإرجاء والتعطيل والجبر

السؤال: قلتَ: إن الجهم يرى الإرجاء، وأنه يقول: لا يضر مع الإيمان معصــية، ولا مع الكفر طاعة، مع أن شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: لا نعلم شخصاً بعينه قال بمقالة الإرجاء نصاً، فما رأيكم جزاكم الله خيراً؟ الجـواب: شـيخ الإسـلام هو الـذي ذكر عن الجهم أنه يقـول بالإرجـاء، يعـني: كونه لا يضر مع الإيمـان ذنب، وذكر أن الجهم أيضاً هو الـذي يقـول بـالجبر، أي: أن العبد مجبـور على أعماله وسيئاته. فكونه يقول هـذه المقالة فلعله يريد بـذلك مَن بعـدَه، يعـني: قد يقال: لا نعلم أحداً اجتمعت فيه هـذه الثلاث: التعطيل والإرجـاء والجـبر إلا الجهم.